الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٥٧ — ٦ يوليه سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 157. — Lundi - 6 - 7 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
مصـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٥٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ ربيع الثانى سنة ١٣٥٥ — ٦ يوليه سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

فى النقـــد أيضاً

عزيزى الدكتور هيكل بك :

كان للفصل الذى كتبتُه منذ أسابيع فى (النقد المزيف) أثران مختلفان : أثر رَضيتَه أنت فسميته نجاحا صحفيا ، لأنه أثار حواراً طريفاً بين صديقين من كبار الكتاب فى مصر فدعواك بما شقتا منه إلى المشاركة فيه ؛ وأثر سخطتُه أنا فسميته مصاباً أدبيا ، لأنه ألب علىَّ كثيراً من طوائش الأفهام فى مصر وفى غير مصر : ففريق ظن أننى عنيته بهذا المقال ، كأنه لمح فى نفسه آثار تلك العيوب فاتهم ثم حكم ثم غضب لأنى قلت الواقع وقال الحق ، ثم حاول بهذا الغضب أن يستفزنى الى المسافهة ؛ وفريق زعم أنى غمطت مدارك الشباب فاستعجزتهم عن النقد ، واستحمقتهم فى تكلف ما لا يحسنون بحكم السن والدرس والطبيعة ؛ ثم جعلوا رأيك فى ذلك نقيض رأيى ، ومضوا يتعززون به ويدافعون وليس منا هجوم ، ويرافعون وليس بيننا قضية

الواقع أننى هاجمت نوعا من النقد فشا على بعض الأقلام الرَّخوة ، يصور الحق بلون الباطل ليُضحك ، ويبرز الجميل فى مظهر القبيح ليسيء ؛ وهو ينبعث إمّا من مكامن الحقد فيرمى إلى

التجريح . وإما من مواطن الغرور فيرمى إلى الهدم . وذلك الضرب من الهوى العابث يترفع عنه الشاب والشيخ ، بدليل أن أحدهما إذا ملكته الحفيظة لجيله رمى به الآخر . على أنني حين قلت إن النقد المنطقى ملكة فنية أصيلة ، وتربية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة : وأن الناقد بهذا الاعتبار يشارك المشترع فى صدق التمييز ، والفيلسوف فى دقة الملاحظة ، والقاضى فى قوة الحكم ، كان فى نفسى — وأعترف بذلك — أن الشيوخ فى الغالب هم أصحاب هـذا الفن وأرباب هذه الملكة . وأقول (فى الغالب) لأنى قرأت منذ سنين للأستاذين : (غريب) و (المصرى) وهما من كتاب الشباب فصولا فى النقد كانت موضع الاعجاب فى (البلاغ) . ولكنك تقول إن النقد ظاهرة من ظواهر الشبيبة تحدث دائماً فى شِرَّة العمر ، حتى إذا انكسرت (مال الكاتب مع سجيته ، واختار الطريق الايجابى الذى يسلكه فى انتاجه) ، كما وقع لك ؛ ثم تخرج من ذلك إلى أن العلة فى ركود النقد هى أن الشباب لا يقرأ ، وإذا قرأ لا يمحص ، وإذا محص لا يثور فينقد . وفى هـذه الفكرة وحدها ينحصر الخلاف بينى وبينك

أنا أفهم أنك تنصرف عن النقد إلى معالجة السيرة النبوية بهذا التحليل المنطقى البارع ، لأنه أجدى على الناس ، وأعود على الأدب ، وأجدر بالكاتب المرسَل ؛ ولكننى لا أفهم أن يكون انصرافك عن النقد نتيجة محتومة لانصراف الشباب عنك ؛ لأن ذلك يناقض طبيعة النقد فى ذاته ، ولا يوائم فيما أظن قولك : « إن نقد الأثر الأدبى يدل على علو الكعب فى العلم أو فى الثقافة أو فى التهذيب »

يخيل إلىّ أن منشأ هذا الخلاف أنك سميت التمرد نقداً ، والنقد تحليل تاريخ وتعليل أدب ؛ فان من أقوى خصائص الشباب ذلك الطموح الذى يولد القلق ، والقلق الذى يخلق التمرد ، والتمرد الذى يحدث الثورة . فى هذا معنى الحياة ومعنى التطور ومعنى التكمل ومعنى التحرر ، ولكن ليس فيه على الكثير الغالب معنى التمييز الذى يقتضى طول الخبرة ، والتفضيل الذى يوجب شمول العلم ، والحكم الذى يطلب نزاهة العقل

إنك لا تستطيع أن تُخْلص الشباب من سطوة الهوى وفتنة الغرور وغلبة العاطفة : وأولئك من آفات النظر الفاحص والرأى المستقر ؛ فالشاب يخضع فى أحكامه لتأثير الساعة من قراءة أو صداقة أو استفزاز أو اشمئزاز أو إيحاء أو مرض ؛ وهو فى تسبيب هذه الأحكام يتعارض مع المعروف ويتناقض مع الواقع

هذا كاتب شاب أعجلته ضرورات العيش عن استكمال العدة للكتابة ، فهو يكتب بقوة المحاكاة ، لا يحور إلى فن ولا يجرى على مذهب ؛ وهو بالطبع يفتقد الكلام المعرب والأسلوب المحكم والأدب الموروث ، على حين يحفظ عن ظهر الغيب قواعد اللغة الأجنبية ، ولا يجيز لنفسه أن يخطئ فى صيغها المتعددة ولا فى إملائها المعقد . وهذا أديب شاب ينتقدك أنت ويرميك بالرجعية وتمليق العامة ، لأنك كتبت عن (محمد) بعد أن كتبت عن (روسو) و (شلى) . وهذا مؤلف شاب له كتاب فى نقد (حافظ) لم أقرأه بعد ، كتب إلى يتهمنى بأنى قصدته بمقالى لأنى كتبته على أثر ظهور كتابه . ويقول إنه يستطيع أن ينقد ما كتبته فى الرواية المسرحية بأنه منقول عن الفرنسية . ودليله بالطبع أن هذا الموضوع لا مرجع له فى أدب العرب ، إذن فمن أين جاء ؟ من اللغة الفرنسية التى أعلمها ! ولو كنت أعلم الانجليزية مثلاً لكان النقل عنها ولاشك ، ما دام النقد فى عرفه حكما من غير تعليل ودعوى من دون دليل . ولا أدرى لم لم يقل إن كتابى فى تاريخ الأدب العربى منقول عن العربية كذلك لأن مراجعه منها !

فهل يرى الدكتور فى مثل هذا النقد أنه كما قال « تناوُلٌ لمواد الحياة العقلية والأدبية وهضمها وتمحيصها وتمثُّل الصالح منها ونفى الزائف عنها ؟ » أم الحق أن ركود الأدب وفوضى النقد لا يرجعان إلى الشَّيب ولا إلى الشباب ، وإنما يرجعان إلى تهريج الصحف وكسل الكتاب ؟

احمد حسن الزيات

قصة الأيدى المتوضئة ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال راوى الخبر: ذهبتُ إلى المسجد لصلاة الجمعة؛ والمسجد يجمع الناسَ بقلوبهم ليُخرجَ كلَّ إنسان من دنيا ذاته، فلا يفكر أحد أنه أسمى من أحد؛ ولقد يكون إلى جانبك الصانعُ أو الأجير أو الفقير أو الجاهل، وأنت الرئيس أو العظيم أو الغنى أو العالم، فتنظر اليه وإلى نفسك فتحس كأن خواطرك متوضئةٌ متطهرة؛ وترى كلمة الكبرياء قد فقدت روحها، وكلمة التواضع قد وجدت روحها؛ وتشعر بالنفس المجتمعة قد نصبت الحربَ للنفس المنفردة. ولو خطر لك شىء بخلاف ذلك رأيتَ الفقير إلى جانبك توبيخاً لك، ونظرتَ اليه ساكتاً وهو يتكلم فى قلبك، وشعرت بالله من فوقكما، واستعلنتْ لك روحُ المسجد كأنها تَهُمُّ بطردك، وخيّل اليك أن الأرض ستلطم وجهك إذا سجدت، وأيقنتَ من ذات نفسك أن لست هناك فى دنياك وليس صاحبك فى دنياه، وإنما أنتما هناك فى انسانية ميزانُها بيد الله وحده؛ فلا تدرى أيكما الذى يخفّ وأيكما الذى يثقل[1]

قال: والعجيب أن هذا الذى لا يجهله أحد من أهل الدين، يعرفه بعض علماء الدين على وجه آخر، فتراه فى المسجد يمشى مختالاً، قد تحلى بحليته، وتكلّف لزَهْوه، فلبس الجبة تسع اثنين، وتطاول كأنه المئذنة، وتصدّر كأنه القِبلة، وانتفخ كأنه ممتلىء بالفروق بينه وبين الناس؛ وهو بعد كل هذا لو كشف الله تمويههُ لانكشف عن تاجر علم بعضُ شروطه على الفضيلة أن يأكل بها، فلا يجد دنيا ذاته إلا فى المسجد، فهو نوع من كذب العالم الدينى على دينه

***

قال الراوى: وصعد الخطيب المنبرَ، وفى يده سيفه الخشبىُ يتوكأ عليه؛ فما استقر فى الذروة حتى خُيّل إلىَّ أن الرجل قد دخل فى سر هذه الخشبة، فهو يبدو كالأريض تقيمه عصاه، وكالهرم يمسكه ما يتوكأ عليه؛ ونظرت فاذا هو كذب صريح على الاسلام والمسلمين، كهيئة سيفه الخشبى فى كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها

وتالله ما أدرى كيف يستحلُ عالم من علماء الدين الاسلامى فى هذا العصر أن يخطب المسلمين خطبَة جمعتهم وفى يده هذا السيف علامة الذل والضعة والتراجع والانقلاب والادبار والهزل والسخرية والفضيحة والاضحاك؛ ومتى كان الاسلام يأمر بنجْر السيوف من الخشب ونحتها وتسويتها وإرهاف حدها الذى لا يقطع شيئاً، ثم وضعها فى أيدى العلماء يعتَلُون بها ذُؤابة كل منبر لتتعلق بها العيون وتشهد فيها الرمز والعلامة، وتستوحى منها المنوية الدينية التى يجب أن تتجسّم لتُرى؟

أى سيفٍ من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة وبلاهة العقل وذلة الحياة ومسخ التاريخ الفاتح المنتصر، والرمز لخضوع الكلمة وصبيانية الارادة؟

قال: وكان تمام الهزء بهذا السيف الخشبى الذى صنعته وزارة أوقاف المسلمين أنه فى طول صَمْصَامة عمرو بن معد يكرب الزبيدى فارس الجاهلية والاسلام[1] فكان الى صدر الخطيب، ولولا أنه فى يده لظهر مقبضه فى صدر الرجل كأنه وسام من الخشب ...

قال: وكان الخطيب إذا تكلّف وتصنّع وظهر منه أنه قد حَمِىَ وثار ثائره - ارتجَّ وغفل عن يده فتضطرب فيها قبضةُ السيف فتلكزه فى صدره كأنما تذكره أن فى يده خشبة .... لا تصلح لهذه الحماسة

***

قال: وخطب العالم على الناس، وكان سيفهُ الخشبى يخطب خطبة أخرى؛ فأما الأولى فهى محفوظة معروفة ولا تنتهى حتى ينتهى أثرها إذ هى كالقراءة لاقامة الصلاة، وكانت فى عهدها الأول كالدرس لاقامة شأن من شؤون الاجتماع والسياسة،

---

(١) استوفينا الكلام عن فلسفة المسجد فى مقالات كثيرة من مقالاتنا فى الرسالة

(١) كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضها شبر

فبينها وبين حقيقتها الاسلامية مثل مابين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الاولى . وأما الخطبة الثانية فقد عقلتُها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها وهذه هي عبارتها :

ويحكم أيها المسلمون ! لو كنتُ بقية من خشب سفينة نوح التي أنقذ فيها الجنس البشرى لما كان لكم أن تضعونى هذا الوضع ، وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتمونى حيث أنا ، تكاد شرارة تذهب بى وبكم معاً لأن فىّ وفيكم المادة الخشبية والمادة المتخشبة

ويحكم ! لو أنه كان لخطيبكم شىء من الكلام النارىّ المضطرم لما بقيت الخشبة فى يده خشبة . وكيف يمتلىء الرجل إيماناً بإيمانه ، وكيف يصعد المنبر ليقول كلمةَ الدين من الحق الغالب وكلمةَ الحياة من الحق الواجب – وهو كما ترونه قد انتهى من الذل الى أن فقد السيفُ روحَه فى يده ؟

أيها المسلمون ! لن تفلحوا وهذا خطيبكم المتكلم فيكم إلا إذا أفلحتم وأنا سيفكم المدافع عنكم ؛ أيها المسلمون غيِّروه وغيرونى [1]

* * *

قال راوى الخبر : ولما قُضِيَتْ الصلاة ماج الناس إذ انبعث فيهم جماعة من الشبان يصيحون بهم يستوقفونهم ليخطبوهم . ثم قام أحدهم فخطب فذكر فلسطين وما نزل بها ، وتغيُّر أحوال أهلها ، ونكبتهم وجهادهم واختلال أمرهم ؛ ثم استنجد واستعان ودعا الموسر والمخِفّ الى البذل والتبرع وإقراضِ الله تعالى ؛ وتقدم أصحابه بصناديق مختومة ، فطافوا بها على الناس يجمعون فيها القليل والأقل من دراهم هى فى هذه الحال دراهم أصحابها وضمائرهم

قال : وكان الى جانبى رجل قَروى من هؤلاء الفلاحين الذين تعرف الخير فى وجوههم والصبر فى أجسامهم والقناعة فى نفوسهم والفضل فى سجاياهم ، إذ امتزجت بهم روح الطبيعة الخصبة فتخرج من أرضهم زُروعا ومن أنفسهم زروعا أخرى – فقال لرجل كان معه : إن هذا الخطيب خطيب المسجد قد غشنا وهؤلاء الشبان قد فضحوه ، فما ينبغى أن تكون خطبة المسلمين إلا فى أخص أحوال المسلمين

قال : ونبهنى هذا الرجل الساذج إلى معنى دقيق فى حكمة هذه المنابر الاسلامية ؛ فما يريد الاسلام إلا أن تكون كمحطات الاذاعة يلتقط كل منبر أخبار الجهات الأخرى ويذيعها فى صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب ، فتكون خطبة الجمعة هى الكلمة الأسبوعية فى سياسة الأسبوع أو مسئلة الأسبوع ؛ وبهذا لا يجىء الكلام على المنابر إلا حياً بحياة الوقت فيصبح الخطيب ينتظره الناس فى كل جمعة انتظار الشىء الجديد ؛ ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل

قال : وخيِّل إلى بعد هذا المعنى أن كل خطيب فى هذه المساجد ناقصٌ إلى النصف لأن السياسة تُكرهه أن يخلع إسلاميتَه الواسعة قبل صعوده المنبر وألاّ يصعد إلا فى إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ الذى هو مع ذلك نصفُ وعظ ... فالخطبة فى الحقيقة نصف خطبة أو كأنها أثر خطبة معها أثر سيف . . .

قال : وأخرج القروى كيسه فعزَل منه دراهم وقال هذه لطعام أتبلَّغ به ولأوبتى إلى البلد ، ثم أفرغ الباقى فى صناديق الجماعة ؛ واقتديت أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعت فى صناديقهم كل ما معى ؛ ولقد حسبت أنه لو بقى لى درهم واحد لمضى يسبنى ما دام معى إلى أن يخرج عنى

* * *

قال الراوى : ثم دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن فاذا هناك رجال من علماء المسلمين ، إثنان أو ثلاثة (الشكُّ فى ثالثهم لأنه حليق اللحية) . ثم توافى إليهم آخرون فتموا سبعة ؛ ورأيتهم قد خلطوا بأنفسهم صاحب (اللالحية) فعلمت أنه منهم على المذهب الشائع فى بعض العصريين من العلماء والقضاة الشرعيين ، أحسبهم يحتجون بقوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » ؛ وكل امرىء فانما تُبَصره مرآته كيف يظهر فى أحسن تقويم ، أبلحية أم بلا لحية . . . ؟

وأدرت عينى فى وجوههم فاذا وقار وسَمْتٌ ونور لم أر منها شيئاً فى وجه صاحب (اللالحية) ؛ وأنا فما أبصرتُ قط لحيةَ رجل عالم أو عابد أو فيلسوف أو شاعر أو كاتب أو ذى فن عظيم ، إلا ذكرت هذا المعنى الشعرىّ البديع الذى ورد فى بعض الأخبار

---

(١) نرجو من أستاذ المسلمين وشيخ الجامع الأزهر أن يتقدم إلى وزارة الأوقاف فى جمع هذه السيوف الخشبية وتكسيرها وبيعها وقوداً ؛ وإن لم تكن الحقيقة فلا معنى لتزويرها هذا التزوير المضحك

من أن لله تعالى ملائكة يقسمون : والذي زين بنى آدم باللحى

وكان من السبعة رجل ترك لحيته عافية على طبيعتها فامتدت وعظمت حتى نشرت حولها جواً روحانياً من الهيبة تشعر النفس الرقيقة بتياره على بعد، فكان هذا أبلغ رد على ذاك

* * *

قال : وأنصت الشيوخ جميعاً إلى خطب الشبان ، وكانت أصوات هؤلاء جافية صلبة حتى كأنها صخب معركة لا فن خطابة ، وعلى قدر ضعف المعنى فى كلامهم قوى الصوت ؛ فهم يصرخون كما يصرخ المستغيث فى صيحات هاربة بين السماء والأرض

فقال أحد الشيوخ الفضلاء : لا حول ولا قوة إلا بالله ! جاء فى الخبر : تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، ووالله ما تعس المسلمون الا منذ تعبدوا لهذين حرصاً وشحاً ؛ « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، ولو تعارفت أموال المسلمين فى الحوادث لما أنكرتهم الحوادث

فقال آخر : وفى الحديث : « إن الله يحب إغاثة اللهفان » ولكن ما بال هؤلاء الشبان لا يوردون فى خطبهم أحاديث مع أنها هى كلمات القلوب . فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث : « إن الله يحب اغاثة اللهفان » لأسرع العامة الى ما يحبه الله

قال الثالث : ولكن جاءنا الأثر فى وصف هذه الأمة : إنها فى أول الزمان يتعلم صغارها من كبارها فاذا كان آخر الزمان تعلم كبارهم من صغارهم ؛ فنحن فى آخر الزمان وقد سلط الصغار على الكبار يريدون أن ينقلوهم عن طباعهم الى صبيانية جديدة

قال الراوى : فقلت لصديقى معى : قل لهذا الشيخ ليس معنى الأثر ما فهمت ، بل تأويله أن آخر الزمان سيكون لهذه الأمة زمن جهاد واقتحام وعزيمة ومغالبة على استقلال الحياة فلا يصلح لوقاية الأمة إلا شبابها المتعلم القوى الجرىء كما نرى فى أيامنا هذه فينزلون من الكبار تلك المنزلة إذ تكون الحماسة متممة لقوة العلم . وفى الحديث : أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره

* * *

قال الراوى : ولم يكد الصديق يحفظ عنى هذا الكلام ويهم بتبليغه حتى وقعت الصيحة فى المكان فجاء أحد الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد ، لا يكرر إلا زمجرة واحدة . وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا كل ما قيل فأطرقوا يسمعونه مرة رابعة أو خامسة . وفرغ الشاب من هديره فتحول اليهم وجلس بين أيديهم متأدباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم

فقال أحد الشيوخ : ممن أنت يا بنى ؟ قال : من جماعة الاخوان المسلمين . قال الشيخ . لم يخف علينا مكانك وقد بذلتم ما استطعتم فبارك الله فيك وفى أصحابك

وسكت الشاب وسكت الشيوخ وسكت الصندوق أيضاً

ثم تحركت النفس بوحى الحالة فد أولهم يده الى جيبه ، ثم دسها فيه ؛ ثم عبث فيه قليلا[1] ؛ ثم . . . . ثم أخرج الساعة ينظر فيها

وانتقلت العدوى الى الباقين فأخرج أحدهم منديله يتمخط فيه . وظهرت فى يد الثالث سبحة طويلة . وأخرج الرابع سواكا فر به على أسنانه . وجر الخامس كراسة كانت فى قبائه . ومد صاحب اللحية العريضة أصابعه الى لحيته يخللها . أما السابع صاحب (اللالحية) فثبتت يده فى جيبه ولم تخرج كأن فيها شيئاً يستحى إذا هو أظهره أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة

وسكت الشاب وسكت الشيوخ وسكت الصندوق أيضاً

قال الراوى : ونظرت فاذا وجوههم قد لبست للشاب هيئة المدرس الذى يقرر لتلميذه قاعدة قررها من قبل ألف مرة لألف تلميذ . فخجل الشاب وحمل صندوقه ومضى

* * *

أقول أنا : فلما انتهى الراوى من (قصة الأيدى المتوضئة) ، قلت له : لعلك أيها الراوى استيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشيوخ الأجلاء هذا الصندوق ، وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل الا بما كددت فيه ذهنك من فلسفة تحول السيف الى خشبة . ولو قد امتد بك النوم لسمعت أحدهم يقول لسائرهم : بمن ينهض إخواننا المجاهدون وبمن يصولون ؟ لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جاهل سخى أحب الى الله من عالم بخيل » ؛ ثم يملأون الصندوق . . . .

(طنطا)

(١) أى بحث بأصابعه

إلى الأديب النابلسى : لا نرى ذلك الرأى فى تمثيل روايات الأنبياء فخروج نبى على مسرح التمثيل انما هو تزوير نبى . وهذا يكفى

الرافعى

الجانب الصوفى

فى الفلسفة الاسلامية[1]

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

نجتمع الليلة — أيها السادة — لنناجى القلب ونحادث الروح . ومناجاة القلب طهرة لمن شاء أن يتطهر ، وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس . ومحادثة الروح عروج إلى سماء النور والملائكة ، وصعود إلى عالم الفيض والالهام . نجتمع الليلة لنهجر الأجسام زمناً ونفرغ إلى نفوسنا حيناً . والجسم والنفس كانا ولا يزالان فى صراع دائم ومعركة مستمرة ، يقدر فيها لأحدهما الفوز تارة وللآخر أخرى . وقد يبدو غريباً أن نتحدث عن فيض وإلهام وروح ونفس فى عصرنا الحاضر الذى طغت فيه المادة على كل شىء ، فأصبحنا لا نؤمن إلا بكل مشاهد ، ولا نسلم إلا بكل مرئى . بيد أنا حتى فى هذا العصر المادى نشعر بحاجة ماسة إلى كشف ما غاب عن أبصارنا وانطوت عليه نفوسنا ، ونركن كثيراً إلى ما تمليه ضمائرنا . وما دام فينا قلب يخفق وعاطفة تتأجج ، فانا لا نستطيع انكار لغة القلوب والأرواح ؛ وإذا تتبعنا المذاهب الفلسفية على اختلافها وجدنا أنه لم يخل واحد منها من نزعة صوفية . وها هو ذا أرسطو الذى كان واقعياً فى بحثه وطريقته ، ورجل مشاهدة وتجربة فى ملاحظاته واستنباطاته ، قد انتهى به الأمر إلى أن بنى دراسته النفسية على شىء من الفيض والالهام ، ووضع فى قمة الأخلاق فضائله العقلية التى هى أسمى درجة من درجات التأمل والمشاهدة الصوفية

حقاً إن الادراكات الروحية والالهامات القلبية قد تكون غير يقينية ، أو قد يعز على الأقل اثباتها ببراهين قطعية يتقبلها الآخرون ؛ إلا أنها مبعث طمأنينة وهدوء وسكون ؛ ذلك لأنها معرفة شخصية مباشرة ؛ والكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلب . وكم يجهد الانسان نفسه فى صوغ الأقيسة واقامة البراهين لاثبات أمر ما دون أن ينعم بالهدوء والسكون اللذين يحس بهما حين يناجيه قلبه وتخاطبه روحه . وقديماً مر الغزالى بمراحل من البحث والنظر ، واشتغل بدراسات كثيرة ، ولكن لم تطب نفسه إلا للمعرفة الصوفية تفيض عليه فيضاً ويُلهَمها إلهاماً . وحديثاً شك ديكارت فى كل شىء ، اللهم إلا فى نفسه وتفكيره . ولما انتهى إلى هذه الحقيقة الثابتة كانت أساس اليقين فى رأيه ونقطة البدء لكل فلسفته . وهناك فلسفات قامت بأسرها على المناجاة الروحية والاتصال بالله ؛ فأفلوطين فى مدرسة الاسكندرية يرى أن الجذب والفيض هما السعادة التى ليست وراءها سعادة ؛ وقد جد شخصياً فى تحقيقهما طول حياته ، ولم يحظ بهما إلا بضع مرات . ومالبرنش فى القرن السابع عشر يقول باتصال مستمر بين العبد وربه . فمعرفتنا ليست إلا فيضاً من الله ، وما يبدو منا من عمل خارجى ليس إلا ظروفاً ومناسبات لتحقيق إرادة الله ، وبهذا يتلاشى المخلوق فى الخالق ، ويندمج الأثر فى المؤثر

لسنا نحاول هنا التحدث عن التصوف فى جملته ، ولا التعرض لمختلف مظاهره وأدواره منذ نشأته ، وإنما نريد فقط أن نفصل القول فى نزعة صوفية سادت الفلسفة الاسلامية ؛ فنتبين كيف تكونت وشبت ونشأت ، ونشرح الأصول التى صدرت عنها ، والعوامل التى أثرت فيها ، ونحدد مدلولها ومرماها . وإذا ما تم لنا هذا استطعنا أن نوضح آثارها ونتائجها . فحديث القلب والروح الذى نحن بصدده مقصور على ما جاء به الفلاسفة المسلمون ، ووقف على الجانب الصوفى فى الفلسفة الاسلامية . وما كان أجدرنا فى بحث كهذا أن نستعمل لغة خاصة وأسلوباً خاصاً ، بل وأن نلجأ إلى مكان خاص ، فان لغة العقل تعجز أحياناً عن التعبير فى دقة عما يكنه القلب ، وأسلوبنا المشوب بشوائب مادية قد لا يجد السبيل إلى وصف الالهامات النفسية ، والأرواح التى تسبح فى عالم النور تعز مناجاتها فى حيز المادة والجسم المحدود . ولعل الصوفية مصيبون فى التزيى بزى خاص ، كى يتفق ظاهرهم مع باطنهم ، وفى اتخاذ لغة معينة تفصلهم عمن سواهم ؛ غير أن هذه اللغة زادت آراءهم تعقيداً ،

(١) محاضرتان ألقيتا فى الجمعية الجغرافية مساء يومى الأربعاء ١٨ و ٢٥ مارس سنة ١٩٣٦

وكست نظرياتهم بثوب كثيف من الغموض والابهام . وسنجتهد في أن نجلي غامضها ، وأن نقربها ما استطعنا من العرف المألوف

عنى الباحثون من قديم بدراسة التصوف الاسلامي في جملته مدفوعين غالباً بما في الموضوع من طرافة ، ومحاولين أن يكشفوا ما احتواه الاسلام والشرق من حقائق وأسرار . ويغلب على الظن أن الأبحاث الصوفيـة أول موضوع استلفت أنظار المستشرقين ؛ ولا تزال هذه الأبحاث محل عنايتهم حتى اليوم ؛ ومؤلفاتهم فيها تزيد كثيراً على ما كتبوه في الدراسات الاسلامية الأخرى . ولا غرابة فالغرب متعطش دائماً إلى تعرف صوفية الشرق . وكأن هذا الأخير وهو مصدر النور والضوء أبى إلا أن يكون في الوقت نفسه مقر القوى الخفية والأسرار الغامضة . ودون أن نعرض لـكل من اشتغلوا بموضوع التصوف من كبار المستشرقين نـكتفي بأن نشير إلى رجال القرن العشرين ، ونخص بالذكر منهم جولد زيهير النمسوي الذي عقد للتصوف فصلاً ممتعاً في كتابه « عقيدة الاسلام وقانونه [١] » بجانب أبحاث أخرى قيمة ؛ والأستاذ مكدونلد الأمريكي الذي وضح كثيرا من آراء الغزالي الصوفية ، والأستاذ نكلسون المدرس بجامعة كبردج ، والاستاذ ماسنيون المدرس بكليج دى فرنس ، والدكتور محمد اقبال العالم الهندي المشهور ؛ وعلى رأس هؤلاء جميعاً يجب أن نضع نكلسون وماسنيون ، فانه يرجع إلى الأول الفضل في نشر كثير من مخلفات الصوفية القيمة والتعريف عنها ؛ أما أستاذنا ماسنيون فقد رسم في التصوف طرائق جديدة ، وقدم لنا عن الحلاج صورة غنية بالألوان والمعاني الدقيقة في كتاب يعد أوسع مؤلف في تاريخ التصوف الاسلامي [٢]

غير أن آراء فلاسفة الاسلام الصوفية لم تدرس بعد ولم توجه إليها العناية التي تستحقها . حقاً إن مهرن المستشرق الدنمركي ، تنبه إلى بعض مؤلفات ابن سينا الصوفية ، وقام بنشرها

(١) I. Goldziher, Le dogme et la loi de l'Islam, tr, fr. Paris, 1902

(٢) L. Massignon, La passion d'al Hossayn ibn Mansour al Hsllâj, Paris, 1922

وترجمتها[١] . كما أن البارون كارادى ڤو لمح لدى الفارابي نزعة صوفية واضحة[٢] . إلا أن هذه الابحاث ناقصة وغير ناضجة . وعلى هذا لا زلنا نجهل أفكار فلاسـفة الاسلام الصوفية كما نجهل نظرياتهم الفلسفية بالمعنى الدقيق . وكل ما نرجوه أن نكشف الغطاء عن هذه الناحية وأن نوجه الأنظار إليها

إذا شئنا أن نعرف أقدم صورة للأفكار الصوفية عند فلاسفة الاسلام ، وجب علينا أن نصعد الى أبي نصر الفارابي . فانه أول من صاغ الفلسفة الاسلامية في ثوبها الـكامل ووضع أصولهـا ومبادئها . نحن لا ننكر أن الـكندى تنبه قبله إلى دراسة أفلاطون وأرسطو وعرض لبعض نظرياتهما بالشرح والاختصار ؛ ولـكننا لا نجد لديه مذهباً فلسفياً كاملاً بكل معاني الـكلمة ، بل هي نظرات متفرقة ومتعلقة بمواضيع مختلفة لا رابطة بينها [٣] . أما الفارابي فقد لم هـذا الشعث وأقام دعائم مذهب فلسفي متصل الحلقات . ومن أهم أجزاء هذا المذهب وعلى قمة هذا البناء نرى نظرية صوفية امتازت بها الفلسفة الاسـلامية من كثير من الفلسفات الأخرى . فالتصوف إذن قطعة من مذهب الفارابي الفلسفي لا ظاهرة عرضية كما يزعم كارادى ڤو . ولا أدل على هذا من أن هناك رباطاً وثيقاً يربطه بالنظريات الفارابية الأخرى نفسية كانت أو أخلاقية أو سـياسية . وقد أثر هذا التصوف تأثيراً عميقاً فيمن جاء بعد من فلاسفة الاسلام

لعل أخص خصائص النظرية الصوفية التي قال بها الفارابي أنهـا قائمة على أساس عقلي . فليس تصوفه بالتصوف الروحي البحت الذي يقوم على محاربة الجسم والبعد عن اللذائذ لتطهر النفس وترقى مدارج الـكمال ، بل هو تصوف نظري يعتمد على الدراسة والتأمل . وطهارة النفس في رأيه لا تقصد عن طريق الجسم والأعمال البدنية فحسب ، بل عن طريق العقل والأعمال الفكرية أولاً وبالذات . هناك فضائل عملية جسمية ولـكنها لا تذكر في شيء بجانب الفضائل العقلية النظرية ، ولئن كانت

(١) A. F. Mehren, Traités mystiques d'Avicenne, voir aussi, Le Museon, t. I. II, III et IV

(٢) Carra de Vaux, al Fârâbi, dans Encyc. de l'Islam, t. II, pp. 57-59

(٣) Madkour, La place d'al Fârâbi, p, 9

الأعمال الحسنة والخلال الحميدة بعض الخير ، فالخير كل الخير في مسألة نتدارسها وحقيقة نكشفها ومعرفة تهذب بها نفوسنا وتسمو عقولنا . وذلك أن العقل البشري سالكا سبيل رقيه وتطوره يمر بمراحل متدرجة بعضها فوق بعض . فهو في أول أمره عقل بالقوة ، فاذا ما أدرك قدراً كبيراً من المعلومات العامة والحقائق الكلية أصبح عقلاً بالفعل . وقد يتسع مدى نظره ، ويحيط بأغلب الكليات فيرقى إلى أسمى درجة يصل إليها الانسان وهي درجة العقل المستفاد أو درجة الفيض والالهام . وعلى في هذا ما يبين كيف اتصل التصوف عند الفارابي بعلم النفس ، ونظرية المعرفة

ولن يقف الأمر عند هذا الحد ، بل التصوف الفارابي متين الصلة بالنظريات الفلكية والميتافيزيقية ، فان الفارابي يتخيل نظاما فلكياً أساسه أن في كل سماء قوة روحية أو عقلاً مفارقا يشرف على حركتها ومختلف شؤونها ، وآخر هذه القوى وهو العقل العاشر موكل بالسماء الدنيا والعالم الأرضي ، فهو نقطة اتصال بين العالمين العلوي والسفلي ، وكلما اتسعت معلومات المرء اقترب من العالم العلوي ودنت روحه من مستوى العقول المفارقة ، فاذا وصل إلى درجة العقل المستفاد أصبح أهلا لتقبل الأنوار الآلهية وأضحى على اتصال مباشر بالعقل العاشر . فبالعلم والعلم وحده تمكننا أن نربط السماوي بالأرضي والالهي بالبشري والملائكي بالانساني ، وأن نصل إلى أعظم سعادة ممكنة . والمعرفة النظرية الميتافيزيقية هي أسمى غاية ينشدها العقل الانساني . وإذا ما انتهينا إلى هذه المرتبة تحررت نفوسنا بتاتا من كل ما هو مادي وجسمي والتحقت بالكائنات العقلية واطمأنت إلى حالها هذه راجية أن تبقى فيها إلى النهاية

هذه هي السعادة التي تنحو نحوها الفلسفة والأخلاق ويصوب إليها النظر والعمل ويسعى إليها الانسان بدراسته وسلوكه ، هي الخير المطلق وغاية الغايات ومنتهى الرفعة الانسانية وجنة الواصلين ، يقول الفارابي : « والسعادة هي أن تصير نفس الانسان من الكمال في الوجود بحيث لا تحتاج في قوامها إلى مادة ، وذلك أن تصير في جملة الأشياء البريئة عن الأجسام ، وفي جملة الجواهر المفارقة للمواد ، وأن تبقى على تلك الحال دائماً أبداً ، إلا أن رتبتها تكون دون رتبة العقل الفعال ، وإنما تبلغ ذلك بأفعال إرادية ، بعضها أفعال فكرية وبعضها أفعال بدنية ، وليست بأي أفعال اتفقت ، بل بأفعال محدودة مقدرة تحصل عن هيئات ما وملكات ما مقدرة محدودة . وذلك أن من الأفعال الارادية ما يعوق عن السعادة ، والسعادة هي الخير المطلوب لذاته ، وليست تطلب أصلاً ولا في وقت من الأوقات لينال بها شيء آخر ؛ وليس وراءها شيء آخر أعظم منها يمكن أن يناله الانسان . والأفعال الارادية التي تنفع في بلوغ السعادة هي الأفعال الجميلة . والهيئات والملكات التي تصدر عنها هذه الأفعال هي الفضائل ؛ وهذه ليست خيراً لذاتها ، بل لما تجلب من سعادة . والأفعال التي تعوق عن السعادة هي الشرور والأفعال القبيحة . والهيئات والملكات التي تصدر عنها هذه الأفعال هي النقائص والرذائل والخسائس [1] »

(يتبع)

ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة في كلية الآداب

(١) الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٤٧

تطور العقلية الاسبانية

فى تقدير تراث الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى أوائل سنة ١٩٢٩ ، احتفلت جامعة غرناطة بذكرى الخلافة الأندلسية لمناسبة مضى ألف عام على قيامها [1] فكان أول حادث رسمى من نوعه ينم عن تطور عميق فى تقدير اسبانيا النصرانية لتراث الأندلس المسلمة

وتاريخ الاسلام فى الأندلس مرحلة باهرة فى تاريخ اسبانيا القوى ، بل أعظم مراحله وأسطعها ، فقد لبث العرب فى اسبانيا زهاء ثمانية قرون أنشأوا فيها أعظم حضارة عرفت فى العصور الوسطى ، وكانت وحدها مدى هذه العصور مورد النور والعرفان لأمم الشمال ؛ وأخرج المسلمون من اسبانيا بعد أحقاب من الكفاح المتواصل ، فتركوا فى اسبانيا طابعهم الخالد ؛ وما زالت آثارهم الباقية تشهد بعظمة عصرهم وحضارتهم ؛ وما زالت الحياة الاجتماعية الاسبانية تنم فى كثير من نواحيها عن تأثير العرب ورسومهم وتقاليدهم

ولكن اسبانيا النصرانية لم تقنع بسحق الأندلس المسلمة ، واستعادة آخر بقعة للاسلام فى اسبانيا ، بل رأت غداة ظفرها أن تطارد الاسلام بكل ما وسمت ، وأن تمحو كل رسومه وآثاره من صفحة حياتها ، وأن تدفن ذلك الماضى المجيد إلى الأبد ، وأن تعتبره محنة قومية نزلت بها ، وأن تمحوه من صحف تاريخها القومى ؛ وتأثر التفكير الاسبانى بأهواء السياسة المتعصبة ، فأشبع بهذه الروح المجحفة ؛ ولبث الأدب الاسبانى عصورا يشيع بلعناته المتواصلة عصر الاسلام وتراثه ، وكل ذكرياته ؛ ولم ينج التاريخ من هذه النزعة المغرضة ، فطغى التعصب على المرحلة الاسلامية من تاريخ اسبانيا القومى ؛ وكتب المؤرخون الأسبان تاريخ العرب فى اسبانيا بروح عميق من التحامل ، وجملوا جل اعتمادهم على الروايات النصرانية القديمة التى تفيض بمختلف الأكاذيب والتهم ؛ ولم يفكروا فى مراجعة المصادر الاسلامية والانتفاع بها ؛ ذلك أن اسبانيا النصرانية أصدرت منذ غداة ظفرها حكمها على المغلوب ، ولم ترد بعد ذلك أن تسمع صوتاً للأندلس الذاهبة ، أو أن تراجع ذلك التراث الذى تعتبره رجساً ، وترى فيه عنوان عصور مشئومة ، مليئة بالمحن القومية

وبهذه الروح كتب أكابر المؤرخين الأسبان تاريخ اسبانيا ، فكتب ماريانا فى عصر شارلكان تاريخ اسبانيا العام ، وخصص منه مجلدين كبيرين لتاريخ الأندلس ، ولكنه كان متحيزا متحاملاً يغدق المطاعن والتهم على العرب وعصور الاسلام ؛ وحذا حذوه من جاء بعده من المؤرخين ؛ وطبعت مؤلفاتهم جميعاً بهذا الطابع المغرض ؛ وكانت السياسة الاسبانية تحرص دائماً على حجب آثار العصر الاسلامى ، وتخفيها عن كل باحث ومتطلع ، كأنما كانت تخشى أن تؤثر روح التفكير الاسلامى فى تفكير اسبانيا النصرانية ، وهى لم تدخر وسعاً فى مطاردة هذا الروح وقتله ؛ ولبثت الآثار الاسلامية عصوراً مقبورة فى أقبية الأسكوريال المظلمة ، وكانت حتى أواخر القرن السابع عشر تبلغ زهاء عشرة آلاف مجلد جمع معظمها أيام سقوط غرناطة ، وضمت اليها بعد ذلك نحو ثلاثة آلاف مجلد كانت للسلطان زيدان السعدى ملك مراكش ؛ وكانت مشحونة فى مركب مغربى لتنقل إلى بعض ثغور المغرب خوفاً على ضياعها أثناء الفتنة ، فأسرتها بعض المراكب الاسبانية وحملت شحنتها إلى اسبانيا [1] ؛ وفى أواخر القرن السابع عشر أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس محنة أليمة ، إذ شبت النار فى الأسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه سوى ألفين . عندئذ استفاقت الحكومة الاسبانية من سباتها ؛ وحررت ذهنها بعض الشىء من ذلك التعصب العميق الذى صرفها عصوراً طويلة عن العناية بهذا التراث . واستدعت من رومة حبرا شرقياً وعلامة لغوياً كبيراً هو ميشيل الغزيرى اللبنانى الذى يعرف فى الغرب باسم

---

(١) اتخذ عبد الرحمن الناصر سمة الخلافة فى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) وقامت فى قرطبة خلافة أموية ، إلى جانب خلافة بغداد فى المشرق

(١) وقع هذا الحادث فى أواخر عهد فيليب الثالث ملك أسبانيا حوالى سنة ١٦٢٠ م

(كازيرى) Casiri ، وعهدت اليه بدرس الآثار العربية ووضع فهرس جامع لها ؛ فلبث الغزيرى أعواماً طويلة يدرس وينقب فى تلك المخطوطات حتى أتم المهمة ، وأخرج فى سنة ١٧٦٠ باللاتينية فهرسه الجامع بعنوان « المكتبة العربية الاسبانية فى الأسكوريال» Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis وصدر كازيرى معجمه بمقدمة طويلة شرح فيها قيمة المخطوطات العربية وأهميتها ، ونقل فى فهرسه نبذا كثيرة من بعض الآثار الهامة ؛ فأثار ظهور هذا الفهرس الجامع لأول مرة اهتماماً كبيراً فى دوائر البحث والتفكير ، ولفت نظر المؤرخين الاسبان إلى تلك الناحية الهامة من تاريخ اسبانيا القومى ، وإلى تلك المراجع النفيسة التى تلقى أعظم ضوء على تاريخ الأندلس وأحوال المجتمع الاسلامى ؛ وعنى طائفة من الباحثين فى أواخر القرن الثامن عشر مثل أندريس وماسدى ببحث المصادر العربية والانتفاع بها ، والاقتباس منها ؛ وأخرج أندريس كتابه عن (أصول الأدب) وأخرج ماسدى مؤلفه الجامع عن تاريخ اسبانيا والحضارة الاسبانية Historia Critica de Espana y de la Cultura espanola وفيه نبذ شائقة عن المجتمع الاسلامى ونواحى التفكير الاسلامية مستمدة من المراجع العربية ؛ وهكذا بدأ تطور الروح الاسبانية فى تقدير التراث الاسلامى ، وظهر صوت الأندلس المسلمة لأول مرة فى التواريخ العامة والخاصة

على أن هذا التطور المحمود من التحامل والتعصب إلى جانب الروية والانصاف لم يقف عند هذا الحد ، ففى أوائل القرن التاسع عشر عمد المؤرخ يوسف كوندى أمين مكتبة أكاديمية مدريد إلى دراسة المراجع العربية فى الاسكوريال دراسة مستفيضة ورأى أن يكتب تاريخ أسبانيا المسلمة بصورة جديدة هى الصورة التى تقدمها إلينا المراجع العربية ، أو بعبارة أخرى رأى أن يكتب تاريخ الأندلس كما يعرضه تراثها العربى ، وكانت نتيجة هذه الدراسة كتابه الشهير « تاريخ دولة العرب فى أسبانيا » Historia de la Dominacion de Los Arabos en Espana الذى صدر الجزء الأول منه سنة ١٨١٠ ؛ وتوفى كوندى فى نفس العام ، فنشر الجزءان الباقيان من مخطوطاته فى العام التالى ؛ وليس مؤلف كوندى قوياً من الناحية النقدية ، لأن مؤلفه ينقل مختلف الروايات العربية دون تمحيص ، ولأنه يقع فى كثير من الأخطاء التاريخية التى ترجع فى الغالب إلى عدم الدقة فى النقل ؛ ومع ذلك فانه يمتاز بالصراحة الجمة حتى أن كوندى يذهب فى كثير من المواطن إلى إصدار أشد الأحكام على أمته ومواطنيه خصوصاً فى الحوادث التى اقترنت بسقوط غرناطة ، واضطهاد الأسبان للعرب ومطاردتهم وإرغامهم على التنصير ، ثم إخراجهم بعد ذلك من أوطان آبائهم وأجدادهم فى غمر من الفظائع والدماء ؛ وأهمية مؤلف كوندى فى أنه يعرض للغرب لأول مرة أقوال الرواية العربية مستمدة من مصادرها الأصيلة ، ومنها تعرف وجهة النظر الأندلسية فى كثير من الحوادث والشؤون

وكان صدور مؤلف كوندى حادثاً فريداً فى كتابة التاريخ الأسبانى ، وكان أول مؤلف من نوعه يسجل كلمة الأندلس فى المرحلة التى قطعتها من تاريخ اسبانيا القومى ، ويسجل فى نفس الوقت بدء عهد جديد من حرية البحث والتقدير ؛ ومن الغريب أن كتاب كوندى صدر فى نفس الوقت الذ صدر فيه أثر تاريخى آخر كان لصدوره أعظم وقع فى اسبانيا وفى أوربا ، وهو كتاب الدون انتونيو لورنتى عن تاريخ محاكم التحقيق (التفتيش) الأسبانية ، وعن نظمها واجراءاتها الدموية ، وفيه يورد مؤلفه طائفة عظيمة من الوثائق الرسمية التى تكشف عن فظائع هذه المحاكم الشائنة ، وخصوصاً فى مطاردتها للعرب والعرب المتنصرين ، ويورد فى نفس الوقت طائفة كبيرة من القضايا والمحاكمات الخاصة بالعرب المتنصرين مستمدة من وثائقها الأصلية ؛ وكان كتاب لورنتى فتحاً جديداً فى هذه الناحية من تاريخ العرب المتنصرين . وكان لصدوره وقع عظيم فى أوربا ، خصوصاً وأن مؤلفه من أكابر رجال الدين والكنيسة ، وقد لبث أعواماً طويلة سكرتيراً عاماً لديوان التحقيق (التفتيش) واستطاع أن يستخرج وثائقه من محفوظات الديوان الرسمية ذاتها

وفى أواسط القرن التاسع عشر عنى العلامة المستشرق الأسبانى دون باسكوال دى جاينجوس بدراسة المصادر العربية فى تاريخ الأندلس ، وقام بترجمة القسم الأول من كتاب « نفح الطيب » للمقرى إلى الانكليزية مع بعض التصرف وسماه « تاريخ الدول الاسلامية فى اسبانيا » History of Mohamedan Dynasties in

Spain ؛ وظهرت هذه الترجمة فى لندن سنة ١٨٤٠ فى مجلدين كبيرين مقرونة بملاحظات ومقارنات نقدية قيمة ؛ ولم تمض أعوام قلائل على ذلك حتى صدرت فى ليدن ترجمة فرنسية لهذا القسم الأول من كتاب المقرى بقلم المستشرقين دوزى ودوجا تحت عنوان « مختارات فى تاريخ وآداب العرب فى اسبانيا » Analectes sur l'Histoire et la littérature des Arabes d'Espagne (سنة ١٨٥٥ – ١٨٦١)

وهكذا وقفت اسبانيا ، ووقف الغرب ، بعد عصور طويلة من النسيان والتحامل على وجهة النظر الاسلامية فى التاريخ الأندلسى ، وسقط ذلك الحجاب الكثيف الذى ضربته السياسة الأسبانية مدى ثلاثة قرون على تراث الأندلس وآدابها ، وتطورت فكرة التاريخ الأسبانى ومادته ، وأدرك المؤرخون المحدثون أهمية المرحلة الاسلامية فى تاريخ اسبانيا القومى ، وعدلوا كثيراً من الآراء والأحكام المجحفة التى أصدرها المؤرخون القدماء نزولا على مؤثرات الجهل والتعصب القومى والدينى والسياسى

ونرى فى أواخر القرن التاسع عشر جماعة من أعلام المستشرقين الأسبان يبذلون جهداً عظيما فى نشر مجموعة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التى تحتويها أروقة الأسكوريال ، باسم المكتبة الأندلسية ، وهى مجموعة نفيسة فى عشرة مجلدات ، تحتوى على عدة كتب لابن بشكوال ، وابن الآبار ، والضبى ، وابن الفرضى ، وأبو بكر الاشبيلى ، وتعليقات وفهارس مفيدة . وقد ظهرت المجموعة بين سنتى ١٨٨٥ و ١٨٩٤ فى مدريد وسرقسطة ، وكان الجهد الذى بذل فى إخراجها تحية جديدة من اسبانيا الجديدة لتراث العرب والاسلام فى الأندلس

وأخيراً توجت تلك الجهود الحرة الموفقة لبحث الصلات والعلائق القومية بروح الانصاف والنزاهة ، بقيام جامعة غرناطة بالاحتفال بالذكرى الألفية للخلافة الأندلسية وعصرها الباهر ، وهى خطوة كان لها أعظم وقع فى اسبانيا وفى العالم الاسلامى

وهكذا يتبوأ تاريخ الأندلس وتراث الاسلام فى اسبانيا مكانته الحقة فى التاريخ القومى ، وفى الآداب التاريخية الغربية ، بعد عصور طويلة من التعصب والتحامل والنسيان

محمد عبد الله عنان

بين عالمين

نظام الطلاق فى الاسلام

للأستاذ أحمد محمد شاكر

منذ بضعة أشهر أخرجت كتابى (نظام الطلاق فى الاسلام) فتقبله العلماء الأعلام فى مصر وفى سائر الأقطار بقبول حسن والحمد لله ، وأكثروا من الثناء عليه وعلى مؤلفه ، وجاءتنى كتب متواترة من كبار علماء الاسلام فى الحجاز والهند والعراق والشأم وغيرها ، ومن كبار المستشرقين فى أقطار أخرى ، ولا أرانى أهلاً لكل ما أثنوا به علىّ ، وإنما هو حسن الظن منهم ، وقد أعجزنى أن أوفيهم حقهم من الشكر على هذا الفضل الجمّ ، وأسأل الله أن يجزل لهم المثوبة على فضلهم

وفى بعض ما جاءنى من الكتب أبحاث قيمة من النقد العالى المبنى على الحجة والبرهان ، مما يصلح أن يكون مثالاً يحتذى للباحثين المجتهدين ، فى دقة النظر ، وعلو الفكر ، وأدب القول ، والتسامى عن العصبية والهوى ، والتزام ما ينصره الدليل الصحيح ؛ وهى الخصال التى نرجو أن يسير على نهجها كل عالم مفيد ، وكل طالب مستفيد ، وخصوصاً فى علوم الدين . وهى الخصال التى جاهد أسلافنا فى سبيل حمل الناس على الأخذ بها واتباعها ، ثم تبعناهم من بعدهم ، فجاهد اخوانى وجاهدت معهم فى سبيل ذلك جهادا كثيراً ، منذ نيف وعشرين سنة ، ولا نزال — والحمد لله — نسير على هذا النهج القويم ، والصراط المستقيم

ومما يجب علىّ ، إحقاقا للحق ، واتباعا لسبيل الهدى ، أن أفكر فيما ورد على كتابى من اعتراض ونقد ، وأعيد النظر فيما اخترتُ ورأيتُ ، وأكشف عن حجة خصمى وعن حجتى ، لى وللناظرين : فاما انتصر قول خصمى ورجعتُ عن قولى ، وإما انتصرتُ لقولى وزدته بياناً وتأييداً ، لا أبالى أى ذينك كان ، وإنما أنا طالب علم ، فأى قول أو رأى نصره عندى الدليل فانه العلم الذى أطلبه وأسعى اليه ، لا أبغى به بدلاً

ولذلك رأيت أن أنشر فى (الرسالة) الغراء — مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية — ما أراه جديرا بالنشر مما جاءنى من نقد واعتراض ، وأساجل كاتبيه البحث ، أملاً فى أن يشترك معنا كثير من العلماء الأعلام فى هـذا المجال ، علنا نصل إلى الحقيقة فيما كان موضع اختلاف ونظر . وقديماً قال الناس : الحقيقة بنت البحث .

ومن أشرف ما وصل إلىّ وأعلاه : كتاب كريم من صديق الكبير وأستاذى الجليل ، شيخ الشريعة ، وإمام مجتهدى الشيعة ، بالنجف الأشرف ، العلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ؛ فقد تفضل — حفظه الله — بمناقشة رأيى فى مسئلة من مسائل الكتاب ، وهى (مسئلة اشتراط الشهود فى صحة مراجعة الرجل مطلقته) ، فاننى ذهبت إلى اشتراط حضور شاهدين حين الطلاق ، وأنه إذا حصل الطلاق فى غير حضرة الشاهدين لم يكن طلاقاً ولم يعتدّ به . وهذا القول وإن كان مخالفاً للمذاهب الأربعة المعروفة إلا أنه يؤيده الدليل ، ويوافق مذهب الأئمة أهل البيت والشيعة الامامية . وذهبت أيضاً إلى اشتراط حضور شاهدين حين المراجعة ، وهو يوافق أحد قولين للامام الشافعى ، ويخالف مذهب أهل البيت والشيعة . واستغربت من قولهم أن يفرقوا بينهما ، والدليل واحد فيهما ، فرأى الأستاذ — بارك الله فيه — أن يشرح لى وجهة نظرهم فى التفريق بينهما فقال :

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم . وله الحمد والمجد

من النجف الأشرف ٨ صفر سنة ١٣٥٥ الى مصر

لفضيلة الأستاذ العلامة المتبحر النبيل الشيخ أحمد محمد شاكر المحترم أيده الله

سلامة لك وسلام عليك . وصلتنى هديتك الثمينـة رسالة (نظام الطلاق فى الاسلام) ، فأنعمت النظر فيها مرةً بل مرتين إعجاباً وتقديراً لما حوته من غور النظر ، ودقة البحث ، وحرية الفكر ، وإصابة هدف الحق والصواب . وقد استخرجتَ لباب الأحاديث الشريفة ، وأزحت عن محيا الشريعة الوضاءَة أغشية الأوهام ، وحطمت قيود التقاليد القديمة وهيا كل الجمود بالأدلة القاطعة ، والبراهين الدامغة . فحياك الله ، وحيا ذهنك الوقاد ، وفضلك الجمّ

وأمهات مباحث الرســالة ثلاث : (١) طلاق الثلاث (٢) الحلف بالطلاق والعتاق (٣) الاشهاد على الطلاق

وكل واحدة من هذه المسائل الثلاث قد وفيتها حقها من البحث ، وفتحت فيها باب الاجتهاد الصحيح على قواعد الفنّ ومدارك الاستنباط القويم من الكتاب والسنة . فانتهى بك السير على تلك المناهج القويمة الى مصاص الصواب ، وروح الحقيقة ، وجوهر الحكم الالـهى ، وفرض الشريعة الاسلامية

وقد وافقت آراؤك السديدة فى تلك المسائل ما اتفقت عليه الامامية من صدر الاسلام الى اليوم ، لم يختلف فيها منهم اثنان ، حتى أصبحت عندهم من الضروريات ، كما اتفقوا على عدم وجوب الاشهاد فى الرجعـة ، مع اتفاقهم على لزومه فى الطلاق ، بل الطلاق باطل عندهم بدونه

وقد ترجح عندك قول من يقول بوجوب الاشهاد فيهما معاً . فقلت فى صفحة (١٢٠) ما نصه : « وذهبت الشيعة الى وجوب الاشهاد فى الطلاق وأنه ركن من أركانه ، كما فى كتاب شرائع الاسلام . . . . ولم يوجبوه فى الرجعة . والتفريق بينهما غريب ولا دليل عليه » انتهى

وفى كلامك هـذا (أيدك الله) نظرٌ أستميحك السماح فى بيانه ، وهو أن من الغريب حسب قواعد الفنّ مطالبـةَ النافى بالدليل والأصل معه ! وإنما يحتاج المثبت إلى الدليل . ولعلك (ثبتك الله) تقول قد قام الدليل عليه ، وهو ظاهر الآية ، بناءً على ماذكرته فى صفحة (١١٨) حيث تقول : « والظاهر من سياق الآيتين أن قوله : (وأشهدوا) راجع إلى الطلاق وإلى الرجعـة معاً » إلى آخر ما ذكرت ، وكأنك (أنار الله برهانك) لم تمعن النظر هنا فى الآيات الكريمة ، كما هى عادتك من الامعان فى غير هذا المقام ، وإلا لما كان يخفى عليك أن السورة الشريفة مسوقة لبيان خصوص الطلاق وأحكامه ، حتى إنها قد سميت بسورة الطلاق ، وابتدأ الكلام فى صـدرها بقوله تعالى : (إذا طلقتم النساء) ثم ذكر لزوم وقوع الطلاق فى صدر العدة ، أى لا يكون فى طهر المواقعة ولا فى الحيض ، ولزوم إحصاء العدة وعدم إخراجهن من البيوت ، ثم استطرد إلى ذكر الرجعة فى خلال بيان أحكام الطلاق ، حيث قال عز شأنه : (فاذا بلغن أجلهن

فأمسكوهن بمعروف) أى إذا أشرفن على الخروج من العدة فلكم إمساكهن بالرجعة أو تركهن على المفارقة ، ثم عاد إلى تتمة أحكام الطلاق فقال : (وأشهدوا ذوى عدل منكم) أى فى الطلاق الذى سيق الكلام كله لبيان أحكامه ، ويستهجن عوده الى الرجعة التى لم تذكر إلا تبعاً واستطراداً . ألا ترى لو قال القائل : إذا جاءك العالم وجب عليك احترامه وإكرامه وأن تستقبله ، سواء جاء وحده أو مع خادمه أو رفيقه ويجب المشايعة وحسن المودعة ، فانك لا تفهم من هذا الكلام إلا وجوب المشايعة والمودعة للعالم ، لا له ولخادمه ورفيقه ، وإن تأخرا عنه . وهذا لعمرى حسب قواعد العربية والذوق السليم جلىٌّ واضح ، لم يكن ليخفى عليك ، وأنت خِرِّيتُ العربية ، لولا الغفلة (والغفلات تعرض للأريب)

هذا من حيث لفظ الدليل وسياق الآيات الكريمة

وهنالك ما هو أدق وأحق بالاعتبار من حيث الحكمة الشرعية والفلسفة الاسلامية وشموخ مقامها ، وبعد نظرها فى أحكامها . وهو : أن من المعلوم أنه ما من حلال أبغض الى الله سبحانه وتعالى من الطلاق ، ودين الاسلام كما تعلمون ـ جمعىّ اجتماعىّ ـ لا يرغب فى أى نوع من أنواع الفرقة ، سيما فى العائلة والأسرة ، وعلى الأخص فى الزيجة ، بعد ما أفضى كل منهما إلى الآخر بما أفضى . فالشارع بحكمته العالية يريد تقليل وقوع الطلاق والفرقة ، فكَثَّر قيوده وشروطه ، على القاعدة المعروفة من أن الشيء إذا كثرت قيودُه ، عَزّ أو قلّ وجودُه ، فاعتبر الشاهدين العدلين للضبط أولاً ، ولحصول الأناة والتأخير ثانياً ، وعسىَ إلى أن يحضر الشاهدان ، أو يحضر الزوجان أو أحدهما عندهما يحصل الندم ويعودان الى الألفة ، كما أشير اليه بقوله تعالى (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وهذه حكمة عميقة فى اعتبار الشاهدين ، لا شك أنها ملحوظة للشارع الحكيم ، مضافاً الى الفوائد الأخر

وهذا كله بعكس قضية الرجوع : فان الشارع يريد التعجيل به ، ولعل للتأخير آفات ، فلم يوجب فى الرجعة أى شرط من الشروط . ونصح عندنا — معشر الامامية — بكل مادل عليها من قول أو فعل أو اشارة ، ولا يشترط فيها صيغة خاصة ، كما يشترط فى الطلاق . كل ذلك تسهيلاً لوقوع هذا الأمر المحبوب للشارع الرحيم بعباده ، والرغبة الأكيدة فى ألفتهم وعدم تفرقهم . وكيف لا يكفى فى الرجعة حتى الاشارة ولمسها ووضع يده عليها بقصد الرجوع ، وهى — أى المطلقة الرجعية — عندنا ، معشر الامامية ، لا تزال زوجةً إلى أن تخرج من العدة ، ولذا ترثه ويرثها ، وتغسله ويغسلها ، وتجب عليه نفقتها ، ولا يجوز أن يتزوج بأختها وبالخامسة ، الى غير ذلك من أحكام الزوجية

فهل فى هذا كله مقنع لك فى صحة ما ذهبت اليه الامامية من عدم وجوب الاشهاد فى الرجعة بخلاف الطلاق ؟! فان استصوبته حمدنا الله وشكرناك ، وإلا فأنا مستعد للنظر فى ملاحظاتك وتلقيها بكل ارتياح ، وما الغرض إلا إصابة الحقيقة ، واتباع الحق أينما كان ، ونبذ التقليد الأجوف ، والعصبية العمياء ، أعاذنا الله وإياك منها ، وسدد خطواتنا عن الخطأ والخطيئات ، ان شاء الله ، ونسأله تعالى أن يوفقكم لأمثال هذه الآثار الخالدة ، والأثريات اللامعة ، والمآثر الناصعة ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ، ولكم فى الختام أسنى تحية وسلام من

محمد الحسين آل كاشف الغطاء

ملاحظة : ومن جملة المسائل التى أجدتَ فيها البحث والنظر : مسئلة بطلان طلاق الحائض ، وقد غربلتَ حديث ابن عمر بغربال الدقيق ، وهذه الفتوى أيضاً مما اتفقت عليها الامامية ، وهى بطلان طلاق الحائض إلا فى موارد استثنائية معدودة .

* * *

هذا هو نص كتاب الأستاذ شيخ الشريعة ، لم أحذف منه شيئاً ، إلا كلمة خاصة لا علاقة لها بالموضوع ، وإنما هى عن تفضله باهداء بعض كتبه إلىّ . وسأحاول أن أبين وجهة نظرى ، وأناقش أستاذى فيما رآه واختاره ، بما يصل اليه جهدى فى عدد قدم ، إن شاء الله .

أحمد محمد شاكر

القاضى الشرعى

ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه: الكلام خيالى ولا أصل له، كما ملت أن أقول وأؤكد فى كل مرة)

— ٤ —

غضبت علينا ذات الثوب الأرجوانى ... وما أعرف لى ذنباً جنيته إلا النظر، وما أحسبها تريد أن تحرم هذا علينا أو تكرهه منا. وأين المرأة التى يسوءها أن ينظر الرجال اليها ويعجبوا بها ويفتتنوا بحسنها؟ أو يسرها أن ينصرفوا عنها ولا يبالوها ولا يعنيهم أبقيت بينهم أو أمامهم، أم اختفت عن عيونهم؟ إن إتباعَ النظرةِ النظرةَ ثناءٌ صامت. والثناء قوت المرأة — وخمرها أيضاً — وقد ترى نساء يسوءهن النظر اليهن لسبب غير راجع إلى وحى الطبيعة فى نفوسهن، فيرتبكن ويضطربن، وتضيق الدنيا فى وجوههن ويشق عليهن ذلك حتى ليكبر فى وهمهن أنهن جنينه على أنفسهن وأثرن فضول الرجال. ولكن حتى هؤلاء لا يكرهن الثناء، بل تشرق له وجوههن، وتنشرح صدورهن، إلا إذا جاوزت الاطراء إلى ما هو خليق بسبب نشأتهن أن يزعجهن. وقد كنت مرة أتعلم الفرنسية وأتلقى دروساً فيها على فتاة أمها روسية وأبوها نمسوى، فاستغربت بعد بضعة أيام أنها تلقانى متجهمة! وبدا لى أنها تستثقل الدرس والتلميذ، فشكوت إلى صديق وقلت له: إن معلمتى لا تكف عن النفخ، وأنها طول الدرس تتأفف، وإنى أريد أن أبحث عن معلمة أخرى، فلست أطيق هذا الضجر الذى لا تنفك تواجهنى به. فقال: «لا تفعل». قلت: «ولكنى لا أستطيع الصبر على هذه الحال». قال: «لك العذر، ولكن ضاحكها وعابثها ... أثن على حسنها ... غازلها برفق، أى من غير أن تخرج عن حدود الأدب». فوعدته أن أجرب ذلك. وقد كان. أقبلت عليها فأقبلت علىّ، وصارت تهش لى وتبش، وأصبحت تلميذها الأثير. وكان لى زميل يتلقى عليها دروساً فى وقت آخر، وكان مثلى قبل أن يرشدنى صديق، أى أنه كان معها كأنها معلم بلحية لا معلمة مدلّة بجمالها وشبابها، فكان إذا جاء تعبس وتقول: فلينتظر! فأقول لها: «بل أخرج أنا لئلا يغضب فيضيع عليك درسه»، فتقول: «دعه يغضب ... إنه يملنى ويزهق روحى». وكان اسمه «عثمان أفندى» فصرنا — هى وصديقى الذى علمنى وأنا — نطلق اسم «عثمان أفندى» على كل من نراه بليدا جامدا فى حضرة النساء

وأعود إلى ذات الثوب الأرجوانى فأقول إنها كانت راضية عنى. وآية رضاها أنها ظلت أياماً لا تبدو لى إلا فى ثوب أرجوانى. وكنت لا أراها إلا خفيفة مرحة، واذا بها - فجأة - تخرج إلى الشرفة فى صباح فلا تكاد ترانى حتى تنثنى راجعة، فأعجب وأتساءل: «ما لها؟ ...» ولا أجد جواباً لسؤالى، فأهز كتفى وأقول: «سنرى»، ولكنى لا أرى بعد ذلك إلا الاعراض والنفور وطول الاحتجاب، فلا يسعنى إلا أن أعرض أنا أيضاً، وأن أظهر قلة المبالاة؛ فلا أفتح النافذة ولا أطل منها إذا كانت مفتوحة، ولا أنظر اليها إذا طلعت، فان فى طبعى عنادا، وأنا مفطور عليه وعلى المجازفة، ولست أعرفنى اكترثت للعواقب حين يستفزنى شىء. وما أكثر ما أخسر بسبب ذلك. ولكنى أستطيع أن أكبح ثورة نفسى ولا أستطيع أن أصرفها عن الزهد. وما عجزت قط — إلا فى الندرة القليلة — عن ضبط عواطفى وصد نفسى عن الاندفاع، ولكنى أرانى عاجزاً عن علاج نفسى إذا انصرفت عن الشىء وحملها على الاقبال عليه مرة أخرى. وقد كانت أمى تقول إن قلبى أسود، وكانت تعنى بذلك أنى لا أنسى الاساءة؛ على أنى لا أنسى المعروف أيضاً ولا أجحده، فأنا كما يقول ابن الرومى: «للخير والشر بقاء عندى»، وقد صدق فانا من طينة الأرض، «والأرض مهما استُودعت تؤدى». وما أساء إلىّ أحد إلا نازعتنى نفسى أن أنتقم منه، ولكنى لا أزال أحاورها وأداورها حتى أقنعها بأن الدنيا تغيرت، وأن أخلاق البدو لا تصلح فى هذا العصر المتحضر، وأن الناس لا يقتل بعضهم بعضاً فى هذا الزمان من أجل تمرة أو من جراء كلمة يسبق بها اللسان، حتى تسكن وتكتفى بالانصراف

وجلست أحاسب نفسى وأسائلها عن ذات الثوب الأرجوانى ما خطبها ؟ . ولِمَ تبدى لى هذا النفور ؟ . أتراها تتكلفه ؟ . ألعل أهلها قد أغاظوا لها وضيقوا عليها فرأت أن تخفف عن نفسها وتعفيها من ثقل تدخلهم بالاحتجاب ؟ . ألا يجوز أن يكونوا قد كرهوا منى طول النظر اليها فكلموها فى ذلك فلم يسعها إلا أن تكف عن الظهور ؟ . جائز ! ! ولكن من الجائز أن أكون قد صنعت شيئاً أغضبها . . ومن الحزم على كل حال أن أعرض أنا أيضاً الى حين ، حتى تسكن الثورة التى لعلها ثارت فى بيتها وبين أهلها . . ولكن من الانصاف أيضاً أن أحاسب نفسى قليلاً . . فتعال هنا . . اخل بنفسك واجتهد أن تتذكر . .

فتذكرت . . . ذلك أنى كنت يوماً فى حجرتى فزارنى صديق : وكان الجو حاراً جداً ففتحت له النوافذ جميعاً ، فقال لى بعد برهة : « أنظر . . » فسألته « ماذا ؟ » قال « هذه النافذة . . ألا ترى الفتاة التى تبدو منها ؟ » قلت : « إنك بعيد النظر . . وأنا أعترف أنى لا أرى فتاة وإنما أرى ذراعاً » قال : « هذا ماأعنى .. لا يبدو منها الآن إلا ذراعها ولكنها كانت منذ لحظة تطل علينا وتنظر إلينا » . قلت : « جائز .. كل شىء جائز .. صحيح إن العمارة التى نحن فيها سبع طبقات .. أو عشر .. لا أدرى .. وفى كل طبقة شقق كثيرة . . ولكل شقة نوافذ وشرفات لم أعدها .. وقد يكون فى بعض هذه النوافذ والشرفات التى لا اراها رجال يطلون منها .. ولكن المعقول أن الفتاة التى لا أزال لا أرى منها غير ذراعها — تنظر إلينا نحن دون هذا الخلق الذى لعله فى الشرفات والنوافذ ونحن لا ندرى

قال : « لا تمزح . . إن نظرتها إلينا نحن . . وهل يخفى اتجاه النظر ؟ »

قلت : « مايدريني ويدريك ؟. ألا يمكن أن تكون حولاء ؟؟ تعرف كيف ينظر الأحول !؟ تكون عينه عليك ولكنه لا يراك بل يرى الذى الى اليمين أو الى اليسار .. أليس هذا جائزاً ؟ »

قال : حولاء ؟ ؟ كلا ! ! من قال هذا ؟ ؟ كلام فارغ ! ! إن عينيها جميلتان جداً »

قلت : « معذرة ! إنى — كما تعلم — لم أر سوى ذراعها . . وعهدى بالعيون تكون فى الوجوه لا فى الذراع . . وأظن أن هذا النظام لا يزال هو المتبع فى الخلق . . . على كل حال لم أر عينيها الجميلتين . . . »

قال : « والله إنها تنظر إلينا »

قلت : « صادق . . صادق . . . هذه أصابعها تنقر على حافة النافذة ولا شك أنها تعنينا الآن . . »

فقال : « دع المزاح بالله . . أنظر . . أنظر . . »

فنظرت . . وكففت عن المزح بلا حاجة الى زجر آخر . . وكانت الفتاة سمراء — لا بيضاء كذات الثوب الأرجوانى — وكانت نظرتها إلينا — لا شك فى ذلك — والرجل يدير رأسه أن يرى امرأة تُنْتَثِره النظر ولا تكاد تحول عينها عنه . فاذا كنت قد نهضت الى النافذة وأخرجت رأسى منها ورحت أحدق فى هذه السمراء الجميلة التى تقبل علينا ولا تعرض عنا أو تتدلل علينا ، فأظن أن لى العذر . . ومن أين لى أن أعرف أن ذات الثوب الأرجوانى كانت واقفة فى هذه اللحظة وأنها كانت تراعينى وتراقبنى ؟ ؟ ولو كنت أعرف ذلك لما صدنى عن النظر ، فان حبى لذات الثوب الأرجوانى ليس معناه أنى عميت وأن عينى لا تستطيع أن ترى غيرها وأنى فقدت القدرة على الاعجاب بالجمال فى مظاهره المختلفة . ولكن المرأة أمرها غريب ، وإنى لأذكر أنى كنت راكبا مع فتاة من صديقاتى — وكنت أنا السائق كما لا أحتاج أن أقول — فرأيت فتاة جميلة واقفة على الرصيف فتمهلت لأنظر اليها ، وإذا بصديقتى تقرص أذنى فصرخت فقالت : « هذا جزاؤك » فسألتها : « ماذا صنعت ؟ . . بأى شىء أستحق أن تقطعى لى أذنى ؟ ؟ . وكيف أستطيع أن أسمع صوتك الحلو بعد ذلك » فقالت « ابق اسمع صوت التى كنت تنظر اليها الآن » قلت « مالها ؟ . . ألا تعجبك ؟ . ألا تربنها جميلة ؟ » فعادت الى القرص ، وعدت الى الصراخ ، حتى كدت أستنجد بالمارة . وقد ساء رأى صاحبتى فى بعد ذلك ، وصارت كلما ركبت معى تشترط ألا أنظر لا يمينا ولا شمالا ، فأقول : « ولكن لماذا ؟ ما الضرر من النظر والتلفت ؟ ثم كيف أستطيع أن أثبت عينى فى اتجاه واحد وقد خلق الله لى عينين تتحركان ولا تثبتان ؟ » فلا تجيب عن السؤال وإنما

تروح تهددنى وتتوعدنى فأخاف فإن لها قرصا حاميا وأنا جلدى رقيق . ولكنى لا أفهم هذا التحكم من المرأة . وما أكثر ما قلت لاحداهن وقد أغضبها أن لى عيناً ترى وقلباً لا يسعه إلا أن يحس « يا ستى إن لك حديقة زهر . وفيها الفل والياسمين والورد الأحمر والأبيض والنرجس وما لا أدرى أيضاً . وأنتن يا نساء كالزهور .. فلماذا تريدين ألا تكون فى حديقتى إلا حواء واحدة ؟ »

فتقول : « بالله دع هذه الفلسفة السخيفة . . . ثم إنى أكره المكايدة »

فأؤكد لها أنى لا أقصد الى المكايدة ، وأقول : « نعم إن حواء واحدة مصيبة . . . وثق أن غلطة أبينا آدم هى أن جنته لم يكن فيها إلا هذه الحواء المفردة . . ولو كان فيها سواها . . عشر مثلا أو عشرون . . لما خرج من الجنة »

فتثور بى وتذهب وتعدو ورائى فأضع ذيلى بين أسنانى وألوذ بالفرار »

وما أشك فى أن ذات الثوب الأرجوانى أسخطها على نظرى الى السمراء . وما تعنينى السمراء لو علمت . ولكنها المرأة لا تعرف إلا نفسها ولا ترضى عما تسميه « العين الزائغة » وهى تشعر بالمنافسة من كل امرأة مثلها ، ولا تستطيع أن تفسر النظر الى امرأة غيرها إلا بأنه تفضيل لهذه الأخرى عليها ولو كانت واثقة من حب بعلها أو رجلها . كنت مرة أتنزه فى إحدى الحدائق مع صديقة فقالت « هل نركب زورقاً ؟ » فاستحسنت هذا الرأى وانحدرنا الى الماء واستأجرنا قارباً ، وقبل أن نمضى به تناولت ذراعى وهمست فى أذنى : « لا تتحرك . . . إنى لا أكاد أصدق »

فرفعت عينى اليها فألفيتها ناظرة الى الحديقة التى انحدرنا عنها الى الماء . وكان الهواء ساكنا والمنظر الذى أمامنا كأنه مرسوم ، وكان لفرط جماله يذكرنى بأعذب ما قرأت من الأغانى . ثم أشارت بيد أحلى من أناشيد سليمان بن داود وقالت : « ليتنى أستطيع أن آخذها !!. » وكأنما قرأت فى وجهى استغراب هذا الكلام فقالت « إنها أحلى لعبة رأيتها فى حياتى ! »

فقلت مستفسراً « لعبة ؟ ؟ هل قلت لعبة ؟ ؟ أين هى ؟ »

فصاحت بى وهى تشير بأناملها المغرية « هذا . . هذا . . هذا المنظر . . ألا يروقك ؟ »

فأدركت مرادها وإن كنت قد بقيت أستغرب عبارتها ، وقلت « لا . . ليس هذا لعبة . . وإنما هو أسطورة . . »

فهزت رأسها كالموافقة ثم وضعت راحتها على كتفى وقالت « إنى سعيدة لأنى رأيت هذا »

قلت : « هو أسعد منك .. وما أكثر ما رأى هذا البستان من نساء ولكنه احتاج أن ينتظر الى اليوم حتى تزوده حواء لها دل الفتاة وقلب الطفل »

قالت : « لا أظن . . » ثم رفعت وجهها الى وقالت : « انتظر .. لا تتحرك .. إنى أنظر الى نفسى فى عينيك »

فقلت — وقد أعجبنى ذلك : « حسن .. والآن .. لا تتحركى أنت . . فإنى أتأمل قوس هذه الشفة . . . »

فذهبت الى آخر الزورق وأرسلت لى مع الريح قبلة

وقالت وهى تجلس هناك : « إن الذى يعجبنى منك هو هذا . . أنك لا تأخذنى على غرة . . الأكثر فى الرجال يعدون المرأة صيداً أو قنصاً . . أما أنت فتشجعنى على استعمال حريتى وعلى الشعور بأن لى استقلالاً وإرادة يجب أن يحسب حسابهما . . وكأنى بك يسرك أن تدع غيرك يحيا حياته على هواه هو ، أكثر مما يسرك أن تفوز من دنياك بمتع حياتك .. والآن ألا نمضى؟؟»

فقلت وأنا أضرب الماء بالمجداف : « إن فيما قلته عنى بعض الغلط .. فأنا أحب أن أصحح لك هذا .. وأنا أعترف أنى لست وحشاً . . إذا كان هذا ما تعنين . . ولكن نظريات أفلاطون لا تروقنى .. نعم يسرنى أن أرى كل انسان يحيا حياته كما يروقه — ولم لا ؟ — ولكن من أبرز نقط الضعف فى نفسى أنى أحب أن أحيا أنا أيضاً كما أشتهى » .

فدنت منى وأراحت أناملها على كتفى ، وأسندت وجهها لى صدرى وقالت وهى تضحك : « إنك عبيط .. ألست كذلك ؟ وهذا هو الذى يحببك الى .. »

قلت : « يا ملعونة .. » وأحطتها بذراعى — « ارفعى فمك فإنى أريد أن ... أسوى ربطتى فى مرآة عينيك ... »

وفى هذه اللحظة الحافلة بالاحتمالات خطرت فى دائرة نظرى

فتاة كان لا يسمني إلا أن أراها . وليس لى فى هذا حيلة ولا كان منى عن عمد . ولكنها صارت أمام ناظرى . فأنا لا بد أن أبصرها . وأحست صاحبتى أن عينى تحولت — كما كان لا بد أن يحدث — فحولت وجهها إلى حيث أنظر فأبصرت الفتاة ، فما كان منها إلا أن انتفضت قائمة ، وضربت المجداف من يدى ، وصاحت بى :

« ارجع بى حالاً ... الى البر ... قبل أن نبعد ... »

فذهلت وقلت : « ولكن لماذا ؟ ؟ . . . انا لم نبعد إلا خمسة أمتار ... »

قالت : « ليتنا بعدنا جداً ... ولكن لا ... كنت إذن أبقى مغشوشة ... مخدوعة ... ارجع ... أقول لك ارجع ... »

ولا حاجة الى رواية كل ما قالت وما أجبت به ، وليثق القارئ أن ريقى نشف كما لم ينشف قط ، فقد ثقل على هذا الطبع ، وأضجرتنى هذه الغيرة السخيفة التى لا محل لها على كل حال . فبعد أن تألفتها من نفرتها ذهبت ألقنها درساً لا أظن أنها ستنساه فى حياتها

ولكن أمثال هذه الدروس لا خير فيها ولا جدوى منها ؛ وما أظنها إلا كالكتابة على الماء

وقد تظهر المرأة مجاراتك ساعة تلقى الدرس ، لأنها ترى هذه المجاراة والتظاهر بالاقتناع والتوبة أحزم وأحسم للنزاع ، ولكنها لا تملك أن تغير طبيعتها ، فهى تظل على الرغم من دروسك كما هى

وقد أحنقنى من ذات الثوب الأرجوانى هذا النفور الذى لا داعى له ، فغضبت وثرت وانتفضت ، فرميت ورقات كانت بيدى ؛ وكنت جالساً بحيث أراها وترانى ، ويظهر أن ما رأته من خروجى عن طورى المألوف أدهشها جدا ، فقد رأيتها تهب وتطل ، فعل من يريد أن يتثبت ويتحقق . ومضيت أنا فى ثورتى ، فجعلت أروح وأجئ فى الغرفة ، وأقول لنفسى :

« لماذا تحرم قبل أن تعطى ؟ ؟ لماذا تبدأ بالمنع ولا تبدأ بالجود ؟ ؟ لماذا تؤثر السوء ولا تؤثر الخير ؟ ما هذه الطباع ؟ وماذا جنيت أنا ؟ إنى أرانى وهبتها الشعور بحسنها حين أحببتها ، ولو أنها لم يحببها أحد لما وسعها أن تدرك أن لها حسناً يعشق وجمالاً يحب ... فشعورها بحسنها هو هبة وعطية منى ، لأنى أحببتها ... فكيف تتيه على وتتدلل ، وتحاول أن تعذبنى جزاء لى على مجهودى الذى استفادت هى منه ولم أستفد أنا شيئاً ؟

أى يد لها على ؟ ؟ أنى أراها ؟ ؟ فكل من شاء أن ينظر إلى شرفتها ساعة تكون فيها يستطيع أن يراها مثلى فلا فضل لها فى ذلك يحسب على .. ماذا غير ذلك ؟ لا شىء .. انتهينا إذن ! .. وما دامت لا تختصنى بشىء فلا حق لها فيما تتكلفه من حرمانى . . . لو كانت لم تتكلف لما عبأت ولما أحسست أن فى الأمر عمداً . . ولكنها عامدة ولست أنوى أن أشايعها على ظلمى . . إذن فأنا أنفر كما تنفر . . . وأحتجب كما تحتجب وليكن ما يكون ! »

وبعد أيام عدت أقول لنفسى : « اسمع . . إنها ليست مثلك . أنت تستطيع أن تخرج ، وتروح ، وتجئ ، وتتسلى وتتلاهى ، ولكنها مسكينة لا تملك ما تملك من الحرية ومن وسائل التعزى . . وما يدريك أنها ليست مضطرة الى هذا الذى ثقل عليك وكرهته منها ؟؟ ولا تنس أنها رقيقة القلب . . أليست قد رأت أنك تشكو ألما فى ذراعك فحدثتك نفسك أن قد بدا لك منها عطف كان له وقع حسن فى نفسك

وقد توسطت وخير الأمور الوسط — كما يقولون — فأنا لا أتكلف الاحتجاب ولا أتعمد أو أتحرى أن أراها ، وأدع هذا وذاك للمصادفة ؛ وسأرى ما يكون . وأخوف ما أخافه أن أمل هذا التعب العقيم فيركبنى عفريت العناد وأجازف

ابراهيم عبد القادر المازنى

أثر الحرب الكبرى في بريطانيا[1]

للأستاذ رمزي ميور

أستاذ التاريخ الحديث في جامعة منشستر سابقاً

ترجمة الأستاذ محمد بدران

ناظر مدرسة بنباقدن الابتدائية

ليس في العالم كله مجتمع أو طائفة من المجتمعات أثرت الحرب في مصائرها كما أثرت في بريطانيا وما يتجمع حولها ويرتبط بها من الشعوب المؤتلفة المنتشرة في أنحاء العالم

ولقد كانت الحرب الكبرى التي دارت رحاها بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ هي آخر عراك من أربعة يحدد كل منها فترة من فترات التاريخ اضطلعت بريطانيا فيها بدور حيوي هام هو انقاذ العالم من سيطرة دولة واحدة ، أو نزعة للحضارة واحدة ؛ وكان لكل عراك منها أثر بليغ في مركزها هي . فأما العراك الأول فهو حرب اسبانيا أيام الملكة اليصابات ، وفيه قهرت ذلك الخصم العنيد ، وصانت حرية البحار ، وخرجت منه وهي أكبر الدول البحرية ، والقادرة على أن تحيا حياتها الخاصة من غير خطر يتهددها ، وأن تنشر تجارتها وتبسط سلطانها فيما وراء البحار

وأما في العراك الثاني فهي التي قادت الحلف الذي أذل كبرياء لويس الرابع عشر ، ووثقت روابطه وخرجت منه وهي أعظم الأمم التجارية وأولى الأمم ذات الحكومات الديمقراطية ، وفتح أمامها باب سيادة العالم الجديد فنالت تلك السيادة قبل أن ينقضي على الحرب نصف قرن . وفي العراك الثالث كانت هي العدو الوحيد الذي لم تقو الثورة الفرنسية ونابليون على هزيمته ، وذلك بفضل قوتها البحرية ، وخرجت من هذا العراك وهي من غير شك أقوى دول العالم وسيدة البحار بلا منازع ، ومالكة الثروة التي أخرجتها وسائل الانتاج الآلية الحديثة ، والمسيطرة على امبراطورية عظيمة تضم بين أطرافها القارات وأشباه القارات . وكانت كل حرب من هذه الحروب العالمية سبباً في ارتفاع شأن الشعوب البريطانية وزيادة قوتها . فماذا كان أثر الحرب الأخيرة فيها ؟

كانت بريطانيا العظمى في خلال القرن التاسع عشر أقوى دول العالم أجمع ، لا ينازعها في ذلك المركز منازع . وكان مرجع قوتها إلى عدة عوامل : أولها عزلتها البحرية التي أمنت بها أخطار الغزو الأجنبي أمناً لم يتمتع به غيرها من الدول الأوربية ، ومكنها من أن تُنَمِّي نظم الحكم الذاتي الخاصة بها في أمن واطمئنان ، وأن تغرس في نفوس أبنائها حب الهدوء واطاعة القوانين . وثاني هذه العوامل هو تفوقها البحري الذي لم يكن يسمو اليه غيرها من الدول ؛ وبفضل هذا التفوق أمنت بريطانيا على نفسها أكثر مما تأمن على نفسها أمة أخرى في العالم ؛ وعظم نفوذها في شواطئ البحار ، وأضحت هي الممثلة للحضارة الأوربية لدى معظم الشعوب غير الأوربية . وثالث هذه العوامل هو امبراطوريتها الواسعة الأرجاء التي تمتلكها بوسائل مهلة ، والتي أخلصت لها شعوبها المحكومة ، والتي اتخذتها بريطانيا سوقاً لمصنوعاتها ، ومستودعاً للمواد الغفل لم تنل مثله غيرها من الأمم . ورابعها تفوقها في وسائل الانتاج الصناعي الحديثة ووجود مناجم غنية بالفحم سهل الاستخراج كان الى عهد قريب هو القوة الصناعية الوحيدة في العالم . والعامل الخامس هو ما انطوت عليه صدور أبنائها من حب المغامرة وما طبعوا عليه من قوة الابتكار الفردي . وسادسها هو قوتها المالية التي نشأت من انتشار عادة الادخار والاستثمار بين أبنائها ، ومما أنشأته من نظام مصرفي عجيب ؛ وقد أصبحت بفضل هذه القوة مركز العالم المالي والدولة الدائنة العظيمة التي مدت العالم بمعظم ما احتاجه من رءوس الأموال لاستثمار البلاد الجديدة ، وبفضل وسائلها ومبتكراتها المالية يتبادل العالم تجارته الدولية . والعامل السابع في عظمة بريطانيا أنها هي وحدها السوق العظيمة الحرة والمستودع المركزي العام الذي تأتي اليه جميع غلات العالم كله

(١) من كتاب النتائج السياسية للحرب الكبرى صدر في سنة ١٩٣٠

ولا يحول بينها وبينه حائل . وكان فى مقدورها أن تختط لنفسها هذه الخطة لأنها لا تخشى المنافسة ، ولأنها وهى المضطرة إلى أن تبيع بضائعها فى كل جزء من أجزاء العالم تعلم حق العلم أنها إذا لم تقو على منافسة الدول لها فى بلادها فلن تقوى على المنافسة فى خارجها . وآخر أسباب هذه العظمة ، وإن لم يكن أقلها أهمية ، هو نظام حكومتها الحر الذى أعجبت به ونسجت على منواله أمم العالم أجمع ، لأنه جمع فى نظرها بين الحرية والاستقرار وثبتت بالتجربة صلاحيته ، وخضع له جميع رعاياها مخلصين ، لأنه يكفل لهم حماية القانون ولا يقيد حريتهم فوق الحد الواجب

ولقد كانت السيادة البريطانية فى كل ناحية من هذه النواحى سيادة موقوتة لا يمكن أن تكون لها صفة الدوام ، لأن فى العالم أمما أخرى لا تقل عن بريطانيا فى مواهبها الطبيعية أو مواردها المادية ، وكانت ثمة عوامل عدة تعمل على تقويض دعائم هذه السيادة فى خلال الجيل السابق للحرب ؛ وكانت الحرب نفسها تنذر بزوال سيادة بريطانيا المضمحلة سيادة الزعامة والنفوذ واحلال سيادة ألمانيا سيادة النظام والقوة محلها . هذا الانقلاب على الأقل لم يقع ، ولكن شعباً واحداً لا يستطيع أن يكون له شىء يسمى سيادة فى هذا العالم الذى يسير فى طريق الحرية ، بل لا يحق لشعب أن يرغب فى هذه السيادة ، ولذلك أخذت سيادة بريطانيا القديمة تزول شيئاً فشيئاً بعد الحرب وبسبب الحرب ، وأصبح واجباً عليها أن تكيف نفسها لمركز جديد فى العالم ؛ ولا شك أنها تلقى فى سبيل هذا التكييف نصباً . ولنبحث أولاً فيما اعترى أسباب عظمتها من تطورات :

لم يعد مركز بريطانيا البحرى يضمن لها ما كانت تتمتع به من سلامة ؛ ذلك بأن التقدم السريع فى وسائل النقل الجوى يعرضها لخطر الغزو بشكل مرعب عرفته أثناء الحرب الكبرى ، وتقول بشكل مرعب ، لأن مدنها الواسعة المكتظة بالسكان يمكن تدميرها بين عشية وضحاها ، ولم تستكشف بعد وسيلة لاتقاء هذا الخطر الا منع الحروب بتاتاً . وليس هذا كل ما فى الأمر ، فان اعتمادها فى بقائها على ما يأتى اليها من الطعام من وراء البحار يعرضها إلى الخراب العاجل المفزع إذا هاجمت سفنها الغواصات ، وذلك خطر ليس فى الاستطاعة إتقاؤه إلا بوسائل غاية فى البطء والمشقة كما دلت الحرب . فان أهلها كادوا يموتون جوعاً بسبب الغواصات القليلة العدد التى استخدمتها ألمانيا فى الحرب . وإذا ما هاجمها فى المستقبل أسطول من الغواصات كالذى تمتلكه فرنسا مثلاً كان هذا الهجوم أكثر مفاجأة لها وأشد خطراً عليها ، لأن الجزيرة التى كانت من قبل معقلاً منيعاً لأهلها أصبحت الآن شركاً منصوباً لهم . وليس فى استطاعة بريطانيا أن تعتمد فى سلامتها على مواردها الخاصة كما كانت تعتمد عليها فى الأيام الماضية . فاذا أرادت أن تأمن على نفسها فان عليها أن تعول على ما يقوم به العالم المتمدين من عمل إجماعى لجعل الحرب مستحيلة الوقوع

ولقد انقضى الآن عهد سيادة بريطانيا البحرى انقضاء لا مرد له بعد أن دام ثلاثة قرون واضطرت بريطانيا فى معاهدة واشنجتن (سنة ١٩٢٢) أن تعترف « بمساواة » الولايات المتحدة لها وهى تعلم علم اليقين أنه إذا قام التنافس فى التسلح بينها وبين الولايات المتحدة تغلبت عليها الأخيرة بمواردها التى لا ينضب معينها . وليس هذا كل ما فى الأمر فان الحرب أظهرت أن الأحوال الحاضرة تجعل الاحتفاظ « بسيادة البحار » على الوجه الأكمل من أصعب الأمور . فلقد كان عدد السفائن الألمانية المغيرة التى انطلقت فى بداية الحرب أو استطاعت أن تفلت من الحصر فى أثنائها صغيراً لا يذكر ، ولو لم يكن ساحل ألمانيا غاية فى القصر سهل الرقابة لما كان عدد هذه المغيرات قليلاً إلى هذا الحد ، ولكنها على قلتها لم يقتنصها إلا مائة وأربعون طراداً . ذكر ذلك اللورد جليكو فى المؤتمر البحرى المُعجَل الذى عقد فى عام ١٩٢٧ لكى يتذرع به للاحتفاظ لبريطانيا بسبعين طراداً فقط . أما إذا أرادت أن تضمن لنفسها سيادة البحار فى كل الأحوال فلا يكفيها سبعون طراداً بل لا بد لها من سبعمائة ، فليس فى استطاعتها إذن أن تعتمد على مواردها الخاصة لتضمن سلامة البحار ، تلك السلامة التى تقف عليها حياتها ، بل عليها أن تعتمد على تعاون هيئة عالية منظمة . وقد يعز على بريطانيا بطبيعة الحال أن تقر بهذه النتيجة ، لكنها برغم ذلك نتيجة محتومة لا مناص منها . كانت بريطانيا أكثر الأمم اكتفاء بنفسها — فى هذا الميدان على الأقل — أما الآن فقد أصبح موقعها يحتم عليها أن

تكون أول داع الى اعتماد الدول بعضها على بعض اذا قدرت ما يعرضها اليه موقعها من الأخطار

أما الأمبراطورية فاذا نظرنا الى أجزائها الرئيسية رأينا أنها لم تبق « أمبراطورية » مهما توسعنا فى فهم هذا اللفظ ، ولم يبق لبريطانيا « إشراف » عليها ، بل أصبحت شركة مفككة الأجزاء من دول حرة تسعى كل منها إلى « الاكتفاء بنفسها » عن طريق الحواجز الجمركية ، ولم تبق أسواقها مفتحة الأبواب للبضائع البريطانية . وينطبق هذا الوصف على بلاد الهند التى كانت أعظم الأسواق لتصريف المنسوجات القطنية ، وهى أهم الصادرات البريطانية ؛ وكان تصميم الهند على الاستغناء عن هذه البضائع قدر استطاعتها من أكبر الأسباب التى أدت إلى كساد هذه الصناعة بعد الحرب . وكان ما اعترى الأمبراطورية البريطانية بعد الحرب من تطور وعدم وجود سياسة عامة منسجمة تحل محل ما كان لبريطانيا من إشراف قد نقص الآن إلى الحد الأدنى . كان ذلك كله من أهم المظاهر التى بدت على هذه الدولة بعد الحرب ولأهميتها سنفرد لها بحثاً خاصاً فيما بعد

كذلك لم يبق لبريطانيا ما كانت تتمتع به من التفوق فى وسائل الانتاج الصناعى بل أصبح يشاركها فى هذا التفوق على الأقل عدد من الأمم الأخرى ، وسبقتها الولايات المتحدة وألمانيا فى تطبيق العلم على الصناعة تطبيقاً حديثاً . وسبب ذلك أن رجال الأعمال فيها لا يزالون يحتقرون البحث العلمى ، وأن بريطانيا تأخرت عن غيرها من الأمم فى استخدام النظم الحديثة للانتاج الكبير وفى تنظيم الصناعة تنظيما يرمى الى الوصول الى أبعد حدود الاقتصاد والاتقان مجتمعين . وهى تقاسى الآن من جراء تأخرها هذا أوخم العواقب كما تقاسى عناد كثيرين من أصحاب الأعمال فيها وتمسكهم بالقديم الرث وتَشَدُّدهم فى الاحتفاظ بكل ما كان صالحاً أيام آبائهم ، وتقاسى أيضاً عاقبة عناد نقابات عمالها الكاملة النظام والتى تخلق الصعاب إذا ما أريد تغيير الوسائل الصناعية وخشيت أن يصيب العمال من جراء ذلك التغيير عطل مؤقت ، وتتمسك أشد التمسك بالقيود والاجراءات التى كانت تسير عليها فى سنى الرخاء السابقة للحرب . كذلك لم يبق لبريطانيا ما كان لها من تفوق فى امتلاك مصادر القوى الصناعية لأن فحمها الآن يوجد على عمق أكبر من عمق الفحم الجديد الذى يستخرج من الولايات المتحدة وغيرها من البلاد ، وقد أبطأت فى استخدام أنجع وسائل الانتاج الكبير فى صناعة الفحم وفى اتباع الطرق الآلية لتقليل نفقات الانتاج . وزيادة على ذلك فان مصادر أخرى للقوة لا تملكها بريطانيا أخذت تحل محل الفحم فى كثير من الصناعات ، فمنها القوى المائية التى لا تستطيع بريطانيا أن تنافس فيها البلاد ذات المجارى الكثيرة المتدفقة من رؤوس الجبال ، ومنها النفط الذى لا تكاد تنتج أرضها منه شيئاً والذى لا بد لها أن تستورده وتنفق على استيراده أموالاً طائلة فى كل عام

ويلوح أيضاً أن ما كان يتصف به أهلها من نشاط وقوة مغامرة بدأ يضمحل وان كان هذا مما لا يستطاع اثباته بالاحصاءات . وسبب هذا الاضمحلال أن بريطانيا خاضت غمار الحرب معتمدة على نظام التطوع الاختيارى ؛ ومعنى ذلك أن خير أبنائها وأشدهم حماسة ذهبوا الى ميدان القتال أولاً وهلكوا زرافات . وقد يكون هذا هو السبب فيما نشاهده بعد الحرب من نقص مخيف فى رجالها المُبرِّزِين الذين يتقدمون طائعين لتحمل التبعات ومواجهة الصعاب وهو أمر مشاهد فى كل ناحية من نواحى الحياة : فى السياسة وفى الأعمال الصناعية والتجارية وفى الفنون ، فكلها لم يظهر فيها بعد الحرب رجال أوتوا حظاً عظيما من الشهرة ، ولا يزال الأفذاذ النابهون من الانجليز ، رجال ما قبل الحرب . كذلك نرى فى طوائف كثيرة من الشعوب البريطانية ميلاً متزايداً للاتكال على الحكومة فى اصلاح عيوبها ؛ وقد يكون منشأ هذا الميل لدى عامة الشعب ما وضعته الحكومة فى السنين الأخيرة من نظم محكمة لتخفيف الضنك أو ما سلكته من الطرق فى تنظيم هذه النظم ؛ لكننا نشاهد هذه العادة نفسها : عادة الاتكال على الحكومة بين مديرى الصناعة الذين يتطلعون الى الحكومة لتقيهم شر المنافسة الأجنبية مع أن آباءهم كانوا يرون واجباً عليهم أن يقفوا أمام منافسيهم وجهاً لوجه لا يميزون منهم فى شىء (شأنهم فى ذلك شأن سائر أفراد الأمة) فاذا لم يقووا على المنافسة سقطوا صرعى فى الميدان . ويلاحظ البعض أن أخلاق البريطانيين بعد الحرب طرأ عليها تغير خطير ، فقد أخذ يسرى فى نفوسهم روح الجمود والاستسلام والرغبة فى الفرار من الصعاب والتخلص

منها بالتجائهم الى الألعاب وغيرها من ضروب الراحة والتسلية . قد تكون هذه الميول عارضة لا تلبث أن تزول ، ولكنها مادامت موجودة خطر ينذر بشر مستطير . وإذا صدق هذا الظن وكانت هذه الميول موجودة حقاً فربما كانت رد فعل طبيعي للمجهود الذي قاساه الشعب في الحرب وزوال ما كان يغشى بصائره من الغرور

كذلك كانت الحرب سببا فيما اعترى قوة بريطانيا المالية بعدها من ضعف مخيف . ذلك أن البلاد حملت من الديون والضرائب مالم تتحمله أمة أخرى ، لأنها أمدت حلفاءها بجانب عظيم من نفقات الحرب ؛ ولم يكد يردُّ اليها هؤلاء الحلفاء شيئاً من هـذه الأموال ، ولن يردوا اليها شيئاً في المستقبل إلا ما استدانته باسم هؤلاء الحلفاء من الولايات المتحدة الأمريكية . وبينما تعمل الدول الأخرى لتخفيف العبء عن كاهل أهلها تزيد بريطانيا أعباءها بالتدريج ؛ وتجيز كلتا الهيئتين السياسيتين القويتين في بريطانيا زيادة الضرائب وتراها أمراً مرغوباً فيه لذاته ،فأحداها تريد زيادة الضرائب المقررة ، والأخرى ترغب في زيادة الضرائب غير المقررة من غير نظر الى ما سوف تُنْفَق فيه الأموال . وهذه الأعباء الثقيلة تشل قدرة بريطانيا على الانتاج من وجوه عدة ، وتضعف ملكة الادخار والاستثمار لدى كثير من طبقات الشعب ضعفاً خطيرا . ويزيد من هذا الخطر تمسك الشعب بمستوى معيشته الراقي دون أن يراعي ضعف الوسائل التي تمكنه من ذلك ، وهذا أمر مشاهد لدى جميع الطبقات . ولهذه الأسباب لم تعد بريطانيا كما كانت من قبل الأمة العظيمة الدائنة لأمم العالم والتي تقدم ما يلزم من المال لاستثمار موارده الطبيعية ، وأخذت الولايات المتحدة تحل محلها ، وتستحوذ على ما لهذا المركز من قوة ونفوذ . كذلك لم يستطع نظامها المصرفي برغم ما اتصف به من ثبات أن يجاري مطالب العهد الذي أعقب الحرب وما فيه من صعاب ، فلقد أصبح المسيطرَ على هذا النظام عدد قليل من المؤسسات المالية الضخمة أفقدته كثيرا مما كان له من مرونة ، وطالما استخدمت هذه المؤسسات ما لها من سلطان على وسائل الائتمان المالي في إضعاف المشروعات المالية واعاقتها بدل أن تعينها وتشجعها

(يتبع) محمد بدران

أعلام الاسلام

٣ – سَعِيد بن المُسَيِّب

للأستاذ ناجي الطنطاوي

تزويجه ابنته

قال يحيى بن سعيد : كان لسعيد بن المسيب جليس يقال له عبد الله بن أبي وداعة ، فأبطأ عنه أياماً ، فسأل عنه فقيل له : إن سعيد بن المسيب سأل عنك ، فأتاه وسلم عليه ، ثم جلس . فقال له سعيد : أين كانت غيبتك يا أبا محمد ؟ فقال : إن أهلي كانت مريضة فمرضتها ثم ماتت فدفنتها . فقال يا عبد الله ، أفلا أعلمتنا بمرضها فنعودها ، أو بموتها فنشهد جنازتها ؟ ثم عزّاه عنها ودعا له ولها ، ثم قال : يا عبد الله ، تزوج ولا تلق الله وأنت عزب [١] . فقال : يرحمك الله ! ومن يزوجني ؟ فوالله ما أملك غير أربعة دراهم [٢] . فقال : سبحان الله ! أو ليس في أربعة دراهم ما يستعف به الرجل المسلم ؟ يا عبد الله ! أنا أزوجك ابنتي إن رضيت . قال عبد الله : فسكت استحياء منه واعظاماً لمكانه . فقال مالك سكت ؟ ألملك سخطت ما عرضنا عليك ؟ قال : يرحمك الله ! وأين المذهب عنك ؟ فوالله إني لأعلم أنك لو شئت زوجتها بأربعة آلاف وأربعة آلاف [٣] ، قال : قم يا عبد الله فادع لي نفرا من الأنصار ، فقمت فدعوت له حلقة من بعض حلق الأنصار ، فأشهدهم على النكاح بأربعة دراهم ، ثم انقلبنا ، فلما صلينا العشاء الآخرة وصرت الى منزلي [٤] ،

---

(١) وروى أنه قال : هل استحدثت امرأة

(٢) وفي رواية . وما أملك إلا درهمين ، أو قال : ثلاثة

(٣) كانت بنت سعيد قد خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد ابن عبد الملك حين ولاه ، فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة صوت في يوم بارد ؛ وصب عليه جرة ماء ، وألبسه جبة صوف

(٤) وفي رواية : فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح ؛ وجعلت أتفكر ممن آخذ ، وممن أستدين ، فصليت المغرب ، وانصرفت إلى منزلي واسترحت ، وكنت وحدي صائما ، فقدمت عشائي أفطر ، وكان خبزا وزيتاً فإذا بآت يقرع الباب ...

إذا برجل يقرع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : سعيد . فوالله خطر ببالي كل سعيد بالمدينة غير سعيد بن المسيب ؛ وذلك أنه ما رُؤى قط خارجاً من داره إلا إلى جنازة أو الى المسجد . فقلت مَن سعيد ؟ قال : سعيد بن المسيب . فارتعدت فرائصى ، وقلت : لعل الشيخ ندم فجاء يستقيلني ، فخرجت اليه أجر رجلي وفتحت الباب فاذا أنا بشابة ملتفة بساج ، ودواب عليها مذابح ؛ وخادم بيضاء ؛ فسلم على[1] ثم قال لى : ياعبدالله هذه زوجتك . فقلت مستحيياً منه : يرحمك الله ! كنت أحب أن يتأخر ذلك أياماً . فقال لى : لمَه ؟ أولست أخبرتنى أن عندك أربعة دراهم ؟ قلت : هو كما ذكرت ، ولكن كنت أحب أن يتأخر ذلك . قال : إنها إذن عليك لغير ميمونة ، وما كان الله ليسألنى عن عزبتك الليلة وعندى لك أهل . هذه زوجتك ، وهذا متاعكم ، وهذه خادم تخدمكم معها ألف درهم نفقة لكم ، فخذها يا عبد الله أمانة لك ، فوالله انك لتأخذها صوامة قوامة ، عارفة بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتق الله فيها ، ولا يمنعك مكانها منى إن رأيت منها ما تكره أن تحسن أدبها . ثم سلمها إلى ومضى[2] . قال : فوالله ما رأيت امرأة قط أقرأ لكتاب الله تعالى ، ولا أعرف بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أخوف لله عز وجل منها . لقد كانت المسألة المعضلة تعيي الفقهاء فأسألها عنها فأجد عندها منها علماً

وروى[3] أنها لما تزوجت ، وبكر زوجها خارجاً سألته : أين يذهب ؟ فقال لها الى حلقة أبيك سعيد . قالت له : اجلس أعلمك علم سعيد !

(١) وفى رواية : فقلت يا أبا محمد ، لو أرسلت إلى فآتيك . قال : لأنت أحق أن تؤتى . قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك وهذه امرأتك ...

(٢) وفى رواية ؛ فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ، ثم تقدمت إلى القصعة التى فيها الزيت والخبز فوضعتها فى ظل السراج لكى لا تراه ، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران فجاءونى فقالوا : ماشأنك ؟ قلت : ويحكم زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم ، وقد جاء بها على غفلة . فقالوا : سعيد بن المسيب زوجك ؟ قلت نعم ! وها هى ذى فى الدار . قال : فنزلوا هم اليها وبلغ أمى فجاءت وقالت : وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام ، قال : فأقمت ثلاثة أيام ثم دخلت بها فاذا هى من أجمل الناس ، وإذا هى أحفظ الناس لكتاب الله ، وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بحق الزوج

(٣) مجلة الأزهر : المجلد السادس ، الجزء السابع ، صفحة ٤٨٥

نقشف وعبادة

قال ميمون بن مهران : بلغنى أن سعيد بن المسيب عمّر أربعين سنة ، لم يأت المسجد فيجد أهله قد استقبلوه خارجين منه قد قضوا صلاتهم

وقال ابن حرملة : اشتكى سعيد عينه ، فقالوا له : لو خرجت ياأبا محمد إلى العقيق فنظرت إلى الخضرة[1] لوجدت لذلك خفة ، قال : كيف أصنع بشهود العتمة والصبح ؟ !

وقال عمران : قال سعيد : ما أظلنى بيت بالمدينة بعد منزلى ، إلا أنى آتى ابنة لى فأسلم عليها أحياناً ، (قال) : وكان سعيد يكثر الاختلاف إلى السوق

وقال محمد بن سعيد : كان سعيد بن المسيب أيام الحرة[2] فى المسجد لم يبايع ولم يبرح ، وكان يصلى معهم الجمعة ، ويخرج إلى العيد ، وكان الناس يقتتلون وينتهبون وهو فى المسجد لا يبرح الى الليل . قال : فكنت إذا حانت الصلاة أسمع أذاناً يخرج من قبل القبر حتى أمن الناس ، وما رأيت خيراً من الجماعة[3]

وقال ابن حرملة : قلت لبرد مولى ابن المسيب : ما صلاة ابن المسيب ؟ فأما صلاته فقد عرفناها . فقال : والله ما أدرى ، إنه ليصلى صلاة كثيرة ، إلا أنه يقرأ بـ «ص والقرآن ذى الذكر»

وقال عطاء : إن سعيد بن المسيب كان إذا دخل المسجد يوم الجمعة لم يتكلم كلاماً حتى يفرغ من صلاته ، وينصرف الأمام ، ثم يصلى ركعات ، ثم يقبل على جلسائه ويُسأل

وقال عاصم بن العباس : كان سعيد بن المسيب يذكّر ويخوف

وقال : سمعت سعيد بن المسيب يقرأ القرآن بالليل على راحلته فيكثر

(١) لم يبق اليوم من بساتين العقيق وخضرته إلا نخلة واحدة على بئر عروة

(٢) هى أيام يزيد بن معاوية لما انتهب المدينة ، وندب عسكره من أهل الشام لقتال أهلها من الصحابة والتابعين ، وأمر عليهم مسلم بن عقبة المرى فى ذى الحجة سنة ٦٣

(٣) ومثله قول سعيد : لقد رأيتنى ليالى الحرة وما فى المسجد أحد من خلق الله غيرى ، وإن أهل الشام ليدخلون زمراً زمراً يقولون : انظروا إلى هذا الشيخ المجنون ، وما يأتى وقت الصلاة إلا سمعت أذاناً فى القبر ، ثم تقدمت فأقمت فصليت وما فى المسجد أحد غيرى

وقال : سمعت سعيد بن المسيب يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم

وقال عمران : كان فى رمضان يؤتى بالأشربة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فليس أحد يطمع أن يأتى سعيد بن المسيب بشراب فيشربه ، فان أتى من منزله بشراب شربه ، وان لم يؤت من منزله بشىء لم يشرب شيئا حتى ينصرف

وقال عبد الله بن يزيد الهذلى : إنه كان يصوم الدهر ، ويفطر أيام التشريق بالمدينة . وكان يقول لنفسه إذا دخل الليل ، قومى يا مأوى كل شر ، والله لأدعنّك ترجفى رجف البعير ، فكان يصبح وقدماه منتفختان ، فيقول لنفسه : بذا أمرت ولذا خلقت

وكان يقول : ما فاتتنى فريضة فى جماعة منذ أربعين سنة ، وما أذّن المؤذّن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا فى المسجد . وصلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة . وكان يقول : ما فاتتنى تكبيرة الاحرام منذ خمسين سنة

وقال عبد الرحمن بن حرملة : سمعت سعيداً يقول : حججت أربعين حجة

وقال سعيد ما دخل على وقت صلاة إلا وقد أخذت أهبتها ولا دخل على قضاء فرض إلا وأنا إليه مشتاق

وكان يقول وقد أتت عليه أربع وثمانون سنة : ما شىء أخوف عندى من النساء . فقالوا يا أبا محمد ، إن مثلك لا يريد النساء ولا تريده النساء قال : هو ما أقول لكم

هيبته

وقال عبد الرحمن بن حرملة : ما كان انسان يجترئ على سعيد ابن المسيب يسأله عن شىء حتى يستأذنه كما يستأذن الأمير

وقد ذكرنا أن الحرس ، عند دخول الوليد المسجد ، أخرجوا جميع من فى المسجد وبقى سعيد لم يجترئ أحد منهم أن يخرجه

سماع الشعر

قال : ابن أبى ربيعة أشعر فى الغزل ، وابن قيس أكثر أفانين شعر

وقال عاصم : كان يحب أن يسمع الشعر ولا ينشده

وقال الأصمعى : قيل لسعيد بن المسيب : ها هنا قوم نسّاك يعيبون انشاد الشعر قال : نسكوا نسكا أعجمياً

وروى صاحب الأغانى عن ابراهيم بن محمد بن عباس المطلبى أنه قال :

مرّ سعيد بن المسيب فى بعض أزقة مكة فسمع الأخضر الحربى يتغنى فى دار العاص بن وائل :

تضوع مسكا بطن نعمان إذ مشت ... به زينب فى نسوة خفرات

فضرب برجله وقال : هذا والله مما يلذ استماعه ، ثم قال :

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها ... وأبدت بنان الكف للجمرات

وعلت بنان المسك وحفاً مرجلاً ... على مثل بدر لاح فى الظلمات

وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت ... برؤيتها من راح من عرفات

قال : فكانو يروون أن هذا الشعر لسعيد بن المسيب [1]

(البقية فى العدد القادم) ناجى الطنطاوى

(١) وقال صاحب روضة المحبين : لما مر عبيد الله جمع بن مرخية الكلابى أحد شعراء الحجاز بسعيد بن المسيب قال سعيد : هذا من أكذب العرب ، قيل كيف يا أبا محمد ؟ قال أليس الذى يقول :

سألت سعيد بن المسيب مفتى الـ ... مدينة هل فى حب ظمياء من وزر

فقال سعيد بن المسيب : إنما ... تلام على ما تستطيع من الأمر

كذب والله : ما سألنى عن شىء من هذا قط ، ولا أفتيته

قصــــة المـكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

الحصانة واليهودى الأفاق

— ٤ —

وصل الفائت

اكتشف متشنيكوف فى بعض الأحياء المائية الصغيرة خلايا تدور فى أجسامها فاذا هو حقن فى هذه الأحياء صبغة تجمعت تلك الخلايا فأكلت الصبغة . وإذا شك الحيوان بشوكة نهضت تلك الخلايا اليها تدفع السوء الداخل . وأدخل فى أجسام تلك الأحياء خمائر قاتلة ، فنهضت اليها الخلايا فالتهمتها . عندئذ فسر الحصانة بأنها حرب بين خلايا طليقة فى الأجسام كمثل كرات الدم البيضاء وبين المكروبات الداخلة اليها . وأسمى هذه الخلايا لخوسات

اتجه متشنيكوف بعد ذلك يبحث فى هذه الحروب هل هى عينها التى تقع فى الضفادع والأرانب . وفى عام ١٨٨٦ وردت أخبار بستور من وراء الحدود تنقل حديث شفائه الروسيين الستة عشر من عضة الكلب المسعور بعد ضياع الرجاء فيهم [١] ، فاهتز أهل أودسا الأخيار لهذه الأخبار ، ونهضوا ، ونهض معهم أهل الريف الذى حولهم حتى حدود المقاطعة ، نهضوا جميعاً يشكرون الله على ما حبا ، ويهتفون لبستور على ما أتى ، وجمعوا كيساً ضخماً من الروبلات [٢] لاقامة معمل يُنشأ توّا فى أودسّا . وعيّنوا متشنيكوف مديراً علمياً لهذا المعهد الجديد . ولمَ لا ؟ أليس هو الرجل الذى درس فى كل جامعات أوربا ؟ أليس هو العالم العلاّمة الذى خطب أطباء أودسا فأفاض عليهم من منابع علمه تلك الافاضة الكبرى ؟ أليس هو الذى شرح لهم ما خفى من أمر فَجُوسات [٣] الدم التى تأكل المكروب أكلا لمّا ؟ ونسوا حيناً أنه يهودىّ !

وكنت إذا تسمّعت الى الناس وجدتهم يقولون : « من بدرينا : فلعل فى معهدنا الجديد يستطيع أستاذنا متشنيكوف أن يدرّب هذه الفجوسات الصغيرة على التهام كل أنواع المكروبات ! »

وقَبِل متشنيكوف هذا المنصب الجديد ، ولكنه احتاط فقال لرجال السلطة قول الحذِر البصير : « أنا رجل اكبر همّه فى النظريّات ، وأبحاثى كثيرة لا يكاد يتسع لها وقتى ، وإذن فمن الواجب أن يتدرّب غيرى على صناعة الألقحة vaccines وأن يقوم بالجزء العمليّ من واجبات المعمل »

ولم يكن فى أودّسا فى ذلك الوقت رجل واحد يعرف عن صيادة المكروب شيئا . لذلك أرسلوا صديق متشنيكوف الدكتور جماليّه Gamaléia بسرعة الى باريس الى معهد بستور . فلما حل فيه صَحِب بستورَ وصحب رو فى عملهما وتعلّم منهما الشيء الكثير ، ولكن هذا الكثير لم يؤذَن له ببلوغ الكفاية ، فان أهل أودسّا قل صبرهم ، وزاد قلقهم ، واشتدت رغبتهم فى الخلاص من الأمراض فصاحوا يطلبون الألقحة ، فاضطُرت السلطة تحت هذا الضغط العام الى استدعاء الدكتور جماليه ، ولم يكن طال مقامه فى باريس . فلما عاد بدأ يصنع لِقاحا لداء الجمرة تخليصاً لشياه الريف ، ولقاحا لداء الكَلَب دفعا له عن أهل المدينة . عندئذ صاح متشنيكوف فى الناس : « والآن كل شيء لابد سائر كما نهوى » وهو يجهل كل الجهل تلك الألاعيب الثقيلة التى تلعبها المكروبات أحيانا على ممارسيها . ثم اعتكف الى نظرياته يبحث فى الأرانب والكلاب والقردة ليرى أفى استطاعة فجوساتها أن تبتلع مكروب السل والحمرة والحمّى الراجعة . وانطلقت النشرات العلمية تخرج من معمله فى تلاحق سريع ، وأخذ بُحّاث أوروبا يتأثرون بكشوفات ذلك الرجل العبقرى ببلاد الروس السفلى . ولكنه لم يلبث أن بدت له المصاعب فى نظريته ، فالكلاب والأرانب والقردة ليست شفّافة كبراغيث الماء

ثم أخذ الحال يسوء فى المعمل ، فأخذ الخصام يدب بين رجاله وعلى رأسهم الدكتور جماليّه ، فاختلطت الألقحة وتلوّثت ، وانكبت على الأرض من أنابيبها . وجاء أطباء البلد يتسلّلون وفى قلوبهم بالطبع حفيظة وغيرة من هذا العلاج الجديد ، وأخذوا يسألون الأسئلة المحرجة ليشيعوا شاعة السوء فى الناس : « من هذا الأستاذ متشنيكوف ؟ ومن أين جاءته الأستاذية وهو

(١) أنظر ما سبق من ترجمة بستور

(٢) الروبلة هى الوحدة الفضية الروسية ، وهى من الفضة وتساوى نحوا من نصف ريال مصرى

(٣) كراته البيضاء

لا يحمل شهادة طبيب ؟ إنه ليس إلا رجل طبيعى Naturalist ، وصيّاد جراثيم ، فمن أين جاءته معرفة الأمراض والوقاية منها ؟ »

وصاح الناس : « أين العلاج المزعوم ؟ ! » وصاح المزارعون الذين نزلوا بأيديهم عميقاً فى أكياسهم طَلَبَ النقود الكثيرة يبذلونها عن طَواعِية : « أين الحصانة الموعودة ؟ » . واضطر متشنيكوف الى الخروج من محرابه ساعة ، والبروز من ضباب نظريته وفجوساته حينا ، ليصرف الناس عن شكواهم ، وكانت الفئران عاثت فى الحقول فأكلت المحاصيل ، فبذر فى تلك الحقول بشلة كوليرا الدجاج لتقضى على الفئران . ولكن تقريرا خطيرا كاذبا كُتِب من نار ظهر فى الجريدة اليومية يتهم متشنيكوف أنه انما بذر الموت والوبال فى الحقول ، لأن كوليرا الدجاج تستطيع أن تتحول الى كوليرا الانسان ... !

فضجر متشنيكوف وشكا فى خفوت : « ما شأنى بهذا الصخب ! أنا رجل باحث وأبحاثى متكاثرة علىّ ، وأنا رجل ذو نظرية ، ونظريتى فى حاجة الى كثير من الهدوء لتشتد وتنمو .... » وسأل أهلَ السلطة إجازة فأعطوه إياها ، فحزم حقيبته وذهب الى مؤتمر فينّا ليخبر كل من يجد هناك بأمر فجوساته ، وليجد لنفسه ركنا هادئا يستقر فيه ويعمل بعيدا عن الضوضاء ، فلا يكون مضطرا لاثبات صحة نظرياته لسلطات قليلة الصبر تطلب خلق العلاجات ، ولا يكون مدفوعا لارواء شهوة الفلاحين وتعويضهم عن كل قرش دفعوه بتعجّل الأدوية وابتسار الحصانات . ومن فينا ذهب الى باريس ، وفى باريس انتظره نجاح باهر لم ينتظره . فهناك تعرّف الى بستور المظيم ، فما إن تم التعارف حتى انفجر يحدثه عن فجوسته ونظريته فيها ، وَوَصَفَ له المعارك التى تقع بين الفجوسات والمكروبات وصفا بديعا سِنَماويّا جذّابا ، وتأمل شيخ المكروب صاحبنَا بعين مُتعبَة طميسة أخذت تبرق للذى تسمع حينا بعد حين ، فلما انتهى الحديث ، قال بستور : « أنا فى صفّك يا أستاذ متشنيكوف ، ذلك لأنه كثيرا ما استوقفتنى معارك كالتى تصف كنت ألحظها بين شتى الأحياء المجهرية الدنيئة ، وإنى لأحسبك سائرا على هدى فى الطريق الذى أنت فيه »

لم يكن بين المعارك التى ذكرها بستور وبين تلك التى يصفها متشنيكوف صلة أصلاً ، ومع هذا فقد امتلأ قلب متشنيكوف مما سمع سروراً ، وامتلأت نفسه زهواً . وكيف لا ، وهذا أبو المكروبات الشيخ الأجل استمع له وفهمه ثم آمن به ... وكان أبو ألجا قد مات وترك لهم دخلاً متواضعاً . وتراءى لمتشنيكوف أن باريس مهد طيب لنظرية الفجوسات إذا هى آزرها معهد ذو جاه كمعهد بستور ، فسأل بستور : « سيدى ، أود لو يكون لى مكان فى معهدكم ، وأنا بهذا انما أبنى العمل فى معملكم على أية صورة وبغير أجر » . وأدرك بستور أنه لابد من استبقاء حماسة الجماهير لصيادة المكروب ، وأن رجل الشارع لا يفهم من العلم غير تلك الأحداث المهِيجة والدرامات المثيرة ، فأجاب متشنيكوف عن سؤاله : « أنا لا أقبلك تعمل فى معملى فحسب ، بل سيكون لك فيه معمل كامل موقوف عليك » . وسافر متشنيكوف الى أودسا ، وفى طريقه التقى بكوخ فجَبَهَه كوخ واستغلظ له ، وأخذ يفكر ويخاير نفسه بين قبول العمل فى المعهد الفرنسى والتخلص من قوم لا يفتأون يصرخون يستعجلون النتائج ، وبين البقاء فى المعمل الروسى والابقاء على الرتب الطيب الذى يتقاضاه منه . . . وقرر بعد التردد أن يبقى حيث هو من أودسا وواصل عمله فيها ، ولكن حدث بعد قليل حَدَثٌ لم يترك لنفسه خياراً . ذلك أن الفلاحين زادت شكواهم من القطعان التى تموت بالجمرة وعلت أصواتهم فى طلب الألقحة ، فأمر متشنيكوف الدكتور جماليه أن يحقن الشياه بلقاح الجمرة جملة واحدة . وذهب متشنيكوف وزوجته ألجا الى بيتهم الريفىّ الصيفىّ ، وذات يوم جاءتهم فيه الرسالة التلغرافية الآتية من الدكتور جماليه :

قَتَل لقاح الجمرة آلافاً من الشياه

فلم تمض أشهر قليلة حتى كان متشنيكوف استقر فى معهد بستور الجديد فى باريس ، والى جانبه ألجا — تلك الزوجة الطيبة — التى كانت لا تقصّر فى عمل أى شىء لزوجها لأنه عبقرى ولأنه عطوف عليها — قامت الى جانبه تمسك له الحيوان وتغسل له الزجاجات ، وهى لو تُركت لنفسها لفضّلت تصوير الزيت أو نحاتة الحجر — فنّين جميلين أقرب لمتعتها وأملأ لشهوتها. ومن تلك الساعة مشى الزوجان ، يداً فى يد ، فى طريق النصر من غلبة الى غلبة ، وقد انتثرت على جانبيه من أخطائهما ورود زادت طريقهما روعة وجمالاً

(يتبع) أحمد زكى

مقاييس الشعر

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

ذكر ابن سلام أنه شهد خلفاً وقد قيل له من أشعر الناس ؟ فقال : ما ينتهى هذا الى واحد يجتمع عليه ، كما لا يجتمع على أشجع الناس ، وأخطب الناس ، وأجمل الناس

وإذا أردنا أن نبحث عن السبب فى تشعب الخلاف فى ذلك إلى هذا الحد لم نجده يرجع إلا الى أن علماء الأدب لم يهتدوا فى ذلك الى مقياس عام للشعر يمكن به وضع كل شاعر فى مرتبته التى يستحقها بموجب هذا القياس العام ، ويرجع إليه علماء الأدب فتتفق عليه كلمتهم فى ترتيب طبقات الشعراء ، أو يقرب الخلاف بينهم فى هذا ولا يتشعب ذلك التشعب . وإن عدم اهتدائهم إلى ذلك القياس العام للشعر ليجعل خلافهم فى ترتيب طبقات الشعراء على استفحاله بينهم مما يجدر بالباحث عدم الاعتداد به ، لأنه يكاد يكون خلافاً لفظياً لا حقيقياً ، إذ لكل فريق وجهة نظر فيمن يقدمونه من الشعراء خلاف وجهة نظر الآخرين كما يقدم أهل البصرة امرأ القيس لسبقه الى ابتداع أشياء استحسنها العرب واتبعه فيها الشعراء ، من استيقاف الصحب وبكاء الأطلال ، وتشبيه النساء بالظباء وغير ذلك . وكما يقدم أهل الحجاز زهيراً والنابغة ، لأن زهيراً كان أحكم الشعراء شعراً ، وأبعدهم من السخف ، وأجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ ، وأنه كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتبع حوشيه ، وأنه مع بلوغه ما بلغ فى المدح لم يمدح أحداً بغير ما هو فيه . ولأن النابغة كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً ، وكأن شعره منثور لا تكلف فيه . وكما يقدم أهل الكوفة الأعشى لأنه كان أكثرهم عروضاً ، وأذهبهم فى الشعر فنوناً ، وأكثرهم طويلة جيدة

وقد قسم علماء الأدب الشعراء تقسيما يمكن أن يعد من المقاييس العامة للشعر ، ولكنه لا يفيدنا فى ترتيب طبقات الشعراء الفائدة المطلوبة . فقالوا إن الشعراء أربعة أقسام : شاعر فحل وهو الذى يجيد الشعر ولا يروى لغيره ؛ وشاعر خِنذِيذٌ وهو الذى يجيد الشعر ويروى الجيد من شعر غيره ، فهو شاعر وعالم بالشعر . وقد يقال الفحل لما يشمل هذين القسمين فيكون أعم من الخنذيذ ؛ وشاعر وسط وهو الذى لا يبلغ رتبة الفحول ولا ينحط شعره الى الردىء ؛ وشُعْرورٌ أو شوَيْعِر وهو الردىء

وقد وضعنا للشعر مقياساً عاماً يتفاضل فيه الشعر باعتبار نبل أغراضه وشرف مقاصده ، قبل أن يتفاضل بجمال ألفاظه ومعانيه . ولقد وازنا بهذا المقياس بين امرىء القيس وعدى بن زيد فى كتابنا (زعامة الشعر الجاهلى) ، وبين أبى العتاهية وبشار وأبى نواس فيما كتبناه فى مجلة (الرسالة) الغراء عن أبى العتاهية ، فخرجنا من هذا بتفضيل عدى بن زيد على امرىء القيس ، وتفضيل أبى العتاهية على بشار وأبى نواس ، وهو أمر لا يمكن أن يخالفنا فيه أحد يوافقنا على صحة هذا القياس الذى وضعناه للموازنة بين الشعراء ؛ وإنها لميزة كبيرة له يظهر فضلها إذا نظرنا فيما روى فى ذلك عن خلفٍ فيما سبق

ولكن جمهرة أدبائنا لا يوافقوننا على هذا القياس الجديد ، وينكرونه علينا أشد الانكار . وهم معذورون فى هذا الانكار أشد العذر ، لأن دراسة الأدب قد سارت من نشأتها الى الآن على خلاف رأينا فى هذا القياس ، حتى إن الأصمعى رحمه الله وسامحه كان يقول : إن الشعر لا يقوى إلا فى باب الشر ، فإذا دخل فى الخير لان . وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرىء القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحُمرِ والخيل والحروب والافتخار وغير ذلك

وقد ذكر قدامة بن جعفر فى كتابه (نقد الشعر) رأيا فى ذلك أخف من رأى الأصمعى ، فهو يرى أن الذى يلزم الشاعر فقط أنه إذا شعَرَ فى أى معنى كان من الرفعة والضَّعة ، والرَّفث والنزاهة ، والبَذَخ والقناعة ، والمدح والذم وغير ذلك من المعانى الحميدة أو الذميمة التى يمليها على الشاعر وجدانه ، ويوحى اليه شيطانه ، أن يتوخى البلوغ من التجويد فى ذلك الى الغاية المطلوبة

وقد حملني ذلك النفور من رأيي في قياس الشعر بأغراضه ومقاصده قبل ألفاظه ومعانيه على تقييد كل ما أجده يؤيده في مطالعاتي، فوصلت في ذلك الى طائفة صالحة من أقوال الحكماء والشعراء، ولم أقصد من مقالي هذا إلا تقييدها على صفحات مجلة (الرسالة) الغراء

قال الأحوص:

وما الشعر إلا حكمةٌ من مؤلِّفٍ ... لمنطق حقٍّ أو لمنطق باطل

وقال فكتور هوجو: الشاعر مصلح عظيم، ونبي كريم، أرسله الله لقومه هادياً الى مواطن الحرية والجمال والحب

وقال حسان بن ثابت:

وإن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقالُ إذا أنشدتَهُ صدقا

وإنما الشعر لُبُّ المرء يعرضه ... على البريّة إن كيْساً وإن حُمقا

وقال معاوية بن أبي سفيان لعبد الرحمن بن الحكم: إنك قد لهجت بالشعر، فإياك والتشبيب بالنساء، فتعرّ شريفة، والهجاءَ فتهجن كريماً، أو تثير لئيما. وإياك والمدح فهو كسب الأنذال، ولكن افخر بمآثر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك، وتؤدب به غيرك، وإن لم تجد من المدح بُدًّا فكن كالملك المادي حين مدح فجمع في المدح بين نفسه وبين الممدوح فقال:

أحللتُ رَحْلي في بني ثُعَل ... إن الكريم للكريم مَحَلّ (؟)

وقال النابغة الشيباني:

وإني حاكمٌ في الشعر حكماً ... إذا ذُكرَ القوافي والنَّشيدُ

فخير الشعر أكرمه رجالاً ... وَشرُّ الشعر ما نطق العبيد

وقال أيضاً:

من الشعراء أكفاءٌ فحولٌ ... وَفرّاثون ان نطقوا أساءُوا

فهل شعران شِعْرٌ غِناً وحِكمٌ ... وشعرٌ لا نصيح به سواءُ

وقال أبو نواس:

الشعر ديوانُ العربْ ... أبداً وعنوانُ الأدبْ

لم أعْدُ فيه مفاخري ... ومديح آبائي النُّجُبْ

ومقطَّعاتٍ رُبَّما ... حلَّيت منهنَّ الكتب

لا في المديح ولا الهجا ... ء ولا المجونِ ولا اللعبْ

ودخل العجاج على عبد الملك بن مروان فقال له: بلغني أنك لا تحسن الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين من قدر على تشييد الأبنية، أمكنه خراب الأخبية، قال: وما يمنعك من ذلك؟ قال إن لنا عزاً يمنعنا من أن نُظلَم، وحلماً يمنعنا من أن نَظلِم. قال لكلماتك أحسن من شعرك. فما العز الذي يمنعك أن تُظلَم؟ قال الأدب المستطرف، والطبع التالد. قال لقد أصبحت حكيما، قال وما يمنعني من ذلك وأنا نجي أمير المؤمنين؟

وقال أبو العلاء المعري:

مُلَّ المُقَامُ فكم أعاشر أمةً ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها

فِرَقاً شعرتُ بأنها لا تقتني ... أدباً وأن شرارها شعراؤها

وقال الفارابي: إن أكثر شعر العرب في النهم والكريه، وذاك أن النوع الذي يسمونه النسيب إنما هو حث على الفسوق ولذلك ينبغي أن يتجنبه الولدان، ويؤدبوا من أشعارهم بما يحث فيه على الشجاعة والكرم، فانه ليس تحث العرب في أشعارها على شيء من الفضائل سوى هاتين الفضيلتين، وإنما تتكلم فيهما على طريق الفخر، لأن أكثر شعرهم من شعر المطابقة الذي يصفون به الجمادات كثيراً والحيوان والنبات. وأما اليونانيون فلم يكونوا يقولون أكثر ذلك شعراً إلا وهو موجه نحو الفضيلة والكف عن الرذيلة، وما يفيد أدباً من الآداب، أو معرفة من المعارف

وقال محمود سامي البارودي:

الشعر زَيْنُ المرء ما لم يكن ... وسيلة للمدح والذّامِ

قد طالما عَزَّ به معشرٌ ... ورُبَّما أزْرَى بأقوام

فاجعله فيما شئت من حكمة ... أو عظة أو حسب نام

واهْتِفْ به من قبل تسريحه ... فالسهم منسوب الى الرامي

ولا شك أن من ينظر في هذه الأقوال والأشعار لهؤلاء الحكماء والشعراء يجدها تتفق تمام الاتفاق مع ذلك القياس الذي وضعناه للشعر ليصلح به أمره، ويحسن في الناس أثره؟

عبد المتعال الصعيدي

نُجح وإخفاق

للأستاذ فخرى أبو السعود

نَلْ ما تُريدُ من الأيام مقتدرا   وطُفْ بموكبها العجّاج منتصرا
وسِرْ حياتَكَ مِن نصرٍ إلى ظفرٍ   وقَضٍّ فى غزْوِ غاياتِ العُلى العُمُرا
وأزددْ بنفسك إيمانا إذا وَطَرٌ   شآكَ لا تَلْحَ إنسانا ولا قدَرا
واعلمْ بأنك ترْقى اللجَّ معتليا   إذاهوَى بك بعضُ اللّجّ منحدرا
كُنْ — إذْ علمتَ طباعَ الدهر كيف جرَتْ   وقد علمتَ طباع الخَلْقِ — مُعْتَبِرا
كم لُمْتُ نفسى على ما فاتَ من أرَبِ   ولم أَلُمْ قدَراً يوما ولا بَشَرا
لو كنتُ أبصر بالمسعى خَلصتُ إلى   مُناىَ ما أُبْتُ مِن مَسعاىَ مُنكسرا
الدهرُ نِعمَ المُرَبِّى بَثَّ حكمتَهُ   فى كلِّ ماناب من أحداثِه وعرا
أ كلما لقَّن الإنسانَ تجربةً   أنحى عليه بذَمٍّ؟ لودرَى شَكرا
ما لأئم الدهر إلا كالصبى إذا   مَشى إليه المُربى بالعصا جأَرا
من علّمته رزايا الدهر موعظةً   فانه قد جَنى أضعافَ ما خَسِرا
إنى ـ وقد صنتُ نفسى أن يؤدِّبَها   سوايَ يُلقى إليها الوعظَ والنُّذُرا ـ
أُمسى عليها رقيباً ساهراً يقظاً   عمرى وأُضحِى حسيباً مغلظا عسرا
النُّجح يعرفنى إن نلت غايته   لم أُلْف لا قانعا جهلاً ولا أشِرا
والرُّزء يعهدنى : إن جل موقعُه   ألوذُ بالعزم والايمان مصطبرا
صحبتُ دهرى وصاحبتُ الأنام على   عِلاَّتِهِمْ ولكم أغضى مَنِ اختبرا
كم أوْلعتْ بِىَ شرِّيرا طوِيَّتُهُ   وحدثته بفعل السوء فابتدَرا
كان المُسىء فلم أحفل إساءته   وقد غفرتُ ولم يحلُم ولا غفرا
مَن ليس تقصر دون الأُفق هِمَّته   ولا يُطارح إلا الأنجمَ السَّمَرا
فكم يبيتُ عن الأضغانِ فى شغل   وكم يمر بأهل الضغن محتقرا

فخرى أبو السعود

هرم خوفو

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

يا موجة للدهر لم تُهْزَمِ   تعلو عُلُوَّ الجبل الأعظم
وما رأينا قبلها موجة   تعلو فلا تحدر للمحطم
ما الناس والآثار من بَعْدِهِم   إلا كموج إن علا يُهْزَمِ
موج لبحر ماله ساحل   إلا الردى فى لحده المظلم
كم عند شط الموت شِلْوِ رَدى   يقذفه الدهر إلى ضيغم
هل أنت شِلْوٌ لزمان مضى   رفاته الآثار لم تُرْدَمِ
لم يبق من عمران من قد مضوا   إلا بقايا الجلد والأعْظُمِ
كأنما يُذْخَرُ من مجدهم   ما يذْخَر النمل من المَطعم
كيف نُرَجِّى الدهر ذا عفة   إن ذاق طعم اللحم لم يقرم (١)
لا يسمع الدهرَ سوى مُنْصِتٍ   بالروح إن يُصْغِ له يبكم
همهمة يطلقها عارم   إن يمضغ المودى به يبغم
هل خاف هذا الدهر صرف الردى   فشاد صَرْحاً منك لم يُثْلَمِ
لا يجرؤ الموت على بيته   فى هرم كالجبل الأدهم
أم شادك العقل لكيما يرى   من فوقك الأقدار لم تهجم
بعيدة لم تَبْدُ أشخاصها   تهفو لنا فى يومها الأيومِ
كى يؤْذِنَ الناس بإقبالها   من قبل أن تفجأ بالمَقْدَمِ
إن أرزم الرعد على شاهق   ففوقك الأيام كالمرزم
أو كللت هامَته ديمة   وطفاء مثل المِجْسَدِ المسهم
فوقك أرواح عصور خلت   كديمة سوداء لم تحسمِ
هدت يدُ الدهر مشيدَ البنى   وهو إذا أمَّكَ كالأجذم
كم أنزل الدهر شآبيبه   على جبين منك لم يهرم
كالمزن فوق الزهر يحيا به   زهر الرُّبى من غيثه المُرْهِمِ
كأنما روح زمان مضى   معشش فوقك كالقشعم
يا معبداً يُعْبَد فيه الحجا   إلى الحجا فى صنعه ينتمى
أجلُّ ما تعبد فيه النهى   سليلها فى صنعه المحكم
يا عَلَمَ الدنيا الذى قد غدا   عجيبة الغائر والمُتْهِمِ

(١) فى هذا البيت والأبيات التى بعده تشبيه للدهر بحيوان يضريه أكله الناس

علت بك الأرض كمن قد علا ... برأسه الكبر فلم يُهضم
رفعت رأساً منك ماطاله ... رأس البناء الشامخ الأقوم
كأنما كل البنى سُجَّدٌ ... من هيبة للملك الأعظم
يا ملكا ما انحلَّ سلطانه ... قد هُدِمَ الماضي ولم يُهدَم
كم دولة قد ضاع سلطانها ... ودولة الأهرام لم تهرم
يا غِيَرَ الأيام في كرّها ... من أبيض نأمن أو أسحم
تباعَدِي إن شئت أو فاهجمي ... على شبيه البطل المُعْلَمِ
هيهات لم يبدُ له مَقْتَلٌ ... قد أخطأ الرامي فأشْوَى الرّمي
كم خال فيك الناس سرا طوا ... ه الدهر لم يُكشَفْ ولم يُعلم
خالوا الأُولَى شادوك قد أودعوا ... فيك رموز المطلب الأكرم
ما أودعوا إلا كنوزاً غدت ... نهبة كف الصائل المجرم
وكل ما لم يَبْدُ كُنهٌ له ... يخالُ كنز الحق والمغنم
والمرء يبغي الحق في خدره ... ولو بدا في أعين الأنجم
ورمه خبأها كاهنٌ ... لفاتكِ الآراء والمخذم
رمة رب رائع عزمه ... قد أُخرجَت من بعدُ للمرجم
جلال روح منه ذي همة ... مجسم في صنعه المحكم
لا تحسبنّ الناس لم يُغنهم ... غير منال البُرْد والمطعم
فالنفس تبغي أن ترى كُنْهَهَا ... مُجسَّماً في صنعها الأعظم
لم يُصلح الناسَ لِذي أمرهم ... غيرُ شفيع السيف والدرهم
أظلمهم من ساغ طعم الأذى ... ليس الذي يَظلِمُ بالأظلَمِ
كل ضعيف خيره علة ... من ذا الذي صح فلم يعرم

آية الصبح

بقلم الشاعر عثمان حلمي

غرّد العصفورُ للصبح فهيا ... يا حبيبي فتّح الصبح فهيا
آية الصبح تجلّتْ، قمْ بنا ... قبل أن تطوى بضوء الشمس طيّا
إن نور الله في بهجته ... دلنا أن له سراً خفيا
وكأن الكون فيه ملك ... يتغنى نغماً حلواً شجيا
سكبَ الحسن على جبهته ... ماءه فانتعش العالمُ رِيا
كلُّ شيءٍ ضاحكٌ مبتهجٌ ... بعثَ الصبحُ مواتَ الكون حيا
فهنا الريحانُ في أوراقه ... ناشراً من روحه روحاً زكيا
وهنا النرجسُ في جلبابه ... لابساً من حسنه ثوباً بهيا
وهنا الوردُ على أغصانه ... خَجِلاً من حسنه الزاهي حَيِيا
وهنا الطيرُ تُغنّي نغمةً ... فهم الزهر لها معنى خفيا
كلما غرّدَ منها طائرٌ ... خِلتُه كان إلى الطير نبيا
وهنا الأشجارُ في خضرتها ... لبست ثوباً من الحسن زهيا
خَلَعَ الصيفُ عليها بُرْدَه ... وحباها ثمراً حلواً جَنيا
رَضي الله على الدنيا فما ... تبصرُ العينُ من الدنيا دَنيا
كفُّ جبريل عليها نثرتْ ... من رُبَى جنته حسناً نديا
من حياة الخلد أو من حسنه ... ما يعيد الميْت في الأنفس حيا
أو مشى يوسفُ فيها طرباً ... وحبا الجوَّ بها عطراً زكيا
وحبا الأنظارَ من طلعته ... ما يُعيد الحب في النفس فتيا
فإذا ما عبث الحبُّ بها ... جعلته مثلاً منه عليا

يا حبيبي سِرْ بنا في روضةٍ ... نرومها الطرف إن كان صدِيا
والذي صوّر في الكونَ لنا ... يبدي إحسانه حسناً سويا
والذي نمّقَ من قدرته ... كلّ ما ينطقُ بالحق جليا
والذي قلبي ونفسي صُنْعه ... كنتُ منه أولياً أبديا
والذي سواك من نور الضحى ... بعد أن لم تك في ماضيك شيئاً
والذي أرسلني منكَ إلى ... كلّ من يشعرُ للحب نبيا
والذي أكسب نفسي نغماً ... باعثاً للحسن في الناس دويا
والذي أبدعَ في صوتك ما ... يملأ السمع به خمراً شهيا
غنّني شعري وقل في طرب ... غرّدَ العصفورُ للصبح فهيا!
جلّ من أنشاكَ في صورته ... مثلاً في حسنكَ الزاهي عليا
وحباني الحب حتى ما أرى ... غيرَ حي كان حبا عبقريا
جلّ من أرسل منّي شاعراً ... يتغنى فيك بالشعر شجيا
أنت في شعري جميلٌ خالدٌ ... بعد ما يطوى حياتي الدهر طيا
آه لو تفهمه لم تنسني ... أبدَ الدهر ولو كنت نَسِيا
هاك رتّله، ففي ترتيله ... ما يعيد الباكيَ النفس رضيا
فهو مثلُ الصبح، في آيته ... ما يعيد الأمل الحلو قويا
ها هو الصبحُ! فلولا حسنه ... كانت الدنيا جحيما أبديا



قصة مصرية

الأعمـــى ...

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

بقلم محمود البـــدوى

بقى الأعمى فى المسجد بعد أن فرغ المصلون من صلاة العشاء بساعة ، ثم مشى الى جانب المنبر فتناول عصاه وأم الباب ، ولما بلغ عتبته سمع صوت الدلو فى البئر ، فنصب قامته وأرهف سمعه .. لقد جاءت جميلة على عادتها ، ولكنها متأخرة قليلاً هذه الليلة . واستمر واقفاً وسمعه إلى الماء المتقاطر من الدلو كدفعات المطر غب سحاب ورعد ؛ ثم انقطع صوت الماء ، فأدرك أنها ملأت الجرة ، فدفع الباب وخرج ، ومضى تحت جدار المسجد خطوات ... ثم توقف عن سيره وأخذ يفكر ... ثم ارتد إلى حيث كان ، حانياً الخطى كأنما يسوقه سائق ... وعطف على البئر وقلبه شديد الخفقان

« جميلة ... »

« نعم ... »

« أملأت الجرة ؟ »

« أجل ! »

« وذاهبة إلى البيت ؟ »

« أجل ! »

وكانت الجرة على رأسها ، وقد تهيأت للسير ، فاستدارت ووقفت ... ...

ومد عنقه وقال :

« سأروح معك من غرب البلد ... لأن كلاب الشيخ عبد الكريم عادت من العزبة ... وهى تقطع علىّ الطريق »

« هيا ... ... »

ومشيا صامتين والليل ساكن والقرية نائمة ، والظلام مخيم ؛ حتى أحس بأنفاسه خلصت ، فأدرك أنهما خرجا إلى الخلاء . وبعد خطوات سمع حفيف الريح فى عيدان الذرة ، فأيقن أنهما قربا من الحقول ، وسأل وقلبه يرجف :

« أوصلنا بستان الشيخ حسين ؟ »

« قربنا ... ... »

ولم يكن ألف هذه الطريق ، وإن يكن يعرف أن هناك قناة صغيرة تمتد بين البستان وحقل الذرة ، وعليهما أن يعبراها لينحدرا منها إلى جنوب القرية ، ثم إلى حيهما . وكان منذ أن غادر البئر واقعاً تحت تأثير خواطر عاصفة ، اشتعل لها رأسه ، وجاش صدره ؛ فكان يتخلف عنها قليلاً ويجعلها تتقدمه خطوات . فهذه هى المرة الأولى التى ينفرد فيها مع امرأة فى ظلام الليل وسكونه ، على أن تخلفه عنها لم يخفف من حاله ، بل على العكس من ذلك ، كان يفسح المجال لوضوح رغناته

سطَّر الرحمنُ فى صفحته ... نورَه نوراً سماوياً سنيا
وأجاد الله فى صنعته ... لم يدع فى خلقه للنقص شيا
ليتَ شعرى ماعسى جنته ... تلك حيث النفس لا تلقى رديا
طَهُرتْ من نقصنا وابتهجتْ ... من سناهُ كاملاً فيها جليا
ليتنى رضوانُها أو ليتنى ... ملَكٌ فيها يظلُّ الدهر حيا
وأرى شخصك فيها ملَكاً ... نتناجى الحب فى الخلد سويا
نتناجى حُبَّنا عن كثَبٍ ... ويكون الحبُّ حباً أبديا
ونرى الرحمنَ فيها أو نرى ... من يرى الرحمنَ فى الخلد هنيا
فهناك المثلُ الأعلى لمن ... عَرف الأدنى من الدنيا قويا
قم إذن نسعَ إلى الروض سويا ... ياحبيبى ، فتَح الصبح فهيا !
لا يطيب العيش لى منفرداً ... أو أرى وحدى جلال الحسن شيا
لو ملكت الخلد وحدى لم أكن ... لا عن النفس ولا عنه رضيا
نزعت نفسى إلى مؤنسها ... أو حبيب أجتلى منه المحيا

(الاسكندرية) عثمان حلمى

وتركزها وأخذها السبيل عليه ، تمضي وراءها والاضطراب يعصف بقلبه وصدره وكيانه ، حتى وصلا القناة فدفع لها عصاه ، ونزل وراءها في الماء ، وغاصت أقدامهما في الوحل ، وخرج ينفض رجليه في العشب الممتد على حافة الحقل . وأنزلت هي جرتها وانحنت على الماء تغسل رجليها ، ثم انتصبت تصلح ثوبها ، وهو واقف خلفها يفتح رئتيه وصدره لهواء المساء العليل ، ويحاول أن ينحي عن رأسه الخواطر العاصفة التي ألهبت أليافه وهيمنت على كيانه

وواجهته وقالت بصوت ناعم :

« ناولني ... ... »

فمد يده إلى الجرة ... فلمست يدها ، فكأنما لامسه لهب كاو ، فوقف ويده تلاصق يدها

ثم أمسك بيدها ورفعها عن الجرة ، حتى استطاع أن يقبض عليها بقوة ، فمدت وجهها مشدوهة وقالت وصوتها يرتعش :

« ناولني .. ... »

فرفع يده إلى ذراعها وضغط ، وقد أحس بألياف لحمه تلتهب

« ذ ... ناولني ! ... »

فأبقى يده ضاغطة على ذراعها ، وهو واقف يتردد

« ما الذي تريده مني ؟ »

فلم يقل شيئاً . ثم مال عليها وضمها إلى صدره ، وضغط على جسمها فتراخى ، وحملها على ذراعيه بسرعة ، ودخل بها حقل الذرة ... ...

* * *

مشت جميلة إلى بيتها خائرة القوى ، مرضوضة الجسم ، ذاهبة اللب ، وقد اسود في نظرها الوجود واحلولكت الدنيا ... مشت ذاهلة ساهمة لا تحس بشيء مما حولها ، ولا تعرف إلى أين هي ذاهبة ... على أن رجليها كانتا تقودانها ، بحكم العادة ، إلى بيتها . مشت تحملق في الظلام ، وهي والهة مرتاعة ترى بعد كل خطوة شبحاً ، وتتصور عند كل قدم حفرة ... ... لقد فعلتها . . مع من ؟ مع سيد الأعمى ... لقد ساقتها قوة أزلية الى الهاوية ! لقد حملها المقدور الحتم الى الوحل ... لقد جرفها التيار فغاصت في الوحل الى ساقيها

إننا نسير في الطريق مسوقين بقوة أعلى منا وأقوى . قوة جارفة لا نستطيع ردها ، ولا نقوى على دفعها ، تسوقنا في الظلام الى المصير الحتم ... لقد غدت جميلة ، فتاة الريف العفيفة الطاهرة ، المرأة الدنسة القذرة التي غاصت بقدميها في الوحل ... سيظل الوحل عالقاً بها دائما ، وان غسلت رجليها صباح كل يوم ومساءه ، سيظل الوحل عالقاً بها أبداً

ستذكر دائماً أن قوة خفية ساقتها ، بمحض ارادتها ، الى الوحل ، قوة أعلى منها لا تستطيع فهمها ولا تحاول فهمها ولا تعليلها . هذه القوة الخفية الأزلية تعمل دائماً من وراء الحجب ، تعمل أبداً من وراء الغيب ، وتسوقنا الى المصير المحتوم

ستذكر جميلة ، الفتاة الريفية الجميلة المزهوة ، أن قوة خفية ساقتها الى البئر ، لتقودها الى الأعمى ، ولتجرفها الى الحقل

لا لذة ولا متعة ، ولا احساس بشيء من هذا كله ، ولكنها استسلمت ورضيت ، لأنه حكم عليها بأن تستسلم وترضى

لا احساس بنشوة ، ولا شعور بمتعة ، وانما مر كل شيء كالعاصفة الهوجاء وهي تلف كل شيء لفاً

لما فتحت عينيها على الدنيا الرحيبة الباسمة ، من قبل ، كان كل شيء قد تغير ؛ كل شيء قد تغضن واربد وعلته غشاوات ، ولفه السواد في جلبابه ، وطوته العاصفة الرعناء في طياتها ؛ كل شيء قد انمحى من باصرتها ومات وذهب مع العاصفة ، وبقيت ظلمات يأخذ بعضها برقاب بعض .... وعليها أن تسير في جوف الظلام وتمضي

ستطلع شمس الصباح الجميلة على القرية الوادعة ، وستقابل القرويات ، وستتحدث وتبتسم وتضحك ، ولكن بأي وجه ؟ وأي لسان ؟ ؟ وستقابل الزوج ، عند ما يطلع النور ؛ ستواجه زوجها وتقف أمامه ؛ ولكنه لن يعرف شيئا ، ولن تعرف النسوة شيئا ، ولكنها مع هذا ستشعر بالخجل ، وتغض الطرف وتنكس الرأس ، وهي الجميلة المزهوة التي تعلو على أقرانها ولداتها ستسير في القرية مطأطئة الرأس ، خافضة الطرف ، لا تستطيع أن تقابل نظرة امرأة بمثلها ... ستفعل ذلك ما دام الاحساس بالجريمة يلازمها ؛ وإذا ما بارحها هذا الاحساس ستنسى ، ولكنها لن تستطيع أن تنسى كل شيء . ستذكر دائما أنها فعلت ذلك بمحض ارادتها ، وكان عليها أن تقاوم وتمزق الثوب وتشق الجيب ، وتملأ الدنيا صياحا . إنها لم تأخذ شيئا ، لم تأخذ شيئا مطلقا ، وأخذ الرجل كل شيء !

ولن تذهب إلى البئر بعد اليوم ، لا في الصباح الباكر ،

ولا فى الليل الزاحف ؛ لا وحيدة ولا برفقة أحد . كل ما توده الآن هو أن تنسى ، هو أن تحاول أن تنسى . كل شىء فى الحياة يتغير فى ساعة ، يتغير فى ساعة أزلية مسطورة فى صفحة حياتنا . لقد غدت الفتاة المشرقة الضاحكة الناضرة ، المرأة المشوهة المنكسرة الواجمة ... بعد ساعة مرت كالعاصفة

فتاة الريف لا تزال بخلقها البكر ، لا يزال ضميرها حياً ، لم تخدره بهارج المدنية الكاذبة ، إنها لا تزال ترى الأشياء على حقيقتها . لا تزال بطبعها البكر طاهرة نقية قوية الايمان عفيفة الأزار . . . . تستهول الجريمة الجنسية ، وتستفظع الخيانة الزوجية ، وترجف حتى من مجرد التفكير فيها ، هكذا شعورها بفطرته ، تعرف من غير معلم ولا مدرسة أنها خلقت لرجل واحد ليس إلا . رجل واحد يأخذ منها قلبها وجسمها ، ويستغرق تفكيرها ووجودها . وتدفعها فطرتها الى أن تكون له أبداً . أما إذا زلت قدمها ، وجرفها التيار الى الوحل مرة ! فما الذى تفعله ؟ تحاول بكل ما تستطيع من قوة أن تنسى . . . لأنها لو ذكرت ربما عاودتها مع الذكرى أشياء لا تحبها ولا تود التفكير فيها

ولما أشرفت على الجسر الذى ستنحدر منه الى حيها راعها نباح الكلاب الشديد ! إنها لم تنبح بمثل هذه الشدة مطلقاً ؛ إنها تطارد فى ظلام الليل أشباحاً مخيفة تروعها . وأحست بوخز الابر فى جسمها . أخذ جسمها يرتعش ، ومع الرعشة برودة الثلج . فمالت الى جدار قائم فى الطريق واعتمدت عليه دقائق . ولما رجعت اليها بعض قوتها استأنفت سيرها ، وتقدمت تسحب رجليها سحباً ، وقد آب لها بعض حسها ؛ على أن جسمها كان يشوكه مثل الشوك دائماً . وأخذت عينها الترعة ، وماؤها يتدافع ويجرى . وقد تراقصت الصور فى مخيلتها واختلطت . بعد خطوات ستصل المنزل وتلاقى زوجها . وحدقت فى الماء وهو يجرى متدفقا منطلقا كالسهم ، لا شىء يقف فى طريقه ، يجرف معه دقيق الحصى والتراب ، ويحمل على متنه خفيف الريش ، لقد حملها التيار ، الى أين ذاهبة ؟ الى أين ذاهبة ؟

ما الذى سيحدث لو علم زوجها ؟ سيذبحها كما يذبح الفروج . ليس أيسر على الريفى من ذلك فى سبيل عرضه وشرفه ، وهو ثروته الباقية على الأيام . ماذا يحدث لو علم لداتها ؟ ؛ ما الذى سيحدث لو علم أقرانها اللواتى تزهى عليهن بجمالها وتشمخ ؟ سيمزقنها بألسنتهن ، وستغدو حديثهن فى كل سمر ، ومتعتهن فى كل مجلس . ما الذى سيحدث لو علم أهلها ؟ أخوها أقوى شباب القرية سيدفنها حية كما دفنت ناعسة ومبروكة وعزيزة من فتيات القرية التى حامت حولهن الشبهات ، وعفى عليهن الآن ذيل النسيان فلا يستطيع أحد أن يذكرهن لأن فى الذكرى جريمة . . . حتى ذكراهن عند القروى جريمة

ونزلت من الجسر الى الدرب الذى فى نهايته منزلها ، ومشت مستريحة الى الظلام المتكاثف . كل ما توده الآن هو أن تسير فى جوف الظلام متقية به أعين الناس . لقد مشت على الجسر راجفة مروعة تخاف أن يبصرها خفير الدرك ، ولكنها الآن فى جوف الظلام آمن وأسلم

وتقدمت فى الدرب متخاذلة متثاقلة تحس الأرض تنشق تحتها ، تصعد أكوام الرماد اللفاة عند أبواب المنازل وتهبط معها وهى تتصور أنها ترق تل الصحراء . ولما بلغت باب البيت وقفت لحظات . . . ثم تجاسرت ودفعته

كان زوجها نائما على السطح فانتبه على حركة الباب ، وصاح بصوت جاف :

« تأخرت ياجميلة . . . »

وكان صوت زوجها يرعد . أواه ظنته نائما فاذا بعينه ساهرة ، فلم تجب ، وغضت رأسها ووقفت فى صحن البيت جامدة . ولو بصر بها زوجها لرأى أغرب صورة . ولم ينتظر جوابها فصمت ، ثم قال بعد مدة :

« اسقى البقرة واعلفيها . . . »

ومضت فترة قصيرة سمع بعدها بكاء عاليا ، فسأل بغضب وقسوة ، فأسخف ما فى نظر القروى بكاء امرأة :

« ما الذى جرى ؟ »

فلم ترد . . . وزاد نحيبها

« ما الذى جرى ؟ »

وانتصب وأطل من صحن البيت

« ما الذى جرى ؟ »

« الجـ ... الجر ... الجرة ... آه ... أهىء ... »

« كسرت ؟ »

« أجل ... آه ... أهىء »

« وهى تستحق كل هذا البكاء ؟ .... كفى ! »

« آه ... أهىء ... آه ... »

« كفى ... » بصوت راعد

فحبست زفراتها وغيضت عبراتها ودفنت وجهها فى حجرها

ونام الزوج وغط :

* * *

زحف الأعمى الى المسجد قبل الفجر ، وهو متخاذل الجسم متسعر الجمجمة . وكانت قد ساورته فى الليلة التى خلت حمى شديدة تصبب لها عرق يملأ القرب ؛ وبات يتقلب على مثل الشوك ويود من فرط الحمى المتأججة فى جسمه من يقذف به الى اليم . بيد أنه تحامل على نفسه لما لاح النور ومشى الى المسجد متوكئاً على عصاه ، فما من الأذان بد . أجل ما من الأذان بد ! كيف يغفل عن أذان الفجر !

وصعد الى سطح المسجد ووقف ناصباً قامته ملوا عنقه ، ويده على الساعة يتحسس بها العقرب ، حتى حان وقت الفجر فوضع يده عند أذنه وانطلق ...!! ولكن ما هذا ؟ ما الذى جرى ؟ لقد اختنق صوته واحتبس ، وأصبحت الحروف تخرج من حنجرته مصفّرة عاوية عواء الذئب . ما الذى حدث ؟ ما الذى جرى ؟ حاول مرة ثانية فأخفق ، وتمهل لحظة ؛ وحاول مرة ثالثة ، فأخفق أيضاً ؛ وهبط الى صحن المسجد ، وهو يهتز اهتزاز القصبة الجوفاء فى مهب الريح العاصف ، وتقدم حتى وقف على رأس رجل نائم

« ياشيخ على . . شيخ على . . ! »

« نعم ... »

« قم أذن الفجر ... فصوتى لا يطاوعنى اليوم ... أصابنى البارحة برد شديد ... »

وبارح المسجد قبل طلوع الشمس ، وسار على الجسر حتى بلغ الحقول المجاورة . وكان قد نال منه التعب ، وبلغ منه الجهد ، فاستراح تحت شجرة من شجر السنط ، وضربه هواء الصباح على أذنه فنام حتى القيلولة . وقام وقد حميت الشمس ، وتوقدت الهاجرة ، وانقلب الهواء راكداً خانقاً يلفح الوجوه بوهج السعير ، واستوى على قدميه وأمسك بعصاه ، واتجه الى القرية ، وكل شىء فيها ساكن وادع إلا الأطفال الذين لا يقيمون وزناً ولا يبالون بحر أو برد

« أحمد ... سيد الأعمى ! »

« صحيح ؟ ... »

« والنبى ... »

وتجمع الصبية على الجسر ، ووقفوا صامتين وعلى شفاههم بسمات خفيفة ، حتى جاوزهم الأعمى ، وهو يسير سيره المألوف . ولما بعد عنهم قليلا ، رماه أصغرهم بحصاة استقرت عند صدغه . ما هذا ؟ لقد أصابته للمرة الأولى أول رمية أصغر صبى ! ما الذى جرى ؟ وانهالوا عليه بعد ذلك بدا واحدة حتى أمطروه وابلا من الحصى والحجارة . فاستدار لهم الرجل .وقد تميز غيظا ، ولوح بعصاه يهدد ويتوعد ، فتفرقوا عنه واستأنف سيره بعد برهة قليلة ، واستأنفوا هم بدورهم حصاهم وحجارتهم . فما أقل الصبر عند الأطفال ! وأصابه حجر فى الجانب الأيسر من صدغه فشجه وسال الدم ، وآلمه الجرح جداً حتى خرج به عن رشده ، فدار على عقبيه وجرى وراء الصبية يضرب بعصاه يميناً وشمالاً ، ولا يبالى أين تقع وتصيب ، وهو مخبول تماماً ، حتى أصابت ضربة قوية صبياً فى رأسه فجرحته جرحاً بليغاً ، ونزا دمه الأحمر فلطخ وجهه ؛ وكان الكلب رابضاً على الجسر فى ظل جدار لمنزل خرب ، وعينه إلى المعركة التى حميت واشتدت ، فقام ينفض جسمه نفض الليث ، وتوثب وثبات جامحة ، ثم دار دورات سريعة يقذف فى خلالها الهواء بغبار رجليه ، ثم انقض على الرجل فمزق الجزء الأمامى من ثوبه ! وطار به ، والصبية يبصرون هذا ولا يكادون يصدقون ، وشجعهم الكلب على معاودة الكرة على الرجل فانهالوا عليه ، وقد حموا ونشطوا ، يرجمونه بالحصى والحجارة ، حتى انطلق الرجل يسابق الريح . ومازالوا يتبعونه حتى أجلوه عن القرية . ولما كلت سواعدهم رجعوا الى القرية ضاحكين . وانطلق هو يجرى كالمخبول لايلوى على شىء

* * *

وبصر القرويون فى صباح اليوم التالى وهم فى الطريق إلى سوق « المركز » بجثة ملقاة على قارعة الطريق ، فمنهم من قال إنها لسيد أعمى ؛ ومنهم من أنكر ذلك

على أن الذى نحن على يقين منه أن الرجل لم يدخل مسجد القرية بعد ذلك أبداً

محمود البدوى

البريد الأدبي

حول البناء الحر (الماسونية)

وجه الى الأستاذ (ع) من دمشق على صفحات « الرسالة » كلمة يعلق فيها على عبارة لى وردت عرضاً فى مقالى عن « البارون فون أوفنباخ » (الرسالة عدد ١٤١) بشأن « البناء الحر » (الماسونية) وغاياته

وما قلته يومئذ من أن البناء الحر إنما هو حركة من حركات الخفاء العالمية وأنه يعمل منذ الأحقاب لغايات بعيدة المدى ، لا تدركها المحافل الصغيرة ، ولا المراتب الدنيا ، خلاصتها هدم النظم والعقائد القائمة كلها ، وادماج الانسانية فى مجتمع عام حر التفكير تسوده المساواة الاجتماعية المطلقة ، هو أرجح الآراء التى انتهى إليها البحث الحديث فى شأن البناء الحر وغاياته

وقد ذهب بعض أكابر الباحثين إلى أن حركة البناء الحر ليست إلا وجهاً من وجوه «الثورة العالمية» التى تسعى لاحداثها حركات هدامة كالشيوعية وغيرها

وقد كان البناء الحر وراء معظم الحركات الثورية فى العصر الأخير ، ولا سيما فى اسبانيا والبرتغال وإيطاليا وبلجيكا

بل ذهب بعض الباحثين ، ومنهم المؤرخ الفرنسى الكبير أولار ، إلى أن الثورة الفرنسية ربما لم تكن فى جوهرها سوى مؤامرة دبرها البناء الحر ، وحاول أن يصل باضرامها الى تحقيق غاياته

وكنت أود أن أزيد السائل الأديب بياناً ، ولكن يحول دون ذلك اعتلال صحة وأهبة عاجلة للسفر الى الأندلس

بيد أنى أحيله على بحث مستفيض عن البناء الحر وتاريخه ونظمه وغاياته ووسائله نشرته منذ أعوام فى كتابى « تاريخ الجمعيات السرية » (ص ٨٧ - ١١٥) ؟

م . ع . ع

كتاب عن برلين

ظهر فى العهد الأخير نوع جديد من الأدب الوصفى هو دراسة العواصم الكبرى باعتبارها أكمل مظهر لمختلف الشعوب والأمم ؛ وبلغ هذا الضرب الجديد من الأدب روعته على يد كتاب عظام مثل بول موران ، الذى تعتبر كتبه عن لندن ، ونيويورك ، وبخارست من أبدع آثار الأدب المعاصر . وقد ظهر أخيراً كتاب من هذا النوع عن مدينة برلين بقلم الكاتب والمؤرخ المعروف هنرى بيدو ، وهو يصور لنا برلين كارد نخم يجثم فى وهاد براندنبورج وفيما بين الغابات والمستنقعات ؛ وقد لوحظ كثيراً أن برلين ليست كباقى العواصم الأوربية الكبرى من حيث مناسبة موقعها وكونها تعبر عن مظهر لالمانيا الحقيقى فهى من حيث الموقع لا تضارع رومة التى تقع فى وسط إيطاليا وتشرف على البحر الأبيض ، وباريس التى تعتبر كأنها عجلة الادارة الفرنسية ، وموسكو التى تجتمع حولها موارد روسيا الشاسعة ، ولندن ونيويورك وغيرها ؛ ثم هى لا تعبر عن مظهر ألمانيا ، أولاً لأن العنصر السلافى يغلب فيها فهى ليست مدينة ألمانية حقة مثل ميونيخ أو لايبزج أو فرنكفورت ، وثانياً لأنها تبدو دائماً كأنها عاصمة مفروضة على ألمانيا ، فرضها آل هوهنزلرن رمزاً لقوة بروسيا ، ثم فرضتها الظروف بعد ذلك ؛ وحياتها الاجتماعية كمدينة عظيمة تكاد تكون معدومة ذلك لأنها تبدو دائماً كمعسكر ، تغلب عليه المظاهر الآلية والخشنة ، فالحياة المعنوية والاجتماعية فيها راكدة لا تروق الأذهان الحساسة الرفيعة . ولقد كانت ألمانيا تقدر منذ بعيد أن برلين الحديثة سيبلغ سكانها فى فترة وجيزة ١٢ مليوناً من الأنفس ، ولكن برلين لم تبلغ بعد الجهد ثلث هذا الرقم ، وهو دليل آخر على ركودها المعنوى والمادى

هذه هى الصورة التى يقدمها الينا هنرى بيدو عن العاصمة الألمانية ، وهى صورة لا تغبط عليها مثل هذه العاصمة الكبرى

جورج دوهامل عضو الأكاديمية

وأخيرا انتظم جورج دوهامل بين أعضاء الأكاديمية الفرنسية وأصبح من الخالدين . وجورج دوهامل كاتب من أعظم كتاب فرنسا المعاصرين ، وكاتب اجتماعي وانساني قبل كل شيء ؛ وقد اشتهر بعدة من آثاره القيمة وبالأخص بكتابين هما « حياة الشهداء » Vie de Martyrs و « اعتراف منتصف الليل » Confession de Minuit

وزار دوهامل مصر أكثر من مرة ، في شتاء سنة ١٩٢٩ وفي صيف سنة ١٩٣٤ ؛ ولم يكتب دوهامل عن مصر ولم يصفها كما يفعل زملاؤه الذين يزورونها ؛ ولكن يؤثر عنه بأنه وصف مصر بأنها « الأرض التي يسود فيها منذ الآماد عشق الحياة الأخرى » وقد تأثر دوهامل أيما تأثير بما رأى من آثار الفراعنة التي تتجسم فيها فكرة الخلود والأبدية

ودوهامل يكتب بأسلوب رائع وبيان قوي ؛ وتطبع كتاباته كلها نزعة الى الانسانية والى التسامح العام

ولم يكن دوهامل يوما من الساعين الى الدخول في الأكاديمية ولكنه حينما رشح وانتخب لهذا الكرسي الرفيع لم يسعه إلا أن يتبوأه مغتبطا

بعثة جديدة الى الأرض الخضراء

سافرت أخيرا إلى الأرض الخضراء (جرينلند) بعثة علمية فرنسية ، لتقوم بقطع هذه الجزيرة القطبية الشاسعة من الغرب الى الشرق ؛ وهي مؤلفة من الدكتور جيسان ، وميشيل بيريه ، والكونت كوند ، ورئيسها بول أميل فكتور . ومن أهم أغراض البعثة أن تقوم باسعاف السكان الذين يقطنون هذه الصحاري الثلجية والذين تفتك بهم « الأنفلونزا » في الوقت الحاضر فتكا ذريعاً

وقد سبق لرئيس هذه البعثة ، وهو بول فكتور أن قام برحلة كبيرة الى الأرض الخضراء ، وسلخ عاما في مدينة انجمسالك في شرق الجزيرة ، وهو يعيش عيشة أهلها الصيادين ويقلدهم في جميع عاداتهم وأحوالهم الخشنة

وقد حالت تلال الثلوج دون سير السفينة « بوركوا » القطبية ، فاضطرت البعثة أن تحاول الوصول الى انجمسالك من طريق اليابسة

ومن أغراض البعثة العلمية أن تقوم بتحقيق ملاحظات العلامة المكتشف فنجر الذي قام سنة ١٩٣٠ بسبر غور أعماق الطبقة الثلجية التي تغطي الجزيرة كلها ؛ وأن تكرر تجاربه من نسف الثلوج بالديناميت ، وقياس سرعة تغلغل الديناميت ليستدل بها على الأغوار ؛ وقد ثبت من تجارب العلامة فنجر أن أعماق الطبقة الثلجية تتراوح بين ٢٠٠٠ و ٢٧٠٠ متر ؛ وتنوي البعثة أيضاً أن تقوم ببعض دراسات أقليمية ، وأن تدرس طبائع السكان وأحوالهم الجنسية

رحلة الى الأندلس

اعتزم صديقنا الكاتب المؤرخ الأستاذ محمد عبد الله عنان أن يقوم هذا الصيف برحلة جامعة الى اسبانيا ، يدرس خلالها جميع المراجع والمخطوطات العربية في مكاتب الأسكوريال ومدريد وغرناطة ودير ساكر ومونتي ، وجميع الآثار والنقوش العربية في مختلف المتاحف الاسبانية ؛ ويتجول في ربوع الأندلس وقواعدها القديمة مثل طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة وبلنسية وغيرها ؛ فيشاهد ما بها من الآثار العربية ، ويدرس في الطبيعة معالم الوقائع والأحداث التاريخية الشهيرة

ويقوم الأستاذ بهذه الدراسة استكمالاً لمواد كتابه الذي يضعه عن تاريخ الأندلس ، والذي توفر منذ أعوام على وضع منهجه واعداد مواده

بناة العالم لاشتيفان زفايج

نعرف أن للكاتب النمسوي الكبير اشتيفان زفايج عدة دراسات نقدية هامة عن طائفة من أقطاب التفكير والكتابة ، صدرت من قبل تحت عناوين مختلفة . فمثلاً صدرت الدراسات الخاصة ببلزاك ودكنز ودستوديفسكي تحت عنوان « الأساتذة الثلاثة » ، وصدرت تراجم هلدرلن وكلايست ونيتشه تحت عنوان « النضال مع الشيطان » ، وكازانوفا وشتندال وتولتسوي تحت عنوان « شعراء ثلاثة لحياتهم »

وقد صدرت أخيراً طبعة ألمانيا جامعة لهذه الدراسات الشهيرة تحت عنوان جديد هو « بناة العالم » — Baumeister der Welt ، وصدرت عن مطبعة ريختر النمسوية الشهيرة في ثوب أنيق جداً

والمعروف أيضاً أن هناك تراجم فرنسية وانكليزية لهذه الدراسات القيمة ظهرت متفرقة ومجتمعة

ويقيم اشتيفان زفايج معظم شهور السنة فى مدينة سالزبورج الشهيرة بفنونها الموسيقية والغنائية ، ويقضى باقى الوقت فى مدينة ڤينا

رحلات أفريقية

صدر أخيراً بالانكليزية سفر من أسفار الرحلات الممتعة عنوانه « فجر الاستواء » Equatorial Dawn بقلم الكاتبة والرحالة الانكليزية الشهيرة السيدة دروثى أونا راتكليف (أو مسز ماك كريجور فلبس) ، والسيدة راتكليف شاعرة غنائية رقيقة ولها ديوان شعر ممتع تترنم فيه بمحاسن موطنها ومهد طفولتها «يور كشير» . وهى رحالة كثيرة الاسفار ، تجولت كثيراً فى قلب افريقية ، وفى أعماق وهادها وغاباتها ؛ وقد أصدرت من قبل كتاباً عن بعض رحلاتها الافريقية عنوانه « صيف فى جنوب افريقية » Asouth African Summer ، وفى كتابها الحالى تصف رحلاتها برفقة زوجها وجماعة من الأصدقاء الرحل فى كنيا وأوغندا وتنجانيقا ، والكونغو ، والسودان ، والنوبة ؛ وقد كانت غاية هذه الجماعة المخاطرة أن تقوم باقتناص الوحوش الضارية فى أعماق الغابات والوهاد الخطرة ، وأن تصور مناظر الصيد تصويراً طبيعياً دقيقاً ، وأن تدرس طبائع الوحوش وحياتها من الوجهة العلمية . وقد استطاعت البعثة أن تصور مناظر الوحوش من آساد وفيلة وسباع البحر ، والطيور تصويراً بديعاً ؛ واستطاعت أيضاً أن تجوس خلال القبائل الزنجية العارية وأن تدرس أحوالها وطباعها . وقد لقيت السيدة راتكليف ورفاقها كثيراً من المخاطرات والحوادث المشجية والفكهة معا ، فدونتها كما وقعت بأسلوب ساحر . وفى الكونغو استطاعت البعثة أن تقوم بالصيد والدرس فى « بستان الكونغو » وهو أعظم حظيرة لصيد الضوارى فى العالم وتشرف عليه سلطات الكونغو البلجيكية ؛ وتصف المؤلفة ادارة الكونغو البلجيكية ، وتصف حياة السكان ، والبعثات الدينية والمهاجرين القلائل فى حياتهم الساذجة الشاقة ، وتصف لنا التماسيح المقدسة فى بحيرة فكتوريا ، وما حول هذه الوهاد من المناظر الطبيعية الرائعة ، وما يعمرها من عالم الحيوان والانسان . والخلاصة أنها تقدم إلينا صوراً حية بديعة من الحياة الافريقية فى أروع وأعجب أشكالها ، وكتابها ممتع خلاب ، يعتبر بمحتوياته وأسلوبه من كتب الرحلات الرفيعة

تدريب الكلاب على السير

يبدى الانكليز عناية كبيرة بالحيوان ورفاهته والمحافظة على حياته ؛ ومن ذلك الكلاب ، فانها تلقى كثيراً من الرفق والعناية وقد لوحظ أخيراً فى انكلترا أن عدداً عظيما من الكلاب يقتل كل عام بسبب حوادث السيارات وغيرها فى الطرق العامة ، فارتفعت الأصوات بوجوب العمل على حماية هذه الحيوانات ، وقضت المحاكم فى كثير من القضايا التى رفعها أصحاب الكلاب المقتولة على أصحاب السيارات بتعويضات كبيرة ؛ وأخيراً رؤى أيضاً أن التعويض لا يكفى لتعزية أصحاب الكلاب العزيزة ، فرؤى تقليلاً للخطر أن تدرب الكلاب نفسها على السير فى الطرق العامة كما يدرب الأشخاص

وقد أجريت أخيراً تجارب عديدة فى هذا الباب ، وقام نادى « تيل واجرز » بدعوة واسعة النطاق لتدريب الكلاب وتعويدها الطاعة وفهم الاشارات المختلفة ؛ وأسفرت التجارب التى أجريت على بعض الكلاب بدفعها فى الطرق وأمرها بالسير فى اتجاهات وأوضاع معينة عن نتائج حسنة ، وأمكن لهذه الكلاب أن تتجنب كثيراً من السيارات والعربات الثقيلة فى مآزق حرجة

من هنا ومن هناك

دانتي والكوميديا الإلهية

حينما بعثت رسالة الغفران لشاعرنا العظيم أبي العلاء كثر الجدل بين الأدباء حول الأصل الذى استقى منه دانتي ألليجيرى صوره الرائعة التي حشدها في كوميديته ، وكاد الجميع يجزمون أن ذلك الأصل هو رسالة الغفران ، وأيدهم فى ذلك مستشرقون كثيرون حتى كادت المسألة تعتبر مفروغاً منها وأن دانتي إن هو إلا عالة على أبي العلاء . . . ثم قام أديب مسيحى فاضل فنقل الوضوع الى ميدان آخر إذ حاول أن يثبت أن دانتي لم يقلد أبا العلاء وإنما هو قلد (رؤيا يوحنا اللاهوتى) الواردة بالأنجيل . وقد يكون هؤلاء وهؤلاء على شيء من الحق فيما ذهبوا اليه من رأى ، وإن كنا نحن لا نميل كثيراً الى رأى أصحاب أبي العلاء — لأننا برغم براهينهم الكثيرة التي أدلوا بها — نشك فى سرعة تنقل الثقافة العربية من شرق البحر الأبيض المتوسط الى وسطه وغربه بهذا القدر الذى يبالغون فى وصفه لا سيما فى أسود فترات العصور الوسطى : ثم نحن لا نرى كبير شبه بين آل Infferoo فى كوميدية دانتي وبين جحيم أبي العلاء ، ويكاد هذا الشبه ينعدم فيما يتعلق بال Purgatorio فى دانتي والبعث فى أبي العلاء ... أما Paradiso دانتي فهى شيء وفردوس أبي العلاء شيء آخر . . . ونحن نعترف أن ثقافة العرب كانت تجرف أوروبا خصوصاً من جهة الأندلس ثم من جهة صقلية ، ولكن الذى نشك فيه هو انتقال أدب أبي العلاء إلى إيطاليا لدرجة أن يؤثر فى أدبائها إلى هذا الحد وفى زمنه كانت طرق المواصلات محفوفة فيه بأكبر المخاطر ، ذلك إلى غلاء وسائل الثقافة حينئذ وأهمها الكتب التى كانت تكتب كلها باليد ، ونحن نرجح أن دانتي تأثر إلى حد بعيد بالمصادر الدينية (وأهمها الانجيل والقرآن) والمصادر اليونانية وأهمها (الالياذة والأوديسة) ثم بلحمة مواطنه العظيم (فرجيل) الأنييد

فمن رؤيا يوحنا اللاهوتى ومن الأوصاف البارعة للجحيم وطبقاتها وصنوف المجرمين الواردين عليها المذكورة فى كثير من سور القرآن قد اقتبس دانتي خياله الذى نسق به جحيمه (Inferno) . ولا ننس أن احتكاك أوروبا بالمسلمين فى الحروب الصليبية كان بغشى الثقافة الاسلامية فى هذه القارة أوانئذ ، وخير ألوان هذه الثقافة ما فى كتاب الله . أما تأثره بالالياذة والأوديسة والأنيد فهو أقوى وأظهر ، وقد درسنا هذه الملاحم جميعاً وأنعمنا النظر فى ال (Divina Commedia) فكان يدهشنا أن يترسم دانتي خطى الشاعرين الخالدين هوميروس وفرجيل ويأخذ عنهما كل ما ورد فى الأساطير القديمة من أوصاف (هيدز) وما يحيط بها من أنهار تفور بالحمم وما تعج به من سعالى وثعابين وسنتورات وتنانين . . . وكان دانتي يمزج فى كوميديته ألواناً من الفكر اليونانى لا تخفى على الملم بأدب الأغريق . أما فى المطهر والفردوس فما نحسب أن دانتي كان مقتدياً بلون ما من أدب السلف ، ولعل ذلك هو السبب فى فتور هذين الجزءين من الكوميدية

هذه كلمة خاطفة نؤثر عليها فصلاً طويلاً نقارن فيه بين هؤلاء الشعراء الخالدين[1]

روجر بيكون (١٢١٠ — ١٢٩٣)

من أحسن الكتب التي ألفت عن العصور الوسطى كتاب الأستاذ العلامة هنرى أسبرن تايلور (The Medieval Nind) بل لعل هذا الكتاب هو أحسنها جميعا . وقد لا تجد مؤلفاً محققاً مثل تايلور أنصف الرجل المفكر المسكين روجر بيكون الذى يعتبر أول رائد من رواد الحضارة الحديثة التي ننعم بها ، والتى تتضاءل بجانبها أزهى الحضارات القديمة . وأغرب ما يروق القارىء من روجر بيكون أنه لم يكن يعيش فى العصر الذى وجد فيه ، بل هو كان لذلك العصر بجسمه وآلامه فقط ، أما بروحه وعقله فقد كان يعيش معنا ويفكر تفكيرنا ، ويشغله من مستقبل الانسانية

(١) ولعل الأستاذ لا ينسى فى فصله المنتظر حديث المعراج (الرسالة)

ما يشغلنا . ولقد كان بيكون عدواً لدوداً لمسكرين يعتبر كل منهما نقيض الآخر . . كان عدوا للكنيسة التي تفرض سلطانها وترمتها على العقول فرضاً ، وكان يوصي الناس ويحضهم على عدم الخضوع لغيرها والتحلل من ربقتها في تفكيرهم ، ومن هنا ما لقيه بيكون من السجن والنفي والتشريد وألوان العذاب التي تتحيفه من حين الى آخر .. ثم هو كان عدواً لأرسطو ولفلسفته : « التي كانت كتبها في نظره جديرة بالتحريق لأنها مضيعة للزمن ، وتحصيل للخطأ ، وتكثيف للجهل ! » وربما كان روجر معذوراً في هذه النظرة السوداء إلى أرسطو الذي كانت كل تراجمه خطأ في خطأ في تلك العصور ؛ ولكن روجر بيكون كان يرى في فلسفة أرسطو شقشقة طويلة لا تؤدي الثمرة المشتهاة التي كان ينشدها هو في العلوم عن طريق التجربة ، ومن هنا أيضا حبه العظيم وإعجابه الذي لا يحد بالعرب وبالثقافة العربية في الطب والكيمياء وعلم الأقرباذين وعلم المعادن ؛ وربما كانت عداوته لأرسطو نتيجة انكبابه على دراسة العلوم العربية التي كان المعمل وحده ميدانها

والمضحك أن الكنيسة ، ومن ورائها الشعب الساذج الذي لا عقل له ، كانت تعتبر بيكون دجالاً مشعوذاً يجيد صنوفاً كثيرة من السحر . وكان الجميع يعدونه مجنونا حين كان يتنبأ عن إمكان صنع سفينة تسير بالبخار « بدون شراع أو مجاديف » أو قاطرة أو سيارة « لا يجرها حصان أو زوج من الثيران » أو طائرة « ترتفع في الجو بجناحين من المعدن يضربان الهواء كما يصنع الطائر » . . .

توماس مور وكتب الطوبى

ليس شك في أن سير توماس مور هو خالق انجلترا الحديثة ، لأنه بطل نهضتها في العصور الوسطى ، وقد ولد قبل شا كسبير بمائة سنة تقريباً ، وكان صديق إرزم الأديب الهولندي الكبير ، وبطل النهضة في الأراضي المنخفضة . ويقولون إن توماس مور هو أول انجليزي تعلم اللغة الأغريقية وقرأ فيها آدابها ، ومن هنا تأثره العظيم بأفلاطون وتأليفه كتابه القيم الجميل « طوبى Uropia » على نسق « جمهورية أفلاطون » وقد كتب مور طوباه باللاتينية لغة العلوم والمعارف والآداب في العصور الوسطى وطبعت للمرة الأولى في لوفين (١٥١٦) ثم طبعت في باريس (١٥١٧) وفي بازل (١٥١٨) ولم تترجم إلى الانجليزية إلا سنة ١٥٥١ بواسطة الأديب الكبير رالف روبنسون

ومما لا ريب فيه أن اكتشاف أمريكا كان أهم الأسباب التي أوحت إلى مور تأليف طوباه ، فقد أذكره هذا الحادث حلم أفلاطون بالمدينة الفاضلة ، وتصور أن الأوان قد آن لتحقيق هذا الحلم ، وخال شعباً من خيرة أهل الدنيا القديمة يبحر إلى أمريكا فيعيش في رغد وبلهنية ، لا يعرف أدواء الانسانية التي فتكت بها في هذا العالم القديم . وقد دعا مور في طوباه إلى احتقار القوة وأعمال العنف ، وبشر بمحبة ومؤاخاة بسودان العالم ، وعاطفة خير توجه مصائر الناس . وعندنا أن مور بكتابه الجميل قد سبق مواطنه هـ . ج . ولز — الذي ألف هو الآخر طوبى جديدة — إلى الدعوة إلى العالمية والايمان بالبشرية والتهوين من قيمة الوطنية ، وأن يحمل الناس هذا الكوكب الأرضي الجميل وطنهم الأكبر فلا يلطخوه بالدماء

وقد كان فرنسيس بيكون معجباً إلى أبعد حدود الاعجاب بتوماس مور ، وقد نسج على منواله فألف كتابه (اتلانتيس الجديدة) على منهاج طوباه ، وكتب مثله في اللغة اللاتينية

ولقد وقف مور في محنة الكنيسة الانجليزية في عهد هنري الثامن موقفاً حازماً كلفه حياته ، فخسرت انجلترا فيه أديباً كان يساوي عشرة ملوك من ملوك هذا الزمن

بعض الكتب

سألنا قارىء فاضل عن أسماء بعض الكتب التي ورد ذكرها في هذا الباب بالانجليزية لولز وبرتن راسكو وقد أجبناه بالبريد ، وسنجتهد في إثبات الأسماء الأفرنجية كلما أمكن ذلك لتتم الفائدة

د . خ

الكتب

الرحيل ـ رجل

تأليف محمود البدوى

للأستاذ محمد على غريب

القصة المصرية عندنا ما تزال فى مهدها اليوم ، وأكبر الظن أنها سوف تبقى فى لفافات الطفولة الى مدى طويل ، وأن يفقد الأدب العربى عندنا هذه الثروة الضخمة التى انحصرت فى القصة ومنحت الآداب الغربية مالها اليوم من تفوق ونجاح

وقل أن تقع فى يدى قصة مصرية فأهوى بأوراقها الى الطاهى ليصنع منها أغطية لزجاجاته الكثيرة ، فما وجدت من هذه القصص السخيفة إلا كل سخف وسماجة وموضوع يمسك هذا بطرفه وذاك بالطرف الآخر منه ثم يتنازعان نهايته . . فتاة فقيرة أو غنية ، يعشقها أو تعشق هى شابا فقيراً أو غنياً ، على شرط ألا يكون أحدهما كفؤا للآخر فى الثروة ؛ وبعد دموع كثيرة وزفرات تدير الطواحين تنتحر الفتاة أو ينتحر الشاب أو ينتحران معاً . . طبقا لرغبة المؤلف وميله الى أحد البطلين

ذلك رأيى ... ومنذ شهور أهدى الىّ صديقى الأديب الفاضل الأستاذ محمود البدوى قصته (الرحيل) فتركتها معه ريثما آخذ نفسى بأن تدع محاباة الصديق فى تلك الهدية ، وقرأتها ؛ وبعد ذلك أهدى إلى قصته (رجل) فقرأتها ، ولأول مرة يندب الطاهى حظ زجاجاته

لست أثنى على صديق لأن بينى وبينه هذه الصلة ، فان من الخير لى وله أن أجاهره بالرأى الصريح ولو كان فيه مايؤلمه ، فأننى أعرف فيه حسن تقبله للنقد ؛ ولم تصلح الصداقة يوما ما رشوة بين صديقين يحب كلاهما صاحبه ويخلص له . فالواقع أن هذين الكتابين اللذين أخرجهما الأستاذ البدوى لقراء العربية من خير المحاولات المفيدة الناجحة فى سبيل بعث القصة المصرية ووجودها

فى قصة الرحيل ترى يد شاب امتلأ صدره بشتى العواطف والنزعات ، ترسم على الورق بعض ما يروح عنها .. إنه شاب نشأ فى البيئة الخانقة المزعجة ، فلما بهرته أضواء المدنية ورأى فيها حيلته عاجزة كليلة راح يستصغر نفسه دونها ويحاول أن يخفى ارتباكه باطلاق العنان لهذه الجياد الجامحة فى نفسه ؛ فهوطوراً يمجد الجمال ويتفهم الحب ، وطوراً ينزع الى الرغبة فى التحرر من كل قيد ، وطوراً تعود به نفسه الى طبيعته الأولى فيستهويه صوت المؤذن ويخشع قلبه للدين وتعاليمه

وأنت إذا قرأت هذه القصة على هذا النحو أمكنك بسهولة أن تدرك لماذا لم يحتفل المؤلف بأسلوبه ، وكيف جاءت ألفاظه مكررة فى بعض المواضع ، ولأى شىء التجأ الى الغموض والابهام فى عباراته

إنه يرسم صورة من نفسه ، ونفسه ترسف فى أغلال قوية وتحاول الخروج منها ، فاذا عجزت عن المحاولة ترنمت بالاعان ، وإذا نجحت فى التنفيس عن كربتها فرحت بهذه الأضواء الباهرة التى يجد فيها حياته كلها وجميع أمانيه ...

* * *

أما قصته (رجل ...) وقصصه الصغيرة الأخرى ، فعلى هذا الطراز الفخم من الدقة والقوة والمتانة .. قصص يمكنك أن تقول عنها إنها من أقوى القصص المصرية الناجحة ، دون أن يضطرب ضميرك ، أو تنزعج نفسك ؛ ومن بينها قصة (الأعمى) . إنها صورة صادقة من أبلغ ما كتب الأدباء المصريون ، وقد امتزج فيها الفن بالواقع ، فترى أمامك مزيجاً منهما يلزمك أن تعاود قراءتها

ولست فى الواقع أريد أن أتحدث كثيرا عن هذه الباكورة الشهية التى تفتحت عنها جهود شاب أديب ، وكان خيرا لى وله أن أصبر طويلاً حتى أستوعب هذه القصص وأكتب عنها طويلاً ، ولكننا فى هذه الأيام نحتاج إلى السرعة والتعجل حتى لا نفقد الفرصة المناسبة ، ولهذا كتبت تلك الكلمة الصغيرة على الرغم منى

الثورة الوهابية

تأليف : عبد الله القصيمي

(١٤٠) صفحة — طبع مصر

هذا الكتاب شرح لمبادىء الدعوة السلفية ، وعرض لتاريخها وتاريخ رجالها . افتتحه المؤلف بفصل تحليلى عن الثورة وطبيعتها وأقسامها ، والمفاضلة بين الثورات السياسية والثورات الدينية ، كالثورة الوهابية (المؤسسة على أسمى المعانى الانسانية الخلقية المنتزعة من رسالة جبريل سيّد الملائكة إلى محمد سيد البشر) . ووازن بينها وبين الثورة الفرنسية ، وبحث عما أسدت ثورة فرنسا الانسانية المسكينة من إخاء وحرية ومساواة ، وأحال فى الجواب على سوريا ومراكش والجزائر ! ...

ثم تكلم المؤلف عن منشأ هذه الدعوة وتاريخها وسيرة صاحبها ، وتكلم عن أهم ما دعا إليه وما أنكر عليه ، وبيّن أن أول مقومات هذه الدعوة (أستغفر الله بل أول مقومات الاسلام) منع دعاء غير الله — كدعاء الأموات — مهما كانت نية الداعى ومهما كان مقام المدعو ، ومنع الاستغاثة بغير الله والاستعاذة به ، ثم منع الابتداع فى الدين منعاً باتاً لا هوادة فيه ولا استثناء ، سواء فى ذلك الأدعية الفاسدة والأذكار التى لم ترد عن صاحب الشريعة ، والشطح والرقص فى الذكر والطرق المبتدعة وما إلى ذلك ـ ثم الايمان بما جاء فى الكتاب والسنة من أن الله تعالى مستو على العرش استواء يليق به ، لا كما يستوى المخلوق ، وكذلك الايمان باليد والساق من غير تعطيل ولا تشبيه ، ثم إقامة الحدود الشرعية ، وهذه منقبة لو لم يكن اليوم للحجاز غيرها لكفى .

وهل تماثل حكومة تقيم حدود الله على الزانى وشارب الخمر ، بحكومات اسلامية تجيز الزنا وشرب الخمر وتفتح لهما البيوت والحانات وتحمى أصحابهما ومن يعكف عليهما ؟ . ثم إن للمسلم أن يتفهم كتاب الله ويتدبره ، وألا يدع حكم الله وحكم رسوله لقول انسان ما ، وكل هذا حسن بشرط ألا يفهم منه العامى بأن له الاجتهاد . وله أن يدع حكم مذهبه إذا سمع حديثاً صحيحاً قد يكون منسوخاً بحديث أصح منه ، بل عليه أن يتبع أحكام المذهب إلى أن يرزقه الله من الاطلاع على كلام العرب وسننها مايفهم به كتاب الله وسنة رسوله على وجهما ، ومن معرفة الأصول ما يعلم به استنباط الأحكام ويعرف الناسخ والمنسوخ ؛ وكما أن القول بسدّ باب الاجتهاد سخف ، فكذلك القول بفتحه للناس كلهم بلا تفريق بين عامىّ ومتعلم

هذا وقد طال بى نفس القول ولم أصف من الكتاب إلاجزءاً قليلا ، ولا أجد بدا من أن أقطع الكلام وأحيل القارئ على هذا الكتاب القيم ليقرأه بنفسه فليس يغنى عن قراءته وصفى ، وإذا كان لى أن أختم هذه الكلمة برجاء أرفعه الى جلالة الملك عبد العزيز بن سعود فهو أنى أرجوه أن يولى هذا الأستاذ الجليل شيئاً من العناية . ويأخذ بيده على ما هو فيه من خدمة الاسلام والدفاع عن السلفية — وأن يشجع أمثاله — وقليل ما هم — على سلوك هذا الصراط المستقيم . وانى أرجو لجلالة الملك التوفيق والهداية وللأستاذ المؤلف النجاح والأجر

(دمشق) (ع)

والذى ألاحظه كثيرا فى هذه القصص أن ناقدها لا يستطيع أن يسبر غورها مهما حاول ذلك ... أترى لأن كاتبها لجأ إلى الغموض كما أوضحت ، أم لأنها قصص كتب بعضها عن شخص مؤلفها ، فما دام هو يفهم رموزها ويستشف غامضها كان على قرائه أن يقنعوا من الرموز والغموض بما وصلت اليه أفهامهم ؟

لست أدرى .. ومع ذلك فهذه القصص اللطيفة صغيرة الحجم وثمنها زهيد ، وما على القارئ إلا أن يقتنيها ليرى كيف يبدأ شاب أديب فجر حياته الأدبية ؛ وإذا كانت هذه بدايته المباركة فماذا عسى أن يكون بعد سنوات ؟

سوف يكون دون مبالغة من طراز انطون تشيكوف !

محمد على غريب

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٥٨ — ١٣ يوليه سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 158.

Lundi - 13 - 7 - 1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العــدد ١٥٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٣٥٥ — ١٣ يوليه سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العــــدد

صفحة

لَــوْ ! . . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

رأيتنى جالساً فى مسرح هزلىّ بمدينة اسكندرية كما يجلس القاضى فى جريمة يحمل أهلُها بين يديه آثامَهم وأعمالَهم ويحمل هو عقلَه وحُكمه . وقد ذهبت لأرى كيف يتساخَفُ أهلُ هذه الصناعة فكان حكمى أن السخافة عندنا سخيفةٌ جداً ....

رأيتهم هناك ينقدون العيوب بما يُنشِئ عيوباً جديدة ، ويسبحون بأيديهم سباحة ماهرة ولكن على الأرض لا فى البحر ، وتكاد نظرتهم إلى الحقيقة الهزلية تكون عمًى ظاهراً عما هى به حقيقة هزلية ؛ ولا غاية لهم من هذا التمثيل إلا الرقاعة والاسفاف والخلط والهذيان ، إذ كان هذا هو الأشبه بجمهورهم الذى يحضرهم ، وكان هو الأقرب إلى تلك الطباع العامية البليدة التى اعتادت من تكلف الهزل ماجعلها هى فى ذات نفسها هزلاً يسخرمنه ولا أسخف من تكلف النكتة الباردة قد خلت من المعنى ، لا تكلفُ الضحك المصنوع يأتى فى عقبها كالبرهان على أن فى هذه النكتة معنى

فالفن المضحك عند هؤلاء انما هو السخفُ الذى يوافقون به الروح العامية الضئيلة الكاذبة المكذوبَ عليها التى يبلغ من

بلاهتها أحياناً أن تضحك للنكتة قبل إلقائها ، لفرط خفتها ورعونتها ، وطول ما تكلفت واعتادت . فما ذلك الفن إلا ما ترى من التخليط فى الألفاظ ، والتضريب بين المعانى ، وإيقاع الغلط فى المعقولات ؛ ثم لا ثم بعد هذا . فلا دقة فى التأليف ، ولا عمق فى الفكرة ، ولا سياسة فى جمع النقائض ، ولا نفاذ فى أسرار النفس ، ولا جدّ يؤخذ من هزلية الحياة ، ولا عظمة تستخرج من صغائرها ، ولا فلسفة تعرف من حماقاتها

والفرق بعيد بين ضحك هو صناعة ذهن لتحريك النفس وشحذ الطبع وتصوير الحقيقة صورة أخرى ، وبين ضحك هو صناعة البلاهة للهو والعبث والمجانة لا غير

***

وكان معى قريب من أذكياء الطلبة المتخصصين للآداب الانجليزية ، فلم نلبث غير قليل حتى جاء ثلاثة من ضباط الأسطول الانجليزى فجلسوا بحذائنا صفاً تلوح عليهم مخايل الظفر ، ولهم وقار البطولة ، وفيهم أرواح الحرب . وهم يبدون فى ثيابهم البيض المطرّاة (١) كأنهم ثلاثة نسور هبطت من الغمام إلى الأرض ، فلأعينها نظرات تدور هنا وهناك تنكر وتعرف

وأعجبنى أن أراهم فى هذا المكان الهزلى الممتلئ بالضعفاء ، كأنهم ثلاث حقائق بين الأغلاط ، أو ثلاث أغلاط كبيرة ... وكان أبدع ما أراه على هيئة وجوههم وأسرّ له تواضع هذا الاستعداد الحربى وتحوله إلى استعداد للسخرية ...

ثم تأملتهم طويلاً فاذا صرامة وشهامة وسكينة ووداعة وحسن سمْت وحلاوة هيئة فى جلسة رزينة متوقرة ، لا يشبهها فى حسّ النفس التى تعرف معانى القوة إلا وضع ثلاثة مدافع مصوّبة

وجعلت أقلب عينىّ فى الناس الموجودين وملامحهم وهيئاتهم ثم أرجع البصرَ الى هؤلاء الثلاثة ، فأرى المصرىّ كالمقتنع بأنه محدودٌ بمدينة أو قرية لا يعرف لنفسه مكاناً فى غيرهما ، فهو من ثَمّ لا يرحل ولا يغامر ولا تتقاذفه الدنيا ؛ وأرى الانجليزىّ كالمقتنع بأن كل مكان فى العالم ينتظر الانجليز . . . .

وخيل الى والله أن رجلاً من هؤلاء الانجليز الأقوياء المعتدين بأنفسهم لا يهاجر من بلاده إلا ومعه نفسه واستقلاله وتاريخه وروح دولته وطبيعة أرضه ، فهو مستيقن أن الله لا يرزقه رزقاً أىَّ الرزق كان على ما يتفق ، بل رزقاً انجليزياً : أى فيه كفايته

ورأيت شيئاً عجيباً من الفرق بين طابع السلم على وجوه ، وبين طابع الحرب على وجوه أخرى ؛ ففى تلك معانى السهولة والملاينة والحرص على مادة الحياة ، وفى هذه معانى العزم والمقاومة والحرص على مجد الحياة لا على مادتها

وتبيّنتُ أسلوبين من الأساليب الاجتماعية : أحدهما فى فرد قد بَنَى أمرَهُ على أن أمّةً تحمله فهو يعيش بأضعف ما فيه ، والآخر فى فرد قد وضع الأمر على أنه هو يحمل أمةً فلا يدع فى نفسه قوة إلا ضاعفها

وعرفت وجهين من وجوه التربية السياسية : أحدهما بالطنطنة والتهويل والصراخ واستعارة ألفاظ غير الواقع للواقع وتحميل الألفاظ غير ما تحمل ، والآخر بالهدوء الذى يقهر الحوادث والصبر الذى يغلب الزمن والعقيدة التى تفرض أعمالها العظيمة على صاحبها وتجعل أعظم أجره عليها أن يقوم بها

وميّزت بين أثرين من آثار الأرض فى أهلها : أحدهما فى المصرى السَّمْح الوادع الألوف الحيِيّ الذى هو كَرَمُ الطبيعة ، والآخر فى الانجليزى العَسِر المغامر النَّفور الملحّ على الدنيا كأنه تطفّل الطبيعة . . . .

***

وألقى ابن العم الذى كان معى سمعَه الى هؤلاء الضباط وهم من فلاسفة الرأى على ما يظهر من حديثهم ، ثم نقل إلىّ عنهم ، فقال كبيرهم : لقد فرغت من بحثى الذى وضعته فى فلسفة خمول الشرقيين وأفضيتُ منه إلى حقائق عجيبة أظهرُها وأخفاها معاً أن أمةً من هذه الأمم لا يُمَكَّن للأجنبى فيها ولا تثقل وطأته عليهم ولا يطول ثَواؤُه فى أرضهم ولا يحتلها من يطمع فيها ، ما لم يكن سادتها وأمراؤها وكبراؤها كأنهم فيها دولة محتلة

وهؤلاء الكبراء هم آفة الشرق ؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيد فى تعظيمهم ، وأن نمدّ لهم فى المال والجاه ، ونبسط لهم اليمين والشمال ، ونوهمهم أن عظمتهم هكذا ولدت فيهم وهكذا ولدوا بها من أمهاتهم كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم ... وخاصة عظماء رجال الأديان المفتونين بالدنيا ؛ فاننا نصنع بغرور الجميع وسخافاتهم وحرصهم وطمعهم أشياءَ اجتماعية ذات خطر لا يصنع لنا مثلها إلا الشياطين . ومن لنا بالحكم على الشياطين ؟ وهذا ما تنبه له غاندى ذلك المهزول الهندى الذى تُقوِّم دنياه بأربعة شلنات ، ولا

(١) أى المكوية ؛ والكلمة العربية التى استعملت قديماً فى معنى (المكوجى) هى (المطرى) بتشديد الراء

يزن أكثر من بضعة أرطال من الجلد والعظم ، ولا بطش عنده ولا قوة فيه ، وهو مع ذلك جبار سماوى فى يده البرق والرعد يُرى ويُسمع فى أرجاء الدنيا .

قال ضابط اليمين : وبصناعة الكبراء هـذه الصناعة يكون رجلُ الشعب من هؤلاء الشرقيين رجلَ تقليد بالطبيعة ، ورجل ذل بالحالة ، ورجل خضوع بالجملة ؛ فليس فى نفسه أنه سيد نفسه ولا سيدُ غيره ، بل أكبر معانيه أن غيره سيد عليه فيكون معه دائماً خيال استعباده

وتكلم ضابط اليسار : ولكن المترجم لم يميز أقواله ، لأن ثلاث عشرة امرأة كنَّ يصرخن فى الرواية الهزلية بلحن طويل يقلن فى أوله : « عاوزين رِجَّالة تدَلَّعْنا . . . . . . » وكانت الموسيقى تصرخ معهن وتولول كأنها هى أيضاً امرأة محرومة ...

***

ثم أرهف المترجم أذنه فقال كبيرهم : إن لهؤلاء الشرقيين ست حواس : الخمس المعروفة وحاسة الخمول الذى خدعتهم عنه الطبيعة البليدة فسموه الترف والهزل واللهو ، والأمة الأوربية التى تحتلّ بلاداً شرقية تجد فيها لصغائر الحياة جيشاً أقوى من جيشها . فعشرة آلاف جندى بعتادهم وآلاتهم لا يصنعون شيئاً إلا الاستفزاز والتحدى وإثبات أنهم غاصبون ، ولكن ما أنت قائل فى عشرة آلاف مكان كهذا المسرح براقصاته ومومساته وخموره ورواياته وبهؤلاء الرجال المخنثين الهزليين الرّقعاء الذين هم وحدهم معاهدة سياسية ناجحة بيننا وبين شباب الأمة . . . ؟

قال ضابط اليمين : نعم إن فن الاحتلال فن عسكرى فى الأول ولكنه فن أخلاق فى الآخر ؛ ولهذا يجب تعيين نقطة اتجاه للشباب تكون مضيئة لامعة جذابة مغرية ولكنها فى ذات الوقت محرقة أيضاً ، وهذه هى صناعة إهلاك الشباب بالضوء الجميل ، وما على السياسى الحاذق فى الشرق إلا أن يحمى الرذيلة ، فان الرذيلة ستعرف له صنيعه وتحميه . . . فتكلم ضابط اليسار ، ولكن صوته ذهب فى عشرين صوتاً من رجال المسرح ونسائه يصيحون جميعاً : « يا حِلوة يا خفَّافى يا مجنِّنة الشبان . . . »

***

ولما ألمت بحوار الضباط الثلاثة قلت لصاحبى : استأذن لى عليهم أكلمهم . ففعل وعرفنى اليهم وترجم لهم مقالة (ياشباب العرب) وكان يحملها . فكأنما رماهم منها بالجيش والأسطول .

ثم قلت لكبيرهم : لست أنكر أن الانجليزى لو دخل جهنم لدخلها انجليزيا . . ولا أجحد أن له فى الحياة مثل هداية الحيوان لأنه رجل عملى دليل منفعته أنها منفعته وحَسْبُ ، ثم لا دليل غير هـذا ولا يقبل إلا هذا . فاذا قال الشرق (حقّ) وقال الانجليزى (منفعتى) بطلت كل الأدلة ، ورأى الشرق أنه مع الانجليزى كالذى يحاول أن يقنع الذئب بقانون الفضيلة والرحمة

وقد عرفنا أن فى السياسة عجائب ، منها ما يشبه أن يلقى انسانٌ انسانا فيقول له : ياسيدى العزيز ، بكل احترام أرجو أن تتلقى منى هذه الصفعة . . . . وفى السياسة مواعيد عجيبة : منها ما يشبه غرس شجرة للفقراء والمساكين والتوكيد لهم بالايمان أنها ستثمر رُغْفاناً مخبوزة . . . . ثم بعد ذلك تطعَّم فتثمر الرغفان المخبوزة حشوُها اللحمُ والإدام

وفى السياسة محاربة المساجد بالمراقص ، ومحاربة الزوجات بالمومسات ، ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر ، ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة . ولكن لو فهم الشباب أن أما كن اللهو فى كل معانيها ليست إلا غدرا بالوطن فى كل معانيه ! ولو عرف الشباب أن محاربة اللهو هى أول المعركة السياسية الفاصلة ! ولو أدرك الشاب أن أول حق الوطن عليه أن يحمل فى نفسه معنى الشعب لا معنى نفسه ! ولو رجع الدين الاسلامى كما هو فى طبيعته آلةً حربية تصنع من الشباب رجال القوة ! ولو علم الشباب أن روح هذا الدين ليست : اعتقدْ ولاتعتقد ، ولكن افعلْ ولا تفعل ! ولو أيقن الشباب أن فرائض هذا الدين ليست إلا وسائل عملية لامتلاء النفس بمعانى التقديس ! ولو فهم الشباب أن ليس فى الكون إلا هذه المعانى تجعل النفس فوق المادة وفوق الخوف وفوق الذل وفوق الموت نفسه ! ولو بحث الشباب النفس الانجليزية القوية ليعرف بالبرهان أنها نصفُ مسلمة فكيف بها لو كانت مسلمة ؟ . . . .

***

وكان المترجم ينقل اليهم كلامى فما بلغت الى حيث بلغت حتى شدّ الضابط على يدى وهزّها ؛ فنظرت فاذا أنا قد كنت نائما بعد سهرة طويلة فى ذلك المسرح ، وإذا يد المترجم نفسه هى التى تهزنى لأنتبه

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه : الكلام خيالى ولا أصل له ، كما مللت أن أقول وأؤكد فى كل مرة)

— ٥ —

قالوا لى أمس فى البيت : « قم ركب لنا هذه الستائر ! »

فقلت : « ستائر ؟ ؟ ياحفيظ ! ! ياناس ما هـذا الحال المقلوب ؟ . . فى الشتاء نرفع الأستار ، وفى الصيف الحامى نضعها لتزيد الوقدة وليعظم البلاء ! ؟ أما إن هذا لعجيب ! »

قالوا : « بل هى تحجب الشمس التى بهت منها لون السجاجيد ... »

قلت : « كونوا منصفين .. السجاجيد قديمة ، وعسير أن نطلب من القديم البالى أن يكون له لون الجديد الطريف الزاهى .. خذوا مثلاً هذه الخادمة العجوز ... هل كان وجهها مغضناً هكذا فى صباها ؟ أو كان شعرها كما هو الآن أبيض ؟ وهل كانت عيناها كعين الموتى — لا حياة فيها ولا معنى ولا تعبير ؟ »

قالوا : « دع الخادمة فان ذنبها اليك معروف ... لو كانت شابة لأغضيت عن كل عيب »

فاعترضت على هذا الرأى السيء والاتهام القبيح لذوق ، ولكنهم ردونى إلى موضوع الستائر الذى أردت أن أستطرد عنه إلى حديث آخر ، فقلت : « الأمر لله .. إنما ينبغى أن تجيئونى بالأدوات اللازمة كلها .. يعنى السلم والمسامير الصالحة لعمل فنى دقيق كهذا .. وهاتوا أيضاً قلماً (أى فأساً صغيرة) ، فما أستطيع أن أستعمل هذا المعول الضخم ، فانى كما تعلمون رجل رقيق مترف .. ثم لا بد من تمليس الحائط بعد دق المسامير فيه ، وإلا بدا للعين الفاحصة متضرساً غير مستو ... »

فلم يجيئونى بما كان من حقى أن أطالب به وأصر عليه ؛ وإنمـا جاءوا بمطرقة كبيرة أحتاج فى حملها إلى رجلين مثلى ، ووضعوا فى يدى مسامير كالتى كانت فى فلك نوح ... لا تصلح لهذا الزمن أبداً ... ولـكنى كما لا يعرف القراء رجل تضحية — وما أكثر ما أتقبل بالصبر — ومن غير تعليق طويل — ما يمتحننى به الزمن القادر . لذلك دعوت الله فى سرى أن يبيض وجهى ، فان سواده الحالى كاف جداً ؛ وشرعت أعمل ؛ ولكن هل تركونى أعمل كما ينبغى أن يفعلوا لأكسب رضاهم بعرق جبينى ؟ كلا ... فقد أحاطوا بالسلم وجعلوا يصدرون إلىّ أوامر غير معقولة . فقلت لنفسى : « إن جدالهم عبث ، فدعهم فى جهلهم واتركهم ولا تجبهم فانهم يحبون الكلام . وماذا على أن يثرثروا .. » ولم أجعل بالى اليهم ، ولم أرد عليهم ، ورجوت أن يشغلوا بالحديث والثرثرة عما عدا ذلك . ولكنهم لما يئسوا من إصغائى لهم جعلوا يهزون السلم لألتفت ، فحدث ما كان لا بد أن يحدث ، وما كان طفل صغير يستطيع أن يتوقعه ؛ ذلك أنى اضطربت وأنا على السلم ، وكنت أهم بدق مسمار ، فوقعت المطرقة على أصابعى لا على رأس المسمار كما كان ينبغى أن تفعل لو كان لها عقل ! فصرخت .. وهل أناحجر ؟ ؟ ثم ما أشعر إلا والسلم يهوى بى إلى الأرض ... وقد كانت أيديهم عليه ، وكان فى وسعهم أن يمنعوا سقوطى وسقوط السلم معى ، ولـكنى دققت أصابعى فيجب أن يضحكوا ! ! نعم ضحكوا ، بل قهقهوا ، بدلاً من أن يأسفوا أو يقلقوا علىّ ، أو يحزنوا لما أصابنى فى سبيلهم ، فتركوا السلم يفعل بى ما يشاء ... وقد أسمعتهم رأيى الصريح فيهم وفى هذا الكفران لنعمتى ، والجحود لفضلى ، وفى تعريضى للمضرات ، وفى أنهم إذا حاق بى مكروه فى سبيلهم ضحكوا وسروا وفرحوا جدا .... ثم تركتهم ومضيت أظلع — فوق ظلعى — إلى النافذة ، وكنت أفرك أصابعى لأسويها وأرد اليها استدارتها فقد عجنتها المطرقة ، ولألطف الألم أيضاً فانى لست بحجر كما أسلفت ، وإذا بذات الثوب الأرجوانى واقفة فى شرفتها تضحك كما يضحكون ! ! فنظرت اليها آسفاً وقلت — كما قال يوليوس قيصر حينما طعنه بروتس — : « وأنت أيضاً ؟ ؟ » ولولا أن وقع المطرقة على أصابعى لم يفقدنى حبى للحياة ولم يضعف إرادتها فى نفسى لتمثلت بقول القائل : « فياموت زر إن الحياة ذميمة » ولـكن الحياة ليست ذميمة على الرغم من المسامير العتيقة والمطارق الطائشة التى لاعقل لها فى رأسها الناشف والأهل الجاحدين والحبيبة التى يسرها أن تفرم أصابعك وتلتوى ساقك ، بل هى جميلة — أعنى الحياة ومرضية على كل حال وحميدة كيفما كانت — بل أعنى الحبيبة أيضاً وإن كانت تسخطنى ولا ترضينى ، ولا أدرى مالذتها التى تستفيدها من هذه المكابدة ؟ ؟

والله إن النساء أمرهن عجيب !! هذه ذات الثوب الأرجوانى تفتح النافذة وتنظر ثم توليني جنبها ، وما شبعت من وجهها ، ثم تدير لى ظهرها ثم تهز رأسها فينتشر شعرها الجميل ويعود كالشمسية المفتوحة ثم ينسدل على جانبى وجهها ثم ترمى إلىّ نظرة سريعة جداً يغيب عنى معناها من شدة السرعة — مضافاً اليها البعد — ثم تدخل وتختفى ! ! ماذا كسبت بالله من هذا ؟ ؟ . وما حيلتى إلا أن أهز رأسى أنا أيضاً وأقول لنفسى إن أصحاب العقول فى راحة ! ولو كانت تسمعنى لغضبت ، ولكنها بعيدة فأنا أقول ما أشاء وأنا آمن ! . .

ومكايدة أخرى . . ظهرت — لى — فى الشرفة يوماً فى ثوب أزرق لا أحبه ، وكنت لا بساً ثيابى ومتهيئاً للخروج فما أستطيع أن أقضى حياتى فى شرفة — كما تفعل هى — وإذا بها تدخل ثم تعود فى ثوب أبيض جميل من الحرير الأبيض له شقتان واحدة على الصدر والأخرى تحتها على سائر البدن إلى القدمين ، وعلى رأسها قبعة بيضاء كقلبها — مجازاً فما فتح لى قلبها إلى الآن — تثنى حافتها على حاجبها الأيسر دلالاً . فقلت لنفسى : « إلى أين إن شاء الله ؟ ؟ وإنها لحادثة فما رأيتها قط تخرج ، بل هى بشرى تنعش الأمل . إذ ما دامت تخرج فلا موجب لليأس ، وإذا بها بعد قليل خارجة من باب البيت ، ولكن مع أهلها ! ! . فسبحان الله العظيم ! ! وهل كان لا بد من هؤلاء الأهل ؟ ما فائدتهم أو ما الضرورة اليهم على كل حال ؟ ؟ ثم إن الأهل لا داعى للحرص على الاتصال بهم وملازمتهم لأنهم فى الحقيقة ثمرات المصادفة البحت والاتفاق المحض . الأخ مثلا شىء يجىء مصادفة .. ولو كان أبى — ولست أتكلم عن نفسى وإنما أضرب مثلاً تأييداً لنظريتى ليس إلا — أقول لو كان أبى مات قبل أن يموت بأربع سنوات أو خمس — وهو قد مات على كل حال ، فما ضر أن يموت قبل ذلك ؟ — لما صار لى أخ ، ولكنه اتفق أن عمر أبى طال أكثر مما كان ينبغى — إذا اعتبرنا الذرية والاسراف الذى لم يدع لنا ميراثاً يستحق الذكر — فصار لى أخ كان من الممكن ألا يكون لو أن أبى كان عاقلاً مقتصداً — على الأقل فى الأبناء — وقل مثل ذلك عن الأب والأم وأبناء العم وبنات الخال إلى آخر هذا البلاء الطويل فانهم جميعاً أقارب بالمصادفة ليس إلا . . . فلماذا يجب أن أحبهم وأراعى مزاجهم وأتحرى مرضاتهم ؟ ؟ ولا بأس بالحب فانى مستعد أن أحب الدنيا كلها ما دام هذا الحب لا يضايقنى ولا يفرض على أعباء لا أطيقها أو لا أستسهل حملها .. ولكن الملازمة وتوخى المرضاة هذا تكليف ثقيل جداً . هذه المسكينة مثلاً لا بد أن تخرج مع أخيها أو أبيها أو لا أدرى من أيضاً من هؤلاء الذين هم أهلها بالصدفة . . . لماذا ؟ ؟ ماذا جنت ؟ ؟ ما ذنبها هى إذا كان هذا أو ذاك قد شاء أن يكون أخاها أو عمها أو أمها ؟ . . لماذا لا تخرج وحدها فيتيسر أن تشعر بأن لها وجودا خاصاً مستقلا عن وجود هؤلاء الآباء والأمهات والأخوة والأعمام والخالات الخ ؟ ؟ والحق أقول أنى تحسرت عليها ولها ، فانها مسكينة ولا شك تحيا حياة مرهونة بحيوات أخرى على حين لكل من هؤلاء الآخرين حياته الخاصة المستقلة التى لا علاقة لها بحياة هذه الفتاة

وقد كانت تضحك وهى واقفة تنتظر الترام مع أقرباء الصدفة ومن حقها أن تضحك ، فقد نزلت الى الأرض وداست قشرتها الصلبة بقدميها الصغيرتين وركبت الترام — أو هى ستركبه بعد دقيقة — ورأت الناس عن قرب بعد أن كانت تراهم عن بعد كالأشباح ، وألفت نفسها سابحة فى لجة الحياة التى لا يمكن أن تحسها أو تدركها وهى فى شرفتها . . . نعم كانت فى المريخ تحلم بدنيا لا تعرفها فهبطت اليها وصار الحلم حقيقة والظن يقينا . . . فلها أن تضحك وتسر

وأنا ؟ أنا أبدى لها المودة فتتلقاها بهذه الجفوة والنفور والتخفى والتدلل كأنما أسىء اليها بحبى لها ، وأجنى عليها بميلى اليها ، أو كأنما من الشتم لها أنى تركت مئات ومئات من الفتيات وآثرتها عليهن جميعاً ! ! فلو أنى كنت أبدى لها الكره والاستخفاف والاشمئزاز أكانت تقابلنى بشر من هذا ؟ ؟ كلا ! بل كانت حينئذ تتعمد أن تبدو لى وتتكلف أن يكون ظهورها فى حفل من الزينة ، لأنه كان يشق عليها فى تلك الحالة أن رجلا لم يصْبُ اليها ، ولم يفتنه جمالها ، ولم يسب لبه حسنها ، وكان هذا الاحساس خليقاً أن يدفعها الى التحدى — غير أنه تحد ينطوى على استجداء للاعجاب من الرجل . وأنا أقول الاستجداء وأعنى ما أقول بلا نقص . ذلك أن الجمال هو السلاح الوحيد الذى وهبَتْهُ المرأة ، وليس لها فى كفاحها فى الحياة سلاح غيره ، فاذا فقدته فحكمها هو حكم كل مناضل ليس له سلاح ، وصار أعزل لا يملك كرا ولا فرا ولا مصاولة ولا محاورة ولا مداورة . وماذا يملك الأعزل أمام الشاكى إلا أن يذعن لقضاء

الله فيه ولتحكم القوة المسلح ؟ ؟ ولا فرق بين أن تفقد السلاح الذى تصول به وتجول ، وبين أن يثبت لك أنه قد صار لا فعل له فان عمل السلاح ومزيته أن يحدث أثره لا أن يكون فى يدك والسلام . فاذا لم يكن له أثر كان أن يكون قد فله شىء ، أو لاقى ما يثنيه أو يرده أو ما يصبر على وقعه ولا يتضعضع أمامه ، فهو وعدمه سيان ؟ كذلك المرأة — إذا فقد سلاحُها قيمتَه فلم يعد جمالها يحدث أثره المطلوب فى نفس الرجل فانها تكون فيما تحس حيال هذا الرجل عزلاء لا حول لها ولا طول فلا يسعها إلا أن تخضع وتذعن وتروح تستجدى العطف وتلتمس الرضى ، وتتوسل اليه باللين والمصانعة والتحبب والاغراء بعرض كل ما عندها من المفاتن . وكأنى بذات الثوب الأرجوانى قد خيل اليها أنها قد ضمنت حبى واستوثقت منه ، فهى لا تباليني لأنها فى ظنها منى على يقين ، وأولى بها أن تعنى بغزو قلب غير قلبى — قلب آخر لا يزال مستعصيا عليها نابيا فى يديها — أما أنا فقد علق جناحى بالشرك فكيف الفكاك وأين المهرب ؟ وهذا ظن كل امرأة مشوقة من الرجل الذى تعرف أنه يحبها وتأنس منه الصبر على دلالها ، وليس يصرفها عن ذلك إلا أن تساورها الشكوك ، وتدور فى نفسها الوساوس ، ويحك فى صدرها الخوف من ملل الرجل وضجره من هذا العبث . ولو كانت تعرفنى لخافتنى فما أنا ممن يصبرون على هذا اللعب . وإنى لأحبها — أو هكذا يخيل إلىّ — ولكنى فيما أظن أحب نفسى أيضا . وحبى لها هو بعض حبى لنفسى ، وليس الأمر على العكس ، وحب الرجل للمرأة معناه أنه يريدها خالصة لنفسه ، لينعم بها وحده ، ويستأثر بالمتعة المستفادة من جمالها . وليس معناه أنه يريد أن يعذب نفسه وينقص عيشه ويسود وجه الحياة فى عينيه . أما حب المرأة للرجل فمعناه أنها رأته — بغريزتها لا بعقلها فانها تنقاد لغريزتها ولا تفكر بعقلها — أحق رجل بامتلاك زمامها والسيطرة عليها وأكلها وهضمها . فالرجل يحب نفسه حين يحب المرأة أما المرأة فانها تطلب الرق وتسعى للتضحية الكبرى حين تحب الرجل . فهو لهذا أنانى فى حبه ، وهى لهذا مضحية فى حبها . فليس عجيباً أن تحتمل هى المكاره فى سبيل الحب لأن حبها تضحية كبرى فأولى أن تصبر على التضحيات الصغرى ، بل العجيب ألا تصبر ولا تحتمل . أما الرجل فهو كما قلت أنانىّ فلا صبر له على تضحية ولا احتمال منه للعذاب إلا وهو كاره أو عاجز عن الفوز بالراحة ، لأن طبيعة حبه لا تبيح له أن يفهم هذه التضحية ولا تجعله مستعداً لها . ومن هنا كانت المرأة أوفى وكان الرجل أغدر بالمعنى الشائع لا الحقيق ، فان الوفاء من الرجل افلاس نفسى وخيانة لطبيعته التى فطر عليها . وهذا هو الأصل ولذلك رأينا الرجل فى تاريخ الانسانية يتخذ المرأة والمرأتين والثلاث والأربع وتكون له الجوارى فضلا عن الزوجات أو من هن فى حكمهن ، ولم نر المرأة تتخذ من الرجال اثنين أو ثلاثة أو أربعاً ، إلا أن تفعل ذلك سراً وخفيةً وإلماماً . ولكن الرجل لم يكن يعمل هذا سراً بل جهراً ، وكان يقيمهن فى بيت واحد . وكانت المرأة ترضى وتذعن وتسعى سعيها لتكون هى الأثيرة لا الوحيدة . وكان الرجل لا يكف عن الاشتهاء والتطلع الى غير الموجودات ، والتبرم بالموجودات ، وهذا هو قضاء الطبيعة وحكم الفطرة فى الرجل والمرأة . فمن كان يشق عليه أن يقرأ هذا فليتدبر تاريخ الانسانية قبل أن يفتح فمه ، وليحاول أن يعلل هذا التاريخ على وجه مقبول معقول قبل أن يعترض . ثم فليتأمل حاضر الانسان وليسأل نفسه عنه أتراه يختلف عن الماضى إلا فى المظهر دون المخبر والجوهر ؟ ؟

فالوفاء — فيما يتعلق بالرجل — أكذوبة ومنافاة للطبيعة ، ولكنه فيما يتعلق بالمرأة صدق واخلاص للطبيعة ؛ ومن هنا أن المرأة لا تزال تتهم الرجل بالغدر والتحول والتقلب وقلة الثبات . وهذا هو تفسير الغيرة الشديدة من جانب المرأة ، وهى غيرة لا تقاس اليها غيرة الرجل مهما عظمت ، لأن غيرة الرجل على امرأته هى كغيرته على كل ما يملك ؛ فاذا أمن أن يضيع ملكه لم يبال ما دون ذلك مبالاة تذكر ؛ فغيرته فى الكليات لا فى الجزئيات والتوافه ، ولكن غيرة المرأة مرجعها إلى ادراكها — بغريزتها الذكية التى تهديها فى حياتها — إن الرجل لا يستطيع الصبر على الوفاء ، ولا يملك إلا أن يتحول وينقلب فى حبه ، وإلا أن يصرف قلبه من هنا إلى هنا ، فكل حركة منه أو لفتة نذيرٌ منه عندها بوشك هذا التحول ، وفقدان ما كان لها عنده من مقام ومنزلة وايثار ، وعودتها واحدة من مئات الآلاف اللواتى لا يباليهن ولا يحفلهن ولا يحسهن أو يفطن إلى وجودهن ، فهى غيرة على الوجود وكل ما ينطوى عليه من الحقوق والمزايا ، ولذلك لا تنفك مشبوبة مضطرمة

ومن حق ذات الثوب الأرجوانى أن تغار وتقلق ، ويجب

أن أكون منصفاً ، فانى أنا أثرت غيرتها بطول النظر إلى جارتها ، وأقول جارتها وإن كان بينهما مثل ما بينى وبينها هى من البعد

والحق أن جارتها جميلة فاتنة ، ولست أحبها — على الأقل إلى الآن — ولكنى لا أرى ما يمنع أن أحب الاثنتين معاً ، فان لكل منهما مزيتها وخصائص حسنها وتعبيرها الذى لا يشبه تعبير الأخرى ؛ والسمراء ألين وأسلس فى العنان على ما يبدو لى . نعم إن ذات الثوب الأرجوانى أسلم فطرة وأنقى وأخلص سريرةً وأبسط قلباً وأبرأ من العبث ، ولكن تلك شيطانة ملعونة وعفريتة من الجن تجعل الحياة كلها حركة دائمة ، وما قيمة الحياة الراكدة ؟ ؟ على أنى كما قلت لم أحببها بعد ، وإن كنت أعجب بحيويتها الزاخرة . وقد أحبهما معاً ، أو تستأثر بى التى هى أقدر ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

الصراع الحاسم

بين الطغيان والديموقراطية

بقلم باحث دبلوماسى كبير

جازت الديموقراطية المعاصرة مرحلتين حاسمتين فى تاريخها : ففى غداة الهدنة التى اختتمت بها الحرب الكبرى استقبلت الديموقراطية طورا جديدا من القوة والظفر ؛ وكانت الحرب الكبرى من بعض الوجوه صراعا بين الطغيان والديموقراطية ؛ ففى معسكر الطغيان تجتمع الأسر القديمة الطاغية — آل هبسبرج وآل هوهنزلرن — والعسكرية البروسية يحركها أطماع مضطرمة فى السيادة الواسعة ؛ وفى المعسكر الخصيم تجتمع الأمتان العريقتان فى الديموقراطية فرنسا وبريطانيا ؛ وإذن فقد كانت هزيمة الدول الوسطى فى الحرب الكبرى هزيمة للطغيان والملوكية المطلقة ؛ وكان ظفر بريطانيا وفرنسا من بعض الوجوه ظفراً للديموقراطية والنظم الشعبية ؛ وظهرت نتيجة هذا الظفر واضحة فى قيام عدة من الجمهوريات الفتية فى روسيا وألمانيا والنمسا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا ، وفى دول البلطيق الصغرى ؛ فهذه مرحلة ظفر للديموقراطية المعاصرة

ونعمت الديموقراطية بظفرها بضعة أعوام ، ولكنها انحدرت إلى معترك من الشقاق الخطر ، وانقسمت إلى شيع متخاصمة ؛ وبدلاً من أن تجتمع فى معسكر موحد ، أخذت فى نضال عنيف مستمر فيما بينها باسم المبادئ والصيغ المختلفة ما بين اشتراكية وديموقراطية متطرفة ومعتدلة ، حتى دب الفشل إلى صفوفها ؛ وكانت أول نتيجة خطرة لهذا الشقاق قيام الفاشستية فى ايطاليا وسحق الديموقراطية فيها ؛ ولم تلبث قوى الطغيان أن ظفرت تباعا فى بولونيا حيث تقوم حكومات مطلقة تستتر وراء الجمهورية ، ثم فى ألمانيا حيث قامت النازية أو الهتلرية ونظمت أعظم طغيان عرفه التاريخ الحديث ، ثم فى النمسا حيث طغت الأحزاب الفاشستية ؛ وأما فى روسيا ، فان النظام الذى استحدثه البلاشفة للجمهورية الجديدة لم يكن سوى طغيان شنيع يستتر باسم سيادة الطبقات العاملة ؛ كذلك لم تلبث الجمهورية التركية الناشئة أن تحولت إلى طغيان عسكرى مطلق يستتر تحت نظام جمهورى صورى ؛ فهذه مرحلة انحلال للديموقراطية المعاصرة

والآن تبدو فى الأفق ظاهرة جديدة ؛ ولقد ظفرت الديموقراطية فى اسبانيا منذ أعوام قلائل ظفراً مبيناً ، فسحقت الملوكية الطاغية القديمة ، وأقامت حكم الجمهورية والنظم الدستورية ، ولكن هذا النصر كان محلياً ، ولم تفد منه الديموقراطية الأوربية قوة جديدة ، ولكنا نشهد من جهة أخرى وثبة جديدة للديموقراطية الفرنسية ، فقد أسفرت الانتخابات الفرنسية الأخيرة عن فوز عظيم لأحزاب اليسار أنصار الديموقراطية المتطرفة والحريات الدستورية الواسعة ، وهى تتربع الآن فى دست الحكم ؛ وأسفرت الانتخابات البلجيكية فى نفس الوقت عن فوز الأحزاب الاشتراكية ؛ وفى روسيا السوفيتية يتحول الطغيان البلشفى منذ أعوام إلى نوع من النظام الدستورى العام تنمو فى ظله الحريات والحقوق الفردية باطراد ؛ ومنذ أشهر قلائل شهدنا تحالف الديموقراطية الفرنسية ، والديموقراطية السوفيتية فى ميثاق مشترك لمقاومة الخطر الألمانى المشترك . فهذه الظروف والأحداث كلها تنم فى نظرنا عن أن

الديموقراطية الأوربية تدخل فى طور جديد من أطوار نهضتها

ومما يلفت النظر فى عوامل هذه الوثبة الجديدة التى يلوح لنا أن الديموقراطية الأوربية تجيش بها ، هو أن فوز الأحزاب الاشتراكية الفرنسية فى الانتخابات الأخيرة هذا الفوز الشامل يرجع من وجوه كثيرة الى المسألة الحبشية التى أثارتها الفاشستية الايطالية واتخذتها ذريعة للتوسع الاستعمارى المسلح ؛ فقد كان غزو الفاشستية للحبشة وظفرها بالاستيلاء عليها ممزقة بذلك كل العهود والمواثيق التى ارتبطت بها فى العهد القريب ، متحدية أوربا وعصبة الأمم والعالم كله ، مظهراً قوياً من مظاهر ظفر الطغيان المنظم ونفثة خطرة من نفثاته تنذر العالم بأخطر العواقب ، وكان موقف حكومة لافال الفرنسية وتقلبها ونفاقها إزاء المسألة الحبشية ، وما قامت به من المعاونات السرية لحكومة رومة ، أكبر عامل فى تتويج الاعتداء الفاشستى بهذا الظفر الذى تزهو به الفاشستية اليوم وتتخذ منه نذيراً لأوربا ، ؛ فلما ردت السياسة البريطانية على موقف فرنسا فى المسألة الحبشية ، بوقفها فى مسألة الرين وتخليها عن فرنسا ، أدرك الرأى العام الفرنسى أن فرنسا تخاطر بفقد صداقة انكلترا ، فلم ير بدا من التحول فى الانتخابات الأخيرة الى ناحية اليسار لتقوم حكومة تعمل بالتفاهم مع الديموقراطية الانكليزية ، وتتعاون معها على درء خطر الطغيان الفاشستى والطغيان الهتلرى

* * *

ومن الخطأ أن تعتبر هذه الحركات الطاغيــة الخطرة التى تضطرم بشهوة الاعتداء والتوسع حركات محلية لا تعنى سوى الأمم التى تقوم فيها . فالفاشستية مثلاً تزعم لنفسها صفة عامة ، وتدعى أنها أمثل النظم الحديثة للدولة وتدعيم القومية ، وضمان رفاهة الشعب ؛ ويزعم طغاة ألمــانيا الجدد (هتلر وشيعته) أنهم رسل المثل الأعلى للدولة الـكاملة ، والعظمة القومية ، ورفعة الجنس ، وأن نظرية الحريات الدستورية والحقوق العامة هى نظرية خطرة على كيان الأمم ، ويجب أن تكون جميع الحقوق والسلطات متمركزة فى الدولة ، والدولة فى نظرهم هى الحزب النازى ، ويزعم بعض دعاتهم أن هـذا النظام الغاشم سيعيش قروناً . ولقد كان لهذه الحركات والنزاعم بعض الأثر ، فظهرت فى انكلترا حركة فاشستية صغيرة ؛ واشتـد ساعد الجمعيات الرجعية فى فرنسا ، وساعدت على ذلك ظروف سيئة ظهرت فيها النظم الجمهورية بمظهر النظم الفاسدة المفككة ، وعاونت بعض الفضائح الخطيرة مثل فضيحة ستافسكى وغيرها على الاعتقاد بانحلال هذه النظم ووجوب تعديلها ، بل قامت بعض جمعيات تدعو الى اقامة الدكتاتورية انقاذاً لفرنسا من هـذا الفساد الدستورى الخطر ؛ وظهرت فى دول أخرى مثل رومانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا نزعة الى الاقتباس من الفاشستية والنازية ؛ ومن ثم فى وسعنا أن نقارن مبادىء الفاشستية والنازية ، من بعض الوجوه بمبادئ الثورة الفرنسية التى تحدت حدود فرنسا واجتمعت حكومات أوربا المطلقة على مقاومتها

والآن نرى فى أوربا معسكرين عظيمين يتأهب كل منهما لمكافحة الآخر ؛ يتألف أحدهما من انكلترا وفرنســا وبلجيكا وروسيا ؛ ويتألف الثانى من المانيا وايطاليا ؛ وينحاز لـكل منهما بعض الدول الصغيرة ؛ فاذا تأملنا فى هذا التكوين من الناحية الدستورية الفينا الديموقراطية ممثلة فى الطريق الأول ، والنظم الطاغية ــ الفاشستية والنازية ــ ممثلة فى الطريق الآخر ؛ وقد رأينا أن الحرب الـكبرى قامت على مثل هذا التقسيم فى القوى المتحاربة ؛ وأن الدائرة قد دارت على الحكومات المطلقة وعقد النصر للدول الديموقراطية ؛ وإذا تأملنا تاريخ أوربا خلال القرن التاسع عشر ، لمحنا أثر هذا النضال الدستورى فى معظم الحروب والمعارك التى دارت رحاها فيه ؛ فقد عقدت المعاهدة المقدسة فى سنة١٨١٥ بين قيصر روسيا ، وإمبراطور النمسا ، وملك بروسيا ، أو بعبارة أخرى بين الأسر الثلاث التى تمثل الحكم المطلق وتتذرع بالحق الالـهى ، وهم آل رومانوف ، وآل هبسبرج ، وآل هوهنزلرن ، وغرضها الظـاهر توثيق عرى الأخوة المسيحية والتحالف بين الدول الثلاث ، وغرضها الحقيقى مقاومة الحركات الشعبية والدستورية ؛ وقد كانت أوربا طوال هذه القرن كله مسرحاً لـكثير من هذه الحركات التى ترمى إلى الحد من طغيان الحكم المطلق ومساوئه ، وتنمية الحقوق العامة للفرد سواء فى الدولة أو المجتمع

إن مجرى الســياسة الدولية الحالية يفصح بذاته عن مظاهر

تلك المعركة الكبرى التي يسير هذان المعسكران إلى خوضها ؛ فانكلترا وفرنسا تعملان من ناحية على مؤازرة عصبة الأمم ، واقالتها من عثرتها السحيقة في المسألة الحبشية ، ومن ورائهما السوفييت ودول أوربا الصغرى كلها تؤيد هذه الحركة ، لأن مبدأ السلامة المشتركة الذي أريد أن يكون دستور عصبة الأمم ضماناً لتحقيقه ، قد صار بعد ظفر الفاشستية المعتدية بالاستيلاء على الحبشة — وهي من أعضاء العصبة — عقيماً لا أثر له من الوجهة الدولية ؛ والدول الصغرى أضحت تخشى على مصايرها بعد انهيار هـذا الضمان المشترك الذي كانت تعتمد عليه . ونرى من جهة أخرى إيطاليا وألمانيا تسخران من عصبة الأمم ، ولا تدخران وسعاً في مناوأتهـا وعرقلة أعمالها لأن توطيد السلامة المشتركة وحريات الأمم وحقوقها إذا تحقق بعمل دولي قوي من جانب الدول الديموقراطية ، فانه يقف سداً في وجه أطماعهما في التوسع والاستعمار ، ويؤدي إلى ضعف النظم الداخلية التي تغذي هـذه النزعة الخطرة على حقوق الأمم وحرياتها

والخلاصة أنه حيثما تأملنا في نواحي السياسـة الدولية ألفينا مظاهر المعركة الحاسمة التي يوشك أن تخوضها الديموقراطية . والديموقراطية تلتزم خطة الدفاع لأنهـا بطبيعتها أقل ميلاً إلى الحرب ، ولأن الدول التي تمثلها ، هي فريق الدولة الراضية المستأثرة بالسيادة الاستعمارية الواسعة والموارد الغنية ؛ ولكنها ستضطر إلى الدفاع عن نفسها إذا هوجمت ، وعندئذ تقع معركة الفصل في مصاير أوربا الجغرافية والدستورية ، وتقع معركة الفصل في مصاير المدنية ، فاما أن تفوز الديموقراطية فتفوز بذلك المدنية المؤسسة على احترام الحقوق والحريات البشرية ، وإما أن تفوز مبادىء القوة الهمجية التي تنادي بهـا الفاشستية والهتلرية ، وعندئذ تنهار نظم الحضارة المستنيرة وترجع أوربا إلى نظم العصور الوسطى

ولكن الديموقراطية التي صمدت لهذه القوى الهمجية منذ القرن التاسع عشر تستطيع بلا مراء أن تدافع عن نفسها ومن ورائها الرأي المستنير في العالم كله

***

هـــنري روبير

عضو الأكاديمية الفرنسية ونقيب المحامين

للأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

إلى المحاماة ، في شخص المحامي الأول ، والنقيب الأول ، ابراهيم الهلباوي بك

في ١٣ مايو الماضي مات هنري روبير نقيب المحامين في باريس وعضو الأكاديمية ، ووقف لتأبينه النقيب « دي مورو چيافري » فقال : « إن المحاماة قد فقدت اليوم أكبر رجل رفع من شأنها منذ عهد بربيه » . وهي عبارة تعطيك أبلغ فكرة عن مكانة هنري روبير في التاريخ ؛ فلعل « بربيه » أكبر رجال المحاماة في التاريخ الفرنسي ؛ هو الذي حمل لواء الدفاع عن « لامنيه » ، وعن « شاتو بريان » ضد لويس فيليب عند ما هتف قائلاً للدوقة « دي برّي » : سيدتي ، إن ابنك هو الملك . وكان لويس فيليب يومئذ هو الملك ! ثم ترافع عن البرنس لويس نابليون عند ما طلب إعدامه فأنقذه دفاع « بربيه » ليصير بعد سنين جلالة الأمبراطور ، وهو الذي كان يدافع عن المتهم في إحدى جنايات القتل فأخذ محامي المدعي المدني « النقيب كرسّون » يحذر القضاة من عبقرية الدفاع الذي سيسمعونه من فخر التاريخ القضائي في فرنسا . فاذا جاء هنري روبير بعد هذا الرجل الخالد دون أن يقف أمامه ش دستايج أو ليون ديڤال أو جول فافر أو روس أو « ألو » أو محامي مدام لافارج الذي كان يقول عن نفسه : (أنا الدفاع » صديق الأمبراطور الشخصي أعني « لاشو » ؛ ثم باربو ؛ ثم لابوري ، لابوري الهائل ، الذي نفذ رصاص الحمق إلى جسده ولم ينفذ الرعب إلى قلبه ، فطلب تأجيل قضية إميل زولا حتى يبرح المستشفى ليترافع ضـد الجيش وحزب الجيش ومنهم مطلق الرصاص ؛ لابوري الذي قال عنه هنري روبير وهو يلقي الكلام في تأبينه : « قوة من قوى الطبيعة ومارد في موقف الدفاع » ؛ ثم دي بوي أستاذ بوانكاريه ؛ والرئيس أو النقيب بوانكاريه نفسه ، محامي جونكور وجائزة جونكور ووصية جونكور ؛ والرئيس ڤيڤياني أو البلاغة كما كان يسميه بنو العصر ؛ وشني « أفضلنا » كما كان يقول هنري روبير ؛ ووالدك روسو ؛ والنقيب

«بوتو» حفيد النقيبين أو قل وزيرى الخفانية بوتو وباروش .. كل أولئك لابراهم جيافرى قد أعلوا من شأن المحاماة مثلما أعلى من شأنها هنرى روبير ...

وفى الحق أن هنرى روبير قد بلغ ذلك الأوج لظروف خاصة ؛ فهو قد ظل ربع قرن كامل محامى فرنسا الأول ، حتى ليكاد المرء يخاله قد وصف نفسه عندما وصف فيكتور هوجو بأنه استوى على عرش الأدب نصف قرن كأنه نصف إله ؛ وفرنسا أمة محامين تحكمها حكومة محامين . وكان هنرى روبير «نقيب الحرب» كما كانوا يقولون إذ ظل نقيباً لمدة اربع سنوات دون أن يعاد الانتخاب ؛ فالمحامون كانوا جميعاً فى الخنادق ، ولم يكن لذلك بد من تأجيل الانتخابات ؛ وبذلك اقترن اسمه بالنظام القضائى طيلة أيام المحنة . وكان يلقى فى تأبين المحامين الذين تفقدهم فرنسا كلمات خالدة تخلب الألباب . وكان يمثل المحاماة فى كل معترك ، ويحمل رداءها فى كل حفل . وهكذا حمل اسمها ولواءها عند الكافة . فلما خمد لهيب جهنم لم تخب تلك الشهوة اللامعة فارتفعت بصاحبها من مستوى الذين يموتون إلى مستوى الذين لا يموتون فى سنة ١٩٢٣ خلفاً لريبو . وكانت آخر كلمة له فى المجمع تأبين الفقيد الجليل جاك باشيل ؛ حتى إذا تفرغ للتأليف من سنة ١٩٢٨ أخذ يقرؤه عالم الأدباء بعد أن كان يقرأ عنه ، وبعد أن كان محامياً عن الأفراد أصبح محامياً عن المحاماة ؛ وبعد أن كان اسمه يذكر بمناسبات أصبح اسمه يدوى فى المسامع باستمرار

وظل هنرى روبير طول أيامه عزوفاً عن السياسة معتزاً بالمحاماة ، فلم يغب باسمه ولا بجسمه عن قصر بوربون

الى تلك الملابسات التى أحاطت بالرجل كان الرجل نفسه كنزاً زاخراً حافلاً بالكفايات، والكفايات فى أمة كفرنسا وفى وسط كالمحاماة يندر أن تضيع

هذه الشخصية الخالدة يجب أن ندرسها فى مصر ، ولوفى عجالة وبايجاز . ولعلى بهذا البحث أشق الطريق للأدب المرجو الذى أنادى به من عشر سنين : أدب المحاماة

* * *

ولد هنرى روبير فى ٤ سبتمبر سنه ١٨٦٣ ، وفى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٥ حلف اليمين لينتظم فى سلك المحامين . وفى يوليو سنة ١٨٨٧ انتخب سكرتيراً لمؤتمر المحامين وانتخب معه اثنان آخران يكفى أن تعرف اسميهما لتدرك مقدار ما يتضامن الماضى مع المستقبل ، فأولهما الأستاذ واتين الذى يتولى اليوم توزيع العدالة وشرع الأحكام فى كرسيه فى رياسة دائرة محكمة النقض ؛ وأما ثانيهما فانه فرنان لابورى : وما أدراك ما لابورى ؟ لسان الدفاع عن ڤايان الذى ألقى القنبلة الأولى على مجلس النواب ، ذلك الدفاع الذى لا نستطيع بعد قراءته إلا أن نتساءل مع هنرى روبير : «كيف لم يبرئوا المتهم ؟» ولسان الدفاع عن أميل زولا ؛ الدفاع الذى أفقده أمواله وعملاءه وأكسبه الفخار والشرف : والذى نقل الى الأجيال أروع كلمة قالها محام فى الذب عن حياض المحاماة ؛ فعند ما هوت من فم النائب العام — وهو جالس على كرسيه بجوار المحكمة فى أعلى القاعة — كلمة جارحة بالنسبة للابورى صرخ صرخته الداوية فى وجه النائب : «إن الشتائم التى تُساقطها من كرسيك الرفيع لن تستطيع — مهما كان كرسيك عالياً — أن ترقى الى المنصة التى يترافع منها الدفاع»

ولم يكد هنرى روبير يستمرئ حلاوة ظفره فى الانتخاب حتى اختاره النقيب دربيه سكرتيراً له وولاه أعمال مكتبه فى أول أكتوبر سنة ١٨٨٧

وقضى السكرتير الجديد بمكتب النقيب سنتين حتى قبض الله إليه النقيب فلم تبرح ذا كرته ذكراه حتى قضى هو الآخر ؛ فتراه يهدى إليه بعد أربعين عاماً كتابه «المحامى» ، فتراه يختصه بأروع الصفحات فى بعض مؤلفاته ؛ فلقد كان دربيه أباً يخاص الحب ، ولم يكن أستاذاً فحسب ؛ كان يفتح صدره لسكرتيره ، وكان يفتح أمامه أيضاً أبواب داره . وفى نوفمبر سنة ١٨٨٨ رحل النقيب والسكرتير للمرافعة فى قضية القتل التى قارفها تلميذ پول پورچيه وصديقه كاميج والتى أوحت لعميد الأكاديمية المتوفى (پورچيه) أروع مؤلفاته وهو كتاب «التلميذ» ، فلقد قتل كاميج عشيقته الفاضلة مدام جربل بعد أن تعاهدا على الانتحار فأصابها ثم أخطأ نفسه ؛ فترافع دربيه ومن ورائه هنرى روبير ففتح لنفسه طريق الخلود

وفى ذات ليلة انتقلت هيأة الدفاع كاملة ! على ضوء الشموع ، لا الى المحكمة ولكن الى المقهى ، ولا لتطلع على المستندات ولكن لتطلع على رقص «أولاد نايل» ، فهمس دربيه فى أذن سكرتيره : (يا صديق ما ذا يقول مجلس النقابة إذا رآنا هنا ؟) فأجابه زعيم

الارتجال « هو بلا شك يحسدك يا سيدى النقيب ! »

وأخذ هنرى روبير يمشى قدماً فى عالم المحاماة ، وكانت الحياة رخية فى أعقاب حرب السبعين الى فاتحة القرن الحالى ، فلم يكن يخشى على الكفايات الممتازة من منافسة الجشع والخسة والأساليب الدنسة التى تخلقها ظروف الحياة العصيبة ، فتهيأت للمحامى الناشئ قضايا هائلة ظهر فيها هائلاً أيضاً ، فترافع عن جبريل بومبار فى سنة ١٨٩٠ ليستل رأسها من تحت المشنقة ، وعن واشيه المتهم بقتل أبيه ليظفر لدولمن معه ببراءة خالصة وفى سنة ١٨٩٨ ترافع عن الطبيب لابورت مرافعته الخالدة . وفى سنة ١٩٠٢ ترافع عن مدام همبير ضد الصيرفى قطاوى واختتمها بتلك الكلمة التى اختتم بها الأستاذ سابا حبشى مرافعته القيمة فى قضية نزاهة الحكم « ... وستثبتون براءة مدام همبير أنكم تصدرون أحكاماً ولا تؤدون خدمات » وفى سنة ١٩٠٤ ترافع عن المهندس بيير فى مقتل كاديو ، وفى سنة ١٩٠٨ فى مقتل ريمى الخ الخ . . وفى سنة ١٩٢٥ ترافع عن بوربووش وفى سنة ١٩٢٩ ترافع عن الجنرال ميشيل فنال له ما عجز عن نيله أستاذ الجيل « لاشو » فى محاكمة المارشال بازان عن موقفه فى حرب السبعين ، ثم عن الحسناء البولونية فالنتين أو متسكا ، ثم عن القسيس هيجى ، ويومئذ اختتم مرافعته أمام محكمة جنايات السين بما ختم به عمله القضائى الخالد أمام تلك المحكمة قائلاً : « . . أيها الأب . . صح معى وبأعلى صوتك : فلتحى فرنسا . »

* * *

فما هى إذن تلك الكفايات التى رفعت صاحبنا وصاحبها إلى تلك الذروة ؟ الجواب عندى يتلخص فى كلمة واحدة هى : أنه كان يفهم قضاياه كما كان يفهم عقلية القضاة ؛ وهـذا هو الذى جعله يحق أحدث القدماء وأقدم المحدثين . وبعبارة واضحة هـذا هو الذى جعله مترافعاً عظيما فى أواخر قرن البخار ، مترافعاً عظيما فى أوائل قرن اللاسلكى ؛ بل بعبارة أوضح هذا هو الذى جعله يكيف المرافعات « التقليدية » التى كانت آية البيان فى أعقاب الحرب الأولى ، أعنى حرب السبعين بما يستسيغه القضاة بعد الحرب الثانية فى سنة ١٩٢٠ : هؤلاء القضاة الذين يضعون الساعة أمام عيونهم فان لم يضعوها أمامهم تصوروها كائنة فى رؤوسهم . . . تدق باستمرار . . . . !

نحن الآن فى المحكمة ، وهذا هو النائب العام يترافع ؛ وذلك محام هادىء يكاد ينام ؛ لكنه نهض الآن ، رفيع القامة ، رفيع المقام ، يتكلم فى سرعة غريبة كأنه يخشى أن يدفع ضده بفوات الميعاد ! إنه يتكلم كأنه يتحدث ؛ وها قد مضت خمس دقائق دون أن يظهر لك أنه محام كبير ، لكنه قد أوغل فى صميم الموضوع فوراً ، وحميت الوقدة واندلع لهيب النار ، فهو يضرب يميناً ويضرب شمالاً وبقسوة وبصوت محترم ، والحجج تنساق متدافعة معجلة إلى أسماع المحلفين فيعجبون لتقديم هذا المتهم البرىء ! وفى عشرين دقيقة أو ثلاثين !! يبدو لهم أن النائب المترافع كان يسىء استعمال وقتهم عدة ساعات فى مرافعاته ضد رجل طاهر كالطهر ، مظلوم كالمسيح

تلك كانت صورة هنرى روبير وهو يترافع كما حكى لنا سامعوه ومؤرخوه وكما يظهر لنا من كتاباته

حدثنا هنرى روبير عن رجل من أرباب القضايا دخل القاعة فوجد محامياً يترافع ، فتساءل من الأستاذ ؟ فقيل له إنه الأستاذ « أنتل » قال : كيف هـذا ؟ إنه يتحدث فى بساطة مجردة ! لا يمكن أن يكون هذا هو الاستاذ أنتل البعيد الصيت !

فاذا رجعت إلى كتاب الأستاذ الجداوى المسمى « مرافعات » وجدت أن الأستاذ الجداوى هو ذلك الرجل الذى دخل القاعة ، وأن المحامى الذى تساءل عنه وتلقى الجواب بدهشة وباعجاب لم يكن الأستاذ آنتل بالطبع ولكنه كان الأستاذ هنرى روبير . !

وفى مقال بعث به إلى Candide فقرأه الأحياء فى ٢١ مايو الماضى بعد أن كان هو قد سقط من سجل الأحياء ! . . فى ذلك المقال المعنون : « فتحت الجلسة » محض هنرى روبير المحامين النصح أن يقرأوا مرافعات « والدك روسو » ليتعلموا فن « البساطة والسهولة والدقة » . وفى كتاب (المحامى) يهيب بالمحامى أن يتذكر أنه يقف أمام القضاء « ليقنع لا ليلمع » وأن القرن السادس عشر قد حمل الينا وديعة من أجيال الفصاحة القضائية الأولى هى أن تترافع « باختصار وبلباقة وباخلاص » ؛ وعلى ذلك تجد مؤلفاته كمرافعاته ؛ فهو يبدأ مرافعاته لينتهى منها بسرعة وحرارة ، وأنت تبدأ قراءة كتبه فلا تستطيع أن تدع الكتاب حتى تصل إلى خاتمته ؛ وهـذا كتاب قضايا التاريخ الكبرى يعرض للناس أفظع ما اجترح الضمير الانسانى من أوزار وحيل وخبائث ، وهذه مرافعته الفنية عن الدكتور لابورت ، كل تلك الاعمال يبسطها روبير فتروعك بسهولة عبارتها وسحر دلالتها

حتى لكأنها دروس تلقى على التلاميذ .. !

ذلك لأنه كان يفهم قضاياه فيعرضها من حيث يجب أن تعرض ؛ ومادام يفهمها فهو ـ بأسلوبه ـ قمين أن يُفهمها ؛ ومن المسلم به أن الذى لا يفهم لا يستطيع أن يُفْهِم ، وأن تبسيط الأشياء أصعب من تعقيدها ، وأن الغموض فى العبارة هو غالباً أثر الغموض فى التفكير

ويمتاز هنرى روبير من رجال الدفاع فى العالم طرا بالسرعة المتناهية فى الالقاء ، وله من جراء هذه السرعة حادثة ذكرها لنا فى مقال (كانديد) ، إذ كان يترافع عن قاتل عشيقته فقال وهو يطير فى أجواء الكلام « . . . فعقد العزم على أن يقتل نفسه ثم يقتلها فوراً . . » ولم ينتبه أحد سواه إلى ما فى هذا الكلام من استحالة لأن الجمهور والمحلفين كانوا يجرون معه إلى الغاية كالزورق الذى يحمله التيار

ولذلك الاسراع تجده ينتزع المتهم من براثن النائب العام بعد ١٧ دقيقة فقط كما شهدت المحامية أوديت سيمون أو « بعد عشرين دقيقة لا أكثر ولا أقل » كما تعهد هو للمحلفين وهو يستهل الدفاع فى قضية بوبوروش عندما قتل الرجل الذى أخبره أن امرأته تخونه . ومن الغريب أن يقولها للمحلفين بعد أن قال ساخراً « . . ساعتان كاملتان ، واتهامان متضافران ، من المدعى المدنى ومن النائب العام : » ثم يختتم دفاعه وهو يناجيهم « . . . إننى أرجو أن تبرئوا بوبوروش حتى إذا عدتم إلى مسا كنكم فى المساء ألقيتم على زوجاتكم وبناتكم نظرات كلها اطمئنان » . وفى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٣ كتب الأستاذ « فرنان پايان » ـ قبل أن يصبح نقيباً ، ومؤرخا لبوانكاريه ـ كتب فى الفيجارو دراسة لهنرى روبير نشرها فى كتابه Anthologie des Avocats وعلل هذه السرعة بأن الرجل يخشى أن يضيع أثر كلامه فى المحلفين ، فهو ينتهى منهم بسرعة ليتركهم تحت أثقال حججه وبراهينه . وعندى أن العلة فى ذلك كانت صفاء عقل هنرى روبير وقدرته على الارتجال ، ذلك الارتجال الذى قال هو عنه كما سيجىء بعد : إنه نتيجة ترديد الكلام قبل المرافعة ، حتى كان يسمى نفسه « آلة كلام » ، فهو كان يبدأ لينتهى ؛ أفكار واضحة وعبارات حاضرة ؛ كان يفتتح المعركة لينتهى منها بأسرع ما يستطيع ؛ والنصر الحاسم هو غالباً النصر السريع . ثم ـ وهذه مسألة أساسية ـ كان هنرى روبير عدوا للتصويرات البيانية ولحشد الأمثال والسوابق ، فهو كان مقيداً دائماً بموضوعه ، لا يرسم الصور ، ولا يلق الحكم ، ولا يتفيهق بالألفاظ ، ولا يتطلب الشهرة ، لأنها قد دانت من زمان ؛ فهو إذن يلق الحجج واحدة بعد أخرى كالفيلق فى آثار الفيلق ، وكالانتصار فى أعقاب الانتصار ؛ وهو إذن كان يستغنى عن أربعين دليلاً بأدلة أربعة لها قوة الاربعمائة ووضوح الدليل الفرد

كان هنرى روبير يرتجل كما قلنا ، لكنه يشرح ارتجاله حيث يقول « إننى لا أفكر فى الكلام حين ألقيه » ثم يقول « أنا لا أحضر مرافعاتى بالكتابة ؛ وإنما أترافع بينى وبين نفسى على انفراد وبلا صوت عال ؛ لا أتكلم ، وإنما تجرى العبارات فى مخيلتى وأنا أمشى أو وأنا فى عربتى ، وفى المساء تتوارد لدى خواطر ذات بال » وهذه العبارة تشرح للقارئ حالة خاصة كان يشهدها سامعوه عندما يفتتح الجلسة فى قضية خطيرة ، إذ كانت تبدو عليه علامات الانفعال . وقديماً كان « تورين العظيم » لا يدخل المعركة إلا وهو يرتعد ، فكان ينادى جسمه « ارتعد . . تزايل . . إنك لا تدرى إلى أين أقذفَ بك . . . » وكان تورين أعظم القواد فى تاريخ فرنسا عند نابليون

أما خطة هنرى روبير فى مرافعاته فقد تعلمها على الرجل الذى كسب ستين معركة ؛ وهى أن الهجوم خير وسيلة للدفاع . فاذا شرع فى مرافعته اتجه فى شتى الجهات يبحث عن متهم غير موكله ليلقى عليه أفدح أثقال الاتهام ؛ فاذا لم يكن هناك مجرم آخر فلا شك أن هناك أباً لم يعلم ولده فهوى به — هو — الى أحضان الجريمة ؛ أو أن هناك تحريضاً أو استفزازاً وإلا فاستبسالاً صدر من المجنى عليه ؛ أو أن الهيئة الاجتماعية قد قصرت أو أساءت الى غير ذلك من أساليب الدفاع ، وإذا شئت فمن أساليب الاتهام . والذين سمعوا وهيب دوس يترافع فى قضية نزاهة الحكم أو فى مقتل السردار أو فى قضية الأطباء — بخاصة — يدركون مقدار ما يتساوى الرجلان فى تلك الخطة التى شرعها نابليون للناس ، أو نقلها عن هانيبال للأجيال اللاحقة ، عند ما كان يعلم بقيام حلف ضده فى وسط القارة أو فى شرقها أو فى غربها فلا ينتظر فى قصر التويلرى بل تجده مرتين تحت أسوار ڤينا ومرة أخرى فى قصر فردريك العظيم ليأخذ ساعته الدقاقة إلى سنت هيلين من بعد باريس : . . . ومرة ثالثة تجده فى موسكو . . . أمام الحريق ، بل أمام اللانهاية ، بل أمام باب الفشل . . . .

(البقية فى العدد القادم) عبد الحليم الجندى

شعراؤنا المنسيون

الأبِيـــــوَرْدِى

المتوفى فى مثل هذا اليوم (٢٠ ربيع الأول) سنة ٥٥٧

بمناسبة مرور « ٧٩٨ سنة » على وفاته

للأستاذ على الطنطاوى

مقدمة : بين المعرى والبارودى عصر أدبى مديد قد نسى اليوم أو كاد ، فمحى من برامج التعليم عندنا ، وحكم عليه جملة واحدة بأنه عصر انحطاط فى الأدب وجفاف فى القرائح ، وضعف فى الانشاء ، وقحط فى الرجال ، وانصرف عنه الناس — إلا الخاصة من أهل الأدب — وزهدوا فيه ، وارتضوا لأنفسهم الجهل به ، وانقطعت الصلة بينهم وبينه ، فلا تقرأ لأحد بحثا فيه ، ولا تحليلا لشاعر من شعرائه . ولا تسمع اسم رجل من رجاله يتردد على أطراف ألسنة الخطباء ، وأسلات أقلام الكتاب ، كما تردد اسم بشار والبحترى والمتنبي والمعرى ، فى حين أن هذا العصر الطويل قد أنجب شعراء إذا هم لم يضارعوا الفحولة السابقين ، فليسوا خالين من كل مزية ، ولا عاطلين من كل حلية . بل إن فيهم لشعراء فحولا ، زودوا الأدب العربى بزاد قيم ، وأورثونا أدبا جما ، وشعراً كثيرا من حقه أن يحفظ وينظم ، ويدرس ويحلل . لا سيما ونحن فى إبان نهضة أدبية شاملة ...

وقد أحببت أن أفتح هذا الباب فى « الرسالة » لأنها اليوم بمثابة الامام فى الأدب العربى ، ولأن فى يدها دفة السفينة فهى التى توجهها الوجهة الصالحة إن شاء الله . ولست أسوق هذه الكلمة على أنها دراسة كاملة لهذا الشاعر . ولكن على أنها كلمة موجزة عن نفسيته وشعره ، بمناسبة ذكرى وفاته ، عل هؤلاء الشعراء المنسيين يبعثون كما بعث ابن الرومى من قبل . فيقام للابيوردى بعد سنتين مهرجان كمهرجان المتنبي بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاته ... (ع)

قال الأبيوردى :

تنكر لى دهرى ولم يدر أننى ... أعزّ وأحداث الزمان تهون
فبات يُرينى الخطب كيف اعتداؤه ... وبتّ أريه الصبر كيف يكون

والأبيوردى هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى المعاوىّ الأموىّ العبشمىّ الذى يقول :

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت ... لنا رغبة أو رهبة أمراؤها
فلما انتهت أيامنا علقت بنا ... شدائد أيام قليــل رخاؤها
وكان الينا فى السرور ابتسامها ... فصار علينا فى الهموم بكاؤها
وصرنا نلاقى النائبات بأوجه ... رقاق الحواشى كاد يقطر ماؤها
إذا ما هممنا أن نبوح بما جنت ... علينا الليالى لم يدعنا حياؤها

* * *

هذه نفس الأبيوردى ، وهذا شعره

قال الشعر فأكثر ، وسار فيه على سنن من تقدمه وعاصره ، فمدح وهجا وتغزل ، واستنفد المدح أكثر شعره ، وعنى بالصناعة البديعية ، وغاص على المعانى المبتكرة ، والتوليدات الدقيقة ؛ وكان شأنه فى ذلك شأن جمهرة الشعراء المداحين لم يأت فيه بجديد ، ولم تكن له ميزة فى شيء منه ، ولكن ميزته فى شيء وراء ذلك كله ، هو أن له شخصية قوية واضحة تشبه شخصية المتنبي فى كثير من نواحيها ، وإن هذه الشخصية تظهر فى شعره كله ، فى المدح وفى الهجاء وفى الغزل

وستفهم هذه الشخصية ، وترى مبلغ ظهورها فى شعره حين تعرف نسبه وأخلاقه ، وتقرأ ما سأعرض عليك من شعره

أما نسبه فقد علمت أنه يتصل بأبى سفيان بن حرب بن أمية ابن عبد شمس جد الخلفاء الأمويين ، الذين ملكوا الدنيا ، وفتحوا المشرق والمغرب ؛ وقد كان الشاعر معتزاً بهذا النسب لا ينساه ولا يكتمه ، ولا يحجم عن أن يواجه به الخلفاء من بنى العباس ، وأن يفاخرهم به فى وجودهم !

كتب مرّة إلى أمير المؤمنين المستظهر بالله رقعة على رأسها الخادم المعاوىّ ، فغضب الخليفة وأخذ الرقعة فكشط الميم من المعاوىّ وردّها اليه ...

وكان مرّة يمدح الخليفة المقتدى العباسى ، ففخر أمامه بنسبه الأموى ، ووازاه بنسب الخليفة ، ولم يزد على أن جعل جدّ الخليفة العباسّ « ساقى الحجيج » ندا لجده وقريباً ، قال :

وقد ولدتنى عصبة ضمّ جدّهم ... وجدّ بنى ساقى الحجيج عروق
وإنى لأبواب الخلائف قارع ... بهم ولساحات الملوك طروق

ولم يكن يمتنع من أن يفخر بأجداده الأمويين ، ويملأ الدنيا ثناء عليهم ، ويفضلهم على الناس كلهم ، على مسمع من العباسيين أرباب السلطان وأولياء الأمر ، وأن يعرض فى فخره بالدولة العباسية وزوالها ، قال :

أنا ابن الأكرمين أباً وجداً ... وهم خير الورى عمّاً وخالا
أشدّهم إذا اجتلدوا قتالا ... وأوثقهم إذا عقدوا حبالا

وأرجحهم لدى الغمزات عوداً   إذا الخفرات خلين الحجالا

(إلى أن قال) :

وهم فتحوا البلاد بيارات   كأن على أغرتها نمالا

ولولاهم لما درّت بفيءٍ   ولا أرعى بها العرب الفصالا

وقد علم القبائل أن قومي   أعزهم وأكرمهم فعالا

وأصرحهم إذا انتسبوا أصولا   وأعظمهم إذا وهبوا سجالا

مضوا وأزال ملكهم الليالي   وأية دولة أمنت زوالا ؟

أما أخلاقه فقد كانت أخلاق الصيد من الملوك ، لا أخلاق المداح من الشعراء ، فقد ذكروا أنه كان عالي الهمة ، عزيز النفس ، متكبراً تياهاً ، ذا بأو وصلف وعجب ، وكان يتخذ العبيد والغلمان ، ويأمر من يمشي بين يديه بالسيف فعل الملوك ، وكانت له آمال سياسية ، كان يرجو أن يبلغها من طريق المرتبة والولاية ، فطلبها وألح في طلبها ؛ فلما أيس منها عزى نفسه بأنه سيطلبها بالسيف ، فهو يشبه في هذا المعنى المتنبي شاعر العرب الأكبر ؛ يدلّ على آماله السياسية وطموحه إلى الملك شعره الذي سيمر بك عما قريب ، ودعاؤه عقب كل صلاة : « اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها » ، وتيهه على ممدوحيه من الملوك والوزراء ، وفخره بنفسه بين أيديهم

أما الشعر فكان ينظمه ترويحاً عن نفسه ، وترجمة عن أدبه ؛ ويمدح به من يمدح للأدب لا للنشب ، وللوفاء لا للعطاء :

ولم أنظم الشعر محباً به   ولم أمتدح أحداً من أرب

ولا هزّني طمع للقريـ   ـض ولكنه ترجمان الأدب

* * *

إني بمدحك مغرى غير ملتفت   إلى ندى خضل الأنواء مطلوب

وكان يترفع عن أن يستجدي بالشعر ، وأن يعد من الشعراء السؤّال . ويرى نفسه نداً لممدوحيه . فهو ينظم لهم هذه القصائد المعجزة . يبتغي بها ودهم وإخاءهم لا نوالهم وعطاءهم :

ولولاك لم تخطر ببالي قصائد   هوابط في غور طوالع من نجد

لحقت بها شأو المجيدين قبلها   وهيهات أن يؤتى بأمثالها بعدي

فهن عذارى مهرها الود لا الندى

وما كل من يعزى الى الشعر يستجدي

ولم يكن يسلك سبيل شعراء المدح في الكذب والغلو والمبالغة . ولكن سبيله وصف ما يرى من صفات ممدوحيه وخلالهم وصفاً صادقاً ، لا كذب فيه ولا اغراق :

وصدق قولي فيك أفعالك التي   أبت لقريضي أن أوشحه كذبا

* * *

لا زلت تلقح آمالاً وتنتجها   مواهباً يمتريها كل محروب

وتودع الدهر من شعر أحبره   مدائحاً لم توشح بالأكاذيب

وكان عارفاً بقيمة شعره ، مؤمناً بعلو منزلته وجلالة قدره ، فهو يوجه إليه أنظار ممدوحيه ويدل به عليهم ، ويمن على من يمدحهم بأن ملوك الأرض يتمنون أن يمدحوا به ، ولكنه لا يتنازل الى مدحهم ، ولا يعرج عليهم ، ولا يلتفت إليهم :

قليل الى الرى الذليل التفاته   وان كثرت للواردين المناهل

* * *

فدونك مما ينظم الفكر شردا   سلبن حصى المرجان كل نظام

تسير بشكر عاطر الذكر منجد   يناجي لسانَيْ معرق وشآمي

ويهوى ملوك الأرض أن يمدحوا بها

وما كل سمع يرتضيه كلامي

* * *

وكم ماجد يبغي ثناء أصوغه   ولكنني عن مدح غيرك أزورُ

ويودع سيداً كبيراً فلا يجد ما يأسف عليه عند وداعه الا هذا الشعر الذي يضيق به الحساد ، و (تكبو دونه الشعراء) وتنشده الأيام ، أن يضيع بعد رحيله ولا يبقى له أهل يخاطبون به

رحلت فالمجد لم ترقأ مدامعه   ولم ترق علينا المزن أكبادا

وضاع شعر يضيق الحاسدون به   ذرعاً وتوسعه الأيام انشادا

فلم أهب بالقوافي بعد بينكم   ولا حمدت وقد جربت أجوادا

* * *

وإذا أنت سألت الشاعر عن منزلته في الشعر لما تردد في القول بأنه فاق الشعراء وبذهم ؛ فاذا عجبت منه كيف يعجز الشعراء ويبذهم وهو واحد منهم ، أجابك جواب المطمئن المؤمن بما يقول : المعتد بنفسه قائلاً :

فقت الأعاريب في شعر فأنت به   كأنه لؤلؤ في السلك منضود

ان كان يعجزهم قولي ويجمعنا   أصل فقد تلد الخمر العناقيد

فمن كان له هذا المجد التليد ، ينم عنه هذا المنطق المبين :

ينم بمجدي حين أفخر منطق   ويعرب عن عتق المذاكي صهيلها

ومن كان سليل الملوك ، وشاعر العصر ، وذا المجدين : المجد

الموروث وهو هذا النسب العالى النبيل ، والمجد المكسوب وهو هذا البيان الصافى الأصيل ، كان له أن يقوم بين أيدى ممدوحيه مقام العزيز الشامخ بأنفه ، وأن يصرخ فى وجه الوزير ، وقد قام مادحاً له ، فنسيه وذكر نفسه ، فانقلب منافراً مفاخراً :

وسل بى المجد تعلم أىّ ذى حسب   فى بردتىّ إذا ما حادث هجما
يلين للخل فى عزّ عريكته   محض الهوى وله العتبى إذا ظلما
من معشر لا يناجى الضيم جارهم   نضو الهموم غضيض الطرف مهتضما
والدهر يعلم أنى لا أذل له   فكيف أفتح بالشكوى اليه فما

وكيف يشكو الدهر ، وشعره غرة فى جبين الدهر :

وكيف يشكو الدهر من شعره   على جبين الدهر مكتوب ؟

أو لست تذكر المتنبى شاعرنا الأكبر ، حين تقرأ للأبيوردى فخره بنفسه وتمدحه بادلاجه فى الليل ، وانفراده فى الفلوات ترنو إليه النجوم وهو ساع ليكسب قومه عزاً وفخراً فى مطلع قصيدة يمدح فيها ويهنئ بالعيد . قال :

وبى عن خطة الضيم ازورار   إذا ما جدّ للعلياء جدّى
فهل من مبلغ سروات قومى   مصاحبتى على العزّاء غمدى
وإدلاجى وجنح الليل طاوٍ   جناحيه على نصب وكدّ
وقد رنت النجوم الىّ خُوصاً   بأعين كاسرات الطرف رُمد
لأورثهم مكارم صالحات   شفعت طريفها لهم بِتَلْدِ

وهو لا يزال أبداً يحب أن يجمع الى المجد التليد مجداً طريفاً وأن يؤيد المجد الموروث بمجد مكسوب ، لا يقنع بعلو نسبه ورفعة أجداده :

فشيدت مجداً رســـا أصله   أمت إليـــه بأمّ وأب

ولا يزال يمدح بهذه الخلة من يجدها فيه من ممدوحيه . قال :

مقتبل السن عقيد النهى   تقصر عن غاياته الشيب
والملك لا يحمـــل أعباءه   من لم تهـــذبه التجاريب
شـــيد ما أثّل من مجده   والمجد موهوب ومكسوب

***

أبو على له فى خنـدف شرف   لف العلى منه موهوباً بمكسوب

وهو لا يقنع من المجد بالشعر والأدب ، ولا بالمال والنسب ، ولكن له أملاً سياسياً بعيداً ، فهو يألم لما يرى من تفرق الأمراء وغلبة الأعاجم ، وينتظر (رجل الساعة . . .) المصلح المرتقب ، الذى يجمع شمل الأمة ، ويعيد لها شبابها ، فيدعو لذلك الملوك ، ويهيب بهم ، فلا يجد هـذا البطل الأروع فرّاج الغمة ، محيى الأمة :

دهر تذأب من أبنائه نقد[1]   وأوطئت عرب أعقاب أعلاج
وأينع الهام لكن نام قاطعها   فمن لها بزياد أو بحجاج
وكم أهبنا إليها بالملوك فلم   نظفر بأروع للغماء فراج

فيفتش فى أمراء العرب وملوكهم فلا يجـد فيهم من يرجى إلا الأمير أبا الشداد ، فيقصده بقصيدة يستثيره ويستفزه ، ويهيج فى نفسه الحمية العربية ، ويسأله كيف يرضى وهو اليوم أمل العرب وملجؤهم بأن يقنع العرب بصحراء زرود ورمال حاجر ، بينما يأكل الأعاجم الدنيا ، ويتناهبون الثراء والمجد ، ويحضه على أن يثيرها داحسية شعواء :

فايهٍ أبا الشداد إن وراءنا   أحاديث تروى بعدنا فى المعاشر
أترضى وما للعرب غير ملجأ   توسـدهم رملى زرود وحاجر
فأين الجياد الجرد تخطو إلى العدى   على عَلَق تروى به الأرض مائر
وفتيان صدق يصدرون عن الوغى   وأيدى المنايا داميات الأظافر
وحاجتهم إحدى اثنتين من العلى   صدور العوالى أو فروع المنابر

فاذا يئس من أن يجد فى الناس هذا الرجل ، تقدم ليحقق أمله بنفسه ، فكانت حاله كحال المتنبى : يسعى إلى رتبة أو ولاية يتخذها سلماً الى مثله الأعلى ، فيطلبها ولا يراها بدعاً ولا عجباً ، ولا يراه خالق إلا لها . . . واسمعه يقول لمؤيد الملك :

إليك أوى يا ابن الأكارم ماجد   له عند أحداث الزمان طوائل
يجر قوافيـــه إليك ذيولها   كما ابتسمت غبّ الرهام الخمائل
وعندك ترعى حرمة المجد فارتمى   إليك به دامى الأظلين بازل
قليل إلى الرى الذليل التفاته   وإن كثرت للواردين المناهل
وها أنا أرجو من زمانك رتبة   يقل السامى عندها والمساجل
وليس ببدع أن أنال بك العلى   فمثلك مأمول ومثلى آمل

كان هذا أمله فى حله وترحاله ، وغايته من اغترابه عن بلده ، ونأيه عن أهله ، وما كان يطلب مالاً ولا ثروة ، وما كانت به حاجة

---

(١) قال فى اللسان : النقد جنس من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه تكون فى البحرين . ويقال هو أذل من نقد . وأنشد :

رب عديم أعز من أسـد   ورب مثر أذل من نقـد

نعال ، ولا ضاقت أرضه برزقه ، ورزق عياله ، واسمعه يقول لسيد الوزراء أحمد بن الحسين :

ولم نقترب مستشرفين لثروة ... فترعى مطايانا بيبرين مبقل
ولكننا نحمى ذمار معاشر ... لهم آخر فى المكرمات وأول
ومن سلبته نوشة الدهر عزه ... فنحن لريب الدهر لا نتذلل

ولو هو أراد الغنى لناله ، لا سؤالاً واستجداء ، ولكن على ظبي السيوف وأطراف الرماح ، ولكنه يريد غاية بعيدة ، دونها جرع الردى وحياض الموت ، يسمى إليه بفتيان « من أمية » هم موقدو الحروب ومطفئوها :

ومن خاف أن يستصمر الفقر خده ... وفى بالغنى لى أعوجى[1] ومنصل
ومكتحلات بالظلام أثيرها ... وهن كأشباح الأهلة نحّل
ولا صحب لى إلا الأسنة والظبى ... بحيث عيون الشهب بالنقع تكتحل
وحولى من روق أمية غلمة ... بهم تطفأ الحرب العوان وتشعل
سريت بهم والناجيات كأنها ... رماح بأيديهم من الخط ذبّل
فحلوا حُبَى الليل البهيم بأوجه ... سنا الفجر فى أرجائها يتهلل
وخاضوا غمار النائبات ومالهم ... سوى الله والرمح الردينى معقل
يرومون أمراً دونه جرع الردى ... تعلّ بها نفس الكمىّ وتنهل
فبتنا وقد نام الأنام عن العلى ... نسارى النجوم الزهر والليل أليل

وتمر الأيام وهو لا يصل إلى شيء مما يؤمل ، ويضيق بحالة الذل والمهانة ، فيلوم نفسه على قعوده ، ويعزم العزمة الفاصلة التى تكون فيها المنى والمنايا :

تقول ابنة السعدى وهى تلومنى ... أمالك عن دار الهوان رحيل
فإن عناء المستنيم إلى الأذى ... بحيث يذل الأكرمون طويل
وعندك محبوك السراة مطهم ... وفى الكف مطرور الشباة صقيل
فثب وثبة فيها المنايا أو المنى ... فكل محبّ للحياة ذليل

وثبة أموية ، ينال بها عزّ أجداده الأمويين ومجدهم . فليس العز إلا أن يغامر المرء ويحمل نفسه على الخطة التى تبقى ذكره فى الناس أبد الدهر ، فاما أن يموت فيقال لله دره ، وإما أن يكتب له الظفر :

ألم تعلما أنى على الخطب إن عرا ... صبور إذا ما عاجز عيل صبره
فلا عزّ حتى يحمل المرء نفسه ... على خطة يبقى بها الدهر ذكره
ويغشى غماراً دونها جرع الردى ... فإن هو أودى قيل : لله درّه
ولا بدّ لى من وثبة أموية ... بحيث العجاج الليل والسيف فجره

ولا يثنيه عن وثبته الأموية بعد المدى ، ووعورة الطريق ، وما يعتور السبيل إليها من أخطار وخطوب أهونها الموت ، لأنه ألف حمل الخطوب ، وتعود الصبر ، وأعد للنائبات عزائم تروض إباء الدهر إذا شمس الدهر ، ولم يحفل بالدنيا وهى غضة غريضة ولم يبال بها ، أفيقبل عليها وهى جافة ذابلة ، وهل تثنيه عن مرامه لذاذاتها ؟

اسمعه حين يقول :

سل الدهر عنى أى خطب أمارس ... وعن ضحكى فى وجهه وهو عابس
سأحمل أعباء الخطوب فطالما ... تماشت على الأين الجمال القناعس
وأنتظر العقبى وإن بعد المدى ... وأرقب ضوء الفجر والليل دامس
وإنى لأقرى النائبات عزائما ... تروض إباء الدهر والدهر شامس
وأحقر دنيا تسترق لها الطلى ... مطامع لحظى دونها متشاوس
تجافيت عنها وهى خود غريرة ... فهل أبتغيها وهى شمطاء عانس
ولى مقلة وحشية لا تروقها ... نفائس تحويها نفوس خسائس

ولا يثنيه عنها رقة حاله ، ورثاثة أطماره ، فهو كالسيف القاطع البتار ، لا يضره الغمد ، وهمته كامنة فى ضمير الدهر ، ولا بد للضمير المستتر أن يظهر :

رأت أميمة أطمارى وناظرها ... يعوم فى الدمع منهلاً بوادره
وما درت أن فى أثنائها رجلاً ... ترخى على الأسد الضارى غدائره
أغر فى ملتقى أوداجه صيد ... حمر مناصله بيض عشائره
إن رث بردى فليس السيف محتفلاً ... بالغمد وهو وميض الغرب باتره
وهمتى فى ضمير الدهر كامنة ... وسوف يظهر ما تخفى ضمائره

وكأنك تسأل بعد هذا كله ، ألم يلق الشاعر شدة وعناء وهو يصرح بذكر الوثبة الأموية ، ويدعو إليها علناً فى ظل الحكم العباسى ، ألم يتنكر له أولو الأمر ، ويزوروا عنه ويناوئوه العداوة ، ويبطشوا به ؟ وها هو ذا الشاعر يخبرك بأنه لقى أذى كثيراً ، وشراً مستطيراً ، فريع من غير أن يذنب ، وجفى من غير أن يخون ؛ ولكنه اعتصم بالصبر ، ولاذ بالحزم ، ولم يلن ولم يشك ولم ينهزم :

(١) أى جواد كريم من نسل الأعوج المشهور

وقد طرقتني النائبات بحادث لو ان الصفا يرمى به لتصدعا
أراع ولم أذنب وأجفى ولم أخن وقد صدق الواشي فأخفى وأقذعا
ولست وإن عض الزمان بغاربي أطيل على الضراء مبكي ومجزعا
إذا ما أغام الخطب لم أحتفل به وضاجعت فيه الصبر حتى تقشعا

ولماذا يذل ويخضع ، وهو إن ضاقت عنه بلدة فستتسع له أخرى ، وحسب البلدة عاراً أن يرحل الشاعر عنها ، وإن أدلت عليه بابل بسحرها الحرام ، فهو يدل عليها بسحره الحلال ، ويجعل من شعره حيثما حلّ بابل ...

أبابل لا واديك بالرفد منعم لدينا ولا ناديك بالوفد آهل
لئن ضقت عنا فالبلاد فسيحة وحسبك عاراً أنني عنك راحل
وإن كنت بالسحر الحرام مدلة فعندي من السحر الحلال دلائل
قواف تعير الأعين النجل سحرها فكل مكان خيمت فيه بابل
وأي فتى ماضي العزيمة راعه ملوكك لاروّى رباعك وابل

***

وبعدُ ... فاسمع الشاعر نفسه يصف لك شخصيته ، ويخبرك أنه يمدح ويأخذ ، ولكنه أعزّ من أن يملكه الملوك بثوابهم ونوالهم ، وأنه لا يستسيغ الذلّ ولا يحب أن يتمرغ فيه ظهراً لبطن ، ولا يألف حياة الدعة والأمن في ظلّ الروض بين الكاس والطاس ، ولا يفرق من المنايا ويخشى المهالك ، ولكنه يريد أن يثيرها حرباً عواناً في سبيل غاياته ومطامحه :

سواي يجرّ هفوته التظني ويرخي عقد حبوته التمني
ويلبس جيده أطواق نعمى تشف وراءها أغلال منّ
إذا ما سامه اللؤماء ضيما تمرّغ في الأذى ظهراً لبطن
وظلّ نديم عاطية وروض وبات صريع باطية ودنّ
وأشعر قلبه فرق المنايا وأودع سمعه نغم المغني
وصلصلة اللجام لدى أحرى بعز في مباءته مبنّ
فلست لحاضن إن لم أقدها عوابس تحت أغلمه كجنّ

. . . .

وهأنا أوسع الثقلين صدرا ولكنّ الزمان يضيق عني

***

هذه شخصية الأبيوردي وهذا شعره ، أفيستحق أن يهمل وينسى ؟ ...

(دمشق) علي الطنطاوي

٢ـ أثر الحرب الكبرى في بريطانيا

للأستاذ رمزي ميور
أستاذ التاريخ الحديث في جامعة منشستر سابقاً
ترجمة الأستاذ محمد بدران
ناظر مدرسة بنبا قادن الابتدائية

كذلك لم يعد لبريطانيا بعد الحرب ذلك السلطان الكبير الذي كان يوليها إياه تفوقها التجاري على أمم العالم أجمع . نعم إنها لا تزال تمتلك وتسيّر ثلث سفائن العالم ، وذلك لأنها أوسع أسواق الأرض حرية ، لكن نصف سفنها معطل ؛ وقد خسرت جزءاً كبيراً من تجارتها الخارجية التي تعوّل عليها في حياتها وإن كانت صادراتها (منسوبة الى عدد السكان) لا تزال ضعفي صادرات أكبر الأمم المنافسة لها تقريباً . على أن ما فقدته من تجارتها الخارجية إذا رجع بعضه الى خطأ ارتكبته فلا يرجع كله أو جله إلى ذلك الخطأ . ذلك بأنها في أثناء الحرب اضطرت أن تضحي بمعظم أسواقها الخارجية لكي تركز جميع قواتها القومية في الأعمال الحربية . وذلك الفراغ الذي تركته شغلت بعضه أمم أخرى (كاليابان والولايات المتحدة) لم ينقض ظهرها عبء الحرب وشغل البعض الآخر ما قام من الصناعات القومية على أنقاض الواردات البريطانية . فلما وضعت الحرب أوزارها أقيمت لحماية هذه الصناعات حواجز من الضرائب الجمركية العالية ، وأخذت الأمم جميعها في داخل أوربا وخارجها تعمل « للاكتفاء بنفسها » ، فأدى ذلك العمل الى النتيجة السالفة الذكر ؛ وكان من جراء ذلك أن بريطانيا التي لا أمل لها في أن تكتفي بنفسها والتي لا تستطيع أن تحيا إلا بالاتجار مع العالم أجمع تجارة واسعة ، انحطت الى المنزلة التي انحطت اليها مدنية (وينة) بعد الحرب . لقد كانت بريطانيا كما كانت وينة تعتمد في رخائها على موقعها في

ملتقى الطرق التجارية الكثيرة فنالها ما نال وبانة بعد أن أقيمت الحواجز المتعددة فى هذه الطرق التجارية ، وإلى هذا يرجع معظم السبب فى ازدياد عدد المتعطلين . وقد بلغ من خطورة هذه الحال الجديدة أن أخذ قسم كبير من الرأى العام يدعو الى ترك نظام الحرية التجارية الذى تسير عليه بريطانيا واتباع سياسة « الاكتفاء بالنفس » التى تتبعها البلدان الأخرى . ولما كانت بريطانيا لا تستطيع أن تكتفى بنفسها إلا إذا خلصت من نصف سكانها فقد قويت فيها الدعوة الى التوسل لتلك الغاية ، غاية الاكتفاء بالنفس اكتفاء تاماً — بتوحيد الامبراطورية من الناحية الاقتصادية . فاذا ما رضيت أجزاء الامبراطورية بأن تتخلى عن مسعاها للاكتفاء بنفسها — وبعيد أن ترضى بذلك فى القريب العاجل — كان معنى رضائها أن بريطانيا تضعف باختيارها أو قل تعطل ثلثى تجارتها الخارجية لكى تتفرغ إلى إنماء الثلث الباقى ؛ وإذا فعلت ذلك فانها تكون قد تحولت تحولا تاما عن السياسة التى قام عليها النظام الاقتصادى البريطانى حتى الآن

هذه التطورات تعد فى مجموعها انقلاباً خطيراً فى مركز بريطانيا ومبادئها يتطلب تعديلاً فى سياستها القومية ، ولاشك فى أن بريطانيا تجتاز الآن أزمة بل خطراً قومياً شديداً . على أن كل تغيير بمفرده لا يعد خطيراً فى ذاته . فاذا كان مركز بريطانيا الجزرى لم يعد يكفل لها السلامة فان سياسة عالية رشيدة تكفل لها سلامة أبقى وأعظم ؛ ولا يزال موقع هذه الجزيرة فى وسط أهم الطرق التجارية البحرية وفى قلب العالم المتمدين تقريباً خير موقع جغرافى يتمتع به بلد على وجه الأرض . وإذا لم تكن بريطانيا الآن سيدة البحار بلا منازع فان ذلك لا أهمية له إذا بقيت البحار فى سلام . وإذا لم تكن لها « السيطرة على امبراطورية فان خيراً من هذه السيطرة أن تكون هى القلب النابض لمجموعة من الأمم الحرة على شريطة أن تنظم هذه المجموعة تنظيما يمكنها من أن تتعاون تعاوناً حراً . وقد تكون بريطانيا وراء غيرها من الأمم فى اتباع أحسن وسائل التنظيم الصناعى ، ولكن هذا أمر يستطاع تداركه بالعمل والحكمة . وإن اندماج أجزاء مقاطعاتها الصناعية وقربها من الثغور التى تستمد منها حاجاتها ومن مصادر القوى اللازمة لها ، كل ذلك يكسبها ميزات عظيمة إذا أحسن الانتفاع بها . وقد لا تجد بريطانيا فى بلادها حاجتها من الزيت أو القوى المائية . ولكن الفحم والعمل كفيلان باستخراجهما من مناجم فحمها الغنية ؛ وربما كان النقص قد اعترى قدرتها المالية ، ولكن هذه القدرة لا تزال عظيمة برغم هذا النقص ، وفى الامكان زيادتها إذا اتخذت الوسائل الكفيلة بتشجيع الادخار ؛ وإذا أحسن توحيد مجهودها القومى بقيادة رشيدة فان هذا المجهود خليق بتخفيف عبء الضرائب الذى لا يزيد كثيراً على ما كان عليه منذ مائة عام إذا روعيت النسبة بين العهدين . كذلك لا يرجى أن تحتفظ بريطانيا بما كان لها من تفوق عظيم فى التجارة العالمية ، ولكن إذا أيقن عمالها والمشرفون على الصناعة فيها أن الواجب يقضى عليهم بأن يقاوموا كل منافسة شريفة بكفايتهم وحدها وأن يكونوا أنداداً لمنافسيهم وأن ينظموا بيوتهم ، إذا أيقنوا بذلك استطاعت بريطانيا أن تستعيد من الأسواق ما يضمن لأهلها ارتقاء مطرداً فى مستوى معيشتهم ، وأن تنمى مواردها وموارد الامبراطورية نماء عظيما

ولكن يلوح أنها إذا شاءت أن تنال هذه الأغراض فان عليها أن توجه إليها مجهوداً قومياً عاماً شبيهاً بالمجهود الذى أنالها النصر فى الحرب . ولا بد لها أن تتغلب على روح الاستسلام والقنوط وما يؤدى اليه من خور فى العزيمة . وأخيراً إن بلوغ هذه الغاية موقوف على نوع الحكومة القائمة فى البلاد وصفاتها ، وذلك لأن واجبات الحكومة فى الوقت الحاضر أكبر شأناً وأعظم أثراً مما كانت فى الماضى . وإن للطريقة التى تؤدى بها هذه الواجبات أثراً بليغاً فى نفوس الشعب لا يعادله أثرها فى الماضى ، ولذلك يهمنا أن نعرف كيف عدل نظام الحكومة البريطانية ذو الشهرة العالمية الكبيرة لكى يتفق مع مقتضيات العهد الذى أعقب الحرب

ليس الجواب عن هذا السؤال مما يسر له الخاطر ؛ فاننا إذا حكمنا على الأشياء بنتائجها تبين لنا أن نظام الحكم البريطانى أقل نجاحاً من النظام الفرنسى أو الألمانى الحديث فى بعث روح النشاط القومى الموحد وفى قيادة الامة فى هذه الأوقات العصيبة ؛ وإذا حكمنا على هذا النظام بأثره فى أخلاق الناس من كافة الطبقات

رأينا أنه لم يخلق زعماء أنجادا قادرين على التفكير والانشاء ينالون ثقة الأمة ويتحملون التبعات أمثال شترزمان فى ألمانيا ، أو بوانكريه وبريان فى فرنسا (رغم ما فيهم من نقص) . وقصارى القول إن هذا النظام لم يفلح فى إشعار الأمة بحاجتها إلى توحيد جهودها وخلق الزعماء الذين يقودونها فى بذل هذه الجهود

وقد يكون سبب هذا العجز أن بريطانيا الآن تواجه عهداً جديداً باداة حكومية لا تستطيع أن تعالج ما فيه من المشاكل . ويلوح أن السياسة البريطانية يسيطر عليها أكثر مما يجب التنافس الدائم على السلطة بين الأحزاب المختلفة التى لا يبذل كل منها جهده فى العمل الانشائى المنتج بل فى التشهير بغيره وكشف عيوبه ونقائصه . لسنا ننكر أن الأحزاب السياسية أداة ضرورية للحكم الديمقراطى ، ولكن يلوح أن نظام الأحزاب البريطانية جامد خال من المرونة يجعل المشرفين على سياستها شرذمة قليلة من الزعماء المطلقى التصرف يستقلون بوضع خطط الحزب ، ولا ينفكُّ أتباعهم أنفسهم يضمرون فى نفوسهم الثورة عليهم وإن أطاعوهم فى إعطاء أصواتهم ، وذلك لأن هؤلاء الزعماء ينكرون عليهم حرية المناقشة بله حرية العمل

لقد تكلمنا من قبل عما طرأ على نظام الحكم البريطانى من تغيير ، وقلنا إن أهم مظاهر هذا الحكم مظهران : أولهما تركيز السلطة جميعها من تشريعية ومالية وإدارية فى يد وزارة حزبية قليلة العدد أوقرت ظهرها المسئوليات الجسيمة التى أخذتها على عاتقها فأصبحت عاجزة عن النظر الى حاجات الأمة نظرة واسعة المدى . وثانيهما حرمان البرلمان من كل سلطة إلا من اشراف صورى محض على أعمال الحكومة حتى صار عمله فى الحقيقة مقصوراً على نقدها . إن فى وسع البرلمان أن يشهر بأعمال الحكومة ويعطلها . ولكنه ممنوع من أن يعمل شيئاً من عنده لاصلاحها فلا عجب والحالة هذه إذا لم يكن فى الامكان مواجهة الطوارىء القومية الخطيرة وعلاجها علاجاً ناجحاً . وإذا شاءت بريطانيا أن تنازل الصعاب التى قامت بعد الحرب وهى واثقة من النجاح كان عليها كما يلوح أن تبدأ باصلاح زعامتها وأداتها الحكومية

٢ — الامبراطورية البريطانية

تتألف الامبراطورية البريطانية من ثلاثة عناصر مختلفة : أولها الأملاك العظيمة التى تحكم نفسها بنفسها ، وهى أملاك كانت منذ زمن طويل ولا تزال حتى الآن دولاً مستقلة كل ما بينها وبين بريطانيا من روابط أنها تدين معها بالطاعة لتاج واحد ، وأنها تشترك معها فيما تتمتع به من نظم الحرية . وثانى هذه العناصر هو البلدان الشرقية ذات الحضارة القديمة ، وهى الهند وسيلان وبلاد الملايو ؛ وهى بلاد للحكومة البريطانية عليها إشراف مباشر أكبر مما لها على البلدان الأولى ، وإن كانت هذه البلدان أيضاً أخذت تطالب بحقها فى حكم نفسها بنفسها ونالت بعض هذا الحق فى السنين الأخيرة . والعنصر الثالث أجزاء الامبراطورية المحكومة ، وتشمل أصقاعا واسعة فى أفريقية لم تنضم إلى الامبراطورية إلا فى خلال الخمسين سنة الأخيرة . وهذه الأملاك تسيطر عليها الحكومة البريطانية سيطرة فعلية بأشكال مختلفة . هذه الامبراطورية العجيبة التكوين التى تشمل ربع مساحة المعمورة وربع سكانها ، ليست موحدة التركيب ولا النظام ، وليست لها قوة مركزية فعالة تفرض طاعتها على هذه الأجزاء ، اللهم إلا قوة الأسطول . ولقد أخذ شكل هذه الامبراطورية منذ عام ١٨٣٠ يتغير تغيراً مضطربا حسب الظروف ، ويتحول بالتدريج من امبراطورية بالمعنى الصحيح إلى ما يسمونه الآن أسرة من الأمم

على أن هذه الامبراطورية كانت إلى ما قبل الحرب بقليل وحدة متماسكة من ناحيتين مهمتين على أقل تقدير ، فقد كان لها سياسة خارجية واحدة تسيرها كلها (هويت هول) ؛ وكانت جميع أجزائها حتى الأملاك المستقلة التى كانت الروح القومية تضطرم فيها راضية بترك العلاقات الخارجية فى يد وزارة الخارجية البريطانية ، وذلك لقلة دراية هذه الأجزاء وقلة اهتمامها بمشاكل أوربا ، واعتقادها أن لا شأن لها بهذه المشاكل ؛ ولم يؤخذ رأى مندوبى الأملاك المستقلة فى السياسة الخارجية إلا فى السنين المضطربة التى سبقت الحرب عندما اشتد الخطر الألمانى ، فعقد المؤتمران الامبراطوريان فى عامى ١٩٠٧ و ١٩١١ ؛ على أنه حتى فى ذلك الوقت لم تتخذ وسائل رسمية لتنظيم طرق هذه الاستشارة أو الادارة العامة ،

وبقى وزير خارجية بريطانيا هو نفسه وزير خارجية الأمبراطورية جميعها . كذلك كانت الامبراطورية كلها تعتمد على نظام مشترك للدفاع عن جميع أجزائها ، وكان عبء هذا الدفاع يكاد يقع كله على عاتق بريطانيا ، كما كانت أداته الفعالة بطبيعة الحال هى الدستور الذى يحفظ طرق المواصلات البحرية بين مختلف أجزاء الأمبراطورية مفتوحة . والذى جعل للأسطول هذه الأهمية أن الأمبراطورية البريطانية لا يستطاع غزوها براً إلا من مكان واحد هو حدود الهند الشمالية الغربية ؛ فلما بدأت بريطانيا تخاف ألمانيا قبيل الحرب تبادلت أجزاء الأمبراطورية الرأى لأول مرة فى شؤون الدفاع ، واشتركت الأملاك المستقلة بعض الاشتراك فى نفقات الأسطول ، واتبع فى تنظيم القوات الحربية القليلة التى كانت هـذه الأملاك تحتفظ بها نظام الجيش البريطانى ؛ وكان هذا الجيش قد أعيد تنظيمه قبل ذلك الوقت على يد اللورد هلدين ، ولـكنه مع ذلك لم توضع خطة للدفاع الامبراطورى ، كما أنه لم تكن ثمة استشارة امبراطورية فى الشؤون الخارجية

وكان كثير من الناس يتوقعون أن الامبراطورية ستنهار وتتقطع أوصالها إذا ما لاح شبح الحرب لسبب ما هى عليه من ضعف فى النظام . وكانت ألمـانيا بوجه خاص تتوقع أن تنفض الأملاك المستقلة يدها من النزاع ، وأن يندلع فى الهند لهيب الثورة ؛ وأن الأملاك الجديدة فى أفريقية وغيرها من القارات سيحتاج الاحتفاظ بها الى قوى كبيرة . لـكن مجرى الحوادث بدد هذه الأوهام ، وكان من أعظم مظاهر الحرب ما تجلى من روح الاخلاص الاجماعى الحماسى فى كل جزء من أجزاء الامبراطورية تقريباً ، وما ضحت به هذه الأجزاء من أنفس وأموال تقدمت بها الشعوب فى أطراف الأرض عن رضا وطيب خاطر ، فقد جندت كندا وزيلندة الجديدة وأستراليا جميع رجالها تقريبا . ولـما تمردت طوائف البور المشاكسة فى جنوب أفريقية أخمد البور أنفسهم هذا التمرد على الفور ، ثم بذل الشعبان اللذان تتكون منهما تلك البلاد جهدا عظيما فى الاستيلاء على المستعمرات الألمانية ، وأرسلا كتائب من بلادهما الى خنادق فرنسا . وفى الهند سكن الاضطراب السياسى الذى كان منتشرا قبل الحرب وأرسلت منها الى فرنسا وفلسطين والعراق والصين جيوش لم ترسـل الهند مثلها من قبل الى ميادين القتال ، ولاح أن الحرب ومحنها أثبتت صلاحية نظام الأمبراطورية الحر الطليق على الرغم من تراخيه وقلة تماسكه . لـكن ضخامة هذه التضحيات بدل موقف الأمبراطورية بأزاء مسائل الدفاع والسياسة الخارجية ، وأحدث فى بناء هـذه الأمبراطورية تطورات غاية فى الأهمية ، فلم يعد فى الامكان بعدئذ أن تعالج هذه الأمور وكأنها لا تعنى الأجزاء النائية من الامبراطورية ، بل كان لابد من استشارة ممثليها بوسيلة من الوسائل إذا أريد أن تبقى هذه قائمة

وفضلا عن ذلك فقد شعرت الهند ، وكان لابد أن تشعر ، أنها بعد أن اضطلعت فى الحرب بهذا العمل الخطير قد قويت حجتها فى أن يؤخذ رأيها عن طريق الموظفين البريطانيين الذين يديرون دولاب حكومتها ، وأن يعترف بأنها وحـدة قائمة بذاتها ، وأن تتمتع بما يتمتع به غـيرها من أجزاء الامبراطورية من حقوق الاستقلال الداخلى ؛ وبذلك كانت الحرب سبباً فى تقوية الحركة القومية فى الهند وفى غيرها من أجزاء الامبراطورية

(البقية فى العدد القادم) محمد بدران

فى النقـــد أيضاً

للأستاذ محمد رفيق اللبابيدى

سيدى الأستاذ صاحب الرسالة

كنت أطمع ، وكان القراء يطمعون معى أن نظفر بسلسلة متصلة الحلقات من ردود فحولة أدبائنا على ما عرضت له فى (النقد المزيف) ، وعلى ما عرض له الأستاذ أحمد أمين ومن جاء بعده ؛ وكنا نود أن يكون لنا من هـذا باب للولوج فى بحوث أخرى تعيد الأدب رجْعه إلى أيام احتدام النهضة الأدبية فيثب بعض الوثوب بعد قعوده هذا القعود طوال عشر السنوات الأخيرة ، وكأنا ذهبنا فى أمانينا هذه بعيداً فلم يعـدُ الكلام بضع كلمات شابها كثير من الألوان التى نشكو منها ويشكو منها أيضاً الأستاذ أحمد أمين . . .

***

وكاتب هذه الكلمة اليك — أو هذه الرسالة إلى صاحب الرسالة — من تعلم صغير جـداً وضئيل ، وليس له من القوة ما ينزل به فى ميدان يصول فيه كبار الكتاب والأدباء ؛ غير أنه ساير البحث الأدبى فى مصر منذ حين طالباً فيها ، وساير هـذا الجمود فى الأدب أستاذاً فى معهد ثانوى بعيد عنها ؛ وقد يرى البعيد ما لا يراه القريب . ونحن معشر القراء فى خارج مصر أقدر على الحكم المجرد من العاطفـة فيما هو جدير بالاحتفال به من آثار الأدباء والعلماء ؛ ثم نحن أقدر على إلغاء المجاملة الأدبية فيما نكتبه وهى ما تعوده الكتاب بعضهم من بعض ، يلبس كل منهم نقده لباساً من الأسلوب الصفيق لا تُرى من خلاله الحقيقة إلا كما ترى الشمس فى يوم ماطر ملبد بالغيوم

ولست أدرى ، أو إنى لاأحب أن أدرى ، السر فى هذا الذى يغمر بيئتنا الأدبية من قواعد الكياسة فى الحذر من اغضاب الأصدقاء والمقربين حين نعرض لنقدهم . فالكاتب يريد أن يقول كلمته ، ولكن فى لجلجة المشفق الفرِق ، ويريد أن يجهر بما فى نفسه ، ولكنه يتورع أن يكون جريئاً ، فقد يكون فى الغد فيما يكون فيه سواه اليوم ، وقد يقال فيه ما سيقوله هو فى غيره ، فهو واسع الحيلة يداور فى ارضاء القراء والذين يعرض الى نقدهم مداورة تحمله أن ينقد نقدا مجملاً فيه امتاع بالفكرة التائهة والرأى الطائر ، وذلك حسبه فى نقده

والحق أنى لو كنت كاتباً نابه الذكر ، طائر الصيت ، لربما كنت أشفق أن أقول اشفاق هؤلاء الكبار الفحول ؛ وداؤنا فى الشرق مستعص ما دام النقد شخصياً بعيداً عن المثل الأعلى ؛ وهذا الضعف الخلقى فى النقد اليه وحده يرجع — فيما نعتقد — سبب هذا الركود وهذا الجمود فى أدبنا المقعد

***

وبعد فيا سيدى الأستاذ هل النقد بالمعنى الذى نراد عليه نحن معشر القراء — والقراء من فئة خاصة طبعاً — هو هذا اللون من تناول الكتاب أو البحث تناولاً صورياً والكتابة فيه مثل هذه الكلمات الضافية ، فيها قدرة الكاتب وبراعتُه ، وليس فيها علمهُ وعقله ، ؟ ؟ وهل النقـد الأدبى هو هذا الذى نسيغه فى صحافتنا كل يوم أو كل أسبوع من مجالات الكتاب وبحوثهم العابرة ؟ ؟

وهل النقد هو هذا التقريظ الذى يتولاه كتابنا حين يدفع المؤلف أو الباحث الى المطبعة كتابه أو مؤلفه فيخرجه بعد الجهد الجاهد فى أيامه وأعوامه ليتولى الحكم فيه كاتب يقلب صفحاته بعض الساعة وقد لا يزيد ؟ . ؟ .

الحق يا سـيدى الأستاذ أن ضعف النقد يرجع إذا أجملنا القول الى :

١ — احتفال الناقد بشأن المنقود

٢ — النقد العابر الصورى

وإن النقـد فى مصر — وهى سوق عكاظ العرب اليوم — لا يتجاوز هذين اللونين . والكتاب بين فريقين : فريق يتحامى المنقود ، وفريق يجهل فضله فيقول ما لا وزن له ولا قيمة ، فلا يعبأ بما يقوله القراء

***

ثم إن الطائل الذى يقع على كتاب مصر الفحول ومشيخة الأدب فيها عظيم جداً ، فهم قادة مسئولون ورعاة مطالبون بتأدية رسالتهم الأدبية ؛ والنقد بمقاييسه العلمية الصادقة بكشف المخبوء المتواضع من العبقريات المغمورة . وربَّ بحثٍ فى صحيفةٍ وجّه الأدب وجهة قوية ودفعه الى الغاية التى ينشدها هؤلاء العامة عليه دفعاً لا ازورار بين يديه ولا نكوص

ومتى كان لهذا النقد هذا الوزن فقال الناقد قولَه لم يخطب

به ودّ المنقود ، ولم يتملق به عاطفة الجمهور ، ولم يستلّ به سخيمة فى نفسه ، اختفت هذه العيوب التى نشكوها ، وقويت الصراحة على هذا الضعف ، وأحجم غير الأكفاء أن يلجوا بابه ويقتحموه ولوجهم له اليوم ، وكان ما يدور بين الكتاب والأدباء والعلماء درساً من دروس ... يفيد منها الجمهور وتفيد منها البيئة الأدبية ... أساساً صخريا فى بناء نهضتنا الأدبية فى عصرنا الحاضر

هذا وحسبى يا سيدى الأستاذ أن أكون فى كلمتى هذه قد ... كثير من القراء فى الخارج ؛ وقد يكون ... ما يحس به كثيرون فى مصر ؛ ورجاؤنا أن يتسع (الرسالة) لمثل هذا النقد اتساعه للنواحى الأخرى التى نرى ، و... تكون رسالتها سفارة الحقيقة المبسوطة بين الكتاب والقراء لا ترعى فى ذلك غير ما تقتضيه إياها المقاييس الأدبية ؛ والسلام على الأستاذ ورحمة الله وبركاته

محمد ... اللبابيدى

شعراء الموسم فى الميزان
نقد وتحليل

للأديب عباس حسان خضر

— ١ —

ما أظن أننا كنا نجد فرصة ، مثل موسم الشعر ، نقف فيها إلى الشعراء لنرى ما عندهم ، فقد أنشد كل شاعر قصيدة هى خير ما عنده ، أو من خير ما عنده . ولو أن الحفل كان لمناسبة من المناسبات التى يقال فيها الشعر فى غرض واحد ، لما كان يصح أن تكون مقياساً لتفاوت الشعراء وتفاضلهم ، فقد لا يجيد شاعر فى الرثاء مثلا ويجيد فى غيره ، وفى الوقت نفسه يكون إلى جانبه شاعر على عكسه فى ذلك . أما موسم الشعر فقد قال فيه كل شاعر فيما يحسنه ، وما تواتيه قريحته فى تناوله ، فالموسم إذن ميزان تميل كفته بالراجح فى الشعر لا ينقص من قدره شىء

ولقد كان الناس يقولون بانقضاء الشعر بعد شوقى وحافظ ، وكان الشعراء يدافعون هذا القول بوثبات غير مقنعة كل الاقناع ، ولكن موسم الشعر حمل إلى الناس دليلا على أن فى الجيل الحاضر جيلاً من الشعراء لا بأس به فى مجموعه ، وإن كان منهم من برز وبرع

ولكن الفرصة كادت أن تفلت ، وكاد الموسم يقضى بانقضاء الساعتين اللتين شغلهما الشعراء بالقاء القصائد ، مودعاً بكلمات إخبارية من الصحف لا تغنى عن النقد شيئاً ؛ فلم يقض الموسم من عمره إلا المرحلة الأولى وهى عرض الشعراء قصائدهم ، فما كادوا ينتهون من ذلك حتى انفضت السوق ولم ينصب لهم ميزان ؛ والحق أننى كنت أوثر أن أكون شاهدا للموسم ، مستمتعاً بما يجرى فيه على أن أجوب معمعته وأقيم ميزان النقد فى سوقه ؛ ولكن النقاد حرمونى هذه المتعة باحجامهم عن النقد ، ولست أدرى لماذا أحجموا

أما وقد أخذت على نفسى أن أسلك فى هذه المهمة سبيل الحق ، عالماً بما فى هذا السبيل من أشواك ، موطد العزم على اجتيازها ، فلا يبقى إلا رجاء التوفيق وإلهام الصواب . وأخذا فى تلك السبيل سنتبع فى تصفح القصائد وتفحصها ترتيب الشعراء أنفسهم فى الالقاء إذ كان ذلك على حسب الحروف الهجائية

عاصفة روح

قصيدتان ألقاهما الدكتور ابراهيم ناجى ، وقدم لهما بهذه العبارة : « قصة نفس ، ذات فصلين : الأول ثورة النفس بينما الزورق يغرق والملاح يستصرخ ؛ والثانى استيقاظ الكبرياء بعد هدوء العاصفة »

والواقع أن هذه العناوين : «عاصفة روح . قصة نفس . ثورة نفس . كبرياء » ليست ذات حظ كبير من المدلولات فى القصيدتين ، نستثنى منها « الكبرياء » لأربعة أبيات فى آخر القصيدة الثانية التى سماها بهذا الاسم (الكبرياء) تحدث فى هذه الأبيات عن الشمم والكبرياء حديثاً يملأ النفس ويفعم القلب ، وهى :

أيخيفنى العشب الضعيف أنا الذى
أسلمت للشوك الممض أديمى
وإذا ونى قلبى يدق مكانه   شممى وتخفق كبرياء همومى
ورجعت أحمل جعبتى متحدياً   زمنى بها وحواسدى وخصومى
ورفعت نحو الله رأسا ما انحنى   بالذل يوماً فى رحاب عظيم

وهذه أبيات جيدة ؛ غير أن كبرياء الهموم أمر لا يطاق ! وسياق المعنى يقتضى كبرياءه هو لا كبرياء همومه ؛ أما فيما عدا هذه الأبيات فلا نجد روحاً ، لا عاصفة ولا غير عاصفة ، ولا نجد

فى قصيدة « ثورة نفس » وهى الفصل الأول (للاقعة) نفساً ، لا ثائرة ولا هادئة ؛ وانما هى ثورة كلمات على أوضاع الكلام ، وتمرد عبارات على أداء المعانى . . مهلاً أيها القلم ، لقد قلوا إن هذا شعر جديد . . وأغض النظر عن كلمتى جديد وقديم ، وأناقش هذا الكلام على أنه شعر لابد أن يؤثر فى النفس ، ولابد أن يصاغ فى عبارات سليمة ، ولن تغنى كلمة جديد عن شىء من ذلك يقول الشاعر :

أين شط الرجاء يا عباب الهموم
ليلتى أنواء ونهارى غيوم
أعولى يا جراحْ أسمعى الديان
لا يهم الرياح زورق غضبان
البلى والثقوبْ فى صميم الشراع
والضنى والشحوب وخيال الوداع

الى هنا تستطيع أن تعرف أن نفساً غارقة فى الهموم تسأل عن شط الرجاء ، وتشكو من أنواء الليل وغيوم النهار ، وتطالب الى جراحها أن تعول لتسمع الديان ، فالرياح لا يهمها زورق يقول عنه الشاعر : غضبان ! مع أن الرياح هى الغاضبة عليه ، وأما هو فسكين ، رقيق الحال ، بال ، مثقوب الشراع ؛ ويظهر أن الضنى والشحوب وخيال الوداع من آلام تلك النفس ، إذ لم يقل لنا ماذا جرى لها ، وليس فيما قبلها ماله صلة بها . إلى هنا تستطيع أن تدرك معنى هذا الكلام ، وان كان لم يؤد اليك تأدية شعرية تصل الى نفسك ، أما ما بعد ذلك فكلمات صاخبة فى بحر من النظم ، وعبارات متمردة ثائرة : فالسكين ترقص ، والفجر مذبوح ، والدجى مخمور ، والردى سكران ، والظلام يتولى فى عناق الصخور ؛ ولا يقولن أحدٌ أننى أبتر الكلام ، فهذان البيتان :

كان رؤيا منام كأسك المسحور
يا ضفاف السلام تحت عرش النور

ما معناهما ؟ ضفاف السلام التى تحت عرش النور كأسها المسحور كان رؤيا منام ! !

والمتأمل يرى أن فى القصيدتين محاولة لتصوير قصة نفس وابراز فكرتها وهى اعتصام النفس بالكبرياء من عواصف الهموم والآلام ، ذلك أن النفس الكبيرة تمر بها الهموم والآلام لا تنال منها شيئاً ، وإن استسلمت لتواردها فانها لا تلبث أن تمتنع منها بالكبرياء والشمم ؛ ولكن القصة وفكرتها لم يأخذا حظهما من التصوير والابراز

أبو الطيار

وهى قصيدة الأستاذ أحمد رامى ، مستواها عادى . ومعانيها عامة وقليلة ، ونستطيع أن نقول إنها قصيدة لفظية ، فألفاظها سمحة وإن كانت ضنينة بالمعانى . ومن يسمع هذه القصيدة أو يقرؤها يدرك قصور الشاعر عن التحدث فى موضوع القصيدة عن خوالج نفسه ، أو باقفار النفس من الخوالج فى هذا الصدد يقول فى مطلع القصيدة :

فى سكون المساء والبحر ساج والسحاب العبير فى الجو سار
كنت أرنو إلى الغروب وأروى ناظرى من صبابة الأنوار
فاذا بى ألقى دخاناً ولا غيـ ـم وريحاً وليس من إعصار
فتبينت أستشف جبين الـ أفق من بين هذه الأستار
فاذا هى جماعة من بنات الـ ـريح تطوى الفضاء عبر البحار

أعجبنى البيت الثانى ، ومن حسنه التعبير بصبابة الأنوار عما يكون وقت الغروب ، وتروية النظر بهذه الصبابة التى هى أجمل من النور كله ؛ وبعد ذلك يقول إنه لقى دخاناً غير مصحوب بغيم وريحاً ليست من إعصار ، فلما كان الدخان من غير غيم والريح من غير إعصار ، فقد جعل يتبين .. الخ ، وفى هذا خطأ فى ترتيب الفكر فليس الدخان ينشأ من الغيم ، والريح لا يلزم أن تكون من إعصار ، حتى يتلمس لهما سبباً آخر . على أنه لا يزال فى موقفه ومشهده ، ويذكر فى البيت الأول أن السحاب يسير فى الجو ، ثم يقول فى الثالث : لا غيم . وهل الغيم سوى السحاب ؟ ! . وفى البيت الخامس يشبه سير الطيارات فى الفضاء بعبور البحار ، وهذا التشبيه ليس إلا عبرا إلى القافية

والتعبير « حداة الرياح » فى قوله :

يا حداة الرياح ماذا لقيتم من ركوب الأهوال والأخطار

ليس من الصواب فى شىء لأنهم لا يسوقون الرياح ولا يغنون لها ، وإلا فما معنى حُداء الرياح ؟

ومن الأبيات الحسان فى القصيدة قوله عن الطيار :

وأبو الهول فى الفلا كاد يقفى ثم يرنو اليـه بالأنظار

وإن كان أبو الهول فى فلاة واحدة لا فى « فلا » متعددة والملتقى عند قصيدة « صرعى الأغراض » للأستاذ أحمد الزين

عباس حسان خضر

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

الحصانة واليهودى الأفاق

— ٥ —

ونزل متشنيكوف فى معهد بستور ، على سكون هذا المعهد ووقاره ، نزولَ الصخرة فهزّه هزّا . ونصب فيه مِهرجاناً بهلوانياً عظيما ظل منصوباً عشرين عاماً . ووقف على باب هذا المهرجان يزعق ويصفّق ويصفر ويزمر يدعو الناس إلى إحيائه بالدخول زُمَراً إلى رحابه وأرجائه ، فكان كالدلاّل قام على باب مسجد لا يغشاه إلا نُسّاك زهّاد لم يذوقوا لهو طعما ، ولم يستسيغوا دُعابة أبدا

جاء باريس فوجد اسمه شائعاً ، وأمره معروفاً مشهوراً . فنظرية الحصانة التى ابتدعها — ولعل وصفها بالدرامة الهيّاجة أوفق وأنسب — هذه النظرية التى تخبّرنا بأننا حصينون من الأدواء لأن حربا طاحنة لا تفتأ قائمة بين الكرات البيضاء التى فى دمائنا وبين المكروبات الغازية — هذه النظرية بل هذه الأحدوثة كان شاع أمرها لدى بُحّاث أوروبا فقاموا لها وقعدوا . وعارضه فيها أكثر بُحّاث ألمانيا والنمسا فلم يؤمنوا بها ، بل لعلهم أُغرُوا بالايمان بها لبساطتها وجمالها ، فقام هذا الاغراء يدفعهم إلى نقيضه لما أحسّوا ضعفَ أنفسهم فيه فأنكروها إنكارا شديدا قاسياً . ونالوا من متشنيكوف باللسان فى المؤتمرات ، وبالتجربة فى المعامل . مثال ذلك رجل ألمانى شيخ نذر على نفسه لله ألا يمرّ عليه حول حتى يكتب مقالاً فى مجلة علمية خطيرة يدحض بها تلك النظرية وينال فيها من الفجوسات ومن صاحبها . وجاء على متشنيكوف حين من الزمن لم تقو رجلاه على حمله من تلك اللطمات ، وكان يُغشى عليه فيسقط إلى الأرض صريعاً . وعزّه النوم وطالت لياليه فكاد يفزع إلى عقّاره المخدر القديم – إلى المرفين ، حتى لقد عاوده خاطر انتحاره المعهود .

أوّاه ! كيف لا يستطيع هؤلاء الألمان الخبثاء الأنجاس أن يروا الحق فى الذى يقوله عن هذه الفَجُوسات ! ثم اشتق من كمده ، فكأن وتراً انقدّ فى مخه ، فنهض كالليث يحمى عرينه ويدفع عن نظريته بعزيمة لا تخشى شيئاً ، فجال وصال ، وطلب الخصام والنزال ، وكانت معركةٌ بها أضاحيك كثيرة وعلمٌ قليل ، ولكنها برغم ذلك تضمنت نِقاشاً عليه انبنى ذلك النزر اليسير الذى نعلمه اليوم من سبب حصانتنا من المكروبات

صاح أميل بارنج[1] من وراء الحدود الألمانية : « لقد أوضحتُ إيضاحاً لا ريبة فيه أن مصل الفئران هو الذى يقتل جراثيم الجمرة — أن دم الحيوانات لا كراته البيضاء هى التى تحميهم غائلة المكروب وتحصنهم منه » . فصاح كل خصوم متشنيكوف وكل أعدائه الألداء يؤمّنون فى نَفَس واحد على الذى قال بارنج . وخرجت المقالات العلمية تتبارى الى النشر بمقدار يملأ دور كتب جامعية ثلاث كُتبت جميعها فى فضائل الدم وأنه الشىء الوحيد الخطير فى منع الأدواء

وزأر متشنيكوف من وراء الحدود الفرنسية : « إن الفجوسات ، إن كرات الدم البيضاء هى التى تأكل الجراثيم العادِيَة فتدفع سوءها عنا » ، ونشر تجارب بديعة أجراها فأثبت بها أن بشلات الجمرة تستطيع النماء بوفرة فى دم الشياه التى حصنتها ألقحة بستور

وصمد الفريقان للكفاح زماناً طويلاً ، وتمسك كل بموقفه الكاذب رغم ما فيه من غلوّ ، وغمرهما غبار الحرب الكثيف وأعمتهما غضبته عشرين عاماً ، فلم يخطر على بال أيهما أن يستمهل قليلاً ، وأن يخلو إلى نفسه للتفكير يسيراً ، فلعل كلا منهما رأى وجهاً واحداً من أوجه الحقيقة وهى عديدة ، ولعل الذى يحمينا من غائلة المكروب ليس هو الدم وحده ، وليست هى كراته البيضاء وحدها ، بل هما جميعاً . لقد كانت حرباً رائعة ومزرية فى آن ، حرباً من تلك الحروب التى يقول فيها الخصم لخصيمه : « أنت كذاب » فيرد عليه صاحبه الجواب بمثله : « لا ، بل أنت الكذاب » ، وفى أثناء هذه التهم عميَ متشنيكوف وخصماؤه فلم يفطنوا الى أن سبب الحصانة قد يُردّ بعضه الى

(١) عالم المكروب الألمانى وقد مرت ترجمته

الذى قال متشنيكوف ، وردّ بعضه الى الذى قال به خصماؤه . ما كان أجـدر الاثنين أن يضما الحرب حيناً فيـمْـصُـرا العرق عن جبهتيهما ، ويمسحا الدم من أنفيهما ، ويفكرا فى هدوء ساعة ليـدركا كثرة ما يجهـلان ، وقلة علمهما مما فيه يختصمان ، وليـدركا أن الدم وفجوساته أشياء معقدة خدّاعة ليست فى البساطة التى يزعمان ، إذن لأبطآ فى السير واستمهلا فى الاستنتاج وأيقنا أن من الغباوة فى ظلمة هذه الجهالة أن يتعجلا تفسيرات مُبتسرَةً لحصانتنا من الوباء

ليت متشنيكوف لم يخرج عن أودسا ، بل ليته اعتكف فيها بلفّه خمول ذكره ويحميه ، ثم تدرّع بالصبر وتابع أبحاثه الجميلة فى تعليل لِمَ تأكل الخلايا الأفّاقة فى براغيث الماء تلك الخمائر التى دخلت اليها (1) . إذن لأتى على كل أمرٍ جَـلَـل خطير . ولـكن من ذا الذى يتحكم فى أقدام البُحّاث وهى لا تسير دائما فى الطرق السلطانية التى رصفها المنطق وعبّدها العقل السليم

فى أيام بستور العظيمة ، أيام كافحَ داء الحمرة وانتصر على داء الـكَلَب ، كان يعمل فى خفاء شديد كأنه بعض القطّارين الذين يقطرون السموم خُـفيـة فى أقباء احتجبت تحت الأرض عن أعين الناس ، ولم يأذن لأحد أن يطّلع على ما هو فيه إلا عوْنيه رو وشمبرلاند ورجلاً أو اثنين آخرين ، وفى ذلك المعمل الرطْب المعتم بشارع أُلْم كان لايلْـقَى المتطفـّلين المتشوّفين إلى علم ما يجرى عمله إلا بالنهر والتجبيه ، وطرد عن بابه حتى كل جميلة من الأوانس فاتنـة . هذا بستور ! أما متشنيكوف فله فى ذلك حديث غير هذ الحديث

اختلف متشنيكوف فى هـذا كل الاختلاف عن بستور . كانت له لحيـة لها أثرها البالغ فى رائيها ، وجبين عريض يعلو عينين تنظران بحوَلٍ ظاهر وذكاء بيّن من وراء نظارته ، وشعر طال فى قفاه حتى غطاه على حال تنبئك بأنه غارق فى أفـكاره فلا يكاد يصحو فيحس الحاجة الى حلقه . وكان واسع العلم فلا تكاد تفوته فائتة . وكان يستطيع أن يفاكه ويسلى ـ وهذا محقق عنه ثابت ـ بألوف من طرائف علم الحياة ومُمْـتِـع خفاياه ، فهو يحـــدّثك بأنه رأى الخلايا الأفّـاقة الدوّارة فى جسم فرخ الضفـدع Tadpole تذهب الى ذيله فتأكل منه حتى تأتى عليه فيصير الفرخ ضفدعا (1) وهو يحدثك بأنه أشعل ناراً فى دائرة حول عقرب ليثبت أن هذه الخلائق التعسة لاتقتل نفسها انتحاراً كما يقول الناس بلدغ نفسها حين لا تجد مخلصاً من النار ، وهو يحدثك بهذه الفظائع بطريقة تجعلك ترى الخلايا الأفاقة تروح وتجىء تبتلع ذيل الضفدع بلا أسف ولا تبكيت ، أو تسمع حسيس العقرب وقد عز عليها الخلاص وحاّق بها الفناء

وكانت تـنح له أفكار رائقة فى اجراء تجارب فيقوم عليها محاولاً إنفاذها بعزم قوىّ وتركّز شديد ، ولـكنه كان يزيح العلم وينحّى التجريب إذا سنحت له السانحة بمدح مُـتْـسَرْت Mozart وأبرانه ، أو خطر له الخاطر من بتهوفن Beethoven فهزّه الى صفير شىء من سـنفوناته (2) . وإنك لحاسبه أحيانا يعلم عن جوته (3) Goethe ودراماته ، ويعلم عن عشقه ومعشوقاته ، فوق الذى يعلمه عن فَجُـوساته ، وهى التى بنى شهرته عليها . وكان لا يتكبّر على من هم دونه ، وكان كثير التصديق لـكل ما يقال له حتى لأمتحن الأدوية لبعض الدجّالين المتطبّبين بأن أعطاها لخنازيره الغينية وهى فى سبيل الموت زعماً أنها تشفيها . وكان رجلا طيّبا ذا قلب عطوف رحيم ، فكان إذا مرض له صديق غمره بكل هدية مستطابة وكل نصيحة مختارة ، وبلّلَ وسادته بالدمع يجرى مدراراً فأسموه من أجل ذلك « بالخالة متشنيكوف » وكانت آراؤه فى غرائز البـدن وحاجات الحياة تختلف اختلافاً رائعاً عن أى باحث سمعتُ به غيره . « والحق أن العبقرية الفنية ، أو لعلها كل العبقريات من كل نوع كان ، تتصل اتصالاً وثيقا بالنشاط الجنسى ... ومن أجل هذا تجد الخطيب أبرع وأخطب فى حضرة امرأة يبذل لها من ودّه وقلبه »

وكثيراً ما أكّد لنا هو نفسه أنه أقدر ما يكون فى التجربة على الاحسان ، إذا كان على مقربة منه أوانس حسان

(يتبع) أحمد زكى

(1) مر ذكر هذا فى الأعداد السابقة

(1) يبيض الضفدع فى البرك وفى كل ماء راكد ثم يتفقس البيض عن فرخ ذى ذيل أشبه شىء فى مظهره بالسمك ثم ينقلب الفرخ الى ضفدع بالغ تتخلق أعضاء له ويفقد ذيله

(2) متسرت وبتهوفن Beethoven Mozart المؤلفان الموسيقيان المعروفان (3) Goethe شاعر الألمان المعروف

أعلام الإسلام

٤ ـ سعيد بن المسيب

تتمة

للأستاذ ناجي الطنطاوي

مرضه

قال عبد الرحمن بن حرملة : رأيت سعيد بن المسيب في مرضه يصلي مضطجعاً مستلقياً فيومىء برأسه إلى صدره إيماء ، ولا يرفع إلى رأسه شيئاً

وقال أبو حازم : قال سعيد بن المسيب في مرضه الذي مات فيه : إذا ما مت فلا تضربوا على قبري فسطاطاً ، ولا تحملوني على قطيفة حمراء ، ولا تتبعوني بنار ، ولا تؤذنوا بي أحداً ، حسبي من يبلغني ربي ولا يتبعني

وقال عبد الرحمن بن الحارث المخزومي : اشتكى سعيد ابن المسيب فاشتد وجعه ، فدخل عليه نافع بن جبير يعوده وهو مضطجع على فراشه ، فأغمي عليه ، فقال لمحمد ابنه : حوّل فراشه ، فاستقبل به القبلة ، ففعل ، فأفاق فقال : من أمركم أن تحولوا فراشي إلى القبلة ؟ أنافع بن جبير أمركم ؟ فقال نافع : نعم ، فقال له سعيد : لئن لم أكن على القبلة والملة لا ينفعني توجيهكم فراشي . وفي رواية : ألست امرأ مسلماً ، وجهي إلى الله حيثما كنت ؟

وقال زرعة بن عبد الرحمن : شهدت سعيد بن المسيب يوم مات يقول : يا زرعة ، إني أشهدك على ابني محمد ، لا يؤذنن بي أحداً ، حسبي أربعة يحملوني إلى ربي ، ولا تتبعني صائحة تقول فيّ ما ليس فيّ

وقال يحيى بن سعيد : لما حضر سعيد بن المسيب ، ترك دنانير ، فقال : اللهم إنك تعلم أني لم أتركها إلا لأصون بها حسبي وديني

وقال : دخلنا على سعيد نعوده ، ومعنا نافع بن جبير ، فقالت أم ولده إنه لم يأكل منذ ثلاث فكلموه ، فقال نافع بن جبير : إنك من أهل الدنيا ما دمت فيها ، ولا بد لأهل الدنيا مما يصلحهم فلو أكلت شيئاً . قال : كيف يأكل من كان على مثل حالنا هذا بضعة يذهب بها إلى النار أو إلى الجنة . فقال نافع : أدع الله أن يشفيك ، فإن الشيطان قد كان يغيظه مكانك من المسجد . قال : بل أخرجني الله تعالى من بينكم سالماً . ودخل المطلب بن حنطب على سعيد في مرضه وهو مضطجع ، فسأله عن حديث ، فقال : أقعدوني ، فأقعدوه فقال إني أكره أن أحدث حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع

وقد اختلفت روايات المؤرخين في سنة وفاته ، وتنحصر رواياتهم بين سنة ٩١ وسنة ١٠٥ ، على أن أكثر الأقوال تؤيد أن وفاته كانت سنة ٩٤

شيء من أقواله وفتاويه

قال : ما من تجارة أحبّ إليّ من البزّ ، ما لم تقع فيه الأيمان

وقيل له : ادع على بني أمية فقال : اللهم أعزّ دينك ، وأظهر أولياءك ، واخز أعداءك في عافية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم

وقال علي بن زيد : قال لي سعيد بن المسيّب : قل لقائدك يقوم فينظر إلى وجه هذا الرجل وإلى جسده ، فانطلق فنظر فإذا رجل أسود الوجه ، فجاء فقال : رأيت وجه زنجي وجسده أبيض . فقال : إنّ هذا سبّ هؤلاء الرهط : طلحة والزبير وعلياً ، فنهيته فأبى فدعوت عليه وقلت : إن كنت كذّاباً فسود الله وجهك ، فخرجت بوجهه قرحة فاسود وجهه !

وأدرك رجلاً من قريش معه مصباح في ليلة مطيرة ، فسلّم عليه وقال : كيف أمسيت يا أبا محمد ؟ قال : أحمد الله . فلما بلغ الرجل منزله دخل وقال : نبعث معك بالمصباح ؟ قال : لا حاجة لي بنورك ، نور الله أحبّ إليّ من نورك

وقال : لا تقولنّ مصيحف ولا مسيجد ، ولكن عظموا ما عظم الله ، كل ما عظّم الله فهو عظيم حسن

وكان يقول : لا خير فيمن لا يجمع الدنيا يصون بها دينه وحسبه ويصل بها رحمه

وكان يقول : الناس كلهم تحت كنف الله يعملون أعمالهم ،

فاذا أراد الله فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه ، فبدت للناس عورته

وكان يقول : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلاّ بالانكار من قلوبكم لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة

وكان يقول : من استغنى بالله افتقر اليه الناس

وكان يقول : ليس من شريف ولا دنيّ ولا ذى فضل ، إلاّ وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغى أن تذكر عيوبه ، فمن كان فضله أكثر من نقصه ، وهب فضله لنقصه

وقال : يقطع الصلاة الفجور ، وتسيّرها التقوى

وقال : ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله عزّ وجل ، ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله ، وكفى بالمؤمن نصرة من الله أن يرى عدوّه يعمل بمعصية الله

وقال ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء

وقال : يد الله فوق عباده ، فمن رفع نفسه وضعه الله ، ومن وضعها رفعه الله

وقال : دخلت المسجد فى ليلة أضحيان ، وأظنّ أنى قد أصبحت ، فاذا الليل على حاله ، فقمت أصلى ، فجلست أدعو ، فاذا هاتف يهتف من خلفى : ياعبد الله ، قل . قلت : ما أقول ؟ قال : قل : اللهم إنى أسألك بأنك مالك الملك ، وأنك على كل شيء قدير ، وما تشاء من أمر يكن . قال سعيد : فما دعوت بها قط بشيء إلا رأيت نجحه

وقال : إن الدنيا نذلة ، وهى الى كل نذل أميل ، وأنذل منها من أخذها بغير حقها ، وطلبها بغير وجهها ، ووضعها فى سبيلها

وكان يستفتح القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم ويقول : إنها أول شيء كتب فى المصحف ، وأول الكتب ، وأول ما كتب به سليمان بن داود الى المرأة (بلقيس)

وقال حبيب بن هند الأسلمى : قال لى سعيد بن المسيّب ونحن على عرفة : إنما الخلفاء ثلاثة . قلت : من الخلفاء ؟ قال : أبو بكر وعمر وعمر (يعنى عمر بن عبد العزيز) قلت : هذا أبو بكر وعمر قد عرفناهما فمن عمر ؟ قال : إن عشت أدركته ، وإن مت كان بعدك

وقيل له وقد نزل الماء فى عينه ، ألا تقدح عينك ؟ قال : عنى — على مَن — أفتحها ؟

وقال : كنت بين القبر والمنبر ، فسمعت قائلا يقول ولم أره : اللهم إنى أسألك عملاً باراً ، ورزقاً داراً ، وعيشاً قاراً . قال سعيد فلزمتهنّ فلم أر إلاّ خيراً

وسأله عبد الرحمن بن حرملة قال : وجدت رجلا سكران ، أفتراه يسعنى إلا أرفعه الى السلطان ؟ قال له سعيد : إن استطعت أن تستره بثوبك فاستره

وقال له برد مولاه : ما رأيت أحسن ما يصنع هؤلاء ، قال سعيد : وما يصنعون ؟ قال : يصلى أحدهم الظهر ، ثم لا يزال صافًا رجليه يصلّى حتى العصر . فقال سعيد : ويحك يا برد ! أما والله ما هى بالعبادة ، تدرى ما العبادة ؟ إنما العبادة التفكر فى أمر الله والكفّ عن محارم الله . وقال : قلة العيال أحد اليسارين

وسئل عن قطع الدراهم فقال : هو من الفساد فى الأرض

وسئل عن آية من كتاب الله فقال : لا أقول فى القرآن شيئاً

وكان لا يكاد يفتى فتياً ولا يقول شيئاً إلاّ قال : اللهم سلّمنى وسلّم منى

وقال : من حافظ على الصلوات الخمس فى جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة

وسئل عن اللعب بالنرد فقال : إذا لم يكن قماراً فلا بأس

وغضب سليمان بن عبد الملك [١] على ابن عبيد مولاه ، فشكا إلى سعيد بن المسيّب فكتب اليه : أما بعد ، فان أمير المؤمنين فى الموضع الذى يرتفع قدره عما تقتضيه رعيته ، وفى عفو أمير المؤمنين سعة للمسيئين فرضى عنه

(دمشق) ناجى الطنطاوى

بكالوريوس آداب

(١) أو الوليد بن عبد الملك

الاسكندرية

بقلم حبيب عوض الفيومى

لا روضةٌ كغياضِ الرملِ مِئْنَافُ
ولا كمصطافها فى الأرض مُصْطافُ

ولا كمنظرِها سَلْوَى لذى حَزَنٍ   ولا كآلائها فى الحسنِ آلافُ
أضحت على كلِ حُسنٍ مؤنقٍ عَلَماً   مذ كانَ للشىءِ أعلامٌ وأوصافُ
باكرتُها وطيورُ الدوحِ جائحةٌ   ولؤلؤُ الطلِّ فوقَ الزهرِ رَفّافُ (١)
وللنجوم تلاشٍ فى مَسارِبِها   كأنها لسهامِ الشمسِ أهدافُ
والأفقُ مُلتهِبٌ فى الشرقِ تَحْسَبُه   تِبراً له من وراءِ الغيمِ تَخطافُ
والريحُ عاطرةٌ بالنشرِ ساطعةٌ   يُنْشيكَ مُنْتَشَقٌ منها ومُستافُ (٢)
فى فتيةٍ أنشئُوا إنشاء قَسْوَرَةٍ   فليس فيهم لدى الإقدام وقّافُ
ذوى وجوهٍ وآراءٍ تُضىء لهم   إذا أدلهمّت من الأحداث أسدافُ
من كل منتخَبٍ فى القولِ مُنْتَدَبٍ   فى الهولِ، فهْوَ أديبٌ وهْوَ سَيّافُ
فى جنةٍ مثل تَرْويضِ البِساطِ زهَتْ   منها غصونٌ مُوَشّاةٌ وأفوافُ (٣)

تَشابهت فى التفافِ النبْتِ واختلفت
أفنانُها فهْىَ ألوانٌ وأَلفافُ

فيها نخيلٌ وأعنابٌ وفاكهةٌ   شتى وأجناسُ رَيْحانٍ وأصنافُ
رَفَّ الذبابُ على نوّارِها فله   فى بَلْجَةِ الشمسِ تغريدٌ وتَهفافُ
وللأكَمةِ من أزهارِها سُرُجٌ   مضيئةٌ حولَها للنحلِ تَعزافُ
يَهْفُو الفَراشُ عليها أبيضاً يَقَقاً   كأطيارِ فُضاضِ البِرْسِ مِنْدافُ (٤)
وللطيورِ على أغصانِها زَجَلٌ   تُشجيكَ منه مزاميرٌ وأعزافُ
تجمعت فى سماءٍ فهى فاخِتَةٌ   وَساقُ حُرٍ وشُحْرورٍ وخُطّافُ (٥)
تَعلو ألأئفَ شتّى ثم تُذْهِلُها   مجوى الهوى فلها فى الأرضِ إسفافُ

(١) رفاف : لماع
(٢) ينشيك : نشوة ، والمستاف : المشم
(٣) الترويض : التشجير ، وشى مروض
(٤) فضاض الشىء ما تناثر منه . البرس : القطن . المنداف : أداة الندف
(٥) السماء : كل ما علاك

وأينما مِلتَ فالايقاعُ مُتَّصِلٌ   تُلْقيه هَتّافةٌ تَشْحو وهَتّافُ (١)
حتى إذا ذرَّ قرنُ الشمسِ والتمعت   على رؤوسِ الروابى منه أسيافُ
عُجنا إلى أيْكةٍ شجراءَ سامِقَةٍ   لها مع الحرِّ إظلالٌ وإيرافُ
تواشجت وَسَمت من كل ناحيةٍ   فإنما هى أسياجٌ وأسجافُ
زِينت بشتى تماثيلٍ تلوحُ على   سِيمائها من سماءِ الفن ألطافُ
تكلمتْ عن أمورٍ وَهْىَ جامدةٌ   وصُوِّرت من صخورٍ وهى أطيافُ
مِن كلِّ عاريةٍ رَيّاً وكاسيَةٍ   إزارُها عن خفىِّ الحسنِ شفّافُ
وما لبِسْنَ وما عرِّينَ عن بَشَرٍ   وإنما هُن إتحافٌ وإطرافُ (٢)
كأنها ونوافيرُ النميرِ لها   من فوقِ أرؤُسِها سَحٌ وتَوْكافُ
سِرْبٌ مجرّدٌ من أثوابه فله   فى غفلةِ الناس تَلعابٌ وتَطوافُ
ما بينَ حاملةٍ جاماً وصادِحَةٍ   غَنّاءَ فى يدها للشَدْوِ مِعزافُ
وبين رافعةٍ مصباحَها بيَدٍ   لها على الماءِ إطلالٌ وإشرافُ
وبين حاسرةٍ ريعت فنازَعها   لُبسَ الخميصةِ إيجاسٌ وتَخوافُ
وبينهنّ كلابُ الصيدِ قد نفرت   وأطلقت أيديًا للوحشِ تقتافُ
وإذ تلاقى بنا ذو صبوةٍ وَصِدٍ   إلى السُّلافِ ومِتلافٌ ووَصّافُ
قلنا : المُدامَ . فجاؤونا بمُذْهَبةٍ   مذاقُها لِسقيمِ القلبِ إخطافُ (٣)
لم يبقَ منها وقد طالَ الزمانُ بها   فى الدَّنِّ إلا شُفافاتٌ وأنزافُ (٤)

سبيئةٌ سبقتْ نوحاً فكان لها
تحتَ العرائشِ قبل الشَّرْبِ آلافُ (٥)

يلوحُ منها قَوامٌ ثم تُدرِكُها   لطافةٌ فتجَلّى وهى إشفافُ

ما اعتادها لونُها الجادِىُّ عن عُرضٍ
وإنما هو لونُ الشمسِ يَشتافُ (٦)

كرَّ الربيعُ وضوءُ الشمس يُنضِجُها   فى كرْمِها بعد ما غَذَّتْه أريافُ

(١) شحا الطائر : يشحو فتح فاه بالنغم
(٢) البشر : جمع بشرة وهى ظاهر الجلد
(٣) الاخطاف : البرء من العلة
(٤) الشفافات : جمع شفافة ، والأنزاف : جمع نزفة ، وكلاهما بمعنى البقية الضئيلة
(٥) السبيئة : الخمرة المأخوذة بالمال . والشرب : جمع شارب
(٦) الجادى : الزعفرانى . يشتاف : يلتمع

وراقَ منظرُها إذ رقَّ جوهرُها ... فالحسنُ منها عن الاحسان كشّافُ

تسمو إلى رأسِ حاسيها خِفّتها ... إذ لا تلائمُ ذاكَ الجِرمَ أجوافُ

وتتركُ المُحتسي نشوانَ لا نزقاً ... وإنما هو إحصافٌ وإرهافُ

يُهدى لحانوتها المُعتسُّ في غلسٍ ... بريحها ولوَ انَّ البُعدَ أفيافُ (١)

ويستضيءُ بها في السير ملتمسٌ ... ضلَّ السُّرى ولجنحِ الليلِ إغدافُ (٢)

نشتفُّها ونناجيها ونرشفها ... ونجتلي قبساً منها ونستافُ

ونملأ الرُّوحَ وحياً من معارجها ... فإنما هي إيحاءٌ وإلطاف

فآيةٌ لبخيلٍ ذاقها كرمٌ ... وآيةٌ لِسحيلِ العزمِ إحصاف (٣)

صُبّت فرقرقها طبعٌ فشعشعها ... مثلَ الضرام تعالى منه أطراف

وثار ثائرُها حَمياً فهذّبه ... حلمُ النميرِ فقرّت منه أعطاف

حتى إذا ما علا رأدُ الضحى ودنا ... من شاطئ البحر فُرّاطٌ وسُلّاف

أقلّنا ظهرُ طامٍ لا قرارَ له ... وهل يقرُّ حرونٌ وهو رجّاف؟

في سابحٍ أسحمِ الدفّين منسرحٍ ... يدافع الماءَ من حرفيه مجذاف (٤)

مستوسِقٌ ظهرُه يسعى على مهلٍ ... من الونى فهو تحت الوسقِ دلّاف (٥)

نظلُّ منه على سيساءِ منجردٍ ... ما لاقه قطُّ إسراجٌ وإيكاف (٦)

بينا يسير رويداً إذ تلاطمه ... موّارةٌ فإذا الإروادُ إعناف

طوراً يصوّبنا غورٌ وآونةً ... تعلو بنا منه أحقافٌ وأعراف (٧)

ما بين رافعةٍ علواً وخافضةٍ ... أهضامُها في حدورِ الموجِ أنياف (٨)

وللعبابِ زئيرٌ في تدافعه ... وزخرةٌ فهو بالأمواج غرّاف

له غواربُ لا تنفكّ جائشةً ... ما هبَّ من معصراتِ الريحِ زفزاف (٩)

وطافياتٌ تعالى وهي مقبلةٌ ... لها رؤوسٌ منيفاتٌ وأشعاف

يظنها من يراها وهي دانيةٌ ... أبا قبيسٍ له باليمّ تزحاف (١)

فإن ترفقت الريحُ الهبوبُ به ... فكلُّ حسنٍ عليه ثَمَّ عكّاف

تلوحُ فيه وضوءُ الشمسِ منعكسٌ ... للعينِ أرباعُ أقواطٍ وأنصاف

كأنه لهبٌ يُذكى به ذهبٌ ... أو زئبقٌ بمذابِ الصفرِ مُنداف (٢)

قذفُ البحورِ لآلٍ دونها صدفٌ ... ولجُّه بلآلي الحورِ قذّاف

توائمٌ ينتظمن الشطَّ في نسقٍ ... مثل القلائدِ والظلّاتُ أصداف

ماذا أعدت لنا الاسكندريةُ من ... فتكٍ به لسليمِ القلبِ إزهاف؟ (٣)

جيشاً من الحسنِ يغزونا وليس لنا ... من دونه غيرَ حولِ الله تجفاف (٤)

مجراً جناحاه دُعجٌ بالعقول لها ... فتكٌ ونُعجٌ لها في القلب أزحاف (٥)

شاكي السلاحِ فمن آلاته مُقَلٌ ... مفوّقاتٌ وأعطافٌ وأرداف

فرسانه نُهّدٌ بالماء سابحةٌ ... ورجله ساحراتُ الطرفِ طُرّاف (٦)

أشباهُ ماءٍ على ماءٍ يكدن به ... أن يمتزجن وللأبشارِ ترجاف

يطلُعن كالروضِ مطلولاً تعارضه ... شمسُ الضحى فله في العينِ ترفاف

عَرْفٌ يفوحُ وأوضاحٌ تلوحُ وكم ... في الروضِ ألوانُ أوضاحٍ وأعراف

روضٌ يروقُك منه منظرٌ عجبٌ ... لكنّ مجناه أحساكٌ وأحشاف

والروضُ يقطفُك الأثمارَ يانعةً ... وما لهنّ سوى الإيحاشِ إقطاف

مستهدفاتٌ وما فيهن من هدفٍ ... وإنما هنّ إسقامٌ وإدناف

ومشفقاتٌ وما فيهن مسعدةٌ ... وإنما هنّ للادمالِ إقراف (٧)

واهاً لنفسي وما واهٌ بنافعةٍ ... إذا تحرّق أوّاهٌ وأفّافُ

هل هنَّ بؤسى وهنَّ الحسنُ مُحتشداً ... أم هنَّ نعمى وما فيهنَّ إنصاف؟

فليس عنهنَّ سلوانٌ لذي شغفٍ ... ولا لهنَّ به ما عاش إيلاف

---

(١) الأفياف: جمع فيفاء، وهي الصحراء
(٢) الأغداف: الاسبال (٣) السحيل: الواهن
(٤) الدف: الجنب (٥) الونى: الأعياء، والوسق: الحمل
(٦) السيساء: مستوى فقار الظهر. ما لاقه: ما لاءمه. الاسراج شد السرج، والايكاف شد الاكاف وهو البرذعة
(٧) الأعراف: المرتفعات
(٨) الأهضام للنخفضات، وحدود الموج انحداره، والأنياف الأعالي
(٩) الغوارب: الأثباج والسروات، والمعصرات: الرياح تبعث السحاب، وقد تلتهب ناراً، والزفزاف: الريح الشديدة

(١) أبو قبيس: جبل جنوب شرقي مكة المكرمة، وهو أحد الأخشبين
(٢) الصفر: النحاس، والمنداف: الممتزج
(٣) الازهاف: الاقتراب من الهلاك
(٤) أعدت جيشا، والتجفاف، درع يكون للفارس والفرس
(٥) المجر: الجيش العظيم، والدعج: السمر، والنعج: البيض
(٦) الطراف: الذين يحاربون حول العسكر وهم اليوم يدعون حربهم حرب العصابات
(٧) الاقراف: قشر الجرح قبل أن يبرأ

حُسنٌ ومنعٌ وأشقى الناس متّصِلٌ ... يلقاه حُسنٌ وَلا يَلقاهُ إتحَاف
والمنعُ والماءُ نَزْرٌ لا احتجاجَ به ... والمنعُ والماءُ طامى اللّجِ إجحافُ
بل هُنَّ ماءٌ كآلٍ لا أُرتواء به ... يُبديه سهبٌ بعيدُ الورْدِ مهياف (١)
يَظَلُّ وَارِدُهُ صَدْيانَ مُحْتَرِقاً ... عقباهُ شلٌّ إذا أُستسقى و إلهاف
أورت لظَى كَبدِى منهنّ شامسةٌ ... وحْشيّةٌ وَأْيُها غدْرٌ وَإخلاف (٢)
جنيّةٌ وصلها دَلٌّ وَلَمحتُها ... تَبْلٌ وإعراضُها قتلٌ وَإتلاف
بيضاءُ تختالُ مثلَ الشمسِ عاريةً ... بل حسنُها في متوع الشمسِ كَسّاف
ألفاظها تنعشُ المُضْمَى ونظرتها ... تُضْمِى الصحيحَ فلا يُجْدِيه اسعاف
ضعيفة الأسرِ وَسْنَى من بلَهْنيَةٍ ... وفى خلابتها للأسرِ إضعاف
تُوحى التنوتَ بطرفيْها وَفِعلُهما ... يصبى الرجالَ وهم من قبلُ أحناف
وَزْنُ الوفاءِ لها بالقِسط مُكتمِلٌ ... وافٍ وميزانُها في الحبِّ طَفّاف (٣)
تفترّ عن مبسِمٍ عذبٍ له أُشَرٌ ... يشفى أُوارَ الجوى منهن تَرْشاف (٤)
كأنه أقحُوانٌ بالندى خَضِلٌ ... أو لؤلؤٌ مازَهُ في السِّلكِ رصّاف (٥)
تزْهى بقَدٍّ نضير العودِ تحسَبُه ... غصناً ثنتهُ النُّعامَى فهو غيّاف (٦)
تهفو القلوبُ له وجداً إذا خطَرَت ... كأنما هو بالأرواحِ هفّاف
غيسانةٌ عَيشُها من نَعمةٍ وَغِنًى ... رِيٌّ وعيشى بها سُقْمٌ و إنحاف
أعَزَّها أنها دانت لِعزّتها ... هامٌ وذلّتْ لها في الحبِّ آناف
وزاد من فتكها خَلْقٌ لها عَمِمٌ ... وحُسْنُ سمتٍ له في القلب إشعاف
أقرّ بالحسنِ ربّاتُ الدلالِ لها ... طوعاً وهنّ معاصيرٌ وأنصاف (٧)
وأَلْهجَ العاشقين المولعين بها ... أنّ ابتسامتَها للصبّ أهناف (٨)
لاقيتُها وجَنانى جِدُّ منبسطٍ ... وعُدتُ عنها ودمع العينِ ذَرّاف

(١) الآل : السراب ، والسهب : الفلاة الواسعة ، والمهياف : التى يشتد فيها الظمأ

(٢) شامسة : نافرة ، والوأى : الميثاق

(٣) القسط : العدل ، والطفاف : المخسر

(٤) الأشر : تحزيز الانسان

(٥) الأقحوان البابونج وزهره أبيض يشبه الأسنان ، الخضل المبتل ، والسلك الخيط يسلك فيه الدر أى ينظم

(٦) النعامى : ريح شرقية رخاء والغياف المتمايل

(٧) المعاصير : جمع معصر وهى الفتاة فى سن العشرين ، والانصاف : جمع نصف وهى المرأة نيفت الأربعين

(٨) الأهناف : ابتسامة استخفاف و [illegible]

وما رجعتُ ولكنى تَراجعَ بى ... يأسٌ فرجعى إقرانٌ وإرساف (١)
ولو بعمرى بها أحظى وقد عرضتْ ... لكان بالعمرِ لى قُربى وإزلاف
لكنّ بينى و بين المُشتهى جبلٌ ... عالٍ ومهوًى سحيقُ الخرقِ نفناف (٢)
ولى حياءٌ عن العوراءِ يصدِف بى ... ولى لسانٌ عن الفحشاءِ نكّاف
يَشْوِى وصال الغوانى كلُّ ذى أدبٍ ... جمٍّ ويحظى به نَوْكَى وأجلاف (٣)
يحظى أخو الجهلِ لا يدرى بِحظْوته ... وليس يحظى لبيبٌ وهو عرّاف
وَشيمةُ الدهرِ لا تجْرى على سَنَنٍ ... وَحالة الدهرِ إجراءٌ وَإيقاف
فغارِقٌ فى غِمارِ اليمِّ مُرتكِسٌ ... وَظامئٌ فى قِفارِ البيدِ عَسّافُ
ما ساءنى أنّ غيرى حظُّه سِمَنٌ ... من الزمانِ وحظى منه إعجاف
لى من زمانىَ فكرٌ راضهُ بصرٌ ... وللبهائم أرواقٌ وأظلاف (٤)
قدْ يُرْزَقُ الفَدْمُ مالاً وَهو منخفِضٌ ... وَيُحْرَمُ الندْسُ مالاً وَهو نيّاف (٥)
وليس مِثلينِ ذو عِلمٍ وذو سفَهٍ ... ولا شبيهَينِ لَآّلٌ وصداف (٦)

حبيب عوض الفيومى

(١) الاقران : الجر فى القرن وهو الحبل ، والارساف : مشى المقيد

(٢) الخرق : الأرض الواسعة ، والنفناف : فرجة ما بين السماء والأرض

(٣) يشوى : يخطىء ، والنوكى : الحمقى

(٤) الأرواق : القرون جمع روق ، والأظلاف للغنم كالحوافر للخيل جمع ظلف

(٥) الفدم : العيي الثقيل ، والندس : اللبيب الفطن ، والنياف المرتفع

(٦) اللآل : بائع اللؤلؤ ، والصداف : صانع الصدف

القصص

قصة مصرية

الشيخ عبد الباسط يتزوج ...

للأستاذ محمد علي غريب

بين الأزهر وبين القرية ، يولد طالب العلم كل يوم مرة على تجارب لم يشهدها وحياة لم يألفها ، في تلك المدينة التي يختنق صوت المؤذن فيها بصيحات المعربدين الفجار ، والتي لو بعث فيها اليوم منشئها الأول جوهر الصقلي لما وجد فيها مكاناً يأوى اليه ، ولآثر عليها منادمة منكر ونكير . . .

ويوم غادر الشيخ عبد الباسط محمد حسين أبو جبل قريته الصغيرة لينتسب الى الأزهر ، كان أكثر أهله في وداعه ، وقبيل أن يعلن القطار ضجره من الانتظار بصفيره المزعج ، انتحى به والده ناحية منعزلة وأوصاه بالصلاة والمذاكرة وطاعة شيوخه واحتقار ملذات الدنيا الفانية

ثم دس الوالد في يد ولده خطاباً علت غلافه بصمات أصابعه المغمورة بالتراب ، وطلب منه أن يقدمه الى سيد القرية في القاهرة وهو رجل من الأثرياء يملك أكثر أرض هذه البقعة وينظر اليه الأهلون كانسان لم يخلقوا على طرازه ، فلا بدع أن يتخذوا منه السيد والمولى ، وأن يخشوا غضبه كما يخشى العابد غضب الآله

وحل الشيخ عبد الباسط في غرفة مظلمة في حي الباطنية بالقرب من الأزهر ، وحل معه فيها خمسة من الطلاب ومجموعة من الهوام والحشرات كانت تشارك أهل هذا الكهف طعامهم وشرابهم ، وتخفف الدم النقي من جسومهم فلا يشعرون بالحاجة الى معصية الله . . .

ولم يكد يضع عبد الباسط رحله ، ويؤدي الصلاة المكتوبة ، ويستفسر من زملائه الذين سبقوه عن مواعيد الدراسة وعن كراء البيت حتى ذكر خطاب سيد والده الغني ، فأخرجه من جيبه بوقار وخشوع وراح يسأل عن هذا العنوان :

— جاردن .. جا .. جار .. دن .. جاردن ستي .. أي عنوان هذا ؟ .. محمد بك الخربوطلي بجاردن ستي !

وتضاحك زملاؤه الخمسة من جهل صاحبهم بأحياء القاهرة وهم الذين يعرفونها حياً حياً . . وراودت النكتة اللفظية أحدهم عن نفسه فأطلقها :

— ستي والا ستك . . ها ها !

وضحك الجميع حتى الشيخ عبد الباسط عن طيب خاطر . .

***

يعيش محمد بك الخربوطلي في منزل يضم فتياته الثلاث (صفية وحكمت وآمال) وكلهن جاوزن سن الزواج . ولما كان الأب فاجراً متهتكا فقد نسج فتياته على منواله ، لذلك وجدت كل واحدة منهن أصدقاء كثيرين ولكنها لم تجد زوجاً إلى اليوم

وكان محمد بك رجلاً في حدود الخمسين ؛ وقد توفيت زوجته في حادث مؤلم ، فراح ينسى الدنس الذي علق بشرفه بالافراط في كل ما يستثير شهواته الخسيسة ، ولم يكن في برنامجه أن يحتفل بتربية بناته بل تركهن في أيدي الظروف

في يوم من أيام الربيع الصافية ، وقف الشيخ عبد الباسط ومعه زملاؤه الخمسة الذين تطوعوا بتعريفه منزل السيد ، يصفق بيديه على باب المنزل ، ويمسح العرق المتصبب من جبينه بطرف جبته الخضراء ، على حين جلس زملاؤه فوق المقعد الخشبي الذي يجلس فوقه حارس الباب وهم يلهثون

وجاء البستاني العجوز وهو يبصق الشتائم والاهانات من فمه ، فقد أزعجه هذا الذي يصفق دون أن يسكت ، ثم سأله :

— ماذا تريد ؟

قالها بلهجة حاكم متغطرس لخادم عنده . ولم يكن الشيخ عبد الباسط يتوقع هذه الخشونة ، أمام زملائه على الأقل ، فأخفى خجله فى سعاله وسلم إلى البستانى خطاب والده إلى سعادة البك ..

وعاد البستانى يقول له باللهجة الأولى :

— أدخل . . .

ثم ضرب البستانى الباب الحديدى وراءه بعنف وغضب . فدخل الشيخ عبد الباسط وقلبه يتراكض بين جنبيه ؛ ثم اقتيد الى حجرة بهره فيها أثاثها الفخم مما لم ير مثله إلا فى الحوانيت التى قاده للفرجة عليها زملاؤه . فأدرك لفوره فى أى طريق ينفق سيد القرية أمواله . .

وشهد فى الحجرة وسادة ملقاة على الأرض فرام الجلوس فوقها ، بيد أن الخادم الطيب أنهضه ليجلس على مقعد مريح . وهنا ابتسم الشيخ عبد الباسط على رغم أنفه . . ابتسم لأنه لم يكن يقدر على البكاء ...

***

وبينما هو يجول ببصره فيما أثبت على الجدار من صور وما حشد فى الحجرة من نفائس ، إذا بصوت ناعم يصل إلى أذنيه ، وإذا بفتاة هيفاء تدخل إلى الحجرة وهى تغنى ، فلما رأت الشيخ الجالس أمامها تظاهرت بالفزع وصاحت :

— بردون يا ... يا أستاذ ! ثم واصلت الغناء ...

وجاء الخادم يشرح للفتاة من يكون هذا الشيخ ؟ إنه نجل وكيل والدها فى ضيعته ، وقد جاء إلى القاهرة ليطلب العلم فأرسله أبوه إلى سيده ليشمله برعايته ...

وتلطفت الفتاة وصوبت بصرها إلى هـذا المخلوق ، فاذا هو شاب ممتلىء الجسم فى لحية قصيرة كأنما صنعها بيديه . أما ذلك المخلوق فلم يكن يدرى أحد ماذا يعتلج فى ذهنه من الخواطر ، وقد غمره الموقف الشاذ بفيض من البلاهة ، ففغر فمه وبقى فى صمته الجليل ، وقد غض الطرف وذكر نصيحة والده له فلم يخالس الفتاة النظر سوى مرتين

وجاء السيد فى جلباب حريرى أزرق ، فنهض الشيخ عبد الباسط وقبل يده ثلاث مرات كما يصنع مع شيخه فى الدرس ، ثم وقف صامتاً وقد أنساه الشيطان الكلمات الفخمة التى زورها ليلقى بها فى هذا المقام

وقال السيد وهو يعبث بلفافة تبغ فى أصابعه :

— كيف والدك ؟ ... هل بعث معك مالاً ؟ .. كيف أنت ؟ .. اجلس .. هل تدخن ؟ ...

وماتت الاجابة على هذه الأسئلة كلها فوق شفتى الشيخ عبد الباسط فلم ينطق وإن كان قد جلس على حافة المقعد ورقبته ممتدة ويده العابثة بلحيته ترتعش

وجاءت القهوة ، فشرب نصف ما فى الفنجانة ، وضمخ بالنصف الآخر ثيابه من الدهشة والخوف . ومرت به الفتاة التى رآها حينذاك وهى تغنى ، فربكه مرآها واختل توازنه فوق حافة المقعد وهوى على الأرض ؛ ومن ثم ضحك السيد والفتاة والخادم الواقف بقرب الباب ... وضحك الشيخ عبد الباسط أيضا !

***

وكثر تردد الشيخ عبد الباسط على منزل السيد ، وفى المرات الأولى كان ظله ثقيلاً على نفوس أهـل المنزل ؛ فلما كشف عن سذاجته وألح فى الزيارة استطابوا وجوده . وكان فى كل يوم يكشف عن أسماء النفائس التى يراها فى المنزل فيحفظها كما يحفظ ألفية ابن مالك ؛ ولم يكن يبالى السخرية به والتهكم عليه ، فان العبد وما ملكت يده لسيده ؛ وكان يؤثر على الجميع الفتاة التى تغنى ، وكانت هى من جانبها تزيد فى الاساءة اليه فيحسب أن يده تقبض على قلبها

ولم يعد الشيخ عبد الباسط يحتفل بدروسه ، لا ولا بصلواته . أما زملاؤه فقد أنكروا عليه هذا الاهمال ، وتوعـدوه بالخزى فى الدنيا والآخرة . غير أنه كان يتمثل فى وجوههم شقوة البؤس ، فلم يعبأ حتى بأن يدفع نصائحهم عنه بطرف أصبعه

وانقلب الشيخ عبد الباسط فجأة الى متظرف يطالع الصحف ويغشى المقاهى ويتهكم بشـيوخه الأعلام ، حتى زجاجة العطر التى لمحها فى أحد الحوانيت ظل يقتصد ثمنها واشتراها ، والساعة والمنديل الحريرى والحذاء اللامع . . . كان ذلك كله فى سبيل أن يحوز رضاء تلك الفتاة اللعوب التى لا تعرف من الدنيا سوى الغناء

وكان الشيخ عبد الباسط يرى فى منزل السـيد كل مرة أصنافا من الشبان يفدون على الدار فى أزياء خليعة ، حاسرى

الرؤوس حليق اللحى والشوارب ، وكان يسأل الخدم عنهم واحداً فواحداً ، ويعرف أنهم أصدقاء الأسرة فيسكت ، ويكلفه سكوته هذا لمنة أولئك الشبان فى سره وذلك أضعف الأيمان

ولم يكن الشيخ عبد الباسط يجترىء على التفكير فى هذه الدنيا العجيبة التى يضمها منزل السيد ، وإن كان قد فكر مراراً فى أنه أصبح مطلوبا ومرغوبا فيه

ألم يقل له محمد بك ذات يوم :

— حصلت البركة ياأستاذ !

كلمة لا يقولها السيد إلا لمن يحبه ويوده . ألم تصارحه الفتاة التى تغنى ذات مساء بأن دمه خفيف . ثم ضربته بيدها على وجهه ، وضرب الحبيب مثل أكل الزبيب !

ترى هل حان الوقت الذى يصارحهم فيه بما تضطرم به نفسه من رغبات !

***

وجاء ذلك الوقت فلم يفاجىء الشيخ عبد الباسط برغبته رب الأسرة ، لأنه كان رغم كل شىء يتهيب ويخجل . وكانت رغبته أن يتزوج بتلك الفتاة التى تغنى دائما والتى لم يعرف اسمها بعد . وكثيرا ما تمثل هذا البدن الناعم البديع واستعاد ذكريات امسه السعيد ، فيسمعه زملاؤه فى الغرفة يئن ويصرخ من هول ما يعتمل فى صدره . . .

لم يقدر الفوارق الهائلة بينه وبينها ، ولا راعى مركزه كطالب علم فقير ، ولكنه أقنع نفسه بأن كل شىء يسوى بنفسه ، والمصادفات قد تكون فى بعض الأحايين سبباً فى أن يرتفع المرء من الغرفة الحقيرة الى القصر المنيف

وبعد تفكير طويل أودع الشيخ عبد الباسط سره الخطير لدى أحد الخدم فى المنزل ، فتضاحك الخادم وسكت ، وكان فى سكوته ما حمل الشيخ عبد الباسط على أن يتأول ويستولد عدم استحالة الوصول إلى مبتغاه

والظاهر أن الخادم أفضى إلى الفتيات بما قال الشيخ ، ولا ريب أنهن تضاحكن وعبثن بالفتاة التى وقع عليها اختياره ، ثم انقلب الموضوع إلى فكرة ضخمة . لذلك استقبل الشيخ عبد الباسط فى اليوم التالى استقبالاً فخما ، وكأنما كان يتوقع ذلك فراح يفرض وجوده فى المجلس ويصعر خده للجالسين والجالسات . . .

واقترب يوم الزواج ولم يكلف الشيخ عبد الباسط أن يدفع شيئاً وزاد أهل المنزل فى الحفاوة به والترحيب فكان الذى يشغله أنه يتزوج ووالده لا يعلم ، ولكن ماذا يهم والفتاة جميلة ووالدها سيد القرية . .

وفى اليوم الموعود كان رب المنزل غائباً ، ومن الانصاف أن نقول إنه لا يعرف عن هذا الموضوع شيئاً ؛ غير أن الشيخ عبد الباسط لم يكن يهمه ذلك ، فقد آمن بأن الرجل يعلم دون شك ولم يفاتحه فى الأمر حتى لا يسىء الى ذات نفسه ويخجله

وأنيرت الدار وأقبل المدعوون ، ولم يجرؤ الشيخ عبد الباسط على دعوة زملائه حتى لا يفسدوا عليه خياله ، واكتفى بأن زاد فى الأناقة وفى التجمل ، وراح يحفظ قصائد الغزل كلها ليسكب بها فى أذن عروسه الحسناء ..

وتم عقد الزواج على يد مأذون حليق اللحية والشارب وإن كان يرتدى جبة وعمامة ، وكان هناك مغن يترنم بصوته والمدعوون من كل صنف يقصفون ويلهون . .

واقترح أحدهم على الشيخ عبد الباسط أن يشرب قدحاً قدمه اليه فلم يستسغ طعمه ، ثم أعطاه قدحاً آخر وقدحاً ثالثاً .. والجمع الصاخب يطلق الضحكات المخمورة من عقالها وهو ذاهل لا يعرف رأسه من قدميه ..

وأفردت له ولعروسه حجرة خاصة فى المنزل الفخم ، ولما أحس دوارا فى رأسه انكفأ إلى حجرته وهبط إلى الفراش لا يقوى على النظر ثم أدركه النوم العميق ..

وفى الصباح وجد إلى جانبه عروسا من الخشب .. والجمع الحاشد يغمر حجرة نومه بالضحك ، ثم تكشفت له الحيلة شيئاً فشيئاً حتى عرف كل شىء ...

عرف أن المأذون شاب من أصدقاء أهل الدار استعار جبته وعمامته من فقيه المنزل ، وعرف أنه شرب فى الأقداح الثلاثة خمرا حرمها الله ؛ وأخيراً عرف أن عروسه من الخشب وليس لها طاقة على الغناء !

محمد على غريب

مأساة من سوفوكليس

أنتيجـــونى

للأستاذ درينى خشبة

سوفوكليس : ولد سوفوكليس سنة ٤٩٦ ق . م ، ومات سنة ٤٠٦ أى أنه عاش عمرا طويلا مباركا قضى منه أكثر من ٦٥ سنة فى إنتاج أدبى متصـل . ولم يصلنا من مآسـيه التى أربت على المائة غير سبع فقط إحداها مأساة اليوم (أنتيجونى) ، التى تعتبر أطرف تحفة فى الأدب الـكلاسيكى المسرحى . وسوفوكليس هو تلميـذ إسخيلوس ، وقد ظل يقلده ويمشى على دربه أكثر من عشرين عاما ثم استقل بعدها بخطته وطرائقه فى الأدب ، ولـكنه عاد فقلد منافسه الأكبر يوربيدز . ولم يحدث سوفوكليس ثورة ما فى روح الرواية المسرحية ولـكنه ثار بالمسرح نفسه من الوجهة الشكلية (التكنيكية) فأكثر من الممثلين وعدد من المناظر وقلل من أهمية الخورس ، وقد ساعدته ثروته وعيشته الراغدة على تغذية المسرح برواياته الهادئة التى كان يخدم بها الفن من حيث هو فن خالص ، ولا يبتغى بها ثورة على التقاليد أو إحداث تغيير فى نظم الحياة . وكان مؤدبا مع الآلهة ، فلم يصنع ما صنعه إسخيلوس مع ربات الذعر حين سفه منطقهن فى محاكمة أورست مثلا . وسوفوكليس هو أستاذ شاكبير من حيث تركيز البطولة فى أكثر مآسيه فى المرأة وسترى ذلك فيما نلخصه لك من المآسى . ولم يتقيد سوفوكليس بالدرامة الثلاثية Trilogy مثل أستاذه ، ولـكنه فضل المأساة المستقلة الواحدة وإن كان قد كتب ثلاث مآس فى موضوع واحد متصل ، فانه كان يجعل كلا من أجزاء هذا الموضوع فصلا مستقلا بنفسه كل الاستقلال عن الفصلين الآخرين ، وقد تعلم سوفوكليس الموسيقى فى صغره وحـذقها وترأس فرقة موسيقية فى الاحتفال بذكرى « سلاميس » وكان على قسـط كبير من الجمال فى صباه ، وكانت أدوار النساء فى بعض الدرامات — ومنها دراماته — توكل اليه لتأديتها لهذا السبب . ولم يشترك فى حروب وطنه (أثينا) لاعتباره من كبار الأعيان ولأنه كان صاحب مصانع الأسلحة التى تزود الجيوش بكل ما تحتاج من عتاد . وقد تورط بسبب حياة الترف التى كان يحياها فى غرام آثم كلفه كثيرا من ماله ، فاضطر ابنه الى مقاضاته وطلب من المحلفين الحجر عليه ، ولـكن سوفوكليس عرف كيف يدافع عن نفسه حتى برئت ساحته ، ثم استقام بعد ذلك . وقد فاز سوفوكليس على إسخيلوس للمرة الأولى سنة ٤٦٨ بدرامته المفقودة (تريتوليموس) ثم فاز فى عشرين مباراة بعد ذلك وعين سنة ٤٤٠ أميرالا للاسطول (وإن لم يخض حربا ما) ، وعين سـنة ٤٤٣ عضواً فى مجلس الوكلاء (مجلس العشرة) وبحسبه أن يكون أقوى شخصية تمثل عصر بركليس بطوله . ومات قبل أن يشهد سقوط أثينا

— ١ —

حينما اكتشف أوديبوس السر الهائل ، وعرف أنه قتل أباه وتزوج من أمه ، وأولدها ولديه وابنتيـه ، جن جنونه ، وسمل عينيه ، وهام على وجهه فى الأرض حيران ، وتبعته ابنته الناعسة أنتيجونى ، لتهديه سبيله الى غابة كولونوس ، حيث غالته ربات الذعر بما لم تجن يداه !

وعادت أنتيجونى لتجـد أخويها يقتتلان من أجل العرش . . . (١)

وقتل الاخوان المتحاربان كل بيد الآخر فى مبارزة مشئومة واستوى كريون على عرش طيبة ، وأصدر أمرين كل منهما نقيض الآخر

أمر بأن تحتفل طيبة كلها بملكها السابق إتيوكليز ... أما أخوه .. أما پولينسيز ... فيترك فى بطحاء طيبة جزر السباع تنوشه جوارح الطير وكلاب البرية ، من غير أن تقام له الشعائر الدينية التى تقام لعباد الآلهة المؤمنين ، ومن غير أن يضم رفاته قبر ، أو يحثى عليها تراب ! وقضى أن كل من يجرؤ على مخالفـة هذا الأمر فجزاؤه القتل فى أبشع صورة . والتنكيل والتمثيل !

— ٢ —

« أنتيجونى وأختها اسمنيه أمام القصر الملكى بطيبه »

— « أختاه ! إسمنيه ! أهكذا قضت السماء أن نتجرع . أنا وأنت ثمالة الـكأس ، والنطف الأخيرة من آلام أوديبوس ! ألا حدثنى يا أختاه : هل بلغك الامر المأفون الذى أصدره كريون الملك بخصوص أخوينا ؟ »

— « أى أمر يا أختاه !

— « لهذا جئت معك الى هنا كيلا يسمع نجوانا أحد !

— « إذن . . . تكلمى ! إن نظراتك المضطربة تشف أنبا هائلة !

— « لماذا يُفَرِّق كريون بين الموتى فى حقوق السماء القدسة ؟ لقد أمر أن تحتفل طيبة بأسرها بجناز إتيوكليز . . . فى حين تترك جثة پولينيسيز فى عراء طيبة لجوارح الطير ، وسباع البرية ، من دون ما دفن ولا إقام شعائر ... حتى التراب ... لقد أبى أن يُحثَى عليه التراب يا أختاه ! والآن ! لقد أنبأتك بكل شىء ! فهل تبرهنين على كرم أرومتـك ! وشريف عنصرك ، فتعاونينى فيما اعتزمت ، أم ...

(١) لخصنا هذه الحوادث فى إسخيلوس (الأعـداد الأخيرة السابقة من الرسالة)

وا شؤماه ! وهل بيد ضعيفــة مثلى حل أو ربط ؟ ! ما ذا تريننى أصنع ؟

— « ألا تقاسمينني حلو هذا الأمر ومره ؟

— « ما ذا تعنين ؟

— « نتقاسم ، أنا وأنت ، فنذهب الى أخينا من فورنا هذا فندفنه ؟ ! . .

— « ندفنه على الرغم من نذير الملك ؟ أهذا رأيك ؟

— « إى وايم السماء ! سأدفن أخى وأخاك فاما امتَـنَـعْـت فانى لن أنكص ، ولن أخون إخوتى وحنانى وكبريائى ودمى ! !

— « مجنونه ! ! وكريون ! أما تبالين أوامره ! »

— « كريون ؟ ! وهل له الحق فى منعى من القيام بشعائر دينى نحو أخى ؟ ! »

— « أختاه ! أنتيجونى ! قليلاً من الحـكمة يا أختاه ! أذكرى كيف كانت نهاية أبوينـا العزيزين ! أذكرى كيف شنقت أمنا نفسها حين علمت أن زوجها هو ابنها ؟ واذكرى كيف سمل أبونا عينيه وذهب معك إلى كولونوس ليتحسى كأس المنون ! واذكرى أيضاً كيف اقتتل أخوانا وقتل كل منهما الآخر ! أفلم يبق وراء كل أولئك إلا أن نلقى بأيدينا أنا وأنت إلى التهلكة ؟ ! أما عن نفسى ، فانى أفضل الخضوع لأمر ولى الأمر ، فانى امرأة ولم تخلق النساء لمشاكسة الرجال !

— « إذن ... فلن أرغمك على شىء ... وحسب هذه اليد الـكريمة أن تقوم بالأمر كله وحدها ! يا للفخر أن أضطلع بكل شىء ثم أموت ! كم تشيع الـكبرياء فى نفسى حين ألقى أخى فى الدار الآخرة وقد أديت له هــذا الحق بمفردى ؟ ! إن هذه الحياة لابد أن تنتهى ، فلم لانـكون نهايتها هذه الجريمة المقدسة ؟ أنت تأبين أن تزدرى قوانين الأرض ، ولـكنك لا ترفضين أن تحتقرى مع كريون شرائع السماء ! فهنيئاً لك ! يهنيك ما اخترت لنفسك يا أختاه !

— « أنا لا أزدرى ولا أحتقر ، ولـكن أخشى ثورة الأولياء !

— « كأنى بك تعتذرين عن جبانتك ! اطمئنى ! سأذهب وحدى لأدفن جثمان أخى !

— « يا للآلهة ! كم أخشى عليك !

— « لا تضيعى خشيتك ومخاوفك عبثاً ! عليك نفسك !

— « إذن لا تبوحى بسرك لأحد ، وسأكتم أنا الأخرى كل شىء !

— « بورك فيك ! بل تحدثى به لـكل من يلقاك . . . للناس أجمعين !

— « أنت تتحدين خصومك ! يا للطيش !

— « تحد يسر قوماً آخرين . . .

— « هذا إذا نجح قصدك ، وتم تدبيرك ... على أننى أراك تضربين على غير هدى »

— « حسنا ! سأحاول ، فاذا فشلت فقد أديت واجبى »

— « بل ينبغى ألا يحاول الانسان المحال »

— « ها . ها ... إن كلامك جدير باحتقارى بقدر ما هو خليق بمقت أخيك . . . اصمتى ! على وحدى وزر ما أنا قادمة عليه . . . ولن يحرمنى القضاء من موتة شريفة خالدة ! »

— « لتذهبى ! إنه يبدو لى أن لا سبيل للوقوف بسبيلك ، يا طائشة ! وإن تكن جراءتك آية وفائك وبرهان محبتك ...

(تخرج كل منهما من ناحية)

— ٣ —

ويقبل الخورس (عجائز طيبة) فينشدون ويهزجون ، ويتغنون آلام طيبة ذات سبعة الأبواب وأشجانها ، ويرددون ألحان المأساة الباكية . . . مأساة أوديب ، ثم يلمح رئيسهم كريون ، ملك طيبة وطاغيتها . مقبلا ، فيصمت ويصمتون

(يدخل كريون)

— « أيها الأصدقاء ! إخوانى أبناء طيبة الأخيار ! إصغوا إلى ! لقد تمت المأساة ، وانقرض الذكران من نسل لايوس ، وبالأمس ما ضرجوا ثرى الوطن بدماء لا يُرضى الآلهة إهراقها ، وها قد آلت السلطة إلى ، سلطة الحكم ، وسلطان الملك ، وسلطان الملك محك الرجال ؟ وإنى آخذ فيكم بخطة هى الى خيركم أقرب ، وعلى وطنكم أجدى ؛ لا أحب الجبان ، ولا أوقر رجلا يؤثر صالحه أو صالح أصدقائه على صالح الوطن . . . الوطن سفينة الجميع ، فيجب على الجميع هدايته الى شاطىء الأمان ، ويجب أن تزيد دائما فى عظمة طيبة وعنفوانها ومجـدها ! ولقد علمتم ما كان من ولدى أوديبوس ، وعرفتم كيف كان إيتوكليز يفدى بنفسـه بلاده ، ورد عنها جحافل الأعداء الذين جردهم عليها بولينيسز . . . الخائن ! الذى أشقى أمته وأهان دولته وكان عليها

من هنا ومن هناك

ابسن وأرنولد بنت

كتبنا هنا كلمة عن أثر إبسن في إحياء الدرامة في الأقطار الأوربية عامة وانجلترا خاصة ، وأشرنا إلى العلاقة بين إبسن وبين صمويل بطلر صاحب قصة (طريق اللحم) وبين بطلر وبرنردشو وهم جميعاً من أنصار المرأة الذين وقفوا جهود الجبابرة للدفاع عن قضيتها والنضال في سبيلها لتحصل على أوفر قسط من الحرية التي ما تزال — تحت ضغط التقاليد — محرومة منها إلى اليوم.

وقد كنا نقرأ درامة القصصي الانجليزي الطائر الصيت أرنولد بنت Bennett المسماة (مباراة الحب) The Match of Love فراعنا أن نجد هذا الكاتب العبقري يحاول محاولة صادقة أن يتمم جهود إبسن ! !

والمعروف أن إبسن كان يعرض في دراماته لعلل هذا العالم فيشخصها ويعرضها للنظارة ، ولكنه يتركها دون أن يصف لها علاجا ، وأحسن مثال لذلك درامته (بيت عروس) The Doll's House التي يعرض فيها حياة الفتاة نورا وما تورطت فيه من غرام بشخص غني حاولت أن تحصل منه — بسبيل هذا الغرام — على مبلغ من المال يستعين به زوجها المريض على السفر الى الجنوب للاستشفاء مما به من مرض ... ولكن زوجها يكتشف علاقتها بذلك الرجل الغني فيعاتبها ... ولكنها تثور وتتهمه أنه هو سبب هذا السلوك الذي آلمه منها ، وأنه لم يحسن تكييفها حتى تكون ربة منزل ، وأنها لا بد تاركته لتدرس الدنيا والحياة من جديد ، لأنها ترفض أن تظل الى الأبد (دمية أو لعبة) في المنزل ، تأكل الشوكولاته ، وتغشى صالات الرقص ، وتقتني الأزهار ، وهي لا تعرف من الشؤون المنزلية كثيراً أو قليلاً ... فاذا سألها زوجها ولمن تترك تربية الأطفال أبناءها ؟ أجابته إنها تتركهم له أو أنها لا تدري ... وكيف تربيهم وهي لم تترب ؟ أليس أولى أن تتربى هي أولا ؟ !

وعند هذا تنتهي الدرامة وتنزل الستار !! وبذلك لم يصف لنا إبسن كيف تعالج نورا ؟ أو الى أين تذهب لتحصل على القسط الذي يعوزها من التربية . لذلك راعنا من أرنولد بنت محاولته معالجة هذه الزوجة التي تغرم بأكل الشوكولاته وتولع بالمراقص والمسارح ودور الصور والصالات ، ولا تعرف من أمور منزلها أي شيء حتى ولا كيف تسوس الخدم ! ! وتتلخص درامة بنت في أن نينا الممثلة البارعة وزوجة مدير مسرح الملك جورج بلندن قد أحبها (روس) أحد كبار الأغنياء الانجليز ، وقد حدث أن أشرف الزوج — مدير المسرح — على الافلاس ، فاضطر لأن يذهب إلى (روس) ليقترض منه بضعة آلاف من الجنيهات يصلح بها مالية مسرحه ويحفظه بها من الأغلاق . . وتكون نينا عند روس في هذه الآونة تساقيه كؤوس الغرام فما يكادان يعلمان بقدومه حتى يصلحا من شأنهما ويتأهبا للقائه ، ويعده روس خيراً وينصرف على ميعاد آخر ، فاذا حان هذا الميعاد أقبل الزوج وكله أمل أنه قابض الآلاف التي

شجناً من أشجان الزمان ! من أجل ذلك صدرت إرادتنا أيها الأصدقاء بأن تحتفل طيبة بملكها الراحل احتفالاً يليق بتضحياته العزيزة ، وأن تمشي الأمة بأسرها في إثره الى مقره الأخير ، حيث يذرف كل منا عبرةً على جدثه الى الأبد قربان المحبة ورمز الاعزاز ! أما بولينيسيز ! فسينبذ بالعراء فتمزقه الكلاب وتغتذي به جوارح الطير . والويلُ كل الويل لمن تحدثه نفسه بدفنه ، أو حثو التراب عليه . . . وسنجزي الظالمين ! ! »

رئيس المنشدين : « كلمتك قانون على الأحياء ، وشريعة من السماء ، أيها الملك العظيم !

— « إذن . فلتكن طيبة كلها عيونا ساهرة على تنفيذ أمرنا ! »

(لها بقية) دريني خشبة

يبتغيها ، وتكون نينا في هذه المرة أيضاً بين ذراعي روس ، فاذا دق الجرس وعلم روس أنه هو ، خبأ نينا في مخدعه والتقى الزوج ... ولكن ثورة من الشرف والكرامة تتفجر في قلب روس فيصارح الزوج بعلاقته الغرامية بزوجته ، وتخرج الزوجة صعقة ، ويغادر الزوج المنزل ليطلق زوجته ، ويتمالك روس قواه ويتناول التليفون فيخاطب أحد أصدقائه أصحاب الملايين في إقراض مدير المسرح بضعة آلاف من الجنيهات على أن تحتسب على روس بشرط ألا يعلم مدير المسرح . ويتزوج روس من حبيبته ... ثم يبدأ الدرس القاسي الذي يصلح به سلوكها ويخلق منها زوجة مدبرة وربة منزل بكل ما تحمل الكلمة من معان ؛ وذلك بعد أن تسوءه منها بعض التصرفات التي تدل على طيش النساء اللائى لم يحصلن على أية ثقافة منزلية

يدعى روس أنه جازف في عمل تجاري ولكنه جر عليه الافلاس ، وأنه مضطر لأن يبيع كل شيء . . . منزله وضياعه وعرباته وكثيراً من ملابسه وأثاثه ليسدد ديونه . . . ولكنه يلقى من نينا كل عطف وتضحية ، فانها بدلاً من أن تتركه لتلوذ بغيره من الموسرين ، تقدم له كل حليها وجواهرها التي تسوى آلافاً كثيرة ... فيسير روس في درسه ... وينتقل إلى (شقة) حقيرة في منزل قذر ليعيش فيه عيشة الكفاف ، فلا تأبى نينا أن تقاسمه صرامة هذا العيش ، بل تقوم هي على حاجيات المنزل فتحسن تدبيرها كل الاحسان .. ويكون اليوم السابع والعشرون من الشهر ويحضر محصل (البلدية) من أجل ثمن الغاز فلا يكون مع نينا إلا أربعة بنسات ونصف فينذرها المحصل بقطع التيار إن لم يسدد المبلغ (باكر !) ويحضر روس فتطلب إليه قليلاً من النقود لهذا الغرض فيثور بها ويتهمها أنها غير مدبرة وأنها مسرفة كل الاسراف ، ويطلب إليها أن تطلعه على (كشف بالمصاريف الشهرية) فتدهش نينا لهذا الطلب ، ولكن روس يداعبها ويطلب منها أن ترتدي أحسن ملابسها لزيارة (المتحف البريطاني ؟ !) ولكنها تكاد تجن لأنها لم تعتد زيارة هذه الأماكن الجدية ... وتأتي أختها آن لزيارتها فيتركهما روس وينصرف ... وتعجب آن لقذارة (الشقة) وتسأل أختها لم تسكن هي وزوجها في مثل هذا الحي الوضيع مع أنه قد أصبح أغنى رجل في انجلترا ؟

وتضحك نينا وتقول بل إنه أفقر رجل في انجلترا لأنه أفلس وباع كل ما عملك ليسدد ديونه ؟ ! وتدهش آن وتؤكد لها أن روس قد ربح أمس فقط من صفقة البن البرازيلي سبعة ملايين من الجنيهات ، وأنه لا بد قد تعمد أن يلقنها هذا الدرس في الاقتصاد والتدبير المنزلي تعمدا ... وتفطن نينا للسر فتثور وتذهب من فورها إلى روس في محل عمله الذي كان قد أخبرها أنه أغلقه فتجده غارقاً في أعمال لا حصر لها وتتأكد من صدق ما أخبرتها به آن ... ويعود الجميع إلى قصرهم القديم حيث تجد نينا كل الخدم وكل الخير القديم كما كان ... فتعاتب روس الذي يذهب بها إلى (دولاب) مجوهراتها فتجدها سليمة لم تبع ! ! ويعيشان عيشة راغدة جديدة ولكن عيشة كلها جد وعمل ! !

وقد لمحنا أثر إبسن في أرنولد بنت واضحاً لأنه ذكر (عروس بيت) غير مرة في ثنايا الدرامة فكأنه كان يقول (أنا أتمم جهود إبسن ! !)

أوجست سترندبرج

وما دمنا قد تحدثنا هذا الحديث عن إبسن النرويجي العظيم فلا بأس من ايراد شيء عن منافسه السويدي الكبير أوجست سترندبرج الذي كان يهزأ بتعاليم إبسن ويسخط على دفاعه عنها ويعتبر دراماته ضرباً من الجنون والحماقة يجب عرضه في مستشفيات المجاذيب بدل عرضه في المسارح .. والسر في كراهية سترندبرج للمرأة هو نفس السر الذي جعل الأديب اليوناني الكبير يوريبيدز ألد أعدائها منذ أربعة وعشرين قرنا ، فلقد تزوج كل منهما وفشل في زواجه ثلاث مرات وكانت زوجاتهما هن اللائى طلبن الطلاق وعملن له حتى حصلن عليه ، وبذا كانت نظرة كل من الأديبين الكبيرين للمرأة نظرة سوداء كلها شؤم وكلها موجدة ، وقد وجد يوريبيدز من ينتقم منه للمرأة بعد موته وكان ذلك هو أرسطوفان الروائي الفكاهي الخبيث الذي وضع معظم دراماته في الطعن على يوريبيدز والتشهير به وبآرائه . أما سترندبرج فقد مات ولم يشعر به أحد ، لأن إبسن كان يدعو الى تحرير المرأة دعوة حارة صادقة استجابت لها أوربا بأسرها ، وبدأ العالم كله يستجيب لها حتى في مجاهل آسيا وأواسط أفريقيا المظلمة

ولد إبسن سنة ١٨٢٨ فى بلدة سـكين فى جنوب النرويج ومات سنة ١٩٠٦

وولد ستريندبرج فى ستوكهلم سنة ١٨٤٩ ومات سنة ١٩١٢

هزيمة غاندى وانتصار طاغور

انهزم غاندى ، وأسدل الستار على الفصل الأخير من درامة المهاتمـا ، ولو قد مات غاندى فى إبان مقاومته لانجلترا فى حركة العصيان المدنى لاعتبره المؤرخون لغزاً كما لو كان نابليون قد مات بعـد بينا أوتيـلست ... ولـكن القدر الساخر يأبى إلا أن يلطخ البطولة ويفضحها ... وذلك بطول العمر !! والحقيقة أن طاغور لم يكن يوماً من الأيام راضياً عن وسائل غاندى ، وكان يتهمه بالتهريج والشعوذة كلما رآه يجبذ كهانات الهند ويدمج عقليته فى صميم عقلية الجماهير . وكانت غضبة طاغور على المهاتما شـديدة قاسية سنة الزلزال المشهور الذى خسف جانباً من الأرض ، لأن غاندى عزا الزلزال إلى سخط الالـه وغضبه ولم يعزه إلى أسبابه الجغرافية التى يتعلمها صغار التلاميذ فى المدارس . ويبدو أن لقب مهاتمـا أثر أثراً سيئاً فى روح غاندى ، وملأه بشعور النبوة إن لم يكن الألوهيـة ، ودليل ذلك ادعاءه غير مرة أنه يصوم بأمر الالـه ... وأنه لم يفعل كذا إلا بعد أن سمع صوت الالـه يناديه ويناشده . وقد كانت أول هزيمـة غاندى فى تجرده من زعامته السياسية وتفرغه للزعامة الاجتماعية ... وبذا فقد الزعامتين جميعاً ، مع أن كثيرين حبذوا تصرف غاندى أول الأمر ولاسيما بعد أن أعلن أنه سيفرد جهاده لخير المنبوذين ... ولـكنه ، ويالَلأسف ، أراد من المنبوذين أن يطيعوا الشرائع ويؤدوا ما فرضت عليهم ... أى أنه لم يحللهم من مبادئ النجاسة ... ثم غلاهو فى امتثاله أوامر دينـه فلم يبرح يقدس البقرة ويتبرك بروثها ويتطهر ببولهـا ... وذلك ما عيّره به ابنه الذى هداه الله إلى الاسـلام أخيراً ... والحقيقة أن سلوك غاندى الأخير لا يطاق ، بل كان سبباً فى ثورة الشباب ضده ، وتألبهم عليه ، واعتبارهم إياه سبب ضعف الهند وخضوعها

وفى هزيمـــة غاندى انتصار لطاغور من غير ريب ... رابندرانات طاغور شاعر الهند وأديبها الأشهر وفنانها العظيم ... الرجل الذى خدم الهند بشهرته العالمية فى دولة الآداب أكثر مما خدمها غاندى بسياسته العقيمة وأساليبه الرجعيـة الواهية

لقد كان طاغور يمقت من غاندى عداءه للجسم وتوهينه له وتهريجه بروح على حسابه ، وكان يرى أن الجسم نصف الانسان والروح نصفه الآخر ، وأنه ينبغى أن يعنى بهما بمقدار واحد ، لا أن نوهن أحدهما على حساب الآخر ، فليس روح سليم إلا فى جسم سليم ، وقد ظل طاغور يشهر من أدبه أسلحة مهلكة على تعاليم غاندى ، وبذلك تم له الفوز ، وانتشل من يديه شباب بلاده الذين أخذوا يدمنون قراءة قصصه بشغف وتلذذ ، بعـــد ما كانوا يكرهونها بسبب غاندى

قصص طاغور

كان طاغور شاعراً قبل أن يكون قصصياً ، وأشعاره هى غناء الروح ، وبلسم القلوب الجريحة ، وشفاء النفوس المكلومة ؛ وأغانيه هى هتاف الغاب ، وموسيقى أحراش البنغال ، ورفيف النسيم الحلو على حقول الأرز فوق عُدْوَتى الـكنج ! ومن أمتع أشعاره التى كتبها بالانجليزية (البستانى Gardener) حيث تبدو مهارته فى مزج الحب بالبكاء ، والألم بالغزل ، والعبوس بالابتسام

وبين طاغور الشاعر وطاغور القصصى صلة لا تنفصم ، ذلك أنه يضفى روحه الشعرية على قصصه ، فتخرج قصائد طويلة منثورة تنقع غلة القلب ، وتؤدب النفس ، وتسمو بقارئها فوق أدران البشرية ، وتحلق به فى سموات من النقاء والصفاء

بيد أننا نفضل أقاصيص طاغور على قصصه ، وذلك لبراعته التامة فى كتابة القصـة القصيرة ، وفشله الذريع فى القصة الـكبيرة ؛ فمن يقرأ مثلاً روايته (الضحية) ، أو (وكيل البريد) ، أو (خالتى) ، أو (الناسك) ... ... الخ يروعه من طاغور ذلك الخيال الخصب ، والتفـكير العميق ، والفن الـكامل فى كتابة القصة أو الرواية

ولـكنا ، بكل أسف ، حينما قرأنا قصته الطويلة (الغرق (The Wreck) وجدناه ينحدر عن ذروته السامية التى كان يحلق فوقها فى القصة القصيرة ، وذلك لأنه كان كلما وقع خلال القصة فى ورطة ، أو وصل إلى عقدة لم يجد منها مخرجاً الا بالركون الى (الصُّدفة) ، ولذا كانت القصة كلها مصادفات قللت كثيراً من قيمتها كقصة من فن طاغور . ذلك بالرغم مما فيها من طلاوة الأسلوب وحلاوة الروح الشعرى الجميل الأخاذ

(د . خ)

البريد الأدبي

العيد المئوى للصحافة الشعبية

نشأت الصحافة الحديثة منذ نحو قرن ونصف قرن ، وكثير من الصحف الأوربية الكبرى قد جاوز العيد المئوى ؛ ولكن الصحافة الشعبية أو بعبارة أخرى الصحافة المعاصرة التى نقرؤها اليوم ترجع إلى مائة عام فقط ؛ وكانت الصحف قبل مائة عام أداة من أدوات الترف ، لا يحرزها سوى الأغنياء ، وكانت فى الغالب صحفاً أدبية فلسفية ، قلما تفسح لما نسميه اليوم بالأخبار المحلية مجالا كبيراً . وقد أدرك سر هذا النقص صحفى فرنسى بارع هو أميل دى جيراردان ؛ وكان كاتباً ساحر الأسلوب بدأ حياته الأدبية بإصدار رواية عنوانها « أميل » يقص فيها سيرة حياته ؛ ثم خطر له أن يصدر مجلة أسبوعية أدبية ، ينقل فيها أحسن المقالات والقصص عن الصحف الأخرى وسماها « السارق » دلالة على خطتها فى النقل ؛ بيد أنه تطرف بعد ذلك إلى مشروع أهم ، فقد خطر له أن يصدر صحيفة يومية شعبية رخيصة الثمن تحتوى على أهم الأخبار الأخيرة ؛ وفى أوائل يوليه سنة ١٨٣٦ ، أعنى منذ مائة عام ، أصدر جيراردان جريدة الصحافة La Presse وقدمها للجمهور بنصف الثمن المعتاد وجعل اشتراكها السنوى أربعين فرنكا فقط ، فكانت فكرته فتحاً جديداً فى عالم الصحافة ، ولأول مرة أقبل الجمهور المتوسط على اقتناء الصحف ، واستطاع لأول مرة أن يقرأ الأخبار الأخيرة بصورة منتظمة متوالية

وكان هذا بدء الصحافة المعاصرة التى تطورت حتى أصبحت بمحتوياتها الأدبية والخبرية ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية

طبعة جديدة من الأنيس المطرب

تصدر الآن بالمغرب الأقصى (بمدينة الرباط) طبعة جديدة لتاريخ ابن أبى زرع الفاسى المسمى « الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » ؛ وقد ظهر من هذه الطبعة الجديدة الجزء الأول ، وحققه وعلق عليه الأستاذ محمد الهاشمى الفيلالى من أدباء فاس ، وأخرجته شركة النشر المغربية التى ألفت أخيراً بالمغرب من بعض الأدباء لتعنى بإحياء الآداب المغربية

وتاريخ ابن أبى زرع مشهور بين التواريخ المغربية ، وهو يتناول تاريخ المغرب ودوله منذ دولة الأدارسة إلى زمن المؤلف (سنة ٧٢٦ هـ) ؛ وقد ظهر لأول مرة فى مدينة أوبسالا فى السويد محققاً بعناية المستشرق كارل تورنبرج ، ومقروناً بترجمة لاتينية (سنة ١٨٤٣ — ١٨٤٦) ؛ ثم طبع بعد ذلك بفاس أكثر من مرة . ولكن هذه الطبعات جميعها كانت مشحونة بالأخطاء التاريخية واللغوية ؛ ولهذا رأى بعض أدباء المغرب أن الوقت قد حان لاظهاره فى ثوب جديد

وقد تصفحنا الجزء الذى صدر منه الطبعة الجديدة فألفينا فيه أثر العناية بالتحقيق والتصحيح ، وهو يقع فى أكثر من مائة وثمانين صفحة من القطع الكبير ، ويشمل تاريخ المغرب حتى أوائل القرن الخامس الهجرى (سنة ٤١٠ هـ)

فنرجو لاخواننا الأدباء المغاربة كل توفيق ونجاح فى مشروعهم الأدبى ؛ ونرجو أن يتلو إخراج الأنيس المطرب اخراج بعض الآثار المغربية الأخرى ، ولا سيما المخطوط منها

وفاة الدكتور سنوك هور جرونيه المستشرق الهولندى

توفى فى ليدن المستشرق الهولندى الدكتور سنوك هور جرونيه يوم السبت ٤ يوليو فى الحادية والثمانين من عمره

وقد ولد فى ٨ فبراير سنة ١٨٥٧ ، وبعد ما أتم دراسته العالية فى علوم الفقه واللغات الشرقية رحل إلى بلاد العرب ، وكانت رحلته إليها متأخرة عن رحلة السر رتشرد برتون المشهورة بنحو ثلاثين سنة ، فتمم بالمعلومات التى جمعها معلومات السر تشرد برتون ومباحثه

نزل فى جدة فى خريف سنة ١٨٨٥ ، فقضى على سواحل

البلاد خمسة أشهر قبل أن يقصد إلى مكة المكرمة فى زى طبيب عالم ، فقضى فى مكة خمسة أشهر درس فى خلالها المجتمع العربى هناك بين وصول قوافل الحجاج ورجوعها ، ولولا وشاية قنصل فرنسا به لاستطاع أن يطيل اقامته هناك ، ولكن قنصل فرنسا أنبأ السلطات التركية بوجود هورجرونيه فى مكة فأخرج منها

وفى سنة ١٨٨٨ — ١٨٨٩ أصدر كتابه «مكة» فى مجلدين وقد جاء وصفه لمدينة الكعبة مؤيداً لدقة وصف بوخاردث ؛ أما وصفه للمجتمع العربى فى مكة فكان دقيقاً ومسهباً : وصف الأسواق والعبيد والأماكن المقدسة وحرامها والبيوت والأعياد والولائم والفضائل والنقائص ، وكان بحثه فى حياة المدن ببلاد العرب مدققاً ؛ ولكن يقال أنه كان يعوزه شيء من العطف لكى يخرج تاماً ، وهذه الصفة صفة العطف مكنت بالجريف وددطى من الامتياز والتفوق فيما كتباه عن حياة الجزيرة

وبعد ما أتم هورجرونيه كتابه عن بلاد العرب رفض أن يعين أستاذاً للغة العربية فى جامعة كمبردج خلفاً للأستاذ روبرتسن سمث ، وكذلك رفض ما عرض عليه من هذا القبيل فى ألمانيا وليدن ، مفضلاً أن يمضى فى دراساته الاسلامية فى جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندا حيث بقى بضع سنوات مستشاراً للحكومة فى الشؤون الاسلامية

وعاد الى هولندا سنة ١٩٠٦ وقبل أن يشغل منصب أستاذ للغة العربية فى جامعة ليدن . وفى سنة ١٩٠٧ عين مستشاراً فى الشؤون الهندية والعربية لحكومة جزائر الهند الشرقية الهولندية

مجلة خاصة لمسائل الأجناس

صدرت أخيرا بمدينة شتوتجارت بألمانيا مجلة خاصة لمسائل الأجناس بعنوان « مجلة لمباحث الأجناس Zeitechrift fur Rass-enkunde » ؛ والمعروف أن مسألة الأجناس تتخذ فى المانيا الحاضرة أهمية خاصة ؛ وأنها فى مقدمة النظريات الهتلرية التى تسيطر اليوم على المانيا ، وأن الآرية وغير الآرية أصبحت أساس الدولة النازية الحاضرة ، وأساس الاضطهاد المنظم الذى تنظمه المانيا ضد اليهود وضد جميع الأجناس السامية ؛ ومن ثم فقد أضحت المباحث والنظريات الخاصة بالأجناس فى مقدمة المسائل التى يعنى بها الكتاب والعلماء الألمان اليوم ؛ وقد صدر من المجلة المشار اليها عددان حافلان بهذه المباحث ؛ ويحررها الدكتور فون ايكشتيت ، وافتتحها ببحث من قلمه يذهب فيه الى أن نظريات الأجناس قد تطورت اليوم تطورا عظيما ؛ فمنذ عصر « تيريك » حيث كانت الجمجمة البشرية تقاس فى مائة موضع لكى تعرف خواصها ، نرى علم الأجناس اليوم يميل الى الحياة ، ويميل بالأخص الى بحث الخواص العامة ؛ وعرض الى مسألة الذكاء ، وكونه هبة لبعض الأجناس ؛ وكون الموهوبين يهاجرون دائماً من القرية الى المدينة ، فتقفر القرية دائماً من الذكاء الموهوب ؛ وهذا عامل يسيء فى تكوين المجتمع الحاضر ؛ وفى المجلة الحاضرة بحوث أخرى فى هذا الباب لأشهر العلماء الألمان الذين يشتغلون بها

كتاب جديد لمسيو هانوتو

المسيو هانوتو الوزير الفرنسى السابق مؤرخ كبير ، وله عدة مؤلفات تاريخية قيمة ، وقد اشترك فى وضع بعض أجزاء سلسلة التاريخ المصري التى تصدر بالفرنسية ، وإن كان هذا الاشتراك لم تسفر عنه نتائج علمية باهرة . وقد أصدر أخيراً كتاباً عن علائق نابليون وأسرة بوهارنيه الشهيرة التى تنتمى اليها زوجته الأولى جوزفين بوهارنيه عنوانه « آل بوهارنيه والأمبراطور » Lss Beauharnais et l' Empreur وكان قد نشر قبل ذلك كتاباً عن الملكة هورتنس ابنة جوزفين من زوجها الأول ، وفى الكتاب الجديد يقدم الينا مسيو هانوتو سلسلة من الرسائل التى وجهتها جوزفين الى ولدها البرنس أوجين ؛ وتلقى هذه الرسائل كبير ضوء على الصراع الذى كان ناشباً وراء الستار بين آل بونابارت (أسرة الأمبراطور) وبين آل بوهارنيه (أسرة الأمبراطورة) ؛ وقد كانت أسرة الأمبراطورة دائماً على أهبة للتفاهم والوفاق كما يدل على ذلك خطاب من جوزفين لولدها تقول فيه : « إن أولئك الناس لا حق لهم جميعاً فى بغضنا ، ولو أحسنوا موقفهم لما وجدوا أصدقاء أخلص منا »

وقد كان نابليون يدافع دائماً عن جوزفين حتى بعد طلاقها منه ، وكانت جوزفين تخلص له دائماً حتى بعد زواجه ؛ ولكنها بعد مصائب سنة ١٨١٤ ، أدركت أن الخاتمة قد وقعت ، وكتبت إلى ولدها تقول له إنه غدا حراً لا تربطه نحو الأمبراطور رابطة ولاء بعد ، وأنه يستطيع أن يعمل لأسرته بعد أن اختفى الأمبراطور من الميدان ؟

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٥٩ — ٢٠ يوليه سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 159. — Lundi - 20 - 7 - 1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٥٩ « القاهرة فى يوم الاثنين أول جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ — ٢٠ يوليه سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

« إلى صاحب السعادة المحافظ »

أمين افندى الحاوى (كاتب عمومى) له فى هذه الصناعة القدم الأولى والمكان المنفرد . حفظ فى صدر أيامه كتابَىْ : (إنشاء العطار ، للمحبين والتجار) ، و (أبدع الأساليب ، فى العرائض والمكاتيب) ، وهما كتابان يجمعان أعاجيب شتى مما يخطر للبُكْم من أهل الهوى ، ويعرض للجهال من ذوى الحاجة . ثم دخل الجندية فى (قرعة الخديو عباس) ، وهى القرعة التذكارية التى طُلب فيها لِداتُه (للجهادية) ؛ فكان يكتب لرفاقه الجنود رسائل الشوق والعشق والسلام كلَّ رسالة بنصف قرش . فلما خرج من الجيش العامل إلى (الرديف) سلك نفسه فى نظام (البوليس) تسع سنين كوامل ، ازداد فيها علماً بطرائق النظام وطوائف الحكام وأحوال المجتمع ؛ وكان من الممكن أن يتقلب فى نعيم الشرطة مدة أطول ، لو لا أن خيرها الدفّاق فى يده من الشوارع والحوانيت قد فاض على جسمه فتراكب لحمه ، وتدلى بطنه ، واستفاض فيه الشحم حتى كاد ينقطع قيامه ، فلم يكن بد من الحكم عليه بهذه الحجة القائمة على طِماح عينه ، وطول يده ، وقعود همته ؛ فخرج إلى حياة (التحرير) ، وهى منذ شب حديث عبقريته ومطامح أمانيه ، واتخذ له مكتباً تحت السماء أمام (سراى المحافظة) ، وألقى حبله الموهوبة والمكسوبة فى غمرة الحياة وزحمة العيش ، فعادت له بالشهرة الرابحة فى دنيا القضايا والشكايا والسمسرة . فكانت العريضة أو الرسالة أو (الكمبيالة) التى يحررها الحاوى ، أملاً لحرفائه فى ضمان الفوز ، ومثلاً لزملائه فى فن

الـكتابة . ثم تدخّـل فى زوايا البيوت ، وتغلغل فى طوايا الـسرائر ، وتبسّـط على موائد الأنس ، وتفنن فى أساليب الوساطة ؛ فـكان دليل « الخاطب » ، ونديم الشارب ، وسـلوة المحزون ، وسمسار المشترى ، ووكيل المدعى ، وسفير الخصوم ، ورسول الأحبة . تراه أكثر النهار على مقعده الخشبى الضيق فى جلباب فضفاض من الـكستور المخطط ، ومعطف رقيق من النسيج المهلهل ، ورغائب الناس تنثال عليه انثيال النحل الماسلة على الخلية الضخمة : هذا صاحب مظلمة يريد عرض حال ، وذاك طالب مصلحة يتلمس طريق المسعى ، وتلك زوجة هاجر أو حبيبة فاجر تطلب المعونة من قلمه أو لسانه ، وهذا رافع دعوى يرغب توكيل محام ، وذلك زميل عجلان يطلب كلمة لغوية أو جملة نحوية يزين بها رسالته الغالية الثمن (لزبونته) الرفيعة القدر ، وأمين الأريب فى يده قلم ، وفوق أذنه قلم ، وعلى شفته بسمات تتعاقب مختلفات فى السمة واللون والدلالة ، يتلقى كل طالب برغبته ، وكل سائل بجوابه . وهو بعد ذلك لـكثرة ما يغشى بيوت النـاس عارف بأحاديث الأسَر ، عالم بأحداث المجامع ، خبير بألوان المطاعم ؛ فعنده قصة كل زوجين ، وخبر كل صديقين ، وخصيصة كل صحفة من صحاف المائدة ؛ فالقرع شفاء من كل داء ، والرز نصيب الأرض من حقول السماء ؛ وفى الـكبد خروق لا تـسدها إلا الملوخية ، وفى الجسم عروق لا يُنْبضها إلا الـكنافة

* * *

من عادة أمين افندى أن يزورنا كما يزور غيرنا حيناً بعد حين ، فيمْتعنا ساعة بأخباره وأسراره ونوادره ، ثم ينصرف وتحت إبطه رزمة مما تكدّس عندنا من المجلات المقروءة . دخل علينا أمس جاداً على غير عادته ، وقوراً على خلاف طبعه ؛ ولم يكد يلقى التحية حتى ألقى إلىّ فى شىء من الزهو صحيفة مسطرة من ورق (العرائض) وفى رأسها بقلم الثلث : (إلى صاحب السعادة المحافظ) ، وفى ذيلها بقلم الرقعـة : (ابن الحاوى) ، وقال :

كتاب مفتوح إلى سعادة المحافظ عن طريق الرسالة . أتنشره أم تطويه ؟

فقلت له : وماذا تريد من سعادة المحافظ يا أمين افندى ؟

فقال : قرأت فى الصحف أنه ألغى (مصايف الأطفال) ، فهزنى الخبر ، وملـكتنى شهوة الـكلام ، فـكتبت إليه هـذا الـكتاب أريد منه أن يضيف نقطة من بحر كرمه إلى (مصايف) ، فتصبح بفضله (مضايف) ! والـكتاب بين يديك فاقرأ

قرأت الـكتاب فى غَمْرٍ من أحاسيس شتى تتلون تباعاً بالاعجاب والانكار ، والحزن والضحك ، والانفعال والتبلد ؛ ثم قلت له : إنى أقبل كتابك موضوعاً وأرفضه شكلا ، لأنك عرفت كيف تفكر ، ولم تعرف كيف تعبر ؛ ولغة الدواوين وأسلوب (العرائض) لا يدخلان من أبواب الرسالة ؟

فقال وقد طغى فى وجهـه الدم ، ونزا فى رأسه الغضب ، وانتشر على شفتيه شاربه الأزرق : كيف ! لقد حفظت الـكفراوى ، ولزمت الشيخ عليش ، وصحبت الشيخ رشيد ، وجادات الأستاذ وجدى ، وقضيت فى (التحرير) أربعين عاماً ! أفتجابهنى بعد ذلك بأننى لا أعرف كيف أكتب ؟ ! فقلت له : هون عليك ! سأكتب لك هذا الـكتاب بلغة المجلات فان أعجبك أمضيته . ثم شرعت أكتب : « صاحب السعادة محافظ القاهرة :

« يتقدم اليك بهذه الـكلمة والد فقير كابد من نصب العيش وعنت البؤس وتربية الأولاد ما جعله مثلاً صحيحاً لآلام طبقته . إنك ألغيت (مصايف الأطفال) فألغيت حقاً كسبه الفقير من الغنى ، وأخذته العامة من الخاصة . كان هذا الحق لنقصه وقصوره كنظرة أهل النار إلى أهل الجنة يضاعف ألم الحرمان ويجسم شقاء البؤس ، ولـكنه على أية حال كان ترضية لـكرامة الشعب

ولقـد كان فى نفسى أن أطلب الى وزارة الأمة أن تجعل المصايف مضايف تؤْوى شرداء الطفولة وطرداء الفاقة ، فتنقلها بذلك من الخصوص الى العموم ، وتحولها من تملق الـكمال إلى معالجة الضرورة . فأفاريز الشوارع وأفواه الطرق وزوايا الأبنية مغطاة فى الليل القارس القاسى بجسوم اليتامى والهمل من أطفال القاهرة ، تترعرع فى أحضانهم القذرة أغراس الرذيلة ، وتتكاثر على روائحهم الـكريهة جراثيم المنكر ، والملاجئ وحدها علاج هذه الحال الأليمة . فاذا كان هذا الالغاء لسد هذا الخلل وإصلاح هذا الفساد ، فما عدوْت الصواب ولا أخطأت الحزم ؛ وأما ان كان لقلة المـال أو ضعف الرغبة فقد قضيت على فـكرة جملة واعتديت على حق مقدس . . . » . . .

وكان أمين قد سكت عنه الغضب ، فنظر فيما أكتب ثم قال منفعلاً : ما هذا ؟ أين (الديباجة) ؟ وأين ما يجب لمثل هذا العظيم من عبارات التفخيم ؟ أرجو ألا تكمل ! سآخذ كتابى وأسلمه الى الباشا يداً بيد ! فقلت له : أرحتنى أراحك الله ! وسلمته الـكتاب يداً بيد ، ثم صافحته يداً بيد . وخرج الحاوى وأنا أرجح أنى كسبت عدواً جديداً من جرّاء النشر فى الرسالة

احمد حسن الزيات

أحـــلام فى قصر (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كان فلانٌ بن الأمير فلان يتنبَّلُ فى نفسه بأنه مشتقٌ ممن يضع القوانين لا ممن يخضع لها ، فكان تيَّاهاً صلِفاً يشمَخُ على قومه بأنه ابن أمير ، ويختال فى الناس بأن له جَدًّا من الأمراء ، ويرى من تَجَبُّره أن ثيابه على أعطافه كحدود المملكة على المملكة لأن له أصلاً فى الملك

وكان أبوه من الأمراء الذين وُلدوا وفى دمهم شعاعُ السيف وبريق التاج ، ونخوةُ الظفر ، وعزُّ القهر والغلبة ؛ ولكن زمنه ضربَ الحصارَ عليه ، وأفضت الدولةُ إلى غيره فتراجعت فيه ملكاتُ الحرب من فتح الأرض إلى شراء الأرض ، ومن تشييد الامارات إلى تشييد العمارات ، ومن إدارة معركة الأبطال إلى إدارة معركة المال ؛ وعَمَّر دهرَه يملك ويجمع حتى أصبحت دفاتر حسابه كأنها (خريطة) مملكة صغيرة

وبعض أولاد الأمراء يعرفون أنهم أولاد أمراء فيكونون من التكبر والغرور كأنما رضوا من الله أن يرسلهم إلى هذه الدنيا ولكن بشروط ....

***

وانتقل الأمير البخيل إلى رحمة الله ، وترك المال وأخذ معه الأرقام وحدها يحاسَب عنها ، فورثه ابنه وأمَرَّ يدَه فى ذلك المال يبعثره ؛ وكانت الأقدار قد كتبت عليه هذه الكلمة : غير قابل للاحسان . فمحتها بعد موت أبيه ، وكتبت فى مكانها هذه الكلمة : مُجمع للشيطان

أما الشيطان فكان له عمل خاص فى خدمة هذا الشاب ، كعمل خازن الثياب لسيده ، غير أنه لا يلبسه ثياباً بل أفكاراً وآراءً وأخيلةً . وكان يجهد أن يُدخل الدنيا كلها إلى أعصابه ليخرج منها دنيا جديدة مصنوعة لهذه الأعصاب خاصة ، وهى أعصاب مريضة ثائرة متلهبة لا يكفيها ما يكفى غيرها فلا تبرح تسأل الشيطان بين الحين والحين : ألا توجد لذة جديدة غير معروفة ؟ ألا يستطيع ابليس القرن العشرين أن يخترع لذة مبتكرة ؟ ألا تكون الحياة إلا على هذه الوتيرة من صبحها لصبحها ؟

كان الشاب كالذى يريد من إبليس أن يخترع له كأساً تسع نهراً من الخمر ، أو يجد له امرأة واحدة وفيها كل فنون النساء واختلافهن . وكان يريد من الشيطان أن يعينه فى اللذة على الاستغراق الروحانى ويغمره بمثل التجليات القدسية التى تنتهى اليها النفس من حِدَّة الطرب وحدَّة الشوق ؛ وذلك فوق طاقة إبليس ، ومن ثم كان معه فى جهد عظيم حتى ضجر منه ذات مرة فهمّ أن يرفع يدَه عنه ويدعه يدخل إلى المسجد فيصلى مع بعض الأمراء الصالحين

وهؤلاء الفُسَّاقُ الكثيرو المال إنما يعيشون بالاستطراف من هذه الدنيا ، فهمُّهم دائماً الألذُّ والأجمل والأغلى ؛ ومتى انتهت فيهم اللذة منتهاها ولم تجد عاطفتُهم من اللذات الجديدة ما يسدُّها ضاقت بهم فظهرت مظهر الذى يحاول أن ينتحر . وذلك هو الملل الذى يُبتلون به .. والفاسق الغنى حين يمل من لذاته يصبح شأنه مع نفسه كالذى يكون فى نفَق تحت الأرض ويريد هناك سماءً وجواً يطير فيهما بالطيارة . . .

***

قالوا : واعترض ابنَ الأمير ذات يوم شحاذٌ مريض قد أسنّ وعجز يتحامل بعضه على بعض ، فسأله أن يحسن إليه وذكر عَوَزه واختلاله وجعل يَبُثُّه من دموعه وألفاظه . وكان إبليس فى تلك الساعة قد صرف خواطر الشاب إلى إحدى الغانيات المتمنعات عليه وقد ابتاع لها حلية ثمينة اشتطَّ بائعها فى الثمن حتى بلغ به عشرة آلاف دينار ، فهو يريد أن يهديها إليها كأنها قدَرٌ من قادر . . . وقطع عليه الشحاذ المسكين أفكاره المضيئة فى الشخص المضىء فكان إهانةً لخياله السامى ... ووجد فى نفسه غضاضةً من رؤية وجهه واشمأز فى عروقه دمُ الامارة وتحركت الوراثة الحربية فى هذا الدم

ثم ألقى الشيطانُ إلقاءَه عليه ، فاذا هو يرى صاحب الوجه القذر كأنما يتهكم به يقول له : أنت أمير يبحث الناسُ عن الأمير الذى فيه فلا يجدون إلا الشيطان الذى فيه . وليس فيك من الامارة إلا مثلُ ما يكون من التاريخ فى الموضع الأثرىّ الخرب . ولن تكون أميراً بشهادة عشرة الآلاف دينار عند مومس . ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقير .

(١) كتبنا مقالة (أحلام فى الشارع) وهى فى السنة الثانية من الرسالة

أنت أمير ، فهل تثبت الحياة أنك أمير أو هذا معنى فى كلمة من اللغة ؟ إن كانت الحياة فأين أعمالك ، وإن كانت اللغة فهذه لفظة بائدة تدل فى عصور الانحطاط على قسط حاملها من الاستبداد والطغيان والجبروت ، كأن الاستبداد بالشعب غنيمة يتناهبها عظماؤه ، فقسم منها فى الحاكم وقسم فى شبه الحاكم يترجم عنه فى اللغة بلقب أمير

ألا قل للناس أيها الأمير : إن لقبى هذا إنما هو تعبير الزمن عما كان لأجدادى من الحق فى قتل الناس وامتهانهم

* * *

وكان هذا كلاماً بين وجه الشحاذ وبين نفس ابن الأمير فى حالة بخصوصها من أحوال النفس ، فلا جرم أهين الشحاذ وطرد ومضى يدعو بما يدعو

ونام ابن الأمير تلك الليلة فكانت خيالته (١) من دنيا ضميره وضمير الشحاذ : فرأى فيما يرى النائم أن ملكا من الملائكة يهتف به :

ويلك ! لقد طردت ذلك المسكين تخشى أن تنالك منه جرائيم تمرض بها ، وما علمت أن فى كل سائل فقير جرائيم أخرى تمرض بها النعمة ؛ فان أكرمته بقيت فيه وإن أهنته نفضها عليك . لقد هلكت اليوم نعمتك أيها الأمير واسترد العارية صاحبها وأكلت الحوادث مالك فأصبحت فقيراً محتاجاً تروم الكسرة من الخبز فلا تتهيأ لك إلا بجهد وعمل ومشقة ؛ فاذهب فاكدح لعيشك فى هذه الدنيا فما لأبيك حق على الله أن تكون عند الله أميراً

قالوا : وينظر ابن الأمير فاذا كل ما كان لنفسه قد تركه حين تركه المال ، وإذا الامارة كانت وهماً فرضه على الناس قانون العادة ، وإذا التعاظم والكبرياء والتجبر ونحوها إنما كانت مكراً من المكر لاثبات هذا الظاهر والتعزز به . وينظر ابن الأمير فاذا هو بعد ذلك صعلوك أبتر معدم رث الهيئة كذلك الشحاذ ، فيصيح مغتاظاً : كيف أهملتنى الأقدار وأنا ابن الأمير ؟

قالوا : ويهتف به ذلك الملك : ويحك إن الأقدار لا تدلل أحداً لا ملكا ولا ابن ملك ولا سوقياً ولا ابن سوق ، ومتى صرتم جميعاً إلى التراب فليس فى التراب عظم يقول لعظم آخر : أيها الأمير

* * *

قالوا : وفكر الشاب المسكين فى صواحبه من النساء وعندهن شبابه وإسرافه ، ونفقاته الواسعة فقال فى نفسه : أذهب لاحداهن ؛ وأخذ سمته إليها فما كادت تعرفه عيناها فى أسماله وبذاذته وفقره حتى أمرت به فجر بيديه ودفع فى قفاه . ولكن دم الامارة نزا فى وجهه غضباً وتحركت فيه الوراثة الحربية فصاح وأجلب واجتمع الناس عليه واضطربوا وماج بعضهم فى بعض . فبينا هو فى شأنه حانت منه التفاتة فأبصر غلاماً قد دخل فى غمار الناس فدس يده فى جيب أحدهم فنشل كيسه ومضى

قالوا : وجرى فى وهم ابن الأمير أن يلحق بالغلام فيكبسه كبسة الشرطى وينتزع منه الكيس وينتفع بما فيه ، فتسلل من الزحام وتبع الصبى حتى أدركه ، ثم كبسه وأخذ الكيس منه وأخرج الكنز فاذا ليس فيه إلا خاتم وحجاب وبعض خرزات مما يتبرك العامة بحمله ومفتاح صغير . . .

فامتلأ غيظاً وفار دم الامارة وتحركت الوراثة الحربية التى فيه . وألم الصبى بما فى نفسه وحدس على أنه رجل أفاق متبطل لا نفاذ له فى صناعة يرتزق منها ، فرثى لفقره وجهله ودعاه إلى أن يعلمه السرقة وأن يأخذه إلى مدرستها . وقال : إن لنا مدرسة فاذا دخلت القسم الاعدادى منها تعلمت كيف تحمل المكتل (١) فتذهب كأنك تجمع فيه الخرق البالية من الدور حتى إذا سنحت لك غفلة انسللت إلى دار منها ، فسرقت ما تناله يدك من ثوب أو متاع ، ولا تزال فى هذا الباب من الصنعة حتى تحكمه ، ومتى حذقته ومهرت فيه انتقلت إلى القسم الثانوى . . .

فصاح ابن الأمير : أغرب عنى ، عليك وعليك ، أخزاك الله ! ولعن الله الاعدادى والثانوى معاً

ثم إنه رمى الكيس فى وجه الغلام وانطلق ، فبينا هو يمشى وقد توزعته الهموم أنشأ يفكر فيما كان يراه من المكدين وتلك العلل التى ينتحلونها للكدية كالذى يتعامى والذى يتعارج والذى يحدث فى جسمه الآفة ؛ ولكن دم الامارة اشمأز فى عروقه

(١) الخيالة : ما يتراءى للنائم من الأشباح فى نومه

(١) هو كالقفة يعمل من الخوص

وتحركت فيه الوراثة الحربية ؛ وبَصر بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة فتعرّض لمعروفه وأفضى إليه بهمّه وشكا ما نزل به ثم قال : وإنى قد أمّلتك وظنى بك أن تصطفينى لمنادمتك أو تلحقنى بخدمتك ، وما أريد إلا الكفافَ من العيش ، فان لم تبلغ بى فالقليل الذى يعيش به المُقِلّ . وصعّد فيه الشاب وصوّب ثم قال له : أتحسن أن تلطف فى حاجتى ؟ قال : سأبلغ فى حاجتك ما تحب . قال الشاب : ألك سابقة فى هذا ؟ أكنت قوّاداً ؟ أتعرف كثيرات منهن . . . . ؟

فانتفض غضباً وهمّ أن يبطش بالفتى لولا خوفه عاقبة الجريمة ، فاستخذى ومضى لوجهه ، وكان قد بلغ سوقاً فأمّل أن يجد عملاً فى بعض الحوانيت ، غير أن أصحابها جعلوا يزجرونه مرة ويطردونه مرة ، إذ وقعتْ به ظِنّةُ التلصّص ، وكادوا يسلمونه الى الشرطى فمضى هارباً وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسه ودهره وامارته وبؤسه جميعاً

قالوا : ومر فى طريقه الى مصرعه بامرأة تبيع الفُجل والبصل والكرات وهى بادنة وضيئة ممتلئة الأعلى والأسفل ، وعلى وجهها مسحة إغراء ، فذكر غزله وفتنته واستغواءه للنساء ، ونازعته النفس ، وحسب المرأة تكون له معاشاً ولهواً ، وظنها لا تُعجزه ولا تفوته وهو فى هذا الباب خرّاجٌ ولاّجٌ منذ نشأ ، غير أنه ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطمة أظلم لها الجو فى عينيه ، ثم هرّت فى وجهه هريراً منكراً واستعْدَت عليه السابلة فأطافوا به وأخذه الصفع بما قدم وماحدث ، ومازالوا يتعاورونه حتى وقع مغشياً عليه

ورأى فى غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب فضُرب وحُبس وابتلى بالجنون وأرسل الى المارستان وساح فى مصائب العالم وطاف على نكبات الأمراء والسُّوقة بما بى وما لا بى ، ثم رأى أنه قد أفاق من الاغماء فاذا هو قد استيقظ من نومه

* * *

وياليت من يدرى بعد هذا : أغدا ابنُ الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يحسن إليهم ، أم غدا على صاحبته التى امتنعت عليه فابتاع لها الحلية بعشرة آلاف دينار ؟

يا ليت من يدرى ! فان الكتاب الذى نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئاً بل قطع الخبر عند ما انقطع الصفع .....

(طنطا) محمود محمد شاكر

فوز نسوى جديد

ملكات ووزيرات
بين الماضى والحاضر
للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ فجر التاريخ استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك وأن تحكم الشعوب ؛ وهى ما زالت تتبوأ الملك وتحكم الشعوب فى عصرنا

ويقدم الينا التاريخ منذ العصور الغابرة نبتاً حافلاً من ملكات عظام شغلن عروشاً خطيرة ، وألقيت اليهن مصاير أمم وشعوب عظيمة ، وقمن بتدبير الملك وقيادة الجيوش ؛ ففى مصر الفرعونية ، وفى مملكة سبأ ، وفى تدمر ، يتبوأ الملك نساء قويات العزم والشكيمة ؛ وفى مصر أيضاً نرى ملكة رائعة الحسن هى كليوباترا تحاول رد الغزو الرومانى عن مصر ، وتفتدى الهزيمة بالحياة ؛ ثم نرى فى عصر الاسلام ملكة مصرية هى شجرة الدر تنظم شؤون الدفاع عن مصر إزاء الخطر الصليبى ؛ ونرى فى الغرب ، وفى العصر الحديث ، عدة من الملكات العظيمات يسهرن على مصاير أعظم الأمم الأوربية مثل ايزابيلا ملكة قشتالة ، ومارى تيودور واليصابات ملكتا انكلترا ، وكاترين الكبرى امبراطورة روسيا ، وماريا تريزا امبراطورة النمسا

وفى أيامنا تتبوأ عرش هولندة أميرة عظيمة هى الملكة ولهلمينا ؛ بيد أنه من غرائب الاتفاق ومفارقات الحوادث أن المرأة التى وصلت منذ العصور الغابرة إلى تبوىء العروش وقيادة الدول ما زالت تناضل فى عصرنا للحصول على أبسط الحقوق العامة التى يتمتع بها الرجل ، فاذا ظفرت ببعض هذه الحقوق فى بلد من البلاد اعتبر ذلك فوزاً عظيما لقضيتها

وقد وقع أخيرا فى فرنسا حادث يعتبر فوزاً عظيما للحركة النسوية ؛ ففى الوزارة الفرنسية الجديدة التى يرأسها زعيم الاشتراكية الفرنسية ، مسيو ليون بلوم ثلاث نساء يشغلن مركز الوزارة ، وهن مدام سيسيل برونشفيج إحدى زعيمات الحركة النسوية الفرنسية ، ومدام ايرن كورى العالمة الكيميائية

الشهيرة ، ومدام سوزان لاكور الكاتبة الاشتراكية التى اشتهرت بجهودها فى سبيل حماية الطفولة

وهذه أول مرة فى تاريخ فرنسا تتبوأ فيها المرأة كرسى الوزارة ؛ ويزيد الحادث غرابة وطرافة أن أولئك النسوة الوزيرات لا زلن كباقى نساء فرنسا ، محرومات بنص الدستور من مزاولة أبسط الحقوق العامة ، أعنى حق الانتخاب ، وهو حق تجاهد المرأة الفرنسية للحصول عليه بكل ما وسعت ، وتأباه عليها الحكومات والبرلمانات المتعاقبة

ولقد تخلفت فرنسا فى هذا الميدان عن باقى الأمم الديموقراطية العظيمة مثل انكلترا وأمريكا وروسيا حيث تتبوأ المرأة مناصب الحكم ومقاعد النيابة منذ أعوام بعيدة ؛ وفى البرلمان الانكليزى اليوم عدد كبير من النسوة النائبات ، وفى الوزارة الانكليزية القائمة سيدة هى مس بونفيلد وزيرة العمل ؛ وفى أمريكا تشغل المرأة مناصب الحكم فى كثير من الولايات ، وتحتل عدداً كبيراً من المقاعد النيابية ؛ وفى روسيا السوفيتية تتمتع المرأة بجميع الحقوق السياسية والعامة التى يتمتع بها الرجل ، وتشغل كثيراً من مراكز الحكم والنيابة فى سائر الادارات والمجالس السوفيتية ، وأحياناً تشغل منصب السفارة ، مثل السيدة الكسندرا كولانتاى ، التى لبثت مدى حين سفيرة للروسيا فى المكسيك ثم فى السويد ؛ بل نرى المرأة تفوز فى بعض الأمم الفتية بحق الانتخاب والنيابة ، كما حدث أخيراً فى تركيا

* * *

كانت الحرب الكبرى ميداناً عظيما لجهود المرأة ، ففيها استطاعت لأول مرة أن تضطلع بكثير من المهام والأعمال الشاقة ، وفيها لقيت الحركة النسوية المعاصرة فرصة عظيمة لنشاطها وظفرها ؛ ومنذ غداة الحرب استطاعت المرأة أن تحقق كثيراً من أمانيها ومطالبها ، فغزت جميع ميادين الحياة العامة ، ونفذت إلى معترك الوظائف والمهن الحرة ، وفتحت لها أبواب التعليم الجامعى بسائر أنواعه ، ولم تعد تقتصر على مزاولة المهن السلمية الهادئة كالطب والمحاماة والصحافة ؛ بل غدت تنافس الرجل فى أشق الأعمال وأخطرها ، كالهندسة والطيران وبعض الأعمال العسكرية والبحرية ، وغيرها مما كان اضطلاعها به يعتبر من قبل ضربا من المستحيل

ولكن المرأة ما زالت ترد بعنف عن حظيرة التشريع والسياسة العليا ، وعن مواطن المسئولية العامة ؛ وإذا كانت قد استطاعت أن تفوز فى بعض الأمم بحقوق الانتخاب والنيابة ، وأن تحتل بعض الوظائف الكبيرة ، فانها ما زالت بعيدة جدا عن التأثير فى سير السياسة العليا ، وسير التشريع القومى ؛ وما زال الرجل يستأثر وحده بتوجيه السياسة والتشريع بعيدا عن تدخل المراة أو اشرافها . وقد تمضى أجيال أخرى قبل أن تستطيع المرأة أن تغزو هذا الميدان غزوا حقيقياً ، أو أن تسهم فيه مساهمة تذكر

وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل ؛ فقد أتيح للمرأة ، فى كثير من العصور أن تتبوأ الملك وأن تقود الأمم ، وأن تستأثر بتوجيه السياسة العليا ، ولكنها تحرم فى عصرنا ، رغم عصر تقدمها وظفرها ، من تبوىء مناصب الحكم والمسئولية . وبعبارة أخرى ، فقد سبق فوز المرأة بالملوكية ، فوزها بالوزارة أو ما يماثلها ؛ بيد أنه ليس من الصعب أن نفسر هذه الظاهرة التاريخية ؛ ذلك أن فوز المرأة بالملوكية لم يكن راجعاً فى عصر من العصور إلى مواهب ومزايا خاصة تؤهلها للاضطلاع بهذا المنصب الخطير ، ولكنه كان يرجع دائماً إلى حقوق الأسرة وتطورات الحوادث ؛ وقد كانت حقوق الأسرة فى الملك تتشح فى العصور القديمة والوسطى بنوع من الحق الالهى ، وفى ظل هذا الحق المزعوم الذى كانت تقدسه الشعوب فى تلك العصور استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك بالوراثة والتعيين لا بالأهلية والاستحقاق

وإذا كان من الانصاف أن نقول إن المرأة استطاعت فى ظل الملوكية أن تقوم أحياناً بمهام الملك والسياسة بقوة وبراعة ، فانه يجب ألا ننسى أن وجودها فى هذا المركز لم يكن عنوان فوزها الاجتماعى ، ولم يكن نهاية فى تطور النضال بينها وبين الرجل ، وإنه لم يكن أكثر من ظاهرة تاريخية عرضية كما بينا

على أن المرأة لم تقف فى توجيه العروش والسياسة عند هذا الموطن الذى ارتفعت اليه فى ظل الأسرة والحق الالهى ، بل استطاعت فى ظروف كثيرة أن تصل بقوة عزمها ونفوذها إلى التأثير المباشر فى توجيه الدول والحكومات ؛ ويقدم لنا التاريخ

أمثلة طريفة جمة من هذا النوع البارع من النساء . ولم يخل التاريخ الاسلامى نفسه من أمثلة من هذا النوع ؛ ففى تاريخ الأندلس نجد امرأة نصرانية بارعة هى صبح النافارية جارية الحكم المستنصر وأم ولده المؤيد ، تسيطر بنفوذها على الحكم وعلى حكومة قرطبة زهاء عشرة أعوام ، وتؤثر فى سياسة القصر والدولة ؛ فاذا توفى الحكم نراها تستأثر مدى حين بالوصاية على ولدها المؤيد وتوجه ناصية الشؤون ببراعة ودهاء حتى يسطع نجم المنصور بن أبى عامر (الحاجب المنصور) فيسلبها كل سلطة وكل نفوذ . وفى دولة بنى عباد باشبيلية ، نرى جارية أخرى هى اعتماد الرميكية جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده تسيطر على حكومة اشبيلية مدى حين . وفى أواخر دولة الاسلام بالأندلس نجد امرأة نصرانية هى ثريا زوجة السلطان أبى الحسن النصرى ملك غرناطة توجه شؤون الدولة طبق أهوائها وتثير بمساعيها ضرام الحرب الأهلية التى انتهت بسقوط غرناطة فى أيدى النصارى . ويقدم الينا التاريخ الأوربى نماذج عديدة مدهشة من نساء يسيطرن على الدولة بطرق غير مباشرة ، ونكتفى بأن نقدم من ذلك مثلين بارزين : أولهما مثل المركيزة دى بومبادور صاحبة لويس الخامس عشر ملك فرنسا ، وقد حلت فى البلاط مكان الملكة الحقيقية ، وسيطرت مدى أعوام طويلة بنفوذها على شؤون القصر والدولة ، تولى وتعزل ، وتأمر وتنهى ، وتؤثر فى توجيه سياسة فرنسا الخارجية أعظم تأثير ، وتقبض على مقاليد السلام والحرب . والمثل الثانى هو مثل البارونه بربارة فون كريدنر ، وهى سيدة روسية غادرت حياة زوجية نكدة لتعتنق حياة الزهد والتصوف ، وقصت علينا حياتها الأولى فى كتاب عنوانه « فاليرى » ، وطافت أرجاء ألمانيا وسويسرة وهى تحض على الزهد واحتقار متاع هذه الحياة الدنيا ، ثم ألقت بها المقادير إلى بلاط القيصر اسكندر الأول ، فأثرت فى نفسه تأثيرا عظيما واستولت على مشاعره وتفكيره ؛ وكان يقضى معها كل يوم ساعات عديدة فى الصلاة والشورى ؛ وقد ظهر تأثير هذه المرأة الغريبة فى عقد « المعاهدة المقدسة » الشهيرة ، التى عقدها القيصر مع النمسا وبروسيا (سنة ١٨١٥) وغرضها الظاهر تنظيم العلائق الدولية طبقاً للمبادئ المسيحية ، وترويج المحبة الأخوية بين الشعوب ، وغرضها الحقيقى مقاومة النزعات والحركات الحرة ؛ وكان للبارونة فون كريدنر فى الحث على عقدها أعظم أثر ، كما أنها لبثت مدى حين توجه سياسة القيصر طبق آرائها ونصائحها

فهذه الأمثلة التاريخية العديدة توضح لنا إلى أى مدى استطاعت المرأة أن تغزو مواطن التأثير والنفوذ فى الشؤون العامة بطرق ووسائل غير مباشرة ؛ بيد أن هذا الفوز الذى يرجع دائما إلى عوامل وظروف عرضية ، لم يكن ثمرة نضال أو تطور طبيعى ؛ أما اليوم فان المرأة تسير فى ميدان النضال بخطوات حثيثة ، وتحقق لنفسها بوسائلها وجهودها ظفرا بعد ظفر ؛ وإذا كانت المرأة تتبوأ اليوم كراسى النيابة والوزارة ، فذلك لأنها استطاعت أن تشق طريقها إلى تلك المناصب ، وأن تدلل على أهليتها لتوليها ، فهى إذن تسير فى طريق طبيعى لا أثر فيه للطفرة أو العوامل العارضة التى رفعتها من قبل إلى مواطن نفوذ لم تكن تحلم بها

ولا ريب أن المرأة لن تقف عند هذا الفوز اليسير الذى يكاد يعتبر فوزاً رمزياً فقط ؛ ومن المحقق أنها ستعتز بهذا الفوز على ضآلته فتضاعف جهودها ؛ وإذا سارت الحوادث فى طريقها ، وإذا لم تعقها العوامل والمؤثرات الرجعية ، فان المرأة ستصل فى المستقبل القريب فى تحقيق أمانيها إلى مدى يصعب اليوم ادراكه وتقديره ، وإن لم يك ثمة شك فى أنه سيكون عظيما بعيد الأثر ؟

محمد عبد الله عنان

هنرى روبير

عضو الأكاديمية الفرنسية ونقيب المحامين

للأستاذ عبد الحليم الجندى المحامى

إلى المحاماة ، فى شخص المحامى الأول ، والنقيب الأول ، ابراهيم الهلباوى بك

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

ولكن ما الذى يقوله هنرى روبير فى تلك القضايا التى سلخ المحقق فى تحقيقها عاماً كاملاً ، أو التى اسودت فيها آلاف الصحف ؟ للجواب على ذلك نقول إن هنرى روبير كان يجيد عدم الكلام بقدر ما كان يجيد الكلام ، فهو يعمد أولاً إلى المسألة التى تحكم القضية — إذا صح هذا التعبير فى لغتنا العربية — فيظهرها على طريقته بقوة وبسرعة وإيجاز ، ثم يسقط من كلامه أكثر ما فى القضية من حواش تنأى به عن الجوهر ؛ فهو يدرك كل الادراك أن الخير للمحامى ليس عرض كل ما فى الأضبارة ، بل الفن الحقيق هو ترك ما يجب أن يترك فيها ؛ وقديماً علمنا أساتذتنا أن فن الحذف يساوى تماماً فن الكلام ... ولذلك كنت تجده مسرعاً ، ممتعاً ، مقنعاً ؛ كل ذلك فى وقت واحد

كان يقول إنه درس « لاشو » دراسة عميقة ؛ لكنك لا تجد فيه مشابه من أستاذه ، فرافعات روبير كانت مرافعات موضوعية مجردة ، لا تتخللها الجلجلة ولا الصوت الداوى ، ولا الصور التاريخية ، ولا العبارات البيانية الخلابة التى يتشابه فيها لاشو مع أستاذ ذلك العصر « فكتور هوجو » . والحق أن تلاميذ لاشو لم يكن منهم نقيبنا الذى نتحدث عنه ، بل إن لاشو قد خلف من بعده باربو نابغة الفن التقليدى فى الدفاع ، ولابورى ، المهيب الذى يُرعب بقدر مايستطيع الاقناع ؛ أما هنرى روبير فلم يكن يهمه رسم الصور ، ولا طلاء اللفظ ، ولا طلاوة الأسلوب ، ولا تفخيم المعانى ؛ فاذا جاءت صورة من الصور أو حكمة من الحكم فى معرض الدفاع وجدتها منتزعة من صميم الواقع لا من آفاق الخيال ، ووجدتها من لباب القضية لا مترددة بين الحواشى لتثير الاعجاب

رحمه الله ! ألا فليقل لنا إن كان حقاً قد تتلمذ لأستاذ القرن الماضى — بعد بربيه — هل هو كان يرى أن يقول للمحلفين تلك الكلمة المسرحية أو الخطابية التى قالها لاشو فى سنة ١٨٥٥ وهو يترافع عن رودلف المتهم بدس السم إلى عشيقته « ميمى » : « ها إن السماء تدوى لكأنها تكاد تنقض ؛ إنكم تسمعون هزيم الرعد وعصف العاصفة ! ... إن السماء تزمجر سخطاً على ما على الأرض من اعنات ... إنها تحتج معى على تلك الاجراءات !! » . أو تلك الكلمة الهائلة التى صوبها إلى القضاة فى مرافعته ضد الجنرال « تروش » بعد حرب السبعين ، وكان تروش قد تهاون فى قضية الأمبراطور ، وكان الأمبراطور قد خُلع ، وكان الأمبراطور صديقاً شخصياً للاشو ، قال : « ... إنكم ستحكمون فى قضية الجنرال تروش ... ولكن التاريخ سيصدر حكمه على حكمكم !.. وسيقرأ التاريخ كل مادار فى هذه الجلسات .. فحذار أن تضحوا كل شيء مرة واحدة .. فيقول بنو الأجيال المقبلة : إن كل شيء فى هذه الأمة قد ضاع « حتى العدالة نفسها ! » لم يكن روبير ينحو ذلك النحو البلاغى فى الدفاع ، لأن وظيفة المحامى عنده كما قال : « أن يُقنع لا أن يلمع » ، ولأن الدنيا تغيرت ، والمحاكم ضاقت ، وصدور القضاة والحضارة نفسها أصبحت معجلة كأنها تريد أن تصل بالدنيا إلى آخر الدنيا ...

إنما تلاميذ لاشو ولداته هم أولئك الذين يقولون مثلما قال باربو عن دلـبس : « ... ذلك الانسان الذى أضاف بعض الـ « رتوش » إلى صورة الخليقة كما أبدعتها يد الخالق ... » أو مثل فكتور هوجو وهو يترافع عن ولده شارل ضد عقوبة الأعدام « .. هذه العقوبة التى إذا وقعت على مجرم جماته يشك فى وجود الانسانية ، فاذا وقعت على برىء جعلته يشك فى وجود الله !.. » أو مثل فكتور هوجو أيضاً وهو يترافع فى هذه القضية ، وإذا شئت فقل مثل النمر — الأب النصر كما سموه بعد الحرب الكبرى — أعنى كليمنصو عند ما ترافع عن أميل زولا عقب لابورى ، فنقل عن هوجو تلك الاشارة البديعة إلى تمثال المسيح ، وكان إلى ذلك الوقت يوضع خلف هيئة المحكمة فى الجلسات وقال : « انظروا وراءكم : فهذه أكبر ضحية عرفها التاريخ لأخطاء القضاة !! ... ... وكانت قضية أميل زولا تدور حول إعادة

النظر فى قضية دريفوس ؛ أو الهلباوى مثلاً فى قضية نزاهة الحكم ، وبتلك الوثبة الذهنية البارعة ، بل تلك الأعجوبة الرائعة الخالدة ، عند ما رد حفنى بك محمود أحد المستشارين لشبهة عرضت له فرفض الرد وأخذ الدفاع عن الخصم يعيِّر حفنى بك بأن رده رفض وبأنه يتشكك حتى فى القضاة ، ويتهم حتى رجال العدل ، قال هلباوى بك « . . . فلما عرضت له الشبهة فى قضيته لم ينخلع فؤاده فرَقاً ، بل أقدم على أن يطلب الحقيقة عارية والعدالة مجردة ، ليطمئن قلبه ؛ وقديماً ، وفى سبيل الاطمئنان قال موسى : (رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين)

فالاطمئنان الذى نشده موسى وظفر به ، هو الاطمئنان الذى نشده حفنى وظفر به ! والذى حصل من حفنى حصل من إنسان أسمى منه ألف مرة ، وبالنسبة لمن ؟ بالنسبة لمن هو أسمى من سعادة المستشار لا ألف مرة ، ولا مليون مرة ، ولكن بمقدار الفرق ما بين الانسان وخالق الانسان .. !! »

لا تجد لذلك التصوير وأشباهه نظائر عند هنرى روبير ، لكنك تجد له خواطر ممتعةً تستحيل عند تلاوتها إلى حجج موضوعية فى القضية المطروحة . ومثل ذلك ما نقلناه من قبل فى ختام مرافعته عن بوبوروش ؛ ومثل ذلك أيضاً ما جاء فى مرافعته عن الدكتور لابورت فاستمع إليه يوجه نظر القضاة إلى الأطباء : « ... انظروا إلى تلك الغرفات الفساح فى المصحات والمستشفيات حيث الهواء مشبع بسموم الدفتريا وجراثيم الطاعون ، وانظروا إلى أولئك الرائحين الغادين فى تلك الغرف أمام مرضى ينفثون الموت الزؤام من الشهقات والزفرات ؛ هل علمتم على واحد منهم أنه أجفل أو أنه ارتعد ؟ هل تردد واحد منهم عن القيام بكل ما يفرضه عليه الواجب ؟ ارجعوا إلى إحصاءات الحمى الصفراء والكوليرا ، واسألوا كم من هؤلاء الفرسان قد سقط فى ساح الشرف ! انظروا إلى هذه الطائفة وقولوا هل هى الطائفة المتمردة على القانون والتى يجب أن يضرب على أيديها ضربات البطش والانتقام ! . . لا . لا . . إنكم ستجدون هؤلاء البنين البررة للعلم وللفن وللانسانية قد وهبوا نفوسهم للعلم وللفن وللموت فى سبيلهما ؛ فهم تارة يصرعون الموت وتارة يصرعهم ، لكنهم يستحقون الاعجاب فى كل حال !! .. »

وكانت له وثبات فى الارتجال يتناقلها الكافة ؛ فمثل ذلك رده على النقيب دربيه الذى جاء فى صدر هذا البحث ، ومثله ما رواه « جو لندن » فى (أشهر قضايا سنة ١٩٣٢) ولقد كان توريز المحامى الأشهر يدافع بجلسة ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٢ أمام استئناف الجنح عن موكله (ڤرمون) ضد (تا كوشيا) موكل هنرى روبير ، وكانت التهمة نصباً موجهاً ضد ڤرمون ، وكان هنرى روبير محامى المدعى المدنى ، وكانت نظرية توريز أن تاكوشيا سبق أن نصب على ڤرمون فجاء ڤرمون وأصلح ما أفسده عليه تاكوشيا ، واختتم دفاعه بكلمة مسرحية تخلب الألباب قال : « ... لقد كانت رواية : أما الفصل الاول فتاكوشيا يضرب ڤرمون ، والفصل الثانى ڤرمون يضرب تاكوشيا . . . » وبينما هو يسترسل نادى هنرى روبير بصوت ضخم : « . . . الفصل الثالث : المحكمة تضرب ڤرمون !! .. »

كان زعيم الارتجاليين كما قلنا ، فما هو الارتجال إذن ؟ أما ارتجال الفكرة فمجازفة بحقوق الناس ، ووصمة للمحاماة ، واستهتار بالقضاة ؛ وأما ارتجال الألفاظ فذلك شىء آخر ؛ والمحامى الذى يرتجل الكلام هو الذى يملك أعنة البلاغة ، أو هو الذى حضر مرافعته مرات ومرات ، أو هو الذى مَرِن على مواجهة الاحداث ومجابهة ما يفاجئ ؛ وإذن فهو لا يرتجل وإنما هو يستخرج ما فى مواهبه من كنوز غائرة تظهرها الحاجة ، فهذا تحضير غير مباشر ، وهذا هو بالطبع ما عناه شارل شنى فى محاضرته لفتيات الجامعة فى سنة ١٩١١ ، إذ حدثهن عن حياته الأولى فى المحاماة قال : « ... وكنا جميعاً نساهم بنصيب ضخم فى تلك الأكذوبة الشائعة وهى أننا نرتجل عفو البديهة كلاماً سهرنا فى تحضيره طول الليل وأثناء النهار .. !! » وفى أواخر القرن الماضى أشار محامٍ — كان عضواً فى مجلس النواب — إلى أن القضاة سيسمعون من (باربو) مرافعة أصلها مكتوب ، فصرخ باربو بصوته الداوى : « نعم إن احترامى لهذه الساحة يضطرنى لتحضير ما أقول ، لكن الذين لا يحضرون كلامهم ويملؤونه بالتناقض يجدون صدوراً رحبةً فى ساحةٍ أخرى . . » وكانت الساحة الأخرى طبعاً مجلس النواب

كان هنرى روبير يوصى المحامين دائماً بالاطلاع والاستعداد ؛ كان يوصى بالقراءة دائماً وبالكتابة دائماً ؛ كان يقول مثلما قيل من قبله : إن سر النجاح هو « أولاً : العمل ، وثانياً : العمل ، وثالثاً : العمل » ولقد يكون المحامى موهوباً وكله كفايات ، فاذا لم يجدد نفسه ويزوّدها بالمعلومات وجد نفسه بعد سنوات أجوف فارغاً يردد اليوم ما يردده غداً . حدثنا النقيب بايان عن شنى وباربو أنهما قضيا نحو العشرين عاماً فى زاوية من زوايا المحاماة لا يعرفها اشماع النور ؛ وفى تلك الأثناء كانا ، وخاصةً باربو يتسلحان بدراسة عميقة للعلوم والتاريخ ؛ حتى إذا انقضى ثلث قرن كان باربو يفتح كراساته ليستخرج منها شواهد هى آية الآيات فى المحاماة بل فى الأدب الكلاسيك ؛ ولكن روبير قد عرف الشهرة فى مستهل حياته فهو لم يكن ينعم — أو يشقى — بما سماه الفراغ الاجبارى للمحامين ، ولكنه مع ذلك كان يجبر الزمان وصحته على أن يمنحاه الفراغ والعلم . وإذا رجعت إلى مؤلفاته وخصوصاً قضايا التاريخ الكبرى ، تلك القضايا التى تعتبر القضية الواحدة منها دنيا كاملةً فى قرن كامل ، عندئذ يتضح لك مبلغ ما أخذ به روبير نفسه من نصيحته للمحامين

إلى هذه الكفايات العظمى كان يضيف كفاءة خاصةً هى الخلق العظيم : هى التواضع . وقديماً قال « لابروبير » (إن التواضع مع الكفاءة ، كالظلال مع الصورة ، تظهرها وتوضحها وتجلّيها)

هكذا كان رجلنا مع رجال القضاء ومع الزملاء

هو قد سلخ قرابة نصف قرن يترافع أمام القضاة والنواب ، ومع ذلك لم نسمع له بحادث واحدٍ كلابورى الذى أسلفنا عنه المقال ، أو كشيشيانى حتى قُدّم للمحاكمة وأوقف مدةً لم تكد تنقضى حتى صار وزيراً للحقانية !! ثم صار رئيساً للوزراء ! أو أميل أوليفييه ، أو كأسلوب « بربيه » عندما ترافع فى قضية الثلاثة عشر فقال للنائب العام : « . . لا لست حسن النية فى هذا الذى تقول ؛ إن القوانين لا تطبق فى هذه الأيام ولكنها تفسر دائماً بما لا تحتمله ؛ إن النصوص تُرهق كما يُرهق بها الرجال . ! » ولا كأسلوب فولتير عندما قال عن قضاة كالا : « . . لا تذكرونى بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قرود ونصفهم قضاة ! » ذلك لأن هنرى روبير كان يعرف أن جلال المحاماة من جلال القضاء ، وأن شخصية القاضى جزء من معنى القضاء لا ينفصلان . أما مع الزملاء فكان خير الزملاء ، عطفاً وأدباً وحسن وفاء . إليك مؤلفاته جميعاً ، كلها ذكريات حلوة عن الزملاء والأساتذة . هذه أعذب العبارات يكتبها عن أستاذه دربيه ؛ وهذه أمداح تترى للنقيب مارتينى ، وتقدير لا حد له للخالدين بوانكاريه وبارتو ، ولد بوى وملران وابريان ذى الصوت العذب عندما يترافع ، وهذا إعجاب لا حد له بلابورى ، وحب لشارل شنى ، وإكبار لباربو وروسو الخ . هذا الثبت الحافل من الرجال الذين تتردد أسماؤهم فى مؤلفاته . حتى إذا راودته المنية عن نفسه استمهلها ليكتب سطوراً لم تحل الوفاة بينها وبين الناس ليملأها مدحاً للقضاة ولرجال المحاماة فى الأمس الدابر ، وللمحاماة نفسها ، تلك الآلهة التى طالما قدسها ، تلك الغانية التى طالما عبدها وأخلص لها الحب والعبادة بل التى ملأ الوجود الانسانى بكلام عنها يُشبه الألحان

* * *

وبعدُ : فما هى المحاماة ؟ « المحاماة أسمى مهمة فى الدنيا » كما قال فولتير وكما قال أيضاً « كم كنت أرجو أن أكون محامياً » بل هى كما قال ماكس باتو « إن المحامى ملك » ؛ ليست هذه العبارات لوحات أدبية معلقة ؛ لكنها حقائق قائمة منتزعة من صميم الواقع ؛ فانظر إلى المحامى وهو يترافع ؛ لا إلى (بربيه) وهو يترافع عن ملك مستقبل ضد ملك قائم ، وعن ملك مخلوع ضد ملك منصب ، ولا إلى ماليرب وزملائه وهم « يحملون إلى الكونڤاتسيون الحقيقة ورأسهم » دفاعاً عن لويس السادس عشر ، ولا إلى الهلباوى وهو يترافع فى آخر القرن الماضى عن البرنس سيف الدين ضد ملك ، وفى ١٩٣٣ عن البرنس محمد على ضد من ؟ أو فى سنة ١٩١٤ عن خيرى باشا ومحرم باشا ووراءهما من كان وراءهما ؛ ما إلى هؤلاء قصدت ولكن إلى المحامى الصغير — أعنى الشاب ، فليس فى المحاماة صغير وكبير ، بل فيها شاب ومكتهل — إلى المحامى الناشئ وهو يقف أمام المنصة ، فى محكمة الجنح أو أمام القاضى الجزئى ؛ هو ذا يدلى بمرافعته بين الاحترام العام دائماً أو الاعجاب العام فى بعض الأحوال ، كلماتٍ متزنة ، وعباراتٍ واضحةٍ كلها إخلاص ؛ مسموع الصوت مسموع الكلام ، لكأنك به فى ردائه الأسود ، الكاهن الجليل فى ساحة المعبد ؛ الأعناق مطمحة إليه : والآمال معقودة عليه ؛ فى يده مستقبل

أسرة أو ثروة فقير أو كرامة رجل أو عرض غانية ؛ ولقد يكون المحامى فى سبيل الدفاع عن موكليه قد ضحى ماضحى ، أضعاف أضعاف ما كسب ، وهو قد يكون تقدم الى الدفاع كما كان يتقدم أسلافنا الأولون ، بدافع النجدة والمروءة وفى سبيل الشرف لا فى مقابل المـال ؛ هو ذا يقف ببسالة أمام الطغيان ، طغيان الأفراد أو طغيان الطبقات أو طغيان الأمة أو طغيان الحكومة ذاتها .. إنك تكاد تحسب عنـدئذ أن المروءة والبسالة قد اتخذتا شكل رجل يتكلم ، حتى إذا انتهى من مرافعته أملى التاريخ إملاءة بسيطة ليسمع كلمة القضاء أو كلمة القدر

انظر الى المحامى فى تلك الصورة المصغرة التى رسمناها ، وقل لنفسك مع ماكس باتو « إن المحامى ملك »

ولكن — أيها الاخوان المحامون — إذا كان حقاً أن ليست هناك مهن وضيعة ، وانما هناك أشخاص وضيعون فان ثمة حقيقة أخرى هى أنه ليس هناك مهن رفيعة ، وانما هناك رجال يرفعون من شأن المهنـة . فاعملوا إذن على رفع مستوى المحاماة دائماً باستمرار : اعلموا أن الحياة المـادية ليست هى المطمح للسامى لمن لبس هـذا الرداء الأسود ، بل إن هذا الرداء كما قال الهلباوى فى مرافعته عن الوردانى إنما يذكرنا بأننا قسيسون فى معبد العدالة نشاطر الناس لواعجهم وأشجانهم ؛ وكلما سمت المهنة سما بها بنوها عن الابتذال ؛ واعلموا أن نصف الوزراء فى الحياة الديموقراطية لا يعيشون بعد الخدمة إلا عيشة الكفاف . اعلموا أن المحاماة رسالة وليست تجارة ؛ وأن السعيد من استطاع أن نفهمها على غير أسس المـال ؛ هاتوا صحائف التاريخ تشهدوا الثروات تتدفق على المحامى دائماً بعد أن يكون قد قام بواجبه فى سبيل الشرف أو فى سبيل الصالح العام ؛ تشهدوا المـال يلاحق المحامى بعد أن يكون قد أدى رسالته فى خدمة المظلومين أو فى مدافعة الطغاة ؛ تشهدوا المحامى العظيم لا يسعى الى المال وانما يسعى الى الشرف ، وكلما أعرض عن جمع المال انحدر اليه المال من كل ناحية . فالسعيد منكم من استطاع أن يفهم المحاماة على أنها مهمة ومهنة ؛ فاملأوا نفوسكم بالقناعة ، واملأوا أذهانكم بالعلم ، واملأوا فراغكم — الاجبارى أو الاختيارى — بالدرس وبالتحصيل وبالسعى المطرد نحو الكمال

وأنتم أيها المحامون الشبان : اسمعوا ! إن المحاماة فى مصر لم تصل الى أزهى عصورها بعد ؛ فأنتم إذن أملها المرموق بالعناية . اكتبوا دائماً ، واقرأوا دائماً ، وتعلموا حسن الأداء — فالمحاماة فى الحقيقـة ليست إلا حسن أداء — واذكروا أن الحياة الديمقراطية قد ذللت لكم كل شعاب المجد ، وفتحت لكم الأبواب على مصاريعها ، فأدوا رسالتكم على خير وجوهها ، وكونوا دائماً شجعاناً ؛ وأضيفوا الى مبادئكم أن خير ما علمنا أساتذتنا هو أن احترام المحاماة من احترام القضاء ، وأن خير ما يكسب به الدعوى هو سلامة الأسلوب ونزاهة الغاية

اذكروا أن رئيس محكمة النقض السابق كان رئيساً لنقابتكم ، وأن رئيس نقابتكم السابق هو الرئيس الثانى فى الدولة بعد رئيس الوزارة ، واذكروا أن رئيس الوزارة اليوم بل صـاحب الرياسات جميعاً ، كان وما يزال محامياً منكم . واعلموا أخيراً أن هؤلاء الذين شاركوكم كزملاء لا كرؤساء سيعود اليكم منهم من يعودون ليتشرفوا بحمل ذلك الرداء الأسود الذى يساوى كلمة الدفاع ، ذلك الرداء الذى كان يحمله بوانكاريه وملران بين رياسة الجمهورية ورياسة الوزارة مثلما كان يصنع ڤيڤيانى ووالدك روسو ومثلما يصنع عبد العزيز فهمى ومكرم عبيد

كم كنت أود لو نقلت إليكم تلكم الخطبة الخالدة التى ألقاها المستشار «داجوسو» من نحو مائتى عام فى المحامين والمحاماة ، ولكن المقام ضاق فاليكم منها تلكم الخاتمة :—

« .. حسبكم جزاء على آلائكم العظمى التى تسدونها الى الناس هذه العظمة وذلكم الجلال ، وألا تكونوا مدينين بالعظمة وبالجلال إلا الى أنفسكم . حسبكم أن يتخذ منكم الناس مثلمـا اتخذوا من أسلافكم من القادة والهداة والرسل ، وأن ترتفعوا الى تلكم المكانة العليا فوق الكافة فتتولوا صرف المنازعات وفض الخصومات ، تتولوا القضاء الفعلى بين الناس كما يتولاه القضاة الموظفون ولكن بما لكم من سمو الغاية ونزاهة القصد ونصيب ضخم من الاحترام العام وبمـا لكم من نفوذ الكلمة وبلاغة التأثير وجلال العبارة . . . . فهل أنتم إذن ستكونون لأنفسكم أداة تقدم لا عوامل تنفتل بكم الى الوراء ؟ . . هل ستكون هذه المحاماة التى طالما عملت لمجد الأمة ، وكم ستعمل فى سبيلها ؟ هل ستكون عند رجائنا فيها فتحتفظ لنفسها بمنزلتها الرفيعة العليا بين المهن ، بالفقه وبالبيان ولكن بالعدل والنزاهة أيضاً ؟ . . »

صوت الجبل *

[مهداة الى الأستاذ الزيات]

للأستاذ معروف الأرناءوط

« ... لقد قال لها إن الجبل يناديني يا « سافو » ... ثم رفع صوته قائلا : إن الله قريب مني وإني لأراه في هذا النور الذي يطفو على « سيناء » ! وفي هذا الفتون الذي يراق على بدية التيه ! »

قال « كريستيا » « لسافو » وقد اطرح الدير في الليلة الجوناء وهبط « وادي العربة » تاركا وراءه قنن جبل « حور » : ناشدتك الله يا أخية أن تسمعيني شيئاً من حوار «أوديب» حينما اشتملت عليه جبال وطنه ، فانه ليروق لي وقد شابهت هجرتي هجرته وماثلت شجوني شجونه ، وحاكت ليالىّ لياليه ، أن ستمع لجرسه الشجيّ في هذا الوادي المصحر ... إنك لتذكرين خروج هذا الملك في ذات ليلة الى جبال « كولون » ومعه ابنته « أنتيغون » فلما أظلته السحب وأرزمت السماء وقعقعت تهافت على ابنته في رفق وحب وسألها أن تذكر له اسم الأرض التي وطئها وقال لها إنه يحب أن يدفن آلامه ومتاعبه وذكرياته في المنفى ، فطفقت «أنتيغون» تتحدث إليه عن وطنه الجديد ، فرق وسكن ولطفت أحاديثها حزنه . نعم حدثيني يا « سافو » عن « أوديب » وعن « أنتيغونَ » فانما أنا ذلك التعس « أوديب » ، وأنت « أنتيغون » رفيقته في أرض المنفى ، ولكن سافو كانت تفكر في « فروه ابن عمرو وفي المعركة التي نهد اليها برجال حصدت نصفهم الحرب وما يستطيع الذين نجوا من غضب «قيصر» أن يستبقوا الحياة الى ليال فلقد تتماورهم الرماح والنبال والسيوف من كل ناحية ويعنهم هذا الجيش الكثيف الرابض عند منافذ الأودية ومسارب الطرق من الافلات . فتضيق بهم « سلع » ويضنيهم الحصار والطوى والبرد وانقطاع المدد :

لقد كانت تفكر في هذا كله ساعة أرادها الشاعر المثال على قراءة قصة « أوديب » الملك ، فلما لم تسمعه صرتها تغني بشعر « سفوكليس » وحسب نفسه وهو يطأ الجبل أنه ذلك التعس « أوديب » فقال بصوت شجي يشبه الرثاء :

أوديب

« أنتيغون ، يا ابنة ذلك الأعمى الشيخ ، ناشدتك الله إلا ما حسرت لي عن هذا البلد الذي بلغنا نواحيه ، وأيّ شعب هذا الذي نزلنا منازله ، ومن هم جيرتنا في البلد النازح ؟ في هذا اليوم يستجدي « أوديب » الهائم السّادر الناس ، فيعطيه هؤلاء عطاء حقيراً ، بلى لقد طلبت قليلاً وأعطيت يسيراً ، وفي هذا غناء لي وكفاء ، فقد علمتني الآلام والأهوال والمحن وتعاقب السنين ونفسي الصابرة ، علمني كل أولئك الاستسلام والرضى ، فهلمي يا بنية ، هلمي إلى فلتن تحت مقعداً في مكان رجس أو في غاب مقدس فقفي بي عنده وانزلي بي في أديمه ، ثم لا يضيرني ولا يضيرك أن نمضي إلى الناس فنسألهم الطريق وفي أيّ موضع منه نحن ؟ فاننا غرباء عن الديار ومن حقنا أن نسأل الغادي والرائح »

ولكن سافو لم تفعل ما فعلته « أنتيغون » ، ولم تدله على المكان الذي نزل فيه فانثنى هامساً بمثل ما همست به « أنتيغون » في أذني أبيها البائس :

* الفصل الثالث والثلاثون من الرواية الخالدة « عمر بن الخطاب »

أيها الزملاء ! كلمة أخيرة

إن نقيبكم العظيم المضطلع بشتى شؤون الدولة يكاد يقول مثل « الملك الشمس » « أنا الدولة » فأهيبوا به أن يذكرنا .... وعند ما يصدر القانون ، وتتقرر حصانة المحامي في الجلسات ، يومئذ تلمسون بأصابعكم ما قاله ماكس باتو من أن المحامي ملك ، بل وتضيفون إليه أيضاً أن المحامي ملك

عبد الحليم الجندي

مراجع البحث : مؤلفات هنري روبير L'avocat; Les Gands Procés de L'histoire; Un Avocat de 1830; Souvenirs du Palais de lPa Ville. Modèls Francais IV, Edmond Procés

Anthologic des Avocats Français contemporains : Fernan Paiyan Leurs Maniere. Bernard Gasset

مؤلفا الأستاذ الجداوي (المرافعة ومرافعات) Can dide 21 mai 1936

محاضرة لويس بارتو ومحاضرة شارل شي في Uuiversite des Anneles 1937

المنشورتان في جريدة Jaurnal de L'universite des Annalis سنة ١٩١١

أنتيغون

أوديب ! أيها الوالد التعس ، يا من أضناه الألم ، وأذبله الداء ! ليخيل إلىّ أن سور مدينة قد ارتسم فى الأفق أمام عيوننا ، وهذه الارض التى ننزل فيها لا يزال عليها عبق من قداسة ونفاسة ، يدلك على ذلك هذا الغار المتشابك وهذه الأدواح الظليلة ، وهذه الينابيع الرقراقة ، ثم هذه البلابل التى تغنى فى الغاب الوارف . اطو يا أبتاه قدميك فلعلك تستطيع الجلوس على هذا الصخر الواعر ، فلقد طال شرودك ، وامتدت المسافات بك ، وانت ذلك الشيخ الذى لا يستطيع إمعاناً فى صعود وفى هبوط

أوديب

بلى ، بلى ، دعينى أجلس ، واسهرى على الأعمى العاثر الجدّ [1]

***

وراح « كريستيا » جالساً على الصخر وقلبه يميد وجبينه يتندّى عرقاً وعيناه ترعشان فى كلّ ناحيةٍ من نواحى هـذا الأفق المديد الفسيح ؛ وجلست « سافو » بجواره وفى نفسها أثر من جراح نفسه ، ثم لم تلبث أن رقّت له رقّة ألمة ، وأخذت يده وقالت له : أتدرى أين مسكنك ؟ قال لا ، قالت فى « وادى العربة » هـذا الذى يفصل « البحر الميت » عن « خليج أيلة »

وكان قد أمضى بعض ليله على روابى جبل حور ، فلما نزل فرع الوادى لم يشعر بالمسافات الطويلة التى خلّفها وراءه ولم يعطن إلى ثوبه الذى مزّقته الصخور والادغال المتشابكة ولم ينتبه إلى الاعياء الذى تعاور « سافو » وكذلك ما كان يهمه أن يحتويه المكان الفارغ ، فلقد جلس على الصخر فى سكينةٍ ودعة ، وجعل يقلب عينيه فى الجبال التى تحيط بالسهل من الشرق إلى الغرب وقد خلعت على الوادى ظلاً شاحباً فبدا عميقاً كأنه هوّة من هوّات الجحيم ؛

وكان من أحبّ أمانيه ان يتعرّف إلى طريق البحر الميت والأردنّ ليلحق بحسناته « بنيامينا » ويقضى ما تبقّى من أيامه فى الأرض التى نبت عنها الشهرة واطّرها المجد فما يردد نظراته فى جنوب الوادى حتى يكرهه ويملّه وحتى يعاف أن يحدّق اليه ، وذلك لأنّ فى جنوب وادى العربة طريقاً تدفع إلى خليج أيلة ، إلى ذلك البحر الذى لا تفارقه سفن « هراقليوس » وفلكه ثم يحلّق وهمه فى طريق الشمال فتتمثل له الأرض منحدره هابطة إلى البحر الميت وإلى الأردن فيرق ويتشاجى ويذكر « بنيامينا » النازلة شواطىء النهر المقدس ثم يتلفت إلى « سافو » ليسألها أن ترافقه فيرى إليها نائمة حالمة فيمنعه حبه لهـا وبره بها أن يبتهما على استفاقة تخرجها من أحلامها الهادئة ثم يعود فيستعرض وادى « العربة » من مكانه على الصخر ، فاذا امتدت نظراته من الشمال إلى الشرق استبحر المكان أمامه وعرض له أخدود راعب يتساقط المـاء على جوانبه من قلل جبل الشراة فيزعجه ويؤلمه أن ينبطح السيل فى مفاجر الوادى ومرافضه فيضع يده على رأس « سافو » النـائمة الحالمة فتستفيق وتنهض وتدير لحاظها فى تلك الأرجاء الفيحاء ثم لا تلبث أن تدرك مأساة حياتها ، ويزيدها غماً ويأساً أن يلبس هذه المأساة هذا الحزن الذى يغشى جروف « العربة » وفلوجه ومسايله ومنحدراته ، ولمـا أرادها « كريستيا » على اصطحابه فى طريق البحر الميت لم تجد معدى عن مجاراته ومسايرته ، فوقفت على الصخر ونظرت إلى الجنوب فاذا الطريق قد فرقت فروقاً عظيماً حتى لتوشك أن تنتهى عنـد خليج « أيلة » فأخافها أن تمتد الطريق وتفيح ، ثم نظرت كرّةً أخرى إلى الشمال فاذا الوادى يهبط إلى خيف لين رقيق ثم هو يزلق إلى الغور

وقد كان عسيراً على الأخوين وقد برّح بهما السير فى الأخاديد والأغوار والهوّات والأودية أن يستأنفا الرحلة فى الأرض البراح ؛ ومع هذا كله ما كانت « سافو » تستطيع أن تردّه عن منازعه ، فلمـا جاز الأخوان بعض الطريق وأوشك وادى « العربة » أن يتقلّص ويغيب ترقرقت خيالة « سلع » فى عينى « سافو » فذكرت زوجها الفطريف ، وابتعثها التذكار على الوفاء له فقالت لأخيهـا :

— إنه ليجمل بك أن تدأب فى سيرك حتى يطلع عليك « الأردنّ » أما أنا فلقد نذرت رجوعاً إلى « سلع » حيث ألحق زوجى الذى لم يترك سلاحه بعد !

(١) أوديب فى كولون الفصل الأول المشهد الأول

وكانت لهجتها صريحة وصادقة ، فلم يستطع « كريستيا » وهو الذى يعرف حبها لزوجها أن يمضىَ لها أمراً ، فلحق بها إلى وادى « العربة » وكان لا مدحة لهما عن الرجوع معاً الى جبل « حور » ثم ينحدران الى الدير ويلحقان « بسلع » !

وبعد طوافٍ عنيفٍ فى الأرض العطشاء ، فرع الشقيقان فى جبل « حور » فنزلا بضامه الشرقية وقدر لهما وهما على المرتفع الشاهق المطلّ على الطريق ، أن يريا إلى وادى « العربة » الجبيا وإلى صحراء « التيه » فوقف « كريستيا » خاشعاً أمام هذا المنظر الرائع حتى لقد جنب شعوره أن يحلّق فى عالمٍ آخر . وكيف يستطيع إحساسه الثائر أن يحلّق فى عالمٍ آخر ، وهذه الأرض المقدسة من « سيناء » ترعش فى نظراته وتطفو على جوارحه وتلهب ذكاءه وتذكره بماضى هذه البطحاء التى استمعت إلى صوت الله وهو يتحدث إلى نبىّ !

خيّل إلى « كريستيا » وقد وطئ كرة أخرى حضيض الجبل اللهم أن الدنيا طويت له واجتمعت عنده فأنّى تلفّت تمثلت له قلل جبل الشراة الرفيعة يغمرها موجٌ دافق من رواء المساء وبهاء السماء ، وأنّى استقر أخذته المشاهد الموحشة وعليها من الروعة والجلال والتذكارات ما ليس يجده الشعر المهذّب فى خيال رواته وقائليه ، بل لم يكن يستطيع وقد عرَضَتْ له « سيناء » وصحراء « التيه » وقيعان وادى « العربة » وجروفه أن ينزع من صدره صورة هذه الدنيا العابقة بعطر النبوّة والوحى

ولما أوشك أن يرق القنة التى عليها قبر « هارون » أرخى الشفق عليه ظلاله الساجية فاستراح بجوار القبر المقدس ، ووقفت « سافو » حياله ، فما فاتها وقد لصقت به أن تسمع صليل جوفه ، وأن ترى إلى عينيه وقد غابتا فى عقيق « سيناء » !

فى تلك الأثناء حَفا البرق فى الصحارى ، وامتدت شعله وخيوطه على حواشى جبل « سيناء » حتى ضوّأت قلله وقننه ، وكشفت ربوده ومصاده وشعافه ، وحسرت عن جروفه وفلوجه وغيرانه ، ثم أضاء البرق ولمع ، ثم أضاء ولمع ، وتلت ذلك أصوات تشبه الهزيم ، وترقرقت ألوان الشفق الحمراء فى كل ناحية حتى أصبح الأفق وردة كالدهان ، فخيّل إلى الشاعر أن هذه الأطواد التى تجاوره وتصاقبه لا تريده على فراقها ، وإنما هى تريده على أن يستشرق بهذا القبس الشاعل الذى تراءى لموسى النبىّ فى البادية الغلفاء ، فلصق بمكانه وقال « لسافو » : انه يكره الرجوع إلى « سلع » ، وإن من أحبّ المنى إلى نفسه أن يموت وعيناه تنظران إلى أضواء هذا القبس الذى ترمى به قلل « سيناء » الرفيعة إلى الصحارى والبوادى

وما زال البرق يضئ ويلمع على روابى « سيناء » ، وما زالت الأصوات الخفيّة تتغاير فى الأفق على مدى بعيد ، وما زالت الوان الشفق الحمراء تتفجّر هابطة صاعدة ، وريح النعناع تفغم الخياشيم حتى أحسّ « كريستيا » قداسة هذه الأرض ، فخلع نعليه وركع بجوار قبر « هارون » النبىّ مصلياً وداعياً ، منتحباً وباكياً !

لقد قال لها إنّ الجبل يناديني يا « سافو » ، وكلّ جارحة من جوارحى تقول لى لا يجمل بك أيها الشاعر أن تغمض عينيك على السحب الصادرة فى « سلع » ! ثم رفع صوته وانثنى قائلاً . إنّ الله قريب منّى ، وإنى لأراه فى هذا النور الذى يطفو على « سيناء » ، وفى هذا الفتون الذى يراق على بادية « التيه » ، بل إنى لأسمع صوته فى قسطلة الماء عند سفوح جبل « حور » . لم يعد فى هذه الحياة التى أخذتنى خطوبها وكوارثها ما أخافه ، وما أحرص عليه ، فالمجد الذى جنبنى طيفه فى ميدان « سلع » حيث يقتتل الناس إما زلفى « لقيصر » ، وإما زلفى « لفروة ابن عمرو » ، قد تمثل لى عند هذه القنن الرفيعة بألوانه وأنواره وطيوبه ونغماته ، وروحه الساكن الوادع ، وشبحه المضىء ، وجرسه العذب ؛ إنه ليخلع على جسمى الذى قرسه برد العشيّة دفء نفسه لأموت محترقاً فى سناه ، فذلك أمثل من موت يزحمنى ظله الصادر عند رواميس « سلع » ! ولأن تحتوينى هذه الأرض المقدسة أفضل من أن تحتوينى هذه الأرض التى لا تعرف القداسة !

وعبثاً كانت تصدّه عن ميوله ومطامعه ، فلقد أحبّ أن يموت على جبل « حور » كما مات موسى النبىّ ، وكما مات هارون النبى ، ثم هو إلى ذلك شاعر يحب فنه وما يليق بالشاعر أن يموت فى الأرض التى لا تتصدع فيها السحب والبروق ، ولا يزهر على حواشيها الآس والنعناع والورد

وإنهما ليتحاوران ويتساجلان فى غير جدوى ولا طائل ، إذ حملت أعراف الليلة الساجية ترجيع الأبواق فى وادى « سلع » فرجفا معاً . وقالت « سافو » : إنها أبواق « فروة » يا « كريسنيا » ، وإنه المنتصر على « هراقليوس » . ناشدتك الله أن تمضى معى أو تبقى وحدك على هذه القنن

ورأى المسكين وقد أذكره صوت البوق حاضره أن يلحق بها ، ولكنه لم يكد يبرح مكانه حتى حفت البروق وتوامضت على مدى واسع فبانت له كرة أخرى جبال «سيناء» وصحراء «التيه» فألاعته الأضواء الغامرة وأحرقت أحلامه ، فوقر فى ذهنه أن يبقى فى جبل « حور » طوال ليله فلا يفارقه ولا يخفره ولا يمل الطواف بشعافه ورعانه ، ولا يسأم الهبوط إلى حضيضه وسفحه ، نعم إنه مريض وإنه مُدْنَف وإنه ذلك المنفى الذى يقبس أغانيه من نفس عاصرة بالألم زاخرة بالشجن ، ولكنه على مرضه ودنفه كان يلذ أعراف هذه الأماكن المقدسة ويرى فيها العافية التى يشتاقها ويحب أن يغنى أغانيه فى هذه الأصلاد بصوت الشاعر الملهم لتسمعها روابى « سيناء » كما سمعت صوت النبى الملهم ؛ وكان يشعر بقرب النهاية فنازعه شعوره الى المكوث فى هذه الأرض حتى يأخذ الله وديعته فيرقد رقاده الأبدى فى شعفة تطل على « الأردن » وعلى « حرمون » وعلى « بيت القدس » !

لقد باح لها بخواطره ، وقال لها إن فى « سلع » مكاناً للبطولة الرائعة ، وليست تعرف فيه ذلك البطل القارع فمن حقه أن يجد مكانه على الرُّبى الشم حيث تترقرق أضواء السماء ، وحيث ذكاء الشاعر يبحث عن السنى والسناء ! فلما سمعت قوله لم تأنف أن تطرحه فى الجبل فتولت عنه وتدفقت فى سيرها تحت ضياء الكواكب ، وما زالت تمعن فى الهبوط حتى استقبلت السفح ووارتها عن عينىْ « كريستيا » فجاجٌ وشعاب

وقلب عينيه فى هذه الأرجاء الفيحاء فاذا هو وحده على الشعفة السامقة يحيط به عالم تطفو على حواشيه أشباح وأرواح ، وتجرى فى سمائه كواكب متقاربة متباعدة ، وتنوح على أطرافه وجنباته ريح ذات هدير وصليل ، وتخرج من جروفه وغيرانه أصوات كأنها عزيف الجن ، يضاف الى هذه المشاهد الراعبة قبسٌ يَخْطَفُ على سيناء فى أقصى الأفق !

لقد روعته العزلة فتمايد وتمايل ، وخيل إليه أن بهذه النجوم الدانية من القلل والقنن عيوناً تنظر إليه ، ففغر فمه وبرق بصره ، ثم تساقطت الشهب فى الأبعاد النائية كأنها الحريق الشاعل . فغشيته ذهلة ألمة ، وخيل اليه أن السماء قد ألقت اليه بنارها ودخانها فجفا مكانه على القبر وطفق ينادى : « سافو » ! لكِ الله يا أخيّة أينَ أنتِ ؟

وهام على وجهه فما ينحدر من رابية حتى يغيب فى أخدود ضيق ، فاذا حسر الأخدود عنه أمسى فى غارٍ مظلم ، فاذا أوغل فى ظلمة الغار تساقط الماء على ثوبه من صدوعٍ فى الصخر النابى فتندّى وَقَرَسَهُ البرد ، ثم يخرج من الغار فاذا هو بعد طوفة جاهدة عند سفح الجبل وإذا « سافو » لا تزال على السفح كأنها كانت تتوقع أن تضجره العزلة وتخيفه الوحدة فيأنس الى اللحاق بها

ورأت « سافو » اليه تحت ضياء العشية فنادته بصوتها الرقيق الناعم : إنى أخاف عليك برد الجبال فهلم فاتبعنى الى « سلع » فلعلك تجد عندها ذلك القبس الذى يضرم شعورك

وكان الانحدار الى « البتراء » سائغاً ولذيذاً فأحوتهما معاً طريق قديمة نقرت فى الجلامد فأوغلا فيها ، وأظلتهما حجارتها ، الناعمة الملساء ، وتراءت لهما فى اليمين وفى الشمال أسوار حمراء بلون العقيق ، ولكنها أسوار عظيمة لم تتحيفها غلاظة ولم تتخللها قرون وشعف ، فجازا الطريق الى الوادى وطلعت عليهما غيران ضيقة ولكنها قصيرة ، ثم إذا هما يخرجان الى طريق تدفع الى دغل تكاثفت على حضيضه النباتات فسلخا فى اجتيازها ساعتين ثم طلعت عليهما قبور « سلع » الأولى

ولم تكن سلع قد أطلت عليهما بعد ، فلقد وارتها حوائط من الحجر الصلد فارتدّا الى ناحية الشمال وفزعا الى الجانب المظلم من صخور لا تضيئها أنوار المساء ، ورأيا الى القبور المحفورة وقد تراكب بعضها فوق بعض وفتحت أشداقها وحسرت عن ثقوبها فأخذتهما أشعة خفيفة تزلق إليهما من الجبال ، وسحرهما إطلال هذا المشهد بعد تلك السياحة الكامدة فأحسا الحياة وطفقا يتأملان معاً فى هذه المدافن المعلّقة بين السماء والغبراء ، وسرّهما أن يتعرفا الديار والرسوم والأطلال ، ولذهما أن خيالة « سلع »

عادت تطوف بصدريهما الراعشين

فى أعماق هذا الجرف الذى تحميه من كل نواحيه أطواد وأصلاد تنام مدينة « سلع » عن كثب من أطلالها وقصورها وخرائبها وينبوعها الثر !

جلس « كريستيا » على عمود رخامى كان جاثماً على الأرض ، فجلست « سافو » حياله وطفقا معاً ينظران فى ذهلة إلى هذه الروائع الفوات يحفهما صمت ويغشاها سكون ، ويخترق آذانهما هدير الماء ودفعه على الأصنام المتداعية والعمد المنهارة فى ظلٍ ظليل من أشجار الغار الواشجة

لم يجْرُؤْ « كريستيا » على الهمس فلقد أمالته الصور البارعة إلى غرقٍ وأنسته ذلك الألم الذى تحيفه خلال طوافه بقنن جبل « حور » ونزوله إلى حدور وادى « العربة » بل لقد ألهته قسطلة الماء فى الصعيد المهجور عن أولئك الناس الذين نفروا إلى قتال « قيصر » تحت لواء « فروة بن عمرو » فما عادت صورهم تمرّ بصدره ، وكذلك كان شأن « سافو » فلقد غرقت مثل غرقه وسبحت مثل سبحه ، وأنستها هذه الظلال الندية الرخيّة تلك الثورة التى عصفت بنفسها الرقيقة فى ذلك الوادى الذى تتلاقى عند قيعانه وكثبانه طرق « أيلة » والبحر الراعب ، فأية فتنة هذه التى هدهدت التياع الملتاعين وحملت إلى النفوس الضارعة بعض العزاء الذى تحبه وتأنس إليه

هذه الرائعة ما كانت تعدو ماضيَ « سلع » ففى هذه الدمن التى يغنّيها الماء الدافق الهادر غناءه الشجيّ من أبعد عصور التاريخ لا تستطيع النفوس الكامدة أن تستبقى حزنها إلى الأبد ، إذ لا معدى لها عن استمراء الوحدة والاصغاء إلى حديث حياةٍ منقرضة وإذ هى محمولة على الشرود فى جلال الموت وفى روعة السماء

معروف الارناءوط
عضو المجمع العلمى العربى

ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه : الكلام خيالى ولا أصل له)

— ٦ —

كذبت على الله وعلى نفسى حين زعمت أنى معجب بالسمراء وأنى لا أحب الثوب الأزرق .. لا والله .. فما أبالى السمراء ولا اعجاب لى بها . وكل ما فى الأمر أنى رأيتها كثيرة المرح فراقنى أن تتاقى الحياة هاشة باشة ، وأن تضحك للدنيا ، ولكن هذا قد يكون عن خفة لا عن فلسفة ، وأنا مفطور على الجد ، ولهذا سهل أن أتعود الاحتشام ، ولكن وطأة الحياة ثقلت على كاهل صبرى ، فأنا لا أزال ألتمس التسرية والترفيه بما يدخل فى طوق من الوسائل ، ومن هنا هذا التناقض الذى يراه الناس فى طباعى . ولا تناقض هناك فيما أعلم ، وإنى لكما كنت طول عمرى ، وانما اختلفت المظاهر ، وأولاى معقودة بأخراى ، ولقد كنت فى صباى يائساً من الخير والسعادة فى هذه الحياة ، وأنا الآن أكفر بهما ، ولكنى كنت فى حداثتى يحزننى عجزى عن الاطمئنان إلى الخير فأكتئب وأتجهم وأروح أعذب نفسى وأقطع قلبى حسرة ، وأغرانى هذا بالزهادة ونشدان الراحة — على الأقل — بتوطين النفس على اليأس ورياضتها على السكون اليه ؛ وكنت أقول لنفسى جادا إنى تهالكت فما أفدت إلا الحرمان وإلا الظمأ والالتياح ، وإنى طلبت اللذات فما وجدت فيها لعاقل غناء . . فلعل الزهادة تحسم داء لم أجد فى الطلب شفاء منه . ولكنى ما لبثت أن وجدت أن رفض الحياة يزيد المرء إحماءً ، وأن الزهد ليس منجى ، وأن النفس تحسر به طيبها ورضاها ، وأن الذى لا عد يده يبجنى ويقطف لا يحق له أن يزعم أنه حرم الثمار التى يراها على أفنان الشجرة ، وقد لا يفوز الطالب الساعى بكل ما يبنى ، ولكنه لا شك خليق أن يظفر بكثير مما هو دونه ، فاذا فاتتك الغاية القصوى فقد لا يفوتك ما دونها من المتع ، فالطلب أولى ، والسعى أوجب ، لأن الطلب والسعى

من مقتضيات الحياة ، والحياة هى الحركة لا السكون ولا الجمود ، والزهد قهر للنفس ، والطلب فيه كذلك قهر للنفس ، وقهر النفس مع افادة ما يمكن أن يفاد خير من قهرها مع الحرمان ، والدنيا تسير على مقتضى نواميسها هى ، لا على هوانا نحن ، فسيان أن تضحك لها وأن تعبس ، وللضحك إذن خيرٌ وأحزم وأولى بالعاقل

وعلى ذكر الضحك أقول إنى أعجب لذات الثوب الأرجوانى لماذا لا أراها تضحك أبدا ؟ ؟ إن من تعاريف الانسان أنه حيوان يضحك — أى يستطيع الضحك — ولكن هذه لم أرها تضحك إلا مرة واحدة ، فعظم وقع ذلك فى نفسى لندرته ولأنه كان فلتة مفردة ، فوجهها كالقمر — سوى أن ماء الحياة والشباب والصحة يجرى فيه — أعنى أن تعبيره لا يتغير ولا يختلف ولا يتعدد ، وقاتل الله البعد ! وما يدربنى ؟؟ فلعلها تبتسم ولكنى لبعدها لا أراها رؤيتها ، ولست أذكر أنى رأيت وميض عينيها ، أو أن عذوبة نظرتها أو قوتها حركت قلبى ، أو أن ابتسامتها الحلوة أو الساخرة أغرتنى بالأمل أو الحزن .. ولكنى على هذا سمعت صوتها .. نعم سمعته على الرغم مما يفصلنا من البعد .. وكانت الليلة مظلمة والحر شديدا ، وكنت قاعدا فى الشرفة والشجر على جانبى الطريق كأنه صور مرسومة من فرط الركود ، فرأيتها تميل على جانب الشرفة ؛ ونظرت فاذا جارتها فى شرفتها وبينهما نحو مترين أو زيادة ، وانطلقتا تتحدثان بصوت خفيض فى أول الأمر ، ولم أكن أرجو أن أسمعهما ، ولا كنت آمل ذلك وإذا بالصوت يرتفع فى الليل الساكن وإذا بصوت فتاتى يحمله الىّ .. ماذا ؟ لا أدرى ! فما كان هناك نسيم حتى أقول إنه حمله .. ولكنه صافح أذنى على كل حال ، وقد شق على أن أكون بحيث أسمع حديثهما ، ولكنى لم أكن أتسمع ، وكان بينى وبينهما عشرون أو ثلاثون متراً — إذا حسبت الارتفاع — فاذا كانتا قد شاءتا أن تتكلما بصوت يسمعه الجيران فأظن أن هذا ليس ذنبى . ولولا الحر والركود الخانق لدخلت حجرى وأويت إلى حيث لا يبلغنى الصوت ، وكنت ساعة تهدّى الى الصوت أنظر الى الطريق الخالى الموحش فى هذا الليل الساكن — ولو شئت لقلت الراكد ولكنى شاكرٌ — وكنت ربما رفعت عينى إلى النجوم الخفّاقة اللمعان ، وإذا بالصوت يقع فى مسمعى فيكاد قلبى يقف . . . ولم يخالجنى شك فى أن هذا صوتها هى لا صوت الجارة . . ولا أدرى من أين جاءنى هذا اليقين ؟ ! وياله من صوت ! ! . رنان . . نافذ . . عميق الوقع . . فلو كنت تغنين لما كان أحلى ولا أسحر . . بل أنت كنت تغنين .. فما يرتفع الصوت بهذا الوضوح البلورى ولا يخفت — فى غير سمود — إلى مثل الهمس ، ويبريه الشجى أحياناً ، ثم يعلو كأنه صيحة الحرية ، ثم يضطرب ويتردد كأنه زفرة الأسى التى تتمرد على الكتمان — أقول ما يكون الصوت هكذا إلا فى الغناء . . ولا أدرى لماذا ، ولكنى لم أكد أسمع صوتك حتى خيل إلى أنى أسمع « أورفيوس » يناشد حبيبته ويدعوها إليه ويصيح « ماذا ترانى أصنع بغير يوريديس ؟ » . نعم . . كذلك بدا لى أن صوتك الذى هفا إلى على جناح النسيم الراكد . . صوتك الحافل بالأسى المكتوم والرغبة المكبوتة . يناديى . . . ويدعو . . . ثم لم أعد أدرى ماذا جرى لى ولا ماذا أصاب الدنيا حولى ؟. وأحسست أن حياتى قد التف عليها صوتك كما تلف الحبال على أعضاد الأسير . . وكأنما تسرب وجودى فى وجودك الغامض . . . وأطفئت الأنوار . . وازداد الليل حولى ظلاماً وصار السكون أعمق ، وأنا واقف لا أشعر إلا بخفق هذا الصوت الملائكى فى نفسى ، وطلع النهار — نهار الناس — وأنا مائل على حافة الشرفة أنظر ولا أرى . . .

وقد صارت لى بعد تلك الليلة حياتان تتصارعان — أنا الذى كنت لو تصدقيننى ، أقضى أيامى ساكناً لا يكاد يسرنى أو يسوءنى شىء — أما الآن فانى أثب وأنتقل من الرغبة الجامحة إلى العقل الجاف المحل . وأحس دمى الحار ينبض فى عروقى — لا بل أراه — وقلبى يثب إلى حلقى فتتعلق أنفاسى وتكاد تحتبس ، ثم تغمرنى موجة من المرارة الأليمة . . ويسخر منى عقلى ويهزأ مما تخيلته من صيحة أورفيوس إذ يدعو اليه يوريديس . وما دعا إلا قلبى ، وأين منى أورفيوس ؟ وأين منك تلك التى لم أعرفها الا من « جلوك »

وليت من يدرى أين أنت الساعة ؟؟ إن الليل ساج كليلتنا تلك ، والدنيا ساكنة تنتظر أن تخرجى اليها فى هالة من الحسن ، وأنفاسى معلقة وأذنى مرهفة لأسمع ، ولى على هذه الشرفة ثلاث ساعات طويلات المدد ، ولست أحس تعباً أو أشعر بقلق ، فانى كالمجنون أو المخمور ، وإنى لأرسل اليك من صيحات القلب ما لا يسمعه سواك لو أنك تصغين . . ثلاث ساعات وأنا أدعوك وأنت لا تجيبين . . كلا !! صوتك الملائكى لا يسمع مرة أخرى ، ولا ينطلق فى هذا الليل الساجى لينعشه ويحييه . وإن نوافذ بيتك لمفتوحة ، وإن الحجرات لمضاءة ، ولكنها ساكنة كأنها مهجورة ، حتى ليفزعنى النور الذى يخرج منها

لم أسمع صوتك بعد ذلك ولكنى رأيت الوردة التى فى يدك وكنت تنفضين عنها الطل أو الماء ، ثم غبت بها واختفيت بعدها كأنما يكفى غذاء لروحى أن أرى معك وردة حمراء . . . كلا . . لست أريد ورداً وإنما أريد أن أسمع ذلك الصوت وأنعم به ، وأن أجتلى عينيك وأرى فى صقالها روحى ، وأن أرى رجفة شفتيك وأنت تبادليننى الاعراب عما ضاق الصدر بما أجن منه والقلب بما وجد ، وأن أحس خفق قلبك وتحسين دقات قلبى . . . فاذا كنت تؤمنين بما أومن به — وما أومن من الناس إلا بك وحدك لا شريك لك — وإذا لم تكونى خيالاً ينسخه النور . . وإذا كنت أنثى . . وكان لك قلب ، فبالله الا ما أسمعتنى هذا الصوت مرة أخرى !! وهل أقل من ذلك ؟ ؟

إنك جميلة وحزينة يا من لا أعرف اسمها — ولو كنت أعرفه لضننت به على الدنيا التى تجملينها — هذا ما قاله لى صوتك حين سمعته فى لحمة الليل الساكن . وقد رأيتك بعد ذلك فى الشرفة وفى يدك الوردة الحمراء ونظرت الى عينيك الواسعتين تحت حاجبيهما المستقيمين فأعادت على نظرتهما ما كان صوتك قد أوحى به الى — وإلا فلماذا يرتخى الهدب الطويل الأوطف إلا ليحجب ما عسى أن تشى به النظرة من الخواطر ؟ ؟ ورأيت فمك الجميل وشفتيك الورديتين خلقة لا صناعة . . . شفتيك اللتين لا تعرفان كيف تبتسمان . وفكرت فى هاتين العينين اللتين لا أجتلى فيهما البشر والرضى ، وفى هذا الفم الحلو الذى لا تريدين أن تدعيه يفتر عن ابتسامة — ولو ساخرة — فكرت فى ذلك لحظة وان كانت عيناك وشفتاك جديرة بالتأمل دهراً كاملاً . .

ومن أعاجيبك أنى أراك أحياناً مسرورة ويبدو لى أنك قريرة العين ولكن لا ابتسام ، ولا ضحك ، ولا شىء من مظاهر السرور المألوفة . . . فقد لاحظتك ودرستك وخبرتك بقدر ما يتيسر ذلك لبعيد مثلى لا يراك إلا من النافذة ، وأعجبت بشبابك وجمالك ورزانتك وكبريائك أيضاً ، وبذوقك السليم فى الثياب والزينة . . ودرست الذين حولك من أهلك ... وأحسب هذا الرجل المحتشم أباك وأظنك ورثت عنه هذا الجد الصارم والتحفظ الشديد . . وتلك أحسبها أمك وان كانت تبدو أصغر من أن تكون أماً . ويعجبنى منك ومنها أنكما تبدوان كصديقتين لا كأم وابنتها . والآخرون . . ولكن مالى وهؤلاء جميعاً ؟ ؟

وقد رأيتك أمس تخرجين مع أمك أو يحسن أن أسميها صديقتك فانها أشبه بذاك — وكنت واقفة بالباب تنتظرين أن تلحق بك وفى يدك وردة صغيرة تشمينها . . وانى لمجنون . . وإن لك أن تقولى إنى طفل يرجو ويؤمن ، أو رجل يحلم ، ولكنى أعتقد أن هذه الحركة الرقيقة كنت أنا المقصود بها ، فما كان فى الطريق ولا فى النافذة غيرى . . نظرتِ الى ناحيتى ثم رفعت الوردة إلى أنفك الجميل وبعثت الى بهذه الوسيلة رسالة . . رسالة من مجهولة الى مجهول . . وخيل الى — وقد أكون واهماً — أنى لمحت امتقاعاً فى لونك حينئذ فزادت الرسالة غموضاً على جمالها . .

ثم مضيت وما لبثت أن غبت عن عينى . . وبقيت أنا مسمراً فى مكانى لا أبرحه انتظاراً لعودتك . . مضت ساعة وأخرى وثالثة وأنت لا تعودين . . واذا بك فى الشرفة !! فان كنت قد دخلت قبل ذلك بكثير ورأيت عينى التى لا ترتفع عن الطريق حتى لا يفوتها منظرك وأنت عائدة ، فلا شك أنك قد ضحكت من هذا الأبله المخبول الذى ينظر ولا يرى من فرط الاضطراب . . لا بأس . . واذا كنت لم أرك فانك فى قلبى . . قلبى الذى صار محراباً لحسنك . . وإنى لأحس أنى أصبحت شيئاً مقدساً بحلولك فيه . . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

بين عالمين

نظام الطلاق فى الاسلام

للأستاذ أحمد محمد شاكر

نشرتُ فى الرسالة (العدد ١٥٧ فى ٦ يوليو سـنة ١٩٣٦) كتاب أستاذنا الكبير العلامة شيخ الشريعة، امام مجتهدى الشيعة، الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، فى نقد ما ذهبت اليه فى كتابى (نظام الطلاق فى الاسلام) من اشتراط الأشهاد فى الطلاق وفى الرجعة، خلافاً لـما ذهب اليه أئمة الشيعة من اشتراطه فى الطلاق دون الرجعة، وقد انتصر الأستاذ — حفظه الله — لمذهبهم بأبدع بيان، مما لم نجد له نظيراً فيما بين أيدينا من كتب العلماء من الشيعة الأمامية

ووعدت أن أناقش الأستاذ فيما ارتآى واختار، وأن أبين وجهة نظرى، ملتزماً ما رسمته لنفسى من شرعة الانصاف فى البحث والنظر «فأكشف عن حجة خصمى وعن حجتى، لى وللناظرين: فامّـا انتصر قول خصمى ورجعتُ عن قولى، وإما انتصرت لقولى وزدته بياناً وتأييداً، لا أبالى أى ذينك كان»

ووفاءً بمـا وعدتُ أنشر هنا ما قلته فى الـكتاب (ص ١١٨ — ١٢١):

«قال الله تعالى فى أول سورة الطلاق: (يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة، واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله، ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه. لا تدرى لعل الله يحـدث بعد ذلك أمراً. فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف، وأشهدوا ذَوَىْ عدل منكم، وأقيموا الشهادة لله)»

«والظاهر من سـياق الآيتين أن قوله (وأشهدوا) راجع الى الطلاق والى الرجعة معاً، والأمر للوجوب، لأنه مدلوله الحقيق، ولا ينصرف الى غير الوجوب — كالندب — إلا بقرينة، ولا قرينة هنا تصرفه عن الوجوب. بل القرائن هنا تؤيد حمله على الوجوب: لأن الطلاق عمل استثنائى يقوم به الرجل — وهو أحد طرفى العقـد — وحده، سواء أوافقته المرأة أم لا، كما أوضحنا ذلك مراراً، وتترتب عليه حقوق للرجل قِبَل المرأة، وحقوق للمرأة قبل الرجل، وكذلك الرجعة، ويخشى فيهما الانكار من أحدهما، فاشهاد الشهود يرفع احتمال الجحد، ويثبت لـكل منهما حقَّـه قِبَـل الآخر. فمن أشهد على طلاقه فقد أتى بالطلاق على الوجه المأمور به، ومن أشهد على الرجعة فكذلك، ومن لم يفعل فقد تعدى حدَّ الله الذى حده له، فوقع عمله باطلاً لا يترتب عليه أى أثر من آثاره»

«وهذا الذى اخترنا هو قول ابن عباس. فقد رَوَى عنه الطبرى فى التفسير (ج ٢٨ ص ٨٨) قال: ان أراد مراجعتها قبل أن تنقضى عدتها أشهد رجلين كما قال الله: (وأشهدوا ذوى عدل منكم). عند الطلاق وعند المراجعة. وهو قول عطاء أيضاً فقد روى عنه عبد الرزاق وعبْدُ بن حُميد قال: النكاح بالشهود والطلاق بالشهود، والمراجعة بالشهود. نقله السيوطى فى الدر المنثور (ج ٦ ص ٢٣٢) والجصـاص فى أحكام القرآن بمعناه (ج ٣ ص ٤٥٦). وكذلك هو قول السُّدِّىّ. فقد روى عنه الطبرى قال: فى قوله: (وأشهدوا ذوى عـدل منكم): على الطلاق والرجعة»

«وذهب الشيعة إلى وجوب الاشهاد فى الطلاق وأنه رُكن من أركانه، كما فى كتاب (شرائع الاسلام ص ٢٠٨ — ٢٠٩ طبعة سنة ١٣٠٢) ولم يوجبوه فى الرجعـة، والتفريق بينهما غريب، ولا دليل عليه»

«وأما ابن حزم فان ظاهر قوله فى المحلى (ج ١٠ ص ٢٥١) يفهم منه أنه يرى اشتراط الاشهاد فى الطلاق وفى الرجعة، وإن لم يذكر هذا الشرط فى مسائل الطلاق، بل ذكره فى الـكلام على الرجعة فقط. قال: فان راجع ولم يشهد فليس مراجعاً، لقول الله تعالى: (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم) ففرن[1] عز وجل بين المراجعة

(١) فى النسخة المطبوعة من المحلى (فرق) وهو خطأ مطبعى واضح من سياق الـكلام، وقد صححناه فى الـكتاب على غالب الظن (لم يفرق) إذ لم نتمكن حين الـكتابة من مراجعة النسخ المخطوطة بدار الـكتب، ثم رجعت إليها بعد، ففى نسخة المحلى (رقم ٤٥ فقه حنبلى) هذه الـكلمة (ففرق) ولـكنها غير واضحة النقط، وهى خطأ كالنسخة المطبوعة، وفى النسخة (رقم ١٥ فقه حنبلى) (ففرن) وهى واضحة الحروف بينة النقط، وهى الصواب، والحمد لله. ونرجو القراء أن يصححوها فى المحلى وفى كتابنا

والطلاق والاشهاد ، فلا يجوز افراد بعض ذلك عن بعض ، وكان من طلق ولم يشهد ذوى عدل ، أو راجع ولم يشهد ذوى عدل : متعدياً لحدود الله تعالى ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ »

« واشتراط الاشهاد فى الرجعة هو أحد قولى الشافعى . قال الشيرازى فى المهذب (ج ٢ ص ١١١) : لأنه استباحة بضع مقصود ، فلم يصح من غير إشهاد ، كالنكاح ، وهو أيضاً أحد قولى الامام أحمد . أنظر المقنع (ج ٢ ص ٢٥٩) والمغنى (ج ٨ ص ٤٨٢) والشرح الكبير (ج ٨ ص ٤٧٢ — ٤٧٣) »

« والقول باشتراط الاشهاد فى صحة الرجعة يلزم منه أنها لا تصح إلا باللفظ ، ولا تصح بالفعل ، كما هو ظاهر . وهو مذهب الشافعى »

هذا ما قلته فى المسئلة ، وقد رد عليه الأستاذ شيخ الشريعة من جهتين : من جهة لفظ الدليل وسياق الآيات الكريمة ، ومن جهة الحكمة الشرعية والفلسفة الاسلامية . فقال فى الوجه الأول : « إن السورة الشريفة مسوقة لبيان خصوص الطلاق وأحكامه ، حتى إنها قد سميت بسورة الطلاق ، وابتدأ الكلام فى صدرها بقوله تعالى : (إذا طلقتم النساء) ثم ذكر لزومَ وقوع الطلاق فى صدر العدة ، أى لا يكون فى طهر المواقعة ولا فى الحيض ، ولزومَ إحصاء العدة وعدمَ إخراجهن من البيوت ، ثم استطرد الى ذكر الرجعة فى خلال بيان أحكام الطلاق ، حيث قال عز شأنه : (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف) أى اذا أشرفن على الخروج من العدة فلكم إمساكهن بالرجعة أو تركهن على المفارقة ، ثم عاد الى تتمة أحكام الطلاق فقال : (وأشهدوا ذوى عدل منكم) أى فى الطلاق الذى سيق الكلام كله لبيان أحكامه ، ويستهجن عوده الى الرجعة التى لم تذكر الا تبعاً واستطراداً »

وأما أن السورة مسوقة لبيان خصوص الطلاق وأحكامه حتى إنها سميت سورة الطلاق : فنعم . ولكن هل معنى هذا أنها مسوقة لأحكام إنشاء الطلاق وإيقاعه : من اشتراط حصوله فى قُبُل العدة ، ومن وجوب الاشهاد عليه ، لا غير ؟! ما أظن أحداً يرضى أن يدعى ذلك ! ولو سميت السورة سورة الطلاق !! فان فى السورة اثنتى عشرة آية ، فيها نحو من خمسين ومائتى كلمة ، لم يذكر فيها من الأحكام الخاصة بانشاء الطلاق وإيقاعه إلا إحدى عشرة كلمة فى الآيتين الاوليين . ثم سيق نصف السورة تقريباً لبيان الأحكام المتعلقة بالطلاق عامة ، من إنشاء وإيقاع ، ومن إمساك بمعروف أو مفارقة بمعروف ، ومن عدة وانفاق وإسكان وإخراج وأجرة إرضاع ، ومن بيان لحدود الله فى الطلاق ووعيد شديد لمن تعداها ، ومن ترغيب فى تقوى الله والتوكل عليه ، كل أولئك فى الآيات السبع الأولى من السورة الكريمة ثم سيق سائرها لأشياء أخرى ليست لها علاقة بالطلاق

فهل كل هذا ذكر تبعاً لسبع كلمات فى الأحكام الخاصة بانشاء الطلاق فى الآية الأولى ، ولأربع كلمات فى الآية الثانية ؟! كلا ! إنها سورة الطلاق ، ذكر فيها كثير من أحكامه عامة ، وسيق نحو نصفها لارشاد الرجال الى ما يجب عليهم عند الطلاق وبعده ، وكل ذلك أصل مقصود ، لم يذكر شىء منه تبعاً ولا استطراداً

ولو قرأ القارئ الآيتين الأوليين بأناة وروية ، وتأمل فيهما على ما تقتضيه الفطرة العربية المستقيمة والذوق السليم ، لتبين له أن الأمر بالاشهاد راجع الى الأشياء الثلاثة المذكورة فى الآيتين ، وهى الطلاق : أى انشاؤه ، والامساك بالمعروف : أى الرجعة ، والمفارقة بالمعروف : أى انفاذ الطلاق بتسريحها باحسان عقيب انقضاء عدتها ، وأنه لو كان المراد الأمر بالاشهاد عند انشاء الطلاق فقط لكان موضع ذكره فى صدر الآية الأولى عند قوله : (فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة) ، أما تأخيره بعد ذكر الامساك أو المفارقة فانه صريح فى عودته الى جميع ما تقدم عليه

وهذا هو الذى فهمه أكثر العارفين باللغة والتمكنين منها ، ولم يستهجن أحد منهم عوده الى الرجعة ، ولا ادعى أنها ذكرت تبعاً واستطرادا ، فابن عباس وعطاء والسدى وغيرهم فهموا أن الأمر بالاشهاد راجع الى الطلاق والى الرجعة معاً ، ولذلك قال ابن حزم « فقرن عز وجل بين المراجعة والطلاق والاشهاد ، فلا يجوز افراد بعض ذلك عن بعض »

وكذلك قال الامام محمد بن ادريس الشافعى ، وهو من أعلم الناس باللغة وأفصحهم ، فقد قال فى كتاب الأم (ج ٥ ص ٢٢٦) : « ينبغى لمن راجع أن يشهد شاهدين عدلين على الرجعة ،

لما أمر الله به من الشهادة ، لئلا يموت قبل أن يقر بذلك ؛ أو يموت قبل تعلم الرجعة بعد انقضاء عدتها ، فلا يتوارثان ان لم تعلم الرجعة فى العدة ، ولئلا يتجاحدا أو يصيبها فتنزل منه اصابة غير زوجة »

وقال محمد بن جرير الطبرى فى التفسير (ج ٢٨ ص ٨٨) : « وقوله : وأشهدوا ذوى عدل منكم . وأشهدوا على الامساك إن أمسكتموهن ، وذلك هو الرجعة »

وقال العلامـة جار الله الزمخشرى فى الـكشاف (ج ٢ ص ٤٠٣) : « وأشهدوا يعنى عنـد الرجعة والفرقة جميعاً ، وهذا الاشهاد مندوب اليـه عند أبى حنيفة ، كقوله : وأشهدوا اذا تبايعتم . وعند الشافعى هو واجب فى الرجعة مندوب اليه فى الفرقة . وقيل فائدة الاشهاد ألا يقع بينهما التجاحـد ، وألا يتهم فى امساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيـدعى الباقى ثبوت الزوجية ليرث »

وقال أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط (ج ٨ ص ٢٨٢) : « وأشهدوا : الظاهر وجوب الاشهاد على ما يقع من الامساك وهو الرجعة ، أو المفارقة وهى الطلاق . وهذا الاشهاد مندوب اليه عنـد أبى حنيفة ، كقوله : وأشهدوا إذا تبايعتم . وعند الشافعية واجب فى الرجعة منـدوب اليه فى الفرقة . وقيل : وأشهدوا يريد به على الرجعـة فقط ؛ والاشهاد شرط فى صحتها ، فلها منعه من نفسها حتى يشهد . وقال ابن عباس : الاشهاد على الرجعة وعلى الطلاق يرفع من النوازل أشكالاً كثيرة »

وبنحوه قال سائر المفسرين ، حتى لقد قال العلامة أمين الدين أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى المفسر من كبار أئمة الشـيعة الامامية ، المتوفى سنة ٥٤٨ فى تفسيره مجمع البيان (ج ٢ ص ٤٣٠ طبع ايران) : « وأشهدوا ذوى عدل منكم . قال المفسرون : أمروا أن يشهدوا عند الطلاق وعند الرجعة شاهدى عدل حتى لا تجحد المرأةُ المراجعةَ بعد انقضاء العدة ، ولا الرجلُ الطلاقَ . وقيل معناه : وأشهدوا على الطلاق صيانةً لدينكم ، وهو المروى عن أئمتنا ، وهذا أليق بالظاهر ، لأنا ان حملناه على الطلاق كان أمراً يقتضى الوجوب ، وهو من شرائط صحة الطلاق ، ومن قال ان ذلك راجع الى المراجعة حمله على الندب »

فهذا الامام الشيعى لا يرى مانعاً من جهة اللغة والسياق أن يرجع الأمر بالاشهاد الى الرجعة والى الطلاق معاً ، ويتأول ذلك . أو يدعى أن الظاهر رجوعه الى الطـلاق فقط ، انتصاراً لمذهب الأئمة من أهل البيت فى اشتراطه الطلاق دون الرجعة

ومع ذلك فان مذهب الامامية أن الاشهاد على الرجعـة مندوب اليه مستحب ، نص على ذلك فى كتبهم فى مواضع مختلفة

وقد ورد فى رواياتهم عن أبى جعفر الباقر عليـه السلام فى بيان طلاق العدة أنه : « اذا أراد الرجل أن يطلق امرأته طلاق العـدة فلينتظر بها حتى تحيض وتخرج من حيضها ، ثم يطلقها تطليقة من غير جماع ، ويشهد شاهدين عدلين ، ويراجعها من يومه ذلك إن أحب ، أو بعد ذلك بأيام قبل أن تحيض ، ويشهد على رجعتها الخ » نقله الطبرسى فى التفسير ، وشيخ الطائفة محمد ابن الحسن الطوسى فى التهذيب ، والامام السعيد أبو جعفر محمد ابن على بن بابويه القمى فى كتاب (من لا يحضره الفقيه) وغيرهم

فهذا يدل على أنهم يرون أن الأمر بالاشهاد فى الآية راجع الى الرجعة كما هو راجع الى الطلاق . وان كانوا لا يشرطونه فى صحة المراجعة ، فذاك لشىء آخر وهو اتباع الأئمة من أهل البيت . ولولا أن الأمر راجع اليهما لما كان لديهم دليل على استحباب الاشهاد فى الرجعة ، ولما قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : « ويشهد على رجعتها » فانه لم يرد طلبُ الاشهاد فيها فى شىء من القرآن إلاّ فى هذه الآية ، ولم يرد أيضاً فى شىء من الأحاديث الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن كان قد ورد فى أقوال الصحابة والتابعين ، كما نقلنا عن ابن عباس وغيره

وكما روى أبو داود (ج ٢ ص ٢٥٧) ، وابن ماجه (ج ١ ص ٣١٩) عن مطرف بن عبد الله : « أن عمران بن حصين سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها ؟ فقال : طلّقتَ لغير سنة ، وراجعتَ لغير سـنة ، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعُد » ، وروى البيهقى فى السنن الـكبرى (ج ٧ ص ٣٧٣) نحوه من طريق ابن سيرين عن عمران بن حصين ، واسناده عند أبى داود اسناد صحيح كما قال الحافظ ابن حجر فى بلوغ المرام (ص ٢٢٨)

وروى البيهقى باسناد صحيح عن نافع قال : « طلق ابن عمر امرأته صفية بنت أبى عبيد تطليقة أو تطليقتين ، فكان لا يدخل عليها الا بأذن ، فلما راجعها أشهد على رجعتها ودخل عليها »

فعبد الله بن عمر فهم من الآية أن الأمر بالاشهاد راجع الى الرجعة ولذلك أشهد على رجعة مطلقته ، وعمران بن حصين

فهم ذلك أيضاً ، وأنكر على من طلق ولم يشهد وراجع ولم يشهد ، واعتبره مخالفاً للسنة ، اذ خالف ما أمر به فى القرآن . وهما عربيان يفهمان لغتهما بالفطرة السليمة ، قبل فساد الألسنة ، ودخول العجمة على الناس

وأنا إذ أحتج بأقوال من نقلت قولهم من الصحابة والتابعين والمفسرين فانما أحتج بها من وجهة الدلالة العربية وفهم مناحى الكلام فى الآيات الكريمة ، لا من جهة الرأى الفقهى الاستنباطى ، فقد اختلفوا فيه اختلافاً كثيراً ، فبعضهم يرى وجوب الاشهاد على الطلاق وحده ويجعله شرطاً فى صحته ، وبعضهم يرى وجوبه على الرجعة وحدها ويجعله شرطاً فى صحتها ، وبعضهم يراه مستحباً فقط فى الأمرين ، وبعضهم يراه واجباً فيهما ولا يراه شرطاً فى صحة واحد منهما ، كما يفهم من كلام عمران بن حصين .

وأما الذى أراه وأذهب اليه فهو وجوب الاشهاد فى الأمرين جميعاً وأنه شرط فى صحة كل منهما ، لأنه ثبت من دلالة الآيتين فى أول سورة الطلاق أن الله سبحانه أمر الرجلين بالاشهاد عند الطلاق وعند المراجعة ؛ والأمر فى حقيقته دائماً للوجوب ، ولا يدل على الندب الا دلالة مجازية ؛ والمجاز لا يراد من الكلام الا بوجود قرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقى ، ولا قرينة هنا أبداً تمنع ارادة المعنى الحقيقى ، وان ادعى الشوكانى فى نيل الأوطار ذلك إذ قال (ج ٧ ص ٢٣ — ٢٤) : « ومن الأدلة على عدم الوجوب أنه قد وقع الاجماع على عدم وجوب الاشهاد فى الطلاق ، كما حكاه الموزعى فى تيسير البيان » ، وما أكثر دعوى العلماء الاجماع ، خصوصاً فى مسائل الطلاق ! ! وهى دعوى عريضة ، يدعونها فى كثير من المواطن إذا ما غلبتهم الحجة وأعوزهم البرهان ، وليس لهم عليها أى دليل ! كما قلت فى (نظام الطلاق) وبينت هناك المعنى الصحيح للاجماع ، « لكثرة إرجاف المرجفين بدعوى الاجماع فى الطلاق ، ليُرعبوا العلماء المجتهدين الصادقين المخلصين ، ويصرفوهم عن البحث فيه ، أو يؤلبوا عليهم العامة والغوغاء . فتحاماه أكثرهم وأحجموا عنه ، إلا من ثبّت الله قلبه وأيده بروح من عنده » (ص ٩٦ — ١٠٣)

(البقية فى العدد القادم)

أحمد محمد شاكر
القاضى الشرعى

دانتى أليجيرى

والكوميديا الالهية

وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

نفينا فى كلمة سالفة أن يكون دانتى الليجيرى قد تأثر فى كوميديته برسالة الغفران لأبى العلاء ، ورجّحنا أن يكون قد احتذى ملحمة (الأنّيد) للشاعر الرومانى الخالد فرجيل ، وأن تكون ثقافته الكبيرة واطلاعه الواسع على الأدبين المسيحى والاسلامى ، ثم إلمامه بالأدب الاغريقى القديم قد شقّق له فجاجَ الخيال فاستطاع أن يضفى على كوميديته ظلالاً عبقرية جذابة من أشتات هذه الثقافات . فمن الأدب المسيحى استمد إيمانه الذى تفيض به الكوميدية ، واقتبس من رؤيا يوحنا اللاهوتى أمواهاً لوّن بها فصوله ؛ ومن قراءاته الاسلامية — وأهمها القرآن — اقترض أخيلةً للجحيم خصبة قوية ارتفع بها الى ذروة الأدب السامى الرفيع ... أما من الأدب الاغريقى القديم فسنرى أن دانتى — إما بالذات وإما بالوساطة — قد قبس قبسة من أسطورة أرفيوس وقبسة أخرى من هرقل وقبسات غير هذه وغير تلك من الأساطير التى تتناول الدار الآخرة (هيدز)

على أن ملحمة الأنيد لفرجيل هى التى أوحت الى دانتى فكرة الكوميدية . وقد رجعنا الى الفصل الطويل الممتع الذى كتبه (بوكاشيو) عن مواطنه ، وقرأنا كذلك ما كتبه الأستاذ فلبّو فللانى فى مجموعته (Lives of Illustrious Florentines) وما كتبه الأستاذ العلامة ج . ا . سيموند عن دانتى ، والمقدمة التى كتبها إدمند . ج . جاردنر للكوميدية (ترجمة كارى سنة ١٩٠٨) ، ثم الفصل الطريف الذى عقده الأستاذ رتشارد جارنت عن دانتى فى كتابه (تاريخ الأدب الايطالى ص ٢٤ — ٥٢) فتأكد لنا أن دانتى كان معجباً الى غير حد بالشاعر الرومانى ڤرچيل وأنه كان يحفظ الكتاب السادس من الأنيد عن ظهر قلب ، وأن هذا الكتاب السادس (الذى سنلخصه للقراء) من الأنيد إن هو إلا صورة مصغرة لجحيم دانتى مع فارق الغاية واختلاف المقصد بين كل من الشاعرين

أما أسطورة المعراج الملفقة[1] التي لفتتنا اليها الرسالة، والتي خال بينها وبين الأساطير التي نحن بصددها علاقة أستاذنا الجليل صاحب (ذكرى أبي العلاء) فلنا فيها رأى سنذكره عند الكلام عن فردوس دانتي وعن جحيمه أيضاً

ولتشعب البحث نرى أن نضع بين يدي القارئ خلاصات موجزة لكل من رسالة الغفران (مع صور للجنة والجحيم من القرآن الكريم)، ورؤيا يوحنا اللاهوتي، وبعض مجازفات أوليسيز من (الأوديسه)، وأسطورة أرفيوس، ورحلة هرقل الى هيدز، والجزء السادس من أنيد ڤرجيل، ونتبع ذلك بخلاصة لكوميدية دانتي بأجزائها الثلاثة: الجحيم، والمطهر، والفردوس، ثم نتقفى بمقارنة تاريخية لن تضير شاعرنا العربي العظيم في شيء، لأنه ليس ضيرا ألا يكون دانتي قد احتذى مثال أبي العلاء أو قلد أسطورة المعراج

١ — رسالة الغفران

أرسل على بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح إلى أبي العلاء رسالة ضافية يستفتيه فيها عن بعض مشكلات النحو والصرف، ثم يبدي « غيظه على الزنادقة والملحدين، الذين يتلاعبون بالدين، ويرومون إدخال الشبه والشكوك على المسلمين، ويستعذبون القدح في نبوة النبيين، ويتطرفون ويتظرفون — إعجاباً بذلك المذهب: (تيه مُغَنٍّ وظرف زنديق) . . . . » ويلم بأخبار بعض الزنادقة كبشار والقصار الأعور والصناديقي والوليد بن يزيد وأبي عيسى بن الرشيد والجنابي والحلاج وابن أبي العذافر . . . الخ . . . ويشير إلى النبي صلى الله عليه وسلم إشارة لها معناها، ثم يذكر شيئاً عن حجه وأسفاره وتحصيله لعلوم اللغة . . . ويتبسط في الحديث كأنما رفعت الكلفة بينه وبين أبي العلاء فيضع بين أيدينا مفتاح رسالة الغفران . . .

وقد قرأنا كل ما كتبه أدباؤنا عن رسالة أبي العلاء فراعنا أن واحداً منهم لم يعرض لرسالة ابن القارح بكلمة، وراعنا أن واحداً منهم لم يتوفر على دراستها ليدرك العلاقة بين الرسالتين، وكان يؤلمنا أن بعض أدبائنا لم يكن يدري من أمر رسالة الغفران شيئاً إلا أنها تهكم وسخرية بابن القارح؛ مع أنها رجع الصدى لزندقته وإلحاده

قال ابن القارح في ختام رسالته: « كنت بتنيس وبين يدي إنسان يقرأ، ويحزن، : (يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً؛ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً؛ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً؛ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً؛ فوقاهم الله شر ذلك اليوم، ولقاهم نضرةً وسروراً؛ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً؛ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، ودانيةً عليهم ظلالها، وذللت قطوفها تذليلاً؛ ويطاف عليهم بآنية من فضةٍ وأكواب كانت قواريرا، قوارير من فضة قدروها تقديراً، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً؛ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً؛ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً؛ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً: عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحُلُّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً؛ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً؛ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً، فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً؛ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً؛ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً . . . . . .) قال ابن القارح: وكان القارئ يتألم ويبكي، فخطر لي خاطر فقلت: أنا بضد هؤلاء القوم، صلوات الله عليهم!! أنا لا أنذر، ولا أفي، ولا أخاف شقاء ولا عناء!! »

أفرأيت وسمعت؟! ابن القارح ضد هؤلاء القوم، صلوات الله عليهم، لا ينذر ولا يفي ولا يخاف شقاء ولا عناء!! ومع ذلك فهو من علماء المسلمين الذين يفهمون معاني الآيات، ويعرفون من هم أولئك الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . . . ابن القارح الذي ذكر في رسالته أنه يغتاظ على الزنادقة والملحدين والطاعنين في الأنبياء بغير الحق لا يهمه أن يكون بضد الأبرار المذكورين في سورة الدهر، ولا يهمه ألا ينذر ولا يفي فلا يخاف عناء ولا شقاء؟!

هنا مفتاح رسالة الغفران!!

ومن أجل ذلك كان عجبنا شديدا كيف أن أحدا من أدبائنا لم يلتفت الى رسالة ابن القارح ليهتدي الى الروح التي أملت رسالة

(١) نقصد القصة التي وضعها نجم الدين الغيطي ولا نقصد حادث المعراج الذي نؤمن به، وقد وفقنا إلى أشياء عن هذه القصة سنزوق القراء ان شاء الله

الغفران .. لقد طرب أبو العلاء أيما طرب أن وجد أديباً مثله معجباً به يقدر أدبه وفلسفته وآراءه فى الحياة والناس ويخاف مثله من مصارحة الناس بما يؤمن فيكتب بهذا الأسلوب الضمر الملفوز الذى يقول فى أوله : إنى أغتاظ على هؤلاء الزنادقة والملحدين مثل بشار والقصار والجنابى والحلاج ومن اليهم ممن يجدفون فى الله وفى كتبه ويشككون الناس فى أنبيائه ؛ ثم يقول فى آخره إنه خطر له خاطر حين سمع قارئ سورة الدهر وهو يقرأ ويحزن ويبكى أنه بضد هؤلاء الأبرار (صلوات الله عليهم ؟ ! !) لأنه لا ينذر ولا يفى ، ولا يخاف شقاء ولا عناء !

طرب أبو العلاء أيما طرب لأنه وجد رجلاً مثله لا يؤمن بهذه الجنة التى عرضها السموات والأرض ، ولا بهذه الأنهار من لبن وعسل وخمر ، ولا بهذه العين السلسبيل ، ولا بهؤلاء الولدان المخلدين الذين يطوفون على المؤمنين بأكواب من فضة ، ولا بالحور العين ... ولا يؤمن بما جاء فى أول سورة الدهر مما أعد للكافرين من سلاسل وأغلال وسعير .. وإذن ، فليكتب أبو العلاء الى ابن القارح ، وليخضع فى كتابته الى ابن القارح لما تسميه السيكلوجية « تداعى المعانى » فيدخل به الجنة ... ولكن قبل أن يدخل الجنة لا بد أن يبعث ... وقبل أن يبعث لا بد أن يموت .. وسيلقاه عزرائيل ساعة الموت ، فلا بأس من أن يناقشه أبو العلاء مناقشة صرفية فكهة مضحكة ، فاذا دخل القبر وأغلق عليه وجاء الملكان منكر ونكير فأى بأس من أن يجادلهما كما جادل عزرائيل ، فاذا رفعا الأرزبة ليدقا بها عنقه فأى بأس أيضاً من أن يربكهما بمناقشة صرفية عن هذه الآلة المحطمة ليشغلهما قليلاً عن تعذيبهما إياه ... ثم أى بأس أيضاً من أن تستمر هذه المناقشة الصرفية فى كل مكان من البعث ، الى أسوار الجنة ، الى الصراط ، الى داخل الجنة نفسها ، الى جهنم ... الخ

أليس قد أراد أبو العلاء أن يشارك ابن القارح سخريته ؟ فلم لا يشاركه دعابته ؟ ولم لا يداعبه تلك الداعبة المضحكة بشرط ألا يفهم أنها دعابة إلا ابن القارح ، فاذا قرأها رجل غير ابن القارح وكان عارفاً باللغة وأسرار نحوها وصرفها راقه ذلك التحقيق الفقهى لتصريف تلك الكلمات التى لا يسمن تصريفها ولا يغنى من جوع من مثل (عزرائيل وملك وإرزبة وجهنم ... الخ ...) فاذا كان القارئ مؤمناً ورعا يسره الحديث عن الجنة وملاذها ويخيفه الحديث عن جهنم وآلامها شاقه حديث الرسالة عن متع الفردوس ، وهذا الأوز الذى ينتفض فيكون حورا عيناً باذن الله ، وسمك الحلاوة الذى يسبح فى أنهار الخمر والعسل واللبن والأرى ... وأخافه ما يرى فى السعير من صنوف المجرمين الكافرين الذين كذبوا بيوم الدين ... وما يكذب به الا كل معتد أثيم ...؟ !

وقد طرب أبو العلاء أيضاً ، وازدادت ثقته بصاحبه لأنه عرف فيه رجلاً يعطف مثله على الحيوان ..... لأنه « حدثه من يثق به وكان زاهداً (!) قال : كنت مع أبى بكر الشبلى ببغداد فى الجانب الشرقى بباب الطاق ، فرأينا شاوياً ، وقد أخرج حملاً من التنور ، وإلى جانبه قد عمل حلاوى فالوذجا ، فوقف ينظر إليهما ، وهو ساه مفكر ، فقلت : « يا مولاى ! دعنى آخذ من هذا وهذا ورقاقاً وخبزاً ، ومنزلى قريب ، تشرفنى بأن تجمل راحتك اليوم عندى ، فقال : « ياهذا ، أظننت أنى اشتهيتهما ؟ وإنما فكرى فى الحيوان كله !! لا يدخل النار إلا بعد الموت ... ونحن ندخلها أحياء ! »

إذن ، فليطمئن أبو العلاء إذا كتب إلى ابن القارح ، وليطف به من البرزخ إلى المحشر إلى الصراط ، ولتحمله وصيفة فاطمة الزهراء إلى داخل الجنة (زقفونه) ! وليجذبه ابراهيم إلى الجنة رغم أنف رضوان ... ولتكن هذه الحياة الأخرى مهزلة وملهاة مضحكة سواء أفى الجنه أو فى الجحيم ... وليحرض ابليس زبانية جهنم على جذب ابن القارح ليكون معه فى بطن سقر . . . . . وليتقارض هذان الساخران اللحدان الضحك على المؤمنين وإله المؤمنين وأنبياء المؤمنين وجنة المؤمنين ..... وليتقارضاه آمنين مطمئنين فليس أحد فى عصرهما بقادر على أن يدرك أنهما يستهزئان بكل ذلك ..... بل كل الناس ستكبر أدب ابن القارح وأدب أبى العلاء .... لأن ابن القارح (يغتاظ على أولئك الزنادقة اللحدين مثل بشار والقصار والجنابى والحلاج لأنهم يجدفون فى الله وينكرون أنبياء الله ويكفرون بكتب الله ويشككون الناس فى كل ذلك) ، ولأن أبا العلاء قد أعطاهم صورة من الجنة تزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم وصورة من الجحيم تزيدهم منها خوفاً فوق خوفهم . . . وليفرح النحاة بأبى العلاء لأنه حل لهم ألغازاً من الصرف والنحو لم يكونوا قادرين عليها ، وهى عند أبى العلاء

ضرب من الهذيان لا غناء فيه

على أن أشياء أخر فى رسالة ابن القارح تشعر القارئ برقاعة وفجور لا يدلان إلا على زندقة وفسق ، ونفس خبيثة لا تتوقر ، ولسان بذىء ينفث الفحش ، وفم يقىء الدنس ... اقرأ هذه النبذة التى دسها ابن القارح من غير ما مناسبة اقتضتها فى رسالته :

« دفع رجل الى صديق له جارية وأودعها عنده وذهب فى سفره ، فقال بعد أيام لمن يأنس به وتسكن نفسه اليه : يا أخى ! ذهبت أمانات الناس ! أودعنى صديق لى جارية ، فى حسابه أنها بكر ، جربتها فاذا هى ثيب !! »

وهو قبل ذلك يشكو الى أبى العلاء انصرافه عن طلب العلم وانغماسه فى الأغراض البهيمية وأنه قبل أن يجىء الى مصر كان يذاكر خمسين ورقة كل يوم ، ولكن الأغراض البهيمية التى عرفها فى مصر وانغمس فيها ثمة صرفته عن جده ومثابرته فهو لا يذاكر إلا خمساً ومع ذاك تكل عيناه فى تحصيلها على قلتها . .

وحديث ابن القارح عن الزنادقة حديث الهازل غير الجاد . . حديث (المستملح) لما كان يصدر عنه هؤلاء الزنادقة من عتو وإلحاد والتماس الرفد والتوسل الى المنفعة بالتدين . . وقد اشتهر عن أبى العلاء نفسه أنه كان يتهم الأنبياء بمثل ما اتهم به ابن القارح الزنادقة من هذا الالتماس للرفد عن طريق الدين ، واللزوميات تفيض بشواهد كثيرة على ذلك

ونحن لا ندرى لم حشد ابن القارح هذا الحشد الكثير من الزنادقة فى رسالته ، وألم فيها بشر ما كان يصدر عنهم من تسفيه الأنبياء ، وسب الخلفاء ، والتبرم بالاسلام وبالمسلمين ؟ أليس كان يشير أبو العلاء الى كثير مثل هذا فى لزومياته ؟

اسمع الى هذا الرجل من يهود خيبر يعرض بموسى ويستهزئ بعمر حين أجلى أهل الذمة عن جزيرة العرب :

يصول أبو حفص علينا بدرة ... رويدك إن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط ... لتشبع ، إن الزاد شىء محبب
فلو كان موسى صادقاً ماظهرتمو ... علينا ، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقنا كم الى الدين فاعرفوا ... لنا رتبة البادى الذى هو أكذب
مشيتم على آثارنا فى طريقنا ... وبغيتكم فى أن تسودوا وترهبوا

واسمع الى الذى يسب أبا بكر لشدة نالته منه فرحل الى بلاد الروم :

لحقت بأرض الروم غير مفكر ... بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركونى من صبوح مدامة ... فما حرم الله السلاف من الخمر
إذا أمرت تيم بن مرة فيكمو ... فلا خير فى أرض الحجاز ولا مصر
فان يك اسلامى هو الحق والهدى ... فانى قد خليته لأبى بكر !

وهكذا يحشد ابن القارح فى رسالته كل ذلك الفحش من أقوال الزنادقة وهو يعرف أن أبا العلاء قد قال مثل ذلك فى لزومياته ، فكأنه قصد الى أن يغنى على عوده ويضرب وراء هواه ، ... ولا ينفعه بعد ذلك سبه لهؤلاء الزنادقة ، هذا السب الذى كاد يكون رشقاً بالورد وتحية بالريحان وتزويراً على القارئين

* * *

وبعد ، فموضوعنا دانتى وأبو العلاء ، وهذا حديث طويل عن ابن القارح .. ولكنه حديث عن السبب فى كتابة رسالة الغفران سنحتاج اليه حين نتكلم عن السبب فى كتابة الكوميدية الالهية

ولنختم هذا المقال بذيل عن رسالة الغفران ليكون بين يدى القارئ خلاصة خاطفة لها :

دخل المعرى بصديقه ابن القارح جنة الفردوس ، فركب نجيبا يتنقل عليه فى آفاقها ، ثم طفق يطوف على أهلها ممن غفرت لهم خطاياهم فى الدار العاجلة ببيت شعر أو كلمة طيبة ، وترك المعرى لخياله عنانه الطويل فتفنن ما شاء فى وصف حور الجنة وأنهارها وألوان نعيمها ... ويلاقى ابن القارح تميم بن أبى الشاعر فيسأله عن أبيات كان قد قالها ، ثم يتشقق الحديث فيقص ابن القارح على تميم قصة بعثه وهول المحشر ثم حديثه مع رضوان وزفر ، ووروده على الحوض المورود ولقاءه فاطمة بنت النبى واستشفاعه بها وجذب ابراهيم بن النبى اياه فيكون داخل الجنة ... ويعود ابن القارح الى محاورة أهل الفردوس ممن غفر لهم ويطوف بحدائق الحور ثم ينفتل الى جنة العفاريت فيحدثه أهلها بأعجب الأحاديث ... ويشتاق الى الاطلاع على أهل الجحيم : فيتحدث الى الخنساء (والعجيب وضعها فى النار مع حسن اسلامها ووضع أشد الكفار عتوا فى الجنة ! !) ويتحدث الى ابليس والى طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية ... ثم يعود الى الفردوس فيتحدث الى آدم ... ويخلص الى جنة الرُّجَّاز ... ويختتم الكوميدية بوصف بارع لنعيم الخلد ....

« يتبع » د . خ

شعراء الموسم فى الميزان

نقد وتحليل

للأديب عباس حسان خضر

— ٢ —

صرعى الأغراض

تناول شعراء الموسم مختلف الأغراض ، فلم يكن منها فى صميم ما يحس به جمهور الشعب احساساً عميقاً شاملاً غير هذه القصيدة ، وقصيدة « وطنى » للأستاذ محمد الهمياوى ، فلقد كانت هذه الصيحة التى أعلنها الأستاذ أحمد الزين حبيسة فى نفوس الكثيرين ، حتى لقد كانت زفرات الصعداء تقترن بتنفس الاعجاب ، ولقد تناول الأستاذ جزئيات الموضوع فى استقصاء وبيان لا يتأتيان لكاتب مطلق القلم من قيدى الوزن والقافية . استمع اليه يفند دعاوى العدل والمساواة والحضارة ، فى حجج بالغة :

صرعى الكفايات تشكو ظلم أهليها   لا يدعى العدل قوم فى عدالتهم
مع الغباوة فيهم لا تساويها   ولا المساواة ، والأفهام لو وزنت
وحشية تسكن البيداء والتيها   ولا الحضارة من تجزى نوابغهم

والأستاذ الزين يأتى المعانى من أبوابها ، ويتناول مفاتيحها تناولاً حسناً ، ثم يجلوها فى ألفاظ عذبة مونقة ؛ يؤلف بين الشقائق ، ويجمع بين الأشباه والنظائر ، فلا تجد كلمة فى غير موضعها ، وإن ما يضطر اليه الشعراء من التقديم والتأخير وغيرها لا تجد له أثراً فى شعره ، وهذه قصيدة (صرعى الأغراض) التى نحن بصددها ، اقرأ مطلعها :

إن الزمان يصافى من يصافيها   هات المدام ولا تسمع لشانيها

هل تستطيع أن تلفظ كلمة وتقف ؟ لا ، لا بد أن يجرى البيت كله على لسانك حتى لتشعر كأنه ليس مؤلفاً من كلمات ينفصل بعضها عن بعض

وفى الأبيات التالية تصوير يدل على المهارة الشعرية :

من دونها سد ذى القرنين يحميها   ملء المناصب منهومون قد جعلوا
عصابة تتواصى فى حواشيها   على مناعة ذاك السد تنفذه

من كل أخرق تنسل الحظوظ به   الى المراتب يسمو فى مراقيها
خابى القوى عبقرى الجهل يثقله   عبء الرياسة إذ يدعوه داعيها

فتراه قد استوعب فى هذه القوالب الشعرية أكثر المعانى التى تتركب منها هذه الموصوفات ، وهذه غاية التصوير الشعرى ؛ وفى « عبقرى الجهل » ظرف كثير ، وقد أخذت هذه الكلمة سبيل الكلمات السائرة

والقصيدة زاخرة بالمعانى ، منها ما هو عام يجول فى نفس الشاعر وفى نفوس غيره ، بيد أنه تفرد فى ترجمة المعنى وصوغه فى صور طريفة ، ومنها معان مبتكرة مضى اليها خياله سابقاً ، فمن النوع الأول قوله :

أرخصتمو غالى الأخلاق فى بلد   لم تغل قيمته إلا بغاليها
يا رب نفس أضاء الطهر صفحتها   أفسدتموها فزلت فى مهاويها
وكم قلوب كساها الحسن نضرته   دنستموها فعاد الحسن تشويها
أغلقتمو سبل الأرزاق لم تدعوا   لفاضل الخلق سعياً فى نواحيها
مدارس تغرس الأخلاق فى نشأ   ومغلق الرزق بعد الغرس يذويها
لا تلح طالب رزق فى نقائصه   إن الضرورات من أقوى دواعيها
ما أطهر الخلق المصرى لو طهرت   تلك الرياسات من أهواء موحيها

ومن أبكار المعانى قوله فى الخمريات التى ابتدأ بها :

بكرا تدور على الندمان لابسة   عقداً من الحبب الدرى زهيها
سرى شذاها فحيا أنفساً ضمفت   من الهيام بها عن أن تحييها

فهذا « الزين » أول من يلبس الكأس عقداً ؛ والبيت الثانى اشتمل على معان لا يسلكها فى بيت واحد إلا شاعر فحل ، فالكأس ذات شذى يحيى الأنفس ، والأنفس تتأثر بالشذى حتى يستهلكها ، فما تعود قادرة على تحية الكأس الوافدة عليها يقدمها شذاها محيياً . وإليك هذين التشبيهين فى مواهب النوابغ :

جادوا بأعمارهم حتى لجاحدهم   إن المواهب سلم فى أعاديها
كالشمس تقبس منها عين عابدها   وترسل النور فى أجفان شانيها
والنفس ان ملئت بالود فاض على   نفوس أعدائها بالود صافيها
كالسحب إذ ملئت بالغيث فاض على   جدب البلاد خلوف من هواميها

بعد أن تقرأ التشبيه الأول وتقضى حقه من الاعجاب قف هنيهة عند التشبيه الثانى ، وانظر قوة معانيه وكثرة أوجه الشبه فيه ، فالنفس المشبعة بالود كالسحب المشبعة بالغيث ، والنفوس

التى تجحدها كالأرض الجدب ، ومع هذا فالنفوس الخيرة تعلو علو السحب وتفيض على جاحديها بالود كما تفيض السحب على الجدب بالغيث

والزين أول من يطالب بدم قتلى المواهب فى قوله :

يا آخذين بقتل النفس قاتلها ... قتلى المواهب لم يسمع لشاكيها
كم للنبوغ دماء بينكم سفكت ... باسم المآرب لا اسم الله مجريها
هلا اقتصصتم لهامن ظالم سافكها ... وقل فيما جناه قتل جانيها
أولى الورى بقصاص منه ذو غرض ... يخشى المواهب تخفيه فيخفيها

ويصور القاتل فى هذه الصورة النفسية المبدعة يخفى المواهب بقتلها حتى لا تغطى عليه وتخمله

وهذه القصيدة من الشعر الذى يقال فيه : ألفاظه قوالب معانيه ؛ فالمعنى يسابق اللفظ حتى يكاد يسبقه ، وأعتقد أن نجاحها — إذ كانت قصيدة الموسم غير منازعة — يرجع أكثره إلى شدة احساس الشاعر بمعانيها ، وصدورها عن شعوره العميق فى ثوب من البيان السليم من التكلف والتعقيد

ويظهر أن حسن القصيدة شغلنى عما عساه أن يكون فيها من المآخذ ؛ وإن كان الانصاف قد اقتضانى أن أبدى — ما استطعت — بعض حسناتها ، فإن الانصاف نفسه يقتضينى أن أنظر إلى الكفة الثانية ..

يقول :

كم للنبوغ دماء بينكم سفكت ... باسم المآرب لا اسم الله مجريها

يقال — مثلاً — : إن هذا الاثم ارتكب باسم المصلحة العامة ، أى أن المصلحة العامة اتخذت اسماً فحسب لتبرير الفعل ، وتكون الحقيقة أن هناك باعثاً على الفعل غير الذى اتخذ اسماً ؛ فالتعبير الذى فى البيت وهو أن الدماء سفكت باسم المآرب يفهم أن المآرب اتخذت اسماً فقط ، مع أنه يريد أن المآرب هى الباعث الحقيقى على سفك دماء النبوغ

ويقول منددا باقامة الدور لحفظ الآثار :

ورافعين من البنيان شاهقه ... فيه الذخائر قد صفت لرائيها

فبينما هو يغض من شأن الآثار ويقول عنها فى الأبيات التى قبل هذا البيت : خرق وخزفات .. إذ به يسميها ذخائر ! ولو صح عنده أنها ذخائر ونفائس لما كان هناك موضع للسخرية من الاهتمام بها ؛ على أننى لا أدرى لماذا يحمل الأستاذ الزين على الآثار هذه الحملة العنيفة ، هل العناية بها تمنع من تقدير ذوى المواهب؟

قد يقال : إن الشاعر لا ينقد فى رأيه ؛ ولو خالف به ما أجمع عليه الناس ، ما دام قد أخرج ما ذهب إليه مخرج لطف وإبداع .

هذا صحيح ولكن هذه القصيدة تعد من الشعر الكتابى الذى يمحص فيه الرأى ، لذلك ولأن القصيدة ذات أثر فى نفوس الجمهور أحب أن أناقش الشاعر فى رأيه هذا ، فماذا لو أنه جمع بين العناية بالبحث عن الآثار القديمة وبين تقدير ذوى المواهب ؟ على أن الأستاذ الزين نفسه يعمل فى البحث عن الآثار القديمة ، ويدأب فى دار الكتب على كشف كنوزها ، وينشئ لها من تحقيقه وتصحيحه ما يجدد بالها ويحفظ ، وهو الآن يعمل فى كتاب نهاية الأرب ، وهو أثر من الآثار العربية القديمة

أفيجب أن يكف الأستاذ عن عمله هذا حتى يلتفت الناس إلى تقدير المواهب والعناية بالنوابغ ؟ أم هو رأى شاعر كالزهرة ينبغى مسها برفق لأن العنف بها يودى بنضرتها ...

فى قريتى

يتحدث الأستاذ أحمد الكاشف فى هذه القصيدة عن حاله فى قريته وما يتصل به فى غيرها حديثاً تنفحك منه ريح الفطرة الحبيبة ، وتجد فيه روح الشعر الجاهلى المرسل على طبيعته لا يعرج على عمق ولا يرهق حساً ؛ فالشاعر يسترسل فى بيان ما يشعر به استرسال شعوره بما يترجم عنه ، وقد جاءت القصيدة مطبقة لكل ما يحيط بشاعر معمر مثل الكاشف قد طبع على الشعر ، ومر به من الحوادث ما يستفيد منه شاعر متيقظ الذهن ، يقيم فى قرية يطل منها على الحياة العامة فى سائر البلاد ؛ فهو يطلع علينا بقوله :

جمعت فى العيد حولى سائر الآل ... وملتقى الآل حولى كل آمالى

ويمضى فى مثل هذه الديباجة العربية وهذا الأسلوب الجزل يعرض شأنه مع آله ، ويتمثل الأجيال المقبلة من النشء الذين يرعاهم ويعدهم للغد ، فى قوله :

كأننى — وهم فى الدار — مطلع ... منهم على أمم شتى وأجيال
أعدهم لغد والمقبلين غدا ... فى هذه الأرض أجنادى وأبطالى

ويصف حياته فى الريف واعتزاله فيه ، ثم يشكو من إهماله شكاية لا يلبث بعدها أن يعود إلى ذكر قناعته بما يزاوله فى الريف قائلاً :

إن لم يكن لى ديوان وحاشية ... يوما فحسبى محاريثى وأنوالى

وهو صاحب الشعر السياسي ، فلا بد أن يفخر بما أبداه في شعره من الآراء النافعة في الحياة السياسية عاتباً على القوم إهمالهم له ، فيقول :

ألست ممن دعا الأحزاب فائتلفت — إلى الذي فيه كانوا أمس عذالى
أرى المودة بالقنطار بينهمُ — ولم أفز بينهم منها بمثقال

ثم يتكلم في الحادثات الجارية الآن بين الجانبين : المصري والبريطاني كلاما جامعاً ، على قصره ، ويصيب به الغرض ، فيقول :

ولم أزل بينهم للخصم متقيا — دخائلاً هي في ذهني وفي بالي
أخشى على رسلهم نياته وهمُ — منه أمام جلاميد وأدغال
وما تزال كما كانت سياسته — يدور فيها بألوان وأشكال
وموضع الند أرجو عنده لهم — لا موضع الصيد من أنياب رئبال

إلى أن يقول :

وكم يكون لهم من ضيقهم فرج — كما تدافع أهوال بأهـــوال

ثم يعطف على إخوانه الشعراء فيتألم لعدم نيلهم مايستحقون ، ويخاطبهم بقوله :

وتملكون من الدنيا سرائرها — ولا تحلون منها الوضع العالي
وما يتاح لكم في الأرض متسع — كما يتـاح لعراف ودجال

ثم يدفع ما يقال من انقضاء الشعر بعـد شوقي وحافظ بأن مصر ملأى بأشباهه من الشعراء ، وهو ، باعتزازه ، يرى في أن هذا الكفاية ، إلى أن يقول في ذلك :

إن لم ير الحي بعد الميْت منزلة — منهم فلا خير في المحزون والسالي

والقصيدة — كما ترى — ليس لها وحدة ، ولا تدور حول فكرة ؛ وإنما موضوعها شاعر يقول فيما يحس به من الحياة القروية ويعبر عما يخالجه نحو بعض الشؤون العامة ؛ وهي ممتعة مقنعة للنفس بما تتطلبه من الشعر ، وإن كان للناقد فيها مواقف للمؤاخذة

الشاعر قليـل العناية بالملاءمة بين المعاني التي تناولها ، ففي القصيدة كثير من الأبيات التي يقول عن مثلها نقاد الأدب من القدماء : « أبناء علة » أي أنها متنافرة تنافر الاخوة غير الأشقاء مثل هذين البيتين :

لو كان للنبت احساس رأفت به — وبت للنبت أيضاً غير أكال
كأنما قريتي ما دمت ساكنها — ولاية وكأني العمدة الوالي

وبينما تجده يمدح عشرة من يعاشرهم وما يلقاه فيها من عاطفة ، إذ بك تراه ينعى على قومه أنهم لا يساعدونه في حمل أعبائه كما قام بأعبائهم ، وهوانه لديهم إلى أن يقول في هذا :

ولو بليت بجبارين ما بلغوا — مدى الأحبة من قهري وإذلالي

فيبدو في ذلك كأنه متناقض ؛ والواقع أنه يريد من الأولين الذين يبدي ارتياحه إلى عشرتهم — أبناء قريته ؛ أما الشكوى فممن عداهم من أبناء البلاد ، ولـكنه لم يبين ، بل مزج الكلام وراح يتحدث عن الفريقين كأنهم فريق واحد !

قرأت هذا البيت :

أعدهم لغد والمقبلين غـدا — في هذه الأرض أجنادي وأبطالي

فوقفت عند « أجنادي وأبطالي » ما شأنهم ؟ أيخبر بهـم عن « المقبلين » إذن يجب أن تكون « المقبـلون » ولـكن في الهامش أن الواو للعطف ، فيبقى « أجنادي وأبطالي » لا شأن لهم بما قبلهم ولا بما بعدهم

وهو يفسر هذا البيت :

ما أحسن الشمل أرعاه وأشهده — لأمهـات وآباء وأطفال

بمـا بعده :

فلا أرى فرقة في الدهر قاطعة — لطمئن وخفـاق وجوال
ولا يصاب هـديل في أليفته — ولا الغضنفر في غيل وأشبال

وعلماء الأدب يعدون من عيوب المعاني ألا يستكمل التفسير أفراد المفسَّر ؛ فهو قد بين شمـل الآباء والأطفال بقوله : « ولا الغضنفر في غيل وأشبال » ولم يأت بذكر الأمهات ، وزاد الأليفة

ويقول إنه يعيش بالبقل والفاكهة ، ولا يأكل اللحم رأفة بالحيوان إلى أن يقول :

وقد أقاتل للحي المسالم من — طير ومن حيوان كل قتال
لو كان للنبت احساس رأفت به — وبت للنبت أيضاً غير أكال

فـكيف يرأف بالحيوان ثم يقاتل حيواناً آخر ، لو قال : « أدافع » بدل « أقاتل » لـكان مقبولا . أما قتال الحيوان فلا تقتضيه الرأفة به . ويقول إنه لو كان للنبت احساس لم يأكله أيضاً ! إنه اذن لن يجد شيئاً يعيش به ، وماذا يفعل لو علم أن العلم الحديث أثبت أن للنبت احساساً ؟

وقال :

ولم أجد من وضيع الذكر خامله — ما ساءني من رفيع الذكر مختال

قابل بين وضيع الذكر ورفيعه ، وهذه مقابلة صحيحة . أما المختال فلا يقابل خامل الذكر ، انما يقابل الخامل النابه

(يتبع) عباس حسان خضر

الكمال

للأستاذ فخرى أبو السعود

قد أسرَّت إلىَّ نفسىَ يوما ... أنها لا تحب إلا الكمالا
لا تحب الأمور قد شابها النق ... صُ وساوى الفحولَ فيها الكسالى
هتفت بى : إلامَ تطلب فى كلِّ (م) ضئيل من الأمور مجالا ؟
قانعاً بالقليل قصــداً وبالهيْ ... نِ مقالا وبالتوسُّط حالا
قد أسئمتَ الفضولَ واللغو حتى ... بتَّ عندى تشابِهُ الجهالا

* * *

رمتُ إرضاءها فآليت لا أر ... ضى بغير الكمال يوما منالا
وحوانى جمعٌ فصممت لا أنْـ ... طق فيهم سوى الصحيح مقالا
ومضت ساعة فأخرى وما اسْتَطَعْ ... تُ جواباً ولا استطبتُ سؤالا
صامتاً عابس الجبين ازدراء ... لحديثٍ بين الجماعة جالا
ضقتُ ذرعاً بالجِدّ منهم وبالهز ... ل وضِحْكٍ مستهجَن يتعالى
ضقت ذرعاً بهم وأنكرَ منِّى الـ ... قومُ زهواً وجفوةً وملالا

* * *

وبدَتْ فرصــةٌ تبشِّر بالخيـ ... ر ويُحيى ســنوحُها آمالا
فرصة جاد لى بها الدهر عفوا ... رحت أسعى لها وأبغى احتيالا
فتذكرتُ قول نفسى ، فأعرضْـ ... تُ ازوراراً عن مطلبى واختيالا
قلتُ : ما يستحق منى عناء ... مِثْلُ هذا أو يستحق احتفالا
إن يَلُحْ مطلبٌ بمثلى خليقٌ ... كنتُ فيــه الهمام والفعَّالا

* * *

وتراءت بخاطرى فِكَراتٌ ... وأحاسيسُ كلَّ يوم توالى
كلما قلت : سوف أنظم من ها ... تيك سحراً من البيان حلالا
حقَّرتْها نفسى وقالتْ : هراء ... ليس يُلقى إليــه ذو اللب بالا
تحتفى اليومَ ناظما لِمَعَانٍ ... فى غدٍ سوف تجتويها ابتذالا
فَدَعِ القولَ أو بَعِنٍّ عظيمٌ ... وصُنِ الشعرَ خيفةً أن يُذالا
فهجرتُ اليراع دهراً ولم أُلْـ ... فِ جديداً مستأهلا أن يقالا

* * *

صاحِ ذا عالَمُ النقائص مَن را ... مَ كمالاً به أراد المحالا
من أراد الكمال فى كل قصد ... حقر السعى واستخسَّ النضالا
من بغى المنتهى أقام فلم يَبْـ ... رَحْ وعافَ المقالَ والأفعالا

فخرى أبو السعود

أبو الهول

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

أنختَ فوق الدهر بالكلكل ... وكنتَ مثل الواعظ المُرْسَلِ
عنــد فلاة قلَّ قُطَّانها ... هل باختيار كنتَ فى معزلِ
مضى الأُلى شادوك فى مجدهم ... كأنه منك لدى موئل
فهل ملاتَ العيشَ من بعدهم ... كأنما جُلِّلْتَ بالمُثقِل (١)
ثقل من الدهر تحمَّلته ... لو حل بالأطواد لم تحمِلِ
فهل يَدِرُّ العيش من بعدهم ... أم ما ضُرُوع الدهر بالحُفَّل (٢)
وأنتَ مثل الخان فى لبثه ... ونحن مثل الراكب المُعْجَل (٣)
غدا ترى عيناك من بَعدنا ... غيــر حُلولِ الحى والمنزل
كم أمة من بعدها أمة ... قد رحلت عنك ولم ترحل
فأنت سِفْرُ الدهر خطَّت به ... يداه آى المُحكَمِ المُنْزَل
فاتل لنا من آية آية ... لعلنا نَجْنُبُ ما يبتلى (٤)
كم وعظ الدهر فلم نَزْدَجِرْ ... وكم سما الناس ولم نَعْتَل
نعاف مستطرف ما يُرْتجى ... كأننا فى العيش لم نُجْبَل
قيدنا العجز ونرجو عُلًى ... يسمو الذى فى الطير لم يُكبل

(١) جلله وتجلله : علاه ، والأطواد : الجبال
(٢) الضروع : الثدى ، والمراد بدر الدهر بفتح الدال خيره ، أى هل سيعود لمصر خيرها ومجدها الماضى
(٣) الخان : المراد به النزل والفندق
(٤) أى أعطنا مما رأيت من تجارب الدهر كى نتجنب الزلل

فيا مِثال الدهر يا رمزه   كم صنم فى القلب لم يبطُل [1]
كأن روح الدهر فى جسمه   إن تَرَهُ من نحوه تمثُلِ
تحسبه من هيبة عاقلا   من حسب المرهوب لم يعقِل [2]
كأنما فى طىّ ألحاظه   ذكرى لعهد الزمن الأول
كأنه فى صمته حارس   يحرس باب القَدَر المقفل
يا عجبا أبصرتَ ما قد مضى   ونظراتٌ منك لم تقتُل [3]
أبصرتَ أكل الدهر أبناءهُ   ألم تُرَعْ من ذلك المأكل
بينكما نجوى على صمته   وصمتة فى فيك كالمِقْوَلِ
مرت بك الأيام مخشية   كأنها مرت على هيكل [4]
فابعث لنا من عزمها عُدَّةً   فلو سألتَ الدهر لم يبخل
ولو نهيتَ الدهر لم يعتدِ   ولو زجرتَ الدهر لم يُقبِل
والدهر كم تَسحرُ أحداثهُ   لب غضيض اللب والمِنصل
أى حكيم قد رأى ما رأت   عيناك فى الدهر ولم يذهل
يا ناظرا ينظر هذا الورى   نظرة طرف الناظر المُعضِل
انظر إلى الأقدار فى غيبها   واذكر مآل العيش فى المُقبِل
أغابر الأيام فى صرفها   كمُضمَرٍ فى الغيب مُستقبل
أمالكٌ عُوجلَ عن مُلكه   كذى علاء بَعْدُ لم ينزل
وللناس حلْىُ القاهر المُعتلى   يألم نار الحاذق الصيقل
يصوغهم كل غَلُوب على   سنة مُلكِ الرمح والمنصل
كم عَبْرَةٍ للناس أبصرتها   وعبرةٍ للهاطل المُسبِلِ
فهل دموع النحس تحيى الورى   مثل عقيب المطر المرسل
أراك لا ترثى لما نابهم   يا ليتنى مثلك لم أحفل
ومقلة تخبر ألحاظها   أنَّ عيون الدهر لم تُسمل [5]
والدهر وهو الساهر المعتدى   يُغضى وعين لك لم تغفل
ورب لحظ منك قد رِشْتَهُ   فى قلب هذا الدهر كالموغل [6]

(١) فى البيت إشارة إلى قول المعرى :
والقلب من أهوائه عابد   ما يعبد الكافر من بده
أى وثنه وصنمه ، فعبادة الأوثان إذن لا تزال قائمة فى القلوب
(٢) الخوف من إنسان يجعل الخائف يكبر عقله
(٣) لم تقتل من هول ما شاهدت عينه
(٤) أى تمر بك خاشعة ولو أنها مخشية من الناس
(٥) تسمل : أى تفقأ
(٦) راش السهم هيأه : أى كأن ألحاظك سهام تتغلغل فى قلب الدهر

فابحث خباياه وأحناءه   واكشف لنا عن ذلك الغيطل [1]
كأن روح الدهر تبغى به   وَكْنًا لها أَحْكِمَ كالمعقل [2]
تحسبه لو جئته ناشداً   معنى حياة الناس لم يجهل
يا من سؤال العيش فى صمته   اسأل ومن لم يَدْرِه فاقتلِ [3]
كم امتطى الأيامَ تجرى به   كأنه والخلد فى منزل
كم عَبَّ لج الدهر ثم انثنى   إلا بقايا الماء فى الجندل [4]
كأنه منتظرٌ موعِدا   حُيِّنَ كى ينطق بالمِقْوَلِ [5]
لوفاه يوماً ذاكراً سره   لم يعجب الرائى ولم يَعْجَل
أو أنه المسحور فى صمته   قد كان يمشى مِشيَةَ المُشبِل [6]
فخاف صرف الدهر من فتكه   وعلمه بالحادث المُقبِل
فذاده بالسحر عن نطقه   حتى تناسى عيشه المُنْجَلِى

عبد الرحمن شكرى

(١) الغيطل هنا كالغيطول الظلمة المتراكمة
(٢) الوكن : الوكر
(٣) فى البيت إشارة إلى أسطورة قديمة تقول إن أبا الهول كان إذا مر به إنسان سأله فى معضلات الحياة ؛ فاذا لم يجب قتله
(٤) الجندل : الصخر ، أى كأن الدهر بحر وأبا الهول الصخر على شاطئه يصد أمواجه
(٥) أى كأن سكوته سكوت المتأهب للقول فى حينه
(٦) المشبل : أبو الأشبال ، أى كأن أبا الهول قد كان حيا يمشى كالأسد أبى الأشبال فسحره الدهر خوفاً منه

العمر والأمانى

بقلم الشاعر عثمان حلمى

مُنًى تناثرنَ حولَ النفسِ ذابلةً   كما تناثرَ حولَ الدوحةِ الورق
تأبى التجاريبُ إلا أن تودِّعها   بين الطِّماح وبين اليأس تصطفق
والعمرُ يجرى كما يجرى السحاب فما   يعودُ ما جدّ منه وهو يستبق
وإن أعيدَ فلا حمدٌ لعودته   هى الليالى غضابٌ أو بها خرَق
وكالأعاصير فى قلبى مضاضتها   أو كالجحيم وفيها القلبُ يحترق !
نظرتُ للسالف الماضى فوا جزعاً   إذا تلاقت به فى المقبل الطرُق
ونظرتى لحياتى وهى مقبلةٌ   اليوم غيَّرها سارٍ بها نَزِق

القصص

البدوى رحاب

للأستاذ ابراهيم بك جلال
وكيل محكمة الزقازيق الأهلية

كان فى أقصى الصعيد نجع صغير قريب من الجبل يسكنه جماعة من فقراء الفلاحين وبينهم بعض الأعراب الذين سكنوا القرى المصرية واعتادوا حياة الريف والاستقرار ، ولكن لم تتبدل فيهم غرائز البدو وعاداتهم الموروثة . وكان فى النجع بدوى شيخ قد ناهز الثمانين ، أسمر البشرة ، حديد البصر ، اسمه « رحاب » ، إذا مشى خلف جماله أطرق برأسه غير ملتفت إلى أحد من الذين يحيطون به معجبين باستقامة عوده ونشاط بدنه ، على ما بدا من شيخوخته ، فلا يفارق عصاه الغليظة يبسطها على عاتقه ويلف عليها ساعديه ، وهو حافى القدمين قد اشتمل بعباءة من وبر الجمال ، واعتاد أن يحمل خيوطا كثيرة من ذلك الوبر الذى كان يغزله

وكان له ولد يدعى « دياب » فى الثلاثين من عمره قد أصبح مضرب المثل فى حسن الفتوة وكمال التكوين والقامة المديدة ؛ له عينا صقر وشارب مفتول ، ولكنه كثير الاغتراب والأسفار ، يطوى الفيافى والبيد سعياً على قدميه ، ويجوب أقاليم الصعيد من أقصاها إلى أقصاها يبيع للفلاحين النوق والجمال ، ثم يعود إلى مضرب أبيه مفعم الكيس بالمال . أما أبوه الشيخ رحاب فانه لا يغادر الخباء إلا إذا سرحت جماله فى الأراضى البور المترامية خلف النجع وعلى ضفاف النيل ، فيمشى خلفها حتى إذا بلغ رابية بأقصى الساحل جلس عندها وتناول مغزله يديره طول يومه ، فاذا جاع تناول قبضة من التمر اليابس ، ثم اشتمل بعباءته ونام بعين الساهر اليقظ . وكانت له فتاة صبوحة الوجه ، مليحة التكوين ، تخطر فى مشيتها فيفتتن الناظر بسحر أحداقها المتقدة حسناً ورقة ، وكانت الفتاة ، واسمها « سلمى » تزين صدرها بألوان من النقود ، وتطوق خصرها بنطاق من الحرير الأحمر ، ولها فى الخباء صندوق أحمر عليه تصاوير وألوان مما يباع لأهل القرى ، يتدلى مفتاحه من غدائرها ، وقد جمعت فيه ثيابها وأقراطها وأساورها ، وكل ما حرصت على جمعه من ألوان الزينة التى يحبها بنات العرب

وكان بيت هذه الأسرة فى أقصى النجع قد قام من أوبار الجمال ، فيه فراش للوالد الشيخ وآخر بجانبه لزوجته جازية ؛ أما سلمى فكان فراشها بمعزل عن والديها . وكان فى ناحية من الخباء جرن كبير من الحديد يؤدى عمل الرحى ، فيدقون فيه الشمير ، وله يد كبيرة غليظة لا تقل زنتها عن نصف قنطار يعجز الرجل من أهل المدن أن يحركها إلا بكلتا يديه ، ولكن سلمى كانت

تبدَّلت نظراتى فى الحياة كما ... تبدَّل اللونُ لما طاشت الحدق
مالى وما للمنى ما جدَّ بى زمنٌ ... إلا وطاحَ بنفسى عاصفٌ حَنِق
لونُ الحياةِ كلونِ النفس تبصره ... بما طويت فلا مينٌ ولا ملق
فى غاية النفس والدنيا وسرِّها ... تحيَّر الخلق فى سرٍ له خُلقوا
غادٍ على الأرض فيها رائح جَزِعٌ ... ذو الصبر يطوى ويطوى الجازع الحنق
وكلُّنا فى الليالى صاعدٌ جبلا ... تَزَلُّ أقدامُنا عنه وتنزلق
متى بَصُرْتَ بآلام الحياة ضحًى ... أيقنتَ أىَّ رجاء ضمَّه الغسق
والحبُّ والبغض إن جدَّا زوالهما ... حقٌ وأىُّ جميعٍ ليس يفترق !
وأدمعٌ لىَ حيرى فى محاجرها ... ولى فؤادٌ ولكن بالأسى خَفِق
فكنتُ أحسبُ أحلامى محققةً ... ولا محالة حتى لاح لى الشفق
آمنتُ أنَّ وجودى كلَّهُ خُدَعٌ ... وأنَّ نفسى تحكى كلَّ من سبقوا

(الاسكندرية) عثمان حلمى

تدق بها حب الشعير كما يستعمل نساء المدن الهاون النحاسي سهولة واعتيادا بغير عناء أو مشقة ، وكذلك كانت جازية أمها . والعجيب أن الشيخ الفاني كان يتناول ذلك القضيب باحدى يديه كما يفعل بعصاه يحركه ويدق به ، وكان عندهم عنزات لطاف يطلقونها بالنهار في أطراف المزارع ، وتمشي الأم جازية تحرسها من بعيد فتجمع لها بعض الحشائش الجافة ، فاذا مر بها رجل من أهل القرى أسبلت نقابها الأحمر وتوارت حتى ينصرف الرجل وما كانت تكف هي الأخرى عن الغزل طول يومها

ولم يبق بالخباء إلا الفتاة سلمى الكاعب اللعوب ، تراها تغزل أحياناً وحيناً تطبخ الدشيش وتسقيه من لبن النوق ، ثم تملأ منه القدر الكبيرة وتجلس بعد ذلك ترقب الطريق كأنها على موعد مع أحد الناس

وكان بأحدى القرى القريبة من النجع فتى من سادات الأسر الكريمة بصعيد مصر ، مات أبوه عن ضيعة عامرة بالانعام وأنواع الدواب ، وبها أهراء حافلة بالغلال والأقطان ، واستقر الفتى حسان في ضيعة أبيه مجداً دائباً في الزرع والانبات حريصاً على مرضاة الفلاحين ، وقد اتخذ جناحاً من دار أبيه لسكناه مع أمه الأرمل المريضة ، وكف عن حياة السرف وكثرة الانفاق على الولائم والأضياف . وكانت له فرس شقراء من عتاق الخيل يركبها ويطوف بها بين المزارع في كل صباح باكر وكل عشي

ومر يوماً بخباء رحاب فلمح سلمى تحلب عنزاتها عند باب الحظيرة ، فترنح الفتى على سرج فرسه من روعة حسنها وقوة فتنتها وجمال جيدها ، والتقت عيناهما لمحة قصيرة ثم أرخت قناعها وولت على استحياء ، وأكثر حسان من الطواف بخدرها كل غداة ، فكان يجدها منفردة عن أبويها ، وشجعه على التحديق فيها صمتها وجلوسها كل يوم عند كثيب خلف الخباء كأنها ترقب حضوره

وخرج حسان يطوف المزارع كعادته في يوم شديد القيظ ، فساقته فرسه إلى باب الخباء ، فنادى أهل الدار يلتمس ماء أو جرعة من لبن الابل يتعلل بها ، وقابلته الأم عند الباب وقد أرخت قناعها الأحمر وسألته عن حاجته ، فلما طلب قدحاً من اللبن نادت ابنتها سلمى ، فجاءت تتعثر بأذيالها وهي حاسرة الوجه تبهر الناظر بحسنها وملاحة قدها ، ومدت اليه يمينها بالقدح فترجل حسان لدى الباب وقد سنحت له الفرصة فرآها عن قرب ولمس كفها ، وطالع في غرتها آية الحسن الذي لم ير مثيلاً له بين بنات القرى ولا في سائر البنادر التي زارها ، وابتسمت سلمى من رؤية محبها وقد أذهلته الفتنة وشغفه حبها وملأت ناظريها منه ، وكان فتى حسن الهيئة والثياب ، ثم ارتدت الى البيت وتوارت عن ناظريه

وأراد حسان ألا تضيع الفرصة ، فسأل الأم أن كان لديهم بعض من صغار الخراف ليشتريها ويحملها إلى المزرعة بين دوابه وأغنامه ، فأنعمت الأم وغابت عنه قليلاً ، ثم عادت تسوق بين يديها حملين صغيرين ، وجاءت على أعقابها سلمى تسوق حملين آخرين وساومهما حسان ونقدهما ثمناً معجلاً في الخراف الأربعة ، ثم بدت له مشكلة حمل الخراف إلى قريته ، فهونت عليه جازية الأمر وساقت بين يديها الخراف تساعدها سلمى ومشى حسان بين المرأتين يحدثهما طول الطريق ويختلس النظر إلى سلمى التي ما كانت تضن عليه بعطفها وابتسامها ، وبلغوا المزرعة فأدخل الخراف في الحظيرة ثم قدم لجازية وسلمى طعاماً شهياً من موائد أهل المدن بين دجاج وشرائح من لحم مشوى وخضر مطبوخة ، وصحفة كبيرة من الحلوى بهر بها أبصار ضيوفه ، ثم حمل إليهما النقل والفاكهة ولم يدع مزيداً من واسع الكرم وطرائف النعم . وخلا حسان بفاتنته سلمى في ساعة شغلت فيها جازية بالحديث مع أمه العجوز المريضة بأعلى حجرات الدار ، واشتفى المجاز في خلوتهما ، وخطبها حسان لنفسه وحمل اليها من خزانته صرة من الحرير الأبيض فيها مائة جنيه من الذهب صداقاً معجلاً ليستحل بذلك عناقها ، ولكن سلمى نأت بجانبها أسى وأسفاً ، وأطلعته على همها الدفين ، فان أباها قد عقد العزم على تزويجها من ابن أخيه وهو كهل من قبيلتها ، له زوجتان وبنون وبنات ، وهو فوق ذلك قد جاوز سن الشباب ، فظ غليظ القلب ، رقيق الحال ، ومن أجل ذلك كله قد تنكد عيشها ، لأن أباها وأخاها « دياب » كلاهما ملح في تزويجها من ذلك الرجل البغيض ، وقد أنذراها بالموت إن هي ترددت في

القبول والرضى ، وبكت سلمى وغمرت وجهها في صدر محبها ، وضمها حسان وقال لها إني أشهد الله أنك ستكونين أهلي وهذا صداقك بين يديك ، وليقض الله فينا مشيئته ، واستملت له الفتاة وتعاهدا أن يدعو في الصباح مأذون القرية ومعه شاهدان ليعقد عليها بغير علم من أبيها أو أمها

وما أشرق الصبح حتى هبط حسان إلى فرسه فامتطاها وانطلق بين أنفاس الربى يطير بجناحي شوق

وانقضت أشهر والحبيبان يلتقيان بالخباء في غفلة من رحاب وزوجه ، وكثر سروح سلمى تمشي الى زوجها في دجى الليل بعد أن ينام أبواها حتى ظهر الحمل وتحرك الجنين ولم يبق على الوضع إلا بقية من الشهر الأخير ، فرفع رحاب حاجبيه يوماً بكلتا يديه وظهر له ما كان مستوراً عنه من أمر سلمى ؛ فناداها : أنى لك هذا وما كنت بغياً ؟ وطار شرر الغضب والوعيد من مقلة الشيخ ، ففرت زوجته جازية بين الربى والآكام ، واستسلمت الفتاة المسكينة ، فقال أبوها خبريني عن هذا الذي في أحشائك من أبوه ، فقالت معاذ الله ما أثمت والله يا أبت ، ولكن بكتاب الله وسنة نبيه ، فقال هذا غاية ما بلغ اليه فجورك ، إن اليوم هو آخر أيامك من الدنيا ، فمن شريكك في الأثم ؟ من هو ذلك الذي انتهك حرمتي وفضح ربة الخباء ؟ لعله الفتى الذي يجوب الربى بفرسه الشقراء كل يوم ! لقد أغدق عليك من خيره يوم ابتاع منك الخراف . فصاحت سلمى باكية وقالت : بل هو سيد كريم قد مهرني مائة جنيه من خالص الذهب وأغدق على ألواناً من الثياب والعقود والجوهر الكريم ، ودخلت الخباء ثم عادت تحمل بيدها صرة من الحرير الأبيض بها صداقها وقالت هذا هو المهر الذي استحل به عناق ، فصاح بها أبوها سأرد اليه هـذا الذهب وأنال به مهراً أغلى وأشد خطراً يجري من دمه فأغسل به باب هـذا الخدر . فصاحت سلمى : يا أبت إنني وحدي الأثيمة فاقتص مني دونه ودعه بالله وشأنه فانه الوحيد المرجى لأمه المسكينة . لقد مات أبوه رمياً بالرصاص في ظروف محزنة ، ولم يبق من أسرته إلا هو . دعه يا أبت يعش ويستوف نصيباً من نعمة الدنيا ، فصاح بها أبوها أن احملي الى قضيب الجرن ، فنكست رأسها وجرت مدامعها وقد لاح لها ملك الموت ، وأضجعها أبوها فاستكانت له ، فهوى بالقضيب يقصم ظهرها ويفري حشاها صدعا شديداً وضرباً لا رحمة فيه ولا هوادة ، وتراخت يداها وأخذتها غشية الموت ، فناولها جرة الماء وصاح بها لتحملها إلى غدير الماء ، وتملأها غلواً في قتلها وإرهاق نزعة الموت الأخيرة فيها . ودفعها بيده وهي تحبو إلى الغدير حبواً حيث فاضت روحها . فركلها أبوها الوحش بقدمه فحملها الماء إلى الشط . وصاح الناس قتيل بالشط ! فأقبل العمدة وجنوده وعرفوها سلمى ابنة رحاب ؛ واحتشد الناس في أقصى المزارع حول جسد مسجى في إزار من الحرير الأبيض يبين منـه وجه حسان وقد مزقت أحشاءه قذائف الرصاص ، وتدلى من إزاره صرة من الحرير الأبيض بها مائة جنيـه من الذهب الأصفر ، حولها مائة قطرة من الدم الأحمر الزكي الشهيد !

ابراهيم جلال

مأساة من سوفوكليس

٢ - أنتيجـــونى

للأستاذ دريني خشبة

— ٤ —

« يدخل أحد الحراس مفزعا »

— « مولاى ! مولاى ! أ... أ... أنفاسى تتقطع يا مولاى ! أفكارى مشتتة ! لقد أوشكت ألا أحمل النبأ المظيم ! يا الهول ، يا الهول ! »

— « تكلم أيها الحارس ، ما وراءك ! تكلم ! ... ماذا تخشى ؟ ! »

— « الجثة يا مولاى ! لقد هيل عليها الثرى ... و ... دُفِنَت ! وأدّيت لها كل شعائر الآلهة ! أما من صنع هذا .. ف ... لا ندرى ... لقد لاذ بالفرار ! فر دون أن يراه أحد ! »

— « ها ... !! الجسور الذى صنع كل هذا ! ... »

— « لا أدرى ! إنه لم يترك وراءه أثرا يعرف به ! ونحن أيضاً لم نعرف ما تم حتى أيقظتنا آراد الصباح المنبعثة من أعين الشرق ! لقد فزع الحراس ، واقترعوا على من يبلغ مولاى ! فيا لشقوتى ويا لتعاستى ! لقد وقعت القرعة على ... وهل أشأم من حامل أخبار الشؤم ! ؟ »

الخورس : « مولاى ! إنها قوة سماوية مقدسة لا بد ! هى التى صنعت كل هذا !

الملك : « أية قوة سماوية يا أُحيمق ؟ ! أصمت ! أية آلهة تزعم أنها توقر النذل الخائن الجبان ! إنك تضرم غضبى وتؤجج لظى السخط فى أعماق ! ويلكم أيها الحراس الأنجاس ! بل أنا أعرف من أين وصلتكم الرّشى فغضضتم الطرف عن إجرام المجرمين ! النقود ! دائماً النقود ...! تعاويذ السحر ، والرقى التى تذهب بالألباب ! ليس مثلها فى افساد ضمائر الأمم ، وتدنيس كرامات الشعوب ! ولكن لا ... ! فاما تأتوننى بالمجرمين مصفدين فى الأغلال ، وإلا فالشنق أيسر عقوبة تستأهلونها ! أيها اللؤماء ! يا عبدة الذهب »

— « إذن ! ... أ ... أيسمح لى مولاى بكلمة ؟ أم أنقلب على وجهى ؟ »

— « بل كلمات ... تكلم ! ... إضرم نيران السخط عسى أن تحرقك ؟ »

— « أنا على الأقل ... لست صاحب ذاك الوزر ! »

— « ها ... ها ها ... ؟ كل ما فيك لسان ليس يفتر عن هراء ! المجرمين ... وإلا ... فرؤوسكم أجمعين ! ... أغرب ! »

« يخرجون تباعاً ما عدا الخورس »

— ٥ —

وما يكاد المنشدون يفرغون من هزج حلو النغم ، ضافى الحكمة ، حتى يشهد رئيسهم أحد الحراس مقبلاً وبين يديه الفتاة الجريئة التاعسة أنتيجونى يسوقها سوقاً

« يدخلان »

— « الفتاة التى صنعت كل شىء ! لقد ضبطناها تدفنه ! أين الملك ؟ »

— «ها هوذا قادما للقائك أيها الحارس ، فحدثه بكل شىء»

« يدخل الملك »

— « مولاى ! ها هى ذى ! لقد ضبطناها تحثو التراب على جثمان القتيل ! ما أحسبها تنكر ، لأن الانكار لن يفيدها من الحق شيئاً ! حمداً للآلهة ! لقد أنقذتنا بالتوفيق من موت كاد يتخطفنا ! سلها يا مولاى فأ كبر ظنى أنها ستعترف ! »

— « هذه الفتاة ! اين وجدتها إذن ؟ »

— « وجدتها تدفن الأمير قلت لك ! »

— « ما أحسبك إلا مأفوناً ! »

— « لقد وجدتها تدفن القتيل الذى أنذرت ألا يدفن ! ماذا تريد منى أن أكون أصرح من هذا ؟ »

— « وكيف إذن كشفتم هذا الأمر ؟ »

— « لقد كنا يامولاى نجلس (فوق ريح) القتيل حتى لا يصدم أنوفنا نتنه ، ولايضرنا جيفه ، وفجأة ، حين أشرقت ذكاء وغمرت بسناها البطاح ، هبت زوبعة قويه حجبت الشمس بكثرة ما أثارت من تراب ورمال ! ، خفنا على أبصارنا أن تصرها الريح العاصف فأغلقناها ، وما كادت تهدا العاصفه ويصفو الجو

حتى رأينا هذه الفتاة تبكى القتيل وتسقيه أحر عبراتها ، ثم حثت فوقه التراب وصبت عليه ثلاثاً من جرار الخمر المقدسة ، سلها يا مولاى فانها اعترفت بكل شىء ، وستعترف لك بكل شىء ! »

— « أنت أيتها الفتاة التى تبحث بعينيها تراب الأرض !! أتقرين بما تَقَوَّل عليك الحرس أم تنكرينه ؟ »

— « أنا ! . . . ها ها ! ! أنا لست أنكر مما ذكر حرفاً واحداً ! ! لقد نذرت ذلك وأنفذت ما نذرت ! »

— « إذن ... انطلق أنت أيها الحارس ... فلقد نجوت ... أما أنت أيتها الفتاة . . . أما علمت بما صدرت عنه إرادتنا ؟ ألم تكونى تعرفين أن ما صنعت محذور منه منهى عنه ؟ »

— « كنت أعلم ذلك جميعه ! »

— « وكيف تجاسرت إذن على خرق القانون إلى هذا الحد ؟ »

— « إنه قانون لم يتنزل علىَّ من السماء ، ولم تأمر به ربة العدالة ! إن هى إلا قوانينكم أنتم ، ولكن للآلهة قوانينها كذلك ، وقد فرضتها منذ الأزل على بنى الانسان ، وأنى لبنى الموتى أن تضرب بعرض الأفق شرائع السماء ! أينا أخطأ أيهذا الرجل ؟ أنا التى عصيت قوانينكم الظالمة ، أم أنتم الذين ثرتم على قوانين آلهتكم ؟ ألا مرحباً بالموت يريحنى مما كنت أغص به من آلام ! أيترك أخى من غير قبر يستره ويردنى تهديدكم بالاعدام عن دفنه ؟ ألا إن هذا هو الاعدام ! ألا إن كنت فى نظرك مجنونة ، فانى لكذلك فى نظر مجنون ! . . . »

رئيس المنشدين : « يا للجرأة ! إن الفتاة لا تبالى صاحب تاج طيبة ! إن الردى الذى يرقص أمام عينين لا يفل من عزمتها »

الملك : « إى وحق السماء ! ولكن سرعان ما تذوب هذه الروح المتمردة حين تلقى فى سعير العذاب ! خيلاء ! ها ! شىء لا يحتمل من مجرم ! إنها داست القانون ولم يكن بحسبها ذلك ، بل هى تضاعف أوزارها بالقحة ! إنها تستهزئ بنا كأنها صاحبة الأمر والنهى فينا ! من أنا إذن ! لعلها تحسب أنها بنجوة من العقاب لأنها ابنة أختى ! ها . . . ولكن . . . لا . . . فوحق السماء لو أنها أقرب الناس إلى لما أفلتت من الجزاء الصارم ... ولكن . . . أين شريكتها فى هذا الوزر ؟ أختها ! إنهما كانتا تتناجيان فى هذا القصر ... إلى بها هى الأخرى ... إنها أخبث منها ! ... »

أنتيجونى : « على رسلك أيها الملك ! أتبتغى شفاء لحردك أكثر من قتلى ! ألا مرحباً بالموت ! »

الملك : « بحسبك ! هذا شأنى ! سينهى الموت كل شىء ! »

— « وفيم الابطاء إذن ! إنك لا تخيفنى بتهديداتك ، فلقد نلت مشتهاى بدفنى أخى ، وأى فخار أبعد من هذا ؛ إن هؤلاء جميعاً شهودى ، فسلهم يجيبوك ! حل عقال ألسنتهم ... كلهم !

— « ليس فى طيبة فرد يرى القضية بعينيك ! »

— « بل هم يرونها كما أرى ، ولكن جبروت السلطان يلجم أفواههم ! »

— « وهلا تستحين من تحديك مدينة بأسرها ؟ »

— « بِمَ أستحى ؟ ألأنى أخته ، ذلك الذى وفيت له ؟

— « أو لم يكن إتيوكليز أخاك كذلك ؟

— « أخى وشقيقى من أبى وأمى !

— « لم يكن من الوفاء له إذن أن تفعلى ما فعلت !

— « إنه وقد مات — لا يؤمن بما تقول ! على أن الذى دفنته هو أخوه أيضاً ولم يكن عبداً مرة ما !

— « لكنه حارب وطنه وأراد إذلال بلاده !

— « لا يعرف الموت هذه الفروق الدنيا !

— « ليس الخير والشر سواء كما تعلمين !

— « قد يستويان فى الدار الآخرة ، من يدرى ؟

— « العدو مكروه أبداً حتى فى الموت !

— « ومن أين لقلبى بكراهية أخى ! إنى أحبه !

— « ها ... ستحبينه كثيراً بعد قتلك ! أبداً لن تسيطر علىَّ فتاة مثلك !

« تدخل إسمينه »

(لها بقية) دريني خشبة

البريد الأدبي

كتاب جليل عن مستقبل الديموقراطية

تثير نظم الدولة والحكم اليوم كثيراً من الاهتمام ، ويتساءل الساسة والمفكرون فى مختلف أنحاء العالم ، أيكون المستقبل للديموقراطية أم يكون لتلك النظم الجديدة الطاغية التى تستتر وراء فكرة الدولة وتقضى على كل الحريات الدستورية ؟ وقد صدر أخيراً بالفرنسية فى هذا الموضوع كتاب جليل الشأن عنوانه : « الفوضى أو السيادة المطلقة ، أزمة الديموقراطية ، وحلها » « Anarchie ou Hierarchie. La Crise de La Démocratie » بقلم السنيور دى مادارياجا سفير اسبانيا فى باريس ومندوبها لدى عصبة الأمم ، وهى خلاصة المحاضرات التى ألقاها فى معهد الدراسات الخاصة بالثورة الفرنسية بجامعة السوربون منذ سنة ١٨٣٣

والسنيور مادارياجا من أعظم ساسة أوربا المعاصرين ، ومن أعظم الكتاب الدوليين ، وهو ديموقراطى بالفطرة لا يدخر وسعاً فى الذود عن الديموقراطية بقلمه ولسانه ، وهو يقول لنا فى كتابه إنه لما رأى القوى الخصيمة تثب وتناوىء الحريات الديموقراطية ، ورأى الحرية نفسها تضعف وتتضاءل ، رأى أن يبحث ما إذا كان من المستطاع أن ننظم ديموقراطية الغد وننقذها

ويرى السنيور مادارياجا أن فهم الحرية قد تطور جداً عما كان عليه أيام روسو ومونتسكيو ، وأن الحرية قد غدت بالنسبة لبعض الأفراد عبئاً لا يراد حمله ، وأن المساواة غدت فى نضال مستمر مع أنواع الايثار التى تقوم على النظام الطبيعى ، وأن الديموقراطية القائمة على سيادة الشعب غدت من التعقيد بحيث تخرج عن طاقة الفرد وسلطانه

ويقول لنا إن عوامل التأثير والتعقيد فى الديموقراطية المعاصرة ترجع إلى الرأسمالية التى أصبحت كابوساً على العمل ، والمالية التى تسخر كل القوى لصالحها ؛ وقد غدت القوى المنتجة فى الأمة معتركا من النضال المستمر ؛ وأضحت الفكرة القومية فى نضال مستمر مع النزعة الدولية ، بيد أن ذلك كله لا يعنى أنه يجب على الأمم أن تترك قوى الحرية السياسية التى تغذيها المبادئ الديموقراطية ، بل يجب عليها بالعكس أن تحاول تنظيم هذه القوى بأسلوب جديد

ويحاول السنيور مادارياجا أن يعالج هذه الأسس التى يجب أن تقوم عليها ديموقراطية الغد ، ويحمل بكل قوة ومنطق على النظم الطاغية التى تحاول أن تجعل الأمة فوق الفردية . وفى رأيه أن الدولة لا حق لها أن تجعل من نفسها نهاية مقصودة ، وأن الفرد مرتبط حتما بالمجموع ، وأنه يجب وضع قاعدة للتوسط بين الحرية والسلطة

ثم يعالج السنيور مادارياجا بعد ذلك الوسائل الاقتصادية والاجتماعية التى يجب أن تتذرع الديموقراطية بها لتحقيق مبادئها

وقد أثار كتاب السنيور مادارياجا كثيرا من الاهتمام والتقدير فى دوائر السياسة العليا ، ودوائر عصـــبة الأمم التى يعتبر من أقطابها

المهرجان الألفى للمتنبي فى المجمع العلمى العربى

أرسلت كتابة سر المهرجان رسائل الدعوة الى أشهر رجال العلم والأدب من الفرنجة والعرب والى الجامعات العلمية لترسـل من يمثلها فى موسم المتنبى الذى يفتتح فى اليوم الثالث والعشرين من شهر يوليه الحالى ويستمر الى آخره . وقد أخذت رسائل التلبيـة تتوارد الى المجمع العلمى فندبت الجامعة المصرية الأسـتاذ أحمد أمين لتمثيلها رسمياً فى المهرجان ، وندبت الجامعة الأمريكية الأستاذ أنيس الخورى المقدسى لتمثيلها ، وندبت الجامعة السورية الأستاذ الدكتور مرشد بك خاطر عضو المجمع العلمى لتمثيلها ، وندبت جامعة عليكرة الهندية الأستاذ عبدالعزيز الميمنى الراجكوتى . وسيمثل القطر المصرى مع الأستاذ أحمدأمين الأستاذ عبد الوهاب عزام ، ويمثل العراق الأستاذ طه الراوى عضو المجمع العلمى العربى وكاتب سر مجلس الأعيان ، ويمثل لبنان الأسـتاذ الدكتور نقولا فياض ، وفيلسوف الفريكة الأستاذ أمين الريحانى

عضوا المجمع العلمي العربي ، والأستاذ حليم دموس الشاعر المعروف ؛ وينوب عن جبل عامل الأستاذان أحمد رضا وسليمان ضاهر وكلاهما عضو المجمع العلمي العربي ، وينوب عن حلب الشهباء شاعرها الأستاذ عمر أبوريشة . ولا يتسع المجال لتعداد جميع ضيوف المهرجان من أعيان البيان

وقد قررت اللجنة العامة فى جلسة الاثنين المنصرمة أن يكون يوم ١٧ يوليه الحالى آخر يوم من الأجل المضروب لقبول الخطب والقصائد ، وذلك لكيما تتمكن اللجنة من تصنيفها وتوزيعها على أيام أسبوع المتنبي

واللجنة العامة تشكر المفوضية العليا على منحها مبلغ (٣٠٠) ليرة سورية اعانة للمهرجان ، كما تشكر مدير المعرض الصناعى الأستاذ عارف بك النكدى عضو المجمع العلمى لمساعدتها بمبلغ (٣٠٠) ليرة سورية ، وكما تشكر محافظ مدينة دمشق الممتازة الأستاذ توفيق بك الحبانى الذى قرر أن يسمى الشارع الجديد المجاور لدائرة التبليك باسم (شارع المتنبي) وذلك يوم افتتاح المهرجان

سجون سيبيريا

كانت سجون سيبيريا منذ الحكم القيصرى دائماً مثار الروع والرهبة ؛ وقد أوحت شناعتها وهولها إلى كثير من للكتاب الروس كتباً وفصولاً مؤثرة مروعة ؛ وللكاتب الروسى الأشهر دستويفسكى الذى قضى ردحاً من الزمن منفياً فى هذه السجون الهائلة كتاب ساحر مؤثر عنها اسمه « دار الموتى » يصف فيه هولها ، وما يقاسيه المسجونون فيها من ضروب العذاب والويل ، وقد نسى الناس اسم سيبيريا ونسوا سجونها مذ قام الحكم البلشفى فى روسيا ، ولكن الحقيقة أن السجون السيبيرية ما زالت جحيم المحكوم عليهم فى العصر الجديد كما كانت أيام الحكم القيصرى

وقد صدر أخيراً بالألمانية (وصدرت له ترجمة انكليزية) عن سيبيريا وسجونها الهائلة عنوانه « القرية المنسية » Der Vergessene Dorf ، بقلم ضابط ألمانى أيام الحرب الكبرى يدعى تيودور كروجر ؛ والكتاب مؤثر مروع معاً ، وفيه يقص مؤلفه كيف أسر فى الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ فى روسيا ، وكيف حاول الفرار فقبض عليه وسجن ؛ ويصف لنا المؤلف روعة هذا السجن الأول ؛ ويكفى فى وصف هوله أنه كان عائشاً فى انظلام الدامس ، وأن الماء القذر كان فى معظم الأوقات يغمره حتى كتفيه ، ثم أخذ الأسير الى سيبيريا مصفداً فى الأغلال الثقيلة ؛ وبعد حين أفرج عنه ، واستطاع أن يكتب الى ألمانيا وأن يستحضر بعض المال ؛ وهنالك ، فى منفاه الثانى تزوج من فتاة منغولية ، وتذوق بعض السعادة ؛ وساعد فى تنظيم مسألة الأسرى الألمان ، واستطاع أن يرتب لهم أعمالاً ، فاحترفوا الخياطة والنجارة والنقش وغيرها ، وأسسوا قرية صغيرة ؛ أما هو فاحترف تجارة الفراء ، وحسنت حاله ، ولكن الثورة البلشفية نشبت فى سنة ١٩١٧ ، فاضطربت الأمور ، ونسى الأسرى الألمان من العالم كله ، وهلك كثير منهم من الجوع والأوصاب وكان حظ المؤلف أتعس حظ ، فقد قتلت زوجه وولده بيد أحد أعدائه ، فى نفس الوقت الذى عقد فيه الصلح بين ألمانيا وروسيا

والكتاب ساحر مؤثر برغم روعة حوادثه ، وفيه يدلل المؤلف على معرفة وثيقة بأسرار النفس الروسية ، وأحوال سيبيريا المجهولة

مجلة المجلات العالمية

شعرت الصحافة الانكليزية أخيراً بحاجتها إلى التوسع فى معالجة المسائل الدولية ، بعد ما وصلت اليه من التشعب والتعقيد ، ولم يعد يكفى أن تعالج بصورة محلية ؛ وقد تصدى لتحقيق هذه المهمة صحفى وكاتب سياسى كبير هو المستر فرنون بارتلت ، الذى لبث زهاء عشرين عاماً مراسلاً سياسياً لكبريات الصحف الانكليزية ، والذى ما زال محرراً للشؤون الخارجية فى جريدة الديلى تلغراف ، فانشأ مجلة سياسية كبرى تصدر كل شهر بعنوان « مجلة المجلات العالمية » World Review of Reviews ، وهى فى الواقع ادماج لمجلتين شهيرتين : الأولى « مجلة المجلات » التى أسسها الصحفى الكبير مستر ستيد فى سنة ١٨٩٠ ، ومجلة « العالم » التى أنشأها مستر بارتلت فى سنة ١٩٣٤ ، وستعنى المجلة الجديدة بمعالجة أهم الشؤون الدولية ، ومسائل عصبة الأمم التى يتفوق مستر بارتلت فى دراستها بنوع خاص ، وستكون مستقلة محايدة فى آرائها وتعليقاتها

وقد صدر العدد الأول من المجلة الجديدة مصدراً بكلمة للمستر انتونى ايدن وزير الخارجية البريطانية يقول فيها : « يسرنى



رواية عمر بن الخطاب

تأليف الأستاذ معروف الأرناءوط

للدكتور منير العجلاني

أنا لا أصدق أن هذه التهاويل الثلاثة : الحب ، الطبيعة ، البطولة ، التى جمعها أستاذنا الأرناءوط فى كتابه الجديد « عمر ابن الخطاب » رواية ! ...

وإذا كان يحرص على أن يسمى « رواية » هذا العالم الذى أبدعه وشحنه بالأخيلة العجيبة والألوان النضرة والأنغام الحلوة فانى أستحلفه « بكريستيا » الذى يَنْحِتُ تمثاله ، و «فرْوة» الذى يقود رجاله ، و « نفتالى » الذى يندب آماله ؛ بل أستحلفه بهذه الغانيـة « بنيامينا » التى تسلب العاقل لبَّهُ ، والشجاع قَلْبَهُ ، وتنسى الوثنىَّ ربَّهُ ؛ بل أستحلفه بهذه الفتاة الصغيرة الخيِّرَة «سافو» — شقيقة البدر وبنت السحر — أن يسميها رواية شعرية لااجتماعية ولاتاريخية ، فانى نسيت الجماعات ونظمها ، والتواريخ وحكمها ، ورحت أنتقل على أجنحة كتابه من حجرة حب ، الى ساحة حرب ، ومن مأتم عبقرى ، الى عرس شعرى ، ومن صلاة الفجر الروحانية ، إلى مناجاة البخور الجثمانية ، وما أذكر أننى أحسست هـذا الحس الذى يكاد يكون مزيجاً من الصوفية واللذة إلا فى « خطبة مسينا » و « ايفجينى فى أوليس» و « بولس وفرجينى » و « أناكارينين » و « البعث » و « أغانى بيليتس » و « بسيشه » وبعض أشعار « أوسكار وبلد » . . . وأشهد أن فى أستاذنا الأرناءوط من هؤلاء جميعاً ، فقد نسج على منوال يونان والغرب فجاء بشىء لم تألفـه العرب لأنه جديد . ولـكنها لم تنكره لأنه جميل ، وصاحبه لا يتهم بالنقل ولا التقليد لأنه صانع مبتكر ، ومتى ذكر الشعر فهو فى دنياه

نعم « عمر بن الخطاب » قبسة من شعوره وقصيدة من شعره ، ولـكنها لا تشبه هذه البرك التى تقاس بالشبر وتنظم على

أن أبعث بكلمة ترحيب لهذا المجهود الجديد الذى يرمى إلى تهيئة الفرصة للشعب البريطانى ليطلع على ما يكتبـه وتراه الشعوب الأخرى فى المسائل الدولية

حماية النسل فى روسيا

كان من نتيجة الأنظمة والقوانين الاباحية التى سادت روسيا البلشفية فى الأعوام الأخيرة ولا سيما فيما يتعلق بالزواج والعلائق الاجتماعية ، أن ذاعت حوادث الاجهاض ذيوعا مزعجا ، وأخذت تهدد كيان الأسرة والأمومة فى روسيا ؛ وقد تبينت حكومة موسكو أخيرا خطر هذه الاباحة على مستقبل الشعب الروسى ، فأصدرت قانوناً جديداً خاصا بحوادث الاجهاض يسرى مفعوله منذ ١٥ يوليو الجارى ؛ وخلاصة نصوصه أنه فيما خلا الأحوال التى تتطلب فيها حالة المرأة الصحية اجراء عملية الاجهاض ، يحظر الاجهاض قطعاً ، ويعاقب الأزواج أو الآباء بعقوبات شديدة من السجن والغرامة إذا عاونوا على ارتكاب الاجهاض فى غير الحالة المصرح بها قانوناً

وينص نفس القانون على أن الأسر التى تضم ستة أولاد فأ كثر تمنح إعانة من الحكومة ؛ وفى حالة الطلاق ، يلزم الوالد بدفع ربع مرتبه أو إيراده للزوجة إذا كان له منها ولد ، فاذا كان له ولدان فرض عليه الثلث ، وإن كان له منها ثلاثة أولاد فأ كثر فرض عليه أن يدفع للزوجة نصف المرتب أو الايراد

وقد رأت روسيا السوفيتية أن تتشبه فى ذلك بالدول التى تعنى بمسألة النسل والا كثار من السكان مثل إيطاليا وألمانيا حيث تتخذ حماية الأمومة والنسل أهمية خاصة

أشكال هندسية بل هو نهر يجرى : يركض ويتباطأ ، يهبط ويصعد ، يستقيم ويلتوى ، ولكنه يذهب بعيداً . . . وفى مائه الرقراق يستحم الطير وتستنقع العذارى ، وترتوى النعناع ، ويرف الحصى ، وبالجملة تحيا الحياة

أيهما أشعر ؟ البركة أم النهر ؟ « عمر بن الخطاب » أم الشعر ؟ ما أدرى ؛ ولعل الرواية — إذا كان عمر بن الخطاب رواية — أشعر من الشعر ! على أنّ عمر بن الخطاب ونحن فى حديثه ، لم يعط الجزأين الأولين من الرواية أكثر من اسمه ... فهو عمر فى الأول كخطفة البرق ، ويهم فى الكتاب الثانى بالظهور . ولا تصغى اليه وتجلس بين يديه فى الكتابين الموعودين ، أما الآن فأنت فى عالم الحب ؛ فلا تقل وقد استنمت إلى أنغامه المدهدهة أين نحن من دنيا ابن الخطاب ؟ وما علاقتنا به ؟ عما قريب تلتفت إلى « سافو » التى لم تكن تعرف من العرب إلا حبيبها ، فتسمعها تحدثك عن رعاة الغنم ، الذين ملكوا رعاة الأمم ، والبدو الذين علموا الحضارة الحضر . . . والعقيدة التى غلبت القوة ، وحينئذ تدرك السرّ الذى نشده الأستاذ الأرناءوط ، فهو يريد أن يقفنا فى هذا الصراع القائم بين العرب والرومان على لونين من الحب : حب السماء وحب الأرض ، وعلى رسالتين : رسالة العاشق ، ورسالة المجاهد ؛ وعلى دولتين : دولة الطبقات ، ودولة المساواة ، وإذا كان فى الأدب الفرنسى كتاب أسماه صاحبه — شاتوبريان — « عبقرية النصرانية » وأراد أن يعرض فيه دينه فى أحسن معرض ، فانه يخيل إلىّ أن الأستاذ الارناءوط سائر فى هذه الطريق. فما « سيد قريش » و « عمر بن الخطاب » إلا فصول فى كتاب سنطلق عليه ذات يوم اسم « عبقرية الاسلام » أو إذا شئت « عبقرية العروبة »

أيها القارئ ! ضع شارة تحت جملة بارعة فى الجزء الأوّل من « عمر بن الخطّاب » « أىّ قدر سعيد ألقاك فى طريقى يا من يهيمن على حياتى ؟ » فانه قدر سعيد حقّاً .. أن تعيش فى عالم « كريستيا » و « بنيامينا » و « سافو » و « فروة » و « نفتالى » ، قدرٌ سعيد أن تعيش تحت سماء « كأنها لفرط الضياء جنة من اللؤلؤ » وأن ترى الى « كريستيا » يلتمس حبيبته فى الحلم ولكنه « لا يجرؤ أن يمس وهو سادر فى وهمه جسدها المترنح مخافة أن تفوته لذة هذا الوهم » وأن تستمع إليه ينشد بين يديها : « لقد رأيتك فى ذات ليلة أمام المرآة تريقين على جسدك العارى عطور النارنج ، ورأيتك تغسلين نخذيك الناعمتين بعطر الورد ، ثم رأيتك تصبين على نهديك عطوراً حملها إليك محبوك من مصر وفينيقية والشام ، فوددت لو أنك تبدلين طيوبك بطيب آخر لم تحفل بمثله أرض فينيقية ذات السماء المصحية ، ولا جنات مصر الضاحكة على ضفاف النيل ... بطيب انبعثت رائحته فى نفسى » . . . ثم اخرج من عالم الحب الى عالم البطولة وانظر الى « فروة بن عمرو » يعلق على الصليب فى سبيل الرسالة ، واستمع الى أغانيه العلوية ! ...

ولكن ما أكثر الصور والألوان الحلوة فى هذا الكتاب ؟ بل أية صورة أستطيع أن أقول إنها أقل جمالاً من غيرها فأزهد فى نقلها ؟ !

* * *

مطالع الكتاب كله وقل معى

بورك فيك يا أستاذنا الأرناءوط ! بورك فيك ثلاثاً باسم الحب وباسم الشعر وباسم البطولة ... وبورك فيك باسمنا نحن الذين وهبت لنا ساعات لذيذة ودنياوات حلوة

أى مؤلف « عمر بن الخطاب » !

سوف ألقاك فأراك غير ما كنت أراك لأنك ستسير دائماً فى موكب من الأبطال الذين بعثت فيهم الحياة . وسنشعر جميعاً أن روحك ليست غريبة عن روح أبطالك ، فلولا أن سكبت فيهم من قلبك ومن فكرك لما كان كتابك خالداً

إن حياة كتابك من كتاب حياتك

حياتك الشاعرة !

منير العجلانى

رئيس تحرير القبس

وراء البـــحار

تأليف محمد أمين حسونه

بقلم محمود عزت موسى

أتيح لى منذ أيام أن أقرأ الـكتاب الذى ألفه وأصدره أخيراً صديقى الأستاذ محمد أمين حسونه وأسماه « وراء البحار » ؛ وفى هذا الـكتاب رحلة المؤلف إلى اليونان وتركيا ورومانيا والنمسا والمجر ، وقد عنى بطبعه عناية فائقة فجاء مثالا بديعاً للذوق الرقيق . وليست هذه هى المرة الأولى التى أتيح لى فيها أن أقرأ للأستاذ حسونه ، فأنا أقرأ له منذ صدر حياتى الأدبية ، وقد التقت أقلامنا على صفحات السياسة الأسبوعية فى عام ١٩٢٩ وفى ذلك الحين أيضاً التقت صداقتنا ؛ ولقد قرأت له كتابه الأول « أشبال الثورة » ، وهى الرواية التى استهل بها أدبه القصصى ، ثم قرأت له « الورد الأبيض » ، وهى المجموعة القصصية التى جملته فى طليعة أدباء الشباب ، ولعلنى استطعت من خلال تلك القراءات كلها أن أتعرف إلى أسلوبه وأدبه ، ومن أجل هذا كنت أود أن أنصف الأســتاذ حسونه أكثر مما أنصف نفسه هو فأقول بأن كتابه « وراء البحار » ليس فى الواقع إلا قصة طويلة لحياة شاعر فى خلال رحلة فنية إلى بلاد تاقت نفسه اليها .. واستقرت عواطفه فى أجمل بقاعها ، فراح يصفها لا بلغــة المسافر ، ولـكن بلغة الشاعر ، فلم يذهب فيما ذهب اليه الذين سبقوه فى وصف رحلاتهم ، ولـكنه انتحى لنفسه منحى غير الذى ألفه الناس فيما قرأوا .. فلم يحاول أن يكتب عما شغل غيره من كتاب الرحلات فى الأوصاف التى يمكن للانسان أن يجـدها بسهولة فى كتب السياحات ، ولـكنه ذهب إلى تلك البلاد حاملاً بين جنبيه تلك النفس الطامحة المضطرمة شـباباً ونشاطاً ، فتبدو فى بعض الصفحات مشبوبة حارة ملتهبــة تفيض خيالاً وعذوبة ، والتى تنزوها الآلام والأحزان فتبـدو فى انقباضة القلق الحائر . وإنه ليحلو لى أن أصف نفسية الـكتاب ، ولا أتناول فصوله فصلاً فصلاً كتناول الذى يمسك مبضعه ليقيم نفسه جراحاً — أوجزاراً — على عمل أدبى ، يحلو لى أن أصف نفسية الـكتاب لأننى أعتقد بأنى قد ألفيت فيه وحـدة فنية قائمة بذاتها ، ترتـكز على شخصية واحدة ، هى شخصية المؤلف ؛ وهذه الوحدة الفنية تجعلنى أرى أن المؤلف إنما عمد إلى رحلته بدافع الاستمتاع الذهنى والقلبى فى وقت واحد ، فوفق . ولم تذهب هذه الشخصية عنه فى أية لحظة ، بل هو يصفها بدافع الاعجاب ، ولـكن بشخصية ، أو بمعنى آخر بقومية ، ومن هنا ترتقى مكانة الـكتاب عندى ، لأنه يقول فى معرض حديثه عن الأكروبول . . . « ولـكن أين ربوات الأكروبول من ساحل طيبة الخالد على مر الدهور ، أو من مهابة الأهرام ومعابد الـكرنك وقصور فيـلى ؟ تلك الـكاتدرائيات الفرعونية المظيمة التى شيدتها ونقلت جلاميدها الصخرية الهائلة الأيدى السحرية العجيبة . . . . » أو عند ما يذكر « أذكر أنى قابلت فى أحد المطاعم (فى أثينا) جنـــدياً فى الجيش كاد يبكى وهو يحدثنى بالعربية فى السعادة التى تنعم فى اعطافها يوم أن كان يعمل « جرسونا » بمقاهى القاهرة الـكبرى . . . . » « ويستطرد فى القول » . . . وأحسب أنه نتيجة عطف أولته مصر لأبناء هــذه البلاد منذ انبثق فجر التاريخ . فقديماً لقنهم المصريون أسرار الحـكمة وأصول التشريع وزودوهم بأسلحة من العلم واستقامة الفهم ، فذاتاؤس وكـكرلس وفيثاغورس شهب ثاقبة فى سماء الثقافة الأغريقية ، لـكنهم لم يزيدوا على أن يكونوا مصريين .. » وكما يبدو فى حديثه عن الاسلام وسلاطين آل عثمان فى خلال وصفه لاستامبول ، وهذه الظاهرة الفريدة فى الـكتاب تجعلنى أسجلها مغتبطاً

قد كنت أوثر أن يحدثنا — فوق ذلك — الأستاذ حسونه عن تلك البقاع التى زارها أحاديث تتناول صميم الحياة هنالك ، عن وسائل رقيهم ، وصناعاتهم ، ونظم الجمعيات العامة فيها ، والروح الفردية فى تلك الأمم ، ونواحى الضعف فى جماعاتهم ، وأسبابها ، والظواهر التى يلمحها فى أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وان يتناول بالبحث الانقلاب الـكمالى من جذوره فى زيارته لتركيا ليصف ويقرر الحقائق التى لا يمكن للقارئ أن يجـدها فى الصحف لاعتبارات شتى ، وأحسب أنه قد لمح الى ذلك تلميحاً خفيفاً فهل فعـل ذلك عن عمد ؟ أحسب ذلك . ولـكننى أرجو أن يوفق الى ذلك فى كتابه المقبل ، فى صراحة تامة ؛ فبلادنا فى عصر نهضة ، ولـكن حطب هذه النهضة ، وكلما زدناها ناراً ازدادت اشتمالاً ونوراً وارتفاعاً ، وان يكون ذلك إلا إذا أفرغنا فى سبيلها الجهد كل الجهد وعنينا بتوضيح كل ما يفيد هذه النهضة ويوطد دعاماتها ؟

محمود عزت موسى

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٦٠ — ٢٧ يوليه سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 160
Lundi - 27 - 7 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ـ ط
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٦٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ — ٢٧ يوليه سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

الطَّماطم السياسى ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

كان (م) باشا رحمه الله داهيةً من دهاة السياسة المصرية . يلتوى مرة فى يدها التواءَ الحبل ، ويستوى فى يدها مرة استواء السيف ، ولا يُرى أبداً إلا منكمِشاً مُتَحرِّزاً كأن له عدواً لا يدرى أين هو ولا متى يقتحم عليه ، ولكنه كغيره من الرؤساء الذين كانوا آلاتٍ للكذب بين طالب الحق وغاصب الحق — يعرف أن عدوه كامنٌ فى أعماله . وكان ذكياً أريباً ، غير أن ملابَسَتَه للسياسة الدائرة على محورها — جعلت نصف ذكائه من الذكاء ونصفه من المكر . فكان فى مراوغته كأن له ثلاثة عقول : أحدهما مصرى والآخر انجليزى والثالث خارج من الحالين

وبهذا تقدم وعاش أثيراً عند الرؤساء من الانجليز ، واستمرت جاريه مطَّردةً لديهم حتى بلغوا به الى الوزارة إذ كان حسنَ الفهم عنهم سريعَ الاستجابة اليهم ؛ يفهم معنى ألفاظهم ، ومعنى النية التى تكون وراء ألفاظهم ، ومعنى آخر يتبرع

هو به لألفاظهم ... فكان هو وأمثاله فى رأى تلك السياسة القديمة رجالاً كالأفكار ، يوضع أحدهم فى مكانه من الحكم كما توضع صيغة الشك لافساد اليقين ، أو صيغة الوهم لتوليد الخيال ، أو صيغة الهوى لايجاد الفتنة

* * *

وكان صديق (فلان) رحمه الله صاحب سره (السكرتير) وقد وثق به الباشا حتى إنه كان يُعَالِنُه بما فى نفسه ، ويبثُّه همومَه وأحزانَه ، ويرى فيه دنيا حرَّة يخرج اليها كلما ضاقت به دنيا وظيفته ، ويستعير منه اليقين أحياناً بأنه لا يزال مصرياً لم يتمَّ بعدُ تحويله فى الكرسى . . . .

فحدثنى الصديق بعد موت هذا الباشا قال : إنه دعاه يوماً ليُفَاتِحَه الرأىَ فى أمر من أموره ، ثم قال له : إن الرئيس الانجليزى غير مطمئن اليك لأن حقيقةً من الحقائق الصريحة ظاهرة على وجهك فأنت تنظر اليه وكأنك تقول له بعينيك إنك مصرى مستقل

قال صاحب السر : لئن كان ذلك مايغضبه إن الخطب لهين ، فلست أنظر اليه بعد اليوم إلا من وراء نظارة سوداء . . . .

فضحك الباشا وقال : يا بنى هذا الانجليزى عندنا كالشيطان « إنه يراكم هو وقَبيله من حيث لا ترونهم » ، ووالله يا بنى إنى لأشد أنفَةً منك وإن صدرى لشَجِىٌ مما أنا فيه من هذا الكرب ، ولكننا نحن الشرقيين قد ضعنا منــذ فقدنا الشخصية الاجتماعية

أتراك تفهم شيئاً لو قلت لك : رجلٌ ، أسدٌ ، جبلٌ ، مدينة ، أسطول ؟ إن تركيبنا الاجتماعى شىء كهذا الكلام فيه من ضخامة اللفظ بقدر ما فيه من انحلال المعنى واضمحلاله . ولكل كلمة إذا أُفردتْ معنى صحيح يقوم بها وتقوم به غير أنه يتحول فى الجملة الى معنى كلا معنى

أصبح الشرق يعيش فى أمته على قاعدة أنه منفرد لا صلة بينه وبين الأطراف لا فى الزمان ولا فى المكان . ونسى معنى الحديث الشريف : « إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » فماذا كان يريد أعظم المصلحين الاجتماعيين من قوله « كأنك تعيش أبداً » إلا أن يقرر لأمته أن الفرد ينبوع الأجيال المقبلة كلها فليعمل لها ولنفسه كأنها موقوفة عليه وكأنه مستمر فيها

هذه حكمة إسلامية دقيقة عندنا نحن لفظُها ولسنا نعرف معناها ، وعند الانجليز معناها ولا يعرفون لفظها . أهم المسلمون أم نحن ؟

وعلى قاعدة الانفراد انفرد كل شىء ، فآثر الشرقى حياته على وطنه ، وقدَّم لذته على واجبه ، وتعامل بالمال فى مواضع المعاملة بالأخلاق ؛ وكان طبيعياً مع هذا أن يختصر الدين اختصاراً يجعله مقداراً بين مقدارين فلا هو دين ولا هو غير دين ، وبذلك يناسب فرديته ويقعد تحت حكمه وهو خارج عليه . فترى الرجل من هذه الملايين يؤمن بالله وهو يحلف به كذباً على درهم ، ويصلى ويفجر فى يوم واحد ، ويتعبَّد فى نفسه ويخون سواه فى وقت معاً

ومتى كانت الحالة النفسية للأمة هى هذه الفرديةَ ومصالحها ودواعيها كان الكذب أظهرَ خلال هذه الأمة ، إذ هو انفرادُ الكاذب بحظه ومصلحته وداعيته ؛ ولا يكذب عليك إلا من يرجو أن تكون مغفلاً أو من قدَّر فى نفسه أن المعاملة العامة فى الأمة هى على قاعدة المغفلين . . . ويكذبون فى هذا أيضاً فيسمونه حذقاً وبراعة (وشطارة)

وإذا عمَّ الكذب فشا منه الهزل ؛ فكل كاذب هازل ، وهل يجدُ الكاذب وهو يكذب إلا إذا كان مجنوناً ؟ ومن الهزل ضربٌ هو المباسطة بالكذب ، ومنه ضربٌ من كذب الحقائق ، ومنه من كذب الخيال ، وكيفما دارت الحال لا تجده إلا كذباً

ومتى صار الكذبُ أصلاً يُعْمَلُ عليه ، تقرَّر عند الناس أن الكلام إنما يقالُ ليقالَ فقط أفلست ترى الرجلين إذا أخبر أحدهما صاحبَه بالخبر فيه شىء من الغرابة أو البعد ، لا يكلمه الآخر أول ما يتكلم إلا أن يسأله : صحيح ؟ صدق ؟

ولا أضر على الأمة من هذه العقيدة — عقيدة أن الكلام يقال ليقال فقط — فانها هى طابع الهزل على أخلاق الأمة وعلى كل أحوالها وعلى حكومتها أيضاً

ومن الهزل والكذب ترانا مبالغين فى كل شىء حتى ليكون لنا الواحد كالآحاد فى غيرنا فنجعله مائة بصِفرين نجىء بأحدهما من اعتيادنا الكذبَ على الحقيقة ، ونجىء بالآخر من حقيقة

إفلاسنا . هذه مبالغة خطرة وأخطر ما فيها أننا نريد بها المبالغة فى الدلالة على الأشياء ، فتنقلب مبالغةً فى الدلالة علينا نحن وعلى كذب طباعنا وعلى فوضى العقل فينا . نعم وحتى تَثبتُ أننا لا عزم لنا من كونها مبالغة لا تدقيق فى معناها ، وأن لا صبر لنا من أنها لاثبات لحقيقتها المهزومة ، وأن لا شدة لنا فى طلب الحق لأننا بها من أهل الغفلة فى وصف الحق ، وأننا لا نتمثل المواقب إذ نرسل الكلامَ ارسالاً ولا نخشى ما يكون من عاقبته . وأيسر ما يفهم من هذه المبالغات التى أصبحت طريقة من طرق الشعب فى التعبير — أن هذا الشعب لا يصلح فى شىء إلا بالحكومة ، فهو نفسه كالمبالغة ، والحكومة له كالتصحيح . وهذه هى العلة فى أن الشعب الكذوب يلجأ إلى حكومته فى كل كبيرة وصغيرة فى العمل ، كما أنها هى العلة فى أن حكومته تكذب عليه بكل صغيرة وكبيرة فى السياسة

ومن أثر الكذب الشعبى والمبالغة الشعبية ما نراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناس عن أعماله فيُدبرها على ذلك وإن قات منفعتها ، وإن فسدت حقيقتها ، وإن جلبت عليه من الضرر فى ماله ونفسه ما هى جالبة ؛ فقاعدتهم هى هذه : ليس الشأن فى الحياة للعمل فى نفسه ولكن فيما يقال عنه ، فان لم يُقَل شىء فلا نعمل شيئاً . . .

هذه يا بنى أمة لا يكون حكامها إلا مبالغات أيضاً

***

قال صاحب السر : وارتفع من الطريق صوت بائع ينادى على سِلعته : أحسن من التفاح يا طماطم . . .

فضحك الباشا وقال : هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسى العَفِن ، إنه ليس تفاحاً وحسبُ ، بل هو أحسن من التفاح

إن الأمة لن تكون فى موضعها إلا إذا وضعت الكلمةَ فى موضعها ، وإن أول ما يدل على صحة الأخلاق فى أمة كلمة الصدق فيها ، والأمة التى لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذباً وهزلاً ومبالغة ؟

(سيدى بشر باسكندرية) مصطفى صادق الرافعى

(إلى الصابرة) : أعتذر اليك من عدم الرد على كتابك ، فقد أضعت بين أوراقى فضاع عنوانك فيه (الرافعى)

عفــــوا أيها النقاد !

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

أطلب اليكم العفو يا معشر الناقدين ، فانى لا أقصد بهذه الكلمة إلا الدعابة والفاكهة — فقد رأيت الصيف قد اشتد ، واحتدمت وقدته ، وأردت أن أتقرب اليكم بما يزيل لسمته أو يخفف منها — ولا أدرى ما الذى أغرانى بهذه الداعبة الخطرة ، فوالله لقد كنت أرى أن مداعبة الفهود والنمور أهون أمراً وأسلم عاقبة من مداعبة نقاد الأدب . ولقد كانت دونى لو أردت مندوحة عن ذلك التعرض ، فلو شئت لداعبت الأدباء كافة ، ولم يكن على بأس منهم ، فانى لا أخشى من الأدباء بطشاً ولا صولا ، لأنهم يسيلون رقة وليونة ، وقد طبع الله فى قلوبهم وداعة وسلاماً ، فنهم من يأخذه الجمال فيسلم له قياده حتى ليصير كالحمل يصرفه أضعف الخلق كيف يشاء ، وإن منهم من قد استغرقه الفكر وغلب عليه فلا تراه إلا حالماً لا يكلف أحداً مؤونة فى تصريفه ولا مشقة فى معاملته — فهؤلاء لا يأتى خوف من قِبَلهم ولا يتكلف المرء حيطة فى مداعبتهم — ولكن الناقد — والله يكلؤنا بحمايته ، فيه صلابة ، وله شوكة ؛ فهو دائما معقود الجبين على الصرامة ، محملق العينين على اليقظة ، كثير التجهم واللوم ، فاذا أخذته الرقة أحياناً رأيته يربت على كتف الناس متنازلا من عليائه ، وكل حركة من حركاته تنم عن دخيلة نفسه وكمين عقيدته ، إذ كأنما يقول عند ذلك : « إنا نعطف على هؤلاء المساكين تشجيعاً لهم حتى لا تنكسر قلوبهم »

لست أدرى ما الذى أغرانى بهذه المداعبة إلا أن يكون هذا الصديق العجيب التأثير الأستاذ أحمد حسن الزيات ، فانه منذ كتب فى النقد وأنا أمانع نفسى وأغالبها لكى أمتنع عن الخوض فى الميدان الذى أثار غباره — ثم هأنذا تغلبنى نفسى على الأمر ، فأكتب للنقاد متعرضاً لما يتعرض له الداخل إلى حظائر السباع على أنى مع ذلك قد قدمت فى أول قولى أنى إنما أداعب ولا أقصد إلا الفاكهة — فلعل تقدمى على هذا النحو يلوى عنى الشوكة التى أخشاها ، ويكف عنى الغضب والنقمة

لقد حمل الأستاذ أحمد الأمين يحن إلى عصر مضى من عصور

الأدب فى مصر ، وجعل يميز نقاد العصر الحاضر بالتقصير والميل حتى لقد استعبرت من فرط الأسى على ما فات عصرنا الحاضر من جليل النفع . ولكنى ما لبثت أن أفقت من أثر قوله وجعلت أرجع بالذهن إلى العصور التى شهدتها فلم أجد ذلك العصر الذى يؤبنه ويذكر محاسنه ؛ فلعله يشير إلى عصر لم أشهده ولم أعرف شيئاً عنه ، وذلك أنى لم أعد بعد حلقة الخمسين من السن ولا علم لى بما كان قبل ذلك ، وإنى لم أدرك ما كان حولى إلا نحوا من ثلاثين عاما ، وليس فى هذا ما يكفى لأن أرد على الأستاذ حكمه ، فرجائى اليه أن يحدد ذلك الماضى أين وقع ؟ وهل كان منذ ثلاثين عاما أم كان منذ أربعين أو خمسين ، فهو أعلم بما يقول بما شهد فى حياته المباركة إن شاء الله

على أنى إذا كددت الذاكرة فى السنوات الثلاثين التى أدركت فيها ما كان حولى لم أذكر إلا محاولة ضئيلة فى النقد كان أكثرها من شبان أكبر همهم أن تذكر أسماؤهم إلى جانب الأسماء النابهة فى عصرهم — ولقد كانت وسيلتهم دائماً أن ينالوا من مقام أديب نابه لهجت الألسنة بذكره ، لا يقصدون النقد والحق ، ولكن يقصدون أن تتحول الأنظار إلى شخوصهم

ولست أذكر فيما أذكر من تلك السنوات أن تعرض نقد تعرضاً يذكر إلا لأمثال شوقى وحافظ — كأنما النقد قد صب صباً فى قالب واحد ، فهو لا يتسع لغير الشعر وقصائده ودواوينه ، وأما ما عدا ذلك فلا أذكر أن قامت معركة على كتاب من الكتب التى نقلها الأستاذ الكبير فتحى زغلول ، ولا على كتاب مثل (التربية الاستقلالية) ، بل لا أذكر نقدا يذكر قام به النقاد ترجمة حافظ لجزء من البؤساء ، أو قصة (زينب) الهيكلية ، أو ما ألفه المنفلوطى ، أو الأستاذ فريد وجدى

وإنى كلما أدرت الفكر فى ذلك العصر الماضى لم أجد إلا محاولات بسيطة تشبه محاولات الطفولة فى النقد — وقد صدق الأستاذ هيكل فى تصوير ذلك إذ قال إن النقد أول ما يعانيه الأديب الناشىء من المحاولات

فان كان لنا من تعرض الى ذلك الأمر فانا نحمد الله إذ انقضى ذلك العصر بما كان فيه

فهل فى شرعة الانصاف أن يتوفر مؤلف على كتاب لا يزال دائباً على البحث من أجله ، ويقضى النهار والليل فى التحقيق والتثبت ليخرج به على الناس فيجلو لهم أموراً كانت من قبل مظلمة ، ويبين لهم مواطن كانت مبهمة غامضة ، فاذا به يرى ناشئاً من الشباب يريد أن يحول الأنظار اليه فيتناول ذلك الكتاب المسكين بالنقد ولا يزال به حكا وتجريحاً بيد ثقيلة غير صناع حتى يدميه ويلهبه ؟ إن هذا اذن لشبيه باليتيم المسكين الذى يذهب الى الحلاق ليسوى له شعره ويزيل عنه الشعث والأغبار فاذا بذلك الحلاق يدفعه الى أحدث صبيانه وأقلهم مهارة ليتعلم الصناعة فى رأسه . لا . لا . فاللهم حوالينا ولا علينا . فما كان لنا أن نلوم شباب اليوم كما يحب لنا الدكتور هيكل أن نفعل ، بل إن علينا أن نحمد فيهم ذلك العقل الراجح وهذا الذوق الجميل الذى حدا بهم الى تجنب النقد فى هذه الأيام ؛ وإنها لمفخرة لعصرنا أن موجة النقد قد ركدت فيه ما دام ذلك النقد لا يقوى إلا إذا أخذ به الشباب الناشىء ليجعله وسيلة ليظهر للناس مقدرته على الكلام والكتابة وتدوير المعانى وتلفيفها

على أنى أرجو أن يغفر لى النقاد إذا قلت لهم إن هذا العصر لا يشكرهم على يد أطول من انصرافهم عن النقد . فان الأدباء قد وجدوا فى صمتهم متنفساً . وإنها لفرصة لمن شاء أن يؤلف فليغتنمها المؤلفون فى غفلة من الدهر . وأى شىء أعدل وأسمح من أن يؤلف المؤلف إذا شاء فاذا وجد من يقرأ له كان سعيداً مجدوداً . وللناس عقولهم ، فاذا أعجبهم ما قرأوا له أقبلوا على مؤلفاته وألقوا اليه بأنواع التحية وأشاروا اليه بالبنان كلما رأوه كما كان يفعل الناس فى الأعصر الخوالى . وأما إذا كره الناس ما قرأوا للمؤلف انصرفوا عنه ، وحسبه بعد ذلك أن يخسر ما بذل من ثمن الحبر والورق والطبع ..

إن القوامة مكروهة أينما كانت ؛ فاذا اتخذ النقد شكل القوامة كان حرياً بأن يكون مكروهاً . هذا إذا كان القيم ممن يحسنون السيطرة ويعدلون فى الهيمنة — فما بالنا به إذا كان يسرف ويدل ؟ وإلا فوايم الله إن من النقاد من لو حكمت فى أمره لأمرت جميع بائعى الأقلام من كل الأنواع بأن يمتنعوا عن أن يبيعوه قلماً واحداً . وإنى لأذكر أحد هؤلاء وهو ممن تزعموا فى العروبة وقد نقد كتاباً مترجماً عن الانجليزية فى تاريخ مصر . ولم يشأ أن يجعل نقده لذلك الكتاب فى مقالة مفردة فقرن بينه وبين كتاب فى فن (الطهى الحديث) وأطايبه . ولقد رأيت

ذلك الكاتب الفضال بعد ذلك يتنقل فى النقد ما بين العلوم والفنون فضرب عافاه الله فى التاريخ والتصوف والحديث واللغة والدين والفلسفة . ولا أعلم بعد إذا كان قد بلغ حظائر الطب والموسيقى والفلك أم هو سائر فى طريقه إليها . ولم يكن هذا الناقد فذاً فى هذا النهم العلمى ! بل لقد رأيت علماً من أعلام النقد فى مصر يستعرض سلسلة من المؤلفات ويبدى رأيه فى كل منها ، ويهز رأسه عند الانتهاء من نقد كل منها ، ويلمس لحيته لمس الفلاسفة الأقدمين ! وكأنى به قد نسى أن العصر قد تقادم على عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وأن الناس قد أخذوا لحاهم أخذاً شديداً فلم يدعوا فيها شعرة واحدة . ولقد رأيت كاتباً عبقرياً أخذ على نفسه أن ينقد الأدباء . وواتاه القلم على عادته وأصاخ له الناس على عادتهم ، وهو إذا تكلم أو كتب فالناس كلهم أسماع

ثم استعرض بين حين وحين كتاباً فكان كل ما استعرضه أو جله دواوين للشعر ، وهذا حسن ، فلعله قد خصص نفسه للغة وما يتعلق بها ، وقرأت نقده كما قرأه الناس فكان لبقاً كعادته حلو الحديث مما وهبه الله فى أسلوبه ، ولكنى لم أستطع أن أفهم ما قال . فلقد كان قوله إما مدحاً يسر الخاطر ويشرح الصدر — أقصد صدر المؤلف الممدوح ، وإما ذماً يكسر القلب ويدمى الفؤاد — وإنى لم أكن أحد هؤلاء الشعراء فلهذا لم يتلق ذمه بألم ولا مدحه بفرح ، وعلى ذلك خرجت من كل ما كتب ، ولم أفقه شيئاً ، ولم أعرف ماذا أراد أن يقول

إن أغلب ظنى أن الغباوة هى التى قد حالت بينى وبين فهم ما قال ذلك الأديب الكبير ، ولكنى لم أسأل أحداً من أصدقائى عن رأيه إلا وجدته على مثل حظى من الغباوة وقلة الادراك

ولهذا السبب كان ذلك الأديب كثير التردد والتقلب فى رأيه ، فبينا هو اليوم يصفق إعجاباً بشاعر أو يصيح تقديراً لأديب . إذا به بعد قليل وقد لح من ذلك الشاعر أو من ذلك الأديب نكراناً لفضله أو جحوداً لجميله فينقلب مدحه إلى ذم يكاد الدم يسيل من وقعه

ولقد حسبت مرة أن ذلك الأديب الكبير قد خصص نفسه للنقد حقاً ، فأرسلت إليه بمؤلف حقير لى ثم تواريت خجلاً وجعلت أنتظر نقده وأقرأ جرائده كل يوم مدة طويلة حتى مللت ولم أظفر بشىء . ثم نسيت ذلك الأمر وعدت بعد سنوات اليه فأرسلت إليه بمؤلف آخر لا يقل فى حقارته عن المؤلف الأول ، وقلت فى نفسى إنه فى هذه المرة لا بد واثب على كتابى ، وممزقه كل ممزق — ولبثت أنتظر طعنته وأنا متوار ، وطال بى الانتظار على غير جدوى ، فعرفت أن من الكتب ما ينحط عن مقدار النقد ، ولو قد تكرم ذلك الناقد فقال لى كما قال مرة لأحد الشعراء : « إنك لا تعرف شيئاً » لما تألمت مثل تألمى من سكوته عنى ، لأنى كنت عند ذلك أفاخر الناس بأن ذلك الأديب قد قرأ كتابى ، وحكم على بأنى لا أعرف شيئاً . ولا عجب فى ذلك ، فقد كان من أجدادى رجل — كما كان من أجداد كثير من القراء مثل جدى — أقول كان من أجدادى رجل إذا امتنع عن دفع المال للحاكم أمر المدير فأحضره وألهب ظهره بمائة سوط — فكان إذا أفاق من غشيته بعد الضرب يضحك ويقول : « الحمد لله إذ ضربنى المدير بنفسه » ثم نظر إلى الحاكم الغاضب وضحك مرة أخرى وقال : « ضربك شرف يا سعادة البك ! »

وبعد فلقد أنسانى آخر الكلام أوله ، ولا بد من أن أعود إلى ما كنت فيه . أقول إنى أخالف الأستاذ أحمد الأمين فى رأيه كل المخالفة ، ولا أذم النقاد فى عصرنا الحاضر ، بل إنى أشكرهم وأعدها لهم مكرمة عظيمة أن فتروا فى النقد وخشموا عنه . ولعل فيما قدمت من قولى ما يقنع الأستاذ ومن يرى رأيه بأن واجبنا أن نحمد الله على قلة النقد وتعفف الناقدين عنه ، واقتصارهم على الاعلان والمجاملة أحياناً ، أو التجهم أو التنكر أحياناً أخرى بحسب مكان المؤلف منهم وهل هو صديق أم هو بغيض ؟ فلقد أدرك الناس منهم ذلك واطمأنوا إليه . فاذا أراد الأستاذ بعد ذلك أن يستمر فى المحاجة والمناقشة فانى مضطر الى أن ألجئه الى ركن لا يستطيع فيه المقاومة ولا يجد لنفسه مناصاً من الاقرار لى بالغلبة — وذلك أنه قال إن التأليف قد زاد فى عصرنا — أليس كذلك ؟ ثم قال إن النقد قد ركد كذلك فى عصرنا — أليس كذلك ؟

أفلا يرى الأستاذ اللوذعى أن هاتين الحقيقتين منذ تلازمتا كانت إحداهما نتيجة للأخرى ؟

فاذا أراد الأستاذ أن يستمر التأليف على نهضته كان عليه أن يترك النقد نائماً ولا يوقظه

أيحاول الأستاذ الأمين بعد هذا مجادلة ؟

محمد فريد أبو حديد

ذات الثوب الأرجواني

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

(تنبيه : الكلام كله تخيل ولا أصل أو حقيقة له)

— ٧ —

طلبت من الريف ما لا سبيل إليه في هـذه المدينة العظيمة ذات العمائر الشامخة ، والبنى الرفيعة ، والهواء الحبيس ، والنفوس المروضة على تكلف غير طباعها . وكان بعض قومي قد سبقوني ؛ فأنبأتهم أني لاحق بهم ، وإذا ببرقية تردني منهم يقولون فيها : « هات فتنة معك » فلم أدر ما — أو من — « فتنة » هذه .. أقطة هي يا ترى ؟ أم فتاة ؟ أم كلبة ؟ أم ماذا ؟ ... وكنت أعد حقائبي ، ومكتب البرق بعيد مني ، وحدثتني نفسي أنهم يعرفون أني لا أعرف « فتنة » . فالأرجح أن يكونوا قد أبرقوا إليها لتتصل بي ، أو لأصاحبها إذا كانت حيواناً . وقلت سأسافر على كل حال في الوقت المعين . جاءت « فتنة » أم لم تجيء . وأقبلت على الحقيبة أحشر فيها — فما لي قدرة على الترتيب والتنظيم — ما أقدر أن سأحتاج إليه ، وإذا بالباب يقرع قرعاً مزعجاً لا عهد لي به ، ففزعت ومضيت إليه على عجل مخافة أن يكسره الطارق . ودار في نفسي أن هكذا دق « تيمون الأثيني » باب الآخرة حين انحدر إليها بعد أن وافاه حينه الذي كان ينتظره بصبر فارغ من فرط كرهه للناس ، فان أساطير اليونان تزعم أن الناس يهبطون بعد موتهم إلى وادي الظلال ، وهناك يحشدون في الفجر ويُعدّون وتقيد أسماؤهم ثم يركبونهم زورقاً — غير بخاري بالطبع — إلى وادي القنوط حيث يكون الحساب . ومن غرائب هـذه الأسطورة أن على كل راكب أو محمول في هذا الزورق أن يؤدي أجرة العبور إلى وادي القنوط . . . وقد ضحكت وأنا أذكر هذا إذ أمشي إلى الباب ، وقلت لنفسي والله أن بيتي لكوادي القنوط بفضل « ذات الثوب الأرجواني » وما أخلقني حين أفتح الباب لهذا الزائر المستعجل أن أرحب به بهذه الأبيات القديمة التي نظمتها لمناسبة شبيهة بهذه :

« دارُنا مغرب أنوار الحياة من رآها لم ير الضوء الطليق
ما لمن يهوى إليها من نجاة ما لما يغرب فيها من شروق

***

وهي ، في الأكوان ، دنيا عاقرُ كل زخّار له فيها ركودْ
ضرب السحرَ عليهـا ساحرُ فهي عنوانٌ على عقم الوجود »

ولكن شيئاً — لعله الالهام — صرفني عن هذه التحية غير الطيبة ، فقد كان الزائر فتاة أشهد أنها من أجمل — إذا لم تكن أجمل — من رأيت في حياتي ؛ وكانت رشيقة ممشوقة ، ووجهها وضاح ؛ أما عينها فأعوذ بالله منها ! أعني أن البراقع ما اتخِذت إلا لتقي الناس سحر مثلها

وقالت وهي تنساب كالماء الرقراق : « لست تعرفني بالطبع .. ولكني أنا أعرفك »

قلت : « تفضلي . . أعني أولاً . . وبعد ذلك يتسع الوقت للسؤال والجواب »

قالت : « متى تسافر ؟ »

قلت : « هل تعلمت في انجلترا .. أو لعل أباك انجليزي ؟ »

قالت : « لماذا .. اني سمراء . أو لوني أقرب الى السمرة .. ثم إني لا أعرف الانجليزية . . تعلمت في « الميرده ديبه « فقط »

قلت : « هذا أحسن . . على كل حال إنما عنيت أنك تمضين الى غرضك بلا لف ولا تضييع الوقت .. سأسافر في الفجر »

قالت : « سأبعث إليك إذن بالحقائب الليلة وأجيء أنا قبيل الفجر »

قلت بفرح : « أنت إذن « فتنة » ؟ لقد صدق الذي سماك »

فقالت وهي تنهض عن الكرسي وتمضي إلى المنضدة وتقلب ما عليها : « أليس عندك سجاير ؟ . أم أنت لا تدخن ؟ . »

قلت : « إنك صغيرة جداً . . ولكن خذي »

فأخذت سيجارة وانطلقت تدخن وهي ساهمة وأنا أنظر إليها ولا أقول شيئاً ، فقـد خطر لي أني سأشهد فصولاً كثيرة متعاقبة لهذه الرواية . وإذا بها ترمي السيجارة من النافذة وتقول « إلى الملتقى إذن . . وشكراً لك »

وليس أبغض إليّ من أن يرى الناس ما أصنع أو يشهدوا خروجي ودخولي وسفري وإيابي . ولكني أحسب الدنيا كلها - دنيا شارعنا على الأقل — قد علمت أني مسافر بالسيارة ،

وأن مى فتاة جميلة ستربى النجوم فى الظهر الأحمر . . واطلعت — أعنى الدنيا الخامة — على ما فى حقيبتى الصغيرة وحقائبها الكثيرة المنتفخة فقد كانت لاتفتأ تأمرنى بأن أغير كل مارتبت . هذه الحقيبة لا يجوز أن تكون تحت غيرها لأنها من جلد طرى فهى تخشى عليها التلف . . وهذه الكبيرة فيها ما قد تحتاج إليه فى الطريق فيجب أن تكون فوق . فأقول ولكن الطربة يجب أن تكون فوق فماذا أصنع ؟ ؟ فتقول هات الطربة معنا فى السيارة فأطيع وأحل ما عقدت ، وأعقد ما حللت . ثم يتضح أن فيما ربط خلف السيارة أشياء لا بد منها كل بضع دقائق فى الطريق ، فأسأل مثل ماذا ؟ فتقول مثل زجاجة الكولونيا الصغيرة وملحقاتها من أدوات الزينة المعروفة التى لا غنى عنها — حتى الفتيات الصغيرات مثل « فتنة » صرن لا يستغنين عن ذلك ، فأعود إلى الحل والعقد وأفتح لها الحقائب — فى الطريق من فضلك — ولم تكن الشمس قد طلعت ، ولكنه كان هناك خلق كثير احتشد لمكيدتى ! ! وقد عنيت بأن أحصى هذا الخلق وإليك البيان :

(١) سائق مركبة « كارو » — سكران على الأرجح

(٢) ستة من عمال الطرق عائدون يمشون صفين ومعهم المكانس يحملونها كما يحمل الجنود البنادق . وقد وقفوا ينظرون إلينا مسرورين

(٣) قطتان : واحدة على رصيفنا والأخرى على رصيف « ذات الثوب الأرجوانى »

(٤) أربعة غلمان كانوا سائرين فلما رأونا راقهم منظرنا فوقفوا ينظرون ويتبادلون الملاحظات ولا أدرى من أين جاءوا ولا الى أين كانوا ذاهبين فى هذه البكرة

(٥) رجل من عمال شركة النور كف حين رآنا عن اطفاء المصابيح وجاء ووقف مع الغلمان

ولم أحسب المارة الذين أبى لهم أدبهم — أو ذهولهم — أن يقفوا ويتفرجوا . وقد كان هؤلاء جميعاً يضحكون منا حتى القطتان

ولا أمل القارئ بوصف هذه الرحلة وما جرى فيها فليس هذا آخر ، فقد كان كل كيلو فيها لا يخلو من حادثة ، وصار لى فى هذه السكة الزراعية من الذكريات بعدد ما على جانبيها من الأشجار . ولما دونا من البلدة قالت : « هل هذه هى . . . »

قلت : « قربنا »

قالت : « أراهن أنك لن تقبل بعد اليوم أن تحمل فى سيارتك فتاة أخرى » ثم التفتت إلى — أعنى أنها انحنت قليلاً إلى الأمام وواجهتنى وهى تبتسم وقالت : « قد تكره أن تسمع منى هذا ولكنى شاكرة ... شاكرة جداً . . وقد أتعبتك . . لا تقل شيئاً فانى واثقة أنى أتعبتك . ولكنك كنت حليما جداً »

فقلت : « كلام فارغ . . قولى شيئاً آخر »

قالت : « لا أدرى متى يتاح لى أن أراك مرة أخرى ولهذا عجلت بشكرك فى الطريق »

فضبطت نفسى بجهد ، ومع ذلك كانت « إيه ؟ » التى ندت عنى كالصيحة فقالت : « نعم فانى مرتبطة بأهلى فاذا رحلوا — كما ينوون أن يفعلوا — إلى الاسكندرية رحلت معهم وإلا بقينا .. وأنا أرجو أن يبقوا فانى أريد أن أتملى بـ ... وبـ ... »

فصحت بها : « ماذا تعنين ؟ ؟ أعنى ما الفائدة من حملك كل هذه المسافة من القاهرة إلى هذه القرية السحيقة إذا كنت ستختفين غداً ؟ ؟ »

قالت : « وماذا أصنع ؟ . وعلى كل حال كيف يعنيك هذا ؟ . ماذا يهمك ؟ »

قلت مغالطاً : « لا شىء بالطبع ! لك الحق »

قالت : « لقد كنت أهم بأن أقول لك اكتب إلىّ إذا شئت ولكنى عدلت الآن .. من فضلك انتظر لحظة .. دقيقة واحدة فان جوربى اتسخ جداً وأريد أن أغيره قبل أن ندخل البلدة »

فوقفت ونزلت من السيارة وذهبت أتمشى فلما عدت — إجابة لندائها — قالت : « الآن أنا نظيفة وجميلة »

فقلت : « أنت دائماً هكذا »

قالت : « صحيح ؟ » وكنت صادقاً فما فقدت ذرة من نضارتها ورونقها بعد مائة وثمانين كيلو مترا

فقالت : « إن خير ما فيك أنك تعنى ما تقول .. فأنا أعرف الآن أنى دائماً جميلة .. وأنا أعرف بغير ممونتك أن ساقى جميلتان لا تكار .. لقد قلت هذا .. ولكن عينى .. و .. و .. وشعرى .. أنا مضطربة .. لم أسمع منك ثناء على عينى وشعرى »

فقلت باختصار : « خير ما رأيت »

فابتسمت وقالت : « ثناء وجيز .. وجيز جداً .. ولكنه يكفى للاطمئنان .. »

فلم يسمعنى إلا أن أقرصها وأنا أصيح بها : « يا ملعونة »

***

وأعود إلى الريف الذى نشدت فى ظله الروح والراحة فأقول إن هذه الزروع التى تمتد إلى النهر والتى كانت تبدو لى فى الظلام سوداء أنعشت روحى وبردت دمائى التى كانت تغلى فى عروق ووهبتنى السكينة والهدوء لأعصابى التى أثارها الغيظ والغضب، والروح لقلبى الذى أجهده حب عقيم ، ولكنه مع ذلك مضطرم . وقد كلمتنى الأشجار الوارفة ، والمياه الجارية ، والهواء الندى ، والظلال المديدة تحت الألفاف المتشجنة . وقالت لى كلها أنى مخطئ فى ثورتى وغضبى وأنى يجب أن أعرف وأدرك أنى لا شىء فى حياة ذات الثوب الأرجوانى ، ولما كنت لا شىء فان من التطاول والغرور أن أحاول أن أحشر نفسى فى حياتها ، وأن أزحمها بوجودى وأن أهيمن عليها وأسيطر . نعم أنا لا شىء . وليس لى عند ذات الثوب الأرجوانى شىء . . لا اختلاجة واحدة من جفنها . ولا نبضة من عروقها . ولا خفقة مفردة من قلبها ، ولا خاطراً مما يجول فى رأسها أو يدور فى نفسها . . ولا نفساً واحداً من هذه الآلاف والملايين من الأنفاس التى يعلو لها صدرها ويهبط . . حتى هذا الذى هو للهواء ليس لى منه شىء ! !

وقضيت يومين بين أحضان الطبيعة الصريحة فكانت أشجارها ومياهها وأطيارها تعيد على مسمعى هذا المعنى فى كل ليلة وتكرره وإن اختلفت الأنغام وتعددت الأصوات ، وما كانت تعيد أو تسمعنى إلا ما كانت نفسى تحدثنى به ، وقلبى يخبرنى أنه الحق الذى كنت أحاول بالأمل أن أخنقه كل ليلة فى ظلمة الليل على وسادتى كأنه صوت «ديدمونه» إذ يميل على عنقها عطيل بيديه الكبيرتين الغليظتين .

وعدت وقد وطنت نفسى على اليأس ، وخيل إلىّ أنها سكنت واطمأنت ، فجلست فى شرفتى ملفوفا فى سواد الليل ، وفى قلبى برد السكينة ، أنظر إلى النجوم المتلامحة ، ولا أنظر إلى شرفتك وإذا بصوتك يهفو إلىّ منها . . . صوتك إذ تنادين أخاك . . فذهبت سكينة نفسى ومزقتها العاصفة الكامنة فى أعماق البحر ، وأحسست أن روحى كلها تهزها نبرات هذا الصوت العجيب . . . وخفت صوت الطبيعة التى ناجتنى به فى الريف فى ظل الشجر وعلى سيف النهر . . وكنت تميلين على حافة الشرفة وترسلين الصوت مجاجلا فى سكون الليل ، وتهيبين بأخيك أن يرتد إليك قبل أن يذهب فى شأنه ، فوددت لو أنف وأصيح به وأعينك على إسماعه ورده ! ونهضت فعلا ، ولكنى وضعت يدى على فمى ، وكتمت ما كان يوشك أن يرتفع به عقيرتى ثم انحططت على مقعدى وقد شاع فى اليأس «علوا وسفلا» كما يقول النواسى — اليأس من الشقاء — والسخط على نفسى إذ ذهبت إلى الريف وحرمت نفسى مرآك يومين كاملين بلا جدوى .

كلا . . لست ذلك « اللاشىء » الذى زعمتنى الطبيعة الساذجة ! . وليس صحيحاً أن أنفاسك كلها ذاهبة فى الهواء كما تذهب أنفاس الناس . . ولا أن خفقات قلبك ليس لى منها نصيب . . ولقد غافلتك ومضيت إلى غرفة مظلمة واستعنت بمنظار مكبر ، فاذا عينك على شرفتى ، وإذا أنت تتلفتين ثم تحدقين لتتبينى ولتعرفى أباقٍ أنا فى الشرفة حيث كنت أم دخلت ؟ . وكنت قد غالطتك وخادعتك فأسندت شيئاً على الكرسى مكانى لتظلى متوهمة أنى هناك حين تنظرين ، ولأستطيع أن أعرف أين تنظرين حين تفعلين . . فزال الشك فقد طال تحديقك ثم كأنما رابك شىء من جمود هذا القائم على الكرسى فجعلت تتحولين إلى كل موضع فى الشرفة وتنظرين ، ولبثت هكذا زمناً ثم دخلت ، فما كان منى الا أن أسرعت وعدت الى الكرسى فقعدت عليه مطمئنا كما كانت الحبشية التى وضعتها قاعدة ! إذن كانت لى تلك الوردة الحمراء التى نفضت عنها طلها وشممتها . . ولى هذه الاشارة إذ تظهرين على الشرفة فترفعين أناملك الى خصل شعرك المرسل وتردينها عن أذنك . ولى هذه الابتسامات الوضيئة حين يسرك من جليسك أو جليستك ما تسمعين . . . وإذن لم يكن عفواً أن الفتاة التى زارتك عصر يوم كانت لا تنفك تدير وجهها وتنظر الى ناحيتى كأنما تريد أن ترانى . ولقد عجبت يومئذ لكثرة تلفتها ونظرها الىّ وظننت أن هذا من الفضول المألوف ، ثم ترددت وشككت فقد رأيتك تتكلمين ورأيتها تتلفت ، فتخفين أنت وجهك حتى تردهى وجهها إليك . وتكرر هذا مع زائرة أخرى جلست معك فى الشرفة — وكنت أحسبها قديماً أختاً لك متزوجة لشبه رأيتها فيها منك — وكان ظهرك إلىّ ووجهها هى اليك وإلىّ ، وكان الكلام يدور بينكما ، ولكن عين الزائرة لم تكن الا علىّ أنا ، وأنا

أتشاغل عنكما ولكنى أراكما . وقديماً قلت أمى عنى إن لى عيناً فى قفى . . وإذن ليس عفواً أن أهلك جميعاً معنيون بى وأنهم لا يزالون يراءوننى وينظرون إلى بل يراقبوننى — لولا أنى أكره هذه اللفظة — حتى ليبدو لى أحياناً أنهم يصطفون فى الشرفة ويبعثون إليك وأنت فى الحجرة بأخبارى وأنبائى لتعرفى أباق أنا أم خارج . كأنما يحجرون عليك ويمنعونك أن تظهرى لى ، ولا يسمحون لك بالبروز إلا بعد أن يوقنوا أنى خرجت وأن فى الوسع اتقاء شرى . . كأنما فى الأمر شر . . ويكبر هذا فى وهمى أحياناً حتى لأترك البيت لغير سبب أو داع سوى أن أعفيك من عنت أهلك ، وأطلق لك الحرية التى يقيدونها بسببى . . وإذا جلستُ فى الشرفة تعمدت أن أحول عينى إلى ناحية أخرى وإن كان هذا حرماناً لى لا حقّ لهم فيه ، ولكنى من أجلك أحتمله وفى سبيلك أصبر عليه . وليت من يدرى بأى شىء لفتُّ نظر أهلك الى حبى لك وأنا أتحاشى كل إشارة ؟ بل انا أتجنب أن أنظر اليك حين يكون معك أحد ولو كان طفلاً صغيراً . . فهل ترى حدثتِهم أنت بما أحسست من ناحيتى ؟ ؟ ربما . . فان كنت قد فعلت فأنت طائشة ، فقد جعلتِ على نفسك منهم رقباء بلا موجب ، فما بيننا شىء سوى النظر « وهل ذاك نافع ؟ » كما يقول الشاعر القديم . . وقد حدثت نفسى أمس أن أشترى ورداً أحمر ، فانك تحبينه على ما يظهر ، وأن أشير به إليك ، ولكنى لم أفعل وقلت لنفسى : « ما الفائدة ؟ . هبنى أشرتُ وأشرتُ بهما أجابت وأجابت ؟ ؟ أفنظل أنا أشير اليها من بعيد ، وهى تجاوبنى من بعيد ؟؟ ثم لا شىء غير ذلك . . عرفنا أنا محبان ثم ماذا بعد هذا ؟؟ هى تظهر فى الشرفة ، وأنا أنظر اليها من الشرفة . . هى فى السماء نجم لامعٌ ، وأنا فوق الأرض عين يرفعها اليه قلب واجف ! ! كلا ! . لا ورد ولا شبهه ! . ما الفائدة ؟ . ما الفائدة ؟ . إنى أرانى أرجع القهقرى قروناً . . بل أنا لا أرجع ولا أتقدم . . وإنما أرى الحياة تركد وتأسن من حولى لأن ذات الثوب الأرجوانى شاءت أن تكون قطعةً من أثاث بيت فهى فيه لتكون زينةً له لا لتحيا وتنعم بالحياة . . وأثارنى هذا الخاطر فغضبت وسخطت وأحسست أن نفسى امتلأت مرارة حتى لوجدت طعمها على لسانى . . . سخطت على نفسى لأنى خيّل إلى أنى إنما أحب فتاة ساذجة يسرها أن تكون محبوبة وتقنع من الحب بأن تنظر إلى الرجل وترى الرجل ينظر اليها . . . وغضبت لأنى رأيت أن هذه مهزلة فانا أذوى نفسى ، وأمزق أعصابى ، وأحرق دمى ، وهى تظن أنى مغتبط راض قانع بمرآها فى هذه الأثواب العديدة التى لا تنفك تخلع منها واحداً وتلبس أخر ؟ . وما أكثر ما آليت لأسحقن هذا الحب ثم ما هو إلا أن أراها ناظرة إلىّ حتى يتحلل العزم وينقض ما كنت أبرمته منه . فالحق أن هذه مصيبة لم تكن لى فى حساب ولا كان يخطر لى فى بال أنها ستنصب يوماً على أم رأسى . . وانظر ماذا تصنع معى ! ! تبدو لى فى الأرجوانى ، وتبقى فيه حتى أراها — أعنى حتى توقن أنى رأيتها فانى أراها كثيراً وهى لا ترانى — فاذا وثقتْ دخلتْ وغيرته ! ! أليست هذه مكايدة متعمدة . . ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

المقرى مؤرخ الأندلس

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ١ —

عرفت المقرى — صاحب نفح الطيب حدثاً ، وشغفت بأثره الجامع عن الأندلس ، وأعجبت بجهده الجلد ، وأدبه الممتع ، واستطعت بعد أعوام طويلة من البحث والتنقيب فى تاريخ الأندلس ، أن أدرك أهمية الشذور الضافية والوثائق الجمة ، التى وقف عليها المقرى فى عصره ، وألهم أن ينقلها الينا فى كتابه ، ولولاه لغاضت مع مصادرها الأصيلة إلى الأبد ، وحيل بيننا وبين الانتفاع بذلك التراث الحافل الذى يقدمه الينا المقرى فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض

وقد خطر لى غير مرة أن أكتب ترجمة موجزة للمقرى ، وأن أستعرض مجهوده وتراثه ؛ وأحسب الآن أن فرصة خاصة تعرض للوفاء بهذه المهمة ، ذلك أنى قد أزمعت — بعون الله — الرحلة إلى تلك الأندلس التى ملأت حياة المقرى ، وأذكت أدبه وبيانه ، وأجرت قلمه أعواماً طوالا ، وأزمعت أن أحج إلى تلك الربوع والمروج والمعالم التى أفاض المقرى فى وصفها ، والتغنى بمحاسنها الذاهبة ، وآثار أطلالها الدارسة ، والتى ما زالت ذكرياتها قبل المقرى وبعده تسيل عبرات التاريخ الاسلامى

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقّرى نسبة إلى مقّرة ، موطن أسرته القديم ، وهى بلدة من أعمال قسطنطينة ، واليها ينتسب عدة من علماء المغرب الأكابر . ولد ، كما يحدثنا فى مقدمة كتابه « نفح الطيب » بمدينة تلمسان ونشأ بها [1] ، ولم يذكر لنا تاريخ مولده ، وهو تاريخ يضعه بعض الباحثين المحدثين فى نحو ســـنة ١٠٠٠ هـ (١٥٩١ — ١٥٩٢م) [2] ؛ بيد أنه يلوح لنا من تتبع نشأة المقرى وحوادث حياته حسبما يقصها علينا ، انه ولد قبل ذلك التاريخ بعدة أعوام ، فهو أولا يذكر لنا أنه « نشأ بتلمسان الى أن رحل عنها فى زمن الشبيبة الى مدينة فاس سنة تسع وألف » [1] ، فلو كان مولده سنة ١٠٠٠ لما تحدث هنا عن الشبيبة ، إذ يكون عمره عندئذ تسعة أعوام فقط ، أعنى غلاماً حدثاً ، وهو ما لا ينصرف إليه الشباب ؛ ثم هو يشير حين التحدث عن اعتزامه كتابة موسوعته عن الأندلس إلى شبابه الذاهب الذى قضاه بالمغرب قبل وفوده على مصر سنة ١٠٢٧ هـ [2] ، وفى هـذه الاشارة أيضاً ما يدل على أن المقرى حين مقدمه الى مصر ، كان قد طوى مرحلة الشباب الأولى ؛ وربما كان يومئذ فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ؛ وعلى ذلك يكون مولده قبل الألف بنحو ثمانيـة أعوام ؛ أعنى حوالى سنة ٩٩٢ هـ (١٥٨٤) م

ونشأ المقرى فى تلمسان ، التى نشأ بها أبوه وأجداده من قبل ، وتلقى بها دراسـته الأولى ، ودرس الأدب والحديث والفقه المـالـكى دراسة حسنة ، وكان بين أساتذته عمه أبو عثمان سعيد المقرى مفتى تلمسان ؛ وكانت تلمسان ما زالت حتى عصره من أهم مراكز الدراسة الدينية بالمغرب ، وزار فاس لأول مرة سنة ١٠٠٩هـ ، وقضى بها حيناً فى الدرس ؛ ثم زارها مرة أخرى فى سنة١٠١١ ؛ ثم استقر بها منذ سنة ١٠١٣ . وكان ذلك فى فاتحة عصر السلطان أبى المعالى زيدان السعدى ؛ وسنحت له فى فاس عاصمة المغرب الدينية والعلمية فرص الدرس المستفيض ، ولا سيما فى المـكتبة السلطانية ؛ واتصل بمولاى زيدان وآله الأشراف السعديين أمراء مراكش ، وولى الامامة والخطابة لجامع القرويين الشهير ، ثم ولى الافتاء ، واستمر فى منصبه حتى سنة ١٠٢٧ هـ [3]

وفى أواخر سنة ١٠٢٧هـ ، اعتزم المقرى الرحلة الى المشرق . والظاهر أنه لم يعقد هذا العزم مختاراً ، وأنه أرغم عليه لأسباب وظروف يشير إليها ، ولا يوضحها ؛ فهو يقول لنا إنه « لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقب أو رد ... برحلتى من بلادى ، ونقلتى عن محل طارفى وتلادى ، بقطر المغرب الأقصى ، الذى تمت محاسنه لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً ، وطما به بحر الأهوال ... وذلك فى أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين

(١) نفح الطيب (طبعة القاهرة) ج ١ س ٨
(٢) الأستاذ ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الاسلامية

(١) سلافة العصر (ص ٥٩٠)
(٢) نفح الطيب . ج ١ ص ٥٦
(٣) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢ ؛ وسلافة العصر ص ٥٩٠

بعد الألف ، تاركاً المنصب والأهل والوطن والإلف ... »(١)

أما هذه الظروف التي يشير اليها المقرى والتي قضت عليه بالرحيل عن الوطن ، فنستطيع فهمها على ضوء الحوادث التي كانت تجوزها مملكة فاس يومئذ ؛ فقد تولى مولاى زيدان الملك دون أخويه المأمون ، وأبى فارس (سنة ١٠١٢هـ) ولم يلبث أن نشبت بينهما حروب أهلية متوالية ؛ وهزم مولاى زيدان أولا ، وفر إلى تلمسان ، ثم استعاد ملكه بعد عدة محاولات دموية ، وبعد أن أجلى عنه غير مرة ، فى سنة ١١٠٨هـ ؛ بيد أن عهده كان مضطرباً ، فياضاً بالحروب والفتن ؛ ولا ريب أن المقرى لم ترقه هذه الحياة المضطربة ، وأنه اضطر إلى مغادرة المغرب تفادياً من عواقب الفتن والدسائس المستمرة التي كانت تكدر صفو الحياة فى فاس ، وعلى كل حال فقد غادر المقرى وطنه فى أواخر سنة ١٠٢٧ هـ ، وركب البحر إلى مصر ، وعانى من اضطرابه وروعته أهوالا يصفها لنا فى عبارات قوية مروعة (٢) ؛ والظاهر أيضاً أن سفينته كانت تخشى مطاردة القرصان النصارى ، فكان الخوف مضاعفاً ؛ وقد كانت مياه البحر الأبيض المتوسط يومئذ مسرحاً لمعارك هائلة مستمرة بين سفن المسلمين والنصارى ، ووصل إلى مصر بعد رحلة شاقة مزعجة فى أواخر سنة ١٠٢٧هـ ؛ ونزل بالقاهرة فبهرته معالمها ومحاسنها برغم ما أصابها فى ظل الحكم التركى من عفاء وتدهور ؛ وأقام بها أشهراً ، ثم اعتزم الرحلة إلى الحج فى أواخر سنة ١٠٢٨هـ (١٦١٨م) فركب البحر إلى الحجاز وطاف بالأماكن المقدسة ، وعاد إلى القاهرة فى المحرم من العام التالى ؛ ثم زار بيت المقدس فى شهر ربيع الأول ، وعاد إلى القاهرة واستقر بها ؛ وتزوج سيدة مصرية من سيدات الأسرة الوفائية(٣) ؛ ولكنه لم يكن زواجاً موفقاً ، وقد فصمت عراه كما سنرى بعد أعوام من الحياة الزوجية الكدرة . وكرر المقرى الرحلة إلى الحجاز ، وأدى فريضة الحج مراراً ، فلم تأت سنة ١٠٣٧هـ حتى كان قد أداها خمس مرات ؛ وجاور أثناء الحج فى مكة ، وألقى بها كثيراً من دروسه ، وأملى الحديث فى المدينة ، وعاد إلى مصر من حجته الخامسة فى فاتحة سنة ١٠٣٧ (١٦٢٧م)

(١) نفح الطيب — ج ١ — ص ٨ — راجع أيضاً أزهار الرياض (طبع تونس) ج ١ ص ٤

(٢) راجع وصف المقرى لأهوال البحر فهو بديع شائق (ص١٩و٢٠)

(٣) خلاصة الأثر — ج ١ ص ٣٠٤

واستقر المقرى فى القاهرة طوال هذه الأعوام ، ولازم الدرس والتدريس بالجامع الأزهر ، وتبوأ مكانته فى مجتمع مصر العلمى والأدبى ، وفى رجب سنة ١٠٣٧هـ زار المقرى بيت المقدس مرة أخرى ، وألقى بعض دروسه بالجامع الأقصى ، ثم غادرها بعد بضع أسابيع إلى دمشق ، فبهرته محاسنها كما بهرته القاهرة من قبل ؛ ورحب به كبير علمائها ومفتيها الشيخ عبد الرحمن عماد الدين ؛ واتصل بكثير من أدبائها وأعيانها ، وبالأخص بالمولى أحمد أفندى شاهين وهو من أعيانها الأدباء ؛ وألقى بعض دروسه فى الحديث فى الجامع الأموى فاحتشد الطلاب حوله من كل صوب ، وحفل به المجتمع الدمشقى . وكان يبكى السامعين بخطبه ومواعظه ، ويتسابق العلماء والطلاب إلى لثم يده ؛ وكان أثناء إقامته بدمشق يكثر الحديث فى حلقاتها الأدبية عن الأندلس ومحاسن تاريخها وذكرياتها وبالأخص عن وزيرها الكبير ابن الخطيب ، فاقترح عليه صديقه المولى أحمد شاهين أن يضع كتاباً فى التعريف بابن الخطيب ، ومناقبه ، وتراثه من نظم ونثر ؛ فاعتذر أولا بكثرة مشاغله ، وقلة مادته ومراجعه ، وخصوصاً لأنه ترك معظمها فى المغرب ، ولكنه اضطر إزاء الالحاح أن ينزل عند هذه الرغبة ، ووعد بالوفاء منذ عوده إلى القاهرة (١)

وعاد المقرى إلى القاهرة بعد أن أنفق فى دمشق بضعة أسابيع ، وعكف حيناً على إنجاز المهمة التي أخذها على نفسه ، أعنى كتابة ترجمة ابن الخطيب والتعريف بمآثره وتراثه ؛ ويقول لنا إنه استطاع غير بعيد أن ينجز منه قسما لا بأس به ، ولكن عاقته عن إتمامه مشاغل وهموم ؛ والظاهر أن المقرى لم يكن فى مقامه النائى عن وطنه ، هانئاً قرير البال ، فهو يحدثنا غير مرة عن آلام الغربة ومتاعبها . ومما يقول فى ذلك : « وليت شعرى علام يحسد من أبدل الاغتراب شارته ، وأضعف الاضطراب إشارته ، وأنهل بالدموع أنواءه ، وقلل أضواءه ، وكثر علله وأدواءه ، غير عنده التأمل رواءه ، وثنى عن المأمول عنانه ، وأرهف بالخمول سنانه ، حتى قدح الذكر حنانه ، وملأ الفكر جأشه وجنانه ... وشتان مابين الاقتراب والاغتراب ، والسكون فى الركون ، والنبو عنها والاضطراب ، فذلك تسهل غالباً فيه الأغراض والمآرب ، وهذا تتعثر فيه المقاصد وتتكدر المشارب

(١) نفح الطيب ص ٣٤ — ٣٨

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز ولكن أرى تحصيلها بالدنية
وإن طاوعتني رقة الحال مرة أبت فعلها اخلاق نفس أبية

وقوله:

تركت رسوم عزي في بلادي وصرت بمصر منسي الرسوم
وصنت النفس بالتجريد زهداً وقلت لها عن العلياء صومي
مخافة أن أرى بالحرص ممن يكون زمانه أحد الخصوم[1]

كان المقري إذن في منفاه متعباً معنى؛ والظاهر أنها كانت متاعب العيش فوق شجون الاغتراب؛ فقد كانت سوق العلم والأدب يومئذ كاسدة، وكان المجتمع القاهري قد فقد في ظل النير التركي بهاءه وسعته ورخاءه، وعفت روعة الأزهر الذي كان من قبل موئل الوافدين من كل صوب

ولكن المقري عاد فاستأنف الكتابة نزولاً على إلحاف صديقه أحمد شاهين واستنجازه، واستطاع أن يتم كتابه عن ابن الخطيب بصورته الأولى في بضعة أشهر فقط لعودته من دمشق، وذلك في أواخر شهر رمضان سنة ١٠٣٨ هـ (١٦٢٨ م)؛ وفيه يتناول حياة ابن الخطيب، ويستعرض صفاته وخلاله ومآثره، وكثيراً من نثره ونظمه؛ ويقول لنا إنه سمى مؤلفه لأول مرة «عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب»[2]

غير أن ذلك المؤلف الأول لم يكن هو «نفح الطيب» كما انتهى إلينا. ذلك أن المقري خطرت له بعد الفراغ من التعريف بابن الخطيب فكرة أخرى هي أن يمهد لكتابه بذكر الأندلس وتاريخها ومحاسنها وذكرياتها، وتطورت هذه الفكرة حتى غدت هيكل الكتاب الأصلي؛ فاستمر في الكتابة عاماً وبضعة أشهر أخرى، وأتم مؤلفه حسب وضعه الجديد، كما يحدثنا في خاتمة مؤلفه، في آخر ذي الحجة سنة ١٠٣٩ هـ (١٦٢٩ — ١٦٣٠ م)[3] واختار عندئذ لكتابه اسماً جديداً، هو الذي انتهى به إلينا، وهو:

«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»

والواقع أنه من التواضع أن يسمى «نفح الطيب» كتاباً، فهو كما سنرى موسوعة ضخمة عن الأندلس، تاريخها، وجغرافيتها وآدابها؛ ومن المدهش حقاً أن يستطيع المقري أن يضع مثل هذا الأثر الضخم في مثل هذه المدة القصيرة؛ ولكن سنرى أن فضل المقري في وضعه يرجع إلى الاقتباس أكثر مما يرجع إلى التأليف؛ وسنرى مع ذلك أن للمقري في هذا الاقتباس فضلاً لا يقدر، وأن نفح الطيب هو أقيم مصادرنا العربية عن تاريخ الأندلس وآدابها

وكان المقري منذ عوده من دمشق قد طلق زوجته الوفائية، ووضع بذلك حداً لتلك الحياة الزوجية الكدرة؛ وما كاد يتم مؤلفه حتى أزمع العودة إلى دمشق ليتصل فيها بأصدقائه وليطلعهم على مؤلفه الذي وضعه نزولا على إشارتهم؛ ولكن الموت عاجله، فتوفي في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ (يناير سنة ١٦٣٢ م)، ودفن بقرافة المجاورين بالقاهرة[1]

(للبحث بقية — النقل ممنوع) **محمد عبد الله عنان**

(١) يقول صاحب سلافة العصر إن وفاة المقري كانت في سنة ١٠٤٦ هـ (ص ٥٩١) ولكن الرواية الأولى أرجح، وهي المتفق عليها

(١) نفح الطيب ص ٣٩ و ٤٠
(٢) نفح الطيب ص ٦١
(٣) « « في خاتمة الجزء الرابع

مقتل أبي الطيب المتنبي

بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته

للدكتور عبد الوهاب عزام

خرج أبو الطيب من شيراز لثمان خلون من شعبان قاصداً بغداد فالكوفة [١]

ويقول بعض الرواة إن أبا الطيب لما قدم على عضد الدولة ومدحه وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس محلاة، ثم دس إليه من يسأله أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال: إن سيف الدولة كان يعطي طبعاً وعضد الدولة تطبعاً. فغضب عضد الدولة وأوصى إلى جماعة أن يقتلوه [٢]. وروى صاحب الايضاح أن عضد الدولة قال إن المتنبي كان جيد الشعر بالغرب. فلما بلغت المتنبي قال: الشعر على قدر البقاع [٣]

وهاتان روايتان لا تثبتان على النقد. فأبو الطيب قد أفرغ وسعه في مدح صاحبه ونال من جوائزه ماملأه شكراً. فكيف قال ما نسب إليه؟ وكيف وهو يعلم أن كلامه حرى أن يبلغ عضد الدولة؟

وعندنا رواية تخالف هذه:

قال صاحب الصبح المنبي: حكى عبد العزيز بن يوسف الجرجاني كاتب الانشاء عند عضد الدولة قال: لما دخل أبو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه أتبعه بعض جلسائه، وقال له سله كيف شاهد مجلسنا وأين الأمراء الذين لقيهم منا. قال: فامتثلت أمره وجاريت المتنبي في هذا الميدان. وأطلت معه عنان القول. فكان جوابه عن جميع ما سمع مني أن قال ما خدمت عيناي قلبي كاليوم. ولقد اختصر اللفظ وأطال المعنى وأجاد فيه. وكان ذلك من أوكد الأسباب التي حظى بها عند عضد الدولة

فهذه الرواية أشبه بحزم أبي الطيب. ولماذا يقول الشاعر في أمير أفاض عليه عطاءه إن هذا عطاء متكلف وسيف الدولة كان يعطي طبعاً؟ أكان يبني إرضاء سيف الدولة وهو في شيراز ولا يبالي إغضاب عضد الدولة وقد قصده وبذل في مدحه وسعه، ونال من عطاياه ما أثقله شكراً. ورواية «الشعر على قدر البقاع» سبيلها في الرد والدحض سبيل أختها

ثم ما الذي يغري ابن بويه بقتل شاعر عظيم أشاد بذكره وآثره بالمدح على ابن عمه معز الدولة ووعده أن يرجع إليه ليخلد مآثره. إن أعداء عضد الدولة أولى بهذه التهمة. وقد أدرك بعض المعاصرين أن قتل أبي الطيب إخفار لذمة عضد الدولة فأنشأ أبياتاً يحرضه فيها على عقاب من أخفروا ذمته

سار الشاعر براكبه وأحماله وغلمانه حتى بلغ الأهواز

وبين الأهواز وشيراز واحد وخمسون فرسخاً. ثم سار خمسين فرسخاً حتى بلغ واسط. وهنا نقف لنعرض على القارى روايتين: الأولى مروية في الصبح المنبي عن الخالديين قالا:

« كنا قد كتبنا إلى أبي نصر محمد الجبلي نسأله عما صدر لأبي الطيب المتنبي بعد مفارقته عضد الدولة وكيف قتل — وأبو نصر هذا من وجوه الناس في تلك الناحية وله فضل وأدب جزل وحرمة وجاه — فأجابنا عن كتابنا جواباً طويلاً يقول في أثنائه: وأما ماسألتما عنه من خبر مقتل أبي الطيب فأنا أسوقه وأشرحه شرحاً بيناً» وفي هذا الشرح يذكر أبو نصر قتل أبي الطيب وسببه. ثم يبين تربص فاتك الأسدي في طريق الشاعر وعزمه على قتله فيقول:

« وأما شرح الخبر فان فاتكا هذا صديق لي. وهو كما سمى فاتك لسفكه الدماء وإقدامه على الأهوال في مواقف القتال. فلما سمع الشعر الذي هجا به ضبة اشتد غضبه. ورجع على ضبة باللوم وقال له كان يجب ألا تجعل لشاعر عليك سبيلاً. وأضمر غير ما أظهر »

واتصل به انصراف المتنبي من فارس وتوجهه إلى العراق. وعلم أن اجتيازه بجبل [١] دير العاقول. فلم يكن ينزل عن فرسه ومعه جماعة من بني عمه رأيهم في المتنبي مثل رأيه من طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد

وكان فاتك خائفاً أن يفوته. وكان كثيراً ما ينزل عندي. فقلت له يوماً وقد جاءني وهو يسأل قوماً مجتازين عن المتنبي

---

(١) ابن خلكان (٢) الصبح ص ٦٩ (٣) الخزانة ج ١

(١) أظنها محرفة عن « جهة » أو « حيال » فليس عند دير العاقول جبل

فقلت له أكثرت المسألة عن هـذا الرجل . فأي شيء تريد منه إذا لقيته ؟ فقال ما أريد إلا الجميل وعذله على هجاء ضبة . فقلت له هذا لا يليق بأخلاقك . فتضاحك ثم قال : يا أبا نصر والله إن اكتحلت عيني به أو جمعتني وإياه بقعة لأسفكن دمه ، ولأمحقن حياته . قلت له كف عافاك الله عن هذا القول ، وأزل هذا الرأي من قلبك فان الرجل شهير الاسم ، بعيد الصيت . ولا يحسن منك قتله على شعر قاله . وقد هجت الشعراء الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام . فما سمعنا بشاعر قتـل بهجائه . وقد قال الشاعر :

هجوت زهيراً ثم إني مدحتـه
وما زالت الأشراف تهجى وتمـدح

ولم يبلغ جرمه ما يوجب قتله . فقال يفعـل الله ما يشاء وانصرف

ولم يمض لهذا القول غير ثلاثة أيام حتى وافاني المتنبي ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والآلات . لأنه كان إذا سافر لم يخلف في منزله درهماً ولا شيئاً يساويه . وكان أكثر إشفاقه على دفاتره لأنه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً »

قال أبو نصر « فتلقيته وأنزلته داري ، وسألته عن أخباره وعمن لقي . فعرفني من ذلك ما سررت له وأقبل يصف ابن العميد وعلمه وكرمه وكرم عضد الدولة ورغبته في الأدب وميله إلى أهله

فلما أمسينا قلت يا أبا الطيب على أي شيء أنت مجمع ؟ قال على أن أتخذ الليل مركباً فان السير فيه يخف علي . فقلت هـذا هو الصواب رجاء أن يخفيه الليل ولا يصبح إلا وقد قطع بلداً بعيداً . وقلت له والرأي أن يكون معك من رجالة هـذه البلدة الذين يعرفون هـذه المواضع المخيفة جماعة يمشون بين يديك إلى بغداد . فقطب وجهه وقال لم قلت هذا القول ؟ فقلت لتستأنس بهم ، فقال أما والجراز في عنقي فما بي حاجة إلى مؤنس غيره . قلت الأمر إليك ، والرأي في الذي أشرت عليك . فقال تلويحك ينبي عن تعريض ، وتعريضك ينبي عن تصريح . فعرفني الأمر وبين لي الخطب . قلت إن الجاهل فاتكا الأسدي كان عندي منذ ثلاثة أيام وهو غير راض عنك لأنك هجوت ابن أخته ضبة . وقد تكلم بأشياء توجب الاحتراز والتيقظ ، ومعه أيضاً نحو العشرين من بني عمه قولهم مثل قوله . فقال غلام أبي الطيب وكان عاقلاً : الصواب ما رآه أبو نصر . خذ معك عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد . فاغتاظ وشتمه شتماً قبيحاً . وقال والله لا أرضى أن يتحدث عني الناس بأني سرت في خفارة أحد غير سيفي . قال أبو نصر فقلت يا هـــذا أنا أوجه قوماً من قبلي يسيرون بمسيرك وهم في خفارتك . فقال والله لا فعلت شيئاً من هذا

ثم قال : يا أبا نصر ! بخرء الطير تخوفني ومن عبيد العصا تخاف علي ؟ والله لو أن مخصرتي هـذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون بخمس وقد نظروا إلى المـاء كبطون الحيات ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده . معاذ الله أن أشغل فكري بهم لحظة عين . فقلت له : قل إن شاء الله تعالى ، فقال هي كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ، ولا تستجلب آتياً

ثم ركب فـكان آخر العهد به . » اﻫ

نقف هنا لنتأمل في هـذه الرواية المطولة قبل أن نقيدها إلى رواية أخرى :

يقول الخالديان إنهما كتبا الى نصر محمد الجبلي ثم يقولان : « وأبو نصر هذا من وجوه النـاس في تلك الناحية » ليس في الرواية تصريح باسم ناحية ولكن ذكرت ضمناً في نسبة أبي نصر « الجبلي » . والذي أراه أنها نسبة الى جَبُـل وهي بلدة بين النعمانية وواسط على دجلة تبعد عن النعمانية خمسة فراسخ الى الشرق والجنوب ، وعن دير العاقول ثلاثة عشر فرسخاً . فهذا الراوي من بلدة تبعد عن مقتل أبي الطيب نحو أحد عشر فرسخاً وهو صديق للشاعر وقاتله . وخلاصة روايته :

١ — أن فاتـكاً الأسـدي خال ضبة العيني الذي هجاه أبو الطيب كا يكثر السؤال عن الشاعر ليقتله انتقاماً لأخته التي هجاها . وقد صرح بهذا لأبي نصر

٢ — وأن أبا الطيب نزل على أبي نصر بجَبُـل فأخبره ونصحه بالحذر فلم يقبل . واحتقر فاتكا وقومه احتقاراً شديداً وغلا في كلامه غلواً لا يليق برجل عاقل

وفي خزانة الأدب نقلا عن الايضاح رواية أخرى نصها :

« وأخبرنا أبو الحسن السومي في دار الوقف بين السورين ، قال : كنت أتولى الأهواز من قبل المهلبي . وورد عليه المتنبي ونزل عن فرسه ومقوده بيده وفتح عيابه وصناديقه لبلل مسها في

الطريق وصارت الأرض كأنها مطارف منشورة . فحضرته أنا وقلت قد أقمت للشيخ نزلاً . فقال المتنبي ان كان ثم فهاته . ثم جاء فاتك الأسدى يجمع وقال قدم الشيخ هذه الديار وشرفها بشعره والطريق بينه وبين دير قُنّة موحش قد احتوشته الصعاليك ، وبنو أسد يسيرون فى خدمتـه الى أن يقطع هذه المسافة ، ويبرّ كل واحد منهم بثوب بياض . فقال المتنبي ما أبق الله بيدى هذا الأدهم وذباب الجراز الذى أنا متقلده فانى لا أفكر فى مخلوق . فقام فاتك ونفض ثوبه من رتوت الأعاريب الذين يشربون دماء الحجيج حسوا سبعين رجلاً ورصدوا له . فلما توسط المتنبي الطريق خرجوا عليه ، الخ »

هذه الرواية تؤيد الأولى فى أن أبا الطيب أبى أن يسير فى خفارة أحد ، وتخالفها فى أن فاتكا هو الذى عرض على الشاعر أن يخفره . ومعنى هـذا أنه ما كان مبيتاً شراً له وأنه لو قبلت خفارته ما قتله . وفى الرواية مطاعن :

فقول : أبى الحسن السوسى : « كنت أتولى الأهواز من قبل المهلبى الخ » . يؤخذ منه أن مرور أبى الطيب بالاهواز كان فى عهد المهلبى ، والمهلبى توفى سنة ٣٥٢ كما تقدم

ولو أن فاتكا لقى أبا الطيب فى الاهواز فعرض عليه خفارته فأبى فعزم على قتله أو سلبه ما صبر عليه حتى قطع المسافة من الاهواز إلى واسط وهى خمسون فرسخاً ، ثم سار من واسط حتى جاوز النعمانية ، كما سيأتى ، وذلك أكثر من عشرين فرسخاً .

وقول فاتك إن الطريق إلى ديرقنة موحش بعيد أن يقال فى الاهواز وبينها وبين ديرقنة مراحل كثيرة وبلدان عامرة ، وإنما يقال مثل هذا فى موضع قريب من ديرقنة النعمانية أو جبل .

ثم عرض فاتك خفارته على أبى الطيب وفى نفسه منه ما فيها مستبعد كذلك

فرواية أبى نصر أجدر بالقبول بعد حساب المبالغة فيهـا كقول أبى الطيب عن بنى أسد « ابخرء الطير تخوفنى الخ . » فالرجل مهما تكبر وتهور كان أعقل من أن يقول مثل هذا القول : وأحسب أبا نصر حينما سئل عن مقتل أبى الطيب أراد أن يبين عن نصيبه فى هذه القصة التى يتشوف الناس إلى سماعها فأدخل فيها شيئاً من الصنعة ، ومبالغة القصاص ، وبالغ فى نصحه أبا الطيب وفى إباء هذا قبول النصيحة وهكذا

— ٢ —

سار أبو الطيب من الاهواز إلى واسط فنزل بها ، قال على ابن حمزة البصرى عن القصيدة الكافية التى ودع بها الشاعر عضد الدولة : « هذه القصيدة آخر شعر قاله أبو الطيب . وكتبتها والتى قبلها عنه بواسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلثمائة » [1]

بين واسط وبغداد زهاء أربعين فرسخاً ، وعلى الطريق بلاد نذكر منها ما ذكر فى روايات مقتل أبى الطيب : وهى النعمانية ودير قُنّى ودير العاقول والصافية

النعمانيه فى نصف الطريق بين واسـط وبغداد غربى دجلة وهى قائمة اليوم . وكانت تسمى بغيلة فأعيد اسمها القديم . ودير العاقول كان على شاطىء دجلة الشرقى ، وكان عنده مدينة مسماة باسمه ، وكان على ميل من النهر أيام ياقوت . وبينه وبين بغداد ١٥ فرسخاً ، وبينه وبين النعمانية زهاء خمسة فراسخ

وإلى الجنوب الشرقى من دير العاقول على مقربة منه دير مرمارى الذى يسمى دير قُنّى أو (قُنّه) وهو على ١٦ فرسخاً من بغداد يبعد على الشاطىء قليلا

وأمام دير قنى على الشاطىء الصافيةُ على فرسخين إلى الجنوب والشرق من دير العاقول . وكانت على ميل من الشاطىء فى زمن ياقوت .

وعلى نحو ثمانين كيلاً من بغداد إلى الجنوب والشرق توجد اليوم أرض تسمى أرض الدير . ذهبت إليها يوم الجمعة الثانى والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وثلثمائة [2] . فاذا تلال كثيرة متقاربة قليلة الارتفاع عليها حطام من الآجر والخزف تبعد عن شاطىء دجلة الشرقى نحو كيل واحد

وقد سألت أعراباً نازلين هنـاك من قبيلة شمّر عن أرض أخرى تسمى أرض الدير فى هـذه الناحية فنفوا هذا . وسألت عن أسماء العاقول وقنى والصافية ، أتعرف اليوم هى أو ما يقرب منها ؟ فنفوا جازمين

وإذا نظرنا إلى المسافة بين هذه الأرض وبغداد فهى تقارب خمسة عشر فرسخاً . وهى المسافة المقدرة بين بغداد ودير العاقول فى معجم البلدان وغيره

---

(١) نسخة بغداد (٢) ١٢ حزيران (يونيه) سنة ١٩٣٦

ومهما يكن فأكبر الظن أن هذه التلال بقايا دير قنى أو دير العاقول . وكانا متقاربين ، وهذا يدل على أن دجلة لم تغير مجراها كثيرا فى هذه الناحية

وأما الصافية فأحسب موضعها الآن فى مجرى النهر ، فقد كانت أيام ياقوت على ميل من دير قنى ، ويؤيد هذا قول صاحب مراصد الاطلاع عن الصافية ، « وقيل موضع دجلة »

— ٣ —

الروايات فى مقتل أبى الطيب متفقة فى جملتها ، ولكن بعضها أبين وأكثر تحديداً من بعض ، وهى فى التحديد قسمان :

١ — روايات تجعل مقتله قرب النعمانية أو قرب دير العاقول دون ذكر الموضع الذى قتل به [1]

— ٢ روايات تذكر الصافية على أنها موضع القتل أو قريبة منه وهى على مقربة من دير العاقول ، بينه وبين النعمانية ، فليست تناقض الروايات الأولى ، بل تزيد عليها تحديدا [2]

— ٣ رواية ابن خلكان التى تحاول الجمع بين الروايات فتقول : « بالقرب من النعمانية فى موضع يقال له الصافية من الجانب الغربى من سواد بغداد عند دير العاقول بينهما مسافة ميلين »

وحق أن الصافية قريبة من دير العاقول ولكنها ليست قريبة من النعمانية إلا قرباً نسبياً

٤ — رواية ابن جنى ونسخة بغداد ونسخة فى الموصل [3] تذكر مكاناً محرّفاً مضطرباً بين فرع ونبزع وشرع . ولم أجد لها ذكراً فى الكتب

يستطيع الباحث بعد هذا أن يقول إن أبا الطيب قتل على مقربة من الصافية ، ولكن ابن خلكان وابن الأنبارى يقولان : « من الجانب الغربى من سواد بغداد » والصافية على الشاطئ الشرقى ، فكيف هذا ؟

رواية ابن خلكان متناقضة بلاريب ، فهو يقول فى موضع يقال له « الصافية من الجانب الغربى » وهذا خطأ ، وأحسبه اتبع ابن الانبارى فالعبارتان متقاربتان . فهل عبارة ابن الانبارى مقبولة ؟

هو يقول « حيال الصافية من الجانب الغربى » فيمكن أن يقال إن مقتل الشاعر فى الجانب الغربى حيال الصافية على الضفة الشرقية — وكلمة حيال هذه صحفت فى بعض الروايات إلى جبال وليس عند الصافية جبال

يمكن قبول رواية ابن الانبارى بهذا التفسير لو لم نعرف الطريق بين واسط وبغداد أتساير الضفة الشرقية أم الغربية من دجلة ، ولكننا نعرف من كتب المسالك أن الطريق شرقى دجلة . وقد عرفنا أنه مر بجبّل وليس لنا أن نفرض أنه سار شرقى النهر من واسط إلى جبل حيث نزل على ابن نصر ثم عبر إلى النعمانية ليعبر إلى الشرق مرة أخرى

وخلاصة هذه الكلمة أن جمع هذه الروايات ونقدها وتعرّف مواقع البلاد التى ذكرت فى الروايات والطريق بين واسط ودار الخلافة . كل أولئك يبين لنا أن مقتل أبى الطيب كان عند الصافية شرقى نهر دجلة على نحو ستة عشر فرسخاً من بغداد

— ٤ —

سار أبو الطيب من واسط يوم بغداد فى طريقه إلى الكوفة وكان مسيره يوم السبت سابع عشر رمضان . وفى هذا اليوم كتب عنه على بن حمزة البصرى راويته القصيدتين الأخيرتين من شعره كما تقدم

وبلغ جبّل بعد أن سار زهاء سبعة عشر فرسخاً فنزل عند أبى نصر الجبلى كما تقدم . ثم أخذ طريقه حتى حاذى النعمانية وهى فى نصف الطريق بين واسط وبغداد ثم سار فمر بجرجرايا على أربعة فراسخ إلى الجنوب والشرق من دير العاقول ثم تقدم حتى قارب الصافية وبينه وبين بغداد ستة عشر فرسخاً

وهنالك خرج عليه فاتك بن أبى جهل الأسدى خال ضبة ابن يزيد الذى هجاه أبو الطيب . وكان فاتك فى نيف وثلاثين فارساً رامحين وناشبين [1] وكان مع أبى الطيب ابنه محسد وغلمانه الذين وصفهم فى القصيدة الميمية التى رثى فيها فاتكا وفى قصيدة توديع ابن العميد كما تقدم

ولا ندرى كم كان غلمانه ولكنهم كانوا ولا ريب أقل عدداً من عدوهم

(١) انظر رواية أبى نصر الجبلى فى الصبح ، ورواية الخطيب البغدادى
(٢) ابن الأنبارى ونسخة الأوقاف والمعرى
(٣) مكتبة يحيى باشا الجليلى

(١) نسخة بغداد وفى الخزانة سبعين رجلا

بين عالمين

نظام الطلاق فى الاسلام

[بقية المقال المنشور فى العدد السابق]

للأستاذ أحمد محمد شاكر

هذا عن الدليل على وجوب الاشهاد فى الطلاق وفى الرجعة ، وأما الدليل على أنه شرط فى صحتهما ، وأن من طلق أو راجع بغير إشهاد فقد بطل طلاقه وبطلت رجعته ، ولم يصح واحد منهما — فان الطلاق عمل استثنائى صرف ، يخالف القواعد العامة فى العقود والفسوخ ، وكذلك الرجعة ، لأن كلا منهما تصرُّفٌ فى عقد بين اثنين ، يقوم به أحد طرفى العقد وحده ، وهو الرجل من غير اختيار أو مشاركة له فيه من الطرف الآخر ، وهو المرأة ، أذِنَ بهما الشارع الحكيم ، فى حدود معينة ، وبنظام خاص ، وليسا مما يملكه الرجل وحده بطبيعة التعاقد ، لأن الزواج عقد كسائر العقود ، لا يملك أحد طرفى العقد التصرف فيه بالالغاء أو الانهاء وحده ، لولا ما أذن به الله للرجل من حق الانفراد بالطلاق ؛ وكذلك الرجعة ، هى إعادة للعقد الذى نسخه الرجل وحده بما جعل الله له من الحق فى ذلك ، وهى إنما يملك الرجل الانفراد بها — دون الطرف الثانى من العقد — بما أذن الله له فيها ، ولو لم يأذن الله بالطلاق وبالرجعة للرجل ، لم يكن له أن ينفرد بواحد منهما من غير رضا الطرف الآخر فى العقد

وقد أذن الله فى شريعته للرجل بالاستقلال بايقاع الطلاق ، وبالانفراد بردّ المطلقة إلى عصمته ، بصفات معينة ، وفى أوقات خاصة ، فتكون كلها شروطاً فى صحة ما يفعله المطلق حين طلاقه ، والمراجعُ حين رجعته . فاذا تجاوز الصفات التى رُسمت له فيهما ، أو الأوقات التى أُقِّتَتْ له ، كان عمله باطلاً ، لأنه خرج عن الحدّ الذى ملك فيه الانفراد بالتصرف بالاذن من الشارع الحكيم

ولذلك قلنا ببطلان الطلاق لغير العدة ، وببطلان الطلاق من غير إشهاد ، وببطلان سائر أنواع الطلاق الذى يسمى (الطلاق البدعى) . وقلنا أيضاً ببطلان الرجعة من غير إشهاد ، وببطلانها إذا قصد بها المضارّة ولم يقصد بها الاصلاح ، كما قال الفقهاء جميعاً ببطلان الرجعة إذا كانت بعد انقضاء العدة ، وببطلانها إذا كانت بعد الطلقة الثالثة وهكذا

وهذا المعنى قد أوضحته مراراً فى كتاب (نظام الطلاق فى الاسلام) ، فما قلته (ص ٦٠ — ٦٣) :

« وليس المقصود من الطلاق اللعبَ واللهوَ ، حتى يزعم الرجلُ لنفسه أنه يملك الطلاقَ كما شاء ، وكيف شاء ، ومتى شاء ؛ وأنه إن شاء أبانَ الْمَـرْأَةَ بَتَّـةً ، وإن شاء جعلها معتدةً يملك عليها الرجعةَ »

« كلا ، ثم كلا ، بل هو تشريع منظم دقيق من لَدُنْ حكيم عليم ، شَرَعَهُ الله لعباده رفقاً لهم ، ورحمة بهم ، وعلاجاً شافياً لما يكون فى الأسرة بين الزوجين من شقاق وضرار ، ورَسَمَ قواعدَه ، وحدَّ حدودَه بميزان العدالة الصحيحة التامة ونهى عن تجاوزها ، وتوعد على ذلك . ولهذا تجد فى آيات الطلاق تكرارَ ذكرِ حدودِ الله ، والنهيَ عن تعديها وعن المضارَّة : (تلك حدود الله فلا تعتدوها . ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) . (وتلك حـدود الله يبينها لقوم يعلمون) . (ولا

قاتل الشاعر الشجاع حتى قتل . وقتل ابنه . وأكثر الروايات تخص من بين غلمانه غلامه مفلحاً . وفى الخزانة أنهم قتلوا كل من كان معه . وما أحسب الغلمان ثبتوا كلهم بعد قتل سيدهم . وفى رواية الخزانة أيضاً « وحمل فاتك على المتنبي وطعنه فى يساره ونكسه عن فرسه . وكان ابنه أفلت إلا أنه رجع يطلب دفاتر أبيه فقنع خلفه الفرس أحدهم وحز رأسه »

« قال أبو نصر : ولما صحّ خبر قتله وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه وذهبت دماؤهم هدراً »

ردى حياض الردى يا نفس واتركى
حياض خوف الردى للشاء والنعم
ان لم أذرك على الأرماح سائلة
فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

عبد الوهاب عزام

تمسكوهن ضِراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هُزُوا) (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) »

« وهو تشريعٌ تقطَّعتْ دونه أعناق الأمم قبل الاسلام وبعده ، وهأنت ذا ترى الأمم العظيمة التى تزعم لنفسها المدنية ويزعمها لها الناس — : تحاول إصلاح نظام الأسرة ، وتشريع القوانين لديها للطلاق ، فلا تصل إلى شىء معقول ، بل هى تتخبط فى الظلمات ، وتأتى بالبلايا والمضحكات ، وذلك أنها تصدر فى تشريعها عن العقل الانسانى القاصر . أما التشريع الاسلامى فانه وحىٌ إلٰهى كريمٌ ، أرسَل به أعظم رجل وأعقل رجل ظهر فى هذا الوجود ، وأمره أن يفسره للناس ويبينه لهم ، ثم يحملهم على طاعته والعمل به »

« وإنما المقصود من الطلاق فى هذه الشريعة النقية الواضحة الكاملة : أن بين الزوجين عقداً — كسائر العقود — على المعايشة والمعاشرة بالمعروف ، فان هما فعلا تحقق المقصد الصحيح من الزواج وطاب عيشهما ، وإن هما تباغضا وتنافرا وخافا ألا يقيما حدود الله ورغبا فى الفراق ، فهما كغيرهما من كل متعاقِدَيْن : لهما أن يتفقا على الانفصال فى مقابل عوض من المرأة للرجل ، كما تعاقدا فى أصل النكاح فى مقابل الصداق من الرجل للمرأة . وبذلك جاء نص القرآن الكريم : (فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) فشرع لهما الخلعَ والمبارأة ، وكانت المرأة به بائناً تملك أمر نفسها ، وليس للرجل عليها حق المراجعة إلا بعقد جديد واتفاق آخر ؛ ولم يكن عليه للمرأة حقوق أخرى من حقوق العقد ، كالصداق والنفقة وغيرهما ، إلا أن يتشارطا على شىء : فالمسلمون عند شروطهم »

« واختار الله لعباده — لحكمة سامية — أن يستثنى النكاح من القاعدة العامة فى فسخ العقود ، فأباح للرجل أن ينفرد بفسخ هذا العقد بارادته وحده ، بشرائط خاصة ونظام واضح[1] ، ورَتَّب لكل من المتعاقدين حقوقاً قِبَل صاحبه ، لا يجوز لأحدهما أن يتهرب منها . فمن وقف عند حدود الله وفسخَ عقد النكاح الذى بينه وبين زوجه فى دائرة الحدود التى حدَّ الله له ، كان قد استعمل حقا يملكه بتمليك الله إياه ، وجاز عمله ، وترتبت عليه آثاره . ومن تجاوز حدود الله ، واجترأ على حلّ عقدة النكاح على غير المنهج المرسوم له ، كان عابثاً ، وكان عمله باطلاً لغواً ، كما إذا انفرد أحد المتعاقدين بالغاء عقد البيع أو عقد الرهن مثلاً ، فان عمله لاغٍ لا أثر له فى العقد . فكذلك المطلق فى غير الحدود التى أُذن فيها »

وقلت أيضاً (ص٧١) : « إذَنْ ، فقد منح الله الرجلَ حقَّ الانفراد بالطلاق ، وهو حلٌّ لعقدة النكاح : بين الزوجين عقد كسائر العقود ، وهو عقد الزواج ، فاذا أراد أن يطلق بمحض إرادته وحده ، فإن يملك من ذلك إلا أن يتبع أمر ربه الذى شرع له هذا الحق وأذنه به »

فهذا التفسير لمعنى الطلاق ولمعنى الرجعة هو المطابق كلَّ المطابقة لنصوص القرآن الكريم ، ولمقاصد الشارع الحكيم ، ولقواعد العقل السليم ، وللفقه الصحيح فى الدين . وليس من المعقول أن تُترك هذه الشرعة الدقيقة — شريعةُ الطلاق والرجعة — لأهواء الناس وآرائهم وألاعيبهم فى الألفاظ . إنما هى مقاصد سامية ، تتعلق بأدق الشؤون الاجتماعية وأشدها خطراً فى حياة الانسان وأشرف الروابط بين الناس وأعلاها وأنفعها للنوع الانسانى ، وهى رابطة الحياة الزوجية . (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودةً ورحمةً ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

فلم يكن الطلاق — فى الشريعة الاسلامية — حقا مطلقاً للرجل من غير قيد ، كما يفهم ذلك أكثر الناس ، بل عامتهم ، وإنما هو مقيد بقيود كثيرة ، بعضها قيود فى نفس إنشائه وإيقاعه ، وهى شروط فى صحته عندى وفى رأيى ، وبعضها قيود تتعلق بحال المطلق وظروف طلاقه ، وهى تعليم من الشارع وتأديب ، لأنها ترجع إلى أمور نفسية وأحوال دقيقة فى المعايشة والمعاشرة ، لا تدخل تحت القواعد القضائية التى تكاد تكون مادية ، فجعل الرجلُ فيها أمينَ نفسه ، ورقيباً على أعماله ، أو جعلت تحت رقابة ضميره — كما عبر الكتاب من أهل هذا العصر —

(١) قلنا فى حاشية (ص ١٥) من الكتاب : يظن أكثر الباحثين أن الطلاق الرجعى ليس حلا لعقد النكاح ، وأن الرجعيةَ لا تزال زوجاً ، لأن آثار العقد باقية بينهما ، وهووهم ، بل الطلاق يزيل عقد النكاح ، سواء الرجعى وغيره . ونقل ابن حجر فى الفتح (ج ٩ ص ٤٢٦) عن ابن السمعانى قال : « الحق أن القياس يقضى أن الطلاق إذا وقع زال النكاح ، كالعتق ، لكن الشرع أثبت الرجعة فى النكاح دون العتق ، فافترقا »

فان اتبع فى ذلك أوامر الله فى كتابه وفى سنة رسوله ووقف عند حدود الله : كان طلاقه صحيحاً ، وبرئ من إثم العدوان فى الطلاق ، وإن لم يتبع ما أمر به ، ولم يجعل طلاقه فى الحدود التى حدت لانشائه وإيقاعه ، فكأنه لم يعمل شيئاً ولم يقع طلاقاً ، وإنما كسب خطيئة وإثماً بمخالفة أمر ربه

وإن جعل طلاقه فى الحدود التى حدت للانشاء والايقاع ولكنه تجاوز فى القيود الأخرى التى تتعلق بحاله وظروف طلاقه كان طلاقه واقعاً ، ولكنه كان آثماً بمخالفته وعدوانه ، لأن هذه الشؤون ليست مما يدخل تحت سلطان الحاكم وتقدير القاضى ، وإنما يحاسب عليها بين يدى ربه يوم القيامة

لأن الشريعة الاسلامية يمتزج فيها — دائماً — التشريع القانونى القضائى بالشؤون الدينية النفسية والخلقية التهذيبية ، وتجمع فى أحكامها بين الوجوب أو الاباحة أو الندب أو الكراهة أو الحل أو الحرمة : وبين الصحة أو البطلان أو الفساد ، وهكذا فهى شريعة ودين معاً

وكذلك الرجعة : ليست من حقوق الرجل بإطلاق من غير قيد ، بل هى مقيدة بقيود كالطلاق ، ولكنها أقل قيوداً منه ، تيسيراً من الشارع الحكيم ، وترغيباً فى وصل ما انقطع من علائق الزوجية

فمن قيودها ما هو راجع لأصل إيقاع الفعل وإنشائه ، فيكون شرطاً فى صحته ، وكلها منصوص عليه فى القرآن نصا : فمن ذلك ما اتفق عليه أهل العلم ولم ينقل فيه خلاف عن أحد منهم ، وهو أن تكون المطلقة مدخولا بها ، وألا يكون ذلك بعد الطلقة الثالثة ، وأن تكون الرجعة وهى فى عدة المطلق

ومن ذلك ما اختلف فيه ، واخترنا أنه شرط فى صحة الخلع أيضاً ونصرنا القول به ، وهو أن تكون الرجعة باشهاد شاهدين على ما بينا آنفاً ، (وأشهدوا ذوى عدل منكم) وأن يريد برجعتها إصلاح ما أفسد الطلاق ، وإصلاح حاله وحالها (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا اصلاحاً) لا يقصد بها الاضرار والعدوان (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا)

وقد بينا ذلك فى كتابنا بوضوح (ص ١٢١ — ١٢٤) ومما قلنا هناك : « إن الطلاق والرجعة بارادة الرجل وحده عملان مستثنيان من القواعد العامة ، أذنه الله بهما بصفات خاصة فلا يملك منهما الا ما أذن به . والشأن هنا فى الرجعة أقوى ، لأن الله سبحانه يجعل الرجل أحق بها بشرط صريح ، وهو ارادة الاصلاح ، فاذا تخلف الشرط لم يكن الرجل أحق بردها ، فصار لا يملك هذا الحق »

وهذا الذى اخترناه وذهبنا اليه لا ينافى ما ذكره أستاذنا شيخ الشريعة « مما هو أدق وأحق بالاعتبار ، من حيث الحكمة الشرعية ، والفلسفة الاسلامية ، وشموخ مقامها ، وبعد نظرها فى أحكامها » ، لأن القيود التى قيد بها حق الطلاق أوثق وأقوى مما اشترط فى صحة الرجعة ، « على القاعدة المعروفة من أن الشىء اذا كثرت قيوده ، عزَّ أو قلَّ وجودُه »

وما اشترط فى صحة الرجعة إنما اشترط ضماناً لبقاء الحياة الزوجية صحيحة سالمةً من إرادة العبث بها ، وبعداً بها عن مواطن الشبهات ، وعن الاضرار بالمرأة عن إرادة النكول والجحد لاضاعة حقها

ولست أظن أنى بحاجة إلى بيان وجه « الحكمة الشرعية والفلسفة الاسلامية » فى اشتراط إرادة الاصلاح فى صحتها ، إذ هو واضح بالبداهة ، وصريح من نص الكتاب الكريم

وأما اشتراط الاشهاد فانه ليس قيداً يفوت به مقصدُ الشارع فى تقليل وقوع الطلاق والفرقة ، وفى ارادة التعجيل بالرجعة ، وانما هو شرط يقيد فى ضمان ثباتها وبقائها ، وفى حفظ عزة المرأة وكرامتها

فالرجل حين يطلق يُشهد على طلاقه ، وهو اعلان له واثبات ، ثم يذهبُ فيراجع سرًّا من غير حضرة الشاهدين ؛ ولعله قد يبدو له أن يندم على رجعته ، أو يَرَى له فائدةً مادية حقيرة فى انكار ما فعله وجَحده ، وتعجز المرأة عن اثبات حقها واثبات إجرامه ، ولا ترى لها شاهداً ولا دليلاً ؛ وقد يفعل ذلك ورثته إذا مات قبل إعلان رجعته ، فيضيع فى الحالين حقها ، وتهدر كرامتها ، ويُمس عرضها ، وهى عاجزة فى أول أمرها وآخره

ولو رأى الأستاذ — حفظه الله — ما نرى فى مجالس القضاء من ألاعيب الناس وحيلهم ، وإقدامهم على إضاعة الحقوق ، وحرصهم على أكل أموالهم بينهم بالباطل ، وجرأتهم على تعدى حدود الله ، لعلم أن هذه الشروط ليست قيوداً يعزُّ معها وجود الرجعة أو يقلُّ ، ولا يستيقن أنها تطابق الحكمة الشرعية ،

٢ ـ دانتى أليجييرى

والكوميدية الالهية

وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

عرفنا من الكلمة السالفة أن أبا العلاء كتب رسالته يرد بها على ابن القارح وهو طرب أيما طرب لأنه وجد فيه ... عنقاءه والخل الوفى ! وعرفنا أن ابن القارح لم يكن يقل زندقة وإلحاداً عن أبى العلاء لأنه استهزأ بالأبرار الأطهار الذين ورد ذكرهم فى سورة الدهر ، ولأنه عاب عليهم خوفهم يوماً كان شره مستطيرا ... يوماً عبوساً قمطريراً ... ولو كانوا مثله ... مثل ابن القارح ... لما نذروا ، ولما وفوا ... ولما خافوا شر ذلك اليوم

وعرفنا كذلك أن ابن القارح لم يكن صادقاً حقاً فى (تنغيظه على هؤلاء الزنادقة والملحدين) الذين حشدهم وجمع أقوالهم فى رسالته من غير ما مقتض لحالها ... اللهم إلا أنه كان يخاطب أبا العلاء بلغة العصر الذى كانت تهدر فيه الدماء لمجرد الريبة تحوم حول الرجل فى دينه ، فاضطر أن يلغز هذا الالغاز الذى لا يجوز مظهره على ذكاء أبى العلاء ...

ونريد اليوم أن نعرف السبب الذى حدا بدانتى إلى كتابة كوميديته ؛ فلا نرى بأساً من أن نضع بين يدى القارئ ترجمة سريعة لهذا الرجل الذى كان يعيش ملء عصره ، ويساهم بقلبه وعقله ويده فى شؤون إيطاليا عامة وفلورنسا خاصة

ولد دانتى فى مايو ١٢٦٥ ، أى بعد أن وضعت الحرب الصليبية أوزارها (١٠٩٦ — ١٢٤٤) [1] . وفى زمان كان فيه اختلاط الشرق بالغرب شاملاً كل شىء ولا سيما الثقافة ، وكان الغرب يرشف من مدنية الشرق ما يشاء عن طريق الشام ومصر وصقلية وتونس والأندلس . واختلف المؤرخون فى منشأ أسرة دانتى ... فبعضهم يقول إنها من رومه ، وبعضهم يقول إنها من فرّارا ، والبعض يقول إنها من پارما ، أو من فيرونا ؛ على أنهم متفقون على أن الفتى نشأ فى فلورنسا وبها ولد ، وأنه تثقف على أشهر علمائها فى ذلك الزمن (برونتو لاتينى)

وقد كان أبوه أليجييرو رجلاً فقيرا من وسط برجوازى مكروه من الحزب الديمقراطى ، وقد ماتت أمه مونّا بللا Monna Bella بعد أن وضعته بزمن قصير . وفى التاسعة من عمره رأى فتاته وحبيبته بياتريس ، فنفثت فى قلبه السحر ، وحلت عن لسانه عقدة الشعر ، وجعلت حياته درامة رومانتيكية بارعة من الحب الأفلاطونى الحزين ... وترعرع دانتى ... ونظم الشعر فى بياتريس ...

وفى الثامنة عشرة ، نظم أولى غرر قصائده يطلب فيها تفسير حلم جميل « من كل مغرم دنف ، برح به الحب ، ولفح قلبه بارح الهوى ... » وكانت قصيدة رائعة لفتت إلى الشاعر الشاد نظر كبير شعراء إيطاليا إذ ذاك جيدو كفالكانتى ، فكانت عربون الصداقة بينهما ، ورمز المحبة والوفاء

واشترك الشاعر الفتى فى حملات حربية سخيفة ، وحضر معركة كمپلدينو سنة ١٢٨٩ ... ثم انغمس فى النضال الحزبى الذى كان يجرف فلورنسا وإيطاليا فى ذلك المهد ، وكان ناشباً بين

(١) هكذا يحددها مؤرخو الأفرنج ، وإن تكن قد امتدت إلى أبعد من ذلك

والفلسفة الاسلامية ، وتدل على شموخ مقامها ، وبعد نظرها فى أحكامها

وبعدُ : فانى أرسل تحياتى الى أستاذى الجليل على صفحات (الرسالة) الغراء ، مجدّداً ذكرى صداقة لم تزدها الأيام إلا ثباتاً وقوة ، مذ كان الأستاذ حفظه الله فى مصر ، من نحو خمس وعشرين سنة ، وكنا نقتبس من بحار علومه ، ونقتدى به فى مكارم أخلاقه ، وكنت له كالتلميذ الخاص ، ألازمه فى غدواته وروحاته . بارك الله فيه ، ونفع به الاسلام والمسلمين

وأخيراً : أدعو المثقفين من المسلمين ، وقادتهم من علماء الدين ، لينظروا فى مسائل الزواج ومشاكله ، وهى جمة متوافرة ، لا بالنظر التقليدى القديم ، ولا بالنظر الافرنجى الحديث ، ولكن بالنظر الاسلامى الصحيح ؟

أحمد محمد شاكر

القاضى الشرعى

حزبين قويين ما لبث أحدهما أن ينتصر حتى تكون للآخر الكرة عليه ؛ وكان دانتى فى جانب الجلفيين . وحدث أن كان فى بعثة سياسية لدى البابا حين انقض الجبليون — الحزب الآخر — على المدينة وانتزعوا مقاليد الحكم من الجلفيين ، وقضوا على دانتى بالنفى المؤبد ، وبالاعدام حرقاً إذا فكر فى الرجوع الى فلورنسا

وكانت بياتريس قد ماتت قبل ذلك ، وكان الشاعر قد فقد صداقة جيدو كفالكانتى من جراء الحزازات الحزبية التى كثيراً ما قضت على روابط وأواصر وصداقات ... وكان قد تزوج كذلك وإن لم يسل بياتريس — التى كانت قد تزوجت من غيره — من الفتاة جمّادوناتى Gemma Donati التى كانت تنتمى الى حزب الجبليين ... فكانت حياته معها سلسلة متلاحقة من الآلام لدرجة أنها رفضت أن تلحق به فى منفاه وحرمته بذلك حتى من النظر إلى أبنائه ... ومن أجل ذلك لم يتورع دانتى من الاشادة بذكرى حبيبته بياتريس فى كتابه (الحياة الجديدة) Vita Nuova ومن الوعد فى آخر هذا الكتاب بتأليف معجزته الخالدة (الكوميدية الآلهية) فى تخليد ذكرى بياتريس . بل هو لم يتورع كذلك من أن يدس جما دوناتى فى أشد دركات جحيمه فى هذه الكوميدية ... كما سيجىء ذكره

وقد طوّف دانتى فى أنحاء إيطاليا ، وذاق فى منفاه مرارة العيش وشقوة التشرد ، وجاب الرحب فزار باريس ، ويقال إنه ارتحل الى انجلترا وألقى عصاه فى أكسفورد . ولعل حظ الأدب من مرارة ذلك العيش ، وشقوة ذاك التشرد كان عظيما جدا ، فقد قسم لدانتى أن يبر بوعده بتأليف الكوميدية إذ هو مشرد فى الآفاق ، طريد من فلورنسا ، بعيد عن أحزابها ، بنجوة من قلق السياسة واضطراب السياسيين . فى سنة ١٣٠٠ ألف كتابه الجميل (الحياة الجديدة)[1] أو الفيتانوفا الذى يصف به خلجات قلبه وضمنه ترجمة طلية لحياته وصلته بالفتاة الفتانة بياتريس پورتيناري وجمع فيه كل الأشعار التى تغزل فيها بحبيبته . والكتاب رائع حقا ، ويعتبره المؤرخون أول كتاب من نوعه فى فجر النهضة وآخر ومضة من الأمل فى العصور الوسطى

ولقد كان دانتى يحل ضيفاً على أمراء الولايات الايطالية الشمالية فيقابل بالترحاب من الجميع ، وكان الجميع يكرمون وفادته ولا سيما كين ردّ الا سكالا أمير ڤيرونا الذى لبث دانتى فى ضيافته حتى عام ١٣٢٠ ، ثم ارتحل إلى جيدو نوڤللو دابولنتا عظيم راڤنّا ومن ثم ذهب الى البندقية فى بعث سياسى ... ولكن البندقيين استخفوا به فأثر ذلك فى نفسه حتى قيل إنه حم ، فعاد أدراجه والمرض يفتك به ... ولقى حتفه عقب ذلك بزمن قصير

وفيما بين سنة ١٣٠٦ ، ١٣٠٨ ألف دانتى كتابه الفلسفى (الوليمة) Donvivio أو Convito وقد حاول فيه تبسيط الآراء والنظريات الفلسفية لتسيغها أفهام العامة ، وهو فى رأينا أقل قيمة من الفيتانوڤا . وان يكن دانتى نفسه قد فضله على الفيتانوڤا

ويقولون إنه ألف قبل ذلك (١٣٠٤) كتابه العجيب (فى فصاحة اللغة العامية) De Vulgari Eloquentia[2] الذى حاول فيه خلق لغة قومية للايطاليين يكتبون بها ويؤلفون فيها كتبهم بدل اللغة اللاتينية التى كانت مستعملة فى ذلك الوقت

وفى سنة ١٣٠٩ ألف كتابه De-Monarchia وفيه يتغنى بالامبراطورية الرومانية القديمة ويحفز همم الايطاليين لاحيائها (لأنها نظام فرضه الله على البشر ، وهى وحدها التى تأخذ بأيدى الناس إلى السلام والنظام والعدالة ، وهى سلسلة متصلة فى التاريخ لا انفصام لها ...) وتلك نُعَرة عرف بها دانتى ، انتقلت بعجزها وبجرها إلى زعيم إيطاليا الحديثة

ويرجح مؤرخو دانتى أنه كتب الكوميدية الآلهية إذ هو ضيف كريم على أمير ڤيرونا ثم أتمها فى راڤنّا قبيل وفاته فى سبتمبر سنة ١٣٢١

وهاك ما اختتم به الفيتانوڤا بصدد الكوميدية الآلهية :

« ... أبتهل إلى الله القدير أن يمد فى أجلى — إذا شاء — كى أكتب فى ملاكى مالم يكتبه أحد فى امرأة من قبل ... حينئذ ... كم تكون روحى سعيدة حين تسبح فى ملكوته الأعلى لتتزود نظرة من ... بياتريس ! »

وقد مد الله فى أجله فعلاً ، وكتب فى ملاكه مالم يكتبه أحد فى امرأة من قبل ، وذهب فى إثر رائده ڤرچيل يخوض دركات جهنم ، ويوقل فى شعاف المطهر ، ليلاقى بياتريس فى ظلال الخلد . ونعيم لا يفنى

---

(١) فى بعض المصادر أنه ألفه بين سنتى ١٢٩٢ — ١٢٩٤ وأنه تزوج من جما سنة ١٢٩٦ ولما كان قد أنسل منها سبعة أطفال فيكون التاريخ المذكور هو الأصح

(٢) أو Eloquio

جحيم دانتي

(١)[1] رأى دانتي كأنه يضرب على غير هدى في تيه لا أول له ولا آخر ، ثم رآه يضل طريقه في غابة مظلمة تعج بالأفاعي وتضج بالوحوش ، حتى إذا بلغ طوداً رفيع الذرى وحاول أن يرقاه زأرت في وجهه أسود وهممت حوله ذؤبان أوشكت أن تفتك به ، لولا أن أبصر فرأى الشاعر الروماني الخالد ڤرچيل يقترب منه فينقذه من الكواسر المحدقة به ، ثم يذكر له أنه قادم من لدن حبيبته بياتريس ليهديه سواء السبيل ، وليخوض به دركات الجحيم ليريه من آيات ربه ، ثم ينفذ به الى جبال المطهر ... وليتركه عند باب الفردوس ، حيث تلقاه حبيبته ، فتمضى به الى جنات النعيم « لأنى غير مأذون لى بدخولها »

(٢) ويتلكأ دانتي قليلاً ، ولكن ڤرچيل ما يزال به يغريه حتى يتبعه (٣) ... وينطلقان حتى يكونا عند باب جهنم ... وينظر دانتي فيرى كلمات نقشت من نور على لوحة علقت أعلى الباب ... هي كلمات الآله العزيز من غير شك ... ويؤذن لهما فيدخلان ، ويسمع دانتي الى أنين المعذبين ، فيخبره ڤرچيل أنهم أولئك الذين قضوا حياتهم الدنيا في لهو ولعب ، لا يعنيهم أن يقدموا عملاً صالحاً ينفعهم في الدار الآخرة . ثم يبلغان عدوة نهر أشيرون ، ويريان جباره العتيد ذا الطول (خارون) منتصباً كالوحش في زورقه الذي ينقل فيه أرواح الأشقياء من هذه العدوة إلى العدوة الأخرى . . . وهنا . . . تدور جهنم برأس دانتي فيعروه من الغثيان والغَشْيَةِ ما يهوى به إلى الأرض (٤) ... ثم يدوى رعد قاصف في أركان جهنم فيهب دانتي من غيبوبته ، ويتعلق بأذيال ڤرچيل ، وينطلقان حتى يبلغا الدرك الأول من دركات الجحيم واسمه (لمبو Limbo) حيث يشقى أولئك الذين استهتروا بتقاليد الكنيسة ، فلم يبالوا أن (يُعَمَّدوا) !! ولو أنهم كانوا مع ذلك بررة أخياراً ، (٥) ويبلغان الدرك الثاني من النار ، ويرى دانتي إلى مينوس أحد قضاة الجحيم الذي يسائله كيف نفذ إلى هذه الدار وهو ما يزال حيا من أهل الدار الفانية ، وينذره أنه لن يحتمل زفير سقر ... وينظر دانتي فيرى إلى جموع الفجار الشهوانيين من أهل الفسق تعصف بهم ريح السموم ، وتنثرهم هنا وهناك كما ينثر الريش في يوم عاصف ... ومن هؤلاء هيلين التي شبت بسببها حروب طرواده ، وكليوبطرة ، ثم يرى الزوجة المفتونة فرنشسكا التي أحبت أخا زوجها (باولو) حين كان يقرأ لها قصة لانسلوت الغرامية « فلما بلغنا هذا الحد من القصة ، ورأينا باولو يطبع قبلة حارة على فم فرنشسكا ، نظر باولو إلى ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وأهوى على فمى يقبله ... واستسلمت ... فلم أقاومه ! ! » ويألم دانتي أشد الألم وأبلغه ، فيغشى عليه حزناً على فرنشيسكا التي كانت تقص عليه خبرها (٦) وينهض من غشيته ، ويبلغان الدرك الثالث ، حيث الحمأ المسنون والوحل المركوم تسبح فيه أرواح النهومين الطاعين ، وتنصب فوقهم شآبيب من برد وثلج ، ويعزق الكلب سيربيروس أبدانهم شر ممزق . ويلقيان (كياشو) أحد الأشقياء فيتنبأ لهما بما سيجتاح فلورنسا من شدائد (٧) وينطلقان حتى يكونا في الدرك الرابع حيث تعذب أرواح البخلاء والمبذرين الذين يعير بعضهم بعضاً ، ويبلغان الدرك الخامس حيث تعذب أرواح العابسين وأهل الشر في بحيرة (ستيجيا) . ويطوفان قليلا حول البحيرة ثم يصلان إلى سفح برج منيف (٨) فيقبل نحوهما نوتى اسمه فلجياس فيحملهما في زورقه إلى شاطئ البحيرة المقابل — ويصلان أيضاً إلى مدينة ديس (Dis) حيث تعذب أرواح الجن والعفاريت ولكن هؤلاء الجن لا يسمحون لهما بدخول مدينتهم ويذودونهما عن أبوابها (٩) ولكن ملكا كريماً يهبط عليهما فيدخل بهما إلى ديس حيث يريان أضرحة فيها نار مشبوبة تعذب فيها أرواح الجدفين والهرطقين (١٠) ويأخذ دانتي في مجادلة بعضهم (١١) ويبلغ دانتي الدرك السابع حيث يلقى كبيراً من هؤلاء الهراطقة ويتمنى لو أن جميع من لقيهم في الجحيم (في الدركات السابقة) كانوا في ديس ليتعذبوا كعذاب هؤلاء ! وينظر دانتي فيرى إلى بعض المرابين (١٢) ويبلغان الدرك السابع حيث يقودهما سنتور عظيم فيقفز بهما من صخرة إلى صخرة حتى يكونوا في قرار الدرك . وهناك ينظرون إلى نهر من الدم تسبح فيه أرواح شريرة هي أرواح الذين آذوا جيرانهم . ثم يحملها سنتور آخر إلى الشاطئ المقابل (١٣) فيشهدان طوائف شتى من الأشقياء

---

(١) هذه الأرقام إشارة إلى فصول الجحيم وقد لخصناها هذا التلخيص الموجز حتى يتصل بعضها ببعض

(١٤) فى أقسام مستقلة من الدرك السابع . ويتحدث ڤرچيل إلى دانتى عن تمثال كبير كان فى جبل إيدا (أولمپ) ؛ وهو الآن ينصهر منها فى نيران الجحيم (١٥) ويقابلان حشداً من الأرواح الهائمة فوق الحصباء المتأججة تتلمس شاطئ النهر ، ويشهد دانتى بينهم أستاذه (!) برونتو لاتينى فيحادثه طويلا (١٦) وينطلقان مع النهر حتى يصب فى الدرك الثامن فيقابلهما فوج من مواطنى فلورنسا العسكريين فيتحدث إليهم دانتى حتى يحجزهم عنه وحش من وحوش الجحيم (١٧) ويلقيان التنين جيريون فيرجوه ڤرچيل أن يحملهما إلى الدرك الثامن ويكون دانتى قد انتهز فرصة تحادثهما وانطلق يكلم الأشقياء الذين يعذبون هنا من أجل محاربتهم للفنون فى الدار الأولى — ويركبان فوق ظهر جيريون (١٨) فينطلق بهما إلى الدرك الثامن الذى ينقسم إلى عشر دركات يصف الشاعر اثنتين منها فقط فى هذا الفصل وهما درك المزورين ودرك المخادعين ويتعذبون فى حميم آن وحمأ وروث (١٩) ويبلغان الدرك الثالث من الدرك الثامن حيث يثوى الخبثاء من رجال الكنيسة الذين دأبوا على بيع وظائفها بالمال (٢٠) ثم ينتقلان إلى الدرك الرابع حيث يأوى الدجالون والشعوذون (٢١) ثم إلى الدرك الخامس حيث يسبح المختلسون وآكلو التراث فى صديد يغلى وقار ، عليهم حراس من زبانية شداد (٢٢) وتقودهما طائفة من الجن فى الدرك الخامس أيضاً ويحدث أن يحاول أحد المجرمين الافلات من ربقة الزبانية (٢٣) ويصلان إلى الدرك السادس حيث المنافقون يلبسون عباءات من نار وطراطير من جمر ، وحيث إخوان الصفاء من أهل بولونا (Joyous Friars of Bologna) (٢٤) وينطلقان إلى الدرك السابع حيث اللصوص والنشالون تقذف الحيات والأفاعى سمومها فى وجوههم وحيث الطواعين تصطلمهم (٢٥) ويلقيان شيخ المجدفين (فوشى) حيث تمزقه الثعابين وتنفث فيه سمها الأراقم ، ويلقيان أيضاً بعض الفلورنسيين المارقين . (٢٦) ويهبطان إلى الدرك الثامن حيث يعذب نصحاء السوء فى لهب مندلعة ونار ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر ! وهنا يلقيان الفارسيين الاغريقيين ديوميد وأوليسيز فيتحدث ثانيهما عن كيفية موته (٢٧) وجيد وذامونتفلترو (أحد الفلورنسيين من خصوم دانتى ! !) (٢٨) ويصلان إلى الدرك التاسع من الدرك الثامن حيث حشد الشاعر المتعصب من سماهم زراع الفتن وتجار الضلالات وحيث جعل منهم نبينا صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله وابن عمه عليا ابن أبى طالب اللذين أتهمهما هذا الكاثوليكى الوقح بأنهما من أهل الشهوات وأهل الشقاق والنفاق[1] . (٢٩) ويعبران إلى الدرك العاشر حيث المزيفون والكيمائيون تفتك بهم الطواعين وتضنيهم الأمراض (٣٠) وفى هذا الدرك أيضاً يلقيان طوائف أخرى من النصابين والمماقين (٣١) ويسمعان نافخاً فى صور يدوى فى آفاق جهنم فيقصدان إليه ، فاذا هما الدرك التاسع من النار حيث المردة والشياطين وكل خناس عظيم . ويأخذهما أحدهم (أنتيوس) فى قبضته فيجعلهما فى قرار الدرك (٣٢) حيث زمهرير وبرد وثلج وحيث بعض الايطاليين جاثمون يتعذبون (٣٣) ويتحدث إليه بعض هؤلاء بما كان من خيانة أحد مواطنيه ويحدثه عن جريمة قتل حدثت فى فلورنسا ولم يعرف مقترفها (٣٤) ويصلان إلى الدرك الرابع من الدرك التاسع فيريان الذين أساءوا إلى من أحسنوا إليهم ، مطمورين فى ثلج وجليد إلى أذقانهم . ثم يحملهما السنتور لوسيفى فيكونان فى هذه الدار مرة أخرى ويريان النجوم تتلألأ فى السماء كأنه لم يكن شىء ! ! وبذا ينتهى طوافهما بالجحيم

(لها بقية) د . خ

(١) المعروف عن دانتى أنه كان كاثوليكيا سنيا متعصباً للكنيسة تعصباً أعمى وقد ألهبت الحروب الصليبية حواسه فحشر الرسول فى جحيمه وقال كارليل : (كان دانتى يعد محمداً (ص) طائفيا تحذ شرائع الكنيسة وعربها وحرفها وضلل بها شيعته ! ؟) وسينفعنا ذلك فيما يلى

شعراء الموسم فى الميزان

نقد وتحليل

للأديب عباس حسان خضر

— ٣ —

ثورة القدر

نظم الأستاذ أحمد محرم فى هذه القصيدة قصص الأنبيا المقصوصة فى القرآن ليشيع فيها فكرته : ثورة القدر ؛ فنى كل من تلك القصص ناس ثار عليهم القدر . وليس فيما قصه (نظما) من جديد سوى أن يخبر عن أولئك الناس بأن الذى نزل بهم هو من ثورة القدر . ولقد حاول ، فى أبيات ، أن يستخلص العبرة فكأن القدر وقف فى سبيل توفيقه فى ذلك ... وليته ترك العبرة لتؤخذ من الخبر كما قال فى القصيدة :

ما حيـاة المرء إلا خبر　　نخذ الحكمة من معنى الخبر

على أن قوام ذلك من استخلاص العبرة أو أخذها من الخبر ، أن يمزج بأحاسيس الشاعر ، ويؤدى إلى أحاسيس الناس فيطربهم ، أو يجتذب ارتياحهم ، أو ما بين ذلك من درجات التأثير . فماذا فى القصيدة من ذلك ؟ إليك المطلع تليه قصة آدم وابليس :

عاصف ما قيل أمسك فازدجر　　زلزل الأقطار واجتاح البشر
هاجه من قبل فى مربضه　　طائف ما مسه حتى انفجر
أخذ الخصمين فى هبوته　　وهوى غضبان يرى بالشرر
من طريد أهلكته سجدة　　وشريد غاله شؤم الشجر
ثورة فى الأرض من آثارها　　كل يوم ثورة تزجى العبر
شمخ الكبر بهذا فهوى　　وأراد الخلد هـذا نذر
ثورة خاطئة لو لم تقم　　فى ظلال العرش ما ثار القدر
تجمح النفس فلا تنفعها　　بينات الأمر من خير وشر
وجلال الحق فى صورته　　مظهر العزة فى هـذى الصور
فاز بالرضوان من أكبره　　فتجافى عن هوان وصغر

فترى أن أكثر العناية فى قوة الألفاظ وقوة القافية ، وهذا موائم لحال المعنى ؛ ولكن هذه الأبيات ، بل القصور المؤلفة من صخور الكلم وجلاميد القوافى لا تملأ جوانبها روح الشعر ، ولقد وصف الشعر فى هذا البيت من القصيدة :

ومن الشعر قصور فخمة　　وقبور موحشات وحفر

عما ينطبق على شعره ، فهو يقدم الشعر ، من حيث الجودة والرداءة الى القصور الفخمة والقبور الموحشة ، فيعبر عن الشعر العالى بالقصور الفخمة وان كانت غير آهلة !

سرد الشاعر القصص مبيناً فيها مواطن ثورة القدر ، وفى جميعها لم يثر القدر الا على أقوام أبوا اجابة دعوة الرسل وسخروا منهم وأفسدوا فى الأرض فكان ما نزل بهم عقاباً لهم على طغيانهم ؛ ثم أخذ يصف هذا القدر المعاقب بالظلم والبغى ، فيقول :

ينصب الظلم على مخلبه　　ما تمنى من قصور وسرر
وترى البغى على أنيابه　　ناعم الروحات ريان البكر

فكيف يتفق رميه القدر بالظلم والبغى مع ما قدمه قبل ذلك من الاشادة بعدله فى صرع المتجبرين العاصين ؟ !

والشاعر يتحدث فى آخر القصيدة عن الشعر وعن موسم الشعر بدون مناسبة للموضوع ، ولو كان ثمت مناسبة لكان استطراداً مقبولاً

ولقد أحسن فى وصف من أغرقهم الطوفان بقوله :

غمر القوم فهم فى جوفه　　فتنة غرقى وكفر مستسر
أمم كاللمح ذابت وقرى　　ذهبت كالحلم أو وهم خطر

فقد ألم فى هذين البيتين بمعان سرية ودل عليها بأوجز لفظ

لامية نسيم

بى فوق ما بك منهم أيها الطلل　　لك البلى ولى التبريح والعلل
محتك من عاصفات الريح سافية　　ووا كف من شآبيب الحيا هطل

اود أن أعرف أين الطلل الذى يخاطبه الأستاذ أحمد نسيم هذه المخاطبة ، فما أظن من كان يحبها إلا ساكنة فى «عمارة» أو «ڤيلا» أو فى بيت عادى على الأقل . واذا ارتحلت عن مسكنها فلا بد أن يحل محلها من يعمره ؛ وهو إذا بكى فلا بد من هدمه وبنائه من جديد ، فلا الريح السافية تمحوه ، ولا وا كف المطر يهطل على رسومه . لقد كان الشعراء الأولون يقفون على أطلال حبائبهم ، فتملأ نفوسهم تشوقاً وحسرة على ما مضى ، فيقولون الشعر فيما يحسون ، أما نحن فى هـذا العصر فلا نقف — بعد زوال عهد الصبابة — إلا على ما تحتويه أدراج المكاتب من

الرسائل الغرامية والصور الفتوغرافية وما الى ذلك ، فمن يقف منا على طلل فانما يقف على طلل الزمن القديم لا على طلل الأحبة

على أنه مهما يكن من شيء فان الأستاذ نسيم يكاد يبلغ فى هـذا المعنى مبلغ المجيدين من قدامى الشعراء ، وخاصة فى قوله : « لك البلى ولى التبريح والعلل »

والقصيدة ليست فى موضوع خاص ، وإنما هى (لامية نسيم) أى أن موضوعها ما يقوله نسيم على قافية اللام . . . وهى مع هـذا منسجمة المعانى ، متآلفة الأجزاء ، يزينها البيان ، وأبياتها عامرة بالمعانى ، منها قوله فى وصف المشيب :

قل للمشيب إذا ما لاح مشتعلا
ما أنت إلا لظى فى القلب مشتعل

إلى أن يقول :

كأنه أحرف بيض يسطرها في مفرق كاتب للعمر مختزل

وأناشدك الشعر أن تقف مى برهة عند هذا القصر الفخم ، لا البيت ، ولا الطلل الذى وقف عليه الشاعر ؛ لنجتلى ما يحتويه من الغرائب ، فهذا كاتب يتعبه الحساب : حساب سنى العمر الطويلة ، فيعمد إلى اختزالها بطريقة غريبة ، وهى تسطير الحروف البيضاء فى المفارق

ومن محاسن القصيدة قوله :

شرٌّ من الخطب مثر رحت تحسبه
أهلاً لغـوثك وهو العاجز الوكل
يختال فى حلل خز ولو عقلت لنسلت نسجها من خزيها الحلل
وكيف يفخر مغتر بحليته وصدره من قلادات النهى عطل
شأن الغنى الذى يضحى بلا عمل
شأن الغبى الذى يزرى به الكـسل

ولـكن وصفه لنفسه ، بضمير الغائب ، فى قوله :

كأنه شامخ لا الحزن يوهنه ولا يحرك من أركانه الجذل

لا يليق بالشاعر الذى من خصائصه أن يكون مرهف الحس فلابد أن يطرب ويحرك الجذل من أركانه

متماعبات

قصيدة الأستاذ السيد حسن القاياتى ، وهى قصيدة قديمة تردد مجالس الأدب بعض أبياتها كقوله :

كأن وساما يعتلى صدر جاهل جنى من الأزهار يحمله قبر !!

ويتنادرون بأنه أنشدها المرحوم حافظ بك ابرهيم فلما جاء عند قوله :

لو ان المساعى تكسب المجد لم يلح بأوج العلا الا أنا وأخى البدر

قال له حافظ : ايه يا أخانا . . يورى بأنه البدر

وهى — كسائر شعر القاياتى — نبيلة الأغراض ، مركزة المعانى ، وكثيراً ما أغار على معانيها لصوص الشعر كأنما صاحبها قد أنهبها . . تضيق ألفاظها بمعانيها ، فبعض المعانى يعوزه البسط فى التأدية مثل قوله :

حبيب الى الانسان كل طريفة ولو بات فى أثنـاء بردته البدر

فهو فى حاجة الى أن يبين بأن الملازم ممل ولو كان البدر ؛ على أن أكثر المعانى يؤديها اللفظ بايجاز بليغ كقوله :

شمائل غر أصبحت وهى سؤدد وبانعـــة الأثمار أولها زهر

والقاياتى عميق الفكرة ، دقيق الالتفات ، ولعل هـذا هو الذى يجعله ضنينا بالبسط ، فهو يرى أنه أبان بتأديته المعانى بذلك الايجاز ، فالزيادة حشو ، فهو يعلو فى أسلوبه مترفعاً بالجزالة عن السهولة والتبذل ، انظر الى قوله :

أشفُّ وصال الغانيات ملاحة تُلهِّيك بالحسناء ليس لها مهر

فانك وأنا إذا أردنا أن نعلم ما يقول لابد أن نشحذ الذهن لينفذ الى عمقه ، وهناك نقف على معناه ، يقول : ملاحة الحسناء التى لا تزوجها فلا تدفع لها مهراً أشهى وصال الغانيات وأشده فتلاً للـكلف المدلَّه

والقاياتى شاعر مجدد . . من المجددين الحقيقيين لا الذين يرددون كلمة التجديد ، وينتحلون بعضها ، فهذه قصيدته قل أن تجد فيها معنى من المعانى العامة ، فأكثرها مشابه من خواص المعانى التى لم يسبق اليها كقوله :

كأن وساماً يعتلى صدر جاهل جنىٌ من الأزهار يحمله قبر !

وقوله :

تطالعنا تحت البراقع أوجه حسان كما يفرى دُجُنَّته الفجر

وقد تناول فى القصيدة بعض النواحى الاجتماعية بالنعى والنقد المر كقوله يصف المجالس والمجتمعات :

مجالس حفل بالقبيح كأنها مغانى بغايا ماؤها الفحش والهجر

الى أن يقول فى ذلك :

تحياتهم سب الجدود فكاهة وكم نيل فيمن يشتهون فتى بر
سباب تهاداه الثغور بواسما كأن الذى أهداه بينهم عطر !

وقد صور نوازعه وأحاسيسه فى القيصدة تصويراً بارعاً صادقاً والأبيات الآتية تدل على نبل خاقه ، وتصور ميول نفسه ، قال :

إلى الله أشكو أننى لست واجدا   سوى لذة من دون تحصيلها المهر
أشف وصال الغانيات ملاحة   تلهيك بالحسناء ليس لها مهر
إذا أمكنت من ريقها الخمر صاح بى   نذير الهدى : ما أنت ويحك والخمر
أمر بها فى الكأس حمراء عذبة   فأحسبها جمراً وفى كبدى جمر

وفى البيت الأخير يقول إنه يمر بالكأس حمراء عذبة ، فاذا كان يشهدها حمراء فكيف علم عذوبتها ؟ !

قد يباح للشاعر أن يتردد ويتناقض فى قصائد من شعره لاختلاف الظروف التى تحيط بمشاعره ، فان للشاعر من ذلك ما ليس للعالم الباحث ؛ ولكن لا يجوز له أن يتردد أو يتناقض فى قصيدة واحدة ، فكيف يجمع شاعرنا بين قوله :

كفى ضيعة للحسن خدر يصونه   أرى الطيب كل الطيب أن يهتك الخدر

وقوله :

كناسكمُ يأيها الغيد أننى   ضمنت لكم أن ينهب اللؤلؤ النثر
هو العار فليقن الحياء وإنه   لكالنحر للعشاق أن يكشف النحر

وفى البيت التالى مغالطة :

يقولون ان الراح للفكر صيقل   وربك ما فى الراح عقل ولا فكر

فان خلو الراح من العقل والفكر لا يمنع من أن تصقل الفكر ، وهناك كثير من الأشياء تصقل الفكر وليس لها عقل ولا فكر

الشباب

والأستاذ حسين شفيق المصرى لا يذكر الشباب إلا بالهوى والشراب كأن الشباب ليس فيه ما يذكر وما يتحسر عليه إلا الأوانس والحيا ، فهو يقول فى المطلع :

تذكر بعد أن شاب الشبابا   فأنَّ وقد دعاه فما أجابا
وشاقتـه الأوانس والحيا   فود من التشوق لو تصابى

وليس فى القصيدة ذكر للشباب بغير اللهو والمجون ، فهى لا تعنى الشباب الا بما فيه من التماجن ، أما ما يلابس الشباب من نواحى الجد فلا أثر له فيها

والقصيدة عليها مسحة من الجودة ، وفيها أبيات مطربة كقوله فى وصف الكأس والنديم :

أيا حزناً علىَّ ولست أنسى   ليالى كنت أحسوها شرابا
ينادمنى غضيض الطرف صاح   ذكى يستبيك اذا تغابى
يميل بكأسه يسقيك منها   صفاء بعد أن رشف الحبابا
فلا أدرى أ كانت من رحيق   كنفح الطيب أم كانت رضابا
سحرت وهل شرابك غير سحر   وضوء الشمس بين يديك ذابا
حنانك أبق من عقلى قليلاً   لأعلم حين تسألنى الجوابا

وهذا فى الحق ابداع وفى قوله : « ذكى يستبيك اذا تغابى » جمال يستبيك

وشعر الأستاذ حسين شفيق خفيف الظل ، تشيع فيه روح الفكاهة . ويظهر أن هذه الروح تلازمه حتى انك تجدها فى التحسر على سالف الشباب ، وكم هو ظريف فى قوله :

ومن يكتم حساب سنيه يوماً   فصفحة وجهه تبدى الحسابا
كأن صفحة الوجه « عداد » للسنين ...

وهو فى هذا البيت :

ولولا أن يقال دهاه مس   تخولط ما تأبيت الخضابا

لا يأبى الخضاب إلا خشية اللوم ، أى أن الخضاب عنده ان لم يكن يوده فهو أمر لا غبار عليه ، ولكنه فى البيت التالى :

ومن ظن الشباب صبيغ شعر   فان الصقر قد أمسى غرابا

يسخر من صبغ الشعر ، فيقول ان صبغ الشعر لا يجتاب الشباب ، وانما يشوه ، كما يمسخ الصقر غرابا اذا صبغ بالسواد ، والخضاب والصبغ من قبيل واحد ، فوداده الخضاب فى البيت الأول لا تتفق مع السخرية من صبغ الشعر فى البيت الثانى

وقد تعارف الناس على أن شارة الحداد السواد ، ولكنه يقول :

تخذت بياض رأسى لى حدادا   على عمر الشباب فوا شبابا

فكيف يتخذ البياض حدادا ؟ (١)

غريب فى باريس

ليس يكفى هذا العنوان ويعلمُ الناس أن الدكتور زكى

(١) السواد شارة لحداد عند المشارقة ، أما أهل الأندلس فيتخذون البياض حداداً (الرسالة)

مبارك قضى فترة من الزمن فى باريس يطلب العلم فى احدى جامعاتها ، لأن تصف هذه القصيدة غريباً فى باريس ، بل لا بد أن تفى القصيدة نفسها بهذا الغرض ، لا بد أن تصف غريباً وتصور نوازعه وحنينه الى وطنه ، ولا بد أن يكون هذا الوصف ملابساً لباريس مشتملاً على خصائصها . أما عن الشطر الأول فقد فعل وأحسن ، وان كان لم يُجد الاجادة التى تنبغى للدكتور زكى مبارك ؛ تألم من الغربة فقال :

يا جنة الخلد كيف يشقى ... فى ظلك النازح الغريب
الناس من لهوهم نشاوى ... ودمعه دافق صبيب
يقتات أشجانه وحيداً ... فلا صديق ولا قريب
أقصى أمانيه حين يمسى ... أن يهجع الخفق والوجيب

وهذه الأبيات أحسن ما فى القصيدة

وحن الى وطنه فقال :

مغانى النيل كيف أقصت ... ربيب أزهارك الخطوب
وكيف ألقينه بأرض ... أصبح أحلامها كذوب

وصور نوازعه الى المجد الذى قد اغترب من أجله فقال :

يسدد السهم ليس يدرى ... أيخطئ السهم أم يصيب
يطارد المجد فى زمان ... اقباله غادر لعوب
الشهم من ناسه شريد ... والحر من أهله غريب

وهـــذه الأبيات — وان كانت عادية — فيها روح من يطارد المجد

وأما باريس ، فلها الله باريس ! كل ما أُعنى به عنها قوله فى المطلع : « يا جنة الخلد » وقوله بعد ما ذكر أنه ألقى بأرض اصبح احلامها كذوب:

أديم أجـوائها سواد ... فلا شروق ولا غروب
وحب غاداتهـا موات ... فلا سكون ولا هبوب

أكل ما يقال عن باريس أن الضباب يملأ أجواءها وأن حب غاداتها موات ؟ وهل تعد هذه الأشياء من خصائص باريس التى تميزها من غيرها ؟ أو لا يصح أن يطلق على القصيدة بدلاً من « غريب فى باريس » : غريب فى أى بلد من بلاد الله التى يصح أن تشبه بجنة الخلد ، ويكثر فيها الضباب ويكون حب غاداتها مواتاً . . ؟

ألا ان الغريب فى باريس يقول قصيدة لم يقلها بعد الدكتور زكى مبارك

ثلاثة شعراء

هم الأساتذة : سيد ابراهيم ، عزيز بشاى ، كامل كيلانى . أنشد كل منهم قصيدة كنا نود لو أنشأ أو اختار من شعره غيرها تكون أدنى الى الغاية المرجوة من الموسم ، فالناس يبتغون من موسم محتفل له شعراً يشعرهم بجزالته وعلو معانيه وسمو أخيلته أن للموسم خطراً . . . أما الأول والثانى فكان قولهما تافهاً : معان عامة وأفكار عادية وأسلوب خال من القوالب والتعبيرات الشعرية مثل قول الأول يناجى ولده :

جذلان تفرح لو يز ... يد على نصيبك درهم

وقول الثانى يصف حال الأغنياء :

لا يعلؤون بعليم عقولهمُ ... ويعلؤون بطونا بالجنيهات

وما الى هذا ممـا لا نطيل بذكره لعدم فائدته . وانه لخير للأستاذ سيد ابراهيم أن يقتصر على خطه الجميل ويدع الشعر للشعراء

أما الثالث وهو الأستاذ كامل كيلانى فقد ألقى قصيدته « الباز والقبرة » وهى تحكى أن « بازاً » اصطاد « قبرة » فجاءه « لقلق » يأخذ عليه استبداده بالقبرة الضعيفة ، فقال له الباز : وأنت أيضاً تصطاد الضفدع الضعيف فهلا تركته كما تريد منى أن أدع القبرة . ثم علق الأستاذ على الحكاية بعد أن ساقها نظما بقوله :

كم خطيب على المكا ... رم قد حث معشره
ان رأى ناكباً عن الخيـ ... ـر لحاه وعـيره
هفوات الورى يرا ... هـا ذنوباً مكبره
ثم يلقى ذنوبه ... هفوات مصـغره
مثل هـذا منافق ... جعل النصح متجره
نصحه كله خـدا ... ع وغش وثرثره

وموضع قصيدة مثل هذه كتاب من كتب الأطفال ، لا موسم الشعر ؛ وأسلوبها سليم ، ونظمها طبيعى لا تكلف فيـه أما نقـدها من حيث الموضوع فمن اختصاص أهل العلم بتربية الأطفال ، فلا نقول فيها لا نعلم

عباس حسان خضر

٣ـ أثر الحرب الكبرى
فى بريطانيا

للأستاذ رمزى ميور
أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة منشستر سابقاً

تتمة

ترجمة الأستاذ محمد بدران
ناظر مدرسة بناقادن الابتدائية

وفى ارلندة أيضاً لاح أن الحرب قد أتاحت لها فرصة العمل على نيل ما كانت تطلبه منذ زمن بعيد من تقرير حقها فى الحكم الذاتى. وكانت ارلندة هى الجزء الوحيد من أجزاء الامبراطورية الذى انتهز فرصة الحرب للثورة مع أن هذه البلاد كانت من الوجهة القانونية جزءاً من المملكة المتحدة ممثلا فى البرلمان البريطانى أتم تمثيل. وقد فعلت ارلندة ذلك من قبل فثارت فى كل حرب من الحروب الأوربية الثلاث التى اشتبكت فيها بريطانيا فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر. شبت الثورة فيها علنا سنة ١٩١٦، ثم أخمدت ولكن الحكومة شعرت أن من الخطر أن تطالب ارلندة بما كانت تطالب به انجلترا واسكتلندة وويلز من الرجال، ومع أن كثيرين من الارلنديين قد تطوعوا للحرب باختيارهم فقد بقى الشعب الارلندى بوجه عام فى معزل عنها يدعو الله أن يخذل بريطانيا. ولما وضعت الحرب أوزارها شبت فيها من جديد نار الثورة التى كان يلوح وميضها خلال الرماد، ودارت فيها رحى حرب أهلية طاحنة انتهت باذعان بريطانيا وتسليمها للقوة بما لم ترض أن تسلم به للنزاع الدستورى فأعطت الارلنديين أكثر مما كانوا يرضونه قبل ذلك الحين، ذلك أنها قبلت فى سنة ١٩٢١ أن تتكون من أربعة أخماس ارلندة « دولة ارلندة الحرة » وهى دولة ذات استقلال داخلى تام تتمتع بنظام « الأملاك المستقلة » وبحق تقرير ضرائبها الجمركية وإنشاء جيشها وسن قوانينها وسك عملتها. وبذلك كان جزء الأمبراطورية الوحيد الذى ظل طلبه الحكم الذاتى يرفض على الدوام جزءها الوحيد الذى نبذ كل فروض الطاعة والولاء أثناء الحرب، وكان أعظم النتائج السياسية للحرب وأعجبها أن انتهى بهذه الطريقة الحاسمة ذلك الكفاح الطويل الذى دام أربعة قرون، وتلك مقارنة ذات مغزى جليل تثبت أن الحرية لا الارغام هى التى تمسك أجزاء الأمبراطورية وتمنعها من التصدع والانهيار، وهى أول امبراطورية قامت فى تاريخ العالم ينطبق عليها هذا المبدأ

وأول ما نشأ عن مطالبة أجزاء الأمبراطورية أن تشترك اشتراكا أوسع من ذى قبل فى الاشراف على شؤونها أن دعيت طائفة من الساسة يمثلون الأملاك المستقلة والهند لينضموا إلى عضوية « المجلس الحربى » وكان لهؤلاء الأعضاء شأن كبير فى تقرير السياسة التى اتبعت فى آخر أدوار الحرب، وكان يظن أن هذا سيؤدى إلى وضع نظام للتعاون بين أجزاء الأمبراطورية أدق وأوفى بالغرض من النظام القديم. لكن شيئاً من ذلك لم يحصل لسبب رآه المتتبعون لسير الحوادث نذيراً بانحلال الأمبراطورية فى المستقبل، ذلك أنه لما عقد مؤتمر الصلح حضره مندوبون عن الأملاك المستقلة والهند، ولكنهم لم يحضروه من حيث هم أعضاء فى وفد الأمبراطورية البريطانية فحسب، بل من حيث هم ممثلون لبلادهم أيضاً، ثم وقعوا المعاهدات كممثلين لدول مستقلة، ولما تكونت عصبة الأمم ظهرت الأملاك المستقلة والهند مرة أخرى وإن كان ظهورها فى هذه المرة اختلف بعض الاختلاف عنه فى المرة السابقة؛ فقد جعلت الأمبراطورية البريطانية من حيث هى وحدة قائمة بذاتها عضوا دائماً فى مجلس العصبة، لكن كندا واستراليا وزيلندة الجديدة وجنوب افريقية والهند أصبحت كلها أعضاء فى الجمعية العمومية للعصبة لها ما للدول المستقلة، وأصبحت كندا بالفعل عضوا من أعضاء المجلس غير الدائمين. ويرى البعض فى هذه الظواهر دليلا على أن الأمبراطورية لا ينظر اليها فى هذه الهيئة العالمية كما ينظر إلى وحدة سياسية، بل يعامل كل جزء من أجزائها معاملة دولة مستقلة ذات سيادة، ويعزز هذا أن تلك الأملاك أعطيت حقها كاملاً غير منقوص فى بحث المسائل الدولية داخل العصبة أو عن طريقها، وأن الذى تبحثه ليس هو السياسة التى يجب أن تسير عليها الأمبراطورية المؤلفة من هذه الأملاك، بل إنها تشترك فى البحث اشتراك الدول المستقلة

وهكذا أظهرت الحرب ولاء أعضاء الامبراطورية لها،

ولـكنها أعقبها ضعف ظاهر فى الروابط التى تؤلف بين هؤلاء الأعضاء . فالأملاك المستقلة تطلب لنفسها حق تعيين سفراء من قبلها لدى الدول الأجنبية وأصبحت تتمتع بهذا الحق دون معارضة ، فقدعينت كل من كندا وإيرلندة سفيراً لها فى واشنجتن ، وتطالب هذه الأملاك أيضاً بحق عقد المعاهدات مستقلة مع الدول الأجنبية . وقد عقدت جنوب إفريقية بالفعل معاهدة مع ألمانيا .

واعترفت بريطانيا نفسها بهذا الانحلال التدريجى وبتفكك وحدة الامبراطورية السياسية فقـد نص فى معاهدات لوكارنو صراحة على أن بريطانيا وحدها هى التى ترتبط بالتعهدات المدونة فى هذه المعاهدات وأن الأملاك المستقلة لا شأن لها بها . ووضع هـذا النص بناء على طلب الأملاك المستقلة نفسها لأن السياسة التى قامت عليها هذه المعاهدات لم تـكن وليـدة اتفاق عام بين أجزاء الامبراطورية بل قررتها بريطانيا بمفردها إذ لا توجد أداة لوضع سياسة عامة تسير عليها الامبراطورية

وبهذه الطريقة أصبحت الامبراطورية البريطانية بعد الحرب هيئة سياسية مفـككة العرى ؛ فليست هى دولة واحدة إلا فى خضوعها خضوعاً اسمياً لتاج واحد ، وليست هى دولة تعاهدية أو حلفاً قانونياً أو عصبة مجتمعة تعرف بها ، وذلك لأنه لا توجد معاهدة تحتم على أعضائها الاشتراك فى العمل . وإنما هى شركة مفـككة مكونة من دول مستقلة تربطها بعضها ببعض عاطفة ومصالح مشتركة ولـكل عضو فيها كامل الحرية فى أن يختط لنفسه الخطة التى تلائمه فى أى وقت شاء . واعترف بهذا اعترافاً كاملاً صريحاً فى المؤتمر الامبراطورى الذى عقد فى عام ١٩٢٦ والذى كانت قراراته من أهم الحوادث البارزة فى تاريخ الامبراطورية البريطانية . وقد يرى فيها المؤرخون فى المستقبل تسجيلاً نهائياً لترك كل محاولة ترمى إلى تدعيم وحدة الامبراطورية السـياسية واعترافاً بانحلال هذه الامبراطورية انحلالاً ودياً نهائياً . والدليل على ذلك أن الأملاك المستقلة أعضاء فى عصـبة الأمم تربطها بها روابط وثيقة وليست أعضاء مرتبطة فى جسم الامبراطورية

ومع هذا فان الأملاك المستقلة (مع جواز استثناء دولة إيرلندة الحرة وجنوب أفريقية) تعد نفسها مرتبطة بالامبراطورية برباط أقوى مما بينها وبين العصبة . وإنما الفارق بين الهيئتين أن العصبة أوجدت أداة للاستشارة المشتركة ، والعمل المشترك أحكم من كل ما فـكرت فيه الامبراطورية . فللعصبة جمعيتها العمومية التى تنعقد بانتظام فى كل عام والتى تدور فيها المناقشات العـامة ، وللعصبة مجلسها الذى يجتمع ثلاث مرات فى السـنة . أما الامبراطورية فليس لها إلا المؤتمر الامبراطورى الذى يجتمع مرة فى كل أربع سـنوات والذى حددت له واجباته . وللعصبة سكرتيرية بديعة النظام ذات هيئات خاصـة من الخبراء تبحث المشاكل الحربية والاقتصادية ومسائل العمال والصحة وما الى ذلك ؛ أما الامبراطورية فليست لها هيئة مركزية إلا وزارة المستعمرات التى هى جزء من الأداة الحـكومية لعضو واحد من أعضائها وهى لذلك لا تستطيع أن تعمل معتمدة على تأييد جميع الأعضاء

ويرى الجنرال اسمطس الذى ربما كان أعظم ساسة الامبراطورية كلها والذى كان منـذ ثلاثين عاماً يقاومها بقوة السلاح ، ويرى هـذا الجنرال أن الحـكومة اللامركزية فى الامبراطورية وصلت الى أبعد حد حتى أصبحت انحلالاً حقيقياً ، وهو قوى الاعتقاد بأن الرابطة السياسية التى نشرت لواء السلام على ربع بلاد العـالم هى رابطة جليلة القدر يجب ألا يسمح لها بالانحلال تدريجاً ، ولذلك يدعو إلى العمل فوراً لتقوية هـذه الرابطة بوسيلة لا تنقص من اسـتقلال أجزاء الامبراطورية كما لا تنقص عصبة الأمم من هذا الاستقلال

فاذا ما شرع فى العمل لهذه الغاية فان أربعـة أمور تجب مراعاتها بنوع خاص : أولها أن توجد وسيلة للتشاور الدائم فى السياسة الخارجيـة تضمن اتحاد الامبراطورية كلها فى العمل داخل دائرة العصبة وبهذه الوسيلة يتسنى للامبراطورية (التى هى أكبر قوة لنشر لواء السلم فى العالم) أن تضطلع بقسط كبير فى تقوية دعائم السلم العالمى . والأمر الثانى أن توضع سياسة مشتركة للدفاع الامبراطورى يمكن بواسطتها تنفيذ العهود التى يلقيها على عاتقها ميثاق العصبة ونشر لواء السلم والقانون فى الأصقاع الواسعة المتأخرة غير المستثمرة داخل حدود الامبراطورية . والأمر الثالث أن توجد وسيلة للتشاور والاتفاق على الطريقة التى تعامل بهـا الشعوب المتأخرة التى تـكون الآن قسماً كبيراً من سكان الامبراطورية . ذلك بأن تبعة حكم هـذه الشعوب المتأخرة يقع معظمها الآن على عاتق بريطانيا . غير أن أفريقية الجنوبيـة تقع عليها أيضاً تبعات كبيرة من هذا القبيل . كذلك انتدبت استراليا وزيلندة الجديدة بعد الحرب لادارة أرضين واسعة فى غانة الجديدة وجزائر المحيط الهادى . وتعانى كندا مشاكلها الخاصة فى كيفية

حكم الهنود الحمر فى غربها والاسكيمو فى شمالها . ومع أن الشعوب البريطانية أخذت على عاتقها هـذه التبعات العظيمة وهى إرشاد الشعوب المتأخرة ونشر المدنية بينها فانها لم تعن إلا عناية قليلة بدراسة المشاكل الناشئة من هذا الواجب دراسة علمية ، ولم تحاول الشعوب البريطانية أن تتبادل الرأى للاتفاق على المبادئ التى يجب أن تسير عليها فى تحضير هـذه الشعوب . وأخيراً إن الامبراطورية فى حاجة شديدة إلى اشتراك أجزائها فى العمل فى الميدان الاقتصادى . لقـد أخذت الشعوب البريطانية على عاتقها القيام بعمل كبير هو تنمية موارد أصقاع واسعة فى العالم ، لم تتمّ بعد ، حتى تنتفع الانسانية بهذه الموارد ، ولـكنها لم تعر هذا العمل ما يستحقه من العناية . وليس لها أن تعده مجرد وسيلة لاستغلال هذه البلاد أو تتركه للظروف والأقدار أو تكله لاشراف الاتحادات التجارية الـكبيرة غير المنظمة بل يجب عليها أن تفكر فيه وتنظمه على قاعدة تعاونيـة بالاتفاق مع جميع الدول الداخلة فى دائرة الامبراطورية والتى تشترك معها فى تحمل تبعتـه كما أن عليها عنـد ما تقوم بهذا الواجب أن تراعى جانب العدل فى معاملة الشعوب الهمجية

إن المجال لا يتسع هنا لبحث ما يتبع من الوسائل فى أداء هذه الواجبات أو الأداة اللازمة لأدائها ، ولـكن الذى لا مرية فيه أنه إذا لم يشرع العاملون على تنمية موارد الامبراطورية فى عملهم بمثل هذا الروح الذى وصفناه وهم عاملون بما فى وسعهم أن يصلوا إليه بمجهودهم ، إذا لم يفعلوا ذلك فان الأمل قليل فى بقاء الامبراطورية البريطانية كهيئة سياسية عاملة . لقد أخذت هذه الامبراطورية تسير بعد الحرب نحو الانحلال السلمى بخطى سريعة ، وإذا ظلت تسير فى هذه السبيل كان ذلك دليـلاً على افلاس السياسة البريطانية

ولقد كان من نتائج شعور الامبراطورية بحاجتها الى سياسة تعاون قوميـة أن وضعت عدة اقتراحات ترمى كلها الى تدعيم وحدتها بتقوية الروابط المـالية بين أجزائها المختلفة . ومن هذه الاقتراحات أن تترك الأملاك المستقلة والهنـد سياسة الاكتفاء بالنفس من الناحية الاقتصادية أو تعدلها بعض التعديل على أن تعود الامبراطورية مجتمعة الى السياسة التى كانت تسير عليها بين عام ١٦٦٠ وثورة المستعمرات الأمريكية فتبدأ باقامة سياج جمركى حول الامبراطورية كلها بصد تجارة البلاد غير البريطانية ثم يتبع فى داخل هذا السياج بالتدريج نظام التجارة الامبراطورية الحرة . ويرجو أنصار هذا الرأى أن تؤدى هـذه الوسائل الى تمكين الامبراطورية البريطانية بصفة عامة من الاكتفاء بنفسها وهو ما تعجز عنه بريطانيا وحدها بطبيعة الحال . وبذلك تصبح الامبراطورية وحدة مالية على نمط الولايات المتحدة الأمريكية وتحقق الفكرة التى يدعو إليها بعضهم لتكون علاجاً لما نزل بأوربا من الـكوارث وهو انشاء ولايات متحدة أوربية وإن كان الأمل فى تحقيق هذه الفكرة ضعيفاً . على أن الصعاب القائمة فى وجه هـذا المشروع البريطانى كبيرة جمة . منها أن الأملاك المستقلة والهند لم تظهر دليلاً على استعدادها لترك سياسة الاكتفاء بالنفس التى تسير عليها أو تسمح بدخول البضائع البريطانية التى تنافس منتجاتها الى بلادها ، ومنها أن الرخاء الذى تتمتع به معظم البلاد التابعـة للامبراطورية ناشئ من قدرتها على الاتجار بكامل حريتها مع جميع بلاد العالم وأن الأمم التجارية الأخرى تعارض فى نقص هذه السياسة . وزيادة على ذلك فان المعاهدات تحتم على كثير من الأملاك البريطانية وبخاصة ما كان منها تحت الانتداب أن تسوى بين بضائع جميع الأمم فى بلادها وحتى إذا أمكن التغلب على هـذه الصعاب فان كثيرين من الناس يعتقدون أن الامبراطورية إذ استحالت وحدة مالية مستقلة عن غيرها أصبحت سبباً للاحتكاك والحرب بدل أن تكون عاملاً من عوامل السلم ، وإن اتباع سياسة الاكتفاء بالنفس والاستقلال عن الغير الى هذا الحد الـكبير يجر الخراب على العالم ، ومن الناس من يعتقد أن بريطانيا نفسها لا تستطيع وهى آمنة أن تغامر هذه المغامرة الخطرة فتضحى بثلثى تجارتها مع البلدان الأجنبية لـكى تنمى الثلث الباقى وهو تجارتها مع سائر أجزاء الامبراطورية

على أن الجدل الذى قام حول هذه المشكلة المالية لا يمت بصلة إلى المشكلة الأخرى الـكبيرة التى قد تطغى عليها المشكلة المالية وهى : هل يسمح أن تستمر عملية التفكك التى يلوح أنها أخذت تدب فى جسم الامبراطورية بعد الحرب دون أن تتخذ الوسائل لوقفها عند حد ؟ وهل تستمر الامبراطورية على أنها أخوة من الأمم لا يرتبط بعضها ببعض إلا برباط العواطف وأن يكون مافيها من أداة للتعاون أقل صلاحاً للعمل من أداة عصبة الأمم وهى الهيئة التى ليس بين أعضائها من الروابط ما بين أجزاء الامبراطورية ؟ أو هل يستطاع إيجاد وسائط للتشاور والاشتراك فى السـياسة

مقطوعات شعرية

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

صلاح الحياة أم غايتها

قل كيف نحيا ولا تقل لى ما حكمة العيش والبقـاء؟
فمطلب للعـلاء يحدو وآخر كله عنـــاء
كم سأل السائلون قدماً ما الكون ما العيش ما الفناء
مسألة مالها جواب وليس يُلفَى لها غنـــاء
كساخط من طروق داء وتارك خلفــه الدواء

ود الأسى

يا رفاقاً طالما أنستهم لذةُ العيش حزيناً . يا رفاق
قد وجدت الصدق فى ود الأسى مِقَـةُ اللذات كسب ونفاق

غبى ذكى

يا غبياً رأى الذكاء شـقاء ورأى النحس أن يكون أريبا
أنت أذكى من الذكى الذى يحـ يا شقياً لكى يكون أديبا
وإذا كانت الغباوة نعمى فمن الحمق أن تكون لبيبا (١)

(١) للمعرى ولاسكندر بوب مثل هذا المعنى

الخارجية والدفاع وحكم الشعوب المتأخرة وما اضطلعت به من إنماء موارد البلاد الواسعة من غير أن يمس ذلك استقلال أعضائها الداخلى بحال من الأحوال ؟ إن هذا النظام إذا أنشئ لا يتعارض بطبيعة الحال مع الأغراض التى قامت من أجلها عصبة الأمم بل يقوى بناءها ويمكن أساسها ، كما أنه لا يزيد فى أخطار الاحتكاك والنزاع إلا إذا اتبعت فيه سياسة العزلة التجارية . ولن يكون له إلا معنى واحد وهو أن أكبر إخاء من الشعوب المختلفة رآه العالم فى تاريخ حياته يستخدم ما يخوله التعاون من قوة فى استثمار موارد ربع أنحاء المعمورة وتهيئة هذه الموارد لخير هذا الاخاء ولخير العالم المتمدين كله ولترقية الشعوب المتأخرة

ليس بين المشاكل التى خلفتها الحرب وتركتها من غير حل أعقد من هذه المشكلة وأعصى منها على الحل .

محمد بدران

البصير الأعمى

يا قلب صبراً ولا تعتب على قسَم
قد استوى الناس فى عتب على القِسَم
الحظ أعمى لدى من لم ينل أرباً وهو البصير لدى من فاز بالنعم

خطة الضعة

فى كل نفس من نفوس الورى شىء من الحقد وسوء الظنون
إن كذّبَ المُثنى على نفسه صدَّقَ من يُزرى بفضل القرين
لذاك يُعلى الخب من نفسه إن هدَّ من فضلٍ بمدح قمين (١)
أكثر من إعلائه نفسه بأن يزكى النفس عند الفطين

ناجح

كل بِشرٍ منــه فخٌّ كل لفظ منــه غدرْ
بلغ النجـــحَ بلؤم إن بعض النجح وِزرْ

الكذب

للكذب فى الناس أوساط مُجَنَّحة
والصدق يسعى لديهم كالسُّلحفاةِ
يهوون ما لا يسيغ العقل من كذب
وينبذ الحق من حرص المجاراة
كأنما الكذب ملح يستلذ به طهى الحديث وإشباع السخيات (٢)

اخفاء السريرة بالنطق

أتحسب أن الله أعطاك منطقاً
لتبسط من لغو الكلام على الصدق
وإن لسانا بين فكيك ناطق لاخفاء ما دون السريرة بالنطق
وتكتم ما قد يُظهِر الوجه أمرَه بقولك قولاً باطلاً مشبه الحق

عجائب الحقد

عجبت للمرء فى بغض وفى مِقَةٍ هما العجيبان إن آخى وحين عدا
يرمى النِّفَايَةَ لا يبغى لها ثمناً حتى إذا ما حواها راغب حسدا
ويغفر الذنب من إحسان فاعله حتى إذا ما انقدت آلاؤه حقدا

فخر الناجح

قبيح نجاح المرء إن هو شانه بفخر فلا يُقبِّح نجاحك بالفخر

(١) جدير (٢) الأحقاد

كأن لم يكن أهلاً له حين ناله

هو الصمت قد يُطري إذ الفخر لا يطري

جلا منه عيب النفس من بعد ستره

كذاك حديث العهد بالمال واليسر

ويا رُبَّ نُجحٍ يسلب المرء رشده ويبدى خصالاً منه تقتل أو تُزري

نزالة الحسد

عدوك مرجوٌّ فإن كان حاسداً فلا رحمة ترجى لديه ولا عدل

وليس بنذل كل من صال أو عدا وتاب ولكن الحسود هو النذل

مغفل لمغفل

قالوا الأنام إذا اختبرت أمورهم وبلوت من أحوالهم ما يبتلى :

غِر يخادعه لئيم عاقل ولبئس حظ المرء إن لم يعقل

كذبوا، فما عيش الأنام وهزله إلا خداع مغفَّلٍ لمغفل

يتهارشون على الحياة ورجسها

فعل الكلاب على خبيث المأكل

عبد الرحمن شكرى

جهاد فلسطين

للأستاذ أمجد الطرابلسى

ثارَ فهل تستطيعُ إخمادَهُ عزمٌ أراد اللهُ إيقادَهُ

لا يأتلى مُضطرِماً لاهباً أو يلقفَ الظلمَ وأجناده

ويصرعَ البغيَ وأنصارهُ ويحطِمَ الذُّلَّ وأصفاده

قد وثَبَ الشعبُ يردُّ الأذى وينزِعُ الغُلَّ الذى آدَهُ

يُرخِصُ للأوطانِ آمالَهُ طوعاً، ودُنياهُ وأولاده

والدَّمَ فوّاراً يُروّى الحِمى أغوارَهُ العطشى وأنجاده

يسكُبُهُ كلُّ فتىً سيِّدٍ لا يرهبُ البَغيَ وإيعاده

الدَّمُ فى أعراقِه صارخٌ يدعوهُ أن يبعثَ أمجاده

والثأرُ فى خَنَاقِهِ ثائرٌ يدعوهُ أن يُطفِئَ أحقاده

والسيفُ، قبل النصر، فى كفِّه أقسَمَ لا يسكُنُ أغماده

أما سمعتم أمسِ تَزْآرَهُ يُطبِّقُ الأرضَ، وإرعاده

ذاكمْ وعيدُ الليثِ؛ ويلٌ لمن يَنتهِكُ الغابَ ويصطاده

تُمزِّقُ العادىَ أنيابُهُ وقد يصيدُ الليثُ صيَّاده

* * *

قومى فلسطينُ على المعتدى وقوّمى بالحقِّ مُنآده

قومى على الذلِّ، على واغِلٍ سِيمَ هوانَ الذلِّ فاعتاده

قد تخذَ الختْلَ إلهاً له والمالَ والباطِلَ أعضادَه

قومى فإنَّ النصر ما عَلَّهُ مِثلُ دمِ الأحرارِ أوجاده

غيرُ دمِ الأحرارِ لا يُزْهِقُ الـ بَغْيَ ولا يحطِمُ أقياده

غيرُ دمِ الأحرارِ لا ينقعُ الـ ثأرَ ولا يُطفِئُ وقّاده

غيرُ دمِ الأحرارِ لا يبعثُ الـ مَجدَ ولا ينشُرُ أعياده

* * *

قومى فهل أمجدُ من أُمَّةٍ لا ترهبُ الجوْرَ وإزباده

قومى فهل أخلدُ ممن قضى فشادَ للتاريخِ ما شاده

ماتَ ليحيا وطنٌ مُرْهَقٌ عانٍ يريد اللهُ إسعادَه

قومى وغنِّينا نشيد الرَّدى لا تسأمى فى النقع تَرداده

فالموتُ للمغلولِ حُرِّيَّةٌ والموتُ لا يمنعُ وُرّاده

يأيها العادِى ربيبَ الأذى يا عِترةَ الشرِّ وأنداده

يا شيعةَ الغدرِ وأنصارَهُ يا عصبةَ المالِ وعُبّاده

القبلةُ الاولى، على جودِها، لا تُكرِمُ الذلَّ وأحفاده

لا تنزلُ الشُّذّاذَ، فى قُدْسِها طرائدَ الغربِ وأوغاده

من ذا الذى ارتادَ لكم مَنزلاً فى الشام؟ إن القبر ما ارتاده!

زُمّوا رِحالَ الشؤمِ من قبلِ أن نبتلع الظلمَ وأسناده

فازَ الذى يجمع أطمارَه للبَيْنِ، أو ينزِعُ أوتاده

الفِيلُ من يجعلُهُ دارَهُ؟ والشُّمُّ من يجعلُهُ زاده؟

غرّتكمْ استجمامةٌ للحِمى فَخِلتُم للهونِ اخلادَه

والغابُ لا تستطيعُ إخضاعَهُ حتى تخطّى قبلُ آساده

* * *



من الحياة

أهـــل ووطن

للأستاذ كامل محمود حبيب

أرخى الليـل أستاره السود القاتمة على دنيا غضبي تزمجر فى صوت عاصفة هوجاء ، وسماء ينهمر منها سيل دافق ، وقد قرّ كل انسان فى داره ، ونامت الحياة فى كل حىّ ، والفتى جالس الى موقد فى زاوية الحجرة ، تغمره لُجة من الأفـكار المضطربة ، والخواطر المتناقضة ، فتحجبه عن دنيا الناس . لقد رأى نفسه تعصف بها حادثات الأيام فتذرها بددا ، فان مدّ يده ليجمع أشتاتها لم يجد منها الا صُبابة من نفس لا تستطيع أن ترد اليه

جمال الحياة التى عاش شطراً منها بين أهله وذويه . فى وطنه الأول حيث ملاعب الطفولة ومراتع الشباب . وجاءته الذكريات من أقصى الطفولة تحمل على أجنحتها لذائذ ولذائذ لتنصبّ فى قلبه هموماً وهموماً ، واضطربت جوانح الفتى أن وقف خياله عند الساعة التى أُفزع فيها عن وطنه وأهله فبكى بكاء الثكلى تفقد صبرها حين تفقد قلبها . ما الذى أزعجك عن وكرك أيها الطير وأنت ناعم على فنن تغرّد ، ترى كل مباهج الحياة عند هذا العش الصغير ؟ لقد ضاقت بك الدنيا لأنك تركت قلبك هناك ... هناك فى هذا العش ... !

لم يكن الفتى كَلاًّ على أحد ، ولم يكن معدماً ، ولم يكن ضعيفاً ولا عاجزاً ، ولـكنه هجر وطنه وأهله حين لم يجد فيها جمال الوطن ولا عطف الأهل ، وحين لم يجـد بين أهله قلباً كقلب أبيه ينبض له نبضات الحنان والرحمة ، ولا رجلاً فى رجولته يفيض عليه من بسمات نور الحياة وجمالها . ووقف خيال الفتى عند الساعة التى همّ فيها يفارق وطنه وأهله تتجاذبه عاطفتان : قلبه من خلف ، وتأبّيه أن يقيم على الضيم من أمام ! ثم غلبته كبرياؤه فانصاع لها تقوده الى حيث يجد أهلاً غير أهله ، ووطناً غير وطنه ؛ أو لا يجد ...

ماذا كان ؟ ماذا كان أيها المنزوى فى ناحيـة من حجرة تحدث نفسك حديث المـاضى ؟

***

مرض الفتى فراح يَطبّ لمرضه فى عزم الشباب وقوته ، وأريد على أن يلبث فى مستشفى حيناً ، فما خاطب أهله فى شأنه ، وغاب عنه أن المرض ألم فى الجسم وقلق فى النفس ، وأن الشفاء يحمل الى المريض على كفين : كف الأسى وكف الطبيب معاً

لقد خاف — بادئ الرأى — أن يفزع أهله ان ساق اليهم الخبر فى صورته المزعجة ، فستأنى حتى ينزع الطبيب مشرطه ،

يا عربُ هيا فانصروا مَوْطِنًا للعُرْبِ ، هاجَ الحِقدُ أفراده
هناكَ شعبٌ عربىُّ الهوى يحاوِلُ الغاصبُ إنفاده
يسومُهُ الخسْفَ وأغلالَهُ ويدَّعى بالنـــارِ إرشاده
ثارَ على ظُلاّمِهِ مُكرِماً تُراثَهُ الأسمى وأجداده
مجاهــداً أقسمَ لا ينثنى أو تُعتِقَ الأطواقُ أجياده
شعبُ فلسْطين يناديكم مُستبسِلاً ، يصرَعُ جلاّده
تُدمِّرُ النيرانُ أبياتَهَ وتحصُدُ الأسيافُ أجساده
أخاكُمُ يا قوم ! لا تُهملوا إرفاده اليومَ وإمداده
رِقوا لِبَلْـواهُ وَثوروا لهُ حتى يُبيدَ الحقُّ أضداده
فَذُلُّهُ تُكسَوْنَ أبرادَهُ ونَصرُهُ تجنونَ أورادَهُ

أمجد الطرابلسى

ليرسل إليهم خبراً هادئاً فيفـدون على مهـل . وننفض جملة حاله أمام ابن عمه الشاب فلم ير هذا فى حديثه إلا صفحة من الاعتداد بالذات ، والتفانى فى الوثوق بالنفس ؛ ثم نظر اليه نظرات ذات معنى وقل : « أيضيرك أن تستعيهم على مرضك ووحدتك ؟ » فقال الفتى : « لا ضير ؛ غير أنى أريد أن أفجأهم بالخبر » قال الشاب « أفتراني أملأ فراغ قلبك حيناً من الدهر ؟ » قال : « ولِمَ لا وقد عرفتك منذ نشأتى تفيض عطفاً وحنانا ، وتسدى النصيحة خالصة للحب وللقرابة ، وتنير لى طريق الحياة بحكمتك فأسير فى سنا ضوء عقلك . لقد كنت لى جماعة فى فرد . والآن ... والآن أريد أن أعرفك فى مرض . » فصمت الشاب وقد حمَّله الفتى العبء وحده ...

* * *

وحمل البرق رسالة الشاب « فتاكم فى مستشفى (كذا) يطب لمرضه وينتظر قدومكم ، لا خوف ... » ثم انطلق الشاب يحمل الى مريضه خبر الرسالة

هل وعى المريض ما قاله الشاب الباسم ؟ لقد كانت وخزات الجرح تنفذ الى قلبه فى مثل طعنات الخنجر وهو يصمد لها فى ثبات وصبر ، وعلى وجهه علامات الضجر ؛ وكان العَرق ينضح من جبينه بارداً غزيراً ليرسم عليه صورة ناطقة لآلامه ومتاعبه . واربد وجه الشاب حين رأى الفتى تتعاوره الآلام ، وتتناهبـه الأسقام ، ثم ابتسم فى رقة وهدوء ليداعب صاحبه وينزعه من آهاته العميقـة ، ولـكنه كان يجهد نفسه ليرتد اليـه جهده خائباً مخذولاً

وفى أنة المحزون انقلب المريض الى ابن عمه الشاب يقول : « ماذا فعلتَ ؟ ما ذا فعلتَ ؟ انى أريد اخوتى وأعمامى وأهلى ... آه ما شـعرت بالوحدة كاليوم ... ! » ورن صدى هذا الصوت الضعيف فى قلب الشاب طعنات من يد القدر فراح يقول له ...

* * *

ومضى يوم ويومان وثلاثة ... ويد الطبيب تمر رفيقة على جرح المريض فيلتئم صدع منه على صدع ، وتنفرج فى قلبه صدوع وصدوع ، لأنه لم يفز بعد برؤية أحد أقربائه ؛ ولم يستشعر الحنان الا من قلب هـذا الشاب الذى يختلس من أوقات عمله فترات من فراغ يقضيها الى جانب مريضه يواسيه ويعطف عليه ويحمل اليـه — فيما يحمل — هدية صغيرة ، تنتزعه حيناً من أفـكاره المظلمة ...

واستطاع الفتى أن يجلس الى ابن عمه يحدثه : « ما ذا جرى كأنك لم تقص على أهلى خبرى . لقد مضى أسبوع ولم يزرنى سواك . انك تملأ قلبى سلوة وعزاء بجمال جلساتك القصيرة ، ولـكن ... » وراح الشاب يتلمس لأهـله الأعذار : « من ذا يستطيع أن يقول سأفعل ... لعل حادثاً لم يترام الينا خبره حال بينهم وبيننا ... واضطربت الـكلمات على شفتى الشاب حين أراد أن ينزع عن صاحبه بعض أفكاره ، وحين أراد أن يقول له إنه أصاب الهدوء والراحة حين عاقهم ما عاقهم عن أن يسرعوا اليه . اضطربت الـكلمات على شفتيه لأنه كان يسمع من أقصى ضميره صوتاً يقول : « أن لا عذر . . . لا عذر اليوم ! » وكان يرى فى إبطائهم استخفافاً وامتهاناً ، غير أن حكمته أبت إلا أن تسدل على عينى الفتى ستاراً من الوهم . وما كان للفتى أن يسمع ، وان سمع فما كان له أن يصدق ، فهو وحده يشعر بالوحدة حين يخلو الى نفسه ، وهو وحده يحس ألم الصدمة . لقد أراد أن يفجأهم بخبر هادئ فانصرمت أيام وما رآهم . وتماثل العليل للشفاء ، وهمَّ يريد داراً غير هذه ولم ير منهم أحداً . يا ويح هذا الفتى ! لقد راح يطلب الشفاء من علة فى جسمه ، فملأت الأيام قلبه عللا سلبته لذة الشفاء

* * *

وجلس الفتى الى عمه يعاتبه : « أفـكان من العطف أن أنبذ فى حجرة ، وحيداً ، متألماً ، مريضاً ، أقاسى ما أقاسى فلا أجد منكم من يزورنى أو يكتب الىّ ؟ لقد كان أبى منكم بالمكان الذى تعرفونه ، وكنت من أبى من تعرفون ؛ أفلا ترعون حقه فى ابنه الملقى على سرير فى حجرة موحشة لا يجد من يواسيه الا ابن عمه الشاب ؟ » وأحس العم عظم الخطيئة فراح يعتذر : « لقد حجبنا عنك موت احدى قريباتك » وانطلق الفتى يقول : « لقد سعيتم الى الميت وقـد انتهى ، ولبثتم حول قبره أياماً تبكون ، لتتركوا الحى الذى لا هو بالحى ولا هو بالميت يستروح نسمات الحياة منكم فما يجدها . أفبعد هذا تزعمون ، وتزعمون ... ؟ » وسبقت زلة من لسان العم : « ولـكن ... ان لك لهنات ! » فأسقط فى يد

الفتى أن سمع عمه يتشفى ، وآلمه أن ينتقم أهله . لقد زل الفتى مرة وكل فتى يزل ، وما كان لهم أن يعاقبوه وهو يحن الى بعض عطفهم ، وما كان لهم أن ينبذوه فى الهاجرة وهو المشوق الى فىء ظلهم . أى أهل ؟ وأى انسانية ؟ واندفع الفتى المغيظ : « هذا وقت تنسى الهنات ، وتنطوى الزلات . ان لى لهنات لأنى لم أبلغ سنّ العقل ، ولكم أخرى لأنكم لم تبذلوا النصيحة . ولقد كفانى أن تبدى لى الأيام ما كان خافياً ، وان تكشف لى الشدائد عن أشياء كنت أجهلها ، وعن أخلاق ظننتكم تترفعون عنها ... »

ثم غمرت الفتى آلامه فأمسك ، وترقرقت فى عينيـه عبرة حبستها الكبرياء فمـا تبرح ، غير أن أحزانه ثارت فى نفســه فقال : « لقد ظننتكم أهلى ، وركنت اليكم لأنكم أهلى ، وشمت الخير فيكم لأنكم أهلى . أما الآن فيا خيبـة الرجاء ويا ضيعة الأمل ! »

ونزت فى العم سورة من غضب أن رأى الفتى الطائش يلومه فيشتد فى اللوم ، ويعاتبه فيسرف فى العتاب ، وألمّ أن يقع بينهما تنابذ ، ولكن الفتى كان قد صهرته الفكرة فى بوتقة من الأحزان حين رأى عمه يتعلق بأوهى الأسباب بعد إذ عاقبه أهله على غير جريرة ، فى جفاء وغلظة ، فرجع الى نفسه يحدثها ويرحمها على أن تلقى السلم ، فألقت واضطربت الخواطر فى رأس الفتى ، فتركته موزعا ينحى على نفسه باللائمة أن قل ..

ولشد ما آلمه أن يكون هو ابن أبيه ، ووحيده ، واقتراحه على الله حين أعجزته الأيام عن أن يكون له ولد ، والأمل الباسم فى شيخوخة الشيخ وهو يدبّ على عصاه فى طريق الفناء ؛ ثم يرى أهله ينبذونه فى مستشفى ، ملقى على سرير ، فى حجرة موحشة ، لا يأنس الا بوجه ابن عمه الشاب عصر كل يوم ، ثم هم يغلظون له فى الحديث ، ويشتطون فى العقاب . ولشد ما أحزنه ألاّ يكون له فى هذا العالم الا ابن عمه يحنو عليه ، وينظر اليه نظرات فيها العزاء وفيها السلوة ، ويدخل الى نفسه بكلام فى رقة الأصيل لينسيه بعض ما همه ؛ وهو كان يرى — عن كثب — الفتى أو الشيخ من أسرته يصيبه بعض ما أصابه هو فينطلق اليه أبناء الأسرة زمراً زمراً يواسونه ، ويعطفون عليه ، وينزعون عنه آلامه وأحزانه . أما هو ... أما هو ... !

وتناهبته الآلام : آلام المرض ، وآلام الوحشة ، وآلام عزوف أهله عنه ، فأخفى ضعفه المنسكب من عينيه فى منديل

* * *

وخرج الفتى من لدن عمه مطوياً على آلام مبرحة تحز فى نفسه ، وتعض على قلبه حين رأى قلوباً تأكلها أحقادها ، وعقولا تعصف بها ترّهاتها ، وضاقت الدنيا فى عينيه حين انهار مثله الأعلى حجراً حجراً بعد ما رأى من عمه وما سمع ، فهام على وجهه يطلب الفُسحة فى أرض الله ...

وهبت أول نسمة من نسمات الفجر تشهد قلباً كبيرا ينزح عن وطنه ، ويهجر أهله الى حيث تتقاذفه مطارح النوى ، الى حيث لا ينبض لذكره قلب ...

وانصرمت سنون ألبست الفتى شيخوخة باكرة ، ورسمت على فوديه آثار حادثة مروعة استقرت فى خياله فما تريم ، لقد سكن الى وطن وأهل غير وطنه وأهله ، وقلبه ما يزال عند الساعة التى أفزع فيها عن وطنه وأهله يبكى ويبكى ...

ليتك نسيت أيها النزوى فى ناحية من حجرة تحدث نفسك حديث المـاضى ، ليتك نسيت أنك كنت ... !

كامل محمود حبيب

مأساة من سوفوكليس

٣ - أنتيجــــونى

للأستاذ دريني خشبة

— ٦ —

« تدخل إسمنيه فيخاطبها الملك »

— « ها ! هلا ! أيتها الحية الرقطاء التي ما تبرح تتحوى هي وأختها تحت عرشي ! ماذا عندك من سموم تنفثينها ؟ خبري ! ألست ذات ضلع في هـذه المأساة ؟ أم انك ستحلفين بأغلظ الايمان أنك لا تعرفين منها قُلاً ولا كثراً ؟ »

— « إن كانت هي قد حدَّثت عني بشيء ، فأنا شريكتها في كل شيء ، ولن أقول شيئاً أتحلل به من نصيبي في القصاص ! »

فتقول أنتيجوني : « حاشا ! تأبى العـدالة أن يحمل البريء وزر الجاني ! أنا وحدي اضطلعت بكل شيء ، ولقد رفضت أن أشركك في أي شيء ! »

— « ولـكني لن أدعك في تلك الملمة وحدك ! »

— « الحنان من طرف اللسان لا يعنيني يا أختاه ! الآلهـة وحدها تعلم من فعل الفعلة »

— « أوَّه ! أنت تأبين على أن أقاسمك شرف الموت معك من أجل شقيق ! »

— « لا ينبغي أن تموتي معي من أجل شيء لم تجنيه ! حسب أخي أن تموت أخت له واحدة في سبيله ! »

— « وماذا أسيغ من مباهج الحياة بعدك يا أختاه ! »

— « سلي كريون يجبك ! إنه كفيل لك بكل هذه المباهج ! »

— « وماذا يسرك من إيلامي ووخزي هكذا ؟ ! »

— « قلبي مفعم بالألم ، ومن أجل ذلك فشفتايَ تضحكان عليك ! »

— « وهل لك حاجة أستطيع أن أؤديها لك الآن يا أختاه ؟ »

— « أجل ! حاجتي إليك أن تنجي بحياتك ! »

— « وا أسـفاه ! أهكذا يحال بيني وبين مشاركتك هذا المجد ؟ »

— « وله ؟ قد اخترت الحياة ، أما أنا فقد فضلت الموت ! »

— « لقد نصحت لك ! »

— « أجل ! لقد نصحت لي ! وقد يحمد لك تيهك في هذا العالم الفاني ، أما أنا ، فستحمد لي الآلهة تفانيَّ وحكمتي في العالم الباقي ! »

— « ولـكننا سيان في هذه الزلة »

— « لا تنزعجي يا عزيزتي ! ستعيشين طويلاً ! أما أنا ، فقد قدمت حياتي قرباناً للموتى منذ زمن طويل . واذ يبلغ حوارهما هذا الحد ، يقول الملك : « إحدى الفتاتين قد فقدت صوابها كله ، أما الأخرى ... فلا صواب في رأسها البتة ! ! »

فتقول إسمنيه : « مولاي ! في مثل هذه المحنة لا يملك أحد صوابه ! »

فيقول الملك : « على كل حال لقد فقدتِ صوابك بمحاولتك مشاركة هذه المجرمة في إجرامها ! »

— « وما قيمة الحياة لدي إذا فقدت أختي يا مولاي ؟ »

— « لا تقولي أختي ! إنها لا شيء ! لا شيء منذ الآن ! »

— « ماذا ! ! أتقتل خطيبة ولدك ؟ أتقتل أنتيجوني ؟ »

— « النساء كثير يا إسمنيه ! »

— « والحب ! ! الحب الذي ألَّف بين قلبيهما يا مولاي ؟ »

— « ومن يبتغي رفيق إفك وعرس خبث لولده ؟ »

وما يكاد الملك يقولها حتى تنتفض أنتيجوني انتفاضة هائلة وتقول :

— « هايمون ! حبيبي هايمون ! كم ذا يسيء أبوك اليك ! »

فيقول الملك : « بل أنت وزيجتك النكراء شجو على ، وظلام في حياتي ! »

ويتساءل رئيس المنشدين : « وهل تفصل بينهما يا مولاي ؟ أتحول بينها وبين ولدك ؟ »

فيقول الملك : « انه الموت وحده سيحول بينهما ! »

— « اذن ... انقشعت سحب الريب ! ستقتل الفتاة ! »

— « ما في ذلك شك ! ايها الجنود ! هلموا بها الى السجن ! ستذوب شجاعتها حين يقترب الموت من عينسا المنيدتين ... »

« يقودها الجنود إلى الداخل وتذهب إسمنيه في إثرها »

— ٧ —

ويأخذ المنشدون في نشـيد طويل حلو ملء بالعبرة مبلل

بالدموع ، ويذكرون محنة بيت قدموس منشيء طيبة وجد أوديب ، ثم يرتلون صلاة شعرية لزيوس مايوشكون يفرغون منها حتى يقبل هايمون المسكين العاشق — خطيب أنتيجونى — فيخاطب رئيس الخورس الملك قائلاً :

— « هايمون أيها الملك ! ولدك الأوحد ، وآخر عسلوج فى دوحتك ! ها هو ذا مقبلا وقد حطمه الهم ، وهدمته المصيبة الفادحة .. . أوه ! إنه يبكى ! ياللآلهة ! أيذرف الدمع من أجل حبيبته ... الضحية ؟ أم هو قد جاء يلتمس منها نظرة للوداع ؟! »

« يدخل هايمون »

— « من يستطيع أن يحدس ؟ سنعلم كل شيء فانتظر . (مخاطباً ولده) أحق يا بنى أنك جئت الى هنا مدفوعاً بثورة من الهم مما آل اليه أمر خطيبتك ؟! أكبر ظنى أن حبك اباك سيرجح عندك كل حب ، وطاعتك اياه ستبرر لديك تصرفاته مهما تكن ! »

ويصبر قليلاً كمن جف لسانه من الظمأ والغشية ، ويقول : « أنا ابنك يا أبتاه ! سأخضع لكل ما ترى من رأى ، ولن أوثر على محبتك أجل حسان الخلد »

— « بورك فيك يا ولدى ! لقد كان هذا أكبر رجائى فى رجاحة عقلك وعظم قلبك ! إنه ليس أحب إلى الآباء من ذرية صالحة طيّبة يخزون بها الأعداء ، ويسرون بها الأصدقاء ؛ وإنى لأثق أن هايمون اللبيب لن يفقد صوابه من أجل امرأة ؛ اسحقها يا بنى كما تسحق ألد أعدائك ، وابعث بروحها الشريرة تبحث لها عن زوج شرير فى ظلال هيدز ! ! لقد ثارت وحدها على الملك وعلى مجلس طيبة ، وقد صممنا على إعدامها من أجل ذلك ، ولن ننكص على أعقابنا فيما أبرمنا ! إننا هنا لا يُملى علينا ونحن أصحاب الأمر والنهى ، وقد ركزت المدينة الخالدة سلطانها البين فى شخصنا فيجب أن نُطاع إطلاقاً ولو كانت أوامرنا ضرباً من الشطط ... إنه لا يهدم عظمة الشعوب كقيام الرعية ضد ملوكها ولا يهزم الجيش العرمرم ذا الأيد كعصيان جنوده قواده ! وسيرى الجميع أننى هنا لأحمى القانون ، وأننى لست هنا لأذل أو أتقهقر امام امرأة ! »

ويقترب رئيس الخورس من الملك فيقول : « الحق قلت ، والحق دائماً تقول ! »

ويتقدم هايمون الى أبيه الملك ، ويشهق شهقة هادئة ويقول :

— « مولاى ! السداد بذرة صالحة تغرسها الآلهة فى نفوس الصالحين ؛ ألا كبرت كلمة أن أقول انك أخطأت يا أبى ! ولكنى كابنك الأمين أرى لزاماً على أن أتقصى أقوال الناس وأفعالهم ، بل وآراءهم أيضاً فى ملكى الذى هو والدى ؛ وأكبر ظنى أن سلطان الملك يلجم أفواه الناس فما يحيرون ؛ بيد أننى سمعت همساً أن الطيبيين على بكرة أبيهم يذرفون الدمع مدراراً من أجل الفتاة التى أمرت باعدامها ، وأنهم يرون فى قضية القتيل رأيها ويؤيدونها كل التأييد . على أنها ماذا صنعت هذه الفتاة ؟! لقد دفنت أخاها الذى غودر مضرجا بدمه ، معفرا بثرى الجبلة ، وأشفقت أن تدعه لكلاب الفلاة وبواشق الطير تنوشه وتغتذى به .... ألا وآلهة الأولمب إنها بالمكافأة أخلق ، وبالعطف والاعجاب أحرى ! بذلك تتاحلج ألسن القوم يا أبتاه ، وهم يرددونه فى كل مكان ، فمن لك بمن يبلغك أقاويلهم غير ابنك الذى يحرص على سمعتك ونقائك كما تجهد أنت أن تبنى له مستقبله وشهرته !! أبدا لا تسمع للذين يفتنونك عن نفسك حين يقولون لك انك لا تعمل الا الصواب ولا تنطق عن الهوى .: فمثل ذلك لا يكون بشراً ، فى حين يخطىء البشر ويصيبون ! ألا وان من يدعى أنه أحكم الناس واطيبهم كلة يتكشف لك اذا خبرته عن خواء ، وعن فؤاد هواء ! أبى ! ليس فى الاصاخة للحق ما يُخجل ، ولا فى الرجوع عن الخطل ما يخزى ! ألا وان أضعف الكلأ ليقف لسيل العرم لأنه يلين له ، فى حين يجرف سيل العرم أذهب الدوح فى السماء لأنه يأبى أن يلين لشيء ! ألا وان الملاح الذى لا يرخى العنان لهوج الرياح يكسر قلاعه ويفقد فى اللجة آماله ، فأى عار فى أن تلين يا أعز الآباء ؟ ! اننى ما أدعى الحكمة ، ولا أقول بعلم كل شيء ، ولكنك غذوتنى ، ونشأتنى على الرأى السديد والتبصر ، فأنا أعظك أن تكون ممن لا يرى الا رأيه ، أو يتبع هواه فيردى ! »

ويلمح رئيس الخورس وجوماً بين الأب وابنه فيتدخل قائلاً :

— « مولاى ! لا ضير أن تصغى لما فى نصيحته من حق وانت يا هايمون ينبغى أن تنتفع بتجاريب مولاك ! »

فيقول الملك : « ها ... هاها ... بعد هذه السنين وذلك

الشيب يرشدنا هذا الصبي الطرير !! »

فيقول هايمون : « بما هو حق فحسب ؟ ولا حساب للسنين في ضرورة تنزل بك قاهرة ! »

— « وأي ضرورة في أن تلوذ بأذيال الثائرين ؟ »

— « أبداً لم ألذ بأذيال مجرم أفاق يا أبي ! »

— «وله ؟ أليست قد نهضت عليها الأدلة ودمغتها البراهين»

— « حاشا ! إن طيبة كلها تنكر ذلك ؟ ! »

— « وهل طيبة تحكمني أم أنا الذي أحكم طيبة ؟ »

— « في الحق انها هي ... لولا أن تسفه نعومة سني وتنسبني للنزق !

— « أي ان آخرين يشركونني في أمري ؟ ! »

— « ان رجلاً بمفرده لا يقوم مقام مدينة بأسرها يا أبي ! »

— « أو ليست كل مدينة في قبضة ملكها ؟ »

— « هذا اذا كان الملك يحكم كثباناً في صحراء !

ويكون الملك قد عيل صبره فيقول :

— « اذن ... أنت حامي المرأة أيها البطل الصغير ؟ »

— أنت هو المرأة ! ... وأنت وحدك الذي تعنيني ! ! »

— « وقح ! ! تأبى إلا أن تناقش أباك ... سفسطة ! ! »

— « بل أجهد أن أردك عن التمادي في خطئك ! »

— « وأي خطأ في أن أؤيد سلطاني وأحفظ وقاري ؟ »

— « وأي وقار في تحقير الآلهة ؟ »

— « أيها الشرير ! يا من تأخذ زمامك امرأة ؟ »

— « أجل ... ولكنها لن تقودني الى مفسدة ! »

— « ولذا بذلت لها دفاعك ! »

— « بل بذلته لك ولي ... وبذلته من أجل الآلهة في الدار الآخرة ! »

— « انها لن تعيش حتى تكون زوجتك في هذه الدار الأولى ! »

— « أعرف ... وأعرف أيضاً من تكون سبب خرابه وانهياره بموتها ! ؟ »

— « هه ! أنت تهدد وتتوعد أيها العاق (ياقليل الأدب !) »

— « ليس يتوعد ولا يهدد من يقول قولة الحق ... والحق الصراح ! »

— « هه ... هاها ... ستدفع ثمن هذه القحة : أيها الناصح الغبي ! »

— « لو لم تكن ملكي وأبي ، لزعمتك مذهوباً به ! ! »

— « أنت ! أيها المفتون ! يا من تصبيك امرأة ! أصمت ! لا ترد علي ! »

— « ليكون كل الكلام لك ! »

— « محال ! هذا محال ! لا بد أن تجرع كأس المنون بين يدي عشيقها ! لا بد أن تردى أمام ناظريه وملء عينيه ! الى بها . . . »

— « بل هذا هو المحال ! لا تحلم يا أبتاه بتجريعها كأس الموت من يديك أمام ناظري ... بل لا تحلم بأن تراني آخر الدهر بعد الآن ! » (١)

« وينطلق هايمون »

— ٨ —

ويقول رئيس المنشدين : « مولاي ! لقد أخذ الغضب منه كل مأخذ ، والشباب المغضب يركب رأسه اذا أهين كبرياؤه ، وقد يأتي من الفعال ما لا تحمد عقباه !

— « ليفعل ما بدا له ! ليركب رأسه في طريق من الشوك انه لن ينقذ الفتاتين مما قسم لهما »

— « الفتاتان ! وهل تقتلان كلتاهما ؟ »

— « معك حق ! بل الطائشة وحدها ... تلك التي فعلت الفعلة ! »

— « وبأية طريقة توقع عليها عقوبة الاعدام ؟ »

— « في القبو ! القبو المظلم تحت هذا القصر . ستنفرد فيه وسيفرش لها مهاد من الشوك يخز روحها وبدنها حتى تموت ولتعبد هنالك آلهتها ... آلهة الفناء ... حتى تقضي فيها قضاءها ... »

« ويخرج كريون »

(لها بقية) دريني خشبة

(١) نحسب أن هذه الثورة من سوفوكليس على سلطان الآباء هي الأولى من نوعها في تاريخ الأدب . وكم تلذ المقارنة في ذلك بينه وبين صموئيل بطلر في كتابه (The Way of all Flesh) وبينه وبين شو في قصته (Misalliance)

تصحيح

جاء في مقال « مقتل أبي الطيب المتنبي » المنشور في هذا العدد صفحة ١٢١٤ سطر ١٣ من العمود الأول : « فقام فاتك ونفض ثوبه من رتوت الأعاريب الخ ... » وصوابه : « فقام فاتك ونفض ثوبه وجمع من رتوت الأعاريب ... »

البريد الأدبي

الأدب الهندي في مختلف أطواره

تتكون اللغة الهندية الحديثة من ثلاثة عناصر ؛ من أصول سنسكريتية خالصة ، ومن أصول سنسكريتية حورت بحسب الحاجة ، ومن أصول حديثة مبتكرة أو مشتقة من اللغات الأخرى وهذه الأصول الثلاثة هي اليوم قوام اللغة الهنــدية المعروفة «بالهندستانى» أما اللغة الهندية التي اشتقت من الأصول الفارسية والعربية فتسمى باللغة الأوردية

ويبدأ الأدب الهندى ، كما تبدأ معظم آداب العالم ، بالشعر ؛ وينقسم الشعر الهندى القديم إلى ثلاث مراحل تتمشى مع سير التاريخ الهندى . فمنذ القرن العاشر الى القرن الرابع عشر حيث تكثر الحروب الأهليــة والغزو الأجنبى ، يسود الشعر عنصر الفروسية ، وكان الملوك يومئذ يلحقون الشعراء بحاشيتهم ، ليثيروا الحماسة فى الصدور بشعرهم . وكان أعظم شاعر فى هذا العصر هو شاندبارداى صاحب المقطوعة الشعرية الخالدة : « برتفيراج رازو » ، ويليه الشاعر بوشان صاحب مقطوعة « شيفاباوانى »

وبعد الفتح الاسلامى ضعف شعر الفروسية فى الهندية ؛ فقد رأى الهنود ما أصاب دينهم من الذلة ومعابدهم من الهدم ، فاتجهوا نحو الشعر الدينى ، واستمرت هذه المرحلة من القرن الرابع عشر حتى القرن الـسابع عشر ؛ وينتمى جماعة من أقطاب الشعر الهندى الى هذا العصر مثل كبير ، وجورو ، وناناك ، وجياسى ، وميرابى ، وكيشافا ، وسور ، وتولسى ، وتولسيداس وقد وهب هؤلاء الشعر الأدب الهنــدى تحفاً رائعة من الشعر الخالد ؛ وكان تولسيداس بالأخص نبياً كما كان شاعراً عظيما ؛ وكانت تحفته الخالدة « رامايان » عاملاً فى توثيق أواصر الوحدة الهندية . وقد ساهم الـكتاب المسلمون فى نهضة الشعر الهندى فى ذلك العصر ، وان لم يكن شعرهم كله من النوع الدينى

وأما المرحلة الثالثة من شعر العهد القديم ، فقــد عرفت بمرحلة الشعر الشرعى ؛ وقد ساد فيها السلام نوعاً ، واتجه الشعراء الى التنوع والابتكار ؛ وكان أشهر شعرائها بهارى ، وماتيرام ، وبوشان ، وصردهار كاوريايا

وبعدئذ طرأ على الشعر الهندى تطور عظيم ، وأخذت الهندية الحديثة تحل تدريجياً مكان الهندية القديمة ؛ وتطور الشعر ذاته فأخذ الشعراء يصفون الطبيعة والمسائل الاجتماعية والسياسية ، وكان البنديت شريدار باتالا فى مقدمة الشعراء الذين استعملوا الهندية الحديثة ، ومن مشاهير الشعراء المحدثين أيضاً ، أوديا سنغ أو بادبايا ، ومهابير دفيدى ، ورمشاريت أو بادبايا ، وسريماتى مادينى فارما

وأحدث أطوار الشعر الهندى ، هو توجهه نحو « التصوف » وقد كان البادئ بهذا النوع الحديث من الشعر الشاعر الأمريكى والت هويتمان

* * *

وكان فى الأدب الهندى قبل مجيء الانكليز قليل من كتب النثر ، وكان سادا سكلال ، وانشاء الله ، وسادالا مسرا طلائع النثر فى الأدب الهندى ، ثم جاءت البعثات التبشيرية بعد ذلك وترجمت الـكتب النصرانيــة إلى الهندية ؛ وألف الـكاتب ساراسواتى كتبه بالنثر ومنها كتابه الشهير «ستيارث براكاشى» وذلك لـكى ينشر دعوته الشهيرة « الآرياسماج » ، وكان أعظم الـكتاب الناثرين فى هذا العصر بارتندو هاريشاندرا ، فـكتب بالنثر عدة قصص تمثيلية وأذاع دعوة النثر بين أصدقائه ؛ وظهرت فى ذلك العهد أيضاً بعض المجلات التى تكتب بالهندية المنثورة ، ويعرف هذا العهد بعهد بارتندو

ويعرف العهــد الثالث من النثر الهندى بعهد « ماهابير براساد » ، ففى سنة ١٩٠٣ انتخب هذا الـكاتب الشهير لتحرير مجلة « ساراسواتى » فى الله آباد ، وقد كانت أشهر مجلة أدبية فى ذلك العهد ، وقد استطاع ساراسواتى أن يخلق بواسطة هذه المجلة معيارا جديداً لـكتابة النثر الهندى ، وأن يعاون على الظهور كثيرا من كتاب الشباب

ويبدأ النقد الأدبي في الأدب الهنـدى من ذلك التاريخ ، وكان أشهر النقدة يومئذ المهابير براساد دويفيدى ، والنبديت شارما ، وبابوشيامسوندرداس ، والنبديث شوكلا

ويمتاز العهد الحاضر من النثر الهندى بنشاط جم في جميع الفنون ، وقد أدت ترجمة القصص البنغالية الحديثة إلى العناية بوضع قصص هندية مسرحية ، وفى مقدمة مؤلفى المسرح اليوم جاباشانكار براساد ، بيد أن الرأى العام لا يهتم الآن كثيراً بهذا النوع من الأدب بعد أن زاحمه القصص العام والسينما

وأهم أنواع الأدب الهندى المنثور اليوم هو القصص ، وقد أدخلت القصة القصيرة إليه حديثاً ، وأعظم كتاب القصص الهندى هو « مونشى برمشاند » ، وقصصه من أعظم وأرفع الأنواع ، ولو أنها توصف أحياناً بأنها مغرقة فى المثل ، وأسلوبه نموذج للشباب

وأما جاباشانكار براساد فهو فنان وشاعر يضع قطعاً مسرحية فوق مستوى القارئ العادى

وأشهر كتاب القصص فى الهند اليوم هم سودارشان ، وأورجا وشاتورسن ساسترى ، وجانندرا ، وهنالك مئات الكتاب الشبان الذين ينقطعون لكتابة القصة ؛ ومادة القصص هى فى الغالب المسائل الاجتماعية والسياسية ، وهنالك قليل من الكتاب الفكهين

وهنالك مجلات هنـدية كثيرة من الدرجة الأولى ، ومن أشهرها : شاند ، وسارسواتى ، وهانس ، ومدهورى ، وآرج ، وبرأتاب ، ونافيوج ، وفارتمان ، وغيرها

أما الأدب العلمى فلم ينضج فى الهندية بعد ، ولم يكثر إنتاجه . ذلك أن الهندية ليست وسيلة للتعليم الفنى ؛ ومع ذلك فقد ظهرت بالهندية عدة كتب علمية وفنية

ومن الظواهر الجديدة فى الأدب الهندى ، أن كثيراً من الكتاب الذين لا يتكلمون بالهنـدية يكتبون اليوم بها ؛ ومن هؤلاء أمير خوسرو ، ورحيم ، وأمير على مير ، وغيرهم من الكتاب المسلمين

كتاب جديد لماري ستوبس

صـدر أخيراً كتاب جديد للدكتورة مارى استوبس M. stopes التى اشتهرت بمباحثها عن الحياة الزوجيـة ، عنوانه « تطور الحياة عند الرجال والنساء » Change of Life in Men and Women وتعالج الدكتورة استوبس فى كتابها الجديد ناحية جديدة من الحياة الزوجيـة هى التطورات التى تطرأ على علائق الزوجين وعواملها النفسية والاجتماعية ، وتحول عواطف الشباب إلى عواطف الكهولة ؛ وتتناول بين موضوعات كتابها ما يأتى : التقـدير الحسن والأزمات ، التطور فى الرجل والمرأة . بعض عوامل فسيولوجيـة فى الرجل ، بعض عوامل فسيولوجية فى الجنسين ، بعض هذه العوامل فى المرأة ، بعض وسائل المعالجة .. الخ وللدكتورة ستوب شهرة واسعة جداً بين الشباب الانكليزى وهو يقبـل على قراءة مؤلفاتها بشغف ؛ مثال ذلك أنه بيع من كتابها من « الحب الزوجى » نحو مليون نسـخة فى عشرين عاماً ؛ ولها عدة كتب أخرى تلاقى فى انكلترا وأمريكا مثـل هذا الانتشار المدهش

أثر تذكارى للموسيقى لست

من أنباء النمسا الأخيرة أن الحكومة النمسوية قد أعدت أثراً تذكارياً للموسيقى النمسوى المجرى الكبير فرانز لست لينصب فى مدينة ايزنشتات من أعمال مقاطعة بورجنلند النمسوية ، وذلك بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ومرور مائة وخمسة وعشرين عاماً على مولده ؛ وقد ولد لست فى سنة ١٨١١ فى زيدنج من أعمال المجر يوم كانت قطعـة من الأمبراطورية النمسوية ودرس فى فينا وباريس ، ونبغ فى الموسيقى تأليفاً وعزفاً ، وطاف عواصم القارة وبهر مجتمعات ذلك العصر ببراعته وسحر عزفه ؛ وفى سنة ١٨٦٥ اعتزل الحياة الدنيا واعتنق الرهبنة ، ولـكنه اشتغل بالموسيقى الكنسـية ، وألقى فى كنائس أوربا الكبرى عدة قداسات موسـيقية اشتهرت فى ذلك العصر ، وحجت اليها الجماهير من مختلف أنحاء العالم ، وتوفى لست فى سنة ١٨٨٦ ، ومع أن لست كان مجرياً بمولده ، فهو نمسوى التربيـة والفن ، ولذلك رأت الحكومة النمسوية أن تكرم ذكراه بصنع هذا الأثر التذكارى ونصبه فى مدينـة ايزنشتات وهى التى عاش فيها لست أعواماً طويلة ، وهـذا الأثر عبارة عن تمثال رائع قام بصنعه المثالان الشهيران باراى وتسانباور ؛ وقد أجرى رفع الستار عن الأثر التذكارى فى حفل رائع في مدينة إيزنشتات . خطب فيه وزير المعارف ونوه بعبقرية الموسيقى الشهير ، واختتمت الحفلة بعزف بعض قطع شهيرة من تأليفه

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

العدد ١٦١ — ٣ أغسطس سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4me Année, No. 161 — Lundi - 3 - 8 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٦١ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ — ٣ أغسطس سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

البـــك والباشا

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وحدثني صاحب سرّ (م) باشا رحمه الله قال: جاء يوماً الى زيارة الباشا رجلٌ دخل عليَّ متهللاً مُشرقَ الوجه كأنه مُضَاءٌ من داخله بشمعة . . . ويترنح عِطفاه كأنما تهزُّه أسرار عظمته، ويمشي متخلِّعاً كالمرأة الجميلة التي أثقلها لحمُها وأثقلتها المعاني الكثيرة من أعين الناظرين إليها، وعلى شفتيه خيال من فكرة هؤلاء الكبراء المغرورين الذين لا يأمر أحدهم رجلاً صغيراً إلا ليُعلمه أنه هو كبير فيكون فى الأمر شيئان: الأمر واللؤم. وأقبل علي فى هيئة شامخة لو نطقت لقالت: سبِّح اسمَ ربك الأعلى. سبِّح اللهَ الذى خلق فى الأسد شعرةً جبَّارة خرج منها الأسدُ كله . . . .

سبحان الله ولا إلـه إلا الله. هذا (فلان باشا) الذى قرأت فى الصحف أمس أنهم أنعموا عليه برتبة الباشوية؛ خلقه الله من تراب وحوَّلت الرتبة هذا التراب الذى فيه إلى ذهب خالص ... ينظر إليَّ ورغمـه أن تقف عيناه عليَّ وعلى الحائط؛ ولا تجد نفسه المزهوَّةُ سبيلاً الى التعبير عن الرتبـة إلا هذا الازدراء المنبعث من شخصه العظيم لمن لم يكن كشخصه. ما بين أمس

واليوم زاد هذه الزيادة الآدمية ، أو كأنما كانت صورته خطوطاً فقط فوضعت فيها الألوان . . .

(باشا) : هذه الباء وهذه الألف وهذه الشين المدودة ليست حروفاً خارجة من الأبجدية العامة ، فان الأبجدية قد تجعل الباء فى بليد مثلاً ، والألف فى أبله ، والشين الممدودة فى شاهد زور مثلاً مثلاً . . . . بل تلك حروف من حروف الدولة منتزعة من قوة قادرة على أن تجعل لحياة صاحبها من الشكل ما يسبغه الفن على الحجر من شكل تمثال ينصب للتعظيم

قال : وكنت أعرف هذا الرجل وهو رجل أمىٌّ لا يحسن إلا كتابة اسمه كما تكتب الدجاجة فى الأرض ... فكانت الرتبة عليه كاطلاق لفظ الحديقة على صخرة من الصخور الصَّلدة ؛ وهذا مما يحتمله المجاز بعلاقة ما . ولكن الذى لا يسوغ فى المجاز ولا فى مبالغات الاستعارة ولا فى خرافات المستحيل أن تزعم الصخرة للناس أن لفظ الحديقة الذى أُطلق عليها قد أنبت فيها أشجار الحديقة

* * *

قال صاحب السر : واستأذنت له على الباشا فسهل له الاذن وقال : هذا رجل أصبح كالورقة المبصومة بخاتم الدولة فلتكن ما هى كائنة فان لها اعتبارها . ثم تلقَّاه تلقى الهازل المتهكم وقال له : أهنئك بالنَّحوى . . . مُبارَكون يا باشا . . . وأقبل عليه وبَسَطَ له وجهَه

وكان فى الباشا دُعابة ظريفة يعرف بها ، وهو كثير النوادر والمُلَح ، وله خصيصة عجيبة فيكون بين يديه كدس من الأوراق التى تعرض عليه ينظر فيها ويقرؤها ويتدبرها ، وهو فى ذلك يستمع الى محدثه ويراجعه ويرد عليه ، فيصرف الناس والأوراق فى وقت واحد ، ويستعمل ناحيتين من فكره استعمالاً واحداً لا يُخل بالاصابة فى شىء من هذه ولا من تلك

ثم قال للباشا الحديث وعينه الى ما بين يديه : هذه أوراق سرقة ثور عظيم فكم يساوى الثور العظيم الآن . . . ؟

قال صاحبنا الذكى الفطن : إذا كان من الثيران التى تعرض فى المعارض وتنال المداليات الذهبية فقد يبعد سعره ويغالى به

قال الباشا : نعم نعم . إن من الثيران ثيراناً يُنعم عليها بالأوسمة ، ولكن هذا الثور الذى سألتك عنه يا باشا هو ثور محراث لا ثور معرض . . .

قال الآخر : إذا كان ثور محراث فمثله كثير فلا يكون ثوراً عظيما كما قلت وليست له إلا قيمة مثله

قال الباشا : أرانى أخطأت ولعن الله العجلة ، فهذه أوراق سرقة حمار . . .

* * *

قال صاحب السر : وانصرفتُ عنهما بأوراق وقد رأيت يدَ الباشا مملوءة لصاحبنا بتحيات كلها صفعات . فلم يكن إلا يسير حتى خرج مبتهجاً يميد السرورُ بعطفيه . ثم دعانى الباشا ودفع إلىَّ بطاقةً بالحاجة التى جاء فيها الرجل ثم قال :

ياليت لنا فى ألقاب الدولة لقب (رحمه الله) . . . ينعم به على مثل هذا . أتدرى يا بنى أن هذه الرتب وهذه الألقاب لم تكن فى القديم إلا كوضع علامة الشرّ على أهل الشر ليهابهمُ الناس حتى كأنما يكتب على أحدهم من لقب بك أو باشا : مُلْحق بالدولة . . .

وكان الشعب أمياً جاهلاً لا يستطيع الادراك ولا يحسن التمييز . فكانت الألقاب كالقوانين الشخصية الموضوعة فى صيغة موجزة مفهومة متعينة الدلالة ، وكان كل من يحمل لقباً من الحكومة يستطيع أن يقول للناس : لقد وضعت الحكومة كلمة الأمر فى شفتى . . . .

وكأن اللقب إعلان من الحكومة المستبدة لشعبها الجاهل : إن هذا البك والباشا ممن يحقُّ له أن يخشى فيجب له أن يحترم[1]

من الهزل أن يشترى اسمُ النصر الحربىّ أو يوهب أو يُعار ؛ وأقبح منه فى باب الهزل أن ينعم على مثل هذا الأمىّ بلقب باشا . وأنا أعرف أنه قد بذل فى سبيله ما بذل وأضاع ما أضاع فكأن الذين منحوه إياه لم يفعلوا شيئاً إلا وضع توقيعهم على أخذ الثمن ...

ولقد أصبح الرجل تحت تأثير الكلمة العظيمة مخبولاً بسحرها الوهمى فحَسِبَ ذلك إدخالا له فى وظيفة كل حاكم وإشراكا له فى الحكم متى اقتضته مجارى أموره وأحواله أو حاجات أسبابه وأتباعه . وها هو ذا قد جاء يطلب حقه فان مثله لا يفهم من لقب (باشا) إلا أن الحكومه قد سوَّغت سلطتَه الظهورَ والعمل فدَّتْ باعه وقوَّتْ أمره ونوَّهت باسمه لصالحها وعمالها ؛ فهو عند نفسه قد التحم منذ اليوم بالنسب

(١) بسطنا شيئاً من فلسفة الرتب والألقاب فى مقالة (بنت الباشا) من مقالاتنا فى الرسالة

ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه : الكلام كله تخيل ولا أصل أو حقيقة له)

– ٨ –

لو كانت ذات الثوب الأرجوانى مع « موسى » – عليه السلام – لمّا ذهب إلى فرعون يدعوه إلى ربه لكان الأرجح أن يؤمن ولا يكفر ، ولكان من المحقق – عندى على الأقل – ألا ينزل بمصر ما نزل بها من البلايا والضربات والمصائب الكبَر . ولكن موسى – عليه السلام دائماً – لم يكن على ما يؤخذ من تاريخ حياته – يعرف مبلغ تأثير الأرجوانيات فلم يسأل الله أن يشد أزره إلا بأخيه هارون ؛ وقد فطن قومه إلى هذه الحقيقة ، ولكن بعد خراب البصرة . على أنى لا أرى ذات الثوب الأرجوانى تقينى شيئاً ولا أعرفها تدفع عنى بلاء . وإن المكاره جميعاً لتحيق بى تحت عيها ومع ذلك لا تحرك ساكناً ، ولا ترفع اصبعاً كابحاً ، فأى حب هذا بالله ؟؟ .... لكأنى بها تشمت بى ويسرّها أن يصيبنى كل يوم سوء ، وكأنما تظن أن حسبى كلما مسنى ضرّ أن أنظر اليها وهى قاعدة على كرسيها ، وإحدى ساقيها على الأخرى ، وذراعاها على حافة الشرفة ، وخدها على ظهر كفها ، وأصابعها تنقر على الحجر ، وقدمها الدقيقة تتحرك متابعة نقر الأصابع ، كأنها تحلم بصوت أو كأنما تدندن لنفسها بصوت خفيض ... وليتنى مع ذلك أسمع !! إذن لكان لى بعض العزاء ... ولقد سمعت صوتها إذ تكلم جارتها أو تدعو أخاها – أو هو لا بد أن يكون أخاها – ولكنى لم أسمع غناءها . وما من شك عندى فى أنه شجى وأن صوتها رخيم فانه خالص كالفضة . ولكنها بخيلة ... جدا ...

وآخر ما حدث مما لم تدفع عنى شره أنى بعد أن كتبت فصلا من هذه الفصول كان فى البيت لفيف من الأهل والأنسباء – قبحهم الله جميعاً – فقالوا ما هذا ؟ قلت : « فصل فى ذات الثوب الأرجوانى » . قالوا : من عساها تكون ؟ فكرهت هذا الفضول منهم – ولكنهم يحسبون أن كونهم أقارب يشفع لهم فى كل فضول – غير أنى كتمت مقتى لفضولهم – لا لهم هم – وقلت : « إنها من مخلوقات الخيال » فجعل هذا يزوم ، وذاك يحدق فى وجهى ، وثالث يقول لى : « عينى فى عينك ؟ » ورابع يقول : « طبعاً . طبعاً » إلى آخر ذلك . ثم اقترح واحد منهم – هو أخبثهم – أن أقرأه لهم ، فقلت : حتى ينشر . قالوا : بل الآن وهل ثم مانع ؟ وما الفرق بين أن نسمعه الآن وأن نقرأه مطبوعاً فى « الرسالة » ؟؟ فاقتنمت – لا أدرى كيف ؟ – وشرعت أقرأ لهم ، وليتنى ما فعلت فقد كنت كأنما بعت نفسى ..

وقال أحدهم : « اسمع . . ما دام أن الأمر كما تقول فان من الواجب تغيير كذا وكذا وإبداله بكيت وكيت . . . »

فقلت : « هذا مستحيل . . لقد كتبت ما خطر لى وانتهى الأمر »

قال : « كلا . . يجب أن تجعل الرجل الذى تتحدث بلسانه أرق مما يوهم كلامك »

قلت : « ولكنه هكذا . . وقد خلقه الله كذلك فكيف أشوهه أنا ؟؟ »

قال : « إذن هو شخص حقيقى . ؟ »

قلت – وقد أحسست أنى وقعت – « يا أخى ومالك أنت ؟ . إن صورته فى ذهنى هى كما أصف . . ولست أستطيع أن أغيرها إلا إذا استطعت أن أغير طريقة تفكيرى وصبغة خيالى . . وهذا شىء لا قِبلَ لى به فأقصر بالله عليك »

الحكومى : وفى كلمة واحدة هو قد وُلد من بطن الحكومة ...

ألا ترى أن الشعب لو استردَّ سلطته الكاملة وأن الناسَ لو أيقنوا أن هذه الألقاب ألفاظٌ فارغة من الأمر والنهى والوسيلة والشفاعة لما بقى من يعبأ بها ولكان حاملها هو أول من يسخر منها ؟ فهى إذن شعبذة من الحكومة وتضليل فى مثل هذا الرجل الأمىّ ، وهى ضربٌ من التهويل والمبالغة فى سواه من الكبراء والعظماء : كأن الوزير الذى يلقب بالباشا يجعل فيه لقبه وزيرين ، وكأن مثل هذا الأمىّ المغفل يجعل فيه لقبه شخصاً آخر غير الأمىّ المغفل

أنا قلما رأيت رجلاً يحتاج إلى ألقاب يتعظم بها إلا وهو لا يستحقها ؛ وقلما رأيت رجلاً يستحقها إلا وهو لا يحتاج إليها ؛ فأين يكون موضع هذه الرتب والألقاب ؟

(سيدى بشر باسكندرية) مصطفى صادق الرافعى

فشرعوا يتهكمون ويسخرون . وقال أحدهم : « هل قلت إن أنفه أقنى ؟ ؟ »

قلت : « كلا فاني أستقبح هذا النوع من الأنوف »

قال : « إني واثق أنك كنت تتصورني وأنت تصف هذا العاشق المدنف ، ولهذا أرى من حقى أن أستشار فيما تكتب عنه »

قلت : « إن عاشقي ليس مدنفاً ... هو على العكس صحيح معافى ... ثم إنك آخر من يصلح لهذه المواقف الانسانية ... ولست مجنوناً حتى أصفك في قصة »

قال : « هل تسمعون ؟؟ لا بأس !. عض اليد التي تطعمك وتغذيك !!. هذا جزاء من يسمح لك أن تصور شخصيته البارعة .. لا بأس ! ! ولكني لا أفهم كيف تكون هذه الحبيبة عصرية ولا يكون لها كلب ؟ . أو على الأقل جرو صغير ؟؟ .. نعم لا بد من كلب فقم أدخله في القصة »

فقلت بغيظ : « يكفي أنك ستقرأها فيتحقق مرادك »

فلم ينهزم وقال : « صحيح ؟ ؟ ولكن هذا لا ينفي أن الفتاة المسكينة لا كلب لها إلا على بعد ثلاثين متراً ! ! كلا . هذا لا يليق ! ! اسمع مني وغير ما كتبت .. وهأنذا مستعد أن أساعدك .. إن المناسبة توجد الرجل الصالح .. وأنا أسألك باخلاص أي شيء أوفق من أن أمد يدي اليك لأشد أزرك ؟ وهل يليق بي أن أقعد ساكتاً وأنا أراك تخلط وترسم لنا صورة رجل وامرأة لا يمكن أن يمشي مثلهما في الدنيا ؟ ؟ كلا — على التحقيق ... (والتفت الى الموجودين وسألهم) أهذا ينتظر مني ؟ ؟ . »

ولأول مرة في هذه الجلسة سررت إذ سمعتهم جميعاً يقولون بلسان واحد « نعم »

ولكنه لم يعبأ بهم ومضى يقول : « هأنذا .. أجيء في اللحظة الحافلة بالاحتمالات متنكراً في زي رجل هرم وفي قدمي حذاءان قد يليقان بأبينا آدم — فقد زعموا أن طوله والعياذ بالله أربعون متراً — وبفم ليس لحلقه سقف . . حسن . . ولا يراني أحد .. ولا تفطن الى وجودي الفتاة ذات الثوب الأرجواني ، على الرغم من حذائي المهولين ... فأخرج منهما ، وأتساق أنابيب المجاري حتى أبلغ الشرفة التي تتخذها ذات الثوب الأرجواني ، غرفة جلوس ، وحجرة استقبال ، وبستاناً للنزهة ، وملعباً للتنس ومرصداً للأفلاك !! فأفاجئها وهي قاعدة تفكر في حبيبها المخرف الذي لا يستطيع حتى أن يحرك إصبعاً يشير به إليها وأقول لها

بخ بخ . . فتفزع وتصيح ياي . . ياي . . »

فلما سكنت الضجة قلت : « إني أكتب قصة ولست أصف ملعب مهرجين أو سيرك حيوانات »

قال : « ما أحسن هذا الأدب ! ! أنت لا تستطيع أن تفهم المواقف الروائية ولهذا . . . »

فصاحت إحدى الفتيات الموجودات : « هس .. أظن أن هذه هي ذات الثوب الأرجواني . . الحق إنها جميلة . . ويجب أن نعترف أنه معذور »

فعاد اللعين يقول : « آه . . لا شك . . لا شك . . جميلة جداً . . ولكن انظروا ماذا صنع بها ؟ ؟ لقد صارت في يده . . أعني في وصفه لها . . ثوباً أرجوانياً لا فتاةً من لحم ودم . . ولو أنه استمع لي . . »

وهنا ضاق صدري ونفد صبري ولم تبق لي طاقة على احتمال هذه السخرية فتناولت الورقات التي كانت مكتوبة وكنت أقرأها لهم ومزقتها كل ممزق

***

وليس هذا سوى مثل لبعض ما ألقى في سبيل ذات الثوب الأرجواني ، وهي لا تعبأ ولا تبالي ! ! والحق أقول إني لم أعد أفهم شيئاً من أمرها . فأما أنها معنية بي فهذا ما لا يخالجني شك فيه . ولقد حرصت مرات على أن أتبين هل في العمارة التي أسكن إحدى شقاتها من يغازلها أو يناجيها أو يصنع ما يصنع المعجب أو العاشق أو المفتون ، فلم أجد أحداً . وكثيراً ما انحدرت إلى الشارع ووقفت على الرصيف الآخر المقابل لرصيفنا ونظرت إلى عمارتنا ، وقد وجدت في كل مرة أن النوافذ جميعاً إما موصدة أو لا أحد فيها . ثم إني أعرف متى يكون مساكني في بيوتهم ومتى يخرج كل منهم ؛ فقد لاحظتهم جميعاً وعرفت عاداتهم — حتى الشبان اللاعبين الذين تخشى مزاحمتهم — فلا أحد هناك تنظر اليه أو ينظر اليها سواي في هذه العمارة الضخمة ذات الطبقات السبع . فهي لا شك تعنيني وحدي بكل ما يبدو عليها من ارتياح واشمئزاز ، ومن نفور واقبال ، وأنا المقصود بكل ذلك . ومؤدى هذا أن لها عناية بي ، وليس المهم أن تكرهني أو تحبني فان المآل واحد في الحالتين ؛ ومتى نجح الرجل في لفت المرأة اليه فانه يستوي أن تظهر له البغض وأن تبدي المودة ؛ فان المهم أنها صارت تعنى به ، وأنها أصبحت مشغولة بأمره ، ولا بد أن يؤدي هذا إلى الحب آخر الأمر . فليس للحب أول عند المرأة إلا العناية

مهما كان باعثها والداعي إليها ، ولا ريب فى عنايتها بى . بل فى وسعى أن أقول وأنا آمن ومطمئن إنها تدرسنى فى الصحة والمرض ، والسرور والحزن ، والضحك والكآبة ، والجد واللعب . بل هى ترصد كل حركة لى ، وكل إشارة ، وتتبع ما يصدر عنى وما يكون منى ما دمت بادياً لها ، وقد كنت أمس أنظر من الشرفة إلى الطريق وأتأمل الرائحين والغادين وأسرّى عن نفسى بمناظر الناس وما يكون منهم ، فاتفق أن رأيت فتاة فى ثوب بنى محبوك وحذاءين خيّل إلىّ أن أحدهما أبيض والآخر أسود ، فاستغربت أن تلبس فتاة حذاءين مختلفى اللون ، ودعوت إحدى من فى البيت إلى النظر فوقفت مستغربة مثلى ، وكانت الفتاة تروح وتجىء على الرصيف فى انتظار الأمنيبوس ، وقد أبطأ عليها فطال تمشّيها أمامنا ، وطال عجبنا من حذاءيها المختلفين ، وكنت أشير اليها وأنا أتحدث عنها ثم رفعت رأسى إلى شرفة الأرجوانية فاذا فتاتى قد نهضت وانحنت تطل على هذه الاعجوبة ، وقد ظهر لنا أن الحذاءين ليسا مختلفين وأن كلا منهما نصفه أبيض والنصف الآخر أسود . ولما كانت الفتاة تسير وجانبها إلينا فانه لم يكن يبدو لنا من لونى كل حذاء إلا جانب واحد ، ولهذا ظننناها بالغت وأسرفت فى الأناقة الى حد اتخاذ حذاءين : واحد أبيض ، والثانى أسود

أريد أن أقول إن بال الأرجوانية إلىّ — لاشك فى ذلك — وأن عينها على كل حركة لى وأنها تتعقب إشاراتى — وكلامى أيضاً — وتحاول أن تدرك المقصود منها والمراد بها ، ولم أقص حكاية الحذاءين وصاحبتهما إلا على سبيل التمثيل . وثم قصص أخرى تجرى هذا المجرى وتؤدى إلى هذه الدلالة ، وفى ذكرها تطويل لا موجب له . ومع ذلك تجاهد ذات الثوب الأرجوانى أن تخفى حبها — أو على الأقل عنايتها الشديدة — وتروح تغالطنى فتبدى لى صفحة الاعراض بعد أن تشير لى بوردة وتطمعنى بهذه الايماءة الرقيقة . وما أكثر ما تنتفض قائمة كأنما شكها أحد بسيخ محمىّ وتخرج ثم لا تلبث أن تعود ضاحكة مشرقة الديباجة !! ويجن الليل فتجعل من شرفتها مرصداً لأنها هى فى الظلام وأنا فى النور . وتظن أنى لا أراها . وأنا يحلو لى أن أجلس فى الصيف فى شرفتى وأتعشى فيها أيضاً ، فان الغرف حارة حامية كاوية ، كنار الله الموقدة ، والعياذ به تعالى وليس أحلى من ليالى الصيف إذا لم يركد الهواء . فاذا جلست فى شرفتى جعلت ذات الثوب الارجوانى تراعينى من مكمنها المظلم وهى تحسب أنى غافل عنها ، أو أنى لا أرى فى الظلام . ولها العذر . ومن أدراها أن لى عيناً كعين القطة ؟ — ترى فى الظلمة كما ترى فى النور ... وأحسب أن الارجوانية قد صارت تعرف كل شىء عنى فليس عندى ما أكتمه . وإذا كان أحد من خلق الله يؤمن بالسر فانى لا أومن بذلك ، ولا أعتقد أن فى الدنيا شيئاً يبقى سراً مكتوماً . ولهذا أرى أن من العبث أن أحاول كتمان أمر . وما دام ليس هناك ما يخزينى فلماذا أتكتم وأتستر ؟؟ ولا بد أن يعرف الناس ما تحاول إخفاءه ، فأولى بك أن تدعهم يعرفونه منك اتقاء للتشويه ، واجتناباً للغلط وسوء التصور . ولكنى لا أعرف عنها إلا القليل البادى لأنها فتاة وليست رجلاً مثلى . وللرجل من الحرية ما ليس للمرأة . وقد لا يضير الرجل أن يعرف عنه الناس أنه عاشق ، ولكن فتاة صغيرة غضة السن قد يضيرها ذلك ، ولا سيما إذا كانت لا تعرف آخرتها مع الرجل الذى ترى قلبها مجذوباً إليه . ومن هنا أعذرها ، ولكن الذى لا أستطيع أن أتبين وجه العذر فيه أو الحكمة هو هذا التقلب ، فانها تارة ترضى وأخرى تغضب ، ومرة تقبل وطوراً تنفر . وإنها لتقبل أحياناً حتى لا تبقى عندى ذرة من الشك فى سرورها بحبى لها وحتى لأحس رغبة شديدة فى أن أقفز من النافذة إذ يخيل لى فى هذه اللحظات أنى أستطيع أن أطير إليها من فرط الخفة والسرور ، ثم تعرض وتنفر فيثقل على نفسى ذلك حتى لأهم بأن أضرب حجارة الشرفة بيدى وأركلها برجلى كأنها هى المسئولة عما أرى من إعراضها .. ولا سبب أعرفه لاقبالها ولا لاعراضها فما بيننا أكثر من النظر .. ولو شاءت لكان بيننا ما يختصر هذه الثلاثين متراً ويجعلها متراً أو نصف متر أو شبراً أو أقل من ذلك .. ولكنها لا تشاء . وأكبر الظن أن ليس لمشيئتها دخل فى الأمر وأن رغبتها لا تقدم أو تؤخر .. كان الله فى عونها .. وفى عونى أنا أيضا ، فان ضيق صدرها بما تجد من القيود التى حولها ينقلب على أم رأسى أنا .. وما لى ذنب ولكن العامة صدقوا فى قولهم « ضربوا بتاع الكسبرى ... »

ابرهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه — وقع خطأ مطبعى فى أبيات لى قديمة رويتها فى الفصل السابق فكتب الحياة (بالتاء المربوطة) الحياء بالهمزة ، وكذلك النجاة (تاء مربوطة) كتبت بالهمزة . والصواب فى الاثنتين بالتاء ، وتنطق فى البيتين هاء لا أدرى لماذا ، وشعرى لا ينقصه أن يزيد فساداً بالخطأ للطبعى — المازنى)

المقرى مؤرخ الأندلس

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٢ —

يقسم المقرى كتابه عن الأندلس إلى قسمين كبيرين ، يخصص أولهما للتعريف بالأندلس وتاريخها وآدابها ، والثانى للتعريف بابن الخطيب . ويشتمل كل قسم على ثمانية أبواب ، فيشمل الأول وصف الأندلس وجغرافيتها وفتحها على يد موسى وطارق ، وتاريخها فى عهد الولاة وبنى أمية وملوك الطوائف ، ووصف قرطبة ومعاهدها وضواحيها ومتنزهاتها ، ثم التعريف بالراحلين من الأندلس إلى الشرق ، والوافدين من المشرق على الأندلس . واستعراض آداب الأندلس ومنثورها ومنظومها ، ثم تاريخ الصراع الأخير بين الأندلس واسبانيا النصرانية وسقوطها الأخير فى يد النصارى . ويشمل القسم الثانى على نشأة ابن الخطيب ، وتدرجه فى طريق المجد وما لقى من الأحداث والمحن حتى وفاته ، وذكر أساتذته وأشياخه ، وما وجه اليه من الرسائل الملوكية ومن أكابر عصره ، ومقتطفات كبيرة من كتبه ورسائله ونثره ونظمه ، وذكر مؤلفاته وذكر بعض تلامذته الآخذين عنه ، ثم ذكر أولاده ووصيته

ويشغل الكتاب كله أربعة مجلدات ضخمة ، كل قسم مجلدين ؛ فهو كما قدمنا موسوعة صحيحة سواء من ناحية حجمه أو محتوياته ؛ ذلك أن المقرى يحشد فى كل باب من هذه الأبواب العامة كثيراً من المعلومات والشذور والوثائق والرسائل والمختارات ؛ ويكاد كل منها يضارع كتاباً بأسره . ويجرى المقرى على قاعدة الاستطراد فينتقل بقارئه من موقف إلى موقف ، ومن شذرة أو رسالة أو قصيدة إلى أخرى حسبما تسوقه شجون الكلام والرواية . وقد ترد خلال حديثه أهم المعلومات والوثائق حيث لا ينتظر ورودها . وفى كثير من الأحيان ينقل المقرى الينا رسالة بأسرها أو كتاباً بأسره ؛ ولا يعنى المقرى بالتنظيم والتناسق ، وإنما يعرض مادة كتابه مبعثرة حسب التقسيم البسيط الشامل الذى ذكرناه

ذلك أن المقرى لم يكن مؤرخاً بالمعنى الحقيقى ، بل كان أديباً فقط ؛ وهو لا يزعم أنه مؤرخ أو محقق أو ناقد ، وإنما يقول لنا إنه ناقل فقط يورد من المعلومات والشذور ما اتفق ولا يعنى بتمحيصها أو تحقيقها [1] . ولكننا مع ذلك نشعر أن للمقرى فى كتابه شخصية قوية ، ونشعر بالأخص بأن حرارة خاصة تنبث من هذه الصحف الأندلسية ؛ ذلك أن المقرى يكتب عن الأندلس بروح يضطرم اعجاباً وأسى ؛ ولا غرو فقد كانت ذكريات الأندلس ما تزال فى عصره حية مضطرمة فى المغرب ، ولم يكن قد مضى أكثر من قرن على سقوط الأندلس النهائى فى يد اسبانيا النصرانية ؛ بل لقد وقع فى عصر المقرى بالذات حادث أذكى هذه الذكريات الشجية ، هو نفى « الموريسكيين » أو العرب المتنصرين من اسبانيا (فى سنة ١٦٠٩م — ١٠١٧هـ) والعرب المتنصرون هم بقية الشعب الأندلسى المجيد أرغموا على التنصر بعد سقوط الأندلس ؛ وقد وفدت منهم عند النفى عشرات الألوف إلى ثغور المغرب وقواعده ، وعاد معظمهم إلى الاسلام . وشهد المقرى هذه الخاتمة المؤسية ، وهو يومئذ بفاس ، وشهد ألوفاً من أولئك العرب المتنصرين ، وتركت هذه الذكريات والمشاهد المؤلمة فى نفسه أعمق الآثار [2] ، وأذكت فى نفسه بلا ريب شغف التنقيب عن تاريخ الأندلس وماضيها المجيد وأيامها الزاهرة

وقد وضع المقرى كتابه عن الأندلس فى القاهرة كما قدمنا ، ولكنه كان قد جمع معظم مواده فى المغرب . ويقول لنا المقرى إنه عنى منذ شبابه بالتنقيب فى تاريخ الأندلس وأحوالها وآدابها ، وإنه استخرج من مراجعه أغزر المواد وأنفسها ، ولكنه تركها بالمغرب ، ولم يستصحب معه حين الرحلة سوى القليل منها ، ومنها أوراق سودها ، وأشياء علقت بذاكرته . ويقول لنا أيضا : « إنه لو حضره ما خلفه مما جمع فى ذلك الغرض وألف ، لقرت به عيون ، وسرت ألباب ... » [3] ؛ وإذا كان المقرى

(١) راجع إشارة المقرى إلى ذلك فى نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦
(٢) راجع حديث المقرى عن هذا الحادث ج ٢ ص ٦١٧
(٣) نفح الطيب — ١ ص ٥٧

يعني بهذا القليل من مادته ما ضمنه كتابه ، فلا ريب أن ما جمعه من المواد الأصلية كان غزيراً جداً ، ذلك لأن هذا القليل الذى ضمنه « نفح الطيب » هو فى ذاته مجموعة حافلة من المواد والوثائق المختلفة التى تلقى أعظم الضياء على تاريخ الأندلس وآدابها

وقد قلنا إن المقرى ناقل ومصنف ؛ ولكن له فى هذا النقل والتصنيف فضلاً لا يقـدر ؛ فقد نقل إلينا عشرات الشذور والوثائق من مصادر أندلسية جليلة لا وجود لها اليوم ، بل نقل إلينا رسائل وكتباً برمتها بددت ولم نظفر بأصولها حتى اليوم ؛ ولولا عناية المقرى بنقلها وتصنيفها لحرمنا الى الأبد من هذه المراجع والوثائق الهامة . ولقـد كان المغرب الأقصى حتى عصر المقرى أعظم مستودع لتراث الأندلس الأدبى ؛ وكانت مكاتب المغرب ، ولا سيما مكتبة الأشراف السعديين ، عامرة إلى ذلك العهد بكثير من الآثار الأندلسية النادرة ؛ وكان لمولاى زيدان سلطان فاس لعهد المقرى شغف خاص بجمع الكتب النادرة ؛ وقد انتفع المقرى بهذا التراث الحافل ، واغترف منه وقيد ما شاء ؛ ولكن الظاهر أيضاً أن هذا التراث قد بدد معظمه بعدئذ بقليل ؛ ذلك أنه قد حدث فى أواخر عهد مولاى زيدان حادث يخيل الينا أنه ذو علاقة مباشرة بضياع الآثار الأندلسيـة ؛ وذلك أن السفن الأسبانية أسرت مركباً مغربيـة مشحونة بآلاف من الكتب والتحف المملوكة لمولاى زيدان ، وحملت شحنتها إلى اسبانيا ؛ ويشير السلاوى فى تاريخه الى ذلك الحادث نقلاً عن الرواية الأسبانية ، فيقول : «وقال منويل إن قراصين الأصبنيول غنمت فى بعض الأيام مركباً للسلطان زيدان فيه آثار نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك»[1] وتقول الرواية الأسبانية إن وقوع هذا الحادث كان فى عهد فيليب الثالث ملك اسبانيا (١٥٩٨—١٦٢١ م) ؛ والظاهر أنه وقع نحو سنة ١٠٣٠ﻫ (١٦٢٠م) حينما اشتد اضطراب العلائق بين اسبانيا والمملكة الشريفيـة ؛ وعلى أى حال فقد حملت كتب مولاى زيدان ، وهى بلا ريب أنفس مجموعة من نوعها ، إلى اسبانيا ، وأودعت فى دير الأسكوريال إلى جانب بقيـة التراث الأندلسى التى كانت مودعة فيـه منذ سقوط غرناطة ، فاجتمع بذلك فى الاسكوريال نحو عشرة آلاف مخطوط عربى معظمها من تراث الأندلس ؛ ولكن محنة نزلت بهذا التراث النفيس ، فقد شبت النار فى الأسكوريال سـنة ١٦٧١ ، والتهمت معظم الكتب العربية ، ولم يبق منها سوى ألفين ؛ وبقيت ضمن هذه المجموعات عدة من كتب مولاى زيدان لا تزال إلى يومنا فى الأسكوريال

وهـذا فيما نعتقد هو السر فى اختفاء الآثار الأندلسية التى كانت تحفل بها قواعد المغرب ومكاتبـه فى عصر المقرى ؛ وقد جمع المقرى مادته ودون مذكراته أثناء مقامه بفاس بين سنتى ١٠١٣ — ١٠٢٧ ﻫ (١٦٠٣ — ١٦١٦ م) ، وكان بذلك من أواخر أولئك الذين استطاعوا من أدباء جيله أن يظفروا بمراجعة هذا التراث والانتفاع به . ومما يدل على أن المقرى انتفع بنوع خاص بالمراجعة فى مكتبة مولاى زيدان التى فقدت ، أنه ينقل عن نسخة وحيدة من مسند ابن مرزوق المغربى كانت ضمن هذه المجموعة ولا تزال فى الأسكوريال[1] ، وكذلك يستقى معظم روايته عن سـقوط غرناطة وعن العرب المتنصرين من كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » ومنه نسخة وحيدة أيضاً فى الأسكوريال[2]

ولا يتسع المقام هنا لاسـتعراض المصادر العديدة التى نقل عنها المقرى ، ماضاع منها ، وما يزال قائماً ؛ ويكفى أن نقول إن طائفة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التى ينقل عنها قد اختفت ودرست معالمها ؛ ومن ذلك تاريخ ابن حيان الكبير مؤرخ الأندلس ، وتواريخ الحميدى ، والحجارى ، وابن بشكوال والرازى وغيرهم ، وكتب عديدة لابن الخطيب ، وقد بقيت من تاريخ ابن حيان قطعة صـغيرة نشرت أخيراً ؛ ووجدت منذ أعوام بالمغرب نسخة كاملة من كتاب الذخيرة لابن بسام ، وفيما عدا ذلك لم يظفر البحث الحديث بشىء من تلك المصادر الجليلة التى ينقل إلينا المقرى عنها بسخاء يزيد اليوم فى فضـــله وفى أهمية كتابه

* * *

(١) الاستقصاء فى أخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ١٢٨

(١) ليفى بروفنسال فى دايرة المعارف الاسلامية (مقال المقرى)

(٢) نشر هذا الكتاب — وهو لمؤلف مجهول — فى أواخر القرن الماضى بعناية أحد المستشرقين

ويتصل بجهود المقرى عن الأندلس كتابه « أزهار الرياض ، فى أخبار القاضى عياض » ؛ وهو سفر كبير يخصصه لترجمة الفقيه الكبير عياض السبتى ، واستعراض آثاره ، على نحو ما يكتب عن ابن الخطيب فى نفح الطيب ؛ بيد أنه يستطرد كعادته ، ويذهب فى الحديث شجوناً شتى ، وينقل إلينا بعض الأقوال والوثائق المتعلقة بسقوط غرناطة وتاريخ الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، ولهذه الوثائق على قلتها وإيجازها أهمية خاصة ، لأنها كل ما انتهى إلينا من الرواية الاسلامية فى هذا الوطن ، وهى أقوال معاصرين للمأساة شهدوا بعض حوادثها بأعينهم أو سمعوا أخبارها فى الضفة الأخرى من الأندلسيين الوافدين على المغرب ؛ منها رسالة لمجهول يظهر أنه من معاصرى سقوط غرناطة يصف فيها نقض ملك قشتالة لعهوده ازاء المسلمين ، وما اتخذه النصارى من وسائل الارغام والقهر لاكراه المسلمين على التنصر ، وما فرضته محاكم التحقيق (التفتيش) على المخالفين من العقوبات المروعة ؛ ومنها قصيدة طويلة لابن العباس أحمد الدقون أحد علماء المغرب فى القرن التاسع الهجرى عنوانها « الموعظة الغراء بأخذ الحمراء » يرثى فيها الأندلس ؛ ومنها أيضاً وثيقة ذات أهمية تاريخية خاصة ، وهى رسالة كتبها أندلسى متنصر عقب سقوط غرناطة ، إلى بايزيد الثانى سلطان الترك يستغيث به ويستصرخه لنصرة إخوانه العرب المتنصرين ، ويصف له فى شعر قوى التعبير على الرغم من ركاكته ، ما يصيب العرب المتنصرين من أهوال ديوان التحقيق وروائع مطاردته وعقوباته ؛ وهذه وغيرها من الوثائق والشذور التى ينقلها إلينا المقرى فى أزهار الرياض قد ضاعت أصولها ، ولولا عناية المقرى بنقلها لما ظفرنا بها

وهذان الأثران الكبيران هما أهم ما فى تراث المقرى . بيد أن للمقرى ثبتاً آخر من الكتب والرسائل الأدبية والدينية انتهى إلينا معظمه ؛ ومن ذلك : « إضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة » ، « فتح المتعال فى مدح النعال المتشرفة بخير الأنام » . « حسن الثنا فى العفو عمن جنى » . « قطف المهتصر فى أخبار المختصر » « عرف النشق فى أخبار دمشق » . « روض الآس العاطر الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » . « الدر الثمين فى أسماء الهادى الأمين » ، وغيرها [١]

وقد كتب المقرى معظم كتبه فى القاهرة ؛ والمرجح أنها كتبت جميعاً أو كتب معظمها قبل نفح الطيب ، لأن المقرى لم يعش بعد كتابته طويلاً كما رأينا ؛ وكان المقرى يحتل فى المجتمع القاهرى الأدبى مكانة رفيعة ؛ ويكفى أن نذكر هنا ما وصفه به المحبى الذى ترجمه بعد ذلك بنحو نصف قرن : « حافظ المغرب . لم ير نظيره فى جودة القريحة ، وصفاء الذهن وقوة البديهة ؛ وكان غاية باهرة فى علم الكلام والتفسير والحديث ، ومعجزاً باهراً فى الأدب والمحاضرات » [٢] ، والواقع أن المقرى يكتب بأسلوب قوى ، وبيان ساحر ، يشهدان له بغزارة البلاغة فى عصر كان الأدب العربى يجوز فيه مرحلة انحطاط قوى

* * *

وقد أخرجت مطبعة بولاق كتاب « نفح الطيب » كاملاً فى ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢) فى أربعة أجزاء كبيرة ؛ وكان جماعة من المستشرقين على رأسهم العلامة دوزى قد عملت قبل ذلك لاخراج القسم الأول من كتاب نفح الطيب وهو الخاص بالأندلس بين سنتى ١٨٥٥ و ١٨٦١ تحت عنوان Aralectes sur L'histoire et La littérature des Arabes d'Espagne ، ومهد لهذه الطبعة المستشرق دوجا بترجمة للمقرى ؛ وطبع نفح الطيب بالقاهرة بعد ذلك أكثر من مرة فى أربعة أجزاء أيضاً على نسق طبعة بولاق ونشر فى تونس الجزء الأول من أزهار الرياض فى سنة ١٩٢٢ ؛ ونشرت بعض آثار المقرى الأدبية ، مثل كتاب « حسن الثنا فى العفو عمن جنى » (القاهرة) ، وظهرت فى سنة ١٨٤٠ فى لندن ترجمة انكليزية ملخصة للقسم الأول من نفح الطيب بقلم المستشرق الاسبانى الدون جاينجوس تحت عنوان : « تاريخ الدول الاسلامية فى اسبانيا » The History of the Mohamedan Dynasteis in Spain مقروناً بتعليقات وفهارس قيمة ، وترجم للمقرى غير من ذكرناهم أكثر من مستشرق مثل فستنفلد فى كتابه « مؤرخو العرب » (بالالمانية) وبروكلمان فى « تاريخ الأدب العربى » (بالألمانية أيضاً) والأستاذ ليفى بروفنسال فى كتابه « مؤرخو الأشراف » (بالفرنسية) ، وآخرون غير هؤلاء

(تم البحث — النقل ممنوع) **محمد عبد الله عنان**

(١) راجع خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢ وما بعدها ، وسلافة العصر ص ٤٩١ (٢) المحبى فى خلاصة الأثر

أثر النحو في تقويم اللسان

للأديب محمد طه الحاجري

قالوا ، في رسم النحو رسماً غائياً : إنه علم تعصم مراعاته اللسان عن الخطأ في الكلام ، ومضوا على هذا الاعتبار يضعون القواعد ، ويقيمون الحدود ، ويكدون الأذهان ، ويحملون على النشء في ذلك ما لا يحتمل . فاذا رأوا أن التوفيق إلى الغاية النبيلة قد أخطأهم ، وأن السبيل التي رسموها قد بعدت بهم ، لم يلتمسوا طريقاً آخر يكون أهدى إلى الغاية ؛ فحسبهم أن ينثروا الطريق بالأزهار ، وأن يزيحوا بعض ما فيه من الأحجار ، حتى تتبدل — في زعمهم — طبيعته ، وتستقيم نحو الغاية محجته ، ويبلغوا بذلك ما أعجز الأجيال السالفة ... وهكذا جعلوا كل همهم من الاصلاح اللغوي أن يهذبوا قواعد النحاة وينسقوها ويحذفوا فضولها ... ليصلوا بذلك إلى عصمة اللسان ، وهيهات هيهات ! !

وأنا ما عرضت لأمر الصلة بين تعليم النحو وتقويم اللسان إلا اندفعت أمام ذهني صورة صبي صغير لا يكاد يبلغ التاسعة ، وقد جلس على مقعده الصغير في المدرسة ، وأمامه كراسة أكب عليها ، وجعل ينظر في جُمل منسوقة كتبت فيها ؛ وكان المعلم قد طلب منه ومن رفاقه أن يضبطوا أواخرها ، امتحاناً فيما عُلِّموه ، وتثبيتاً لما قد عرفوه ، فأخذ ذلك الصبي يتحسس ما كان قد ألقي عليه ، ويحاول أن يضبطه في ذهنه ، ويضبط به ما أمامه ؛ فكان ذلك عبثاً لم يجد عليه شيئاً ... وإذن فماذا يصنع ولا بد من الاجابة صواباً أم خطأ ؟ أخذ يقرأ الجملة ويجرب على كلماتها علامات الاعراب ، فكان يشعر عند بعضها بارتياح ، ويحسبها أدنى إلى ما يقرؤه في كتاب المطالعة وغيره من الكتب التي اعتاد أن يعبث بها ... فيثبت الشكل الذي ارتاح اليه ؛ ثم يمضي إلى غيره ، وهكذا ، ثم يعطي الكراسة للمعلم لتصحيحها ، فينتبط حين ترد اليه فيعلم أنه لم يخطئ إلا قليلاً

أكانت المصادفة هي التي تملي على ذلك الصبي المسكين ، أم كان شيئاً آخر في طبيعته وكيانه هو البذرة الأولى المطمورة في أعماق النفس للسليقة العربية ، قد ورثها لأنها بعض ما يقوم الجنس الذي ولد بجميع مشخصاته ، ثم أخذت هذه البذرة تستروح نسيم الحياة في هذا الكلام العربي الذي يقرؤه صاحبها بين حين وحين ، فلا عجب أن يبرز فيها شيء من مظاهر هذه الحياة ، فتحاول تكييف ذوق ذلك الصبي ، بمقدار ما أتيح لها من حياة هينة ضعيفة مضطربة ؟ ؟

أما التفسير بالمصادفة فهروب من المسلك العلمي ، وأما السليقة العربية الموروثة فلا شك في وجودها ؛ وفي أنها وحدها التي تقوم ألسنتنا ، وتصحح عبارتنا ، على قدر ما تلقى من العناية والرعاية ، وعلى قدر ما نتعهدها به من التربية التي تناسب طبيعتها ، فأين نلتمس هذا النوع من التربية ؟

أنلتمسه في كتب النحو وقواعد العربية كما يفعل الناس جميعاً ، فيظن الواحد منهم أن من تجرع جرعات من الألفية أو الدروس النحوية كان خليقاً أن تصح سليقته ، ولا يخطئ من بعدُ في كلمة من الكلام ؟

لو جاز هذا الجاز للرجل الضعيف المتهالك أن يقرأ مجموعة من مجاميع الرياضة البدنية ، أو يستظهرها ، أو يستبطن أسرارها ومواطن تأثيرها ، فاذا هو قد أصبح ، بسحر هذه المجموعة ، قوياً نشيطاً مهزوزاً تتألق عليه الفراهة والعافية ، وإذا هو قد أصبح كذلك الرجل « الفلاّح » الذي يغذي مواطن القوة فيه غذاءها الطبيعي من الشمس والهواء والعمل . ولكن أحداً لا يقول هذا ولا يتوهمه ، والأمر لا يعدو هذا القياس في تربية الغريزة اللغوية

وإني لأعرف فريقين من الناس بأعيانهم معرفة صحيحة صادقة يمثلان طرفي هذه الحالة التي نتناولها ويثبتان القضية التي نقررها طرداً وعكساً

أما أحد هذين الفريقين فقد صرف عن النحو صرفاً ، حتى لا يكاد يعرف من قواعد النحاة حرفاً ؛ ولكن مزاجه الفني أقبل به على ينابيع الأدب العربي فأقبل على الكتب الأدبية يقرؤها ويتذوقها ويملأ نفسه بما فيها من جمال ومتعة ، فصفت بذلك سليقته ، وصحت ملكته ، حتى ليحس اللاحنة في الكلام ، كما يحس الموسيقي النشوز في الألحان . واستقام لسانه حتى لا يكاد يلحن أو يخطئ

وأما الفريق الآخر فطائفة من شيوخ الازهر الذين أدركنا أعقابهم ، قرأوا من كتب النحو الأجرومية والكافية وما بينهما ، وأحاطوا بقواعد النحاة وما دار حولها من خلاف

وجدل ، وربما أدركوا سر الكثير منها ، ثم كان الواحد منهم مع هذا لا يكاد يصيب فيما يقرأ أو يكتب إلا بعد تكلف شديد ، فما أغنى عنه ما بذل من جهد جهيد وعمر مديد فى قراءة النحو وتفهم مشكلاته واستيضاح غوامضه . فماتت سليقته اللغوية ولما تستروح الحياة ، لأنه لم يمدها بالغذاء الطبيعى الحى الذى يمكن أن يتمثل فيها ، ويبعث فيها الحياة ماضية قوية ، ولكنه ألقمها أحجاراً جامدة إن لم تقض عليها فلن تبعث فيها شيئاً من معانى الحياة الصحيحة

ولقد بقى لنا من عصر الحملة الفرنسية وثيقة من الوثائق التى تؤيد هذا المعنى تأييداً تاماً ، وهى رسالة كتبها بخطه شيخ الاسلام ورئيس الديوان ، الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وهى حجة قاطعة فى قيمة التعاليم النحوية من ناحية أثرها فى تقويم اللسان واصلاح اللغة على الأسلوب العربى ، فلن يشك أحد فى أن الشيخ الشرقاوى قد تلقى من « النحو » أوفر ما كان يتاتى فى ذلك العهد

وهذه ملاحظة ظاهرة جلية لا نكاد نحسب أحداً يجادلنا فيها أو يخالفنا عليها ، وقد لاحظها من قبل العلامة الدقيق ابن خلدون ، فقال فى مقدمته ، بعد أن قرر أن العلم بقوانين الأعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل : « ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سئل فى كتابة سطرين إلى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيهما عن الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربى . وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ، ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية »

فليس عجيباً إذن ما يروى لنا من أن رجلاً جاء لابن خالويه — وهو من هو ! — فقال له : أريد أن تعلمنى من النحو والعربية ما أقيم به لسانى . فقال له ابن خالويه : أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو ، ما تعلمت ما أقيم به لسانى

فالأمر فى اللغة هو أمر سليقة يجب أن تربى ، وملكة يجب أن تكون . ولن يكون ذلك بواسطة النحو ، فانه قواعد ميتة ، بل بواسطة البيان والأدب الذى هو مظهر اللغة ومجلى حيويتها . أما النحو الذى أبى على ابن خالويه أن يقوم لسانه ، فلا مطمع لنا فى أن يجدى علينا ما أباه على ذلكم الامام

وكيف كانوا يقومون ألسنتهم عند ما بدأت السلائق تضعف والألسنة تضصرب ؟ كانوا — كما يعرف الناس جميعاً — يذهبون إلى البادية ، ويندمجون فى الحياة العربية ، فيهيئون بذلك لسليقتهم سبيل القوة ، فتصبح من بعد ذلك المتحكمة فى منطقهم ، والمعرفة لألسنتهم ، وليس لدينا مثل هذه الحياة العربية التى كانوا يلجأون اليها ، ويندمجون فيها ؛ ولكن إذا فاتنا ذلك فانا نستطيع أن نعيش بقلوبنا وعقولنا فى حياة عربية اللسان ، فيكون لهذه ما لتلك من الأثر الطيب المبارك . أما هذا النحو فقد أعان إفلاسه فيما نطلبه من أجله ، وهو عصمة اللسان من الخطأ فى الكلام ، منذ عهد ابن خالويه إلى أيامنا هذه . ولن تجد امرأ صحيح اللسان قويم النطق إلا وهو يرجع الفضل فى هذا الى ما أمد به سليقته من الآداب العربية

ويعلل ابن خلدون وجود الملكة العربية فى بعض المهرة فى صناعة الأعراب بدراستهم لكتاب سيبويه ، وطول مخالطتهم له لا من ناحية ما تناوله من تقرير القواعد . بل من ناحيته الأدبية « فانه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط ، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم ، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة ، فتجد العاكف عليه ، والمحصل له ، قد حصل على حظ من كلام العرب ، واندرج محفوظه فى أماكنه ، ومفاصل حاجاته ، وتنبه به لشأن الملكة ، فاستوفى تعليمها ، فكان أبلغ فى الافادة

ولسنا نضع بهذا — معاذ الله — من قيمة النحو ، وإنما نريد بهذا أن نضعه فى مكانه الحقيقى ، ونلتمس به غايته الطبيعيه ، وهو معرفة قوانين اللغة العربية ، والنفوذ إلى أسرار التركيب فيها . وأكبر به من مكان ، وأعظم بها من غاية !

ترى لو كان أمر اللغة كأمر العلوم الأخرى التى تتلقى قوانينها واحدة بعد الأخرى ، ثم لا يشعر صاحبها أنها غيرت فى كيانه الداخلى ، لو كان الأمر كذلك فى اللغة أكنا نشعر بهذا الاستهجان والمضض الشديد حين نسمع خطيباً يلحن أو يغير فى الوضع العربى ، ونحس بعباراته الملحونة كأنما أصابت موضع الكرامة أو العزة فنتململ ونتضجر كما نحس حين نسمع رجلاً يتناول ديننا أو وطننا أو قوميتنا بما نكره ؟ وما ذا لو أن رجلاً أخطأ فى تقرير قاعدة أو تطبيق قانون علمى ؟ فهذا الفرق القائم

فى النقـــــد الأدبى

للأستاذ اسماعيل مظهر

العصر الذى نعيش فيه عصر قِوامه النقـد . حتى لقد قال « إدورد كيرد » وهو من الفلاسـفة المعاصرين فى أول كتابه عن فلسفة كَـنْت : إن النقد هو الذى هدَّ العروش المقدسة ، ومنها عرش الدين قائماً من فوق العقيدة ، وعرش القانون قائماً من فوق السلطان والجبروت . فاذا عنى أعلام كتابنا بالنقد ، فانما يعنون بشيء قد تغلغل فى صميم الحياة الحديثة ، ونفذ إلى أبعد غور من أغوار الأشياء الانسانية . وما حفزهم إلى الكلام فى النقد ، وفى النقد الأدبى على الأخص ، إلا شعورهم — وقد ركدت حركة النقد — بأن فى الجو الأدبى فراغاً جعلهم يستوحشون من الحياة التى يحيونها ، وجعلهم يفتقدون شيئاً آنسوا فيـه حياة ألفوها . على أنى لحظت فى نزعة الكتاب الذين عالجوا هذا الموضوع شيئاً أو أشياء ، على كبير علاقتها بالنقد الأدبى ، وعلى عظيم خطرها ، لم يعرض لها أعلام كتابنا ولو باشارة ، ومن طرف خفى ، كأن الكلام فى هذه الأشياء عسير على النقد أو هى من الأشياء التى يجب أن تخرج من مجال النقد ، وكانت هذه الظاهرة فيما كتبوا بنية جلية ، حتى لقد خيل إلىَّ أن ما كتب فى النقد جدير بأن ينقد ، وخليق بأن يحلل تحليلاً لا هوادة فيه

ساءلت نفسى : أناحية النقد الأدبى وحدها هى الجديرة بالتقدير والوزن ، أم إن ناحية النقد العلمى والفلسفى لها من المكانة والشرف ما يجعلها خليقة بأن تساوى النقد الأدبى قيمة ووزناً ؟ ولِمَ نخص النقد الأدبى وحده بقسط من العناية يستوفى كل جهودنا العقلية ، ولا ننظر ولو التفاتاً وبقليل من الاكتراث إلى النقد العلمى والفلسفى ؟ ألأنَّ الأدباء كثيرون ، والعلماء والفلاسفة قليلون ؟ كلا وإنما السبب أن عقليتنا لم تتكون بعد التكون العلمى ولا التكون الفلسفى . وهذا التكون سابقة ينبغى أن تسبق فى الحياة العقلية ظاهرة النقد ، فى مجال ما من مجالات الحياة الثقافية . ذلك بأن وجود العلماء لا يكفى فى تكوين العقليـة العلمية ، ولا وجود الفلاسفة بكافٍ لتكوين العقلية الفلسفية

ثم ساءلت نفسى : أللنقد موانع ؟ أيمنعنا من النقد عوامل خافية ؟ أيمنعنا من النقد عوامل تقليدية ؟ أيمنعنا من النقد عوامل اقتصادية ؟ أيمنعنا من النقد عوامل سياسية ؟ أيمنعنا من النقد عوامل نفسية ؟ وهل يمكن أن يفلت النقد من أثر هذه العوامل ؟ وبعد أن أطلت النظر فى كل سؤال من هـذه الأسئلة ، بل إن شئت فقل فى كل معضلة من هذه المعضلات ، حكمت بأن هذه الموانع كائنة ، وأن بعضها أقوى أثراً من بعض ، وأن الناقد لن يفلت من دائرتها ، أو يخرج من أقطار هذه الأرض منبوذاً مدحوراً

وبعد هذا وذاك هل وضعنا للنقد قواعد يقوم عليها هيكله ، وتشيد من فوقها أركانه ؟ ألنا فى النقد مذاهب مقررة ينتحيها الناقدون ؟ وهل لنا فى النقد قواعد تحدد للنقد حدوده ، وترسم تخومه ، وتعين اصطلاحاته ، شأن كل الأشياء العلمية والأدبية التى لها أثر فى تطور العقليات والمعقولات ؟

كلا . ليس لنا فى النقد مذاهب ، وإنما اتبعنا إلى الآن فى النقد طريقة ميزانها الذوق والشعور ، وهى طريقة إن مال ميزانها نحو اليمين قيد شعرة كانت إفراطاً فى المدح والتقريظ ، وإن مالت نحو الشمال شعرة كانت تفريطاً فى كل ما يقتضى النقد من حكمة فى تقويم الآثار الادبية بميزان صادق الدلالة على قيمة ما فى كفتيه . وجملة الأمر أننا ذهبنا فى النقد المذهب التقديرى ، ولم ننزع إلى المذهب التفريرى . ذلك بأن المذهب التقديرى مذهب سهل المأخذ ، لين المنحى ، مطواع للأهواء ، يسع الأثر الذى تمليه

بين اللغة والعلوم الأخرى ينبغى أن يراعى فى التربية والتثقيف . فكما لا يجدى تلقين القوانين الدينية والتعاليم الشرعية فى تكوين الضمير وتربية العاطفة الدينية . وعصمة الرجل عن الزلل فى الحياة ، كذلك لا تغنى القواعد النحوية شيئاً فى عصمة اللسان وتصحيح الكلام

وبعد فلا بد أن نكرر القول بأنا لا نريد الغض من مكانة النحو وخطورة درسه فى اللغة العربيـــة ، بل إنا لنراه — مستيقنين — فى المكان الأول منها ، باعتباره المبين لنظامها ، والكاشف عن قوانين التركيب فيها ، وقد خطا النحاة منذ أول العهد بالنحو ، خطوات موفقة فى هذه السبيل ، رغم ما غلب عليها فى العهود الأخيرة من الشطط والتكلف والبعد عن روح اللغة . وقد خطت الجامعة فى العصر الحديث — فى دراسة النحو — خطوة جديدة مسددة بعيدة ، نرجو أن تكشف عنها الأيام القريبة المقبلة إن شاء الله تعالى .

محمد طه الحاجرى

الصداقة على شعور الناقد ، ويسع الأثر الذى تمليه العداوة والبغضاء على انفعالاته . وهو فوق كل هذا مذهب بدائى لا ضوابط له ولا قواعد ، ولا نظريات ولا حقائق ؛ وبالأحرى نقول إننا مضينا ننقد حتى الآن ورائدنا فى النقد الأثر الذى تتركه فى أنفسنا مختلف المنتوجات الأدبية ، بما فيها من علاقات ذاتية وميول وعواطف وأخيلة وأحاسيس ؛ وعلى الضد من هذا كله مذهب النقد التقريرى القائم على نظريات أو حقائق لها حدود مضبوطة ومصطلحات معينة ونماذج يمكن أن ينسج على منوالها ؛ ناهيك بأن مذهب النقد التقريرى قد تكون له فى بعض الأحيان فكرة عامة شاملة ترمى الى غاية معينة . فانك إن نظرت مثلاً فى محاورات سقراط التى أثبتها تلاميذه فى كتبهم ، تبينت من خلالها فكرة جامعة وغاية أخيرة ترمى اليها ، هى التى أبان عنها كل الابانة فى دفاعه عن نفسه أمام قضاته قبل الفتوى بادانته . وعندى أن محاورات سقراط ، أول ما وضع فى تاريخ الآداب الانسانية من نقد قائم على المذهب التقريرى

ولقد ترى أثر هـذا الرأى — رأى أننا ننقد على المذهب التقديرى لا على المذهب التقريرى — ظاهراً جلياً فى كل نواحى النقد ، لا فى النقد الأدبى وحده . فان نزعتنا هذه قد تجلت بينة فى النقد السياسى على الأخص ، حتى لقد اتهم النقاد السياسيون فى مراميهم وأوذوا فى سمعتهم السياسية ، لا لشىء إلا لأنهم نقدوا على غير مذهب ، وكتبوا على غير نظرية سياسية ، ومضوا يتكلمون فى السياسة وليس أمامهم غاية عامة نهائية يرمون إليها ، اللهم إلا أن تستقر الأحوال على صورة تقر ما كان قائماً قبل انقلاب حدث ولو كان ما يطلب الرجوع إليه من نظام فيه من أوجه النقد ما لا يقل قيمة أو أثراً عما يراد إدانته من نظام قائم

على أن ما ترى فى النقد السياسى من شيوعية فى المرامى واستهتارية فى الغايات ، قد تراه بذاته فى أكثر النقود الأدبية التى تجرى بها أقلام الذين يتصدون للنقد فى هـذا العصر . وما السبب فى هـذا إلاَّ أننا نزعنا فى النقد النزعة التقديرية ، فأوسعنا المجال للخيال دون العقل ، وفتحنا الباب على مصراعيه للذوق وحده ، من غير أن نجعل للذوق ضابطاً من القيود المنطقية أو النظريات المقررة أو الحقائق الجامدة

لقد عاب الأستاذ أحمد أمين على النقاد أن ينتقدوا ما ليس من اختصاصهم ، وأن الكاتب الأدبى عندنا يرى أنه يستطيع أن ينقد فى يوم واحد كتاباً فى تاريخ نابليون ، وكتاباً عن جزيرة العرب ، وديوان شعر ! ولا مرية فى أن الأستاذ على حق فيما يقول . أما السبب فى هـذه الفوضى الغامرة فالذى أذهب إليه من أن النقد عندنا قد نزع النزعة التقديرية دون النزعة التقريرية . وهل أسهل من أن أقول إن كتاباً عن نابليون ضعيف الأسلوب ، وإن كتاباً عن جزيرة العرب ثقيل الظل ، وإن ديوان شعر بارد الأنفاس ؟ ولكن غاب عن الأستاذ حقيقة أخرى هى أن الأدب والنقد عندنا ، لقلة ما لهما من ضوابط وقواعد ، قد هيآ للكتاب والنقاد سبيل الانسلاخ فى هيئات جديدة تقتضيها ظروف الأحوال . فهذا كاتب سياسى أصبح مؤرخاً . وذاك مؤرخ أصبح شاعراً . وثالث كان أديباً فأصبح سياسيا ، ثم ارتد ناقداً ، ثم انسلخ فى صورة ديماجوج ، يضرب على نغمات تحبها آذان الجماهير . ورابع كان صحفياً فأصبح مصلحاً سياسياً . وخامس كان لا شىء أصلاً فأصبح علماً يشار إليه بالبنان فى جميع ما تتخيل أن إنساناً يستطيع أن يبرز فيه من علم وفلسفة وأدب وفن ، وما الله به أعلم من مظاهر الكفاية . وإن واحداً صار نصير الانسانية ، وآخر أصبح سادن الدين ، وثالثاً أبا الحرية ، ورابعاً حافظ الديمقراطية ، إلى غير ذلك من الألقاب التى تذكر المرء بألقاب أهل الدول إذا ارتج أمرها وكادت تميد بها الأرض ، فيممد خيال أهلها إلى الألقاب يضخمون منها بما يخيل إليهم أن فيه المنجى والملاذ

أليست هذه ظاهرة من ظاهرات الفوضى العقلية الدالة على أن النقد عندنا إنما يقوم على نزعة تقديرية لا تزن الأثر ولا تزن الشخص ، وإنما تزن الأثر والشخص على مقتضى الظرف الحاصل ؟ ولو أننا نزعنا فى النقد النزعة التقريرية مؤمنين بعدد ثابت من الحقائق والنظريات والمثاليات ، مؤتمين بما توحى به من آداب اجتماعية عليا ، إذن لاستطعنا أن نقضى على هذه الفوضى الغامرة التى تكاد تبتلعنا لججها

وما كان لى أن أتكلم فى موانع النقد فى بيئتنا الجديدة ، اللهم إلا أن أكون قد قذفت بنفسى فى أتون تترع نيرانه الشوى . فليتصد للكلام فى هذا غيرى ممن لا حاجة به إلى شواء

اسماعيل مظهر

بمناسبة المهرجان الألفى لأبى الطيب فى دمشق

دين المتنبى

للأستاذ سعيد الأفغانى

عاش فى هذه الدنيا قبل ألف عام رجل قضى إحدى وخمسين سنة يعمل فى حياته للمجد؛ ركب إليه المكاره واقتحم الغمرات؛ أراده مرة من طريق الدين فخاب، ثم راوغه من طريق الولاية فأخفق، ثم مضى قُدُماً يجالد دون سبيله هذه جيوشاً من أذى الأعداء ونكاية الحساد وكَلَب الزمان وتخلف الجد

تقاذفته الأقطار ضارباً فى الأرض: من حلب، إلى دمشق، إلى فلسطين، الى مصر، إلى العراق، إلى فارس؛ حتى إذا ملأ الدنيا وشغل الناس وقفل راجعاً من شيراز وشارف بغداد وحط فى سوادها الغربى، أحاط به أعداؤه فى دير العاقول ليغتالوه، فقاتلهم قتال المستبسل المستميت حتى سقط دفاعاً عن نفسه وشرفه، فصعدت روحه إلى بارئها يحاسبها على ما قدمت فى عاجلتها من خير أو شر

وإذا كان موضوعنا البحث فى دين الرجل فلا بد أن ننبه قبل الشروع فيه إلى أنا سنخرج على ذلك السخف التقليدى الذى توارثناه فى عصورنا الأخيرة جيلاً عن جيل، فى تكفير الناس من أجل كلمة قالوها أو عمل قاموا به؛ نتعلق لذلك بأوهى الأسباب ونتكلف له كل التكلف لنخرج مسلماً عن دينه وإن كرهناه، أو نؤولَ له ما زل به لسانه إن أحببناه. تعقد لذلك المجالس فى المساجد والمدارس وعند السلطان، وتؤلف الرسائل وتثار الفتن وتراق الدماء، حتى لقد سوّل الشيطان لبعض الحكام أن يتخذ من عبَدة الهوى هؤلاء مطايا يركبها إلى غاياته فيمن يكره من كل آمر بمعروف أو جبّاه بحق أو ثائر على ظلم، فما أسرع ما كانت تخرج الفتيا بالتكفير، وما أسرع الحاكم حينئذ إلى البطش والفتك

ولولا الخروج عن الموضوع لأفضت فى شرح هذه الناحية من تاريخنا وما أدت إليه من سوء العقبى، وما جرت على العلم والدين من ويلات وخراب، وخاصة أخريات عصور الجهل، يوم كان يضطلع بهذه المهازل شيخ الاسلام فى السلطنة العثمانية.

وحسب المرء أن يذكر على سبيل التمثيل آراء المحبين والمبغضين فى أجلاء الصحابة — رضى الله عنهم — صدر تاريخنا، ثم أقوال هؤلاء وهؤلاء فى الحلاّج ومحيي الدين بن عربى وتلك الطبقة. بل مالى أعمد إلى التاريخ البعيد وفى فجر نهضتنا مثل صالحة من ذلك. فاذكروا إن شئتم الأئمة جمال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا ومن لف لفّهم. ألم يرفعهم قوم إلى درجات المصلحين المجتهدين، ويهبط بهم آخرون إلى دركات الكفار أعداء الدين؟!

وغريب منهم هذا الفضول والتطفل والله تعالى لم يجعل إلينا أمر الناس، حتى نزج أنفسنا فى هذه المزالق. ومتى ملك بشرٌ أمر بشر والله يقول: « ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء. » أما كان فى خوَيصة أنفسهم ما يشغلهم عن الناس والتحكم فى آخرتهم؟ وما كان أقربهم من إنصاف لو عرضوا القول أو الفعل على الحق فسموا الأشياء بأسمائها وحكموا عليها بالخطأ أو الصواب ولم يحمّلوا النصوص ما لا تحمل ووكلوا أمر الناس إلى الله، إذن لوفروا على أنفسهم عنتاً طويلاً ووقتاً سيسألهم الله عن إنفاقه فى هذه السفاسف والآثام، وجهوداً لم يرزقهم الله إياها ليفرقوا دينه شيعاً ويؤلبوا عباده بعضهم على بعض

وأنا إذ أعرض لدين المتنبى فانما أحكم على أقوال قالها وعلى هنات صدرت عنه، فأعرضها على الحق، وسواء على الباحث، اذا اجتهد وأخلص، أكان المتنبى بعد ذلك مسلماً أم ملحداً، فما لنا إيمانه ولا علينا كفره، ولا يملك إنسان لانسان عذاباً ولا ثواباً

* * *

أمهد لبحثى بكلمة عن الحالة الدينية فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، وهو الأمد الذى عاش فيه شاعرنا؛ وأنا حين أفيض فيه إنما أتكلم عن المتنبى نفسه لشدة العلاقة بين الرجل وعصره، ولأن كل شىء من أحوال ذلك العصر كان يهيىء للدعوات السياسية والدينية. وسنرى أن تنبؤ أبى الطيب ليس بالأمر الأد فى ذلك الزمن الذى يعج بالاحزاب والنحل وأهل الأهواء

كان الدين أروج التجارات حينئذ فى جميع الأقطار الاسلامية؛ فمن بنى ملكا تذرع له بالدين، ومن أراد ثورة جعل شعارها الدين، ومن دعا إلى نحلة فانما سلاحه هذا الوتر الحساس من النفوس؛ ودولة بنى العباس إذ ذاك منكمشة فى رقعة صغيرة فى

العراق ، تعيش مع ذلك خاضعة لسلطان الأمراء المتغلبين من الفرس أو الديلم أو الترك ، والانتساب إلى آل بيت الرسول — صلى الله عليه وسلم — أمضى سلاح يصرفه الخوارج وأرباب الأطماع

كان فى حلب بنو حمدان وهم علوية ، وانقرض الأغالبة فى المغرب فدعى للفاطميين فى رقادة من أرض القيروان سنة ٢٩٦ وهم ينتسبون إلى فاطمة ، وكل خارج على الدولة إنما كان يدعو الناس الى الرضى من آل محمد ، وكان فى تعاليم الشيعة ما يحفز الطامحين الى شق العصا : كلٌّ يدعى أنه الامام المنتظر

وأعظم النحل تسلطاً ونفوذاً يومئذ ثلاث : الباطنية والشيعة والحنابلة ، وهؤلاء الأخيرون انحصر سلطانهم فى بغداد فترة من الزمن فقط ، بينما انبث دعاة الشيعة والباطنية فى كثير من الأقطار . وكان أهول الجميع خطراً وأبعدهم أثراً القرامطة ، وهم طائفة مؤولة باطنية حلولية ، جعلوا للشرع ظاهراً وباطناً ، وبنوا مذهبهم على تأويل الأحكام والآيات . ظهروا سنة ٢٧٨ هـ وانتشروا بالشام وسواد الكوفة ، ثم اشتد أمرهم حتى زحفوا على حمص ، وخضعت لهم دمشق على جزية ، ثم زحفوا إلى الكوفة وعظم خطرهم وتفاقم شرهم ، وعجز جند الخلافة عن إخضاعهم « وما زال أمرهم إلى قوة حتى استولوا على أكثر بلاد الفرات ، وأسسوا دولة بالبحرين ، ودحروا جيوش الخليفة المقتدر ، وثارت منهم طائفة فى نواحى الحجاز ، فانقطع الحج سنين خوفاً منهم . ولما أرسل اليهم المقتدر جيشاً بقيادة منصور الديلمى دحروه وقتلوا الحجاج يوم التروية فى المسجد الحرام قتلاً ذريعاً وطرحوا القتلى فى بئر زمزم ، واقتلع زعيمهم الحجر الأسود من مكانه فى الكعبة ، وأخذه معه إلى هجر حيث بقى اثنين وعشرين عاماً حتى رد إلى مكانه أيام المطيع العباسى سنة ٣٩٣ »

ذكر المعرى فى رسالة الغفران : « أن للقرامطة بالأحساء بيتاً يزعمون أن إمامهم يخرج منه ويقيمون على باب ذلك البيت فرساً بسرج ولجام ، ويقولون للهمج والطغام : (هذه الفرس لركاب المهدى يركبه متى ظهر .) وإنما غرضهم بذلك خدع وتعليل ، وتوصل إلى المملكة وتضليل . ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة فى الدهر القديم لما حضرته المنية ، جمع أصحابه وجعل يقول لهم لما أحس بالموت : (إنى قد عزمت على النقلة وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمداً ، ولا بد لى أن أبعث غير هؤلاء) فعليه اللعنة ، لقد كفر أعظم الكفر فى الساعة التى يؤمن فيها الكافر ، ويؤوب إلى آخرته الصافر » اهـ

نجد أن القرامطة أخذوا بالحلول والتناسخ المتسربين إلى المسلمين من الهند وفارس ، وشاركوا بعض فرق الشيعة فى فكرة الامام المنتظر ، وأصبح من ديدن كل داعية إلى بدعة أو خروج على سلطان ، أن ينتسب إلى على رضى الله عنه ، أو أن يدعو إلى الرضى من آل محمد إن تعذرت عليه النسبة مباشرة . وكثر هؤلاء الدعاة والخارجون ، وفشت فاشيتهم حتى امتلأت حوادث تلك الأيام بذكرهم . وكان سقوط هيبة الخلافة وانحلال العصبية العربية من أهم العوامل فى كثرة تلك الطوائف والانقسامات . وأصبحت الدنيا فى كل مكان لمن غلب ، وجهر المتغلبون وجنودهم بضروب من المناكر أنفدت صبر البقية الصالحة ، فثار فى بغداد جماعة من الحنابلة ، واضطرمت قلوبهم بالغيرة على الدين من أن تنتهك محارمه ، فأجمعوا أمرهم وانتظموا معسكرات تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر بالقوة والسلاح ؛ واستفحل شأنهم وقويت شوكتهم ، حتى صاروا يكبسون بيوت القواد والعامة فحيثما « وجدوا مسكراً أراقوه ، أو مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء . » ولم يطل بهم الزمان حتى أذعنوا لمؤثرات العصر ، فتسرب إلى جماعات منهم أقوال هى إلى الحلول والتشبيه ، واندس فى غمارهم — على ما يظهر — أناس ليسوا منهم ، فعظمت أذيتهم على الناس ، فتقدم اليهم الخليفة بالانذار فما أفاد ، فاضطر إلى قمعهم بالقوة واراحة الناس منهم

هذا إلى أناس كثيرين جعلوا الدين وسيلة إلى الدنيا يتاجرون به متاجرة ، فيوماً تراهم معتزلة ويوماً شيعة ؛ وحيناً باطنية وتارة حلولية يقولون بالتناسخ ، يميلون مع الريح حيث مالت ، ويعرضون فى كل سوق ما يروج فيها ، لا يرجعون إلى عقيدة ، ولا يصدرون عن إيمان ، بل هم أبداً متقلبون «يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم »

* * *

تلك هى حال الدين فى عصر أبى الطيب وفى البلاد التى حل فيها . فما ظنكم بفتى دون العشرين من عمره ، يتوقد ذكاء ، ويتفجر فصاحة ، طماح مغامر ، يعشق السيادة ، وينشد المجد بكل قوته ، التفت حوله فما رأى إلا جماهير بلا عقل ، تتبع كل ناعق ، عليهم رؤساء جهال ، لا علم لهم ولا فضل ولا أدب ، ما فهم على

كثرتهم من يقاربه فى ذكائه ومواهبه وعظم نفسه . ثم أبصر سوق الدعوات رائجة كل الرواج ، وكان فى طبيعة كثير منهم ما يدعو الطامح إلى محاولة السيادة عن طريق الدين

شاء هذا الفتى أن يقيم نسبة بين دعوتهم ودعوته تتسق هى والفرق بينهم وبينه ، فاذا كان فيهم من ادعى أنه الامام المنتظر ، أو المهدى ، أو الرضى ، فان النسبة تقضى أن يدعى النبوة دفعة واحدة ، وقد فعل

ولا مندوحة لى هنا عن القول بأن تنبؤه فى الأعراب أمر وقع حقيقة ولا سبيل إلى الشك فيه[1] ، تضافرت على ذلك كل المصادر الموثوقة ، حتى التى كانت تميل إليه كل الميل ، فانها لم تنف الأمر وإنما التمست له المعاذير . وما كان أغناها عن ذلك ، فان فى السن التى وقعت فيها هذه الزلة العذر كل العذر ؛ وليس من الانصاف أن نلمز حياة خمسين سنة من أجل هناة كانت فى سن الفتوة . فلأشرع فى ذكر هـذا التنبؤ بإيجاز ، ثم لأفض فى علاقة الرجل بالدين مدى حياته . وسأعتمد فى قص الحادث على أبى العلاء خاصة ، لفضله ولتحريه وقرب زمانه . وسأعفى نفسى من أشياء كثيرة وردت فى (الصبح المنبى) لا يقبلها عقل ولا تؤيدها قرائن

وقع المتنبي إلى بادية السماوة وأظهر دعوته ، فتبعه قوم من الأعراب من بنى كلب ، خلبهم بذلاقة لسانه ، وحسن بيانه . وتلا عليهم كلاماً زعم أنه أنزل عليه . نقله الأنبارى فى طبقاته عن أبى على بن حامد قال :

« وكان قد تلا على البوادى كلاماً زعم أنه قرآن أنزل عليه . فكانوا يحكون له سوراً كثيرة نسخت منها سورة ثم ضاعت وبقى أولها فى حفظى وهو : والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفى أخطار . امض على سننك واقف أثر من قبلك من المرسلين ، فان الله قامع بك زيغ من ألحد فى دينه وضل عن سبيله » .

وقد حفظ لنا التاريخ مشهداً من مشاهد هذه الدعوة فى اللاذقية ، ولا ريب أنه كان بعد أن توثق أمر المتنبي بعض التوثق فى البادية . قال أبو عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقى :

« قدم أبو الطيب المتنبي اللاذقية فى سنه ٣٢٠هـ وكان عمره يومئد سبع عشرة سنة وهو لا عذار له ، وله وفرة إلى شحمتى أذنيه ، فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته ؛ فلما تمكن الأنس بينى وبينه وخلوت معه فى المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من أدبه قلت له : « والله إنك لشاب خطير ، تصلح لمنادمة ملك كبير . » فقال :

« ويحك ! أتدرى ما تقول ؟ أنا نبي مرسل . » فظننت أنه يهزل ، ثم تذكرت أنى لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته فقلت له : « ما تقول ؟ » فقال : « أنا نبي مرسل . »

فقلت له : « مرسل الى من ؟ »

قال : « الى هذه الأمة الضالة »

قلت : « تفعل ماذا ؟ »

قال : « أملأ الدنيا عدلاً كما مائت جوراً »

قلت : « بماذا ؟ »

قال : « بادرار الأرزاق والثواب العاجل لمن أطاع وأتى ، وضرب الأعناق لمن عصى وأبى »

فقلت له : « إن هذا أمر عظيم أخاف عليك منه أن يظهر » وعذلته على ذلك فقال بديهاً :

أبا عـبد الاله معاذ إنى خفى عنك فى الهيجا مقامى
ذكرت جسيم مطلبى وأنا نخاطر فيـه بالمهج الجسام
أمثلى تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان إلى شخصاً لخضب شعر مفرقه حسامى

---

(١) قرأت أخيراً عدد المقتطف الذى كتبه الأستاذ شاكر عن المتنبي خاصة ، فاذا به يذهب إلى نفى تنبؤ أبى الطيب الذى اتفقت عليه كل المصادر تقريباً . وقد أنعمت فى تدبر الأسباب الحادية على النفى فلم أجد فيها مقنعاً به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة

والتاريخ لا يثبت خبراً أو ينفيه تبعاً لميل مؤلف أو رأيه ، ولا بد فيه حال النفى من التعرض لجميع الأخبار المثبتة بالتوهين ، خبراً خبراً . وهذا لم يصنعه الأستاذ شاكر

وأمر ادعاء المتنبي العلوية ليس فيه ما يهيج عليه الناس كل هذا ، على رغم ذلك الخيال الجميل الذى لبس إدعاءه إياها فى الكتاب المذكور

وإذا كان ما ذهب إليه الأستاذ صحيحاً ، ففيم كان خجل أبى الطيب وحياؤه كلما سئل عن أمر لقبه (المتنبي) ؟ ولم كان يعمد إلى اشتقاقه من النبوة تارة ، ويعتذر بأنه شيء كان فى الحداثة تارة ، ويقول إنه يكره التلقب به ، وأنه يناديه به من يريد الغض منه ؟ وعلى أى شيء تقع كلمة كافور « من ادعى النبوة بعد محمد أما يدعى الملك مع كافور » ؟ وكافور ليس من الذين يختلقون على شاعر ولا ممن يروج الاختلاق

وقد روى المعرى — وهو الحجة الثبت — أمر التنبؤ وما حف به من حادث ومعجزات ، فى رسالة الغفران . وأبو العلاء كان أحرى أن يشك أو يكذب الخبر لو أن فى الأمر مجالا للشك وأحتمالا للتكذيب لأنه أشد حباً للمتنبي وعصبية له ، وهو أنفذ بصيرة فيما يقال وأحكم نقداً للاخبار ، مع قرب زمن وصفاء ذهن وقوة حجة ومواتاة وسائل التحقيق إذ ذاك

وما بلغت مشيئتها الليالى ... ولا سارت وفى يدها زمامى
إذا امتلأت عيون الخيل منى ... فويل فى التيقظ والمنام

بهذه القوة والاطمئنان يتحمس المتنبي لنصرة دعوته ويحاول تمكينها من القلوب ، فلنصغ إلى أبى العلاء المعرى فى رسالة الغفران يحدث عن معجزات نسبت الى أبى الطيب ، قال :

« وحدثت أن أبا الطيب لما حصل فى بنى عدى وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه : (ههنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك نبى مرسل . وأنه مضى إلى تلك الناقة وهى رائحة فى الابل ، فتحيل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة ، وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة ، وأنه ورد بها الحلة وهو راكب عليها ، فعجبوا له كل العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم

وحدث أيضاً أنه كان فى ديوان اللاذقية ، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحاً مفرطاً ، وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته ، وقال للمجروح : لا تحلها فى يومك ، وعد له أياماً وليالى ، وأن ذلك الكاتب قبل منه ، فبرئ الجرح ، فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ويقولون هو يحيى الأموات

وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية أو فى غيرها من السواحل ، أنه أراد الانتقال من موضع الى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، ثم انصرف ، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : إنك ستجد ذلك الكلب قدمات ، فلما عاد الرجل لقى الأمر على ما ذكر

ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئاً من الطاعم مسموماً وألقاه له وهو يخفى عن صاحبه ما فعل . » اه

هذا ما ذكر المعرى من معجزاته وقد ذكر غيره معجزات أخر نضرب عنها صفحاً ، لبعدها عن العقل ولأن راويها ليس فى التثبت بمكان أبى العلاء

وفى ديوان أبى الطيب قصيدتان قالهما فى صباه ، تفيضان أملاً وطموحاً وكفاحاً ، وأنا أجعل زمانهما فترة التنبؤ هذه ، حين كانت نفسه تجيش بأبعد المطامع وتوقن بالفوز والنجاح . لما وجد تلكؤ الناس عن اجابة دعوته فى نخلة — إحدى قرى بنى كلب — ومظاهرته بالعداء ، عزم على المضى بأمره وتحمل الأذى ، ورسم لنفسه هذه الخطة الواضحة فى قصيدته :

ما مقامى بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود
مفرشى صهوة الحصان ولكن ... قميصى مسرودة من حديد
أين فضلى إذا قنعت من الدهر ... بعيش معجل التنكيد
ضاق صدرى وطال فى طلب الرز ... ق قيامى وقل عنه قعودى
أبداً أقطع البلاد ونجمى ... فى نحوس وهمتى فى سعود
عش عزيزاً أومت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود
فاطلب العز فى لظى ودع الذ ... ل ولو كان فى جنان الخلود
إن أكن معجبا فعجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافى ... وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله ... غريب كصالح فى ثمود

ولما رزقت دعوته بوارق من الاقبال فى بنى كلب سكر بنشوتها وطفقت نفسه تحدثه بقرب تحقيق الأمنية ، ثم استمر خياله يبنى له هذا المجد حتى أنس من نفسه قوة وتحفزا ، فراح يتحدث بانفاذ ما رسم من خطة ، ولو وقفت دونه ملوك الأرض ، إلى أن تتم دعوته ويسود الناس . إن شئت فانظر فى هذه الأبيات أهى لهجة شاعر يفتخر ، أم إيمان طامح واثق من نفسه كل الثقة ؟

سيصحب النصل منى مثل مضربه ... وينجلى خبرى عن صمة الصمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم

وما قولك فيمن سيغنى الأرض بالدماء عن الأمطار :

تنسى البلاد بروق الجو بارقتى ... وتكتفى بالدم الجارى عن الديم

ويخاطب نفسه هذا الخطاب النارى ، مشجعاً إياها ، مهوناً عليها أمر الناس فيقول :

ردى حياض الردى يا نفس واتركى ... حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الأرماح سائلة ... فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

ثم انظر هذا الانذار الشامل والوعيد الرهيب لأهل الأرض وملوك العجم والعرب :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فان أجابوا فما قصدى بها لهم ... وإن تولوا فما أرضى لها بهم

هذه نفثة نفس جائشة تسلحت باليقين ورأت الخيال يلوح لها بقوة الحقيقة الواقعة ، مؤمن بالفوز ، واثقة من كفاءتها واضطلاعها بالأمور الجسام . وما أظن أبا الطيب حين قال هذه

القصيدة كاذباً فى نفسه ، لا بل كان يحدث عنها أصدق الحديث ، وإنما كان مخدوعاً ثائراً ربه شبابه الفائر ومواهبه المتقدة السراب ماء فذهب يصف ما تريه نفسه . وإلا فكيف تكون القصيدة أقوى ظهوراً منها فيما تلوت من شعره

تبعت أبا الطيب شراذم من عامة وأعراب ، ثم نمى خبره إلى لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية . وأنه يخشى أن يستفحل أمره « نخرج إليه لؤلؤ ، فقاتله وأسره وشرد من كان معه من بنى كاب وغيرهم من قبائل العرب . وحبسه فى السجن دهراً طويلاً حتى كاد يتلف ، فكانت حاله إلى الضراعة والاستكانة . وكانت هذه الضربة كافية فى إعادة رشده إليه وفى يقظته من حلمه اللذيذ الذى نعم به زمناً يسيراً فاستفاقت تلك النفس التى كانت تهذى فى حلمها وتقول :

إذا امتلأت عيون الخيل منى فويل فى التيقظ والمنام

وتقول :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً

ومن عصى من ملوك العرب والعجم

وهبطت من عليائها إلى أسفل الدركات فقالت :

أمالك رقى ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد

دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت منى كحبل الوريد

ثم سئل لؤلؤ فى أمره فاستتابه وكتب وثيقة وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الاسلام وأطلقه . وبهذا انطوت صحيفة من تاريخ أبى الطيب فى صباه ، على نزوة خلدها التاريخ على قلة ما يسجل للصبيان من نزوات

* * *

لم يفد أبو الطيب من مغامرته هذه إلا لقب (المتنبى) الذى لصق به على كره منه ، فكان يستحى بعد توبته كل الاستحياء . ذكر عنه المعرى أنه سئل عن حقيقة هذا اللقب فقال : « هو من النَّبْوة أى المرتفع من الأرض » ولما كان فى بغداد قال له أحد الأكابر : « خبرنى من أثق به أنك قلت إنك نبى ؟ » فقال أبو الطيب : « الذى قلته : أنا أحمد النبى »

قال أبو على بن حامد : « كان المتنبى فى مجلس سيف الدولة : إذا ذكر له قرآنه أنكره وجحده . وقال له ابن خالويه يوماً فى مجلس سيف الدولة : « لولا أن أخى جاهل لما رضى أن يدعى بالتنبى لأن معنى المتنبى كاذب ، ومن رضى أن يدعى بالكذب فهو جاهل . فقال أبو الطيب : لست أرضى أن أدعى بذلك وإنما يدعونى به من يريد الغض منى ، ولست أقدر على المنع »

ونقل صاحب طبقات الأدباء ص ٣٧١ عن التنوخى قال : قال لى أبى : « أما أنا فسألته بالأهواز عن معنى المتنبى لأنى أردت أن أسمع منه هل تنبأ أو لا ؟ فجاوبنى جواب مغالط وقال : « إن هذا شىء كان فى الحداثة ، فاستحييت أن أستقصى عليه فأمسكت »

وزعم جماعة أن اللقب لصق به لتشبهه بالمسيح مرة ، وبصالح مرة فى أبياته التى مرت

وكيفما كان فان الذين عاشوا فى زمن المتنبى وبعده مجمعون على ادعائه النبوة ، وكان هو يجهد أن ينفى التهمة فى حياته خجلاً وحياء . وليس بين الأمرين تناقض ولاداع إلى حيرة . وقد كان هذا اللقب على أبى الطيب من أشد ما كابد فى حياته : فقد منعه كافور الولاية بسببه ، ولما عوتب قال : « ياقوم ، من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ألا يدعى الملك مع كافور ؟ فحسبكم » وكلما أراد عدو أو شاعر ايلام المتنبى هجاه ونبزه بهذا اللقب

(للبحث بقية)

سعيد الأفغانى

٣ – دانتى أليجييرى

والكوميديا الإلهية

وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

المطهر Purgatorio [١]

(١) تنفس دانتى صعداءه حين انتهى من دركات الجحيم ، وحين هب عليه أول أنفاس الفجر المنعش النَّدِى ! ونظر فرأى نجوماً أربعة تتألق فى بنفسج السماء ، ولجةً صاخبة ترغى وتزبد حول جزيرة نائية ، ينهض فوقها جبل شامخ رفيع الذرى ، كأنما يحمل القبة الأثيرية برَوْقيه ؛ وسأل عنه ڤرچيل فأنبأه أنه جبل المطهر ، وأنهما لابد موقلان فوقه ، ليصلوا منه إلى الفردوس ويلتفتان فيريان شبحاً ميمماً شطرهما ، وإذا هو شبح كاتو من يوتيكا ، أقبل ينذرهما بما ينبغى لهما أن يتزودا به من الايمان والصبر فى سفرتهما الشاقة فى أحياد الجبل ، وفوق صياصيه . ويتقدمان من الشاطئ فينضح ڤرچيل الماء على وجه دانتى ، ويلف حول خصره قصبة مما ينبت فوق الشاطئ (٢) وما يكادان يفرغان حتى يريا زورقاً يثب فى البعد فوق نواصى الموج ، وفيه ملك كريم يجريه بين العُدْوَتين ؛ وبين يدى الملك أرواح الموتى ، أقبلت من الدار الفانية إلى دار البقاء ؛ ويتبين دانتى بينها روح صديقه كاسيللا المغنى الفلورنسى المشهور ، الذى طفق يملأ الفجر بأغنياته الحلوة يحيى بها دانتى ، لولا أن استحثهما كاتو فانطلقا يهرولان شطر الجبل (٣) وينظر دانتى فلا يرى إلا خياله ، حين تشرق الشمس ، منبطحاً على السفح وراءه ، فيتزعج ويحسب أن ڤرچيل قد غادره ورحل ، ولكن ڤرچيل يطمئنه ، ويخبره أن أرواح الموتى إن هى إلا أضواء شفافة لا تكون لها ظلال كالأهل الدار الفانية . ويلفان منحدراً صعباً لا يستطيعان تسلقه ، ولكن بعض أرواح الموتى تدلهما على شِعْب ضيق فينفذان منه ويلقيان فيه الملك منفريدى ملك نابلى الذى يعرف دانتى ، ويرجوه ، إذا رجع إلى الدار الأولى ، أن يلقى ابنته كونستانزا ملكة أراجون ويحدثها عن حكاية مقتل والدها التاعس الذى لا يدرى أحد كيف قتل (٤) ويُصعدان فى الجبل ، فى طريق كلما نؤى وركام وأحجار ، ثم يجلسان عند منعرج يستريحان مما عراهما من نصب ... حيث تهتفُ بهما بعض أرواح الموتى ، ويعرف بينها دانتى روح صديقه بيلا كوا ، الذى يحدثه أنه استحق أن يكون خارج الفردوس دهراً لأنه لم يعجل بالتوبة قبل موته إلا حين أدركه المنون . (٥) وينطلقان ، فيلقيان أفواجاً ممن لم يعجلوا بتوبتهم فأمهلوا عن دخول الفردوس كما أمهل بيلا كوا . (٦) ويلقيان أفواجاً أخرى فتتكبكب حول دانتى ، تتألم وتبكى ، وترجوه إذا عاد إلى الدار الأولى ، أن يبلغ أهليهم تحياتهم ، وأن يرجوهم أن يستكثروا لهم من الصلاة والدعاء ، عسى أن يخفف عنهم ، وأن يعجل بهم إلى الجنة !! ويعجب دانتى ، ويسائل ڤرچيل « وماذا تفيد هؤلاء صلوات أهليهم ؟ وهل للانسان إلا ما سعى ؟ » ، ولكن ڤرچيل يذكر بياتريس ويذكر أن صلاة دانتى قد نفعتها ، وقد عجلت بها إلى الفردوس . ثم يلقيان سوردللو ، فيشكو إليه دانتى تدابر الايطاليين وتقاطعهم وقلة اهتمامهم بجمع كلمة إيطاليا وانهاض الامبراطورية الرومانية . (٧) ويرخى الليل سدوله فيتقدم سوردللو ليهديهما سواء السبيل فيدلهما إلى منعرج منهم يريان فيه أرواح بعض الملوك والأمراء كالامبراطور رودولف ، وأوتوكار ملك بوهيميا ، وهنرى الثالث ملك انجلترا ... الخ ... ويتحدث دانتى إلى بعضهم (٨) ويتنزل ملكان عظيمان من السماء ، فى يد كل منهما سيف من نور فيحرسان الوادى ، ولكن سوردللو يستأذنهما فيأذنان له ، فيقود الشاعرين إلى شِعب جميل يلقى فيه روح نينو قاضى جاليورا فيكلمه دانتى فى بعض ما كان من مشكلات الدنيا ، ثم يلقى أحد إخوانه من الموتى فيتنبأ له عما سيلقاه من نفى وتشريد ونزح عن الديار حين يعود إلى الدنيا (٩) وينام دانتى ، ثم يصحو بعد الشروق بساعتين فيجده قد حمله من يدعى لوسيا إلى باب المطهر حيث يأذن لهم حارسه ، وهو من الملائكة ، باجتيازه . (١٠) ولا ندرى كيف ينتكس دانتى فيعطينا فى المطهر صورة من أبشع صور الجحيم فى هذا الفصل العاشر ... فبعد أن يجتازوا (سوردللو وڤرچيل ودانتى) طريقاً حلزونياً حول صخرة كبيرة

---

(١) الأرقام التى تتخلل الكلام هى أرقام الفصول التى يتركب منها المطهر

يشرفون على واد سحيق مكتظ بأهل الكبرياء والخيلاء من موتى الدار الفانية وقد وقفوا فيه وفوق كواهلهم حجارة ضخمة من الرخام ينوؤون تحتها ويتضاغون ويبكون ! (١١) ويمرون بأقوام من أهل الدنيا الفانية قضى عليهم كبرهم أن يؤخروا فى منزلق صعب عن الجنة جزاء صلفهم فى دار الغرور (١٢) ثم يتقدم إليهم ملك فينقلهم من دارة المطهر الأولى إلى دارته الثانية . (١٣) حيث أهل الحسد والحقد والغيرة ... وقد خيطت أعينهم بسلوك من حديد ، ويجد دانتى من بينهم السيدة سابيا السينية التى تتحدث اليه فتخبره عن سبب تخلفها هنا . (١٤) ثم يلقى واحداً من سكان وادى الأرنو (النهر الذى تقع عليه فلورنسا) فيحدثه عن سبب انحطاط الفلورنسيين وسائر سكان هذا الوادى ، ثم انحطاط الناس فى رومانا .... ويمضى الشاعران بين ضجيج الأرواح الهائمة ، تلغط جميعاً بهراء من الحسد والأحقاد القديمة (١٥) ويحدوهما ملك كريم إلى الدار الثالثة من المطهر حيث تطهر الأرواح من سورة الغضب والجموح الدنيوى ، وبعد أن يكلم دانتى بعض هذه الأرواح السادرة ينتشر ضباب كثيف يغشى الوادى ، ويضل فيه الجميع (١٦) ويتعرفون الطريق على أصوات الأرواح التى تصلى لبارئها ، ثم يبرز من الضباب روح جرىء (ماركو لومباردو) فيكلم دانتى ويقنعه أن الله القدير قد وضع فى كل نفس إرادة حرة تهدى إلى الرشد أو تنتهى الى الضلال ، وأن فساد الدنيا هو الثمرة المرة لهذا المزيج غير المتكافئ فى نفوس الحكام من القوى الروحية والشهوات الحسية (١٧) وينجاب الضباب ، أو هم يخلصون منه آخر الأمر ، ويتقدم اليهم ملك جميل فيقودهم إلى الدار الرابعة من دارات المطهر ؛ حيث يقر أهل الكسل وعدم المبالاة ليخلصوا من أدرانهم (١٨ — ١٩) ويتحدث ڤرجيل حديثاً طويلاً عن الحب ، فيقسمه إلى حب طهرى وحب شهوى ، ويعزو إلى الأول كل ما يصدر من خير والى الثانى كل ما يمسخ الحياة من شر ؛ ثم يقودهما ملك آخر الى الدار الخامسة حيث يطهر الطامعون وجامعو المال من خبثهم ، ويلقى بين هؤلاء البابا أدريان الخامس فيكلمه (٢٠ — ٢١) ويلقى دانتى الملك هوج كابت من ملوك فرنسا فيحدثه هذا عن أحفاده وذراريه من ملوك ذاك البلد . ثم تزلزل الجبل ويميد بمن عليه فتهتف الأرواح الهائمة على جنباته : « المجد لك يارب ... العظمة لك يا الله ! » . ثم يتقدم الى الشاعرين روح قد تم تطهيره وأخذ طريقه الى الفردوس ، ويدعى ستاتيوس فيشرح لهما سبب الزلزلة السالفة ثم يتقدم الى ڤرجيل فيعرفه ويكاد يطير من الفرح للقائه (٢٢) ويخب الثلاثة فى طريقهم الى الدارة السادسة حيث يطهر النهومون وأهل البطنة ، وحيث يرون شجرة[1] باسقة ذات طلع نضيد وفاكهة حلوة يفوح أرجها ، وفى أوراقها أرواح تذكر الله وتسبح بحمده ، وتشكر له ما رزقها من عفة (٢٣ — ٢٤ — ٢٥) وينظر دانتى فيرى روح صديقه فوريز الذى ينتقد بشدة هذا الملبس الجديد الشاذ الذى اتخذه أهل فلورنسا ، ثم يرى دانتى جماعة من أصدقائه المتلبثين فى المطهر ومنهم خصمه السياسى الكبير كورسو دوناتى ، ويصل الثلاثة الى شجرة أخرى تخرج من بين أوراقها أصوات رائعة تردد أمثلة فى النهم ، ثم يتقدم اليهم ملك فيهديهم الى الدارة السابعة والأخيرة من المطهر حيث يطهر أولئك الذين كانوا لا يستطيعون كبح نفوسهم وضبط عواطفهم ساعة الغضب . وهم يطهرون ثمة فى نار حامية (٢٦ — ٢٧) وترى الأرواح الهائمة فى النار ظل دانتى على اللهب فتدهش لوجود حى من بنى الدار الفانية فى هذا المكان الأخروى المقدس ، ثم يتقدم إليه روح صديقه جيدو جوينيشيلى الشاعر الايطالى المعروف فيتحدث اليه برهة كما يتحدث اليه روح آخر . ثم يقودهم ملك كريم عبر النار إلى المعراج المؤدى إلى السماء .. جنة الأبرار .. ولكن الليل يقبل ، فيجلس الثلاثة (ڤرجيل ودانتى وستاتيوس) عند حنية رخية النسيم ، حيث ينام دانتى فيرى رؤيا جميلة . ثم يهب مع الصباح فيودعه ڤرجيل ، ويترك له الحرية الكاملة للتجول فى السماء حتى يلقى بياتريس (٢٨) ويذهب دانتى فى السماء صعداً حتى يبلغ الغابة الفردوسية الوارقة ، ولكن نهراً من أنهارها يحجز بينه وبين فتاة لاهية هيفاء وقفت فى روضة ناضرة تقطف الزهر ذا الشذى ؛ فيكلمها دانتى ، ولكن الفتاة تأخذ معه فى شرح جغرافية هذا المكان ، وتخبره أن هذا النهر الذى يفصل بينهما هو نهر ليث[2] ، وان يكن اسمه يونو فى مكان

(١) تشبه هذه الشجرة سدرة المنتهى التى سيأتى ذكرها فى الكلام عن المعراج فنلفت نظر القارىء لذلك

(٢) من أنهار الميثولوجيا اليونانية ، فليتنبه القارىء

آخر (٢٩) وتخطر الفتاة، فى عكس مجرى النهر، ويتمشى دانتى تلقاءها، ويتحدثان حديثاً مشجياً، ثم يسمعان موسيق بعيدة فينظران، فاذا حفل حاشد فى أديم الفردوس يلوح فى الأفق. (٣٠) وتمضى لحظة، واذا ملاك كريم يتيه فى شفوف بيض يتنزل من السماء الى مسرى دانتى، وينظر الشاعر، فيرى حبيبته بياتريس هى هذا الملاك الطاهر فيكاد يجن من الفرح ... ولكن بياتريس تأخذ معه فى عتاب حلو وعذل رفيقه (٣١) فيعترف الشاعر أنه مخطئ فى كل ما أخذت عليه حبيبته، ويركع بين يديها معتذراً ثم يسجد سجدة طويلة باكية، وتتقدم اليه ماتيلدا — الفتاة السابقة — فتأخذ بيده، وتخوض به لجج ليث، ثم تقدم اليه أربع عذارى فاتنات، يمثلن الفضائل الكنسية، وهؤلاء يقدنه الى جريفون، رمز المخلص، السيد المسيح، والى ثلاث عذارى أخريات يمثلن الفضائل الأنجيلية، وهؤلاء يقدمنه الى بياتريس التى تنسى دانتى جمالها الخالق، وتشغفه بجمالها الروحى (٣٢ – ٣٣) وينطلق الجميع (دانتى وماتيلدا وستاتيوس وبياتريس) ويحذرون دانتى ألا يحدق النظر فى حبيبته لئلا يعشى بصره من شدة لألائها. ثم يصلون الى دوحة عظيمة هى شجرة المعرفة التى أكل منها آدم وطرد بسببها من الجنة، فيرى الى أطيار وأشباح غريبة تهبط من علٍ فتكون فيها، ويتبين منها دانتى بازيا ونسراً وثعلباً وتنينا .... وتتقدم بياتريس الى الشجرة هى والعذارى السبع فينشدنه أنشودة من أناشيد الجنة، ثم يمضى الجميع وتكلم بياتريس دانتى، فتكشف له عن شؤون غيبية ستحدث له فى الدار الفانية حينما يعود اليها. ويكونون عند النبع الأكبر الذى يفترق عنده النهران ليث ويونو؛ وهنا تشير بياتريس الى ماتيلدا فتتقدم هذه الى دانتى وتسقيه جرعة من مياه يونو، التى تكون هى وأمواه ليث عظمة الإله وحكمته وجبروته

(للبحث بقية) د . خ

أندلسيات

أبو بكر بن العربى

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

نترجم اليوم لامام عظيم من أئمة المسلمين، وعلم من أعلام هذا الدين، الذين أنجبتهم الأندلس فيمن أنجبت، فأثروا فى العلوم الاسلامية تأثيراً، ونظروا فيها تنظيراً، وفصّلوا ما أجمل منها تفصيلاً، وسجلوا من ثم أسماءهم فى سجل الخلود تسجيلاً..

هذا الامام هو العالم الحافظ الأصولى المحدث الفقيه الأديب الثبت الثقة أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافرى الاشبيلى الأندلسى المعروف بالقاضى أبى بكر بن العربى..

نَجَلَ هذا الامام[1] أبوان كريمان فاضلان مُعْرِقَان لهما فى الفضل والكرم، ومن ثم تداركته أعراق صِدْق وكان منه هذا النابغة العظيم، ولا جرم، فان للوراثة أثرها، وللبيئة أثرها البالغ كذلك، هيأهما قدر من الله نافذ، وخط فى أم الكتاب مسطور، وذلك أن أمّ المترجم له هى بنت أبى سعيد عبد الرحمن الهوزنى صاحب صلاة الجماعة بقرطبة فى عهدى عبد الرحمن الداخل وابنه هشام، وهو رأى أبو سعيد والد أبى القاسم الحسن الهوزنى أحد العلماء الأعلام والسروات النابهين، وهو — أى أبو القاسم — والد أبى حفص عمر ابن الحسن الهوزنى الكاتب البارع الألمعى. أما أبو المترجم له فهو أبو محمد عبد الله بن محمد أحد فقهاء أشبيلية ورؤسائها، وكان له عند المعتمد بن عباد أعظم ملوك الطوائف وعند أبيه المعتضد من قبله منزلة باسقة.. ولما انقضت دولة المعتمد بن عباد وسائر ملوك الطوائف باستيلاء يوسف بن تاشفين ملك مراكش على الأندلس خرج أبو محمد ومعه ابنه المترجم إلى الحج، وذلك سنة ٤٨٥ هـ — سنة ١٠٩٢ م — وسن المترجم له إذ ذاك زهاء سبعة عشر عاماً، إذ كان مولده سنة ١٠٧٥ م، وقد تأدب المترجم باشبيلية قبل ارتحاله مع أبيه وقرأ القراءات وسمع أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزنى وأبا عبد الله السرقسطى وغيرهم، وفى ذلك يقول من كتاب له: « حذقت القرآن ابن تسع

(١) نَجَلَه: وَلَدَه

سنين ثم ثلاثة لضبط القرآن والعربية والحساب ، فبلغت ست عشرة ، وقد قرأت من الأحرف نحواً من عشرة بما يتبعها من إظهار وإدغام ونحوه ، وتمرنت في العربية واللغة ثم رحل بي أبي إلى المشرق . » ولما ذهب إلى الاسكندرية سمع الانماطي وغيره ، وسمع بمصر أبا الحسن الخلعي وغيره ، وبدمشق غير واحد ، ولقي ببغداد أبا حامد الغزالي وغيره ، وفي لقائه الغزالي يقول في كتابه قانون التأويل : « ورد علينا ذا نشمند — يعني الغزالي — فنزل برباط أبي سعد بازاء المدرسة النظامية معرضاً عن الدنيا مقبلا على الله تعالى فمشينا إليه ، وعرضنا أخيلتنا عليه ، وقلت له : أنت ضالتنا التي كنا ننشد ، وإمامنا الذي به نسترشد ، فلقينا لقاء المعرفة ، وشاهدنا منــه ما كان فوق الصفة ، وتحققنا أن الذي نُقل إلينا من أن الخبر على الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم ، ولو رآه علي بن العباس — ابن الرومي — لما قال :

إذا ما مدحتَ امرأ غائباً فلا تَغْلُ في مدحه واقصِدِ
فانك إن تَغْلُ تَغْلُ الظنو ن فيـه الى الأمد الأبعـد
فَيَصغُرُ من حيث عَظّمتَه لفضل المغيب على المشهد

* * *

ثم حجّ في موسم سنة ٤٨٩ وسمع بمكة أبا علي الحسين بن علي الطبري وغيره ، ثم عاد الى بغـداد ثانية وصحب أبا بكر الشاشي وأبا حامد الغزالي والخطيب التبريزي وغيرهم من العلمـاء والأدباء وقرأ عليهم الفقه والأصول والأدب ، وقيّد الحديث واتّسع في الرواية وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام (علم التوحيد) ثم صدر عن بغداد الى الأندلس وعاج على الاسكندرية وأقام بها مدة عند أبي بكر الطرطوشي[1] فمات بها أول سنة ٤٨٣ ثم انصرف هو الى الأندلس سنة ٤٩٥ وقدم بلدة اشبيلية بعلم كثير لم يأت بمثله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق — إلا الامام الباجي كما يقول المترجم من كلمة له — وسنترجم للباجي — وكانت رحلة علماء الأندلس وأدبائها الى المشرق — الى إفريقية — تونس والجزائر — ومصر والشام والعراق والحجاز ، والى خراسان وما إليها بل والى الهند والصين أحياناً — في حركة ودؤوب عجيبين ، لا يكادان يفترقان على بعـد الشقة وصعوبة المواصلات واختلال الأمن ، كما كان كثير من المشارقة يرحلون الى الأندلس ، غير أن رحلة الأندلسيين الى المشرق كانت في الأعم الأغلب لنشدان التبحر في العلم والأدب واللغة والارتواء من سلسبيلها الثر الفياض إذ كان الأندلسيون يعلمون أن المشرق هو مهد العلوم والمعارف ، فكانوا لذلك يقفون من المشارقـة موقف الأبناء من الآباء ، أو التلاميذ من الأساتيـذ . كما كان من أغراضهم تأدية فريضة الحج . أما المشارقة فقد كان ارتحالهم الى الأندلس إما بدعوة من ملوكها للأفادة وبث العلم والفن والأدب كما كان الشأن مع أبي علي القالي إذ دعاه الحكم المستنصر ولي عهد الناصر ، ومع زرياب الموسيقي العبقري إذ دعاه عبدالرحمن الأوسط ، وإما للربح والاتجار كما كان من الرازي محمد بن موسى والد أبي بكر أحمد بن محمد الرازي كبير مؤرخي الأندلس ، وإما للاستكشاف وحب الاسـتطلاع خدمة وللعلم من طريق السياحات كما كان من مثل ابن حوقل ، وإما للأقامة بالأندلس والاستمتاع بذلك الفردوس الاسلامي المفقود كما كان من كثير ممن نزحوا الى الأندلس وأقاموا بها ... «وبعد» فانا في الحق لا نعلم أمة من الأمم كانت تعنى بالعلم وتحصيله ، وتعانى ما تعاني راضيه في سبيله ، عناية المسلمين الأولين . وكان ذلك منهم نزولاً على حكم دينهم وحضه على التعـلم والتعليم وطلب العلم ولو بالصين ... ولمناسبـة السفر وصعوبته في تلك العصور نورد هنا نبذة للمترجم له أوردها المقري ، قال : « ولما ذكر القاضي أبوبكر ابن العربي في كتابه قانون التأويل ركوبه البحر في رحلته من إفريقية قال : وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزَوْله[1] ، ويغرقنا في هوله ، فخرجنا من البحر ، خروج الميت من القبر ، وانتهينا بعد خطب طويل الى بيوت كعب بن سليم ونحن من السغب ، على عطب ، ومن العرى ، في أقبح زى . . . تمجنا الأبصار ، وتخذلنا الأنصار . فعطف أميرهم علينا فأوينا اليه فآوانا ، وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا ، وأكرم مثوانا وكسانا ، بأمر حقير ضعيف ، وفن من العلم طريف . وشرحه أنا لما وقفنا على بابه ألفيناه يدير أعواد الشاه ، فِعْلَ السامد اللاّه[2] ، فدنوت منه في تلك الأطمار ، وسمح لي بياذقته[3] ، إذ كنت من الصغر في حد يسمح فيه للأغمار[4] ، ووقفت بأزائهم ، أنظر

(١) هو ابن أبي رندقة صاحب كتاب سراج الملوك ، وهو من علماء الأندلس ومات بالاسكندرية ، وكان من الزهاد الصالحين ، وكان كثيراً ما ينشد : إن لله عباداً فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

(١) الزول العجب (٢) السمود اللهو واللاه اللاهي بمعنى السامد
(٣) البياذقة فارسية معربة عن بيادة ، أي ما نسميهم المشاة ومنه بيدق الشطرنج ، والمراد هنا رجاله وأتباعه
(٤) الأغمار ، إما جمع غمر وهو الصبي الغر الذي لم يجرب الأمور ، وإما مصدر بمعنى الدخول في غمرة الناس وزحمتهم

إلى تصرفهم من ورائهم ، إذ كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة في خُلس البطالة ، مع غلبة الصبوة والجهالة ، فقلت للبياذقة : الأمير أعلم من صاحبه ؛ فلمحوني شزراً وعظمت في أعينهم بعد أن كنتُ نزراً ، وتقدم إلى الأمير من نقل الكلام إليه ، فاستدناني فدنوتُ منه ، وسألني هل لي علم فيه بصر ؟ فقلت : لي فيه بعض نظر ، سيبدو لك ويظهر ، حرّك تلك القطعة ، ففعل ، وعارضه صاحبه ، فأمرته أن يحرك أخرى ، وما زالت الحركات بينهم كذلك تترى ، حتى هزمهم الأمير ، وانقطع التدبير ، فقالوا : ما أنت بصغير ، وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عمّ الأمير منشداً :

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه
وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

فقال : لعن الله أبا الطيب أوَ يشكّ الربّ ؟

فقلت في الحال : ليس كما ظنّ صاحبك أيها الأمير ، انما أراد بالرب ههنا الصاحب ، يقول : ألذّ الهوى ما كان المحبُّ فيه من الوصال ، وبلوغ الغرض والآمال ، على ريب ، فهو في وقته كله على رجاء لما يؤمله ، ونقاة لما يقع به ، كما قال :

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى
فأين حلاوات الرسائل والكتب

وأخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض ، في طرق الابرام والانتقاض ، ما حرّك منهم إلى جهتي دواعي الانتهاض ، وأقبلوا يتعجبون مني ، ويسألونني كم سنيّ ، ويستكشفونني عني ، فبقرت لهم حديثي (١) ، وذكرت لهم نجيثي (٢) ، وأعلمت الأمير بأن أبي عمي ، فاستدعاه ، وقمنا الثلاثة الى مثواه ، نخلع علينا خلعه ، وأسبل علينا أدمُعه ، وجاء كل خوان ، بأفنان الألوان ، ثم قال — بعد المبالغة في وصف ما نالهم من إكرامه — فانظر الى هذا العلم الذي هو للجهل أقرب (٣) ، مع تلك الصبابة اليسيرة من الأدب ، كيف أنقذا من العطب . . .

(لها بقية) عبد الرحمن البرقوقي

(١) بقرت حديثي فتحته وكشفته وأصل البقر الشق والفتح والتوسعة

(٢) نجيث الخبر ما ظهر من قبيحه يقال بدا نجيث القوم إذا ظهر سرهم الذي كانوا يخفونه والمراد هنا جلية أمري

(٣) يريد إلماحه بالشطرنج وليس يعاب مثله بمعرفته الشطرنج ولاسيما إذا لوحظ أن ذلك كان منه في حداثة سنه وذلك دليل على رجحان لبه وذكاء قريحته وعلى ذلك قد عاب هو نفسه مثل هذا العلم إذ جعله للجهل أقرب ا هـ

جامعة الاسكندرية

بقلم ابراهيم جمعة

المتحف الاسكندري — جامعة على غرار الأكاديميات الأثينية — وجه الخلاف بينهما — الغرض من إقامة المتحف — راعي المتحف — جامعة الاسكندرية وجامعات العصور الوسطى في أوروبا — الشبه بين كلية الملكة وكلية أول سولز في اكسفورد وبين جامعة الاسكندرية — النظام الداخلي للجامعة — علماء هذا العصر — مكتبة المتحف

— ١ —

تحققت في مصر سياسة الاسكندر الأكبر — تلك السياسة التي كانت ترمي الى صبغ البلاد المفتوحة بصبغة إغريقية هلينية ، وقد ساعد على تحقيق حلم الاسكندر إنشاؤه مدينة الاسكندرية لتكون مركزاً لتلك الثقافة الجديدة . وقد جرى أعقابه في مصر من البطالسة على سياسته ، فجعلوا الاسكندرية من حيث التجارة وريثة لبيريه ميناء أثينا التجارية كما جعلوها وريثة لأثينا نفسها من الوجهة العلمية — وهكذا تكون الاسكندرية قد قامت في وقت هوى فيه لواء العلم من عل بمهمة سامية ظلت تقوم باعبائها عدة قرون

وكان أكبر مظاهر هذه الوراثة تأسيس بطليموس سوتر لمتحف الاسكندرية — والمتحف الاسكندري جامعة علمية ، وإنما سميت الجامعة متحفاً لقيامها في ركن من أركانه . وقد كانت تلك التسمية شائعة في العصر الاغريقي ، فقد كان يطلق لفظ «الجنازيوم» على جامعة بيرين . . وقد انحدرت هذه التسمية من العصور القديمة الى العصور الوسطى فالحديثة ، فما يزال يطلق لفظ المتحف « ميوزيوم » على بعض الأندية الأدبية في ألمانيا حتى الآن

فلا غرابة إذن إذا أطلقنا لفظ المتحف الاسكندري وأردنا به جامعة الاسكندرية ، فقد كان كل ما في المتحف من شتى أنواع الحيوان والنبات ومن مجموعات الكتب النفيسة والمخطوطات وما إلى ذلك عوناً على الدراسة العلمية المنظمة ، والبحث في حياة الكائنات ، وتقصي الحقائق والتأليف ، مما كان في مجموعه أشبه شيء بمهمة الجامعات في العصور الحديثة

أنشأ سوتر هذا المتحف بمساعدة فيلسوف أثيني هو « ديمتريوس فاليرون » الخطيب اليوناني الذي استصحبه سوتر

فى عودته من حرب ديمتريوس ملك مقدونيـة . ومما يدعو الى كثير من الأسـف أننا لا نعثر الآن على كثير من معالم ذلك المتحف فى حين استطعنا أن نلم بكثير من المعلومات عن المعاهد المعاصرة له . ومن عجب أن يكون هذا ، لأن المتحف أنشئ فى وضح التاريخ ، وفى عصر عاهل شهير ، وفى مدينة من أعظم مدن العالم القـديم ! ولعل التنقيب يكشف عن بعض معالم المتحف الاسكندرى لو كان للتنقيب من سبيل

غير أنه لحسن الحظ استطعنا أن نصل إلى بعض انتاج المتحف الإسكندرى فى النقـد الأدبى وفى العلوم الرياضية والجغرافية وغير هذه وتلك من فروع المعرفة الانسانية ، فاذا لحظنا ضعفاً ظاهراً فى الأدب والشعر والفلسفة ، فانما يعزى ذلك الى ضعف هذا العصر الأول من عصور الجامعة فى هذين النوعين من الانتاج بالمقارنة مع أثينا وأيونيا اللتين كانتا إذ ذاك فى أوجهما العلمى

إن فكرة جعل الاسكندرية مركزاً للتجارة ومستقراً للعلوم والآداب والفنون ، اختمرت تدريجاً فى ذهن بطليموس سوتر اختماراً ساعـد على اخراجه الى عالم الحقيقـة ذلك الفيلسوف الاغريقى . . وكان لا بد أن يكون تأسيس المتحف على غرار يونانى بحت ، إذ أنه وليد فكر يونانى كما نرى ..

نشأت المدارس اللاتينيـة بادئ الأمر فى شـكل حلقات للدرس ، تنتظم حول معـلم يتحدث إلى تلاميذه فى فرع من فروع المعرفة ، وما لبثت هذه الحلقات أن استحالت الى هيئات علمية منظمة ، عرفت كل منها باسم معلمها الأول ، واتخذت اسم « الأكاديمى » وقد كانت هذه الهيئات العلمية فى بلاد اليونان بعيدة عن أى إشراف حكومى ، إلا فى الأوقات التى كانت ترى فيها الحكومات ضرورة قصوى للتدخل فى حريتها العلمية ابتغاء الحد من تلك الحرية ، محافظة على سلامة الأداة الحكومية من أى شطط ينتجه التفكير الحر

أما فى مصر فقـد حتمت البيرقراطية الحربية أن يكون المتحف تحت الاشراف الحكومى المباشر وفى رعايته . وهكذا كان المتحف ، أو كانت جامعة الاسكنـدرية ، من بدء إنشائها هيئة حكومية تستمد وجودها مباشرة من الملك ، ويستمد كل فرد من أفرادها حريته منه

لم يكن الغرض الذى قصد إليه بطليموس من إنشاء هذا المتحف هو أداء رسالة معينة تصدر عن ذلك المعهد ، ولم يكن هو يدرى فى كثير أو قليل الفرق بين المعهـد الذى أنشأه وبين تلك الأكاديميات الأثينية التى ازدهرت فى أثينا ، وإنما الظاهر للباحث أنه قصد من وراء إنشائه الى غرض قد يكون سياسياً وقد لا يكون ، قصد إلى أن يجعل المدينة التى جعلها الاسكندر عاصمة له مركزاً لحكم العالم الهلينى بأمره ، فمن أجل هذا كلف سوتر بالاستيلاء على مقدونية ، وبفرض سيطرته المطلقة على البحر الأبيض الشرقى ؛ ولا شك أن هذه السياسة شبيهة بسياسة التوسع التى جرى عليها الاسكندر مع فرق جوهرى هو أن الاسكندر كان يجعل مقدونيا نواة لأمبراطوريته ، بينما كان سوتر يرمى الى جعل مصر التى آلت إليه بعد موت سيده نواة لأمبراطورية بطليموسية

والذى يتأمل فى شخصية سوتر لا يرى غرابة فى سعة أطماعه التى أصبحت الاسكندرية بحكم الظروف مركزها الطبيعى ، لهذا لم يأل سوتر جهداً فى توفير مظاهر الأبهة والعظمة لمدينته الخالدة ، وإذن فقد كان الغرض الأول والأخير من إنشاء المتحف هو أن يجمع فى الاسكندرية جمهرة من العلماء تفكر ، وتحاضر ، وتكلف بالبحث ، امتازت بتفوقها العلمى والأدبى لأنها كانت جمهرة منتقاة ابتغاء التشبه بأثينا وعلمائها ، أثينا عاصمة العالم الهلينى ومستودع علمه .. وبهذا تكون رغبات سوتر منحصرة فى أن يسلب مقدونيا نفوذها السياسى ليتركز فى مصر ، وأثينا نفوذها العلمى ليستقر فى الاسكندرية

وكانت هذه الجمهرة من العلماء تسكن المتحف ، تحت إشراف رئيس دينى يعينه الملك من الكهنة ، ويجدر أن نذكر هنا أنه لم يكن مصريا كمعظم هيئة المتحف ، وقد كانت مهمته قاصرة على رعاية المتحف رعاية دينية ، وهو تقليد جامعى نقلتـه جامعة الاسكندرية عن جامعة أثينا بشىء من الاختلاف ، إذ كان راعى الأكاديمية الأثينية ينتخب انتخاباً . أما راعى جامعة الاسكندرية فقد كان يعين تعييناً لمدة تطول وتقصر تبعاً للارادة الملكية

ولما أن استطاع سوتر أن يجعل للاسكندرية مكانة سياسية ممتازة ، وتمكن فى الوقت نفسه أن يحيطها بجو علمى خاص ، أمها الطلاب من جميع أنحاء العالم الهلينى يطلبون العلم على خير أساتذته

وقد كانت مهمة هذه الجامعة الناشئة أول أمرها قاصرة على النقد العلمي ، والنظر في مؤلفات السابقين ، دون أن تكون مبتدعة أو مضيفة إلى الثروة العلمية ..وتعوزنا المعلومات عن عدد الطلاب المختلفين إلى حلقات الدرس بالجامعة ، وعن نظام معيشتهم ، وعن العلاقة بين هؤلاء الطلاب وبين أساتذتهم لنستشف من هذه العلاقة شيئاً عن الروح الجامعية في جامعة الاسكندرية

وفي هذا السبيل لم نصل إلى أكثر من أن عدداً من الطلاب الغرباء أم الاسكندرية طلباً للعلم ، ولا بد أن يكون هذا العدد قد سكن المتحف أو سكن المدينة على مقربة من المتحف ، حيث لم يكن لهم في المدينة غاية غير الدراسة

حقاً لقد كان بالمتحف أروقة ، ولكن الشائع أنها كانت لسكنى العلماء ، ولكن حقيقة معينة تدعو إلى الاعتقاد بأن الطلاب عامة سواء أكانوا من الوطنيين أم الأجانب النازحين ، كانوا يساكنون الأساتذة في تلك الأروقة ، تلك هي التي يذكرها « ماف » في كتابه « الحياة والعقائد الاغريقية » ويقرر فيها أن نظام جامعة الاسكندرية كان كنظام « كلية الملكة » في اكسفورد في أول إنشائها ، أشبه شيء بمدرسة داخلية يختلف فيها الطلاب إلى دروس يلقيها الأساتذة ثم ينصرفون في أوقات فراغهم إلى الاستذكار . وأقل ما يؤخذ من هذا أن الطلبة كانوا يعيشون مع أساتذتهم في بناء واحد ، ومن شأن هذا أن يعطى مجالاً للتعاون العلمي بين الطلبة من ناحية وبين الطلبة وأساتذتهم من ناحية أخرى ؛ ومن شأنه أيضاً أن يظهر الجامعة بمظهر لا يتفق مع سمو النظام الجامعي الذي يجب أن يكون أميز خصائصه البحث العلمي ، وأخذ الطلاب به تدريجاً حتى تنمو فيهم ملكته . وهذا ما فطنت إليه جامعة الاسكندرية ، فنزلت عن النظام العتيق تدريجاً واشترك الطلبة في الأبحاث العلمية ، وقاموا أحياناً بواجب الأساتذه تمريناً لهم على مزاولة التدريس الجامعي . ووقعت جامعات أوربا في العصور الوسطى — ولاسيما كلية الملكة في اكسفورد — في مثل ما وقعت فيه جامعة الاسكندرية من خطأ ، ولكنها أدركت ما في هذا النظام من قصور ؛ وجاءت كلية « أول سولز » في شكلها الأخير مصححة لهذا الخطأ في النظام الجامعي حيث يقوم « الرفقاء » بأبحاث علمية وأدبية بعد حصولهم من جامعة اكسفورد على درجاتهم العلمية

ويحق لجامعة الاسكندرية أن تفاخر جامعات العالم طرا بما سبقت إليه من جمع الآداب اليونانية ، وتهذيبها ، وتنقيتها من الشوائب ، بما توفر لعلمائها وطلابها في زمن بطليموس فيلادلف من القدرة الفائقة على النقد الأدبي

ولم تكن الجامعة معهد العلم الوحيد في المدينة ، فقد كان إلى جانبها بعض المدارس اليهودية يتلقى فيها أبناء اليهود شرائع دياناتهم — وقد صحب دخول المسيحية نشأة بعض المدارس النصرانية ، ناوأت الجامعة واليهودية معاً ، وفيها نمت القومية المصرية ، ونضج الشعور القومي ، وانتقض في وقت ما على الآثار الاغريقية والرومانية كما سنفصله فيما بعد

ويذكر « ماف » في كتابه « إمبراطورية البطالسة » أن جامعة الاسكندرية اتخذت نموذجاً لكل الجامعات التي تلتها في أوربا ، فعلى غرارها تأسست جامعات أوربا في العصور الوسطى

أما المكتبة الشهيرة فلا تمدنا المصادر التاريخية بشيء قاطع في شأن مكانها : أكانت متصلة بالتحف ، أم كانت منفصلة عنه ، وهل كان أمين تلك المكتبة — وهو شخصية عرف عنها كثير من الفضل والأدب — عضواً من أعضاء التحف . والغالب على الظن أن المكتبة كانت وثيقة الاتصال بالتحف ، تمد الباحثين فيه بحقائق العلوم التي وصل إليها الاغريق في أثينا وأيونيا من قبل

وترجح أن تكون أول مكتبة أنشئت مع التحف في وقت واحد في حي البروكيون — ولا يذكر « سترابو » ، وقد زار الاسكندرية في عهد أغسطس شيئاً ما عن المكتبة أو عن احتراقها — وكل ما ذكره « ديودور » أنه اطلع على نشرات كانت تصدر في البلاط الملكي استمد منها بعض معلوماته

ويغلب أن تكون المكتبة قد جمعت بنفس الطريقة التي جمعت بها بعض المكتبات الانجليزية الشهيرة كمكتبة « سنيرلاند » ومكتبة « سبنسر » كما تجمع وتقتنى قطع الخزف الأثرية أو الصور التاريخية سواء بسواء

« للبحث بقية » ابراهيم جمعه

من أدبنا المجهول — شاعر يرثى ولده بديوانه

اقتراح القريح واجتراح الجريح

لأبى الحسن الحصرى (١)

[للأستاذ الزيات عزاء وسلوة]

للأديب السيد أحمد صقر

— ٣ —

نموذج من شعره :

قال أبو الحسن على الحصرى من قصيدة — وهى الأولى —

حاشاك من نار على الأحشاء ... يزداد ضِعفاً حرها بالماء
عزيتنى فيما ترى وعزوتنى ... للصابرين ولات حين عزاء
من لى بأجر الصابرين وأعظمى ... موهونة من أعظم الأرزاء
هل مستطيع أن يكفكف دمعه ... من لا براح له على البُرَحاء
لهفى على ريحانة راحت إلى ... مثوى ثواب ليت فيه ثوائى
سالت حشاشة نفسه من أنفه ... فشهدت منه مصرع الشهداء
ونظرت فى قطع الرعاف فلم تمط ... حكم المنيـة حيلة الحكماء
فاذا أراد الله ميتـة مدنف ... أخفى على الآسى دواء الداء
داواه من أدواه حتى قال لى ... لا تأتنى من ذا الردى بدواء
لا أشتكى أنى حرمت إجابة ... لولا شعوب لدَعًّ عنه دعائى
والخير فيما اختار خالقه فقد ... آلت به الضراء للسراء
ولقد يَسُرُّ الله بالبأساء فى ... أحكامـه ويضر بالنعماء

* * *

عرضت له تفاحـةً نفاحة ... بعضُ الأماء فرد بالإيماء
ولو استطاع القول قال مشافها ... تفاح جنـات الخلود شفائى
عبـد الغنى لك المسرة غائبا ... ولى المساءة مصبحى ومسائى

وقال من قصيدة :

كان عبد الغنى للعين نورا ... ولقلبى هـدى وللعيش طيبا
كان شيبى به شبابا فلما ... بان رد الشباب منى مشيبا
كنت فى غربتى كأنى به فى ... وطنى ، فانقضى فعدت غريبا
لم يدع فقـده لمغناى معنى ... فخلا آهـلا وضاق رحيبا
لست أنسى مقامـه ومقامى ... وكلانا مثـل القتيل خضيبا
أنفه ينـثر العقيق وعينى ... تنثر الدمع بالعقيق مشـوبا
ضمنى شـاكيا إلى فقلبى ... كلمـا يشتكى يطير وجيبا
وبودى لو احتملت فـداء ... عنه ذاك الضنى وتلك الكروبا
لم أطق فيـه حيلة غير أنى ... مذ قضى نحبه ألفت النحيبا
مات من كنت أقطع البيد جرا ... ه وأرجو المنى وأخشى الخطوبا
ما أعز الحياة للمرء ! ما أبـ ... ـعد آماله وأدنى شـعوبا
ما أقل الوفاء ، ما أضعف الطا ... لبَ فى ذا الزمانِ والمطلوبا
يا حبيب الإلـه لولا المنايا ... لشفى منك ما أعل الطبيبا
يوم ناديتَ : (فرج الله كربى ... إننى اشتقت مسجدى والأديبا
ولداتٌ سبقتهم لحقونى ... صار من كان غالباً مغلوبا
طال سقمى فارفع دواتى وأقلا ... مى ولا تمح لوحى المكتوبا
فاذا ما أفقت أدركت من فا ... ت وعادت عنقاؤهم عندليبا)
تُملتَ ما قلت ثم زاد سقام ... ودم غادر البياض شحوبا
فجرت عبرتى وأحسب نفسى ... فجرت ، كان برّها أن تذوبا
ولدى ! كيف نستوى ؟ انا فى حرّ ... الرزايا وأنت فى ظل (طُوبى)
أنت حيث المقربون فأبشر ... وسل الله أن أراك قريبا
خضعت بعـده رقاب لداتٍ ... كان فيهم معظما ومهيبا
كان يهدى قلوبهم ثم ولى ... فمعوا الآن أعينا وقلوبا
حق لى أن أشق قلبى بكاء ... لا أوفيك إن شققت الجيوبا

وقال :

إن قلوبا وجبت ... حق لها أن تجبا
مثلك يا عبـد الغنىّ (م) البرّ لن أنتجبا

وقال من قصيدة :

يا نور عينى فقدتُـهْ ... فى الفؤاد وجدتُـهْ
ياكوكبا اقبونى ... بالبـدر يوم ولدته
لم يهد ركنى سناه ... حتى خبا فاحدته

(١) راجع العددين ١٥١ و ١٥٢ من الرسالة

أنت النجيب ولكن … أبى الردى ما أردته
حلت يد الدهر عقداً … قد كنت من قبل شدته
أعارنى منك علقا … ثم اقتضى فرددته
بل سرنى فيك ربى … وساءنى فحمدته
تقاصر اليوم باع … للفخر فيك مددته
سهرت بعدك ليلى … وطالما قد رقدته
وكم نضحت بدمعى … حر الحشا لو بَرَدته
يارب وف المرا … دى بولده ما وعدته
لا ضيع الله أجرى … فأى وجد وجدته
أيوم مصرعه أم … يوم الحساب شهدته ؟
كان ابن تسع ولكن … فى الأكثرين عددته
لاحبذا العيش إنى … على الممات حسدته

***

عبد الغنى مفيدى … من الغنى ما أفدته
بيمنه كنت مهما … نصبت لليث صدته
وما زرعت رجائى … فى الصلد الا حصدته
يا ابنى الذى كان يبنى … مجدى وإن كنت شدته
حططتنى يوم أودي … ت من منيف صعدته
قميص مصطبرى من … قبل عليك قددته
وفى جوارك أحبب … ت مضجعى لو مهدته
لعل قربك يشفى … كربى كما قد عهدته
إنى وربى هدانى … لنوره فتبعته
ما غاض بعدك ثكلى … إلا بكيت فزدته

وقال :

بكيت من سكن فى أضلعى سكنا … لو عاش لى لكفانى الدهر أوقاتا
فى كل وقت على فقديه أذكره … وربما نسى الأحباب أوقاتا

وقال من قصيدة :

دهر حوادثه شتى الأحاديث … فاسمع بما شئت عن نوح وعن شيث
تغرنا دارنا الدنيا بزخرفها … ونحن فى طلب الموت محثوث
تُوُفِّىَ الخلف الزاكى وعشت كما … ترضى العدى عيش مكروب ومكروث
حتى أعاف شرابا لست أمزجه … بعبرتى وطعاما غير ملتوث
وكنت فى جنة حفت جوانبها … بالزرع والنخل والأعناب والبوث
فأصبحت يوم أودى وهى خاوية … جرداء من كل مغروس ومحروث
ويلاه ويلاه لا أشفى بتثنية … حتى أزيد ولا أشفى بتثليث
بكيت مستسقيا للدمع حين جرى … فلم أزد نار قلبى غير تأريث
أحب لقياه والبقيا لأندبه … فيا شعوب العجلى إن شئت أو ريثى

***

أهم بنبشى قبرك الطيب الثرى … لعلى أستشفى وإن حرم النبش
كأنى وقد أودعتك القبر طائر … كسير جناح لا فراخ ولا عش

الى العيد

قد كنت هيمان مهموما بلا جلد … فزدت ضعفين فى همى وتهيامى
عهدت ليلتك البيضاء نيرة … فما لها كحلت عينى باظلام
حتى تناسيت ما عودت من فرح … وقُبحُ يوم يُنَسِّى حسن أيام
فالبست سوى الأحزان سابغة … ولا نحرت سوى إنسانى الدامى
ولا برزت لزوارى مخافة أن … أساء منهم بطلق الوجه بسام
ورافل فى جديد كان يرفل فى … مثاله ابنى غداة العيد مذ عام

***

حبيبَ نفسىَ لو أعطيت ساكنها … أصاب نحرى وأخطا نحرك الدامى
كأننى لم أكلم منك نابغة … ولا رأيتك ملء العين قدامى
ولا سمعتك تتلو الذكر فى سحر … بصوت داود فى إفصاح همام
مخايل فيك راقتنى محاسنها … مَرَّت بيده ولم تسرر باتمام
الحمد لله عدل منك ما نفذت … به المقادير من نقض وإبرام

سيد أحمد صقر

حاشية — أقحمت سهوا ترجمة الحذاء على أنها ترجمة للجلولى والصواب حذفها (أنظر الرسالة ١٥١ ص ٨٩٧)

من تلميذ إلى أستاذه

بقلم محمد عبد السلام بحر

منذ سنوات خلت كنت أجلس أمام معلمى الأستاذ عبد الله عفيفى فى درسه وكلى أذن صاغية وقلب واع لما يدور فى خلده من شتى المعانى والصور ، فيجرى على لسانه خير آيات وعبر بين جدران الفصل الأربعة ، وفى ذلك العدد القليل من زملائى ، كنت أنتهل من مورده العذب فى صمت مقتنعاً برأيه لا أنبس ببنت شفة — ولقد عودنا الأستاذ فيما عودنا حرية الرأى — فاليوم وقد نضجت فى أثماره فليهنأ بجنيها — ولكن أما وقد كبر الشيخ وذهبت أسنانه بددا — فليمان قضمها ، وليسمح لى بأن أجابهه بلسان الحق وعلى ملأ من الأدباء بمناقشة أدبية فى قصيدته التى رثى بها المغفور له الدكتور شاهين باشا . ولكن فى رفق كما كان يرفق بى ، وفى أدب كما يجب أن يتأدب ولد مع والد

لقد قال الأستاذ :

أشكو الأسى وبدا الآسى موسدة لقد تمادين فى الاسراف أيامى

ولقد سبق فضل الأستاذ على فعلمنى أن الفعل يطابق الفاعل إفرادا وتثنية وجمعاً ، تذكيراً وتأنيثاً إذا جاء بعده ، أما إذا سبقه فيجب افراده ؛ وترونه هنا يقول (تمادين أيامى) . معاذ الله أن أقول إن الأستاذ نسى هذه القاعدة . أو إنه تغافل عنها لضرورة (الوزن) ، وإنما أقول إنه يكشف عن آثار اللغات القديمة أمثال لغة (أكلونى البراغيث) التى كثيراً ما كان يعيب علينا وقوعنا فيها فى موضوعاتنا الانشائية

ثم يقول :

. . . . كد لعقل واشغال لأفهام

وهنا لا أقول إننى بحثت عن (اشغال) فى معاجم اللغة فلم أجدها ، وإنما أذكر الأستاذ بطرفة من طرفه الممتعة التى كان يخفف بها عنا عناء الدرس إذ قال : — كتب أحدهم مرة إلى ابن العميد — (أريد إشغالى عندك) — فرد عليه ابن العميد — (إن من يكتب لى إشغالى ، لا يصلح لأشغالى)

ثم يقول :

. . . . عن نوح نائحة أو دمع أقلام

وفى بيت آخر :

. . . . رقبى الهلال على ديباجة العام

هنا لا يمكننى أن أقول إننى لا أفهم (دمع الأقلام ولا ديباجة العام) — فان تأنيب الأستاذ فى مثل هذه المواقف لا زلت أذكره ولا يزال يرهبنى — وانما تخلصاً من هذا المأزق أقول إن الأستاذ يتصرف فى المعانى تصرفاً قياسياً ؛ فهو يقول : (دمع الأقلام وديباجة العام) وأنا أطأطئ رأسى خاشعاً لهذه البلاغة العميقة فهى ليست على قياس (جناح الذل وماء الملام) فحسب ، بل هى أبلغ من هذا وأسمى . على أنه فى نفس الوقت كان يقصد (بديباجة العام) — ديباجة الشهر ، ولكن استلزمته القافية لأن يخلق هلالاً سنوياً على رأس أهلة الشهور الاثنى عشر لا يرقبه سواه

ثم يقول :

أبو الأطباء أودى ليت ناعيه لاقى الردى قبل منعاه بارغام

هنا يخيل إلى أن الأستاذ قد آلى على نفسه إلا أن تكون القصيدة أربعين بيتاً كاملة ، فقد زج بهذه الألفاظ فى هذا القالب زجاً — أو أنه قال : أبو الأطباء أودى — وقد تورط فرأى أن يدعو على الناعى الذى لا ذنب له فأتى بباقى البيت التزاماً للقافية — وأما إذا كانت هذه هى سنته فى كل مصرع فأولى به أن يدعو على سيدنا أبى بكر الذى نعى موت الرسول صلى الله عليه وسلم إذ قال : « من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » . ثم يقول :

مضى الطبيب الذى للطب من يده إحياء أفئدة موتى وأجسام

هنا تأخذنى الحدة ولا أذكر ورقة المقاب وأقول (لا حياء فى العلم) وأعلن رأيى جهاراً بأن الأستاذ لم يتحفظ فى هذا البيت بل كبا كبوة مالها من مقيل . متى أحيا شاهين باشا الموتى ؟ دون هذا وينفق أطباء العالم . ثم لأذكر فضل الأستاذ على فلا أبارزه بحسامه ، ولأهدأ قليلاً ثم أصلح له زلة كم أصلح لى من أمثالها فأقول :

مضى الطبيب الذى للطب من يده شفاء أفئدة مرضى وأجسام

ثم يقول :

. . . . وليس للموت من نقض وإبرام

هنا أنسته المشاكلة اللفظية أن الموت قضاء مبرم وأنه هو ينفى إبرامه ؛ ثم يقول :

الامتيازات الأجنبية

للأستاذ محمد الأسمر

ماعندكَ اليومَ من معنًى ومن كلِمِ جلّ المقام عن القرطاسِ والقلمِ
أرضُ الفراعينِ ذلّتْ بعدعزّتها مَنْ جرّأ الذل حتى حلّ بالأجم
فلو ترانا ونحن المالكون لها رأيتنا وعلينا ميسمُ الخدم
جاء النزيلُ فأكرمنا وفادتهُ واليومَ نسأله شيئاً من الكرم
فأعجبْ لمصرَ وكم فى مصرَ من عجبٍ
وانظر إلى القلب فى الأوضاع والنظم
كدنا لما صار من عكس الأمور بها
نمشى على الرأس لا نمشى على القدم
كنانةُ الله تلك اليوم حالتُها وجودُها أشبهُ الأشياءِ بالعدم
لهوُ الأجانبِ فيها لهوُ منتصرٍ عاثت كتائبُه فى أرض منهزم
يُمثّلون عليها من حقائقهم ما لا يمثله الكابوسُ فى الحلم
روايةٌ هى مأساةٌ ومهزلةٌ فإن تشأ فابكِ أو إن شئت فابتسم
روايةٌ قذف الأتراكُ مسرحَها عن أرضهم مثل قذف البحر للرمم
رموا به أنفاً من أن يقال لهم ما باله وهو عار غيرَ منهدم
ونحن لسنا بدون الترك منزلةً ونحن لسنا بدون الصينِ والعجم
هُمْ حطّموه فمامالَ الوجودُ بهم ولاتداعت نواحى الأفق بالشُّمم
هم حطموه ورحنا نحن نحمله فوقَ الكنانةِ حملَ الهم والسقم

* * *

الأجنبىُّ على الوادى يسيرُ به كما تسيرُ رعاة الشاء بالغنم
من يوم حلّ به ضيفاً تملكه ينهى ويأمرُ فيه غيرَ محتشم
ينهى ويأمرُ فيه جائراً أبداً فمن يقولُ له أخطأت فاستقم
ينال ما يشتهى منه وليس لنا إلا الفتاتُ، وما يُلقى من اللُّقم
تشكو المجاعةَ بالوادى عشيرتُه والأجنبىُّ به يشكو من التخم
الغرم قِسمتُنا والغُنم قسمتُهم لبئس ما فرضوا فيه من القِسَم
لولم نكن رمما فى الناس ماظفرت بنا عصائبُ للغربان والرَّخم
حامت علينا، ولوألفت بنا رمقا لأجفلت مثل ما جاءت ولم تحم
حطّت جياعاً ، فلما أتخمت نهضت
كيما تطيرَ ، فما اسطاعتْ ، فلم تقم
فهى الغداةَ بوادى النيل جاثمةٌ مقيمةٌ أشبه الأشياء بالهرم
فما يزحزحها شعرٌ نصيح به ولا البليغ من الأمثال والحكم
لا يدفع الضيمَ قولٌ أنت قائلُه بل يدفع الضيم عزمٌ غيرُ منفصم
ويدفع الضيمَ بأسٌ لا مَردَّ له ويدفعُ الضيمَ شعبٌ غيرُ منقسم
خاطبْ بكفك إن لم يستمع أحدٌ لعلّ فى اليد ما يشفى من الصمم
واعلمْ بأن براهينَ اللسان إذا لم تدّرعْ قوّةً شرٌ من البكم
لولا أظافرُ للآساد مرهفةٌ لم يرهب الناسُ زأرَ الضيغم القرم
لا يَنْزِلُ الظلمُ عن ظَهْرِ طَواعيةً
إن لا يزلْ عنهُ رغم الأنف لا يَرِمِ

* * *

فى (الامتيازات) ما أغرى النزيلَ بنا
فيالها نِعَماً جرّت إلى نِقَمِ
وغرسُكَ الخيرَ فى الأرض التى خلقت
للشرِّ غَرْسُكَ للأعواد فى الضرم
لا تنبتُ النارَ يوماًما لكم شجراً ولا تسوقُ إليكم هاطلَ الديم

. . . . لو رامه الليل لم يلمم باظلام

ولا أدرى كيف قال هذا مع أننى أعلم جيداً أنه يمقت مثل هـذه المبالغة المتطرفة وهو على يقين من أن الليل والنهار نظام لا يتغير (وكل فى فلك يسبحون)

ثم يقول :

. . . . من وحى طبعك لا من وحى أقلامى

فما أظن أحداً قبل هـذا قال إن للأقلام وحياً — ما كان أصوبه لو قال (من محض إلهامى)

هذا إلى أننى تحاشيت أشياء أخرى مخافة أن يرمينى بعض سيئى الظن بالعقوق، فى حين أننى لم أكتب هذا إلا تحاشياً لمهاجمة ناقد متبجح يناقشه الحساب العسير ، ولأبهج نفس الأستاذ بتلميذ له بلغت به الشجاعة الأدبية الى الوقوف أمام أستاذه وقوف الند للند يسائله ويساجله مع احترامه لشخصه المبجل كمعلم فاضل وكاديب إمام

محمد عبد السلام بحر

تأبى طبائعُ قوم عنهمُ حِولا   فاستخلصوا ماوهبتم قبلُ للأمم
لو سِيمت العجمُ ما سيمَ الحمى غضبت   على الشكائم واستعصتْ على اللجم
ثوبٌ من العارِ قمنا اليوم نخلعه   كفى كفى ما لبسنا منه فى القدم
كم فرَّ من يدك الشلاء متَّهمٌ   يأيها الوطنُ المرميُّ بالتهم
وكم قتيل على الوادى وقاتله   فى (الامتيازات) مثلُ الطيرِ فى الحرم
صَعْبُ المنالِ على القانون ممتنعٌ   كالنجم فى الأفقِ لم يدركْ ولم يُرَم
هذا هو الذلُّ لاذلُّ الغريب ولا   ذلُّ الرقيقِ بسوق الأعْبُدِ القزم
وما ذليلٌ له أرضٌ لها علمٌ   مثلُ الذليل بلا أرضٍ ولا علم
لا يفعلِ الخيرَ بعدَ اليوم فاعله   مَنْ يفعلِ الخيرَ يندمْ أيَّما ندم
أقسمتُ بالله لو أغنى دمى لمشت   نفسى به ، وقليلٌ للبلاد دمى

محمد الأسمر

جبل النار

(جبل النار لقب يطلق على جبل نابلس وهو سلسلة جبال تدور فيها أشد المعارك بين الثوار المجاهدين وبين الجنود البريطانيين)

للأستاذ أبو سلمى

جبل النار يا أعز الجبال   أنت لازلت معقد الآمال
ينبت المجد فوق سفحك فينا   ن وتسقيه من دم الأبطال
يفصح الصخر عن شمائل أبنا   ئك فوق اللظى وعند النزال
ما ذكرنا حماك إلا انتسبنا   وانتشت نخوة رؤوس الرجال
يفزع « التنْكُ » من صياصيك   « والرشاشُ » يخشى حتى من الأدغال

* * *

أيها الثائرون فى جبل النا   ر سلاماً يا زينة الأجيال
لكم الله يا حماة فلسطيـ   ـن زحمتم مصارع الآجال
تحملون الأرواح فوق أكف   وتبيعونها ولكن غوالى
ورصاصاتكم تمر على الأيا   م حمراً مضيئة فى الليالى
تصرع الطائرات مثل طيور الـ   ـجو تُهوى ما فوق تلك التلال
يسمع الجند فى صداها لغى المو   ت فلا يثبتون يوم القتال

* * *

أيها الثائرون قولوا فان الـ   ـكون يُصغى إلى لهيب المقال
والمعوا فى غياهب الظلم تجلو   ها فان الجهاد رحب المجال
إنما الحق من بنادقكم يسـ   ـطع والعدل من وراء العوالى
أنظروا اليوم كيف يلتفت الـ   ـتاريخ حتى يرى بريق النصال
جبل النار ! زأرة تجعل الدهـ   ـر يُحَيِّى محطم الأغلال
جبل النار ! لم تخلدك إلا   ثورة فى سبيل الاستقلال
جبل النار ! اقذف النار حتى   نبصر النور يا أعز الجبال

(فلسطين)   **أبو سلمى**

القصص

قصة سورية واقعة

النهـــاية ....

للأستاذ على الطنطاوى

فى ليلة قمراء من شتاء ١٩٢٩

بينما كان حىّ المهاجرين (فى دمشق) يرفل فى حلل الرخاء والترف، ويجر أثواب الدعة والنعيم، ويثب من الطرب، ويمشى على الذهب ... وبينما كانت قصوره البُلْق تشتعل بالكهرباء فتأتى فى الليل بالنهار، وشوارعه المتوازية الصاعدة إلى سرّة الجبل تمايل أشجارها تمايل العروس، وتلوح أنوارها للعين، كأنها فى تسلسلها وانتظامها حبال اللؤلؤ، ويسبغ عليها القمر حلة منسوجة من خيوط النور، وتتراقص على نسيمها المعطر نغمات الحاكى والمذياع ...

... كان فى الشارع العام الممتد على سفح الجبل، شيخ همّ، أبيض اللحية، متفكك العظام، مقوس الظهر، قد أخنى عليه الزمان، وحطمه الدهر، يسير منفردا يتوكأ على عصا، لا أنيس له إلا ظله الذى يمشى معه، ينمو ويتطاول كلما ابتعد عن المصباح، ثم يضعف ويختفى، ثم يولد ظلّ جديد. ويبدأ قويا واضحاً، كما تنمو الكائنات وتقوى، ثم يدركها الضعف، ثم تبيد لتأخذ مكانها كائنات أخرى أقدر منها على العيش، وأحق منها بالحياة ... حتى بلغ (قصر الوالى)، هذا القصر الأبيض الفخم، المعتزل وسط الجنائن الواسعة، الذى يخطر أمامه الجندى الذى يحمى (حمى رئاسة الجمهورية ...) فوقف على الدرابزين[1] وجعل يحدق فى القصر ويتأمل شرفاته ونوافذه المضيئة، ويستمع الى صوت الحياة الرغدة الناعمة ينبعث من غرفه وأبهائه، حتى علق بصره بغرفة بعينها ينبثق منها ضوء شديد، فجعل يحدق فيه حتى زاغ بصره وعراه شبه دُوار، فجلس على طرف الدرابزين وأمسك بحديده البارد، وألقى برأسه على كفه، وانطلق يفكر ... يفكر فى دنيا بعيدة ... بعيدة جدا، قد طم عليها لجّ النسيان؛ يعالجها بالذكرى، فيراها ينحسر عنها الماء، وتبدو له شيئاً بعد شىء، وتعرض عليه كما يعرض (فلم سينمائى) غريب عنه لا عهد له به، ولا صلة بينه وبينه، وان كان من القائمين به، والممثلين فيه ...

... ففتح عينيه، وراح يحدق فى الظلام

* * *

رأى دمشق فى أواخر القرن التاسع عشر — وهى ولاية عثمانية — ورأى ناظم باشا (والى دمشق) وقد أصبح ذات يوم لقسَ النفس ضيق الصدر، فأقبل على عمله فلم يجد له عزماً. فعمد إلى المطالعة والتسلية فلم يزد إلا ضيقاً. فأمر أعوانه أن يتمموا له منزلاً جميلاً مشرفاً، فينصبوا فيه خيامه، ويعدّوا فيه مجلسه، ليصطبح فيه، ويزله بقيّة يومه. فتسابقوا إلى طاعته، وتباروا فى خدمته، فلم تكن إلا ساعة واحدة حتى كان المجلس معداً. فلما جلس واطمأن نظر فرأى منظراً عجباً، ما رأى له مثيلاً وقد جاب أنحاء المملكة: رأى كأن أمامه متحفاً للطبيعة فيه من كل مشهد صورة، ومن كل لون مثال؛ فحواليه تلال وسفوح مالها حدّ، وعن يمينه جبال صخرية قائمة فيها روعة وعليها جلال، ومن أمامه (يزيد) يجرى زاخراً مزبداً يحيط بهذه السفوح ويحدق بها، وهو يلمع فى شعاع الشمس فتخاله العقد مستديراً بجيد حسناء، ومن وراء النهر الغوطة الخضراء، إحدى عجائب الدنيا، تمتد إلى نهاية الأفق، والمزّة وصحراؤها الواسعة، وسهولها الفسيح، فلم يكن يشاء أن يرى جبلاً ولا نهراً ولا خضرة ولا بادية إلا رآها، والسماء تبدو حيال الأفق كأنها البحر، يالروعة البحر فى دمشق ..!

(١) معربة من قديم، وفى العربية بمعناها: الحفنق

ودمشق نظاهر من بعيد، وهى نائمة على هذا البساط السندسى الأزلى، عليها غطاء من نسج الغصون موشى بالزهر، وقد هبّت عليها نسائم الصباح الرخيّة، تمس وجهها مساً رفيقاً، وسقسقت فى أذنيها العصافير توقظها برقة ولطف، وهدر فى مسامعها بردى يهزّها كى تفيق ...

والجامع الأموى يظلها بقبّته المشمخرة العالية، ومآذنه الطويلة السامقة، وبنائه الضخم الهائل، الذى يحمل أعباء القرون الثلاثين التى مشت عليه، مذ كان معبداً وثنياً — إلى أن صار — كنيسة نصرانية، إلى أن سما فكان مسجداً إسلامياً، يجهر فيه بالأذان، فيرنّ صداه على ضفاف الكنج، وشاطئ اللوار، ويقوم الناس إلى الصلاة صفاً واحداً ممتداً من قلب الهند إلى قلب فرنسا

فانتفى عنه الهمّ، وطار به السرور، فسأل من حوله :

— ما للدمشقيين لا يبنون هنا، ويقيمون على هذا السفح حيّاً لا يكون مثله مصيف فى الدنيا ولا مشتى ؟

فما بقى منهم إلا من وثب الضحك إلى شفتيه، وهمّ بقهقهة مجلجلة، ولكنه أمسك حرمة للوالى، وحياء منه، وقالوا له :

— ولكن يا مولانا، من يرضى أن يقيم فى هذا المنفى ويسكن فى جبل أجرد، لا ماء فيه ولا نبات، ويسافر كل يوم ساعة كاملة، ليصلى فى الأموى، أو ليرد السوق ؟

فأطرق الوالى يفكر ويجيل عقله الكبير وعزمه النافذ فى كافّة الممكنات ليجعل من هذه السفوح القاحلة أجمل حىّ فى أجمل مدينة، ويحيل هذه الرمال رياضاً تجرى من تحتها الأنهار !

* * *

ثم انقطع الفلم ودار أبيض يحمل أياماً وسنين خالية لا شىء فيها ثم وضحت فيه صورة ...

فاذا هو يرى حادثة كريد (اقريطش) حين غدرت أوربا — على عادتها دائماً — بالمسلمين، وشرّدت أهل الجزيرة من آمن منهم بالله واليوم الآخر بين سمع الأرض وبصرها، فدعا بهم ناظم باشا والى الشام وجمعهم وبنى لهم من أموال الدولة بيوتاً صغيرة متشابهة، متشابهة كمحطات القرى، ضيقة كغرف الخفراء، بناها على سفح قاسيون فكان لهم عصمة ومأوى، وكانت للحى الذى يحلم بذرة ونواة

* * *

ثم استدار الفلم وإذا دمشق خارجة تستقبل امبراطور ألمانيا وقد جاء يزورها زيارته المشهورة، ففرشت له الحكومة الحرير وأوطأته الديباج، فلم يطلب من ناظم باشا إلا أن يزوره الجبلين العظيمين والأثرين الخالدين : قاسيون، وقبر صلاح الدين ! فانطلق العملة والبناءون يقيمون له على سفح قسيون (المسطبة) التاريخية التى تدعى الى اليوم والى الغد (مسطبة الامبراطور) ويمهدون له الطريق الى مقبرة صلاح الدين فى الكلاّسة

وهناك فى أصل جدار الأموى الشامخ، وعلى هذه العتبة الواطئة وقف امبراطور ألمانيا، وأعظم ملوك العصر، مطاطئ الرأس خاشعاً خاضعاً، ثم ركع على ركبتيه، ثم سار حبواً حتى وصل الى جانب القبر، فوضع عليه اكليلاً من الزهر، وقال :

— هذه لك يا سيد أبطال العالم(١)

ثم أمّ قاسيون، فلما استوى على (المسطبة) ورأى هذا المنظر استخفه الطرب فصاح :

— ما على الأرض أجمل من دمشق ! ما على الأرض أجمل من دمشق !

فصحت عزيمة الوالى على انشاء الحى، وبادر الى الأمر ببناء هذا (القصر الأبيض)

* * *

واستدار الفلم فرأى ناظم باشا قائماً فى شرفة القصر، يتأمل فى الوفود الذين أتوا ساحة القصر، ليكرموا الرجل الذى تغلبت ارادته الماضية على الصخر الأصم فخرقته، وعلى البعيد النائى فقربته، حتى تم مد القناة العظيمة من الفيجة الى دمشق لتسقى أهلها، وتسيل فى هذا الحى الذى قام ليكون زينة دمشق وعروسها . . .

ورن فى أذنيه صوت الخطيب وهو يقول للوالى :

« ... ... إن دمشق التى أحببتها وسقيتها وعمرتها، لن تنسى فضلك أبدا : ولن تحيد عن حبك وإكبارك، وسيظل منقوشاً على أفئدة أبنائها الى آخر الدهر هذان الاسمان العظيمان

(١) ذلك لأن الامبراطور الشاب كان رجلا، لا كذلك الجنرال الذى دخل دمشق محاربا، فأم المقبرة من فوره، وولج شاهراً سيفه، مصعراً خده، حتى قرع بالسيف أعواد التابوت، وقال مهدداً الخشب ...

— نحن أحفاد جودفروا، فأين أحفادك يا صلاح الدين !

ولا كالجنرال الآخر الذى وقف فى كنيسة القيامة بالقدس، وقال :

— الآن انتهت الحروب الصليبية، أنا آخر قائد صليبى !

اسما مصلحيّ دمشق : مدحت باشا . وناظم باشا »

* * *

ثم انقطع (الفلم) وتبدد الحلم ، وأحس الشيخ بيد قوية تقبض على كتفه ، فعاد الى نفسه ورفع رأسه فاذا الجندى القائم على باب القصر ، يصيح به :

ماذا تصنع هنا أيها المتشرد ؟

ثم يكسعه ويضربه أم كيسان[1] ، فيقوم الشيخ ورأسه الى الأرض من غير أن ينطق بكلمة ...

عاد الشيخ أدراجه يطوف الحى ، ويدخل من شارع الى شارع ، فلا يعرفه أحد ولا يفتح له باب ، حتى اذا نال منه الجوع ، وبرح به التعب ، رأى زقاقاً ضيقاً فولجه ، حتى اذا انتهى الى بيت حقير من بيوت المهاجرين الأولين ، وقف ينظر اليه ، وتبرق عيناه كأن مرآه يذكره بشىء ، ثم مد الى حلقة الباب يداً مرتجفة فقرعه قرعة ضعيفة ، ولبث ينتظر ؛ فلما لم يرد أحد عاد فقرعه وشدد القرع ، وسكت فلم يسمع الا صدى أصوات الغناء والطرب تهبط عليه من أعالى الجدران ، تهزأ بالفقراء ، وتسخر من الحياة ، فعاد يخبط خبطاً قوياً وينادى :

— كريتلى زاده ... كريتلى زاده محمد افندى ...

فتحركت عجوز من أقصى الدار ، وصاحت :

— من هذا الذى يسأل عن محمد افندى ؟

وخرجت تدبّ على عصاها حتى بلغت الباب فنظرت فى الظلام وصاحت صيحة الفزع :

— من هذا الذى يسأل عن الرجل الذى مات منذ خمس عشرة سنة

فلما سمع الشيخ ما تقول وجم ولم ينطق

— فأقبلت نحو الضوء ، حتى إذا اقتربت من الرجل رجعت تصيح بصوت مرعب :

— من أنت ؟ قل لى من أنت أيها الرجل ؟ ماذا تريد ؟

— قال : أنا يا حاجة صفية ، أنا ؟

— من أنت ؟ تعال ، تعال إلى النور حتى أراك ، فلما رأته واستبانته ، صاحت :

— آه

— قال : هل عرفتنى ؟

(١) كسعه وضربه أم كيسان ، هو أن يضربه بقدمه على مقعدته

— قالت : آه كيف لا أعرفك يا سيدى ، ولكن ... كلا كلا . أنا واهمة ، هذا مستحيل . قل لى حالاً من أنت ؟

— أنا ناظم ... ذاك الذى كان يدعى يوماً ما ناظم باشا ، ذاك الذى كان والى الشام ... ألا تذكرين يا صفية كيف كنت تلعبين فى رحبة القصر وأنت صبية صغيرة ؟ وكيف كنت تتسلقين الأشجار وتطاردين الغزال الذى كان فى الحديقة ؟ هل تذكرين ؟... حتى إذا مللت وتعبت عدت مع أبيك محمد افندى الى الدار

— آه يا مولاى آه ! اذن أنت هو ! لم أكن مخطئة . قل لى يا سيدى أين أنت ؟ وما جاء بك ؟ لا لا أدخل أولا ! أهلاً وسهلاً ، ليس عندى شىء أقدمه اليك ، ليس عندى شىء

وانطلقت تبكى ...

— إننى عجوز فقيرة ليس لها الا الله ، لم يعد يسأل عنا أحد بعدك . اننى سأموت فقيرة تحت أثقال ذهب الجيران ، وأختنق جائعة برائحة اللحم . ان هذه القصور ستبتلع كوخى الذى لم يبق غيره . . .

وألحت فى البكاء ...

اننى لا أستطيع أن أصنع لك شيئاً ، آه ليتنى مت قبل أن أراك يا مولاى على هذه الحال

فمسح الباشا دموعه ، وقال لها :

— ولكنى لا أحتاج شيئاً . أنا فى نعمة ، وإنما جئت أزورك . والآن وداعاً ...

فلما ابتعد فتش جيوبه ، وقلبها كلها ، فلم يجد إلا فرنكين كان يدخرهما لعشائه فدفعهما اليها ، ومشى قبل أن يسمع ما تقول :

عاد يطوف فى الحىّ يخرج من شارع الى شارع منفرداً منكراً ، ولقد فارق دمشق وهو ربها وسيدها ، وصاحب الأمر والنهى فيها ، ولكن هذه الأعوام التى كرّت سريعة محملة بالاحداث الجسام قد بدّلت كل شىء

لقد انفجر بركان الحرب ، فهدّ هذا الفلك العظيم ، فلك الخلافة الاسلامية ، فتناثرت نجومه وكواكبه ، وانطفأت شمسه وأظلمت نيّراته ، وعبست مكة للقسطنطينية وبسمت للندن ، وصالحت الحلفاء ، وقاتلت الحلفاء ، وولد استقلال سورية فى القصر المنيف على بردى ، ومات طفلاً فى الصحراء القاحلة من

ميسلون، وكان الانتداب وكانت لياليه الحالكات

وذهب جيل من الناس كان يعرف الباشا حق المعرفة، وجاء جيل جديد ينكره أشدّ الانكار

فنفض الباشا يده من كل شيء، وانحدر إلى الشارع الأعظم على سفح الجبل، فجلس على حجر قبالة القصر الذي بناه، وكان صاحبه ومولاه، فطرد الليلة عنه كما تطرد الكلاب. وأسلم رأسه إلى كفيه، وراح يفكر في غير شيء...

فما نبهه من ذهوله إلا ولد يقفز بقبقابه على بلاط الشارع، فاستوقفه يسأله:

— ما اسم هذا الشارع يا ولد؟

فارتاع الولد وفرّ، حتى إذا ظنّ أنه قد فاته، صاح به:

— ألا تقرأ اللوحة يا أعمى؟ هذا شارع ناظم باشا

فابتسم الباشا ابتسامة صفراء وعاد الى صمته، وهبت الرياح فلم تلبث أن أنشأت سحابا حجب القمر، فشمل الشارع ظلام رهيب

ومرّ رجل فألقى على الباشا نظرة واحدة، ثم سار في طريقه ينحدر في طريق البساتين، حتى إذا ابتعد عن العمران رفع عقيرته يتغنى بصوت شجي محزن:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا　　أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا　　صروف الليالي والجدود العواثر

فصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة　　كذلك عضتنا السنون الغوابر

وناظم باشا يصغي اليه، وقد هاج في نفسه عواطف هائلة كادت تنسف كيانه نسفاً، حتى ابتعد الصوت ونأى، ثم ابتلعه السكون

فقام ناظم باشا يجرّ رجله ليغادر دمشق التي نسيت احسان المحسن، كما تنسى (دائماً) إساءة المسيء، ليذهب فيموت حيث لا يعلم به إلا الله

واشتدت الرياح وصفرت صفيراً مرعباً، وهطل البرد مجنونا ثائراً، بينما كان يسدل الستار الأخير على هذه المأساة...[1]

علي الطنطاوي

(١) قدم ناظم باشا خير ولاة العثمانيين بعد مدحت باشا، وأكثرهم في دمشق إصلاحا، وأعظمهم مآثر باقيات، قدمها منذ سبع سنين فقيراً محتاجاً، فلم يحفل به أحد، فغادرها رحمه الله تعالى يائساً حزيناً!

مأساة من سوفوكليس

٣ـ أنتيجونى

للأستاذ دريني خشبة

— ٩ —

ويرسل الخورس أغنية عن الحب، وعن خضوع الآلهة والعباد لسلطانه على السواء

تدخل أنتيجونى وحولها حرس

— «سلام عليكم يا رعايا أبي وأمناء مملكته! شعاعة واحدة يا هكيوز[1] الكريم أتزود بها لرحلتي إلى الدار الآخرة فتنير لي ظلمات طريقي! إنها تكفل لي أن أذهب إلى هيدز والحياة تدب في قلبي! أوه! ألا يتنفس لي فجر حلو بعد اليوم؟ وقدامى وأفراح عرسي؟ ألا تملأ أهازيجها سمعي؟ وهايمون!! آه يا حبيبي هايمون!! أشيرون[2] وحده سيكون زوجي... لا أنت يا هايمون الحبيب... فوق شطآن نهره الفائض بالحمم!»

الخورس: «أجل يا بنية! لكنك تذهبين ثمة لا كما يذهب الموتى، بل تذهبين وفي قلبك الحياة تنبض وتنبض... وتذهبين باختيارك لا برغمك، لأن سيفاً لا يغمد في أحشائك، ولأن مرضاً لم يلم بك ولم يسلمك للردى!»

أنتيجونى: «هيه! ... لي أسوة بابنة تنتالوس[3]، وستهبني الآلهة نعاسا فلا أحس شيئاً»

الخورس: «ولكنها ربة وابنة إله عظيم!»

— «ويحكم يا رعايا أبي! أتستخفون بي حتى في طريقي إلى هيدز؟ ألا يروعكم ذهابي إلى القبو المظلم الذي حوّل من أجلي إلى مقبرة أحياء... أتجرع فيه غصص الردى قطرة فقطرة!! يا لها من موتة! ألا من لشبابك يا أنتيجونى؟!

— «تجلدي يا فتاة! إن جدود أبيك العواثر تكتسحك في طريقها!!»

(١) اسم من أسماء أبوللو إله الشمس

(٢) إله نهر من أنهار الجحيم

(٣) نيوب التي أسخطت أبوللو وديانا فقتلا أبناءها وبناتها فاستنجدت بالآلهة فحولتها إلى صخرة فوق قمة جبل وفي حضنها ابنها الأخير الذي تحجر معها

— « أوه ! إنكم تؤلموننى يا قوم ! جـدوده العواثر ! ما كان أتعسها من زيجة تلك التى كشفت سرها أمى ! ! ويا لقساوتها أبوة تلك التى ابتلى بها أبى ! أما أنت يا أخى ... فما كان أتعسها من زيجة كذلك تلك التى أشقيت بها نفسك وجررت بها الموت عليك وعلى ! ...

— « لا ريب أنك صنعت جميلاً يا بنية (بدفنك جثته)، ولـكن ما العمل فيمن يأبى إلا أن يظهر سلطانه ويدل بجبروته !

— « ويلاه ! أأساق إلى الموت غير مبكية ... وفى يوم عرسى ؟ الشموع ! أين الشموع التى كانت تضىء لى بحية ليل وسلام إمساء ؟ ألا يذرف أحد عبرة من أجلى ؟ !

« يدخل كريون »

— » ما تزال هنا ؟ هلموا بها الى القبو المظلم ... ! هلموا ! لتساقط نفسها أنفساً ! لتـذب روحها ولتهو الى الحضيض قطرة فقطرة ! هى الجانية على نفسها ... لم يجن عليها أحد ! لتذق وبال أمرها فى ظلمات السفل ؟

— « القبو ! مرحباً بالقبو والقبر معاً !! لتكن يا قبو غرفة عرسى ! يامقبرة الأحياء مرحباً مرحباً ! فى جوار پرسفونيه[1] الجميلة التاعسة سأقضى حياة حدودها الأبد ! ألا كم من حسناء حوراء ضمها الموت الى سرب پرسفونيه ! لم لا أنضم الى السرب زهرة اختصرها الموت قبل أن تفتح !! لم لا أطوى تلك المرحلة الأخيرة من هذه الحياة المفعمة بالآلام والمظالم لألتقى أبى ... وأمى وأخوى ... فى هيدز ! وأنت خاصة ياپولينيسيز سألقاك وسأعانقك وستبتسم لى ... أنا أختك ... التى ضحت بشبابها الفينان من أجلك ! ألا من للانسان بعد أمه وأبيه وأخيـه (الذى مثل پولينيسيز) ! الابن إذا قضى فقـد يجىء ابن غيره . . . ولـكن الأب ... ومثله الأم ... لا عوض عنهما إن غالها الردى ! أما أخى ! فسامح الله كريون الذى يأبى إلا أن يأخـذنى بمحبتى له وفدائى من أجـله ! آه يا أخى ! انفض أطباق الثرى قليلاً وانظر الى ! أنظر الى مسوقة الى حتفى مصفـدة بالأغلال ، مسلوكة فى القيود ... الى القبو المظلم الذى لاتؤنسنى فيه غير أشباح الموت . أواه يا آلهة السموات ! من نصيرى وقد جد بى الجد ؟ إن كنت قد أجرمت فعلى إجرامى... ولـكن هؤلاء ! ! هؤلاء الذين داسوا شرائعـكم أيها الآلهة ! خذوهم بظلمهم ، وابتلوهم بضعف الحياة الدنيا والآخرة أولئك المجرمون !... »

رئيس الخورس : « العاصفة نشتد فى نفس الفتاة ! وما تزيدها الآلام إلا اصطخاباً ! »

كريون : « وكل من يلوذ بها أو ينافح عنها قد يشجى شجوها ! »

أنتيجونى : « وا حرباً ! إنى أسمع دبيب المنايا فى هذه الـكلمات ! »

كريون : « وهل بقى فى ذلك ريب ؟ »

— « يا طيبة يا أرض المجد ! يا مهد الجدود ! يا هيكل الآلهة الأطهار ! وداعا ! ! إلى هيدز ، سأذهب الى هيدز ! أنا أنتيجونى آخر فنن من أفنان دوحة قدموس ولايوس ! الى هيدز ! قرباناً لك يا آلهة ، وفى سبيل شرائعك يا سماء ! ... »

« تخرج ومن حولها الحرس »

— ١٠ —

ويرثى الخورس للفتاة البائسة الشقية ، ويرسلون وراءها لحناً بائساً شقياً

(يدخل تيريزياس الـكاهن الأعمى يقوده ولد)

— « هيه ! سلام على سادات طيبة ! لقد وصلنا والسلام ! »

الملك : « وماذا جاء بك يا تيريزياس ؟ »

— « سأنبئك ... إ ... إن أصغيت لى »

— « مرحباً بك ياكاهن طيبـة ! وهل يأبى أن يسمع لك أحد ؟ »

— « شكراً ! إنك بمثل هذه المهارة قدت السفينة إلى بر الأمان ! »

— « الفضل فى ذلك لتجاريب الزمان يا تيريزياس ! »

— « هذا حق ! ولـكن ... برغم ذلك ينبغى أن تحترس ! إنك على شفا جُرُف هار ! ! »

— « وأى شفا جرف يا تيريزياس ؟ إنك تزعجنى ! »

— « إى وايم الحق ! نبوءاتى : سأقص عليك نبوءاتى التى استوحيتها اليوم ! لقـد تنزل على منها قدر عظيم أيها الملك ! وليس يتنزل على منها إلا الحق حين أستوى على كرسى كهانانى ! طيور ! ... بوائق جارحة ... كانت تحلق فوق معبدى ! لقد ظلت تضرب الهواء بخوافيها ... وكانت ترسل فى السماء أصواتاً مزعجة كقصف الرعود ... ! قمت إلى المذبح وضرّمت

(١) ابنة ربة الربيع . اختطفها بلوتو إله الموتى لـكون زوجتـه فى هيدز وقد نشرت الرسالة أسطورتها فى السنة الثالثة

النيران ... وا أسفاه ! لقد رفض إلـه النار أن يقبل منها قبسا ! وتناثر القربان ! وانطلق الشرر فى سماء الهيكل ! وكنى بذلك نذير سوء أيها الملك ! لقد شهد ذلك غلامى هذا ، وأنا أشهد به أمامكم الآن ! الدمار يكاد يقضى على طيبة بسببكم يا مولاى ! إن الآلهة قد تكلمت بألسن النسور والبزاة التى اغتذت بلحم ابن أوديبوس المسكين ! من أجل ذلك رفضت قرابيننا أيها الملك ، وقذفت بها فى وجوهنا ! والآن ! خذ حذرك يا بنى ! كلنا بنو الموتى ! وكل بنى الموتى يخطئون ! وما تزال فى الوقت فسحة لمعالجة هذا الخطأ ! الحمق فقط هم أهل العناد والاستبداد بالرأى ! مالنا وللموتى ؟ إن أمرهم الى الآلهة ، وليس يفيدنا أن نمثل بالقتلى وقد فرغ حسابنا معهم ! ألا قد بلغت ! فاسمع وع ... واشهدى يا سماء ! »

— « لم يبق الا الكهنه أمثالك فأكون غرضا لسهامهم يا تيرزياس ! أنت تحاول عبثاً ! ... لن يدفن مهما حاولت ! ولكن ... آه ! الذهب ! قاتل الله الذهب ولو انصب فى يديك من منجم ! الآلهة ؟ ها ... لترسل الآلهة نسرها الباشق فليغتذ هو الآخر به ! »

— « وى ! أين الحكمة اذن ؟ ألا من يتعظ !

— « من ؟ ... أى شك ؟ »

— « كنوز الذهب الأبريز موعظة حسنة ورأى سديد ! »

— « والجهالة آفة الآفات ! »

— « أجل ... الجهالة طاعون كاد يرديك ! »

— وبعد ؟ ... أوثر ألا أبادل الكاهن ضربة بضربة !

— « وأى ضربة لازب أشد على من أن تحمقنى ؟ ! »

— « بل الذهب هو طاعون الكهنة ! ! »

— « والربح الخسيس هو آفة الملوك ؟ »

— « طاش صوابك إذن حين تخاطب مليكك بمثل هذا ؟ »

— « أجل ! وإلا ساعدتك فى تعجيل الخراب لهذا البلد ؟ »

— « نظرك بعيد أيها الأب ! ولكنك غير أمين ولا وفى مع هذا ؟ »

— « ستندم لأنك لم تر أن تسمع الى نصيحتى ! »

— « هيه ... تكلم ... إهرف ... فلن تنال منى ربحاً ؟ »

— « ومنك تحسبنى ألتمس الربح وأنشد الغنم ؟ »

— « لن تربح تجارتك معى أيها الكاهن ! »

— « آه ! إن دمك فقط كفيل بأن يغسل وزريك المظيمين دفنك فتاة حية لتموت من غير ذنب فى قبو مظلم ... وتركك قتيلاً فى العربة تنوشه السباع من دون أن تقام له شعائر الدين أو تؤدى من أجله مراسيم الآلهة ! هذا تصرف مخز لن تقبله آلهة هيدز ولا من أرباب الأولمب ! ويل لك ؟ إن أرباب النقمة تتربص بك ، وربات الذعر تكاد تنقص عليك ! ولن يأخذنك الا بعملك ولا يجازينك الا بوحشيتك ! أما جئت اليك ألتمس رفداً ؟ يا لخباثتك ! ستعلم عما قريب ! سينقض هذا القصر فوق رأسك ليقول لك : لا ! لا ! وسترن فى أذنك أصوات الصراخ والعويل والندبة من أجل موتى كثيرين ، أعزاء عليك ... وسترى ! ياغلام ! هلم ! لتنطلق من هنا ! وسيأتيه اليقين فيثوب الى رشده ويطهر لسانه ! »

« يخرج الكاهن يقوده الولد »

(البقية فى العدد القادم)

دريني خشبة

البريد الأدبي

أسبوع المتنبي في دمشق

في الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس الماضي ، ٢٧ يوليو سنة ١٩٣٦ افتتح مهرجان المتنبي في مدرج الجامعة السورية بحضور فخامة رئيس الجمهورية ووكيل المفوض السامي ميريه ودولة رئيس الوزراء ومندوب المفوض السامي ووزيري العدلية والاقتصاد الوطني ، فافتتحت الحفلة بآي من القرآن الكريم ، ثم ألقى وكيل المفوض السامي خطبة وجيزة ضمنها عطف المفوضية العليا على هذه الحفلة وشعورها مع اللجنة القائمة بها ومع الأمة العربية جمعاء في احتفالها بمرور ألف سنة على وفاة سيد شعرائها بلا منازع وتتابع بعده الخطباء فألقى رئيس الوزراء كلمة وزارة المعارف ، وألقى السيد الطباطبائي أستاذ الأدب الفارسي في الجامعة الأمريكية قصيدة شاعر الفرس خسرو داراني ، ثم تكلم أحد المستشرقين عوضاً عن المستشرق الأستاذ بلاشير الذي تأخر وصول كلمته

ونهض بعده الأستاذ أحمد أمين مندوب الجامعة المصرية فألقى خطبة قيمة جاء فيها على ذكر ناحية واحدة من نواحي حياة المتنبي مستدلاً على أخلاقه من آثاره وأخيراً اقترح الأستاذ عبد المنعم رياض وضع جائزة سنوية شبيهة بجائزة نوبل تعطى للمبرزين من الأدباء والشعراء

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة — أمس — احتفل أمام بناية المعرض بإزاحة الستار عن نصب أقيم في الزاوية الغربية من الجدار المحيط بالبناء وقد نقش عليها عبارة « شارع المتنبي » وقد افتتح الحفلة محافظ العاصمة بخطبة وجيزة شرح فيها الغاية منها ، وعقبه الأستاذ عز الدين علم الدين سكرتير لجنة المهرجان بكلمة شكر فيها لمحافظة المدينة اهتمامها بإطلاق أسماء رجال الأمة العربية الخالدين على شوارع المدينة وأعلن أن هناك شوارع جديدة سوف تطلق عليها أسماء العظماء كأبي العلاء المعري والبحتري وغيرهما

وفي مساء اليوم نفسه غص مدرج الجامعة السورية بالمحتفلين وخطب الأساتذة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد مندوب الجامع الأزهر، وألقيت كلمة الدكتور عبد الرحمن شهبندر وقصيدة للأستاذ خليل مردم بك ثم خطب الدكتور عبد الوهاب عزام فالأستاذ نجيب الارمنازي وانصرف الخطباء والمندوبون بعد ذلك لتناول طعام العشاء على مائدة أعدها المجمع العلمي

وعلى المنهاج الموضوع للمهرجان سيلقى في اليوم الثالث (السبت) كلمة الأستاذ معروف الرصافي مندوب العراق وقصيدة الأستاذ رضا الشبيبي (ذكرى شاعر) وقصيدة الأستاذ علي الشرق (صوت الكوفة) وخطبة الأستاذ طه الراوي . قصيدة الأستاذ عز الدين التنوخي كاتب سر المهرجان . وليمة الصحة العامة

اليوم الرابع (الأحد) — خطبة الأستاذ نقولا فياض : مندوب لبنان (هل كان المتنبي مجدداً) . خطبة الأستاذ أنيس القدسي مندوب الجامعة الأمريكية . خطبة الأستاذ أمين الريحاني (المتنبي رسول العروبة) خطبة الأستاذ فؤاد البستاني مندوب الجامعة اليسوعية . قصيدة الأستاذ حليم دموس (مهرجان المتنبي) وليمة وزارة المعارف

اليوم الخامس (الاثنين) — خطبة الأستاذ أحمد رضا (روح الطموح في المتنبي) قصيدة الأستاذ سليمان ظاهر (حياة المتنبي) خطبة الأستاذ حبيب شماس مندوب المدرسة البطريركية . خطبة الأستاذ أديب التقي . قصيدة الآنسة ماري عجمي ، وليمة الجامعة السورية

اليوم السادس (الثلاثاء) — خطبة الأستاذ خليل الخالدي ، خطبة الأستاذ سامي الكيالي (المتنبي في بلاط سيف الدولة) خطبة الأستاذ عبد القادر المبارك (لغة المتنبي) . قصيدة الأستاذ محمد البزم ، وليمة معرض دمشق

اليوم السابع — كلمة الأستاذ مرشد خاطر : مندوب الجامعة السورية . قصيدة الأستاذ عمر يحيى . خطبة الأستاذ سليم الجندي ، قصيدة الأستاذ عمر أبي ريشه خطبة الأستاذ جميل صليبا (فلسفة المتنبي) كلمة الختام ، وليمة مدينة دمشق

خطاب وكيل المعتمد السامي في مهرجان المتنبي

سيداتي وساداتي :

إذا ذكر المتنبي فلا يثير ذكره في قلبنا صورة أعظم عصر من عصور تاريخ حلب ، وصورة أمجاد سورية الحمدانية فحسب ، وإن يكن ذلك من الأسباب التي تحببه إلى نفوسنا ، فلا بد لنا من القول أن المتنبي لا ينتمي إلى مدينة واحدة ولا إلى عصر واحد ، بل انه يدوي صداه في خلال عصور الشعر العربي وخلال نواحي الشعور الأدبي المترامية الأطراف ؛ فقد ذهب شاعر الكوفة العالم العربي نماذج من الشعر خالدة ، وضروباً من التعبير صافية ورفعة لا تطال ، وفناً أنوفاً دقيقاً ، وهدفاً شريفاً ، وتشاؤماً عالياً ؛ وجميع هذه الصفات المتغلغلة في أعماق نفسه تتفق مع أعرق مميزات الفكرة الأدبية العربية ، تلك الفكرة الطامحة إلى المعالي ، الهائمة بالشرف ، المغرمة بما عز وكرم من المعاني ، الساعية وراء خير المثل العليا ، تلك الفكرة التي تطلب في الشعر « حالة نادرة » كما قال في ذلك شاعرنا الفرنسي (مالارمه)

هذا ما أهل المتنبي أن يكون شاعر الأمة العربية ؛ وهذا ما حدا بكم جميعاً للاعتراف له بهذا اللقب . إن الأمة العربية ترى في المتنبي بعض ميولها الجوهرية ، وبعض شواعرها الثابتة ، فيلذ لي والحالة هذه أن أحيي في هذا الحفل ، إلى جانب السلطات العليا ورجال العلم في سوريا ، ممثلي الدول المجاورة ، والشعراء والكتاب والعلماء من جميع البلدان التي يرن فيها صوت لغتكم الجميلة ، وأن أحيي مندوبي المجامع العلمية ومؤسسات الثقافة العالية التي تحافظ في جميع البلاد الغربية على تقاليدها الروحية المشتركة ، ولهذا أيضاً رغبت في أن أرحب بكم ، وفي أن أحمل اليكم في هذا المهرجان حيث للفكرة والأدب المحل الأرفع ، عربون عطف المفوضية العليا على هذا المهرجان واهتمامها به ، وكذلك عطف حكومة الجمهورية الفرنسوية ؛ من يشك في الفائدة التي تجنى من هذه الاحتفالات ، إنها توثق عرى التضامن المكين ، والتقارب الجوهري ؛ وتدل على أن فوق المصالح الأنانية التي تفرق بين الناس وتبعدهم بعضهم عن بعض عبقرية لا تزال في وسعها أن تجمع بين ذوي النوايا السليمة جميعاً خلواً من كل ما يكدر صفاءه

سيداتي وساداتي : إني لأجد لذة عظيمة في اعلان افتتاح المهرجان الذي يحتفل فيه بذكرى مرور ألف سنة على وفاة الشاعر المتنبي

خطاب وزارة المعارف في مهرجان المتنبي

أرحب بجميع الوفود التي جاءت من مختلف الأقطار العربية لتشارك حكومتنا في إظهار عاطفتنا الصادقة نحو شاعر العربية العظيم أبي الطيب المتنبي وأعني لجميع العلماء والكتاب والشعراء الذين أموا دمشق لهذه الغاية مقاماً سعيداً وراحة طيبة ، ولا شك أن جو الفيحاء الرطب وإقليم الغوطة العذب سيوحيان الى كل منهم بأحسن الصور ، ويرويان ما احتدم في قلوبهم من قوة العاطفة وشدة الخيال فيسكبون عواطفهم في قالب من الألفاظ السحرية التي تليق بالمتنبي وعبقريته الخالدة . إن فكرة هذا المهرجان ليست وليدة الساعة بل هي فكرة قديمة خطرت ببال حكومتنا منذ الصيف الماضي فحالت دون تحقيقها إذ ذاك عقبات كثيرة ؛ ولما ذللت جميع العقبات أحبت الحكومة أن تجعل أيام المتنبي داخل أيام المعرض الصناعي لتبرهن بعملها هذا على رغبتها في إحياء النهضتين الأدبية والاجتماعية معاً

ونحن إذا أقمنا هذا المهرجان لمرور ألف عام على وفاة المتنبي فانما نقيمه لأن بينه وبين سوريا صلة قوية . فقد جاء المتنبي من العراق الى سورية وهو شاب معدم فعانى فيها ما يعانيه شبان اليوم من مشاكل العيش وضيق أبواب الرزق ولم يزل يتنقل بين منبج وانطاكية واللاذقية وطرابلس وحلب ويمدح أمراء سوريا حتى اتصل بسيف الدولة أعظم ملوك بني حمدان وصار شاعره الخاص وعاش في بلاطه فانكشفت قريحته وجاد شعره وتحسن خياله ورق لفظه بما لقيه من حفاوة الأمير وعنايته به ، ولو بعث اليوم سيف الدولة لما اتخذ لنفسه شاعراً غير المتنبي لأن المتنبي لا يزال حتى اليوم يعبر بشعره عن عواطف كل منا ، فهو شاعر العروبة ورمز العواطف القومية ، يجد كل منا في شعره مايعبر به عن جميع صور الحياة سياسية كانت أو اجتماعية أو خلقية فقد جمع في شعره نزوة الشيوخ وصور العدل والرحمة كما وصف الظلم والقسوة وتغنى بالآباء والكرم والعز والشجاعة كما بكى على المجد المفقود والأمل الضائع ، فنحن نفاخر بشاعر أمراء سوريا بل بشاعر سوريا والعراق ومصر وننقل اليه من وراء حجب الزمان عاطفة شعب تثقف بشعره وتغذى باحساسه حتى خالط لحمه ودمه

فان تباعدت الأقطار فانها حول المتنبي لتجتمع ، وان نفرت القلوب فانها في أبي الطيب لتتحد ، وليس أدل على هذه الوحدة من اجتماعكم لاحياء ذكرى هذا الشاعر الخالد . فأشكركم جميعاً

على ما تحملتموه من المتاعب وتحملتموه من عناء السفر وأشكر فخامة رئيس الجمهورية على رغبته فى جعل هذا الاحتفال احتفالاً رسمياً كما أشكر بصورة خاصة فخامة المفوض السامى على عنايته بهذا المهرجان واعاناته المادية والمعنوية معاً، وأشكر ممثلى الجامعات العربية والأجنبية المختلفة ووفود الأقطار العربية الشقيقة وجميع الخطباء والشعراء على ما أكسبوه إيانا من الشرف بكتاباتهم وما أحدثوه فى هذا المهرجان من البهاء والازدهار بقدومهم وأخص أعضاء مجمعنا العلمى من عرب ومستعربين بأحر الشكر على تعاونهم فى إحياء ذكرى شاعر العربية ورمز نهضتها الأدبية الحديثة وأتمنى لهم نجاح السعى وطيب الاقامة والسلام

جمعية أدبية مختلطة فى سورية ولبنان

دعت الجريدتان الفرنسيتان (الجور) فى بيروت، و(لا كرونيك) فى دمشق إلى تأليف جمعية أدبية كبرى فى البلاد السورية واللبنانية يكون الغرض منها: السعى والدعاية لنشر الأدب والثقافة فى البلاد، ثم الدفاع بمختلف الوسائل المشروعة عن حقوق المؤلفين ومصالحهم، وهذه الجمعية بعيدة عن الأحزاب السياسية والخلافات الدينية، تجمع نخبة من الكتاب السوريين واللبنانيين الذين يسعون إلى نهضة فكرية فى البلاد، تجدد فى الأدب الحديث مع العناية بالأدب القديم

وهى تتألف من الكتاب والمؤلفين فى اللغة العربية أو فى اللغة الفرنسية

وتنتخب مجلساً يتألف من عشرة أعضاء ستة من المؤلفين فى اللغة العربية وأربعة من المؤلفين فى اللغة الفرنسية، ويرأس هذا المجلس مؤلف عربى له نائب من المؤلفين فى اللغة الفرنسية

وتنتخب مكتباً دائمياً لأمانة السر، ومكتباً للاستشارات القضائية الحقوقية، وتتصل بالاتحاد الدولى لجمعيات حملة الأقلام فى جنيف، وتعنى بغير ذلك من الأمور لتأمين سير الجمعية ورقيها

فلسطين تناشد العالم الانسانى

إن الأيام الدامية التى مرت على جهاد فلسطين العربية المقدسة وما لقيت فى خلالها من هول الاحداث قد أصابها بأضرار فادحة وأنزل بها خسائر جسيمة فى الأرواح والأموال مما لا يمكن حصره ولا تعويض خسارته، فهناك عشرات من القرى قد دمرت وأتلفت أرزاقها وأحرقت مزروعاتها وصودرت أموالها، وهذا غير ما أحدثه نسف مدينة يافا الفيحاء ذات الحدائق الغناء بالديناميت بعد إحراق معظم حى المنشية فيها بأيدى مجرمى اليهود، وغير حدائق البرتقال الكثيرة التى قطعت بأيدى الأشرار ودوساً بالدبابات، وغير المئات من أكواخ الفقراء فى ضواحى يافا وأطراف حيفا، ومنازل مدينة اللد التى دوهمت بالدبابات فانطمست آثارها

فهذه الأهوال العظيمة قد أسفرت عن مائة ألف نسمة نكبوا بصورة مباشرة فمنها عائلات الشهداء وأيتامهم وأراملهم، وعائلات المسجونين والمعتقلين وأقاربهم، وسكان المدن والقرى التى دمرت بعد أن فروا عند النسف والهدم من منازلهم، تاركين جميع حاجاتهم وأثاثهم وملابسهم، فتشردوا فى العراء بلا فراش ولا طعام ولا مأوى. وقد كثرت فى هؤلاء المنكوبين الأمراض والوفيات. ولولا أن بقية الأهالى قد قادوا وبذلوا كل شىء يستطيعونه لاغاثة إخوانهم بعض الغوث — وهو مما لا يفى بحاجة ولا يسد ثلمة — لكانت الكارثة أوجع والخطب أفجع

على أن الحالة برغم شهامة الناس هناك قد تجاوزت كل ما يتصور العقل من شناعة وفظاعة مما ستكشفه الأيام بعد حين وعندما يباح نشر الرسوم ووصف الخطوب

وسيتضح عند ذلك أن ما نزل بفلسطين إنما هو من النوع الذى أصاب البلاد العربية على الخصوص والاسلامية على العموم من جنكيز وهولاكو وتيمور. ويا حبذا لو تنتدب الأقطار المجاورة وفوداً تجوب نواحيها لترى بالعين وتسمع بالأذن ما أصابها وما حل بها. حيث لا تقع العين إلا على قتيل أو شهيد. ولا يصادف المرء فى طريقه سوى الخراب والدمار فى المدن والريف

فاللجنة الفلسطينية العربية فى مصر توجه إلى هذه المحن الأليمة عواطف الانسانية جمعاء، وتنادى كل قلب فيه ذرة من الحمية ليبادر المحسنون إلى نجدة المنكوبين وإغاثة الملهوفين بما يخفف هول النكبة ويلطف ألم البلوى. والله لا يضيع أجر المحسنين

وهذه اللجنة ترجو من أهل الخير أن يرسلوا تبرعاتهم إلى منكوبى فلسطين بواسطة جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وهى تتولى توصيلها إلى الهيئة المختصة فى فلسطين فتوزعه على المحتاجين

محمد على الطاهر

رئيس اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة

استدراك

جاء فى أول هذا الباب تحت عنوان «أسبوع المتنبى فى دمشق» أن افتتاح المهرجان كان فى يوم ٢٧ يوليو الماضى والصحيح أنه كان فى يوم ٢٣ يوليو

فتوى مشيخة الأزهر فى (الحجاب) و (الختان)

نص الفتوى :

« كتب الينا من البلاد الهندية أن طوائف من أهلها الهندوكيين يريدون أن يتخذوا الاسلام ديناً لهم ، ولكن عادتى حجاب النساء والختان تثبطانهم عنه بعض التثبيط . وقد طلب الينا أن نبدى رأينا فى هاتين العادتين وعن مبلغ علاقتهما بالدين الاسلامى ، فلم نر بداً من تلبية هذا الطلب راجين أن يكون فيه هدى للمسترشدين وبيان للمتثبتين

* * *

شرع الله تعالى الدين الاسلامى ليكون ديناً عاماً للبشر كافة فى كل زمان ومكان ، فجاءت شريعته مراعية لجميع الحاجات المادية والمرافق العمرانية للأفراد والجماعات ، وضامنة كل ضروب الحريات الضرورية لهم فى حدود الناموس الأدبى العام ، بحيث لا تتعاكس هذه الحريات ومصالح الاجتماع ، ولا تتضارب والأخلاق التى هى أساس العمران . فليس يوجد بين النظم الدينية والاجتماعية ما يوفق بين مطالب الأرواح والأجساد ويربطها برباط وحدة وثيقة غير النظام الذى جاء به الاسلام

لست بصدد تفصيل هذا الاجمال ، فلا أتعرض له إلا لبيان أمرين فيه هما مسألتا الحجاب والختان ، وهما اللتان طلب الينا بيانهما

الحجاب

إن حجاب النساء كان معروفاً ومعمولاً به قبل مجىء الاسلام بقرون كثيرة فى جمع الأمم المعرقة فى المدنية ، وقد أخذه عنهم اليونانيون والرومانيون على أقصى ما يعرف عنه من التشديد قبل الاسلام بأكثر من ألف سنة ، وكان الاسرائيليون جارين عليه أيضاً على عادة معاصريهم

فلما شرع الله الاسلام راعى فى هذه المسألة ما راعاه فى جميع المسائل الاجتماعية من الاعتداد بالمصلحة العامة فى حدود الناموس الأدبى العام فأنزل قوله تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى إخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)

هذه الآية هى أطول آيات الحجاب ، وهى تنص على وجوب اتباع الجنسين على السواء للآداب الواجبة لأحدهما حيال الآخر

ولما كان النساء محلا للفتنة خصوا بالأمر لضرورة التصون فى مخالطة الرجال وعدم إبداء زينتهن لهم إلا مالا يمكن اخفاؤه منها أثناء مزاولتهن أعمالهن من خاتم وسوار

وقد أجمع الأئمة على أن الوجه والكفين ليسا بعورة ، وأن ليس على المرأة من بأس أن تزاول أعمالها خارج بيتها ، وأن تمارس مهناً لكسب قوتها على شرط ألا تظهر ما يثير العاطفة من جسمها وجيدها وزينتها

وما حدا بالاسلام إلى وضع هذه القيود إلا المحافظة على النفوس أن تفسدها الشهوات . والمجتمعات أن تحل روابطها الموبقات . وليس بخاف ما جرته هذه الشهوات على الأمم الخالية من الانحلال والزوال

فالاسلام لم يفرض على المرأة أن تعيش كما تعيش الأنعام ، أو أن تسجن كما يسجن المجرمون ؛ ولكنه على العكس أمر أن تحضر الصلوات فى المساجد فى صفوف خلف الرجال ، وأن تشهد اجتماعات المسلمين العامة فى الأمور الهامة ، ولم تمنع قط من ابداء رأيها فيها ، ومن أن تتعلم كما يتعلم الرجال ، وأن تتصرف فى أموالها بكل وجوه التصرفات بدون توقف نفاذها على زوجها أو والدها أو أى أحد غيرهما ، وأن تتعاطى ما تشاء من الأعمال الحرة

هذه حقوق منحتها الديانة الاسلامية للمرأة منذ نحو أربعة عشر قرناً ، فلم تصل إليها أية امرأة سواها فى العالم إلى اليوم

والاسلام ازاء هذا كله لم يشرط عليها إلا حفظ كرامتها كامرأة شريفة غير متبذلة ولا متبرجة لتكون عضواً صالحا فى المجتمع بدل أن تكون عاملة فتنة فيه

هذه نزعة تقر الاسلام عليها كل نفس شريفة ، ولا تصادف معارضة من أى فريق حتى أصحاب المذاهب المتطرفة

الختان

أما مسألة الختان — فلا تصح أن تكون عقبة أمام الذين يريدون الاسلام ، فان الختان كان معروفا عند بنى إسرائيل قبل مجىء الاسلام ، وقد اقتبسه عنهم العرب الجاهليون . فلما جاء

الاسلام أقره شأنه إزاء كل عادة نافعة أو عمل صالح

وقد قرر الأطباء أن الختان من أنفع العادات وأحفظها من الأمراض التناسلية ، فان القلفة بتغطيتها لرأس العضو تختزن فى طيها الاقذاء وتكون موطناً للجراثيم الضارة ، وغسلها من باطنها مرات فى اليوم من الأمور المتعذرة ، فازالة هذه القلفة مما يندب إليه قانون الصحة ؛ وقد علم أن بقاءها فى الأمم التى لم تعتد إزالتها قد كان سبباً فى انتشار الأمراض السرية ، وهذه الأمراض لم تعرف فى بلاد المسلمين إلا بعد اختلاطهم بجاليات الأمم من طريق العدوى

على أن الاسلام لم يوجب على أهله الاختتان إيجابا كما هو مذهب الامامين أبو حنيفة ومالك ولم يجعله شرطاً للاسلام ، فهو فى نظره سنة للرجال إن شاءوا أخذوا به تصونا وتطهرا وإن شاءوا تركوه

أما للنساء فلم يصل إلى درجة السنة فى مذهب الامامين السابقين ، ولكنه عندهما كرامة لهن فقط . لذلك نجد أكثر المسلمين لا يختنون نساءهم ؛ فالأتراك كافة والمغاربة والايرانيون والهنود وغيرهم لا يعملون بهذه العادة فيما يتعلق بنسائهم

والعادة أن الاختتان يكون فى السنين الأولى من الطفولة بين ثلاث وعشر غالباً ، وليس فيه كبير مشقة ولا يتوقع من ورائه خطر إذ أنه لا يتعدى قطع الجلدة الزائدة المغطية للعضو مع عدم المساس بالعضو نفسه ، ناهيك أنه يعمل بواسطة العارفين ، واختتان الكبار كاختتان الصغار ليس فيه أقل ضرر

بقيت مسألة ربما تهم الذين يريدون الدخول فى الاسلام جماعات غفيرة وهم كبار فى السن ، وهى أن يعرفوا ما حكم الاسلام فيهم ، فالى هؤلاء نوجه قول الحسن البصرى رضى الله عنه ، وهو إمام الأئمة المجتهدين ، قال العلامة ابن قدامة الحنبلى فى المجلد الأول من كتابه (المغنى) فى الصفحة السبعين عن الختان ما يأتى :

« والحسن يرخص فيه ويقول : إذا أسلم لا يبالى أن لا يختتن . ويقول : أسلم الناس الأسود والأبيض لم يفتش أحد منهم ولم يختتنوا »

وهذا ما رأينا أن نأتى به من حكم الدين الاسلامى فى أمر الختان والحجاب ، وقد تبين أن واحداً منهما لا يتأتى أن يكون عقبة فى سبيله

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »

مشيخة الأزهر

رأى أستاذ فرنسى فى رواية (شهرزاد)

الأستاذ لونى بو (Lugne-pœ) مؤسس مسرح الأوفر فى باريس يعتبر بحق أحد الأركان التى قام عليها المسرح الحديث فى أوربا وهو الذى أخرج رواية (سالوميه) لأسكار وايلد سنة ١٨٩٢ ، وعرف الفرنسيين بابسن ومترلنك ، ورأيه فى الأدب المسرحى له من غير شك وزانته وقيمته . كتب خطابا إلى ناشر (شهرزاد) للأستاذ توفيق الحكيم جاء فيه عن هذه الرواية : « لقد قال : (لسكنت) (واضع مقدمة الرواية) فأحسن القول . والرواية تستحق أن تمثل على المسرح الفرنسى فى ذوق وفطنة . وهى تبقى بعد كل شىء رائعة الجمال شديدة العمق »

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٦٢ — ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 162

Lundi - 10 - 8 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

السنة الرابعة « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ — ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٦ » العـــدد ١٦٢

فهرس العـــــدد

ساكنو الثياب ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال صاحب سرّ (م) باشا رحمه الله : وجاءنى يوما اثنان من شيوخ الدين من ذوى هيئاتهم وأصحاب المنزلة فيهم ، كلاهما هامَةٌ وقامة ، وجُبَّة وعمامة ، ودرجةٌ من الامامة ؛ ولهما نسيم ينفَحُ عِطْرا حسبتُه من ترويح أجنحة الملائكة ، وعليهما من الوقار كظل الشجرة الخضراء فى لهب الشمس تفيء به يَمْنةً ويَسْرةً . فتوجَّهتُ اليهما بنظرى ، وأقبلتُ عليهما بنفسى ، ووضعت حواسى كلها فى خدمتهما ؛ وقلت هؤلاء هم رجالُ القانون الذى مادتُه الأولى القلب

ما أسخف الحياةَ لولا أنها تدل على شرفها وقدرها ببعض الأحياء الذين نراهم فى عالم التراب كأن مادتهم من السُّحُب ، فيها لغيرهم الظل والماء والنسيم ، وفيها لأنفسهم الطهارة والعلوّ والجمال . يثبتون للضعفاء أن غير الممكن ممكن بالفعل ، إذ لا يرى الناسُ فى تركيب طباعهم إلا الاخلاصَ وإن كان حرماناً ، وإلا المروءة وإن كانت مشقة ، وإلا محبة الانسانية وإن كانت ألماً ، وإلا الجِد وإن كان عناء ، وإلا القناعة وإن كانت فقراً .

هؤلاء قوم يؤلَّفون بيد القدرة ، فهم كالكتب قد انطوت على حقائقها وخُتمت كما وضعتْ لا تستطيع أن تخرج للناس من حقيقةٍ نصفَ حقيقة ولا شبهَ حقيقة ولا تزوراً على حقيقة

وما أعجبَ أمرَ هذه الحياة الانسانية القائمة على النواميس الاقتصادية ! فالسماءُ نفسها تحتاج فيها إلى سماسرة لعرض الجنة على الناس بالثمن الذى يملكه كل انسان وهو العملُ الطيب

قال : ونظرت إلى الشيخين على اعتبار أنهما من بقية النبوَّة العاملة فيها شريعةُ نفسها ، تلك الشريعة التى لا تتغير ولا تتبدل كيلا يتغير الناس ولا يتبدلوا . ثم سألتهما عن حاجتهما فاذا أحدهما قد عمل أبياتاً من الشعر جاء يمدح بها الباشا ليزدلفَ اليه ؛ فقلت فى نفسى : ما أشبهَ حَجلَ الجبال [1] بألوان صخرها ! هذا عالِمُ دنيا يحدها من الشرق الرغيفُ ، ومن الغرب الدينار ، ومن الشمال الجاه ، ومن الجنوب الشيطان

ثم نشر ورقةً فى يده وأخذ يسرد على القصيدة ، وهى على رَوِىّ الهاء تنتهى أبياتها ها . ها . ها . فكان يقرؤها شعرا أو كما يسميه هو شعرا ، وكنت أسمعها أنا قهقهة من الشيطان الذى ركب أكتافَ هذا العالم الدينى ها . ها . ها ....

* * *

قال صاحب السر : وأدخلتهما على الباشا فوقف الدَّاح يمدح بقصيدته ، وأخذت لحيته الوافرة تهتز فى انشاده كأنها مِنفضة ينفض بها المَلَل عن عواطف الباشا . وكان للآخر صمتٌ عاملٌ فى نفسه كصمت الطبيعة حين تنفطر البذرةُ فى داخلها ، إذ كانت الحاجةُ حاجتَه هو ، وإنما جاء بصاحبه رافداً وظهيراً يحمل الشمس والقمر والليث والغيث لتتقلب الأشياء حول الممدوح فيأخذه السحر ، فيكون جواب الشمس على هذه اللغة أن تضيء يوم الشيخ ، وجواب القمر أن يملأ ظلامه ، وجواب الليث أن يفترس عدوَّه ، وجواب الغيث أن يهطل على أرضه

والباشا لا يدع ظرفه ودعابته ، وكان قد لمح فى أشداق العالم المتشاعر أسناناً صناعية ، فلما فرغ من نظمه الركيك قال له : يا أستاذ أحسبنى لا أكون إلا كاذباً إذا قلت لك لا فُضَّ فوك ...

ثم ذكر الآخر حاجته وهى رجاؤه أن يكون عمدة القرية من ذوى قرابته لا من ذوى عداوته . فقال له الباشا : ولقريتكم أيضاً أبو جهل .... ؟

* * *

ولما انصرفا قال لى الباشا : لأمرٍ ما جعل هؤلاء القوم لأنفسهم زياً خاصاً يتميزون به فى الناس ، كأن الدين بابٌ من التحرف والتصرف ، بعض آلته فى ثيابه ؛ فهؤلاء يسكنون الجبب والقفاطين وكأنها دواوينُهم لا ثيابُهم ...

قد أفهم لهذا معنى صحيحاً إذا كان كلُّ رجل منهم محصوراً فى واجبات عمله كالجندى فى معانى سلاحه ، فيكون التعظيم والتوقير لثوب العالم الدينى كأداء التحية للثوب العسكرى ، معناه أن فى هذا الثوب عملاً سامياً أوله بيع الروح وبذل النفس وترك الدنيا فى سبيل المجتمع ؛ هذا ثوب الموت يُفْرَض على الحياة أن تعظّمه وتجله ، وثوب الدفاع تجب له الطاعة والانقياد ، وثوب القوة ليس له إلا المهابة والاعزاز فى الوطن

ولكن ما ذا تصنع الجبة اليوم ؟ تُطعم صاحبها ...

أثر الجيش معروف فى دفاع الأمم العدوة عن البلاد ، فأين أثر جيش العلماء فى دفاع المعانى العدوَّة عن أهل البلاد وقد احتلت هذه المعانى وضربت وتملكت وتركت هذا العالم الدينى فى ثوبه كالجندى المنهزم يحمل من هزيمته فضيحة ومن ثوبه فضيحة أخرى ؟

أنت يا بنى قد رأيت الشيخ محمد عبده وعرفته ؛ فرحم الله هذا الرجل ما كان أعجبَ شأنه ! لكأنه والله سحابة مطوية على صاعقة . ولو قلتُ إنه قد كان بين قلبه ورأسه طريقٌ لبعض الملائكة لأشبه أن يكون هذا قولاً

كان يزورنى أحياناً فأرانى مرغماً على أن أقدم له مجلسين أحدهما قلبى . وكان له وجه يأمر أمراً إذ لا تراه إلا شعرت به يرفعك الى حقيقة سامية[1]

رجل نَبتَ على أعراقٍ فيها إبداعُ المبدع العظيم الذى هيأه لرسالته ، فعواطفه كالعطر فى شجرة العطر الشَّذِيَّة ، وشمائله كجمال السماء فى زرقة السماء الصافية ، وعظمته كروعة البحر فى منظر البحر الصاخب . وكثيراً ما كان يتعجب من هذا أستاذه

(١) هذا مثل عربى ، والحجل الطائر المعروف يكون فى الجبل من لون صخره للعلة المقررة فى التاريخ الطبيعى

(١) وصفنا الشيخ رحمه الله فى كتابنا (السحاب الأحمر) واستلهمنا روحه فصلا طويلا تجده هناك

السيد جمال الدين الأفغاني فيسأله مندهشاً : بالله قل لى : ابن أى ملك أنت ؟

لم يكن ابن ملك ولا ابن أمير ، ولـكنه ابن القوات الروحية العاملة فى هذا الـكون ؛ فهى أعدته ، وهى ألهمته ، وهى أنطقته ، وهى أخرجتـه فى قومه إعلاناً غير كتمان ، ومُصَارحةً غير مخادعة ، وهى جعلت فيه أسدية الأسـد ، وهى ألقت فى كلامه تلك الشهوة الروحية التى تذاق وتُحَب كالحلاوة فى الحلوى

هذا هو العالم الدينى ؛ لا بد أن يكون ابن القوات الروحية لا ابن الـكتب وحدها ، ولا بد أن يخرج بعمله الى الدنيا لا أن يدخل الدنيا تحت سقف الجامع

وأنا فما ينقضى عجبى من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تتضاءل بجانب الأصل . يبحثون فى سنن النبى صلى الله عليه وسلم كيف كان يأكل ويشرب ويلبس ويمشى ويتحدث ، كأنهم من الدنيا فى قانون المـائدة وآداب الولائم ورسوم المجتمعات . أما تلك الحقيقة الـكبرى وهى كيف كان النبى صلى الله عليه وسلم يقاتل ويحارب لهداية الخلق ، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها ، وكيف كان بطباعه القوية الصريحة تعديلاً فعالاً فى هذه الانسانية للنواميس الجائرة ، وكيف كان يحمل الفقر ليكسر به شِرَّةَ النواميس الاقتصادية التى تقضى بجعل الأخـلاق أثراً من آثار السعـة والضيق فتخرج من الغنىّ متعفّفاً ومن الفقير لصاً ، وكيف استطاع صلى الله عليه وسلم بفقره السامى أن يحول معنى الغنى فى نفوس أصحابه فيجعله ما استغنى عنه الانسان من شهوات الدنيا لا ما نال منها ؛ أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة فى تنظيم الحياة فقد أهملوه ، إذ هو لا يوجد فى الـكتب وشروحها وحواشيها ولـكن فى الحياة وأثقالها وأكدارها . وبذلك أصبح شيوخنا من الأمة فى مواضع لم يضعهم فيها الدين ولـكن وضعتهم فيها الوظيفة

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحـكمة : سئل بعض العرب : بم ساد فلان فيكم ؟ قالوا : احتجنا الى علمه واستغنى عن دنيانا

(سيدى بشر باسكندرية)

من ذكريات عابر سبيل

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

كان أحد الأخوان يصحح قول الشـاعر : « وسافر ففى الأسفار خمس فوائد » فيقول — بعبارة لا أستطيع أن أرويها بحروفها — إن الفوائد ثلاث فقط : البعد عن المرأة ، والنوم كيفما اتفق ، وتكليم الناس بلا معرفة . فأما البعد عن المرأة — أى الزوجة — فانى لم أعد أدرى أهو مزية وخير أم ضرورة وعيب وشر ؟ . ولـكن الذى أدريه أنى حاولته مرة بلا لف أومداورة ، ثم عدلت عن التماسه ووطنت النفس على اليأس منه ، ورضتها على السكون إلى القرب والمودة . وتجاربى فى هذا الباب تخولنى أن أنصح لمن يريد أن يسافر وحده أن يجازف ويلح على زوجته أن تكون معه ، فاذا أبت كان هذا هو المراد من رب العباد ، وإلا فلن يصيبه إلا ما كان مكتوباً عليه . على أنه يجب أن يكون مفهوماً أن المعول فى هذا الامر على أسلوب الحوار وطريقة الـكلام . والزواج — كما هو معروف — من مزاياه أنه يكسب الانسان مرونة فى التعبير ، وقدرة على الاحتياط ، وبراعة فى التحرز ، وسعة فى الحيلة . وإنى لأذكر أنى كنت فى سوريا مع أسرتى منذ نحو سنتين ؛ فذهبنا مرة الى بيروت لنشترى أشـياء نهديها إلى أهلنا ومعارفنا عند عودتنا ؛ فرأت زوجتى معطفاً من الفرو ثميناً جداً فأعجبها واشتهت أن يكون لها ، ولـكنى نظرت إلى ثمنه فدار رأسى ، وأيقنت أنا إذا اشتريناه سنضطر إلى الاستجداء والتسول ، فأصابتنى فجأة نوبة عصبية حادة لم ترها زوجتى قط من قبل ، ففزعت ودعت أصحاب المحل أن يدلوها على طبيب بارع فى الأمراض العصبية ، فقد خيل إليها أن هذا الذى أصابنى لا بد أن يكون ضرباً من الصرع أو التشنج أو لا أدرى ماذا غير هذا ، فحملونى إلى طبيب فرنسى قالوا لها إنه هو الاخصائى الوحيد هنـا ، وإنه من آيات الله ومعجزاته فى طب الأمراض العصبية ، فأدخلونى عليه فاتضح له من استجوابى ومما عرفه من تاريخ آبائى وأجدادى من قبلى أن أهلى — فى حداثتى — خوفونى مرة بدب صناعى له فرو كثيف ، وكانت صدمة الفزع الذى انتابنى فى صغرى شديدة جداً ، فأنا من ذلك الحين أضطرب جداً جداً إذا وقعت عينى على الفرو ... فسألته زوجتى التى لم تـكن

تعرف هذا الجانب من تاريخ حياتى الحافل بالمفاجآت — سألته عن العلاج فقال : « أوه .. لا شىء .. لا داعى للقلق .. ولكن يجب ألا ترى الفرو أبداً .. » ، والحق أقول إنه كان طبيباً بارعاً جداً ، فان مرضى العصبى لم يعاودنى بعدها أبداً .. والفضل بعد الطبيب هو بلا شك لزوجتى التى حرصت أعظم الحرص على ألا أرى الفرو ..

وأما النوم كيفما اتفق فهذا أشهد أنه صحيح .. وأذكر بسرور أن قطاراً سافرت فيه مرة كان غاصاً بالركاب . وكانت المسافة طويلة والشقة بعيدة تستنفد الليل كله ولا بد من النوم . ولو كانت الجلسة مريحة لنمت وأنا قاعد ، ولكنى كنت كالبلحة فى قفة عجوة ، فحرت ماذا أصنع . ثم فتقت الضرورة لى حيلة فنحيت الحقائب عن الشبكة الممدودة لها فوق رؤوسنا ورقدت مكانها ، ونمت أهنأ نوم إلى الصباح ، ولو كنت ضخم الجسم لما تيسر لى ذلك فالحمد لله على الضآلة ..

وأما تكليم الناس على غير معرفة فهذا هو قانون السفر ، ولست تحتاج أن يعرفك أحد بأحد فى رحلة ، وما عليك إلا أن تبدأ من تشاء بالكلام كأنما كنت تعرفه من عهد آدم ، ولكن هذا لا يخلو من خطر ؛ فقد تقع على ثقيل أو ثرثار فينغص عليك وقتك ويحرمك كل متعة يمكن أن تفوز بها وأقلها متعة الراحة وخلو البال من المنغصات ؛ ولكثرة ما أصابنى من ذلك صرت أكره السفر بالقطار وأوثر السفر بالسيارة ؛ فاذا اضطررت إلى القطار عمدت إلى الحيلة وهى أن أضع حقيبتى فى أى مكان حتى يتحرك القطار ، ثم أتركها وأذهب أبحث عن مكان آخر أتوسم فى أهله الظرف والايناس ، وهذا يتطلب فراسة صادقة ، والفراسة استعداد ولكنها تكتسب الى حد ما بالتجربة

ومن الفوائد المجربة فى الأسفار أن يستصحب المرء معه كتاباً فى فن الطبخ ، ولست أعنى أنه قد يحتاج أن يصنع طعامه بيده وإن كان هذا محتملاً ، ولكنى أقص ما وقع لى فى هذا الباب — أو بعضه على الأصح — فقد كنت مرة فى فلسطين وكنت ضيفاً على صديق لى ، فأصابنى برد شديد من كثرة التنقل بين البلاد فوق الجبال بالسيارة فى الليل وعاودنى مغص الكليتين ، فلم يبق بد من الرقاد والحمية وانتظار مشورة الطبيب وإن كنت عارفاً بدائى ودوائه ، ومضى يوم ثان وثالث وطلع الرابع وأنا لا آكل إلا الموصوف من الأطعمة الخفيفة المأمونة . وهذه لا طعم لها ولا لذة لآكلها ، وكل طعام يفرض على المريض يكون بغيضاً اليه ، فاشتهت نفسى أشياء قالوا لى إنه لا سبيل اليها لأن الطبيب منع أن تقدم إلى ، فاعترضت على هذا وقلت لهم إن الألم قد زال وإن الصحة قد عادت ولله الحمد ، وإنى أستطيع الآن أن أفعل ما أشاء وآكل ما أحب ، فقالوا «حتى يراك الطبيب» فقلت إن هذا طعن فى ذمتى لا أقبله ولا سيما فى أمر يعنينى وحدى ، وأنا على كل حال أدرى من الطبيب بنفسى بل أدرى من أطباء الدنيا جميعاً . وهل كان الطبيب قد أحس بالألم حين جاءنى المغص . . هل عرف أنى ممغوص إلا منى . . اذن انتهينا . . أنا أنبأته أنى مريض ولولا ذلك لما عرف . وأنا أيضاً أنبئه أنى شفيت وأنه صار من حقى أن أتمتع بمزايا الصحة . . واذا كان الطبيب قد صدقنى فى واحدة فيجب حتماً أن تصدقونى فى الثانية ، فروحوا هاتوا كذا وكذا من المآكل ، وكيت وكيت من الأشربات . .

فضحكوا وأبوا أن يجيبونى الى ما طلبت قبل أن يأذن لى الطبيب ، فلم يسعنى الا أن أذعن للحرمان — فانى فى بلد غير بلدى — ولكنى طلبت أن يجيئونى بكتاب فى فن الطبخ فاستغربوا وسألونى عما أنوى أن أصنع به فلم أعبأ بهم ، فجاءونى به فقلت لهم : «ألا تستطيعون أن تذهبوا عنى الى حيث تشاءون فحسبى هذا الكتاب وكفى به أنيساً فى وحدتى ومسلياً لى فى غربتى »

وفتحته فى موضع الفهرس وانتقيت الألوان التى أشتهيها وانطلقت أقرأ بنهم . وصدقونى حين أقول إن ريقى كان يجرى وإنى كنت أنعم بأقوى من لذة الشره البطان وأنا أقرأ فيه

« كفتة الدجاج — تسيح الزبدة ويضاف الدقيق ثم اللبن بخفة مع استمرار التقليب حتى يصير المزيج فى قوام القشدة ، ثم يضاف الملح والبقدونس والفلفل ، ثم تغلى مدة ثلاث دقائق ، ويضاف لحم الدجاج ويخلط جيداً ، ثم يصب هذا فوق طبق مسطح حتى يبرد ويؤخذ من المخلوط بملعقة كبيرة ويوضع فى دقيق ويعمل على هيئة كور أو أقراص أو أشكال بيضاوية وتوضع فى مكان بارد حتى تتجمد تماماً ، ثم تتبل فى فتات خبز ، وتغطس فى بيض مخفوق مخلوط باللبن ، ثم فى فتات الخبز ثانياً وتقلى فى سمن ساخن جداً حتى تحمر ثم تنشف على فرخ ورق غير مصقول .. تنبيه — هذه الكمية تصلح أن يعمل منها أربع عشرة قطعة » ولكنى نسيت أن أذكر الكميات والمقادير . . لا بأس . فليس هذا كلاماً عن الطبخ . . ولا عجب أن أذوق بالوهم والخيال مثل

لذات الحقيقة فان هذه حياتنا معشر الأدباء .. وما أكثر ما نترك الحقائق ونروح نجرى وراء الظلال ! ثم نحاول أن نعزى أنفسنا بأن الحقائق المشتهاة كثيراً ما أثبتت التجربة أنها دون ما كان متوقعا ، وأن الخيال أفسح رحاباً وأوسع آفاقاً ؛ فهو أقدر على امتاعنا . وأن الحقيقة نفسها إنما تكون ممتعة وجميلة بفضل الخيال ، ولولاه لما كان لها طعم ولا فيها متعة . فعمل الخيال لا بد منه للامتاع على كل حال سواء أكنت آكلا بالفعل أم متوهماً أنك تأكل ؛ والفضل والمزية للخيال لا للمادة فانها بمجردها لا شيء ، وإنما تكون شيئاً بما يفيضه عليها الخيال من السحر والفتنة وما يضفيه عليها ويفيضه إليها ويزينها به

وعلى ذكر فلسطين أقول إنى أحب السفر إليها لأنها لا تكلفنى إلا أجرة القطار . أما الأكل والنوم والنزهة فعلى الله والاخوان بارك الله فيهم . وقد حدث فى العام الماضى أنى تعبت من العمل المتوالى فأشاروا على بالراحة . فقلت اذهب إلى فلسطين . وكان الوقت شتاء والبرد فى جبال فلسطين يكون قارساً . فقال لى صديق اذهب الى الأقصر فقلت : فلسطين أفضل ، فاستغرب وبدأ يجادل ، فضاق صدرى وقلت له : ياأخى إن الاقصر تحتاج إلى مال كثير ، أما فلسطين فيكفينى أن تكون معى أجرة القطار

ومن الغرائب التى لا أظن أن كثيرين وقع لهم مثلها أنى كنت مرة فى جزيرة مع إخوان لى ، فقلنا : نصيد سمكا نشويه ونأكل منه فى يومنا هذا ، فاخترنا شرماً يضرب الماء فيه ويمعن فى البر لأنا قدرنا أن يكثر فيه السمك ، وجئنا بديدان اتخذناها طعاماً وجلسنا ننتظر أن يخدع السمك . فمضت ساعة وأخرى ونحن لا نظفر بشيء ؛ فنفد صبر أحدنا فتركنا وغاب شيئا ثم عاد بفونوغراف أداره وهو يقول مازحا : « لعل السمك يحب الموسيقى .. من يدرى .. أليس له حاسة فنية ؟ » فسرنا أنا وجدنا شيئا نتسلى به فى هذه الجلسة المملة ، وإذا بالسنارة التى كانت معى تضطرب وتنجذب إلى الماء ، فشددتها فخرجت سمكة حسنة ، فصحت بصاحبى « أعد ! أعد . . أغنى للسمك فما جاء إلا على الموسيقى » وكنت أنا أيضاً أمزح ، ولكنا ما لبثنا أن وجدنا هذا حقيقة . فكان السمك يكثر ويشتد إقباله على الناحية التى نكون فيها إذا أدرنا الفونوغراف ، ويقل ويذهب عنا إذا سكت . ولو كانت معنا مجموعة وافية من الاسطوانات لا استطعت أن أجرب أى الأدوار أحب إلى أى أنواع السمك ، ولعرفت أى الأسماك تحب التانجو وأيها يؤثر الفوكس تروت وهكذا . وقد اتفق منذ بضعة شهور وأنا فى العراق أن كنا مدعوين الى الغداء فى بيت على نهر دجلة — والعراقيون يسمون كل مسكن على النهر قصراً أو سراى ولو كان كوخاً — وكان بيت صديقنا هذا ضخما فخما وفيه جهاز للراديو ، وكانت الساعة الأولى مساء — وهى بحساب الوقت فى مصر الساعة الثانية عشرة — نخطر لى أن أجرب تأثير الموسيقى فى السمك ، فرجوت من صديقنا أن يفتح الراديو وأن يسمح لنا بالانحدار الى الحديقة ، وهى متصلة بالنهر ، واتفق أنه كان مغرماً بالصيد ، ولكنا لم نسمع من مصر الا شريطاً مسجلا لأحد المغنين ، ويظهر أن السمك لا يحب المعاد أو لعله لم يعجبه الغناء وان كان يطربنا نحن الآدميين . فقلت أعود فى المساء وأرى . غير أنى لم أستطع أن أعود إليه قبل الساعة التاسعة مساء — أى الثامنة بحساب الوقت فى مصر ، واتفق أن كان الذى يذاع حديثاً فنفرت الأسماك جميعها نفوراً ظاهراً . وفى اعتقادى أن محطة الاذاعة تستطيع أن تساعد على ترقية المصايد المصرية — فتخدم السمك والناس — إذا هى عنيت بأن تدرس طبائع الأسماك وأمزجتها وما يوافقها من ضروب الموسيقى ، وفى وسعها بالاذاعة المتخيرة أن تنظم صيد السمك ، وأن تجعل لكل نوع منه وقتاً معيناً . فاذا كان المراد مثلاً صيد ما يسمى البورى وما يماثله أذاعت للصيادين بعض الأغانى الشجية التى تفتر النفس . وإذا كان المطلوب صيد ثعابين الماء أو حياته أسمعتها أغنية « هاتشى بثى » وهكذا فيكثر المحصول بلا عناء وينتظم الأمر كله . ويعرف الناس ما ذا يستطيعون أن يأكلوا من السمك فى كل يوم بمجرد الاطلاع على برنامج الاذاعة ومن غير خوف من أن يغشهم التاجر ويدخل عليهم صنفا باسم صنف آخر

والحجاز وإنجلترا هما — فيما أعرف — البلدان الوحيدان اللذان تستطيع فيهما أن تترك حقائبك أو أشياءك فى الطريق فلا تمسها يد غير يدك ولا يسطو عليها سارق . فاما فى الحجاز فقد سقطت منى عصاً فى الطريق بين جدة ومكة فتعطل السير من الجانبين وانقطع المرور حتى اهتدى الشرطة إلى أنى صاحبها نخاطبونى بالتليفون وأنا فى الشمسية — قرب مكة — فرجوت منهم أن يردوا العصا اللعينة إلى جدة مخافة أن ترتكب اثماً آخر فيأخذونى بذنبها . وأما فى انجلترا فقد تركت حقائبى ساعة وصلت إلى لندن على الرصيف أمام البيت الذى اختاره صديق لى

لأنزل فيه وذهبت معه — أى مع الصديق — إلى بيته حيث اغتسلت وحلقت ذقنى وشربت القهوة واسترحت ثم عدت الى الحقائب بعد ساعتين فوجدتها فى مكانها كما كانت. وأغرب من ذلك أنى راهنت صديق هذا أن أقضى يوماً فى لندن لا أتكلم فيه إلا اللغة العربية نخاف أن نتورط فيما لا يحمد واقترح أن نقتصر على السعى للوصول إلى وستمنستر أبى « من غير أن ننطق كلمة بغير لغتنا. فوافقت وتوكلنا على الله وخرجنا من البيت — هو وزوجته وأنا — وكنا نعرف الطريق ولكنا نجاهلناه، فراقنى منظر رجل واقف بجانب حانة ينتظر على الأرجح وقت السماح ببيع الخمر — فان لذلك وقته المعين حوالى الظهر وفى المساء — فدنوت منه وحييته التحية المصرية — أى برفع يدى ثم مدها الى يده لمصافحته، وسألته — بالعربية طبعاً — عن وستمنستر، وتعمدت أن أحرفها تحريفاً شديداً فنطقتها « وستمنصته »، وأقول الحق ان الرجل فزع واعتدل بعد الميل ونسى الخمر التى يحلم بها وينتظر أن يسعد باحتسائها؛ فأعدت السؤال برفق فلم يفهم طبعاً على الرغم من صدق رغبته فى ذلك، فلما يئس قال تعال معى، وقادنى الى الشرطى وهو شىء ضخم جداً وأنا شىء ضئيل أو كما يقول ابن الرومى:

أنا من خف واستدق فلا يثـ ـقل أرضاً ولا يسد فضاء

وقال له إن هذا الغريب يبدو لى أنه يسأل عن شىء لا أستطيع أن أتبينه، فمال على العملاق الانجليزى وقال يستحثنى: نعم؟ فسألته عن «وستمنصته» فجعل يهز رأسه ويستعيدنى، وأنا أهز له رأسى أيضاً كأنى غير فاهم، وألح فى السؤال عن « وستمنصته » فأحس أن فى الكلمة شيئاً يمكن أن يهديه إلى مرادى وقال « قل هذا مرة أخرى » ولكنى تغابيت وجعلت أتلفت، ثم قلقت وخفت، فقد رأيت صديق وزوجته قد تركانى وذهبا فوقفا على الرصيف. وليت هذا كل ما حدث ... اذن لما كان فيه بأس ولكنهما كانا يضحكان حتى لخيل الى أنهما سيقعان على الأرض. وكان ضحكهما بصوت عال فخفت أن يفطن الى أن الأمر مزاح فيستثقله أو يعده سخرية منه فتسوء العاقبة، فخففت التحريف فلم يلبث أن فطن الى مرادى فاستوقفنى حتى مرت سيارة أمنيبوس معينة فأمرنى أن أصعد وتبعنى صديق وأمر الكمسارى أن يأخذ منا الأجر الى وستمنستر وأن يحرص على أن ينزلنا هناك، فأخرجت نقوداً ومددت بها يدى الى الكمسارى ليأخذ منها ما يشاء لحاجة منى فى دعوى الجهل باللغة الانجليزية. وهكذا كسبت الرهان

وفى غير بوليس لندن لا تجد مثل هذا الصبر والرغبة المخلصة فى المعاونة. وأذكر مثالاً آخر فأقول إن صديقاً لى أعارنى سيارته لأذهب بها من لندن الى اسكتلندا وأتمتع فى طريقى بأجمل ريف فى العالم، وهو ريف انجلترا، وكانت السيارة كبيرة ضخمة ويكفى أنها من طراز « دعلر »، فكنت إذا جاء الليل قبل أن أصل إلى بلد ما وخفت أن أضل، أميل عن الطريق إلى الأرض المعشاب وأتعشى بما أعددت من الطعام، ثم أنام فى السيارة الى الصباح الباكر، فاتفق يوماً أن فرغ البنزين وأنا سائر قبل أن أنتبه، فوقفت مضطراً حيث كنت. ولما كانت السيارة كبيرة وثقيلة فقد عجزت عن تحويلها عن الموضع الذى تشغله من الطريق، فجلست على سلمها وشرعت أدخن حتى يوفقنى الله إلى شىء، فمر بى شرطى كان قد فرغ من العمل على ما أخبرنى، فهو ماض إلى بيته، فسألنى: هل بالسيارة خلل؟ قلت: لا، ولكنها أتت على كل ما فى خزانها من الوقود. فقال: انتظر، ومضى عنى إلى حقل قريب، وهناك استعار دراجة — بسكليت — ركبها وعاد بها، وما لبث أن رجع حاملاً معه مقدارا كافياً من البنزين وقمعاً لافراغه فى جوف السيارة، فشكرته وقدمت له كأساً من الوسكى الذى معى فى السيارة، وبعد قليل حملت القمع والصفيحة معى وذهبت بهما إلى محل البنزين، وكان على مسافة ثلاثة أميال، فرددت الأشياء ودفعت الثمن. ومن الانصاف أن أقول إنك لا تعدم شرطياً غير انجليزى يفعل هذا، ولكن هذه الروح فى الانجليزى طباع

وأعود إلى فلسطين فأقول إن فى عكة مسجداً كبيراً هو الآن مسجد ومدرسة فى آن معاً، وقد بناه — على ما أظن — أحمد الجزار باشا الوالى التركى فى ذلك الزمان، وهو رجل مشهور فلا أحتاج أن أحدثكم عنه، ولكنى أقول إنى وجدت مكتوباً على باب المسجد من الداخل هذا البيت العجيب فى مدح الجزار باشا:

« ذاك الوزير الشهم أحمد من غدا جزار أعناق العباد كما يجب »

وأظن هذا بيتاً يستحق التدوين ....

وفى بغداد دعانا الشيخ ابن معمر — القائم بأعمال المفوضية العربيـــــة فى العراق إلى أكلة على الطريقة البدوية، فاستحسنا ذلك جداً، وآثرناها على وليمة أخرى؛ فلما ذهبنا ألفينا السماط ممدوداً ... وأصف ما رأيت فأقول إن السجادة غطيت بملاءة بيضاء وضع عليها جفنة ضخمة فوقها صينية عظيمة لا أدرى من أين جاءوا بها، وقد قالوا لى إن عندهم ما هو أكبر

منها بكثير ، وفوق الصينية طشت هائل ملئ أرزاً مخلوطاً بالزبيب واللوز والفستق ، وعلى الأرز خروف عظيم مشوى — هذا فى الوسط ، وحول الجفنة وعلى مستدارها أطباق عديدة لا يأخذها الحصر ، فيها أنواع شتى من الطعام . . . كالدجاج والخضر والمصيدة والولائق المختلفة ، وهى من دقيق وسمن ولبن ، وقد عرفوا أننا لن نستطيع مجاراتهم ، فأعدوا لنا أطباقا وملاعق وسكاكين وأشواكا ، فجعلنا نحن نأكل على طريقتنا ، أى أن نأخذ ما نشتهى فى أطباقنا . أما هم فأكلوا على الطريقة البدوية الصرف ، وهى أن يتناول الواحد قبضة من الأرز ويطوى عليها أصابعه ويضغطها حتى تصير كالكفتة ، وبعد أن يفتلها على هذا النحو يقذف بها فى فمه . وهذا يبدو هيناً سهلا ، ولكن الصعوبة أن الطعام يكون كالنار فيحرق الكف ، فكيف بالفم واللسان ؟ أما اللحم فيهبر منه ما تستطيع أصابعه أن تقطعه أو تمزقه ويرمى به فى فمه ، وما يرمى فى الحقيقة إلا جرا مضطرماً . وعلى ذكر الجمر أقول إن للعرب — أو على الأصح للبدو — طريقة عجيبة فى علاج الجروح ، وقد جربتها فأنا أتكلم عن خبرة ويقين ، ذلك أن راحتى أصابتها النار ، فجعلت أوحوح وأنفخ فيها ، ولا أدرى ما ذا أصنع لتسكين الألم على الأقل ، فصاح أحد النجديين الذين كانوا حاضرين هناك : — هذا كان فى الحجاز : « ملح ... ملح ... » فجاءوه بقليل من الملح الخشن فمد به يده الى وقال « خذ قبضة » « فتناولت منه بيدى السليمة وأنا أضحك فى سرى وأقول لعله يظن أن الحروق يفيد فيها السحر » فصاح بى « بيدك المحروقة » ، ففهمت وأخذت قبضة بيدى المحروقة فقال « اطو عليها أصابعك » ففعلت فقال « ابق هكذا » فظللت قابضاً على الملح الخشن دقائق ثم نظر فى وجهى وقال : « استرحت الآن .. زال الألم .. » ففتحت كفى وأنا أبتسم ولا أكاد أصدق ، فما كنت أشعر بأى ألم ولا رأيت أى أثر للحرق ! فما قول الأطباء فى هذا ؟ وليكن رأيهم ما يكون فانى أنا لا أنوى أن أداوى الحروق التى تصيبنى — وعسى ألا يصيبنى شىء — إلا بالملح ...

وفى لبنان أنقذتنى فتاة لا أعرفها من هلاك محقق ، وهذه الفتاة من أعاجيب الخلق ، فان لعينها نظرة تنيم الحية — كما عرفت بالتجربة المرعبة — وأنا قوى النظرة حادها وفى وسعى أن أحدق فى قرص الشمس ، ولكنى لم أستطع أن أحدق فى وجه هذه الفتاة العجيبة . وكنت كلما وقعت عينى على عينها لا أزال أطرف ثم لا أجد بداً من تحويل عينى الى ناحية أخرى . وكنا قد لقيناها فى الصباح ونحن نصعد فى جبل فى رأسه ينبوع أردت أن أرى الموضع الذى يتفجر منه ماؤه . وكانت تحمل جرة فيها من ماء هذه العين ، وكنا نخاف أن نضل ، فسألناها عن الطريق واستملحناها فاستسقيناها وأردت أن أنقدها بضعة قروش فأبت ، وأنبأتها أنى أريد أن أرى مفجر العين فنهتنى عن ذلك ، فسألتها عن السبب فقالت وهى تهز كتفيها : « هيك » ولم تزد ، ولما ودعناها عادت فحذرتنى ، فضحكت وشكرتها وأبيت إلا أن أصعد الى حيث ينبثق الماء ، وصعدت وحدى فقد رأى إخوانى وعورة الطريق فانصرفوا عن مرافقتى ، فوجدت كهفاً على بابه عشب ونبات طويل ورأيت الماء يخرج من الكهف ، فقلت أدخل لأرى فنحيت النبات وإذا بى أرى عينين لامعتين فظيعتين ثابتتين تحدقان فى عينى ، وكانت نظرتهما من القوة بحيث لم أستطع أن أحول وجهى ، وزاد فظاعة النظرة وعمق تأثيرها أن العين لا تطرف والجفون لا تتحرك وأن البريق شديد جداً فى ظلام الغار . وكانت العينان ترتفعان عن الأرض شيئاً فشيئاً وتدنوان منى على مهل وأنا أنظر إليهما ويداى الى جانبى وقد جمدت فى مكانى وشعرت بالخدر فى أعضائى . وكنت قد أدركت أن هذه حية وأنها من النوع الوثاب الذى تتحرك عيناه ولا تطرف جفونه ، ومن هنا عمق تأثير نظرتها ، ولم يخالجنى شك فى أنى مقضى على بالهلاك . وكيف أنجو وأنا مسمر فى مكانى لا أستطيع حراكا ؟ ولو وسعنى أن أتحرك لوثبت الحية على وأنشبت فى أنيابها ! قبل أن أدور على عقبى . وكانت نفسى تنازعنى أن أصرخ مستنجداً ولكن شفتى كانتا مطبقتين لا تنفرجان . وإذا بالعينين المرعبتين تتراجعان فى الظلام وتهبطان الى الأرض بعد أن كانتا ترتفعان عنها وتزحفان الى ، وأحسست أن نظرتهما تفتر وأن تأثيرهما فى نفسى صار أقل وأضأل ، وشعرت بأنى صرت أملك أن أحرك أعضائى بعد طول الجمود ؛ فتلفت فاذا الفتاة التى لقيناها فى الصباح تحدق فى عينى الحية بأقوى من نظرة الحية . وبكفى أنها ردتها بعينها . واختفت الحية فتنهدت وملت على الفتاة لأشكرها بقدر ما كان يسعنى أن أفعل فى مثل هذه الحالة ، فلامتنى على مخالفتها وذكرتنى أنها حذرتنى وقالت إنها أشفقت على من المصير الذى كان لا مفر منه فأدركتنى قبل أن أقضى نحبى فسكت ولم أقل شيئاً .. وما ذا أقول ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكي عريبي

دستور (البحث)

أي شيء يراد بهذا العنوان « لغة الأحكام والمرافعات » ؟

الموضوع مطلوب للكتاب الذهبي بمناسبة انقضاء خمسين عاماً على إنشاء المحاكم الأهلية . فهل يجب أن يقتصر على المرافعات القومية كيف كانت لغتها قديماً وكيف تطورت وإلام انتهت وكيف يجب أن تكون ؟

أهذا هو محور البحث ؟ أم إن له مدى أبعد ودائرة أوسع ؟

الحق إن نواحي الموضوع حسبما يوحي عنوانه أكثر من أن تعد أو تحصر . لقد كان للناس محاكم منذ أقدم العصور وفي جميع البلاد المتمدنة ، ولكل عصر من عصور التاريخ ، ولكل بلد من بلاد المعمورة ، مميزاته في تسيير العدالة وما يرتبط بها ، ومنه ما نحن بصدده . ثم إنك إذا تحدثت عن لغة المرافعات استحال عليك أن تقصر بحثك على نحو الكلام وصرفه وباقي صفاته اللغوية ؛ بل أنت تريد إلى جانب هذا أن تنظر في الأحكام والمرافعات من حيث الأسلوب ، واختيار اللفظ ، وترتيب الكلام ، ومراعاة المناسبة ، وملاحظة الصوت والاشارة . ثم إن الموضوع ذو شقين بطبعه ، إذ أن لغتك وأنت جالس للقضاء غيرها وأنت قائم للدفاع .

ثم إن الحال في مصر تختلف عنها في أكثر بلاد الدنيا ، فنحن هنا نطبق أحكام قانون نبت في بلاد أجنبية ولم تحتضنه لغتنا إلا منذ قريب . فأكثر المشتغلين بتطبيقه قد درسوا مبادئه ثم تعمقوا في أصوله بغير اللغة التي يكتبون بها أحكامهم أو يعدون بها دفاعهم

أي ناحية من هذه النواحي الكثيرة المتعددة يجب أن تعالج في مقال أكبر الظن أن الحيز المخصص له محدود وسط الأبحاث الهامة القيمة التي سوف ينطوي عليها « الكتاب الذهبي » ؟

لقد فكرنا في الأمر ملياً فانتهينا إلى أنه خير لهذا المقال إذا انفرجت حلقة البحث فيه فجاوزت الحدود المصرية البحتة إلى إلمامة بالحال عند غيرنا من المعاصرين ومن سبقهم من النابهين الذين يمكن أن يمدوا بحق واضعي أسس من الكلام القضائي . فاذا فرغنا من ذلك ، ولن نطيل فيه ، عرضنا لتاريخ لغة القضاء عندنا ماضيها القريب وحاضرها وما ينتظر لها على يد حملة لواء نهضتها الحالية

ولا ننتظر من هذا المقال بحثاً لغوياً عميقاً ؛ فليس لنا بذلك طاقة ولا المحل هنا محله . هذا إلى أن نواحي البحث الأخرى أجدى وأنفع . وسوف نعنى بالتفريق بين لغة المرافعات ولغة الأحكام ، فان لكل منهما مميزات تختص بها ونحب التنبيه عليها ، ولو أن كلا منهما تلقى في مصر صعوبات مشتركة يجب على العائلة القضائية بأسرها التضافر على مغالبتها وتذليلها

ولنبدأ بهذا قبل أن تنفرج قاعدتا الزاوية بحكم اضطرارنا إلى الفصل بين شقي هذا البحث

متاعب اللغة العربية

المتاعب التي يلقاها المترافعون وصائغو الأحكام على السواء في مصر جزء من متاعب لغة قديمة كريمة نامت نومة أهل الكهف زمناً ، ثم أوقظت على حين غفلة لتقف على قدميها دفعة واحدة فتتفهم والنعاس ما يزال يغالبها ويعقد أجفانها أحوالاً جديدة ليس لها بها عهد ولا سابق معرفة . أوقظت بشدة ودفعت بعنف لضرورة ملحة لتساير وتلاحق في ميدان لا تحده سوى حدود العقل البشري لغات وثيقة الصلة بنهضة العلوم التي رفعت أوروبا إلى مقامها الممتاز الحالي ، وجعلت منها منارة العلم والفلسفة والأدب والتشريع والاختراع . لغات صقلتها قرون متعاقبة عامرة بجهود متواصلة ربطت طارفها بتليدها وهيأتها أداة مرنة صالحة لما يطلب منها في مختلف ميادين النشاط العقلي

وأنت في مصر كاتباً كنت أو أستاذاً في جامعة ، محامياً أو قاضياً ، مهندساً أو طبيباً ، لا تكاد تذكر أمامك اللغة حتى تتجه بفكرك إلى مختلف الصعوبات التي تعانيها إذا طلب منك أن تكتب أو تحاضر في فرعك الخاص . لقد أخذت كما أخذ أفراد هذا الجيل والذي تقدمه العلم عن أوروبا ؛ أخذته سهلاً ميسوراً بلغة أجنبية لقنتها صغيراً في طرازها الأخير فخصات بها

على أداة دقيقة مطواعة لحاجات العصر قد استوفت دقائقها من مسميات وأفعال وتعبيرات لها دلالتها الخاصة المحدودة . درست بهذه الواسطة في لين وسهولة ، ثم إذا بك وقد انتقلت فجأة بمحصولك العلمي إلى محيط يريد أن يفهم منك ما فهمته ويأخذ منك ما أخذته ، وليس سبيل للتفاهم مع هذا المحيط إلا لغة قد يكون معدنها ذهباً ولكنه ذهب ما يزال تبراً مخلوطاً بأتربة تراكمت منذ أجيال . فأنت مضطر إلى تطهيره من كل عنصر زائف ، ثم عليك بعد ذلك صهره في بوتقة العصر ثم صقله ثم ضربه نقوداً من أعيرة وفئات مختلفة . فإذا ما استقام لك هذا كله لزم أن يجرب الناس عملتك هذه الجديدة وأن يتداولوها زمناً قبل أن تستقر نظاماً مألوفاً معمولاً به

ليس مركز المتكلم أو الكاتب باللغة العربية إذن سهلاً ميسوراً في هذا العصر . اللهم إلا أن يقول شعراً يحتذى فيه المتنبي ، أو يكتب نثراً ينسج فيه على منوال عبد الحميد الكاتب أو ابن المقفع . أما أن يعرض بقلمه لشيء من مختلف العلوم والفنون الحديثة فهو أعزل إلا من العزم الذي تهمه الصعاب ، فقير إلا من عناصر الثروة المخبوءة في لغة مجيدة تتطلب كثيراً من الجهد في استكشافها ثم مثابرة وصبراً لاقرار ما يكتشف وإحلاله محله من نظام مقبول

ولكن أيمكن حصر هذه الصعوبات ومعالجتها ؟

ليس في هذه العجالة متسع للخوض في موضع قلنا ونكرر إنه خارج اختصاصنا وفوق مقدورنا . ولكن ما نراه في عالم الحقوق يجيز لنا أن نعتقد أنه ليس في اللغة العربية أدواء أصيلة تمنعها من أن تأخذ مكانها تحت الشمس كلغة عصرية تضرب بسهم في مختلف العلوم والفنون . فقد سبق لها أن دعيت الى مثل ما تدعى إليه اليوم وهي بعد أقرب الى البداوة منها الى استقرار الحضارة ، فوثبت الى غايتها العلمية وثبة الجواد الكريم . ودرس العرب حضارة الاغريق وفلسفتهم وطبهم بالعربية وحلوا محل الرومان في حمل مشكاة الحضارة قروناً يؤلفون في كل علم وفن بل ويزيدون في ثروة العالم العلمية بما استنبطوا من معارف جديدة . فهل تعجز العربية ولها هذه السابقة المجيدة وذلك التراث الباهر أن تصل فجرها الجديد المتألق بمسائها الباهر ؟ إن لنا أن نأمل بل لنا أن نطمئن الى غد سعيد أخذاً بالقياس

ولكن لنعد الى ما كنا فيه ولنتحدث قليلاً عن صعوبات الحاضر فقد يتعين هنا التنويه باثنتين :

تجاوز القصر

كثيراً ما عيرنا — وأخشى أن نكون قد عيرنا بحق — بأننا نجاوز إذا جلسنا للكتابة أو قمنا للكلام الغرض الذي نتوخاه بأحدهما ، وأن اللغة التي نستعملها في عصر اللاسلكي أو الكهرباء ما تزال تغشاها المحسنات اللفظية وتغمرها المترادفات ويفسدها الحشو ويرهقها استطراد يمكن التخفيف من كثير منه . فأغلب الكتاب إذا ذكر الظلم ألحق به الاستبداد ، وإذا تكلم عن الرحمة أردفها بالشفقة والحنان . وليس الذنب في هذا على اللغة العربية بل على تقاليد سيئة وجهل بمقتضيات العصر . إن لغتنا موسيقية بلا مراء ولكن باعرابها . وهي غنية غاية الغنى بأسمائها وأفعالها ونعوتها . ولكن هذه الثروة لم تجمع للزينة فحسب ، ولم تدخر في بطون المعاجم لكي يتزن بها الروي وتستقيم القافية ويحسن السجع ، وإنما لتكون منها وسائل لأداء معان مختلفة وان تقاربت . وأول واجب على الكاتب في هذا العصر أن يستعمل كل لفظ فيما أعد له من الأصل ؟ فيعرف مثلاً متى ينعت صاحبه بالاقدام ومتى يسميه شجاعاً ومتى يصفه بالجرأة . وبعبارة أخرى نحن أحوج ما نكون اليوم الى فقه صحيح دقيق للغة العربية نعرف منه متى نستعمل لفظاً معيناً في معنى معين . وهذا إذا تم استتبع حتماً سير قلم الكاتب ولسان المتكلم في سبل مرسومة وطرق معبدة ، فلا يكتب ولا يقول إلا بقدر حاجة الموضوع دون استطراد يحاول به تمكين المعنى في نفس القارئ أو سامع يخشى أن يفوته القصد

على أنه من الانصاف أن نقرر هنا أن لغة الجدل الفقهي في مصر قد قطعت شوطاً بعيداً فيما نتمناه لأسلوب الكتابة على وجه العموم

وأول مثل يحضرني أسلوب أستاذي طيب الله ثراه المرحوم أحمد بك لطفي ؛ فقد كانت لغته مرآة مصقولة لفكره الرائق المرتب : ألفاظ سهلة مختارة ، وجمل على قدر حاجة الكلام لا أقل ولا أكثر لا تستطيع حذف عبارة منها حتى يختل المعنى وتضيع الفائدة . أنظر إليه يترافع عن الورداني في قضية اهتزت لها جوانب القطر كيف يروي وقائعها في بساطة وسهولة توطئة لبحثه القانوني :

« نزل رئيس الوزارة المصرية يوم الحادث من ديوانه يحيط

به كعادته رجال الحكومة حتى بلغوا به سلم نظارة الحقانية ولم يكد يودع مشيعيه حتى ابتدره هذا الفتى فأفرغ فيه عدة رصاصات طرحته على الأرض يتخبط فى دمه ؛ أطلقها من مسدس كانت تحمله يد لم تخنها قواها ، يقلبه بقلب كأنه قد من الحديد ، فأنفذ حشوها فيه كما ينفذ الجلاد حكم القضاء فى المنكودين ، ولكن مع الأسف لم يكن حول الفقيد يد شهم مخلص مقدام كيد أحمد البحراوى التى أنقذت سعادة حكمدار العاصمة من الرصاص الذى صوب اليه ، ولذلك وجدت رصاصات ذلك الفتى سبيلاً الى جسم رئيس الوزارة »

بل استمع اليه وهو يختتم هذه المرافعة بتوجيه الخطاب الى المتهم كيف يطلق العنان للعاطفة دون أن يختل ميزان أسلوبه السهل الممتنع :

« أما أنت أيها المتهم : فقد همت بحب بلادك حتى أنساك ذلك الهيام كل شىء حولك . أنساك واجباً مقدساً هو الرأفة بأختك الصغيرة وأمك الحزينة فتركتهما يبكيان هذا الشباب الغض . تركتهما يتقلبان على جمر الغضا . تركتهما يقلبان الطرف حولهما فلا يجدان غير منزل معفر غاب عنه عائله . تركتهما على ألا تعود إليهما وأنت تعلم أنهما لا تطيقان صبراً على فراقك لحظة واحدة فأنت أملهما ورجاؤهما . دفعك حب بلادك الى نسيان هذا الواجب وحجب عنك كل شىء غير وطنك وأمتك وأخيك فلم تعد تفكر فى تلك الوالدة اليائسة وهذه الزهرة اليانعة ولا فيما سينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقدمت عليه . ونسيت كل أملك فى هذه الحياة وقلت إن السعادة فى حب الوطن وخدمة البلاد ، واعتقدت الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخدمة هى تضحية حياتك : أى أعز شىء لديك ولدى أختك ووالدتك فأقدمت على ما أقدمت راضياً بالموت لا مكرهاً ولا حباً فى الظهور . أقدمت وأنت عالم أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريتك ؛ ففى سبيل حرية أمتك بعت حريتك بثمن غال

فاعلم إذن أيها الشاب أنه إذا تشدد معك قضاتك ولا إخالهم إلا راحميك ، فذلك لأنهم خدمة القانون ، وهو هذا السلاح المسلول فوق رأس العدالة والحرية . وإذا لم ينصفوك ولا أظنهم إلا منصفيك ، فقد أنصفك ذلك العالم الذى يرى أنك لم ترتكب ما ارتكبته بنية الأجرام ، ولكن باعتقاد أنك تخدم بلادك . وسواء وافق اعتقادك الحقيقة أو خالفها ، فتلك مسألة سيحكم التاريخ فيها وإن هنالك حقيقة عرفها قضاتك وشهد بها الناس ، وهى أنك لست مجرماً سفاكا للدماء ، ولا فوضياً من مبادئه الفتك ببنى جنسه ولا متعصباً دينياً ، وإنما أنت مغرم ببلادك هائم بوطنك ، فليكن مصيرك أعماق السجن أو جدران المستشفى ، فان صورتك فى البعد والقرب مرسومة على قلوب أهلك وأصدقائك ، وتقبل حكم قضائك باطمئنان ، واذهب إلى مقرك بأمان »

ومثل آخر لأيراد الكلام على قدر المعنى المطلوب تجده فى مذكرات صديقى الأستاذ سليمان حافظ المحامى ، وأغلب ظنى أنه يحتذى إمامنا الراحل . قال فى صدر إحدى هذه المذكرات يحدد موضوع البحث ويبين ما سبق من الرأى ، وينتهى إلى غرضه من الاستشهاد بحكم محكمة النقض . وهذا كله فى أسطر معدودة

« بيعان أحدهما من مورث والثانى من وارث عن عين بذاتها . وبيع الوارث أسبق تأجيلا . فأيهما أحق بالتفضيل ؟ وأى المشتريين تملك ؟ المشترى من المورث أو المشترى من الوارث ؟ ذلك هو موضوع البحث ومناط الفصل فى هذه الدعوى

قد يقال إن العقد الأسبق تسجيلاً هو العقد الأحق بالتفضيل ؛ غير أن نظرية التفاضل بالتسجيل لا محل لها ما لم يكن البيعان صادرين من مالك واحد . وهنا يحق البحث فيما إذا كان الوارث والمورث شخصاً واحداً بمعنى أن الوارث استمرار لشخص المورث ، أو أن لكليهما شخصية قانونية مستقلة عن الأخرى ؟

وقع الخلاف فيما مضى على هذه المسألة فقال فريق إن شخصية الوارث تكمل شخصية المورث أخذاً بقواعد القانون الفرنسى . وقال فريق آخر إنها مغايرة لشخصية المورث طبقاً للشريعة الاسلامية . وتزاحمت الأحكام بين الرأيين ، وانقسم الفقهاء المصريون إلى شطرين ، حتى طرحت هذه المسألة أمام محكمة النقض وأصدرت فيها حكمها بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩٣١ : أخذ بالرأى الثانى ووضع نهاية للخلاف السابق »

ترجم هذا الكلام حرفاً بحرف إلى اللغة الفرنسية أو إلى الانكليزية التى اشتهر أهلها بحب الايجاز فان يجد فيها الفرنسى أو الانكليزى أثراً لحشو أو تزيُّد مما يؤخذ على كثيرين من كتابنا »

(يتبع)

زكى عريبى

المحامى أمام محكمة النقض والابرام

والمرفى السياحة

مجاز الشرق والغرب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

للسياحة أدب خاص . وربما كان أدب السياحة أقدم أنواع الأدب بعد أدب الأساطير والفروسية . فمنذ القرن الخامس قبل الميلاد نجد هيرودوت أبا التاريخ يجوب أنحاء آسيا الصغرى وفارس والشأم ومصر ، ويقدم لنا دراسته ومشاهداته فى أثر ممتع هو الأول من نوعه . وقد جرى أكابر الرحل والرواد فى كل عصر وقطر على تدوين رحلاتهم ومشاهداتهم . ولدينا فى تراثنا العربى طائفة كبيرة من الآثار الهامة التى تعتبر وثائق نفيسة عن أحوال العصور التى كتبت فيها والبلاد والمجتمعات التى تناولتها

وقد كانت السياحة من قبل مغامرة محفوفة بالشاق والمخاطر ، ولكنها أضحت فى عصرنا هينة ميسورة ، بل غدت متاعاً ونزهة بما مهد لها من وسائل المواصلة السهلة الأمينة فى البر والبحر والهواء ، وتنوعت سبلها ووسائلها ومرغباتها ، وأضحت فى كثير من البلاد التى حبتها الطبيعة بمحاسنها صناعة قومية تنظم لاجتذاب الموسرين والمترفين

ومن الحقائق المعروفة أن السياحة تذكى الخيال وتلهم القلم ؛ ذلك أن السياحة تقدم إلى الكاتب مادة غزيرة من الجديد فى كل شيء : فى الطبيعة والاقليم ، وفى الأشياء والناس ، وفى مختلف نواحى الحياة الاجتماعية ؛ وهى بما تحمل من متاع للنفس والعين والروح تمد الكاتب بذلك الغذاء الروحى الذى يستمد منه صوره ، وتبعث اليه فى معظم الأحيان رغبة ملحة فى التحدث والافضاء بما رأى وشاهد

* * *

وصلنا إلى مرسيليا بعد أن قضينا فى البحر خمسة أيام فى جو هادئ وسير ناعم مريح ، وأرسينا فى الصباح الباكر فى مرفئها الشاسع . ومرسيليا ثغر عظيم ، ولكنها لا تمتاز عن غيرها من الثغور الكبيرة فى مظاهر حياتها ونشاطها ؛ بيد أن ما نلاحظه عادة فى حياة الثغور من تباين فى الناس والمجتمع يبدو فى مرسيليا أقوى وأشد وضوحا . فهنالك يلتقى الشرقيون والغربيون من مختلف الأجناس والأمم ، وتغص بهم شوارعها ومقاهيها وفنادقها ، ولكن هذا المجتمع المتباين يجوز دائماً حياة طائرة غير مستقرة ؛ ذلك أن مرسيليا مجاز فقط بين الشرق والغرب ، تجتازها الجموع مسرعة ، سواء إلى الشرق أو إلى الغرب ، ولا تترك فيها أثراً ، ولا تحمل منها ذكريات ذات شأن

وليس فى مرسيليا ما يجذب السائح المتجول من المشاهد الاجتماعية ويترك فى نفسه أثراً خاصاً سوى حيها الشهير المسمى « الكانبيير La Canebiére » ، فهو قلبها النابض ، يضطرم دائماً بحركة زاخرة مستمرة ، وتجتمع فيه أهم مرافقها التجارية ؛ وهو ثغرها الباسم ، يغص من الجانبين بالمقاهى الأنيقة ، ويغدو بالليل قطعة من الأنوار الساطعة ، ويؤمه المجتمع الأنيق المرح ، وهو أشبه الأحياء بشارع عماد الدين عندنا ، بيد أنه أكثر منه ظرفا وبهاء

ومما يجدر ذكره أن هذا الحى الأنيق « الكانبيير » كان منذ عامين مسرحا لفاجعة دموية مروعة اهتزت لها أوربا ، وكادت تودى بالسلم الأوربى ؛ تلك هى مصرع الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ، ومسيو لوى بارتو وزير الخارجية الفرنسية الذى كان يرافقه فى العربة الملوكية ؛ وقد وقع الحادث على مقربة من ملتقى « الكانبيير » بالميناء القديم ؛ ورأت الحكومة الفرنسية أن تخلد ذكرى تلك الفاجعة المرسيلية باقامة نصب تذكارى إلى جانب المكان الذى وقعت فيه ، وقد سطرت فى رأسه هذه العبارة : « هنا سقط اسكندر ملك يوجوسلافيا ، والرئيس لوى بارتو فى سبيل قضية السلام والحرية ، فى ١٩ كتوبر سنة ١٩٣٤ »

أما عن المشاهد الأثرية فليس فى مرسيليا منها ما يستحق الذكرى سوى أثرين : الأول فى داخلها ، وهو قصر لونشان ، وهو قطعة بديعة من الفن تزين واجهته نافورة ضخمة رائعة الجمال ، ويحيط به حدائق عظيمة ، نصبت فيها تماثيل عديدة ، رأينا منها تمثالاً لمسترال الشاعر البروفنسى الشهير ، وآخر

لشاعر الحب والجمال الفونس دى لامرتين

وأما الأثر الثانى فهو خارج الميناء ، فى جزيرة صخرية صغيرة ، وهو حصن « ايف » (شاتوديف) الشهير

وليس لحصن ايف فى ذاته أية أهمية فنية أو أثرية ، ولكنه يلفت النظر بقواعده وجدرانه المنيعة التى قدت من الصخر الهائل ، والتى يتكسر عليها الموج الزبد

وقد ارتبطت بهذا الحصن الصغير الذى أنشأه فرانسوا الأول فى أوائل القرن السادس عشر ليكون سجناً سياسياً ، ذكريات مروعة ، ما زالت أوكاره المظلمة الضيقة تحمل آثارها ؛ ذلك أن هذه الأوكار السحيقة التى لا يكاد يدخلها شىء من الهواء أو الضوء كانت مثوى لطائفة من أكابر الزعماء والساسة ، منهم « ذو القناع الحديدى » الشهير الذى ما زالت شخصيته لغزاً على التاريخ ، والذى يعتقد فولتير أنه أخ غير شرعى للويس الرابع عشر ، قضى بسجنه واخفاء وجهه بقناع دائم حتى لا يعرفه انسان قط . ومنهم « ميرابو » خطيب الثورة الفرنسية ، و « فيليب دورليان » ابن عم لويس السادس عشر ، و « لويس فيليب » الذى تولى الملك فيما بعد ، وغيرهم من الزعماء والأكابر الذين سطرت أسماؤهم جميعاً فوق الغرف التى سجنوا فيها

ومن ذكريات « ايف » المروعة تلك المخادع الشاسعة المنخفضة التى تسمى « بمخادع النسيان » Oubliettes والتى كان يزج اليها بعض المغضوب عليهم ، فلا يذكرهم بعد ذلك أحد من أولى الشأن ، وربما تركوا فيها حتى يهلكوا فى غمر الظلام والنسيان

بيد أن لحصن « إيف » ذكرى شهيرة أخرى ، أوحت إلى اسكندر ديما أعظم قصصه وأبدعها ونعنى قصة « الكونت دى مونتى كريستو »

مَن مِن عشاق القصص الرائع لا يعرف « الكونت دى مونتى كريستو » تلك الشخصية العجيبة التى خلقها اسكندر ديما من شخصية أدمون دانتيس سجين شاتوديف ؟ ومن ذا الذى لا تطربه وتشجيه محنة أدمون فى سجنه السحيق ، وقصة اتصاله بالأب فاريا صاحب الكنز العجيب ، ثم فراره من أسره الهائل بعد مخاطرات مروعة ، وحصوله على كنوز جزيرة « مونتى كريستو » ، وظهوره بعد ذلك على مسرح الحوادث فى ثوب تلك الشخصية الخرافية التى يفيض من حولها الذهب والجوهر ؟

فى حصن إيف وكر صغير مظلم قد فى الصخر ، وفيه ثلمة صغيرة تصل بينه وبين مخدع آخر فى مثل روعته وظلامه ؛ ففى أواخر عهد نابليون زج أدمون دانتيس فى المخدع الأول بتهمة مؤامرة ملفقة ؛ وكان جاره فى المخدع الثانى راهب شيخ يدعى الأب فاريا سجن قبله بأعوام طويلة لأسباب مجهولة ؛ ولبث أدمون أعواماً يرسف فى وكره ، وهو يدبر وسائل الفرار حتى وفق إلى حفر ثلمة صغيرة فى جدار كان يظن أنه يفضى إلى فناء السجن أو إلى البحر ، ولكنه ألفاه يفضى إلى مخدع مجاور ، فتعرف بجاره وشريكه فى الأسر ، الأب فاريا ، ووثقت بينهما المحنة أواصر الصداقة ؛ وكان الأب فاريا قد وقف قبل محنته من وثائق كانت فى حوزة بعض الأحبار على سر كنز عظيم من المال والجوهر خبأه الكردينال سبادا فى جزيرة « مونتى كريستو » على مقربة من الشواطىء الايطالية ، فأطلع أدمون على سره حتى إذا فر دونه استطاع الحصول عليه

ثم توفى الأب فاريا فجأة ؛ وكانت العادة أن السجين المتوفى يكفن ويلقى فى البحر ، فدبر أدمون وسيلة عجيبة للفرار خلاصتها أنه بعد أن كُفن الأب فاريا ، وترك فى مخدعه حتى موعد إلقائه ، نفذ أدمون إلى ذلك المخدع من الثلمة الشهيرة ، ووضع نفسه فى الكفن مكان الأب المتوفى ، ووضع الجثة فى مخدعه ؛ وانتظر حتى جاء عمال السجن وحملوه ، وهو مستتر بالكفن وألقوه إلى البحر ظناً أنه هو الأب المتوفى ؛ فاستطاع أن يخرج من كفنه ، وأن يسبح حتى الشاطىء ؛ ونجا بتلك الوسيلة العجيبة ؛ وسافر إلى الجزيرة ، وبحث عن الكنز المنشود حتى عثر به ، وتسمى بالكونت دى مونتى كريستو ، وعاش فى بذخ عجيب ، وهو يعمل للانتقام من أعدائه الذين أوقعوا به حتى أفناهم أو نكبهم جميعاً

تلك هى الحوادث والسير العجيبة التى يثيرها منظر ذينك المخدعين المروعين المتجاورين فى حصن إيف : مخدع أدمون دانتيس وزميله الأب فاريا

ولقد ذكرنا منظر حصن إيف بحصن أقدم وأروع بمائله في النشأة والغاية هو حصن سانت أنجلو في رومة ، وهو معقل هائل يرجع إلى العصور الوسطى ، وبه مخادع مظلمة مروعة كانت معقلاً لطائفة من الأكابر ، مثل بنفو نوتوتشلليني الفنان الشهير ، والعلامة جوردانو برونو ؛ وكان مدى عصور سجناً رسمياً لديوان التحقيق (التفتيش) الروماني ، وكان مسرحاً لكثير من المآسي الدموية وحوادث الفرار الشائقة

***

هذا بعض ما أوحته المناظر والمشاهد المرسيلية إلى الخاطر . ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة قصة « البقشيش » (البوربوار) التي قرأنا عنها في الصحف قبل السفر ، وعلمنا أنها كانت موضع اهتمام خاص من الوزارة الفرنسية الجديدة ؛ فقد استصدرت وزارة مسيو ليون بلوم من البرلمان في أوائل يونيه تشريعاً يقضي بالغاء « البقشيش » في جميع فرنسا ، وذلك لما رأته من تغلغل هذا الداء في جميع المعاملات تغلغلاً يجعله أشبه بضريبة غير رسمية ؛ وقد اعتقدنا حين وصلنا الى مرسيليا أننا تخاصنا من هذا الداء المنغص بفضل المسيو ليون بلوم ، فاذا نحن واهمون ، وإذا البقشيش لا يزال عماد المعاملة في كل خطوة ، وكل شيء وكان أول مالفت نظرنا في الفندق إعلان جاء فيه : إنه نظراً لالغاء البقشيش فقد رأت الادارة أن تضيف إلى جملة الحساب عشرة في المائة نظير الخدمة ! فتساءلنا عندئذ ما الذي ألغاه القانون الجديد ، وما الذي فعلته وزارة المسيو ليون بلوم ؟

ومما يلاحظ الآن في فرنسا بنوع خاص أن الجبهة الشعبية التي تؤيد الوزارة الجديدة تلقى تأييداً شديداً ، وأن النزعة الديموقراطية التي كانت قد فترت في العهد الأخير قد عادت إلى حدتها ؛ وفي ذلك ما يدل على أن الشعب الفرنسي يشعر اليوم شعوراً قوياً بما يهدد الديموقراطية من الأخطار ، ويزمع أن يتمسك بنظمه الحرة العريقة ، على رغم ما يعتورها أحياناً من أوجه الفساد والضعف ، وأن يدافع عنها ضد تلك النظم الطاغية الهمجية التي تسود اليوم بعض الدول العظمى ، والتي تحاول أن تسود أوربا القديمة كلها

بورڤاندر (سفح البرينيه) في أواخر يوليه **محمد عبد الله عنان**

بمناسبة المهرجان الألفي لأبي الطيب في دمشق

٢ ــ دين المتنبي

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

للأستاذ سعيد الأفغاني

أنتقل الآن الى الكلام عن اعتقاد أبي الطيب ، وهو الموضوع الذي زلت فيه أقدام كثيرين ، إما لميل إلى الرجل أو عليه ، وإما لاكتفائهم من البحث بأدنى نظرة ، وتعلقهم مظاهر من القول دون نفاذ الى حقيقته ولا تطلع الى ماحف به من قرائن . والحيطة في هذا ضرورية لمن يريد استنباط أمور من الشعر العربي وخاصة في عصر كعصر أبي الطيب فشا فيه المدح والغلو والتلاعب بالألفاظ ، وأصبح كل مادح على مذهب ممدوحه في الأغلب ، فان كان شيعياً أشاد الشاعر بسراة الشيعة ورفع من مقالتهم ، وان كان يقول بالتناسخ مال الشاعر إليه ، وان كان معتزلياً أو سنياً فالشاعر معتزلي أو سني . . وهكذا دواليك

فشت هذه الظاهرة من النفاق في الناس وكانت أشد ماتكون في الشعراء ، حتى لقد شهد المعري عليهم وعلى عصرهم بذلك ؛ وحسب التاريخ شهادة شيخ المعرة ، فقد أيدها بالدليل ، وأرسل فيها قولاً حكيما يعرف رشده وصوابه كل من أمعن الفكرة ، ولم يكتف بالنظرة . قال بعد أن ذكر تنبؤ أبي الطيب والأبيات تدل على تألهه :

« وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبيء عن اعتقاد الانسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض ؛ ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون . وما يلحقني الشك في أن دعبل بن علي لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع وإنما غرضه التكسب ؛ ولا أرتاب في أن دعبلاً كان على رأي الحكمي وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة . »

وقال في موضع آخر : « وفي الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده ، يتوصل به إلى الدنيا الفانية ، وكان لهم (يعني القائلين بالتناسخ) في المغرب رجل يعرف بابن هانيء وكان من شعرائهم

المجيدين فكان يغلو فى مدح المعز غلواً عظيما حتى قال فيه وقد نزل بموضع يقال له رقَّادة :

حل برقَّادة المسيح حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالى وكل شىء سواه ريح »

فمن الضلال البين إذن أن نلزم أبا الطيب عقيدة ذكرت فى شعره عرضاً ، إلا إذا صحبتها قرائن تقويها وتدل على اعتقاده إياها . وليس من الصواب فى شىء اعتبار الشعر — وحاله ما بيّنا — مصدراً من مصادر التاريخ . وما أجهل المؤرخ إذا حكم على أخلاق سيف الدولة أو كافور بشهادة شعر المتنبى فيهما

بهذا الحذر أخوض الكلام فى اعتقاد المتنبى مع علمى بأنه لم ينظم شيئاً يبين فكرته فى الدين خاصة ، وإنما هى أبيات وقعت فى جملة شعره ، يوسع المؤرخ أن يستأنس بها بعد أن يدرس سيرته

جاء فى خزانة الأدب للبغدادى كلام عن اعتقاد أبى الطيب منقول عن الأصفهانى وهذا نصه :

« وهو (أى أبو الطيب) فى الجملة خبيث الاعتقاد ؛ وكان فى صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوّسه وأضله كما ضل . وأما ما يدل عليه شعره فتلون ، وقوله :

هون على بصر ما شق منظره فانما يقظات العين كالحلم

مذهب السوفسطائية . وقوله :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

فان لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

مذهب التناسخ . وقوله :

نحن بنو الدنيا فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه

فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

مذهب القضائية . وقوله :

فان يكن المهدى من بان هديه

فهذا ، وإلا فالهدى ذا ، فما المهدى ؟ !

مذهب الشيعة (كذا) . وقوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم

إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيل : تخلص نفس المرء باقيـــة

وقيل : تشرك جسم المرء فى العطب

مذهب من يقول بالنفس الناطقة . ويتشعب بعضه إلى قول الحشيشية ، والانسان إذا خلع ربقة الاسلام من عنقه وأسلمه الله عز وجل إلى حوله وقوته وجد فى الضلالات مجالاً واسعاً ، وفى البدع والجهالات مناديح وفسحاً . » اهـ

فأبو الطيب فى رأى هـذا الفاضل : سوفسطائى ، تناسخى قضائى شيعى حشيشى . . مجموعة مذاهب لو فرقت على مملكة عريضة لخربتها فى يومين ؛ فما الحال اذا اضطلع بها كلها قلب رجل واحد ؟

على أن الشواهد التى استند اليها فى أحكامه هذه لا تحمل ما حمّلها : فالشاهد الثانى (تمتع من سهاد . . البيت) ليس فيه ما يصرح بالتناسخ . وقوله : « فان يكن المهدى ... » يخرجه من الشيعية اخراجاً ، لأنه شك فى المهدى أول البيت ، ثم جعل ممدوحه هو المهدى إن كان هناك مهدى ، ثم ختم البيت بهذا الاستفهام التهكمى : ما المهدى !!؟

وإن دل الشاهد الأخير (تخالف الناس . . البيتين) على شىء فعلى تردد أبى الطيب بين القولين وعلى شكه وحيرته بدليل البيت الذى بعدهما :

ومن تفكر فى الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

والذى استفدناه من كل ذلك أن المتنبى وقع فى حداثته الى رجل من المتفلسفة فهوّسه وأضله ، والظاهر أن أثر هذا الأستاذ كان فى أبى الطيب بالغاً ، فقد بقى ضعف العقيدة وعدم الاعتداد بآداب الدين ملازماً أبا الطيب حتى مات

ومهما يكن فقد ألم المتنبى بكثير من النحل الشائعة فى عصره دون اعتقاده بواحدة ما . وذكر بعضها فى شعره منزلة خير تنزيل : مدح طاهراً العلوى مرة فقال :

اذا علوى لم يكن مثل طاهر فما هو الا حجة للنواصب

والنواصب الخوارج الذين نصبوا العداء لعلى

وذكر المانوية أصحاب الاثنين الزاعمين أن الخير كله من النور وأن الشر كله من الظلام فقال :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبّر أن المانوية تكذب

وعرض لذكر المجوس ومذهبهم فى نكاح الأخوات حين أراد الثناء على حسن امرأة ود أخوها لو كانت تحل له لفرط جمالها فقال :

يا أخت معتنق الفوارس فى الوغى
لأخوك ثَمّ أرق منك وأرحم
يرنو اليك مع العفاف وعنده ... أن المجوس تصيب فيما تحكم

ووقع فى شعره ذكر كلمة يصح أن يتعلق بها من يريد جر أبى الطيب الى طائفة ما ، وهى كلمة (الوصىّ) فى قوله :

هو ابن رسول الله وابن وصيه ... وشبههما شبهت بعد التجارب

وقوله :

وتركت مدحى للوصى تعمداً ... إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً

وقد فرغت من بيان أن مثل هذا لا يدل على شىء ، ولا ينهض دليلاً ولا بعض دليل ، لجريان عادة الشعراء بمجاراة الممدوح فى عقيدته ورأيه

***

وبعد ، فان لم يكن للحكم على دين المتنبى مجال فى شعره ، فى تلك الشناعات القبيحة التى زجه فيها الغلو فى المدح حتى قل أدبه مع الله ومع رسله وكتبه ، حين زعم لممدوحيه علواً يرفعهم إلى ذلك المستوى . والمدح متى جاوز الواقع فهو محظور فى كل الأديان فكيف إن كان بالباطل وإلى التغالى . دع ما يريق من ماء وجه المادح وما يكسر من عزته ويضيع من كرامته . ومتى كان مسلما من لا حياء له ولا عزة ولا كرامة ؟

وودت والله لو أن شعراءنا هجروا هذا الباب ، باب المديح ، مرة واحدة بمحاسنه ومقابحه ، وشغلوا عنه بغيره من فنون القول الواسعة ، فما هو بالفن المشرف ولا المأسوف عليه إن فقد . وقد حفظ الأدب العربى كثيراً من المبالغات الممقوتة والغلو الشنيع ، ولكن ما فى ديوان أبى الطيب وحده هو بكل ما فى مكتبتنا قبحا وشناعة واساءة أدب :

مرة يحاول السجود لممدوحه فلا يكفه الا الزجر :

طلبنا رضاه بترك الذى ... رضينا له فتركنا السجودا

ومرة يشرك هذا الممدوح بالله فيقول :

ما يرتجى أحد لمكرمة ... الا الاله وأنت يا بدر

ويقول :

ترى القمر الأرضى والملك الذى ... له الملك بعد الله والمجد والذكر

ويقول :

اذا بقيت سالما أبا على ... فالملك لله العزيز ، ثم لى

ويقول :

أنا مبصر وأظن أنى نائم ... من كان يحلم بالاله فأحلما

ويقول :

تتقاصر الأفهام عن ادراكه ... مثل الذى الأفلاك فيه والدنا

يعنى الله سبحانه . ويستخف تارة بالمصطلحات الدينية استخفافا ظاهراً فيقول :

يترشفن من فمى رشفات ... هن فيه أحلى من التوحيد

وقد أرادوا تأويل هذا البيت فكان التكلف والتعسف ظاهرين فى تأويلهم . وقال :

وأعطيت الذى لم يعط خلق ... عليك صلاة ربك والسلام

وجعل ممدوحه أعظم معجزات النبوة فى قوله :

وأبهر آيات التهامى أنه ... أبوك وأسمى مالكم من مناقب

وهو لا يرى لممدوحه شبيها أبداً فيقول :

لم يخلق الرحمن مثل محمد ... أبداً وظنى أنه لا يخلق

ويقول :

ان كان مثلك كان أو هو كائن ... فبرئت حينئذ من الاسلام

وانظر هذا الغلو الممقوت فى قوله :

لو كان علمك بالاله مقسما ... فى الناس ما بعث الاله رسولا
لو كان لفظك فيهمُ ما أنزل الـ ... قرآن والتوراة والانجيلا

وفى قوله :

أو كان صادف رأس عازر سيفه ... فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ... ما انشق حتى جاز فيه موسى
يا من نلوذ من الزمان بظله ... أبداً ونطرد باسمه ابليسا

وهذا الهذيان ما معناه ؟

يأيها الملك المصفى جوهراً
من ذات ذى الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لا هو تيّةً ... فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

وهو حيناً كالمسيح (ما مقامى بأرض نخلة . . . البيت) وحيناً كصالح (أنا فى أمة . . . البيت) ولا يخجل بعد هذا الادعاء أن يضرع الى من سجنه بهذه العبودية :

أمالك رقى ومن شأنه ... هبات اللجين وعتق العبيد

هو من حداثته مهوس مضلل لم يستنر قلبه بنور عقيدة ، ولا شعر صدره ببرد يقين . فلم ينشأ تنشئة دينية فى صباه ، ثم

طرح الى هموم الحياة وأتعابها فاضطر الى التكسب بالمدح من صغره ، وشغل عن عبادة الله والتدين بعبادة الناس والمال لهذا السبب ، لا « لأنه صاحب مطامع دنيوية وعقل موكل بالأعمال والوقائع لا بالعقائد والعادات[١] » فليس هناك تناف بين التوكيل بالأعمال والتدين ، ولم يخل المتدينون يوماً عن مآرب ومطامع فى هذه الحياة

وهذا وليس للمتنبى فلسفة الهية حتى نقول إنه استهان بالدين تفلسفا ؛ وليس لعقله ما لعقل أبى العلاء من مواهب تؤهل صاحبها للنظر والحكم فى المقالات والمذاهب ، بل هو فى هذا الاستخفاف الذى نم عليه شعره لا يترفع كثيراً عما نرى عليه بعض العامة المستخفين

***

كان الى جانب المحن والثورات الداخلية التى منى بها المسلمون فى القرن الرابع غارات أجنبية متواصلة تشن على ثغور المسلمين ؛ وكان أمراء العرب فى تأهب مستمر لرد هذه الغارات فيظفرون تارة وتارة يغلبون ، وسيف الدولة أحد هؤلاء الأمراء الذين أصلوا الروم بنيرانهم وشغلوا برد غاراتهم

ونزعة الحروب فى الشرق — قديما وحديثا — دينية أبداً ما تغيرت يوما من الأيام ، إلا أن الروم كانوا فى القرن الرابع الهجرى صريحين ، لم يهتدوا بعد الى هذا الطلاء الكاذب الذى أسموه تمدينا بعد عشرة قرون[٢]

وشاعرنا أبو الطيب شارك سيف الدولة فى جهاده الدينى فقاتل بجسمه وتعرض للخطر ، وناضل بلسانه . وفى شعره من مواطن الغيرة على الدين وأهله من تسلط الروم ما يحمل النصف على عدها فى حسناته ، كان يرى هذه الحروب كما كان يراها غيره من أهل زمانه وكما هى فى الواقع — دينية لا قومية ، وهذا هو الفارق بينها وبين حروب سيف الدولة مع خصومه من الامراء . فكانت قصائد أبى الطيب التى يصف فيها هذه الحروب تطفح بالحمية الدينية والنزعة الاسلامية ، فهو يثنى على سيف الدولة الذى هزم الدمستق وأنقذ المسلمين من اكراه الروم لهم على الردة فيقول :

خرّوا لخالقهم سـجداً   ولو لم تغث سجدوا للصُلُب

ولم تعجبه هدنتهم مع الروم فقرعهم ومدح سيف الدولة لتدينه فقال :

أرى المسلمين مع المشركـ   ـين فاما لعجز وإما رهب
وأنت مع الله فى جانب   قليل الرقاد كثير التعب

ومن هنا تلقيبه سيف الدولة بسيف الرب وسيف الدين فى أقواله :

أيا سيف ربك لا خلقه   ويا ذا المكارم لا ذا الشطب
يا سيف دولة دين الله دم أبدا   وعش برغم الأعادى عيشة رغدا
يا سيف دولة ذى الجلال ومن له   خير الخلائف والأنام سميا
خضعت لمنصلك المناصل عنوة   وأذل دينك سائر الأديان

ونعته بنفرته الشديدة من الردة وتعلقه بالاسلام فقال :

كأن سخاءك الاسلام تخشى   اذا ما صلت عاقبة ارتداد

وهو رجاء الاسلام والموقى من الرحمن ونصير التوحيد :

ولست مليكا هازماً لنظيره   ولكنك التوحيد للشرك هازم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا   وراجيك والاسلام أنك سالم
ولمْ لا يقى الرحمن حديك ما وقى   وتفليقه هامَ العدا بك دائم

أبو الطيب يذهب أبعد من هذا : لا يكتفى باستنكار سلطان الروم على قومه ، بل يأنف لهم أن يحكمهم مثل كافور ، وإن كان مسلماً مثلهم ، ولا يرضيه سكوت الناس عليه ؛ ويغضبه أن يعظموه فيصرخ فيهم هذه الصرخة ويعرض بأم كافور :

نُوَيبيّة لم تدر أن بنيها الـ   نوبى دون الله يعبد فى مصر

ثم يرسلها ملعلعة تتنزى بالألم والحسرة والأسف على ما صار اليه الاسلام فيقول :

سادات كل أناس من نفوسهم   وسادة المسلمين الأعبد القزم

رحم الله أبا الطيب ! ما تراه كان قائلاً لو بُعث اليوم فشاهد ما نشاهد ! إذن لرأى هؤلاء الأعبد القزم شرفاء قياساً إلى غيرهم ، بل أنبياء

***

لصاحبنا ازاء ما تقدم من أبيات يأباها الدين والعقل ، أبيات أخرى هى من صميم الدين وروحه ، يتقاضانى الانصاف ذكر شىء منها كما ذكرت تلك ، فقد نص فى بعضها على أنه لا يخضع لمخلوق أبداً

تغرب لا مستعظماً غير نفسه   ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

(١) كلمة الأستاذ العقاد فى كتابه مطالعات ص ١٢١

(٢) ومع هذا فقد قال الجنرال اللنبى حين دخل القدس فاتحاً : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » وناهيك بها صراحة فاضحة

وقد جعله أبو العلاء بهذا البيت من المتألهين . ويعترف بتصرف الله المطلق فى الكون :

ألا انما كانت وفاة محمـــد دليلاً على أن ليس لله غالب

وأن الله هو الملحوظ فى كل فعل وحركة :

فأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد

وهذا البيت ينظر إلى قول الله مخاطباً نبيه : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وهو يجعل شكر الله واجباً فى دوام النعمة حين قال فى ممدوحه :

مقلداً فوق شكر الله ذا شطب لا تستدام بأمضى منهما النعم

وكما أبى قبول الحكم من غير خالقه أبى الشكوى إلى الناس وهذا غاية ما يأخذ به الموحد نفسه :

ولا تَشَكَّ الى خلق فتشمته
شكوى الجريح الى الغربان والرخم (١)

ولنذكر أن صاحب دمشق وكان يهودياً يعرف بابن ملك حمل المتنبى على مدحه فأبى أنفة ، وكذلك فعل مع ابن كيغلغ وكان رومياً

هذا ما رأيت فى شعر أبى الطيب من تعلق بالدين سلباً أو إيجاباً ، ذكرته على حقه بحرية وصراحة . أما سيرته العملية فقد ذكروا له أخلاقاً يحمده عليها الدين وهى عفة المذهب والصدق . وقد كان المتنبى — كما ذكروا — لم يؤثر عنه فسوق قط . وقوله

إنى على شغفى بما فى خمرها لأعف عما فى سراويلاتها ..الخ

صحيح كل الصحة فى الدلالة على عفته ، فقد أيدته سيرته طول حياته . وكذلك فى التزامه جانب الصدق :

ومن هوى الصدق فى نفسى وعادته
رغبت عن شعر فى الرأس مكذوب

ثم ذكروا له خلالاً ثلاثاً دلت على أن الرجل لم يأخذ نفسه بشىء من التكاليف الشرعية ، أى لم يكن مسلماً بالعمل . قال أبو حمزة البصرى :

« بلوت من أبى الطيب ثلاث خـلال محمودة : هى أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط ، وبلوت منه ثلاث خلال مذمومة وهى أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن . »

فاذا أضفت الى ذلك ما تعرف فى سيرته من البخل والتعاظم وسلاطة اللسان ، وأن له فى القـذف فحشاً ما عرف أقبح منه ولا أدنس ، استقام لك من كل ما قدمت رأى لعله أن يكون أقرب الآراء من صواب

وأنا لست أقول فيه ما قالوا من أنه : « خبيث الاعتقاد قد خلع ربقة الاسلام » ولا أتكلف له التأويل والمحال ، فقد قدمت الاشارة إلى بطلان المذهبين معاً

ولكنى ألاحظ أنه شاعر ، والشاعر كثيراً ما يبيع دينه بدنيا غيره ، فان خرج على الاسلام فى غلوه فما قصد إلى هذا الخروج قصداً ، وإنما أراد الزلفى عند الممدوح ، فأداه الغلو إلى الخروج

وليس من الحق أن نحكم على آخرة رجل بنزوة كانت منه فى الحداثة ، أو حماقات صدرت فى فترات من حياته . ومنذا زعم أن أبا الطيب كان يعتقدها اعتقادا حتى نجعله بها صاحب مذهب فى الدين ، وقد علمنا أن عقله لم يفرغ لهذا قط ؟ فمن سره أن يجر النوابغ المشهورين إلى طائفة بالسلاسل والأغلال ، يكثر بهم سوادها فما أرانى مضطراً إلى شىء من هذا ، وقد فرغ أهل البصر من هلهلة هذه الطريقة التى سلكها بعض المؤلفين الحديثين فى كتب التراجم جهلا وعصبية ، فما هى إلى علم ولا إلى أمانة . والحكم على دين رجل أبعد منالا من أن يكتفى فيه بورود اسم هذا الدين فى كلامه ، فما بالك إن كان ذكره له مجاراة أو حكاية أو ردا أو شتيمة ؟

وقد ذكر المتنبى فى شعره هذه الديانات : المانوية ، المجوس ، اليهود ، النصارى ... الخ أفيستقيم فى هـذا الزمان أن ينهض منتسب إلى العلم فيعد أبا الطيب مانوياً أو مجوسياً ؟

إن العـلم والأدب أمانة ، فلينظر قارئ فى كتاب ما ترك مؤلفه من عقله وأمانته وما أخذ

أما أنا فأستطيع الآن بعد ما قدمت من بحث تحريت فيه بجهدى ، ودعمته بما رأيت من برهان أن أرسل كلمتى مطمئناً فى دين أبى الطيب فأقول :

آمن لسانه وتخلف عمله ، ولم يكن الدين همه يوما من الأيام

(دمشق) سعيد الأفغانى

(١) نسب للمتنبى هذان البيان :

أبعين مفتقر إليك نظرتنى فأهنتنى وقذفتنى من حالق
لست الملوم ، أنا الملوم لأننى أنزلت آمالى بغير الخالق

وهما وإن كانا فى الجملة والمذهب يؤيدان بيت المتنبى المذكور — بعيدان — فى رأيى — عن روحه ، فلم يألف أبو الطيب الاعتراف باهانة نفسه وقذفها من حالق

فى النقــــد أيضاً

بقلم محمد مظهر الجلاد

إلى الأساتذة الأكابر :

كان للفصول التى كتبتموها فى النقد أثر كبير فى كشف غوامض العلل التى أصابت الأدب والنقد معاً ، وما أرانى تكلفت الصبر فى شىء كما تكلفته فى انتظار « الرسالة » حين كتابة هذه الفصول . وإنى لها لعلى انتظار واشتياق

كتب الأستاذ الزيات مقالين فى « الرسالة » افتتح بأحدهما باب النقد واختتمه بالآخر ، وكانت بينهما معركة ، وكانت بينهما نفحة من نفحات النصر الجميل تخطَّر لها الأدب ، وانتعش بها النقد ، والتذت بها الفكرة ؛ حتى إذا تمتع الطرف ، وأرهف الحس وثارت العاطفة علا هُتاف الالهام يقول : ألا إن لله فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها

كتب الأستاذ أحمد أمين مقالين ألقى فيهما مسئولية النقد على الشيوخ ردَّ فى غضونهما الدكتور طه حسين على الأستاذ الأمين ؛ ثم كتب الدكتور هيكل فصلاً رمى فيه تبعة النقد على الشباب ، ثم ختم الأستاذ الزيات مقاله قائلاً : « الحق إن ركود الأدب وفوضى النقد لا يرجعان إلى الشيب ولا إلى الشباب ، وإنما يرجعان إلى تهريج الصحف وكسل الكتاب »

وأنا لا أجد بأساً من التعليق المجمل على ما كتبه السادة الأدباء فى هذا الموضوع ، لا لأنى سأزيد على ما كتبوه شيئاً لم يكن ، وإنما هى كلمة الأستاذ الزيات أثارت فى نفسى شيئاً حملنى على الكتابة ، ووجدتنى مضطراً إلى التعبير عن هذه الثورة ، وألجأتنى إلى الخجل والاستحياء من أساتذتى الكرام ، حيث كتبت فيما يكتبون ، فى حين أن البون شاسع بينى وبينهم ؛ غير أنى لم أنس أبضاً أن للتلميذ حقاً كما أن للأستاذ حقاً ، ولكل منا مقام

أبدع الأستاذ الأمين فيما كتب ؛ غير أنى أعتقد أن علة النقد ترجع إلى أساسين اثنين : أحدهما العلم ، وثانيهما الخُلق . فأجاد هو فى شرح أكثر الأول ، ولا أدرى علامَ أرجأ الثانى . وهو أحد الأساسين ، وهو الذى يقول فيه الأستاذ الزيات : إنه سطوة الهوى ، وفتنة الغرور ، وغلبة العاطفة

إن الأدب والذوق والعلم عدة النقد الكافية ، وإن هذا الأدب والذوق والعلم ليثقف العقول ويرهف المشاعر ، وإن هذه العقول وهذه المشاعر لتبدع النقد ، وتجيد التمحيص ، وتعرف موضع الداء والدواء . وبقى أن نعرف أن هذه الملكة الأدبية الصافية قد تتحوّل عند النقد أحياناً أو أبداً إلى ملكة نفسية تتصرف بالقلم لا كما يشاء الأدب والفن ، بل كما يشاء الغرور وكما يريد الهوى

ليت شعرى أى رجل من الرجال يتقلد مفاتح النجاة من حق فاضح ، وحكم صحيح ، ونقد نزيه ، ثم لا يفر من خصمه بأى أساليب الحيلة شاء ، وبأى ضروب القول أراد ، إذا لم يؤت سَعَة فى الصدر وقوة فى الخُلق ترغمه على قبول الحق مهما يكن مُراً ؛ ولا سيما من أوتى قوة الجدل المنطقى والحوار اللانهائى

أين ذلك الخُلق الذى يقول : أخطأ عمر وأصابت امرأة . هناك ناس يخبطون فى النقد خبط عشواء ، فلا يحملون فى نفوسهم غير الضغينة ، ولا تعرف ألسنتهم غير البذاء . وكم يتمجرف هؤلاء وكم يجدون لأنفسهم من مكانة ، ولأدبهم من شعر وفن وجمال ، ولنقدهم الصحة والدقة والذوق ؛ فهم يتطاولون ليجثموا فوق القمر ، ويجالسوا على النجم ، ليكون للناس منهم نصيب وافر وحظ عريض

وهناك من ينقد عن بصيرة وعلم ، فهو يفتش عن علل العيب فى خصمه ، لا لينقده ويرشده إلى الصواب ، بل ليحط من قدره وينال من كرامته . فأنت تجد فى نقده الصحة والذوق والسمو ، ولكنك لا تجد طهر السريرة ونزاهة النقد . على أن هناك أساتذة أدباء وهبهم الله العلم والذوق والخُلق الجميل يكتبون بلغة الناس وروح السماء ، لا تكاد تقرأ لهم شيئاً حتى تخال نفسك طائراً ملائكياً يسبح فى عالم الجمال ، فيه الملائكة والروح تتنزل باذن الله على من يشاء من عباده

لا بد من الأخلاق فى هذا الموضوع إذن ، وإنها لمن أكبر ضروراته وأعظم مميزاته ؛ وأنا أعرف أن النقد شىء والخلق شىء آخر ، ولكن شدة الصلة بينهما وقرب الوشيجة دعوانى لربط أحدهما بالآخر ، وما أرى أن أحداً ينكر علىَّ هذا

وأرى أيضاً أن فى النقد الحاقد المشوه هدماً لكيان أمة برمتها وسبباً من أسباب الأحن الفتاكة التى تكبر وتكبر حتى لكأنها دولة فيها الجند والأسطول والمدفع والغاز لا تهدأ إلا لتثور ، ولا تخمد إلا لتستقر ، وهكذا دواليك .

لعل قائلاً يقول : إن النقد اللاذع يبعث على النضج الأدبى السريع إذ تشحذ الأذهان ، وتبرى الأقلام ، وتلهب الغيرة ، ولن يتاح هذا الانتاج السريع بهدوء النفس وفتور المشاعر ، فنقول له : إن ما يخسره الأدباء من الصلة الأدبية بينهم وما يكون من اجتماعاتهم وروابطهم حيث تعطى عصارة الرأى وناضج الأدب وصرف الجمال ، أكبر من الربح السريع فيه معانى التجزئة ، وحقيقة التشويه ، وذل الأمة

النقد النزيه وحده كاف لأن يكون أثراً فعالاً وقوة ريِّضة لايقاد الشعور وتحفيز الهمة . ولِمَ لا وقد يجد المنقود فى النقد النزيه أخاً يجادله فى حب ، ويناظره فى لين ، ويكاتبه فى ابتسام وسرور . وكم يجد لمزائه من سلوة حينما يجد ناقده النزيه يكشف له عن عيبه فى رقة وعن خطئه فى إشفاق . ولا تنس أن ذكر المحاسن فى النقد والتماس التشجيع فى امتداح الجودة وشكر الجميل وسيلة كبرى فى نشر الثقافة ورقى الأدب وانتصار النقد

قد يحجم أكثر المتأدبين عن النقد ويركنون إلى الدعة والراحة إذا ما رأوا كاتباً من الكتاب يحترق فى لهيب النقد الغاضب راضين من الغنيمة بالاياب ، وتلك هزيمة منكرة تشنها الفوضى الأخلاقية على العقل والعلم والأدب والنقد جميعاً ، كما أنى لا أقصد الافراط فى التلطف والشكر على قبيح يشوه حقيقة النقد من أجل رعاية الخلق والأخلاق . لا . وإنما أريد الاعتدال والنصفة ، حيث يلتقى كلا الخصمين على شاطئ الأخاء يقودهم الأدب إلى حيث اللقاء الدائم والصفاء المستمر

محمد مظهر الجلاد

شعراء الموسم فى الميزان
نقد وتحليل
للأديب عباس حسان خضر

— ٤ —

ميلاد الرسول

كانت هذه القصيدة من أقوى العمد التى قام عليها نجاح الموسم ، وقد عرف الأستاذ محمد الأسمر كيف يحكم فيها الصلة بين وجدانه ووجدان المستمعين باختيار الموضوع ، وحسن الالقاء ، وبراعة التأدية . وإذا كانت الطبيعة الشعرية خصبة ، وكان التعبير عما تنتجه ، وتوصيل هذا التعبير إلى (مستهلكى) الشعر جيدين ، فقد بلغ الشاعر ما يرمى اليه من غرض الاجادة . فما حظ هذه القصيدة من ذلك ؟ اليك منها فى وصف يوم ميلاد الرسول :

يوم أغر كفاك منه أنه ... يوم كأن الدهر فيه تجمعا
ويكاد غابر كل يوم قبله ... يثنى اليه جيده متطلعا
فلو استطاع لكر من أحقابه ... وثبا على هام السنين ليرجعا
ويكاد مقبل كل يوم بعده ... ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبل أوانه ... وانساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الأيام فى الشرف الذى ... ملأ الوجود فلم يغادر أصبعا

فانظر كيف يمثل الزمان فى ركب يبرز فى وسطه يوم الميلاد كأنما هو المقصود من الدهر كله ، فالأيام قبله تتطلع اليه وتود الرجوع اليه ، والأيام المقبلة توشك أن تفلت من نظام الركب لتسرع اليه ، وكلها تتنافس لنيل شرف الميلاد النبوى ، ومجمع هذه المعانى قوله : « كأن الدهر فيه تجمعا » فهذا التعبير فى تفرعه إلى تلك المعانى يشبه مقذوف النور الذى ينبعث فى الجو على شكل شرارة مقتضبة ، فلا يلبث أن ينبسط متفرعا إلى شجرات أوطائرات أو غير ذلك ، وهكذا يكون فى المولد النبوى !

فهذه الطبيعة التى تنتج هذا الخيال ، هى — ولا شك — صالحة لانتاج الشعر الذى تتم جودته بمثل ذلك التبيين الذى يزاوله

ومن أبيات القصيدة التى لا تصدر إلا عن طبيعة فنية قوله :

والحق أخفى ما يكون مجردا ... وتراه أوضح ما يكون مدرعا

بعد أن تنظر إلى التركيب من حيث تأديته للمعنى التأدية

العادية ، قف عند كلمة « أوضح » فهى بعد أن تعبر عن وضوح الحق والانصياع له إذا كانت تلابسه القوة ، تومئ إيماءة لطيفة إلى وضوح الحق ملبساً بالدروع الملتممة

وقوله معبراً عن زوال ملك فارس والروم بالفتح الاسلامى :

من لم تزعزعه العواصف قبلها   بعثت له بنسيمها فتزعزعا

فقد صور الشاعر روح الشريعة السمحة وما تشمله من لطف ورقة بالنسيم ، ولكنه أوضح أن النسيم الاسلامى كان قوياً فى لطفه ورقته قوة زعزعت ما تقاصرت عنه عاتية العواصف

والأستاذ الأسمر يسوق المعانى فى الألفاظ ، فتطربك من ذلك وحدة مركبة ، وهذا قوله فى مطلع القصيدة :

فجر أطل على الوجود فأطلعا   شمسين شمس سنا وشمس هدى معا
ظلت مطالع كل شمس لا ترى   من بعده شيئاً كمكة موضعا
قبس من الرحمن لاح فلم يدع   لألاؤه فوق البسيطة موضعا

فليس من الميسور الفصل بين جمال هذه المعانى وجمال قوالبها

ومن الغريب أن القصيدة مع تجاوز معظمها أصل الموضوع وهو ميلاد الرسول قد جاءت وحدة منسجمة ، فقد تخلص الشاعر — بعد نحو ثلث القصيدة — من القول فى ميلاد الرسول إلى الافاضة فى الدعوة الاسلامية ومدح الرسول : فذلك الخير الذى أصاب النـاس بميلاده ، والسنا الذى أزاح الله به الظلمات قد

وافى وليل الجاهليـة مطبق   فانجاب عن جنباتها وتقشعا

ومن هنا ينقطع الحـديث عن الميلاد الذى هو موضوع القصيدة ، ويشغل معظمها مدح الرسول والاشادة بدعوته ؛ ولكن ما غاية الميلاد ؟ أليست وجود هـذا الرسول العظيم ، وأثر دعوته للناس إلى الهدى ؟ قد يقال هذا ، وقد تكون عليه مسحة من الوجاهة ، ولكن كان ينبغى أن يكون أكثر القصيدة فى أصل الموضوع . ولن يخدعنا الشاعر عن ذلك بصنعته فى جمع الشتات والتأليف بين الأجزاء

وفى القصيدة كثير من المعانى المطروقة التى اعتورها جمهور الشعراء قديماً وحديثاً ، حتى أصبحت (منافع عامة) كقوله :

نادى إلى الحسنى فلما أعرضوا   واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحق أعزل لا يروع فان بدا   مستلئما لاقى الطغاة فروعا

وقوله :

بعض الأنام إذا رأى نور الهدى   عرف الطريق ، ولم يضل المهيعا
ومن البرية معشر لا ينتهى   عن غيـه حتى يخاف ويفزعا

التجديد والتقليد

الأستاذ محمد الهراوى على رأس المحافظين من الشعراء ، فهو يسخر من دعوة التجديد ، ويعلن هذه السخرية فى هذه القصيدة . على أنه يجب أن ينصف نفسه ، فما أظنه يكره التجديد فى ذاته ، وإن كان يحمل على أدعياء الجديد الذين يسترون سخفهم بدعوى التجديد . . ولما كان هؤلاء قد ملأوا الجو بصيحاتهم الجوفاء ، فقد أصبح التجديد فى نظر الشعراء كلمة مقرونة بذلك السخف ، وأصبح السخف من مدلولات التجـديد ! والحق أن التجديد مظلوم بين هؤلاء وهؤلاء . ويشير الأستاذ الهراوى إلى ريبته فى الجديد بقوله :

يا قادة الرأى الجديد تحيـــة   لو صح زعمكمو ، وألف سلام

فهو يرتاب فى زعمهم أنهم مجددون ، وأنهم قادة الرأى الجديد . وهو فى القصيدة كلها يفند دعاواهم فى التجديد ، ويردها إلى تقليد الغربيين : فالقصص ليست جديدة ، فأسواق الغرب مزدحمة بها ، على أن مهد القصة هو الشرق ، وهذه قصص ألف ليلة وليلة والشهنامة قد نشأت فيه ، وهذا القرآن زاخر بالقصص السامية

وملاحم اليونان أهى جديدة   وحديثها من قبل ألفى عام
أتعيد ثرثرة الحديث مجدداً   وترده لخرافة الأصـنام

ثم جعل الأستاذ الهراوى يتهكم على تعبيرات « المجددين » بقوله :

فتقول : « فى إثنين يوم » مثلهم   لا « فى مدى يومين فى الأيام »
وتقول: «مثل الثلج غرة وجهه»   لا « مثل وجه البدر حين تمام »
وتقول: «مثل الأرز مبسم ثغرها»   لا « الدر فى نسق وحسن نظام »
وتقول: «أوكازيون» يامن يشترى   وتقول : هذا السعر « للركلام »

وفى هـذه الأبيات ركاكة مرجعها العبارات التى يحكيها عن « المجددين » فالاسفاف فى الأصل ، وناقل الاسفاف ليس بمسف ، والشاعر يهجو بهذه الأبيات صنيع المجددين ؛ ويقولون : « إذا هجوت فأضحك » فهو ينحو فيها منحى الفكاهة ، وهذا المنحى يقتضى التبذل فى التعبير . واستمع إلى ما قاله بعد ذلك ، وقد جد الجد :

أنكرتمو الأعلام فى أوطانكم   فى ذكر ما للغرب من أعلام
فكأنما الغربى فى آدابه   هو وحـده المختص بالأحكام
ماذا من التجديد فى تقليدهم   غير الرجوع لأظلم الأيام
لم يضربوا مثلاً لنا من صنعهم   بكراً ولا جاءوا برميـة رام
لقطوا فتات الأجنبى وأقبلوا   يتمطون لنا بشبه طعام

ورموا بما التقطوا كأنا عندهم قطط الموائد تكتفي بعظام

هذا هو (الكلام الجد) يقوله (زعيم المحافظين)

إلى هنا ينتهي شأن الشاعر مع المجددين، ويبتديء مع النقاد شأناً آخر، فيقول:

مالي وللنقاد أسمع رأيهم ما قادني عقلي الى الأوهام

لي خطة وحدي وملء عقيدتي رأيي وعقلي رائدي وإمامي

وطني هو المملي عليَّ قصائدي جددا وشعري لوحة الرسام

فكيف لا يسمع رأي النقاد؟ وهل خطة الشاعر ورأيه وعقله وإملاء وطنه عليه قصائده — هل هذه الأشياء تمنع من سماع رأي النقاد؟

وطني

قبل أن أسطر هذه الكلمات محوت كلمات وسطوراً، إذ أنني عند ما شرعت أكتب عن هذه القصيدة شككت في كل كلمة كتبتها، فأنا أريد فيما أكتبه عن هذه القصيدة خاصة أن أطبق المفصل، كما يقولون، فليس ينبغي إلا أن يقال عنها مثل ما قيل فيها.. ولعل هذا إيحاء من القصيدة وما صنعه فيها الأستاذ محمد الهياوي من الدقة والتجويد، وليس هذا كل ما صنعه، وليس هو فحسب الذي أوحى الى المهابة، إن الذي أوحى الى المهابة هو ما أُوحيَ الى الشاعر من المعاني السامية والروائع الوطنية التي ضمنها القصيدة، والتي ألهمته إياها مصر، كما قال:

أبداً يلج بك الحنيـ ـن لذات ملهمة الحنين

فجعل يبعث إيحاءه الى النفوس فتمتليء بما امتلأت به نفسه وتتأثر بما تأثرت به. وها هو ذا يقول فيما تعانيه مصر من سالبي حريتها:

قل للذي بر اليميـ ـن على يديه ردي اليمين

أضنى المثين من الوعو د الخلف أو فوق المثين

أنت الذي أفتى السجيـ ـن بحسن منقلب السجين

وضع القيود وقال ما أشجى رنينك من رنين

فاشرب على شدو الحديـ ـد حلاوة الرق الحنون

واغنم رخاء الطوق جا ور حبله حبل الوتين

فترى في هذا الشعر آلام مصر مصورة تصويراً دقيقاً، تنتظمه الروح المصرية الصميمة، تكسو كل ذلك أردية عربية متينة. وقوله: «فاشرب على شدو الحديد.. الخ» من الشعر المرقص

وقد ظهر لي مأخذ في الأبيات الآتية، وهو من المآخذ التي لا تظهر إلا في الشعر الجيد، قال يخاطب مصر:

أجريت فيض مدامع من نيلك الباكي الحزين

حمراء حيناً كالدم الـ ـجاري على الداء الكمين

فإذا تطامن جأشك انـ ـهملت كصافية الشئون

فهو يقول إن المدامع تكون حمراء في حين، ولم يبين هذا الحين، ثم يقول إذا تطامن الجأش انهملت الدموع صافية، فكيف تنهمل الدموع في حالة سكون الجأش؟ إن الدموع لا تكون إلا في حالة الاضطراب وجيشان العاطفة، أما احمرارها وصفاؤها فيكونان على درجتين من درجات الاضطراب؛ على أن الصفاء لا يقابل الاحمرار ولا يقاسمه، فقد يكون الأحمر صافياً والصافي أحمر

أنت شاعر

وهذا شاعر يئن من هجر حبيبته، وهو الأستاذ محمد عزيز رفعت، والقصيدة كلها مبنية من الكلمات والعبارات المبتذلة التي كثر استعمالها في الشكوى من فعل الجوى وتبريح الصبابة، يقول:

أشكو هوى بين الجوانح شفني في هجعتي ـ سقماً ـ وفي يقظاتي

وتظهر في بعض أجزائها محاولة الاجادة، وتبدو في قليل من أبياتها مخايل الشعر كقوله:

عبثاً شكوت فيا لصب مغرم لم يجن غير اليأس من ثمرات

«واليأس إحدى الراحتين» لو انني لما يئست ذهلت عن صبواتي

وفي القصيدة ركاكة في الأسلوب، وتكلف في النظم، وأخطاء في بعض المعاني والألفاظ؛ قال:

واسود وجه الرأي لا لي حيلة لنوال عطفك أو لكبت وشاة

النوال: العطاء، وهو يريد النيل مصدر نال ينال، فاستعمال النوال هنا خطأ

وركاكة البيتين الآتيين لا تحتاج الى بيان، قال:

وصددت عني حين أنت مدينة بالعهد عهد سرائر المهجات

وقطعت لارسل اليك شفيعة لي في رضاك ولا صدى هتفاتي

وما معنى قوله: «ولا صدى هتفاتي»! أيعني أن صدى الهتفات لم يشفع في رضاها؛ وكيف يشفع الصدى؟!

ويقول:

والله واليوم الأخير ووقفة لله أنذرها على عرفات

لو كنت في نزع المنون مخيراً ما بين قربك لحظة وحياتي

لاخترت قربك والمنون ولم أشأ نعمى الحيـاة على سرير مماتى
ولو استبنت الدمع يوم منيتى فى مقلتيك سعى اليك رفاتى

فلماذا كل تلك الأيمان المغلظة ؟ وما معنى هذا النذر ؟ أيعنى أنه ان اختار الحياة على قربها مع الموت يلزمه أن يقف على عرفات ! ثم كيف يستبين الدمع فى مقلتيها وهو ميت ؟ !

ميتة سكير

قصيدة الأستاذ محمود رمزى نظيم ، وهى قصيدة عذبة رقيقة ، تنساب فيها روح خفيفة ساحرة ، وأسلوبها من السهل الممتنع ، وإليك الدليل ، وما من شىء يبلغ فى التدليل على جمالهـا مبلغها هى فى ذلك ؛ قال فى مطلعها :

سقطت أسـنانه فى الـ ـكأس سنا جرَّ سنا
وأراق الخمر فى هيـ ـكله دنا فدنا
جن بالـكأس وهل يـ هى الذى بالـكأس جنا
يحسب النـاس الألى لا يشربون الخمر جنا
تخـذ الحانة دارا واحتساء الراح فنـا
عاش للراح حبيبا واجف القلب معنى
لو تمنيه بغـير الـ ـكأس شيئاً ما تمنى
إن مشى تحسـبه فى سكره غصناً تثنى
وشمالاً ويميناً مال تيهاً وارجحنا
ما صحا من سكره إلا إلى الحانة حنا

فهذا كلام تتراقص فيـه الروح الشعرية تراقص الحباب فى الـكأس . ونأخذ من بين هذه الأبيات قوله :

يحسب النـاس الألى لا يشربون الخمر جنا

فما الصلة بين الذين لا يشربون الخمر وبين الجن حتى يحسبهم السكير كذلك ؟ اللهم إلا أن يكون قد ضعف تصوره من شـدة السكر ..

والأستاذ رمزى نظيم شاعر متفنن ، وتراه فى هذه القصيدة يفتن فى الانتقال من صورة إلى صورة فى حذق ومهارة ؛ فهو بعد أن يصف السكير ينتقل إلى التعبير عن خواطره فيقول :

طالما أوحى إلى النصا ح ردوا النصح عنا
إن من يترك شرب الـ ـراح عمداً ليس منا
إن فى الحانة للخا ئف تشجيعاً وأمنا
نحن للـكأس خلقنا وبها فى الـكون عشنا

إلى أن أتى على مصرعه فقال :

أشـبه الوهم فمـا يسـ ـمع ان ناح وأنا
وقضى بالأمس لم يحـ ـزن عليـه الناس منا

وكنا نحب أن يتفادى الشاعر السناد[1] الذى وقع فى قوله :

ورق الـكرم أكف تحمل الـكأس إلينا

الشباب والزواج

قصيدة السيدة منيرة توفيق . وهى الشاعرة المصرية البارزة الوحيدة فى هذا العصر ، إذ أن مصر تـكاد الآن تـكون مقفرة من الشواعر ؛ والمرأة المصرية تستمد صمتها من أبى الهول ، ولا أعنى إلا الامساك عن التعبير عن الاحساس والعواطف تعبيراً صادقاً ؛ فمن شعرت من بنات مصر فانمـا تقول فى الأخلاق والنصائح ، متجاوزة خوالج النفس ودقائق الحس ، لأن طبعها الصموت الحيى يأبى الحديث عنها . وأعتقد أنها لو فعلت ، وكانت موهوبة التعبير والأداء ، لأتت بالغرائب

وهذه السيدة الفضلى توجه القول إلى الشباب ، محذرة إياهم من الزواج بالأجنبيات ، ناصحة لهم أن يقبلوا على الزواج من بنات وطنهم فتقول :

وتزوجوا من عرضكم تبقوا على العرض السليم
ودعوا زواج الأجنبيـ ـة فهو شر مستديم
عجباً ! أللدور احتـلا ل آخر فيها يقيم ؟

والقصيدة وان كانت معنونة بـ (بالشباب والزواج) إلا أنها مقصورة على التحذير من الزواج بالأجنبيات ، فلا تعرض لأعراض الشبان عن الزواج إلا بهذين البيتين :

فدعوا الغواية إنهـا باب يؤدى للجحيم
وخذوا الزواج فانه باب السعادة والنعيم

وقد أحسنت فى قولها :

لا يخدعنكمو جمال الـ أجنبيات الوسـيم
كلا ولا سحر الـكلا م ورقة الصوت الرخيم
هـــذا لعمرى مظهر والله بالخافى عليم

وإن كان فيـه ظلم لفتياتنا، فهن فى هذه الصفات مجليات على ما أرى ، والله أعلم .

عباس حسان خضر

---

(١) السناد : عيب من عيوب القوافى ، وما هنا نوع من أنواعه ، وهو أن يدخل الشاعر حرف اللين قبل الروى ثم يدعه

أندلسيات

أبو بكر بن العـــربى

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

أسلفنا أن المترجم له قدم الأندلس من رحلته بعلم كثير ، واتخذ بلده أشبيلية مقاما له ، وأخذ يذيع علمه ، وجلس للوعظ والتفسير والافادة ، ورُحِل اليه للسماع ، وصنف فى غير فن تصانيف كثيرة حسنة ضخمة ، حتى يروى أنه ألف أربعين مؤلفا فى موضوعات شتى فُقِد معظمها ، ذكروا منها كتاب العواصم والقواصم ، والمحصول فى أصول الفقه ، وكتاب المسالك فى شرح موطأ الامام مالك ، وكتاب الناسخ والمنسوخ ، وكتاب أنوار الفجر فى تفسير القرآن ، قالوا إنه ثمانون ألف ورقة فى ثمانين مجلدا ، وكتاب عارضة الأحوذى[1] على كتاب الترمذى الخ

ولمناسبة كتابه أنوار الفجر فى التفسير نورد كلمة له قالها عند تفسير قوله تعالى : « إنْفِرُوا خِفَافا وثِقَالاً » ، تدل على أنه كان إماما طليقا واسع آفاق الفكر عصريا كما نعبر اليوم . . . وهى هذه : « ولقد نزل بنا العدو — الاسبانيون — قصمه الله سنة ٥٢٧ ، فجاس ديارنا وأسر جيرتنا ، وتوسط بلادنا فى عدد حدّد الناس عدده ، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حددوه ، فقلت للوالى والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل فى الشرك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة ، فليخرج اليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد فى جميع الأقطار فيحاط بهم فانه هالك لا محالة ان يسركم الله له ، فغلبت الذنوب ، ورجفت بالمعاصى القلوب ، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى إلى وجاره ، وإن رأى المكيدة بجاره ، فانا لله وانا اليه راجعون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . . » وقد أسند إلى المترجم له قضاء بلده . قال تلميذه القاضى عياض : فنفع الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه ، وكانت له فى الظالمين سورة مرهوبة ، وتؤثر عنه فى قضائه أحكام غريبة ، ثم صرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبثه ...

تلاميذه

وقد تتلمذ للمترجم له عدة ممن تخرجوا عليه وكان لهم شأن يذكر ، فمنهم القاضى عياض صاحب الشفاء ، وسنترجم له إن شاء الله — ومنهم الامام الحافظ ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة وخلافه ، ومنهم الامام السهيلى صاحب كتاب الروض الأُنف فى شرح سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره من التواليف ، وصاحب هذه الأبيات المشهورة التى أنشدها للامام الحافظ أبى الخطاب بن دحية وقال له : ما سأل الله تعالى بها حاجة إلا أعطاه إياها ، وكذلك من استعمل إنشادها ، وهن :

يامن يرى مافى الضمير ويسمع　　　أنت المُعَدُّ لكل ما يتوقع
يامن يُرَجى فى الشدائد كلها　　　يا من اليه المُشْتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه فى قول كن　　　أمْنن فان الخير عندك أجمع
مالى سوى فقرى اليك وسيلة　　　فبالافتقار اليك فقرىَ أمنع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة　　　فلئن رُددتُ فأى باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه　　　ان كان خيرك عن فقيرك يمنع
حاشا لجدك ان تقنط عاصياً　　　الفضل أجزل والمواهب أوسع

أقوال مؤرخى الأندلس فيه

واليك نتفاً مقتطفة مما قاله فى حق المترجم له مؤرخو الأندلس ممن عاصره وتتلمذ له . قال الحافظ بن بشكوال فى كتابه الصلة : هو الحافظ المستبحر ، ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها .. كان من أهل التفنن فى العلوم والاستبحار فيها والجمع لها مقدماً فى المعارف كلها ، متكلما فى أنواعها ، نافذاً فى جميعها ، حريصاً على أدائها ونشرها ، ثاقب الذهن فى تمييز الصواب منها ، يجمع الى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود الخ الخ وقال أبو نصر الفتح بن خاقان صاحب المطمح والقلائد :

الفقيه الحافظ أبو بكر بن العربى علم الأعلام الطاهر الأثواب ، الباهر الألباب الذى أنسى ذكاء إياس ، وترك التقليد للقياس ، وأنتج الفرع من الأصل ، وغدا فى بدء الاسلام أمضى من النصل ،

(١) العارضة القدرة على الكلام ، يقال فلان شديد العارضة إذا كان ذا قدرة على الكلام ، والأحوذى الخفيف فى الشىء لحذقه

سقى الله به الأندلس بعد ما أجدبت من المعارف ، ومد عليها منه الظل الوارف ، وكساها رونق نبله ، وسقاها ريق وبله . وكان أبو محمد باشبيلية بدرا فى فلكها ، وصدرا فى مجلس ملكها ، واصطفاه معتمد بنى عباس اصطفاء المأمون لابن أبى دؤاد ، وولاه الولايات الشريفة ، وبوأه المراتب المنيفة ؛ فلما أقفرت حمص (يريد أشبيلية) من ملكهم وخلت ، وألقتهم منها وتخلت ، رحل به إلى المشرق ، وحل فيه محل الخائف الفرق ، فجال فى أكنافه ، وأجال فيها قداح الرجاء فى استقبال العز واستئنافه ، فلم يسترد ذاهباً ، ولم يجد كمعتمده باذلاً له وواهباً ، فعاد إلى الرواية والسماع ، وأبو بكر إذ ذاك فى ثرى الذكاء قضيب مادوّح ، وفى روض الشباب زهر ما صوّح ، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً ، ولازمه سائقاً اليه وحادياً ، حتى استقرت به مجالسه ، واطردت له مقايسه ، فجد فى طلبه ، واستجد به أبوه متمزق أربه ، ثم أدركه حمامه ، ووارته هناك رجامه ، وبقى أبو بكر منفرداً ، وللطلاب متجرداً ، حتى أصبح فى العلم وحيداً ، ولم تجد عنه رياسته محيداً ، فكرّ إلى الأندلس فحلها والنفوس إليه متطلعة ، ولأنبائه متسمعة ، فناهيك من حظوة لقى ، ومن عزة سقى ، ومن رفعة سما اليها ورقى ، وحسبك من مفاخر قلدها ، ومحاسن أنس أثبتها فيها وخلدها ، الخ الخ .. وقد وصفه القاضى عياض بما أوردنا بعضه عن حاله فى القضاء ، وفى هذا القدرِ غناء . .

مقتطفات من منظومه ومنثوره

وأظنك لا تجهل أن أكثر علماء الأندلس وفلاسفتها وسائر مثقفيها يقرضون الشعر ، وقلّ أن تظفر بأندلسى لا يقول الشعر ، ومن ثم لا تستغرب أن يكون مثل القاضى أبى بكر بن العربى شاعراً وشاعراً ظريفاً ... فمن شعره وقد ركب مع أحد الأمراء الملثمين ، وكان ذلك الأمير صغيراً ، فهزّ عليه رمحاً كان فى يده مداعبا ، فقال :

يهزّ علىّ الرمح ظبى مهفهف لعوب بألباب البرية عابث
ولو كان رمحاً واحداً لاتقيته ولكنه رمح وثان وثالث

ولعل الرمح الثانى والثالث القد واللحظ .. ومن بديع شعره :

أتتنى تؤنبنى بالبكا فأهلاً بها وبتأنيبها
تقول وفى نفسها حسرة أتبكى بعين ترانى بها
فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت جفونى بتعذيبها

وحكى رحمه الله قال : دخل على الأديب بن صارة — وهذا ابن سارة أو صارة شاعر فحل من شعراء الأندلس — وبين يدى نار عليها رماد ، فقلت له : قل فى هذه ، فقال :

شابت نواصى النار بعد سوادها وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لى أجزْ ، فقلت :

شابت كما شبنا وزال شبابنا فكأنما كنا على ميعاد

ويروى أنه كتب كتاباً فأشار عليه أحد من حضر أن يذرّ عليه نشارة ، فقال قف ، ثم فكر ساعة . وقال اكتب :

لا تشنه بما تذرّ عليه فكفاه هبوب هذا الهواء
فكأن الذى تذرّ عليه جُدَرى بوجنة حسناء

ومن شعره :

ليت شعرى هل دروا أى قلب ملكوا
وفؤادى لو درى أى شعب سلكوا
أتراهم سلموا أو تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

وشعر هـذا القاضى الجليل كثير جميل يدل على صفاء نفس وحِس مرهف وقريحة خصبة مواتية . ونكتفى بهذا القدر ونورد هنا بعض فوائد هن فرائد لهذا الامام العظيم ذكرها فى رحلته وغيرها وأوردها المقرى . فمن هذه الفرائد قوله : سمعت الشيخ فخر الاسلام أبا بكر الشاشى ، وهو ينتصر لمذهب أبى حنيفة فى مجلس النظر يقول : يقال فى اللغة العربية لا تَقْرَبْ كذا بفتح الراء ، أى لا تلتبس بالفعل . وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن من الموضع . . وهذا الذى قاله صحيح مسموع ... ومنها ما نقله عن ابن عباس رضى الله عنه : لا يقل أحدكم انصرفنا من الصلاة فان قوما قيل فيهم ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ؛ وقد أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسى الواعظ ، أخبرنا أبو الفضل الجوهرى سماعا منه : كنا فى جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله . فقال : لا يقل أحدكم انصرفوا ، فان الله قال فى قوم ذمهم ، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا انقلبوا رحمكم الله فان الله تعالى قال فى قوم مدحهم : فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ... ومنها قوله فى تصريف المحصنات : يقال أحصن الرجل فهو مُحصَن بفتح الصاد فى اسم الفاعل وأسهب فى الكلام فهو مسهَب — بفتح الهاء — إذا أطال البحث فيه وألفَج

فهو مُلْفَج إذا كان معدما — فقيراً — فهذه الثلاثة جاءت بالفتح نوادر لا رابع لهـا . . ومنها قوله : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام — بغداد — أبا الوفاء على بن عقيل يقول : إنمـا تبع الولد الأم فى المالية وصار بحكمها فى الرق والعبودية لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة مبثوثة عليه ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلذلك تبعها ، كما لو أكل رجل تمراً فى أرض رجل وسقطت مـنه نواةٌ فى الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فانها ملك صاحب الأرض دون الآكل باجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها ، وهذا من البدائع .. ومنها قوله : كان بمدينة السلام إمام من الصوفية وأىّ إمام يعرف بابن عطاء ، فتكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما ينسب إليـه من مكروه ، فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقـة من كل طائفة ، فقال : ياشيخ ، ياسيدنا ، إذن يوسف همّ وما تمّ ، فقال : نعم لأن العناية من ثم . . . فانظروا إلى حلاوة العالم والمتعلم ، وفطنة العامى فى سؤاله ، والعالم فى اختصاره واستيفائه ، ولذا قال علماؤنا الصوفية إن فائدة قوله تعالى : ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً أن الله أعطاه العلم والحكمة أيام غلبة الشهوة ليكون له سبباً للعصمة ... ومنها قوله : تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبى بكر الفهرى الطرطوشى حديث أبى ثعلبة المرفوع : إن من ورائكم أياماً للعامل فيها أجر خمسين منكم . فقال : بل منهم . فقال : بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً ... وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتى من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم أسسوا الاسلام ، وعضدوا الدين ، وأقاموا المنار ، وافتتحوا الأمصار ، وحموا البيضة ، ومهدوا الملة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . . فتراجعنا القول وتحصل ما أوضحناه فى شرح الصحيح ، وخلاصته : أن الصحابة رضى الله عنهم كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر ، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها فى الأجر من أخلص إخلاصهم ، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والاسلام ، وهو أيضاً انتهاؤه . وقد كان قليلاً فى ابتداء الاسلام صعب المرام لغلبة الكفار على الحق ، وفى آخر الزمان يعود كذلك لوعد الصادق صلى الله عليه وسلم بفساد الزمان وظهور الفتن وغلبة الباطل ، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق ، وركوب من يأتى سنن من مضى من أهل الكتاب كما قال صلى الله عليه وسلم : لتركَبُنَّ سَنن مَن قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جُحْر ضب خرب لدخلتموه ...

وقال صلى الله عليـه وسلم : بدا الاسلام غريبا ، وسيعود غريباً كما بدا ... فلا بد والله أعلم بحكم هـذا الوعد الصادق من أن يرجع الاسلام إلى واحد كما بدأ من واحد ، ويضعف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى فى الدعاء اليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكنا منه معاناً عليه بكثرة الدعاة إلى الله تعالى ، وذلك قوله : لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعوانا حتى ينقطع ذلك انقطاعا باتا لضعف اليقين وقلة الدين ، كما قال صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : الله الله . . يروى بفتح الهاء ورفعها ، والرفع على معنى لا يبقى موحد يذكر الله عز وجل ، والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف ولا ناه عن منكر يقول أخاف الله ، وحينئذ يتمنى العاقل الموت كما قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتنى كنت مكانه ....

« وأما بعد » ، فهذا هو تاريخ القاضى أبى بكر بن العربى ، سردناه لك فى أخصر قول وأجزأ اختصار ؛ وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق . ومن هذه الترجمة تتبين منزلة هذا الامام والمكان الذى يشغله بين علماء الاسلام ، وأنه كان إلى تفقهه فى الدين كأكثر السلف الصالح أديبا كاتبا شاعراً فصيحا كثير الملح مليح المجلس وهكذا كان أكثر علماء الأندلس

وقد كانت وفاة هذا الامام سنة ٥٤٣ . وقال القاضى عياض : وتوفى منصرفه من مراكش من الوجهة التى توجه فيها مع أهل بلده الى الحضرة بعد دخول الموحدين مدينة اشبيلية ، فحبسوا بمراكش نحو عام ثم سرحوا ، فأدركته منيته ودفن بفاس وقبره هنالك مقصود رحمة الله عليه .

عبد الرحمن البرقوقى
رئيس قلم المراجعة بمجلس النواب

السيرة النبوية
وكيف يجب أن تكتب
للأستاذ ابراهيم الواعظ

كنت إذا ظهر كتاب حديث عليه اسم « محمد » (ص) أسارع لاقتنائه ؛ ذلك لأنني كنت ولا أزال في رغبة شديدة أن أسمع عن الرسول العربي العظيم ، وعن سيرة النبي الكريم شيئاً جديداً . والعامل الوحيد الذي أوجد في هـذا الشعور ، وحرّك فيّ ذلك الاحساس ، هو الاطراد الموجود في السير المكتوبة اطراداً يكاد أن يكون نسخةً مطابقة لأصل واحد ، ومجرورة على غرار واحد

انني لم أرسل كلمتي هـذه منتقداً بها مادونه الأقدمون في السيرة ، وصاحب السيرة ، كلا ، وإنما أردت أن أقول للذين تناولوا السيرة وصاحب السيرة ، بأن الواجب كان يقضي عليكم أن تأتوا للناس بحديث جديد عن محمد (ص) بحديث يصور للناس محمداً كما هو لا كما أراده كتاب السير

طلعت علينا في الآونة الأخيرة عدة كتب كتبت مؤخراً لتحليل شخصية محمد (ص) ، وما انطوت عليه نفسه من العظة والعبقرية ، فمنهم من أصاب المرمى ومنهم من قارب ؛ فذهب الأستاذ جاد المولى في كتابه « محمد المثل الكامل » إلى ناحية لم يتطرق إليها الأستاذ محمد رضا في كتابه « محمد » ؛ وإن هذين الأثرين من حيث الترتيب والتنسيق جديدان ، ولكنهما من حيث المادة لا يزيدان ولا ينقصان عن السير القديمة . على أن هناك أستاذا كبيرا يكاد أن يكون فرداً فذا في تأليفه هو « مولانا شبلي النعماني » فان هـذا العالم الكبير أراد أن يستخرج من السير الموضوعة سيرة مستندة إلى أرجح الأقوال وأصح الروايات ، ويبرز الرسول الأمين للناس صورة حقيقية كما هي ، فألف كتابه الذي أسماه « تاريخ الاسلام » والذي أفرد منه أربعة مجلدات في السيرة المحمدية . هذا ولا أريد أن أرسل الكلام في وصف هـذا الكتاب جزافاً ، ولا أريد أن أخرج بالقارئ عن الموضوع والصدد ، وإنما قصدي أن أحث كل من يريد أن يتعرف محمداً « ص » كما هو أن يطلع على هذا الكتاب الذي أوضح شخصية محمد « ص » إيضاحاً ، وحلل نفسيته الزكية تحليلاً عجز عنه المتقدمون من كتاب السير والمتأخرون منهم

وقد جرى على غرار هذا المؤلف الأستاذ الكبير محمد حسين هيكل بك فانه كان قد كتب فصولاً في السياسة الأسبوعية جمعها في كتاب أخرجه للناس ، كتابا رد به طعن الطاعنين ودحض به زعم الزاعمين ؛ وكأني بالأستاذ وقد كتب مؤلفه هذا لمن لا يؤمن بنبوة محمد مباشرة متوخياً في عمله ذلك الدعاية والتبشير لا نقل ما هو مكتوب في كتب السير من حادثات ووقائع

وإنني لا أتفق ومنتقدي كتاب الأستاذ هيكل من أنه أغفل كثيراً من الأمور المهمة في السيرة بأنه أنكر المعجزات . والتطرق لهذا الموضوع يحتاج إلى إفراد بحث بكامله لهذا فليس من الأصول أن أقول كلمة في ذلك سوى أنني أكتفي بالاشارة إلى ما أورده الأستاذ هيكل في الطبعة الثانية من كتابه وأضيف إلى ذلك تعريف الكتاب لجمهور القراء من الشيخ محمد مصطفى المراغي العلامة الأكبر ، فان هذا التعريف لكتاب مثل هذا الكتاب له أهميته العلمية

هذا وقد سكتت الأقلام وجفت الصحف كأن « حياة محمد » التي دبجتها براعة هيكل كانت خاتمة ما يكتب في هذا الموضوع ، ولكن سرعان ما أتحفنا الأستاذ « الحكيم » بكتابه (محمد) (ص) فقد تفنن في أسلوبه الجديد ، وجدد في طريقته الفنية ، ولكنه لم يزد ولم ينقص عما ورد في كتب السير ، فلم نكبر له الموضوع وإنما أكبرنا له الأسلوب

ثم كان بعد ذلك أن خرجت علينا الرسالة في عددها (١٤٨) بمقال تحت عنوان « رسالة الأزهر في القرن العشرين » بتوقيع الأستاذ لبيب الرياشي المسيحي وبها دعا الكاتب إلى أن تكون رسالة الأزهر في القرن العشرين المسيحي ، والقرن الرابع عشر المحمدي ، دورته الأولى لرسالة الأزهر في هذا القرن كالقرن

الأول المحمدى فيقابل الدور الأول دور التحنث والتعبد، دور تحقيق ودراسة من ينتخبهم الأزهر من عشاق التضحية، وعشاق الحق من طلابه، فيثقفون ثقافة عالية، ويتعلمون تعلما ساميا، فيتخصص كل فريق ممن وقع عليهم الاختيار نتيجة الفحص والاختبار باللغات الحية وبكل فرع من فروع العلوم العالية العالية، علاوة على ما أتقنوه من علوم القرآن والدين والشريعة والسنة والسيرة واللغة العربية؛ وبعد هذا فرسالة الأزهر أن تكتب سيرة محمد (ص) بصورة تتفق وما جاء فى القرآن الحكيم وعقلية الرسول البريئة وأعماله الحق

وقد ضرب الأستاذ فى مقاله أمثلة مهمة خطيرة حذر الأزهر من أن يقع فى مثل ما وقع فيه غير واحد من متخرجيه

وإذا بهذا الأستاذ قبل أن كتب مقاله هذا فى الرسالة أخرج لنا كتاباً من قلم مسيحى يحلل نفسية محمد بن عبد الله (ص)، تحليلا فلسفياً، ويطرح كتابه هذا أطروحة — كمثل أعلى — لمن يريد أن يكتب السيرة. سيرة الرسول الأعظم (ص)

لقد نحا الأستاذ الرياشى ناحية فى كتابة السيرة لم ينحها قبله ولا بعده أحد من كتاب السيرة؛ ولقد أظهر للملأ جديداً فى حياة محمد بن عبد الله ووجد ضالته حين كان ينقب عن (السبرمن)، فوجده محمدا فى شخصية الرسول الكريم قبل أربعة عشر قرناً

وقد أبدع الأستاذ الكبير الشيخ عبد القادر المغربى فى تعريف الكتاب بمقدمته المحمدية، كما أحسن الأديب أمين نخلة فى تقديم الكتاب بمقدمته المسيحية

وبعد، فأنى قد وجدت ضالتى المنشودة فى كتاب الرياشى، وفى مقدمتيه المحمدية والمسيحية، فأدعو الأزهر ورجال الأزهر كما دعاهم الأستاذ الرياشى أن يكوّنوا جماعة تكتب حياة محمد وسيرة محمد كما كتبها الرياشى

فعلى هذا النسق، وعلى ذلك الأسلوب، وعلى تلك الطريقة، يجب أن تكتب السيرة النبوية

(بغداد) إبراهيم الواعظ
المحامى

الواحة المجهولة

للأستاذ فخرى أبو السعود

مأنوسةُ الأفياء والأكناف   موصولة الحسنات بالألطاف
عبق الشذا فيها وأصبح دوحها   نُصْباً لكل مباكر وكاف
وتألقت أزهارها وتمايلت   أغصانها منضورة الألفاف
وتتابعت فيها الثمار شهية   فتانة الألوان والأوصاف
وجرى النمير بها ألذّ مذاقة   للوارديه من رحيق سلاف
أنى تصرّف مقلة لك تكتحل   بجداول رقراقة وضفاف
ما تنتهى من فتنة إلا إلى   أخرى ومن صوَر إلى أطياف
وتشابهت فيها الفصول فحسنُها   سيان فى مشتى وفى مصطاف
يا حُسنها من واحة لو أنها   أهلَتْ وفاز بها الفتى بمطاف
لكنها مجهولة ممنوعة   من دونها حَزن وقفر فيافى
هيهات ما تُنبى صحائفُ عَالم   عنها ولا تَهدى رُؤى عرّاف
لم يدْرِ غيرى سرّها فأنا الذى   فى أضلُعى حُمِّلْتها وشغافى
هى قلبىَ النائى الذى من دونه   غُم الطريق على الحبيب الوافى
ولو اهتدى يوماً لباء إلى حمى   خصبٍ وفاءَ إلى ظليل ضاف
ولقد أبحتُ صحابةً لىَ حقبةً   أفياء تلك الروضة المئناف
فتمردوا فى ظلها من بعد ما   نعموا بأثمار بها ونطاف
فقبضتُها عنهم وصنت جنانها   عن كل جاس فى القلوب وجاف
فهى الغداةَ تميس فى فتناتها   والكون أجمع عن حُلاها غاف
نضرت أزاهرها ولا مَنْ يجتلى   وزَكَتْ دواليها لغير قطاف
وانساب سلسلها وما من راشف   وذكت نسائمها للامُستاف
هى جنة الود الخلى من القذى   جمعت أفانينَ الوداد الصافى
تندى وتألق فى الأزاهر والسنى   فى مهمه وعر المسالك خاف
وغداً سيذوى حسنها ورواؤها   ويجف منها يانع الأفواف
لم يفتقد منها المحاسنَ فاقدٌ   أو يبكها بالمدمع الذراف
وتغُولها تلك القفار وينثنى   يذرُو معالمها الترابُ السافى

فخرى أبو السعود

البحر

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

ألا ليتنى لج كلجك زاخر
أعبُّ كما تهوى النهى والبصائر (١)

فكم عبت النفس اللَّجوج وحاولت
كبعض سطاك الآبيات النوافر (٢)

وأخفت من الدر النفوسُ ومن حُلَى
كما اختبأت فيك اللهى والذخائر

كأن بها أُفقاً كأُفقك نائياً   ومن دونه كل المَدَى يتقاصر
أتطرب من لحن الخرير كأنه   خواطر تتلوها عليك السرائر
كما طرب النشوان من لحن صوته   فجاشت لديك الراقصات الزواخر
وإلا فما للموج فى اليمّ راقصاً   دعاه عذارى البحر شادٍ وشاعر (٣)
خريرك يحكى صدحة الدهر صامتاً   كأنك دهر بالحوادث مائر (٤)
هو الدهر لا يخشى المنايا ولا يَهِى   صِبَاه ولا تقضى عليه المقادر
وأنت شبيه الدهر لا أنت هارم   ولا أنت منقوص ولا أنت خاسر

ويصطخب الآذىُّ فيك كأنما اصـ
ـطخابك من حكم المنية ساخر (٥)

أَخَفْقٌ وإعصار ودفع وهبَّة   كأنك حىٌّ نابض القلب شاعر
فريحك أنفاس وموجك نابض   كنبض قلوب أعجلته البوادر
خلوتَ من السُّمَّار كالبيد وامَّحت   معالم لا تُبْقِى عليها الأعاصر

سِوى شِلْوِ فُلْك قد حدرت إلى الردى
يلوح كما لاحت رسوم غوائر

وكم جُزُرٍ مثل الجِنان مضيئة   كأنْ جهلتها الصائلات الدوائر

لَخِيلَتْ نجومَ السعد والحب والمنى
تحِنّ إليها الشّحشحان المُخَاطر (٦)

كما حنّ للآل الخلوب قوافل   تَخُبُّ بها فى البيد إبل ضوامر (١)
تخلَّفتَ فى قلب المخَاطِر همة   على الدهر لا تبلى وتبلى العمائر
يحن إلى ما خلف أُفْقِكَ ناظر   كما تنشد الغيبَ النهى والبصائر
كأن مُنًى للنفس من خلف أفقه   تلوح كما لاح السراب المبادر
أو أن محال السعد درٌّ مُنظَّمٌ   على الأفق ينحوه الطلوب المُغامر
بلى كل نفس للغريب مشوقة   وإن خَوَّفتها من سطاه المحاذر
ويصغر فى مرآك عيش ابن يومه   ويكْبُرُ رأىٌ ذاهب فيك سائر
خواطر مثل الفلك فيك شوارد   يضل عليها عازب اللب حائر
تناءت بك الأمواج وهى نوافر   وجاءت بك الأمواج وهى ثوائر
كأن بها عجز المشيب إذا انثنت   وعزم الشباب الغر وهى بوادر

فثم نومة الظل البطىء مسيره
وثِبْ وثبة الغضبان حين يُساور (٢)

فيارُبَّ حلم خامل البطش هادىء
ضمنت وجهلٍ شره متطاير

كأن لنا من لج مائك واعظاً   بليغاً له مما أثرت زواجر
رأيتك والأمواج فى وثباتها   عساكر حرب قد تلتها عساكر
فبينا يريق الضوء فوقك ماءه   وتجرى عليك الريح وهى خواطر
ويتلو عليك الصائدون غناءهم   يرجِّعه لحن من الماء مائر
ويُسمِعك الملاح من شجو قلبه   أحاديث قد تاقت لهن الحرائر
إذ الجو جهم والرياح كتائب   وإذ أنت مقبوح السريرة غادر
ورب سفين يقرع النجمَ مجدُه   تقاذفها مستوفز اللج هامر
يُرَوِّعها فى كل هوجاء مُوعِدٌ   ويسعى لها قبر من الماء سائر
وما ذلك اللج الذى فى سمائها   بأهدأ من لج نمته الزواخر
إذا ذكر المَلَّاح زوجاً وصبية   طغى شجن فى مِرْجَلِ الصدر فائر
وتذهل عن مهد الوليد رءومه   إذا ما رمَتْها بالوعيد الزماجر
وما هى إلا صولة تُمَّتَ انجلت   وأكبر غرقاها المساعى البوائر
كما غرقت فى لجة الدهر دولة   زهت ما زهت والدهر للناس غامر

عبد الرحمن شكرى

---

(١) أى لج من الحياة والنهى (٢) أى النفوس الآبيات
(٣) عذارى البحر إشارة إلى الأسطورة الإغريقية
(٤) مائر أى مائج (٥) الآذى : الموج
(٦) الشحشحان : القوى الشجاع

(١) الخبب العدو
(٢) نومة الظل سكونه الذى يشبه به سكون البحر كما تشبه سورته بسورة الغضبان

فهم المصايف المصرية :

رأس البر ...!

للأستاذ محمد يوسف المحجوب

مَهْدَ الهدوءِ وفُرضة الأحباب ها قد لقيتكَ بعد طول غياب
أقبلت نحوك ظامئاً ، أُلقي لدى عطفيكَ أعبائى ، وأنفض مابى
قد هدَّ سعيُ العام أوْصالى بما عانيتُ من درس ومن أوصاب
فاذا أتيت تحسب قلبي أنني لاقٍ بظلك منتهى آرابى ...!

***

داويْتُ بالصحو الجميـــل متاعبى
ورأيت فيك الشمسَ دون حجاب
وظفرتُ عندك بالسُّكون يلفُّني ويريح من ذهنى ومن أعصابى
وغمرتُ روحى قبل جسمى بالمُنى لما استنمت لموجك الصخاب
غطّى على صخب الحياة ولَفَّهُ فمضى وضاع بلجِّه المُنساب
لا الفكرُ عندك سابح فى مؤلم حاشا ولا الوجدان عندك خابى!

***

أصحو مع الصبح الجميل ، فتنتشى روحى بشمسٍ أشرقت وعباب
شمس أراها ، لا يصدُّ شعاعها عنا رُبًى ، أو ناطحات سحاب
وأرى الخضمَّ ولا شعاب تحدُّه فى ناظرى... فتضلُّ فيه شعابى
وأرى ظباء الأنس حول كِناسها يطفِرْن فى مرَح ووقدِ شباب ..
ترنو إليهن العيونُ ، وترتمى حسناً يزلزلُ راسىَ الألباب !
يُقبِلْنَ فى ساعِ الأصيل ترائباً تختال بين مُفوَّف الأثواب
ويَسِرْنَ أسْراباً ، يمايلُ عِطفَها فَرْطُ الصِّبا ، ويعُدْنَ فى أسراب!
لا يســتطيع الصبُّ تكلما ، ولا
يقوَى على شىءٍ ... سوى الإعجاب !
يرْنو إلى ذاك الجمالِ كأنما يرْنو إلى المعبود فى محرابِ ..!

***

جوٌّ عليه من العَفاف رِقابةٌ صانته عن عبثٍ يُرادُ وعابِ
جوٌّ يضمُّ كرائماً وحرائراً باتَ الحياءُ لهنَّ خيرَ نِقابِ
وشبيبةٌ لا يرتضون من الهوَى دَنَساً يَشينُهُم على الأحقاب
الكلُّ فيه « أُسْرَةٌ » قد زانَها أنْ ليس فيها سَيِّئو الآداب ..!
سَهِروا على الأخلاق واعتصموا بها
ورَعَى الخُضـورُ أمانةَ الغُيَّابِ
هـذا هو العَيْشُ النبيل ، وهكذا
يَسْمُو « المَصيفُ » بإخوةٍ وصِحَابِ ..

***

... لا ما تَراه من الغَوَاية والخنَا
فى « الرَّمْلِ » من همَلٍ ومِنْ أوْشَابِ !
سَلْ شاطِئَ « استانْلى » وسل أترابه
كم قد برَمْنَ بفاسدى الآداب ... ؟
ظنُّوا الحياةَ مجانةً وخلاعةً فطوَوْا من الأخلاق خير كتابِ
ورأَوْا لدى نزَق الشباب نعيمَهم فسعَوْا له ومضَوْا بغير حساب !
بذرَ « الفرِنجةُ » كل مُهلكةٍ لهم وأتَوْهُمُ بالبهرَج الخلّابِ
وَجنَوْا لهم حُرِّيةً مزعومةً طاحَتْ بهم فى هُوَّةٍ وخرابِ !

***

يأيها « الرأسُ » الجميـــلُ : تحيةً
من صادق فى الوُدِّ ليس يحابى ...
لا غرْوَ أنْ صُغْتُ القَريضَ مُخلِّداً
ذكراك أنتَ ، على مَدَى الأعقابِ :
وَهبَتك دُنياكَ العفيفـةُ بيننا
مَعْنًى سَمَوْتَ به على الأترابِ

محمد يوسف المحجوب

القصص

أعصاب

للقصصي الروسي تشيكوف

بقلم محمود البدوي

عاد المهندس المعارى دمترى اسيبوفتش فاكسن من المدينة إلى كوخه الذي يقضى فيه عطلته وهو متأثر غاية التأثر مما سمعه فى جلسة استحضار الأرواح التي تشرف بحضورها!

وعندما خلع ملابسه، ومشى إلى فراشه المنعزل، ولا أنيس معه فيه — فقد بارحت مدام فاكسن المنزل إلى عمل يستغرق طيلة الليل — لم يستطع أن يطرد عن ذهنه تصور كل ما سمعه ورآه فى هذه الليلة التي لم يكن الحديث فيها ممتعاً على الاطلاق! فلقد مضوا الليل كله فى حديث مروع بدأته سيدة فى رونق صباها — على ذكر لا شيء — بالكلام عن التفكير عند القراءة، ومن هنا تشقق بهم الحديث دون ادراك إلى الأرواح، ومن الأرواح انتقلوا إلى الأشباح، ومن الأشباح تشعبت بهم سبل الكلام إلى أناس يدفنون أحياء....! وقرأ سيد قصة مرعبة عن جثة تسير وهى مدرجة فى الكفن... وطلب فاكسن نفسه فنجانة وأخذ يشرح للسيدات الصبايا الطريقة المثلى لمخاطبة الأرواح! وأحضر من بين الموتى روح عمه كلافدى ميرونتش وسأله:

« ألم يحن الوقت بعد لنقل ملكية منزلنا إلى زوجى؟»

فأجابته روح عمه: «كل الأشياء حسنة فى حينها»

وفكر فاكسن وهو مضطجع على سريره وقال لنفسه:

« فى الطبيعة أشياء كثيرة... سرية... ومفزعة... فالمجهولات لا الأموات هى المروعة حقا »

ولما دقت الساعة واحدة انقلب فاكسن على جنبه الآخر، وأخذ يرمق من تحت غطائه نور المصباح الأزرق المحترق أمام الصورة المقدسة، وقد ارتعش لهبه، وألقى نوره الخابى على قاعدة الصورة، وظهرت أمام سريره صورة عمه كلافدى الكبيرة المعلقة على الحائط

وومض هذا الخاطر فى ذهنه: «وماذا... إذا ظهر فى هذه اللحظة شبح عمى كلافدى... ولكن بطبيعة الحال... هذا محال»

ومع أن الأشباح — كما نعرف جميعاً — خرافات من ذرية الذكاء المحدود... فقد ضم فاكسن غطاءه عليه حتى غطى رأسه وأغمض عينيه تماماً! على أن الجثة التي سارت وهى ملفوفة فى كفنها عادت إلى ذهنه بعد برهة قليلة، ورفعت أمام مخيلته صور المرحومة حماته، وزميل له شنق نفسه، وفتاة أغرقت نفسها أيضاً... وحاول فاكسن أن يطرد عن ذهنه هذه الصور السوداء ولكنه كان كلما أمعن فى الطرد أمعنت هذه الصور فى الثبات، وأحاطت به خيالات مخوفة، وأخذ يحس بالرعب المتمكن والجزع الشديد

وقال لنفسه:

« إلى المشنقة بهذه الخواطر جميعاً... هأنذا خائفاً فى هذا الظلام كطفل... معتوه. وسمع الساعة تدق فى الغرفة المجاورة: « تك.. تك.. تك »

ورن ناقوس الكنيسة فى فنائها القريب مبيناً الوقت.. دق الناقوس فى بطء وانقباض وحزن.. وسرت رعشة شديدة فى عنق فاكسن امتدت إلى عموده الفقرى، وخيل إليه أنه يسمع إنساناً يتنفس فوق رأسه بثقل! كأن العم كلافدى قد رأى أن يبرح إطار صورته وينحنى فوق ابن أخيه... وشعر فاكسن بالرعب الذى لا يحتمل، فصرّ بأسنانه، وعلق أنفاسه فى هول

ولما قفزت حشرة من الحشرات الطائرة إلى النافذة المفتوحة وانقلبت تطن فوق فراشه لم يستطع الاحتمال أكثر مما احتمل فجذب زر الجرس بعنف

وسمع بعد هنيهة صوت الحاضنة الألمانية واقفة على بابه تقول بالألمانية :

« ما الذى تريده يا دمترى اسيبفنتش ؟ »

فصاح فاكسن فرحاً « آه .. أأنت يا ... روزاليا كارلوفنا لماذا تتعبين نفسك ؟ .. أين جافريلا ؟ لا بد أن ... »

« بعثت أنت بنفسك جافريلا إلى المدينة ... وجافريلا لامضت تقضى الليل فى بعض الجهات ... وليس فى المنزل أحد سواى ... فما الذى تريده من فضلك ؟ »

« حسنا ... الذى أريده ... هو ... ولكن من فضلك ادخلى ... لا داعى للقلق .. انه .. ظلام ... »

ودخلت روزاليا كارلوفنا وهى امرأة بادنة حمراء الخدين !! ووقفت على الباب وقفة المنتظر

« اجلسى من فضلك ... أنت ترين ... أن الأمر هكذا ... »

وعجب وقال لنفسه : أى شىء أسألها فيه وعنه .. ؟ وسارق صورة عمه النظر وشعر بروحه تعود تدريجياً إلى الهدوء

« الذى أوده منك فى الحقيقة هو ... آه ... لما ينطلق الخادم إلى المدينة لا تنسى أن تخبريه بأن أ ... أ ... يجىء ببعض أوراق السجاير ... ولكن من فضلك اجلسى »

« ورق سجاير ... حسناً ... وما الذى تريده أيضاً ؟؟ »

« الذى أريده ... لا شىء أرغب فيه ولكن .. اجلسى .. سأفكر فى شىء آخر بعد دقيقة »

« العذراء ... تخاف البقاء وحيدة فى غرفة رجل يا سيد فاكسن ... فهمت ! إن حاجتك الى ورق سجاير ... كانت فى الواقع لا تستدعى إيقاظ أحد ... فهمتك »

وانقلبت روزاليا كرلوفنا على عقبيها وغادرت الغرفة ، وسكن روع فاكسن لما تحدث معها وخجل من جبنه للغاية ، وغطى رأسه ، وأغمض عينيه ، وشعر مدة عشر دقائق كاملة بالراحة التامة ، وبعد هذا زحفت إلى ذهنه نفس الخزعبلات الماضية . . . فتحسس الثقاب وأشعل شمعة وهو مغمض العينين ! وأصبح النور بعد الهلع الذى هيمن على كيانه عديم الجدوى ، فقد صور له خياله المضطرب أشباحاً طلعت من الأركان وبدت عيون عمه تتحرك . . . ! !

فقرر قاطعاً :

« سأدق لها الجرس مرة أخرى ... لعنة الله على المرأة ... سأخبرها بأنى أشعر بالتعب وفى حاجة إلى بعض أقراص من الحلوى »

وشد فاكسن الجرس فما جاوبه أحد . ودق ثانية فسمع جرس الكنيسة يدق كأنما يجاوب على دقاته بمثلها . واستولى عليه الرعب وشاع فى جسمه البرد فقفز من فوق سريره وغادر مخدعه بعدو راسماً علامة الصليب ، وأخذ يلعن نفسه لجبنه وخوره . وجرى حافى القدمين فى قميصه الليلى حتى بلغ غرفة الحاضنة

وقال راجف الصوت وهو يطرق بابها :

« روزاليا كرلوفنا . . . أنمت ؟ أشعر . . . بأنى ر . . . ر . . . تعب . . . أود قليلاً من أقراص الحلوى »

فما جاوبه أحد وخيم الصمت

« أرجوك ! أفهمت ... أرجوك ... لماذا هذا القرف ؟ . . لا أستطيع أن أفهم ... خصوصاً إذا كان الرجل ... مريضاً ... أى عبث ... أنت فى الحى ... وفى مثل سنك » فقالت له :

« سأخبر زوجك ... أنك لا تدع عذراء شريفة فى أمان ... لما كنت عند البارون انزيج ... جاء إلىَّ سعادته يطلب أعواداً من الثقاب ... ففهمت فى الحال معنى هذه الأعواد من الثقاب .!! وأخبرت البارونة ... فأنا عذراء شريفة » فقال لها :

« إلى المشنقة بشرفك هذا ... أنا مريض ... قلت لك هذا ... وأطلب منك بعض أقراص من الحلوى ... أتفهمين .. إنى مريض » فأجابته :

« زوجك امرأة شريفة وطيبة ... ومن الواجب عليك حبها .. أجل ... إنها نبيلة طيبة ... ولن أكون لها عدوة »

فقال لها : « إنك غبية .. غبية ... أتفهمين ... غبية »

* * *

اعتمد فاكسن على سارية الباب ، طاوياً ذراعيه ، ومنتظراً أن يذهب عنه هلعه الشديد ، فان رجوعه الى غرفته حيث يرتعش المصباح ويحملق فيه عمه . . . أمر لا يجرؤ على مواجهته ؛ وأن وقوفه على باب الحاضنة وليس عليه سوى قميص نومه أمر غير

لانى من جميع الوجوه ! ! فما الذى يعمله ؟ ؟

ودقت الساعة الثانية وما بارحه جزعه ؛ وكان الممر مظلماً فبدا له خيال أسود طلع من كل ركن واستدار ليواجه عقب الباب. على أنه تصور فى هذه اللحظة انساناً جذب قميص نومه من الخلف ولمس كتفه

فأعول ثم صاح :

« عذاب الجحيم ... روزاليا كارلوفنا »

ولما لم يسمع صوتاً فتح فاكسن الباب متردداً ودخل ؛ وكانت الألمانية الفاضلة غارقة فى سبات لذيذ ، وقد أظهر ضوء المصباح الخافت ما على وجهها من بشاشة ، ثم انساب الى داخل الغرفة ووقف بجانب حقيبة عند الباب ، وشعر بارتياح تام وهو فى حضرة مخلوق حى ، حتى ولو كان هذا المخلوق نائماً

ثم قال فى نفسه :

« خل الألمانية البلهاء غارقة فى نومها ... سأجلس هنا ... وحينما يبزغ النور أرجع الى مكانى . . فالصبح يبكر فى هذه الأيام . . . »

استلقى فاكسن على الحقيبة ووضع ذراعه تحت رأسه مترقباً طلوع الفجر

وتأمل ! !

« أى شىء ... لما يكون المرء عصبياً ... ورجل متعلم ذكى ... لنشنق جميعاً ... إنه عار شنيع »

وعند ما تسمع إلى تنفس روزاليا كرلوفنا الرقيق عادت اليه نفسه وثاب حسه وهدأ تماماً

وفى الساعة السادسة عادت زوجة فاكسن من عملها الذى استغرق طول الليل ولما لم تجد زوجها فى مخدعه دلفت الى الحاضنة تسألها عن «فكة» للحوذى

ولما دخلت الغرفة رأت منظراً غريباً ! ! ! بصرت على السرير روزاليا كارلوفنا غارقة فى النوم ... وعلى قيد ذراعين منها ينكمش زوجها على الحقيبة وينام نوم العادل !! ويغط غطيطاً عالياً

أما الذى قالته لزوجها وكيف كان حاله عند ما استيقظ فسأدع لغيرى تصوره فهو فوق طاقتى

محمود البدوى

هاجر العانس

للسيدة وداد السكاكينى

تسألينى يا صديقتى عن كآبة «هاجر» ووجومها ، وتتساءلين ملحة عن تجافيها وإيثارها العزلة والانفراد . إنك تريدينني على أن أفضى إليك بخبرها ، وأصرح بما أعلمه عنها ؛ ولا شك أن طلبك هذا يثير فى نفسى ذكريات الطفولة ويحملنى على أن أنحدر إلى أغوار الماضى ، حين كنت أعرف هاجر فى المدرسة تلميذة فى صف الشهادة ، وكم كان يشتد فرحى حين تدخل هذه الفتاة بيتنا فى البكور لتأخذنى معها ، فان عمتى أوصتها بمرافقتى إلى المدرسة ، وكانت رحمها الله صديقة حميمة لأسرة هاجر

كانت تدق باب بيتنا دقات مستعجلة ، فأبادر إلى صدارى الاسود ، وأعلق إلى جانبى محفظة كتبى بنجاد قصير ، فاذا أسرعت هاجر فى سيرها عدوت خلفها ، فأتعثر بمحفظة كتبى التى تتدلى على جنبى أو على ظهرى ، وكنت لا أقف لاصلاحها حتى لا تتأخر هاجر عن ميعاد المدرسة فتحرمنى مرافقتها فى الطريق

وكان يعظم سرورى حين تغيب معلمتنا العجوز الشمطاء ذات النظارة التى تربطها بالخيط إلى أذنيها وتحدرها إلى أرنبة أنفها فتطالعنا بنظرها المخيف من فوقها ، كنت أفرح وأمرح حين تغيب هذه المعلمة الغاشمة فترسل الينا المديرة « هاجر » كبرى تلميذات المدرسة لتحل محل المعلمة الغائبة ، وتعلمنا الدرس فأزهو يومئذ وألهو ، وألمس بأناملى رؤوس رفيقاتى اللاتى أمامى فيتلفتن وراءهن فاذا أنا صنم لا يتحرك

هذه صورة أولى لهاجر ما تزال فى ذاكرتى جلية بينة ؛ إنها كانت غضة الأهاب ، أنيقة الثياب ، ذات وجه أسمر مجدور ، وشعر جعد أسود ، قسمته ضفيرتين كثيفتين تنوسان على كتفها ؛ وكانت صناع اليد تغزل من الصوف أردية شتوية لأختيها سعاد ومليحة ، وقد كان أبوها قاسياً جامداً ندم على تعليمها بعد أن حازت الشهادة ، لكيلا يفتح العلم بزعمه قلبها وعينها ، فخاف ألا يعلم أختيها

ومرت الأيام فاذا مليحة وسعاد فتاتان ناهدان ، تلوح عليهما ملامح الجمال ، وتبسم لهما الحياة والشباب ، فراحتا تحلمان بالزواج ، وقد خطرت للوالدين هذه الفكرة فتمنيا تحقيقها قريباً ، وكانا يرتاحان لكل من يفاتحهما فى خطبة الفتاتين ؛ أما هاجر فكانت تضطرب أعصابها كلما رأت أبويها يسعيان لتوفير الزينة والدلال لأختيها ، ولا سيما بعد أن رأياهما تستويان على عرش الأنوثة والجمال

ولا تسألى يا عزيزتى عن أحزان هاجر حين كانت تختصها أمها بتدبير المنزل والخياطة لأختيها ، واعداد ما تستطيع من الجهاز لهما ، خشية أن تخطبا معا ويضيق الوقت عن تهيئة المعدات اللازمة فى حياتهما العتيدة

وكانت هاجر تنمو آلامها وتشتد ، وتحس الغصة تقطع نياط قلبها ، وكثيرا ماخلت إلى نفسها ، وتحدثت عن جدها العاثر عند والديها ، فتلعن الجمال الذى بدا على أختيها ، فحرمها الدلال وجعلهما تستأثران بعناية الأم واهتمام الأب

وأخذ شعورها يطغى على نفسها فلا تستطيع إلى كبته سبيلا ، ولاح الوجوم فى وجهها ، وكان تفكيرها فى دمامتها يبعث فى روحها القلق والعذاب

كانت تناجى ربها حين تلجأ الى فراشها وتحاول النوم فلا يرنق فى عينيها ، فتستعرض مظاهر الاهتمام بأختيها وإهمال أمها لها فتطفر الدموع من عينيها حزناً على حياتها الجافة البغيضة . وارحمتاه لهاجر ! كم كانت تتكلف الهناءة والهدوء أمام والديها وأختيها فتتظاهر بالانشراح لخطبتهما !

وكان لسوء مصيرها أن تلألأ حظهما وتكاثر الأخطاب ، فى عصر يوم جاء بيتهن ثلاث نسوة فاستقبلتهما الأم وهاجر علابس البيت وأوعزت الأولى الى سعاد ومليحة بأن تتزينا بأحسن ما عندهما من اللباس الجديد وتتضمخا بأزكى العطور ، وما استقر المقام بالسيدات حتى أقبلت مليحة وسعاد وكأنهما عروسان لليلة الزفاف ، فلما رأينهما بهرناهن وعلقت بهن أنظارهن ، فتجاذبن أطراف الحديث بسهولة وسرعة كأنهن صديقات العمر ، وبعد قليل طلبت إحداهن من الفتاتين شربة ماء ، ولم يكن بها ظمأ ولا حاجة الى نقع غلة ، بل كان مرامهن جميعاً ، أن يرين انقلابهما بالمشى وانتقال أرجلهما على الأرض ، وأن يمعن النظر فى طولهما وحركاتهما

كل هذا حدث وهاجر المسكينة جالسة الى جانب أمها تنظر الحظ يضحك لأختيها ويقهقه ، وتفكر فى نفسها فترى حظها عابساً مكفهراً ، ثم أخذت تطالع فى عيون الخاطبات ومضات الافتتان والاعجاب بأختيها ، فلم يسعها البقاء فى الغرفة فخرجت منها خشية أن تهى ارادتها وتستحيل كآبة نفسها دموعاً كاوية فتفضح وجومها وآلامها

وآن ذهاب السيدات فقمن يودعن الأم والفتاتين بالسلام والتقبيل ، فلثمن ثغرى سعاد ومليحة ليشممنهما فيعلمن إذا كانت فيهما رائحة تكره ، وعانقنهما لينشقن إبطيهما لعلهما تعرقان ، وهصرنهما الى أجسامهن ليحسسن هل هو عظم جاثم أم لحم رهو لطيف ، وكانت الأم والبنتان يشيعن الزائرات بمنتهى المجاملة والاغراء

كانت هذه الزورة المأنوسة يوم سعادتهن المشهود ، فما أغلق الباب خلف السيدات حتى انثنت الأم الى ابنتيها الجميلتين تدعو الله لهما بفتح البخت ومجىء النصيب السعيد ، وأن يقيض لهما زوجين من أحسن الرجال وأغناهم ، ثم سكتت إذ شعرت أنها استرسلت فى الدعاء لهما دون هاجر فقالت وهى تشير الى غرفتها وأنت يا «هاجر» الله لا ينساك يا حنونتى » !

بعد أسبوعين كنت ترين يا صديقتى فى إصبعى سعاد ومليحة خاتمى الخطبة ، وكنت أتردد على بيتهما لأساعد الأم وهاجر فى اعداد الجهاز ، اما هاجر الكئيبة فكانت ترنو بعينيها الى الخاتم الجاثم فى يد أختيها فيحز فى روحها الشعور المؤلم بالحقيقة الراهنة ، فتجاهد حسها وتكابد العذاب فى مغالبة ما تعانيه من قلق واضطراب لئلا يقال : إن نمامة من الغيرة والحسد تخيم على نفسها فتسىء الى سمعتها ، وبرغم ذلك كله كانت تنتابها من حين لآخر نزوات من السخط ، فتدعى بأنها تبرم بأعمال البيت المرهقة واستعجال الأهل فى تهيئة الجهاز بوقت حرج قريب

لقد تزوجت الأختان ويعلم الله كيف حضرت هاجر عرسيهما ، إنها لم تسمع الغناء بأذن واعية ، ولا أبهت الرقص ، ولا ذاقت من صفوف موائد الحلوى

لم تحقد هاجر على أختيها وإنما كان فى قلبها غضب على الأيام كالنار فى الحشا تتمنى لو أن الله خلقها جميلة فاتنة أو خلقها ذكراً

***

أصبحت هاجر وحدها فى البيت مع أمها وأبيها ، وقد جاوزت الثلاثين فكانت تعيش فى نضال دائم بين الأمل والقنوط ، وتتساءل بحرقة وحيرة عما تتوقع من الأيام وهى تمر وشيكة عجلى ، أيشفق الحظ عليها وإن تقدمت سنها ، أتهيء الأقدار لها حياة زوجية كأختيها ؟ ألا يوجد بين الرجال من يؤثر جمال الخلق والنفس على جمال الجسم والوجه ؟ فتزدحم فى مخيلتها صور من الأحلام والآمال تكبح جماح نقمتها وتبعث فى نفسها قليلاً من الاطمئنان ، ثم تقوم الى كتبها فتواسيها بحوثها وتسليها وتبحث فيها عن مآسى الحب والحياة ، ولبثت ردحاً من الزمن تساورها الأمانى برغم ما كان يبعدها من الواقع عن تحقيقها فتلمست فى هذه الظاهرة الجديدة لوناً من العزاء والجمام

لقد صبرت هاجر بضع سنين انقلب عزاؤها بمرور الأيام ثورة نفسية أليمة جعلتها غريبة الأطوار قليلة الكلام ، فأهملت العناية بألبستها وتسريح شعرها الذى عدا عليه الشيب كما أنها هجرت الاكتحال والصباغ وغارت عيناها وبرز جبينها المستدير وبدا فى وجهها الشاحب ما يبدو للمراهق الطرير

عاشت هاجر اليائسة فى هذه الحقبة القصيرة يغمرها يأس عاصف وتصدمها الحقيقة الواقعة ، ثم عبثت يد السآمة برغبتها فى المطالعة فأعرضت عنها ونشدت السلوة فى المتنزهات القريبة

كانت أمها تشهد اضطرابها وتديم التأمل والتفكير فيها ، وتطالع فى عينيها أمارات القلق والنقمة فتحس فى نفسها عذاب الضمير لأنها كثيراً ما حالت دون خطبتها بشتى المعاذير ، فكانت ترد أخطابها دون علمها ؛ وكانت هاجر إبان ذلك فى ميعة العمر وريق الشباب ، فأدركت الأم أن أنانيتها الحمقاء هى التى كانت تسول لها الازدراء بفتاتها الكبرى كلما أسرعت بها الأعوام حتى آثرت أن تبقيها عزبة لخدمة شيخوختها ، ولولا أثرتها واهمالها لكانت هاجر مثل أختيها زوجاً سعيدة وأماً حنوناً

وطغى على روح الأم شعور الندم ، وران عليها الغم والاكتئاب ، فأحبت أن تكفر عن خطيئتها بتوفير الخدمة والمداراة لهاجر ، وترغيبها فى ممارسة التعليم الخاص فى بيتها وزيارة صديقاتها

واستمرت السنون فى سيرها فمات أبوها ولم يترك لها ما يؤمن معيشتها ، وبقيت أمها عندها ، أما أختاها فشغلهما عنهما الزوج والأولاد ، وكان لكل منهما حماة غاشمة لئيمة ، لا ترتاح لزيارة الأم والأخت لها ، فأهملت المتزوجتان أمهما لئلا تعصف فى بيتهما عواصف السوء والأحقاد

وفى جو هذا العيش القاتم الخانق كانت هاجر تناقش نفسها فى مصيرها فرأت من الحكمة وفصل الخطاب أن تحترف التعليم فعينت فى المدرسة التى نشأت فيها وثقفتها

كان بين هاجر العانس ومديرة المدرسة دالة ومودة ، فكانت تستشف فى أحاديث هاجر حسرة ومرارة وتبرما بتكاليف الحياة ، فتنفس عنها — بعطفها ولطفها — بعض ما يحتدم فى نفسها من ضيق وانقباض

وعهد فى المدرسة إلى هاجر بتعليم العربية لبعض الصفوف الابتدائية ، فكانت شديدة العناية بتعويد التلميذات حسن الالقاء وتجويده ، وكلما آنست منهن تقدما ونجاحا أوصتهن بالمثابرة على لهجتهن التى أخذنها عنها ، إذ كان أملها القديم الذى غدا أوهن من بيت العنكبوت يعاودها الفينة بعد الفينة ، ويوقظ فيها ما رقد من رجاء فى الزواج ، فتقول للتلميذات : حافظن على لهجة الالقاء فربما لا أعود اليكن فى العام القابل

جالت المديرة مساء يوم أرجاء المدرسة وراقبت صفوفها ، فوقفت بباب صف سمعت فيه لغطا ولغوا ، فاقتحمته وهى تظن أن ليس ثمة معلمة فيه ، وشد ما شدهت حين رأت هاجر تحدق بنظرها فى الأفق البعيد دون أن تنتبه لوجودها

تقدمت اليها المديرة بلطف وابتسام ، وسألتها : فيم تفكرين يا هاجر ؟ فأجابت : إننى أتأمل هذه الطفلة الجالسة ههنا ، وأشارت اليها ثم أردفت قائلة :

انظرى ياسيدتى مآسى الدهر ومهازله ؛ إننى أفكر فى أم هذه الطفلة ، فلقد كانت تلميذتى ! ؟

(دمشق) وداد سكاكينى

مأساة من سوفوكليس

٤ – أنتيجونى

للأستاذ دريني خشبة

تتمة

— ١١ —

الخورس : « مولاى ! إن تيرزياس لم ينطق عن هوى قط ! لقد أشملت السنون رأسه بشيب التجارب ، وإن هذه لنبوءة ... إنها لنبوءة ! ! »

الملك وقد بدا عليه الفزع : « أنا أعرف ذلك ! وا أسفاه ! لشد ما أزعجتني نبوءة تيرزياس ! ولكن ... ما ذا أصنع ! ان التقهقر يؤلمنى !

— « ما تزال فسحة من الزمن للتبصر يا مولاى ! »

— « ما ذا أصنع ؟ أنصحوا لى ! سأطيع ! سأخضع ! أنصحوا لى !

— « انطلق من فورك فاستنقذ الفتاة من قبرها ، وابن قبرا للقتيل ! »

— « أهذه نصيحتكم ؟ ... ها ... ها ها ... لا ... لن أستسلم ! لن أستخزى !

— « البدار البدار ! أسرع ما استطعت ! إن السماء نفسها تتجهم ... إنها تتدرك بلسان الكاهن

— « أواه ! أنا مجبر ! أنا مغلوب على أمرى ! أنا ما أستطيع مغالبة القضاء !

— « هلم الساعة فاصنع كل شىء ! بيديك أنت ! لا تشرك يداً أخرى !

— « هلموا فى إثرى ياشعبى العزيز ! هاتوا عدتكم ! سأبنى القبر ، وسأحل العقدة التى أحكمت رباطها ! لشد ما يضطرب الجزع فى حنايا ضلوعى ! لماذا حدث عن طريق قومى ؟ باللشجو !!

« يخرج الملك عجلا »

— ١٢ —

ويردد الخورس عظة الموقف ، ثم يدخل رسول فيقول :

— « سلام على جيرة قدموس وأحباء أمفيون [1] : قضى الأمر ، فلا سعادة تنفع ولا شقاء يبقى ! الجميع سواء ! الملك ! ما الملك ! ماهو إن كان موحشاً هكذا ! حالك شديد وظلمة تدجى !

— « ماوراءك يارسول ! أى ضِغث تاه من جديد بكلكله على هذا البيت ؟

— « ماتوا !! وقتلتهم ما يزالون أحياء !

— « من القاتل ومن القتيل ، أفصح يارسول !

— « هايمون ! قتل هايمون ! انتحر المسكين ! قتله يأسه وأودى به قنوطه ، وحزنه على الفتاة التى قتلها أبوه !

— «ويحك يا كاهن طيبة ، ما قلت إلا حقا ! وى ! الملكة ! إنها قادمة ! مسكينة يا أم هايمون ! لشد ما تحزنين اليوم

— ١٣ —

« تدخل الملكة يوريدس »

— « فيم تناجيكم أيها الأعزاء ! أحقاً قتل هايمون نفسه ؟ لقد سمعتكم تقولون مثل هذا ؟ ! نبئونى ! لا تنزعجوا ! ليست هذه أولى مصائبى ، أحقاً مات ولدى ! ؟ تكلموا ! !

— الرسول : « أيتها الملكة ! سأقص عليك كل شىء ، لقد شهدت المأساة بنفسى ! كلنا سواء فى الحزن وشركاء فى الأسى ! لقد ذهبت فى إثر الملك الى بطحاء طيبة حيث جثمان پولينيسز ، وحيث عمل الملك بيديه فى حفر مقبرة لبقايا القتيل التى أبقت عليها عقبان الجو وذؤبان الفلاة ... ثم انثنينا الى القبو المظلم الفظيع الذى أمر بأنتيجونى أن تموت فيه ... وما كدنا نقترب حتى سمعنا نشيجاً مؤلماً وأنيناً مفزعاً ... ثم اذا صرخة داوية تتردد فى حنايا القبو ... وأمرنا الملك أن نتقدم حين أدرك أن الصوت صوت هايمون ... تقدمنا أيتها الملكة ! واحزناه ! لقد بلغنا أقصى زاوية فى القبو ! ياالهول ؟ أنتيجونى ؟ ! مسكينة ! لقد شنقت الفتاة نفسها بغلالة حريرية فى سقف القبو ! ! وركع هايمون على ركبتيه ... بجانبها ... وأخذ يعانقها ... ويبكى ... وينعى حظه ... ويبث شكواه ! وكان يندب حبه بكلمات مثنية تقطع نياط القلوب ! ... وكله أبوه ... ولكن حدجه بنظرات غائرة ، ثم انتزع سيفه وجعل زُجه الى أرض القبو ، وسِنه فى صدره ، واتكأ المسكين بكلكله عليه ، فبرز الجراز يلمع من ظهره ... وسقط قليلاً على الثرى ، وظل ذراعه الضعيف الوانى ملتفاً حول خصر أنتيجونى .!! وتدفق الدم مختلطاً بتراب القبو ... وذهبت روحه البريئة محوطة بأرواح الآلهة الى هيدز ! ! »

« تخرج الملكة كالمجنونة لا تلوى على شىء »

— ١٤ —

— « ما ذا تستنتج من هذا ؟ لقد انطلقت الملكة دون أن

(١) هو ابن زيوس وملك طيبة ومن كبار الموسيقيين

تنبس ببنت شفة ؟ !

— عجيب حقاً !! ربما كرثها الخطب ، فهي ذاهبة تجمع له وصيفاتها ثم يبكي الجميع شباب هايمون !

— « ... أ ... الملك !... الملك قادم ... ماذا يحمل ؟ ... وى ؟ إن الحزن كاد يصعقه ! !

« يدخل كريون حاملا جثمان هايمون »

— « ويل لي من قتيل قاتل : ويل لي مما جنيت على نفسي ! يا رحمتا لك يا ولدي ! ويح لك يا هايمون ! أما قاتلك فاعف عني ! اصفح عن والدك يا هايمون ! آه ! ... آه ... !

الخورس : « مسكين ! يندم الآن ولات حين مندم ! انبلج الحق لعينيه ... ولكن ... بعد أن لم يكن شيء !

الملك : « وا أسفاه عليك يا ولدي ! الساعة فقط ألمس أخطائي ! لكأنما كان القدر يعصب عيني ! ! »

« يدخل رسول ثان »

— « مولاي ! أنت هنا تبكي ولدك ... وفي القصر ... بكاء جديد يا مولاي ؟ !

— « بكاء جديد ماذا ؟ ماذا تخبأ لي الأقدار بعد هذا ؟

— « الملكة يا مولاي ... الملكة ...

— « الملكة ؟ ...

— « إي ... ماتت !

— « ماتت ! وا حربا لي آه يا برزخ الموت لم يجرف تيارك قطع نفسي ؟ وأنت يا رسول الشؤم ! لقد قتلتني مرة أخرى ! ألا حدث أيها الرسول ! أهي مضرجة بدمائها مثل هذا ...

« ترفع ستار عن جثة الملكة فتبدو للعيان »

— « وا حسرتاه على ما قدمت ! بكاء جديد وشجو آخر ، أي خطوب أنكي تتربص بي أيضاً ؟ آه يا ولدي الحبيب ... ويح لك ... ولأمك ... أمك التاعسة ...! »

الرسول : « لقد كانت تصلي للآلهة أمام المذبح ، وكانت أيضاً تبكي ولديها ميجاريوس وهايمون قبل أن تطعن نفسها بخنجرها »

الملك : « ألا من يطعنني أنا الآخر بخنجر ذي شعبتين ، فلا يبقي ولا يذر ! ... واحزناه ! ...

الرسول : « لقد طعنت نفسها بعد أن انطلقت من هنا وبعد أن سمعت بانتحار هايمون !

الملك : « أنا القاتل يارفاق ! أعترف ! أنا القاتل ! لقد قتلتهم جميعاً ... اقبضوا علي !

مرحبا بالموت ! مرحبا به من منقذ ! لن أعيش ليوم آخر ، لن تشرق علي ياذكاء مرة أخرى

الخورس : « الزمن كفيل بكل شيء ! والقدر يبرم نهايته ! »

الملك : « لقد صليت صلاتي وأودعتها كل أماني ! »

الخورس : « وماذا تجدي الصلاة ؟ إنها لا تدفع حشرجة المحتضر ! »

الملك : « هلموا بي ! هلموا بالرجل المتجبر الذي قتل ولده . وقضى على ... زوجه ! ... إن الدنيا بأجمعها تهاوى فوق رأسي حجراً حجراً ! يا للمقادير ! يا للشجوى !... »

الخورس : « العمل الصالح طريق السعادة المهد ! وطاعة السماء فرض قدسي ! الكبرياء تحطم الكبرياء ! والخيلاء تورث الشقاء ... والسعيد من اتعظ »

دريني خشبة

البريد الأدبي

عطف المسلمين على منكوبي فلسطين

كان من أثر ما نشرته (الرسالة) من الوصف الناطق لمآسي فلسطين الدامية أن دفعت الأريحية العربية إخواننا في (تلمسان) إلى أن يؤلفوا جمعية لاعانة منكوبي فلسطين ، فجمعت في أول اجتماع ألفا وخمسين فرنكا فرنسيا ؛ أرسلت بها تحويلا إلى إدارة الرسالة على بنك الكريدي ليونيه في باريس . وقال الفاضل السيد المختار الصبان أحد أعضاء هذه الجمعية في كتابه الينا : « وقد اقتضى نظر اللجنة المكلفة بجمع الاعانات في (تلمسان) أن يُبعث هذا المبلغ باسمكم ، راجين من فضلكم أن تبلغوه أنتم من هناك إلى من هو قائم بقبض الاعانات وتلقيها بفلسطين . وهذا مبلغ أول اجتمع بيننا ، وسنوافيكم بعده إن شاء الله بكل ما يجتمع لدينا ، لأننا ما زلنا فاتحين باب الاعانة ودائبين في العمل ... »

و (الرسالة) باسم فلسطين تشكر لأهل تلمسان أريحيتهم ، ويسرها أن تكون واسطة خير بين احسانهم وبين لجنة الاعانة

مسألة الأجناس

وجهت مجلة « النوفيل لترير » البارزية إلى طائفة من أكابر الاخصائيين الفرنسيين في علوم الأجناس البشرية (البيولوجيا والانتروبولوجيا) عدة أسئلة تثيرها اليوم مسألة الأجناس في أوربا ؛ وأخصها ما يأتي : (١) ماهو مبلغ نظرية جوبينو عن مزايا نقاء الأجناس أو تمازجها من الصحة ؟ وهل يمكن أن تعتبر من الوجهة العلمية من عوامل التأثير في الحياة العقلية والمادية للأمم ؟ (٢) هل يمكن أن يعتبر وجود الأجناس النقية المنعزلة في عصرنا حقيقة بيولوجية ؟ أم هل تقتصر هذه الحقيقة على بعض الميول العقلية والمصطنعة التي تتأثر بها اليوم بعض الأمم ؟

وقد أجاب على أسئلة المجلة البارزية عدة من أكابر العلماء منهم الأستاذ ريبو أستاذ البيولوجيا في كلية العلوم البارزية ، والمسيو رفييرمد برمتحف الأنتروبولوجيا ، والدكتور فرنو أستاذ الأنتروبولوجيا في معهد باريس . وتتلخص أجوبة هؤلاء العلماء فيما يأتي :

(١) إن الأجناس أو السلالات النقية نادرة الوجود في عصرنا حتى في أعرق الأمم حضارة ، ولا يوجد أي نموذج منها في أوربا . وهي من الوجهة النظرية يجب أن تكون وحدات بيولوجية . ولكن الواقع أن الجماعات التي تزعم أنها قد احتفظت بنقاء الجنس لا تقوم إلا على المصلحة المشتركة ، ولا تجمعها سوى ميول عقلية أو مصطنعة ، وهذه ليست سوى عواطف يستغلها القادة في الجمهور الساذج

(٢) إن امتزاج الأجناس الرفيعة بالأجناس المنحطة لا ينتج دائماً من الآثار السيئة ما يقول بعض العلماء ؛ فقد ثبت من المشاهدات البيولوجية الحديثة أن هذا الامتزاج ينتج أحياناً نماذج جنسية بديعة . مثال ذلك امتزاج الأسبان والبرتغاليين بالهنود في البرازيل ، فقد أنتج في بعض الأقاليم جنساً خلاسياً هو أذكى وأنشط وحدات الشعب البرازيلي

وقد أنتج امتزاج المستعمرين الهولنديين في جنوب افريقية بالهوتنتوت شعباً ذكياً قوياً من الوجهة الحيوية

ويلاحظ الأطباء الفرنسيون أن امتزاج الفرنسيين بالهند الصينيين ينتج نسلاً بديعاً خصباً

وقد لاحظ رحالة انكليزي كبير أن امتزاج السود بالبيض في الجزر الجنوبية في المحيط الهندى ينتج نسلاً جميل التكوين وافر الذكاء ؛ وقد لاحظ بنوع خاص أن النساء الخلاسيات في هذه الجزر يتمتعن بجمال في الوجه والجسم يندر أن يوجد في كثير من الأجناس الأوربية

والخلاصة أن آراء أولئك العلماء تكاد تتفق على نقطة جوهرية هي أن نظرية نقاء الأجناس لا تقوم من الوجهة العلمية على أسس صحيحة

رواية عن مصر الفرعونية

كان أول من اتخذ أساطير مصر الفرعونية وتاريخها موضوعا للقصة المصرية الكاتب والرحالة الألمانى الشهير جورج إيبرس ، فقد أخرج لنا عن مصر الفرعونية عدة قصص امتازت بحسن السبك والخيال ؛ ولم تكن المباحث الأثرية الفرعونية قد تقدمت فى عصر إيبرس ، أعنى منذ نحو قرن تقدماً يذكر ، وقد أثارت الاكتشافات الأثرية الأخيرة فى تراث مصر القديمة اهتماماً كبيراً ، وألفى فيها جماعة من الكتاب من مختلف الأمم مادة حسنة للقصة الممتعة . ومن هذه القصص التى ترجع بنا إلى الماضى الغابر ، قصة صدرت أخيراً بقلم الكاتب الانكليزى جاك لندسى عنوانها « جولات وينامين » The Wanderings of Wenamen ، وهى قصة تدور حوادثها على أواخر عصر طيبة حينما أشرفت مصر على هاوية الفوضى والحرب الأهلية ، وبطلها موظف حكومى يدعى وينامين أوفده الكاهن الأكبر « آمين » إلى لبنان ليشترى خشباً من الصندل ليصنع منه قارب مقدس ، ويصف المؤلف أحوال مصر المضطربة خلال الرحلة وما يلاقيه وينامين من الاحداث والمفاجآت الخطرة ، ويصف بالأخص ظروف الحياة فى طيبة القديمة ، ويقارنها بالحياة فى مصر الشمالية (الدلتا) ، ويبدى مستر لندسى براعة خاصة فى تنسيق الحوادث التاريخية وسبكها فى قالب القصة المبتكرة دون أن يجنى على روحها أو صبغتها التاريخية ، وهذه مقدرة تشهد له بالتوفيق فى فهم روح مصر الفرعونية كما يجب أن يفهمها قصصى يحاول أن يعرض الحقيقة فى ثوب الخيال . ويرى بعض النقدة أن مستر لندسى هو أول قصصى انكليزى استطاع منذ تشارلس كنجسلى مؤلف « هيباسيا » التى تدور حوادثها على العصر اليونانى فى مصر أن يقدم عن مصر القديمة رواية جديرة بالتقدير الأدبى

رحلة فى بلاد العرب

الآنسة فريا ستارك رحالة انكليزية تجولت كثيراً فى الجزء الجنوبى من بلاد العرب . وقد أصدرت أخيراً كتاباً عن بعض رحلاتها عنوانه « أبواب جزيرة العرب الجنوبية The Southern gatesa of Arabi » ، وفيه تصف رحلتها فى حضرموت ، التى اخترقتها وحيدة فى غمر من الصعاب والمشاق الهائلة . وقد كانت حضرموت منذ الأزمان الغابرة أعظم مركز لتجارة « البخور » والعطور الدينية التى لبثت مراكز انتاجها قروناً فى معزل عن العالم ولا سيما أوربا ؛ وقد استطاعت الآنسة ستارك أن تنفذ الى هذه المراكز وأن تتجول فيها ؛ وفى كتابها نحو مائة صورة التقطتها بنفسها تمثل كثيراً من المناظر المدهشة عن طبيعة هذه البلاد وسكانها

ذكرى مؤلف المارسييز

احتفل أخيراً فى أنحاء فرنسا بذكرى مؤلف النشيد القومى (المارسييز) ، روجيه دى ليل لمناسبة مرور مائة عام على وفاته ونظم الاحتفال الرئيسى فى مدينة ستراسبورج مسقط رأس المحتفل بذكراه ، وألقيت الخطب الرسمية تنويهاً بروعة النشيد القومى وعظمة واضعه . وكان روجيه دى ليل ضابطاً فى جيش الثورة ، وكان شاعراً بفطرته ، فوفق إلى وضع هذا النشيد الذى ما زال منذ نحو قرن ونصف قرن يثير ضرام الحماسة القومية فى فرنسا كلما هبت عليها الأزمات أو قرع نذير الحرب ؛ وقد وضع روجيه دى ليل نشيده لجيش الرين الذى كان ينتمى إليه ، ولكن جماعة من المتطوعة الرسيليين (أهل مرسيليا) نقلوا هذا النشيد وأذاعوه فى أنحاء فرنسا ، فسمى نشيد المارسييز منذ أيام الثورة إلى يومنا ، وما زال هذا النشيد القومى الفرنسى يعتبر من أروع الأناشيد القومية ؛ وقد وصفه الكاتب الانكليزى الكبير توماس كارليل بأنه أسعد تركيب موسيقى ، وأعظم غذاء للعزة والحماسة

وفاة كاتب ألمانى كبير

توفى فى باريس أخيراً كاتب سياسى ألمانى كبير هو جورج برنهارت محرر جريدة « باريز — تسيتونج » التى تصدر بالألمانية فى باريس . وكان برنهارت قبل قيام الحكومة الهتلرية عضواً فى مجلس الريخستاج (البرلمان) ، وكان ديمقراطياً متطرفاً ، فلما قامت حكومة النازى هرع إلى المنفى فيمن هرع من أكابر الكتاب والساسة اتقاء لبطش طغاة ألمانيا الجدد ؛ ووقف قلمه على محاربة الدعوة النازية فى الخارج ؛ وكان يكتب بالفرنسية فى بعض المجلات والصحف البارزية بمثل براعته فى اللغة الألمانية

ومعظم أقطاب الكتاب الألمان يعيشون اليوم فى المنفى وعلى رأسهم توماس مان ، وأخوه هنريش مان ، وأميل لودفيج ، وليونارد فرنك ، وغيرهم . ومنهم من غادر ألمانيا بسبب يهوديته مثل لودفيج ؛ بيد أن معظمهم غادرها لأسباب سياسية ، ولأن الحكومة الجديدة لاتسمح بذرة من الحرية للكتاب أو المفكرين وهكذا يموت أكابر الكتاب الألمانى فى المنفى تباعاً لأنهم لا يستطيعون أن يتنفسوا فى وطنهم



ســعد زغلول

سيرة وتحية

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأديب عبــد الرحمن صدقى

آية هذا الكتاب أن اجتمعت له خصال ثلاث تجعله فى عداد كتب السير المشهود لها لأعلام المترجين ، وتلك الخصال هى : التحقيق التاريخى ، والتحليل النفسانى ، والتأثير العاطفى

يقول العقاد فى كلة التمهيد لترجمته : « إن الصديق والمؤرخ فى الكتابة عن رجل كسعد زغلول يستويان أو يتقاربان ، لأن الصديق لن يقول فيه ما ينكره المؤرخ ، والمؤرخ لن يقول فيه ما ينكره الصديق . ومن النقص فى جلاء الحقيقة أن يكتب المؤرخ ترجمة لعظيم ثم لا يكون على مودة لذلك العظيم . ولأن يكون الكاتب مؤرخا وصديقاً خيرٌ للتاريخ نفسه من أن يكون مؤرخا وكفى ، لأن الترجمة فهم حياة ، وفهم الحياة لا يتسق لك بغير عطف ومساجلة شعور »

ولما كان الاستقصاء فى طبيعة مؤلفنا الكبير ، فقد ابتدأ موضوعه من البداية ، فتناول « الطبيعة المصرية » بالبحث الضافى ، وعرض لمحك النقد أقوال المؤرخين فيها من أقدم عصور التاريخ ، وأخذ باطل المبطلين منهم بالتفنيد المدعم بالأسباب والأسانيد . ثم أبان فى فصل آخر عن وجه الحقيقة فيها بما لا بدع بعده زيادة لمستزيد

وانتقل إلى أصل المترجم له ، فلم يسكت عن تلميح البعض إلى نسبته إلى غير الأرومة المصرية ، ومن هؤلاء من يرد أعراقه إلى المغول والترك ، وآخرون إلى البدو أو عرب المغرب ، ولقد مرد المؤلف مثار الشبهات عند أولئك المتقولين ليعيد فيها النظر على ضوء علم الأجناس ، ثم باستقراء ما هو معروف من طريق القبائل العربية النازحة ، فانكشف لمرأى العين ضعفها وصرف عنها الأذهان مقررا أن عراقة سعد فى بيئة الفلاح المصرى لا تفوقها عراقة زعيم من أبناء الأمم الأخرى

ثم يجيء الكلام عن جيل سعد وطابعه المميز من طلب الاصلاح والدعوة له والغيرة عليه ، وبيان الدوافع لهذه الحركة الاصلاحية من الداخل والخارج ، وماكان لهذا الجيل من شأن فى نشأة سعد واتجاه همته ، وصفة أعماله فى مستقبل أيامه ، ومن هذا الوصيد الكريم ، يتطرق القارئ إلى حمى البيت القديم ، ويتعرف إلى جد زغلول وأبويه وقرابته وطبائع قومه وأسرته ، ومظاهر الحياة فى بلدته ، وإذا بك بعدها ترى سعدا فى مدارج طفولته ، وتتوسم مخايل نجابته ، وتتتبع خطواته من مكتب القرية ، إلى الجامع الدسوقى ، إلى حلقات معهد الأزهر الكبير

وفى هذه القاهرة المعزية ، اندمج الفتى سعد فى حركة دعاة الاصلاح وألقى بسهمه مع سهامهم ، وكان يحضر الدرس على الشيخ محمد عبده ، ويختلف الى مجلس السيد جمال الدين الأفغانى ؛ وكان الأول أستاذاً له فى الدرس وقدوة فى الخلق ، وأما لقاؤه للثانى بطبيعته الثورية فكان مرآة مجلوة لنفسه الجائشة وحافزاً للملكات البيانية والخطابية

ومن ذلك الحين يصح الجزم بأن سعداً قد اتجه فعلاً الى وجهته ، واستقام على متن طريقه المقدورة له

ويتسع الأفق فاذا الثورة العرابيــة ومقاديرها ومعقباتها من نفى وتشريد وحبس . وتشاء العناية لسعد أن تقوم على خدمته ظروف وملابسات ، فيفرج عنه على كره من أولياء الأمر . ولا يلبث طويلاً حتى يشق طريقه من المحاماة الى منصة القضاء ، ثم

تحمله رغبة الحاكمين فى ارضاء القومية المصرية وتتنذ الى دست الوزارة

هنا تزخر حياة هذا الرجل بالاحداث ، ويظهر أنه المدخور لنهضة وطنية عارمة تعم البلاد من أقصاها الى أقصاها، وتؤلبها فى قوة وإيمان على الغاصبين . ويمضى المؤلف فى تاريخه الضخم يصورها أروع تصوير ، ويدفع عنها المغالطة والنكير ، فى فصول حافلة طوال : فى طريق الوزارة ، سنة ١٩٠٦ ، وزارة المعارف ووزارة الحقانية ، سعد الوزير ، الحركة الدستورية ، الوزير المصرى فى المعاش ، فى ميدان الانتخاب ، الجمعية التشريعية فى خمسة أشهر ، قبيل الحرب ، الحرب العظمى ، تأليف الوفد المصرى ، بدء العمل ، القارعة ، الثورة ، من القاهرة الى مالطة الى باريس ، تأليف الوفد الأول ، موقف الوزارة الرشدية ، برنامج الوفد والامتيازات ، الوفد فى أوربا ، من سفر الوفد الى لجنة ملنر ، المفاوضة فى لندن ، فى مصر أثناء المفاوضة ، بعد عودة الأعضاء ، الوزارة العدلية ، العودة ، الخلاف على المفاوضة ، القطيعة بين سعد والوزارة ، فضل المفاوضات الرسمية ، النفى ، تصريح ٢٨ فبراير ، من النفى الى الوزارة ، فى رآسة الوزارة ، الثلاث فؤاد وسعد ، من رآسة الوزارة الى رآسة النواب ، فى رياسة مجلس النواب

وهذه الفصول الطوال تنتظم التاريخ المعاصر كله لمصر الحديثة فى صور حية رائعة تتعاقب على أنظارنا وكأنما كاتبها لا يخط أحرفاً وإنما يرسم تهاويل مجسمة كالتى اشتهر برسمها على جدران المعابد شيخ الرسامين ميشيل انجيلو . على أنه يتخللها هنا وهناك مواقف شتى يقف فيها الفنان موقف المحلل الشارح ، كما يلبس أحياناً رداء المدره المنافح

ويختتم المؤلف كتابه كما استهله بفصول دقيقة عميقة لا تتاح لغيره عن زعامة سعد وأثرها ، وعن سعد وخصومه ، وعن شخصيته وأخلاقه ، وعن ثقافته . ويبلغ العقاد منتهى حنو العاطفة فى كلامه عن سعد فى بيته ، ومبلغ حدبه على أهله ، وكيف كانت السيدة الجليلة أم المصريين بنفسها المحبة وفطنتها الألمعية وقلبها الكبير ، شريكته بحق فى حياته ومجده . وكذلك يعرض عليك المؤلف الناحية اللينة إلى جانب الناحية الصلبة فى وصفه للقاء الأول واللقاء الأخير . وأما كلمته عن فاجعة الوفاة فانها فى عبارتها الصادقة المؤثرة يطالعها القارئ فيغلبه التأثر مهما يكن جلده ، فاذا هو لا يملك وجده ، وإذا الدمع يخنقه والزفرة تكظ صدره ثم لا تبرح ذهنه هذه الصورة آخر العمر :

« ثم ضعف النبض دفعة واحدة ، بعد انتظامه فى جميع الأدوار الماضية ، فغلب اليأس على الرجاء . وعاده الأطباء للمرة الأخيرة فى التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين ، ونزلوا إلى المكتب لكتابة تقريرهم الأخير . وإنهم لكذلك ، إذ دعى فتح الله بركات باشا إلى غرفة خاله وهو يجود بنفسه فى غيبوبة لم تنقطع منذ الصباح . فاشرأبت الأعناق وأمسك الناس أنفاسهم يترقبون . وما هى إلا دقائق معدودات حتى عاد فتح الله باشا إلى المكتب يمشى كالشيخ الهائم شاحب الوجه مذهول العينين . ولم يجرؤ أحدٌ على سؤاله مخافة أن يكون الجواب المحذور . ولكنهم علّقوا أنظارهم جميعاً بعينيه ولبثوا شاخصين ينتظرون . دقيقة واحدة أو دقيقتين ، ولكنهما كانتا من أزمان الأبد فى روع الشاخصين المنتظرين . وفى تلك اللحظة ارتفع صوت ناحب عند الشرفة المطلة على المكتب ، فضرب فتح الله باشا يديه على ركبتيه ، وجلس وهو فى جود الأموات ...... ومضت ثوانٍ أخرى . مضت والناس فى سكون عميق مرهوب ، وكان كل ما فى بيت الأمة ، وكل ما حوله على أعمق ما يكون السكون ، لا صدى فى المنزل ولا فى الطريق طوال اليومين الماضيين ، حذراً من ازعاج المريض العظيم المأمول الشفاء . فلما ارتفع الصوت الناحب وجم الحاضرون ثوانى قلائل ، كأنما كانوا يستطيلون الأمل المدبر ، أو كأنما كانوا بين تصديق وتكذيب . ثم انفجروا صيحة واحدة بالنشيج والعجيج ، فلم يكن أرهب من ذلك السكون إلا هذا الضجيج الذى اتصل صداه فى لحظات معدودات بكل مكان فى القاهرة ، وكل مكان فى أرجاء البلاد .. »

ولو أرخينا العنان لأعجابنا لأوردنا الكتاب كله شاهداً على فضل كاتبه فى كل ما سطره فيه ، وتبريزه فى نواحيه المتعددة ، وبلوغه الغاية من الفن والوفاء والصدق

ولكننا نقتضب ، فنقول إن جملة القول فى كتاب سعد زغلول للعقاد إنه أعظم نَصَبٍ أُقيم للبطل العظيم الراحل

عبد الرحمن صدقى

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

العدد ١٦٣ — ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 163

Lundi - 17 - 8 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٦٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ — ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

الأخلاق المحاربة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

وحدثنى صاحب سرّ (م) باشا بهذا الحديث قال : كنا فى ثورة سنة ١٩١٩ سنةِ الهزاهز والفتن ، وقد تفاقمت الثورة وأخذ الشبابُ يعمل ويفكر فيما يستطيع أن يعمل وما يجب أن يعمل ؛ وكان السُّخْطُ العامُّ هو ميراث الوقت ، فكانت قلوبُ الشعب تُلهَمُ واجباتِها إلهاماً إذ لم يكن فى هـذه القلوب كلها إلا لَذْعةُ الدم تعين اتجاهَ أعمالها وتحددّه

كانت الثورة زلزلةً وقعت فى التاريخ فجاءت تحت زمن راكد لا يتغير إلا بأن يُنسَف ، ولا ينسفه إلا مادة إلـهية كالحركة الكونية التى تخرجُ اليومَ الجديد من اليوم القديم ؛ فكان القـدَر يعمل بأيدى الانجليز عملاً مصرياً ويعمل بأيدى المصريين عملاً آخر . وتعلم الشعبُ من دفن شهدائه كيف يَستنبتُ الدمَ فيُنبت الحرية ، وكيف يزرع الدمع فيُخرج منه العزم ، وكيف يستثمر الحزن فيثمر له المجد

وكان رصاص الانجليز يصيب هدَفين معاً ، فيصرع شهداءنا ، ويقتل الموتَ السياسى الذى احتلَّ معهم هذه البلاد . وقد أنعموا على الشعب بالصدمة الأولى فنشبت المعركة التى تقاتل فيها الأخلاقُ القومية لتنتصر ؛ وشعرت مصر فى جهادها بأنها مصر

فالتمس روحها التاريخي رمزه العظيم في الأمة ليظهر فيه عاتياً جباراً ؛ فكان هذا الرمز الجليل العظيم هو سعد زغلول

* * *

قال صاحب السر : وكان الطلبة قد غدوا من أول النهار يتظاهرون ، وقد جعلتهم الثورة كالأرواح تخلصت من الموت بالموت فلا تخشاه ولا تبالي به ، واستقلت عن العقل بتحولها إلى شعور محض ، وخرجت عن القوانين كلها إلا القانون الخفي الذي لا يُعلم ما هو

كانوا في معاني قلوبهم لا في غيرها ، فلست تراهم إلا عظماء في عظمة المبدأ الذي ينتصرون له ، أقوياء في قوة الإيمان الذي يعملون به ، أجلاء في جلال الوطن الذي يحبون ويموتون في سبيله . وكانوا في الشعب هم خيال الأمة العامل المدرك ، وشعورها الحي المتوثب ، وقواها البارزة من أعماقها ، وأملها الزاحف ليقهر الصعوبة . يُفادون بأنفسهم الغالية ، ويؤثرون عليها . وليس في أحدٍ منهم ذاته ولا أغراض شخصه . فما أجلَّ وما أعظم ! وما أروعَ وما أسمى ! أيتها الحياة ! هل فيك أشرفُ من هذه الحقيقة إلا حقيقة النبوة ؟

* * *

قال : وكان أخي هو زعيم هؤلاء الطلبة في مدينتنا ؛ قويٌّ على الزعامة وفيٌّ بها ، يحمل قلباً كالجمرة الملتهبة وله صوت بعيد تحسب الرعد يُقعقع به . إذا مشى في جهاده كان كل ما على الأرض تراباً تحت قدميه فلا يغشى إلا محتقراً هذه الدنيا وما فيها ، غير مقدس منها إلا دينه ووطنه . وسلاحه أن كل شيء فيه هو سلاح على الظلم وضد الظلم

وكان في ذلك اليوم يقود « المظاهرة » وحوله جماعة من خالصته وصفوة إخوانه يمشون في الطليعة تحت جو متقد كأن فيه غضبَ الشباب ، عنيفٍ كأنما امتزج به السخطُ الذي يفورون به ، رهيب كأنه مُتهيئ لينفجر . فلما بلغوا موضعاً من الطريق ينعطفون عنده انصبَّ عليهم المدفع الرشاش . . . .

قال : فإني لجالس بعد ذلك في الديوان إذ دخل على أخي هذا ينتفض غضباً كأن المعاني تنبعث من جسده لتقاتل ، ورأيت له عينين ينظر الناظر فيهما إلى النار التي في قلبه ، فخشيت أن يكون القومُ أطلقوا عليهم الجنون والرصاص معاً

واستنبأته خبر أصحابه فقال : إن الذين كانوا حوله وقعوا يتشحطون في دمائهم فوقف هو شاخصاً إليهم كأنه ميت معهم وقد أحسَّ كأنما خلع عن جسمه نواميس الطبيعة فلا يعرف ما هي الحياة ولا ما هو الموت . وكان الرصاص يتطاير من حوله كأن أرواح الشهداء تتلقاه وتبعثره كيلا يناله بسوء . قال : وما أنس لا أنس ما رأيته في تلك الساعة بين الدنيا والآخرة ؛ فلقد رأيت بعيني رأسي الدم المصريَّ يسلّم على الدم المصري ويسعى إليه فيعانقه عناق الأحباب

ثم قال : أين هذا الباشا وما باله لم يصنع شيئاً في الاحتياط لهذه الفورة ؟ يكاد الخزيُ والله يكون في هذه الوظائف على مقدار الرتب . . . . (١)

* * *

قال صاحب السرّ : ولم يتم كلمته حتى خرج علينا الباشا متكسر الوجه من الحزن وقد تغرغرت عيناه فأخذ بيد أخي إلى غرفته وتبعتهما ثم قال : هَوْناً ما يا بني ، إن العلة فيكم أنتم يا شباب الأمة ، فكل ما ابتلينا أو نُبتلى به هو مما يستدعيه خمولكم وتستوجبه أخلاقكم المتخاذلة . إننا من غيركم كالمدافع الفارغة من ذخيرتها لا تصلح إلا شكلا ، وبهذه العلة كان عندنا شكل الحكومة لا الحكومة

أتدري يا فتى ما هي الحكومة الصحيحة في مثل حالتنا ؟ هي أن تحكموا أنتم في الشعب حكومة أخلاقية نافذة القانون فتضبطوا أخلاق النساء والرجال وتردُّوها كلها أخلاقاً محاربةً لا تعرف إلا الجد والكرامة وصرامة الحق ، وإلا فكما تكونون يُولَّى عليكم . . . .

هذا وحده هو الذي يعيد الأجانب إلى رشدهم وإلى الحقيقة ، فما أراهم يعاملوننا إلا كأننا ثياب معلقة ليس فيها لابسوها . . .

كيف يتصعلك المصري للأجنبي لو أن في المصري حقيقة القوة النفسية ؟ أترى بارجة حربية تتصعلك لزورق صيد جاء يرتزق ؟

إن في بلادنا المسكينة الأجانب ، وأموال الأجانب ، وغطرسة الأجانب ، لا لأن فيها الاحتلال ، كلا ، بل لأن فيها ضعف أهلها وغفلة أهلها وكرم أهلها . . . . بعض هذا يا بني شبيه ببعض ، وإلا فما هو كرم الشاة الضعيفة إلا لذة لحمها . . ؟

نريد لهذا الشعب طبيعة جدية صارمة ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشعر ذاته التاريخية المجيدة فيعمل في الحياة بقوانينها . وهذا شعور لا تحدثه إلا طبيعة الأخلاق الاجتماعية القوية التي لا تتساهل من ضعف ، ولا تتسمح من كذب ، ولا تترخص من

(١) لا ينس القارئ أن هذا كان في سنة ١٩١٩

من ذكريات الحداثة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان ذلك فى « العيد الكبير » — كما كنا نسمى « عيد الأضحى » — وكنا يومئذ تلاميذ فى مدرسة ثانوية ، ومساكننا بعضها قريب من بعض ، فنحن لهذا أصدقاء وإخوان . فاقترح أحدنا فى صباح يوم أغبر أن نذهب فى ليلتنا تلك إلى «دار التمثيل العربى » — أو تياترو الشيخ سلامه حجازى كما كنا ندعوه — لنشهد رواية « روميو وجوليت » فاعترضت على ذلك وقلت : إنه يكلفنا نفقة لا قِبَلَ لنا بها ، فقد كان الواحد منا يأخذ فى اليوم من أبيه أو ولى أمره قرشاً فى اليوم ، وكنا كثيراً ما نعجز عن إنفاق القرش كله لأنا لم نكن نجلس على « القهاوى » ولا كنا ندخن أو نشرب خمراً ، ولم تكن السينما قد ظهرت فى تلك الأيام ، فكان يتفق أن يبقى مع كل منا فى آخر الأسبوع بضعة قروش — اثنان أو ثلاثة ، أو أربعة فى بعض الأحيان — فنفرح ، ونركب النيل بزورق ، بضع ساعات . ولكن هذه القروش القليلة لا تكفى للذهاب إلى مسرح الشيخ سلامة ، فما العمل ؟؟ وأصر الاخوان على ذلك وقال قائلهم : أمامنا النهار كله ، فلنحتل وليدبر كل منا أمره . فخجلت أن أقول إنى عاجز عن الاحتيال والتدبير ، ومضيت عنهم ببال كاسف وقلب حزين

ورأتنى أمى — وكانت هى أبى وأمى — فقالت « مالك ؟ » ولم أكن أستطيع أن أكذبها أو أكتمها شيئاً إذا سألتنى ، فقلت : « إن زملائى قد اتفقوا على الذهاب فى هذه الليلة إلى تياترو الشيخ سلامة ، وليس معى ما يكفى لذلك ، فأنا لهذا مهموم مكروب »

قالت : « كم معك ؟ »

قلت : « ثلاثة قروش ومليمان »

قالت : « وكم تريد ؟ »

قلت : « ريال »

قالت : « أما ريال فلا ... اذهب إليهم وأنبئهم أنك لست معهم »

قلت : « ولكنى أريد أن أذهب »

قالت : « لا شك ... ولو كان معى فضل مال لأعطيتك منه ، ولكن كل ما عندى — على قلته — لازم لمطالب البيت إلى آخر الشهر ، ولن يستطيع أحد منا صبراً على الجوع ، فاذهب وافعل ما أشرت عليك به »

فتركتها وقد زاد كربى وثقل همى ، وفتحت الباب ووقفت على رأس السلم أفكر فيما أقول لأصحابى ، وأنا مطرق ويدى على الدرابزين ، وكانت عندنا فتاة صغيرة فى مثل سنى ، تخدمنا ، فخرجت ورائى ثم قالت لى :

« مالك يا سيدى ؟ »

قلت : « لا شىء ! » . وأشرت لها بيدى أن تدخل

قالت : « ولكنك مطرق .... »

قلت : « ولم لا أطرق إذا شئت ؟ ؟ هل هذا ممنوع ؟ »

قالت : « لا ... ولكنك مكتئب ! »

قلت : « ربما .... »

قالت : « يعز علىَّ أن أراك هكذا .... »

قلت : « أشكرك »

قالت : « ألا تخبرنى ماذا بك ؟ »

قلت : « لا شىء ! »

وماذا بالله أقول لها ؟ ؟ انها خادمة ، فكيف أطلعها على

غفلة . والحقيقة فى الحياة كالحقيقة فى المنطق إذا لم يصدق البرهان على كل حالاتها ، لم يصدق على حالة من حالاتها . فاذا كنا ضعفاء كرماء ، أعزاء ، سادة على التاريخ القديم ، فنحن ضعفاء فقط...

إن الكبراء فى الشرق كله لا يصلحون إلا للرأى ، فلا تسوموهم غيرَ هذا ، فهم قد تلقوا الدرس من أغلاطهم الكثيرة ، وبهذا لن تفلح حكومة سياسية فى الشرق الناهض ما لم يكن شبابها حكومة أخلاقية يُمدُّها من نفسه ومن الشعب فى كل حادثة بالأخلاق المحاربة

يا بنى إن القوى لو اتفق مع الضعيف على كلمة واحدة لا تتغير لكان معناها للأقوى أكثر مما هو للأضعف . فان هذا القوى الذى يعمل مع الضعيف يكون فيه دائماً شخص آخر مختف هو القوى الذى يعمل مع نفسه

هكذا هى السياسة ؛ أما فى الانسانية فلا ، إذ يكون الحق دائماً بين الاثنين أقوى من الاثنين

(سيدى بشر . اسكندرية) مصطفى صادق الرافعى

مرى ؟ ؟ وصحيح أنها رُبِّيت فى بيتنا — مى — وانا جميعاً ننظر اليها كأنها واحدة منا ، ولكننى لم أعتد أن أرفع الكلفة بينى وبينها على الرغم من ذلك . فلم يسعنى إلا أن أنحدر وأتركها.

ولكننى لم أقل لاخوانى شيئاً ، واكتفيت بأن أجلس على كرسى أمام الباب وأنا أقول لنفسى : « من الآن إلى العشاء يفرجها ربك ... ولست أعرف لى الآن عذراً غير الأفلاس أعتذر به لاخوانى ، ولكن الله قد يفتح عليَّ ويلهمنى العذر المقبول »

ولم أفكر قط فى وسيلة لتدبير الريال المطلوب ، فقد كنت من ذلك على يأس كبير ؛ واقتنعت بما قالت لى أمى ، فصار همى أن أهتدى إلى عذر يقتنع به الاخوان ، ولا أخجل أنا منه . وإنى لكذلك وإذا بالفتاة الخادمة تدنو منى وتهمس فى أذنى أن تعال ، فأسألها فتقول : « كلِّم » وتسبقنى إلى الفناء فالسلم ، وأصعد درجات فتستوقفنى فألتفت اليها فتمد يدها بريال تضعه فى كفى فأعجب وأنظر اليه واليها وأسألها :

« ما هذا ؟ »

فتقول : « ألست تريد ريالاً ؟ هذا هو »

فأقول — وقد زاد عجبى — : « ولكن من أين لك هذا الريال ؟ »

فتقول : « إنه من مرتبى »

فأسألها : « هل طلبته من أمى ؟ »

فتقول : « نعم »

فأعود أسألها : « وماذا قلت لها ؟ ؟ لأى شىء طلبته منها ؟ »

فتقول : « طلبته والسلام »

فأقول : « كلا . . . إن أمك هى التى تقبض مرتبك كل بضعة شهور ، ولم يحدث قط أن أخذت أنت شيئاً منه ، فكيف رضيت أمى أن تعطيك الريال هذه المرة ؟ قولى الحق . . كيف أخذته ؟ »

فأغضت وقد اتقد وجهها — وكانت بيضاء حسناء — وقالت : « سرقته لك ! »

فصحت وقد فزعت : « إيه ؟ »

قالت : « لا تصح هكذا ! ! أتريد أن يقتلونى ؟ »

قلت : « ولكن السرقة ؟ ؟ كيف تجرئين ؟ »

قالت : « وهل هذه سرقة ؟ إنه من مرتبى وسأخبر ستى بعد أن تذهب أنت إلى التياترو »

قلت : « ولكن من أين عرفت أنى أريد ريالا ؟ »

قالت : « سمعت ستى وستى تتكلمان » — تريد والدتى وجدتى —

قلت : « ثم غافلتهما وسرقت ؟ أليس كذلك ؟ »

قالت وهى مطرقة : « نعم »

قلت : « ولماذا ارتكبت هذا الأثم ؟ »

قالت : « لم أستطع أن أراك هكذا »

قلت : « شكرا لك ... ولكن هذا الريال يجب أن يرد إلى مكانه ... حالا ... فمن أين أخذته ؟ »

فوصفت لى المكان الذى كان فيه . فقلت لها : « يجب أن تعلمى أنى لا أريد أن أذهب إلى التياترو ، ولو كانت لى رغبة لألححت على أمى ، ولأعطتنى ما أريد . ثم يجب أن تقسمى ألاّ تعودى إلى مثل هذا العمل فانه إثم كبير ، وإلا أخبرت ستك ، وأنت أدرى بما يكون إذا علمت »

وصعدت قبلى ، وعدت أنا والريال معى إلى كرسيَّ على الباب أمام البيت ، فمر أحد أخوانى فناديته وقلت له : إنى آسف ، وإنى لن أكون معهم الليلة ، وليس هذا لقلة المال (وأخرجت الريال من جيبى وبسطت به كفى له ليراه ، ولكن سبباً آخر يحول دون الذهاب

ولما تركنى صعدت إلى غرفة والدتى ، وكانت مشغولة باعداد الطعام فى المطبخ ففتحت خزانة الثياب وهممت بأن أدس الريال حيث كان وإذا بوالدتى إلى جانبى تسألنى :

« ما هذا الذى بيدك ؟ »

فمددت يدى إليها بالريال وقلت وأنا مضطرب والعرق يتصبب :

« ريال ، كما ترين »

قالت : « ريال ؟ أخذته ؟ »

فلم أدر ماذا أقول ؟ ! أأقول الحق فيحل غضبها بالفتاة المسكينة التى دفعها العطف الى السرقة ؟؟ أم أتهم نفسى وأنا برىء ؟! ولم يكن أحد الأمرين أخف على نفسى من الآخر ، ففكرت بسرعة ، فلم أجد أن فى مقدورى أن أشى بالفتاة وأعرضها لنقمة أمى ، وأجعل جزاءها هذا السوء على ما أرادت من الاحسان الى وإن كانت قد أخطأت السبيل

فقلت : « نعم ... أخذته من هنا ... ثم راجعت نفسى ، فندمت وقد كنت أريد أن أعيده الى مكانه ... فهل تصدقيننى »

من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكي عريبي

— ٢ —

خلق الألفاظ والتعبيرات العلمية

وثمة صعوبة أخرى يلقاها المترافع المصري : تلك هي صعوبة العثور على اللفظ اللازم أو التعبير اللازم في المحل اللازم

قدمنا أن كثيرا من المشتغلين بالقانون في مصر — بل قل غالبيتهم المطلقة — درسوا القانون بلغة أجنبية استجمعت شروط الصلاحية للتعبير عن كل فكرة أنتجها الفقه الحديث . وجميع هؤلاء ، محامين كانوا أو وكلاء نيابة أو قضاة ، مطلوب منهم أن يصوغوا ما تعلموه بالفرنسية أو الانكليزية كلاماً عربياً فصيحاً

دعك من صعوبة التفكير بلغة والكتابة بأخرى ، فقد يتغلب عليها من ملك زمام اللغتين كقاضي قضاتنا ، يعرض للقاعدة المعروفة أن العقوبة شخصية لا يمكن أن تعدو الجاني إلى غيره فيؤديها بهذا الاقتباس البديع « القاعدة العامة ألا تزر وازرة وزر أخرى » . دعك من هذا فقد يثبت المثل المتقدم أن الأمر مما لا يصعب تذليله ، وتعال إلى ضرورة إيجاد الألفاظ والتراكيب اللازمة لتأدية معان مشهورة مستقرة في فرنسا وغيرها من بلاد الفقه الحديث

هنا الصعوبة الكبرى يلقاها المشتغلون بالكتابة القانونية كل يوم . ولا سبيل لقهرها سوى التعريب والاشتقاق

والأول سهل ميسور على شرط الرضاء بأن تكون لغتنا القضائية شبيهة بالمالطية . ومن ذا الذي يرضى لنفسه الآن أن يقول كما كانوا يقولون في أحكام عثرنا عليها في مجموعة « القضاء » سنة ١٨٨٧ « ابللو » و « محاكم الريفورمه » ؟

لم يتعين إذن سوى طريق الاشتقاق وهو أصعب ما يكون . لا لأن الأمر يتطلب تعمقاً في اللغة وحسن ذوق في الاختيار فحسب ، بل لأن اللفظ المشتق كثيراً ما يلتوى معناه على غير ناحيته . هو في حاجة بفرض التوفيق من هذه الناحية إلى مبايعة رجال القانون له واعترافهم به سيداً غير منازع لمعنى خاص »

خذ مثلاً كلمتي responsabilité delictuelle فقد حار صديقنا القاضي مصطفى مرعى وهو الفصيح المفوه في ترجمتها ولم يوفق بعد طول الجهاد لغير « المسئولية التقصيرية » ، وقد يقول سواه « المسئولية الخطئية » . وكلا التعبيرين قاصر في نظري عن تأدية كل المعنى المنطوى في العبارة الفرنسية

وإن أنس لا أنس ما لاقيته وأنا أحاول تأدية معنى action liée في مذكرة قدمتها لمحكمة النقض عن الشروط الواجب توفرها في جريمة شهادة الزور . بماذا أعبر عن هذا الركن من أركان الجريمة ؟ إن قلت : « دعوى مربوطة » وهي الترجمة الحرفية للفظ الفرنسي كانت ترجمة سقيمة باردة . وإن قلت : « دعوى معلقة » انصرفت الصينة إلى معنى آخر . وأخيراً استخرت الله فقلت : « دعوى قائمة » وأنا لا أدري أأديت أم لم أؤد ؟

على أن هذا الذي حار فيه عجزي قد استقام لمحكمة النقض برياسة إمام اللغة القضائية المصرية عبد العزيز باشا فهمي ، فقد صدر حكمها مقررا أن لا شهادة زور حتى تؤدى في دعوى « مرددة » بين خصمين ، وهو تعبير بارع دقيق ، لم يكن في

قالت : « نعم : ضعه حيث كان »

وتركتني

***

وفي تلك الليلة ، قبل أن أنام ، خلت بي أمي وقالت :

« أصدقني ... أنت لم تأخذ الريال ... هه ؟ »

قلت : « عديني أن تصفحي وتغفري وتطوى الأمر فلا تذكريه »

قالت : « لك ذلك »

فقصصت عليها الحكاية ، فقالت : « الحمد لله ! حسبي أن يقيني فيك قد صدق ... »

قلت : « والفتاة ؟ »

قالت : « لا تخف أن أخلف وعدي لك . . . ولولا أني أعرفك واطمئن إليك لما أبقيتها في بيتي ساعة واحدة ، وإن كنت لا أطمع أن أظفر بخادمة مثلها في وفائها وحسن قيامها بعملها ... على كل حال غفرت لها من أجلك ... قم الى نومك »

ابراهيم عبد القادر المازني

ميسور غير الضليع المتفقه فى اللغة المتثور عليه

***

ولنقف عنـد هذا الحد من الكلام على مشاق الناطقين بالضاد فى عصر اللاسلكى والكهرباء ، فقد ساقتنا المناسبة إلى أبعد مما نريد ؛ ولنقصد رأسا إلى لغة المرافعات ، كيف كانت ، وكيف يجب أن تكون ، ثم نعقب على ذلك ببحث موجز فى لغة الأحكام

لغـــة المرافعات

ضرورة البلاغة فى اظهار الحق

اتفق الناس من قديم على أن البلاغة صفة لازمة لمن جعل الدفاع عن حقوق الناس مهنته ، تواضعوا على وجوب أن يكون المحامى فصيح اللسـان ، بالغ الأثر بكلامه ، متلاعباً بالعقول والقلوب ؛ وما زال الاجماع على لزوم توفر هذه الصفات واقعا

ولـكن لماذا ؟

أليس الحق هو بغية المترافعين عن الحق ؟ أو ليس الحق حقا بذاته ؟ أيوجد أوضح وأظهر منه ؟ فيم حاجة المترافع عن الحق إذن إلى الصنعة وإلى التفنن فى أساليب الخطاب ؟

أحد أمرين : إما أن المترافع يرمى إلى قلب الحقائق فلا بد له من زخرف القول يموه به ويغرر . وإما أن الحق المجرد بغيته ومطلبه ، والحق المجرد ميسور بمجرد الطلب

خطأ بالغ !

سل طلاب الحق فى كل زمان ومكان ينبئوك بأن الـكلام عن نوره الساطع وشمسه المتألقة وسلطانه القاهر خيال فى خيال . حدثهم عن كنهه يخبروك بأنه جوهر نادر ثمين مستقر فى أعمق الأعماق ، خفى على الباحث ، عصى على المستخرج ؛ وأن وجوده إذا هو اكتشف وجود نسبى يقتصر فى الغالب على المـكتشف ، فاذا ما أراد هذا أن يثبت اكتشافه للغير وجب أن يعد نفسه لحرب عوان ليس له من سلاح فيها غير بيان حسن ، ومنطق واضح ، وبلاغة غالبة

يحكى عن أومرسون أحد جهابذة الفقهاء فى عصره ، وقاضى القضاة فى عهد لويس الخامس عشر ، أنه قال : « والله لو اتهمت بسرقة برجى كنيسة نوتردام وجرى الغوغاء فى أثرى صائحين : (اللص ، اللص) لبدأت دفاعى عن نفسى باطلاق ساقى للريح »

مبالغة ولا شك ، ولـكنها مبالغة أراد بها من عرك المحاكم دهرا أن ليس فى عالم القضايا شىء يزاحم البديهة ويقر له بالصحة حتما . وإنه يكفى أن توجد تهمة لـكى يوجد بجانبها خطر الحكم على المتهم ظلما ، أو تبرئة الجانى خطأ

على أنه من ذا الذى يستطيع التحدث عن الحقيقة المجردة المطلقة ؟ أين الحق الذى لا يمازجه باطل ؟ وأين الباطل الذى لا يمازجه حق ؟ النسبية قانون متمش فى كل شىء فى الوجود ؛ وليس أسهل من تبين حكمه فى عالم الحقوق ؛ ورحم الله الامام الأعظم أبا حنيفة ، فقد قال لتلاميذه يوما : « أراكم تسرفون فى الأخذ عنى ، فوالله إنى لأرى اليوم رأياأعدل عنه غدا إلى عكسه » . وسأله سائل مرة : « هذا الذى تفتى به أهو الحق الذى لا شك فيه ؟ » . قال : « والله لا أدرى ، فقد يكون الباطل الذى لا شك فيه »

فى كل دعوى إذن مزاج من الحق هو أشبه شىء بالذهب تخالطه عناصر كثيرة متنوعة على المترافع أن يطهره منها فيخرج بالمعدن النفيس متألقاً وهاجاً . وأنى له ذلك إلا أن يؤدى رسالته على الوجه الأكمل ، فيجلو ما غمض ، ويبسط ما تعقـد ، ويسهل ما استعصى ، والأمر بعد ذلك ورغم ذلك لا للقضاء وحده ، بل للقضاء والقدر

ورب حجة سائغة قاطعة يحويها كلام سقيم فتضيع قوتها ، وتخمد جذوتها ، فاذا ناصرها البيان ، وقدمها فصيح اللسان انقلبت سحرا حلالا

تعريف البلاغة

البلاغة إذن ألزم اللزوميات للمترافع ، ولـكن ما البلاغة ؟ وبعبارة أخرى — حتى لا تظن أننا قد شردنا عن الموضوع الذى نعالجه — كيف يجب أن تـكون لغة المترافع

احترام قواعد اللغة

من العبث أن ينبه منبه على ضرورة احترام قواعد اللسان الذى يستعمله المترافع أداة للاقناع . إنه يخاطب فى الغالب هيئات نالت حظاً يذكر من الثقافة العامة ، وإنه ليحترم هذه الثقافة إذا

هو نزه سمعهم عن لغة السوقة والغوغاء فكلمهم بلسان سليم يحترم فيه قواعد النحو والصرف

محل اللغة العامية فى المرافعات

ولكن أمعنى هذا أنه يجب نبذ اللغة العامية وإقصاؤها عن المرافعات حتى ولو طهرت من سفساف القول وخلت من كل ما يؤذى السمع ؟

الحال تختلف فى مصر عنها فى غالب البلاد الأوربية ، فهناك تتكلم الطبقة الراقيـة (ومنها المترافعون عادة) بعين اللغة التى يكتبون بهـا ويقرأون . صحيح أن المتكلم لايعنى باختيار اللفظ وصقل الكلام عنايته بهذين الأمرين إذا كتب ؛ وصحيح أن لغة الارتجال ما تزال تختلف اليوم عن لغـة التحرير ، فالأولى تسمع والثانيـة تقرأ ، ولـكن مجرى اللسان فى الحالتين واحد فلا يميز بينهما إلا الضليع فى اللغة

وليس الأمر كذلك فى مصر ، فنحن — وأعنى طبقة المتعلمين — نستعمل الى اليوم فى بيوتنا وفى حديثنا مع أصدقائنا بل وفى تفكيرنا إذا خلونا الى أنفسنا لغة نعدل بها عدولاً ظاهراً إذا وقفنا للدفاع أو جلسنا للكتابة

فهل يجب أن نمضى فى هـذه السبيل الى نهايتها ؟ وهل يجب اقصاء اللغة العامية عن المرافعات ؟

المسألة شائكة حقاً . وإنه ليكفيك أن تسمع واحـداً من شيوخ مدارهنا المقاويل لكى تأخذك الحيرة ويعمى عليك الحكم

أينا لم ير الهلباوى فى أحد مواقفه الرائعة ؟ إنه يتكلم الفصحى فيزرى بفقهاء اللغة . ولـكن الرجل محام بطبعه وسليقتـه فهو يعرف أن العربية الصحيحة ما تزال الى اليوم لغة صنعة ، وأنها ما تزال تجهد المتكلم والمخاطب معاً . والاجهاد اذا طال انتهى الى الملل والسآمة . لهذا تراه وقد فرغ من التحليق فى سماء البيان وانتهى من قرع الأسماع فى نقطة معينة بخطاب نخم داوى الألفاظ رنان العبارة ، تراه بعد هذا وقدهبط بك من جوه الأعلى الى سهل موطأ من كلام عامى يروى به لطيفة من لطائفه السائغة ، أو يسوغ منه ملحة من ملحه العذبة البارعة ، أو يبرى منه سهماً من السخر الفتاك ينفذ به الى مقاتل الخصم

أتودع من غير أسى هـذه اللهجة الحلوة التى طبعها الخلق المصرى بطابعه الخاص منذ ألف أو يزيد من السنين وأصبحت مظهراً قومياً تتيه به مصر على جاراتها العربيات كما ذكر موسيقى اللفظ وخفة وقع الكلام على السمع وسرعة نفاذه الى القلب ؟

لا . سوف تبق العامية الى جانب العربية الفصحى لغة مرافعة إضافية تصاغ منها النكتة البارعـة يخف بها الضجر ويطوى بمعونتها ملل الجلسات الطويلة القاحلة . سوف تبق لغـة كلام متبخر زائل بزوال الجلسة التى يقال فيها . وليس من بقائها ضرر فهى لن تطغى على الفصحى بحال ، ولن تقوى على الحلول محلها فى موضع الجد وعند المناقشة الحاميـة تدور حول مسائل علمية أو موضوع خطير

بل إن نخش شيئاً فاخش زوال العامية بزوال الأمية وانتشار التعليم . بل لقد بدأت هذه النهاية فعلاً . فان اللغة التى يتفاهم بها عامة أهل المدن هى بالتأكيد غير ما كان يتخاطب بها آباؤهم منذ خمسين عاماً . إنها أقرب الى الفصحى بفضل ما تذيعـه الجرائد السيارة والمجلات المصورة وغيرها من صحيح الألفاظ والعبارات ، ولن يمضى طويل حتى تصبح الحال كذلك فى الأرياف فتـدول دولة العاميـة ويسود مصر من أقصاها الى أقصاها لسان راق أكبر أملنا أن يتجدد به شباب لغة القرآن

روح الفكاهة فى لغة العرب الفصحى

ولسنا نخاف على روح الفكاهة من هذا التجديد ، فالبرهان قائم على صلاحية الفصحى العصرية لما ينطوى عليه الخلق المصرى من حب للمرح والدعابة . لقـد طاوعت فكرى أباظه الى آخر حدود المطاوعة . وإن تأسف لشىء فلأنه لم يقع لنـا من كلام الأستاذ شىء قضائى يمكن أن يجد له محلاً فى هذا البحث . ولـكن ان فاتتنا دعابة فكرى أباظه القضائية فلم تفتنا لحسن الحظ دعابة عمر بك عارف . أنظر إليه وقد قام يترافع فى قضية قذف مشهورة كان المتهم فيها موظفاً استباح لنفسه أن يتـدخل فى السياسة وجمح به قلمه مرة فنال من رجل كريم

«ولـكن المتهم آثر التعرض للسياسة وما هولها . وانصرف الى التشيع فيها ورضى أن يكون موقفه منها موقف الزبانيـة من جهنم ، فهو يطلع على خصومه يشع وجهه ناراً منتفخ الأوداج

يندفع بلسانه على لقم الطريق، إن تعرضوا له يلهث، وان تركوه يلهث. ثم إذا فرغ من تعذيب الناس بما رماهم به من جارح القول عاد يتصبب عرقاً، وأخذ مجلسه من ديوان الصناعة والتجارة بمد يداً للوظيفة يعدها قرشاً قرشاً ويمسح عرقه بالأخرى كأنه أبلى في عمله الحكومي الذي اؤتمن عليه »

صورة بارعة بلغت فيها الدعابة الساخرة غاية ما يتمناه صاحب « النكتة البلدية » ولكن بلغة هي من أفصح ما يكون

وليست مطابقة الكلام لقواعد النحو إلا عنصراً واحداً من عناصر لغة المرافعة الجيدة، فما هي عناصرها الأخرى ؟

(يتبع) زكي عريبي

المحامي أمام محكمة النقض والإبرام

الثورة الأســـــبانية

بقلم باحث دبلوماسي كبير

كانت أسبانيا قبل بضعة أعوام تحيا حياة عادية، وتتمتع في ظل الملوكية بنوع من الاستقرار والسكينة، لا يزعجها سوى بعض الأزمات الداخلية والاضطرابات المحلية. ولكن أسبانيا شاءت منذ بضعة أعوام أن تحطم نير الملوكية، وأن تقيم حكومة جمهورية شعبية؛ وكانت الملوكية الأسبانية تحتضر في الواقع قبل ذلك بأعوام، في ظل حكومة الطغيان العسكري التي فرضها الجنرال بريمو دي رفيرا على أسبانيا منذ حوادث مراكش الشهيرة؛ وكانت أسبانيا تعاني مرارة هذا الطغيان المرهق ساخطة متربصة؛ فلما توفي الجنرال دي رفيرا اضمحل نير العسكرية؛ وحاولت الملوكية أن تستعيد سلطانها القديم، ولكن الشعب الأسباني كان قد سئم حياة الذلة في ظل النظم المطلقة، فانتهز فرصة الانتخابات العامة التي أجريت في ربيع سنة ١٩٣١ وأبدى رغبته جلية في مناصرة الجبهة الجمهورية، وشعرت الملوكية أنه لم يبق لها أمل في البقاء، فآثرت أن تنسحب في سكينة، وأن تترك الميدان حراً للشعب الذي لفظها وأباها

وهكذا قامت الجمهورية الأسبانية نتيجة ثورة سلمية لم يشبها سيل الدماء، ولا ويلات الحرب الأهلية؛ واعتقد الشعب الأسباني، واعتقد العالم أن أسبانيا سوف تستقبل في ظل الجمهورية حياة جديدة من الحرية والسكينة والرخاء

ولكن الجمهورية الأسبانية ولدت ضعيفة مفككة العرى، ولم يستطع زعماؤها منذ البداية أن يجمعوا كلمتها أو يوحدوا قيادتها ضد القوى الرجعية التي كانت تتربص بها؛ ومنذ البداية انحدرت الأحزاب والقوى الجمهورية إلى غمر الخصومات والمعارك المحلية؛ ونمت الحركة الاشتراكية في ظل النظام الجديد بسرعة، واستطاعت ولاية قطلونية مهد الاشتراكية الأسبانية أن تملي إرادتها على حكومة مدريد، وأن تفوز باستقلالها المحلي؛ وتوالت الأزمات الداخلية والاعتصابات المحلية، وزادت الأزمة الاقتصادية في حدة هذه الاضطرابات وخطرها على الجمهورية الفتية؛ وألفت الجمهورية نفسها عاجزة عن ضبط القوى التي أثارتها، وتعاقبت الحكومات بسرعة، وسارت البلاد مسرعة إلى الفوضى؛ ولم تدرك الأحزاب الجمهورية أنها بهذه المعارك المستمرة تمهد لفوز القوى الرجعية التي تتربص بها

وكان الجيش مهد هذه القوى الرجعية التي تناصرها فلول الملوكية الذاهبة؛ وقد دبر فلول الملوكية وفلول النظام القديم في الأعوام الأخيرة عدة محاولات ومؤامرات لاسقاط النظام الجمهوري، ولكنها فشلت جميعاً، لأنها كانت محاولات محلية لا تؤيدها قوة عامة. على أن روح التبرم والسخط كانت تضطرم دائماً في معظم وحدات الجيش؛ ولم ينس زعماء العسكرية أنهم تمتعوا بسلطان الحكم في عهد الطغيان العسكري، وأن قيام الحكومة الجمهورية إنما هو قضاء على سلطانهم ونفوذهم؛ ورأوا من جهة أخرى ما يشجع آمالهم ومشاريعهم في عجز الحكومة الشعبية، وتوالي الاضطرابات العامة، وسأم الشعب من هذه الفوضى التي يذكيها تفاقم الأزمة الاقتصادية، وتوالي الاعتصابات

وقد ألفت العناصر العسكرية الناقمة فرصتها في الاضطرابات والاعتصابات الأخيرة التي دبرها الشيوعيون بالأخص، والتي ما زالت منذ أسابيع تزعج حكومة مدريد وتستنفد اهتمامها وقواها، فأعلنت خروجها على الحكومة، واتخذت «تيطوان»،

عاصمة مراكش الأسبانية قاعدة لهـا ؛ وقد كانت مراكش الأسـبانية وما زالت معقل العسكرية المتمردة ؛ بيد أن زعماء الثورة كانوا قد اتخذوا أهبتهم فى كثير من القواعد الأسـبانية فى الشمال والجنوب حيث تحتشـد العناصر المعارضة لحكومة مدريد ؛ وكان إعلان الثورة فى الثامن عشر من يوليه فى منطقة الحماية الأسبانية ، حيث أعلن زعيم الثورة الجنرال فرانكو ثورة الجيش على حكومة الجمهورية ، ووجوب تخليها عن الحكم . وفى الحال اجتازت عدة فرق من جيش مراكش البحر الى الشاطىء الأسـبانى من جهة الجزيرة ومالقة . ولم تكن حكومة مدريد جاهلة بالأمر ، بيد أنها اضطربت لقيام الثورة فى عـدة مناطق دفعة واحدة ، وزاد فى اضطرابها أن الوحدات البحرية والجوية التى سيرتها لمقاتلة الثائرين ، وإطلاق قنابلها على تيطوان ، انضم معظمها الى الجيش الثائر

وفى الحال اتسـع نطاق الثورة ، وانضمت حاميات الشمال فى ولايات ليون وأراجون وخليقية إلى جانب الثورة ؛ واخترق الجيش الثائر ولايات الجنوب بسرعة ، واسـتولى على قواعد الأندلس : قادس وغرناطة وأشبيلية ؛ واتخذ أشبيلية قاعدة للزحف على مدريد ، وأعلنت القيادة الثائرة سقوط حكومة مدريد ، وقيام حكومة أسبانية جديدة فى الأندلس

أما حكومة مدريد فلم تر أمامها بعد الذى رأته من تمرد القوى النظامية سوى الاعتماد على التجنيد العام . ولنلاحظ أنه فى خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى من قيام الثورة تعاقبت ثلاث وزارات فى مدريد ولم تمكث إحداها سـوى أربع ساعات ، واستقال رئيس الجمهورية السنيور أزانا ؛ وفى الحـال حشدت حكومة مدريد قوات جـديدة من بين العمال والطوائف الموالية لهـا وهى التى تجتمع حول الجبهة الاشتراكية ، وسيرتها لمقاتلة الثوار فى الشمال والجنوب مع بعض القوات النظاميـة التى لبثت موالية لهـا . ومنذ أكثر من أسبوعين تضـطرم أسـبانيا بسلسلة لا نهاية لهـا من المعارك الدموية ، وتقول الحـكومة فى بلاغاتها دائماً إنهـا تقبض على ناصية الموقف وإنها دحرت الثائرين حيثما دارت رحى الحرب الأهلية . وتذيع القيادة الثائرة من محطات الاذاعة اللاسلكية فى أشبيلية أنهـا دحرت قوى الحـكومة ، والأنباء المتضاربة تتوالى من الجانبين ، بيد أنه يلوح من سير الحوادث والظروف أن جيش الثورة إذا استثنينا منطقة قطلونية الاشتراكية حيث دحرت العناصر الثائرة ، يتقدم فى معظم المناطق بسرعة ؛ وقد أشرفت القوات الثائرة على مقربة من مدريد ونشبت بينها وبين قوات الحـكومة معركة هائلة فى « وادى راما » يقال إن الخسائر فيها بلغت من الجانبين زهاء عشرين ألفاً ؛ والخسائر فادحة فى جميع المناطق على وجه العموم ، وخصوصاً فى القوات غير النظامية التى حشدتها الحكومة من طوائف لا خبرة لها بالقتال . بيد أن قوات الحـكومة استطاعت أن تقف زحف الثوار فى الشمال . وأما فى منطقة مدريد ، فلا تزال المعارك دائرة حتى كتابة هـذه السطور ؛ والظاهر أن قوات الحـكومة استطاعت أن تصمد فى وجه الثائرين ، لأن زعماء الثورة يقولون إنهم يعتمدون فى سقوط مدريد على الحصار وقطع مواصلاتها حتى تضطر إلى التسليم جوعاً

ويقول زعيم الثورة الجنرال فرانكو ، إن الثورة ترمى إلى انقاذ اسبانيا من براثن الشيوعية وانتشالها من تلك الهوة السحيقة التى تتردى فيها مذ غلبت عليها أحزاب اليسار واستولت على مقاليد الحـكم ، وإن الروح الثورية قد أضرمت فى الشعب واستغلت لجانب الشيوعية ، وإن الجيش لا يستطيع صبراً على تلك الحال المخزية التى تبدو بها أسبانيا أمام العالم ، وإنهم قد اعتزموا إنقاذ أسبانيا من قبضة أعدائها الذين كادوا أن يقضوا على كيانها الاقتصادى . ويقول فى بلاغه الذى أصدره إلى الجيش : « إن الاعتصابات الثورية تشب من كل جانب وتشـل حياة الأمة ، وتقضى على رفاهتها ، وتدفع بالشعب الأسبانى إلى الجوع واليأس ، وإن ذخائر أسبانيا الفنية قد أضحت عرضة لهجمات الجوع الثائرة التى تصدع بأمر الأجنبى ، وعمالها السلطات ؛ وإن الأمة تدعو الجيش اليوم وتناديه لانقاذها ... الخ »

أما برنامج الثورة فيلخصه الجنرال فرانكو فيما يأتى : تحقيق السلام والأخاء بين جميع الأسبانيين ، وضمان العمل والعدالة الاجتماعية ، والقضاء على الانتخابات المزيفة ، والاعتصابات

المدبرة ، وحماية الحكومة المدنية من كل النزعات الثورية ، وحماية أسبانيا من الدسائس الأجنبية التي تعمل لخرابها ...

***

على أننا نستطيع أن نتبين من خلال هـذه الحوادث والظروف حقيقة أخرى ، هي أن الحرب الأهليـة تضطرم في أسبانيا من جهتين من المبادئ ، أعني بين الديمقراطية والفاشستية ، وهذه هي نفس المعركة التي نشبت وما زالت تنشب في كثير من الأمم الأوربية بين قوى الطغيان والديمقراطية . ولا ريب أن الفوضى التي تعانيها أسـبانيا منذ قيام الجمهورية ، والأزمات الداخلية المستمرة ، هي ذريعة القوى الرجعية في القيام بحركتها ، وهي التي أدت بالحكومة الجمهورية إلى هذا الضعف الذي يعرضها إلى السقوط . ونلاحظ أن أسبانيا توجد اليوم في ظروف تماثل ظروف إيطاليا قبل قيام الفاشستية ؛ فقد انتهت بها الاضطرابات الاشتراكية المتوالية إلى مثل الحالة التي تعانيها أسـبانيا اليوم وألفت الفاشستية ، أو بعبارة أخرى قوى الطغيان الفرصة سانحة للقيام بوثبتها ، والقبض على ناصية الحكم إلى يومنا

وليس من ريب في أن العسكرية الأسـبانية المتمردة ترمى بوثبتها إلى غايات فاشستية محضة ؛ ومهـما كان من الصيغ والتصريحات الخلابة التي تستتر وراءها في القيام بحركتها ، فان ظفرها يعتبر خطراً على أسبانيا من الوجهة الدستورية ؛ ذلك أن قيام الدكتاتورية العسكرية معناه القضاء على النظام الجمهوري ، وما يترتب عليه من الحقوق والحريات العامة ، والعودة إلى نظام الطغيان الذي أنشأه الجنرال دي رفيرا قبل ذلك بعشرة أعوام ، وربمـا كان ظفر العسكرية من جهة أخرى مقدمة لعود الملوكية الأسبانية ، وقيامها ثانيـة في كنف العسكرية الطاغية ، ورهن نفوذها وإشارتها

وثمة حقيقة أخرى ، هي أن هذه المعركة التي تضطرم اليوم في أسبانيا بين قوى الطغيان والديموقراطية بصورة مادية مروعة ، إنمـا هي ناحية من المعركة العامة التي تدور رحاها اليوم في أوربا بأسرها ، تارة في الجهر وتارة في الخفاء ، وربما كان من الصعب اليوم أن نتبين نتائج هـذه المعركة الحالية في المستقبل القريب ؛ بيد أن الذي لا ريب فيه هو أن الديموقراطية فقدت كثيراً من قوتها القديمة ، وأدت بضعفها وتخاذلهـا وما كشفت عنـه في الأعوام الأخيرة من نواحي الفساد ، إلى إضعاف العقيدة الديموقراطية وتحول جانب كبير من أنصارها إلى الجبهة الخصيمة ؛ وهذا وجه الخطر في مستقبل الديموقراطية . وإذا أسفرت المعركة الحالية في أسبانيا عن فوز العسكرية الطاغية ، فان ذلك يكون ضربة جديدة للديموقراطية بأسرها ، وعاملاً جديداً في انتعاش القوى الرجعية ، ونذيراً بالمستقبل المظلم الذي يهدد الديموقراطية في جميع البلاد التي لا زالت تصمد فيها ؟

(***)

البداوة فى طباع أبى الطيب *

للدكتور عبد الوهاب عزام

فى خلق أبى الطيب قوة وخشونة تميلان به إلى كل قوى وكل خشن ، وتمدلان عن كل ضعيف وكل لين ؛ وفى خلقه صراحة تحبب إليه كل صريح من القول والفعل والرأى ، وتنفره عن كل مموّه مزخرف

وقد لاءمت هده الأخلاقُ التبدّى ، وزادها التبدى تمكناً فيه ، وظهر أثر هذا فى فعله وقوله

وسأمرّ بسيرة أبى الطيب سريعاً منبّهاً إلى الحادثات والأقوال الدالة على حبه البداوة ، والمبينة عن تمكن البداوة فى طبعه ، وأثرها فى نفسه :

— ١ —

عاش الشاعر فى البادية حقبة وهو صبى . روى الخطيب البغدادى عن محمد بن يحيى العلوى الكوفى أن أبا الطيب صحب الأعراب فى البادية سنين ثم رجع إلى الكوفة بدويا قحًّا

وعاش فى الشام بين البدو والحضر . وبعض من وحيه هناك من رؤساء البادية مثل سعيد بن عبدالله الكلابى ، وشجاع بن محمد الطائى

وهو يقول فى الشام :

أوانا فى بيوت البدو رحلى   وآونة على قتد البعير
أعرّض للرماح الصمّ نحرى   وأنصب حرّ وجهى للهجير
وأسرى فى ظلام الليل وحدى   كأنى منــــه فى قمر منير

ويقول :

ومُدقعين بسُبروت صحبتهم   عارين من حلل كاسين من درن
خرابّ بادية غرثى بطونهم   مَكن الضباب لهم زاد بلا ثمن
يستخبرون فلا أعطيهم خبرى   وما يطيش لهم سهم من الظنن

— ٢ —

وفى مصر حنّ إلى البادية ، وفضّل البداوة على الحضارة ، وتغزل بالبدويات فى القصيدة التى مطلعها :

مَن الجآذر فى زى الأعاريب   حمر الحلى والمطايا والجلابيب

يقول فيها :

ماأوجه الحضر المستحسنات به   كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفى البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرة   وغير ناظرة فى الحسن والطيب
أفدى ظباء فلاة ماعرفن بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة   أوراكهن صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة   تركت لون مشيبى غير مخضوب
ومن هوى الصدق فى قولى وعادته   رغبت عن شعر فى الرأس مكذوب

وكانت له فى مصر مع بعض رؤساء القبائل مودة . فلما أزمع الرحيل مغاضباً كافور استعان بأحد أصدقائه عبد العزيز ابن يوسف بيلبيس وسأله دليلاً فأنفذه اليه ، وقال فى هذا :

جزى عرباً أمست بِبُلبَيس ربُّها   بمسعاتها تقرر بذاك عيونها
كراكر من قيس بن عيلان ساهراً   جفون ظباها للعـــلى وجفونها
وخصّ به عبدالعزيز بن يوسف   فما هو الا غيثها ومعينها
فتى زان فى عينىّ أقصى قبيله   وكم من فتى فى حلة لا يزينها

وكان سيره من الفسطاط إلى الكوفة برهاناً بيناً على ماتمكن فى نفسه من أخلاق البادية وعاداتها ، ودليلا على خبرته بالسير فى البيادى ، فقد سلك طريقاً أُنُفا لا تسلكه القوافل . ذكر فى قصيدته التى وصف بها سفره اثنين وعشرين موضعاً ليس على السبل المطروقة منها إلا اثنان أو ثلاثة ، فما سلك طريق الحاج المصرى إلى الحجاز ، ولا طريق دمشق إلى الكوفة ، ولا طريق الفرات ، بل سار على أحياء البادية ، والمياه الموردة والآجنة حتى بلغ غايته

وكانت له فى مسيره وقائع تمثله بدويا قحا خبيرا بقبائل البادية وعاداتها ، مزودا بجرأة الأعراب وإقدامهم :

لما بلغ نخلا فى سينا ألفى خيلا صادرة عن الماء ، فأشفق

* من الكلمة التى ألقاها الأستاذ فى مهرجان المتنبى بدمشق

أن يكونوا عيوناً عليه أو عدوا له ، فقاتلهم وغلبهم . ولما قرب من النقاب رأى رجلين فطردها وأخذها فأخبراه أنهما رائدان من بنى سليم فخلاهما وسار وهما معه حتى توسط بيوت بنى سليم آخر الليل فضرب له ملاعب بن أبى النجم خيمة بيضاء ، وذبح له ، وغدا فسار إلى النقع فنزل ببادية من معن وسنبُس فذبح له عُفَيف المعنىّ غنما وأكرمه ، وغدا من عنده وبين يديه لصان من جذام يدلانه

ولما بلغ حسمى فى شمالى الحجاز وجد بنى فزارة شاتينَ بها ، فنزل بقوم من عدىّ فزارة فيهم أولاد لاحق بن مخلّب ، وكان بينه وبين أمير فزارة حسان بن حكمة مودة ، وأراد ألا يعلم ما بينه وبينهم من ودّ فنزل بجار لهم من طيْ

واستطاب أبو الطيب حسمى فأقام بها شهراً ، وما أحبَّ المقامَ بالبادية اليه ! ثم استراب ببعض عبيده ، وظن أنهم يسرقون أمتعته ، ويريدون سرقة سيف ثمين كان معه ، أغراهم على هذا وردان بن ربيعة ، فأرسل إلى فتى من بنى مازن اسمه فليتة ابن محمد ، وكان قد عرفه من قبل ، فلما جاءه المازنىّ تقدم شاعرنا فشد أحماله وعبيده نيام ثم أيقظهم وطرحهم على الابل وسار والقوم لا يشعرون

وأخذ بعض العبيد السيف فدفعه وفرسه الى عبد آخر . وجاء الى فرس أبى الطيب ليأخذه فانتبه الشاعر البدوى الشجاع فقال العبد مخادعاً : أخذ الغلام فرسى . عدا الى فرس سيده ليركبه فالتقى هو وأبو الطيب عند الفرس . وسل العبد السيف فضرب الرسن فضرب أبو الطيب وجهه فقتله : وأرسل رجلاً من بنى خفاجة وآخر من بنى مازن ليدركا العبد الذى أخذ السيف فلم يقدرا عليه

وفى قتل العبد يقول الشاعر :

أعددت للغادرين أسـيـافاً أجدع منهم بهنّ آنافا
لا يرحم الله أرؤسا لهم أطرن عن هامهن أقحافا
ما ينقم السيف غير قلّتهم وأن تكون المئون آلافا
يا شر لحم فجعته بدم وزار للخامعات أجوافا
قد كنتَ أُغنيتَ عن سؤالك بى من زجر الطير لى ومن عافا
لايذكر الخير إن ذكرت ولا تتبعك المقلتان توكافا
إذا امرؤ راعنى بغدرته أوردته الغاية التى خافا

وأراد أبو الطيب أن يسلك الى مكان اسمه البياضى فأرسل فليتة إلى الأعراب الذين فى طريقه فعميت عليه أنباؤهم ، وخشى أن يكون له على الطريق رصد ، فعدل إلى دومة الجندل . وواصل سيره حتى بلغ الكوفة فى شهر ربيع الأول سنة ٣٥٢ بعد ثلاثة أشهر من خروجه من الفسطاط

فهل يستطيع أن يسير هذا المسير ، ويفعل هذه الافعال إلا بدوى جرىء خبير بالبوادى ؟

أليس فى هذا تصديق قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ألا يحقّ له أن يفخر به فيقول :

فلما أنخنا ركزنا الرما ح بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبّل أسـيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعرا ق ومن بالعواصم أنىّ الفتى
وأنى وفيت وأنى أبيت وأنى عتوت على من عتا
وما كل من قال قولاً وفَى ولا كل من سِيم خسفاً أبى
ومن يك قلب كقلبى له يشق إلى العزّ قلب النوى
ولا بد للقلب من آلة ورأى يصدّع صمّ الصفا

وفى هذه القصيدة روح البداوة وألفاظها . انظر قوله :

وقلنا لها : أين أرض العرا ق فقالت : ونحن بتربان ها

واسأل اليوم بدويا عن مكان قريب يقل لك : ها

— ٤ —

وفى قصة هجاء ضبة بن يزيد العينى دليل آخر على تبدّيه . فقد اجتاز بالطفّ فنزل بأصدقاء له . وساروا إلى ضبة وسألوه أن يصحبهم فلم يسعه إلا المسير معهم ، كما يقول الشاعر فى بعض الروايات :

فسير الشاعر مع أصدقائه إلى قتال ضبة أو إرهابه دليل على ما تمكن فى نفسه من عادات البادية

— ٥ —

ولما رحل الى فارس افتقد الوجه العربى واليد العربية

والليسان العربي فقال وهو يصف شعب بوان :

ولكن الفتى العربي فيها   غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمان

وافتقد عرب دمشق الذين كانوا يكرمون مثواه فقال :

ولو كانت دمشق ثنى عنانى   لبيق الثرد صينى الجفان
يلنجوجيّ ما رُفعت لضيف   به النيران ندّى الدخان
تحل به على قلب شجاع   وترحل منه عن قلب جبان
منازل لم يزل منها خيال   يشيّعني الى النوبنـد جان

وذكره الثرد والنار يدلنا على أنه يريد بادية دمشق لا حاضرتها

وقال في أول قصيدة مدح بها عضد الدولة :

أحب حمصاً الى خناصرة   وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح لبنان   وثغرى على حُمَيّاها
وصفت فيها مصيف بادية   شتوت بالصحصحان مشتاها
ان أعشبت روضة رعيناها   أو ذكرت حلة غزوناها الخ

ورجع الى التغزل بالبدويات في شيراز فقال في القصيدة التي مطلعها :

أثلث فأنا أيها الطلل   نبكي وترزم تحتنا الأبل
إن الذين أقمت وارتحلوا   أيامهم لديارهم دول
الحسن يرحل كلما رحلوا   معهم وينزل حيثما نزلوا
في مقلتى رشأ تديرها   بدوية فتنت بها الحلل
تشكو المطاعم طول هجرتها   وصدودها ومن الذي تصل
ماأسأرت في القعب من لبن   تركته وهو المسك والعسل

وقصة قتله برهان آخر على ما ندعى فقد حذره أبو نصر الجبلى وأشار عليه أن يستصحب خفراء فأبى أن يسير في خفارة

— ٦ —

وشعر أبي الطيب تتجلى فيه قوة البداوة وعزتها . ومن آثار البداوة فيه تهاونه في خطاب الممدوحين . وخروجه عن الألف أحياناً . ولذلك أخذ عليه النقاد مآخذ لا يتسع المقام لذكرها

ومن آثارها كذلك الكلف بالحرب وآلاتها والخيل ، والسفر . وشعره ملىء بهذا

ومن ذلك وصفه الحبيبة بالمنعة كقوله :

حبيب كأن الحسن كان يحبه   فآثره أو جار في الحسن قاسمه
تحول رماح الخط دون سبائه   وتُسبى له من كل حيّ كرائمه
ويُضحى غبار الخيل أدنى ستوره   وآخرها نشر الكباء الملازمه

وما شرق بالماء إلا تذكراً   لماء به أهل الحبيب نزول
يحرّمه لمع الأسنة فوقه   فليس لظمآن إليه وصول

متى تزر قوم من تهوى زيارتها   لا يتحفوك بغير البيض والأسل

سوائر ربما سارت هوادجها   منيعة بين مطعون ومضروب
وربما وخدت أيدى المطىّ بها   على نجيع من الفرسان مصبوب

ومن أثر البداوة استعماله بعض الألفاظ الغريبة أحياناً ، بما ألِف من خطاب الأعراب والأخذ عنهم

وقد رأيته في كثير من تعليقاته على ديوانه يحتج بما سمع منهم ، وأكتفى هنا بمثال واحد :

قال في قصيدة يعزى بها عضد الدولة :

مثلك يُثنى الحزن عن صوبه   ويستردّ الدمع من غربه
أيما لأبقاء على فضله   أيما لتسليم إلى ربه

ثم أتى بشواهد على وضع العرب أيما مكان إمّا إلى أن قال : وقد ظلع فرس لى فقال فلان الأعرابي وكان من أفصح الناس : أيما نسره مفلوق ، وأيما موهوص

— ٧ —

ذلكم إجمال الكلام في بداوة أبي الطيب

ولست أقول إن البداوة أنتجت هذه النتائج في أخلاقه وشعره ، ولكنى أقول إن بين طباعه وشعره وبين البداوة صلة قوية ، غرائز في الشاعر حببت إليه البداوة وما يتصل بها ، وبداوة وكّدت هذه الغرائز في نفسه

وبهذه الأخلاق الحرة ، والطباع القوية ، والشجاعة والاقدام كان أبو الطيب أقرب إلى الروح العربي من غيره

ولو أن عمرو بن كلثوم ، وعنترة العبسي ، والحارث بن حلزة عاشوا في القرن الرابع الهجرى حيث عاش أبو الطيب لأشبهوه في كثير من قوله وفعله

عبد الوهاب عزام

٤ - دانتى أليجييرى

والكوميديا الألهية

وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

فردوس دانتى

فى آخر المطهر أن دانتى تحسى من فراتِ (ليث) جرعة نزعت ما فى نفسه من أدران هذه الدنيا التى لا يجوز لمن ينطوى عليها أن يجوس خلال الفردوس ... وهى جرعة إلـهية جعلت من جسم دانتى هلاماً شفافاً وهَيُولى نقية استطاع بعدهما أن يرقى فى السماء، ويعرج فى الأثير، فى إثر بياتريس. (١) وأخذ طيف بياتريس يصَّعَّد فى الأديم الأزرق المشرب بنضارة البنفسج، وأخذ طيف دانتى يصَّعَّد فى إثرها بقدرة الاله العلى، حتى كانا فى السماء الأولى، والفتاة الطاهرة فى خلال ذلك تحدثه وتتلطف به، وترفه عنه بعض ما كان يضيق به صدره من وساوس. (٢) إلى أن دخلا تلك الجنينة الصغيرة التى أرضها من فضة وأنهارها من لجين ... جنينة القمر! حيث تشرح بياتريس لحبيبها المشدوه سبب تلك الظلال التى تعلو وجه السيار الصغير، والتى يراها الناس من سكان الأرض فى هذه الحياة الدنيا. (٣) وفى رحاب القمر، يلقى دانتى الفتاة بيكاردا دوناتى التى تأخذ معه فى حديث طويل، فتخبره أن هذا القمر هو جنة المساكين الذين نذروا حياتهم للخير فى الدار الأولى، وعاشوا عيشة كلها تقوى وكلها بر وورع، ولكنهم، وا أسفاه، لأمور ما، لم يوفوا بكل ما نذروا من فعل الخيرات، ثم تلفته إلى روح الأمبراطورة كوستانزا، تمرح فى بعض جنبات القمر، وتلعب. (٤) وتنطلق بياتريس، وفى إثرها دانتى، وكلما عمى أمر عليه جلته له صاحبته، (٥) حتى يكونا بعد رحلة سماوية جميلة، فى كوكب عطارد الذى يقع فى السماء الثانية؛ وثمة، يلقيان ثلة من أرواح البررة الأطهار ويتبرع أحدهم فيبدى استعداده للاجابة عن أى سؤال يلقى عليه من أمور الماضى أو الحاضر أو المستقبل. (٦) ثم يعرف دانتى أن الشخص الذى عرض عليه هذا العرض إن هو إلا الأمبراطور العظيم جوستنيان الذى يذكر للشاعر من أمور الحياة الأولى، فيما يتعلق بشخصه الأمبراطورى، الشىء الكثير، ويشرع بعد ذلك يحدثه عن عظمة الرومان القدماء، ويعدد له فتوحهم وخوالد غزواتهم التى دوخوا بها أقاصى الأرض فى ظلال بنودهم التى تحمل رمز رومة الخالد ... النسر ... ويذكر له أن روح روميو فلنيف تمرح فى رياض عطارد ذات الزهر والأفواف. (٧) وتتفرق الأرواح عن دانتى، وينطلق جوستنيان غير مستأذن، ولكن شكوكاً كثيرة تثيرها كلمات الأمبراطور فى نفس الشاعر من أجل الفداء البشرى، فتشرع بياتريس تقشعها واحداً فواحداً من نفس خليلها؛ (٨) ويعرجان إلى السماء الثالثة حيث الكوكب الجميل المتلألىء فينوس (الزهرة)، وحيث يلقى الشاعر صديقه العزيز الكريم شارل مارتل الذى يحدث دانتى عن مملكته الواسعة المترامية الأطراف التى كان يسيطر عليها فى الدار الأولى، ثم يتغير الحديث فجأة إلى الأبناء والأحفاد والسبب فى اختلاف فطرتهم وطبائعهم عن طبائع آبائهم (٩) ويعضيان فيلقيان روح ابنة الهوى كيونيزا Cunizza [١] التى طالما فتنت قلوباً وعذبت بحبها أفئدة، والتى كانت تملأ الأرض فسوقاً وتفعم المدائن دعارة، ثم تابت وثابت، وندمت على ما قدمت، وأقبلت على فعل الخيرات؛ وحدث أن ورثت عن أبيها عدداً من الأرقاء فمنحتهم حريتهم، وبذلك غفر لها وتُقُبِّل توبتها، وهى فى هذا المكان من فينوس لا تطمع فى درجة أعلى؛ ويعضيان فيلقيان فولكو الشاعر المنشد فيحدثهم عن الزانية، خضراء الدمن، رحاب Rahab التى تابت هى الأخرى فغفر لها، وسكنت هذا الكوكب مع كيونيزا. وبعد أن ينتقد الشاعر فولكو بابا روما وينعى عليه تغاضيه عن استرجاع الأراضى المقدسة يعود فيتنبأ عن بعض الكوارث التى تتربص به طى الغيب، والتى ستسحق سلطته. (١٠) ويعرجان صعداً فيكونان فى الشمس (!!) التى يعتبرها دانتى السماء الرابعة، وما يكادان يبلغانها حتى تحدق بهم ثلة من اثنى عشر روحاً، ويتقدم أحدهم (توماس أكويناس [٢]) فيقدم أصحابه إلى دانتى ويخبره عن

(١) كان الشاعر الايطالى الكبير سوردللو أحد عشاقها وضحية معذبة من ضحاياها العديدين

(٢) شاعر من العصور الوسطى وأحد أعلام النهضة

درجاتهم (١١) ثم يتوسع أكويناس فى سرد حياة القديس فرنسيس ، الراموز اللائكى للحب ، ويلحظ أثارة من الريب تنشب فى فؤاد دانتى فيحدثه عنها ويجلو له الحق الذى يعترى فيه . (١٢) وتقبل ثلة أخرى من اثنى عشر تقياً فيتقدم أحدهم (القديس دومينيك) ويسرد أسماء أصحابه لدانتى . والقديس دومينيك هذا هو الراموز اللائكى للحكمة . (١٣) ويعود توماس أكويناس إلى حديثه مع دانتى ، وكلما لمح أثارة من الشك فى نفسه نبأه بها وجلاها له ، وحذره من الوسواس وحذره من أن يحكم بقلبه أو عقله على شىء دون أن يدرسه ليصل الى حقيقته . (١٤) ويبرز سليمان النبى من وسط الجماعة فيحدث دانتى عما يكون من مظهر الصالحين من عباد الله بعد البعث . ثم يعرجان الى السماء الخامسة التى هى مارس (المريخ) فى زعم دانتى ، ويريان ثمة أرواح الشهداء الذين حاربوا تحت رايات الصليب الخفاقة ، ولم يخشوا فى سبيل ربهم أن يجرعوا غصص الموت ... أولئك قد بدت عليهم سيماء الصليب ، وما تفتأ أرواحهم ترسل فى الفردوس أناشيد الخلود المرنة تطريباً لعباد الله السعداء . (١٥) ويبرز من بين اللأسلف دانتى الصالح كاشيا جيدا ، ويأخذ مكانه تحت الصليب ، ثم يتعرف الى دانتى الذى يفرح به ويهش للقائه ، ويأخذ فى حديث طويل عن ماضى فلورنسا السعيد الحافل وينعى على الخلف ما فرطوا فى جانب الوطن وما أوضعوا فى الفتنة ، ومرجوا فى الضلالة (١٦) ويخبر دانتى عن يوم ميلاده ، ويصف له مجد فلورنسا ومدى حدودها فى أيامه والأسر العريقة التى كانت تزدان بها تلك المدينة الشقية التى انحطت أرومتها وفسد طيب محتدها واتضعت أقدار القروم من أهلها الأعلين (١٧) ويرسل كاشيا جيدا حبل القول فيتنبأ لدانتى عما يتربص به من غدرات الزمان والنفى من حظيرة الوطن حين يعود أدراجه إلى الحياة الدنيا . ثم ينتحى ناحية ويتناول طرساً من أوراق الجنة ، وقلما من قصباتها ويشرع فى كتابة شعر طويل ربق . (١٨) ويمضيان فيريان طوائف شتى من أرواح المحاربين الشهداء الذين خاضوا معامع الحروب الصليبية يمرحون فى أفياء الجنات الوارفة التى يهتز عنها المريخ ؛ ثم ترسل بياتريس عينيها العميقتين فى لازورد السماء ، وتشير الى دانتى فيعرجان فى الأثير الى جوبيتر (المشترى) الذى هو السماء السادسة فى حساب شاعر الكوميدية وهناك يلقيان جموعاً زاخرة من أرواح الصالحين الذين حكموا بين الناس بالعدل ووزنوا بالقسطاط المستقيم . ويكون هؤلاء أنَّى توجهوا مكونين دائماً شكل نسر (رمز رومة القديمة) . ثم ينتهى الفصل بحملة شعواء على رجال الأكليروس وما اشتهروا به من الطمع وحب الذات والتكالب على حطام الدنيا وجمع الأموال بالحق وبغير الحق ؛ ويخص دانتى رجال البابا بالقدح الأكبر من هذه الحملة (١٩) ويتكلم النسر الذى تكوّنه هذه الجماعة بلسان واحد مبين ، فيقص على دانتى السبب الذى من أجله اتُّخذ رمزاً لعظمة الرومان . ثم يتكلم دانتى كلام المتشكك عما إذا كان محتملاً أن (يَخْلُصَ) [1] الرجل من الناس من عذاب الجحيم من غير أن يكون مؤمناً بالمسيح مصدقاً به ، فينبرى النسر للاجابة ويزيل الريب من نفس دانتى ويخاطبه فى شأن أصحاب السيطرة والحكام من المسيحيين وماسيؤدونه من الحساب الثقيل يوم القيامة . (٢٠) وكذلك يمتدح النسر عدل بعض الملوك وورعهم ، ويكوّن هؤلاء عين[2] النسر نفسه ، وفى إنسان عين النسر يقف النبى داود ، وفى الدائرة المحيطة به يقف تراجان وحزقيال وقسطنطين ووليم الثانى ملك صقلية ورفيوس ... ثم يوضح له كيف وصلت أرواح هؤلاء إلى الفردوس وهم لم يؤمنوا قط بالمسيح « ولكنهم عملوا بما جاء قبله من لدن الرب فاستأهلوا دار المثابة » . (٢١) ويسموان فى السموات العلى ، فيبلغان السماء السابعة التى هى سَاتِرْن (زُحَل) حيث يسمق منه سلم ذاهب فى الجو لا تدرك آخره عينا دانتى . وفى زحل يلقيان أمماً من أرواح الصالحين الذين قضوا حياتهم الأولى فى اعتزال وصوفية وتأمل . ثم يدنو منهما روح كريم نقى ، هو روح خليل المسيح الورع التقى بيبرو داميانو (أحد كرادلة الكنيسة ومصلحيها العظماء) فيجيب على أسئلة كثيرة يوجهها إليه دانتى ، ثم يقدح فى ذمم القسس الأخسّاء ورعاة الكنيسة الذين فتنتهم الدنيا بزخرفها وصرفتهم عن وظائفهم الدينية وشغلتهم عن هداية الناس . (٢٢) ويريان جموعاً أخرى من الأتقياء المتفكرين ومن بينهم القديس الأطهر بندكت Benedict

(١) المقصود من الكلمة معناها المسيحى

(٢) خيال سقيم طبعاً

الذى يذكر لدانتى أسماء أصحابه الراضين فى ظلال الرب فى فراديس زحل . ثم يستطرد فيذكر أن المسوح والزنارات وسائر ألبسة القساوسة ورجال الكنيسة لا قيمة لها ما لم تزنها مسوح من الخلق الكريم والتقى والنقاء . ويزيد فيقدح فى خراب ذمم الرهبان والأحبار وفساد ضمائرهم . وينطلق الألفان فيعرجان إلى السماء الثامنة ، سماء الأنجم الثابتة ، التى يدخلانها من الهَنْعَة . ومن ثمة يرجع دانتى بصره كرتين إلى الوراء فتبدهه المسافة الهائلة بينه وبين الأرض (٢٣) وهناك ، يرى المسيح (صلوات الله عليه) يأخذ بناصر الكنيسة ويشد أزرها ، ومن حوله الملائك الأطهار يسبحون لله ويلهجون بحمده . ثم يسمو السيد المسيح فيعرج فى السماء العليا وفى أثره أمه البتول مريم ، شاخصة اليها أبصار الجميع . (٢٤) ويتقدم القديس بطرس من دانتى فيسأله بضعة أسئلة يعرف بها إخلاصه ونقاء إيمانه ، ويجيب دانتى فيقنع القديس بالكلم الطيب والبيان البرىء (٢٥) ويتقدم القديس جيمس فيسائل دانتى عن الأمل ، ثم يبدو القديس يوحنا فيدهش دانتى لرؤيته ، ولكن القديس يمحو دهشه ويذكر له أنه عرج إلى السماء بروحه فقط ، ولم يعرج اليها بروحه وجسمه إلا المسيح وأمه مريم . (٢٦) ثم يسائله القديس عن الفضيلة فيجيب دانتى إجابات ناصعة . وينظر الشاعر فيشدهه أن يرى أبانا آدم ، فيتأدب ويتقدم اليه ، فيخبره أبو البشر عن كيفية خلقه وإقامته فى الفردوس ومدى إقامته فيه ، ثم ما تلا ذلك من خروجه منه وسببه ، ثم عوده اليه ، ويتظرف فيذكر له اسم اللسان الذى كان يتكلم به فى بدء الخليقة[1] ويعود القديس بطرس فيصل حديثه ، ويحمل على خلفه حملة شعواء لما اتصفوا به من جشع ذهب برواء الأرشية الرسولية ، وينسى دانتى فيحدق نظره فى بياتريس غافلاً عما أوصته به فى أول الرحلة إلى الفردوس فتأمره أن يمضى .... فيفعل .... ثم يعرجان إلى السماء التاسعة حيث يطلعان على الحق الجلى من أمر هذا الخلق ، وحيث يشهدان فطرة الطبيعة فى جماع فضائلها ، وتسخط بياتريس على الانسان « ما أكفره ... يكون أمامه الخير بيّنا والشر بيّنا ، ثم يدلف بعلمه فى طريق الشر ، مضحياً هذا الفردوس من أجل هنات هينات » (٢٨) ويؤذن لدانتى فيطلع إلى الوجود الآلهى ، ثم يطلع إلى الخورس الملائكى يرسل ألحانه الكنائسية الرائعة فى قبة الفردوس . (٢٩) وتنظر بياتريس فى مرآة الحق الآلهى (هكذا) فترى أن بضعة شكوك قد نفذت إلى فؤاد دانتى وظلت ثمة تساوره ، فتضاحكه ، ثم تفجأه بما يفكر فيه ، وتجلوله ما نفذ إلى قلبه من ذلك الوسواس ، وتذهب فى القول مذاهب شتى ، وتنتهى إلى ذم رجال الدين الذين شغلتهم الدنيا عن نصرة الانجيل . (٣٠) ثم يدخلان سماء المنتهى[1] ذات السناء الساطع والضوء اللامع ، ويكاد نظره ينبهر لولا أن تدركه بياتريس ... ويرى إلى نهر الضوء المتألق فينظر كيف ينتصر الملائك على شرور العالم وكيف ينتصر معهم المؤمنون المباركون . (٣١) ويتلفت الشاعر فلا يجد فتاته إلى جانبه ، بل يجد مكانها رجلا طاعناً فى السن إذا تفرس فيه عرف فيه القديس برنارد الذى يخبره أن بياتريس قد عادت إلى عرشها ثم يريه بركات العذراء مريم عليها السلام (٣٢) ثم يريه كذلك أرواح القديسين الذين وردت أسماؤهم فى العهدين (الجديد والقديم) (٣٣) ثم يدلف القديس برنارد نحو البتول الكريمة فيرجوها أن تمنح بركتها لدانتى وتسبغ عليه من نورانيتها حتى يستطيع التأمل فى عظمة الله . وتهب له مريم ما سأل ، فينكشف الغطاء ويلقى دانتى ربه فيصلى له ويضرع إليه أن يهبه إشراقة يضفيها على كتاباته وأشعاره . ثم يؤذن له فيخطف لمحة من الثالوث المبارك المظيم الذى يتحد فيه الله القدير (جل وتعالى) بالانسان

***

ويفيق دانتى ، وتنتهى رؤياه العجيبة . وسنرى من الكلمات التالية كيف اقتبس الشاعر صور القرآن الكريم وأخيلة الانجيل الجميلة ، وطريقة فرجيل فى الجزء السادس من الأنيد ، فتم له هذا العمل الفريد

(لها بقية) د . خ

(١) نعتبر هذا الفصل رداً على مقالات المسلمين فى آدم وسنعرض لذلك فى حينه . ونعتبره أيضاً الوحى للشاعر جون ملتون بكتابة قصيدته (الفردوس المفقود)

(١) نلفت القارىء إلى سورة النجم من سور القرآن الكريم

من الشعر المنثور

فجر القبرة

« مهداة إلى صديقي الأمير عمر الأيوبي »

للأستاذ خليل هنداوي

كثيرون يعرفون القبرة بشكلها الرمادي الأدكن وصوتها الرفيع الرنان ، ولكن القبرة من الطيور الغريبة في حياتها وتأملها للحياة .... روحانية تبلغ أسمى ما تبلغه الروح ، ومادية تنحط كثيراً ؛ ففي حالتها الأولى تراها تغزو أطباق الجو عند منبلج الفجر تردد الغناء سكرى بالجمال حتى إذا بزغت الشمس هزعت إلى الأرض تفتش عن غذائها ، ذاهلة عن غنائها ، ومثل هذا المشهد قد يصور أحسن تصوير حالة الذين يرقون إلى شمس المعرفة بأرواحهم ثم لا يقدرون على مقابلتها فيهبطون .. فلا الأرض تذهلهم عن السماء ولا السماء تفصلهم عن الأرض ، ولا شوقهم بمنطفئ ، ولا أرواحهم بساكنة ... هؤلاء هم كهذه القبرة ؟ « خ . ه »

أسمعها : أسمعها بعيدة عني ، دانية مني !

أسمعها يشق غناؤها الفضاء الذي تفتح جفناه

أسمعها يتسلل شعاع قلبها مع شعاع الفجر !

قد انجلت — يا قبرتي — غياهب الليل بعد ما ظننت أن هذا الليل سرمد لا يزول

وانزاحت عن الأفق كتائب الظلمة بعد ما خلت أن هذه الألوان الربداء لا تحول

أراك تمعنين في التحليق . . .

حتى لا أرى أنامل الفجر تجذبك اليها

فماذا تركت في الجو بالأمس ؟

أشيئاً تتفقدينه كل مطلع فجر ؟

أم أمانة تستلمينها من الفجر ؟

أرى جناحيك يرفان ويخفقان !

يربدان طوراً وطوراً يلتهبان

وصوتك المازج المرن يصعد في السماء

تسمعه الأرض فتهتز قليلاً ثم يتوارى كأن لم يكن شدو ولا شاد

هي سكرة قدسية ياقبرتي ترفعك إلى الأوج السامق

ترفعك على جناحي الشوق وتنطقك بلغة الغناء

فما أسمى هذه السكرة التي لا يتخللها صحو !

وما أبدع هذا الشوق الذي لا يطفئه وصال

أنت من فجرك أيتها القبرة في صعود دائم

أنت من شوقك في وصال قائم

تمجدين الشمس قبل بزوغها وترفعين اليها صلاتك وغناءك قبل شروقها

حتى إذا لمعت في الأفق ووقعت عيناك على نورها الخاطف . .

فررت إلى أطباق الأرض غاشية العينين ، واجفة الفؤاد !

ألا تتمهلين قليلا حتى تراك الشمس

وأنتِ في الأطباق العالية تغنين لها !

ألا تتمهلين حتى تتمتع عيناك بالكوكب الساطع

ويرتاح قلبك إلى من خفق للقائه شوقا وحنينا ؟

عينك لم تستطع أن تحتمل شعاع « الشمس »

وفؤادك ناء بافراغ شوقه للمشوق

وفي اللحظة الأخيرة تراخى جناحاك وعشيت عيناك

وتدحرجتِ على الأرض بعد أن رقيت معارج السماء !

ألم تتذوقي لذة الشروق ؟

ألم تطعمي طعام ذلك العالم العلوي ؟

ألم يكشف لك عن خزائن ذلك الوجود ؟

الشوق والغناء والويل والعناء كلها تذوب تحت لوائك أيتها الشمس !

ما وصلك الذي تتغنين به ؟

ما شوقكِ الذي ملأ الفضاء

ما سكرك الذي لا صحوة له ؟ إذا كان نور « المعرفة » لا تحمله عيناك !

أتخافين احتراقاً في الأضواء

أتهابين التطلع إلى نور الشمس ؟

أم تصلين كل يوم إلى الشمس ... وتقفين على بابها فاذا أطلت تواريت من وجهها المهيب ، وآثرت أن تنحطي وتتدحرجي صامتة ساكنة

كأنك كلما صعدت مرة ذهب جزء من روحك وراءها في الفضاء

وهكذا حتى تتوزع أجزاؤك كلها وتبلغي المرحلة الأخيرة

ووددتُ ياقبرتى أن أراكِ تزيدين إمعاناً فى التحليق

ووددتُ أن أراكِ تزيدين فى صعودكِ حتى لا يبقى منك على الأرض شىء !

وودتُ أن اغرودتك لا تزال تتردد فى الجو مبتعدة عنى حتى تصير اغرودة صامتة !

أهلاً بكِ أيتها العائدة من عالم الشمس ! منتصرة أو منكسرة ، ففى عينيك ذبول الشوق ، وفى قلبك لهيبه ، وفى جناحيك وجيبه !

لم تذوقى بعد تلك السكرة العميقة التى لا يبقيها صحو

ولم يضرمَ قلبك ذلك الشوق الذى لا يسلمك إلا إلى شوق

لم تحبى بعد شمس «المعرفة» محبة شاملة ، ولم تؤثرى الفناء فيها .

أتخافين احتراقاً فى هذه الشمس ؟

ادنى واقتربى أيتها القبرة من الشمس وواصلى أغنيتك حتى تحترقى . . .

وتردك الشمس الى الشمس . . . يا فراشة الطيور المحترقة بغير لهيب ما ؟

خليل هنداوى

الحجاب فى الاسلام

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ١ —

عاد الناس فى هذه الأيام إلى الكلام فى مسألة الحجاب ، وكان سبب عودتهم إليها ما حصل من رغبة طائفة الهنود المنبوذين فى الاسلام بعد خروجهم من ديانتهم ، وقيل إن وجود الحجاب فى الاسلام مما يستعمله بعض أعدائه لصرفهم عن الرغبة فيه ؛ وقد حملنى هذا على بيان حقيقة هذا الحجاب على صفحات مجلة (الرسالة) الغراء ، لانتشارها فى الهند وغيره من الأقطار الشرقية ، ولعلى بهذا أقضى على هذه الدعاية الخبيثة التى يراد بها صرف تلك الطائفة عن الهداية الاسلامية

ويجب لأجل أن نعرف حقيقة هذا الحجاب أن نذكر الآية التى نزلت فيه ، وهى قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث . إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق . وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما)

وقد عرفت هذه الآية بآية الحجاب ، وصار الحجاب فى الاسلام اسما لهذا الحجاب الذى نزل فيها ، ولا يوجد شىء آخر مما يتعلق بالنساء يطلق عليه هذا الاسم . وقد نزل هذا الحجاب فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، ويراد منه منع اختلاطهن بالرجال بحيث لا يراهن الرجال أبداً ولا يكلمونهن إلا مع هذا الحجاب . والحكمة فى فرضه عليهن أنه أريد بعد تحريمهن على غير النبى صلى الله عليه وسلم قطع العلائق بينهن وبين الرجال ، ليكون فى هذا صونهن ، والبعد بهن عمن أريد قطع أطماعهم فيهن . وقد جرى الاسلام فى هذا على عادته من إعطاء الوسيلة حكم ما يتوسل بها إليه ، سداً للذرائع ، ولأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . ويؤيد هذا ما فى الآية من قرن هذا الحجاب بحكم ما بينهما من هذه العلاقة

وقد نزل فى ذلك أيضاً قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفاً . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى . وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ؛ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً)

ولم يكن المقصود من فرض هذا الحجاب على أمهات المؤمنين إلا حجبهن عن الأنظار بحيث لا يراهن الرجال ، فلم يكن عليهن حرج بعد ذلك فى أن يخرجن للحج وغيره ، ولا فى أن يجتمعن بالرجال مع هذا الحجاب للعلم والتعلم ، وتبليغ الأحكام التى أخذنها عن النبى صلى الله عليه وسلم لمن يريدها منهن

وقد خرجت عائشة فى هودجها للمطالبة بدم عثمان رضى الله عنه ، وقادت الجيش الذى حارب علياً رضى الله عنه فى وقعة الجمل بالبصرة

وقد مات صلى الله عليه وسلم عن تسع نسوة : عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وسودة بنت زمعة ، وزينب بنت جحش ،

وميمونة بنت الحارث بن حزن ، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وصفية بنت حيي . وما من واحدة من هؤلاء التسع إلا وكان بيتها مجمعاً لطلاب العلم الذين يقصدونها من سائر النواحي ، فيجلسون اليها ويستمعون حديثها ، وتناظرهم في العلم ويناظرونها فيه ، والحجاب مضروب بينها وبينهم ، فيأخذون عنها بدون أن يروها

وممن روى عن عائشة من الصحابة عمر وابنه عبد الله وأبو هريرة وأبو موسى وغيرهم من الصحابة ؛ وممن روى عنها من التابعين سعيد بن المسيب وعمرو بن ميمون وعلقمة بن قيس وغيرهم

وممن روى عن حفصة من الصحابة فمن بعدهم حارثة بن وهب والمطلب بن أبي وداعة وعبد الرحمن بن الحارث وعبد الله ابن صفوان وغيرهم

وممن روى عن أم حبيبة أخواها معاوية وعتبة وأبو سفيان ابن سعيد ومولاها سالم بن شوال وابن الجراح وعروة بن الزبير وغيرهم

وممن روى عن أم سلمة من الصحابة فمن بعدهم أخوها عامر ومولاها عبد الله بن رافع وأبو عثمان النهدي وأبو وائل وسعيد ابن المسيب وغيرهم

وممن روى عن سودة ابن عباس ويحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة

وممن روى عن زينب ابن أخيها محمد عبد الله بن جحش وأم حبيبة وزينب بنت أبي سلمة

وممن روى عن جويرية ابن عباس وجابر وابن عمر وعبيد ابن السباق والطفيل ابن أخيها وغيرهم

وممن روى عن صفية ابن أخيها ومولاها كنانة وزين العابدين علي بن الحسين وإسحاق بن عبد الله ومسلم بن صفوان

فلم يكن ذلك الحجاب الذي فرض على أمهات المؤمنين إلا لذلك الغرض الخاص دون غيره من أغراض الحياة ، ولم يحل بينهن وبين القيام بمطالب دينهن ودنياهن ، ولا بينهن وبين مشاركة أولياء الأمور في تدبير شؤون المسلمين . وقد كان الخلفاء يرجعون إليهن في كثير من الأمور ، ويسمعون إلى نصائحهن ويعملون بها

ومن هذا أن عثمان لما اضطرب عليه الأمر في آخر خلافته كتبت اليه أم سلمى تنصحه :

يا بني — ما لي أرى رعيتك عنك نافرين ، وعن جنبك مزورين ؟ لا تعف طريقاً كان النبي صلى الله عليه وسلم لحبها ، ولا تقتدح زنداً كان أكباها . توخ حيث توخى صاحباك ، فانهما تكما الأمر تكما ، لم يظلما أحداً فتيلاً ولا نقيراً ، ولا يختلف إلا في ظنين — هذه حق بنوتي قضيتها إليك ، ولي عليك حق الطاعة

فكتب اليها عثمان :

يا أمنا — قد قلت ووعيت ، ووصيت فاستوصيت ، ولي عليك حق النصتة ، إن هؤلاء القوم رعاع غثرة ، تطأطأت لهم تطأطؤ الماتح للدلاء ، وتلددت لهم تلدد المضطر ، فارانيهم الحق إخوانا ، وأراهم الباطل إياي شيطانا ، أجررت المرسون منهم رسنه ، وأبلغت الراتع مسقاه ، فتفرقوا على فرقا : صامت صمته أنفذ من قول غيره ، ومزين له في ذلك ، فأنا منهم بين ألسنة لداد ، وقلوب شداد ، وسيوف حداد . عذيري الله ! ألا ينهى منهم حليم سفيهاً ، وعالم جاهلاً — والله حسبي وحسبهم يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون

(للكلام بقية) عبد المتعال الصعيدي

للتاريخ السياسى

المعنى الســـــياسى
لانتخابات مجلس النواب الفرنسى
عام ١٩٣٦

للدكتور يوسف هيكل

مجالس النواب فى البلاد البرلمانية الديمقراطية هى التى ترسم سياسة البلاد ، فان أحسن المجلس العمل كافأه الشعب على ذلك بإعادة الأكثرية التى تسند الحكومة إلى المجلس الجديد ؛ وإن أساءه انفضت الأمة من حوله وأرسلت إلى مجلس النواب ، حين الانتخابات عناصر جديدة لاتباع سياسة جديدة . ويسهل على الشعب معاضدة الأكثرية الحاكمة ، أو الحكم عليها ، فى البلاد ذات الحزبين أو الثلاثة ، كما هى الحال فى بريطانيا ؛ ويصعب عليه إلقاء التبعة على حزب ، فى البلاد ذات الأحزاب العديدة والتى لا تستطيع تشكيل حكومة إلا بعد اتفاق عدد منها على الاشتراك فى الحكم : كما هى الحال فى فرنسا . وعلى كل فان الشعب يستطيع التمييز بين الأحزاب ، وإن كثر عددها ، فيقوى أحدها ويضعف الآخر

والانتخابات الفرنسية الأخيرة التى جرت فى ٢٦ أبريل و ٣ مايو من هذا العام ، تُرى كيف أن المنتَخِبَ الفرنسى غير فكرته السياسية ، فقوى أحزاب اليسار : الشيوعى والاشتراكى وأضعف أحزاب الوسط ، بما فيهم الحزب الراديكالى وأحزاب اليمين . ومما لا شك فيه أن لعمله هذا معنىً سياسياً . فما هى الأسباب التى دعته إلى تغيير فكرته ؟ . هذا ما نحاول إبانته فى هذا المقال . غير أنه يحسن بادئ الأمر أن نعرض بإيجاز موقف مجلس النواب السابق تجاه الحكومة ، لنرى كيف كان ذلك عاملاً كبيراً فى تغيير الناخب الفرنسى رأيه فى الأحزاب . وأخيراً نتساءل فيما إذا كان فى إمكان مسيو بلوم تأسيس وزارة قوية ثابتة ، أم ستجابهه الصعوبات التى جابهت زميله مسيو هريو ؟

— ١ —

جدير بالذكر أن الشعب الفرنسى لم يرسل إلى مجلس نوابه يوم ٨ مارس سنة ١٩٣٢ هيئة فى إمكانها تأسيس حكومة ثابتة ومتجانسة . وكل ما هنالك أن حكمه Verdicte كان سلبيا . لقد أقصى عن الحكم الأكثرية السابقة ، غير أنه لم يستعض عنها بأكثرية متجانسة . لقد أظهر عدم رضاه عن سياسة «تارديه ولافال» غير أنه لم يمكن مسيو هريو من الحكم

ليس بخاف أن الأحزاب فى فرنسا عديدة ، حتى أن عددها بلغ العشرين فى مجلس النواب الأخير ؛ غير أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع : فكان حوالى ١٨٠ نائباً من النوع المعتدل ، و ٢٤٠ من النوع الراديكالى ، و ١٨٠ من النوع الاشتراكى . ورغم أن الحزب الراديكالى كان متفقاً مع الحزب الاشتراكى حين الانتخابات وكونا «الجبهة الشعبية» ليفوزا على أحزاب اليمين ، غير أنهما لم يكونا متفقين على إنشاء حكومة مشتركة بينهما ، لأن مبادئهما الاقتصادية مختلفة . ولذا لم يكن فى مجلس النواب الاخير أكثرية متجانسة تستطيع تأسيس حكومة قوية وثابتة

وكان الحزب الراديكالى ، وهو أكبر حزب فى المجلس ، «مفتاح الحكومة» فان استطاع نيل تأييد الاشتراكيين له فيقال فى اللغة البرلمانية ، إن الحكومة «حكومة ائتلافية» Cartel ؛ وإن اشترك فى الحكم مع المعتدلين ، فيقال إن الحكومة «حكومة الاتحاد القومى»

ولقد رأى مجلس النواب الأخير هذين النوعين من الحكومات : فبعد أن فازت «الجبهة الشعبية» فى الانتخابات شكلت «حكومة ائتلافية» كان فيها معظم الوزراء من الراديكاليين ؛ لأن حزب مسيو بلوم لم يشترك فى الحكم ، ولكنه أيد الحكومة . وكان فى يد الزعيم الاشتراكى مصير هذا النوع من الحكومة ، فان نزع ثقته منها سقطت فوراً . وقد استعمل مسيو بلوم هذه السلطة مراراً ؛ فأدى ذلك إلى أزمات وزارية حادة تلا بعضها بعضاً بفترات قصيرة . وسقوط وزارات بونكور ، دالاديه ، وسارو السريع عام ١٩٣٣ سبب «افلاس» «الائتلاف»

وبعد «الفضيحة الستافسكية» وحوادث ٦ فبراير ، اضطر

الحزب الراديكالى إلى ترك رئاسة الوزارة والاشتراك مع المعتدلين فى الحكم . فتأسست وزارة مسيو دومرك ، وتلتها وزارتا مسيو فلاندان ومسيو لافال . ودُعيت هذه الوزارات « وزارات الاتحاد القومى » . على أن هذا الاتحاد لم يكن عاما إذ لم يشترك فيه طرفا مجلس النواب أى الشيوعيين والاشتراكيين من جهة ، والمحافظين من جهة ثانية . ولذا يمكن القول بأن هــذه الوزارات ما هى إلا وزارات « ائتلاف أحزاب الوسط »

وفى المدة الأخيرة من حيــاة مجلس النواب الأخير ، تخلى الحزب الراديكالى عن وزارة مسيو لافال ، وعاد الى نوع الحكم السابق أى الى اقامة حكومة ائتلافية بالاتفاق مع الاشتراكيين ؛ وعلى رأسها مسيو سارو

وكل من الحكومات التى رآها المجلس الأخير لم تكن متجانسة ، ولم تــكن لهــا قوة حيوية كافية تستطيع بها مجابهة الصعوبات التى وقعت فيها فرنسا طيلة السنين الأربع الأخيرة . لأن الاشتراكيين لم يشتركوا عملياً فى حكومات « الائتلاف » ، ولم يأخذوا على عاتقهم أية مسؤولية ؛ ولهذا كانت الحكومة « مشلولة » إذ وجب عليها مراضاة الحزب الاشتراكى كيا تحتفظ بثقته ؛ وذلك لم يمكن الراديكاليين من تطبيق مناهجهم ، والسير إلى الأمام غير ناظرين إلى مراضاة الخواطر ... ولأنه لا يمكن لأى حكومة « اتحاد قومى » أن تضع منهاجاً فعالاً يرضى عنه جميع الاحزاب الذين يعاضدون الحكومة . فالسياسة الخارجية التى يريد تطبيقها أحزاب اليمين لا يرضى عنهــا الحزب الراديكالى ، وسياســة الحزب الراديكالى لا يقبلها أحزاب اليمين . وفى الواقع فان هذا النوع من الحكومة ما وجد إلا لظروف خاصة ، ومتى ذهبت هــذه الظروف تصدع الاتحاد ، واتفق الراديكاليون مع الاشــتراكيين ، ودارت المعركة بين أحزاب اليسار وأحزاب اليمين . ولا غرابة فى ذلك إذ الذى يبعد الراديكاليين عن الاشتراكيين هو اختلاف فى السياسة الاقتصادية ، أما الذى يبعدهم عن المعتدلين فهو الاختلاف على المبدأ une opposition idiolagique إذ أن الراديكاليين يدينون بالنظام البرلمانى ، الذى دونه يصبحون لا شىء وهم متعلقون بجمعية الأمم التى هى تطبيق المبادئ الجمهورية فى « الدائرة الدولية » . وعلى عكس ذلك فان كثيراً من المعتدلين يتساهلون فى وجود الجمهورية دون أن يحبذوها ويدينوا بمبادئها ، وهم يحكمون على مبادىء عصبة الأمم ويعتبرونها أكبر عامل على تعكير صفو السلام ...

— ٢ —

فالازمات الوزارية الحادة التى حدثت خلال السنين الأربع الأخيرة ، والأزمة الاقتصادية العظيمة التى جابهتها فرنسا ابتداء من عام ١٩٣٢ ، والتضارب فى السياســة الخارجية التى تولدت بين سياسة الحكومات الائتلافية وحكومات الاتحاد القومى ... أدى إلى عدم رضى الشعب الفرنسى عن مجلس النواب السابق فأرسل فى ٢٦ ابريل و٣ مارس أكثرية جديدة

ولنلق بادئ الأمر نظرة عامة على انتخابات الدورة الأولى فنرى أن الذين فازوا فوزاً باهراً فيها هما طرفا مجلس النواب أى الشيوعيين والاتحاد الاشتراكى من جهــة ، والاتحاد الجمهورى الديمقراطى (حزب اليمين) من جهة ثانية[1]

والعاملان الايجابيان اللذان أديا إلى هذه النتيجة هما ؛ المعاهدة الروسية الفرنسية ، وحزب الصليب النارى Croix de Feu

غيرت حكومات الاتحاد القومى الثــلاث الأخيرة مجرى السياسة الخارجيــة الفرنسية . فبعد أن كانت فرنسا تعتمد فى المحافظة على سلامتها على عصبة الأمم ومبدأ « السلام المشترك » : أخذ « المعتدلون » يبنون سلامة بلادهم على التحالف ؛ أى سياسة ما قبل الحرب . فتقربوا من إيطاليا وعقدوا معها اتفاق روما عام ١٩٣٤ ، وأخذوا يتفاهمون مع الروســيا فوصلوا إلى المعاهدة

(١) جدول يرى التغير الذى حدث فى عدد الأصوات ما بين انتخابات الدورة الأولى عام ١٩٣٢ وانتخابات الدورة الأولى عام ١٩٣٦

أسماء الأحزاب	الزيادة عام ١٩٣٢	النقصان عام ١٩٣٦
الاشتراكيون واتحاد العمال	٢٠٧٩٥٠	—
الاتحاد الاشتراكى والجمهوريون الاشتراكيون	٧٢٦٠٠	—
الاشتراكيون (S. F. I. O.)	—	٧٧١٧٥
الراديكاليون الاشتراكيون	—	٤٣٥٠٠٠
اليسار الراديكالى والاشتراكيون المستقلون	—	٢٦٥٤٥٠
الديمقراطيون الشعبيون	—	٦٣٢٠٠
الحلف الديمقراطى وجمهوريو اليسار	—	٢٩٥٧٥٠
الاتحاد الجمهورى الديمقراطى	٣٤٥٠٠٠	—
المستقلون	—	١٤٠٠٠٠
المحافظون	—	٣٦٣٠٠

الروسية الفرنسية عام ١٩٣٥ . فهذه المعاهدات أظهرت للرأى العام الفرنسى أن فرنسا فى حاجه إلى الروسيا لتدفع عنها الخطر النازى . . . ثم إن الروسيا ، فى السنين الأخيرة ، غيرت مجرى سياستها الخارجيه . فبعد أن كانت ثورية هدامة ، أصبحت محافظة ! . وذلك لأنها شعرت بحاجتها الى مساعدة الدول الديمقراطية لتردع عنها خطر الحكومة الألمانية التى تضمر لها شراً كبيراً وخطر اليابان ... فوقفت فى جنيف موقف المدافع عن السلام والذائد عن مبدأ « السلام المشترك » ؛ وكان ممثلها فى جنيف وفى لندن السياسى الوحيد الذى هاجم ألمانيا مهاجمة شديدة وتكلم عن خطر سياستها الخارجية بصراحة . ثم ان الشيوعيين الفرنسيين خففوا من حدة ثورتهم فأخذوا يتكلمون عن القومية ووجوب الدفاع عن الوطن ... كل هذا أبان للرأى العام الفرنسى أن لا خطر من الشيوعية وأن كل ما قيل عنها مبالغ فيه ... فكان فوز الشيوعيين فوزاً باهراً لم يتوقعه أحد

وفى أواخر الثلث الأول من حياة المجلس التشريعى السابق قامت فى فرنسا حركة « فاشستية » على رأسها الكولونيل « دى لاروك » . فأسس هذا حزباً دعاه « الصليب النارى » ، وحركته تماثل حركة « الفاشست » فى إيطاليا « والنازى » فى ألمانيا . . . وفى الأيام الأخيرة تقوى هذا الحزب ، ويدعى الآن أن عدد أعضائه من القادرين على حمل السلاح بلغ ثمانمائة ألف . غير أن هذا الحزب الجديد لم يرشح أعضاء إلى مجلس النواب ، بل إنه سند أحد أحزاب اليمين أثناء الانتخابات ، فكان فوز « الاتحاد الجمهورى الديمقراطى »

(يتبع) يوسف هيكل

من مذكراته

للأديب أحمد الطاهر

خَفَّت إلىّ مع الصباح ، وحيتنى بتحيته ، وعليها من الثياب سواد ، فرددت عليها التحية فى تلطف ورعاية ورفق ، وجلست صامتة واجمة خائرة النفس منهوكة القوى شاردة الفكر . ثم أخذت تجيل النظر فى المكان الذى احتوانا ، وأخذتُ أختلس النظر اليها فاذا هى تنظر إلى الأرض ، ثم ترفع البصر الى السماء ثم تتجه إلى بنظرة وادعة حزينة ، وفى هذه النظرات الثلاث تعبير صادق عما يختلج فى نفسها من المعانى : من تفكير عميق فيما نزل بها من بأساء ، إلى توسل إلى الله بالصبر والرضا بالقضاء ، إلى رجاء فيمن تزور ليدفع عنها بعض هذا البلاء

— ثم قالت : « إنى أعلم ما كان بينك وبين زوجى رحمه الله من صداقة ووفاء وإخلاص ؛ ولقد ذكر لى فيما كان يذكر من شأنه أنك كنت مثابةً له فى الرأى ، وعوناً فى التدبير ، ونصيراً فى الشدة ، أليس كذلك ؟ »

— قلت : « نعم كنا كذلك ، وكنت أجد فيه ما تذكرين لى . رحمه الله ، وطيب ثراه . »

— قالت : « ما أفزعنى اليك اليوم وفى هذا الصباح الباكر إلا ما يحز فى قلبى حزاً ، ويعصر فؤادى عصراً ، مما أجد من همى وهم الناس : فأما همى فهو الذى تعرفه والذى إن أخفاه لسانى أعلنته ثيابى ، وأما هم الناس وما أحمل منه ، فذلك فيما أرى فيهم من قلة الوفاء ، وخراب الذمم ، وتحجر الأكباد ، وضيعة الأخلاق : فلقد كنت أسمع من والدى ووالدتى — رحمهما الله — أن الناس فى العهد الغابر كان الواحد منهم ينطق بالكلمة فاذا هى بينه وبين صاحبه عهد لا ينقض ، وميثاق لا يحل ، وإلٌّ لا ينكث به ؛ أما اليوم فما أرى الناس إلا عن ذلك صادفين : يقول الواحد منهم ما يقول ، ويعد بما يعد : فلا يقام لقوله وزن ، ولا يحسب لوعده حساب ، ما لم يسجل قوله ووعده فى كتاب ، بل لقد ينكرون ما خطت أيديهم فى الكتب ، ولو شهد عليهم شهود ، ولهم فى ذلك طرائق وحيل . هذا زوجى — رحمه الله — قد أقرض فلاناً مائة جنيه ، ولست أدرى إن كان قد كتب بها صكا أم استوثق زوجى من صدق وفائه بلسانه ، وقد ألحت علىّ الحاجة والوفاء لهذه البنت اليتيمة فطالبت الذى عليه الحق بالحقّ : فمطلنى ، ثم ألححت ، فردنى ، ثم رجوته فصدف عنى ، ثم توسلت إليه فنهرنى ، وما وجدت منه الا إنكاراً وجحوداً ، وجفاءً وصدوداً . ولما رجعت من عنده بخيبة الرجاء ، واليأس من الوفاء ، اندفعتُ أهدده وأتوعده برفع الأمر إلى القضاء . فأجابنى بقوله : (وهل تحت يدك صك بهذا الدين ؟) . طار رأسى ، وذهبت نفسى شعاعاً ، وأحسست كأن الدنيا تضيق بى حتى لا تتسع إلا لعنق تعصره عصراً ، وما وجدت ما أدفع به غتته وإنكاره . لذلك جئت إليك بجملة من أوراق المرحوم لعلك واجد فيها صكا أو سجلاً بهذا الدين أو ما يغنى عن الصك والسجل . أرأيت خراب الذمم ؟ أرأيت قلة الوفاء ؟ أرأيت نكث العهود ؟ أرأيت الى الناس لا يستوثقون باللسان الحى الذى هو من صنع الله ، ويستوثقون بالورقة الخرساء التى هى من صنع الانسان ؟ رحماك اللهم رحماك ! ! »

— قلت : « خلى عنك يا أختاه . فلمثل هذا نزلت حدود الله . أما سمعت قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا تَدَايَنْتُمْ بدين إلى أجَلٍ مُسَمّى فاكْتُبُوهُ ، ولْيَكْتُبْ بينَكُمْ كاتِبٌ بالعَدْلِ ، ولا يَأْبَ كاتِبٌ أن يَكتُبَ كما عَلَّمَهُ الله ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الّذى عليه الحقّ وليَتَّقِ الله رَبَّهُ ولا يَبْخَس منه شيئاً .) »

— قالت : « سبحان الله العظيم ! هذا كلام أزلى قديم وكأنما نزل لأهل هذا العهد الحديث ، بل لكأنما نزلت هذه الآية لتكون فيصلاً بينى وبين هذا المدين . »

— قلت : « وفى هذا وفى مثل هذا تجدين إعجاز القرآن الحكيم »

ودفعت الى بالأوراق فنشرتها ونظرت فيها ورقة ورقة وهى مطرقة مغرقة فى التفكير . وما انتهيت منها إلى ورقة أطلت فيها النظر حتى رفعت رأسها عن يدها ونظرت إلى متلهفة وقالت : « أوجدت الصك ؟ »

— قلت : « لا . ولكنى وجدت ورقة لعلها من مذكرات زوجك رحمه الله — وبودى أن أقرأها لك فستجدين فى سماعها

عزاء وروحاً . وستجدين زوجك فيها يتحدث إلى نفسه بخواطره ولكنه يسوق إليك وإلى ابنتك الحديث »

— قالت : « اقرأ » . . . . فقرأت :

« ما أسعد الانسان المطمئن ! وما أحلى الطمأنينة فى كل شىء ، هذه هى السعادة حقاً ، وما أشقى الانسان الحائر المضطرب ! وما أمر الحيرة والاضطراب فى أى شأن من شؤون الحياة ! هذا هو الشقاء بعينه ، ولست أدرى لم حار الفلاسفة والمفكرون فى تعريف السعادة واختلفوا ، وما لهم لا يقولون إن السعادة هى الطمأنينة ، وما لهم لا يستقرون إلى أن الطمأنينة والسعادة مترادفان يفهم من أحدهما ما يفهم من الآخر ؟ . أغلب ظنى أن الفلاسفة والمفكرين يتسامون فى التفكير ويحلقون فى أجواء البحث فتدق عن أبصارهم هذه الحقائق البسيطة . السعادة هى الطمأنينة والشقاء هو الفزع

هأنذا أخرج من بيتى صباحا أعدو إلى عملى ثم أروح وقد أديت العمل على خير ما يؤدى الواجب ويحمد لى الناس أداءه ويرضى ضميرى عن أدائه . فأطمئن ولا يفزعنى عن هذه الطمأنينة شىء من الأشياء فلم لا أكون سعيداً ؟ ألقى الناس : منهم الصديق ومنهم العدو ، ومنهم من لا تربطنى به صلة وثيقة ، ومنهم الكبير ومنهم الصغير ، فيلقانى كل واحد من أولئك باسماً مصافحاً لا يسألنى عن شأنى ولا أسأله عن شأنه إلا بمقدار ما تدعو اليه العلاقة التى بيننا فلا يكون سؤالى وسؤاله الا فى رفق ولين ورغبة فى العون إن كان بى أو به حاجة الى العون . وإن لا نتساءل عن شىء فما يكون بينى وبينه إلا التحية وردها . فأنا بين هؤلاء وهؤلاء مطمئن وادع لا يفزعنى عن طمأنينتى شىء من الأشياء . فلم لا أكون سعيداً ؟

وتمضى الأيام والأسابيع والأشهر وما شاء الله من أقسام الزمن وأنا أغدو وأروح بين الناس وأختلف الى ما يختلفون اليه من شؤون الحياة وأنا واجد فى جسمى هذا النشاط وهذه القوة ، لا يعوقنى فى سبيلى مرض ولا تقعدنى علة ، فأنا مطمئن الى صحتى مادمت صحيحاً ، ولا يفزعنى عن هذه الطمأنينة شىء من الأشياء ، فلم لا أكون سعيداً ؟

وأخلاف الرزق فى الحياة تصل الى من طريق كدى وجهدى وما ترك الوالدون من موارد الرزق للأبناء تصل اليهم فى سعة أو فى ضيق وأنا بذلك راض والى ذلك مطمئن : لا يفزعنى عن طمأنينتى شىء من الأشياء . فلم لا أكون سعيداً ؟

وأنا فى كل يوم من أيام حياتى أؤدى الى الله والى الناس ما يجب على من الشكر والبر بقدر ما أستطيع وكيفما يجب : لا يصدنى عن ذلك صاد ولا يصدف بى عنه صادف ، فأنا مطمئن الى علاقتى بالله وبالناس لا يفزعنى عن الطمأنينة مفزع . فلم لا أكون سعيداً ؟

أما إذا لقيت فى عملى نصباً وعناء ، أو أحسست من نفسى بنفسى عجزا عن أدائه ، أو قصوراً عن وفائه ، فهنا يكون الفزع وهنا الخروج عن الطمأنينة ، وهنا الشقاء

وإن رأيتُ الناس يمدون إلىّ يد السوء ، أو لسان السوء ، أو عين السوء ، فما أشد ما ألقى من الفزع والجزع ، وهنا الشقاء

وإن رأيت معاول المرض تعمل فى جسمى ، وتهد من قواى ، وتبعث فى هذا الجسم رسالات من الألم شديدة أو غير شديدة ، فهنا الفزع وهنا الشقاء

وإن رأيت ... وإن رأيت ... مما يحول بينى وبين السكينة ويوقعنى فى الفزع والاضطراب ، فهنا وهناك الشقاء

والسعادة والطمأنينة غاية ليس وراءها من شىء ، ولا يجد السعيد المطمئن فى مهاد السعادة ما يبعثه على التفكير فى أسبابها ، ومن أين أتت اليه ، وأى السبل اتخذت اليه ، لأنها اطمئنان واستقرار ورضا ، وسبيل لا عوج فيه ولا التواء

أما الشقاء ـ أعاذنا الله منه ـ فلا يكاد ينزل بالمرء حتى يفسد عليه نفسه ، ويلقى بالحيرة فى ضميره ، فلا تهدأ النفس عن الاضطراب بين علله وسبل الخروج من مضائقه . ولا يهدأ العقل عن التفكير فى هذه العلل وهذه السبل ، ولا يهدأ الضمير عن أن يتخذ لنفسه أشكالاً وأوضاعاً يسميها الناس وخزاً وتأنيباً وندماً وقلقاً وتبرماً وحسرة ؛ وما الى ذلك من الأسماء تختلف باختلاف أنواع الفزع وأسباب الشقاء . وهنا يكون الشقى بين شقى الرحى : شقائه الذى نزل به واضطراب نفسه وعقله وضميره فى مبعث الشقاء وسبل الخروج منه . وكثير من الناس يزيد فى شقاء نفسه بنفسه حين يخطئ السبيل التى تؤدى إلى الخلاص من الشقاء ، أو حين يضل عن هذا الثقب الصغير الذى نفذ اليه منه البلاء ، أو حين يلتمس الراحة من

العناء فيما لا يزكو بالعاقل التماس الراحة فيه

وما من سبيل لأن تعدد للناس حصرا أسباب الشقاء . ولا سبل الخلاص من الشقاء ، ولكننى وجدت سبلاً ثلاثاً ، كما أفزعت عن طمأنينة السعادة إلى مضطرب الشقاء لجأت اليها فوجدت فيها عزاء وشفاء وهناء

* * *

أخلو إلى نفسى فأصل بينها وبين الله بالتفكير فى خلقها ، وفى الحدود التى وضعها الله بين العبد وربه ، وبين العبد والعبد . وفى تحديد حياتها بأجل تنتهى عنده ، وأقيس ضعفها بقوة خالقها ، وحقَّها فى الحياة بحق من أوجدها فى الحياة ، وأتبين ما رسم الله لعباده من مناهج وطرائق تؤدى إلى السعادة العاجلة فى الدنيا ، أو الآجلة فى الأخرى ، وما فرض على العبد أن يأخذ به نفسه إذا اشتد به الضيق ، أو سد فى وجهه الطريق ، ثم أرجع الى كتاب الله أقرأ فيه وأتبصر فى معانيه ، فأجد فيه للنفس شفاءها ، وللروح غذاءها ، وأجد قوة على احتمال الشقاء ، وسبلاً للخلاص من البلاء ، ويهون فى نفسى كل ما هالها ، ويصغر فى عينى كل ما تعاظمها ، فما ألبث حتى تستشعر نفسى شيئاً من الصبر والرضا ، ويشع فى أعطافها وحواشيها نور من الأمل والرجاء ، ثم تطمئن الى ما تجد ، ثم تخلو من الهم ، وإذا أنا هادئ وسعيد

* * *

أرجع الى بيتى فتلقانى ابنتى الصغيرة متهللة مستبشرة ، فأحملها بين يدىّ وأقبلها وتمضى تحدثنى بما أفهم ولا أفهم من لغوها ، ثم تسعى بينى وبين أمها ، ويطول لغوها وسعيها ، ثم تنظر الى كل منا وعلى وجهها الصغير آيات البشر بادية ، وتحاول أن تشركنا فى هذا المرح الذى تشعر به ، وتود لو تفيض علينا منه . فيعز على أن أعذب هذه الطفلة البريئة بعبوسى ، ويكبر علىّ أن أكدر صفوها بوجومى ، وأن أحمل اليها والى أمها همًّا لا قبل لهما به ولا يد لهما فيه ، ولا حيلة لهما فى صرفه عنى . فأتناسى ذلك الهم الذى كان مبعث شقائى ثم أنساه ، وأمزق عن وجهى غشاوة العبوس التى كانت تغشاه ، ثم أمحوها محواً ، وإذا على الوجه ابتسامة تكون قلقة حائرة أولا ، ثم تتصل بالنفس فتستقر وتصدر عن إحساس أخيراً ، حتى إذا انصرف عن النفس بعض همها الذى ملكها خلت إلىّ هذه النفس تحدثنى ببعض ما يجب على الرجل نحو أبنائه وأهله . وتبسط لى كيف يجزى الطفل على بنوته وطهارته وضعف حيلته ، وكيف تجزى الزوجة على أنوثتها الضعيفة . وأمومتها السامية الشريفة ، ورعايتها لزوجها ووفائها له . فأذكر إذ ذاك العطف والحنان ، والرعاية ، والوفاء ، وعرفان الجميل ، وحسن التقدير ، ويذهب هذا كله بما بقى فى نفسى من همّ . وإذا أنا بعد هذا وبهذا مطمئن وسعيد

وثالث هذه السبل هو هذا القلم الذى أكتب به : أصل بينه وبين نفسى فاذا ما فيها من الهم والأسى ينساب الى قناته فى سهولة ورفق واطراد ، وإذا هو ينثر ما فى النفس على الورق ألفاظاً وأسطراً وصحائف . وما أزال أكتب حتى يقف القلم ، فأنظر الى نفسى فاذا القلم قد استنزف كل ما فيها من الهم لم يترك بقية ولا ذُمَامَة . فأقرأ ما كتبت وأقيسه بما كان فى نفسى ، فاذا هو هو لا يزيد عنه بمقدار ولا ينقص عنه بمقدار . وإذن لقد أفرغت نفسى من الهم واطمأننت وإننى لسعيد

ولعمرى إن هذه السبل الثلاث لهى خير ما اهتديت اليه من سبل التخفيف من همى . وأنا فيما يحزبنى من الأمر أتخذ ممتى اليها مجتمعة أو متفرقة ، فأجد فيها راحة وشفاء واطمئنانا وسعادة . ولقد اتخذت ممتى الليلة الى هذه السبيل الأخيرة « سبيل القلم » فكتبت ما كتبت وأحس أن ليس فى نفسى أكثر مما كتبت

وإذن لقد فرغت نفسى من همها واطمأننت وإننى لسعيد اه »

* * *

وما انتهيت من القراءة حتى نظرَتْ الىّ باسمة راضية ، وتبددت عن وجهها سحابة الحزن والأسى وقالت : « أى والله ، لهذا خير عندى من الصك ألف مرة . أكان رحمه الله يجد العزاء فى كتاب الله ، وفينا ، وفى قلمه ؟ قل لى بربك بِمَ أجزيه عن فضله وبره ؟ وماذا أفعل بهذه الورقة وهى فيما أرى سجل حياته وعهده الكريم بين الله وأهله ونفسه.

— قلت : « أكرميها »

— قالت : « وكيف ؟ »

— قلت : « تحفظينها عندك ذخرا ، وأنشرها لك فى (الرسالة) ذكرى »

اليوزباشى أحمد الطاهر

في الأدب الانكليزي

هل من انتحـــال في الأدب الانكليزي ؟

للسيد جريس القسوس

أخي ح . ش :

لقـد مضى نحو عام على رسالتك التي بعثت بها إلى تطلب فيها أن أشرح لك المشكلة الشكسبيرية التي تثار من حين إلى آخر . واليوم أراك تبادرني بسؤال آخر قلما التفت له الباحثون في الأدب الانكليزي . وقبل الاجابة على سؤالك لا بد من لفت نظرك إلى الفصل الممتع الذي عقده الدكتور طه حسين تحت موضوع : « ليس الانتحال مقصوراً على العرب » ، في كتابه « الأدب الجاهلي » بين فيه أن الانتحال لم يقتصر على العرب ؛ بل كان عند الأمم القديمة ، كاليونان والرومان ، ولا أعلم هل في الآداب الأوربية الحديثة ، خلا الانكليزية ، شيء من هذا ؛ وكل أملي أن يتعاون الباحثون في الأدب على بحث موضوع الانتحال في آداب الأمم الحية ، لعلهم بذلك يتوصلون إلى نتيجة مرضية ، تشفي الغليل ، وتنير السبيل أمام الباحثين في موضوع الانتحال عنـد العرب . أما في الأدب الانكليزي ، فلم يُعرف الانتحال ، على ما أعلم ، إلا في القرن الثامن عشر ؛ وقد يكون هناك شيء منه في غير هذا القرن ، لكنه ضئيل تافه إذا قيس بما عُزي إلى الشاعرين الكبيرين James Macpherson جيمس مكفرسن ، و Thomas Chatterton توماس تشاترتن من الانتحال

— ٢ —

من هو مكفرسن ؟

وقبل التطرق إلى البحث في الانتحال المنسوب إلى هذين الشاعرين ، لا بد من كلمة مقتضبة ، نترجم بها لكليهما ، ذلك لما للحوادث في حياتهما من علاقة متينة بموضوع هذا البحث . لهذا نشرع بادئ ذي بدء بمكفرسن فنقول :

ولد جيمس مكفرسن قرب كنغوسي Kingussie ، في سكوتلندا ، في ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٣٦ . وكان أبوه مزارعاً وضيع النسب ، فقير الحال ؛ لكنه برغم ذلك استطاع بحذقه ودهائه أن يدخل ابنـه جامعة أبردين Aberdeen وبعدها جامعة أدنبرغ Edinburgh . ولقد عُرف الشاعر صغيراً بالنبوغ الأدبي فألم بالشعر الغاليقي Gaelic إلماماً كبيراً ؛ ونظم وهو تلميذ ما ينيف على أربعة آلاف بيت من الشعر ، نشر بعضها تحت عنوان « الانجاد » The Highlands سـنة ١٧٥٠ ، وأهمل البعض الآخر لأمر ما

ولقد زاده ولوعاً بالأدب ما لاقاه من تشجيع أصدقائه له على نشر منظوماته . ففي نيوفات Neoffat مثلاً التقى بجون هوم John Hume وأطلعه على بعض قصائده ، فأعجب بها ، وأشار عليه بنشر بعضها ، خاصة ما ادّعى أنها مترجمة عن الشعر السكوتلندي القديم مثل « مقطعات من الشعر القديم جمعت في جبال سكوتلندا ، وترجمت عن اللغة الغاليقية » وهي في الأصل الانكليزي كما يلي :

(Fragments of Ancient Poetry, collected in the Highlands, & translated from the Gaelic or Ersie language)
(Edinburgh 760)

ليس هـــذا فحسب ، فقد أمدّه الدكتور هيوج بلاير Hugh Blair باعانة مالية مكّنته من نشر هذه الأشعار ، ذلك لظنه بأن أكثر هذه الأشعار مترجمة غير موضوعة

وفي خريف سـنة ١٧٦٠ ، زار الشاعر بعض القرى السكوتلندية ، وعثر فيها على مخطوطات قديمة فافتتن بها ، حتى أنه ما عتم أن ترجم أحدها بمعاونة الأديبين الكاتبين موريسن Captain Morrison والقس أ . غالي Rev. A. Galle

وفي سنة ١٧٦١ ، أعلن اكتشافه لقصيدة حماسـية Epic موضوعها فنغال : Fingal نشرها تحت عنوان ضخم هو «فنغال في سـتة كتب ، مرفقة بقصائد أخرى متفرقة للشاعر أوسيان ابن فنغال ، مترجمة عن اللغة الغاليقية »

وعنوانها الأصلي هو : —

(Fingal, an ancient epic poem Six Books, together with several other poems composed by Ossian, the son of Fingal, translated from the Gaelic language)

أما Fingal فهو الاسم الذي وضعه مكفرسن للبطل الايرلندي الخرافي (فن) Finn الذي آزر كثولن حاكم ايرلنـدا ، ووقف معه في وجه خصمه العنيـد سواران Swaran ملك لوخلين Lochlin حتى تمكن في النهاية من قهره ، وإيقاعه في الأسر

وفى سنة ١٧٦٣ ، نشر قصيـدة أخرى حماسية ، اسمها (تيمورا) Temora ومجموعة شعرية موضوعها Works of Ossian

أما تيمورا Temora هـذا فاسم قصر ملوك ألستر Ulster ؛ وفى هذه القصيدة تتمة الحوادث الواردة فى فنغال Fingal

أما أوشان Ossian فهو ابن فنغال نفسه ؛ وقـد كان فارساً مغواراً ، وشاعراً مجيداً ؛ عاش على ما جاء فى الأساطير الغاليقية فى القرن الثالث ب . م . ، وإليـه يعزو مكفرسن وغيره من الأدباء هذه المنظومات الحماسـية الرائعة ، التى تدور على بطولة فنغال وقومه[1]

وجميع هذه الآثار الأدبية التى نشرها مكفرسن ، معلناً أنها مترجمة موضوعة بأسلوب أقرب الى النثر منه الى الشعر ؛ ذلك لما فيه من التسجيع والايقاع المتكلف

ويُعدّ أسلوب مكفرسن الأدبى من أروع الأساليب وأجلها وموضوع أدبه من أبعد المواضيع أثراً فى تعجيل الحركة الابتداعية Romanticism ونشرها قبيل مجىء وردزورث . ولا يقتصر نفوذه على الأدب الانكليزى فحسب ، بل تعـداه الى الأدب الأوروبى عامة ، والألمانى خاصة . فقد ترجمت منتوجاته إلى أغلب اللغات الحية وكان غوته وهردر Herder الشاعر والنقادة الألمانى الشهير من هواة أدبه

ويروى أن ترجمة كيساروتى Cesarotti الايطاليـة لقصائد مكفرسن ، كانت من أحب الـكتب إلى نابليون

وبعد رجوعه من رحلاته الـكشفية فى سكوتلندا ، تقلب مكفرسن فى وظائف شتى ، فمن سكرتير للجنرال جونستون Johnston فى جزيرة فلوريدا ، إلى عضو فى البرلمـان ؛ وهو فى أثناء ذلك لا ينقطع عن الاشـتغال بالأدب ، والنشر ، وأهم ما نشره ، خلاف ما عزاه إلى غيره من الترجمات الشعرية ، كتاب « سر تاريخ بريطانيا العظمى » ، ولقد ظل هذا دأبه ، حتى وافته المنية فى ١٧ فبراير سنة ١٧٩٦ ، فدفن فى زاوية الشـعراء فى وستمنستر أبى

— ٣ —

مكفرسن والانتحال

كان صموئيل جونسن Johnson النقادة الانـكليزى الشهير ودكتاتور الأدب فى القرن الثامن عشر ، أول من نسب إلى مكفرسن انتحال أشعاره ، وإدعاءه أنها مترجمة من الغاليقية .

فقد نشر جونسن سنة ١٧٧٥ كتيباً اسمه « رحـلة إلى جزر اسكوتلندا الغربية » A Journey to the Western Islands of Scotland هاجم فيه مكفرسن هجوماً عنيفاً ، مبيناً أن مكفرسن إنما عثر على بعض الأشعار والمقطعات القصصية فى الشعر الغاليقى القديم ، فحاك من هذه المقطعات تلك القصائد المطولة ، التى ادعى أنها مترجمة ، ولقد زاد موقف مكفرسن اضطراباً ، ورأى جونسن وغيره من خصوم مكفرسن ، تأكيداً ، أن الشاعر السكوتلندى ينشر الأشعار الأصلية فى صيغتها الأولى ، فيكون بذلك قد برر موقفه ؛ ورد طعنات خصومه إلى صـدورهم ؛ وعذره فى ذلك عجزه عن القيام بنفقات النشر ، وحين لم يستطع أن يصمد أمام الأدباء المعاصرين الذين انقلبوا جميعاً خصوماً له ، لم ير بدًّا من العكوف على نظم بعض القصائد ، والادعاء بأنها الآثار الأدبيـة الأصلية ، التى نقل عنها

ولقـد أثيرتْ بعد وفاته آراء متضاربة ، حول صحة هـذه القصائد ؛ وانقسم الأدباء إلى خصوم وشيعة . ومن أشهر خصومه ملكولم لينغ Malcolm Laing ؛ فقد بيّن فى ملحق كتابه « تاريخ اسكوتلندا » ، سـنة ١٨٠٠ ، أن الأشعار الأوشانية Ossian Poems ليست مترجمة ، بل نظمها مكفرسن ، وعزاها إلى غيره

وطرق هذا الموضوع أدباء فرنسيون وألمـان إخصائيون فى الأدب الـكلتى ، ولفتوا أنظارَ مؤرخى الأدب إلى نقط مبهمة تـكشف عن الناحية المبهمة من هذا الموضوع الخطير

ومن خصومه أيضاً الدكتور دوجلاس هايد Dr Douglas Hyde فقد ألف كتابا اسمه Whe were the Finians ذكر فيه أن مكفرسن عرف الاسم الحقيق لفنغال تمام المعرفة ، إنمـا توخى التحريف والتحويل فى هذه الأسمـاء ليوهم الأدباء أن أسماء أشخاص قصائده ، إنما هى مترجمة ليس إلا

ولقد عرض اسكندر مكْبيان Alexander Macbian فى فصل قيم موضوعه : Who were the Feinn? فى كتابه : قضايا الجمعية الغاليقيـــة فى غلاسكو Transactions of the Gaelic Society of Glasgow ، لمختلف الآراء والنظريات المتعلقة بهذا الموضوع ، وخاتمة ذلك الـكتاب تتضمن خلاصة ماوصل اليه معظم الباحثين

(١) اقرأ بعض هذه القصائد الرائعة فى كتاب (آلام فرتر) لجوته ترجمة صاحب هذه المجلة

فى هذه المشكلة ؛ وخرج من هذا كله بنتيجة معقولة هى أنه لم يعرف فى التاريخ شخصية باسم Fian أو Finn ؟ إنما جل ماهنالك بعض مقطعات فى الشعر الشعبى الخرافى ، فيها بعض الاشارات إلى أبطال إيرلنديين ، لم يثبت التاريخ وجودهم فى عصر ما . أما انتساب (فِنّ) إلى كورمك Cormac أحد ملوك إيرلندا القدماء كما هو ظاهر فى القصيدة «فنغال» ، فهذا أيضاً عار عن الحقيقة إن هو إلا نتاج زائف لخيال مكفرسن وتصويره الشائق

ويذهب مكبيان إلى أبعد من هذا ، فهو يرى أن اتخاذ الايرلنديين (فِنّ) بطلا قومياً ليس بالعجيب ؛ إذ لكل أمته ، عند نشأتها وتكوينها الاجتماعى والأدبى ، أبطال خياليون ، تنسج حول شخصياتهم الأباطيل والخرافات المتعددة ، فما (فِنّ) بالحقيقة إلا بطل شبيه بهرقل ، وتيسيوس ، وبرسيُس . ولا يبعد أن يكون (فِنّ) هذا إلهاً محليا ، قدسه قومه ، وجعلوا منه بطلاً قومياً . حتى (أوشان) الشاعر الذى ينسب اليه مكفرسن نظم كثير من القصائد التى تدور حوادثها على شخصية (فِنّ) ! أقول ، حتى هذا الشاعر ، فى رأى مكبيان ، وليد الخيال ! لم يعش قط فى عصر ما . أما تفسير كونه ابن فنغال فليس بالأمر العسير ، فهو لا يختلف بذلك عن غيره من الآلهة القديمة التى عُرفت بالاختلاط مع البشر ، والمساهمة معهم فى الحروب ، ومختلف الأحداث ؛ وفى كثير من الأحيان التزاوج مع فئةٍ مختارة منهم

أما جواب مكبيان الأخير على القول السائد ، (أن فنغال عاش وأوشان أنشد Fingal lived and Ossian sang)

فهو إنهما عاشا وأنشدا فى نفوس الشعب الغاليق ، وأخيلتهم الخصبة . لأن ذاك الشعب وجد فى هاتين الشخصيتين الخياليتين ، مثلهم القومية والأدبية العليا مجسمة

أما أنصار مكفرسن فيكتفون بالتشيع لصاحبهم ، دون الاتيان ببراهين وحجج دامغة ، تدحض آراء خصومهم دحضاً ، وتدفع بتهجماتهم العنيفة دفعا ؛ وخلاصة ما يرونه أن هذه الأشعار تاريخية ، وأنها من نظم شاعر عاش فى القرن الثالث ق . م . وشهد جميع الحوادث الحربية ، التى ورد وصفها فى تلك المنظومات الرائعة

والحقيقة الراهنة لا تنشد فى قول جونسن الخصم اللدود ، ولا فى أقوال أنصار مكفرسن المتحزبين ، إنما تطالب فى قول فئة تقف موقف العدل والحق من هذه المسألة

والمقام يقصر عن التعرض لآراء جميع الذين يقفون هذا الموقف لكننا نكتفى بذكر أعظمهم شأناً وأبعدهم أثراً ، وأقربهم من الحقيقة ، أعنى به الكاتب الكبير ، والنقادة الاسكتلندى ، الشهير كامبل أوف إسلوىْ Campbell of Isloy فقد وضع مؤلفاً فى هذا الموضوع اسمه : (قصص شعبية فى الجبال الغربية) Popular Tales of the West Highlands فنّد فيه زعم جونسن أن مكفرسن نظم آثاره الأدبية نظما ، دون أن يتأثر بأشعار عامية قديمة ، أو يقتبس منها أو ينقل عنها ، وإن هذه الحوادث والأسماء الواردة فى منظومات مكفرسن إنما هى موضوعة مختلقة ، وردت ليست مترجمة . فهو يقول أن الأبطال الأوشانين ، الذين وردت أسماؤهم فى قصائد مكفرسن ، عاشوا بحق ، وعُرفوا قبل أن يدوّن مكفرسن هذه الأشعار بأعوام

(البقية فى العدد القادم) جريس القسوس

الصـــديق المنشود

للأستاذ فخرى أبو السعود

تحيـــةً فى النوى يا كهف آمالى
من مُصطف لك دون الصحب والآل

يا مخلصاً لىَ فى سر وفى علن ... وراعياً لى فى بُعدى وإقبالى
ومن يغالى بودى ليس يبذله ... لزخرف العيش من جاه ومن مال
ومُسدياً فضلَهُ من غير مسألةٍ ... وعارفاً لىَ إفضالى وإجمالى
ومن يُفرِّحه فوزى بمُطَّلَبى ... وليس يهْنِئُه أن ساء بى حالى
لا شامتاً بىَ فى وقع الخطوب ولا ... جذلانَ غفلانَ فى كربى وبلبالى
ومن إذا اغتابنى المغتاب أصْمَتَهُ ... فليس يُطربه ما قال عذالى
وإن رأى عِوَجاً بى لم يُسَرَّ به ... لكن يُقَوِّمُ آرائى وأفعالى
ومن يُمَحِّضنى نصحاً وأقبس من ... ضياء حكمته فى كل إشكال
ومن يماثلنى نفساً ويشبهنى ... هوى ويفقه أفكارى وأقوالى
ومن محادثتى إياه أعذَبُ لى ... من وقع فاجئة النُّعمى وأشهى لى
ومن إذا زدته خُبْراً أزيد له ... حمداً ويَعظُم فى عينى وفى بالى
ومن أرى وده نعم العزاء إذا ... تقلّبت بىَ حالٌ أو قلا قال
ودٌّ أنزهه عن كل شائبة ... وأصطفيه بتقديسى وإجلالى
كم تاق قلبى إلى قُدْسٍ أمَجِّدُهُ ... فى عالم فائضٍ بالرِّيب مُنْثال
قد بتُّ أرقب لقيانا وأنشدها ... على تعاقب أيام وأحوال
فهل لها موعد ؟ فالعمر مرتحل ... وليس يُرْجى لِعَوْدٍ بعد ترحال

متى تعارُفُنا ؟ أم أين أنشـــده ؟
فقد أطلت — وما ألقاك — تجوالى
كَم توسَّمت من جهـل صفاتكَ فى
فتى فأخلف فيـــه الخبرُ آمالى

لم يسْخُ لى بمغالٍ فى الهوى لَهِجٍ ... دهرٌ سخا بمُلحٍّ فى القِلى غال

فخرى أبو السعود

الشـــلال

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

« فلعل الحياة كالماء تجرى ... بين هذا الثرى وبين السماء »
(من القصيدة)

يا أخا الصمت فى الجلالة والرو ... ع وصنو النكباء والهوجاء(١)
إن فى القلب لوعة ما تقضى ... أنت حاكيت همتى ورجائى
أحسب الخلد مثل مائك ينها ... ر ونفسى فى مائه كالهباء
أنت فَجَّرْتَ فى ضلوعىَ ينبو ... عاً من الشجو مسرعاً فى دمائى
ليت أن الحياة مثلك تعدو ... لا تَرَاخَى مثل الجياد البطاءِ
إن للعيش كدرة تذر النف ... س ركوداً كآسِنٍ فى نِهَاءِ(٢)
فأغَنِّى على الأواسن من نف ... سى بفيض ينهار مثل البناء
يا ابن ماء السماء هل تذكر الرع ... د تحاكى إرزامه فى الغناء(٣)
قد هددت الصخور تنشد خصْبا ... أم لذخر تبغيه فى الدقعاء(٤)
إنما أنت ناقم ينصف السه ... ل بفضل الشواهق الشماء(٥)
تجعل السهل والحَزُونَ سواء ... ليس نجد ووهدة بسواء(٦)
مَرِحٌ أنت أم كما يسرع الفا ... رس فى نجدة إلى الهيجاء
لك بالشم مولد وعلى صد ... ر أبيك المحيط وقع الفناء(٧)
غير أن الميـــلاد فى قمم الش ... م حِمام لهاطل الأنواء
فلعل الحياة كالماء تجرى ... بين هذا الثرى وبين السماء
لك فى النفس نشوة مثلما استش ... رف راءٍ من شاهقات العلاء(٨)

(١) أى أن صوت الشلال فى روعته كالصمت التام فى روعته فإن لكل منهما روعة وهو شبيه بالرياح الأعاصير فى صوته

(٢) النهاء الغدران وأسن الماء أجن وتغير

(٣) الشلال ابن ماء السماء أى المطر ، وارزام الرعد صوته

(٤) الدقعاء : الأرض (٥) فضل الشواهق أى فضلات الجبال من صخور الخ (٦) الحزون : الأراضى غير المستوية ، والنجد : الأرض المرتفعة (٧) المحيط أبو النهر ، لأن النهر من السحاب ، والسحاب من المحيط

(٨) استشرف : أطل من مكان عال ، والمرء يشعر بذهول أو دوار وروعة وخوف اذا أطل من مكان عال كما يشعر وهو يرى تدفق الماء من عل فى الشلال

ويفيض النفوس مرأى جلال — لك حتى تطير كالأنداء [1]
فكأنى فى مائك الغمر أهوى — وكأنى فى كل دان ونائى
أنت أيقظتنى وقد كنت وسنا — ن فخلت الأكوان طراردائى [2]
هاتف فى خرير مائك قد أذ — كرنى عزمتى وماضى مضائى
أنت أصفى من الوداد وأنقى — من حبور النعيم والسراء
أنت أرجوحة لنفسى وصوت — منك كالظئر هاتف بالغناء [3]
أنت مثل الشباب عزماً و بطشاً — وَوَضاء أحبب به من وضاء
لك وقع الأقدار حتى لقد خا — تك رمزاً رُمزتهُ للقضاء
أنت كالدهر تأخذ الترب والعسـ — ـجد حتى تعيده فى الحباء [4]
لم تَهَبْ كرّة الدهور ولم تجـ — ـزع لذكر الشقاء والأرزاء
يا سليل السماء حَدِّث طويلا — بحديث العلى وصدق السناء
تبعث الصخر من صخورك يزهو — فوق صدر العشيقة الحسناء [5]
سوف تغدو كالشيخ فى أخريات الـ — ـنهر تسـعى بهمّة شمطاء [6]
فاغتبط بالمضاء وامرح طويلا — كل شىء لطيّة وفناء [7]

عبد الرحمن شكرى

---

(١) مناظر الجلال الهائلة تتضاءل أمامها النفس حتى كأنها تنعدم أو كما يتبخر الندى (٢) الإنسان فى غفلة من الأثرة والأنانية فتوقظه مناظر الروعة والجلال من غفلة أنانيته ، إذ يتضاءل أمام تلك المناظر فيحس وحدة الوجود (٣) كأنما حركة الماء فى الشلال تهز النفس كما يهتز الطفل فى الأرجوحة ، وصوت الشلال يجلب للنفس راحة كراحة الطفل فى غناء المرضع (٤) الحباء : العطية

(٥) ذلك لأنه يصقل الصخور

(٦) إشارة الى بطء النهر عند المصب

(٧) المضاء : المراد به نفوذ العزيمة وقوتها

(٨) لطية : لغاية يستقر عندها

ضـيعة المنى ! !

بقلم فريد عين شوكة

بعض الرضى يا شبابى — عما ذَوى من رغابى
مضت عهود التمنى — عَجْلَى كمرّ السحاب
فاسلك سبيل التعزى — ودع حياة التصابى
وانعم ببعض الأمانى — من الزمان المحابى
واركض مع الدهر واهتف — له بكل ركاب
إن الزمان غبىٌّ — يلهو به المتغـابى

* * *

يا حائراً فى ضلوعى — كزورق فى عُباب
وباعث الدم يسرى — كالمُهل تحت إهابى
متى تصيب قراراً — تغفو به أعصابى
متى تعود فترضى — من رحلتى بالاياب
متى تهون الغوالى — عليك بعد الذهاب
متى أراك بجنبى — كراهب المحراب
جفا الحياة ووارى — آماله فى التراب

* * *

يا قلب صبرَكَ أطفىء — به لواعج ما بى
فأنت وحىُ نزاعى — وثورتى واضطرابى
شغلتنى بأمان — كواعب أتراب
تركزت فى ضميرى — وغاغلت فى شعابى
حتى جننتُ هياماً — بها وخف صوابى
ما بالها كذبتنى — وأسفرتْ عن سراب
وخلفتنى منهـا — فى وحشة واغتراب
ظمآن أهفو لديها — لرشفة من شراب
أسوان أصلى عليها — نار الأسى والعذاب
يا حسرة المتمنى — على الأمانى الكِذابِ

(منوف) فريد عين شوكة

حيرة

للأستاذ محمود محمد شاكر

أشابَ القلبُ أم كرِهَ الشبابا ؟ … وبان الأُنسُ أم نسى الإيابا ؟
وغالبنى الأسى أم غالبَتْنى … حياةٌ تجعل الفَوْزَ اغتصابا ؟
أتَغْضِبُنى الدموعُ الصبرَ حتى … أرَى الدنيا أنيناً وانتحابا !
ويُبْدِلُنى الزمانُ من التصابى … ومن طَرَبى وُجُوماً واكتئابا !
وأسْأَمُ لَذَّةَ الدُّنيا ، ولَمَّا … أذُقْ مِنْ لَذَّةٍ إلا حَبابا !
فأزْجُرُ لَذَّتى زَجْرَ اليتامى … إذا ما الدهرُ أَمَّ بهم ذئابا
أفى وَهَج الشباب أعود هِمّاً … يذودُ بضعفه النُّوَبَ الصِّعابا ؟
وأطْرِقُ للحوادث مستكيناً … كجانى الشرِّ ينتظر العقابا !
وأصبحُ فى يدِ الدنيا أسيراً … إذا رام الفِكاكَ وَهَى وخابا !
كما عَلِقَ الحِبالةَ ذو جَناح … ولم ينفَعْهُ أن صحِبَ السحابا
فصفَّقَ ثم رَنَّقَ ثم أعْيِى … يَحِنُّ لداره جوًّا وغابا

أمِنْ عَدْلِ الحوادث أن أُضَرَّى … لأطْعَمَ إثْرَ لذَّتِهِنَّ صَابا !
وأن أستقبل الغدَ مُسْتَثِيباً … فيُقْبِلَ ، لا أفاد ولا أثابا !
وأحمِلَ من بناتِ الهمِّ قلباً … إذا نهنهتُهُ زاد اضطرابا !
جزاكِ الله من دُنيا خَتُولٍ . . … غَذَوْتِ القلبَ شكاً وارتيابا

أتنهانى عن الجزع الليالى … وما تنفكُّ تتركُنى مصابا ! !
فتَسْلُبنى الأحبة عن عيان … وتمتحُنى بذكراهم عذابا
وتسألنى اختداعاً : أين بانوا ؟ … ومن يُجْرِم توقَّحَ أو تغابى
سَلِى ما شئت،واستمعى شكاتى … كمثل الدمع تنسكب انسكابا
أعذلٌ منكِ أن أجّجْتِ قلبى ؟ … فلولا الصبرُ يُمسكه لذابا
فصارعتُ الشجون وصارعتنى … إلى أن فُزْتُ بالبقيا غلابا
فان الدهر يُنصف من تأبَّى … ويمنع يائساً من أن يُجابا
ومن يُعط التجلد للرَّزايا … تيقَّن أن يصيب وأن يُصابا

وسائلةٍ بظَهْرِ الغيب عنى … وعن حَالى من الأحداث نابا
تذكّرُنى الأحِبَّةَ يوم ولَّوْا . . … فزاد الدمعُ والجَزَعُ انتيابا
أحافظتى ، فديتُكِ من صديق … يسائلُ من مضى عنى وآبا
هى الدنيا تُفرِّقُ ساكنيها … وفى الذكرى تزيدهمُ اقترابا
ألا لا تعجَبى لِىَ من نحيبى … فإن أمامَنا العجَبَ العُجابا

محمود محمد شاكر

بلبلتى . . . (١)

بُلْبُلَتى ! ما شئت طيـ … ـرى حُرَّةً وغرِّدى
وَسَقْسِقِى فى جَنَّـةٍ … من مُهجَتى وكبدى
لا تحسَبينى جئتُ بالْـ … ـقَيْدِ وذُلِّ المَقْوَدِ
تفديكِ روحى وَسَنَا … عينِى وتَفْدِيكِ يدى
لن تدخلِى فى قَفَصٍ … من جوهر مُنضَّدِ
بل تدخُلينَ قلبى الْـ … ـوافى فغنِّى وأنشِدِى
رَوْضى أنا ، لا رَوْضَ هٰـ … ـذا العالَمِ المحدَّدِ
إن تَنْفَدِ الدُّنْيَا وَجَدْ … تِ رَوْضَنَا لم يَنْفَدِ
وأنت فِرْدَوْسى وفى … ظِلِّكِ شِدْتُ مَعْبدى
لكنَّنى أحْمِى ذِما … رى وأصونُ مَحْتدى
وأدْفَعُ الذُّؤْبَانَ عن … محامدى وسُؤْدَدِى
شَرْقيةٌ أنتِ ؛ وَبِى … بقيَّةٌ من أحْمَدَ
فباركيها بارَكَ اللهُ … عليكِ ، واقصدى
علىَّ مِنْ حقِّكِ ما … لَسْتُ عليه أعتدى
يا أملى البَسَّامَ ها … تِى (. . .) وأسْعِدى
سَهِدْتُ فاشْفِى بعض ما … فى جَفْنِى المُسَهَّدِ
باريسُ ما باريسُ . إنْ … فرّطْتُ فى ذا البلد ؟
فِرْعَوْنُ جدِّى ، وأبى … عدنانُ ، فهْو مَحْتِدى
وَيَثْرِبٌ مَهْوَى فؤا … دِى حين مِصْرُ مَوْلِدى
والمجدُ فى شُطئانِ هٰـ … ـذا النيلِ فارضَىْ واسعدى

(المحلة الكبرى) (د . . .)

---

(١) تزوج الشاعر من فتاة مصرية متقفة بالثقافة الفرنسية وقد حاولت أن تجعله يغضى عما تقتضيه التقاليد التى عرفتها فى المدارس الأجنبية فتفتها برفق الى تقاليد بلدها ، فهل تعد « الرسالة » الشاعر رجعيا أم ان لرسالة رأيا آخر ؟ هذا والشاعر متقف مثل فتاته ، بل هو متقف بثلاث ثقافات ، ولكنه ينتسب الى البيت النبوى الكريم . فهل للرسالة ، أو لقارئ ، أن يبديا فى ذلك رأيا مرجوا ؟ !

القصص

قصة مصرية

قبلة ....

[الحوار فى هذه القصة المصرية موضوع فى الأصل بالهجة المصرية وقد عرب لانتشار الرسالة فى الأقطار العربية]

للأستاذ دريني خشبة

كانت شغله الشاغل !

كانت تملأ أحلامه ، وتحتل كل حنية من قلبه ، وكان له قبلها حبيبات كثيرات من حبيبات الضرورة اللائى يعرضن فى حياة الشبان ، ثم ما يلبثن أن ينطفئن كما تلتمع الشهب وتتلألأ ، ثم ما تلبث أن تنطفئ ، ويكون أحدها صاعقة تنقض على أحد فتسحقه ... فلما عرفها ، نسى هواه القديم الموزع ، ووهبها حبه واخلاصه ودموعه ودمه ... ولو استطاع لوهبها كل حبه الذى ضيعه على الحسان عبثاً من قبل

وكان لها هى الأخرى أحباء ... ثلاثة أو أربعة ... تتنقل بينهم كالفراشة الظامئة تمتص من كل زهرة رحيقها ، ثم تلتمس الزهرة الثانية والثالثة ... والرابعة التى تكون أطيب شذى ، وأنضر منظرا ، وأملأ بالعصير الحلو . ثم عرفت (جمال) فشعرت كأن حاجزا ضخما قوياً يفصلها من الماضى الممتلىء بمتاعب الحب المصطنع ، والهوى المزوق ، والغرام الكاذب الخداع . وشعرت لأول مرة فى حياتها بنسيم عليل يهب فى صحرائها التلفلية فيجعلها جنة تصدح فيها البلابل ، ويتبسم فى أفنانها الورد ، وترقص فى حنياتها الملائكة ... وتنشد وتغنى !

وكانت تهب من نومها فلا تفكر إلا فى (جمال) ، وتذهب من هذه الغرفة إلى تلك وشخصه ماثل ملء ناظريها ، وحبه يغمر نفسها ، وكان يتمثل لها أكثر كلما توجهت إلى الحديقة تقطف الزهر وتأنس إلى الطير ، وتجلس عند حافة الغدير ، وترسل نظراتها الحائرة المضطربة فى الشمس الغاربة خلف النخيل البعيد ... وطالما كانت تستسلم لوحدتها هذه فترسل عَبرةً صغيرة ، صغيرة جدا ، تخفيها فى منديل حريرى صغير ، لم تكن حمته قبل أن تعرف (جمال)

وكان (جمال) بدوره يحبها ويفكر فيها ، ولكنه كان فتى غيوراً من مصر ، وكل فتيان مصر غُيُرٌ أشداء فى الغَيرة ، وهو كان يعرف أن (سُمية) لم تكن له قبل أن يلقاها وتلقاه ، بل هو كان يعرف اثنين أو ثلاثةً من أحبائها المدنفين بها ، بل إن اثنين أو ثلاثة من أحبائها كانوا أصدقاءه ، وكانوا يُسرون اليه ، كل على حدة ، بلاعج الحب الذى يعانون من (سمية) ؛ وكانوا يشكون إليه دلالها وقلة اكتراثها بهم ، فلم يتحدث اليه أحدهم عن (سمية) حديث سوء أو فحش ، ولم يقل له أحدهم إنه نال من (سمية) خلوة فبثها غرامه ، أو إنها حفلت به حين لقيها فى الطريق فجزته عن ابتسام بابتسام ، بل هم جميعاً كانوا فى نصب من تمنعها الذى شف قلوبهم ، وأضوى أجسامهم ، وجعلهم فى حيرة من أمرها

على أن (سمية) ، مع ذلك ، كان لها أحباء تخلو إليهم قبل أن تعرف (جمال) ، وكانت تعاطيهم من بضاعة الحب المُزْجاة قبلاً رخيصةً ، غير حارة ولا وفية ، ولا معنى فيها من هذه المعانى الرفيعة التى تصون الحب العذرى ، ويتجمل بسموها الهوى الطهرى ؛ وكانت تسرف أحياناً فتغشى المراقص والندى ، وكانت تتضع فتحسو الخمر وتقبل الكؤوس ، وكانت ، من النشوة وجنون الشباب ، تراقص الفتيان نصف عارية ؛ وكان جسمها الجميل المشوق ، ونهدها البارز المتأجج ، ووجهها المستدير الحلو ، وخداها الوردان الأسيلان ، وأنفها الدقيق وفمها الرقيق وذراعاها الناعمان ... كان كل أولئك يجذب إليها قلوب الشباب

المستهتر ، وكانت قلوب الشباب المستهتر من حولها كالفراش حول اللهب ، تنقذف فيه لتحترق !

وقد عرفها جمال هنا ! فى نفس المرقص الذى تعودت أن تغشاه أكثر من المراقص الأخرى . وقد قدمها إليه أحد أصدقائه القُنَّع الأغنياء على أنها غانيـة ، ولكن جمالاً عرف فيها الفتاة العذراء بقلبها ، النقية بسريرتها ، المتبرمة بهذه الحياة التى مظهرها دنس وفجور وفسق ، وباطنها ضمير معذب وقلب محترق ونفس شقية ، ودموع مُكتَّـمة وأمل مفقود . لقد كانت الأضواء المصنوعة البرتقالية والبنفسجية والصفراء والحمراء والبيضاء ، تتكسر على ظهرها الأملس وصـدرها المرمرى ، وساقيها الخدلجين ، فتزيد معانى الفسوق فيها فى قلوب محبيها الذين لم يكونوا يعرفون منها إلا ما تعرفه شهواتهم وخبائثهم ، فى حين كانت هذه الأضواء نفسها تضاعف معانى الطهر والبراءة فيها فى نفس جمال . ولذلك ضغط على يدها الصغيرة الحلوة الناعمة ضغطاً هيناً ليناً حينما قدمها إليه صديقه ... وكان لقاء هو أول الطهر فى حياة هذه الغانية ، وهو أول الأمل المشرق والرجاء البسام

لقد ضغط جمال على يد سميـة ضغطة نقلت الى قلبها الواسع ما فى قلبه النحيل من حب ناشئ ، تذوقته فلم تعرف فيه تلك النجاسة التى عرفتها من أحبائها الآخرين ، وحدثت نفسها فوجدتها تنتقل فجأة من هذه الأرض الممتلئة بالأدران ، إلى سماء فسيحة أثيرية ممتلئة بالأناشيد والأمانى

وفكر فيها جمال ، وكاد عقله يصدفه عنها ولكن قلبه جذبه إليها بشدة وعنف ، فاستسلم كالحمل ، وألقى بروحه كلها فى قبضة سمية

* * *

والتقيا فى خلوة ، بعد مقدمات غراميـة طويلة كلها حيطة وكلها حذر ، وجلسا فى منزل جمال الخالى من كل مخلوق عداه ، وذهبا يتجاذبان أطراف الحديث الحبى ... ثم صمتا فجأة وتوسطت بينهما نظرات مستطيلة غائرة ممتلئة مغناطيساً عجيباً ... ولم يقو جمال على هـذا السحر المنبعث من عينى سمية ، فأطرق برأسه ، وأخذ فوديه بين يديه ، وانفجر يبكى كالطفل ، وسمية تتفرس فيه وتتألم ... ولا تدرى ما ذا تصنع !

سمية التى خبرت من ألوان الحب ألفاً وألفا ، لم تر فى حياتها مثل هذا المشهد العجيب مرة واحدة ، لأن كل الذين اكتووا بنارها كانوا من طلاب جسمها الخصب ، وجمالها الفتان ، أما جمال ، فقد عرف من ابتساماتها الحزينة ، ونظراتها المترعة بالمعانى أنها جديرة بغير هذا اللون من الحب الشهوى الدنس ، جديرة بحب جديد نقى يوائم هـذه الناحية المستورة العميقة من نواحى نفسها الكريمة الرحيمة الناقمة على الحيـاة ، الباحثة عن قلب واحد كريم من ملايين القلوب التى يزدحم بها العالم من حولها

دهشت سمية ، وجلست تلقاءه مسبوهة اللب ذاهلة القلب ، لا تدرى ما ذا تقول ، ولا كيف تمالج منـه هذا البـكاء وذلك النحيب . . . لقـد كانت تظن أنه يستطيع أن ينال منها كل ما يشتهى ، فانهما بنجوة من الناس ، ولا أحد يستطيع أن ينفذ إليهما ولو بنظرة . . . فلم لم يداعبها جمال ؟ ولم لم يداعب كفيها على الأقل ؟ لمَ لمْ يجلس الى جانبها على هذا الكرسى الرحيب فيضع رأسه على صدرها كما يضع العشاق ، أو يأخذ رأسها فيضعه على صدره ، ثم يبحث بفمه فى شعرها الجعد الأسود الفاحم ! لماذا لم يحاول أن يُقبِّـلها ؟ إن القبلة هى عربون الحب كما يقولون ! فلم لا ينقض جمال على فمها الحلو فيسق من سلافته قلبه الظامئ ؟ لا ! لم يفعل ، ولم يحاول أن يفعل ... بل ظل يبكى كالطفل ... بكاء ساكناً هادئاً ، لأنه صادر من القلب ، بل من أعمق أغوار الروح . . .

— « أ ... أظن بحسبك ما بكيت يا جمال ؟

— « ... ؟ ...

— « أهذه أول مرة إذن ؟ ...

— « سمية ...

— « جمال ...

— « أتعطينى موثقاً يا سمية ؟

— « وعلى أى شىء أقاسمك يا جمال ؟

— « على أن تكونى لى وحدى يا سمية ... على أن تقطعى صلتك بكل من عرفتِ قبلى

— « وهل عرفت أحداً قبلك ؟ أنت واهم !

— « أنت تهزأين بى يا سمية !

— « لا . لست أهزأ بك ، بل ... أنا ... أحبك

— « وأنا ... وأنا يا سمية ... بل لقد فنيت فيك

— « ثق أنني لم أقلها لأحد قبلك على كثرة من تعرف ممن ظننتهم أحبائي !

— « إذن ستكونين لي وحدي ! أليس كذلك ؟

— « سأكون لك ! وأقسم لك إنني لم أكن لأحد قبلك

— « وعلام تقسمين يا سمية ؟

— « أقسم على نفحة السماء التي غمرت قلبي حين ضغطت على يدي ليلة لقيتك ... بل أقسم على الدموع الغزيرة الغالية التي ذرفتها أنت الآن !

ودنا منها جمال ... وصافحها ، ولكنه لم يقبلها ؟ !

***

ونقل من القاهرة إلى أسيوط ، وانتقلت (سمية) معه ، ثم تزوجها هنالك ، ولكنه كان يعاشرها كما يعاشر الفنان دُميته ، يهواها ويتعبدها ، على عكس ما يقول الشاعر العربي ؛ وكان شديد الغيرة عليها ، وكان يغيظه منها كثرة الخطابات التي ترسلها إلى القاهرة والتي تصل منها ، وكانت هي لا تبالي أن تقع هذه الخطابات في يده فيقرؤها ، ويمزق منها ما يشاء ، ويبقي على ما يشاء ويرد إليها ما يشاء . ولكن خطابا واحدا أهاجه بما حمل إلى سمية من عبارات ليس يصدر مثلها إلا عن فؤاد العاشق ولا يستطيع أن يكتبها إلا قلم وامق ... وإن تكن التي كتبته امرأة كما يُظَن من الامضاء

— « ومن عَلِيّة هذه التي تكتب هذا الأسلوب المتهدج يا سمية ؟ »

— « الأسلوب المتهدج ؟ »

— « أي ... الأسلوب الذي يخفق بحبك ، ويتنزل كالوحي عليك ؟ »

— « جمال ! ماذا تريد أن تقول ؟ »

— « لاشيء ! ولكنني أعبدك يا سمية ! أعبدك ! أسمعت ؟ »

— « بل أنت تعذبني بشكوكك !

— « فقط أريد أن أعرف من علية هذه ؟ »

— « أقسم لك بدموعنا إنها فتاة ... ولكن لا تعرفها ! »

— « ...... ؟ ...... »

وذهب جمال إلى (المصلحة) وغادر سمية تجترّ آلامها وحدها ؛ وكان قد أهدى اليها صورته يوم أن تقاسما على أن يكون كل منهما للآخر ، وكانت سمية تعتز بهذه الصورة أيما اعتزاز ، لأنها كانت تذكرها بالقلب الذي نبض بحبها غير مشوب بغرض دنيء ، كما كانت تذكرها بأول نبضة خفق بها قلبها بحب بريء ... فكانت تدمن النظر اليها وتبكي ...

وعاد جمال مرة من عمله مغضباً حانقاً ، لأن لئيماً من أصدقائه عرف أنه تزوج من سمية فكتب اليه خطابا بامضاء مستعار يهيجه به ، ويذكر له من تاريخ صاحبته ما يريد أن يفصم به عرى تلك الرابطة التي ربطت قلبيهما ، فتعجل جمال موعد انصرافه ، ويرجع إلى المنزل ليرى رأيه في سمية ، وليضع حدا لافتتانه بها ، وليخلص ضميره المعذب من هذا الشقاء الطويل

وكان يحمل معه مفتاحاً لسكنه ، وكان كل مرة يفتح الباب دون أن يسمعه أحد ، وكان بذلك يؤلم سمية غاية الايلام ، لأنها كانت تعتقد أنه يتجسس عليها

ودخل في ميعاد مبكر لم تكن تنتظر مجيئه فيه ، وسار يخطو متئدة حتى كان عند باب المخدع ، فوجدها بين مصراعي دولابها الكبير تقلب أوراقاً ، ثم تتناول من بينها صورة فتحدق فيها نظرها ... وتلثمها وتبكي ...

وكان السافل الوغد الذي كتب اليه الخطاب الذي أهاجه قد ذكر له فيه أنه أهدى اليها صورته أكثر من مرة ، وأنها أهدت اليه صورتها ، فوقر في قلبه أنها تلثم الصورة المجرمة التي تدخرها ككنز لهذا الحيوان

وفي ثورة جنونية ، انقض جمال على سمية ، وضغط بكفيه القويتين حول عنقها ، فوقعت على البساط الوردي الفخم ، بين الموت والحياة !

ولكن ... وا أسفاه ! لقد نظر إلى الصورة التي كانت بيد زوجته فوجدها صورته التي كان أهداها اليها ليلة الموثق ، فأفاق من وسواسه ، وانحنى يقبل سمية بفم مجنون ، وشفتين مرتجفتين ، ولكنها لم ترد عليه بكلمة ... فحسبها قد قضت !

وصاح جمال بالخادمة ...

ثم هرول إلى الخارج ليحضر طبيباً ...

***

ولكنه عاد ليجد الخادمة تقول له :

— « سيدى ... لقد سافرت !

— « سافرت ؟ !

— « أجل ... سافرت الى القاهرة ! هكذا قالت لى ، وهاك خطاباً منها . وفض جمال الخطاب فلم يجدها زادت على هذا السطر

« جمال ! اضطررتنى اضطراراً أن أعود إلى الذئاب لتغتذى بعرضى وتوغل فى دمى ، والذى يؤلمنى أننى أكاد أضعك ولداً فى طريقى الى القاهرة !! »

وكاد جمال يختنق !

وهرول الى المحطة لأنه نظر الى ساعته فوجد أن القطار لا يتحرك قبل عشر دقائق ... ولكنه وصل الى المحطة ولم يجد سمية هناك ، فانتحى ناحية وأخذ يفكر ... ثم ذرف دموعاً سخينة أخفاها فى منديله ، وأيقن أن سمية قد سافرت فى سيارة

وعاد الى المنزل محطم القلب مهدم الجسم خائر القوى

ولكنه ما كاد يطرق باب المسكن حتى سمع صَوْصَوَة ، ثم دخل فرأى طبيبة كأنها ملاك تحمل بين يديها ابنه ... المولود الصغير ... ورأى سمية ممدودة على السرير ضعيفة موهونة واهية فانهمرت الدموع من عينيه ، وتقدم الى الطبيبة فاحتمل الطفل وطبع على جبينه ذى الأسارير قبلة باكية ، ثم سمع سمية تقول :

— « وأنا أيضاً يا جمال !

— « وأنت أيضاً ماذا يا ملاكى ؟

— « وأنا أيضاً ... قبلة مثل هذه ...

فانحنى على وجهها الحزين وطفق يقبله حتى طبع عليه ألف قبلة ، والطبيبة العذراء تنظر وتتعجب !

***

وكان الفصل شتاء ، وكان الموقد يتأجج بجمر شديد ، ونظرت سمية فرأت جمالاً يخرج من جيبه خطاباً ويحرقه ، فتبسمت وهى تقول :

« ضحية جديدة لا بد ؟!

ولكن جمالاً لم يرد .... بل مضى يساعد الطبيبة فى لف الطفل !!

دريني خشبة

ذكرى .....!

للقصصى الفرنسى موباسان

بقلم الأديب محمود البدوى

ما أمتع الربيع وغصن الشباب رطيب وماء الحياة يجرى ! وما أشجاه والشباب يولى والرأس يشتعل والحياة تدبر ! لا زلت أذكر أى مخاطرة عظمى كانت الحياة فى تلك الأيام الخوالى ، وقد اعتدنا أن نجوب معاً خلال باريس رائحين مع الصبا بقلوب نزقة ونفوس مرحة ، يملؤنا الرجاء ، وتحف بنا النعماء ، دون أن نعير الدنيا التفاتة أو نحسب لها حساباً

سأقص عليك إحدى هذه المغامرات التى وقعت لى منذ أمد مديد وعهد بعيد ، حتى يصعب على الاقرار بصحتها والتسليم بما فيها . كنت فى الخامسة والعشرين من عمرى ، ولم يمض على فى باريس غير عهد قصير . كنت أخرج كل أحد مجدا فى البحث عن مخاطرة أو مغامرة وأنا ممتلئ شبابا وفتوة . والآن ... ما الذى تشابهه أيام الآحاد ؟ أيام مروعة يضيق فيها المرء ذرعا بكل فكر يثبته أو يتحدث به وبكل صحب يرافقه

استيقظت فى ذلك الصباح مبكرا وفى نفسى هذا الاحساس بالحرية الذى يعرفه أولئك الذين يعملون طيلة الأسبوع والذين ينظرون إلى يوم الأحد كيوم راحة وحرية . فتحت نافذتى ورمقت الجو البهيج وحرارة الشمس الفائضة والعصافير المغردة

ارتديت ملابسى على عجل ، وخرجت لتمضية يوم فى الغابة الحبيبة خارج باريس ، وكانت المدينة كلها تلمع فى ذلك اليوم المشمس ، ووجوه السارين تفيض بالبشر والسعادة لحياتها وسط هذا الجلال الرائع ، وانتظرت على شط النهر ذلك القارب الذى سيقلنى إلى « سان كلو »

وانتظارى بهذا القارب بدا لى كأنه مخاطرة فى نفسه ، فقد تصورته آخذاً بى إلى نهاية الدنيا ، إلى أمصار عجيبة جديدة . وشد ما ابتهجت عند ما لمحته قادما كقطعة صغيرة من السحاب أخذت تكبر تدريجيا حتى لاحت أمامى ، ورست على امتداد الرصيف

ركبت القارب فألفيت نفسى وسط رهط من المتنزهين الذين ينعمون بلذائذ الأحد ومتعه ، ووقفت على سطحه أرقب الأرصفة والمنازل والأشجار وهى تتوارى عن العين ، حتى خلفنا باريس وراءنا ، وانساب بنا القارب إلى ماء هادئ ساكن ، تحفه السهول وتقوم على جانبيه التلال الشاهقة ، وفى أسفلها الغابات والأحراج والمراعى الخضراء الرطبة

نزلت فى « سان كاو » وتخطيت مسرعاً القرية الصغيرة ثم أشرفت على الطريق الذى سيقودنى إلى الغاب ، وكان معى خريطة لباريس وما يجاورها ، ولذا فلن أضل الطريق إذا وليت وجهى شطر إحدى هـذه الطرق الصغيرة التى لا تعد والتى تؤدى على اختلاف امتدادها إلى الأحراج . وبعد فحصها رأيت أنه على أن أتيامن ثم أتياسر ثم أنعطف إلى اليسار ثانية إذا وجب أن أصل فرساى وقت العشاء

سرت متمهلاً أسحق الأوراق الجافة بقدمى وأنشق الهواء العليل المعطر ناسـيا كل ما يتصل بالمكتب والعمل والرئيس ، وفكرت فقط فى المستقبل المجهول الذى سيزاح لى ستره ، والذى فيه كثير من الجمال المحتمل . وذكرتنى بساطة الريف عهد الطفولة وجعلتنى أشعر حقاً بأننى رجعت إلى الحياة طفلاً . فهناك نفس الزهور التى كنت أرى مثلها يانعة حول باب منزل أمى الصغير والحشرات التى فى لون الذهب وهى تنساب متثاقلة على أنصال العشب الذى ينحنى تحت ثقلها الضئيل

أخذتنى عيناى ، وحلمت بكل هذه الأشـياء ، ولـما قمت كنت منتعشاً تماماً وواصلت رحلتى . امتدت أمامى طرق جليلة من نبات السرخس وقد خطط بصف من زهر الكاميليا الأبيض الطويل . وهنا تبينت فى نهاية الطريق شخصين قادمين نحوى ، رجلا وامرأة ، ودار بذهنى أننى سمعت من ناداني فخنقت على هـذا التطفل الذى عكر على صفو وحدتى الهادئة . وكانت المرأة تلوح بمظلتها والرجل فى قميصه ذى الأكمام حاملاً معطفه على ذراعه ومشيراً لى

استدرت وانتظرتهما وكانت المرأة تسير بخطوات سريعة قصيرة . أما الرجل فأفسح المجال لقدميه وكان يلوح عليهما الضجر والتعب

تكلمت المرأة أولاً :

« سـيدى . . . هل لك أن تتكرم بإخبارنا أين نحن ؟ قال زوجى إنه يعرف كل فتر فى الريف المحيط ومع هـذا فقد ضللنا الطريق ! . »

«سيدتى أنت قادمة من فرساى وفى طريقك الى سان كلو»

والتفتت الى زوجها بحقارة :

« ما ذا ! إننا قادمون من نفس المـكان الذى نرغب العشاء فيه ! ! »

وهزت كتفيها معنفـة ومزدرية الرجل الذى ارتـكب هذا الخطأ

كانت حسناء فى رونق شبابها وربما كان هـذا هو الذى حملنى على إخبارها عن رغبتى فى العشاء بفرسـاى . وأخذنا بأطراف الحديث . . . ووبخت زوجها الحائر وهو كأنما أخذته نوبة جنون يعوى عواء غريباً فى خفوت كأنما لا تسمعـه آذان غير أذنى

« تيـ يـ يـ ت . . . . تيـ يـ يـ يـ يت »

واستطردت زوجه تقول :

« أنت دائماً مخطئ ، فأنت الذى قلت إن « لاتورنيه » يسكن فى شارع دى مارتر والواقع أنه لا يسكن هناك ، وأنت الذى قلت إن «سلست» ليست لصة مع أنها كذلك ، وأنت و...

وأخذت تلوم زوجها على كل أفـكاره الخائبـة وأعماله وجهوده الضائعة فى مدة حياته الزوجية

وعبثاً حاول زوجها اسكاتها بقوله :

« ولـكن يا عزيزتى ... أمام هذا السـيد ... ما الذى سيتصوره ... ليس هذا بسار له »

وختم هذا بصياحه البربرى الوحشى الذى بدا لى أنه عارض فجائى لحالة عصبية مضطربة ، وهنا تحولت الزوجة الصبيـة الى وغيرت سلوكها بسرعة وقالت :

« إذا كان السـيد لا يعارض فسنرافقه وعلى هذا فلا خوف علينا من التيه فى الغاب»

فانحنيت ... وجذبت بذراعى اليها وأخذت تحدثنى عن آلاف الأشياء ، عن نفسها ، عن حياتها ، عن أسرتها ، عن العمل ،

وزوجها يسير بجانبها ناظراً من مرة لأخرى بلهف يميناً وشمالاً صائحاً

« تيء ء ء يت »

فقلت له أخيراً :

« ما الذي يحملك تصيح هكذا ؟ »

فأجاب بقلق :

« فقدت كلبي الصغير المسكين وما أتم الحول ، أخذته معي اليوم لأول مرة ليرى الريف وكاد أن يجن من الفرح ، كان يتوثب وينبح ويجرى إلى الأحراج ، وربما يموت جوعا إذا ضل السبيل ، أواه ، الصغير المسكين »

فعنفته زوجه « إنها غلطتك ... أنت أبله .. آه .. إنك تحملني على الغضب »

* * *

غربت الشمس وأخذ الضباب المتكاثف يحجب حوافى الريف ، وتأرج الغاب بعبير الزهور الذابلة .. توقف الزوج يبحث في جيوب صديريته باهتمام

« عزيزتي إني آسف .... نسيت ... »

فرمقته وهي تتميز من الغيظ

« ما الذي تعمله الآن ؟ »

« يبدو لي أنني نسيت محفظتي ... وفيها نقودي »

فامتقع لونها من الغضب

« لقد عيل صبري ... آه .. أيها الغبي .. حتى النساء ترمى بمثل هذا المأفون ... اذهب وابحث عنها حالاً ، وحذاراً من العودة بدونها ، أما أنا فذاهبة إلى فرساى في حماية هذا السيد فلا أرغب في المبيت في الغاب »

فأجاب بوداعة :

« حسنا .. ياعزيزتي ... وأين أراك ؟ »

فحدثته عن مطعم معين أنيق جداً ، ووعد بموافاتنا هناك ، ثم غادرنا يبحث عن كلبه ... ! ومن آونة لأخرى كنا نسمع الصياح الحاد :

« تيء ء ء يت » الذي أخذ يتضاءل كلما بعد

وتكاثف الضباب فحجب أعالي الأشجار وانساب في خلال الفروع واستطعت بعد لأي أن أميز بناء جسم مرافقتي ، ونحن نسمع من حين لحين صياح « لامتنابل » :

« تيء ء ء يت »

وأسرعت الخطى سعيداً جذلاً بهذه الرياضة الجميلة في الغسق مع امرأة مجهولة تستند على ذراعي وتميل نحوي . وبحثت عن أشياء أقولها عن عبارات سامية ، أو نكات مستملحة .. على أني لم أوفق لكلمة واحدة . والحق أقول ما كنت في حاجة لشيء من هذا

ووصلنا إلى طريق رحب تقع على يمينه مدينة كبيرة في واد خصيب وسألت ماراً عن اسمها فأخبرني أنها بوجيفال فدهشت

« بوجيفال ! .. أمتأكد أنت ؟ »

« حسن ! ... تصورى بأنني ولدت هنا »

وأخذت المرأة النحيلة تضحك لأضلالنا الطريق بقلب طروب ، فعزمت على ركوب عربة إلى فرساى ولكنها رفضت

« آه .. لا .. حقاً ... إني لا أتعطش إلى ذلك ولا أتلهف عليه ، وزوجي في استطاعته أن يراني في وقت ما ، وأضف إلى هذا أني سأكون أمام مخاطرة سارة لم أرها من قبل »

ودخلنا مطعماً على حافة النهر ، واجترأت على طلب غرفة خاصة ... والحق أنها ... متعت نفسها .. استسلمت .. كنا في حالة نشوة لذيذة .. غنت وشربت الخمر ، وفعلت أكثر من هذا ... فعلت في الواقع كل ما تستطيع عمله ...

محمود البدوي

البريد الأدبي

مصير الآداب بين مسيو هريو والشاعر بول فاليري

عقدت لجنة التعاون العقلي الملحقة بعصبة الأمم مؤتمرها السنوي في جنيف في أواخر يوليه ، برياسة المفكر الانكليزي الكبير الأستاذ جلبرت موري ، ومثلت فيها معظم الأمم المنضمة إلى العصبة ؛ وجرت فيها عدة بحوث ومناقشات في المسائل الفكرية والأدبية ، وكان مما لفت الأنظار بنوع خاص حوار طريف دار حول مستقبل الآداب بين أديبين كبيرين من ممثلي فرنسا هما المسيو ادوار هريو رئيس الوزارة الأسبق والمسيو بول فاليري الشاعر الكبير

يرى مسيو بول فاليري أن أولئك المفكرين الذين يتذوقون جمال الشعر وروعة الأدب يختفون في عصرنا شيئاً فشيئاً حتى غدوا قلة محسوسة ؛ وربما شهدنا في المستقبل القريب انقراض القارئ المفكر المتمهل ؛ ذلك أن السينما والسيارة والأخبار السريعة التي تلقيها الصحف كل ساعة قد شغلت الأفكار ، وأحدثت في الأذهان اضطراباً مريعاً ، وأودت بقواعد النقد والكتابة السليمة ، وأخذت الأذهان تعدل شيئاً فشيئاً عن البحث والتعمق إلى التعميم والبساطة السطحية ، ووصلت العدوى إلى أولئك الذين اعتادوا من قبل أن يزنوا آراءهم وأن يمحصوها ، فمستقبل الأدب الرفيع اليوم في ميزان ، وليس بعيداً أن يطفو الأدب الشفوي على كل أنواع الأدب السليم الهادئ

على أن مسيو ادوار هريو لا يرى رأي زميله المسيو فاليري ، فهو أكثر منه تفاؤلا بمستقبل الأدب الرفيع ، ومن رأيه أن تطور الفكر الغربي يسير في مجراه الطبيعي ، وأن الأدب يشغل مركزه الهام في المجتمع الجديد الذي يتكون اليوم . ويقول مسيو هريو إن الأدب سيبقى حيا دائماً ، ذلك أن وحدة الذهن والأدب الحقيق يرتبطان برباط قوي ، ولا يتسنى للأدب أن يعيش وحده على هامش الذهن . وما دام هناك أدب رفيع فسيكون هناك قراء ، فليخرج الأديب والفنان كل منهما نتاج فكره ، فيجد دائماً من يتذوقها

ويرى مسيو هريو أنه إذا كانت ثمة في آداب عصرنا بعض نواحي الضعف والسقم ؛ فان ذلك يرجع إلى آثار الحرب الكبرى . ذلك أنها كما أضرت في الماديات ، أضرت في العقليات أيضاً ، وأصابت حركة التفكير بويلاتها

وقد كان هذا الحوار الطريف مثار التعليق الكثير في دوائر الأدب ، ونحن أميل إلى الأخذ في ذلك الموضوع برأي الشاعر بول فاليري ، ويكفي أن نلاحظ ما أحدثته السينما والراديو ووسائل التسلية الفنية والشفوية من ضعف في الحركة الأدبية ، لندرك أن الأدب الرفيع يسير إلى مستقبل غامض مجهول . فما رأي أدبائنا ؟

برنارد شو في الثمانين من عمره

احتفل برنارد شو ، واحتفلت معه انكلترا ، ببلوغه الثمانين من عمره (في الخامس والعشرين من يوليه) وفي ذلك اليوم قامت جمعية الحفلات بتمثيل روايته الشهيرة « جان دارك » ولبث برنارد شو طوال اليوم عاري الرأس ، مشمر الساعدين ، يطوف بلحيته البيضاء حول المسرح ليشرف على الاستعدادات ، ويدلي بنصائحه للمس وندي هلر التي تقوم بتمثيل الدور الأول . وقد رأى برنارد شو أن يفاجئ أصدقاءه بهذه المناسبة باحدى طرائفه فذكر لهم جميعاً أنه قد جمع من المال ما يكفيه ، وأنه يستطيع أن يشتري لنفسه كل التحف والهدايا التي يتصورها الذهن ، ولذلك فهو يرجو ألا تتعدى أثمان الهدايا التي ترسل اليه ثلاثة بنسات ؛ فصدع أصدقاؤه بالرجاء ، وجاءت السلال الى فناء الدار تحمل أقلاماً من الرصاص ، وأمشاطاً ، ودفاتر للكتابة وأساحة وأمثالها

وقد ألقى برنارد شو في ذلك اليوم بتصريحين : أولهما أنه بهذه المناسبة يود أن يتجول قليلاً في جبال بلاد الغال ، والثاني أنه لا يرى في الواقع فرقاً بين الاحتفال بعامه الثمانين وبين الاحتفال بعامه التاسع والسبعين

تكريم الأستاذين أحمد أمين وعبد الرحمن عزام في دار الأيتام ببيروت

لا تترك إدارة دار الأيتام في بيروت فرصة مرور أديب كبير أو رجل خطير إلا وتخف إلى تكريمه والاستفادة من علمه ومعرفته ، حتى لقد أصبحت هذه المؤسسة في طليعة المؤسسات العلمية في الحاضرة بعملها على هذه الغاية وسبقها إلى كل مكرمة علمية ، يقوم على إدارتها رجل شاب مثقف ، دل على همة ونضوج في عمله ، تراه لا يألو جهداً في تحسين هذه الدار والتقدم بها تقدماً محسوساً يرفع عنها « ذلة اليتم » وإن تكن مصنوعة للأيتام



الأستاذ أحمد أمين بين المحتفلين به في دار الأيتام ببيروت

كانت حفلة التكريم من الحفلات الرائعة التي تجلت فيها العاطفة العربية التي تربط بين الأقطار العربيـة على اختلاف مواضعها . بدأت الحفلة بكلمة مدير المؤسسة السـيد محمد عبد القادر طبارة ، شكر بها الزائرين على تلبيتهم الدعوة ، وعلل الأسباب التي يكرمون بها الأستاذ أحمد أمين ؛ ثم قدّم المحاضر إلى منصة الالقاء ، فعالج موضوع الفقر وأسبابه ومعالجتها ، فجعله آفة اجتماعية لا آفة سماوية يمكن التغلب عليها ، ثم حلل الفقر وجعل له أسباباً طبيعية يتغلب العلم على كثير منها ، وأسباباً غير طبيعية يجد لها المخلصون علاجاً في إخلاصهم ، وهنا ذكر ما يجب على الحكومات عمله في طرد الفقر ، وما يجب على الأوقاف التي تجمدت في ذهنها معاني الاحسان ؛ وكان الأستاذ محدثاً موفقاً في محاضرته ، خالباً ألباب سامعيه ، داخلا في نفوسهم ، محللا موضوعه تحليل الطبيب الاجتماعي . وما أن انتهت المحاضرة حتى خف الزائرون إلى الميتم يتفقدون حجراته ، فرأوا في هذه المؤسسة من الأناقة والترتيب والتقدم ما يشهد كله للقائمين على هذه المؤسسة الخيرية بالهمة السامية والعمل الكامل . وبعد لأي بدأت حفلة التكريم فما قلت جمالا عن أختها ، فتكلم حضرة مفتش المعارف السيد واصف بارودي كلمة عن أثر اللغة وربطها بين الأقطار ، وعن آثار الأستاذ أحمد أمين ، ثم ألقى الأستاذ جورج كفوري مدير الدروس العربية في المدرسة العلمانية كلمة بليغة في تحليل أسلوب الأستاذ أحمد أمين ، وخصه بمزايا منها : نزاهة في التحليل ، وغوص على أعماق المسائل ؛ وأيد قول زميله الدكتور طه حسين فيـه : « إنه يعمل كالكيمياوي في مختبره » . ثم ألقى السيد كاظم الصلح خطاباً قيماً عن جهاد الأستاذ عبد الرحمن عزام ، وعن وطنيته الدافقة التي تعلن الحرب في كل ميدان عربي ، لأنها مؤمنة جد الايمان بعروبتها ، وهنا نهض الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام مبلغاً تحيات الأستاذ عبد الرحمن الذي حال بينه وبين قدومه سفره العاجل إلى العراق ، وأكد بكلامه أن البلاد العربية ساعية إلى وحدتها التامة ومتلاقية فيها لأن كل شيء يسبقها على تقريب ذلك وليس فجرها ببعيد . وختم الحفلة الدكتور سليم ادريس شاكراً لليتيم الذي سهل للحشد الكريم اجتماعه وتعارفه ، ثم انصرف الناس تلهج ألسنتهم بالشكر والثناء الجميل على ليـلة كانت من ليالي الدهر ؟

خ . ه

حول نقد

قرأت في العدد ١٦٠ من (الرسالة) للأديب عباس خضر نقداً لقصـيدة القاياتي . ولكنني لم أستطع فهم رأيه في قول الشاعر :

يقولون إن الراح للفكر صيقل ... وربك ما في الراح عقل ولا فكر

فالأديب قد أخذ على الأستاذ المغالطة في هذا البيت وهذا قوله فيه :

« فان خلو الراح من العقل والفكر لا يمنع من أن تصقل الفكر ، وهناك كثير من الأشياء تصقل الفكر وليس لها عقل ولا فكر . »

فهو قد فهم أن علاقة الراح بالعقل والفكر علاقة الملك ورأى أن للراح عقلاً وفكراً ولكنى أستطيع أن أقول إنه ليس ثم مغالطة فالشاعر لم يقصد إلى ذلك ولم يعنه وإلا لكان جديراً به أن يقول :

وربك ما للراح عقل ولا فكر

ولكان البيت حينئذ سليما والمعنى مستقيما مع رأى الأديب

ولكن الشاعر لم يرد ذلك ولم يعمل له وإنما يعنى نفى العقل والفكر عن شارب الراح وكيف تصقل الراحُ العقلَ والفكرَ وهى تذهب بهما فلا وعى ولا تفكير ، وذلك نظير قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » فالاثم ليس فيهما وإنما فى تعاطيهما

ولو كان الشاعر يعنى رأى الأديب لكان البيت ضعيف المعنى ضعيف السبك لا يجدر بشاعر حدَث بله الشاعر عميق الفكرة دقيق الالتفات

وكيف ينعى الشاعر على القوم قولهم إن الراح تصقل الفكر ثم يقرر ذلك .

محمد جمال الدين محمد
مدرس

النشيد القومى — الغلطة الأولى

يدور بين الأدباء كلام كثير حول اختيار هذا النشيد الذى وضعه الأستاذ محمود صادق ، والأمر بتلحينه واتخاذه نشيداً قومياً لمصر ؛ ولا يعنينا أن نخوض الآن فى شىء من ذلك

ولكن الذى يعنينا أن أحداً من الأدباء لم يتنبه للأغلاط الموجودة فى هذا النشيد ، وهى أغلاط فاحشة ، ولم تتنبه كذلك وزارة المعارف ، ولم يتنبه علماء الدين إلى جملة فى النشيد تؤدى عن يعتقدها من المسلمين إلى الكفر الصريح ! وهذا هو موضع العجب ! كأن الجميع اتفقوا على إهمال هذا النشيد وتركه يموت من تلقاء نفسه ، وأصرت وزارة المعارف من جهة أخرى على ألا يموت

ونحن نذكر الغلطة الأولى فى هذا النشيد ، ونطلب من أنصاره الاجابة عنها ، فان فعلوا استفتيناهم فى غيرها ، وإلا اعتقدنا أنهم عن غيرها أعجز

يقول واضع النشيد : « سأهتف باسمك ما قد حييت » .

وهذا الشطر يتكرر فى النشيد كله من أوله إلى آخره . والمعروف فى قوانين العربية أن (قد) فى مثل هذا التركيب تكون لتحقيق وقوع الفعل ، فهى تمحص الفعل الذى بعدها للماضوية كما تقول قد رأيت ، أى رأيت وانتهى زمن الرؤية ؛ فاذا كان ذلك فما معنى تعليق فعل وقع وانقطع على فعل سيقع فى المستقبل وهو (سأهتف) ؟

إن معنى الكلام هو بالضبط كقولك سأهتف باسمك فى المدة التى عشتها ، وهذا بالضبط كما تقول سأقابلك أمس . وكل ذلك تركيب فاسد لا يمكن أن يستقيم فى العربية . ونحن الآن نطلب مثالاً من العربى الفصيح تكون (قد) مستعملةً فيه بين ما المصدرية والفعل الماضى الذى سيؤول معها بمصدر ، فان وجد المثال فليتفضل من يدلنا عليه بذكر الكتاب ورقم الصفحة

س . ط
كلية الآداب

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٦٤ — ٢٤ أغسطس سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 164

Lundi - 24 - 8 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٦٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ — ٢٤ أغسطس سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

خَضَعَ يَخْضَع ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

وقال صاحب سر (م) باشا فيما حدثنى به : جاء ذات يوم قنصل (الدولة الفلانية) من هـذه الدول الصغيرة التى لو علم الذبابُ فى بلادها أن فى مصر امتيازات أجنبية لطمعت كلُّ ذبابة أن يكون لها فى بلادنا اسم الطيارة الحربيـة ... ورأيته قد دخل علىّ شامخاً باذخاً متجبراً كأنه قبل أن يجىء إلى هـذا الديوان لمقابلة الحاكم المصرى — قد تكلم فى (التلفون) مع إسرافيل يأمره أن يكون مستعداً للنفخ فى الصور ...

جنى صعلوك من رعايا دولته على مصرى فأُخذَ كما يؤخذ أمثاله وقضى ساعة أو ساعتين بين أيدى المحققين يسألونه الأسئلة الهيّنة اللينة التى تحيط بتعريفه من ظاهره ولا يشبهها فى سخافة المعنى إلا أن يسألوه عن ثيابه من أى مصنع هى فى أوربا ... فزعم القنصل أنه كان يجب أن يكون حاضراً يشهد التحقيق لأن جناية أجنبى على مصرى تقع أجنبية ... فلها شأنٌ ورعاية وامتياز ؛ وادعى أن المحققين ضايقوا المجرم وعاسروه وتجهّموه بالكلام ؛ ولهذا جاء يحتجّ

ورأيته جالس متوقراً كأنما يشعر فى نفسه أنه أثقل من مدفع ضخم لأن فى نفسه وهم القوة ، وخيل إلىّ أنه يرى موضعه بين السقف والأرض إذ يحمل فى رأسه فكرة أنه الأعلى ، وكانت له هيئة صريحة فى أن الأجنبى المقيم هنا ليس هو كل الأجنبى ، بل لا تزال منه بقيةٌ تتممها دولته ؛ وفى الجملة كان الرجل كلمةً واضحةً مفسرة تنطق بأن للقانون المصرى قانوناً يحكمه فى بلاده

وأنا قد درست القانون الدولى وعرفت ما هى الامتيازات وما أصلُها ، وهى لا تعدو كرمَ الأرنب التى زعموا أنها كانت تملك حماراً تركبه وترتفق به فسألتها أرنب أخرى أن تردفها خلفها ، فلما اندفع بهما الحمار استوطأته فقالت لصاحبته : يا أختى ما أفرَه حمارَكِ ! ثم سكتت مدة وأعجبها الحمار فقالت يا أختى ما أفره حمارَنا ...

وكنا نحن الشرقيين من الضعف والغفلة بحيث لم نبلغ مبلغ الأرنب فى حكمتها وتدبيرها فانها أسرعت ودفعت صاحبتها وقالت لها : انزلى ويلك قبل أن تقولى : ما أفره حمارى

قال : غير أنى فى تلك الساعة نسيت القانون الدولى وكنت فى إلهام مصريتى وحدها ، فظهر لى ظهوراً بيِّناً أن لا شىء اسمه القانون الحق فى هذه الدنيا ؛ ولكن هناك اتفاقاً بين كل خضوع وكل تسلط هو قانون هاتين الحالتين بخصوصهما

وأسرعتُ إلى الباشا فأنبأته ، وأسرع الباشا فغير وجهه وتبسَّط وتهلل وتهيأ بهذا لاستقبال القادم العزيز كأنه أخص محبيه يتطلَّع إلى مؤانسته وقد جاء يزوره فى داره . ثم دخل القنصل ولم أسمع مما دار بينهما إلا الكلمة الأولى وهى قول الباشا : لنبدأ ياسيدى من الآخر . . .

* * *

وكانت فى الباشا موهبة عجيبة فى اختلاب الأجانب خاصة ، يديرهم بلباقة كالخاتم فى أصبعه حتى قال لى أحدهم : إن لهذا الباشا حاسةً زائدة لو سُميت حاسة الارضاء لكان هذا اسمها الطبيعى ، وإنه يعمل بها كما يعمل المفكر بتفكيره . فهو يبتكر الأساليب الغريبة التى يصعد ويهبط بها ميزان الحرارة النفسية ، وأن جليسه يكاد يشعر من مهارته فى التمثيل أن فى جو المكان ستاراً يُرفع وستاراً يُسدَل بين الفصول

فما لبث القنصل أن خرج بغير الوجه الذى دخل به ، ولكنه عبس فى وجهى أنا وتَكَرَّه لى كأنه أصغر شأنى فازدرتنى عينه فوثبت إلى رأسه فكرة الامتيازات . وهذه القوة الظالمة لو أنها كانت قوة قاهرة نافذة وأُعين بها طُفيلىّ ليقتحم دُورَ الناس آمناً مطمئناً — لاستحى هذا الطفيلىُّ أن يأكل بها إذ تجمع عليه التطفل والمقت معاً ؛ ولو قيل لحسام بتّار : إن لك امتيازاً على بعض السيوف ألا تقارعك ، وإنك محمىٌّ أن تنالك سطوتها إذا قارعتها - لأنِفَ أن يسمّى سيفاً بهذا أو بمثل هذا فان القوة الظالمة التى يُعيرونه إياها ليست إلا مهانةً لشرف القوة العادلة التى هى فيه

* * *

قال صاحب السر : ووصفت للباشا هيئة القنصل التى انصرف بها وتقطيبه فى وجهى وقلت له : إن الذبابة وقعت فى صَحْفتى أنا من هذه الوليمة ... فضحك بملء فيه ثم قال :

ستبطل هذه الامتيازات وليس بيننا وبين نهايتها إلا أن ينتهى الشعب إلى حقيقته القومية ، فما تركها فى مكانها إلا زولُ الشعب عن مكانته . وتالله لكأن هؤلاء الأجانب يسألوننا بهذه الامتيازات : أين مكانكم فى بلادكم ... ؟

أتدرى ما قاله هذا القنصل حين تجاذبنا الحديث فيها بعد أن وضعتُ نفسى منه فى موضع المحامى الذى يخذله الدليل فيحاول أن يستنزل كرمَ القضاة بعرض بؤس المتهم على شفقتهم ليخفف القانون الذى فى أيديهم بالقانون الذى فى أنفسهم ؟

إنه قال : لا يلومَنَّ الشرقيون إلا أنفسهم ، فهم علّموا الأجانب أن نتف ريش الطير أولُ أكله . وهذه الامتيازات إن هى إلا معاملة بيننا وبين طبيعة الخضوع فى الشعب . نعم إنها مضرة ومعرَّة ، وظلمٌ وقسوة ، ولكنها على ذلك طبيعة فى الطبيعة ؛ فما دام هذا الشعب لين المأخذ فان هذا يوجد له من يأخذه ، وما دامت الكلمة الأولى فى معجم لغته السياسية هى مادة (خضع يخضع) ، فهذه الكلمة تحمل فى معناها الواحد ألف معنى ، منها : ظلم يظلم ، وركب يركب ، وملك يملك ، واستبدَّ يستبدُّ ، ودجّل يدجِّل ، وخدع يخدع ؛ فهل يكثر أن يكون منها للأجانب امتاز يمتاز ؟

* * *

قال صاحب السر : ثم زمَّ الباشا فمه وسكت ، ففهمت الكلمات التى انطبق فمه عليها وإن لم يتكلم بها ، ثم غلبه الضحك فقال : والله يابنى لو أن برغوثا طَمَر من ثوب صعلوك أجنبى فوقع فى ثوب صعلوك وطنى فتقاتلا فقبض عليهما فأُخذا لما رضى برغوث الأجنبى أن يحاكم إلا فى المحاكم المختلطة ...

ثم سكت الباشا مرة أخرى كأنه يقول كلاماً آخر لا يجوز نشره ثم قال : يا بني إن الأجانب لا يضمون الحمل إلا على من يحمل ؛ فاذا نحن توخينا مرادهم أرادوا لأنفسهم لا لنا ؛ واذا وافقنا لهم غرضاً جعلوه كالدينار فيه مائة قرش وأبوا إلا أن نصارفهم عليه بمائة . هم ويحك يمتازون في معاملتنا لا في سطور القوانين والمعاهدات فلنبطل هذه العاملة يبطل هذا الامتياز

إن الحق يابني استحقاقٌ لا دعوى ؛ وهذا التنازع على الحياة يجعل وسائله الطبيعية الانتزاع والمطالبة والتجرد له والدأب فيه والاصرار عليه . وكل الأقوياء يعلمون أن موضع الاعتدال بين غصب الحق وبين استرداده موضعٌ لا مكان له في الطبيعة ؛ والأجنبي يعتمد علينا نحن في جعله أكبر منا وأوفر حرمة . فاذا ألغى الشعب هذه الامتيازات من فكره وروحه وأعصابه وثارت فيه كبرياء الوطنية فاستنكف من الاستخذاء ونفر من الاختضاع وأبى إلا أن يعلن كرامته ، وصرف اهتمامه الى حقوق هذه الكرامة ، وأصر ألا يعامل أجنبياً يرى لنفسه امتيازا على وطني ، وقرر ذلك في نفسه ومكّنه في رُوعه وأجمع عليه إجماعه على الدين ، إذا جاءت (إذا) هذه بشرطها من الشعب ، جاء جواب الشرط من الأجانب بنزولهم عن الامتيازات وانحلت المشكلة . إننا يا بني لا نملك ضغط السياسة ولكنا نملك ما هو أقوى ؛ نملك ضغط الحياة

لهم الامتياز بأنهم أجانب عنا ، فليكن لنا الامتياز الآخر بأننا أجانب عنهم في المعاملة ، مثلاً بمثل ، وما يفلُّ الحديد إلا الحديد

يقولون النظام الاقتصادي والمال الأجنبي . ولكن أرأيت المال في يد الأجنبي إلا مالاً وتدبيراً وسلطة وسيادة ، من أنه في يد الوطني دَيْنٌ وإسراف ورِقٌّ وذل ؟

لم يظهر لي إلا الساعة أن من حكمة تحريم الربا في شريعتنا الاسلامية وقايةَ الأمة كلها في ثروتها وضياعها ومُستغلاتها ، وحماية الشعب وملوكه من الاسراف والتخرق والكرم الكاذب وزد الاستعمار الاقتصادي وشل النفوذ الأجنبي

أما لو أننا كتبنا من الأول على أبواب « البنك العقاري » وأبواب ذريته : « يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا » فهل كانت تُقرأ هذه الكلمات الثلاث على أبواب تلك البنوك الأجنبية إلا هكذا : « محالّ خالية للايجار » .. ... ؟

(سيدي بشر . اسكندرية) مصطفى صادق الرافعي

خطب فلسطين
بين الصهيونية والاستعمار
للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

لا يزال العرب في فلسطين ماضين على سنتهم — يقاتلون ، ويناضلون ، ويذودون عن حقيقتهم ، بل وجودهم . وقد توسط الأمير عبد الله بينهم وبين الانجليز غير مرة فما أجدت وساطته ، وسمع من زعماء العرب الذين استقدمهم اليه في عمان أنهم ينتظرون منه أن يكف عن كلامهم في ذلك إلا إذا كان يستطيع أن يبلغهم أن مطالبهم أجيبت بلا نقص ، وليصنع الانجليز ما شاءوا ، وليبلغوا بقوتهم مجهودها . ولو كان الأمر يحتمل المساومة لجنح العرب إلى السلم ، ولكنهم لم يبق لهم اختيار ، فأما أن يموتوا الآن مدافعين وإما أن يوطنوا النفس على الجلاء عن وطنهم والخروج من ديارهم إذا ظلت أبواب « الهجرة الصهيونية » مفتوحة . ومن هنا هذه الاستماتة في الثورة الفلسطينية

ولو كانت هذه الثورة شبت في فلسطين في أعقاب الاحتلال الانجليزي ، لكانت أهول وأروع ، فقد كانت البلاد غاصة بالسلاح والذخيرة ، ولكن الخطر على العرب من « الهجرة الصهيونية » لم يكن قد تجسد كما تجسد الآن ، ولا كان العرب في البلدان الأخرى — فضلا عن فلسطين — قد أفاقوا من صدمة الغدر الاستعماري بهم . أما الآن فقد صار الخطر على عرب فلسطين حقيقة يحسها كل واحد في نفسه وفيما حوله . وانتسخ الأمل في أن يفيء الانجليز إلى العدل ويؤثروا القصد بعد أن رآهم العرب يهملون ما أوصت به وحضت عليه ثلاث لجان من لجان التحقيق جاءت من لندن إلى فلسطين وأجمعت على أن الهجرة يجب أن تقف لأن البلاد لا تحتمل استمرارها . وكان ذلك قبل سنوات عديدة ، فكيف الآن ؟ ؟

وقد تغيرت الأحوال في البلدان العربية الأخرى ، فاستقر الأمر في جزيرة العرب ، ووضع الصلح الكريم بين نجد واليمن الحجر الأول في بناء الوحدة العربية ، وجاءت المعاهدة التي عقدت في هذا العام بين العراق والدولة العربية السعودية ، فكانت خطوة أخرى واسعة في سبيل الحلف العربي ؛ وهبت

مصر تطلب أن يسوى الأمر بينها وبين بريطانيا فبادرت بريطانيا إلى الدخول فى المحادثات التى انتهت منذ أيام إلى الاتفاق ؛ وتلتها سوريا فأضربت شهرين أو أكثر ، فلا بيع ولا شراء ، ولا أخذ ولا عطاء ، وتفاقمت الأزمة واستحال علاجها بغير النزول على حكم الواقع ، فردت فرنسا نفسها على مكروهها وعدلت عن غطرسة القوة التى لا تجدى أمام المقاومة السلبية الشاملة ، ودعت رجال سوريا إلى المفاوضة اقتداء ببريطانيا فى مصر والعراق . ولا تزال هذه المفاوضات دائرة ؛ وإذا كانت تتعثر ، فما من شك فى أن سوريا بالغة سؤلها عاجلا أو آجلا ، فما بقى من هذا مفر ، وإلا قامت القيامة فى وقت لا ينقص فرنسا فيه الأزمات والارتباكات والمشاكل العويصة

فالدنيا تتغير حول فلسطين ، والانجليز هناك جامدون لا يغيرون شيئاً من سياستهم ، ولا يبدلونها على ما تقضى به الأحوال الجديدة . وهذا هو وجه العجب منهم ، فان العهد بهم أنهم أهل كياسة ومرونة وحذق ، وأنهم أساتذة بارعون فى تكييف سياساتهم وفق الأحوال . ولكنا نراهم الآن يجزعون من الاتفاق المنتظر بين فرنسا وسوريا ، ويشفقون على فلسطين من عدوى الاستقلال السورى حتى ليقال إنهم سعوا سعيهم عند فرنسا ليحبطوا الاتفاق أو يؤخروه على الأقل حتى يفرغوا من ثورة فلسطين

ويبدو لنا أن عناد الانجليز فى فلسطين يرجع الى سببين : أحدهما أنهم يريدون أن يجىء اقتراح وقف الهجرة من الصهيونيين أنفسهم ، مصانعة منهم للنفوذ المالى للصهيونية فى بلادهم وفى العالم كله . وهم لا ينكرون أن العرب على حق فى المطالبة بوقف الهجرة والاكتفاء بما كان الى الآن ؛ ثم إنهم يعرفون أن وقف الهجرة لا يناقض ما وعدوا به من إنشاء الوطن القومى ولا ينافى عهد بلفور ، لأن هذا الوعد كان بانشاء الوطن « فى » فلسطين لا بجعل فلسطين كلها وطناً قومياً للصهيونية . وقد تم ذلك وأنشئ الوطن وتحقق الوعد وبرت إنجلترا بالعهد . ثم إن العهد نفسه مقيد بالمحافظة على مصالح أهل فلسطين الأصليين . فاذا وقفت الهجرة فانها تقف تنفيذاً للعهد ، كما أبيحت تنفيذاً للعهد . ولكن الحكومة البريطانية تتلكأ حتى تتقدم اللجنة الصهيونية باقتراح الوقف بعد أن تتبين لها استحالة الاستمرار

والسبب الثانى أن بريطانيا تروم أن تخضع العرب فى فلسطين وتكرههم على إلقاء السلاح قبل أن توفق سوريا فى مفاوضة فرنسا ، لأن العود الى الثورة يكون عسيراً جداً ، ولا بد من انقضاء فترة طويلة تستريح فيها الأمة من مجهود الثورة وتستجم . والمعهود فى الانسان أن الحماسة تنبه أعصابه وتشدها فلا يكاد يشعر بعظم الجهد الذى يبذله والمشقة التى يعانيها ، ولكنه بعد أن يفرغ من ذلك ويسكن لا تكاد حاجته الى الراحة تنقضى .

وهذا هو الذى تعول عليه بريطانيا فى فلسطين ؛ فهى تلج فى العناد وتأبى إلا العنف فى القمع وتصر على التسليم والسكون قبل أن تعد بشىء أو تظهر استعدادها لاجابة المطالب العربية ، لعلمها أن العرب إذا سكنوا فبعيد جداً أن يثوروا كرة أخرى إلا بعد فترة راحة طويلة . وإلا فمتى عهدنا الانجليز يقاتلون فى سبيل غيرهم ويسخون بدمائهم هذا السخاء من أجل شعب آخر ، ولا سيما إذا كان هذا الشعب لا يقاتل ولا يدافع عن نفسه بل يلقى عليهم وحدهم عبء الدفاع كله ؟ ؟ فليس حرص الانجليز على الوطن القومى وإنما هو على مركزهم فى فلسطين ، وهم لا يعبأون شيئاً بوعد بلفور فقد نقضوا ألف وعد ووعد مثله ولم يعدموا مسوغاً ، وإنما الذى يخشونه هو أن يترقى العرب فى مطالبهم من وقف الهجرة إلى جلاء الانجليز أنفسهم عن بلادهم . فما يخفى عليهم أن قضية الوحدة العربية أو الحلف العربى تتقدم ، وأن الثقة بأمكان ذلك تعظم وتقوى ، وأن الايقان بتحقيق هذا الأمل يعمر الصدور ، ولكنا كنا نظن أن الانجليز أبعد نظراً مما يبدون الآن فى فلسطين ، فأن العرب أصدقاء طبيعيون لبريطانيا ؛ وهم يؤثرون محالفتها على سواها لأنها دولة شبعت واكتظت فحسبها أن تتحفظ بما لديها وأن تستبقى خير ما فى يديها . فالعرب لا يتوجسون منها كتوجسهم من دولة كايطاليا تحدثها آمالها بنشر الدولة الرومانية التى عفى عليها الزمن . ومن مصلحة بريطانيا أن تضمن ود الأمم الواقعة على طريق امبراطوريتها وأن تثق بمعونتها ووفائها لها عند الحاجة ، وبغير ذلك لا ندرى كيف ترجو السلامة وتأمن أن تتبعثر أجزاء أمبراطوريتها تبعثر حبات العقد ؟ ؟ ولكن سلوكها فى فلسطين ينفر العرب جميعاً فى كل رقعة من رقاع الأرض ويسود قلوبهم ويوغر صدورهم ، والعرب أمة تكبر العدل كائنة ما كانت الأغراض المحجوبة والغايات المستورة ؛ وليس فى وسعهم أن يعذروا بريطانيا وهم يرون عرب فلسطين

أوربا على المنحدر

معركة المبادئ والنظم

لباحث دبلوماسي كبير

كانت الثورة الاسبانية نذير عاصفة دولية جديدة من نوع خاص؛ فقد سرت ريحها خارج الجزيرة بسرعة، وتكشفت عن نتيجة لم يكن يتوقعها أحد؛ ذلك أنها لم تبق بعد مسألة داخلية تهم أسبانيا وحدها، ولكنها تغدو شيئاً فشيئاً مسألة أوربية عامة تشغل بشأنها الدول العظمى. ومما يلفت النظر بنوع خاص، هو أن ما تثيره الحوادث الاسبانية من الاهتمام لا يقتصر على الناحية السياسية فقط، بل يتعداها إلى ناحيــة أخرى أهم وأبعد أثراً، هي الناحية الاجتماعية، أو بعبارة أخرى، هي ناحية النظام الاجتماعي الذي تدور حوله رحى الحرب الأهلية في أسبانيا

وقد تناولنا أسباب الثورة الاسبانية وتطوراتها في مقال سابق، وبينا كيف أنها تقوم على صراع بين المبادئ والنظم مازالت تضطرم اسبانيا بشرره مذ قامت فيها الجمهورية على أنقاض الملوكية القديمة وطغيان العسكرية المطلق؛ على أن هذه الناحية الاجتماعية في معارك اسبانيا الاهلية لم تبد من قبل بمثل ما تبدو به اليوم من القوة والوضوح؛ ففي معسكر الحكومة الجمهورية تجتمع جميع الطبقات العاملة من الفلاحين والعمال وجميع القوى الديموقراطية والاشتراكية، وفي معسكر الثورة تحتشد عناصر الطغيان العسكرية التي حكمت أسبانيا من قبل عدة أعوام، ورجال الدين الذين جردتهم الجمهورية من نفوذهم وامتيازاتهم القديمة، وفلول الملوكية القديمة ومن اليهم من النبلاء ورجال المال والصناعة الذين أضرت النظم الاشتراكية بمصالحهم المادية، وهؤلاء يمدون الثورة بالمـال؛ وهذه الصورة البارزة التي تقدمها الينا الحرب الأهلية الاسبانيــة، يقدمها الينا زعماء الجبهتين الخصيمتين أنفسهم؛ فزعيم الثورة الجنرال فرانكو يقول لنا إن الثورة الحالية إنمـا هي حركة قومية يراد بها انقاذ اسبانيا من قبضة الاشتراكية والشيوعية، ومن الفوضى الاجتماعيــة التي انحدرت اليها في ظل الأنظمة المتطرفة، وإقامة حكومة قومية تحترم حقوق الفرد والملكية، وتعيد إلى اسبانيا هيبتها الدولية في ظل أنظمة قوية محترمة؛ وحكومة مدريد تقول لنا إنها تدافع عن الحريات الجمهورية ازاء الخطر الفاشستي الذي يهدد البلاد بعود الحكم المطلق، وتناشـد جميع طبقات الأمة، ولا سيما الطبقات العاملة، أن تذود عن حرياتها وحقوقها التي اكتسبتها بدمائها وتمتعت بها في ظل النظام الجمهوري

وهذه الناحيــة الاجتماعية البارزة التي تسفر عنها الثورة الاسبانية تغدو اليوم مسألة أوربية شائكة، تكاد أوربا تنحدر إلى غمرها، بل لقد ظهرت بوادرها العملية بالفعل، وبدا خطرها واضحاً على السلم الأوربي، فقد ظهر أن الثورة العسكرية الاسبانية تتمتع منذ الساعة الأولى بتأييد الدولتين الفاشستيتين الكبيرتين: أعني ايطاليا وألمـانيا، وهو تأييد يتخذ صورته المـادية في امداد الثورة بالسلاح والمـال؛ وقد أمدت ايطاليا الثوار علانية بسرب من الطيارات؛ وبعثت ألمـانيا بارجتين من أسطولها إلى مياه سبتة، واتصل ضباطهما بزعماء الثورة في زيارة رسمية؛ وازاء هذا التأييد تقوم الدولتان الديموقراطيتان الكبيرتان: أعني فرنسا وانكلترا من جانبهما بتأييد حكومة مدريد؛ وإذا كانت فرنسا

يكتفون بمطالب اعترفت لجان التحقيق الانجليزية واحــدة بعد واحدة بعدلها ووجوب إجابتها. وليس أدل على أن قلوب العرب كلهم يعصرها الألم لمصاب فلسطين من إجماع ملوك العرب على التوسط عند الحكومة البريطانية طالبين الانصاف لهذا الشعب المسكين. وقد تستطيع بريطانيا بقوتها أن تطفئ الثورة وتخمد الوقدة، ولكنها لا تكسب بذلك بل تخسر: تكسب استقرار الأمر لها على الحد الذي ترومه في فلسطين — إلى حين — وتخسر العرب جميعاً في كل رقعة من رقاع الأرض. ولو فاءت إلى العدل، لمـا غض ذلك منها عند العرب، ولا حمل أحداً على الاستخفاف بقوتها كما تتوهم، بل لكان ذلك حقيقاً أن يرفع مقامها ويعلي منزلتها، لأن العرب كما قلنا لا يكبرون شيئاً كما يكبرون العدل، والعادل عندهم أسمى مكاناً وأرفع درجات وأحق بالتوقير من القوى، وتاريخهم الطويل كله — في أمجد عصورهم وأحطها — شاهد بذلك

ابرهيم عبد القادر المازني

تؤثر أن تتظاهر بالحيدة فلا ريب أنها مع ذلك تمد حكومة مدريد بالمال والسلاح ؛ أما انكلترا فلم تتردد فى امدادها بالطيارات ، ولكن تحت ستار التجارة الحرة . وفى ميدان السياسة الدولية تعتبر المسألة الاسبانيـة مسألة اليوم ، وقد طرحتها فرنسا على بساط البحث بتوجيه مذكرة إلى انكلترا وايطاليا وألمانيا ، تقترح فيها أن تجتمع الدول الأربع لبحث المسألة الاسبانية ، واصدار تصريح تتعهد كل منها فيـه بالتزام الحيدة وعدم التدخل فى حوادث اسبانيا ؛ وقد أجابت انكلترا بتأييد هذا الاقتراح لاتفاق وجهـة نظرها مع وجهة النظر الفرنسية ؛ أما ايطاليا فقد أبدت عليه تحفظاتها ، وأما ألمانيا فقد اشترطت أن تدعى روسيا السوفيتية للاشتراك مع باقى الدول فى القيام بهذه الخطوة . ولاقتراح ألمانيا مغزاه ، وهو أن روسيا السوفيتية تؤيد حكومة مدريد والجبهة الاشتراكية التى تستند اليها ، أو بعبارة أخرى هو أن التدخل البلشفى عامل هام فى تطور الحوادث فى أسبانيا

ويجب أن نلاحظ أن العوامل الاجتماعية التى أملت على الدول موقفها ترجع من جانبها إلى عوامل المصلحة المادية . ذلك أن انكلترا التى تسهر فى جبل طارق على أبواب البحر الأبيض المتوسط ومدخل المحيط الأطلانطى ، تخشى أن تتأثر سيادتها فى هذه المياه بتطور الحوادث الأسبانية تطورا لا ترغب فيه ، وذلك بقيام حكومة فاشستية فى مدريد تتأثر بوحى الفاشستية الايطاليـة التى غدت منذ المسألة الحبشيـة شوكة فى جانب الامبراطورية البريطانية . هذا إلى أن لانكلترا فى اسبانيا مصالح مالية خطيرة ، والأموال الانكليزية تغـذى معظم شركات التعدين الاسبانية ؛ ومع أن انكلترا تبغض شبح الفاشستية وتخشاه ، فأنها أيضاً تبغض شبح البلشفية والاشتراكية المتطرفة وتخشى أن يؤدى ظفر الجبهة الشعبية الجمهورية فى اسبانيا إلى قيام حكومة تخضع لنفوذ موسكو ، وتعمل على مناوأة نفوذها ومصالحها فى غرب البحر الأبيض المتوسط . فالسياسة الانـكليزية تعمل فى هذا الظرف على إيجاد نوع من التوازن القوى فى اسبانيا وقيام حكومة ديموقراطية معتدلة تجانب الغلو والتطرف ؛ وأما موقف فرنسا فتمليه مصالحها فى البحر الأبيض المتوسط ، والخوف على سيادتها فى مراكش من أن تتأثر بظفر الفاشستية المتطرفة فى اسبانيا

على أن المسألة الاسـبانية تبقى فى جوهرها قائمة على معركة المبادىء التى تلوح اليوم قوية فى أوربا ؛ فالفاشستية — فى شخص إيطاليا وألمانيا — تحاول بمبادئها الطاغية المغرقة أن تهدم حصناً جديداً للديموقراطية ، وأن تضم دولة أوربية جديدة إلى جبهتها بمؤازرة الثورة العسكرية الاسبانية ؛ والديموقراطية — فى شخص انكلترا وفرنسا — تحاول أن تقف فى وجه الفاشستية ؛ وروسيا البلشـفية تحاول أن تنتهز الفرص لبث دعايتها لاضرام الثورة العالمية ؛ والفاشستية تمثـل جبهة الدول الناقمة التى حرمت من مزايا الاستعمار الباذخ ؛ والديموقراطية تمثل جبهة الدول الراضية التى تتمتع بالثراء والاستعمار الباذخ ؛ ومعركة المبادىء تتحد هنا مع معركة المصالح المادية

وهذا هو وجـه الخطر فى الأزمة التى تغيم اليوم فى أفق السياسة الأوربية ، والتى قد تغدو غير بعيد خطراً يهدد السلم الأوربى ، ذلك أن معركة المبادىء والمثل تغذيها هنا مصالح مادية قوية ؛ وهذا الصراع الذى تذكيه شهوات المادة والمبدأ معاً هو أخطر أنواع الصراع الدولى . فالبلشفية من ناحية ، والفاشستية والنازية من الناحية الأخرى تنزل إلى ميـدان الصراع مسلحة بأخطر أنواع الدعاية واقوى المادية ؛ والديموقراطية من جانبها تحاول أن تقف موقفاً وسطاً بين المبادىء والمثـل المضطرمة ، وأن تدفع تيار التطرف من الجانبين صوناً لوحـدتها وكيانها . ولنلاحظ أيضاً أن فرنسا الاشتراكية تؤثر ظفر الجبهة الشعبية الاسبانية ، ولو أن هذا الظفر قد يدفع اسبانيا إلى أحضان الشيوعية ، ذلك أن روسـيا البلشفية تقف إلى جانب فرنسا فى ميدان الصراع الدولى ضد ألمانيا ، وألمانيا تعتبر نفسها حاجزاً للبلشفية وترى فى روسيا ألد أعدائها ؛ وإيطاليا ترى فى ألمانيا حليفتها فى المبادىء والمثل ؛ والفاشستية والنازية كالبلشفية تعتبر كلتاهما أنها نظام المسـتقبل وتحاول أن تدفع مبادئها إلى خارج حدودها بمختلف الوسائل

هذه هى عناصر المعركة الدولية الخطيرة التى أثارتها الحوادث الاسـبانية ؛ وهى ما زالت فى طور التمهيد والمقدمات ؛ ومن

الصعب الآن أن نتبين طورها المقبل ؛ ذلك أن سيرها يتوقف كثيراً على سير الحوادث فى اسبانيا ؛ بيد أنا نستطيع أن نتبين بعض وجوه الخطر الذى يهدد السلم الأوربى ؛ فايطاليا التى ما زالت ثملة بفوزها فى الحبشة تحاول أن تستغل الظروف ، وأن توجه ضربة جديدة إلى الأمبراطورية البريطانية وإلى سيادة بريطانيا فى البحر الأبيض ؛ وألمانيا التى جردت من مستعمراتها تحاول أن تجد فرصة للتدخل فى شؤون البحر الأبيض ، وبخاصة فى شؤون طنجة ومراكش ، وأن تنتهز مخاوف انكلترا وفرنسا لتثير المسألة الاستعمارية من جديد ؛ وانكلترا التى شعرت منذ المأساة الحبشية بما يهدد سيادتها فى البحر الأبيض من الأخطار تتحين الفرص لتوكيد نفوذها وهيبتها ؛ وفرنسا لا تطيق لحظة أن يتعرض مركزها فى مراكش لأى تدخل أو خطر . ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن تحرش ألمانيا بمركز فرنسا فى مراكش يوم ضربت عليها الحماية الفرنسية كان من أهم العوامل فى تسميم جو السياسة الأوربية قبيل الحرب الكبرى ، والتمهيد لذلك الجو المضطرب الذى اجتمعت فيه أسباب الحرب .

هذا وهناك ظاهرة تتكشف عنها تلك المعركة الخطيرة بين الديموقراطية والفاشستية ، هى أن الفاشستية تعمل بسرعة وعزم دون تردد أو تدبر للعواقب ؛ وأما الديموقراطية فما زالت مختلفة متنازعة ، وما زالت تجنح إلى التردد والتخاذل . وقد استطاعت الفاشستية غير مرة أن تنتهز فرصة هذا التخبط وأن تضرب ضرباتها فى صميم الديموقراطية ؛ ومن جهة أخرى فقد أفسدت الروح الاشتراكية المتطرفة عقلية الجماعات ، وبثت فيها كثيراً من دواعى التخاذل والغرور ، هذا بينما تجد الصفوف الفاشستية منظمة طائعة تعمل لأول إشارة تلقى اليها

فهل تستحيل تلك المعركة الدولية فى القريب العاجل إلى صراع الحياة والموت بين النظم والمثل فى أوربا ؟ وهل تدفع أوربا إلى طريق حرب جديدة ما زالت عواملها تجتمع فى الأفق منذ حين ؟ هذا ما سوف نتبين فى المستقبل القريب . بيد أنه مهما كانت ظروف المعركة الحالية ، ومهما كانت نتائجها ، فلا ريب أنها من عوامل الخطر فى مصير السلم ومصير أوربا؟

(* * *)

فن القصة
فى الأدب المصرى الحديث

للأستاذ هلال أحمد شتا

طالعتنا (الرسالة) الغراء ، فى عددها رقم ١٥٧ ، بمقال طلى للكاتب الأديب الأستاذ محمد على غريب ، ألم فيه بدراسة شائقة لنتاج قصصى مصرى شاب . . وقد مهد لدراسته هذه بمقدمة تناول فيها فن القصة فى الأدب المصرى الحديث .

ولقد كانت هذه المقدمة القصيرة — كما دعت الحال — لمحة خاطفة ، والمامة مقتضبة ، جال فيها قلم الكاتب جولة سريعة كما تجرى أحداث الدنيا فى عصرنا الحاضر . ولكنها ساقت الى رأسى هذا البحث الذى أطالع القراء به اليوم : وهو بحث فى القصة المصرية ترويت فيه بعض التروى ، لأتمكن من الدراسة الهادئة غير العاجلة ، ولألم فيه بتاريخ القصة فى الأدب العربى ، وبقيمة هذا الفن الجميل ، وبنشأته فى الأدب المصرى الحديث ، وبالمدارس الغربية التى تأثر بها منشئو القصة فى مصر ؛ ثم بما حظيت به من جهود الأدباء المصريين ، وما بلغته هذه الجهود من توفيق وما قطعته فى طريقها نحو السداد

* * *

ويجدر بنا — قبل أن نوغل فى الحديث — أن نستعرض ما لهذا الفن الجميل من آثار جليلة فى تكوين النفوس والعقول على السواء . فالقصة الناجحة القريبة من الكمال الفنى ، أبلغ تأثيراً فى النفس ، وأقوى سلطاناً على العقل ، من أى عمل فنى آخر .. لأن الفنون الجميلة عامة تفعل فى النفس فعلاً ، ولا تقوى على أن تفعل فى العقل شيئاً . . وإذا نظر الانسان الى لوحة فنية بالغة نهاية الكمال ، أو الى تمثال أفرغت فيه عبقرية فنان موهوب ، أو إذا استمع قطعة موسيقية تضافرت فيها براعة نفر من نوابغ الواضعين والعازفين ، فستطغى على نفسه موجة من الشعور بالسرور أو باحساس يشبه السرور والنشوة ، ولكن عقله لن يتأثر بذلك شيئاً . . فى حين أن القصة الناجحة قد تخلق من قارئها إنساناً

جديداً ، وقد تسوق إليه رأياً يحتل من عقله موضع العقيدة . .

ومن أجل هذا عنى الغربيون فى نهضاتهم القديمة والحديثة بفن القصة عناية بليغة . فاستطاع قصصيوهم أن يخلقوا بفنهم جماعات قريبة من الكمال .. وكان لهذا الفن فى نهضتهم الحديثة أثر جليل ملموس

وليس مغالياً من يقول : إن فن القصة قد أبرز الى ميدان الزمن والتاريخ فرنسا الحديثة ، وروسيا الحديثة ، وإيطاليا الحديثة .. وقد يكون كذلك خالق بريطانيا الجديدة ، ودافعها الى رقيها الفكرى والخلقى الذى كادت تتفرد به بين الأمم . على أن الذى لا يقبل الجدل أن القصة قد تقدمت فى أوروبا وأمريكا فى العصر القريب الذى نعيش فيه ، فغمرت سوق الأدب ، وتمتعت من الأدباء والمتأدبين بعناية غلبت كل عناية ، وإقبال فاق كل اقبال وجهود بذت كل جهود . .

وإذا كان الغرب اليوم فى أوج عزه وعظمته ؛ وإذا كان مع ذلك منكباً على فن القصة أى انكباب ، فذلك دليل ساطع على أن هذا الفن جدير بالعناية خليق بالاهتمام . .

ولقد عرف الغرب كيف يحتفى بفنانيه عامة ، وقصصييه خاصة ، وكيف يكرمهم ويكبر فيهم فنهم وفضلهم العميم ، فأتاح لهم أن يكونوا من قادة العقول فى المقدمة . وأن يفرغوا الى فنهم فيهبونه وقتهم وجهدهم جميعاً ، بما ضمن لهم من وسائل المعيشة والرزق الكثير ، وبما هيأ لهم من ظروف يخلون فيها لدراساتهم الطويلة ، ويلمسون فيها جوانب الحياة فى مختلف الجماعات ومتباين الطبقات . . .

***

ولقد ظل الأدب العربى مفتقراً إلى القصة فى جميع عصوره الأولى ؛ ويلوح أن الأمية والبداوة فى العهد الجاهلى قد ساعدتا على إهمال الفنون الجميلة — ومن بينها القصة — وأن كل ما تمتع به العرب من ضروب الفن الجميل إذ ذاك هو ما حملته ألسنة الرواة من الشعر والنثر ، وما ترنم به حداة الابل من موسيقى بسيطة . .

على أن النهضة الاسلامية التى حمل رايتها محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت فى حاجة إلى القصة أيضاً ؛ لذلك كان القصص فى القرآن جانباً خطيراً من جوانب الاعجاز ، وعاملاً قوياً فى تهذيب نفوس أولئك الجاهليين ، وقوة رائعة تضافرت مع ما خص الله به محمداً فاستطاعت أن تخلق من أشتات الجاهليين فى شبه الجزيرة أمة لم يشهد مثلها التاريخ القديم أو الحديث

فالقرآن الكريم إذن أول من أدخل القصة على الآداب العربية ، ودفع بها إلى مقام العناية . .

وطبيعى أن يعنى القرآن بالقصة ، فهو الداعى إلى الكمال العلمى والروحى والخلقى ، الجامع لأنواع العلوم والفنون عامة ، والدستور الخالد الذى ينظم حياة إنسانية عالية الأركان دائمة على الزمان

ولقد نال فن القصة بعد ذلك جانباً من عناية الناطقين بالضاد ، فكانت السير النبوية ثانية المحاولات الموفقة لخلق فن جديد فى اللغة العربية ، على أن هذه السير كانت فتحاً لباب واحد من أبواب فن القصة ، هو القصص التاريخى ، كما كان ما فيها من فن لا يزال فجا محتاجا لكثير من العناية والموهبة . . وهى مع ذلك جهود لا يمكن أن يغفل ما لها من فضل عميم على القصة العربية الصميمة . .

وسايرت القصة العربية النهضة الفكرية التى دفع الاسلام العالم العربى إليها فتقدمت خطوات ليست ذات أثر كبير ، إذ كانت فى عصر الأمويين تكاد تقتصر على الرواية والارتجال ، ولم يلتفت إليها — كفن جميل له أثره وفعله — إلا بعض الرواة الذين دبجوا قصص الشعراء المحبين ، وأسبغوا عليها بعض الصناعة والحبكة والطرافة ..

ثم كان بعد ذلك العصران العباسيان الأول والثانى ، حين بلغ الرقى الفكرى ذروته ، وحين فرغ العرب — الهادئون ، الناعمون ، المتمدينون — ينشدون غذاء النفس والروح فى الفنون الجميلة ، وحين ضربوا فى كل جانب من جوانب التفكير الحر والابتكار . فكان طبيعياً أن يبلغ فن القصة أوج عزه وعظمته ، وكان طبيعياً أن يتخصص كبار الفنانين العرب لكتابة القصة وابتكارها ، كما تفرغ إخوانهم للموسيقى والغناء ، والرسم ، والكتابة ، والشعر ، وسائر الفنون العالية .. وكفى دليلاً على رقى القصة فى ذلك العصر الحافل بالروائع والبدائع « ألف ليلة وليلة »

إذا قصدنا جانب الخيال والابتكار ، ثم « المقامات » إذا نشدنا جانب الصياغة والاتقان

غير أن المحنة التى لحقت بالعرب والعربية ، بانحلال الدولة العباسية ، كانت كافية لأن تحطم الآثار العقلية والفنية والفكرية ، وأن تأتى عليها إتياناً ذريعاً ..

وإذا كان الباحث فى تاريخ الأدب العربى — بعد المحنة العباسية — يعثر بين الحين والحين على بعض الآثار الفنية المتصلة بالقصة ، فليس ذلك إلا ترديداً لبعض ما خلفته يد الزمن من آثار الفنانين العباسيين ..

***

والقصة فى الأدب المصرى ، حديثة العهد ، قريبة المولد ، لأن العصور التى خلفت عصر الفاطميين ، قد أفسدت اللسان العربى الذى تكلم به المصريون منذ الفتح الاسلامى ، وأدخلت على سلاسته وجذالته لكنة الترك وعجمة الفرنجة ...

ولسنا نستطيع أن نسمى قصص « أبى زيد » و « السيد البدوى » وأمثالها قصصاً عربياً أو عجمياً ، فكلها وليدة خيال مشعوذ وقلم مرضوض ...

إذن لم يشهد الأدب العربى المصرى جهوداً تبذل فى سبيل القصة الموفقة إلا بالأمس القريب ، منذ عشرات السنين ، وبعد أن استطاعت النهضة العلوية أن تقوم اللسان ، وتصلح التفكير ، وتنمى الخيال ... حين قامت طائفة من نوابغ الشبان تخلق القصة العربية فى معناها الذى نعرفه الآن ، وهى طائفة كل أفرادها اليوم من الكتاب الممتازين والأدباء البارزين ...

وإذا كانت العربية ، التى تحدث بها رعاة الابل والأنعام فى شبه الجزيرة ، قد وسعت مدنية العباسيين وعلمهم الغزير ، فانها قد وسعت كذلك كل ما جال فى خواطر أولئك الشبان ، أو هؤلاء الكرام الكاتبين . وقد استطاع ذلك النفر — بما أوتى من فن خالص وموهبة — أن يزجى إلى العربية هدية لم تألفها من قبل أبداً . فلقد كان فى محاولاته الموفقة متأثراً بالمدارس الغربية إلى جانب ما خص به من سليقة عربية حلوة الجرس موفقة المرمى ، سديدة المعنى

وإنه لواجب علينا أن نطوف بهذا النفر الجليل ، وأن نمضى على نتاجه سريعاً ، لنسجل له فضله شاكرين . ولكننا نرى — قبل ذلك — أن نذكر المدارس التى تخرج فيها بكلمة قصيرة : وهى المدرسة الروسية والمدرسة الانجليزية ، والمدرسة الفرنسية . .

فالمدرسة الروسية قد امتازت بمحاكاة الواقع ومسايرته ، والتعلق بالطبيعة ومظاهرها وأجوائها — الملموسة وغير الملموسة — ثم بالصدق ، والهدوء ، والتهكم . .

والمدرسة الانجليزية تعشقت الصدق أيضاً ؛ وأحبت التحليل النفسى الدقيق ، ووفقت فى كشف النفس البشرية توفيقاً عظيما ، واستطاعت أن تلمس العواطف وتترجم الأحاسيس فى عمق وسداد عجيبين . .

والمدرسة الفرنسية قد عشقت الخيال ، وتطرفت فبالغت بعض المبالغة ، غير متقيدة بالواقع أو المألوف ، وبرعت فى الحبكة المصنوعة براعة تثير العجب والاعجاب معاً ، ومالت إلى ترجمة الأسى والحزن البليغ . .

***

وهؤلاء الناهضون بالقصة فريقان : كان لأحدهما الفضل فى أن يحمل إلى العربية القصة الغربية الموفقة فى معناها الحديث الذى دفعتها إليه النهضة الأخيرة ، وأن يخلق فى العربية أو يكشف فى بحرها الزاخر عما يترجم لغة أبناء الغرب أصدق ترجمة ، ويزجيها إلى أسماع العالم العربى سائغة المعنى ، عربية الرنين موفورة الحظ من بلاغة أبناء العرب وفصاحتهم . .

ولن ينسى قراء العربية فضل هذا الفريق أبداً ، فلقد فتح بجهوده وتمكنه وسلامة ذوقه العربى فتحاً فى العربية جديداً ، وكان له — وهو المترجم — فضل لا يعلو عليه فضل الواضعين أو المبتكرين ، لأنه البوتقة التى صهرت جميل فن الغربيين ، فاستحال فيها فناً عربياً رائعاً

ويتزعم هذا النفر ثلاثة من نوابغ الأدباء المصريين ، وهم : الزيات ، والمنفلوطى ، والمازنى

فأما الزيات ، فيمنعنى عن الاشادة بفضله أنه مدير هذه المجلة ، وأنه رجل يعرف فيه قراء العربية التواضع الكثير والنأى عن الضوضاء ، وأخشى — وهو صاحب الحق فى النشر — أن يحول تواضعه الغزير بين هذا البحث وبين أبصار القراء وأسماعهم . .

على أن كل هذا لا يمنعنى من القول بأن جهده فى سبيل القصة لن ينساه له تاريخ هذا الفن فى الأدب العربى ، ولن ينساه له

أولئك النادبون الشبان الذين عرفوا من معربانه معنى القصة الناجحة ولونها ، والذين مضوا بعد ذلك يقفون أثره ويتلمسون الطريق التي مهدها لهم وفتحها أمام تفكيرهم . . حين نقل إلى لغة الضاد « لامرتين » و « جوت » فى أبدع ما صورت الشاعرية الفرنسية والألمانية ، وأعجب الخيال اللاتيني والجرماني . . وستبقى « رفائيل » « وآلام فرتر » على الأيام مثلاً بديعاً للتعريب الكامل الذى تكاد تغلب فيه قوة الترجم ، كما بقيت « كليلة ودمنة » تتحدث إلى يومنا هذا بفضل ابن المقفع

وأما المنفلوطى ، فقد كان جديراً بأن يزجى إلى القصة فضلاً أكثر من فضله ، فهو الأديب بفطرته والقصصى بفطرته . . ولو شاء الله وبسط أمامه سبل دراسة هذا الفن ، أو قارب بين لسانه وبين لغة من اللغات الحية ، لكسبنا فيه قصصياً عظيما ولكان نتاجه فى فننا هذا نتاجاً باقياً خالداً . . على أنه برغم هذا مشكور الأثر باقى الذكر ، ممتاز بما خص به من أدب رائع ، وذوق فنى بديع ، وجذالة تفعل فى لسان الناشئة فعلاً محموداً

وأما المازنى — المترجم — فبالغ قمة التوفيق ، كزميله الزيات ، لوفرة علمه بلغة الانجليز ، ولأنه أديب عربى قويم اللسان ، مفطور على الفن . . وقد نرى فيما بعد — أن المازنى المؤلف أسدى إلى القصة يداً فوق يده هذه ، ولكن الفضل لا يمحو الفضل على حال ؛ وسيبقى المازنى المترجم خالداً فى قصة « ابن الطبيعة » فقد كان فيها عظيما حقاً ، إذ استطاع أن يختار للعربية أروع أمثلة الأدب الروسى ، كما استطاع أن ينقل فن أبناء الروس نقل الفنان والأديب الموهوب

***

والفريق الثانى هو فريق المبتكرين ، أو الواضعين ، وهو أول من ساق جمهور القارئين والمعنيين بالأدب إلى فهم معنى القصة الذى عرفه به الغربيون ؛ ونستطيع القول بأن هذا الفريق أحسن إلى القصة حيناً من الزمن فعرفت له أياديه ، ثم أهملها اليوم إهمالاً تأخذه عليه وتشكوه منه . . ولو استمر ذلك النفر فوهب القصة عهد رجولته كما وهبها عهد شبابه ، لاستطاعت أن تبلغ شأناً غير شأنها ، ومنزلاً فوق منزلها . .

وهؤلاء الذين يستطيعون أن يشقوا طريقهم ليأخذوا مقام الصدر بين آلاف المؤلفين وأشباه المؤلفين ، ليسوا إلا أربعة من كرام الكتاب ؛ هم : المازنى ، وهيكل ، وتيمور ، وأبوحديد

ولكل من الأربعة لون خاص يميزه من سواه

فالمازنى . أميز صفاته سلامة أسلوبه العربى وعلوه ، ثم جمال تهكمه وفكاهته ، وميله الى المزاح ، مع شدة احتفاظه بالأرستقراطية . وهو الى جانب هذا فنان من الطبقة الأولى ، فقد اجتمعت فيه فطرة الفنان ، والدراسة الطويلة المستمرة ، فأنجبتا للعالم العربى قوة عزيزة قليلة الوجود

وهو — على رغم كونه تلميذا مخلصاً للمدرسة الانجليزية — لا يستطيع أن يخفى على القارئين أنه تتلمذ على المدرسة الروسية أيضاً . وإذا كان دائم الانكباب على الأدب الانجليزى مولعاً به ولعاً شديداً ، فانه بطبعه وبسليقته الفنية ، كان فيما أنتج ميالاً الى المدرسة الروسية ، فى هدوئها ، وصدقها ، وتفكهها ، وطبيعتها وان استطاع — بما كسب من دراسة — أن يترجم الأحاسيس ترجمة صادقة تميز بها منشئو القصة الانجليزية

والذى قرأ المازنى — المؤلف — فى قصته « ابراهيم الكاتب » لا يمكنه بعد ذلك أن يندب حظ القصة فى الأدب العربى الصميم ؛ لأنه يراها فى قصة المازنى خلقت قوية لأول عهدها بالحياة ، ووجدت من روحه الفنانة ، وقلمه الملهم ، ودراسته الطويلة ، متكأ كان جديراً بأن يحملها الى المقام الذى بلغته بين أبناء أوربا وأمريكا ، لو قدر له أن يضع على عاتقه هذا الواجب الخطير

وكان هيكل فيما أنتج — وأول نتاجه قصة زينب — فرنسياً مخلصاً ؛ فهو يؤثر الصناعة والحبكة القصصية ، ويحب أن يضرب على أوتار تحس ، وأن يعالج بمجهوده موضوعاً ، غير متقيد بمذهب الفن للفن ، بل ذاهباً مذهب استغلال الفن للمصلحة . ولقد أسبغ على فرنسية فنه روحاً عربية جميلة ، بما وفق إليه من براعة فى الوصف ، وقدرة على التصوير الفاتن

ولا شك أن هيكل فنان بطبعه ؛ وقد كان خليقاً بأن يكون من عداد القصصيين الممتازين لو عنى بفنه عنايته بأدبه وعلمه ، ولو تابع استغلال روحه الفنية التى فطر عليها

وكان تيمور — ولايزال — مثالاً للقصصى المصرى الخالص ، وقد يكون تناول بالدراسة المدارس الغربية . . . ثم ترك نفسه بعد ذلك طليقة ، وأطلق قلمه حراً ، فاذا هو المصرى فى فنه وأدبه

وحياته ، وإذا هو عميق فى مصريته إلى المكان الذى يجب أن يكون عنده المصرى العربى الشعبى

والذى قرأ تيمور فى قصته الطويلة « الاطلال » أو فى قصصه القصيرة التى أخرجها قبـل ذلك كتباً ، يلمس فيه ميلاً إلى هذا الفن شديداً ، ويؤمل منه بعد ذلك انقطاعاً للقصة وإيثاراً لها على كل شىء ، حتى يسد بذلك فراغاً يجب ألا يترك شاغراً ، أو يباح هباء للعابثين المسيئين إلى القصة وتاريخها شر الاساءة ..

وكان فريد أبو حديد مصرياً كذلك دائماً ، حين أخرج لنا « ابنة الملوك » و« مذكرات المرحوم محمد » ثم عميقاً فى مصريته أيضاً . ويبدو أن دراسته التاريخية الطويلة ، قد انحرفت به إلى القصة التاريخية فعشقها عشقاً عظيماً ، ولم يرض أن يحيد عنها إلى غيرها من جوانب فن القصة

وإذا كانت دراسة التاريخ قد غمرت نتاجه وأفرغت عليه من لونها فيضاً ، فليس ذلك هو الشىء الذى يتميز به أبو حديد أو يتفرد ، وإنمـا الذى يتميز به على القصصيين المصريين جميعاً هو الخيال الخصب الذى لا يحد ، والقدرة الفائقة على تصور الحياة فى غابر العصور أو حاضرها أو مستقبلها

وهذا الخيال ، وهذه الطبيعة ، وهذه الدراسة ، كانت قادرة على أن تجعل من أبى حديد عوناً للقصة المصرية شديداً ، ومناصراً قوياً ، وفارساً مبرزاً ، لو أقبل يدخل الميدان ويوغل فى ثناياه .. وهو القدير على ذلك أى قدرة ..

ولقـد كان لنا أن نضع الدكتور طه حسين بك فى عداد القصصيين النابغين ، حين نقرأ له كتابه « الأيام » الذى بلغ به شأواً من الـكمال عظيما ، والذى استطاع أن يفرغ فى سطوره فناً عريقاً ومقدرة فائقة تطالع القارئ فتأخذ عليـه حسه .. غير أن الدكتور — فيما عدا الأيام — لا يستطيع أن يكون قصصياً .. ولو أراد الله ووهب الدكتور نعمة الأبصار ، لـكسب فن القصة فيه خير نصير وأحسن عون ، ولـكان لمصر والشرق العربى أن ينتظرا منه خيراً كثيراً ، لأنه — على حالته تلك — كان يحس إحساس المبصرين ، ويدرك ما يجول بخواطرهم ، أو ما يغمر كياناتهم من عوامل نفسية يدفعها إليهم الوسط الذى يحيط بهم — بكل ما فيه

(البقية فى العدد القادم)

هلال أحمد شتا

بسكرتيرية مجلس الشيوخ

٥ ـ دانتى أليجييرى

والكوميدية الالهية

وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

الجزء السادس من الأنيد (ÆNEID VI)

ذكرنا فى الـكلمة الأولى أن دانتى فى كوميدياه كان مقلداً لسلفه الشاعر الرومانى العظيم فرجيـل ، وأنه كان يحفظ الجزء السادس من ملحمة الأنيد عن ظهر قلب ، وأنه احتـذى فى قصيدته مثال فرجيل ، والآن نعطى القارىء ملخصاً سريعاً لهذا الجزء السادس ليرى أننا لم نكن مغالين حين جزمنا أنه لم يقلد أبا العلاء ولا أسطورة المعراج التى سنعرض لها فى كلمة مستقلة

بيد أننا نرى أن إعطاء القارىء ملخصاً موجزاً للجزء السادس من الأنيد دون أن نعرض للأجزاء الخمسة السابقة سيشوه هذا الملخص ويجعلـه مبتوراً ، وقد يذهب بجمال الأنيد التى تعتبر أطيب طرفة فى الأدب اللاتينى كله ، لذلك آثرنا أن نعرض للأجزاء الخمسة الأولى فى كلمة خاطفـة نخلص منها إلى الجزء السادس إتماماً للفائدة

سـقطت طروادة ، وأضرم الأغريق النيران فيها وروّع الأهلون ولاذوا بالبرارى والقفار المحيطة بمدينتهم ، وذهب البطل إينياس Aeneas يبحث عن أبيه وزوجه وولده ليفر بهم من هذا البلد ، ولينجو بعزه التالد ومجده المؤثل من ذل الأسار ، ولـكن أباه كان رجلاً شيخاً خائر القوة ، فاحتمله إينياس وانطلق يعدو به فى شوارع المدينـة المتأججة ، حتى إذا وصل إلى شاطىء الهلسبنت (الدردنيل) افتقد زوجـه فلم يجدها ، ووجد عنده طرواديين كثيرين يعتزمون الهرب من وجوه الهيلانيين فجعلوه رئيسهم وعملوا فى بناء أسطول ضخم أبحروا فيه إلى تراقيا حيث نزلوا إلى البر وأخذوا فى تأسيس طروادة جـديدة بدل طروادة الأسيوية ، لولا أن أوحى إليهم (١) أن هذه أرض ملعونة ، فركبوا فى سفنهم وأبحروا إلى جزيرة ديلوس حيث سمعوا صوت أبوللو يأمرهم (أن يهجروا الجزيرة ويبحثوا عن أرض أمهم الأولى حيث

(١) تركنا هنا أسطورة بوليدور الذى قتله أخيل فى حروب طروادة وذاك لضيق المقام

يعيش شعب إينياس ويحكم وتدين له كل الأمم)، ولشد ما طرب الطرواديون لهذا النبأ وأبحروا إلى كريد (إقريطش) كما خمَّن لهم والد إينياس، ولكنهم لم يجدوا ثمة خيراً بل كانت محصولاتهم تصفر وتتلف وأصيبوا بسنين عجاف. ثم رأى إينياس في منامه من يأمره بالهجرة من الجزيرة والابحار غرباً إلى أرض إسبريا Hesperia التي هي إيطاليا الحديثة حيث ولد مؤسس طروادة (داردانوس) وقد نزلوا في طريقهم في جزيرة السعالي[١] ثم أبحروا منها إلى أرض إبيروس حيث وجدوا أندروماك زوجة هكتور بطل طروادة تحكم المملكة وقد تزوجت أحد الأسرى الطرواديين (هلينوس) فحلوا عندها أهلاً ونزلوا في ضيافتها سهلاً وزودتهم بهدايا قيمة وأبحروا إلى جزيرة صقلية حيث مروا بمملكة السيكلوب[٢] ثم اقتحموا عقبات جمة وصعاباً كثيرة[٣] حتى وصلوا إلى قرطاجنة على الساحل الافريقي حيث وجدوا الملكة (ديدو Dido) تؤسس هـذه المدينة الخالدة التي ستكون أقوى خصم ومنافس لرومة في المستقبل. وقد أكرمت ديدو مثوى المهاجرين وتزوجت من إينياس وجعلته ملكاً للمملكة غير متوج[٤]. وكاد إينياس ينسى ما سخرته له السماء لولا أن أرسل إليه چوبيتر (زيوس) ولده ميركيورى (هرمز) يأمره بالرحلة

وبعد مجازفات هائلة وصلوا إلى شطئان إسبريا (ميناء سيكانيا) حيث مات والد إينياس وحيث سخرت چونو (حيرا) كبيرة الآلهة على أسطوله من أحرقه. وقد حزن البطل على سفائنه غاية الحزن حتى إنه ما فتئ يصلي للسماء أن تدركه فاستجابت دعاءه وأرسلت صيبا من المطر فأطفأ النيران، ورأى إينياس في المنام أباه يأمره أن يجول جولة في إسبريا ليلقى (السيبيل Sibyl) لتقوده إلى الدار الآخرة لأنه يريد أن يكلمه، وهنا يبدأ الجزء السادس من الأنيد

جولة في العالم الثاني

وذهب إينياس إلى (كيوميه) حيث لقى النبية المباركة (سيبيل) خابئة متخشعة في كهفها السحيق وسط غاب الخلنج والشاهبلوط. وقبل أن يتكلم نهضت إليه وكلمته بكلام فعرف أنها تعلم ما جاء من أجله وأوصته بالصبر والتجلد، ثم ذكرت له أن لا بد، قبل الهبوط إلى العالم الثاني، من أن يذهب في تلك الغابة اللَّفَّاء المشتجرة، فيبحث في أيكها العظيم ودوحها النامي عن (الغُصن الذهبي) الذي لا بد من حمله هدية لبروزربين (برسفونيه) زوجة بلوتو إلـه الدار الآخرة

ووصفت له النبية الطريق الذي ينبغي أن يسلك، ثم أرسلت اليه أمه فينوس حمامتين تطيران أمامه تدلانه في غياهب الغابة، فما لبث يتبعهما حتى حطتا على الشجرة التي تحمل الغصن الذهبي فتسلقها واقتطعه وعاد به إلى سيبيل. ونهضت النبية، وقادته إلى كهف منشق وسط الغابة فوق حَيْدٍ وعر من أحياد فيزوف (البركان المشهور) حيث أمرته أن يقدم قرابينه إلى الآلهة بلوتو وبروزربين وهيكاتيه وسائر أرباب هيـدز. فلما فعل، ارتفعت صيحات عظيمة من أغوار الكهف، ثم نظر فرأى البركان يميد ويزلزل ويكاد يغوص بمن فيـه في جوف الأرض، ثم يسمع عواءً ونُباحاً وَوَعْوَعَة فيتلفت فيرى ذؤباناً وكلاباً تهمهم في جنبات الكهف، جائية من الظلمة التي تندجي في آخره، معلنة قدوم أرباب هيدز. وتوصيه سيبيل بالصبر! وينطلقان حتى إذا كانا لدى وصيد (عَتَبَة) باب جهنم نظرا فرأيا أشباحاً بربرية مظلمة مربدة الوجوه يسأل عنها إينياس ماهي فتجيبه سيبيل إنها الأحزان والهموم والأوصاب والشيخوخة والخوف والجوع والعناء والفقر والموت . . . وسائر ما في الحياة الدنيا من آلام ... وقد أقامت عندها ربات الذعر Furies فهي تتقلب على فراش خشن من فراش الجحيم ويرى بينها (دسكورديا) ربة الخصام وفوق رأسها — مكان الشعر — حيات وأفاع تتحوى وتنفث سمومها، ويرى أيضاً طائفة مروعة من الوحوش والضواري والتنانين مثل هيدرا وبرياريوس، فيزعج إينياس ويمتشق سيفه ليحمي نفسه، ولكن سيبيل تنهاه وتطمئنه فيلملم أذياله ويقتفي أثرها حتى يكونا عند نهر كوكيتوس المتكون من دموع المعذبين. وهنا ربان (خارون) في زورقه الجبار ينقل أرواح الموتى، كثيرة كأوراق الخريف من عُدوة الى عدوة، والأرواح تتدافع تريد أن تسبق، ولكن خارون ينتخب منها الطائفة بعد الأخرى ويدع الآخرين، فيسأل إينياس فتجيبه سيبيل أن الأرواح التي أديت لها شعائر الدفن الجنائزية هي وحدها التي تعبر النهر. أما التي حرمت فتهيم فوق الشاطئ دون أن تعبر مدى مائة عام أو تزيد

(١) Harpies ويروى ڤرچيل هنا أسطورة جميلة نأسف لعدم تلخيصها
(٢) لخصنا هذه الأسطوره في السنة الثالثة من الرسالة
(٣) أغفلنا هنا أسطورة قيمة عن نضال بين حيرا (چونو) ونبتيون
(٤) من أروع فصول الأنيد انتحار ديدو بعد سفر اينياس

حتى يأتيها الفرج (!) . ويجزع إينياس حين يرى فى هؤلاء كثيرين من أصحابه الذين ذهبوا ضحيـة العـاصفة فكانوا من المغرقين ؛ ويشتد حزنه حين يرى فيهم روح ربّانه الشجاع باالينيوروس الذى غرق فى الرحلة إلى أسبريا . ويكلمه فيرجوه الربان أن يمد إليـه يده فيجتاز به اليم إلى الشاطىء الآخر ، ولا يوشك إينياس أن يفعل لولا أن تنهاه سيبيل !! خشية أن يخرق شرائع بلوتو ، وتطمئنُـه فتخبره أن الأمواج سـتقذف جثمان صـاحبه إلى الشاطىء وسـيدفنه الناس حين يرونه . ويتقدمان إلى خارون ليركبا فى زورقه ولـكنه يغضب حين يرى إينياس ما يزال حياً ببدنه وعليه عدة حربه وعتاده ، ويسأله بأى حق جاز إلى هنا ، فتتولى سيبيل الاجابة وتخبره أنه لن يأتى محرماً فى الدار الآخرة ، وغرضه أن يرى أباه فحسب ويكلمه ثم يعود أدراجه ؛ وتريه الغصن الذهبى الذى احتمله بيمينه هدية لربة الموتى بروزربين ، فيرضى ، ويبتسم . ويحملهما فى زورقه إلى العدوة الآخرة . وما يكادان يطآن الشاطىء حتى يفجأهما الـكلب الخبيث سيربيروس ، ذو الرؤوس الثلاثة تقذف اللهب ، وعليها الأفاعى تنفث السم ، فيوشك يفتك بهـما ، لولا أن تقذف له سيبيل كعكة بها مخدر عجيب فيلتهمها ويستلقى على رمال الشاطىء ، ويجوزان قليلاً فيسمعان أصوات أطفال صغار ماتوا قبل أن ينهلوا كوثر الحياة فأقاموا هنا ، وعلى مقربة منهم أرواح الذين ماتوا ضحية تهم باطلة وقد قام بينهم القاضى مينوس يفحص قضاياهم[1] ثم يمران بأرواح اليائسين من الحياة الذين ضاقوا بجدها ذرعاً فماتوا منتحرين . وهم الآن يتمنون لو عادوا إلى الدنيا فيعملوا من الصالحات ما يشفع لهم ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وينطلقان فيجوزان بدركات الأحزان التى ازينت طرقتها بأزاهير الآس فيريان أرواح الذين ماتوا دون أن يقضوا مأرباً من حبهم الذى خلعوه على عذارى الدنيا ، فباءوا هنا بألم لا ينجيهم منـه حتى الموت نفسه : ويشهد إينياس بينهم روح حبيبته ديدو التى ما يزال جرحها دامياً ينفج ، ويكلمها ويحزن لها ، ثم يبكى بين يديها بكاء مراً[2] (و . . . حبيبتى ديدو ! ! لا تتهميني بمـا أنت فيه من ضنى وتعذيب ! فقد سخرتنى الآلهة لأمر سماوى : وكان لزاماً على أن أطيع ؛ فقفى وكلمينى ، ولا تحرمينى حتى كلمة وداع هينة عليك ! وتقف ديدو بعينى حزينتين تفحصان جمرات جهنم ، وتسير مسافة فيتبعها إينياس ، ولـكنه يعود بعد إذ لا يقوى على زفير السعير ! !) . ثم يعبران فيمران بأودية أرواح الشهداء ، ويحدق به أصحابه من محاربى طروادة مشدوهين ذاهلين ، يسألونه فيم أقبل ، وحين يلمحه أبطال الأغريق مقنعاً فى حديده مُقرَّناً فى سلاحه تطير قلوبهم ويهربون منه فى أودية النار خوفاً وهاماً ! وتستحثه سيبيل فيهرول وراءها حتى يكونا عند مفرق طريقين يؤدى أحـدهما إلى الفردوس[1] (إليزيوم Elysium) والآخر إلى هاوية من هاويات جهنم حيث يقر المجرمون الذين لطخوا حياتهم بالآثام ، ويشهد إينياس على أحد جانبى الطريق مدينة منيفة عالية الذرى ، ذات سور ضخم وبرج مشيد ، تحيط بها أمواه فيليجيتون — أحـد أنهار جهنم — وقد وقفت ربة الانتقام المخيفة فى عليائها تحرس طبقات من المعذبين الذين راحوا يملأون الرحب بصراخهم وأنينهم . أولئك قد حسبوا ألا يقدر عليهم أحد فاجترحوا من السيئات ما شوهوا به وجه الحياة . . وهاهم ، قد وقفت على نواصيهم تيزيفون Tisiphone تحاسبهم وتظهر لهم ما أضمروا من الخبائث ، وكلما خلصت من حساب أحدهم قذفته لأخواتها ربات الذعر فتدق عنقه بمقامع من حديد وتشويه بشواظ من نار ونحاس !! وانفتحت بوابة المدينة فجأة ، فلمح إينياس هيدرا هائلة ذات خمسين رأساً تحرس الطريق عندها ؛ وهنا تخبره سيبيل أن هـذه الطريق تؤدى إلى جحيم طرطاروس Tartarus ، وهى فى آخر السفل تبعد عنهما بعد السماء من فوقهما ، وفى قرارها يرسف التيتان الذين شقوا عصا الطاعة على چوپيتر كبير آلهة الأولمب . ورأى إينياس جماعات جلوساً حول موائد كثيرة وأمامهم آكال وأشربات كلما وضعوا منها شيئاً فى أفواههم نزعته منها ربة من ربات العذاب مكفلة بهم . ورأى قوماً آخرين يحملون فوق هاماتهم حجارة ثقيلة تـكاد تقصمهم . وعلم من سيبيل أن هؤلاء هم الذين كانوا يشاقون آباءهم ويضارون إخوتهم ويخادعون أصدقاءهم الذين وضعوا ثقتهم فيهم ويكنزون الذهب والفضة ولا يجعلون للفقراء نصيباً منهما . ورأى كذلك الذين فسخوا خطبة زواجهم بغير حق

(١) إلى هنا تكاد الأنيد تتفق والجحيم (من الـكوميديا) فى فصولها الأوائل لا سيما فى وصف الدار الآخرة

(٢) أليس دانتى قد نقد هذه الصورة نفسها فى كوميدياه ؟

(١) هكذا جعل فرجيل جنته تحت الأرض . أما دانتى فقد هذبت المسيحة خياله فجعلها فى السماء وإن يكن لغباوته قد جعل الشمس من أطيب منازل الجنة

والذين حاربوا وطنهم وخانوا أماناتهم وخرقوا الشرائع . ورأى أكسيون وسسفيوس يعذبان عذاباً أليما . ورأى تنتالوس واقفا فى بركة من الماء العذب ومع ذلك يوشك الظمأ أن يرديه كلما انحنى ليشرب هرب الماء وغاض فى الأرض ، ومن فوقه أشجار يانعة ذوات أثمار كلما مد يده ليقطف ثمرة ذهبت فروعها فى السماء فهو أبداً ظامئ جائع

***

وهنا ، ينتهيان من الجوس خلال الجحيم ، وتذكر له سيبيل أنهما سيبدآن رحلتهما إلى الفردوس (إلزيوم) ، فتخب به فى طريق دامس شديد الظلمة حتى تصل إلى أحراج نورانية فتكون هى الجنة التى وعد المتقون . وينشقان ثمة نسيما عليلاً [١] ويريان الصالحين مسربلين بسرابيل من أنوار أرجوانية ، وينظران إلى علٍ فيريان للجنة سماء لها نجومها وشمسها وأقمارها غير ما ترى فى سماء هذه الدنيا . وهناك ، أخذ الفائزون يمرحون ويلعبون ، فبعضهم يضطجع على العشب الأخضر يسامر أصدقاءه ، والبعض يلعب ألعاب الحياة الدنيا من مصارعة وجرى ورماية ، وآخرون يرقصون ويتغنون الأغانى . وفى هؤلاء أقام أرفيوس الموسيقى يشنف آذان أهل الجنة بقيثارته . ثم رأى إينياس فى أولئك الأبرار مؤسسى طروادة وأبطالها الأطهار الذين حاربوا الهيلانيين وعليهم حلل الاستبرق والنار ، ومعهم أرواح كثيرة مطهرة من القديسين والشهداء والشعراء الذين نظموا قصائدهم فى تمجيد أبوللو . وآخرين زانوا الحياة الدنيا بعلومهم وفنونهم [٢] وقدموا يداً بيضاء لأخوانهم فى الانسانية . وكان هؤلاء يلبسون طيلسانات بيضاً وقراطق من حرير ، وقد سألتهم سيبيل إذا كان أنخيسز (والد اينياس) بينهم ، فأذنوا لها أن تبحث عنه بين جموعهم الزاخرة ؛ ثم لقيته فى واد نضير ذى فواكه وأثمار فعرفه ابنه ، ومد الوالد ذراعيه يعانق ولده والدمع ينهمر على خديه ويروى لحيته : « وأخيراً أتيت يا إينياس ! ياولدى ! كم حنت روحى إليك وكنت فى خشية عليك مما أعرف من حياتك التى تلطخها دماء الحروب وينطشها قتار المامع ! » فيجيبه ابنه « أبتاه ! ليفرخ روعك فان صورتك كانت أبداً ماثلة نصب عينى فكانت تقودنى الى الخيرات وترشدنى الى الصالحات ! » ثم يحاول أن يعانق أباه ، ولكن ... إنه لم يعانق إلا شبحاً ! !

ونظر إينياس فرأى وادياً مخضلاً سامق الشجر بليل النسيم يجرى من تحته نهر ليث العظيم ، وفى جنباته أمم شتى من أرواح الصالحين كثرت كثرة هائلة حتى لكأنها أسراب النحل فى إبان الربيع . ويسأل صاحبته عن هؤلاء فتقول سيبيل : «أولئك أرواح المؤمنين تنتظر يوم البعث فتعود إلى أجسادها فتلبسها[١] وهى تشرب النسيان من ليث ليشغلها عن توافه الحياة الدنيا ! »

ويسأل أباه إينياس فيقول : « أبى ألا تكون الحياة الدنيا محببة عند أحد من هؤلاء فيؤثرها على ما هو فيه الآن من طيبات فهو يود لو يعود إليها ؟ » وهنا يأخذ الأب فى شرح طويل عن بدء الخلق وعن العناصر التى صنع الله منها العالم (النار والهواء والأرض والماء) وأن هذه باتحادها ينشأ عنها اللهب الذى صنع الله منه الأرواح العلوية وقد انتثرت بذرة من اللهب المقدس فاختلطت بالأرض فصنع منها الآلهة السفليون الانسان والحيوان وكلما كبر الانسان قلت فيه بذرة اللهب المقدس وصغرت وخبثت نفسه لأن كمية الطين تزداد فيه ولذا تجد الأطفال لصغرهم ولقلة كمية الطين فيهم أكثر طهراً وأجم نقاء من الكبار . ولا بد للعبد المؤمن قبل دخول الجنة من إزالة الطين الذى اندس فيه وذلك بترويحه فى الهواء ، أو غسله فى الماء أو تجريقه بالنار ليخلص من الشوائب والدنايا وليستحق أن يكون من أهل أزيوم . أما الصالحون فيرتدون إلى الحياة متقمصين أجساد القطط والذئاب والكلاب والسعالى والقرود فتزداد بهم الدنيا قبحاً على قبح . وقد يعود بعض الصالحين كذلك ليطهروا الدنيا من دنايا هؤلاء

ثم يحدث أنخيسز ابنه عما ينتظر أن يتم على يديه من تكون مملكة عظيمة فى إسبريا وعن جلائل الأعمال التى ستتم فيها على يديه وأيدى ذراريه . ويحدثه كذلك عن الحروب التى سيخوضون غمارها والمعارك التى سينتصرون فيها والزوجة الجميلة التى سيفوز بها ، وطروادة [٢] الجديدة التى سيشيدون دعائمها فلا يمضى طويل حتى تكون سيدة العالم

ثم يسلم الولد على والده ، وتعود به سيبيل من طريق مختصر إلى هذه الحياة الدنيا

(للبحث بقية) د . خ

(١) حتى هذه استعملها دانتى حينما خرج من الجحيم الى المطهر

(٢) هكذا ينصف فرجيل العلماء والفنانين !! فيا لهذه من جنة إذن ؟

(١) لعل هذا الايمان يبث الأجسام لقاح أصاب رومة عن طريق مصر

(٢) هى رومة بالطبع

أبو الطيب المتنبي *

للأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد

موضوعات هذا البحث

وبعد فلقد فكرت طويلاً فيما عسى أن يكون موضوع كلمتي التي أتشرف بالقائها بين يديكم من مناحي المتنبي ، وعرضت مسائل البحث على خاطري ، فكنت كلما فكرت في أمر وجدت له ما يبرر التوجه إليه ، ووجدت مع ذلك من الشبهات ما يذودني عنه ويقطعني عن الاسترسال فيه ، ولكني استطعت في آخر الأمر أن أقنع نفسي بأنني وافد الأزهر إليكم ، وبأن الأزهر هو المعهد الذي يقوم على حراسة الدين أصوله وفروعه وعلى حياطة العربية وآدابها ، وبأن بحث من يمثل الأزهر يجب أن يكون متصلاً بما يؤديه الأزهر للعالم من أمانة وما يضطلع به من أعباء ، فاستقام عندي بعد هذه المقدمات أن يدور بحثي حول « دين المتنبي وأخلاقه وتنبئه وموقفه من النحاة » ؛ وما كدت أنتهي من ذلك الأمر وأخلص من التفكير بهذه النتيجة حتى عرض لي أمر آخر ألقيت له بالي كله ، وذلك الأمر هو المقصود بهذا المهرجان : أهو تقريظ المتنبي والثناء عليه ، إما باطرائه وكيل المديح له إن حقاً وإن باطلاً ، وإما بإثارة الجميل من أخباره وشعره والاعراض عما عسى أن يغض من شأنه ، أم هو بحث المتنبي من جميع وجوهه لوجه الحق من غير تعنت ولا تحيز ؟ ولم أزل أفكر وأقدر للأمر حتى أيقنت أن هذا الحفل الذي يجمع أقطاب الأدباء والعلماء من كل قطر لا يمكن أن يستوي عنده الأمران فان فرق ما بينهما أوضح من أن يدل عليه . وأي إنسان يستطيع أن ينسى الفرق بين حفل يجتمع لتكريم رجل وبين حفل يجتمع فيه صفوة الأدباء لدراسة رجل من رجال الأدب كان له أشياع وأعداء ، وكان أشياعه ينشرون ممادحه ويذيعون فضائله ويتأولون له ، وكان أعداؤه يملأون الأرض عجيجاً حوله ويرمونه بكل نقائص الانسانية وهم لا يتورعون عن الكذب فيما يحدثون به من أخبار . أليس من أول ما يلزم الباحثين أن يعرضوا مقالات أعدائه وشيعته جميعاً على موازين البحث الصحيحة ليخلصوا بنتيجة ترضى العقل وتسد حاجة التفكير غير مبالين أن تكون هذه النتيجة مما يتمدح به أو مما يعده الناس نقصاً ؟ فان أنا عرضت عليكم شيئاً من هذا فهذه معذرتي وهذا رأيي ، ولعلي لا أكون قد أبعدت أو جانبت الصواب فيما ذهبت إليه

دين المتنبي

أيها السادة ! لقد مني أبو الطيب المتنبي بصنفين من الناس كان لكل واحد منهما من الأثر في حياته وفي أخباره التي نتوارثها إلى اليوم أقبح الأثر ، ولولا هما لعاش الرجل عيشة هادئة ، ولولا هما لكانت صحيفته في تاريخ الشعر والشعراء غير الصحيفة التي نقرؤها اليوم ، ولولا هما لما وجد الباحث عنه هذا الغموض وهذا التناقض اللذين يعانيهما الآن . أما أحدهما فجماعة من ذوي المكانة بين الناس وأصحاب الجاه خافوه على أنفسهم ورهبوا أن تمتد مطامعه إلى مكانتهم وجاههم ، أو طمعوا منه في أن يتملقهم ويرائيهم فيرد حضرتهم كما كان غيره يردها وكما كان هو يرد حضرة غيرهم من الملوك والأمراء فلم ينالوا ذلك منه ، أو دفعت أبا الطيب نوازع نفسية فنال من أعراضهم فكانوا لأحد هذه الأسباب أولها كلها مجتمعة يحنقون عليه ويغضون من شأنه ، وكانوا مع ذلك يؤلبون عليه الشعراء والعلماء لينالوا منه ويؤذوه في نفسه وفي شعره . وكان أبو الطيب يخشاهم ويرهب سلطانهم ، بل لم يكن يخشاهم على نفسه فحسب ، وإنما خشيهم على بعض أصدقائه ومن يشفق عليه ، فقد حدث أبو اسحاق الصابي قال : « راسلت أبا الطيب رحمه الله في أن يمدحني بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم ووسطت بيني وبينه رجلاً من وجوه التجار ، فقال : (قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب علي في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير (يعني أبا محمد المهلبي) وتغير عليك لأنني لم أمدحه ، فان كنت لا تبالي هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست وما أريد منك مالاً ولا عن شعري عوضاً) ، فتنبهت على موضع الغلط ، وعلمت أنه نصح فلم أعاوده اهـ » . وأما الصنف الآخر فجماعة ممن كانوا يأملون أن تكون لهم المنزلة التي أدركها من الحظوة عند الملوك ، وحرص كل واحد منهم أن يكون أبو الطيب من بطانته وتنافسهم في ذلك ، فلما لم يبلغ هؤلاء المؤملون هذه الأمنية

(*) وهي الخطبة التي ألقاها الأستاذ في مهرجان المتنبي في المجمع العلمي العربي بدمشق باسم الأزهر

أكل الحقد عليه قلوبهم ، واشتعلت جذوة الحسد بين جوانحهم ، فتفننوا فى القول عليه والدس له ، ونشروا عنه من المقابح مالم يكن يعلم من أمر أكثره شيئاً ؛ ولم يكتفوا بأن يعملوا على إبعاده عن الملوك الذين كان التقرب إليهم منتهى آمالهم ، بل حاولوا التفريق بينه وبين الجمهور ، فجاؤوه من ناحية الدين ثقة منهم أن للدين فى نظر جمهرة الناس وعامتهم المنزلة الأولى ، فاذا أتى الرجل من جهته فقط سقط وإن بقى له كل شىء

رموه بأنه كان رقيق الدين تاركا لأركان الاسلام ، ورموه بأنه كان يستخف بالأنبياء ويستصغر شأنهم ، ورموه بأنه ذهب فى الفلسفة مذهباً بعيداً عما يعتقده المسلمون ؛ وقد نسوا حين رموا أبا الطيب بذلك كله أن دين الاسلام شديد الصرامة فى حكم هذه المسألة ، وأنه لايحل لمن يعتنقه أن يرمى أخاه بأمثال هذه التهم لأرضاء حفيظة نفسه حتى يكون بين يديه دليل لا يقبل التأويل

ولسنا حين نتشكك فى أخبار هؤلاء الناس أو ننكر استنتاجهم ندعى لأبى الطيب أنه كان رجلاً صالحاً ورعاً يقوم الليل ويصوم النهار ويطيل العبادة وقراءة القرآن ، ولكنا نفعل ذلك لنقرر أن حياة أبى الطيب قد أحاطها أعداؤه بكثير من الغموض وأحاطوها مع هذا الغموض بكثير من الأكاذيب والمفتريات كان من شأنها أن تريك حياته سلسلة من المتناقضات

حكى على بن حمزة البصرى قال : « بلوت من أبى الطيب ثلاث خلال محمودة : وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط ، وبلوت منـه ثلاث خصال ذميمة : وتلك أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن » وهذا خبر لم يذكر قائله معه رجها يقربه من الصدق . وهل يستطيع إنسان فى الدنيا أن ينفى عن آخر فعل شىء حتى يزعم أنه لزمه طول حياته فلم يفارقه وأنه ما رآه يفعله قط ؟ ثم إن أمر الصوم فى حديث على بن أبى حمزة أهون من أمر الصلاة وقراءة القرآن ، فهو يستطيع أن يدعى مرة أخرى أنه رأى أبا الطيب كل عام فى شهر رمضان فى حلب ومصر والعراق وشيراز وسائر البلاد التى وطئها قدما أبى الطيب ، وأنه رآه مع ذلك يأكل أويشرب نهاراً ، يستطيع أن يدعى هذا كله وحينئذ يتم له ما أراد من أنه بلا من أبى الطيب خلة ذميمة وهى أنه ما صام ، ولكن أنى له أن يدعى ذلك . فأما أمر الصلاة وقراءة القرآن فنحن نسائله : أكان قد لزم أبا الطيب فى مغداه ومراحه ومتيقظه ومنامه حتى يستطيع أن يزعم أنه ما صلى ؟ وشىء آخر ، ذلك أنه بلا منه خلة محمودة وهى أنه ما كذب ، فهل سأله عن صلاته وقراءته القرآن فحدثه وصدقه الحديث أنه ما صلى ولا قرأ القرآن ؟ والحق أن على بن حمزة البصرى رجل أراد أن يرمى أبا الطيب بما رمى به أمثاله أمثال أبى الطيب من قبل ، وبما لا يزال أمثاله يرمون به أمثال أبى الطيب إلى اليوم . يريد بذلك أن يرضى خصوم أبى الطيب أو يشبع شهوة الانتقام منه ، وأراد أن يعمى على الناس ويحملهم على تصديقه ، فذكر فى صدر حديثه أنه بلا منه ثلاث خلال محمودة ، وهذه العبارة فيما نعلم من أمر الناس احدى الدلائل على اختلاق الحديث . هذا وقد ذكر أبو العلاء فى شأن صلاة أبى الطيب قال : « وحدثت أن أبا الطيب أيام كان اقطاعه بصف رؤى يصلى بموضع بمعرة النعمان يقال له كنيسة الأعراب ، وأنه صلى العصر ركعتين ، فيجوز أن يكون رأى أنه على سفر وأن القصر له جائز » فهل يمكن أن يكون خبر على بن حمزة بعد ذلك موثوقا به ؟ فأما تأول المتنبى وأنه رأى أن القصر له جائز فأمر آخر ليس بحثه من شأننا الآن ؛ وقراءة القرآن التى زعم على بن حمزة أن أبا الطيب لم يفعلها ، أفى الناس من يعقل أن رجلا نشأ على حفظ اللغة واستظهار غريبها ، والتنقل فى البوادى ليلقطها من أفواه الأعراب يجد القرآن بين يديه وهو كتاب لغة وأسلوب وفكر ، فوق أنه كتاب هداية وخلق وآداب ، ثم لا يقرأه ليتأسى به ويتقيل أساليبه ويتخذ من اطراد منطقه وإحكام الحجة فيه منهجاً لنفسه ؟ ونحن نذكر لعلى بن حمزة أن أبا الطيب قد قرأ القرآن وفهمه ، ونذكر له مما يشير إلى ذلك قوله من قصيدة يمدح بها كافوراً :

كأن كل سؤال فى مسامعه ... قميص يوسف فى أجفان يعقوب

وقوله من قصيدة يمدح فيها محمد بن زريق الطرسوسى :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه ... لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان لج البحر مثل يمينه ... ما انشق حتى جاز فيه موسى

فأما ما ذكروه من استخفافه بالأنبياء واستصغاره شأنهم وعدم مبالاته بأصول العقيدة ، فقد رأينا فيما جمعناه من كلام أبى الطيب مما هو متصل بهذه المسألة أن بعض ما ذكروه أهون من أن يؤبه له كقوله :

ما مقامى بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود

وكقوله:

إنا فى أمة تداركها اللـــــه غريب كصالح فى ثمود

وأى شيء فى أن يشبه نفسه وهو يقيم بين قوم يعتقد أنهم أعداؤه بالمسيح عليه السلام حين أقام بين اليهود؟ وأى شيء فى أن يدل على أن بقاءه بين قوم لا تجانس بينه وبينهم غربة تشبه غربة صالح عليه السلام، إذ كان يعيش فى وسط لا يرون رأيه؟ وبعض ما أخذوه عليه تجد له محملا فى الكلام لو أنت حملته عليه لم يكن به بأس، وذلك كقوله فى قصيدة مدح بها الحسين ابن اسحاق التنوخى:

فما ترزق الأقدار من أنت حارم ... وما تحرم الأقدار من أنت رازق

فانه يمكن أن يكون قد أراد أن الحسين بن اسحاق رجل موفق إلى السداد وإصابة المقادير فهى تجرى دائماً موافقة لما اهتدى إليه ولا شيء فى ذلك فيما نظن. وأما بقية ما أخذوه عليه فداخل فى باب المبالغة التى تجرى على ألسنة الشعراء وهى لم تخالط قلوبهم، وأبو الطيب كثير المبالغة فى شعره، ونحن نأخذها عليه من الناحية الأدبية ولا نستدل بها على فساد عقيدته؛ فمن ذلك قوله فى مدح محمد بن زريق:

لو كان للنيران ضوء جبينـه ... عبدت فصار العالمون مجوسا

ومن ذلك قوله من قصيدة يقولها فى صباه:

عمرك الله هل رأيت بدوراً ... طلعت فى براقع وعقود

راميات بأسهم ريشها الهد ... ب تشق القلوب قبل الجلود

يترشفن من فمى رشفات ... هن فيه أحلى من التوحيد

وقد اعتذر الناس عن قوله: «هن فيه أحلى من التوحيد» بوجوه: أحدها قاله ابن جنى وملخصه إنكار هذه الرواية، والرواية عنده «هن فيه حلاوة التوحيد» وقد سرى إلى ابن جنى داء النحاة فى تحريف الشواهد وتغييرها على ما يوافقهم. والوجه الثانى: «تفسير التوحيد بأنه تمر من ثمار العراق حلو المذاق، والوجه الثالث قاله العكبرى وملخصه أنه ليس المراد تفضيل حلاوة الرشفات على حلاوة التوحيد، وإنما المراد تقريب حلاوتها من حلاوته لأن حلاوته ثابتة غير مشكوك فيها وحلاوتها غير معروفة، وذانك الوجهان من باب التمحلات البعيدة كما ترون، وليس لنا إلا أن نعترف بأن هذا غلو أفرط فيه أبو الطيب فتجاوز الحد. ومن ذلك قوله من قصيدة مدح بها أبا شجاع عضد الدولة

النـاس كالعابدين آلهة ... وعبـــده كالموحد الله

وقوله من قصيدة مدح بها بدر بن عمار:

لو كان علمك بالآلـه مقسما ... فى الناس مابعث الآلـه رسولاً

لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـــقرآن ... والتوراة والانجيلا

وكل هذا من الغلو البعيد كما قدمنا، ونحن نعتب عليه أنه قد أسلس العنان لفكره حتى جال فى هذا الميدان، فلا بدع أن يتلى من غباره وتصيبه إحدى قذائفه

فأما ما اتهموه به من الذهاب فى فلسفتـه مذهباً لا يقره الاسلام فأنى أبادر بانكار ذلك عليهم وأعرض عليكم شيئاً مما ذكروه لتتبينوا بأنفسكم أنهم لم يكونوا منصفين حين نسبوه إلى ما نسبوه إليه؛ زعموا أنه أنكر المعاد لقوله:

تمتع من سهاد أو رقاد ... ولا تأمل كرى تحت الرجام

فان لثالث الحالين معنى ... سوى معنى انتباهك والمنام

وأى دليل فى هذا الكلام على انكار المعاد؟ وأى شيء فى أن تقول: «إن للموت معنى غير معنى النوم واليقظة؟ ومن ذا الذى يزعم أن معنى الموت هو معنى النوم واليقظة أو أن حال الانسان فيه كحاله فيهما» وزعموا أنه يرى رأى السوفسطائية الذين ينكرون ثبوت حقائق الأشياء لقوله:

هون على بصر ما شق منظره ... فانما يقظات العين كالحلم

ولو كان ذلك من مذهب السوفسطائية لما جاز لأحد أن يشبه شيئاً بضده إذا اشتركا فى أمر من الأمور ونحن ما نزال نسمع الناس يقولون إن نوم فلان ويقظته سواء إذا كان لا يستفاد من يقظته أو كان لا يجد الراحة فى نومه كما لا يجدها فى يقظته. ومازال نسمعهم يشبهون الموجود بالمعدوم والنير بالمظلم. وهكذا يجرى على الألسنة من غير أن يلتفت أحد الى هذا الذى زعموه ونسبوه الى القول بقدم العالم مستنتجين ذلك من قوله فى قصيدة رثى فيها أخت سيف الدولة:

تخالف النـاس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيـــل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

وهذا استنتاج لا يقضى العجب منه، بل أنا أصارحكم — ولا ضير على فى ذلك — بأنى لم أعرف وجه هذا الاستنتاج،

ولو استنتجوا من هذين البيتين أنه ينكر المعاد لكان لاستنتاجهم وجه . على أنه إذا صح أن يكفر رجل بهذا الكلام وجب أن يحكم على علماء المسلمين عامة بالكفر ويحكم بذلك بادئ الأمر على المشتغلين بعلم الكلام والرد على فرق الملاحدة ، ذلك بأنهم يحكون لنا أقوال الكفار كما حكاها أبو الطيب فى هذين البيتين ، بل إن علماء المسلمين أولى بهذا الحكم منه لأنهم يذكرون مع ما يحكونه من الآراء شبهة أهل هذه الآراء ، وقد يصورون شبهاتهم فى صورة الأدلة ؛ يجب عند خصوم أبى الطيب أن يكون علماء المسلمين كفارا وان لم يعتقدوا ما يحكونه من آراء وان كان عندهم من الأدلة على بطلانها ما لا يدخل فى حساب أحد ، وفى الحق أن أعداء أبى الطيب لم يكونوا موفقين فيما رموه به ، وأن أبا الطيب نفسه لم يسعفه التوفيق فى كل ما جرى على لسانه

(له بقية) محمد محيي الدين عبد الحميد

المدرس بكلية اللغة العربية

من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكى عريبى

— ٣ —

مطابقة المرافعة لمقتضى الحال

إن أهمها بلا شك هو مطابقتها لمقتضى الحال . فللاسهاب منها مواضع وللايجاز مواضع . يجب استعمال اللفظ المجلجل مرة والسهل البسيط أخرى . يغلب المنطق هنا والعاطفة هناك حسب الظروف والأحوال

وليس يستطيع هذا إلا المتكلم المصقع المتصل بالأدب بأوثق صلة ، العالم بطبائع الناس العارف لمواقع الكلام ، المتصرف فى أنواعه المختلفة بما يريد ويشتهى

كفايات صعبة بلا شك ، ولكنها لازمة أدرك الأقدمون ضرورة توفرها فيمن اتخذ الكلام صناعة . فكان محامو اليونان أفصح أهل زمانهم وأعلمهم . وسار الرومان فى أثرهم فلم يكن لطلاب البلاغة فى عهدهم غير ساحة القضاء يقصدونها للأخذ عن أئمتها وحاملى لوائها من الترافعين المبرزين أمثال أنطونيوس وهورتنسس وشيشرون . ثم تجددت هذه الحال فى عصر النهضة فكان على طالب المحاماة بعد الفراغ من دراسة الحقوق أن يتنسك أربع سنوات يقضيها متأملاً باحثاً قبل أن يقدم على المهمة المقدسة الكبرى — مهمة الدفاع

وقد بلغ من إغراق الأسرة القضائية فى ذلك العهد فى التأدب أن أصبحت المرافعات والأحكام عبارة عن اقتباسات مكدسة من كتب اليونان والرومان تلوح بينها الألفاظ الفرنسية وتختفى

بل إنك لتقرأ فى أخبار ذلك الزمن أن باسكييه أشهر محامى القرن السادس عشر أورد فى إحدى مذكراته بيتاً لاتينيا لم يشر إلى قائله ووقعت المذكرة فى يد دى تو قاضى القضاة فلم يشأ أن يحكم فى الدعوى حتى يعرف مصدر الشعر

وبقى الاتصال وثيقاً بين الأدب والقانون خلال القرن السابع عشر والذى يليه . فأصبح من تقاليد المجمع اللغوى تخصيص أحد كراسيه لأبرع المحامين أدباً . وكان يشغل هذا الكرسى فى عصرنا الحاضر إلى عهد قريب النقيب الأشهر المرحوم هنرى روبير

وتجد مثل هذه الرابطة بين الأدب والقانون فى انجلترا ، فكثير من أشهر أدبائها شغلوا كراسى القضاء أولبسوا رداء المحاماة

وقد بقيت لغة الأحكام والمرافعات فى مصر سقيمة تافهة حتى دخل الميدان أمثال محمد عبده وحفنى ناصف ومحمد صالح وقاسم أمين وسعد زغلول فرقوا بها إلى طبقات لم تكن تحلم بها

وهذه الصلة مازالت إلى اليوم معقودة يوثق عراها أعلام من أدباء العصر ، فالدكتور هيكل كان محامياً ، وفكرى أباظه والدكتور مرسى محمود ولطفى جمعه محامون مشتغلون . وكان على رأس محكمة النقض والنيابة العامة أديبان لم تسعد اللغة القضائية حتى الساعة بخير من قلميهما

* * *

لغة المحاكم إذن جزء من أدب كل أمة . ليس لها عنه غنى وله فيها كل الغناء

لا غنى لها عنه لأنها من دونه ضئيلة عليلة مملة مسئمة وله فيها غناء لأنه يجد فى ساحتها ميداناً مترامى الأطراف

تلتق فيه الحقيقة بالخيال ويسعد قلم الأديب بمواضيع لا حد لكثرتها ولا تباينها . فمنها العظيم الفخم ومنها الصغير الدقيق . فيها الباكي المفجع وفيها الفكه الضاحك . الانسانية كلها هنا ، بأفراحها وأتراحها ، بآلامها وأحلامها ، بنبلها وضعتها ، بخيرها وشرها . فالقلم الذى لا يجرى فى هذه الحلبة الواسعة خير له أن يكسر

ولكن للغة المرافعات مع ذلك خصائصها ولها مميزاتها

لغة المرافعات لغة حديث لا كتابة

إنها قبل كل شيء لغة حديث لا لغة كتابة

وإن كان للحديث على الكتابة مزايا فان له متاعبه وله صعابه

فمن مزاياه أن المحدث يلق السامع وجهاً لوجه ؛ وفى استطاعته إذ يلقاه على هذه الصورة أن يستعين على اقناعه بلسانه وعينه ، بصوته واشارته ، بحركته وسكونه ، ببديهته ودقة ملاحظته ، بل بما فيه من قوة مغناطيسية كامنة

ولكن يقابل هذه المزايا أن المحدث مضطر بحكم طبيعة الموقف إلى الابتكار السريع والكلام المرتجل ومواصلة الحديث فى غير توقف ولا تردد

فكيف يجب أن تكون لغته ؟

إن أولى صفاتها من غير شك بساطة التعبير

بل قل إن هذا الشرط شرط ضرورة ؛ فقد علك الكاتب أن يستعمل اللفظ المنمق ، وأن يحتال على المعانى البعيدة ، وأن يطلق العنان للخيال فيواتيه بصور شعرية رائعة . ولكن شيئاً من هذا غير مستطاع ولا ميسور لمتكلم تكتنفه صعاب الارتجال ، وتستحثه الحاجة الملحة إلى افهام سامع يرمقه بعين تتسع انتظارا قد ينقلب فى لحظة إلى تململ أو سآمة

صحيح أن الطبيعة لم توات جميع الناس بالبديهة الحاضرة التى تستطيع الكلام عفوا ، فهم مضطرون إلى تحبير مرافعتهم ثم إلقائها . ولكن حتى هؤلاء يجب أن يكتبوا بغير اللغة المعدة للقراءة ، إن عليهم أن يتصنعوا لغة الارتجال ؛ وليس هذا بميسور إلا أن يحتذوا حذو محام نابغة يدعى فارير ، تكلم عن طريقته فى كتابه الممتع فقال إنه يرى صامتاً مفكراً مدى أيام كلما اعتزم الدفاع فى قضية هامة ، فاذا ما كان قبل الجلسة بقليل اعتكف فى مكتبه ثم جلس للكتابة فأطلق العنان لقلمه لا يلوى على شيء مما يعنى به الكاتب من فصل أو وصل ، وبعبارة أخرى إن الرجل كان يترافع بقلمه فى القضية متمثلا أنه أمام المحكمة ، حتى إذا فرغ طوى صحفه وقام عنها وقد رسمت هذه المرافعة المكتوبة فى رأسه معالم واضحة توجه فكره إذا ما وقف للدفاع ، وتقيه شرجوح الخاطر دون أن تمنع تدفق بيانه المطابق لمقتضى الحال

العاطفة فى لغة المرافعات

وليس أجمل فى لغة المرافعات بل ليس ألزم من غلبة العاطفة فيها

إن كلام المحامى ليبقى مجرد كلام لا طائل تحته حتى تغشاه عاطفة صادقة فتصبح له قوة السحر . وقديماً قالوا إن القول ينفذ إلى القلب إذا صدر من القلب . ولكن كيف السبيل إلى مثل هذا القول ؟ ليس أعصى فى موضوعنا من التعبير عما نقصد « بالعاطفة » هى لا شيء . وهى كل شيء .

يقف محاميان يطلبان الرأفة لمتهم ، فيفوه أحدهما بكلام لا يعدو السمع . ويقول الآخر قولاً يهز القلوب هزاً

كلاهما يترافع بالعربية . وكلاهما يستعمل كلمة الرأفة أو الشفقة . فكيف يتفاوت أثر مرافعتهما هذا التفاوت ؟

فتش وابحث وسل علماء النفس ينبئوك بأن واحداً من الاثنين حساس يستشعر ما يقول ويتأثر به فتنتقل منه عدوى التأثر إلى الغير

والتأثر لكى يكون له هذا الأثر يجب أن يكون صادقاً . وهو لا يكون صادقاً إلا أن يصدر عن يقين واقتناع

وإن تعجب لشيء فاعجب لهذا الاقتناع يبدو لك صادقاً — وهو صادق بالفعل — فى قضايا يستحيل على العقل أن يصدق أن كلام المحامى فيها وليد الاقتناع وليس فى الأمر مع ذلك معمى

ذلك أن المحامى القادر إذا ما أخذ على عاتقه المرافعة فى قضية صعبة راح يفكر فى صعوبتها ورائده الرغبة فى التغلب عليها وتلح عليه هذه الرغبة وتلحف بقدر ما يستعصى المخرج ويبعد الحل . ثم ينتهى الأمر بتذليل المحامى للعقبة أو اعتقاده أنه ذللها . وفى

هذه الحالة الثانية تطغى الرغبة على العقل وتستعبده ، وقد يكون جباراً قوياً يندفع بقوة الايمان الصحيح

جمعني وأستاذي الكبير مرقس فهمي قضية مخدرات كان المتهم الأول فيها رجلاً معروفاً . ولم يكن في القضية منفذ لأثرة لا من حيث أدلتها ولا من حيث أدبياتها . فالمتهم ضبط متلبساً بالجريمة ولم يكن له عذر مقبول من أى نوع . بل بالعكس كانت الأسباب تحتشد وتتضافر لأخذه بالشدة ، فقد كان الرجل مثقفاً غنياً لا يشفع له جهل ولا مسيس حاجة . فجثت الجلسة وكلي آذان لسماع مرقس فهمي . ما ذا يستطيع الأستاذ العظيم أن يقول في هذه القضية اللعينة ؟ أى دفاع يتحسس وأى عذر يتلمس ؟ جلست أترقب وأنتظر . وأخيراً وقف مرقس للكلام . فاذا به يهاجم هـذا الحصن المنيع من أكثر نواحيه منعة وأقلها توقعاً للهجوم . أجل لقد أخذ مرقس القضية عنوة من ناحيتها الأدبية ، متوسلاً بما لاحظه من أن التحقيق كان سرياً فيهـا وأن المحامين قد منعوا عن حضوره . وانظر اليه كيف يرق بقضيته التاعسة من أعماق الحضيض الى سماء الرفعة ، يجعلها مثار الكلام على الضمانات التى يشترطها القانون لصحـة التحقيق وقدسية مهمة المحامى . أنظر إليه كيف يبدأ هذا الدفاع المجيد وقل إن فى مصر محامين :

« نحن المحامين نعالج آلام الناس ونرافقهم فى شقائهم ، ولهذا نرتدى الثوب الأسود ونقف فى هـذا المكان المنخفض . فاذا ما أعيانا التعب جلسنا على هذا الحجر الصلب فيزيدنا تعباً . فنحن حقيقة بؤساء ، رفقاء البؤساء . ولـكن برغم هذه المظاهر الخداعة فان الذى فى قلبه إيمان بالحق يرتفع من هذا المركز المتواضع إلى السمو الذى لا حد له . ذلك لأن عماده كله الحق ، ولأن مأمورية المحامى تمثل حق الدفاع المقدس . والقداسة لا تحتاج لسلطة ولا تحتاج لمظهر قوة بل هى جميلة ، جميلة بنفسها مهما كانت مظاهرها . مظاهر التعس والتواضع ، ولأن المحامى مأموريته التى تسمو به إلى أقصى ما يعرف من معانى السمو هى أن يوجه ضمير القاضى وأن يحدثه فيما يصح أن يتجه إليه عدله . فحقيقة لا يوجـد سمو آخر يمكن أن يتصور

قلت هذا لا تفاخراً بموقف المحامى ، لأن الذى يدرك واجبه ليس فى حاجة — بل عيب عليه — أن يفخر ، لـكننى قلته ليعلم حضرة القاضى أنى أعاهد نفسى بألا أعرف لها كرامة إلا إذا تقدمت إلى ضميره بكلمة الحق ، وفى هـذا السبيل فليقفنى فى الـكلام حضرة وكيل النيابة فى الوقت الذى يريده . إلى أن قال :

« إن التحقيق ليس هو ما يكتب لا . لا . التحقيق هو أولاً وبالذات الضمانات ، احترام الـكفالات التى قررها القانون فى حق المتهم . كيف تستجوبه ؟ من هو الشخص الذى وضع فيه الشارع ثقته فى أن يتلقى هذا المتهم المسكين وديعة فى يده ليتصرف فى شأنه ، لعله يعنفه ، لعله يخدعه ، لعله يمنيه ، لعله يخيفه أو يهدده . فحتى لا تـكون قداسـة القضاء مستندة إلى تلك الطرق المخجلة المعيبة قال المشرع إن المتهم فى حماية النيابة وحدها ، والمتهم أول ما تقربه النيابة تستجوبه فى ساعات ٢٤ ساعة . والمتهم إذا حبسته له ضمانة معينة . والمتهم يا سيدى القاضى لا يقابله أحد فى سجنه حتى إذا أراد المحامى أن يقابله . المحامى ممثل حق الدفاع إن رأى أن يقابله ليأخذ سر هذا المسكين . لا يقابله إلا باذن

ولـكن ماذا جرى فى هذه الدعوى ؟ جرى أن المتهمين جميعاً قذف بهم يا حضرة القاضى إلى هوة من النار »

ويذكرنى تلمس مواضع الاحساس هنا بمـا يرويه هنرى روبير عن سلفه العظيم لاشو إذ قبل أن يضطلع بمهمة الدفاع عن القائد بازين أمام المجلس الحربى الأعلى فى قضية اتهـامه بالخيانة العظمى فى حرب السبعين . وكان مركز المتهم بالغاً نهاية السوء ، والبلاد من أقصاها إلى أقصاها مرجلاً يغلى بالحقد على من سلم إلى العدو مائة ألف مقاتل بعدائهم وأسلحتهم . فمضى لاشو يترافع ثلاثة أيام ، وهو كمن يضرب فى حديد بارد حتى أسعفه الحظ وقد أخذ اليأس منه كل مأخذ بسقطة لسان من النائب العام إذ وصفه فى رده على مرافعته « بالمدافع عن المزورين وقطاع الطريق » . وهنا وثب لاشو وثبة الأسد قد وخز بسكين . وعاودته قوته الهائلة بفعل الـكرامة المجروحة ، وانطلق بيانه الساحر من عقاله فأتى بما لم يسبقه إليه متكلم . واستطاع بعد دفاع مرتجل ملتهب أن ينقذ رأس موكله

(يتبع)

زكى عريبى

المحامى أمام محكمة النقض والابرام

فى النقـــد

بقلم داود حمدان

فى الأسابيع الأخيرة كتب فى (الرسالة) أساتذة كبار بحوثاً جليلة فى النقد ، توخوا منها شحذ همم النقاد ، وحملهم على النقد المفيد الذى طالمـا كان عاملا هاما فى نمو الأدب وتمحيص العلم . وكان فى كلام بعضهم كلام يوهم التعريض بأشخاص انبروا للدفاع عن أنفسهم ، فـكان لنا معشر القراء من ذلك فائدة ولذة

وما كنت ، وأنا من القراء ، لأزج بنفسى بين الـكتاب ، لولا أن شيئا مما كتبه الأستاذ اسماعيل مظهر فى العدد ١٦١ من (الرسالة) لم أفهمه ، فجئت أستأذن (الرسالة) بنشر ما يقوم بنفسى حول هذا الوضوع ، لعل الأستاذ يتفضل بتصحيح فهمى ، فأكون له من الشاكرين،

يتساءل الأستاذ : (هل وضعنا للنقد قواعد يقوم عليها هيكله وتشيد من فوقها أركانه ؟ ألنا فى النقد مذاهب مقررة ينتحيها الناقدون ؟ وهل لنا فى النقد قواعد تحدد للنقد حدوده ، وترسم تخومه ، وتعين اصطلاحاته ، شأن كل الأشياء العلميـة والأدبية التى لها أثر فى تطور العقليات والمعقولات ؟)

ثم ينفى الأستاذ أن لنا فى النقد مذاهب (وإنما اتبعنا الى الآن فى النقد طريقة ميزانها الذوق والشعور)

وفهمى الـكليل لا يرى محلاً لهـذا التساؤل ، ولا يتصور كيف يكون للنقد قواعد ومذاهب ، لأن النقد — كما أفهم أنا — شىء إضافى ليس له حقيقة مستقلة ، ولذا يقال : نقد الدراهم ، ونقد العـلم ، ونقد الأدب ، وغير ذلك . وهو فى كل ذلك معناه التمييز والتمحيص ومعرفة الزائف من الصحيح

ولـما كان لـكل علم وفن حـدود وقواعد فهى هى حدود وقواعد للنقد ، وليس للنقد بعدها حدود ولا قواعد

وإنما للنقد شروط لا بد من توفرها فى الناقد قبل الاقدام على النقد : فأولها أن يكون الناقد عالماً بالشىء المنقود علم إحاطة لئلا ينقد شيئاً لا يكون داخلاً فى حدود علمه . ولعل هذا ما حمل الأستاذ أحمد أمين على أن يعيب على النقاد أن ينتقدوا ما ليس من اختصاصهم ، وذلك لأن عدم الاختصاص لا يتيح للناقد الاحاطة بالشىء المنقود . فناقد الدراهم مثلاً يجب أن يكون عالماً بماهية الدراهم ليستطيع نقدها ، وناقد علم من العـلوم يجب أن يكون عالماً بقضايا ذلك العلم واصطلاحاته ، وناقد الأدب يجب أن يكون عالماً بأصول الأدب ومقاييسه ليستطيع تميز الصحيح من الفاسد ، فمعرفة الصحيح من الفاسد فى شىء ما ، هى عبارة عن معرفة ذلك الشىء نفسه ، ومن هذا يتبين أنه ليس للنقد حقيقة قائمة بذاتها ليوضع لها حدود وقواعد

وثانى الشروط أن يكون الناقد حسن النية فى النقد غير ميال مع الهوى بحيث ينظر إلى العمل من حيث هو عمل لا إلى العامل ، فان ذلك أدعى إلى العدل وأحفظ للسان من الوقوع فى الافراط فى المدح أو الذم . وليس معنى هـذا أنه لا يجوز مدح المحسن فى عمل ما بمـا يستحق ، فان هذا كفران للجميل وقتل للمواهب التى ينميها التشجيع ويحييها الاطراء ، وأما المسىء فيكفى بيان إساءته ووقف الناس على خطئه ما دام المقصود من النقد نفى الباطل وإقرار الحق

وشرط آخر لناقد الأدب ونحوه من الفنون التى يكون للذوق فيها نصيب . وهو : أن يكون ذوق الناقد وذوق المنقود من بيئـة واحدة أو متقاربة ، وأن يكون المؤثر فيهما واحداً أو متقارباً ليكونا متقاربين لا متساويين فان هذا مستحيل ، فلا ينقد مشرقى مغربيا مثلاً فى شىء تختلف فيـه أذواق المشارقة عن أذواق المغاربة

وشرط التقارب هـذا يعتبر ضابطاً لا بأس به فى الأدب ويكون الحـكم بعـد بين الناقد والمنقود الرأى الأدبى العام فى تلك البيئة

وإنمـا لزم هذا الشرط فى الأدب لأن الأدب من ضمن عناصره الذوق والشعور فلا جرم يكون الذوق والشعور من عناصر النقد الأدبى ، بيد أنهما لا يكونان كل ما فى النقد الأدبى من شىء . وما دام الذوق والشعور غير محددين فمن المستحيل وضع قواعد وضوابط لهما ، ولذا يكفى لقبول النقد القائم على الذوق تقارب ذوقى الناقد والمنقود

وبعـد ، فقد ظهر — بحسب ما أفهم — أن قواعد النقد

هيكل عظمى !...

للأستاذ على الطنطاوى

[كنت أمس عند قريب لى يمارس صناعة الطب ؛ فخرج لبعض حاجته ، حتى أطال الغياب ، وتسرب إلى الملل ، فقمت إلى خزانة كانت حيالى ، فقلت : لعل فيها كتاباً أقرؤه فما راعنى حين فتحتها إلا هيكل عظمى معلق بسقف الخزانة ... وإلى جانبه هيكل ثان ...]

... من أنت أيها الانسان الذى انتهى به الأمر إلى أن يحبس فى خزانة ، ويلبث الدهر معلقا بسلكة ، ويعد متاعا من المتاع ؟ أأنت رجل أم امرأة ؟ أغنىّ أم فقير ؟ أملك أنت أم صعلوك ؟ .....

هل كان فى هاتين الحفرتين البشعتين عيون ساحرات الطرف ، يفتن ذا اللب حتى لا حراك به ، ويفعلن بالألباب ما تفعل الخمر ؟ وهل كان على هذا الثغر المخيف شفاه لعس ، تأخذ دنيا البخيل بضمة على شفتيه ، ويبذل حياته الجبان فى قبلة منها ؟ وهل كان على هذا القفص العظمى صدر بلورى ، يضيع بين ثدييه عقل العالم ، ويذهب فيه لبّ الحليم ، وينسى امرؤ أسند اليه رأسه الدنيا وما فيها ؟ هل كانت هذه العظام المستطيلة المرعبة سواعد بضة ، وأفخاذا رجراجة طالما أثارت من هوى وأذكت من خيال وطالما أنطقت بالشعر الشعراء ؟ أكنت أيها الانسان امرأة فاتنة جميلة ؟

وهذا الانسان الآخر ؟ هل كان عشيقكِ أيتها الفتاة ؟ اعترفى فلا بأس عليك اليوم ؟ هل كان يهيم بك حبا ، ويحيا الليالى يحوم حول منزلك ، أو يَرقب شرفتك فاذا رأى شارة منك أو أبصر على الشرفة ظلّك أو لمح طرف ثوبك الأبيض أو الأصفر أو ... أو « الأرجوانى » انصرف وهو أسعد الناس حالاً ، وراح يحبر فيك « المقالات » ، وطفق يرى صورتك التى نسجها من خيوط حبّه ، لا صورتك التى هى لك : طفق يراها فى السماء التى يرنو إليها ويمدّ نجومها . وفى صفحة الكتاب الذى يفتحه وينظر فيه . وبين أغصان الأشجار التى تمتد إلى شرفته . وحيثما تلفت أو نظر « تلوح له ليلى بكل سبيل » ؟

أم كان هذا الانسان شابا غضّ الشباب طرى العود ، ينظر بعيون الغيد ، ويتثنى كأنه قضيب بان ، ويتكلم بصوت ليّن المكاسر ، كأن ألفاظه ورنانه غادة أخرى تميل وتتدلل ، ولم يكن يحبّك أو يفكر فيك ، أو يفتش هو الآخر على من يحبه ويفكر فيه ...

***

أم كنت أيها الانسان ملكا يضيء على مفرقه التاج المحلى بالدر ، ويلمع تحته السرير المصنوع من الذهب ، إذا أمر تقاتلوا على السبق إلى طاعته ، وإذا اشتهى شيئاً أسرعوا إلى تحقيق شهوته ، وإذا مرض لم يكن للناس حديث إلا حديث مرضه ، وإذا أبلّ لم يكن سرور إلا ببشرى إبلاله ، وإذا قام أو قعد أو قدم أو ذهب لهجت الألسن بقيامه وقعوده ، واشتغلت الصحف بذهابه وقدومه ، وإذا مشى فى الطريق لم يمش على رجليه كما كان يمشى أبونا آدم عليه السلام ، وكما تمشى ذريته ، ولكنه يمشى على رءوس الناس الذين يحسون لفرط الاجلال أو لفرط السخط بأنه يمشى على رءوسهم جميعاً ؟

أم كنت أيها الانسان صعلوكا حقيراً عاش على هامش الحياة ، ودفن فى حاشية المقبرة ، فلم يحس أحد بحياته ، ولم يدر أحد بمماته ، ولعل حياته أشرف حياة لأنها حافلة بالفضائل ، مترعة بالشرف ، فكان يكدح طول نهاره . ليحصل خبزه وخبز عياله ، فيأ كله مأدوماً بعرق جبينه ، لا يؤذى أحداً ، ولا يسرق مال الدولة ، ولا يتخذ وظيفته جسراً إلى تحقيق شهواته ، وتحصيل لذاته ، ولعل موته أشرف موت ، لأنه مات مجاهداً وسط المعمل ، وسقط وفى عينيه المعول

هى قواعد العلم والفن والأدب المنقود ، وأنه لا يمكن وضع قواعد خاصة للمقدمن حيث هو فن خاص ، وإنما له شروط — والشروط غير القواعد — وهى لا تكاد تخفى معرفتها على أحد من كثرة مانوه بها الكاتبون فى هذا الموضوع

أقول قولى هذا وأنا خجل من نفسى ومن الناس أن أناقش أستاذاً كبيراً فى رأيه حول موضوع ليس لى من الخبرة به عشر معشار ماله ، ولكننى أضع رأيى بين يديه ليدلنى على مكان الخطأ منه ، وليتفضل ببيان أوسع عن رأيه اذا بقى مصراً عليه ولحضرته منى الشكر الجزيل

(اللد — فلسطين) داود حمدان

انظر ياصديقى ! التفت إلى يمينك . إن الملك الذى طالما خفته وأكبرته وأعظمت زينته وبزته وشارته وحليته ، قلت عن طريقه ولم تجرؤ أن ترفع نظرك الى طلعته الكريمة .. إنه معك فى هذه الخزانة قد نزع عنه ثوب الملك والبهاء . وعاد مثلك : لا الملك دام له ولا دام الغنى !

***

هل كنت أيها الانسان رجلاً عفيفاً مستقيما ، أم كنت لصاً خبيثاً ؟ اعترف : إنه لن يضرك اليوم اعتراف ، هل كنت لص أعراض تلبس ثوب التاجر ، أو ترتدى حلة الموظف أوتتيه ببردة الغنى . كم من الأعراض سطوت عليه باسم الوظيفة أو بصلة الصداقة ، أو ولجت اليه من باب «السفور المتهتك» ؟

أم كنت لصاً رسمياً لا سبيل للقانون عليه ، لأنه يسرق من الناس ويسكتون . لأنهم يريدون أن تمشى أعمالهم . ويسرق من الخزينة بأسناد مصدقة !

أم كنت لص أدب ، تسرق فكرة الفيلسوف وصورة الشاعر وموضوع الكاتب ، فتلبسها ثوباً من أثوابك الخسيسة المزقة ، ثم تخرج بها على النـــاس على أنها بنت خيالك ووليدة عقلك !

أم كنت مظلوما ولم تكن لصا ولم تحترف السرقة ، ولكن رأيت صبية مشرفين على الموت من الجوع ، وأسرة كادت تودى من أجل رغيف ، ورأيت حقك فى بيت مال الأمة ، قد سرقه السادة الأكابر فغطيت وجهك حياء ، وأخذت رغيفا ليس لك ، فثار بك المجتمع وقامت عليك الصحف ، وتعلق بك القانون حتى استاقك الى السجن ، فمت فيه مفجوعا بشرفك وأولادك !

اقترب أيها المجرم . أدن أيها الشهيد ، تعال انتقم ، هذا هو القاضى الذى حكم عليك ، لأنك سرقت رغيفا تعيش به أسرة ، ثم خرج يخترق الصفوف ، صفوف الشعب الذى اجتمع ليشهد انتصار الحق وظفر العدالة ، فلما رآه حياه وهتف له حتى بح صوته ، وصفق حتى احمرت كفاه ، فلما ابتعدوا لم يعد يراه أحد مد يده التى حمل بها (مطرقة العدل) فأخذ ثمن وجدانه الذى باعه ، أخذ الرشوة ... تعال انتقم . إن القاضى والمجرم قد التقيا وزالت من بينهما الفروق !

***

أم أنت أيها الانسان جندى صاحوا به : الوطن فى خطر ! الحضارة مهددة بالزوال ! لقد أوشك أن يموت الحق وتذهب الفضيلة ! فاشتعلت الحمية فى رأسك ، والتهب الدم فى عروقك ، وقدحت عيناك بالشرر ، فتركت أمك المسكينة ليس لها بعدك إلا الله ، وأسلمتها إلى الحزن الطويل ، والثكل القاتل ، وأولادك الذين تعلقوا بك يصيحون : بابا .. بابا .. أسلمتهم إلى اليتم والفقر والبؤس ، وذهبت تلبى نداء الحق والفضيلة ، وتخلص الحضارة ، وتنقذ الوطن .. فنمت على الجثث ، وتجلببت باللهب ، وتوسدت القنابل ، حتى إذا أدركك أجلك سقطت صريعاً ، وأقبل رفاقك يدوسون على جثتك ، لا يجدون وقتاً لازاحتها ودفنها ، لأنهم يخافون إذا أبطأوا ألا يدركهم الموت فى سبيل الانسانية . . . فلمــا ماتوا جميعاً ربحت الانسانية وساماً زين صـدر القائد ، وصفحة فى تاريخ العدوان ، وثبت كرسى طاغيـة من الطغاة . أو استقرت مكانة حزب من الأحزاب ، أما الأطفال الأيتام والعجائز الثاكلات ، فحسبهم عوضاً من آبائهم ، وحسبهن بدلاً من أبنائهن التمتع برؤية موكب القائد الظافر

أم أنت أيها الانسان القائد نفسه ، قد جرد صـدره من الأوسمة والشارات ، وجسمه من الحلة المزدانة بالقصب ، ووجهه من الأنف والعينين ، وعاد قفصاً من العظام ، لا يمتاز من أصغر جندى وأحقر صعلوك ، فلم يعد لك تانك العينان اللتان تبرقان ، فترتجف لبريقهما أقسى القلـوب ، وذانك الشاربان القائمان كساريتى مركب ، وذلك الصوت القوى ، الذى كان يصيح بالجنود : إلى الأمام ! أى إلى الموت . . . إلى الثكل . . . إلى اليتم . . . إلى الحرب . «جحيم الحياة الدنيا» !

وأنت أيها الآخر . أأنت ذلك الجندى ، مالك تقف جامداً ؟ هذا قائدك ، ألا تضم شفتيك ، وتثبت بصرك ، وتزوى ما بين عينيك ، وتأخذ هيئة الجـد لتؤدى التحية العسكرية ، ويحك ! أما أنت جندى ؟ امرأة أنت ، أأنت عشيقة القائد العظيم ، رآك منصرفة من المعركة التى طوّح فيها بالمئات من شباب أمته فى سبيل العدوان على بقعة ليست له أو إعطائها إلى غير أصحابها ،

ومنحها للبعض الطارئين من الشعوب الذليلة المسكينة ، فماتوا كلهم ولم يقدروا على شيء ، لأن للحق قوة كقوة النار والحديد ، أأنت التي اخترقت سهام لحظها هذا القلب الذي طالما هزئ بالقنابل والمدمرات ، فجاء يصب جبروته على قدميك ، وأصبح هذا الذي يصرف عشرات الألوف من الكماة المستلئمين تصرفينه أنت وتجرينه من زمامه ، حتى صار يفكر فيك وهو في ساحة الحرب ، يزلزل الأرض تحت أقدام أهلها ، ويتأمل صورتك والعدو على أبواب معسكره لا يخاف عليه أن تحيله الأعداء ، ما يخاف عليك أن تمص لساك غير شفتيه ، أو يضم جسمك غير ذراعيه ...

اقترب يا سعادة القائد ، اقترب منها ، فضمها واشرب لماها . إنها هي التي تحب !

* * *

أم أنتما رجلان ؟ أعدوان أنتما أم صديقان ؟ أكان بينكما مسافة على الأرض ومسافة في الزمان ، أم أنتما رفيقان متلازمان ؟ هل التقيتما في معمل ، أو عملتما في منجم ، أو اشتغلتما في ديوان ، أو اصطحبتما إلى الحرب ، أو تجاورتما في السوق ؟

أم كنتما مضطجعين في قصريكما المتقابلين ، قد مللتما من التسلية ، وشبعتما من الحب ، فأنتما تدفعان العمر دفعاً ، لا تتنازلان أن تنظرا من النافذة إلى هؤلاء البؤساء الذين يشتغلون دائماً وأبداً ، كأنهم آلات تدور ، تحت الشمس في الصيف ، وتحت المطر في الشتاء ، وفي الحر وفي الزمهرير ، وفي الصحة وفي المرض ، ليأخذوا بعد ذلك الواحد وتأخذوا أنتم التسعة والتسعين ، مكافأة لكم على غصبكم حريتهم وعسفكم إياهم ، وزرايتكم عليهم ، فتنفقوها على الموائد الخضر ، وفي كؤوس الخمر ، وعلى الشقر والسمر ... ثم إذا خرجتم تمسحوا بأذيالكم ، وقبلوا السياط التي تلهبون بها ظهورهم !

* * *

من أنتما أيها الانسانان ! وما شأنكما ؟ أأنتما هنا لتقولا : إن الملك والغنى ، والمجد والجاه ، والفتنة والجمال ، كل أولئك أثواب تلبس وتخلع ؟

فأي معنى — إذن — لقصائد سادتنا الشعراء العاطفين ؟

(دمشق) علي الطنطاوي

الحجاب في الاسلام

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

من علماء الأزهر

— ٢ —

أما غير أمهات المؤمنين من نساء المسلمين فلم يفرض عليهن هذا الحجاب الذي فرض عليهن ، لأن فرضه عليهن كان للغرض السابق الخاص بهن ، وقد ترك الاسلام أمر هذا الحجاب للرجل وزوجه ، يجريان فيه على ما تقتضيه المصلحة التي تختلف باختلاف النساء ، وشأنه في هذا شأن غيره من الأمور التي تركها الاسلام لحكم العرف والعادة وغيرهما

ولهذا كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جرى مع نسائه على ترك تقييدهن بشيء من أمر هذا الحجاب كالزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعبد الله بن جعفر وغيرهم . وكان منهم من جرى على تقييد نسائه به مثل ما قيدت به أمهات المؤمنين ، وقد ورد من هذا أن سلمة بن قيس أرسل رجلاً إلى عمر يخبره بواقعة من الوقائع ، فلما قدم له عمر الطعام نادى امرأته أم كلثوم بنت علي : ألا تأكلين معنا ؟ فقالت له : لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر والزبير وطلحة نساءهم

ولعل الزبير كان يفعل هذا مع زوجه أسماء بنت أبي بكر ، فقد تزوج بعدها عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت امرأة عجزاء بادنة ، ولها جمال وكمال وتمام في عقلها ومنظرها وجزالة رأيها ، وهي التي يقول فيها عبد الله بن أبي بكر :

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق وما ناح قمري الحمام المطوق
أعاتك قلبي كل يوم وليلة لديك بما تخفي النفوس معلق
لها خلق جزل ورأي ومنطق وخلق مصون في حياء ومصدق
فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير شيء تطلق

وكانت عاتكة تحت عبد الله فشغل بها ، وغلبته على رأيه ، فمر عليه أبو بكر أبوه وهو في علية يناغيها في يوم جمعة ، وأبو بكر متوجه إلى الجمعة ، ثم رجع وهو يناغيها ، فقال يا عبد الله أجمعت ؟ قال أوصلى الناس ؟ قال نعم ، فقال له أبو بكر : قد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة ، وقد ألهتك عن فرائض

الصلاة — طلقها — فطلقها تطليقة ثم ندم على طلاقها وقال هذه الأبيات فيها ، فأذن له أبوه فى مراجعتها ؛ وقد مكثت تحته حتى مات فتزوجت بعده عمر ، ثم تزوجت بعد عمر الزبير . فلما ملكها الزبير قال لها : يا عاتكة لا تخرجى إلى المسجد ، فقالت له : يا ابن العوام — أتريد أن أدع لغيرتك مصلى صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فيه ؟ قال فانى لا أمنعك ، فلما سمع النداء لصلاة الصبح توضأ وخرج ، فقام لها فى سقيفة بنى ساعدة . فلما مرت به ضرب بيده على عجيزتها ، فقالت مالك قطع الله يدك ورجعت . فلما رجع من المسجد قال يا عاتكة مالى لم أرك فى مصلاك ؟ قالت يرحمك الله أبا عبد الله ، فسد الناس بعدك . الصلاة اليوم فى القيطون أفضل منها فى البيت ، وفى البيت أفضل منها فى الحجرة

وهكذا كان بعض الرجال يحاولون أن يفرضوا على نسائهم هذا الحجاب بحكم الغيرة لا بحكم الدين ؛ وكانت عائشة رضى الله عنها هى التى حالت بين النساء والمساجد ، وكن يصلين فيها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت تقوم صفوفهن خلف صفوف الرجال . فلما فتحت الأمصار وأقبلت الدنيا على المسلمين ظهرت المرأة فى زينتها ، وأخذت تحضر إلى المسجد بحالة تدعو إلى الفتنة ، فرأت عائشة فى حضورهن المساجد هـذا الرأى ، وقالت فى ذلك : لو رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء بعده لمنعهن المسجد كما منعت نساء بنى إسرائيل

ولقد كان فى نفسى شىء من هذا المنع إلى أن شفاها منه عالم الأندلس ، وإمام أهل الظاهر ، أبو محمد على بن حزم . قال رحمه الله وأرضاه : أما ما حدثت عائشة فلا حجة فيه لوجوه :

أولهـا أنه عليه السلام لم يدرك ما أحدثن فلم يمنعهن ، فاذا لم يمنعهن فمنعهن بدعة وخطأ ، وما نعـلم احتجاجا أسخف من احتجاج من يحتج بقول قائل لو كان كذا لـكان كذا

ووجه ثان وهو أن الله تعالى قد علم ما يحدث النساء ، ومن أنـكر هذا فقد كفر ، فلم يوح قط إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بمنعهن من أجل ما استحدثنه ، ولا أوحى تعالى قط إليه — أخبر الناس إذا أحدث النساء فامنعوهن من المساجد

ووجه ثالث وهو أننا ما ندرى ما أحدث النساء مما لم يحدثن فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولاشىء أعظم فى إحداثهن من الزنا ، فقد كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجم فيه وجلد ، فما منع النساء من أجل ذلك قط

ووجه رابع ، وهو أن الأحداث إنمـا هو لبعض النساء بلا شك دون بعض ، ومن المحال منع الخير عمن لم يحدث من أجل من أحدث ، وقد قال تعـالى : (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى)

ومن يدقق النظر فى ذلك يجد أن هـذه المحاولات فى الحجر على النساء كانت ترجع إلى أسباب اجتماعية لا دينية ، وأن الرجال كانوا يلجأون إلى هـذا الحجر إذا أسرف النساء فى استعمال ما أطلق الشارع لهن فى هذا الأمر ، وقد بدأ الرجال كما ذكرنا يلجأون إلى ذلك بعد قليل من عهد النبوة ، حتى كان ذلك يخرج بهم إلى حد الاثم . قال صاحب الأغانى : قال إسحاق قال المدائنى وأخبرنى أبو مسكين عن فليح بن سليمان قال : كان الدلال ملازماً لأم سعيد الأسلمية ، وبنت ليحيى بن الحكم بن أبى العاصى ، وكانتا من أمجن النساء ، كانتا تخرجان فتركبان الفرسين فتستبقان عليهما حتى تبدو خلاخيلهما ، فقال معاوية لمروان : اكفنى بنت أخيك ، فقال : أفعل ، فاستزارها وأمر ببئر فحفرت فى طريقها وغطيت بحصير ، فلما مشت عليه سقطت فى البئر فكانت قبرها

وقد كانت النساء الحرائر من العربيات وغيرهن يقاومن ما يحاوله الرجال من الحجر عليهن ، ولا يفرطن فيما أباحه الشارع لهن ، كما سبق من عاتكة بنت زيد مع زوجها الزبير ؛ وقد حاول عمر قبله ذلك معها أيضاً . روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى أن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل كانت تحت عمر بن الخطاب وكانت تشهد الصلاة فى المسجد ، وكان عمر يقول لها : والله إنك لتعلمين أنى ما أحب هذا ، فقالت : والله لا أنتهى حتى تنهانى ، قال عمر : فأنى لا أنهاك ، فلقد طعن عمر يوم طعن وإنها لفى المسجد

فلما أخذ الرجال يفضلون الاماء على الحرائر ضعفن عن هذه المقاومة ، وآل الأمر بالرجال إلى أن جعلوا بيوتهم سجناً للنساء ، وحرموا عليهن الخروج إلى المساجد وغيرها ، ومنعوهن من الاختلاط بالرجال ولو فى حضورهم . ثم طال الأمر على ذلك بين المسلمين حتى ظن أنه من دينهم وما هو منه فى شىء ، وإنما كان مثل هذا مفروضاً على نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، ولـكنه لم يبلغ فى الشدة إلى مثل هذا الحد ، ثم انتهى ذلك بموت ميمونة رضى الله عنها ، وكانت فيما قيل آخرهن موتاً ؟

(للكلام بقية) عبد المتعال الصعيدى

للتاريخ السياسي

المعنى السـيـاسي لانتخابات مجلس النواب الفرنسي عام ١٩٣٦

للدكتور يوسف هيكل

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

وأدت انتخابات الدورة الثانيـة التي جرت يوم الأحد الموافق ٣ مايو إلى فوز « الجبهة الشعبية » فوزا باهرا لم تكن تنتظره بهذه الصورة ، ولم يعتقـد خصومها أنهم سيخذلون هذا الخذلان

وكان الحزب الإشتراكي الفائز الكبير في هذه الانتخابات ؛ أما الحزب الراديكالي فتبادل مركزه مع الحزب الاشتراكي فبلغ عدده ١١٦ نائباً بعد أن كان ١٥٩ نائباً في المجلس السابق

وهذه قائمة تبين عدد الأحزاب في مجلس النواب الفرنسي الجديد ، ومقدار ما ربحه أو خسره كل منها من المقاعد :

أسماء الأحزاب	عدد النواب يوم ٣ مايو ١٩٣٦	مقدار الربح	مقدار الخسارة
الشيوعيون والشيوعيون الخارجون	٨٢	٦٢	—
الاشتراكيون	١٤٦	٤٥	—
الاتحاد الاشتراكي	٢٦	—	٩
الاشتراكيون المستقلون	١١	—	٢٦
الراديكاليون الاشتراكيون	١١٦	—	٤٣
الراديكاليون المستقلون	٣١	—	٣٦
جمهوريو اليسار	٨٤	١٢	—
الشعبيون الديمقراطيون	٢٣	٧	—
الاتحاد الجمهوري الديموقراطي	٨٨	١٢	—
المحافظون	١١	—	٢٤
المجموع	٦١٨		

فما هي الأسباب التي أدت إلى تقهقر الحزب الراديكالي ؟ وما هي العوامل التي ساعدت على فوز الاشتراكيين حتى إنهم أصبحوا أكبر حزب في مجلس النواب الفرنسي لأول مرة في التاريخ ؟

قبل كل شيء يجب القول بأن الحزب الراديكالي الاشتراكي لن يبيد في فرنسا ، لأن هذا الحزب يمثل « البورجوازي » ، أي الطبقة المتوسطة ، وهي أعظم طبقة اجتماعية في فرنسا ، وبرغم هذا فان النجم السياسي للحزب الراديكالي أخذ بأفل لعوامل بعضها ناجم عنه والبعض الآخر طرأ عليه من الخارج

على رغم الظروف الحرجة التي واجهها الحزب الأكبر في مجلس نواب عام ١٩٣٢ ، فانه لم يظهر وحدة في صفوفه ، ولا في سياسته ، ولا مقدرة على الحكم

لم يكن النظام سائدا داخل هذا الحزب ، وكثيراً ما انقسم أعضاؤه إلى فرق أثناء التصويت في مجلس النواب ، مما أدى إلى خذلان الحكومة القائمة حينئذ وكانت راديكالية ! وكثيرا ما خالف قسم كبير من الأعضاء قرار هيئتهم التنفيذية . وكثيرا ما عمل بعض الراديكاليين خلاف ما قال به رئيسهم . فهو إذن لم يكن كتلة واحدة ، بل كان منقسما بعضه على بعض حتى في أحرج الأوقات ... وإن أزمات الوزارات الراديكالية التي تعاقبت عام ١٩٣٣ ، وفضيحة ستافسكي التي أظهرت بأن كثيراً من الراديكاليين قد أفسدتهم أموال « المحتال » ، وأن اضطرابات ٦ فبراير ، وسيلان الدماء في شوارع باريس زمن حكم وزارة راديكالية ... كل هذا أزال الاحترام الذي كان للحزب الراديكالي الاشتراكي في أعين الشعب

وتلا ذلك انسحاب مسيو هريو رئيس الحزب الراديكالي حينئذ والوزراء الراديكاليين من حكومة « الرئيس دومرج » ذات الشهرة الشعبية ، حينما كادت مجهودات « الشيخ الجليل » تثمر وتعود على فرنسا بالخير ، مما أدى إلى سقوط هذه الوزارة الشعبية وعودة مسيو دومرج إلى « تورنفي » . فأبغض موقف الراديكاليين كثيرا من أنصارهم ؛ كما أن موافقة الراديكاليين على سياسة مسيو لافال الخارجيـة المنافية لمبادئ أحزاب الشمال كانت سببا كبيرا في اضاعة شهرة هذا الحزب

وكانت العوامل الايجابيـة التي أدت إلى تفوق الحزب الاشتراكي سببا سلبيا في خذلان الحزب الراديكالي

يمكن القول بأن الحزب الاشتراكي الفرنسي هو الحزب السياسي الوحيد الذي يستحق هذا اللقب ، إذ هو يحتوي على

جميع التشكيلات الأساسية لحزب سياسي ... موحد الصفوف والنظام سائد فيه ، ولا يمكن لعضو ما أن يقوم بعمل يخالف ما اتفق عليه الحزب دون أن ينال جزاءه . ولا تستطيع الهيئة التنفيذية ، وعلى رأسها الرئيس ، اتباع سياسة لم يقرها المؤتمر العام ... والاشتراكيون كتلة واحدة في مجلس النواب ، يصوتون جميعاً مع الحكومة أو عليها . ولهم تشكيلات اجتماعية مفيدة وتقوم بتهذيب الشباب والنساء تهذيباً مدنيا وسياسيا ... فالحزم والنظام موجودان فيه وهما ما يحتاجه الشعب الفرنسي ، ولا عجب أن تكون هذه الصفات السياسية التي يتصف بها الحزب الاشتراكي قد ساعدت كثيرا على تقدير الشعب له

وللحزب الاشتراكي رئيس قدير : مسيو بلوم ، يعرف كيف يتطور ويضع مبادئ حزبه الاشتراكية في شكل يقبله قسم كبير من الشعب

إن أكثرية الشعب الفرنسي الساحقة مؤلفة من الفلاحين الصغار الذين يعملون بأيديهم مع أفراد عائلاتهم في الحقول ويعتاشون من عملهم ؛ ومن صغار التجار الذين لا يكونون ثروة ذات اعتبار . وقد تيقن مسيو بلوم بأن لا قائمة تقوم لحزبه إن لم يربح عطف هذا القسم من الشعب . ولما كان الفلاح في فرنسا متعلقا بأرضه تعلقا يفوق حد التصور ويموت في سبيلها ، رأى مسيو بلوم من الواجب عليه تأمين الفلاح على أرضه إن رام نيل صوته ؛ فخفف حدة النظرية الاشتراكية ، وأعلم الفلاح والتاجر الصغير بأن حزبه لا يريد وضع يده على جميع الأملاك والثروات ، بل على رؤوس الأموال الكبيرة ؛ وأنه يعتبر المالك والتاجر الصغيرين ضمن طبقة العمال ، والاشتراكية تحترم أملاكهم ... وهكذا تقرب مسيو بلوم وحزبه من هذه الطبقة التي كانت تعاضد الحزب الراديكالي وانتزع قسما كبيرا منها

ثم خفف الحزب الاشتراكي حدة ثورته على السياسة القومية ، وأخذ يقول بوجوب الدفاع عن الوطن ، ولم يردد نغمة الاشتراكية الدولية في خطاباته ... فجميع هذه العوامل الايجابية أدت إلى فوز هذا الحزب ، كما أنها كانت أسبابا سلبية لاضعاف الحزب الراديكالي

***

وكان لتفوق « الجبهة الشعبية » بصورة عامة على أحزاب الوسط واليمين أسباب عدة

كانت الأزمة المالية ، ولا سيما أزمة ميزانية الحكومة ، شديدة على فرنسا طيلة السنين الأربع الأخيرة ، وقد حاولت الحكومات السابقة حلها في تطبيق نظرية «الاقتصاد في كل شيء» فلم توفق . وعملها هذا أرغم الفرنسي على اختلاف مقدرته المالية على الاقتصاد والتقتير على نفسه وعائلته ، فقلل ذلك تداول العملة من جهة ، وزاد في الأزمة الاقتصادية وفي البطالة من جهة ثانية .

وقد سئم الشعب الفرنسي هذه السياسة المالية ولم يرد مجابهة أزمات ١٩٢٦ و ١٩٣٤ من جديد ، وود اتباع تجربة اقتصادية جديدة آملاً أن تكون نتيجتها حل الأزمة وإعادة الرخاء . فعمل على التخلص من النظام البرلماني القديم الذي أفسدته الأكثريات السابقة ، فأرسل الى مجلس النواب أكثرية يسرى مؤلفة من عناصر جديدة شابة ، إذ أن ما يقرب من نصف أعضاء المجلس الجديد لم يشتركوا فيه من قبل . وهذه النفسية عملت كثيراً على خذلان الراديكاليين وإضعاف أحزاب الوسط ، وضياع شهرة عدد كبير من رجال أحزاب اليمين

وقد ساعد مسيو لافال كثيراً في فوز هذه الجبهة ؛ فالسياسة التي اتبعها في جنيف ، والتي أدت الى إضعاف مركز العصبة ، ان لم يكن زوالها ، والى إبعاد باريس عن لندن ، والتي مهدت للهر هتلر الطريق لاحتلال أراضي الرين ، لم ترض الفرنسيين الذين يعتقدون بأن لا سلامة لفرنسا إلا بتقوية مؤسسة جنيف ومبدأ « السلام المشترك » ، وهم أكثرية الشعب . ولما أتت الساعة لأبداء رأيهم حكموا على سياسته باعطاء أخصامه وسيلة الحكم

وكان لمسيو « دى لاروك » مجهودات عظيمة أدت الى فوز الشيوعيين والاشتراكيين ! فالشعب الفرنسي محب للحرية ولا يبغي بالديمقراطية بديلا . فلما قام الكولونيل دى لاروك بحركته الفاشستية وأخذ فريقه « الصليب النارى » يتسع بين العائلات المثرية ، أحس الجمهور الفرنسي بالخطر الذى يهدد حريته وديمقراطيته ، فعمل على تلافيه قبل استفحاله ، فأرسل الى «قصر البربون» أكبر عدوين للفاشستية مظهراً بذلك مقته للدكتاتورية وسخطه على « المائتي عائلة » ... وهكذا تحققت كلمة مسيو وانكاريه : « كلما خافت فرنسا الدكتاتورية رمت بنفسها في أحضان اليسار »

ومما لا شك فيه أن تنظيم صفوف أحزاب اليسار ، ووضعهم منهاجاً مشتركا للانتخابات ، كان عاملاً قوياً في تفوقهم ؛ كما أن

الفوضى فى أحزاب اليمين وتنازعهم أصوات المنتخبين وعدم إيجاد منهاج مشترك لهم أدى الى خذلانهم وساعد على فوز الجبهة الشعبية. على أن هذا لم يكن كل شيء ، بل كانت الأسباب السياسية التى تحدثنا عنها أكبر عوامل للوصول الى نتيجة الانتخابات الأخيرة

— ٣ —

لقد فاز الحزب الاشتراكى وأصبح أكبر حزب فى مجلس النواب ، وشكل حكومة ذات منهاج متين تؤيده أكثرية كبرى فى مجلس النواب . فهل ستظل هذه الأكثرية الكبيرة معاضدة للحكومة ، أم ستجابه مسيو بلوم الصعوبات التى جابهت زميله مسيو هريو من قبل ؟ .

مما لا شك فيه أن مسيو بلوم رجل عمل و « رجل دولة » ولكن هذا وحده لا يكفى لايجاد حكومة ثابتة ، إذ يجب ، قبل كل شيء ، أن تستند هذه الحكومة أكثرية دائمة . فالحزب الاشتراكى وحده لا يستطيع الحكم وان اتفق مع الحزب الراديكالى فلا يكونان أكثرية . ولذا فهو فى حاجة الى إشراك الحزبين الجالسين عن يمينه وعن يساره فى الحكم . غير أن الحزب الشيوعى رفض الاشتراك فى الحكومة ، ولكنه أيدها وليس للاشتراك والتأييد نفس المفعول ، لأنه عند مايشترك حزب فى حكومة يشترك فى المسؤولية أيضاً ، فخذلان الحكومة معناه خذلانه فى تلك الحالة . لذا وجب عليه المدافعة عن الحكومة ومعاضدتها . أما إن أيد الحكومة فحسب ، فانه لا يشترك فى المسؤولية ويستطيع سحب ثقته من الحكومة فى أى وقت شاء دون أن يناله أى ضرر ؛ فتصبح الحكومة حينئذ تحت رحمته . وقد لعب الاشتراكيون هذا الدور مع الحكومات الراديكالية ، ويريد الشيوعيون الآن تمثيله مع الحكومة الاشتراكية . ومسيو بلوم أعرف الناس بالضرر الذى سيلحق حكومته ان اتبع الشيوعيون هذه السياسة

وهذه الصعوبة حجر عثرة أمام الزعيم الاشتراكى ، فان تمكن من حفظ الائتلاف بين الأحزاب الثلاثة ، وان استطاع الاحتفاظ بثقة الحزب الشيوعى ، كانت لوزارته مكانة قوية وثابتة ، وأن لم يتمكن من ذلك فستجابه فرنسا سلسلة أزمات وزارية أشد خطراً من التى جابهتها خلال السنين الأخيرة ، وستكون عاقبة ذلك جد وخيمة ولربما أدت الى حرب أهلية ...

ولحسن حظ مسيو بلوم فان حزبه قد فاز وتسلم زمام الحكم ، والحالة الاقتصادية فى فرنسا آخذة فى الانتعاش والتحسن ؛ فهو بذلك أسعد حظا من زميله مسيو هريو الذى فاز وتسلم زمام الحكم والبلاد مجابهة أشد الأزمات الاقتصادية والمالية ، عام ١٩٢٤و١٩٣٢ . فالانتعاش الاقتصادى الحالى يساعد مسيو بلوم كثيراً ، ويسمح له بصرف جهوده فى مكافحة الصعوبات البرلمانية ، وفى تعديل اعوجاج السياسة الخارجية وتحسين علاقات فرنسا مع الدول وخصوصاً مع بريطانيا ... فان تمكن مسيو بلوم من الاحتفاظ بالأكثرية التى تعاضده فى مجلس النواب زالت الأزمات الوزارية التى كانت أكبر عامل فى إضعاف مركز فرنسا فى الدوائر الدولية ؛ ويعود للحكومة احترامها وثباتها ، وهما ضروريان لنجاح أية حكومة ؛ وبالتالى يعود لفرنسا مركزها الدولى السامى الذى كانت تتمتع به أمام المرحوم مسيو بريان . . .

فلوراك (فرنسا) **يوسف هيكل**
دكتور فى الحقوق

في الأدب الانكليزي

هل من انتحـــال في الأدب الانكليزي ؟

للسيد جريس القسوس

— ٢ —

وحجة كامبل في ذلك اكتشافه مخطوطات قديمة ورد فيهـا ذكر (فنّ) و « أوشان » وغيرهما من الأسماء الواردة في منظومات مكفرسن ، مما يدلّ على أن هذه الأسماء كانت ، على الأقل ، شائعة معروفة في اسكوتلندا وايرلندا الشمالية قبل مجيء مكفرسن . فلا يبعد أن يكون مكفرسن قد اطلع على هـذه المخطوطات فأغرم بحوادثها التاريخية وافتتن ؛ فعلق بذهنه ما علق وتأثر بأسلوبها الشعري واقتبس منهـا بعض الشيء فظهر أثر ذلك في تلك المنظومات التي ادعى أنها مترجمة

وكامبل لا يجحد لمكفرسن فضله في جميع هـذه الآثار المتفرّقة وترتيبها وتدوينها حتى ظهرت بذلك الشكل الفني الرائع ، إذ لولاه لعبث الزمان بهـذه الآثار الخالدة عبثه بغيرها من القصائد التي تروى على ألسنة العامة ، وخاصة أهل الأرياف ، وسكان الصحراء

ولا يقف كامبل عند هذا الحدّ في الردّ على جونسن ، بل يرى أنه من النادر أن تلقى واحداً من سكان ايرلندا الشماليـة لم يسمع قط بالأسماء التي وردت في قصائد مكفرسن ؛ وأن هذه الأسماء هي في الحقيقة محور عدد غير يسير من القصص العامية التي يتلوها الأمهات على أطفالهن حول المواقد في ليالي الشتاء الباردة

ويصرف كامبل جونسن ، ويعود إلى مناقشة الآراء السخيفة التي يتمسك بها أنصار مكفرسن ، وخاصة بروفسور أوكري Prof. O'Curry ؛ فهذا وغيره من أنصار مكفرسن يرون أن (أوشان) وغيره من الأبطال شخصيات تاريخية حقيقية ، وأنهم ايرلنديو النسب ؛ نشأوا في القرن الثالث قبـل المسيح ؛ وأن (فنّ) يرجع في نسبه إلى نحو ١١٠ ق . م . وأن اسم Fene ورد في قصيدة نظمت سنة ١٠٢٤ ، وضُمنت كتاب باليموت Ballymote سنة ١٣٩١ . أقول إن كامبل يردّ على ذلك رداً عنيفاً مبيناً تناقض الروايات المختلفـة واضطرابها في تحديد نسب هؤلاء الأبطال وتبيان التاريخ الصحيح لنشأتهم . فبعض أنصار مكفرسن — ومعظمهم ايرلنديون — يرون مثلاً ، أن هذه الأشعار الغاليقية صينت في مخطوطات قديمة ، وأنها تنسب إلى أوشان وغيره من أبطال أساطير ايرلندا الأولية ، وأن جميع هؤلاء الأبطال ايرلنديون لا اسكوتلنديو الجنس ، بينما البعض الآخر يرى أن هؤلاء الأبطال نشأوا في عصر متأخر . بل منهم من يجعـل (فنّ) اسكتلندي الجنس ومنهم من يجعله انكليزياً

وآخرون يرون أن البطل أوسكار الوارد ذكره في الأدب الايرلندي القـديم اسكوتلندي الجنس والمولد ، بل غيرهم موقنٌ أنه دنمركيّ برغم ورود اسمه في الأدب الايرلندي

ويزيد موقف الناصرين وهناً واضطراباً ، نسبتهم الأعمال الجسيمة الباهرة التي قام بها أشخاص هـذه الآثار الأدبية إلى الكائنات الغيبية كالجنّ والآلهة المتعدّدة

ولا يقتصر كامبل على هـذا بل يعود إلى مهاجمة الناصرين من ناحية أخرى ؛ فيقول إنه لم يطلع ، في حياته ، على مخطوطة أو سجل تاريخي فيه ذكر لمملكة (مورفن) Morven أو ملكها فنغال . فمن أين جاء مكفرسن بهذه الأسماء التي تتخلل معظم أشعاره ؟ ذلك مما يحمله على الاعتقاد الأكيد بأن هذه المملكة إنما هي من اختلاق جامع هـذه القصص الأوشانية ومرتبها ، مكفرسن كان أم غيره

أما أوشان بن فنغال الشاعر الذي عزا اليه مكفرسن نظم الآثار الأدبية المعروفة باسمه ، فأمره ، كأمر والده غامض مبهم إذ لا يمكن أن يعمر أوشان — مسلمين جدلاً أنه حقاً ابن (فنّ) — الى حدّ من الزمن يتمكن معه من الاجتماع بالقديس باترك St. Patrick ، أو أن يختلط بنساء الجنّ في بلاد الشباب ، ويتحوّل في شتى أدوار حيـاته من نبي الى ساحر ومن ساحر الى شاعر ، وهلم جرّا ، كما هو ظاهر في الآثار الأدبية المنسوبة اليه . والخلاصة أن كلّ ظاهرة في حياة هذا الشاعر تدلّ دلالة

صريحة واضحة على أنه لم يكن فى الحقيقة الا من بعض آلهة الأساطير الكلتية القديمة

ولا يقف كامبل عند هذا الحد ، بل يهاجم أنصار مكفرسن من ناحية أخرى . فهو يرى ، من مقابلة هذه المنظومات التى ادعى أنها مترجمة مع غيرها من الأشعار المتحدرة عن طريق الرواية والنقل الشفهى أن هناك اختلافاً وفرقاً كبيرين وواضحين فى الموضوع واللغة . فما (فنّ) كما هو مذكور فى القصائد التى تتداولها العامة إلا بطل إنسانى الخلق ، وديع الطبع سهله ، رقيق الاحساس ، ولطيف النفس ؛ لا يعرف العنف والكبرياء ، فهو لذلك ذو نفوذ فى قبيلته ، تقوم سلطته على حبهم له وتعلقهم به ، بينما الناظر فى صفات (فنّ) كما جاء فى شعر مكفرسن يرى أنه فارس ساط غشوم ، وجهم عنيف ، خلو من كل عاطفة رقيقة وإحساس لطيف ! لهذا كان نفوذه وسلطانه مبنيين على خشية القوم له ورهبتهم منه

هذا ، عدا أنه لا ذكر فى القصائد المنقولة شفاهاً لمملكة (مورفن) التى ورد ذكرها فى أشعار مكفرسن

أما من ناحية اللغة والأسلوب فالباحث فى هذا الأدب فى كلتا سبيليه : سبيل الرواية والنقل الشفهى ، وسبيل مكفرسن ، يرى أن لغة أدب مكفرسن مفعمة بالتعابير الحوشية ، والاصطلاحات الأجنبية التى تتميز ها من اللغة المعروفة فى سكوتلندا الشمالية ، بينما لغة أدب الرواية والنقل الشفهى محكمة السبك ، موحدة التركيب متسقة الأسلوب ، لا اضطراب فى معانيها ولا ضعف

وخلاصة رأى كامبل أنه لم يكن فى اللغة الغاليقية أشعار كالتى ادعى مكفرسن أنها مترجمة ، وأن هذه اللغة التى استعملها فى كتاباته لم تكن فى الحقيقة إلا لغة القرن الثامن عشر ، وجلّ ما هنالك مجموعة أشعار قديمة وحديثة متنوعة ، كانت العامة تتداول معظمها بينها ، جمعها مكفرسن ورتبها وسواها بشكلها المعروف ، شأن المهندس الذى يخلق من البيت الأغريقى القديم بيتاً حديث الشكل والطراز

— ٤ —

والباحث يخرج من كل ما مرّ بخمس حقائق مجرّدة ، هى زبدة ما وصل اليه مؤرخو الأدب الانكليزى فى هذا السبيل الوعر الشاق :

١ — أن قصيدة أوسيان أو أوشان التى تنسب إلى مكفرسن لم تكن ترجمة خالصة عن الآثار الأدبية الأصلية

٢ — أن مكفرسن استخلص منظوماته من آثار أدبية قديمة متفرقة ، وذلك بالجمع والغربلة والحذف والتعديل ، وخلع عليها ثوباً جديداً كفل لها الخلود فى عالم الأدب

٣ — أن جميع الظواهر تدل دلالة واضحة على أن مكفرسن لم يضع هذه الآثار الأدبية من عنده ، وأنه لم يتعد كونه فناناً حاذقاً عرف كيف يستخرج من أمزجة ومركبات عتيقة بالية قطعاً فنية رائعة ، وأن أوشان نفسه لم يكن المؤلف الحقيقى لهذا القصائد كما ادعى مكفرسن

٤ — اذا كان أوشان ناظم هذه القصائد ، عُدّ بحق فى طليعة شعراء العالم على الاطلاق

٥ — أن مكفرسن فتح بذلك فتحاً جديداً فى عالم الأدب ، فعمّت شهرته الأدبية أوروبا وبعد أثره فى الأدب الأوروبى عامة ، والانكليزى والألمانى خاصة

(يتبع) جبرئيل القسوس

الشعر فى مهرجان المتنبى

صوت دمشق

للأستاذ عز الدين التنوخى

عاش فوق الثرى وتحت الترب　　خالداً فى قلوبنا المتنبى
ظل ألفاً من السنين يسمى　　شاعرَ اللفظ والعلى والحربِ
ربّ بيت من شعره يتلظى　　كافلا أن يشبّ نارَ الشعب
يصف الحرب للجبان فيغدو　　وهو بالطعن هائم والضرب
يا لعينٍ من شعره العذب فيه　　غمزات الهوى وسحرُ القلبِ
ذاب من رقة الخدود ومن قسـ　　ـوة قلب من عاذل غير صبّ
غزلٌ حسن صوغه حمل الظـ(م)ـنَ على أنه صريع الحب
يذر الغافل الخلىَّ شجياً　　ويردُّ الأبىَّ طوعاً يلبى
ساحرُ الشعر فاتناً كهديل الـ　　ـوُرْقِ فى الروض غِبَّ جَودِ السّحب
رائد من مسالك الروح ما بيـ　　ـن شغاف من القلوبِ وخِلْبِ

* * *

يحتذى فى البديع حذو أبى تمّـ　　ـامَ والبحترى بنسج العَصْبِ
إن يعيبوه بالغريب وضعف الـ　　ـطبع حيناً وباقتعادِ الصعب
فهو شِبه الجبار يأخذ ما يا　　تاهُ بالقهر حوله والغصب
شعره فيض طبعه لا كشعر　　قدَّهُ العِىُّ من صخور صلب
لم يؤوّل ديوانُ شعر كديوا　　ن أبى الطيب المرير العذب
هو مرٌّ على الأعادى وعذبٌ　　للمحبين فى الجفا والقرب

* * *

لست أنسى رؤياه وهو مليك　　فوق عرش من القنا والكتب
وحواليه دولة الشعر قامت　　تسلُبُ اللب بالبيان وتسبى
من رعاياه سيف حمدانَ من كا　　ن إذا ما ذكرته قلت حسبى
والسرىُّ الرفَّاء أنداهم لفـ　　ـظاً وأدناهم لمعنى القلب
وابن جنى رأيته يشرحُ الديـ　　ـوانَ شرحاً له يروق ويُصبى
لو حسبناهم من الطير كان الـ　　ـمتنبى أميرَ ذاك السِّرب
يُنشد الشعر بينهم فتراهم　　كالرحى إذ تدور حول القطب
كسُكارى وما همُ بسكارى　　بل نشاوى خمر الهوى والعجْب
سمعوا لحنه فهاموا جميعاً　　لا ترى غيرَ هائم أو صبّ
برخيمٍ يُنسيك مزمار داو　　دَ وألحانَ معبدٍ فى الحب
فهو فينا ذاك الطبيبُ المُرجَّى　　من مريضٍ لروحه مستطبٍّ
حفظ الناسُ شعره فهو درس الـ　　ـدّهرِ فيهم والدهرُ خير مربى
كم وردنا ماء فلم يروِ منا　　ظمأً غيرُ مستقاه العذب
وتلونا من آيه سور المجـ　　ـد وشِمْنا برق المنى ليس يُخبى
حكمةٌ يبهر المعرى سناها　　فهى صوب النهى وذوب اللبّ
حالفته منذ الشبيبة حتى　　أن توارى فؤاده فى الترب
لم يذرها يوم الصريخ ولا يو　　م نشيدِ الألحان بين الصحب
ينظم البيت غادياً وهوفى الشر　　ق فيمسى لسحره فى الغرب
حابٌ قد غدت بأحمد شهباً　　ءُ لشعب له خلود الشهب
مادح (السيف) كان يدعى فأمسى الـ(م)ـيفُ يدعى أمدوحة المتنبى
إن مجداً أُوتيه أخلدهُ الدهْـ　　ـرُ خلود الآداب مجدُ الشعب
ضامهُ أن يرى بنى العرب فى ضيْـ　　ـم علوج بغير عهد ولب
وبنو العرب ليس تفلح إلا　　بملوك منهم أباةٍ عرب
لا يبالى الشرقُ المضيم إذا ما　　اتحد العرب ساعة بالغرب
يثب الليثُ إن أُثيرَ وليث الـ　　ـعُرب فى الناس رابضٌ للوثب
أىَّ يوم أرى الطلائع منا　　غائراتٍ على الجياد القُب
يهجر الطِّرسَ واليراعَ فتانا　　ليراع من القنا والقُضب
لا يرى المجد غيرَ فتكته البكْـ　　ـر ونَيل اُستقلاله بالغصب
ذاك يوم محجَّلٌ فيه تحطيـ　　ـمُ قيود وفيه تهتيك حُجب
ذاك يومٌ يقرُّ عينَ أبى الطيـ(م)ـب بالعُرب وهو تحت الترب
إنما شعرُه الشعور المروّى　　بسلافٍ من البلاغة عذب
وقصيد الفحول يهرم إلا　　شعره فهو فى شباب رطب

فالمباني مُختارها ملء عيني والمعاني أبكارها ملء قلبي
ينتمي كل شاعر لحماه وهو للعُرب ينتمي والشهب
شعراء الأجيال يمشون فوق الا أرض طراً ومشيه في السحب
ملأ الكونَ شعره شغل النا س بأحوال جدهم واللعب
سار في الناس جائباً كشعاع الـ
شمس يذكو في كل قطر وشعب
فهو مسعار ثورة وهدى قلـ ب ولحن الهوى وحَدْوُ الركب
شعرهُ صورة الحياة لهذا يتمشى مع الحياةِ لجنب

عز الدين التنوخي
كاتب سر المهرجان العام

ومن قصيدة الأستاذ محمد رضا الشبيبي في المتنبي :

خلت العصور وما خلت من ناقل أو قائل هـذا الحكيم الخالد
أو مورد للقول فيمن حيرت منه الفحول مصادر وموارد
ما العبقري الفذ إلا فكرة إن مات عاش بها الرميم الهامد
وإذا تأملت الخلود أصبته في الصالحات وحيث يفنى الفاسد
لابد من نقد الزمان فانما نحن المعادن والزمان الناقد
حسدوا النبوغ وناوأوه فلم يمت بل مات بالداء الدفين الحاسد
يا شاعراً قاد القلوب لغاية لم يدن منها شاعر أو قائد
قرنوا بكل مفوه شيطانه أما قرينك فالعظيم المارد
أمتعتنا بذخائر الشعر الذي لولاه ما نبذ المتاع الكاسد
نُشرت به في كل فج حكمة وتعوطى المثل البليغ الشارد

ومن كلمة الأستاذ محمد البزم :

إله القوافي إن عصتك نبوة فذا الشعر تجري في علاك جحافله
ففي كل بيت صاهل ومدجج وكل قصيد عسكر وقنابله
فكم وحدة مارستها وهواجر ولا الف إلا أهيف القد ناحله
يراع لأهواء المعالي مسخر يكايلها اهواءها وتكايله
يحس دبيب الحزن من قلب ذي الجوى
ويقلقه في صدر ذي السقم واغله
وتوقظ منـــه خطرة الشك والمنى
ومجرى الهوى يسطو بذي اللب خابله
إذا ماج رقراق السراب نسجته غلائل شعر لا ترام مغازله
تطيف بك الجنان حتى كأنها تلتف عنك السحر ينهل سائله
كأن وفود الجن في كل فدفد عفاة تليهم من همام طوائله
ولو كان للأصقاع لب يسومها
سعت تجتديك السحر في الشام بابله

ومن قصيدة الأستاذ باقر الشبيبي :

يا ناشـد الوحدة ما أوضحها في وحدة الدم ووحدة النسب
هـذا أبو الطيب حي خالد ما مات من أسس دولة الأدب
أحدث في قلب الزمان هزة لولا المقادير تقيه لا نقلب
وفت دمشق حقه معربة في حفلها ، إن الوفاء للعرب
وليس يكفي مهرجان واحد ينشد فيه الشعر أو تلقى الخطب

***

مغانيَ الكوفة ! هذا بَرَدَى قد صفقت أمواجه من الطرب
ساهم في الذكرى فكم مهذب في الغوطة الغناء يشرب النخب
ما أنجبت هذي البلاد شاعرا إلا أبا الطيب شاعر العرب

ومن قصيدة الأستاذ خليل مردم :

يا مالىء الدنيا وشاغل ناسها الدهر راوية لشعرك منشد
ضمن الزمان بقاءه فكأنما أنفاسه في صدره تتردد
آياته لا تنقضي وعظاته كالبحر زاخر موجه لا ينفد
لله رأيك في السياسة إنه سهم إلى كبد الصواب مسدد
العرب ما صلحت على يد أعجم حكم الأعاجم للعروبة مفسد
أخذوا عليك قساوة ولو انهم خبروا النفوس كما خبرت لأيدوا
شكواك ما زلنا نعاني مثلها كف مضرجة ووجه أسود !

القصص

قصة مصرية

شباب ...

للأستاذ دريني خشبه

« الأغاني والحوار موضوعات
في الأصل باللهجة المصرية ... »

— « بل لا بد أن أذكر لوالدتها كل شيء ! »

— « ياسيدتي مالنا وللناس ، حسبنا أن نأكل خبزاً ونشرب لبناً وعسلاً ! »

— « آه ... لا ... نأكل خبزاً ونشرب لبناً وعسلا ونترك هذا الموظف اللاهي يعبث بابنة صاحب المنزل ! لا ! ليست هذه أمانة يا متولي ، لا بد أن أنقذ عرض هـذه الصغيرة ... إن ليلى شابة ، والشباب لا عقل له ، وربما اعتدى ... »

— « أوه ! مالك وللناس ! إنهما لابد يحبان بعضهما بعضاً يا بخيتـة . ألا تذكرين ما كنا نصنع ، أنا وأنت ، قبل أن نتزوج . ؟! »

وتستحي بخيتة وتسكت قليلاً ثم تتنفس تَنَفُّسَةً عميقة وتقول :

— « الحمد لله يا متولي ، لقد كنا نحب بعضنا ، هذا صحيح ، ولكن ، الحمد لله ، لم نُغضب ربنا ! ؟ »

— « مرحى مرحى ! صحيح نحن لم نُغضبه قط ، وأحسبه قد غفر لنـا الألف ألف قبلة التي تبادلناها ! »

ويشتد خجلها ، وتصمت لحظة ثم تقول :

— « أنت دائماً مبالغ يا متولي ! ألف ألف قبلة ؟ إن هذا العدد لا يؤخذ في أقل من عشر سـنين ، ونحن لم نحب بعضنا أكثر من شهر ! »

— « ثم انقطع ما بيننا من حب ؟ أم ماذا ؟ »

— « بل تزوجنا ! »

— « وليتنا ما تزوجنا ! »

— « فأل الله ولا فألك يا متولي ! لماذا يا شيخ ؟ »

— « لأن قُبلنا كانت حلوة جداً قبل زواجنا ! »

— « والآن ؟ هل هي مرة ؟ أم ماذا ؟ »

— « ... ؟ ... »

— « قم بنا »

— « إلى أين ؟ »

— « إلى السطح ! »

— « لماذا يا امرأة ؟ »

— « لأريك ماذا تصنع ليلى مع هـذا الموظف « سامي افنـدي » . !

وهرولا فوق الدَّرَج ووقفا خلف (المَنْوَر) الزجاجي المطل على غرفة سامي ، يريانه ولا يراها ...

***

فتى في الرابعة والعشرين ترف على جبينه سحابة من الحزن ، يلونها الحب بأمواه باكية من الحنان والرحمة والهدوء .. له عينان عميقتان كأنما تخرقان حجب الزمان أو تناجيان سكان السماء ؛ ينظم الشعر ويهيم بالغناء ويشغف بالموسيقى ، ويجمع في مسكنه بالطابق العلوي من هذا المنزل المتوسط طائفة مختارة من التماثيل أهداها إليـه أصدقاؤه الوامون به لنفر من فنانين مصريين وعرب . وهو موظف في مصرف أجنبي يتقاضى مرتباً لا بأس به ، يستطيع أن يضمن به صفاءه الذي لا بد منه للشعر والغناء والموسيقى ... والحب الذي يـرق هؤلاء

كان إذا هدأ الليل ، هدأ هو إلى عوده ، وطفق يمر أنامله على أوتاره في لين ورفق ، كما تمر النسمات النحيلة العليلة على صفحة الغدير الصغير ؛ فاذا غنى ، أرسل من قلبه ألحاناً هي لا شك روحه ممتزجة بموسيقاه ؛ ولم يكن يغني إلا ما ينظم هو ، لا ما ينظم الشعراء ؛ وكان ، إذا سئل في ذلك ، يتعالل بأنه يأبى

أن يكون كنادبات الجنائز ، يُرجّعْن كلاماً محفوظاً ليبكين به النساء ... فالشعر شعره ، والغناء غناؤه ، والموسيقى موسيقاه ، وجملة أولئك صورة روحه التي تشعر وتغنى ، وترن وتئن على أوتار العود

وكانت ليلى ابنة صاحب المنزل الذى يقيم فيه سامى ، فتاة فى الثامنة عشرة ، لها لَفْتةٌ وفى عينيها سحر ، وملء قلبها أمانى ... ما كاد الساكن الجديد يملأ منزلها بصباه العطر ، وغنائه ذى الشذى ، وموسيقاه ذات المعانى ، حتى رجعت هى أصداءه جميعاً ، وأحست كأن الساكن الجديد لم يأت ليشغل الطابق العلوى من بيتها ، بل ليحتل السويداء من قلبها ؛ فكانت كلما أقبل سامى من عمله فى المساء تشعر كأن كهرباء ملأ قلبها ، فهو يدق ويدق ، ويخفق خفقاناً شديداً ، ويسرى فى جميع أعصابها بكل حاجات الشباب الذى أضر به كبت المحبسين : المنزل الشرقى والتقاليد !

وكانت موجات أثيرية من غناء سامى وموسيقاه تشيع فى أرجاء المنزل فتهز أركان ليلى ، وتذيب فى عينيها دموعاً ليست كهذه الدموع التى يحتلبها البكاء ، ولكنها دموع علوية لا يدرى المحب من أين تنهمل ، لولا ما فى أغواره من معانى الهوى ...

وانسرقت ليلى فى أمسية إلى (السطح) ووقفت مختبئةً فى نفس المكان الذى وقف فيه هذان العجوزان — متولى وبخيتة — يتلصصان على كيوبيد ، حين يرشق القلبين الحبيبين بسهامه الذهبية !

وقفت ليلى ثمة ، وتلبثت طويلاً تملأ أذنيها وقلبها بغناء سامى وحبه ، ثم جعلت بعد ذلك تنسرق كالمرة الأولى ، حتى تنبه غافل الشباب ، فراح بدوره يرسل إليها أغانيه حاملة قلبه ، ثم لم يجد بأساً ، وقد تأكدت بينهما أواصر الحب ، من أن يغافلها وينسرق إلى حيث هى ، فلا يكاد يسقط فى يديها وترتبك ارتباكة يسيرة حتى يقدم إليها يده المرتجفة ، فتصافحه وتنفتل منه فتطوى الدرج إلى ... حيث تكون بخيتة مصعدةً فتكتشف السر الناشئ الذى لما يكد يشب أو يترعرع ...

***

كان سامى يجلس على كرسيه محتضناً عوده ، وأمامه ليلى على (كنبة) تحدق فيه ، وقد وضعت رجلا على رجل ، وبدا ساقاها المتلئتان طراوةً ونعومة وحياة وانسجاماً ، واتكأت بظهرها على المسند فنهد جيدها المرمرى ، وبدت انزلاقة الثديين من فتحة الثوب الوردى الذى كانت ترتديه ، فاختلط ورده بوردها المتفتح فى كل جزء من جسمها الناضج السَّوِى ، وأسندت فَوْدها على عينيها قليلا ، وتهدلت خصلة من شعرها الأسود الفاحم على أصابعها فزادتها فتنة

وكان سامى يداعب عوده ، ولم يكن ينظر إلى ليلى ، بل كان مطرقاً برأسه قليلا ، حتى إذا استغرقته الموسيقى أرسل من عينيه عَبْرتين لمحتهما ليلى فنهضت مسرعة وتلقتهما فى منديلها الحريرى الجميل ... ثم جلست إلى جانبه ، وأرسلت ذراعها البضة فوق كاهله ، وأدنت رأسها من رأسه ... ولم تكلمه !

وصمت سامى لحظة ، ثم شرع يتغنى أغنية مطلعها :

إيه يا ليـل ، وقد طاب الهـوى
وصَفَتْ أنفاسُهُ للأنفس
ما لقلبى خَفِقاً ؟ ! هل من جوى
ومُنَى نفسى معى فى مجلسى ؟

وكان الفتى يرسل غناءه هادئاً يترقرق فى أذنى ليلى ، وكانت نبراته ونبرات العود تأتلف وتسرى فى الهواء فيرتعش من أسْرها لهب الشمعة التى كان سامى يؤثرها على لألاء الكهرباء كلما غنى ... وكلما زارته ليلى

وفرغ سامى من غنائه ، وسكنت الحجرة قليلا ، ثم نادته فتاته :

— « سامى ! »
— « ليلى ! »
— « هل أسعد منا حبيبان فى هذه الحياة ؟ »
— « كنت أرجو ذلك يا ليلى ... »
— « ولم لا نكون يا سامى ؟ »
— « آه ... أكثر الناس يحبون على أمل ... أما نحن ... »
— « ما لنا ؟ »

« لا شىء ... لا شىء مطلقاً يا ليلى ، لنعد إلى أحلامنا وموسيقانا فهى غذاء روحينا . دعى هذا الحديث فإنه يزعجنى . بحسبى أن أكون معك لحظة بعد أخرى فأذوب وأحترق ! »

— « بل سنتحدث ؛ بل ينبغى أن نفكر فى المستقبل ، إنى

لم أعد أطيق فكرة بعدى عنك يا سامى ! إغفر لفتاة عذراء مثلى أن تكلمك هكذا ! لقد امتزجت روحانا فليس يضيرنى أن أصارحك ! لقـد اقتنع قلبانا ألا غناء لأحدهما عن الآخر ، فلم نجلس صامتين تلقاء المسـتقبل الذى يروعنا بالفراق ولا نفكر فى أن نحسم مشاكله ؟ »

— « وهل نستطيع ذلك يا ليلى ؟ أنسيتِ ... »

— « نسيتُ ما ذا ؟ لا ... لا تظن ذلك محالا ! »

— « ليلى ! ما ذا تريدين أن تقولى ؟ »

— « إطمئن ! »

— « أطمئن كيف ؟ »

— « أجل ، يجب أن تطمئن ، لقـد صممت على أمر عظيم ! »

— « ليلى ! »

— « بل لن تردنى أية قوة فى العالم عما اعتزمته يا سامى ، أليس كل ما يقوله الأغبياء إننى انهزمت بدينى أمام حبى ؟ »

— « ليلى ! »

— « لينهزم هذا الدين فأنا لم أعرفه بنفسى ... أما الحب... »

— « أنت جريئة جـداً يا ليلى ! لا ... لا ينبغى ... هذا كثير ! »

— « لا ينبغى ما ذا ؟ ألست تتفق معى ؟ »

— « وكيف أتفق معك يا ليلى ودينى يرينى الله من خلَلِ الحب ؟ »

— « إذن اتفقنا ، إننى لم أر الله إلا يوم أن رأيتك ! ويجب أن أصل الى الله عن طريقك يا سـامى ... إهدنى يا سامى ... لا تردنى بعنف هكـذا ، إنك مسلم رقيق القلب مرهف الحس فياض العاطفة ، وإن روحك تتكلم بلسان الموسيقى يا سامى ، فلا تحاول أن تكون جباراً علىَّ ، لا تحاول أن تردنى عما اعتزمته . . . أ . . . ألا تريد أن نأمن غائلة الفراق ، والفراق الأبدى يا سامى ؟ »

— « وكيف لا أريد يا ليلى ! »

— « ساعدنى إذن ، خذ بيدى الى ناحيتك ... سامى ... سامى ... »

وانفجرت الفتاة تبكى بين يدى حبيبها ، وأخذ سامى يلاطفها ويُرَفِّه عنها ، ولـكنها دسَّت رأسها الجميل فى صدره ، وأغفت إغفاءة هينة لم يوقظها منها إلا شـدة خفقان قلب سامى ... قلبه الـكبير جداً ، الذى أُشرب حب ليـلى ، وامتزجت كل قطرة من دمه بتقديسها !

— « صحوت يا ليلى ؟ »

ولـكنها أجابته بنظرة فاتنة من طرف عينيها المبللتين بالدموع

— « كلمينى يا حبيبتى ... ليلى ؟ »

— « سامى . . . اسكت ! إن هذه الفترة الصامتة الباكية أسعد فترات حياتى ! »

وطوقها سامى بذراعيه ، وأخذ ينزح أسرار عينيها الباكيتين بعينيه العميقتين ، ثم أهوى على فمها القرمزى ذى الثنايا المفلجة يقبله ... ويقبله

* * *

— « أرأيت يا متولى ؟ هل صـدقت ما قلته لك ؟ والله لأخبرن أمها ! »

— « بخيتة ! ! أنت طالق إن فعلت ! يا غبيـة ! يا أقبح النساء ! »

— « أنا ؟ أنا أقبح النساء ؟ وأنت ؟ أتحسب أنك زين الرجال ؟ »

— « لا ... ولـكنى كنت أطمع فى ... فتاة طيبة ... »

— « مثل ليلى أظن ؟ »

— « أجل ... »

— « إسم الله عليك يا سامى أفندى ! »

— « أحببته ؟ أم ماذا يا امرأة ؟ »

— « صوته جميل ... أما صوتك ، فحميرى خالص !! »

— « اسكتى يا خنزيرة ... هلمى بنا ، كاد شباب الحبيبين يتلف قلبينا العجوزين ! »

* * *

ونزل الخادمان وفى قلب كل منهما غصة تزلزله

وبعد أيام همَسَ الناس فى هـذا الحى من أحياء المدينة أن ليلى ابنة (...) اليهودى قد صبأت ... واعتنقت الاسلام

وبعد أيام أخريات ، تأكد هذا الهمس ، لأنها تزوجت سامى أفندى بالفعل ، ونقل العروسان الى الاسكندرية ليعيشا ثمة حياة هانئة ناعمة موفورة

دريني خشبة

من دروس البادية

محنة الرجـــولة

للأستاذ أديب عباسي

مرت السنون وتصرمت الأعوام ، والأمير الكبير يلتمس رحمة المولى ويرتقب جداه ليهبه وارثاً من صلبه . يرث اسمه ويخلد ذكره ، وينتهي اليه ماله وجاهه . بيد أن الأيام كانت كلها سواء في إذهاب الرجاء وتخييب الأمل ، وأوشك الأمير أن يُصفي ولما يجئ الوارث المرتقب

غير أن المولى افتقد الأمير في سنة من سني يأسه ، وحملت زوجته بعد طول الخيبة ، ووضعت طفلة أسمياها (سلافة) . ولم ييأس الأمير أو يبتئس إذ كان الوليد أنثى ولم يكن ذكراً . وماذا كان يرجو من الأيام ليبتئس بعد أن خاصمته في آماله وتجهمت له هذه الأعوام الطوال ؟

ونشطت عواطف الأبوة قوية جائشة بعد طول الكبت وغياب الحافز ، وهبَّ الأب يريق على الصغيرة من عطفه وحبه ما صيرها سلواه وكل أمله في باقي حياته

وشبت الصغيرة كما تشبُّ بنات البادية غضة نضيرة ، بقامة هيفاء وصحة مترعة ؛ هذا إلى ما حباها الله وأفردها به افراداً من جيد أغيد ، وثغر أبلج ، ووجنتين تفيضان بالحياة وتنضحان البشر نضحاً ، إلى جبين مشرق نبيل يكلله ويزينه فرع أثيث وحف ، ثم ما تجمع جميع ذلك النور والسحر في مجتمعين للنور والسحر ، ومن ثمَّ كل ذلك الفيض فيهما من الفتنة القاسرة والقوة الآسرة

هذا ، ولم يدع الأمير وسيلة من وسائل التهذيب التي تيسرها البادية إلا اصطنعها في تهذيب (سلافة) ، حتى غدت إذ شبت فتنة البادية ، وحديث المجالس ، ومدار الهواجس ، ومطاف الأحلام في صدور الشباب . وذاعت شهرة الأميرة في طول البلاد وعرضها ، وتواصفها الأمراء والأشراف ، وأخذت تحوم حولها الأنظار ، ويهطع اليها الخيال من جميع نواحي الطموح في البادية

بيد أن الأمير اشترط على الخطاب الطامحين أن يجوزوا امتحاناً يعدُّه لهم ، ومن يفز فيه فاز بفتاته وأضحى الوارث الشرعي له في أمارته . وأما من فاته الفوز وخانه التوفيق فيتلقى عقابه لوعةَ الحرمان ومرارة الفشل ، ومائة جلدة وجزّ شعر الناصية ؛ وأباح الأمير امتحانه هذا كلَّ طامح بلا تفريق في الجاه أو المال أو الشهرة أو خلافها من وسائل التمييز

وخشيت (سلافة) ، مع هذه المساواة التامة بين الخاطبين ، أن يجوز الامتحان غيرُ كفء ، وغير من تهوى وتحبُّ ، وقد يكون الفائز صعلوكا من صعاليك البادية ، أو ذئباً من ذؤبانها ؛ وقد يكون أسود بغيضاً مرخى المشافر واللحيين ؛ وقد يكون فتىً مخنثاً فاتر العزم ، باهت الرجولة ؛ وثمّة فللموت أهون عليها وأعذب

فاتحت أباها فيما يساورها من مخاوف ويدب اليها من ريب ، ولكن أباها الأمير طمأنها وأكد لها أن امتحانه لن يجوزه غير كفء ، وأنها سوف تحمد له عاقبة هذا التدبير الذي يدبر

* * *

جاء الخاطب الأول ، وكان زعيما ذائع الشهرة كثير المال ، شريف المنتسب ، حسن البزَّة والمظهر ، وجاء يسوق بين يديه عديد الهدايا وأنواع الطرف ، وقدمها وسيلة للأغراء والزلفى ، وحلَّ ضيفاً كريماً على الأمير بعد أن كشف عن غرضه ومبتغاه

واستقبله الأمير — كعادته مع جميع الأضياف — مرحباً مؤهلا ، ثم عمد إلى خير نياقه وأعزها عليه وعقرها ثم نحرها أمام البيت ، ودعا إلى الوليمة أدنى من في الحي ؛ وبعد أن نال الجميع من الطعام إلى حد الشبع ثم أديرت القهوة التفت الضيف الخاطب يخاطب الأمير :

أي أميرنا العزيز ! لقد جئناك في (سلافة) درة البادية ، وفتنة المقول ، وغاية السول ؛ فماذا ترى أن تضع بيننا من الحواجز ، وماذا ترى أن تقيم بيننا من العقبات ؟ لقد ملأ نفسي ذكر فتاتك ، ولست بعائد ومؤيدي بعد الله همتي إلا بها

فأجاب الأمير : على رسلك يا ضيفنا العزيز ! إن ضيفنا يقيم بيننا أياما عشرة ، ثم يكون الامتحان ، وعندها إما (سلافة) له ، وإما المائة جلدة والشعر المجزوز

ولم يسع الخاطب الطامح إلا الاذعان والصبر حتى يحل اليوم الموعود

وفي صبيحة اليوم التالي عمد الأمير إلى ناقتين من خيرنياقه ليجزرهما كاليوم الفائت، وهنا أراد الضيف الخاطب أن يعارض الأمير ويمنعه أن يعقر ناقتيه محتجاً بأن في جزور البارحة الكفاء وأن نحرهما إسراف وإتلاف المال لا مبرر لهما . إلا أن أميرنا لم يجبه بشيء ومضى يعقر الناقتين ويجزرهما ويعدُّ الوليمة ، وعند الظهر أقبل المدعوون من أدنى الحي وأواسطه وتناولوا الطعام مع ضيف الأمير . ومضى الأمير يفعلها كل صباح ويزيد العدد المنحور ناقة ناقة إلى اليوم العاشر ؛ ومضى الضيف يزداد لجاجة في الاحتجاج وإلحافاً على الأمير أن يقتصد في ماله فلا يتلفه هذا الاتلاف ، ولكن بلا جدوى

وتقدم الضيف بعد اليوم العاشر يطلب إلى الأمير أن يجرى امتحانه ، فلقد طال ثواؤه وعيل صبره وافتقده أهله ، ولكن كم دهش وكم حلَّ عزمه اليأس والخيبة إذ فاجأه الأمير :

أي ضيفنا ! يعزُّ علينا أنك خسرت الرهان وفاتك الفوز ، فلتذعن إذاً لجزائي المفروض وتستكن

عندها أجاب الخاطب المحنق محتجاً بأنه لم يجر عليه امتحان ليعد فاشلاً يستحق العقاب ، وطلب إلى الأمير أن يفسر له ما يدعى إن يكن يروم الاقناع بالدليل والبرهان ، ولكن الأمير أصرَّ على أنه خسر الرهان وأن ليس حاجة إلى التفسير ثم أشار إلى غلمانه أن يتسلموه . . . .

وقام صاحبنا ينكث أذياله وغادر الحي بناصية مجزوزة ، ومائة أثر في ظهره لمائة جلدة ، وصدر يغلي بالحقد ومرارة الفشل ، واعتقاد جازم أن بصاحبه الأمير لمَّا أو لمماً إن لم يكن ذا جنة وخبال

وذاع أمر المحنة والجزاء ثم ما أصاب أول الخاطبين من جز الشعر والضرب الأليم . إلا أن ذلك لم يؤنس الخطاب بادىء الأمر ولم يمنعهم من الوفود على الأمير علهم ينجحون من حيث فشل صاحبهم . على أن نصيبهم لم يكن بخير من نصيب أولهم ، فكلهم كان يعود باللمة المجزوزة والظهر المجلود ، ولولا أن الأمير كان برجاله وفروسيته عزيز الأبطال لكان لهم معه شأن غير ذلك الشأن ، ولنالوا منه بحد السيف ما نالهم بالامتحان

وبعد الفشل المتوالي الذي مني به عديد الخطاب تجافى الخاطبون مضارب الأمير وعافوا الوفود عليه خاطبين ، إلا فتى شريفاً جاء من أطراف البادية وآلى ألية لينالنَّ سلافة أو يقتلن أباها ويريح البادية من عتوه أو يهلكن على حد السيوف دونهما

ولم ير فتانا أن يثقل كاهله بنفيس الحلل وغالي الثياب ، ولم يسق بين يديه الهدايا والطرف ، واكتفى ببزة بسيطة وتخفف من كل ما يحمل المسافر إلا سيفه القاطع وبعض الزاد ، وسار يغذُّ السير أياماً إلى أن وافى الأمير وحل ضيفاً عليه وأبان غايته من الوفود عليه

وشرع الأمير كدأبه مع جميع الخاطبين ، ينحر الجزر يوماً بعد يوم والفتى صامت لا يعترض ولا يجادل ، ولا يتكلم إلا حيث يجمل الكلام ، ويصمت حيث يجب الصمت

وقد اجتذب فتانا بحسن سمته وقلة حديثه عن نفسه أنظار القوم وأيقنوا بأنه فتىً يختلف أبين الاختلاف وأشده عن بقية الخطاب ، فلا ظهور ولا إدلال بالجاه ولا غرور ولا شيء من ذلك الذي كان يُضيفه أولئك الخطاب إلى شخوصهم ليتقربوا به زلفى إلى الأمير . هذا إلى رجولة صريحة وفكر موزون ونبل ظاهر . وصار همُّ الجميع أن يجوز الفتى الامتحان المقيد ليكون هو وارث أميرهم والمؤمر عليهم بعده

وبلغت أوصاف الفتى وذكر شمائله خدور النساء ، وأضحى اسمه لديهن ملء الأفواه والأسماع . ولم تكتف سلافة بالسماع وكثيراً ما يفتن ، وأرادت أن تشاهد هذا الفتى الموصوف وترى هل يصدِّق الخبر عنه الخُبرُ أو لا يصدِّق . وانتحت ناحية خفية من بيت الأمير الواسع وأخذت تتقرى الرجال وتتفرَّس في الملامح وتصغي إلى الحديث ، إلى أن وقع بصرها على الفتى الموصوف . . . .

وفجأة شعرت أن قلبها يخفق أكثر مما اعتاد أن يخفق ، وخيِّل إليها كأن رئتيها لا تتسعان لكل ما تريد أن تدفعه إليهما من الهواء ، وشعرت كذلك كأن هذا الفتى قليل الكلام يتحدث إليها ويخاطبها أعذب الخطاب ... وخشيت إن هي بقيت حيث هي أن يشي بها اضطرابها أو تنم عليها أنفاسها المتهدِّجة ، ويعلم القوم أن فتاتهم الرصينة الخفرة قد خفَّت ورعنت فجاءت تشهد خطابها خلسة من وراء السجوف ، فتركت مكانها وفي قلبها كالسهام من العواطف المتباينة المتأججة ، فثمَّة هذا الحب

المفاجئ الذى أخذ عليها جميع مسارب الشعور ؛ وثم خشيتها أن يفشل الفتى فى الامتحان — إن يكن ثمة امتحان - وأخيراً إحساس قوى باللوم لهذا الأب المتعنت الذى لا يرضيه من الفتى ما رأى ورأى الجميع إلا أن يجوز الامتحان . وفى الحق لقد بدأ يخامر سلافته أن أباها إنما يصطنع هذه الأساليب الغريبة لينفر الخطاب ويبقيها عانساً يتأكلها الجوى ويغويها الحرمان . والمحب — كما تعلم — إذا أحب حباً قوياً فقد التميز واختلطت عليه الأفكار ، ولا عجب إذن أن تنتهى فى أبيها الذى يعبدها إلى مثل هذا الرأى الغريب

* * *

حلَّ اليوم العاشر وأوشك أن يزول ، فقام الأمير يوجه الحديث إلى فتانا وقال : أيها الفتى النبيل ، هل أنت مستعد لامتحانى أم أنت تخشى العاقبة فتعود سالماً لا لك ولا عليك ؟ فأجاب الفتى باختصار وحزم : إنى لعلى استعداد . وعندها أقبل الأمير على قومه يخاطبهم : أهنئكم يا رجالى بوارثى العتيد وأهنئ نفسى . ثم التفت إلى الفتى وخاطبه : أهنئ بك سلافة وأهنئها بك . فلأنت خير من يستأهلها يابنى وهى خير من يستأهلك

ووجم الجميع إلاَّ سلافة التى برزت من وراء الخباء [إذ كانت جاءت خفية لتشهد المحنة] وخاطبت إباها عاتبة أو كالعاتبة :

أى ابت ، كيف تتعجل وتسمِّينى لهذا الفتى ولما يجز الامتحان بعد ؟ فهلا أبقيت ذلك لنرى مبلغ همته ومقدار رجولته التى سيتكشف لنا عنها فى ذاك الامتحان ؟

فأجاب الأب ، أى بنيتى العزيزة ، لقد حاز فتاك الامتحان من حيث لا يعلم ولا تعلمين . جاءنا هذا الفتى الشريف مستبهماً لم يسم نفسه قط ولم ينتسب ، ثم هو لم يحاول أن يدهشنا بثروته وجاهه وإن يكن له من ذلك الشيء الكثير (كما دلنى على ذلك العيون وعيناى) ، لقد جاءنا واثقاً من نفسه واثقاً أنه أهل لك دون أن يضيف الى شخصه الأسماء الكبيرة والمال الوفير والدعوى العريضة . ثم ألم يبلغك كيف لم يعارض ولم يجادل فيما حاولنا أن نغمره ونحرجه به من وسائل الاكرام ، شأن الخطاب الآخرين لنرى ما هو قدر نفسه عند نفسه ؟ ولو كان رأيه فى نفسه كرأيهم فى نفوسهم وإن حاولوا الظهور بخلاف ذلك ، لفعل فعلتهم وناله مثل ما نالهم . ولكن هو المحتد الكريم يأبى ألا أن يظهر ويستعلن . ثم أليس فى سكوته دون الذى حاولنا من غمره بأسباب الاكرام ما يدل على أن فضيلة الكرم هى طبع فيه وسجية فلا يستهولها فى غيره ؟ أو لم يكن استهوال الخطاب الآخرين مظاهر الجود والكرم التى رأونا نغمرهم بها دليلاً لا يخطئ على أنهم ليسوا الكرام الذين يدعون ؟ أليس المقل من المال أو الشحيح هو الذى يستكثر أعطيات الناس ومظاهر جودهم ؟

ولم يبق بعد هذا التفسير من لم يقتنع بخطة الأمير الحكيمة وأسلوبه المبتكر فى امتحان الرجال . وفى اليوم التالى عقد للفتى على فتاته بين أشد مظاهر الغبطة والحبور . وقضياها حياة مديدة هى السعادة والهناء .

أديب عباسى

البريد الأدبي

المباحث الأثرية الأولمبية

من أنباء ألمانيا الأخيرة أن الهير هتلر ، أعلن أن الحكومة الألمانية قررت لمناسبة عيد الألعاب الأولمبية أن تستأنف المباحث الأثرية فى أولمبيا (من أعمال مقاطعة بلوبنيس اليونانية) . وقد كانت أولمبيا منذ نحو ألفى عام مستودع التماثيل والذخائر اليونانية المقدسة ، وكانت ساحاتها معرضاً للحفلات الرياضية الشائقة . وفى عهد الامبراطور تيودوسيوس الرومانى فى القرن الرابع الميلادى منعت الألعاب الأولمبية ، وخربت الهياكل الدينية ، ونقلت تماثيل الآلهة إلى قسطنطينية بعد ذلك ، وفى القرن السادس وقعت زلزلة هدمت كثيراً مما بقى من الهياكل الأولمبية

وكان أول من لفت النظر إلى البحث فى الاطلال الأولمبية العلامة الفرنسى برنار دى مونفوكون فى أوائل القرن الثامن عشر . ثم تلاه العلامة الألمانى فنكلمان ونظم بعثة للقيام بالحفريات والمباحث الأثرية فى أولمبيا ، ولكن الموت عاجله وهو فى طريقه إلى اليونان . وفى سنة ١٨٢٩ أوفدت الحكومة الفرنسية حملة الى اليونان لمعاونتها فى حرب التحرير ، فقام بعض أفرادها بالحفر فى أولمبيا . وفى سنة ١٨٥٢ ، قام العلامة الألمانى أرنست كورتيوس — وقد كان أستاذاً للتاريخ القديم — بدعوة قوية للبحث فى أولمبيا ، واستطاع أن يحمل تلميذه القيصر فريدريش الثالث على تنفيذ مشروعه ؛ وأقر البرلمان الألمانى الاعتمادات اللازمة ؛ وقامت بعثة ألمانية بالحفر فى أولمبيا بين سنتى ١٨٧٥ و ١٨٨١ ؛ واستطاعت أن تكشف عن ساحة « التس » الشهيرة برمتها ، وظهرت أيضاً اطلال معبد زيوس القديم ؛ وكان أعظم اكتشاف وفقت اليه البعثة تمثال « هرميس » الذى صنعه المثال الأشهر « براكستليس » ووصفه الرحالة باوزنيوس فى رحلته ، ووجدت أيضاً نحو سبعمائة قطعة أثرية مختلفة . وقامت بعد ذلك بعثات مختلفة أخرى بالحفر فى أولمبيا ؛ وعثرت بآثار كثيرة ، ولكن ما زال هنالك مجال عظيم للبحث والحفر

وتزمع الحكومة الألمانية أن توفد فى القريب العاجل بعثة من علماء الآثار لاستئناف المباحث الأولمبية ، وسوف تزودها بجميع الاعتمادات التى تعاونها على القيام بأعمال واسعة النطاق

فى أكاديمية الآثار والآداب

ألقى مسيو كلود شيفر رئيس البعثة الأثرية السورية فى أكاديمية الآثار والآداب الفرنسية خطاباً عن النتائج التى انتهت إليها مباحث البعثة فى رأس شمرا وخلاصتها أنه قد اكتشف حى جديد من مدينة أوجاريت عاصمة مملكة أوجاريت التى ترجع إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد ، ووجدت عدة وثائق مكتوبة وقطع فنية من آثار هذا العهد ؛ ووجدت بالأخص إلى جانب أوجاريت أطلال مدينة قديمة يطبعها الطابع الفرعونى وترجع إلى نحو الأسرة الثامنة عشر . كما وجدت عدة ألواح مكتوبة بخط غير معروف يظن أنه قلم أوجاريت فى هذه العصور

مؤتمر نسوى فى باريس

عقد فى باريس فى السادس والعشرين من يوليه مؤتمر دولى للنساء ذوات الأعمال والمهن ، واستمرت أعماله أسبوعاً ؛ وقد اجتمع فيه نحو مائتى مندوبة يمثلن أربعاً وعشرين دولة ؛ ومثلت الولايات المتحدة السيدة فرنسيس بركنس وزيرة العمل ؛ وقد استقبلتها الحكومة الفرنسية بصفة رسمية ، على يد مدام برونشفيج ممثلة لوزارة الخارجية ؛ وأقيم احتفال رسمى لتكريم المندوبات فى وزارة الخارجية ؛ وكان أهم الموضوعات التى ألقيت فى المؤتمر خطاب للسيدة بركنس تحدثت فيه عن « الحكومة والعمل » وتناول المؤتمر كثيراً من المسائل والموضوعات المتعلقة بالمهن والحرف التى تزاولها المرأة وحقوقها فى ذلك الميدان ، وما تصدره الأمم المختلفة من القوانين فى هذا الشأن

مؤتمر تقدم العلوم

عقد فى شهر يوليه فى مرسيليا مؤتمر تقدم العلوم ، ومثل فيه العلماء الفرنسيون من كل فن ، الطب والهندسة والكيمياء

والرياضيات وغيرها . وألقيت فيه مباحث مختلفة عن أحدث النظريات العلمية ؛ وكان مما لفت الأنظار بنوع خاص الأبحاث التي قامت بها لجنة الهندسة البحرية التي تدور بالاخص حول هندسة الموانى الحديثة المدنية والحربية ، وألقيت مباحث هامة أخرى فى الطب والنبات والحيوان وغيرها

كتاب عن السحر

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب عن السحر عنوانه « الفن الأسود » The Black Art ومؤلفه مستر « رولو أحمد » . وقد اختار المؤلف لكتابه عنوان : « الفن الأسود » لان اللون الأسود كالسحر فى مختلف العصور ، يقترن فى أذهان الناس بالخشية والروع ؛ ويقول لنا المؤلف : إن السحر معروف عند الانسان فى عصور ما قبل التاريخ ، يدل على ذلك طائفة من الرسوم الحجرية التي وجدت فى بعض الكهوف ؛ وقد كان المصريون القدماء أساتذة فى « الفن الأسود » وكان له عندهم المقام الأعلى ؛ وكذلك عرف السحر جميع الأمم القديمة مثل الكلدانيين والأشوريين واليونان والرومان وغيرهم

ويستعرض المؤلف تاريخ السحر منذ العصر القديم إلى عصرنا ، ويحاول أن يشرح أساطير السحر ووسائله ؛ وأهم قسم فى الكتاب هو المتعلق بالسحر فى العصور الوسطى ، فهنا يجد المؤلف مجالاً كبيراً للتحدث ، ويصف لنا كيف ذاعت فكرة الشيطان فى تلك العصور إلى حدود مدهشة ، وكيف كانت تمثل فى كل شىء فى الحياة العقلية والدينية

وقد زين المؤلف كتابه بطائفة كبيرة من الرسوم والنقوش والتعاويذ السحرية

وفاة راقصة شهيرة

توفيت فى أواخر يوليه فنانة كبيرة هى الراقصة والموسيقية الكبيرة « ارجنتينا » ، ولم تحرز راقصة فى عصرنا من الشهرة الفنية بعد الراقصة الروسية الشهيرة آنا بافلوفا ؛ قدر ما أحرزت « ارجنتينا » . وكان ظهورها على المسرح فى أوائل هذا القرن حيث ظهرت لأول مرة فى بروكسل ولفتت الأنظار بروعة فنها وابتكارها . ولم تكن ارجنتينا راقصة فقط ، بل كانت موسيقية بارعة ؛ ولما ذاعت شهرتها أخذت تطوف مسارح العالم الكبرى ، فى باريس ، ولندن ، وأمريكا ، وغيرها وهى تثير الاعجاب أينما حلت ؛ وكانت فى فنها ، أى الرقص الأندلسى القديم قرينة بافلوفا ، وفى رقصتها الشهيرة « احتضار البجعة » . وكانت أبرع راقصة فى استعمال الصنج « الصاجات » الأندلسية . وكانت أرجنتينا مثل زميلتها بافلوفا تحتفظ ببراعتها ورشاقتها حتى أعوامها الأخيرة ، أعنى وهى فى حدود الخمسين . وكانت وفاتها فى مدينة بايون على مقربة من بياريتز حيث كانت تمضى معظم أوقاتها فى قصر بديع هنالك

وقد أحرزت أرجنتينا كثيراً من آيات التقدير لفنها وبراعتها ومن ذلك أن الحكومة الفرنسية أنعمت عليها بأرفع وسام من اللجيون دونير

كتاب عن أرنولد بنيت

لم يمض قليل على وفاة الكاتب الانجليزى الكبير أرنولد بنيت حتى ظهرت عنه عدة تراجم وكتب نقدية . منها كتاب ظهر أخيراً بقلم النقادة سيمونس J. B. Simons بعنوان « أرنولد بنيت وقصصه » Arnold Bennet and his Novels ؛ وهو عرض نقدى مستفيض لآثار الكاتب الراحل ، وتلخيص بديع لقصصه ، وتعليق ممتع على خواص تفكيره وأسلوبه ؛ ويبدى المستر سيمونس فى عرضه مقدرة فنية واضحة ، ويتتبع العوامل والمؤثرات التي اشتركت فى تكوين أرنولد بنيت ، ويقول لنا إنه تأثر بالأدبين الفرنسى والروسى ، فكان من أساتذته هوسمان ، والأخوان جونكور ، وموباسان ، وتورجنيف وتولستوى ؛ ويرد مستر سيمونس على نقدة بنيت من قبله ولا سيما مستر بريستلى الذى اشتهر بشدته فى نقد بنيت ، ولكن مما يلاحظ أن مستر سيمونس يميل الى التنويه بمحاسن بنيت والاشادة بخواصه ومقدرته ، وقلما يمس جوانب الضعف فيه ، وهو من هذه الناحية يغفل قاعدة النقد الصحيح : ويؤيد هذا التحيز إلى بنيت حملاته على جميع نقدته السابقين ؛ وينكر مستر سيمونس بشدة مايسنده بعض النقدة ، ولا سيما الكاتبة الشهيرة فرجنيا وولف ، الى بنيت من الميول المادية فى الكتابة والتوجيه ، بيد أن الكتاب فى مجموعه عرض حسن لآثار بنيت يقدم عن الكاتب وآثاره فكرة واضحة ، وقد لخصت فيه كل كتبه الهامة تلخيصاً وافياً ، وكتب بأسلوب علمى بليغ ، يشهد لمؤلفه بمقدرة نقدية لا شك فيها



4 me Année, No. 165

Lundi - 31 - 8 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـدد ١٦٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ — ٣١ أغسطس سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

فلنتعصب . . . . !

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال صاحب سر (م) باشا : جاءنى يوماً صحفىٌّ إنجليزى من هؤلاء الكتاب المتعصبين الذين تُطلقهم انجلترا كما تطلق مدافعها ؛ غير أن هذه للبارود والرصاص والقنابل ، وأولئك للكذب والتهم والمغالطات ؛ وهو أُذُنٌ وعينٌ ولسانٌ وقلم لجريدة انجليزية كبيرة معروفة بثقل وطأتها على الشرق والاسلام ؛ تُصلح بافساد ، وتداوى الحمى بالطاعون ، وتعمل فى نهضة الشرقيين واستقلالهم ما يشبه قطع ثدى الأم وهو فى شفتى رضيعها المسكين

ودخل علىَّ هذا الكاتب فى الساعة التى خرج فيها من غرفتى صاحب جريدة أسبوعية فى مدينتنا ؛ وكان قد نفخ الضفّدع ليجعلها ثوراً لحول صحيفته إلى جريدة يومية وهو لا يجد مادّتها ولا يستطيع أسبابها ، إلا أنه كدأب الناس عندنا كان يحسب الكذب فى العمل سهلا مهلا (١) كالكذب فى القول ،

(١) هذا الاستعمال مما وضعناه نحن وليس فى اللغة ، وهو من باب الاتباع كقولهم : حسن بسن وشيطان ليطان الخ

فلم يتعاظم للأمر العظيم ، واقترض لعمله كل ألفاظ النجاح من اللغة ....

وظن عند نفسه أنه سيخوِّف بجريدته الكبراء والأعيان والمياسير حتى يغلب على جميعهم ويشرك أصابعه مع أصابعهم فى استخراج ما يحتاج اليه من جيوبهم ، فلم تعش جريدته إلا أياما وأتلف ما جمع ، ورهن فيها داره التى لا يملك غيرها . وعلم آخرا أن الذى يكذب فيسمى الحروف جملاً ، لا يُقبل منه أن يكذب على الكذب نفسه فيزعم أن الناقة هى التى نتجت هذا الحروف .....

ولما انقلبت هذه الجريدة يومية كان الباشا هو ملجأ الرجل ووَزَره ، وكان لكل يوم فى الجريدة أخبار عن الباشا لا تقع فى الدنيا ولا تجمع من الحوادث ، ولكن تقع فى ذهن الكاتب ، وتجمع من صناديق الحروف ، حتى قال لى الباشا مرة : إن اسمى قد أصبح موظفاً فى هذه الجريدة لجمع الاشتراك ....

وتحرَّى هذا الصحفى أن يستأذن يوماً على الباشا وفى مجلسه حشدٌ عظيم من السراة والأعيان والعمد ، وكان جمعهم لأمر ، فما هو إلا أن دخل الصحفى حتى ابتدره الباشا بهذا السؤال : يا أستاذ . ما هى تلغرافات أوربا عن الحوادث التى ستقع غداً . . . . ؟

فضجَّ المجلس بالضحك وفقد المسكين بهذه النكتة أربعين ديناراً كان يؤمل أن يخرج بها ، وأعلن الباشا فى أظرف إعلان وأبلغه كذبَ الرجل ونفاقَه وإسفافَه وأنه من رجال الصحافة المدَّورة تدوير الرغيف . . .

* * *

قال : ونظرت إلى الصحفى الانجليزى نظرةً أكشفُهُ بها فاذا أولُ الفرق بينه وبين أمثاله عندنا ـ شعورُه أن بلاده قد ربته (للخارج) فهو عند نفسه كأنه انجليزى مرتين ؛ ويأتى من ذلك إحساسُه بعزة المالك وقوة المستعمِر فلا يكون حيث يكون إلا فى صراحة الأمر النافذ أو غموض الحيلة المبهمة ؛ ويستحكم بهذا وذاك طبعُه العمليُّ ، فهو بغريزته مُقاتل من مقاتلة الفكر يلتمس ميدانه بين القوى المتضاربة لا يبالى أن يكون فيه الموت ما دام فيه العمل ؛ وبهذا كله تراه نافذَ البصيرة قائماً على سواء الطريق ، لأن الانجليزىَّ الباطن فيه يوجِّه الانجليزىَّ الظاهر منه ويُسانِده ؛ وفى أعماق الاثنين نجد انجلترا وليس غير انجلترا

ثم تفرَّست فى الرجل أريد كُنْهَه وحقيقتَه فاذا له نفسٌ مفتوحةٌ مقْفَلة معاً كغُرَف الدار الواحدة يُفتح بعضُها لما فيه كيما يُرى ، ويُقفل بعضها على ما فيه كيلا يُرى . وله وجه عملى يكاد يحاسبك على نظراتك إليه ، تدور فى هذا الوجه عينانِ قد اعتادتا وزْن الأشياء والمعانى ، يتلألأ فى هاتين العينين شعاعُ النفس القوية المرَّنة قد نَفَت الثقةُ بها نصفَ هموم الحياة عن صاحبها ، تمِدُّ هذه النفسَ طبيعةٌ مؤمنة بأن أكبر سرورها فى أعمالها ، فواجبها فى الحياة أن تعمل كل ما يَحسنُ بها وكل ما يَحسنُ منها

لقد خُيل الىَّ وأنا أنظر الى نفسية هذا الانجليزى أن كلمة الخيْبَةَ عند هؤلاء الانجليز غير كلمة الخيبة عندنا نحن الشرقيين ، فان خيبة النفس لا تتم معانيها أبداً فى النفس العاملة الدائبة التى يشعرها الواجب أنه شىء إلٓهى لا يخيبِ ، وأن ما يرفض على هذه الأرض من العمل الطيب لا يرفض فى السماء

وكأن الرجل قد أدرك غرضى بملكته الصحافية الدقيقة فأجابنى عن السؤال الذى لم أسأله وقال لى مبتدئاً : إن أساسنا الشخصية وحاسة الواجب ؛ وإن فيكم أنتم كل شىء إلا هذين . فأخلاقنا تظهر دائماً فى العمل ، وأخلاقكم تظهر دائماً فى الكلام الفارغ ؛ ونحن نطلب الحقيقة وأنتم تطلبون الألفاظ ، حتى إنه لو خسر المصرى ألف دينار ثم أعلن أنها مائة فقط وصدق الناس أنها مائة ، لكان عند نفسه كأنه ربح تسعمائة . . . .

* * *

قال صاحب السر : واستأذنت له على الباشا فسهَّل ورحب ؛ ثم هممتُ بالانصراف عنهما ولكن الانجليزى قال : يا باشا ! إنه قد تمكن فى روعى أن صاحب سرك هذا متعصب دينى ، وقد علمت أنه ابن فلان القاضى الشرعى فطربوشه ابن العمامة ؛ ولقد كان ينظر إلىَّ وكأنه يتأمل من أين يذبحنى . . .

فضحك الباشا وقال لى : يا فلان ! إن هذا الكاتب من تلاميذ برنارد شو ، فهو كأستاذه يجعل لكل حقيقة ذَنَباً كذيل

الهرّ ثم يمسكها منه فاذا هي تعضّ وتتلوى . . .

والتفت بعد ذلك إلى الانجليزي ثم قال له : جاءني كتابك فاذا كنتَ تريد رأيي فيما تسميه التعصب الديني عند المسلمين فعجيبٌ أن تضعوا أنتم الغلطة ثم تسألونا نحن فيها . إنك لتعلم أن هذا التعصب الكذبَ الذي أكثرتم الكلام فيه إنما هو لفظ من ألفاظ السياسة الأوربية أرسلتموه الينا ليقاتل لفظ التعصب الحقيق ؛ ومن قبل هذا اخترعتم لفظة (الأقليات) وأجريتموها في لغتكم السياسية لتجعلوا بها لتعصبنا الوطني شكلا آخر غير شكله فتفسدوه علينا بهذه المادة المفسدة ؛ وبذلك تضربون اليد اليمنى من غير أن تلمسوها إذ تضربونها بشل اليد اليسرى

إن الاسلام في نفسه عدوٌّ شديد على التعصب الذي تفهمونه ، فهو يقول لأهله في كتابه العزيز : « كونوا قوامين بالقسْط شُهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدَيْن والأقربين »

فاذا كان العدل في هذا الدين عدلاً صارماً وحقا محضا لا يميز بشيء ألبتة ، لا ذاتَ النفس التي فيها اشتهاءُ الدم ، ولا أصلَها من الأبوين اللذين جاءت منهما وراثة الدم ، ولا أطرافَها من الأقربين الذين يلتفُّون حول نَسَب الدم — إذا كان هذا فأين في هذا العدل محل الظلم ؟

لعلك تشير إلى هذه الرعونة التي تعرفها في الأغمار والأغفال من العامة ، فهذه ليست من أثر الدين بل هي أثر الجهل بالدين . إن هذا ليس تعصباً بل هو معنى من معاني الحَمِيَّة النفسية الخرقاء لم تجدوا أنتم له لفظاً ، وكان أقرب الألفاظ اليه عندكم هو التعصب فأطلقتموه عليه للمعنى الذي في نفسه والمعنى الذي في أنفسكم . ألا فاعلم أن إسلام العامة اليوم هو كالدعوى المقبولة شكلا والمرفوضة بعد ذلك

قال الانجليزي : ولكن لهؤلاء العامة علماء دينيين يدبِّرونهم من ورائهم وهم عندكم ورثة النبي (ص) أي منبع الفكرة وقوتها

قال الباشا : غير أن هؤلاء قد أصبحوا كلهم أو أكثرهم لا يندسُّ فيهم عرقٌ من تلك الوراثة ، وذلك هو الذي بلغ بنا ما ترى . فالقوم إلا قليلاً منهم كالأسلاك الكهربائية المعطلة لا فيها سلبٌ ولا إيجاب ؛ ولو أن هؤلاء العلماء كانت فيهم كهرباء النبوة لكهربوا الأمم الاسلامية في أقطارها المختلفة . إذن لقام في وجه الاستعمار الأوربي أربعمائة مليون مسلم جلد صارم شديد متظاهرين متعاونين قد أعدوا كل ما استطاعوا من قوة العلم وقوة النفس ، وهم لو قذف كل منهم بحجرين لردموا البحر . . .

أتريد معنى التعصب في الاسلام ؟ إنه بعينه كتعصب كل إنجليزي للأسطول ، فهو تشابك المسلمين في أرجاء الأرض قاطبة وأخذهم بأسباب القوة الى آخر الاستطاعة لدفع ظلم القوة بآخر ما في الاستطاعة

وهو بذلك يعمل عملين : استكمال الوجود الاسلامي والدفاع عن كماله

وإذا أنت ترجمتَ هذا إلى معناه السياسي كان معناه إصرار جميع المسلمين على نوع الحياة وكرامتها لا على استمرار الحياة ووجودها فقط . وذلك هو مبدؤكم أنتم أيها الانجليز لا تقبلون إلا حياة السيادة والحكم والحرية فأنتم مسلمون في هذا المبدأ لو عدلتم

أليس من البلاء أن المسلمين اليوم لا يدرس بعضهم بلاد بعض إلا على الخريطة . . . مع أن الحج لم يُشرع في دينهم إلا لتعويدهم دراسةَ الأرض في الأرض نفسها لا في الورق ، ثم ليكون من مبادئهم العملية أن العالم مفتوح لا مقفل ؟

إن التعصب في حقيقته هو إعلان الأمة أنها في طاعة الشريعة الكاملة ، وأن لها الروح الحادة لا البليدة ، وأن أساسها في السياسة الاحترام الذاتي لا تقبل غيره ، وأن أفكارها الاجتماعية حقائق ثابتة لا أشكال نظرية ، وأن مبدأها هو الحق ولا شيء غير الحق ، وأن قاعدتها « لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم » فالهداية أولاً والهداية أخيراً : الهداية في القوة والهداية في السياسة والهداية في الاجتماع . فقل لي بحياتك وحياة انجلترا : أيعاب ذلك على المسلمين إلا بالألفاظ التي يعيب اللص بها أهل الدار لأنهم يحكمون في وجهه إقفال الباب . . . ؟

قال : فوجم الانجليزي حتى ذهل عن نفسه وصاح : إذا كان هذا فلنتعصَّب فلنتعصب

(سيدي بشر . اسكندرية) مصطفى صادق الرافعي

السيارة المسروقة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

« إن من الواضح أن تربيتك ناقصة ... ناقصة جداً ... هذا أنا — بجلال قدرى — أ كلمك منذ عشر ساعات وخمس وعشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية وأنت لا تجيبين ... »

فقالت زوجتى أخيراً ، وألقت ما بيدها — وكان شيئاً تطرزه — أو لا أدرى ماذا تصنع به — : « إنى لست اليوم كفؤاً لك ولهزلك ، فاسكت من فضلك ! »

قلت : « هذا بديل جميل من الاعتذار ! ... ألا تستحين يا امرأة ؟ .. ثم ما هذا الذى تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وتاج رأسك وبعلك ؟ »

قالت : « أرجوك ! . أرجوك يا مسلم !! ثم إن الطباخة خرجت ! ... »

فانتفضت واقفاً وصحت : « نهارها اسود ! لماذا ؟ »

قالت : « استحسن زوجها أن يكون ذهابها اليه يوم الجمعة بدلاً من يوم الأحد »

فانحططت على الكرسى وقلت : «ووافقت أنت بالطبع ..»

قالت : « وماذا أصنع غير ذلك ؟ وقد أصرَّا على يوم الجمعة ، فلو رفضت لفارقتنا ، ولعدنا إلى حيرتنا القديمة »

قلت : « يا امرأة .... هل تعرفين أنى أتضور فى هذا البيت ؟ ... يوم الجمعة الذى أستريح فيه ، وأظل أحلم طول الليل بما أطمع أن أنعم فيه من الآكال ؟ ؟ أوه ! إن هذا لا يطاق ! هذه ... هذه ... هذه ... نعم هذه بلشفية صريحة ! ومع ذلك تزعم الحكومة أنها تكافحها ! ما عيب يوم الأحد بالله ؟ لماذا يجب — حتما — أن تكون بطالتها يوم الجمعة لا غيره ؟ ... »

فضجرت زوجتى وبدأت تنفخ ، وقالت : « ألا تسكت ؟ ما لك أنت ؟ إن لك أن تأكل والسلام ... ثم إنها مسلمة ، وكذلك زوجها ، فيوم الجمعة أوفق لهما »

قلت : « وهل من الضرورى أن تتزوج هذه الدميمة وذلك المغفل ؟ »

قالت — وهى تتمطى — : « إنى أشعر بفتور وخدر ، فأعفنى بالله من وجع الدماغ ، وحسبى همّ إطعامك فى هذا اليوم الثقيل .... »

قلت — وقد خطرت لى فكرة — : « اسمى أقل لك »

قالت — وهى تضحك — وهل ترانى اليوم هنا إلا لأسمع .. تفضل يا سيدى ونور عينى ... وماذا أيضاً ؟ »

قلت : « وتاج رأسك ! اسمعى ... إن الفتور يغشى جسمك كما تقولين ، وأنا رأسى يكاد يطير مذ عرفت أن هذه الطباخة الكريهة الوجه قد تخلت عنا فى يومنا هذا ، فما قولك فى أكلة ناشفة خفيفة نصنعها هنا أو نشتريها ؟ »

فقالت وقد لمعت عينها : « لماذا ؟ »

قلت : « وندعو لولو وسليا — من أقربائنا — ونذهب جميعاً ومعنا الأولاد إلى القناطر الخيرية ، فنقضى يوما هناك بين الخضرة والماء »

قالت : « ولكنه سينقصك الوجه الحسن »

قلت : « يا خبيثة .... هل تظنين أنى تزوجتك وأنا مغمض العينين ؟ »

وحشرتهم جميعاً فى السيارة ، ودسست السلة التى فيها الطعام والشراب فى مكان مجعول لما يحمل المسافر من زاد ومتاع ، وكانت الساعة الثانية مساء حين انطلقنا فبلغنا القناطر بعد نصف ساعة ، فحملنا أشياءنا وتركنا السيارة فى حراسة رجل من الواقفين هناك المستعدين لمثل هذه المهمات ، وتخيرنا مكانا يشرف على الماء وتظلله أشجار باسقة وبسطنا السجادة وألقينا عليها صفحات من جرائد الصباح والمساء ووضعنا عليها الصحون والصوانى ثم شرعنا نأكل . ولم يكن الطعام فيما يبدو لعيوننا الفارغة كثيراً ، فجعل بعضنا يخطف من بعض ، فكانت ألذ أكلة وأهناها ، ثم طرحنا الوسائد على السجادة واستلقينا ، فنام من نام . ولما آذنت الشمس بالغروب ركبنا زورقا فى ترعة أشمون ، ثم بدا لنا أن نعود لندرك «الشيخ رفعت» وهو يتلو القرآن الكريم — فما نحب أن يفوتنا ذلك منه قط — فرجعنا الى حيث السيارة . . فاذا بها قد اختفت ! ! ؟

بهتُّ حين رأيت مكانها خالياً ، فوقفت كالصنم وأقبلت على

زوجتى تسألنى وتهز ذراعى ، فقلت لها وقد أفقت قليلاً « نعم . . هزى ذراعى .. بقوة .. إن بى حاجة الى الشعور بأنى لست أحلم وأن هذا ليس كابوساً .. »

قالت : « أين ذهبت ؟ »

قلت : «فتشينى !.. لقد كانت هنا .. تركتها فى هذا المكان وليس فى الأرض ما يدل على أنها انشقت وابتلعتها . . . ولست أعرف أن لها أجنحة فلا يمكن أن تكون طارت .. إنّ الطريقة الصحيحة للاهتداء الى الحقيقة هى أن يبدأ المرء بنفى كل الاحتمالات غير المعقولة — كما ترينى أصنع الآن »

فصاحت «لولو» : « لقد سرقها اللصوص »

فصحت بها : « تالله ما أذكاك يا فتاتى ! !. كيف لم نفطن الى هذا بمثل هذه السرعة المدهشة ؟ »

فقالت لولو : « وماذا تكون مزية العبقرية وفضيلتها إذن ؟ »

قلت : « صدقت يا فتاتى النابغة .. »

فقالت زوجتى مقاطعة : « أهذا وقت الكلام الفارغ ؟ . ألا تفكرون فى طريقة لاستردادها ؟ »

فقلت : « آه .. هنا أيضاً عبقرية ولكن من ضرب آخر ، ضرب عملى لا يرتاح الى النظريات .. عبقرية يمكن أن ننعتها بأنها نابليونية ؛ ولست أرى أنه ينقصنا — لنوقن من أن السيارة عائدة باذن الله — إلا ضرب ثالث »

فقالت زوجتى متهكمة « نعم يا سيدى .. ؟ »

قلت بحدة : « لا تتهكمى يا امرأة .. نعم ينقصنا الضرب الشِّرلُكْمُزِى »

فصاحوا جميعاً : « إيه ؟ »

فقلت : « أعوذ بالله ! ! ما لكم تصرخون هكذا ؟ . نعم الشرلكمزى . . يا جهلة . . لو كنتم تعنون بتثقيف عقولكم الفارغة قدر عنايتكم بخلافى والمكابرة معى وإنكار نعمتى عليكم وجحود فضلى .. لعرفتم أن الشرلكمزى نسبة الى شرلوك هولمز »

فقالت زوجتى وهى تضع كفها على فمى : «طيب اسكت بق !»

فلثمت راحتها وسكت — كما أمرت !

***

وقال سليم — أخو لولو — : « إن من الواضح أن علينا أن نتفرق »

قلت : « بديهى . . حتى لا يرانا اللصوص فيخافوا . . نعم يحسن ألا نضع شيئاً يزعج اللصوص ويفسد عليهم متعتهم »

فصاح بى : « يا أخى ألا تكف عن هذا العبث ؟ »

قلت : « كففت باذن الله . . تفضل . . ولكن اسمح لى أن أسأل هل تعنى أن نرسل الأطفال وحدهم فى ناحية ، وأمهم وأختك فى ناحية ، وتذهب أنت إلى حيث ألقت ، وأعود أنا إلى البيت ، وقد تخلصت منكم جميعاً ؟ ؟ إن كان هذا مرادك فأنا من الآن موافق ، والسلام عليكم ، ولا تكلفوا أنفسكم إرسال عناوينكم »

وبعد أن هدأت الضجة التى أثارتها هذه الكلمات البريئة قال سليم : « تأخذ أنت الأطفال وهاتين أيضاً — وأشار إلى زوجتى وأخته — وتركب تاكسى وتمر أولاً بمركز البوليس ثم لا تتكل عليه بل تذهب تبحث . . وأنا أذهب أبحث من ناحية أخرى »

فقالت زوجتى لسليم : « بل أكون أنا معك فانى لا أكاد أطيق مزحه فى هذه الساعات . . إنه لا يفرق بين جد وهزل .. كل وقت عنده صالح للضحك . . شىء فظيع . . »

قلت : « أشكرك . . على أنى أستطيع أن أهذب لك خطتك العقيمة . . »

فقالت زوجتى : « بالله اسكت . . . أرجوك . . . أر . . . جوووووك »

قلت : « حالاً . حالاً . كل شىء فى وقته يا امرأة . . وهل هذا وقت رجاء ؟ ؟ إنه وقت العمل . . ألا تفهمين ؟ . اسمع يا هذا . . تذهب أنت إلى البوليس وتعفينى من هذه المهمة التى لا أرتاح إليها ، ولا أعتقد أن فيها فائدة ، وتأخذ معك هذه الزوجة الجاحدة الناكرة للجميل ، وافعل بعد ذلك ماتستطيع ، وإلى الملتقى فى البيت العامر إن شاء الله »

فقالت زوجتى : « أبوه . . أنا أقول لكم ماذا ينوى أن يصنع . . سيذهب إلى البيت مباشرة ولا يكلف نفسه أى عناء فى البحث عن سيارته . . وسترون »

فقلت : « وهبينى فعلت ذلك فهل كنت تحسبين أنى شرطى أو بوليس سرى ؟ ؟ وماذا أصنع إذا كانت السيارة قد سرقت ؟ هل أجرى فى الشوارع كالمجنون ؟ . . أو أقعد على هذا الرصيف

وأبكى ؟ . . ثم إن معى طفلين صغيرين يريدان أن يناما . . أليس كذلك يا ميدو — اختصار عبد الحميد من فضلك — ومعى أيضاً هذه الفتاة الطويلة البلهاء التى لا رأس فى عقلها — أعنى لا عقل فى رأسها ! »

فمضيا عنى ولم يجيبا بشىء . وضحكت لولو فقلت : « هـذا أحسن . . ما فائدة الحزن واللطم والنـدب ؟ ؟ ثم إنهما مغفلان — ولا مؤاخذة — فتعالى نسأل أولاً الحارس الذى كان هنـا متى رآها آخر مرة فقـد خطرت لى فـكرة أرجو من ورائها خيراً كثيراً وراحة تامة »

وبحثنا عن الحارس حتى وجدناه نائماً تحت شجرة فأيقظناه فقال لنا : إنها كانت هنا منذ وقت قصير جدا وقد ركبها رجل وفتاة ، وإن الرجل قال حين سألته عن الباقين — منا — : إنه ذاهب ليشترى لهم شيئاً ثم يعود . فسألته عن الاتجاه الذى ذهبا فيه فأشار الى القناطر وطريق القاهرة

فطلبت أن يجيئنا بتاكسى بسرعة ، وقلت للولو : « إذا حقق الله ظنى فسيخيب أمل السارق وفتاته ، لأن السيارة ليس فيها من البنزين ما يكفى إلا عشرة كيلو مترات على أكثر تقدير ، وأنا أرجو أن يخطئ الخطأ المعقول أى أن يتوهم أن من يجئ إلى القناطر بسيارة لا بد أن يكون قد تزود الـكفاية من البنزين للذهاب والاياب معاً ، فيمضى معولاً على ذلك ومتخوفاً من أن يقف فى القناطر لأخذ بنزين آخر فتقف به السيارة فى الطريق حيث لا بنزين ، ولا يخطر له فى أول الأمر أن هذه هى العلة فيدور يبحث عن سبب آخر لوقوفها ويضيع فى هذا وقتاً ثميناً ثم ييأس فيتركها فى الطريق وينجو بجلده »

وكنت أنا مقتنعاً بهذا الرأى حتى لقد اشتريت « صفيحة بنزين » من القناطر وضعناها معنا فى التاكسى وقلت للولو : « لهذا فائدة أخرى هى أن يعتقـد سائق التاكسى حين نتركه ونركب سيارتنا أنا ما استأجرنا سيارته إلا لهذا السبب ، فلا يروح يعجب أو يسأل عن شىء ولا يبدو له شىء غريب فى عملنا »

وقد شاء الله أن يحقق ظنى فما كدنا نقطع خمسة كيلو مترات من الطريق بعد أن تركنا القناطر وأخذنا فى سكة قليوب حتى وجدنا السيارة . وأوجز فأقول إنا ركبناها فرحين وعدنا إلى القناطر عسى أن نجد بقيتنا . فلما لم نجد أحداً تركنا لهم خبراً عند الحارس النائم ثم حملناه معنا إلى مركز البوليس لنسرهم ونفهمهم من البحث فعلمنا أن أصحابنا أبلغوهم خبر السرقة ، وأن بعض الشرطة خرج للبحث وأن الخبر طير بالتليفون إلى قليوب والقاهرة ولجهات أخرى أيضاً لضبط السارق فى الطريق . فشكرنا لهم هذه الهمة التى لم تـكن متوقعة ثم قلت لهم : « إن المهم الآن هو البحث عن زوجتى ! »

فصاح الرجل « إيه ؟ »

قلت : « إنها مع قريبى وقريبها »

قال : « انتهينا »

قلت : « كلا لم تنته . . وما أدراك أن هـذه ليست سرقة أخرى أفظع وأشنع ؟ »

فضحك الرجل وجرتنى لولو وهى تحتج

* * *

تركنا السيارة أمام رصيف البيت وجلسنا فى الشرفة نأكل لحم الغائبين — أعنى ننتظرها — وإذا بهما عائدان بعـد نحو ساعتين فى سيارة — هى أخت سيارتنا بلا فرق — فانحدرت إلى الطريق بسرعة فوجدتهما يتأملان هـذه المعجزة . فقلت : « تمام .. لقد سرقت هذه السيارة يا صاحبى ولم أكن أعرف أن قريبى ونسيبى لص .. ولـكن ماذا أصنع ؟ . لقد أخفوك عنى قبل أن أتزوج . فصار واجبى أن أخفيك أنت عن الناس بعد أن تزوجتُ »

فهم بكلام فمنعته ودعوته أن ينظر إلى رقم السيارتين ، فاقتنع وقال ما العمل الآن ؟ قلت : « تستعد للسجن . . لقد كان هذا واجباً من زمان طويل فى الحقيقة ، ولـكن ما أكثر من يستحقون السجن وهم طلقاء .. والآن اذهب بالسيارة إلى الجراج — السيارة المسروقة — ثم أبلغ البوليس بالتليفون وقل له إنك عندى تنتظر حضوره للقبض عليك »

وعرفنا منهما بعد ذلك أنهما ركبا القطار ثم الترام إلى العتبة الخضراء وإذا بهما يريان السيارة عند رصيف إدارة البريد فذهبا إليها يعدوان فألفياها خالية فركبا ، وساقها هو وانطلقا بها من غير أن يعنيا بالنظر الى رقمها وانحدرا بها فى شارع فاروق وتركا

صاحبها المسكين يجرى وراءهما ويصيح ويصرخ ويستنجد وهما يضحكان مسروران ! بارك الله فيهما من لصين جريئين !

فقلت لهما : « لا عليكما . . ستكون العتبة الخضراء كلها عندنا بعد دقائق ببوليسها وصبيانها وباعتها . . إلى آخره . . إلى آخره .. وسيشهد الجيران وجيران الجيران ، أمتع رواية رأوها أو يمكن أن يروها فى حياتهم أو حياة هذا الشارع الرزين »

وجاء الشرطة والمسروق المسكين فى تاكسى . وكان لا بد أن يروا السيارة وأن ينزلوا ، وكنت واقفاً إلى جانبها أنتظر هذا التشريف ، فقال الرجل « هذه هى .. » ومسح العرق المتصبب ودنا منها وهم بأن يفتح بابها فتصديت له وقلت : « عفواً .. هل من خدمة ؟ . »

فصاح « خدمة ؟ ؟ خدمة يا حرامى يا مجرم !! أين أخفيت شريكتك ؟ المرأة التى كانت معك ؟ »

فنظرت إلى الشرطى وأنا أبتسم — فقد كان الموقف يتطلب الهدوء والكياسة — وقلت : « هذه سيارتى ياحضرة الشاويش فما خطب هذا الرجل ؟ »

فصاح الرجل « سيارتك يا حرامى يا صفيق الوجه ؟ »

قلت : « إنى أسمح لك بأن تتأملها »

فدار حولها ونظر إليها من الأمام ثم من الخلف ، ثم وقف أمامى وهو يرعد وينتفض ويقول : « أنا مجرم !! . . بسرعة غيرت أرقامها ؟ ؟ ولكن هل تظن أن هذا ينفعك ؟ »

فبدا على وجه الشرطى التردد حينما سمع أن الأرقام مختلفة ، وإذا كان المفجوع فى سيارته قد طار عقله ، فان الشرطى لا يوجد ما يدعو إلى ذهاب عقله أيضاً . وقلت أنا : المسألة بسيطة . ومن المعقول أن أغير لوح المرور بسرعة ، ولكن ليس من المعقول أن أغير رقم الشاسيه المحفور على محرك السيارة ، فتفضل واذكر هذا الرقم بعد مراجعة رخصتك إذا شئت ثم ارفع غطاء المحرك وانظر . »

ففعل فاذا الرقم مختلف جداً وشعر بالهزيمة ، وأدرك أنه تجنى على جداً ، فبدأ يعتذر ، فسألته

« ولكن كيف يمكن أن تخطئ إلى هذا الحد ؟ ؟ هل يعقل ألا تعرف سيارتك ؟ »

قال : « إنه لا فرق بينهما على الاطلاق — لا من الداخل ولا من الخارج ؟ »

فقال الشرطى : وهو يريد أن يفض النزاع الذى تهور فيه صاحبنا : « مادامت السيارتان متشابهتين إلى هذا الحد فانه معذور ، فسامحه »

قلت : « وهل كنت تعذرنى لو أنى أخطأت مثل خطئه ، وذهبت أسب الناس وأتهمهم بالسرقة ؟ »

قال « طبعاً . . صحيح إنه تهور فى الاتهام قبل التثبت ، ولكنه معذور فى خطئه فى معرفة السيارة »

قلت « وإذا دللتك على سيارتك هل تشكرنى ؟ ؟ أم تستأنف اتهامك لى بالسرقة ؟ ؟ »

فعاد إلى الاعتذار ، وأكد لى أنه يكون شاكراً جداً ، فلم يبق داع للاطالة ، فرويت له وللشرطى القصة من أولها إلى آخرها كما وقعت ، وقلت لهما : إننا أبلغنا مركز البوليس أنا وجدنا السيارة الأخرى التى ظنها قربى سيارتنا ، وأن البوليس لا شك سيحضر بعد قليل ليتسلمها

وبهذا انتهى الحادث

وقلت لزوجتى وأنا أدخل بعد الفراغ من ذلك : « هل تعترفين الآن أن الذى كان يضحك ويمزح كان هو الحكيم السديد الرأى الصحيح النظر ؟ »

فآثرت المكابرة وقالت إنها مصادفة واتفاق ، فشهدت لولو بأنى أحسنت التقدير ، فعادت زوجتى تلوم لأنى كتمت رأيى الحقيق وتركتها تذهب وتلف وتدور مع سليم ، وأنى آثرت لها التعب ولنفسى الراحة ، فقلت « ليكون هذا لك درساً . . ألم أقل لك إن تربيتك ناقصة ؟ » فهاجوا بى وثاروا ولكن هذا لا يعنى القراء لا قليلاً ولا كثيراً .

ابراهيم عبد القادر المازنى

أسبوع فى سبتمانيا

من ذكريات العرب والاسلام فى غاليس

للاستاذ محمد عبد الله عنان

فى أحد أبهاء قصر فرساى مجموعة من الصور الرائعة تمثل مناظر من الوقائع الحربية الشهيرة التى انتصر فيها ملوك فرنسا؛ وبين هذه المجموعة صورة لموقعة بلاط الشهداء التى نشبت بين العرب والفرنج على ضفاف اللوار فى سنة ٧٣٢ م، يبدو فيها عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس، وقائد الجيش الاسلامى، شيخاً رائعاً ذا لحية طويلة بيضاء، وهو شاهر سيفه، ومن حوله بعض جنوده قتلى، وأمامه جنود الفرنج يكرون على خصومهم بشدة، وتبدو عليهم أمارات التفوق والنصر

وهذه الصورة إحدى الذكريات القليلة التى تحتفظ بها فرنسا عن عصر يكاد يمحوه النسيان من صحف تاريخها، ونحن نعرف ماذا كان من أمر العرب فى بلاط الشهداء، فقد قتل قائدهم عبد الرحمن خلال الموقعة، ثم ارتدوا فى ظلام الليل إلى الجنوب؛ وغنم الفرنج الموقعة، واقترنت ذكرى النصر إلى الأبد باسم قائدهم وزعيمهم كارل مارتل، واعتبرته التواريخ النصرانية منقذ أوربا والنصرانية من الاسلام وسلطانه وتعاليمه

بيد أن ذكرى هـذا النصر الفرنجى لا يمكن أن تحجب ذكريات عصر قصير باهر قضاه العرب فى جنوب فرنسا، فقد افتتح المسلمون ولايات فرنسا الجنوبيـة فى أوائل القرن الثامن واستقروا فى سبتمانيا زهاء نصف قرن؛ ثم عادوا فى أوائل القرن العاشر جماعات مغامرة مجاهدة واحتلوا كثيراً من أنحاء بروفانس والرفيرا، واستعمروها زهاء قرن، وتركوا كثيراً من آثارهم وذكرياتهم المنوية فى تلك الأنحاء

ولـكن الأوربى، والفرنسى بنوع خاص، قلما يذكر هذا الفصل من تاريخ العرب والاسـلام فى أوربا؛ وإذا كان بعض الباحثين والمؤرخين الاخصائيين يعرضون إليه فى كتبهم، فان التواريخ الغربية العامة تمر عليه غالباً بالصمت، أو تذكره عرضاً كحادث طارىء طوى صفحته تعاقب الأحقاب؛ وإذا قصصت على الفرنسى المثقف شيئاً من تفاصيل هذه الغزوات الاسلامية لجنوب فرنسا، وذكرت له أن العرب قد انتهوا فى فتوحاتهم إلى أعالى نهر الرون، وأنهم استولوا على بيزانصون مسقط رأس شاعرهم فكتور هوجو، وعلى ليون وماسون وصانص، وأنهم احتلوا الأنجدول وبروفانس دهراً، وأن قواعد سبتمانيا مثل أربونه وأجده ومجلونه وقرقشونه، مازالت تسمى بأسمائها العربية محرفة إلى الفرنسية: إذا ذكرت للفرنسى المثقف شيئاً من ذلك أصغى إليك بمنتهى الدهشة وكأنما يصغى الى قصة خرافية يطبعها الخيال المغرق

***

ولقد أتيح لى أن أقضى أسـبوعاً فى هاتيك الربوع التى خفقت عليها الأعلام العربية حقبة من الدهر. أجل، خطر لى أن أجوز إلى سبتمانيا القديمة، وأن أشاهد قواعدها التى مازالت أسماؤها تنم عن ذكرياتها العربية. ولقد كانت سبتمانيا — وهو اسمها القديم ومعناه ذات المدن السبعة — أو لانجدولا الحديثة، أول أرض فرنجية غزاها العرب عقب افتتاح الأندلس، واتخذوها قاعدة لغزواتهم فى جنوب فرنسا، وجعلوها ولاية أندلسية سميت بالثغر (La Marehe) أو الرباط لوقوعها على ساحل البحر الأحمر؛ وكانت مدن سبتمانيا السبعة: أرله، وأربونه، ونيمه، وقرقشونه، وبيزيه، وأجـده، ومجلونه. وكانت أربونه عاصمتها، وكانت أمنع المعاقل العربية فى غاليس (جنوب فرنسا). ولـما وقعت الحرب الأهلية فى الأندلس، عند ما أشرفت الخلافة الأموية على نهايتها، كانت أربونة قاعدة المعارضة لحكومة قرطبة، وكانت منزل الحركة التى قام بها حاكمها عبـد الرحمن اللخمى «أشجع فرسان الأندلس» لانتزاع أمارة الأندلس؛ ولـما اضطربت أحوال الأندلس الداخليـــة، انتهز الفرنج الفرصة لاسترداد سبتمانيا، وكانت أربونه آخر معقل عربى وقف فى وجه الفرنج، ولم تسقط إلا بعد دفاع مجيد سـجلته الروايات المعاصرة، وكان ذلك فى منتصف القرن الثامن الميلادى (سنة ٧٥٨ م)

تلك هى خلاصة المأساة العربية فى سبتمانيا. أجل كان العرب سادة فى هاتيك الربوع منذ ألف ومائتى عام؛ ولـكن سبتمانيا

لا تحمل اليوم أقل أثر مادى من طابعها العربى القديم . بيد أنه مما يلفت نظر السائح المتجول أن اسم « حى العرب » أو « شارع العرب » يطلق على كثير من الأنحاء فى مدن الرفييرا وسبتمانيا ؛ وهذا يرجع بلا ريب إلى وحى الذكريات العربيـة ؛ وقد توجد أيضاً أطلال دارسة لبعض الحصون العربية ، ولكنها مما يصعب تعيينه وتحقيقه

على أنه توجد ثمـة آثار معنوية كثيرة من العهد العربى فى الحياة الاجتماعية فى تلك المنطقة ، وبخاصة فى بروڤانس حيث تأثر التفكير والآداب عصراً بالمؤثرات والأساليب العربية ، وحيث طبع المستعمرون المسلمون فى القرن العاشر حياة هذا الاقليم بطابع من عاداتهم وتقاليدهم . وقد كانت هذه الحقائق التاريخية موضع عناية بعض الباحثين فى القرن الماضى فتناولوها بالشرح والاستقصاء ، وكانت مباحثهم فتحاً جديداً فى هـذا الميدان ؛ ونستطيع أن نخص بالذكر منهم العلامة المستشرق رينو ، فقد كتب عدة فصول بديعة فى كتابه « غزوات العرب فى فرنسا » Hist. des Invasions des Sarazins en France عن الآثار الفكرية والاجتماعية فى جنوب فرنسا وبخاصة فى بروڤانس

ولقد اخترقتُ سبتمانيا من آرله Arles حتى جبال البرنيه ؛ ووقفت مدى حين فى مدينة أربونه Narbonne . وقد أذكى خيالى حين شهدت عاصمة الرباط الأندلسى القديم ، تلك الذكريات العربية البعيدة التى تغيض فى عالم القرون والتى لم أجد لهـا أثراً فى المدينة الفرنسية الحديثة . وحينما وقفت فى « بربنيان » تذكرت أنها كانت مجاز الجيوش الأندلسية إلى غاليس ، وأن عرب الأندلس كانوا يفضلون اجتياز جبال البرنيه من الناحية الشرقية من ممر بربنيان ، مخترقين قطلونية إلى « الثغر » ثم يتجهون بعد ذلك شمالاً إلى أقاليم الرون ، أو غرباً نحو « اكوتين » ؛ بيد أنه توجد إلى جانب ممر بربنيان ممرات أخرى كان يتدفق منها عرب الأندلس إلى جنوب فرنسا ، وأشهرها ممر « رونشفال » الشهير الذى يسميه الادريسى « باب الشزرى » . ولرونشفال ذكرى خالدة فى التاريخ والقصص الفرنسيين ، فقد كانت مسرحاً للموقعة الشهيرة التى مزق فيها العرب جيش كارل الأكبر (شارلمان) حين عوده من غزوته لأسبانيا الشمالية ، التى نظم فيها رولان وصيف شارلمان أنشودته الشهيرة Chanson de Roland

وإن السائح المتجول ليتساءل حين يتأمل تلك الوهاد كيف استطاع العرب الذين برزوا من بسيط الصحراء إلى الغزو أن يجتاحوا تلك الهضاب الوعرة ، وأن يحرزوا النصر الباهر فى هاتيك السهول النائية على حين أن أعداءهم أعرف بطباعها وجنباتها . ولقد كان اجتياز جبال البرنيه الشامخة أعجوبة فى التاريخ القديم ، ولكن العرب اجتازوا تلك الربى الهـائلة واقتحموها مراراً فى سبيل الفتح . ولقد خالجنى مثل هذا الشعور حينما اجتزت صحراء العرب منذ بضعة أعوام ، وأذكى القفر الشاسع خيالى ، فتساءلت كيف استطاعت الجيوش العربية الزاخرة أن تجتاح هـذا القفر الرائع فى عصر كان التنقل فيـه محفوفاً بأعظم المشاق ؟ وكيف كانت هذه الجيوش تمون نفسها بالزاد والماء خلال أسابيع طويلة تستقبل فيها الشمس المحرقة والرياح السافية ؟ أجل لقد كان اجتياز الجيوش الاسـلامية فى مختلف العصور لصحراء العرب وصحارى الشام وشمال افريقية أعجوبة من أعاجيب العصر ، بل إن اجتياز هـذه الصحارى فى عصرنا يعتبر عملاً من أعظم الأعمال الحربية

ولقد ذكرت بهذه المناسـبة ملاحظة غريبة أبداها المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون عن خواص الفتح العربى ، فقد عقد فى مقدمته فصلاً ذهب فيه إلى « أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط » وأورد كعادته أمثلة وأسباباً ، ولكنى أعتقد أن ابن خلدون غير محق فى ملاحظته ؛ ويكفى أن نذكر أن العرب افتتحوا هضاب فارس وأرمينية والأناضول والغرب ، وافتتحوا أسبانيا وتغلبوا على وعرها بأيسر أمر ، ثم اقتحموا جبال البرنيه الشامخة إلى فرنسا وافتتحوا ما وراءها من الهضاب والسهول ؛ ولم تكن هذه كلها من البسائط التى يعنيها ابن خلدون

* * *

هذه خواطر أثارتها فى نفسى زيارتى لسبتمانيا أو الرباط الأندلسى القديم ؛ ولقد قضيت فى تلك الربوع أياماً ؛ وكنت كلما وقفت بأحد هـذه المعاهد القديمة ارتد خيالى إلى ما قبل ألف ومائتى عام وتصورت العصر الاسلامى كله ماثلا أمام عينى بحوادثه ووقائعه الحافلة ، ومرت بذاكرتى أسماء عربية رنانة روت بدمائها تلك

لمعات

الى الفيلسوف الشاعر محمد اقبال

جواباً لكتابيه : « أسرار خودى » و « رموز بى خودى »

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

للصوفية فلسفة عالية فى العالم والانسان والخالق ، ولهم آراء حكيمة فى الأخلاق والاجتماع . وقد صاغوا كثيرا من آرائهم فى صور شعرية جميلة تجلى فيها القلب الانسانى فى أرق مداركه ، وأصفى منازعه ، وصوروا فيها خفايا النفس الانسانية

وفى العربية كثير من الشعر الصوفى مفرّق فى الكتب . وفيها دواوين خصّت بهذا الضرب من الشعر ، أسيرها ذكراً ديوان ابن الفارض ، ودواوين ابن العربى ، وديوان النابلسى

ولشعراء الفارسية المقام الأسمى فى الشعر الصوفى ، وقد حاكاهم فيه شعراء التركية والأردية . وأعظم شعراء الفارسية فى هذا مجد الدين سنائى وفريد الدين العطار وجلال الدين الرومى ، وهو زعيم شعراء الصوفية وفلاسفتهم جميعاً

— ٢ —

وكأن الله سبحانه أراد أن يبعث مولانا جلال الدين فى هذا العصر مزوَّداً بفلسفته وعلومه ، إلى فلسفة الصوفية ، وصفاء نفوسهم ، فبعثه فى صورة شاعر الاسلام وفيلسوفه محمد إقبال الهندىّ

ولاقبال منظومات كثيرة معظمها بالفارسية ، وبعضها بالأردية ، وقد ضمنها من الفلسفة والتصوف والأخلاق والاجتماع والسياسة ونقد المدنية ما يملأ القارىء إعجاباً . والرجل حرّ ، يكره التقليد ويحذّر منه ، فعقله وقلبه ظاهران فى كل ما يكتب . ومن منظوماته كتابان سماهما « أسرار خودى » و « رموز بى خودى » أى أسرار الذاتية ، ورموز اللاذاتية . ومدار البحث فى الأول بيان أن العالم قائم على « الذاتية » وأن حياة الانسان بابراز ما أودع فى فطرته من المواهب ، وتقوية نفسه . ومدار البحث فى الكتاب الثانى بيان ائتلاف الأفراد فى الجماعة ، وما تقوى به الجماعات . وقد شرح ذلك كله شرحاً مبيناً ، وضرب الأمثال ، واستشهد التاريخ ، وسما إلى الدرجة العليا فى الشعر

وقد ترجمت فى مجلة (الرسالة) صفحات من هذين الكتابين ، ومن ديوانه پيام مشرق الذى جعله الشاعر جواباً للشاعر الألمانى جوته

— ٣ —

وقد بدا لى أن أنشر فى (الرسالة) منظومة أهديها إلى إقبال ، وأجعلها صدى لكتابيه المذكورين آنفاً

وأريد مع هذا أن أنهج بها فى العربية نهجاً جديداً ، وأجعلها مثالاً للمعانى السامية التى يتناولها الشعر إذا أطلق من عقاله ، وحرّر من الموضوعات الضيقة التى اعتادها جمهور الشعراء ، ولا سيما المعانى التى تكثر فى أشعار الصوفية العظام . ثم أريد أن أجعلها مثالاً للقافية المزدوجة التى قصرها شعراء العربية على الرجز المشطور كما قصروا الرجز على نظم العلوم كالألفية والجوهر المكنون ، والتاريخ كمنظومة ابن عبد ربه فى أمراء بنى أمية ، والقصص ككتاب كليلة ودمنة ، والصادح والباغم . وينبغى أن يسرى هذا الضرب من التقفية الى أبحر الشعر الأخرى حين تعالج الموضوعات الواسعة . فهذا الذى سنّى لشعراء الفارسية

الأرض : السمح بن مالك بطل موقعة تولوشة ، عبد الرحمن الغافقى بطل موقعة بلاط الشهداء . . . . ولقد كنت فى الواقع على سفر إلى الأندلس ، وكنت أعتزم أن أتجول فى ربوعها التى مازالت تحمل ذكريات عزيزة للاسلام وآثاره ، ولكن الثورة الاسبانية المشئومة حالت دون تحقيق هذا الأمل ، فلبثت أياماً فى سفح جبال البرنيه أرقب الحوادث وأنتظر سنوح الفرصة ، ولكن شاء ربك أن يندلع لهيب الثورة فى جميع أنحاء أسبانيا بصورة مروعة تحمل أشد المغامرين على الزهد فى زيارتها

على أن الزمن كفيل بتحقيق الأمل ، والصعاب تشحذ العزائم . وسوف أستعين بالله دائما على المضى فى مباحثى الأندلسية إلى أن يحقق أملى كاملاً فى إخراج تاريخ العرب والاسلام فى أسبانيا

فينا فى ١٨ أغسطس — محمد عبد الله عنان

وغيرهم أن ينظموا عشرات الآلاف من الأبيات فى قصة واحدة أو كتاب واحد

وقد اخترت وزن الرمل ليُسره وخفته واقتداء بجلال الدين فى المثنوى ومحمد اقبال فى بعض كتبه ولا سيما أسرار خودى ورموز بى خودى

— ٤ —

ثم التفعيلة الثالثة فى الرمل تأتى تامة (فاعلاتن) ومقطوعة (فاعلاتْ) ومحذوفة (فاعلا) . والقافية المزدوجة تجعل كل شطرين متفقين فى الروى منفصلين بعض الانفصال عن غيرهما . فينبغى أن يسوّغ الجمع فى المنظومة الواحدة بين أبيات على فاعلاتن وأخرى على فاعلاتْ أو فاعلا تيسيرا للناظم . ولكن الجمع بين فاعلا ، وفاعلاتْ حسن لا عيب فيه لأن الحرف الأخير فى فاعلاتْ لا يأتى إلا بعد مدّ . وبهذا المدّ يتم الوزن فيأتى الحرف بعد المدّ نهايةً للصوت فلا يشعر المنشد باختلاف النغمة بين فاعلا وفاعلاتْ . مثال هذا البيتان الآتيان :

رُبَّ معنى فى ضمير يكتمُ ليس فى الناس عليه محرمُ
وقلوب رمسها هذى الصدور أتراني مسمعاً من فى القبورْ

البيت الأول بنى على فاعلا ، والثانى على فاعلات لكن الراء فى كلمتى الصدور والقبور واقعتان بعد مد فتأتيان فى نهاية الصوت كأنهما لا تحسبان فى وزن البيت . وليس الأمر كذلك فى الجمع بين فاعلاتن وغيرها ، ففى البيتين الآتيين :

كان لى الليل مداداً فنفدْ وطنى قلبى بمدّ بعد مدّ
جاشت الظلماء موجاً بعد موج وغزانى الوجد فوجاً بعد فوج

إذا سكَنت الجيم فى موج وفوج يبنى البيت على فاعلاتْ فتجده قريباً جداً مما قبله . وإذا حركت الجيم يبنى على فاعلاتن فيبعد عما قبله بعض البعد . فينبغى أن يجتهد الناظم ألا يجمع بين فاعلا أو فاعلاتْ وبين فاعلاتن فى منظومة واحدة رعاية لانسجام النغمات

وإنى أدعو أدباء العربية الى العناية بهذا المثال الذى أقدمه فى المعانى والقوافى ليقبلوه على بينة أو يردوه بالحجة . والله ولى التيسير

***

أيها الليل إليك المفزعُ كم حنت منك علينا أضلع
كم خفينا فى غيابات الدجى وملأنا الليل هماً وشجى
كم أَلِفتُ الليل أُمّاً حانيه وكرهت النجم عيناً رانيه
كم ألفت الليل وحشاً راقبا فى شعاع الصبح سهماً صائبا
كم بثثت الليل سراً كتِما فوعاه الليل عنى أَلَما
كانت الظلماء لوحاً للألمْ خطّتْ الآهات فيه كالقلمْ
كان لى الليل مداداً فنفد وطنى قلبى بمدّ بعد مدّ
جاشت الظلماء موجاً بعد موجْ وغزانى الوجد فوجاً بعد فوجْ
فنيت هذى وهذا زاخرُ وانجلت هذى ، وهذا غامرُ
خلتنى فى الليل جمراً سُعّرا. ونجوم الليل منه شررا
إرَة قد وقدت فى أضلعى(١) وسحاب هاطل من أدمعى

***

كنت سطراً لم يفسره أحدْ خطَّه فى غيبه الله الصمد
فى ضميرى كل معنى مُنبَهِمْ. حرت فى الاعراب عنه بالكِلم
قد ثوى العالم فى قلبى وما خُطَّ شىء فيه إلا الحرف «ما»(٢)
جلّ قلبى أن أراه جامَ جم(٣) صُور الأقطار فيه تنتظم
إنما الأقطار فى قلبى العميدْ أحرف أوحت إلى معنى بعيد
ربّ معنى فى ضمير يكتمُ ليس فى الناس عليه مَحرَمُ(٤)
وقلوب رمسها هذى الصدورْ أتراني مسمعاً من فى القبور(٥)
أنا فى الناس فصيح أعجمُ ناطق فيهم كأنى أبكم
صمّت الآذان عن هذا البيان ضاع فى ضوضائهم هذا الأذان
كيف يجدى القوم هذا النغمُ وعلى الآذان ران الصممُ ؟
كيف يجدى القدح فى هذا الحجر ؟ قلبه رخو خلىّ من شرر
إن خفق القلب قدح مُجهِدُ بعضه يورى وبعضٌ يصلد
كيف يجدى النفخ فى هذا الرمادْ طفىء الجمر ولم تور الزناد

(يتبع) عبد الوهاب عزام

(١) الارة جبل النار
(٢) يعنى لم يكن العالم فى قلبه إلا نفياً
(٣) جام جم أو كأس جشيد فى خرافات الفرس كأس كانت ترى فيها الأقاليم السبعة
(٤) المحرم هنا الأمين على السر كما يؤتمن المحرم من الأقارب على الحرمات
(٥) إشارة الى الآية : وما أنت بمسمع من فى القبور

فن القصـــة
فى الأدب المصرى الحديث

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

للأستاذ هلال أحمد شتا

ويلاحظ المتتبع لتاريخ القصة المصرية أن ثلاثة من كتابها الأفذاذ قد تنحوا عن الجهاد فى سبيلها أوكادوا ، وبقى واحد فرد يحاول ما يستطيعه الواحد الفرد . . فلقد أقبل هيكل على ميدان آخر يشحذ له قلمه وحسه ، هو ميدان الصحافة والبحث العلمى والدينى والسياسة ، وانهمك أبو حديد فى عمله التعليمى ودراساته التاريخية ، وذهب تيمور مذاهب أخرى فى الدراسة والأدب ... ثم بقى المـازنى بعد ذلك يسير فى طريقه سيراً هادئاً ، ويخص القصة بمعض عنايته ، بقـدر ما تنحت أعماله الصحفية ، وما أفسحت لفنه من مجال قصير

ولقد كان هذا مما أوقف القصة المصرية العربية الناشـئة موقفاً نشفق منـه عليها ، وما زالت فى عهد الصبا تنشد الرعاية والعناية ؛ ولـكن فريقاً آخر من الشبان قد أقبـل بعد لها يداً مباركة نرجو أن تدفعها إلى عهد الشباب قوية سريعة الخطوات

ومن بين هذا الفريق ثلاثة نلمح فيهم استـعداداً كثيراً ، وفناً غزيراً ، وهم : محمود البدوى ، وشوكت التونى ، وطاهر لاشين

فحمود البدوى ، الذى عرفناه مترجماً للقصة الروسـية القصـيرة على صفحات الرسالة الغراء ، قد آنس فى نفسه قدرة على الـكتابة ألهبت شغفه وشحذت عزيمته ، فاذا هو يدفع إلى ميدان القصة كتابيه « الرحيل » و « رجل »

والذى يعرف البدوى فى هدوئه وصمته ، وبعده عن مجالات الأدباء والـكتاب ، قد يستولى عليـه عجب ، حين يرى اهتمام الـكتاب بأمر كتابيه وتهافتهم على نقدهما وبحثهما . . ولـكن الذى يعرف البدوى من ثنايا سطوره ، لا يرى عناء كبيراً فى أن يعرف الدافع الشريف الذى حمل هؤلاء الـكتاب على العناية بفنه وأدبه

وقد تتلمذ البدوى على المدرستين الروسية والانجليزية ، فكان مزاجا منهما معاً ، ثم أضاف الى ذلك شخصيته التى استقل بها ، فكان قصصياً موفقاً . وأميز صفاته أنه مخلص لفنه إخلاصاً شديداً حتى ليكاد يعجز عن أن يزاول سواه ، لأنه استغرق كل تفكيره واستبد بجميع جهوده ، وسيكون لنا منه من يسد فراغاً عزيزاً

وشوكت التونى قصصى موهوب ، وكاتب قادر ، غير أنه كاد يسىء الى فنه إساءة بالغة ، حين صمت عن الـكتابة صمتاً غير محمود ، متفرغاً لدراساته القانونيـة وقضاياه . . ولو لم يغمره — منذ قريب — نشاط أدبى نعرفه ، لفقده عالم القصة آسفاً أسفاً شديداً ، لأنه يعرف فيه ما يدفعه الى التشبث به .. وقد يمحو آثار صمته الطويل أنه أقبل اليوم قوياً بدراساته وميله بعد انقطاع عن الفن الذى يحبه ويقدسه .. وسوف لانغفر له — بعد ذلك — صمتاً أو تحولاً . لأن الفن الذى فقـد رجاله أو كاد ، فى حاجة شديدة الى الشباب يشد أزره

وطاهر لاشين قصصى مصرى بديع التكوين ، قد بلغ بفنه وأدبه منزلة جليـلة ، ومجهوده فى سبيل القصّة المصرية كبير ، وأسلوبه العربى سليم أنيق ، نقى البيان لا يحب الاسفاف ، ونأمل فيه خيراً كثيراً . . ونشكر له ما أسـدى . . وما سوف يسدى إن شاء الله

* * *

أولئك وهؤلاء هم المحسنون إلى القصة المصرية إحساناً محموداً الجديرون بالذكر والشكر والاعتراف بالجميل . . . ولـكن طائفة كبيرة ، غير محدودة ولا محصورة ، قد أقبلت منذ سنوات ترمى القصة المصرية العربية بالاساءة المرذولة ، وتفتح فيها فتحاً قدراً على أن يهلـكها ويحطمها تحطيماً . .

وهؤلاء الذين يتخذون من كتابة القصة تجارة ورزقاً ، ويسوقون إلى الميدان كل يوم عملاً جديداً ، قد فقد نتاجهم كل فن أو طرافة أو توفيق ، ولـكنه لم يفقد القراء أو الضالين من المتأدبين ، وهذه هى الاساءة التى تؤلمنا ألماً مراً وتحز فى صدورنا حزاً موجعاً . .

نعم . . فقد استطاع بعض هذا النفر ، أن يجعل من نتاجه المشوش مدرسة يسير تلاميذها على طريقته الملتوية التى لا تؤدى

إلى فلاح ، فأفسد بذلك الذوق الأدبي ونال منه ، وألحق بالفن خسراناً مبيناً

والذي يقرأ اليوم هـذه القصص التجارية التي تحفل بها المجلات والكتب ، ناشداً منها تسلية أو اتلافاً للوقت ، لا شك يخرج من قراءته وقد خسر وقتاً حقيقاً بألا يبعثر ويعبث به ، ويتأثر — بعد ذلك — بما قرأ تأثراً قد ينال من تفكيره ، وقلمه ، وذوقه جميعاً

ولسنا نقصد بالقصة التجارية القصة المترجمة وحسب ، بل إننا نقصد المترجمة والموضوعة على السواء ، لا بل ونعني الموضوعة باهتمام خاص .. فلقد سار كتابها اليوم على طريق لا ندري إلى أية هاوية تصل بهم وبقرائهم ، حين أدخلوا في قصصهم نوعاً من الأسلوب نستطيع أن نسميه « أدباً خليعاً » ، وهو مزاج من العامية الرخوة ، والعربية المهدمة ، والفرنسية التي يتحدث بها خليعات النساء

هذه هي المحنة التي تهدد اليوم فن القصة في مصر ، وأعترف أني عاجز عن أن أصف لها دواء ، فلا أقل إذن من أن أدعو الأدباء والكتاب إلى أن يعلنوا عليها حرباً عواناً تقتلها أو تخرجها عن ميدان الأدب خاسرة ...

***

ولا يمنعني هذا من أن أضع أمام أعين الشباب مثلا للقصصي كيف يكون ، عسى أن أبلغ بهذا الذي أقول أملا طالما نشدته وسعيت اليه ، وهو أن يقبل الشباب على ما يستأهل العناية ، وأن يعرض عما يصل بذوقه الفني والأدبي إلى هاوية ليس لها من قرار ..

وأعتقد أن القصصي يجب أن يكون جامعاً لجوانب خمسة ، غير فاقد منها شيئاً

وأول هذه الجوانب : أن يكون عربي اللفظ والأسلوب ، أديباً قوى البيان مشحوذ القلم واللسان ، وأن يكون حريصاً على عربيته معتزا بها عاشقا لها أميناً عليها

وثانيها : أن يكون فناناً بطبعه موهوباً ، قادراً على تصوير كل ما يحيط به وبأبطال قصصه من أجواء الطبيعة ومشاهدها وكل ما يغمر نفوسهم من شعور ، أو ينتابها من أحاسيس ، أو يتكون فيها من عواطف .. وكل ما يجول بأذهانهم من خواطر ، أو يحتدم في صدورهم من رغبات

وثالثها : أن يكون على حظ من الثقافة موفور ، واسع الاطلاع مجرباً ، قد لمس بيديه كثيراً من الحقائق ، وأوغل بنفسه في جوانب الحياة وحواشيها

ورابعها : أن يكون متنبه الحواس يقظاً ، مغذياً ميله الفني ، سائراً في ذلك على نهج قويم ، لأن الميل الطبيعي لا يورق ويؤتي ثماره بغير مران وتنمية ، والفن الجميل يقوم على عمادين من الدراسة والميل ، ولا يقوم على واحد منهما ..

وخامسها : أن يتميز بشخصية مستقلة ، وأن يكون ذا خيال واسع لا يضيق أمام قلمه وبيانه ، وما ينشدانه من بلوغ إلى بعض الحقائق ..

***

والقصة التي يكتبها كاتبها في أسلوب عربي مبين ، والتي تحمل إلى قارئها صوراً صادقة — طبيعية ونفسية — والتي تترجم دقائق الحياة وبسائطها فترفع للذهن قطعة من صميم الوجود ، والتي يفيض من بين سطورها جمال يهز مشاعر عشاق الجمال ، والتي تنتصر فيها حقائق على حقائق ، هي القصة الكاملة التي نريدها . والتي نرجو أن يوفق إلى إخراجها منشئو الجيل الجديد ..

***

وبعد — فقد بلغت بحمد الله نهاية البحث ، بعد أن تراقصت أمام عيني الخواطر والأفكار ، وأرجو أن أكون قد ذهبت فيما قلت مذهباً حقاً ، لا يخاصم العرف الأدبي الذي كسبه الذوق الحديث من بلاغة أبناء العرب وتراثهم الفكري ، ومن دراسات جديدة وفق فيها أبناء الغرب توفيقاً عظيماً ..

وهذا تاريخ موجز للقصة المصرية العربية ، وما أثر فيها فأحسن إليها أو أساء إلى يومنا هذا .. فأما مستقبلها فأخشى أن يذهب بها إلى موضع لا يرضاه المصريون أو الشرقيون . وأرجو — من الأعماق — أن تجد القصة من يرفعها وينهض بها ، وهو أمر ليس باليسير ، وإنما يحتاج رجالاً أشداء عاملين مخلصين .. ولسنا — والحمد لله — فقراء من الرجال ..

هلال أحمد شتا

سكرتيرية مجلس الشيوخ

الخيـــال

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

الخيال — وهو القدرة على انتزاع شتى الصور من الواقع المشاهد واستحضارها فى الذهن فى أى وقت ، والتصرف فيها على مختلف الأشكال والأوضاع — عنصر من أهم عناصر الأدب مهما اختلفت أنصبة الأدباء منـه ، وهو أساس التشبيهات والمجازات ، ولولاه لالتزم الفكر الانسـانى الواقع المتحجر أيما التزام

وللخيال فى الأدب وظائف شتى : فالخيال الصحيح يعين الأديب على إبراز الحقائق بشتى الوسائل ، ويقدره على سبك موضوعه سبكا فنياً لا شذوذ فيه ، وعلى نبذ ما لا حاجة به اليه من تفصيلات قد تشوه ما هو بسبيله ، ويساعده على إضفاء ثوب من الجمال على ما ينشئ

وللخيال يد طولى فى الأدب الانجليزى ؛ فالأديب الانجليزى غزير العاطفة ، إذا جاشت أطلق لها العنان واسترسل مع خياله ، وأثار به منظر طبيعى أو غناء طائر أو ذكرى طارئة أو أثر من آثار الغابرين أو أسطورة من أساطيرهم ، أو غير هذا وذاك كله ، شتى الخيالات والأحلام والأطياف ، وتناهت به عاطفته إلى حدود الأمانى وآفاق المـاضى والمستقبل ، وهذا الاسترسال للخيال إذا أثارته فكرة رئيسية هو مرجع وحدة القصـيدة فى الانجليزية

وهناك عدا هذا الخيال المنبث فى كل مناحى الأدب أغراض خاصة من الأدب قوامها وهيكلها الخيال ، يجمع أطرافها وينهض بكيانها ، ويوثق وشائجها ، وهذه هى الملاحم الطوال فى الشعر والقصص الممثلة أو المقروءة شعراً أو نثراً ، فنى هذه لا يلتزم الأديب الواقع المجرد ، بل يفترق عنه افتراقا جسيما ، ويصوغ من شتى أفكاره وتجاريبه وأمانيه عالماً يجيش بالحياة والحركة ، ويموج بالعواطف والنوازع ، ويفيض بالجمال والامتاع

والأدب الانجليزى حافل بهذه الضروب القائمة على أساس من التخيل المحض ؛ فهناك ملاحم ملتون وهاردى ، وفيها يستعرض كلٌّ من الشاعرين مشاغل عصره ويبحث آراءه وينفث لواعج نفسه ؛ ومن طبيعة أشعار الملاحم أنها تمج بالمردة والجبابرة والآلهة ، وتحفل بخوارق الأعمال وجسائم البطولة ، وهى على رغم هذا كله لا تخرج عن عالمنا الانسانى ولا تغفل النفس الانسانية ، بل تظل نوازع تلك النفس ومشاغلها هى الهدف الوحيد الذى يرمى اليه ناظموها ، إذ فيها يتخذ أولئك الأرباب والجبابرة طبائع الناس وميول الأفراد وإن فاقوا البشر قوة وعظما ، ومن هنا يتأتى للشاعر أن يبسط آراءه فى ميدان متسع وإلى مدى فسيح ، فالخيال هنا لا يعدو الحقيقة ، وإنما يوضحها أحسن توضيح ، فضلا عما يمتع النفس به من قصص متسق وجمال وجلال

وفى الأدب الانجليزى مالا يعد من قصص فى الشعر أو النثر ممثلة ومقروءة . وقوام القصة بطبيعتها الخيال ، وإن تراوح نصيبها منه ؛ فهناك القصص الواقعية التى تلتزم الحقيقة إلى أكبر حـد مستطاع وتصور المجتمع الحاضر تصويرا دقيقاً ، كقصص هاردى ودرامات جالزورذى ؛ وهناك القصص التى ترمى إلى أغوار المـاضى وتدور حول عظيم من رجال التاريخ أو الأساطير ، من طَمُوح يبيع نفسه للشيطان ليمينه على مطامحه ، إلى دائن يتقاضى دينه من لحم غريمه ودمه ، كما فى روايات شكسبير ومارلو وغيرهما ؛ كما أن هناك القصص التى تتطاول إلى آفاق المستقبل ، وفارس هذه الحلبة ولز

هذه الأغراض والأوضاع التى سداها ولحمتها الخيال غير ظاهرة فى الأدب العربى : فلا قصص ولا ملاحم . والمقامات وأشباهها إذا زج بها فى هذا المجال بدت هزيلة عجفاء تدعو الى السخرية ، فأولى بها أن تظل حيث أراد كاتبوها وقصدوا بها من غرض بعيد عن القصص . والأثر الوحيد الذى يعتد به — بل يفتخر به — فى هذا الباب رسالة الغفران : ففيها من آثار الخيال ومتعاته ما لا نظير له فى الأدب كله . على رغم اكتظاظها بأخبار الأدباء ومسائل الأدب والنحو

وفضلاً عن انعدام هـذه الفنون الخاصة فان نصيب الأدب العربى عامة من الخيال ضئيل إذا قيس بنصيب الأدب الانجليزى

منه ، فالأديب العربي كان شديد الحرص على الواقع يلزمه فى موضوعه وأفكاره ، شديد الاختصار فى مقاله وتعبيره عما يحس ، يعبر عن تلك الأفكار أشتاتاً كلما عنَّ له حافز الى الكتابة ، لا يدخر أفكاره ولا يربط منها حاضراً بماض ، بل يرسلها على السجية أبياتاً محكمة النسج موجزة البيان . فالفكرة التى تخطر للأديب الانجليزى فيحوك حولها قصة تربط ما يتصل بها من أفكار ، وتنشئ حولها شتى الصور المنتزعة من الحياة ، يكتفى الأديب العربي بصوغها فى بيت شعر محكم يذهب مثلاً ثم « ينام ملء جفونه »

فكبح عنان الخيال هذا سبب انعدام القصص وكثرة الحكم والأمثال فى الأدب العربي . وهو كذلك سبب توسط طول القصائد وعدم تراوحها بين الملاحم الطوال والمقطوعات الصغار ، ثم هو سبب اكتظاظها بالأفكار لا يربطها رباط جامع من خيال وثيق

ولا ترجع ندرة آثار الخيال فى الأدب العربي إلى ضعف ملكته بين الشعوب العربية ، فان كثيراً من تلك الآثار تدوولت فى العامية دون الفصحى بين الشعوب الناطقة بالضاد ، وإنما ترجع تلك الندرة الى التقاليد الجامدة الشديدة التى تسلطت على الأدب العربي لظروف خاصة سبقت الاشارة إليها فى كمات ماضية : من محاكاة للأدب القديم — وهو نادر آثار الخيال لأنه أدب بدائى — ومجانبة للآداب الأخرى ولا سيما الأدب الاغريقى

وليس أدل على أثر الثقافة الاغريقية فى تربية الخيال من أن اطلاع العرب على جمهورية أفلاطون حدا ببعض فلاسفتهم الى محاكاته فى تخيل الدولة المثلى ، فكان من ذلك « المدينة الفاضلة » و « حديث حى بن يقظان » وغيرها ، مما هو داخل فى موضوع الفلسفة لا الأدب ، فلو درس العرب أدب الاغريق دراستهم لفلسفتهم لكان ذلك أثره المحتوم

فالأدب الاغريقى حافل بالخيال البعيد المرامى ، ملىء بالعوالم الزاخرة بشتى المظالم والمحاسن ، واغتراف الأدب الانجليزى من مناهله هو الذى أمده بفيض من الخيال لا يفنى : وضَّح أمامه مذاهب التخيل وأشكاله ، وأمده بالخرافات والأقاصيص العديدة تحاك حولها أعمال الخيال فى الشعر والنثر ، وتنعم بصور الجمال وترصع بالآراء النقدية والنظرات الثاقبة فى شؤون العالم وأحوال المجتمع ، وتلك لعمر الحق مادة الأدب وصميمه

أما الأدب العربي فظل الواقع قبلته والحاضر ديدنه ، وحين ضرب فى مرامى الخيال فى الغزل الاستهلالى والمكرمات المصطنعة ينسبونها الى الممدوحين والمرثيين إنما كان يفعل ذلك مطمئناً إنه يحذو حذو المتقدمين ولا يخرج عن الحدود المرسومة للأدب فى عهودهم ، فجاء ذلك الخيال غثاً ممجوجاً لا يتجاوز جانب الأوهام والتلفيقات الى جانب التعبير الصادق عن الحقيقة العميقة

وبينما أساغ الأدب العربي هذا الخيال الغث المتكلف نبذ ضروب الخيال المطبوع الصادق الذى يمت الى الحياة والذى هو عماد القصة النثرية والشعرية ، فترفَّع عن ذلك تاركاً إياه للعامة يروون به غلتهم ، تلك الغلة التى يشعر بها كل انسان وتنزع به الى القصص والى الخيال

فخرى أبو السعود

٦ — دانتى أليجييرى

والكوميديا الالهية

وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

تتمة البحث

الاسراء والمعراج

اختلف المؤرخون ومفسرو القرآن الكريم فى هذه الأساطير الكثيرة التى زخرف بها كل من حادثى الأسراء والمعراج ، ولم يشأ الثقات منهم أن يتورطوا فى تصديق كل ما عُزِى الى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قاله ؛ ورجح بطلانَ هذه الأحاديث اختلافُ رواياتها بالزيادة والنقصان فى مختلف كتب التفاسير والسِّيَر . وقد وقف منها الامامان — البخارى ومسلم — موقفاً حازماً فلم يُثبتا فى صحيحيهما إلا هذا الحديث المشهور القصير الخاص بزيارة جبريل للنبى وركوبه (ص) البراق ثم الأسراء به فروره ببعض قوافل العرب ثم بلوغه بيت المقدس ، فصلاته بالأنبياء ثمة ، فعروجه إلى السماء الأولى وفيها فلان النبى وإلى الثانية وفيها فلان ، حتى يبلغ سدرة المنتهى

ولعل أقدم المصادر التى أوردت زيادات على حديث البخارى ومسلم ، ويبدو عليها أثر شديد من الصنعة والتكلف ، هى سيرة ابن هشام التى نسج على منوالها كتاب السير الآخرون . وقد رفض صاحب الكشاف أن يثبت فى تفسيره شيئاً من تلك الزيادات ، ولكن مع الأسف الشديد ، تورط مفسرون أجلاء مثل الطبرى والألوسى وابن كثير وغيرهم فرووا كل ما وضع الوضّاعون وزخرف المبطلون من حواشٍ وتهاويل عن الأسراء والمعراج ثم تركوا كل ما رَوَوْا من غير ما تمحيص ولا تزييف ، فكان عملهم تزكيةً صامتة لهذه الترهات التى لم تنفرج شفتا الرسول عن حرف واحد منها

ولقد بدا لنا ونحن نقارن ما جاءت به أسطورة المعراج الموضوعة بما جاء فى كوميدية دانتى ؛ ولا سيما فى الجزء الخاص بجهنم فى كل منهما ، أن يكون هؤلاء الوضّاع قد سطوا على خيال دانتى نفسه فانتحلوه لحادث المعراج ، ورَوَوْا ، وليتبوأوا مقمدهم من النار ، عن الرسول الكريم هذا الحديث الطويل عن فئات المجرمين الذين رآهم يتعذبون بمختلف ألوان العذاب فى دركات السعير ... خيل إلينا أنهم سطوا على دانتى ، ولكنا عدنا فوجدنا هؤلاء الوضاع يسبقون دانتى بمئات السنين ، فأسقط فى أيدينا ، وأوشكنا نقر القائلين بأن دانتى تأثر فى كوميدياه بأسطورة المعراج الملفقة ، بعد إذ نفينا ذلك ، وهنا ، رأينا المخرج صعباً ، وفى فشل البحث الذى أخذناه على عاتقنا هوان علينا ؛ ولكننا ما كدنا نلخص الجزء السادس من الأنيد للشاعر اللاتينى الخالد ڤرچيل حتى حصحصت الحقيقة أمام أعيننا ، وحتى أيقنا أن كلا من دانتى ووُضاع الأحاديث الملفقة عن حادث المعراج كَلٌّ على ڤرچيل وعيال على خياله الخصب وتصوُّرِه العميق

والمحققون من علماء المسلمين والمستشرقين على السواء على أن الترهات الكثيرة والزخارف الباطلة التى نقرؤها فى غضون كتب التفسير (كالخازن وغيره) هى إسرائيليات انتقلت إلى الاسلام باعتناق بعض اليهود لهذه الحنيفية الغراء ، فهم عند ما قرأوا فى القرآن أسماء أنبيائهم وبعض الحوادث المشهورة الواردة فى كتبهم راحوا من تلقاء أنفسهم يقصون قصصهم الاسرائيلية على أنها إسلاميات يقرها كتاب الله وحديث رسول الله ، ومن هنا هذا الهرج الكثير الذى دخل على القصص الاسلامى ، ومن هنا أيضاً ضياع الحقيقة بين ما قال الرسول الكريم وما لم يقل

على أننا لا ندرى لماذا يكون كل ما دخل على الرواية الاسلامية اسرائيليا ولا يكون أشمل من ذلك ؟ لم لا يكون هنديا مع من اعتنق الاسلام من الهنود ، ومصريا مع من اعتنق الاسلام من المصريين ، وفارسيا مع الفرس وأشوريا مع الأشوريين ويونانيا مع اليونان ، ثم لم لا يكون لاتينيا مع من اعتنق الاسلام من أمم البحر الأبيض المتوسط ، وفيها أسبانيا وصقلية وجزر كثيرة من جزر هذا البحر ؟ !

لقد ازدهرت الثقافة الاسلامية فى فارس والعراق والشام

ومصر وتونس والمغرب والأندلس وصقلية ، بل هي كانت تمتد إلى أبعد من ذلك ، إذ أثبت المحققون أنها كانت تغزو فرنسا وسويسرا وبعض المدن الايطاليـة ، ولم تكن ثقافة إسلامية بحتة ، بل كانت خليطاً عجيباً من أشتات الثقافات ، كانت مزيجاً أقله إسلامي وأكثره محلي بحسب الأقليم الذي تتفشى فيه . ومن الارهاق أن تفرض الثقافة الاسلاميـة نفسها على الأمم المغزوة دون أن تتأثر هي بثقافات تلك الأمم ، ونحن نعلم أن رومة حينما فتحت أثينا عسكريا كانت أثينا تتوثب لفتح عدوتها ثقافيا ، وقد تم لهـا ذلك بأسهل مما تم الفتح العسكري لرومة فأصبح الأثينيون أساتذة للرومان في بضع سنين ، ولم يبدأ العصر الروماني الذهبي بالفعل إلا بعد أن تلقحت أذهان الرومان بهـذا اللقاح اليوناني العجيب

والمسلمون أيضاً . فعصرهم الذهبي لم يكن عصر النبي صلى الله عليه وسلم ولا عصر الخليفتين أبي بكر وعمر ، ولا عصر معاوية أو عبد الملك بن مروان أو الوليد بن عبد الملك ، بل كان ذلك في عصر هرون وابنـه المأمون في الشرق ، وفي عصر عبد الرحمن الناصر في الغرب . أما العصور الاسلامية قبل ذلك فقد كانت عصور دعوة وجهاد في سبيل الله وتعليم المسلمين الجدد تعاليم الدين الجديد ، فلما استقر له الأمر في البلاد المفتوحة جاء دور الحضارة وجاء دور التفكير الهادئ ، وجاء دور التلقيح للذهن الاسلامي بثقافات الأمم المختلفة التي دخلت زرافات في دين الله ، فأثرت في الآداب الاسلامية كما أثر الاسرائيليون سواء بسواء

وقد رجعنا الى عشرات من المصادر علنا نوفق الى أصـل لأحاديث المعراج الملفقة في المـائة سنة الهجرية الأولى فلم نهتد الى شيء منها ، وأكبر ظننا أنها لم تكن قد لفقت بعد ، وأكبر ظننا أيضاً أن الأمم اللاتينية لم تكن قد تحرشت بالمسلمين في هذه الفترة ... أما بعد أن عرفت هـذه الأمم الاسلام والمسلمين فقـد راجت السير عن المسلمين وعن نبي المسلمين وعن الفتوح الاسلامية ، وقد ازدحمت هذه السير بالأخيلة الرائعة والقصص الممتع الجميل الذي يستحيل أن يكون إسلاميا بحتا ، لأن نظرية رومة (فتحت أثينا عسكريا وأثينا فتحت رومة ثقافيا) لابد أن تنطبق على المدينة من جهة ، وعلى فارس والشام ومصر والأندلس من جهة أخرى . وما أشبه الرومان بالعرب وما أشبه الأعاجم بالأثينيين في تلك العصور السحيقة المتقادمة !

ولسنا نزعم أن وضاع الأحاديث الملفقة عن حادث المعراج قد انتحلوا ما جاء في الأنيد اعتباطاً ، بل هم انتحلوه كما فعل الاسرائيليون حينما انتحلوا كل ما جاء في كتبهم أو أكثره فزوقوا به القصص الاسلامي . وإن مقارنة سريعة بين الجزء السادس من أنيد فرجيل وبين الروايات التي نسقها وجمل منها قصة المعراج العالم المسلم نجم الدين الغيطي (٩٩٩ هـ) (1) لتجعلك تتأكد صدق استنباطنا ، وتتفق معنا على أن الأدب اللاتيني ، ومنه أدب فرجيل ، قد صبغ ناحية هامة من الأدب الاسلامي لم تكن مزدهرة قبل ذلك . ولولا مخافة الأملال لسقنا لك هذه المقارنة ، فارجع أنت إلى الخلاصـة التي أعطيناكها في العدد السابق للكتاب السادس من الأنيد ، ثم ارجع إلى سيرة ابن هشام أو تفسير الطبري أو قصة المعراج لنجم الدين الغيطي تجد أننا لم نبالغ قط في كلمة مما قلناه

صور تأثر بها دانتي من القرآن الكريم

كانت هزائم المسيحيين المتوالية في الحروب الصليبية والتي انتهت بفشل هذه الحرب تذكي نيران البغضاء والحنق في قلب دانتي على الاسلام والمسلمين ، وقد رأينا كيف بلغ به عَتَهُهُ وضيق عطنه أن زج بالرسول صلى الله عليه وسلم وبابن عمه علي وبالسلطان صلاح الدين في جحيمه ، وكيف جعلهم مع الفجار وأهل الفسق والمهرجين في درك واحد . وليس معقولاً أن تنتهي هذه الحرب دون أن تـكون لهـا نتائجها من احتكاك الأذهان بين الشرق والغرب ومن إلمام الغرب بشطر كبير عن الاسلام ونبي المسلمين وكتاب المسلمين ، والذي يتلو ما جاء في السـور المكية من نذير شديد وأوصاف ممتعة لجهنم ودركاتها لا سيما في سور الأعراف والصافات والواقعة وجزء عم يروعه تأثر دانتي بالقرآن الـكريم فيما ذكره في الـ Inferno (الجحيم) ، فبرغم وثوقنا من أنه سار على درب فرجيل في الجزء السادس من الأنيد في هذا الجزء من كوميدياه إلا أننا ندهش لـكثير من وجوه الشبه بين ما جاء في جحيمه وما جاء في القرآن من وصف جهنم وأهلها . ونحن

(1) طبعة بولاق منذ ستين سنة

نحيل القارئ هنا أيضاً على السوراتى ذكرناها وعلى الملخص الذى عملناه لجحيم دانتى

ولاريب أنه تأثر أيضاً بالقرآن الكريم فى فردوسه ، ولكنه أثر غير عميق ، إذ كان ينهج فى جنته منهاج فرجيل فى الأنيد ، وبحسبنا ما قدمنا من خلاصات

دانتى والأدب اليونانى

المشهور عن دانتى أنه لم يكن يعرف اليونانية ، ولكن هذا لم يمنعه من الاطلاع على الأدب اليونانى اطلاعاً وإن يكن أبتر قليل الغناء إلا أنه كان ذا أثر كبير فى تكوينه الأدبى . ومما لا شك فيه أن دانتى قرأ ما قرأ من أدب اليونان فى التراجم التى قام بها مواطنه الشاعر الكبير أوفيد Ovid تلك التراجم الخالدة التى حفظت لنا جانباً كبيراً من أساطير الأغريق وتراثهم الأدبى . ولعل رحلة هرقل ورحلة أرفيوس الموسيقى [1] إلى الدار الآخرة كانتا ذواتى أثر كبير أو قليل فى دانتى حينما كتب كوميدياه ، ففيهما وصف بارع للجحيم نسج على منواله فرجيل فى الأنيد

دانتى ورؤيا يوحنا اللاهوتى والأدب المسيحى

وإذا كان دانتى قد تأثر بكل ما ذكرنا من هذه الآداب المتفرقة ، فمما لا ريب فيه أنه تأثر بالأدب المسيحى عامة ، والعهد الجديد خاصة ، ونخص من العهد الجديد آخر أسفاره (رؤيا يوحنا اللاهوتى) ، فهى رؤيا جيلة حقاً ، وفيها من ألوان الخيال (الخيال الأدبى طبعاً) شىء كثير ، ونحسب أن دانتى قد اقتبس الفصل الخاص ببحيرته فى جحيمه من نفس المنظر الخاص بالبحيرة فى هذه الرؤيا ، بل نحسب أن الوضّاع الذين لفقوا أحاديث المعراج الموضوعة قد دسوا هذا المنظر فى أسطورتهم من رؤيا يوحنا نفسها . بيد أنه ينبغى ألا نغالى فى مقدار تأثر دانتى بهذه الرؤيا كما ذهب اليه بعض إخواننا من الأدباء المسيحيين بل ربما كان تأثر دانتى بأخيلة القرآن (نقصد دائماً معنى الكلمة الأدبى) أبعد مدى من تأثره بأخيلة الأنجيل ، لأن القرآن وصف جنة النعيم وشقاء الجحيم بما لا يسمو اليه خيال شاعر مهما تفنن وأبدع ، ولأن دانتى كان يرد بكوميدياه على أعدائه خاصة وأعداء المسيحية من المسلمين فى زمانه عامة ، ولذا كان يحسب أنه يحارب بسلاح أعدائه

خاتمة

هذا ما عن لنا أن نقول فى دانتى وأبى العلاء ، وشتان بينهما ! شتان بين أعمى المعرة الساخر الملحد الفيلسوف المتقشف القانع بالعدس والفول والتين والخيار من لذائذ الدنيا الخاتلة ، وبين دانتى السنى المتدين المتعصب للكنيسة ولو أذلت رومة وطنه ووضعت أنف فلورنسا فى التراب ، الساخط على مواطنيه لأنهم حرموه المناصب التى تدر عليه العسل واللبن ، المتبرم بزوجه ، الناقم على أطفاله ، المقلد لغيره فى كل خطوة من قصيدته

ليس ضيرا إذن على أبى العلاء ألا يكون دانتى قد قلده ونسج على منواله ، بل الضير كل الضير هو فى مقارنة قصيدة دانتى برسالة أبى العلاء ، فلقد كان دانتى عالة على فرجيل فى الكوميدية الآلهية كما شهدنا ، ولكن أبا العلاء لم يكن عالة على أحد ، بل كان الشاعر ذا الخيال الخصب والفكر الجبار والقلب المتمرد على الأديان وما تقول به من جنة ونار . هذا ولا ننكر أن أبا العلاء كان خاضعاً فى رسالته لتداعى المعانى كما ذكرنا فى الكلمة الأولى من هذا البحث ؟

د . خ

(١) نكتفى بتوجيه القارىء إلى هاتين الأسطورتين إلى النصف الأول من السنة الثالثة فى الرسالة خشية الاسهاب

توكيـــد الذات

للأستاذ أديب عباسي

لمحت فى ذات صباح ، وأنا فى الشمس انفض عن نفسى بقية من ليل ، هرًّا مهزولا يسير متوجِّسا متسرِّقا على مقربة منى ؛ ولم يطل بهذا الهرّ ارتيابه وتوجُّسه ، وتحقق له سوء ظنّه بكلاب الحى ، إذ لم يمض إلا قليلا حتى أقبل عليه من إحدى الجوادّ القريبة كلب بطِر شديد الجاب شديد العزم على أذيته ، كأن له ترة قديمة عنده وحسابا ينوى وفاءَه

وأدرك هرّنا أىّ شىء لا بدّ لاحقٌ به ، وأدرك كذلك أن الهرب ليس بمنجيه ولا مخلِّصه من هذا الذى أخذ عليه الطريق وسدّ المهرب . فاستدار فى الحال وازبأرّ وهرّ هريراً وأبدى عن أنيابه ، وأثأر بالخصم بصره ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، وتنفّش شعره ، وتقوّس ظهره ، وشال ذنبه ، ووقف يتحفّز

ولم يفت كلبنا المعتدى مغزى ذلك جميعاً ، ووقف تلقاءَه يرمقه ويروزه ببصره مليًّا ، حتى إذا بدا له أن الهجوم من الناحية الأمامية — وقد حصنتها مخالب مرهفة وأنياب حديدة — قد لا يخلو من خطر أكيد ؛ انفتل منسلاًّ كدأب الكلاب ، وباغته من الخلف مباغتة استطار لها لبُّه وانخلع قلبه . وأقبلت كلاب الحى تتعاوى من بعيد ومن قريب ، وكلها فى البغى والاثم سواء ، فكأنها وكأنه ما عناه الشاعر حين قال :

تكاثرت (الكلاب) على خراش فلا يدرى خراش ما (يصدُّ)

وهممت عندها أن أقوم وأنجد هرّنا المسكين وأذبّ عنه هذه العرجلة الباغية من الكلاب ، إلا أن هرّنا لم يدع لى لأتدخل ، وحلّ الاشكال بطريقة مسدَّدة من إلهام الطبع ، وهداية الغريزة ، واستمداد الفطرة ، إذ عمد إلى هذه الكلاب يستلُّ سخيمتها ويزيل شرّتها بالاستسلام لها والكف عن قتالها ، ولسان حاله يقول :

ولو كان « كلبا » واحدا لاحتملته

ولكنه « كلب » وثانٍ وثالث

ولم تنتظر الكلاب منه حركة كهذه ، فوجمت حياله تفكر ماذا هى صانعة بعد الذى رأت من استسلامه وانقطاعه عن كل مظهر من مظاهر الخصومة والدفاع ، وكأن كلابنا فهمت عنه ما أراد وفطنت إلى مغزى حركته تلك ، وأدركت دلالتها ومعناها ، فابذعرّت قانعة بما هيأ لها هرنا المغلوب من معانى الفوز والغلب ؛ وقام هرنا وسار لطيّته يرهف سمعه ويقلب بصره ذات اليمين وذات الشمال ، ويُعدُّ نفسه مرةً ثانية لتمثيل الدور نفسه إذا أحوجه الأمر

* * *

وفكرت ملياً فيما شهدت وطفقت أسائل نفسى : أنحن هنا أمام ظاهرة خاصة من ظواهر الحياة قاصرة على الكلاب وخلافها من ذوات الظفر والناب ، أم نحن أمام ظاهرة عامة شاملة من ظواهر الحياة تشمل الانسان والحيوان جميعاً ويخضع كافة الأحياء لحكمها وقيودها ؟

ولم يطل أمد الهجس والارتياب ، وأيقنت بعد القليل من التدبر أنها حالة عامة شاملة كأعم وأشمل ما تكونه حال من أحوال الحياة وظواهرها

ونسأل : ما تلك الظاهرة ، وما طبيعتها ؟ ولا نطيل فهى مما وصفنا ورأيت ما يمكن أن ندعوه « توكيد الذات » وإبراز الشخصية . فكلبنا المعتدى الأول لما هاجم الهرّ بلا عداوة سابقة أو حقد قديم ، إنما فعلها ليتثبت من قدرة نفسه وحدة أنيابه وقوة عضله ، وليؤكد لنفسه أنه ذو غلبة وبطش ، ومثله فى ذلك الكلاب الأخرى ، وعليه لما رأت الهر يتخاذل ويتنازل لها جميعاً عن كل حق من حقوق توكيد الذات غادرته ولم تؤذه

وأنت ترى مما أثبتنا هنا من عمل الكلاب أن هذا الدافع إلى توكيد الذات فى الحيوان دافع فطرى غريزى لا يخرج بمجمله عن معنى القتال المباشر الذى تمارسه جميع الحيوانات على اختلاف طفيف بينها فى أساليبه وطرائقه

أما فى الانسان فيتخذ هذا الدافع من توكيد الذات وتقريرها شتى المظاهر ومختلف الأشكال والصور ، ولن تخطىء مظاهره — فى لون من ألوانه — فى الطفل واليافع والشاب والشيخ جميعاً والطفل يبدأ سلوكه يتأثر بهذا الدافع من العام الأول فى

عمره ، وكانا يعرف جيداً ما هي الأساليب التي يصطنعها الصغار لينتبهوا إليهم الكبار ويستجلبوا رضاهم وتقديرهم ، ومن هنا كان الفهم الصحيح للطفولة يوجب على المربين الانتباه الشديد لهذا الدافع والانتفاع به في توجيه الصغار توجيهاً صالحاً وتحريضهم على الاجادة والتبريز في حدود إمكانهم وكفاياتهم . وفي الحق ليس أقتل لروح الطموح في الطفل ولا أدعى لفشله من أن يغفل الآباء والمربون هذا الطور الدقيق في حياة الطفل ويتركوه وشأنه بلا تشجيع ولا استحسان حيث يُستحقان ، أو يعكسوا الأمر عليه ويملأوا سمعه بالنقد ويقابلوا حماسته بالفتور وثقته من نفسه بالتشكيك والريبة . ولا نغالي إذا نحسب أن أكثر الفاشلين في الحياة هم ممن كانت طفولتهم نزاعاً بين إهمال الوالدين وقسوة المحيط وبين ما ركّب في نفوسهم وغرس في طباعهم من ميل جامح قوي لتأييد النفس وتوكيد الذات . وكم من طفل أعجزه أن يحوز رضى البيئة وتقدير الوالدين بأساليب مقبولة ووسائل سليمة ، فراح بعدها يصطنع أغرب الوسائل وأخطرها في حاضر حياته وآتيها ، كأن يعمد إلى نفسه يؤذيها أذى بليغاً أو يعمد إلى الغير يؤذيه مثل ذلك الأذى ، أو كأن يعمد إلى الآنية يحطمها والثياب يمزقها ولسان حاله يقول : هوذا أنا أثبت كياني وأؤكد اقتداري وكفايتي بما ترون إن كان لا يعجبكم ولا ينبهكم الى إلاّ مثل ما تشهدون

وليس من المتعذر أن تتصور حال مثل هذا الطفل ، إذ يشب ، كيف تكون . وليس من الصعب أن تتبين في مثل هذه الأعمال الشاذة أولى بوادر الأجرام والخروج على النظام وأوضاع الاجتماع . يحكى أن افراد الشرطة في أمريكا ألقوا القبض ، بعد لأي ، على لص خطير اعتاد أن يتصدّى للقطارات ويسلبها ، واقتادوه إلى قاعة التحقيق . وبعد استجواب سيكولوجي دقيق دهش المحققون إذ استبان لهم أن هذا اللص كان في طفولته وحداثته كأشد الناس حياءً وخجلاً . ولما سئل فيمَ إصراره على أعمال العنف والاجرام أجاب بأنه إنما يفعلها ليؤكد لنفسه أنه ليس من الحياء وخور العزيمة كالذي يحسّ ويشعر

هذا ويجب ألاّ يفوتنا أن معظم أنظمة التربية الحديثة مبنية على هذا الميل مستهدية به . فنظام الصفوف والمباريات والجوائز وما إليها من وسائل التحضيض والتشجيع تهدّى هذا الميل وتستغله . وليس من السهل أبداً أن تستبدل بهذا الدافع للعمل والاغراء به دافعاً آخر من ميول النفس وأهوائها

ويشب الطفل فيجد نفسه بين الأمر الواقع من جد الحياة وبين هذا الميل القوي الذي لا يغفل ولا يهادن ، ويجد نفسه بين المدد الذي لا يحصى من مثبّطات العزم ومفترات السعي وبين ما أجّج في نفسه وغرس في طبعه من حبّ الغلب وشهوة الفوز وبروز الشخصية . فاذا أسعدته الهمّة ولاءمته الظروف وسار سيرة ناجحة في الحياة نشأ نشأة بعيدة إجمالاً من شذوذ الطبع وغرابة الخلق وما يصحبها من شذوذ العمل وانحراف السلوك . أما إذا عاندته الظروف وخانته الكفاية فهناك ما تشاء من شذوذ الطبع وغرابة السلوك . ولدينا صنوف وصنوف ممن ينشأون هذه النشأة الشاذة في الحياة

فالمتقشفون هم إجمالاً نفر فشلوا في الحياة بعد أن خوّضوا فيها ، أو قدروا الفشل قبل ذلك ، فاختصروا على أنفسهم العمل ووقفوا في أول جادة الحياة وبداءة السعي دون أن يحاولوا مضياً في الطريق وزيادة في السعي . لقد أعياهم أن يغلبوا بيئتهم ويتغلبوا على ضعفهم ، فانقلبوا على أنفسهم — وهي أهون شيء عليهم — وأحالوا عليها بالخصومة وأضووها بالحرمان وتعوّضوا بخصومتها عن خصومة المحيط والأضداد من الخارج . ولسنا بالطبع نعزو إلى هذا العكس في ميول الاستعلاء ورغبة البروز وتوكيد الذات جميع نماذج التقشف وإنكار الذات المشهودة ، إذ لا ريب أن من حوادث التقشف مالا يرجع في بواعثه الى فشل المرء في الحياة كالذي يُرى من تقشّف أناس قد تهيّأت لهم أسباب النجاح في الحياة وذاقوا لذات الفوز والغلب ولكنهم مع ذلك آثروا حرمان الذات ومطاردة اللذات . على أننا نعود ونقرّر أن معظم حوادث التقشف هي في مجملها وسيلة العجز في تقرير الشخصية وتوكيد الذات

والحسد — كذلك — تعبير صامت واتجاه سلبي معكوس لدافع توكيد الذات . والحسد ينشأ ويتأصل في النفوس كلما تسامت مطالب المرء وبعدت غايته ثم أعجزته القدرة وعاكسه المحيط فلم يسم ، عملاً وواقعاً ، الى مستوى مطالبه . ومن هنا يحسب

الأخلاقيون وعلماء النفس أن الحسد ظاهرة عامة شاملة بين الناس إذ كان النجاح المطلق الذى يرضى عنـده المرء عن كل شىء فى الحياة مطلباً صعباً وغاية لا يسمو اليها جهد بشرى . ويخيل الينا أنه لو يسر لامرئ من الناس كل أمانيه ومهدت فى سبيله جميع الصعاب ودمثت جميع العقبات وأنيـل كافة ما تشتهاه النفوس وتصبو اليه ، لفـكر بجد وحرقة زائدة فى أن ينال كمنزلة الآلهة من خلود مطلق وعلم كامل وقدرة فائقة . ومرجع ذلك أن المرء بطبيعة تكوينه النفسى والفكرى مثالى يكره النقص أبداً ويتطلب المزيد والـكمال ، والـكمال لا حد له ولا انتهاء . وهذا لا ريب يفسر لنا لماذا ينسينا نجاحنا الـكبير نجاحنا الصغير ، ولماذا ينسينا فشلنا الأكبر أبداً فشلنا الأصغر

والرجل الحساس هو الآخر صنف خاص من الناس فشل فى أن يؤكد نفسه ويرغم المحيط على اعتبارها وتقـديرها بالقدر القائم له منها فى خياله ، فغدا — لذلك — سىء الظن بالناس كثير الارتياب لهم ، وصار لـكل حركة من حركاتهم معنى الاجتداء عليه والانتقاص له والزراية به ، وغدا — كذلك — قليل الاحتمال دائم النفرة سىء التقدير

ومثل الحسَّـاس — على اختلاف طفيف — الرجل الحيىّ . هذا اذا فشل فى توكيـد نفسه وتمييز شخصه ، قام فى وهمه أنه امرؤ لا يصلح للعمل ولا يقوى على الجهاد ، فانزوى منطوياً على نفسه عاكفاً على همومه مجترًّا لآلامه . إلاَّ أن بينه وبين الحسَّـاس فرقَ أنَّ الحسَّـاس يعالن الناس غالباً بما يقـدِّر من سوء رأيهم فيه ويحتجُّ على ذلك ويدافع عن نفسه ، بينما الحيىُّ فى غالب أمره لا يفعل شيئاً من ذلك بل يتجرَّع آلامه صابراً متحاشياً ، بقدر الامكان ، أن يجئ والناس بسبيل واحد . ومرجع الفرق هنا الى أنَّ الحسَّـاس له رأى طيِّـب فى نفسه بالاضافة الى ما يتصوَّر من سوء رأى الغير به ، بينما الحيىُّ يسيء الظن بذاته ويعتقد أن الناس لهم فيه مثل رأيه فى نفسه

ينضاف الى هذه المظاهر المعكوسة من توكيد الذات مظهر آخر هو مظهر الاسراف فى الغرور وتقدير الذات . وهو ينشأ إذ يشبُّ المرء — لأسباب عدة من إساءة التوجيـه — على اعتقاد قوى أنه امرؤٌ فوق الناس ، وأن من سخافة الأقدار وغفلة الزمان وجور البيئة أن يولد بين الناس ، يعيش كما يعيشون ، فيشقى كما يشـقون وينعم كما ينعمون ويكتفى من الأمانى والآمال بمثل مايتمنـون ويؤملون ، ويخيَّـل إليك كأنه عاتب على ربه الذى خلق من الناس غيره ! !

هـذا وقد يتخذ الغرور مظهراً آخر غير مظهره العام حده التشدُّق بالـكمال ونقـد الزمان والتبرُّم بالبيئة ، ويسير فى اتجاه معاكس أو موارب كالذى يُرى فى نفرٍ من الناس لم يستطيعوا أن يفرضوا أنفسهم على المحيط ولم يستطيعوا أن يجاهروا بكمالهم ويعالنوا الناس بكفاياتهم واقتدارهم (كما يقدِّرون لأنفسهم) ، فانقلبوا — لذلك — صنفاً متواضعاً من الناس لا يهمهم — ظاهراً فقط — أن يتلبَّـسوا حالات زريَّـة وينتقدوا أنفسهم على مشهد ومسمع من الناس . وقد تغشُّ غير الفطن مثلُ هـذه المظاهر حتى ليعتقد الملاحظ السطحى الذى لم يسبر غور الأمور أن هذه المظاهر تصدر عن عقيدة صادقة بالنفس وإخلاص فى التقدير . إلا أنها مظاهر — على كل حال — لا تخفى على المتبصِّر الذى لا يخدعه ظاهر الاخلاص وجودة التمثيل . يحكى أن سـقراط رأى فتى أثينياً موسراً يعتلى منصة الخطابة فى أسمال بالية وثياب مهلهلة ، فنظر فيه سقراط متفرِّساً زمناً ثم خاطبه بلهجة صارمة : أيها الأثينى الشاب ، إنى لأكاد أرى الغرور والـكبرياء ينزَّان من اهابك ، ويطلاَّن من وراء كل خرق ورقعة من ثيابك !

تلك بعض المظاهر المسرفة لدافع توكيـد الذات . وأما مظاهره الطبيعية التى لا إغراب فيها ولا شذوذ فتقع فى أشكال وألوان عديدة لا تقل عن مظاهر الشذوذ والغرابة

من ذلك هذا الميل العام الشامل لدى جميع الأمم والأجناس إلى التقسيم والتدريج وتأليف الطبقات يتميَّز بعضها من بعض ويعلو بعضها بعضاً ، ثم هذا السعى الدائب والاشرئباب الدائم من الناس إلى تغيير الأمكنة وتبـديل المنزل حيث يستحب التغيير والتبديل ، ثم ذلك الجمود على ذات الحال والحرص على البقاء فى ذات المنزلة حيث لا يُشتهى التغيير والانتقال . ولعله ما كان يتحوَّل أبناء الطبقة من الطبقات ولا يتزحزحون عن محلهم صعوداً ولا هبوطاً لو خلا الناس من حافز توكيد الذات والاستباق إلى الأمكنة العلية والمنازل البارزة

وكما يقع التزاحم على المنازل الرفيعة بين الطبقات يقع كذلك بين الأجناس والأمم والممالك والدول . ولعل دافعاً قوياً من دوافع

الحروب كان يزول لو زالت من النفوس رغبة الامتياز وهوى الاستعلاء.

وفى الناحية الفردية يظهر الميل إلى توكيد الذات توكيداً طبيعياً مقبولاً فى مظاهر عديدة ؛ منها رغبة التميز والتبذير فى الاكتشاف والاختراع والابداع الفنى والأدبى ؛ ومنها رغبة البروز والامتياز فى مجال الاقتصاد وجمع الثروة ؛ ومنها حب الغلب والانتصار فى ميادين الرياضة البدنية من محاضرة ومصارعة وملاكمة وخلافها ؛ ومنها — كذلك — حب الانتصار فى ميادين الرياضة العقلية والترويح عن النفس بالنكتة البارعة والفكاهة الطليقة والهزل المستجدّ ؛ ومنها حب التبريز والسمو فى ميادين القيادة الاجتماعية ؛ ومنها شهوة التغلب والقهر فى ميادين الحب والغزل ، ومنها خلاف هذا شىء كثير

فرغبة الامتياز وشهرة البروز فى ميادين العلم والاكتشاف والاختراع ، وفى ميدانى الابداع الفنى والأدبى ، هى فى أول دوافع الانشاء والابداع العلمى والفنى . وليست الرغبة فى الاختراع والاكتشاف ، وفى الابداع الفنى ناجمة فقط مما ركب فى النفوس من غرائز الاستغراب وحب الطرافة وما يكون من تسامى دوافع الغريزة الجنسية من مستواها الحسى إلى مستوى أعلى وأجلُ ، إنما هى ناجمة إلى حدّ كبير مما رُكّب فى الطباع من ميل قوى إلى تقرير الذات والتغلب على الصعاب والعقبات

وفى مجال جمع الثروة وحشد المال مظهرٌ توكيد الذات ما تراه من عدم وقوف الناس فى جمع الثروة عند الحد الذى ييسر جميع مطالب العيش وأسباب الرفاه والدعة . فالمرء يعمل أولاً لرد غائلة الجوع وسد الحاجات الضرورية ، فاذا تيسر له مقدار من الثراء يحقّق له سدّ الحاجة وطرد الفاقة انتقل حافز الانتاج من مجال الحسّ إلى مجال الشعور ، وغدا هدف الانتاج وتكثيره لذة التميز والانفراد بالشىء . ومن هنا قلما نرى ربّما من أرباب المال يعتريه الفتور والوناء فى الجمع والانتاج ، لأن فى ذلك وسيلة صامتة يكاثر بها الأعداء ويراغم الخصوم ويدل على الأقران . وهذا الدافع لا ريب يفسر لنا تفسيراً مقبولاً كثيراً من أنواع الاستملاك السخيف ، كشهوة جميع الطوابع وتواقيع العظماء ومخطوطات الكتاب ، وخلاف هذا مما لا قيمة له فى ذاته ، وإنما كل قيمته ما يشعر مالكه بلذة الانفراد بالشىء والامتياز عن الناس ولو بالسخيف الذى لا قيمة له فى ذاته ولا وزن

وفى ميادين الرياضة البدنية من أثر هذا الدافع أن اللاعبين والمتثاقفين والمتحاضرين يقررون أشخاصهم ويؤكدون ذواتهم لدى النظارة والمشاهدين . ولولا ذلك لظلت الألعاب الرياضية ظاهرة فردية أكثر منها ظاهرة اجتماعية . وأنت تلمس أثر ذلك جيداً من الحماس الذى يستولى على قلوب اللاعبين كلما كثر عدد المشاهدين وزاد تحريضهم وتحمسهم للاعبين . ولو كان ترويض الأجسام وحده هو المقصود من الألعاب الرياضية لا كتفى اللاعبون بملاعبة ذواتهم ومثاقفة أنفسهم وحسب

وفى ميدان الرياضة العقلية والترويح عن النفس بالنكتة والهزل يقع هذا الميل موقعاً أول . وما يؤلف من نكتة ويروج من نادرة ويذيع من فكاهة مرجعه فى الأصل ميل النفوس الى التسرية بالظهور والبروز والاستعلاء على الخصم المشهود أو الغائب . فنحن إذ نضحك من موضوع النادرة أو الفكاهة ، إنما نضحك لأنها تضع لنا شخصاً أو أشخاصاً موضعاً غريباً ضعيفاً يثير فينا حس الاستعلاء والبراءة من الغفلة أو الجهل أو البقاء . على أن النادرة — فى الأحوال الطبيعية — تعجز العجز كله أن تستثير الضحك فينا إذا بلغ الضعف فى موضوعها حسّ الاستعلاء ، ويثير بديلاً منه حسّ الاشفاق والخشية أن يصيب هذا الموضوع شرٌّ أو أذى بليغ . ومن هنا قد يصورٌ لك الكاتب صورة هزلية تستثير الضحك والابتسام ، ولكنك لا يسعك إلا أن تجم وتكف عن الابتسام والضحك متى بلغ كاتبك بموضوع هزله حداً مخطراً كأن يتعرّض لخطر أكيد أو يضحى على حال تدعو إلى الاشفاق والأسى ، ولن يعيدك إلى استثمار الغبطة والسرور إلا أن يعيد لك الكاتب موضوع هزله إلى مثل حاله الأولى التى لا تبلغ من القوة إضعاف حس الاستعلاء فيك ولا تبلغ من الضعف توليد حسّ الاشفاق والأسى فى نفسك

والميل إلى توكيد الذات وما يستتبعه من شهوة البروز ورغبة الاستعلاء تعمل عملها الأكيد فى ميدان العمل الاجتماعى وفى مجال القيادة الاجتماعية ، إذ كان الانقياد وحب التعاون يستحيلان على الجمهور اذا لم يقم فيه القادة الذين يفرضون ذواتهم فرضاً على الناس ويقودونهم قيادة حازمة قوية الى حيث

يشادون لهم من رفعة وخير وصلاح

وقد يستدرك القارىء هنا ويسأل : أيكون الميل الى توكيد الذات وشهوة البروز فى مجال القيادة والزعامة عامل خير ووسيلة صلاح فى ميادين العمل الاجتماعى ، ونحن نشهد من آثارها هذا الميل المسرف والتكالب المزرى على أسباب البروز والرفعة فى ميادين الزعامة المختلفة ، وان يكن ذلك — فى كثير الأحيان — على حساب الأمانى العامة واهدار المصالح الكبرى للشعب ؟

ونجيب أن الميل إلى توكيد الذات عن طريق السيادة الاجتماعية كمكل ميل آخر من ميول النفس يضحى أداة فاسدة ووسيلة هادمة إذا خبثت النفوس وأسفَّت الغاية ، وعلى أن فى يد الشعب — فى معظم أمره — القدرة على كبح هذا الميل وحصره ضمن حدود الصالح العام ، بما يداول من ثقته بين الزعماء والقادة وبما يشهِّر بالقيادة النفعية المتاجرة وبما يوليها من المقت والمحاسبة الشديدة ، مما يقمع فى القيادة عواطف الأثرة وحب الانتهاز والاستغلال حيث تهمُّ أن تبرز وتستعلن . ولا مراء فى أن الانتهاز والاستغلال عن طريق القيادة الاجتماعية يقلان فى شرقنا إجمالاً قلة مطردة بما تحدثه التربية من رفع مستوى التعليم والتنبه الفكرى وتعميق غور العواطف الاجتماعية

وأخيراً أثر هذا الميل فى ميدان الحب ، فنرى أن دافع توكيد الذات هـذا يعمل عمله القوى فى طلب التنويع فى الحب وعدم الاكتفاء بحبيب واحد يقصر عليه الهم وينيط به القلب إلى آخر العمر . وذلك أن من الناس من يبلغ حسُّ الاستعلاء وشهوة الغلب ورغبة البروز عندهم مبلغاً يطغى عندهم على عاطفة الحب الصحيح فيغـدو لا يهمهم من يحبون بقدر ما يهمهم كم من الخلق وقع فى حبائل حبهم ، فكأنهم بهذا يقيسون قدرتهم على الغلب والفوز فى ميادين الحب بعـدد اللواتى يهمُّهن ذكرهم واستحوذت على قلوبهن صورهم

ونقف عند هـذا الحد من التفصيل والتمثيل لهذا الميل فى أحواله الطبيعية والشاذة موقنين أن الاستقصاء التام والجلاء الكامل لجميع آثاره إنما هو استقصاء لأعظم حالات النفس أثراً مطبوعاً فى الخلق والسلوك وأشدها دافعاً وحافزاً على العمل ، وليس هذا المجال مجال ذلك

أديب عباسى

من (الكتاب الذهبى) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكى عريبى

— ٤ —

لغة المرافعة لغة التماس

ويجب ألا يغرب عن الذهن أن المترافع ملتمس ، فلغته يجب أن تكون لغة التماس يحوطها الاحترام الكلى للهيئة التى يترافع أمامها . قد يكون أغزر من سامعيه علماً وأظهر فضلاً ، وقد يكون كلامه لهم تعليما ، ولكن عبارته يجب أن تكون عبارة إكبار وإعظام

والاحترام والاكبار لا يقتضى التذلل ولا الضعة فى توجيه الخطاب . وشد ما أكره عبارة « سيدى البيه » يوجهها بعض الزملاء إلى قاض ليس « بيكا » ولا هو بحاجة إلى رتبة تخلع عليه على سبيل التأدب الزائد وقد يحمل خامها على أنه زلفى وتقرب

وفى الوقت عينه لغة جرأة

على أنه إن كانت لغة المرافعة لغة تعظيم وتوقير فهى فى الوقت عينه لغة عزة وجرأة . وقد روى التاريخ مواقف للمحامين رقوا فيها إلى درجة البطولة . انظر إلى ديسيز وقد دعاه لويس السادس عشر إلى الدفاع عنه أمام الجمعية التأسيسية فى وقت جمعت فيه هذه الهيئة فى يدها جميع السلطات ، وأصبح مجرد الاشارة إلى الملوكية جريمة . انظر إليه وهو يواجه هيئة ضمنها أمثال روبسبير ودانتون ومارات . انظر إليـه وهو يقرع أسماعهم وقلوبهم بهذا الخطاب الخالد

« أيها المواطنون : سأخاطبكم بلسان الرجل الحر . إنى أبحث بينكم عن قضاة فلا أجد غير متهمين

أتريدون أن تجعـلوا من أنفسكم قضاة « للويس » وأنتم خصومه ؟ أتريدون أن تجلسوا للحكم فى قضية لويس ولكم فيها رأى يجوب أوروبا من أقصاها إلى أقصاها ؟

أيكون لويس الفرنسوى الوحيد الذى لا يحميه قانون ولا يتبع فى محاكمته إجراء واحد صحيح ؟

أيجرد من امتيازاته كملك ومن حقوقه كمواطن ؟

أيخذله القانون حاكما ومحكوماً ؟

يا له من مصير عجيب لا يتصور ! »

لقد ضربت أعناق كثيرة فى عهد الثورة لكلام أقل خطورة من هذا بما لا يقاس . ولكن لأعمال الجرأة روعة تهاب وتحترم ، فان التاريخ الذى حفظ هذه المرافعة الخالدة بين صحفه الذهبية . هذا التاريخ عينه يحدثنا بأن شعرة من رأس ديسيز لم تمس بسبب هذا الكلام الجرىء ، وأنه ترافع بعد ذلك أكثر من مرة فى أشد أوقات الثورة حلوكة وسوادا

الاعتدال فى لغة المرافعات

وليس أزرى بالمرافعات ولا أضيع لبهجتها ولا أفل لسلاحها من سفه لغتها . إن عبارة قاذعة واحدة يرمى بها خصم كريم — أو غير كريم — لتكفى فى تنفير القاضى

وليس بعد النفرة تفويت للغرض الأصيل المقصود بالمرافعات وأقبح من رمى الخصم بما لا يحب جرح الزميل

صحيح أن المرافعة دفع وجذب ، ونادر هو المترافع الذى يملك زمام أعصابه فلا تجمح به حدة الدفاع ؛ ولكن المسألة مسألة مران ، وإنك لتدهش وقد عودت نفسك التزام حدود الاعتدال كيف يسمو موقفك ، وتعلو حجتك ويمتاز بيانك

المرافعات فى مصر

بقيت كلمة كان يمكن أن تكون موضوع مقال خاص ، فلسنا نملك الاطالة فيها هنا ، وهى عن المرافعات فى مصر

لقد انقضى على انشاء المحاكم المختلطة نيف وستون عاما ، وأقل منها قليلاً على قيام المحاكم الأهلية ، وقد غلبت على الأولى اللغة الفرنسية ، وكانت العربية لغة الثانية منذ الانشاء وقبله

وقد زهت اللغة فى كلا القضاءين إلى حد يشهد لمصر بالتفوق البعيد

حضرت الأستاذين كاتسفليس وبادوا (وكلاهما شرق متمصر) يترافعان فى قضية قناة السويس . وكان إلى جانبى الأستاذ جرانمولان الناظر الأسبق لمدرسة الحقوق ، فهمس فى أذنى والأول مندفع فى بيانه الساحر : « لا تطمع أن تسمع خيرا من هذه الفرنسية من خيرة المترافعين أمام محكمة السين »

وفى المحاكم الأهلية سابقت لغة المرافعات الزمن فسبقته

لقد وجد مداره مقاويل — على حد تعبير رئيس محكمة النقض — قبل أن تخطو اللغة العربية خطواتها الأخيرة الواسعة وجد (حسين صقر) ، و (اللقانى) ، و (نقولا توما) وغيرهم من بناة المجد فى زمن كانت المحاماة فيه مجرد اجتهاد

وثمة نموذج من هذا المجد الغابر تجده إلى اليوم قائما بيننا فى شخص شيخ الجماعة وإمام الصناعة الأستاذ الأكبر ابراهيم الهلباوى بك

من ذا يستطيع إلى اليوم تحدى بديهته الوثابة ولغته الفكهة اللاذعة وسخره القتال ؟

ومن ذا الذى يستطيع أن ينسى سعد زغلول وأبا شادى من جبابرة ذلك العصر وكلاهما كان إلى الأمس القريب صداحا بأروع الأدب

وجاءت بعد هؤلاء طبقة هى فخر المحاماة بمعناها الصحيح وفخر لغة العصر : أحمد لطفى بلغته السهلة الممتنعة وعبد العزيز فهمى بقلمه ولسانه الجبارين يتصرفان فى المعنى وفى المبنى بما يريد ويشتهى . ووهيب دوس صاحب المنطق الجزل والديباجة الرشيقة والبيان المتدفق فى غير متعة ولا تزيد . ومرقس ! مرقس الذى لا يلحق ولا يدانى ، مرقس الجذاب الأخاذ ، المتغلغل بسامعه إلى الأعماق ، السامى به إلى السبع الطباق

كل من هؤلاء يستحق أن يدرس دراسة خاصة ، وأن يقدمه إلى الناس قلم غير هذا القلم ، وأن تقف عليه جهود لا تستطيعها هذه العجالة

وفى دراسة هؤلاء الفحول دراسة لناحية مجيدة من أدبنا القوى يجب ألا تهمل . وحسبك منا هنا الاشارة إلى آثارهم فى مختلف ألوان فنى الكلام القضائى مما لا يحصيه محص

مرافعات النيابة

ومن الاجرام أن نغفل فى صدد الكلام على المرافعات فى مصر جهود القائمين بالدعوى العامة

لقد ضربوا فى فنى الكلام القضائى بسهم . ورقوا بالمرافعات الجنائية إلى عليين

من نذكر على سبيل المثال ؟

أنروت أم أبو السعود من الغيبين فى جوار الله ؟ الابراشى أم لبيب عطيه أم عمر عارف من الأحياء النابهين ؟

كلهم يصح أن يحتذى

اسمع ما يقول النائب العام الأسبق فى قضية الوردانى

« إن الوطنية التى يدعى الدفاع عنها بهذا السلاح المسموم لبراء من مثل هذا المنكر

إن الوطنية الصحيحة لا تحل فى قلب ملأته مبادىء تستحل اغتيال النفس . إن مثل هذه المبادئ مقوضة لكل اجتماع

وماذا يكون حال أمة إذا كانت حياة أولى الأمر فيها رهينة حكم مهوس يبيت ليله فيضطرب نومه وتكثر هواجسه فيصبح صباحه ويحمل سلاحه يفشاهم فى دار أعمالهم فيسقيهم كأس المنون ؟

ثم إذا سئل فى ذلك تبجح وقال إنما أخدم وطنى لأنى أعتقد أن مثلهم خائنون للبلاد ضارون بها : تباً لتلك المبادئ وسحقاً لها ! كيف يقوم لنظام قائمة مع تلك المبادئ الفاسدة ؟ إن مبادئ كل اجتماع ألا ينال إنسان جزاء على عمل مهما كان هـذا الجزاء صغيراً إلا عن يد قضاة اشترطت فيهم ضمانات قوية وبعـد أن يتمكن من الدفاع عن نفسه حتى ينتج الجزاء النتيجة الصالحـة التى وضع لها من حماية الاجتماع

فاذا كان هذا هو الشأن فى أقل جزاء يلحق بالنفس أو بالمال فما بالك بجزاء هو ازهاق الروح والحرمان من الحياة ؟

تلك مبادئ لا وجود لمجتمع إلا بها ولا سعادة له بدونها ، فالطمأنينة على المال والنفس هى أساس العمران ومن الدعائم التى ادعم عليها فى كل زمان ومكان ، ولـكن الوردانى له مذهب آخر فى الاجتماع ، فهو يضع نفسه موضع الحـكم على أعمال الرجال فما ارتضاه منها كان هو النافع ، وما لم يرتضه كان هو الضار . ويريد أيضاً أن يكون القاضى الذى يقدر الجزاء ثم يقضى به من غير معقب ولا راد

كل ذلك والأمر لم يتعد ارجاء صدره ولا يعلم ذلك المسكين الذى سينصب عليه هذا القضاء أنه على قيد شبر من الموت جزاء له على جناية لم يسأل عنها ولم يعلم من أمرها شيئاً

إن مثل هذا الحق لا يمكن أن يكون إلا لله سبحانه وتعالى المطلع على السرائر العليم بالنيات ، ومع ذلك فانه جل شأنه شرع الحساب قبل العقاب ؛ ثم إن هذا الحق لم يتطلع إليه أحد من العالمين حتى الأنبياء أنفسهم ، وقد أجمعت الشرائع على عصمتهم من الزلل والخطأ ، ولـكن الوردانى يريد أن يضع نفسه فوق كل الدرجات المتصورة لحاكم وحكم وقتل

إنى لترتعد فرائصى إذا تصورت منظر البلاد وقد نشأ فيها البلاء الأكبر بفشو تلك المبادئ القاضية »

واسمع ما يقوله النائب العام السابق خاتماً به مرافعته الرائعة فى قضية الفلال

« لقد أبنت مبلغ نذالة الجريمة ومدى شرها إذا هى وقعت على كابر جليل المقام

أبنت ذلك بقدر ما فسح لى موقف النائب العمومى وأجازته الأمانة التى فى عنق

ولو أن المجال حر لقائل لسمعتم كل ما يتطلبه حزمكم وترضاه عدالتكم ، ولـكننى كما أسلفت مؤمن بفطنتكم ولى فيها كل الغناء على أن هناك أمراً أجل شأناً وأعظم خطراً لا أستطيع حمل ضميرى على كتمانه ، ولا عقد لسانى عن بيانه . هذا الأمر الخطير هو ما أشرت إليه فى صدر مرافعتى وألمحت به عنـد حديثى عن الباعث الذى دفع المتهم إلى جنايته ، ذلك هو ولع التبطل وغواية الاستعظام ، وما أجملت فى جلسة الاحالة بأنه داء اجتماعى وبيل يهدد الحـكومات فى كيانها ويشل النظام من أساسه ، وأنه إن لم يؤخذ بيـد عسراء استفحل ضرره وعز اتقاء شره . نعم استفحل ضرره وعز اتقاء شره

ارسموا لأنفسكم بواسع خبرتـكم ونافذ بصيرتـكم حال البلاد وقد أصبح كل عظيم فيهـا هدفا لرأى شقى تربعت فى نفسـه الشريرة هذه الأفـكار الخطرة ! تلك حال أستعيذ بالله منها

هى مضيعة للطمأنينة ومقتلة للنبوغ ومفسـدة لنفس العاملين ؛ بل هى حفرة يتردى فيهـا إخلاص المخلصين ونشاط المجدين وإيمان الصالحين

أنتم قضاة الحق ولـكنكم أيضاً مربو الخلق . وكلمة العـدل التى بها تنطقون يتجاوب صداها فى نفوس ناشئة ونفوس ثائرة ونفوس فزعة خائرة . فاجعلوا حكمكم رسالة عدل وبلاغ عبرة وبشرى سلام

وإذا جنحتم إلى الرحمة فاشملوا بها النشء وقد أوشك أن يلتوى ، والبلاد وقد دب فيها ذاك الداء الوخيم

أنتم أطباء النفس كما أنتم قضاة العدل ، والطبيب البصير لا يتردد ولا ينى عند الضرورة الحاكمة ، والقاضى الحازم يهذب بالزجر الحكيم وهو فى زجره من الراحمين

وازنوا بين روعـة الرحمة ، وقد حلت بالبلاد وبالنشء وبين

الحجاب فى الاسلام

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

من علماء الأزهر

— ٣ —

وقد عرف الاسلام أن إطلاقه الأمر للنساء فى ذلك قد يؤدى بهن إلى إساءة استعمال حقهن فيه ، فيضيق الرجال باساءة استعمالهن له ، ويعملون على التضييق عليهن وسلبهن إياه ، كما حدث ذلك بين المسلمين فآل بهم إلى هـذا الحجاب المقوت الذى يحسب زوراً على الاسلام ، وكما يحدث الآن فى بعض البلاد الأوربية التى سئمت إسراف النساء فى السفور ، فأخذت تحد من حريتهن فيه ، وتضيق عليهن بعض التضييق

فلما عرف الاسلام هذا شرع للنساء فى الخروج من البيت والاختلاط بالرجال سنناً تصونها عن تلك الاساءة ، ولا تجعـل للرجال عليهن سبيلا فى سلبهن ما أعطاه لهن من ذلك الحق . وليست تلك السنن من الحجاب فى شىء ، وإنما هى تنظيم لهذا الحق بين الرجل والمرأة

ومن تلك السنن ألا تخرج من بيتها إلا باذن زوجها ، لأن له حقوقاً عليها فى منزلها ، فلا يصح لها أن تخرج منه إلا إذا سمحت بذلك نفسه ، وليس له أن يمنعها من الخروج لحاجتها بعد قيامها بحاجاته

ومن تلك السنن ألا تسافر مسيرة يوم وليلة إلا ومعها محرم لها . وقد ورد فى ذلك عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا ومعها محرم لها . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : لايخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم . فقام رجل فقال يارسول الله : إن امرأتى خرجت حاجَّة ، وإنى كتبت فى غزوة كذا وكذا ، قال : فانطلق فحج مع امرأتك

ومن تلك السنن تحريم الخلوة ، لأن فى اختلاء المرأة بالأجنبى مفاسد كثيرة ، وهى وسـيلة من وسائل إغوائها ، ودفعها فى طرق لا ترضى الدين ولا الشرف . ولم يحرم الاسلام على المرأة الاختلاط بالأجانب مع وجود زوج أو محرم لها ، ليكون هذا الاختلاط بريئاً بعيـــداً عن الريبة ، وينحصر فى الأغراض الصحيحة التى تقصد منه ، كاستفادة علم أو أدب ، أو أنس بحديث ونحوه

ومن تلك السنن ألا يتبرجن عند خروجهن من بيوتهن ، ولا ينظرن إلى الرجال نظرات غير بريئة ، ولا يظهرن من أجسامهن ما لا حاجة إلى إظهاره ، وما إلى هذا ممـا جاء فى قوله تعالى من سورة النور : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيهـا المؤمنون لعلكم تفلحون) . وكما أمر النساء بالغض من أبصارهن فى هذه الآية أمر الرجال بالغض من أبصارهم فى الآية التى قبلها : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون)

(يتبع)

ضآلتها إن هى حلت بهذ المجرم العتيد ، ثم اقضوا قضاءكم والله معكم إنه نعم الهادى ونعم النصير »

تلك وايم الحق بلاغة ليس بعـدها بلاغة . معنى حكيم فى لفظ سليم ، وفصيح عبارة فى أوجز إشارة

وتعال إن أردت تسريح الطرف فى خير ما تقع عليـه العين من أدب فى قضية أدب إلى مرافعة عمر عارف فى دعوى القذف التى سبقت الاشارة إليها . اسمع ما يمهد به هـذا الأديب المتشح برداء النيابة لمرافعته القيمة :

« تعرض اليوم أمام القضاء قضية جنى فيها رجلان ينتسبان إلى الأدب على طهر الأدب عامة فى شخص مصرى له مكانه من العلم . ولو لم يكن إلا أنه محام نذر نفسه لنصرة الحق أمام شرف القضاء لكان ذلك من المنزلة فى الثقافة العلمية والفضل المشكور حسبه »

زكى عريبى

المحامى أمام محكمة النقض والابرام

قال الفخر الرازى فى تفسير ذلك : جميع بدن الحرة عورة ، ولا يجوز للرجل أن ينظر إلى شيء منه إلا الوجه والكفين ، لأنها تحتاج إلى كشفهما لأجل البيع والشراء والأخذ والعطاء . ولهذا لما نهى النساء أن يبدين زينتهن استثنى من ذلك ما ظهر منها . وقد قال القفال : إنه الوجه والكفان . وألحق بعض الفقهاء بهما الذراعين والقدمين . ثم إن نظر الرجل إما أن يكون لغرض كنكاح أو معاملة ، وهو جائز بلا خلاف ، وإما أن يكون خالياً من الغرض ، فان كان بشهوة كان حراماً ، وإن لم يكن بشهوة كان جائزاً فى مذهب بعض الفقهاء . وقيل إنه لا يجوز ، ولكن هذا لا يلزمه إلا وجوب غض البصر ، ولا يلزمه وجوب ستر المرأة وجهها بنقاب ونحوه ، بدليل أن النظر إلى الأمرد بشهوة حرام ، ولم يقل أحد أنه يلزمه أن يستر وجهه ، لأن هذا حرام عليه لما فيه من التشبه بالنساء . وأظهر من هذا فى ذلك أن النظر بشهوة الى حيوان جميل أو صورة جميلة حرام أيضاً ، ولا يعقل أن يكلفا بهذا النقاب ، وإنما يحرم النظر بشهوة لما يصحبه من إرادة الفسق . فاذا كان مجرد استحسان خالياً من هذه الارادة الذميمة فانى أرى أنه ليس فيه شيء من الحرمة ، بشرط ألا يصحبه مايفعله رجالنا من التعريض القبيح إذا مر بهن النساء ، وتلك عادة ذميمة يجب على رجالنا أن يقلعوا عنها ، وأن يعنوا بجد الحياة بدل هذا الهزل والمزاح

فالمرأة المسلمة فى حل من هذا النقاب الذى يظن أنه فرض عليها فى دينها ، إذا شاءت سترت به وجهها ، وإذا شاءت تركت وجهها بلا نقاب ؛ ولا يطلب منها دينها الا أن تترك التبرج والتهتك والتزين بما يزيد على الحاجة ، أو يدعو الى الفتنة . ولا دلالة فى قوله تعالى : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) على وجوب هذا النقاب ، لأن سبب نزول هذا أن نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من خلفهن ، وكانت جيوبهن من قدام ، فكانت نحورهن تنكشف ، وكذلك قلائدهن ، فأمرن بضربها على الجيوب لتغطى القلائد والنحور . ولا يعقل أن يراد من هذا تغطية الوجه أيضا بعد استثنائه فى قوله : (إلا ما ظهر منها)

ومما يحتج به لهذا النقاب قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما) ، قيل فى تفسير ذلك إنه كان رجال من الفساق يتعرضون فى الطرق للنساء ويتبعونهن ، فاذا لامهم الناس قالوا كنا نحسبهن إماء ، فنزلت هذه الآية باتخاذ الجلباب للحرائر ليعرفن من الاماء فلا يؤذين . وقد مر عمر بن الخطاب بجارية ذات نقاب فضربها وقال لها : أتتشبهين بالحرائر يالكاع !

وإنى أرى أن مثل هذا لا يصح أن يكون حجة على وجوب هذا النقاب ، وأرى أن قوله تعالى (ذلك أدنى أن يعرفن) ليس معناه أن يعرف أنهن حرائر ، لأن دفع هذا الأذى عن النساء واجب فى الاسلام بلا فرق بين الحرائر والاماء ، وإنما معنى هذا عندى أنهن يعرفن بأنهن عفيفات فلا يطمع فيهن الرجال

أما أن ذلك لا دلالة فيه على وجوب هذا النقاب فلأن هذه الصيغة (يأيها النبى قل) لا تدل على الوجوب ، لأن الأمر بالأمر بشيء لا يفيد وجوب هذا الشيء ، كما هو مذهب جمهور علماء الأصول ، ولأن قوله (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) يدل على أن هذا لا يقطع ذلك الأذى ، وإنما هو أقرب الى دفعه ، ومثل هذا لا يكون واجباً ، بل يكون مندوباً . على أنه قد اختلف فى إدناء هذا الجلباب ، فقال ابن عباس : أمر نساء المؤمنين بذلك أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلاليب إلا عيناً واحدة يبصرن بها الطريق . وقال الحسن : يكفى أن تغطى المرأة نصف وجهها . وقال قتادة يكفى أن تغطى معظمه

وإذا كانوا قد صاروا إلى هذا الخلاف فانا يمكننا أن نحمل إدناء الجلباب على ستر مالا يبدو عند الزينة ، لأن هذا قد استثنى استثناء صريحاً فى آية سورة النور السابقة ، وهذا هو الواجب فى الجمع بين الآيتين . وقد قيل إن الجلاليب الثياب ، لأن الجلباب يطلق لغة على الثوب والملحفة والخمار ، وهو فى الآية محتمل للثلاثة ، فيكون معنى إدناء الجلباب أن يطلن أطرافه حتى لا يظهر منهن شيء غير الوجه والكفين

وهذا هو حكم الاسلام فى الحجاب والنقاب ، وخلاصته أن يرى ترك أمرها لحكم العرف والعادة ، وما يرضاه كل من الرجل والمرأة على وجه يصونها من الفساد ، ويحفظ ماله عليها من حقوق

(تم البحث) عبد المتعال الصعيدى

دين المتنبى

٢ – أبو الطيب المتنبى

للأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد

ومما يتصل بالكلام على دين أبى الطيب أنه لم يشرب الخمر إلا فى القليل النادر، فليس هو من المدمنين الماجنين، ولذلك لا تجد فى شعره شيئا من المجون إلا أن يهجو فيقذع فى هجائه. وما لأبى الطيب والخمر، وهى انما يشربها الغواة وذوو البطالة، ومن لا مطمع لهم فى الحياة يسمون لتحقيقه، فأما الرجل الذى يفكر فى المجد ويأمل أن يصل إلى ذروته، فليس ممن يفكرون فى الخمر. حدثوا أن صديقاً لأبى الطيب كنيته أبو ضبيس سأله يوما أن يشرب معه فأجابه بقوله:

ألذ من المدام الخندريس … وأحلى من معاطاة الكؤوس
معاطاة الصفائح والعوالى … وإقحامى خميسا فى خميس
فموتى فى الوغى أربى لأنى … رأيت الموت فى أرب النفوس
ولو أسقيتها بيدى كريم … أسر به لكان أبا ضبيس

وهو ينادم اخوانه إذا شربوا الخمر، فيشرب كأسا من الماء فقد قال له بعض بنى كلاب: أشرب هذه الكأس سرورا بك، فأجابه بقوله:

إذا ما شربت الخمر صرفا مهنأ
شربنا الذى من مثله شرب الكرم
ألا حبذا قوم نداماهم القنا … يُسَقُّونها ريا وساقيهم العزم

ومد إنسان له يده بكأس من الخمر وحلف بالطلاق ليشربها، فقال:

وأخ لنا بعث الطلاق ألية … لأعللن بهذه الخرطوم
فجعلت ردى عرسه كفارة … عن شربها وشربت غير أثيم

وهذه احدى المرات التى شرب فيها الخمر، ولم يصب حكم الشريعة فى قوله: «وشربت غير أثيم» ولكنها إحدى تظرفات الشعراء. ولعلها مع ذلك تدل على أن امتناعه عن الشرب فى غير هذه المرة لمخافة الاثم

أخلاق أبى الطيب

سنتكلم فى هذه العجالة على أربع خلال كان لها أثر ظاهر فى حياة أبى الطيب وأخباره وشعره، وهى: الشجاعة والكبر والبخل والغدر. فأما شجاعته فهى أظهر من أن تلتمس لها الشواهد، فهو شجاع يحن شوقا إلى لقاء العدى ويستصغر المخاطر فى هذه السبيل، ويستهين بما يكابد فيه من أهوال، ولقد كان مسوقا إلى اقتحام الردى تدفعه إليه نفسه المتوثبة الطامحة وتغريه به آماله الجسام التى يحرص على إدراكها الحرص كله، والتى يعتقد أن الوسيلة اليها هى التضحية وبذل النفس. وقد كانت فيه مع ذلك عجلة تشبه الرعونة نبتت فيه من تلهفه على بلوغ الغاية التى يصبو إليها حتى كان يخشى أن يعجل إليه الموت قبل بلوغها. أنظر اليه وهو يحدثك عن المجد الذى يتطلع اليه ويشير الى أن الحياة أضيق من أن تتسع لانتظاره

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها … فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقا وقينة … فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وان ترى … لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيا دويا كأنما … تداول سمع المرء أنمله العشر

ثم انظر إليه وهو يحدثك عن مطلبه ويصف لك أن إدراكه بعيد ويحضك على ألا تبالى بما تلقاه فى حياتك من الشدائد والمحن

أريد من زمنى ذا أن يبلغنى … ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
لا تلق دهرك إلا غير مكترث … مادام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ما سررت به … ولا يرد عليك الفائت الحزن

ثم انظر إليه وهو يدلك على أن هناءة العيش وسعته وطيب الحياة وسائر ما فى الدنيا من متاع أمور لا تدرك إلا بحد السيف وخضرة ثوب العيش فى الخضرة التى

أرتك احمرار الموت فى مدرج النمل

وتراه لا يترك الحديث عن آماله وشجاعته حتى فى المواقف التى لا يحسن فيها الفخر، ولقد كان مما اشتهر به شعره أنه يتحدث عن نفسه فى أثناء المديح والرثاء. استمع إليه وهو يقول لكافور:

فارم بى حيثما أردت فانى … أسد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وان كا … ن لسانى يرى من الشعراء

وهو مفتون بذلك منذ صباه، ولا عجب فى ذلك فان كثيراً

من الناس تولد معهم الآمال فى طراءة السن وميعة الشباب ، وعصر أبى الطيب الصاخب الملىء بحوادث الانقلاب خليق بأن يثير فى نفسه لواعج الآمال ؛ قيل له وهو صبى « ما أحسن وفرتك » فأجاب :

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صـــعدة يعلها من كل وافى السبال

فأما الكبر فقـد كان أبو الطيب مستكبراً تياهاً صلفاً يرى أن لا أحد مثله وأن أعلم أهل زمانه قدم وأحزمهم وغد ، وأن كل ما خلق الله وما لم يخلق حقير الى جانب عظمته كشعرة فى مفرقه . ولقد كان من آثار كبره أن ترفع عن مدح الوزير المهلبى والصاحب ابن عباد ، وحدثته نفسه أن يتأبى على عضد الدولة ، ولولا أن ابن العميد زين له الذهاب إليه وأغراه بما سيناله لديه من التكرمة والمال لكان قد امتنع . ولقد جر على نفسه بهذا الترفع عداوة الوزير والصاحب وعداوة أشياعهما من الشعراء والكتاب والعلماء . فأما الوزير فقد أغرى به شعراء العراق يزدرونه وينالون من عرضه ويبالغون فى هجائه ، وأغرى به جماعة من العلماء منهم أبو الفرج صاحب كتاب الأغانى يتعقبونه ويشهرون به . وأما الصاحب فلم يسكته عنه علمه بمحاسنه وكثرة ما كان ينتفع بمعانيه ، بل أخذ يتتبع هفواته ويعد عليه سقطاته ويغرى به المترددين عليه الطامعين فى عطاياه ، وما أكثر هؤلاء !!!

ونحب أن ندل هنا على أمرين : الأول أن آثار كبر أبى الطيب وترفعه لم تظهر جلية واضحة إلا بعـد أن اتصل بسيف الدولة ونبه شأنه . فأنت تراه قبل ذلك يمدح قوماً لا نباهة لهم ولا ذكر ، وتراه يمدح على أتفه العطايا ، وقد تنبه إلى ذلك أبو منصور الثعالبى فهو يقول : « وكان قبل اتصاله بسيف الدولة يمدح القريب والغريب ، ويصاد ما بين الكركى والعندليب » اهـ ، وأبو الطيب معذور فى ذلك فان سيف الدولة قد غمره بعطاياه حتى درت له أخلاف الدنيا ولقى فى جواره من الكرامة ما شجا حاسديه فكان خليقاً أن يقول فيه :

تركت السرى خلفى لمن قل ماله وأنعمت أفراسى بنعماك عسجدا
وقيدت نفسى فى هواك محبة ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا

الأمر الثانى : أنه قد اختلط على بعض الناس كثير من مواقف أبى الطيب فاعتبروها كبراً أو تكبراً وليست هى من الكبر فى شىء وإنما هى عزة النفس والاحتفاظ بالكرامة ، وتقدير المرء نفسه وإكرامه إياها من الكبر بالمكان النائى البعيد ؛ فليس لأحد أن يزعم أن من الكبر إنشاد أبى الطيب سيف الدولة وهو جالس واشتراطه عليه ألا يقبل الأرض بين يديه إلا أن يكون ممن تختلط الأخلاق فى أنظارهم فيرونها بغير المنظار الذى يراها به الناس ؛ وعسيت أن تسأل بعد ذلك أين ذهبت عزة نفسه حين أنشد كافور وهو واقف ؛ والجواب على ذلك أن ننبهك إلى أنه فارق سيف الدولة حانقاً متبرماً فلعل وقوفه بين يدى كافور وهو من أعداء سيف الدولة ليثير غيظه ، أو لعله أراد به مصانعة كافور لينال منه الذى وفد عليه من أجله . على أنه إن كان قد ترك معه ما جرت به عادته مع سيف الدولة فقد اتخذ لعزته لوناً آخر ، فقد كان يقف بين يديه وفى رجليه خفان وفى وسطه سيفه ومنطقته

فأما البخل فقد رماه الناس به وحكوا فى ذلك عنه أنه أحضر مالاً من صلات سيف الدولة وصب بين يديه على حصير قد افترشه ووزن وأعيد فى الكيس وإذا قطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت الحصيرة فأكب عليها ينقرها ويعالج استنقاذها ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى إذا ظهر له بعضها تمثل بقول قيس بن الخطيم :

تبدت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ولم يزل كذلك حتى استخرجها وأمر باعادتها الى مكانها من الكيس . وعجيب أن يكون بخيلاً ذلك الذى يقول

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى صنع الفقر

ولكنهم يروون عنه أنه قال : (إنى وجدت الناس لا يكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار فاعتمدت أن يكون عندى مثلها . فأنا أجـد فى ذلك حتى يقول الناس إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار) اهـ . وإن يكن القوم صادقين وكان لأبى الطيب عذر فى حرصه على المال وفى ضنه أن تضيع منه قطعة كأصغر ما يكون فليس هو هذا العذر الذى نسبوه اليه ، وإنما عذره أن المجد الذى كانت نفسه تحدثه به فى حاجة الى المال وهذه إشارة نجتزئ بها فى هذا الموضوع

فأما الغدر فآيته أنك تراه كل يوم بين يدى ملك أو وزير وتراه كلما وقف بين يدى واحد منهم يمدحه بأنه أكرم الناس

علم المتنبي باللغة والأدب *

تصحيح كتاب المقصور والممدود – تعليقات على ديوانه

للدكتور عبد الوهاب عزام

يعرف جمهور المتأدبين أبا الطيب شاعرا واسع المعرفة باللغة، ولكنهم لا يعرفونه إماما من أئمة اللغة في القرن الرابع كما يتبين فيما يلي:

قدمت في الكلام على نشأة أبي الطيب أنه درس اللغة والأدب، وأثبتّ رواية تتضمن أنه لقي جماعة من كبار الأدباء في عصره، ولكن هذه الرواية على ما أظهرتُه من الوهن في بعض نواحيها لم تبين كم طلب اللغة والأدب على هؤلاء الشيوخ ولا كيف طلب. وقد بينت آنفا أن رحيل الشاعر إلى الشام كان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة وهو في سن الثامنة عشرة

وما روى لنا أنه طلب الأدب على أحد في الشام إلا قول الثعالبي إن أباه رحل به إلى الشام فلم يزل يردده في مكاتبها الخ [1]

* من كتاب « ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام » للدكتور عزام الذي طبع في بغداد ويطلب في مصر من لجنة التأليف والترجمة والنشر

(١) انظر ص ٤٥

وجائز أن يكون الشاب المتوقد ذكاء قد درس الأدب واللغة على بعض أدباء الشام أيضا

والذي لا ريب فيه أن أبا الطيب بلغ من العلم باللغة وغريبها وشواهدها ولقن عن أهل البادية منها ما لا نعلمه لشاعر آخر من شعرائنا؛ وقد بلغ في هذا أن عدّ في عصره من علماء اللغة، وأن غلب الشعر عليه

وإثبات هذه الدعوى على النسق الآتي:

١ – رويت لنا حوادث وأقوال متفرقة تبين عن اشتهاره بمعرفة اللغة وتعرب عن رأي معاصريه فيه:

قال ابن الانباري: « ويحكى أن أبا الطيب اجتمع هو وأبو علي الفارسي، فقال له أبو علي: كم جاء من الجموع على وزن فِعلى؟ فقال: حجلى وظربى، جمع حَجَل وظَربان. قال أبو علي: فسهرت تلك الليلة ألتمس لهما ثالثا فلم أجد. وقال في حقه « ما رأيت رجلا في معناه مثله. » وهذه الجملة الأخيرة ذكرها ابن جني في مقدمة شرحه الديوان، وقال: «ولو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبي علي هذا فيه لكفاه. لأن أبا عليّ، على جلالة قدره في العلم ونباهة محله واقتدائه بسنة ذوي الفضل من قبله، لم يكن ليطلق عليه هذا القول إلا وهو مستحق له عنده »

فسؤال أبي علي أبا الطيب هذا السؤال دليل على أنه لفت الناس اليه بسعة معرفته باللغة، ثم شهادته له دليل آخر

ولما وقع الجدل بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه في اللغة بحضرة سيف الدولة، قال الأمير: ألا تتكلم يا أبا الطيب؟ فتكلم ونصر أبا الطيب اللغوي على ابن خالويه [1]. فسؤال سيف الدولة أبا الطيب أن يتكلم في أمر يتجادل فيه اثنان من اللغويين دليل على عدّه من علماء اللغة

ولما دخل على الوزير المهلبي في بغداد أنشد بعض الحاضرين وفيهم أبو الفرج الأصفهاني هذا البيت:

سقى الله أمواها عرفت مكانها ... جُراما وملكوما وبذّر فالغمرا

فقال أبو الطيب: هو جرابا، وهذه أمكنة قتلتها علما؛ وإنما الخطأ وقع من النقلة [2]

(١) انظر ص ١٢٦ (٢) انظر ص ٢٢١

وأشجع الناس وخير الناس؛ وقد يتجاوز ذلك الى التعريض عن مدحه من قبل، وقد يتجاوز التعريض والتلويح الى التصريح، ثم قد يتجاوز ذلك كله الى الهجاء، استمع اليه يقول لسيف الدولة:

وحاشى لارتياحك أن يبارى ... وللكرم الذي لك أن يباقى
ولكنا نداعب منك قرما ... تراجعت القروم له حقاقا

فانه لم يكتف بأن جعل ارتياحه للبذل لا يباريه ارتياح، وكرمه لا يطاوله في البقاء كرم، حتى جعله سيداً فحلا وجعل الناس في موازنته حقاقاً، فلما وفد على كافور كان في أول قصيدة قالها له قوله:

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

(يتبع)

محمد محيي الدين عبد الحميد
المدرس بكلية اللغة العربية

وقد حكى الحاتمى أنه ناظر أبا الطيب ببغداد فلم يقتصر على مناظرته فى الشعر ، بل ناظره فى اللغة أيضا . وحكى أن أبا الطيب قال له اللغة مسلّمة لك ، فقال : وكيف تسلمها وأنت أبو عذرتها وأولى الناس بها ، وأعرفهم باشتقاقها ، والكلام على أفانينها ، وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك[1]

وفى هذا برهان على اشتهار أبى الطيب بمعرفة اللغة ولو كان كلام الحاتمى تهكما وسخرية أو كانت قصته كذبا

ولما نزل عند ابن العميد فى أرّجان قرأ عليه كتابا جمعه فى اللغة . قال فى الايضاح : « وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذى جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه »[2]

وقال الخالديان : « كان أبو الطيب المتنبى كثير الرواية ، جيد النقد ... وكان من المكثرين فى نقل اللغة والمطلعين على غريبها ، ولا يسأل عن شىء إلا استشهد بكلام العرب من النظم والنثر » . وقال صاحب الايضاح : « وجملة القول فيه أنه من حفاظ اللغة ورواة الشعر[3] »

وقال ابن جنى : « ولقد كان من الجد فيما يعانيه ، ولزوم أهل العلم فيما يقوله ويحكيه ، على أسد وتيرة ، وأحسن سيرة »

٢ — وقد أثرنا بعض كلامه فى اللغة ، وذلك قسمان

مجادلته ابن جنى فى مسائل عرضت أثناء قراءة الديوان عليه ، وحسبك بمن يناظر فى اللغة والصرف ابن جنى امام اهل العربية فى التصريف ، ثم يشهد له ابن جنى الشهادة السالفة ، وعندنا من هذه المجادلات أمثلة

والثانى ما أملاه أبو الطيب نفسه شرحا لبعض شعره . وقد عثرت على نسختين من الديوان فيهما كثير من هذا الشرح ، وفيه من التبيين وايراد الشواهد ونسبة الأقوال إلى أصحابها ما يشعر القارئ أنه يقرأ لأحد أئمة اللغة

وأنقل هنا مثالين من إملائه على بعض أبيات ديوانه تبصرة للقارئ . جاء فى شرح البيت :

أحاد أم سُداس فى أحاد ... لييلتنا المنوطـــة بالتناد :

« قال أبو الطيب : يقال أحاد وثناء وثلاث ورباع إلى عشار فى المؤنث والمذكر غير مصروف ، والفراء يصرفها إذا جمعها نكرات ، وكل ما لاينصرف من الأسماء يصرف فى الشعر ، لأن الصرف الأصل . وهذا الذى ينسب اليه فى العدد فيقال ثنائى وثلاثى ورباعى وخماسى إلى عشارى . قل أبو النجم :

فوق الخماسى قليـــلا بفضله ... أدرك عقـــلا والرهان عمله

وأنشد :

ضربت خماس ضربة عبشمى ... أدار سـداس ألا يستقيما

وللكميت :

فلم يستريثوك حتى رمـ ... ـيت فوق الرجال خصالا عُشارا

والهذلى :

يصيّد أحدان الرجال وإن يجد ... ثُناءهم يفرج بهم ثم يزدد

وأنشدنى :

أحمّ الله ذلك من لقاء ... أُحاد أحاد فى شهر حلال

وحكى ابن السكيت عن أبى عمرو : ادخلوا موحد موحد ومثنى مثنى ومثلث مثلث ومربع مربع وكذلك إلى العشرة . وكذلك ادخلوا أحاد أحاد وثناء ثناء وثلاث ثلاث ورباع رباع إلى العشرة . قال على (يعنى ابن حمزة راوية أبى الطيب) وقال أبو الطيب : وكان أبو حاتم تبع أبا عبيدة فى قوله فى كتاب المذكر والمؤنث : « ورباع رباع . ولا نعلمهم قالوا فوق ذلك » ثم رجع عنه فقال فى كتاب الابل : « ورباع إلى العشرة »

قال أبو الطيب : وأماليبتنا فتصغير تعظيم كقول لبيد

وكل أناس سوف تدخل بينهم ... دويهية تصفرّ منها الأنامل

الرواية التى أعرفها خويخته . وكذا أنشده المبرد واليزيدى وثعلب وأنشدنيه المتنبى دويهية (هذا من قول على ابن حمزة) وقال الأنصارى : أنا جُذَيلها المحكك ، وعُذَيقها المرجب ، قال : وتصغير الأسماء على هذا المعنى كقولهم كليب وعمير . قال وما يروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرّم الله وجهه : أنا هوى ومنى سلاحى فصغره

والتنادى ، أراد التنادى بالرحيل » . ا هـ

وفى شرح البيت :

إذا عرضت حاج إليه فنفسه ... إلى نفسه فيها شفيع مشفع

قال أبو الطيب : يقال حاجة وحاج وحاجات وحِوَج ،

(١) ياقوت : الحاتمى والصبح ص ٧٩

(٢) الخزانة ج ١ ص ٣٨٦

(٣) الصبح ص ٨٠ والخزانة ص ٣٨٩

وعلى غير القياس حوائج . وتقول العرب : فى نفسى منه حوجاء أى حاجة ، وأنشد :

ألا ليت شوقا بالكناسة لم يكن إليها لحاج المسلمين طريق

وقال آخر :

لعمرى لقد لبّثتنى عن صحابتى وعن حِوَج قضاؤها من شفائيا

وأنشد لامرئ القيس :

لتقضى حاجات الفؤاد المعذب

وأنشد الفراء :

نهار المرء أمثل حين يقضى حوائجه من الليل الطويل

وزعم الأصمعى أن حوائج مولدة . قال أبو الطيب : وهى كثيرة على ألسن العرب خرجت عن القياس . قال البصرى (على بن حمزة) وأنشدنى أبو الطيب للشماخ :

تقطع بيننا الحاجات إلا حوائج يعتسفن مع الجرئ

قال : حوائج جمع حائجة على القياس وهو صحيح . وقد ذكر ذلك ابن دريد فقال حاجة وحائجة وحوجاء » . اه

ذلكم مثال مما أملاه الشاعر على رواة ديوانه . وإنى لراج أن ييسر الله لى عما قليل طبع الديوان مجرداً من كل شرح إلا أمالى الشاعر والمقدمات التاريخية التى تصدّر بها بعض القصائد وأحسبها من إملاء الشاعر كذلك

٣ — وقد قرئ على أبى الطيب فى مصر كتاب المقصور والممدود لأبى العباس بن ولاد فصححه وأخذ على مؤلفه غلطات ، وقد عثرت على رسالة اسمها « التنبيهات على مقصور ابن ولاد النحوى » جاء فى مقدمتها :

« قال أبو القاسم : وكان هذا الكتاب أعنى المقصور والممدود قرئ على أبى الطيب بمصر سنة سبع وأربعين وثلثمائة ، فردّ فيه على ابن ولاد أغلاطاً وبينها ، واستشهد عند بعضها ، فجمع رد أبى الطيب وشواهده بعض المصريين وادّعاه لنفسه بعد خروج أبى الطيب من مصر ، وأضاف إليها أشياء من عنده غلط فيها هو وأشياء أصاب فيها . وكان هذا المدعى سمع هذا الكتاب وغيره من ابن ولاد وعنه سمعته ، وهذا المدعى يعرف بأبى الحسين المهلبى ، فإذا مرّ من تلك الأغلاط والشواهد شىء فى كتابنا عزوناه إلى مستحقه وبيناه إن شاء الله » ...

وقد قرأت كتاب التنبيهات على مقصور ابن ولاد وهو كتاب صغير فجمعت ما نسبه المؤلف إلى أبى الطيب من الرد على ابن ولاد وأثبته هنا :

« وقال ابن ولاد فى باب الشين : وذكر عن أبى عمرو ابن العلاء وعيسى بن عمرو أنهما قالا الشِذو لون المسك ، قال الشاعر :

إن لك الفضل على صحبتى والمسك قد يستصحب الرامكا

حتى يعود الشذو من لونه أسود مضنونا به حالكا

وهذا ما أخذه عليه المتنبى قبلنا فقال هو الشِذو . وقد أصاب المتنبىُ وغلط ابن ولاد فى فتحه

وقال ابن ولاد فى هذا الباب (باب الطاء) : والطُرق فى النسب من قولهم الطُرق والقُعدى فالطُرق أبعدهما نسباً والقعدى أدناهما نسباً

وهذا ما أخذه عليه المتنبى قبلنا فقال الصواب الطرف بالفاء . وقال ابن الأعرابىّ يقال فلان أقعد من فلان أى أقل آباء وأطرف من فلان أى أكثر آباء . وهو مأخوذ من الطرف وهو البعد . وقال الأصمعى يقال فلان بين الطرافة إذا كان كثير الآباء إلى الجدّ الأكبر . وهو عندهم مدح كما قال الشاعر :

طرفون لا يرثون سهم القُعدُد(1)

وهذا الذى حكاه المتنبى مشهور معروف من قول ابن الأعرابى والأصمعى (وهو) الصحيح . وقد ادعى هذا الرد ابن الملتقط (يريد أبا الحسن المهلبى) وكذب فى ادعائه وهو من رد المتنبى

وقال ابن ولاد فى هذا الباب (باب الغين) غضبى مائة من الابل معروفة كقولك هنيدة وأنشد :

ومستخلف من بعد غضبى صُريمَة

فأحربه لطول فقر وأحربا

وهذا ما رواه المتنبى فادعاه ابن المنبوذ (يريد المهلبى أيضاً) فقال الذى رواه أبو العباس (ابن ولاد) غضبى بالنون . وهو خطأ إنما هو غضيى بالياء . وهذا صحيح »

ذلكم أبو الطيب فى علمه باللغة وشواهدها ونحوها وصرفها ... الخ الخ

عبد الوهاب عزام

(1) هو لأبى وجزة . وصدره : أمرون (بكسر الميم) ولا دون كل سميدع

يا ضـــوء

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

تضىء ما يستر الظلام من الـ   قبح ونكسوه حلة البدر [1]
وأمسك النار وهى صائلة   للخير والشر صولة الغير [2]
كسوتَ وجهى وخاطرى حُللاً   وكنت للعين علة النظر
لولاك لم يرحم الذى حمد الـ   حسن أخاه ذا الآفة الكدر [3]
تلوح للهالك السقيم فيذ   كرك خير اللذات والذخُرِ [4]
تلوح للجارم الحبيس كما   يلوح ماضى النعيم فى الصور [5]
تغذوه أم فى عينها أبدا   سحر حنان يضىء فى البصر [6]
وهو وليد قد أولعت يده   بخطفة الضوء حلية الحجر
وكلنا ذلك الوليـــد إذا   لاح سراب الرجاء والوطر
وأنت فى المعبد المَشيدِ كضو   ء الله فى صالح من الخبر [7]
أو مثل ضوء الضمير محتبس   فى النفس أو كالصفاء فى السِّيَر
تهبط فوق الغدير فى مرح   مثل هبوط الطيور فى الشجر
أم أنت روح الحبور قد برزت   تنير وجه الحياة فى خَفَر
سنابل النبت أنت صغت لها   من عسجد حلة من الحَبَر
ترقص رقص الحسناء إن لها   رقصاً كرقص الضياء فى النهَر
يا علماً للحياة ينشره الـ   كون فيقصى القلوب عن خَوَر [8]
ورُب فجر بشقته تهج   كفجر حب فى القلب منفجر
أو مثل فجر الآمال إن لها   فجراً وليلاً يضاه بالذكرِ

(1) البدر : جمع بدرة مقادير من النقود (2) غير الدهر : صروفه (3) ذا الآفة : أى الكفيف (4) لان الهالك يعد الضوء رمزاً للحياة التى سيفارقها (5) يرى الحبيس الضـــوء فى سجنه فيذكره بعهده وهو طليق برئ (6) أى أن المجرم الحبيس يتذكر ضوء سحر الحنان فى نظر أمه وهو طفل برئ (7) سطوع الضوء فى معابد الصلاة له جلال وأثر فى النفس ، والمشيد بفتح الميم
(8) الخور الضعف والجبن

فطرز السحب مثلما حسن الـ   نحس بضوء الرجاء فى الكدر
كأنما أنت سُلمٌ لعلا   ء النفس تسمو لآية العِبَرِ
أم أنت حسن الجنان نبصره   منفجراً خارجاً من الثُّغَر [1]
ترمد طرف الحزن إن أخا   ك الليل برّح بالخاطر الكَدِر
تليحُ بالسعد والمنى أبداً   لذى طموح بالترب منعفر
وأنت كالبحر دره الفلك الـ   دوار أو فاقع من الزهر [2]
ويا بشيراً بما نخال من الـ   آلاء فى مقبل من الغيَر [3]
حكيت ذخر الآمال تبعثها   للوهم يزهو كالتبر فى الذخُر
تخال من رقة المراسم معـ   نى لا يراه البصير بالبصر [4]
أشهى ضياء يكسو الحبيب خما   راً نعم ذاك الكساء فى الخُمُر [5]
تستبق الطير فى أشعتك الـ   غراء فعل الحسان فى الغدُر [6]
وضاءة الماس منك قد قبست   وأنت فى الروض خمرة الزهر
والضوء فى المنزل الخراب كقلـ   ب الندب يشفى بالجسم فى الكِبَر [7]
خواطر الخير كالملائك أو   كالضوء يزهو فى قمة الشجر
كل جليل مُشَبَّهٌ بك فى الـ   مدح وليس التراب كالدُّرَر [8]
فالحق والحسن والمطامع أشـ   باهك فى قول ناعت الغُرَر
أضِئْ إن اسطعت مايرام من الـ   غيوب والطارقات والقدر [9]
كم ذا رأيت الأنام فى عنت الـ   عيش نشاوى من غير ماسُكُر
فلم تقطب على الشقاء ولم   تَبْدُ كوجه الليل معتكر
كالشيخ شام الخطوب قاطبة   يذخر غُفْرًا لزلة البشر [10]

عبد الرحمن شكرى

(1) الثغر جمع ثغرة أى فتحة (2) يغمر الضوء الفلك والأزهار فكأنه بحر وكأنها دره (3) استقبال الضوء كاستقبال البشرى من بهجة وجذل (4) أى من لطافته يخيل للرأى أن أثره فى النفس لا فى العين (5) الخُمُر بضمتين جمع خمار (6) والغدر جمع غدير (7) الندب : المرجو فى الأمور لنشاطه (8) كل جليل مشبه بالضوء فيقال نور الحق ، ونور الحسن ، ونور الأمل ، ونور الطهر ، الخ (9) إن اسطعت : أى استطعت بحذف التاء والخطاب للضوء (10) أى كما أن الشيخ قد يعزيه علمه بالحياة أن يغتفر للناس زلاتهم فلا يعبس كذلك أنت لا تعبس بالرغم من عنت الحياة وشقائها

مأساة فراق

ما البرق لاح لتائه وخبا ... والكون عاد يغب في الظُلَم
أو منية لمنفس سُرَّ بها ... قلب ولم يك ذا سوى حُلُم
بأمض وقعاً من نوى قرنت ... بتعارف فتآلف النسم
يا لحظة ما كان أسعدها ... لو لم تدع قلبين في ضرم
لم يكف سرعتها فنغّصها ... يا للقساوة حقد منتقم
هل في قريضك بعدُ تسلية ... يا صائغ الأشجان في نغم
أم قد يضاعف ذاك من أسف ... وهل القريض يرد من عدم
شلت يد التفريق حين رمت ... متآلفين بسهمها الشبم
متجاوبين بكل عاطفة ... متفاهمين بأعين وفم
يتساقيان على الكؤوس هوى ... أغضى الرقيب له على رغم
كل يحس بقلب صاحبه ... ويرى له كالروح من سجم
تلك السعادة وهي إن قصرت ... حسب المحب لذاذة الألم

(...)

الشعب الباسل

للسيد عبد الرحيم محمود

شعب تمرّس في الصعا ... بِ ولم تنل منه الصعابْ
لو همُّه انتابَ الهضا ... بَ لدُكدكت منه الهضابْ
متمردٌ لم يرضَ يو ... ما أن يقرَّ على عذاب
عرنينه بلغ السما ... ء ورأسه نطح السحاب
وعُداته رغم الأنو ... ف تذللا حانوا الرقاب
مثل حدا حادي الزما ... ن به وناقلت الركاب
إن تجهل العجبَ العجا ... بَ فإننا العجبُ العجاب
نحن الأُولى هابَ الوجو ... دُ وليس فينا من يهاب
وسلِ الذي نخضع الهوا ... ء له وذلَّ له العباب
هل لان عود قناتنا ... أم هل نبت عند الضراب
أو شام عيباً غير أنا (م) ... ليس نرضى أن نُعاب
حييت من شعب تخلـ ... ـد ليس يعروه ذهاب
لفتَ الورى منك الزئيـ ... ـر مزمجراً من حول غاب
وأرى العدى ما أذهلَ الـ ... دنيا وشاب له الغراب
عرف الطريق لحقه ... ومشى له الجِدّ الصواب
الحقُّ ليس براجع ... لذويه إلا بالحراب
الصرخة النكراء نجـ ... ـدي لا التلطف والعتاب
والنار تضمن والحديـ ... ـد لمن تساءل أن يجاب
حكّمهما فيما تريـ ... ـد ففيهما فصل الخطاب

(فلسطين) عبد الرحيم محمود

الراعي الشيخ

لفكتور هوجو — ترجمة أحمد فتحي مرسي

مالت الشمس للغروب وعاد الـ ... ـليل في إثرها عبوساً مهيبا
وعلى الصخر قد تطرّح شيخ ... أوشكت شمس عمره أن تغيبا
غارقاً في السكون والصمت يرعى الـ ... ـشمس في الغرب والفضاء الرحيبا
لحظة أي لحظةٍ قد تولت ... هدأ البحر والجبال لديها
رقد الشيخ والرياح حواليـ ... ـه وقد رفرف السكون عليها
غابت الشمس وهي ترنو إليه ... وقضى الشيخ وهو يرنو إليها

إلى باكية

للسيد شفيق معلوف

وَيحِ لو كنتُ عالماً أن شعري ... سوف ينتابُ منكِ غصّةَ حُزنِ
لرميتُ اليراعَ عني بعيداً ... ونفيتُ العذاب عنكِ وعني
ولو اني لمحتُ دمعتكِ الحرّى ... لشيَّعتُها بآخر لحن
وبسطتُ ابتسامَ ثغري عليها ... وتلقيتها بأهداب جفني

***

أيُّ لحن أثار شجو العذارى ... وتمنَّيتُ أنني لم أكُنْهُ
أيُّ دمعٍ أريق من غير جفني ... ورآه جفني فلم يحتضنْهُ
أينَ ذنبي؟ وفي مدامعك الذنبُ ... وقلبي الذي يكفرُ عنهُ
إنْ يقرِّحْ جفنيكِ شعري — لكِ الـ ... ـلهُ — فقلبي تقتصُّ عيناكِ منهُ



قصة مصرية

صراع مع الشيطان !

للأستاذ دريني خشبه

« الحوار فى الأصل باللهجة المصرية ... »

انبسطت حقول الأرز حول القرية الساكنة الشاحبة ، وهدأ الليل الفضى إلا من ضفادع تنق ، ونسمة ترف فتحرك أغصان (الجميزة) الكبيرة التى ترسل فروعها فوق شاطئ النيل من جهة ، وفوق (الدوّار) الواسع فى شرق القرية من جهة أخرى ؛ وسفر البدر الجميل الساحر ، ففضض عباب النيل واختلط لجينه بمائه النجاشى ، وتدفق فوق (اللسان) الحجرى الأبيض الذى أقاموه ليفل من غربه فأحدث خريراً موسيقياً بديعاً

وجلس (حماده) بن العمدة فى منعزل عند ضفة النهر مما يلى المـاء ينتظر فاطمة ... الفلاحة الصغيرة الجميلة ، التى رآها ابن العمدة حاسرة عن ساقيها وهى تنقى الأرز مع الفلاحات الأخريات ، فجن بها جنوناً ، وافتتن بها افتتانا

لقد رشقت قلبه بنظرة ماكرة حين رأته يكاد يأكلها بعينيه الجائعتين ، وحين أحسَّت أنها حلت من فؤاده منزلة لا تعدلها منزلة فتاة أخرى ، حتى ولا زوجته الغنية التى بنى بها منذ شهر وبعض شهر ، فكان لغرمها صدى أى صدى فى كل القرى المجاورة ، لا سيما وقد غنى فيه المطرب المشهور الشيخ عبد الأله .. والعياذ بالله ...

ولسيقان الفلاحات جمالها الرائع ، وهى دائماً محاطة بظل من الفتنة ، يزيده الخلخال النائم على العقبين ، والملاءة السوداء القصيرة ، رونقاً ورواء . وكان لفاطمة جيد بارز وقوام ممشوق ، وكان لها عنق طويل أبيض ، يزينه عقد كبير من الكارم الأصفر ، ينتهى بحلية من النحاس المصفح بالذهب فتقر على الصدر ، عند انفراج الثديين ، فتزيد اهتزازات النهد خفقاناً فى قلب حمادة ... حمادة المسكين ... الذى ربط حياته أبوه بحياة هذه الزوجة الغنية التى لم يحبها ، والتى ألقاها أبوه على كاهله حملا ثقيلا من الهم والشقاء ... والذهب !! والذهب لا يصلح علاجا للهم والشقاء مهما كان كثيرا طائلا

لقد كان حمادة فتى ذكيا من فتيان الأزهر ، فقطعه أبوه عن العلم ليزوجه هذه الزيجة الغنية قبل أن تفلت من يده ، لأن أبناء العمد فى القرى المجاورة كانوا قد بدأوا يخطبونها إلى والدها ، وقد غادر حمادة الأزهر وفى قلبه حسرة ، ولكنه خضع لمشيئة والده بعد أن خدعه بالأمانى والآمال ، وبعد أن زين له مستقبلاً مليئاً بالحور العين والدعة ، وبعد أن بغض اليه مستقبل التحصيل الأزهرى الشـاق بتكرار هذه العبارة المنكرة : « الأزهر ما مستقبله ؟ علومه ما قيمتها ؟ أتريد أن تفقد بصرك وصحتك لتكون مأذوناً شرعياً آخر الأمر مثل الشيخ عرفه ؟ »

وتزوج حمادة من نظيرة ، فلما كانت ليلة العرس ، ودخل إلى عروسه ، دارت به الأرض ، وشعر كأن هواء الغرفة يخنقه ، وانطفأت فى عينيه الشموع الكثيرة الموقدة فى (الصوانى) النحاسية تحملها القرويات الصغيرات ، وخيل اليه كأن جهنم بكل ما فيها من سعير تزفر من لهب هذه الشموع فتكاد تحرقه

لقد نظر الى عروسه فطاشت أحلامه ؛ وذهبت أمانيه فى الجمال الذى كان ينشده أباديد . . . حماده ، الذى كان يعبد الله فى الجمال يبتليه أبوه بهذه المرأة التى فقدت نصف أذنها اليمنى ، وأتلف الجدرى أنفها ، ونما لها فى كل يد إصبع سادس ما ينفك يرقص كأنه الجلجل الصغير فى عنق الدابة ، ثم هى قصيرة مكتنزة

شائهة ، وقد زادتها الأساور والقلائد والقرط والخواتم وأرطال الذهب قبحاً على قبحها

وتذرع حمادة بالصبر ، ولم يشأ أن يجرح عزة هذه العروس التاعسة التى ليس ذنبها ألا تكون جميلة ، فهى لم تخان من نفسها شيئاً ، بل هو قد رحمها وأشفق عليها رثاء لها ؛ وصرف أهله وأهلها ، وغلّق الباب ، وخلا اليها ، ثم راح يكلمها كلام الذاهل عن نفسه ، المستسلم لقضاء الله . . . ولكنها لم ترد عليه ، بل تركت دمعة غليظة تنحدر على خدها فجأة ، ثم استخرطت بعد ذلك فى البكاء :

— « ما الذى يبكيك يا ... »

— « لا شىء ! فقط ، كنت ولا زلت أعتقد أننى لم أكن أصلح لك كزوجة ، ولكنهم أرغمونى كما أرغموك ياحمادة ، فليس هذا الذنب ذنبى ! »

— « ولكنك مخطئة ، فأنت امرأة صالحة وغنية ! »

— « وهذا هو موضع أسَاى وسبب بلواى . . . إسمع يا حمادة ، لك مطلق الحرية فى أن تُسرِّحنى من الغد وأن تكون حراً بعد ذلك ، وسأرد لك صداقك ، بل سأرده مضاعفاً إن شئت . فان أردت أن تستبقينى لديك فسأعيش معك عذراء الى الأبد ، ولن أنغص عليك بخلقى الشائه متاع قلبك ونعيم نفسك ولذة شبابك ونضرة صباك . فهذه أشياء لك أن تنعم بها ، ومن الظلم أن أفرض عليك هذا القبح الذى رزأنى به القادر ، فأقف به بينك وبين لذات الحياة وهناءاتها . . . أرسلنى أشكر لك ، أو استبقنى أحمدك . فان كانت الأولى تكن قد خلصت من خطأ أوقعك فيه غيرك ، ولم تتكلف فى سبيل الخلاص منه قليلاً ولا كثيراً ؛ وإن تكن الثانية ، فثق أننى سأعيش فى كنفك كما تعيش الراهبة فى دير ساكن هادئ على هامش صحراء ، يقنعها أن قد انقطعت عن بهارج الحياة وزخارفها وآمنت ببطلان لذاتها . . . آه ! يا إلهى ! لم لا نتخذ نحن المسلمين مثل هذه الديور ؟ ! . . .

— « كفى يا نظيرة كفى ! بل تعيشين معى على أحسن ماتعيش فتاة تفرح برجلها ! . . .

***

وعاشت نظيرة فى كنفه ، عذراء كما عاهدته ، وكان هو يحنو عليها ويعطف كل العطف ، وكان يسامرها ويلاطفها ويهش لها ويبش ، حتى كلفه أبوه مراقبة الفلاحات إذ ينقين الأرز من الحشائش الغريبة وسائر الطفيليات ، فرأى فاطمة ... فاطمة الشابة الجميلة التى تتأرج كالزهر بشذاها وعَرْفها ، وتتبرج كالدنيا بمفاتنها وظرفها ... لقد بسمت له عن فم رقيق ، وغمزت قلبه بعين خبيثة ماكرة ففجّرت فيه أحاسيسه المكبوتة ، وأطلقت عواطفه الحبيسة ، وأحيت فى صميمه مطالب الشباب فثارت كالبركان ، وصعد الدم الحار يغلى فى رأسه ، وتدفقت فى أعصابه قوى هائلة من الطبيعة البشرية بغّضت إليه هذا الزهد المصطنع الذى فرضته عليه نظيرة ، وقبحت إليه تلك الرهبانية التى عرفها وهو فى ميعة الصبى وشرخ الشباب منذ الليلة الأولى التى رأى فيها زوجته الشائهة المسكينة

وكان يرسل من يشترى له بلحاً أحمر يأكله بعد الغداء ، وكان يوزع على الفلاحات بيده من ذلك البلح إذا فرغن من غدائهن ؛ وكان نصيب فاطمة من هذا البلح الأحمر كبيراً منتقى ، أثار فى قلوب أترابها غيرة شديدة وجعلهن يهمسن بكلام كثير

ومرت الأيام ... وتأكد الحب بين حمادة وفاطمة ، وإنه لينتظرها الليلة فى هذا المنعزل الفريد عند ضفة النيل مما يلى الماء ، قريباً من تلك الجميزة الكبيرة الوارفة ، وإنها لتتأخر عن موعدها فيقلق حمادة ويضطرب ، ويسمج فى عينيه كل شىء من الطبيعة الساحرة التى حوله ، حتى بدرها الذى كان للحظة قصيرة يتلو عليه مزامير الحب ، يخيل اليه أنه مظلم قاتم ، أو أنه جذوة من الشك السادر الحزين تجوب أقطار السموات

« لم لم تأت ياترى ؟ آه اللعينة ! أخشى أن يكون فى الطريق الى قلبها فتى سواى ... سأعرف ... لابد ... لابد أن أعرف ... سأسألها الليلة ، لابد أن ألقاها مهما كانت ظروفها ، لن تستطيع أن تنكر ، ماذا تقول ؟ هيه ! »

وصعد إلى الجميزة لأنه لم يحتمل مرور الزمن وهو يترقب وينتظر ، وجمع قليلا من الجميز الفلكى الأحمر الكبير ، وهبط ليلقى فاطمة تنتظره ، فقذف بالثمر الناضج على العشب ، وفتح ذراعيه وضم الى صدره فاطمة ، واحتملها كاللعبة ، ويمم شطر

المنعزل الهادئ القريب من الماء ... ثم جلسا يتناجيان ...

— « لماذا أبطأتِ عليّ يا بطة ؟ »

— « لاشيء ، غير أنني كان يخيل الىّ أن الطريق كلها عيون ترقب جميع حركاتى ، وكنت على غير عادتى أشعر بقلبي يخفق خفقاناً شديداً ... حمادة أليس قلبك يخفق مثل قلبى ؟ »

— « يخفق ؟ يخفق فقط ؟ إنه كاد ينخلع هذه الليلة يا طمطم لأنك أبطأت كثيراً ... »

— « حمادة ، أنا خائفة ... »

— « خائفة ؟ من ماذا ياحلوة ؟ هل هنا عفاريت ؟ »

— « لا ، ليس من العفاريت ، فالليلة مقمرة ... الحمد لله ... »

— « إذن مم تخافين ؟ هل تعقبك أحد إلى هنا ؟ »

— « لا ... لا أظن ، ولكن ... »

— « فاطمة ... كفى ! يجب ألا تفكرى فى شىء مادمت معى ... تعالى يا فاطمة ، هاتى فمك الخمرى الجميل ، الله ! ما أشهاه يا فاطمة ! قبلة ثانية ، لا والله ، لا بد ، لا بد ، فاطمة ، أنت ترفضين ؟ آه ! يا قلبى ! »

— « حمادة ! أنا خائفة قلت لك ! »

— « خائفة من أى شىء يا طمطم ؟ »

— « من ... من ... منك ... أنا خائفة منك ياحمادة ؟! »

— « منى ؟ منى أنا ؟ أنت خائفة منى ؟ »

— « نعم أنا خائفة منك ... خائفة جداً ! »

— « لماذا ؟ هل أنا عفريت ؟ القمر طالع والحمد لله ؟... »

— « حرام عليك يا حمادة ! »

— « حرام على ماذا ؟ »

— « شىء ... فقط ... زوجتك نظيرة ... إنها لو علمت تقتلنى ! »

— « امرأتى نظيرة ! العياذ بالله ؟ نظيرة ليست امرأتى يا فاطمة ! »

— « ليست امرأتك ؟ امرأة من إذن ؟ »

— « أجل ، نظيرة ليست امرأتى : إنها فريسة أبى »

— « فريسة أبيك كيف يا حمادة ! »

— « فريسة أبى ، لأنه تجاهل قلبى وشبابى حين اشتراها لى »

— « اشــتراها لك ؟ وهل العرائس تشترى ! ماذا تقول يا حمادة ؟ »

— « اشتراها ، أجل اشتراها ، اشتراها لأنها تملك خمسين فداناً ومنزلين وعندها نقود كثيرة ، ولكنها ، كامرأة ... لا تسوى منك قلامة ظفر يا فاطمة ! »

— « لم ؟ أليست جميلة ؟ »

— « جميلة ؟ كلا ! انها شوهاء ! أكل الجدرى نصف أنفها وذهب الجزار بنصف أذنها ، ونبت النصفان ، نصف الأنف ونصف الأذن ، فى يديها ، فكانا فى كلٍّ إصبعاً سادساً ؟ ... »

— « ولكنك تخونها الآن يا حمادة ؟ أليس كذلك ؟ »

— « أخونها ، لقد صرحت لى ليلة الدخلة أنها لن تقف فى سبيل لذاتى ! »

— « ورضيت أن تعاشرها على هذا الشرط ؟ »

— « ... ؟ .. »

— « وأنا أرفض أن أكون مطية للذتك ! هذا كثير ! دعنى ! لا بد أن أعود أدراجى ! »

— « إلى أين ؟ »

— « ليس هذا شأنك ! »

— « آه ! اعترفى إذن : الى عشيقك الثانى ! الذى أخرك هذه الليلة ! »

— « حمادة ؟ ماذا تقول ؟ أنت جبان ! »

— « جبان ؟ لا ... أنا لست جباناً ... ألذلك تخافين منى ؟ ولكن لا ، لن يتمتع بك أحد غيرى ، أنت لى وحدى ، أفهمتِ ؟ أنتِ لى وحدى : فاطمة ! انزعى هذا الثوب ... وذاك النصيف ! »

— « يا حمادة عيب ! »

— « عيب ؟ لا ، ليس فى ذلك عيب مطلقاً ! قد عرفتك الليلة فقط ، ولا بد أن أنالك رضيت أو لم ترضى ! ستكونين جميلة جداً وأنت عارية !

— « حمادة : ان لم ترجع (فسأصوّت)

— « صوّتى ما شئت : لا تفضحين إلا نفسك ! أنا رجل على كل حال ، ماذا يهمنى اذا اجتمع الناس ؟ ...

وانقض عليها المسكين ينزع عنها ثيابها ثوباً ثوباً . وما استعصى عليه منها جبذه فمزقه ، حتى وقفت أمامه فاطمة دمية من المرمر الناصع ... تمثالاً ! تمثالاً فاتناً خلاباً ... ولكنه لا يتحرك ! لقد ذهلت فاطمة عن نفسها فلم تدر ماذا تصنع ؟ أتصوت كما أنذرته ؟ ولكنه قال لها إنها إن فعلت فلا تفضح إلا نفسها ... جبنت فاطمة فلم تصوت إذن ... ووقفت مشدوهة حائرة ، وصب القمر على بدنها الجميل المذعور أضواءه الفضية فزادها فتنة ؛ وهبت نسمات عليلة فداعبت شعرها الأسود فانتثرت على جيدها وظهرها وحول عنقها ... وجاء دور الشيطان ... نوبة إبليس الأكبر ! فراح يصقل فخذيها ويلون خديها ويثقل ردفها وينفخ ثدييها ... وانطلق يوسوس في قلب حمادة « هلم ! اهجم عليها ! لماذا تنتظر ! هاهي ذي ! إنها لك الساعة واذا فارقتك فلن تراها بعد ! أنت شاب ، وللشباب مآربه ! زوجتك الشائهة ! لا تخش شيئا ! اقطف الثمرة قبل أن يلتقطها عشيق غيرك ! الجدرى ! فاطمة جميلة ساحرة ؟ الأصبع السادس ! هاك متاع الدنيا ! ... »

وأزله الشيطان فانقض على الفتاة البائسة ... وطرحها على (الدريس) اليابس وأعواد البردى المنداة ... ووقف برهة يملأ ناظريه الفاسقين من جمالها المظلوم ... وقبل أن يتقدم فيخطو الخطوة الأخيرة ، وحين أيقنت فاطمة أنه موشك أن يعتدى عليها ... اغرورقت عيناها بدموع غليظة ، وقالت له :

— « حماده ! والقرآن يا حماده ! القرآن الذى حفظته فى الأزهر ؟ نسيته ؟ نسيته يا حماده ... بهذه السرعة ؟ »

— « القرآن ؟ القرآن ! ! هه ! ... »

وجمد الفتى فى مكانه لحظة ... ثم ولى الفتاة ظهره ، ونظر الى السماء وقال :

— « ربى ! غفرانك اللهم ... فاطمة ! »

— « ... ؟ ... »

— « انهضى فالبسى ثيابك ! »

* * *

ونهضت فاطمة وهى لا تصدق ، فارتدت ملابسها ، الممزق منها وغير الممزق ، ثم قالت لحمادة بصوت خاشع متهدج :

— « حمادة ! أنت ... مالك يا حمادة »

ولكن الفتى ازور عنها وقال :

— « لا شىء يا فاطمة ... عودى أدراجك الى منزل أبيك ، وسأحرسك من بعيد ... »

وانطلقت الفتاة فى الطريق المقفر الموحش ، وانطلق فى إثرها حمادة ، وهو لا يكاد ينظر اليها ...

* * *

— « نظيرة ! هل يحزنك أن أتزوج ؟ »

— « يحزننى ؟ بل يسرنى أن تتمتع بشبابك كما يحلو لك ! »

— « إذن فقد عقدت على فتاة فلاحة ... فقيرة فى غاية الفقر وستكون خادمة لك إذا شئت ! »

— « من ؟ من هى يا حمادة ؟ من هى بالله عليك ! »

— « فاطمة بنت عم عبد القادر العتال ! »

— « مبارك ... مبارك يا حماده »

* * *

ولم تحتمل نظيرة الموسرة هذه الرهبانية التى فرضتها على نفسها فى منزل العمدة الذى خدع ابنه فرجت حمادة فى طلاقها ... وذهبت بكل ما عليها من ذهب الى منزلها الرحب الفسيح فى إحدى القرى المجاورة للمنصورة !

دريني خشبة

البريد الأدبي

احياء الموسوعات العربية العامة

رأى صاحب المعالى الأستاذ زكى باشا العرابى وزير المعارف أن تقوم وزارته باحياء المصادر التاريخية والأدبيــة للمخلفات العربية العامة ، فأمر أن تؤلف لجنة من رجال الأدب لبحث هذا المشروع الخطير

وقد اجتمعت هذه اللجنة بوزارة المعارف ظهر الاثنين الماضى (٢٤ أغسطس) برياسة الأستاذ محمد العشماوى بك وكيل المعارف ، وحضور حضرات أصحــاب العزة محمد عوض ابراهيم بك ، والأستاذ على الجارم بك ، ومحمد أحمد جاد المولى بك ، ومراقبى التعليم ومساعديهم ، واختارت لجنة فرعية من شيوخ اللغة العربية بالوزارة لتنفيذ رغبــة معالى الوزير بمراجعة الأصول العربية واخراجها باشراف الوزارة ورعايتها ، بحيث تمكن هذه المراجع الهامة من اعطاء مادة كافية من وضع كبار مؤلفى العرب لمشروع دائرة معارف عربيــة كاملة بشكل يتفق مع زعامة مصر للأمم العربية

وقد شرعت الوزارة فى اعتماد المبالغ اللازمة لتنفيذ المشروع .

ومن المصادر التى رأت اللجنة مراجعتها : ابن الأثير ، والطبرى ، وتاريخ ابن مسكويه ، وتاريخ ابن خلدون ، وطبقات ابن سعد ، ونحو خمسين مؤلفا غيرها لها أهميتها الأدبية كالأمالى والكامل والأغانى والتراجم المختلفة فى القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر

ولا شك فى أن وزارة المعارف بهذا المشروع ستسدى خدمة جليلة للناطقين بالضاد فى جميع أنحاء العالم العربى

الحقيقة والتاريخ

ضمنــا مجلس مع فخامة حقى بك العظم ، رئيس مجلس الشورى ، وكانت لا تزال فى خاطرى ذكرى القصة الشجية التى قرأتها فى مجلة (الرسالة) الغراء فى عددها (١٦١) للأستاذ على الطنطاوى بعنوان (النهاية) ... وما تضمنته من حوادث خاصة عن والى دمشق ناظم باشا والجفاء الذى لقيه عند زيارته لها فيما بعد ؛ فذكرت ذلك لحقى بك ، وكان يومئذ حاكم دمشق ، فاستغربه وقال : إنى أربأ بالكاتب أن يصل به خياله لهذه الدرجة رغم أن كتابته عالية . ثم أخذ يسرد علينا قصة مجىء ناظم باشا إلى دمشق والحفاوة البالغة التى حظى بها قال :

« ... ثم أتى دمشق بعد أن زار ابنتيه فى بيروت ، وكان ببزة عادية ، فبقى فيها عدة أيام زارنى خلالها فى «السرايا» فاستقبلته بكل حفاوة وتعظيم تقديراً له واكراماً لأعماله العمرانية التى أودعها فى مدينتنا ... وعند خروجه اصطفت له جنود الحرس وأقامت له التحية الرسمية ، وودعته أنا حتى الباب الخارجى ، وقد احتفى به معظم وجوه دمشق ، وتقدموا اليه بهدايا عديدة رفضها بكل إباء . وكان قد أحس نقيب الأشراف بوجوده فأتاه فى اليوم التالى ورجاه أن يطيل بقاءه بضعة أيام أخر لتقوم دمشق بواجبها نحوه ، فاعتــذر بضرورة مغادرته المدينة إلى بيروت ، حتى أن السلطة الفرنسية تقدمت اليه بمنتهى الاكرام . وإنى أذكر أن الكولونيل كاترو أدّب له وليمة فاخرة كنت من المدعوين اليها . ولم يُظهر ناظم باشا مدة اقامته بدمشق عجزا أو حاجة مالية قط . وربما شعر بعض أصدقائه بشىء فتقدموا نحوه بعطايا كما ذكرنا فرفضها . ومن ذلك أن رجلا يدعى « شيخو آغا » كان « ياورا » عند الوالى ، جاءه بكل خضوع وبيده كيس صغير فيه (٥٠٠) دينار ، واستعطفه بلطف ورجاه أن يقبله منه كهدية ، قلت أو كثرت ، فهى من خيراته السالفة التى أنعمها عليه ، فأبى بعفة نادرة ... ثم مات منذ خمس سنوات ... »

حدثت هذه المقابلة اتفاقا ، فلم أرد أن أهملها أو أخفيها على قراء (الرسالة) الغراء خدمة للحقيقة والتاريخ

وإنا وإن كنا نستسيغ للأستاذ الطنطاوى الخيال المبدع فى القصص ، فاننا لا نود أن يتسامح فى الحقائق التاريخية . وإن إعجابى الشديد بمتانة أسلوب أخى الأستاذ الطنطاوى ، وقوة انشائه ، شجعانى لتصحيح هذه الناحية من قصته إتماما لفنه القصصى البارع ، والسلام ؟

(دمشق) علاء الدين الخانى

المسألة الاستعمارية

ظهرت فى العهد الأخير نزعة استعمارية جديدة فى بعض الدول التى لم تتح لها فرصة امتلاك المستعمرات من قبل أو التى فقدت مستعمراتها لأسباب خاصة ؛ وترجع الدول التى تضطرم بهذه النزعة الجديدة مثل إيطاليا واليابان وألمانيا وبولونيا مطالبها إلى حق المشاطرة فى امتلاك المستعمرات على قدم المساواة مع الدول الأخرى التى تتمتع بالأملاك الاستعمارية الواسعة مثل فرنسا وانكلترا وهولندة ؛ وتزعم فوق ذلك أن لها حق الفتح والامتلاك بالقوة ما استطاعت سبيلا الى ذلك ، وتدعى أن العوامل الاقتصادية تدفعها إلى ذلك دفعاً ؛ فزيادة السكان ، والعطلة ، وفقد المواد الأولية ، وغيرها مما يرغمها على تلمس السبيل إلى تخفيف متاعبها الاقتصادية بامتلاك المستعمرات واستثمارها

وقد بحث هذه المسألة كاتب سياسى واقتصادى كبير هو المستر جروفر كلارك ، وأصدر عنها أخيراً كتاباً ضافياً بعنوان « مكان تحت الشمس » A Place in the Sun وألحقه برسالة أخرى عنوانها « قوائم الاستعمار » Balance Sheet of Imperialism ، وفى الكتاب الأول يفند مستر كلارك مزاعم الدول الاستعمارية من الوجهة السياسية والتاريخية ، وفى الثانية يفند مزاعمها من الوجهة الاقتصادية بإيراد الاحصاءات التى تدل على أن الغايات الثلاث التى تستتر وراءها : أعنى إيجاد منفذ للسكان ، وافتتاح الأسواق المحلية ، والحصول على المواد الأولية ، إنما هى غايات مزعومة

ويلاحظ مستر كلارك أن تحقيق هذه المزايا لا يتوقف على امتلاك المستعمرات فقط ، بل يتوقف قبل كل شىء ، وخصوصاً أيام الحرب ، على القوة البحرية التى تملكها الدولة المستعمرة . ومن جهة أخرى فان معظم البلاد التى تطمح إليها الدول المستعمرة قد أصبحت تغص بسكانها الأصليين ، ومن الصعب أن ينافسهم فى استثمار مواردها ومرافقها مهاجرون من الخارج ، وينطبق هذا بنوع خاص على البلاد الواقعة فى المناطق الحارة

بيد أن العوامل الاقتصادية ليست كل شىء فى الموضوع ، فهناك ما يسمى بالعزة القومية ، وهى مسألة أثارتها ألمانيا بنوع خاص . وهذا العامل المعنوى يراه المؤلف ضرباً من اللغو ولا يرى أن يقف به طويلاً ، إذ أن المبدأ المسلم به هو « أن تحصد أينما بذرت »

وبحوث مستر كلارك وملاحظته جديرة بالاطلاع والتقدير

من أخبار السفهاء فى مصر

قرأنا فى أحد أعداد جريدة الجورنال البارزية ما يأتى :

« فى مصر ، على مقربة من الأقصر ، يبنى الآن قصر فخم ، وذلك من أجل سحر عيون ممثلة من أشهر ممثلاتنا السينمائيات . وقد قال لها محبها ، وهو فتى ساحر ، يملك قرى بأسرها وحقول قطن على ضفاف النيل : « سوف تعيشين هناك كملكة ! » فأجابته الممثلة : ولكنى الى أن يتم ذلك سأعود الى فرنسا وأشتغل باخراج فلم « الملك » . وقد كانت ممثلتنا المظيمة الرشيقة عند قولها . ذلك أن ج . م (جابى مورلى) سوف تأتى فى مدى أيام قلائل لتقوم باخراج شريطها »

أجل تبنى القصور فى مصر وتنفق الألوف من أجل عيون الممثلات والغانيات الأجنبيات ! وهذا الفتى المصرى (الساحر) الذى تشير إليه الجريدة البارزية هو أحد أولئك الفتيان الذين ورثوا أموالاً مكدسة لم يعرفوا كيف حصلت أو كيف تحصل بعرق آلاف الفلاحين ، وإنما يعرفون كيف تنفق على الموائد والغانيات بلا حساب فى مصر وفى غير مصر : أولئك السفهاء هم فى الواقع عنصر مسموم فى المجتمع المصرى يجب القضاء عليه بكل الوسائل

أوراق العظماء

صدر أخيراً فى فرنسا قانون جديد يقضى باعتبار المراسلات والمذكرات الصادرة من العظماء سواء فى الحكومة أو خارجها من الآثار العامة التى يجب حفظها وحمايتها ، وقد كانت أمثال هذه المراسلات والوثائق تعتبر حتى اليوم بطريق العرف والتقليد من الآثار العامة . ولكن الحكومة الفرنسية رأت أن تسبغ على هذا العرف صفة رسمية كى تستطيع فى بعض الأحوال أن تضع يدها على الوثائق والمراسلات المخلفة عن العظماء وأن تودعها على ذمة التاريخ فى دار المحفوظات العامة على رغم معارضة المعارضين

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

العدد ١٦٦ — ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 166

Lundi - 7 - 9 - 1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٦٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ — ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

وَزْنُ الماضى

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

وقال صاحب سر (م) باشا : إنى لجالسٌ ذات يوم وفى يدى كتابٌ لبعض المتفلسفة من مَلاَحدة أوربا الذين يريدون أن يفهموا مالا يُفهم ؛ وكان الباشا قد رآنى مرّةً أنظر فيه وأتدبر مسائله الغامضة ، فقال لى : يا بنى إن أحد الكلاب كان شاعراً فيلسوفا ، فنظر ليلةً فى النجوم فراعته وحيّرته ؛ فآلى أن يفهمها بعقله وتفرغ لدرسها مدة طويلة ، ثم وضع فيها كتاباً نفيساً ضخماً كان أعظمَ كتب الفلسفة وأشدها غموضاً عند الكلاب ، وكان اسمُه : العظام المبعثَرة فوقنا ....

قال : فأنا جالسٌ أقرأ هذا الكلامَ الذى لا صحيح فيه إلا أنه غير صحيح ... إذ دخل علىّ كاتب متفلسف ملحد من هؤلاء المدخولين فى عقولهم المفتونين بأوربا ومذاهبها وعُلويّاتها وسُفلياتها .. وهو يكتب فى الصحف ويؤلف الرسائل ، وقد جاء يستصرخ الباشا على فلاّح شاركه فى زراعة أرضه فزرعه الفلاح فيها وحصده ، ودهاه بكيده ، وابتلاه بغلظته ، وتهدّده بالنقمة

وكان هذا الفلاح الساذج الغرير قد سبقه إلىّ وعرّفه لى تعريفاً قاموسيا محيطاً من مادة كَفَر يكفُر ... ثم قال بعد ذلك

إنه (بيّاع كلام) يصدق ويكذب حسب الطلب ... والذمة نفسها ليست عنده إلا (عملية حسابية) ؛ وهو فى أقوى جهاته لا ينفع الدنيا بما تنفعها به البهيمة من أضعف جهاتها

أما الكاتب فيقول عن هذا الفلاح : إنه لا يدرى أهو يُتمّ بهاءه أم بهاءه هى التى تُتمه ، وان الذى يرفعُ القضيةَ على مثل هذا المخلوق إلى المحكمة لا يكون إلا كالذى يُقعْقِعُ بالعصا على جُحْرٍ فيه الحيَّةُ السامة

ورأى المتفلسف الكتاب على يدى فتهلل واستبشر وقال لى : هذا نسب بيننا .. فأدركت من كلمته هذه جملته وتفصيله ، وخيِّل إلى أنى أرى فيه نفسه الشرقية كالمرأة المطلَّقة . . . فقلت له : أنا اشتريت هذا الكتاب من أوربا ولكنى لم أشتر منها دماغى..

وكلَّمته أستخرج ما عنده فاذا هو فى قومه وتاريخ قومه كالسائح فى بلاد أجنبية يفتح لها عينه ولا يفتح لها قلبه

***

وكان جريئاً فى كلامه مع الباشا يَطْرُدُ القولَ حيث شاء حقاً وباطلاً ، ثم لا سِنادَ لرأيه ولا تثبيت لحجته إلا قول فلان ورأى فلان كأن فى رأسه عقلاً شحاذاً ... ثم ذكر آخر الأمر ماجاء له فخجَّله الباشا وقال : هذه مسئلة كسائر مسائلك تحتاج إلى رأى فيلسوف أوربى ... وأعرض عنه ولم يدخل فى شىء من أمره

ولما انصرف قال الباشا : يحسبُ هذا نفسَه عالماً وهو صعلوك علمىّ ... وإنما يكون دماغه وأدمغة أمثاله عند الفلاسفة والعلماء الذين يذكرونهم كما تكون سلة المهملات عند الصحافيين . إن هذا الرجل يتم ضعف عقله فى الرأى بقوة عناده فيه ليجعل له ثبات الحقيقة فيُظَنّ حقيقة ، كأن خَضْخَضَةَ الماء باليد فى وعاء صغير ينقل الى هذا الوعاء طبيعة الموج . وعند أمثال هذا المفتون من الصعاليك العلميين — أنك إذا تناولت مسئلة فأخطأت فيها خطأ جريئاً فقد جعلتها بخطئك الجرىء مسئلة من العلم . . . وأنك إذا عاندت فثبت الخطأ فى وجه الناقدين سنة ، كان حقيقة مدة سنة . . .

هم مفتونون زائغون ، ومن فتنتهم أنهم يرون البعدَ بينهم وبين أهل الفضائل الشرقية كالبعد بين العالم والجاهل ؛ ولو حققوا لرأوه بُعْداً فى الغرائز لا فى العقل ، أى كالبعد بين الفجور وما أشبه الفجور وبين التقوى وما أشبه التقوى

زعم الأحمق أن خصمه الفلاح رجل راسخ فى الماضى كأنه باقٍ فى أمس لم ينتقل منه ، مع أن أمس قد انقطع من الزمن ؛ وخرج من ذلك إلى أن الأمة يجب أن تنبذ ماضيها ؛ وادعى أن الاسلام يتعصب للماضى . هذه ثلاث كلمات تخرج منها الرابعة التى سكت عنها ... (١)

وأنا لو شئت أن أسخر من مثل هذا الصعلوك العلمى لما وجدت فى أساليب السخرية أبلغ من أن أبعث إليه بقارورة فارغة وأقول له املأها لى من آراء الفلاسفة ...

يغفل هذا وأمثاله عن أن الدين الاسلامى لا يعرف الماضى بمعنى ما مضى على إطلاقه ، بل هو يشترط فيه ألا يخالف العقل ولا العلم وألا يناقض الهداية . « قالوا بل نتبِعُ ما ألفينا عليه آباءَنا . أوَلو كان آباؤُهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » . وفى الآية الأخرى : « قالوا حَسْبُنا ما وجدنا عليه آباءَنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » . وفى الثالثة : « قالوا بل نتَّبعُ ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » وفى الرابعة : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مُقْتَدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءَكم »

فانظر كيف صوَّر ما نسميه اليوم بالجمود فى قوله (حسبُنا) وكيف صور ما نسميه بالرجعية فى قوله (نتَّبع) . وتأمل كيف رفض الجمود والرجعية معاً فى العلم والعقل والهداية أى فى آثارها من العلوم والمخترعات والفضائل الانسانية ، وكيف أبطل فى تلك الثلاث الاحتجاج بالماضى بهذا الأسلوب الدقيق العالى وهو قوله فى كل آية : أوَلوْ ، أوَلوْ ، لم يغيرها بل كررها بلفظها أربع مرات

فالمعجز هنا مجىء الآيات بهذه الصورة النطقية لاسقاط حجتهم ونفى معنى التقديس عن الماضى فيهن اذا كان العلم دائم التغير ، وكان العقل دائم التجديد والابداع ، وكانت الهداية شديدة على الطبيعة الحيوانية التى هى ماضى النفس فكأنها جديدة على النفس عند كل شهوة

إن الانسان بماضيه وحاضره كأنه مقسوم إلى قسمين يقول أحدهما : أريد أن أكون ، ويقول الآخر : أنا قد كنت . فالاسلام بهذه الآيات قد أوجب وزن الكلمتين فى كل زمن بما هو الأصح ، وبما هو الأنفع ، وبما هو الأهدى ؛ وباشتراطه الهداية فى جميعها أشار إلى أن الكمال النفسى للفرد يجب أن يكون

(١) الرابعة التى يستلزمها هذا السياق المنطقى ، هى تجرد الأمة من الدين وذلك ما يعمل له بعض الصعاليك العلميين .

مرتبطاً بالكمال الانسانى للجنس ؛ وهذا معنى عجيب ، وأعجب منه ما ترى من أن الاسلام قد أصلح فكرة الماضى فنقلها من معنى الآباء والأجداد للناس إلى المعانى التى هى كالآباء والأجداد لانسانية الناس . والأخذ (بالأهدى) فى اجتماع أمة من الأمم إنما هو بعينه ناموس الترقى والتطور

ومن أدق الأسرار قوله : « إنا وجدنا آباءنا على أُمَّة » . فكلمة (أُمَّة) هذه لم يعرفها أحد على حقيقتها ، ولم تفسرها إلا علوم هذا الزمن ، فهى المشاعر النفسية التى يتكون منها مزاج الشعب وفيها يستقر الماضى ؛ كأن الآية قد عبّرت بآخر ما انتهى اليه علماء النفس من أن الانسان ابن أبويه وابن شعبه أيضاً . فالتعصب فى الاسلام هو للعلم النافع وللمجد الصحيح وللهداية الباعثة على الكمال ؛ وتعصب الجيل لمثل هذا فى ماضيه هو فى اسمه تعصب ، غير أنه فى معناه إنما هو العمل لتسليم مجد الأمة إلى الجيل التالى ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

من ذكريات لبنان

بعـــد نهار جميل

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

« والآن ماذا ينبغى أن نأخذ معنا ؟ — حاذروا أن تنسوا شيئاً »

فقالت زوجتى : « لا تنسوا الكميرا . . فسنحتاج إليها ولا شك »

وقالت فكتورين — جارتنا — : « الأفلام . . ما فائدة الكميرا بلا أفلام ؟ »

قلت : « صدقت .. وماذا أيضاً ؟ »

فقالت زوجتى : « والصابون ! »

وقالت فكتورين : « ورق اللعب .. أليس كذلك ؟ »

فقلت . « والأطباق والملاعق والفوط والسكاكين ! ! . إن من يسمعكما يخيل إليه أننا ذاهبون الى بعض مجاهل الدنيا »

فقالت زوجتى : « الحق أقول لكم إنى أخشى علينا . . . إن هذه الجبال لا عهد لنا بها وسنعود بالليل .. وقد كنت أفضل أن يقود السيارة رجل يعرف الطرق .. رجل من أهل البلاد »

قلت : « الحق معك .. فانى أخشى الثلج على الجبال »

فصاحت زوجتى : « ثلج ؟ ؟ هل قلت الثلج ؟ »

قلت : « نعم . . جبال من الجليد . . وسنحتاج أن نربط السيارتين معاً بحبل واحد . . فاذا سقطت إحداهما فى الهاوية جرت الأخرى معها ... ألا تكفون عن التخريف ؟ »

فكفوا .. وقمنا الى مضاجعنا استعداداً للسير فى بكرة الصباح

***

وكنا ثمانية فى سيارتين : زوجتى وأولادى وأنا فى سيارتنا ، وجيراننا فى سيارتهم . فانطلقنا منحدرين فى الطريق الى بيروت وهو طريق وعر كثير التعرج والتلوى ، ولكنه أملس كبطن الكف . غير أنه مخيف — يقوم الجبل على جانب منه ، والوادى تحته من الجانب الآخر . ولا ترى منه وأنت تقطعه إلا القليل لأن تلويه حول الجبل وانثناءه كالحبل أو كالحية يخفيانه . وكان الضباب فى أول الأمر يمنعنا أن نسرع ، ولكن الشمس بددته فانكشفت الدنيا لعيوننا فنعمنا بجمال الوادى الأخضر ، وجلال الجبل الشامخ ، وقد قام الشجر الثمير على سفحه بين كتل الصخور ، واختلطت فيه بهجة النور وزهرته بنضارة الخضرة . وليس أوقع فى النفس من السير فى طريق تشرف عليه الجبال وتغيب قننها فى السحاب فكأنها عروش للطبيعة ! ! !

وظللنا ننحدر وندور حول جبل بعد جبل ، ونترك من القرى والضياع واحدة بعد واحدة ، وما هو إلا أن نلف مع الطريق حتى تختفى فجأة ، ثم إذا هى بعد لفة أخرى تبدو لنا منازلها منتثرة وبعضها فوق بعض ؛ ثم ندور مرة أخرى فتحتجب ونحن لا نكف عن الانحدار ولا نزال نهبط حتى استوى الطريق واستقام ، فعلمنا أننا دنونا من بيروت . ولم تكن هى غايتنا فلنا عن طريقها وأخذنا فى طريق « عالية » ثم شعرت أن السيارة صهدت جداً حتى صارت سخونتها لا تطاق ؛ فعجبت ، وخفت ووقفت ، فسألتنى زوجتى عن الخبر ، فقلت : إن السيارة سخنة

جداً ، ولا أعرف لهذا من سبب إلا أن تكون أنابيب الماء قد ثقبت ؛ فهو يسيل منها ولا يبقى فيها . وكنا لحسن الحظ فى مدخل إحدى القرى فلم نجد عناء فى الحصول على ماء صببناه فيها ، وملأنا زجاجتين استعرناهما من بعض القوم . وبعد ذلك صرنا نضطر أن نقف من حين الى حين لنصب الماء فى السيارة ولم يكن ما حملنا منه كافياً ، فكنا كلما بلغنا قرية نأخذ منها حاجتنا ونحتفظ بما فى الزجاجتين للطريق بين القرى حتى بلغنا « الشاغور » وكان جيراننا قد سبقونا إليه

* * *

وقفت بالسيارة وراء زميلتها وفتحت بابها فشدت زوجتى ذراعى وصاحت بى : « انظر ... انظر ... »

فنظرت إلى حيث تشير ، فرأيت صبياً غريب الثياب . يلبس سروالاً — أو شروالاً كما يسمونه أحياناً فى مصر — وقد لف على خصره — إذا جاز أن يسمى هذا خصراً — حزاماً أحمر غليظاً ، ومن فوق ذلك — أو من تحته إذا شئت — صدرية من الحرير المخطط تجمع طرفيها سلسلة من الأزرار تنتهى عند العنق . وعلى رأسه لفة كبيرة . وفى كلتا يديه تفاحة عظيمة يهوى عليها بأسنانه

وقالت زوجتى : « أين الكميرا ؟ دعه يقف حتى أصوره ! »

فدنوت من الصبى وأنا أقول لنفسى : « أصيب عصفورين بحجر » أستوقفه حتى ترسمه زوجتى ، وأوكل إليه حراسة السيارة . ولكن الغلام رآنى مقبلاً عليه ، فجعل يتراجع ، وعينه علىّ ، وأسنانه تعمل فى التفاحة ، ولم يكن ثم شك فى أن الصبى الأحمق يخشى أن أخطف التفاحة منه ، فهو لهذا يدبر كلما أقبلت ، وكنت أطمئنه وأؤكد له أنى لا أريد به سوءاً وأن فى وسعه أن يأكل تفاحته على مهل ، ولكن هذا كان يزيده خوفاً ، فقد أسرع فى القضم وصار فيما أرى يزدرد ولا يمضغ . ولا أدرى لماذا ألححت فى دعوته أن يقف ويتمهل فقد كان هناك غيره ولم يكن ثم ما يدعو إلى الخوف على السيارة ، ولكن الذى أدريه أنه فرغ من التفاحة ورمى وجهى بما بقى منها فأصاب أنفى

ولما أفقت ، التفت إلى زوجتى ، وقلت :

« هذه جنايتك . . . وقد كان أنفك أولى ، ولكن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » فضحكت

وكان جيراننا قد خفوا إلى « مكان الحادثة » وعرفوا ما كان فانطلقوا يقهقهون معها . وقالت زوجتى :

« لقد استطعت أن ألقط صورتك حين وقعت التفاحة على أنفك »

قلت : « ستكون الصورة ذكرى جميلة ... أليس كذلك ؟ وهذا جزاء الأحمق الذى يتزوج . . . يجىء بامرأة فيطعمها ، ويكسوها ، ويبرها ويسرها ويعانى من أجلها وفى سبيلها المتاعب والمنغصات ، وتضحك منه حين ينبغى أن تعطف عليه وتألم له »

فلم تعبأ بى ، ومضت عنى مع الجيران ، وهى تضحك

* * *

ونعمنا بيوم جميل فى الشاغور ، ولم يكن أقل ما سرنا نومنا على العشب ، والماء إلى جانبنا يخرج من بين الصخور دافقا راغيا يتحدر من صخرة إلى صخرة كالشلال . وانقضى النهار ، وآن أن نعود من حيث جئنا . وكانت السيارة قد أصلحت فى خلال ذلك ، فركبنا وانطلقنا راجعين

وقلت لزوجتى وقد بلغنا البيت « هاتى المفتاح ! »

قالت : « أى مفتاح ؟ إنه معك ... لقد كنت أنت الذى أغلقت الباب ، وأظنك وضعت المفتاح فى جيب البنطلون »

وكان مفتاحا كبيراً عتيقاً لا يعقل إلاّ أشعر به إذا كان فى جيبى ، ومع ذلك بحثت ، وأخرجت الجيوب ونفضتها أمامها ، وأوسعت السيارة بحثاً عسى أن يكون قد سقط منى فيها ، فلم أجد له أثراً . فقلت وقد تعبت « أسوأ ختام لخير نهار . . . لا بأس ... والآن لم يبق إلا أن نجىء بخيمة نقيمها هنا ، أو أن يضيفنا الجيران وإن كان بيتهم لا يكاد يسعهم ، أو أن ندخل البيت من النافذة ... ولم لا ؟ صحيح أنها مغلقة ... ولكن ما قيمة هذا ؟ ؟ نفلق خشبها بالفأس ، ونحطم زجاجها . . . . وكل ما ينقصنا ليتيسر ذلك .... سلم طوله ستة أمتار على الأقل . . . وفأس ... الأمر سهل جداً كما ترين ... أم خير من ذلك أن أحملك على أسنانى وأنفخك إلى النافذة ، فانك خفيفة كغلالة الورد .... ولكنى أخشى أن تطيرى إلى بيت آخر ! »

فقرصتنى قرصا وجيعا ولم أكن أتوقع ذلك فصرخت من الألم

صور سياحية

منشن

مهد الحركة الاشتراكية الوطنية

« بقلم سائح متجول »

كانت العاصمة الألمانية تغص منذ شهر يولية بمئات الألوف من الزائرين الذين اجتذبهم موسم الألعاب الأولمبية ؛ ولهذا السبب ذاته لم تجذبنا برلين الزاخرة اليها ، ولم نر في الألعاب الأولمبية وضجيجها ما يؤذن بالاقامة الهادئة ؛ لذلك تركنا برلين وضجيجها ، وآثرنا أن نمضي أياماً في بافاريا وعاصمتها مِنشِن (ميونيخ) مهد الاشتراكية الوطنية ، ومبعث المبادىء والنظم التي تسود ألمانيا منذ أربعة أعوام

إن أول ما يلفت نظر الزائر لألمانيا الجديدة طابعها الاشتراكي الوطني أو بعبارة أخرى طابعها الهتلري ؛ ففي كل مكان تخفق الأعلام النازية الضخمة بكثرة مدهشة ، وفي كل مكان تعلق صورة « الزعيم » (الفيرر) ؛ وفي كثير من الأمكنة العامة مثل دور البريد والبنوك تعلق لوحات عليها ما يأتي : « تحيتنا : ليحي هتلر ! » Unser Gruss : Heil Hitler ! ؛ ويحمل الأفراد الشارات النازية بكثرة ، على صدورهم وأذرعهم ، وفي قبعاتهم ؛ وهكذا في كل مكان تشهد كثيراً من المظاهر المادية للطابع النازي (الاشتراكي الوطني) العميق الذي يسود ألمانيا الجديدة

وليس الطابع المعنوي لهذه الظاهرة أقل قوة ووضوحاً ؛ ذلك أن الزائر الذي يلاحظ عن كثب يشعر بأنه يعيش في أفق عميق من المبادىء الجديدة . ويخيل اليه أن ألمانيا كلها تتنفس هذا الريح الجديد الذي نفثته فيها الحركة الهتلرية . ولست بحاجة لأن تتحدث مع أحد لتأنس هذا الشعور ، وإنما تشعر به من تلقاء نفسك شعوراً قوياً تنفثه فيك ألمانيا الجديدة في كل مكان

ولا ريب أن من الصعب أن تتبين ماوراء هـذه المظاهر ، وما تختلج به الصدور ؛ ذلك أن ألمانيا الجديدة تنطق كلها بلسان واحد ، ومن أشد الخطر أن يكون لأحد رأي على رأي أولئك الذين يقودونها ؛ وليس في ألمانيا صحيفة واحـدة تستطيع أن تلاحظ أو تعلق ، والصحافة الألمانية كلها لسان واحد لما يرسمه القادة من الآراء والملاحظات

* * *

هذا أول ما يلاحظ الزائر المتأمل في ألمانيا الجديدة . ولقد كانت منشن مهد الحركة الاشتراكية ، وفيها بزغ نجم هتلر وصحبه ، وهي لذلك أشد العواصم الألمانية حماسة للزعيم ومبادئه . ومازالت منشن في الواقع قبلة الاشتراكية الوطنية ، ومستودع آثارها وذكرياتها ؛ واليها يحج أولئك الذين يعبدون المبادىء والذكريات من كل فج ليقفوا خاشعين أمام الهياكل والآثار التي أسبغت عليها السلطات نوعاً من القدسية المؤثرة : تلك هي بعض الآثار والذكريات المادية لقيام الحركة الاشتراكية الوطنية ، البيت الأسمر Dos Brue Haus ، وهيا كل الضـحايا ، ودار « الزعيم » أو دار الحزب الاشتراكي الوطني ، وهي جميعاً تقع في « ميدان الملك » وفي شارع منعزل هادىء يسمى شارع « أرسيس » . ولقد شهدنا هذه الآثار السياسية التي عدت رمز

ولما قرت الضجة ، قالت : « ألا يوجد في هـذه البلدة نجار ؟ »

فاستحسنت الرأي ، وأشرت عليها بالصعود مع الجيران إلى بيتهم حتى أجد نجاراً ، وكنت أظن أن الأمر لا يكلفني إلا سؤالاً ألقيه إلى واحد من أهل البلدة فاذا النجار حاضر بقدرة ربك ، ولكني مشيت بضعة أمتار — لا أقل من خمسة — وأنا أدور وألف ، وضيعت أكثر من ثلاث ساعات قبل أن أجد النجار . ولما وجدته أخبرني أنه ليس عنده شيء يستطيع أن يفتح به الأقفال ، واستمهلني ريثما يبحث . . . . واستغرق ذلك ساعتين أخريين . فلم ندخل بيتنا إلا بعد منتصف الليل !

ولا أزال أحاول أن أحتفظ بذكرى ذلك النهار — على الرغم من التفاحة التي بططت أنفي — وأن أنسى عناء تلك الليلة ولكن الذكريين في قرن ، وكل منهما تثير الأخرى ، فما العمل ؟؟

ابراهيم عبد القادر المازني

التقديس فى ألمانيا الجديدة لأنها ترتبط أشد الارتباط بتاريخ « الزعيم » وتاريخ الحركة الاشتراكية الوطنية . فأما « البيت الأسمر » فقد كان من قبل مقهى يجتمع فيه الزعيم وصحبه فى بداية الحركة ، وفيه وضع هتلر نواة حزبه ، وفيه أطلق ذات يوم فى الهواء رصاصة من مسدسه إيذاناً ببدء الكفاح والسير إلى الظفر ؛ وكان ذلك منذ نحو عشرة أعوام ، وهتلر وصحبه جماعة مغمورة لا يكاد يشعر بوجودها أحد . فهذا المقهى القديم يغدو اليوم أثراً يحج اليه ، ويحرسه الجند شاهرى السلاح . وعلى مقربة من البيت الأسمر يقوم هيكلان متقابلان عليهما مظاهر البساطة والروعة معاً ، قد صفت فى فناء كل منهما ثمانية توابيت متقابلة تحوى رفات أولئك الذين سقطوا من أعضاء الحزب الوطنى الاشتراكى فى المعارك والمحاولات الأولى ؛ وقد كتب على كل تابوت منها : « الانذار الأخير » Der letzte Rappel ، ثم اسم صاحب الرفات ؛ وإن منظر هذه التوابيت المصفوفة فى العراء لما يبعث الخشوع والروعة معاً ؛ ولقد رأيت الجموع تدنو منها كما تدنو من الحرم المقدس ، وتلقى التحية النازية ببسط الذراع ، والوجوه خاشعة ، والرؤوس محنية ، والصمت العميق يسود المكان : تلك هى مظاهر القوة السياسية الظافرة يسبغها الظافر على ذكريات ما كانت لتكون شيئاً لولا أن توجها الظفر الباهر

وعلى مقربة من الهياكل أقيمت دار جديدة ضخمة تسمى بدار الزعيم ، لتكون مقراً لادارة الحزب الاشتراكى واجتماعاته

* * *

فأما عن الحياة الاجتماعية فى منشن فيمكن أن يقال إنها صورة حقيقية للحياة الاجتماعية الألمانية . ومنشن مدينة ضخمة ، ولكن يبدو عليها كثير من آثار القديم ، فى شوارعها وفى مبانيها ، وما زالت بها عدة أبواب من آثار العصور الوسطى . وفنادق منشن عديدة ، ولكن ينقصها شىء من الاناقة وحسن التنسيق . على أن أروع ما فى منشن مطاعمها وبيرها الضخمة Braü التى لا تضارعها أية أمكنة أخرى فى أوربا : « ليفن بروى » « ماتيزن بروى » « توماس بروى » « منشنر بروى » وكثير غيرها ؛ وإنك لتدخل أحد هذه الأبهاء الشاسعة فيدهشك منظرها ويسحرك معاً . تصور أبهاء هائلة طول كل منها نحو مائة متر أو يزيد ، وعرضه خمسون متراً أو يزيد ، وقد عقدت عليها منحنيات رائعة ، وصفت فيها مئات الموائد ، وغصت بآلاف الشاربين والآكلين ؛ وأروع ما فى هذه الأمكنة القاعات التى تحت الأرض أو الأقبية الهائلة التى تمتد تحت بناء ضخم أو أكثر . وتصور هذه الجموع البشرية المكتظة وهى تحتسى أقداح البيرة ؛ وأى أقداح ؟ أقداح هائلة من الخزف أو المعدن يسع القدح منها لتراً أو أكثر من البيرة الصابحة اللذيذة ، ولا يتجاوز ثمنه قرشين ! ثم تصور أطباقاً ضخمة تغص بمقادير وافرة من الطعام الشهى بأثمان معتدلة جداً . وإنك لتشهد الأقداح المزبدة والأطباق الحافلة تنفث الدخان العطر ، والحنايا المعقودة والثريات الساطعة فوق رؤوس الجالسين فى هذا الرحب الشاسع ، والآنسات يهرولن للخدمة — والآنسات يقمن بالخدمة فى مقاهى منشن ومطاعمها — ذلك منظر رائع ساحر معاً لا يستطيع السائح أن يشهده فى أية عاصمة أخرى

وأهل منشن يأكلون ويشربون بكثرة ؛ والألمانى على وجه العموم نهم يفرط فى الأكل وفى الشراب فى كل وقت ، وهو على خلاف الفرنسى لا يحب الأحجام والمقادير الصغيرة ، بل يؤثر الأحجام والمقادير الوفيرة فى كل شىء . وللطعام الشهى لديه لذة خاصة يستمرئها ؛ والطهى الألمانى غنى بمادته الوفيرة من مختلف اللحوم والخضروات ، ولكنه قليل التنوع ؛ أما الطهى الفرنسى فيلاحظ فيه فقر المادة مع كثرة فى التنوع

ومما يلاحظ أن الشعب البافارى لا يتمتع بكثير من التناسق فى الجسم والملبس ، فهم يرتدون أغرب الأزياء والألوان دون تناسق ولا ذوق ؛ ويمتاز الرجال فى الغالب بالتكرش والترهل ؛ والشباب لا تبدو عليه آيات النضارة كالشباب السويسرى مثلاً . وكثير من الشباب يضعون النظارات على عيونهم ، بل يضعها كثير من الضباط والجند . ولا يتمتع النساء بكثير من الرشاقة والاناقة وحسن الهندام ؛ وقلما تجد حسناء تلفت النظر برائع قوامها أو زينتها ؛ وتغلب لديهن ضخامة الصدور ، بيد أنهن لا يسرفن فى الزينة والاصباغ كالفرنسيات ، وهم أميل إلى الحشمة والتحفظ

وقد قلنا إن منشن مهد الحركة الاشتراكية الوطنية وإنها أشد العواصم الألمانية تأثراً بالروح والمبادىء الجديدة .

والاشتراكية الوطنية تقوم فى جوهرها على الفكرة العنصرية ، وعلى الاعتزاز بالجنس ؛ وقد بث الغلو فى فهم هذه العنصرية إلى الشعب الألمانى روحاً عنصرية قوية تقوم من بعض الوجوه على خصومة الجنس ؛ ومن ثم فان الغرباء ، ولا سيما الذين تنم عليهم ألوانهم من الشعوب السامية والشرقية يشعرون بأنهم فى جو غير ودى . وقد لا يتخذ هذا الشعور أية مظاهر مادية ، ولكن ما يلقاه الغريب من مظاهر الأدب والمجاملة يشوبه غالباً شىء من الخشونة والجفاء ؛ وقد سمعت هذه الملاحظة من كثير من الأوربيين والأمريكيين الذين تجولوا فى ألمانيا . على أنه يمكن أن يقال إن الأجنبى يشعر رغم هذه الظاهرة التى تمازجها الصراحة بأنه فى جو أكثر قبولاً مما يأنسه فى فرنسا من مظاهر يمازجها الرياء فى كل شىء

ومنشن غنية بالمتاحف الأثرية ؛ وفى متحف قصر «الرزيدانس» وهو قصر ملوك بافاريا السابقين ، مجموعات بديعة من الصور والأثاث ؛ وفى المتحف الوطنى مجموعات زاخرة من الأثاث والأسلحة والأزياء والصور الزيتية ؛ وتوجد عدة متاحف هامة أخرى أشهرها المتحف الفنى الذى يعتبر أعظم متحف فى العالم من نوعه . ولا غرو فقد كانت منشن حتى الحرب الكبرى عاصمة لمملكة بافاريا ، وكانت مقر ملوكية عظيمة لبثت مدى قرنين تسيطر على ألمانيا الجنوبية ؛ وهى ما زالت تعتبر عاصمة ألمانيا الثانية من الوجهة التاريخية والمعنوية

وتتمتع منشن بموقع جغرافى بديع فى هضاب الألب البافارية ، وعلى مقربة من الغابة السوداء ؛ وقد جعلها موقعها مركزاً هاماً للسياحة فى ألمانيا الجنوبية ، ولقد كانت المدينة حين زرناها تموج بجموع غفيرة من السياح من سائر الأنحاء ولا سيما البلدان الشمالية مثل السويد والنرويج والدانماركة وهولندة

هذه صور أملتها الملاحظة والتأمل ؛ بيد أنه يمكن أن يقال رغم كل شىء إن السائح يلقى فى ألمانيا كثيراً من حسن الوفادة . وقد كان لما وضعته الحكومة الألمانية من التسهيلات بالنسبة لمسألة العملة وتخفيض أجور السفر أكبر الأثر فى تقدم السياحة فى ألمانيا ؟

(***)

المرأة

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

للمرأة أثرها البين فى كل مجتمع وبالتالى فى أدب ذلك المجتمع ، بل إن مكانتها فى المجتمع وأثرها فى الأدب أوضح دليل على مدى رقى الأمة . وأول ما نصادف من فرق بين تاريخى المرأة العربية والمرأة الانجليزية أن مكانة الأولى تبدأ رفيعة وتظل كذلك حيناً ثم تسير فى انحلال مستمر ، بينما تاريخ الثانية هو تاريخ رقى مطرد الى الوقت الحاضر

كانت للمرأة العربية منزلة سامية وأثر بعيد فى حياة الجاهليين والمسلمين فى صدر الاسلام زادها الاسلام توكيدا ، ويتضح ذلك جلياً فى عظائم الأعمال التى قامت بها المرأة فى ظهور الاسلام وانتشاره والشادات التى تبعت ذلك ؛ فذلك عصر حافل بأسماء فضليات النساء اللائى تركن أثرهن فى سير الحوادث وفى الأدب ، وفى ذلك العصر احترفت المرأة شتى الأعمال كالطب والتدريس فى الشرق وفى الأندلس . ومما له دلالته على مكانة المرأة إذ ذاك أن كبار الرجال كانوا يفخرون بالانتساب الى أمهاتهم وعصبيتهن ، وكانوا يلقَّبون بابن هند وابن عائشة وابن ذات النطاقين فى مجال التبجيل والمدح ؛ وكان للزوجة رأى مسموع ، يشاورها زوجها قبل الاقدام على عمل ، وآثار ذلك فى الأدب عديدة ؛ وقد جرت عادة كثير من الشعراء على تسجيل تلك المشاورات فى أشعارهم يبدأونها بقولهم : « وقائلة . . . »

ذلك عصر المرأة العربية الذهبى فى الأدب ، ضربت فيه فى الشعر ونقده ومجالسه وفى الخطابة بسهم وافر . وكان فى طليعة الأديبات والبليغات بنات الخلفاء والأمراء ، ولنقتصر من المعدودات اللاتى نبغن فى هذا العصر الطويل على ذكر الخنساء وليلى الأخيلية وليلى بنت طريف وعلية بنت المهدى فى الشرق ، وولادة بنت المستكفى وحمدونة بنت زياد فى الأندلس

فلما اتسعت المملكة الاسلامية واختلطت فيها الأجناس وتكاثرت الجوارى واستفحل التسرى وفشا الترف واستحل

ما حرم من المفاسد ، دب دبيب الفساد فى المجتمع كله ، وأخذت حالة المرأة خاصة فى انحطاط شديد مستمر : وهنت رابطة الأسرة ، وتنوسيت أوامر الدين التى تعلى مكانة المرأة وحقوقها ، وأهمل تعليمها ، وشدد عليها الحجاب حتى انفصلت عن عالم الأحياء ، فتلاشى أثرها فى المجتمع وفى الأدب ، فلم يكد يذكر التاريخ اسم امرأة عظيمة ذات أثر فى حياة الأمة أو أدبها

أما مكانة المرأة الانجليزية فى المجتمع فبدأت كما نراها فى قصص تشوسر وروايات شكسبير على درجة من الرقى محسوسة : فهى فى قصص تشوسر تبارى الرجل فى الأعمال العامة ؛ وفى روايات شكسبير تصوير لنساء على جانب عظيم من القدرة والطموح والسمو . وليس أدل على ارتفاع مكانة النساء فى ذلك العهد من قبول الشعب إليزابث — وهى بعد فى حداثتها — ملكة عليه دون تردد ، وإيلائه إياها من الولاء ما لم يوله غيرها من الملوك ، وإظهارها هى من الحنكة السياسية ما بذت به الفحول . وازنْ ذلك بما كان من ارتياع الناس فى عهد انحطاط المرأة العربية السالف ذكره ، حين وليت شجرة الدر عرش مصر ، حتى بعث الخليفة العباسى يوبخ أمراء مصر ويتوعدهم بالويل والثبور إن لم ينضحوا ذلك العار ، على حين لم يحرّك أسلافه ساكناً يوم ولى نفسَ العرش عبدٌ خصى

واطرد رقى المرأة الانجليزية باطراد رقى المجتمع الانجليزى ، وتزايد حظها من التعليم . وفى القرن الثامن عشر زاد التفاتها إلى الأدب وظهرت الصحف فأقبلت على قراءتها ، وانصرفت همة بعض كتاب العصر إلى تحسين حالها وتثقيفها وترغيبها فى الأدب . وظهرت المنتديات النسائية التى اشتهر بها ذلك القرن وكان يجتمع بها رجال الأدب . فلما كان القرن التاسع عشر طفرت حالة المرأة طفرة عظيمة فى طريق التقدم الاجتماعى والأدبى بانتشار التعليم العام ومشاركة المرأة الرجل فى كثير من الحقوق السياسية والأعمال اليومية ، فلا غرو إن تعاظم أثر المرأة فى الأدب الانجليزى ، وتدفق إنتاجها فى عالمى الشعر والنثر

ولقد اعترضت هذا الرقى فترةُ انحطاط فى القرن السابع عشر ترجع إلى انتشار الترف والفساد الخلقى اللذين صحبا عودة الملكية الانجليزية التى كانت لاجئة إلى فرنسا ، وهذا شبيهٌ بالترف الذى أدخله الفرس فى المجتمع العباسى ؛ ولكن بيْنا نرى هذا الأخير يستمر ويستفحل حتى يكون فيه القضاء الأخير على الخلق العربى وعلى مكانة المرأة وعلى المجتمع عامة ، نرى المجتمع الانجليزى لا يلبث أن يتحرر من تلك النوبة الطارئة ، وينصبُ كبارُ الكتاب — أمثال ستيل وأديسون وجونسون — أنفسهم لتطهير الأدب ورفع مستوى المرأة ، وهى حركة عديمة المثيل فى الأدب العربى : فبدل أن ينصرف أدباء العصر العباسى المترف إلى إصلاح كهذا الاصلاح الحميد تهالك شطر منهم على مفاسد ذلك العصر واعتزل شطر منهم قليل وتوفرَ على نظم أشعار الزهد

وأثر المرأة فى أدب مجتمعها مزدوج : فمنه ما يقوله الرجل متأثراً بوحيها ، ومنه ما تنتجه هى ذاتها . وتتساوى المرأة العربية والانجليزية من جهة الانتاج فى تقصيرها عن الرجل وضآلة أثرها فى الأدب إذا قيس بأثر الرجل فى شتى أغراض القول ؛ غير أن المرأة الانجليزية تفوق العربية فى كثرة إنتاجها الأدبى ، وكذلك فى كثرة ما أنشأ الرجل حولها من أدب ، لظروف مساعدة أحاطت بتاريخها وحُرمتْها المرأة العربية فى خير عصورها : من انتشار التعليم العام والطباعة والصحف ، ووجود فن من فنون الأدب فى الانجليزية دون لغة الضاد هو القصة

فالقصة المقروءة أو الممثَّلة التى تدرس المجتمع والنفس الانسانية سبب كبير من أسباب تكاثر الأدب المكتوب حول المرأة : إذ لا غنى ثمت عن درس المرأة بجانب الرجل سواء بسواء ووصف أعمالها وميولها وأثرها فى سير الحوادث ، ومن ثم زخرت روايات شكسبير ومعاصريه ، وقصص سكوت ودكنز ومريدث وهاردى وأضرابهم بشتى الصور لمختلف عناصر النساء ، ومتباين طبقاتهن ومتعدد طبائعهن ، وقد حرمت المرأة العربية هذه الدراسة الأدبية حرمانا تاماً

والقصة من جهة أخرى سبب كبير من أسباب تكاثر الأدب الذى تنشئه المرأة ذاتها ، لأنها تلائم طبع المرأة أكثر مما يلائم نظم الشعر الذى هو أشبه بالرجل ، لأنه يحتاج إلى قوة وفخامة وشمول نظرة لا تتسق لكثير من النساء . أما القصة التى تدرس الحياة الاجتماعية وتصف الحركات والسكنات وتحصى التفاصيل وتتبع الحوادث ، فتجد فيها المرأة خير مجال للتعبير عن خلجاتها ومشاهداتها . زد على ذلك أن للمرأة من لطف النفس ودقة الملاحظة ما يمكنها من فهم الآخرين والآخريات والالمام بنوازعهم

ومراميهم ، وفضلاً عن هذا وذاك تستطيع المرأة فى القصة أن تعبر على لسان غيرها عن نزعات الحب وأطواره تعبيراً لا يستساغ منها إن أرسلته شعراً

لذلك كله لم تكد تظهر القصة وينتشر التعليم العام حتى نبغ فى القرن الماضى جمهرة من كبريات القصصيات بارين كبار قصصى العصر الحديث ، وفى مقدمتهن جين أوستن وشارلوت برونتى ومن جاسكل ؛ وفى هذا الفن ، فن القصص ، أنتجت المرأة الانجليزية أحسن ما أنتجت من أدب ، على حين كان الشعر هو الفن الذى نبغت فيه المرأة العربية

ومن وجوه الاتفاق بين تاريخى المرأتين أنْ ظهر لكل منهما فى الأدب الذى تنتمى إليه عدوٌ عنيد أنحى عليها بقوارص الكلام : فنى العربية صب المعرى جام نقمته على الحياة على المرأة التى خيل إليه أن طباعها هى طباع الحياة الخاتلة ، وفى الانجليزية ندد ملتون بالمرأة فى كتاباته وأشعاره ، وأنزلها منزلة دون الرجل ، ووصمها بالحمق والختل ، وجعل شخصية دليلة فى قصته الشعرية عن شمسون الجبار مثال تلك المرأة . على أن ممـا له دلالته أن ملتون كان فرداً يعبر عن أفكاره الفردية التى اكتسبها من ظروفه التعسة ولا يجد من حوله سميعاً ، بينما كان المعرى ينعب نعيبه فى أوائل عهد انحطاط المرأة العربية واشتداد وطأة الحجاب عليها ، فلا ريب أنه كان يجد آذاناً صاغية وأنه مسؤول عن بعض ما حاق بها بعد ذلك من قهر وإهمال

وقد عرف الأدب العربى عنصراً من النساء لم يعهده الأدب الانجليزى : هو عنصر الجوارى اللائى كن يبرعن فى الأدب والموسيقى ويجتمع إليهن الأدباء ويشببون بهن ، ولكن الأدب الجزل الصحيح لم يستفد كثيراً من ذلك العنصر المترف المتبذل ، فى حين أن أثر أولئك الجوارى فى سقوط منزلة المرأة واضح محقق

ويمكن حصر الأدب المتعلق بالمرأة فى اللغة العربية فى أبواب أربعة : النسيب ، وحوادث عظيمات النساء ، والتمدح بالعفة واحترام المرأة فى عصرها الأول ، والغض منها فى عصرها المظلم

والتمدح بالعفة وتوقير المرأة والتقرب إليها بمكارم الأعمال من أنبل أغراض الأدب العربى وهو ضرب من القول ينفرد به دون الأدب الانجليزى ؛ وبديهى ألا يكون ذلك إلا فى عهد علو مكانتها فى النفوس ، ومنه قول مسكين الدارمى :

ما ضر جارى إذ أجاوره ... ألا يكون لبيته ستر

أعمى إذا ما جارتى خرجت ... حتى يوارى جارتى الخدر

وقول أبى فراس :

ورحت أجر رمحى عن مجال ... تحدث عنه ربات الحجال

ارتدت هـذه الرعاية الكريمة للمرأة تحقيراً وسخرية حين فسد المجتمع ، فلم يستحى الشعراء أن يطلقوا فيهـا ألسنتهم ، فمن قائل :

عسر النساء إلى مياسرة ... والشىء يسهل بعد ما جمحا

وقائل :

ومن خبر الغوانى فالغوانى ... ضياء فى بواطنه ظلام

وقائل :

وإن حلفت لا يخلف النأى عهـدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

وهو هجاء للجنس اللطيف استمرأه ساقطو الهمة من الشعراء وتنزه عنه الأدب الانجليزى ، فاقتصر على النسيب الرقيق والمداعبة الرفيقة والدراسة العلمية البريئة لشتى الطبائع والشخصيات النسوية

والنسيب هو مجال ظهور المرأة الأول فى الشعر ، وفيه أى دليل على رق المجتمع ومكانة المرأة فيـه . وفى الأدبين العربى والانجليزى نسيب على غاية من السمو والنقاء ؛ وأكثر ما كان ذلك فى الأدب العربى فى عهد ارتقاء مكانة النساء الاجتماعية ، هناك كان شعر النسيب فى جملته عفيف اللفظ نقى الاشارة صادق العاطفة على خشونة وسذاجة فى بعضه ، فلما كان عصر الترف والفساد هوى النسيب إلى حضيض الشهوات وداخله التكلف فى الشعور وفى اللفظ ، وخالطه من الفحش والنسيب بالمذكر ما تنزه عنه الشعر الانجليزى

ففيما عدا فترة الفساد الخلقى الوجيزة فى التاريخ الانجليزى التى تقدم ذكرها ، يمتاز النسيب الانجليزى بسمو العاطفة وطهارة اللفظ والترفع عن ذكر الشهوات والتسامى عن الأوصاف الجسمية التى تشغل حيزاً غير ضئيل من النسيب العربى ، فالشاعر الانجليزى يعد جمال محبوبته أمراً مفروغاً منه ، فان أشار إشارة عاجلة إلى محاسنها فالى نقاء بشرتها أو لمة شعرها ، وإن عمد إلى التشبيه فانما يشبه عينيها بالسماء صفاء أو صدرها بالدر نقاء وبعداً عن منال الرجال ، إلى غير ذلك مما هو أدخل فى الأوصاف النفسية وأدل على السمو الروحى !

فخرى أبو السعود

عادة الختــــان
أصلها وتاريخها وانتشارها
بمناسبة المبوزين والاسلام

بقلم الدكتور مأمون عبد السلام

إنه لمن الصعب على المشتغلين بدراسة طبائع الأمم وأحوالها أن يهتدوا الى تحديد العصر الذى بدأ فيه الانسان يختتن . وهم لا يزالون فى حيرة من الدوافع التى حملته على تلك العادة ، فتقول فئة منهم إن بعض القبائل لجأت الى الختان كعلامة تميز بها نفسها عن سواها كما يلجأ بعض قبائل السودان الى تشريط خـدودهم أو الى اقتلاع إحدى أسنانهم القاطعة . ويعلله آخرون بأنه وقاية سحرية ، ويظن غيرهم بأنه عقيـدة دينية يضحى الفرد بمقتضاها جزءاً من جسمه فداء عن نفسه وتقرباً الى ربه . ويعتقد آخرون بأنه ميزة ارستقراطية

وعادة الختان عريقة فى القدم ، يدل على ذلك انتشارها فى أنحاء قاصية من المعمور بين أجناس من البشر قد فصلت الطبيعة بعضهم عن بعض منذ أحقاب سحيقة . فلا تكاد تخلو قارة من شعوب تمارس تلك العادة ، فتراها بين قبائل السود من سكان استراليا ، كما أنهـا توجد بين قبائل الجالا والفلاشه ، يهود الأحباش ، وبين غيرهم من قبائل الحبشة ، وعنـد قبائل البانتو والمساى والكفار والناندى بافريقيا ، وقبائل الأوتاهيت وسكان جزائر التونجا والبولينزيا وجزيرة فيجى وكاليدونيا الجديدة

ولـما اكتشف الأسبانيون أمريكا منذ أكثر من أربعمائة سنة مضت وجدوا عادة الختان منتشرة بين أقوام الناهواطل وبين أمة الأزتيك سكان بلاد المكسيك القدماء كما شاهدوها بين سكان حوض نهر الأمازون بأمريكا الجنوبية

وكان قدماء المصريين يختتنون من عصور غابرة قبل سـنة ١٤٠٠ ق م . فتراهم قد صوروا ولدين يختتنان على جدران معبد خونسو بالكرنك . وقد ذكر التاريخ أن مصر فى عهد مرينبتاح قد غزاها قوم من سكان بحر الروم كانوا يختتنون

والختان من مميزات الشعوب السامية وخاصة اليهود منهم ، فقد كان بنو اسرائيل من قديم الزمان يختتنون الرجال وقت زفافهم ، فاذا أظهر العريس أى خوف أو وجل كان ذلك دليلاً على نقص فى رجولته فتهجره عروسه وتلبسه المعرة . وقد علمت من بعض المعمرين أنه كانت العادة فى بلدة التلين بمركز منيا القمح أن يختتن الرجل يوم زفافه

وقد فرض الله سبحانه وتعالى الختان على سـيدنا ابراهيم عليـه السلام وعلى ذريته وعبيده ، وكان قد أمره بأن يغير اسمه من إبرام إلى إبراهيم لأنه سيكون أباً للبشر . فقـد جاء فى سفر التكوين (١٧ ÷ ٢٣ — ٢٧) : « فأخذ ابراهيم اسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت ابراهيم وختن لحم غرلتهم فى ذلك البيت عينه كما كلمه الله ، وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن فى لحم غرلته ، وكان اسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته ، فى ذلك اليوم عينه ختن ابراهيم اسماعيل ابنه وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه »

ويختن اليهود أولادهم فى اليوم الثامن من ولادتهم كما ختن ابراهيم ابنه اسحق فريضة الله عليه . فنى سـفر التكوين (١٧) ابن ثمانية أيام يختن كل ذكر فى أجيالكم

وقد قام اليهود بهذه الفريضة إبان أسرهم فى أرض مصر ، ولـكنهم أقلعوا عنها وهم فى برية سينا فلم يختن موسى عليه السلام ابنه إلى أن قطعت زوجته صفورة غرلته استجلاباً لرضى الرب ومنعاً لنقمته ؛ فقد جاء فى سفر الخروج (٤) : وحدث فى الطريق فى المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ومست رجليه

ولـما بلغ بنو اسرائيل كنعان أرض الموعد رجعوا إلى التختن فتختنوا بسكاكين من صوان فى مكان جلجال كما ورد فى يشوع ٥ (٢) : « فى ذلك اليوم قال الرب ليشوع اصنع لنفسك سكاكين من صوان وعد فاختن بنى إسرائيل ثانية . فصنع يشوع سكاكين من صوان وختن بنى إسرائيل فى تل الغلف . وهذا هو ختن يشوع اياهم . إن جميع الشعب الخارجين من مصر الذكور جميع رجال الحرب ماتوا فى البرية على الطريق بخروجهم من مصر . لأن جميع الشعب الذين خرجوا كلهم

مختونين . وأما جميع الشعب الذين ولدوا فى القفر على الطريق بخروجهم من مصر فلم يختتنوا لأن بنى إسرائيل ساروا أربعين سنة فى القفر حتى فنى جميع الشعب رجال الحرب الخارجين من مصر الذين لم يسمعوا لقول الرب الذين حلف الرب لهم ألا يريهم الأرض التى حلف الرب لآبائهم أن يعطينا اياها ، الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً . وأما بنوهم فأقامهم مكانهم فاياهم ختن يشوع لأنهم كانوا قلفا إذ لم يختنوهم فى الطريق . وكان بعد ما انتهى جميع الشعب من الاختتان أنهم أقاموا فى أماكنهم فى المحلة حتى برئوا . وقال الرب ليشوع اليوم قد دحرجت عنكم عار مصر فدعى اسم ذلك المكان الجلجال إلى هذا اليوم »

ويختن اليهود أولادهم فى منازلهم وفى الكنيس ، فيقوم بهذه العملية والد الطفل ، أو رجل اختص بذلك يشترط فيه التدين وحسن السيرة وألا يؤجر على عمله ، بل يقوم به ابتغاء وجه الله . وكانوا يقطعون القلفة بسكين من الصوان أو من الزجاج أسوة ببنى إسرائيل ، ولكنهم استعاضوا الآن عنها بمشارط من الصلب . ويجب أن يسيل الدم وقت العملية ، فكانوا فيما سلف يمصون الجرح ليكثروا من نزول الدم ثم يقفونه بعد ذلك بالخمر يرشه الختن بفمه ، ولكن ذلك قد بطل . ومن عادتهم أن يدفنوا القلفة أو يحرقوها

ويعتبر اليهود الختان طهارة ، والطهارة عندهم إما ظاهرية وهى الختان ، أو باطنية وهى طهارة القلب كما ورد فى الكتاب المقدس — أرميا ٩ (٢٥)

ويقول المؤرخون إن هركانوس أجبر الأئيدوميين على الختان ، وأن بطليموس أبيفانيس ختن ولديه أنطونيوس والأجيالوس

ولكن الامبراطور يوستينيانوس قد حرمه على الرومانيين ومن خالف ذلك يقتل . وقد حذا حذوه انطيو كوس ابيفانيس ، وعُذب من أجل ذلك كثير من اليهود وقتلوا . وقد حرمه كذلك الامبراطور هادريانوس وقسطنطين

ولما جلا المسلمون عن بلاد الأندلس وقامت محكمة التفتيش بالقضاء على ما بقى من آثاره جرمت الختان فى أواخر عهدها

والعادة ألا يختتن المسيحيون ولو أن الكثير منهم يختتنون كما يفعل الأحباش . وقد ظهر فى إيطاليا فى القرن الثانى عشر الميلادى طائفة مسيحية اسمها « سركمسيسى » تأمر بالختان كما يدل اسمها على ذلك

والختان سنة كونية كثربية اللحية عند المسلمين وقد أفتى بذلك جمهور العلماء

ويتبع عادة الختان عادات أخرى على غاية من الغرابة . ففى بلاد البوسنه مثلاً يمنع الصبى من شرب الماء شهراً كاملاً

ويختتن الصبيان عند قبائل الكفار فى جنوب أفريقيا عند بلوغهم الحلم باحتفال رائع عظيم . فيضربون حتى تدمى جلودهم ، ثم يذر الفلفل الأحمر (الشطة) على جروحهم كى يختبر مقدار صبرهم على الألم وبعد ذلك يختتنون

ويرتدى شبان قبيلة المساى (وهم من السود بافريقيا الشرقية) عند ما يقرب وقت ختانهم ملابس النساء ، ويطلون وجوههم بالأبيض والأحمر ويتخضبون ويظهرون كل علامات الأنوثة اعتقاداً منهم بأن ذلك يبعد الشياطين عنهم فلا يصيبهم منها أذى

ومن عادة قبائل الناندى بشرق أفريقيا البريطانى أن يزور البنات الفتيان قبيل الختان ويقرضنهم ملابسهن وحليهن ليلبسوها ، فاذا تم الختان يرتدى الشبان المختتنون ملابس المتزوجات من النساء ويتبخترون بها بكل دلال النساء عدة أشهر حتى تبرأ جروحهم

ويختتن الشبان من قبائل السود باستراليا قبل زواجهم فيجبرون على الجرى فى الادغال ووراءهم القوم يستحثونهم على المثابرة ساعات عدة بالضرب الشديد حتى يسقطوا من الاعياء . فيوقد الرجال بعد ذلك ناراً ويختتنون الشبان بقطعتين من الزجاج ويتركونهم فى حراسة رجل أو امرأة من القبيلة إلى أن يلتئم الجرح ثم يكون لهم حق التزوج . والغريب فى أمرهم أن المختتن يلبس فوق وجهه نقاباً خشبياً (وجهاً من خشب) كيلا يراه أحد مدة أسبوعين

ومن عادة بعض هذه القبائل أن تلف القلفة فى قطعة من جلد الكانجرو . ثم تعطى لزوجته فتحتفظ بها طول حياتها

ومن عادة أهل أواسط استراليا أن يلعقوا ما يسيل من الدم وقت الختان أو يطلوا به صدورهم وجباههم لاعتقادهم أن ذلك يزيد فى قوتهم

وعند ما يختن قوم الأرونطا أولادهم يصرخ الرجال بأعلى

نهضة المرأة المصرية

وكيف توجه للخير العام

للأستاذ فلكس فارس

لا تستغل نهضة المرأة ما لم توجّه الى تكوين المرأة الصالحة اتثمر بطبيعتها خيراً ، إذ من العبث أن تجنى الخير نهضة مضللة

لا ينهض بالشرق إلا حضارة شرقية تستمدّ نظمها من المبادئ الأدبية العليا التى أنزلت وحياً على رسله وأنبيائه ، وإلهاماً على فلاسفته وشعرائه

فاذا ما أردنا تحديد موقف المرأة فى المجتمع ونحن نستنير بهذه المبادئ يمتنع علينا أن نسلم لها بحالة تكون فيها قوامة على نفسها مستقلة بحياتها ، لأن الحضارة الشرقية التى تتجه بحوافزنا إليها لا مقام فيها لامرأة لا مرجع لها ولا قوام عليها ؛ وما المرأة المنسلخة عن سيطرة رجل يكفلها المتصلة بالمجتمع اتصالاً مباشراً إلا بدعة فى الانسانية أوجدتها أنانية الرجل فى الغرب لشقائه وشقائها على السواء

إن التشريع الأول الذى أيده جميع الأنبياء والمرسلين قد أورد الوضع الصحيح للأسرة الانسانية بقوله للرجل :

« بعرق جبينك تأكل خبزاً حتى تعود الى الأرض التى أخذت منها » وبقوله للمرأة : « بالأوجاع تلدين والى رجلك يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك »

فالمرأة إذن موقوفة على حياة الاشتياق بحسب تعبير الكتاب وعلى تأمين النسل الصحيح ، فكل استثمار لها فى أية دائرة أخرى من دوائر الحياة المادية ، إنما هو خرق للناموس وجناية على العاطفة والأنسال

ان لم تكن المرأة زوجة وأماً ، فهى مرتكبة جناية أو هى ضحية جناية . وأشد شقاء من هذه السائبة ، وأوفر ضراً بالمجتمع ، الزوجة المسلوبة الخيار ، والأم المكرهة على التوليد

إن فى اشتياق المرأة وخضوعها بهذا الاشتياق نفسه لرجلها سر اعتلاء الأمم وانحطاطها ، وما جهل شعب فى التاريخ أهمية الانتخاب الطبيعى ، فتسلط رجاله على نسائه بشهواتهم لا بشوقهن دون أن تصبح المرأة فى ذلك الشعب أمَة تورث مذلتها بنيها فينشربون العبودية فى فطرتهم قبل أن يبصروا النور

إن أولى الخطوات التى تقود الشعوب الى التدهور إنما هى تجاهل أهمية المرأة ، لا من حيث تربية الطفل فحسب ، بل أيضاً وبخاصة من حيث تكوين الجنين ، وما ينهض شعب يعتقد بمبدأ الزمخشرى القائل :

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللأبناء آباء

إن الرجل الأنانى الجاهل يعتقد أنه هو وحده مستودع للحياة ، وإن بقاء النوع يتوقف على ما يحمل من جرثومة حية ، فما المرأة فى تقديره إلا الأرض يستنبتها خصبة ويتحول عنها مجدبة

وعلى هذا المبدأ الذى ينافى روح الشرع وحكمته ويناقض ما يؤيده من العلم الحديث ، يستولد الرجال النساء أطفالا كان خيراً لهم لو أنهم لم يولدوا

إن علم وظائف الأحياء قد اكتشف ذرات مستقرها خلايا الجسم وهى تعرف (بالكروموسوم) وعددها فى كل خلية إنسانية ٤٨ ، نصفها من الأب ونصفها الآخر من الأم ، لأن نطفة

صوتهم قائلين : (پيررر) فيسممهم النسوة فى عششهن فيعمدن فى التو إلى أخوات المختتنين وإلى خالاتهم ومن يحل لهم التزوج بهن من النسوة فيشرطن جلد بطونهن وأكتافهن اعتقاداً منهن بأن ذلك يمنع الألم عن الصبى . ثم تعطى القلفة لأخى المختتن الصغير فيبتلعها كى ينمو ويترعرع

وعند قبائل الكوكودون فى شمال كوينزلاندا باستراليا تخيط المرأة قلفة ابنها بخيط تضمه حول جيدها لتتقى بذلك شر الشيطان فلا يؤذى ولدها

وفى بعض بلادنا يربط الولد القلفة فى خرقة يلبسها حول عنقه إلى أن يلتئم الجرح فيلقيها فى النيل

ويمسح بعض قبائل استراليا دم الختان بورق من قلف الأشجار ثم يلقون ذلك فى البرك التى ينمو بها نبات الزنبق المائى اعتقاداً منهم بأن ذلك يقوى هذه النباتات لأنهم يتغذون بسوقها وجذورها

مأمون عبد السلام

الحياة فى الرجل وفى المرأة لا تحوى سوى ٢٤ ذرة فقط ، فيتضح من هذا أن العناية قد أرادت أن يكون المولود منبثقاً من شخصين متحدين على تواز تام بين ما ينفصل عن كل منهما لتكوين الحياة الجديدة

ويؤكد العلم أن هذه الذرات منظمة فى الخلية على شكل سلسلة متصلة الحلقات وهى مزدوجة متقابلة فى سطحها ، وأن فى هذه الحلقات تستقر العوامل التى تنقل إلى الأبناء طوابع الآباء والأمهات

وقد عقد المتخصصون لهذه الأبحاث فصولاً بينوا فيها كيف تتغلب عناصر الارتقاء أو الانحطاط فى السلالات ، فذهبوا إلى أن كل حلقة فى العقد المزدوج تكمن فيها صحة عضو معين ، فان كانت هذه الحلقة ضعيفة فى الأب وقابلها فى الأم حلقة قوية تغلبت الصحة على المرض فيجىء الطفل سليما وإلا فينشأ معتلاً لأن الحلقة التى يرثها عن أبويه لا مناعة فيها

إن هذا المظهر المحسوس لاختلاف القوى الكامنة فى كل من الرجل والمرأة لما يفسر لنا علة التنافر والتجاذب بينهما ، فان الطبيعة الطامحة إلى الارتقاء وإصلاح ما تفسده الحياة تعمل بحوافزها الخفية متسلحة بالانتخاب الغريزى للوصول إلى أهدافها مما لا ريب فيه ، إذن ، أن ليس كل رجل يصلح زوجاً لأية امرأة ، كما أنه ليست كل امرأة تصلح زوجة لأى رجل كان

إن الحياة تغالب الموت فى هذا الوجود مفتشة عن أصلح المنافذ للنشوء والارتقاء ، وهذه الحياة التى خرجت من الأزل متجهة إلى الأبد إنما تهب كالعاصف الجبار على الجنسين فتلويهما لسلطانها ممتلية بالنوع فوق رمم أفراده . على أنه فى حين أن هذه الحياة تختار سبيلها بالسائق الغريزى فى النبات وفى الحيوان عاملة على تحسين مجاليها بالقضاء على الضعف الطارىء والاستبقاء على القوة الصامدة فى الجسوم ، فأنك لترى هذه الحياة فى المملكة الانسانية وهى أرق وأشرف مجاليها تتلوى فى مسالك الشهوات المضللة والعقليات السخيفة منزلة بالتائهين أوجع الزواجر وأبلغ العبر ، وهؤلاء التائهون لا يرجعون عن غيهم فلا يشفعون على أنفسهم ولا يبالون بأنسالهم

إن الولد المختل العليل إنما هو الضحية البريئة التى تصفع الطبيعة به أوجه الرجال الفاحشين والنسوة الطامعات المضللات ، ولكن الطبيعة لا تعنو دائماً لتحكم الانسان ولا تهيب زجره وارغامه فتضرب عن الظهور وتمتنع عن إيجاد الضحية ، وآخر ما اكتشفه العلماء فى جامعة كولومبيا بالاستقراء بعد أن كان الفكر يفترضه افتراضاً هو التنافر بين عنصرى الذكر والأنثى فى بعض الأحوال مما يقضى بالعقم التام مع أن كلا من الزوجين ليس عقيما

وما كان الانسان ليحتاج إلى الاستقراء العلمى خلال دقائقه وذراته ليعلم أن الطباق والانسجام يؤديان إلى الارتباط المكين ، وان الشذوذ والتنافر ينشأ عنهما التدافع والافتراق ، وليس الرجل والمرأة وترين على آلة صماء يشد احدهما جواباً على قرار الآخر ، لأنه ان لم يكن هناك طباق ، فان المرأة أو الرجل المختار أو المختارة للشدّ على طبقة رفيقة ليسمعك صوت انقطاعه بدلاً من الايقاع المنشود

ليكن منشأ هذا الانسجام تناسباً بين ذرات الخلايا والعوامل كما يقول العلماء المستقرون ، أو فليكن ضعف هذه الذرات أو قوتها منسبباً عن عوامل الكهارب التى تسود الخلايا بتفاعل مجهول ، أو فليكن هنالك ما يذهب إليه الروحيون من أن الخلايا والكهارب وكل ما يحوى هذا الجسم من مادة ليس إلا خيالاً لروح كامنة هى الحقيقة المستترة وأن من العبث أن يستقر فى العلم منشأ التجاذب والتدافع بتشريح هذا الخيال المادىّ ، فأننا تجاه جميع هذه الافتراضات ، نبقى دائماً أمام حقيقة لا ريب فيها وهى أن الانسان سواء أكان رجلاً أو امرأة مدفوع بالفطرة إلى طلب الرقى لنسله باصلاح ما أفسدت الحياة فى أعضائه ، وبخاصة إلى إصلاح ما تطرق إلى الصفات الأدبية من عيوب ؛ ولعلّ فى هذا بعض التفسير لسيادة الانسجام بين رجل وامرأة تخالف أشكالها وأوضاع أعضائهما ومظاهر القوى الأدبية فيهما ، فقد لا تجد مصارعاً يعشق مصارعة ولا فيلسوفاً يغرم بفيلسوفة . ولكم وقف المفكرون مندهشين أمام امرأة فاضلة تحس بانجذاب نحو رجل عادىّ ، أو بارعة فى الجمال تندفع إلى الالتصاق برجل دميم . إن بعض العشق ينشأ عن حنان خفى فى الطبيعة يشبه عطف الطبيب المداوى على العليل المستجدى الشفاء

نورد هـذه النظرية دون أن نتخذها قاعدة بالرغم من تجليها لدينا فى عديد الحوادث ، فان النقائص التى تتجه فى الازدواج إلى الزوال والعلل التى تطلب الشفاء أبعد مستقراً من أن ينالها استقراء أو تحديد ، والضعف الـكامن فى أحد الناس يبقى مستتراً فيه خفياً حتى عن شعوره ، فـكيف يتسنى لنا كشفه وتعيينه ؟ لذلك ورد فى الأمثال وهى حكمة الأمم : أن لا جدال فى الذوق ، وما أرى المتنبى إلا سابراً أقصى أسرار الحب إذ قال :

إلام طواعية العاذل ولا رأى فى الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانـكم وتأبى الطباع على الناقل

للحب إذن وهو صلح العيوب والدافع إلى ارتقاء الانسان ناموسه الجبار ، ناموسه الصامت الهامس فى أرواح المحبين كلمتين هما دستور السعادة لـكل منهما — كلمة العبرة من الماضى للرجل ، وكلمة الحذر من المستقبل للمرأة

يقول الفتى للفتاة : أحبك

فلا يرد جوابها إلا بصورة الاستفهام :

وهل ستحبنى إلى الأبد ؟

فالرجل لا يتوجه إلى المستقبل بقلبه بل يلتفت إلى الوراء ، إلى الماضى ، وهو يقسم بالوفاء والثبات ، ماداً بأبصاره إلى أعماق عينى الفتاة سابراً أقصاها ليتحقق ما إذا كان هذا الهيكل الأبدى الذى يتخذه مقاماً ومصلى لروحه ، لم يرتفع فيه صوت غير صوته ولم يحرق عليه بخور غير بخوره

هكذا تصطفى الطبيعة المحبين لاستنبات الطفل الصحيح ، وهكذا تقبض الغريزة على القلبين لتسخرهما لبقاء النوع وتسييره على مدارج الارتقاء

ولـماذا خصت الطبيعة الرجل بالعبرة من المـاضى والمرأة بالحذر من المستقبل ؟ لـماذا وضعت الطبيعة دليل الطهر فى عين العذراء ، ودليل العفاف فى جسمها ؟ ولماذا غرست فيها هـذا الخوف من تقلب الرجل وانحرافه عنها ؟

فى هـذا المجال أيضاً توصل العلم إلى استجلاء حقيقة رائعة نستدل منها على منشأ هذه الغيرة وهذا الحذر ، وتلك الحقيقة هى أن الطبيعة تتجه دائمـا إلى الوحدة وتأنف من الشرك وتتمرد عليه ؛ وقد شوهدت حوادث كان فيها نتاج الزواج الثانى من المرأة أقرب إلى مشابهة أطفال الزواج الأول ، وبتعبير أوضح تحقق العلم أن امرأة يستنبت نتاجها الأول من رجل تبقى معرضة للاستمرار على الانتاج طابعة أبناءها على غرار ذلك الرجل

إن هذا الاكتشاف يبرر لدى المفكر هـذه الغيرة المقدسة التى تتجلى فى الرجل الطبيعى غير الفاسد بمبادىء الاطلاق وضعف الحيوية فيه ، وهذه الحقيقة نفسها تفسر لنا هذا الحذر الغريزى فى المرأة من تخلى المحب الأول عنها ، لأن الطبيعة تتمرد فى نفسها فهى تربأ بشخصيتها أن تصبح مستقراً للشرك ، والـكون بأمره يتجه إلى التوحيد فى ارتقائه

إن ناموس الحب والزواج فى الأصل إنمـا هو اندماج بين روحين وجسدين اندماجا حراً تحت سيطرة التجاذب المطلق من كل تضليل ، فاذا هو تمّ وفقاً لهذا الناموس ، يندر أن تنفصم عراه مدى الحياة

على أننا فى هـذا العصر الذى سبقته أدوار عديدة استنبت فيها النسل من التزاوج المـكذوب لا يمكننا أن نحتم باستمرار الاتفاق بين عاشقين ما لم نثق أولاً من أنهما كليهما قد نشآ من زواجين ساد الحب الحقيقى فيهما ، إذ أننا كثيراً ما نرى امرأة جن جنونها بمن أصبحت له زوجة حتى إذا انقضت فترة من الزمن نراها مضعضعة تحلم بالشرك والضلال . وكثيراً ما نرى رجلاً يهيم بفتاة حتى إذا أصبحت زوجة له عافتها نفسه ، فذهب تائهاً فى المواخير يحصد ما جناه أبواه عليه

من الصعب إن لم نقل من الممتنع أن يعرف حقيقة الحب ووحدته من ولد من زواج لا انسجام فيه ، أن أبناء الـكره لا يحبون ، والطفل المولود من شهوة حيوانية حوالة يمتزج كوثر حبه أبداً بغسلين الفحشاء

إن استثمار المرأة المصرية والمرأة العربية بوجه عام فى سبيل الخير إنما يتوقف على إعدادها منبتاً صالحاً للأطفال ، وما نشأت الأمة إلا من منابت أطفالها

إن النبات ينمو على الأسمدة يمتصها فيحولها نسغاً صافياً ، وتلك أزاهر الدمن تنوّر فواحة باسمة فوق أقذارها ، أما الحياة الانسانية فانها إن نبتت على الأقذار فهى أقذار من منابتها

(يتبع) فلكس فارس

من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكي عريبي

— ٥ —

« أما المتهمان على الأدب الزاريان على الفضل فى أشخاص المثقفين فهما ...

وأما المجنى عليه فهو ...

ولو شئنا التوسع لقلنا إن المجنى عليهم قوم كانوا فى عزلة من القوة فتجرد لهم المتهمان يسطوان عليهم بالقلم المسموم والقول القاذع والعبارة التى تقطر سما وحقداً وحفيظة

وما علمنا أن أمة صقلتها الحضارة أو كانت على الفطرة من البداوة جعلت من فضائلها تجنيها على الوادعين الذين هم فى أمن وعزلة لا يملكون لأنفسهم أمام الساطين عليهم دفعاً

إن لهذا الايجاز إيضاحاً ولهذه الجملة تفصيلاً »

ولغة التفصيل الموعود أروع وأمجد . اقرأ هذا البيان لما وقع من المتهمين وهذا التنويه بشناعة الجريمة

« أقبل مديرون من ولاة الأقاليم ، وما كانوا نكرة فينساهم الناس ، وما كان التشيع الحزبى ليميت العواطف الكريمة ، بل ما كان للنبل أن يموت ، وما فقدت مصر الرجولة فراح قوم يمشون الى هؤلاء المعزولين بالكلم الطيب ودعوهم الى وليمة ، ورأى من يحسن القول فى هذا الحفل أن يتقدم بكلمة طيبة لا ينكرها إلا حقود

وقديماً كان الناس يمشون الى الولاة المعزولين يرفهون عنهم ويذكرون لهم حميد فعالهم ... ولكن المتهمين هاجهما أن يرضى الناس عمن غضبا هما عليهم

ثم هاجهما أن يعيش هؤلاء الولاة وأن يرضى عنهم الناس فراحا يقولان عنهم فى جريدة ... إنهم أسفل المجرمين

يا شرف اللغة العربية كيف طاوعت هذين الرجلين حتى جعلا من بعض الأكرمين « أسفل المجرمين »

خبرونى إذا كان الوالى الذى يعزل لا لنقصية فى شرف يعد « أسفل المجرمين » فمن يكون القاتل الذى يقتل صاحب الفضل عليه عند الثقة به والركون إليه ، والسارق الذى يسطو على الآمنين ثم يسلب الأموال والأعراض ولا يبقى على الأطفال والنساء . هذا القاتل السارق بماذا نعرفه ومن يكون ؟

« أسفل المجرمين » لا يعرف حتى تنسب إليه تهمة ، وحتى يأخذه بها القضاء العادل بعد مدافعة ومطاولة . ومع هذا فانه من المؤلم أن نصفه بأنه « أسفل المجرمين »

أما فى الخصومة الحزبية هوادة ونصفة ؟ أما لهذا الفجر الزاخر آخر ؟ أما لهذا الظلام نهاية ؟ »

بل انظر إلى هذا الانفعال الحق يستولى على النائب المترافع وقد قرأ للمحكمة بعض هذا المقال القادح فراح يؤدب العادى على الأدب بعصا الأدب ولا يفل الحديد إلا الحديد

« إنى آسف كل الأسف لأيلام المجنى عليه بهذا النقل ولكنى أنقل هذا الكفر مكرهاً عن المتهم

أكل هذا يقوله هذا المسكين المعدم فى أدبه الفقير إلى عصا التأديب ، ويتقدم صاحبه الشيخ الوقور بالتنويه به والتهليل له ويدعوه فى صحيفته بالأستاذ

المتهم . . . صاحب القلم الجارح ما منشؤه وأين من كوّنه ؟

لله أبوه ! ألا يكون لى الشرف فأراه لأعرف رأيه فيه وهو يغمس قلمه المسموم فى دماء الوادعين كما تنفث الرقطاء الزعاف ؟ بل قلمه أسفل وأقتل ، فالرقطاء قد تذود عن نفسها بسلاح أعد لها ، وهذا يذود عن الرذيلة بسلاح لم يخلق لرجل كريم العنصر وله ضمير حى »

وها هوذا يهدأ بعد هذا العنف اللازم فيعرض لتعريف النقد المشروع فى إحكام وحسن تعبير مدهشين فيقول :

« أساس النقد أن تعنى بدرس الأمر فتتبينه جملة جملة ، وترى أى أجزائه خير ، وأى أجزائه لا يتسق مع باقيه فى جمال الوضع وتناسق التكوين ؛ على أن يكون الناقد نزيهاً لا غرض له إلا الحق . ولا تتم له ملكة النقد إلا بعد أن يكون من القوة على تمييز الأشياء بعضها من بعض فى الموضع المسلم له به

والناقد حكم ، والحكم قاض ، والقاضى أعلى من أن يتصف بهجر القول وإلا فليس بناقد . . . »

ولنقف عند هذا الحد فى الاستعراض وإلا ساقنا هـذا الابداع وأمثاله إلى أبعد مما يريد القائمون على الـكتاب الذهبى

***

لغـــة الأحكام

تمهيد ومقارنة

الحقيقة مطلب البشر منـذ أن قام للبشر مدنية . طلبها فى الدين ، طلبها فى العلم والفلسـفة ، وطلبها فى التشريع وفى توزيع العدالة

والأحكام هى أداة هذا التوزيع . فهى عنوان الحقيقة

وعنوان الحقيقة يجب أن يكون جديراً بها من حيث شكله على الأقل وهو الذى يعنينا فى هذا البحث

لقد تحدثنا عما يجب توفره فى لغة المرافعات فوجدناه كثيراً بل مرهقاً . يتطلب كفايات عدة ألمنا الى بعضها . فهل يصدق على الأحكام ما يصدق على المرافعات ؟

لنتدبر طبيعة كل قبل أن نحاول الاجابة على هذا السؤال .

المرافعـة نوع من الأدب الخطابى يرمى بالاقناع أو تحريك العواطف الى خدمة مصلحة معينة

والحـكم تقرير للحقيقة كما استطاع أن يراها القاضى على ضوء عناصر الدعوى ومرافعات الخصوم

الأولى ثمرة جهاد مقاتل يبتـكر الوسائل الـكلامية المؤدية الى الظفر . والثانى عمل حكيم هادئ يتحسس مكان النصفة فيدل عليه

يستحيل إذن أن يكون نوع اللغتين واحداً : فاحداهما متغيرة متوثبة أبدا ، والأخرى ساكنة مستقرة أبدا

ولـكن أمعنى هذا أن مهمة القاضى إذا ما جلس لـكتابة الحـكم أيسر من مهمة المحامى إذا وقف للدفاع ؟

إياك وهذا الاعتقاد ! صحيح أن مهمة القاضى لا تستلزم الابتـكار ، وهو عمل شاق يرهق المحامى الى آخر حدود الارهاق ويتطلب فيه استعداداً خاصاً يرقى بالمران ، وقد يصل بالمحامى النابغة الى سماء كبار المخترعين ، ولـكن عمل القاضى إذ يجلس لتمييز الحق من الباطل لا يقل عن عمل زميله دقة وصعوبة

إنه قبل كل شىء ناقد ؛ والنقد يتطلب قدرة على فهم الرأى المعروض ، ثم قوة على تحليله ورده إلى عناصره الأولية ، ثم صحة نظر وسلامة تقدير يستطيع بهما الوقوع على الحقيقة وسط بحر زاخر من الآراء المتناقضة ، وقد ينطوى كل منها على بعض الوجاهة

جلس هنرى الرابع ملك فرنسا العظيم يوماً ليفصل فى قضية هامة بنفسه . وقام للمرافعة بين يديه اثنان من أعلام المحاماة فى عصره ، فأبدع كلاهما وأعجز إلى حد أن صاح الملك يائساً : « رباه ! إن الخصمين على حق »

والخصمان فى كثير من الأحوال على حق إلى حد ما . والصعوبة الـكبرى ، الصعوبة الهائلة ، هى أن يتبين القاضى هذا الحد فيركز عليه حكمه . على أن مهمة القاضى وقد أصاب المحز لا تنتهى باصابته ، إذ عليه بعد ذلك أن يؤيد حكمه بقلمه

وفى الحق إن الأمر ليس من السهولة بحيث يبدو . دعك من القضايا السهلة التى يزاحم فيهـا الحق البديهة ولا يتطلب إلا تقريره بكلمة قد يكفى فيها قلم كاتب الجلسة . ودعك من قاض يعتقد أن عبارة « حيث » تتقـدم سطوراً جرى بها التقليد الراكد تـكفى فى إلباس رأيه ثوب الأحكام

ليس هذه القضايا ولا ذلك القاضى نعنى ، وإنما نريد القضية العصية يتسابق فيها لسانان أو قلمان لملمين من أعلام البيان . فيخضع كل منهما لرأيه طائفة من الحجج الدامغة والأدلة القوية . ويقف القاضى بين هذين السيلين فيصلا للملحمة ، ثم يقول أخيراً كلمته الحاسمة . كيف يقولها ؟ ليس القاضى بمحلف يكفيه أن يجيب بنعم أو لا

كلا الخصمين — كاسب الدعوى وخاسرها — بل وجمهور الناس يتطلع إلى أسباب حكمه ليحكم له أو عليه . لذا وجب أن تـكون هذه الأسباب مقنعة . وليس الاقناع فى مكنتها إلا أن يكون كاتبها من المقدرة بحيث يستطيع أن يعالج بقلمه القضية من جميع نواحيها ؛ يبين وقائعها بجلاء ، ويستعرض مختلف الآراء فيها بدقة وايجاز ؛ يناهض ما يرى مناهضته ويؤيد ما يرى تأييده ، ثم يقف عند الرأى الذى يعتقد صحته موقفاً له قوته وله جلاله

تلك هى مهمة القاضى كـكاتب . وليس يستسهلها إلا جاهل بأعباء الـكتابة ومشاقها

خصائص لغة الأحكام

لكل قلم قوته ، ولكل كاتب طريقته ، فمن العبث أن نضع قواعد مطلقة لصياغة الأحكام . الأمر قبل كل شيء حسن ذوق وحسن تصرف ، ولكن للغة الأحكام مع ذلك مميزات يجب التنويه بها

حسن اختيار اللفظ ودقة الأداء

المفهوم في الأحكام أنها نتيجة أعمال فكرة وتمعن ، يصيغها القاضي وهو جالس إلى مكتبه لا تواجهه أنظار شاخصة ولا تتعجله وجوه مستحثة . فليس يغتفر له ما قد يغتفر المترافع المندفع من تساهل في اختيار اللفظ ودقة الأداء . ليست المسألة مسألة أدب فحسب . فان الحكم الذى تصدره محكمة ابتدائيـة هو سفيرها أمام محكمة الدرجة الثانيـة ، وحكم محكمة الاستئناف عنوان جهودها أمام محكمة النقض ، وقد ينبنى على سوء تعبير أو غموض يعتور أسباب الحكم تشويه الرأى كله أو إضعاف حجته أمام المحكمة العليا

الابتعاد عن التعمل

على أن الاحسان فى التحرير لا يستلزم التعمل ولا التزيد ، وليس أبعد عن كرامة القاضى من سعيه وراء الاعلان بأحكام تتبين فيها صنعة الأعداد للنشر والرغبة فى استجلاب الثناء

الوقار فى لغة الأحكام

كذلك يكره فى لغـــة الأحكام العنف والشدة وجموح العاطفة . فالقضاء وقور بطبعه وبالمهمة السامية التى يؤديها وبالاسم العالى الذى يتوج به أحكامه . فليس يليق به إذا ما تبين الحق فى جانب خصم من الخصمين أن يحمـل على الخصم الآخر فيصفه بما لا يحب . صحيح أن مهمة القضاء فى بعض الأحايين التأديب والزجر : ولكن للزجر مواضعه فى القليل من الأحوال . أما على العموم وفى القضاء المدنى على الخصوص فيجب أن يكون الحكم عنوان الاعتدال والحشمة والتهذيب

ويجب على القاضى أن يذكر إذا ما ناقش دفاعاً لمحام أو رأياً قانونياً أبداه أنه إنمـا يناقش زميلا له فى السعى وراء الحقيقة . فليس جميلاً منـه ولا كريماً أن يسفه رأيه بمثل هذه العبارة التى قرأناها فى حكم جنائى : « أما ما ذهب إليه الدفاع من أن عقلية المتهم غير ناضجة ويجب أن نصدقه لهذا السبب ، فهو من لغو القول ولا تلتفت إليه المحـكمة »

وقد يبدو لك ما فى هذا القول من إساءة إذا قارنته بتصرف محكمة النقض وقد عرضت لأسباب تقرير مقدم من النيابة ، فعركتها عرك الرحا وأطارتها هباء ثم ختمت بحثها بهذه التحية الجميلة « وإن المحـكمة لتقدر للنيابة ما قامت به من المجهود الفنى العظيم فى سبيل تأييد نظريتها »

وقد جرت على هذه السنة عينها مع الدفاع إذا أحسن

لغة الأحكام قديما وحديثا فى مصر

وليس يبق لاختتام هذا البحث إلا إشارة موجزة إلى تاريخ لغة الأحكام فى مصر

من عبث التحدث عما قبل عهد منشىء مصر الحديثة ، فالمؤكد أنه لم يكن بمصر إلا قضاء شرعى غير محدود الاختصاص . بل لقد استمرت الحال فوضى قضائية فى العهد المسمى بعهد المجالس الملغاة ، فلم يكن هناك محاكم بالمعنى الصحيح المفهوم اليوم ، بل كان رجال يجلسون للقضاء وليس لهم من مؤهلاته إلا الاسم . يقوم بين أيديهم وكلاء دعاوى يسعون إلى كسب قضاياهم بجميع الوسائل . وكانت اللغة فى ذلك الوسط من أحط ما عرف فى تاريخ العربية : كانت نوعاً من العامية الجوفاء يعتورها تعقيد متعمل ينطوى فى نظر أصحـاب ذلك اللسان على أروع الأدب . أنظر إلى رواية الوقائع فى هـذا الحكم الذى أورده محررو الوقائع الرسمية سـنة ١٨٨١ نموذجاً للغموض والتعقيد المتمشيين فى أحكام ذلك العهد ، وفك رموزها إن استطعت وقل ما شئت

« فى ليلة الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٢٩٤ صار قتل شخص يدعى شعبان نجم من كفر سعودن غربية بالغيط تعلقه وورثاه حصروا شبهتهم فى شخص بلديه يدعا (يدعى) أحمد شوره ، وبما أن المذكور لم يقر على ذلك وأنسب سيد احمد عبد الدايم رئيس المشيخة أغرى الورثة ومن سئلوا فى القضية على تهمته وما قيل فيحقه (فى حقه) بسبب مطاعنته فيحق (فى حق) الرئيس المذكور مما أبداه من المعادات (؛)

فى ذلك قد أخذت الحكومة فى أسباب الفحص والتدقيق فى هذه المسألة ولما تبين براءة أحمد الشورة المذكور وعدم صحة تهمته كونها بأغرى ذلك العمدة وشبهة العمدة المذكور بما حل بشعبان نجم وما انضح من بعد شخص يدعى أبو السعود ابراهيم من كفر أبو جندى تابع اسماعيل الفار صهر سيد أحمد المذكور ليلة قتل شعبان المذكور وما تورى بالتحريات التى جرت عن ذلك من أن فقده بمعرفة ابراهيم الفار لعدم إفشا أم شعبان نجم الذى قتلوه ليلتها مراعاة لخاطر سيد أحمد عبد الدايم بقصد نسبة قتله لأحمد الشورى المحكى عنه بسبب مطاعنته فيحقه قد حكم من الاستئناف ببراءة أحمد المذكور ومجازاة سيد أحمد عبد الدايم بليمان اسكندرية مدة سنة ونصف الخ »

على أن لغة محرر الوقائع الرسمية الذى شهّر بهذا الحكم وسخر منه وقام يدعو إلى الاصلاح تستحق الاثبات هى أيضاً لطرافتها :

« منذ أيام جرى قلم النصيحة بعداد حب المنفعة على قرطاس المقصد الجميل فرقم كلمات فى الانشاء وبيان مراتبه وتفصيل الممدوح منه وغير الممدوح ، وتقسيم أرباب القلم فى ديارنا المصرية ، وختمها بنداء عمومى صادر عن سليم القلب وصميم الفؤاد

« ولقد كانت الآمال ترسل فى مخيلتى بأقلام الرجاء أن سيكون لتلك الكلمات عند أهل الديار وقع جميل فتنفعل عنها النفوس ويظهر لها أثر يذكر فى عالم المحسوسات ، فكنت لذلك كالواقف على أقدام الانتظار ، لانتهاز الفرصة فى لقاء المحبوب يقلقه الضجر ويضنيه الاصطبار ، فاذا مضى اليوم الطويل ولم أر فيه من أثر يذكر على نوال المطلوب رددت أنفاس الأسف ومنيت النفس باليوم الثانى عساه يسفر فجره عما يسكن الروع ويدفع الوسواس شأن المحب يتعلل بالأمانى ويعتذر بتوارد الأيام ؛ ولما طال بى المدى وتطاولت الأزمان . . . »

وقد يطول بنا وبك المدى وتطاول الأزمان قبل أن ننتهى من هذه القدمة التى لا تحوى فائدة ولا تؤدى غرضاً فلنتركها ونترك عهدها السعيد إلى العهد التالى

(التتمة فى العدد القادم)

زكى عريبى
المحامى أمام محكمة النقض والابرام

المؤمن المحتضر (*)

للشاعر الفرنسى لامرتين

بقلم محمد طه الحاجرى

تفجرت هذه المقطوعات من قلبى ، فكتبها أحد أصدقائى ، ذات صباح ، وهو الى جانب سريرى ، ذلك هو السيد مونشلان الذى عنى بأمرى ، عناية أخ ، فى مرضى الطويل الخطر الذى نزل بى فى باريس عام ١٨١٩

***

ماذا أسمع ؟ الناقوس المقدّس يرنّ من حَوليَّ ! وما هذه الثُّلة من رجال الدين تحيط بى باكية ؟ ولمن هذه الأُغنيَّة الحزينة وهذه الشعلة الخافتة ؟ إيه أيتها المنية ! أهذا صوتك الذى يقرع أذنى للمرة الأخيرة ؟ أجل ! إنى لأستيقظ على حافة القبر !

***

وأنت أيتها الشرارة العزيزة من الجذوة الآلهيّة ، والقطينة الخالدة فى هذه الجثة الفانية ، لا تخافى ولا تفزعى : فالموت آتٍ لخلاصِك ! طيرِى طَيَراَنكِ يانفسى ، وتجرّدى من أغلالِك ! فهل الموتُ إلا وضع آصار التعاسة البشرية ؟

***

أجل ! لقد انتهى الزّمن من قياس حياتى . فيأيتها الملائكة النورانيّة فى مقامها السماوى ، الى أى دار جديدة أنتم آخذون بى ؟ الآن ! الآنَ أنا أسبح فى أمواج من الضياء ، وإن الفضاء ليتسع أمامى ، وكأن الأرضَ تفِرُّ من تحت أقدامى !

***

ولكن ما هذا الذى أسمع ؟ فى اللحظة التى تستيقظ فيها روحى ، أسمع الحسراتِ والتنهداتِ تقرع أذنى ! ما هذا يا رفاق المنفى ! أتبكون مماتى ! ولقد شربت منذ قليل من الكأس المقدسة نسيان الآلام ، ووَلجَت روحى المنتشيَة أبواب السماء ؟

محمد طه الحاجرى

(*) الأصل : Le Crétien Mourant

للتاريخ السياسي

معاهدة الصداقة والتحالف

بين مصر وانجلترا

نص المعاهدة

مقدمة :

إن حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وأرلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وأمبراطور الهند

وحضرة صاحب الجلالة ملك مصر

بما أنهما يرغبان فى توطيد الصداقة وعلاقات حسن التفاهم بينهما والتعاون على القيام بالتزاماتهما الدولية لحفظ سلام العالم

وبما أن هذه الأغراض تتحقق على الوجه الأكمل بعقد معاهدة صداقة وتحالف تنص لمصلحتهما المشتركة على التعاون الفعال لحفظ السلام وضمان الدفاع عن أراضيهما وتنظيم علاقاتهما المتبادلة فى المستقبل

قد اتفقا على عقد معاهدة لهذه الغاية وأنابا عنهما المفوضين الآتية أسماؤهم :

حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وأرلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وأمبراطور الهند (الذى سيشار إليه فى نصوص هذه المعاهدة بعبارة « صاحب الجلالة الملك والأمبراطور »)

قد أناب عن بريطانيا العظمى وشمال ارلندا :

. . . .

وحضرة صاحب الجلالة ملك مصر

قد أناب عن مصر :

حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء ورئيس الوفد المصرى ورئيس الوفد الرسمى

حضرة صاحب السعادة الدكتور أحمد ماهر رئيس مجلس النواب

حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء سابقاً

حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقى باشا رئيس مجلس الوزراء سابقاً

حضرة صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى باشا رئيس مجلس الوزراء سابقاً

حضرة صاحب المعالى واصف بطرس غالى باشا وزير الخارجية

حضرة صاحب المعالى عثمان محرم باشا وزير الأشغال العمومية

حضرة صاحب المعالى مكرم عبيد باشا وزير المالية

حضرة صاحب المعالى محمود فهمى النقراشى باشا وزير المواصلات

حضرة صاحب المعالى أحمد حمدى سيف النصر باشا وزير الزراعة

حضرة صاحب السعادة على الشمسى باشا الوزير السابق

حضرة صاحب المعالى محمد حلمى عيسى باشا الوزير السابق

حضرة صاحب السعادة حافظ عفيفى باشا الوزير السابق

الذين بعد تبادل وثائق تفويضهم التى تخولهم سلطة كاملة والتى وجدت صالحة مستوفية الشكل قد اتفقوا على ما يأتى :

مواد المعاهدة

المادة الأولى

انتهى احتلال مصر عسكرياً بواسطة قوات صاحب الجلالة الملك والأمبراطور

المادة الثانية

يقوم من الآن فصاعدا بتمثيل صاحب الجلالة الملك والأمبراطور لدى بلاط جلالة ملك مصر وبتمثيل صاحب الجلالة ملك مصر لدى بلاط سان جيمس سفراء معتمدون بالطرق المرعية

المادة الثالثة

تنوى مصر أن تطلب الانضمام إلى عضوية عصبة الأمم .

وبما أن حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة تعترف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة فأنها ستؤيد أى طلب تقدمه الحكومة المصرية لدخول عصبة الأمم بالشروط المنصوص عليها فى المادة الأولى من عهد العصبة

المادة الرابعة

تعقد محالفة بين الطرفين المتعاقدين الغرض منها توطيد الصداقة والتفاهم الودى وحسن العلاقات بينهما

المادة الخامسة

يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بألا يتخذ فى علاقاته مع البلاد الأجنبية موقفاً يتعارض مع المحالفة وألا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية

المادة السادسة

إذا أفضى خلاف بين أحد الطرفين المتعاقدين ودولة أخرى إلى حالة تنطوى على خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة يتبادل الطرفان المتعاقدان الرأى لحل ذلك الخلاف بالوسائل السلمية طبقاً لأحكام عهد عصبة الأمم أو لأى تعهدات دولية أخرى تكون منطبقة على تلك الحالة

المادة السابعة

إذا اشتبك أحد الطرفين فى حرب بالرغم من أحكام المادة السادسة المتقدم ذكرها فإن الطرف الآخر يقوم فى الحال بإنجاده بصفته حليفاً ، وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة الآتى ذكرها

وتنحصر معاونة صاحب الجلالة ملك مصر فى حالة الحرب ، أو خطر الحرب الداهم ، أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها ، فى أن يقدم إلى صاحب الجلالة الملك والامبراطور داخل حدود الأراضى المصرية مع مراعاة النظام المصرى للادارة والتشريع ، جميع التسهيلات والمساعدة التى فى وسعه بما فى ذلك استخدام موانئه ومطاراته وطرق المواصلات

وبناء على هذا فالحكومة المصرية هى التى لها أن تتخذ جميع الاجراءات الادارية والتشريعية بما فى ذلك إعلان الأحكام العرفية وإقامة رقابة وافية على الأنباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة

المادة الثامنة

بما أن قنال السويس الذى هو جزء لا يتجزأ من مصر هو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضاً طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية ، فالى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة ، يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القنال بالمنطقة المحدودة فى ملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القنال . ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها

ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال بأى حال من الأحوال . كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية

ومن المتفق عليه أنه إذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين سنة المحدودة فى المادة السادسة عشرة على مسألة ما إذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضرورياً لأن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة ، فإن هذا الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقاً لأحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة ، أو على أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقاً للاجراءات التى يتفق عليها الطرفان المتعاقدان

المادة التاسعة

يحدد باتفاق خاص يبرم بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ما تتمتع به من إعفاء وميزات فى المسائل القضائية والمالية قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور التى تكون موجودة بمصر طبقاً لأحكام هذه المعاهدة

المادة العاشرة

ليس فى أحكام هذه المادة ما يمس أو ما يقصد به أن يمس بأى حال من الأحوال الحقوق والالتزامات المترتبة أو التى تترتب لأحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد عصبة الأمم أو ميثاق منع الحرب الموقع عليه بباريس فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨

المادة الحادية عشرة

١ — مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى ١٩ يناير و١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن إدارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين

ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين

والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لادارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين

وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان

٢ — وبناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة التى لا يتوفر لها سودانيون أكفاء

٣ — يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين

٤ — تكون الهجرة المصرية إلى السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام

٥ — لا يكون هناك تمييز فى السودان بين الرعايا البريطانيين وبين الوطنيين المصريين فى شؤون التجارة والهاجرة أو فى الملكية

٦ — اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام الواردة فى ملحق المادة فيما يتعلق بالطريقة التى تصير بها المعاهدات الدولية سارية فى السودان

المادة الثانية عشرة

يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم فى مصر هى من خصائص الحكومة المصرية دون سواها ، وهى التى تتولى تنفيذ واجباتها فى هذا الصدد

المادة الثالثة عشرة

يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن نظام الامتيازات القائم الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة

ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر فى الغاء هذا النظام دون إبطاء

وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الخصوص فى ملحق هذه المادة

المادة الرابعة عشرة

تلغى المعاهدة الحالية جميع الاتفاقات أو الوثائق القائمة التى يكون استمرار بقائها منافياً لأحكام هذه المعاهدة ، ويجب أن يعد باتفاق الطرفين إذا طلب أحدهما ذلك بيان الاتفاقات والوثائق الملغاة وذلك فى مدى ستة أشهر من نفاذ هذه المعاهدة

المادة الخامسة عشرة

اتفق الطرفان المتعاقدان على أن أى خلاف ينشأ بينهما بصدد تطبيق أحكام المعاهدة الحالية أو تفسيرها ولا يتسنى لهما تسويته بالمفاوضات بينهما مباشرة يعالج بمقتضى أحكام عهد عصبة الأمم

المادة السادسة عشرة

يدخل الطرفان المتعاقدان فى مفاوضات بناء على طلب أى منهما فى أى وقت بعد انقضاء مدة عشرين سنة على تنفيذ هذه المعاهدة ، وذلك بقصد اعادة النظر بالاتفاق بينهما فى نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك

فاذا لم يستطع الطرفان المتعاقدان الاتفاق على نصوص المعاهدة التى أعيد نظرها يحال الخلاف إلى مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقاً لأحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة ، أو إلى أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقاً للاجراءات التى يتفق عليها الطرفان المتعاقدان

ومن المتفق عليه أن أى تفسير فى المعاهدة عند إعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقاً للمبادىء التى تنطوى عليها المواد ٤ و ٥ و ٦ و ٧

ومع ذلك فى أى وقت بعد انقضاء مدة عشر سنوات على تنفيذ المعاهدة يمكن الدخول فى مفاوضات برضا الطرفين المتعاقدين بقصد إعادة النظر فيها كما سبق بيانه

المادة السابعة عشرة

يصدق على المعاهدة الحالية ويتبادل التصديق عليها فى القاهرة فى أقرب وقت ممكن ، ويبدأ تنفيذها من تاريخ تبادل التصديق عليها ، وعندئذ تسجل لدى السكرتير العام لعصبة الأمم

وإقراراً بما تقدم وقع المفوضون السابق ذكرهم على هذه المعاهدة ووضعوا أختامهم عليها

(فى العدد القادم « ملحقات المعاهدة »)

حول النشيد الوطني

للأستاذ محمد ابراهيم المغازي

عند ما أعلنت لجنة التحكيم في المباراة الأدبيـة الرسمية التي أقيمت في عهـد الوزارة الماهرية رأيها في الموضوع العاشر من موضوعات المباراة وهو « النشيد القومي » ، ومنحت فيه الجائزة الأولى وقدرها مائة جنيه لنشيد الأستاذ محمود صادق ، اطلعت على النشيد المحظوظ في الصحف السيارة فلم أجد له في نفسي الوقع الذي يقنعني بأن هذا النشيد يصلح لأن يكون نشيداً قومياً رسمياً لبلد ناهض كمصر فيه من صفوة الأدباء ونوابغ الشعراء عدد لم يتوفر لغيره من الأقطار العربية ؛ وعجبت في نفسي « طبعاً » لهذا الاختيار ، ولكني عدت فاتهمت ذوقي وفهمي وشرعت آخذ آراء المحيطين بي ممن لهم بصر بالأدب فرأيتهم في الجملة يشاركونني شعوري بالنسبة لهذا النشيد ، فعدت إلى اتهام ذوقي من جديد ، واتهمت أيضاً ذوق من استطلعت آراءهم ، وحسنت ظني في النشيد حتى أسمع تلحينه ، فقد يظهر فيه التلحين محاسن لم تكن تظهر قبله ، وكم كانت خيبة أملي عميقة يوم سمعت تلحين هذا النشيد من المذياع ! لقد كان ميتاً لا حياة فيه ؛ ولست مبالغاً في قولي هذا ، فأني أشهد لقد سمعت أناشيد أخرى يلقيها فتيان الكشافة وفرق القمصان الزرقاء وجنود مصر الفتاة ، ومع أن الأناشيد التي سمعتها منهم لم يُعط واضعوها عليها مائة جنيه جائزة ، ولم تجد لها ملحنين يأخذون في تلحين الواحد منها مائة جنيه أخرى — كما جرى لنشيد الأستاذ محمود صادق — أقول إنه برغم كل هذا فان الانسان يحس الحرارة والقوة والوطنية تتدفق في الأناشيد الأخرى ، مثل نشيد اسلمي يامصر للأستاذ صادق الرافعي ، ويغلب على ظني أنه لم يتقدم به للمباراة واكتفى بالنشيد الجديد الذي حاز به الجائزة الثانية . ومطلع النشيد الأول للرافعي :

اسلمي يا مصرُ إنني الفدا ذي يدي إن مدت الدنيا يدا

ومنه :

للعُلا أبناءَ مصرٍ للعُلا وبمصرٍ شرّفوا المستقبلا
وفدًى لمصرنا الدنيـا فلا تضعوا الاوطانَ إلاّ أوّلا
جانبي الايسرُ قلبه الفؤادْ وبلادي هي لي قلبي اليمينْ
لكِ يا مصرُ السلامهْ وسـلاماً يا بلادِي
إن رمى الدهر سهامهْ أتقيها بفؤادِي
واسلمي في كلِّ حينْ

هذا نموذج من النشيد وقد سمعته وأعطيته محفوظات لتلامذتي لأنه وقع مني موقع الرضا واطمأنت إليه نفسي لأول وهلة

وهناك نشيد آخر لا يقل عن هذا النشيد وهو النشيد الذي وضعه الاستاذ عباس محمود العقاد من سنوات قلائل وأقيمت له من أجله حفلة تكريمية كبرى . ومطلع نشيد العقاد :

قد رفعنا العلمْ للعُلا والفِدا في ضمان السماءْ

وكله على هذا النمط السهل الجميل ، وهو يصلح لأن يكون نشيداً شعبياً لسهولته واختصاره ووفائه بكل المعاني التي يطلب توفرها في الأناشيد القومية . ويطول بي المقام لو حاولت استقصاء الأناشيد الأخرى القوية الجيلة التي هي خير ألف مرة من نشيد الأستاذ محمود صادق

والآن أحب أن يتأمل القارئ الكريم مطلع نشيد صاحب الجائزة الأولى :

بلادي بلادي فداكِ دمي وهبتُ حياتي فدًا فاسلمي
غرامُك أول ما في الفؤادْ ونجواكِ آخر ما في فمي

ثم يقارن بينه وبين بيت من الشعر للأستاذ الرافعي كنا نحفظه ضمن قطعة له من الشعر في المدرسة الأولية :

بلادي هواها في لساني وفي دمي يمجّدُها قلبي ويدعو لها فمِي

فسيجد أن البلاد والدم والقلب والفم والفداء والهوى أو الغرام تتكرر كلها في مطلع نشيد الأستاذ محمود صادق كما تتكرر في بيت الأستاذ الرافعي تماماً . فهل نسمي هذا توارد خواطر أم ما ذا ؟ مع أنني أحفظ البيت المذكور من سنة ١٩٢٦ أي قبل ظهور النشيد الجديد بعشر سنوات ، ولا أدري كم من السنين مرت قبل أن أحفظه

وتأمل هذا المقطع :

غرامك يا مصر لو تعلمين قُصارى شعوريَ دنيا ودينْ
فنك حياتي وفيك مماتي وحبك آخرتي واليقين

ما ذا تركت مصر لله في هذا الوجود يا صاحب النشيد ؟ أليس هذا كفراً صريحاً ؟ ! ...

الحق إن النشيد الوطني الجدير بهذا الاسم يجب أن يكون خالياً من هذا الشرك وأن يكون بعيداً عن « توادر الخواطر »

الى هذا الحد . وأن تنتقى ألفاظه وقافيته بحيث تكون كلها من حروف المد أو مسبوقة بحروف مد لا نها تكون شجية الترديد .

وإذا كنا نجيز مكافأة مؤلف نشيد كهذا بمائة جنيه فلسنا نفهم كيف يمنح ملحنه مبلغاً مماثلاً لما أخذه المؤلف . اللهم ان هذا إسراف فى بلد هو أحوج البلاد الى الاقتصاد ! ...

«وبعد» فقد أحسنت الوزارة الماهرية فى سن تلك السنة الحميدة بإقامتها مباراة ذات جوائز مالية سخية لتشجيع الأدب ورجاله ونرجو أن تحافظ وزارة الشعب المحبوبة على هذه السنة الجميلة ! . . .

وأحسب أن المدى الذى كان محدداً للمباراة لم يكن يصح تطبيقه على موضوع النشيد الوطنى — وكان الأولى أن يفسح فى أجله ليكون هناك متسع من الزمن أمام الشعراء فيتسع مجال الاجادة فلا تجىء الأناشيد ناقصة ضعيفة من عدم التروى والأناة مما دعا لجنة التحكيم إلى أن تقول فى تقريرها — كما ورد فى الرسالة الغراء — «إن أجود الأناشيد التى عرضت عليها لم تخل من أبيات أو فقرات ضعيفة إلى جانب أبيات أو فقرات جيدة ، ولهذا أخذت كل نشيد بمجموعه ، لا بمعض أجزائه »

لقد كانت هذه الخواطر وغيرها تتردد فى نفسى ، وكلما هممت بالكتابة فى الموضوع ثنانى عنه أننى لم أر أحداً يقدم على نقد النشيد بعد أن « اعتمدته » وزارة المعارف ولُقن لأفراد البعثة الرياضية التى سافرت إلى برلين ، وظللت على ذلك حتى طلع علينا الأديب (س ط) بكلمة قصيرة فى العدد ١٦٣ من « الرسالة » الزهراء عن الغلطة الاولى فى النشيد ، ولما وجدت أن (ابن الحلال) قد فتح الباب تقدمت أنا الآخر بكلمتى

ورجائى أن يعيد أولو الأمر نظرهم فى المسألة من جديد ويقيموا مباراة لوضع نشيد قوى كامل يحدد لها نصف سنة على الأقل ، ويدعى لها الشعراء المصريون المعروفون للتقدم بما عندهم من الأناشيد أو لوضع غيرها حتى يكون لنا نشيد جدير بالخلود كما للدول الأخرى الراقية

وأخيراً فانه من الوفاء لهذا البلد أن يقف العمل بنشيد الأستاذ محمود صادق حتى يوضع نشيد جديد أو يثبت أنه الأفضل، وهنيئاً لصاحبه ما ناله من مال وشهرة والملام ! .. ؟

(التجارية) محمد ابراهيم المغازى
مدرس

دورة الأرض ودورة النفس

للأستاذ خليل هنداوى

كم لهذه المدنية من جنايات منكرة على الانسان ، فلقد شاءت فى كل ما تضمه أن تعطيه صور الطبيعة مشاهد ممسوخة وأن تمطيه كتاب الكائنات سطوراً مبهمة

لقد كان الانسان فى العهد الأول يوم كان يزحف إلى رحلاته على آلات تسير كالسلحفاة أكثر اتصالاً بالطبيعة ، لأنه يقف ازاءها وجهاً لوجه ، يتأمل جمالها وجلالها ويتحمل مشاقها ويرى فى تحمله لذة الانتصار . فالراحل رحلة قصيرة يتألب حوله من يهتف له ويعجب به ويسأله أن يحدثه عن عجائب رحلته لأنه يراها رحلة حُبلى بالغرائب . وترى صاحبها كلما تحدث عن رحلته تحدث برغبة وحماس ، يصور تلك المشاهد ويحبب لسامعه القيام بمثل رحلته حتى يطلع على جمال لا يغنى الكلام عنه

جمال هذه الرحلات طغى عليه جيل السرعة فلم يُبق لتلك المشاهد روعة ، ولم يدع للرحلات البطيئة معنى . . . فالسيارة والقطار والطيارة أعداء هذه الرحلات البطيئة لأنها تجعل من مشاهد الطبيعة الغزيرة المعانى صوراً وأخيلة سينمائية لا ينفذ الناظر إلى دقائقها وائتلاف صورها . فالراحل من بيروت إلى دمشق فى العهد السابق على عجلة كان يلبث ثلاثة أيام قد يقاسى فيها بعض الشدائد ، ولكنه ينال مقابل هذا من جمال الطبيعة والتأمل فى خفاياها ما لا ينسى روعتها أيام عمره ، فهو يكاد يبقى مصوراً جغرافياً بالطريق وقرى الطريق ، وهو لا يكاد ينسى المواطن التى بات فيها لياليه . أما اليوم فهو لا يلبث فى رحلته الا ساعتين يقطعهما كلحظتين فى قلب سيارة تحجب عنه كل شىء ولا يحس لذة فى السيارة إلا لذة السرعة ، وبهذا انطوت عنه آفاق وتوارت عنه مشاهد كثيرة . لقد ظفر إنسان اليوم بالسرعة وأصبح يقلب الأرض قطراً قطراً ولا يعصبه منها شىء ، ولكنه يعود من أقطارها كأن لم ينظر شيئاً ، لأن هذه السرعة قد محت من ذاكرته أكثر المشاهد . ربح هذه السرعة وخسر هذا الجمال المتغلغل فى الأشياء والأكوان ، وسرى فوق الأرض كشاهد غريب عنها لا يتصل بها ولا يبقى من

مشاهدها شيئاً . وليته خسر من مشاهدها روعتها ! ولكنه خسر التأمل الذي يترك أكبر الأثر في النفس . فكم درس كان يتولد من مشهد ! وكم قصيدة تنشأ من تأمل في أعماق الطبيعة ! أضاعت السرعة كل هذا وزادت في فصل الانسان عن الطبيعة الأمر الذي ضج له بعض الفلاسفة وخشوا على الانسان أن يزداد انجذابه بالمادة ، والمادة قاتلة فيه كل روح وضمير . وبهذا تثبت الانسانية في أجيالها الحاضرة أنها أصبحت طائعة خاضعة للمادة ، وأنها لا يستفيق فيها نداء الروح إلا حين تفشل مادتها ويضعف تعلقها بها !

أجد السائح على الآلة البطيئة يحدثني عن جمال مشاهد غاب جمالها في نفسه وأثر في قلبه وربما غير اتصاله بها وجوها كثيرة من حياته ، وهذا سر كل رحلة وغايتها . وأجد السائح على الآلة السريعة فأجده سيد رحلته . انتهى منها كما بدأ بها ... لم يضف إلى خزانة نفسه من هـذه الرحلة شيئاً إلا أسماء رآها على الصور كما أراها إذا أردتُ . وما عسى تجديني رحلة طويلة أطوى الأرض من قطبها إلى قطبها وأجمع بيدي كل آفاقها ، تدور بي آلة تسير كالجن تريني السماء والأرض طائرتين ، أو أرى الأرض من السماء تخيال لا يتبدل ما فيه إلا قليلاً . إني لأوثر على مثل هـذه الرحلة التي اختلط رأسها بذنبها رحلة قصيرة بطيئة تتصل نفسي فيها بالأرض وتسمع نداءها وتدرك جمالها وتتأمل جلالها ، وإذا انتهيت من رحلتي أحسستُ شيئاً جديداً في نفسي ! أليس في تبدل كل مشهد وحي جديد يهبط على نفسي ؟ أليس في كل طود شامخ أجاهد النفس في اقتحامه انتصار قوي يشجع نفسي على المثابرة ؟ أليس في انتصاري على كل شدة وكل نكبة ومجاهدتي بنفسي في اقتحام المخاطر مايعينني على اقتحام مخاطر الحياة التي تشبه من وجوه عديدة هذه المخاطر ؟ وكيف تريد من الغني الذي ينشأ في النعيم والنعومة أن يقوى على مجابهة الحياة حين تقابله مصاعبها ؟

إن في مثل هـذه الرحلات نوعاً من المقاومة — كما يفهمه الكشافون — يعين على احتمال المصاعب ، وفيه نوع آخر يجب أن نسبق إلى تفهمه هو محادثة الطبيعة فماً لفم ، وعناقها صدراً لصدر ، والتغلغل في خفايا جمالها الرائع ، وفي هذا ما يجعل قلوبنا تطفح رضاً بالحياة ونفوسنا تحبها وتتمتع بها

حقاً لقد كسبوا كثيراً من السرعة في رحلاتهم ، وكثيراً من الراحة في هذه السرعة ، وكثيراً من الرحلات في هذا العصر ، ولكنهم فقدوا أجمل شيء كانوا يأخذونه من الطبيعة ، فقدوا الأساليب التي كانت تدخل بها الطبيعة إلى أنفسهم ، والأساليب التي كانوا بها يدخلون إلى نفس الطبيعـة . . . وقد أخطأوا إذ حسبوا أن قيمة الرحلة بأبعادها ومسافاتها وتعدد مشاهدها ، وما عسى أن تكون قيمة رحلة مثل هذه إذا أبعدتني عن نفسي ولم تستطع أن تصل ما بيني وبين الطبيعة ! على أن دورة النفس هي أكثر التفافات وتعاريج وأبعاداً — على قربها — من دورة الأرض وإن كثرت فيها التعاريج والأبعاد

سيحوا في الأرض وطيروا في أجوائها واسبقوا الزمن على دورته ، ولكن اجعلوا من سياحاتكم سياحات قصيرة تعيدكم إلى الأرض وجبالها ووديانها وجمالها ، ففي تأملها حياة في قلب حياة ، وفي الاتصال بها انفصال عن متاعب الحياة

وقد كان الاتصال بالأرض الخاليـة علاجاً يداوي به سقيم الهوى ومريض الفؤاد والمسلول ، لأن نفحاتها النقية تعيد إليه ما نزعته منه الأرض التي سممتها الشهوات وقتلت روحها اللذات

مشاهد هذه الأرض لا تزال غنية تعطي كل قاصد مهما كانت غايته لأنها غنية ... فما أغناك أيتها الأرض حتى عند ما يظنونك فقيرة !

خليل هنداوي

في الأدب الانكليزي

٣ - هل من انتحال في الأدب الانكليزي ؟

للسيد جريس القسوس

— ٦ —

من هو طوماس تشاترتن ؟ Chatterton

وُلد هذا الشاعر في برستل ، في ٢٠ نوفبر سنة ١٧٥٢ ، بعد وفاة أبيه بثلاثة أشهر . وكان أبوه كاتباً بسيطاً في كاتدرائية برستل ، يتقاضى منها راتباً زهيداً ؛ فمات ولم يخلف لابنه تراثاً مادياً يُذكر

دخل الشاعر مدرسة كولستُنْ Colston الابتدائية حيث قضى ثماني سنين متتالية ، نظم في خلالها بعض قصائد ، منها واحدة نظمها سنة ١٧٦٤ بعنوان « وصية الكافر » Apostate Will ثم عنّ له أن يقصد عمه حارس كنيسة القديسة ماري في « ردكلف » Redcliffe لعله يجد في كنفه طمأنينة وعزا . كانت تلك الكنيسة على جمال فني بديع ، فتن الشاعر وأذهله ، فعاش بالخيال في العصور التي أبدعت ذلك الفن الرائع . ليس هذا فحسب ، بل عثر في خزانة الكنيسة على مخطوطات أدبية قديمة ، وسجلات دينية تعود في تاريخها إلى العصور الوسطى ، فكان الشاعر الصبي في خياله وشعوره نهباً بين هذين التراثين الخالدين : التراث الفني البديع ، والأدبي الرائع . فلم يعش في الحقيقة في عصره إلا بالجسد ؛ أما روحه فقد كانت بكليتها في العصور الوسطى

وانزوى تشاترتن لنفسه في تلك البيئة الروحية الهادئة عاكفاً على بحث تلك الآثار الأدبية ومطالعتها . وبقي هذا شأنه لا يعرف من أمره شيء ، حتى سنة ١٧٦٩ حين فاجأ العالم الأدبي بنشر قصيدة « الينور ويوغا » « Elinoure & Juga » ، في مجلة Town & Country Magazine ولقد نظم تلك القصيدة في حين لم يتجاوز فيه عمره الثانية عشرة ؛ وأطلع عليها رئيس مستشفى « كلستُن » ، مدّعياً أنها من آثار شاعر من شعراء القرن الخامس عشر . أما اسم ذلك الشاعر الخيالي فالكاهن طوماس رولي Rowley عاش في مدينة برستل ، في عهد الملك ادوارد الرابع وكان — على ما ادعى تشاترتن — صديقاً لوليم كاننغ

ووليم كاننغ هذا شخصية تاريخية ؛ كان تاجراً مثرياً ، يتعاطى هذه المهنة في برستل — بلد تشاترتن نفسه — ؛ وكان من غواة الأدب وأعوانه . وادعى تشاترتن أن الكاهن رولي كان يؤمّه ليتلو في حضرته أشعاره ، فيلقى منه كل حدب والتفات . وتقوم بطولة كاننغ على الفضل والتقوى ، ومتانة الخلق ، وقوة العزيمة ، والمحافظة على المبدأ ؛ لهذا لما أرغمه الملك ادوارد على تزوج إحدى الغانيات لغاية في نفسه ، رأى كاننغ نجاته في الهرب من وجه ذلك الملك العسوف ؛ فقصد كلية وستبرى Westbury في مقاطعة جلوسترشاير Gloucestershire ، مفضلاً الحياة بجانب الكاهن الشاعر على التقرب من الملك العاتي الجبار

درس تشاترتن هذه الحوادث دَرْس الولوع المفتنّ ؛ وألمّ بها إلماماً عجيباً ، واختلق قسما كبيراً منها . ومعظم قصائده تدور حول هذه الحوادث ، الصحيح منها والمختلق . ويتخلل اسم كاننغ كثيراً من أشعاره التي نظمها ، وعزاها الى الشاعر رولي مثل مأساة برستو Bristowe Tragedie ، أوقصيدة The Accounte of W. Canynge's Feast

ادعى تشاترتن أن يراع ذلك الكاهن الخيالي دبجت هذه القصائد وغيرها ؛ وأنه خلّفها في مخطوطات أودعت خزانة كنيسة ردكلفْ . هذا كل ما يقوله تشاترتن عن رولي : ولم يذكر عنه أكثر من ذلك ، فيعزز بذلك ادعاءه ، ويقوى حجته

وفي سنة ١٧٦٧ ، عين الشاعر كاتباً في بعض دوائر العدل لكنه رغم ذلك كان له متسع كاف من الوقت للمطالعة والانتاج والنشر خاصة في مجلة Felix Farley's Journal

وأشهر ما ظهر له في ذلك الحين قصيدة اسمها « أنشودة إلاّ » The Song of Aella وهي مأساة تمثيلية فيها ابتكار ، وغنائية lyricism ساحرة ، وروعة فنية سامية . « ومأساة برستو » Bristowe Tragedie وهي من أجلّ مآسيه الشعرية القصصية وأروعها موضوعاً وأسلوباً ، وتنتهي بأعدام البطل بودون Badwin

اذ اشتمّ منه الملك ادوارد معاندة وعصياناً . وفيها وصف بديع للبطل بودوين اذ آثر الموت على مصانعة الملك إدوارد والتلطف له والتحبّب إليـه . وفيها وصف بارع رقيق للوداع الحاو بين ذلك البطل وزوجه البار

ومن هذه أيضاً قصة شعرية تمثيلية اسمها « الرّهان » Tournament وأخر مثـل « جودوين » Goddwyn و « أنشودة الجال » Ode To Beauty و « البرلمـان » The Parliament و « معركة هيستنج » The Battle of Hasting و «أغنيـة الصّـدقة» Balade of Charitie وغيرها من القطّعات المتفرقة ، وهى كلها شبيهة بأشعار كيتس Keats الخالدة ، من حيث جمال الفن وقوة العاطفة ودقّة التصوير . وجميع هـذه القصائد تؤلّـف مجلداً كبيراً من الشعر ، جُمِـعَ ونُشِـر سنة ١٨٠٤ ؛ وتشاترتن كان ينسب أهم ما فيه إلى الشاعر رولى

لهذا بينما كان العالم الأدبي ينهج فى خطى بوب pope وجونسن Johnson الأدبية الـكلاسيكية ؛ كان هذا الشاعر الشاب يمهّد السبل القومية للابتداعية Romanticism ، ذلك بأنه كان يعود إلى ينابيع قديمة فيستقى منهـا نتاجه الأدبى أو يسـتوحى منها عبقريته الخالدة ؛ فيعمل بذلك على نشر الميزات التى يختصّ بها أدب الابتداعية

ولقد وجد شـعراء القرن التاسع عشر فى أدب تشاترتن وحياته الرومانتيكية مرتعاً خصباً للخيال والروح ، فقـد تأثر الشاعر كولردج Coleridge بأدبه إلى حد بعيد ؛ وهـذا يظهر جلياً واضحاً فى قصـيدته المشهورة Christabel . ولـكولردج هذا قصيدة بديعـة ، اختصها برثاء تشاترتن اسمها Amonody on the Deathof chatterton . وقلْ مثل ذلك عن كيتس ؛ إذ يستدلّ من أهدائه قصـيدته الخالدة Endymion إلى تشاترتن أنه كان يستوحى عبقريته ، ويستمد نشاطه الأدبى من روح الشاعر الشاب . ليس هذا فحسب ، بل أقر غيرهما من الشعراء الابتداعيين بنبوغ تشاترتن ؛ فذكره شـلى Shelley مثلاً فى قصيدته (أدونيس) Adonais التى رثى بها كيتس فى عداد الشعراء الذين قضوا فى ميعة الصبا ، ووردزورث Wordsworth لم يشأ إلا أن يقول فيه ، فى قصيدته «الانحلال والاستقلال» Resolution & Independenee

تلك الـكلمات الرائعة ، التى أصبحت مثلاً سائراً بين الشعراء وهى :

« I thought of Chatterton, the marvellous Boy,
The s'eepless Soul that Periphed in his Pride. »

ومعنى ذلك :

« لقد فكرت طويلاً فى ذلك الصبى المعجيب بل فى تلك الروح اليقظة التى قضت آن شموخها وعزها »

والشاعر الشهير دانتى روزيتى Dante Rosetti يذكره مع أعاظم شعراء الانـكليز فى Fine Eng · Poets

ولقد لاقى تشاترتن فى خريف سنة ١٧٧٠ من ضنك العيش وسوء الحال مادفعـه مراراً إلى الانتحار ، حتى إنه كتب مرة وصية ينبئ فيها بعزمه الأكيد على الانتحار فى أقرب الفرص ، شارحاً الأسباب الحافزة له على التخلص من الحياة ، لـكنه عدل عن ذلك لسبب ما ؛ فاستقال من وظيفته ، وقصد لندن حيث قضى نحو تسعة أسابيع ؛ ومن ثمّ توجه إلى هولبرن Holborne حيث صرف مدة انعزل فى خـلالها عن العالم وعاش عيشة تصوف وهدوء عميقين ؛ فتمكن بذلك من استعادة خيالاته ، وتصوراته الروحية الشائقة ؛ فانتعشت روحه واطمأنت نفسه ، ورضى عن حاله تلك بعض الرضى ؛ فسولت له النفس الاستزادة من العيش ، لـكنه ما عتم أن اصطدمت الروح والمـادة فى ميدان نفسه ، فاحتدم النزاع بينهما احتداما ؛ إذ أن فقره المدقع وعدم اقبال الصحف على نشر آثاره ، وشعوره بفضيحة أمره ، جميعها ملأت حياته كآبة وألماً ، وزادت عيشه ضنكا ومضضاً ؛ فاستسلم لليأس والقنوط ، وعاودته فـكرة الانتحار ؛ لـكنه عزّ عليه الموت فى ريعان الشباب ، فقاوم فـكرة الموت ، وعقد النية على دراسـة الطب مؤملا من وراء ذلك سعادة وغبطة دنيوية دائمة ، فراسل أصدقاءه يطلب المؤازرة ، لـكنه باء بالفشل ، فـكانت تلك آخر خفقة فى سراج حياته ، إذ عاد على أثر ذلك إلى صومعته عازما على الموت المحتم ، فتجرّع الزرنيخ ، بعد أن مزّق كل ما عثر عليه من آثاره الأدبية غير المنشورة

وهكذا كانت حياته صراعا بين البؤس والهناء ، واليأس والأمل ، والقناعة والطموح ، والموت والحياة ؛ حتى غلب البؤس فى النهاية على الهناء ، وانتصر اليأس على الأمل ، فانهار ذلك البنيان الروحى الرخيص تحت كاهل المـادة ولمـا يبلغ

دين المتنبي

٣ - أبو الطيب المتنبي

للأستاذ محمد محيي الدين عبد المجيد

ثم يقول بعد ذلك فى شأن سيف الدولة :

رأيتكم لا يصون العرض جاركم   ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل   وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفدكم   حتى يعاقبه التنغيص والمنن
فغادر الهجر ما بينى وبينكم   يهماء تكذب فيها العين والأذن

وكان كلما نازعته نفسه الى سيف الدولة واستشعر شيئاً من الأسف على فراقه يعلل نفسه بأنه لقى أهلا بأهل فيقول :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه   وإن لم أشأ تملى على فأكتب
إذا ترك الانسان أهلا وراءه   ويمم كافوراً فما يتغرب

ولكنه ما عتم أن اجتوى كافوراً وتبرم به ويئس مما كان أمله فيه ، فلما اعتزم أن يتركه أسف على غدره ونازعته نفسه إلى ممدوحه الأول وهو يهجو كافورا :

وفارقت خير الناس قاصد شرهم   وأكرمهم طرا لألأمهم طرا
فعاقبنى المخصى بالغدر جازيا   لأن رحيلى كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا فائل الرأى لم أعن   بحزم ولا استصحبت فى وجهتى حجرا

ومع أنه يعترف بالغدر فقد حانت له فرصة ليعود إلى الوفاء فلم يهتبلها ، تلك أن سيف الدولة حين علم رجوعه من مصر أرسل إليه ابنه بهدية فاكتفى بأن يوسل إليه قصيدة يقول فيها :

كلما رحبت بنا الروض قلنا   حلب قصدنا وأنت السبيل
فيك مرعى جيادنا والمطايا   وإليها وجيفنا والذميل
والمسمون بالأمير كثير   والأمير الذى بها المأمول
الذى زلت عنه شرقاً وغرباً   ونداه مقابلى ما يزول
ومعى أينما سلكت كأنى   كل وجه له بوجهى كفيل

ويمر بعد ذلك عامان وبضعة أشهر فيرسل اليه سيف الدولة كتاباً بخطه يسأله فيه المسير إليه فيعتذر له بقوله :

وما عاقنى غير خوف الوشاة   وإن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم   وتقريبهم بيننا والخبب

وقد عاوده طبعه الذى دللنا عليه حين ورد على عضد الدولة فقد قال له فى أول لقاء :

وقد رأيت الملوك قاطبة   وسرت حتى رأيت مولاها

ثم يقول له بعد ذلك :

يقول بشعب بوان حصانى   أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى   وعلمكم مفارقة الجنان
فقلت : إذا رأيت أبا شجاع   سلوت عن العباد وذا المكان
فإن الناس والدنيا طريق   إلى من ماله فى الناس ثان
لقد علمت نفسى القول فيهم   كتعليم الطراد بلا سنان

وانظر إلى هذا البيت الأخير فانه يعتذر فيه عن كل مدائحه التى قالها من قبل عضد الدولة بأنه كان يقولها ليروض نفسه ويعلمها حتى إذا اعتادت لم يحسن منه القول إلا فيه

تنبؤه

ليس فى حياة أبى الطيب مسألة أشد غموضاً من سر هذا اللقب الذى نبزوه به ، ومهما يكن فى حياته من الدقة والغموض فانا نعترف بقوة الدقة والغموض اللذين أحاطا بهذا اللقب . وآية ذلكم أن الكتاب ما زالوا يكتبون عن أبى الطيب منذ كان الى يوم الناس هذا وهم يختلفون فى الابانة عن حقيقة هذا اللقب . وكتاب عصرنا هذا يختلفون أيضاً فى الاستنتاج والتعليل . ولقد حاولت أن أقف على الوضع الحقيقى لهذه المسألة متخذاً من شعره وأخباره نبراساً أستضىء به فأعيانى تطلابه ووقعت فى حيرة

بعد من العمر عتياً ، فكانت وفاته فى ٢٤ أوغسطس سنة ١٧٧٠ عن ١٧ سنة ونحو ٩ أشهر

لو أتيح له أن يعمر طويلا لربما بذ الكثيرين من أعاظم الشعراء ، وتبوأ مكاناً ليس بعيدا من شكسبير وغوته ودانتى

وتقديراً لنبوغه أقام هواة أدبه نصباً تذكارياً لاسمه فى ساحة كنيسة ردكلف Redcliffe فى برستل ، نقشوا عليه كلمات مقتبسة من وصيته الأخيرة ، وهى :

« ذكرى طوماس تشاترتن ، لا تحكم على أيها القارئ إن كنت تقياً ؛ إذ الحكم لقوة عليا ؛ ولهذه القوة وحدها سأجيب . . . . »

جريس القسوس

(يتبع)

ولبس وإبهام هى شر من الاعراض عنه ، ذلك أنه لم يعن أحد ممن عاصر المتنبي أو قرب من عصره بالبحث عما يشوقنا اليوم أن نعرفه بحثاً يثلج صدر الحقيقة ويملأ قلوب الناس بصحة أسبابه ونتائجه ؛ فكل ما بين أيدينا كلمات منثورة فى بطون الكتب جرى بعضها على ألسنة قوم عرفوا بالهوى فيه والتعصب له الى حد التغاضي عن القبح ، وجرى بعضها الآخر على لسان قوم لم يعرف الناس عنهم شيئاً أو عرفوا عنهم الكراهية له الى حد تشويه محاسنه ؛ فهمة الباحث اليوم من أشق المهام ؛ وكل ما يمكن أن يصل إليه باحث ظنون قد لا يطول به الأمد حتى تتكشف له عن نفسها كخدعة من خدع الغرور

حكى أبو الفتح عثمان بن جنى قال :

سمعت المتنبي يقول : « إنما لقبت بالمتنبي لقولي » :

أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا فى أمـة تداركها الله (م) غريب كصالح فى ثمود

وفى هذه القصيدة يقول :

ما مقامى بأرض نخـلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وليس هذا الذى ذكره أبو الفتح إلا كالتمحلات التى يرتكبها بعض الناس باخراج الألفاظ عن أوضاعها ومعانيها . ذلك بأن أبا الطيب نفسه كان يتألم إذا نبزوه بهذا اللقب ، فهو يعلم أن الناس لا يطلقون عليه ذلك تشبيهاً له بالأنبياء وان كانت هذه الصيغة قد تستعمل فى العربية لافادة معنى التشبيه . وذكر أبو العلاء فى رسالة الغفران ما كان أعداء أبي الطيب يتحدثون به عنه فقال :

« وحدثنى الثقة عنـه حديثاً معناه أنه لمـا حصل فى بنى عدى وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه : (ههنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل) وأنه مضى الى تلك الناقة وهى رائحـة فى الابل فتحيل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة وتنكرت برهة ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة ، وأنه ورد بها المحلة وهو راكب عليها ، فعجبوا له كل العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم . وحدث أيضاً أنه كان فى ديوان اللاذقية وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين فجرحته جرحا مفرطاً ، وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر ، وقال للمجروح لا تحلها فى يومك وعد له أياماً وليالى ، وأن ذلك الكاتب قبل منه فبرئ الجرح فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أكبر اعتقاد ويقولون هو كمحيي الأموات . وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقيـة أو فى غيرها من السواحل أنه أراد الانتقال من موضع الى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ثم انصرف ، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : « إنك ستجد ذلك الكلب قد مات » . فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكر . ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئاً من المطاعم مسموماً وألقاه له وهو يخفى عن صاحبه ما فعل » اهـ . وقال أبو العلاء فى رسالة الغفران مرة أخرى :

« وحدث أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة بمعنى المرتفع من الأرض . وكان قد طمع فى شيء قد طمع فيه من هو دونه وإنما هى مقادير يديرها فى العلو مدير يظفر بها من وفق ولا يراع بالمجتهد أن يخفق ، وقد دلت أشياء فى ديوانه أنه كان متألهاً ، ومثل غيره من الناس متدلهاً ، فمن ذلك قوله :

. . . . ولا قابلا إلا لخالقـه حكما

وقوله :

ما أقدر الله أن يخزى بريته ولا يصدق قوماً فى الذى زعموا

وإذا رجع الى الحقائق فنطق اللسان ، لا ينبئ عن اعتقاد الجنان لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل تدنيا وإنما يجعل ذلك تزيناً يريد أن يصل الى الثناء ، أو غرض من أغراض الخالبة أم الفناء » اهـ وأبو العلاء فى هـذه العبارات مضطرب كل الاضطراب ، فبينا هو يقص عليك معجزات أبى الطيب التى يخرق بها على بنى عدى إذا هو يذكر لك أنه إنما طمع فيما طمع فيه من هو دونه بعـد همة وعلو نفس ، ولا يمكن أن يكون مقصوده بذلك النبوة ، ثم هو بعد ذلك يعود فيذكر لك أن أبا الطيب كان يعترف بالله تعالى ويرشدك الى دلائل هذه العقيدة من شعره ، ويعود الى التشكك فى دلالة هذه الأقوال على ما فى نفسه لأن نطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الجنان ؛ وكأن أبا العلاء كان يعانى ما نعانيه اليوم من غموض حال المتنبي وشدة خفائها

والذى نستطيع أن نعقله أن هذا اللقب قد نبزه به أعداؤه وليس له حقيقـة برزت فى الوجود ، وأن أبا الطيب كان يقوم بدعوى سياسية : كان يطلب الملك ويمنى نفسه به ويعد له عدته التى ظن أنها تصل به إليه من المران على الحرب وجمع المـال والاستكثار من الأعوان وتدبير المؤامرات ، ولم يكن يجسر على

الجهر بذلك فى عواصم الملك التى عاش فيها فكان يخرج الى البوادى يتحين الفرصة ويستجمع للوثوب وتحقيق ما فى نفسه من آمال ؛ وهذا سر من أسرار انتقاله من ملك الى ملك ، وقد ساعده على هذا الحلم اللذيذ ما كان يقع تحت نظره كل يوم من ثورات وفتن وانقلاب ، وقوة إيمانه بأنه أفضل من سعت به قدم ؛ وكان ربما قنع بأقل من الملك فرغب فى ولاية من الولايات يخلعها عليه كافور ، ولعل هذه القناعة لم تكن إلا لأنه فهم أن الولاية سبب يصل من طريقه الى الملك كالذى يراه فى جماعة من ملوك عصره . ولعل كافوراً لم تخف عليه سريرته فحرمه الولاية التى كان وعده إياها . ولعله هو نفسه قد شعر بأن كافوراً فطن لدخيلة نفسه ففر من مصر تحت جنح الليل . أفلست تراه يقول لكافور أول وروده عليه :

وغير كثير أن يزورك راجل ... فيرجع ملكا للعراقين واليا

حتى إذا تأخر جواب كافور وخشى أن يفوته المأمول أو أن يظن به عدم الكفاية للاضطلاع بأعباء الولاية عاوده بقوله :

فارم بى حيثما أردت فانى ... أسد القلب آدمى الرواء

وفؤادى من الملوك وإن كا ... ن لسانى يرى من الشعراء

ولم يزل يظهر لكافور تلهفه على إنجاز موعوده بالتعريض مرة وبالتصريح مرة أخرى حتى أدركه اليأس وعلم أن فى الأمر شيئاً . أنظر إلى قوله :

إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ثم انظر إلى قوله :

وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ... ودون الذى أملت منك حجاب

وفى النفس حاجات وفيك فطانة ... سكوتى بيان عندها وخطاب

قال أبو منصور الثعالبى : «وما زال فى برد صباه إلى أن أخلق برد شبابه وتضاعفت عقود عمره بدور حب الولاية والرياسة فى رأسه ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه فى الخروج على السلطان والاستظهار بالشجعان والاستيلاء على بعض الأطراف ويستكثر من التصريح بذلك فى مثل قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم

لأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم

وكقوله :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طول ما التثموا مرد

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دُعوا ... كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا

وطعن كأن الطعن لا طعن عنده ... وضرب كأن النار من حره برد

إذا شئت حفت بى على كل سابح ... رجال كأن الموت فى فمها شهد

وكان كثيراً ما يتجشم أسفاراً بعيدة أبعد من آماله ويمشى فى مناكب الأرض ويطوى المناهل والمراحل ولا زاد إلا من ضرب الحراب على صفحة المحراب » اهـ .

هذه فيما نعتقد حقيقة حاله ؛ فأما ادعاء النبوة فلا نستطيع أن نتقبله مهما زعم الناس أن العصر الذى عاش فيه ورغبته فى أن يكون أبعد أهل عصره أملاً ، وكثرة الدعوات الدينية والسياسية ، كل أولئك تقرب إلى العقل أنه ادعى النبوة . نقول ذلك بعد علمنا تقدير الناس لمقام النبوة ورسوخ عقيدة الاسلام فى أذهانهم ، ومنها أن محمداً (ص) ختام الأنبياء حتى أن الدعوات الدينية التى ادعاها الدعون بعد ذلك لم تكن إلا فى نواحى الامامة وما يتصل بها . ونحن نرى كل هذه الدعوات كانت تستند إلى نصوص يزعم الراوون لها أنها صدرت عن رسول الله أو أفهام فى نصوص أخرى ثابتة . ولو أن أبا الطيب كان قد ادعى النبوة لما وجد من الناس من ينتظر عليه حتى يتم دعواه . ولعله لم يكن من الحكمة فى دعواه التى ارتضينا أمرها بحيث يخفى شأنه ، فكان لذلك لا يأمن جانب أحد ، وكان لا يدخل بلداً إلا ليقذف به إلى بلد ، ثم كانت بعد ذلك نهايته المحتومة

أبو الطيب والنحاة [1]

ليس يسوغ لى فى مستهل هذا البحث أن أغفل أن أبا الطيب كان قد أخذ من العربية بأوفر حظ ؛ فهو حافظ لغريبها حفظ الباحث المستقصى حتى ليسأله أبو على الفارسى : « كم لنا من الجموع على وزن فِعْلَى » ؟ فيبادره بقوله « حِجْلَى وظِربى » ويبحث أبو على ليلته فى كتب اللغة لعله يعثر لهما على ثالث فلا يجد . ويقول أبو على فى شأنه : « ما رأيت رجلاً فى معناه مثله » وهذه الشهادة من أبى على الذى كان يناصبه العداوة

(١) لنا بحث مستفيض فى هذا الموضوع : فصلنا فيه القول بأمثلته وشواهده ورددنا أكثره إلى لغات القبائل ، ولم نشأ أن نثقله كله خوف الاطالة ، ولكنا سننشره فيما بعد بحثا مستقلا فى مجلة الرسالة

ويتحامل عليه كافية للدلالة على قدره ؛ وكان مع اطلاعه على مفردات اللغة وغريبها عالماً بمواطن استعمالها متمكناً من قواعدها خبيراً بلغات القبائل . وله شعر جزل لا نظير له فى شعر أحد من شعراء العربية . وقد خلا كثير من شعره من كل مأخذ وبجانب كل انتقاد ، ولكن له مع ذلك شعراً قد جانب الطرق المشهورة فى العربية إلى طرق لا يقرها النحاة الذين جعلوا مهمتهم تتبع المعروف الجارى على الألسنة ورسموه قواعد أرادوا أن تكون هى لسان الناس عامة ؛ وإن يكن أحد قد نال من أبى الطيب فى حياته وبعد موته منالاً له وجه صحيح وقد بقى أثره والدليل عليه فأولئك هم النحاة ، ولسنا نعنى بالنحاة علماء الأعراب فحسب ، وإنما نريد بهم كل من كان يتكلم فى فرع من فروع العربية ؛ فهؤلاء هم الذين جرحوا عزة المتنبي وطامنوا من كبريائه ؛ وهؤلاء هم الذين كان أبو الطيب يضيق بهم ذرعاً وتتألم نفسه إذا وجه واحد منهم خطابه إليه . وكيف لا يضيق صدره وشعره هو وسيلته التى يكتسب بها رضاء الناس وهم يعمدون إلى هذه الوسيلة فيضعفون من شأنها ويحاولون أن يقللوا من قيمتها .

ولم يكن النحاة فيما نعتقد قد أكثروا من تعقبه والحملة عليه لوجه العلم ولا انتصاراً للحق ، وإنما كان ذلك منهم سلاحاً من أسلحة السياسة التى وجهت إلى الرجل ؛ وليس يعنينا بحث ذلك الآن ولكنا نذكر أنه — مع عدم توفر حسن النية — قد أمكن للنحاة أن يجدوا فى شعر أبى الطيب ما يستمسكون به عليه ويتخذونه ذريعة للتشفى منه ولأرضاء سادتهم . وكانوا يجبهونه بذلك أحياناً ؛ وكانت تأخذه العزة فيسب ويقذع فى سبابه أحيانا شأن المغيظ المحنق الذى يداخله الشك فى أمرهم ؛ وكان ربما ضن عليهم بالاجابة فأحالهم على بعض أصدقائه من النحاة . حدثوا أن ابن خالويه وجه إلى أبى الطيب نقداً فى حضرة سيف الدولة فقال له أبو الطيب : « أسكت ويحك فانك أعجمى ! فما لك وللعربية ؟ » وكان مع ابن خالويه مفتاح فضربه به فشج رأسه . وحدثوا أن سائلاً سأله عن قوله فى مطلع قصيدة مدح بها أبا الفضل ابن العميد :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أوجرى

فقال له : كيف قلت لم تصبرا فقال : لو كان أبو الفتح حاضراً لأجاب ، يريد أبا الفتح عثمان بن جنى وكان صديقاً حميماً له . وبعض المآخذ التى أخذها عليه النحاة تافه أو لا وجه له كالذى حدثوا أن ابن خالويه سمعه ينشد سيف الدولة :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

فقال له : ياأبا الطيب إنما يقال شجاه بتوهمه فعلاً ماضياً . فقال له أبو الطيب : أسكت فما وصل الأمر إليك . يعنى أنه أفعل تفضيل

وبعض المآخذ التى أخذوها عليه صحيح لاشبهة فى أنه أخطأ فيه الجادة كالتعقيد اللفظى والمعنوى ، واستعمال الغريب الوحشى ، والعدول عن سنن القياس ، وقبح بعض المطالع ، وبعض المقاطع ، واستعمال اللغات المهجورة . وأمثلة ذلك كله ميسورة قريبة التناول

وفى كتب علماء البلاغة أمثلة وشواهد كثيرة من شعر المتنبي يعدون بعضها فى عيون الشعر ومحاسنه ، ويعدون بعضها الآخر فى رذيل الشعر ومستكرهه

أما علماء الأعراب فقد جروا على قاعدتهم فى عدم الاحتجاج بشعر المولدين مع أبى الطيب ، ولكن كثيراً منهم يذكر أبياتاً من شعره فى موطن من ثلاثة مواطن : موطن التمثيل لا الاستشهاد ، وموطن مخالفة القياس ، وموطن التطبيق ، وذلك فى المعقد من شعره . وقد ذكر العلامة رضى الدين فى شرح الكافية بعض أبيات للمتنبي على أنها مخالفة للقياس . وللعلامة المحقق جمال الدين ابن هشام صاحب مغنى اللبيب ، ولأبى السعادات ابن الشجرى فى أماليه شروح وتخريجات لأبيات كثيرة من معقد أبيات أبى الطيب .

وقد كان لأبى الفتح عثمان بن جنى صديق المتنبي اليد الطولى فى توجيه أنظارهما إلى هذه الناحية بما بذله من جهد فى تخريج شعر المتنبي حتى كان أبو الطيب نفسه يقول له : إنى لم أقل هذا الشعر لهؤلاء النحاة وإنما أقوله لك

أيها السادة ؛ هذه كلمتى التى كتبتها على عجل ، وإنى لسعيد بأن أتشرف بالقائها بين أيديكم ، وأشكر لجنة المهرجان التى أتاحت لى هذه الفرصة النادرة للتعرف إليكم ، والسلام عليكم ورحمة الله ؟

محمد محيي الدين عبد الحميد
المدرس بكلية اللغة العربية

لمعات

الى شاعر الاسلام وفيلسوفه محمد اقبال

جوابًا لكتابيه أسرار خودى ورموزبى خودى

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

يخرق الليل شعاع يخفق   ثم يلتف عليه الغسق
كمنار البحر يخفى ويلوح   فيه بين الغيب والومض وضوح
أو يراع الليل يخفى وينير   فهو سطر من غياب وحضور [1]
تارة يبدو طريقاً لحَبا   قامت الظلماء فيه نُصُبا
أو بياناً من بياض وسوادْ   كبياض الطرس يعلوه المداد
كل لون فيه حرف مفصِحُ   أُلِّفت منه سطور وُضَّح
وأراه تارة خطاً أحمَّ   وكأن الضوء تفصيل الظُّلَم
فهو سطر من ظلام أرقطُ   أعجمت معناه تلك النقط
كل لون فيه حرف أعجم   وحوى الأحرف سطر مظلم [2]

* * *

يا لُبَيْنَى أوقدى ، طال المدى   أوقدى علَّ على النار هدى [3]
أوقدى يا لُبنَ قد حار الدليل   أوقَدى النار لأبناء السبيل
ارفعى النار وأذكى جمرها   عل هذا الركب يعشو شطرها
شرِّدى هذا الظلام الجاثما   أرشدى هذا الفراش الهائما
حبذا النار بليل توقد   حبذا المؤنس هذا الموقد
حبذا عندكِ هذا المنزل   لوحدانا فى سِفار منزل
ما لذا المنزل قد سار الفريقْ   إنما النيران أعلام الطريق
قد ترحّلنا من الفج العميقْ   لا نبالى بقريب أو سحيق

(١) هذا من قول اقبال :
أى كرمك شبتاب سراناى تونوراست
برواز تويك سلسلة غيب وحضور ست
(يايراعة الليل كلك نور ، وطيرانك سلسلة من الغيبة والحضور)

(٢) حاصل المعنى فى هذه الأبيات أن النفس تارة تدرك إدراكا واضحاً وتارة تعم عليها الحقائق

(٣) إشارة إلى الآية فى قصة موسى : لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى

رنَّ فى آفاقنا هذا النداء   فأممنا البيت يحدونا الرجاء [1]
قد غنينا عن مبيت ومقيلْ   وعن الأمواه والظل الظليل
وعن الرغبة والخوف سُوى   خلع النعلان فى وادى طوى [2]
نحن لا نرضى بنار الغسق   نحن لا نرضى بنور الشفق
نحن لا نرضى بنجم الصبح لاحْ   لا ولا نرضى تباشير الصباح
نحن لا نرضى نجوماً لامعه   إنما نبغى ذُكاء طالعه
قد رحلنا بالجوى والحُرَقِ   وغنينا عن رسيم الأينُق
أين منا طائرات سُبَّق   جُمِع الغرب لها والمشرق
نحن ركب فى جواه مُوضِعُ   لم يسعه فى جواه مَوضع
كل حرّ ضاق عنه الوطنُ   وانطوى دون مناه الزمن
كل طيار على متن الفِكر   وعلى متن هيام لا يقرّ
طائر منه يغار الملَكُ   طائر من تحته ذا الفلك
بارق فى اللوح لا ينطفىء   كل غايات لديه مبدأ
زوّدينا بهيام ووجيبْ   زوّدى يا لُبنَ من هذا اللهيب

(يتبع)

عبد الوهاب عزام

(١) إشارة إلى الآية : وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق

(٢) النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف والاشارة إلى الآية فى قصة موسى : إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى

زهر وثمر

١ — الاسراف سَرِقَة المالك

٢ — الحظ الصاعد كرة يحذفها الدهر ، فيلقفها المتخلف

٣ — الأدب وحدَه صِفْر وحدَه ، فما يقوم حسابه إلا أن يأسِرَه رَقم من فضل مال ، أو رِفْعة منصب

٤ — تستوى وثبة العقاب الكاسر ، وهزة الفرخ الدارج ؛ إذا استويا فى حدود قفص

٥ — ما أظلم من يُمايزُ بين اثنين بما تاح لكلٍّ منهما من مكانة ، لا بما بذل كلٌّ منهما من جهد

٦ — ليس دهاءً أن تكتم السر ، وإنما الدهاء أن تكتم أن لديك سرًا تكتمه

محمد شوقى أمين

جهاد فلسطين

الأستاذ بشاره الخوري

سائلِ العلياء عنّا والزمانا   هل خفرنا ذمةً مذ عرفانا
المروءاتُ التي عاشت بنا   لم تزل تجرى سعيراً فى دمانا
قل « لجون بولٍ » إذا عاتبته   سوف تدعونا ولكن لا ترانا
قد شفينا غلةً فى صدره   وعطشنا ، فانظروا ماذا سقانا
يوم نادانا فلبينا النـدا   وتركنا نهبة الدين ورانا
ضجت الصحراء تشكو عريها   فكسوناها زئيراً ودخانا
مذ سقيناها العلى من دمنا   أيقنت أنَّ مَعَدًّا قد نمانا
ضحك المجدُ لنا لما رآنا   بدم الأبطال مصبوغاً لوانا
عرس الأحرار أن تسقى العدى   أكؤساً حمراً وأنغاماً حزانى
نركب الموت إلى (العهد) الذي   نحرته دون ذنب خُلَفانا
أمن العـدل لديهم أننا   نزرع النصر ويجنيه سوانا
كلما لوّحتَ بالذكرى لهم   أوسعوا القول طلاءً ودهانا
ذنبنا والدهر فى صرعته   أن وفينا لأخى الود وخانا

***

يا جهاداً صفق المجدُ لهُ   لبس الغارُ عليه الأرجوانا
شرفٌ باهت فلسطين بهِ   وبناءٌ للمعالى لا يدانى
إنَّ جرحاً سال من جبهتها   لثمته بخشوعٍ شفتانا
وأنيناً باحت النجوى به   عربياً رشفته مقلتانا
فى فم العلياء عنها نبأ   خضب الآفاق واسترعى الزمانا
فاذا « المهد » غسيلٌ بالدما   ويسوعٌ يذرف الدمع حنانا
أيذود العرب عن حرمته   ونصارىَ الغرب ترضى أن يهانا

***

يا فلسطين التى كدنا لما   كابدته من أسى ننسى أسانا
نحن يا أخت على العهد الذى   قد رضعناه من المهد كلانا
يثرب والقدس منذ احتلما   كعبتانا وهوى العرب هوانا
من لعدنان وغسان بأن   يزهوا تيهاً بنا إذ نسلانا
شرف للموت ان نطعمه   أنفساً جبارة تأبى الهوانا
وردةٌ من دمنا فى يده   لو أتى النار بها حالت جِنانا
قل لمن يبنى على أشلائنا   وطناً هلا حذرت البُرُكانا
ضلّ من دكّ كيانا قائما   ومضى يبنى لمهووسٍ كيانا
انشروا الهول وصبوا ناركم   كيفما شئتم فلن تلقوا جبانا
غذت الأحداث منا أنفساً   لم يزدها العنف إلا عنفوانا
قرع الدوتشى لكم ظهر العصا   وتحداكم حساماً ولسانا
انه كفء لكم فانتقموا   ودعونا نسأل الله الأمانا

***

قم إلى الأبطال نلمس جرحهم   لمسةً تسبحُ بالطِّيب يدانا
قم نجع يوماً من العمر لهم   هبه صوم الفصح ، هبه رمضانا
إنما الحق الذى ماتوا له   حقنا ، نمشى إليه أين كانا

***

دمعةٌ للشعر فى جفن العلى   كفكفتها أكرم الخلق بنانا
حمصُ . . . والجنة من أسمائها   آنةً والمعقل الجبارُ آنا
لو مشى (خالد) فى فتيانها   بهرج الخلد وزاد الفتح شانا
هم سياج الحق من أمتهم   جعلتهم فى يد المجد ضمانا

بشاره الخورى

بقية من حلم

للسيد محيي الدين الدرويش

الوردُ فى ناديك غضُّ الجنى   يختال نشوانَ فأين الشراب ؟
وطيرك الهَيْمانُ فى كرمتى   ينشد ألحان الهوى والشباب
والكأس فى يمناك يا فاتنى   قد رقصت فيها الأمانى العِذاب
وقلبيَ الخفّاق مُسْتَطْرَبٌ   يكاد أن يطفر فوق الإهاب
يهفو به الشوق إلى قبلةٍ   حالمةٍ تكفيه مرّ العذاب
والليل يقظان سريع الخُطا   قد نشر البهجة فوق الشعاب
أودع فى جفنيك هذا الدُّجى   بقية من حُلُمٍ مستطاب

(حمص)   محيي الدين الدرويش

القصص

قصة مصرية

حب اللحم ...

للأستاذ دريني خشبه

« الحوار فى الأصل باللهجة المصرية ... »

— «لا ، بل يخيل إلى أنه مجرد من كل عواطف الحنان والمحبة ، وهو بالفعل عاطل من كل ما يسمو بالانسانية عن حضيض البهيمية الخرساء التى يرسف فيها ويجعل بها حياتى معه ضرباً من الشقاء والتعاسة لا مثيل له »

— « لا أفهم ! بل الذى سمعته هو أنه يحبك حباً لاحد له ، إنه يكاد يعبدك ! »

— « يعبدنى ! هه ... إنه يعبد جسمى فقط يا أختاه ! إنه وثنى شرير ! »

— « يعبد جسمك فقط ؟ ماذا تقولين يا روحية ؟ »

— « آه يا أمينة ! كم يخجلنى هـذا الحديث الذى يدور أكثره عن اللحم والجنس ، ولا يدور شىء منـه عن القلب والروح ؟ ... يا لتعاستى ! »

— « يبدو لى أنك وجدانية أكثر مما يجب يا صديقتى ! »

— « وجدانية ؟ إن النبع الوحيد الذى تصدر عنه الفضائل هو الوجدان يا أمينة ؛ إن الأنبياء والشعراء والفنانين لا يفهمون الحياة إلا عن طريق الوجـدان ؛ بل الله جل وعلا حين خاطب الناس فى كتبه المنزّلة لم يخاطبهم إلا عن طريق بصائرهم ، والمؤمن الحق هو كل صاحب بصيرة نيرة ووجـدان سليم وقلب نابض رقيق ... والحب ، الذى ينبغى أن يكون أساس كل حياة زوجية ، أليس هو أصدق صورة له ... »

— « صار حديثنا فلسفة ! يا روحيـة احمدى الله على أن رزقك زوجاً لا يقصر فى شىء من طلباتك ... زوجاً غنياً ذا سمعة طيبة ... له مركزه فى الحياة »

— « هـذا حق ... ولكن الحياة ليست قصراً منيفاً وأكلة سمينة وخزاً وديباجا ... إن هذه الأشياء أحقر ما تصبو إليه نفس عالية يا صديقتى ، ألا تفهميننى ؟ »

— « بل أفهمك جيـداً ؟ أنت شاعرة ، وكنت تحلمين بزوج شاعر ! أفيقى يا أختاه إلى حقيقة هذه الحياة الدنيا ! الدنيا جد فلا تجعليها حلماً طارئاً وخيالاً مغرقاً فى خيال . ماذا كنت تريدين من بيومى أفندى أن يكون ؟ »

— « يا أمينه أنت تقسين على قسوة شديدة . يا أمينة أنت فتاة متعلمة مثلى ، وقد طالما حلمنا بزواج هنىء يتصل بالروح أكثر مما يتصل بالجسم ... أنت على حق ، لا ريب فى ذلك ، فيما يتعلق ببيومى من الوجهة المـادية . هو رجل غنى ، ولـكنه فقير جداً فى ثقافته ، فقير جداً فى حساسيته ، فقير جداً فى فهم الدنيا الجديدة والحياة الجديدة .. إنه يأكل جيداً ويلبس بأناقة ويشترى لى الجواهر والحلى بسـخاء ... ولـكنه يمزق كتبى ويخرق رواياتى ويعنفنى كلمـا رآنى أقرأ مجلة ، وإذا أحببت أن ألعب على بيانى برم وتسخط وتـكلم بصوت عال ليفسـد على موسيقاى ، والويل لى كل الويل إذا استأذنته فى رياضة إلى الريف أو فى متنزه عام ... إنه يحنق ، وسرعان ما يتهم ، وهو إذا اتهم كان كالبركان يقذف بما فيـه دون وعى ... إنه لا يطاق ... إنه بهيم يا أمينة ... إنه بهيم ، وأستحى أن أزيد ! ! »

— « وما هذا الذى تستحين من ذكره ؟ أيستعمل الـ ... »

— « يستعملها ؟ ... إنه يحب أن تـكون لياليه كليالى ألف ليلة ... وهو يتفنن فى ذلك ، وهو بذلك يرهقنى ويضاعف بلواى ، وهو يجعل ليالى جحيما مستمراً وشقاء مستديماً ... تشممى بخيالك فمه القذر الملوث الـكريه ، الذى تتصاعد منه مع رائحة الخمر ألف رائحة ، يعبث بفمى وخدى ووجهى عبثاً وحشياً

لاحنان فيه ولا تلطف ، عبث الذئب الجائع بجثة الحمل البرىء ... يا أمينة ... ارحميني ... بحسبنا هذا الحديث الطويل ... وإلى الملتقى . . . ! »

***

ولم تدر هذه الزوجة التاعسة أنها كانت تشكو بثها إلى غريمتها الشقية التي كانت تحاول جهدها أن تصيد هذا الزوج الغنيّ الشهوانيّ المتلاف وأن تقسر خيره كله : مالاً ودماً على نفسها ! لم تدر الزوجة التاعسة أنها كانت تفعل ذلك ، وأنها كانت تعد السم لنفسها وتضعه بيدها الساذجة البريئة في كأسها !

لقد حاولت روحية بكل الوسائل أن تصلح من حال بيومي افندي ؛ كانت تعظه مترفقة به ، وكانت لا تغلظ عليه إما خوفاً من بطشه بها ، وإما إمعاناً في محاولة التأثير عليه بالأسلوب الرقيق والبيان الرشيق والروح الطيبة والقلب البار ، وكانت تنيله منها لذة الوحش ، ثم تنتزع منه الوعد بعد الوعد بالتوبة عن الخمر وهجر المخدرات ، وكان يخبث ويمكر فيصغي اليها حين تنهض إلى بيانها فتوقع لحناً أو نصف لحن ، ولكن البهيم الثاوي بين أضلاعه كان يهيج به فينهض فجأة ويحتملها بين ذراعيه الجبارتين ويمضي إلى المخدع

لقد كان يعبد جسمها عبادة ! ولكنه لم يكن يؤمن بجسم واحد ! بل كانت له آلهة كثيرة وأرباب متعددة ، يخلو إلى أي منها كلما أمره شيطانه أو هاجه هواه ... وكانت أمينة الفاجرة إحدى هذه الآلهة ، وقد عبدها أول ما عبدها في منزله ... حينما كانت تزور زوجته البائسة التاعسة ، فسمع صوتها المخنث وضحكها الفاسق يرن في أرجاء المنزل ، فزلزل قلبه ، ومادت نفسه ، وسال لعاب شيطانه المجرم إلى قطف الثمرة المحرمة ... التفاحة المشئومة التي ما زالت تينع وتتأرج ، وتملأ الدنيا باللذاذات الوضيعة والفسوق والخبائث

ولم يكن من العسير على بيومي أن يصيد هذا الصيد ، فلقد غافل زوجه وشك قلب أمينة بغمزة قوية قاتلة من عينه الصناع فحملت اليه أولى رسائل الني ، وأول وحي الضلال ؛ وسهل عليهما بعد ذلك التلاقي في أقاصي المدينة ، هذا في غفلة من زوجه ، وهذه في غفلة من أعين الرقباء

لكن أمينة كانت فتاة تعمل على أن تصيد لا أن تصاد ، لذلك كانت تمني بيومي ولا تقع في شراكه ، وكانت تشتري منه ولا تبيع له ، وكانت موقنة أنه لها يوماً من الأيام ، وكان لا يهمها أن يشتغل قلبه بالعصبة القوية من الساقطات اللائي يتجرن بأعراضهن ، فهي تعرف ، إذا خلص لها أمره ، كيف تعالج هؤلاء بالنعل ، لا بالأسلوب الرشيق والبيان الرقيق كما تعودت روحية أن تصنع : وكان لأمينة من جسمها الممتلىء وقوتها الخرافية كنز مدخر ليوم الفصل بينها وبين غريمتها

***

وضاقت روحية ببيومي وبأمينة ، ولاحظت ما رابها من سلوكها الأخير ، وأفلحت في ضبطهما مرة يتناجيان ، فراحت غير مبقية على شيء ... راحت تفرج عن جمالها الحزين ، وانطلقت في المتنزهات ودور السينما تمثل فصولاً من درامة الشباب وتستعيد ذكريات سعيدة وأحلاماً أثيرية محببة ... ذكريات الحب الذي كانت تعذب به قلوباً غضة وأنفساً رطبة ، وأحلام الماضي القريب الذي أفلت بالهناءة كلها من يديها . . . راحت ترسل من عينيها الساجيتين سهاماً تعرف كيف تحيي بها آمالاً قضى عليها هذا الزواج التاعس النكد ، ومطامح هدمها السيد بيومي بذهبه الكثير الجم ، وجاهه الطويل العتيد

— « روحية ! ... أوْه ! عفواً ! »

ولم تكلم صاحب الصوت المتلجلج ، وهو شاب طوّال تبدو عليه مظاهر الفتوة ومخايل القوة ، ولكنها لم ترفض أن تبتسم ابتسامة خمرية ساحرة ، ومضت نحو شباك التذاكر تبتاع واحدة ؛ وارتبك الفتى قليلاً ، ثم أصلح من هندامه (ربطة الرقبة فقط) وابتلع ريقه ، وانطلق يزاحم الجمهور حتى أخذ مكانه خلفها ، وانتظر حتى كانت عند الشباك ، ومدت يدها بالنقود ، فصاح هو من خلفها :

— « من فضلك يا آنسة ! التذكرتان متجاورتان . لا تأخذي نقوداً ! هاتي بقية جنيه ! ... »

والتفتت روحية فوجدته الشاب نفسه ! صلاح ! صلاح الذي كان يوماً من الأيام أجمل ابتسامة في حياتها ، والنور الإلهي الذي يضيء ظلمات نفسها ... لقد أوشكت أول الأمر أن ترده وتقسو عليه كزوجة أبية وفية ، ولكنها لم تستطع ، بل التفتت اليه ... وشكرته باسمة ... ودخلا إلى الصالة وجلسا على كرسيين متجاورين ، ولم يسعهما أن يتكلما كلمة واحدة ! ... وكان نيد كل منهما منهاج للحفلة ، فظلا يقلبانهما ألف مرة ، وأكبر

الظن أنهما لم يقرآ حرفاً واحداً مما فيهما ... وكان صلاح ، كل دقيقتين أو ثلاث دقائق ، يخالس روحيـة نظرة فائضة بالحزن ، مبللة بالدمع ، صادرة من أبعد غور فى روحه المعذبة الشقية ... ثم يقول لها « سلامات يا روحية ! ! » وتجيبه روحية ، بلسان خجول متلعثم ، عارف بما يعنيه صلاح : « أهلاً ...و... مهلاً ! » ثم قال لها صلاح فجأة : « روحيـة ، أليس خيراً لنا أن نؤجل هذه الحفلة إلى غد ، ونمضى من هنا فنستنشق الهواء الطلق فى سفح الأهرام ... الليلة مقمرة ... أليست هذه فكرة ؟ ! »

ووافقت روحية ، ثم حملتهما السيارة فى طريق الأهرام ... ومع ذلك لم يتكلما أيضاً !! أليسا هما الآن فى طريق خوفو ؟ وهل تـكلم خوفو من يوم أن دفن فى حصنه المشيد !! »

وانتحيا من الناس ناحيـة ، وصعدا فوق الصف الرابع أو الخامس من حجارة الهرم الأكبر مما يواجه الضوء الفضى المنبث من القمر ...

يا لياليك الساحرة المقمرة يا مصر ! الصحراء الأبدية تتواثب فى اللانهاية ، تتسمع شكوى الفتاة المعذبة التى فقدت حبها وشـقيت بزوجها ؛ وأبو الهول الرهيب الصامت يرهف سمعيه هو الآخر ؛ ومائة فرعون عظيم سيسمعون قضية الحب والشباب والزواج ، والنسيم الشمالى سيمهد للعتاب البرىء . . . والقبل ! وحب اللحم سيغدو شبحاً بعيداً قاصياً ، ويحل محله حب مأواه الروح ومصدره القلب ومطهره العين وموسيقاه الـكلمة الطيبة ، والتمتمة الحـلوة ، والعبارة التى تخنقها العبرة ، والآهة العميقة الحارة يرسلها الفؤاد الملتاع الحزين ؛ وستكون القبلة ترجمان هذا الحب القديم الذى أتاحت له المصادفة أن يحيا حياة ثانية موفورة ، وسيغار القمر المطل من لا زورد السماء المصرية من كل قبلة يطبعها صلاح على جبين روحية ... ذلك لأن القمر يحب ؛ ألست تراه ممتقعاً مسهداً ولهاناً ؟ !

— « روحية ! ... »

— « ... ؟ ... »

— « لعلك سعدت بهذا الزواج الغنى الموفق ؟ »

— « سعادة لا نهائية يا صلاح ... مثل هذه الصحراء ... هه . . . »

— « والسعادة اللانهائية التى تـكون كالصحراء ، تـكون كيف ! »

— « تـكون غامضة مشحونة بالأسرار ... ألغاز ! ألغاز يا صلاح ! أتعرف الألغاز ؟ »

— « إذن ، أنت سـعيدة ، لأن السعادة الغامضة أروع ألوان السعادات ! »

— « هه ! متى صرت فيلسوفاً يا صلاح أفندى ؟ »

— « منذ افترقنا هذا الفراق الذى حطم ... »

— « حطم ... حطم ماذا ؟ »

— « حطم أمانى ، وهدم قلبى ... »

— « خير لى ولك ألا نفتح كتاب المـاضى ! »

— « بل سنقرؤه صفحة فصفحة ! »

— « صلاح ! »

— « ماذا ؟ »

— « أتحب أن نزور معبد أبى الهول الساعة ؟ »

— « لـماذا ؟ ماذا نصنع هناك ؟ »

— « نتحنَّث ! نتعلم الصمت فلا نتكلم فى هذه المسألة ! »

— « إذن لن نذهب ، بل سنبقى هنـا ! وسأكلك فى زوجك ؟ هل أنت سعيدة به حقاً ؟ »

— « قلت لك سعيدة ! سـعيدة جداً ، إنه يحبنى . . بل يعبدنى ! لقد كان يأكلنى منذ أسبوعين !! »

— « يأكلك ؟ »

— « أى والله ! ألست حلوة جداً ؟ »

— « الوحش ! »

— « لا ، لا تسب زوجى ! »

— « بل أنت شقيـــة به . . . قلبى يحدثنى ! أنت تـكرهينه ؟ »

— « صلاح ! »

— « أنت تـكرهينه جداً ! »

— « إذن من عسى أن أحب ؟ »

— « تحبين ... ! تحبين فتى غيره ! الحب لايشترى بذهب الأغنياء ! الحب لايشترى بذهب الأغنياء ! الحب تصنعه الأعين وتزرعه فى القلوب ، بذرة من الطهارة يرويها نبع من الأخلاص ! »

— « ومن يا ترى يكون هذا الفتى إذا كان ؟ »

— « من يكون ! يكون الفتى الذى عرفك وتغلغل فى كل جوانحك »

— « الفتى الذى عرفنى وتغلغل فى كل جوانحى لم يخلق بعد ! . . . »

— « روحية ! »

— « أؤكد لك ! »

— « روحية ؟ أنت تقتليننى ! »

— « آه ! أهو أنت هذا الفتى إذن ؟ »

— « روحية ! أنا هو ... أنا صلاح ... هل نسيت ؟ »

— « ... ؟ ... »

— « إلى متى تفترق أجسامنا وقلوبنا متحدة متآلفة يا روحية ؟ »

— « ... ؟ ... »

— « تكلمى ! غير معقول أن تكونى نسيتِ ! يجب أن نلتمس مخرجاً ... »

— « كفى ! ... صلاح ! أسكت ! »

— « لا ! بل أتكلم ! لن يخدعنى لسانك ! إنى مطمئن إلى قلبك ، إنه ينبض لى كما كان ينبض قبل زواجك . . . بل هو الآن يخفق خفقاناً شديداً ، إنه يدعونى ويعطف على . . . إنه يُفضّلنى . . . ولكنك تعاندين . . . إرحمينى يا روحية . . . لن أدعك تفلتين هـذه المرة ولو ربطتك السماء نفسها بسلاسل ذهبية ! أنت لى ، أنت لى دون هذا الحيوان الذى انتزعك منى ، أنا أعرف هذا ! أنا أعرف ما بينكما من بغضاء ! أعرفه كله ! ثقى أنه لن ينتهى عما نهيته عنه ! البهيم ! الوحش الذى يعذبك ويضنيك ! سيصير فقيراً معوزاً عما قريب ! لقـد بدأ يبيع (أطيانه) ويرهن مالم يبع ! وجسمه سيتهدم ، وقد يجرفك سيل خرابه ؟ روحية ! كبرياؤك تذيب قلبى وتصهره ! صديقتك أمينة ! لقد ذكرت لى كل شىء ... أ ...

— « أمينة ! »

— « أجل ... أمينة أعز صديقاتك ... الأفعى ! اتركيه لهـا ! سيقصم ظهرها أو تقصم ظهره قريباً ... لقـد سقطا يا روحية فاطمئنى

— « حسبك ياصلاح ... كفى .. كفى ..

— « لا ... ليس حسبى ... ينبغى أن ننتهى !

— « ننتهى كيف !

— بأن تكونى لى ...

— « أكون لك ... وهل تقبل ! أنا ؟

— « أقبل ؟ أنا أرجوك وأضرع إليك ... لا حياة لى بدونك يا روحية !

***

وصمتا ساعةً ، وكانت دموع نحيلة تسقى حبهما الذى انتعش بكل ما كان له من قوة وحياة ، وكان الليل المصرى الجميل يرثى لهما فيهب نسيمه عليلاً رخياً كأنفاس العذارى ، وكان صلاح قد حمل رأس حبيبته على صدره الرحيب وراح يقبله ويربت عليه بأصابعه المرتجفة ... وكانت أصابعه المرتجفة تنسى فتمر بكل ما فيها من حب وبراءة على الذقن وفوق الخدين ... ثم ... ثم انحنى صلاح يتشمم بفمه المرتعش فم ملاكه الغارّ فى أحلامه فوق صدره . فاضطربت روحية ، وانتفضت انتفاضة هائلة ، وهبت من آلامها مذعورة ، وتمتمت : « صلاح ! لا يصح ! أنا زوجة ... لا أخونه حتى أرى ! »

وكانت الساعة الواحـدة ! وقد سافرت آخر قاطرة من قاطرات الترام الى القاهرة منذ بعيد ! ولم يبق فى الجهة سيارة تحملهما الى هناك ! فهل يقطعان الطريق على الأقدام ؟ هذا أمر شاق . . .

— « لا تنزعجا ! سأوصلكما فى سيارتى ! ! »

من هذا ؟ من صاحب هذا الصوت ! يا للهول ؟ إنه بيومى ، خرج الساعة فقط من فندق ميناهاوس !! إنه يترنح من السكر وهو لايكاد يعى ! وأمينة ! أمينة معه أيضاً فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ؟ ما ذا كانا يصنعان هنالك ؟

— « أوه ؟ أنت روحية ؟ ومن هذا ؟ آه ! أحد عشاقك ! ترى ! أين كان يتمتع بك الليلة ؟ هه ؟ هناك ؟ فى حرم الفراعنة ولكن ، اركبا ، اركبا ، ليس الآن ! ... »

وصعد الدم يغلى فى رأس صلاح ، وأوشك أن ينقض على غريمه الوقح فيضغط على عنقه ليذيقه وبال أمره ، لولا أن نحته روحية وأشارت عليه بركوب السيارة ... وحينئذ ، فكر قليلا وتقـدم الى مكان السائق . وجلست روحية إلى جانبه ، وجلس بيومى وأمينة فى الخلف ، وانطلق صلاح ينهب الطريق الهادئ ، وبرزت الأجيال القديمة كلها من تحت الرمال تنظر إلى أبطال

القصة المؤلمة ... الزوج الخائن ... والصديقة الخائنة ... والحب الهائج ... والزوجة الثائرة ...

وجعل صلاح يفكر ... وأيقن أن الخمر قد سيطرت على دماغ خصمه ... فهل يستطيع أن يجعلها من جنوده ضده ؟! سيرى ...

واقتربت السيارة من الجيزة ... وبدا النيل يصطخب من بعد ... وأزبد عبابه وجرجرت أواذيه ... وأوقف صلاح السيارة على بعد مائة متر أو نحوها من النهر العظيم ، ثم نزل منها وأشار إلى روحية فأطاعته ونزلت هي الأخرى ... وهي لا تدرى لماذا نزلا ، وحملق صلاح في غريمه فوجده يخاصر أمينة وقد غلبهما النعاس والسكر فناما نوماً عميقاً ...

— « بيومى افندى ! بيومى افندى ! استيقظ ! هلم أنت فسق سيارتك ، أنا ماض إلى بعض شؤونى في الجيزة ! »

وشخر بيومى شخيراً مفزعاً بأنفه الغليظ ، ونهض من مكانه متثائباً ليجلس مكان السائق وهو لا يعى من أمره ولا من أمر سيارته شيئاً ... ثم أدار العجلة دورة آلية فانطلقت السيارة تطوى الطريق في خط مستقيم إلى ... النيل ... النيل الزاخر الأبدى ! »

— « حرام عليك ياصلاح ... »

— « إسكتى ! لقد أنقذتك ! »

— « وَىْ ! إسمع ! لقد انقذفت السيارة في الماء ! »

— « بمن فيها طبعاً ... »

— « يا للقوة ! »

— « روحية ، هلمى من هنا ... من هذا الطريق »

دريني خشبة

(الرسالة) إن الحل في هذه الأقصوصة الجميلة لا يرضى الخلق الجميل

البريد الأدبي

الخطر على تراث الاسلام فى أسبانيا

قرأنا فى أخبار الحرب الأهلية الأسبانية غير مرة أن القنابل ألقيت على غرناطة وقرطبة ومالقة . ونحن نعرف أن الأندلس تقع منذ بدء الحرب الأهليـة فى يد القوات الثائرة وأن حكومة مدريد تحاول تطويقها من البر والبحر ، وترسل قواتها الجوية لضرب قواعـدها بالقنابل من آن لآخر ؛ وقد كانت غرناطة وقرطبـة فى الآونة الأخيرة هدفاً لتلك الهجمات الجوية ؛ وقد قرأنا فى روعة وجزع أن القنابل أصابت قصر الحمراء وأتلفت بعض نواحيه ؛ فاذا صح هذا الخبر كنا أمام حادث بربرى ، وأمام كارثة حقيقية تنزل بتراث العرب والاسلام فى أسـبانيا . إن قوانين الحرب فى كل عصر ودولة تنص على احترام الذخائر الأثرية ، ومهما كان فى خطورة المعارك الأهلية الدائرة فى أسبانيا وروعتها فان الاقدام على تخريب المعاهد الأثرية سواء من هـذا الفريق أو ذاك يعتبر عملاً بربرياً لا تبرره أية غاية . وقد منيت الآثار الاسلامية فى أسبانيا بسبب التعصب والاهمال خلال القرون بكثير من التلف ، فتركت كنوز المخطوطات العربية فى الأسكوريال لتلتهمها النيران ، وأضحت لا تجاوز ألفاً وثمانمائة بعد أن كانت حتى القرن السابع عشر تربى على عشرة آلاف ؛ وحولت معظم المساجد الاسلامية الجامعة وفى مقدمتها مسجد قرطبة الى كنائس وشوهت بذلك معالمها وخواصها الفنية ؛ وهدم قسم من قصر الحمراء ليبنى مكانه قصر صيفى للامبراطور شارلكان ؛ ولم تبق يد التعصب والجهل إلا على بقية ضئيلة من النقوش واللوحات الأثرية . وهذه البقية الباقيـة من تراث الاسلام والعرب فى مدريد وغرناطة وقرطبة ومالقة تعرض اليوم للتخريب والفناء الأخير . وليس بعيداً أن نقرأ اليوم أو غداً أن قنابل الثوار سقطت على قصر الأسكوريال وأحرقته بما فيه من المخطوطات العربية ، أو أن قنابل القوات الحكومية ألقيت من جديد على قرطبة فهدمت مسجدها الجامع ، أو على غرناطة فهدمت قصر الحمراء ؛ ذلك أن الحرب الأهلية الأسبانية تدور بلا شفقة ولا رحمة لا بالناس ولا بالأشياء .

وإنه ليحسن فى مثل هذه الظروف الدقيقة أن ترفع الحكومات والهيئات الاسلامية صوتها للمطالبة باحترام التراث الاسلامى فى أسبانيا وحمايته من الغارات الخطرة ؛ فحق الأمم الاسـلامية كلها متعلق بهذا التراث ، وفى اعتقادنا أن مثل هذه الخطوة إذا اتخذت يكون لها أثرها

مدام جولييت آدم

توفيت مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة وعميدة كتّـاب فرنسا من حيث السن . وكانت وفاتها فى قصرها فى كانيول من أعمال مقاطعة الفار حيث اعتكفت منذ أعوام طويلة تعيش فى عزلة مطلقة . وقد بلغت مدام آدم المائة عام تقريباً ، وكان مولدها فى فريرى من أعمال « الواز » فى أكتوبر سـنة ١٨٣٦ ؛ وكان زوجها أدمون آدم مديراً لشرطة باريس ، ثم استقال من منصبه على أثر حادثة فرار هنرى روشفور من سجنه فى كاليدونيا الجديدة ؛ ثم انتخب عضواً فى مجلس الشيوخ فى سـنة ١٨٧٥ وتوفى بعد ذلك بعامين ، وكان من رجالات الامبراطورية ومن شخصيات القرن الماضى

وتبوأت مدام آدم منصة التحرير والكتابة منـذ أكثر من ستين عاماً ، وتولت تحرير « المجلة الجديدة » فى أواخر القرن الماضى ، وبرزت بين كتّـاب هذا العصر بذلاقتها وروعة أسلوبها ، وكتبت عدة كتب وروايات قيمة منها كتاب « حصار باريس » Siége de Paris ، وهو من أشهر الكتب فى هذا الموضوع ، وفيه تصف مدام آدم ذلك الحصار الشهير الذى شهدته بعينيها ؛ ومنها « مذكرات باريزية » Journal d'une Parisienne ، وهى مذكرات طريفة تقدم إلينا صوراً شائقة من الحياة الفرنسـية فى القرن الماضى . ولمدام آدم عشرات أخرى من الروايات والكتب .

وكانت مدام آدم تستقبل فى بهوها الأدبى أشهر كتاب العصر ورجالاته ، وكان من أشهر الأبهاء الأدبية فى أواخر القرن الماضى

ومن مآثر مدام آدم التى يذكرها المصريون بنوع خاص صلتها الروحية بمصطفى كامل زعيم الوطنية المصرية ومراسلتها معه . وكانت مدام آدم من أشد أنصار القضية المصرية ، وكانت تشجع مصطفى كامل بمراسلاتها ونصائحها ، وتنشر عن القضية المصرية مقالات كثيرة تدعو فيها إلى تأييد مصر فى جهادها وإلى إنصافها وتحقيق أمانيها

وكان ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً . وهاهوذا الزمن يحقق بعد ثلث قرن من صيحة الكاتبة الشهيرة لمصر بعض أمانيها ، وتجنى مصر بعض ثمار جهاد زعمائها وأبنائها البررة . فليذكر المصريون مدام آدم وأمثالها ممن نادوا بحق مصر فى الحياة والحرية ، وليقرأوا كتبها ورسائلها القيمة

معهد « الجتيانوم »

هذا معهد من نوع فريد لا يعرف عنه سوى القليل ، ومع ذلك فهو جدير بالتعريف لطرافته . يقوم فى وسط الأحراج على رابية عالية ، فى إحدى القرى السويسرية الجميلة : ذلك هو معهد « الجتيانوم » Goetheanum القائم فى ضاحية درناخ على مقربة من مدينة بازل . وقد أتيح لى أن أزور درناخ ومعهدها الفريد فى وسط الأحراج والربى العالية ، وأن أحيط بشىء من تاريخه وغاياته ؛ فهو معهد دولى للعلوم العقلية كان أول عامل لتأسيسه الدكتور رودلف شتينر Steiner العلامة النمسوى . وشتينر من أقطاب التربية الحديثة ، ولد سنة ١٨٦١ ، ودرس فى النمسا وألمانيا ، واشتغل منذ حداثته بشؤون التربيــة ، وأبدى براعة خاصة فى فهم الوسائل التربيوية وتنظيمها ، وبذل جهوداً جمة لتحقيق نظرياته الجديدة فى التربيــة ، وعمل لانشاء مدارس جديدة من طراز خاص فى بعض المدن الألمانية والنمسوية ، واشتهر بمحاضراته فى التربية فى أوروبا وأمريكا . وللدكتور شتينر عدة مؤلفات شهيرة منها : « نظر جيته الى العالم » Goethes Weltanschaung ، وكتاب « الحقيقة والعلم » Wahieit und Wissen schaft و « فلسفة الحرية » Philosophie du Frecheit ؛ وكتب أيضاً قصة حياته فى كتاب مؤثر . وفى سنة ١٩٢٣ ، بدئ تأسيس « الجتيانوم » تحت رعايته وبارشاده فى قرية درناخ ، وبنى على طراز الملاعب اليونانية القديمة ؛ ثم قام بوضع أسسه ونظمه العلمية ، وأريدَ به أن يكون معهداً دوليا لترقية العلوم العقلية يجرى على نظم الثقافة الحرة دون قيد ولا شرط ؛ وأنشئت فيه أقسام للتربيــة والفنون الموسيقية والطب والعلوم والفلسفة ، وغدت درناخ منذ عدة أعوام مركزاً لحركة عقلية دولية يساهم فيها كثيرون من مختلف أنحاء الأرض . وفى الصيف تلقى فى « الجتيانوم » محاضرات دورية من أشهر الأساتذة فى مختلف العلوم والفنون التى يعمل المعهد لترقيتها ، وقد كانت قرية دورناخ حين زرتها غاصة بالنزلاء الوافدين على المعهد ، ومنهم كثير من الانكليز والأمريكيين ؟

(ع)

كتابان عن روبسبيير

صدر أخيراً كتابان جديدان عن روبسبيير زعيم المرحلة الأخيرة من الثورة الفرنسية ، أحدهما بالألمانية ومؤلفه الأستاذ فريدريش زيبرج ، والثانى بالانكليزية ومؤلفه المؤرخ الأمريكى جيرارد والتر

وقد صدرت فى مختلف اللغات كتب كثيرة عن الثورة الفرنسية وعن روبسبيير ، ولكن شخصية روبسبيير ما فتئت لغزاً على التاريخ ؛ فبعض الباحثين يرى أن روبسبيير كانت شخصيته ضعيفة تستتر بمظاهر الورع والتصوف ، وتسيرها مثل متواضعة ؛ ويرى البعض الآخر أن روبسبيير كان فى الواقع شخصية عظيمة ، ولكن الظروف والشهوات التى أحاطت بها حالت دون ظهورها بمظهرها الحقيق

ويقدم لنا المؤلفان فى هذين الكتابين الجديدين صورتين جديدتين لروبسبيير ، تختلف إحداهما عن الأخرى من حيث التقدير والتصوير ؛ ولكن المؤلفين يتفقان فى الأخذ برأى واحد فيما يتعلق بوثائق الثورة الفرنسـية عن روبسبيير وحياته ، فهما يرفضان الأخذ بمــا فى هذه الوثائق ، ويعتقدان أن كثيراً منها قد زيف لأغراض خاصة . ويرى الأستاذ زيبرج بنوع خاص أن المؤرخ لا يستطيع أن يحلل شخصية ما دون أن يشعر نحوها بشىء من العطف ؛ ولكنه لا يجد فى شخصية روبسبيير ولا فى صفاته ما يجذب أو يروق . وفى رأيه أن روبسبيير كان مع ذلك شخصية عظيمة تتمتع بمواهب ممتازة ، وأنه من الخطأ مع

استبعاد الوثائق الثورية أن نعتبر روبسبيير زعيما صغيراً من زعماء الطبقة الوسطى لا يمثل سوى أماني طبقته كما يصوره بعض المؤرخين

وينحو الأستاذ زيبرج في عرض حياة روبسبيير نحواً جديداً معتمداً في آرائه على الوقائع الثابتة والأعمال الشخصية، ويميل إلى الناحية العلمية أكثر مما يميل إلى الناحية الروائية

أما الأستاذ والتر فيميل نوعاً إلى الناحية الروائية، ويقص علينا حياة روبسبيير الأولى في باريس حيث كان يسكن في غرفة حقيرة مع صديق له في بناء عتيق في شارع سانتونج ما يزال قائماً إلى يومنا؛ ثم يقص علينا قصة اتصاله بأسرة دوبلاى بعد أن غدا زعيماً يشار إليه، وكيف أحب الفتاة إلينور ابنة دوبلاى حباً لم يزهر، بل انتهى في غمرات الحزن والشجن، بعد أن سقطت رأس الزعيم على النطع؛ وكيف أنه يوم حمل على عربة المحكوم عليهم، مرت عربته بمنزل أسرة دوبلاى — أقصداً أم عرضاً؟ — وما كان لذلك من وقع أليم في نفسه

وفي الكتابين من الجديد ما يغرى بقراءتهما

الأحجار السماوية

ألقى العلامة لاكروا الأخصائي في مباحث الأحجار السماوية أمام أكاديمية العلوم بيانات طريفة عن الأحجار السماوية التي اكتشفها في المدة الأخيرة؛ فقال إنه قد شهد في الصحراء الكبرى أحجارا كبيرة سوداء تتميز بلونها، وإنه قد وجدت منها قطع تزن نحو خمسة كيلو جرامات. ولاحظ مسيو لاكروا أن مظاهر القطع الساقطة تدل على أنها سقطت حديثاً

وتحدث مسيو لاكروا عن الحجر السماوي الشهير الذي اكتشف في المغرب الأقصى فقال إنه يقدر طوله بمائة متر، ووزنه بنحو مليون طن، وأنه استطاع أن يعثر منه على شظية صغيرة، وأنه يقدر أن هذا الحجر سيسقط على بعد نحو خمسين كيلومتراً من جنوب غربي شاجوتي على أنه لم توجد حتى اليوم علامات تدل على سقوطه

الى اخواننا في المغرب

يتفضل إخواننا في المغرب على (الرسالة) بمقالات وقصائد لا شك في أنها قيمة؛ ولكن يعسر علينا في الغالب قراءة الخط المغربي فنضطر إلى تأخيرها آسفين. فنرجو أن يكتبوها بالخط المعروف أو بالآلة الكاتبة حتى لا يحرم إخوانهم في سائر الأقطار العربية الاستفادة مما ينتجون

التنبيهات على أغلاط الرواة

اطلعت (في العدد ١٦٥ من الرسالة الغراء) على المقالة التي نشرها الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام من كتابه (ذكرى أبي الطيب) وذكر فيها أنه وقف على رسالة اسمها (التنبيهات على مقصور ابن ولاد النحوي). ولم يذكر لنا الأستاذ الدكتور اسم مؤلف هذه الرسالة مما يدل على أنها عنده غفل من ذلك. ولما كان مؤلفها من كبار اللغويين من علماء الأدب، رأيت من الواجب الاستدراك ببيان اسمه وهو (أبو القاسم علي بن حمزة البصري) ترجم له ياقوت والسيوطي وغيرهما

والرسالة هذه قسم من كتابه الممتع (التنبيهات على أغلاط الرواة) الذي جمع فيه التنبيه على ما في نوادر أبي زياد الكلابي، والتنبيه على ما في نوادر أبي عمرو الشيباني، والتنبيه على ما في كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، والتنبيه على ما في الكامل للمبرد، والتنبيه على ما في الفصيح لثعلب، والتنبيه على ما في الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام، والتنبيه على ما في اصلاح المنطق لابن السكيت، والتنبيه على ما في المقصور والممدود لابن ولاد

من قراء الرسالة

للحقيقة والتاريخ

قال دولة حقي بك العظم (رئيس مجلس الوزراء الأسبق في سورية) في الرسالة (١٦٥) أن في قصتي (النهاية) غلطاً تاريخيا لأني قلت أن ناظم باشا (والي دمشق) زارها فقيراً محتاجاً، وخرج منها يائساً منكراً؛ وناظم باشا قد زار دمشق مكرماً، وخرج منها مودعاً معظما. وكان ذلك في عهد حاكمية دولة الرئيس

وقد كان دولة حاكم دمشق في بدء عهد الاحتلال، فلا تكون الزيارة التي يتحدث عنها دولته هي التي تحدثت عنها في قصتي، وإنما هي زيارة أخرى، لأن حوادث القصة وقعت سنة ١٩٢٩ كما قلت في أول سطر منها، وكان هو حاكم دمشق قبل ذلك بسنين طويلة؛ وعلى ذلك لا يكون في قصتي خطأ، لأن ناظم باشا جاء دمشق آخر مرة في سنة ١٩٢٩، وكانت حاله قريباً مما قلت في القصة، ولا يكون في كلام دولة الرئيس تصحيح للقصة. هذا ولدولته ولحضرة الكاتب شكري واحترامي.

علي الطنطاوي

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٦٧ — ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 167

Lundi - 14 - 9 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر المالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٦٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ جمادي الآخرة سنة ١٣٥٥ — ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

بعد المعاهدة

من الجهـــاد الأصغر
إلى الجهاد الأكبر

للدكتور عبد الوهاب عزام

يروى بعض الصوفية أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه كان إذا قفل من غزاة قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ؛ ويقولون إن الجهاد الأصـغر قتال الأعداء وخوض المعامع وقراع المنايا ، والجهاد الأكبر تقويم النفس وتطهيرها و إعدادها للرقابة على أعمالها والقيام بالعدل فيما بينها و بين الناس ، ثم مجاهدة الأنفس الأخرى بالحكمة والموعظة الحسنة ، و بالرغبة والرهبة واللين والشدة ، حتى تستقيم على السنن القويم ، وتحتمل كل ما يحمّلها الواجب ، وتأخذ كل ما يعطيها الحق ؛ وحتى يجتمع الناس على شرع لا تفرّقهم الأهواء ، ولا تثور بينهم البغضاء ؛ ثم النظر بعد هـذا فيما يصلح الجماعة ويسعدها فى معايشها

صدق هؤلاء القائلون . فحرب العدوّ جهاد بيّن لا تقعد عنه

الأنفس العزيزة ولا تختلف فيه الكلمة ؛ تدعو إليـه العزة والكبرياء ، والذود عن الأنفس والحرمات ، ويصمد فيه المجاهد إلى عدو مرئيّ فى معترك محدود . ولكن جهاد النفس ، وإصلاح الجماعة وإسعادها ، خفيّ المسالك غامض الجوانب ، تعترك به فى النفس الواحدة منازع مختلفة ، وتفترق بالجماعة أهواء متشاكسة ، ويطول فيه المدى ، وتمتحن العقول والعزائم

فان تكن الأمة المصرية قد مشت فى عزتها إلى غايتها أو أشرفت على الغاية ، إن تكن قد باءت بالإباء والكبرياء والدأب والصبر ما أمّلت أو بعض ما أمّلت ، إن تكن فرغت من الثورة والعداء إلى السلم والمودة ، فإنما قفلت من جهادها الأصغر إلى جهادها الأكبر — الجهاد الذى ينظر فى أحوال الأمة ما بطن منها وماظهر ، ليربّيها على الخير والحق ، وينشّئها على الخلق القويم ، ويردّها جماعة صالحة متآخية ، تجمعها المودّة ويعدل بينها الانصاف ، تلقى الخير والشر بقلوب موحدة وعزائم مجتمعة وآراء متناصرة — الجهاد الذى يعنى بالجهلاء فيعلمهم ، وبالمرضى فيأسوهم ، وبالبائسين من الزراع والصناع فيأخذ بأيديهم إلى العيشة الراضية ، ويقارب بين طبقات الأمة حتى يجمع شملها الخيرُ العام والمصلحة الشاملة — الجهاد الذى يهيّئ للأمة وُلاة ينشرون السلام والأمان ، ويقومون بين الناس بالقسط فى كل كبيرة وصغيرة ، حتى تتمّ النَّصَفَةُ القويّ والضعيف ، والنصير والمخالف ، والمحبّ والمبغض ؛ وتقوم للأمة حكومة يحمل كل واحد فيها قانوناً فى الخلق ، يكفل ألا يحيد قيد شعرة عن القانون الذى فى الورق ؛ ويتنزّل فيها المثل الصالح من الرؤساء إلى من دونهم حتى يشعر كل عامل أنه يتلقى العدل من فوقه يوحيه إلى من دونه ، وأنه حين يعدل لا يتبرع ولا يمن على أحد ، وإنما هو الحق والواجب لا محيد عنهما ولا مفر منهما ، ولا يسع الأمر غيرهما ؛ وحتى لا يُقضى فى أمر إلا بما يقضى به عمر بن الخطاب لو عرض هـذا الأمر عليه ، لا محاباة ولا حيف ولا هوادة ؛ القويّ ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف قوى حتى يؤخذ الحق له ؛ وحتى يكون العامل الصغير فى أقصى الأرض نائلا حقه آمناً عليه ، كالحاكم الكبير فى دواوين القاهرة ؛ وحتى ييأس أكبر الموظفين وأقرب المقرّبين من المحاباة يأس أصغرهم وأبعدهم . لكلٍّ حقه ، وعلى كلٍّ واجبه ، وفوق الناس جميعاً قانون الأمة وعدل الله — الجهاد الأكبر الذى يذهب بهذه المساوئ البادية فى أنفسنا وأجسامنا وأزيائنا وطرقنا وأنديتنا ودواويننا ودورنا ، والذى يأخذ الأمة بيد رحيمة حازمة لتوفى بهـا على النجاة غير مبالية بصيحات المرضى الذين يكرهون الدواء ، والمفسدين الذين ينفرون من الإصلاح الخ الخ

لست أقول إن أمتنا ابتليت بالشر والفساد من بين الأمم ، ولكننى أريد لها أن تكون « خير أمة أخرجت للناس » وأن تصير مضرب المثل بين الأمم فى أخلاق أفرادها ، ونُظُم جماعاتها ، وسعادة أولادها

سيقول الضعفاء : هذا مطلب عسير ! وأنا أقول إنما تَطمح عزائمنا إلى المطالب العسيرة ، وإنما يكافئ هممنا المقاصد البعيدة . وسيقول الذين فى قلوبهم زيغ : هذا هذيان ! وينسون أن هذا الهذيان تنطق به القوانين كلها . فان لم يكن عملنا مصدقاً قوانيننا فما جدوى هذه القوانين ؟ . ليس فى الأمر عسر ، وليس فى الأمر هذيان ، ولكنه حق يسير إذا برئت النفوس من يأسها ، وخرست الألسن عن هذيانها ؛ وحسبنا أن يقوم على رأس الأمة « عُمر » واحد يضرب المثل ولا يتهاون فى إنفاذه فاذا الناس كلهم رغبةً ورهبة يقتدون به ، ويحاول كل منهم أن يجعل نفسه عُمَر آخر .

إن نفوس هذه الأمة معمورة بالخير ، وإنما أضرّ بنا أن رفعت فى كنف العدو رايات للشر انحاز إليها كل شرير ، وأشفق منها كل خيّر ، فازداد المسيئون إساءة ، وضعفت نوازع الإحسان فى نفوس المحسنين . فاليوم نريد أن تُرفع فى هذا البلد للخير رايات ، ويُهاب بما فى الأمة من أخلاق ليزداد المحسن إحساناً ، ويكف المسيء عن إساءته ، فاذا الناس أعوان على الخير أنصار له ، فرحون به مغتبطون سعداء

ذلكم الجهاد الأكبر تضطلع به هذه الأمة الكريمة ، وتقودها إليه حكومتها الرشيدة مؤيدة موفقة مسددة إن شاء الله

عبد الوهاب عزام

القطـــط

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

القط حيوان مغرور ؛ وله العذر يا أخي والله . . ولو أن أمة من الأمم بدا لها في عصر من العصور أن تعبد أجدادي أو أن تعتقد أن روح الله حالة في أجسادهم لكنت حقيقاً أنا أن أزهى وأتكبر وأتغطرس وأرفع رأسي حين أكلم الناس ، وأزم بأنفي وأتبجح عليهم بما ليس عندي ، وأتمدح بما ليس في ، وأكون على العموم — وباختصار — نفاجاً فياشاً إذا كنت تفهم ما أعني

ولست أتخذ القطط ولا أحبها أو أطيقها ، لأن آبائي لم يكونوا ممن عبدوها أو آمنوا بحلول روح الله فيها وإن كانوا قد عبدوا في جاهليتهم ما هو أحط منها في مراتب الحياة — الأصنام والحجارة — ولكننا نكفر بالحجر فنكسره ونفرغ من أمره . أما القطط فتفئ في أمرها إلى الرشد ولكنها هي لا ترشد أبدا ولا يفارقها الغرور العظيم الذي داخلها مذ رأت نفسها معززة مكرمة — بل معبودة — بلا موجب ، فالبلاء لهذا مقيم والمصيبة خالدة والعياذ بالله

ومن غرور القط أنه لا يستأنس أبدا — يسكن بيتك ويأكل طعامك برضاك أو على الرغم منك ، ومع ذلك لا يكون معك إلا على حرف ... تمسح له شعره فيثني أرجله تحته ويرخي جفنيه ويروح يزوم أو « يقرأ » كما يقول العوام فكأنك تستلم حجراً مقدساً من فرط ما يكون من انصراف هذا الحيوان التكبر عنك ، وتدغدغه فلا يعني بأن ينظر إليك ليرى من أنت — أغريب أم صاحبه الذي يطعمه ويؤويه — بل ينحي عليك بأظافر يده وبفمه في آن معا . وتقدم له اللقمة من الخبز فينظر إليها شزراً ويعرض عنها محتقراً لها ويحول رأسه عنك بكبر دونه كل كبر وترفع لا يطاق حتى لكأنك تلغو في حضرة البابا .. فاذا كان ما تعرضه عليه لحماً أو سمكا أهوى عليه بأسنانه وهو معبس متجهم وانتزعه منك كأنما أنت تدنسه بلمسه أو حمله . ولا يكون معك أبداً إلا متحرزاً متوثباً متوقعاً منك الغدر ومتهيئاً لمباغتتك بالخيانة ، وليس أطغى منه ولا أغلظ كبدا . وما أظن بالقارئ إلا أنه رأى ما يصنع القط بالفار وكيف يمسكه بين يديه حتى يكاد يميته من الفزع ثم يطلقه ويقصر عنه فيقف الفار المسكين جامداً لا يتحرك ولا يكاد يصدق أنه حر وأن في وسعه أن يذهب ويجري . والقط ساكت لا يمد إليه يدا ولا يبرز مخلباً فيطمئن الفار ويشرع في الهرب وهو يتلفت حتى إذا وثق أنه آمن وثب عليه القط وهو يضحك في سره وغرس في جنبيه مخالبه وراح يشكه بها شكا يكون خفيفاً تارة وثقيلاً أخرى ثم يكف عنه مرة أخرى — وعينه عليه — ويكتفي بأن يربض ويتربص له وأن يلاحظه وهو يتلوى من الألم . ويدرك الفار أن الشك قد انقطع وإن كان حر ما لقى منه لا يزال شديداً فيتشهد ويقول « ياحفيظ .. أعوذ بالله ... على وجه من أصبحت في يومي النحوس هذا ياترى ... على كل حال الحمد لله .. قدر ولطف .. وترى أين ذهب هذا الوحش الضاري .. ياحفيظ .. ياحفيظ .. اللهم استرنا ... المهم الآن أن أذهب إلى جحري فانه على ضيقه خير ألف مرة من ميدان هذه الغرفة التي لا آمن أن يثب علي فيها قط آخر .. والعياذ بالله » ويتوكل المسكين على الله ويقول « هيه .. يامعين » ويروح يجر رجلاً بعد رجل ؛ وذيله مسحوب وراءه على الأرض ؛ ولا تبقى له قدرة على التلفت من فرط الأعياء ومن كثرة ما نزف منه من الدم القانى فيمضي إلى الجحر وهو لا ينظر لا إلى اليمين ولا إلى الشمال ولا قدامه ولا خلفه ؛ حتى إذا قارب الجحر وانتعشت نفسه قليلاً وعظم أمله في النجاة والسلامة وطول العمر وهم بوثبة أخيرة إلى حيث لا تدركه القطط ولا تستطيع أن تتبعه ، إذا بالقط المتربص على ظهره ، ومخالبه في لحمه الطري ، فيدرك الفار اليأس ويستسلم ويقول في سره وهو يؤكل عسى الله أن يعوضني يوم النشور داراً أخرى لا قطط فيها .. ويلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يحلم بجنة الفيران

والقطط تولد عمياء مطبقة الأجفان فيدركنا العطف عليها وترق قلوبنا لها فنعنى بها ونتعهدها ونسقيها اللبن الذي هو لطعامنا ، ونبرها ونسرها سنة بعد سنة ، ونفرح بها ونعجب بمنظرها ونباهي الجيران ، ثم يتفق أن نخرج يوماً وأن نوصد الأبواب ونحن لا ندري أن القط في إحدى الغرف ونغيب شيئاً ثم نعود إلى البيت ويدخل أحدنا حجرة النوم ليخلع ثيابه فيغلق الباب وراءه كعادته وإذا بالقط على السرير يتحفز للوثوب عليه وتمزيق لحمه — ماني ذلك شك — فكأنه ليس أمام قط صغير وإنما هو

أمام نمر مفترس فيضطرب الرجل وتتخاذل ركبتاه ولا يعود يعرف أين الباب، والقط يموء بل يعوى ويتوثب كالمجنون وقد نسى كل ما كان من سابق النعمة ولم يبق له هم إلا الخروج من الغرفة أو افتراس هذا الذى دخلها عليه وإن كان سيده وصاحب الفضل عليه

وقد لقيت من قطط الجيران الأمرين فما أحب القطط كما أسلفت . وما أكثر ما يحدث أن أنسى نافذة مفتوحة أو باباً مواربا فيدخل القط ويمضى إلى أوانى الطعام ويكشف عنها الغطاء — أى والله ولو كانت من النحاس الثقيل — ويلتهم كل ما بقى .... وقد كان لى جيران ما رأيتهم قط ينامون إلا بعد أن يغلقوا الأبواب والنوافذ جميعاً . وكنت أضحك إذ أسمع رب بيتهم يصيح فى الليل — والصوت فى الليل يسرى — « يا حنيفة .. هل أغلقت باب المطبخ ؟ » فتصيح حنيفة من مرقدها والنوم يغالبها : « أيوه ياسيدى ... » فلايقتنع ويخشى أن يكون الكسل قد أغراها بالكذب فيقول « يحسن أن تقومى وتستوثقى » وبعد قليل أسمعه يؤنبها ويقول لها « ألم أقل لك .. هذه النافذة لم تكن محكمة الأيصاد ... وهـذا الباب ... انظرى ... لو دفعه إنسان بيده لا نفتح » فتحلف أنها أوصدت كل الأبواب والنوافذ فيقول « لا يا بنتى . . . دورى قبل النوم على كل الأبواب وكل نافذة وامتحنى كل منفذ بيدك لتتحققى » وكنت أعجب لهذا التفزع وأسأل نفسى عما يخيفه وهو فى عمارة لها بواب لا ينام إلا بعد أن يدخل كل السكان ثم يغلق بابها بالمفتاح ويضمه — أعنى المفتاح لا الباب — فى جيبه . فاذا تأخر أحد السكان احتاج أن يدق ويقرع الباب .. ثم زال عجبى لما بلوت قطط الجيران .. وأيقنت أنه لا يخاف اللصوص وإنما يخاف القطط .. وله العذر

والعامة تعتقد أن للقط سبع أرواح وما أظنهم إلا صدقوا، ومن كان يشك فى ذلك فليتأمل كيف يسقط القط من فوق السطح العالى فلا يزيد على أن ينظر يمنة ويسرة — فان فى القطط تحرزاً شـديداً — ثم ينهض ويمضى كأنما كان قد انحدر على بساط كهربائى . وتضربه بالحجر فلا يهيضه بل يرتد عنه . وهو مثال الفردية الصارخة والأثرة المجسدة . وما رأيت قطتين اتفقتا قط ، وما اجتمع قطان فى مكان إلا تحفزاً للقتال فترى كلا منهما قد رفع ذيله وقوس ظهره وراح يجس الآخر بعينه وهو يزوم ويقول : « واوووووووو » ويدور حوله ليغافله وينشب فيه أظفاره . والقطة هى الدابة الوحيدة التى تأكل صغارها فتأمل ذلك . ومن كان يعرف أن حيواناً مستأنساً آخر يفعل ذلك فليخبرنى فان العلم بهذا ينقصنى

ومن غرور القط أنه يعتقد أن ريقه ترياق ، فتراه يضطجع على جنبه ويلوى عنقه ويقبل على شعره بلسانه يلحسه ولا يخجل أن يستحم على هذا النحو أمام الناس ، بل لعله يباهى بذلك ويفخر قبحه الله ؛ وهو مفطور على الغدر والخيانة فلا أمان له ولا اطمئنان منه لأحد من الخلق ولا لشىء من الأشياء فهو لهذا سيء الظن ، حتى إنك لتراه إذا صار على رف أو لوح من الخشب يخطو كأنما هو يمشى على الجمر فيضع كفاً وينتظر ويخيل إليك من وقفته أنه يختبر المواطىء بكفه ويقدر مبلغ ثباتها وقدرتها على احتمال ثقله . ثم يمد يده الأخرى وينتظر شيئاً زيادة فى الاستيثاق ومبالغة فى الحذر ولا يجد ما يبعثه على الشك ، ومع ذلك يظل يتريث حتى تزهق روحى وأنا أنظر اليه . وإذا رابه شىء رد يده وسحبها من موضعها بسرعة وخفة ؛ ولو كان الانجليز قد خلقوا قبل القطط وسبقوها إلى الدنيا والحياة لقلت إن القطط أخذت ذلك منهم وقلدتهم فيه فانهم مثلها يقدمون على الشىء متحرزين ، ويخطون خطوة ثم يقفون ينظرون ما يكون ، فاذا جرت الأمور على غير مايحبون أو يتوقعون ارتدوا بخفة وبسرعة وإلا نقلوا رجلاً أخرى وهكذا ، فيظهر أنهم هم الذين يتقيلون القطاط ويحاكونهم فى هذا والله أعلم

ولم يسرنى قط وجود قطة فى بيتى إلا مرة واحدة ، وكان قطا ملعونا لا يزال كلما أوينا إلى مضاجعنا يتسلل — لا أدرى من أين — إلى المطبخ ويرفع كل غطاء عن كل وعاء ويقلب كل صحن ويروح يعبث بما فى المكان . وليست نقمتى عليه من أجل ما يسرق فقلما يجد شيئاً فى المطبخ لأن عادتنا أن نأكل كل شىء ولا نبقى شيئاً قبل أن ننام ، فلا تبيت الأوعية والصحون إلا فارغة نظيفة ، والحمد لله الذى لا يحمد على المكروه سواه . وإنما نقمتى عليه من أجل الضجة المزعجة التى يحدثها والصحون والأطباق التى يكسرها فنهب مذعورين من فرط الضوضاء ونذهب نعدو إلى المطبخ عسى أن ندرك شيئاً قبل أن يتحطم ، وإذا بالقط اللعين يثب من الرف حين يرانا إلى النافذة دفعة واحدة . وأقسم أن

كنت اغلقت النافذة واستوثقت منها قبل أن أنام كما رأيت جارى يفعل ولكن من يصدق .. وتروح زوجتى تكذبنى وتزعم أنى لا شك أهملت كعادتى أو أنى اكتفيت بأن ألمس النافذة بيدى وباركتها ثم قفلت راجعاً وأنا واثق أنها ستنغلق نفسها بقدرة الله ومن غير حاجة إلى معونتى . ونظل فى هذا الخلاف السخيف الذى سببه لنا القط إلى الصباح . واتفق يوماً أن دخل علينا قط ضخم بلا استئذان فهممت بطرده إذ حسبنا ما يصيبنا من القطط بالليل ، ولكنى لمحت قطاً آخر واقفاً بالباب يشاور نفسه ، ولم أكد أراه حتى كانت المعركة ناشبة بين القطين ، وكانا يدوران وذيلاهما مرفوعان وكل منهما يتحين الفرصة للوقوع فى خصمه ، وكانت أصواتهما المنكرة كأنها المسامير فى آذاننا ولكنها كانت لهما كموسيقى الحرب على مايظهر ، ثم اشتبكا بعد أن وزن كل منهما صاحبه وأخذت المخالب تطول وتنغرز فى أجسامهما والأسنان تساعدها ، وكانا يتقلبان على الأرض — أعنى على البساط — وهما يتصايحان بصيحات الحرب وأنا واقف من فرط السرور أشجعهما وأستحثهما وأقول للذى أراه يفتر منهما : «عليك به ! اغرز مخلبك فى عينه . . افقأها له ليعمى ولا يعود يرى النافذة . . برافو . . برافو . . أحسنت ! هكذا تكون البطولة وإلا فلا . . أيوه . . أعد .. أعد .. بارك الله فيك .. مزق جلده .. أسلخه .. تمام .. مضبوط .. عضه .. عضه ياأبله .. لا لالا .. لاتبعد .. عد اليه .. تذكر الدجاجة التى خطفها وحرمنى وحرمك لذتها ... تذكر - إذا كنت لا تعبأ بالدجاج — الفيران الطرية السمينة التى يصيدها كل ليلة ويأكل لحمها الغريض ويشرب دمها القانى ... أقدم يا شيخ ... أقدم ... أو لم تسمع بقول الشاعر الحكيم : « وفاز بالطيبات الفاتك اللهج » ... » وهكذا صرت أهيجهما حتى أوسع كل منهما صاحبه عضاً ونهشاً ولاذ أحدهما بالفرار ... ووقف الآخر برهة يلحس جراحه ، ولكن الغريب أنى لم أر دما يسيل أو يقطر ، ولم تأخذ عينى تمزيقاً فى جلد أحد القطين على الرغم من عنف القتال ... فهل كان مزاحا ... أم ريقه ترياق كما يدعى ؟ ومهما يكن من ذلك فقد استرحت من القطط المتلصصة بعد هذه المعركة ولله الحمد ... وبقيت الفيران قوانا الله عليها إنه سميع مجيب

ابراهيم عبد القادر المازنى

صور سياحة

ليـــلة فى براتر

بقلم «سائح متجول»

للمدن العظيمة كما للأفراد روح وخواص معنوية تحدث أثرها فى النفس ؛ وللمدن العظيمة أيضاً ذكريات وتقاليد تنم عن هذه الروح والخواص ومن خواص مدينة ڤينا أنها تتمتع بجاذبية مدهشة تنبعث من جميع مظاهرها وحياتها العامة ؛ وللعاصمة النمسوية ماض باهر حافل بالذكريات العظيمة ، واذا كانت صروف الحرب والسياسة قد أسبلت على هذا الماضى الباهر سحابة من النسيان فان المدينة التالدة ما زالت تحتفظ بهذا الروح المرح الجذاب الذى عرفته أيام المجد ، فى ظل امبراطورية عظيمة ، وفى ظل دولة الفن والموسيقى الزاهرة أيام أن كان يطربها ويشجيها ويبكيها آناً بعد آخر آلهة الفن الرائع : موتسارت وشوبرت ويوهان شتراوس

وما زالت ڤينا برغم جميع الأحداث والمحن تفيض بالذكريات الحافلة ، وما زال الروح النمسوى يرفرف نحو الماضى ويستوحيه ويستمد من تراثه كثيراً من آيات الظرف والأناقة والسحر ؛ والخلق النمسوى يجنح بطبعه الى الأدب الجم والرقة المتناهية ؛ وإنك لن تشعر فى أية عاصمة أوربية أخرى بما تشعر به فى العاصمة النمسوية من آيات الترحيب وحسن الوفادة ورقة الشمائل والخلال

ومن ربوع ڤينا وذكرياتها العزيزة حى « براتر » brater ؛ ومن ذا الذى لم يسمع باسم براتر من زوار العاصمة النمسوية ، بل من ذا الذى لم يجذبه ذلك الحى المرح الضاحك الذى كان أيام الامبراطورية مرتع الأمراء والنبلاء . والذى ما زال مرتع الشباب والحداثة من كل الطبقات ؟ إن حى براتر يمثل ناحية خاصة من حياة العاصمة النمسوية ؛ ومع أنه حدث فى روحه ومظاهره ، فانه مازال من أشد الربوع والمعاهد إعراباً عن روح ڤينا الحقيقية . وإن أولئك الذين يعرفون كم تعبر أحياء مونمارتر وميجال ومونبارناس عن الحياة البارزية الشعبية يستطيعون أن يفهموا

كم يعبر حى براتر عن ذلك الجانب من حياة العاصمة النمسوية

وليس حى براتر فى الواقع أكثر من مجموعة كبيرة من الألعاب والملاهى الغريبة ؛ ولقد عرفت القاهرة فى بعض المناسبات شيئاً من هذه الملاهى باسم « لونابرك » ، وكان آخرها ما نظم فى الشتاء الماضى أيام المعرض الزراعى ؛ ولكن ما نشهده نحن فى القاهرة من هذه الألعاب والملاهى ليس إلا جزءاً يسيراً مما يضمه حى براتر من الأندية والمسارح المختلفة التى تعرض فيها أحدث وأغرب الألعاب والمناظر البهلوانية المدهشة التى يطبعها جميعاً طابع المرح والحداثة والدعابة

وفى براتر يجتمع أخلاط المجتمع من جميع الطبقات ؛ ذلك أنه يضم فضلاً عن الملاهى والألعاب الكثيرة ، طائفة من المقاهى والمطاعم الأنيقة التى يرتادها زوار الطبقات الرفيعة ، ويقصدها المحبون ليعتكفوا فى أركانها ومخادعها ، وليَنهلوا كؤوس الحب بعيداً عن صخب الأندية الحافلة ؛ وقد كانت براتر وما تزال مهبط الحب . ولكم كانت فى الماضى مسرحا للحوادث الغرامية الأنيقة بين أبناء الطبقات الرفيعة ؛ بل إن اسم براتر ليمثل فى مأساة غرامية من أشهر وأروع ما عرف تاريخ الحب : ففى دروب براتر التقى الأرشيدوق رودلف ومارى فتشرا فى أواخر القرن الماضى ؛ وكان الأرشيدوق رودلف ولد الامبرطور فرنز يوسف وولى عهده يومئذ ؛ وكان فتى مضطرم الأهواء يثور على الرسوم والتقاليد الملوكية ، ويشغف بالتجوال فى أحياء فينا والاغتراف من مسراتها الشعبية ، وكان كثيراً ما يرتاد معاهد براتر ويمرح فيها . وكانت مارى فتشرا فتاة رائعة الحسن من أسرة نبيلة ، فلمحها الأرشيدوق ذات يوم فى براتر وهام بها حباً ، وهنالك تفتحت فى قلبيهما زهرة الحب . وكان العاشقان يتنزهان أحياناً فى طريق براتر السلطانية المعروفة « بالدرب الكبير » Hsnbt Allee ، وأحياناً يلتقيان فى مقهى هنالك يعرف « بدار الأنس » Lnst Hals ، وهو ما يزال قائماً فى براتر إلى يومنا . ونحن نعرف كيف كانت خاتمة العاشقين المؤسية فى قصر مايرلنج فى ضواحى فينا ، حيث وجد الأمير ومارى فتشرا فى صباح ذات يوم من سنة ١٨٨٩ قتيلين برصاص المسدس ولم تعرف أسباب المأساة وظروفها قط ، وكل ما قيل يومئذ إن الأمير فى نزغة من نزغاته قتل حبيبته ثم انتحر ؛ وذاعت بعد ذلك روايات أخرى ، بيد أن سر المأساة لم يعرف قط

وفى هذه الحادثة التاريخية التى اقترنت باسم براتر ما يفسر منزلة براتر ومعاهده فى قلوب المجتمع النمسوى ؛ وما زالت ذكريات هذه المأساة الغرامية تغشى أفق براتو ، وما زالت ذكريات شهيرة أخرى تمتزج بمعاهد براتر وأنديته ومغانيه ؛ وقد كانت هذه الحوادث والذكريات ، وما زالت مستقى لأقلام كثيرة ، ومبعثاً لطائفة من القصص الشائق الشجى

* * *

ومن الصعب أن نصف هنا كل ما ينتظم فى براتر من المناظر والألعاب المدهشة ؛ بيد أننا نعرض هنا بعض ما رأيناه وخبرناه منها ، وإن منها لما يترك فى النفس أثراً لا يمحى ؛ وإذا كان معظم الألعاب والنزه مما قد أعد للأحداث ، فان منها ما تقتضى ممارسته إقداماً وجلداً ، ولقد شهدنا ذات مساء لعبة أو نزهة مروعة خطرة معاً . وكنا أربعة من الأخوان ، فاقترح علينا صديقنا الدكتور (ق) أن نركب القطار الطائر Fluh Bahn ، وصديقنا الدكتور أعرف الناس بفينا وبراتر ، وكان منظر هذه القطر الطائرة بريئاً متواضعاً ، فهى عبارة عن سيارات صغيرة أعدت لشخص واحد ، وركبت على خطوط مكهربة ، فركبنا جميعاً ، وكان كل ما نصح به « ق » أن نمسك أنفسنا جيداً ، وانطلقت القطر الطائرة بسرعة حتى جزنا نفقاً كبيراً مظلماً قد رتب على هيئة الجو والسماء ، ونظمت فى أفقه نجوم كهربائية ، وهنا أخذت القطر الطائرة تسير الهوينا منعطفة حتى لقد تصورنا وشعرنا حقاً أننا نركب طيارة تعالج الرياح فى الأفق ، ولكن حدثت بعد ذلك مفاجأة مروعة ؛ ذلك أن هذه الطيارات الخيالية اندفعت فجأة الى الضوء بسرعة هائلة لتمثل حالة سقوط الطائرة ، وأخذت ترتفع وتهبط فى منحدرات متعاقبة بعنف مروع مدى دقيقة أو اثنتين ، حتى لقد خيل إلينا غير مرة أن الطائرة ستقذف بنا من حالق ، وكانت دورة عنيفة خطرة اقتضت منا أعظم جهد وجلد ؛ ثم انطلقنا بعدها إلى الضوء ، وتمت التجربة الهائلة ، ونهضنا بأقدام وأعصاب مزلزلة ، وصديقنا الدكتور فى القاطرة الأخيرة يحدجنا بخبث ويبسم لما ارتسم على وجوهنا من بوادر الانزعاج والشحوب

وثمة مشهد آخر فى براتر يستحق الوصف هو « دار الأشباح »

gagst Haus ، وهو اسم يطابق المسمى ، وهى عبارة عن دار كبيرة تخترقها أروقة مظلمة ، ويجوبها الشاهد فى عربة صغيرة تنطلق به فى ظلام الأروقة ، ثم تعترضه خلال التجوال هيا كل عظيمة وأشباح مروعة ، وأحياناً تلطمه يد رقيقه خفية ، أو يرى فى الظلام شبحاً يخرج من قبره فجأة ثم يعود بسرعة ، أو يمر فوق هيكل عظمى فيرسل صيحة مزعجة ، وهكذا يرى عدة من صور الفناء والعالم الأخير خلال وميض النور فى الظلماء

وربما كانت أشهر نُزه براتر وملاهيها نزهة العجلة الكبرى Riesen Raq ، وعجلة براتر تشرف على ڤينا منذ نصف قرن أو أكثر ، وهى عبارة عن عجلة ضخمة يبلغ قطرها نحو سبعين متراً أو أكثر ، وقد ركبت حولها مخادع كبيرة يركبها الرواد ، ثم تدور بهم ببطء فترتفع بهم شيئاً فشيئاً ، حتى تبلغ المخادع الذروة واحداً بعد الآخر ، وعندئذ يشهد الراكب ڤينا بأنوارها الساطعة وأبراجها الشاهقه ، ثم تهبط العجلة بعد ذلك حتى يبلغ الراكب مكان النزول ، وتستغرق الدورة نحو ربع ساعة . ولهذه العجلة الكبيرة شهرة خاصة بين الشباب ، ولها فى الحب ذكريات أيضاً ، ذلك أن كثيراً من المحبين الذين تضيق بهم سبل اللقيا ، يلتمسون مخادع منفردة فى العجلة ، ثم يقضون هذه الدقائق القليلة فى بث لواعج الهوى ، وتبادل القبلات الحارة

وفى براتر يوجد معرض هو أغرب معرض من نوعه يسمى معرض المخلوقات العجيبة Wunder Menschen ، وفيه تعرض حقاً طائفة من أغرب المخلوقات البشرية مثل أضخم امرأة فى العالم يبلغ وزنها ثلثمائة كيلو ، وأطول وأضخم رجل فى العالم وهو عملاق يبلغ طوله نحو ثلاثة أمتار ، وأصغر مخلوقات بشرية ، ونحو ذلك من غرائب المخلوقات والطبيعة .

وهنالك أيضاً فى دروب براتر نزه ومناظر وألعاب عديدة أخرى يضيق المقام عن وصفها ، وقد أعدت جميعاً للأحداث والشباب

ويهرع الشباب كل مساء إلى براتر ، يتفرقون فى دروبها وأنديتها وملاهيها ، وهى تغص بهم دائماً ، وهناك يقضون ساعات فى الحبور والمرح ، وينسون هموم الحياة الثقيلة ، وبؤس العيش والعطلة ، لقاء دريهمات قليلة

لقد كانت براتر ومازال مرتعاً ومتنفساً للشباب ؛ وهنالك بين هذه الدروب المتشعبة والمسارح الساطعة الصافية يجب أن ينسى المرء نفسه برهة ، ويرجع إلى عهد الحداثة ، ليشهد ويمارس هـذه الألعاب الصبيانية التى تنفث رغم طابعها الصبيانى كثيراً من روح المرح والدعابة ، وهذا ما يفعله أهل ڤينا جميعاً ، وهذا ما يفعله كل أولئك الذين يزورون العاصمة النمسوية ، ذلك أن سحر براتر لا يقف عند مسارحها ومناظرها وألعابها ، بل إن لبراتر سحراً معنويا عميقاً يرتبط بماضيها وذكرياتها ، وهذا السحر المعنوى يسبغ على اسم براتر نوعاً من الجلال لا تتمتع به عادة أمثال هذه الربوع المرحة الضاحكة ؛ وإنما تتمتع به براتر ، لأنها استطاعت خلال الأحداث والعواصف أن تحتفظ بماضيها وذكرياتها ، وأن تبقى كما كانت فى الماضى مرتع الأنس والمرح والهوى

وإذا كانت العاصمة النمسوية تفخر وتزهى بمتاحفها ومعاهدها الأثرية ، وقصورها ومتنزهاتها البديعة ، فانها تحل براتر دائماً بين ربوعها محلاً عزيزاً ؛ ذلك لأنها أيضاً أثر الماضى المجيد ، ولأنها رمز العهد الضاحك ؛ والمدن العظيمة ، كما للأشخاص ، شعور يتجه نحو الماضى ويخفق للذكرى

فلا تنس إن زرت العاصمة النمسوية يوما أن تزور براتر ، ولا تنس بالأخص أن تركب القطار الطائر رغم هوله وروعته ، وأن تصعد فى العجلة الكبيرة التى تجثم دائما فى قلب براتر زاهية بأنوارها الحمراء والخضراء ، ولا تنس أن تزور دار الأشباح ومنزل الأنس ، وكل هذه المعاهد والمثانى

(***)

مهداة الى الاستاذ دريني خشبة

من ذكريات زواجي

لأستاذ كبير

فوجئ قراء الرسالة منذ أيام بخبر زواج الأديب الكبير الأستاذ (د) . عند ما طلع عليهم بأغرودته التي جعل عنوانها « بلبلتي » . فوجب على المعجبين بأدبه أن يتقدموا اليه بهدايا العرس ، وكاتب هذه الكلمة واحد من هؤلاء المعجبين شعر بهذا الواجب فنهض لتنفيذه على الطريقة التي تتفق مع جهده . فهو يتقدم — على استحياء — بهذه الكلمات . وليسعد النطق إن لم تسعد الحال . . .

***

أذكر أني بعد أن خطبت زوجتي جلست إلى نفسي وقلت :

« اسمع يا فتى . . . ما أكثر أن تسمع الأزواج يشكون من زوجاتهم ، وما أقل أن تجد من هو راض عن حالة زواجه ! فهذا يشكو شدة غيرة زوجته عليه حتى إنها لتفتش جيوبه سراً كلما عاد من محل عمله لعلها تجد فيها رسالة تكشف عن سر مستور ، أو ورقة تنم عن علاقة غير مشكورة . . .

وهذا يشكو شدة رقابة زوجته عليه حتى أنه لا يكاد يصل إلى مكتبه في محل عمله ساعة الصباح ، وتعلم زوجتـــه أن قد انقضت الدقائق العشر التي بين البيت والمكتب حتى تنهض إلى « تلفونها » تطلبه لتتم عليه خشـية أن يكون قد انصرف مبكراً إلى غير عمله . . .

وذلك يشكو من استعداد زوجته المدهش في إثارة الشكوك حول كل ما يعمل حتى ما ينقطع بينهما الجدال والشجار بسبب « سوء التفاهم » الذي تثيره دواما بارتيابها وعدم وثوقها فيه ...

وذلك يشكو من أنه لا يكاد يقضي ساعة أو بعض ساعة مع إخوانه في جلسة مسائية هنيئة ثم يعود إلى بيته من بعدها راضياً منشرح الصدر حتى يلقى من عنت زوجته وعتابها له على أنه تأخر في هذا المساء عن موعده المعتاد ما يطارد من رأسه كل أثر من نشوة السرور التي أفادها في تلك الجلسة فما تلبث أن تنقلب نشوته إلى ثورة ، وانشراحه إلى انقباض . ويبيت مهموماً كئيباً بعد أن كان يمني النفس بليلة سعيدة كلها بشر واغتباط »

***

استعرضت تلك الصور جميعها أمام عيني وعدت أقول لنفسي :

« هذه يا فتى حال إخوانك ممن سبقوك إلى ما أنت مقبل عليه من هذا الزواج ! فماذا أنت صانع ؟ وفتاتك ليست إلا واحدة من نساء الله اللائي طبعن على غرار واحد ، وصببن في قوالب متشابهة ! ؟ فأنت وفتاتك بين أن تندمجا في زمرة أولئك التعساء الساخطين الشاكين إذا أنت سرت معها على نهج بقية الأزواج ، وبين أن تعيشا عيش السعادة والهناء إذا أنت أغضيت عما هو عيب « جنسها » في الواقع قبل أن يكون عيب شخصها »

وعاهدت نفسي في ذلك اليوم على ألا تثيرني من زوجتي نزعة من تلك النزعات التي رأيتها تعمل على تعكير صفو الأزواج من إخواني ومعارفي ، وقضيت قضاء سابقاً لأوانه بأنها حماقة ما بعدها حماقة أن يغضب الانسان من أمر هو يعرف أنه لاشك حاصل ثم هو يتوقع حدوثه قبل أن يحدث !

***

وتزوجت . . . . . .

***

ورأيت أن نقضي شهرنا الأول في رمل الأسكندرية ، فسافرنا على أجنحة الطائر الميمون الذي يقول الشعراء إن السعداء من الناس يسافرون عليه ، وكنت في زياراتي السابقة القصيرة لثغر الأسكندرية قد عرفت أن بجهة الشاطبي توجد سلسلة من الحدائق البديعة التي تليق بعروسين أن يقضيا بين خمائلها بعض سويعاتهما الوردية اللون ، ولكنني لم أكن أعلم أين تقع بالضبط تلك الحدائق من محطة الشاطبي ، ولم أشأ أن أتأبط ذراع فتاتي وأذهب أتخبط بها وأتسكع حتى أهتدي إلى موقع تلك الحدائق . وكان من عادتي أن أصحبها كل مساء لقضاء الوقت في مغنى من مغاني الثغر وملاهيـــه ، ورأيت في ذلك المساء أن أفاجئها بارتياد تلك الحدائق دون أن أخبرها بوجهتي حين أخرج بها في نزهة المساء لكي تكون الزيارة أمتع لها وأوقع في نفسها .

فانتهزت فرصة القيلولة وأنها غلبها النعاس وتسللت أنا من الفراش فوضعت ملابسي في عجلة وتلصص وخرجت من المنزل في هدوء وحذر أطير إلى جهة الشاطئ لأرى كيف يكون وصولنا إلى تلك الحدائق ، وأي مواقف الترام أقرب إليها ، وأي مداخلها أمتع منظراً ، وأي طرقاتها أشهى مسلكا ، وأي أركانها أهنأ جلسة وأنعم مقاماً

ووفقني الله في مهمتي فلم أغب عن منزلي أكثر من ساعة عدت بعدها وأنا أكاد أطير بجناحين لألقى عروسي فأحتملها إلى هذه المفاجأة السارة التي خبأتها لها . . . . . .

***

ودخلت الغرفة عليها ، فوجدت وجها مربداً ، ونظرات شزراء ، وعينين حمراوين فيهما أثر الدموع ووقدة الشر . وأشهد لقد كانت مفاجأتها التي أعدتها هي لي أقوى ألف مرة من تلك المفاجأة الفاترة التي كنت جهدت في أن أعدها لها . . . .

— كفى الله الشر ! مالك ؟

— ! ؟

— خير إن شاء الله ؟

— ! ؟

— هل حضر أحد بعد خروجي أو حدث حادث ؟

— ! ؟

— تكلمي يا « ستي ! »

— ! ؟

وأخيراً وبعد مناورات أعفي القارئ من سردها تبينت جلية الأمر فاذا هي غضبي لأني خرجت : أولاً — بغير علمها . . . . وثانياً — إلى مكان لا تعرفه هي . . . . . وثالثاً — لأن هــذا الخروج حدث في وقت لم يخلقه الله لخروج الرجل البرئ . . . ورابعاً — لأني تغفلتها وهي نائمة وأتيت كل هــذه الآثام ؛ كل ذلك ولما ينقض على زواجنا أسبوع ! أفلم يكن من الأليق تصفية هذه (الرنديفوهات) قبل الزواج ؟ أم هي مقابلة عارضة حصلت في الصباح فتم ترتيب الموعد ليكون في هذا الوقت من المساء ؟ وهل يليق . . . ؟ وهل يجوز . . . ؟ وهل يصح . . . ؟ وما إلى ذلك من طوفان الأسئلة التي ليس أسهل من توجيهها بصرامة مدهشة عند النساء وليس أسهل من الغرق فيها باستسلام غريب عند الرجال !

***

يا سبحان الله ! أبهذه البساطة تنعكس الآمال ؟ وهل يمكن أن يغمر الانسان كل هـذا الخير فلا يأتي إلا كل هذا الشر ؟ ! وماذا يكون من أمر زوجتي إذا أنا هفوت حقيقة كما قد يهفو الانسان ما دام أنه ليس بمبرأ ولا معصوم ! ؟ وما فضل الحب إذا لم تكن دولة الحلم فيه غالبة على دولة الجهل ، وساحة الغفران فيه أرحب من ساحة القصاص ! ؟

***

منذ ذلك اليوم بدأت أشعر بصعوبة قيامي بتعهداتي التي كنت عاهدت نفسي عليها من الاحتفاظ بهدوء الجو في بيتي وبصفاء العلاقات التي تقوم فيه . وأدركت أن الزوج مهما سعى لرفع مستوى حياته الزوجية إلى درجة مناسبة من السعادة فانه لن يوفق إلى شيء من ذلك ما دام مبدأ الزوجة هو أن تتهم زوجها قبل أن تستمع إليــه ، وتحكم عليه قبل أن تحاكمه ! وعرفت أن الزواج الموفق هو الذي يجمع بين « صديقين » يتحابان في الله ويدخل كلاهما هذه الشركة العاطفية بذخيرة صالحة من التسامح وبعقيدة ثابتة في أن الهفوة الزوجية ينميها العقاب ويؤكدها الانتقام — وتقتلها المغفرة ويمحو أثرها الصفح الجميل ، وأن « المثل الأعلى » سواء للزوج أو للزوجة لم يتم خلقه بعــد فلا ينبغي لأحد الزوجين أن يطالب زوجه بأن يكونه !

« زوج سعيد »

القول المكشوف

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

لعل الأدب الانجليزي أشد الآداب تحفظاً في المقال والتزاماً للوقار وعزوفاً عن المجون ، فبينه وبين الأدبين الفرنسي والروسي ، مثلاً ، بون كبير في هذا المجال . وبعكس ذلك كان الأدب العربي الذي وسع من صريح العبارة عن ماجن القول وسفسافه ما لا يسيغه العصر الحالي ؛ بل لم يكن يسيغه فضلاء العصر الذي قيل فيه ، وذلك راجع للظروف المحيطة بالأدبين

فسيماء الوقار والتسامي التي تعلو الأدب الانجليزي راجعة إلى ثلاثة عوامل رئيسية متشابكة هي : طبيعة الانجليزي الهادئة ، والتربية الانجليزية التي تجعل غرضها الأول كبح نزعات الناشئ الجامحة وإلزامه ضغط النفس ، وثالث العوامل هو الرأي العام القوي

والرأي العام نتيجة للعاملين الأولين ، ونتيجة أيضاً للنظام السياسي الديمقراطي الذي يجعل الأمر للشعب في كل مناحي الحياة ، وهذا الرأي العام محافظ حريص على تقاليد الفضيلة يشهر الحرب على من يهم بخدشها ، وهو من القوة بحيث لا يجسر كاتب أو شاعر أو ناشر على تحديه وإلا كان عليه الغرم المادي والأدبي ، وقد ثار بالمستهترين المتجاسرين على الدين والتقاليد أمثال بيرون وشلي فاضطرهم إلى مغادرة البلاد ولم يشفع لهم عنده نبوغهم ولا ما نالوه في غير انجلترا من الصيت البعيد

أما الأدب العربي فخالطته عوامل اجتماعية وسياسية جعلت اجتثاث جريء القول وبذيئه منه متعذراً : فهو قد ورث جفوة بداوته الأولى ، وسرى إليه الفساد الذي تبع الفتوح واختلاط الأعاجم والموالي ، وشجعت الحكومة الفردية المطلقة سريان هُجر القول بدل أن تدرأه ، فكان من الخلفاء والأمراء من حرضوا على المهاجاة بين الشعراء ، وأغضوا عن مجونهم ما داموا مشغولين به عن مناوأة سلطانهم ، وأجازوا من وقعوا في خصومهم بقبيح الهجاء

فالحكومة الفردية المستبدة قد حالت دون قيام رأي عام يقف للخارجين على تقاليده بالمرصاد ، أو هي لم تَدَعْ لذلك الرأي العام السلطة أو الهيبة الكافية لأن ينضح عن تقاليده ، بل كثيراً ما حَمَتْ الشعراء الماجنين من غضبه . وهكذا الحكومة القائمة على أساس فاسد لا يسعها — لشعورها بضعف مركزها — إلا مناصرة عوامل الفساد التي ترى مصلحة لها في بقائها ، أو خَلْق تلك العوامل

ولقد كان في الدولة الاسلامية عامل جليل الأهمية لو بقي تأثيره فاشيا لكان الأدب العربي أرقى الآداب على الاطلاق لفظا وأعفها قصداً ، وأعظمها تساميا : ألا وهو الدين الاسلامي الذي يحض على مكارم الأخلاق والذي كانت الدولة تقوم على أساس منه ، ويتضح أثره في عصر الخلفاء الراشدين ، وما كان من تأديب الحطيئة وردعه عن أعراض الناس

ولكن هذا العامل السامي الجليل تُنُوسِيَ في غمار السياسة ، وجرفه تيار التكالب على الملك والسلطة ، فلم يَعُدْ الخليفة أو الأمير يغضب إلا أن يناله الشاعر بيذائه ، فبشار بن برد الذي ضج عليةُ القوم ودهماؤهم عهداً طويلاً من فجوره وإقذاعه ظل مُعافىً ولم يمس بسوء حتى تمادت به جسارته إلى عرض الخليفة ذاته . أما ما دام الشاعر متقيا غضب الحاكم أو مجتلبا رضاه فلا ضير عليه أن يرمي باللؤم أنصار الرسول أو يفضل إبليس على آدم ، أو يتهكم بيوم الحشر ، أو يتفاخر بشرب الخمر ، أو يتلهى بسب الرجال وقذف المحصنات ، أو يتباهى بالتسلل إلى الخدور في غلس الظلام

هكذا ضم الأدب العربي بجانب سامي الأغراض وشريف الأقوال وكريم الحكم والأمثال سقطاً من القول قوامه الأباحية والاستهتار ، وقام من الأدباء من صدموا الناس في عقيدتهم وتقاليدهم ونالوا من أعراضهم وسمعتهم ، وأودعوا الأدب من خسيس الأقوال ووضيع الأغراض ما ينافي مقاصد الأدب وسمو الفن بالنفس الانسانية . ولما لم يكن للناس عاصم من شرهم من رأي عام أو حكومة ساهرة عَمَدَ مَن استطاع منهم بِحَولٍ أو مكيدة إلى الذب عن نفسه بنفسه ، وهكذا لقي المتنبي وابن الرومي حتفهما على أيدي مهجويهما

وهناك عامل اجتماعي لابد أنه كان من عوامل ذيوع هُجر

القول فى الأدب العربى ، بل فى المجتمع العربى ذاته : ألا وهو انسحاب المرأة من المجتمع شيئا فشيئا ، ففقدَ الأدب باحتجازها وراء الحجاب عاملَ تجمُّلٍ وتَوَقُّرٍ وتعفُّفٍ فى اللفظ والغرض ، وصار الافحاش من الذيوع بحيث لم يتردد كاتبان فحلان يمثلان مجتمعيهما تمثيلاً كبيراً : وهما البديع والحريرى ، فى حشد مقاماتهما بمقذع السباب ؛ بل خصَّصَا لذلك مقامات بذاتها

وأظهر ما يكون المجون والفحش فى الشعر فى أبواب الهجاء والخمريات والنسيب الخليع والتشبيب بالغلمان . وقد أوغل بعض الشعراء فى هذه الأبواب إيغالاً لا يكاد يصدقه العقل . ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التى يجرى عليها تاريخ الأدب العربى لا تزال تعد من فحول العربية شعراء ولم يكد يؤثر عنهم مقال فى سوى هذه الأغراض الحيوانية . ومن البديهى أنه مهما تفنن الناظم وابتدع فى وصف الخمر وتصوير الشهوات فلن يرفعه ذلك الى مصاف الشعراء العظام ، إذ الشعر الرفيع لا يقاس بحسن الديباجة وبراعة المعنى فحسب بل بشرف الغرض أيضاً

فدواوين ابن أبى ربيعة وبشار وابن هانئ إن هى إلا استهتار واستسلام للشهوات وتمدح بالمخازى محكمة الديباجة بارعة النظم متنوعة الأوزان والقوافى ، تتخللها حكمة شاردة أو مثل سائر ليس للناظم فيه إلا فضل التأنق فى إعادة صوغه ، فاذا كان هؤلاء وأشباههم من فحول الأدب العربى فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراقى !

ومما يفترق الأدبان العربى والانجليزى فى استجازته من أبواب القول — وإن كان بمنجى من الفحش — الفخر ، الذى لا يسيغه الأدب الانجليزى بحال ، على حين قد زخر الأدب العربى بما قيل فيه وعدّ باباً من أبواب الشعر التى تظهر فيها براعة الشاعر وتكمل بها منزلته . فالذوق الانجليزى لا يسيغ أن يُزكّى إنسان بما يتخيله فى نفسه من مكارم وعظائم ، بل من أول ما تطمح إليه التربية الانجليزية — كما سبق الالماع — أن تكبح فى الناشئ نزعة الزهو والعجب ، وليس أمْقَتَ فى المجتمع الانجليزى ممن يدل بنفسه . ولم يكن الشعر العربى فى أول أمره يعرف الفخر بالنفس ، وإنما كان فيه فخر بالقبيلة والعصبية ولا بأس بهذا ، ثم استباح بعض الشعراء فيما استباحوا لأنفسهم التمدح بالنفس صدقاً وادعاء ، وغلوا فى مدح أنفسهم غلوهم فى مدح أصحاب النوال ، بل أغربوا فى المفارقة فجمعوا بين المدحين فى القصيدة الواحدة ، ونسبوا لأنفسهم الحكمة والشجاعة والمجد وشرف المحتد ، وأجلسوا أنفسهم بجانب الشموس والبدور ، وأوسعوا الدهر والحظ والناس ذماً بقدر ما أوسعوا أنفسهم مدحاً ، وتلك جميعا لعمر الحق بضائع النوكى !

فحرية القول — أو قل إباحته — فاشية فى الأدب العربى القديم ، بينما التحفظ ميزة الأدب الانجليزى ، وربما تغالى الرأى العام الانجليزى فى تحفظه وتشبثه بما يليق وحَجْرِه على ما لا يليق الخوض فيه من حديث ، فناهض مفكرين كان الخير الانسانى أو النفع العلمى كل مقصدهم ، كما كان موقفه من أوائل الداعين الى ضبط النسل مثلاً ، إلا أنه لا يلبث أن يخفف من غلوائه حين يتبين له شرف القصد وفائدة الدعوة

ولئن حمدت الحرية الفكرية الواسعة التى تمتع بها الفلاسفة والعلماء فى الدول الاسلامية فما كذلك الحرية التى استباحها المجان من الأدباء ، فالأولى حرية تساعد تقدم الفكر وترقى العلم ، والثانية تؤدى الى انحطاط الخلق وتضرب فى دعائم المجتمع ؛ الأولى حرية فكرية نافعة ، والثانية إباحية خلقية ضارة . والأدب يرسم للأمة مثلا عليا تتوخاها ، فاذا تمادى فى تصوير دنىء النوازع فانه يهبط بالنفوس الى مستوى منحط لا تريد عنه ارتفاعا

وللأدب المكشوف فى العصر الحديث دعاته الذين يحضون على اطراح النفاق الذى تفرضه التقاليد وتصوير الطباع على حقائقها ، على أن هناك فرقا بين المذهب الحديث وبين ما كان فاشيا فى الأدب العربى القديم : فأنصار هذا المذهب ذوو مبدإ هم مقتنعون برجاحته يرون أن الأدب يؤدى مهمته ويرقى الأخلاق الانسانية بوصف دخائلها ومظاهرها دون تمويه ، أما الآخرون فلم يكن لهم مبدأ ولا غاية سوى إرضاء الشهوات والنزوات وعلى الخلق الكريم العفاء

وهيهات أن يخلو المجتمع الانجليزى أو غيره من آثار تلك المفاسد التى أفصح الأدباء المتقدمون فى التعبير عنها ، ولكن ما لا يقبله ذلك المجتمع هو المجاهرة بذلك والمفاخرة والتجاسر على تقاليد المجتمع التى ارتضاها لنفسه وقامت عليها أسسه ، وإيغال ذلك فى عالم الأدب الذى تحويه بطون الكتب وترويه الأجيال ويُقصد منه الى السمو بالانسانية

فخرى أبو السعود

نبـــوة المتنبي

للأستاذ محمود محمد شاكر

كتب الأخ سعيد الأفغانى كلمة عن (دين المتنبيّ) فى العددين من الرسالة (١٦١و١٦٢) سنة ١٩٣٦، وقد عرض فيها لنبوّة أبى الطيّب التى يزعمونها وقعت وكانت منه، ولم يجد مندوحةً عن القول (أو كما قال) : (بأن تنبؤه فى الأعراب أمر وقع حقيقة ولا سبيل إلى الشكّ فيه، تضافرت على ذلك كل المصادر الموثوقة حتى التى كانت تميل إليه كل الميل، فانها لم تنف الأمر وإنما التمست له المعاذير) ثم علق على هذا فقال :

« قرأتُ أخيراً عدد المقتطف الذى كتبه الأستاذ شاكر عن المتنبيّ خاصّةً، فاذا به يذهبُ إلى نفى تنبؤ أبى الطيب الذى اتفقت عليــه كل المصادر تقريبا . وقد أنعمت فى تدبُّر الأسباب الحادية على النَّفْى فلم أجدَ فيهـا مقنعا به من القوّةِ ما يقف لهذه الروايات الصحيحة ! !

والتاريخُ لا يثبت خبراً أو ينفيه تبعا لميل مؤلّف أو رأيه، ولا بد فيه حالَ النفى من التعرُّض لجميع الأخبار المثبتة خبراً خبرا وهذا لم يصنعه الأستاذ شاكر ! !

وأمر ادعاء المتنبي العلوية ليس فيه ما يهيج عليه الناس كل هذا، على رغم ذلك الخيال الجميـــل الذى لبس ادعاءه إياها فى الـكتاب المذكور ! !

وإذا كان ما ذهب إليه الأسـتاذ صحيحا، ففيم خجَلُ أبى الطيب وحياؤه كلما سئل عن أمر لقبه التنبي ؟ ولم كان يعمدُ إلى اشتقاقه من النبوة تارةً، ويعتذر بأنه شىء كان فى الحداثة تارة، ويقول إنه يكره التلقّب به، وأنه (يناديه) به من يريدُ الغضّ منه ؟ وعلى أىّ شىءٍ تقع كلمةُ كافور : « من ادعى النبوة بعد محمـد أما يدّعى الملك مع كافور » ؟ وكافور ليسَ من الذين يختلقون على شاعر، ولا ممن يروّج الاختلاق ! ! .

وقد روى المعرّى — وهو الحجّة الثبت — أمر التنبُّؤ، وما حفّ به من حادثٍ ومعجزاتٍ فى رسالة الغفران . وأبو العلاء كان أحْرى أن يشكّ أو يكذب الخبر، لو أن فى الأمر مجالاً للشكّ واحتمالاً للتكذيب، لأنه أشدُّ حبا للمتنبىّ، وعصبيّة له، وهو أنفذ بصيرة فيما يقال وأحكمُ نقدا للأخبار، مع قرب زمان، وصفاء ذهن، وقوة حجة، وموأتاة وسائل التحقيق إذ ذاك ! ! » . انتهى .. الرسالة سنة ١٩٣٦ (العدد ١٦١ — ص ١٢٥٥)

وأنا قد قرأتُ هذا الـكلام فى موعده حين صدرت الرسالة وأردتُ أن أردّه، ثم بدا لى أن أدَعه حيث هُوَ، فان الذى قرأ ما كتبت يعلمُ مقدار ما فى هذا الـكلام من الجودة وحُسن الأداءِ وقوّة الحجة وجلاءِ البيان وسعة الاضطلاع وبلاغة الفهم، ولـكن بعض أصحابنا لم يزل بى حتى أخذ منى موثقا أنْ أقول كلمتى فيه

وهذا النقـد الذى رمانى به أخى الأسـتاذ سعيد ليسَ ممّا يثيرنى ويُغرينى بحمل السلاح والاستعداد للمعركة . ولستُ أقول هذا استصغاراً لما يقول أخى أو استكباراً لما قلتُ، بل هو حكمى عليه مجرَّداً من كلّ ما يجعل الحـكم قاصرا أو باغيا

وهذا الذى كتبه الأخ سعيد ليس ممـا أعدّه عندى نقداً، وإنما هو اعتراضٌ، والاعتراض شبهة، والشبهةُ يزيلُها البيانُ . أما النقد فأمر آخرُ لم يسوّغ للأخ أن يظفَرَ بالقدرة عليـه فيما كتب[1]

وقد أُتى الأخ سـعيد فى كلامه من قِبَل أنه عدّ الأخبار المرْوِيّة عن نبوّة المتنبىّ وغيرها أخباراً صحيحةً ابتداء، وهـذا أوّلُ الزلل فى نقد الناقـدِ . ولا بد لمن يريدُ أن ينقد ناقداً أو يكتبَ فيما يتناوَلُ الروايات والأخبار أن يتحقق بَدءاً بمعرفة الأصولِ فى عِلم الرواية، وأن يستيقن من قدرتـهِ على ضَبْطِ الفكرة حتى لا تنتشر عليه وتتفرّق، ويقع فيهـا الاختلاف والتضاربُ والمناقضة . فلا بُدَّ لى هنا من أن أدلّ الأخ على الأصل فى الأخبار حتى يعرف فرقَ ما بين الذى انتهينا إليـه، والذى وقف عنـده غيرنا، ثمّ نـكشِفَ لَهُ عن الشبهة التى

(١) سنبين رأينا فى النقد فيما كتبناه للمقتطف الذى سيصدر فى أكتوبر القادم، رداً على كلمة نقد جليلة للأخ وديع تلحوق نشرها المقتطف فى عدد يوليه سنة ١٩٣٦ (عن أبى الطيب المتنبي، ونسبه العلوى)، فلينتظرها الأخ سعيد ثَم

جملته يعترضُ الذى كتبناه بالذى رفضناهُ ورددناه وأسقطنا الثقة به والاعتماد عليه

فالأخبارُ جميعاً تحتمل الصدقَ والكذبَ كما يقولون ، ومعنى ذلك أنها على حالة من البراءة الأولى لا توصفُ بصِدْقٍ ولا بكذبٍ . ولا يستحقُّ الخبرُ صفة الصدق إلاّ بالدليل الذى يدلُّ على صدقِهِ ، فاذا لم تجد الدَّليلَ على صدقِهِ ذهبت عنْهُ صِفةُ الصدقِ وبقى موقوفا . فاذا اعترضتْهُ الشبهات من قِبَلِ روايته أو من قِبَلِ درايته مالت به الشبهة إلى ترجيح الكذب فيه ، فلا يؤخذُ به ولا يعتمدُ عليه ، ويكونُ عملُ الناقدِ بعد ذلك أن ينظرَ فى هذا الخبر نظرة التدبر ليستخرج الحقيقة التى من أجلها تكذَّبهُ راويه ، وبذلك يقع على حقائق مدفونة قد سترها الراوى بما كَذَب . وقد أشرنا إلى ذلك فى كتابنا (المقتطف يناير سنة ١٩٣٦ ص ١١١) وإليك ما قلناهُ :

« اعلم أن أكثر ما يُرْوى فى ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التى تتناقلها مجالسُ الأدباء ، ولا يرادُ بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ؛ بل إن كثيراً مما يروى فى تراجم رجالنا كان مما يُرادُ به مضغُ الكلام فى مجالس الأمراء أو فى سامر الأدباء — هذا على أنها ربما حملت فيما تحمل أشياء لولا ورودها فى هذه النصوص لافتقدنا من حلقات التاريخ حلقات لا ينتظم أمره إلاّ بها ، ولا يستمر إلاّ عليها . فلمثل هذا كان لا بُدَّ لنا من النظر فى النصوص وتمييزها ، وردّ بعضها والأخذ ببعض ، حتى لا تنقطع بنا السبل فى الترجمة لهؤلاء الأعلام . فلا يفوتنك هذا إذا قرأت ما نكتب ، أو أردت أن تقرأ أو تكتب »

وأنا حين أردت أن أكتب عن المتنبى نظرت فى هذه الاخبار خبراً خبراً ، فلم أجد دليلاً واحداً يجعلها تستحق عندى صفة الصدقَ فأبقيتها موقوفة ، ثم عدت فنظرتُ فتناوشتها الشبهات واعتورتها الطعون ، فلم أجد بدّاً من وسمها بالكذب ، ثم عدت اليها فعارضتها بالعقل وشعر الرجل وحوادث التاريخ لأستخرج منها الحقائق التى يسترُها الرواة والتكذّبون فوقعت لى أشياء هى التى جعلتها أصلاً فيما كتبت ، وأنا على يقين من أن الأستاذ سعيد لم يتنبه إلى هذا الذى فعلناه ، مع أنه هو الأصل فى الكتابة والتحقيق ، أما التسليمُ فليسَ يجدى شيئاً إلا التكرار والمتابعة ، ثم الزلل والتورط فيما أراد الكذابون أن يحملوا الناس عليه ويوقعوهم فيه

ويقينى أن الأخ سعيد لا يجد دليلاً على صحة هذه الروايات فيما زعم إلا أنه قد رواها فلانٌ وفلانٌ ، ورواها المعرى — وهو الحجة الثبت — « وهو أشد منا حباً للمتنبى ، وعصبية له ، وهو أنفذ بصيرة وأحكم نقداً للأخبار مع قرب زمان وصفاء ذهنٍ وقوةِ حجة ومواتاة وسائل التحقيق إذ ذاك » ، ونحن لا ننكر على المعرّى شيئاً من ذلك ، ولكن الذى ننكره أن الذى كتبناه كان عصبيةً لأبى الطيب ، أو حُبّاً له أو فيه . ليكن المعرى صاحب عصبية ، فذلك لا يجعلنا نحن من أهل العصبية حتى نعبث بالحقيقة ، ونلعب بفن النقد من أجل أبى الطيب أو غيره من الرجال

أما أن رواية المعرى — وهو صاحب عصبية لأبى الطيب — مما يصحح هذه الأخبار أو يرجح الصدق فيها ، فهو حكم خطأ لا يصح لأحد أن يتابع عليه ، فان أبا العلاء لم يُشهِد كتبَه أنه لا يروى إلا الصحيح من الأخبار ؛ وترك المعرّى الشك فيها أو تكذيبها ليس يقوم أيضاً دليلاً على صحتها ، وليس المعرى بمنزهٍ عن الخطأ والغفلة ، وهو من هو ، فذهاب وجه النقد عن المعرى ليس بكون طعناً فيه ، ولا يوجب نسبة الكذب اليه ، ولا نفى صفة الصدق عنه

وأحبُّ أن أقرّب إلى الأخ حقيقة هذه الروايات . . . فهو يعلم أن الرواة قد رووا للرسول صلى الله عليه وسلم معجزاتٍ كثيرة ؛ وكثير من الذى رووه لم يثبته أهل العلم بالحديث على طريقتهم ؛ وقد رواها قومٌ على عهد الصحابة والتابعين ، وهى كذبٌ مخترعٌ بشهادة أئمة هذا العلم ، وقد بقيت هذه الآثارُ مروية إلى يوم الناس هذا ، وهى عند المتأخرين شائعة معروفة متداولة مصدقة ، وقد وردت فى كتب كثير من الأئمة العلماء . أفيكون تداولها وذيوعها وتصديق العامة لها ، وورودها فى بعض كتب العلماء هو الدليل الذى لا دليل غيره على صحة هذه الأخبار ؟ ! وأكثر من ذلك ، أيكون ظهورها على عهد الصحابة والتابعين — على قرب زمن كما يقول الأستاذ —

وتصديق بعض العامة لها فى ذلك العصر ، وسكوت بعض العلماء عن الكلام فيها مما يدل على صدقها ؟!

ونحن قد أتينا فى الذى كتبناه عن المتنبى بالشبهات التى ترجح الكذب فى هـذه الروايات التى يراد بها الوضع من قدر الرجل والتحقير له ، والطعن فى نسبه أو عقله أو خلقه أو أدبه . لا .. بل بينا أن ألفاظ هذه الروايات وحدها تحمل أكبر شبهة ، كالذى روى عن هذا اللاذقى المسمى معاذ بن إسماعيل ، وقد روى الخبر بطوله فى كتب كثيرة ، وأوردناه بتمامه فى كتابنا ص ٤٥ — ٤٧ واختصره الأخ سعيد فى كلامه فى العدد (١٦١) من الرسالة ، ولا أدرى لم اختصره ، فان الذى يقرؤه يجد فيه سمة الوضع والكذب مستعلنة كما لم تستعلن فى حديث غيره . وقد بينا بعض وجوه نقده فى كتابنا من ص ٤٩ — ٥٢ . فكانت حجة الأستاذ سعيد فى رد قولنا وإسقاطه أنه (لم يجد فيه مقنعاً به من القوة مايقف لهذه الروايات الصحيحة) ، وكان حقاً على الأستاذ أن يعلمنى وجوه الضعف فى قولى حتى استبرىء منه ، أما هذه الكلمة المجردة فليست بالتى تسقط كلامنا جملة واحدة حتى ولو كان هذا الكلام سقطاً محضاً

أما ما اعترض به علينا فنحن نبين له وجه بطلانه . يقول : « وإذا كان ما ذهب إليه الأستاذ صحيحاً ، ففيم كان خجل أبى الطيب كلما سئل عن أمر لقبه المتنبى . . . ؟ » إلى آخر قوله : فان هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواية ، وقد أتى به القوم ليعضدوا قولهم فى خرافة النبوة . وإذا كان أمر نبوته مشهوراً متعالماً أو كما يقول اللاذقى إن دعوته (قد عمت كل مدينة بالشام) ، وقد بلغ من شهرتها أنه قبض عليه من أجلها بالشام أيضاً وحبس (دهراً طويلاً) ، وأن له قرآناً أنزل عليه .. يزعم أبو على بن أبى حامد أن أهل الشام كانوا يحكون له سوراً منه كثيرة وأبو الطيب إذ ذاك بحلب ، فكيف يعقل بعد هذه الشهرة أن يبتدر إليه هؤلاء فيسألونه عن حقيقة هـذا اللقب ؟ إن السؤال عن (حقيقة اللقب) بعد هذه الشهرة التى يزعمونها ليدل دلالة قاطعة على وضع هذه الأحاديث المروية والأخبار المتداولة التى تهور كثير من الأدباء فى التسليم بصحتها كما فعل الأخ سعيد . ولقد كان هؤلاء الذين يزعمون أنهم سألوا أبا الطيب عن حقيقة اللقب (المتنبى) يسألونه وهو بالشام ، وفى الشام أظهر نبوته وفى الشام اشتهر أمره ، وأكبر من ذلك أنهم يزعمون أنهم كتبوا عليه وثيقة أشهدوا عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام وأنه تائب منه ولا يعاود مثله . فهلا كان الأولى بهم أن يظهروا على هذه الوثيقة ولما يمض عليها كثير دهر ، وقد أخذها وال من الولاة فهى — ولا بد — محفوظة فى ولايته . وكان أبو الطيب شجا فى حلوق الأدباء والشعراء وكثير من أصحاب السلطان وهو فى جوار سيف الدولة . وقد أوقعوا بينه وبين أميره بكل ما ملكوا من أسباب للوقيعة ، أفتظن أنهم كانوا يحجمون عن إظهار هذه الوثيقة ، وإحراجه بها ، والعمل بها على تحقيره ، ثم على المنافرة بينه وبين سيف الدولة ! ! كانت كل هذه النقائض بالشام ، ومع ذلك لم يكن من أثرها إلا هذه الروايات الضعيفة التى تحمل ألفاظها الشكوك والريب

وأسخف من هذه الرواية رواية من يروى أنه كان يعمدُ إلى التمويه على الناس بقوله : إن هـذا اللقب (المتنبىّ) مشتقٌ من النبوة ، فليس يُعقل أن أبا الطيب — وهو يعلم أن نبوته كانت مشهورة كما ذكر الرواة — يعمدُ إلى هـذا التوجيه الضعيف الميِّت ، وهو يعلمُ أنه كاذبٌ ، وأن الناسَ مكذبوه لأنهم يعلمون حقيقة أمره

واعتذارُه بأنه يكره التلقب به ، وأنه يدعوه به من يريد الغَض منه فهو بسبيلٍ من ذلك فى الضعف والسخف . على أنه مع ذلك لا يدلُّ دلالة ما على حدوث النبوة التى يزعمونها ، بل على العكس من ذلك . . . إنه ليَدلُّ على أن هـذا اللقب مفتعل موضوع للكيد لَهُ والغضّ منه ، وأنهم كانوا قد وضعوه لَهُ ليغيظوهُ به . ومثلُ ذلك كثيرٌ فى كل عصر ومكان . ولعل الأخ سعيد لا يعدمُ رجلاً فى بلدهِ قد نبزه الناس بنبزٍ يغيظونه به ، ولاشكّ أن هذا الرجل (يكره التلقبَ به ، وإنما يدعوه به من يريد الغضّ منه)

وأما كلمة كافورٍ فهى كلمة مفتعلة موضوعة ، وإلاَّ تكن كذلكَ ، فليس فيها أيضاً ما يدلُّ على شىءٍ تحققٍ كان قد حدث من أبى الطيب . وكافورُ كان قد سمعَ هذه الدعوى التى يزعمونها عن نبوة أبى الطيب وسلم بها ، ثم تكلم ، وليس تسليمُ كافور بها

سنداً لها يحقق تاريخها ، ويثبتُ وُقوعَها بعدَ الذى ذكرنا لكَ من ضعف الروايات

هذا وقد أراد الأستاذ سعيد أن يعلمنا سُبل التحقيق فى التاريخ فقال : « والتاريخُ لايثبت خبرا أو ينفيه تبعاً لميل مؤلف أو رأيه ... إلى آخر قوله » وهو قد فعل أكثر من ذلك وأكبر ، وذلك أنه بعد اعتراضه قال : « وكافور ليس من الذين يختلقون على شاعر ، ولا ممن يروج الاختلاق » ، ولم يرد فى كلامنا ذكر كافور واختلافه حتى يعقب الأستاذ هذا التعقيب . هذه واحدة ، والأخرى أن الأستاذ قد حكم على كافور حكما لم يرد له ذكر فى كتاب ، فهل يستطيع أن يؤيد هذا الحكم بالدليل التاريخى والبرهان العقلى أن كافوراً لم يكن يختلق على الناس ، ولا يروج الاختلاق . . ؟ ! لقد أتينا نحن بالروايات ونقضناها بالدليل — ضعيفاً كان أو قويا — أما أستاذنا فقد حكم على رجل بغير دليل ولا بينة من التاريخ أو غيره

ثم بقى اعتراض الأستاذ الذى يقول فيه : « وأمر ادعاء المتنبى العلوية ليس فيه ما يهيجُ عليه الناس كلَّ هذا » . وأنا لا أعلم ماذا يريد الأستاذ سعيد بقوله (كل هذا) ، وإذا أرادنى على أن أجيبه على ذلك فليبين لى صورة المبالغة فى قوله (كل هذا) ، فأنا لا أعلمُ من أمر هذه المسألة أكثر من أن الرجُل قبض عليه بالشام وحبس . أما هياجُ الناس فلم يرد لَهُ ذكرٌ فى كلامنا ولا فى كلام الرُّواة . وأما حبسهُ أو قتالهُ من أجل العلوية فليس ببدع فى التاريخ ، وكان لزاماً على الأستاذ قبل أن يكتب هذه الجملة ويصوغ هذا الاعتراض أن يرجع إلى كتب التاريخ ليعلم أن الذين قاتلوا أبا الطيب وحبسوه ، كانوا قد قاتلوا من قبله قوما أو حبسوهم من أجل ادعاء العلوية ، وكذلك فعلوا مع العلويين الذين خرجوا عليهم فى أرضهم وديارهم . فقتاله وحبسه ليسا يثبتان أن هذا الذى كان من أبى الطيب إنما كان إظهاره النبوة لا ادعاءه العلوية

وبعد ، فلو حمل الأخ سعيد نفسه على تدبر الذى كتبناه فى المقتطف عن المتنبى لما وقع هذا الاعتراض الذى حاك فى صدره ، وقد أشرنا مرات فى كتابنا إلى وجوب ذلك ، فقد كنا نترجم للرجل ترجمة صحيحة يقرؤها القارئُ ليتمثل صورة هذا الشاعر العبقرى وفاء له وتقديراً بعد مرور ألف سنة على وفاته ، فلم يكن سبيلنا أن نتعرض لأصول النقد وشرحها وتفصيلها ، ولم نأخذ الروايات جميعها بالنقد مرة واحدة ، فان ذلك كان يقتضى منا وقتاً كثيراً وكتاباً كبيراً ، ولكن من يطلع على الذى كتبناه منصفاً متدبراً عارفا بطرف من أصول نقد الرواية يعلم يقينا أننا لم نكتب حرفا واحداً إلا بعد أن استوفينا عندنا نقد الأخبار (خبراً خبراً) كما يريد الأستاذ سعيد ، وليس عسيراً على المتدبر أن يستخرج من الذى كتبناه الأصول التى نقدنا بها هذه الأخبار . ولعل الأستاذ قد قرأ كثيراً مما فاضت به الصحف والمجلات عن المتنبى ، وقرأ فى خلال ذلك كثيراً من نقد الأخبار التى رويت ، ولعله رأى أيضاً أن هؤلاء قد اتخذوا كتابنا مصدراً استنبطوا منه أصول النقد التى وضعناها ، وقاسوا عليها فأخطأوا وأصابوا ، وليس هو بأقل منهم حتى يفوته ما أصاب غيره

محمود محمد شاكر

الحنين . . .

للأستاذ محمد شوكت التونى

أخى الصديق . . .

تناولت منذ يومين رسالتك التى أثرها صمت سنين خمس لم أتلق طوالها كلمة منك ، ولا نبأ عنك — بمزيج مبهم من العواطف والأحاسيس . وأدركت — كما تدرك بعض الحقائق الخفية — أو المنكورة فى بعض المناسبات — أن كثيراً مما نعتبره مبالغة قد يقع ويظهر لكل عين مجردة كحقيقة عارية ، كما يصبح كثير من الوهم أو الخيال مخترعات تحس وتلمس ، إذ أن محيط الحياة خفى الأمواج ، وخفاء الأمواج يلد العجائب !

لقد كنت أحسبه مبالغة قول من يقول : « إن وصول خطابك قد أعاد إلىّ بصرى كما أعاد قميص يوسف الضوء إلى بصر يعقوب الحزين الكظيم »

فعرفت بعد ورود خطابك إلىّ أن فى هذا القول كثيراً من الحقيقة ، وأن البصر قد يكون حاسة من الحواس الخمس وقد يكون نوراً ينبعث وهاجاً فى القلب ، والخاطر ، والنفس ، وأن بعض الانفعالات قد تسمو وترتقى فتمسى عند صاحبها أقوى من البصر ، وأعظم من نفس الحياة . . .

لم ترد يا صديقى أن تكتب الىّ بالتحية ، ومحوتها سلفاً من جبين كتابك مدركا أن التحية إذا ألقيت مجاملة كانت نافلة وعملاً بين الصحاب غير نافع ، وإن قصد بها التعبير عن الشوق فتحصيل حاصل . فليس بمنكر أن سنين خمساً لجديرة بأن تلهب قلبى صديقين مخلصين لم يتساقيا من كؤوس الود إلا أصفاها عنصراً وأحلاها مذاقاً وأبقاها أثراً

ولكم كنت لبقاً وأريباً . وكانت كلماتك مؤثرة حين ذكرتنى بمهدى الأدبى الخالى ، وأيامه ولياليه الصافية المورد ، والساعات التى كنا نمضيها باحثين فى فنون الأدب ، منتجين أبطال قصصنا ، نراهم تحت أسماعنا وفى محيط أبصارنا يعيشون قطعاً من أكبادنا وخفقات من قلوبنا ، ودمى تملؤها عواطفنا دماً وروحاً ، فينبعث فينا شعور بالرضا والغبطة إن لم يصل إلى غبطة الاله بمن خلق — سبحانه — فهى تسمو وتعلو عن غبطة الوالد عند مرآى أبنائه ونماء فلذات كبده . . . لأن نظرة الأب إلى أبنائه ، وارهاف أذنيه إلى أحاديثهم يغمرهما الحنان الأبوى الغريزى فيعطل فيهما نواحى التفكير ويفسد عليهما حسن التقدير . أما أبناؤنا نحن فكانوا دائماً مخاطبين منا بالعاطفة والفكر . . . !

. . . ولعلك يا صديقى حين تذكرنى بهذا المهد السعيد الفائت لا تبغى أن تقطع نفسى ونفسك حسرات وتلهب سعير الحزن وتشعل جمرة الأسى ، وإنما تقصد الهتاف للخفى المغيب فى أعماق كى تثيره للحركة بعد الخمود ، فأنت تقول : « لقد انصرفت عن ميدان الأدب كى تؤدى واجباً وجب . وتقف فى الصف الأمين تجاهد فى سبيل بلادك وحريتها ، وتناضل عن حرية الأفراد المرهقين بعسف المستبدين . والآن وقد انجلى الفجر البديع عن حياة جديدة لمصر بدأت تسفر عن وجهها وترفع النقاب عن جمالها ، أما راجعك الحنين إلى الأدب تغذى عاله بقلمك ..؟ »

أما الحنين يا صديقى فأقسم ما فارقنى طوال ذلك المهد ، وإنما كان معذبى ومسعدى

فان هوى النفس — كما تعلم — غلاب لا يقهر ، نفاذ إلى مقصده لا يتقهقر ، وهو أقوى من الرغبات وأشد منها عناداً ، وأسبقها فى النفس وجوداً ، وهو — بعد — مرآتها العاكسة لعنصرها ، فاذا كانت أمارة بالخير ، فهواها هو الرشد ، يبرز مقنعاً فى صورة رأى صائب ، أو حركة نافعة

وكل من فى هذا الوجود مسير بالنفس — الامارة بالخير أو بالشر . ولكل هوى صورة كائنة حية هى ظاهرة فى أعمال صاحبه تبدو لأعين الرائين من الناس . كما أن لها ناحيتها الخفية التى لا تظهر ولا تنم ولا تبين . وتلك أرق الصور وألطفها . تولد فى الاعماق ، وتعيش وتنمو إذا راقها المهد ، ولذتها الحضانة ، فتطول حتى تصاحب العمر إلى نهاية الأجل . . . تلك الصورة يا صديقى هى « الحنين » . . . أثر قوى من هوى النفس وصورته الخفية ، يعيش فى جوانب العالم الانسانى الخفى ويسبح مع الأمل فى الخيال ، ويرف مع الرجاء فى مسابح الروح ، ولكنه أبداً لطيف لا يشف ولا يكتشف ولا يحاول غدر صاحبه فيبدو غصباً

لا يعاند صاحبه ولا يجادله أو يخاصمه ولكنه أبداً متفق معه متسق وخياله وتفكيره ، يقرب له حاجات الأمانى ويهون

عنده بالغات المصائب ، ويذلل له شامسات المصاعب يناجيه ويناغيه ويغذيه فى أوقات تأملاته وحين البأس ، ويسعده ويبث فى نفسه الترسل فى العزاء فى لحظات الأسى واليأس

* * *

وصاحبك يا صديق — كما تعرف ولا يعرف الكثيرون — فنان اتقدت شعلة الفن بين جوانحه منذ الصبى فأدرك معناها مبهمة كأنها الغريزة ، واندفع فى سيال مجراها يقرأ وينتج لا لمال أو شهرة ، واستطاع أن يوفق بين حياة الدرس وحياة الفن ، غير أن العمر قد تقدم بصاحبك إلى ميدان المسئوليات ، وتوزع الجهد بين مختلف ما يطلبه الجهاد فى سبيل بلاده ، والجهاد فى سبيل مهنته ، ما يستغرق يومه كله إلا ساعات للنوم ماعرف النوم فيها إلا اسماً ورؤى ! فألقى لذلك قلمه لا يكتب فى الأدب ولا فى الفن ، وإنما يكتفى باختلاس بعض الوقت يغذى فيه بعض نهمته للقراءة والاطلاع

وشقى صاحبك بهذا الحرمان ، فقد تزاحمت عليه فى حياته الجديدة موجبات للفن من حوادث ذاك الجهاد ومن ألوان ذلك العيش العتيد

ولكم جلس إلى فكره وخياله ونفسه والشعلة متقدة والنفس راغبة ، وقلمه فى يده ملتهب الشوق ، ويود بقطع الوتين أن يعيش فى حياة الدنيا التى يرسمها ويصورها — بل يخلقها — ساعات هى من العمر إن كان بعض العمر حياة وبعضه عدم ، فلا يلبث أن يناديه واجبه ولا يسمه إلا رد النداء

ولعلك تعرف يا صديق أن صاحبك المحامى يحيا — فى مهنته — فى محيط من آلام الناس وعذاب بنى البشر ، يعيش للمظلوم ويجاهد فى سبيل الباكى الأسير

والفنان كما تعرف أيضاً لا يعيش لنفسه وإنما يعيش للانسانية مختزلة — فى زمن حياته — فى جيل معين وقوم معينين لا يستريح أو تسعده حياته إذا ظلت خواطره وأفانين انتاجه وثمار فنه رهن محبسها — فى قرارة النفس أو فى مستقر الخيال والفكر — وإنما هو شقى بفنه إن لم يؤده إلى مستحقيه ، فالشمعة وهى غير مضاءة فيها عناصر الضوء ولكن قيمتها عدم ، فاذا أشعلت واتقد لهبها وبدأت تحترق أعطت نفعها وهى تبذل حياتها طبقة طبقة حتى

تخبو وتفنى ، وحياة صاحبك — فى عمله تعطى له فى كل لحظة وحياً وإلهاماً ... أولئك المظلومون يستصرخ لهم القضاء ، والقضاء ظل الله فى الأرض ولسان كلمته وبد قضائه وقدره ، ولكنا فيه من قدسيته وتنزهه القليل اليسير ، فقد ينصف المظلوم وقد ينخدع فى حيلة الظالم ، وكم تموت حقوق فى يد قضاة الحقوق ، وأولئك الأبرياء يقفون بين شاطئ الموت وشاطئ النجاة فوق موجة قلقة غير مستقرة ، كلة واحدة تقذف بالموجة إما إلى اليمين حيث الحرية والحياة ، وإما إلى اليسار حيث الفناء وملاقاة رب عادل منتقم كريم . حولهم — فى هول موقفهم — أهل وصحب يبكى بعضهم بدموع من قلب حزين ، ويتباكى بعضهم بدموع خادعة كاذبة . تتنازع الحياة بآلامها وحسراتها — نفوسهم أضعاف ما تنازع من يبكون عليه ...

وذلك الأب قتل فى سبيل دفع عار عن آله وأبنائه وأحفاده أو فى سبيل الحصول على طعام يرد عن أولاده شر المسغبة ، تقسو عليه الحياة فيقف فى القفص الحديدى ينصت إلى شهادة ولده الصغير وهو يقص على القضاة ما رآى من جريمة أبيه ...

وتلك الأم الحانية الرؤوم حاول ولدها قتلها عن غواية وطيش ، فتدلف محطمة إلى ساحة القضاء تطالب البراءة له وتسترحم فى مصيره من بيدهم المصير

وذلك الزوج أعز زوجه ودللها ومهد لها نعيم الحياة فبادلته بالحب غواية وبالاخلاص خيانة ، فأرداها وفقد نعيمها وهو يسير فى اغلاله إلى جحيمه ، وبذلك فقد النعيمين . . . فى الدنيا وفى الآخرة !

ثم أولئك المجرمون — الباغون السفاكون فعلوا فعلتهم — فى غاشية ، ثم ردت إليهم إنسانيتهم فوقفوا أمام القضاء فى ساعة الهول يوقتون بالنهاية المحتومة ويفزعون بالوهم إلى الأمل ويعدون — بأيديهم — حبل أعمارهم . . . بنظرة باسمة من محاميهم !

. . . هؤلاء وغيرهم ، وحياتهم تلك اللحظات هى مختصر لكل محيط الحياة يعيش صاحبك فى وسطهم ويحيا لهم ومن أجلهم يوحون إليه الرثاء للانسانية والبكاء على أطلال الفانين وأشباح المعذبين ... ويحاول فنه أن يقوم بواجبه كفنان ، ولكن واجباً

آخر أقوى جذباً وأشد فعلاً يطغى ولا يرضى إلا أن يكون وحده صاحب الحق على شؤون صاحبك الذى يعمل ويمهل ، والحنين ماثل فى عالمه الخفى يسعده ويعذبه . . . ذلك الحنين الذى ولدته العواطف المحبوسة والآلام الطائفة كل يوم — بل كل لحظة — بالنفس والقلب ، ثم كبر ونما وطال واستطال على كل منزع ، وركب كل منفذ ، وصعد مع الروح إلى أعلى سبحاتها ، وجرى مع الدم إلى أقصى شوط من شرايينه ، وغاص إلى أعمق أعماق النفس وسبح فى ظلماتها وتراوح فى أمواج ضوئها وجاب أنحاء القلب وارتقى صخوره واتأد فوق لينه وامتطى متون غيومه . . حتى أصبحت أحسه كياناً فى جوار كيانى ، أراه فى بعض الأحيان ممثلاً إلى جانبى فى صورة طيف أو خيال ، وقد أسمعه ينادينى ويناجينى ، وقد أضطر إلى أن أجيبه فأحدثه وأقارضه نداء بجواب ومناجاة بنجوى . . يسير معى — كالصديق الوفى — فى النهار فيكاد يعزلنى عن سائر الناس ، وفى الليل ... فى الليل الأخير حيث تنام الناس وترقد الأعمال فأبقى فى الوحدة والسكون ... أنا وهو ... والله ثالثنا ...

ولكم حاولت أن أفلت من زمامه وأنجو من إساره وأفك عقالى من يديه فما زدت إلا تعلقاً به وتشبثاً بأردانه وأطرافه ...

لقد غلبنى على أمرى ونزع شأنى من إرادتى فرضيت أسره ولذت لى غلبته ... وبات كما كان ... مسعدى ومعذبى ...

***

أما اليوم يا صديق وقد انجلت الغمرة وهدأ ميدان المعركة ، وبسم الشهداء فى عليين وترنحت النفوس طربا ، ورقصت القلوب فرحاً ، وآن للمجاهد فى سبيل الحرية أن يغمد سيف جهاده ، ويولى وجهه شطر إصلاح بلاده ، فقد توفر لى من الوقت نصفه أو يزيد

وسأراجع عهدى القديم وأحاول أن أفك إسار الحنين وأشفى داءه وأروى صداه وأتحرر أنا من اغلاله ... لعله لا يبقى معذبى ويظل مسعدى وحسب

سأمسك قلمى وأكتب للأدب والفن . لا أريد مالاً ولا شهرة ، فحسبى من الثانية ما نلت ؛ وحسبى من غنى شبع ورى ... وإنما لوجه الحق فى صوره السامية : الله والوطن . نجاهد فى ميدان الأدب والفن ، وعذاب الجهاد فى سبيل الحق أسمى مراتب اللذات

محمد شوكت التونى

للتاريخ السياسى

معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وانجلترا

— ٢ —

ملحقات المعاهدة

ملحق للمادة الثامنة

١ — من غير اخلال بأحكام المادة السابعة يجب ألا يزيد عدد قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور التى توجد بقرب القنال على عشرة آلاف من القوات البرية وأربعمائة طيار من القوات الجوية ومعهم العدد الضرورى من المستخدمين الملحقين للادارة والأعمال الفنية ، ولا يشمل هذا العدد الموظفين المدنيين كالكتبة والصناع والعمال

٢ — توزع القوات البريطانية التى توجد بقرب القنال كما يأتى :

(ا) فيما يتعلق بالقوات البرية فى المعسكر ومنطقة جنيفة على الجانب الجنوبى الغربى للبحيرة المرة الكبرى

(ب) وفيما يتعلق بالقوات الجوية على مسافة خمسة أميال من سكة حديد بور سعيد — السويس ، من القنطرة شمالاً إلى ملتقى سكة حديد السويس — القاهرة والسويس الاسماعيلية جنوباً مع امتداد على خط سكة حديد الاسماعيلية — القاهرة بحيث يشمل محطة القوات الملكية للطيران بأبى صوير وما يتبعها من الأراضى المعدة لنزول الطائرات والميادين الصالحة التى قد تنشأ شرقى القنال لاطلاق النار وإلقاء القنابل من الطائرات

٣ — يعد فى الأماكن المحددة آنفاً للقوات البريطانية البرية التى حدد عددها فى الفقرة الأولى سالفة الذكر بما فى ذلك أربعة آلاف من الموظفين المدنيين (مع خصم ألفين من رجال القوات البرية وسبعمائة من رجال القوات الجوية وأربعمائة وخمسين موظفاً مدنياً وهم الذين توجد لهم الآن معدات السكن) ما تحتاج إليه من الأراضى والثكنات الثابتة والمستلزمات الفنية بما فيها توفير الماء الذى قد تستلزمه الطوارئ ، وتكون الأراضى والمساكن وموارد المياه مطابقة للنظم الحديثة ؛ وفضلاً عن ذلك تقدم للجنود

وسائل الراحة المعقولة مع مراعاة طبيعة هذه الجهات وذلك بغرس الأشجار وإنشاء الحدائق وميادين الألعاب الخ . ويعد موقع لاقامة مصحة للنقاهة على ساحل البحر الأبيض المتوسط

٤ — تقدم الحكومة المصرية الأراضي وتنشئ المساكن وموارد المياه ووسائل الراحة ومصحة النقاهة المشار إليها في الفقرة السابقة باعتبارها ضرورية علاوة على ما هو موجود منها الآن في تلك الجهات وذلك على نفقتها الخاصة على أن تساهم حكومة جلالة الملك في المملكة المتحدة بدفع ما يأتي :

١ — المبلغ الذي أنفقته الحكومة المصرية فعلاً قبل سنة ١٩١٤ في إقامة ثكنات جديدة أنشئت لتحل محل ثكنات قصر النيل في القاهرة

٢ — تكاليف ربع الثكنات والمستلزمات الفنية للقوات البرية على أن يدفع أول هذين المبلغين في الوقت المحدد بالفقرة الثامنة الآتي ذكرها لانسحاب القوات البريطانية من القاهرة . ويدفع المبلغ الآخر في الوقت المعين لانسحاب القوات البريطانية من الاسكندرية طبقاً للفقرة الثامنة عشرة الآتي ذكرها ؛ وللحكومة المصرية أن تتقاضى إيجاراً مناسباً نظير استعمال المساكن المعدة لاقامة المستخدمين المدنيين ويتفق على قيمة الايجار بين حكومة صاحب الجلالة والحكومة المصرية

٥ — بمجرد نفاذ هذه المعاهدة تعين كل من الحكومتين فوراً شخصين أو أكثر تتألف منهم لجنة يعهد إليها بجميع المسائل المرتبطة بتنفيذ هذه الأعمال من وقت البدء فيها إلى حين تمامها . وتقبل مشروعات التصميمات ورسومها التخطيطية (الكروكية) والمواصفات التي يقدمها ممثلو حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة بشرط أن تكون معقولة وألا تتجاوز مدى التزامات الحكومة المصرية الواردة في الفقرة الرابعة . ويجب أن يقر ممثلو كل من الحكومتين في هذه اللجنة التصميمات والمواصفات الخاصة بكل عمل تقوم به الحكومة المصرية قبل البدء فيه . ويكون لكل عضو في هذه اللجنة وكذلك لقواد القوات البريطانية أو ممثلهم حق فحص الأعمال في جميع أدوار إنشائها كما يجوز لممثلي المملكة المتحدة من أعضاء اللجنة تقديم مقترحات بشأن طريقة تنفيذ العمل . ولهم أيضاً حق اقتراح تعديل التصميمات والمواصفات أو تغييرها في أي وقت أثناء سير العمل ، وتنفذ المقترحات والمشروعات التي يقدمها ممثلو المملكة المتحدة في اللجنة بشرط أن تكون معقولة وأن لا تتجاوز مدى التزامات الحكومة المصرية الواردة في الفقرة الرابعة . وفيما يتعلق بالآلات وغيرها من المهمات حيث تكون لوحدة الطراز أهميتها قد اتفق على أن تكون المهمات التي تشترى وتركب من الطراز المقرر والمستعمل عامة في الجيش البريطاني

ومن المفهوم طبعاً أنه يجوز لحكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة أن تقوم على نفقتها الخاصة بعد استعمال القوات البريطانية هذه الثكنات والمساكن بادخال التحسينات والتغييرات وإنشاء مبان جديدة في المنطقة المحددة في الفقرة الثانية السالف ذكرها

٦ — تحقيقاً لبرنامج الحكومة المصرية في تحسين الطرق ومواصلات السكك الحديدية في القطر المصري ولابلاغ وسائل المواصلات فيها إلى مستوى حاجات الفنون الحربية الحديثة — تتولى الحكومة المصرية إنشاء الطرق والكباري والسكك الحديدية المبينة بعد وصيانتها

١ — الطرق

١ — بين الاسماعيلية والاسكندرية عن طريق التل الكبير والزقازيق وزفتى وطنطا وكفر الزيات ودمنهور

٢ — بين الاسماعيلية والقاهرة عن طريق التل الكبير ومنه يستمر على ترعة المياه الحلوة إلى هليوبوليس

٣ — بين بورسعيد والاسماعيلية فالسويس

٤ — مواصلة بين الطرف الجنوبي للبحيرة المرة الكبرى والطريق الممتد من القاهرة إلى السويس على مسافة خمسة عشر ميلا تقريباً غربي السويس

ولابلاغ هذه الطرق إلى المستوى العام للطرق الجيدة الصالحة لحركة المرور العامة سيكون عرضها عشرين قدما ويكون لها تحويلات حول القرى الخ وتنشأ من مواد من شأنها أن تجعلها صالحة دائماً للانتفاع بها في الأغراض الحربية ، وأن تنشأ بحسب ترتيب أهميتها سالف الذكر ، وأن تطابق المواصفات الفنية المبينة بعد وهي المواصفات العادية للطرق الجيدة الصالحة لحركة المرور العام

وتكون الكباري والطرق صالحة لتحمل صفين كاملين من سيارات النقل الميكانيكي الثقيلة ذات الأربع عجلات أو من

ذوات الست عجلات أو من الدبابات المتوسطة الحجم . ففيما يتعلق بالسيارات ذات العجلات الأربع يكون البعد بين الدنجل الأمامى لأية سيارة وبين الدنجل الخلفى للسيارة التى أمامها عشرين قدماً ويكون الثقل على كل دنجل خلفى أربعة عشر طنا وعلى كل دنجل أمامى ستة أطنان ، وتكون المسافة بين الدنجلين ثمانى عشرة قدماً . وفيما يتعلق بالسيارات ذات العجلات الست تكون المسافة بين الدنجل الأمامى لكل سيارة منها وبين الدنجل الخلفى للسيارة التى أمامها عشرين قدماً ، والمسافة بين الدنجل الخلفى والدنجل الأوسط أربع أقدام ، وبين الدنجل الأوسط والدنجل الأمامى ثلاث عشرة قدماً ، ويكون الثقل على كل من الدنجلين الخلفى والأوسط ٨,١ طنا وعلى كل دنجل أمامى أربعة أطنان . أما الدبابات فتقدر باعتبار أن وزنها ١٩,٢٥ طنا وطولها الكلى خمسا وعشرين قدما والبعد بين مقدم إحداها ومؤخر التالية لها رأسا ثلاثة أقدام ، ويكون ثقل الـ ١٩,٢٥ طنا محملاً على شريطين يرتكزان على مسطح قدره ثلاث عشرة قدما من الطريق أو الكوبرى

السكك الحديدية

١ — تزاد تسهيلات السكك الحديدية فى منطقة القنال وتحسن لسد حاجة القوات بعد زيادتها فى تلك المنطقة ولتسهيل سرعة نقل الرجال والمدافع والعجلات والمهات بالقطارات وفقا لما تقتضيه حاجة الجيوش الحديثة

ويرخص بموجب هذا لحكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة بأن تنشىء على نفقتها الخاصة ما قد تقتضيه حاجات القوات البريطانية فى المستقبل من الاضافات والتعديلات على السكك الحديدية . فاذا مست هذه الاضافات أو التعديلات الخطوط الحديدية المستعملة للنقل العام وجب الحصول على اذن بذلك من الحكومة المصرية

٢ — يجعل الخط بين الزقازيق وطنطا مزدوجاً

٣ — يحسن الخط بين الأسكندرية ومرسى مطروح ويجعل دائماً

٧ — فضلاً عن الطرق المبينة فى الفقرة السادسة ١ السالف ذكرها وللأغراض ذاتها ستنشىء الحكومة المصرية الطرق المبينة بعد وتقوم بصيانتها

١ — الطريق من القاهرة بمحاذاة النيل جنوباً إلى قنا وقوص

٢ — من قوص إلى القصير

٣ — من قنا إلى الغردقة

وستنشأ هذه الطرق والكبارى التى تقام عليها وفق نفس المستوى المبين فى الفقرة السادسة السالف ذكرها

وقد لا يتيسر إنشاء الطرق المشار اليها فى هذه الفقرة والطرق المشار اليها فى الفقرة السادسة فى وقت واحد ولكنها ستنجز بقدر المستطاع

٨ — وحينما تتم الأماكن المشار إليها فى الفقرة الرابعة على ما يرضى الطرفين المتعاقدين (ولا تدخل فى ذلك المساكن الخاصة بالقوات التى ستبقى موقتاً بالاسكندرية طبقا للفقرة الثامنة عشرة الآتى ذكرها) وتتم الأعمال المشار إليها فى الفقرة السادسة السالف ذكرها (عدا السكك الحديدية المبينة فى الشطرين ٢ و٣ من الجزء ب من تلك الفقرة) تنسحب القوات البريطانية الموجودة فى أنحاء القطر المصرى غير الجهات الواقعة فى منطقة القنال والمبينة فى الفقرة الثانية السالف ذكرها مع استثناء القوات الباقية مؤقتاً بالاسكندرية ، وتخلى الأراضى والثكنات ومنازل الطائرات البرية ومراسى الطائرات البحرية والأبنية التى تشغلها القوات وتسلم إلى الحكومة المصرية إلا ما قد يكون منها ملكا للأفراد

٩ — أى خلاف فى الرأى بين الحكومتين فى تنفيذ الفقرات ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ السالف ذكرها يعرض للفصل فيه على لجنة تحكيم مؤلفة من ثلاثة أعضاء تعين كل من الحكومتين عضواً منهم ويعين الثالث بالاتفاق بين الحكومتين ويكون قرار اللجنة نهائياً

١٠ — تحقيقاً لحسن تدريب الجنود البريطانية قد اتفق على إعداد المناطق المحددة بعد لتدريبها . ويجرى التدريب فى المنطقتين ا و ب طول السنة . وتكون المنطقة حـ للمناورات السنوية خلال شهرى فبراير ومارس

ا — غربى القنال من القنطرة شمالاً إلى خط سكة حديد السويس القاهرة جنوباً (بما فى ذلك الخط المذكور) وإلى خط طول ٣١٫٣٠ شرقاً بحيث تستمد كل الأراضى المزرعة

ب — شرقى القنال . حسب الحاجة

حـ — امتداد المنطقة (ا) جنوباً إلى خط العرض الشمالى ٢٩٫٥٢ ومن ثم فى الجنوب الشرقى إلى ملتقى خط العرض الشمالى

٣٠ر٢٩ بخط الطول الشرقي ٤٤ر٣١ ومن هذه المنطقة شرقاً على امتداد خط العرض الشمالي ٣٠ ر ٢٩ ومساحات المناطق المشار إليها فيما سبق مبينة على الخريطة الملحقة بالمعاهدة « مقاييس رسم ١ — ٥٠٠ر٠٠٠ر »

١١ — تمنع الحكومة المصرية الطيران فوق الأراضي الواقعة على جانبي قنال السويس وعلى مسافة عشرين كيلو مترا منها إلا ما كان بقصد العبور من الشرق الى الغرب أو بالعكس في ممر عرضه عشرة كيلو مترات عند القنطرة مالم تتفق الحكومتان على غير ذلك . على أن هـذا المنع لا يسري على قوات الطرفين المتعاقدين ولا على هيئات الطيران المصرية الصميمة ولا على هيئات الطيران التي تتبع تبعية حقيقية أي جزء من أجزاء مجموعة الأمم التي تتكون منها الدولة البريطانية وتعمل تحت سلطة الحكومة المصرية

١٢ — تضم الحكومة المصرية عنـد الضرورة وسائل المواصلات المعقولة للوصول من وإلى الجهات التي ترابط فيها القوات البريطانية كما أنها تقدم ببور سعيد والسويس التسهيلات الضرورية لتفريغ المهمات الحربية والمؤن اللازمة للقوات البريطانيـة وخزنها ، ومن هذه التسهيلات إبقاء فصيلة صغيرة بريطانية في هاتين الميناءين لتسلم وحراسة هذه المهمات والمؤن عند مرورها

١٣ — نظراً لأن سرعة الطيران الحديث وسـعة مداه تقتضيان استخدام مساحات واسعة لحسن تدريب القوات الجوية فان الحكومة المصرية تأذن للقوات الجوية البريطانية في الطيران حينما ترى ضرورة لذلك من أجل التدريب . ويكون لقوات الطيران المصرية مثل هذه المعاملة في الأراضي البريطانية

١٤ — نظراً لأن سلامة الطيران تتوقف على اعداد كثير من الأماكن لنزول الطائرات فان الحكومة المصرية ستهيء وتيسر على الدوام المنازل والمراسي الصالحة لنزول الطائرات البرية والبحرية في الأراضي والميـاه المصرية . وستحقق الحكومة المصرية أي طلب يقـدم من القوات البريطانية لاعداد المنازل والمراسي الاضافيـة التي تدل التجربة على ضرورتها لجعل العدد كافياً لحاجة المحالفة

١٥ — تأذن الحكومة المصرية للقوات الجوية البريطانية في استخدام منازل الطائرات البرية ومراسي الطائرات البحرية السالفة الذكر وفي إرسال مقادير من الوقود والمهمات الى القوة منها لخزنها في مكان تقام عليها لهذا الغرض وفي القيام في أحوال الاستعجال بأي عمل قد تقتضيه سلامة الطائرات

١٦ — تمنح الحكومة المصرية جميع التسهيلات اللازمة لمرور مستخدمي القوات البريطانية والطائرات والمهمات من والى منازل الطائرات البرية ومراسي الطائرات البحرية السالفة الذكر وتمنح مثل هذه التسهيلات لموظفي القوات المصرية وطائراتها ومهماتها في القواعد الجوية للقوات البريطانية

١٧ — تكون للسلطات الحربية البريطانية حرية استئذان الحكومة المصرية في إرسال جماعات من الضباط يرتدون الملابس الملكية الى الصحراء الغربيـة لدراسة الأرض ورسم الخطط الحربية ولا يرفض هذا الاذن دون مبرر معقول

١٨ — يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والأمبراطور في إبقاء وحدات من قواته في الأسكندرية أو على مقربة منها لمدة لا تتجاوز ثماني سنوات من تاريخ نفاذ هذه المعاهدة وهي المدة التقريبية التي اعتبرها الطرفان ضرورية لما يأتي :

ا — لاتمام بناء الثكنات في منطقة القنال نهائياً

ب — لتحسين الطرق الآتية :

١ — الطريق بين القاهرة والسويس

٢ — بين القاهرة والاسكندرية عن طريق الجيزة والصحراء

٣ — بين الأسكندرية ومرسى مطروح ، وذلك للوصول بها إلى المستوى المبين في جزء ا من الفقرة السادسة

حـ — تحسين السكك الحديدية بين الاسماعيلية والاسكندرية وبين الاسكندرية ومرسى مطروح كما أشير إلى ذلك في الشطرين ٢ و ٣ من الجزء ب من الفقرة السادسة

وتتم الحكومة المصرية العمل المبين في الشطرات ا و ب و حـ السالفة الذكر قبل انقضاء مدة الثماني السنوات المذكورة آنفاً ، وستتولى الحكومة المصرية طبعاً صيانة الطرق ووسائل المواصلات المذكورة فيما تقدم

١٩ — تظل القوات البريطانية الموجودة بالقاهرة أو بجوارها إلى وقت انسحابها طبقاً لنص الفقرة الثامنة السالف ذكرها كما تظل القوات البريطانية الموجودة بالاسكندرية أو بجوارها إلى نهـاية الوقت المحدد في الفقرة الثامنة عشرة السالف ذكرها متمتعة بالتسهيلات التي لها الآن

في العدد القادم « تتمة الملحقات »

الفلسفة والالهيات *

اتفقت كلمة الشعوب الاسلامية على أن العصر الذهبي للخلافة قد ازدهرت فيه مذاهب فى الفلسفة ، كانت عربية إسلامية ذاعت فى العالم ذيوعا واسع المدى ، وأن المعاهد الاسلامية قد مهدت لظهور الجامعات الأوربية ، وكانت المثال الذى به تقتدى وعلى هداه تسير

وهذه النظرة المنطوية على اعتبار الاسلام مصدر الحضارة الأوربية ، نشأت فى رحابه ، ودرجت فى ظلاله ، واستقت من معينه ، لا نراها منبثة فى الكتب الأدبية التى أريد بها مجرد الدعاية فحسب ، بل نراها شائعة — بحق أو غير حق — فى أكثر البحوث القيمة التى ساهم فيها العلماء من المسلمين المحدثين وتناولت تقدم الأنظمة الاسلامية وتاريخها فى العصر الوسيط

وإنا لنرى فى الأدب الغربى بين الحين والحين إشارة إلى ما يطلقون عليه اسم « الفلسفة العربية » ، كما نرى طائفة من كتاب الغرب تذهب إلى أن الفلسفة المسماة بهذا الاسم ليست إلا خليطا من آراء القدماء لا تجانس بين مواده المتنوعة ، قد ترك ليتفاعل وينضج ، فهم منتهون إلى أن ليس هناك شىء اسمه « فلسفة عربية » وإلى أن الشعوب الناطقة بالضاد لم تفعل شيئا أكثر من أنها استولت على الفلسفة اليونانية التى كانت شائعة بين المسيحيين من أهل سوريا ، والمثقفين من أهل حران الوثنيين ، ثم أضافت إليها بعض عناصر استمدتها من فارس والهند[1]

ومهما يكن من شىء فان من الحق أن نرد الفلسفة العربية فى مادتها وصورتها وغايتها إلى حضارة البلاد التى غزاها العرب ، وأن نعتبر الفلسفة اليونانية المعين الذى استقوا منه مذاهبهم

ومهما قيل عن هذا الأمر فى العصور الحديثة فان العلماء المسلمين فى العصور المتقدمة لم يخطئوا السبيل إلى فهم هذه الحقيقة . فالجاحظ البصرى المتوفى سنة تسع وستين وثمانمائة بعد الميلاد — وهو كاتب قدير متبحر كان تأثيره فى أسبانيا الاسلامية على جانب عظيم من الأهمية — يعترف اعترافاً واضحاً بفضل الفكر اليونانى على أهل ملته فيقول : ألم تبلغنا كتب القدماء التى خلدوا فيها حكمتهم الرائعة ، وعالجوا بين صفحاتها دروس التاريخ المتشعبة ، حتى بدا الماضى حيا أمام أبصارنا ؟ ألم تصل إلى أيدينا نفائس تجاربهم التى ما كنا بغير هذه الكتب لنعرفها أو لنصيب فى الحكمة حظاً يذكر ، أو نسلك للتحصيل سبلاً معقولة ؟

وفوق ذلك فان الفلاسفة وعلماء الكلام لم يحاولوا فى أكثر أبحاثهم أن يخفوا عن الناس النبع الذى نهلوا منه[1]

(*) هذا المقال هو بداية فصل الفلسفة والالهيات فى كتاب تراث الاسلام الذى ستصدره لجنة الجامعيين فى هذا الشهر — وقد تولى كتابة الفصل « ألفريد جيوم » وقام بتعريبه والتعليق عليه « توفيق الطويل »

(١) على أن من الانصاف أن نقول إن بين مؤرخى الفلسفة فى الغرب طائفة أخرى لا يرضيها هذا الحكم ، إذ انعقد رأيها على أن للفلسفة الاسلامية كياناً خاصاً يميزها من مذاهب أرسطو ومفسريها ، بل من الآراء الهندية والفارسية ، لأن فيها ثمرات من عبقرية أهلها — وإذا كان قد وجد من يقول كأرنست رينان فى كتاب ابن رشد ومذهبه : « ومن عجائب القدر أن هذا الجنس — السامى — الذى استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة فى أسمى درجاتها لم يثمر أدنى بحث فلسفى خاص ، وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباساً صرفاً جدياً وتقليداً للفلسفة اليونانية » أو شملدير القائل فى رسالة له فى المذاهب الفلسفية عند العرب : « لا نستطيع أن نذكر قط فلسفة عربية على الوجه الدقيق لما =

= يفهم من هذه العبارة كما نذكر فلسفة يونانية أو ألمانية ... ومهما ذكرنا هذه العبارة فاننا لا نريد شيئا غير الفلسفة اليونانية كما فهمها العرب » إذا كان قد وجد من يذهب إلى هذا فقد وجد المنصفون من مؤرخى الفلسفة الاسلامية فى الغرب أمثال جوستاف دوجا القائل فى كتابه : (تاريخ الفلاسفة والمتكلمين من المسلمين) : « وما أسوق إلا شاهداً واحداً : فهل يظن ظان أن عقلا كعقل ابن سينا لم ينتج فى الفلسفة شيئاً طريفاً وأنه لم يكن غير مقلد لليونان ؟ وهل مذاهب المعتزلة والأشعرية ليست ثماراً بديعة أنتجها الجنس العربى ؟ » أو ليون جوتييه القائل : « إن الفلاسفة الاسلاميين لم يألوا جهداً فى القيام بواجبهم من هذه الناحية — التوفيق بين الفلسفة والدين — وقد أبدوا فى ممارستهم على ما فيهم من دقة وعناية خصالا منقطعة النظير ، ونفاذاً وبعد نظر ، ورأيهم فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال هو معقد الطرافة فى هذه الفلسفة اليونانية الاسلامية »

قد خفتت صيحة العصبية الدينية والجنسية فى أواخر القرن التاسع عشر حتى إذا أقبل القرن العشرون كاد أن ينعقد الاجماع بين مؤرخى الفلسفة فى الغرب على أن الفلسفة الاسلامية قد كملت نقص أرسطو بتوضيح نظرية الامكان على نحو ما أبانها هورتن الألمانى

استعنت فى هذا التعليق بمحاضرات أستاذنا الجليل فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق لطلبة الفلسفة بالجامعة المصرية فى السنة الدراسية ١٩٣٢ — ١٩٣٣ : وهى لم تطبع بعد (المعرب)

(١) ومن المؤلفين الاسلاميين الذين يذهبون إلى هذا الرأى الشهرستانى الذى يقول فى الملل والنحل : « قد سلكوا — أى الفلاسفة الاسلاميون — طريقة أرسطاطاليس فى جميع ما ذهب إليه وانفرد به سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأى أفلاطون والمتقدمين عليه » — ويقول ابن خلدون فى =

وما كان التعلل بالعلم ليخدع المسرفين فى التعصب للقرآن وسنة النبي . فكانت الأبحاث العقلية المجهولة للعرب فى عصر الرسول تلقى استنكاراً شديداً كما كان الذين يدخلون فى الاسلام بدعة يستمدونها من مصدر أجنبي معرضين لهذا النوع من الاستنكار، وكانوا يقولون إن الفلسفة « حكمة مشوبة بالكفر » — واذا استعرضت أسماء المؤلفات ككتاب : عرض لمخازى الاغريق ومنهل للحكم الدينية — وكتاب البرهان الحسى على تفنيد الفلسفة فى القرآن (١) عرفت ما تتضمنه الكتب مما يؤيد ما نقول — وثمة حكاية متداولة عن فيلسوف معروف عدل عن آرائه وهو على فراش الموت ، وكانت آخر عبارة قالها : صدق الله العظيم وكذب ابن سينا

ومن الحق كذلك أن نذهب إلى القول بأن ما أضافه العرب من الثقافة الانسانية إلى تراث من سبقهم من المفكرين لم يكن كبير الشأن ملموس الأثر . وبالرغم من هذا ، ومع أننا على يقين من أن ما خلفته الحضارة الاسلامية لا خطر له ، أوليس أكثر مما ورثته عن غيرها من الحضارات ، فليس من العدل فى شىء أن ننكر عليها توصلها إلى الجمع بين الأفكار الفلسفية على نمط مميز لها ، تلك الأفكار التى عزاها علماء المسلمين إلى أنفسهم

وإنه لمن الظلم البين أن نحقر من شأن الشغف فى طلب العلم من أجل العلم ، ذلك الحماس الذى كان يتقد فى صدور جموع غفيرة من الناس فى رحاب الدولة الاسلامية المترامية الأطراف

وفى الحق أن لعبارة « الفلسفة العربية » معنى معيناً عند المستشرقين (١) ، فهم يعرفون أن بين العرب الخلص الدم واحداً فذا هو « الكندى » قد امتاز بطول باعه فى المسائل الفلسفية ، ولكنهم يعرفون — إلى جانب هذا — أن ذلك الخليط الغريب الذى يغلب عليه التنافر — والذى ائتلف من الأرسطاطالية والأفلاطونية الحديثة ، وسلم به أكبر الفلاسفة المسلمين كتفسير معقول للكون — يعتبر عربياً قبل كل شىء وإن لم يكن إسلامياً ، لأن أكبر زعمائه كثيراً ما كانوا مسلمين بالاسم أو زنادقة جهروا بذلك جهراً أدى إلى ضياع حياتهم أو فقدان حريتهم

ولو أن العرب كانوا برابرة كالمغول الذين أطفأوا جذوة العلم فى الشرق إطفاء لم ينبعث من بعدهم ألبتة — وقد لا ينبعث أبداً بسبب ضياع دور الكتب وفقدان الآثار الأدبية — لو أنهم كانوا كذلك ، لتأخر عصر الأحياء عن موعده فى أوربا أكثر من قرن

وليس من شك فى أن حياة طالب العلم قبل عهد الطباعة كانت تفيض دائماً بالضجر واليأس ، وكان مألوفاً عند الكثيرين من طلاب العلم أن يقوموا فى طلبه برحلة يقطعون فيها ألف ميل أو يزيد فى سبيل البحث عن معلم يتلقنون عنه العلم . ولبثوا يقاسون هذه المشقة حتى العصر الذى قامت فيه الجامعات الاسلامية — بل إلى ما بعد هذا العصر — وقد قام الشبان برحلات طويلة من الأندلس إلى مكة أو من مراكش إلى بغداد ، تاركين دورهم وهم خالو الوفاض أملاً فى التتلمذ لأستاذ يصادف اختيارهم

***

ولعل فى وسعنا الآن أن نقول كلمة فى نشأة الجامعات الاسلامية : فأولاها هى المدرسة النظامية المعروفة ببغداد ، وقد قام بتأسيسها نظام الملك صديق عمر الخيام ووزير السلطان السلجوقى « ألب أرسلان » سنة سبع وخمسين وأربعمائة للهجرة ، أى فى العام السابق للفتح النورماندى لانجلترا (٢) . ثم قامت

= مقدمته : « ثم كان من بعده — أى أرسطو — فى الاسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا فى القليل النادر » — ومن الفلاسفة المتصوفة الذين ذهبوا إلى هذا الرأى ابن سبعين فى تصويره لابن رشد والفارابى وابن سينا والغزالى (أنظر كتاب الأستاذ ماسينيون : مجموع نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف فى بلاد الاسلام . على أن من الانصاف أن نقول إن بين الفلاسفة الإسلاميين فلاسفة على الحقيقة كانت وجهتهم أن يشيدوا هيكلاً فلسفياً يقوم على قواعد مما محصه النقد وترفع أركانه بما عملته أيديهم وما كسبوه من غير اليونانيين ، وقد أبان عن هذا ابن سينا فى مقدمته لكتاب « منطق المشرقيين » طبع المطبعة السلفية . استعنت فى هذا التعليق بالمحاضرات التى أسلفت الاشارة إليها فى التعليق السابق (المعرب)

(١) ترجمت العنوانين بعد أن حاولت الاهتداء إلى نصهما فى العربية فلم أوفق . وقد اتصلت بالأستاذ « جيوم » — مؤلف هذا الفصل — فى انجلترا لعله يهدينى إلى معرفة النص الصحيح . فقال فى رسالته إلى : إنه كان يكتب للقارىء الغربى الذى يجهل العربية ، ولو أنه كان يكتب للمستشرقين أو للناطقين بالضاد لاهتم بذكر جميع أسماء المصادر والكتب التى أشار إليها فى بحثه (المعرب) .

(١) كما أن لها عند غيرهم معنى معيناً : قارن Keicher's monograph Ravmundus Lullus und Seine Stellung zur arabischen Philosophie

(٢) جاء فى الجزء الثانى من ضحى الإسلام للأستاذ الجليل أحمد أمين أن الذهبي قد ذهب إلى أن نظام الملك كان أول من أنشأ المدارس : فبنى مدرسة ببغداد ، ومدرسة ببلخ ، ومدرسة بنيسابور ، ومدرسة بهراة ، ومدرسة بأصبهان ، ومدرسة بالبصرة ، ومدرسة بمرو ، ومدرسة بآمل =

بعد ذلك بقليل جامعات أخرى فى نيسابور ودمشق وبيت المقدس والقاهرة (١) والاسكندرية وغيرها من البلدان ، وكثيراً ما قامت فى مدن اشتهرت بالعلم قبل قيام الاسلام كما سيأتى ذكر ذلك بعد

= طبرستان ، ومدرسة بالموصل ؛ حتى قيل إن له فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة ، ولكن بعض المؤرخين كالسبكى والسيوطى قد ردوا عليه هذا الرأى وقالوا إن المدرسة البيهقية بنيسابور قد أنشئت قبل أن يولد نظام الملك ، وأن المدرسة السعيدية بنيسابور قد بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود

وقد قرأت فى المقريزى (فى الجزء الرابع من خططه طبعة عادية) : « والمدارس مما حدث فى الإسلام ، ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة ، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الاسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية ، وبنى بها أيضاً الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أيضاً المدرسة السعيدية ، وبنى بها أيضاً مدرسة رابعة . وأشهر ما بنى فى القديم المدرسة النظامية ببغداد لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم ، وهى منسوبة إلى الوزير نظام الملك ... وشرع فى بنائها فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة وفرغت فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، ودرس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازى الفيروزبادى صاحب كتاب التنبيه فى الفقه على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ورحمه ، فاقتدى الناس به من حينئذ فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر وفى بلاد الجزيرة وديار بكر »

(١) الذى أعرفه أن الأزهر قد أنشأه جوهر الكاتب الصقلى بعد عام من فتح الفاطميين لمصر ، إذ تم بناء القاهرة فى رمضان سنة ٣٦١ هـ وفتح الجامع الأزهر للصلاة فى الشهر نفسه من العام ذاته (وهو يوافق يونية — يولية سنة ٩٨٢ م) وسرعان ما نشأت صفته الجامعية فى ظروف عرضية ولم تلبث أن استقرت بعد ذلك وتأثلت ، وقد لاحظ الأستاذ محمد عبد الله عنان أن الوزير العلامة ابن كلس — الذى كان أيام العزيز بالله — كان له أثر كبير فى إسباغ هذه الصفة العلمية على الأزهر ، وذكر من بين الأساتذة الذين كانوا فى مقدمة من تولى التدريس والإقراء بالأزهر منذ إنشائه بنى النعمان قضاة مصر ، وكان القاضى أبو الحسن على بن النعمان أول من درس بالأزهر ، وقد عقد أول حلقاته فى صفر سنة ٣٦٥ وقرأ فيها مختصر أبيه فى فقه آل البيت . وجاء فى كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر أن أول من أقام الدرس بمعلوم هو العزيز بالله ابن المعز ، وأن فى سنة ٣٧٨ سأل الوزير أبو الفرج يعقوب الخليفة العزيز بالله أبا منصور نزار فى صلة رزق لجماعة من الفقهاء فأطلق لهم ما يكفى كل واحد منهم ، وبنى لهم مسكناً إلى جوار المسجد وأمدهم الوزير من ماله بصلات فى كل عام ، وكان عدتهم خمسة وثلاثين فقيهاً ، وأن فى سنة ٣٨٠ رتب المتصدرون لقراءة العلم بالأزهر . ولكن الأستاذ جيوم ينص على أن الجامعات قد نشأت فى القاهرة بعد المدرسة النظامية التى نشأت سنة ٤٥٧ أى قبل الفتح النورمندى (١٠٦٦ موقعة هستنجس Hastings) بعام واحد — على أن ما أسلفت ذكره يبرر القول بأن القاهرة قد عرفت الجامعات فى الأزهر قبل نشأة المدرسة النظامية بما يقرب من قرن من الزمان

من (الكتاب الذهبى) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

تتمة

للأستاذ زكى عريبى

— ٦ —

أنشئت المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٣ فلم يَزُل عهد الركاكة دفعة واحدة . صحيح أنك لم تعد تطالع « هذا المرأة » و « ثلاث الرجل » و « هؤلاء الشخص » و « منه ينفهم » و « لذا وكون ماذكر » و « من حيث ليس » و « ما تورى » و « سبوق المخاطبة » و « تحت الأهمية » و « كون من سابقة التحقيق » و « كون من ذا يتضح » و « كان جارى المشاجرة » ، لم تعد تطالع هذا وأمثاله ، ولكنك تقع على لغة ما زالت سقيمة معتلة كلغة هذا الحكم الصادر من محكمة الجنايات الاستئنافية سنة ١٨٨٧ ، قال يروى وقائع الجريمة :

« وكان عند القتيل قبلاً واصف أغا متبنيه وجاعلاً له نصيب فى بعض ملكه ، ثم كرهه وطرده واستبعده من المنزل قبل الواقعة بشهر وكان فيروز أغا مدخراً فى منزله أمتعة ذات قيمة ، فواصف وعبد الله وخديجة المذكورة عملوا على قتله باتفاق بينهم ، وفى الليلة المعهودة توجه واصف أغا إلى المنزل وكان فيروز أغا خارجاً عنه وكمن فى السطح بواسطة خديجة حتى حضر فيروز أغا وكانت خديجة فى صالة معتاد نومها فيها وعبد الله معد له محل بالحوش وفى آخر الليل اجتمع الثلاثة على بعضهم ودخلوا على فيروز أغا وأعدموه الحياة »

إلى أن قال يورد الأدلة على سبق الاصرار ويشير إلى النصوص :

« ومنها اعترافه (أى القاتل) أن خديجة كانت تشترى له ملابس وتناوله نقود من مصروف الأغا على أمل الأغا سيزوجها وهذا يفيد سبوق سعيه فى إعدام الأغا

وحيث أن هذه الأدلة قد أثبتت على عبد الله السودانى التعمد وسبق الاصرار والتربص على قتل فيروز أغا بالأسباب المذكورة

صار عبد الله يستحق العقاب بالقتل عملاً بالمادة ٢٠٨

وحيث أن من يحكم عليه بالاعدام يشنق

وحيث أن باقي المتهمين مثبوت اشتراكهم في السرقة باعتراف اثنتيهم »

وهاك ما يقوله حكم مدني ابتدائي صدر في السنة عينها (صحيفة ٢٥٠ حقوق) يردد ما جاء في صحيفة الدعوى

« وحيث أن حالة المرض الذي اعترى المدعي لا يمكن شفاه قطعياً وأن بعينه اليمنى غطاطه وأن علته من الجسيمة ولا يمكن أن يؤدي أشغاله باليرى ، ولما كان قضى حياته في خدمة الحكومة وأفقد بصره في أثناء تأدية خدماته كان من باب العدالة أن يربط له معاش »

على أن المحكمة لم تكن أفصح عبارة فيما رأته من « أن المدعي يمكن معالجته واستحصاله بعدها على كمية من النظر »

بل انظر ماذا تقوله محكمة الاستئناف « في الأودة المدنية والتجارية » :

« من حيث أن الأعمال المدعي باجراها سلامة بك (المدعي) في المدة المذكورة هذه ليست أعمال مستجدة صار تكليفه بها بل إنها استعلامات واستفهامات ويجب عليه في كل الأحوال استبقا تلك المأمورية في يوم اخلاه منها

« وأن سلامة بك أجرى مناظرة المهمات المذكورة

« ولهذا توضح للبيك المومإ اليه بتلك الافادة بأنه بعلم مسألة تلك الرسوم وأنه يلزم إعطا أفكاره فيما تطلبه مصلحة السكة الحديد وهذا لا يعد عمل جديد

« وحيث أنه لما علم للحربية بناء على طلب سلامه بك قررت اللجنة بتعيين واحد كاتب بماهية شهرى ١٢٠٠ قرش

وحيث بناء على هذه الأسباب يتعين لغو الحكم الابتدائي »

وفي السنة عينها نشرت مجلة الحقوق بحثاً في « الاقتصاد المدني » ؛ ولكن بوادر لغة سليمة بدأت تظهر وسط هذا الضعف كتلك التي يشرح بها هذا الحكم الصادر من إحدى المحاكم الابتدائية عدم قابلية بعض الالتزامات للانقسام

« فلنبحث الآن عن ماهية التعهد غير القابل للانقسام فنجد أنهم عرفوه بقولهم هو ما كان موضوعه شيئاً أو عملاً لا يمكن الوفاء به مقسما وقت تكوين العقد . وقد قسم العلامة ديمولان الشهير التعهدات غير القابلة للانقسام إلى ثلاثة أنواع : النوع الأول عدم الانقسام الناشئ عن العقد وهو المعبر عنه بعدم الانقسام الطبيعي أو المطلق أو الضروري . . .

فيظهر جلياً أن عدم الانقسام هذا هو اضطراري وخارج عن ارادة المتعاقدين لأنه ليس في وسعهم وقدرتهم تغيير ماهية وطبيعة الأشياء »

* * *

ثم طفرت لغة المحاكم طفرة سعيدة وظهر التحسن واضحاً ملموساً في العشر السنوات التالية على يد فحول غذى بهم القضاء الأهلي بعد سنة ١٨٩٠ . أنظر إلى هذه الدائرة بمحكمة الاستئناف كيف أصبحت تكتب برياسة حامد محمود وعضوية قاسم أمين ودوهلتس (حقوق سنة ١٨٩٦)

« وحيث أن القاضي بتخطيه هذه الحدود (أي حين يتخطى القيود الموضوعة في قانون تشكيل المحكمة) صار عديم الصفة في الفصل وأصبح كأنه في بلد أجنبي . ومتى انعدمت صفة المحكمة في الفصل لا تكون أحكامها أحكاماً ولا قضاتها قضاة ، وإنما يكونون كأفراد فصلوا فيما رفع إليهم وصاغوا فصلهم في قالب الأحكام . وإن كان ذلك في استطاعتهم فليس في وسعهم أن يمنحوها من عندياتهم ما حرمه الشارع من القوة »

وما أجمل هذا الايجاز في بيان موضوع النزاع المطروح على دائرة أخرى (دائرة أحمد عفيفي وسعد زغلول وكوريت) :

« حيث أن نقطة النزاع في هذه الدعوى هي من هو ملزم بدفع مبلغ المائة وثمانين جنيهاً إلى الخواجه سكوبو ، هل تكون الست نفيسة ملزمة أو الشيخ أحمد الحكيم أو الاثنان معاً ؟ وفي الحالة الأخيرة : هل تلك الملزومية بالتضامن أم لا ؟ »

* * *

ومضى الرقي في طريقه بعد ذلك غير وان ولا متردد ، فساير سمو الأسلوب نضوج الفكر ، واكتشفت أو نحتت ألفاظ عربية كثيرة لتؤدي معاني فقهية حديثة ، وغمر سيل هذه النهضة المباركة دور المحاكم كلها لا فرق بين جزئية وابتدائية واستئنافية . ثم جاءت محكمة النقض في العهد الأخير فطبعت لغة الأحكام بطابع جليل ممتاز جمع إلى دقة الأداء رشاقة اللفظ وجمال الأسلوب

لسنا نبالغ ولا نلقى القول بغير دليل . « وعلى من مارى — كما يقول رئيس محكمة النقض الجليل فى خطبته الخالدة — أن يقرأ فانه لا رأى لغير مطلع عليم »

وإن المطلع العليم ليحار أى زهر يقتطف وسط هذه الجنة الفيحاء . لقد طغى تيار الاجادة فاكتسح بقايا العجمة وضآلة التعبير وأصبحنا حتى فى القضايا البسيطة أمام أحكام حبك نسجها وأشرقت ديباجتها . اقرأ هذا الحكم لقاض جزئى فاضل (اسكندر حنا) يقرر فيه القواعد التى يجب على سائق السيارات مراعاتها إذا ما اقتربوا من تقاطع شارعين ، ويتحدث عن ماهية هذه القواعد قانوناً :

« وحيث أن المدعى المدنى يقول إنه كان سائراً فى شارع رئيسى ومن حقه أن يأمن السير فيه ولا يعكر عليه أمنه السيارات الخارجة من الشوارع المتقاطعة فواجبها ألا تخرج إلى الشارع الرئيسى إلا بعد الاستيثاق من خلوه

وحيث أنه ليس فى اللوائح أو الأوامر الادارية تقسيم الشوارع بين رئيسية وفرعية وما هى إلا قواعد أوحى بها العقل ، فتواضع الناس على العمل بها اتباعاً لما تقضى به مصالحهم وما يستوجبه ضمان أرواحهم أثناء سيرهم فى الطرق العمومية وتنظيمها لمرورهم ... والواجب يقضى على من يقود سيارة فى شارع متقاطع مع شارع رئيسى أن يتحقق قبل محاولة اجتيازه من خلوه أومن إمكانه المرور فيه قبل أن تدركه السيارات السائرة فيه ، ولكن ليس معنى ذلك أن السائق الذى يسير فى شارع رئيسى يتهاون فى قيادته إلى حد الخطأ أو الاهمال ، فانه يتعين عليه أن يكون شديد الحذر كلما اقترب من نقطة التقاطع وأن يخفف من سرعة سيارته اجتناباً للمفاجآت التى قد تحصل على غرة »

بيان كامل لما احتواه رأس الكاتب من فهم صحيح لقواعد السير ، خطته يراعة مالكة لناصية الألفاظ تضعها حيث يجب أن توضع فى أسلوب سهل وشيق

واقرأ هذا الحكم للقاضى « حسن جاد » فى قضية رفعها رجل على شريكه فى الجريمة بطلب استرداد ما دفعه إليه ثمناً لاشتراكه ، ووجد القاضى نفسه أمام رأيين فقهيين لكل منهما أنصاره ومخالفوه . أنظر كيف يؤيد الرأى الذى اختاره لنفسه تأييد أديب بارع :

« وحيث أن المدعى عليه دفع بعدم قبول الدعوى قولاً منه بأن استرداد المبالغ على فرض حصول دفعه أمر غير جائز لأن الدفع إنما حصل تنفيذاً لارتكاب جريمة يعاقب عليها القانون

وحيث أن هذه المسألة وإن اشتد الجدل وكثر التحاور واختلفت الآراء ، وتناقضت الأحكام بشأنها ، إلا أن المحكمة ترى رجحان المذهب القائل بجواز الاسترداد . لا لأنه هو المذهب السائد المتغلب بين الشارحين والمحاكم فقط ، بل لما فيه من مزايا وما فى عكسه من آفات

وتعليل ذلك ظاهر لأن فى اعتماد الدفع إقراراً للمحظور وتشجيعاً للفاجر على فجره . دع أن القانون نفسه لا يرتب أثراً للعقد القائم على سبب غير مشروع ، ولا يمكن أن تفهم هذه القاعدة وتدرك حكمتها إلا إذا محوت أثر التعاقد وعاد ما كان إلى ما كان

ذلك خير من الرأى القائل بأنه لا ينبغى مساعدة أى من طرفى التعاقد لأنه ليس لمن خالف القانون أن يستعين بالقانون ليحميه . ذلك بأن أصحاب هذا الرأى وهذه حجتهم لم يعبأوا بما يترتب على المنع من معاملة القابض على السحت معاملة أخف وأصلح من معاملة القابض على الحلال . بل إن هذه الحجة قد تلتوى على أصحابها فى بعض الأحوال ويكون من نتائجها أن تتفاوت المعاملة بين العاقدين فيحل لأحدهما ما يحرم على الآخر

هذا من الوجهة القانونية . وأدب النفس يقضى بأن ما خرج عن النظام العام يجب إرجاعه اليه ؛ ولما كان تنفيذ العقد الباطل خروجاً عن النظام وجب إلغاء التنفيذ ورد الحالة إلى ما كانت عليه قبله . ومن مصلحة المجموع أن يعلم سلفاً كل مقدم على مباشرة عقد باطل أنه لا يملك تنفيذ العقد بل ولا يملك الاحتفاظ بما تم لمصلحته تنفيذاً للتعاقد »

لغة ممشوقة تحبب إليك لو كنت من قضاة الدرجة الثانية البحث فى الدعوى وتصور لك قاضى الدرجة الأولى رجلاً له قيمته فلا تقبل على هدم حكمه إن أردت الالغاء إلا بحذر واحتراس

وهذا قاض ثالث — مصطفى مرعى — يجيد كتابة الأحكام على حداثة عهده بالقضاء . أنظر كيف انقلب قلم المذكرات الجامح يراعة متزنة هادئة تتخير لكل لفظ موضعه ولا تتزيد فى الأسباب حرفاً . أنظر اليه يطبق قاعدة أن العبرة فى العقود بمعانيها لا بمبانيها :

« وحيث أن الطعن الثانى الذى وجهه المدعى للعقد يتطلب

البحث فيما إذا كان العقد المذكور قد استوفى شروط البيع فيكون ملزماً للبائع أو هو لم يستوف هذه الشروط خلافاً لظاهره فيكون هبة أو وصية يسترها بيع

وحيث أن المحكمة عند إجراء هذا البحث لا تستطيع أن تنظر إلى العقد فى ظاهره دون أن ترجع إلى الظروف التى أحاطت بالمتعاقدين ، لأن العبرة فى وصف العقود بالحقيقة التى قصدها المتعاقدون لا بالصورة التى تدل عليها الألفاظ والنصوص . كما أن المحكمة لا تستطيع أن تنظر إلى العقد المذكور مستقلاً عن الورقة الأخرى التى استصدرها الوالد من ابنه على طول المدة التى تقرب من سنة بين تاريخ العقد وتاريخ الورقة سابقة الذكر لأن تحرير هذه الورقة معناه أن المتعاقدين أرادا أن يكملا بها العقد بحيث يصبح منه جزءاً لا ينفصل ، أو تكون معه كلا لا يقبل التجزئة »

تلك نماذج للغة الأحكام فى يومنا الحاضر أتينا بها على سبيل التمثيل لا الحصر ، فان مجموعات الأحكام زاخرة بثمار قرائح خصبة وأقلام مواتية

« وعلى من مارى أن يقرأ فانه لا رأى لغير مطالع عليم »

وحدث ولا حرج عن أحكام محكمة النقض والابرام فى عهدها الحاضر . ارجع إلى أى حكم تقع عليه يدك من أحكام دائرتيها . اقرأ ما شئت بلا تمييز تقرأ أدباً عالياً قد أسبغ على قضاء المحكمة العليا ما كان يجب له من روعة وجلال

لسنا نحاول هنا تحليلاً لهذه الناحية من أدب العصر ، ولكن من ذا يملك أن يمر دون أن يقف وقفة إعجاب وطرب على مثل هذا القول لمحكمة النقض ترسم به حدود حرية النقد :

« وبما أن ما ذهب اليه الحكم المطعون فيه من أن العرف جرى على المساجلة بالعبارات الحماسية والأساليب التخيلية وألفاظ التهويل والمبالغة والتحذير والترهيب لمجرد التأثير على النفس وحملها على التصديق فى الشؤون التى ليس من المستطاع حمل الناظر على تصديقها بالطرق البرهانية الهادئة . هذا الرأى لا تجيزه محكمة النقض والابرام ، بل إنها تصرح بأن فيه خطراً على كرامة الناس وطمأنينتهم وتشجيعاً للبذاءة ودنس الشتائم . والحقيقة ليست بنت التهويل والتشهير والمبالغة والترهيب بل بنت البحث الهادىء والجدل الكريم . وإذا كان لحسن النية مظهر ناطق فانه الأدب فى المناظرة ، والصدق فى المساجلة »

بل انظر إلى لغة هذه العاطفة الجياشة تجلجل بحق الانسان إذا عذبه انسان لا فرق لدى حارسة القانون بين رجل ورجل :

« وبما أن هذه المعاملة التى أثبتت المحكمة أن المجنى عليه كان يعامل الطاعنين بها هى إجرام فى إجرام ، ومن وقائعها ما هو جناية هتك عرض يعاقب عليها القانون بالأشغال الشاقة . وكلها من أشد المخازى إثارة للنفس واهتياجاً لها ودفعاً بها إلى الانتقام . ولو صح أن المأمور كان يطلب نوم الطاعنين بمركز البوليس كما يقول الشاهد الذى اعتمدت المحكمة شهادته ، وكان هذان الطاعنان يتخوفان من تكرار ارتكاب مثل هذه المنكرات فى حقهما كما يقول وكيل أحدهما فى تقرير الأسباب وفى المرافعة الشفهية ، فلا شك أن مثلهما الذى أوذى واهتيج ظلماً وطغياناً والذى ينتظر أن يتجدد إيقاع هذا الأذى الفظيع به — لا شك أنه إذا اتجهت نفسه إلى قتل معذبه فانها تتجه إلى هذا الجرم موتورة مما كان ، منزعجة واجمة مما سيكون ؛ والنفس الموتورة المنزعجة هى هائجة أبداً لا يدع انزعاجها سبيلاً إلى التبصر والسكون حتى يحكم العقل هادئاً متزناً متروياً فيما تتجه اليه الارادة من الأغراض الاجرامية التى تتخيلها قاطعة لشقائها . ولا شك بناء على هذا أن لا محل للقول بسبق الاصرار ، إذ هذا الظرف يستلزم ألا يكون لدى الجانى من الفرصة ما يسمح له بالتروى والتفكير المطمئن فيما هو مقدم عليه »

نظرة الى الأمام

والآن وقد استدبرنا حياة اللغة القضائية كما كانت ، واستعرضنا بعض الأدلة القائمة على نهضة حالية لا تنكر ، نود لو استطعنا أن نزيح طرفاً من سجف المستقبل فنطل على ما يعده الزمن لهذه اللغة الكريمة العزيزة

كأنى بها وقد راق لها الجو وانبسط أمامها ميدان العمل فسيحاً غير محدود ، كأنى بها وقد استولت على مشاعر جيل جديد ممعن فى الأدب وثقافة العصر ، فراح يفكر فيها ويكتب ويؤلف ، وكأنى بهذا الجيل وقد ضرب بسهم فى جهود البشرية نحو الكمال ، وكأنى بمصر وقفت على قدميها فى طليعة العالم العربى تبادل الغرب ثقافة بثقافة وتبيعه علماً بعلم

لست بحالم . إنى أرى هذا اليوم رأى العين ! .

(تم البحث)

زكى عريبى

٢ - نهضة المرأة المصرية

وكيف نوجهها للخير العام

للأستاذ فلكس فارس

نحن فى الشرق ، وما أعنى سوى الشرق العربى ، مجلى ثقافتنا وقوميتنا ، لا يهمنا سوى إيجاد الطفل ، ولم نزل مسيرين بعقلية القبائل الغازية فنطمح الى ايجاد الأطفال دون مبالاة بما تؤثر منابتهم عليهم

إن خير ما تستثمر به المرأة للخير العام إنما هو استثمارها أطفالاً يصلحون لتكوين الأمة القوية أجساماً والسليمة عقولاً ، وما النهضة المتجلية بين العدد القليل من بنات الشرق بالنهضة التى يصح أن نراها نهضة عامة متغلغلة فى قلب الشعب نفسه ؛ فالمجتمع لم يزل فى الشرق العربى بأمره يتبع الافراط والتفريط فى تكوين الأسرة ، فالمرأة عندنا اثنتان : ضحية استبداد الرجل ، وضحية الضلال والغرور بنفسها لضعف الرجل إزاءها

ليس لنا إلا إلقاء نظرة على ما حولنا ليأخذ بصرنا مشهدين هما مقتل الأمة وعلة دمارها

المشهد الأول : شاب يفتش عن فتاة لتكون أماً لبنيه ، قيل له إن فى إحدى الأسر الشريفة فتاة بيضاء اللون أو سمراء ، واسعة الأحداق طويلة القامة فاتنة ساحرة فسعى فى أثرها متوسلاً الى أهلها بكفاءته ، فأصبح زوجاً للمجهولة ، نكرة ضمت الى نكرة . . . . فلا يطول الزمن حتى يظهر التنافر الخفى الكامن فى الفطرتين فتبدأ المآسى التى تختتم على الأغلب باهداء المجتمع أطفالاً تيتموا وآباؤهم وأمهاتهم لا يزالون على قيد الحياة . وهنالك الأسر المتعددة لرجل واحد امتنع عليه العدل المشروط فأهدى المجتمع الأخوة الأعداء ، وما بر بابيه من كان لأخيه عدواً . . .

المشهد الثانى : فتاة فى ربيع الحياة ، مقصوصة الشعر ، غلامية تصادر وتباطن أى رجل كان ، مهتوكة الستر ، محولة هيكل الانسانية الى مهبط غواية وطيش ، إن لم يتجاوز عدد مراقصيها المئات ، عدت مقصرة فى ميدان الثقافة ، متأخرة فى حلبة الحضارة والارتقاء ، لا يصل قلبها الى من تقف عنده وتختاره زوجاً لماله أو لجاهه إلا بعد أن يكون هذا القلب قد تقطعت أعشاره خفوقاً ، فهى إذ ذاك كالنعجة التائهة راجعة الى حظيرتها بعد أن تركت قطعاً من صوفها ، وقد تكون تركت قطرات من دمها على أشواك الطريق ...

هى فى بيت الزوج لنفسها أولاً ، وكل غيرة تبدو منه إنما تتجلى لديها كفراً بالتمدن وتقهقراً معيباً ، تعودت أوتار قلبها أن تشد جواباً لكل قرار ، فهى تدفع بالايقاع الموقت مرافقة رنين أى وتر تستعذب نغماته ، روحها شاردة مضللة ، فهى منبت أطفال يأتون الحياة مروعين ، فى أعصابهم تشوش ، وفى أدمغتهم اختلال . . .

هذه خطوط كبرى لرسوم تمر مشاهدها أمامنا كل يوم فى هذه البلاد الشرقية ، وهذه المشاهد هى مركز العلة فينا ومصدر كل ما نشكو من تأخر وانحطاط

إن سيادة الرجل على المرأة لا تعنى قتل الحوافز الطبيعية لتضليل الانتخاب الخفى وفيه سر تحسين الأنسال ، كما أنه لا يعنى استضعاف الرجل أمامها لتجعل نفسها ملهاة وألعوبة بين أيدى الفاحشين من الرجال

لقد ادخلت مدنية الفرس على الحضارة العربية بدعا لابد من التحرر منها ، وجاءت المدنية الغربية تستهوى مجتمعنا بما اتضح زيفه لدى مفكرى الغرب أنفسهم لخروجه عن المحور الطبيعى للحياة ، وهذا الذى يراه أنصار الطفرة خليقاً بالاعجاب من حرية المرأة ، المتطرفة ، إن هو فى نظرنا إلا عنوان عبوديتها وذل الرجل المتساهل فيها

إن آدم وحواء أخرجا من الجنة وكل منهما حامل ناموس حياته ، وسواء أكان ما جاء فى التوراة تاريخاً حقيقاً للمؤمنين أم كان أسطورة خيالية لغيرهم ، فان الفكر ليجد فيه النظام الذى لا تستقر الانسانية على سواه

لقد تمردت المرأة فى العالم الحديث على وظيفتها الطبيعية وصاح كثيرات من الكاتبات فى وجه الدنيا قائلات : لا نريد أن يحسبنا الرجل آلة للاستيلاد ، نحن مساويات له فى مجال التفكير والعمل . وكهربت هذه الكلمات أعصاب العدد الأوفر من النساء فتمردن على الأمومة واندفعن مطالبات بالعمل الحر استناداً إلى مبدأ الشخصية قبل النوع ؛ وهكذا نشأ العراك بين

الرجل والمرأة فى ميدان الأعمال وفى مجال الحقوق والواجبات

إن الطبيعة نفسها قد قسمت العمل بين الرجل والمرأة فألصقت كفه بالمحراث وألصقت صدرها بالمهد . فحسبت المرأة أن فى موضعها كل العبودية ، وخيل لها أن فى مركض جهود الرجل كل الحرية ، فساخت صدرها عن مستقر الطفل واندفعت إلى المحراث ، فتعطل الحرث العميق فى الأرض منابت القوت ، وساد الظلام على البيت منابت الأطفال

إننا نسمع المعترضات يصرخن قائلات : إننا لا ننازع الفلاح محراثه ، بل ننازع الرجل حقنا فى الاشتراك فى الأعمال التى تقوم المدنية عليها ؛ نريد التغلغل فى دوائر الحكم والادارات والمصالح فان الله لم يحرمنا القوة الفكرية التى جاد بمثلها على الرجل . ونحن نجيب السيدات بحقيقة إن أنكرها العاملات منهن كنّ كاذبات مكابرات ، فنقول وهل هذه الأعمال كلها على اختلاف مظاهرها سوى محراث يحتك بالأرض القاسية وهو يرتوى بعرق العبودية والشقاء ؟ أليس الرجل فى الحكم والادارة والتجارة والصناعة مرتبطاً بمحراث العبودية لهذا التراب يعالجه لاستخراج الخبز بعرق الجبين ؟ وهل الأم تملأ البيت نوراً وحكمة وشعراً مستندة إلى ذراع زوجها ومنحنية على سرير طفلها أقل مجداً أمام الحياة من أكبر رئيس لأعظم مصلحة من مصالح الشعوب ؟

ليس فى العالم رجل عامل ، أيا كان عمله لا يخضع إرادته لمن فوقه ولمن حوله ، بل ولمن دونه فى مراتب الهيئات العاملة ، فليس ما تتوهمه المرأة حرية فى أعمال الرجال إلا عبودية لهم . على أنه إذا تسنى للرجل أن يحتفظ بشيء من الكرامة لنفسه فى هذه العبودية ، فانه ليمتنع على المرأة ألا تصطدم فى مواقفه باهانات أخف منها أثقل ما يمكن أن يلحقها من القيمين عليها ، آباء أو إخوة أو أزواج

لقد كان حق المرأة فى جميع العصور تابعاً لحق الرجل وهو يسود عليها ، إلى أن طرأ على أوروبا انقلابها المعروف فى بداية القرن التاسع عشر ، فنشأ فى المجتمع حق جديد غريب فى عناصره ، هو حق المرأة منفصلاً عن حق الأسرة التى يرأسها الرجل ، وهكذا شاهدت الشمس ما لم تشهد مثله فى أى عصر من العصور الغابرة : شاهدت النوع البشرى منشقاً إلى فريقين متناظرين يتطاحنان فى الميادين العامة ، بعد أن كان هذا النوع البشرى إنساناً واحداً من جسدين مندغمين ينبثق من اندغامهما فجر الحياة

أما منشأ هذا التطور فانقلاب خطير لم يصور فجائعه أحد كما صوره الشاعر الخالد الفرد دى ميسيه ، فاذا ما اقتطفنا بعض عباراته لا نخرج عن دائرة الموضوع الذى نحاول الإلمام بأطرافه

قال : « فى إبان الحروب الامبراطورية ، بينما كان الآباء والاخوة فى بلاد الألمان قذفت الأمهات المضطربات بسلالة شاحبة جاءت الوجود عنيفة مستعرة الاحشاء

تلك سلالة تمخضت بها الحياة بين حربين ، وربيت فى المدارس على دوى الطبول ، فكان إذ ذاك ألوف من الأولاد يحدج بعضهم البعض الآخر شزراً وهم يمرنون على القوة عضلاتهم الضعيفة ، وكان الآباء الملطخون بالدم يلوحون للأبناء من حين إلى حين فيرفعونهم لحظة إلى صدورهم المحلاة بالذهب ثم يتركونهم إلى الأرض ويعودون ممتطين صهوات الجياد »

وبعد أن وصف ميسيه سقوط نابوليون مدفوعا بجناحى القدر إلى أغوار الأوقيانوس البعيد ، قال :

« وجرت فى مجتمعات باريس أمور مروّعة ، إذ انشق الرجال عن النساء ، فلبس النساء البياض كالعرائس ، واتشح الرجال السواد كالأيتام ، ووقفت الفئتان تحدج إحداهما الأخرى بنظرات العداء . انفصل الرجال عن النساء فتولد عن هذا الانفصال شيء أشبه بالنصل القاطع لا شفاء لجرحه ، وما ذلك النصل إلا عاطفة الاحتقار

فقد الرجل حبّ المرأة ، فاندفع إلى الخمر ليستعيض عما فقد ، ونظر الناس إلى الحب نظرهم إلى الدين كأن كليهما توهم واغترار ، وغصت المواخير بالرجال فأصبحت الفتاة مهملة بعد أن كانت تغذى الشبيبة بحبها الطاهر السامى ، وعندما احتاجت هذه الفتاة إلى غذاء ورداء باعت نفسها وبذلت عرضها لتعيش . إن الشاب الذى ترك الفتاة وكان يمكنه أن يستنير وإياها بأنوار شمس الله ، ذلك الشاب الذى كان فى وسعه أن يقتسم مع حبيبته لقمة الخبز مبللة بعرق جبينه ويتمتع بحبها فى فقره ، أصبح مستفرشاً لدمن الانسانية فى مواخير الفسق حيث يتلاقى بالفتاة التى تركها وهى مثقلة بالأوصاب ، شاحبة مضعضعة ، يجول على فمها الجوع ويرعى قلبها التبذل والفساد . . »

(يتبع) فلكس فارس

في الأدب الانكليزي

٤ ـ هل من انتحـــال في الأدب الانكليزي ؟

للسيد جريس القسوس

— ٧ —

تشاترتن والانتحال

لم يكن أحد من معاصري تشاترتن يشك في صحة ادعائه أن هذه الأشعار منسوبة إلى الكاهن رولي ، بل كلهم يوقنون أن تشاترتن إنما عثر على هذه المنظومات في مخطوطات الكنيسة وسجلاتها ، فنقحها ونشرها في مختلف الصحف ، معلناً أنها اكتشافات أدبية جديدة

لهذا كان في برستل أديبان كبيران من هواة الأدب الرولي ، هما جورج كتكوت Catcott وهنري برْجمْ Burgum ، هذان حفزهما الولع بهـذا النوع من الأدب إلى جمع كلّ ما يعزى إلى ذلك الكاهن الخيالي ؛ من ذلك مخطوطة أدبية وضعها تشاترتن ، ونسبها إلى رولي ، فابتاعها برْجمْ منه بخمسة شلنات ، ظاناً أنها بقلم الكاهن رولي

ولقد بلغ بتشاترتن طموحه الأدبي إلى مراسلة الصحف ، سنة ١٧٦١ ، حين بلغ السابعة عشر من العمر ، أن أعلن اكتشافه لقصائد شهيرة « من نظم كاهن من كهنة برستل ، اسمه رولي ، عاصر هنري السادس ، وادوارد السابع » ، لكنه لم يتاقّ جواباً مرضياً شافياً ؛ لهذا بعث إلى الأديب النبيل هوراس ولبول Horace Walpole مؤلف قصة «قلعة أوترانتو» Castle of otranto ينبئه باكتشافاته الأدبية . فردّ عليه الأديب ولبول رداً حسناً ، يستزيد فيه معرفة عن ناظم هذه الأشعار ، وعن مقدارها ، واعداً أن ينشرها على نفقته الخاصة

وما كان من تشاترتن إلا أن عاد فبعث اليه بكتاب رقيق ، يشرح فيه بؤسه وفقره ، ويتوسّل إليه في إيجاد عمل له ، يستطيع به أن يسد عوزه ؛ وأرفق ذلك الكتاب ببعض الأشعار الرولية الممتعة . غير أنه ما كاد ولبول يتسلم هذه الأشعار ، حتى سرّ بها سروراً دفعه إلى إطلاع أصدقائه عليها ؛ من هؤلاء الشاعران الكبيران طوماس جري Gray وميسن Mason فأدهشهما الأسلوب الرائع ، والفن البديع ، والنفَس الشعري العالي إدهاشاً خالطت معه أفكارهما الريبة في أمر انتسابها الى كاهن قديم العهد . فكان ذلك بدء المشكلة الرولية في عالم الأدب الانكليزي

لكن المشكلة لم تتطور وتتعقد إلا بعد وفاة تشاترتن ، فقد جمعت هـذه الأشعار ونشرت في مجلد خاص ، كما بينا ، سنة ١٨٠٣ ؛ فأحدث نشرها ضجة صاخبة في عالم الأدب لم تخمد حتى يومنا الحاضر

عندئذ بادر علماء اللغة إلى دراسة لغة هذه الأشعار دراسة وافية دقيقة ، استطاعوا بها أن يكشفوا بعض الكشف عن حقيقة الأمر . فقد توصلوا في بحثهم الى الاعتقاد الجازم بأن لغة هذه الأشعار لا يمكن أن تنسب إلى الشاعر رولي ، إذ كيف يصح ذلك وكثير من مفرداتها لم تتسرب إلى اللغة الانكليزية إلا بعد القرن الذي عاش فيها الكاهن رولي ؟

وأخيراً استدلوا من بحثهم العميق على أن تشاترتن كان يعتمد في كتابة أشعاره على قاموسين في الاشتقاق للعالمين اللغويين ييلي Nathan Bailey وكَرْسي Kersey . فقد كان دأبه في بدء الأمر جمع كل ما تقع عليه يده من المعاني والمفردات القديمة البالية ؛ ثم كان ينحت ما يستطيع نحته منها ، إذا رأى أن الوزن والقافية لا يستقيمان بغير ذلك

ولقد أدرك علماء اللغة ، وخاصة العلامة اللغوي الشهير ولتر سكيت Skeat أنه كان يكتب أولاً بلغة عصره ، وبعد ذلك يحولها بمضاعفة حروف المفردات وغير ذلك من السبل الحاذقة الى أسلوبه ولهجته الخاصة ، بطريقة يحافظ فيها على جمال الأسلوب الشعري وروعته الفنية

ولقد عثر علماء اللغة في شعر تشاترتن المنسوب الى رولي على اقتباسات من شعر سبنسر Spenser ، وشكسبير ، ودرايدن Dryden وبوب ، وقري ؛ لكنها موضوعة بطريقة لا يشتم منها سرقة أدبية ، وإنما تدل على ذاكرة حادة ، وعتْ هذه

الأشعار ، وأرسلها فى شتى المناسبات ، بطريقة يتعذر معها على القارئ التمييز بين ماهو لتشاترتن ، وما هو لغيره . وذلك مما يدل كل الدلالة على أن هـذه الأشعار من نظم تشاترتن ، لا الشاعر الخيالى رولى . إذ كيف يصح ذلك ، ورولى — فى رأى تشاترتن — عاش فى عصر متقدم على هؤلاء الشعراء جميعاً ؟

ومما زادهم ريبة وشكا فى أمر هذه الأشعار الرولية ، إدراكهم — على ممر الأيام — حذق تشاترتن ومهارته فى تقليد أساليب الكتاب والشعراء المعاصرين تقليداً يتعذر معه على القارئ التمييز بين أدب تشاترتن وأدب غيره . فكان مثلاً ينشر فى مجلة Town & Country Magazine ومجلة Middlesex Journal مقالات رائعة ، حاكى فيها أسلوب جونيس Junius [1] محاكاة مدهشة ؛ ليس هـذا فحسب ، بل دفعه حذقه فى فنون الكتابة وأساليبها الشعرية والنثرية إلى تقليد سمُلِت Smollet [2] وتشارتشل Churchill [3] ، ومكفرسن فى أوشان Ossian ، وبوب فى أسلوبه الكلاسيكى ، وقرى وكولنز Collins [4]

وقد طرق — فوق ذلك — معظم أبواب الأدب فخلّف آثاراً قيّمة فى الرسائل السياسية ، وأناشيد الرعاة Eclogues ، والشعر الغنائى Lyric والهجائى ، والرواية الملحّنة Opera ومن أشهر آثاره فى هذا الباب أوبرا (الثأر) The Revenge

والحاصل أن دراسة تطوّر اللغة ، واشتقاق مفرداتها ؛ وعثور العلماء على معان فى شعر تشاترتن مقتبسة من شعراء متأخرين ، وإدراكهم حذقه فى محاكاة الأساليب والفنون النثرية والشعرية ، ونفى المؤرخين زعم تشاترتن بوجود كاهن اسمه رولى عاش فى القرن الخامس عشر وعرفه الناس واستمعوا إليه — جميع هذه أظهرت بجلاء واضح بطلان زعم تشاترتن ، ودلّت دلالة صريحة أن هذه الأشعار لم تكن فى الحقيقة إلا من نفثات يراعة ذلك الشاعر الشاب ، وأنه إنما اخترع الكاهن رولى اختراعاً لتمثيل فكرة أو نحو خاص فى حياته ، أو ليلهى به الناس ، وليُرضى به حاجة أدبية أوخلقية فى نفسه

عندئذ سما تشاترتن فى أعين الأدباء وكبر ، وأصبح ديوانه خير ما يمثل عبقرية الشباب فى ميدان هذا الفنّ الجميل

الكرك — شرق الأردن — جريس القسوس

مصادر هذا البحث

1. Encyclopedia Brit.
2. Samuel johnson's journey to the Western Island of Scotland
3. Dr. D. Hyde's Who were the Finians ?
4. Alexander Macbian's Transactions of The Gaelic Society of Glasgow
5. Campbell of Isloy's Popular Tales of the west Highlands
6. Sir J. Sinclair's Dissertation on the authenticity of the poems of Ossian (1806)
7. The poems of Ossian, tr. by James Macpherson, with notes & introduction by William Sharp (Edinburgh - 1926)
8. Charles D. Warner's Library of the World's best Literature, Voll. III
9. Prof. Byron Smith's Lecturesoon the Hist. of Eng. Lit. in the American University of Beirut.
10. Harvey's Oxford Companion to Eng. Lit

(١) هو الاسم المستعار للكاتب السياسى المجهول فيليب فرنسيس Francis (ن ١٨ — ١٨١٨) مدبج تلك المقالات السياسية ، التى هاجم فيها الحكومة مهاجمة عنيفة ، أحرجت مركزها ، وأوقعتها فى حيرة كبيرة

(٢) هو الكاتب القصصى الشهير ، عاش (١٧٢٠ — ١٧٧١) ؛ ومن أشهر قصصه (رودريك راندم) Roderick Random (وهمفرى كلنكر) Humphry Clinker

(٣) هو شارل تشارتشل (١٣٧١ — ٦٤) ؛ شاعر هجاء مقذع من أشهر قصائده The Rosciad هجا بها ممثلين معاصرين

(٤) قرى وكولنز من شعراء القرن الثامن عشر المجيدين ، ومتزعمى الحركة الابتداعية فى الأدب الانكليزى . اشتهر الأول بقصيدته (مرثاة فى ساحة الكنيسة) Elegy in the Country Churchyard والثانى بأغانيه Odes المتعددة وخاصة « أغنية الليل » Ode to Evening

الشاعر وسريره

للشاعر الحضرمى على أحمد باكثير

فى عزلتى — والصمت فى أفقها وفى ثراها الوحشة القاتله —
أدير عينىّ فما إن ترى عيناى إلا ظلمة شامله !
تقطعت فيها خيوط المنى يا ويلتا .. حتى المنى الباطله !!
كنت بها أمرح فى جنةٍ تسخر منها النُوَب الهازله
وحين غابَتْ فتلمستها دوّتْ بسمعى ضحكة هائله !

***

عدتُ بها أحمل جَنْبى إلى سريرىَ المضطرب الحائرِ
كبائس أضناه فرط الطوى مرّ بقصرٍ شامخٍ عامرِ
خارت به أركانه فارتمى وارحمتا للحَدَث الخاثرَ !
يرنو إلى النور.. ويُذكى الأسى فى قلبه قهقهةُ السامر !
مثل أغانى الموت طنانة فى أذن المحتضر البائر !

***

ويح سريرى ! هو بى مشفق يوسعنى عطفاً وتحنانا
يحضننى جذلان ... حتى إذا أدرك مابى ارتدّ أسوانا !
كم وَدّ أن يسلس جنبى له فما ارتضى جنبى ولا لانا !
لا . . يا سريرى ، خلنى والأسى !
نمْ . لا تُبَلْ فوقك سهرانا !
ما كان أحراك بتنفيس ما يبهظنى لو كنتَ إنسانا !

***

أقسُ على جنبى ترفّه به عنى ، ففى لينك آلامى !
يُذكِرُنى لينَ الرضى والهوى ولين آمالى وأحلامى !
ولن أُعاقَ ما تذكّرتُها نا كئةً فى قلبى الدامى !
أعدّ ساعاتىَ . . . يا ليتنى أسهو فلا أحسب أعوامى !
يا ليت لليأس سبيلا إلى قلبى فأَنْوَى سُخْر أيامى !

***

يا ليت لليأس سبيلا إلى قلبى فأحيا بفؤاد خلى
واعجبا منّىَ أستنجد الْ يأس كأنّى لم يمتْ مأملى !
ما أنا فيه اليأسُ ! لو لم أكن عن راحة اليائس فى معزل !!
مصيبتى هـذا الشعور الّذى يربط ماضىَّ بمستقبلى
مَنْ لى بإنسائىَ نفسى ، فلا أذكر ما أسمى : خالد أم على ؟!

نجمة المساء[1]

L'étoile du soir.

لألفريد دى موسيه

ترجمة أحمد فتحى مرسى

يا رسولَ السماء فى ذلك اللَيْ لِ ويا بهجة الظلام المهيبِ
من سُجوفِ المساء جبهتكِ الغرّ (م) اء لاحت تنيرُ بعد الغروبِ
ما الذى ترقبين — من قصركِ الأز
رق — فى ذلك الفضاء الرحيبِ

***

هدأت ثورةُ الرياح وقرّت وبدا السكونُ غارقاً فى السكونِ
وغصون الرياض فى الليل تبكى فيهزُ الربى بكاه الغصونِ
والفراش الجميلُ فى هدأةِ اللَيْ لِ يجوب الحُزونَ إثْر الحُزونِ

***

هو ذا ضوؤكِ البهيج تجلى وبدا زاهياً على الآكامِ
أنت فى الليل دمعة من لجينٍ تتلالا على رداء الظلامِ
ترقبين المروحَ والراعىَ الشيْ خَ يجوب الربى مع الأغنامِ

***

ما الذى تنشدين يا نجمتى الزه راء فى ذلك الوجود الغافى
فوق هذى التلال قدبتُّ أرعى وجهك الضاحك الجميل الصافى
أظلَمَ الليلُ غير نظرتك الخيْ رى تجلّى وضوئك الرجّافِ

(١) من ديوان « ألحان الفجر » يصدر قريباً

فلسطين

للسيد جورج سلستى

إيْ فلسطين ، قطعةً من سماء كنتِ قبلاً ، وجنّةً من رُواء
تملأ العينَ ساحراتُ مغانيـ ـك وتسبى الفؤاد منكِ المرائى
فالجمالُ المُنافُ ماشعَّ إلاّ تحت أجوائك الحسانِ الوِضاءِ !
يطفحُ السهلُ منكِ بالرونق الضحـ ـيان ، والسفحُ بالسنى والسناء
وترفُ الأمجادُ فوقكِ يا أرضَ النـ ـبوءاتِ ، رفّةَ الأضواء
وجلالُ الماضى المضمّخ بالسؤ ددِ والعزِّ والعلى والإباء !

القصص

قصة مصرية

قبلت زواجها

للأستاذ دريني خشبة

(الحوار فى الأصل باللهجة المصرية)

جلس (عم حامد) على حفافى الماء يغسل آثاراً من الدم الأحمر القانى فى ملابسه ، ثم توضأ وولى وجهه شطر القبلة وطفق يصلى . . .

ولكنه كان يصلى صلوات غير منتظمة ولا متساوقة ... فتارة كان يطيل الركوع جداً ، وتارة كان يخطفه خطفاً ... ومرة كان يطيل السجود حتى يظن أنه نائم ، ومرة أخرى كان لا يكاد يمس الأرض بجبينه حتى يستوى جالساً ؛ وكان مرة يصلى ركعة واحدة ويسلم ، ثم يصلى ركعتين أو ثلاثا أو أربعا . . . ومرة كان يستمر فى صلاة طويلة لا تكاد تنتهى ! . . . عشر ركعات أو خمس عشرة ركعة . . . وهكذا ! !

وكان يعود إلى الترعة فيتوضأ ويتوضأ ، ثم يعود فيصلى ويصلى . . . وكان يرفع كفيه إلى السماء ، ويعلق عينيه المغرورقتين بزرقتها ، ثم يلهج بذكر الله ، ويصلى على نبيه ، ويكثر من قول : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! ! » ولكنه كان يكثر كذلك من قول : « عمر ، عمر ، عمر ! » ثم يبكى بكاء مرا !

وكان كلبه الأمين يُقعى بعيداً عنه ، وينظر اليه ويتعجب !

— « من عمر يا عم حامد ؟ السلام عليكم ! »

— « أوه ! عبد الله ! تعال يا عبد الله نصلى ركعتين لله ! »

— « أى صلاةٍ الآن ؟ باق على الظهر ساعة يا عم حامد ! »

— « ساعة على الظهر ! والله يا بنى أنا فاكر أن الشمس لم تطلع بعد ! »

— « لا يا عم حامد ! نحن فى الشتاء والغيوم تحجب السماء ، ولكن من عمر الذى تناديه يا عم حامد ؟ »

— « عمر ؟ عمر من ؟ عمر بن الخطاب ! »

— « وماذا تريد من عمر بن الخطاب فى هذا البرد القارس ؟ »

كم تهاديتِ فوقَ هام التواريـ ... ـخ ، دنيا سحريَّةَ الأنحاءِ
يلعبُ النور فوق ضاحى صياصيـ ... ـها ويلهو على ثرى الأوْداءِ !
كم تجلَّيتِ فى الوجود سماءً ... رصَّعتْها كواكبُ الأنبياءِ !
تنفحُ الناسَ بالعدالة والسلا ... م وبالحلم والتقى والإخاءِ !

***

إنْ فلسطينُ ، مهبطَ الوحى والإلـ ... ـهامِ والدينِ والهدى والحياءِ
جنةً كنتِ فاستحلتِ جحيماً ... بوجود اليهودِ والأوصياءِ !
كنتِ بالأمسِ ملْءُ باحاتكِ السلمُ ... فأصبحتِ ساحة الهيجاءِ !
فثراكِ الفسيحُ قد غصَّ « بالتَنْك » ، ... وبالطائراتِ رحبُ الفضاءِ
وتبارى بأهلك العُرْب تمثيـ ... ـلاً وفتكاً ، جندُ الوصىِّ المرائى !
فاستحلوا قتلَ البرئ ، فما يُبْـ ... ـصَرُ إلاَّ مضرَّجٌ بالدماءِ
وأديمٌ مخضَّبٌ وصعيدٌ ... قد علتْهُ نثارةُ الاشلاءِ
إن تحت الدم المرقرقِ أفوا ... هاً وطئَ الاشلاءِ رجْعَ نداءِ
تستفزّ النفوس للأخْذ بالثأ ... رِ وللإنتقامِ للشهداءِ !
والميامينُ لا تنامُ على الضيـ ... ـم ولا تستكينُ للأعداءِ
ودماء الأحرارِ مَهْرُ المعالى ... وصَداقُ الحريَّةِ الحمراءِ ! !

***

إصعدى ، إصعدى ، فانَّ الضحايا ... يا فلسطينُ سُلَّمُ العلياءِ

— « لا شيء ... فقط ... ذكرته في جاهليته وقد خرج الفجرَ ليدس ابنته في التراب وكانت الطفلة تعبث بشعر ذقنه فينظر إليها ويبكي .. مسكين سيدنا عمر ! كان له حق ! كان له حق

— « كان له حق حين ذهب يدفن ابنته حية ؟! ياللقسوة ؟ »

— « والله كان له حق يا عبد الله ! البنات ! آه من البنات يا بني ! »

— « استغفر الله ياشيخ ! مالك مضطرباً هكذا يا عم حامد ؟ »

— « أستغفر الله ! تصحيح ! أستغفر الله ، أستغفر الله »

— « الله أكبر . . . ما هذا الدم يا عم حامد ! »

— « دم ! أيّ دم ؟ آه ! هذا من جرح بسيط في ذراعي يا عبد الله »

— « وماذا جرح ذراعك ؟ »

— « وقعت على هذا الحجر وأنا أتوضأ ، وكانت عنده زجاجة ... هل بذرتم البرسيم ؟ »

— « بذرنا البرسيم ؟ نحن (نعلف) بهائمنا منه وأنت تسأل عن بذره ؟ ماذا بك يا عم حامد ؟ »

— « لا شيء ! اتركني يا عبد الله ! أود أن أنام قليلاً ، أنا متعب يابني ، لم أنم طول الليل ... »

— « السلام عليكم يا عم حامد ، كان الله في عونك ! كان الله في عونك يا شيخ »

***

وانصرف الشاب الفلاح وفي قلبه وسواس يشغله ؛ فهو لم يعهد عم حامد ، الرجل الطيب ، كما عهده اليوم شديد الحيرة بادي الارتباك مغبر الوجه ؛ وعهده به الشيخ الهادئ الدمث المشرق الجبين الضاحك المُحَيَّا ؛ ولكن الشاب مع ذلك لم يرَ أن يلحف حتى يقف على سر الفلاح الشيخ ، الذي لا يوجد في القرية بأكملها من يصلي أكثر منه ، أو يعطف على الضعفاء والمحتاجين كما يعطف هو على الضعفاء والمحتاجين . . .

ثم تعب عم حامد من كثرة ماصلى وناجى ربه ، فنام على الحشيش اليابس المنتثر في المصلى ، وطرح فوقه ذلك (البشْتْ[1]) الذي صنعه بيديه من الصوف الغليظ الذي لا يُرى الشيخ إلا وهو يغزله ، واسترسل في سبات عميق ممتلئ بالأحلام المخيفة والرُّؤى الدامية وأقبلت فتاة جريحة ... فلاحة ساذجة ، تضع فوق رأسها (طرحةً) من الشاش الأسود مُسبلةً على العنق الطويل المربوط برباط كبير من الشاش الأبيض انتفخ القطن من تحته ليدل على جرح كبير في مكان خطر ؛ وربطت كذلك ذراعها اليسرى كما ربطت عنقها

أقبلت هذه الفتاة نحو المصلى ، ووقفت عند رأس عم حامد تنظر إليه في ذلة وانكسار ، وترسل من عينيها الدعجاوين دموعاً كالمطر حارّةً سخينة كأنها تفور من قِدْر تغلي ... وكانت ثيابها البسيطة تزيد في جمالها الهادئ الحزين ، وتبرز من الصدر ثديين ناهدين ينحدر عليهما الجلباب الفضفاض فيجعلها كتماثيل مختار ، وتبدى من أسفل قدمين صغيرتين بلّوريتين هدأ على كعبيهما خلخال كبير فضي تمتاز به أقدام الغيد الأماليد من قرويات مصر ، وهو دائماً فتنة الأنظار في الريف المصري . على أن وجهها الشاحب المنزعج كان هو الآخر فتنة الفاتن ! حاجبان رفيعان مقوسان تحت جبين ناصع فوق عينين كبيرتين حوراوين ، تضاعف سحرهما أهداب طويلة كحيلة ، تلقي ظلالاً من الجمال المصري على الخدين البارزين المثمرين ... كأنما خلقها الله محوراً لأمور جسام تقع في ذلك البيت الصغير من تلك القرية الكبيرة البارزة في ريف المنوفية ، توكيداً لخلق الفلاح المصري الذي يقدس العفاف في الفتاة ، ولا يسمح أن يُفتَحَ قلبها إلا عن طريق أبويها

وكان عم حامد يتقلب على شوك أحلامه ، ثم استيقظ فجأة ليرى فوق رأسه « ثُريّا » ابنته ... ثريا ... التي حسب أنه قتلها وعشيقها بمحشّته الكبيرة ..

وفرك عينيه مرتين أو ثلاث مرات ، ولكنه تأكد أنها هي ... هي ثريا من غير شك

— « بنت ؟ ... »

— « ... ؟ ... »

— « ثريا ؟ ! ؟ »

— « أبي . . . »

— « وكيف تركت محمود ؟ »

— « حالته خطرة جداً ... قد يموت بعد ساعات »

— « آه . . . يارب . . . يارب . . . يا لطيف ! غفرانك يا لطيف ! »

وصمت لحظة ، ثم نادى ابنته ...

(١) هذا اسمه المصري ويسمى بالعربية (البت) بغير شين ذكره الثعالبي في فقه اللغة وجاء في اللسان والقاموس

— « ثريا . . . سامحيني يا ثريا . . . سامحيني يا ابنتي . . . سامحيني ... قولى الله يسامحك يا أبي ... قولى ... الله ! لمـا ذا تبكين ؟ الجروح تؤلمك ؟ لا ، لا ... ستشفى هذه الجروح إن شاء الله ... تعالى يا ثريا ، تعالى ، اجلسى الى جانبي ؛ تعالى ، أنت خائفة ! اطمئنى يا بُنَيـة ! اطمئنى ... لقد غسل دمك ودم محمود كل ما كان فى قلبي من غيظ ... الله يشفيه محمود ابن خالى ، هل كنت تحبينه يا ثريا ؟ »

— « والله يا أبى لقد كان يبشرنى بأنه سيخطبنى إليك اليوم ! »

— « لا حول ولا قوة إلا بالله ! ولـكن ! على كل حال كان يجب ألا تسمحى له بتقبيلك ...

أنا ظننت ، لاسمح الله ، أن بينكما ... (شيئاً حراماً) ! »

— « لا والله يا أبى ، ما كان بيننا إلا كل طهارة »

— « لا عليك يا ثريا إذن ... الله يشفيه يا بنية ويتزوجك وتتمتعان بشبابكما ... لا حول ولا قوة إلا بالله ، أنا (أخطأت) لا ريب فى ذلك ... صحيح ، أنا تسرعت...ولـكن الحمد لله ... لا بد أن أصلى ركعتين شكراً لله على سلامتك يا بنتى ! »

وذهب عم حامد الى الماء وتوضأ ثم راح يصلى صلاة خاشعة هادئة منظمة

* * *

لقد كانت خلية من النحل تطن فى رأس ثريا من أجل محمود ، فلقد كانت تحبه ، بل تعبده ؛ ولقد كان يحاول أن يحملها بين ذراعيه الواهيتين الضعيفتين بعد أن فاجأهما عم حامد يتناجيان فى منزله الخالى ، فضربهما بمحشته تلك الضربات التى حسبها قضت عليهما ، وغسلت عن عرضه عار الفضيحة التى زعمها تلحقه فى ابنته ... ولـكن محموداً ، القوى الجبار ذا العضل ، عجز حتى عن حمل نفسه ، لأن جروحه كانت أ كبر ، ولأن الدماء ظلت تتفجر منها وتنهمر ، فسارت ثريا الى جانبه تسنده على رغم ضعفها وإعيائها حتى بلغا دار حلاق الصحة القريبة ، حيث وجداه يطبب فلاحين كثيرين ثمة ، وحيث كان ابنه يضع (المَدَق) على أورام المجاثر ، أو يعالج الحُمص فى مرضى مساكين

— « عم أبا طالب . . وحياة أبيك تلحق ، اربط جروح ثريا ، و ... جروحى بعد ذلك ... »

— « لا ... لا ياعم أباطالب ... الحمدلله ... عليك بمحمود أولاً ! »

ولم يكن أحد من المرضى الكثيرين فى دار عم أبى طالب من أهل القرية لحسن حظ الجريحين ، فكانا يتكلمان بجرأة وصراحة ، وأراد عم أبو طالب أن يصيد سمك الجنة من دماء الفتى والفتاة ، فقال : « الله أ كبر ، ماهذه الجروح ؟ هذه جناية بالتأ كيد ! لابد أن أُبلِّغ ! سأبلغ الشرطة لضبط الحادثة . . » وترك مايشغله من عمل بالفعل ، ثم لبس معطفه الكحلى الكبير ويمم شطر الباب يوهم الجريحين أنه منصرف الى مركز الشرطة للتبليغ عن الحادث

— « ياعم أبا طالب ! يا عم أبا طالب ! خذ من فضلك ! »

وكان صوت محمود وهو ينادى حلاق الصحة ضعيفاً وانياً

— مالك يا سيد محمود ؟ هذه جناية ولا بد أن أبلغ ...

ثم اقترب الحـلاق من الجريح البائس الذى لم يكن يمتلك أ كثر من عشرة قروش ، ومد يده

— « هاك (بريزة) ياعم أباطالب ، ولمـا (أخف وتخف) ثريا . . . »

— « بريزة ! ما شاء الله ، والله إنها مسألة لا يكفينى فيها جنيه وغرارتان من الأرز ... »

— « لك ذلك يا عم أبا طالب ... أسرع وحياة أبيك »

ورفضت ثريا أن تضمد جروحها قبل محمود ، وحاول محمود أن يؤثرها على نفسه ولكن الحلاق الذى لا يعرف هذه العواطف تقدم بقطع القطن والشاش القذر وصبغة اليود والمرهم ، فضمد جروح الفتى ، ثم جروح الفتاة »

— « كيف حال محمود يا عم أبا طالب ؟ »

— « اسكتى ، حالتك أحسن منه بكثير ، مسكين ، ربما لا يأتى عليه ثانى يوم يا ...

على كل حال الجنيه وغرارتا الأرز لا آخذهما إلا منك ... والا ... فالفضيحة إن شاء الله !! »

— « ربنا يستر يا عم أبا طالب ... ان شاء الله ربنا يشفى محمود ، ويرى خاطرك »

وتركت ثريا حبيبها فى منزل الحلاق وتهالـكت على نفسها الى الحقل لتلقى أباها ، لأنها أعرف به ، ولأنها واثقـة أن ثورة الغضب التى سيطرت عليـه لا بد أن تـكون قد هدأت وسكنت ريحها ... ثم هى عارفة بورعه وتقاه وقلبـه المؤمن الذى لا يحب لصاحبه أن يكون سافك دماء زكية بغير جرم غير

الظن ، وكم من الظن ما هو إثم لو تدبر صاحبه ... ذهبت إليـه إذن ... وكانت ألف فـكرة تزدحم فى رأسها طيلة الطريق ... « تُرى ؟ كيف أكله ؟ وكيف أبدأ حديثى معه ؟ هل سكن روعه ؟ أم هو حين يرانى ما أزال على قيـد الحياة يثور ثائره ويتمم المأساة ؟ آه يا ربى ! أنحلم بالزواج وتأبى المقادير التاعسة الا الفضيحة ؟ ... ... »

واختتم الشيخ المحطم صـلاته ، ونظر الى ابنته بعينين رجراجتين تفيضان بدمع غزير ، ثم دعاها لتجلس إلى جانبـه فامتثلت ثريا ، ودنت منه وقلبها يخفق وجسمها يرتجف ، ثم جلست معه فى المصلى ، وبدلاً من أن يضغط بذراعيه على عنقها فيخنقها كما كان يخيل اليها ، تناول رأسها الجميل فطبع على جبينها قبلة هادئة صامتة ، وتحدرت دموعه على خديها ، ثم جعل يرجو منها أن تسامحه !

وصمت الوالد وابنته لحظة ، ولـكن صراخاً مرعباً ارتفع فجأة من جهة القرية ، فنظرت ثريا ، وهالها أن ترى نسوة متشحات بالسواد يجتمعن قرب الحارة التى فيها دكان الحلاق !

— « أبى ! .. أبى ! .. محمود ! .. »

— « محمود ؟ ماله يا ثريا ؟ ... »

— « مات ! »

— « مات ! لا حول ولا قوة الا بالله ... مسكين محمود ! »

ومرّ غلام بهما كان مقبلاً من جهـة القرية فسألاه : من مات .؟ فأجابهما : « انه محمود ابن عم حنفى .. مات عند حلاق الصحة من جروح فى عنقه .. قتلوه ! الله ينتقم منهم ! قتلوه من أجل قفة ذرة ! »

واسودت الدنيا فى عينى عم حامد ، وأيقن أنه ممض بقيـة حياته فى غيابة السجن ، وما كان أحوجه الى نهاية مريحة ناعمة ...

أما ثريا ، فقد انهدت قواها ، وطار لونها ، وامتلأت عيناها الجميلتان الحزينتان بأشباح الوحشة ، وفـكرت فى أحلامها التى طاشت ، فـكانت تتراءى لها طيوراً سوداً كالخفافيش تملأ الغرب الذهبى الذى أوشكت شمسه أن تغيب !

— « أبتاه ! »

— « نعم يا ثريا ! »

— « لازم نروح ! »

— « الى أين يا بنتى ؟ »

— « هناك ! عند ... الـ ... (عزا) »

— « طبعاً يا بنتى ... هيا ... لا علىّ أن يضعوا الحديد فى يدىّ ! هذا أمر الله وقضاؤه ! واذا سألوك فيجب أن تعترفى بالحقيقة يا ثريا ... لا حول ولا قوة الا بالله ...

وسار الشيخ المسكين وسارت فى إثره ابنته ، حتى اذا بلغا القرية وعما شطر منزل حلاق الصـحة لم يجدا أثراً لجنازة أو نحوها ، فظن عم حامد أنهم ذهبوا بالميت الى مسجد القرية للصلاة عليه ، ولذلك انثنى ليأخذ طريقه الى المسجد ، ولـكن رأساً برز من نافذة فى باب الحلاق أخذ يناديه فجأة : « يا عم حامد ... ياعم حامد ... هات ثريا وتعال ... »

ونظر الشيخ ، فرأى الحلاق نفسه هو الذى يناديه ، فذهب إليه وصمت لحظة وهو يرمقه ، ثم قال له :

— « أبا طالب ! استرنى يسترك الله ! أنا ما صنعت ذلك إلا دفاعاً عن عرضى ! هل بلّغت الشرطة ؟ »

— « اطمئن ياعم حامد ، اطمئن ، ولـكن قبل كل شىء كم جنيهاً ستعطينى ؟ »

— « كل ما تطلب يا أبا طالب ! »

— « خمسة جنيهات على الأقل ياعم حامد ؟ »

— « لك ذلك يا ولدى ... »

— « تعال إذن ... شرّف منزلى ... »

* * *

ودخل الرجل . . . ودخلت فى إثره ابنته ، يحملان هموم الدنيا والآخرة !

ياللعجب ! ماذا يرى ؟ ها هوذا محمود .. محمود حى لم يمت ! وهو يدخن لفافة بشغف ولذة . . . وإلى جانبه مأذون القرية ، ورجلان من أكرم رجالهـا

— « قبلت زواجها ! »

— « قبلت زواجها ! »

— « قولى يا ثريا ... وأنا قبلته بعلاً لى ! »

وتقدم الغلام الخبيث الذى كان أخبرهما أن محموداً قد مات ، فسقاهم شراب الليمون المعطر بمـاء الورد . . .

دريني خشبة

البريد الأدبي

نظريات فى الحرب

الجنرال لودندورف من أعظم قواد ألمانيا فى الحرب الكبرى وأعظم الخبراء العسكريين المعاصرين ، وله فى الحرب ووسائلها وغاياتها نظريات خاصة بسطها فى كتاب وضعه بعنوان : « الأمة أثناء الحرب » ، وقد ظهرت أخيراً ترجمة انكليزية لهذا الكتاب بنفس العنوان The Nation at war ، وفى هـذا الكتاب يحمل الجنرال لودندورف على نظريات كلا وزافتش فى الحرب ، وخلاصتها أن السياسة يجب أن تكون أداة للمشرعات العسكرية ، وأن هذه المشروعات يجب أن تكون طريقاً مباشراً للحرب ؛ ومع أن نظريات كلاوزافتش تعتبر فى كثير من الأمم ولاسيما انكلترا نظريات متطرفة خطرة ، فانها تعتبر فى رأى لودندورف لينة قاصرة ؛ ذلك لأنها فى نظره تفسح للسياسة مجالاً أكثر مما يجب ، ولأنها لم تدرك أهمية السيطرة العسكرية المطلقة . وكل ما يسلم به الجنرال لودندورف من نظريات سلفه هو أن الحقيقة الخالدة فى الحرب « هى حصر الأغراض العسكرية فى سحق جيوش العدو خلال الحرب » . أما ما تبقى من نظريات كلاوزافتش فيرجع إلى ماض انقضى وحل محله عهد جديد . ويرى لودندورف أن الحرب الحديثة لم تبق حرب جيوش وقوى عسكرية فقط ، وإنما هى حرب مطلقة تقوم على حرب الأمم ضد الأمم . ويجب بناء على ذلك أن تضع الأمة كل قواها العقلية والأدبية والمادية فى خدمة الحرب ، وأن تكون هـذه القوة أثناء السلام مخصصة للحرب التالية . ذلك لأن الحرب فى نظر لودندورف هى أعظم تعبير عن إرادة الأمة فى الحياة ، ولهذا يجب أن تكون السياسة عبداً مطلقاً للحرب وأداة مطيعة لها

ويرى لودندورف أن الحرب وسيلة لا غاية لها ؛ ولهذا يجب أن تعد الأمة للحرب ، وأن تكون دائماً على قدم الاستعداد له . ويرجع لودندورف هزيمة ألمانيا فى الحرب الكبرى إلى الدعاية النصرانيـة والدعاية اليهودية ، ويقول إن العقيدة النصرانية ، والحياة التى تترتب عليها ، لها أهم أسباب الانحلال القومى فى الحرب المطلقة ؛ ولهذا يجب أن تستبدل بهذه العقيدة أخرى تقوم على العقائد الجنسـية ، أو بعبارة أخرى تقوم على الايمان « بألمـانيا » وألمانيا وحدها ؛ ومن ذلك تتفجر الوطنية الصحيحة . وتؤمن المرأة بأن أعظم واجباتها ينحصر فى إنتاج أبناء أقوياء للأمة يحملون أعباء الحرب المطلقة ، ويخصص الرجال كل قواهم لهذه الغاية . والخلاصة أن لودندورف يرى أن الغاية القومية المثلى هى أن يربى الشعب ويعد لغاية هى الحرب

كتاب عن لوبية

نظمت فى العام الماضى بعثة انكليزية لتكتشف مجاهل صحراء لوبية بالسيارة ، وأسندت رياستها للمستر كندى شو . وقد قطعت البعثة فى جولاتها فى الصحراء أكثر من ستة آلاف ميل ؛ وأصدر أخيراً مستر ماسون هودر أحد أعضاء البعثة كتاباً عن هذه الرحلة الصحراوية عنوانه: «جنة الجهلاء Paradise of Fools » وفيـه يصف رحلة البعثة منذ قيامها بالسيارات من القاهرة واختراقها لصحراء لوبية جنوباً حتى الفاشر من أعمال السودان على خط ١٤ شمال خط الاستواء ، ثم عودها إلى سواحل البحر الأبيض من طريق آخر ، واختراقها « بحر الرمال الأعظم » الذى يغمر واحة سيوه . وقد كانت البعثة تجرى فى جولتها مباحث جيولوجية وجغرافية ونباتية وحيوانية لحساب الجمعية الجغرافية البريطانية التى جهزتها . وقد لقى أحد أعضاء البعثة حتفه أثناء السير ، وهو الكولونل ستروث

ويغرق مستر ماسون فى وصف أهوال الصحراء ويقول لنا : إن الانسان فى الصحراء يفقد حواسـه الحقيقيه ، ويرى فى السهل الشاسع ، وفى ضوء الشمس الساطع ، الأرض المنبسطه تغلى وتترنح فى السراب ، وتملأ العين هواجس متعبة ؛ وتُرى أشياء لا توجد ، على حين لا تُرى أشياء خطرة ، وقد لا ترى حتى بقع المكروه

ويقول مستر ماسون : إن أغرب ما يلفت النظر وجود الحيوانات فى هـذا القفر الشاسع الذى لا توجد فيـه قطرة من

الماء ؛ وكذلك مما يدهش الانسان أن يرى فى قلب الصحراء وادياً عجيباً تظله الأشجار الباسقة هو « وادى حوار » وهو واد لا يصل الماء إليه من أى النواحى

معلومات عن بلاد التتار

وقعت فى بلاد التركستان الصينية منذ ثلاثة أعوام حوادث عسكرية وسياسية خطيرة لم تتضح حقائقها لبعد الشقة وانقطاع المواصلات ، ولكن جريدة « التيمس » الانكليزية أوفدت إلى الصين مراسلاً خاصاً لها هو المستر بترفلمنج ليقف على سير الحوادث بنفسه ويملها للعالم ، فسافر مستر فلمنج إلى الصين ، وانقطعت أخباره شهوراً عدة حتى ظن أنه قتل أو ضل ؛ ولكن ظهر فيما بعد أنه اضطر أن يخترق الصين كلها من بكين إلى الغرب ليصل إلى مدينة كشغر عاصمة بلاد التتار (التركستان الصينية) ، وأنه نجح فى مهمته ، ودرس الحوادث والشئون فى تلك الأنحاء درساً حسناً

وقد أصدر مستر فلمنج أخيراً كتاباً جامعاً عن رحلته بعنوان« أنباء من بلاد التتار News from Tartary » ؛ ويستخلص من روايته أن حكومة سنكيانج (التركستان الصينية) التى يرأسها الجنرال شنج واجهت ثورة خطيرة قام بها التتار والتونجان ، وكادت الثورة تكتسح كل شيء لولا تدخل السوفييت العسكرى ومعاونتهم للجنرال على تثبيت أقدامه ؛ وكان الجنرال شنج قد قبض على زمام الحكومة منذ سنة ١٩٣٣ ، وأرغم حكومة نانكين الصينية على الاعتراف بمركزه . والآن يسود حكم الجنرال شنج فى معظم بلاد التتار ، ولكن السلطان الحقيق فى يد السوفييت الذين يحتلون مراكز السلطة فى البلاد كلها ، ويحاذر السوفييت الآن من بث الدعوة الشيوعية فى بلاد التتار ، ولكنهم يبعثون أبناء الكبراء والموظفين فى كل عام مجاناً إلى طشقند ليتعلموا فى مدارسها ، ويعدون بذور دعوتهم من طريق النشء

وكتاب مستر فلمنج جدير بالقراءة ، لأنه يتحدث عن بلاد شرقية لا نعلم الكثير من شؤونها . وقد كتب بأسلوب شائق

النشيد القومى — « الغلطة الثانية »

نبهنا إلى الغلطة الأولى فى هذا النشيد الذى يراد فرضه على مصر ، وطلبنا الرد عليها وانتظرنا ثلاثة أسابيع فلم يرد أحد ، وعلى ذلك فقد سلموا بها تسليما تاماً بلا قيد ولا شرط ، وأصبح قول ناظم النشيد : (سأهتف باسمك ما قد حييت) كلاماً معكوساً فاسداً يخالف العربية والعامية

والآن نذكر الغلطة الثانية ، ونحن على يقين أن صاحب المعالى وزير المعارف الرجل العالم والأديب سيكتفى بالغلطتين . أما القراء فلا بد أن ينتظروا إلى نهاية العدد

يقول ناظم النشيد :

غرامك يامصر لو تعلمين قصارى شعورى (دنيا ودين)

قصارى شعورى معناها غاية شعورى ونهاية شعورى . ومن الطريف أن بعض قراء الصحف قرأ هذه الكلمة (قَصَارِى) بفتح القاف وكسر الراء !

ولكن ما هو إعراب (دنيا ودين) ؟

أهى مرفوعة ؟ لا . أهى مجرورة ؟ لا . إذن هى منصوبة ولا وجه لنصبها إلا على التميز ، فهل تصلح تمييزاً أولاً ؟

يشترط فى التميز أن يكون رافعاً لابهام . والشعور هنا جنس مبهم يحتاج إلى تمام يفسر معناه ، كالحب أو الكره أو الغضب وغير ذلك من أنواع الشعور . ولكن (الدنيا) ليست من أنواع الشعور فلا تصلح لرفع الابهام عنه وتفسيره إلا إذا صح أن يقال : غرامك يامصر غاية شعورى قمحاً وبناً وسكراً ، أو نهاراً وجبالاً وحيواناً وسماء وأرضاً . وهذا كلام فاسد لا معنى له

ثم إن الدين ليس شعوراً ، بل هو عقيدة وعمل ، فهو كذلك لا يصلح للتميز هنا ؛ وإذا صلح فأى مسلم يتجرأ على أن يعتقد أن غاية الشعور ونهايته من الدين الاسلامى غرام مصر ؟ إذا اعتقد المسلم هذا ونادى به فهو زائغ العقيدة ، ويكون النشيد القومى ضلالة يجب محوها ، ويحرم على جميع المسلمين أن يقبلوه

وإذا أريد من (دنيا ودين) الحياة الدنيا والحياة الأخرى كان هذا أقبح وأسخف . وأى مسلم يتجرأ على أن يقول : إن غرام مصر غاية شعوره من الحياة الآخرة ؟

س . ط
بكلية الآداب

أقصوصة حب اللحم

علقت الرسالة على أقصوصتى (حب اللحم) تعليقاً فهمت منه أنها لم تفطن للسبب الذى من أجله آثرت هذا الحل الذى لم يرقها والذى (لا يرضى الخلق الجميل) على حد تعبيرها — ولعل الأستاذ المحترم صاحب التعليق فاته أن (روحية) هى بطلة القصة ،



الحيـــاة الجديدة

تأليف الأستاذ نقولا يوسف

للأستاذ دريني خشبه

للأستاذ سلامة موسى فى مصر مدرسة عرف تلاميذها بالدؤوب والنشاط الذهنى ، وهم جميعاً من الشباب المثقف المتشوّف دائماً لمستقبل حافل ملىء بالأمانى والآمال والأحلام . وهم دائماً يفخرون بأنهم يمثلون ثقافة اليسار فى مصر خاصة والشرق عامة ، ومن هنا نزوعهم الى الثورة فى تفكيرهم ، ومن هنا أيضاً تبرمهم بثقافة اليمين وتحرشهم بزعماء مدارسها . ونحن لا يسعنا إلا أن نمتدح تلاميذ هذه المدرسة بالرغم مما يتورط فيه بعضهم من البذاء والتطاول ، وبالرغم من أن الأستاذ سلامه نفسه يفسح فى مجلته لهذا البعض من السفهاء مجالاً واسعاً يهرجون فيه تهريجاً لا يتفق ومقام الأستاذ ومكانته الرفيعة فى نهضة هذا البلد

بيد أن للأستاذ تلاميذ بارزين ، استطاعوا بعد كفاح عظيم وجهد متصل أن يفسحوا لأسمائهم أماكن ظاهرة فى محيط التفكير المصرى . ولعل من أفضل هؤلاء التلاميذ الأستاذ المفكر المطلع صديقنا (نقولا يوسف) الذى أخذ نجمه يتألق فى السياسة الأسبوعية ، ثم فى عشرات من المجلات والصحف والأندية ، عُرف فيها جميعاً بسمو الغاية فى تفكيره وحرارته الوطنية فى حبه لمصر ، ومحاولته دائماً الاندماج فى الأوساط المختلفة ليترك فيها خمائر من ذهنه الخصب وثقافته الواسعة واطلاعه الشامل

ولقد بدا للأستاذ الصديق أن يجمع كل ما كتب ، ويصدره فى مجلد حافل غنى (عن دار المجلة الجديدة) وكتب إلى يسألنى عن رأيى فى كتابه هذا ... ولا أحسب فى ذلك توريطاً لى من قلمه البارع يجعلنى أثنى على عمله الثناء كله من دون أن أعرض لبعض نواحى الكتاب بنقد شديد يكاد يشبه الذم

جمع الأستاذ فصوله القيمة وجعلها فى ثلاثة أبواب ، أولها (بحوث عالية) من مثل (فن الحياة ، الانسانية بين الحرب والسلم ، فى الوحدة العالمية ، فى الأدب الجديد ... الخ) . وثانيها (شئون مصرية) من مثل : « فى الأدب المصرى . الكاتب المصرى بين البيئة والوصف ، تجديد الموسيقى المصرية ، احتضار الحجاب ،

وأنها لم تكن موافقة على تلك الجريمة التى دبرها صلاح . ولذلك قالت له : « حرام عليك يا صلاح . . . » ثم راعها أن تسمع السيارة تنقذف فى النيل ، فقالت : «وَىْ ... اسمع ! لقد انقذفت السيارة فى الماء !! » فلما قال لها صلاح : « بمن فيها طبعاً ! » لم تزد على أن قالت : « يا للقسوة !! » وقد أخطأ الصفاف ، فجعلها (يا للقوة) مُسْـقِطاً السين

وأحسب الأستاذ صاحب التعليق يعلم أن بطل القصة عادة يحمل رأى الكاتب وان لم يكن هذا شرطاً عاماً ، فقد تكون القصة كلاً لا يتجزأ ، وقد تكون — بل ينبغى أن تكون عادةً — درساً يرمى الى غرض ما . ومن سياق القصة تحس الكراهية الشديدة لقصر العلاقة بين الزوجين على الجنس دون القلب ، وكان بيومى أفندى رمز الجنس فى القصة ، وكان صلاح رمز الروح فيها .

فأى شىء لا يرضى الخلق الجميل فى أن ينتصر الروح على الجنس ويقذف به فى النيل ؟

وأحسبنى أهيج زعماء ثقافة اليسار إذا قلت إن القانون الجنائى فى الشريعة الاسلامية معطل فى مصر ، فكيف يكون القصاص من زوج زان وسكير ومبذر تضبطه زوجته غير مرة زانياً وسكيراً ومبذراً ؟ هل تملك تطليقه ؟

هذا ولا يفوتنى أن أعتب على صاحب التعليق أسلوبه ، فاننى لا أنشد بقصصى الكثيرة إلا خُلُقاً جميلاً ما ؟ دريني

(الرسالة) نوافق الأستاذ الدريني على أنه ينشد بقصصه الخلق الجميل ، وهو ولا شك يوافقنا على أن الدين والقانون هما جوهر الخلق الجميل ، والدين يأذن للزوجة المضرورة أن تطلب الطلاق وتثبت الضرار فيحكم القاضى بالتفريق ، والقانون لايجيز لحبيب الزوجة ولا لغيره أن يقتل الزوج وعشيقته على هذه الصورة

الفلاح ، وتجديد القرية .. الخ» . وثالثها (دراسات أدبية وفنية) من مثل : « فى الفن الاغريقى . شعراء الأرستقراطية ، فى الأدب الهندى ، ساعات مع بوذا وطاغور وملتون وشلى ، ولز والعصر الجديد ... الخ »

ولست أدرى لماذا حشد الأستاذ كل هذه الفصول فى كتاب واحد ؟ ولم لم يصدرها فى ثلاثة كتب حتى يكون من الممكن أن يستقل كل منها بفكرة متحدة وغاية واحدة ؟ إن الكتاب كبير ضخم ، وهو بضخامته غير المتناسبة يتخم القارئ ويصده عن متابعة القراءة ، خصوصاً وأ كثر القراء كسالى ، وأ كثر بحوث الكتاب دسمة غزيرة الفكر ، والكتاب ليس قصة يغرى أولها بآخرها ، ولكنه حشد من الآراء التى لا يربطها فى الظاهر أى رابط ، وإن رَمَت فى النهاية إلى التثقيف العام

إن القسم الثالث من الكتاب ، وهو أمتع أقسامه الثلاثة ، كان يمكن أن يكون كتاباً مستقلاً يكاد لا يكون له نظير فى المكتبات العامة . وإن أى بحث من بحوثه ليشهد للكاتب بسعة الاطلاع وعظم الجهد الذى عانى فى كتابته بعد تحضير مواده الكثيرة . . . فالبحث الأخير مثلاً (ولز والعصر الجديد) هو عصارة شهية لهذا الكاتب الانجليزى المأسوف عليه ، لقى فى إعدادها حضرة الكاتب كل عناء ومشقة ؛ ويكفى أن تعرف أنه تناول أ كثر كتب ولز ، فلخصها وشرح لك طريقته فى كتابة كل منها ؛ لتعلم أى جهد جبار كان يبذل أديبنا عند ما اعتزم كتابة فصوله فى هذا القسم الثالث من الكتاب . ومثل هذا الفصل لا يمكن أن ينتهى منه الكاتب فى أقل من شهر تقريباً . أفليس من الحرام إذن أن يجتمع ذلك البحث الكلى و (شؤون مصرية) أو (تأملات على شاطىء البحر) فى كتاب واحد ؟ ! ماولز وما لهذه الموضوعات (وليست المواضيع يا أستاذ نقولا !) الانشائية يا صديق ؟ ماولز وتنيسون وطاغور وبوذا وأندريه شينيه وهوراس ... وما لخواطر فى مقبرة وخواطر فى حديقة وخواطر فى الطريق وفى العمل ؟ ! أفلم يكن أخلق بهذه التراجم العالية أن تستقل فى كتاب واحد يكون له خطره وفائدته ؟ !

وقل مثل ذلك فى القسمين الآخرين

هذا من حيث شكل الكتاب ، وإن يكن إغفال الصور — خصوصاً للمترجم لهم — قد شوه بعض جمال هذا العمل . أما من حيث موضوعه ، فأ كاد أمدحه (على طول الخط) لولا هذا الغلو فى الدعوة إلى العالمية فى زمن تقوم فيه دكتاتوريات تريد أن تلتهم العالم وتذل الحريات . أجل ، إن الأخاء الانسانى الذى يراد أن يشمل قارات الأرض جميعاً حلم جميل ، ولكنه فى زمننا هذا يعتبر حلم الضعفاء والنَّوْكى والمهزومين ؛ ونحن فى عصر تنشد فيه مصر من أبنائها وطنية حادةً متأججة ، وطنية الدبابات والطائرات والغازات السامة التى هى أسلحة هذا الزمان الظالم المقاحم . . . الزمان الذى شهد بعينيه الكليلتين سقوط عرش أسد يهوذا تحت سنابك نيرون !

أنا أعرف أن الأستاذ نقولا رجل الأحلام والشعر والموسيقى ، ولن أنسى مطلقا رنين كمانه فى أذنى فى ليالى أسيوط القمرة ... ولكنى أوقظه فى غير رحمة ولا عطف ، ليقرأ بعينيه النفاذتين بنود المعاهدة المصرية الانجليزية ، والبرقيات المخيفة الزمجة عن تسلح الدول

لنعطف ولتسِل نفوسنا رقة ورحمة ، ولكن على المصريين .. على أنفسنا .. أما على الثعابين والعقارب ، فلا !

وليثق الصديق نقولا أن ولز الذى مات فلم يشعر به أحد ، كما مات توماس مور فلم يشعر به أحد كذلك ، لابد أنه ندم على جميع طوبوياته التى كتبها . وليفكر الصديق نقولا أيضا فى مصر اليوم فقط ، أو إلى ما بعد عشرين سنة فحسب ... أما فى العالم بعد ألفين سنة ، فهذه أضغاث أحلام ...

عمل جليل لا شك يستحق من أجله نقولا يوسف ألف تهنئة ، وهدية سنية من المجلة الجديدة

دريني خشبة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٦٨ — ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 168

Lundi - 21 - 9 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الرابعة « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ رجب سنة ١٣٥٥ — ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٦ » العـــدد ١٦٨

مصر والبلاد العربية

للدكتور عبد الوهاب عزام

بين مصر والبلاد العربية كل ما يؤلف بين الأقوام من وشائج القربى والتاريخ ، وكل ما يحكم القرابة من عقائد وعواطف وآلام وآمال ، وكل ما يؤكد الأخوة من حقائق ومنافع . والكلام فى هذا تبيين ما لا يعوزه البيان

يذهب المصرى إلى أحد الأقطار العربية فكأنما برح بقعة فى مصر إلى أخرى ؛ يرى وجوهاً يعرفها ولا تنكره ، ويسمع من أحاديث الماضى والحاضر ما يسمعه فى بلاده ، ويحدّث عن الهموم والمطامح التى تنطوى عليها نفسه ويخفق بها قلبه . حيثما توجه وجد أهلاً بأهل واخواناً باخوان ، وأبصر من ذكر التاريخ ، ومشاهد الحاضر ، وخطط المستقبل ، ما يوحى اليه أنه فى وطنه وبين قومه . وكأنه لا يذهب إلى هذه البلاد إلا ليرى بعينيه ما حدّثه به التاريخ وأحكمته فى نفسه النشأة والتعلّم

ذهبت مرات إلى فلسطين والشام والعراق ، فكان يخيّل الىّ أينما سرت أنى لا أخطو إلا على صفحات من التاريخ المجيد ،

فهرس العـــدد

ولا أرفع بصرى إلا الى عنوان من عناوينه فى صورة مسجد ، أو مدرسة ، أو قبة حنت على عظيم من أسلافنا أبطال الاسلام والعربية . وطوّفت فى العراق مدنه وقراه ، وحضره وباديته ؛ فكانت بغداد عندى القاهرة ، بل أجل ذكراً ؛ وكانت الكوفة والبصرة والموصل أعظم أثراً فى نفسى من طنطا والمنصورة وأسيوط ؛ وكانت مضارب شمر وبنى تميم أذهب بى فى التاريخ من مضارب القبائل المصرية . وأما دمشق الجميلة الجليلة فما دخلتها إلا ازدحمت علىّ أحداث التاريخ ورفعتنى مواكبه فسارعتُ إلى الجامع الأموى أنشد قول شوقى :

هذا الأديم كتاب لا كفاء له   رثّ الصحائف باق منه عنوان

ولست بدعاً فى هذا فما أحسب مصرياً ذهب إلى هذه البلاد إلا شعر بما أشعر به

***

وليس الأمر بيننا تشابك أقوام واتصال أوطان فحسب ، ولكنه الحبّ المؤكدّ ، والودّ الصريح ، ينطق على ألسنة القوم ، ويتجلّى فى أساريرهم ، ويبين فى أعمالهم ، ويشهد به اهتمام القوم بكل صغيرة وكبيرة فى مصر ، وتحدّثهم عن علمائها وأدبائها وأحزابها وقادتها حديث المحبّ العارف الخبير ، وحرصهم على قراءة ما تخرجه مصر من كتب ومجلات وجرائد . وكثيراً ما نرى فى الشام والعراق من يعلم عن مصر أكثر من أبنائها . وإذا تحدّث هؤلاء الاخوة الكرام عن مصر أشادوا بذكرها ، وأكبروا حضارتها ، وأعظموا مآثرها على العربية والاسلام ، معترفين مغتبطين لا جاحدين ولا كارهين ، وعدوا مجدها مجدهم ، وعزها عزهم ، وفخروا بها كما يفخرون ببلادهم

***

وتطلع البلاد العربية إلى مصر ، وانزالها هذه المنزلة أجدى الوسائل إلى التقريب بينها ، وتوحيد سننها فى التربية والتعليم ، والتأليف بين أبنائها . ولم يأل إخواننا جهداً فى التودد والتقرب . فماذا يجب على مصر ؟ ليست مصر أقل شعوراً باسلامها وعربيتها ، ولا أضعف تقديراً للوشائج التى تُحكم بهذه البلاد أواصرها ، والمصالح التى توثق بها علائقها ، ولكن التاريخ السياسى فى العصر الأخير فرّق بين هموم مصر وهموم أخواتها ، وشغلها بغير الذى شغلوا به ؛ فلما أفاقت قليلا إلى نفسها وموقفها بين الأقطار والأمم لم يلحقها شك فيما بينها وبين أخواتها من أواصر وعرى لا تقوى الحادثات على فصمها . وكلما خف عنها عبء المصائب ازدادت شعوراً وبصراً بمكانتها بين اخواتها وما يجب عليها

إن على مصر أن ترعى القرابة وتجزى الود بالود ؛ وعليها أن تضطلع بالتبعات التى تحمّلها إياها ثقة البلاد العربية بها ، وإقامتها منها مقام الأخ الأكبر . أسمع أحياناً بعض المتحدثين بهذا يقولون إن على مصر أن تستغلّ هذه الثقة ؛ وحاشا لله أن يكون الأمر استغلالاً أو اتّجارا ، إنما هو أخوة ومودة ، وتبعات وواجبات ، وتعاون على الوقوف فى معترك الحياة ، وتآزر على بلوغ الغاية التى تلتقى عندها مقاصدنا جميعاً . يجب على مصر أن تصلح نفسها وتكمل حضارتها ، وتعمل ما يوافق مكانتها ، وتسن السنن الصالحة لنفسها وغيرها . يجب عليها أن تشارك فى السراء والضراء ، ولا تقف بمعزل فى مصائب البلاد العربية ومسراتها ، بل تشارك جهد اليد واللسان والقلب . وعليها ألا تألو جهدا فى امداد من يستمدها ، وبذل ما تُسأل من معونة فى العلم والأدب وغيرهما موحية إلى كل مصرى يذهب إلى البلاد العربية أنه يذهب ليؤدى واجبا ويعاون أخا ، وأن واجبه حيثما كان من هذه البلاد كواجبه فى مصر ، وأن مقصده الأول أن يبذل من قواه على قدر طاقته ، لا يبغى جزاء ولا شكورا ، وإن لم يقصر إخواننا فى الجزاء والشكر

ثم على مصر ألا تتردد فى الاستفادة بما فى هذه البلاد من مزايا ، فلا ريب أن فيها من الآداب والأخلاق والصناعات ما يجدى علينا أن نتلقاه عنها ونحتذيها فيه

بالمودة والتآخى والتعاون وشعور كل جماعة بمكانها من الجماعات الأخرى ، وإدراكها ما لها وما عليها فى الجماعة الكبيرة الشاملة ، يتهيأ للبلاد العربية ما بين بحر الظلمات ونهر دجلة ما تطمح إليه من مجد وسعادة ، وما يكافئ تاريخها من حضارة ، حتى تؤدى نصيبها من الخير للجماعة البشرية كلها . وما أعظم ما ينتظر المجد من العرب ! وما أعظم ما تؤمل الانسانية فيهم !

عبد الوهاب عزام

مصرع هرة

للأستاذ عبد الحميد العبادى

كانت لنا هرة لطيفة ، ظريفة ، خفيفــة الجسم ، مرهفة الحس ، طوافة بالليل ، جوالة بالنهار ؛ وكان أولادى يحبونها هى وصغارها الثلاث ، ويَحْبُونها بالفضل من طعامهم ، والـكثير من عبثهم ؛ وعلى مر الأيام نشأت بين صغار الأنس وصغار الحيوان ألفة جعلت كلا يحتمل عبث كل ، ويجد فى ذلك لذة ومتاعاً

وشاء حر القاهرة الذى اتقدت جذوته فى أوائل الشهر المنصرم أن ينتجع أولادى بعض السواحل فراراً من وقدة الحر ، وابترادا بهواء البحر ومائه ؛ وشاءت ظروفى الخاصة أن أبقى فى القاهرة وحيداً إلا من خادم يرعى شؤونى إذا حضرت ، ويحرس المنزل إذا غبت . ففقدت الهرة وصغارها بتبدل الحال ما اعتدنه من الطعام إلا قليلاً يمسك الرمق ويستبقى الحياة

وكأن الهرة استشعرت شيئاً من الأنفة والأباء ، فلم ترض بالدون ، ولم تصبر على الهون ، وانطلقت تضرب فى الأرض تبتغى سعة الرزق لنفسها ولصغارها ، فـكانت تعود من حين لآخر مطبقة فما على مسلاخ أرنب ، أو مشاش عظم ، أو عصفور اقتنصته فى بعض الحدائق ، فتجمع صغارها على ما وفقت له من الرزق ، فيكون لهن منه عوض عما فقدن من الزاد

وأحبت الهرة أن تعود صغارها السعى معها فى كسب القوت ، فـكانت تبرز خارج الدار وتناديهن فيتسارعن اليها ، متواثبات ، شائلات الأذناب ، مؤللات الآذان ، محدقات العيون ، فيجسن جميعاً خلال الحديقة ، فلا يعدمن صرصراً أو جرادة يتبلغن بها بعد أن يلعبن بها طويلاً

ودرجت الأيام على تلك الحال ، وكأن القطط استطبن حياة السعى ، وذقن حلاوة الرزق المجلوب بالجد ، فعدن لا يأبهن لما كنت أرفدهن به من وقت لآخر من كسرة خبز ، أو نغبة لبن ، أو عرق لحم ينهسنه ، أو عظمة يتعرقنها

***

غير أن صروف الأيام لا ينجو من كيدها إنسان ولا حيوان ، ولا يسلم من آفاتها من يمشى على اثنتين ، وما يدب على أربع .

فقد كنت ذات يوم جالساً فى منزلى وقت الظهيرة ، وكنت ضيق الصدر ، لَقِس النفس ، كأنما أتوقع حدثاً يحدث ، أو خطباً يلم ، وإذا بى أبصر الهرة تلج من باب الدار بهيئة أنكرتها : أبصرتها تمشى متحلجة ، متخلعة ، تخالف بين يديها ورجليها ، وتقوم وتقع ، وتصطدم بما يلقاها فى طريقها ، فأثبتها النظر ، فرأيت ، وما أفظع ما رأيت ! رأيتها مشجوجة شجاً قبيحاً ، فأدركت من فورى أن فظاً غليظ القلب ، محمقاً من طباخى الحى قد أعنتته الهرة فى طلاب العيش ، فأهوى إلى رأسها بسكينه ، فشتر إحدى عينيها ، وكاد يشطر الرأس شطراً

وأدركت أن المسكينــة تحاول الوصول ، على ما بها ، الى صغارها ، فطفقت أجمعهن لها من هنا وهنا ، وما هى إلا أن أحسنهن حتى تحوّت عليهن ، ترضعهن وتمسحهن بلسانها على عادتها . فلما جن الليل جعلت أريد الهرة على الخروج من المنزل ، لعل برد هواء العشى ونسيم السحر ينفعها ، ولـكنها رفعت الى رأسها وكأنها تستعفينى من الخروج ليلتها تلك ، ولأقض بعد ذلك ما أنا قاض . فنزلت على وحى حالها ودلالة منظرها ، وانصرفت الى مضجعى . فلما كان الصباح إذا بى أصحو على مواء موجع صادر من الهرة ، فأسرعت إليها فوجدتها تعالج سكرات الموت ؛ وما هى إلا لحظة حتى غدت جثة هامدة لا حراك بها . كل ذلك والقطيطات حيال ذلك المنظر الذى لم يعرفنه بعد ، مبهوتات صامتات مأخوذات . وكأنهن وقد سكنت حركة أمهن يتمثلن بالشعر الذى وضعه الشاعر الانجليزى ، بيرون ، على لسان (قابيل) عند ما رأى أخاه (هابيل) ميتاً ، ولم يكن رأى الموت قط :

أخى ! ماعراك ؟ وكنت الغداة ... ذكى الفؤاد ، قوى البـــدن
على العشب ملقى ، فماذا دهاك ؟ ... أنوم ، وما الوقت وقت الوسن ؟
سكنت ، وأمسك منك اللسان ... وهل مات حى إذا ما سكن ؟
ألا ما هلـكت ! وإن كان فى ... شحوبك معنى يهيج الحزن[1]

نعم ! لقد كان فى تغير حال الهرة الميتــة معنى هاج حزن القطط ، فقعــدن لاذن بأركان المـكان واجات ، ولو ألهمن النطق لتمثلن بقول النابغة :

من يطلب الدهر تدركه مخالبه ... والدهر بالوتر ناج غير مطلوب
ما من أناس ذوى مجد ومكرمة ... ألا يشد عليهم شـدة الذيب
حتى يبيـد على عمد سراتهم ... بالنافذات من النبل المصايب

(١) كتاب (مبادىء الفلسفة) ترجمة الأستاذ أحمد أمين

إنى وجدت سهام الموت معرضة بكل حتم من الآجال مكتوب

***

وثارت نفسى لهذا المنظر الأليم ، وذكرت قسوة الانسان على العجماوات مع أنه مستأمن عليها ، مستحفظ لها ، مسؤول عنها . وذكرت ما جاء فى صحيح الأثر من أن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى أسقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض . وذكرت قول الرسول العربى : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » : ونهيه عليه السلام أصحابه عن اقتعاد الرحال فى المجالس حتى لا يعلق بها شوك يؤذى الابل عند ما توضع على ظهورها ، وقول عمر لرجل رآه يعنف عاشية يسير بها ليذبحها : « ياهذا سقها الى الموت سوقاً رفيقاً » ، وذكرت رسالة (الحيوان والانسان) التى ختم بها إخوان الصفاء رسائلهم ، وكيف ذهبوا فيها مذهباً لطيفاً فى التدليل على أن الانسان فى حقيقة الأمر حيوان من الحيوان ، لا يفضل غيره من الأنواع إلا بالعمل الصالح المنجى له فى الدنيا والآخرة . ذكرت كل ذلك فعلمت أن البون لا يزال عندنا شاسعاً بين القول والعمل ، وأن المبادئ الجميلة لا تزال الى حد بعيد مجرد حبر على ورق ، وذلك من سوء حظ الانسانية الصحيحة

أما بعد ! فلا تبعدى أيتها الهرة المظلومة ! فكأس المنية لا تبرح دائرة على الخلائق ، يشرب بها الرفيع والوضيع ؛ وسيان فى حكمها من يمشى سوياً وما يمشى مكباً على وجهه . إن الموت لعمرى واحد ، ولكن الموتات تختلف ؛ وموتتك أيتها الهرة ؛ من أشرف الموتات . لم تموتى حتف أنفك ، ولم تموتى فى مسعى باطل . لقد قضيت جاهدة ، مجاهدة ، وذهبت فى ريعان عمرك ضحية الواجب ، والسعى الصالح . إذا طالت الأعمار بأقوام رضوا بالهوان والمسكنة ، وآثروا العافية المذلة على الجهاد المشرف . نعم ، إنك لم تجدى فى هذا العالم من ينصفك ، ويطلب بثأرك ، ولكنك واجدة عند القوة الممسكة لهذا الكون خير الجزاء . ألم تدخل امرأة النار فى هرة أماتتها ظمأ وجوعاً ؟ أليس معنى أن الانسان إذا تجرد من الرحمة فهو عند الله أحط شأناً من العجماء ، وأن الله لا يستحى أن يقصها منه إذا طغى عليها وتجبر ؟ ألا كفى بذلك للنفس ، لو تعلمين ، تأساء وتعزية ؟

١٩٣٦/٩/٨ عبد الحميد العبادى

الجانب الصوفى
فى الفلسفة الاسلامية (١)
للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

— ٢ —

عنى الفارابى كل العناية بموضوع السعادة علما وعملا ، فخصه بكتابين من كتبه شرح فيهما مختلف آرائه الصوفية ، وبين الوسائل الموصلة إلى السعادة ؛ وهذان الكتابان هما : تحصيل السعادة ، والتنبيه على السعادة ، اللذان طبعا فى حيدرآباد سنة ١٣٤٥ و ١٣٤٦ هـ ، وقد امتازا — مقرونين إلى الرسائل الفارابية الأخرى التى وصلت الينا — بغزارة مادتهما ووضوح أسلوبهما ؛ وحبذا لو فكرنا فى اعادة طبعهما بمصر . ولم يكتف الفارابى بهذه الدراسة النظرية ، بل جد فى أن يتذوق السعادة بنفسه ، وأن يصل بتفكيره وتأمله إلى مرتبة الفيض والالهام كما صنع أفلوطين من قبل . ويقال إنه حظى بذلك مرة أو مرتين

وواضح أنه ليس فى مكنة الناس جميعاً الصعود إلى مرتبة هذه السعادة ، ولا يبلغها إلا النفوس الطاهرة المقدسة التى تستطيع أن تخترق حجب الغيب وتصعد إلى عالم النور والبهجة . يقول الفارابى : « الروح القدسية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق ، ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن ، وقد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم وما فيه ، وتتقبل المعلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس ، والأرواح العامية الضعيفة إذا مالت إلى الباطن غابت عن الظاهر ، وإذا مالت إلى الظاهر غابت عن الباطن ... وإذا اجتمعت من الحس الباطن إلى قوة غابت عن أخرى مثل البصر يُخَبِّل بالسمع ، والخوف يَشغَل عن الشهوة ، والشهوة تشغل عن الغضب ، والفكرة تصد من الذكر ، والتذكر يصد عن التفكر ، أما الروح القدسية فلا يشغلها شأن عن شأن »(٢)

(١) اضطرنا سفر مفاجئ إلى أوربا لقطع هذه السلسلة التى بدئت فى العدد ١٥٧ من أعداد الرسالة ، فمعذرة إلى القراء

(٢) الفارابى ، الثمرة المرضية فى بعض الرسالات الفارابية ، ص ٧٥

فالروح القدسية إذن واصلة ، ترى المغيب ، وتسمع الخفى ، ومجاوز عالم الحس إلى عالم المشاهدة الحقيقية والبهجة الدائمة. هذه هى نظرية الاتصال التى قال بها الفارابى واعتنقها الفلاسفة اللاحقون ، وقد لعبت دورا هاما بوجه خاص لدى فلاسفة الأندلس . وهى كما ترى ضرب من التصوف النظرى القائم على البحث والدراسة يقربنا إلى الله ونعيمه المقيم . والتصوف فى جملته ساد العالم الاسلامى منذ زمن بعيد تحت مؤثرات كثيرة بين فارسية وهندية ومسيحية وإغريقية . وفى رأى كل متصوف أن الغرض الرئيسى من العمل والتأمل هو الاتصال أو الفناء فى الله . يقول رينان : « لم يعرف الشرق أن يقف فى العبادة عنـد حد المبالغة والاسراف ، بل كان الاتحاد مع العقل الـكلى بوسائل خارجية حلم الطوائف الصوفيـة فى الهند والفرس . وهناك سبع درجات — كما يقول المتصوفة — تقود المرء إلى الغاية النهائيـة التى هى الفناء المطلق أو النرفانا البوذية ، حيث يصل الانسان أن يقول : أنا الله »[١] ومشكلة أنا وأنت من المشاكل الهامة فى تاريخ التصوف الاسلامى ، فأنا وهو الشخص الانسـانى يعمل على أن ينمحى فى أنت وهو الله ، وما الحلول الذى قال به الحلاج والذى درسه الأسـتاذ ماسنيون دراسة عظيمة إلا أوضح مظهر لهذه المشكلة فى الاسلام ، فهو يتلخص فى اختفاء الانسان فى الله ، وبذا يتحد أنا وأنت اتحادا كاملاً

كان الفارابى صوفياً فى قرارة نفسه ، يعيش عيشة الزهد والتقشف ويميل إلى الوحدة والخلوة . وقد أفاض مؤرخو العرب فى وصف تقشفه وإعراضه عن الدنيا . وابن خلـكان خاصة يضمه فى مصاف الزهاد والنساك[٢] . وبالرغم من أنه عاش فى بلاط سيف الدولة بن حمدان وجالس العظماء والرؤساء لم يغـيـر شيئاً من عوائده ولم يخرج عن زهده وتقشفه . فجليس الملوك هذا وصنى الأمراء كان يرى فى أغلب الأحيان بالقرب من الطبيعة يناجيها ويستكشفها أسرارها ويستمليها ما حوت من عظات . وقد رووا أنه كتب الـكثير من كتبه على شواطىء المجارى المائية وبين الثمار والأزهار[١] . فهذا الاستعداد الفطرى الذى نشأ عليه ، وهذه النزعة الصوفية التى تمـكنت منه ، أثرت من غير شك فى آرئه وأفكاره ، وكانت عاملاً فى تكوين نظرية السعادة الفارابيـة . وأسلوب الفارابى نفسه يتفق مع هذا الاستعداد ويتلاءم مع هذه النزعة ؛ فهو إلى الغموض أميل ، وفى باب التعمق والتركيز أدخل[٢] . وهـذا شأن الصوفية جميعاً يرسلون الجمل المختصرة المعماة . وكثيراً ما عانى المستشرقون صعوبات فى تفهم عبارات الفارابى وإدراك كنهها ، وشكوا من غموضها وتعقدها[٣]

ويجب أن نضم إلى هذا المؤثر الداخلى عاملاً آخر خارجيا ، ألا وهو الوسط الذى عاش فيه أبو نصر ، فقد تفشت فى العالم الاسلامى لعهده أفكار صوفية كثيرة صادرة عن أصل هندى أو فارسى أو إغريقى أو مسيحى . ولا يستطيع أحد أن ينكر تأثره بهذه الأفكار ، وفى كتاباته ما ينهض دليلاً على ذلك . فقد جارى المتصوفة وشرح لنـا المراتب التى يمر بها من يرغب فى السعادة . والمرتبة الأولى فى رأيه هى مرتبة الارادة ، وتتلخص فى شوق زائد ورغبة أكيـدة فى تنمية المعلومات واكتساب الحقائق الخالدة . فان كانت هذه الرغبة مؤسسة على دوافع حسية أو خيالية فهى مجرد إرادة ، وإن قامت على التفكير والتأمل فهى اختيار حقيقى . وبعد الاختيار تجىء السعادة التى تحدثنا عنها من قبل[٤] . فهذا التدرج فى جملته يشبه من بعض الوجوه منازل الصوفية

وفوق هذا فقد عاصر الفارابى كبار الصوفية الذين يقولون بالحلول ، وعلى رأسهم الجنيد المتوفى سـنة ٩١١ ميلادية وناشر نظرية الاتحاد الصوفية ومردد الجملة المأثورة : اللهم مهما عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذل الحجاب »[٥] . ويروى أن الشبلى دخل عليـه يوماً وبحضرته زوجه ، فأرادت أن تحتجب ، ولـكنه أبى عليها ذلك قائلاً : لا خير للشبلى عندك . ولم يكد الأخير يسمع هذه الكلمة حتى بكى . فقال الجنيد لزوجه على الأثر : استترى

(١) Renan, Averroès, p p. 144—145.

(٢) ابن خلـكان ، وفيات الأعيان ، طبعة بولاق ، ج ٢ ص ١٠٢

(١) المصدر نفسه

(٢) I. Madkour, La Place d'al Fârâbî, pp. 15 — 16.

(٣) Carra de Vaux, Encye-de l'Islam, II p. 58-;Massignon Archives d'hist., IV, p. 158.

(٤) الفارابى ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٤٥ — ٤٦

(٥) Massignon, Essai, pp, 274-75.

فقد أفاق الشبلى من غيبته[١] . والحلاج تلميذ الجنيد من معاصرى الفارابى كذلك ، فقد توفى سنة ٩٢٢ للميلاد . وهو صاحب الجملة المشهورة : (أنا الحق) التى لاقى من جرائها حتفه . وعلى يديه سما مذهب الحلول إلى أوجه وبدا فى أوضح صوره ، وتم الاتحاد الكامل بين أنا وأنت . وأشعار هذا العصر الصوفية مملوءة بالغيبة والحضور ، والوجد والوجود ، والنسيان والذكر . يقول بعضهم :

وجودى أن أغيب عن الوجود ... بما يبدو على من الشهود

ويقول الآخر :

عجبت لمن يقول ذكرت ربى ... فهل أنسى فأذكر ما نسيت
شربت الحب كأساً بعد كأس ... فما نفد الشراب ولا رويت[٢]

وربما يبدو بعد الذى تقدم أنا ميالون إلى أن نعقد صلة بين تصوف الحلاج وتصوف الفارابى ، وأن نثبت أن آراء أوائل المتصوفة قد أثرت تأثيراً مباشراً فى أفكار فلاسفة الاسلام الصوفية ، ولكنا نسلم بذلك من ناحية النزعة والتوجيه العام فقط ، أما من جهة النظريات فى تكوينها وتفاصيلها فانا نرفضه للأسباب الآتية :

أولاً : تصوف الفارابى نظرى مبنى على الدراسة والبحث قبل كل شىء . فبالعلم ، والعلم وحده ، تقريباً نصل إلى السعادة . أما العمل فنى المرتبة الثانيـة ومهمته ثانوية للغاية . على عكس هذا يقرر الصوفية أن التقشف والحرمان من الملذات الجسمية وتعذيب الجسم هو الوسيلة الناجعة للاتحاد بالله . يقول الجنيد : « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات[٣] »

ثانياً : — وهذا فرق جوهرى — الاتصال الذى يقول به الفارابى مجرد سمو إلى العالم العلوى وارتباط بين الانسان والعقل الفعال دون أن يمتزج أحدهما بالآخر . أما المتصوفة فينظمون من العبد والرب وحدة غير منفصلة ، ويقولون بحلول اللاهوت فى الناسوت . وعلى هذا يتلاشى أنا فى أنت تماماً ولا يتميز الخلق من الخالق . وهـذا هو سر حملة أهل السنة على هذا الخلط غير المقبول والغلو المفرط . حقاً إن الفارابى يذهب فى فقرة واحدة غريبة إلى أن الانسان حين يصل إلى درجة السعادة يحل فيه العقل الفعال[١] . غير أنه لا يمكن أن يقبل هـذا التعبير على علاته ويجب أن يحمل حملاً مجازياً . فان صاحبه يلاحظ غير مرة أن العقل المستفاد وهو أسمى درجات الكمال الانسانى يختلف فى طبيعته ووظيفته ومرتبته عن العقل الفعال . ويرى الفارابى فوق هـذا أن الموجودات فى تدرجها مكونة من طبقات بعضها فوق بعض ؛ والله مثال الكمال المطلق ، وبينه وبين الانسان والعالم الأرضى كله فواصل متعددة[٢] . فنظريات الفارابى الميتافيزيقية والفلكية المختلفة لا تسمح بأن يتحد الخلق مع الخالق أو أن يمتزج العقل الانسانى بالعقل الفعال

وأخيراً على كلمة اتحاد واتصال تؤذنان بالفرق الواضح بين نظرية الحلول الحلاجية ونظرية السعادة الفارابية ؛ فان الكلمة الأولى التى تنصرف عادة إلى نظرية المتصوفة تدل على الاندماج التام بين المخلوق والخالق ، فى حين أن الكلمة الثانية التى تطلق على نظرية الفلاسـفة تشعر فقط بمجرد علاقة بين الانسان والعالم الروحى

فالواجب علينا إذن أن نبحث عن منبع آخر يمكن أن تكون نظرية السعادة الفارابية فى جملتها قد استقيت منه . وإذا شئنا تعرف هذا المنبع وجب علينا أن نصعد إلى أرسطو وإلى كتابه الأخلاق النيقوماخية بوجه خاص . يقول جلسون : « ليس ثمت فكرة ولا عبارة لدى أرسطو لم تنظر ولم ينتفع بها شراحه . وهذه الملاحظة صادقة على العموم فى كل المشاكل التى درسها وخاصة فى مشكلة العقل »[٣] . ونظرية الاتصال التى نحن بصددها تؤيد هذه الملاحظة تمام التأييد ، فانها مأخوذة نصاً عن أصل أرسطى ؛ وذلك أن أرسطو فى شرحه للخير الأسمى يقول فى الكتاب العاشر من الأخلاق النيقوماخية إنه فضيلة تتكون فى الوحدة وبالتأمل العقلى وتخالف الفضائل الانسانية الأخرى المتعلقة بالجسم . هو قوة تأملية تكتفى بنفسها وتدرك الحق المطلق ، وفضيلة عليا لأنه يتصل بأسمى شىء فى الانسان وهو العقل . وباختصار هو

(١) القشيرى الرسالة القشيرية ، ص ٤٠
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧ ، ٤٣
(٣) Massignon, Recueil, p. 169.

(١) الفارابى ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٥٨
(٢) الفارابى ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ١٧
(٣) Gilson, Archives, IV, pp. 5-6.

فضيلة الفضائل لأنه يصدق على الجانب القدسي حقيقة في الانسان [1]. ليس هناك شك في أن هذه الفقرات أساس لنظرية الفارابي في السعادة والاتصال. ففي رأيه، كما في رأي أرسطو، الحياة العقلية غاية في نفسها. ومتى جد الانسان في الدراسة والنظر والبحث والتفكير تشبه بالله والعقول المفارقة التي هي إدراك مستمر وتأمل دائم. ومتى انقطع الانسان إلى هذا المجهود النظري اقترب من الكائنات العلوية، وفاز بسعادة ليست وراءها سعادة. فأرسطو الواقعي مصدر الجانب الصوفي في الفلسفة الاسلامية، و« الأديمونيا [2] » الأرسطية عماد لنظرية السعادة الفارابية. وإذا تتبعنا كل ما وصل إلينا من كتب أرسطو لم نجد فيه إلا نصين اثنين يشعران بروح خفية وينزعان نزعة صوفية. وهما ما أشرنا إليه آنفاً في كتاب الأخلاق النيقوماخية وما جاء في كتاب النفس خاصاً بوظيفة العقل الفعال وأثره في تكوين المعلومات العامة [3]. وكلا النصين أثر تأثيراً عميقاً في فلاسفة الاسلام وآرائهم الصوفية والنفسية. حقاً إن الفارابي ضنين بأسراره ولا يحب أن يقف قراءه على مصادر أفكاره؛ بيد أن عباراته تكفي للبرهنة على ما ذهبنا إليه. وابن رشد الذي يعتنق نظرية الفارابي في الاتصال يقول لنا إن هذه النظرية جواب على سؤال وجهه أرسطو ولم يجب عليه [4]. فبعد أن وضح كيف يدرك « النوس » أو العقل الحقائق المجردة قال: « سنرى فيما بعد إذا كان في مقدور العقل الانساني — ولو أنه غير مفارق — أن يدرك أشياء مفارقة بذاتها » [5]. ولما لم يف أرسطو بوعده أخذ فلاسفة الاسلام على عاتقهم أن يتلافوا هذا النقص ويجيبوا على هذا السؤال

غير أن أرسطو وحده لا يكفي في توضيح نظريات الفارابي التصوفية؛ ذلك لأن بينه وبين الفيلسوف العربي مدرسة الاسكندرية التي أثرت كذلك في فلاسفة الاسلام عامة وعلى رأسهم الفارابي. والاتصال الذي يقول به الفارابي لا يختلف كثيراً من «الا كستاسيس» أو الجذب الذي قالت به مدرسة الاسكندرية. فالاثنان يعتمدان على التأمل والنظر وينتجان هياماً وغبطة تخرج بنا من عالم الحس والمادة إلى نور الحقيقة واليقين. نعم إنه يصعب علينا أن نحلل هاتين الظاهرتين تحليلاً نفسياً دقيقاً، ولكنا نستطيع أن نلاحظ أنهما يمثلان أسمى أعمال العقل الانساني التي ترمي إلى الخير الأعلى. ومتى وصل المرء إلى مرتبتهما أحس بسعادة تجل عن الوصف وغبطة لا نهاية لها. وفي عبارات الفارابي ما يعلن عن الأصل الاسكندري الذي اعتمد عليه والذي لا يمكن أن يكون شيئاً آخر سوى كتاب الربوبية. ولنكتف بتقديم نص واحد من كل طرف يشهد بذلك. يقول الفارابي: « إن لك منك غطاء فضلاً عن لباسك من البدن، فاجتهد أن ترفع الحجاب وتتجرد، وحينئذ تلحق. فلا تسل عما تباشره، فان ألمت فويل لك، وإن سلمت فطوبى لك. وأنت في بدنك تكون كأنك لست في بدنك، وكأنك في صقع الملكوت، فترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فاتخذ لك عند الحق عهداً، إلى أن تأتيه فرداً [1] ». ويقول صاحب كتاب الربوبية أو أثولوجيا: « ربما خلوت أحياناً بنفسي وخلعت بدني فصرت كأني جوهر مجرد بلا جسم. فأكون داخلاً في ذاتي وراجعاً إليها وخارجاً من سائر الأشياء سواي، وأكون العلم والعالم والمعلوم جميعاً. وأرى في ذاتي من الحسن والبهاء ما أبقى معه متعجباً، وأعلم عند ذلك أني من العالم الشريف جزء صغير. وحين أوقن بذلك أرقى بذهني إلى العالم الالآهي، ويخيل إلى كأني قطعة منه. فعند ذلك يلمع لي من النور والبهاء ما تكل الألسن عن وصفه والآذان عن سمعه. ومن الغريب أني أشعر بأن روحي مملوءة بالنور مع أنها لم تفارق البدن [2] ». هذان النصان من غير تعليق ناطقان بالقرابة القربى والعلاقة الوثيقة بين الجذب الذي دعا اليه رجال مدرسة الاسكندرية، والاتصال الذي جد في طلبه الفارابي. وكتاب الربوبية هو المرآة التي عكست كثيراً من آراء أفلوطين وأتباعه على العالم الاسلامي

(يتبع)

ابراهيم بيومي مدكور

(١) Aristote, Ethique, a Nic. L. X, ch. VII,VIII-. انظر أيضاً الترجمة العربية للطفي باشا السيد، ج ٢ ص ٣٤٩ — ٣٦٢

(٢) كلمة يونانية معناها السعادة، وقد أطلقها أرسطو على نظرية الخير الاسمى، وفي هذا مايبين الصلة بين هذه النظرية ونظرية السعادة الفارابية

(٣) Aristote, de Anima, L.III.

(٤) Renan, Averroes, p. 184.

(٥) Aristote de Anima, L. III, ch. VII, 88.

(١) الفارابي، الثمرة المرضية، ص ٧١.

(٢) كتاب الربوبية، ص ٨ — والفارابي نفسه يستشهد بهذا النص ويسوقه مع شيء من التحريف في رسالة الجمع بين رأي الحكيمين، ص ٣١

العـــــودة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ها نحن أولاء نعود الى الوطن بعد طول الغيبة والتجوال ؛ نعود إليه بقلوب تخفق ابتهاجاً بالعود ، كما غادرناه بقلوب تخفق ابتهاجاً للسفر واستقبال أسابيع نخالها دائماً تفيض متاعاً للنفس واستجماماً للجسم وانتعاشاً للروح المضنى

ولكن السفر لا يحقق دائماً ذلك الأمل ؛ ففى كثير من الأحيان يغدو التجوال مشقة وضنى ؛ ذلك أن الذهن المضطرم يذكيه الجديد فى كل لحظة فلا يفتأ يطلب المزيد من المناظر والصور ، والمشاعر الحساسة تجد دائماً ما يثيرها فى تلك الآفاق الاجتماعية الجديدة التى تلامسها فى كل خطوة ؛ وشغف الملاحظة يحفز دائماً الى المعرفة والبحث ؛ وإذا كان فى ذلك متاع للعقل والروح ، ففيه دائماً ضنى للجسم والقوى

على أن السياحة نزهة العصر ؛ ولقد كانت السياحة فيما مضى مشقة ومخاطرة ؛ وإنه ليحضرنا ونحن نكتب هذه السطور ، ونخترق العباب المتلاطم ، فى بهو أنيق وثير من أبهاء «الكوثر» وصف المقرى مؤرخ الأندلس لرحلته من المغرب الى الاسكندرية فى نفس المياه ، وما يصوره لنا من روعة البحر وأهواله ، فنذكر كيف استطاعت العبقرية البشرية أن تذلل الموج المروع ، وأن تسير فوقه المدن الأنيقة السابحة آمنة مطمئنة ، وأن تجعل من اختراق العباب المضطرم آية النزه والمسرات

ولقد شاد الشعراء والكتاب من قبل بمزايا السياحة ومتاعها على ما كان يحفها فى تلك العصور من المشاق والمخاطر ؛ ذلك أن للجديد دائماً سحراً لا يقاوم ، والنفس البشرية مفطورة على حب الاطلاع واكتشاف المجهول ؛ وقد كانت بلاد العالم يومئذ مجاهل بعضها بالنسبة لبعض ، فكان السفر اكتشافاً لآفاق ومجتمعات مجهولة ؛ أما اليوم فقد اختفى المجهول من العالم المتمدن ، ولكن بقى الجديد يجذبنا سحره دائماً الى عوالم ومجتمعات مختلفة نأنس فى اكتشافها ودراستها لذة ومتاعاً للعين والنفس والروح

وقد يستغرق التجوال فى تلك العوالم والمجتمعات الجديدة كل حواسك وأفكارك ؛ ولكنه مهما أفاض عليك من البهجة والسحر ، لا يستطيع أن يخمد فى نفسك نزعة الحنين الى الوطن وما تزال ذكرى الوطن تمثل فى ذهنك فى كل خطوة ؛ أحياناً مقرونة بالزهو ، وأحياناً بالأسف ، وفقاً لمختلف الظروف والأحوال ؛ وما يزال شبح العود الذى لا يفارقك منذ اليوم الذى تغادر فيه الوطن يلوح لك ، ويقوى كلما ضعف سحر التجوال ، حتى يحل دور السأم ؛ وعندئذ يجذبك الوطن إليه بكل ما فيه من تأثير وسحر ، ويغدو العود سعادة تسارع الى اجتنائها

وها نحن نعود الى الوطن سعداء بالعود

***

ولقد غادرنا الوطن فى ظروف دقيقة تبحث فيها قضيته ، وتعالج مصايره على يد زعمائه الأوفياء ، فكنا خلال الرحلة نتطلع إلى أنباء المفاوضات المصرية الانكليزية ونتلقفها حيث كنا وأنى استطعنا ؛ وكانت الصحف والأنباء الأوروبية ضنينة بها كل الضن فلا تنشر عنها إلا كلمات يسيرة ؛ وكانت الصحف الانكليزية بالطبع أكثر تحدثاً عنها ؛ وكنا كلما شعرنا خلال السطور بأن أزمة تعترض المفاوضات زدنا لهفة وقلقاً ؛ فلما جاءت الأنباء بأن الأزمات كلها قد ذللت ، وبأن المعاهدة قد وقعت بالحروف الأولى ، وبأن وفد مصر سيمثل إلى لندن ، هللنا وكبرنا ، وفاضت نفوسنا أملاً واستبشاراً ؛ ولما جاء يوم الأربعاء السادس والعشرين من أغسطس ، وهو اليوم الذى حدد لتوقيع المعاهدة لبثنا — ونحن فى فينا — ننتظر النبأ الخطير بفارغ الصبر ، وكان الراديو أسبق المصادر إلى إذاعته فى مساء نفس اليوم ؛ وفى صباح اليوم التالى ظهرت الصحف النمسوية وفى صدرها نبأ توقيع المعاهدة ، ووصف موجز للعبارات التى تبادلها زعيم الأمة المصرية ومستر إيدن وزير الخارجية الانكليزية ؛ ثم توالت الأنباء بعد ذلك عن استقبال مصر للحادث المشهود ، واحتفائها به احتفاء يتفق مع عظمته وخطورته ، فكان أكبر أسفنا أننا لم نكن بمصر فى تلك الأيام التاريخية لنشهد بأعيننا ذلك المنظر الرائع : منظر أمة تستقبل وثيقة تحريرها وتمان ابتهاجها بما

جنت من ثمار جهاد طويل شاق

ومن غرائب الاتفاق أن تكون نفس الفترة التي تمت فيها المفاوضات بين مصر وانكلترا ووقعت معاهدة الصداقة المصرية الانكليزية، أعني ما بين يولية وأغسطس هي نفس الفترة التي شهدت فيها مصر ضياع استقلالها وحرياتها منذ أربعة وخمسين عاماً

الله أكبر! لقد دخلت مصر في عهد جديد وافتتحت صفحة جديدة من تاريخها

فرعى الله مصر في عهدها الجديد، ووفقها على يد زعمائها وقادتها الأوفياء الى تحقيق ما تطمح إليه من عظمة وسعود

* * *

وحان وقت الرحيل بعد أيام، واستحكم حنين العود، فكان التردد على مكاتب السفر والتحرى عن المواعيد وعن مختلف الطرق، وكانت أزمة الأمكنة في البواخر من أى الثغور دليلاً على اضطرام حمى العود؛ وإنك لتأنس في هذه الفترة التي تهيأ فيها اجراءات العود، والتي تقوم فيها بآخر جولة في المدينة وفي منتدياتها شعوراً غريباً من الأسف والارتياح معاً.. أما الأسف فلاختتام فترة من الرياضة النفسية والعقلية قلما نظفر بها في مصر. وأما الارتياح فلاختتام فترة من التجوال المبهظ والوحشة؛ ذلك لأن السياحة مازالت ترفاً غالياً برغم ما تقدمه بعض الدول لتذليلها من التسهيلات في مسائل العملة والسكك الحديدية؛ وقد ذهبت ألمانيا وإيطاليا في ذلك الى حدود مغرية حقاً، ولكنك ما تكاد تزور ألمانيا أو إيطاليا حتى تشعر بأن هذه التسهيلات لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة لما تعانيه من غلاء فادح في كل شيء؛ وليس من المبالغة أن نقول إن نفقات المعيشة في أوروبا وبخاصة في فرنسا وسويسرا، تبلغ على الأقل مثليها في مصر؛ ولقد قيل مراراً إن مصر لا تقدم شيئاً لتسهيل السياحة، وإنها يجب أن تجارى الدول الأخرى في تنظيم بعض تسهيلات مغرية للسياح؛ ولكن من المحقق أن تكاليف السياحة في مصر هي أرخص منها في أي بلد من بلاد العالم؛ ويكفى أن تتقدم مصر بهذه الميزة للسائحين

هذا وليس من ريب في أنه مهما كانت مسرات السياحة ومغرياتها فان السائح يشعر في بلاد الغربة بنوع من الوحشة بمروه من آن لآخر، فإذا حان أوان العود شعر بنوع من الارتياح للتخلص من هذه الوحشة واستعادة الإيناس في الوطن والأهل

* * *

ودعنا العاصمة النمسوية في صمت، وتزودنا بالنظرات الأخيرة من هاتيك الربوع والمعاهد الضاحكة، وازدلفنا إلى محطة الجنوب لنستقل القطار إلى «جنوة» حيث نستطيع اللحاق «بالكوثر» وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب حين مررنا بجبال الالب قبالة «زيمرنج»، وهنالك تأخذك الطبيعة بجمالها الرائع، وتمتد الأشجار والأزهار على الربى إلى مالا تدرك العين

وفي ضحى اليوم التالي كنا في البندقية نتجول في ساحة سان ماركو، ونطوف بكنيسة سان ماركو وقصر الدوجات ونقطع «قنطرة الزفرات» ما بين القصر والسجن، ونتأمل هاتيك المعاهد والآثار التي تذكرنا بصفحة من أروع صحف العصور الوسطى

ولقد شعرنا حين هبطنا البندقية أن يد التجديد قد صقلتها وأسبغت عليها مسحة من البهاء لم تكن لها من قبل، ووصلت كثيراً من أحيائها وطرقاتها المائية باليابسة، وكان عهدنا بها أنك لا تستطيع التنقل فيها إلا «بالجندولا»، فاذا بك اليوم تستطيع أن تقطعها سيراً من المحطة إلى الميدان — ثم إلى أنحاء كثيرة منها؛ وإنك لتشهد اليوم هذا التجديد أينما حللت في إيطاليا؛ وتلك آثار الفاشستية بلا ريب، وآثار تلك الروح الانشائية التي تنفث إلى إيطاليا حياة جديدة في كل شيء

وأخيراً انتهينا مساء إلى جنوة؛ وفي ضحى اليوم التالي ازدلفنا إلى الميناء فرحين باستقبال أول قطعة من أرض مصر؛ أجل هاهي ذي الكوثر تقف باسمة في ركن من خليج جنوة الكبير، وهاهو ذا العلم المصرى الأخضر يخفق على ساريتها؛ وإنه لمنظر يبعث إلى الفخر والزهو أن ترى سفناً مصرية صميمة تشق عباب هذه المياه؛ ولقد كان لمصر مدى العصور الوسطى بحرية عظيمة تجوس خلال هذا البحر، وكانت سفنها التجارية كثيراً ما تنتقل إلى البندقية وسرقوسة وجنوة؛ وكان لربابنة والبحارة السكندريين في تلك

بين عالمين

مصر . . .

شهد الخلائق إنها لنجيبة
بدليل من ولدت من النجباء

لفقيد الشيعة الأكبر

الأستاذ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

غير مجازف كثيراً — لو قل قائل — ليست مصر وليدة الأزمان وبنت الدهر، ونسيلة الأحقاب، بل هي أم الزمان ووالدة الدهر، وجدة الليالي والأيام؛ كما أن ما نرى لها اليوم من الحضارة الزاهرة، والثقافة الباهرة، ليس بالأمر الحديث، ولا الشيء المستطرف؛ وتقدمها في العلوم والصنائع والمعارف والفنون يكاد يتصل تاريخه بتاريخ دورة الأفلاك، ونشأة الكون ولكن لا شيء من هذا أريد، ولا إياه أعني بالبيان؛ وإنما أريد بهذه الكلمة التمهيدية أن أقول: إن الفقه الاسلامي وأحكام الشريعة الاسلامية قد تحورت عن وضعها القديم ونشأتها الأولى فأصبحت (ولا سيما في القرون المتوسطة) كعقد الجمان المتلألئ، ولكن قد طمرته الأتربة وغمرته الأقذاء والأقذار حتى حجبت جماله، ولم يستبن منه سوى بصيص من اللمعان ينبيء العارف عن كنز دفين، وجوهر ثمين؛ وما كانت صحاح أحكام هذه الشريعة المقدسة توجد الا عند رجالات من فرق المسلمين أو عند بعض طوائف منهم، ولكن لا صوت لهم ولا صيت، ولا تعرفهم أمم العالم من شرق أو غرب، وإنما كان مراجع الاسلام الذين تؤخذ منهم الأحكام هم أولئك الخشب المسندة والهيا كل المفخمة التي لها بزتها الخاصة وشاراتها المعينة، الذين تنصبهم السلطات الزمنية لسياستهم حسب تلك الظروف بأسماء مصطلحة كما يقال (شيخ الاسلام) و (أمين الفتوى) و (مفتي الحنفية) و (مفتي الشافعية) وهكذا وهلم جراً الى ما شاء الله

وكانت الشريعة الاسلامية تضج الى الله وإلى العلماء الأصحاء في تطهيرها من تلك الأوضار وفكها من تلك القيود والأغلال

وبقي الحال على هذه الكوارث لا يزداد الأمر على تمادي الأيام ومرور القرون إلاّ شدة في العمى ورسوخاً في الجهل، وضياعاً للحقائق، وتكاثفاً في الحجب على محيا الشريعة الغراء، مثل تكاثف الغيوم السوداء على جبين الشمس . ويعرف كل ذي لبّ : أن (مصر) قد سبقت الأقطار العربية في كثير من أسباب الحضارة، فدخلت قبلها في أكثر أبواب الثقافة، ولها فضيلة السبق الى التطور الحديث والأنظمة الجديدة — إن في الأدب أو في العلم والتعليم، أو التأليف والنشر، أو غير ذلك من من أبواب المعارف

ولكني أتنسم أن العناية قضت أن يكون لها السبق أيضاً حتى في نشر ما قبرته قرون الجهل والعصور المظلمة من الفقه الاسلامي وأحكامه الصحيحة وكشف ما تراكم على محياه من غيوم الأوهام وتحطيم تلك القيود والأغلال وطرحها عنه . وأحد شواهدي على ذلك — الكتيب الصغير، وأقول: الصغير على حد قوله:

المصور شهرة خاصة؛ وكان لمصر أسطولها الحربي والتجاري إلى ماقبل زهاء قرن فقط، ولكن صروف الزمن حرمت مصر مدى قرن من امتطاء صهوة المياه؛ والآن يستأنف التاريخ سيره، وتعود مصر فتسير سفنها في هذا العباب، وتعيد لنا النيل والكوثر سيرة غمرها النسيان دهراً؛ فعسى أن تكون النيل والكوثر نواة بحرية مصرية تجارية عظيمة تملأ جوانب هذا البحر نشاطاً، وتملأ نفوسنا غبطة وفخراً

تلك خواطر وعواطف تثيرها في النفس تلك السويعات الفريدة في حياتنا: سويعات يغمرها متاع التجوال وبهجة الجديد دائماً، ويملأها شجن البعاد أحياناً؛ على أنها ذكريات عزيزة في حياتنا نتطلع دائماً الى تجديدها . وإن العود الى الوطن ليملأ اليوم نفوسنا غبطة وسعادة خصوصاً وأننا نعود إليه في مستهل عهد جديد يجيش بآمال وأماني جديدة؛ ولكن أمل العود الى التجوال يهتف بنا في نفس الوقت لنجوز نفس المشاعر والظروف مرة أخرى ؟

(الباخرة كوثر في ١٣ سبتمبر) محمد عبد الله عنان

ان الكواكب فى علو محلها لترى صغاراً وهى غير صغار

ذالك كتاب (نظام الطلاق فى الاسلام) ، وكان مؤلفه الأستاذ العلاّمة أهدى الى نسخة منه . وبعد أن طالعته مرة أو مرتين راقنى وأعجبنى ؛ ولا أقول : أعجبنى دقة بحثه ، وبراعة تحقيقه ، ولطف أسلوبه ، واعتدال سليقته ، وان كان حائزاً على أوفر نصيب من كل ذلك ، وانما الأمر الذى يوشك أن يكون قد تفرّد به وامتاز — هو صراحته وبسالته ومشيه على ضوء دلالة الكتاب والسنة ، وعدم مبالاته بما اصطلحوا عليــه من الاجماع الذى جعلوه آلة تخويف ومهماز تهويل ، وإن قام على خلافه الدليـل . يعرف هذه البسالة أهل هذا الفن ومن خاض لجج تلك الغمرات

كان بعض أساتيــذى العظام وقد انحصرت به فى أواخر عمره مرجعية تقليد الامامية فى سائر الأقطار ، وحاز من النفوذ والاكبار — ما قلما كان يتفق لغيره من السلف — وفى الوقت نفسه كان يقول :

وددت لو أعرف سنة وفاتى حتى أعلن وأجاهر بفتاوى فى نفسى يساعد عليها الدليل ، وتخفف عن المسلمين العبء الثقيل . فكأنه رضوان الله عليــه — كان يخشى من إفشاء تلك الفتاوى حدوث الضوضاء من جهل العامة وجمود الخاصة المتسلحة بدعوى تلك الاجماعات . وكم لتلك الكلمة من الأكابر من نظائر !

فثل — طلاق الثلاث ، وطلاق الحائض ، والحلف بالطلاق والعتاق وأمثالها من القضايا التى لم تزل من عهد قديم من المسلمات الرائجة عنــد جمهرة المسلمين ، ويُدعى اتفاق المذاهب الأربعة عليها ، فاذا نهض رجل فى هذا العصر يهدم تلك المبانى الراسخة بمعول الحجة البالغة والبرهان القاطع ، أفلا يكون شجاعاً باسلاً وعالماً نحريراً ؟

نعم طالعت الكتاب فما سنح لى موضع للملاحظة والتعليق عليه إلا فى اختياره وجوب الاشهاد فى الرجعة كوجوبه فى الطلاق ، واستغرابه من علمــاء الاماميــة الفرق بينهما ، فكتبت إليه كتاباً فى بيان الفارق بينهما من ناحيــة الدليل تارة ومن ناحية الاعتبار أخرى ، فكنت أحسبه كتاباً خصوصيــاً لا يتجاوز حظيرة ما بينى وبينه ؛ ولكن كأن مروءته ، وكأن شهامته ، وكأن حبه للخير وتعميم الفائدة دفعته الى نشره والتعليق عليه ؛

فما أنا ذات يوم إلا وبعض شــباب النجف من تلامذة المدارس يقول لى : إن مجلة (الرســالة الغراء) نشرت كتاباً لكم مع الجواب عليه ... وحيث أن صديقنا الأستاذ الزيات حفظه الله منذ حمل الرسالة ، وأنشأ مجلتها الزاهرة ، لم يتكرم بإتحافنا بها كما يصنعه جملة من الصحافيين الكرام ، لذلك استمحنا من ذلك الشاب مظانها ، فذكر المكتبة العامة الحكوميــة فى النجف الأشرف ، فأوعزنا الى إدارتها فأرسلت إلينا عددى ١٥٧و١٥٩ فقط ؛ نظرت فيهما المقالين نظرة خفيفة ثم استرجعتهما الادارة عملاً بقانونها ، ولكن بعض أبناء أعيان النجفيين الذين فى بغداد أرسل الى عفواً من غير طلب الأعداد الثلاثة ، فوجدت بعد إعادة النظر فيها ان الأستاذ السابق الذكر قد أسهب فى الجواب عما قدمنا إليه فى الكتاب . وفى الحق أنه قد استفرغ وسعه وبذل جهده وأحاط بالموضوع من جميع أطرافه شأن المجتهد الفقيه الذى يلزمه فى سبيل استنباط الحكم الشرعى استفراغ الوسع ، واستقصاء النظر ، وبذل أقصى الجهد فى تحصيل الدليـل على الفتوى من الكتاب والسنة وكلمات العلماء . وهكذا صنع الأستاذ سدده الله فيما ذهب إليه من وجوب الاشهاد على الرجعة والتقصى عما أبديناه من الفرق ، فقد حشد زمرة من كلمات الأساطين وجملة من الروايات والأحاديث التى يراها تشهد بصحة دعواه . . .

وحيث أن من سجيتى التجافى عن إطالة المناظرة وتسلسلها خوفاً من أن يؤدى ذلك الى الجدل والمراء وحب الغلب بحق أو باطل ، وإذا أبديت رأيى فى موضوع فلست بملتزم أن يقبله كل أحد ، ولا يلزمنى أن أدفع كل مايقال عليه ، وإنما على أن أحتج وأقول ، ولغيرى حرية الاختيار فى الرد أو القبول . ولذلك لا أريد هنا أن أتعقب كل جملة مما ذكره الأستاذ بالمناقشة والمناوشة فيكون ذلك تطويلاً ولعله من غير طائل ، ولكنى أيضاً — شغفاً بنشد العلم وتعميم الفائدة أريد أن أؤسس قاعدة أصولية فقهية ينتفع بها الفقيه والمتفقه فى مقام الاستنباط ، ويرجع كل منهما إليها عند الحيرة والارتباك ، مستفادة أيضاً من ذات الكتاب والسنة ، وهى أنه إذا قام فى الدليل الشرعى من كتاب أو سـنة احتمالان متكافئان لا يترجح أحدهما على الآخر بمرجح داخلى أو خارجى ، هنالك ينظر الفقيه أى الاحتمالين أسهل على العباد وأيسر فى مقام

العمل ، فيلزم الأخذ به والفتوى على طبقه ، لما ورد فى الأدلة العامة من أن الشريعة الاسلامية مبنية على الرفق والتسهيل ، مثل قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقوله عز شأنه : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقول صاحب الشريعة : « جئتكم بالشريعة السمحاء » وقوله : « يسروا ولا تعسروا » وكثير من أمثال ذلك

ونضرب لذلك مثلاً فنقول : قوله تعالى : « وأشهدوا ذوى عدل منكم » قام فيه احتمالان : احتمال العود الى الطلاق فقط ، واحتمال العود إليه والى الرجعة المشار إليها بقوله تعالى « فامساك بمعروف » . فلزوم الاشهاد فى الطلاق متيقن على كلا التقديرين ، أما فى الرجعة فمحتمل لزومه ومحتمل عدمه . ولو تنازلنا مع الخصم وقلنا بتكافؤ الاحتمالين من حيث نفس الآية ، وأغمضنا عما قلناه من دلالة السياق على اختصاصه بالطلاق فقط ، وإن الرجعة والاشهاد كليهما من أحكام الطلاق وهما فى رتبة واحدة ، فلو كان الاشهاد واجباً فى الرجعة أيضاً للزم أن يكون ماهو فى رتبة الشىء متأخراً عن ذلك الشىء ضرورة تأخر الحكم عن الموضوع ، فيكون الشىء متقدماً ومتأخراً — حكما وموضوعاً — وهذا خلف وإحالة ، وتناقض فى الدلالة . ولكن أغمضنا عن ذلك كله وقلنا بتكافؤ الاحتمالين ، فاللازم بحكم تلك القاعدة الأخذ بأسهلهما وأقلهما كلفة وهو عدم لزوم الاشهاد . وقد تقرر فى فن الأصول أيضاً أنه إذا تعارضت الأدلة أو تزاحمت الاحتمالات فالمرجع الذى يستراح اليه هو الأصل المقرر فى ذلك المورد . ولا ريب أن الأصل فى المورد هو عدم الوجوب وعدم اللزوم ، ويعضد ذلك ما يزيح العلة ويقطع دابر الشكوك والأوهام . ذاك ما ورد فى أخبار أهل البيت سلام الله عليهم مثل ما فى صحيحة محمد بن مسلم قال : سئل أبو جعفر الباقر (ع) عن رجل طلق امرأته واحدة ثم راجعها قبل أن تنقضى عدتها ولم يشهد على رجعتها ، قال : هى امرأته مالم تنقض العدة . وقد كان ينبغى له أن يشهد على رجعتها . وإن كان جهل ذلك فليشهد حين علم . ولا أرى بالذى صنع بأساً ، وإن يشهد فهو أحسن . وفى أخرى : يشهد رجلين إذا طلق وإذا رجع . فان جهل فغشيها فليشهد الآن على ما صنع وهى امرأته ؛ وإن كان لم يشهد حين طلق فليس طلاقه بشىء . وفى ثالثه : الطلاق لا يكون بغير شهود ، والرجعة بغير شهود رجعة ، ولكن ليشهد بعد فهو أفضل . وعلى هـذا النمط أخبار أخرى كثيرة صريحة فى الفرق بين الطلاق والرجعة ، وأن الأول لا يصح وليس بشىء بدون الاشهاد بخلاف الثانى غايته أنه يستحب فى الرجعة الأشهاد ، وهو استحباب ارشادى معلوم المصلحة وهى الحذر من الجحود وإنكار الزوج أو الزوجة مشياً مع الأغراض والأهواء التى قد تتفق لأحدهما . ومثل هذا لا يصلح أن يكون علة للوجوب ، فان الالزامات الشرعية وجوباً أو تحريماً إنما هى لأحداث الدواعى إلى فعل الواجب واجتناب الحرام . فاذا كانت الدواعى فى الغالب حاصلة فى النفوس فلامقتضى للالزام . ألا ترى أن الله سبحانه قال فى كتابه الكريم : « وأشهدوا إذا تبايعتم » ولكن الفقهاء من الفريقين اتفقوا على الظاهر ، على أن الأمر هنا للاستحباب وأنه ارشادى محض ، لأن الدواعى للاشهاد ولاسيما فى الأموال الخطيرة كالعقار والضياع وأمثالها متوفرة عتيدة ، فلا حاجة إلى الزام الشارع به بعد أن كانت الناس مندفعة اليه بأنفسها حرصاً على الضبط واستعداداً للطوارىء من جحود وإنكار . فأمر الشارع بالاشهاد إرشاد إلى أمر واقع ، وتحفظ لازم ، وليس معناه أن البيع باطل بدون الاشهاد ، بل معناه أنك إذا تبايعت بغير إشهاد فقد غررت بنفسك ، وخاطرت بمالك فلا لوم إلا عليك . وهكذا الأمر بالاشهاد فى الرجعة إذا خشى كل منهما إنكار الآخر فانه يندفع اليه طبعاً ، وينساق له قسراً

والاشهاد فى الطلاق ليس لهذه الغاية فقط ، وإلا لكان حاله كحالى سائر العقود والايقاعات كالبيع والاجارة والصلح والعتق والوقف ، فلا شىء من هذه وغيرها يجب فيـه الاشهاد سوى الطلاق لحكمة هى أدق وأعمق ، وهى ما أشرنا اليه فى كتابنا السابق . وكذا النكاح لا يجب الاشهاد فيه عندنا بحيث لا يصح بدونه ، ولكن النفوس منساقة ومجبولة على الاشهاد فيه للضبط والاستعداد للطوارىء من ميراث وغيره . وأحسب أن هذا البيان سيكون كافياً عما أفاده الأستاذ فى ملاحظته الأخيرة إذ يقول صفحة ١٣١٩ من المقال المنشور فى (الرسالة) : « وما اشترط فى صحة الرجعة إنما اشترط ضماناً لبقاء الحياة الزوجية صحيحة سالمة من إرادة العبث بها وبعداً عن مواطن الشبهات

وعن الاضرار بالمرأة عن إرادة النكول والجحد لاضاعة حقها »
إلى آخر ما أفاد حفظه الله . فان هذا كله صحيح ومتين ، ولكن لا يصح بل لا يصلح أن يكون علة تبعث الشارع على الحكم بالوجوب بعد أن كانت الدواعي والبواعث متمكنة من النفوس بالاشهاد عند ملابسة الشك والخوف كما يشهدون فى النكاح والبيع مع عدم وجوبه شرعاً . . . ومصاص الحقيقة وزبدة المخض أن الكلام تارة فى صحة العمل فى حد نفسه مجرداً عن كل الملابسات والعوارض فنقول مثلاً : إن العتق يصح بقول السيد لعبده (أنت حر) فيصير العبد حراً بمجرد إنشاء المولى هذه الصيغة ، ولاحاجة إلى شهادة ولا كتابة ولاغيرهما ... والكلام تارة أخرى من حيث الطوارئ كعروض خصومة أو نزاع بين السيد والعبد واحتمال الجحود والانكار ، فلا إشكال فى أن الحاجة من هذه الناحية ماسة إلى الاشهاد وهو ضرورى . وكذا الكلام فى سائر الايقاعات والعقود كالبيع مع أن الكتاب المجيد أمر فيه بالاشهاد (وأشهدوا إذا تبايعتم) ولكن لم ينسب القول بوجوبه إلا إلى بعض أهل الظاهر ، وهو شاذ نادر . والخلاصة أن مقام الثبوت شىء ، ومقام الاثبات شىء آخر ؛ ونحن حيث قلنا بعدم وجوب الاشهاد فى الرجعة أردنا مقام الثبوت على حدة فى الطلاق الذى يتوقف ثبوته على الاشهاد . أما مقام الاثبات فالرجعة وغيرها سواء فى أنها محتاجة ومتوقفة على الشهادة فى الجملة (وإنما أقضى بينكم بالبينات والايمان)

وأرجو أن تكون هذه النبذة كافية فى سد باب هذه المساجلة ، وأخشى لو زاد البحث على هذا أن تدخل فى نوع المجادلة . نعم بقيت فى الطلاق قضايا مهمة كثيراً ما يقع بها الابتلاء ولم يتعرض الأستاذ أيده الله لها فى كتابه

(منها) طلاق المفقود زوجها الغائب غيبة منقطعة كما وقع الابتلاء بهذا فى الحرب العامة بكثرة . ولفقهاء الأمامية طريقة خاصة حسب الوارد عندهم من أحاديث أهل البيت (ع) فى التحرى أربع سنوات ، ومع اليأس وعدم النفقة يطلقها حاكم الشرع

(ومنها) ولى الصغير فانهم جوزوا أن يعقد له ولم يجوزوا الطلاق عنه ، وإطلاق كلماتهم يشمل حتى صورة المصلحة

(ومنها) طلاق الممتنع زوجها عن القيام بنفقتها تمرداً وعصياناً ومشاقة وإضراراً ، حاضراً كان أو مسافراً ، فانهم لم يجوزوا لحاكم الشرع طلاقها عنه تمسكا فى هذه القضايا بساق الحديث المشهور (الطلاق بيد من أخذ بالساق) وأنها ابتليت فلتصبر ، وهو عندنا محل نظر ، والجواز أقرب ، والأدلة عليه متوفرة وقد طال المقال وضاق المقام عن ذكرها

وفى الختام — أرد على أخى وخليلى فى الله — تحيته الطيبة المباركة — بمثلها بل بأحسن منها ، داعياً له بطول العمر ومزيد التوفيق ، وأن يؤلف بين قلوبنا ، ويجمع كلمتنا على الهدى والحق فى خدمة الاسلام ، ومناصرة هذا الدين الحنيف إن شاء الله

(النجف الأشرف) **محمد الحسين آل كاشف الغطاء**

في الأدب المقارن

الأثر الأجنبي

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تتفق اللغتان العربيـة والانجليزية في خروجهما من جزيرة منعزلة ، وانتشارهما في امبراطوريتين مترامیتین ، وفي تأثر أدبيهما بهذا التوسع العظيم وبالاختلاط بالأمم الأخرى وآدابها ، ولكنهما يختلفان في كيفية هذا التأثر ونواحيه ومداه ، لاختلاف الظروف التي اكتنفت قيام الامبراطوريتين

فقد صحبت قيام الدولة الاسلامية ظروف أربعة كان لها أبعد الأثر في تاريخها السياسي وفي تاريخ أدبها : فهي أولاً قد قامت على أساس دعوة دينية تنتظم الأمم ، وتسوي بين الناس ، وتعد المؤمنين بها من مختلف الأجناس إخواناً . وهي ثانياً جاءت مبكرة غاية التبكير ، ولم تنقض على تأسيس الدولة العربية الأصليـة في الوطن الأصلي — جزيرة العرب — غير سنوات قلائل . وثالثاً تم تأسيسها بسرعة نادرة المثال في التاريخ نتيجة نجاح العرب الحربي الباهر ، وأخيراً انبسط سلطانها على أمم تفوق العرب الفاتحين غنى وحضارة وثقافة

هذه العوامل الأربعة — بما انطوت عليه من خير وشر — كانت حاسمة في مستقبل الدولة العربية . فمساواة الاسلام بين الناس — مساواته بين العرب الفاتحين وبين الأعاجم المغلوبين — هيأت لهؤلاء أن ينافسوا العرب في الحكم والرياسة وكافة أسباب الحياة . وقيام الامبراطورية مبكرة قبل أن تتوطد الدولة في وطنها الأصلي من جهـة جعل قبضة الوطن الأول على ممتلكاته واهية سرعان ما انحلت ، وانفصلت جزيرة العرب أو كادت عن بقية الامبراطورية وعادت إلى ركودها الأول ، وخرجت منها عاصمة الحكم ؛ ومن جهة أخرى جعل الحكم الفردي المطلق هو النظام الوحيد القادر على إدارة تلك الأصقاع المترامية ، فأهملت الشورى التي حض عليها الاسلام ، والتي كانت مرعية قبل أن تمتد أطراف الدولة وتخرج العاصمة من الجزيرة . وسرعة تأسيس الأمبراطورية غمر الفاتحين بطوفان من الثروة نشر الترف والفساد نشراً يزري بكل ما عرفته رومة عقب فتوحها شرقاً وغرباً . وامتداد سلطان العرب على أمم تفوقهم حضارة وثقافة جعل من الحتم استعانتهم بأبناء تلك الأمم في الادارات والصناعات التي لم يكن لهم بها عهد من قبل

وقد استفاد العرب من سياسة المساواة والتسامح والعدل التي جروا عليها في إدارة امبراطوريتهم أن انتشر دينهم ولغتهم فمحقا الأديان واللغات السابقة في معظم أملاكهم وحلا محلها . ولكن دولتهم جاءت — من جراء أربعة العوامل آنفة الذكر — شعوبية لا عربية صميمة ، مستبدة الحكومة ، مترفة المجتمع ، متنافرة العناصر ، منطوية على عناصر كثيرة من عناصر الانحلال

***

كانت الظروف التي لابست قيام الامبراطورية الانجليزية وانتشار اللغة والأدب الانجليزيين عكس هذه تماماً : فقد توطدت الدولة الانجليزية في وطنها الأول توطداً تاماً مدى قرون قبل أن تتجـه إلى التوسع الخارجي ؛ واقتبس الانجليز حضارة جيرانهم وثقافتهم حتى صاروا في مقدمة الأمم . فلما راحوا ينشرون سلطانهم لم يُخضعوا أمماً تفوقهم مدنية كما كانت حالة العرب مع الفرس ، أو حالة الرومان مع الاغريق ؛ وتكامل بناء امبراطوريتهم تدريجاً مع سير الزمن وتطور الحوادث ، فلم يُبتلَوا بسيل مفاجئ من الثروة والترف يزعزع دعائم مجتمعهم ويوهن متانة أخلاقهم ، ولم يكونوا بسبيل دعوة دينية أو إنسانية تسوّي بين القاهر والمقهور ، بل كانوا وما يزالون يعتبرون رسالتهم إخضاع الآخرين وحكمهم لا مساواتهم بأنفسهم ؛ ومن ثم ظلوا متعالين عن الأمم المغلوبة مستأثرين بالكلمة العليا دونها متحاجزين عن أفرادها في المجتمع لا يخالطونهم ولا يزاوجونهم إلا في النـدر

لذلك كله قامت دولتهم إنجليزية صميمـة ، واتسق للنظام الديمقراطي أن يزداد تمكناً مع ازدياد اتساع الدولة ، بعكس ما كان في حالتي العرب والرومان ؛ وظل للوطن الأول في الامبراطورية الانجليزية المقام الأول ، وبقيت به حاضرة الحكم التي تجمع سلطتها الأطراف وتؤثر في غيرها من أجزاء الامبراطورية أضعاف ما تتأثر بالغير

***

تلك الظروف التى صاحبت امتداد الامبراطوريتين واختلاط الأمتين بالعناصر الأجنبية كان لها جميعاً أعظم أثر فى تاريخ أدبيهما كما كان لها أثر فى تاريخها السياسى ، وهو أثر مزدوج يشمل معالجة أبناء الأمم المفتوحة لأدب الأمة الغالبـــة ، كما يشمل اطلاع أبناء هذه الأخيرة على آداب الأمم المقهورة ؛ وهنا أيضاً يتباين الأدبان العربى والانجليزى

فالعرب قد سمحوا للمسلم من أية أمة أن يباريهم فى معاناة أدبهم كما باراهم فى شؤون الحرب والحكم ، فما لبث الأجانب الداخلون فى العربية أن بذوا العرب فى هذا الباب بحكم قديم ثقافتهم وتليد حضارتهم كما بذوهم فى غيره ، وما لبثوا أن صار منهم أئمة الأدب العربى ، واستأثروا أو كادوا بكتابة الدواوين ووزارة الخلفاء وصلات الأمراء

ولم يكن من الخير فى شىء للأدب العربى أن يتسلط عليه أولئك الغرباء الواغلون ، وكانت لهم فيه آثار سيئة : فهم مهما تكن ثقافتهم ومهما بلغ انكبابهم على دراسة العربيـة غرباء بطبعهم عن الأدب واللغـــة والذوق الأدبى العربى وتقاليده ومراميه ، فلم يكتبوا أو ينظموا على السجية بل كانوا دائماً مقلدين متعلمين : قلدوا متقدمى العرب تظاهراً باندماجهم فى العربية ، فكانوا عنصر تقليد ومحافظة ، لا عنصر ابتداع وتجديد فى الأدب ؛ وتعملوا فى اللفظ تظاهراً بتفقههم فى اللغة ، فأدخلوا الصنعة والبهرج الزيغ فى الأدب بدل أن يوسعوا أغراضه ويسموا بمعانيه

فَسَرَيانُ العنصر الأجنبى الأعجمى فى الأدب هو مرجع غلب الصنعة على الطبع فى كثير منه ، ومرجع تغلب نزعة التقليد على نزعة التجديد فى كل عصوره . وكفى بهذين داعياً الى جمود الأدب ثم تدهوره . ولا شك أنه لو بقى الأدب وقفاً على العرب الصميمين ، وظلت الكلمة العليا للعرب فى الدولة ، وظلت هذه الدولة محدودة المساحة لا تتجاوز كثيراً حدودها الطبيعية ، لجاء الأدب أقرب إلى الطبع وأحفل بمظاهر الفن وأوسع مدى وأسمى نفساً وأطول عمراً ، ولكان له تاريخ غير الذى كان

أما الأدب الانجليزى — وسنن الانجليز التى جروا عليها فى حكمهم واتصالهم بالأمم الأخرى هى ما قدمنا — فكان أقطابه بعد قيام الأمبراطورية — كما كانوا قبلها — انجليزاً أقحاحاً يعبرون عن الطبع الانجليزى والبيئة الانجليزية ، ويفقهون روح لغتهم وتراث أدبهم ، ويصدرون عن تقاليدهم المجيدة ؛ فلا غرو جاء الأدب الانجليزى طبيعياً فنياً صادق التعبير سامى المقصد بعيداً عن التكلف ثواراً على الجمود

فهذا فرق ما بين الأمتين فى الاتصال بالأجانب ؛ وهناك فرق بينهما فى الاتصال بآداب أولئك الأجانب لا يقل خطورة عن سابقه . فالعرب الذين قبلوا الأعاجم أنداداً فى دينهم ولغتهم وأدبهم ترفعوا عن آداب تلك الأمم ، ولم يروا بأنفسهم — وهم معادن البلاغة وفحول الخطابة ، ولغتهم لغة الدين والدولة والقرآن — حاجة إلى الاطلاع على آداب غيرهم ، فنظروا إلى الأدبين الفارسى واليونانى وغيرهما شزراً ، وخسروا بذلك كثيراً وضاق أفق أدبهم كثيراً لاعتزاله غيره

على حين أن الانجليز الذين ضنوا بقوميتهم وترفعوا عن سواهم من الأمم فى الحكم وفى المجتمع لم يترفعوا عن آداب تلك الأمم الجديرة بالدرس ، فانتفعوا قبل توسعهم وبعده بالآداب الايطالية والفرنسية والألمانية ، بله آداب الأمم البائدة من إغريق ورومان ؛ أوسعوا كل ذلك درساً واطلاعاً ونقلاً ، فأخصبوا أدبهم أى إخصاب ، ووسعوا أطراف لغتهم ذاتها . وعلى هذا النحو استفاد الانجليز بخير ما فى الآداب الأجنبية دون أن يفقدوا شخصيتهم فى غمار تلك الآداب ، أو يسمحوا للأثر الأجنبى أن يفسد ملكتهم الأصلية وطبعهم الخاص

فالظروف التى أحاطت باتصال العرب بغيرهم ، وتأثر أدبهم بالآداب الأجنبية ، والسنن التى استنها العرب فى معاملة الأجانب ، لم تكن خير ما يساعد الأدب العربى على النمو الصحيح والازدهار الطويل ؛ واللغة العربيـة المحكمة البناء ، البارعة التعبير ، الغنية الجوانب ، التى أينعت أحسن إيناع تحت سماء البادية لم يتح لها فى أرض الحضارة من يوجهون بليغ أساليبها أحسن التوجيه إلى دراسة النفس الانسانيـة ووصف المجتمع البشرى ، وكان رقيها العلمى فى ظل الامبراطورية الاسلاميـة أعظم بكثير من رقيها الأدبى

فخرى أبو السعود

عمر بن الخطاب *

للأستاذ علي الطنطاوي

« أهدى هذا الفصل إلى ... ... صاحب (الرسالة)، اعترافاً بفضله وفضل رسالته على، فانه لولا التشجيع الذى تفضل على به يوم صدر كتابى (أبو بكر الصديق) لم يؤلف هذا الكتاب » « على »

— ١ —

... فى يوم وَهِج من أيام الصيف، قد خَدِر واشتدّ حرّه، فى الهاجرة الملتهبة، كان يسير على رَمْضاء مكّة — وقد تسعّرت الأرض وتوقدت، واستحالت جمرة مشتعلة — رجلٌ ضَخم الجثّة مُفرط الطول، شديد الأَسْرِ، قد توشح سيفه، وأقبل مسرعاً يطأ الأرض وطأ عنيفاً، فتحسّ كأنْ قد تقلقلت تحت أقدامه، ويرمى كل شىء حوله بنظرات حادّة ينبعث منها الغضب، ويتطاير منها الشَّرَر، لا يبالى الشّمس المتّقدة، ولا الحصى المتسعّرة، ولا يحفل السَّموم الذى هبّ سخناً يلفح الوجوه، كأنه فيح جهنم ... لأنّ له غاية فهو يسعى إليها، إنه يريد أن يقتل «سيّد العالم» !

ذاك هو «عمر» الجاهليّة ... رجل يعيش فى الظلام، وراء سور التاريخ، لم يَدْنُ منه، ولم يلج حماه، ولم يُلْقَ عليه نوره؛ رجل يمشى فى هذه القافلة الجاهليّة، التى تبدأ من وسط الرمال، فى قلب الصحراء، ثم تسير على الرمال، رمال الصحراء، ثم تنتهى فى الرمال، فى الصحراء... تبدأ من العدم، وتنتهى إلى العدم، قبل أن تبلغ أرض المدنيّة، أو تصل إلى حدود العمران، أو تدنو من مهاد العلم والحضارة والحياة ... رجل يعيش بغير اسم، ويموت بلا ذكر !

— ٢ —

قف أيها الرّجل ! تودع من جاهليتك، إنّ عرشك فى التاريخ قد أُعِدّ لك لتستوى عليه، إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) سيضع فى يدك المفتاح الذى يفتح لك أبواب (التاريخ) الذى جهلك وأنكرك، ولم يَدْنُ بك ... لتدخل حرمه، ثم تعلو فى مراقيه، ثم توغل فى ساحاته وأبهائه، حتى تصل إلى السدّة العليا، فتجلس عليها، دون الأنبياء وفوق العظماء (١) !

قف أيها الرجل ! أَلْقِ عنك هذا السلاح الذى جئت تحارب به دين الله : إنّ دين الله لا يحارب !

إرم هذا السيف الذى توشحته لتقتل محمداً، وتقضى على بدعته الجديدة، وتبيد أصحابه التسعة والثلاثين ! إن محمداً رسول الله وسيّد كل من قال : أنا إنسان، لن يقتل ! إن هذه البدعة التى كتب لها أن تغلب على العالم، وتبقى ما بقى الزمان ظافرة منصورة لن يقضى عليها . إن هؤلاء التسعة والثلاثين رجلاً سيملكون الدنيا ؛ سيصيرون أربعين ألفاً، أربعين ألف ألف، أربعمائة ألف ألف، سيصيرون هم سكان هذه الكرة ... إنهم لن يبيدهم سيفُك يا عمر !

بل سيعزّهم الله بك، ويستجيب فيك دعاء نبيّه ومصطفاه، صلى الله عليه وسلم ... فتعال ! اغمد هذا السيف . اقبض هذه اليد التى رفعتها لتضرب بها امرأة . تعال اغتسل من شركك وجهالتك وجفائك وقسوتك . إنك ستمشى إلى مشرق النور، إلى دار الأرقم فى أصل الصفا، فتشهد فيها أنه لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسول الله !

***

يا لسرّ الكلمة السماوية : لا إلـه إلا الله محمد رسول الله !

لقد نقلت عمر من ظلمة الجاهلية إلى نور الاسلام، ومن حضيض الخمول إلى قُنّة المجد، ومن مهامه النسيان إلى صدر التاريخ .. لقد ذهب عمر الفظّ القاسى الذى كان مطية لقريش فى ظلمها وشركها وجبروتها الزائف، فينصر الباطل على الحقّ، والشرك على التوحيد، وجاء الفاروق العادل الرؤوف الرحيم، البطل الخالد العظيم، العبقرىّ الذى أدار أربع ممالك، لقد جاء أمير المؤمنين، سيف الأسلام وعزّ الدين !

يا للمعجب العجاب ! إن الرجل الذى خرج فى الهاجرة المحرقة، فى هذا اليوم العصيب، منتضياً سيفه، لا يلوى على

(*) من (الفصل الختامى) لكتاب (عمر بن الخطاب — تأليف على الطنطاوى وأخيه ناجى الطنطاوى) — تحت الطبع — تصدره قريباً (المكتبة العربية بدمشق) فى أكثر من (٦٠٠) صفحة

(١) حاشا أبا بكر أعظم العظماء بعد الأنبياء

شيء حتى يقتل محمداً ، قد رجع وهو يحب محمداً (صلى الله عليه وسلم) أكثر من أمه وأبيه والناس أجمعين !

إنها قد تعرض للمرء لحظات تبدل مجرى حياته ، ولكنا لا نعرف — ولا يكاد يعرف أحد — مثل هذه اللحظة المباركة ، التي قلبت هذا الرجل قلباً ، فارتقى مرة واحدة من بدوي منكر لا يعرفه إلا قومه ، إلى عبقري سيعرفه التاريخ بأنه قاهر كسرى وقيصر وباني الكوفة والبصرة ، وأنه أقوى وأرق وأعقل وأعدل ملوك الزمان — هذه اللحظة التي أثرت في حياة العالم فأزاحت دولاً وأقامت دولاً ، وثلت عروشاً ، وبنت حضارات

***

أسلم الفاروق ، فليفرق بين الحق والباطل ، ولينتقل الاسلام من دين مستتر يفر من قريش العاتية الظالمة المستكبرة ، يختبئ في حاشية من حواشي مكة التي يصول في بطاحها الشرك ويجول ، وتقوم حول كعبتها الأصنام ، إلى دين ظاهر مجاهد ، يجابه الخصوم ، ويصمد للأعداء . لقد كان الاسلام ساكناً تحت الصفا يعمل بهدوء ، ويتكامل في الخفاء ، كما تتكامل البذرة في باطن الأرض ؛ فَلْيَخْرُج الغصن ولينمُ في الهواء ، ولْيسمُ إلى العلاء ، ليكون منه بعد ثلاثين سنة الدوحة التي تمتد فروعها من صحراء افريقيا إلى سهول خُراسان ، ومن جبال الأناضول ، إلى ساحل عُمان ...

ليعلن الاسلام (بمظاهرة) تسير في شوارع مكة على رأسها « حمزة » أسد الله و « عمر » الفاروق حتى تنتهي إلى المسجد الحرام ، فيصلي المسلمون عند الكعبة أول صلاة بجماعة ، وإمامهم إمام الأنبياء وسيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) ، ولتتقطع أفئدة قريش من الحنق ، وليموتوا بغيظهم . انهم لا يستطيعون أن يصنعوا شيئاً . لقد أسلم الفاروق ، وفرق الله به بين الحق والباطل ! إنها (مظاهرة) صغيرة ، لم يسر فيها الا أربعون رجلاً ، ولكن هؤلاء الأربعين هم الذين صنعوا الأربعمائة مليون مسلمي اليوم ، ولا يعلم إلا الله ماذا يصنعون غدا ... ولكن فيهم حمزة ، فيهم عمر العظيم ، فيهم خلاصة الانسانية ، وأفضل الانس والجن والملائكة ، محمد رسول الله !

إن هذه (المظاهرة) التي سار فيها أربعون شخصاً مائتي خطوة ، من الصفا الى الكعبة ، لهي أعظم (مظاهرة) عرفها التاريخ لأعظم مبدأ قام لتقرير التوحيد ، وتأييد الحق ونصرة الفضيلة ، وتحقيق المثل العليا في الحق والخير والجمال

انها تسير أبدا ، تسير في الأدمغة والقلوب ، ما بقيت أدمغة وقلوب يحف بها الاجلال والاكبار

— ٣ —

ولكن ماذا كان عمر لولا الاسلام ؟ هل كانت هذه العبقرية النادرة ، وهذه النفس العجيبة التي تظهر لو لم يلمسها (محمد) بيده الكريمة ويهزها ويُفِض عليها من نوره ؟

هل كان لعمر هذه المكانة في التاريخ وهذه المنزلة في النفوس ؟ هل كان يعيش الى هذا العصر ويؤلف فيه عشرون كتاباً ، ويبقى الى العصر الآتي ويكتب فيه ألف كتاب ؟

إن من يدقق في سيرة عمر ، ويقابل بين عمر الجاهلية — على قلة ما لدينا من أخباره — وعمر الاسلام ، ويرى كيف استحال عمر من شخص إلى شخص ، وتبدلت طبائعه وأفكاره في اللحظة التي وقف فيها أمام النبي صلى الله عليه وسلم ونطق بكلمة الشهادة وكيف ولد في تلك اللحظة ولادة جديدة وبدأ يصعد في مدارج العلاء . . . إلى ذروة المجد . . . إلى الجنة ، علم أن عمر مدين للاسلام بكل شيء

نعم ، قد تظهر هذه العبقرية ولو لم يتداركها الاسلام ، وتبدو آثارها ، ويصبح عمر زعيما من زعماء مكة ، يبرز ويعظم أثره في قريش ، ثم لا يتجاوز اسمه هذا الوادي الذي يمتد ستة أكيال من جرول إلى الحجون ، بعرض كيلين اثنين — أما أن يتخطى أثره الأخشبين إلى البادية ، ويقطع البادية إلى الشام والعراق ، وينفذ إلى الأجيال الآتية فشيء لم يكن ليناله عمر لولا الاسلام

وماذا كانت تصنع هذه العبقرية وهي محصورة في هذا الأفق الضيق ؟ وما كان يصنع عمر وهو يعيش في بلدة منقطعة عن العالم تائهة في لجٍ من الرمال ما له آخر لا صلة لها بالبلدان العامرة إلا صلة التجارة الضعيفة ، ولا تأتيها أخبار العالم إلا رثة بالية ، ولا نبأ عندها من فلسفة يونان ، أو حكمة الهند ، أو أخبار

السياسة الدَّوْلية بين فارس والروم ؟

هل ينير مصباح محبوسٌ فى صندوق مغلق ؟ أم يشتعل وحده لايدرى به أحد ، ثم يفنى زيته ، فينطفئُ وحده لا يعلم به إنسان ؟

أما كانت تمضى عبقرية عمر كما مضت ألوف من العبقريات دفنت حيّة فى بقعة ممتزلة من بقاع الأرض ، فى قوم متأخرين ، ولم تتصل بسمع التاريخ ؟

أما إن عمر شماعة من نور الاسلام ، ومعجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم !

— ٤ —

لما استفاق بنو قريش من الغشية التى أصابتهم عند ما أسلم عمر عادوا يكيدون للدين ، ويؤذون النبيّ والمسلمين ، والنبى (صلى عليه وسلم) ماضٍ فى دعوتهم ، صابر على أذاهم ، ينذرهم بطش الله ، ويعدهم إذا هم أسلموا ملك فارس والروم ، ويعدهم جنة عرضها السموات والأرض ، وهم ماضون فى إعراضهم ، لا يتدبرون القرآن ، ولا تخشع له قلوبهم التى هى أشد قسوة من الحجارة (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ ، وإنَّ منها لَمَا يشَّقَّقُ فيَخرجُ مِنهُ الماءُ ، وَإِنَّ مِنْها لَمَا يَهبطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) يا لهذه القلوب التى هى أغلظ من الجبال ! (لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذا القرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) . وهذه القلوب التى أنزل عليها القرآن لا تخشع ولا تلين !

طلعت الشمس على وادى مكة أربعة آلاف وأربعمائة وأربعا وعشرين مرّة (١) والمشهد واحد لم يتغير

نبيّ الله يدعو الناس إلى الله ، سراً وعلناً ، فرادى وجمعاً ، ليلاً ونهاراً ؛ وبنو قريش يناوئونه ويحاربونه ويؤذونه ، يلقون الشوك فى طريقه وهو ماشٍ ، ويرمون سلى الجزور على رأسه وهو ساجد ، ويُغرون به سفهاءهم وأحداثهم ، ويفتنّون فى تعذيب المسلمين ، وتخرق لهم أدمغتهم الشيطانية طرقاً فى التعذيب تقشعر لهولها الأبدان (٢) ، ويقاطعون المسلمين لا يكلمونهم ولا يبايعونهم ولا يزوجونهم ، ويحصرونهم فى الشِّعب سنتين ، ثم يعدّون عدد الجريمة الكبرى ، يأتمرون بالنبى ليقتلوه ، ويضيّعوا دمه فى القبائل ، فلا يقدر عليه بنو عبد مناف

لختام الصبر على هذا ؟ أيقف هؤلاء المشركون الجاهلون من رؤوس قريش وزعماء مكة فى وجه الاسلام ، الذى ما جاء لقريش ولا للعرب ، ولا للقرن السابع الميلادى ، ولكن جاء رحمة للعالمين ، وهدى للناس أجمعين ، فى كل عصر وفى كل بادية ومصر ؟ أهؤلاء يمحون الاسلام من الأرض محواً ؟ يا للسخفاء المغرورين ! (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ) وينصر نبيه ، ويظهر دينه (عَلَى الدِّينِ كُلِّه)

لم يعد فى قوس الصبر مَنْزَع ، فليسر الاسلام فى طريقه — نحو أرض الشام — نحو الظلال والأعناب ، فليستقر فى الطريق ، (فى المدينة) حيناً ، ثم ليخرج من يثرب ، ليعم العالمين

أيها المسلمون ... هاجروا إلى المدينة !

***

أذن النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالهجرة إلى المدينة ، فخرجوا أرسالاً مستخفين مستترين ، ينسلّون من مكة انسلالاً ، فلا تدرى بهم قريش ، إلا وهم فى المدينة على رأس الجيش الذى يسحق رؤوس الكفر فى (بدر) ، ثم يمضى إلى (فتح مكة)

لكن عمر ؟ عمر القوىّ الذى ما لان للمشركين ؛ عمر الذى أعلن إسلامه وذهب يضرب المشركين ويضربونه ، ويجد فى ذلك لذة وراحة ؛ عمر الذى حماه خاله أبو جهل ، وأجاره من أذى قريش ، فضرب وجهه بجواره وأباه ، وعاد إلى قريش يَضرب ويُضرب ، ثم لا يكون إلا غالباً ، يدفع عن نفسه ، وعن المستضعفين من المسلمين

عمرٌ يذهب من مكة مستخفياً ؟ معاذ الله يا عمر !

تهيأ عمر للهجرة ، فتقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى بيده أسهما ، واختصر عنزته (١) وذهب إلى المسجد ، فاستقبل قريشاً بالسلاح الكامل ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الملأ من قريش ، فأعلن وحده الحرب عليهم جميعا .... فقال :

« شاهت الوجوه ! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ! من أراد

(١) من يوم الاثنين ٦ أغسطس ٦١٠ إلى يوم الاثنين ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ (أى من البعثة إلى الهجرة)

(٢) لكنها لم تكن تعد شيئاً فيما ابتكره ديوان التفتيش فى أسبانيا لتعذيب المسلمين من طرق لم تخطر على بال ابليس نفسه ...

(١) عصا فى رأسها زج ، كالرمح الصغير

أن يُثكل أمّه ؟ أو يوتِم ولده ، أو يُرمل زوجتَه ، فليلقني وراء هذا الوادي ! »

قال على رضى الله عنه : فما اتبعه إلا قوم من المستضعفين ، علمهم ما أرشدهم ، ثم مضى لوجهه

— ٥ —

سيقول قائل : ما لعمر يعلن هجرته ، ويمشى على رؤوس الأشهاد من صناديد قريش ، والنبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه يهاجران مستخفيين ؟ أيكون عمر أشجع من النبي ومن أبي بكر ؟

لا والله ، ما هو بأشجع منهما ، ولقد وقف عمر بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بعد لم يسلم ، ولم يجيء إلا ليقتله ، فلما أمسك بتلابيبه ونتره ، سقط على الأرض ، على قدم النبي ، وهو يرتعد من هيبته صلى الله عليه وسلم . وكان الصحابة — وفيهم عمر — إذا جد الجد ، وحمى الوطيس ، ودارت رحى الحرب ، استتروا بالنبي صلى الله عليه وسلم واحتموا به . ولما كانت الردة ورمت العرب عن قوس واحدة ، وخاف الصحابة وخاف عمر ، وأرادوا المسالمة والملاينة ، قام أبو بكر وحده فى وجه العالم وصارعه حتى صرعه . فكان عمر يعرفها له أبداً ... فعلام إذن هاجر عمر جهاراً نهاراً ؛ وهاجرا مستخفيين ؟

إن فى الأمر لسراً ، هو غير الشجاعة والجبن ، ذلك أن القائد العام عند ما ينتقل من جبهة من جبهات الحرب الى جبهة أخرى ، لا يقف فى الطريق على عدو ، ولا يلقى حرباً ، وإذا رأى نفراً من الأعداء ، يستتر منهم ، وينأى عنهم ، لأنه إذا سلك سبيل الشجاعة الساذجة ، وأقبل عليهم يقاتلهم ، ضيع الجيش الذى ينتظره ، ولا يعمل إلا به ، وخسر المعركة الكبرى لينتصر على نفر من الأعداء فى معركة على الهامش ، ثم إن فراره لا يعد جبناً ولا عجزاً ، وإقدامه لا يعد شجاعة ولا استبسالا

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم القائد الأكبر ، لا فى حرب قريش أو هوازن — فما قريش ؟ وما هوازن ؟ ولكن فى حرب الشرك والجهل والظلم ، فى الحروب التى تمتد أبدا بين الحق والباطل ، فلايدافع عن الحق قوم إلا كانوا تحت راية محمد ، فهل يدع مهمته الكبرى ، لينتشر على نفر من قريش ؟

ذلك هو سرّ الهجرة

(لم ينته الفصل) **على الطنطاوى**

٢ – جامعة الاسكندرية *

بقلم الأديب ابراهيم جمعة

علماء الجامعة فى عصرها الأول — فليتاس القوصى — زنودوتس — زيارة ميناندر الأثينى وافتتاح مسرح الاسكندرية — اكتشاف فيلون للبحر الأبيض الجنوبى — دراسة مانيتو وتيموثيوس وهيكتاس للعقائد المصرية القديمة — اقليدس وهيروفيلوس — سوتر يكلف بالدراسة والتصنيف آخر الأمر — قيمة كتاباته — الفن — أخذ الايطاليين عن الاسكندريين

يميل الباحثون الألمان إلى نسبة هذه الجمهرة من العلماء إلى بطليموس الأول المعروف باسم بطليموس سوتر ، وهو الذى يعتبره « سسميل » صاحب الفضل الأوفى فى خلق حركة فكرية أدبية علمية فى الاسكندرية قام هو بحمايتها ، وترأس مجالسها ، وأصغى إلى المناقشات الشديدة الاحتدام التى خاض فى بعض الأحايين من الفائدة العلمية ، فأصبحت جدلاً شخصيا لاطائل تحته

عهد بطليموس سوتر بتربية ابنه « فيلادلف » إلى عالم ذاع صيته فى ذلك العصر هو فليتاس القوصى ، وهو شاعر ينسب إليه أول مجهود أدبى عرفته الاسكندرية فى الشعر الرثائى ، بل أول مجهود عرفه العالم أجمع من هذا النوع من الشعر ، وهو الى هذا من أشهر علماء اللغة الاغريقية الذين صنفوا فيها ، ووضعوا لها موسوعة كبرى حوت كل مصطلحاتها

هذا وقد تابع زنودوتس البيزنطى التأليف والتصنيف فى قواعد الاغريقية ، وقام بجهد يشكر فى مراجعة مخلفات « هوميروس »

ويحتمل أن يكون بطليموس سوتر هو المؤسس لمسرح الاسكندرية ، وأن تكون دعوته « لميناندر الأثينى » بقصد حضور حفلة افتتاح المسرح الكبير وشهود بعض رواياته التى وضعها فى أثينا تمثل فى الاسكندرية ؛ وقد كانت زيارة ميناندر للاسكندرية تطويقاً لجيد الجامعة بأثمن درر العصر ، واعترافاً بالمكانة الناشئة والنجاح الظاهر الذى صحب جهود البطالسة الأوائل فى توفير جو علمى من الطراز الأول لمدينتهم الجديدة

ووكل سوتر إلى أمير البحر « فيلون » أمر التجوال فى البحر الأحمر قصد الوصول إلى أطرافه الجنوبية ؛ وقد وفق هذا إلى اكتشاف البحر الأحمر الجنوبى ، وكان لهذا الاكتشاف أثره فى عصر بطليموس فيلادلف ومن خلفه فى التجارة وفى تزويد

(*) انظر العدد ١٦١ من الرسالة

الجامعة بأبحاث عظيمة القيمة سنأتى على ذكرها فى موضعها — كما عهد سوتر أيضاً إلى هيكتاتيس الأبديرى ، ومانيثو ، وتيموثيوس أمر دراسة (الميثولوجيا) المصرية القديمة ، ابتغاء تزويد الأمبراطورية البطليموسية الناشئة بما يحتاج إليه كيانها من العقائد

* * *

والحقيقة أن كل هذه الجهود هى دون ما بلغته جامعة الاسكندرية فى هذا العصر من التفوق فى الهندسة على يد أستاذها الأكبر « اقليدس الاسكندرى » وفى التشريح على يد أستاذه الفذ « هيروفيلوس »

وإقليدس أشهر معلمى هذا العصر اطلاقا ، وهو أبو الهندسة كما يقولون ، مؤسس مذهب البحث العلمى ؛ وكتابه « الأصول » أنماط فى صميم المنطق أكثر منها موضوعات فى الرياضة ، واليه يرجع الفضل فى جعل عصر سيده بطليموس سوتر عصر تفوق رياضى عظيم الشأن ، كان ولا يزال له أثره فى تقدم العلم والعقل البشرى

وكان « هيروفيلوس » أبا للتشريح ، كما كان « أبقراط » اليونانى أبا للطب من قبل ، وبفضل هيروفيلوس سجل التاريخ لمصر السبق فى دراسة (الأمعاء) دراسة دقيقة ، وكانت الحكومة تمده بالمجرمين المقضى عليهم بعقوبة الاعدام ليجرى فيهم تجاربه — كما أمدته حظيرة الحيوان الملحقة بالتحف بأنواع من الحيوان شرحها ودرسها واستنبط من كل ذلك طريقة علمية للتشريح ساعدت بدورها على رفع شأن الاسكندرية فى العلوم الطبية

وتآزرت جهود هذا العالم وجهود إقليدس على خلق مكانة للاسكندرية ظلت مقترنة باسم المتحف الاسكندرى حتى وقتنا هذا

* * *

ويجدر بنا أن نذكر أنه بينما كان الاسكندريون مشغوفين بمباحث العلم البحت فى الرياضة والطب وما شاكلهما ، كان الأثينيون مشغولين بدراسة الفلسفة من رواقية وأبيقورية ، أما اشتغال الاسكندرية بالفلسفة فقد جاء متأخراً حين أسس فلاسفتها مذاهبها الخاصة التى أشهرها الأفلاطونية الحديثة وسنعرض لها فى بحثنا هذا بكثير من التفصيل

* * *

كانت لبطليموس سوتر شواغل سياسية الى جانب اهتمامه فى رفع شأن الاسكندرية ، وأهم تلك الشواغل منافسته لديمتريوس ملك مقدونية ، لانتزاع السلطة البحرية على البحر الأبيض الشرقى من يده ، وما لبث حتى انتزع قبرس من الملك المقدونى وجعلها مركزاً لأسطوله ، وغدت له بهذا سيطرة غير منازعة على المياه الشرقية من البحر الأبيض . وكان من شواغله أيضاً رغبته الملحة فى نقل جثمان سيده « الاسكندر » الى مصر ، ابتغاء الفخر بحيازة جثمان العاهل العظيم ، ولم يهدأ لسوتر بال حتى تم له ذلك ، وبهذا خلا نهائياً من مشاغله الخارجية ، وخصص كل عنايته بعد ذلك للمكتبة والمتحف اللذين نالا من ماله وانتباهه الشىء الكبير . ومن أمره أنه شغف مع المشغوفين بالدراسة والتصنيف ؛ ومن المعروف عنه أنه وضع مصنفاً فى حروب الاسكندر الأكبر التى ساهم فيها كأحد قوادها . ويصف (أريان) مؤلَّف سوتر بأنه من أدق المراجع وأوفاها فى هذا الشأن ، ويضعه فى رأس كتب المراجع التى صدر عنها تاريخه ، وقد يكون هذا حقاً ، كما قد يكون ملقاً للملك المؤلف

والمذكرات الخاصة التى يضعها القواد عن أعمالهم فى الحروب يغلب عليها المبالغة ، وحسن تقدير تلك الأعمال وتعظيم نتائجها مما قد يكون إغراقا وتورطا فى الباطل ، وهى لهذا لا يصح أن تتخذ سندا من أسانيد التاريخ إلا بكثير من الحيطة والحذر . وينسب الى نابليون الأول شىء من هذا فى مذكراته التى كتبها عن نفسه ، ولم يتحرر يوليوس قيصر من مثل ما ينسب الى نابليون فى مذكراته عن « الحرب الغاليّة »

ويذكرون أن سوتر كتب أيضاً عدة رسائل عن الشؤون العامة فى عصره نشرها « ديونيسو دورس » أحد تلاميذ « أرستاركاس » العالم الاسكندرى ، يؤسفنا أننا لم نعثر على شىء منها حتى الآن

* * *

وفى أواخر أيام سوتر كان لا بد له من تسوية مسألة وراثة العرش ، إذ كان له أكثر من وريث ، وكان أكثر هؤلاء الوراث خطراً على العرش البطليموسى « بطليموس » ابن له من يونانية ، أخذ ديمتريوس ملك مقدونية الموتور يشد أزره ويناصره على بطليموس « فيلادلف » . وكان النزاع بين هذين الوريثين نزاعا بين روحين مختلفتين : روح مصرية ، وروح يونانية ؛ وكان انتصار إحداهما على الأخرى انتصاراً لأحدى الروحين ، وتحديداً لمستقبل البلاد . وكان ميل الملك الأب مع ابنه فيلادلف ، وكان هوى الشعب مع الأخير إذكاء للروح القومية الجديدة التى بدأها وارث ملك الاسكندر فى مصر سوتر العظيم ، وإنهاضاً لمدنية هلينية الأصل حقاً ، ولكنها من حق الاسكندرية ، ومن جهدها وإحيائها . كان الملك الأول يأنس فى الملك الابن فيلادلف سياسة مشابهة لسياسته ، أساسها المحافظة على الصبغة المشتركة التى جمعت

بين اليونانية الهلينية والمصرية الفرعونية ، والتي حرص البطالسة على التمسك بها كأساس للحكمهم الجديد ، لا مناص منه ، إبقاء على دولتهم من أن تبيد

والذي يتأمل كيف عنى سوتر بتربية ابنه فيلادلف على أيدي خير الأساتذة ، يرى كيف كان يحرص على أن ينتهي ملكه إلى هذا الوريث دون سواه ، وقد كان أن نزل سوتر لابنه فيلادلف عن العرش ، ولكنه ظل يظهر في بلاط ابنه مدة عامين كأحد الرعايا ، ومات عام ٢٨٣ ق . م مخلفا على الزمن سجلاً حافلاً بالحوادث الجسام قلَّ أن تتوفر لحاكم

استطاع سوتر أن يركز دراسة العلوم والآداب والفلسفة والطب في عاصمة ملكه ، ولكن هل استطاع أن يجعل الاسكندرية كعبة الفنون في هذا العصر ؟

إذا كان لنا أن نحكم بالشواهد التي بين أيدينا وهي تلك النقوش البديعة التي ترى فوق العملة المتخلفة عن هذا العصر في دور العاديات ، لما تأخرنا عن الحكم قطعا بتقدم الفن في ذلك العصر ؛ غير أنه لا يجب أن يغيب عن بالنا ونحن في هذا الصدد أن الفن الاغريقي كان عليه أن يغالب فنا من أقوى الفنون التي عرفها تاريخ العمارة هو الفن الفرعوني . والمشاهد بوجه عام أن المباني التي أقامها البطالسة خارج الاسكندرية روعي فيها أن تكون فرعونية الصبغة ، ولكنها لم تخل من التأثر بالفن الاغريقي ؛ ولم يكن للبطالسة من ذلك مناص ، تشبهاً بالفراعنة وإرضاء لذوق الشعب المصري الذي لم تنسه الأحداث السياسية قوميته ، ولم يمجد على مرور الزمن أبطالاً غير أبطاله ، ولم يعرف عنه أنه أسلم القياد كله للمدنية الدخيلة ، ولا سيما للجانب الديني منها ، بل بقي محافظاً على دين أجداده محافظة تامة . لهذا ظلت المباني ذات الصبغة الدينية على النمط الفرعوني

تأثر البطالسة بالديانة المصرية أكثر مما تأثر المصريون بالفن الاغريقي ، ولذلك بقيت الصبغة المصرية كما أسلفنا ظاهرة في الفن الذي عرف عن العصر البطليموسي ، إلا في الاسكندرية ذاتها ، حيث كان كل شيء يونانياً صرفا ؛ فأقيم في الاسكندرية في هذا العصر المتحف والملعب والمسرح والسيما حيث دفن الاسكندر ، وكانت كلها من غير جدال آية في إبداع الصنعة الاغريقية ، رغم ما يحاول البعض إشاعته من تأخر الفن في هذه الفترة من الزمن

والأدلة المادية على تقدم الفن الاغريقي في مصر في هذا الزمن ما أبدعته يد نحات لتابوت من الرخام البديع الصنع ما يزال محفوظا في متحف القسطنطينية لملك مجهول الاسم من ملوك صيدا ، هو تحفة من تحف الحفر وحذق الألوان ، وتلك المشاهد التاريخية التي ترى محفورة على الأحجار تمثل المعارك بين الفرس والاغريق ، إلى تلك الصور الرمزية التي قصد بها الاشارة إلى امتزاج الشرق والغرب عن طريق الحضارة الاغريقية ، إلى مناظر الصيد وغير ذلك مما لا يفوقه سوى « البارثنون » في أثينا

وأغلب الظن أن الاسكندرية بما توفر لها من سمو المكانة لا بد أن تكون قد استهوت أمهر البنائين ، ورجال الفنون حيث بلاط سوتر وفيلادلف وعطاؤهما المغدق لكل من برز في ناحية من النواحي ؛ ولا شك أن الاسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط لم تكن إلا من خلق هؤلاء الفنانين وإبداعهم

وقد كتب م . شريير مقالاً ممتعاً عن فن نشأ بالاسكندرية وتقدم فيها ، وانفردت به ، هو صناعة الأواني الذهبية والفضية التي تتخذ عادة مقياساً لتقدم الحرف اليدوية ، والتي لا تزال شاهدة على قولنا بين محتويات دور الآثار . ويحاول هو أن يثبت أن الاسكندريين كانوا الأساتذة في هذا المضمار وفي غيره . ففي رأيه أن أسلاف « بنفنتو سليني » الايطالي ، والمدرسة الايطالية التي زعيمها هذا الأخير حاكت فن الاسكندرية في الشعر والفن . وهو يدلل بقوة على حب الاسكندريين للطبيعة وتقديرهم لروائعها ، وعلى أن الاسكندرية كانت حلقة الاتصال بين العلم والفن ، وبين القديم والحديث ، وبين الشرق والغرب .... الخ

ليس الفن في ذاته ناحية من نواحي نشاط جامعة الاسكندرية ، ولا هو عادة يتصل بالدراسة الجامعية اتصالاً مباشراً ، ولكننا سقنا هذه الكلمة القصيرة عن الفن الاغريقي الاسكندري ، لأنه جانب من جوانب المدنية ، كان يستلزم من الاسكندريين ولا شك إلماماً بالأصول الهندسية التي لا غنى لفن العمارة عنها . ونحن وإن كنا لم نحصل على ما نقطع الرأي به من أن الهندسة التي اشتهرت بها الاسكندرية منذ عهد اقليدس كانت تطبق ويستفاد منها عمليا في فن العمارة ، إلا أننا نرجح إمكان استفادة الفن من هندسة إقليدس استفادة كبرى

ولنا في بعض مقالاتنا التالية عود إلى نقل إيطاليا وخاصة جامعة « بدوا » في العصور الوسطى عن جامعة الاسكندرية نظامها والكثير من تراثها الفكري حيث شاع منها إلى أوربا من قطر إلى قطر ومن عصر إلى عصر .

إبراهيم جمعة

للتاريخ السياسي

معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وانجلترا

– ٣ –

محضر متفق عليه

رغب الوفد المصرى ووفد المملكة المتحدة أن يسجلا فى محضر المفاوضات ما اتفقا عليه من تفسير لبعض نصوص معاهدة التحالف ، وفيما يلى بيان هذه التفسيرات :

١ — من المفهوم طبعاً أن التسهيلات المنصوص عليها فى المادة السابعة التى تقدم إلى صاحب الجلالة الملك والأمبراطور تشمل إرسال قوات أو امدادات بريطانية فى الحالات المعينة بتلك المادة

٢ — من المفهوم أنه كنتيجة لأحكام المادة السادسة تتبادل الحكومتان المشورة فى حالة خطر قطع العلاقات

وعليه فى حالة قيام ضرورة دولية مفاجئة يخشى خطرها يعمل بمبدأ التشاور المتبادل نفسه

٣ — تشمل « طرق المواصلات » المشار إليها فى الجملة الثانية من المادة السابعة المواصلات الاخبارية (الأسلاك البحرية والتلغرافات والتليفونات واللاسلكى)

٤ — تشمل الاجراءات الحربيـة والادارية والتشريعية الوارد ذكرها فى الجملة الثالثة من المادة السابعة الاجراءات التى بموجبها تراعى الحكومة المصرية فى استعمال حقها بالنسبة لمواصـلات الراديو الكهربائية مستلزمات محطات التلغراف اللاسلكى التابعة للقوات البريطانية فى مصر ، وتواصل العمل مع السلطات البريطانية لمنع أى تدخل بين موجات محطات التلغراف اللاسلكى البريطانية والمصرية ، كما تشمل الاجراءات التى تكفل الرقابة الفعالة على جميع وسائل المواصلات المشار اليها فى تلك المادة

٥ — يراد بكلمتى « منطقة جنيفة » الواردتين فى الفقرة الثانية (ا) من ملحق المادة الثامنة امتداد شاطئ البحيرة المرة الكبرى من نقطة تبعد ثلاثة كيلو مترات شمالى محطة جنيفة إلى نقطة تبعد ثلاثة كيلو مترات جنوب شرق محطة فايد بعرض ثلاثة كيلو مترات من شاطئ البحيرة

٦ — من المتفق عليه بالنسبة إلى (ب) من الفقرة الثانية من ملحق المادة الثامنة أن تحدد بالضبط وفى أقرب وقت مستطاع الأماكن التى ستحل بها القوات الجوية بالمنطقة المشار اليها هناك

وينقل كذلك إلى هـذه المنطقة مستودع قوات الطيران الملكية الموجودة الآن بأبى قير ، على ألا يتأخر ذلك عن تاريخ انسحاب القوات البريطانية من القاهرة طبقاً للفقرة الثامنة

٧ — من المتفق عليه بالنسبة للفقرة الثالثة من ملحق المادة الثامنة (ا) أن تشمل أبنية الثكنات البريطانية أماكن للمتزوجين من الضباط ، ولنسبة معينة من الرتب الأخرى . (ب) إنه وإن كان يمكن الآن تحديد موضع مصحة النقاهة تحـديدا نهائياً إلا أن العريش قد تصلح لهذا الغرض . (ح) إن الحكومة المصرية جرياً على الخطة التى سلكتها فعلا لمصلحة سكان تلك المناطق ستتخذ جميع التدابير الصحية الممكنة لمكافحة الملاريا فى الجهات المجاورة للمناطق التى توجد بها القوات البريطانية

٨ — من المتفق عليه بالنسبة للفقرة السادسة من ملحق المادة الثامنة أنه فيما يتعلق بالطريق رقم (٢) إذا لم تستطع الحكومة المصرية الاتفاق مع شركة قنال السويس على استخدام القوات البريطانية والمصرية لهذا الطريق واصلاح الأجزاء التى لم تصل بعد إلى مستوى الأجزاء الأخرى إلى أن تفى بالشروط المبينة فى الفقرة السادسة فان الحكومة المصرية ستنشئ طريقاً جديداً يصل ما بين هذه الأماكن

٩ — من المتفق عليه بالنسبة للفقرة الثانيـة عشرة من ملحق المادة الثامنة أن يقتصر عدد أفراد الفصيلة المشار اليها على الحد الأدنى اللازم بالضبط لاستلام هذه الأدوات وحراستها

١٠ — من المتفق عليه بالنسبة للفقرة الثالثة عشرة من ملحق المادة الثامنة أن الطيران سيكون لأغراض التدريب ؛ على أن يكون فى الغالب فوق المناطق الصحراوية ، ولا يكون فوق المناطق المسكونة إلا حين تقتضى الضرورة ذلك

١١ — من المتفق عليه طبعاً فيما يتعلق بالفقرة الثانية من المذكرة المصرية الثانية أن الحكومة المصرية هى التى تدفع نفقات البعثة العسكرية ، وأن كلمتى « التدريب الصحيح » الواردتين

فى هذه الفقرة يشملان التدريب فى الكليات والمعاهد الحربية والبريطانية

١٢ — لا تنطبق الفقرة الثانية من المذكرة الثانية إلا على الأشخاص الذين يكونون بالفعل فى ذلك الوقت من أفراد القوات المصرية المسلحة

١٣ — يراد بكلمة « المعدات » الواردة بالفقرة الثالثة من المذكرة المصرية الثانية كل المهمات التى يحسن بالقوات التى تعمل معاً أن تتخذها من صنف واحد فلا تشمل الملابس ولا المنتجات المحلية

ملحق للمادة الحادية عشرة

إلى أن يتفق الطرفان على غير ما يأتى تطبيقاً للفقرة الأولى من هذه المادة يتعين أن تكون المبادىء العامة التى يراعيانها فى المستقبل بالنسبة للاتفاقات الدولية هى أنها لا تطبق على السودان إلا بعمل مشترك تقوم به حكومة المملكة المتحدة وحكومة مصر وأن مثل هذا العمل المشترك يكون لازماً تماماً كذلك إذا أريد إنهاء اشتراك السودان فى اتفاق دولى كان ينطبق عليه

والاتفاقات التى يراد سريانها على السودان تكون على العموم اتفاقات ذات صفة فنية أو إنسانية ، وتشمل مثل هذه الاتفاقات فى الغالب على الدوام حكماً خاصاً بالانضمام اللاحق اليها ، وفى مثل هذه الأحوال تتبع هذه الطريقة لجعل الاتفاق سارياً على السودان . ويجرى الانضمام بوثيقة مشتركة يوقعها عن مصر وعن المملكة المتحدة كل فيما يخصه شخصان مفوضان فى ذلك تفويضاً صحيحاً . وتكون طريقة إيداع وثيقة الانضمام فى كل حالة موضع اتفاق بين الحكومتين

وفى حالة ما إذا أريد أن يطبق على السودان اتفاق لا يحتوى على نص خاص بالانضمام تكون طريقة تحقيق ذلك موضع تشاور واتفاق بين الحكومتين

وإذا كان السودان بالفعل طرفاً فى اتفاق وأريد إنهاء اشتراكه فيه تشترك المملكة المتحدة ومصر فى إصدار الاعلان اللازم لهذا الانهاء

ومن المتفق عليه أن اشتراك السودان فى اتفاق ما وإنهاء ذلك الاشتراك لا يكونان إلا بعمل مشترك يجرى خصيصاً بالنسبة للسودان ولا يستنتجان من مجرد كون المملكة المتحدة ومصر طرفين فى الاتفاق أو من نقضهما لهذا الاتفاق

وفى المؤتمرات الدولية التى تجرى فيها المفاوضات فى مثل هذه الاتفاقات يكون المندوبان البريطانى والمصرى بطبيعة الحال على اتصال دائم بالنسبة لأى إجراء قد يتفقان على أنه مرغوب فيه لصالح السودان

محضر متفق عليه

١ — من المتفق عليه بالاشارة إلى الفقرة الأولى من المادة الحادية عشرة أن يقدم الحاكم العام إلى حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة وإلى الحكومة المصرية تقريراً سنوياً عن إدارة السودان ، وأن يبلغ التشريع السودانى إلى رئيس مجلس الوزراء المصرى مباشرة

٢ — من المتفق عليه بالاشارة الى الفقرة الثانية من المادة الحادية عشرة أنه بينما يكون تعيين الوطنيين المصريين فى الوظائف الرسمية بالسودان خاضعاً بالضرورة لعدد الوظائف المناسبة الخالية ووقت خلوها ومؤهلات المرشحين المتقدمين لها فان أحكام تلك الفقرة تسرى فوراً بمجرد نفاذ المعاهدة ؛ وتكون ترقية الوظفين فى حكومة السودان بدون اعتبار للجنسية الى أية درجة كانت وذلك بالاختيار تبعاً للجدارة الشخصية

٣ — ومن المفهوم أيضاً أن هذه النصوص لا تمنع الحاكم العام من أن يعين أحياناً فى بعض الوظائف الخاصة أشخاصاً من جنسيات أخرى إذا لم يتيسر وجود ذوى المؤهلات من الرعايا البريطانيين والوطنيين المصريين أو من السودانيين

٤ — من المتفق عليه فيما يتعلق بالفقرة الثالثة من المادة الحادية عشرة أنه نظراً لأن الحكومة المصرية ترغب فى إرسال الجنود الى السودان فان الحاكم العام سيبادر بالنظر فى أمر عدد الجنود المصرية اللازمة للخدمة فى السودان والأماكن التى يقيمون فيها والثكنات اللازمة لهم ؛ وسترسل الحكومة المصرية فوراً بمجرد نفاذ المعاهدة ضابطاً مصرياً عظيما يستطيع الحاكم العام استشارته فى هذه الأمور

٥ — بما أنه قد تم الاتفاق بين الحكومة المصرية وحكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة على أن مسألة الدين المستحق لمصر على السودان والمسائل المالية الأخرى المتعلقة بهما تبحث بين وزارة المالية المصرية ووزارة المالية بالمملكة المتحدة ، وبما أن هذا البحث قد ابتدأ بالفعل فقد رؤى أنه ليس من الضرورى أن

تتضمن المعاهدة أى نص خاص بهذه المسألة

خطاب من فخامة المندوب السامى

خطاب للمندوب السامى

إلى دولة مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء

سيدى :

فى خلال مناقشتنا فى المسائل التفصيلية المتصلة بالفقرة الثانية من المادة الحادية عشرة أقترح ندب خبير اقتصادى مصرى للخدمة فى الخرطوم وأبدى الحاكم العام رغبته فى تعيين ضابط مصرى سكرتيراً حربياً له ، وقد سجل الاقتراح والرغبة المشار اليهما واعتبرا مقبولين من جهة المبدأ ؛ كما إنه قد اعتبر من المرغوب فيه ومن المقبول أن يدعى مفتش عام الرى المصرى بالسودان إلى الاشتراك فى مجلس الحاكم العام كلما نظر المجلس فى مسائل متصلة بأعمال مصلحته

وتفضلوا ... الخ امضاء

ملحق للمادة الثالثة عشرة

إن الأغراض التى ترمى إليها التدابير الواردة فى هذا اللحق هى :

١ — الوصول على وجه السرعة إلى إلغاء الامتيازات فى مصر وما يتبع ذلك حتما من إلغاء القيود الحالية التى تقيد السيادة المصرية فى مسألة سريان التشريع المصرى (بما فى ذلك التشريع المالى) على الأجانب

٢ — إقامة نظام انتقال لمدة معقولة تحدد ، ولا تطول بغير مبرر . وفى حدود تلك المدة تبق المحاكم المختلطة وتباشر الاختصاصات المخولة الآن للمحاكم القنصلية فضلا عن اختصاصها القضائى الحالى

وفى نهاية فترة الانتقال هذه تكون الحكومة المصرية حرة فى الاستغناء عن المحاكم المختلطة

٢ — تتصل الحكومة المصرية كخطوة أولى فى أقرب وقت مستطاع بالدول ذوات الامتيازات بقصد (ا) إلغاء كل قيد يقيد التشريع المصرى على الأجانب ، و (ب) إقامة نظام انتقال للمحاكم المختلطة كما هو وارد فى الشطرة الثانية من الفقرة الأولى سالفة الذكر

٣ — إن حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة بصفتها دولة من ذوات الامتيازات وبصفتها حليفة لمصر لا تعارض بتاتاً فى التدابير المشار إليها فى الفقرة السابقة ، وستتعاون تعاوناً فعلياً مع الحكومة المصرية فى تحقيق هذه التدابير باستعمال كامل نفوذها لدى الدول ذوات الامتيازات فى مصر

٤ — من المتفق عليه أنه فى حالة ما إذا وجد من المستحيل تحقيق التدابير المشار إليها فى الفقرة الثانية فان الحكومة المصرية تحتفظ بحقوقها كاملة غير منقوصة إزاء نظام الامتيازات بما فيه المحاكم المختلطة

٥ — من المتفق عليه أن الشطرة (ا) من الفقرة الثانية لا تعنى فقط أن موافقة الدول ذوات الامتيازات لن تكون ضرورية لسريان التشريع المصرى على رعاياها ، ولكنها تعنى أيضاً انتهاء الاختصاص التشريعى الحالى الذى تباشره المحاكم المختلطة بالنسبة لتطبيق التشريع المصرى على الأجانب ، ويتبع ذلك ألا يكون للمحاكم المختلطة فى سلطتها القضائية أن تقضى فى صلاحية سريان قانون أو مرسوم مصرى طبقه البرلمان المصرى أو الحكومة المصرية على الأجانب

٦ — يصرح صاحب الجلالة ملك مصر بمقتضى هذا أن أى تشريع مصرى يطبق على الأجانب لن يتنافى مع المبادىء المعمول بها على وجه العموم فى التشريع الحديث ، وأنه فيما يتعلق بالتشريع المالى على الخصوص فان هذا التشريع لن يتضمن تميزاً مجحفاً بالأجانب بما فى ذلك الشركات الأجنبية

٧ — لما كان من المعمول به فى أكثر البلاد أن يطبق على الأجانب قانون جنسيتهم فى مسائل الأحوال الشخصية فسينظر بعين الاعتبار إلى أنه من المرغوب فيه أن تستثنى من نقل الاختصاص — على الأقل فى البداية — مسائل الأحوال الشخصية الخاصة برعايا الدول الممتازة التى ترغب فى أن تستمر محاكمها القنصلية فى مباشرة هذا الاختصاص

سيقتضى نظام الانتقال الذى يوضع للمحاكم المختلطة ونقل الاختصاص الحالى للمحاكم القنصلية إليها (الأمر الذى سيكون بطبيعة الحال خاضعاً لأحكام الاتفاق الخاص المشار إليه فى المادة التاسعة) إعادة النظر فى القوانين الحالية الخاصة بتكوين المحاكم المختلطة واختصاصها بما فى ذلك إعداد وإصدار قانون جديد لتحقيق الجنايات

ومن المفهوم أن إعادة النظر هذه ستتضمن فيما تتضمنه المسائل الآتية :

١ — تعريف كلمة أجنبي بصدد الاختصاص المقبل للمحاكم المختلطة

٢ — زيادة عدد موظفي المحاكم والنيابات المختلطة بما يقتضيه التوسيع المقترح لاختصاصها

٣ — الاجراءات المتعلقة بمسائل العفو أو تخفيف عقوبة الأحكام الصادرة على الأجانب والاجراءات المتعلقة بتنفيذ عقوبة الاعدام الصادرة عليهم

محضر متفق عليه

من المتفق عليه بالنسبة للفقرة السادسة من ملحق المادة الثالثة عشرة أن المسائل التي ينطوي عليها هذا التصريح لا تخضع لقضاء أي محكمة في مصر

المذكرة المصرية الأولى

سيدي :

بالاشارة إلى المادة الثانية من المعاهدة التي وقعناها اليوم أتشرف بإخباركم أنه نظرا لأن حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وإرلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وامبراطور الهند سيكون أول ملك أجنبي يمثله في مصر سفير فان السفراء البريطانيين سيعتبرون ذوي أقدمية على باقي الممثلين السياسيين المعتمدين لدى بلاط صاحب الجلالة ملك مصر . وتكون محتويات هذه المذكرة خاضعة لاعادة النظر في الوقت وبالشروط المنصوص عنها في المادة السادسة عشرة من المعاهدة

المذكرة المصرية الثانية

سيدي :

أريد أن أسجل هنا مسائل معينة أخرى تم التفاهم عليها وتتصل بالشؤون العسكرية في معاهدة التحالف التي وقعناها اليوم

١ — يسحب الموظفون البريطانيون من الجيش المصري وتلغى وظائف المفتش العام والموظفين التابعين له

٢ — نظراً لأن الحكومة المصرية ترغب في استكمال تدريب الجيش المصري بما فيه سلاح الطيران وتنوي لمصلحة المحالفة التي تم عقدها أن تختار المدربين الأجانب الذين قد ترى حاجة اليهم من بين الرعايا البريطانيين وحدهم فانها قد اعتزمت أن تنتفع بمشورة بعثة عسكرية بريطانية للمدة التي تراها ضرورية للغرض المذكور ، وتتعهد حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة بأن تقدم البعثة العسكرية التي تطلبها الحكومة المصرية كما تتعهد بأن تقبل من ترى الحكومة المصرية إيفاده من رجال جيشها للتعلم بالمملكة المتحدة وأن تكفل لهم التدريب الملائم . ونظراً للظروف التي هيأتها هذه المعاهدة سوف لا ترغب الحكومة المصرية بطبيعة الحال في إيفاد أحد من أفراد قواتها المسلحة ليتلقى دراسته في أي معهد أو وحدة من معاهد التدريب أو وحداته في غير المملكة المتحدة ، على ألا يمنع ذلك الحكومة المصرية من أن توفد إلى أي بلد آخر رجال الجيش الذين لا يتيسر قبولهم في معاهد المملكة المتحدة ووحداتها

٣ — يتعين لصالح المحالفة ونظراً لاحتمال ضرورة التعاون في العمل بين القوات البريطانية والمصرية ألا يختلف طراز أسلحة القوات المصرية من برية وجوية ومعداتها عن الطراز الذي تستعمله القوات البريطانية . وتتعهد حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة بأن تبذل وساطتها لتسهيل توريد تلك الأسلحة والمعدات من المملكة المتحدة بمثل الأثمان التي تدفعها حكومة صاحب الجلالة كلما رغبت الحكومة المصرية في ذلك

المذكرة المصرية الثالثة

سيدي :

بالاشارة إلى المادة الرابعة عشرة من المعاهدة التي وقعناها اليوم أتشرف بابلاغكم أن الحكومة المصرية تنوي إلغاء إدارة الأمن العام الأوربية فوراً ، ولكنها ستستبقي لمدة خمس سنوات من نفاذ المعاهدة عنصراً أوروبياً معيناً في بوليس المدن ، ويبقى هذا البوليس في المدة المذكورة تحت إمرة ضباط بريطانيين

وتسهيلاً لأحلال موظفين مصريين بالتدريج محل العنصر الأوربي المذكور مما يضمن تجانس العمل في نظام البوليس تنوي الحكومة المصرية أن تستغني كل عام عن خدمة خمس موظفي البوليس الأوربي

وستفضل الحكومة المصرية على العموم بالنظر لمعاهدة الصداقة والتحالف التي وقعناها اليوم الرعايا البريطانيين الحائزين للمؤهلات المطلوبة عندما تستخدم خبراء من الأجانب

(تمت ملحقات المعاهدة)

٣ - نهضة المرأة المصرية

وكيف نومه للخير العام

للأستاذ فليكس فارس

من هذا الموقف دفعت الانسانية فى الغرب أوائل خطواتها على سبيل المدنية الحديثة ، فكان التمرد على النظم القديمة البالية ، وكانت الثورات التى خضبت الأرض بدماء الأسياد والعبيد ، بدماء الظالمين والمظلومين ، بدماء الأبرياء والمجرمين ، نجيعاً واحداً رقص الشعب فوقه صاخباً باكياً ضاحكا فى سكرة الأمانى المحطمة والآلام المخدرة

من مثل موقف الرومان ومن مثل موقف العرب حين سادت الخرافات بين الشعوب خرجت أوروبا الى عهدها الجديد ، ولكن عيسى لم يكن هاديها ، ولا كان محمد ماشياً فى طليعتها .

كان إنجيل الغرب حقوق الانسان التى كتبها الثائرون بالدم التمرد ، وكان قرآنها القوانين التى سنها نابليون لأقامة الموازنة بين الحقوق ، ولكن هذا الانجيل الحديث الذى استمد من إنجيل عيسى المساواة والانصاف لم يتناول سواهما من مبادىء الاحسان والعطف والمغفرة والرحمة ، وهذا القرآن الجديد : قوانين نابليون المستمدة من مذاهب الأئمة فى الشرع الاسلامى وقف عند حد التنظيم المادى لحقوق الناس ، فقصر عن الأخذ بما فى قرآن النبى الهادى من الدعوة الى المعروف والبر بالادنين والأبعدين من بنى الانسان

رأت بلاد الغرب أن الدين قد أصبح سلطة تواطأت طويلاً مع السلطان المدنى المطلق وما حوله من سادات الاقطاع ، وامتنع عليها أن تسلخ إنجيل عيسى عن هذه السلطة فأنكرتها وأنكرت عيسى وتعاليمه معها . وسارت المدنية الحديثة فى طريقها مستنيرة بالعلم الوضعى منكرة كل ما لا تقع الحواس عليه ، فأصبحت القوة وحدها المسيطر الأعلى تنبسط قاعدة رهيبة للعجل الذهبى فتمده باعتلائها وتمدها بلمعانه وصولته

وبقيت المسيحية دين الغرب ، ولكنها حصرت فى كنائسه وانكمشت مبادئها عن الحياة نفسها ، وبينما كانت تتلى فى المعابد كل يوم الآيات التى هبطت على جبل فلسطين فهزت الدنيا وقلبت المدنيات القديمة ، وتتلى بعدها رسائل الحواريين التى كتبت فى السجون لتحرير الانسان ، كانت مدنية روما الوثنية تنبعث من كل جانب لتدور حول الكنائس مقهقهة ساخرة

كان العذارى يخرجن من الكنائس بعد سماعهن قول بولس الرسول بالتستر وحجب الشعور والاحتشام والطاعة للقيمين ، فيذهبن الى المراقص نصف عاريات كأنهن الدمى الرومانية نفخ إبليس فيهن نسمة الحياة

إن غريزة المرأة فى الأصل لا تطمح إلا الى الطريق الذى اختطه لها الناموس الطبيعى فى تكوينها ، وما أحبت امرأة رجلا إلا وكانت محبتها خيالاً سابقاً لمحبة الطفل الكامنة فيها

وإذا كانت الفتاة قد لجأت الى المواخير كما يقول الفريد دى ميسيه لتأكل بثدييها ، وتلتقى هناك بمن منع على نفسه أن يكون قيما عليها فأصبح مستثمراً لشقائها ، فانها لم تلبث أن تعودت إذلاله لها فى عرضها فالجأت الى العمل لتأكل بعرق جبينها احتفاظاً على الأقل بحق اختيارها للرفيق الموقت أو بحق التمرد على أنوثتها الكاسرة من عزتها ، وهكذا بعد أن كان الفتى يلتقى الفتاة التى تحول عنها فى المواخير ليذلها ، أصبحت هى تلاقيه فى ميادين الأعمال لتزاحمه متملصة من إذلاله

سوف يأتى يوم وهو غير بعيد تنتبه المدنية فيه الى أن الرجل الكامل الذى ينشده العلماء فى الغرب لن يخلق لهم من التمرين لقوى العقل وقوى الجسد ولا من فحص الخلايا بالمجهر حتى ولا من التلقيح بالمواد الكيميائية أو غدد القرود ، فيتحققون أن الرجل المتفوق إنما هو ابن الحب الصحيح ؛ فالمحبة وحدها هى السبيل الى إدراك الحق والقوة والجمال

لندع العالم المتمدن يفتش بعلومه ونهضته على هذا الحب الذى تخيله كارل ماركس متجلياً فى الحرية التامة للناس فى أهوائهم فجاءت روسيا البلشفية تثبت انخداعه فى نظرياته ، ليقتنعوا أنهم لن يتوصلوا فى تجاربهم إلا إلى العبر الزاجرة المؤلمة

أما نحن أبناء هذا الشرق العربى الذى انبثق الحق فيه انصباباً من الداخل بالالهام لا تلمساً من الخارج ، فلنا المسلك المفتوح منفرجاً أمامنا للاعتلاء والخروج إلى النور بعد هذا الليل الطويل ، إذا نحن أخذنا بروح ما أوحاه الحق الينا

لا بترقية الزراعة والصناعة ، ولا بنشر التعليم والتهذيب ، ولا بجعل البلاد جنة فى أرضها غنى وتنظيما ، تنشأ الأمة ويخلق الشعب الحر السعيد

إن الجنين الذى يحمل أسباب شقائه وهو فى بطن أمه لا تمكنه أن يصير رجلاً حراً قوياً يفهم حقيقـة الحياة ويتمتع بالعظمة الـكامنة فيها

إن الاهتمام بايجاد الطفل الصالح أولى من العمل لأعداد العلم والتهذيب لطفل نصقل مظاهره صقلاً وتنحطم كل محاولة نصرفها للنفوذ إلى علته المستقرة فيه منذ تـكوينه

ليس الفقير المتسول ، ولا العليـل المتألم ، ولا الشيخ الهرم يتمشى بلا عزاء إلى قبره ؛ ليست المرأة المستعبدة بلقمة ، ولا الفتاة المخدوعة المنطرحة على أقذار المواخير ؛ ليس كل هؤلاء الناس الأشقياء فى الحياة بأشقى من الأطفال يجور عليهم الآباء والأمهات قبـل أن يقذفوا بهم إلى الوجود ثم يرهقوهم بالقطيعة والاهمال حين يدرجون على الأرض بأقدامهم الناحلة المرتجفة

الرجل الذى يمسخ حبه شهوة ، والمرأة المتقصـفة المتهـتكة التى تجعل هيكل نسمات الله مركماً لنفايات البشر من عباد الخيانة والطيش ، إنما هما آدم وحواء مطرودين من الجنان إلى أرض الجهود المضنية والآلام المحتمة . ومن يدرى أن حديث معصية الأبوين الأولين ليس رمزاً لخيانة الحب ، تلك الخيانة التى تنزل اللعنة بمرتكبيها وبأبنائهم من بعدهم

* * *

إن هذه الحقائق التى استجليناها من قلب الحياة لتملى علينا المبادىء التى يجب أن نأخذ بها لتوجيه المرأة للخير العام

إننا ، ولا ريب ، تجاه نهضة نسائية تبشر بارتقاء قريب ، ولـكن هذه النهضة مقصورة على عدد قليـــل من السيدات اللواتى لم ينخدعن بمظاهر المدنيـة الغرارة فأدركن أن المرأة المترجلة الفضـول ليست هى من نرجو لاحياء الأسرة وخلق الأمة الحية

الظلمات كثيفة ، والمشاعل قليـلة ، ولـكن هذه المشاعل كفيلة إذا رفعت بانارة نساء اليوم ونساء الغـد وإرشادهن إلى ما انطوى فيهن من فطرة شرقية سامية

ليس كالمرأة من يصلح المرأة أو يفسدها . فليذهب صوت المرشدات متغلغـلاً فى كل طبقات الأمة مهيباً بنسائها إلى النهوض . وليست النهضة التى نرجوها للخير العام بين النساء مما يستلزم الوقت الطويل ؛ لأنه إذا كانت نهضة الرجال فى أمة تقتضى تحصيل العـلوم بأنواعها وفروعها سياسية وإدارية وصناعية وزراعية وفلسفية ، وتستلزم لبلوغ هذا الغرض امرار السنين الطوال درساً وتفكيراً ، فليس الحال على هذا المنوال فى إنهاض المرأة

نهضة الرجل فـكرية عمليـة ، أما نهضة المرأة فاحياء إيمان وإشـمال عاطفة . وقد لا تحتاج نساء بلدة لأكثر من خطب معـدودة تلقيها امرأة ملهمة على عليها الحق الأعلى ما تقول ، فتخلق من كل فتاة زوجة صالحة ، ومن كل زوجة أماً رؤوما

إن الشريعة فى هذا الشرق العربى إنمـا هى وحى من السماء لخير المجتمع فى مختلف الأحوال والعصور ؛ ولشرعة الزواج بخاصة فى هذه البلاد ما ليس لأى قانون ابتدعه الناس فى سائر المعمور من حكمة ومرونة ؛ فهى عقد فيه للجاهلة المنحطة روادع وقيود ، وللمستنيرة الراقية الفاضلة مجال رحب يمتد فيـه حقها قدر استحقاقها

الحق استحقاق وليس هبة ؛ وما ظلمت نساء الشرق فى أدوار انحطاطه إلا لقصورهن عن نيل هذا الحق

أما وقد آذنت الساعة بالنهوض ، وقيض الله لمصر والشرق العربى من يرى إصلاح المجتمع بتساوى أهميـة وإصلاح الهيئات الحاكمة فيه ، فقد حق على الناهبين رجالاً ونساء أن يؤدوا رسالة الاصلاح لاحياء الأمة واستعادة مجدها

فلنستثمر إذن نهضة الناهضات فى سبيل الخير العام لأقالة الأسر من كبواتها على الأسس الآتية :

١ — إحياء شعور المرأة بقـداسة رسالتها ، فتحس بأن لها شخصية مستقلة يسودها الانتخاب الطبيعى لرفيق مترفعاً عن كل استهواء للمطامع والشهوات الضالة . إن أشقى الناس من ضعفت شخصيته إلى درجة التردد فى اختياره ، وأذل فتاة فى الحياة من تقف حائرة بين طلابها فتنصب ميزان الترجيح ذاهبـة مع الاعتبارات الفانية للتحكم بالحوافز الخفية العالقة بأهداب الخلود

٢ — تمـكين عقيدة المرأة فى أن حريتها كامنة فى عبوديتها (لاشتياقها) كزوجة وكأم ، وإن انعتاقها من هـذه العبودية إنما هو كفر بربها وبذاتها

٣ — تفهّم سـيادة الرجل القوام على المرأة على ما قصده الشرع من تأمين الحاجة والرعاية والصيانة ، فلا تؤول كما يحلو لبعض الرجال تأويلها بأنها تحكم وإرهاق واستبداد بالشخصية التي خلقها الله فأودعها إرادته . إن من يفهم السيادة تحكماً بالذات لا خدمة لها إنمـا ينصب نفسه قواماً على فضل الله وقدره

٤ — إقصاء المرأة عن كل عمل يقصيها عن واجباتها ، إذ لا بد لـكل مجتمع تترجل نساؤه أن تتأنث رجاله ، وليس برجل من لا غيرة فيه

٥ — أن تتيقن المرأة أن قسطها أوفر من قسط الرجل فى تكوين رجال الأمة ، لأنه وإن تساوت وإياه بتكوين جسم الجنين من ذرات متساوية قيمة وعدداً ، فان أثر شخصيتها فيه ليفوق أثر شخصية الرجل ، فهى المستودع والمرضع والمربى الأول

٦ — أن تعلم المرأة ويعلم الرجل قبلها أن إقامة أسرة على أنقاض أسرة إنمـا هو من قبيل البناء على الرماد ، وما يصلح الرماد أساساً يثبت عليه أيّ بناء

٧ — أن تثق الفتاة من أن طهارة روحها وعفاف جسمها إنمـا هما الركن الذى يبنى الرجل سعادته عليه ، فتحرص على هذا العفاف لأن عثرته حتى فى زواج خاطىء عثرة لا تقال ؛ وقلما نرى امرأة خرجت ظالمة أو مظلومة من بيت مهدّم وتمكنت من بناء بيت جديد لا تساوره الأشباح ولا تدور فى زواياه الخفية الوساوس والشكوك

٨ — أن ينتبه رجال الشرع إلى ظاهرة خطيرة فى أحوال الأسرة المصرية وهى ظاهرة الطلاق بنسبة مروعة تدل على ضعف العقيدة الدينية وعلى انحطاط فى الأخلاق ، وكلاهما نذير الدمار

٩ — أن تعمل المصلحات الناهضات بخاصة على إيجاد حضارة واحدة تتبعها نساء مختلف العناصر المكوّنة للوطن ، إذ لا معنى لهذا الاختلاف فى حياة الأسر التى تتفق كتبها السماوية على تنظيم الحياة بالمبادئ الأدبية العليا

إن لم يقم المجتمع على عادات وتقاليد وأزياء واحدة ، فإن إقامة الوطن على مثل هـذا المجتمع المختلط لمن أصعب الأمور . وما تجتمع النساء فى بلادنا من عديد الطوائف إلا بين طبقة معلومة اقتبست من المدنية الغربية ما يضج منه عقلاؤها ؛ وليس الاتحاد الذى ننشده بين الأسر ما نرى فيه نساءنا الشرقيات من كل طائفة عاريات على الشواطئ أو نصف عاريات فى المقاصف والمراقص .

إن وحدة العادات والأخلاق التى نصبو إليها إنمـا تقوم على الحرية المصونة التى تبيح للمرأة المباهاة بفكرها ومزاياها الشريفة وتصدها عن المباراة بجمالهـا وعواطفها وهما نور بيتها الذى يجب ألا يوقد إلا بين جدرانه

على هـذه المبادىء تعم النهضة نساء البلاد فتنشأ الحضارة الخاصة الملائمة لهذا الشعب ؛ وما تسعد أمة تقتبس أساليب حياتها ممـا يتنافر وحوافز دمها وصوت القبور فى روحها

كل إنسان يجبن أمام الحوادث فى حياته فيلين لها حوافزه وفطرته إنمـا هو الشخصية المفقودة التائهة والشبح الباكى والحيّ المستحجر ؛ وقد تلمع أحداق مثل هـذا الانسان بالمجد والظافر ، ولـكن أنوار السعادة تبقى منطفئة فى عينيه

ونحن كأمة لا تمكننا الانفلات من هذا الناموس الثابت . إن فطرتنا مقدورة علينا كامنة فينا ؛ وكل أمة تحيا على غير فطرتها فهى أمة باكية بدموع صامتة ، هى أمة مستضعفة مستعبدة لا معنى لحياتها ولا سعادة فيها

نحن بحاجة إلى نهضة روحية أدبية تصلح منابت أطفالنا بعقيدة يحييها الناهضون فى الشعب تحت جنح إيمانه الشرق المسكين ، وليس كالعقائد فى شعب ما يكفل كرامته ويضمن اعتلاءه

بين بعض قبائل الصحراء عقيدة أصبحت فطرة فى أفرادها ، وهى اعتبار الـكذب عاراً دونه أى عار ، فاذا ما ارتـكب الـكذب أحد أفراد القبيلة اضطر رئيس أسرته إلى قلع أطنابه والهرب بنسائه وأطفاله إلى بعيد حيث يوارى فى النفى الأبدى ما التصق به من عار

إلى خلق مثل هذه العقائد يجب أن تتوجه جهود الناهضات من النساء فيصبح الرأى العام سياجاً حرابه الزراية والاحتقار ، يصد كل امرأة تقصر عن المحافظة على حقها أو تطمح إلى تجاوزه ، وتصد كل رجل يقصر فى واجباته كقوام على المرأة أو يسئ استعمال هذه الواجبات . وهكذا يساق الرجل إلى معاملة زوجته كما يريد أن تعامل ابنته فى زواجها

إن عقائد الأمم الاجتماعية إنما تحفظها صدور النساء قبل صدور الرجال ، وتنبيه مثل هذه العقائد والتقاليد فى فطرة بنات الشرق لعمل يسهل على رسولات الحق إذا عضدتهن السلطات الزمنية والروحية فى هذا السبيل

(تم البحث) فليكس فارس

الجـــاحظ

فى مقالة « الفلسفة والالهيات »

للأديب محمد طه الحاجرى

جاء فى المقالة التى نشرتها (الرسـالة) عن « الفلسفة والالـهيات » مترجمة عن الأستاذ الفرد جيوم ، بقلم الأديب الفاضـل توفيق الطويل عبـارة مروية عن شيخ الـكتاب أبى عثمان الجاحظ فى صدد الدعوى بأن مرد الفلسـفة العربية فى مادتها وصورتها وغايتها إلى حضارة البلاد التى غزاها العرب ، وأن المعين الذى استقوا منه مذاهبهم هو الفلسفة اليونانية

والذى يجب التنبيه اليه أولاً هو أن هذه العبارة مروية بالمعنى ، بل بأصل المعنى ، لا بالنص الذى كتبه الجاحظ ، والذى لا ينبغى أن يعـدل عنه أو يتسامح فى إيراده ، إذا كنا نلتزم الأسلوب العلمى « الجامعى » فى البحث والاستشهاد ، ولا سيما حين يكون النص المروى من ميراثنا الأدبى ، ردّ الينا ، وورد فى سياق عربى وموضوع عربى ، ثم كان بعد ذلك لأمام من أئمة الأدب العربى . أما أن يترجم النص إلى الانجليزية ، مع ما تستلزمه طبيعة الترجمة من اضعاف المعنى واخفاء بعض خصائصـه ، ثم ترجمة هذه الترجمة إلى اللغة العربية ، فصنيع غريب من شأنه أن يهلهل المعنى وينهكه ، حتى لا يبقى منه فى العبارة المنقولة إلا ظل خفيف ناصل . ولقد عرض الجاحظ نفسه لهذا المعنى فى كتابه « الحيوان » فى سياق كلامه عن الترجمة وخصائصها

ولـكن وزر هذه المخالفة للأسلوب العلمى لا يرجع ، فيما نحسب ، إلى المترجم الفاضل بقـدر ما يرجع إلى ضعف الروح الأدبية العربيـة التى تركت الجاحظ — وهو شيخ الـكتاب وأمير البيان العربى بلا منازع — مغمور القـدر مجهول المـكان ، وتركت ما أبقت عليه أحداث الزمن من ذخائر كتبه — وهى طرف فنية لا تكاد تظفر المـكتبة العربية بما يناظرها — وكأنما هى كتب ألغاز وطلسمات من كثرة ما منيت به فى نشرها من تحريف وتصحيف وخرم وتشويه وسوء طبع وفساد كبير

أما أصل هذه العبارة المترجمة فهو — فيما نرى — ما يلى :

(مأخوذاً من كتاب الحيوان ، الجزء الأول ، صفحة ٤٢ ، ٤٣ فى أثناء الفصل القيم المستفيض الذى كتبه الجاحظ فى فضل الـكتب والترغيب فى اصطناعها)

« ولولا ما أودعت لنا الأوائل فى كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيَرها ؛ حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نـكن ندركه إلا بهم ، لمـا حسن حظنا من الحـكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة »

أما الاستشهاد بهذه العبارة التى سيقت فى فضل الـكتب على تلك الدعوى العريضة التى يلج الـكاتب فيها ، والتى يزجيها الهوى وتصوغها العصبية ، فاستشهاد ضعيف متهافت كما ترى ، فليس فيها إلا ما يقوله كل ناظر فى تاريخ العلم من أنه حلقات متصلة مترادفة ، يكمل لاحقها سابقها ، وينبنى آخرها على أولها انبناء الحاضر على المـاضى ، فى جميع مجالات الحياة وفروع المعرفة ، وإن كتب الأوائل هى التى أوجدت هذه الصلة ، ومهدت للفـكر العربى سبيله

على أن هذا الاستشهاد غريب من ناحية شخصية الجاحظ ، فانه من المثل القوية التى تبين إلى حد كبير بروز الشخصية العربية فى عالم المعرفة ، واصطباغها صبغة مستقلة . ويلاحظ قارئ كتابه الحيوان أنه كثيراً ما ينقل عن صاحب المنطق بصيغة التمريض : «وزعم صاحب المنطق» ويعقب عليه أحياناً بعبارات يتبين فيها اعتداده بنفسه ، إذ يقول مثلاً : « وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل ، وما يليق بمثله أن يخلّد على نفسه فى الـكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء »

أمثل صاحب هذا الأسلوب الشامخ بنفسه يزج فى معرض الاستشهاد على أن الفلسفة العربية ليست الا صورة من الفلسفة اليونانية ، مشوبة ببعض الفلسفات الفارسية والهندية ؟ !

وبعد ، فنرجو ألا يحسب أحد أننا نغض بهذه الـكلمة العاجلة ، وبهذا التعقيب على صورة من صور الاستدلال من القيمة العلمية لـكتاب « تراث الاسلام » الذى نرجو أن نرى فيه صورة من صور البحث الدقيق إن شاء الله ؟

محمد طه الحاجرى

ترجمة وتلخيص

خطاب أندريه جيد

فى تأبين مكسيم جوركى

للسيد ماجد شيخ الأرض

ألقى كاتب فرنسا العظيم خطابه التأبينى فى ساحة موسكو الحمراء حيث شيع جثمان كاتب روسيا العالمى مكسيم جوركى إلى مقره الأخير قال :

ليست المصيبة بموت الكاتب الكبير مكسيم جوركى بمصيبة الاتحاد السوفييتى وحده ، إنما هى رزء العالم كله ، مادت لهوله الأرض من أقصاها لأقصاها . ولقد كان يسمع هذا الصوت الجبار الناطق بلسان الشعب الروسى العظيم فى كل قطر ، وينفذ صداه إلى كل قلب . ولست أعبر فى هـذا الموقف عن شعورى وحدى ، فهو شعور الآداب الفرنسية ، بل هو شعور الأدب فى أوروبا ، بل هو شعور الثقافة فى العالم كله

بقيت الثقافة زمناً طويلاً وقفاً على الطبقات الرفيعة ، فلا يرد منهلها إلا فئة من الناس توفرت لهم أسباب الفراغ ، وما إخالكم تجهلون كيف تتوفر أسباب هذا الفراغ الذى تكدح من أجله الأغلبية الساحقة من البشر ، لتدع وقتاً تتاوى فيه تلك الطبقة الرفيعة القليلة بالثقافة والفنون الجميلة . وما أظنكم تجهلون أيضاً أن ورود منهل الثقافة ليس بمستطاع لكل من آنس فى نفسه ميلا أو ذكاء أو مقدرة . لقد ظهر فى ميدان الثقافة رجال كبار من عامة الشعب أمثال موليير وديدرو وروسو ، لكنهم كتبوا لغير طبقتهم وما قرأهم إلا الذين توفر لهم الفراغ

تشاءم الناس لثورة أكتوبر العظمى التى حررت الأغلبية الساحقة من النير المستحكم على رقابها ، فقالوا وكرروا القول بأن الثقافة أساس مدنية الانسان مهددة بالتأخر والانقراض ، لكن الأمور برهنت على عكس ما توهموه ، فان النظام الجديد رحب بالثقافة وعمل على ازدهارها

ودلت التجارب على أن الخطر آتٍ من نظام الرجعة الذى ارتأته الطبقة السائدة . وقد اجتمع الكتاب لحفظ الثقافة فى مؤتمر وجدوا فيه أن الخطر عليها كان فى العناصر الفاشستية التى تبغى الهيمنة على الفكر وجعله أداة تسخره فى سبيل أغراضها ، وفى العناصر الوطنية المتطرفة البعيدة عن محبة الوطن الصحيحة ، وأخيراً وجدوه فى الحرب التى تسعى إليها تلك العناصر القائمة على البغضاء وحب الذات

لقد كان علىّ أن أرأس مؤتمر الكتاب المنوى عقده فى لندن ، لكن النبأ السيء باشتداد مرض جوركى اضطرنى أن أشخص مسرعاً إلى موسكو . فى هذه الساحة الحمراء التى شهدت أحداثاً كثيرة سجل بها التاريخ صحائف بعضها فى الشرف والمجد ، وبعضها فى الخزى والعار ، وإلى جانب ضريح لينين العظيم الذى تصوب إليه أعين لا يحصى لها عد ، أعلن بالنيابة عن الكتاب المجتمعين فى لندن وبالأصالة عن نفسى أن حفظ الثقافة وتقدمها معلق بأهداب الرجال القائمين بالحركات الثورية التقدمية ، ومصيرها منوط بمصير الاتحاد السوفييتى الذى نحميه نحن الثوريين بكل ما أوتينا من قوة

إن فوق كل مصلحة لأى شعب على هذه البسيطة مصلحة تجمع بين الطبقات العاملة المشتغلة الموزعة بين هذه الشعوب ، وإن فوق كل أدب ناطق بلسان من الألسن ، أدباً إنسانياً يعمل على نشر ما فى كل أدب خاص من الفضائل ؛ وقد وصفها ستالين بقوله : « وطنية فى الشكل ، اشتراكية فى الأصل »

لقد قلت مراراً بأن الكاتب بقدر ما يكون ذاتياً مخلصاً لذاتيته ، تكون غاياته سامية وعامة . وليس من كاتب روسى شديد الميل لروسيته مثل مكسيم جوركى ، لذلك فانا لا نجد كاتباً روسيا ذاع صيته وكثر قراؤه مثل مكسيم جوركى

شاهدت أمس الجماهير الغفيرة التى جاءت تلقى التحية الأخيرة على جثمان جوركى المسجى على فراش الموت ، واسمحوا لى إذا صارحتكم ، بأنى ظللت أسرح النظر فى هذا الموج المتدفق من الأطفال والنساء والعمال الذين كان جوركى صديقهم وترجمانهم ، بنشوة وإعجاب ؛ لكن نشوتى لا تلبث أن تنقلب إلى ألم يحز فى قلبى كلما تذكرت بأن كل هؤلاء فى غير

فلسطين

بقلم أبو سلمى

هذى الدماء من وراء الأبدِ تصيح : أين العالَم المحمدى
لا روحه تلهب آفاق الورى أو نفسه تغفو على المهندِ
تحرر العبيد فى أوطانهم ولا أرى فيه سوى مستعبد
هذى فلسطين استحالت هَرَماً مقدّساً فقبلوا الترب الندى
من كل قطرٍ عربىٍ فتيةٌ ثائرة ترعى أصول المحتد
هبّت على الوادى وأجرت دمها متحداً ، يا للدم المتّحد !
فيه من الخلود أزكى طيبه وهو يَدُ الثورة بل أسمى يدِ

***

أختَ صلاح الدين عشت حرّةً تأبى لك العلياء أن تهوّدى
دعى «عصابة اللصوص» جانباً واعتمدى على بنيك أعتمدى
كم وعدوا ؟ ! إن الرصاص وحده
هو الذى يُنجز كل موعد
معركة اليرموك هذا نقعها يروح فوق هامنا ويغتدى
يُطلّ من بين العصور عاطراً فيه من الماضى عبير السؤدد
كل شعوب الأرض فى جهادها تمشى على آثارنا وتقتدى
أيامنا تطوى دهوراً جمة النار فيها تنتهى وتبتدى

***

الاتحاد السوفييتى ، من الذين لا يسمح لهم بالدخول إلى مثل هذه القاعة ، وهم من الطبقة التى كتب لها الشقاء ، وحرمت عليها لذة العلم والتثقيف ، كأنما ألصق على باب حديقة العلوم (ممنوع الدخول ، هنا حديقة خاصة) ولكن إعجابى لا يلبث أيضاً أن يصبح كمداً يقطع فى أحشائى كلما شعرت بأن ما يبدو لهم طبيعياً ما زال عندى شيئاً خارقاً يدهش له حسى وبصرى ، فلا أتمالك كلما ذكرت أو شعرت بذلك عن إرسال عبرة

ماجد شيخ الأرض

يا قائد الثورة سعّر نارها وزجّ فى قاع السعير المعتدى
واخضب لياليها دماً واسمع صدى
قول الزمان : يا كواكب أشهدى
واطلع على الأيام وانشر وهجاً فيه سنى الجهاد والتمرد
واخلع على الجبال أبراد العلى حتى لها يوم اللقا أن ترتدى
وقدْ فلسطين إلى تاريخها وقل لها سودى وإلا استشهدى

***

أمّ العروبة اضحكى يا أمّنا فكلنا اليوم أبرّ وَلد
يهفو إلى بيض الصفاح باسما الخود قبل الشيخ قبل الأمرد
تنثر ما فوق الثرى قلوبنا لينبت استقلالنا بعد غد
فيا قلوب الثائرين أنشدى على المدى ويا سفوح ردّدى

(فلسطين) أبو سلمى

المجنونة

بقلم عثمان حلمى

فى غابة مجهولةِ السرّ مملوءة بالشوك والزهرِ
أبصرتها فى ظلمةٍ تجرى من خلفها ولدانُها تجرى
إنسيةٌ هى أو لسرعتها جنيّةٌ فالعين لا تدرى !
تبكى وتضحكُ فى تقلبها بمدامعٍ تجرى على النحر
وبكاؤها سحرٌ فإنّ لها قلباً يضمّ صلابةَ الصخر
تقسو وتعطف فهى غاضبةٌ فى حين تُبدى باسمَ الثغر
وتكاد تذهل من تلونها فكأنّها الحرباء فى قفر !
سحرتْ بنيها فهى ساحرةٌ بالطبع لم تعكف على سحر
فتّانةٌ تغرى مظاهرها أمّا الحقيقة فهى كالقبر !
فتنتْ بنيها فهى غانيةٌ فى العين منهم بل وفى الفكر
وهى العجوزُ ، هى العجوزُ إذا
ذكرتْ تبوء بأشنع الذكر
لكنّها معبودةٌ أبداً منهم ، لعل لذاك من سرّ !

كم بلغوا عن غدرها قصصاً وأقابها المملوءة بالغدر !

وهمو سكارى فى محبتها من غير ما كأس ولا خمر

وهمو حيارى فى وجودهمو ووجودهم كسحابةٍ تجرى

أبصرتها فى الغاب جاريةً صخّابة مسدولة الشعر

وتكادُ تغضبُ حيث لا تدرى

وتكادُ تبسم حيث لا تدرى

تغذو بنيها حين تفجعهم فى أنفسٍ صيغت من الشرِّ

ورأيتها فى الغاب تأكلهم أكلا ولكن أكل مضطر

ولقد أراها جدَّ ساكنة

من بعد طول الضحك والبِشرِ

ظلّتْ طويل الدهر عابثةً بهمو وهم فى غمرة الدهر

حتى توارى الكلُّ عن نظرى

بين النجود وشامخ الصخرِ

مجنونة دنيا كمو ، وكفى بىَ ما أبنتُ لها من السِّرِ!

(الاسكندرية) عثمان حلمى

فى ربى لبنان

بقلم عبد الوهاب أدهم

قف حىِّ لبنانَ وانظر حسن لبنانا

إن كنت مثلى كئيب النفس أسوانا

فى كل بقعة أرض أيكة برزت

توحى إلى النفس أحلاماً وسلوانا

يعانق الأرزُ فيها الأرزَ مغتبطا ويسحب الدّوح أذيالا وأردانا

ترقرق الماء فى أنحائها فغدت خمائلا ، وغدا لبنان بستانا

والطير يرقص من لهوٍ ومن طربٍ

فيملأ الأرض أنغاماً وألحانا

تبارك الله ! ما أسمى بدائعه فكيف أضمر بهتاناً وكفرانا ؟

* * *

لبنان ! يا جنّة الدنيا وزينتها خلّفت قلبى غداة البين ولهانا

ما زلت أذكر «فالوغا» و«عالية»

و«بحمدون» و«شاغورا» و«حمّانا»[1]

حتى امتطيتُ إلى «الفيحاء» هادية[2]

تطوى بىَ الأرضَ أنجادا ووهدانا

* * *

يا أهل لبنان ! إنا أمة قبضت نواصى الأرض أحقاباً وأزمانا

لا تأنفوا أن تقولوا : إننا عربٌ كم أبقت العرب للأقوام إحسانا

والحرّ يفخر بالأنساب فافتخروا بعبد شمسٍ وقحطان وعدنانا

إن دال سلطانهم فالدهر ذو عجب

يهوى الأبىُّ ويسمو النذلُ أحيانا

* * *

أشبالَ «غسان» هبّوا من ضلالتكم

ألهاكمُ الغىُّ عن رُشدٍ وألهانا !

«غسّانُ» باقٍ على الأيام مفخرة

فهل سعيتم لتُحيوا مجد «غسانا» ؟!

(دمشق) عبد الوهاب أدهم

---

(١) أسماء مصايف فى لبنان

(٢) الهادية من الخيل والابل هى التى تتقدمها وتكون فى أوائلها ، والمقصود بها هنا : السيارة

مخطوطات قديمة

القصص

قصص مختارة من الأدب التركي (١)

النـــار الموقدة . . .

لمحمود يساري بك

أثبتت مرفقيها فوق المنضدة ، وأسندت رأسها بكفيها وعيناها السوداوان شاخصتان نحو نقطة مجهولة وهي تفكر ، وكان نظرها الحاد يرسل شعاعاً زاد في لمعانه سواد المقلتين ولون الكحل الحالك وها قد مضت بضع دقائق بدون أن تمس شفتاها هذا القدح البلوري وتذوق هذا الشراب السائغ

لمَ كانت غارقة في بحر عميق من التفكير ؟ وما الذي كانت تفكر فيـه ؟ وما عسى أن يدور في هذا الرأس المتوج بالشعر الأصفر المقصوص على آخر (مودة) ؟ وهل هي كاذبة حتى في تفكرها العميق يا ترى ؟ وهل يحاول هذا الرأس أن يخدع نفسه أيضاً ؟

نظرت إليها نظرة الفاحص المدقق ، فوجدتها قد غيرت شكل حاجبيهـا بالنقوش والتخطيط الأسود فحرمتـه تلك الصورة الطبيعية التي صورها الخالق فيها . أما الحمرة التي تبدو على وجنتيها فلم تـكن ذلـكم اللون القرمزي الذي ابتدعته يد القدرة فيها ، بل كانت من مفعول الأصباغ ، وأضاع هذا أيضاً شكله الطبيعي . ونظرت الى شفتيها فاذا لونهما ليس ذلك اللون القاني الذي أودعته يد القدرة في شفتي حواء ! . . ثم استمعت الى حديثها فاذا صوتها ليس ذلك الصوت الملائكي الذي كانت تناجي به أمها وهي في المهد صبية ، بل يكاد يكون خشناً من تأثير الخمر والسهر

— فيم تفكرين ؟

ظلت جالسة في مكانها لا تتحرك ولا تتململ ولم تجب على سؤالي هذا بغير أنة طويلة

— أوه . . .

ولو كان بين ذرات الهواء بارود لأشـعله هذا الشهيق الذي خرج من صدرها كما يشتعل الغاز إذ تمسه نار

— إنك تتألمين هذه الليلة

— إني أحب . . .

— أوَ تحبين أنت ؟

وكانت لا تزال محافظة على هيئتها . .

— إنك لا تصدق ذلك ، أليس كذلك ؟

كانت جالسة مَعي كي أنعم عليها بثمن شرابها ، وكنت أعرفها منذ أمدٍ بعيد . . . منذ صباها ، ولم تنس أن تفاتحني ساعة أن اقتعدت مقعدها بجانبي بعزمها على الشرب بقولها :

— أريد أن أشرب اليوم

ولم أرفض رجاءها هـذا فأمرت لها بقدح من الشراب لا إكراماً لسواد عينيها ولا حباً بجمالها ، بل شفقة عليها ورحمة بها ، فلقد كنت أراها كئيبة حزينة هذه الأيام

— ومن تحبين ؟

فرفعت رأسها من بين يديها كمن أفاق من ذهول عميق وأجابت :

— إن من أحبه « نكرة »

وكأن سؤالي هذا قد أثار منها سراً دفيناً وهاج لها ذكرى أليمة حتى راحت تحرق الأرم وتهدد الهواء بقبضتها كمن يتوعد أحداً . . . فتفرست في وجهها ملياً

فدمدمت بكلمات غامضة . . .

— لِمَ تتفرس في وجهي هكذا كأنك تعرفه ؟ أو كأنك تقول لي بأنه (معلوم) لديك ! إنه « أحد النكرات » ! . فلا تتعب نفسك في معرفته سدى !

---

(١) اسم لكتاب تحت الطبع سيصدر قريباً ، وهو مجموعة خمس وعشرين قصة لأحسن الكتاب الروائيين ومشاهير القصاصين الأتراك نقلها إلى العربية السيد خلف شوقي الداودي من كبار أدباء العراق

قالت ذلك وأنشبت أظافرها الحادة فى خديها من فرط تأثرها وابتسمت ابتسامة الحزن طفح كأس اصطباره :

« هو أحد (النكرات) أما إنه لم يكن كذلك ؟ فلأن هؤلاء (النكرات) يفهمون أقوالنا ويتكلمون مثلنا ويشعرون كما نشعر . ويرون كما نرى ! أما أنتم ! فان تكلمنا معكم اضطررنا إلى أن نزن كلامنا كلمة كلمة وقلوبنا تخفق رعباً ، خوفاً من أن تعثر ألسنتنا وتلفظ كلمة سهواً فنصبح أضحوكة فى نظركم ! وإذا تكلمتم أنتم أصغينا إليكم بكل حواسنا حتى نفهم ما تقولونه . . . وترانا نعمل المستحيل حتى لانظهر أمامكم بمظهر الجاهل الغر والأحمق البليد ! ولا أقول أنتم معشر « المهذبين » المثقفين - لا تحبوننا نحن معشر النساء ، كلا فأنكم تحبوننا ولكنكم تريدون من « المرأة » أن يكون شعورها وعواطفها جميلة ، مصبوغة ، مزينة ، رقيقة كوجهها وشفتيها وأظافرها ! ولا تكلفون أنفسكم مشقة فهم المرأة ، وإنما تريدون من المرأة أن تفهمكم !

— أو تحبين ؟ !

وكان صوتها يزداد اضطراباً كلما ازدادت حزناً

— « لقد أصبت فى سؤالك هذا !

— وكيف أصبتُ فى سؤالى ؟

— لأنك عنيت به فى الحقيقة . . أيمكن أن أحبَّ أنا ، أوَ نحب نحن ؟ حقاً أنحب نحن ؟ أو تصدق أنت ذلك ؟ لقد سألت نفسى أنا مراراً . . فلقد تمرّ من أدمغتنا أفكار عوجاء وهوجاء ، وتربنا الأيام حوادث عصبية رهيبة تدك أعصابنا دكا فتجعلها واهنة القوى ضعيفة التفكير معدومة المقاومة تفقد معها خاصة التفريق بين الشعور الذى نشعر به من صميم القلب ، وبين الاحساس الذى نحس به لمجرد اللهو والعبث ، وفى أيهما نحن صادقون ... ومن ثم أنتم ! ... آه منكم ! ! قالت ذلك وصرت أسنانها وضربت الأرض بقدميها كمن يحاول أن يسحق شيئاً سحقاً ، أو يقطعه إرباً إرباً . نحن نخدعكم ما دمتم على وجه البسيطة ونسىء إليكم دواماً . أليس كذلك ؟ ولكن ماذا تقولون فى الاساءة التى تسيئون إلينا بها أنتم معشر الرجال ؟

أكبر الاساءة التى تُرتكب نحونا هى إساءتكم . . نصدُق لكم قولاً وفعلاً فلاتثقون فينا ! وإذا ما أحببناكم فلا تصدقوننا ! نقسم لكم الأيمان المغلظة فلا تؤمنون بنا ! ! ونشتبهون حتى فى طعامنا وفى شرابنا ! والشبهة مرض يسرى إلينا أيضاً وينشب أظفاره فينا ، ونأخذ نشتبه حتى فى أنفسنا فنحب ، فتأتى الشبهة على بالنا فتحملنا على الشك فى حبنا هذا ! وتنغص منا العيش . . وتتسع دائرة الشبهة هذه فلا نثق حتى فى أنفسنا !

تحسبون أننا نحب من أجل المال . أو يظهر أننا نحب من أجل المـال ! وأضرب لك مثالاً . . أنا ذلك المثال . فأنا أيضاً امرأة أحب من أجل المال ، أليس كذلك ؟

قالت ذلك وتوقفت عن الكلام ومدت يدها إلى القدح الذى كان أمامها فشربته إلى الثمالة

لم يصدقوا أننى أحب حقاً . . . وهذا الرجل الذى أحبه أيضاً يعطينى كل ما يربحه من عمله وأرد له عطاءه . فيصرّ هو أيضاً ... يظن أننى ما أحببته إلا من أجل المال ! هو أيضاً . . . هو أيضاً . . .

وكانت أكتافها تهتز من شدة انفعالها

حيث أننا لانحب .. وأن قلوبنا قدت من صخر .. أو أنها لا تعرف للصدق معنى وحبنا كاذب .. وأن أحاسيسنا كاذب ... »

وكانت عيناها تنظران نحو الباب . وما كادت تلفظ الكلمة الأخيرة من كلامها حتى هبت مذعورة تطلب منى السماح لها بالذهاب

— أستميحك عذراً ، ها هو ذا قدجاء . قالت ذلك ومدت يدها تصافحنى وعيناها شاخصتان نحوه ، فودعتها وأنا أنظر إلى القادم أتفحصه . . نظرت ملياً فرأيت « الخطاط » الأسود قد كسا حاجبيها لوناً غير اللون الطبيعى ، ولعب « المنقاش » فيه فأضاع بلعبه ذلك الشكل الطبيعى الالـهى . . .

وهـذا اللون القرمزى الذى يعلو خديها ليس ذلك اللون الذى أودعه الله فى الوجنات . . .

ونظرت إلى شفتيها فما رأيت فيهما تلك الحمرة الطبيعية التى تحاكى الدم القانى . . واستمعت إلى صوتها فاذا به قد فقد حلاوته ، وليس بذلك الصوت الملائكى الساحر الذى كانت تنادى به أمها وهى فى المهد

وشىء واحد لم يتغير فيها ، ذلك هو عيناها ! . . .

لقد كانت عيناها تشتعلان بنار الحرص كما اشتعلت عينا حواء حينما نظرت إلى آدم لأول مرة . . !

محمود بسارى

بيت الحـــظ !!...

بقلم عبد المعطى المسيرى

كان الشيخ مرسى غانم — أو الشيخ النزهى كما يسمونه فى القرية — جالساً مع نفر من القرويين ينصتون بانتباه للعمدة وهو يحدثهم نفس الحديث الذى يقصه كل ليلة منذ انتهى إليه أن سعادة المدير ونجله سيشرفان القرية ليقيم بها الابن بضعة أيام إراحة لأعصابه كما أشار الطبيب. وكان العمدة يتحدث فى هذه الليلة بحماس، ويلقى التعليمات والأوامر بوجه متجهم وصوت أجش كعادته فى بعض الأحيان، وذلك لأن المأمور أنبأه فى الصباح أن سعادة الباشا ستكون زيارته بعد الغد وأنه — أى المأمور — يهمه أن يهتف الأهالى بحياة الباشا وأن يكون بأيديهم سعف النخل وأغصان الأشجار وأن تستقبله النساء بالزغاريد ...

وانصرف شيخنا النزهى بعد أن عرف نصيبه فى هذا الاحتفال وهو أن يبعث زوجته وابنته زينب لتنظيف غرف المنزل المعد لنجل المدير وأن يكون مع المستقبلين الهاتفين ...

سار الشيخ صوب النهر الى أن أتى الشاطئ فخلع نعليه وشمر عن ساعديه وجلس يتوضأ، وبعد أن انتهى من صلاة العشاء أخذ طريقه الى المنزل وهو يكثر من الحوقلة التى اعتادها عقب كل صلاة، ولكنه كان فى هذه المرة يرددها بنغمة الأسف على تأخره هذا وتوقعه ضجر الزوجة والأولاد ...

دفع الباب واحتوته الغرفة فعاود الحوقلة بصوت عال. وأحزنه أن يرى الطعام على المائدة الخشبية وحوله عائلته، وقد غلب النعاس جميع أفرادها، فبدأ بايقاظ الزوجة، وهذه أخذت تهز الأولاد من أكتافهم معلنة إليهم فى ابتهاج وفرح عودة أبيهم؛ ثم أخذ الجميع يتناولون الطعام حتى أتوا عليه فقامت زينب — الفتاة الكبرى — وأتت بالماء فغسلوا أيديهم ومدت أختها يدها وتناولت أرغول والدها من شباك الحجرة وقدمته إليه، بينما تدحرج أحمد الصغير خارج الغرفة وعاد وهو يدفع أمامه آنية نحاسية وضعها أمام أمه

تناول الشيخ أرغوله وبعد أن تثاءب وتمطى قربه من فمه، فسرى الصوت فى فضاء الحجرة وتبعته نقرات الأم على الآنية النحاسية، وأخذ الأولاد فى التصفيق متبعين نفس النغمة حتى حمى الوطيس، وأخذت زينب تغنى أغنية ريفية مطلعها:

يَلْحِنًّا، يَلْحِنًّا، يا قَطر الندى
يا شباك حبيبى يا عينى جلاب الهوى

وقامت فاطمة الصغيرة وتأهبت للرقص كعادتها حتى إذا أدركها التعب ارتمت على الأرض ليأخذ أحمد دوره ... خفت صوت الأرغول وسكنت النقرات والأصوات، وساد فى جو الغرفة الهدوء الى أن عاود أحمد النشاط فنطق بأغنيته المحبوبة ياليل ياليل ... ثم عاد الشيخ لأرغوله مشجعاً ولده وطاب لهم أن يغنوا ثانية أغانيهم البلدية، وعاد المرح وارتفع صوت زينب وتبعها الجميع مرددين مصفقين، وقامت فاطمة للرقص ونافسها أحمد بحركات ساذجة تبعث على الضحك والسرور، وبين آونة وأخرى يتعثر أحمد فيسقط على الأرض وأحياناً تسقط معه فاطمة فتتزايد القهقهة من الجميع الى أن أدركهم الكلال فنهضت زينب وقادت أمامها أخوتها الى الغرفة الثانية المعدة لنومهم

***

على هذه الوتيرة كانت تعيش عائلة الشيخ مرسى، وعلى هذا الضرب كانوا يقضون لياليهم. أما فى النهار فكانوا يعملون فى الحقل بكل نشاط وابتهاج، لكل منهم عمله حتى أحمد الصغير كان يتدرب على مراقبة البقرة التى تدور حول الساقية ...

حياة بسيطة لاتعقيد فيها، كلها سعادة وكلها أمن واطمئنان: الشيخ يرى أن سعادته فى ابتسامة زوجته وفى نماء المحصول وصحة أولاده، والأولاد يرونها فى هذا الحب المتبادل الذى يربط بين قلوب الجميع، والزوجة تراها فى رضاء الزوج ومرح الأولاد ... وفى هذه الليالى الضاحكة حيث يرقصون وينشدون وكثيراً ما التمس سكان القرية السرور والفرح والترويح عن النفس فى بيت هذه الفرقة الموسيقية التى لم تعرف الشقاوة

الطريق الى أفرادها حتى أطلق سكان القرية على بيت الشيخ « بيت الحظ »

* * *

قبيل الفجر كانت زينب توقظ أمها وإخوتها لقضاء ما يلزم للمنزل وتهيئة الماشية واعداد الفطور استعداداً للذهاب الى بيت العمدة المعد لسكن « البك الصغير » وتم كل شيء وأخذت هي وأمها طريقهما الى بيت العمدة

قامتا بما يجب عليهما من غسل أرضية الغرف وتنظيف ماعلق بها من الغبار وغير ذلك ، وما وافت الظهيرة حتى كان كل شيء على ما يرام ، وحضر العمدة وجاءت على أثره سيارة كبيرة تحمل الأشياء التي يتألف منها الأثاث ، وأخذ الرجال في الترتيب وأصدر العمدة أمره إلى الأم وابنتها بتهيئة الطعام للرجال

بينما كانت زينب تعمل مع أمها سمعت صوت موسيقى رائعة ينبعث من إحدى الغرف فتركت ما بيدها وانطلقت إلى مصدر الصوت يدفعها حب الاستطلاع : نغمة جديدة تطرق أذنيها لأول مرة ، وعلى باب الغرفة وقفت تنصت للصوت المنبعث من جهاز الراديو مأخوذة لا تستطيع ضبط عواطفها ولا امتلاك نفسها

لم يكن يخطر ببالها قبل الآن أن فى العالم غير أرغول أبيها وآنية أمها ، ولم تسمع أن هناك أغانى سوى تلك التى تغنيها ؛ نعم إنها شاهدت وسمعت فرقة الشيخ راشد التى تزور القرية من حين إلى آخر لتقيم الأفراح لعائلاتها ، ولكن زينب كانت تفضل دائماً حفلات منزلها ، وأين موسيقى الشيخ راشد من الموسيقى التى تسمعها الآن ؟؟ وعقب اسطوانة الموسيقى سمعت زينب صوتاً رائعاً حنوناً :

« اللى حبك يا هناه »

ثم موالاً بلدياً فرأت اختلافاً بيناً بين ما سمعت الآن وبين ما تسمع وتقول كل ليلة فأنكرت موسيقى منزلها ، بل أنكرت نفسها وصغرت أمامها الألاعيب التى يقومون بها كل ليلة وأيقنت أن فى العالم لذة وسعادة أشهى وأمتع من لذتهم وسعادتهم

* * *

فى مساء تلك الليلة كانت زينب تسمع أرغول والدها بملل وضجر كأن أذنيها لم تتعوداه ، وودت لو ينتهى الوالد لتذهب إلى حجرتها حيث تتمثل فى هدوء ذلك الصوت الشجى الساحر ، وانتظر الوالد طويلاً أن يسمع صوتها ولكن دون جدوى ، وظن أن لعملها الشاق فى بيت العمدة أثرا فى ذلك فأذن لها فى الذهاب الى النوم وهو لا يخفى كدره ، وأخذ يلعن الباشا والبك والعمدة لأنهم كانوا سبباً فى حرمان زينب من قسطها فى الغناء والسرور ، وحاول أن يشرك معه فاطمه وأحمد فى الزمر والرقص ولكنهما آثرا أن يذهبا مع زينب ، ومضت تلك الليلة صامتة فاترة على غير المألوف

وفى الصباح كان البشر يلوح على محيا زينب عند ما علمت أن زوجة العمدة أرسلت فى طلبها لاعادة نظافة غرف البك الصغير »

بعد أن أتمت ما أشارت به زوجة العمدة انسلت حيث غرفة الراديو وجلست القرفصاء بجوار الباب تنصت بنشوة غريبة ولذة قوية ، ودهشت إذ رأت فاطمة وأحمد يبلغانها غضب أمها لغيابها وقلقها ، ولكنهما لم يلحا عليها فى الاياب واطمأنا لصوت الراديو ، وقفز أحمد على كتفيها يحاول رؤية مصدر الصوت من فرجة الباب ، وارتسم الذهول على وجه فاطمة واستولى على ثلاثتهم الصمت ، ولم ينتبهوا إلا على صوت العمدة وهو يحدث « البك » عند ما هما بمغادرة الغرفة لتناول الغداء ، والتفت العمدة إلى زينب فنهرها وأمرها بأخذ أخويها والرجوع إلى المنزل حتى لا تقلق أمهم

* * *

فى هذا المساء لم تنهض فاطمة لمناولة والدها الأرغول ، ولم يتأهب أحمد للرقص وارتسم الوجوم على وجوه الجميع ، وفقدت تلك الفرقة الساذجة الانسجام والتجانس ، فرفع الشيخ يده وتناول الأرغول ، ولكن الأولاد نفروا واستنكروا هذا الصوت ، وفزعت زينب من نقرات أمها على الآنية النحاسية وملكها الحياء فلم تعد تغنى ، وكيف تغنى بعد أن سمعت « اللى حبك يا هناه ! »

لم يعرف الرجل حلا لهذه المشكلة ولم يقو على فهم الدافع الذى ألح على زينب فحال بينها وبين مشاركته فى الغناء فتحول عنها إلى أخويها وأومأ اليهما أن يأخذا بنصيبهما ، ولكن فاطمة

فأفأت لتعبر عن تأففها وتأتأ أحمد ففهم الشيخ السر ... !!
قرأ فى لثتهما المضطربة ذلك اللغز الذى أفسد حياته وذهب بسعادته وحار الشيخ فى الأمر . لقد سمع هو أيضاً وسمعت أمهم ولكنهما لم يتأثرا ، وأدرك بفطرته أن الصغار على استعداد للتمرد والثورة ... أدرك الشيخ أنه ناضل نفسه لأنه آمن بأنه المغلوب إذا التمس السبيل الى حياة الترف فآثر أن يكبح جماح نفسه ويعيش بأحلامه ، وأدرك أن صغاره قد بهرهم النور وأن بريقه الساطع قد ألهب فى قلوبهم ناراً فثاروا على حياتهم المظلمة ... فلم يملك إلا التنهد العميق ... وأراد أن يلعن ذلك اليوم الذى جاء فيه « البك » الى القرية ، ولكن الكلام مات على شفتيه ...

ولأول مرة تراقصت الدموع فى عينى الشيخ وعز على الأم أن ترى هذا المشهد الذى لم تدرك سببه ، فهزت الأولاد وحاولت أن تدفعهم الى المرح ، ولكن ذلك كان عبثاً ، فرمى الشيخ أرغوله وتمدد على فراشه يبكى سعادته الهاربة ...

ونهضت زينب فغادرت أخويها وهى تقلب بصرها فيما حولها من القذارة وتقارن بين ما ترى وبين الأثاث الثمين والصور الجميلة والموسيقى الرائعة الحنون ، وكانت تود لو أن حياتها كانها نهار حتى لا تقع عينها على منزلها هذا الذى صار كل ما فيه يجلب الى نفسها الحزن والأسف

وانتقل الرقص والمرح من بيت الحظ الريفى إلى بيت العمدة حيث المدنية يجذب ظلها هؤلاء السذج ويفرض عليهم سلطانه ، وبينما كان الأول للوجوم والامتعاض فى الليل كان الثانى للفرح والسرور بالنهار

وانقضت أيام البك فى القرية ورحل بأثاثه وجهازه وترك وراءه أسرة سلبها سعادتها وأحلامها ... وبينما كانت سيارته تنهب الأرض فى طريقها الى المدينة كان الشيخ النزهى ينظر اليها والأسى يملك عليه نفسه ، حتى اذا غابت عن بصره حطم أرغوله وألقى ببقاياه فى النهر ... ؟

عبد المعطى المسيرى

البريد الأدبي

هـ . ج . ولز . لمناسبة عيده السبعيني

يبلغ الكاتب الانكليزي الكبير هربرت جورج ولز H. G. Wells اليوم ، أعنى فى الحادى والعشرين من سبتمبر ، السبعين من عمره ، وبهذه المناسبة تستعد دوائر الأدب الانكليزى لتكريم الكاتب الكبير والاحتفاء بذكراه السبعينية . ففى مساء الثالث عشر من أكتوبر يقيم نادى القلم الانكليزى مأدبة كبرى يدعو اليها أقطاب الكتاب من جميع أنحاء العالم ، ويتولى الكلام عن شخصية ولز ومواهبه الأدبية عدة من أكابر الكتاب مثل جورج برنارد شو ، وأندريه موروا ، وجوليان هكسلى ، وأرثر بليس وغيرهم

ونذكر بهذه المناسبة كلمة عن ولز وعن آثاره ؛ فهو اليوم فى طليعة كتاب انكلترا وكتاب العالم ، وهو كاتب اجتماعى من النوع الشامل (أنسيكلوبيدى) فله فى القصة ، وفى التاريخ ، وفى النقد ، وفى الاجتماع وغيرها . وكان مولده فى سبتمبر سنة ١٨٦٦ فى بروملى ؛ وكان أبوه رياضياً محترماً ؛ وقد وصفه ولز فى كتابه « لاعب الكركيت القديم The Veteran Cricketer » . ولم يتلق ولز أولاً تربية جامعية ، ولكنه انصرف منذ حداثته إلى القراءة وتأثر أيما تأثر بكتب أفلاطون وفولتير ؛ واشتغل أولاً صانعاً بمعمل أحد الكيميائيين ، وعكف على الدراسة فى نفس الوقت ؛ ورأى فيه ناظر مدرسته نجابته فعينه مدرساً معه فاستمر فى هذا المنصب حتى سنة ١٨٨٤ ، ثم رحل إلى لندن ، والتحق بمدرسة العلوم فى كنسنجتون ؛ وقد وصف هـذه المرحلة من حياته فى قصته Ann Veronica ، التى يؤيد فيها قضية المرأة تأييداً قوياً . ودرس ولز البيولوجيا والجيولوجيا والطبيعيات والفلك ؛ وفى أواخر ذلك العهد فكر فى أن يضع تاريخاً جامعاً للعالم . وحصل ولز أخيراً على أجازة العلوم بتفوق ؛ وعاد إلى الاشتغال بالتدريس ، مع الاستمرار فى الدرس حتى حصل على أجازة جديدة للعلوم من جامعة لندن فى سنة ١٨٩٠ . وفى ذلك الحين التقى بكاثرين روبنس التى غدت زوجته فيما بعد . وفى سنة ١٨٩٣ أصيب ولز بصدع فى الأوعية الدموية أرغمه على ترك التدريس والانقطاع إلى التأليف . وكان أول ظفر أدبى حقيقى ناله ولز مقالاته فى مجلة « فورتنتيلى » بعنوان Rediscovery of rhe amique ؛ ثم كتب بعد ذلك عدة مقالات ورسائل علمية فى بعض المجلات الكبرى . ومنذ سـنة ١٨٩٤ يعالج ولز كتابة القصة وقد بدأها بكتابة « جزيرة الدكتور مورو Island of Dr Moreau » ، ثم أتبعها بقصة الزيارة العجيبة Wonderful Visit . وكان الصحفى الكبير ستيد أكبر عون لولز على إظهار مواهبه القصصية ؛ وكانت الصبغة العلمية تطبع قصصه الأولى مع خيال فائق متزن ؛ ونستطيع أن نذكر من هذه المجموعة ما يأتى : Plabiner و Stolen Basillus Story و Invisible Man و Sleeper Awakes و Tales of Space and Time و First men in the Moon و Food of fhe gods وغيرها

وعالج ولز بعد ذلك القصة الاجتماعية ، وعرض فى قصصه إلى مشكلة الحب والزواج والعلائق الجنسية ؛ ومن هذه المجموعة قصصه الآتية : Love and Mr Leursham و Kipps و Marraige

ولستر ولز ميول اشتراكية معتدلة تبدو فى كتاباته . بيد أنه ليس اشتراكياً بالمعنى السياسى ، وكل ما هنالك أنه يرى أن الاشتراكية يجب أن تطبق فى حدود اقتصادية معقولة بعيداً عن المؤثرات والعوامل السياسية

وأشهر كتب ولز تلك التى يعرض فيها إلى تنظيم المجتمع ؛ وفى هذه المجموعة يصل ولز إلى ذروة قوته وافتنانه ، ونستطيع أن نذكر من هذه المجموعة ما يأتى : The World of Wiliam Clissold وهى قصة ؛ God, the Invisible King ، وهو عرض فلسفى

وأما فى التاريخ فقد كتب ولز بطريقة جديدة موجزة ولكن قوية ؛ وأشهر كتبه فى التاريخ : Outline of History (سـنة ١٩٢٠) Short History of the World (سنة ١٩٢٠) و Short History of Mankind (سنة ١٩٢٥)

ويعرض ولز نظرياته الاجتماعية عن طريق الأدب بجميع صنوفه ، ويمتاز فى ذلك بقوة لا نظير لها اليوم فى الأدب الانكليزى . وإليك طائفة أخرى من كتب ولز التى اشتهرت بتأثيرها الاجتماعى : A Modern Ubopias ، The Corintry of the Blind ، و In the Days of the Cemet و War in the Air و Secret Treasure و Un Dying Fire و Meanwhile و Places of the Heart و in the Forest و Mr Praham وغيرها

ولمستر ولز كتب كثيرة أخرى يضيق المقام عن ذكرها

جوستاف كان

توفى أخيراً كاتب وشاعر فرنسى كبير هو جوستاف كان زعيم النزعة الرمزية فى الشعر ؛ ومن الغريب أنه توفى فى ختام الحفلات التى نظمت هذا الصيف فى باريس احتفاء بهذا الضرب من الأدب . وقد ولد كان فى متز سنة ١٨٥٩ وتلقى تربية جامعية حسنة ودرس اللغات الشرقية واشتغل منذ فتوته بالصحافة . وفى سنة ١٨٨٧ ظهر ديوانه الأول بعنوان القصور الريفية Palais Nomades ، فكان فتحاً جديداً فى عالم الشعر ؛ ذلك لأن (كان) نزع فيه نزعة جديدة حرة كانت قدوة لجيل جديد من الشعراء ؛ وأتبع كان ديوانه الأول عدة مجموعات شعرية أخرى نذكر منها : « أغانى المحب » Chansons d' amant » والقصائد الأولى » Premiers Poèmes وعالم الأشباح Domaine de Fées والمطر والربيع La Pluie et le beau temps وغيرها

وكتب كان أيضاً فى القصة ، وله فى ذلك عدة آثار حسنة نذكر منها : (الملك المجنون) Le Roi Fon و (زهرات الهوى) Fleurs des passions ، و(الزانية الحساسة) L'adulterèSentimentale وله مجموعة قصص صغيرة عنوانها : (قصص هولندية) Contes Hollandais

وقد اشتهر جوستاف كان بمقدرته النقدية ؛ وكانت جولاته النقدية الأولى فى الشعر والأدب فى مجلاته التى أنشأها تباعاً مثل La Vogu ، و Le Sympoliste ، وكانت آراؤه النقدية نماذج حسنة للنقد القوى المتزن

ولجوستاف كان أثر ظاهر فى تطور الشعر الفرنسى فى العصر الأخير

العلاقة بين الطلاق والجنون

من أنباء أمريكا الأخيرة أن إحصاءات اجتماعية دقيقة قد عملت فى أقسام الأمراض العقلية فى ولاية « مساشاست » لتعرف العلاقات الزوجية والأمراض العقلية ، وقد دلت هذه الاحصاءات دلالة واضحة على أن للزواج أثراً محسوساً فى ضبط الأعصاب وتحسن الميول العقلية . مثال ذلك أنه وجد أن معظم سكان المصحات العقلية أناس مطلقون بين رجال ونساء ، ثم يأتى بعد ذلك فى الترتيب العددى الأرامل رجالاً ثم الأرامل نساء ، ثم الأعزبون من الجنسين ؛ كذلك دلت الاحصاءات على أن نسبة المجانين من المتزوجين هى أقل النسب العددية بالنسبة لجميع الطوائف الأخرى

وهذه الملاحظات تقوم على دراسة عدد كبير من المصابين بأمراض عقلية يبلغ عددهم زهاء ٦٢ ألفاً فى ملاجىء نيويورك ومساشاست ، خلال خمسة الأعوام الأخيرة

حول قصيدة البلبل

بعثت إلىّ (الرسالة) بهدايا الشعراء والشاعرات والكتاب والأدباء المشكورين الذين ثارت فيهم نخوة الشرق العزيز فناصرونى بأغاريدهم العذبة الحلوة التى يضيق عنها نطاق هذه المجلة المحبوبة ، والتى سأحتفظ بها إلى الأبد تحية وذكرى . ولست أفضل أحداً من أصدقائى حين أرانى مضطرا إلى التنويه بشاعرة الزقازيق الحزينة (السيدة م . أبو السعود) التى نرجو لها — أنا وفتاتى — توفيقاً من الله العلىّ ، وبأن يهدى لها رجلها النوىّ

أما أستاذنا العظيم (حسن جلال بك) فله منا أجزل الثناء وسنتخذ من كلمته العالية ، بعد كتاب الله ، نبراساً وحكمة

(د ...)

أثر اسلامى هام

علمنا أن الجمعية الأسيوية البنجالية بكلكته فى الهند اقتنت أخيراً أثراً هاماً من أندر الآثار الاسلامية وهو كتاب « خريدة القصر » لعماد الدين الأصفهانى المتوفى فى القرن السابع الهجرى . والكتاب فى تراجم الشعراء فى عصر المصنف فى جميع البلاد الاسلامية العربية وهو كبير ولا يوجد كاملاً فيما نعرف فى مكاتب

العالم . وهذه النسخة أيضاً جزء من الكتاب ويحتوى على تراجم شعراء حلب وغيرها ، ولكن الذى يزيد فى قيمة هذه النسخة وندرتها أنها مكتوبة بخط المصنف

مخطوط نادر فى مكتبة الأزهر

فى أثناء نقل مكتبة رواق المغاربة الى مكتبة الأزهر العامة عثروا على مخطوط نادر هو نسخة من كتاب الذخيرة فى أصول مذهب الامام مالك ، للامام القرافى ، ولا يوجد من هذا الكتاب الا جزء واحد فى مكتبة الجامع الأحمدى بطنطا وقسم صغير فى دار الكتب المصرية

النشيد القومى — غلطة الكفر

المصيبة الكبرى فى هذا النشيد أنه موضوع على مبادئ (أنقره) من نقل ألفاظ الالوهية والشريعة وصرفها عن الله ودين الله الى الوطن . وهذا إلحاد فظيع إن جاز فى غير مصر لم يجز أن يكون فى مصر

يعين الدين الاسلامى معنى الآخرة ومعنى اليقين بالحساب والبعث ، فيجيء صاحب هذا النشيد فيقول : غرامك يامصر .. قصارى شعورى دنيا ودن ، وحبك آخرتى واليقين

إذن فلا آخرة ولا يقين بالآخرة

وكما يقال : تعالى الله ، وسبحانه وتعالى ، يقول صاحب النشيد : تعاليت يا مصر ! !

ويقول الله فى كتابه العزيز عن جنة الآخرة : « تلك الجنةُ التى وُعِدَ المتقون » ، فينقلها صاحب النشيد الى مصر ويقول :

ألستِ الكنانةَ فى أرضه « وموعود جنته والنعيم »

إذن فالجنة التى وعد المتقون هى مصر ، وإلا فما معنى قوله : (وموعود جنته) ؟

والطامة الكبرى قوله : وصوتك يا مصر وحى الآله

فمتى أضيف الوحى الى الله فقد تعين معناه وخرج من كل المعانى اللغوية التى تفيدها لفظة الوحى كالاشارة والرمز ووسوسة الشيطان ، ولا يفهم أى مسلم على وجه الأرض من قولك : وحى الله ، أو وحى الآله ، أو الوحى الالهى إلا معنى واحداً . فكأن هذا النشيد موضوع عمداً لافساد عقيدة المسلمين وتشكيكهم فيها وحملهم على اعتقاد خلافها والنزول بألفاظ الألوهية والشريعة ومجرى الناس عليها

ونحن لا نصدق أبداً أن وزارة المعارف تعمل لهذا الغرض باذاعة هذا النشيد . فان لم تعلن تبرؤها منه وتأمر بابطال إذاعته وتنشر ذلك فى الصحف كلها ، فقد وجب على الأزهر أن يتقدم الى المعركة ويفهم وزارة المعارف أن الاله الذى يعبده المسلمون ليس هو الاله رع ! !

وسنرى ويرى الشباب الاسلامى

س . ط
بكلية الآداب

حول النشيد القومى

راقنى ما كتبه الأديب « س ط » عن النشيد القومى وأرى تعقيباً على ذكر الغلطة الثانية « قصارى شعورى دنيا ودن » أن « دن » معطوفة على التمييز المنصوب فمن حقها أن تكون منصوبة منونة « ديناً » فاذا أريد الوقوف عليها انقلب تنوينها ألفاً فتصير « دينا » لا غير . ولا وجه لحذف الألف منها اعتذاراً بضرورة الشعر فليست هذه من ضرورات الشعر المباحة فتكون هذه غلطة مزدوجة

متولى أحمد كيوان

ديوانان جديدان للدكتور اقبال

علمنا أن الدكتور محمد إقبال الشاعر الفيلسوف الهندى الكبير صنف ديوانين جديدين فى الشعر أحدهما باللغة الأردية ، وسماه (صور إسرافيل) وهو تحت الطبع ، والآخر باللغة الفارسية وقد صنفه متأثراً من مرضه الأخير ومن الحادثة الفاجعة الشرقية وهى سقوط الحبشة أمام القوة الايطالية الغاشمة وقد سماه بشطر من البيت وهو (پس چيه بايد كرد اى أقوام شرق) معناه « وماذا يجب أن نعمل أيتها الأمم الشرقية ؟ » وفى آخر هذا الديوان قصيدة طويلة خاطب فيها روح النبى عليه الصلاة والسلام للشؤون الاسلامية والشرقية الحاضرة وهو أيضاً تحت الطبع .

ونحن نهنئ الدكتور على شفائه وإصداره هذين الديوانين ، وندعو الله أن يوفقه للكتاب الذى ينوى تصنيفه من زمن بعيد باللغة الانجليزية وهو An interoduction for the Stupy « مقدمة لدراسة الاسلام »

السيد أبو النصر الحسينى الهندى

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

العدد ١٦٩ — ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 169 — Lundi - 28 - 9 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٦٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ رجب سنة ١٣٥٥ — ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

المُعجَم السياسى

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

وحدثنى صاحبُ سر (م) باشا قال: كنا فى سنة ١٩٢٠ وهى بنت سنة ١٩١٩[1]؛ وقد اجتمعت الأمة على مقاطعة لجنة (ملنر) لا تكلِّمها فجملت السكوت ثورة. وأعلن الشعبُ أن كلمتَه فى لسان الوفد ينطق الوفد بها نطق النبى بما يُوحَى اليه، فما يكونُ لأحدٍ غيرِه أن يقولهَا ولا أن يقول أُوحى إلىّ. وأبى اللورد ملنر أن يصدّق أن للمصريين إجماعاً يُعتَدُّ به، وأنهم دخلوا فى السياسة دخولاً ثابتاً فرَسَخُوا فيها، وأنهم أصبحوا مع الانجليز كالانجليز الذين يقولون عن أنفسهم فى مثلهم السائر: ينبغى أن نكونَ أحراراً مثلَ أعمالنا

وزعم اللورد لنفسه أن هذه الأحزابَ المصرية لا يتفق منها اثنان أبداً إلا كان بينهما ثالثٌ يختلفان عليه وهو الطمعُ فى مناصب الحكم، واستخرج من ذلك أن المصرىَّ والمصرىَّ كشِقَّى المِقراض لا يتحركان فى عمل إلا على تمزيق شىء بينهما؛ فان لم يكن بينهما (الشىء) لم يكن منهما شىء

(١) سنة الثورة المصرية وقد مر وصفها فى مقالة (الأخلاق المحاربة)

وذهب الرجل يتَـظنّى ويحدس على ما يُخيّل له الظن ، وقد حسب أن انجلترا يحقّ لها أن تقولَ فى المصريين ما يقولُ الله فى خلقه كما ورد فى الأثر : إنما يتقلبون فى قبضتى ؛ وكما تقول اليوم لأهل فلسطين من العرب : « إن يَشأ يُذهبْكم ويأتِ بخلقٍ جديد » . . . . وكان اللورد هذا رجلاً ممارساً لمشاكل السياسة ، دَخالاً فيها ، داهيةً من دُهاة القوم ، له فى قلبه عينان وأذنان غير ما فى وجهه كحذّاقِ السياسيين ؛ وهو يعرف أن سياسةَ قومه لا تدخل فى شىء إلا دخولَ الابرة بخيطها فى الثوب ، إن خرجت هى تركت الخيطَ وقد جَمعَ وشد . . . . فأراد أن يمتحنَ مذهبَ المصريين فى اجماعهم على الاستقلال ، وقدَّر أنه واجدٌ من الفلاحين عوناً ومادةً لمكره السياسى ، وحسب الوفدَ صورةً جديدةً من طبقة (الباشاوات) القديمة ، ينزلون من الشعب منزلة اليد التى تُمسِكُ القيدَ من الرِّجْلِ التى فيها القيد ، ويضعون معنى كلمة الحاجة فى كلمة السياسة ، ويقولون الوطن وهم يريدون الجاه ، ويقيمون الشعبَ كالسُّلم ينتصبُ قائماً بأيديهم ليحملَ أرجلَهم الصاعدةَ عليه

فجاء اللورد إلى مصر ، فوجد الأمة كلها قد حَذِرَت منه وتيقظت له ، حتى نصحه رشدى باشا بأنه لن يجدَ فى مصر حرَّةً تفاوضه ؛ ولكنه كان مستيقناً أن أُذُنَ السياسة الانكليزية (كالرديو) لصوتين : صوتِ الدنانير وصوتِ الجماهير ، فمرَّ فى البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام ، وانصَفَقَ عنه الناسُ وأهملوه ، وكان يسير فى دائرة الصمت التى مركزها أبو الهول ، فبدأ وظلَّ يبدأُ حتى انتهى وما زال يبدأ ... وساح فى البلاد سياحةً طويلة وكأنه لم يسافر إلا من شفَةِ (أبو الهول) السُّفلى إلى شفته العُليا

* * *

قال صاحب السر : وجاء اللورد لمقابلة الباشا ، فمرَّ علىَّ مرورَ كتابٍ مقفلٍ لا أعرفُ منه إلا العنوان ؛ غير أنه رجلٌ بمقدار الرجلِ الذى يخالف أُمةً كاملة تكاد تحسبه مطويًّا على زوبعة ، وترى له قوتين تُحِسُّ من أثرها الرهبةَ والاعجاب ، وإذا تأملتَه قلتَ إن اللطف والظَّرف أضعفُ شمائله ، وإن الدَّهاءَ والحيلة أقوى مواهبه

فلما لقيتُ الباشا من الغد سألنى كيف رأيت اللورد ملنر ؟ فقلت : والله يا باشا إنه كالضرورة ما يتمناها أحدٌ ولكنها تجىء

فضحك الباشا وقال : ياليت لنا نحن الشرقيين ضرورةً تصنع ما صنع اللورد ؛ إنه كشف لنا فى ذات أنفسِنا عن حقيقةٍ من أسمى الحقائق السياسية ، وهى أن الشعبَ الذى يُصِرُّ ولا يزال يُصِرُّ ، يجعل الاغراءَ لا يُغرى والخوفَ لا يُخيف

وياليتَ الأممَ الشرقيةَ تتعلم هذا الصمتَ السياسيَّ عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحياناً ، فانْ صمْتَ الأمة المصرية عن جواب (ملنر) كان معناه أن قدرةَ الأمة هى المتكلمةُ كلاماً بهذا الصمت ، تُعلن للعالم أن الواجبَ الشعبىَّ قد وضع قُفْلَه على كل فم

ولقد فسر اللورد هذا السكوت بتفسيره السياسى فأدرك منه أن فى الشعب أنفةً وحميَّةً وقوة ، وأن حساب الضمير الوطنى أصبح لهذه الأفئدة كالحساب الالٓهى للنفوس المؤمنة ، كلاهما مُستعلِنٌ يُخافُ ويُتَّقى ، وكلاهما له كلمة محرَّمة

أيةَ معجزة هذه التى جعلت كلمةَ الأجنبىِّ تتخذُ فى أذهان أمة كاملة شكلَ قائلها ، فاجتمعت لها الجلودُ على معنى الرفض ، وأصبح كلُّ فرد يعرف محلّه من الكل ، وخضعت الطبائع بجملتها لقانون العزة القومية الذى يُلزمها ألا تخضع للأجنبى ؟

إن الأمم بعضُ مسائل نفسية كهذه المسئلة ؛ فلو أن لنا خمسة دروس سياسية مختلفة كدرس (ملنر) لكانت لنا فى الايمان الوطنى كالصلوات الخمس

والآن تعلمت الأمةُ أن الشعبَ العزيز هو الذى ينظر فى فض مشاكله إلى الحلِّ وإلى طريقة الحلِّ أيضاً ، وقد كان (ملنر) هو أول أساتذتنا فى تعليمنا الطريقة

وهذا الدرس يُجب أن يكون درساً للشرق كله ، فان السياسة الاستعماريةَ قائمةٌ فيه على خداع الطريقة فى حل مشاكله ، فيحلونها ويعقدونها فى نصٍّ واحد ؛ ويُثبت الكلام الذى يتفقون عليه أن المرادَ منه زوالُ الخلاف ، ويثبت العملُ بعد ذلك أن المراد كان زوالَ المقاوَمة

وفى السياسة الأوربية موافقات دميمة كالنساء المشوَّهات ، فاذا عرضوا واحدةً منها على من يريدون أن يزوّجوه . . . . فأباها وفتح لها عينيه بكل ما فيهما من قوة الأبصار ، أعفوه منها وقالوا له سنأتيك بالجميلة . ثم يذهبون بها الى معهد التجميل اللغوى فيصقلونها ويصبغونها ويضعون لها أحمرَ السياسة وأبيضها ثم يعرضونها جديدة على صاحبهم ذاك ، وما صنعوا ما به صارت الدميمةُ غيرَ دميمة ، ولكن ما به رجع غيرُ الأعمى كالأعمى

ولهم عقول عجيبة فى اختراع الألفاظ حتى لتكون شدة الوضوح فى عبارة هى بعينها الطريقة لاخفاء الغموض فى عبارة أخرى . وكثيراً ما يأتون بألفاظٍ منتفخة تحسَب جَزْلةً بادنةً قد ملأها معناها وهى فى السياسة ألفاظٌ حُبَالى تستكملُ حملها مدة ثم تلد

ولهم من بعض الكلمات السياسية كما لهم من بعض الرجال السياسيين ، فيكون الرجلُ من دُهاتهم رجلاً كالناس وهو عندهم مِسْمَارٌ دَقُّوه فى أرض كذا أو مملكة كذا ، ويكون اللفظ لفظاً كاللغة وهو مسمارٌ دقُّوه فى وثيقة أو معاهدة

ثم ضحك الباشا وقال : إن أرضنا تخرج القطن وسياستنا تخرج ألفاظاً كالقطن لا توضع فى المِغزَل إلا مدت وتحولت (١) . وإذا ذهبنا نخالفهم فى التأويل والتفسير لم نجد عندنا المعجم السياسى الذى يُملى النص . أتدرى يا بنى ما هو المعجم السياسى ؟

أما إنه لو كان كتاباً يتألف من مليون كلمة لذهبت كلها عبثاً وباطلاً وهُراء ، ولكنه ذلك المعجم الحى ، ذلك المعجم الذى يتألف من مليون جندى . . . . . .

(طنطا)

(١) لا ينس القارئ أن هذا كان فى سنة ١٩٢٠

وجع القلب

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

وجدت بالتجربة أنى لا أستطيع أن أحب كما تريد المرأة من الرجل — ولست أعنى أنى عاجز عن الحب ، فما أعرف لى فى هذه الدنيا عملاً غير ذلك . فأنا أحب الطعام الجيد والشراب اللذيذ والنوم الهنيء والراحة التامة ؛ وأحب الكتب والصديق الموافق الذى لا ينغّص الحياة على صاحبه بطول المخالفة وكثرة المكابرة ودوام الشذوذ ؛ وأحب أشياء كثيرة لا أستطيع أن أحصيها . ولكنى أحب نفسى وهذا هو البلاء الأكبر . وليس هو ببلاء ، إذا أردت الحق ، ولكن المرأة تراه كذلك . وعندها أنك تبيع نفسك حين تحبها . ولا بأس بأن يبيع المرء نفسه أحياناً ، ولكن بيعها لا يستلزم أن تترك حبها وتكف عنه . وهل يعقل أن تفيض حبك على الناس والأشياء ولا تخص نفسك ببعض هذا « الفيضان ؟ » غير أن غير المعقول عندك هو المعقول عندها والذى لا يجوز خلافه ولا صبر لها على سواه ، فهى من أجل ذلك تسود عيشك وتريك النجوم فى الظهر الأحمر . على أن الرجل يستطيع أن يخفى حبه لنفسه أو يموهه ويستره عما يحجبه ، ولا أظن أن فى هذا عسراً فأنه يفعل هذا كل ساعة ولا يزال يعزو أعماله إلى بواعث أخرى يظنها أشرف وأسمى من حب النفس ، فهو مثلاً يأكل لا لأنه يشتهى الطعام بل لأن من واجبه أن يحرص على أن يظل قوياً قادراً على خدمة النوع الانسانى ، وعلى هذا فقس ! غير أن هناك ما لا سبيل إلى ستره وكتمانه أو تمويهه ، إذ من الواضح مثلاً أن من العبث أن تنظر إلى اليمين وأن تروح تزعم أنك إنما كنت تنظر إلى الشمال ، فان اتجاه العين لا يخفى ولفتة الوجه لا مغالطة فيها . فاذا كانت النظرة إلى امرأة وأنت مع أخرى فالويل لك ولستُ مسئولاً عنك .... قالت لى مرة إحداهن وأنا معها وقد رأت عينى تدور : « بص هنا » وجذبتنى من ذراعى ، فقلت وأنا مستغرب : « ولماذا لا أبص هناك ؟ » قالت : « كده » بهذا الايجاز الذى لا يفيد شيئاً ؛ فقلت : « كده يعنى ماذا ؟ » قالت : « كده » ولم تزد . فضاق صدرى فقد عجزت أن أفهم سر هذا الأمر المتعب أو حكمته وقلت : « ياستى .. إن الله قد خلق عينى متحركة غير ثابتة فكيف ألزمها الثبات ؟ ثم هبينى استطعت ذلك فلماذا أتكلفه ؟ »

فقالت : « عيب ! »

فصحت « عيب ؟؟ ياخبر اسود !! »

فقالت : « لا يليق أن تنظر إلى الفتيات فى الطريق »

ففهمت ولكنى لم أقتنع وقلت : « إن لى على هذا رداً طويلاً فهل تسمحين بأن تسمعيه ؟ »

قالت بتهكم : « نعم يا سيدى ... »

فتجاوزت عن لهجة السخرية إذ حسبى موضوع واحد للخلاف وقلت : « أولا — لماذا تظهر الفتيات لنا معاشر الرجال فى الطريق إذا كن لا يردن أن ينظر اليهن أحد ؟ ثانياً — وهذا أهم — لماذا يظهرن فى حفل من الزينة إذا كان لا يرضيهن أن يدر الرجال فيهن عيونهم ؟ ثالثاً — وهذا هو الأهم — بأى وجه ألقى الله يوم القيامة إذا كنت أغمض عينى وأتكلف العمى ولا

أنظر إلى مخلوقاته التى أبدعها ؟؟ وقد خلق لى عينين فلا عذر لى ، ورزقنى غير ذلك وسائل القدرة على إدراك معانى الجمال فى خلقه سبحانه .. أليس من الواضح أن مما يخجلنى يوم القيامة أنه تعالى خلقنى بصيراً فآثرت العمى ، ومحساً مدركا ففضلت الجهل والبلادة ؟؟ وأخيراً — لا آخرا — ما الضرر على كل حال من النظر إلى الناس ؟؟ ماذا خسرت الفتاة التى نظرت اليها ؟ .. هل أنا أكلتها بعينى ؟، هل نقصت شيئاً ؟؟ إنى أراها على العكس قد زادت ... نعم زادت ... لماذا تنظرين إلى هكذا ؟؟ هل نطقت كفراً ؟؟ أقول لك زادت لأنها استفادت إحساساً جديداً مؤيداً لاحساسها بجمالها ، ولو كنت لم أنظر إليها لكانت خليقة أن يساورها الشك فيما تحس من نفسها أو تعتقد ، فأنا قد افدتها راحة البال واطمئنان الخاطر ، وإنى لجدير بالشكر على هذا لااللوم »

فصاحت بى بعد طول الصمت : « طيب اسكت بق »

فقلت وأنا ضجر : « هكذا أنتن يا نساء ! : إذا أعوزتكن الحجة قلتن : طيب اسكت بق . . ولكنى لا أنوى أن أسكت « بق » فقد مرن لسانى على الدوران وأنا أحس اليوم أنى أوشك أن أقول كلاماً بديعاً »

فصاحت بى : « أنا معك فكيف تنظر إلى غيرى ؟ »

فقلت : — وقد فهمت — « آه .... هذه هى المسألة ... قولى هذا من الصبح يا ستى ... نعم أنت معى ... وإنك لحسبى من عالم الجمال والفتنة ، ولو وسعنى غير هذا لما كنت حسبى ... ولكنى قانع غير متذمر ... غير أنك مع الأسف لست كل النساء .. وأنت تغنين عن جنسك أحياناً ولكنك لا تستطيعين أن تغنى عن هذا الجنس فى كل حين ؛ وليس ذنبى أنك قاصرة »

فقاطعتنى صائحة : « قاصرة ؟؟ أشكرك »

قلت : « نعم قاصرة عن اختزال جنسك كله فى شخصك الواحد »

فأبت أن تسمع منى بعد ذلك فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله .. الأمر لله ... سكتنا يا ستى .. فلعلك تكونين مسرورة »

ولكنها لم تكن مسرورة ولم تغفرها لى قط ... وأنا أقول تغفرها بغير تعيين أو تبيين لأنى والله لا أدرى إلى هذه الساعة أى شىء أغضبها وأثار نقمتها على

وحدث مرة أخرى أن كلفتنى أن أشترى لها فاكهة وكنت أعرفها تحب الجوافة حباً جماً فانتقيت حبات طيبة الرائحة ذكية العبق واشتريت لها فاكهة أخرى ، ولكن الجوافة كانت هى المهمة والتى عليها الكلام ؛ وذهبت بحملى اليها ، ودخلت به حجرة الانتظار ، وقلت لخادمتها : « قولى لسيدتك صباح الخير يانور العين . لقد حضر سيدك ، ونور عينك اليمنى — واليسرى أيضاً فى الحقيقة — ومعه حمل بعير من الجوافة بل من أبدع أنواعها »

فذهبت الخادمة وأبلغتها الرسالة فأطلت تلك من باب غرفتها — بوجهها فقط — وصاحت وهى فرحة — صحيح ؟؟ جوافة ؟؟ حلوة ؟! »

ففتحت الكيس وأخرجت واحدة ورفعتها لها بين أصابعى وأدرتها أمام عينها فابتسمت ابتسامة السرور وقالت : « حالاً . حالاً ... دقيقة واحدة » ودخلت

وبقيت أنا أتمشى فى الحجرة ، ولم يكن فيها ما يسلى المرء ، ولم يكن معى كتاب أقرأه وأزجى به الفراغ فجعلت أقوم وأقعد ، وأنظر تارة فى المرآة ، وأمسح الطربوش تارة أخرى ، وأنفض عنه ما علق به من التراب . . ومسحت الحذاء أيضاً . . مسحته مرتين حتى صار جلده كالمرآة ، وحتى حدثتنى نفسى أن أخامه أنظر إلى وجهى فيه ، ولكنى خفت أن تدخل على وأنا أفعل ذلك . . وتأملت الحرير الذى كسيت به الكراسى ، ورفعت طرف السجادة وجسستها وفركت وبرها بأصابعى ، ثم لم أجد شيئاً آخر أصنعه فى هذه الغرفة ، فانحططت على كرسى كبير وثير واضطجعت وفى مأمولى إذا نمت ألا توقظنى حين تدخل . ولكنى لم أنم لأن رائحة الجوافة الذكية كانت قوية ، فقد نسيت الكيس الذى هى فيه مفتوحاً ، فتسور إلى أنفى أريجها وملأ صدرى وأدار رأسى ، فأحسست بالجوع ولكنى ضبطت نفسى وشددت على اللجام وقلت : « اللهم اخزك يا شيطان ! » غير أن الشيطان شديد الغواية قوى الفتنة فجعل يقول لى : « وما حبة واحدة تأكلها فتنيم بها هذه الثعالب التى تمزق أحشاءك ؟ » فقلت : « والله لقد صدق اللعين .. فلآكل حبة واحدة من الجوافة اللذيذة .. ثم إن هذا عدل . . أفأحملها وأحرمها ؟ ؟ وأكون كالعير التى يقولون إنها

يقتلها الظمأ وهى تحمل المــاء على ظهورها فى القرب ؟ أو كالحمار الذى يحمل أسفاراً ؟ ؟ . »

ومددت يدى إلى الـكيس وأنا يقظان كنائم ، وتناولت منه من غير أن أنظر إليه : وطابت الجوافة فى فمى ، فأقبلت عليها آكل وآكل — ولـكن بغير احتفال والله — وإذا بصاحبتنا تدخل مؤهّـلة مرحّبة باسطة يديها للسلام ، ثم إذا بها تقف فى وسط الغرفة الفسيحة وعينها مفتوحة جداً علىّ ، فلم أستغرب ، فقد كان فمى محشوا وأسنانى تعمل دائبة كالليل والنهار . وتنبهت إلى واجبى حين رأيتها تحملق على هذا النحو ، فبلعت ما بقى فى فمى بسرعة ، ومططت عنقى ليسهل الانزلاق — أعنى البلع — وانحنيت على الـكيس لأتناوله وأقدمه إليها وأسرها به — أعنى بالجوافة التى فيه — وإذا به ينطبق بين يدى لأنه فارغ ! !

الحق أقول إنى بهتّ، فما كان يخطر لى فى بال أن آكل كل هذه الجوافة . ولو أن إنساناً راهننى أن أفعل لفزعت وأشفقت على نفسى ، ولـكن هذا الذى لم أكن أحسب أن لى قدرة عليه وقع اتفاقاً . . وقد سرنى هذا فى الحقيقة لأنه كان من بواعث الاطمئنان لى على صحتى ، وكان جديراً بها أن تهنئنى وتفرح لى ، فان الجوافة كثيرة وهى فى السوق أكوام عظيمة ، والجيد الطيب ليس بالقليل ، وثمنه شىء تافه لا يستحق الذكر ... ولـكنها وجمت يا أخى لا أدرى لماذا ؟ ووقفت جامدة لا تتحرك كأنما سمرت إلى الأرض ، فأزعجنى ذلك وخفت أن يكون قد أصابها شئ لا قدر الله ، وأقبلت عليها أسألها عما جرى لها ؛ فلما أفاقت أشارت بيدها — دون أن تتكلم — أن اذهب . . اذهب ولا ترنى وجهك ! فاستغربت أن تلقانى بهذه الجفوة بعد ذاك الترحيب والتأهيل والبشر الذى كان يفيض به وجهها وهى مطلة به من بين مصراعى الباب ، وتمنيت لو أنها تبقى أبداً ووجهها بين المصراعين ليبقى لى بشرها وحلاوة ابتسامها ! !

الحق أنى لا أفهم النساء .... وهل تستطيع أنت أن تفهم كيف يفسد الحال وتقع النبوة بين رجل وامرأة من أجل أقة من الجوافة ثمنها قرش ونصف قرش ؟ إن كنت تفهم هذا فانى أحسدك وأدعو لك بالتوفيق إن شاء الله

ابراهيم عبد القادر المازنى

صور سياحة

١ – فرنسا وباريس

بقلم سائح متجول

تأثرت مصر بالثقافة الفرنسية طوال القرن الماضى ؛ ولم يكن ذلك لأن مصر أمة من أمم البحر الأبيض تميل بخواصها وموقعها إلى الأخذ بالثقافة اللاتينية ، ولـكن لأن ظروفا خاصة اجتمعت منـذ الغزوة البونابارتية لتحمل مصر فيما بعد على الاستعانة بالفرنسيين فى مشروعات الاصلاح والتجديد وإرسال بعوثها العلمية الأولى إلى فرنسـا . هذا هو الأصل فى تأثر مصر بالثقافة الفرنسـية ، وهو عارض تاريخى محض ، لا دخل فيه للعوامل الجغرافية أو الميول والخواص الجنسية ؛ ومن ثم فانا نرى أثر الثقافة الفرنسية فى مصر يضمحل اليوم ، لأن مصر تختار اليوم لنفسها من مختلف الثقافات ، لتبنى ثقافتها القومية ، ولا تقف عند ثقافة دون أخرى

ومع ذلك فما تزال الثقافة والآداب الفرنسـية تحظى منا بأكبر عناية ؛ وما تزال فرنسا تجذب منا أكبر عدد من الزائرين ؛ وما يزال اسم باريس يثير فى نفوسنا سحرا لا يقاوم ؛ بل إن كثيراً من أولئك الذين لم يروا باريس يعرفونها معرفة عقلية وروحية شاملة : يعرفونها من الـكتب والصحف والسينما ، وتربطهم بها روابط فكرية قوية ؛ وما تزال أول أمنية للسائح المبتدى أن يرى باريس

وقد حظيت باريس من العربية بكتب ورسائل عديدة ، وحظيت فى العهد الأخير بكتابين لاثنين من كتابنا المعروفين ، وصفت فيهما معاهدها ومغانيها وجوانب كثيرة من حياتها الاجتماعية ، وانك لتقرأ فى الـكتابين فصولاً وشذوراً تفيض اعجاباً بفرنسا وباريس وكل ما هو فرنسى ، بل إنك لتشعر من خلال تلك الفصول الحارة المنمقة أن فرنسا هى أمة الأمم ، وأن باريس هى مدينة المدن وإلـهة الجمال والعلوم والفنون ؛ ومازالت هذه الألوان الوردية المغرقة تطبع كل ما نكتب عن فرنسا وباريس

على أنه يلوح لنا أن هذه الفتنة التى قد تجد مبرراتها فى بعض المؤثرات والظروف الخاصة ، والتى تثيرها فى معظم الأحيان

أهواء وميول خاصة ، ويذكيها الجهل بأحوال الأمم والعواصم الأخرى ، وانعدام روح المقارنة الذي تتضاءل أمامه الصور والألوان الخلابة ؛ يلوح لنا أنها فتنة مبالغ فيها ، وأن شيئاً من الملاحظة البريئة ، وقليلاً من الاتزان في الوصف والرواية ، وطرح المؤثرات والاعتبارات الخاصة مما يعاون على عرض صور أصدق وأدق من تلك الصور الوردية التي عرفناها وألفناها

ومهما يكن في هذه الصور القديمة من صدق ؛ ومهما يكن لهذه الفتنة القديمة من مبررات ، فأنا نقول لأولئك الذين يرون العالم كله في فرنسا وفي باريس : إن الأمور قد تغيرت أعظم تغير في فرنسا وفي باريس

وكاتب هذه السطور سائح متجول يرى ويلاحظ ، ولكنه لا يدعي الوصول إلى المجهول والخارق ، وإنما يلاحظ وبقدر ما تهدى إليه المشاهدة والتجارب بعيداً عن كل اعتبار وهوى

***

لم تقدم فرنسا أية تسهيلات للسياحة سواء في مسألة النقد أو السكك الحديدية أو الفنادق أو غيرها كما فعلت ألمانيا وإيطاليا ، وما زالت تعتمد على جاذبيتها القديمة ؛ غير أن فرنسا تخدع اليوم في قيمة هـذه الجاذبية ؛ وقد انحط موسم السياحة في فرنسا انحطاطاً عظيما ، ولم تعد باريس كما كانت في الماضي تعج بعشرات الألوف من الأجانب ولا سيما الأمريكيين والانكليز ؛ وأهم عامل في هـذا التحول هو ارتفاع قيمة الفرنك الفرنسي بالنسبة لنقد البلاد التي خرجت عن معيار الذهب . فالأمريكي أو الانكليزي أو المصري الذي يزور فرنسا يفقد نحو أربعين في المائة من قيمة نقده ؛ أضف إلى ذلك الغلاء الفاحش الذي يغمر كل شيء في فرنسا ؛ ففي الفنـدق والمطعم والمقهى ، وفي الملاهي والتنقل وكل ما يتصل بالحياة اليومية ، تشعر بوطأة هذا الغلاء المرهق ، وتشعر كأن النقد يذوب بين يديك سراعاً

ولنضرب أمثلة مادية ؛ فالغرفة البسيطة في فندق متوسط تكلف في اليوم من ٢٥ إلى ٤٠ فرنكا[1] (من ٣٣ إلى ٥٢ قرشاً) ووجبة الطعام في مطعم متوسط تكلف من ١٥ — ٢٥ فرنكا (٢٠ — ٣٣ قرشاً) هذا عدا الخدمة وهي من ١٠ إلى ١٥ في المائة ؛ وثمن البيرة الواحدة في المقهى أو حيث تتناول إفطارك فرنكان ونصف (٣,٥ قروش) وثمن الواحدة من الموز أو التفاح أو الخوخ شراء يتراوح بين فرنك ونصف وثلاثة حسب النوع والحجم ؛ وأما في المقهى فما خلا القهوة والنبيذ والكونياك والبيرة ، فان أثمان المشروبات الأجنبية تبلغ حدوداً تزهدك دائماً في طلبها ؛ والسجائر الفرنسية رخيصة ولكنها سخيفة لا يقبلها الذوق ، والسجائر الأجنبية تكلف ضعف ثمنها وأحياناً ثلاثة أمثال ؛ وأما التنقل في مدينة عظيمة كباريس فلست أحدثك عن « التاكسي » لأنه ترف لا يطيقه سوى الأغنياء ، ولكني أقول إن أجور الأمنيبوس والترام الذي بقيت منه خطوط قليلة هي الضعف وأحياناً ثلاثة أمثال أجورها التي نعرفها هنا ؛ ولولا شبكة الترام الأرضي (المتروبولتان) التي تربط أحياء باريس وأطرافها ربطاً محيياً بأجر زهيد (سبعين سنتيما أو نحو قرش صاغ) لكانت باريس أتعس العواصم من حيث المواصلات

هـذه أمثلة وملاحظات نعني بها السائح المتوسط ولا نعني بها طبقة الطلبة أو أولئك الذين يلجأون إلى بعض الفنادق الشعبية الرخيصة حول الحي الجامعي في سان ميشيل وفوجيرار ، ويتناولون طعامهم في مطاعم العمال ، فهؤلاء حقاً يستطيعون أن يستمرئوا نوعا من العيش الرخيص لا يستسيغه السائح المتجول مهما كان من تواضعه وقناعته

ولا تنس إلى جانب ذلك الغلاء المرهق تلك الضريبة التعسفية التي أصبحت رذيلة اجتماعية شنيعة في فرنسا (وفي غيرها أيضاً) ونعني «البقشيش» ، ففي كل مكان وفي كل مناسبة ، في التاكسي وفي المطعم والمقهى والمسرح وأينما حللت ، يمثل شبح البقشيش ، ويطلب بالحاح خشن ؛ وكل شيء يتطلب عطية حتى ولو لم تقدم أية خدمة ؛ والشره خلة بارزة لتلك الطبقة التي تحتك بها في كل لحظة ونعني طبقة الخدم والسقاة ؛ وروح الجشع تبدو في كل مكان ؛ وقد تدخل المسرح أو الملهى الواحد فيطلب اليك البقشيش أربعة أو خمسة متعاقبون من الخدم قبل أن تجلس في موضعك ، وإذا ترددت قيل لك إنا هنا لا نتناول أجراً ونعتمد على البقشيش ، وإذا لم تتذرع بشيء من الحزم والبرود كانت الخسارة فادحة ؛ هذا إلى المفاجآت السيئة في الحساب ؛ ففي معظم الأحيان تدفع أكثر مما تتوقع لأسباب وأبواب غير معقولة ولكن لا مفر من إجابتها

ولقد قيل في يونيه الماضي إن البرلمان الفرنسي قد أقر قانونا بالغاء « البقشيش » ، وقد صدر القانون فعلاً ، ولكننا أسأنا فهمه وإدراك مقصده ، فلم يكن قصد الحكومة الاشتراكية أن تحرم

---

(١) الفرنك نحو ١٣ مليما

الخدمة ومن إليهم من نعم هذه الضريبة المرذولة ، بل كان قصدها أن تجعل « البقشيش » حقاً وضريبة مشروعة لا عطية فقط ، وأن تحفظ كرامة هـذا الخادم أو العامل فلا ينتظر البقشيش كعطية أو نفحة وإنمـا يرى فيه حقاً مكتسباً ينظم دفعه حسب الظروف والأحوال ؛ ولهذا كان أول ما قرأنا فى تعليمات الفندق فى مرسيليا ما يأتى : « بمـا أن البقشيش قد ألغى ، فقد قررت إدارة الفندق أن تحتسب بدل خدمة قدره عشرة فى المائة ! »

ومما يلاحظه السائح فى فرنسا ، وفى باريس بنوع خاص ، أن الأمانة فى المعاملات ليست متوفرة دائماً ؛ وربما كان أول وأشهر التجارب التى يلاقيها السائح فى ذلك هى مسألة التاكسى ؛ فاذا لم تكن تعرف الطريق أو لك فكرة عنه فويل لك من السائق ؛ وقلما تجد سائقاً يقودك الى المكان المقصود مباشرة ، ولا بد أن يطوف بك حيناً قبل أن يقودك إليه ، وعبثاً تلاحظ أو تعترض ، وعند الحساب تضاف إلى الأجر ملحقات زائفة يؤيدها السائق بالصخب والوعيد ؛ والويل لك إذا ترددت فى الدفع ؛ وهذه تجربة أعتقد أن كل سائح مستجد يلقاها فى فرنسا ؛ وقد بلوتها غير مرة وسمعت فى شأنها روايات مدهشة مضحكة معاً عن تفنن السائقين فى ابتزاز الملحقات غير المشروعة . وإنك لتلقى مثل هذا الغش أحياناً فى المطعم والمقهى إذا لم تحسن مراجعة الحساب ؛ ومن الحق أن نقول إنك تلقى مثل هذه التجارب فى غير فرنسا ، وإنك تلقاها فى إيطاليا وباقى أمم البحر الأبيض ، ولـكن يندر أن تلقاها فى أمة من الأمم الشمالية

وحب المـال خلة مشهورة فى فرنسا ، وهى تذهب الى حد الجشع المثير ، وإنك لتلمس هذا الشره فى كل المعاملات ، وتشعر بأن روح المـادة والاستغلال تطغى على كل شىء وكل اعتبار ، ومن ثم كان شغف الـكسب بأى الوسائل ، وكان تجلى الأثرة وانعدام روح المعاونة والمروءة فى معظم الطبقات التى تحتك بها . ومن النادر أن تجد فى باريس من يتقدم لمعاونتك أو إرشادك لمعرفة مكان أو غيره بشىء من التطوع أو الرقة التى تأنسها فى بلاد أوربية أخرى ؛ وإذا قدم إليك مثل هذا العون شعرت أنه مقرون بالسرعة والمن ، وأحياناً بالتكلف والجفاء ، كأن وقت الفرنسى كله وكلمـاته كلها من ذهب ؛ وكثيراً ما تجاب بهز الأكتاف و« ليس عندى وقت » وأمثالها

هذا وقد أفسدت الروح الاشتراكية أخلاق الطبقات الدنيا وآدابها ، فالعامل والصانع والبائع والخادم والموظف الصغير ، هؤلاء جميعاً يتصورون أنهم سادة الموقف فى فرنسا ، وأن المستقبل لهم . وإنك لتلاحظ هذا الأثر السيئ بنوع خاص فى طبقة العمال والخدم ، فهم يؤدون أعمالهم بتكلف ولا يحفلون بشىء ؛ وهم يشعرونك دائماً عند الحديث أنهم سادة مثلك ، ولهم فى ذلك إشارات وألفاظ وحِدّة . وقد كان لحوادث أسبانيا فى هذه الطبقات أثر عميق ملموس ؛ وكم سمعنا فى الفندق والمطعم وفى الشارع والترو من بعض أفراد هذه الطبقات أن الحـكومة الاشتراكية إذا لم تجب مطالب الطبقات العاملة ، وإذا لم تسع الى تحسين الأجور وتخفيض مستوى المعيشة ، فان ما وقع فى أسبانيا سوف يقع قريباً فى فرنسا

وقد عرفت فرنسا أنها بلد الجدل السياسى ؛ ولـكن هذا الجدل يحتدم اليوم فى فرنسا بشدة ظاهرة ويغمر كل الطبقات ؛ وقد تشهد هذا الجدل فى الشارع وفى المقهى وفى الترام ، وتسمع أغرب الآراء وأشدها تطرفاً . وتلقى الصحف على اختلاف نزعاتها رواجاً عظيماً بين كل الطبقات . وتلقى الصحف والنشرات الاشتراكية رواجاً خاصاً بين الطبقات العاملة . وقد لفت نظرى كتابان يعرضان للبيع بكثرة ويقبل الناس على شرائهما ، أولهما رسالة عن حياة مسيو « ليون بلوم » رئيس الوزارة الفرنسية الحاضرة ، والثانى كتاب عنوانه « دوريو رجل الغد » ، ودوريو هو النائب الشيوعى الذى خرج على الحزب الشيوعى وعلى أوامر موسكو وكون لنفسه شعبة خاصة تتقدم كل يوم فى الاهمية والعدد ؛ ويرى كثيرون أن دوريو هذا سيكون من قادة الغد ، وأنه ربما اضطلع بدور عظيم فى التطورات السياسية المقبلة

ومما يلفت النظر بنوع خاص حالة القلق السياسى التى تسود فرنسا اليوم ، وتبدو ظاهرة فى كتابات الصحف وفى تعليقات الأفراد ، ويشمل هذا القلق الشؤون الداخلية والخارجية معاً ؛ ففى ميدان الشؤون الداخلية يشعر الـكثيرون بأن فرنسا مقبلة على تطورات سياسة هامة ، وأنه ربما اقترنت هذه التطورات بشىء من العنف . وفى ميدان الشؤون الخارجية يرى الـكثيرون أن احتمالات الحرب الأوربية تتقدم بسرعة ، وأن نشوبها ربما كان أقرب مما يتصور الناس ، وأن فرنسا ستدعى فى القريب العاجل إلى خوضها ؟

(يتلى)

(***)

الجانب الصـــوفى
فى الفلسفة الاسلامية

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

– ٣ –

تمتاز فلسفة الفارابى بظاهرتين رئيسيتين : نزعة روحية نامية ، واتجاه صوفى واضح . والمذهب الروحى والتصوف يقتربان فى الواقع ويتلاقيان فى نواح كثيرة . وهاتان الظاهرتان تبدوان لدى فلاسفة الاسلام بدرجات مختلفة . وقد نفذ التصوف الفارابى على الخصوص إلى أعماق المدرسة الفلسفية العربية وأثر فى صوفية المسلمين بوجه عام . ولم يقف أثره عند القرون الوسطى ، بل تعداها إلى التاريخ الحديث . وبما أنا أسلفنا القول فى شرح نظرية السعادة الفارابية وبيان مصادرها الأرسطية والأفلوطينية فانه يجدر بنا الآن أن نلقى نظرة على الأثر الذى أحدثته فيمن جاء بعد الفارابى من فلاسفة ومفكرين ؛ وكى تكون هذه النظرة مستوفاة يحسن أن نبين من جانب إلى أى حد تأثر كبار فلاسفة الاسلام بآراء الفارابى التصوفيـة ، كما تأثروا بأبحاثه الأخرى ؛ ومن جانب آخر ينبغى أن نحدد العلاقة بين هذا التصوف الفلسفى وما ذهب اليه صوفية المسلمين المتأخرون . وحبـذا لو استطعنا أخيرا أن نوازن بين نظرية السعادة الفارابية وبعض الأفـكار الصوفية التى اعتنقتها طائفة من الفلاسفة المحدثين . وبالجملة سنتابع هـذه النظرية فى خطواتها المتتالية إلى أن نسلمها إلى العصور الحديثة ، وسنحاول عرض صورة مختصرة لتاريخها العام

إذا كان فى فلاسفة الاسلام من يصح أن نسـميه تلميذ الفارابى وخليفته الأعظم فهو بلا جدال ابن سينا . حقا إن التلميذ عدا على الأستاذ وأخفى اسمه وانتزع مكانته وقضى على شهرته ، وأصبحنا ونحن نعزو إلى ابن سينا آراء وأفـكاراً هى فى الحقيقة من صنع الفارابى وابتكاره ؛ بيد أن الأول يعترف للثانى بأياديه عليه ، ويقر له بالسـبق والأولوية ، ويدين له بالخضوع والأستاذية [1] . ولقد بلغ من تعلق ابن سينا بنظريات أستاذه أن بذل كل مجهود فى تفهمها وأفاض فى شرحها وتوضيحها بحيث منحها نفوذا وسلطانا لم تنله على يدى صاحبها ومبتكرها . ورب فـكرة فارابية غامضة مبهمة تبدو لدى ابن سينا ، وهو صناع اليدين ، فى ثوب قشيب ومظهر خلاب . وإذا كان ابن رشد هو شارح أرسطو غير منازع فى الفلسفة المدرسية ، فان ابن سينا هو شارح الفارابى المـاهر فى الفلسفة الاسلامية . وقد يؤخذ علينا أحيانا أنا نحاول تحليل أفكار الفارابى على ضوء ما كتب ابن سينا [2] ، إلا أن الرجلين فى رأينا متضافران ومتكاملان ، يوضح كل واحد منهما صاحبه ويتممه . ولئن كان للفارابى فضل السبق ، فلابن سينا فضـل البيان والايضاح . ومن ذا الذى يدعى أن فى مقدوره دراسة أرسطو دراسة كاملة دون الرجوع إلى شراحه من المشائين وغيرهم ؟ ولو احتفظ لنا الدهر بكل ما كتب الفارابى فلعلنا لم نستعن دائماً على تفهمه بمؤلفات أتباعه ؛ فأما وما وصل الينا من كتبه نزر يسير ، فنحن مضطرون إلى توضيح غامضه بمختلف الوسائل . على أن المؤرخ الذى يعنيه أن يبين كيف نشأت فـكرة ما ، يلزمه كذلك أن يوضح كيف نمت وتطورت

اعتنق ابن سينا مختلف آراء الفارابى التصوفية وتولاها بالشرح والدرس فى رسائل متعددة نخص بالذكر منها كتاب الاشارات والتنبيهات ، وهذا الـكتاب بين المؤلفات السينوية (نسبة الى ابن سينا) يتيمة العقد وجوهرة التاج الثمينة وثمرة النضوج الـكامل . يمتاز بسمو أسلوبه وعمق أفكاره وتعبيره عن آراء ابن سينا الخالصة التى لا تشوبها نظريات المدارس الأخرى . وقد وقف صاحبه الجزء الأخير منه على الأبحاث التصوفية ، ويقع فى نحو خمسين صفحة تعد من أحسن ما خلفته المدرسة الفلسفية الاسلاميـة فى هذا الباب . فقد أخذ ابن سينا على حسب عادته أفكار الفارابى وفصل القول فيها وعرضها عرضاً مسهباً مرتباً . فهو يحـدثنا عن

(١) القفطى ، أخبار الحـكماء ، ص ٤١٦ — ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ج ٢ ص ٤

(٢) هذا أمر عابه علينا حديثاً صديقنا المسيو كراوس فى مجلة الأبحاث الاسلامية (Rev. des Etudes Isl., 1935, p. 226) وقد أردنا أن نلفت الأنظار اليه

« التجريد » و « البهجة والسعادة » و « مقامات العارفين » و « أسرار الآيات » ويشرح نظرية الاتصال شرحاً مستفيضاً . وهذا هو القدر الذى جمعه وترجمه مهرن الى الفرنسـية ونشره تحت عنوان : Traltés mystiques d'Avicenne وها كم نموذجاً من حديث ابن سينا المـذب ولغته السامية التى تترجم عن معان سـبقه بها الفارابى يقول : « إن للعارفين مقامات ودرجات يُخَـصّون بها فى حياتهم الدنيا دون غيرهم . فكأنهم فى جلاليب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها الى عالم القدس . ولهم أمور خفية فيهم ، وأمور ظاهرة عنهم ، يستنكرها من ينكرها ، ويستكبرها من يعرفها ، ونحن نقصها عليك . . . العارف يريد الحق الأول لا لشىء غيره ولا يؤثر شيئاً على عرفانه ، وتعبده له فقط ؛ لأنه مستحق للعبادة ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة أو رهبة ... العارفُ هشٌ بشٌ بسّام يبجل الصغير من تواضعه مثل ما يبجل الـكبير ، وينبسط من الخامل مثل ما ينبسط من النبيه . وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شىء فانه يرى فيه الحق . وكيف لا يسوى والجميع عنده سواسية ؟ . . العارف لا يعنيه التجسس والتحسس ، ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر كما تعتريه الرحمة فانه مستبصر بسر الله فى القدر . وإذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنفِ مُعَيِّر . وإذا جُسِّم المعروف فربما غار عليه من غير أهله . العارف شجاع ، وكيف لا وهو بمعزل عن تَقيّة الموت ؟ وجواد ، وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل ؟ وصفَّاح ، وكيف لا ونفسه أهون من أن تجرحها زلة بَشر ؟ ونَسَّاء للأحقاد ، وكيف لا وذكره مشغول بالحق[1] »

يصف ابن سينا كأستاذه المراحل التى تقود المرء الى السعادة ويتكلم عن الزهـد والعبادة ، ثم عن العرفان الذى هو السعادة الحق . « فالمعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد ، والمواظب على نفل العبادات من القيام والصيام ونحوهما يُخص باسم العابد ، والمنصرف بفكره الى قدس الجبروت مسـتديما[2] لشروق نور الحق فى سره يخص باسم العـارف » . وليست السعادة مجرد لذة جسمية ، بل هى غبطة روحية وسمو معنوى واتصال بالعالم العلوى ؛ هى عشق وشوق مستمران ، وما العشق الحقيقى إلا الابتهاج بتصور حضرة الحق ؛ وما الشوق إلا الرغبة الدائمة فى كمال هذا الابتهاج[1] . « والنفوس البشرية إذا نالت الغبطة العليا فى حياتها الدنيا كان أجل أحوالها أن تبقى عاشـقة مشتاقة لا تخلص من علاقة الشوق ، اللهم إلا فى الحياة الأخرى . وتتلو هـذه النفوس نفوس بشرية مترددة بين جهتى الربوبية والسفالة على درجاتها ، ثم تتلوها النفوس المغموسة فى عالم الطبيعة المنحوسة ، التى لا مفاصل لرقابها المنكوسة[2] » . والوسيلة الأولى والرئيسية لادراك السعادة هى الدراسـة والبحث والنظر والتأمل . وأما الأعمال البدنيـة والحركات الجسمية ففى المرتبة الثانية ، ولا يمكن أن تحل محل التهذيب الفكرى والرق العقلى بحال

قد يخيل للقارىء بعد هذا التحليل أن ابن سينا أميل من أستاذه إلى متصوفة القرن العاشر أمثال الجنيد والحلاج . ولاسيما وكتاباته مملوءة بمصطلحات الصوفية وألفاظهم الفنية . فهو يردد كلمة الزهد والوجد والوقت ، ويبين حقيقة المريد والعارف والعابد ، ويحلل بعض العواطف النفسية كالعشق والشوق التى شغلت كبار متصوفى المسلمين . غير أنه على الرغم من كل هذا لا يزال ابن سينا وفياً لأستاذه فى نظرياته التصوفيـة كما وفى له فى كل مذهبه الفلسفى ، ولا أدل على هذا من إعراضه عن فكرة الاتحاد التى زعمها الجنيد والحلاج ونقده لها نقداً فيه دقة وتعمق . فهو يرى أن غاية السعادة ليست إلا مجرد اتصال بين العبد وربه يحظى فيه الانسان بضرب من الاشراق لا يصدران عن الله مباشرة ، بل بواسطة العقل الفعال . وأما الاتحاد المزعوم الذى يقضى بأن يندمج الخلق فى الخالق فغير مقبول عقلاً ، لأنه يستلزم أن يكون الشىء واحداً ومتعدداً فى آن واحد . ذلك لأنا لا نقبل أن نعد العقل الفعال فرداً واحداً فى الوقت الذى نقرر فيه أنه محتو على كل النفوس الواصلة ، كما لا نستطيع أن نسلم بفردية العارف فى حين أنا نعترف باشتماله على حقيقـة أخرى خارجة عنه . وانظر كيف يصوغ ابن سينا هذا الدليل . « قد يقولون إن النفس

(١) ابن سينا ، الأشـارات والتنبيهات ، ١٩٨ — ٢٠٦
(٢) المصدر نفسه ، ١٩٩

(١) المصدر نفسه ، ١٩٧
(٢) المصدر نفسه ، ١٩٨

الناطقة إذا عقلت شيئاً فانما تعقل ذلك الشيء بانصالها بالعقل الفعال وهذا حق . قالوا واتصالها بالعقل الفعال هو أن تصير هى نفس العقل الفعال ، لأنها تصير العقل المستفاد ، والعقل الفعال هو نفسه يتصل بالنفس فيكون العقل المستفاد ، وهؤلاء بين أن يجعلوا العقل الفعال متجزئاً قد يتصل منه شيء دون شيء ، أو يجعلوه متصلاً بكليته بحيث يُصيّر النفس كاملة واصلة إلى كل معقول (وكلا الغرضين باطل) ، على أن الاحالة فى قولهم إن النفس الناطقة هى العقل المستفاد حينما يتصورونه قائمة [1] » . ويضيف ابن سينا إلى هذا : « إن قول القائل إن شيئاً ما يصير شيئاً آخر لا على سبيل الاستحالة من حال إلى حال ولا على سبيل التركيب مع شيء آخر ليحدث شيء ثالث بل على أنه كان شيئاً واحداً فصار واحداً آخر ، قول شعرى غير معقول ، فانه إن كان كل واحد من الأمرين موجوداً فهما اثنان متميزان ، وإن كان أحدهما غير موجود فقد بطل الذى كان موجودا [2] »

فتصوف ابن سينا لا يختلف إذن عن تصوف الفارابى فى شيء ، وسيلتهما وغايتهما متحدتان . يقول البارون كارا دى ڤو : « لا يبدو التصوف عند ابن سينا إلا فى آخر المذهب كتاج له ، وهو متميز تماما من الأجزاء الأخرى ؛ وابن سينا يدرسه دراسة فنية كأنه فصل من الفلسفة يشرحه شرحا موضوعياً ، وبالعكس ينفذ تصوف الفارابى إلى كل شيء ، والألفاظ الصوفية منتشرة فى كل ناحية من مؤلفاته ؛ ونشعر جيداً أن التصوف ليس مجرد نظرية اعتنقها ، بل حالا نفسية [3] » . ونحن نسلم مع البارون أن تصوف الفارابى — على عكس ابن سينا — يعبر عن عاطفة صادرة من القلب ، وحياة الرجلين تشهد بذلك ، ولكننا نرفض من الناحية النظرية أن يكون ثمت فرق بين تصوف التلميذ وتصوف الأستاذ ، كلاهما يعتمد على أساس واحد ، ويشغل مكانا متعادلا فى مذهبيهما ؛ وكل ما هنالك من تباين هو وضوح ابن سينا وطريقته التعليمية المنظمة التى يدرس بها المسائل على اختلافها . وأما الألفاظ الصوفية فقد لاحظنا آنفاً أنها أكثر لدى ابن سينا منها عند أستاذه

إذا كان الفارابى وابن سينا هما بطلى الدراسة الفلسفية فى الشرق ، فابن باجة وابن طفيل وابن رشد هم أعلامها فى الغرب . وعلى أن البحث العلمى فى الشرق أسبق منه فى الغرب فان أهل الأندلس مدينون لاخوانهم المشارقة بكثير من آرائهم ونظرياتهم . لذلك لم يكن بدعاً أن تقتفى المدرسة الفلسفية الأسبانية أثر المدرسة الشرقية ، وأن نرى ابن باجة وابن طفيل مثلاً يتبعان خطى الفارابى وابن سينا . وكم يسوءنا أنا لا نعرف حتى الآن عن ابن باجة الشيء الكثير ، فان معظم كتبه قد باد ، وما بقى منها لا يزال مخطوطاً وموزعاً بين المكاتب الأوربية . وكتابه الرئيسى وهو تدبير المتوحد لم يصلنا عن طريق عربى ، ولو لم تحتفظ لنا الترجمات العبرية بأجزائه الهامة ما وقفنا على خبره . ويرجع الفضل فى استكشافه الى مستشرق إسرائيلى من رجال القرن التاسع عشر هو سلمون منك صاحب الفلسفة اليهودية والعربية ومترجم دلالة الحائرين الى الفرنسية . وإذا اعتمدنا على ما نقله (منك) أمكننا أن نقرر أن نظرية الانصال الفارابية قد نالت حظوة كبيرة لدى ابن باجة . وكتابه تدبير المتوحد قائم على إثبات أن الانسان يستطيع الاتصال بالعقل الفعال بواسطة العلم وتنمية القوى الانسانية [1] . والفضائل والأعمال الخلقية جميعاً ترمى الى سيادة النفس العاملة واستيلائها على النفس الحيوانية . وبالجملة يجب على المرء أن يسعى جهده الى الاتصال بالعالم العلوى مشتركا مع الجمعية أو منعزلاً عنها ، فان كانت الجمعية صالحة قاسمها فى مختلف شؤونها ، وان كانت طالحة لازم الخلوة والانفراد [2] . وهنا يبدو ابن باجه متأثراً بالصوفية المسلمين فوق تأثره بالفارابى ، فان الأخير لم يدع الى الوحدة قط ؛ ومن شرائط المدينة الفاضلة فى رأيه أن تقود الأفراد الى السعادة ان لم تصل بهم إليها . وكتاب تدبير المتوحد فى جملته مستقى من مؤلفات الفارابى وابن سينا ، اللهم إلا الجزء الخاص بنظام العزلة والانفراد فهذا تغلب عليه نزعة صوفية بحتة

ومهما يكن فقد وضع ابن باجة الحجر الأساسى فى بناء

(١) المصدر نفسه ، بتصرف ، ص ١٧٩ — ١٨٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠

(٣) Carra de Vaux, Eucyc. de l'Isiam, II. p. 58.

(١) Munk, Mélanges, p. 410.

(٢) Ibid, pp. 398—99.

المدرسة الفلسفية الأسبانية وسار على نهجه ابن طفيل . وحياة ابن طفيل غامضة غموض حياة ابن باجة ، ومؤلفاته ليست أعظم حظا من مؤلفات سابقه فقد باد معظمها ولم يبق منها إلا شذرات متفرقة . بيد أن روايته الفلسفية المشهورة (حى بن يقظان) التى وصلت الينا تشتمل على مذهبه عامة فى أسلوب جذاب وخيال بديع ، وتعد هذه الرواية من أطرف ما خلف فلاسفة الاسلام ، وقد ترجمت الى لغات عدة ، وكانت فى غالب الظن نموذجا نسج على منواله روبنسون كروزو . وابن طفيل يحاول أن يثبت فيها أن القوى الانسانية تستطيع وحدها الاتصال بالله . فقد تصور شخصاً نشأ منعزلاً عن الناس ولم يتأثر بالجمعية قط ومع هذا تمكن بعقله الفردى إدراك الحقائق الكونية والتدرج منها إلى حقيقة الحقائق التى أفاضت عليه بالنور والمعرفة ، وهذا الشخص هو « حى بن يقظان » الذى ولد فى جزيرة قرب خط الاستواء ولم ير أباً ولا أماً ، وإنما منحته الطبيعة غزالة تولت إرضاعه وتغذيته[1] . ولم يكد يشب ويترعرع حتى اتجه نظره إلى ما حوله ، فبحث فى الظواهر الكونية وسير تغيرها ، وانتهى إلى أن وراءها أسبابا خفية تتصرف فيها وصوراً تشكلها ، وهذه الصور صادرة عن كائن قديم يسميه الفلاسفة العقل الفعال[2] . ولم يزل يبحث ويعلل حتى أدرك أن سعادة الانسان وشقاءه راجعان إلى قربه من ربه وبعده عنه . ووسيلة القرب والصعود إلى عالم النور والملائكة هى النظر والتأمل [3] . وسواء أكان هذا الفرض مقبولا أم مرفوضاً لدى علماء الاجتماع المحدثين فانه يبين لنا أولا كيف تأثر ابن طفيل بفيلسوف الأندلس الأول ابن باجة ، فان « حى بن يقظان » يحمل فى ثناياه كثيراً من خصائص « التوحيد » الذى أشرنا إليه من قبل . وثانياً فى لغة « حى » الخيالية وصوره المجازية ما يعبر تعبيراً صادقاً عن نظريات الفارابى فى السعادة والاتصال

أما ابن رشد فلم ينح هذا النحو الخيالى الفرضى ، بل درس

(1) ابن طفيل ، حى بن يقظان ، ص ٣٠ — ٣٤

(2) المصدر نفسه ، ص ٨٥ — ٨٦ ، ١٩٣ — ١١٤

(3) المصدر نفسه ، ص ١٥٧ — ١٥٨

مشكلة الاتصال بالعقل الفعال دراسة علمية منظمة ، مبيناً أن هذا الاتصال فى ذاته لا يتنافى مع أصول علم النفس المعروفة . وقد وضع فى هذا الموضوع ثلاث رسائل مستقلة احتفظت لنا المصادر العبرية باثنتين منها[1] . وهو يرى أن الطفل يولد وفيه استعداد لتقبل المعلومات العامة ، فاذا ما أخذ فى الدراسة والتعلم تحول هذا الاستعداد إلى عقل بالفعل ، ولا يزال هذا العقل ينمو ويرق حتى يتصل بالعقول المفارقة ويستمد منها الفيض والالهام ، وهذا هو الكمال الأسمى الذى نطمح اليه جميعاً ؛ والطريق الموصلة اليه هى تنمية المعلومات وترقية المدارك الانسانية ، فالعلم وحده سبيل السعادة والاتصال بعالم العقول والأرواح . أما ما يذهب اليه المتصوفة من أن الانسان يستطيع الصعود إلى هذه المرتبة دون علم ولا بحث فادعاء باطل وقول هراء[2] . ولعل فى هذا الذى قدمنا ما يكفى لاثبات أن ابن رشد اعتنق كزملائه فلاسفة الأندلس الآخرين — وإن يكن أقلهم تصوفا — نظرية السعادة الفارابية . ومن الغريب أنه لم يدخر وسعاً فى نقد الفارابى وابن سينا وتجريحهما ، ولا سيما إذا أحس منهما انحرافاً عن سنة أرسطو ، ومع ذلك لم ينج من أثرهما ، ولم يستطع أن يكوّن لنفسه مذهباً مستقلاً يخالف مذهبهما ، وهو أشد ما يكون تأثراً بهما فى المسائل التصوفية . فهو يعلن مثلهما أن العلم سبيل الوصول والسعادة الروحية ، وأن أسمى درجات الكمال أن يخترق المرء الحجب ويرى نفسه وجهاً لوجه أمام الحقائق العلوية ، ويرفض رفضاً باتا أن يكون تقشف الصوفية وزهدهم وسيلة التجرد والاتصال ؛ فمن الفارابى إلى ابن رشد اعتنق فلاسفة الاسلام بلا استثناء نظرية السعادة . والفارابى وابن سينا يدعمان هذه السعادة رأساً على الدراسة والنظر ، مع الاحتفاظ بمكان للعقل العملى والحركات الجسمية ؛ وابن باجة وابن طفيل يوسعان الجانب العملى ؛ وابن رشد يعود أخيراً فيقرر مع أرسطو أن الخير الأسمى لا يتم إلا بالعلم والتأمل

(يتبع)

ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

(1) ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ج ٢ ص ٧٧ — ٧٨
Munk, Mélanges, p. 437

(2) Ibid., p. 454

في الأدب المقارن

طور الثقـــافة

في الأدبين العربي والانكليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يمر أدب كل أمة بثلاثة أطوار كبرى تتبع عهود رقي الجماعة: فطور الهمجية يليه طور البداوة ويلي هذا طور الحضارة؛ وفي الطور الأول لا يكون للأدب وجود مستقل بنفسه، بل يكون الشعر تعبيراً ساذجاً عن بسيط العواطف ممتزجاً بالغناء والرقص، ويكون النثر شذوراً من الخرافات والمعتقدات المتوارثة عن الآلهة والجان وقوى الطبيعة؛ ويأتي الطور الثاني بارتقاء عقلية الجماعة بممارستها أعمالاً أرقى وأدق واختلاطها بالأمم الراقية؛ وفي هذا الطور يتميز الشعر ويستقل عن غيره من الفنون وتتسع جوانب النثر، ولكن يظل الشعب على رغم ارتقائه العقلي فطرياً متبدياً، حتى إذا عبر هـذا الطور إلى طور الحضارة ازداد ترفاً في الحياة ومارس العلوم المنظمة وعرف الكتابة، فظهر في أدبه أثر الثقافة والفن والصناعة

وقد مر الأدب العربي بالطور الثاني من هـذه الأطوار في عهد الجاهلية وصدر من الاسلام: ففي ذلك المهد كان العرب على جانب يعتد به من الرقي العقلي لمزاولتهم التجارة ووقوفهم على حضارة الفرس والروم، وفي ذلك العهد نضجت اللغة العربيـة نضجاً عظيماً وبلغ الشعر من الرقي شأواً بعيداً، بيد أن الأدب ظل فطرياً بعيداً عن أثر الثقافة والدراسة والتدوين والصنعة، ثم نهض العرب نهضتين علميتين في مدى قرنين: أولاهما بظهور الاسـلام ونزول القرآن وفتح الأقطار، والثانية بترجمة علوم الأقدمين، وبذلك انتقـل الأدب العربي إلى الطور الثالث من أطوار رقيه: طور الحضارة والثقافة

وقد انتقل الأدب الانجليزي إلى هذا الطور أيضاً بنهضتين متواليتين: الأولى في القرن السادس عشر بوصول حركة إحياء علوم الأقدمين — اليونان والرومان — من أوربا إلى انجلترا، والثانية في القرن التاسع عشر عقب التقدم الصناعي العلمي الذي كانت انجلترا رائدته وكان من أبنائها كثير من أئمة النهضـة العلمية الحديثة في علوم الفلك والحياة والطب والنفس وغيرها

ويلاحظ أن هناك اختلافاً في توالي النهضتين في الأمتين: فقد كانت نهضة العرب العلمية الأولى داخلية وليدة الدين الذي نشأ بين أظهرهم، وكانت الثانية خارجية آتية من نقـل علوم الأمم الأخرى، بينما في انجلترا جاء هذا النقل عن الأقدمين أولاً ثم كانت النهضة التاليـة داخلية نتيجة لتحسين أبناء البلاد لما نقلوه من علوم غيرهم

وقد أوفى العرب على الغاية في الشغف بالعـلوم والجد في تحصيلها، وأظهر أمراؤهم من التقدير للعـلم وأهله والرغبة في خدمته والبـذل في سبيله ما لم يظهره ملوك دولة في التاريخ، وكانت رعايتهم للعلماء — بعكس ما كان تقريبهم للشعراء — جليل النفع بعيد الأثر

وكان للعرب من اللغة العربية الرحبة الجوانب، الطيّعة الأسلوب، الغنية بطرائق الاشتقاق، خير معوان في جدهم في درس العلوم، وامتلأت جوانب اللغة بضروب الدراسات والثقافات، وكان رقيها العلمي في عهد الدول الاسلاميـة يفوق كثيراً رقيها الأدبي: فبينما ظل أدباء الجاهلية دائماً أساتذة للمتأخرين يحتذونهم في الأدب، أمعن علماء الاسلام وفلاسفته في مذاهب من التفكير والبحث لم يسمع بها الجاهليون ولا خطرت لهم على بال

ولم يقصر أدباء العربيـة عن غيرهم في تلك الحلبة العلمية المحتدمة، ولم يكونوا دون سواهم شغفاً بالعلم وطلباً لشوارده، بل كان أكثرهم متثقفين ثقافة علمية وأدبية عالية، وقد تلقوا علومهم على طريقة عهدهم: فمن نشأ في يسار أحضر له المؤدبون، ومن ترعرع في بيت علم وفضل قام أبوه بتأديبه، ومن قصر به جده عن هذا وذاك تنقل بين الأدباء واختلف إلى العلماء حيث كانوا يجلسون للدرس؛ أما المدارس والجامعات فلم تنشأ إلا متأخرة، قبيل بدء عهد الركود الفكري، ولم يكد يتخرج فيها عَلم من أعلام الأدب

وكان من خصائص الثقافة الاسلاميــــة ترامي أطرافها واختلاف أجناس الخائضين غمارها وشمولها شتى العلوم والمذاهب والعقائد من متفرق الأمم وامتزاج العلم بالأدب والدين بالفلسفة فيها، وقد ظهر أثر كل هذا في المؤلفين وفي مؤلفاتهم: كانوا

طموحين فى طلبهم العلم يبغون تمثُّل كل ما فى عصرهم من مناحى التفكير، وكانوا كذلك طموحين فى مؤلفاتهم يحبون أن يودعوها كل فن. ولو أردنا أن نشير إلى الأدباء الذين نالوا حظاً عظيما من الثقافة لأحصينا أكثر أدباء العصر العباسى الزاهى بين القرنين الثانى والخامس الهجرى. ويكفى أن نذكر من الشعراء المعرى الحكيم المعنى بشؤون الكون والفلك والحياة الاجتماعية، ومن الكتاب الجاحظ العالم الكلف بدراسة الحيوان وتذوق كل قديم وجديد وقريب وبعيد فى الحياة والكتب، والذى كان – كما قيل – يستأجر الكاتب ليلاً ليبيت فيها يستوعب محتوياتها

تماثَلَ الكتّاب والشعراء فى الأخذ من الثقافة بنصيب، ولكن كان الكتاب على العموم أوفر حظاً من الثقافة عامة ومن العلوم خاصة، واقتصر بعض الشعراء على الدراسة الأدبية، لأن الكتاب كانوا يترشحون للوزارة وكتابة الدواوين والولاية وتأديب أبناء الأمراء، ولا بد لتلك المناصب من دراية واسعة وإلمام شامل، ولأن كثيراً من الشعراء لم يكن للشعر عندهم غاية وراء استدرار الصلات والجوائز، ولم تكن وظيفته عندهم تسجيل الآراء والخوالج النفسية، فلم يكن بهم كبير حاجة إلى دراسة العلوم التى تهذب الفكر، بل كان حسبهم أن يقفوا على مذاهب القول التى سلكها المتقدمون من الشعراء المداحين، والبحترى أبرز أولئك الشعراء الذين عاشوا فى صميم عهد الثقافة بنجوة عنها، فقد كان حريصاً على استبقاء السذاجة البدوية، وجاء أكثر ديوانه الضخم مدحاً لمن يرجو عندهم العطاء، وهجواً لمن خيبوا منه ذلك الرجاء

كان أعلام الأدب الانجليزى كذلك على جانب عظيم من الثقافة، وقد حصلوا – عدا من قعدت بهم ظروف غير مواتية كشكسبير وجونسون – علومهم فى الجامعات التى أخذ نظامها عن العرب وأصبحت مواطن العلم والدرس، ونَبُهَ صيت بعضهم وهم ما يزالون طلاباً بها، وتشترك ثقافتهم مع ثقافة أدباء العربية فى الاشتمال على الفلسفة اليونانية؛ ولكن بينما كانت دراسة الأدب العربى القديم تتم الباقى من ثقافة الأديب العربى، كانت دراسة الأدب اليونانى تكمل ذلك الجانب من ثقافة الأديب الانجليزى. ومن ثم كان معظم الأدباء الانجليز ملمين باللغتين اليونانية واللاتينية؛ ولمعرفة اللغات أثرها العظيم فى تكوين الأديب وتوسيع أغراض القول؛ ويكثر الالماع إلى اليونان والرومان: تاريخهم وأساطيرهم ومشهورى رجالهم فى الأدب الانجليزى، كما تكثر الاشارة إلى الجاهلية والجاهليين فى الأدب العربى

ويتشابه رجال الأدبين فى الرحلة عن الوطن فى نشدان العلم: فقد كان أدباء العربية يطوفون فى البلاد فى طلب أئمة العلوم يلزمونهم، وفى طلب نوادر الكتب يستنسخونها، وربما أضافوا إلى ذلك حج البيت الحرام. وكذلك جرت سنة الأدباء والمتعلمين عامة من ذوى اليسار الانجليز على الارتحال بعد نيل درجاتهم العلمية إلى أوربا وخاصة إلى إيطاليا مبعث النهضة الأوربية، وربما أضافوا إلى ذلك الحج إلى آثار بلاد الأغريق مهد العلوم والآداب والفنون القديمة؛ ولهذه الرحلة عن الوطن – فضلاً عن كسب العلم ومصاحبة العلماء – أعظم الأثر فى تكوين نفس الأديب وتوسيع أفق خياله

وكان لانتشار الثقافة فى الأمتين آثاره المتشابهة فى الأدبين: فارتقيا خيالاً وأسلوباً وأغراضاً ومعانى، واتسعت جوانبهما، وظهر فيهما التفنن والصنعة المقصودة، وظهرت لغة علمية دقيقة التعبير بجانب لغة أدبية أنيقة التحبير، وظهرت روح النقد وتجلت نزعة الشك من جراء اصطدام العلوم المستحدثة بالعقائد الموروثة، واشتدت المنازعات الأدبية، واحتدمت المشادات بين أنصار القديم وأتباع الجديد، وظهرت آثار المذاهب الفلسفية واصطلاحات النظريات العلمية فى رسائل الكتاب وقصائد الشعراء، ونبغ من المثقفين من يجمعون بين صناعتى العلم والأدب

ولا ريب أن هذا الطور الثالث من أطوار رقى الأدب التى أشير إليها فى صدر هذه الكلمة – طور الحضارة والثقافة – هو أرقى ما يصل إليه الأدب وفيه ينال ما قدر له من أسباب الكمال، وفيه أنتج الأدب العربى خير نتاجه، فالأدب لا يبلغ غايته إلا فى حضارة تحيط به، وثقافة تغذيه، وروح نقد تستحثه. وقد دام هذا الطور الأدبى فى العربية زهاء ثلاثة قرون حافلة، تخلّف لنا منها تراث زاخر يشهد بشغف العرب بالعلم وولوعهم بالأدب، ثم عملت عوامل الفساد السياسية والاجتماعية عملها، فاضطرب المجتمع، وجمدت الأفكار، ودخل الأدب فى طور تدهوره الطويل.

فخرى أبو السعود

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

صدر الحديث[1]

أراد متشنيكوف أن يفسر حصانة الانسان من الأمراض فنسبها الى كريات دمه البيضاء ، وأسمى هذه الكريات بالفاجوسات ومعناها (الملتهمة) لأنها تلتهم المكروب الداخل فى الدم فتهضمه وتعدمه . فالحصين من الناس من قويت فاجوساته على المكروب الغازى ، والقابل للعدوى منهم هو الذى تضعف فاجوساته من المكروب فتنهزم أمامه . وقاد متشنيكوف الدفاع عن النظرية الفاجوسية فى باريس ، وقاد الألمان مدفوعين بالعداء السياسى للفرنسيين حركة منظمة ضد هذه النظرية . وعزوا حصانة الناس الى بعض خصال فى مصل دمائهم . وبالغ متشنيكوف فى كراهة الألمان فلم يطق أن يسمع من أحد أن لمصل الدم شأناً فى حصانة الانسان أصلا

الحصانة واليهودى الأفاق

ولم يكن المعمل الذى استقله متشنيكوف فى معهد بستور معملا فحسب ، فقد كان فيه من الألوان ومقتضيات الفن ما فى مشغل رسام Studio ، وكان فيه من أسباب التفريج والتسلى ما فى مهرجان لهو منصوب بقرية ، وكان فيه من الحمية والحرارة واللذة القوية ما يجده المشاهد فى سِرك[2] circus كثير الشعاب رحب الجناب ، فلا تعجب بعد ذلك إذا علمت أن الشباب من أطباء أوربا قصدوه من كل ركن فيها يطلبون صيادة المكروب عنده ؛ أما عقولهم فانطاعت عفوا لهذا الباحث الكبير ، وقد كان كذلك منوّماً مغناطيسياً خطيراً ، وأما أصابعهم فقد سبقتهم الى إجراء عشرات الألوف من التجارب التى انطلقت من رأس أستاذهم حثيثة كما تنطلق الصواريخ فى الألعاب النارية من أصولها المتفرقعة

كأنى بك تسمعه ينادى : « ياسيد سلتيكوف ! هذا تلميذ للأستاذ بفيفار الألمانى يقول إن مصل الخنزير الغنيى يستطيع أن يحيى خنازير أخرى غينية من الموت بكوليرا الخنازير . فهل لك أن تتفضل باجراء مجربة تمتحن بها هذه الدعوى ؟ » فلايكاد يتلق هذا العابد لسيده مشيئة متشنيكوف حتى يهرع الى تحقيقها ، وهو يعلم حق العلم أى تحقيق يراد — تحقيق أن هذا الأستاذ الألمانى إنما ادعى باطلا وقال خرفا . وكانت تعرض لمتشنيكوف مئات من تجارب دقيقة لا تصبر عليها أصابعه الملولة فيدفع بها الى بلاجو ڤستشنسكى Blagovestchensky أو الى هوجنشمت Hugenschmidt أو الى ڤجنر Wagner أو الى غرجيڤسكى Gheorgiewski أو الى سڤتشنكو Savtchenko الذى نسيه الناس الآن ، أو إذا كان هؤلاء مشغولين إذن فالى زوجته ألجا فقد كان يغريها بترك ماهى فيه من رسم الزيت أو تشكيل الصلصال لتقوم ببعض هذه التجارب ؛ وكانت جديرة بحل أعقد العُقَد . فى هذا المعمل كان مائة قلب ولكنها دقت معا ؛ وكان به مائة رأس ولكن بها فكرة واحدة ولها غاية واحدة : أن تكتب أنشودة شعرية حماسية كبرى عن تلك الكرات الصغيرة المكوّرة الشفافة الأفاقة التى تدور فى دمائنا تتشمم عن مكروبة عادية قاتلة ، فاذا وجدتها سبحت نحوها واخترقت جدران الأوعية الدموية اليها حيثما كانت ؛ فاذا لقيتها فالحرب العوان بينهما حتى يذهب السوء المنذر عن الجسم أو هى تموت دونه

وكانت المؤتمرات الطبية الكبرى فى تلك الأيام مؤتمرات صاخبة ثائرة ملؤها الحجاج فى أمر المكروب وأمر الحصانة ؛ وكان متشنيكوف يحضرها دائماً ؛ فقبيل اجتماع أحدها بأسابيع كنت ترى معمله لا يهدأ أبدا من كثرة ما تروح الأقدام وتجئ فيه ؛ وكنت تسمع متشنيكوف يصيح برجاله : « هيّا ، هيّا ، فلا مندوحة عن الاسراع حتى تتم كل التجارب التى نريدها لأثبات حججى » . فيقوم الأعوان المخلصون العابدون باقتصاد ساعتين فساعتين من نومهم كل ليلة فى سبيل العمل ؛ ويشمّر متشنيكوف نفسه عن ساعديه ، ويرفع محقنه بيمينه ويضرب به فى شتيت الحيوانات وعديدها ، يحضرها له مساعدوه حتى يتصبب العرق من جباههم . فمن صغار أنواع كبيرة من الخنافس Rhinoceros beetles إلى الضفادع الخضراء[1] إلى التماسيح ، إلى سميدرات مكسيكية عجيبة axolotls[2] ، حتى لجرّوا الشباك فى قيعان البرك يطلبون سمك الفرخ perch والجدجون gudgeon[3] . نعم يقوم بحثا الفيلسوف المجنون على

(١) انظر العدد ١٥٨ من الرسالة

(٢) ملعب متنقل غالبا يتضمن ألعابا بهلوانية يظهر فيها اللاعبون حذقا نادراً ومخاطرة بالأرواح كبيرة

(١) نوع من الضفدع تكثر سكناه فى الولايات المتحدة وكندا ظهره أخضر (٢) أنواع من المظاءات تعيش فى بحيرات المكسيك الجبلية

(٣) كلاهما سمك يعيش فى الماء العذب

كل هذه الخلائق الهادئة المتطامنة التى لا تشكو ولا تتضرر فيطلق فيها المكروب من محاقنه وقد لمعت عيناه واحمر وجهه العريض فبات كالهب المتأجج من خلف لحيته ، وقد تلوث شاربه بما تناثر عليه من المكروبات بسبب انفعالاته النفسية وتلويحاته الشعرية . وكان يقول : « أنا إنما أكثر تجاربى هذا التكثير لأزيد نظريتى إثباتاً »

كان عقل متشنيكوف لا يفتأ يتخيل الخيالات عن الطبيعة ، ويبتدع القصص عن الكون ، ولكن من العجيب المدهش أن هذه الخيالات كثيراً ما تحققت عند التجربة ، وهذه القصص كثيراً ما ثبتت عند البحث والاستقصاء . صاح ألمانىّ يقول : « ليس فى نظرية الفاجوسات التى خلقها متشنيكوف شىء ذو بال أو خطر كبير ، فكل الناس يعلم أن المكروبات قد تُرَى داخل الفاجوسات ، ولكن هذه الفاجوسات الأفّاقة لا تَخْفُر الجسم ولا تدفع عنه سوءا ، وإنما هى قَشّاشة تأكل من الفضلات ما تلقَى ، فهى إذا أكلت المكروبات فلا تأكل إلا الميّت منها » . وكان المؤتمر اللندنىّ لعام ١٨٩١ يزداد موعده اقترابا ، فصاح متشنيكوف يطلب خنازير غينية ، فلما جاءته حقنها فحصّنها ببشلات تشبه بشلات الكوليرا كان اكتشفها صديقه القديم المنكود الدكتور (جماليه) ؛ وبعد أسبوع أو نحو أسبوع قام هذا الفيلسوف اللحيانىّ (١) فحقن زريعة حية شريرة مُخطِرة من هذه البشلات فى بطون الحيوانات الحصينة ، وأخذ فى الساعات التى تلت يمتص من هذه البطون فى فترات قصيرة قطرات من سائلها بواسطة أنبوبة دقيقة من الزجاج ، ثم يضع هذه القطرات تحت عدسة مجهره القذرة ، قَذَرَ قلةٍ أو قذر كثرة ، ليرى ما تصنع فاجوسات الحيوانات الحصينة ببشلات الدكتور جماليه . حدّق فى المجهر ليرى ، فرأى غاية مُناه ! رأى هذه الفاجوسات المكوّرة الزاحفة المتثاقلة قد أكلت من هذه البشلات حتى امتلأت !

قال متشنيكوف : « والآن على أن أثبت أن هذه المكروبات التى بداخل هذه الفاجوسات مكروبات لا تزال حيّة تُرزق » . وقتل الخنزير الغينى وشق بطنه فانفتح ، فصّ منه شيئاً من هلامه الرمادى ؛ وما كان هـذا الهلام إلا خلاياه الأفاقة اجتمعت فى البطن لحرب المكروب الداخل والتهامه . وبعد زمن قليل ماتت تلك الخلايا الأفاقة ، تلك الفاجوسات التى لا تحتمل الحياة خارج الجسم طويلاً ؛ ماتت فانشقّت فخرجت منها تلك البشلات الحية التى كانت ابتلعتها وهى فى بطن الخنزير . فلم يُلبّث متشنيكوف طويلاً حتى حقن هذه البشلات فى خنازير غير حصينة فما أسرع ما قتلتها

وبهذه التجربة ، وبعشرات من تجارب بارعة من أمثالها ، أرغم متشنيكوف خصومه فاعترفوا له بأن الفاجوسات تلتقم المكروبات الخبيثة أحياناً . ولكن الذى يؤسف له أن متشنيكوف أضاع حياته وأنفق طاقة عقله الجبار فى عمل تجارب قصد بها الدفاعَ عن فكرة حِواريّةٍ لا كشفَ أسرار الطبيعة . نعم لقد كانت تجاربه بديعة مألوفة ، وكثيراً ما كانت تلذّ الفكر وتُمتع الخيال ، ولكنها كانت مصطنعة اصطناعا ، وكانت ترمى بعيداً عن الغرض الأهم الأخطر وهو كشف السر فى أننا حصينون .

كان له رأس يَقدر على احتواء الكثير الشتيت من المعارف ، فما كان أجدرها أن تتجه بكل حولها وذخيرتها الى حل عقدة الحصانة ، فتفسر لنا كيف أن الطفل قد ينشأ فى مباءة من السل ثم هو لا يجيئه ، بينما طفلة أخرى تُنَشَّأُ على قواعد الصحة فى عناية وحذر فلا تبلغ سن العشرين حتى تموت من السل . هذه هى أُحْجية الحصانة المستغلِقة ، وهى الى اليوم حجية مستغلقة .

فانظر ماكان يصنع تجاهها متشنيكوف ؟ كان يقول : لا شك أن الفاجوسات فى هذه الحالة لا تعمل عملها ، فهى لا شك لأمرٍ ما تعطلت » ، ثم هو يهرع الى المعمل ليُدهش خصيمه باثبات أن فاجوسات التماسيح تأكل بشلات حمى التيفود . وما للتماسيح وللتيفود وهو لا يصيبها أبداً !

وأخلص له مساعدوه فى المعمل إخلاصاً نادراً عجيباً ، فأذنوا له فأطعمهم بشلاتٍ حيّة خبيثة من بشلات الكوليرا ليثبت أن الدم لا دخل له فى حصانتنا منها . وبلعَ البشلاتِ فيمن بلع شابةٌ من تلك الأوانس الجميلات اللاتى كان يسترشد بوجوههن ويستوحى من فتنتهن ، ومضت سنوات أُغرم فيها باللعب بأرواح أعوانه البُحّاث وهم عبّاده الطائعون ، وأقرّ بأنه إنما كان جنوناً ذلك الاغرام . وليس شىءٌ يُعذره من هذا الاغرام ويصفح عنه هذا الاجرام إلا أنه هو نفسه لم يتأخر خطوة عن مسايرتهم بالمخاطرة بحياته ، بل لقد بلع هو نفسه من أنابيب البشلات أكثر مما بلعه أيهم منها ؛ وفى أثناء هـذا التلاعب

(١) العظيم اللحية

بالنار مرض أحد أعوانه مرضاً شديداً وظهرت عليه أعراض الكوليرا الأسيوية الصميمة ، فندم متشنيكوف ندامة كبرى ، وكان يقول فى وجيعته وأساه : « أى جوبى ! ليس لى بعد موتك حياة » ، فلما سمعت أُلجا ذلك منه اتخذت حيطتها فلزمت زوجها الشهير ليلَ نهارَ خشيةَ أن يعاوده خاطر انتحاره القديم ؛ وكثيراً ما كان جاءه ولكنه لم يثمر ثماره أبداً . وفى ختام هذه التجارب الغريبة ، أخذ من دم الناجين من أعوانه فحقنه فى دم خنازير غينية ، ثم حقن هذه الخنازير بزريعات من بشلات كوليرا حادة ، فماتت هذه الخنازير ولم تنفعها دماء هؤلاء الرجال شيئاً . فاغتبط بهذا الفلاح ؛ وكان يكره أشد الكره أن يكون للدم خطر فى هذا أبداً ، وكتب : « إن كوليرا الانسان مَثَل آخر من أمثلة الأمراض التى لا يمكن أن يُعزى سبب الشفاء منها لمناعة الدم أصلاً »

وقد يكون من تلاميذه تلميذ وهبه الله مقداراً غير عادى من استقلال الرأى وحرية الفكر ، فيقع فى أبحاثه على خاصة عجيبة من خواص الدم ، فيأتى إلى أستاذه يهمس فى أذنه بالذى اكتشف ، فاذا بالاستاذ تطول قامته ، وترتفع هامته ، وينتفخ صدره زهواً وكبراً كأنه موسى الكليم يهبط جبل الطور إلى الوادى ؛ وإذا به يأمر بهذا الخارج الثائر الزنديق الذى لا يؤمن بنظريته أن تُحرق جثته ، ثم هو يقوم على الجثة يفرغ ماء عينيه بكاء وقد عزّه العزاء وافتقد فيه الصبر والسلوان . لم يكن معمله بالمكان الهانىء الوادع السعيد للبحّاث الذين يطلبون الحقيقة الصرف . ومع هذا فالى متشنيكوف يعزى بعض الفضل فى اكتشاف طائفة من أعجب خواص الدم ، ذلك لكثرة التجارب التى أجريت فى معمله ولاختلاف عدد كبير من بحّاث متحمسين عليه فيه . مثال ذلك الباحث الشهير بردِيه Bordet جاء يعمل مع الأستاذ ، والأستاذ فى أكبر مجده وأذيع صيته . وكان بردِيه ابن معلم قرية صونيى Soignies ببلچيكا ؛ وكان حيياً لا يُؤبه لظهره ؛ وكانت به عادات من إهمال وقلة مبالاة ؛ وكانت له عينان زرقاوان كالماء ذاهلتان لا تبصران شيئاً مما تقعان عليه ، ولكنهما أبصرتا مالم يبصره غيره من البحاث . بدأ عمله فى معمل متشنيكوف ، وأخذ يبحث فى الدم يستجلى خفاياه ، فاستجلى أموراً جليلة منه ، وذلك فى ظل لحية متشنيكوف وعلى صدى صيحته الصارخة بالفاجوسات وللفاجوسات . ووضع هذا البلجيكى أسس تلك الاختبارات العجيبة الدقيقة التى يختبر بها الدم اليوم فى جنايات القتل ليُعرَف أهو من إنسان أو حيوان . وفى هذا المعمل قام بأبحاث أدّت بعد سنوات إلى اختبار الدم الشهير الذى به يُكشَف عن وجود الزُّهرى فى دم الانسان ، ذلك الاختبار المعروف اليوم باختبار فَسَرمَنْ Wassermann

على أن بردِيه لم يَسلم من غضبات متشنيكوف أحياناً كثيرة ، ولكن الأستاذ كان كثير العُجْب بتلميذه ، وكان كلما وجد بردِيه فى الدم شيئاً يضر بسمية المكروبات — ومع هذا قد ينفع فى تحصين الناس منها — أغمض متشنيكوف عينه على القذى كارهاً وقام يغرى نفسه باجراء تجارب لا بأس بها تثبت أن هذا الشىء الذى وجده بردِيه فى الدم إنما جاء أصلاً من الفاجوسات . ولم يُقِم بردِيه فى معمل متشنيكوف طويلا . . . .

واقترب ختام القرن التاسع عشر ، وتحوّل بحث المكروبات ، فبعد أن كان يَنفُر اليه كل مخاطر مغامر ، أخذت تعالجه طائفة من شباب الأطباء انصرفوا اليه فى هدوء وسلام وتؤدة وتبصر واحترفوه احترافاً ، فلم يجمحوا فيه بالخيال ، ولم يتنبأوا فيه بالغيب . عندئذ تحوّل متشنيكوف كذلك بعض التحوّل عن غضباته المرة وإساءاته المنكَرة إلى كل من لم يكن يرى الأمور بعينه . ونال الشارات وحظِيَ بالمكافآت المالية . ودخل يوماً مؤتمراً دخول الملك المستعظم فحظى فيه حتى بتصفيق الألمان واحترامهم . وكان عندئذ آلافٌ من البحّاث قد لحوا آلافا من الفاجوسات تبتلع آلافا من المكروبات . ولو أن هذه لم تفسر لنا سبب الحصانة — لم تفسر لنا كيف أن رجلاً تصيب صدره النيومونيا فتقتله ، بينا رجل آخر تصيبه فتعتريه نوبة من عرق صبيب يُشفى عقبها — إلا أنه مع ذلك ثبت يقيناً أن الفاجوسات تأكل مكروب النيومنيا أحياناً وتذهب به وبشره . وهذا الثبوت لا شك يرجع فضله إلى متشنيكوف بصرف النظر عن فساد حججه وضيق صدره وقلة تسامحه وعناده . ولا شك كذلك فى أن هذا ثبوت لحقيقة علمية كبرى ليس بمستغرَبٍ أن تؤدى إلى تخفيف آلام البشرية لو أن القدر ساق إلى هذا العالم البائس عبقرياً حلاّماً حذّاقا للتجربة يفضح لنا السر فى أن الفاجوسات تأكل المكروبات أحياناً ثم هى تَعَفّ عنها أحياناً ، أو لعله فوق ذلك يغريها بأكلها دائماً أبداً

(يتبع) أحمد زكى

ميــلاد . . . !

للأديب محمد طه الحاجرى

لم يكد الفجر يستفيض من وراء الأفق ، كما يستفيض الأمل الباسم من وراء الضلوع ، حتى استيقظ أهل ذلك البيت الصغير من إغفاءتهم ، ونفضوا عنهم بقايا أحلامهم ، واستقبلوا نور الفجر الساحر فأشرقت به قلوبهم ، وانبسطت له وجوههم ، ثم لم يلبثوا حتى كانوا يحفون بفتاة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، تئن أنيناً خافتاً لا يكاد يتجاوز نطاق صدرها ، وقد نطقت حركاتها وأسارير وجهها بما يعتاج فى أحشائها من ألم ، وما تبذله لقاءه من جهد ؛ فكانت تنحنى إلى أمامها — من ذلك الألم الممض — فتعتمد على يديها ، ثم ترفع كفها لتخفى دموعا تترقرق فى عينيها ، والسيدتان الجالستان إلى سريرها تحاولان التسرية عنها ، وتخفيفَ همِّها ، وطردَ الأشباح الفزعة التى كانت تساور خيالها ، وتضاعف من آلامها ؛ ولم يمنعهما وقار السنّ من أن يصطنعا فى الحديث شيئاً من الفكاهة والمرح ، يبدد وجوم الموقف ... ويبعد شياطين الوساوس

أما ذلك الرجل الفاضل الذى كان ينظر اليها ، وإن وجهه ليعبر عن شتى العواطف من الألم والعطف والاشفاق والرجاء ، فانه لم يلبث أن غلبته عواطفه ، فقام من مكانه ، وذهب إلى غرفة أخرى ، وأخذ يدعو الله ويضرع اليه أن يكون فى عون هذه المسكينة التى تعانى — للمرة الأولى فى حياتها — ما تعانيه كل امرأة مثلها خلقت لتكون وسيلة امتداد النوع الانسانى

تُرى ماذا كان يجول فى خاطر ذلك الرجل الذى لبث زماناً لا يحس بعاطفة الأبوة إلاّ حنيناً اليها ، ورغبة قوية حافزة فى الاشتمال عليها ، وها هو ذا الآن يوشك أن يكون أباً كما صار أنداده من قبل ، وها هى ذى رجولته توشك أن تستوى وتأخذ كمالها بهذا القادم المنتظر ؟ ؟

سبحانك اللهم ! جعلت فى الأبناء كمال الرجولة ، فاتسمت الأثرة بالطفولة ، ثم جعلت الرجولة درجات بعضها فوق بعض : هذا زوج يكد لنفسه ولغيره ، وهذا أب يرى خير بنيه فوق خيره ، وهذا عميد أسرة يتولى أمرها ويكدح لجدها وينافح من دونها ، وهذا زعيم أمة قد اضطلع بشؤونها ، وسهر على شجونها ، وباع ماله ونفسه فى سبيلها ، فبلغ الذروة فى الرجولة ، وأشرف على أقصى غايات الكمال الانسانى

أيقولون إن الانسان أنانىّ بطبعه ؟ فما الذى يدفع بالرجل الكامل لأن يكون زوجا يشرك امرأته فى أسباب حياته ، وأبا يخلط بين غيره وذاته ، وقائداً يضحى بنفسه فى سبيل أمته ، ومصلحا ينير لغيره فيطفىء من ذبالته ؟ إنما هى غريزة التكمل ، فاذا ضعفت تلك الغريزة ، فرغب الشبان عن الزيجة ، وانصرفوا عن بناء الجماعة ، واحتفلوا بخيرهم الذاتى وحده ، فقد رجعوا على أعقابهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، وانعكست سنة الخليقة فيهم ، فعادوا أطفالاً ، وكان من الطبيعى أن يكونوا رجالا

تُرى ماذا كان يجول فى نفس ذلك الشاب الذى نيّف على الثلاثين ، وقد جلس يتمتم بالدعاء ، ويرفع يديه إلى السماء ، فى زى شرقى أنيق ، ومحيا مشرق وضىء ، لولا ما يرتسم عليه من خطوط فيها من معنى الألم قسط موفور ؟

إنما هى مشاعر مبهمة لا تكاد تبين أو تتمين ، مترادفة ينسخ لاحقها سابقها ، مختلطة بين الماضى والحاضر والمستقبل ، لا تكاد تستقر على عهد من العهود الماضية ، حتى تحط على آخر فى حدود الغيب المحجوب ؛ ولا يكاد يألم لما تعانيه زوجه من ألم المخاض ، حتى تنسخ هذه الغاشية موجة من النور البهى الساطع المنتشر من عالم الغيب على نفسه الحائرة بين عالم الغيب وعالم الشهود

أما تلك المرأة الصغيرة فلعل خواطرها كانت حزينة مبتئسة ، أكثر منها فرحة مستبشرة ، ملتفتة إلى الوراء أكثر من اتجاهها إلى الأمام ؛ تنظر إلى الماضى الماثل أمام قلبها ، فتغرورق عيناها بالدموع ، فتحاول إخفاءها عمن جلس حولها ؛ ثم يعروها الألم فتئن وتتوجع وتنحنى انحناءة تستل كل ما فى النفس من معانى الاشفاق والعطف والرحمة ، وتبعث فى القلب كل مشاعر الأسى والوجيعة ؛ ثم تنظر حولها فتعود بها الذاكرة إلى الفقيدة العزيزة التى فقدتها منذ بضعة من الشهور قليلة ، فلا تزال صورتها تلقاءها ، متألقة بنور الحب ، محفوفة بمعانى الدموع . . . أمها التى لم تكن تشعر بعطف غير عطفها ، ولم يكن لها من القلوب

غير قلبها ، ولم تكن تدرى من صور الحب غير صورة حبها .

كانت تلك الفتاة وحيدتها ، فكانت تستأثر بعطفها وحنانها . ثم ضرب القدر ضربته الصارمة القاضية ، وانتزعها انتزاعة عنيفة قاسية ، حين كانت ترجو وترقب أن تستمتع بحفيدها وامتداد وجودها

إيه ياروح الأم المرفرفة على سرير فتاتها ! امسحى على قلب هذه المسكينة بيدك الروحية الطاهرة ، وانشرى عليها من ذلك الضوء الذى يغمر ذاتك المجردة ، وابعثى فى قلبها الطمأنينة التى تسود عالم الروح الأسمى ، وانقليه فى شفقة الأم الرحيمة ، ورقة الروح الكريمة ، من الماضى القريب الزاخر بمعانى الأحزان والآلام ، إلى المستقبل الزاهر بورود الآمال والأحلام . . !

***

مضى الزوج الى مصلاه ، يلتمس الروح والطمأنينة فى جوار ربه ، ويعوذ به من القلق الذى جعل يعبث بقلبه ، ويستروح نفحات الملأ الأعلى التى تتأرج فيه . ثم عاد الى بيته فاذا هو يتلألأ بمعانى الفرح الطروب ، كأن الحياة قد أفرغت فى هذه البقعة الصغيرة كل ما تدخره من السرور والبهجة . لشتان ما بين هذه الساعة والتى قبلها فى رأى قلبه ! فقد امتلأ الفراغ الذى كان يشعر به بين جنبيه ، والذى كان يشعره أن حياته فارغة لا قيمة لها ، والذى كان لا علؤه إلا الهم والابتئاس حين يرى رجلاً يداعب طفله ويدلله ، فتثور غريزته المحرومة ، وتضطرب فى صدره أيما اضطراب . . . لقد ابتدأ منذ اليوم حياة الأبوة المجيدة والرجولة الصحيحة ، وأصبح يشعر لوجوده بكيانين : أما أحدهما فقد بلغ الذروة ، وأما الثانى فلا يزال فى سفح الحياة يحبو ويتشبث ... فأى سعادة تغمر قلبه ! وأى صورة من الفرح والغبطة ترتسم على وجهه ! لقد ظفر اليوم لنفسه بالحياة فى أنضر صورها ، فما كهذا اليوم فى حياته كلها

وأما الأم فقد تنزلت عليها رحمة ربها ، فنسخت تلك المعانى الحزينة من قلبها ، وأقبلت عليها الحياة الجديدة المنبعثة من وليدها ، فسحت كل ما أبقى الموت من أثر فى نفسها ، وقد استغرقت كل عواطفها فى تلك الفلذة المشتقة منها

***

إيه أيها الوليد الملقى فى مهده فى جو من الغموض والابهام وفى هالة من الحب والرعاية والاعظام ! ما هو ذلك الشأن الذى جعلك مناط الأمل ومعقد الرجاء ، وقد تكون سبب الشقوة ومستقر العناء ؟ وما هى تلك الخطورة التى جعلت مقدمك بين التهليل والتكبير ، وجعلت استهلالك مقروناً بهتاف الفرح وصوت البشير ؟ وما أنت فى ذلك الوجود الزاخر إلا ذرة أو أقل من ذرة فى عباب المحيط الواسع ! ألأنك تمثل الحياة فى شتى أشكالها ؟ ألأنك تحمل بين جنبيك ميراث الانسانية جميعها ؟ ألأنك الوحدة التى يقوم عليها بناء الكون بما يضم من أشتات ويجمع من مفارقات ؟ قد يكون كل ذلك صحيحاً لا ريب فيه . ولكن سنن الوجود ونواميس الخليقة قد طبعت على التحتيم الذى لا مفر منه ، والجبر الذى لا اختيار فيه ، حتى ليعد من العبث الذى يهيم به العقل أحياناً أن يحاول تعليلها ، أو يجتهد فى تأويلها . فأنت أنت كما أراد الله أن تكون ؛ وهذا الاحتفال الذى يحف موكبك العظيم هو جزء من النواميس التى قدرها الله لنظام الوجود ، ولا مبدل لكلمات الله .

محمد طه الحاجرى

الفـــخر
فى شعر أبى الطيب
للأستاذ طه الراوى
عضو المجمع العلمى العربى

نريد أن نتحدث عن أبى الطيب ، ولكن هل غادر المتحدثون عنه من متردم ؟ ماذا نقول فى شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس من متقدمين ومتأخرين ، بله المعاصرين ، من بين مادح وقادح ، وناقد وشارح ، حتى كان من ازدحام أولئك الأعلام حول هذا المنهل أن ازدهرت خزانة الأدب بعشرات الأسفار ، فهل من جديد نقوله ؟ هذا ما جال فى خاطرى عنـد ما تلقيت دعوة لجنة المهرجان المحترمة

على أنه لابد من القول ، فلا بد من اختيار ناحية من نواحى شاعرنا والتحدث عنها ، فان وفقت إلى جديد فهو الهدف ، وإلا فقد أبلغت عذراً . لا خلاف فى أن أبرز نواحى أبى الطيب وأبرعها جمالاً وأروعها جلالاً هى العظمة ؛ وقد صورها لنا بشعره أبرع تصوير وأروعه ، وقد نحر فى ذلك ما شاء وشاءت عبقريته ، فليكن موضوعنا إذن : (الفخر فى شعر أبى الطيب)

والفخر فى شعر هذا الناقم الثائر جذوة من نفسه ونفحة من روحـه ، بل هو ترجمان طموحه ، أو قل هو ذوب نفسه الكبيرة ، تارة يتألف قولاً وطوراً يتمثل فعلاً

ومن ثم جاء هذا الضرب من شعر شاعرنا مطبوعاً بطابعه الخاص ، بعيداً من التكلف والتعسف ، بريئاً من كثير من العاهات التى علقت بغيره من شعر أبى الطيب ، ولا يدانيه فى ذلك إلا الوصف ، ووصف المعارك خاصة ، وكل ما يتصل بالرجولة والبطولة

ويرى المخلفون الرعاديد أن الفخر ضرب من ضروب العجرفة الفارغة والجبروت الكاذب ، وتلك خديعـة طباعهم الخاملة ، وسجية نفوسهم الخانعة المستخذية التى تستمرىء الهون ، وتقنع بالدون . أما النفوس المجبولة من طينة الشرف فتأبى إلا مساماة النجوم ومغالبة الخصوم ، ذلك لأن الله برأها حرة فلا تلين للذلة ، ولا تدين بالقـلة ، والعربى مجبول على الأباء والأنفة ، مفطور على العزة وسمو الهمة والطموح إلى معالى الأمور

وبهـذه السجايا أحرز ما أحرز فى ماضى الزمان من عظمة الشأن وبسطة السلطان

وقد افتخر سـيد ولد آدم عليه السلام فى غير ما موقف ، وهو القائل فى بعض مواقفه الحربية :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبـد المطلب

وهذا داهية بنى حرب يقول : وضعت رجلى فى الركاب يوم صفين للهرب ، فتذكرت قول ابن الاطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

فانثنيت عما أنا فى سبيله

ولعمرى ما أُخذنا فى عصورنا المتأخرة إلا من ناحية تلك الفلسفة السقيمة العقيمة ، فلسفة الاستكانة والتماوت التى تسربت الينا من بثوق المغلوبين على أمرهم ، المفجوعين بحريتهم ، المصابين بعزتهم وأنفتهم ؛ ثم جاء الطامعون بنا فنفخوا فى نارها ، وضاعفوا من أضرارها ، إلى أن أصبحنا نخاف من كل شىء حتى من أنفسنا ، ونرى يومنا أسوأ من أمسنا

فاذا أردنا أن نعيد سيرة أولينا جـذعة ، فعلينا أن نغذى نفوس ناشئتنا بكل ما من شأنه أن يغرس فيها الشمم والطموح الى معالى الأمور والترفع عن دناياها ، وإرخاص الحياة فى سبيل العز ، والاعتقاد بأن الحياة بغير الحرية ضرب من ضروب الموت الخفى ؛ والشعر الفاخر أو الفخر الشاعر من أجـدى الأغذية النفسية وأنجع الأدوية الروحية

ودوحه الفخر فى شعر أبى الطيب كثيرة الأفنان ، باسقة الأغصان ؛ وموقفنا هذا المحدود بالدقائق أضيق من أن يتسع للاحاطة بجميع أطراف هذا الموضوع فلا بد من الاقتصار والاختصار . وليكن اقتصارنا على غصنين هما أكثر تلك الأغصان أزهاراً وأينعها ثماراً ، وهما إمامته الأدبية ، وأمنيته السياسية

نشأ أبو الطيب صباً بالمعالى متيماً بها ، لا يفارقه طيفها مُسرًى أمامه وتأوبياً على أثره . وتمثلت له أمنيته بالسـيادة والملك فكان يبغى أن يقهر العتاة من جبابرة عصره ، ويديل للعرب من أولئك

الموالى الذين تسنموا العروش من طريق الختل والغدر

وإنما الناس بالملوك ولا   تُفلح عرب ملوكها عجم

بكل منصلت ما زال منتظرى   حتى أدلت له من دولة الخدم

أعلك الملك والأسياف ظامئة   والطير جائعة لحم على وضم

نبتت هذه الأمنية فى رأس أبى الطيب من يوم عرف نفسه ، وملكت عليه مشاعره واستبدت براحتـه ، ولم تزل تطوح به من بلد إلى بلد حتى لفظ نفسه وسكن رمسه

وكان لها فاتحةُ شعره وخاتمته . قيل له وهو فى المكتب ما أحسن هذه الوفرة ! فقال :

لا تحسن الوفرة حتى ترى   منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة   يَعُلها من كل وافى السبال

وقال من قصيدة هى آخر ما نظم ، وقد وجدت فى رحله بعد قتله :

سدكت بصرف الدهر طفلاً ويافعاً

فأفنيته عزماً ولم يُفننى صبرا

أريد من الأيام ما لا يريده   سواى ولا يجرى بخاطره فكرا

وأسألها ما أستحق قضاءه   وما أنا ممن رام حاجته قسرا

انظر كيف تبادرت هذه الأمنية فى نفسه حتى أصبح يراها من حقه الذى لا ينبغى أن يغالب عليه

ولى همة من رأى همتها النوى   فتركبنى فى عزمها المركب الوعرا

تروق بنى الدنيا عجائبها ولى   فؤاد ببيض الهند لا بيضها مغرى

ومن كان عزمى بين جنبيه حثه

وخيّلَ طوا، الأرض فى عينه شبرا

صحبت ملوك الأرض مغتبطا بهم   وفارقتهم ملآن من حنق صدرا

ولما رأيت العبد للحر مالكا   أبيت إباء الحر مسترزقاً حرا

إلى أن قال :

فان بلغت نفسى المنى فبعزمها   وإلا فقد أبلغت فى حرصها عذرا

الملك هدف أبى الطيب ، ولكن المسالك اشتبهت عليه ؛ فتارة يسلك طريق البراعة فى اليراعة ، وطوراً يرى طريق السيف أهدى وأجدى ، وحيناً يرى أن المال هو الذى يجمع عليه الرجال ، وآناً يرى السبيل أن يتولى عملا لبعض الملوك ، ثم يجعله مركزا لحركته ونواة لمملكته

فهو فى هذه السبل إلى أن لقى مصرعه

وقد جرب الثورة الحمراء فى مقتبل عمره فأخفق ، وعاد ممتطياً صهوة البيان ، يغالب الأقران ويصارع أحداث الزمان ، وتغزوه الرزايا من كل مكان ، وهو معتصم بالصبر ثابت العزم

كان شاعرنا قوى الثقة بمكانته البيانية منذ حداثته ، يقول فى صباه :

إن أكن مُعْجباً فعُجْب عجيب

لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا ترب الندى ورب القوافى   وسمام العدا وغيظ الحسود

وقال :

أنا صخرة الوادى إذا ما زوحمت   وإذا نطقت فأننى الجوزاء

وإذا خفيت على الغبى فعاذر   ألاّ ترانى مقلة عمياء

ولما تكاثر حساده واحتشدوا له وأسمعوه من الهجاء قال :

أرى المتشاعرين غروا بذمى   ومن ذا يحمل الداء العضالا

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

وقال لعلى بن أحمد الأنطاكى :

دعانى إليك العلم والحلم والحجا   وهذا الكلام النظم والنائل النثر

وما قلت من شعر تكاد بيوته

إذا كتبت يبيض من نورها الحبر

كأن المعانى فى فصاحة لفظها   نجوم الثريا أو خلائقك الغر

ويقول للقاضى أبى الفضل الأنطاكى :

لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا   بيتاً ولكنى الهزبر الباسل

ما نال أهل الجاهلية كلهم   شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

ويقول لأبى العشائر :

شاعر المجد خدنه شاعر اللفـ   ـظ كلانا رب المعانى الدقاق

ونظر إلى من حوله من شعراء سيف الدولة وفيهم الصفوة من سحرة ذلك العصر فلم يعتبرهم شيئاً مذكورا :

خليلى إنى لا أرى غير شاعر   فَلِمْ منهم الدعوى ومنى القصائد

ويقول عن سيف الدولة :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق   أراه غبارى ثم قال له الحق

وقد لحظ فى شعره عناصر الخلود فقال :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى

إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

على أن اعتداد شاعرنا بامامته فى البيان لم يشغل باله كثيراً، إذ كان يقينه بهذه الأمامة أقوى من أن يحتاج إلى الجدال والنضال إلا حين يبخسه حقه بعض الشعراء، أو يغفل عنه بعض الأمراء، فينبه هذا ويجيب ذاك؛ وإنما الشغل الشاغل لذهنه تلك الأمنية التى عقد بها فكره وحبس عليها جهده، ومارس منها معشوقة خلابة جذابة، ولكنها لا تلين بحال، ولا تدين بوصال؛ فأكثر من التغنى بها وهى لاهيـة عنه بالسود التنابيل:

سيصحب النصل منى مثل مضربه وينجلى خبرى عن صِمَّة الصِّمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم

***

إلى أى حين أنت فى زى محرم وحتى متى فى شقوة والى كم
وإلا تمت تحت السيوف مكرماً تمت وتلاق الذل غير مكرم
فثب واثقاً بالله وثبـة ماجد يرى القتل فى الهيجا جنى النحل فى الفم

أعجب الأدباء بامرئ القيس حيث يقرن فى شعره بين معاطاة الكؤوس ومشهد الحرب الضروس؛ قالوا: وهـذا غاية فى الشجاعة. أما شاعرنا فقـد خلف امرأ القيس وراءه، وقصر كل لذته على اصطـدام الصفوف بالصفوف ومقارعة الحتوف بالحتوف. طلب إليه بعض أصحابه أن يشرب معه فقال:

ألذ من المدام الخندريس وأحلى من معاطاة الكؤوس
معاطاة الصفائح والعوالى وإقحامى خميساً فى خميس
فموتى فى الوغى عيشى لأنى رأيت العيش فى أرب النفوس

وقال فى مثلها:

لأحبتى أن يملأوا بالصافيات الأكوُبا
وعليهم أن يبذلوا وعلى ألا أشربا
حتى تكون الباترا ت المسمعاتِ فأطربا

وقال:

ألا حبـذا قوم نداماهم القنا يُسقونها رياً وساقيهم العزم

وكثيراً ما كان يفسح لهذا المطمح مجالاً فى صدور قصائده التى يمدح بها أمراء زمانه، وبذلك يتنكب نهج الشعراء فى تصدير قصائدهم بالغزل ويتغزل هو بقدود الرماح وبيض الصفاح، ويتغنى بالجلاد والكفاح، فكأنه يقول لهم: لكم ليلا كم ولى ليلاى ولكل أن يتغزل بحبيبته. قال فى صدر قصيدة يمدح بها على بن أحمد الانطاكى:

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر وحيداً وما قولى كذا ومعى الصبر
وأشجع منى كل يوم سلامتى وما ثبتتْ إلا وفى نفسها أمر
تمرست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت أم ذعر الذعر
ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

وفى صدر أخرى يمدح بها على بن أحمد المرى:

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام
أقراراً ألذ فوق شرار ومراماً أبغى وظلمى يرام
دون أن يشرق الحجاز ونجد والعراقان بالقنا والشام

ولم يفارقه هواه فى ليلاه بعد أن حل بكنف سيف الدولة ووجد فيه ذلك الملك الهمام، ملء العين والسمع والفؤاد، فهو ذا يقول:

ولقد ذخرت لكل أرض ساعة تستجفل الضرغام عن أشباله
تلقى الوجوه بها الوجوه وبينها ضرب يجول الموت فى أجواله

أما فى مصر فقد صانع الأسود أولا ثم لما أعياه أمره نفث من سمه ماشاء، وفارقه على تلك الحال المعلومة، حتى ضمتـه الكوفة الى صدرها، وهناك أملى قصيدتيه المشهورتين المقصورة والميمية، وأودعهما ذلك اللهيب المتأجج، فمن قوله فى الثانية:

ما زلت أضحك إبلى كلما نظرت الى من اختضبت أخفافها بدم
أُسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامى قوائل لى المجد للسيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فانما نحن للأسياف كالخدم

وهنا كرر إيمانه بهذه الحقيقة:

أسمعتنى ودوائى ما أمرت به فان غفلت فدائى قلة الفهم

وهذا الايمان لم يمنع شاعرنا من ارتياد عضـد الدولة وامتداحه؛ فهل نتهمه بقلة الفهم على حد تعبيره هو؟ لا. والذى يلوح لنا من منطق الحوادث أن شاعرنا رأى يده فارغة وأن الأقدام على الثورة يتطلب رجالاً، ولا رجال فى مثـل ظروف

شاعرنا إلا بالمال ، فانطلق يلتمسه فى مواطنه ؛ ويظهر أنه جاء بما فيه البلغة ، ولكن المنية حالت دون الأمنية ، ولنا على هذا كلام يضيق الوقت عن بسطه

والمال فى نظر أبى الطيب إنما هو وسيلة إلى غيره ، وقد اتهمه بعض حساده بالشح وفى طليعتهم أبو بكر الخوارزمى ذلك الشتامة الذى لم يسلم من أوضار لسانه إلا القليل

وحالة شاعرنا تنطق ببراءته من هذه التهمة . أما أقواله فبرهان آخر :

وما حاجتى فى عسجد أستفيده ولكنها فى مفخر استجده

غثاثة عيشى أن تغث كرامتى وليس بغث أن تغث المآكل

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

بقى علينا أن نسأل من أين تسربت هذه الفكرة إلى رأس أبى الطيب ؟ والجواب أن لنفسه المجبولة على التعالى أقوى نصيب فى تكوين هذه الفكرة وتغذيتها وتنميتها ، فقد خلق شاعرنا شجاع القلب ، أبى النفس ، حمى الأنف ، خصيب العقل ، ملتهب الفطنة ، فياض العاطفة ، صباً بمعالى الأمور زاهداً فى سفسافها

والعامل الآخر فى هذه الفكرة الأوضاع السياسية فى البلاد الاسلامية يومئذ ، فقد كانت هذه البلاد مسرحاً للفتن والدسائس ، ونهباً مقسماً بين رجال الثورات وأرباب الدعوات وأهل الختل والغدر ، وقد ساهم فى ذلك حتى العبيد ، وحسبك بكافور على ذلك مثالاً فقد صار :

يدبر الأمر من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب

فما بالك بفتى يعربى توفرت فيه كل أسباب السيادة ومزايا الرياسة ؟

ولكن ما الحيلة وقد كبا به جده دون الغاية ، وحالت المنية دون الأمنية ؟ ولا ضير فقد سعى وليس عليه إدراك النجاح

على أن الجد الذى خانه فى ميدان السياسة ، حلق به فى سماء المجد الأدبى فأطلعه فيها شمساً تفيض بالنور على مر الدهور ؛ وإن أخطأته امارته السياسية فقد ظفرت به إمارته الأدبيـة ، وتلك فانية لأنها تدور حول الحطام ، أما هذه فباقية على مر الأيام

طه الراوى

المرأة المسلمة

فى القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد)

بقلم الآنسة نعيمة المغربى

تطلع علينا مكتبة الأديب السيد حسام الدين القدسى بالقاهرة من حين الى آخر — بطائفة صالحة من الكتب العربية القديمة ، فينبش كنوزها الدفينة ، ويعرض جواهرها على أنظار عشاق الأدب ، وهواة لغة العرب ، وهى خدمة موفقة يضطلع بها الأديب المذكور ، ويقصد من ورائها خدمة ثقافتنا العربية القديمة وأبنائها الذين يقدرون حسن اختياره وحميد مجهوده . من ذلك أنه باشر طبع كتاب (الضوء اللامع) فى تراجم رجال القرن التاسع تأليف المحدث الكبير والمؤرخ النقادة شمس الدين السخاوى ؛ وهذا الأثر من أعظم آثار السخاوى وأكثرها شهرة ، يقع فى عدة مجلدات ضخمة ، ظهر منها الى اليوم اثنا عشر جزءا . وقد خص المؤلف الجزء الثانى عشر من كتابه بتراجم نساء القرن التاسع . وكثيراً ما اقتصر على اسم المترجمة وتاريخ ولادتها ووفاتها والاجازة التى تلقتها من شيوخها إن كان ثمة إجازة . ومع هذا فالباحث يستطيع أن يستخرج من (الضوء) فوائد جمة ذات قيمة تزداد وضوحا كلما أوغل المطالع فى مطالعته وازداد للمؤلف صحبة فى تتبع أخبار من ترجم من نساء عصره ، فهو يقع من وقت الى آخر على حوادث طريفة وفوائد ممتعة من أحوال نساء ذلك العهد

والكتاب يشتمل على ترجمة ألف امرأة ونيف ؛ وهو عدد كبير لا يسعه كتاب واحد لو أن المؤلف توخى الاسهاب والاطالة ، ولكنه لجأ الى الايجاز واهمال التفاصيل كما مر . ولا أعرف السبب الذى حدا بالمؤلف رحمه الله الى ذكر بعض نساء عصره ما دام انه لم يظفر من أخبار حياتهن بما يستحق الذكر والتدوين . وكنت أرجع أحياناً الى كتاب (شذرات الذهب) بغية زيادة الاستيثاق من ترجمة بعض من ترجم المؤلف لهن ، فأجد صاحب (الشذرات) أيضاً قد نحا منحى (صاحب الضوء) فى الاختصار والاقتصار على الاسم والوفاة . ولعل عذر

المؤلفين فى ذلك أن نساء عصرهم كن ذوات حياة مختصرة فتبع ذلك اختصار فى الترجمة ، وقد يكون السبب فى ترجمة هؤلاء فى (الضوء اللامع) أنهن يمتتن إلى مؤلفه بقرابة أو تلمذة أو جوار أو صـداقة والد ؛ كما لمحنا ذلك فى تراجم كثيرات منهن . وما يدرينا أن بعضهن كن يكلفنه ترجمتهن حباً لتخليد ذكرهن ولو بالاقتصار على اسمهن ، وهذا كما يفعل بعض نساء زماننا ؛ (بل وبعض رجاله) إذ يرغبن الى رجال الصحافة أن يذكروهن فى صحفهن مباهاة بين أترابهن

وعلى كل فان هذا الجزء روض نسائى حافل بشتى أنواع الأزهار والرياحين ؛ تقرؤه بلذة وشغف ، إذ تتوفر لديك فيه النماذج المتنوعة عن المرأة المسلمة فى ذلك العهد الذى ساد أو بدأ يسود فيه الانحطاط . ولعل أبرز طابع فى (الضوء) هى الصراحة التى امتاز بها المؤلف فى معظم ما كتب وخلد من أثر ، وفى هذه الصراحة ما يشوق القارئ ويُغريه بالمطالعة ومرافقة المؤلف إلى النهاية

أتى المؤلف على طائفة كبيرة من نساء عصره وعرض علينا من أحوالهن وجوهاً مختلفة وأشكالاً متعددة ونفسيات متباينة وعقليات متنافرة . فنهن المحدثة العالمة ، والحافظة البارعة ؛ ومنهن التقية الورعة والمحتسبة الصابرة ؛ ومنهن الحبشية السوداء والجركسية الحسناء ، ومنهن سليلة الملوك والسلاطين ؛ ومن أثر فيها كيد الحاسدين وسحر الساحرين . يذكرهن لنا كما عرفهن ووصلته أخبارهن . وكثيرات منهن عاصرن المؤلف وكن من المعجبات به المتقدات بسعة فضله وغزارة علمه

فنى القرن التاسع للهجرة كانت المرأة المسلمة فى مصر والشام برغم مايعزى إليها من تأخر تتلقى عن الأئمة ويتلقون عنها . يجيزها العلماء وتجيزهن ؛ يناظرها الأدباء وتناظرهن ؛ تحفظ دواوين الشعر وتروى عن الشعراء ؛ ذات فكر ثاقب وقريحة نيرة ورَغبة ملحة فى التحصيل ، لا يعتريها سأم ولا ملل فى طلب العلم والأخذ عن أساطينه ، وحفظ كتب الفقه والأدب ، ودواوين الشعر والمذاكرة فيها

ومما يلحظه المطالع أن معظم نجوم (الضوء) لمعن فى سماء مصر وتفيأن ظلال نخيلها وارتوين من ماء نيلها ؛ واغترفن من بحار علومها . وقد أحببت أن أحصى الشواعر فلم أظفر بسوى واحدة نظمت الشعر وكان بينها وبين المؤلف وسواه من العلماء مساجلة ومناظرة ، فهى تشبه من هذه الجهة شاعرة الشام فى القرن العاشر للهجرة السيدة عائشة الباعونية المدفونة فى صالحية دمشق . ومن هنا يتبين أن إقبال النساء على قرض الشعر فى ذلك العصر أعنى القرن التاسع كان قليلاً ، وكانت جل رغبتهن يومئذ فى تلقى علوم الحديث وروايته . وللبيئة — ولا ريب — أثر فى خلق هذا الميل فيهن وطبعهن بهذا الطابع

والشاعرة الوحيدة التى ذكرها (السخاوى) وترجمها ترجمة مفصلة هى (فاطمة) المشهورة بلقب (ستيتة) ابنة القاضى كمال الدين محمود بن شيرين الحنفى . قال المؤلف ما نصه :

(ولدت كما كتبته لى بخطها فى سادس المحرم سـنة خمس وخمسين وثمانمائة بالقاهرة ونشأت فتعلمت الكتابة وتزوجت الناصرى محمد بن الطلبغا ثم مات عنها فتزوجها العلاء على بن محمد ابن بيبرس حفيـد ابن أخت الظاهر برقوق فاستولدها بيبرس ، ولاحظ لها فى ذلك مع براعتها فى النظم وحسن فهمها وقوة جنانها حتى كانت فريدة فيما اشتملت عليه . وقد حجت وجاورت وسكنت بجوارنا . ومما كتبت به الى بعـد مجىء الخبر بموت أخوىّ من نظمها :

قفا واسمعا منى حـديث أحبتى   فأوصاف معناهم عن الحسن جلت
أناس أطاعوا الله نارت قلوبهم   وأبصرت الأشياء من غير نبأة
وقد كوشفوا عن كل ما أضمر الفتى   ونارت قلوب منهم ببصيرة

ومنها :

أثابكم ربى وعظم أجركم   على فقد أحباب وأحسن جيرة
كرام سموا علماً وحلماً وسؤددا   وكنتم بهم فى غبطة ومسرة
قطعتم لذيذ العيش وصلاً بقربهم   فوا أسفا عند الفراق وحسرة

ومما كتبه اليها المؤلف مجاوباً : (يا بديعـة المعانى ، ورفيعة المبانى ، ومن فاقت الكثير من الرجال فضلاً عن النساء ، وراقت أبياتاً فحاكت الخنساء ؛ حفظ الله تعالى دينك ودنياك الخ)

ولها أشـعار كثيرة وقصائد مطولة تدل على مبلغ اجتهادها فى تحصيل العلم والأدب . ولها أيضاً مطارحات شعرية مع بعض الأدباء رجحوها بها عليهم

ومـما يستحسن ذكره ومرت الاشارة إليـه أن المؤلف ذكر ترجمة موجزة لبعض قريباته : منهن جدته وعمتـه وابنة

شقيقه وأخته بالرضاع ووالدة امرأته التى أصيبت بالفالج وماتت عقب ذلك لدى سماعها خبراً مكذوباً عن وفاة المؤلف وابنتها زوجته وهما فى الحج . وكذلك جاريته (أبرك) الحبشية (التى كانت ضابطة لبيتهم قانتة صافية)

ومن يتأمل الكتاب وتراجم نسائه يلمح وقوع أمور فى ذلك العصر لا يزال يقع مثلها فى عصرنا الحاضر مع تقادم العهد وتطاول الزمن : فمن هذا القبيل :

(سعادات) ابنة الشيخ نور الدين البوشى . تزوجها البقاعى بعدموت والدها ونالها منه من الذل ما لم يكن لها فى حساب ، بل نال طلبة أبيها من أجل مساعدتها ما شاء الله ، وكذا مس أخاها منه كل سوء فلم تحتمل وسألته الطلاق بعد ولادتها منه وأشهدت عليها أنها متى رامت نظر الولد أو أخذه كانت ملتزمة بخمسمائة دينار ، وسمحت بمفارقة ولدها ومهجتها مع مزيد حبها له) . وكذلك (فاطمة) ابنة البدر الحنبلى تزوجها سبط العز الحنبلى عز الدين محمد بن الشهاب الجوجرى فلم يحصل التئام ففارقها بعد بذل له وإبراء)

وما كان المؤلف ليحجم عن انتقاد ما يجب انتقاده من أحوال مترجمات كتابه :

(إلف) ابنة القاضى علم الدين البلقينى ، تزوجها عبد القادر ابن الأحمدى ، ثم عبد القادر بن الرسام الحموى ، ثم أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف ، ثم فارقها واتصلت بابن عمها البدر أبى السعادات بعد موت زوجته أختها وأقبلت حينئذ على الخير وقررت فى مدرسة جدها عند قبره قرّاء فى كل يوم ، وقامت بأمر المدرسة وبتفقد الفقراء والأرامل ، وتزايد ذلك بعد موت ولدها حتى صارت فريدة فى أقربائها وأمثالها ، ورتبت قرّاء يقرأون عندها الحديث والتفسير) ، الى أن يقول : (ولا أحمد كثيرا من تصرفاتها خصوصاً فيما يتعلق بالأيتام)

وكنا نرغب لو أن المؤلف كان أكثر ايضاحا فيذكر لنا ما لم يعجبه من تصرفاتها وهى التقية الصالحة التى زخرت حياتها بعمل البر والاحسان

وقد قص علينا حادثة لعب فيها السحر دوره ، وذهب ضحيته نفسان بريئتان لا نعلم مبلغ التهمة المنسوبة اليهما من الصحة

(شيرين) الرومية ، هى أم الملك الناصر فرج بن برقوق ، ولما تسلطن ابنها صارت (خوند الكبرى) وسكنت قاعة العواميد بقلعة الجبل بعد أن تحولت منها (خوند ازد) زوجة سيدها ، ولم تلبث الا يسيرا حتى تعللت ولزمت الفراش ، وكثرت القالة بسببه ، واتهم جماعة بسحرها ، وظن ابنها أن ذلك من بعض الخوندات زوجات أبيه حسدا وبغضاً ، لأنها مع كونها بارعة الجمال سارت سيرة جميلة من الحشمة والرياسة والكرم مع الانضاع الزائد والخير والدين . ولها معروف ومآثر حسنة ، جدّدت بمكة رباط الخوزى ووقفت عليه وقفاً وأصلحت ما كان تهدم منه . ماتت فى ذى الحجة سنة اثنتين وثمانمائة ودفنت بالمدرسة البرقوقية رحمها الله . ذكرها شيخنا فى (إنبائه) باختصار وقال : «كانت كثيرة المعروف والبر» . زاد العينى : (واتهمت جارية بسحرها فضربت حتى اتهمت نصرانياً كاتباً فعوقب فلم يقرّ فحبس حتى مات هو والجارية)

وما زال هذا الضعف الخُلقى فى الخوف من السحر والاعتقاد به سائداً إلى اليوم فى الأقطار العربية على اختلاف بينها فى درجة ذلك ، وحوادث ملوك الجان ، ما زالت ترن فى الآذان

والكتاب مفيد لا تمل قراءته ولا تسأم صحبته . فهو كالبستان فيه من كل فاكهة زوجان ، وما أحوجنا إلى مطالعة أمثال هذه الكتب التى ترينا صورة واضحة جلية عن حياة نساء تلك العصور وتطلعنا على درجة ثقافتهن ، وطريقة تعلمهن . والكتب فى تراجم النساء مما تركه لنا السلف قليلة جداً وهذا منها ، ولا تنس الجزء الثامن من طبقات ابن سعد الخاص بالصحابيات رضوان الله عليهن

(دمشق) نعمة المغربى

نزهات فى الخريف

للكاتب الفرنسى جوستاف دروز
ترجمة السيد حسين رفعت

اطّلعت على الخريف فى حقوله الوسيمة، وعواصفه المريعة وتنهداته الذاهبة فى الفضاء، وأوراقه الذابلة الصفراء، وهى تترنح بين أنفاس الجو ونسمات الريح ؟ ؟

أعرفت مخارفه المبتلة، وشمسه المعتلة، وأشعتها الواهنة، الواهنة فى مثل بسمة العليل وضحكة المضنى ؟

أبصرت بضحضاحه الراكد ومائه الراقد فى جنبات الطريق ؟ أعرفت كل هذا ؟

إن كنت علمته فأنت غير خال من التعصب له، أو التحامل عليه، كما أحبه بعضهم فجنوا به، وكرهه آخرون فتطوعوا لسبه. أما أنا — علم الله — فهو أثير عنـدى، حبيب إلىّ. وللخريف واحد أثمن عنـدى من صيفين وأجل. فأنا أهيم بقطع اللهب الكبيرة، وأستريح بقربة الدفأة المتواضعة، وكلبى ممدد ساكن بين دزلكى المبلل الرطب، ومقعدى الدافئ الوثير

وكم يحلو لك التأمل فى سعير اللهب المضطرب، يلعق بأنيابه الدقيقة قطع الحديد العتيقة، ويضىء الظلمات النائية البعيدة

وتسمع زفيف الريح فى أهراء القمح، ويطرق أذنك صرير الأبواب ونباح الكلاب، وقد تمردت على سلاسلها الحديدية ومقاودها المدنيـة . وتميز برغم دوى الغابة اللاصقة وهى تزمجر بظهرها المقصوف صراخ الأغربة القاتم، وهى تصارع العاصفة وتنازل الرياح القاصفة

وتشاهد الوسمى يقرع ألواح الزجاج الصغيرة، فتفكر فى هؤلاء الذين هم فى الخارج وأنت تمدد رجليك نحو المصطلى

أجل أنا جد مفتون بالخريف، وصغيرى العزيز يهواه كما أهواه. وليس مظهر جماله ومبعث جلاله فى اجتماع العائلة حول الوقد، ينعمون بدفئه المثير، ولألائه الكثير، وإنما له أيضاً من عواصفه الهوج، ورياحه الداوية، وأوراقه الذاوية ما يحبب الى النفس المجازفة بين هذه الأنواء الصاخبة، وتلك الرياح الغاضبة

وكم من المرات ذهبنا كلانا نرود الحقول والمزارع، بين سفعات القر، وتلبدات السحب، وقد أحسنا الكساء، وأثقلنا الرداء، ولبسنا أحذيتنا الضخمة المتينة، فكنت أرتفق ساعده وآخذ عضده، ثم نسير دون اتجاه معين ولا غرض مقصود

وكان حينئذ لم يتجاوز الخامسة من عمره، ولكنه يخب فى مشيته خبب الرجال ؛ فكنا نأخذ الطريق الضيقة المفروشة بالأعشاب النضرة السوداء، خلال أشجار الحور الرمادية التى كانت تسمح للعين بأن تخلص الى ماوراءها من الأفق، وتخترق ما دونها الى بسمات البرق، فتلمح فى قرارة البعد تحت السماء البنفسجية صفحة من العصائب الصفر الباردة، وتشاهد سقوف الأكواخ المتهدمة، ورؤوس المداخن المتداعية، تتصاعد منها سحب رهوة فى زرقة لطيفة كأن الريح تطاردها بعنف وتصاعدها بقسوة

وكان طفلى الصغير يطفر من المرح وقد أمسك بيده قبعته حـذراً من أن تطير، وكان يحدجنى بعينيه الرجراجتين تحت فيض المدامع وقد ضرج البرد وجنته، وفى مؤخر أنفه لؤلؤة صافية قد أشرفت على السقوط، وكان على ما به فرحاً مسروراً.

وكنا نقطع السهل الرطب وقد حفت جوانبـه بنمير النهر العذب، وزينت شواطئه بالقصب المتشابك، وعرائس النيل المتلاحمة وزهور النهر المتنوعة

وكنا نشاهد قطعاناً من البقر وقد غاصت حتى أعالى سوقها بين الأعشاب السامقة، وهى ترعى فى سكون واطمئنان، وفى حفرة صغيرة عنـد جذور شجرة من الحور تجثم طفلتان متناظرتان فى جلستهما فى ظل معطف كبير، وقد لفهما إليـه وجذبهما عليه ؛ وهما ترعيان رعيلهما والرجلان نصف عاريتين فى الحذاء الممزق، والوجهان المرتجفان قد برزا من واقية المطر

وكان يقتطع علينا سيرنا المجد — فى الفينة بعد الفينـة — غدران واسعة قد عكست عليها صفحة السماء الخافتة، فكنا نتريث برهة على ضفاف هـذه البحيرات، وقد داعبت صفحتها ريح الشمال ونشاهد الأوراق الطافية وهى تساقط من أعالى الأشجار، وتسبح فى مهاوى الريح، وتثوى على وجه المستنقع ؛ فأحمل طفلى الحبيب بين ذراعى ونجوز العـدوة الأخرى فنشاهد فى أطراف الحقول السمراء الخـاوية المحراث المقلوب، والوتد المنصوب، وعسالج الكرم المعراة قد امتدت على الأرض، والحمائل الصلبة الرطبة قد تجمعت أكواماً، وتكدست أقساماً

(حلب) حسين رفعت

المجـــاهد

للأستاذ عبد الحليم عباس

هات لى عتادى

فقد انتهت المعركة بينى وبين نفسى . هى تريدنى أن أقر ، وأريدها تحيا ساعة من نهار فى جحيم المعركة ؛ وهى تريدنى أن أعيش فى الحياة ، وأريدها أن تسعد مع الموت

ها هو ذا الظلم مستعلياً أبداً ، كشأنه فى كل عصر ؛ لا أزعم أنى سأمحقه ، فقصارى الجهد أن أضع من جمجمتى حجرا فى الزاوية

هات لى عتادى

فما قيمة العمر يمضى ، وصليل القيد يصك سمعى ، ورؤية الظلم تعشى نواظرى ... وما الحياة إن خلت من جمال الحق وعظمة الحرية ، إلا جب منتن أكبرنا فيه حشرة

هات لى عتادى

فلو عرف الناس لذة الحياة لقدسوا الموت ، ولو ذاقوا حلاوة الايمان بالحق لدلفوا طعمة للنار ... وما خير عيش يرين عليه الظلم ، وما لذة حياة كل ما فيها متعة للظالمين ؟

هات لى عتادى

فلست أرهب موتاً يتساوى فيـــه الشقى مع السعيد ، والراسف بالقيد مع الذى قيده ، فرب جفن ما رقأت دموعه ، ورب قلب ما التأمت كلومه ، وجد له فى الموت وفى ظل القبر برد الراحة وهناوة العزاء

هات لى عتادى

وتعالى انظرى عزة الحق الأعزل ، واستخذاء البـاطل المسلح ... ها هما يتلاحمان ... فلمن الغلبـة ؟ أللباطل فقديماً غلب ، أم للحق فتلك ومضات فى حلوكة التاريخ ؟

منذ ساعة فتح الحق عينى ، وأنار الايمان قلبى ، فرأيت مواكب الأحيـاء على حقيقتها سائرة تتململ ولا تشكو ، وتجرع الغصة ولا تئن ، ورأيت الحق فيما بينها مهيض الجناح ، مشنوءا حامله ، فعلمت أن من يعرف الحق ويؤمن به كل عمره ، مهما طال — ساعة من نهار

منذ ساعة فتح الحق عينى ، فرأيت الانسانية ، ترجع إلى الوراء فعلمت أنه إن لم يصدها الايمان ، وتلتقى بها القوة المؤمنة ، فغير بعيد ذلك اليوم الذى تحتفل به لأكل لحم البشر !

وسار المجاهد ، رافع الرأس ، منتصب القامة ، يتلألأ على وجهه نور اليقين ، ويرف عليه روح من الحق ، قال وكأنه يخاطب نفسه :

ليست حقيقة الحياة فى الحياة ، وإنما هى فيما وراءها ؛ وليس الموت فى سبيل الحق غير اتحاد بهذه الحقيقة التى هى « الله »

للفضيلة درب مختصر ، وهو أن تضع بدل كلمة « أنا » « نحن » ، والحجة القاطعة على أنك وضعت هذه بدل تلك أن تكتبها بدمك ، لتقيمها على حجارة رمسك

ليس العمر مجموعة أيام ، وإنما هو سجل أعمال ؛ فرب كهل لم يعش غير أيام ، ورب فتى لا تحصر عمره الأعوام ؛ فاذا لم يك من الموت بد ، فلم لا تزد بعمرك ساعة جهاد ، لتطاول الحقب ولتدرج مع الأجيال ؟

يقولون إن الجهاد باب من أبواب الجنـة ، أتدرى لماذا ؟ لأن من يستعلى على الظلم ساعة فى ساحة الموت ، يشارك الحكمة الأزلية فى عملها ، وهى الجهاد لتثبيت الحق ، فى هذه الأرض . فمحال أن ترضى الحكمة الخالدة فى غير نزوله فى كنفها ..... فى الجنة

* * *

وطويت الأرض تحت قدمى المجاهد ؛ فسار يلف السهل بالحزن ، ويطوى البيد ، حتى شارف المعركة ، فوقف يتأملها برهة ، وقد فاضت عليه قدسية الجهاد ، والتمعت عيناه ببريق جميل ، هو بريق عظمة الموت ، فأخذ يتمتم :

إيه ياوطنى ! سماؤك وأرضك ، جبالك الشم ووهادك الفيح ، كل لهـا فى القلب موطن حرمة وجلال . تمنيت أن لى ألف نفس أفديك بها ، ولكنها نفس واحدة ، فدونكها جهد المقل

إيه يا وطنى ! مهبط الذكريات ، ومغدى الأمل ، غذتنى تربتك ، وبعثت فى الحياة نسماتك ؛ ليس الظلم المخيم على ربوعك إلا جزءاً من الظلم المنيخ على العالم بكلكله ، وفى هذا بعض العزاء

إيه يا وطنى ! ها نحن أولاء تسارعنا لنجدتك ، لا نطلب خلوداً ، فاننا نعرف التاريخ لا يتسع صدره لذكر أمثالنا . ليس التاريخ إلا سير العظماء ، وهيهات أن تعرف الدنيا إلا ضرباً واحداً منهم ، أقواهم وأقدرهم على الفتك والظلم الذى زحفنا لصدامه ،

٣ - لمعـــات

مهداة إلى شاعر الاسلام وفيلسوفه محمد إقبال جواباً لكتابيه «أسرار خودى» و «رموز بى خودى»

للدكتور عبد الوهاب عزام

جال فى الظلماء صوت هاتف ... فظلام الليل منـه راجف
مدّ فى الظلماء نوراً من نغمْ ... مُزّقتْ منـه دياجير الظُلَم
أشُعاعٌ فيــه صوت صائح ... أم كلام منـه نورّ لائح ؟
أذِن الركب لهــذا المنشد ... أطرب الناشدَ صوت المنشد[1]
سال فى القلب مسيل المطر ... ينبت الروح بسهب مُقفر
أوخرير المـاء من نبع زلال ... بشّر الغارق فى بحر الرمال
رنّ فى نفسى رنين الجرس ... صاح فى أذنى فقيد مُبلِس
طوت البيداء عنـه السابله ... وهداه الصوت شـطر القافله
سبق القلبُ إليــه الأذنا ... كبلال لصـلاة أذّنا
دار قلبى شطر هـذا المطربِ ... دورة الابرة شـطر القطُب
« غنّنى يا مُنيتى لحن النشور ... أبركى يا ناقتى . تم السرور
عُدت يا هيدى إلينا . مرحباً ... نعم مار وّحتِ يا ريح الصبا»[1]

(١) المنشد فى الشطر الأول منشد الشعر ، وفى الثانى الذى يدل على الضالة ، والناشد من ينشدها

حبذا الصوت فمن هذا البشير ؟ ... ومن الهاتف بالقلب الكسير ؟
ومَن المسعد فى هذى الهموم ؟ ... ومن البارق فى هذى الغيوم ؟
ومن الهابط فى نور السما ... هادياً فى الأرض جيلاً مظلما ؟
ومن الهادى إلى أرض الحبيب ... يعرف النهج وقد حار اللبيب ؟
ومن السائق شـطر الحرَمِ ... و إلى الأصنام سـير الأممِ ؟
ومن القارىء فى بيت الصنم ... سورة الاخلاص فى هذا النغم ؟
ومن الحرّ الذى قد حطما ... فى قيود الأسر هذا الأدهما ؟
ومن الآبى على كل القيودْ ... ومن القاطع أغلالَ العبيـد ؟
ومن الباعث فى ميْت الأمم ... ثورة العزة من هذى الهِمم ؟
لاح كالغُرة فى هـذا السواد ... بصّ كالجمرة فى هـذا الرماد
جرف النـاس أتِىٌّ مزبد ... ضل فيه المقتـدى والمرشد
وطغى اللج عليــه والتطم ... فرسا كالصخر فى هذا الخِضَمّ
عارض الموج على أغماره ... وطوى اللج على تياره
سبح اللج وبالشط استقر ... داعياً والناس غرقى فى النّهَر
يجرف التيار جسما جامداً ... تقذف اللجــة قلباً خامداً
إن عزم الحر بحر مزبد ... جائش فى الدهر لا يتئد
هـذه الأقدار فى تسيارها ... هم الأحرار فى أسفارها[2]
ومَن الشاعر يذكى القافيـه ... فهى نور وهى نار حاميـه ؟
تقشعر الأرض من أوزانه ... ويهيم النجم من ألحانه
وكأن الدهر صوت كُتبا ... قد حكاه الشعر صوتاً مطربا[3]
هو بالأشعار بحر فائض ... وهو للأزمان قلب نابض
حدّثته الأرض عن أخبارها ... وحبتـه الزهر من أسرارها
هو بالأمس خبـير بغدِ ... وهو اليوم نجيُّ الأبد
كشف الله عن الغيب له ... فلسان الغيب يُملى قوله
عرف الشرق وراد المغربا ... فانجلى السرّ له . ما كُذِبا
فرأى العلم سبيلاً للردى ... إذ رأى القلب خلياً من هدى

صوت « إقبال » على شط المزار ... أسمع اليقظان فى هذى الديار

(يتبع)

عبد الوهاب عزام

(١) جاء هذان البيتان بألفاظهما العربية فى الجزء الثانى من المثنوى
(٢) هذه : مبتدأ ، وهم : خبر
(٣) يعنى أن الدهر أمام الشاعر كعلامات الموسيقى ، والشعر قراءة هذه العلامات

ولسنا نطلب جاها أو متاعاً من متاع الفانية فاننا نعرف أن التكالب على الجاه فى ظل العبودية ، قتالٌ على الجيفة ، تقوم به طائفة نسميها الكلاب

ولكننا آثرنا الموت على الحياة ، لتزهو الحياة فى يوم ، وليسعد فيها هذا البشر اللاغب المتعب . . وثرنا لأننا علمنا أن الموت فى سبيل الحق حياةٌ رائعةٌ مديدة ... ودوت قنبلة أعقبتها طلقات ، فانتفض المجاهد وانحدر يهدر كالسيل الأتىّ ... إلى المعركة ، إلى الموت ! وما هى إلا ساعة حتى استشهد ، فقد كان يقاتل كالمجنون !

أين المجاهد ؟ !

أما جسمه (فكم مقلةٍ فى منقار طائر ، وكم خـد عتيق ، وجبين رقيق ، قد فلق بعمد الحديد)

أما روحه فقد مشت كالنسيم ، توقظ الرمم ، وتدفع الأمم إلى الموت فى سبيل الحرية . . .

عبد الحليم عباس

(شرق الأردن)

على الشاطىء

يا شراع . . . !

بقلم أحمد فتحى مرسى

اتئد واجرِ فى العباب رُويداً ... واسرِ فى اليمّ آمناً يا شراع
يلثم الماء صفحتيْكَ ، ويمضى ... ويحييكَ فى الشروق الشعاع
قدمضيتَ الغداةَ تنسابُ فى الما ... ءِ كما انساب فى السطورِ اليراع
وكأنَّ المياهَ شِقًّا مِقَصٌ ... صاغَهُ ماهرُ البنانِ صَناع . .
فإذا جئت مُقْبِلاً فافتراقٌ ... وإذا رُحت مُدبِراً فاجتماع

***

لهف نفسى عليك فى لُجّةِ اليمّ (م) ولليمّ ثورةٌ ونزاع
حارَ ربانُكَ القديرُ لديهِ ... أخفقت حيلةٌ ، وأقصر باع
وادلهمّ الفضاء واشتدت الريـ ... ـح فصُمَّت لهولها الأسماع
وكأن المجدافَ إذ يضربُ الما ... ءَ وللماءِ رجّةٌ واندفاع
طائرٌ فى شراكِهِ يتلوّى ... ولرجليهِ فى الشباك صراع

***

أيهذا الذى تولى بعيداً ... لك منى تحيةٌ ووداع
يا عروسَ العباب قد زفّها الطيـ ... ـرُ وراقت من حولها الأسجاع
وبناتُ الهديل فى البرِّ تشدو ... رددَ السهل شدوَها واليفاع
ومياهُ العبابِ ترقُصُ نشوى ... فانخفاضٌ على المدى وارتفاع

***

ياغريباً عن الحمى ووحيداً ... أترى أنت فى النوى ملتاع
أنت فى لجة الحياة مضاعٌ ... وكذا كلُّنا لديها مُضاع
وخداعٌ هذى الحياة . فهل يُغْـ ... ـريك من جانب الحياةِ الخداع

***

حولك اليمُّ فى جلال وصمت ... سيّد آمر ، ومَلْك مطاع
ثابت فى الخطى يروقك لينٌ ... فى خطاهُ وهدأةٌ واتّداع
فاتئد واجرِ فى العبابِ رُويداً ... واسر فى اليمّ آمناً يا شراع

أحمد فتحى مرسى

أغنيـــة

فى سكون الليل فى صمت الهدوءْ ... فى شعاعِ القمر المنسكب
زورق ضمّ ملاكين سرَى ... يتهادى فوق شطّ العرب
فوق غصن البان ... رفرف القُمْرى
يُنْشِدُ الألحان ... بالهوى العُذْرى
أنتِ عطر مجنّحٌ شفقى ... طاف يذكو على الفضاء ويعبق
أنتِ معنى مقدس علوىّ ... شعَّ نوراً فى مهجتى يتألق
أنتِ حلم منور ذهبىّ ... هلّلَ القلب مذ رآه وصفق
علمى الغيد التثنى ... كيف بالله يكون
غرد الطيرُ فغنّى ... حبذا منكِ اللحون

(البصرة) ع . غ . ط

قبل النوى

للسيد إلياس قنصل

كفكفى هذه الدموع الغوالى ... إنها بين أضلعى جمرات
أمر الدهر أن نلوّع بالبعـ ... ـد ، وليست تردُّه العبرات
واحفظيها لمن يعيش خليا ... وأمانىُّ نفسه ذاويات
قديكون الشقاء فى الحب لكن ... حيث لا حبّ لا تكون حياة !

***

كفكفى هذه الدموعَ فلن يُدْ ... رِكَ منا البعاد ما يتمنى
إن يكن حب غيرنا ثمراتٍ ... تشتهى فى ابتدائه ، ثم تُجْنى
فهوانا عواطف عاليات ... نفث الطهرُ بينها ألف معنى
والشعور الذى تغلغل فى القلـ ... ـب وأمسى من نبضه ليس يفنى

***

كفكفى هذه الدموع الغوالى ... إن لله مأرباً يخفيه
وليحلْ شوقنا الملح سروراً ... بكؤوس من الرجا نسقيه
وليكن صبرُنا على البعد قربا ... نا إلى معبد الهوى نهديه
ليس يبغى عنادنا الدهر لكن ... جوهر الحب أن نعذّبَ فيه !

(عاصمة الأرجنتين) الياس قنصل



قصة مصرية

القبلة الأولى و ... الأخيرة !

للأستاذ دريني خشبة

[الحوار فى الأصل باللهجة المصرية]

كان ذلك فى مصحة . . . .

وكانت فتاة شاحبة ذات عينين كبيرتين شاعرتين ، تطل منهما نفس حزينة متألمة ، تارة تحلق فى السماء تدعو الله اللطيف وتصلى له ، وتارة تنظر إلى المصحة التى اجتمعت فيها أمراض وأحزان وأمانى ؛ وكانت تجلس فوق مقعد منفرد فى زاوية منعزلة فى الحديقة الصينية التى تكسبها التماثيل البوذية والظُّلات والرابية الكبيرة ومساقط المياه ذات الخرير جلالاً ورونقاً وهدوءاً يشبه موسيقى الأرواح الباكية التى ترفرف أبداً فى سماء تلك المصحة الرحيمة

وكانت الفتاة تسبل فوق رأسها شُفوفاً من الحرير البنفسجى تداعبه نسمات الحديقة كلما هبت رُخاءً فى ناحيتها ... ولكنها تركت السماء كلها ، بما تفيض به من رحمة ولطف ، واتجهت بكل روحها الى نافذة بعينها فى المصحة ، وراحت تحدق فيها تحديقاً شديداً ، ثم أخرجت من (شنطتها) منديلاً صغيراً وضعت فيهَ لآلئَ غالية كانت أوشكت تنهمر من عينيها

وكانت الشمس قد آذنت بغروب ، وكانت تصب ذهب أشعتها على نواصى التماثيل الرائعة ، ولكنها كانت تصب أكثر هذا الذهب على ناصية بوذا الأكبر كأنها تستهزئ به ، لأنه إله من حجر ! وكانت ألف فكرة تزدحم فى رأس «مِهام» كلما تَقَشَّعَت الشمس قليلاً قليلاً عن رأس التمثال ، فتبتسم ابتسامة ساخرة ... وتخفى دمعة كبيرة فى منديلها الصغير

وأقبلت جارية «حبشية» فحيّت الفتاة ، وأشارت إليها مهام فجلست عند طرف المقعد المنفرد المصنوع من جريد النخل ...

— « سيدتى ! »

— « ... ؟ ... »

— « أرسلنى البك الكبير أناديك »

— « ولماذا عاد مبكراً هذا المساء ؟ »

— « لا أدرى ، وهو يقول إنه يود أن يشرب الشاى مع مهام هانم »

— « وإذا لم تكن لسهام رغبة فى الشاى ولا فى القيام من هنا ف ... »

— « سيدتى ! ألا ترحمين شبابك ؟ »

— « أرحم شبابى كيف يا مسعدة ؟ »

— « مِن هذا الذى أنت فيه ! »

— « وما ذا أنا فيه يا مسعدة ؟ »

— « الفكر المتصل والحزن الذى لا حد له ... »

— « أشكرك يا مسعدة . إذهبى فاعتذرى عنى للبك — أنا لم أعد أحب الشاى فى هذه الساعة »

— ولم فى هذه الساعة ؟ »

— « لأنها كانت أول شكواه من هذا المرض الخبيث ، ومن يدرى ، فربما كانت أول شكواى أنا أيضاً ... »

— « يا سيدتى ارحمى شبابك قلت لك . إنها أيام ويغادر المصحة سليما معافى ، ألست تثقين فى تأكيدات الدكتور ؟ »

— « الدكتور ؟ ... أنت طيبة القلب يا مسعدة ! أنت طيبة القلب جداً »

— « الدكتور يؤكد أن سيدى نادر بك يتماثل يومياً ، وسيتماثل للشفاء قريباً ، وأنا أرى أنك تتلفين صحتك بهذا اليأس

الذي يدمى قلبك ويجرح نفسك ويقرح عينيك ؛ سيدتى سهام هانم : ألا تسمعين نصيحتى ؟ »

— « وأى نصيحة يا مسعده ؟ »

— أنت شابة جميلة ، والمستقبل أمامك مشرق بسام ، والدنيا مقبلة تكاد تتمرغ تحت قدميك و ... أوه ... لا أجرؤ أن أقول ... »

— بل قولى يامسعده ، قولى ... أنا شابة جميلة ... والمستقبل أمامى مشرق بسام ... والدنيا مقبلة تكاد تتمرغ تحت قدمى ... ... الله الله يا مسعدة ... ثم ما ذا ؟ »

— « سيدتى سهام ... إنى أعتذر ! ! »

— « تعتذرين ! تعتذرين من أى شيء ! بل لا بد أن تقولى ألستِ (داده) يا مسعدة »

— « لا ... لا أجرؤ ... »

— « لا تجرئين على أى شيء يا مسعـدة ... إن لم تقولى فانك تحزنيننى »

— « ولكن على شرط ... إن لم ترقك الفكرة فلا تضمريها لى »

— « لك هذا يا مسعدة »

— « ألا تستطيعين أن تصرفى قلبك عن نادر بك .. »

— « أهـذه نصيحتك أيتها العجوز ! إذهبى فلن أشرب شاياً قلت لك »

— « أ ... أ ... »

— « إذهبى ... إذهبى »

***

— « يامسعدة قلت لك لا شأن لك بسهام ونادر ، لقد كان يعبدها قبل مرضه . وكان يوشك أن يخطبها لولا وفاة والدته ... وهى أيضاً تحبه حباً يمتزج بكل قطرة من دمائها ، إنها تكاد تجن من أجله ... إنها لا تنام أبداً ، و ... »

— « وماذا يا عثمان ... »

— « وهى تتسرق كل ليلة إلى المصحة وتزوره ، وأخشى أن نكون أصيبت بمرضه ، لأنى أسمعها تسعل كالمسلولين . . . مسكينة ... »

— « لا قدر الله يا شيخ . . . إنها حزينة فقط ، وأنا لا أدرى لحزنها سبباً ، فألف شاب جميل غنى يتمنون أن تصبح لأحدهم زوجة . . ولكنها تأبى إلا أن تسمع لقلبها .. قُتل الحب ، إنه لا عقل له ! لقد كلمنى اليوم عصام بك وألح على فى محاولة التأثير عليها ، وهو يضع كل ما يملك رهن تصرفها ، فماله هذا الشاب الوجيه ؟ ! صحة وثروة وأسرة ... وشباب ! »

***

— « يا ابنتى رفقاً بنفسك ، أقسم لك بالله وبشرفى أن الدكتور أكد لى اليوم أن لنادر أياماً قليلة جداً ويغادر المستشفى سليماً معافى ... »

— « سليماً معافى ... متمتعاً ... بكامل صحته . . هيه ... يارب ، سيغادر المستشفى إلى الأبد ... هذه هى الحقيقة ! »

— « أجل ، سيغادره لتعيشا معاً فى نعيم إلى الأبد ! سهام ! »

— « بابا ... »

— « هلمى نجلس قليلاً فى الحديقة ، هلمى يا ابنتى ، القمر جميل ، والنسيم رَخِىّ ، و ... »

— « بابا ... »

— « سهام ! »

— « أنا لا أحب الحديقة ولا أحب القمر ... لنبق هنا ... الدنيا برد ! »

— « يا ابنتى لا تعبسى للدنيا هكذا ... »

— « الدنيا ؟ آه يا بابا ... سأعبس لها إلى أن يشاء الله ! »

— « لا حول ولا قوة إلا بالله ... سهام ، أنت تحرقين نفسك وتتلفين روحك فى نار عاطفية كان ينبغى ألا تجعلى لها وزناً فى رجاحة عقلك وسلامة تفكيرك ... لقد كنت أحاول أن أصارحك بحقيقة نادر ولكنى كنت أخشى على قلبك الغض وشبابك الرطب أن تعصف بهما كلماتى ، مع أنها لخيرك ... سهام ! استيقظى يا ابنتى ! حقاً لقد أحبك نادر كما تحبينه ، وكنت أنا نفسى ألمس محبته لك وهو يكلمنى من أجلك ، وعندما سلمنى (السوار الماسى الجميل) الذى جمله تقدمة لزواجه منك ، كنت أشهد فى عينيه دموعاً محبوسة تريد أن تنهمر ، عرفت منها أثر تحقيق الأحلام فى نفوس الشباب — ولقد كنت أوشك أن

أرفض هذا الزواج أول الأمر ، لما كنت ألحظه فى صحة نادر من التدهور والهدم ، لكنى قرأت حبه فى عينيك ، وشهدت حرارة روحه تتورد فى خديك ، فتألمت ، وفرحت ، وذكرت (المرحومة) والدتك وما كانت تتمناه لك من السعادة الأبدية ورخاء البال ، فوافقت ، وضاعف ألمى وفرحى أن رأيتك سعيدة به بقدر ما هو سعيد بك ، وهنا فقط ... غلطتى ... غلطتى التى لا يغفرها لى إلا أنى لم أكن أعرف أن تدهور صحة هذا الشاب النبيل هو أول هذا المرض الخبيث العضال ... سهام ! استجمعى قواك ! لا تجزعى هكذا ... إن ألف شاب جميل رقيق القلب وافر الغنى فى انتظارك ... وقد خاطبنى الكثيرون فعلا قبل أن يعترض طريق حظك ولدى نادر ... سهام ... تشجعى ! أنت صغيرة يافعة يا بُنيَّة ! نحن كلنا نرثى لشباب نادر ، وكنا نضرع إلى الله أن يشفيه ! ... و ...

— « بابا ... »

— « سهام ! »

— « ماذا تقول ؟ كنا نضرع إلى الله ! ... ماذا قال لك الدكتور اليوم ؟ »

— « هذا هو الذى كنت أخشى أن يكون ! ليهدأ قلبك يا بُنيَّتى ، وليستيقظ عقلك الساهى ... أريد ألا أفقد ابنتى الوحيدة كما فقدت زوجتى ! إرحمى أباك الشيخ المحطم الذى لم يعد له أمل فى الحياة غيرك ... أنت شمسه المشرقة فلا تحرميه من دفئها إلى الأبد ... إن ثلج المشيب يطفئ روحى قليلاً قليلاً ... وكلما رأيتك يا سهام ارتد إلىَّ شبابى ، وانهزمت آلامى ، وتفرجت كروبى ... فلولاك للحقت بأمك ، ولولاك لأغطش ظلام المنون حياتى ... سهام ! انظرى إلىَّ ! أرهفى أذنيك ! تحملى الصدمة معى ... نادر فى الطور الأخير من المرض ... »

— « بابا ... »

— « سو ... ! سهام ! هى صدمة كبيرة لا شك ، وأشد منها أننى أرجوك ... أرجوك يا ابنتى ... أرجوك ... يا ... سهام ! »

وساد بين الرجل وابنته صمت عميق ، تخللته دموع أسوانه ... ثم وصل الأب حديثه قائلا :

— « أرجوك يا ابنتى أن تقطعى علائقك بنادر ... دعى ما فى القلب للقلب ، ولكن لا تذهبى إليه ... لا تزوريه فى المصحة ... لقد أنذرنى الدكتور مرتين ، وقد فصل الممرضة المسكينة التى كانت ترحم دموعك وترثى لحبك فتوصلك إليه فى ظلام الليل خلسة ! العدوى يا سهام ! أنت غالية عندى جدا وعزيزة علىَّ جدا ، وإذا فقدتك فقدت كل شىء ... سهام ! تكلمى يا ابنتى ! ردى علىَّ ! ماذا ؟ تبكين ! أنت طفلة ... لا ، لا ... ألم يخلق الله غير نادر ... »

— « بلى ... بلى يا أبى ! لم يخلق الله غير نادر لى ... أنا على الأقل ! ولذلك ... لا أعدك ! لا يمكن أن أعدك يا بابا ... و ... أنا متعبة جدا ... أريد أن أنام ... عن إذنك ؟

* * *

مسكينة سهام ! لقد جاءت نصيحة والدها متأخرة جدا ! لقد كانت تنتظر حتى تنام أعين الرقباء ، وتغفى جفون الليل ، ثم تنسل فى جنح الظلام إلى المصحة ، غير حافلة ببرد الشتاء ، ولا قر الصحراء ؛ وهناك كانت ترشو البواب الفقير ، وتجزل له العطاء ، ثم تعرج إلى الطابق العلوى ، فاذا لقيها بعض الخدم حفوا بها واحتفوا ، فتنفح هذا قرشاً وذاك قرشين ، حتى تلقى الممرضة الصغيرة الجميلة التى كانت تعرف سر قلبها وعلاقة نفسها ، فتنسى هذه كل قوانين المصحة فى سبيل قوانين الحب ، وتمضى بين يديها إلى غرفة نادر ... المسلول الدنف البائس ... فتقف لحظة خاطفة ، وتستأذن ... لتخلى الطريق المكهرب بين القلبين الحبيبين

وكان نادر يقدر لسهام تجشمها الصعاب من أجله ، وكان يلقاها دائماً بابتسامة عذبة محزونة ، وعينين سادرتين مغرورقتين ، وروح تكاد تثب لتلقاها بذراعين من سرور !

يا لله ... ويا للحب ! !

لم يكن نادر يجهل خيانة مرضه ، ولم يكن يجهل أن عدواه شديدة الفتك ، وكانت سهام كنزه الروحى الذى يضمن له السعادة والأحلام ، ولذلك كان يحرمها دائماً بابعاد فمه عن فمها ، وكان يزوى وجهه عنها أو يدسه فى منديل كلما كلمها ، وكانت هى لا تبالى أن تدنو منه لتدلل له على أنه حياتها ، وأنها لا تبالى أن تصاب بمثل ما يشكو منه ، وذلك من عمى الحب وجهله ؛ بيد أنه كان يرجوها فى حرارة أن تبتعد ، فاذا لم تصغ ...

رأسه بين الوسادتين ، وراح ينتحب . فتشفق عليه وتبتمد

وفُصلت الممرضة التى كانت تُسهل لهـا زيارة نادر لفتنةٍ شبت بين الخدم من أجل قروش سهام . . . والحق أن الرحمة بالمحبين فى هذه الأماكن الخطيرة حماقة من الرحماء المشفقين !

على أن سهاما لم تَنىَ بزيارة نادر ، بل استطاعت بقروشها أيضاً أن تنفذ إليه مرات ومرات !

ولم تكن سهام تجهل أن فتاها فى الطور الأخير من مرضه ، ولم تكن فى حاجة لأن يخبرها أبوها بذلك ، ولـكن تلقّى الأخبار السيئة يكون جديداً كلما امتلأت به الأذن مرة بعد أخرى ، وضاعف وقع الخبر فى نفس سهام أن الدكتور أكّده . فلما ذهبت إلى مخدعها لتنام طفقت تتقلب فى أشواك من الهموم ، وفوق إبر من الأفـكار السوداء التى تشبه الخفافيش

وذهب أبوها إلى مخدعه كذلك ، ولـكنه ما كاد يستقر فيه حتى سمع ابنته تسعل . . . ثم تسعل . . . وهنا هاجت خلية من اليماسيب فى رأسه ، فنهض من فوره وتوجه إلى غرفتها ؛ ولـكنه وقف عند الباب يَتسمَّع ويتسمَّع ...

« آه يا نادر ... يا حبيبى يا نادر . . . كيف أعيش بعدك يا نادر ؟ . . . »

وكان الصوت ضعيفاً عميقاً يتشقق عن صدر ممزق ونفس محروبة ؟

ودخل الوالد الذاهل عن نفسه فجلس بجانب ابنته على سريرها ومر بأصابعه على رأسها فأحس كأنه يحترق

وكانت سهام ما تنفك تسعل ... وتسعل

ونهض أبوها فتكلم مع أحد أصدقائه الأطباء فى (التليفون) فجاء على عجل ... وزار سهاما ... وبكل أسف كان هو نفس الدكتور الذى تسبب فى فصل الممرضة من المصحة

وداعبها الطبيب بكلمات حلوة منمقة معسولة ، وخرج ولم يكلم أباها .. ولـكنها سمعته يقول وهو يطوى الدرج «أنا قلت ، أنا قلت ... » فكانت حماقة أدهى من حماقة الممرضة !

وتبسمت سهام تبسما حزيناً ، وجعلت تتمتم « نادر ؟ سويا يا نادر !! »

ولما أحضرت قوارير الدواء وزجاجاته حدجتها الفتاة بنظرات الاشمئزاز ولم تذق منها جرعة !

***

واشتدت وطأة المرض على سهام ، ولم تكن هناك وسيلة خير من انتقالها إلى المصحة ، المصحة نفسها .... ولم تشعر بغضاضة وهى تلم شعثها لتنتقل اليها ، بل كانت تحس كأنها ذاهبة إلى الجنة لتلقى ثمة حبيبها الذى خيل لها كأنه دخلها منذ بعيد .. ومن العجيب أن صحتها تقدمت تقدما محسوساً فى الأيام الأولى ، لأن شعور الفرح والرضى لمجاورة نادر كان يغمر قلبها ويفعمه بالمسرة

وجاءت ساعة الهول والفزع الأكبر

أقضت سهام ليلة مقرورة ممتلئة بالوساوس ؛ ولم تكن عينها تغفل قليلا إلا لتصحو فزعة من أحلام سوداء تتعلق بنادر . . . فلقد رأته مسجى فوق سريره ، وقد تناثر الورد من حوله ، ولف فى ثوب حريرى أبيض كبير هفهاف ، ووقف عند رأسه عصفوران أبيضان يغردان تغريداً مشجياً حزيناً .. ثم ما هى إلا لحظة حتى أغمض النائم عينيه ... وطار العصفوران إلى السماء ... !

وهبت سهام مذعورة . . . وآلت أن تذهب إلى نادر ، وعبثا حاولت الممرضة الطيبة الموكلة بها أن تطمئنها ... وعبثا حاول الخدم معاونة الممرضة فى تسكين روح سهام ... التى راحت تصرخ بملء صوتها الضعيف المحشرج . . . وهبت تناضل الجميع لتمضى إلى حيث فتاها المريض

وجاء الطبيب ... وفشلت كل مساعيه فى إقناعها بالنوم والراحة ... وأخيراً سمح لها

كانت تمشى ضعيفةً موهونة متثاقلة ، وطوت الدرج فى مشقة ... وكانت تسعل سعالاً مؤلماً . ولما دنت من غرفة حبيبها المسكين وقفت تسترق السمع

« آه .... آه » ثم سعال يعقبه سعال « « سهام ! يا سهام ! أنائمة أنت ! شفاك الله يا حبيبتى ! ألا أراك ! وداعاً إذن ! » وكان الصوت خشناً كأنه يخرج من بين شقى رحا !

— « نادر ! مالك يا نادر ! »

— « سهام ! »

— « أجل ! أنا سهام ، مالك ! أمتعب أنت ؟ »

— « لا ، ولـكنى أعتب عليك ، أ ... أتنزلين ... آه »

— « مالك يا نادر ؟ »

— « إذهبى إلى غرفتك فاستريحى ... الدنيا برد ... ارحمى نفسك ... أنا شاكر لك ... آه ... »

— « بل أجلس معك يا نادر ... مالك ! »

— « لا شيء لا تنزعجى ؟ »

وكان الطبيب الرحيم البار ينظر إليهما ويبكى ؟

— « خبرنى يا حبيبى ... أتشكو شيئاً ! »

— «اطمئنى ياسهام ... يجب أن تعيشى لوالدك ولشبابك»

— « أنت تزعجنى ! »

— « لا تنزعجى أبداً ! ... فأنا ... »

وضعف الصوت قليلاً ... ثم قليلا

— « مالك ... مالك ... يا دكتور ، تعال ... إكشف عليه ! »

— « لا فائدة يا سهام ! يجب أن تعيشى ! سهام ! »

— « نعم يا حبيبى ! »

— « ألا ... آه ... كم أستحى أن أقول لك ؟ »

« — بل قل ... قل يا نادر ! »

— « كنت أحلم أن أفوز منك بقبلة تنير لى طريق إلى الدار الآخرة ! »

ودنت منه ، وقبل أن تهوى على فمه تقبله ، انقض الدكتور فحال بينهما ! ؟ !

يا للسخف !

ولان قلب الدكتور فوضع منديله على وجه نادر ، وأشار إلى الفتاة ، فدنت منه ... وطبعت عليه قبلة باكية ... ولكنها أحست بشفتيه الباردتين الثلوجتين ... وبحركة خاطفة رفعت المنديل وحدقت فى وجه الفتى ... ولكن ... وا أسفاه ... لقد فارق الحياة

وتوجهت سهام إلى الله بنفس حزينة راضية ... وغادرت المصحة بعد أيام ، ولكن لا إلى قصر أبيها وحدائقه ... ولا إلى أحلامها وأمانيها !

دريني خشبة

البريد الأدبي

رد وبيان — حول أغلاط مزعومة

نشرت (الرسالة) فى عددها الصادر فى ٣١ أغسطس (العدد رقم ١٦٥) مقالاً بعثت به اليها أثناء غيبتى فى أوربا عنوانه «أسبوع فى سبتمانيا : من ذكريات العرب والاسلام فى غالیس» ، عرضت فيه بعض حقائق وملاحظات أثارتها فى نفسى زيارتى لسبتمانيا وقواعدها فى أواخر شهر يوليه الماضى

وقد لفت نظرى عقب عودتى بأيام قلائل إلى كلمة نشرتها إحدى الصحف السورية لكاتب يزعم أنه اكتشف فى مقالى أغلاطا شنيعة فى التاريخ والجغرافيا ، وينتهز الفرصة فيوجه إلىّ وإلى (الرسالة) وصاحبها فيضاً من الغمز البذيء الذى ينم فى كل كلمة منه عن حقد مضطرم وسوء نية يعلم الله وحده مصدرها والباعث عليهما

وأنا أربأ بقلمى و (بالرسالة) عن التورط فى هذا المعترك الوضيع ، معترك السباب والقذف ، وأكتفى بالرد على ما جاء فى الكلمة خاصا بالأغلاط المزعومة

نقل الكاتب عبارتين من مقالى هما موضوع المناقشة ، وهذه أولها :

« ولقد كانت سبتمانيا — وهو اسمها القديم ، ومعناه ذات المدن السبعة — أو لانجدوك الحديثة ، أول أرض فرنجية غزاها العرب عقب افتتاح الأندلس ، واتخذوها قاعدة لغزواتهم فى جنوب فرنسا ، وجعلوها ولاية أندلسية سميت بالثغر أو الرباط لوقوعها على ساحل البحر الأحمر ... »

وأظن أنه لا يخفى على فطنة أى قارئ أن كلمة « الأحمر » هنا إنما هى خطأ مطبعى أو سهو قلمى لاشك فيه ، جاءت مكان « البحر الأبيض » ؛ ولا يمكن بداهة — والمقال كله على سبتمانيا وجنوب فرنسا والأندلس — أن يخطر ببال قارئ أن كاتب هذا المقال يقع فى مثل هذا الخطأ الساذج . وإذن فالجهل المقرون بسوء النية هو وحده الذى يملى على الكاتب ملاحظته الخرقاء ، وقوله إنى أجهل الجغرافيا ، وأنتقل بالقارئ من شواطئ البحر الأبيض إلى شواطئ البحر الأحمر

وكيف يتصور إنسان سوى هذا الحاقد المصدور أن الخطأ هنا حقيق وقد كتبتُ مسودة المقال وأنا أتجول فى سبتمانيا ذاتها وعلى شواطئ البحر الأبيض نفسه ؟

ومن الأسف أنه قد تسربت إلى المقال بعض أغلاط وتحريفات مطبعية أخرى ، خصوصاً وأنى لم أتول تصحيحه بنفسى كما هى عادتى نظراً لتغيبى فى أوربا ، وكان ثمة تحريف آخر هول فى شأنه الكاتب تهويلاً سخيفاً ؛ فقد نقل العبارة الآتية التى وردت أثناء حديثى عن موقعة رونشفال :

«ولرونشفال ذكرى خالدة فى التاريخ والقصص الفرنسيين ، فقد كانت مسرحا للموقعة الشهيرة التى مزق فيها العرب جيش كارل الأكبر (شارلمان) ، حين عوده من غزوته لاسبانيا الشمالية ، التى نظم فيها رولان وصيف شارلمان أنشودته الشهيرة « Chanson de Roland »

والكاتب يظن أنه يقول جديداً حين ينقل الينا من «لاروس» أن رولان ليس هوناظم الأنشودة ، وأن ناظمها لم يعرف

ونعود فنقول هنا إن سوء النية الذى يملى على الكاتب كل عباراته أعماه عن أن يرى فى العبارة كلها ثغرة ونقصاً يقطعان بأن هناك تحريفاً ؛ فقد سقطت فى الواقع منها كلمات غيرت كل مبناها ومعناها ؛ وقد كان النص ، على ما أذكر : « وفى تلك الموقعة ، وفى أبطالها الفرنج ولا سيما هرودلاند أو رولان وصيف شارلمان نظمت الأنشودة الشهيرة » أو ما فى معناه

ومع ذلك فالحديث عن موقعة رونشفال ومصرع رولان وأنشودته يكوّن فصلا من كتابنا « تاريخ العرب والموريسكيين فى أسبانيا » ؛ وقد نشر هذا الفصل فعلا فى مجلة (الهلال) الغراء فى عددها الصادر فى أول فبراير سنة ١٩٣٤ (ص ٤٥٣ وما بعدها) ؛ وهذا ما ورد فيه خاصا بهذه النقطة :

« وتضع الرواية الفرنجية تاريخ الموقعة فى ١٨ أغسطس سنة ٧٧٨ (ذى القعدة سنة ١٦١) ؛ وبينما تقنع الرواية العربية بالاشارة اليها فى عبارات موجزة إذا بالرواية الفرنجية والكنسية تفيض فى تفاصيلها افاضة ظاهرة . وأوثق وأدق الروايات الفرنجية عنها هى رواية ايجنهارت مؤرخ شارلمان ومعاصره ، فهو يفصل حوادثها ويذكر من هلك فيها من الأمراء والسادة ، ومنهم اجهارد رئيس الخاصة ، وانسلم محافظ القصر ، وهرودلاند حاكم القصر البريتانى . وهرودلاند هو رولان بطل الأنشودة الشهيرة التى نظمت عن هذه الموقعة ، والتى ما زالت أثراً خالداً لقريض الفروسية فى العصور الوسطى ؛ ذلك أن الأسطورة اتخذت من حوادث هذه الموقعة موضوعا لقصة حربية حماسية حرفت فيها الوقائع الأصلية أيما تحريف ، ولكنها تستبقى مكان الموقعة وبعض أشخاص التاريخ

« وهى نورمانية الأصل ظهرت لأول مرة فى القرن الحادى عشر أعنى بعد الموقعة بثلاثة قرون ، ودونت أولاً فى بعض القصص اللاتينية ، ثم دونت بالنظم فى قصيدة طويلة بعنوان « أنشودة رولان »

هذا ما كتبناه ونشرناه منذ أعوام عن أنشودة رولان ؛ نكرره هنا ليعرف الكاتب أننا لسنا فى حاجة إلى تصحيحاته المستقاة من معجم الأحداث

أما كون رولان كان وصيفاً لشارلمان أم لا ، فهذه نقطة لا أهمية لها ، وقد كان رولان أو هرودلاند أحد البارونات الاقطاعيين ؛ وكان من الشرف الملوكى يومئذ أن يلتحق البارونات بمناصب الوصفاء فى البلاط ، وكان هرودلاند من هؤلاء

وبعد ، فهذا ما يزعم الكاتب أنه أخطاء شنيعة اكتشفها فى مقالنا ، وهذا ما يريد أن يتخذه تكأة للتعريض بنا وبالكتاب المصريين والأدب المصرى

وهذه نغمة نعرفها ؛ وقد نعرف الباعث عليها

بيد أن الكاتب يوهم إذ يحسب أنه يستطيع أن ينال منا بمثل هذا الاسفاف

أما إشارته إلى كتابنا « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » فنكتفى بأن نرد عليه بأن المراجع التى ذيلنا بها كل فصل من فصوله تكفى لأن تخرس ألسنة السفهاء والمتحاملين ؟

محمد عبد الله عنان

الجاحظ فى كتاب (تراث الاسلام)

نشرت (الرسالة) القراء منذ عددين استهلال فصل الفلسفة والالـهيات فى كتاب (تراث الاسلام) ورد فيه كلام للجاحظ يتضمن الاعتراف بفضل الفكر اليونانى على أهل الملة الاسلامية ؛ ثم نشرت فى العدد الماضى مقالاً للأديب الكريم محمد طه الحاجرى أثبت فيه نص الجاحظ وذكر الكتاب الذى ورد فيه هذا النص

والذين سيطلعون على فصل الفلسفة والالـهيات فى هذا الكتاب سيعرفون من تعليقاتى الجهد الشاق الذى تحملته فى البحث عن النصوص التى وردت فيه ، ولا سيما أن المؤلف كان فى أكثر هذه النصوص لا يشير الى المراجع التى استقاها منها

والقراء يعرفون أن الجاحظ قد ألف العديد من الكتب والرسائل وأنه كان يتناول فى الكتاب الواحد موضوعات شتى واتجاهات متباينة قد لا يربطها عنوان الكتاب . فمعرفة نص له فى كتاب مجهول الاسم أمر عسير كل العسر . ومع ذلك فقد حاولت جهد الطاقة أن أعرف الكتاب الذى ورد فيه هذا النص فلم أوفق ؛ فاتصلت بالأستاذ جيوم مؤلف الفصل — فى انجلترا — لعله يهدينى الى الكتاب الذى ورد فيه النص ، فرد معتذراً بنسيان المصدر ... ولما كنت أعلم أن لهذا النص خطره من حيث إنه يحمل اعترافاً له قيمته العلمية فقد تعمدت أن أثبت فى ذيل الصفحة التى ورد فيها كلام الجاحظ تعليقاً أوردت فيه نصوصاً لعلماء المسلمين وفلاسفتهم (كالشهرستانى ، وابن خلدون ، وابن سبعين) وكلها تؤيد هذه النظرة التى ذهب إليها الجاحظ

ويستنكر الأديب الكريم من المؤلف استشهاده بهذا النص على أن الفلسفة العربية ليست إلا صورة من الفلسفة اليونانية مشوبة ببعض الفلسفات الفارسية والهندية . وهذه ملحوظة لم أهمل الالتفات إليها والرد عليها فى تعليق آخر قد نشرته الرسالة مع المقال وذكرت فيه آراء بعض مؤرخى الفلسفة الاسلامية من علماء الغرب وانتهيت الى تقرير الرأى القائل بأن للفلسفة الاسلامية كياناً خاصاً يميزها من غيرها من سائر الفلسفات لأن فيها ثمرات من عبقرية أهلها

على أن هذا الرأى لا ينفى القول بأن الجاحظ وغير الجاحظ من علماء المسلمين وفلاسفتهم قد اعترفوا بما كان لليونان من فضل

على أهل الملة الاسلامية ؛ بل أسرف أكثرهم فعزا إليهم الفلسفة الاسلامية فى شتى آفاقها

وإنى لأشكر للأديب الكريم اهتمامه بالأمر ومسارعته بالرد ؛ فلو تأخر رده أسبوعاً واحداً لكان الكتاب فى أيدى قرائه . وتعذر علينا تبليغ النص إليهم ما؟

توفيق الطويل
عضو لجنة الجامعيين لنشر العلم

هل للشاعرة ما للشاعر من الحرية فى التعبير الشعرى ؟

حول رسالة آنسة

قلت فى إحدى مقالات « شعراء الموسم فى الميزان » أثناء نقد قصيدة السيدة منيرة توفيق : « والمرأة المصرية تستمد صمتها من أبى الهول ، ولا أعنى إلا الامساك عن التعبير عن الاحساس والعواطف تعبيراً صادقاً ؛ فمن شعرت من بنات مصر فانما تقول فى الأخلاق والنصائح ، متجاوزة خوالج النفس ودقائق الحس ، لأن طبعها الصموت الحيى يأبى الحديث عنها ، وأعتقد أنها لو فعلت ، وكانت موهوبة التعبير والأداء لأتت بالغرائب »

ومنذ أيام وردت إلى هذه الرسالة فى بريد « الرسالة » ، وهى بعد الديباجة :

« طالعتنى الرسالة فى عددها — ١٦٢ — بكلمتكم الغراء عن المرأة المصرية وتنحيها عن التعبير الشعرى فى ميادين الأدب باحساس النفس وخوالجها

أقول الشعر بالسليقة ثم أخذته دراسة ليلى الفطرى ، ولدى الكثير فى الغزل والوصف والرثاء والحماسة إلى غيره من أبواب الشعر ولكنى لا أجرؤ على نشره ؛ وقد دفعتنى كلمتكم إلى إرفاق مقطوعات من بعض ما لدى دفاعاً عن المرأة المصرية . فان استشعر أستاذى فيها خيراً أقبلت على النشر وواليت الانتاج

أنتظر رأيكم على صفحات « الرسالة » وكم فى « الكنانة » من مثيلاتى ؛ وتنازل بقبول أسمى تحياتى

ف . ع . ح آنسة

فهذه الآنسة ، وإن كانت تعبر عن إحساسها لا تجرؤ على نشر ما تقول ، كما تقول ، وتدفع عن المرأة المصرية تهمة القصور باطلاعنا على قطع من شعرها أكثرها فى الغزل ... ونسوق إلى القارىء منه شيئاً :

تقول فى أبيات عنوانها (سهام) :

كان الفؤاد يقول لو ذقت الهوى ... ونعمت حيناً مثل من ناجى اللوى
ظن الغرام سعادة لم يدر ما ... يخفيه من ليل المحب وما طوى
ذكر اللقاء وما به من لذة ... لكنه جهل الصبابة والنوى
فنصحت مهلاً يا فؤادى واتئد ... ليس الغرام كما ظننت بما احتوى
لكنه ما يرعوى عن غيه ... ومضى به شوق الغرام إلى الهوى
والآن من سهم اللحاظ معذب ... قد ذاب من وله يود لو ارعوى

وهذه جرأة نجرؤ على أن نقول إن فيها كسباً جديداً للأدب ، فاذا كان الشعر يستمد أكثر ما يستمد من العاطفة ، فالمرأة هى العاطفة ، وهى تلهم الرجل الشعر ، فاذ تشعر هى فانما تنفق عن سعة وتتدفق من معين

والحق أن المرأة إنما تحجم عن هذا الميدان لأنها تخشى إنكار الرجل عليها ، فهى لا تقول الشعر المعبر عن حقائق نفسها لأنها ترى أنها ستقوله لنفسها ، فتؤثر الصمت ؛ ولعل رسائل الحب الخاصة أفسح مجال لها ، فهى تحسن فيها وتبدع ، فلو أتيح لها أن تظهر فى حلبة الشعر مطلقة الحرية فى التعبير لبذت وفاقت

وبعد ، فالى الانسة « ف . ع . ح » يساق الحديث :

أشكرك على خطابك الرقيق ، وأحيى فيك هبة الشعر التى تبدو فيما بعثت به ، وإن كان يعوزه الشىء الكثير من سلامة الأسلوب ومتانة النسج وصحة المعانى ، وترتيب الأفكار . ولعل ما قرأته فى نقدنا للشعراء يهون عليك وقع هذا الكلام ، فقد عاهدنا الحق أن نسلك سبيله لا نحيد عنه . وإن كان هذا بدء معالجتك لقرض الشعر فهو يبشر بالاجادة ؛ فأحب لك الآن أن تقبلى على المطالعة والدراسة أكثر مما تقبلين على الانتاج والنشر

عباس حسان خضر

عيد جوسلين وذكرى لامارتين

فى أوائل شهر سبتمبر أقيم فى مدينة ماكون بفرنسا عيد أدبى مؤثر ؛ وماكون هى مسقط رأس الفونس دى لامارتين ومرتع طفولته وحداثته ؛ ولكن العيد الأدبى الذى أقيم بها لم يكن خاصاً بشخص لامرتين ، بل باحدى منظوماته الشعرية الشهيرة ، ونعنى « جوسلين » Jocelyn التى مضى على صدورها مائة عام

احتفل إذن بالعيد المئوى « لجوسلين » فى ما كون ، وأثيرت ذكرى الشاعر الكبير ، ورأس هذه الحفلات المؤثرة مسيو هنرى بوردو عضو الأكاديمية الفرنسية ، وكان من ضمنها حج أصدقاء الشاعر الى ضيعته «ميلى» التى قضى فيها أعذب أعوامه وشاد بذكرها فى «مذكراته» والى قصر سان بوان حيث قضى أعوام مجده ، ثم إلى قصر مونصو حيث قضى أعوامه الأخيرة فى غمر من البؤس والنسيان

أما منظومته «جوسلين» التى عرفت أيام صدورها منذ مائة عام أعظم ظفر أدبى يمكن تصوره فتكاد تنسى اليوم الى جانب منظومات وروايات أخرى للامارتين ؛ ذلك أنها لم تكن خير ما نظم من حيث الصناعة والصقل ، ولكنها كانت من أبدع ما نظم من حيث الروح ، والقوة ، والطابع الغنائى

وجوسلين قصة شعرية كبيرة فى أكثر من ثمانية آلاف بيت ، وكانت حسبما يريد ناظمها أول قسم من ديوان شعرى ضخم يسمى «الرؤى» Visions ؛ وبطلها جوسلين وهو فتى يتيم وولد قروية فقيرة ، حملته ظروف الأسرة على الالتحاق بمدرسة الكهنة على رغم إرادته ؛ وكان ذلك أيام الثورة ، فلم يلبث أن طرد من المعهد قبل إتمام دروسه ؛ وعندئذ فر الى الجبال ليتقى المطاردة التى كان يعرض إليها رجال الدين يومئذ ، وعاش فى كهف فى الجبال ، وعطف عليه راع كان يمده خفية بالطعام والشراب

وفى ذات يوم رأى جوسلين شيخاً وفتى يطاردهما القتلة فتقدم لعونهما ، وأسلمه الشيخ فتاه ، ولكن لم ينج من رصاص القتلة فخر قتيلاً ، بينما التجأ ولده ناجياً الى كهف جوسلين

وعاش جوسلين مع هذا الفتى الحدث فى وئام وحب أخوى ؛ ولكن حدث ذات يوم أثناء هبوب العاصفة أن جرح الفتى ، ولاحظ جوسلين دهشاً مرتاعاً ، أثناء العناية به ، أنه يعنى بفتاة لا بفتى ، فمنذئذ هام جوسلين بالفتاة « لورانس » ، وأخذ يحلم بالاقتران بها

ولكن الدهر لم يلبث أن فرق بينهما . ذلك أن جوسلين دعاه أسقفه ومربيه وهو على أهبة الموت ليقوم له بالواجبات الأخيرة ، ولم ير جوسلين بداً من قبول التضحية ، فهرول الى الأسقف ، وقام بواجبه . وفى أثناء ذلك تركت لورانس العنان لأهوائها وغدت فتاة خاطئة ، ودارت الأيام دورتها ، فالتقى جوسلين ثانية بلورانس يطلب إليها الصفح ويحمل اليها الغفران

تلك هى خلاصة « چوسلين » والمعروف أنها صورة لقصة واقعة بطلها راهب من أصدقاء الشاعر يدعى الأب « دومون » ، كان من رجال الدين أيام الثورة ، فعهد إليه ذات يوم أحد أصدقائه الأشراف بصغرى بناته لكى ينقذها من خطر السجن والاعدام فهام كل منهما بالآخر ، وأثمر الحب ابنة سميت الآنسة ميلى ؛ وعاش القس محترماً مبجلاً يزاول مهنته بعطف ورقة حتى توفى ؛ ونظم لامارتين فيه قصيدة مؤثرة ؛ وما زال قبره فى تلك الأنحاء يعرف بقبر « چوسلين » بطل منظومة لامارتين

من أرض البكم

صدر أخيراً بالألمانية كتاب عنوانه « من أرض البكم » Aus dem Lande der Stummen بقلم الكسندرا آنسروفا :

وأرض البكم هى سجون روسيا السوفيتية ومعاقلها التى خصصت لنفى الأحياء واخراس الألسن ؛ والكسندرا آنسروفا هى نبيلة من نبيلات روسيا القيصرية ، كانت أيام الثورة فتاة فى السادسة عشرة ، فقبض عليها البلاشفة وزجوها إلى السجن بين من زج من النبلاء والنبيلات ؛ وما زالت الكسندرا تتقلب من سجن إلى سجن ومن منفى إلى منفى بلا تهمة ولا ذنب معين إلا أنها من النبيلات ، وتعانى أروع الآلام المادية والمعنوية ، تارة فى جزر البحر الأبيض الشمالى ، وتارة فى سيبيريا حتى سنة ١٩٣٢ ؛ وعندئذ أفرج عنها بعد اعتقال دام نحو خمسة عشر عاماً ، وبعد أن ظهرت براءتها ناصعة ؛ فلبثت فى موسكو مدى عامين تدون مذكراتها عن « أرض البكم » ثم غادرت بعد ذلك موسكو إلى ألمانيا ، وهنالك نشرت كتابها المذكور

والكتاب يصف السجون والمعاقل الروسية فى عهد البلاشفة وصفاً دقيقاً مروعاً ، ومنه يتبين أنها ليست فى العهد الحالى أقل شناعة وروعة منها أيام القياصرة ؛ وفى الكتاب ملاحظات وحقائق غريبة عن الحياة الجديدة فى روسيا البلشفية

الثقافة الألمانية فى عصر النازى

نشرت الكاتبة الأمريكية دوروثى تومبسون فى مجلة

« الشؤون الخارجية » Foreign affairs الأمريكيـة مقالاً عن « الثقافة فى عصر النـازى » استعرضت فيـه خواص الحركة الأدبية والثقافية فى ألمانيا الحاضرة ، ومما قالته إن العالم الخارجى يدهش اليوم لأن أصوات الكتاب الألمان لا تسمع ، ولأنهم رضوا طائعين أن يكونوا آلة صماء للسياسة والوحى السياسى ، ولكن الحقيقة أن هنالك مبررات قوية لهذا الخضوع المطبق ؛ ذلك أن الحركة الفكرية والثقافية كلها قد وضعت فى ألمانيا الحاضرة تحت نظام حديدى مطلق ، ومن المستحيل اليوم أن يصدر فى ألمانيا كتاب أو نشرة ديموقراطية أو اشتراكيـة ، أو أدب يصطبغ بالصبغة الدولية مخالفاً للنزعة القومية الداخلية . وقانون الصحافة الجديد قوامه عصبـة من الكتاب المتعصبين لنظريات الجنس هم أعضاء جمعية الصحافة القومية ، ولهم وحدهم الحق فى الكتابة تحت الرقابة الحزبية ، ويعاقب من يخرج منهم على قانون الجمعية أو على مبادئها بالحبس سنة ؛ وكل ناشر يشجع كاتبا ليس ملتحقاً بجمعية الصحافة وينشر له شيئاً يعاقب بالحبس والغرامة وكل ما يكتب تفرض عليه رقابة صارمة ؛ وتخضع الحركة الفنية لمثل هذا النظام الحديدى ؛ وترى مس تومبسون أن ما يسود الحركة الثقافية اليوم من تلون ونفاق أساسه الاضطهاد والخوف يجعلها فى نظر العالم المتمدن مأساة مروعة تفوق تلك المأساة التى يعرضها الكتاب المنفيون أنفسهم ؛ فبين أولئك المنفيين اليوم أعظم كتاب ألمانيا المعاصرة مثل توماس مان ، وأخيـه هينريش ، وأرنولد زفايج ، وأريك ريمارك ، وطائفة أخرى من أقطاب الكتاب اليهود

والأدب الألمانى يصدر اليوم فى ظل النازى بكثرة ، ولكنه أدب محتضر تنقصه روح الابتكار ، وينتظر زعماء النازى عبثاً ظهور العبقريات الأدبيـة الممتازة . ذلك أن حرية الفكر هى روح كل أدب وفن ؛ وما دام التفكير مصفداً والآراء مملاة ، فسوف يكون ثمة أدب وثمة كتب ومجلات ، ولكن لن يكون ثمة أدب جميل أو رفيع ؛ وسيكون ثمة كتاب ، ولكن كتاب محترفون أرقاء

دائرة معارف للجنس الأسود

سيكون للسود فى القريب العاجل دائرة معارف خاصة تتحدث عن كل ما يتعلق بهم من الخواص الجنسية والشؤون السياسية والاجتماعية ، والتاريخ والمدنية ؛ وتعد هذه الموسوعة الجديدة الآن فى أمريكا ؛ وقد وضع المشروع منذ سنة ١٩٣٢ ، وانتخب لرآسة اللجنة المشرفة على تنفيذه زعيم السود الدكتور دى بوا أستاذ علم الاجتماع فى جامعة اتلانتا ؛ وتشمل اللجنة ممثلين لجمعية تقدم العلوم الافريقية ، ومجلس الجمعيات العلمية الأمريكية ولجنة التعاون الدولى ؛ وستعنى الموسوعة بالتحدث عن جميع أطوار حياة الجنس الأسود وتاريخه ومدنيته ، سواء فى إفريقية أو أمريكا ؛ وسيكون لهذه الموسوعة الطريفة شأن عظيم فى دوائر الأدب والسياسة والاجتماع ؛ وسيعطى لها اسم (موسوعة الرجل الأسود) Encyclopaedia of the Negro

مذكرات ملوكية

صدرت أخيراً ترجمة انكليزية لمذكرات الأميرة أولاليا الأسبانيه ، وهى ابنة الملكة إيزابيلا وعمة الفونسو ملك أسبانيا السابق ؛ وتشغل هذه المذكرات زهاء سبعين عاماً تنتهى بقيام الجمهورية فى أسبانيا سنة ١٩٣١ ؛ وتتضمن أخباراً وقصصاً ونبذاً كثيرة عن معظم الحوادث التى تمس أسبانيا ، وعن جميع القصور الأوربية التى تتصل الأميرة أولاليا بمعظمها بصلة القرابة ؛ وتبسط الأميرة بنوع خاص الأسباب والعوامل التى أدت إلى سقوط الملكية الاسبانية ، والتى شرحتها غير مرة للأسرة المالكة ، ولم يحفل بنذرها إنسان . كذلك تتضمن المذكرات نبذاً كثيرة عن عظماء هذا العصر الذين اتصلوا بالبلاط الأسبانى

مخطوطات قديمة

المخطوطات القديمة النادرة الوجود ، يهتم بجمعها وحفظها صاحب مكتبة العرب بشارع الفجالة ، جمع الكثير منها فى الأدب والتاريخ والشعر ، والروحانى والفلك والطب ، والجفر والزيج ، وخلافه من الكتب الاسلاميـة والمصاحف الأثرية ؛ كما أنه مستعد لشراء مثل هذه الكتب بأثمان جيدة . وللمكتبة فهرس بالمطبوعات يرسل مجاناً



رسائل الأهالى

على طريق الهند

للأستاذ عبد الفتاح السرنجاوى

رسالة قيمة أخرجتها إلى شباب الشرق جريدة الأهالى التى كانت تصدر فى بغداد وعُطلت وا أسفاه منذ طويل ، وهى بحث علمى قوى رجع كاتبه الفاضل فيه إلى أكثر من تسعين مرجعاً من السجلات والمحفوظات الرسمية والأوراق البرلمانية وتقارير الخبراء العسكريين والدبلوماسيين ونصوص المعاهدات ، وكتب المؤلفين المهتمين بدراسة شؤون الشرق أمثال أندريو وبوشام وتشرشل وكرزون وفوكس ومون وإسكويث والسير وليم ولكوكس والسير ارنولد ولسون وغيرهم

وقد تبد أهذه الرسالة بمقدمة جغرافية عن أهمية الخليج الفارسى وسواحله العربية والفارسية والشمالية ، ثم يجاوز الكاتب هذا إلى كلام فى تاريخ الخليج ، ثم يثبت أن المصالح المادية وتجارة أوروبا مع الشرق كانت سابقة للأطماع السياسية ، وينتهى إلى أن الانجليز إنما سيطروا على الخليج الفارسى فى سبيل الهند موضحاً أهمية الهند للرأسمالية الانجليزية وكاشفاً فى قوة وجرءة عن سياسة هذه الرأسمالية واستخدامها الهنود لمصلحة الاستعمار وارتكابها الأخطاء الوحشية فى سبيل تحقيق ذلك كله . ويرى الكاتب الفاضل أن وادى الفرات أقرب الطرق إلى الهند ؛ ويشرح موقف انجلترا إزاء المسألة الشرقية ، واهتمامها بطريق السويس والفرات ؛ ويبين ما نشأ من نزاع بين الرأسمالية الدولية من أجل سكة حديد بغداد حتى قيام الحرب العالمية

ويرى كاتب الرسالة فوق ما تقدم أن الثورة الصناعية جعلت الانجليز فى حاجة إلى كثير من المواد الغفل ، وقد يكون اهتمامهم بالعراق لأنها طريق الهند أولاً ولأنها أيضاً حقل يستطيعون أن يحصلوا منه على القطن والحبوب ، وتفسير ذلك اهتمام الانجليز بمشروعات الرى العراقية التى أسفرت عن فشل مروع . ثم يشير إلى مرحلة أخرى كشف فيها النفط ودعى الجنرال فيشر إلى الاستعاضة به عن الفحم وما بذلته انجلترا فى سبيل تأسيس الشركات وعقد الصفقات والمقاولات حتى سنة ١٩٣١

وينتقل إلى أن الحالة السياسية كان لها أثرها فى علاقات الانجليز بالشرق ، فقد قامت النهضة التركية وسبقت تركيا لاعلان الحرب وتقاسم الاستعماريون أملاكها ، ثم كان أخيراً انتصار مصطفى كمال والقضاء على الأطماع البريطانية فى تركيا ذاتها

كذلك ظهر السيد جمال الدين الأفغانى ونشر آراءه الحرة فى إيران فقامت حركات دستورية واضطرابات عنيفة سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٨ . ثم قامت الحركة الوطنية بعد ١٩١٧ فخذلت الاستعمار البريطانى ونصَّبت رضا شاه بهلوى ملكاً على إيران الجديدة

كذلك قاتل الأفغان ضد الاستعمار تحت راية أمان الله حتى الحرب العامة التى أعلن أمان الله بعدها الاستقلال وأسس العلاقات السياسية مع روسيا . ثم جاوز هذا إلى حرب الانجليز وعقد معهم صلح (راوال بندى) ، وسار فى سبيل الاصلاح الداخلى والنهوض بالأفغان حتى قامت عليه الثورة المدبرة التى أزالته عن عرشه وأجلست مكانه نادر شاه

وتشير الرسالة إلى بوادر اليقظة فى الهند بعد فظائع الاستعمار البريطانى مما أدى الى عقد المؤتمر الوطنى الهندى ونجاحه فى الدعوة إلى الثورة فى وجه الانجليز حتى سنة ١٩١٢ ، ثم اقتربت الحرب العظمى فاستمالت انجلترا الهنود لتضمهم إلى صفوفها . وبعد انتهاء الحرب عمد الانجليز إلى إصلاحات سنة ١٩١٩ ثم قامت الحركة الوطنية بزعامة غاندى فحكم عليه وانقسمت الجبهة الوطنية ودارت مفاوضات مؤتمر الطاولة المستديرة وانتهى الأمر بتخاذل غاندى وانصرافه عن قضية الوطن الهندى إلى قضية المنبوذين

كذلك مصر قامت فيها حركة وطنية بدأها محمد على الكبير ورعاها اسماعيل والطبقة الارستقراطية ؛ وهنا يناقش الكاتب

الوضع الاقتصادى للبلاد ، ويتتبع أدوار الوطنيــة التقليدية على يد عرابى ومصطفى كامل وسـعد زغلول ، ويبين كيف أن اتحاد الجهات العليا مع الانجليز، وتآمر الأرستقراطيين مع السياسـة الاستعمارية جعل الوطنية التقليدية على وشك الزوال . ذلك ختام الفصل الذى تعرضت فيه الرسالة لمصر . على أن ما شهده العالم من تضحيات الشباب المصرى ، وتـكوين الجبهة الوطنية ممثلة جميع الأحزاب ، وعقد معاهدة ١٩٣٦ ، لا شك يجعل الوطنية التقليدية التى أشار اليها الـكاتب الفاضل تدخل فى دور جديد يُقضى فيه على مساومة المستعمرين وخذلان قضية الوطن برعاية مصالح الطبقة الخاصة

ثم يناقش الـكاتب الفاضل بعد هذا تعاون روسيا السوفيتية مع الشرقين الأوسط والأدنى ، وإلغاء الامتيازات ، وعقد المعاهدات مع تركيا وإيران وأفغانستان ، وتـكوين الجبهة الشرقية ضد الاستعمار ، وما كان فوق ذلك من أثر النظام السوفيتى فى حكومة تركيا الجمهورية مستدلاً بمشروع السنوات الخمس التركى

ويبحث الفصل الأخير من فصول هذه الرسالة القيمة فى النزاع الاستعمارى فى الشرق الأدنى و كيف أن الانجليز يستعينون بأمراء العرب ضد الوحدة الاسلامية ، و كيف أن سياستهم قد انخـذلت فى الشرق بعد الانقلاب الروسى ، فعمدت انجلترا إلى سياسة جديدة هى مفاوضة فرنسا وعقد المؤتمرات لتوزيع العروش والتيجان ، وبذلك حكمت جبهة الدفاع فى البـلاد العربية واتخـذت العراق مقراً لها . وأخيراً يشير إلى المعاهدة العراقية الانجليزية ويرى أن الخلاص لا يكون إلا بالانتباه إلى مكائد الاستعمار للعراقيين ولشعوب الشرق على حد سواء ، وبالاستفادة من موقع العراق الخطير على إنقاذ أنفسهم من ويلات المستعمرين ، وأن يتذكروا دائماً أن خلاصهم من الاسـتعمار منوط بتعاون شعوب الشرق كافة وبزوال الاستعمار من جميع البلاد الشرقية

* * *

ذلك نموذج سام للـكتابة القومية الشرقية التى لا يختص بها قطر دون آخر من بلاد الشرق ، والتى تريد أن تجعل من الشرق بأسره جبهة قوية فى وجه الاستعمار . والواقع أن الشعوب المغلوبة على أمرها فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الـكتابة الشعبية التى تنير لها سبل الحياة الحرة وتشعرها بما ينصب فوق رأسها من إرهاق وعسف ؛ ذلك هو الأدب الحى الذى يقلب أوضاع الجماعات ويهدم الفاسد من أنظمة الحـكم ليقيم محلها أنظمة صالحة تنفذها حكومات صالحة تعمل لصالح المحكومين وتستمد منهم وجودها وقوتها ، والشرق العربى والطورانى ظلاً طويلاً مسخرين لصالح الحاكمين والمستعمرين الذين أذلوا الجماعات ، ووقفوا فى سبيل إظهار مواهب الفرد وقوته ، وحالوا دون أن يعمل لصالح الجماعة التى يعيش فيها . ورسائل الأهالى التى نحن بصددها كتابة شعبية صريحة كتبتها أقلام جريئة قوية لا تخشى فى الحق لومة لائم ووجهتها إلى شباب الشرق تثير فيه الحماسة وتذكى جذوة القومية الشرقية العزيزة وتجلى عن ويلات الاستعمار ومساوئه وتفتح عين الشرق على خير وسائل الخلاص ، وهذه الأقلام المخلصة لا ريب حقيقة بالتعظيم والتقدير ؟

عبد الفتاح السرنجاوى
مدرس التاريخ بمعهد القاهرة

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

العدد ١٧٠ — ٥ أكتوبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 170

Lundi - 5 - 10 - 1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المدبولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
قرش
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٧٠ « القاهرة في يوم الاثنين ١٩ رجب سنة ١٣٥٥ — ٥ أكتوبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

ســـــعد زغلول

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وقال صاحب سرّ (م) باشا: ألقى إليّ الباشا ذاتَ يوم أن (سعداً) مُصَبِّحُنا زائراً[1]، وكانت بين الرجُلين خاصة وأسبابٌ وطيدة. وللباشا موقعٌ أعرفه من نفس سعد كما أعرف الشُّعلةَ في بركانها؛ أما سعدٌ فكان قد انتهى إلى النهاية التي جملته رجلاً في إحدى يديه السِّحرُ وفي الأخرى المعجزة، فهو من عظماء هذه البلاد كقاموس اللغةِ من كلماتِ اللغةِ يُرَدُّ كلُّ مُفْرَدٍ إليه في تعريفه، ولا تصح الكلمةُ عند أحدٍ إلا إذا كانت فيه الشهادةُ على صحتها

وجاءنا سعدٌ غُدْوَةً فأسرعتُ إلى تقبيل يده قبلةً لا تشبهها القُبلات، إذ مثلت لي من فرحها كأنها كانت منفيةً ورجعت إلى وطنها العزيز حين وُضعتْ على تلك اليد. إن ابنَ الرجل العظيم إذا كان باراً بأبيه عارفاً قدرَه مدركاً عظمته، يشعر حين يقبِّل يدَه كأنه يسجدُ بروحه سجدةً لله على تلك اليد التي يقبلها، ويجد في نفسه اتصالاً كهربائياً بين قلبه وبين سرّ وجوده،

(١) يقال صبحه (بتشديد الباء) أي جاءه صبحاً

ويَخُصُّه العالَمُ بلمسةٍ كأن قُبلتَه نبضتٌ في الكون ؛ وكل هذا قد أحسسته أنا في تقبيلي يدَ سعد ، وزدتُ عليه شعوري بمثل المعنى الذي يكون في نفس البطل حين يقبل سيفَه المنتصر

وضحك لي سعد باشا ضحكتَه المعروفة التي يبدأها فمه ، وتتممها عيناه ، ويشرحها وجهُه كلُّه ، فتجد جوابها في روحك كأنه في روحك ألقاها

والرجلُ من الناس إذا نظر إلى سعد وهو يتبسّم ، رأى له ابتسامةً كأنها كالٌ يتواضع ، فيُحس كأن شيئاً غيرَ طبيعي يتصل منه بشيء طبيعي ، فينتعشُ ويثب في وجوده الروحيّ وثبةً عاليةً تكون فرحاً أو طرباً أو إعجاباً أو خشوعاً أو كلَّها معاً . غير أن الرجلَ من الحكماء إذا تأمل وجهَ سعد وهو يضحك ضحكتَه المطمئنةَ المتمكنةَ من معناها المقِر أو المنكِر أو الساخر أو أيِّ المعاني — حسب نفسَه يرى شكلاً من القول لا من الضحك ، وظهرت له تلك الابتسامة الفلسفية متكاملةً كأنها مرة تقول هذا حقيق ، ومرة تقول هذا غير حقيق

إن سعداً العظيم كان رجلاً ما نظر إليه وطنيٌّ إلا بعين فيها دلائلُ أحلامِها ، كأنما هو شخصٌ فكرةٌ لا شخص إنسان ؛ فاذا أنت رأيتَه كان في فكرك قبل أن يكون في نظرك ، فأنت تَشهدُه بنظرين : أحدُهما هذا الذي تُبصِرُ به والآخر ذاك الذي تؤمن به

عبقريٌّ كالجمرة الملتهبة لا تحسبه يعيش بل يحترق ويُحرق ؛ ثائرٌ كالزلزلة فهو أبداً يرتجُّ وهو أبداً يَرُجُّ ما حوله ؛ صريح كصراحة الرسُل ، تلك التي معناها أن الأخلاق تقول كلِّها

رجلُ الشعب الذي يُحس كلُّ مصري أنه يملك فيه ملكا من المجد . وقد بلغ في بعض مواقفه مبلغ الشريعة فاستطاع أن يقولَ للناس : ضعوا هذا المعنى في الحياة ، وانزعوا هذا المعنى من الحياة

***

قال صاحب السر : وانقضت الزيارة وخرج سعد والباشا إلى يساره ، فلما رجع من وداعه قال لي : والله يا بني لكأنما زاد هذا الرجل في ألقاب الدولة لقباً جديداً ؛ ثم ضحك وقال : أتدري ما هو هذا اللقب ؟ قلت : فما هو يا باشا ؟

قال : والله يا بني ما من (باشا) في هذه الدولة يكون الى جانب سعد إلا وهو يشعر أن رتبته (نصف باشا) ...

هذا رجل قد بلغ من العظمة مبلغاً تصاغَر معه الكبير ، وتضاءلَ العظيم ، وتقاصَر الشامخ ؛ نعم وحتى ترك أقواماً من خصومه العظماء كفلان وفلان وإن الواحدَ منهم ليلوحُ للشعب من فراغه وضعفِه وتَطَرُّحه كأنه ظلُّ رجلٍ لا رجل

وقد أصبح قوةً عاملةً لا بد من فعلها في كل حيّ تحت هذا الأفق حتى كأن معاني نفسه الكبيرة تنتشر في الهواء على الناس فهو قوة مرسَلة لا تُمسَك ، ماضيةٌ لا تُرد ، مقدورة لا يحتال لها بحيلة

هذا وضع إلهي خاص لا يشبهه أحد في هذه الأمة كميدان الحرب لا تشبهه الأمكنة الأخرى ؛ فقد غامر سعد في الثورة العرابية وخرج منها ولكنها هي لم تخرج منه بل بقيت فيه . بقيت فيه تتعلم القانونَ والسياسةَ وتُصلح أغلاطها ثم ظهرت منه في شكلها القانوني الدقيق . وبهذا تراه يغمُر الرجال مهما كانوا أذكياء لأن فيه ماليس فيهم ؛ وتراهم يظهرون الى جانبه أشياء ثابتة في معانيها ، أما هو فتراه من جميع نواحيه يتلاطم كالأمواج العاتية

وتلك الثورة هي التي تتكلم في فمه أحياناً فتجعل لبعض كلماته قوة كقوة النصر وشهرة كشهرة موقعة حربية مذكورة

ولما كان هو المختار ليكون أباً للثورة — حرمته القدرةُ الالهية النسل وصرفت نزعةَ الأبوة فيه الى أعماله التاريخية ، ففيها عنايتُه وقلبُه وهمومُه ، وهي نسل حيٌّ من روحه ، ويكاد معها يكون أسدا يزأرُ حول أشباله

ولن يُذكَر السياسيون المصريون مع سعد ، ولن يذكر سعد نفسُه إذا انقلب سياسياً ، فان المكانَ الخالي في الطبيعة الآن هو مكانُ رجل المقاومة لا رجل السياسة . وهذا هو السبب في أن سعدا يُشعِر الأمة بوجوده لذةً كلذة الفوز والانتصار وإن لم يفز بشيء ولم ينتصر على شيء ؛ فاطمئنان الشعب إلى زعيم المقاومة هو بطبيعته كاطمئنان حامل السلاح إلى سلاحه

وسعد وحده هو الذي أفلح في أن يكون أستاذَ المقاومة لهذه الأمة ، فنسخ قوانين وأوجد قوانين ، وحمل الشعب على الاعجاب بأعماله العظيمة ، فنبَّه فيه قوةَ الاحساس بالعظمة فجعله عظيما ، وصرفه بالمعاني الكبيرة عن الصغائر ، فدفعه إلى طريق مستقبله يُبدع إبداعَه فيه

صور سياحية

٢ ـ صروح باريس

وطرف من معالمها وآثارها

بقلم سائح متجول

دار الحديث على ظهر السفينة بيني وبين صديق ممن درسوا فى باريس وعرفوا كثيراً من معالمها وأحوالها ، فقال لى حين أعربت له عن آرائى فى باريس ومجتمعاتها وخواص حياتها الاجتماعية : « خذ باريس وحدها ، واترك من فيها »

وهى تفرقة فى موضعها ؛ ففرق بين باريس العاصمة التالدة التى تزخر بالربوع والمعاهد الأثرية والعلمية الجليلة ، وبين المجتمع البارزى وخلاله ومظاهر حياته

وسنخص باريس بالحديث فى هذا الفصل ، ونحاول أن نعرض لمحة من معالمها ومعاهدها وآثارها العظيمة

باريس عاصمة القرون والأجيال المتعاقبة ؛ وإنك لتلمح فى ربوعها ومعاهدها هذا التعاقب فى القرون والأجيال ، فمن آثار رومانية وقوطية ، الى آثار العصور الوسطى ، ثم عصور الملكية الزاهرة وآثار الثورة ثم الامبراطورية والعصر الحديث ؛ وهذه الأجيال المتعاقبة هى فخر العاصمة الفرنسية ، وتراثها من أجل ما عرفت الأمم والعواصم التالدة

وهذا التعاقب فى العصور ظاهر الأثر فى باريس وفى أحيائها ، فباريس مدينة عظيمة شاسعة الأرجاء ولكنها تبدو كأنها عدة مدن متباينة شيدت فى عصور وظروف مختلفة ؛ فمن أحياء قديمة تغص بالشوارع الضيقة والمبانى العتيقة وتحمل أسماء تاريخية لا شك فى قدمها ، ومن أحياء جديدة تلمح أثر التجديد فى شوارعها وميادينها الشاسعة ، ومن أحياء مزجت بين القديم والجديد ؛ وهذا التباين فى تخطيط العاصمة الفرنسية وفى أحيائها يجعل منها مدينة قليلة التجانس والتناسق ، بيد أن مسحة من الجلال والعظمة تطبع هذه المجموعة الضخمة المتباينة من المعالم والربوع

وفى باريس من المشاهد التاريخية الجليلة ومن المواطن والأحياء العظيمة ما يقتضى وصفه فصولا بأسرها ؛ ولقد خصت هذه المواطن ببعض الكتب الساحرة من قلم المؤرخ لينوتر وغيره ؛ وسنحاول أن نمر مسرعين بطائفة من هذه المشاهد والمواطن التى كتب عنها الكثيرون من قبل

إن أروع المشاهد التاريخية البارزية فى نظرنا هو قصر اللوفر وذخائره الفنية الجليلة ؛ فهذا القصر القديم الذى يجثم كالخلود على ضفاف السين ، يمثل أجيالاً من عظمة فرنسا وعظمة الملوكية الفرنسية ، وفى أبهاء اللوفر وقاعاته الرائعة تذكر عصور آل ڤالوا وآل بوربون : عصور فرانسوا الأول وكاترين دى مديتشى ، وهنرى الرابع ، ولويس الرابع عشر ، بكل ما فيها من روعة ودسائس ومنافسات ، ومآس دموية ، وأيام زاهرة

وتضم أجنحة اللوفر اليوم عدة من المجموعات الفنية الجليلة ، ولاريب أن متحف التصوير الذى يشغل عدة أبهاء شاسعة من اللوفر هو أعظم هذه المجموعات وأغناها ؛ فهنالك تمثل أقدم مدارس التصوير منذ بدء عهد الأحياء إلى أحدثها ، وهنالك مجموعات حافلة لأعظم أساتذة التصوير الايطاليين مثل ليوناردو داڤنشى ، ولى تسيان ، ورافائيل سانزيو ، وبورجينو وغيرهم ، وأعظم الأساتذة الأسبانيين مثل موريليو وفيلاسكيز ، وهنالك أيضاً مجموعات حافلة لأعظم المصورين المحدثين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ؛ وربما كانت مجموعات عصر الأحياء التى يحتويها اللوفر أعظم وأغنى مجموعات من نوعها بعد مجموعات قصر

إن هذا الشرق لا يحيا بالسياسة ، ولكن بالمقاومة مادام ذلك الغربُ بازائه ؛ والفريسة لا تتخلص من الحلق الوحشىّ إلا باعتراض عظامها الصُّلبة القوية

وكم فى الشرق من سياسى كبير يجعلونه وزيرا فتكون الوظيفة هى الوزير لا نفس الوزير ، حتى لو خلعوا ثيابه على خشبةٍ ونصَّبوها فى كرسيه لكانت أكثر نفعا منه للأمة بأنها أقل شراً منه ....

يا بنى كل الناس يرضون أن يتمتعوا بالمال والجاه والسيادة والحكم ، فليست هذه هى مسألة الشرق ، ولكن المسألة : من هو النبى السياسىُّ الذى يرضى أن يُصْلَب ....؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

الفاتيكان ، بل يلوح لنا أن فى اللوفر مجموعات لبعض الأساتذة أغنى من نظائرها فى الفاتيكان : وفى اللوفر أيضاً مجموعات فاخرة من التحف والحلى الملوكية التى تبهر الأبصار بجمالها وروعتها ؛ وبه أجنحة ومجموعات فنية أخرى تقتضى عدة زيارات لاستعراضها وتأملها

وما زال قصر اللوفر يحتفظ بروعته الملوكية سواء فى أبهائه وغرفه الداخلية أو فى واجهاته الخارجية ، ومازالت ساحته الشاسعة وأبراجه القائمة تحتفظ بجلالها القديم ؛ ومما يبعث الى الأسف أن ساحة اللوفر الكبرى مفتوحة من جانبيها لمرور السيارات الضخمة (الأومنبوس) ذهاباً وإياباً ، وفى ذلك تشويه للساحة وللقصر ذاته ، وإن كان فيه تسهيل للمرور ، واختصار للطريق

وفى قلب باريس عدة قصور تاريخيـة شهيرة أخرى نذكر منها قصر اللكسمبور الذى يقع فى حديقة اللكسمبور الشهيرة ، ويشغله الآن مجلس الشيوخ (السينا) ، وقصر بوربون الذى يشغله الآن مجلس النواب ؛ والقصر الملكى (الباليه رويال) الذى بناه الكردينال ريشليو لاقامته ، وتركه بعد وفاته للملك ، وسمى الباليه رويال ؛ وقصر التويلرى الذى بدأته كاترين دى مديتشى ، وأتمه هنرى الرابع ؛ ولهذه القصور التاريخية كلها سير وذكريات شهيرة تملأ صحفاً حافلة من الأدب الفرنسى ؛ وهنالك أيضاً قصر « الأليزيه » الذى يرجع إلى القرن الثامن عشر ، والذى جعل مقراً لرآسة الجمهورية فى العصر الأخير

وثمة أثران يحوطهما جلال مؤثر ، ويبثان إلى المتأمل شجناً خاصاً ، هما « دار الانفاليد » و « البانتيون » ؛ وتحتوى « دار الانفاليد » أو دار العجزة ، التى تقع فى شمال غربى باريس فى ميدان شاسع جداً ، فضلاً عن المستشفى الذى يخلد اسمها وصفتها ، على « قبر الأمبراطور » أو قبر نابليون . ويقع القبر فى طرفها الشمالى ، وهو عبارة عن حظيرة مستديرة تغطيها قبة عظيمة ، وقد نصبت فى وسطها منصة رخامية عاليـة ، ووضع فوقها تابوت فاخر من المرمر الأحمر القاتم يحوى رفات الأمبراطور ؛ ونصبت حول المنصة مجموعة من الأعلام التاريخيـة التى غنمها الأمبراطور فى مختلف المواقع الشهيرة ؛ مارنجو ، فاجرام ، أوسترلتز ، إيلو ، يينا وغيرها ؛ ومن بين هذه الأعلام علم كتب عليه « موقعة الأهرام » ، ولكن ليست عليه كتابة عربيـة تدل على أصله ؛ والحق أن منظر قبر الأمبراطور يبعث إليك كثيـراً من الروع والاجلال لذكرى ذلك الذى ملأت حياته وأعماله العسكرية الباهرة مرحلة كاملة من تاريخ أوربا بأسرها

وأما البانتيون ، فهو كما تعلم مقبرة الخالدين ؛ وقد كان فى الأصل كنيسة تسمى « سانت جنفياف » ، حولت أيام الثورة إلى مقبرة قوميـة للعظماء ؛ ويقع البانتيون فى شارع سوفلو فى الحى الجامعى على مقربة من الكليات ؛ وما زال البانتيون على وضعه الأول كنيسة فخمة تزين جدرانها طائفـة من الصور الدينية البديعة ؛ ولكن جلال البانتيون فى أقبيته السفلى ؛ ففى تلك الأقبية التى قسمت إلى أروقة وحظائر مختلفة يرقد عدة من أبناء فرنسا الخالدين من القواد والكتاب والمفكرين ؛ وربما كانت أسماء فولتير ، وروسو ، وديدرو ، وزولا ، وجوريس ، هى أعظم الأسماء رنيناً فى أقبيـة البانتيون ؛ بيد أن هنالك أسماء كثيرة من القادة والزعماء السياسيين أيام الأمبراطورية الأولى والأمبراطورية الثانية : هذا تابوت الماريشال ناى ، وهذا إناء يحتوى قلب ليون جامبتا ... وهذا تابوت جانجوريس الذى اعتبر يوم مقتله فى سنة ١٩١٤ خائناً للوطن ، واعتبر بعد ذلك بعشرة أعوام من أبطال الوطن ونقلت رفاته إلى البانتيون ؛ وهذا تابوت ڤولتير ؛ ولكن هل عثر الخلف حقاً برفات ڤولتير ؟ لقد ثار حول ذلك جدل منذ أعوام ، وقرأنا فى بعض الصحف الفرنسية الكبرى أنه قد عثر على هيكل عظمى فى بعض أقبية كنيسة فى روان ، يظن من شكل جمجمته وفكيه أنه هيكل ڤولتير ، خصوصاً وأنه روى أن الذى تولى دفنـه هو عمه راعى هذه الكنيسة ، وأنه دفنه فى بعض أقبيتها ، ولكن دليل البانتيون رفض أن يستمع إلى هـذه الرواية ويؤكد بكل قواه أن رفات فولتير ترقد فى التابوت المرقوم باسمه !

وكما أن باريس غنية بالقصور الملوكية القـديمة ، فهى غنية أيضاً بالكنائس الأثرية ؛ ومن أقدم وأشهر كنائس باريس كنيسة « نوتردام » التى يرجع بناؤها إلى القرن الثانى عشر ، والتى يقترن اسمها وسـيرتها بكثير من الحوادث التاريخية ؛ وكنيسة « سانت شابيل » التى تقع فى « الباليه دى جستيس » (دار العدل) ، والتى بناها لويس التاسع فى القرن الثالث عشر ؛ وهذه الكنيسة الصغيرة هى حلية ساطعة بين الآثار البارزية ، وقد بنيت على الطراز القوطى بافتنان بارع ، وزينت بنقوش

ذهبية رائعة ، وجعلت من طبقتين ؛ وكنيسة المادلين الفخمة التى تقع فى الميدان الشهير المسمى باسمها ، والتى ترجع إلى القرن الثامن عشر ؛ وكنيسة سان سلبيس التى تقع فى نهاية حى سان جرمان على مقربة من اللوكسمبور ، وقد أقيمت أمامها فى الميدان المسمى باسمها نافورة أثرية تحوطها تماثيل أربعة لبوسويه وفنيلون وفلشييه وماسيون ؛ وهنالك غير ذلك من الكنائس الأثرية مما يضيق المقام عن ذكره

وهنالك ، على مقربة من «سانت شابيل» ، فى الناحية الأخرى من دار العدل يوجد صرح يثير اسمه وذكرياته فى النفس شجناً وأسى : ذلك هو سجن « الكونسيرجيرى » الشهير الذى كان أيام الثورة مسرحاً لطائفة من المآسى المؤثرة . كم شهدت تلك الأبراج والغرف الحجرية الضيقة من محن وآلام ، وكم سكبت بين تلك الجدران القاتمة من دموع ؟ أجل هذا هو سجن « الكونسيرجيرى » الرائع الذى نقلت إليه مارى انتوانيت لتمضى أيامها الأخيرة قبل المحاكمة ؛ لقد كانت هذه الكهوف المظلمة تغص أيام الثورة بالمحكوم عليهم ، ومنها ينقلون إلى العالم الآخر . هذه غرفة مارى انتوانيت ، وهذا هو الأثاث الحقير الذى استعملته ملكة فرنسا زهاء شهرين ، وهذا هو مخدع الزينة الأخيرة الذى قص فيه شعرها وأعدت لتنفيذ حكم الأعدام : وهذه هى بعض مراسلات ووثائق رسمية تتعلق بالمحاكمة . . . . أجل هذه هى الآثار المادية لمأساة من أروع وأشنع مآسى التاريخ ! وإن القلب لينكمش أسى حينما يتأمل هذه الآثار المحزنة ويذكر ذلك العهد الدموى — عهد الأرهاب — بكل محنه وجرائمه وفظائعه

وماذا نذكر أيضاً من صروح باريس العظيمة ؟ هنالك الأوتيل دى ڤيل ، أو « دار البلدية » بماضيها الحافل ؛ ولقد كانت « الأوتيل دى ڤيل » فى مستهل الثورة مستودعاً للسلاح ، فاقتحمها الثوار يوم ١٤ يوليه ، وأخذوا منها السلاح الذى هاجموا به الباستيل : غير أن الدار التى تقوم اليوم ليست هى الدار القديمة ، وإنما هى دار جديدة أنشئت فى مكانها وباسمها ؛ وهنالك دار الأوبرا ، وهى محدثة ترجع إلى نحو سبعين عاماً فقط ؛ ولكن توجد ثمة طائفة أخرى من المسارح القديمة أشهرها مسرح « الاوديون » الذى أنشىء فى أواخر القرن الثامن عشر ، والذى ما زال يحتفظ بطابعه القديم ، ويشرف بحناياه وأعمدته القصيرة القائمة على الميدان الذى سمى باسمه من ناحية ، وعلى اللوكسمبور من الناحية الأخرى

وأما ميادين باريس فهى من أعظم وأروع ما تزدان به العواصم الجليلة : ؛ وربما كان أعظمها وأبدعها ميدان «الشانزليزيه» الذى لا تكاد تلم العين بجنباته الشاسعة ، والذى تنساب من إحدى ضفتيه حدائق الشانزليزيه الرائعة ؛ وميدان « الأتوال » المستدير الشاسع الذى يقوم فى وسطه قوس النصر ، وتنساب من أطرافه عدة شوارع هامة سميت بأسماء قادة فرنسا ، مثل لازار هوش ، وكليبر ، وفوش ؛ وقوس النصر من أعلام الآثار الباريزية يثوى تحت ظلاله « الجندى المجهول » ، ويحج إليه الزائرون أفراداً وجماعات فى خشوع وإجلال ؛ وميدان الشان دى مارس حيث يقوم برج إيفل الشهير ، وميدان الكونكورد حيث تقوم مسلتنا المصرية ، وميدان فندوم الذى يقع بجواره ويزينه عمود من أعمدة الحرية ، وميدان المادلين الذى تتفرع منه أهم الشوارع التجارية ؛ وميدان الباستيل الذى كان يشغله سجن الباستيل قبل الثورة ، ويدل الآن عليه عمود الحرية القائم مكانه

وتزدان باريس بعدة من الحدائق والبساتين الشهيرة ، وفى مقدمتها حديقة اللوكسمبور الشاسعة ، التى تزينها بعض البحيرات الصغيرة وتماثيل لملوك فرنسا وملكاتها ؛ وبستان مونصو ؛ وحدائق الاليزيه وغيرها ؛ وأروع من ذلك كله غابة بولونيا التى تقع فى غربى باريس ، وهى بسيط شاسع من الأحراج النضرة تتخللها طرق نظمت أبدع تنظيم ، بعضها للسيارات ، وبعضها للفرسان ، وبعضها للسائرين ؛ وتقدم هذه الغابة الشهيرة بطرقها ومتنزهاتها منظراً يأخذ بالألباب ، ويذكى الخيال ، وينعش المشاعر ؛ ولقد كانت غابة بولونيا وما زالت متنزه الأرستوقراطية ، وملتقى المحبين ، يؤمون طرقاتها وأحراجها الساكنة فى أمن وطمأنينة ؛ ولم نر فيما رأينا من متنزهات أوربا وأحراجها النضرة ، أبدع منظراً من هذه الغابة الساحرة التى تحمل طابع العناية الشاملة فى سائر أنحائها

هذه لمحة سريعة عن صروح باريس ومواطنها الأثرية العظيمة ، ولسنا ندعى أنها لمحة شاملة ، وكل ما هنالك أننا ذكرنا أهم ما يسترعى عناية السائح المتجول ؛ أما الحديث عن الصروح والمعاهد العلمية فقد رأينا أن نستبقيه إلى فصل خاص

(يتبع) (***)

الجانب الصوفى في الفلسفة الاسلامية

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

— ٤ —

لم يقف تصوف الفارابى عند المدرسة الفلسفية ، بل تعداها إلى مدارس أخرى صوفية فى الاسلام . وعلى رأس هذه المدارس يجب أن نضع مدرسة الأشراقيين التى عاشت فى بلاد الفرس إلى القرن السابع عشر . ومؤسس هذه المدرسة هو السهروردى أو الشيخ المقتول المتوفى سنة ١١٩١ م . وكان ذا اطلاع واسع وخبرة تامة بالفرق الفلسفية التى تأثر بها عامة وبرجال مدرسة الاسكندرية وفلاسفة الاسلام السابقين بوجه خص . ويظهر أن سعة اطلاعه ولدت فيه رغبة التوفيق بين الفلسفات والفلاسفة المختلفين[١] . فالفلاسفة عنده رجال أسرة واحدة وفروع شجرة مباركة تمد الأنسانية بما فيها من ثمار وخيرات . أمبدوقل وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطوطاليس وبوذا وهرمس ومزدك ومانى ، وإن انتسبوا الى شعوب مختلفة ، هم أبناء الأنسانية أولا وبالذات ورسل السلام والاصلاح[٢] . وعلى الجملة زهاد الهند وفلاسفة الاغريق وحكماء العراق يسمون وراء غاية واحدة ، ويعملون على نشر نظرية ثابتة ، وينطوون تحت لواء فلسفة واحدة ، هى الفلسفة الأشراقية . ومبدأ هذه الفلسفة وأساسها الأول أن الله نور الأنوار ومصدر جميع الكائنات . فمن نوره خرجت أنوار أخرى هى عماد العالم المادى والروحى . والعقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها[٣] . فالفلسفة الأشراقية تعتمد إذن على نظرية العقول العشرة الفارابية مختلطة بعناصر مزدكية ومانوية

وإذا كان العالم فى جملته قد برز من أشراق الله وفيضه ، فالنفس تصل كذلك إلى بهجتها بواسطة الفيض والأشراق . فاذا ما تجردنا من اللذات الجسمية تجلى علينا نور إلهى لا ينقطع مدده عنا . وهذا النور صادر عن كائن منزلته منا كمنزلة الأب والسيد الأعظم للنوع الانسانى ؛ وهو الواهب لجميع الصور ومصدر النفوس على اختلافها . ويسمى الروح المقدسة أو على لغة الفلاسفة العقل الفعال[١] . ومتى ارتبطنا به أدركنا المعلومات المختلفة واتصلت أرواحنا بالنفوس السماوية التى تعيننا على كشف الغيب فى حال اليقظة والنوم . وليس للتصوف من غاية إلا هذا الارتباط ؛ والأشراقيون يسمون اليه ما استطاعوا وكثيراً ما ينعمون به . أما الأنبياء فهم فى اتصال دائم وسعادة مستمرة . يقول السهروردى : « إن النفوس الناطقة من جوهر الملكوت ، وإنما يشغلها عن عالمها هذا القوى البدنية ومشاغلها ، فاذا قويت النفس بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر تتخلص أحياناً إلى عالم القدس ، وتتصل بأبيها المقدس وتتلقى منه المعارف ، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منها المغيبات فى نومها ويقظتها كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نفس »[٢]

فالفلسفة الاشراقية التى دعا اليها السهروردى متأثرة فى بدئها ونهايتها بتعاليم الفارابى ، ذلك لأنها مؤسسة على نظرية الفيض الفارابية ونزاعة إلى العالم العلوى ؛ غير أن هذه الفلسفة صوفية كلها أو التصوف هو كل شىء فيها ، فى حين أنه لدى الفارابى ليس إلا قطعة من مذهب متنوع الأجزاء . هذا إلى أن الأشراق لا يقنع بالاتصال بالعقل الفعال وحده ، بل يطمع فى الاتحاد بالله مباشرة والامتزاج بنور الأنوار[٣] ؛ فكأن السهروردى حين دعى للاختيار بين تصوف الحلاج وتصوف الفارابى رأى أن يجمع بينهما ، وأن يقول بالاتصال والاتحاد معاً ؛ وهذه نزعة توفيق أخرى تتفق مع روحه العامة

هذا التصوف العقلى المبنى على فكرة الفيض يبدو كذلك عند صوفى وفيلسوف آخر من رجال القرن الثالث عشر . ونعنى

(١) Van den Bergh, Suhrawardi, dans Encyc. de l. Islam
(٢) السهروردى ، حكمة الأشراق ، ص ٣٧١
(٣) السهروردى ، هياكل النور ، ص ٢٨ — ٢٩ و ٣٢

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٨
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٤ — ٤٥
(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٥ — ٤٦ — حكمة الاشراق — ص ٣٨١

به ابن سبعين المفكر النقادة الذى لم يُدرس بعد دراسة كافية ، ولا ثقة به على الرغم مما فى آرائه من حصافة وفى أفكاره من عمق ودقة . وعل أ كبر مصدر نعتمد عليه فى تعرف نظرياته هو المراسلات التى دارت بينه وبين فردريك الثانى ملك ألمانيا وأمبراطورها المتوفى سنة ١٢٥٠ . وقد بقيت هذه المراسلات مجهولة الى أن اهتدى إليها المستشرق الايطالى أمرى سنة ١٨٥٣ فى مخطوطة من مخطوطات أكسفورد تحت عنوان : الرسائل الصقلية[١] . وبعده بنحو عشرين سنة قام بتحليلها فى الصحيفة الأسيوية الفرنسية المستشرق الدنمركى الشهور مهرن[٢] . وقد وقفنا بأنفسنا على هذه المخطوطة فوجدناها مملوءة بالعلامات والملاحظات الدقيقة ، وما أجدرها بأن تطبع وتنشر . وكلنا يعلم ماكان عليه فردريك الثانى من رغبة فى العلم وحب للأدب والفلسفة العربية . لهذا وجه الى ابن سبعين عالم صقلية وفيلسوفها فى ذلك العهد أربعة أسئلة متعلقة بقدم العالم ، والمقولات العشر وما وراء الطبيعة فى غايته ومبادئه ، وطبيعة النفس . وهذه الأسئلة تلخص تماماً المشاكل الهامة التى كانت تشغل المفكرين عامة وتلاميذ أرسطو على الخصوص فى ذلك العصر . وقد أجاب عليها ابن سبعين إجابة موسعة مستفيضة بحيث ضمنها كل مذهبه وآرائه الخاصة ؛ وفى مقدور من يرجع إليها معتمداً على بعض المصادر الأخرى أن يكوّن فكرة كاملة عن نظرياته الصوفية والفلسفية . ولسنا هنا بصدد هذا العرض الطول ؛ وسنكتفى بأن نشير إلى ما يتصل منه بموضوعنا . فالله فى رأى ابن سبعين أصل العقول المتصرفة فى الكون ، صدرت عنه بمحض الفيض والأنعام ، والعقل الفعال وهو أحدها يدبر شؤون الأرض ويمد الكائنات بصورها النباتية ، فهو مصدر النفوس البشرية على الاطلاق ؛ وإذا كانت النفوس صادرة عنه فهى ميالة دائماً إلى الاتصال به ؛ ولا يحول دونها وذلك إلا أدران الجسم وشهواته . فاذا ما تفرغ الانسان للدراسة والنظر فاز بالمعرفة الكاملة والحقيقة المجردة ، وسما إلى درجة العقل الفعال[٣]

(١) Amari, Journal asiatique, 1853, 5e série, t. I, Fév-mars.

(٢) Mehren, Ibu Sab'in. Correspondance avec l'empereur Frédéric II dans Journal asiatique, t. XIV (1879).

(٣) Ibid., p p. 459 — 360, 423 — Massignon, Rècueil. p. 133.

هذه النظرية ، كما ترى ، تكرار حرفى لما قاله الفارابى وابن سينا ، وصاحبها نفسه يصرح بأنه أرسطى كسابقيه من فلاسفة الاسلام وإن كان ينقدهم نقداً مراً[١] . وقد بنى تصوفاً عقلياً على أساس فلسفى فهو صوفى على طريقة الفلاسفة[٢] ؛ وفيما يتعلق بمشكلة الجذب والالهام يخيل إلينا أنه أميل إلى الفلاسفة منه إلى الصوفية ؛ فهو يرفض الحلول والاتحاد اللذين ذهب إليهما الحلاج ويقصر السعادة على مجرد اتصالنا بالعقل الفعال وارتباطنا به ارتباطاً روحياً معنوياً[٣]

فتصوف السهروردى وابن سبعين مؤسس على دعائم فلسفية . وفى رأيهما أن الكائن الممكن يستلزم كائناً آخر واجب الوجود بذاته ليمنحه الوجود ويفيض عليه بالخلق والابداع . وهذا الكائن الواجب الوجود هو الله جل شأنه ؛ فهو موجود أزلاً بنفسه ودون حاجة إلى أى موجد آخر وإلا امتدت السلسلة إلى ما لا نهاية . والكائنات الأخرى جميعها مظاهر لعلمه وإرادته ، ومنه تستمد الحياة والوجود ؛ فوجودها إذن عرضى وبالتبع . وعلى هذا ليس ثمت إلا كائن واحد موجود حقيقة وضرورة ، بل هو الوجود كله ، والكائنات الأخرى لا تسمى موجودات إلا بضرب من التوسع والمجاز . هذه هى نظرية وحدة الوجود التى اعتنقها جماعة من الصوفية بعد انحطاط الدراسات الفلسفية فى الاسلام . وقد تكونت فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، وانتشرت بعد ذلك فى بلاد الأندلس والمشرق . ومن أكبر أنصارها محيى الدين بن العربى المتوفى سنة ١٢٤٠ ميلادية ، وجلال الدين الرومى المتوفى سنة ١٢٧٣ ، وشعراء آخرون من متصوفة الفرس[٤] . وبصدد مذهب الوحدة هذا كما لاحظ ابن تيمية إلى ابن سينا ، أو كما نلاحظ نحن إلى الفارابى[٥] . وإذا كان الله هو الوجود الحق وجب أن تتلاشى فيه سائر الموجودات الأخرى . وهنا يختلط التصوف بالفلسفة اختلاطاً كبيراً . فكأن مذهب المشائين من العرب لما حورب فى شخص

(١) Ibid., p p. 129 et suiv.

(٢) Mehreu, Journal asiatique 145.

(٣) Ibid., p. 390.

(٤) Nicholson, The Legacy of Islam, p p. 223 et suiv.

(٥) Massignon, Recueil, p. 187.

فى الأدب المقارن

الفكاهـــة

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

إذا انطوت الفكاهة على صادق حكمة أو نافذ نظرة، وأودعت العبارة المحكمة اللائقة بها، كانت فى الفرد دليل صفاء الذهن ولطافة الحس، وفى الأدب مظهر الرقى والحيوية، وفى الأمة عنوان التحضر ورقة الطبع. والفكاهة عند ذلك لا تقل مكانة عن أرزن الجد، بل ربما بذته وكانت مرآة لميول الفرد والمجتمع أصدق تصويراً من مرآة الجد المحض؛ والأدبان العربى والانجليزى حافلان بضروب الفكاهة وأوضاعها، يتفقان فى بعضها ويفترقان فى بعض آخر، تبعاً للأحوال الاجتماعية

وإذ كانت الفكاهة كما تقدم دليل التحضر ورقة الحاشية قلت آثارها فى الأدب العربى حين كان أقرب إلى البداوة زمن الجاهلية ومستهل الاسلام. ففى أدب ذلك العهد نرى آثار اللَّسَن وحضور البديهة وقوة العارضة، وتخطئ مظاهر الدعابة الدمثة والعبث الرقيق. وما نحسب إلا أن الرسول (ص) الذى كان يمزح ولا يقول إلا حقاً كان يمتاز من معاصريه — فى جملة ما امتاز — بلطف الروح وعذوبة الدعابة، فقد أُثِرَتْ عن صحابته المقربين وخلفائه الراشدين أخبار تنبئ عن متانة الخلق وحرارة الايمان وقوة الجلد والكفاح، ولم يُؤْثَرْ عن كثير منهم براعة الدعابة ولا الميل إلى الفكاهة

فلما استوطن العرب الأمصار، واصطنعوا حياة الدعة والاستقرار، وتذوقوا الحضارة والترف، ظهرت نتائج كل ذلك فى أدبهم، وكثرت الفكاهة فى الشعر والنثر، بل ظهرت طوائف من المجان المتظرفين الذين يصطنعون خفة الروح ويتهكمون بالجد والجادّين من رجال العلم والدين، جاعلين شعارهم قول أحدهم ابن هانئ:

دع عنك ما جدوا به وتبطل وإذا لقيت أخا الحقيقة فاهزل

ومن أظهر مواضيع الفكاهة فى العربيــة التبرم بالثقلاء، والنيل من البخلاء، ووصف الأكولين والمطفلين، والتهكم بمدّعى العربية من الموالى، وعبث المجـان بالمتخشمين المتورعين، والسخرية بالمنهزمين من القواد والمقاتلين؛ وكل هذه أبواب من القول منتزعة من حياة العرب فى ذلك العهد، وكلها صفات مضادة لما كان الرجل ذو المروءة الحريص على حسن الأحدوثة يتحلى به أو يحب أن يعرف عنه

وتفنن المتهكمون بالبخلاء، فتحدثوا عن وعودهم المطولة، وحجابهم الغلاظ، وهباتهم الضئيلة: كالطيالس التى تتجنى الذنوب على الرياح، وتعرف الطريق إلى الرفاء، من كثرة ترددها عليه صباح مساء

ومن بارع التهكم بأدعياء النسبة العربية قول بشار:

ارفق بعمرو إذا حركت نِسْبَتَهُ فانه عربى من قوارير

ما زال فى كير حداد يردده حتى غدا عربياً مظلم النور

ويشترك الأدبان العربى والانجليزى فى أبواب من الفكاهة خاصة، لعلها تستثير روح العبث فى النفس الانسانية على اختلاف الأجيال والأمم، كالتحذلقين من أهل الفنون من شعراء وممثلين ومغنين والمدعين لتلك الفنون وأشباهها. فالتحذلق والادعاء سببان خالدان من أسباب ولوع الناس بالتصفين بهما، وما زال

الفلسفة وجد ملجأ لدى الصوفية. وكثير من الأفكار الفلسفية المقوتة تبناه الصوفية وأبرزوه فى صور أخرى مقبولة ولو إلى حين. وفى رأينا أنه لا يمكن أن يدرس تاريخ التفكير الفلسفى الاسلامى فى العصور الأخيرة دراسة كاملة منعزلاً عما كتبه المتصوفة وعلماء الكلام

بيد أن الصوفية بدورهم لم يسلموا من شرور الفلسفة وويلاتها، وما أن تفلسفوا حتى أضحوا عرضة للمحاربة والانتقام. فالسهروردى قتل بأمر صلاح الدين؛ وابن سبعين انتحر فى مكة بسبب مهاجمات وجهت إليه فى الغالب؛ واتهم معاصره ابن العربى بالألحاد والزندقة من كثير من أهل السنة (١)

(يتبع) ابراهيم مدكور

(١) Mehren, Journal Asiatique, (1879), p p. 338 et suiv. C. de Vaux, Les Penseurs de l'Islam, t. IV, p. 232.

المرء بخير حتى يدّعى ما ليس له ويتكلف الاغراب ؛ والنفس الانسانية بطيئة متثاقلة إلى الاعتراف بفضل الأغيار ، دع عنك الاعتراف بالفضل لمن يدعيه وليس من ذويه ؛ هناك تثور النفوس وتلجأ إلى أقسى أسلحتها وهو التهكم

فشكسبير يسخر على لسان هملت من متحذلقى الممثلين فى عصره ، ويجعل الثائرين المطالبين بدم قيصر ينصرفون هنيهة عن وجهتهم إلى مهاجمة شاعر لغثاثة شعره ؛ والجاحظ يقول فى صاحب له متحذلق متعالم : « يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب » ، وابن الرومى أوْسَعَ مَن لم يَحمَدْ من المغنين والمغنيات تهكما ، وصوّر أحدهم أقبح صورة فى قوله :

وتحسب العينُ فكّيه إذا اختلفا
عنـد التنغُّم فكّىْ بغل طحان

وفى الأدب الانجليزى ضروب من الفكاهة منتزعة من مجتمعِه الخاصة : كالتهكم بالمدعين النبل الاجتماعى ، والمحْدَثى النعمة ، والمتشدقين بضخم الكلمات لا يفقهون معانيها ؛ ذلك أن المجتمع الانجليزى — على كون نظامه الحكومى ديموقراطياً — هو أرستقراطى شديد التفريق بين الطبقات ، يتعالى النبلاء فيه عن الدهماء تعالياً لا يقل عن ترفعهم عن أبناء الشعوب الأخرى ، ويكاد يجعلهم أمة داخل أمة ؛ وبعض العصاميين الذين يؤثّلون ثرواتهم فى ميادين الأعمال أو فى المستعمرات يتطلعون إلى الانغمار فيهم ، ويتشبهون بهم تشبهاً يتعلق بالظواهر ويستثير السخرية . أما التشدق بضخم الكلمات فرجعه إلى تكوُّن اللغة الانجليزية من أصول كثيرة أبرزها اللاتينية الوعرة الألفاظ الكبيرة المشتقات

ففى كثير من القصص والروايات الانجليزية يظهر الأشخاص المتصنعون السمو الاجتماعى المتكلفون رقة المظهر ودماثة الحديث ، والآخرون المكاثرون باطلاعهم على اللغات الكلاسية المقحِمون لجافى الألفاظ فى أحاديثهم ، خالطين صحيحها بخطئها ، حتى ليقولون عكس الذى يقصدون أحياناً

وللفكاهة مجال رحب فى القصة ، حيث يتحرك الأشخاص ويعملون أعمالهم ويتبادلون الأحاديث ؛ ومن ثم تحفل القصص والروايات الانجليزية ببارع النكات ، وفكه اللفتات ، ومضحك المواقف والشخصيات ؛ ونجد الكثير من ذلك فيما قارب القصة من أوضاع فى الأدب العربى : ففى مقامات بديع الزمان ورسالة الغفران للمعرى فكاهات وسخريات هى غاية فى الامتاع والبراعة

والفكاهة من أمضى أسلحة الاصلاح الاجتماعى ؛ وقد استخدمها لهذا الغرض بعض فرسانها من الأدباء الانجليز . والمجال لها متسع فى الأدب الانجليزى ، حيث التمثيل والقصص يصوّران المجتمع وينقدانه ، وفى المجتمع الانجليزى ، حيث النقد النزيه مباح وحيث للرأى العام القول الفصل فى الحكم على الأنظمة والتقاليد . أما فى الأدب العربى فقلما اتجهت الفكاهة اتجاهاً اجتماعياً ، بل ظلت فردية كغيرها من أغراض الأدب ، إذ لم يكن الحكم المطلق الذى خضعت له الدولة العربية يساعد على نمو النقد واشتداد ساعد الرأى العام

وهناك لون من الفكاهة يرمى به المتفكه إلى ضد ما يقول : فيتقنّع بالجد وهو يبنى الهزل ، ويبدى الوقار ويخفى العبث ، ويتظاهر بالمدح والقدحَ يريد ، ويغالى فى التفخيم قاصداً التهوين . ويُدعى هذا الضرب من الفكاهة بالانجليزية irony ، وربما أمكن تسميته « التّنَدُّر » ، والأدب الانجليزى حافل به ، ولعله يناسب الطبع الانجليزى ، وهو شديد المضاء فى أيدى الناقدين لأحوال المجتمع . ومن فرسانه المجلين (سويفت) . أما فى العربية فهذا النوع من الفكاهة نادر ؛ ولعل أصلح مثال له مقطوعة المتنبى التى نظمها حين رأى أعرابيين يتفاخران بقتل جرذ ، ومنها يقول :

وأيكما كان من خلفه ؟ فان به عضة فى الذنَب

وقول بشار وقد تفاخر أمامه رجل بأنه شاعر من نسل شعراء : « إذن أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً »

ويشترك الأدبان فى ضرب من الفكاهة هو هجاء المرء نفسه وضحكه من عيوبه . على أنه فى كلا الأدبين غرض من القول متكلف ، يُطلب به التظرف ويعوزه الصدق والعمق . فالانحاء على النفس بالتثريب ليس خلقاً فى الانسان بله الأديب ، والذى يتصنع نقد نفسه لا يضع يده على مغامزه وعوراته الصحيحة ، ولا يسطر لنفسه إلا مدحاً بما يشبه الذم ، ولو رماه غيره بما رمى به نفسه طلباً للظرف لثار به وأنكر مزاعمه أشد إنكار

ولما كانت المرأة الانجليزية أكثر بروزاً فى المجتمع والأدب من المرأة العربية ، فقد نالت دونها حظاً عظيماً من مداعبة الأدباء الذين أوسعوا غرائزها ومتناقضات أفعالها درساً وتصويراً . ومن أبرع من كتبوا فى ذلك (بوب) الذى نظم قصيدة طويلة على طراز الملاحم الكلاسية أودعها وصفاً دقيقاً لأحوال فتاة جعلها نموذج المرأة فى مجتمعه ، من احتفالها بالأزياء وتذبذبها بين المعجبين بها ، إلى كل صغيرة وكبيرة فى حياتها المنزلية والخارجية فى أسلوب متهكم شائق

ومن الفكاهات ما قوامه التلاعب بالألفاظ المتشابهة فى النطق أو الكتابة ؛ وقد كان هذا العبث اللفظى شائعاً على عهد شكسبير الذى ضرب فيه بسهم ، ثم أهمل بعد ذلك فى الانجليزية واستثقل . أما فى العربية — حيث كانت للألفاظ عند الأدباء دائماً مكانة عالية — فظل هذا الضرب من التفكه مألوفاً . فأبو نواس يوافق مدعياً للنسبة العربية على انتمائه إلى طى ، ولكن مع إضافة نون وباء فى أول الكلمة . ويقول فى بخيل :

وما خبزه إلا كآوى يُرَى ابنه ولم يُرَ آوى فى حزون ولا سهل

وقد ازدهرت الفكاهة فى الشعر العربى فى صدر العصر العباسى ، وبرز فى مضمارها فى أجيال متتالية طبقاتٌ على رأسها بشار فأبو نواس فدعبل فابن الرومى ؛ وتمتاز فى شعر الأوَّلَيْن بالاستهتار ، وفى شعر الثانى بالصرامة ولذع السخرية ، وفى شعر الأخير ببراعة التصوير . وازدهرت الفكاهة فى الشعر الانجليزى فى العهد الكلاسى أى فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، وهو العهد الذى اشتد فيه الأثر الفرنسى فى الأدب والمجتمع الانجليزيين ، وكان من فحول الفكاهة فيه سويفت وبوب ودريدن

والحق أن ذلك العهد هو أشبه عهود الأدب الانجليزى بالأدب العربى ؛ ففيه انضوى الأدب حيناً تحت جناح الملكية وسار فى ركاب الحاكمين ، واختلط بالسياسة وخاض غمارها ، وانغمر فى جو المدنية وأهمل جانب الطبيعة ، وتأنق فى اللفظ وأغرب فى المعنى ، واحتدمت الخصومات الأدبية السياسية بين رجاله مماثلةً لما كان بين جرير والفرزدق ، وبشار وحماد ، والبديع والخوارزمى ، من مصاولات ومقارعات ؛ وولِعَ الأدباء بالوزراء والقواد ، وفشت الفكاهة واتخذها فريق سبيلا للمجون ، وفريق ذريعة للنقد الاجتماعى والاصلاح

وقد نظم دريدن أحد فحول ذلك العهد قصيدة هجاء لشاعر مزاحم له أفعمها بالتهكم المكسو بثوب الجد ، وبوأ غريمه « عرش الغباوة » فى جو من الجلبة والمراسيم والمواكب والشارات مماثل لتتويج الملوك ، وجعله يلى ذلك العرش معهوداً اليه من شاعر غبى من شعراء الجيل السابق لجيلهما . ولهذا القصيد الساخر مماثل فى النثر العربى شديد الشبه به ، وإن يكن قد كُتب قبله بنحو ثمانية قرون ، أعنى العهد الذى كتبه الصابى على غرار عهود الخلفاء والأمراء إلى عمالهم ، على لسان مطفل أكول إلى آخر هو المقصود بالدعابة ، وقد بدأه بقوله : « هذا ما عهد به على بن أحمد المعروف بعليكا ، إلى على بن عرس الموصلى حين استخلفه على إحياء سننه ، واستنابه فى حفظ رسومه ، من التطفيل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها ، ويجرى معها فى سوادها وأطرافها ، لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللَّقم ، وجودة الهضم »

وتتسم الفكاهة فى الأدب الانجليزى على العموم بالعفة التى هى سمة الأدب كله كما سبق ذكره فى كلمة سالفة ؛ أما فى الأدب العربى فتهوى أحياناً فى يد الهجائين إلى حضيض السباب ، وفى يد المجان المستهترين إلى وهدة الأفحاش . وتتعلق الفكاهة الانجليزية بالصفات والأخلاق والأعمال وتكشف التناقضات من آراء الناس وأقوالهم ؛ وفى العربية يتناول العبث الخَلْقَ بجانب الخُلُق . فدعابات ابن الرومى ملأى بذكر أعضاءِ الجسم من أنوف وأقفية ولحى ، وعيوبِه من حدب وصلع وعور . ويُشَبَّهُ المعبوثُ بهم بالحيوان ، فيقول حماد وقد زعم بشار أن له جنياً يُوحى إليه :

إذا خاطب الجنى قرداً مشنَّفاً فقل لخنازير الجزيرة أبشرى

وفى كلا الأدبين فحول من الأدباء نأى بهم طبعهم عن الفكاهة ، وسما بهم قصدهم فى الحياة عن العبث ، واتسمت آثارهم وحياتهم بالجد والعبوس ، منهم فى الانجليزية ملتون ووردزورث وتنيسون ، وفى العربية المتنبى والشريف الرضى ؛ وأمثال أولئك عادة ذوو مطامع بعيدة يستغرق نشدانُها أنفسهم ، أو رسالات لا ينفكون عن النظر اليها ، أو مُثُلٌ عليا يُحسون أن التفكه يهبط بهم من عنانها

فخرى أبو السعود

نابليـــــون
وخطواته الأولى فى سبيل المجد

للأستاذ عبد المجيد نافع

لا يعرف التاريخ رجلاً اختلف الناس فى تقديره والحكم عليه ، مثل نابليون بونابرت . كان ولا يزال له أنصار ومعجبون يضمونه فى طليعة العظماء الذين أنجبهم العالم ، ويسبغون عليه أثواب الفضائل الانسانية التى ينبغى أن يتحلى بها الرجل العظيم . وكان ولا يزال له خصوم وحاقدون يجردونه من جميع الفضائل ، أستغفر الله بل يخرجونه من صفوف الانسانيـة ويسلكونه فى عداد الوحوش . فاذا كان «تين» يعترف له بالعبقرية الحربية ، والقدرة الادارية ، وينادى بأنه صب فى قالب لم يصب فيه أحد من قبل فى التاريخ الحديث ، وأن لا سبيل إلى وجود ضريب له إلا بأن نعود بالذاكرة إلى شخصيات الاسكندر وهانيبال ويوليوس قيصر - بعد أن يعطيك «تين» هذه الصورة الرائعة عن نابليون تراه يسارع إلى إدراجه فى عـداد الوحوش الخارجة عن دائرة الانسانية . وإذا كان بعض مؤرخى الانجليز ينادى بأعلى الصوت وملء الفم أن نابليون كان أعظم قائد حربى ، وأعظم رجل إدارى عرفه التاريخ ، فان بعض المرضى بمخالفة الاجماع ، والمولعين بالآراء الغربية ، يجحدون عبقرية نابليون الحربية ، ويجترئون على الدعوى بأن جميع المعارك الحربية التى عقد له فيها لواء النصر ، انمـا يرجع الفضل فيها الى قواده ، بل الى رجال مغمورين كانوا يعملون تحت رايته ، وأن التاريخ هو الذى أضفى عليه ذلك المجد الحربى ، حتى جعله أشبه الناس بالشخصيات الخيالية ، بل أقرب إلى الأساطير منه إلى الشخصيات التاريخية ؛ بل ترى نفراً يمعنون فى الاغراب فيزعمون أن نابليون لم يوجد ، وأن الاساطير هى التى خلقت تلك الشخصية الخيالية ، وصاغت تلك الخرافة النابليونية ، وأن شيئا من التحقيق التاريخى لا يلبث أن يمزق الأستار عن تلك الأوهام العالقة بالأذهان !

ومهما يكن من شىء ، فليس فى التاريخ شخصية شغلت أذهان الكتاب والباحثين مثل شخصية نابليون . وعلى الرغم من وفرة ما كتب عنه ، فان البحث فى تاريخه لم تخلق جدته ؛ ذلك بأن حياته العاصفة الحافلة بالعظائم تجمع بين روعة القصص وجلال الحقائق التاريخية

على أن ذلك الرجل العظيم لم يجد طريق المجد أمامه معبدة ، بل اجتاز الصعاب ، وتخطى العقبات ، وخاض غمرات الأهوال . ولقد تجهمت له الاقدار فى أول مرحلة من مراحل حياته ، ولم تبتسم له إلا بعد أن كاد يهوى فى غمرة اليأس ، ولم يفرض وجوده وكفايته على خصومه إلا بعد أن لقى منهم شتى ضروب العنت والمناهضة

ولا يتورع خصومه عن اتهامه بمجافاة وسائل الشرف فى سبيل بلوغ غاياته ، وتحقيق لباناته ؛ بل لا يتعفف الوالغون فى عرضه عن الجهر بأنه توسل بزواج جوزفين لتسلم قيادة الحملة الايطالية

هل وصل نابليون بكفايته وحدها أم أنه كان يدين بمبدأ : الغاية تبرر الوسائل ؟ وزواجه بجوزفين . هل أملته المصلحة ، أم كان مبعثه الحب ؟

مها يزعم الذين يشوهون نابليون ويهدرون آدميته ، فقد كان إنساناً بأوفى معانى الكلمة ، له قلب يصبو للنساء ، وعواطف تهوى الهن ؛ وإذ كان فى ربيع العمر ، فقد ترجم عن هذه العاطفة باعلان رغبته فى الزواج ؛ وكان يغبط أخاه جوزيف على توفيقه فى الزواج ، وطلب يد أخت زوجته فلم تبادله حبا بحب ، فتولاه اليأس منها ؛ على أنه لبث يحمل لها فى صدره أصدق عواطف الحب ، فلما بات رب التاج والصولجان ، وصاحب الهيل والهيلمان ، زوجها ببرنادوت ، وبوأ دزريه كليرى التى أخفق فى حبها ، عرش هولندا

واستطاع نابليون أن يندمج فى الأعمال الحربية ، ويعمل فى قسم الطبوغرافيا بلجنة السلام العام ؛ فكيف كان سبيله إلى الوصول ؟

لا نكتم الحق ، ولا نكذب التاريخ ، فقد دفع ثمناً غالياً فى سبيل ما وصل إليه ، وتوسل بذوى النفوذ وأصحاب السلطان وأقوياء الساعة لبلوغ ما بلغ ؛ ولعله بذل من عزة نفسه ، وطامن من كبريائه ، وأراق من ماء وجهه ، رجاء أن يطفئ شهوة الطموح

التى كانت تضطرم نيرانها بين جوانحه

ومهما حاول فى رسائله أن يكتم آلام نفسه ويخفى جروح قلبه ، فقد كان بائساً من الوجهتين الأدبية والمادية . ولقد طالما رآه الراؤون يضرب على غير هدى فى طرقات باريس ، يسير بخطى هوجاء مضطربة ، يحمل فوق رأسه قبعة تكاد تحجب عينيه ، ويرتدى سترة رمادية أخذت فيما بعد مكانها فى التاريخ . وإذا رأيت ثم رأيت ذراعين طويلتين تجنحان إلى الطول ، وتضربان إلى السمرة ، وقد جردهما صاحبهما من القفاز زعما منه بأن تلك نفقة لا غناء فيها ولا طائل تحتها ، ورأيت فى قدميه حذاء قد أسرع إليه البلى ، وما كان يروعك منه إلا النظرة الهائلة ، والابتسامة الخلابة اللتان تشرقان على مظهر ينم على مرض فى الجسم والنفس معاً

وكذلك كان نابليون يتهادى ببؤسه وحزنه فى الطرقات . ولقد قالت مدام بورين إنه شهد معهم رواية فى مسرح ، وكان النظارة جميعاً ينفجرون بالضحك ، فما راعها من نابليون إلا أن تراه وحده فى مثل صمت القبور

نعم ، فلقد كان فى ذلك الحين يحلق بخياله فى جو غير جو المسرح ، ويجهد قريحته فى ابتكار وسيلة للعيش ، إذ كان يرقب من ساعة لأخرى فصله من عمله . ولقد خيل إليه أنه شق طريقاً جديدة بالاتجار بتصدير أدوات المكاتب ؛ على أن تصدير صندوق كتب إلى مدينة « بال » ما لبث أن أيقظه من حلمه اللذيذ إيقاظاً خشناً ! ثم داعب الأمل بأن يأذنوا له فى الشخوص إلى تركيا لتدريب جيش السلطان

وما كان يلمح فى الأفق بارقة أمل ، وذهبت جهوده فى تولون وإيطاليا أدراج الرياح ، لأنه منى بوزير للحربية اسمه « أوبرى » لا يقوى على فهمه ، ولا يدرى من الأمور الحربية كثيراً أو قليلاً . فأما الذين كانوا يظللونه بحمايتهم وهم « باراس » و « فررون » و « ماربيت » ، وقد حارب تحت لواء الأولين ، وانتشل الأخير من بين مخالب الدهماء فى مدينة تولون ، فقد كانوا يغذونه بالوعود

على أن بارقة النجاح كانت تبدو فى الأفق الذى لا يرقبه نابليون ؛ وكان « بواسى دنجلاس » هو الذى أخذ بيده فوضعه فى الموضع الذى تتجلى فيه مواهبه لتولى القيادة العامة

وفى شهر يونيه من عام ١٧٩٥ ضاق « بونتيكولان » ذرعا باضطراب ادارة الحرب فى لجنة السلام العام ، فأشار عليه « بواسى دنجلاس » أن يستعين بخبرة جنرال عائد من ايطاليا وهو كفيل بأن يبذل له أثمن النصائح وأغلاها

فلما كان الغد قصد اليه نابليون ، فما هاله إلا أن يرى الضعف والهزال ماثلين فى شخصه . ولقد وعى التاريخ قوله : « رأيت شاباً أصفر اللون ، مكفهر الوجه ، مقوس الظهر ، تبدو عليه مظاهر الضعف والمرض » . على أن « بونتيكولان » قد استرعى نظره أن ذلك المخلوق الضعيف المهزول بصير بشؤون الحرب ، فطلب اليه أن يدون كتابة ما ألقاه أمامه شفهياً ، وأن يرفع اليه تقريراً . وكرت أيام ، والتقى « بونتيكولان » « ببواسى دنجلاس » فقال له : « لقد رأيت رجلك الذى بعثت به إلى ، ويلوح لى أنه مجنون ، إذ لم تحدثه نفسه بالعودة إلى ، وأكبر الظن عندى أنه وقع فى روعه أنك تسخر منه . كلفه بالحضور إلى غدا »

وتحت ضغط « بواسى دنجلاس » وإلحاحه قدم نابليون تقريره عن الحملة الايطالية ، فما راع « بونتيكولان » إلا علو كعبه فى الفنون الحربية ، فطلب اليه أن يعمل معه ؛ ولما سأله عن مطالبه أبدى رغبته فى العودة إلى جيش المدفعية برتبة قائد فرقة ، فأنكروا عليه الطموح إلى تلك القيادة وما يزال فى الخامسة والعشرين من عمره

وقد كان « ليتورنير » هو الذى وقف عقبة فى سبيل تولى نابليون ذلك المركز ، ومع ذلك لم يحمل له حفيظة فى قلبه ؛ فما لبث أن أصبح امبراطورا حتى عينه مديرا ثم مستشارا

وإن شئت أن ترى آية حية على وفاء نابليون فاذكر أنه ما كاد يصير قنصلاً حتى استقدم « بونتيكولان » ، فلما قدم إليه قال له : إنك اليوم المستشار ، فاعتذر بعدم بلوغه الأربعين ، فقال إذن فأنت مدير فى بروكسل أو فى أى بلد تختاره ، ذلك بأنى حريص على ألا أنسى خدمة قدمت إلى

وكان « بونتيكولان » ضامناً كفيلاً لأحد أصدقائه ، فلما أفلس تحمل بدين يبلغ ثلثمائة ألف فرنك ؛ فلما بلغ سمع نابليون ضيقه استقدمه إلى قصر التويلرى ولامه فى رفق على كتم ضيقه عنه ، ثم مالبث أن وفى له دينه

ولا نملك أن نترك تلك الصورة الرائعة للوفاء دون أن نضع

إلى جانبها صورة للجحود والكنود والعقوق الأسود ؛ أجل ففي جلسة ٢٢ يونيو من عام ١٨١٥ كان « بونتيكولان » الذي أغدق عليه نابليون ، بل الفارق إلى أذنيه في نعيم نابليون ، أول من خذل نابليون ، وعارض في بقاء الأمبراطورية !!!

وبينا كان بونابرت يرقب بفارغ الصبر أن تعينه لجنة السلام العام على رأس البعثة الحربيـة المزمع إرسالها إلى تركيا ، إذا به يتلقى والدهشة ملء نفسـه ، والأسى ملء فؤاده ، خبر تجريده من رتبته العسكرية ، تحت ستار الدعوى بأنه رفض قبول المركز المعين له في جيش الغرب

وكذلك تكون سخرية الأقدار !

وآمن نابليون بأن من المستطاع إلغاء قرار التجريد ، لكن لا مندوحة له عن التماس المعونة من أقوياء اليوم ، المسموعي الكلمة والاشارة ، فجد في طلبهم ، وتلمس العون من جانبهم

والتمس نابليون العون عند مدام تليان فحملته كتاب توصية إلى المسيو لوفوف ، فأجاب سؤلها وأذن لنابليون بالقماش الذي يصنع منه سترته التي أخذ منها البلى كل مأخذ

وطوع لنابليون ضميره أن يتوسل بمدام تليان لينتفع بجاه « باراس » ونفوذه . وإن تنس فلا ينبغي أن تنسى أن تلك السيدة كانت متبوئة عرش الجمال في باريس ، وأن صالونها كان الكعبة التي يحج إليها العظماء والكبراء ، وأن نابليون كان زرى الهيئة تكاد تقتحمه العيون ؛ ولذلك لم يكن يسترعى نظر أحد ، أو يلقى إليه المجتمعون بالاً ، وما كان يخوض معهم في الحديث إلا نادراً ؛ على أنه إذا تكلم تكشف عن بديهة حاضرة وذكاء متوقد

وفي ذات مساء اشتغل نابليون في صالون مدام تليان عرافاً ! أي والله عرافاً « يشوف البخت » ويجرى على سبيل العرافين ولهجتهم ! نعم لقد أخذ نابليون بيد مدام تليان يقلب النظر في كفها وينبئها بالمستقبل ، ويفيض عليها بطائفة كبيرة من الخيالات

وكم كانت صورة رائعة تحتاج الى ريشة المصور ! فهذا عاهل فرنسا في المستقبل ، والرجل الذي دانت له أوروبا وثل عروشها عرشاً فعرشاً ، ودك حصونها حصناً فحصنا ، وقوض ممالكها واحدة بعد أخرى ؛ هذا الضعيف المهزول ، الأنكد الأغبر ، الزرى الهيئة ، الخلق الثياب ، يقرأ المستقبل في كف ملكة الجمال في ذلك العصر ! فما أبعد الفارق وأعمق الهوة بين تلك المرأة المشرقة التي تخطر في مطارف النعيم ، وبين ذلك البائس الذي لا يكاد يخفى بؤسه ، ولا يستطيع أن يكتم حزنه وبثه من سخرية الأقدار ! وأية فكرة كانت تجول في ذلك الرأس المتعطش للمجد وصاحبها « يشوف البخت » التماساً لوجوه المعونة ! وإذا رأيت ثم رأيت جمعاً من السيدات يشهدن هذا المنظر وهن يضحكن ملء أفواههن من النبوءات التي يرتجلها نابليون ارتجالاً ومظهره الذي يدعو الى الرحمة ويبعث على الرثاء ! أنظر الى تلك السمراء الجميلة إنها جوزفين بوهارنيه . . . ولن تمضى خمسة شهور حتى تصبح قرينة للعراف الذي «يشوف البخت» . ولن تمر ثلاث سنين سوياً حتى تمسى شبه ملكة لفرنسا ، وما تلبث غير بعيد حتى يهرع البابا إلى باريس ليضع على رأسها تاج الأمبراطورة على الفرنسـيين ! تلك هي جوزفين التي ارتسمت صورتها في أفق المستقبل النابليوني من الليلة التي كان القائد الصغير يشتغل فيها عرافاً « ويشوف البخت »

كل أولئك لم ينفذ اليه نظر نابليون ، وهو يقلب كف مدام تاليان ، على رغم بعده ونفوذه ، ولو استطاع أن يشق حجب المستقبل ، وينبىء حقاً بما سيكون ، لملأ قلوب الحاضرات سروراً وأفواههن ابتسامات

لكن المستقبل علمه عند ربي ، والغد لله لا لنابليون ولا لغير نابليون

(البقية في العدد القادم)

عبد المجيد نافع
المحامي

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

— ٧ —

وأخيراً بدأت السعادة تدخل إلى قلب متشنيكوف ، فخصماؤه كانوا اقتنعوا بنظريته ولو بعض اقتناع ، والبعض كفّ عن مخاصمته لقلة جدواها ؛ ذلك أنه كان أصبر على التجربة منهم وأبعد عن الملل فيها ، وأنه كان أقدر على الكلام وأطول نَفَساً فيه ؛ ثم هو فى حجاجه أعلى صوتاً وأبعد صدى . فلما طلع عليه القرن العشرون استطاع أن يجلس فى سلام ويقعد إلى مكتبه فى اطمئنان فيكتب كتاباً كبيرا ضمنه كل الذى وجده فى أمر الحصانة . فكان رسالة ضخمة تحسبه قضى عمره فى إنجازها . وكتبها بأسلوب رائع يحسده عليه فلوبير Flaubert[1] ؛ وجاء فيها بآلاف الحقائق ، وصوّر كل حقيقة منها تصويراً واضحاً جذّاباً ؛ ولوى تلك الحقائق لية جميلة ظريفة لتجتمع كلها عند قصد واحد هو تدعيم نظريته وتعزيز آرائه فيها . كانت رسالته أشبه بقصة أبطالها الألوف المؤلفة من تلك الخلايا الأفّاقة التوّاهة — فاجوسات حيوانات الأرض جميعاً

وحبّبه صيته الذى كسبه فى الحياة ، فصار يلتذّ لذة عميقة بكونه حيّاً ، وقد كان قبل ذلك بعشرين عاماً يعاف الدنيا ويبغض العيش ، ويكره الناس أجداداً وأحفاداً ، ويرثى لنفسه أنه كائن ، حتى كان من ذلك أن قال لزوجته أُلجا : « إن من الاجرام طلب النسل ، وأن آدمياً يَمُدّ فى حبل الوجود بما يخلّفه من آدميّين لا يفعل ذلك وهو خالص الذمّة بريئها » . أما الآن وقد ابتسمت له الحياة فقد عطف على أطفال القرية : قرية سفر Sevres التى عاش بها ، وربّت على رؤوسهم وفرق فيهم الحلوى فأسموه

(١) هو جستاف فلوبير الكاتب الفرنسى الشهير ولد عام ١٨٢١ ومات عام ١٨٨٠ . اشتهر أول ما اشتهر بمؤلفه « مدام بوفارى » عام ١٨٥٧ (المعرب)

« بابا نوئيل »[1] . قال : « ما ألطف العيش وما أجمل الوجود ! » ولكن ما السبيل إلى استبقائه ، ما السبيل إلى التشبّث به وهو يُفلت من يديه هكذا سريعاً ؟ سبيل ذلك واحدة وحيدة — سبيل ذلك لا ريب العلم

كتب يقول : « ما المرض إلا حادث عارض من أحداث الحياة » . وقال : « إن العلاج لا يكفى (وهو لم يكتشف قط علاجا) ... فلا بد من تفهّم هذا المآل الذى يؤول إليه الناس تلك الغاية التى ينتهون إليها جميعاً . لا بد من تفهّم ذلك الدافع القاهر الذى يدفع بالانسان الى الشيخوخة فالموت على حين هو أحب ما يكون للعيش وأكثر تشبثاً بالحياة » . عندئذ نفض متشنيكوف يده من الفاجوسات وأخذ يبتدع علوماً جديدة يكون من غرضها فهم غاية الحياة وتفسير الموت ، وإن أمكن فالافلات منه ؛ وكان أحد هذه العلوم يبحث فى الشيخوخة فطلب له اسماً طنّاناً فكان جيرنتولوجيا Gerontology . وأسمى علم الموت ثاناتولوجيا Thanatology ، وما كان أفظعها من علوم . ولكن الآراء التى تضمنتها كانت مما تتفتح بها الآمال ويزدهر عليها الرجاء فى الأيام . وأجرى متشنيكوف فيها تجاريب ، وسجل فيها أموراً كانت بعيدة عن الصحة ، قليلة الحظ من الدقة ، بحيث يتحرك لها لوڤن هوك قلقاً فى مضجعه ، ويرغى بستور منها ويزبد فى قبره أسفاً على أن كان أذنَ لهذا الروسى المتبجّح أن يخطو خطوة واحدة فى معمله . ومع هذا ، ومع كل هذا ، فان طريقة استئصال داء من أقبح الأدواء المكروبيّة إنما اهتُدى إليها من هذه التجارب غير الدقيقة

خشى متشنيكوف الموت خشية شديدة ، ولكنه استيقن كارهاً أن الموت حتم لا مفر منه ، فانصرف يبحث عن أمل فى موت سهل يسير . وكان واسع القراءة شديد النهم فيها ، فذكر أنه جاء فى قراءاته على تقرير عن سيدتين عجوزين بلغت بهما الشيخوخة حداً رغبتا فيه عن الحياة وتمنتا الموت كما يتمنى أحدنا

(١) هو القديس نقولا . عاش حول نهاية القرن الثالث للميلاد فى آسيا الصغرى . ويتخذه الروس قديساً راعياً ، وهو كذلك راعى البحارة واللصوص والعذارى والأطفال ، وتجرى الخرافة بين أطفال أوروبا بأنه هو الذى يحمل إليهم هدايا عيد الميلاد يدخل بها إلى منازلهم من مداخن الدفايات . والفرنسيون يسمونه بابا نوئيل . والانجليز فاذر كرسمس أو سانتا كلاوس

وبطلب السرير بعد يوم مجهود مكدود . فصاح متشنيكوف : « هذا يدل على أن الانسان في غريزته ميل الى الموت كما فيها ميل إلى النوم . فلنرجو الآن أن نبحث عن طريقة تطيل الحياة في صحة وقوة حتى تنكشف فينا هذه الغريزة فنطلب القبر طوعاً »

وأخذ يَذْرع الأرض ويَشْبُرها بحثاً عن أمثال أخرى لهاتين السيدتين البخوتتين ، فزار عجائز في بيوتهن ، وجرى وراء شيخات درداوات صمّاوات يتحنهن تسآلا وهن لا يكدن يسمعن ما يقول . وذهب مرة كل المسافة من باريس إلى روان Ronen من أجل شائعة أشاعتها الجرائد ليلقَى سيدة قيل إنها بلغت الستة بعد المائة من عمرها . ولكن للأسف لم يلق فيمن لقي إلا كل امرأة تقوى على الحياة وتعتزّ بها ، ولم يجد أحدا يشتهي الموت اشتهاءَه النوم كما اشتهته السيدتان في الأقاصيص التي قرأها ، وبرغم هذا صاح قائلاً : « إن في غريزة الخلْق حبَّ الموت واشتهاءَه » ، أما الوقائع التي تنقض دعواه فما كانت تقلق باله أبدا

ودرس الشيخوخة في الحيوانات ، وأرسل له الناس كلاباً شيبا وقططا هدّها الكِبَر ، ودأبوا على إرسالها اليه ، ونشر بحثا جِدّيا في بَبّغاء خرق العادةَ فعاش سبعين عاما . وكان عملك سلحفاة ذكرا من سلاحف البحر أسكنه حديقة داره ، وكان له من العمر ستة وثمانون عاما . فألّف بينه وبين سلحفاتين أنثيين في مقتبل شبابهما فنتج عن هذا التأليف نسل عديد من سلاحف صغيرة ، ففرح متشنيكوف بذلك وامتلأ سرورا حتى فاض ، فقد كان دائم الخوف أن تذهب الشيخوخة بلذائذ الحب . وقد ذكر ما وقع من السلاحف : « إن الشيخوخة لا تتضمن هذا الضعف البالغ الذي يتصوره الناس »

ولكن لا بد من مدافعة الشيخوخة على كل حال فكيف السبيل إلى صدّها ؟ وكان عالمٌ إسكندناڤيّ يُدعى إدجرن Edgren درس تصلّب الشرايين ، فاقترح أن هذا التصلب هو علة الشيخوخة ، وارتأى أن من أسبابه شربَ الكحول وداءَ الزّهري Syphilis وطائفة أخرى من الأدواء .

وحدّث متشنيكوف نفسه : « إن تصلب الشرايين علّة الشيخوخة . وما عمر المرء إلا عمر شرايينه ! هذا حق لا مرية فيه » . اعتزم أن يدرس كيف أن داء الزّهري يصلب الشرايين وكان ذلك عام ١٩٠٣ . وكان متشنيكوف قبض جائزة مقدارها ٥٠٠٠ فرنك . وكان رو Roux نال جائزة أوزيرس الكبرى Osiris ومقدارها ١٠٠٫٠٠٠ فرنك . وكان الفرق كبيراً بين الرجلين ، والبون واسعاً بين طرائقهما في البحث ، وكان رو أقوم الرجلين طريقة ، ولكنه لزم متشنيكوف دائماً وربط حبله بحبله واطمأن إليه رغم جموحه . اختلف الرجلان اختلافاً كبيراً ، ولكنهما كانا سيَّين في قلة حرصهما على المال ، فاتفقا على أن يضمّا كل هذه الفرنكات ، وثلاثين ألفاً أخرى ابتزّها متشنيكوف تملّقاً وملاطفة من بعض أثرياء الروس ، وأن ينفقاها جميعاً في بحث هذا البلاء التناسليّ المسمَّى بالزُّهْريّ ذلك بأن يصيبا به بعض القردة Apes ، ثم يبحثا فيها بعد ذلك عن جرثومته ثم يتدرّجان من هذا إلى طريقة لمنعه فعلاجه إن وجدا إلى ذلك سبيلا . وفوق كل هذا أراد متشنيكوف أن يدرس فيه كيف تتصلب منه الشرايين

واشتريا بالمال قردة ، وأعانهما الحكام الفرنسيون بالكنغو الأفريقي على صيد القردة فبعثوا أولاداً من أهل السواد يجوبون الغاب ويمشطون الاحراج في طلبها ، ولم يمض طويل من الزمان حتى امتلأت حجرات واسعة في معهد بستور بأصوات الشمبانزي والأُوران أُوتان ، وامتزج صراخ هذه بصريخ قردة الهندوس المقدسة ومواء الماكاكس المضحك الصغير Macacus cynemolgus [1] ولم يلبثا أن وقعا على أمر خطير . وكانت تجاربهما لبقة بارعة ، وكان بها حسن نظام ووضوح لم يعهدا في تجارب متشنيكوف . وأخذ يتردد على معملهما طائفة من مناكيد الناس أصابها الزهري حديثا ، ومن أحد هؤلاء لقّحا قرداً فنجحت فيه التلقيحة الأولى وسرى فيه الداء . ثم قضيا بعد ذلك أكثر من أربع سنين في عمل شاق ينقلان الداء من قرد إلى قرد ، ويبحثان عن مكروبه الصغير الدقيق الخدّاع فلا يجدانه . ثم أخذا يُضْعفان سمّ الداء الذي استخرجاه وفشلا في رؤية المكروب فيه ، وأخذا يضعفانه بالأسلوب الذي اتبعه بستور في إضعاف جرثومة الكلب رجاء أن يَخرجا من ذلك على لقاح بقي منه . وماتت القردة من النيومونيا وبالسل موتة شنيعة ، ووجد بعضها الفرصة إلى الهرب فهرب . وبينا متشنيكوف يجرح القردة لينقل سم الزهري إليها في غير خفة يد كبيرة انقضت عليه تعضّه

(١) كل هذه فصائل من القردة واختيارها في البحث لأنها أقرب ما تكون في جثمانها شبهاً بالانسان (المترجم)

وتجرحه . ثم قام متشنيكوف بتجربة غريبة إلا أنها تَنُمّ عن ذكاء كثير : خدش أذن قرد وسقاه فى هذا الخدش من سم الزهرى ، وتركه أربعا وعشرين ساعة ، ثم عاد إليه فقطع أذنه ، ثم امتحن جسمه فلم يجد بأى عضو منه أثراً من داء الزهرى

عندئذ صاح متشنيكوف : « إن معنى هذا أن جرثومة الداء تتريث ساعات فى الموضع الذى تدخل منه إلى الجسم ، وفى الانسان نعلم من أى عضو من أعضائه يدخل الجرثوم ، ونعلم فوق ذلك متى يدخل فيه ، إذن فلعلنا نستطيع أن نقتل الجرثوم ، عند مدخله من جسم الانسان قبل أن ينتشر فيه »

ثم قام فأجرى تلك التجربة الكبرى ذات الأثر العملىّ الواسع فى أبحاث المكروب ، أجراها بعد كل هذا الكلام الطويل العريض الذى قضى السنين يقوله ويكتبه فى تعليل حصانة الانسان ، وأجراها وإلى جانبه رو يؤازره ويلح عليه بإعادة كل اختبار بأتيانه للتأكد منه . وفى هذه التجربة اخترع متشنيكوف مرهم كاورور الزئبق Calomel الذى به اليوم يطارد داء الزهرىّ فى جيوش البر وجيوش البحر فى كل قطر من أقطار الأرض : أخذ قردين وجرحهما ، ثم أعداهما حيث الجرح بمادة للزهرىّ جاء بها صبيحةً من إنسان ، وبعد ساعة دلك جرح أحد القردين بالمَرهم وترك الآخر ، وأخذ بقية زمنه يرقبهما ، فسَلم المرهوم وظهرت أعراض الداء فظيعةً بشعة على الآخر المتروك

ثم عاود متشنيكوفَ جنونُه الغريب القديم ، فلما تملكه نسى نَذْره الذى كان وأغرى طالب طبٍّ شاب يُدعَى مازونيف Maisonneuve بأن يتطوع له ، فلما رضى جاء به فى مجتمع محكّم من أكابر رجال الطب وعلمائه فى فرنسا ، وفى وسط هذا الجمع الموقّر وقف هذا الطالب المقدام ونظر إلى جلده وهو يجرح ست جراحات طويلة ، ونظر إلى هذه الجراحات الخطيرة وجرثوم الزهرىّ الخطير يُحَكُّ فيها . وكان مقدار من الجرثوم أكثر كثيراً من المقدار الذى يدخل جسم الرجل الذى يصاب بالداء بالطريقة المألوفة فى الحياة . واحتمل الطالب بقوة مصيره المخوف : رجلاً بشعاً مبثوراً منغّظ الجسم مأكوله ، ثم يجيئه الجنون ، ثم يجيئه الموت

وجَرح متشنيكوف فى الوقت نفسه وأعدى بالداء قرداً وشمبانزى ، واصطبر ساعة يملؤه إيمان قوى ، فلما انتهت قام يحكّ المرهم فى جراح الشاب ، ولم يفعل ذلك لا فى الشمبانزى ولا فى القرد .

فأما الشاب فنجا فلم تظهر عليه بثرة واحدة من بثور الداء ، وأما القردان فجاءتهما العاقبة المحتومة بعد ثلاثين يوماً : نتيجة لا ريبة فيها ونصر مبين

وقامت قيامة الأخلاقيين ومنهم بعض الأطباء يلحَون متشنيكوف فيما صنع . قالوا : « إن داء الزهرىّ عقوبة ينالها الآثم تكفيراً عن إثمه ، وخشيتها تردع المتردّدين . فهذا العلاج الهيّن السهل لهذا الداء يُزيل العقوبة ويذهب بالخشية فلا يكون منه إلا إشاعة الخطيئة فى الناس » . فأجابهم متشنيكوف : « إنى حاولت فوجدت السبيل إلى منع هذا الداء أن يمتد ، فقيل إنى أسأت إلى الأخلاق ، ولكن الأخلاق والأخلاقيين عجزت رُقاهم عن منع الداء أن ينتشر ، وأن يصاب به بطريق العدوى البريئة أبرياء منه لم يجنوه ، فصار من الاساءة إلى الخُلُق الكريم أن نجد السبيل فلا نمنع انتشار هذا الداء الوبيل . . »

— ٨ —

وبينا هو فى هذا كان يتلمّس الطرق ويختط الخطط ويحلم الأحلام عسى أن يجد سبباً آخر لتصلّب الشرايين ، وإذا به يخترع هذا السبب الآخر — ولا أظن أن أحداً يود أن يقول اكتشفه[1] . قال إن هذا السبب هو : « تسمم الجسم من ذات نفسه بالحلالات تعفّنية تحدثها بشلات وحشية فى أمعائنا الغلاظ . هذا هو سبب لا شك فيه لتصلب شراييننا ولشيخوختنا قبل الأوان » . ودبر اختبارات كيميائية يستدل بها على التسمم الذاتى للأجسام ، وكانت اختبارات فظيعة . قال : « إن أعمارنا تطول كثيراً لو لم يكن لنا هذه المِعى الغليظ ، بل إن سجل الطب يخبرنا أن رجلين قطعت منهما هذه الأمعاء فعاشا أطيب العيش بدونها » . والغريب بعد هذا أنه لم ينصح بقطعها للناس ، وإنما أخذ يفكر كيف السبيل الى تعكير الصفو وتنغيص العيش على البشلات الوحشية التى تسكن هذه الأمعاء

وجاء بنظرية غريبة أثارت الضحك منه والسّخرية به ، وأخذت توقعه فى المتاعب من جديد . وكتب اليه بعض الناس يذكّره كأنما نسى بأن الفيلة لها أمعاء غليظة هائلة ، وهى مع

(١) نستخدم لفظة اخترع Invent بمعنى خلق شيئاً لم يوجد كاختراع الآلة البخارية وآلة الراديو ونستخدم لفظ اكتشف بمعنى كشف عن شىء كائن ولكنه مجهول كاكتشاف أمريكا واكتشاف مكروب السل (المترجم)

هذا تعيش مائة عام . وكتب آخرون يقولون إن الجنس الانسانى من أطول الأجناس أعماراً برغم هذا المصران . ثم دخل فى حوار واسع بذئ عن الحكمة فى أن سنة النشوء أذنت للحيوانات أن تحتفظ بالمصارين الغليظة ، وبغتةً وقع على دوائه الكبير للتسمم الذاتى : تحدّث بعضهم قال إن فى بلاد البلغار قرى يعيش أهلها أكثر من مائة عام . ولم يكن متشنيكوف ذهب اليها ورأى هذه الأعمار الطويلة بعينه ، ولكنه برغم ذلك صدّق ما سمع ، وعلم أن هؤلاء المعمّرين يعيشون على اللبن الرائب [1] ، فأسرّ لنفسه : « أى والله ! هذا هو السرّ فى طول هذه الأعمار » ، ولم يلبث أن كلّف بعض الشبان البحّاث فى معمله دراسةَ المكروبة التى تُريب اللبن ، ولم تلبث هذه المكروبة الشهيرة — البشلة البلغاريّة — أن اتخذت مكانها رفيعاً بين المستحضرات الطبية

وفسّر متشنيكوف عملها فقال : « إن هذه الجرثومة تصنع حامض اللبن الرائب وهى بذلك تطرد البشلات الوحشيّة من الأمعاء » . وبدأ بأن شرب هو نفسه مقادير هائلة من اللبن الرائب ثم عقّب بأكل زريعات من البشلة البلغارية وبظل يأكل منها سنوات . وألّف كتباً كبيرة فى هذه النظرية الجديدة ، وأشادت بهذه المؤلفات صحيفة انجليزية لا يُعرَف الهزل منها فقالت إنها أخطر الكتب الطبية منذ ظهور كتاب « أصول الأجناس » لدارونْ . وشاع أكل هذه البشلات السخيفة فى الناس ، وتألفت شركات لصناعتها أثْرَى أصحابُها إثراء كبيراً من بيعها ، وأذن لهم متشنيكوف أن يكتبوا اسمه عليها ولو أن زوجته تؤكد أنه لم يُفِدْ من ذلك قرشا

وعاش عشرين عاماً عيشة صارمة على الأسلوب التى تقضى به هذه النظرية . وجانب الطبّاق ولم يذق كحولاً فى شراب ولم يأذن لنفسه أن تستمتع بشهوةٍ داعرة ، وامتحنه أشهر أطباء العصر وأداموا امتحانه ، وجاءه الخبز فى أكياس معقمّة من الورق حتى لا تَعْلَق به هذه البشلات المعوية التى يتسمم الجسم من فعلها . واختبر دائماً عصارات جسمه وإفرازاته . وشرب فى هذه السنوات الأخيرة جالونات لا عدّ لها من اللبن الرائب وبلع الملايين من البشلات البلغارية النفّاعة . . .

ثم مات فى عامه الواحد والسبعين

(انتهى متشنيكوف)

أحمد زكى

---

(١) منه اللبن الزبادى

خواطر سياسية

بنبرها يوم ١٤ سبتمبر

للأستاذ محمد محمود جلال

نزلنا (برتشاخ) فى أوائل أغسطس المنصرم نستجم بعد الاستشفاء فى (بادجاستين) ، وبرتشاخ محلة تمتاز بالهدوء وتوسط الارتفاع عن سطح البحر فلا تكاد تصل إلى خمسمائة متر ، وهى واقعة على بحيرة (فرتر) التى تعد من أجمل البحيرات فى أوربا

وهناك تقوم البواخر والزوارق من بخارية وشراعية مقام الترام والعربة والسيارة من وسائل النقل

فى أصيل أحد الأيام وبينما نهم لنستقل أحد تلك الزوارق التى تسير (بالبنزين) لمحنا فى الأفق وعلى بعد نحو ميلين أو ثلاثة قوساً يعلو البحيرة ويبدأ من الشاطىء الأيمن ، فصاح ولدى وهو بجانبى : « هذا ماء وكأنه يخرج من مضخة » قلت كلا ، وكيف ذلك وليس فيما نرى مساكن وهذا موضع بحذاء الطريق المعد للسيارات ، ولولا أن القوس لا تظهر معها ألوان لقلنا إنه قوس قزح الذى نسميه فى ريفنا المبارك (قصعة الرخاء) ونعده فألاً حسناً للعام

طلبنا إلى السائق أن يتجه إلى هذا المكان المنبهم علينا وهناك سألناه الايضاح ، قال : إن إلى يميننا بحيرة صغيرة تعلونا بكثير ، ويزداد ماؤها بين وقت وآخر بحيث يخشى طغيانه ، فأقامت له الحكومة محطة كهربائية تنقل منه جانباً فى يوم معين من الأسبوع وقد يتكرر ذلك فى أيام أخرى غير معينة

قلت : ولم تعملون على أن يتخذ فى تصريفه هذا الوضع وفى الامكان صرفه دون أن يرى وعلى وضع مستقيم

قال : « إن أسماك بحيرتنا تموت من قوة الاندفاع ، فحرصاً عليها لجأ المهندسون إلى هذه الطريقة »

قلت : « أهكذا دائماً قوانين الطبيعة لا تتغير ؟ فالغريب من الماء كالغريب من الناس حين ينزل على غير بلاده مغيراً أو محتلاً غاصباً يخرب ويدمر ويعصف بالأوضاع كما يعصف بالأرواح ، ولو رد جميع الناس إلى آدم وحواء كما يرد أصل هذه الأنهار والبحيرات إلى المطر ! !

ذكرت على التو بلادى وما عانت منذ أكثر من خمسين عاماً فى نظمها وأوضاعها وأخلاقها وأموالها ، ومضت برغمى فترة طويلة منصرفاً إلى ما اكتنفنى من هم مسخ النزهة وكاد يعفى أثر الملاج وأنا مطرق . . مستعبر

قبع جنود الاحتلال فى قصر النيل ووصل أثرهم إلى أقصى الوجه السودانى جنوباً والبحر الأبيض شمالاً . وجلس عميده الأول بقصر الدوبارة ونغص عيشنا فى ريفنا وصعيدنا ، وانساب كالأفعى إلى عقل الطالب بما قدم من كتب ممسوخة وإلى الزارع بامتصاص دمه وإلى الدوائر العليا يخضد من شوكتها ويعلن أوامره فأفسد الأخلاق ، وإلى الجيش فجعله لا يشعر بوجود ولا يتقدم خطوة ولو فى الدراسة النظرية

* * *

ولقد أراد الله أن تصل بنا الباخرة فى العودة إلى الوطن فى السادسة من صباح ٢ سبتمبر ، وما كدنا نفرغ من الاستعداد حتى قاربت الثامنة ، وإذا بأحد الخدم يطرق الباب ، وكم كان سرورى عظيما حين سلمنى جوازات السفر فأراحنى بذلك من المشهد المؤلم الذى كان على كالضربة الثقيلة ، إذ شاء الاحتلال أن تكون الأمرة فى بوليس الموانى للانجليز ! فلكم كنت أشعر بالتنغيص المفاجئ فى الذهاب والعودة حين أرى المسيطر الباحث فى جواز مصرى ولمسافر مصرى غير مصرى

فتحت الخادم وتناولت الجوازات مغتبطا ، وطرت مع الفأل فرحاً وقلت فى نفسى سيحقق الله للبلاد بجهودها ما حققت لى المصادفة اليوم

وهكذا يشاء الله أن يمر ١٤ سبتمبر وأنا بعيد عن القاهرة ، كما تمنيت من قديم ، وكما أنالنى الله وقد عودنى جميله

* * *

عدنا إلى الوطن ونزلنا منازلنا والموسم الزراعى فى أحفل مراحله ، إذ تموج الحقول فى جميع أرجاء البلاد بالعديد من أبنائها يجمعون بأيديهم ثروتها ، وإنهم بذلك يتظاهرون للجهاد لا فى سبيل العيش فقط ، ولكن فى سبيل سمعة الوطن فى جانب غنائه ؛ وليس أقوى من مظهرهم حافزا للهمم بين وهج الشمس وأثر الرطوبة المتخلفة عن الفيضان . فلا يحسون سوءا من الأولى ولا من الثانية ، لأن وهج الهمة أقوى ، وسورة الجهاد أطغى وأعم

ويتفق أن يحفل الموسم مبكراً فيتفق واليوم المنكود الذى طلعت على رحى الاحتلال شمسه ، وخيمت على عاصمة البلاد سحب الشر فيه مختلطة بغبار الخيل قادمة فى غير حرب ، وشامخة كأنما انتهت من فتح ، وهو الغصب الصارخ يؤيده الغدر الذى لا يعدو خيوط العنكبوت فى قوته ، ثم تدرج عليه سنون فوق الخمسين

انظر واعتبر ! ثم انظر وأمل فى الله الخير ، فإن الشعب الذى تعركه المحن وتنغصه الذكريات يكون أقوى الشعوب حينما يستفيد من ماضيه ، وأقدرها على السير ناضجاً بفعل الأيام وهى خير مرب

وإذا كان الزمان استدار فظهرت العزائم متجهة والقوى متراصة جهاداً فى سبيل العيش ، فعما قريب تظهر هذه العزائم فى العمل فى كل ميدان للتخلص مما أصاب البلاد

* * *

وكان أول كتاب للمرحوم مصطفى كامل الى مدام جوليت آدم فى ١٢ سبتمبر وكان كتاباً له ما بعده . وكان ما تلاه بادرة ظهور القائد الشاب وبادرة الأمل ، وأول العمل المستمر الذى أفنى فيه حياته

ولئن كانت الصحف اليومية وأكثر الهيئات لم تعر هذا اليوم ما يناسبه من عناية ، فقد يكفل الأدب للأمم استخراج العبرة البالغة من المأساة ، والفخرة الغالية من الحادث الصغير . وقديماً قام الأدب أميناً على تراث الماضى وثأراً للفضل والفضائل . ولقد صدق المرحوم شوقى بك حين رأى كسرى وإيوانه فى سفينة النجوى أبقى على الزمن من الايوان فى فخامته وبنيانه . فكيف به أمام يوم غير من حال أمة ورزأها أكبر الرزء ؟

كنت إلى أمس أقرأ تعليقاً قيما للكاتب الكبير أناطول فرانس على بحث فنى بصدد أحد القصور التاريخية فى فرنسا وهو قصر الوزير (فوكيه) وزير المالية فى عهد لويس الرابع عشر ، فحين عرض لمحنته ثم لمصرعه ذكر تنكر الأيام للوزير وتغير صحبه وخلانه ، وحتى ذلك الجمع الذى لا يحصى ممن له عليهم أيد وآلاء لم يقم بالواجب نحوه ويذكره فى محنته ، ويفصل بين السيئة والحسنة ، ويمنع طغيان الشهوات على قديم مآثره ، إلا الأدباء ، فتسابقوا دفاعاً عنه نظما ونثراً ومن بينهم كورنيل « Corneille » والرئيس هينو « Henault »

وهل أقرب إلى الحق من الأدب ؟ ومن يحمل عبء الأيقاظ للخير غيره ؟ وهل يصرع الظلم سواه ؟

والحق عِرض الله ، كل أبية بين النفوس حمى له ووقاء

محمد محمود جلال

حول «نبوة المتنبي»

للأستاذ سعيد الأفغاني

كنت عائداً من جولةٍ فى قرى (البقاع) حين قرأت كلمة الأستاذ الفاضل محمود محمد شاكر فى العدد (١٦٧) من الرسالة الغراء، التى كتبها رداً على حاشية بحثنا فى دين المتنبي المنشور فى العددين (١٦١، ١٦٢) من المجلة المذكورة

وكانت قراءتى لرده، بعد عشرة أيام من صدوره. فاذا تأخرت فى التعليق عليه فهذا عذرى أبسطه للقراء الكرام؛ وأنا أعوذ بالله من الغرور والذهاب بالنفس ومن الجهل بمقدارها والمكابرة فى العلم والعصبية للرأى والهوى، فما يزال الناس — ولله الحمد — يقيسون فضل المرء بخضوعه للحق وإتقانه لعمله لا بدعواه وتبجحه؛ وقد ولى زمن كان فيه الولوع بالاغراب والاتيان بالجديد — ولو تافهاً — سبيلاً إلى الشهرة وذيوع الصيت، وأقبل زمان فيه للتفكير حرمة وللعقل وزن، وكفى فيه المؤلفون مؤونة الثناء على النفس والتحدث إلى القراء بمزايا آثارهم وما تفردت به من معجزات

وهؤلاء ذوو البصيرة من القراء يقلّبون ما يطالعون كل مُقلَّب؛ يقع إليهم الكتاب فيمحصونه ويفلونه ويتدبرون ما فيه حتى تنكشف لهم منه مواطن الحسن والقبح، ويلمسون فيه آثار العجلة كما يلمسون مواضع التؤدة والروية

وفى هذا ما كاد يصرفنى عن الرد، سيراً على قاعدتى فى ألا أحفل نقداً ولا رداً الا إذا كان حقاً؛ وسبيلى حينئذ أن آخذ نفسى به وأشكر لصاحبه، وإلا فان الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس فيمكث فى الأرض. وخروجى اليوم على قاعدتى إنما كان لمنزلة الكاتب الفاضل لا لما فى الرد نفسه. وليس فى الأمر كل ما ظنه الأستاذ شاكر: فلا إثارة ولا إغراء ولا سلاح ولا استعداد لمعارك؛ إنما هى حاشية على كلام له المحل الثانى من بحثى، لم أرد بها نقد كتاب ولا التعرض لمؤلف؛ وشتان بين أسطر علقت عرضاً فى حاشية وبين كلام مطول أنشىء للنقد خاصة

أنا أدرى — والانصاف شريعة — أن الكلام على كتاب الأستاذ شاكر لا يكفيه فصل كبير، ففى الكتاب إحسان، وفيه إصابة واجتهاد، وفيه أماكن جديرة بالثناء حظيت بجهود حالفها التوفيق مرة وأخطأها مرة

* * *

وبعد، فانى أشكر الأستاذ على نقله كلامى بحروفه، لأن عمله هذا سمح للقراء أن ينظروا: هل بلغ الأستاذ فى الجواب على أسئلتى ما يريد من إزالة الشبهات الواردة عليه أم قصر دون هذه الغاية؟ أما أنا فقد عدت إلى كتاب الأستاذ كما طلب إلىّ «وأنعمت — ثانية — فى تدبر الأسباب الحادية على نفى تنبؤ أبى الطيب فلم أجد فيها مقنعاً» كما لم أعثر فى رده الذى تفضل به على شىء من الحجة؛ وإليك البيان:

(١) وهّن الأستاذ رواية التنوخى لأنه صاحب الوزير المهلبى، ولأن المهلبى عدو المتنبى، فلا يبعد أن يكون التنوخى تحامل على أبى الطيب إرضاء للمهلبى[1]. فنحن نسأله: هل يكفى هذا الاحتمال فى تبرير رد رواية التنوخى وهى كما يراها المنصف تحمل فى مطاويها دليل الصدق والأمانة فى نقل الحديث، لا دليل الوضع والكذب؟ سأل التنوخى أبا الطيب عن معنى (المتنبى) فأجابه: «إن هذا شىء كان فى الحداثة». وظاهر أنه يعنى التلقيب لا التنبؤ، فجوابه غير صريح، وهو كما قال الراوى جواب مغالط، وكان فى وسع التنوخى أن يحمّل المتنبى — لو أراد وضعاً وتحاملاً — جواباً صريحاً فى ادعائه النبوة، ولو استقام هذا الأصل الذى بنى عليه الأستاذ رواية التنوخى لجاز لكل من أراد نفى خبر أن يورد عليه مثل هذه الاحتمالات الخيالية فيسقطه. وما أحسب أن خبراً — مهما كان صحيحاً — يستعصى إسقاطه على هذا الأصل!

إنما السبيل أن ينقّب الأستاذ عن نص صحيح صريح فى تجريح الراوى التنوخى وأنه عهد منه وضع الأخبار ودسّ الروايات، أو أن يلجأ إلى حجةٍ — لا إلى احتمال — قوية يرضاها العقل والمنطق السليم

(٢) استهل الأستاذ كتابه بفرضٍ فرضه، وخلاصته أن المتنبى علوى صحيح النسب، وأنه أخذ بكتمان هذا النسب لعداوة بينه وبين العلويين زعمها الأستاذ ولم يعرفها التاريخ. ثم ذهل حضرته عن أن هذا كان منه فرضاً ودعوى فراح يعده بعد

---

(١) انظر مقتطف يناير سنة ١٩٣٦ ص ١٣ وأرقام الصفحات التى تأتى فى هذا المقال كلها لهذا العدد من المقتطف

صفحات حقيقة واقعة يبنى عليها ويشرح بموجبها أبيات الديوان ويكذب مستنداً إليها الروايات ، ويتهم الراوين . وهو بذلك يخرج على أصول سنها هو لنفسه وأخبر عنها فى رده علينا حين قال : « ولا بد لمن يريد أن ينقـد ناقداً أو يكتب فيما يتناول الروايات والأخبار أن يتحقق بدءاً بمعرفة الأصول فى علم الرواية ، وأن يستيقن من قدرته على ضبط الفكرة حتى لا تنتشر عليه وتتفرق ويقع فيها الاختلاف والتضارب والمناقضـة . » ونحن ننقل للقارئ أدلة على هـذا الذهول من مواضع متفرقة من كتابه ليستبين أن الـكاتب لم يتمكن من ضبط فـكرته فانتشرت عليه وتفرقت . قال فى ص ٤٨ : « بينا لك فيما مر ما بين أبى الطيب وبين العلويين ، وأن صاحبنا كان له عندهم ثأر قديم ... » يقصد بما مر احتماله الذى لخصناه آنفاً . وقال فى ص ٥٢ : « وبينّ على مذهبنا فى نسب المتنبي أن الرجل حبس من أجل دعوى العلوية » وقال فى ص ٥٨ : « وكأنى بالمتنبى فى طريقه يظهر فى القبائل والمدن أمر نسبه ويذيع بينهم أنه علوى الأصل شريف النسب محتالاً لذلك بالدهاء . . ! » فأنت ترى أن هـذا النسب العلوى وعداء العلويين كانا فرضا أول الـكتاب ثم صارا حقيقة مقررة فى وسطه

وما ذا فى أن يكون المتنبي علوياً حتى يهتم به العلويون هذا الاهتمام ، وحتى يحتال هو لأذاعته فى القبائل والمـدن بالدهاء والبلاد تعج عجيجاً بالعلويين والأشراف ؟

والغريب أن يتخذ الأستاذ من نظريته هـذه التى افترضها برهاناً يضرب به كل الروايات والأخبار التى تحمل أمر تنبئه ويشـغل الأمراء والنـاس والعلويين ودعاتهم بأمر فتى دون العشرين يدعى العلوية فقط ، فيقول فى رد رواية اللاذقى ص ٤٨ : « أما اللاذقى فمجهول ولا يتيسر نقد سنده ، ولـكن مما لاشك فيه أن اللاذقية التى نسب إليها كانت لوقت أبى الطيب موطناً لفئة من العلويين ومحطاً لـكثير من كبار الدعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة فى التاريخ العربى كله » هل اهتمامهم بفتى دون العشرين من عمره من الأحداث العظيمـة التى أحدثوها فى التاريخ العربى كله أيها الأسـتاذ ؟ ! ولم لا يقتالونه مرة واحدة ويريحون أنفسهم من وضع الأخبار والدس عند الحـكام ؟ إن فى الأمر مطامح لنفس هذا الفتى جعل سلمه إليها شيئاً آخر مع العلوية هو أكبر منها وأخطر

وقد رددت أنا قسما كبيراً من رواية اللاذقى هذا ، ولـكن لشىء غير ما ذهب إليه الأسـتاذ الـكريم وسأبينه قريباً . وما أكثر ما يبين الانسان لنفسه الخطة فى البحث ثم « تنتشر عليـه الفكرة » فيبنى على غير أساس . ولست أجد كلاماً فى تصوير عمل الأسـتاذ وأصوله فى بحوثه أصدق من قول الجاحظ فى ابراهيم النظام وهو هذا : « وكان عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه لـكان أمره على الخلاص ، ولـكنه يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظناً[1] »

(٣) يورد الأستاذ على حديث أبى على بن أبى حامد شبهة واحدة بعد أن يقر بأحكامه ، ويقول عنه ص ٤٩ : « فهو حديث محكم لا يأتيه التوهين إلا من قبل غرابته عما جرت عليه الأحكام فى شأن من يدعون النبوة . . . الخ » وقد أطال فى بيان وجه الغرابة بما لا فائدة بنقله هنـا . والذى فى كلام أبى على هو هذا : « فاستتابه وكتب عليه وثيقة وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسـلام » وجلى أنهم استتابوه من دعوى النبوة فرجع بذلك الى الاسلام . أما الوثيقة فهى ببطلان علويته وبهذا تزول شبهة الأستاذ ، فان من المألوف أن تكتب الوثائق فى إثبات الأنساب ونفيها

(٤) عرض الأسـتاذ لرواية الهاشمى التى فيها : « كان أبو الطيب لما خرج الى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوى ، ثم ادعى النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى الى أن أشهد عليه فى الشام بالتوبة وأطلق » وهـذه الرواية تعنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوة بقى على دعواه الأولى . ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين . وليس فى الأمر مشكلة ولا تناقض ولا داع لأن يرجح الأستاذ ص٤٩ إقحام لفظ النبوة بين العلويتين فى حديث الهاشمى ، ويقول : « إن المراد بالنبوة فى حديث أبى على بن أبى حامد العـلوية » فعلوية أبى الطيب التى أراد أن يفسر بها النبوة الواردة فى الروايات على اختلاف مصادرها لم تسلم له من الأصل وبقى المتنبى جعفياً يمنياً . وإذا كان لا بد من إيراد احتمال فالأولى أن تجعل العلوية الثانية من زيادات

(١) الحيوان ج ٢ ص ٨٣

النساخ وإخلامهم. على أن الرواية فى غنى عن هــذا الفرض أيضاً وليس فيها داع الى شك أو تأويل. فمن الغريب جداً أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليــه وأن يظل على العلوية طول أيام سجنه حتى كتابة الوثيقة

(٥) بقيت رواية الناشئ القائلة: «كنت بالـكوفة سنة ٣٢٥ وأنا أملى شعرى فى المسجد الجامع بها والناس يكتبونه عنى، وكان المتنبى إذ ذاك يحضر معهم وهو بعــد لم يعرف ولم يلقب بالمتنبى». هذا الخبر هو مظنة أن يكون فيه بعض الحجة فلنفرضه صحيحاً ولننظر ماذا تحته: إن فيه نصاً على أن أبا الطيب لم يلقب بعد بالمتنبى ولم يعرف فى الـكوفة، وإذا شئنا الدقة فى التعبير قلنا إنه لم يبلغ أهل الـكوفة أمر هذا اللقب، فيجوز أن يكون لقب به فى الشام ويجوز ألا يكون. وليس فى خبر الناشئ شىء آخر غير هذا. وبيــان ذلك أن أبا الطيب ادعى النبوة للأعراب ثم سجن ثم أطلق وانتهى أمره ونسيه الناس، ثم حصل فى الـكوفة سنة ٣٢٥ وحضر مجلس الناشئ فتى فى الثانية والعشرين؛ ولما عاد الى الشعر واتصل بالأمراء وبسيف الدولة وناوش النــاس وناوشوه، وصاول الشعراء وصاولوه، وتفاقم الشر بينه وبين الناس نبشوا تاريخه — وهو هناك معروف — فأذاعوا منه هذه الزلة التى كانت فى حداثته وتعلقوا بها وسار له فى الناس هذا اللقب: (المتنبى)

***

لهذه الأســباب — وهى للقارئ معروضة — لم أجد فى كلام الأستاذ شاكر «مقنعاً به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة» وأظن أنى أبنت له — كما أحب هو — وجوه الضعف فى قوله، وسواء على وعلى الحق: أستبرأ الأستاذ من قوله أم لا. ولا بد أن يكون القارئ شــعر بحرصى على وزن كلامى حرفاً حرفاً، وأنى لم أسرف ولم أرسل القول على عواهنه.

وقد عجبت كل العجب من الأســتاذ — وهو الناقد الأصولى الفنان — حين لم يدر لم اختصرت حديث اللاذقى؟ إذ أن الأمر ظاهر، فان الزيادات التى أهملتها يرفضها العقل ويكذبها الواقع، ولم تكن ثمة حاجة لأدل القراء على سبب إهمالها لأن تهافتها بين. وكثير أن تجرد عليها حملة كالتى نزل بها الأستاذ الميدان تخصص لها صفحتين من كتابه القيم. وهو يعلم — حفظه الله — أن من أدلة الوضع عنــد المحدثين مخالفة الواقع والمعقول كما هو مستوفى يكتب مصطلح الحديث. وأنا أستحى من شرح هــذا فى مجلة (الرسالة) على رغم أن الأستاذ لم يجد بأساً فى أن يعرفنا أن الخبر ما يحتمل الصدق والـكذب، وأن وأن... الخ الخ مما يدرسه الطلاب المبتدئون. وأنا قد عملت بما أعرف من أصول البحث والتمحيص من دون أن آمن على قرائى. أما أستاذنا الفاضل فقد ملأ رده من مثل هذه الألفاظ: رواية، دراية، أصول نقد.. الخ وكلامى وكلامه أمام القارئ، وله وحده أن يحـكم أين الرواية والدراية والأصول حقيقة لا ادعاء، وما التهويل بمغن عن أحدنا فتيلا

كنت أتوقع أن يتحفنا الأستاذ بالبراهين التى سوغت له رد الروايات فلم يفعل. أقول لم يفعــل لأن أقواله: «رفضناه ورددناه وأسقطنا الثقة به والاعتماد عليه»، «إن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيــل الرواة»، «أخبار متداولة تهور كثير من الأدباء فى التسليم بصحتها»، «أما كلمة كافور فمفتعلة» «وأسخف من هــذه الرواية رواية من يروى.. » إن أقواله هذه ولو أتبع كل كلمة منها بجميع مرادفاتها ومؤكداتها اللفظية والمعنوية.. هى أليق بظاهرة هتافية ينادى فيها بسقوط فلان وفلان منها ببحث علمى العمدة فيه الحجة والبرهان. وأى شىء فى أن ينبز كاتب روايات التاريخ بالبطلان والـكذب، ثم لا يكون دليله عليها إلا أنها كذب وبطلان!!

هذا وقد حمل الأســتاذ أقوالى ما ليس تحمل: فأنا لم أدع للمعرى تنزهاً عن الخطأ، ولم أقل بأن «ورود خبر فى كتب العلماء هو الدليل الذى لا دليل غيره»، وما جعلت قرب الزمن دليلاً على الصحة بل هو مما ييسر المحقق وسائله. كما أنى لم أســلم بكل الروايات ولم أعدها صحيحة ابتداء، فقد رددت منها ما وجدت فيه الى الرد سبيلاً، ونقدت حكما أدرج فى مصدر من أمهات المصادر وأجلها وهو خزانة الأدب حين وجدت للنقد مجالاً؛ ولـكل من النقد والرد والتسليم مواطن. وكيف تريدنى أن أقنع قرائى بأمر لم أقتنع به، والى أشياء أخرى يتحقق من رجع الى مقالى أنى لم أذهب إليها؟

ونحن لم نتهم الأستاذ بالعصبية المتنبى ولـكنه هو هو قدم لنا فى رده دليلاً على عصبيته لرأيه، وليس لنا فى هذا الأمر يدان. ولما قلت عن كافور: «وكافور ليس من الذين يختلقون على شاعر، ولا ممن يروّج الاختلاق» خُـيِّـل للأستاذ أن ثمة نصراً مؤزراً

فقال : « إن الأستاذ قد حكم على كافور حكماً لم يرد به ذكر فى كتاب ، فهل يستطيع أن يؤيد هـذا الحـكم بالدليل التاريخى والبرهان العقلى أن كافوراً لم يكن يختلق على الناس ولا يروج الاختلاق ؟ لقد أتينا نحن (بارك الله) بالروايات ونقضنـاها بالدليل — ضعيفاً أو قوياً — أما أستاذنا فقد حكم على رجل بغير دليل ولا بينة من التاريخ أو غيره » اه . وعلى رغم أن الدليل على المثبت لا على النافى — كما لا يخفى على الأستاذ الأصولى — وأن على من يدعى على كافور الاختلاق وترويجه أن يقيم البينة ، على رغم هذا نحيل الأستاذ على الذهبى الذى وصف دينه وتواضـعه فقال : « وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول : اللهم لا تسلط على مخلوقاً » ، و « كان يرسل كل ليلة عيد وقر بغل دراهم فى صرر بأسماء من أرسلت إليهم من العلماء والزهاد والفقراء .. » ونحيله أيضاً على الذهبى وغيره من المؤرخين الذين أجمعوا على وفور عقله وحسن تدبيره وصلاحه . . ويرى الأسـتاذ معنا أن فقه هذه الروايات — وهو الخبير بالرواية والدراية — يجعـل كافوراً بمنجاة من النزول إلى هذا الدرك ، وإن فى أمور ملـكه وبعد غوره ما يشغله عن الاختلاق على شاعر تـكفى إشارة منه لتذهب برأسه . إن ما يسبغه المؤرخون على كافور من الصفات يكفى لقول يمعـده عن جميع السفاسف جملة واحدة . ففى التاريخ بينة وفيـه دليل ولـكن للعجلة فى الحـكم آفات

هذا وفى نفسى ممـا أورده الأستاذ المحقق شىء ؛ فهل يسمح لى أن أطالبه بالدليل العلمى على قوله الجازم : « أعلم أن أكثر ما روى فى ترجمة هذا الرجل (المتنبى) وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التى تتناقلها مجالس الأدباء ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما الى ذلك ، بل إن كثيراً مما يروى فى تراجم رجالنا كان مما يراد به مضغ الـكلام فى مجالس الأمراء أو فى سامر الأدباء . . . الخ » وهل يتفضل فيبين لنا البرهان القاطع فى قوله جواباً على سؤالى : « إن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواة الخ » فمن هم هؤلاء الرواة الذين لفقوا الأباطيل ؟ إلى متى أعرفهم يسهل على من دون شك أن أسأل عن الأسباب الحادية لهم على التلفيق

وأنا غير مطمئن إلى قول ابن جنى فى سبب تلقيب أبى الطيب بالمتنبى ، فان جنى مفرط فى حبه لصاحبه والدفاع عنه وهو متهم فيه . فهل لأستاذنا أن يعزز قوله بروايات أخرى سبيلها على غير ابن جنى وعلى غير ما حوله ؟ فان تعذر هذا فلا عليه أن يؤيدها بأدلة لا اعتراض للفـكر السليم عليها . ولا بأس أن نقول له وقد قرأنا ختام رده الذى أثنى فيه على نفسـه وعلى كتابه بما هو له أهل : أنت كما أثنيت على نفسـك ، ولـكن إذا كان كتابك قد اتخذه — كما زعمت — بعض الـكتاب « مصدراً استنبطوا به أصول النقد » فلسنا بالذين نسمى الطعن المجرد للروايات أصولاً فى النقد ، وما لهذا أيضاً علاقة بالبحث . وهلا إذ ذكرت ذلك دللتنا على أسماء هؤلاء الـكتاب والمجـلات التى نشروا بها والمواطن التى قلدوك فيها لنهنئك على شيوع مذهبك وكثرة المؤمنين به ؟ ولعلك فاعل عن قريب إن شاء الله

أما أنا فما كنت أظن قط أن أسـطراً تذكر عرضاً فى رد فـكرة ، تثير مثل هذا الفاضل فيحمل منها هماً يجد وقره وعنته اثنين وأربعين يوماً ثم ينفثه فى رده الذى تـكرم به على مثـل هذا الشكل

لقد وددت والله لو أن الأسـتاذ شاكراً نقب عن الحجة وتحرى الحق لأعترف له به وأرجع إلى قوله . وصحف (الرسالة) أحوج إلى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها إلى الدعوى والانتقاض . وأتمنى للأستاذ أن يهجر هذا الأسلوب فى الجدال ، فما هو بمغنيه عن الحق شيئاً كما لم يغن طنين الأسـتاذ صروف بالاشادة بمزايا الـكتاب فى مقدمته . والمأمول من الله أن يأخذ بيد الأسـتاذ شاكر فيتمم لنا كتابه الضخم عن المتنبى الذى قُدِّرَ بأربعة مجلدات ؛ وأتمنى أن أراه قريباً ، وأن أرى فيه حقائق الرواية والدراية وأصول النقد لا ألفاظها فقط . وليس يهمم بعد ذلك أن تـكون هذه الأصول حديثة يخترعها الأستاذ أو قديمة على غرار ما تألف عقول هذا الناس ، إنما المهم أن تكون صحيحة سوية

وسأكون سعيداً حقاً يوم ينقد الأسـتاذ الأخبار خبراً خبراً ، فيعارض بينها ويقابل ، ويمحصها تمحيصاً يرضيه هو ويستفيد منه القراء الذين لا يخفى عليهم وجه الحق فى كلام اثنين ، ولا يصرفهم عنه نيلٌ من صاحبه ومراوغةٌ فى الحط منه ؛ فان هذا هو الأشكل بالأستاذ الـكريم والأليق بفضله والأولى بسجاياه ، وله — فى الختام — شكرى وخالص تقديرى والسلام عليه ورحمة الله وبركاته

(دمشق) سعيد الأفغانى

وحى الدم المتحد

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

لم تعد الوحدة العربية خيالاً تغازله الأحلام فى أفق بعيد، ولا فكرة سطحية تطفو على عقل ضحل كما تطفو الفقاقيع ... وإنما صارت كونا موجوداً وأمراً مجسداً له ذرية وأنسال يتوادون ويتظاهرون فى المأساة وفى فرح الحياة ... وله دماء قرب منها مزيجاً مزجته الأقطار العربية وقدمته لحماية فلسطين من عابدى الذهب ... فللعروبة من ذلك قرة عين لأنها رأت على صفحة الدم المتحد صورة المجد القديم الذى أوشك الزمان أن يستدير بجدته ويقبل بدولته

أجل! سلوا أشجارا يابسة وجذوعا جافة بشعاب فلسطين وبطون وديانها، وقد حالت إلى الإيراق والحياة: ما الذى نضَّرَ عودك ورد عهودك وأطال عمودك؟ وستجيب: إنها الدماء التى لم أُسْقَها من عهد صلاح الدين ... الدماء التى مزجت أمشاجها فكرة إلٓهية فجعلت فيها إكسير الحياة حتى للاحجار والأشجار والمدر والوبر .. الدماء التى تسيل من الأسود والأبيض والأصفر والأحمر فتجمع خلاصة ما فى الانسانية من إخاء، وسرما فى المسلمين من توحيد ... الدماء التى تطفىء ما للظالمين من نار، وتجرف مالهم من آلات الهول والدمار ... الدماء التى تدخرها الحياة ثم تطلقها سيَّالاً طهوراً هدَّاراً رجافاً يغسل الأرض ويحدث الانقلاب وينقل الانسانية إلى الأمام ... الدماء التى تحمل عناصر إخصاب الانسانية بالفكرة الالٓهية والحرية والاخاء والمساواة والعدالة والرحمة والسلام والبر والتعاون حتى تلد الأمهات أمثال ابن الخطاب وابن عبد العزيز والرشيد وصلاح الدين ...

* * *

يا فلسطين يا أرض النبوات! تلك رسالة جديدة تهبط من شعاب جبالك ومن بين «التين والزيتون» مرة أخرى على قلوب العرب والمسلمين، وقد كتبت بالدم الممزوج من نفوس تمثل أربعة أقطار من ميراث محمد بن عبد الله ... تحدث أهل الأرض الذين استحالت حياتهم إلى نوع من حياة الأوابد والفواتك لقبح الثقة وسوء الظن، وشر المعاملة، أن الأخوة الانسانية لا زال لها تحت جناح تعاليم محمد مكان تأرِزُ إليه وتلوذ به، وأن الأسرة التى كان يبغيها أبو البشر آدم على وداد وترابط وتضام حتى يكون له من ذلك معنى السمو على الأفق الحيوانى ... لا زالت هى الأمة العربية المطبوعة على إجابة الصريخ وتلبية الدعاء ونصرة الحليف واحترام الجامعة ومعنى الدم . . .

* * *

يا أهل فلسطين! إنكم عرفتم كيف تموتون عند الاقتضاء، ولذلك لم تموتوا! بل ضوعف فيكم سر الحياة لأنكم أمددتموه بالدم وفعال المجد وحسن البلاء . . بل لقد ضوعف بعملكم سر الحياة فى العرب والمسلمين جميعاً، وصار لهم منكم مثل جديد يضربونه مفتخرين بين يدى هذا الزمان على مسمع الأمم وبصر التاريخ .. وقد غدوتم فى فم الزمان مثلاً شروداً وحديثاً مُرَدَّداً أنسى التاريخ خبر الاسبرطيين وأجناد الرومان والجرمان وغير أولئك من العصبة أولى القوة! وقد أضفتم إلى مكتبة البطولة كتابا ضافى الصفحات واضح الغرات فرح به عشاق الأبطال وعارفو أقدار الرجال!

ومهما يكن عدد مستشهديكم الذين ساقوا إلى المعالى مهرها من صبيب الدم ومسفوك النجيع . . . ومهما يكن من سطوة القوة، وعنف الظلم، ووقاحة الطاغوت . . فان الدرس الذى تلقونه على المتآمرين على كسر شوكتكم وازدرادكم وهضمكم، درس هائل مزق أعصابهم، وأطار صوابهم، ومحا خططهم، وأفهمهم أنكم أعظم بأساً وأشد مراساً وأطول أنفاساً

«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله»

يا صهيونيون! كذبٌ من الأحلام وخُدعة من الأمانى أن تملكوا أرضاً تنكركم وتلفظكم. لقد سخرتم إلٓهكم الذهب فى شراء سطوة أمة مخدوعة بكم أو خادعة لكم تتخذون منها آلة تهدم وطناً على أهله لتبنوا لكم على أنقاضه وطناً فى عالم الأحلام ... وستبصرون وتبصرون: أينا المحروب المغلوب. فارتقبوا إنا مرتقبون، «هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم

لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار » ، ففروا من مجزرة أنتم شاؤها وأرانبها . . وكونوا أكيس من أن تبنوا لكم عشاً فى طريق الفيل . . أو تناموا بين فكى الأسد ... !

ثم هبوا أنكم غصبتم فلسطين من العرب ، فما هى ضمانات دوامها لكم وسط هذا البحر العربى الذى يكتنفها ويلفها ويقذفها بموجه من الشمال والجنوب والشمال واليمين ؟ هى الحراب الحليفة لا شك . ولكن الحماة مواطنهم فى شمال الأرض ، وهم أمة لامناص من أن يلحقها داء الأمم وتدركها عقابيل الشيخوخة ، وحينذاك أو قبله بكثير يستيقظ الثأر الراقد ، وينهض الوتر الرابض ، ويتنادى أبناء الشرق عليكم ، فلو نفخوكم لأطاروكم ... فأيما أمانٍ وقرارٍ وقيمةٍ لبلد فقد أهم عناصر الاستيطان وهو الدوام ؟ !

ألا إنها خدعة عبقرية ، أو قل هى عصا القدر تسوقهم إلى شبكة محبوكة فاغرة لتصديق نبوءة النبى العربى الكريم[1] . « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » !

أيها المؤتمرون بتراث العروبة ! كلمة من شباب العرب والاسلام : إننا اعتزمنا أن نحيا أعز حياة وأمجدها ، مدفوعين إلى ذلك بوحى أرضنا أرض التاريخ والرسالات ، والميراث الروحى ، وبهتاف أبطالنا وأعلام تاريخنا ، تحيط بنا أفواج مجندة من أرواح الشرق التى نعيش معها ونلقن عنها ؛ ولن يعوق اندفاعنا عائق ، لأن عجلة الفلك تدفعها يد القدر ، وهى التى تدفعنا لنأخذ دورنا الثانى فى تنمية الميراث الانسانى وغل الأرض . . .

ألا فافسحوا الطريق ولكم حسنة ، قبل أن تفسحوه وعليكم كلمة السوء ! فأننا عما قليل سيل يتحدر من صبب ، ونار تشتعل فى حطب ! « ومنذا يرد على الله القدر » !

عبد المنعم محمد خلاف

(١) ورد فى صحيح البخارى ما معناه : « تقاتلكم يهود فتقاتلونهم حتى يقول الحجر : يا مسلم ! ورائى يهودى فاقتله »

حولة ريفية

صحبة النهر المقدس

فى الطريق الريفى الملوّن بالأضواء والظلال لا تجد أجمل من رؤية النهر المقدس ، يشق الوادى الجميل ، فيُنَضِّر بالخضرة طلعته ، ويزين بالعشب والشجر حافته ، وينفث من روحه فى الطير الحياة ، ويطيف من حوله أرواحاً تغنى بجماله وتبتسم فى عذوبته !

ولقد مرّت قرون وقرون ، ومياه النهر تغنى للوجود أغنية الخلود ، وتفنى المخلوقات فى كر السنين ، ويبقى وجه الماء العذب الطهور تصافحه أضواءُ الشمس الذهبية ، وتباركه أنفاس الهواء ، فيملأ هذا الثالوث الطبيعى القلوب والعقول بشراً وصفاء وذكاء وحياة !

ويالها من قوى سحرية ، تُقوى الايمان بالخلود ، وتزيد الحب للوجود ، وتبعث الزهد فى الحياة ، وتمان فى الدنيا مجد الله !

ومن ذا الذى يمكنه أن يصف سحر النهر ؟ وكيف لأديب أو مفتن أن يصور روحاً من الأرواح عاشت من جودها الحقول ، وطفرت فى براءتها الطيور ، ورقصت فى دلالها الهوام رقصات الجنون !

ومن الغريب أن آلاف الأناسىّ تسير إلى جوار هذا الروح الهائل ، كظل من الظلال العابرة ، لا تهتز لجوده ، ولا تنحنى لبره ، ولا تهتف بجماله ، كأنما نضبت فيهم عاطفة الاعتراف بالجميل ، على حين كان الآباء الأولون يقدرون للنهر أياديه ، فيقدمون له الهدايا ، ويحملون لصدره أعز الأرواح !

فلماذا لا تُزجى لهذا الماء الغنى هدايا الفن الحديث ، وقرابين القلب العارف النبيل ؟ وها هى ذى روح النهر تشدو بأنفاس الحنان ، وهاهى ذى أمواجه تتنفس البهجة والفرحة فى الحياة :

(ميت غمر) مصطفى عبد اللطيف السحرتى
المحامى

مشرقيات

فى الأدب العربى الحديث

للأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكى

الأستاذ بجامعة لينتجراد

تمهيد : امتاز الأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكى صاحب هذا البحث بدقته وسعة مداركه ، وتساميه عن المواضيع المطروقة ؛ وهو لا يفرق مطلقا بين الآداب العربية وبين الأمة التى أنتجت هذه الآداب

وقد لا أعرف بين علماء المشرقيات فى أوربا من توفر على دراسة الأدب العربى الحديث غيره وغير البروفسور جب صاحب الدراسات الوافية فى القصة المصرية والأدباء المعاصرين ، والأستاذ كامفماير الألمانى مؤلف كتاب «قادة الأدب العربى الحديث» ، والمستشرق السويسرى الدكتور ويدمار الذى يذيع دراسات مستقلة عن الأدباء والشعراء المعاصرين ، كمحمود تيمور والزهاوى ، والمستشرق نيفل باربور الذى كتب دراسة وافية عن المنفلوطى وعن تاريخ المسرح المصرى ، وكذلك المرحوم مارتين هارتمان المتوفى لأعوام قلائل ، فاليه يعود الفضل فى تنبيه علماء أوربا إلى الأدب العربى الحديث

وقد زار العلامة كراتشقويفسكى مصر وسوريا وفلسطين عام ١٩٠٨ ، وانكب فى خلال اقامته بهذه الأقطار على دراسة آدابها الحديثة ، ومكث بها فترة طويلة بمدرسة اليسوعيين فى بيروت . وظهرت نتيجة زيارته ودراسته فى بحث ممتع قرأته له منذ أعوام ناشد فيه الأدباء المعاصرين أن يدونوا تراجمهم ويدرسوا آثارهم

وللأستاذ أيضاً يعود الفضل فى تعريفنا بالعالم المصرى المرحوم الشيخ محمد عياد الطنطاوى المدفون فى مدينة بطرسبرج (لينتجراد) ، فقد نزح هذا العالم الأزهرى منذ نحو قرن تقريباً إلى روسيا ليدرس الأدب العربى فى جامعاتها ، ووافاه الأجل وهو هناك فدفن فى الأراضى الروسية ، ويوجد رسم فوتوغرافى لقبره فى الخزانة التيمورية ، وقد نقشت بعض عبارات بالعربية على شاهد القبر تفيد هذا المعنى

وقد ظهر أول بحث علمى للأستاذ كراتشقويفسكى عن « شاعرية أبى العتاهية » وضعه عام ١٩٠٦ ، فرسالة « خلافة المهتدى » التى تقدم بها إلى الجامعة للحصول على درجة علمية ، فكتاب « المتنبى وأبو العلاء المعرى » وهو بحث ممتع دقيق فيما كان للمتنبى من التأثير فى فلسفة أبى العلاء وشعره وبالأخص فلسفة التشاؤم الغالبة فى شعر فيلسوف المعرة وفى آرائه الدينية ، ودراسة عن شعر الشاعر الدمشقى « أبى الفرج الوأواء » ، وترجمة ديوانه ، وكتاب « البديع لابن المعتز » ، ودراسة عن « الرواية التاريخية فى الآداب العربية المصرية » ، ثم هذا البحث الممتع الذى نشره فى الملحق الأول من دائرة المعارف الاسلامية

ومما يجدر بنا ذكره أن العلامة كراتشقويفسكى أشرف على ترجمة كتاب « الأيام » لطه حسين ، و « عودة الروح » لتوفيق الحكيم إلى الروسية ، وهو يشغل الآن كرسى أستاذ الأدب العربى بجامعة لينتجراد ، تعاونه فى مهمته سيدة فلسطينية هى كلثوم فاسيلفا التى وقفت جهودها على نقل الآثار النفيسة فى الأدب العربى إلى الروسية (المترجم)

***

١ — لمحة عامة — عوامل التقدم — العصور

ليس من اليسير على الباحث المحقق أن يعثر على بعض آثار النهضة الأدبية فى العصور السابقة للقرن التاسع عشر . فانها كانت مجرد مظاهر فردية الغرض منها إحياء الفنون اللغوية القديمة ، دون محاولة التجديد فى الأدب ؛ وكان من جراء الروابط المتينة التى نشأت بين الأقليات المسيحية فى سوريا ودوائر روما واستامبول أن بزغت مدرسة أدبية خاصة ، يتصدرها مطران حلب المارونى السيد جرمانوس فرحات (١٦٧٠ — ١٧٣٢) ؛ إلا أن العرب لم يتأثروا بالتيارات الفكرية فى أوربا إلا بعد الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) . فاذا أردنا أن نبين مظاهر الثقافة الأوربية التى تركت أثراً أعمق من غيرها فى التفكير العربى ، ألفيناها فى الوصف الذى أورده الجبرتى لأول مطبعة حروف ، ورأيناه فى أول مكتبة نظمت على النمط الأوربى فى دار الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ — ١٨٣٤) الذى أصبح فيما بعد شيخ الجامع الأزهر . وإن فى هذين المثلين فكرة عن بعض العوامل

التى قامت بدور هام فى تكوين الأدب العربى الحديث ، وقد أنشئت فى ذلك الحين دور جديدة للعلم على الطراز الأوربى ، فأنشأ محمد على الكبير مدارس لتعليم الطب والعلوم الفنية بنوع خاص ، لكنها خصصت أيضاً لتدريس فن الترجمة . أما فى سوريا فقد عملت الرسالات الأوربية والأمريكية العديدة عملاً مجدياً فى هذا السبيل ، فأسست مدارس متنوعة ، وراح الأهلون ينسجون على منوالها فى إنشاء دور العلم . فكانت مدرسة بطرس البستانى (١٨١٩ — ١٨٨٣) أولى المدارس الوطنية . وفى خلال القرن التاسع عشر أدخلت على تلك المدارس تعديلات عدة ، فأصبح للبلاد العربية الآن مجموعة رائعة من المعاهد العلمية الكبرى التى أحدثت أثراً مباشراً أو غير مباشر فى تقدم الأدب الحديث . وإنا نذكر منها الجامعة الأمريكية ، وجامعة القديس يوسف ببيروت ، والجامعة المصرية بالقاهرة . ثم انتعشت حركة البعثات العلمية فأكملت ما قامت به المدارس من الخدمات . وهناك وصف طريف لأولى البعثات التى أرسلها محمد على الكبير ، وهذا الوصف الشائق بقلم أحد المبعوثين ، رفاعة بك الطهطاوى (١٨٠٠ — ١٨٧٣) الذى أصبح فيما بعد مترجماً مجتهداً ، واحتل مكانته الأدبية كزعيم من زعماء الاتجاه الجديد . وقد اتخذت تلك البعثات صبغة منظمة ابتداء من مستهل القرن العشرين . ومن السهل استجلاء أهميتها فى تكوين الثقافة العربية إذا اطلعنا على الرسائل التى قدمها شباب العلماء العرب فى جل السنوات (خصوصاً إلى الجامعات الفرنسية) . وفيما عدا الطباعة التى كانت معروفة فى سوريا منذ فجر القرن الثامن عشر ، دون أن يكون لها أثر كبير ، فقد أدخلت الحملة الفرنسية إلى مصر عنصرا جديداً وهو الصحافة الدورية . لكن أثرها ظل فى حيز ضيق إلى أن كانت سنة ١٨٢٨ حين أعاد تنظيمها محمد على الكبير . وكان لها الفضل العميم فى تقدم الأدب الحديث ، إذ وجهت بعض الأنواع الأدبية وجهات جديدة كما ساعدت على ظهور أنواع أخرى . وكان الاقبال المتواصل على الترجمة مرتبطا تمام الارتباط بالطباعة . واستهلت الحركة بترجمة الكتب العلمية ثم شرع فى نقل الكتب الأدبية البحتة . وكما أن بعض الكتب القديمة كمؤلفات ابن المقفع والجاحظ كان من الصعب نقلها إلى اللغات الأخرى لولا مترجمو العصر العباسى ، فان الأدب العربى الحديث كان مستحيل النشوء لولا مترجمو القرن التاسع عشر . وللمرة الأولى فى التاريخ أصبح الأدب القديم فى متناول القراء بفضل الطباعة . وقد شرع فى خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة فى دراسة هذا الأدب دراسة صحيحة مؤسسة على القواعد الحديثة . وقد قامت هذه الحركة على أساس أنه لا يجوز نبذ الأدب القديم كله لتشييد أدب عربى حديث ، بل يتعين الاحتفاظ بجزء كبير من الأدب القديم واعادة تنظيمه . وقد تأسست دور كتب على النمط الأوربى فسهلت تلك الدراسات المنظمة وساعدت على نشر الكتب القديمة . وإلى جانب الصحافة الدورية ، قامت المنتديات والجماعات العلمية والسياسية والأدبية تدريجياً منذ منتصف القرن الماضى فأحدثت أثراً عميقاً فى الجو الأدبى . بل إن النثر الخطابى نشأ وتدرج فى تلك المنتديات . أما المسرح فلم يكن له حظ يذكر ، فقد ظهرت بواكيره فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر بفضل جهود بعض الهواة ، لكنه لم يعتبر مظهراً جدياً من مظاهر الفن إلا فى القرن العشرين إذ برزت طائفة من الممثلين الأكفاء يرشدهم فريق من النقدة المسرحيين

وللهجرة أهمية خاصة ترجع إلى تقلبات مصير العرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وذلك لاعتبارات متنوعة من سياسية واقتصادية . ولقد سارت الهجرة جنباً لجنب مع الأدب العربى الحديث منذ فجره حتى اليوم ، سارت منذ غداة الحملة الفرنسية إذ نزحت بعض الأسر عن مصر وأقامت فى فرنسا ، كميخائيل صباغ (١٧٨٤ — ١٨١٦) والياس بقطر (١٧٨٤ — ١٨٢١) . وكثير من أولئك المهاجرين كانوا أساتذة الآداب العربية فى جامعات أوربا كالشيخ الطنطاوى المدفون بيطرسبرج (١٨١٠ — ١٨٦١) وكان جل اهتمامهم موجهاً إلى إحياء الأدب القديم ، إذ أن الأدب العربى الحديث كان فى مستهل نهضته فلم يثر اهتمام المستعربين وعلماء المشرقيات . لكن الحالة تطورت بعد سنة ١٨٧٠ إذ تدفق سيل المهاجرين تدفقاً كبيراً (خصوصاً النازحين من سوريا) لا إلى أوربا فحسب ، بل إلى أمريكا الشمالية والجنوبية . وكان لهجرة هذه العناصر أهمية عظمى فى تكوين الأدب العربى الحديث ، إذ ظهر جيل من الكتاب بدأوا دورهم على مسرح الأدب وإن لم يتموه إلى الآن

استناداً إلى هذه العوامل يمكن القول بأن تاريخ الأدب

العربى الحديث ليس إلا تاريخ النفوذ الأوربى ، فقد اتجه هذا الأدب اتجاهين رئيسيين : النضال بين الأفكار القديمة وبين الأفكار الحديثة ، والمشكلات التى نشأت من طابع الفن الأدبى الحديث . وقد اتخذ هذا النضال أشكالاً متباينة فى المضمار الأدبى ، فشوهدت فى كل مرحلة تقلبات تختلف عن الأخرى . وأهم الميول التى ظهرت بجلاء هى أولاً : الاحتجاج على كل جديد ومحاولة البقاء فى دائرة القديم ، وإحياء الأساليب القديمة . ثانياً : السير سيراً سطحياً على منوال الأوربيين وتقليد أفكارهم ، واحتقار الماضى العربى بأسره . ثالثاً : محاولة صبغ الأصول الصحيحة للأدب العربى بأشكال جديدة مبتكرة من أساسها ، مع اتخاذ الطرق الأوربية والثقافة الغربية وسيلة للوصول إلى هذا الغرض . ولا تزال هذه الميول قائمة حتى الآن جنباً لجنب

ويلاحظ أن الفريق الأخير هو الذى فاز بأوفى عدد من الأنصار . وبديهى أن مصير العرب السياسى فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين أثر تأثيراً كبيراً فى التيار الأدبى . فتاريخ هذا العصر هو تاريخ الانفصال تدريجياً عن تركيا (سواء من الوجهة السياسية أو الأدبية) ونشأة الروح القومية العربية التى اجتازت مراحل نموها بخطوات تختلف سرعتها باختلاف البلاد . وقد شاهدنا فى الأيام الأخيرة أن تقدم الروح القومية أدى إلى نزعة فردية عند بعض الأمم العربية . أما فى ميدان الأدب فان تلك النزعة تنمو وتقوى فى مصر حيث يدعو بعض المفكرين إلى تمصير اللغة وإحياء الأدب القومى

***

إن من الصعب تقسيم الأدب العربى فى القرن التاسع عشر إلى عصور تميزه تميزاً واضحاً ، فقد كان الانتاج الأدبى فى حد ذاته إلى عام ١٨٨٠ تافهاً نوعاً ، بل إن العرب أنفسهم كانوا لا يذكرون أسماء كتابهم ، ذلك لأن مؤلفات هؤلاء الكتاب لا قيمة لها إلا فى نظر معاصريهم ، فهى مرآة لأفكار عصرهم ومشكلاته ، وأهميتها اليوم لا تعدو أن تكون تاريخية بحتة . بل هو عصر بحث واستطلاع أكثر منه عصر إنشاء أدبى

ويمكن تحديد هذا العصر بخمس قرن ، أى من سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٨٩٠ ، ثم من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٠٠ ، وهى الفترة التى اختفى فيها من المضمار الجيل الأول لناشرى النور الجديد ودعاة الأدب الغربى ، وكانت كل من سورية ومصر تعملان وقتئذ مستقلتين ، فالتفتت مصر إلى المضمار العلمى بنوع خاص ، أما سوريا فوجهت اهتمامها إلى ميدان اللغة والأدب ، وبرز فى كل من البلدين رجال عظماء كبطرس البستانى فى سوريا ، ورفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك (١٨٢٤ — ١٨٦٣) ، وعبد الله فكرى (١٨٣٤ — ١٨٩٠) بمصر ، وفى البلاد غير العربية امتاز العصر بظهور بعض الكتاب النوابغ كأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧)

فى هذه الفترة أنشئت الصحافة الدورية وتكون الأسلوب الصحفى ، وشهدت السنوات العشر المتخللة بين سنة ١٨٦٠ و ١٨٧٠ تغيرات خطيرة فى مركز الأدب العربى الحديث ، فحوادث دمشق فى سنة ١٨٦٠ ، واستقلال لبنان استقلالاً داخلياً من جهة ، وافتتاح قنال السويس (١٨٦٩) ، ثم نشوب الثورة العرابية (١٨٨٢) أدت إلى احتلال القطر المصرى من جهة أخرى ؛ كل هذه العوامل ساهمت فى تعديل الطرق التى سار عليها الأدب . ولقد اتسع نطاق الهجرة السورية إلى مصر اتساعاً كبيراً فى الفترة من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٠٠ ، فانتقلت إلى أيدى السوريين جميع الصحف الاصلاحية القوية النفوذ

(يتبع) ترجمة محمد أمين حسونه

الطيف...

للأستاذ فليكس فارس

يا جيرةَ الحيّ هل فى الحيّ من آسِ   يردُّ ذكرى وآلامى ووسواسى؟
سلختُها عن شغافِ القلب فاقتلعتْ
جذورُها من صَميم القلبِ إحساسى

***

أعلو المنابرَ طلّاباً بنشوتها   بعثَ القديمِ بأفكارى وأنفاسى
فتنجلى بىَ نفسى وهىَ خافيةٌ   عنى لتبدو لمَنْ حولى من الناسِ
أنيرُ نبراسَ شعرى أستبيحُ به   مابَيتكَ السترَ لمُستَذكرِ الناسى
فيجتلى شاهدى روحى بروعتِها   ويحجبُ الشعرُ عنى نورَ نبراسى

***

نشدتُ نفسىَ فى الإعصارأقحمها   نشدتُها فى ظِلالِ الورد والآسِ
نشدتُها فى عيونِ الغيدِ طامعَةً   منى بإحياءِ تدليهى وإيناسى
فروّعتنى شرارات الحياة بها   وراعها فى عيونى أربدُ اليأسِ
يخالنىَ الناسُ أمشى فى ربوعِهم   ولم أكن غيرَ طيفٍ بين أرماسِ
فإنْ جلستُ إلى الإخوانِ مؤتنِساً   لمحتُ ذاتىَ وهماً بين جُلّاسى
أراودُ الكأسَ عن سكرٍ تجودُ به   فلاأرى غيرَوهمِ السكرِ فى الكاسِ

***

يا جيرة الحيّ هل فى الحى من آس   يردُّ ذكرى وآلامى ووسواسى؟
سلختُها عن شُغافِ القلبِ فاقتلعت
جذورُها من صميمِ القلبِ إحساسى

(اسكندرية) فليكس فارس

الشاعر وسريره[1]

للشاعر الحضرمى على أحمد باكثير

— ٢ —

فى غرفة واجمةٍ قفرةٍ   ليست بها بارقة للمُنى
هادئة لا عن طمأنينة   ساكنة مثل سكون الفنا؟
النور فى أرجائها حائر   يصيح من يأسٍ: أقبرى هنا؟!
ولا جواب غير همسٍ بها: ويْبكَ يا ابن الشمس أين السنا؟
لا ذنب للنورَ ولا غيره   فى غرفة خالية مِن «أنا»!

***

ثاقبة السمع، تـكاد الرؤى   تُسمَعُ فيها وخُطا الأزمنـه!
كأنما كل جـــدار بها   أُبدل آذاناً عن الألسنه
ضلّت بها الأشياء ناموسها   فما لها من صِفةٍ أو زِنه!
يمتدّ فيها الزمن المنقضى   حتى كأن اليوم فيها سَنه
كأنما الدهر بها مُتعب   أوغل فى غيبوبة من سِنه!

***

ثمّ «سرير» مفرد، لاغِب   مُتَقّع الوجـه، كليم الفؤاد
ينتحل البشر إذا جئته   وهمّه ما بين خافٍ وباد
رثّ نقابٍ فى ضجيج الدُّنَى   يشكو من الوحشة والانفراد
واضيعةَ الجمر بلا مُصطلٍ!   وليس بعد الجمر إلا الرماد!!
ينشد قلباً واحـداً عاطفاً   من ضعضعت شكواه هذا الجماد!

***

رَق لحالى، وهو أحرى بأن   يبكينى العطف على حاله!
كأنه فى شـمثه راهب   لا تخطر الدنيـــا على باله
يحمل منى جســداً مائراً   طول الدُّجى يمطَى[1] بسربا له
يقوم عنــه وهو مستنفدٌ   قواه، ملغوبٌ بأوصاله
يلفيه بؤساً صاحبٌ فوقه   يطرقه الليــــل بأهواله

***

من لسريرى بيــدٍ عَذبةٍ   تنفخ فيه الرَّوح والعافيـه؟
تجولُ فيـــه فإذا جَمّه   أريكة منضودة زاهيـه!
ينتشر الريحان فى جوها   وتنتشى فى ظلها الفاغيـه!
آوى بها من غرفتى جنــةً   يمر فيها الدهر كالثانيـه!
رُبَّ سرير حسُنت حاله   يعود بالحسنى على حاليه!!

على أحمد باكثير

(١) تابع لما نشر فى العدد ١٦٧

(١) يمطى: يتمطى

وداع صديقين (*)

للأستاذ أمجد الطرابلسي

عِندي التهانى عذبة لكما   فرْحى ، فمالى اليومَ عندكما ؟

ومع التهانى الطيباتِ أسىً   وارٍ يجوبُ الصدْر مُضطرما

إمّا انتَشى قلبى لمجدكما   ذكرِ النوى فهفا لبُعدكما

فرح وتحنان ، فأيُّهما   أحْلى له الخفّاق ، أيهما ؟

قد حارَ قلبى قبلَ بينكما   ما يفعل المِسكين بعدكما !

* * *

أخَوىَّ سِيرا وانركا كبدى   تَلْهو بها الأشواقُ إثْركما

تبّاً لها مكلومة أبداً   ما إن تُسيغ الأعْذب الشبما

أو تُنكران أساى فى عُرسٍ   رن السرور بساحِـــهِ نغما

إن الوفاء يهزُّ بى شجناً   جمَّ اللهيب ويَنْظم الكلما

ويهيجنى قسراً فمعذرةً   تَسَع الوفاء البرَّ ، أو كرما

* * *

أخوىَّ سيرا للفخار معاً   إن القلوبَ تحوط ركْبكما

لا تأسيا لملاعبِ كرُمت   نبت الصِّبا فى قدْسها ونما

أو ترْهبا الصحراء قاحلة   لجُّ الرِّمال طغى بها وطما

فالمجد والذكْرُ الجميل لمن   يجرى على الأرماح مبتسِما

كم أطلعت صحراؤنا قمراً   حول النبى ، وعلمتَ أمما

* * *

وعلامَ ظعنكما يُروّعنى   ومرابضُ الأحرار قصدكما !

إن العراق على الجِوارِ أخٌ   برٌّ كريم يكلأُ الرَّحِما

فى رأسه من هاشمٍ أسدٌ   يرعى العرينَ ويحرس الأجما

غازى بن فيصل جلَّ مَحْتِدُه   شرفاً ، وطابَ أُبوّةً وحمى

ملكٌ به تزْهو العروش ، جرى   نحو العلاءِ بِشعبه وسما

* * *

فخر الشباب ، وحسن طلْعتِه   وضياءه إذ يكشفُ الظُّلَما

لِلّهِ همّكما ، ودركما   من كوكبين توهّجا هِمما

قلبا كما قد أُتْرِعا أملاً   وعزائمَا ، وتوقّداً شمما

أصبحتُما مثلاً فَمِثلكما   من سارَ فى طلبِ العلى قدُما

نِضْوانِ ، والقلبُ الكبير لظىً   تضوى به الأجسام ما اضطرما

خاضاً عُباب الجد مُضطرباً   صخباً : ودربِ المجد مزدحما

ملأ الصحائفُ كلَّ مفخرةٍ   وتشاطرا الأمجاد واقتسما

فاذا سألت المجدَ ، أى فتى   نزهو به فى الشام ؟ قال : هما !

* * *

ثملان بالعزِّ التليد فكم   بعثا محاسِنه ، وما كرُما

طَرِبان لم ذا مجّداً ظفراً   أو ردّدا نغما ، وما سئما

أوَ يسأمانِ ، ومجدُنا زهرٌ   فى مَفرِق التاريخ قد نظما

مجد العروبةِ ساطعٌ أبداً   لا يرْهبُ الأحقابَ والقِدما

تعنو له الأجيالُ خاشعةً   وتخُصُّه التبجيلَ والعِظما

* * *

يا مَجْدَنا الماضى تحيّتنا   اليومَ ثُرْنا نبعثُ الرِّمما

سنُعيد صوتك داوياً غرِداً   فى الخافقَيْنِ وننشُر العلما

نحنُ الشِّبالُ فداء رايتنا   سنُحَطمُ الأصفادَ واللُّجما

آمالُنا وخيالُنا وطنٌ   سُقِيت دُموعاً أرضُه ودما

جُبِلت من الشُّهداءِ طينتُه   فغدا لقُدْس تُرابه حرما

وطنى تخِذْتُكَ فى الصبا أملاً   حُلْواً يرفُّ ، وفى الكرى حلُما

وطنى عبدْتُ ثراك مِن وَلَهِى   لو كنت مِمَّن يعبدُ الصنما

* * *

يا صاحبىَّ ستنزلانِ حِمًى   شَبَ الفخارُ لديهِ واحتلما

بغدادَ أم المجدِ من ولدتْ   للمجد مأموناً ومُعتصِما

إن تأتياها ، فاذكرا زمناً   كلُّ العصور غَدت له خدَما

ثم اسقِياَ العَبراتِ تُربتها   قد جلَّ دمعٌ للوفاءِ همى

البصرتَانِ هناك كم ولدا   حبْراً وكم ذا أطْلعا علما

والرّافدان هُنَاكَ كم حملا   عرشا ، أظلَّ العُرْب والعجما

أىُّ العروشِ يظلُّ منبسطاً   أى الجديد من البِلى سلِما ؟

هذى دمشقُ ، فكم بها أثر   من عبدِ شمسِ شارف العدما

كم جرَّ ذيلاً فى حدائقِها   مروانُ أو كم نقل القدما

(*) ألقيت فى الحفلة التكريمية الكبرى التى أقامتها جمعية التمدن الاسلامى بدمشق للأستاذين على الطنطاوى وأحمد مظهر العظمة بمناسبة سفرهما إلى العراق للتدريس فى مدارسه

من وراء القرون

هـذه الأحداث تتوالى ، والمصائب تتعاقب ، والأمم الاسلامية تخوض كل يوم بحراً من اللهيب ، فأين الأدب الذى يصف الأحداث ، ويصور آثارها ؟ وأين الشعر الذى يشحذ الهمم ، ويستثير العزائم ؟ وأين الأدباء والشعراء الذين يشعرون بشعور الأمة ويألمون لآلامها . ويشاركون فى بناء مستقبلها ؟ ...

أما حركتكم أيها الشعراء نكبة فلسطين ؟ أما هزت قرائحكم ؟ أما هاجت عواطفكم ؟ اقرأوا الآن هذه الأبيات من قصيدة الأبيوردى فى استيلاء الفرنج على بيت المقدس فى سنة اثنين وتسعين وأربعمائة . ثم افتحوا (ديوان فلسطين) الذى ستؤلفونه من قصائدكم فى فلسطين بمعارضة هـذه القصيدة ، عل قصائدكم تهز الأمة الغافلة فيخرج منها صلاح الدين جديد «ع»

قال الأبيوردى المتوفى سنة . . .

مزجنا دماء بالدموع السواجم   فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشرّ سلاح المرء دمع يفيضه   إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فإيها بنى الاسلام ! إن وراءكم   وقائع يلحقن الذُّرى بالمناسم
أتهويمة فى ظلّ أمن وغبطة   وعيش كنوّار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها   على هبوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام [1] يضحى مقيلهم   ظهورَ المذاكى أو بطونَ القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنتم   تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دُمًى   توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبى   وسمر العوالى داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة   تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها   ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سلَلن بأيدى المسلمين قواضباً   ستغمد منهم فى الطُّلى والجماجم
يكاد بهنّ المستجنّ بطيبة   ينادى بأعلى الصوت : يا آل هاشم !
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدا   رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من العدا   ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى   وتغضى على ذلّ كماة الأعاجم
فليتهم إذ لم يذودوا حميّة   عن الدين ضنّوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا فى الأجر إذ حمّش الوغى   فهلاّ أتوه رغبة فى المغانم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للثرى   فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحّة   إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارةً عربيّة   تطيل عليها الروم عضّ الأباهم

***

فإن أنتم لم تغضبوا عند « هذه ... »   رمتنا إلى أعدائنا بالجرائم

(١) الشام أو سورية ما بين جبال طوروس ، وبادية العرب « خلقها الله وحدة » ، فلا يستطيع بشر أن يجزئها !

جبّارة فى الخطبِ باسمة   لا تشتكى لجراحها ألما
سخِرت من الطُّغيانِ فاغرةً   قبراً لكلّ مدجّج ظلما
دامٍ حشاها ، وهى عابثة   كالغيدِ ، تضحكُ مُقْلةً وفما
لا تنسياها صاحبىّ غداً   أو تنسيا شمماً بها التأما
أو تنسيا بردَى وواديهُ   والغُوطةَ الغنّاء والنَّسما

***

مالى أذكرُ ! أين مثلكما   من يحفظ التذكار والذِّمما ؟

(دمشق)   أمجد الطرابلسى

القصص

ليلة... من عمر فتاة!

للأستاذ محمد شوكت التونى

منذ الساعة الثالثة بعد الظهر وأمينة فى عراك بينها وبين نفسها . فمرة تقوم لترتدى ثيابها وتعد نفسها لملاقاة « صادق » . ولكنها لا تلبث حتى تلقى الملابس وترمى أدوات الزينة مهتاجة الأعصاب ثائرة النفس . فانها لا تريد لقاءه ولا تبغى أن تشاهد وجهه ولا أن تستمع إلى حديثه ، ولا أن تبادله ذياك الحديث . فقد أصبح بغيضاً لديها ، كريهاً فى عينها ، منبوذاً من كل عواطفها إلا عاطفة الحقد . لقد عرفته أول ما عرفته شاباً وادعاً رقيقاً ملأ أذنيها بأحاديث الهوى ، وصور لها دنياها زهوراً ورياحين ، وأضاء فى قلبها نور الأمل ، وأشعل فى نفسها جمرة الحياة الحلوة الهنيئة ، وحسبته صادقاً فى قوله مخلصاً فى حبه ، وفياً بعواطفه ، يريدها شريكة له تقاسمه نعماء الحياة وبأساءها ، يبنيان معاً كالعصفورين عشاً يتذوقان فيه جمال الدنيا وينعمان فيه بسقسقة صغارهما زينة الحياة وذخر الباقية

وكانت قد اطمأنت إليه وأنست لحبه ، وبادلته النجوى كما بادلته رسائل تفيض سطورها بأشد العواطف ، وتسجل فى كلماتها خفقات قلبها

وكان لقاؤهما أول العهد نادراً لا يستطيعانه ، فكانت الرسائل عزاءهما وسلوتهما ، ورسول قلبيهما ؛ وكان والدها رجلاً شهماً قوى الشكيمة ، يحيط منزله بعنايته ويتعهده برعايته ، فكان الافلات من حضانته عسيراً : ولكن الشباب لا يُغلب والعاطفة فى زمنه لا تقهر ، تستطيع أن تنفذ ولو فى الصخر الصلد . وعلى ذلك فقد تقابل العاشقان بعد طول البعد . وبعد أن ربط بين قلبيهما مجرد النظر والميل الغريزى والخيال البارع ، ووثقت الروابط والعلاقات الرسائل التى كانا يتبادلانها ، والتى كانت ألفاظها تحمل من المعانى ما هو أبعد ما يكون عن الحقيقة لأنه نضح الخيال وثمرة الأمل الواسع والرجاء الفسيح

ولكن المقابلة وتكرارها مرة أخرى باعدت بين العاشقين ، فقد عرفت من أمره ما غاب عنها بين سطور الرسائل ، فهو يريدها كما يريد الرجل المرأة ، تدفعه شهوة الشباب الغلابة التى تتشكل فى صورة العاطفة وقد تسمو وترق ، وتأخذ هيكل المثل الأعلى ولكنها لا تلبث عند اللقاء واللمس وتذوق القبلة والعناق أن تنكشف وتتساقط جافة صفراء من فوقها ومن حولها الأوراق التى كانت تسترها مخضرة منداة ، عليها طلاوة الغضارة ورونق النضارة . ويصفق فى ذلك الكيان البشرى كفّا الرغبة فيزلزل الجسم ويخون اللسان صاحبه ، وتكشف النظرات خديعة الخيال

أدركت «أمينة» كل هذا ، وكشفت من أمر صاحبها ما رابها أول الأمر ، فتعللت بالآمال واستنجدت بخداع نفسها ، ولكنها لم تستطع الثبات وأيقنت فى آخر الأمر أنه باطل ما أملت وخيبة ما رجت ، ووهم ما تخيلت ، وأن العش الذى بنته فى سبحات الروح إنما هو فى الحقيقة كهف مظلم ينتظرها فيه إنسان فى صورته الوحشية الأولى ، أو بالحرى حيوان على أديمه طيف إنسان ! فجفلت ونفرت وارتاعت ، وكان عنصر نفسها قوياً فلم تستسلم أو ترتمى حطاماً وتتكسر هشيما ، فأعرضت وصدت عن « صادق » وأرسلت إليه تعلنه بالقطيعة وتحول بينه وبين قلبها وبين جسمها ، وتحذره أن يعاود أمره معها أو يحاول الاتصال من جديد بها

ولكن الوحش الذى كان ينظر فريسته فى الكهف المظلم هاجه أن تفلت فى لحظة قد أعد فيها الوقود ، وتلهب سعير ذلك الوقود فى كل قطعة من كيانه ، وناداه غريزته أن لا بد من الفوز ولو بارتكاب الجريمة ، فعمد إلى تهديدها وسطر لها الخطاب الآتى :

« أمينة » !

« لا تحسبى أمرى من الهون بحيث تنقضين وتبرمين فى حياتى

بمجرد رغبتك وحسب إرادتك . أنت لى ، قلباً وجسما ، ولو اصطف أهلك جيشاً ، وأعدوا من السلاح أشده وأقتله . فارجعى إلىّ وعودى إلى أحضانى ، وإلا فليس فى يدى غير الانتقام ، وعدته جاهزة ، وسلاحه مرهف ، وخطاباتك أمامى الآن بخط يدك ، أرسل بعضها إلى أبيك ، وأضعها فى يد زملاء أخيك بالمدرسة ، وأذيعها على صفحات الجرائد ، وفى كل صالون من جيرتك ، فتنهال فوق جسمك الذى تضنين به على قبلاتى ومتعتى ، العصى والسياط ، وينتشر العار حول اسمك : فينالك من رفيقاتك الخزى ومن الراغبين فى زواجك الصد والبعد

إنى أنتظرك فى الساعة الخامسة من مساء اليوم فى مكان لقائنا المعروف . فان لم تحضرى فى الساعة الثامنة غداً صباحا سأبدأ انتقامى وتكون فى يد أبيك رسائلك ، ولقد أنذرتك فأعذرت »

(صادق)

***

لم تكن أمينة تترقب وقوع هذه الكارثة ، وكانت تحسب أنه يكفى أن تعلنه بالقطيعة حتى ينقطع ، وأنه حسبها ما تعانى من ألم الخيبة وصدمة الفشل

لقد كان أول حب نما فى قلبها ، وكانت لجيعتها فيه لا تقل عن لجيعة الأم الشابة فى وليدها الأول الذى لم تكن تصدق أنه يموت من بين يديها ، فأعدت له الآمال وحاطته برجاء نفسها المطمئنة

ولقد كان صادق فى نظرها شاباً وادعاً هادئاً ، ثم رأت منه جنوحا إلى تكييف العلاقة التى بينهما بصورة لا تريدها . ولم يكن يخطر ببالها أنه سوف ينحط عن هذا درجة بله درجات فيهبط من السماء التى كان يتيه فيها ملكا فيصبح مجرما كملايين المجرمين الذين يملأون فجاج الأرض !

إنها نادمة على ما فرط منها من التسرع فى مبادلتها الحب لشاب عرفته بالنظر ولم تعرفه بالفكر ولا التجربة ، ورأت فى نفسها مجرمة فى حق نفسها ، فهى تريده عاشقاً روحياً عذرياً ، ينظر اليها كزوجة المستقبل ، مع أن حبهما كان وليد النظرة ، ولم يكن ثمرة التعاطف الروحى ...

إذن هى لم تحبه ؛ لم تعشق هذا الانسان المدعو « صادقاً » ، ولكنها أحبت « محبوباً » ، رجلا ، لأن « سالبها » الروحى كان معداً « لموجب » ، بصرف النظر عن شخصية من يمثله ، فأى شاب كان قد حل محله كان جديراً بأن ينال مركزه فى قلبها .

وهذه هى الخفقة الأولى للحب ، تتكون عناصرها بسرعة البرق ، وتعيش فى قلب صاحبها بلهاء ! والسعيد من فارقته وشيكا ، والشقى من أطالت رفقتها معه وأثمرت له زواجاً ، أو عشرة محرمة ، كلاهما يفضى بحياة صاحبه إلى التعاسة

مرّ كل هذا بخاطر أمينة ، ولكنها تذكرت أن هذا الشاب الذى يكتب مثل هذا الكتاب ويتقلب مثل هذا التقلب ، لا يحجم عن تنفيذ تهديده ، فهو لا بد فاعل ما انتوى ؛ وغدا فى الصباح ستقع فى يد أبيها رزمة من الأوراق بخط ابنته التى يعتقد أنها قديسة ، والتى يعيش من أجل رفاهتها وسعادتها ، ويحوطها بحنانه وشدته كى يبعد عنها عناصر الشر والسوء

إن التفكير فى هول السعير كان ألطف وقعاً عندها من التفكير فيما عسى أن يفعل أبوها ، وهو ذلك الرجل القوى الذى يبعث الرعب فى نفس كل من حوله من نظرته ، والذى إذا قدم البيت شاع فيه السكون وعقد الصمت ألسنة سكانه ، والذى يضرب المثل بالمصلحة الحكومية التى يديرها من حيث انجاز العمل فيها والهدوء الذى يهيمن على نواحيها ، والذى يخافه أهل العزبة خوفا لعلمهم — بينهم وبين أنفسهم — لا يخافون الله مثله

العزبة ! لقد مرت على رأسها ذكريات ذلك الشاب القروى الذى يسكن العزبة ، والذى اتهمه شيخها بأنه يتصل بفتاة قروية مثله ، فأحضره أبوها وجلده بالسوط حتى كاد أن يموت ، وأجبره على الزواج منها والرحيل عن العزبة !

ترى إذا كان هذا فعله بالقروى الحقير ، الغريب عنه ، فماذا هو فاعل بابنته ، عرضه ، دمه ولحمه ؟ !

أتراه إذا قرأ خطاباتها إلى صادق ، وهى تدعوه فيها « حبيبها » و « أملها » ، والتى تسهب فيها فى شرح عواطفها وما يخالج فؤادها من عشق مبرح وهوى جائح ، والتى تصف فيها سهرها الليل ومناجاتها إياه ، وتفكيرها فى السعى اليه وهجران الدار إلى لقائه ، لولا ما وضع أمامها من موانع ، والتى تذكر فى بعضها كيف حطمت هذه الموانع ولاقته ؟ ! ...

وكانت كلما تذكرت أباها عندما يدرك أن ابنته الصغيرة كانت تخدعه وتسخر من قواعده المقررة فى الدار ، وتعصى أوامره ، وتتستر بالأعذار الكاذبة لتلاقى ... عشيقاً لها ! ينتصب

شعر رأسها فزعاً وترتعش كمن مسه تيار كهربائى ، وتتساءل : يا ترى إذا رحم شبابها ، وذكر أنها كبده وثمرة حشاه ، هل يكتفى بقتلها برصاصة تودى بحياتها دون أن يطيل عذابها ؟ !

عند هذا الخاطر كانت تضعف أمينة ، فتقوم من نورها إلى ثيابها ترتديها تنوى الذهاب لملاقاته والتوسل اليه كى يقلع عما قطع فيه بعزمه ، لعله يلين ويرفق بحالها ، ولكنها سرعان ما ترجع عما نوت ، وتظهر لها خسة هذا الشاب وحقارته ، وكيف أنه لجأ إلى التهديد بدل أن يلجأ إلى الرجاء ، « وهذا الخلق من شأنه » أن يجعل صاحبه يتمادى لا يرق للرجاء والتوسل ! ثم .. كيف ترجو وكيف تتوسل ؟ وترجو من ؟ هذا الوضيع ؟ إن الموت أحب اليها من أن تفعل ، وملاقاة حتفها أيسر من تحطيم كبريائها وعيشها ذليلة يتصرف فى شأنها رجل تكرهه ، بل ذئب يشتهيها ، وهى كالأمة ، لا تملك إلا الرضاء والتسليم

ترجع فتخلع مالبست وترتمى محطمة على الأريكة وحياتها أمامها مظلمة لا ينبثق منها نور ولو من بعيد

ثم تتذكر تهديد صادق لها بأن يعرض رسائلها على زملاء أخيها فى المدرسة ، وتتصور أخاها الشاب الكامل ، البسام ، المرح ، المعتز بقوة عقله وقوة جسمه ، فهو الأول بين أقرانه ، وهو بطل المدرسة فى الملاكمة ، وهو يعد نفسه ليدخل مدرسة البوليس ليصبح ضابطاً . كيف يكون حاله لو شاع هذا الأمر بين زملائه وأصبح عرضة للازدراء والتحقير والتعبير ؟ ستتحطم كبرياؤه ويمشى بينهم منكس الرأس عانى الجبين . . .

ياترى هل ينتقم منها هو الآخر ، أم يكفيه مايحل به هو نفسه ؟ إذن جنايتها مزدوجة . لقد حطمت نفسها وقتلت أخاها ! ما أكره هذا الحب . ما أبعده عما يصور الكتاب والشعراء وينطق الممثلون ويرسم المصورون ! إنه خداع وكذب ووهم يعيش فى ظلمات الرؤوس والنفوس ، حتى إذا ما برز إلى ضوء الحياة ظهر كالمسيخ المجذوم المهزول !

* * *

وكان الليل يهبط ، وظلامه ينبث فى الكون ، ونافذتها المطلة على الخلاء البعيد تسرق لها كثيراً من جمال الليل وجلاله ، ولكنها كانت ترى كل جمال مشوهاً وكل جلال حقيراً

لم تتناول طعاماً ، ولم تخرج من غرفتها . فهى تروح فيها وتجئ ، وترتمى على الأرائك والحشايا . ثم تهب مذعورة كأن فى هذه المقاعد جمرات تتوقد ثم لا تلبث أن تسرع فتجلس مرة أخرى وتستسلم للتفكير ... والليل يوغل فى المسير ، وكأنه يسير على صدرها بكلكله ، والأفكار تتوالى على رأسها سوداء فتاكة . . .

إنه قد ينفذ تهديده الأخير وينشر أمره وأمرها فى الصحف ، والصحف أصبحت ميداناً لنشر فضائح الناس حقيقها ومكذوبها ، ويعرف هؤلاء الناس عندئذ أن هذا (البك) الجبار الذى يشمخ بأنفه ويعتز بكرامته إنما هو أب فاسد عربيد لم يستطع أن يحتفظ بعرضه ، فما باله يريد أن يملى إرادته على الناس أجمعين ؟ ! ياله من أبله ذى غفلة ! !

وأهلها وأصدقاؤها الذين يتوددون إليها ويبدون لها الزلفى ، ويسعون لها بالحب سيزدرونها ويتنكرون لها ويصبحون ألسنة تذيع ما قد يستطيع أن ينشئه الخيال من قصتها

لقد فقدت الأب والأخ والأهل والأصدقاء ، وفقدت الكرامة ، وفقدت آمالها وسوف تعيش منعزلة منبوذة — إن عاشت — وسوف تموت ذليلة مزدراة إن عالجها الموت فأراحها ، وسوف تتقلى ذكراها على جمر القول السيئ مادام فى الزمن أيام تمر وليال تعقبها . . .

لا مفر إذن من الموت . فلتعجل به لنفسها لعل موتها يدفن كل هذه المصائب ، وتفتدى به حياة أبيها وأخيها ، ولعل الذئب عندئذ تأخذ روعة الموت وجلاله بسفالته عن أن يستمرئ السير فى انتقامه إلى النهاية . . وقامت عندئذ إلى « صيدليتها » الصغيرة فانتقت منها « البزول » « واليود » . ولكنها تراجعت تفكر . وهل من الصواب أن تثير فتنة نائمة ؟ وهلا يتساءل الناس عما حدا بها إلى الانتحار ودفعها الى معالجة شبابها الغض بهذا الدواء النكد المشئوم ؟ وهلا يقول الناس أكثر من الحقيقة ؟ وهل تضمن هى أن يكون لدى صادق ضمير يوقظه موتها فيستحى عن الاستمرار فى سفالته ؟

الأوفق إذن أن تسعى إلى قتله ··· هل تقتله حقيقة ؟ هل تستطيع ؟ إن سلاح أبيها فى متناول يدها . ولكن هل تقوى على ارتكاب هذه الجريمة ؟ أتحتمل أعصاب ساقيها السير الى داره وارتقاء درجات مسكنه ؟ وهل تقوى أعصاب يدها على حمل السلاح

واطلاق الرصاص ؟ وهل تستطيع مواجهة ما يعقب الحادث ؟ ؟

لا ، إن هذا فوق الطاقة !

إذن أين المفر ؟ وأين المهرب ؟ لا منقذ اليوم !

اندفعت إلى النافذة ، وكان الليل قد انتصف ودلف بنصفه الثانى إلى الفجر ، وسكن الكون وسجا الليل ، وكان يخيل للانسان البائس الشقى أن الله مستمع اليه

وقفت أمينة فى النافذة وساءلت ربها : « يا ترى يا الـهى كم فتاة وقفت موقفى وسقطت من تأثير هذا الهول ، ولم يعرف الناس أمرها ، فراحوا يستعدون عليها انتقامك ، ولو دروا لرحموها كرحمتك »

يا ترى يا رب أنت منقذى أم يشاء قضاؤك وقدرك أن أنحدر كالحصاة الضئيلة عند ما تراوحها الريح ، ثم تقذفها إلى المجرى ويلمها الخضم فى أحشائه ؟

إنك يا رب أنزلت المعجزات فى زمن الطغيان والعصيان ، وكم أريت الانسان عجزه أمام قدرتك ، من حيث لم يكن يتصور وجودك ولا يخشى بطشك . فهل تتركنى يا الـهى فريسة أمام انسان عاجز وأنت القوى الجبار ؟

إننى أريد أن أعيش . وأنت يا رب قدرت لى العيش . أريد أن أسعد ، ولا أريد أن أشق أبى وأخى . وأحب أن أقضى عمرى شريفة لزوج كريم وأولاد أحباء .. عاونى يا إلـهى واشملنى برحمتك ، إننى أمد لك يد الضراعة وقلبى يسبقنى الى ملكوتك باكيا مسترحما

أنت يا إلـه الضعفاء ، يا نصير البائسين ، يا رب هذه المخلوقات جميعها أدركنى برحمتك فقد شملت رحمتك كل كائن حتى هوام الأرض وحشراتها تقدر لها الرزق وتعد لها الحماية والحصانة »

... ومرت نسمة رطبة باردة على وجهها المحتقن المتوقد فبعثت الراحة إلى أعصابها وأفسحت مكاناً للايمان بالله والاطمئنان إلى قدرته تسرى الى قلبها الخافق المعذب ونفسها الممزقة حسرات ..

وكان الفجر بدأ يشرق بضوئه الشعرى الرقيق يحمل فى جبينه ابتسامة ، ويخفى فى يده وراء ظهره الشمس الضيئة وهى قادمة تحمل الحياة ، وتحمل الأمل الجديد لكل يائس حزين

اغرورقت عينا الساهرة المسهدة المضناة وغسلت دموع اضطرابها . وارتاحت أعصابها ولمعت فى رأسها فكرة كادت أن تثب بقلبها من صدرها

إنها سترى آخر مبهم ، فأما فازت وإما يئست — واليأس إحدى الراحتين — فبقيت تنتظر مصيرها الذى يحمله لها الغيب المحجب

***

قامت تحمل هذه الفكرة مندفعة الى غرفة أخيها الشاب فأيقظته ورجته أن يستعد لسماع حديث لها هام . فقام مرحاً كعادته واغتسل وجاءها طلقاً ضاحكا . فجلست الى جواره وأخذت تسرد عليه كل أمرها ، صريحة واضحة ، فعرفته كيف ابتدأت علاقتها بصادق ، وكيف استمرت ، وكيف كشفت حقيقة نواياه وكيف هددها ، وكيف قضت ليلتها ... وسألته أن يقوم بواجبه كأخ وكصديق ومنقذ فوضت إليه أن يفعل شيئاً . ولو أن ... يقتلها !

وكأن الموضوع قد أحال هذا الشاب المرح رجلاً قوياً يستمع فى جد ورزانة ، ووجهه ينم على أن قراره يتكون فى نفسه وفى رأسه

وما إن أتمت حديثها حتى قام يربت على كتفها بيده وكأنه يعدها بانجاز ما سألته . وارتدى ثيابه فى صمت وخرج من الدار ولم تكن الشمس قد برزت فى السماء

وانتظرت أمينة المصير مستسلمة لحكم الله أعدل الحاكمين..

***

وبعد نصف ساعة رجع أخوها الى غرفتها وسألها .

— « كم عدد رسائلك ؟ »

— « عشرون ... »

— « هاك العشرين رسالة »

وألقى بين يديها عشرين رسالة أخذت تقلبها باكية مضطربة فرحة . حتى إذا ما اطمأنت الى أن رسالة منها لم تغب أخذت تمزقها وترميها وقودا لنار أشعلتها لتدفن فيها ماضيها الصغير !

وبعد ساعة كانت العربات تنقل أثاث منزل صادق وهو يسير وراءها مذعوراً لا يكاد يستطيع أن يرفع جبينه الى منزل أمينة ، فقد هاجمه أخوها بقوته وبسالته وأرغمه على تسليم الرسائل وإخلاء سكنه والابتعاد عن الحى بأكمله وإلا فهو قاتله ، وارتاع الجبان وخضع وفنيت قوته الكاذبة أمام قوة الرجل الباسل . وأدرك أن الرجل الذى لا يستطيع أن يواجه رجلاً مثله أحرى به ألا يقف فى وجه امرأة !

محمد شوكت التونى

السعادة

« لا أراك إلا مكباً على كتب الدراسة فلهذه وقت وللراحة أوبقات ، وهذا انهماك قد يودى بصحتك وأنت ما تزال طفلا ، هلا تذهب مى إلى الشيخ ، إنى أعتزم زيارته الآن »

هكذا فاجأنى أخى الأكبر ، ولم تكد شفتاه تنفرجان عن آخر كلمة حتى ألقيت ما بيدى جانباً ، وسارعت للحاق به نطوى مهولاً واسعة نفذ السير على الأقدام ، بينما ترسل الشمس علينا شواظها لهيباً لافحاً ، وقدماى تغوصان برمال محرقة تجعل مشيتى بخطوات لا اتزان بها

وما إن تراءت لنا تلك البناية ، وهى تقوم على أكمة جرداء تشرف على جانب من مهول قفراء حتى عاودنى نشاطى ، بيد أن أخى استحثنى أيضاً فلوح إلىّ بالشجرة التى تبدو إلى جانب الدار وإلى اللجوء اليها من شعاع الهاجرة اللاذع

وبرز الينا رجل استفزه هرير الكلب الملح ، وإذ عرفنا أومأ إلى كلبه فتنحى إلى ركن أقصى خافتاً عواءه ، كأنه يتلمس عذرا

رحب بنا مضيفنا العجوز واحتوانا مجلس وثير ، وثير بفراش يتألف من حصير تعلوه وسادة ومخدتان ، فتراخت أعصابى بهدوء حيث الاستمتاع بنوء عميق ، تلاشى معه عنت السفر

وانطلقت عيناى كأنهما تبحثان عن شارد فى نواحى هذا المنزل الظليل وفيما احتواه من أثاث بسيط ، وإلى هدوء هذا الشيخ ووقاره . إنه منزل رحيب ولو أنه مكون من غرفة واحدة تحيط بها أكوام الأحجرة الداثرة من آثار القرون الأولى ، لا يتصل بها من عمران سوى هذا المغار المعد لمأوى عنيزاته ، وهى تبلغ العشر عدا

وفى نشوة هذا الاستمتاع أدركت مغزى اطلاق البدو اسم القصر على أى كوخ يقوم فى عرض الصحراء ، وأقرر أنهم على حق

فأية فخامة تحلم بها فى غبراء يابسة تعدل هناءك حين تحضنك جدران أربعة تغدق عليك فيأها وتطمئن الى سلامتك فيها . إذن هو قصر باذخ . ويزيده رواء هـذه الشجرة التى لا ثانية لها فهى تخلع على هذا الكوخ ترفاً يتضاءل معه ترف القصور . هى مخضرة الأوراق وارفة الظلال وهى أبداً باسمة مادام كل ما يكتنفها قاتما ،

ويرحب بنا المضيف فى جلال الشيوخ مخاطباً إيانا فى حكمة من وقرت ظهره السنون فتخرج كلماته متزنة فى حين تلمع أسنانه البيضاء التى لم يسقط منها سن واحدة على ما أظن

وقلما يتزحزح من متكئه ، فالى جانبه إناء الماء البارد وأمامه معدّات القهوة العربية ويرتفع قريباً منه رف مصنوع من أعواد غير متناسقة يحمل أكواماً من المخطوطات عبث البلى بأكثرها . فهذه كتب يدعوها أسفار الحكمة ، وتلك وريقات يزعم أنها تضاهى صحف موسى ، ولماذا ؟ فهى اتصلت به من جامع قرطبة بواسطة المغاربة الجوّابين

وذلك كتيب يقول إنه توارثه عن آبائه الأقدمين وهو يقسم أن القلم الذى بين أصابعه مضى عليه زهاء ثلاثين عاماً لم يبره مرة ثانية بل زامله فى عزلته طيلة هذه السنين فى حالته الراهنة . وهو يجرى عليه رزقاً متواصلاً ، إنه رائد الخير ، به يكتب الرقى للبدو ويحبر الرسائل الخاصة ويثبت به كل ما اختزن فى المغار ، وهو لم يرَ سبباً لتجهيز هذا المغار بباب يحول دون سرقة ما احتواه من سمن وحبوب وصوف ائتمنه عليها البدو مقابل جعل خاص

وهولاء البدو تغمرهم الطهارة . هكذا يوجه كلامه إلى أخى لأنهم لا يسألونه عن زيادة أو نقصان فى أماناتهم ولا يأخذون بها مستنداً منه . وهم إذ ينسابون مع مواشيهم فى عرض الصحراء طلباً للكلأ والماء ويمعنون فى توغلهم بأطرافها المترامية يرسلون قوافل تمدهم بالمؤونة مما ادّخروه واختزنوه عنده

وما يدرّه عليه القلم إذا أضيف إلى هذا الجمل عن الخزين هى الثروة التى يقنع بها ويحرص على الشكران عليها

واندفع يسرد علينا اطمئنانه إلى عيشه ووجهه يطفح ايناساً وملامحه تفيض بشراً وهناء واعتدل فى متكئه كمن يحاول أن يحاضر فى موضوع فكرر الشكر لله إذ هيأ له حياة وادعة ويقول : لم لا أكون مرتاحا وهذا رزق يأتينى رغداً ، وهذه عنيزاتى تدر علينا حليبها ، ولنا دجاجات تغذينا ببيضها ، ونستقى ماءنا عذباً بارداً من البئر القريبة لمنزلنا ؟

البريد الأدبي

المؤرخ الألماني كونراد بورداخ

من أنباء ألمانيا الأخيرة أن المؤرخ الكبير كونراد بورداخ Burdach قد توفى فى السابعة والسبعين من عمره . وبورداخ من أعظم مؤرخى ألمانيا المعاصرين ، وقد اشتهر بالأخص بمباحثه وآرائه فى تاريخ العصور الوسطى ونظمها وخواصها الفكرية والاجتماعية ، وكان مولده بمدينة كونجزبرج فى سنة ١٨٥٩ ، ودرس دراسة حسنة فى جامعتها ونال اجازة الفلسفة ؛ وفى سنة ١٨٨٤ ، انتدب للدراسة فى جامعة هاله واستمر بها حتى عين أستاذا لتاريخ الأدب الألمانى فى سنة ١٨٩٢ . وفى سنة ١٨٩٣ ظهر أول جزء من كتابه الشهير فى تاريخ العصور الوسطى المسمى « من العصور الوسطى الى عهد الاصلاح » Vom Mittelalter zur Reformation فأثار ظهوره اهتماما عظيما فى دوائر البحث ؛ واستمر فى اصداره أعواماً عديدة وترجم الى عدة لغات أوربية ؛ وتوفر بورداخ على دراسة هـذا العصر دراسة مستفيضة . وكتب عن « لوثر » بطل الاصــلاح الدينى مباحث عديدة ؛ وقام بعدة سياحات ومباحث مختلفة فى دور المحفوظات الألمـانية لحساب أكاديمية العلوم البرلينية ، وأصدر لحسابها أيضاً مؤلفات همبولد ، وله فى الأدب والحياة الفكرية عدة مؤلفات هامة نذكر منها كتابه عن « ڤالتر فوجلڤايده » Walther von der Vogelweide وكتاب « علم الحياة الألمانية » Wissenschaft vom deutschen Leben وغيرها

وفى سـنة ١٩٢٧ أخرج بورداخ أعظم كتبه وأهمها وهو كتاب « الاصلاح والاحياء والحركة الانسانية » Reformation, Renaissance; Humanismus ولبورداخ رأى جديد فى نشأة حركة الأحياء فهو يرى أنها ثورة عقلية ترجع الى بواعث روحية عامة ، وأن هذه البواعث ترجع الى الاعتقاد الدينى فى السمو الآلهى للعالم والحياة ، وترجع أيضا إلى نفوذ الكنيسة والى مؤثراتها ؛ وفى رأيه أن الكنيسة قد لعبت دورا عظيما فى تهيئة أسباب الاحياء الفكرى ؛ وقد تناول بورداخ فى كتابه بالبحث المستفيض خواص الحياة العقلية فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، والتى يبحثه كبير ضوء على سير حركة الاحياء الأوربى

كتاب جديد عن مصر

المسيو كلود آفلين من كتاب فرنسا الشبان ، وهو السكرتير المساعد لنادى القلم الفرنسى ؛ وقد زار مصر منذ نحو عامين ، ورأى أن يكتب عما شاهده فى هذه البلاد ، فوضع عن مشاهداته كتاباً صدر أخيراً فى باريس وعنوانه : « النزهة المصرية » La Promenade Egyptionne

ومسيو آفلين كاتب ذلق خفيف الروح ، ولكن الوقار يطبع أسلوبه ؛ فهو قد كتب عن مشاهداته فى مصر مجلداً يبلغ نحو ثلثمائة وخمسين صفحة ، وضمنه كثيراً من الملاحظات

أما زوجى فهى تشاطرنى هذا الهناء وهى وأنا عجوزان طال بنا انتظار الموت وهو إذ يغشانا أحدنا أو كلينا ألفانا على أهبة للقاء الله

يا ولدى (يخاطب أخى) إذا حان وقت الصلاة أنزوى إلى محرابى هذا ، وإذا شعرت بالسأم فهاهى ذى كتبى . إنها تحوى كل شىء . إنها عندى بمثابة عالم كامل

وأزيدك اطمئناناً علىّ بأننى لم أشك مرضاً ولم ألق ولم أتعرف قط إلى رجل السراى فى كرسيّه وزهوه حتى ولا أدرى شيئاً عن أحوال مايطلقون عليها من أسماء ، حكومة أو دولة أو حكومات وعساكر فأنا بعيد عن الناس قريب الى الله سعيد بلقائه

وفى عودتنا رأيت أخى يهز رأسه غير مرة يردد كلمتى : إنه سعيد ! إنه سعيد !

(عمان) (جار العمران)

والنكت الظريفة ، ولكنه لم يدع فى كتابه أنه أصبح بهذه الزيارة أعرف الناس بمصر والمصريين ، بل هو يصارحنا فى مقدمته بأنه يكتب متهيباً لأنه لم يحسن معرفة مصر ، وأن مصر لا تعرف فى زيارة أو زيارات ، وإنما لابد لمعرفتها من وقت ودراسات كثيرة

ومما يجدر ذكره أن مسيو آڤلين لم ينحدر الى شيء من ذلك الاسفاف الذى رأيناه فى كتابات بعض الفرنسيين الذين زاروا مصر فى العهد الأخير ، ولا سيما فرانسيس كاركو الذى يصور مصر فى كتاباته أقبح تصوير ، ويزعم أنها من أكبر مراكز البغاء فى العالم ، ولا يجد لأحاديثه سوى المواخير والمنازل السرية والمقابلات الغرامية المزعومة مع بنات الباشوات ... الخ ؛ هذا الاسفاف الذى ينحدر إليه فرانسيس كاركو وأمثاله يتعفف عنه مسيو آڤلين غاية التعفف ، ولا يطالعنا إلا بأحاديث شائقة ظريفة تفيض عطفاً وحباً

سفينة جوية هائلة

يظهر أن عجائب الاختراع البشرى لن تقف عند حد ، وأننا قد نشهد فى المستقبل القريب سفناً جوية جبارة تشق جو المحيط ، كما نشهد اليوم السفن المائية الجبارة تشق عباب المحيط ؛ ففى أنباء أمريكا الأخيرة أن المستر شولز كلنهاز مهندس الشركة الجوية الكبرى التى أنشأت أهم وحدات الأسطول الجوى التجارى الأمريكى ، قد وضع تصميماً جديداً لسفينة هوائية جبارة لا تقل فى حجمها عن سفينة بحرية حقيقية

وقد شرح المستر كلنهاز تصميمه أمام مجمع العلوم الجوية فى سان فرنسيسكو ، وقال إن تكاليف السفينة الجديدة تبلغ نحو أربعة ملايين جنيه ، وأنها تستطيع أن تخترق المحيط من نيويورك إلى ليفربول فى إحدى عشرة ساعة فقط ، ويستغرق صنعها على الأقل أربعة أعوام من العمل المتواصل

ويقول المستر كلنهاز إن الأمر ليس خيالاً وإنما هو مشروع على قتل بحثاً ودرساً من الوجهة الفنية ، وتأكدت صلاحيته وإمكان تحقيقه بالتجارب العملية ، وسيكون وزن السفينة الجديدة نحو ١٥٠٠ طن ، وطولها نحو ٣٧٥ قدما ، ومحيطها نحو ٥٥٠ قدما ، وسيجهز محركها بقوة مائتى ألف حصان ، ويمكن أن تحمل مائة عامل ومهندس ، وخمسمائة راكب ، وخمسمائة طن من الوقود لتكفى اختراق المحيط ، وخمسة وعشرين طناً من العفش

وتطير هذه السفينة الجبارة بسرعة ثلثمائة ميل فى الساعة ، وعلى ارتفاع اثنى عشر ألف قدم

ويقول مستر كلنهاز فى ختام تقريره إنه يكفى وجود المال اللازم ليخرج مشروعه فى الحال إلى التحقيق العملى

وفاة كاتب روسى كبير

توفى أخيراً فى براج عاصمة تشكيوسلوفاكيا الكاتب والقصصى الروسى الكبير فاسيلى نميروفتش دانشنكو بعد حياة طويلة حافلة ؛ وكان مولد هذا الكاتب الذى يمثل العهد القديم بكل ما فيه منذ ثلاثة وتسعين عاما ؛ وكان بدء ظهوره فى عالم الأدب منذ خمسة وستين عاما أيام الحرب الروسية التركية ، إذ كان جنديا ملتحياً ، وكان يكتب فى الصحف الروسية فصولا شائقة عن الحوادث العسكرية التى شهدها ؛ واستمر دانشنكو أعواما طويلة على وصف الأحداث والمغامرات العسكرية حتى أصبحت له فى هذا النوع من الكتابة براعة خاصة ؛ وكان له فى النظم جولات حسنة ؛ حتى كان يلفت الأنظار بقصائده الحربية ، وكان مثله الأعلى فى الشعر الشاعر الانجليزى الكبير « بيرون » حتى سمى فيما بعد « بيرون روسيا » وذاعت شهرة دانشنكو بنوع خاص حينما أخرج قصته « نسر الجبل » Berg Adler

وكان لدانشنكو فى بلاد البلقان شهرة خاصة لأنه حارب من أجل حرياتها ضد الترك ؛ وفى سنة ١٩٢٣ ، ذهب إلى بلغاريا لمناسبة احتفالها بعيد استقلالها الخمسينى ، فاحتفت به احتفاء عظيما ، وكان يومئذ فى الثمانين من عمره ، ولكنه كان شيخاً وافر النشاط والانتاج

وكان دانشنكو يعيش فى أيامه الأخيرة فى تشيكوسلوفاكيا متريضاً مستشفياً حتى وافاه الأجل المحتوم

أسبوع المؤلفين

قام نادى القلم فى زيلندة الجديدة بمشروع طريف لترويج الكتب ، سماه « أسبوع المؤلفين » وخلاصة المشروع أن تعرض مؤلفات الكتاب وصورهم مدى أسبوع فى المدن الهامة مثل ولنتون العاصمة وكريستشرشى ودندين وغيرها . وقد افتتح الحاكم العام هذا المعرض الأدبى وألقى خطاباً رسمياً ؛ وألقى آخرون من أكابر الكتاب خطباً أخرى ؛ وكانت النتائج باهرة ، إذ كانت المعارض فى جميع المدن تغص بالزائرين والمشترين ؛ وقد بيعت كميات كبيرة من الكتب فى مختلف الفنون

وتلاحظ جريدة التيمس الأدبية التى ننقل عنها هذا الخبر ،

أن لهذا المشروع فوائد معنوية عظيمة فوق فوائده المادية ؛ ذلك أنه يبث إلى الجمهور روح التشجيع للحركة الفكرية ، ويعاونه على الاطلاع على مداها وعلى حسن تقديرها . فهل لكتابنا أن يفكروا فى تنظيم أسبوع « للمؤلفين المصريين » ؟

معركة العقائد فى ألمانيا

تضطرم فى ألمانيا منذ قيام الحكم الهتلرى معركة دينية خفية بين النظام الجديد وبين الكنيسة البروتستانتية ؛ ذلك أن شعائر النظام الألمانى الجديد تميل إلى الوثنية والجرمانية القديمة ، ويرى قادة ألمانيا الجدد أن يسحقوا كل نفوذ للكنيسة فى حياة ألمانيا العامة . وترى الكنيسة من جانبها أن هذه السياسة خطر على نفوذها وعلى العقائد التى يرتكز إليها هذا النفوذ ، وتحاول أن تقف فى وجه النظام الجديد . وفى أنباء ألمانيا الأخيرة أن السلطات الكنسية فى بروسيا وبافاريا وبعض أقاليم أخرى أذاعت من منابرها خطاباً على المؤمنين تطلب فيه إليهم ألا ينزلوا عن تعاليم النظام الهتلرى وأن يحرصوا على عقائدهم من الفساد والدنس . وقد وقع هذا الخطاب الأسقف كوخ أسقف أوميناوزن والأب مولر رئيس كنيسة دالهم . ويقول الخطاب إن التعاليم الهتلرية تنافى تعاليم الانجيل والمسيح . وقد اهتمت الحكومة لهذه الحركة الجديدة من جانب الأساقفة وذاع أنها تنوى دعوة البرلمان إلى الانعقاد فى مدينة ورمس حيث ظهر لوثر أيام اتهامه بالكفر ، وحيث أحرق الأوامر البابوية . وهكذا نرى أن المبادئ الهتلرية ما زالت تصطدم من بعض نواحيها بالمبادئ والعقائد القديمة

دور العذاب

تعتبر ملاجئ الأحداث والعجزة فى الأمم المتمدنة من مظاهر الرقى الانسانى . وفى فرنسا كثير من هذه الملاجئ . ولكن كاتباً كبيراً هو مسيو الكسى دنان نشر أخيراً كتاباً عن هذه الملاجئ . سماه « دور العذاب » Maison de Supplics ؛ ذلك لأن هذه الملاجئ تعتبر فى نظره جحيما للأحداث ، ولا تشرف السلطات التى تقوم على إدارتها ، وهو يصف لنا النظم العسكرية الشائنة التى تفرض على الصغار فى هذه الدور ، ويقول إنها أشنع ما يمكن ما تصوره ، وأسوأ ما يمكن أن يؤثر فى هذه النفوس الناشئة ؛ ويقارن المؤلف هذه الحالة السيئة بما تتخذه بعض الأمم الأخرى ولاسيا بلجيكا لتقويم الاحداث وإصلاحهم . وقد كان لنشر هذا الكتاب وقع عميق لدى السلطات ذات الشأن

جبل الأهرام

تكاد لا تجد فى مصر مثقفاً يجهل قرية من قرى لبنان ، ولا خميلة من خمائله ، ولكنك تجد فى إخواننا أدباء لبنان من لا يعرف إلى اليوم إن كانت الأهرام جبالاً أو قبوراً ! فقد قرأنا للسيد فاضل سليم عقل مقالاً يتهم فيه أديبين مصريين بأنهما سرقا فى مقدمتهما لرحلة ابن بطوطة مقدمة كتبها الأستاذ فؤاد البستانى لهذه الرحلة . ويقول فى آخر مقاله : « وقد كنت أرغب شخصياً من كل قلبى أن أنقل نص المقدمتين إلى هذه الصفحة ، حتى يطلع القراء كلهم على هذه الجناية ... ويحكموا بأنفسهم ، بعد التفكير والاختبار ، لا بعد الهوس والتطبيل ، فى المستوى الأدبى ، والزعامة الأدبية ، التى لا تزال حائرة بين جبل الأهرام الخجول وقمم لبنان الشامخة .... »

وحسبنا من التعليق على هذا الكلام أن نعتب على السيد الكاتب أنه لم يقرأ تاريخ مصر ، ومصر على (ضعفها فى الأدب) لا تزال أقوى جزء من أجزاء الوطن العربى الأكبر !!



التربيب

تأليف الأستاذ حسن نجيب المصرى بك
وكيل مجلس الشيوخ

بقلم الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوى

يصرح الأستاذ الفاضل مؤلف هذا السفر أن كتابه مجرد ملاحظات استنتجها من التجارب الشخصية وخبرة من يعول على رأيهم وصحة حكمهم؛ ويبدى صراحة أنه لا يبرز للناس قواعد جديدة فى التربية . وكنا نود أن لو كفانا تصريحه هذا مؤونة التعليق الفنى على الكتاب لولا مقام المؤلف الفاضل فى المجتمع المصرى، ذلك المقام الذى يحملنا — كمربين قبل كل شيء — على أن نتفهم الكتاب ونقول فيه كلمة نقر بها الحق ونرضى بها الضمير

إن مجمل ما يقوله الناقد فى ذلك الكتاب أنه يشمل عدة مقالات كتبت فى ظروف مختلفة عنونها كاتبها بعنوانات وثيقة الاتصال بالتربية، بينما المقالات نفسها لم تعالج علاجا فنياً دقيقاً أى ناحية من نواحى التربيب؛ وأرى فوق ذلك أن هذه المقالات مجتمعة لا تكوّن وحدة علمية جديرة بالعنوان الذى جعله المؤلف لكتابه، وأقصد بذلك أنها تفقد أسباب الاتصال بعضها ببعض على نحو يجعلها بحثاً جديداً يهم المشتغلين بشئون التربية . ولقد لفت نظرى أن يفرد الكاتب فصلا عن التربية والتعليم يقول فيه أن المعلومات التى يتلقاها التلاميذ فى المدارس لا تؤثر فى سلوكهم، فهى فى نظره تعليم بعيد عن التربية . ويقول كذلك إنه قد استفاض خلط التعليم بالتربية، وكأنه بكلامه هذا يريد أن يقيم سداً منيعاً بين التعليم والتربية

والحقيقة أنه لا يوجد حد جلى بين التعليم والتربية، وأن ما يقول به البعض من أن التربية تشمل التعليم كما يشمل الكل الجزء، إنما يحتاج إلى تدليل وتدعيم . أما الواقع والمعقول فهو أن كل من يعلم غيره فهو يربيه فى نفس الوقت؛ ونحن لا نستطيع بأى حال أن نعلم دون أن نكون مربين إلى حد معين، ولكننا نستطيع أن نربى دون أن نباشر عملية التدريس مباشرة فعلية . والآراء الحديثة أميل إلى تحديد التربية بغاياتها لا بوسائلها التى منها التدريس . والواقع أننى وأنا أعلم تلاميذى انا أترك بطريقة غير مباشرة آثاراً خطيرة فى خلقهم، وطرق تفكيرهم ومثلهم العليا دون أن أقول لهم انى أربيكم أو أعدكم إعداداً خاصاً . ذلك أن سلوكى معهم وموقفى إزاء سلوك بعضهم مع بعض، وتعليقى على بعض الدروس الوجدانية كالتاريخ والتربية الوطنية لا شك تؤثر فى المتعلمين بحيث تكون وسائل لاعدادهم لغايات بعيدة هى السلوك الطيب القويم فى الحياة المستقبلة

* * *

لنترك ذلك الخلاف ولنعرض لأمر آخر هو أن المؤلف لم يعالج الموضوعات علاجاً فنياً دقيقاً، ولست أجد فى التدليل على ذلك أبلغ من تلخيص فصلين من الكتاب تلخيصاً أميناً دقيقاً؛ الأول عنوانه (كيفية التغذية) يقول فى أوله إن غذاء الطفل يبتدئ وهو جنين فى رحم أمه بالسُّحد والحولاء والغرس . وبعد الوضع يكون الغذاء بالرضاع سنتين، (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة)، والتغذية بعد الفطام يشترك فيها الوالدان حتى يبلغ الطفل أربع عشرة سنة . وسنة الكون لا تكلف الانسان اختيار المأكولات، فنظامها الدقيق ينتج الأشياء فى وقت حاجة الناس إليها . ويختلف بعض الاطباء والفلاسفة فى نوع غذاء الطفل، فمنهم من يحرم عليه الحلواء والفطير والفاكهة ومنهم من يحض عليها، وإنى لا أرى مجالاً لهذا الاختلاف الذى ينحسم باتباع الاعتدال والقسط

ومراعاة الظروف والأحوال ، وأما من أشار منهم باعطاء القليل من الأنبذة فانى لا أرى رأيه ، وأما المشروبات الروحية الأخرى فانها تهدم الجسم وتسلب العقل . وهنا يقول المؤلف كلاماً طويلاً فى مضار الخمر ويستشهد بالآية الكريمة : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » وبعد هـذا يقول ما يأتى : « حسنوا تقويم الولد جنيناً ، وأنشزوا عظامه وأنبتوا لحمه رضيعاً ، وعللوا بالغذاء ليجزأ عن اللبن فطيما ، وناولوه الأكل أدنى تناول فصيلا ، وأحسنوا غذاءه اللذ صبياً ، وأرفوه يافعاً ، وأعظموه مراهقاً ، ثم ألقوا حبله على غاربه » وبعد أن فصلنا للناس نختم المقال بهذه اللآلئ القرآنية :

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »

« قل من حرم زينـة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق الخ »

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون »

« وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً »

هكذا يعالج الأستاذ الفاضل موضوعاً خطيراً كهذا ، فيقول كلاماً هو بعينه ما يعرفه المتعلمون وغير المتعلمين والمتربون وغير المتربين ، مع أن البحث العلمى يستلزم الاجلاء عن الوسائل المؤدية الى هذه الغايات التى ذكرها المؤلف ، فيبين لنا بطريقة عمليـة كيف ننشز عظام الولد وننبت لحمه رضيعـاً الى آخر ما ساقته هـذه الوصايا الذهبية والحكم البالغة فى ذلك اللفظ الخالب والسحر الغالب . عفواً سيدى الفاضل ، فالتربيب شىء عملى يضعه أهله بعيداً عن استمراء الألفاظ وإضاعة الوقت فى صناعة العبارات ، الأمر يا سـيدى أخطر من هذا وأدق ، والتخصص وحده هو الذى يخرج للناس الكتابة الفنية التى يحتاجون اليها فى الحياة حاجة عملية

***

وثَمَّ فصل آخر عنوانه (الغريزة) ، يعالجها الكاتب الفاضل فى صحيفة واحدة من ذلك السفر الضخم ، فلا يعدو أن يحددها بأنها الأعمال غير الارادية ، ثم يفرق بين العقل والغريزة فى هذا الكلام المنمق الجميل :

« العقل حر والغريزة عبد ، العقل علم والغريزة حدس ، العقل بصير وهى شمور ، العقل نور يتدرج والغريزة برق يخطف ، العقل ضوء النفس وهى سنا الحس ، وإذا العقل وقف للتدبير فهى تقفز للوثب والمسير »

فهل يكفى ذلك القصيد المنثور لبحث الغريزة فى كتاب عنوانه (التربيب) ، وأين يا سـيدى علاقة الغرائز بالتربية وأثر التربية فى تعديلها وعلاقة ذلك كله بحياة الأطفال ؟ ؟

***

وأخيراً لا بد من الاشارة هنا إلى أن الكاتب الفاضل يهتم اهتماماً شديدا بحشر الكلمات اللغوية فى كتابه كما يصنع كتاب المقامات ، ثم يجاوز هذا إلى شرح هذه الألفاظ والتعليق عليها ، وهذه المحاولات لا شك تجعل الموضوع مفككا وتصرف الكاتب عن المعانى ، ولا سيما إذا عرفنا أن الأسلوب العلمى يتميز عن الأساليب الأدبية الأخرى بالسهولة وعدم التكلف فى البحث عن الألفاظ

هذا ما نقوله عن الكتاب ، أما شخصية المؤلف ذاته فانها تبدو من خلال كتابه رزينة وقورة رائدها الخير وغايتها إسعاد المجتمع .

عبد الفتاح السرنجاوى

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧١ — ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 171

Lundi - 12 - 10 - 1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٧١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ رجب سنة ١٣٥٥ — ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

صفحة

٣٦ - ٧

في العهد الجديد

يومــــان . . . .

قطعني منذ طويل عن مواصلة الكتابة قواطع الأسى والمرض . وفي هذه الفترة الفاترة تقلبت على العين مشاهد ، وتعاقبت على الأذن أحاديث ، وتواردت على الذهن خواطر : فكان المصرى الذى فى دمى ، والكاتب الذى فى طبعى ، والصحفى الذى فى همى ، يحاولون أن ينفعلوا على القلم كلما نجم فى الوطن حادثة ، أو جرى فى الشعور عاطفة ، أو بدا على (الرسالة) حاجة : ولكن الجسد الموهون لا يستجيب لنشاط ، والفؤاد المحزون لا يهتز لأثر . وهل الدنيا إلا دنياك أنت ؟ تدوم فيها ما دامت فيك ، فاذا ما انعدمت فى نفسك انعدمت فى حسك : وإذن لا يكون سرورها سرورك ، ولا حزنها حزنك ، ولا متاعها متاعك : ماذا يفيدك الترياق بعد أن مات حبيبك مسموما ، وماذا تردُّ عليك مباهج الناس إذا بات قلبك مهموماً ؟

كنت وأنا فى الاسكندرية أقف على سياج الكرنيش ، أو أسير على رمال الساحل ، فأرى فيض الحياة يتدافع فى أمواج البحر وفى أفواج الناس ، وروعة الجمال تتجلى فى رواء الشباب

فى الشارع وألوان الأصيل فى السحب ومغرب الشمس فى الماء ، وإشراق الغبطة يلمع فى العيون القريرة وعلى الشفاه المفترّة ، وصفاء الوجود يشيع فى زمر المصطافين فيكون فى أهب الأطفال مرحا وفى قلوب الرجال فرحا وعلى مضاحك الغيد فتنة . وأسمع لغة الفردوس المفقود من فمى آدم وحواء وقد اضطجعا عاريين على رمال الشاطئ بين وسوسة الشيطان وفحيح الأفعى ، وهديرَ الأمواج المتعاقبة منذ يومها الأول على سِيف البحر ، وقد خلطه الخيال الشاعر بهتفات القيصر وضحكات كليوبطرة ، وغماغمَ الهوى والشباب تَطَّاير إلى الآذان الخلية فتقع منها موقع النغم الساحر فى جوف الليل الساجى البعيد ، وأحاديثَ المفاوضة والمعاهدة والمعارضة تتشقق بين الجماعات فتكون فى الغالب حماسة من دلائل الصحة ، وفى النادر هذياناً من أعراض المرض . كنت أرى وأسمع كل أولئك وأنا فى وحشة الغريب وبلادة الذاهل ، كأنما انقطع التيار الروحى بينى وبين الناس ، فأنا مظلم وهم فى نور ، وساكن وهم فى حركة ، ونافر وهم وحدات متسقة فى نظام المجتمع ، وناشز وهم نغمات منسجمة فى نشيد الكون

* * *

يوم واحد من أيام الاسكندرية استطاع أن ينقلنى من عدمى إلى الوجود ، ويخرجنى من نفسى إلى الناس : ذلك يوم سفر المفاوضين المعاهدين إلى انجلترا ! فقد ازدهانى أن يتفاهم الحق والقوة ، ويتفق منطق القلم ومنطق السيف ، ويقتنع (المبرنطون) بأن وطننا لنا وحدنا ، وأن أصحاب (الامتياز) أصبحوا بشراً مثلنا ، فدخلت فى غمار الشعب الهاتف ، وآثرت زحمة الدهماء ووقدة الشمس على مخالطة الأقدار الكبيرة والأحلام الرصينة فى ظلال السرادق ، وركبت زورقا من زوارق الميناء فى جمهرة من الشباب الفقراء الذين يجهلون معانى (النيابة) والوظيفة والجاه ، فيشاركون فى المظاهرات لأنها صرخة الوطن ، ويهتفون للزعيم لأنه ممثل الأمة ، ويصفقون للمعاهدة لأنها صك التحرر

سار بنا الزورق الراقص الشادى بين عشرات من الزوارق المزدانة المهللة حتى حاذينا (النيل) ؛ والنيل قطعة من الوطن المحبوب تجمّع فيها أمله المنتشر ، وبدأ عليها تاريخه الجديد ، ستقطع هذا الخضم المزبد إلى الشاطئ البعيد عليها صداقة مصر لانجلترة ، يتقدمها وفدها الأمين إلى الذين عرفوه بعد انكار وسالموه بعد حرب ؛ وما كانت سياسته فى الأول إلا سياسته فى الآخر لولا سوء الفهم وسوء الظن وسوء الضمير . فلما انحسر غُثم الرياء عن الأوجه المغشوشة فينا وفيهم ، خلص منطق النحاس إلى عقل إيدن ، واقتحمت النيل الوادعة مرابض الأسطول

تحركت الباخرة المزهوة الفخور بعد حفلة الوداع بين عزف الموسيقى وقصف المدافع وصفير البواخر وتصفيق المودعين وهتاف المتفرجين وزغردة النساء ؛ فكان من ذلك كله نشيد وطنى عجيب التأليف بديع التلحين سحرى الايقاع عبر بهذه القوة عن الشكر لقادته ، والخير لخليفته ، والاطمئنان إلى مستقبله

كان اعتماد الجمهور فى التنفيس عن حماسته المضطرمة على الضرب بالأرجل ، والتصدية بالأيدى ، والتلويح بالأذرع ، وما يلازم هذا من اضطراب الحركة وفقدان الاتزان وشيوع الفوضى ، وانتقال أثر ذلك كله إلى الزورق ! فلو كان للشعب شعراء وموسيقيون . كما كان له زعماء وصحفيون ، فوضعوا له الأناشيد التى تعبر عن عواطفه فى وحدة ، وتهيمن على مواقفه فى نظام ، لما تعرضنا مراراً للغرق ! ! !

على أن الغرق لم يقع فى حسابى وأظنه لم يقع فى حساب أحد ، فقد كان فُلكنا المتواضع يجرى تحت (النيل) الباذخة كأنه الفرخ الوليد تحت جناح النسر ؛ عيوننا ترمق الزعيم الجليل وصحبه فلا تكاد تطرف ، وقلوبنا تنتشر دعاء ورجاء فلا تكاد تتماسك ، وألسنتنا تضطرب فى سيل من الهتاف فلا تكاد تسكن ، وفُلكنا المجنون فى يد القدر ، يميل ويعتدل ، ويجور ويهتدى ، وقد نسينا من روعة الموقف أننا فيه

* * *

يومئذ شعرت بأنى جزء من كل وفرد من مجموع ، وأدركت أن المشاعر المشتركة كالدين والوطنية هى أوثق روابط الألفة ، وأن المشاعر المختصة كنوازى الهوى ونوازع « البلاج » هى أقرب السبل إلى الفرقة

هذا يوم ؛ أما الآخر فله مقال آخر ! ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود !

احمد حسن الزيات

سر القبعة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وحدثني صاحب سر (م) باشا ، قال : تجمّعت في مصر حركة بعقب أيام البدعة التركية حين لم تبق لشيء هناك قاعدة إلا القاعدة الواحدة التي تقررها المشانق ... فمن أبى أن يخلع العمامة عن رأسه خلعوا رأسه ، ومن قال (لا) انقلبت (لا) هذه مشنقة فعُلِّق فيها

وكانت فكرة اتخاذ القبّعة في تركيا غطاءً للرأس قد جاءت بعد نزعات من مثلها كما يجيء الحذاء في آخر ما يلبس اللابس ، فلم يشك أحد أنها ليست قبّعة على الرأس أكثر مما هي طريقة لتربية الرأس المسلم تربية جديدة ليس فيها ركعة ولا سَجْدة ؛ وإلا فنحن نرى هذه القبعة على رأس الزنجي والهمجي ، وعلى رأس الأبله والمجنون ، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض ، ولا عرفناها نقلت همجياً عن طبعه ، ولا زعم أحد أنها أكملت العقل الناقص أو ردّت العقل الذاهب ، أو انقلبت آلة لحل مشكلات الرأس البليد ، أو غصبت الطبيعة شيئاً وقالت هذا للحامل دون حامل الطربوش والعمامة

وقد احتجّوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجه إلا المدنية ، ولا يعرف المدنية إلا مدنية أوربا ، فهو يمتثلها كما هي في حسناتها وسيئاتها ، وما يَحِلُّ وما يَحْرُم ، وما يكون في حاجة اليه وما يكون في غنىً عنه ؛ حتى لو أن الأوربيين كانوا عُوراً بالطبيعة لجعل هو قومه عوراً بالصناعة ليشبهوا الأوربيين .. نعم إنها حجة تامة لولا نقص قليل في البرهان يمكن تلافيه باخراج طبعة جديدة من كتب الفُتوح العثمانية يظهر فيها الخلفاءُ العظامُ والأبطالُ المغاوير الذين قهروا الأوربيين لابسين قبّعات ليُشبهوا الأوربيين ....

***

قال صاحب السر : وتهوّر في هذه الضلالة رَهْطٌ من قومنا ، وأخذوا يدعون إلى التقبّع في مصر احتذاءً لتركيا ، وذهب بعضهم إلى سعد باشا رحمه الله يطلب رأيه ، فكان رأيه (لا) بعدّ الألِف ... وعهد إليّ بعضهم أن أسأل الباشا فقال : ويحهم ! ألا يخجلون أن نكون نحن المصريين مقلدين للتقليد نفسه ؟ إن هذه بدعة تنحطُّ عندنا درجةً عن الأصل فكأنها بدعتان . ثم ضحك الباشا وقال : كان في القديم رجل سمع أن البصل بالخل نافعٌ للصفراء ، فذهب إلى بستان علكه وقال لوكيله : ازرع لي بصلاً بخل .... هكذا يريدون من القبعات أن تخرج لهم تركا بأوربيين

ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة ، بل هي كلمة سبٍّ للعرب وردٍّ على الاسلام ، ضاقت بها كلُّ الأساليب أن تظاهرها واضحةً بينةً فلم يَفِ بها إلا هذا الأسلوبُ وحده ، وهي اعلان سياسيٌّ بالمناوأة والمخالفة والانحراف عنا واطّراحنا ، فان الذي يخرج من أمته لا يخرج منها وهو في ثيابها وشعارها ؛ فبهذا انفتح لهم بابُ الخروج في القبعة دون غيرها مما يجري فيه التقليد أو يُبدعه الابتكار ؛ وإلا فأي سر في هذه القبعات ، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين .... ؟

ههنا سيفٌ أراد أن يكون مِقَصاً ، فعمل ما يعمل الحسامُ البتّار فأجاد وأبدع وأكبره الناس وأعظموه ، ثم صنع ما يصنع القصُّ فاذا عساه يأتي به إلا ما ينكره الأبطال والخياطون جميعاً

أكُتِبَ علينا أن نظلَّ دهرَنا نبحث في التقليد الأعمى وألا يحيا الشرقيُّ إلا مستعبَداً ينتظر في كل أموره من يقول له : اشْرَعْ لي . . . إن بحثْنا فلنبحث في زيٍّ جديد نتميّز به فتكون القُوى الكامنة فينا وفي طبيعة أرضنا وجوّنا هي التي اخترعت لظاهرها ما يجعله ظاهرَها ، كما يُخرج زَوْرُ الأسد لِبْدةَ الأسد غايةً في المنفعة والجمال والملاءمة

أنا ألبس ما شئت ولكني عند القبّعة أجد حدًّا تقفُ إليه ذاتيتي الفرديةُ فلا أرى ثَمّةَ موضعَ انفراد ولكن موضع مشاكلة ، ولا أعرف صفةَ منفعةٍ لي بل صفةَ حقيقةٍ مني ، ويعترضني من هناك المعنى الذي يصير به النوعُ الى الجنس والواحد الى الجماعة . وما دمت مسلماً أصلّي وأركع وأسجد فالقبعة نفسها تقول لي دعني فلستُ لك

وهؤلاء الرجال الذين لبسوها في مصر إنما اشتقّوها من

المصدر نفس المصدر الذى يخرج منه التهتك فى النساء ، وكلاهما مَنْزَعٌ من المخالفة ، وكلاهما ضِدٌّ من صفةٍ اجتماعية تقوم بها فضيلةٌ شرقية عامة . وليس يعدم قائل وجهاً من القول فى تزيين القبعة ولا مذهباً من الرأى فى الاحتجاج لها ، غير أن المذاهب الفلسفية لا يُعجزها أن تقيم لك البرهانَ جَدَلاً محضاً على أن حيـاء المرأة وعفتها إن هما إلا رذيلتان فى النفس . . . وان هما إلا مرض وضعف ، وإن هما إلا كيت وكيت ، ثم تنتهى الفلسفة الى عدّهما من البلاهة والغفلة ، وما الغفلة والبلاهةُ إلا أن تريدَ فلسفةٌ من فلسفات الدنيا أن تُقْحِمَ فى كتاب الصلاة مثلاً فصلاً فى ... فى ... فى الدّعارة

لا يهولنَّك ما أقرر لك من أن القبعة الأوروبيـة على رأس المسلم المصرى تهتكٌ أخلاقىّ أو سياسىّ أو دينىّ أو من هذه كلها معاً ، فانك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة وتحللأ كثر عقدها ، وبعد أن قاربت الحرية العصرية بين النقائض حتى كادت تختلط الحدود اللغوية . فحرية المنفعة مثلا تجعل الصادقَ والكاذب بمعنى واحد ، فلا يقال إلا أنه وجد منفعته فصدق ، ووجد منفعته فكذب ؛ وعند الحرية العصرية أنه ما فرَّق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً إلا جهلُ القدماء وفضيلةُ القدماء ودين القدماء . وهذه الثلاثة : الجهل والفضيلة والدين هى أيضاً فى المعجم اللغوى الفلسفى الجديد مترادفات لمعنى واحد هو الاستعباد أو الوهم أو الخرافة

ومتى أزيلت الحدودُ بين المعانى كان طبيعياً أن يلتبس شىءٌ بشىء وأن يحلَّ معنى فى موضع معنى غيره ، وأصبح الباطلُ باطلا بسبب وحقًّا بسبب آخر ، فلا يحكم الناسَ إلا مجموعة من الاخلاق المتنافرة تجعل كلَّ حقيقة فى الأرض شبهةً مزورة عند من لا تكون من أهوائه ونزعاته ، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فصلا مسلحاً ؛ فيكسبون القانونَ بمدنيتهم قوة همجية تضطره أن يُعِدَّ للوحشية الانسانية ، وتدفع هذه الوحشية أن تُعِدَّ له

ومن اختلاط الحدود تجىء القبعة على رأس المسلم ، وماهى إلا حد يطمس حداً ، وفكرة تهزم فكرة ، ورذيلة تقول لفضيلة : هأنذى قد جئت فاذهبى

ما هو الأكبرُ من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الصغر ، وما هو الأصغر من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الكبير ؟ إنها الفوضى كما ترى ما دام الحدُّ لا موضع له فى التمييز ولا مقرَّ له فى العُرف ولا فصلَ به فى العادة ؛ ومن هنا كان الدينُ عند أقوام أكبرَ كلمات الانسانية فى عامة لغاتها وأملأها بالمعنى ، وكان عند آخرين أصغرها وأفرغها من المعنى ؛ وما كبر عند أولئك إلا من أنه يسع الاجتماع الانسانى وهو محدود بغاياته العليا ، وما صغر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حدَّ له ، وكأنه معنى مُتوهَّم لا وجود له إلا فى أحرف كلمته

فجماعة القبعة لا يرون لأنفسهم حداً يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا أو شرقيتنا ، وقد مرقوا من كل ذلك وأصبحوا لا يرون فى زيِّنا الوطنى ما فيه من قوة السر الخفى الذى يُلهمنا ما أودعه التاريخ من قوميتنا ومعانى أسلافنا

وأنا أعرف أن منا قوماً يرى أحدُهم فى ظن نفسه أنه قانون من قوانين التطور ؛ فهو فيما يُلابسُه لا ينظر إلى أنه واحد من الناس بل واحدٌ من النواميس . . . ومن هنا التقَلُ والدعوى الفارغةُ وما هو أكبر من الثقل وفراغ الدعوى . وإنه لحقٌّ أن يكون بعضُ الناس أنبياء ، ولكن أقبح ما فى الباطل أن يظن كل إنسان نفسه نبيًّا

واعلم أن كثيراً مما يزينونه للشرق من رذائل المدنية الأوروبية إن هو إلا منطق شهوات فى جملته ، ولقد تسمعُ الجائعَ يتكلم عن الطعام فترى كلاماً تحته معانٍ ومعانٍ لا يعدها غيرُ الجائع إلا حماقةَ ساعتها

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

كل شيء بخير

سيدتى المركيزة !

للأستاذ عبد الحليم الجندى

فى فاتحة الصيف جلسنا عند سفح الهرم نستمع إلى آخر أناشيد باريس عاصمة فرنسا ، التى يقول عنها أبناؤها إن كل شيء فيها ينتهى بأغنية ، والتى يُزلفها « كوت » إلى الهاوية فى سرعة الطائرات التى يبعث بها إلى مدريد ، والتى يسوقها « توريز دچوهر » إلى جهنم الحمراء : أى إلى الشيوعيـة ، فأدار لنا « الأستاذ » تلك الأنشودة البديعة الواردة أخيرا :

كل شيء بخير : سيدتى المركيزة : المتـاع سرق
وكل شيء بخير : سيدتى المركيزة : والقصر يحترق
وكل شيء بخير : سيدتى المركيزة

استمعنا ، واستمتعنا ؛ ثم نسينا — طبعا — ورجعنا ؛ حتى إذا كنت فى أوائل الشهر المـاضى برأس البر طفرت تلك الأغنيـة إلى ذهنى وإلى فمى فطفقت أرددها ، فى المسـاء وفى الصباح ، وعلى الشط وفى السامر

***

نحن الآن فى مجلس خاص ، فى الكازينو ، على قيد أمتار من اللسان ، حيث العذب الفرات والملح الأجاج يلتقيان ؛ وهؤلاء أكبر الأساتذة فى أقدم جامعـة فى العالم ، وفى أحدث جامعة فى العالم ، أخذوا فى خلوتهم البديعة بأطراف الأحاديث ، وسالت تلك القرائح السامية بخواطر عالية فى الحضارة والاجتماع

الأستاذ الكبير — فى جامعتنا المصرية — يعالج ترجمـة فصحى لكلمة « المودة » La mode ويعرض على الفقيهـين الكبيرين كلمـة بديعـة بارعة ، فتأخذهما النشوة ويطربان ؛ والأستاذ يقص علينا حديث رحلته الأخيرة إلى الشام ، تلك الأمة المجاهدة فى الحرية ، المجاهدة فى الأدب ، المجاهـدة فى الاقتصاد ... وبنوها الذين ضربوا لنا الأمثال فى كل ضرب ! الذين حدثوه عن مصر عمـا لا يعرفه أبناء مصر ! ... لقد كان أروع ما راعه فى ذلك القطر الشقيق أنه لم يجـد فوارق بين الطبقات ؛ وعلة ذلك عنده أن العروبة أعمق أصولاً عند إخواننا ، وأن العروبة معناها النخوة والمساواة ؛ وعلته أيضاً أن التفاوت فى المرتبات ليس هائلاً ؛ وأخيرا أن ليس ثمة أسرات تضرب فى مظاهر الأبهة كأنها تضرب بروْقَين فى السماء ...

أما هنا — وانحدر الحديث الى من هنا . قال قائل : هنـا نجد ستة عشر مليوناً ولا نجد سـتة عشر رجلاً ممن ينفذون الى الأعماق ! قلت : إنى أطلق على حضارتنا الحالية : « حضارة السندوتش » ؛ فالناس يمرون بمحال « السـندوتش » ليطعموا طعامهم على وجه الاستعجال ، كما يعبر رجال القانون ، ولا يضيرهم بعد ذلك أن تتأذى معـداتهم وأعصابهم ما داموا قد تناولوا وجبتهم بحال من الأحوال . . . ! ولقد طغت تلك المحال على المطعم الأصيل فكادت تجليه عن مكانه . أنظر حيثما شئت تجد أنوارا لامعة فى الأرض تكاد تباهى كواكب السماء ! إنها ليست أنوار معهد ولا مستشفى ، ولـكنها أنوار السينما والسندوتش . وكلما ذهبت الفتاة الى الطبيب أو شكا الطالب الى أستاذه رجاهما الطبيب أو الأستاذ أن يقلعا ، أو يقللا ، من ارتياد السينما ومن ازدراد السندوتش ...

وكما قضى السندوتش على المطعم تكاد تقضى المذكرات فى الجامعة على المراجع ، والخليلات على الحليـلات ، والمسكنات السياسية على الاصلاح العميق ، وشهوات الساعة على واجب التاريخ . . . والأدب الرخيص على الأدب العالى . . . والمجلات الخفيفة على الـكتب ... ولنفس الأسباب .. وفى عبارة موجزة : لـكأن هذا الجيل ليس من مصر ! وكأنما هو يقضى منها وطراً ، أو كأنه فيها عابر سبيل . . . .

وتطرق الحديث — حتما — الى الپلاج ، الى الماء ، والى فنون المـاء ، وما أدراك ما فنون الماء : العراء . والاغراء ، واستهتار الرجال وتبذل النساء ! وخرج كل منا من الحديث غضبان أسِفا

ومع ذلك فالدولاب يسير ... وظواهر الأشياء لا تنبئ إلا عن خير الأشياء ...

وكل شيء بخير : سيدتى المركيزة ! المتـاع سرق
وكل شيء بخير : سيدتى المركيزة ! والقصر يحترق
وكل شيء بخير : سيدتى المركيزة !

***

وانفرط العقد ، وانصرم الليل ، وأرسلت الشمس شعاعها فى الصباح أصفر وهاجاً نافذا فى أعمـاق اليمّ كأنه سهم ذهبى بديع يتوهج فى طبقات الأفق ، والتقى الصديقان بعد عشرة أعوام

وبعد رحلة طويلة فى أوربا ، وبعد أن (كانا يظنان كل الظن أنْ لا تلاقيا) ... وانطلقا على الشاطئ

قال الذى رجع من أوربا : أرأيت أنى وجدت فى مصر ما لم أجد فى أوربا ؟ قال له صاحبه : أنسيت أن إسماعيل قد جعلها قطعة من أوربا ؟ ومنذ ستين عاماً ! قال إنها كلة تعدل كل ديون اسماعيل ، فهو كما أفقر الأمة فى أموالها أفقرها بهذا الذى ظن أنه صيّرها إليه ... إنك لا ترى على هذا الشاطئ إلا أقبح القبيح الذى تنكره أوروبا .. لكأن الناس ياصديق قد جاءوا إليه ليتعروا فيه لا ليصطافوا عنده ....

وانطلقا حتى بلغا مجمع البحرين قال : انظر الى النيل يقذف بنفسه فى صميم البحر الأبيض ؛ إنه ينطلق كالقذيفة فى البحر .. وترى ماءه الأحمر أو الأسمر ، بل تستطيع أن تشربه عذباً على بعد أميال من الشاطئ ؛ ولكنك بعد أميال أخرى لا تراه ؛ ويفنى اللون الأسمر فى اللون الأزرق ، والماء العذب فى الماء الملح ؛ وهكذا نحن نقذف بأنفسنا فى ذلك الخضم الأوربى ولكن مع فارق ضخم : هو أن الماء يسع الماء ، أما الحضارة الأخرى فانها تلفظنا ..

وانطلقا . . . . فهما الآن عند الكازينو : حيث الفتيات يواعدن الفتيان جهرة ... ! لكأنه يوم الزينة ، وكأن الناس قد حُشروا ضحى .. ! لا ليشهدوا سحرة فرعون ولا آية موسى ، ولكن ليشهدوا السحر الحرام .. فيرى الأناث الرجال المتأنثين ، ويرى الرجال النساء المسترجلات .... وإلا فلماذا لا يحتشد ذلك الجمع على الشاطئ الذى يبدأ من بور سعيد وينتهى عند البرلس عصيف آخر ؟ لماذا لا يحتشد ذلك الجمع إلا أمام الكازينو ؟ ارجع البصر يا صديق إلى ذلك الحوت المستلقى على الشاطئ ! ثم ارجع البصر كرتين ، هنالك ، تلك الفتاة التى وصفها النقيب (سانت أوبان) فى مرافعته عن فكتور مرجريت عندما قدموه للمحاكمة من جراء (لا جارسون) — تلك الرواية التى صارت بعد خمسة عشر عاما من أعف الروايات !! — قال سنت أوبان (.. أين تلك البطة المسربلة بالبياض وهى تقسم يمين الطاعة لزوجها فى المعبد من هذه الفتاة العارية المتمددة على رمال الشاطئ تعرض جسدها على الطبيعة تستقبل أشعة الشمس حقاً ولكنها تستقبل أيضاً تلك الأشعة النارية المسلطة عليها من عيون الناظرين ...)

وانطلقا نحو علم أخضر يتراءى على البعد . قال أحدهما إنك ترهقنى عسرا إذا مرت بى إلى حيث هذا العلم ؛ إننى أراه فوق الشاطئ الذى نحن عليه كطربوش الميت على الآلة الحدباء التى تحمله ؛ وهو من مجد هذا الشعب المنتشر على هذا الشاطئ كالنشيد الذى أجازوه مائة جنيه لأنه خالٍ من المعنى ، خالٍ من الاحساس ، ومع ذلك جعلوه نشيدنا القومى ! ! ... إننى سمعت الأنشودة التى غنيتها لك فى المرقص ، ولكن المرقص يحمار خجلاً ، ويتفصد جبينه عرقاً ، إذا وقف أزواجه أمام هـذا الشاطئ ... إن الشباب يتعلم ليتعطل ، والعامل يعمل ليجوع ، والاقتصاد المصرى يزخر كتيار النيل ليصب فى البحر الذى يجمعنا بأوربا ... أفهذا الشباب الناهض ، بل الرابض ، هو الذى سيبنى الأسطول البحرى ، والأسطول الجوى ، ويقطع الصحراء راجلاً إلى الحدود ... !! ومع هذا فقد شرع له أساتذة الجيل أسوأ شرعة عندما أعطوا جائزة لذلك الباحث الذى شرط على رجل القرن العشرين أن يكون « وصوليا » لكى ينجح ... ! ! فاذا سألت عن هؤلاء الأساتذة ، فاعلم أن منهم صاحب « حياة محمد » ، وأن منهم أيضاً تلميذ محمد عبده ! !

ومع ذلك أيضاً ... فكل شىء بخير

كل شىء بخير : سيدتى المركيزة ، المتاع مسرق ، والقصر محترق ، وكل شىء بخير ...

* * *

وكنا كلما بعدنا عن الكازينو هدأ الموج وسكن البحر ؛ قلت : ما للموج لا يرغى ولا يزبد إلا حيث هؤلاء الناس يجتمعون ؟ فأجاب صديق : «إننى سمعت إحداهن تقول لأختها : إن الموج يتدافع نحوها كما يتدافع الهوى أو الهواء ، تارة فى عنف ، وتارة على استحياء . فردت عليها الفاجرة تقول : اسمعى ! إننى سأذيع لك السر الذى بينى وبينه : « إنه يتظاهر أمام الناس بأنه يلاطم الشط ولكنه فى الحقيقة يقبل قدمى .. وهأنذى أركض بهما فى ذلك المغتسل البارد .. وأسلمهما للقبل »

وكنا قد دنونا من السارية ، ثم وقفنا تحت العلم ، فيا لتوفيق الله سبحانه ! إنه علم فرق الجوالة من شباب الجامعة الأشداء جاءوا يضربون خيامهم على هذا الشاطىء ويضربون لفتيانه المثل العالى .. وجاءوا ليبعثوا فينا الأمل الذى قضى أو كاد

ورجعنا فى العاشرة صباحا ، وكان الراديو يجاجل فى الآفاق جميعها بآيات الله العلى ! قلت يا صديق بل هنا الأمل فلنراجع البرنامج !

عبد الحليم الجندى المحامى

رواية ورواية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المــازنى

قال محدثى :

« كنت فى ذلك الوقت غارقاً فى دروسى ، فقد رسبت ، كما تعلم ، فى الامتحان وأبيح التقدم له مرة أخرى ، فعدت من البلد ، ونزلت على أقربائى هؤلاء ، وشرعت أستعد لأداء الامتحان فى المواد التى أخفقت فيها ، وكانت أربعاً ، تضاف إليها ثلاث أخرى اخترتها طمعاً فى «المجموع» فعكفت على دروسى وأقبلت على تحصيلها . وما أكثر ما كنت أفنى ليلى بالسهر فى مراجعتها فكانت « سميحة » تزجرنى عن ذلك وتقول : إن سهر الليل يهد القوى ويكثف العقل ، وإن عمل النهار أوفر عائدة وأرفق بالجسم والعقل . وكانت هى قد فازت « بالبكالوريا » ولم تتلكأ عندها مثلى ووثبت منها الى كلية الطب . ولم تكن قد قضت فيها غير عام واحد ولكنها — مذ التحقت بها — أصبحت تتحدث عن الصحة والعلل وطبابها كأنها جالينوس . وكنت أحبها غير أن دروسى شغلتنى عنها ، وكانت مى فى البيت فلا داعى للشعور بالوحشة وفراغ الدنيا حول المرء . وكنت إذا تعبت أقوم فأتمشى فى البيت وأدور بالغرف — فأتم غيرها — وقد ألبث شيئاً عند سميحة وهى مستلقيــة على سريرها — أو على الأصح نائمة كقاعدة فوقه — وفى يدها قصة تزجى بها الفراغ وكانت تحب الروايات البوليسية مثلى فلا يفوتها شىء مما ينقل الى العربية فى هذا الباب . وأنا مثلها وعسى أن يكون هذا هو الذى دهورنى ، ولكنه لم يدهورها فلا أدرى ما علة إخفاق وسر نجاحها ؟ . لا تعترض !! إنى أعرف ما تريد أن تقول ، ولهذا أقول لك إنها ليست أذكى منى وإن كان لا يسعنى إلا أن أعترف أنها أمضى عزماً وأقوى إرادة وأقوم طريقاً الى غايتها حين تكون لها غاية . وما أظن بها إلا أنها أرادت أن أعشقها فعشقتها ، ولكن الذى يحيرنى أنها تأبى على راحة القلب واطمئنان البال ، ولا تنفك تظهر لى النفور من هذا الحب والكراهة له والزهد فيه . وأحسب أن هذه هى طبــاع المرأة ، فهى تعنى « أريد » حين تقول « لا أريد » .. ماعلينا .. انتهى الامتحان واستطعت أن أنام مرتاحاً ووسعنى أن أدير عينى فيما حولى وأن أجعل لقلبى حظاً بعد طول الحرمان ، ولكن سميحة كانت تنفينى عن البيت وتقول لى إنى أتلفت صحتى فهى فى حاجة الى الهواء الطلق ؛ وكان هذا صحيحاً لا شك فيه ، ولكن هذه « الأستاذية » التى كانت تتكلفها معى كانت تثقل على نفسى . وكانت تخرج مى أحياناً ولكن كما يخرج المعلم مع تلاميذه الصغار الى حدائق الحيوانات أو مرصد حلوان ، فلا أشعر أنى مع الفتــاة التى أحبها ، ولا أجد متعة أستفيدها من هذه الرحلات التى يطيب فيها الغزل عادة والتى كنت أمنى بها نفسى وأحلم . وقد قلت لها مرة ونحن فى « حديقة الأورمان » :

« يا ستى ما هذا الحال المقلوب ؟ »

قالت : « أى حال ؟ . مالك ؟ . »

قلت : « لكأنى أسير مع شرطى ! »

فلم تضحك — وكنت أظنها ستفعل — فغاظنى ذلك فقلت : « أليس حالاً مقلوباً أن نضحك فى المطبخ ونعبس فى الحديقة الحالية ؟ ؟ »

فسألتنى مستغربة : « المطبخ ؟؟ متى ضحكنا فى المطبخ ؟ »

فقلت لها بضجر : « لا تكونى حرفية ! ! إنما أعنى البيت وأنت تعرفين ما أعنى فلا تغالطى »

قالت : « إن البيت ليس من مرادفاته المطبخ »

فسكت ولم أقل شيئاً — وماذا عسى أن أقول ؟ — »

وحــدث مرة أخرى وكنا معاً — على ما يبدو للناس ، أما فى الحقيقة فقد كان كل منا وحده — فضاق صدرى ، فقلت أرفه عن نفسى بالغناء ، فرفعت صوتى وانطلقت أغنى :

« يا بت انا بدّى أبوسك بس أبوسك !
واطرب وأحظى بكؤوسك رق شوية ! »

فلم يرعنى إلا قولها : « ليس أضر من الخمر ولا أقتل »

فقلت : « يا ستى إن المراد بالكؤوس هنا الشفاه الرقيقة ، وبالخمر الريق العذب »

فقالت : « إخص ! ... »

فقلت مندهشاً : « إخص ؟ ؟ »

قالت : « إخص ! ... »

قلت : « طيب ! ... »

وهذا يريك من أى معدن صيغت سميحة ، ولـكنى على هذا كنت أحبها حباً عظيما لأنى كنت واثقاً أن هذه قشرة نشرتها كلية الطب على صفحة معدنها الصافى ، وستزول ولا شك مع الأيام

وصح ظنى ، فقد كانت كما قلت لك تحب الروايات البوليسية حباً جماً ، وكان قد صدر منها أخيراً رواية طويلة فى مجلدين اسمها « السم فى الدسم » ، فاشتريتهما وغرقت فيهما — أعنى فى المجلد الأول — واستغنيت بهما عن هذه النزهات والرحلات التى لم أكن أفيد منها أى متعة ، بل كنت أفيد منها التنغيص

وكنت أخفيهما عن عينها مخافة أن تسطو عليهما ، وكانت الرواية قد نفدت بسرعة ، فلا سبيل إلى نسخة أخرى غير التى كانت مى إذا هى ضاعت ، فلا عجب إذا كنت قد حرصت عليها وضننت بها . ولا أكتمك أن نفسى حدثتنى أن أعذبها — أعنى سميحة — بعد أن أفرغ من الرواية وأعرف سر الجريمة ، وذلك بأن أخايلها بها وأحرك نفسها لها ولا أمكنها منها ، ولماذا لا أعذبها كما عذبتنى ؟ ثم إن تعذيب المرأة أحياناً لا يكون من القسوة ، فقد وجدت على ضآلة تجربتى وقلة خبرتى أنها تستحلى هذا — أعنى المكايدة إذا لم تخرج إلى الايلام ولم تجاوز الحدود المعقولة ... ومع ذلك من يدرى ؟ فلعلها تستعذب العذاب بلا قيد أو شرط .. لا أدرى !

وفى إحدى الليالى عدت من مأدبة كنت مدعواً اليها مع لفيف من إخوانى وأندادى ، أقيمت لتوديع واحد منا مسافر إلى انجلترا لاتمام تعليمه هناك ، فلما رجعت إلى البيت دخلت غرفتى وأنا أمنى النفس بساعة جميلة أقضيها مع الروائى البارع الذى أبدع ذهنه صوغ هذه القصة الممتعة ، وإذا بها قد اختفت .. وكنت قد دسستها بين المرتبتين المطروحتين على السرير ، فان أقاربى هؤلاء يخافون الفيران والصراصير ، فيكدسون المراتب على السرير فتعلو جدا ويحتاج المرء إلى كرسى يصعد عليه . ولم أشك فى أن سميحة سرقت روايتى ، وأنها الآن تنعم بها فى سريرها على عادتها حين تريد القراءة . وكانت الساعة الحادية عشرة فقدرت أن تكون قد قطعت مرحلة طويلة وبلغت العقدة التى لا يمكن أن يستريح القلب إذا لم يقف على حلها ، فمضيت إلى غرفتها ونقرت ودخلت ، فقالت : « خير إن شاء الله ! » ، فقلت وأنا أرفع نفسى لأجلس على حرف السرير — فانه عال كما قلت لك —

« أوه لا شىء ... إنما جئت لأتحدث معك قليلاً »

قالت بجفوة : « ليس هذا وقت الحديث فقم من فضلك »

قلت : « بل قولى إنك تقرئين رواية (السم فى الدسم) .. أليست بديعة ؟ »

فاطمأنت لظنها أنى فرغت منها ، فنى وسعها الآن أن تمضى فى قراءتها من غير أن تخاف أن أقطع عليها — بالسرقة أو الخطف — حلاوة المتعة ، ورأيت أمارات هذا الاطمئنان فى وجهها ففرحت فان الانتقام يكون أوقع إذا خيب أملاً قوياً ، وأطلتُ الحديث فسئمَت واشتهت أن تعود إلى روايتها ، وقالت : « هل تنوى أن تنام هنا الليلة ؟ إذا كنت تنوى هذا فقل لى لأنتقل إلى غرفة أخرى ! »

ونهضتْ عن السرير ومضت إلى الشرفة ففتحتها وأطلت منها ، فلمحت الرواية تحت الوسادة فما أسرع ما دسستها فى جيبى ، ثم قلت وأنا أمضى إلى الباب : « إذا كنت تكرهين وجودى إلى هذا الحد ، فانى ذاهب إلى حيث ... »

فقالت من الشرفة : « ألقت » وضحكت

فلم يسؤنى ذلك ، فان الذى يضحك أخيرا يضحك كثيراً كما يقول الانجليز على ما حدثنا معلمنا ؛ وأوصدت باب غرفتى بالمفتاح ، واستوثقت منه بهزه مراراً وبقوة لأرى هل يستطيع محنق مغيظ أن يكسره ، ثم قعدت على كرسى وراء الباب ، ورحت أنتظر

ولم يطل انتظارى ، فقد اهتز الباب فصحت وأنا أتكلف الفزع : « من ؟ »

قالت : « افتح من فضلك ! »

قلت : « إذا كنت تنوين أن تقضى الليل فى هذه الغرفة فقولى لى لأنتقل إلى سواها »

قالت : « لا تكن فظاً ... لماذا سرقت الرواية ؟ »

قلت « بضاعتنا ردت إلينا . . هل عرفت من القاتل . . لعلك تظنين أنه « رودلف » . كما كان المحققون يتوهمون ؟ ؟ كلا يا فتاتى ! ... إن السر أعمق وأخفى من ذلك وإن الروائى لبارع حقاً .. والآن أرجو أن تذهبى فقد بلغت الفصل الذى يشق صبر

المرء إذا لم يتمه فى مثل لمح البصر .. إذهبى ونامى يا حبيبتى واحلمى «بالصينى» فان له لدخلاً فى الأمر وعلاقة بالسر »

قالت : « صحيح ؟ . »

قلت : « طبعاً .. لقد عرفت ذلك منذ دقيقة واحدة »

قالت : « ألا تخبرنى من القاتل ؟ ؟ إنى أكاد أجن ولا أستطيع أن أنام حتى أعرف هذا ، فكن لطيفاً واخبرنى »

قلت : « حتى تكونى أنت لطيفة »

قالت : « ما ذا تطلب قل وخذ وهات الرواية »

قلت : «الرواية كلها ؟؟ لا !. إن ثمنها غال جداً ... على أنى بعد التفكير العميق أرى أن المساومة لا تليق ولهذا أرفض كل ما تعرضينه كائناً ما كان »

قالت برقة : « ترفض أن تعلم أنى . . . أنى . . . أنى . . . أحبك ؟ » (بصوت خافت)

فانتفضت واقفاً وصحت « إيه ؟ »

قالت : « لا تصح هكذا . . »

ووضعت فمها فى ثقب المفتاح وهمست : « يا عبيط . . إنى أحبك .. هل تفهم ؟ . وأنوى أن أتزوجك على رغم أنفك ؟ . . فنضع لهذه المنافسة السخيفة حداً ونستطيع حينئذ أن نقرأ الروايات البوليسية كلها معاً .. تقرأ لى فأسمع .. وأقرأ لك فتسمع »

فاعترضت وقلت : « ولكنى قد أحب أن أسرع وأقلب بضع صفحات ليطمئن قلبى ، ولا تحبين أنت ذلك فيقع الخلاف »

قالت : « كلا .. على كل حال .. سأكون واثقة أن الرواية باقية فى البيت فأنا أتعهد لك أن أقدمك على نفسى وأتركك تسرع أو تبطئ كما تحب .. وحسبى أن تترك لى فتات المائدة »

فأثر فى نفسى هذا الاخلاص والايثار .. وأى إيثار أعظم ، وأى تضحية أكبر ، من أن تتركنى أقرأ — أو أتم — رواية بوليسية قبلها ؟ ؟ هذا اخلاص وإيثار لم يسمع — أو على الأقل لم أسمع أنا — بمثلهما . فلا عجب إذا كنت قد فتحت الباب بسرعة وفتحت مع الباب ذراعىّ لها فدخلت فى ذراعى قبل أن تدخل من الباب

وكان لا بد أن أجزيها إخلاصاً باخلاص ، وإيثاراً بايثار ، فدفعت إليها الرواية وقلت : « إقرئيها قبلى يا نور العين »

ابراهيم عبد القادر المازنى

صور سياحة

٣ ـ معاهد باريس

الحى الجامعى والمدينة الجامعية ومسجد باريس

بقلم سائح متجول

لا ريب أن ما تتمتع به فرنسا وباريس فى مصر من حب وتقدير يرجع قبل كل شىء إلى غرسها العلمى والثقافى ؛ وإذا كان هذا الغرس يذبل اليوم ويتضاءل لأن عوامل كثيرة جديدة دخلت فى الثقافة المصرية الحديثة ، فان الثقافة والآداب الفرنسية ما زالت تحتفظ فى مصر بكثير من جاذبيتها وسحرها

لقد تلقى كثير من المصريين علومهم بفرنسا ، وما زالوا لثقافتها رسلاً مخلصين

بيد أنه من حسن الطالع أن هذا الجيل المتعصب لثقافته الأجنبية يضمحل اليوم ؛ ذلك أن مصر يجب ألا تكون ميداناً بعد لنضال الثقافات الغربية التى تبغى دائماً من بسط نفوذها العلمى والثقافى أغراضاً خاصة ، ويجب أن تسير مصر فى تكوين ثقافتها القومية على مبدأ الاختيار الحر بعيداً عن دعاية أولئك الرسل المتعصبين

إن فرنسا تتمتع منذ الأحقاب بسمعة جامعية وعلمية راسخة . وما زالت باريس بجامعتها الشهيرة كعبة الطلاب من سائر الأنحاء والأمم ، وما زال حيها الجامعى أو الحى اللاتينى على تقشف مظهره من أشهر أحيائها وأجدرها بالحب والعطف ، وأغناها بالذكريات

فنى الحى اللاتينى يتفتح الذكاء الفرنسى ، وفيه تشع العبقرية الفرنسية ، وفيه ينهل ألوف من الشباب الأجنبى مورد الثقافة الرفيعة ، ويلمسون كثيراً من نعم النظم الديموقراطية التى تسود أفق الحياة العامة فى فرنسا

وفدنا على باريس فى صميم الصيف والحياة الجامعية معطلة ، فلم يتح لنا أن نرى شيئاً من مظاهر نشاطها ، ولكنا مع ذلك طفنا بأرجاء الحى الجامعى مراراً ولمحنا آثار الصبغة الجامعية تطبع الحى فى معالمه ، وفى فنادقه ومقاهيه ، ومظاهر حياته المتواضعة

يشغل الحى الجامعى ركناً من أقدم أركان باريس وأكثرها

تواضعاً ، كما يشغل حينا الأزهرى أقدم أركان القاهرة وأكثرها تواضعاً ؛ وقوام الحى الجامعى شارع سان ميشيل : فى ضفته اليسرى يقع ميدان السوربون . وشارع سوفلو ، وفيما بينهما وبين شارع سان جاك تقع السوربون والكليات المختلفة الملحقة بها فيما بين دروب وشعاب ضيقة قاتمة ؛ وفيما بينهما أيضاً تقع عدة من المعاهد العلمية القديمة مثل كلية «لوى الأكبر» ؛ ومن الحق أن يقال إن هذه المجموعة القديمة من المبانى القاتمة لا تتفق فى مظاهرها المادية المتواضعة مع ما لها من سمعة جامعية مؤثلة ؛ بيد أن هذا الحرص على القديم ربما كان فى ذاته مثاراً للاجلال والاعجاب بهذه المعاهد التالدة التى يرجع بعضها الى نحو سبعمائة عام ، فنحن نعرف أن معهد السوربون أسس فى منتصف القرن الثالث عشر ، فى عهد لويس التاسع ، وكان فى الأصل معهداً لتدريس العلوم الدينية ، وأن تنظيم الكليات الجديدة فى السوربون يرجع إلى عصر نابليون ، أى إلى نحو قرن وربع

وحى سان ميشيل الذى يضم هذا الحشد الجامعى ، كما قلنا حى متواضع بيد أنه حى عامر ضخم ، ويمتد بولفار سان ميشيل من أحد طرفيه الى مونبارناس ، وشارع «البور رويال» وما زال يخترقه الى اليوم خط الترام بعد أن ألغيت خطوطه من معظم الشوارع الكبرى ؛ ويتصل من الناحية الأخرى بشارع ڤوجيرار على مقربة من الأوديون وحديقة اللوكسمبور التى تبث نسيمها الصبوح الى الأحياء المجاورة ، والتى يهرع اليها جمهور الطلبة والشعب يتفيأون ظلالها ورياضها ؛ وفى سان ميشيل والشوارع المتفرعة منه عدة من الفنادق الرخيصة التى تنم عن تواضع روادها ؛ وهنالك أيضا طائفة من المكتبات التى تتاجر فى الكتب المستعملة ؛ وإنك لتلمس على الجملة فى كل ناحية من أنحاء سان ميشيل وما اليه ما يدل على صفة الحى المتواضعة النبيلة معاً

* * *

ولا بد لنا بهذه المناسبة أن نذكر كلمة عن المدينة الجامعية Cité Universitaire التى تربطها بالحى اللاتينى أوثق الروابط ؛ والتى لا يعرفها كثيرون من المصريين الذين درسوا فى فرنسا لأنها أنشئت منذ أعوام قلائل فقط

تقع المدينة الجامعية فى ظاهر باريس من جهة الشمال الشرقى فى شارع چوردان Jourdain فى بسيط أخضر من الحدائق والحقول النضرة ؛ وقد كان من حظى أن زرت المدينة الجامعية وطفت بأنحائها برفقة مدموازيل ليجران ، وهى آنسة رفيعة الثقافة تتولى منصبا فى إدارة المدينة الجامعية نفسها ، وهى التى تفضلت بالشرح والتعريف لكل ما سألت وشاهدت

كان أول من فكر فى هذا المشروع الجليل عضو من أعضاء مجلس الشيوخ غاب عنى اسمه ، فدعا اليه فى المجلس وفى الصحافة ، ولم يلبث أن صادف نجاح التحقيق ؛ وكان المثرى الأمريكى روكفلر أول من اهتم بأمره ونفحه بهبة مالية حسنة ساعدت على تحقيقه

وتنقسم المدينة الجامعية إلى قسمين : القسم العام ويشمل الأبهاء والمرافق العامة وإدارة المدينة الجامعية نفسها ، وهذا القسم هو روح المدينة وهيكلها الحقيق ؛ والقسم الخاص ، وهو الذى يضم دور الطلبة لمختلف البلدان ، وهو خاص بسكنى الطلبة ؛ وفى القسم الأول حديقة بديعة وعدة أبهاء كبيرة للمطالعة والكتابة والجلوس قد أثثت جميعها ببساطة واتقان معاً ؛ وهنالك مطعمان كبيران قد صفت فيهما موائد بسيطة نظيفة ، وكذلك مقهيان كبيران ؛ وفى وسع الطلبة أن يجلسوا للمذاكرة أو الكتابة أو السمر فى هذه الأبهاء الشاسعة النيرة ، وأن يتناولوا الطعام أو القهوة أو الشاى أو غيرهما فى تلك المطاعم أو المقاهى النظيفة بأثمان زهيدة جداً تناسب أحوالهم وماليتهم ؛ ووجبة الطعام الحسنة تكلف الطالب من ٣ إلى ٥ فرنكات ، وثمن المشروب فرنك أو نصفه ، وهذه أثمان لا تحلم بها فى مطاعم المدينة ومقاهيها ؛ وهنالك حمامات وملاعب ومسرح يقوم الطلبة بالتمثيل فيه أو تمثل فيه الفرق التى تدعوها إدارة المدينة لتسلية الطلبة ، وهنالك فى الطابق الأرضى مكتبة بدىء بتأثيثها وإعدادها لتغذى الطلبة وتعاونهم على المذاكرة والبحث : هذه هى محتويات القسم العام للمدينة الجامعية شرحناها بايجاز ؛ وإنك لتشعر أثناء الطواف بهذه الأبهاء والغرف الشاسعة التى تشرف على الحدائق والحقول النضرة ، إنها أبدع ملاذ يمكن أن يأوى إليه الطالب فى أوقات المذاكرة والفراغ معاً ، بعيداً عن صخب المدينة وضجيجها ، وإنك لتأنس شعوراً من الغبطة والاعجاب بما هيئ للشباب من وسائل الراحة والمتاع البرىء

وأما القسم الخاص من المدينة الجامعيـة فيحتوى على عدة دور كبيرة أنشئت إلى جانبى القسم العام عن يمينه وعن يساره على طول شارع جوردان ؛ لـكل دولة دارها ؛ فهنالك دور لانـكلترا وأمريكا واليابان وفرنسا وهولنـده وبلجيكا وكندا وغيرها ؛ وتخصص هذه الدور القومية التى تتولى الدول المختلفة تشييدها على أرض تمنح لها ، لسكنى طلبة هـذه الدول ، فدار انكلترا خاصة بالطلبة الانكليز ، ودار أمريكا بالطلبة الأمريكيين ، وهولنده بالهولنديين ، وهكذا ؛ وأبدع الدور وأعظمها هى دار الولايات المتحدة ؛ وهنالك دار صغيرة ولـكن أنيقة لليابان ؛ وقد أعدت هذه الدور لتكون فنادق للطلبة وجهزت بوسائل الراحة والنظافة ، وأثثت ببساطة واتقان ؛ ويستطيع الطالب أن يجد سكناً فى دار البلد الذى ينتمى إليه بأجر شهرى قدره مائة فرنك ؛ ويستطيع أن يجد غرفة خاصة حسنة الأثاث بأجر شهرى قدره مائتا فرنك ، وتغص هذه الدور بالطلبة لـما لها من مواقع جذابة تغمرها الشمس والضوء والهواء ، ولما للسكن فيها من المزايا المريحة

ولقد وددنا أن نرى فى المدينة الجامعية بين هذه الدور الأنيقة الضاحكة ، داراً مصرية ! ففى باريس يدرس دائماً عدد كبير من الطلبة المصريين ، وإنها لدعاية حسنة لمصر المستقلة الفتية أن يكون لها دار جامعية فى العاصمة الفرنسية إلى جانب دور الأمم الأخرى ، وإنها لنعمة سابغة لطلبتنا أن يكون لهم فى باريس دار مصرية يأوون اليها بعيداً عن صخب المدينة ومغرياتها ؛ فهل تفكر وزارة المعـارف فى هذه المسألة الهامة ، وهل توليها شيئاً من عنايتها وعطفهـا ؟ إنا لنرجو مخلصين داعين بالتوفيق والتحقيق

***

هذا ولا تنس وأنت فى باريس أن تزور «المـكتبة الوطنية» فى شارع ريشليو ، ففى هذا المعهد الثقافى الضخم كنوز زاخرة من الـكتب فى مختلف العلوم والفنون ؛ وفى المـكتبة الوطنية قسم شرقى ضخم ، وقسم خاص بالمخطوطات العربية ، ولـكل قسم فهارسه المنظمة ، ومرشدون يفهمون أعمالهم حق الفهم ، وقد لفت نظرنا عند مراجعة فهارس المخطوطات العربية عدة أسماء لمخطوطات نادرة مثل : أحاديث الامامة والسياسة (رقم ١٥٦٦) ، وحسن المسالك لاخبار البرامك (٢١٠٧) وعيون المعارف للقضاعى (١٤٩٠) ، وتراجم الصواعق فى وقعة الصناجق (١٨٥٣) ، وتاريخ المهديين والحفصيين (١٨٧٤) ، وتاريخ مصر لابن زولاق (٤٧٢٧) . بيد أننا لم نجد متسعاً من الوقت لبحث هذه المخطوطات لمعرفة حقيقتها ومبلغ أهميتها

وهنالك فى باريس صرح لا بد لـكل مسلم أن يزوره ، هو مسجد باريس ؛ ويقع المسجد فى قاصية باريس ، وفى حى من الأحياء القديمة المتواضعة على شوارع جوفرى سانت هيلير ، وجورج دوبلا وديبانتون ، وقد بنى على الطراز المغربى ، ويشرف بابه العمومى ومئذنته على شارع ديبانتون ، وفى فنائه حديقة صغيرة حولها أروقة أربعة تفضى إلى أبهاء وأجنحة ومرافق مختلفة ، وفى الجهة اليمنى من الفناء يقع المصلى ، وهو بهو شاسع أنيق ، قد فرش بالبسط النفيسة ، وبه عند القبلة منبر مكسو بالديباج الأخضر من إهداء مليكنا المغفور له فؤاد الأول ؛ ولقد يممنا فى عصر ذات يوم إلى هذا الحرم الاسلامى المقدس الذى يحفه الصمت العميق من سائر نواحيه ، ولم نتمالك أن نجثو خاشعين لله عز وجل ، وأن نؤدى ما تيسر من الصلاة مغتبطين لذكر الله ورسوله فى هذا الحرم النائى عن أرض الاسلام

وبالمسجد مكتبة صغيرة ومعهد قيل لنا إنه تلقى به محاضرات اسلامية مختلفة ، ومستشفى صغير لبعض الأمراض الخطيرة ؛ وبه أيضاً حمام عربى ، ومقهى ومطعم عربى ، قد صفت موائده فى حديقة داخلية صغيرة تقع فى الجهة الشرقيـة ، وتعزف فيها الموسيقى العربية أحياناً ، ويقوم بهذا العزف بعض الموسيقيين المغاربة . وقد تناولنا القهوة العربية لأول مرة فى باريس فى هذا المنتدى الأنيق وسمعنا الموسيقى العربية فى مجتمع قوامه مسلمون من مختلف الأمم

بيد أن شعور الغبطة الذى قد يأنسه المسلم مدى لحظة لقيام هذا الصرح الاسلامى فى باريس لا يلبث أن يمازجه شعور بالمرارة والأسف حين يستعرض المعانى والظروف التى أقيم فيها . إن فرنسا لم تعمل لاقامة هذا المسـجد حباً بالمسلمين أو احتراماً لشعائرهم ومشاعرهم ، وإنمـا أقامته أداة من أدوات التأثير الاستعمارى ، وهو فى الواقع رمز لسيادتها على الأمم الاسلامية التى تسودها أكثر منه رمزاً للعطف والتقدير

وإلى هنا نقف اليوم ؛ وسنحدثك فى الفصل القادم عن الحياة الليلية فى باريس ، وعن بعض مظاهر المجتمع الباريزى

(...)

الجانب الصـــوفى فى الفلسفة الاسلامية

للدكتور ابراهيم بيومى مذكور
مدرس الفلسـفة الإسلامية بكلية الآداب

— ٥ —

إلى هنا انتهينا من بيان أثر نظرية السعادة الفارابية فى رجال المدرسة الفلسفية الاسلامية وفى طائفة من المتصوفة الذين تشوبهم روح فلسفية . والآن يجدر بنا أن نبين ما إذا كانت هذه النظرية قد أثرت فى الصوفية الآخرين المتدلين أو المحافظين إن صح هذا التعبير . وإن مهمتنا فى هـذه المرحلة أشق منها فى سابقتها ، لأنه ليس بغريب أن نفترض صلة بين فلاسفة وصوفية متفلسفين . أما محاولة إثبات علاقة بين الفلسفة والتصوف البحت الذى يرى من واجباته الأولى محاربة الفلاسفة والمتفلسفين فهذا أمر عسير ، ومهما يكن فسندرس هـذه النقطة بنفس الطريقة والمنهج اللذين درسنا بهما النقط السابقة مبينين أولاً السر فيما ذهبنا إليه من تقسيم الصوفية إلى معتدلين ومتطرفين

لم يكن الاسلام فسيح الصدر للرهبنة المسيحية والتقشف الهنـدى ، وكثيراً ما دعا إلى العمل للدنيا والتمتع المباح بلذائذ الحياة : « قل من حرم زينـة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » فهو بعيد إلى حـد كبير عن طريقة القسس والرهبان فى بيعهم وصوامعهم وسنة فقراء الهند وعبادهم فى ألمهم وعذابهم المستطاب . ومع هـذا فكل دين كائناً ما كان يشتمل بعباداته ونصائحه على قدر من التصوف لا يحتمل الشك . وسبق أن أشرنا إلى أن هناك عوامل كثيرة وتعاليم مختلفة : هندية وفارسية وأغريقية ومسيحية أثرت فى تكوين التصوف الاسلامى ، ولكن يجب أن نضم إلى هذه المؤثرات الخارجية عاملاً آخر داخلياً وجوهرياً ، ألا وهو الآيات القرآنيـة والأحاديث النبوية وبعض الأعمال الدينية . ولو لم يكن فى طبيعة الاسلام ما يسمح بشىء من التصوف ما وجد التقشف الهندى والرهبنة المسيحية إلى المسلمين سبيلاً . وقد دار نقاش طويل بين المستشرقين متعلق بأثر القرآن فى تكوين نظريات الاسلام التصوفية ، وهم فى هـذا فريقان : فريق ينكر هذا الأثر وآخر يثبته . وفى مقدمة الفريق الأول يجب أن يذكر البارون كارا دى فو الذى يزعم « أن القرآن لم يكن مطلقاً الكتاب الذى استطاع مبدئياً أن يجتذب الصوفية نحوه كثيراً ، لأنه متعلق جداً بالأمور الخارجية وليس فيه الحنو الداخلى والروحى حقيقة »[1] . وعلى عكس هذا يقرر أستاذنا ماسينيون ، وبجانبه الأستاذ مرجليوث ، « إن فى القرآن البذور الحقيقية للتصوف . وهذه البذور كفيلة بتنميته فى استقلال عن أى غذاء أجنبى »[2] . ونحن نعتقد أن القرآن أعان الصوفيـة كما أعان المتكلمين والفقهاء على نصرة آرائهم . فان كتاب الله فى العالم الاسـلامى قاموس للنحاة واللغويين ، ومذهب فلسفى للباحثين والمفكرين ، وذكر يتقرب به المبتهلون والمتضرعون ، ولائحة يرجع إليها المشرعون ، وعقيـدة يحتج بها المتكلمون . وكثيراً ما حاول أصحاب الآراء الجديدة والنظريات الحديثة الاحتجاج به والاعتماد عليه ، بل إن هؤلاء أحوج إلى نصرته من غيرهم فان آية منه قد تقرّب آراءهم إلى من حولهم وتكسب نظرياتهم سلطاناً دينياً وصفات شرعية . فالصوفية إذن لا فرق بين متطرفيهم ومعتدليهم أفادوا من القرآن بقدر ما أفاد غيرهم من الباحثين . وأما ما فى هـذا الكتاب الكريم من حنو ورقة وعطف وشـفقة فأمر لا يقبل الشك . ويدهشنا أن البارون كارا دى فو لم يتنبه إليـه ؛ ذلك لأن القرآن لا يخاطب العقل وحـده بل يناجى كذلك القلب ؛ ولا يعنى بالظاهر أكثر من عنايته بالباطن . وكم فيه من تحاليل شائقة وأساليب جذابة تصف أحوال النفس وأحاديثها الداخلية . وكيف يتصور أن يخلو كتاب سماوى من مناجاة القلوب والأرواح وهو إنما أعد أولاً وبالذات للجماهير التى تحس قبل أن تفكر وتسير غالباً وراء العاطفـة والوجدان . وإنه لجهل بطبيعة الأديان أن يقال إن تعاليمها مصوغة فى قوالب منطقية ولغة عقلية بحتة . ويطول بنا البحث لو حاولنا أن نسرد هنا كل الآيات القرآنية المتصلة بالقلب والروح والتى

(١) Ibid., p. 219.

(٢) Massignon, La Passion, p. 480. — Margoliouth, Early Development of Ms. hammcdamsm, p. 199.

استطاع الصوفية استغلالها فى نواح كثيرة ، ونكتفى بأن نشير إلى دراسة تحليلية عميقة أبان فيها الأستاذ ماسنيون الألفاظ الصوفية المقتبسة من القرآن الكريم[١] . فمصطلحات المتصوفة فضلاً عن نظرياتهم ترجع إلى أصل فى كتاب الله . وغنى عن البيان أن حديث المعراج وقصة يوسف كانا أساساً لنظريتين هامتين من النظريات الصوفية وهما الجذب والحب . والعلم اللدنى الذى يتباهى به أهل الكشف والواصلون صورة مأخوذة عن الخضر عليه السلام الذى قال الله فى شأنه : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً » . وعلى هذا يجب أن نبحث عن أصول التصوف الاسلامى فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كما نبحث عنها فى الصوامع الهندية والبيع اليهودية والكنائس المسيحية وتعاليم مدرسة الاسكندرية . غير أنه لا يفوتنا ، وهذا أمر ينبغى التنبه إليه ، أن الألفاظ والآيات القرآنية مرت بأدوار مختلفة من حيث مدلولها وتفهم الناس لها . فقد يفهم صحابى من لفظة قرآنية مالا يفهمه تابعى أو رجل من رجال القرن الثالث الهجرى . ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى مرونة الألفاظ القرآنية ومسايرتها للزمن والتقدم العلمى . ولو جارينا متصوفى العصور الأخيرة لرددنا كل بحث صوفى إلى آية قرآنية أو حديث نبوى ، وهذا إسراف من غير شك . فلا يصح إذن أن نبحث عن أساس التصوف الاسلامى فى القرآن وحده أو فيه كما فهمه الصوفية المتأخرون ، بل يلزمنا أن ننشد هذا الأساس فى الألفاظ والآيات القرآنية كما بدت للمتصوفين الأول . يقول الأستاذ نكلسون : « صواب أن نعد المتصوفة بين خواص دارسى القرآن ، ولكن لا يصح ، فيما أظن ، أن نعتبر التصوف مجرد نتيجة للدراسات القرآنية »[٢] . وفى هذه الجملة القول الفصل والحكم السديد فى تلك الخصومة الآنفة الذكر التى شجرت بين المستشرقين . فأنا لا نسلم بأبعاد القرآن رأساً عن النظريات الصوفية ، كما لا نوافق على عده وحده كفيلاً بخلق تصوف كامل . ولا يفوتنا أن نشير أخيراً إلى أن هذه المعركة فقدت اليوم كثيراً من أهميتها

(١) Massignon, Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane, p p. 28 — 29.

(٢) Nicholson, Legacy of Islam, p p. 212 — 213.

بدأ التصوف فعلاً على صورته الفطرية البسيطة منذ الصدر الأول للاسلام ، فلوحظ على كثير من الصحابة ميلهم إلى الزهد والتقشف وإعراضهم عن الدنيا ، بل لقد خطا بعضهم فى هذه السبيل خطوات فسيحة وبالغ فيها مبالغة واضحة . بيد أن هؤلاء الزهاد والمتقشفين لم يتسموا باسم خاص ولم ينتسبوا إلى طائفة معينة ، ولم تطلق كلمة « صوفية » على جماعة محددة إلا فى أواخر القرن الثانى للهجرة[١] . وما زال هذا النوع من السلوك ينمو ويزيد أنصاره إلى أن ولد بعض الابحاث والنظريات ، والعلم نتيجة العمل ، والنظرية فى الغالب وليدة التطبيق . لهذا رأينا رجالا من مفكرى القرن الثالث الهجرى ، وعلى رأسهم المحاسبى وذو النون المصرى ، يبدأون بوصف بعض الأحوال النفسية والظواهر الصوفية ، ومخلفاتهم من أقدم ما كتب فى هذا الباب[٢] . ونظرية الاتحاد بوجه خاص ترجع إلى عهد متأخر ، فان البسطامى هو أول من قال بها[٣] . ثم جاء الجنيد والحلاج فرفعاها إلى عنان السماء . وهذه النظرية أدق شىء فى التصوف الاسلامى ، وقد قسمت إلى طائفتين : طائفة تقبلها وأخرى ترفضها . والقرآن لا يشير اليها مطلقاً بعبارة صريحة ، بيد أن أنصارها لم يعدموا الحيلة فى دعمها ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى نستطيع أن نذكر منها قوله تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » « وهو معكم أينما كنتم » « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم » وقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث القدسى : « ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى يحبنى وأحبه . فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به[٤] »

بيد أن الاتحاد الصوفى يؤدى إلى الاشتراك فى ذات البارى جل شأنه وحلول اللاهوت فى الناسوت ، وقبول شىء إلهى فى داخل العبد معناه هدم الوحدة الربانية . وكل الخلاف بين الأشاعرة والمتصوفة يتلخص فى هذه النقطة . فالأشاعرة

(١) القشيرى ، الرسالة ص ٨

(٢) Nicholson, Legacy, p p. 215—Massignou, Recueil, p 15

(٣) Nicholson, Lsgacy, p p. 215 — 216

(٤) القشيرى ، الرسالة ، ص ٥٤ — Ibid., p. 214

لا يقبلون أن ينزل الآلهى فى الانسانى ولا أن يصعد الانسانى إلى الآلهى ، ويرفضون ضرورة مذهب الحلول وإن كانوا يسلمون بالتصوف فى جملته . إلا أن التصوف عندهم مقصور على وصف بعض الأحوال النفسية ودراسة الأخلاق العملية التى تسمو بالمرء إلى درجة الكمال دون أن تدعى الوصول إلى حلول الحلاج المزعوم . ومن هنا خرجت الصوفية المحافظة وانقسم المتصوفون إلى معتدلين ومتطرفين ، وليس هذا التقسيم بالجديد فى العالم الاسلامى ولا فى كل المدارس التى تسودها نزعة دينية . وإنا نلاحظ فى مختلف الدراسات الاسلامية — لا فرق بين التوحيد والفقه والتصوف — أن هناك شعبتين متميزتين : شعبة السنيين وشعبة المبتدعين ، أو شعبة المحافظين وشعبة الأحرار . وإذا كان الغزالى هو أكبر خليفة لأبى موسى الأشعرى فى نصرة مذهب أهل السنة الكلامى فهو بحق مؤسس التصوف السنى . وكما أخذ على عاتقه نصرة أهل السنة على طول الخط ومحاربة أهل البدعة كيفما كانت فرقهم ونحلهم ، فلاسفة كانوا أو باطنية ، متصوفة كانوا أو متكلمين ، حلاجيين كانوا أو معتزلة ، وقد آذت حملته الفلاسفة والمتفلسفين بقدر ما أخذت بيد أهل السنة من الكلاميين . أما التصوف السنى فهو تقريبا واضع أصوله وقواعده ومبين طرقه ووسائله فى إحياء علوم الدين الذى أضحى عمدة المتصوفين المتأخرين بلا استثناء.

نعم إن الغزالى يجهر هنا بنظريات متناقضة تناقض آراءه الكلامية والفلسفية ، فتراه مثلاً يحارب محاربة عنيفة ويرفض رفضاً باتاً نظرية الاتحاد الحلاجية فى كتاب الأحياء على حين أنه يميل إليها ويقول شيئاً يشابهها تمام المشابهة فى كتاب مشكاة الأنوار ، وهذه نقطة ضعف لاحظناها عليه من قبل[١] ، ولعل تطوراً حدث فى آراء الرجل هو السر فى هذه النظريات المتناقضة ، ومهما يكن فكتاب الأحياء هو مصدر التصوف السنى من غير جدال ، وعليه نعتمد هنا أولاً وبالذات ، وهو الذى أثر وحده تقريباً من بين كتب الغزالى الصوفية فى المتصوفين المتأخرين . وما كان الغزالى لينكر التصوف وقد ركن إليه بعد أن خبر الدراسات الأخرى ولم يطمئن إليها ووجد فيه حصنه الحصين[٢]. فهو يرى أن علم القلوب لازم لزوم علم المرئيات والملموسات ، لأن هناك عالمين عالم الباطن وعالم الظاهر . فإذا كان بعض العلوم يتولى عالم الظاهر بالدراسة والشرح فلا بد من علم خاص لتوضيح عالم الباطن . والمعلومات نفسها ضربان : حسية وصوفية أو ظاهرية وباطنية ؛ وفى هذا التقسيم ما يقابل أنواع العلوم التى أشرنا إليها من قبل[١] . ولكن قد يقال إن وسيلتنا فى تعرف المعلومات الظاهرية هى الحواس فبأى طريق نستطيع الوصول إلى المعلومات الباطنية ؟ والأمر فى هذا يسير إذا ما رجعنا إلى الصوفية فإنهم يقولون إن التقشف والزهد والفضائل العملية جميعها سبيل ادراك الحقائق الخفية والألهامات التى تجاوز عالم السمع والبصر . فالمعرفة إذن هى غاية التصوف السامية . أما اتحاد العبد مع الرب فهذه قضية منقوضة عقلاً وغير مقبولة نقلاً . وإذا شئنا أن نقارن بين تصوف الغزالى وتصوف الفارابى وجدناهما متفقين على رفض مذهب الحلول الذى ذهب إليه الحلاج والألهام الذى يعمل له الغزالى يشبه من وجوه كثيرة الاتصال الذى جد فى طلبه الفارابى . وكلا الرجلين يؤمن بوجود معارف باطنية وراء الحقائق الحسية ، وهذه غاية الحياة العملية والنظرية ومقصد الصوفية والأنبياء . ولقائل أن يقول إن الغزالى يستمد إلهاماته من الله مباشرة على حين أن الفارابى يقنع بالاتصال بالعقل الفعال . ولكن هذا الفرق فى الواقع سطحى فأن العقل الفعال فى رأى فلاسفة الأسلام جميعاً ليس إلا فاصلا معنويا ومرحلة تدرج بين العبد وربه ، وكل فيض مصدره الأخير والحقيقى هو الله جل شأنه . وعلى هذا يمكننا أن نستنتج من كل ما سبق أن نظرية السعادة الفارابية أثرت فى جميع المتصوفة المسلمين المتطرفين منهم والمعتدلين أو الأحرار والمحافظين

(يتبع) ابراهيم بيومى مدكور

(١) الرسالة ، العدد ١٤٢ ، ص ٤٥٤ — ٤٥٥

(٢) الغزالى ، المنقذ من الضلال ، ص ٢ — ٧

(١) انظر أيضاً الغزالى ، الأحياء ، ج ١ ص ٢٢ ، ٢٤ Carra de Vaux, gazali p p. 304 — 205

في الأدب المقارن

أسباب النباهة والخمول في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الدارسون للآداب نثراً ونظماً في كل أمة وفي كل جيل أكثر من أن يُعدوا، لأن الافصاح عن خوالج النفس وتأثراتها بما تحس وما ترى طبعي في الانسان، وإنما ينبُهُ من أولئك الدارسين للآداب القليلون ويخلد الأقل؛ يميزهم من غيرهم سداد الفكر ولطف الشعور وروعة الأسلوب، ومن أولئك يكون أعلام كل أدب، ترفعهم عبقريتهم فوق رؤوس معاصريهم وتمشي بهم على عواتق الأجيال

غير أن للمصادفات والحظوظ والظروف دخلاً كبيراً أو صغيراً في صعود الأدباء وهبوطهم، فتعدِل أحياناً وأحياناً تجور. والأرجح أنها كانت كثيرة الجور والاجحاف في الأدب العربي، وكانت أشبه بالعدل والانصاف في الأدب الانجليزي، فقد صاحبت الأدب الانجليزي ظروف طبيعية مساعدة تسمح للعبقرية الفردية أن تسلك سبيلها غير معتاقة، وأحاطت بالأدب العربي عوامل عارضة أدت الى رفع بعض من لا يستحقون الرفعة بجوار من يستحقونها، والى خفض من هم أولى بالرفعة والنباهة

فقد ترعرع الأدب العربي ونضج وقومه أميون لا يقيدون في القرطاس آثار أدبائهم وأخبارهم، وإنما يروونها رواية ويتوارثونها تواتراً جيلاً بعد جيل؛ والرواية أقل من الكتابة نصيباً من الدقة وحفظ الآثار والتمييز بين الغث والسمين والبصر بما يستحق البقاء، فكان من جراء ذلك أن ضاع شعر كثير ونثر أكثر، واندثرت أخبار أدباء لعل منهم من كان أجدر بالخلود وأجدر بإعجاب الأجيال التالية ممن خلد؛ ولم يصلنا من أخبار قرون طويلة قبل الاسلام وبعده إلا كل مبتور غير مستوثق

فلما صارت الرواية صناعة يطلب بها علو الذكر ودرّ الرزق وتقريب الأمراء، كان ذلك ضغثاً على إبالة، إذ اشتد عبث الرواة بما بين أيديهم من الأدب العربي، وشوهوه بالبتر والوصل والاختراع والنحل، وحملهم تنافسهم وتكاثرهم بسمة العلم على تخليد أسماء أنصاف الأدباء وأشباه الشعراء، وخلقوا شعراء وفصحاء لم يخلقوا من قبل، وعزَوْا الى غيرهم من الآثار ما هم براء منه؛ وهكذا خمل من رجال الأدب من عاشوا في عالم الأحياء، وعاش في عالم الأدب من لم يشهدوا نور الحياة

ولما استُعملت الكتابة الخطية وقل الاعتماد على الرواية، ظلت الكتب نادرة والاستنساخ أمراً غير يسير، ولم تكن الكتب في شيء من الكثرة التي صارت اليها بعد انتشار الطباعة. ثم تعاورت الدولةَ العربية الغزوات البربرية المدمرة، فأباد الوثنيون في الشرق، والنصارى في الأندلس، كرائم المؤلفات ونفائس الكتب العربية، فذهبت بذهاب ذلك آثار أعلام من الأدباء واندثر ذكر آخرين

وكان للمشادات والمقارعات الدينية والمذهبية والعصبية والسياسية والجنسية التي صحبت قيام الدولة الاسلامية ولازمتها في حياتها يد طولى في العبث بالتراث الأدبي، فأخمل ذكر أدباء انهزم حزبهم أو انخذل مبدؤهم، ونُشر عمداً ذكر من ناصروا الغالبين في كل تلك الحلبات، وتبارى الغالبون والمغلوبون في العبث بتراث أسلافهم الأدبي ونسبة الروايات الملفقة اليهم، ولهم من انتشار الرواية وندرة الكتابة خير معوان

ويتصل بهذا تقريب الخلفاء والأمراء لرجال الأدب، لا براً بالأدب ولكن طلباً للأبهة وبعد الصيت، فقد أصبح اتصال الشاعر أو الأديب بالخليفة أو الأمير ضمان النباهة وسيرورة آثاره في البلاد، كما كان الأخفاق في التقرب الى أولئك الحاكمين داعياً في كثير من الأحيان الى خمول الأديب، فندَرَ من أعلام العربية النابهين من لم يتصل بالخلفاء والوزراء. ولا يسع المرء إلا أن يتصور أن عصور أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري كانت حافلة بأندادهم، وإنما خلصت بهؤلاء لطافة حيلتهم الى حضرة الأمراء فاشتهروا، وعثر بنيرهم مسعاهم فخملوا. ولقد خمل ذكر ابن الرومي طويلاً وإنه لأشْعَرُ ممن ذكروا جميعاً؛ ولعل من أسباب خمول ذكره فشله في الاتصال بالخلفاء والوزراء

ولما استرقَّت جوائز الملوك أعناق الشعراء ، وأعمل هؤلاء الحيل ، وأذالوا الشعر فى استرضاء الممدوحين واستجداء الأثرياء ، ترفع كثير من ذوى الشرف والأباء عن الهبوط الى ذلك المجال ، وأحجموا عن نظم الشعر أو التوفر عليه أو الاشتهار به ، ولسان حالهم قول الشافعى :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

وإن يكن أبو تمام يقول :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فانما كان يعنى شعر المتقدمين من جاهليين ومخضرمين ممن تغنوا فى شعرهم بالنجدة والمروءة والعزة ، وما نخاله كان يعنى الشعر الذى كان ينظمه هو وأضرابه تمليقا واستجداء للرؤساء

وبذلك حُرمت العربية طائفة من الشعراء لعلهم أسمى طباعا وأشرف أغراضا وأصدق شاعرية وأشد حباً للفن من مرتزقة المداحين الذين استأثروا بالجوائز ونباهة الذكر

ولما فسدت الفصحى تدريجاً باختلاط العرب بالأعاجم ، اشتد الحرص على آثار المتقدمين وتعاظم الاعجاب بهم والرفع من شأنهم ، لا لشىء سوى صحة لغتهم واستقامة أساليبهم ، وإن كانت أفكار كثيرين منهم على جانب من السذاجة ، وأغراض شعرهم على حظ من البساطة ، كالحطيئة وابن أبى ربيعة وكثير من الجاهليين

فهذه عوامل شتى فعلت فعلها البعيد المدى فى التراث الأدبى العربى ، وساعدت على إعلاء ذكر رجال وخفض آخرين ، وهى : ندرة الكتب والاعتماد على الرواية ، والأغراض المذهبية ، وتسخير الأمراء للشعر ، وتكسب الشعراء به ، وفساد لغة الكلام ، وكوارث الغارات . تحكمت كل هاتيك فى أقدار الأدباء وحظوظهم من النباهة ، ولم يكن مردّ أمرهم دائماً إلى النبوغ الشخصى والذوق الناقد ، فلا نبعد عن الصدق إذا قلنا إن الأدب العربى لم يحتو على خير عناصر المجتمع العربى أو يمثله أصح تمثيل ، وإن سجل تاريخ الأدب العربى لا يحتوى على جميع أفذاذ الموهوبين من أصحاب البيان الذين أنجبهم المجتمع العربى

ومن ثم احتل مكان الصدارة من تاريخ الأدب العربى بعض من لا يستحقون ذلك المكان ، ومن لا يعبرون خير تعبير عن أفكار عصورهم وشعورها ؛ ومنهم من نال من رفيع الذكر ما هو أهله ، ولكنه لم ينله لمزاياه الصحيحة وأسرار نبوغه الحق بل لمساعدة بعض تلك العوامل السالفة الذكر له ؛ فقد كان وما يزال من النقاد من يعظم المتنبى لا لأشعاره الصادقة التى أودعها عصارة روحه الكبير ، بل لاختراعاته الكاذبة فى مدح سيف الدولة وتهنئته وتعزيته ، مِن مثل قوله :

إذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه فى أغمادها تتبسم

وبجانب تلك النباهة غير المستأهلة أو المبنية على غير أساسها الصحيح ، خمولٌ ما كان أحق أصحابه بالذكر والتمجيد ، ولقد قال البحترى :

إذا أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب إلا خمول نبيه

ولعله هو خير من يعلم كم أخملت الدنيا بنباهته من شعراء ، حين وقفه الحظ دونهم إلى الاتصال بالولاة والخلفاء

فمن أفذاذ الخوارج أمثال قطرى بن الفجاءة وشبيب بن يزيد من كانوا أسمى غرضا وأشرف شعراً ونثراً من معاصريهم المداحين ولكنهم أخمل منهم ذكرا . ومن الأبيات السائرة المجهولة القائلين ما تشمل حكمة يقصر دون مداها أشباه بشار وأبى نواس ، أو تحوى نسيباً تزرى روعته بكل ما لُفق فى صدور المدائح من نسيب مصطنع ، أو تعبر عن شاعرية صحيحة ما كان أحرى صاحبها أن يتوفر على إثراء اللغة بفيض قريحته ، ولكن طوفان تلك العوامل القاسية غمره ورفع غيره ، فمن تلك الآثار الشاردة قول القائل :

أهابك إجلالا وما بك قدرة على ولكن ملء عين حبيبها
وماهجرتك النفس أنك عندها قليل ولكن قل منك نصيبها

وقول الآخر :

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها
فقدت صديقى والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر ما دمتما معا
كفى بالممات فرقة وتنائيا

ولم يخلُ الأدب الانجليزى من آثار الاجحاف وتقلُّب الظروف : فأمام شمرأنه شكسبير لم ينل فى حياته مثل ما له اليوم من مكانة ، وخمل ذكره بعد مماته أجيالاً ، وعلا شأنه خارج انجلترا قبل أن يعلو فيها . وقريعه فى سماء الشعر الانجليزى ملتون

قضى أواخر حياته فى غمرة من النسيان لانخذال مذهب المطهرين الذى كان هو لسانه الناطق ، وباع ملحمته الذائعة الصيت لوراق بدراهم معدودة ، وظل حقبة مهملا . وكبير النهضة الرومانسية وردزورث قضى زهرة عمره منبوذاً مُعْرَضاً عنه . وبعكس ذلك سما تنيسون فى حياته الى أوج الشهرة والاعجاب ، ولم يكد يقضى نحبه حتى هبط ذكره وانصرف الجيل التالى عن شعره

على أن تلك كلها أمثلة لتقلب الأذواق بتعاقب الأجيال ، وهو أمر طبيعى لا محيد عنه . وقد خلا الأدب الانجليزى أو كاد من تلك الظروف العاتية التى لابست الأدب العربى وتحكمت فى مصاير رجاله : فقد شب الأدب الانجليزى من عهد اليزابث وقد اخترعت الطباعة ، واطرد رقى الطباعة وانتشار الكتب والصحافة والتعليم مع اطراد رقى الأدب ، ولم يخضع الأدب طويلاً لسيطرة الحكام ، وظل مرد الأمر فى تقدير الأدباء إلى الرأى العام المتعلم الذى يقوّم الأديب لفنه الخالص ؛ فان رانت على بصيرته غشاوة من تقليد موروث أو مذهب سائد أو مشادة محتدمة فى السياسة لم يلبث بعد أن ينجلى ذلك أن يعود إلى إنصاف من أجحف بهم وإسقاط من لم يستحقوا سالف تقديره

فالى أمرين اثنين يدين أعلام الأدب الانجليزى فى مراحله المتتالية بنباهتهم وخلودهم : نبوغهم الشخصى ، والذوق العام . وليس بين أقطابه الذين يعتد بهم من لا تؤهله عبقريته لما أوليه فى تاريخ الأدب من مكانة ، أو من هو مدين بخلود ذكره الى أهواء السياسة أو أغراض الحاكمين أو دسائس الأحزاب أو تحريف الرواة أو عبث النقاد

فالنابهون فى الأدب الانجليزى أكثر استحقاقاً لمكانتهم من النابهين فى الأدب العربى ، والخاملون المغبونون فى هذا الأخير أكثر منهم فى الأول ؛ والأدب الانجليزى بما أحاط به من ظروف مواتية أسهل تأريخاً ودرساً من الأدب العربى . وهذا الأخير محتاج الى مراجعة ودرس طويل وتاريخ جديد غير التاريخ الذى جرى عليه العرف حتى الآن ليمنح كل أديب حقه من التقديم أو التأخير ، ويُزَحْزِحَ عن الصدر من لا تؤهلهم له آدابهم ونظراتهم فى الحياة ، ويستنقذ من يستطاع استنقاذهم من غمرة الخمول .

فخرى أبو السعود

نابليــــون
وخطواته الأولى فى سبيل المجد
للأستاذ عبد المجيد نافع

تتمـــــة

وشبت نيران الثورة فى باريس ، ودعت الحاجة إلى قمعها ، فأشاروا على باراس أن يعهد باخمادها إلى نابليون ، فعرض أن يوليه قيادة مجلس الأمة وأمهله ثلاث دقائق ليفكر فى الأمر ملياً

فياعجباً للأقدار ! ثلاث دقائق ، ثم يتقرر مصير نابليون ، ومستقبل فرنسا ، لا بل مستقبل أوربا بأسرها

واستعرض نابليون الموقف ، فلم يتردد فى القبول حين رأى خمسين ألف جندى من جنود النمسا يظهرون على أسوار ستراسبورج ، والانجليز يحاصرون ببوارجهم ثغر برست ، وحينذاك نسى خصومة الخصوم ، وعياءهم ومجزهم ، واستلهم الوطنية الحق فألهمته أن الوطن إذا أحدق به الأعداء وجب دفن الخصومات ، ودوس الحزازات ، ووضع اليد فى أيدى القائمين بالحكم مهما كانت صبغتهم وألوانهم ونزعات نفوسهم

فقال نابليون لباراس : إنى أقبل ولكنى أنذرك بأنى لن أرد السيف إلى غمده إلا بعد أن أعيد النظام إلى نصابه

وكذلك تجلى نابليون فى ثوب الوطنى الصادق والمحارب الصحيح الذى لا يطيق بحال أن تعرقل مساعيه أعمال السياسيين

وكان القبول فى الساعة الواحدة صباحا . فلما أقبل المساء إذا بباراس يعلن فى المجلس انتصار جنوده . فاذا جاء الغد رقى نابليون إلى رتبة قائد قسم ، وسمع الناس اسمه يتردد فى جوانب المجلس ، ثم يجتاز اسمه منبر الخطابة لينقش على صفحات الصحف فينفض عنه غبار الخمول الذى حجب اسمه عن الأسماع والأنظار ردحا من الزمن

وتقلد بونابارت قيادة الجيش فى الداخل ، واتخذ « فان » سكرتيراً له ، فكان هو الذى كتب أوامره حين بات قنصلاً

وهو هو الذى ، بعد أربعة عشر عاماً ، كتب وثيقة تخليه عن عرش فرنسا

وكان نابليون يختلف إلى صالون مدام تليان فرأى جوزفين فشغفته حباً ، وملكت عواطفه ؛ وكان فى السابعة والعشرين ، وكانت فى الثانية والثلاثين ، ولكنها كانت على جانب من الجمال والروعة فأضرمت نيران الغرام فى صدره

على أن الذين يحاولون تشويه شخصية نابليون بخلق البواعث غير الشريفة لأعماله ، وابتداع الحوافز لمشاعره ، تراهم يسارعون إلى القول بأن حبه لجوزفين إنما كان حباً مسرحياً ، وإن أكبر همه ، وغاية الغايات عنده أن يتذرع بذلك الزواج لتولى قيادة الحملة الايطالية

ولكنك قد رأيت كيف كان يتهالك وجداً على الزواج ، وكيف داعب الأمل بالاقتران بكليرى . وبعد فما هى الملالى والقصور التى كان يبنيها على الاقتران ببنت تاجر صابون !

ولو أنه لم يصادف هوى فى قلب مدام دى بوهارنيه ، إلا أنه وجد منها عند الزواج سميعاً ومجيباً ؛ فقد كانت ، على رغم موت زوجها ، ووجود ولد وبنت لها ، تحيا حياة خليعة ، وتتردد على مدام تليان ، وتغشى صالون باراس ؛ ومن كانت فى مثل حالتها كانت خليقة أن تستند إلى ذراع رجل قوى كنابليون الذى أصبح فى طليعة القواد وأنقذ فرنسا من الأخطار التى تتهددها

ولكن هل كانت جوزفين خليلة لباراس ؟ إن بعض الكتاب المعاصرين يتبرعون بهذا التأكيد . على أن الذى يسترعى النظر أن جوزفين لم تظهر فى بيت باراس إلا باعتبارها صديقة لمدام تليان . والمنطق والبداهة يتضافران على أن الأخيرة لم تكن لتسمح لكائنة من كانت أن تنازعها هوى الرجل القابض بكلتا يديه على مصاير فرنسا

وإذا كانت جوزفين ، قبل الزواج ، شاءت أن تستوثق من باراس ، سواء بنفسها أم بواسطة مدام تليان ، أن زوجها المقبل سوف يكون موضع رعاية حكومة الديركتوار ، بل إذا كانت لمحت الى أن مكانه الحق أن يكون على رأس الحملة الايطالية ، فكل أولئك لا ينبغى أن يكون مثاراً للدهشة ما دامت جوزفين قد أرادت بهذا الزواج وجه المصلحة لا وجه نابليون

ولما كاشفت جوزفين نابليون بحديث باراس وعزمه على تقليده قيادة الحملة الايطالية قال لها لا تحسبى أنى ألتمس حمايتهم بل على العكس من ذلك هم الذين سوف يشعرون بالسعادة حين أظلهم بحمايتى . إن سيفى إلى جانبى ، وبه سأصل إلى أبعد الغايات

ولو أتيح لك أن تطالع الرسائل التى خطها نابليون إلى جوزفين لقرأت فيها آيات الحب مسطورة ، ذلك الحب المضطرم الذى ظلت حرارته متأججة من يوم أن عرفها وهو يحبو فى طريق المجد إلى يوم بات فى ذروة القوة وقمة السلطان

على أن وضع الخطة لاجتياز جبال الالب والانحدار الى سهول لومبارديا والانقضاض على الجيوش النمساوية وسحقها سحقاً ، كل أولئك قد استغرق وقت نابليون واستنفد جهوده حتى قلت زيارته لجوزفين . ولم تكن إلا فى شهر يناير من عام ١٧٩٦ حيث تقدم لها بطلب الزواج ولقى ذلك الطلب قبولاً

وكانت جوزفين لا تزال مترددة ، فأحبت أن تفزع الى نصيحة موثق العقود الأستاذ راجيدو ، فلما أقبلت على مكتبه توسلت الى نابليون أن ينتظرها فى غرفة الاستقبال ، ولم يكن من شأن نصيحة كاتب العقود أن تنتشل جوزفين من غمرة التردد إذ قال لها : « إيه لك ! أو تتزوجين بجنرال لا يملك غير الكبود والسيف ؟ فاذا صح أنه يملك شيئاً فانما يملك كوخاً حقيراً ! إنه لجنرال صغير ، لا اسم له ، ولا مستقبل ! تجىء مرتبته وراء مراتب جميع قواد الجمهورية ! انه لخير لك أن تقترنى بمورد للجيش ! »

ولم يكن نابليون يسترق السمع ؛ على أن الباب كان نصف مغلق ، وبذلك تطاير إلى سمعه حديث موثق العقود ، فملك عواطفه ولم ينبس ببنت شفة ؛ ثم استطاع أن يثأر لكرامته الجريح بعد ثمانى سنين . ففى غداة حفلة التتويج ، استدعى الرجل الطيب راجيدو إلى قصر التويلرى وأعطاه مكاناً فى الصف الأول بكنيسة نوتردام حيث تقام حفلة تتويجه امبراطوراً لفرنسا ، وبذلك يتاح له أن يرى بعينيه التى فى رأسه إلى أية ذروة من ذرى المجد يستطيع الجنرال الصغير الذى لا مستقبل له أن يسمو بموكلة موثق العقود الأستاذ راجيدو !

وفى ٢٣ فبراير نودى ببونابرت قائداً عاماً للحملة الايطالية ،

وحدد للزواج يوم ٩ مارس سنة ١٧٩٦ . وفى أوراق الزواج أنقصت جوزفين من عمرها أربع سنين سوياً ، وزاد نابليون فى عمره سنة كاملة ! فالتقى الزوجان فى العمر وإن لم يتلاقيا فى الحب !

على أن حملة المتهجمين على نابليون لا تقف عند حد . لذلك نرى جمهرة المؤرخين يعلؤون أفواههم بأن قيادة الحملة الايطالية كانت هى البائنة (الدوطة) التى أعطاها باراس الى جوزفين

ومهما يكن هذا القول جارحا لذاعا فانه يتجافى مع الحقيقة . فليس يجوز فى عقل عاقل أن رجلا مثل باراس يجازف بتسليم القيادة الى قائد لا يقوى على الاضطلاع بأعبائها فيقامر بأقدس المصالح ، لا بل يقامر بمستقبل فرنسا

على أن الوقائع تهدم هذه الدعوى من أساسها ، وتضع قصة زواج نابليون بجوزفين فى نصابها الحق ؛ فلم يكن باراس يملك التصرف وحده فى مصير قيادة الحملة الإيطالية بل كان لابد من موافقة الأغلبية فى حكومة الديركتوار ، وقد كانت مؤلفة من كارنو وباراس وليبو وربيل ولوتورنور

وإذا جاز لنا أن نستصرخ ضمير رجل ، أو نفزع الى عدالة شاهد ، فأولى لنا ثم أولى أن نفزع الى زيفيير لوبو وقد كان لنابليون من ألد الخصوم ؛ وهو فى ذلك يقول : « لقد قبل إن زواجه بأرملة بوهارنيه كان شرطا لايستطيع بدونه أن يحصل على القيادة التى جعلها مناط آماله . إن ذلك لم يكن ! والذى أستطيع أن أؤكده هو أن الاختيار الذى تم من حكومة الديركتوار لم يكن تحت تأثير باراس ولا شخص غيره »

كيف إذن كان سبيل بونابرت الى تولى القيادة ؟ ينبغى لنا أن نذكر أن الجنرال الصغير قد وضع خطة لغزو بيمون فى ١٩ يناير وأن تلك الخطة قد أرسلت الى القائد العام شيرير ، فتلاها ثم بعث بها فى الحال الى حكومة الديركتوار معلنا أنها من عمل مجنون ، وأنه لابد من استدعاء هذا المجنون وتكليفه بتنفيذها

فاختلط الأمر على حكومة الديركتوار ، واحتدم وطيس الجدل بين أعضائها ، وما لبثت الغالبية وقوامها ليبو وكارنو وباراس أن جنحت الى جانب نابليون ، وانحازت اليه لترجيح كفته ، فعهدت اليه بانفاذ الخطة التى وضعها

وفى الحق ، فما كان نابليون مدينا بتلك القيادة لا الى زواجه ، ولا الى باراس ، وإنما كان مدينا بها الى كفاية كارنو الحربية التى أمكنته من التعمق فى درس الخطة التى وضعها نابليون ، وتفهم روحها ، فأتيح له أن يصل الى مكان الاقناع من نفوس زملائه

وما لبث نابليون أن انتزع نفسه من بين أحضان المرأة التى أحبها من أعماق قلبه ليبدأ سلسلة المعارك الدموية التى خاض غمراتها عشرين عاما

ومضى فى طريق المجد صعدا ، لا يلوى على شىء ، ولا يقف فى وجهه سهل ولا جبل ، حتى تألبت عليه أوربا بأسرها ، وظاهرتها فى تألبها شر أنواع الخيانات

والآن نسأل : ماذا كان أثر ذلك المجد فى نفس نابليون ؟ لقد كان يمكن أن ينسى نشأته ، ويتنكر لعائلته ، ولا يأبه لعوز المعوزين ، ولا يحفل ببؤس البائسين . على أن شيئا من ذلك لم يكن ، وظل نابليون فى حاضر مجده ، كما كان فى ماضى بؤسه ، ينطوى على أصدق الود لذوى قرباه ؛ لا ينسى يد الصنيعة لمن اصطنعها ، ولا تفتر حرارة اخلاصه لأصدقائه ؛ يشمر قلبه حب الواجب ، ولا يتطرق الى ارادته الوهن أو تصيب عزيمته الكلال

ما كان نابليون فى مصاف الملائكة كما تخيله أنصاره ، ولا كان فى عداد الوحوش الضارية كما تصوره خصومه ، وإنما كان رجلا عظيما خالدا فى التاريخ ، وانسانا له عواطفه وأهواؤه ، ورذائله وفضائله

عبد المجيد نافع
المحامى

من دمشق .... إلى بغداد

للأستاذ على الطنطاوى

لما جاوزنا (أبا الشامات) وأصحرنا ، ونظرت بين يدىّ وعن يمينى وعن شمالى ، فلم أجد إلا الصحراء الصامتة الرهيبة الموحشة ، ووجدت دمشق التى أحببتها ولقيت فيها من يحبنى ، وألفتها وتركت فى كل بقعة منها قطعة من حياتى وطائفة من ذكرياتى قد اختفت وراء الأفق ، وتضاءل (قاسيونها) وصغر حتى ما يبدو منه إلا خيال علوىّ يلوح فى السماء له وميض ولمعان ، أحسست بلوعة الفراق تخفق قلبى خفقاناً شديداً :

كأن القلب ليلة قيل يُغدى بليلى العامرية أو يُراح
قطاة غرّها شرك فباتت تعالجه وقد علق الجناح

وخالطنى حزن عميق وشعور مبهم ، أعرفه من نفسى كلما سافرت سفراً بعيداً — على كثرة ما أسافر وأبتعد — شعور من يجد الموت ويبصره بعينه ! ولم لا ؟ وهل الحياة إلا أن تقيم فى المكان الذى تألفه ، وترى الناس الذين تحبهم ، وتصل ماضيك بحاضرك بصورة تراها ، أو نغمة تسمعها ، أو بقعة تحلّها ؟ وهل يحيا المرء إلا فى الأمكنة والوجوه ، وبالذكريات والآمال ؟ وهل الموت إلا أن ينبتر مما يحيط به ، وينقطع عن كل ما يعرف ، ويقدم على بلد مجهول وحياة غريبة عنه لا عهد له بها ولا نبأ عنده منها ؟ أو ليس للانسان حياة ظاهرة فى قيامه وقعوده وطعامه وشرابه وجيئته وذهابه ، وحياة باطنة فى أفكاره وذكرياته وآماله وآلامه وميوله وعواطفه ؟ أو ليست حياته الباطنة هى الأصل وهى الأساس ، فلا يحيا إلا بها ولا يقوم إلا عليها ، كما أن الشجرة لا تحيا إلا بجذورها الممتدة فى جوف الأرض المختفية فى بطن الثرى ، فاذا انقطع المرء عن عادته ، وابتعد عن أهله وصحابته ، لم ينفعه أنه لا يزال يقوم ويقعد ويأكل ويشرب ، كما أن الشجرة لا تنفعها أغصانها وفروعها ، إذا هى بُتّت من أرضها ، وقطعت من أصلها ، وفصلت عن جذرها . وأحسب أن الله جلّ وعزّ ما قرن الموت بالاخراج من الديار ، وأجزل ثواب المهاجرين فى سبيل الله ، التاركين أوطانهم ابتغاء مرضاة الله ، إلا لأن الهجرة ضرب من ضروب الموت ولون من ألوانه ... فإن (تعدّدت الألوان فالموت واحد) !

وازدحمت فى نفسى صور حياتى فى دمشق ، وحبّبت إلىّ أضعاف ما كنت أحبها ، ومرّت أمامى صور إخوتى وأهلى وإخوانى ، وذكرت سهراتنا البيتية ، ومجالسنا الأدبية ، وهذه الحفلات الوداعية الكثيرة التى تفضلت فأقامتها أسرة التعليم ، وجمعية التمدن الاسلامى ، والمدرسة التجارية ، تكريماً لى قبل أن أعمل شيئاً أستحق عليه التكريم ، وأفيض فيها علىّ من النعوت ما ليس فىّ ولا أستحق الأقل منه ... وذكرت من دمشق كلّ حبيب إلىّ جميل فى عينى ، فازددت بها تعلقاً ، ووددت لو أنى أبيت فلم أذهب ولم أتغرّب

وكانت الصحراء قد امتدت من حولنا ، وأحدقت بنا ، وصرنا فى قبضتها لا شأن لنا ولا خطر ، وآضت هذه السيارات الفخمة التى كانت تملأ الشارع بطوله وعرضه ، وكانت تعد وهى فى دمشق شيئاً عظيماً ، أهون على الصحراء من حبة رمل ! وضاعت فى أرجائها فلم تعدْ تعدّ شيئاً . وكان قد بلغ منى الحزن ، وحزّت فى نفسى لوعة الفراق ، فأغمضت عينىّ ورجعت إلى نفسى ، حتى إذا استروحت فتحتهما وجعلت أحدّق فى هذه البادية ، فأرى السيارة تعدو فيها وتسرع حتى نحسّ كأنها تطوى الأرض طياً ؛ وأراها تلهث من التعب ، والبادية باقية على حالها ، كأننا لم نقطع منها شبراً ، وكأننا بعد فى أماكننا . ولست غريباً عن البوادى ، فقد عرفتها فى رحلتنا تلك . . . إلى مكة . وبقيت فيها سبعة عشر يوماً . ما من ساعة منها إلا وهى أشدّ من عشرة أسفار إلى بغداد ؛ ولكن هذه البادية (بادية الشام) ، تختلف عن جزيرة العرب ؛ ففى الجزيرة مناظر متباينة ، وأراض مختلفة ، فيها الجبل وفيها السهل ، وفيها الوعر وفيها الرمل ، وما فى هذه إلا شىء واحد لا يكاد يختلف أو يتغير ، أرض منبسطة ترابية قاحلة ، تمتد إلى الأفق ، كأنها بحر ليس فيه ماء ! فكنا نقرأ ونتحدث لنقطع الصحراء بحديثنا ، فتقطع الصحراء بصمتها وجلالها حديثنا ، وكنا ننام ونفيق والصحراء هى هى ... حتى قطعنا يوماً كاملاً ، وكان صباح اليوم التالى ، (وللصباح فى البادية جمال وروعة ، لا يكون مثلهما فى المدن) وبدّدت الشمس

ظلمة الليل ، فتبدَّدت من نفسى ظلمة الكآبة والحزن ، وانزاحت عنى نوبة المرض ، (وما العاطفة الرقيقة المؤنثة إلا مرض فى الرجال ...) فصحوت ، ونظرت فى أمرى فاذا أنا لم أغترب ولم أفارق بلدى . وهل بغداد الادارى وبلدى وفيها أهلى وإخوتى ، إن لم تقرر هـذه الأخوّة الأنظمةُ ولم تسجّل فى الدساتير ، فلقد قررها الله من فوق سبع سمواته وسجّلها فى القرآن : « إنما المؤمنون إخوة » . وليس ينقض ما أبرم الله ، وإن فرقت بيننا شارات على الأرض ، وألوان على المصوّر ، فلقد جمع بيننا الدين واللغة والعادات ، وألّف بيننا تاريخ الماضى ، وأمل المستقبل وألم الحاضر ، ووحّد بيننا الدم الذى جاء من نبعة واحدة . فأنى ننكر هذه الأخوّة وشاهدها فينا ، ودمها فى عروقنا ؟

وكيف أجهل بغداد ولها فى نفسى مائة صورة ، وفى ذا كرتى عنها مالا أحصى من الأخبار والتواريخ والأشعار

وبغداد عاصمة الاسلام ، ومشرق شمس الحضارة ، وحاملة راية العصر الذهبى الاسلامى ، وأم الدنيا ، ومنزل المنصور والرشيد والمأمون . . .

فدى لك يا بغـداد كل قبيلة ... من الأرض (إلا) خطتى وديارنا
فقد طفت فى شرق البلاد وغربها ... وسيّرت رحلى بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغـداد منزلاً ... ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثـل أهليها أرقّ شمائلاً ... وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا

* * *

وكنت أرانا نخاف هذه البادية ونحن على طريق مسلوكة ، فى سيارة متينة ، ونمل من طولها ونحن نقطع منها ثمانين أو تسعين كيلا فى الساعة ، ونشكو ومعنا اللحم والفاكهة والماء المثلج ، ونتعب ونحن مضطجعون على المقاعد الوثيرة ، ثم إذا وصلنا الى الفندق نمنا أربع عشرة ساعة ، لنستريح ونسترد الروح فأفكر فى أجدادنا أى ناس كانوا ؟ ... وكيف قطعوا هذه البادية وهم على ظهور الابل ، يخوضون لجة الرمل الملتهب ، يلتحفون أشعة الشمس المحرقة ، يتبلّغون من الطعام بتمرة ، ويكتفون من الماء بجرعة ، ثم إذا وصلوا قابلوا جيوشاً أوفر منهم عَدداً وعُدداً ، فحاربوها وانتصروا عليها ، وفتحوا بلادها ... فأقول : هذا هو فرق ما بيننا وبين أجـدادنا ؛ هو الفرق بين الشاب منهم تصيبه ضربة فى المعركة ، فتقطع يده من كتفه وتلبث متعلقة به ، فتؤذيه وتعيقه عن القتال ، فيعمد الى أصابع يده المقطوعة ، فيـدوس عليها بقدمه ، ثم يتمطى حتى يبترها ، ثم يلقيها ويعود الى جهاده ، والشاب منا يزاحم المرأة على كل شىء هولها ، فيخطر فى الشارع كالعروس ليـلة الزفاف ، وإذا شاكته شوكة أو لفحته الشمس أوى الى الفراش !

* * *

ولمـا كان ضحى الغد بدا لنا نخيل العراق ، وأشرفنا منه على مثل الليل ، فعرفت لمـاذا سمى العرب السواد سواداً ، وذهبت أتذكر الفتوح وعهدى بمطالعتها قريب — فأحسّ بأنى أسمو عن زمانى وأعيش فى أيام الصدر الأول — وأقدر بعد نظر المستعمرين وصحة رأيهم فى تعطيلهم التاريخ الاسلامى فى مدارسنا ، وتنشئة أبنائنا على الجهل به والبعد عنه ، لمـا لهذا التاريخ من العمل السحرى على بث روح الشرف والنبل والقوة والعزة والفضيلة فى نفوس شباب العرب ، ولأنه شمس إذا طلعت كسفت هذه الأنوار الـكهربائية التى أضاء بها الغربيون أرجاء تاريخهم فبدت تواريخهم سوداء مظلمة . . . وبدا وحده المشرق النير

وجعلت أتشوّق الى بغداد — وأعرض فى ذاكرتى صوراً منها حلوة ، وأنتظر أن أرى مدينة المنصور بأسوارها المستديرة وأبوابها الفخمة — وألمح قبّتها الخضراء العاليـة الشامخة ، الذاهبـة فى السماء ثمانين ذراعاً طالعة علينا من عرض الفلاة ، تضطرب صورتها فى دجلة ، ثم أذكر ليـلة الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٢٩ وقد كانت ليلة مطر ورعد هائل وسيل شديد ، فهوت هذه القبة التى كانت تاج بغداد — وعَلَم البلد ، ومأثرة من مآثر بنى العباس عظيمة ، بنيت أول ملكهم وبقيت الى آخر أيام الواثق ، فكان بين بنائها وسقوطها مائة وثمانون سنة

وأرى دار الخلافة — وقد قدم رسل ملك الروم على المقتدر ، فرسم أن يطاف بهم فى الدار ، وليس فيها من العسكر أحد ألبتة ، وإنما فيها الخدم والحجاب والغلمان ، سبعة آلاف خادم ، وسبعمائة حاجب ، وأربعة آلاف غلام — قد جعلوا على السطوح والعلالى وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العرائس ، وقد علقت الستور ، ونظم الجوهر وصف على درج غشيت بالديباج الأسود ، وكان عدد ما علق فى قصور المقتدر من الستور الديباج المذهبة المصوّرة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع .. ثمانية وثلاثين ألف متر ، وعدد البسط فى الممرات والصحون التى وطىء عليها القواد ورسل صاحب الروم سوى ما فى المقاصير والمجالس

من الأنماط اثنان وعشرون ألف قطعة . وأدخل الرسل من دهليز باب العـامة الأعظم الى الدار المعروفة بخان الخليل ، وهى دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضة بغير أغشية ، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال ، وكل فرس فى يدى شاكرى بالبزّة الجميلة ؛ ثم أدخلوا من هذه الدار الى الممرّات والدهاليز المتصلة بحير الوحش ، وكان فى هذه الدار من أصناف الوحش التى أخرجت من الحير قطعان تقرب من الناس ، وتتشمم وتأكل من أيديهم ؛ ثم أخرجوا الى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى ، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار ، فهال الرسل أمرها ؛ ثم أخرجوا الى دار فيها مائة سبع ، خمسون يمنة وخمسون يسرة ، كل سبع فى يد سبّاع وفى رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد ؛ ثم أخرجوا الى الجوسق المحدث ، وهى دار بين بساتين فى وسطها بركة رصاص ، حواليها نهر رصاص أحسن من الفضة المجلوّة ، طول البركة ثلاثون ذراعاً ، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مزينة بالديبقى المطرّز ، وأغشيتها ديبقى مذهب ، وحوالى هذه البركة بستان عيادين فيه نخل ، عددها أربعمائة نخلة ، طول كل واحدة خمسة أذرع ، قد لبّس جميعها ساجا منقوشاً من أصلها الى حد الجمارة بحلق من شبه مذهبة . . . ثم أخرجوا من هذه الدار الى دار الشجرة ، وفيها شجرة فى وسط بركة كبيرة مدوّرة ، فيها ماء صاف ، والشجرة ثمانية عشر غصناً ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب ، وهى تتمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان ، يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر ... الى أن أدخلوا الى الخليفة

وملأ نفسى الشعور بعظمة بغداد ، المدينة التى كانت وحدها دنيا ، كان فيها ستّون ألف حمّام ، فلو أن فى كل حمّام خمسة نفر حمامى وقيم وزبّال ووقّاد وسقاء وذلك أقل ما يكون ، لكان أصحاب الحمامات ثلثمائة ألف رجل ، وكان حيال كلّ حمام خمسة مساجد ، فلو أن فى كل مسجد خمسة أشخاص ، لكان ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف انسان . وأحصيت الزوارق التى فى دجلة أيام الناصر فكانت ثلاثين ألفاً [1]

(١) تاريخ بغداد

قال الخطيب : « لم يكن لبغـداد فى الدنيا نظير ، فى جلال قدرها ، ونخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعـلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها وشعوبها ، ومحالها وأسواقها ، وسككها وأزقتها ، ومساجدها وحماماتها ، وطرزها وخاناتها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفيائها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وزيادة ما حصر من عدّة سكانها »

وبعد فهأنذا على (جسر بغداد[1]) فى نشوة من خمرة الذكرى أذكر ما لا سبيل إلى تلخيصه ، وأحس ما لا طاقة على وصفه ، وقد قال أبو الوليد : قال لى شعبة : أرأيت بغداد ؟ قلت : لا . قال : فكأنك لم تر الدنيا . أما أنا فقد رأيت جسر بغداد ، ورأيت الدنيا ؛ لا أقول إنه أعظم من جسر إسماعيل ، أو أجمل من جسر الزمالك ، ولكن لجسر بغداد سرّاً آخر ، يعرفه كل من نظر فى كتب الأدب والتاريخ وقرأ عن جسر بغداد ... هذا الذى جازه القواد الفاتحون ، والفقهاء والمحدثون ، والشعراء والماجنون ؛ هذا الذى وقف عليه الرشيد والمأمون ، وأبو حنيفة والشافعى ، والفضل وابن دينار ، ومطيع وأبو نواس ، وعبد الله بن طاهر ويزيد بن مزيد ، وشهد جلال الخلافة ، وعظمة العلم ، وروعة الزهد ، وضحك المجون ، وقوة الجيش .... وجرى عليه نهر التاريخ . . . وتداعت على جوانبه القرون .... هذا الذى كان سرة الأرض !

***

أيا حبـذا جسر على متن دجلة ... باتقان تأسيس وحسن ورونق
جمـال وفخر للعراق ونزهة ... وسلوة من أضناه فرط التشوق
تراه إذا ما جئتـــه متأملاً ... كسطر عبير خط فى وسط مهرق
أو العاج فيه الآبنوس مرقش ... مثال فيول تحتها أرض زئبق

أما إننى إن أحببت مصر لأن منها أصلى ، وأحببت الشام لأن فيها مولدى ، فانى أحب العراق لأن فيها أجمل ذكر الماضى ، وأحب الحجاز لأن اليها قبلتى ، وأحب كل بلد يقول أهله : لا إله إلا الله محمد رسول الله . لأنه بلدى ، وأهله أهلى

(بغداد) على الطنطاوى

(١) كان المنصور قد أمر بعقد ثلاثة جسور أحدها للنساء ، ثم عقد لنفسه ولحشمه جسرين ، وكان بالزندورد جسران عقدهما محمد ، وكان الرشيد قد عقد عند باب الشماسية جسرين ، فلم تزل هذه الجسور إلى أن قتل محمد ، ثم عطلت وبقى منها ثلاثة إلى أيام المأمون ، ثم عطل واحد ، فصار هناك جسران يمضى الناس على أحدهما ، ويرجعون على الآخر ، وهما اليوم جسران

نبوة المتنبي أيضاً

للأستاذ محمود محمد شاكر

« أخي سعيد الأفغاني : »

وعليك السلامُ ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فإني أشكر لأخي حُسن ظنّه بي في بعض كلامه ، ومسارعته في الرد على كلمتي التي نشرتها الرسالة (العدد ١٦٧) . هذا على أنه ليس يجمُلُ بالأستاذ أن يحمّل نفسه تكاليف الرد على مثلي ، فإن الذي بيننا من التخالُفِ في الطبيعة ، والتباينِ في الجِبِلّة ليقوم في هذا الأمر مقامَ الردّ . وأيضاً ، فليس مما يحسُنُ به أن يبسُطُ عذره للقراءِ عن تأخر الرد بجولتـه في قرى (البقاع) ، وأن قراءته للذى أتيت به من الكلام كانت بعـد عشرة أيام من صدوره .

وليعلم الأستاذُ الجليلُ أني أحب أن يحملني على طبيعتي ، وأن يتقبلني على علتي ، وأن يعرفني رجلاً شيمتهُ العجزُ ودأبهُ التخلُّف ، فلا قبلَ له بمثل قدرة الأستاذ وقوته على مد الشوْط ؛ هذا على ما ركّب في أصل خلقتي من الحـدة والثورة وضيق الصدْر . وليس أدلّ على ما بيننا من تباين الجبلة — من الذي استيقنه الأستاذ وأثبته فيّ من التخلُّفِ والعجز ، والذي رأيته فيه من القدرة والمسارعة ، فهو لم يضق ذرعاً بكل الذي كتبناه ، ولا تخلّف في رد كلامنا وإسقاطه بالحجة والبيان والبرهان ، في أوجز لفظ ، وأوزن فكر ، وأدق فهم . . . ثم في أقل وقت .

وأنا — على نقيضه ، فأنا كما وصفني الأستاذ حين يقول . « أما أنا فما كنت أظنُّ ! ! أسطراً تذكر عرضاً في ردّ فكرة تثير (مثل هذا) الفاضل ، فيحمل همّاً يجد وقره وعنته اثنين وأربعين يوماً ، ثم ينفثه في رده الذي تكرم به على مثل هذا الشكل » ، ولا أدري لم لا يظنُّ الأستاذُ ذلك ؟ ألا فليعلم أخي سعيد أن اثنين وأربعين يوماً ليس كثير دهرٍ على عاجزٍ وجل هيّابٍ متخلّفٍ ، وأن كلمته الصغيرة — التي أثارتني فحملتُ همّها أجد وقره وعنته اثنين وأربعين يوماً — كانت مما يقتضيني عامين على الأقلّ في تقليبها وفهمها ودراستها أواصل ليلهما بالنهار ، ثم في الاستعداد للردّ ، ثم في جمع شتات الذهن ، ثم في نفض الذهول عن العقل والفكر ، ثم في كتابة ما يُسوِّل لي قليل علمي وتحريره والنظر في صدوره وأعقابه

وبعدُ أيضاً ، فإن أخي سعيد قد رماني بقارصات ، وهو الذي يقول عن كلمتي في الرسالة : « وصحف الرسالة أحوجُ الى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها الى الدعوى والانتقاض ؛ وأتمنى للأستاذ أن يهجُر هذا الأسلوب في الجدال ، فما هو بمغنيه عن الحق شيئاً ، كما لم يغن (طنينُ) الأستاذ صروف بالاشادة بمزايا الكتاب في مقدمته » اهـ ، ولست أدري ! فلعل صُحف الرسالة قد غنيت بأساليب البيان العبقري ، والسخرية النابغة من مثل قوله عن كلمات فؤاد صروف (طنين الأستاذ صروف) ، فالطنين في هـذه العبارة كلمة بيانية مبتدعة فيها من الفنّ والموسيقى ما يتضاءلُ معهُ ابداع جلّة الكُتّاب والشعراء والموسيقيين .

ومثـلُ الذي يقول : « وأنا أعوذُ بالله من الغرور ، والذهابِ بالنفس ، ومن الجهل بمقدارها ، والمكابرة في العلم ، والعصبية للرأي والهوى ؛ فما زال الناس — ولله الحمد — يقيسون فضل المرءِ بخضوعه للحق ، واتقانه لعمله ، لا بدعواه و (تبجُّحه) » الى آخر هذا الكلام البليغ الذي لو أراده الجاحظ وجهد فيه ، واحتفَلَ له ، لما تعلّق بذيله ، ولا جرى في غباره . وأنا أعوذ بالأخ أن يعودَ إلى مثل هذا القولِ ، فإني أكره أن أجزي أخاً لي بالذي أعلمُ أنّه يؤذيه ويرمضُه ، فيذهله عن منازل الصّبر ، ويستفزّهُ عن مواطن الحلم

وليسَ أحب الى نفسي من أن اهتـدىَ الى الحق على علم وبصيرة ، وأن أخضعَ له على الرضى والغضب ، وأن أعمل على إقراره ما استطعتُ الى ذلك سبيلاً . فلا يتبعنّ — أخي الأستاذ سعيد — ظنّه أنا من أهل الغرور ، والذهاب بالنفس ، والجهل بمقدارها ، والمكابرة في العلم ، والجدال فيما لا جـدوى منه ولا منفعة . وسأنتهي — إن شـاء الله — مع الأخ الى النهاية التي يرضاها غير باغ ولا ظالم . فأولُ ما أبدأ به بيانُ ما ورد في كلمته (الرسالة ١٧٠) من التهافُت في بعض القولِ ، ثم أعقّبُ على ذلك بذكر نبوّة أبي الطيب ، وتقرير القول في نفيها على وجه يبلغ بنـا رضاه ، ثم أجيبه عن كل ما سألنيه من شيء ، فإن اعترض في خلال ذلك ، نظرت في الذي يأتي به ، فإن غلبنا

على الحق أسلمنا وبذلنا له الطاعة ، وان رضى قولنا فهو عند قاعدته التي ذكرها « ألا يحفِلَ نقداً أو رداً إلا إذا كان حقاً ، وسبيله أن يأخذ نفسه به ، ويشكر لصاحبه »

١ — قال الأستاذ سعيد حين ذكر خبر التنوخى ورأينا فى رده : « سأل التنوخى أبا الطيب عن معنى (المتنبى) فأجابه : « إن هذا شىء كان فى الحداثة » وظاهر أنه يعنى التلقيب لا التنبؤ ، فجوابه غير صريح ، وهو كما قال الراوى جواب مغالط » ا هـ . والأصل الذى اعتمد عليه الأستاذ فيما ينقل هو (طبقات الأدباء) لابن الأنبارى ، ونص الخبر : ثم « قال التنوخى : قال لى أبى ، فأما أنا فسألته بالأهواز عن معنى المتنبى ، لأنى أردت أن أسمع منه هل تنبأ أولاً ، فجاوبنى بجواب مغالط ، وقال : إن هذا شىء كان فى الحداثة ، فاستحييت أن أستقصى عليه وأمسكت » وهذا نصٌّ قد اختصره ابن الأنبارى على عادته . وجاء الأستاذ سعيد فأراد أن يبين وجه المغالطة فى الجواب ، فزعم أن أبا الطيب يعنى التلقيب لا التنبؤ فى جوابه . وكان أولى بالأستاذ قبل أن يؤول الكلام على هذا الوجه أن يتدبر القول وينظر فيه على الصورة التى يؤوله بها ، ثم يبين وجه المغالطة بياناً لا يسقطه العقل . . .

يقول التنوخى إنه سأل أبا الطيب عن معنى (المتنبى) ليسمَعَ منه هل تنبأ أو لا — أى هل كان اللقبَ لحادث نبوة كانت منه أم هو نَبْزٌ نُبِزَ به ولُقِّب — فيجيبه أبو الطيب : «إن هذا التلقيب كان فى الحداثة » فأى المغالطة فى هـذا الجواب ! وفى المسألة وجهان : إما أن يكون التنوخى قد سأل أبا الطيب مصرحا بالذى أراده فقال له : هل ادعيت فسميت المتنبى فيقول أبو الطيب « هذا شىء كان فى الحداثة » فيكون المراد (النبوّة) ولا شك ، وإما أن يكون قد سأله عن علة تلقيبه بالمتنبى ، فيقول : « هذا شىء كان فى الحداثة » فيكون جواب رجل لا يحب أن يمتد فى الحديث فهو يقطعه على سائله ، فهو يقول له : إن هـذا اللقب وسببه كانا فى الحداثة ولست براض عن سؤالك ؛ فليس فى هذا مغالطة . ثم إن امتناعه عن ذكر علة غير النبوة فى سبب التسمية دليل على أن النبوة هى العلة فى التلقيب ، لأن اللفظ صريح فى الدلالة على المعنى . وليس يغفُلُ أبو الطيب عن معنى هـذا اللقب ، ولا يظن أن الناس غافلون عنه ، فيكون امتناعه عن ذكر العلة مما يوقعهم فى حيرة من تأويل معناه . ثم ما الذى يضر أبا الطيب لو كان هذا التلقيب فى الكبر ولم يكن فى الحداثة ؟ فحرصه على تخصيص ما أراد من المعنى بالحداثة ينفى إرادة (التلقيب) ألبتة . وأولى حين يكون التخصيص بالحداثة أن يراد بذلك النبوة ، فان قوة التدفع ، وسمو الطموح ، وإشراف النفس ، وتهاويل الأمل ، هى بالحداثة ألزم ، وهى التى تؤرث نيران الشباب فتدفعه إلى المغامرة والتهدر والمخاطرة على غير هدى ولا بصيرة ، حتى يركب بها صاحبها الحدَثُ الغرُ كلَّ مركب من الحماقة ، ويرد بها كل مورد من الغرور ، فلا يرعوى عن أن يدّعى مالا مطمَع له فيه ولو كانَ النبوّة . وقول التنوخى بعد جواب أبى الطيب : « فاستحييت أن أستقصى عليه فأمسكت » دليل على أن الرجل اكتفى باشارة أبى الطيب إلى حادث النبوة ، وأمسك عن الذى كان يريده أولاً من التصريح فى إثبات ما كان من أمره فى ادعاء النبوة

واختصار ابن الأنبارى خبر التنوخى هو الذى دفع الأستاذ إلى هذا التأويل . وأصل خبر التنوخى أنه قال : حدثنى أبى قال : أما أنا فانى سألته بالأهواز سنة أربع وخمسين وثلثمائة — عند اجتيازه بها إلى فارس فى حديث طويل جرى بيننا — عن معنى المتنبى ، لأنى أردت أن أسمع منه هل تنبأ أم لا ، فأجابنى بجواب مغالط لى ، وهو أن قال : هـذا شىء كان فى الحداثة أوجبته الصورة ! فاستحييت أن أستقصى عليه وأمسكت » فالمغالطة فى قوله « أوجبته الصورة » والصورة ههنا الصفة على اصطلاح أهل الكلام ، وصفة الحداثة لا توجب ادعاء النبوّة ، فهذا هو وجه المغالطة . فلما رأى التنوخى — وهو شابٌ لم يعدُ السابعة والعشرين من عمره ، وأبو الطيب إذ ذاك شيخٌ قد نيَّف على الخمسين — ما أصاب هذا الشيخ من الحرج وضيق الصدر حتى لجأ إلى المغالطة فى التعليل ، وتبرير فعلته على السفسطة ، استحيا أن يستقصى على هذا الشيخ فأمسك عن الذى يؤله ويغيظه ويضع من كبريائه ويحط من شيخوخته ، ويلجئُه إلى ركوب الاحالة فى المنطق ، والفساد فى التعليل

٢ — ويقول الأستاذ سعيد : « يورد الأستاذ على حديث أبى على بن أبى حامد شبهة واحدة بعد أن يقرّ باحكامه ، ويقول

عنه فى ص ٤٩ : « فهو حديث محكم لا يأتيه التوهين إلا من قبل غرابته عما جرت عليه الأحكامُ فى شأن من يدعون النبوّة ... الخ »

وقد أطال فى بيان وجه الغرابة بمـا لا فائدة بنقله هنا . (سبحان الله يا سعيد ! !) والذى فى كلام أبى علىّ هو هذا : « فاستتابه وكتب عليه وثيقة وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاهُ ورجوعه إلى الاسلام » ، وجلىٌّ أنهم استتابوه من دعوى النبوّة فرجع بذلك إلى الاسلام ، أما الوثيقة فهى ببطلان علويته ، وبهذا تزول شبهة الأستاذ (!!) فان من المألوف أن تكتب الوثائق فى اثبات الأنساب ونفيها » اهـ

وعجبٌ أمر الأستاذ سعيد فى حرصه على تأويل الكلام بما لا وجه له ولا أصل ؛ وهو فى نقله هذا النص قد اعتمد على كتاب ابن الانبارى ، وهو مولعٌ باختصار الأخبار (واختزالها) وهذا تمام خبر أبى على بن أبى حامد :

« أخبرنا التنوخى ، حدثنى أبى ، قال حدثنى أبو علىّ بن أبى حامد ، قال : سمعت خلقاً بحلب يحكون — وأبو الطيب بها إذ ذاك — أنه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها ، إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الأخشيدية ، فقاتله وأنفره وشرد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب . وحبسه فى السجن حبساً طويلاً ، فاعتـلّ وكاد أن يتلفَ حتى سُئِل فى أمره فاستتابه . وكتب عليـه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاهُ ، ورجوعه الى الاسلام ، وأنه تائبٌ منه ، ولا يعاودُ مثلَهُ ، وأطلقه » . فأنت ترى أن لا ذكر للعلوية فى هذا الخبر ، ولا فى غيره مما رُوِى عن أبى علىّ بن أبى حامد هـذا ، فكيف يتأتى لكَ أن تقحم العلوية فيه ، وهو لم يذكرها فيه ولم ترد عنه فى خبر غيره ، ثم تعمد إلى الكلامِ فتؤوّلَ بعضهُ على النبوّة وبعضهُ على العلوية فتجعل التوبة للأولى والوثيقة للآخرة ؟ ورحم الله أبا عثمان الجاحظ ، فلو أنه أدركَ عصرنا هذا لقال فى ذلك أمثل مما قال فى ابراهيم النظام[1] ، فنصُّ الخبر مبينٌ عن أن أمير حمص كتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها (١) بأن ما ادعاه باطلٌ — وهو النبوة — (٢) وأنه رجع إلى الاسلام (٣) وأنه تائبٌ منه (٤) وأنه لا يعاودُ مثله . فهذه أربعةٌ فى قَرَن كانت فى هذه الوثيقة ، فكيف تسوِّغُ عربيّةُ الكلام للأستاذ سعيد تأويله وبيانه ؟ فلو سلمنا للأستاذ سعيد بالذى ذهب إليه لكان سياقُ الكلام هكذا : « حتى سئل فى أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ادعائه العلوية ، وأنه رجع الى الاسلام ، وأنه تائبٌ (منـه) ، وأنه لا يعاود مثله » فعلى أى الكلام عطفت جملة قوله « وأنه رجع الى الاسـلام » والى أى مذكور يرجع الضمير فى قوله « وأنه تائب (منه) » ؟ وكيف ترد أوائل هذا الكلام على أواخره ليستقيم على عربيته ؟ !

إن أخى الأستاذ سعيدا ليأخذ من الكلام ما يشاء ويدع ما يشاء ، وبذلك (تزول شبهة الأستاذ) أو كما قال .

٣ — ثم يقول : «عرض الأستاذ لرواية الهاشمى التى فيها : (كان أبو الطيب لمـا خرج الى كلب وأقام فيها ادعى النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى الى أن أشهد عليه فى الشام بالتوبة وأطلق) وهـذه الرواية تعنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوة بقى على دعواه الأولى . ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ، وكتب وثيقـة ببطلان انتسابه للعلويين وليس فى الأمر مشكلة ولا تناقض ... » اهـ

يقول الأستاذ سـعيد إن هذا الخبر الذى رواه يعنى (أنه ماتخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوّةِ بقى على دعواه الأولى) والخبر يقول إنه (ادعىّ العلوية ، ثم ادّعى النبوّة ، ثم عاد يدعى أنه علوى » ، والعربية تقول إن هذا النص لايمكن تأويله على الوجه الذى أراده الأسـتاذ فان لها ألفاظاً ، وإن لألفاظها معانى ، وإن لمعانيها حدوداً ؛ فاخراج المعنى عن حده إخراج للفظ عن معناه ، وإخراج اللفظ عن معناه إخراج له عن العربية . يقول الخبر : « ثم عاد يدّعى أنه علوىّ » فيقول الأستاذ مؤوّله ، ومعنى ذلك « ثم بقى على دعوى العلوية » !! ثم يقول الأستاذ : « ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم (أولا نفهم ، فالأمر بعد هذا سواء) أنه لمـا أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ؛ وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين » . ففى الخبر الذى قبل هذا أقحم الأستاذ العلوية ولا ذكرلها فيه وجعل الوثيقة المذكورة فيه يراد بها دعوى العلوية ، وفى هذا الخبر الذى رواهُ ولا ذكر للوثيقة فيه أقحم الوثيقة التى يراد بها الاشهاد عليه فيها ببطلان انتسابه للعلوية التى ادعاها ، وذكرها الخبر مرتين . فهذا أروعُ

(١) وصفنا الأسـتاذ سعيد فى (الرسالة) بمقالة أبى عثمان فى ابراهيم النظام ، فراجعها !!

ما وقع لى من القـدرة على الجمع بين الروايات (كما هو مستوفى بكتب مصطلح الحديث ، وأنا أستحى أن أشرح هـذا فى مجلة (الرسالة) ... مما يدرسه الطلاب المبتدئون) (١)

وهذا الخبر أيضاً اعتمد الأستاذ فى نقله على (اختزال) أبى البركات (ابن الأنبارى) فى طبقات الأدباء . وسياقُ الرواية هكذا : « وقد كان المتنبى لمـا خرج إلى كلبٍ وأقامَ فيهم ادّعى أنه علوىٌّ حسنىٌّ ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوىٌّ ، إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب فى الدعويين ، وحبس دهراً طويلاً وأشرف على القتل ، ثم استتيب وأشهد عليه بالتوبة وأطلق » . وقد كان هذا النصُّ أمثل من (مختزل) ابن الأنبارىّ للذى يعتمده الأستاذ من التأويل ، وهو أحفل له فى استخراج مادة الجدل فى التفسير والتوجيه . على أن هذا الخبر هو كما وصفناهُ فى كتابنا ص ٤٨ « عجيبٌ لا يفرغ من العجب من اختصاره وتداخله » . فمن ذلك أنه صريحٌ بينٌ فى الدلالة على أنه قد أشهد على أبى الطيب مرتين : (الأولى) إشهادٌ عليه بأنه قد كذب فى (الدعويين) و (الآخرة) استتابةٌ وإشهادٌ عليه بالتوبة

ففى المرة الأولى ذكر ابن شيبان الهاشمى (دعويين) أشهد أبو الطيب على نفسه بالكذب فيهما ، فان أراد (بالدعويين) دعوى العلوية ودعوى النبوّة جميعاً كان كلامُه كلُّه خلطاً متداخلاً ، فانه ليسَ يكفى فيمن ادعى النبوّة أن يشهد على نفسِه بالكذب ، بل لا بُدَّ معهُ من الاستتابة والرجوع الى الاسلام والاقرار به ، فان لم يُعطِ ذلك قُتِل ، فان كان فُعِل معهُ ذلك وتاب وأقرّ فما قوله بعد ذلك « وحُبس دهراً طويلاً (سنتين) وأشرف على القتل (ثم) استتيب ، وأشهد عليه بالتوبة وأطلق» ولم أعيدت استتابته ؟ أيكون هذا كله لغواً باطلاً من القول !!

فان أراد (بالدعويين) ادعاء العلوية فى المرة الأولى والمرة الآخرة فالأمر فى ذلك على خلاف المعقول . أيقدم الوالى الاشهاد بالكذب فى دعوى العلوية ، وهى لا تخرج من الاسلام ، ولا يكفر بها مدعيها ، ولا يقتل من أجلها إن أصر عليها ، ويدع ادعاءه النبوة فلا يقتله أو يستتيبه إلا بعد أن يحبسه دهرا طويلاً حتى يشرف على القتل ، فيومئذ يستتيبه ويشهد عليه بالتوبة ! !

ولفساد هذا الخبر وجوهٌ أخرى ، ولكنه على أى وجهيه أدرته ، لا يسوغ للأستاذ أن يقول فيه « وهذه الرواية تعنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك النبوة بقى على ادعائه العلوية » إلا أن يلنى معانى الكلمات التى وردت فيه ، أو يحيلها عن وجهها ؛ فتكون ثم ، وعاد ، كلمات معزولة من المعانى ، ثم يزيد على ذلك أن يزيد فى الكلام معانى ألفاظ لم تكن فيه كقوله « وحين ترك النبوة بقى على ادعائه العلوية » ولو أراد الأستاذ أن يتأول هذا الخبر على وجه مقارب لمـا خرج له إلا أن يقول فيه « إن أبا الطيب تخلى عن دعوى العلوية ، وحين تركها بقى على ادعاء النبوة حتى استتيب فأطلق» وهذا محال

وليعلم الأستاذ أنى تركت له أبواباً من القول توطىء له أن ينفذ الى الاعتراض ، فليعترض قولى بما شاء . ولكنى أسأله أن ينظر فى اعتراضه أولا ثم فى الخبر بعد ، ثم فى كلامى آخراً ، فلعله يجد فى ذلك ما يمنعه من الاعـتراض ويقنعه بالصواب . وأسأله أيضاً أن يتحرى فى فهم الأخبار ما تقتضيه عربية الكلام حتى تستقيم له المعانى ، وتتجه به الآراء الى الحق والهدى إن شاء الله

(الكلام بقية) محمود محمد شاكر

(١) الرسالة عدد ١٧٠ ص ١٦٢١

مشرقيات

فى الأدب العربى الحديث

للأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكى

الأستاذ بجامعة لينىجراد

— ٢ —

وبعد كل من الشيخ محمد عبده (١٨٤٣ — ١٩٠٥) وجورجى زيدان (١٨٦١ — ١٩١٤) فى مقدمة الكتاب الذين امتاز بهم هذا العصر. نعم إن أولهما لم ينتج شيئاً من المؤلفات الأدبية، لكن ذلك لا يدعو إلى انكار الدور الهام الذى لعبه، فبفضل جهوده استقر رأى المسلمين على السير فى طريق التجديد، وازداد نفوذ الحركة الأدبية شيئاً فشيئاً، بحيث أثر على الشطر الأكبر من المصريين. وظهرت فى خلال ذلك أنواع أدبية جديدة كالرواية التاريخية. واصطبغت هذه الأنواع بصبغة خاصة تختلف كل الاختلاف عن نظيراتها، فكان الكاتب يوجه جل اهتمامه إلى تنسيق الألفاظ، إلى ان جاء المنفلوطى (١٨٧٦ — ١٩٢٤) فاتجه بهذا النوع إلى طريقه الكمالى

أما المدرسة السورية المتأمركة فقد برزت إلى الميدان فى خلال السنوات العشر الأولى من القرن العشرين، وهى على ما نظن كانت أقوى المدارس الأدبية العربية الحديثة من حيث استقلال شخصيتها. وزعماؤها: أمين الريحانى (١٨٧٩) وجبران خليل جبران (١٨٨٣ — ١٩٣١) الذى كان يمثل طابع جهودها. فقد رأس بمدينة نيويورك جماعة «الرابطة القلمية»، وكانت تلك الجماعة الأدبية تنشر دعوتها على صفحات مجلة «السائح» التى تولى إدارتها عبد المسيح حداد. ومن أهم الصفات المميزة لهذه المدرسة، أنها قطعت كل صلة بأساليب الأدب القديم وبطريقة الكتابة العادية، واصطفت الأساليب القلمية المتطورة، أساليب الرسائل النثرية، والشعر المنثور المنمق إلى حد التكلف. وقد نال كثيرون من أنصار هذه المدرسة شهرة ذائعة فى العالم العربى (حتى تونس والحجاز) فتأثر الكتاب بأسلوبهم. ومنهم أيضاً الشاعر الروائى ميخائيل نعيمه (١٨٨٩) والشاعر رشيد أيوب (١٨٦٢) وإيليا أبوماضى (١٨٨٩) ونسيب عريضه ... الخ.

وللمدرسة السورية الأمريكية بالبرازيل مركز خاص وأهمية محلية لا تأثير لهـا فى البلاد العربية. والشعر هو المفضل المختار عند أنصار هذه المدرسة التى قوامها: الياس فرحات (١٨٩١)، ورشيد سليم خورى (١٨٨٧)؛ وفوزى المعلوف (١٨٩٩ — ١٩٣٠). وقد شرع شكرى الخورى (١٨٧١) فى محاولة طريفة، هى استعمال اللهجة السورية الدارجة فى الكتابة الأدبية، ولكن أحداً لم ينسج على منواله

وقد انتهت سيطرة المدرسة السورية المتأمركة بانتهاء الحرب العظمى، فانقطعت الصلة بين روادها وبين الحياة الراهنة فى العالم العربى، ورجع بعض زعمائها (كالريحانى ونعيمه) الى وطنهم الأول. وقد عادت الآن زعامة الأدب الى مصر وتركزت فى المدرسة الموسومة بمدرسة العصريين. وترجع بوادر هذه الزعامة إلى عام ١٩٠٧ حين تألف حزب الأمة وأنشأ «الجريدة» وتولى رياسة تحريرها أحمد لطفى السيد مترجم «الأخلاق» لأرسطو ومدير الجامعة المصرية الآن. وفى عام ١٩٢٢ التف الكتاب المجددون حول جريدة «السياسة» التى يتولى إدارتها أحد الكتاب المصريين الذائعى الشهرة: محمد حسين هيكل بك (١٨٨٨)، وأهم ما تمتاز به هذه المدرسة التعمق فى فكرة الأدب وفى حاجات رجاله المتزايدة يوماً بعد يوم، وهى تختلف عن المدرسة السورية المتأمركة فى أنها توجه جل جهودها إلى الأدب العربى القديم، وتبدى شغفاً خاصاً بالنقد وبتاريخ الأدب. وفى مؤلفات أنصار هذه المدرسة، نلاحظ للمرة الأولى أن روح الوطنية المصرية الخالصة تحل — عن عمد وإدراك — محل القومية العربية. وقد وجهت هذه المدرسة عناية خاصة إلى «الأقصوصة المصرية»، كما استطاعت أن تكسب شهرة ذائعة وأنصارا مخلصين متحمسين فى سائر الأقطار العربيـة، بفضل اتساع نطاق الصحافة وانتشارها. وهكذا عادت مصر فتولت الزعامة للمرة الثانية فى تاريخ الأدب العربى الجديد، وستظل محتفظة بهذه الزعامة، مرتكزة على دعائمها بثبات أعظم مما كانت عليه فى نهاية القرن الماضى

٢ — أنواع خاصة

١ — الشعر: لا يزال الشعر أكثر الأنواع انتشاراً وأدقها

محافظة ، شأنه فى عصور الأدب العربى القديم . فنى جميع الأقطار العربية نجد شعراء لا عداد لهم . لكن تاريخ الشعر فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ليس إلا تاريخ تجديد شباب الشعر القديم بطرق معدلة كل التعديل . فبينما كان الشعراء فى الماضى يقلدون شعر عصور الانحطاط نراهم الآن ينسجون على منوال المتنبى والشعراء العباسيين وأحياناً شعراء الجاهلية . وقد لعب ناصيف اليازجى (١٨٠٠ — ١٨٧٦) دوراً هاماً فى سوريا ، إذ ظل محافظاً دقيقاً ، لكنه كان مالكا لناصية اللغة . وظهرت بوادر الأثر الأوربى فى دوائر أخرى ظهوراً واضحاً ، فرأينا فرنسيس مراش (١٨٣٦ — ١٨٧٣) الشاعر الحلبى ، يحاول التعبير عن أفكار فلسفية اجتماعية فى قصائد يسودها روح التشاؤم . أما فى مصر فقد جاء تجديد شباب الشعر العربى متأخراً نوعاً ، فاستهل الحركة محمود سامى البارودى (١٨٣٩ — ١٩٠٤) واسماعيل صبرى (١٨٥٤ — ١٩٢٣) ، وقصائد كل منهما تطابق كل المطابقة أسلوب الشعر العباسى أو القديم ، بل إنهما كانا يشيران أحياناً بوضوح الى القصائد الأصلية المعارضة ، ونلاحظ أن الحياة تدب بقوة فى مؤلفات الشعراء المصريين المتعاقبين أمثال شوقى (١٨٦٨—١٩٣٢) ، ومحمد حافظ ابراهيم (١٨٧١—١٩٣٢)

قبل الحرب العظمى كان شوقى شاعراً بالمعية (شاعر الأمير) وكان من نوع ممتاز ، قديراً فى صناعة اللغة وصياغة الألفاظ ، لكنه حصر شعره فى دائرة الأسلوب التقليدى . وبعد الهدنة أخذت شهرته تتطاير فى أنحاء العالم العربى وأطلق عليه لقب « أمير الشعراء » . وقد حاول شوقى فى السنوات الأخيرة أن يخلق المأساة « التراجيدى » فى الأدب العربى . أما حافظ إبراهيم فهو من أبناء الشعب ولذا انحصر ميله فى المواضيع السياسية والاجتماعية مع النسج على منوال المتقدمين من وجهة الاسلوب . وثالث الشعراء المصريين المعروفين هو خليل مطران ، وقد ولد ببعلبك بسوريا حوالى سنة ١٨٧١ وأبدى نبوغاً ممتازاً فى المصنفات الغنائية والروائية ذات الاسلوب الطليق الحر والمنوع (خصوصاً فى القافية والوزن) . وهنالك كتاب من الجيل الجديد نشر دواوين طلية كعباس محمود العقاد المولود فى سنة ١٨٨٩ ، وابراهيم عبد القادر المازنى المولود فى سنة ١٨٧٧ ، واحمد محرم المولود فى سنة ١٨٧٧ ، واحمد رامى المولود فى سنة ١٨٩٢ . ومصطفى صادق الرافعى المولود فى سنة ١٨٨٠ ، واحمد نسيم المولود فى سنة ١٨٧٨ . وفى الأيام الأخيرة أظهر الجمهور ميلا إلى تذوق شعر أحمد زكى أبى شادى . ومن الصعب أن نتكهن بالشاعر الذى سوف يحمل زعامة الشعر العربى بعد شوقى وحافظ

وفى العراق جمع الشعر فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين أغرب الصفات على اختلافها وتباينها . فقد ازدهرت التقاليد الأدبية القديمة فى المدن الكبرى كبغداد والموصل . وقاد حركتها شعراء أفذاذ أمثال عبد الغفار الأخرس (١٨٧٣ — ١٨٠٥) وعبد الباقى العمرى الفاروقى (١٧٨٩ — ١٨٦١) كما أن أسرة الألوسى لعبت دوراً هاماً فى هذا الميدان . وفى النجف الأشرف وكربلاء ، مدينتى الشيعة المقدستين ، ازدهر الشعر العباسى وشعر البادية الصحيح فى الأوساط الأدبية الشيعية . ولم نصل الى معرفة أصول هذه المدرسة إلا بفضل ما نشره أحمد عارف الزين زعيم الطائفة الشيعية بصيدا (سوريا) . وكان أبرز زعمائها ابراهيم الطباطبائى (١٨٣٢ — ١٩٠١) . وفى العراق كما فى مصر — حاول المجددون إعادة الشباب إلى الشعر العربى القديم . وأتيح لنا أن نقتبس هذه الظاهرة بوضوح فى شعر عبد المحسن الكاظمى (١٨٦٥ — ١٩٣٤) . وبالنظر إلى أنه يقيم فى مصر منذ نهاية القرن الماضى فقد خصص بعض قصائده لسرد الحوادث المصرية . وهنالك شاعران آخران جديران بالذكر وهما يمثلان الاتجاه الجديد خير تمثيل ، أولهما جميل صدقى الزهاوى (١٨٦٩ — ١٩٣٦) ومعروف الرصافى (١٨٧٥) . وقد كان الزهاوى مشربا إلى أقصى حد بالروح الفلسفية ، وكان يطلق لنفسه الحرية التامة فيما يتعلق بالأسلوب . ولم يتردد مطلقاً فى ابتكار الاوزان والقوافى المختلطة . وكثيراً ما نظم الشعر المرسل حيث يسير على الوزن دون القافية . بعكس الرصافى إذ حصر شعره فى دائرة الاسلوب التقليدى ، لكنه يمتاز بعبقرية الشاعر الواقعى ، سواء فى شعره الغنائى والوصفى ، أو السياسى والاجتماعى ؛ وقد جاوزت شهرة هذين الشاعرين حدود بلادهما . أما فى سائر الاقطار العربية ، فالشعر رغم وفرته وكثرة إنتاجه ، لا تتعدى أهميته الحدود المحلية

ومن شعراء سوريا سليم عنحورى (١٨٥٥) وهو شيخ مسن على اتصال دائم بمصر ومتشبع بالآراء العصرية إلى حد بعيد ، وعيسى اسكندر المعلوف (١٨٦٩) شاعر وعالم من نوع وحيد ،

وهنالك طبقة من كتاب الجيل الحديث اشتهروا الآن فى الأوساط الادبية ، نخص بالذكر منهم : شفيق جبرى (١٨٩٥) وخليل مردم (١٨٩٥) وحليم دموس (١٨٨٨) وأحمد عبيد ، ومحمد البزم (١٨٨٧) ، ومحمد الشريقى (١٨٩٦) وسليمان الأحمد المعروف باسم « بدوى الجبل » الخ

وفى المهجر كثير من الشعراء الذين تطبع مؤلفاتهم وتذاع فى بلاد أخرى ، بخلاف الأمر فى سائر الأقطار العربية حيث لا تتعدى شهرة الشعراء النطاق المحلى ولا يقدر مؤلفاتهم سوى مواطنيهم (مثال ذلك محمد الشاذلى خازندار بتونس) . أجل ، إن الشعر الغنائى العصرى منوع المقاصد ، مشبع بروح الفن الناضج الدقيق ، ولكن المجال لا يزال متسعاً لابتكار أساليب أرحب مدى . وقد ظهرت ترجمة « الالياذة » للبستانى فى عام ١٩٠٤ لكنها لم تسفر إلا عن بعض محاولات تقليدية ، أما الشعر الشعبى « الزجل » الذى تستعمل فيه العامية بدلاً من الفصحى ، فالواقع أنه لم ينتج سوى مؤلفات فكاهية انتقادية ، شأنه كما كان فى الأزمنة السالفة (أسعد رستم بأمريكا) ، وأكثرها يرمى الى أغراض سياسية (عمر الزعنى بسوريا)

ب — القصة والأقصوصة : لم تنشأ القصة أو الأقصوصة من أصل عربى كالمقامات والقصص الحماسية بل ترعرعا بتأثير الأدب الأوربى المباشر . وقد ظهرت أولاً القصة التاريخية التى لم تصل الى شأو الكمال من الوجهة الأدبيـة . كان أول بزوغ هذا النوع فى محيط البستانى بسوريا ، وعنى به ابنه سليم (١٨٤٨ — ١٨٨٤) بقصد اتخاذه وسيلة فى التربية والتعليم . وفى عام ١٨٨٤ وضع جميل المدور (١٨٦٢ — ١٩٠٧) أخبار أيام هارون الرشيد (؟) فارتفع بهذا النوع إلى مكانة أسمى ، وإن كانت تلك « الأخبار » أقرب إلى الآثار منها إلى الأدب ، وقد بلغت القصة التاريخية ذروتها فى مؤلفات جورجى زيدان ، حيث كان يطالع القراء بقصة فى كل سنة تقريباً ، قصة جديدة من سلسلة تاريخية طويلة الحلقات

ولقد ولد زيدان مؤرخا بطبعه ، فأراد أن يتخذ من قصصه وسيلة لجمل التأريخ فى متناول العامة ، وأن يهيئ للجمهور مطالعات طريفة سهلة ، فالغرض الذى كان يرى اليه هو التعليم والتثقيف ، ولذا تراه لا يعلق أهمية تذكر على المسائل الأدبية البحتة . وقد نالت مؤلفاته اقبالاً منقطع النظير ، بل إنها كانت فاتحة عهد جديد فى الأدب العربى الحديث

(يتبع) ترجمة محمد أمين حسونة

بيـــان

من لجنة الجامعيين لنشر العلم

أعلنت اللجنة قبل طبع « تراث الاسلام » أن ثمن الجزءين معاً ١٥ قرشاً صاغاً إلى ٨ سبتمبر و٢٢ قرشاً صاغاً بعد هذا التاريخ . فلما صدر الكتاب فى نحو ستمائة صفحة ، وتسعين صورة فنية على ورق صقيل ، وعرفت اللجنة تكاليفه الباهظة اضطرت إلى رفع ثمن الجزءين إلى ٢٥ قرشا صاغا ، وقد أرسلت اللجنة لكل مشترك جزءيه بنفس الثمن الذى دفعه من قبل (١٥ قرشاً صاغاً) ، كما رأت تقديراً لعطف المشتركين على جهودها أن تعطيهم الحق فى تخفيض ٢٠ ٪ من ثمن الكتاب التالى الذى تصدره اللجنة وهو « قصة الكفاح بين قرطاجنة وروما » لتوفيق الطويل ، ويصدر فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣٦ ، وثمنه عشرة قروش لا تشمل أجرة البريد ؟

لجنة الجامعيين لنشر العلم

على أطلال الماضى

للسيد ابراهيم أدهم الزهاوى

ما بكائى لزينب وانتحابى   وسؤالى ربوعها وجوابى

ووقوفى بها وقوف حجيج الـ   بيت لولا تفردى واكتئابى

وملامى النوى على ما أحالت   من رسوم وقوضت من قباب

ـنة تلك سنها شعراء   ما بهم من زمانهم غيرُ ما بى

إن أولى الربوع بالدمع سحًّا   أربع المجد والعلا والغلاب

سفهت قَسَّها الليالى اللواتى   سحبت فوقها ذيول الخراب

أربعٌ لا تزال منها بقايا   أفلتت من حبائل الأحقاب

شوهتها يد البلى ككتاب   رث إلا عنوان ذاك الكتاب

أنا صبٌّ بها وكل محب   تتصباه أربع الأحباب

كلما طاف طائف من هواها   فى فؤادى وجدته فى خطابى

لا قرضت القريض إن لم أذُدْ فيـ   ـه ذياداً يغنى عن القرضاب

هن عُلا معشرى وأى عَلاء   كعلا معشرى الرفيع الجناب

كيف لا يعتلى وبانيه بانٍ   كل نجم فى الكائنات الرحاب

***

يا أبا القاسم الذى حار عقلى   فى مدى عقله وتاه حسابى

كيف لا تنحنى الأكابر إكبا   راً لأسمى طبيعة فى إهاب

أى باب فتحته لأولى الألـ   باب مستغلق من الأبواب

ومنار نصبتها فى طريق   طالما ضلَّت مسير الركاب

إن تحياك فى الحقيقة محيا   كل حى يسير فوق التراب

فأعاديك فى الورى كواليـ   ـك يدورون حول ذاك الشهاب

أين دنياهمُ التى هى دنيا   أشبهت ذات جِنَّة فى يباب

طال أظفارها التى لم تعهَّدْ   ها يمين ورث حسن الثياب

فتعهدتها بيمنيـــك حتى   عاودتها شوارد الألباب

فعليها طلاسم تقتنيها   فتقيها رجعاً على الأعقاب

ها مراقى الحياة فانظر أكانت   ترتقى لو لم تزل فى احتجاب

تنبث الصخرة العظيمة آبا   داً إذا لم تدفع بأيد صلاب

أم يقولون كان ينبغ منهم   من بعيد الحياة بعد ذهاب

والذى تشهد البرية طرًّا   أن مسعاك فوق قدر الطِّلاب

قد ترحلت عن مفاوز أدوا   كل دَيْن مؤجل فى الرقاب

ضربوا الأرض إذ أصرت على البغـ   ـى وهبت إلى رؤوس الحراب

فشفوها من دائها بدواها   قد يكون الدواء ضرب الرقاب

ذاك دور لن تشهد الأرض دوراً   مثله والقشور غير اللباب

***

وبدت لى أميـة فبدت لى   دولة المكرمات والأحساب

وسألت الدهياء كيف ترقت   للثريا فلم يكن من جواب

أين مُلْكٌ أبو سليمان يرعا   ه فيرعى صبابة الأنساب

عبقرى ، زمانه عبقرى   كل شىء يجرى به بنصاب

ما حسام الحجاج لو كنت تدرى   غير تعويذة من الأوشاب

لم يكن مثله بقبضة مروا   ن فمرت أيامه فى تباب

***

واجتبى الله للأعاريب أملا   كاً حراصاً على اتباع الصواب

واجتباهم من هاشم من بنى الـ   عباس من خير دوحة فى انتساب

جل هارون أن تكون كهرو   ن ملوك تسربلت بالسراب

عجم يعجمون عود الرزايا   ثم لا يهتدون للأسباب

ذاك نجم يدور فى الفلك السا   بع لا فى مهابط التَّوْراب

سجدت للذى يريد لياليـ   ـه سجود العبدان للأرباب

واتقته الآباء فى كل أرض   واتقتها الأبناء فى الأصلاب

مالك الملك قائماً بالذى يطـ   ـلب عدلاً عقابه كالثواب

تحسن الرحمة الوثيرة إلا   لجنوب تقلبت فى الكذاب

فَأَنِمْها على الظُّبى لا توثق   من ذئاب تريك صدق الكلاب

إنما تُعصم البلاد بسيف   نائم قائم مجيب مجاب

خطة فى سنى الضحى ضيعوها   فأضاعوا مِلاك مُلك رُحاب

اشتراك فى الموبقات وخوف   من شراراتها على الأثواب

وهى الريح زعزع تحمل النا   ر فمن ذا ينجو من الالتهاب

***

واستفاقت بغداد بعـد دهور — أنقضت ظهرها من الأوصاب
استفاقت فلم تجد لا فتى الصمـ — ـصام فيها ولا فتى المحراب
واستجارت جا اتها فإذا الجا — رات يرزحن مثلها بالعذاب
فدعت دعـــوة أبى الله إلا — أن يكون الجواب فصل الخطاب
نحن إبان نهضة بسوى الوحـ — ـدة لا ترتضى من الأحزاب
ضاع كل الطلاب إن لم تكن أوَّ — لَ شيء نريده فى الطـلاب
لا تصح الأعضاء فى الجسم ما لم — تك فيه مشدودة الأعصاب
تمرع الأرض بالربيع على مقدا — ر ما التمَّ فوقها من سحاب
وتضيع الأنهار فى لجج البحـ — ـر ويكفى العباب شر العباب
وأحق الشعوب بالوحـــدة الكـ — ـبرى شعوب ذاقت وبال انشعاب

(بغداد) — ابراهيم أدهم الزهاوى

بعـــد هجر طويل

بقلم العوضى الوكيل

أثرتِ فى نفسىَ ماضى الذِّكَرْ — وهجت فيها ما انطوى واندثر
وهجتِ أحـلاماً عِذاب المنى — كالنور، أو كالظل، أو كالزهَر
إن لم أنل منها، فحسب النهى — مرآك، من رىٍّ لهذا النظر!

***

عودى إلى النفس، و كونى بها — لهفة شوق ساعرٍ ذى شرَرْ
عودى إلى النفس، وأحيى بها — ما كان من نجوى بها أو سَمَر
يا طالما عاد إلى داره — مسافر من بعد طول السفر!
وأمتعينى بحياة الهوى — إمتاعك العين بوجه أغر
بل جدِّدينى ... أنت محفوفة — بجِدَّةٍ ليست لحسن القمر
فى كل يوم فيك معنى هوى — يخالف المعنى الذى قد غبر
وفى كل يوم صورة فذة — غير الذى شاهدته من صور
أأنت من شاهدتها أمس؟ أم — أنت سواها؟ أصدقينى الخبر

***

عودى، فقد عدت إلى جنتى — وعادنى الهم وطول السهر
عودى، فما أحراك أن ترجعى — أمس الينا، عبقرى الغُرر
أمس الذى نُيِّحَ فى قبره — بهجتينا، لابثاً فى الحفر
أحييتُه عندى بتذكاره — وربما تحيى الفقيد الذِّكر
فلتنسخى لذاته فى غدٍ — وعشت للقلب الوفى الأبر

العوضى الوكيل

نـكبة فلسطين

بقلم عبد الوهاب أدهم

البلدُ المقدسُ الطاهرُ — عاث به ذو حنقٍ غادرُ
ومهبط الوحى غدا بلقعا — يجول فى أرجائه الكافر
والجنـة المثناف قد صوّحت — لم يشدُ فيها البلبلُ الساحرُ
فمن لها؟ قد أجدبتْ أرضها — ولم يُغثها العارض الماطرُ

***

هذى فلسطينُ على شجوها — ليس لها، من أهلها، ناصرُ
أعداؤها قد استباحوا الحمى — لله ذياك الحمى الزاهر!
كم قتلوا من نسوة زانها — عفافُها وذيلها الطاهر
كم صرعوا من فتيةٍ ذنبها — إيمانها ودينها الغافر
كم روّعوا الأطفال فى مهدها — وغادروها جفنها قاطر

***

العُرْب فى أوطانهم عصبة — يغمزها العاجمُ والكاسرُ
يقذفها الغربىّ فى مهمه — فمن لها؟ لقد طغى الماكر؟
الله يا غافل عن دهره — دهرك لا يغلبــه السادر
والحق لا يناله ضارع — كفاه لم يصحبهما الباتر
فكن جسوراً فاتكا قادراً — ما فاز إلا الفاتك القادر!

***

هذى فلسطينُ أشتكت ضيْمها — وسمعكم عن صوتها واقرُ
فمن لها؟ قد أجدبت أرضها — ولم يغثها العارض الماطر

(دمشق) — عبد الوهاب أدهم



الكذب

للقصصي الروسي نيكولا بفتش اندريف

ترجمة الأديب محمود البدوي

« أنت كاذبة ! أنا أعرف أنك كاذبة ! »

« لماذا تصيح هكذا . . ؟ أمن الضروري أن يسمعنا كل انسان ؟ »

وكذبت مرة أخرى فما كنت أصيح كما ادعت، وإنما كنت أتكلم على أتم هدوء ورقة . أمسكت بيدها وأخذت أحدثها في لين هادىء ، والكلمة السامة : « كذب » تفح حولي كحفيف الحية الصغيرة

« واستطردت تقول : « أحبك ... ويجب عليك أن تكون على ثقة تامة بي . . ألا يقنعك هذا ؟ » وقبلتني .. ولكني لما أردت أن أطوقها بذراعي وأضمها الى صدري لم أجدها : . كانت قد أفلتت مني وبارحت المر المظلم ، فتبعتها الى الغرفة التي أخذ الحفل البهيج فيها يقوض خيامه ، ومن أين لى أن أعرف — في مكان كهذا — أين أنا ! لقد طلبت مني المجيء اليه فجئت ، ورأيت القوم يدورون حولي مثنى مثنى طول الليل . وما تقدم إلى أحد ولا خاطبني انسان . كنت هناك غريبا عن كل الناس ، جلست في ركن يقرب من العازفين على الآلات الموسيقية وفم البوق النحاسي الضخم يوجه في خط مستقيم الي ... وسمعت في ناحية شخصاً سجيناً يزمجر ويضحك بعد كل دقيقة في هزة وخشونة ويصيح :

« هو . . . هو . . . هو . . . . »

وكانت تقرب مني من حين الى حين سحابة بيضاء عطرة . كانت هي .. ولم أكن أدرى كيف دبرت بمهارة فائقة ملاطفتي وهي متقية أعين الناس ، ففي ثانية خاطفة ضغط كتفها على كتفي ، وفي لحظة قصيرة خفضت بصري فاستطعت أن أرى الجيد الأتلع والدثار الأبيض الضيق العروة .. ولما رفعت طرفي رأيت جانب الوجه الأبيض الصارم الهادىء كوجه الملاك المفكر فوق مقابر الموتى ، فوق مقابر النسيين من الموتى ، رأيت عينيها .... كانتا نجلاوين سما كنتين حبيبتين تتعطشان للنور . . تحف بهما دائرتهما الزرقاء ، وقد برق فيهما إنساناها في قتامة . وكنت كلما نظرت الى هاتين العينين أراهما على حال واحدة لاتتغير : سودلوان عميقتان لايدرك كنههما ، وإذا ما نظرت اليهما ولو نظرة قصيرة اشتد وجيب قلبي ، ولكني لم أشعر قط بمعنى اللانهاية بمثل هذا العمق وهذا الخوف الذى شعرت به الآن ؛ ولم أعرف مطلقا قوتها كهذا الحد القوي الجارف . شعرت خائفاً متألما أن حياتي كلها غدت كشعاع ضئيل من النور ابتلعته عيناها ، حتى أصبحت غريبا عن نفسي فارغا أجوف غالباً في عداد الموتى ... ثم بارحتني وخلفتني وحيدا وأخذت معها حياتي .. حياتي كلها ، ورقصت ثانية مع رجل وضيء الوجه طويل متعجرف ، أخذت في انقباض وحزن أنعم فيه البصر وأدرس أجزاء جسمه ، وشكل نعليه ، وعرض كتفيه المرتفعتين ، وخصل شعره المتموج المنتظم . والرجل بنظرته غير العابئة ولا المكترثة ولا الباصرة يلصقني بالحائط ، أصبحت في نظره مخلوقا تافها كالحائط نفسه

ولما أطفئت الشموع تقدمت نحوها وقلت :

« حان وقت العودة .. سآخذك الى المنزل »

فاستغربت وقالت : « ولكني ... ذاهبة معه ! »

وأشارت الى الرجل الطويل الجميل الذى لم ينظر إلينا مطلقاً ثم جرتني الى غرفة خالية من الناس وقبلتني . فقلت بهدوء ورقة :

« إنك كاذبة »

فأجابت : « سنتقابل اليوم ... لا بد أن تجيء ... »

ولما ركبت العربة الى المنزل ، كان الصباح الضبابي الأخضر

قد لاح فوق السطوح العالية ، ولم يكن فى الشارع كله إلا أنا وسائق ؛ وجلس الرجل متجمعاً يخبئ وجهـه من الريح ، وأنا جالس خلفه منكمشاً فى معطفى ومغطياً وجهى حتى عينى . وكان للسائق أفكاره ولى أفكارى ، وخلف الجدران الكثيفة المحيطة ألوف من الناس يغطون فى النوم سابحين فى أحلامهم وأفكارهم ... فكرت فيها ، وفى أكاذيبها ، وفى الموت الرهيب ، وبدا لى أن هذه الجدران المحيطة بعـد أن أضاءتها تباشير الصباح ، كانت تنظر الى كمخلوق ميت ، وهـذا هو السبب الذى جعلها جامدة معتـدلة هكذا . ولم أكن أعرف فى أى شىء يفكر السائق ، ولم أكن أدرى ما الذى يحلم به أولئك المختفون وراء الجدران ، ولا كانوا هم يعرفون ما أفكر فيه وأحلم به ...

وعلى هـذا المنوال من التفكير والسكون والتأمل زحفنا فى الشوارع الطويلة المستقيمة ، بينما يفضض نور الصباح أعالى السقوف ، وكل ماحولنا كان أبيض ساكناً . وقربت منى سحابة بيضاء عطرة ... وأخذ إنسان سجين يضحك عند أذنى ويصيح :

« هو ... هو ... هو ... »

***

لقد كذبت . لم تبر بوعدها ولم تجىء ، وكان انتظارى قدومها عبثاً ، كان وهما باطلاً وأملا خائباً ... وأخذ الغبش يهبط من السماء القاتمة أشهب بارداً متجمداً ... ولم أعد أعرف متى يتحول الغبش إلى مساء ، أو متى ينقلب المساء ليـلاً أسود . فكرت فيه كله كليل طويل حالك فوقه ليل ، وأخذت دائماً ، بخُطى الانتظار المنتظمة الرتيبة ، أروح وأجىء فى الطريق ، ولم أشأ أن أقرب من منزل حبيبتى الشاهق ، ولا من البـاب الزجاجى الأمامى الذى بدا لى شاحباً فى ظل سـقفه الحديدى ، ولـكنى رحت بنفس الخطى المنتظمة أذرع الجانب الآخر من الشارع . رائحاً غادياً ... رائحاً غادياً ... وعنـــد ما كنت أواجه المنزل لا أستطيع أن أنزع عينى من الباب الزجاجى ، فاذا ما بعدت عنه كنت غالباً أقف وأدير رأسى وأسارقه الطرف ، وهنا يخز الثلج الساقط وجهى بوخزاته الحادة ... كانت هاته الأبر الثلجية طويلة نافذة ، حتى إنها نفذت الى قلبى ومزقته وهو المعنّى بالشوق المضنى والانفعال الشديد للانتظار الخائب ! وهبت الريح البـاردة من الضوء فى الشمال الى الظلام فى الجنوب ، وصفرت وعوت ، ولعبت على السقوف المتجمـدة وخلصت نفسها منها وضربت وجهى بسفعات جادة من الندف الثلجية ، وخشخشت كما يخشخش الرمل على مصابيح الشوارع الفارغة حيث يرتجف اللهب الأصفر ويقضقض من البرد وينحنى أمامها .

كم أسفت على هذا اللهب المنفرد الذى يعيش فى الليل فقط ، وفكرت فى الحياة التى ستقف حركتها فى الشارع بعد لحظات ، وفىّ بعد أن أغادر المكان وتبقى الندف الثلجية تهطل وتضربه بضرباتها ، واللهب الأصفر يستمر راجفاً منحنياً فى كنف الوحدة والبرودة المحيطة به

انتظرتها فلم تجىء . وبدا لى أنى وهذا اللهب المنفرد متشابهان ، وكل ما بيننا من خلاف أن مصباحى لم يكن فارغا كمصباحه ، وأخذ الناس يظهرون من وقت لآخر فى المكان الذى ذرعته بخطواتى يكبرون فى صمت وسكون ، ويتضخمون ورائى ، ويبدون سوداً ضخاماً حذائى ، ثم يختفون فجأة كالأشباح السنجابية حول ركن بيت أبيض قائم هناك ، ثم يقدمون ثانية نحوى من حول الركن ويذوبون فى المسافة الرمادية المفعمة بالثلج الصامت المتحرك مدثرين فى معاطفهم الضخمة حتى انعدمت أشكالهم واختفت أجسامهم ، سائرين صامتين على غرار واحد يشابهوننى ، وفكرت فى أن رهطاً من هؤلاء الناس كانوا يمشون مثلى رائحين غادين منتظرين مترقبين راجفين فى صمت .... ويفكرون تفكيرهم المبهم الحزين

انتظرتها فلم تجىء . . . ولم أدر لم لم أعول وأذرف الدمع السخين وأرسل العبرات الغزار ؟ لم أدر لم لم أبك فى ألم وحزن ؟ لم أدر لم ضحكت وكنت سعيداً جذلاً طروبا ؟ قبضت أصابعى الى راحتى بقوة كأنها المخالب ، وتخيلت أنى أقبض بشـدة على المخلوق السام .... الحية .... الـكذب .... فالتفت على ذراعى وعضت قلبى وأصابنى من سمها الرعاف الدوار الشديد . بدا كل ما حولى أكاذيب مجسمة ، وانمحى الحد الفاصل بين الحاضر والمستقبل ، بين الحاضر والمـاضى ، انمحى الحد بين الوقت الذى كنت فيه فى غيابات العدم ، والوقت الذى بعثت فيه فى هـذه الحيـاة الدنيا ... ... وفـكرت فى نفسى — سواء وجدت أو لم أوجد — كانت أبداً قبل أن أوجد وبعد أن وجدت متسلطة على كيانى وجثمانى . ومن الغريب على أن أفكر فى أن لهـا اسما وجسما وأن لـكيانها ووجودها نهاية وبداية ... ليس لها اسم مطلقاً ، وإنما كانت دائماً المخلوقة الـكاذبة ، والتى تمد

ولا تني بوعدها أبداً ... لم أدر لماذا هكذا . ولكنني ضحكت ، وغاصت الابر الحادة في قلبي ، وضحك عند أذني إنسان سجين :

« هو ... هو ... هو .. »

وفتحت عيني ورأيت نوافذ المنزل الشاهق المضيئة ، وأخذت النوافذ تحدثني بألسنتها الزرقاء الحمراء بكل هدوء :

« إنها تخونك في هذه اللحظة ، فبينما أنت تتجول ذارعاً الأرصفة مترقباً حضورها معذبا كئيباً ، إذا بها وكلها جمال ونور وإشراق ... وخيانة ، جالسة هنا تسمع همسات الرجل الصبوح الطويل الذي احتقرك وازدراك . إنك إذا اندفعت إلى داخل المنزل وقتلتها ستعمل عملاً عظيما . لأنك ستقتل الكذب »

وقبضت يدي بشدة وقد أمسكت بسكين وأجبت ضاحكا :

« أجل ... سأقتلها ... »

ولكن النوافذ نظرت إلى بوجوم وقالت في حزن :

« إنك لن تقتلها أبداً.. لأن الآلة التي في يدك هي الكذب بعينه ، كقبلاتها تماماً »

واختفت الظلال المترقبة الصامتة وبقيت وحيداً في هذه البقعة الباردة ، أنا وألسنة اللهب المنعزلة التي ترجف من البرد والخيبة .. وأخذت الساعة في قبة الكنيسة القريبة تدق ، وكان صوتها المعدني الحزين يرتجف وينتحب ويتمدد . ويفقد نفسه في الثلج المدوم المجنون الهاطل ؛ وأحصيت الدقات وضحكت ، دقت الساعة الخامسة عشرة . كانت قبة جرس الكنيسة قديمة بالية كساعتها . ومع أن الساعة كانت سائرة على منوال حسن ، فانها كانت تدق غالباً أكثر من اللازم ، حتى إن الرجل العجوز الذي كان يحركها صعد إلى القبة ليقف بيديه اللسان الضارب . علام كانت تكذب هذه الأصوات الراجفة الحزينة التي يخنقها الظلام الضبابي ؟

وانفتح الباب الزجاجي مع آخر دقة كاذبة للساعة ، وهبط الرجل الطويل نفسه الدرجات . وعلى الرغم من أني رأيت ظهره عرفته لأني كنت قد شاهدته أمس بوقاحته وغطرسته ... عرفت مشيته وكانت اليوم أخف حركة وأكثر ثباتا منها بالأمس . . لقد غادرت من قبل هذا المنزل كما غادره هذا الرجل الآن . إنها الطريقة التي يمشي بها الرجال الذين لا تزال على شفاههم قبلات المرأة الكاذبة

***

هددت ... رجوت ... قضقضت بأسناني ...

« قولي الحقيقة ... »

فسألتني ، ووجهها جامد كالثلج ، وحاجباها مرتفعان في استغراب ، ومن عينيها يطل انسانان سوداوان سريان هادئان ، لا يسبر غورهما :

« ولكن ... هل كذبت عليك ؟ »

وكانت تعرف أني لا أستطيع البرهان على كذبها ، وأن كل أبحاثي وأوهامي وجهودي في معرفة الحقيقة ستذهب هباء بعد كلمة واحدة منها ... كلمة كذب واحدة ... ولقد ترقبت هذه الكلمة وندت عن فمها أخيرا ، وظاهرها يتلألأ بالصدق على أن باطنها كان مظلما قاتما ... « أحبك ... ألست كلي لك ؟ »

وكنا بعيدين عن المدينة ، والحقول المغطاة بالثلج ترنو إلى النوافذ المظلمة ، وفوقها الظلام مخيم ، وحولها الظلام جاثم ، الظلام الكثيف الجلد الصامت الساكن ، ولكن الحقول كانت تلمع بضوئها المكتنز كوجه جثة في الظلام ... وأضاءت شمعة واحدة في الغرفة الرحبة الشديدة الحرارة ، وعلى ضوئها الأحمر انعكست الحقول الميتة ...

« أود أن أعرف الصدق ، بغض النظر عما يسببه لي من حزن ؛ ربما مت بعد سماعه ... ولكن خير للمرء أن يموت من ألا يعرفه . أرى الكذب يطل من عينيك . قولي الصدق ، وسأذهب بعد ذلك بعيدا عنك إلى الأبد »

ولكنها كانت صامتة ، والنظرة التي في عينيها ، النظرة الجامدة المتفرسة نفذت إلى سويداء قلبي وأخرجت أعماق نفسي وأبدتها للعيان ... وأخذت بفضول غريب أمتحنها وأنعم النظر فيها ، ثم صحت بها :

« أجيبي ... وإلا قتلتك ! »

فأجابت بهدوء : « اقتلني ... بعض الأحيان يضيق المرء ذرعا بالحياة ... هل تستطيع الوقوف على الحقيقة بالتهديد ؟ ! »

فجثوت على ركبتي وضغطت على يدها ، وأخذت أتوسل اليها وأرجوها أن ترحمني وتقول الصدق

فقالت ، وقد وضعت يدها على شعري : « مسكين ... مسكين ... »

فرجوتها : « ارحميني ... أود الصدق ... أتلهف عليه ... »

ونظرت إلى جبينها الناعم ، وفكرت في أن الصدق الصراح

هناك .. وراء هذا الفاصل الرقيق ، فوددت بجنون لو هشمت جمجمتها لأراه ؛ وهنا تحت هذا الصدر المرمرى الأبيض كان قلبها ينبض ، فوددت فى خبل لو مزقت هذا الصدر بمخالبى لأرى ولو مرة القلب البشرى العارى ... وكان لهب الشمعة المحدد كالسنان يشتعل بعيداً ساكناً لا يتحرك ، والجدران المظلمة قد غابت فى القتامة المحيطة ، كان كل شىء يبعث على الأسى والوحشة والرعب

وقالت : « مسكين .... مسكين »

وارتعش اللهب الأصفر وتشنج ، وضرب لونه إلى الزرقة ، ثم تمايل واحتضر ... وطوانا الظلام فى جوفه ، ولم أعد أستطيع أن أرى وجهها ولا عينيها ؛ وكانت ذراعاها تطوقان رأسى ... لم أعد أحس بالكذب ، وأغمضت عينى وغدوت لا أفكر ... ولا أعيش فى هذه الدنيا ... وإنما فنيت بكليتى فى لمسات يديها ، فى الاحساس اللذيذ ، فى النشوة العجيبة التى هيمنت على حواسى ومشاعرى ، وبدا الصدق فى عملها هذا ووضح وبان ...وجاء من أعماق الظلام همسها واهياً غريباً مخوفاً :

« ضمنى اليك .. أنا خائفة ... »

وخيم الصمت ثانيـة ... ثم همست مرة أخرى فى صوت خافت جازع :

« إنك تود الصدق ... وهل أنا أعرفه ؟ حتى أنا ... أود أن أعرفه ... احمنى ... أوه ... أى رعب ! ! »

وفتحت عينى وقد أخذ الظلام الشاحب يهرب من النوافذ العالية ، ويتجمع على الجدران ، ويختبئ فى الأركان ، ولاح من النوافذ شىء ضخم فى بياض الموتى ... كأن عين انسان ميت تبحث عنا ... كأن شخصاً ضمنا فى قبضته الباردة ... فالتصق كلانا بالآخر ونحن نرتجف ، وهمست :

« أوه ... ... ما أفظع هذا ! »

***

لقد قتلتها ! ...

قتلتها ... ولما تمددت كتلة بشرية لا حس لها ولا حركة على النافذة ووراءها الحقول البيضاء تمتد وتتشعب وضعت قدمى على جسمها وانطلقت أضحك ، وأقهقه ... ولم يكن ضحكى ضحك المجنون ، لا ... لقد ضحكت لأن أنفاسى خلصت وصدرى استراح ، ولأن فى أعماق نفسى السعادة والسلام والفراغ ...

لقد انمحت من قلبى الدودة التى كانت تنخره ، وانحنيت وأخذت أتطلع إلى العينين الميتتين ، عينان نجلاوان تتعطشان للنور ، بقيتا مفتوحتين شبيهتين بعينى تمثال من الشمع ، العيون المستديرة القاتمة التى تبـدو مفطاة « بالميكا » أستطيع الآن أن ألمسهما بأصابعى ، وأفتحهما وأسباهما ولا أرهب شيئاً ما ، لأن شيطان الكذب والشك مات من هذين الانسانين السوداوين المبهمين إلى الأبد ، مات من هذين الانسانين اللذين كثيراً ما ارتويا من دمى

ولما قبضوا علىّ انطلقت أضحك جذلاً ، وكل من رآنى عد فعلتى عملاً وحشياً مرعباً ؛ كانوا يديرون ظهورهم نافرين متراجعين ، وأخذ بعضهم وقد روّع يوجه إلى ضروب اللوم والتعنيف الشديد ، على أنهم لما بصروا بحالى المرح الطروب ، شحبت وجوههم ، وسمرت أقدامهم ، وقالوا : « مجنون »

ويبدو لى أن هذه الكلمة هدأت ثائرتهم وأقرت هائجهم ، لأنها أعانتهم على حل اللغز . كيف وأنا المحب الوامق أقتل عشيقتى ، وفى الوقت نفسـه أضحك ؟ على أن رجلاً بادناً أحمر الوجه طروبا سمانى اسما آخر . ولشـد ماساءنى منه هذا حتى اسود فى عينى النور ، النور الذى كان أمامى

« مسكين ... » قالها فى عطف لا تشوبه المرارة ، لأنه كان بادناً طروباً :

« مسكين »

فصحت فى وجهه : « لا تقل هذا .. .. لا تسمنى بهذا الاسم »

ولم أدر لم صحت فى وجه الرجل ، ما كنت بالطبع أرغب فى قتله ، ولا حتى فى لمسه ، ولكن القوم الذين أذهلهم الحادث وأخذونى كمجنون ومجرم ، انقلبوا أكثر رعباً وفزعاً ، وصاحوا بطريقة جعلتنى أضحك مرة أخرى

ولما قادونى بعيداً عن الغرفة التى تمددت فيها الجثة قلت ثانية فى صوت عال ملتفتاً إلى الرجل البادن الطروب :

« أنا سعيد ... أنا سعيد »

وكان هذا حقاً

***

رأيت مرة فى صباى نمرا أرقط فى حـديقة الحيوانات ، لفت نظرى وشـغل تفكيرى ، لم يكن كالحيوانات الأخرى التى نامت فى حماقة وأخذت ترى الزوار بالنظر الشزر . وإنما مشى فى قفصه فى خط مستقيم من ركن الى ركن فى دقة حسابية عجيبة ! كان فى كل مرة يرجع الى المكان الذى بدأ منه ، وفى كل مرة يحك فروته الذهبية فى حاجز القفص ورأسه الحاد المفترس مطأطئ ، وعيناه تتطلعان الى الأمام ، ولم يتجه قط بنظره الى الناس ... والناس يتجمعون حول قفصه طول اليوم ، متحدثين صاخبين ، وهو يواصل تجولاته ولا ينظر إليهم مطلقاً .

وقليل من الوجوه فى هذا الحشد كانت باسمة ، وكثرتها كانت عابسة بل حزينة وهى ترقب هذه الصورة البشعة وتتحول عنها بزفرة حارة . وعند ما كانوا يبارحونه كانوا يلقون عليه نظرة فضولية أخيرة وهم عاجزون عن الفهم ، ثم يصعدون الزفرات ! كأن هناك شيئاً مشـتركا بين هؤلاء الرجال الأحرار وهذا الوحش السجين . وأخذت بعد ذلك كلما ذكر الناس الخلود وتحدثت الـكتب عن الأبدية ، أفكر فى هذا النمر الارقط ، وأتصور أنى أعرف الخلود وعذابه

لقد غدوت فى محبسى الحجرى نمراً أرقط . . . سرت فى المكان مفكرا على خط واحد فى عرض محبسى من ركن الى ركن ، وفكرى يتجول معى فى خط قصير أيضاً . أفكار ثقيلة وطأتها على ، خيل إلىّ بأنى لا أحمل رأساً على كاهلى ، وإنما أحمل الدنيا كلها على عاتقى .. وكانت هذه الأفكار تحوى كلمة واحدة ولـكن ما أكبرها وأهولها كلمة . وما أعلقها بغيابات الأقدار !

« أكاذيب . . . » هذه هى الـكلمة

وأخذت هذه الكلمة تفح مرة أخرى من كل ركن ، ثم التفت حولى . . ولـكنها لم تعد حية صغيرة كما كانت ، وإنما انقلبت ثعباناً ضخماً مفترساً تلمع عيناه . أخذ يلسعنى بلسعاته . ولما صحت متألماً خرج من فمى صفير كريه .... كصفير الثعابين ، كأنما احتشد صدرى بضروب الزواحف

« أكاذيب »

مشيت غارقاً فى أفكارى والأرض المقيّرة الناعمـــة الخضراء ... غدت فى عينى هاوية شفافة سحيقة مالها من قرار ، وأصبحت قدماى لا تحسان ببرودة الحجر تحتهما ، وتصورت نفسى أسبح فى علو شاهق فوق الضباب والظلام ، ولما خاص صدرى من الزفرة السامة ... من هناك ... من القاع ... من هـذا الحجاب الرقيق الذى مع رقته لا تنفذ إليـه العين ، دوى ببطء صدى مروع ... كان الصـدى بطيئاً جداً كأنه يعبر آلاف السنين ، وهو فى كل دقيقة وزفرة يفقـد بعض قوته . أدركت بأن هناك فى باطن القاع كانت الرياح الهوج التى تعصف بالأشجار تصفر ... ولـكن صفيرها وصل الى أذنى كأعقاب الأخبـار السيئة تحمل فى طياتها كلمة واحدة قصيرة :

« أكاذيب »

هذا الهمس الوضيع أخذ بخنقى وحبس أنفاسى ، فألصقت قدمى بالأحجار وصحت بأعلى صوتى :

« لم تعد هناك أكاذيب ... بعد ... لقد قتلت الأكاذيب »

وتحولت عامـداً بوجهى لأنى كنت أعرف أن الجواب سيجيء من أعماق الهاوية السحيقة . وكان الجواب :

« أكاذيب ... »

أنت ترى أن الأمر هكذا ... لقد ارتكبت خطأ جسيما . قتلت المرأة ... ولـكنى خلدت الـكذب . لاتقتل المرأة إلا بعد أن تنتزع — بكل وسائل التعذيب والنار والوعيد — الصدق من أعماق نفسها . فكرت فى هذا وأنا أسير فى محبسى من ركن الى ركن

***

لقد حملت معها الصدق والـكذب الى مكان مظلم مرعب... وهل أذهب إليه ...؟ هل أذهب الى هناك ... وعند عرش إبليس سأقبض عليها وأجثو على ركبتى وأبكى وأقول :

« أريني الصدق »

رباه ... رباه ... هذا أيضاً كذب ... الظلام هناك ... وفراغ القرون ... والخـلود أيضاً ... ولـكنها ليست هناك ... ليست فى كل مكان ... بقى الـكذب ... إنه خالد أزلى سرمدى . . . أحسست به فى كل ذرة فى الهواء ...وعندما أنشقه أنشق معه فى صدرى الضعيف فحيح الثعابين فيمزقه ... فيمزقه ...

أواه ... أى جنون عندما يطلب الرجل الصدق ... وأى عذاب وألم ؟

رباه ... أنقذنى ... ... أنقذنى ! !

محمود البدرى

البريد الأدبي

كتاب جديد عن الشاه

يعتبر جلالة رضا خان عاهل إيران من أعظم قادة العصر وملوكه ؛ ومن أعظم زعماء الاصلاح فى الشرق ؛ وقد استرعت شخصيته وأعماله الباهرة اهتمام كثير من الكتاب والمؤرخين المعاصرين ، فصدرت عنه عدة كتب بمختلف اللغات ؛ ومن ذلك كتاب صدر أخيراً بالألمانية عنوانه : رضا شاه Reza Schah بقلم الكاتب الألمانى « هوبرت ملتسج Hupert Melzeg » ، ويستعرض المؤلف فى كتابه حياة الشاه منذ مولده فى سنة ١٨٧٨ فى قرية علشت من أعمال مزنداران ، ووفاة والده وهو طفل فى نحو الخامسة ، وتربيته على يد أخيه الجنرال نصر الله خان . ومما يذكر عن الشاه أنه تلقى تربيته العسكرية فى فرقة القوزاق الروسية الشهيرة حيث اشتهر بالفروسية والبراعة فى الأعمال العسكرية ؛ وفى سنة ١٩٢١ حينما اضطربت شؤون فارس وتجاذبها النفوذان الروسى والانكليزى زحف رضا خان على رأس كتيبة من الجند الوطنيين على طهران ، وعاون على تأليف وزارة وطنية برآسة السيد ضياء الدين ، ودخلها هو وزيرا للحربية ؛ ومن ذلك الحين يقوى نفوذ رضا خان فى الحكومة وفى توجيه السياسة الايرانية ، وكان معظم الجيش من ورائه يشد أزره ، وما زال يتحين الفرص حتى قام بضربته الأخيرة ، وتولى العرش سنة ١٩٢٥ ، وأقصى عنه أسرة قاجار الملوكية التى سقطت إيران فى ظلها الى الحضيض

ويصف المؤلف شخصية الشاه ووسائله فى الحكم ، ويقول إنه يؤثر سياسة الروية والتريث على سياسة الاندفاع والتسرع التى يأخذ بها الكماليون فى تركيا ؛ وهو قد استطاع أن يحرر بلاده من النفوذ الأجنبى ، وأن يلغى المعاهدات الأجنبية المجحفة ، وكذلك الامتيازات الأجنبية والمحاكم القنصلية ، وكل ما يعترض السيادة القومية ، ولكنه قطع هذه الخطوات فى روية وتمهل ، ونجح إلى أبعد حدود النجاح ، وأبدى براعة سياسية تخلق بأعظم الزعماء والساسة ، ثم عمد رضا خان بعد ذلك إلى الاصلاحات الداخلية فأصلح الدستور والقوانين ، وأدخل النظم والعادات العصرية فى المجتمع الايرانى ، ومع ذلك فلم يعمد إلى العنف أو الاندفاع وإنما سار فى كل ذلك بطريقته الرفيقة المستنيرة معاً

ويكتب المؤلف بأسلوب قوى واضح معاً ؛ ويعتبر مؤلفه خير ما أخرج فى موضوعه فى العهد الأخير

ترجمة ضحى الاسلام الى الفارسية

وصل إلينا بالبريد ترجمة الجزء الأول من « ضحى الاسلام » تأليف الأستاذ الجليل أحمد أمين مترجماً إلى اللغة الفارسية ، وقد قام بترجمته الأستاذ عباس خليلى صاحب جريدة « اقدام » ، وطبع بطهران طبعة أنيقة على ورق مصقول جيد ، وهو يقع فى نحو ٤٥٠ صفحة ، وسنعود إلى الكلام عن الترجمة فى مقام آخر

الطب والحركة الهتلرية

عقد أخيرا فى مدينة درسدن مؤتمر للطب والطب الطبيعى ، وقد ألقى خلاله الجراح الألمانى الكبير الدكتور فرديناند زاور بروخ خطاباً استرعى الأنظار بقوته وجرأته ؛ ذلك أنه حمل فيه على سياسة النظام الجديد (أعنى النظام الهتلرى) فى محاربة الجامعة الطبية القديمة ، وأطرى المدرسة القديمة التى كانت قائمة قبل حكم النازى ؛ وقال إنه يجب ألا ننسى أن هذه المدرسة هى التى اشتركت فى تكوين أعظم الأساتذة ، وفى معتركها سقط كثير من الأساتذة والطلبة

ودعا الدكتور زاور بروخ إلى وقف المناقشات العقيمة ورد الهدوء إلى الجامعة ، لأن الهدوء ضرورة لا بد منها لمتابعة المباحث العلمية ؛ وحمل على الجهود الجديدة التى تبذل لاحلال الطب الطبيعى مكان الطب الفنى ، وقال إنها جهود زائفة من الوجهة العلمية ، وأنه لا يوجد طب دون درس ودون تقاليد ،

وأن العلم لا يمكن أن يفنى فى فكرة قوميــة ، بل إن مملكة العلم لا تقف عنـد هذا العالم ، ويجب أن يبقى العلم مخلصا لغايته الأبدية ، وهى البحث عن الحقيقة باخلاص

وقال أيضا إن أسلحة الذهن ضرورية لمسـتقبل الأمة كضرورة الأسلحة المـادية ، وإن الفلسفة هى امتياز للرجال الناضجين ، وليست ميدان الأحداث الناشئين

وقد أحدثت خطبة العلامة الـكبير امتعاضا فى الدوائر النازية ، وصدرت الأوامر للصحف النازية بعـدم اذاعتها ؛ ولـكنها أذيعت مع ذلك فى جميع الصحف الأجنبية

فرنسا وثقافة البحر الأبيض المتوسط

تهتم فرنسا دائما بأن تساهم فى توجيه الثقافة فى حوض البحر الأبيض المتوسط مساهمة قوية ، فى رومة وفى أثينا ، وفى مصر وسوريا ، وفى تركيا ، تقوم معاهد فرنسية كبيرة لنشر الثقافة الفرنسية ؛ وفى موناكو (جنوب فرنسا) تقوم أكاديمية خاصــة تسمى أكاديمية البحر الأبيض المتوسط ، مهمتها أن تساهم فى تأدية هذا الدور الذى تضطلع به فرنسا ، وقد أذيع أخيرا أن هذه الأكاديمية أنشأت معهداً عاليا للتربيــة يسمى « كلية البحر الأبيض المتوسط » تعقد فيه محاضرات ودراسات عالية فى الحضارات والثقافات الخاصة بأمم البحر الأبيض المتوسط منذ العصور الغابرة إلى يومنا ، ويقوم على توجيه هذه الدراسات عدة من علماء فرنســا ومفكريها الأعلام ، وفى مقدمتهم المسيو بول فاليرى الشاعر الـكبير ورئيس مركز هذه الدراسات ، ومسيو شارل فيلاى ، وأندريه بونيه العالم الأثرى ، وجان دستيه المتخصص فى آداب البحر الأبيض ، وغيرهم من كبار الأساتذة والمفكرين

ويرجع اهتمام فرنسا بتوجيه الثقافة فى أمم البحر الأبيض المتوسط إلى عهد الصليبيين ؛ وقد بدأت فرنسا بهذه المهمة فعلا فى بلاد لبنان منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، ولعبت المعاهد الفرنسية فى تثقيف الشعب اللبنانى دوراً كبيراً

وفاة ملك النَور

توفى أخيراً فى سانت بلتن من أعمال النمسا ملك النوَر بطرس فادوس Peter Vados ؛ وقد يبدو غريباً أن نتحدث عن ملك النور ولـكن الواقع أن النور (أو الغجر) وهم فى أواسط أوربا ولا سيما فى بولونيا والمجر ورومانيا كثرة تبلغ نحو المليون لهم ملك يختارونه بالانتخاب ، وقد كان فادوس آخر ملوكهم ، وهو من النور النمسويين ؛ وعند وفاته ازدحمت سانت بلتن بالوافدين عليها من زعماء النور وأعيانهم من جميع أنحاء النمسا والمجر ، وغمر منزل الملك المتوفى بالزهر ، وتولى السهر على جثته طبقاً للعادات النورية اثنا عشر من خاصة أسرته ؛ واقتيد نعشه إلى القبر فى موكب حافل ، وكان المشيعون رجالاً ونساء يرتدون الثياب الرسمية ، وهم زهاء ألف من مختلف الطبقات والأعمار . ولمـا وورى التراب أخذ النساء ينشـدن الأغنية المحزنة وفى تقطيع شعورهن طبقاً للعادة ؛ ثم طاف الجميع بالقبر حفاة الاقدام . ولما كان قانون النور يقضى بانتخاب الملك الجديد فى مدى ثلاثة أيام من وفاته سلفه ، وكانت السلطات النمسوية قد منحت المشيعين أربعا وعشرين ساعة فقط ، فقد سهر الجميع طول الليل وأتموا انتخاب ملـكهم الجديد .

تصحيح خطأ

وقع فى مقال (حول نبوة المتنبى) المنشور فى العدد المـاضى تحريف مطبعى رأيت أن أنبه إليه لمـا فيه من تغيير للمعنى :

ص	عمود	سطر		
١٦٢١	١	٢	فن الغريب	صوابها فن القريب
١٦٢٢	٢	١٨	الانتقاض	« الانتقاص



الشيخ عفا الله

تأليف الأستاذ محمود تيمور

١٧٥ صفحة — قطع متوسط — طبع المطبعة السلفية — غلاف أنيق فاخر — خمسة قروش

بقلم محمود البدوى

يكتب محمود تيمور القصة منذ أكثر من عشر سنوات ، ويوجه إليها كل عنايته وجهده وفنه . والذى قرأ مجموعة تيمور القصصية الأولى ثم يقرأ « الشيخ عفا الله » الكتاب الذى بين أيدينا الآن يرى مبلغ ما وصل إليه المؤلف من توفيق ، ويرى أيضاً أنه يتطور ويخطو نحو الكمال الفنى خطوات سريعة ، وأنه كلما تقدم فى السن أكسبته الحياة تجارب ، وصقلت فنه وهذبت أسلوبه ، ووسعت دائرة فكره ، وفتقت ذهنه ، وعمقت إحساسه ، وجعلته دقيق الملاحظة بعيد النظر ، حتى أصبح من نوابغ كتاب القصة القصيرة فى مصر ومن الآخذين بيدها القابضين على زمامها الذين يوجهونها خير توجيه وأحسنه

والذى يعرف تيمورا ، وهو يقف من أبطال قصصه موقف اللاحظ الشاهد دائماً ولا ينزل الى الميدان أبداً ، قد يدهش عند ما يراه يصور الطبقات الدنيا من الشعب ، ويتغلغل فى حياتها ، وينفذ الى أعماق نفوسهم ويتكلم بلسانهم ويصور أحلامهم وأمانيهم تصويراً دقيقاً فيه الكثير من الصدق .. على أن هذه الدهشة لا تلبث أن تنقلب الى إعجاب وتقدير متى أدرك القارئ أن تيموراً وإن كان ينظر الى هذه الطبقة من بعيد ولكنه يراها بعينى قلبه ، ويحس بالعطف والشفقة والحنان على هؤلاء التعساء المساكين الذين يعيشون أبداً فى الظلام مستسلمين صاغرين

وتيمور قصصى واقعى يصور الحياة المصرية على بساطتها وسذاجتها أبدع تصوير ، وقد يحيد بعض الأحيان عن الواقع ويميل الى المغالاة فى بسط الحوادث ليخلق المفاجأة ويرهف حس القارئ ويأسر لبه ، على أن ذلك لا يكون إلا فى سبيل فكرة سامية جليلة

وأول ما يسرك فى هذا الكتاب أن صاحبه تمشى فيه مع كتاب القصة الحديثة فى أوروبا الذين خضعوا راغبين لعلم النفس ، فبسطوا النظريات النفسية وحللوا الانسان تحليلا دقيقاً على ضوء هذا العلم الجليل الشأن العظيم الأثر ، وعنوا عناية فائقة بالغرائز وخفايا اللاشعور ، ووفقوا وبرعوا فى سبر أغوار النفس البشرية والوصول الى أعماقها . . وتصوير أدق خلجات الفؤاد ، ورد كل ما يجيش فى صدر الانسان وعقله من عواطف وخواطر وانفعالات الى أسبابه وبواعثه الحقيقية . لقد كشف هؤلاء العلماء الأفذاذ الانسان البشرى — بعد جهل طويل — وجردوه من لباسه المستعار وأبرزوه فى ضوء النهار أمام هؤلاء المترمتين العاجزين الذين يشوهون بنفاقهم حقائق الوجود

والشيخ عفا الله أولى قصص الكتاب الاحدى عشرة هى أوضح صورة قوية على ما قدمنا ، فيها الكثير من التحليل النفسى العميق . فهذا الرجل الذى يحب ويكبت الغريزة فيضطرب ويكاد يجن ثم يضعف أمامها ويتركها تسير فى طريقها ويقوم منها على صوت ضميره القوى الملح عليه .. الذى يأخذ عليه دائماً السبيل ويبرز أمامه جرمه مجسما على أبشع صورة هى قطعة حية من صميم الحياة وصميم النفس وصميم الواقع

و« قصيدة غرام » هى وصف رائع لحياة طبيب شاعر عاشق فيها الكثير من الصدق والحرارة والاخلاص ، وتعرف من خلال سطورها أن المؤلف كتبها بعناية وحرارة ، وأنه أفرغ فيها كل فنه ، ولولا أنه أقحم فيها مسألة الزواج إقحاماً وجرى

فى ذلك مع العرف والتفكير المصرى الساذج ليوافق هوى القراء فحاد بذلك عن الفن وانحرف عن السبيل لكانت من أروع ما كتب تيمور عن الحب وصور . وفيها إحساس صادق يعرفه المسافرون الراحلون عن أوطانهم . . وليس ذلك لأن المؤلف قام بدور البطل نفسه ، بل لأن المؤلف قام بهذه الرحلة — كما يبدو لى — ومن هنا يدرك القراء مبلغ الصدق فى التصوير عند ما يكون المؤلف جزءاً من البطل فكيف به إذا كان البطل كله ؟

ثم قصة « الشيخ علوان » هذا الرجل الذى يضرب بتقاليد المجتمع وأوضاع الناس عرض الحائط ويعيش على هامش الحياة لا يتقيد بعرف ولا يخضع لنظام ولا يتورع عن التزوج بزوجات أخيه الثلاث . . . ولا يأنف من أن يفرض على الموسرين من الشبان ضريبة ليطعم وينعم ويعيش ، كما يعيشون وينعمون ويلتذون ! . . . لو رأيت الشيخ علوانا هذا فى الطريق لصافحته بحرارة !

ومحمد عوف مجلد الكتب فى « الكسيح » هذا الرجل القوى الشخصية الجبار الجسم الذى بسط سلطانه على صبيه ، فأسره وأحاطه بالأغلال والقيود ، فما استطاع الغلام التملص أو الفكاك من الأسر حتى بعد أن بتر الترام ساق معلمه وغدا عاجزاً كسيحاً يصب لعنته على الناس أجمعين

وعادل الدرديرى فى « إفلاس » هذا الشاب الطموح الجامح القلق ، الذى ضاق ذرعاً بالمدينة وتقاليدها وسخفها ومفاسدها ونفاقها ، وحن إلى الريف فى هدوئه وبساطته وطهره . . فلما اختبره اجتواه وارتد عنه حائراً لا يدرى كيف يعيش ولا كيف يعيش هؤلاء السعداء الذين يعيشون على نسق ونظام وقانون !

وعلى هذا المنوال الحسن باقى قصص الكتاب ، وكلها من أقوى القصص المصرية الرائعة

وأبطال تيمور على العموم مرضى يحيون فى دائرة ضيقة خانقة ، ويحسون بثقل الحياة عليهم ، ومع هذا لا يتحركون ولا يفكرون فى التحرك .. لتغيير مآلهم .. أبداً خاضعين مستسلمين لمن هو أقوى منهم ، ولهذا لا تأسف على فراقهم ولا ترسل الدمع وراءهم ، وهم يخرون صرعى فى ميدان الحياة ، لأنك تشعر فى أعماق نفسك بأنهم لا يصلحون لغير الموت

وتيمور مغرم بهذا النفر المريض من الناس غراماً كبيرا ، وهذا ما كان يعيبه النقاد على تشيكوف ، وهو أنه ضيع عمره وقضى حياته فى وصف قوم مرضى لا خير فيهم ، ولكن هؤلاء المرضى هم غالبية الطبقة العامة التى يصورها المؤلف . وتشيكوف كان يصف روسيا المريضة ، وتيمور يصف مصر المريضة أيضاً . . والقصصى الواقعى ينتزع أبطاله من صميم الواقع ... فالى أن ينشأ جيل قوى جديد بدل هذا الجيل المريض العاجز سيستمر تيمور يعالج حياة هؤلاء المرضى ويسخر منهم ويتركهم صرعى عاجزين

وبعد فهذه كلمة قصيرة عن كتاب جديد يستحق عليه صاحبه التهنئة والاعجاب والتقدير .

محمود البدرى

قصص مختارة من الأدب التركى

تعريب خلف شوقى أمين الداودى

١٨١ صفحة — قطع متوسط — طبع مطبعة عيسى البابى الحلبى

فى هذا الكتاب أكثر من خمس وعشرين قصة قصيرة اختارها المعرب لطائفة من أدباء الأتراك الذين تغنى شهرتهم عن التقريظ كما يقول ! ومن بينها قصص « محاكمة الحاجة فطومة » و « النار الموقدة » — نشرت فى الرسالة — و « اعترافات سيدة » و « الكلب بوبى » . وهذه الأخيرة فيها القليل من الفن القصصى ، أما الثلاث الأولى فكل ما يمكن أن يقال عنها أنها تقرأ .

هذا ونرجو أن يوفق المترجم فى كتابه المقبل إلى ما هو أحسن من هذا وأفضل وإن كنا نرجو لكتابه هذا ما يستحق من تشجيع وتعضيد ما ؟

البدرى

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧٢ — ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 172

Lundi - 19 - 10 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العــدد ١٧٢ « القاهرة في يوم الاثنين ٣ شعبان سنة ١٣٥٥ — ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العــــدد

صفحة

اليـــوم المشهود ...

ذلك يوم الأوبة ! وأوبة الزعيم العظيم عنوان من النور على فصل جليل الخطر بارز الأثر من تاريخنا الجديد : تجمعت في هـذه الأوبة أشتات من المعاني والمنى ، فكان يومها الأغر مظاهرة شعبية هاتفـة ، جلجل فيها صوت الحق ، واستعلى بها شأن الأمة ، واستعلن فيها مجد الوطن ؛ وكأنما انبثقت في النفوس لأول مرة مشاعر المصرية والحمية والعزة ، فكل امرئ يحس بوجوده المستقل ، ويزهى بسلطانه القادر ، ويفخر بإرادته الحاكمة

احتفل حَشْدُ الناس يوم الثلاثاء على حواشي الميناء وفوق متون الماء لاستقبال الرئيس الجليل على (كوثر) ، وقد عاد إلى وطنه الشاكر الذاكر بتحقيق المسعى وتصديق الأمل ؛ فكان هذا الاستقبال النادر مشرق الدلالة على معناه : نمَّ ببهزة السرور عن لذة النصر ، وببشاشة الوجوه عن جمال الشكر ، وبحماسة الهتاف عن وجهـة الرأي . وكانت الاسكندرية في ذلك اليوم صورة منسقة الألوان مهذبة الأطراف منمنمة الخطوط للقطر كله ؛ تمثلت فيها من أعلى الجنوب إلى أسفل الشمال وجوه البلد ،

وأنماط الزى ، ونوازع الهوى ، ومرامى النظر ؛ فالأندية والمقاهى والمطاعم والفنادق والطرقات والمركبات سيول متدافعة من فنون القول ، ولكنها لا تخرج فى عنصرها وجوهرها عن تفنيد المعارضة وتأييد المعاهدة وتمجيد الزعيم

لا أكذبُ الله ، كانت الحجج كثيراً ما تسقط إعياء فى حَلْبة الجدل ، ولكن تهافتها كان يرجع إلى ضعف المدافع لا إلى ضعف القضية ؛ وكان الغالب على منطق السواد من وفود البلاد الايمان الثابت برأى الوفد ، أو الاذعان المريح لحكم الواقع . فهم يقولون مالنا ولجدال المحامين بمواد القوانين وآراء العلماء ونصوص الكتب ؟ إن الوفد لم يجرب عليه تدليسا فى رأى ، ولا تفريطاً فى حق ، ولا توريطاً فى باطل ، وقد مضى فى ضمان الوحدة والخبرة ففاوض ، واطمأن على سلامة الحق والعدالة فعاهد ؛ فاذا قال لنا هذا هو الاستقلال الذى استنفدتم إليه الجهود والوسائل ، وأرخصتم فيه الأموال والمهج ، كنا أحرياء أن نقبل عليه بالسمع ، ونخلد إليه بالثقة . ثم تبلغ الثقة الراجحة حد اليقين المحض إذا عارض هذا القول من نستريب بسياسته ونستوحش من ناحيته . كذلك يقولون إذا أخرجهم نشاط الحديث من التسليم الأعمى إلى التدليل البصير : لا جدال فى أن للمعاهدة محت الاحتلال وأثبتت الاستقلال وفتحت السودان ، وحطت عن كاهلك امتياز الأجنبى ، وأذهبت عن ضميرك رجس الهون ، وجعلتك مطلق السيادة حر الارادة تحت سمائك وفوق أرضك ؛ فاذا توخينا وجوه الاصلاح الداخلى ونحن على هذه الحال الجديدة من حرية الرأى والعزيمة والعمل ، وبذلنا فى سبيله ما كنا نبذل فى سبيل الاستقلال من نقود وجهود وتضحية وزمن ، جرينا من سُبل التقدم إلى أبعد الغايات فى أيسر كلفة وأقصر مدة

***

كان اسم النحاس، ولفظ المعاهدة هتافَ المظاهرات وموضوع الخطب وحديث الأندية فى الاسكندرية ، ذلك لأنهما كلمتان استوعبتا أحفل المواقف وأنبل العواطف وأجمل الذكريات من جهادنا المجيد . فالنحاس اسم يشمل الزعامة والوطنية والوفد ، ويتضمن أسماء عرابى ومصطفى وسعد ، ثم يستغرق كذلك أسماء مكرم والنقراشى وماهر ؛ والمعاهدة لفظ يتناول مدلوله أهوال الثورة التى بذرتها ، ودماء الشباب التى أسقتها ، وأشلاء الضحايا التى غذتها ، وجهود الابطال التى تعهدتها ثم جنتها ؛ ثم يشمل كذلك ما قر فى أذهاننا من معانى الحرية ، وشاع فى نفوسنا من مشاعر المجد ، وحصل فى أيدينا من وسائل السيادة ، وامتد فى خيالنا من حدود الأمل

ما أجمل الاسكندرية اليوم ! لقد أصبحت خالصة المصرية حتى فى الطبيعة والمظهر ! الجو راكد الريح زاهق الأنفاس كأنه طلعة المختنق ، والبحر راقد الموج مصقول الأديم كأنه صفحة المرآة ؛ فلا العباب زاخر يبعث الروعة فى القلب الشاعر ، ولا النسيم نديّ ينضح بالنعيم الجسد المحرور ؛ ومع ذلك نراها أقرب ما كانت إلى القلب ، وأروع ما تكون فى النفس ! لقد ذوب هذا اليوم عنصرها الدخيل كما تذوب حبات الملح فى لجج الفرات العذب . لم يبق إلا مواكب الأهلين تشدو بأهازيج النصر ، ووفود الأعيان تناقل أحاديث الوطنية ، وكتائب الوفديين تنشد أغانى الحماسة ، وخطباء المحتفلين يرسلون على أمواج الأثير عواطف مصر الشابة إلى الجهات الأربع

***

تجددت مظاهر النصر والشكر والتأييد والفرح فى سُوح القاهرة ، فكان يوم السبت فى مدينة المعز أبهر جلالا وأروع استقبالا من يوم الثلاثاء فى مدينة الاسكندر ! ذكرنا به أيام سعد ! وأيام سعد خوالد يتحدين النسيان ويعاجزن البلى ، وقد كن لهذه الأيام السعيدة شروقا وبكرة

سننعم بأصائل هذه الأيام حيناً من الدهر يقصر أو يطول ، ولكن شمسها ستدخل فى ملكوت الخيال وعالم الذكرى ، ثم لا يبقى فى أيدينا من ثمارها غير المعاهدة . والمعاهدة وثيقة الاستقلال فى القانون ، ولكنها ورقة الامتحان فى العمل . ولا ريب أن الذين عرفوا كيف يحررونها ، سيعرفون كيف ينفذونها . ومن عمل واليد شلاء ، وبلغ والطريق غفلاء ، فهل تخشى عليه والسبيل واضحة ، والغاية لائحة ، والساعد حر والساق طليق ؟

احمد حسن الزيات

الجمهـــــور

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وقال صاحب سر (م) باشا : كان من بعض عملي في الحكومة سنة ١٩٢٢ أن أراقبَ الحركاتِ والسكنات ، وأبثَّ العيون والأرصادَ ، وأعرفَ المضطرِب والمتقلِّب في أيام الفتن ونوازل المحنة ، محافظةً على الأمن ومبادرةً لما يُتوقَّع ؛ فكنت كالرصدِ المهيَّأ بآلاته لتدوين حركات الزلازل

وانتهى إلينا يوماً أن راجفةً من هـذه الزلازل سترجُفُ بفلان من أهل الرأى الحر الذي يستقلُّ ولا يُتابع ، وينتقد ولا يحابي ، ويصرِّح ولا يُجَمْجِمُ ، وأن قوماً ثوَّروا عليه الغبارَ الأدنىَ من العامة وأشباهِ العامة ، وأنهم يتحيَّنون الوقت لتوجيه المكيدة له في شكلها المفترس من هذا الجمهور الناقم

أما فلان هذا فرجلٌ سياسي عنيد أضاع الحقَّ كلَّه لأنه لا يرضى بنصف الحق ... وكلمته في السياسة كأنما تلقى على لسانه من الغيب فلا يتحول عنها ولا يملك أن يتكلم عما يتكلم ؛ وقد ذهب بصوته أنه في قوم لا يسمعون إلا ما أرادوا ، فهو بينهم كالحق المغلوب لا يموت لأنه غير باطل ، ولا يحيا لأنه لا ينتصر . وقد كان رجلاً كالمصباح الوهَّاج فألقوا عليه الغطاءَ فإذا هو في طبيعته ويبدو للناس بغير طبيعته ، وتركه رأيه الحرُّ الصريح كالنبي المكذَّب يُردُّ عليه صدقُه لا لأنه غير صدق ولكن لأنه غير مستطاع أو غيرُ ملائم

ومن آفاتنا نحن الشرقيين أننا نستمرئُ العداوةَ وننقادُ لأسبابها ونتطاوعُ لها تطاوُعَ الصغار بأنفسهم لما في أنفسهم ، كأن المستبدين الذين كانوا في تاريخنا قد انتقلوا إلى طبائعنا ؛ فردُّ الفكر على الفكر في مناقشةٍ تجري بيننا — لا يكون من دفع الحقيقة للحقيقة ، ولكن من رد الاستبداد على الاستبداد ومن توثُّب الطغيان على الطغيان ؛ فهو الثَّلبُ والطعنُ والتجريح ، وهو الجفوة والخصومةُ واللَّدَد ، وهو المنازعةُ والعنفُ والتحامل ؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوط . والجدال بين العقلاء يبعث الفكر فينتهي إلى الحق . ولكنه فينا نحن يهيج الخلق فينتهي إلى الشر ، والردُّ على عظيم منا كأنه ردٌّ على منزلته في الناس لا على منزلته في الرأى ، وكشف الخطأ عندنا تعييرٌ بالخطأ لا تبصيرٌ بالصواب ، واستلابُ الحجة من صاحبها وإفسادُها عليه كاستلاب المِلك من مالكه وطرده منه ..

ومن ثمَّ كان الدفاع بالمكابرة أصلاً من أصول الطبيعة فينا ، وكان الاضطهادُ حجةً للحجة العاجزة ، وكان الاعناتُ دليلاً للدليل الذي لا ينهض بنفسه ، ومتى اعتبر كلُّ إنسانٍ نفسه أمبراطوراً على الحق ... فلا جرَمَ لا تردُّ كلمةٌ على كلمة إلا بحرب

* * *

قال صاحب السر : وكبر الأمر على الباشا فجمع رؤوسَ المؤتمِرين بذلك الرجل الحر ، وأخذ يقلِّبهم تقليبَه بين التودد والملاطفة ، وقال لهم فيما قال : إن فضيلة الجمهور هي التي تضمن تربية الفضيلة وحفظَها وغَلبتَها على الرذائل ، وإن كل صحيح يكون فاسداً إذا لم يكن الجمهور صحيحاً ، وإن غير العقلاء هم الذين يقبلون الحقيقة في يوم ثم يرفضونها هي ذاتها في يوم آخر ، فإن ذهبتَ تجادلهم وتحتجُّ عليهم بأنهم قبلوها — قالوا : هذا كان أمس ... فكأنما الفاصل بين زمنين يجعل الشيءَ الواحد ضدين

ثم سألهم : ما هو ذنب الرجل ؟ فقال منهم قائل : إنه خارج علينا في الرأى . فقال الباشا : إن المعنى في أنه يخالفكم هو أنكم أنتم تخالفونه ؛ فقد تكافأت الناحيتان ، وخلافٌ بخلاف ؛ فما الذي جعل لكم حقَّ رده عن الرأى دون أن يكون له مثل هذا الحق في ردكم أنتم ؟ قالوا : إننا الكثرة . قال الباشا : يا أصدقائي إن خوف الكثرة من رأى فرد أو أفراد هو أسوأ المعنيَين في تفسير رأيها هي ؛ وعشرة جنيهات لا تعبأ بالجنيه الواحد فإنها تستغرقه ، بيد أن هذه ليست حالَ عشرة قروش يا أصدقائي . .

نعم إن قطعَ الخلاف ضرورةٌ من ضرورات الوطنية ، ولكن إذا كان الأمر في ظاهره وباطنه كالخلاف في أيهما أطول : العصا أو المِئذنة . . ؟ فذلك جدال محسومٌ من نفسه بلا جدال

إن أساس انخذالنا نحن الشرقيين في قلوبنا إذ لا نعتبر المعانيَ العامة إلا من جهة أنها قائمةٌ بالرجال ، ثم لا نعتبر الرجالَ إلا من ناحية ما في أنفسنا منهم ، ثم لا نعتبر أنفسَنا إلا من جهة ما يُرضينا أو يغضبنا ، وقد لا يغضبنا إلا الحق والجِد ، وقد

لا يرضينا إلا الباطل والتهاون ، ولكنا لا نبالى إلا ما تَرضَى وما نغضب

لستم أحراراً فى أن تجعلوا غيركم غيرَ حر ، فان يكن الرأىُ الذى يعارضكم رأياً حقاً وتركتم منا بذ ّنه فقد نصرتم الحق ؛ وإن يكن باطلا فاظهارُه باطلا هو برهانُ الحق الذى أنتم عليه ؛ ولن تجرّدوا أحداً من اختيار الرأى إلا إذا تجردتم أنتم من اختيار العدل ، فان فعلتم فهذه كبرياء ظالمة ، تدّعى أنها الحق ثم تدّعى لنفسها حكمه ، فقد كذبتْ مرتين

اسمعوا أيها السادة : قامت بين اثنين من فلاسفة الرأى مناظرة فى صحيفة من الصحف وتساجلا فى مقالات عدّة ، فلما عجز أضعفُهما حجةً وكَمَمهُ الجدال ، كتب مقالته الأخيرة فجاءت سقيمةً ، فلم ترضه فبيَّتها ونام عنها على أن يرسلها من الغداة بعد أن يردّد نظره فيها ويصحح آراءه بالحجج التى يُفتح بها عليه . قالوا : فلما نام تمثَّلت له المقالةُ فى أحلامه جسما حياً موهوناً مترضضاً ، مخلوعاً من هنا مكسوراً من هناك ، مجروحاً مما بينهما ؛ ثم كلَّمته فقالت له : ويحك أيها الأبله . إن أردت أن تغلب صاحبك وتُسكتَه عنك فاحمل مقالتك إلى رأسه فى العصا لا فى الجريدة . . .

* * *

قال صاحب السر : وضحك القومُ جميعاً وأذعنوا وانصرفوا مقتنعين قد خلَصتْ دِخْلتُهم لذلك الرجل الحر وتنصَّلوا من جريمة كانت فى أيديهم ، وماجاء الباشا بمعجز من القول ولكن تصويره للمسألة كان حلاًّ لها فى نفوسهم . فلما أدبروا تنفَّس الباشا كأنما خرج من البحر وكان يتعاطى إنقاذَ غريق ويُعانى فيه حتى نجا ؛ ثم قال لى : إن هذا كان جوابا عن شىء فى أنفسهم ولكنه هو سؤال عن شىء فى أنفسنا : ما الذى يجعل الناسَ عندنا يخشون المعارضة فى الرأى الوطنى حتى إنهم ليجازُون عليها بهذه العقوبة الشعبية المنكرة ، وما بالهم لا يعطون الرأى حكمه وحقيقته بل يعطونه من حكم أنفسهم وحقائقها وشهواتها المتقلبة حتى لترجع الفروقُ الضعيفة المتجانسةُ فى أبناء الوطن الواحد — وكأنها من الخلاف والمباينة فروقٌ جنسيةٌ كالتى تكون بين إنسانٍ من أمة وإنسانٍ من أمة أخرى تعاديها به

قلت : إن رأى الكثرة قانون يا باشا

قال : هذا صحيح ولكن بشرطين لا بشرط واحد : الأول ألاَّ يخرجَ الرأى على القانون ، والثانى ألاَّ تكون الحقيقة فى الرأى الذى يناقضه ؛ ومحاولةُ إكراه المعارضة نقضٌ للشرطين معاً[1] . ثم إن أساس الوطنية سلامةُ القلوب وصفاءُ النيات واستواءُ الموافق والمخالف فى هذا الحكم ؛ ومتى وقع الخلاف بين اثنين وكانت النية صادقةً مُخْلَصَة لم يكن اختلافهما إلا من تنوع الرأى ، وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين ما من ذلك بد

الحقيقة يابنى أن الجماهير الشرقية ليست فى تربيتها من الجماهير السياسية التى يُعتدُّ بها إذ لا تزال فى أول عمرها السياسى وبهذا السبب وحده كان اختلافُ الكبراء فى السياسة لا يشبهه إلا نزاع الخصمين بغير شهود ولا قاضٍ نافذِ الحكم ، فهو نزاع قوة تفوز بوسائلها لا نزاعُ حق يستعلى بأدلته

وهذه المجالس النيابية الشرقية كلها صور ممثَّلة جافة منقطعة النماء من أسبابها كالفرع المقطوع من الشجرة ، وإنما يتنضَّر الفرعُ ويُثمر أثمارَه إذا قام بشجرته لا بنفسه ، وما شجرة الفرع السياسىّ إلا الجمهور السياسى

فسبيل الاصلاح فى كل مملكة شرقية أن ينهض أهل الرأى من كل مدينة فيها بين عالم وأديب ومحام وسَرىّ ومن كان بسبيلٍ من هؤلاء ، فيجعلوا لمدينتهم دارَ ندْوة للاجتماع والبحث والمشورة وقول (نعم) بالحجة وقول (لا) بالحجة . ثم يعلنون ذلك فى جمهورهم وينزلون منه منزلة الأستاذ والأب والصديق فى تعليمه وهدايته وإرشاده ؛ وتتصل هذه الدورُ فى كل مملكة بعضها ببعض وتنتهى بالمجالس النيابية . وبغير ذلك لا يُملأ الفراغُ الذى نراه خاويا بين الشعب والحكومة وبين الكبراء والجماهير ، وإنما أكثر مصائبنا من هذا الفراغ فهو الذى يضيع فيه ما يضيع ويختفى فيه ما يختفى

منا قومٌ موظفون فى الحكومة ؛ ولكن أين القومُ الذين تكون الحكومة نفسها موظفةً عندهم ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

(اعتذار) بهذا المقال انتهت أحاديث الباشا فقد أنبأنا صاحب السر أنه سيكتم السر . . . .

---

(١) لاينس القارئ أن هذا كان سنة ١٩٢٢

انقذوا تراث الأندلس

واجب الأمم العربية والاسلامية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأنا فى الأنباء الأخيرة أن مندوب بوليڤيا (من جمهوريات أمريكا الجنوبية) لدى عصبة الأمم قد أثار أمام إحدى لجان العصبة مسألة الآثار الفنية فى اسبانيا وما يهددها من الأخطار من جراء الحرب الأهلية الطاحنة التى تجتاح اسبانيا من أقصاها إلى أقصاها ، وطلب أن تعمل العصبة لحماية هذه الذخائر الفنية ولا سيما فى الأماكن التى تهددها ويلات الحرب

ونحن نعرف أن عصبة الأمم لا تملك وسيلة للتدخل الفعلى فى المأساة الاسبانية ، ولا تستطيع مع الأسف أن تعمل شيئاً لحماية الآثار الفنية فى اسبانيا

بيد أن لهذه الصيحة الكريمة التى يرسلها مندوب بوليڤيا قيمتها وأهميتها فى تذكير العالم المتمدن بأن فى اسبانيا تراثاً فنياً بديعاً هو اليوم رهين القــدر ، ووشيك التبدد والفناء ، إذا لم تتداركه يد الحماية والغوث

وهذه صيحة يجدر بنا أن نرددها . ذلك أن بين هذا التراث الذى تحدق به الأخطار من كل صوب بقيــة نفيسة من تراث الاسلام فى اسبانيا : هنالك فى غرناطة الحمراء وجنــة العريف وأبهاؤهما ونقوشهما الرائعة ، وهنالك فى أشبيلية قصر بنى عباد ، وبرج « الجيرالدا » ، وهنالك فى قرطبة مسجدها الأموى الجامع الذى ما زال رغم تحويله إلى كنيسة من أروع الآثار الاسلامية ، وهنالك تراث الاسلام الفكرى فى قصر الأسكوريال ؛ وهنالك آثار ونقوش اسلامية كثيرة فى معظم المتاحف والمدن الاسبانية ؛ وكلها مما يلقى أعظم ضياء على تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها فى أزهر وأمجد عصورها (١)

ولقد كنا أول من أرسل هذه الصيحة منذ بدء الحرب الأهلية الاسبانية ، إذ كنا يومئذ على مقربة من اسبانيا مسرح المأساة ، وقرأنا فيما قرأنا من أنبائها أن طيارات حكومة مدريد قد ضربت مدينة غرناطة بالقنابل (وغرناطة ومعظم قواعد الأندلس الأخرى ما زالت بيد الثوار) ، وأن قنابل قد سقطت على قصر الحمراء فأتلفت بعض جدرانه ، فأثار هذا النبأ فى نفوسنا شجنا وأسى ، وكتبنا يومئــذ نلفت نظر العالم المتمدن ، ونظر العــالم الاسلامى خاصة الى ذلك الخطر الداهم الذى يهدد تراث الاسلام فى أسبانيا

وهذه مأساة القصر (الـكاثار) المروعة بجوار طليطلة ، وقد خرب فيها حصن القصر القديم الذى يرجع معظم بنائه الى العصر الاسلامى

وفى الأنباء الأخيرة أيضا أن زعماء الثورة رأوا أن يجتذبوا ولاء الجنود المغاربة وأن يثيروا حماستهم بأن يسمحوا لهم باقامة الصلاة فى جامع قرطبة الـكبير الذى هو اليوم كنيسة جامعة ؛ ونحن نغتبط إذ يستطيع المسـلمون أن يؤدوا شعائرهم فى ذلك المسجد الجامع القديم الذى هو أبدع آثار الدولة الأموية فى الأندلس ؛ ولـكننا نخشى أن تؤدى الفوضى العسـكرية فى مثل هذه الظروف الى تشويه هذا الأثر الاسلامى الخالد أو تخريبه

والآن يزحف الثوار على مــدريد ويطوقونها من الشمال والجنوب والغرب ؛ وتضطرم حول العاصمة الاسبانيــة وفى سمائها حرب طاحنة لا يقف المتحاربون فيها عند شىء ولا يفرون شيئا ؛ وفى مــدريد متحف يضم كثيرا من الآثار والنقوش الاسلامية ؛ وعلى مقربة من مدريد تقع ضاحية الاسكوريال ، وفيها الدير المسمى بهــذا الاسم والقصر الملحق به الذى يضم المـكتبة العربية الشهيرة ؛ فالآن وهــذه المعارك الطاحنة تدور حول مدريد بين جيوش الحـكومة وجيوش الثورة ، ماذا يكون مصير الاسكوريال ومصير الآثار والـكتب العربية ؟ هذا سؤال نردده جزعين خصوصا بعد الذى رأينا من روعة هذه الحرب التى تجتاح فى طريقها كل شىء ولا تقف عند أى اعتبار انسانى

لقد عملت اسبانيا النصرانية فى إبان غلوائها وتعصبها على تبديد معظم تراث الاســلام ، وكانت يوم مصرع الاندلس ، ويوم كانت لا تزال تضطرم بروح العصور الوسطى ، تعتبر هذا التراث رجسا يجب أن يمحى من أرضها ومن تاريخها القومى ؛

---

(١) عنى الأستاذ المستشرق ليفى بروڤنسال بجمع النقوش والنصوص الأثرية الاسلامية فى اسبانيا وشرحها وترجمتها إلى الفرنسية فى كتاب ضخم فى مجلدين عنوانه « النقوش الاسلامية فى اسبانيا » Inscriptions Arabes d'Espagns وبه صور عديدة لهذه النقوش والنصوص

فلم تمض أعوام قلائل على سقوط غرناطة حتى أمر الكردينال كمنيس بالكتب العربيـة فجمعت من سائر الأنحاء، وأحرقت أكداساً فى أكبر ميادين غرناطة ، وكان منها ألوف مؤلفة من كتب الدين والفقه والتاريخ والأدب وغيرها ، ولم يستثن منها سوى ثلثمائة من كتب الطب والرياضة وهبت لجامعة الكالا (القلعة) التى أنشأها كمنيس ، وأبيد بتلك الجريمة البربرية التى ارتكبت عام ١٤٩٩ معظم تراث الأندلس الفكرى (١)

ومع ذلك فقد بقيت من الكتب العربية فى اسبانيا مجموعة كبيرة أودعت فى أقبية الأسكوريال ، وأخفيت بعناية عن نظر كل باحث ومتطلع ؛ وكان عددها حتى أواسط القرن السابع عشر يبلغ نحو عشرة آلاف مجلد ؛ ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس ، ففى سنة ١٦٧١ شبت النار فى الأسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه سوى ألفين ، هى التى عهدت الحكومة الاسبانية فى منتصف القرن الثامن عشر الى العلامة اللبنانى ميشيل الغزيرى ببحثها وتصنيفها فى فهرسه الجامع (٢) ، وهى التى بقيت إلى يومنا من تراث الأندلس

هذا عن تراث الأندلس الفكرى . أما عن الآثار المادية ، فقد حولت جميع المساجد الجامعة إلى كنائس ، وتناولتها يد التدمير بالهدم والتحوير ، وضحيت جميع الذخائر والاعتبارات الفنية فى سبيل تحقيق الشهوات الدينية ؛ ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كادت آثار الاسلام كلها أن تمحى من اسبانيا ؛ ولم يبق منها سوى حمراء غرناطة ومسجد قرطبة والقصر فى أشبيلية ومجموعة من اللوحات والتحف والنقوش الأثرية فى متاحف مدريد وقرطبة وبنبلونة وأشبيلية وغيرها

هذه البقية الباقية من تراث الاسلام فى اسبانيا يحدق الآن بها خطر داهم ، ويخشى بحق أن تمتد إليها يد التدمير التى تحطم الآن كل شىء فى طريقها ؛ فهل تبقى الأمم الاسلامية على صمتها وجمودها حتى تقع الفاجعة ويمحى ذلك التراث العزيز تحت وابل النار والقنابل ، أم يجدر بالأمم الاسلامية أن تحذو حذو مندوب بوليفيا لدى عصبة الأمم فترفع صوتها مطالبة بالعمل لانقاذه وحمايته ؟ نعتقد أن الأمم الاسلامية المختلفة تستطيع أن تبذل على يد حكوماتها من المساعى فى هذا السبيل ما يكفل لفت نظر الفريقين المتحاربين فى اسبانيا إلى احترام هذا التراث المقدس الذى لا يعنى أمره اسبانيا وحدها ، بل يعنى أمره العالم العربى والاسلامى أيضاً ، ويعنى أمره العالم المتمدن بأسره

ولسنا نعرف أى سبيل ستتخذ عصبة الأمم إذا استجابت لدعوة مندوب بوليفيا ، وهى بلا شك سوف تحلها مكانها من الأهمية والعناية ؛ وليست الوسيلة مما يهم فى الواقع ، وكل ما يهم هو أن يصل هذا النداء إلى حماية الآثار والذخائر الفنية إلى الفريقين المتحاربين فى أسبانيا ؛ وإذا لم يكن فى وسع الأمم والحكومات ذات الشأن أن تساهم فى هذه الدعوة بطريق مباشر ، وأن تتصل فى ذلك بطريق الثوار ، وهم يسيطرون على أشبيلية وقرطبة وغرناطة ، فلا بأس من أن تساهم فيها على يد عصبة الأمم ذاتها

ونحن نعرف أن حوادث الحرب الاسبانية ، ووسائلها المخربة ، ومناظرها المؤسية ، كانت مثار الروع والأسى فى جميع الأمم المتمدنة ، ونعرف أن حكومات بعض الدول العظمى قد فكرت فى أن تقوم بالسعى فى سبيل تخفيف ويلات هذه الحرب الأهليـة الطاحنة ، وحمل الفريقين المتحاربين على اتباع القواعد الانسانية ، وربما بذلت بعض النصح فى هذا السبيل ؛ ولا ريب أن تحطيم الآثار والذخائر الفنية لا يقل شناعة عن سفك الدماء ذاته ، ومن أقدس واجبات الجيوش المتمدنة أن تحرص على قدسية هذا التراث الفنى وصونه من كل اعتداء

هذا ويجدر بالهيئات العلميـــة والثقافية فى الأمم العربية والاسلامية أن تتخذ الخطوة الأولى فى هذا السبيل ، فتبث إلى حكوماتها المختلفة ما يساورها على مصير الآثار الأندلسية من جزع ، وترجوها أن ترفع صوتها الرسمى بالدعوة إلى حمايته ، وأن تبذل فى ذلك السبيل ما استطاعت من السعى الودى ؛ وفى وسع هذه الهيئات العلمية والثقافية أيضاً أن تذيع دعوتها فى الصحافة الدولية ، فللصحافة الدوليـة صوت مسموع ، وفى وسعها أن تقوم بدور فى هذا الشأن ، وهى ما زالت تنوه بشناعة الاجراءات

(١) تقدر الرواية الاسبانية عدد الكتب العربية التى ذهبت ضحية هذه الجريمة الشائنة بنحو ثمانين ألفا

(٢) Casisi : Bibliotheca Arabico Hispana Escurialensis أو « المكتبة العربية الاسبانية فى الأسكوريال » وهو باللاتينية فى مجلدين كبيرين

الجانب الصوفى
فى الفلسفة الاسلامية

للدكتور ابراهيم يومى مدكور
مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

تتمة

– ٦ –

وقبل أن نختم بحثنا هـذا نقول كلمة مختصرة فى أثر هذه النظرية فى الفلسفة المدرسية اليهودية والمسيحية ، وفى بعض فلاسفة العصور الحديثة ، وفلسفة اليهود فى القرون الوسطى ، أو بعبارة أدق الدراسة اليهودية الفلسفية فى ذلك العهد هى فى الواقع صدى للفلسفة الاسلامية [1] ، واليهود هم خلفاء العرب على تراث أرسطو والفلاسفة الآخرين ، وقد فازت الفلسفة على أيديهم منذ القرن الثالث عشر الميلادى فوزا عظيما ، وأضحوا أنصارها طوال القرون الثلاثة التالية حين خذلها الشعوب

(١) مدكور ، الرسالة ، العدد ٩١ ، ص ٤٩٥

والوسائل المخربة التى ترتكب خلال الحرب الاسبانية؛ وقد لفتت نظرها فظائع موقعة القصر الأخيرة ، وما أصاب القصر من حرق وتخريب ، فأخذت تنوه بهـذه الخسارة الأثرية وبالخطر الداهم الذى يهدد تراث أسبانيا الأثرى والفنى من جراء هذه الحوادث ؛ وعلى أثر ذلك ارتفع صوت مندوب بوليفيا فى أرجاء عصبة الأمم بمثل هذا النذير

وهانحن أولاء نردد هذا النذير بدورنا ؛ ونحن على يقين من أنه سيحدث صداه وأثره فى جميع الهيئات العلمية والثقافية فى الأمم العربية والاسلامية ؛ وإذا كانت بوليفيا ، تلك الجمهورية النائية فى أعماق أمريكا الجنوبية قد حفزتها البواعث التاريخية والانسانية على أن توحى لمندوبها أن يلقى نداءه أمام عصبة الأمم ، فأولى وأجدر بالأمم الاسلامية أن تلبى داعى الواجب والمساهمة فى هـذا المسعى الكريم الذى يبذل صوناً لتراث الاسلام فى أسبانيا؟

محمد عبد الله عنان

الأخرى ، فأخذوا الأفكار العربية أو المعرَّبة ونقلوها إلى لغتهم وتدارسوها فيما بينهم ، وتتلمذوا لفلاسفة الاسلام تلمذة صادقة مخلصة ، ودون أن نستقصى هنا كل مفكريهم نكتفى بأن نشير إلى شيخهم الأعظم وأستاذهم الأكبر موسى بن ميمون الذى يعد بحق الممثل الأول للفلسفة اليهودية المدرسية ، وإذا ما ذكر ابن ميمون ذكرت الفلسفة الاسلامية على الفور ، فقد اعتنق كل نظرياتها تقريباً ، وصادفت نظرية السعادة بوجه خاص من نفسه هوى ، ووجد فيها مجالاً فسيحاً للتوفيق بين الفلسفة والدين ، فهو يعتقد أن البحث والثقافة سبيل الكمال الانسانى ، وأن العلم هو العبادة الحق التى يستطيع العبد التقرب بها إلى ربه وكشف الحقائق الغامضة ؛ وكلما أمعن الانسان فى الدراسة والنظر كلما ازداد قرباً من ربه ، ويشَبه ابن ميمون الخالق والخلق فى رتبهم المختلفة بملك عظيم يسكن قصراً منيفاً فى مدينة كبيرة ، وسكان هذه المدينة بين المعجب بهذا القصر المصوب النظر اليه ، والغافل عنه المعرض عن جماله وجلاله ، ومن فتنوا به قد يدفعهم الشوق إلى السعى نحوه والطواف حول جدرانه الفخمة ، وربما اقتحموا عتبته وانسابوا إلى حدائقه وأفنيته اللائى بالأزهار والرياحين والمناظر البهجة ، ومنهم من يقنع بهذه الغاية ولا يطلب وراءها مزيداً ، وذوو النفوس السامية والهمم العالية يأبون إلا التشرف بالمليك فى حضرته والاصغاء إلى حديثه والتمتع برؤيته ، وحينذاك يحظون بالغبطة الدائمة والنعيم المقيم [1] ، وواضح أن هؤلاء الماثلين فى الحضرة الملكية هم من فازوا بالسعادة الفارابية ، والمليك الذى يرمز اليه ابن ميمون ليس شيئاً آخر سوى العالم الروحانى الذى نسعى إلى الاتصال به

تأثر فلاسفة القرون الوسطى المسيحيون كذلك بكثير من الآراء الفلسفية الاسلامية ، ولم يكن التصوف الفارابى بوجه خاص بالغريب عليهم ، ذلك لأن المسيحية نفسها تشايع الأفكار الصوفية فى جملتها وتدعو إلى قدر منها غير قليل ، وإذا كانت الأشياء كلها صادرة من الله وعائدة إليه فخطيئة عظمى أن ينسى المخلوق خالقه أو أن يتراخى فى السعى نحوه والقرب منه . على أن الوصول إلى الذات الأقدس ليس بالمسير فى رأى المتصوفين المسيحيين ، فانا ندنو من الله كلما خففنا أحمالنا وأعرضنا عن

(١) موسى بن ميمون ، دلالة الحائرين ؛ ج ٣ ؛ ص ٤٣٣ وتوابعها

شواغل الحياة[١]، وقد كتب المسيو جاسون أستاذ الفلسفة المدرسية المسيحية الآن فى « كلوبج دى فرنس » ؛ وهو الحجة فى هذا الباب فصلاً ممتعاً فى نظرية الحب المسيحية وأبان ما انطوت عليه من مدلولات خفية ونزعات صوفية[٢]، ومحبة الله هى السبيل الذى يقربنا منه ويقودنا إلى السعادة الفارابية، ويجب أن نضيف إلى هذا أن السعادة التى تعشقها الفارابى تعتمد على قوة أخرى وتستمد نفوذاً آخر من سلطان عظيم، ألا وهو سلطان أرسطو الذى استولى على القرون الوسطى المسيحية استيلاء تاماً منذ القرن الثالث عشر للميلاد. فان هذه السعادة أشبه ما يكون « بالأديمونيا » الأرسطية؛ وقد أسلفنا القول فيما بينهما من صلة[٣]. لذلك لم يتردد كثير من أنصار أرسطو المسيحيين فى اعتناق هذه النظرية وإن حاربوا فى عنف غيرها من آراء الفلاسفة المسلمين. فألبير لجراند وسان توماس يتحدثان عن عقل مقدس Intellectus sanctus هو فى الغالب ابن « للروح القدسية » التى أشاد بذكرها الفارابى من قبل[٤]. وسان توماس يقرر فى وضوح أن سرور النفس وغبطتها تنحصر فى تأمل الحقائق الأزلية[٥]. فالسعادة الفارابية أثرت إذن فى يهود القرون الوسطى ومسيحيها على السواء، وليس بعزيز علينا أن نبين المصدر الذى أخذ عنه المسيحيون هذه النظرية، فقد قرأوا عنها شيئاً فيما ترجم من رسائل الفارابى إلى اللاتينية ووقفوا عليها مفصلة فى مؤلفات ابن سينا وابن رشد وفى كتاب موسى بن ميمون المشهور « دلالة الحائرين » الذى استقى منه الغرب كثيراً من الأفكار الشرقية

***

لم يقف أثر هذا الكتاب فى نشر الأفكار الاسلامية عند القرون الوسطى، بل جاوزها إلى العصور الحديثة، وذلك أنا نجد لدى واحد كاسبينوزا أو ليبنتز آراء كثيرة الشبه بآراء فلاسفة الاسلام: فنظرية النبوة عند الأول تشبه شبهاً عظيماً النظرية التى أخذ بها الفارابى؛ ومشكلة العناية عند الثانى لا تختلف كثيراً عما قال به ابن سينا من قبل[١]. وربما يبدو غريباً أن نحاول إثبات علاقة بين مفكرى الاسلام وهؤلاء الفلاسفة المحدثين، خصوصاً وقد جرت عادة مؤرخى الفلسفة الاسلامية أن يقفوا بها عند القرون الوسطى. وما فكر واحد منهم، فيما أعلم، أن يدرس الصلة بينها وبين فلسفة العصور الحديثة دراسة منظمة. غير أنا نرى أن هذه الصلة جديرة بالبحث والدرس ومعتمدة على أسس تعززها؛ فقد عرف اسبينوزا كتاب دلالة الحائرين وعنى به عناية كبيرة، كما عرفه ليبنتز وأثنى عليه ثناء مستطاباً[٢] فعلى ضوء هذا الكتاب نستطيع أن نحدد إلى أى مدى تأثر رجال العصور الحديثة بالأفكار الاسلامية. ويخيل إلينا أنا أول من تنبه إلى هذه العلاقات التاريخية، وقد حققناها فيما يتعلق بنظرية النبوة[٣]

ويمكننا أن نلاحظ كذلك وجوه شبه بين نظرية السعادة الفارابية وبعض الأفكار الصوفية الحديثة، وخاصة لدى اسبينوزا الذى تربطه بالفارابى أكثر من علاقة واحدة. فكلاهما يعد السعادة غاية لمذهبه الفلسفى؛ ويعملان على تحقيقها بوسائل متماثلة. وكلاهما صوفى النزعة فى سلوكه وآرائه، وتصوفهما عقلى نظرى مبنى على العلم والدراسة. ونظرياتهما الكلامية متقاربة ومتشابهة؛ فصفات البارئ عند الفارابى لا تختلف كثيراً عنها لدى اسبينوزا. الله فى رأيهما علم ومعلوم وعالم فى آن واحد، وهوية وماهية معاً؛ هو مسبب الأسباب والجوهر المطلق أو الجوهر الوحيد[٤]. فهو موجود بنفسه وجودا أزليا قديما، وكل الكائنات تستمد جودها منه. وعلى هذا نرى أن الفيلسوف العربى والفيلسوف الاسرائيلى يقولان بمذهب وحدة الوجود. وإذا كانت النفوس البشرية قد استمدت وجودها من الله فهى دائما فى نزوع اليه؛ وكلها فى أن تتجه نحوه وتقترب منه وتحبه

(١) Guignes Le Chartreux, Méditations, II et V.

(٢) Gilson, L'Esprit de la philosophie médiévale, t. I, pp. 65 — 85.

(٣) مذكور، الرسالة، العدد ١٦٨ ص ١٥٢٧

(٤) Gilson, Archives, t. IV, p. 74. انظر الرسالة أيضاً (١٦٨) ص ١٥٢٤

(٥) Carra de Vaux, Les penseurs de l'Islam, t. IV, p. 73.

(١) Madkour, Le place d'al Fârâbi, pp. 206 — 209.

(٢) Madkour, La place d'al Fârâbi, pp. 208 — 209

(٣) نشير هنا إلى بحث عالجناه من قبل؛ وربما وفقنا لنشره على صفحات الرسالة

(٤) Spinoga, Ethique, II ch. 7.

حبا صادقا . وهـذا هو الحب الفلسفي الذي يتغنى به اسپينوزا ، ويرى فيه لذة لا تنقطع وغبطة تجل عن الوصف (١)

الآن وقد تتبعنا نظرية السعادة الفارابية منذ نشأتها الى أن أسلمناها الى العصور الحديثة نستطيع أن نقرر أن المشائين من العرب أثروا فيمن جاء بعدهم تأثيرا واضحا . فأفاد منهم مفكرو الاسلام لا فرق بين متطرفيهم ومعتدليهم فى نواح كثيرة ، وإن تحاملوا عليهم وحاربوا معظم نظرياتهم . وأخذ عنهم رجال الفلسفة المدرسية من يهود ومسيحيين كثيرا من آرائهم وأفكارهم . ولم يقف أثرهم عند القرون الوسطى بل تعداها الى العصور الحديثة ، وقد أوضحنا فيما سلف وجوه الشبه بين بعض النظريات الفارابية والآراء الأسبينوزية ، نحن لا ندعى طبعا أن الفلسفة الاسلامية أثرت تأثيرا مباشرا فى رجال العصر الحديث وجماعة الديكارتيين بوجه خاص ؛ فان أحدا منهم لم يعرف العربية . ولكن الأفكار الاسلامية نفذت اليهم ، فيما نعتقد ، عن طريقين : طريق اليهود وطريق المسيحيين ، ففيما كتب موسى بن ميمون مثلا أو سان توماس ما يحكى بعض الأبحاث الاسلامية . وإذا كانت الفلسفة الاسلامية نفسها لا تزال غامضة ومجهولة ، فبديهى أن يبقى أثرها فى طى الخفاء ، ولا سيما إذا كان هـذا الأثر متعلقا بناحية يزعم الناس أنها بمنأى عن التأثر . فقد شاع خطأ أن ديكارت يفصل فصلا تاما بين عهدين ، وأنه أب لفلسفة لا تحمل فى ثناياها شيئاً من آثار الفلسفات السابقة ، غير أن هذه الفواصل المزعومة بين العصور قد انمحت ، وهذه السدود المقـامة باطلاً بين مراحل التفكير الانسانى قد انهارت . وقد ثبت فعلاً أن ديكارت سبق الى كثير من أفكاره فى القرون الوسطى المسيحية ، كما أن مذهب ليبنتز مثلاً يقترب من الفلسفية المدرسية والاغريقية بقدر قربه من النظريات الديكارتية (٢) . فلم لا نحاول بدورنا أن نوازن بين شك ديكارت وشك الغزالى ؟ ولم لا نبحث عن أصل للتفرقة الاسپينوزية بين الذات والوجود عند الفارابى كما بحثنا عنه لدى كثير من الفلاسـفة المتقدمين ، إنا إن فعلنا خـدمنا القرون الوسطى والتاريخ الحديث ، وألقيناجزءاً من الضوء على طائفة كبيرة من النقط الغامضة ، وقمنا بقسطنا فى ربط الفلسـفة الاسلامية بسلسلة التفكير الانسانى

ولنا رجاء آخر ، وهو أن تتجه الجهود نحو العصور المتأخرة من تاريخ الثقافة الاسلاميـة ؛ فان ما كتب عنها لا يكاد يذكر ومعلوماتنا عنها محدودة للغاية . وقد حاول هورتن فى أبحاث متفرقة أن يوضح جانبها الفلسفى ؛ إلا أن أبحاثه غير ناضجة ، وهى أشبه ما يكون بمقدمات لدراسة كاملة لم تبـدأ بعد . وأما اللغة والتشريع والتوحيد والتصوف فلا تزال فى طى الكتمان تماماً . ومن غريب المصادفات أن أحد قراء (الرسالة) بعث إلينا ، ونحن نكتب هذه الكلمة ، مستفسراً عن بعض أبيات للصوفيـة المتأخرين . فالجمهور المثقف يشعر إذن بهذا النقص ويشاركنا فى الشكوى منـه ، ولعل أغمض شىء فى هذا الدور حقيقة هو تاريخ التصوف على الرغم مما فيـه من طرافة ، وما له من أهمية اجتماعية وفلسفيـة . نحن لا ننكر أن عصور الظلام ثقيلة على النفس وليس فيها شىء كثير يجتذب الباحث أو القارئ ، هذا إلى قلة مصادرها وتعـذر السير فيها والاهتداء الى معالمها . بيد أن ربط حاضرنا بماضينا يستلزم أن نجلى غامضها وندرسها دراسة كافية .

ابراهيم بيومى مدكور

(١) Bréhier, Hist. de la philos. t. II 159

(٢) Blanchet, Les antécedénts hist, du « Je pense done je suis Paris. 1920.

تصويب

جاء فى مقال الدكتور المنشور فى العـدد المـاضى ص ١٦٥٤ « وإذا كان الغزالى هو أكبر خليفة لأبى موسى الأشعرى » وهو سهو قلمى ، والصواب : « أبو الحسن الأشعرى » كما لا يخفى

في الأدب المقارن

الطبيعـــة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الطبيعة إلف الشاعر الحميم ، وتوأم روحه ، ومرتع فكره ومتاع بصره ، ومهبط وحيه ، ومعاهد متعاته وذكرياته ، إلى ظلالها يسكن ، وبين محاسنها يهيم ، وعندها ينفض أوشاب العيش ويطرح أعباءه ، ويستريح فكره الذي أنضاه التعب ، ونفسه التي أضجرتها معاشرة الناس ، وتتهادى إليه عذارى الشعر طائعة ، وتسلس إليه شوارد الأفكار مقادها ، ويظل يلتفت إلى ماضي أوقاته بين مباهجها بحنين عذب ، ويأمل معاودتها بقلب شيق ؛ فلا غرو يكون للطبيعة في نفس الشاعر المطبوع مكان أثير ، وفي أدب الأمة الراقية منزلة رفيعة

وقد نالت الطبيعة لدى أدباء الانجليزية في أغلب عصورها هذه المكانة التي هي بها جديرة : فعكفوا جيلاً بعد جيل وأديباً إثر أديب على وصف مظاهرها وعبادة مفاتنها ، وملأوا جانباً كبيراً من نظمهم ونثرهم بأوصاف الوديان اليانعة ، والربى الحالية والأمواه الجارية ، والأطيار الصادحة والافلاك الدائبة والغيوث الساجحة ، ووصفوا الطبيعة في حالي رضاها وغضبها ، وابترادها ودفئها ، واكتسائها وعريها

وتوسلوا للتعبير عن فرط هيامهم بمحاسنها المتجددة بشتى الوسائل : فبثوا أوصافها في رواياتهم الشعرية وقصصهم النثرية ، كما فعل شكسبير وهاردي ، وطاروا على أجنحة الخيال إلى الوديان السحرية ، والغابات المجهولة ، والشواطئ النائية ، يرصعون كل أولئك ببدائع الأوصاف ونفثات العواطف ، وعبادة الجمال الطبيعي ، متخذين مسرحاً لكل ذلك خرافات الأقدمين كما كان يفعل سبنسر وكولردج وتنيسون وبروننج ، أو جنات الفردوس كما فعل ملتون

ومن أولئك الشعراء من يدينون بخلودهم لأوصافهم الطبيعية الرائعة ، وقلما يهتم أحد اليوم لما نظموه في النسيب أو الاجتماع أو السياسة ، مثل تنيسون ، بل منهم من لم يكد يؤثر عنه قول في غير الطبيعة ، أو تخلو قصيدة له من أثر لها ، مثل وردزورث . ولا غرو فالطبيعة مادة الشعر وصميمه ، ولربما عرض في القصيدة قد نظمت في أي غرض كان بيت أو بيتان يحويان وصفاً طبيعياً بديعاً ، فاذا هما يرفعان من قدرها ويحببانها إلى النفوس ويكونان سبب اشتهارها وسيرورتها

ولا ندحة عن القول بأن الطبيعة لم تنل هذه الرعاية ولم تحتل هذه المكانة في الأدب العربي ، ففي العربية لا ريب أوصاف طبيعية بالغة غاية الجودة ، ولكنها قليلة إذا قيست بنظائرها في الانجليزية ، قليلة إذا قيست بما نظم أو نثر في العربية ذاتها في غير الطبيعة من أغراض ، فليس ما قيل في وصف جمال الطبيعة يبالغ عشر معشار ما قيل في التشبيب بالجمال الانساني ، ولم يعرف من شعراء العربية من قصر شعره على التغني بمباهج الطبيعة ، وإن منهم لمن قصر قوله على النسيب بهند وليلى وأترابهما

وقلما جاءت أوصاف محاسن الطبيعة مقصودة لذاتها مستقلة بنفسها في قصيدة أو رسالة ، بل كان ذكرها غالباً يأتي عرضاً كأنها غير جديرة وحدها بالتفات الشاعر وتكلفه عناء النظم ، وكانت تستعار مظاهرها وأحوالها لبيان أغراض أخرى عن طريق التشبيه ترصع القصيدة بفنونه ، وجاء أصحاب المجموعات الشعرية الذين اختاروا صفوة أشعار العرب في أقوى عصور الأدب ، كأبي تمام والمفضل الضبي ، فما أفردوا للطبيعة باباً من أبواب مختاراتهم ، وإنها لأجدر بالصدر

وكان فحول الشعراء ينصرفون عن وصف محاسن الطبيعة التي تكتنفهم ، ومفاتن الجنات الزاهية التي كانت مهاد الدولة الاسلامية ، بمروجها وأنهارها وجبالها وأجوائها ، إلى وصف قصور الأمراء وحدائقها ونافوراتها وبركها الصناعية ، فالبحتري يعرض ببصره عن جبال لبنان الفاتنة متجهاً إلى مقاصير ابن خاقان :

تلفت من عليا دمشق ودوننا ... للبنان هضب كالغمام المعلق
إلى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما ... ذممت مقامي بين بصرى وجلق
رباع من الفتح بن خاقان لم تزل ... غنى لعديم أو فكاكاً لمرهق

ولابن المعتز وابن حمديس وابن خفاجة شهرة بوصف الطبيعة ،

ولكن كثيراً من أشعارهم يتسم بالفتور ويصطبغ بالصنعة وترين عليه مسحة التكلف والتظرف ، وتنقصه حرارة الهيام بالطبيعة والامتزاج بروحها والنفاذ إلى خفى معانيها وأسرارها ، وتجرى فى أشعارهم تشبيهات تكررت حتى مُلَّت : فالأصيل ذهب والحصباء در والنسيم ينسج من الماء درعاً ، ويُفسد الكثيرَ من تلك الأشعار الحرصُ على حسن التعليل كقول ابن حمديس فى نهر :

جريح بأطراف الحصى كلما جرى عليها شكا أوجاعه بخريره

فشتان بين خرير النهر الحى المتدفع وبين الجراح والشكوى والأوجاع ، وأمثال هذا القول تدل على شعور زائف وملاحظة سطحية

وبعض أولئك الشعراء إذا استهزتهم فتنة الطبيعة وصفاء الأوان ، نظموا فى ذاك أبياتاً شفعوها للتو بدعوة لصديق أو عشيق أو نديم يناشدونه أن يتحفهم برفقته ويعجل لهم بالراح والأوتار ، فالبحترى بعد أن تأنق فى وصف الربيع قال :

فما يحبس الراح التى أنت خلها ؟ وما يمنع الأوتار أن تترنما ؟

وغيره يقول :

ولما حللنا منزلاً طله الندى أنيقاً وبستاناً من النور حاليا

أجد لنا طيب المقام وحسنه منى فتمنينا فكنت الأمانيا

ولا يدل هذا على كبير شغف بالطبيعة أو حسن فهم لجمالها ، وليس بمشغوف بالطبيعة ولا فاهم لأسرارها من لا تكفيه مفاتنها السافرة حتى يستعين لا كمال سروره بالسَّمَر والغزل والغناء والسكر ، وإن أحب ما تكون الطبيعة إلى عاشقها الصادق لحينَ يصحبها وحيداً ، فهو يرى مفاتنها خير رفقة له وخير مؤانس لمهجته

وقد حظى الربيع دون غيره من الفصول بالتفات شعراء العربية ، كأن الربيع وحده هو فصل الجمال والصفاء والحبور ، وبقية الفصول أوانٌ لكسب الرزق واحتمال قبح الحياة ، كما قال الطائى :

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فانما هى منظر

ولو درى لعلم أن هذه الدنيا منظر لمن شاء أن يرى ويشعر فى كل الفصول وفى جميع حالاتها ومظاهرها ، وإن للشتاء لروائعه وجاذبيته كما للربيع ، وإن جميع مجالى الطبيعة وأشكالها لمسارح للب الشاعر ومجالات لفنه وتصويره ، وقد تغنى شعراء الانجليزية بفتنة الخريف كما ترنموا بسحر الربيع ، واستجاشهم غضب اليم وتجهُّم الأفق كما استهواهم صفاؤهما ووداعتهما

ومن شعراء العربية من يضيق باعهم فى وصف الطبيعة قبل أن يقولوا فى المنظر الجلو أمامهم أبياتاً ، ويدركهم العجز والاحالة فيسبحون بقدرة البارىء ووحدانيته ، كما قال النواسى :

على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وقول أبى تمام :

صنعُ الذى لولا بدائع لطفه ما عاد أخضر بعد إذ هو أصفر

فقدرة الخالق أمر لا شك فيه ، والاشارة إليها فى هذه المواقف سذاجة فى القول والتواء فى استرسال الفكر ، وهرب من مواصلة التأمل والوصف ، والموقف موقف استمتاع بالجمال وتصوير له ، لا موقف وعظ وخشوع . وازن هذين البيتين بقول تنيسون فى زهرة ضئيلة : « أيتها الزهرة النامية بين شقوق الجدار ، ها قد انتزعتك أناملى ، وهاأنت كلك محمولة فى كفى ، بيد أنى لو استطعت استكناه سرك لعرفتُ سر الله والانسان جميعاً » فهذا شاعر يفكر ويتأمل ويتوق إلى المعرفة ، وذانك شاعران يسلمان تسليم العجز ، فلا أجادا التصوير ولا استرسلا فى التفكير

فأغلب شعر الطبيعة فى العربية — على قلته — تنقصه حرارة الشغف بها وطول مصاحبتها وممازجتها روحا بروح ، وإدمان التأمل فى محاسنها ومحاولة النفاذ إلى معانيها ، وصدق التعبير عن وحيها ودقة الوصف لمجاليها المتعددة ، وظلَّ الالتفاتُ إليها دائما ثانويا ، والانتباه إليها عرضيا ، والأُنس بها وقتيا وشيك الزوال

بل كان من فحول العربية من كأن بينهم وبين الطبيعة حجاباً كثيفاً ، فندر أن أعاروها بالا ، ولم يقع ذكرها فى شعرهم ونثرهم ، إلا وقوع الغلط ، كالمتنبى والشريف الرضى ، برغم كثرة أسفار الأول بين العواصم والفلوات ، وقد صرف الكُتَّاب صناعتهم إلى كثير من وجوه البيان ، فلم يختصوا الطبيعة بكبير عناية ، وتوخى بديع الزمان فى مقاماته أن يضرب فى كل ناحية من نواحى القول بسهم ، ليبدى براعته للقارئين ، إلا الطبيعة فأنها لم تفز منه بالتفات

فالعربية تكاد تقفر من الوصف الطبيعي السامي المقصود لذاته، لولا شاعر فرد هو ابن الرومى الذى تنطق أشعاره بحب للطبيعة عميق، وانجذاب لسحرها لا يدافع، ونظر فى محاسنها وأغوارها نافذ، وقد أنشأ لوصف مختلف مظاهرها قصائد كثيرة، أودعها خير ما فى العربية من وصف الجنان والفلوات، والأصائل والأسحار، والغيم والمطر، والطير والوحش، وشعره فى كل هذا يضارع أسمى ما فى الشعر الانجليزى

وضآلة حظ الطبيعة فى الأدب العربى راجعة إلى عوامل متتابعة توالت على الأدب فى مختلف عصوره، فحالت دون أن يكون ترجماناً صادقاً مبيناً لشعور أصحابه فى هذا الباب، وهى أولاً بداوة العرب فى أول تاريخهم، وثانياً تكسب الشعراء بشعرهم فى عهد الحضارة والدولة، وثالثاً شدة محافظتهم وتقليدهم للمتقدمين، وأخيراً تغلب الصنعة اللفظية فى عهد تدهور الأدب

فوصف محاسن الطبيعة وآثارها فى النفس وصفاً مسهباً محكماً مقصوداً لذاته عمل فنى لا يتأتى إلا بإعمال الفكر ورياضة النظم، وهو مالا يتيسر فى عهد البداوة، فضلاً عن أن المناظر الصحراوية واحدة متكررة صارمة لا تحفز إلى التصوير الشعرى المسهب كما تحفز إلى التأمل فى الخالق ورهبته وحكمة صنعه، وقد ظلت هذه النزعة الدينية التى بثتها البادية فى نفوس العرب، وكانت التنشئة الدينية فى العصور التالية تنميها فيهم منذ الصغر، مصاحبة لهم فيما بعد، تغلبهم على الاستمتاع بروائع الجمال الطبيعى وآيات الفن الانسانى، فترى شاعرهم إذا وقف بمنظر فتان أو أثر خلفه القدماء فسرعان ما ينصرف عما ثمت من معانى الجمال أو القوة إلى التسليم بعظمة الخالق وضعف المخلوق وفناء الأفلاك وسقوط الجبابرة، وقد سبق التمثيل لشىء من ذلك، والبحترى يقول:

أناة أيها الفلك المدار ... أنهب ما تصرف أم جُبار؟
ستفنى مثل ما تُفنى وتَبلى ... كما تُبلى فيدرك منك ثار

ولما تحضر العرب وشاهدوا الأقطار الواسعة ونعموا فى الجنات اليانعة، ودخل أدبهم فى طور الثقافة والصناعة الفنية، ظهرت آثار الوصف الطبيعى فى بعض أشعارهم، ولكنها كانت قليلة كما تقدم، وعمهت عيون أكثر الشعراء عن محاسن الطبيعة وأسرارها فى غمار المدينة، حيث تكالبوا متزاحمين على عطايا الأمراء، وزهدهم فى وصف المناظر الطبيعية قلة ما ورد منها فى شعر المتقدمين الذين كانوا يترسمون خطاهم، حتى إذا كان عهد الاضمحلال الأدبى غلب التظرف واصطناع الرقة والنكتة اللفظية على الشعر ففقد كل روح وحرارة

أما الأدب الانجليزى فلم يخنقه جو المدينة أو يرهقه تقليد القدماء إلا فى عصر محدود ما لبث أن بددته النهضة الرومانسية التى كانت فى جوهرها عودةً الى الطبيعة أى الى الشعر الصحيح وبين النقاد المحدثين من يأبى قبول مانظمه أقطاب العهد الكلاسى فى عداد الشعر الصحيح، وفيما عدا ذلك العهد كانت الطبيعة دائماً قبلة الشعراء شغفهم بها حباً أمران: تعدُّد مجاليها وتتابع تقلباتها واختلاف صورها فى بلادهم، ودراستهم للشعر الاغريق الحافل بالصور الطبيعية، ويتجلى أثر هذا العامل الأخير فى المقطوعة التى نظمها كيتس معبراً عن شديد حبوره وبالغ متعته عقب قراءة ترجمة الالياذة

بيد أن اللغة العربية ذاتها حافلة بالأسماء والأوصاف لشتى مظاهر الطبيعة وآثارها، وحالاتها وأوقاتها، غنية بكل مايحتاج اليه الأديب القدير لينقل على القرطاس أىَّ المناظر الطبيعية شاء، نقل المصور الصناع، وهنا أيضاً يبدو لنا التفاوت بين مقدرة اللغة واستعدادها، وتقصير أدباء العربية فى عهد ازدهار الحضارة دون كثير من غايات الأدب

فخرى أبو السعود

فى الخطابة

للأستاذ عبد المجيد نافع

كانت الخطابة ولاتزال من أقوى وسائل الاقناع ، وهى أفعل فى النفوس من الكتابة ؛ وشتان بين الكلام الحى والكلمات الجامدة ؛ وإذا كان الكاتب يعرض عقله ومنطقه فان الخطيب يبلغ موضع الاقناع من نفوس السامعين بروحه ، ويطبعهم بطابع شخصيته . ولا شك أن لروح الاجتماع أثرها فى النفوس ، فقد فرغ علماء النفس من تقرير أن الفرد فى الجماعة أشد قابلية للتأثر ، وأعظم اندفاعا فى طريق الحماسة ، ولذلك ترى بعض الناس إذا خلوا إلى أنفسهم ، وتخلصوا من حماسة الجماعة فقرأوا فى هدوء الخطب التى سبق لهم سماعها عجبوا كيف كان لهذا الكلام العادى المبتذل كل هذا الأثر البليغ فى نفوسهم . ولا تنس أن للبيئة والظروف المحيطة والذكريات المثارة أثرها الفعال فى النفوس . وليس من يمارى فى أن المرحوم سعد باشا كان فى طليعة الخطباء ؛ شخصية بارزة ، وذهنية خصبة ، وعقلية جبارة ، وبديهة حاضرة ، ولفظ مختار ، وقدرة على الارتجال لا تجارى ولا تبارى ، ولكن لا تعتقد أن هذه المواهب مجتمعة كانت هى وحدها العناصر المؤلفة لشخصية « سعد الخطيب » . وإنما كان سعد إذا نهض يخطب نهضت معه الذكريات ، وتراءت حوله المثل الوطنية العليا . كان سعد إذا خطب ثارت أمام الخواطر ذكريات مالطة ، وسيشيل ، وجبل طارق ؛ والحرية المسلوبة ، والاستقلال المغصوب ، والضحايا والشهداء الذين بذلوا أرواحهم وأراقوا دماءهم فى سبيل الحرية والاستقلال . والخطب الخالدة فى التاريخ التى ألقاها عظماء الرجال تستمد قوتها وخلودها من عظمة شخصياتهم ورهبة المواقف التى كانوا يقفونها ، أكثر مما تستمد هذه القوة وذلك الخلود من قيمتها الذاتية . ولو أنك عرضتها على محك النقد الصادق ، وحللتها فى ضوء المنطق والمعقول ، لوجدت أنها لا تكاد تجاوز دائرة غيرها من الخطب المألوفة . وإنما أثار طارق بن زياد الحمية فى نفوس جنوده حين أهاب بهم : « العدو أمامكم والبحر وراءكم ... » لا بجمال الصورة وروعة التمثيل وحدهما ، وإنما أثارها بشخصيته العظيمة ، والموقف التاريخى الذى كان يقفه . وإذ هتف نابليون فى جنود حملة ايطاليا غداة المعركة التى اشتبك فيها مع جنود النمسا فسحقهم فى سهول لومبارديا : « إن الحكومة مدينة لكم بالشىء الكثير ، ولكنها لا تستطيع أن توفيكم حقوقكم ، واليوم ترون أمامكم الثراء والمجد » . نقول إن روح نابليون وموقف الجند هما اللذان أضرما فى نفوسهم جذوة الحماسة أكثر مما أججتها كلمات نابليون . والزعيم الشاب مصطفى كامل حين أرسل الصيحة الخالدة : « بلادى ! بلادى ! لك حبى وفؤادى » تغلغلت فى نفوس المصريين ، لأنها خرجت من أعماق نفس وطنية مخلصة ، ونفذت إلى أعماق قلوب تؤمن بالحرية وتدين بالاستقلال . وإن نظريتنا لتصبح بمأمن من كل معارضة ، وبنجوة من أى نقد ، إذا ذكرت أن الخطيب العظيم يُسمع ولا يقرأ ، وأن الخطب الخالدة فى التاريخ لا تكاد ترتفع فوق المستوى العادى

كان للخطابة فى الماضى شأن أى شأن ، فقد ثلت عروشا ودكت دعائم ممالك ، وأقامت عروشا وممالك مكانها ، ونصرت أقواماً وخذلت آخرين ، وقبرت دعوات وبعثت أخرى ، ودفنت مبادئ وأحيت غيرها . وإنما تبلغ الخطابة شأوها وتصل إلى أوج مجدها إبان الثورات والفورات والهبات والانقلابات والفتن السياسية والاجتماعية وأطوار التحول والانتقال . ذلك بأن غليان النفوس وثورة الأفكار يجعل الناس كالهشيم اليابس الذى تكفى شرارة واحدة لاضرام النار فيه ، وإذا كان هذا هو شأن الخطابة فى الماضى فلا شك أن شأنها قد ارتفع ، وأثرها قد تضاعف فى عصر الديمقراطية الحديث

وفى الواقع أن الخطابة أقوى أداة من أدوات النضال السياسى والتطاحن الحزبى ، وكل حزب بحاجة إلى بث دعوته وترويج سياسته ، والهتاف بمبادئه ، وكسب الأنصار واجتذاب الأشياع . وهو يتوجه إلى جمهور متباين العقليات مختلف المشارب والمشاعر ، جم النازع والأهواء ، فلا مندوحة للخطيب عن قوة الشخصية وسحر البلاغة ، والالمام بنفسية الجماعات لبلوغ مكان الاقناع من نفوسهم . ولا بد للدعوة ، سواء أكانت

سياسية أم اجتماعية أن تبلغ الكوخ والقصر ، وتصل إلى أدنى الطبقات وأسماها . والديمقراطية الحديثة أتاحت لكل رجل مهما كانت الطبقة التي نبت فيها ، والبيئة التي نشأ بين أحضانها أن يصل بمواهبه وكفايته وملكته وجهوده إلى أسمى مناصب الدولة ، وهو إنما يتخذ من أكتاف الجماهير سلما يصعد عليه إلى قمة السلطة وذروة المجد . أرأيت إلى لويد جورج وهتلر ومصطفى كمال وموسوليني كيف بلغوا مكان الزعامة من أقوامهم ، ومركز السلطان من شعوبهم ؟ ليس من ينكر أن الخطابة كانت أحد العناصر البارزة في تكوين نجاحهم . ولقد بات الكلام في الجماهير فناً يحرص الزعماء والقادة على اتقانه وتجويده ، وأضحى التعبير عن إجادة الكلام يدل دلالة صريحة على مبلغ القوة والسحر الكامنة في ثنايا الكلام الخلاب ، أو لا تذكر قول الرسول عليه صلوات الله وسلامه : « إن من البيان لسحرا » ؟ ثم ألا يسترعي نظرك تحولهم هذا من ملوك الكلام وذاك من أمراء البيان ؟ ولو أنك رحت تفتش في تاريخ معظم القابضين على زمام الشعوب والآخذين بأعنة السلطة القائمين على مصاير الأمم لوجدتهم من الخطباء المصاقع والمداره القاويل . فالوزراء في انجلترا وألمانيا وفرنسا وايطاليا وغيرها من دول الغرب جلهم إن لم يكن كلهم من الخطباء المفوهين

بل لقد أصبحت الخطابة هي الوسيلة التي تسمو بصاحبها إلى أسمى مناصب الدولة ، وتبوئه مكان الزعامة من أمته ، حتى ضاق خصوم الخطباء بنفوذهم صدرا وتبرموا بتضخم سلطانهم ، فتراهم ينعون على الديمقراطية الحديثة طغيان حكومات المحامين عليهم

طغت موجة الخطابة على الأمم في العصر الحاضر حتى لترى بعضهم ينسب مصـــدر المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحاضرة إلى نقص في كفاية المتولين لزعامة الأمم الذين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بترويق الكلام ، وتنميق العبارات . ولا يرى هذا البعض دواء لداء المدنية الغربية إلا بالعـدول عن الاسترسال بالثقة إلى تجار الكلام ، وتفويض الأمور العامة إلى الفنيين من ذوي الكفايات

والمعارك الانتخابية هي الميدان الفسيح لتجلي المواهب الكلامية ، والملكات الخطابية . ولا بد من تعمق في درس نفسية الجماعات وتفهم ميول الجماهير لكفالة النجاح في ميدان النضال الانتخابي . ولذلك ترى بعض الخطباء لا يتورعون عن بذل الوعود والاسراف في العهود . بل إنك لترى بعض زعماء الأحزاب وقادة الهيئات لا تتراجع ضمائرهم أمام تصوير الخيالات حقائق والمستحيل ممكناً مستطاعاً . والنظام البرلماني الحديث يتطلب نجاح أكبر عدد ممكن من مرشحي الحزب الذي يخوض غمار المعركة الانتخابية لا نجاح فرد أو أفراد . فقد تعددت الأحزاب والهيئات في أمم الأرض جميعاً . وإذا كانت تختلف في البرامج والميول الشخصية ، فنجاح حزب من الأحزاب بالأغلبية في الانتخابات له أهميته وخطره . فاذا كانت التقاليد البرلمانية تقضي بأن الأغلبية هي التي تتسلم مقاليد السلطة ، وتتولى زمام الحكم ، وتوجه السياسة العامة ، فنجاح هذا الحزب أو ذاك في الانتخابات له أهميته لأنه يدل على طريقة الحكم ، وأسلوب إدارة شؤون الأمة ، والطابع الذي تطبع به سياسة الدولة . وليس يستوي أن يكون على رأس الأحكام في انجلترا حزب المحافظين ، أو حزب الأحرار ، أو حزب العمال ، فلكل حزب أسلوبه في الحكم ومبدؤه في السياسة العامة . كذلك ليس من الظواهر التي لا تسترعي النظر أن يكون على رأس الحكومة الفرنسية المسيو ليون بلوم أو المسيو بيير لافال

ودور النيابة هي ميدان يتبارى فيه الخطباء السياسيون كل يحاول كسب الأصوات وجذب الأنصار إلى جانبه ، وإذا كان أحد البارزين في مجلس العموم البريطاني قد قال : « إن الخطب البرلمانية تغير رأيي ولكنها لا تغير صوتي » ، فلا يمنع أن للخطابة شأنا أي شأن في مجالس النواب . أو لم يكن كليمنصو يسقط وزارة بخطبة حتى لقبه مواطنوه الفرنسيون بالنمر وأسموه « هدام الوزارات » ؟ أوليس ينقذ سفينة الوزارة من الغرق خطبة من تلك الخطب الخالدة الموفقة ؟ أرأيت كيف أن بريان يوم ضيق عليه خصومه الخناق واستجوبوه في مجالس النواب عن تصرفه إزاء العمال المضربين حين أنذرهم بالتجنيد إن لم يكفوا عن الاضراب ، نقول أرأيت كيف أن بريان انتزع تصفيق المجلس وحصل على قرار الثقة بوزارته حين لوح بيده صائحاً من أعماق نفسه : « هذه يدي فانظروا إن كانت تلطخها قطرة من الدماء ! »

وهل من يجادل فى أن القادة فى المجالس النيابيـة يتجاذبون الأغلبية ، ويبذلون الجهود الجبارة لانحياز الأنصار إلى صفوفهم ؟ بل إن غزو السلطة والتنازع على الحكم وشهوة السلطان ، لتهدد فى بعض الأمم بالتقلقل الوزارى ، والخطابة بلا ريب ، سلاح من أسلحة النضال

ولا تستطيع المعارضة أن تؤدى واجبها فى النقـد البرىء النزيه حيال الأغلبية القابضة على زمام السلطة إلا بالـكلام . بل لا يستطيع أى مجلس نيابى أن يقوم بواجبه المقدس فى الاشراف والهيمنـة على السلطة التنفيذية بغير الخطب الداوية . صحيح أن خطباء المجالس لا ينبغى لهم أن يحرصوا فى خطبهم البرلمـانية على ارضاء الجماهير وتملق شعور الجماعات ، وإنمـا لا بد لهم من الـكلام المستمد من الشعور ومن الدرس العميق ومن مصلحة البلد ليؤدوا أمانة النيابة عن الأمة . لقد كان خصوم لامرتين يتهمونه ظلماً بأنه « يتـكلم من النـافذة » : أى يرمى بخطبه البرلمانية الى إسماع صوته للجماهير خارج المجلس . ولـكن الرجل كان بريئاً مما افتروا عليه ، وإنما كان حراً فى عقيدته ، مستقلاً فى رأيه ، غير فان فى شخصية أحد ، ولا واقع تحت سلطان حزب من الأحزاب ؛ ولذلك كنت تراه تارة يؤيد بيتر ، وطوراً يؤيد جيزو على بعد الشقة بين السياستين ، ولم يكن يأخذ عليه المنصفون شيئاً لأن الرجل جعل قبلته الحق ومصلحة الوطن

وإذا كانت الخطابة سلاح المعارضة فى الهجوم ، فهى كذلك سلاح الأغلبية فى الدفاع ؛ وليس أمتع من قراءة الخطب التى يلقيها مصاقع الخطباء البرلمـانيين فى الغرب كرًا وفرًا وهجوما ودفاعا ، ناهيك بسماعها ! وهل أروع وأبدع من قراءة خطب بت وفوكس ودزرائيلي وجلادستون ولويدجورج وريان وڤيڤياني وجوريس ؟ كان عام ١٩٠٦ أول عهد كليمنصو بالدخول فى الوزارة ؛ ولطالمـا مزق النمر الفرنسى وهو فى المعارضة خصومه تمزيقا ؛ وأصبح وزيراً للداخلية وأمست سياسـته حيال العمال المضربين هدفاً يصوب اليه الحملات جماعة الاشتراكيين ، وعلى رأسهم جوريس ، وجوريس مدره مفوه ؛ بل لقد ذهب بعض المؤرخين الى اعتباره أعظم خطيب فى القرن التاسع عشر فى أوربا بأسرها . ووقف كليمنصو فى وجه العاصفة الاشتراكية لا يجد الروع سبيلاً الى قلبـه . ثم صاح صيحته : « لقد لمست فى الحال أن الحملة تنطوى على الرغبة فى ذبحى على مذبح الاشتراكية ، لـكن وا أسفاه ! فانى لست من تلك الضحايا المستسلمة ، المستعدة لتقديم أعناقها البريئـة طائعة الى سكين القصاب . إنى لأقاوم وأقاتل . إنى لأصيح وأتمرد ، وما حفزنى الى اعتـلاء المنبر إلا الرغبة فى إرسال صيحة الاحتجاج »

والمؤتمرات السياسية وغيرها هى الأخرى مجال فسيح لظهور المواهب الخطابية

على أنى أحب ألا يفهم أن قولى ينصب على الخطابة السياسية ، والخطابة السياسية وحدها ، ففى دور القضاء تتجلى الخطابة القضائية ؛ وترى بين المحامين وأصحاب الدعوى العمومية والجالسين فى كراسى الاتهام الخطباء المصاقع وأمراء الـكلام ، لـكن لا ينبغى أن ننسى أن لون البلاغة السياسية يفترق عن لون البلاغة القضائية وإن كانا يتفقان فى الغاية وهى الوصول الى مكان الاقناع من النفوس . ومن الطبيعى أن تختلف هذه عن تلك ، فالجمهور غير الجمهور والبيئـة ليست هذه البيئة . وفارق بعيد بين أن تخاطب قضاة مرنوا على سماع مختلف الـكلام حتى لا يخدعوا بالمزوق المنمق منه وبين جمهور محدود المواهب والملـكات . وشتان بين موقف محام درس ملف قضيتـه وتأهب للرد على كافة حجج الخصوم ، واستعد تمام الاستعداد لدفع اعتراضاتهم ، وبين خطيب برلمـانى أمامه خصوم ومنافسون ، وتنهال عليه الاعتراضات والمقاطعات من كل جانب . ومهما يكن من شىء فالبلاغة هى البلاغة ، وسحر البيان هو سحر البيان ، ولا بد من التدرع بالبديهـة الحاضرة والتذرع بالدرس العميق وعدم الاعتماد على شقشقة الـكلام

ولا نرى مندوحة عن أن ندرج المحاضرات العامة تحت كلمة الخطابة فالمراد هو الـكلام فى الجماهير

ولم يخل عصر من العصور من الخطباء المصاقع الذين يملـكون أعنة البلاغة . فلقد عرفت جزيرة العرب خطباء مفوهين من أمثال قس بن ساعدة الأيادى ، وعلى بن أبى طالب ، وزياد بن أبيـه ، والحجاج الثقفى ، وسحبان وائل ، وغيرهم وغيرهم . وديموستين اليونانى أبقى على الأيام من الأيام ، وشيشرون الرومانى

أبق على الزمن الباقي من الزمن . ثم ألا تزال صيحة ميرابو داوية يوم صاح فى وجه رسول الملك : « إذهب وقل لمولاك : إننا مجتمعون هنا بارادة الشعب ولا نخرج إلا بقوة السيوف ! » . ثم ألا يزال التاريخ يذكر صيحة نابليون وجنوده : « إن أربعين قرناً تشرف عليكم من سماء هذه الأهرام » . وأخيراً أو ليست خطبة طارق بن زياد خالدة على وجه الزمان حين جلجل بكلمة الحق وأهاب بجنوده : « العدو أمامكم والبحر وراءكم ... » فأقسموا أن يقاتلوا حتى تدين لهم بلاد الأندلس أو يموتوا دون الغاية

والآن نسأل : هل الخطابة ملكة أم اكتساب ، وموهبة أم مران ؟

ولكنا نرى أن قد امتد بنا نفس الكلام الى حد نخشى معه الملل فوعدنا معك الأسبوع القادم إن شاء الله

عبد المجيد نافع المحامى

الثمرة الأولى لثورة فلسطين

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

لم تعد قضية فلسطين خافية على أحد

فلقد امتلأت الأجواء بضجيج الأمواج اللاسلكية حاملة على أجنحتها أخبار فلسطين وأنباءها ، وأصبحت ثورتها حديث الناس فى مجتمعاتهم وأنديتهم ومجالسهم ، حازت إعجابهم إعجاباً أحاطه عطف وشعور وإشفاق . وقال الناس للناس : ألم تروا كيف عرف عرب فلسطين طريق الحياة فشقوها ، وقاموا بالمعجزات فى نهضتهم ، وضربوا المثل الأعلى فى التضحية ، ودقوا باب الحرية باليد المضرجة ، فأعلنوا سخطهم على سياسة الانتداب بالاضراب العام الشامل والاضطراب ؛ وقد مر عليهما ما يقرب من ستة أشهر ، وهم معطلون أشغالهم ومصالحهم ، ثائرون فى سبيل قضية إنسانية عادلة — قضية الدفاع عن الكيان — ناقمون على من يريد إذلالهم وإخضاعهم ، عازمون على مواصلة الكفاح ، الى أن يحق الله الحق ، والى أن ترجع بريطانيا عن نواياها نحو بلادهم

لفتت قضية فلسطين أنظار العالم ، وتطلع إليها ، فشملها المسلمون بعطفهم والعرب بتأييدهم ، وامتلأت نفوسهم آلاماً لما أصاب عرب الأرض المقدسة

وقاموا متضافرين غاضبين من أجلهم يناصرونهم ويدعون الى إنصافهم ومساعدتهم ، وعقدوا الخناصر على صيانة فلسطين وحفظها ، فقويت الأواصر بينها وبين البلاد المحيطة بها ، وتوثقت العُرى واشتبكت الوشائج ، وتمهد ملوك العرب وأمراؤهم ورجالات الاسلام بقضية فلسطين تعهداً يرفع عنها الظلم النازل بها ويضمن لها كيانها العربى ويدفع عنها أى اعتداء على مقدساتها ، تعهداً أخرج فلسطين من حيزها الضيق الى حيز العالم العربى ، فأصبحت بذلك جزءاً من القضية العربية الكبرى وعاملاً من عوامل السلام فى الشرق العربى

هذه هى الثمرة الأولى التى جنتها فلسطين من ثورتها وغضبتها وما كان لهذه الثورة أن تثمر هذه الأثمار لولا خاصيتان امتازت بهما على غيرها من الثورات :

الأولى أنها امتازت بالشمول ، إذ اشترك فيها جميع الطبقات كل بحسب دائرة اختصاصه ، ولم يحن الوقت لتفصيل ذلك ، ولولا هذه الخاصية لما كانت حركة فلسطين على ما هى عليه من القوة والعزيمة والمضاء

والثانيــة أنها امتازت بالسمو ، وهذه الخاصية هى التى أكسبت الثورة روعتها وجلالها وقدسيتها وجعلتها محل إكبار الشعوب وموضع دهشتهم . فقدسمت النفوس وبعدت عن الأهواء والغايات الشخصية واعتنقت مبادئ الثورة المقدسة ، فاذا العربى فى فلسطين يسمو بنفسه ويرتفع بها إلى العلاء ، وإذا هو فى جو من الروحانية نزع الأحقاد من الصدور وأحل الوئام محل الخصام ونشر ألوية المودة والمحبة والرغبة فى التعاون بين الناس

وإذا هو لا يرى فى سماء بلاده إلا أرواح الصحابة والصديقين والشهداء ، ولا يرى فى أرض بلاده إلا دماء هؤلاء مبثوثة بين ذرات التراب ، وإذا العرب فى فلسطين اليوم غيرهم بالأمس ، شغلهم الاخلاص وشغلهم حب الوطن فشغلوا العالم بما شغلهم وقالوا قولاً صريحاً إلى الأجيال لا غموض فيه ولا التواء :

لن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود
ولن يكون فى فلسطين وطن قومى لليهود

(نابلس) قدرى حافظ طوقان

نهضـــة المرأة المصرية
رسالة وجوابها

رسالة الآنسة أمينة

سيدى الأستاذ فليكس فارس : —

دفعنى إعجابى الشديد بمقالتكم فى « الرسالة » الى الأقدام على الكتابة لأقدم لكم خالص شكرى وشكر زميلاتى على ما تفضلتم به (على الجنس الضعيف) من نصائح ثمينة ، ودرس عميق فى سبيل رفع مستوى المرأة المصرية

ومع أننى يا سيدى أومن بكل كلمة كتبتها تحت عنوان : «نهضة المرأة المصرية» وواثقة بأنكم درستم الموضوع من جميع نواحيه ، فانى أرجو أن تتفضلوا بالسماح لى أن أضيف مشهدين آخرين « هما مقتل الأمة ، وعلة دمارها » :

الفتاة المصرية الحديثة ضحية استبداد أهلها وضحيــة ضلال الرجل وغروره

المشهد الاول : أسرة مؤلفة من أب وأم وبنين وبنات ، ثقفت الفتاة منهن أحسن ثقافة ، وتحلت بأجمل ما فى الأخلاق الغربية والشرقيــة ، وبعد ذلك تقبر فى بيت ذويها حيث تبقى مسلوبة الحرية ، الى أن يمن الله عليها بمن يخطبها من أهلها فتصبح زوجة لمجهول « نكرة ضمت الى نكرة ، فتبدأ المآسى . . . . »

فهى فاقدة حرية التصرف فى مسألة اختيــار زوجها ، كما أنها مضطرة الى التسليم بمن يختار لها بعلاً كى تتخلص مما هى فيه من...

سيدى : إننى أشفق على نفسى وعليكم من ذكر بعض ماتتحمله الفتاة المصرية من آلام نفسـية ومادية وهى بين أهلها . فهى دائماً فى خلاف مستمر لمـا بينها وبينهم من تفاوت فى العلم والتفكير والرقى ، وتعسة مع زوجها النكرة لمـا بينها وبينه من تنافر الأخلاق والطباع . إن الأمة المصرية اليوم فى دور انتقال من القديم الى الجديد ، ومن الاستعباد الى الحرية فى حياتها السياسية والعلمية والأخلاقية والنفسية ؛ ومن الصعب جداً التوفيق بين القديم والجديد ، ولا بد لكل دور انتقال فى حياة الشعوب من ضحية — والفتاة المصرية اليوم هى ضحية هذا التطور

المشهد الثانى : ينقسم الشباب المصرى الى قسمين : قسم لا يفكر فى الزواج مطلقاً بل يفضل أن « يتلاقى بالفتـاة التى تركها وهى مثقلة بالأوصاب من أن يعيش وإياها مستنيراً بأنوار شمس الله » . وقسم يتطلب فى الفتاة المستحيل من الكمال والجمال والمال ، وأهمها المـال ، فيجعل نصب عينه الزواج كصفقة مالية فيبحث عنها أين كانت ؛ وزواج أساسه المـال هو بالطبع بدء حياة الشقاء للزوجين

أراك يا سيدى بالرغم من دفاعك عن المرأة ومعالجة مسألتها معالجة صحيحة قويمة تلومها لنزولها إلى ميدان العمل . اسمح لى يا سيدى أن أقول إن المرأة المصرية الحديثة لم تتمرد مطلقاً على وظيفتها الطبيعية . فانها بالرغم عن ثورة نساء العالم الغربى المتمدين ومطالبتهن بالمساواة فان المرأة المصرية ما زالت هادئة وادعة لا تهمها إلا شؤون بيتها وأولادها أو علمها وثقافتها — قانعة بكل ما يأتيها الزمان من سعادة أو شـقاء . تقول يا سيدى « إن المرأة المترجلة الضلول ليست هى من نرجو لأحياء الأسرة وخلق الأمة الحية » وأظنك تقصد بالمترجلة المرأة العاملة . إن المرأة يا سيدى لا تنزل إلى ميدان العمل إلا إذا ألزمتها الحاجة القصوى إلى ذلك . أؤكد ذلك باختبار شخصى كما أننى شاهدت حالات كثيرة كان الدافع فيها لخروج الفتاة إلى العمل الاضطرار

إن الفتاة المصرية هى الوحيدة التى لم تفقد أنوثتها ورقتها بالعمل ؛ فهى وإن اضطرت إلى العمل تحن دائماً إلى تكوين بيتها والاهتمام بزوج مخلص يعولهـا وإيجاد أطفال يصلحون لتكوين الأمة القوية أجساماً السليمة عقولاً

إنك ياسيدى تنكر على المرأة العمل ولـكنك إذا بحثت فى سبب ذلك تجد أن الرجل هو الذى دفعها إليه . فهو يهملها ، أى يضرب عن الزواج ، فتضطر إلى العمل لتمضية وقتها الطويل الممل ، أو لكسب عيشها ، وربما كانت تعول أسرة بأسرها . كل امرأة متهتكة أو عاملة هى صنيعة الرجل لأنه هو الذى حرمها العيش ومرّر حياتها فدفعها إلى ما هى فيه من بؤس

وأخيراً تقول يا سيدى : « ليس كالمرأة من يصلح المرأة أو يفسدها ... » ونقول : « ليس كالرجل من يصلح المرأة

أو يفسدها . فهو بيده كل شيء . هو القادر أن يصونها في بيته فتصير له زوجة صالحة شريكة حياته وأم أولاده . كما لو كان أباً أو أخاً يمكنه أن يعول ابنته أو أخته فيعاملها بحنو ومحبة حتى لا يضطرها إلى السعي وراء عيشها . الفتاة المصرية الحديثة وديعة وضعيفة جداً ، فهي تهاب العمل وتأباه ولا تلجأ إليه إلا مرغمة . تجد يا سيدي اليوم ألوفاً من الفتيات المصريات المتعلمات الراقيات قعيدات البيوت ؛ فماذا يفعلن وكيف يضعن ساعاتهن التي تبدو لهن أبدية ؟ ؟ لذا تجدهن حيارى لا يعرفن كيف يتصرفن ليكسبن قلب الرجل . فان هن اشتغلن قيل عنهن مسترجلات غير صالحات للزواج ، وإن هن مكثن في منازلهن ذقن من أهلهن كل أنواع التقريع والهوان لأنهن بائرات . فكيف الحل وأين المصير ؟ »

عفواً يا سيدي ومعذرة ، فما دعاني الى كتابة هذا إلا يقيني من إخلاصكم في سبيل الخير العام لخدمة المرأة المصرية الحديثة . وما هذه إلا نفثة من نفثات حارة مكتومة

(قصر الدوبارة) أمينة

جواب الأستاذ فارس

سيدتي الآنسة الناهضة :

أشكر لك شكوك لما أدليت به من آراء في مبحث المرأة ، وأعجب فيك بعاطفة تنير وفكر يحلل ما يراه ظلماً وارهاقاً . وقد حقّ على كل عربي يتوق إلى إحياء حضارته أن ينحني إجلالاً أمام الرجولة في خُلق فتاة قومه ، كما حقّ له أن يرد جموح الترجّل في حياتها الاجتماعية

إن ما فاتني ذكره في مقالي (نهضة المرأة) من محن الفتاة المصرية خاصة والعربية عامة لم يفته إيلامي وإيلام كل مفكر وطني لا تفتح الحياة جرحاً في كيان قومه دون أن يشعر بذلك الجرح في صميم فؤاده . وما اصطدام الفتاة بمن وبما حولها ، وتعارضُ حياتها وما استقرّ فيها من الحوافز شعوراً وتفكيراً إلا من أعمق هذه الجراح وأخطرها عاقبة وأصدقها إنذارا

إن ما تلفتينني اليه ، أيتها الآنسة الفاضلة ، يتناول جزءا من بحث كامل في حالة المرأة أوردته في فصل (منابت الأطفال) في كتاب رسالة المنبر إلى الشرق العربي ، ولكنتُ أكتفي بهذه الاشارة لولا أنني أعلم أن كل معضلة اجتماعية لها منافذها العديدة يتطلع اليها المفكرون كلٌ من موقفه الخاص ، فلا يمكن للحلول التي يوردها أي كاتب اجمالاً في أية قضية اجتماعية أن تشمل جميع دقائقها وأنواعها ، لذلك رأيت من واجبي الوقوف معك أمام ما تبين لك من أعراض الداء لأحاول معالجته جهدي

إنك ترين أولاً أن الفتاة المصرية ضحيةُ استبداد أهلها فعلامَ يمكن أن يقع الخلافُ بين فتاةٍ وأهلها ؟

إنه إن وقع على طُرق المعيشة في البيت ، من حيث المأكل والملبس والرياش ، فلا أحسب الأهل معارضين ابنتهم في كل تحسين تريد إدخاله ، إذا هي لم تتجاوز حدود طاقة العائل ، وليست المسألة في هذا الأمر من قبيل اصطدام الجديد بالقديم ، بل هي مسألة تقدير بين ما يمكن الحصول عليه والطاقة المتوفرة . وللفتاة الرأي وليس لها الحكم في هذا ، ولا أعتقد أن في العالم آباء وأمهات يضنون على فلذة أكبادهم بما يرونه ضرورياً . فاذا كان هنالك أبٌ يجود على نفسه ويحرم رعيته ، وهي وديعةُ الله بين يديه ، فمثل هذا الأب مسخٌ لا يصح أن يتخذ أساساً لبحثٍ اجتماعي

لقد لاح لك ، يا سيدتي ، أن سوء التفاهم ناشئٌ من التطور ، وأن الفتاة هي الضحية بين رقيها وجمود أهلها ، أما أنا فيلوح لي أن في وصف كل قديم بالجمود ، ووصف كل جديد بالرقي على الاطلاق خطأ قد يكون هو السبب في ازورار الأبناء عن الآباء في هذا العصر وفي كل عصر ، فالحقيقة التي يقع الخلاف عليها إنما هي حقيقة لا دخل للقديم والجديد فيها ، لأن الحقيقة قد تكون في أحدهما دون الآخر أو في كليهما ، ولا يمكن للباحث أن يقف في جنب الأبناء على كل حال آخذا برقيهم كبرهان على جمود آبائهم . وكثيراً ما تغتر الشبيبة بتطورها ، فاذا ما تحسبه رقياً نوعٌ من الهوس وضربٌ من الغرور . ويقيني أن ليس للفتاة من يعطف عليها عطف أمها وأبيها مهما بعدت بينها وبينهما شقة الثقافة والعلم . ومهما بلغ حب الفتاة لأبويها فانه يبقى دون حبهما لها ، ولكن قد يتلبس حب الأبوين بعقيدة لهما في الحياة تختلف وعقيدة الفتاة فيبدو لها هذا الحب بغضاً وتحكما

واستبداداً . فاذا كان العلم والتهذيب لم يرفعا بروح هذه الفتاة إلى مرتبة الرق الحقيق ولم ينيلاها من النور ما تكشف به الظلام عن بصيرتها وبصائر من حولها أخذت بالظواهر فانقلبت ثائرة تطمح إلى إقناع أهلها بالعنف معتقدةً أن من حقها وقد تعلمت وجهلوا أن تصبح أماً لأبويها فلها الأمر وعليهم الطاعة العمياء

إن الفتاة التي لا يوصلها علمها وثقافتها إلى إقصاء الأوهام عن كل قديم وعن كل جديد ، وإلى الوقوف تجاه أهلها موقف من يحمل نوراً لا من يحمل ناراً ، لا تكون قد قطعت شوطاً بعيداً في مجال الثقافة الحق

إن في العالم اتجاهاً إلى التكامل بارتقاء الأنسال المتتالية ، وفي طبيعة الأبوين ما يجاري هذا الاتجاه بشعورهم الخفي بتفوق أبنائهما ، وليس من كائن في الأرض لا يقف في نصف طريق حياته مدركاً أنه ضيّع الكثير من عمره ، فهو يؤمل أن يفوز أبناؤه بما فاته من الحياة . فاذا ما عرفت الفتاة هذا واستعانت على أبويها بحبهما لها ، فلا بد لها من استجلابهما إلى ما ترى إذا هي اتجهت إلى الصواب ولم تؤخذ من بهارج التجديد بما يقودها ويقود أهلها معها إلى الدمار

أما إذا كان الخلاف واقعاً من طموح الأهل إلى إرغام الفتاة في اختيار الزوج ، فما أراه ، هو أن الآباء كانوا في كل زمان يغالون في حرصهم على مستقبل بناتهن فيتجاوزن بحق الاختيار الحدَّ الذي يتحصّن وراءه الاختيار الطبيعي الكامن في فطرة الفتاة ، وعلى حرية هذا الاختيار تُبنى السعادة في الزواج ويضمن إيجاد النسل الصحيح

وظاهرةُ هذا التحكم تصطدم اليوم بما تنبّه في الفتاة من شعور وقد أصبحت تدرك مميزاتها الشخصية وتستجلي سريرتها . وما إخالني قصّرتُ في مقالي عن نهضة المرأة عند ما حملتُ فيه على هذا التحكم الذي وصفتُه تحكما في قضاءِ الله وقدره

إنني وأنا أدرك الأسباب التي تحدو بالآباء إلى الاهتمام بمستقبل بناتهن ، مقدراً هذا العطف وهذا الحنان قدرها ، لا يسعني إلا لفت هؤلاء الآباء إلى خطورة موقفهم في هذا الأمر فأدعوهم إلى احترام الأمانة الضعيفة ولها رجاحتها في الذمم ، كما أدعوهم أيضاً إلى التبصر في عاقبة الزواج المبني على الاكراه

أي أب يقدم على إكراه ابنته على الزواج بمن تنفر فطرتها منه ، إذا هو عرف أن حفيده من هذا الزواج سيجيء الحياة معتلاً بجسمه أو مختلاً بعقله . . .

وهل في الشرق العربي اليوم من لا يزال يقول :

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا بنوهنَّ أبناءُ الرجالِ الأباعد؟

أبيننا من لا يزال يعتقد وهو في القرن العشرين أن الرجل هو مصدر الحياة وأن المرأة ليست إلا مستودعاً للجنين

لو يعلم القيمون المُكرهون أية جناية يأتون بتحكّمهم في الفطرة التي لا يسع الفتاة نفسها أن تتحكم فيها لكانوا يرعوون عن غيهم ، إذ يتضح لهم أن وأد البنت في الجاهلية كان أقل فظاعةً من وأدها في زواج تموت فيه حيةً لتقذف الى الدنيا بأطفالٍ تتعثر الانسانية بهم في سيرها نحو الرق

غير أنني لا أعتقد أن في هذه الأيام من هؤلاء القيمين الأغرار عدداً كبيراً ؛ وإذا كان هنالك بقية منهم ، فأنني لا أعتقد أن من فتيات اليوم من تستنيم لهذا الضيم ، فان الفتاة المهذبة التي تشعر بشخصيتها لا يسهل على وليها أن يرغمها على الزواج بمن تكره ، وهي تعلم أن الشرع السامي لا يأخذ بالايجاب دون قبولها الصريح ، ولكن إذا كان الاكراه غير مباشر وكانت الفتاة تلجأ الى القبول بأي زوج للتخلّص من أهلها ، فانها في هذا الموقف مشاركةٌ لهم في جرمهم إذا هي تصنّعت الحب ، وتكلفت الاغواء تكلفاً لرجل يريد إدخال الحياة الى مسكنه فلا تدخل اليه إلا مبدأ الشقاء والموت

على الفتاة المثقفة في مثل هذه الحال أن تجاري فطرتها وتتحصّن بحوافزها فلا تستسلم للتمثيل الدنيء ، لأنها إذا كانت مُرغَمةً على عدم النفور فلاشيء يرغمها على التظاهر بالحب والقبول لتسقط أبرياء في شركٍ تكون هي الضحية الأولى فيه

ولكن هنالك من الرجال من غلظت رقابهم ، وانطمس شعورهم الى درجة لا يميزون فيها بين فتاة تميل اليهم وفتاة تنفر وتشمئز منهم . فويلٌ للمجتمع من مثل هؤلاء الرجال الذين تطفح فطرتهم بالشهوة وليس في قلبهم من الحب إلا خياله الأسود . أولئك الذين طغت عليهم الأنانية حتى خيّل لهم أن كل فتاة يطلعون عليها بعناكبهم العريضة وفي يدهم بعض المال وبعض الحليّ تخر ساجدة

أمام بهائهم وعظمة أقدارهم ، وبلٌ لبنات الأولياء التفطرسين من رجل يحسب نفور الضحية حياء وازورارها دلالا

إن مثل هذا المخلوق لأشبه بالقابل الكهربائي لا بطارية فيه ليحس باتصال الجهاز القابل به أو انصرافه عنه . وكم من رجل في القرن العشرين يذكرنا برجل الكهف يترصد الأنثى على الطريق فيبدأ بقرع رأسها بحجر ليفقدها رشدها أولاً . . .

ولو عرف هؤلاء المغرورون عواقب اعتدائهم لا يتعمدوا عمن تجول شهوتهم حولها لا رحمة بها ، وهم لا رحمة فيهم ، بل إشفاقاً على أنفسهم التي اتخذوها من دون الحق معبودا

لابدّ لنا ونحن في موقف الباحث يشفق على المعتدى في جهله كإشفاقه على الضحية في ضعفها ، من أن نشير ولو تلميحاً الى حقيقة أدى الجهل بها الى معظم هذه المصائب التي تقضى على الأسر وتهدّ من بنيان المجتمع

إن المرأة المُكرَهة في زواجها لا تُضار في جسمها ونفسها بقدر ما يُضار زوجها الباغي عليها ، لأن في تكوين المرأة ما يساعدها على عزل قسطها من الايجاب في وضعها السلبي ، فتقى خلاياها من أن ينفذ اليها ما هو ترياق لها في حالة شوقها وما يصبح سماً زعافاً في حالة نفورها كما لها أن تقى أعصابها أيضاً من الهزة الشاذة عن طبقتها فينزلق الاكراه عليها انزلاقاً ، وعندئذ تعمل الطبيعة عملها بردّ الفعل في جسم الرجل ونفسه وهو لا يدري ، فكأنه لاحس المبرد يحس بالارتواء الكاذب وهو يشرب من دمه

ما أكثر من عرفت من هؤلاء الرجال الذين تزوجوا بالاغراء ، فقامت شهوتهم وأطماع الفتاة نفسها أو أطماع أهلها مقام الحب المتبادل ، فرأيتهم يباهون بزوجاتهم كأنهن تكملة للرياش الفاخر في مساكنهم ، ثم تمرّ الشهور فاذا هم يجرّون أرجلهم جرا بعد أن كانوا يسيرون في الأرض مرحا ، وإذا النور ينطفىء في أحداقهم وحق الطبيعة يكتب على جباههم آية الفاشلين

وبلٌ لمن يخدع نفسه بمظاهر القبول ولا يبالي بإيجاب مايشعر به كاملاً في سريرة من يريدها شريكة لحياته وأماً لأطفاله ، إن هذا الرجل لأشبهُ بالتائه في الصحراء يتوقع في كل مرحلة إرواء غليله من السراب يتوهج ماؤه ، يتباعد الى الآفاق كلما توهم الوصول اليه

هذا ما نراه في معضلة الاكراه الذي تشكو منه بعض فتيات البلاد ، وما نشأت هذه المعضلة إلا من أطماع المزوّجين وضعف المروءات في المتزوجين

أما علاج هذا الداء فيسور بعد بيان ما تقدم بيانه إذا نفذت أشعة الحقيقة الى قلوب الغواة والطامعين ، إذ لا يمكن أن يبصر عبيدُ الشهوات ما تفتح ضلالاتُهم من مهاوٍ تحت أرجلهم دون أن يرتدعوا عن الانتحار والقضاء على أنسالهم ، ولكنّ في الحياة كثيرين ممن اتسعت أحداقهم ولكنهم عميٌ لا يبصرون

(تتمة البحث عن شبابنا وسبب اضرابهم عن الزواج وعن العلة في بوار الفتيات في مقال آخر)

(الاسكندرية) فليكس فارس

نبـــوّة المتنبي أيضا

للأستاذ محمود محمد شاكر

— ٢ —

اللهمّ إنا نعوذ بك من فتنة الرأى والهوى ، كما نعوذ بك من سوءِ الاقتداء والتقليد

٤ — يقول الأستاذ سعيد الأفغانى فى العدد (١٧١) من (الرسالة) بعقب حديثه عن رأينا فى ردّ رواية اللاذقىّ — الذى كان قد آمنَ بنبوّة المتنبى أبى الطيب ، وأسلمَ له ، وبايعه بيعة الاقرار بصدق نبوّته ، وزاد أن أخذ البيعة لأهله كذلك : « وقد رددتُ أنا قسما كبيراً من رواية اللاذقىّ هذا لشىءٍ غير ما ذهب اليه الأستاذ الكريم ، وسأبينه قريباً » . وقد وفى الأستاذ بِعِدَته فأبان خيرَ الابانة عن (الشىء) الذى من أجله (ردّ قسما كبيراً) من رواية (اللاذقىّ هذا) . وهذا بيانه بعد كلامٍ كثير ، يقول : « وقد عجبتُ كل العجب من الأستاذ — وهو الناقد الأصولىّ الفنّان (أستغفر الله ياسعيد) — حين لم يدرِ لم اختصرتُ حديث اللاذقىّ ؟ إذ أن الأمر ظاهر ، فان الزيادات التى أهملتها يرفضها العقل ويكذبها الواقع ، ولم تكن ثمّتَ حاجة لأدُلّ القراء على سبب إهمالها لأن تهافُتها بيّنٌ . وكثيرٌ أن تجرّدَ عليها حملةٌ كالتى نزل بها الأستاذُ الميدان ! ! تخصّص لها صفحتين من كتابه القيم ، وهو يعلمُ حفظه الله أن من أدِلّة الوضع عند المحدّثين مخالفة الواقع والمعقول كما هو مستوفى بكتب مصطلح الحديث » اه

عونكَ اللهمّ ! فلستُ أدرى من أين أبدأ فى بيان تهافتِ هذا القول وتناقضه ! هذا رجُلٌ سمّاهُ أبوهُ معاذاً فكان عند الذين قرأوا حديثه « أبا عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقىّ » ، وهو فى الرواة مجهول غيرُ معروف بصدق ولا بكذبٍ ؛ وقد جاءَنا هذا الرَّجُل ينبئنا عن أبى الطيب خبر قدومه اللاذقية سنة نيفٍ وعشرين وثلثمائة ، فيأتى بحديثٍ طويل ممتدٍّ ، (١) يذكر فيه حلية أبى الطيب وصفته وسمته وحسن أدبه ، (٢) ثم يذكر حديثاً جرى بينه وبين أبى الطيب ، فيقول له اللاذقى : « والله إنك لشابٌ خطير ، تصلح لمنادمة ملكٍ كبير ! »

فيكون جواب أبى الطيب : « ويحك ! أتدرى ما تقول ؟ أنا نبىٌّ مرسل » (٣) ثم يذكر رسالة أبى الطيب إلى أمته الضالة المضِلة ! وغرض رسالته ؛ (٤) ثم ما سمع من قرآن أبى الطيب الذى وصفه بقوله : « فأتانى بكلامٍ مامرّ بسمعى أحسن منه » (٥) ثم يذكرُ عدد آيات هذا القرآن ، (٦) ثم يخرجُ إلى ذكر معجزة هذا المتنبى فى حبس الدرار (المطار) ، لقطع أرزاق العصاةِ والفجار ، (٧) ثم يقولُ إنه خرج مع غلام أبى الطيب ليرى المعجزة ، فلمّا استيقنها واطمأن بها قلبُهُ انفلتَ إلى أبى الطيب وهو يقولُ : « ابسُط يدك ... أشهدُ أنك رسولُ الله » فبسط يدهُ فبايعه بيعة الاقرار بنبوّته ، (٨) ثم لم يَنِ هذا اللاذقىّ حتى أخذ بيعته لأهله ، (٩) ثم يقول بعد : « ثم (صحّ) أن البيعة عمّت كل مدينة بالشام » (ياسبحان الله) ، (١٠) ثم يعقّبُ على ذلك أن معجزةَ أبى الطيب كانت « بأصغر حيلةٍ تعلمها من بعض العرب وهى (صدحة المطر) » ، (١١) ثم يزعُم أبو عبــد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقى رضى الله عنه ! « أنه رأى أهل السُّكون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون ذلك ولا يتعاظمونه ، حتى إن أحدهم ليصدح عن غنمه وابله وعن القرية التى هو فيها فلا يصيبها شىء من المطر ، (١٢) ثم يقول إنه سأل أبا الطيب هل دخلت السكون ، فيقول له : نعم ! أما سمعت قولى :

مُلِثَّ القطرِ ، أعْطِشْها ربوعا ... وإلاَّ فاسقِها السَّمَّ النقيعا

أُمُنْسِيَّ السَّكونَ وحضرموتاً ... ووالدتى وكِندةَ والسَّبِيعا

ثم يقول هــذا اللاذقى بعقب ذلك : « فمن ثمَّ استفادَ (أبو الطيب) ما جوّزه على طغام أهل الشام » ، (١٣) ثم يختم حديثه بما كان يُمَخرقُ به أبو الطيب على أهل البادية بإيهامهم أن الأرض تُطوىَ له ، وكيف كان ذلك ؛ (١٤) ثم يزعم أن أبا الطيب سئلَ فى تلك الأيام عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أخبر بنبوّتى حيث قال : « لا نبىّ بعدى » ، وأنا اسمى فى السماء (لا) »

هذا مختصر حديث هذا اللاذقىّ ، وأنت إذا قرأته بتمامه رأيته أحمق قولٍ يعجزُ عن الاتيان بمثله أحمق متموهٍ لما فيه

من الاضطرابِ والسخف والتلفيق والكذب ، وقلة مبالاة هذا الرجل بنسبة الكفرِ إلى نفسه حين زعم أنه قال لأبي الطيب : « ابسط يدك ، أشهد أنك رسول الله » ولا حول ولا قوة إلا بالله

فهذه أغراضٌ فى كلام اللاذقى قد بينا لك عددها (١٤) تناول منها الأخ سعيد ثلاثة أغراضٍ هى الثلاثة المتتابعة فى تعدادنا ، وقذف بالباقيات وردها وأهملها لأنها مما (يرفضه العقل ، ويكذبه الواقع) كما قال فى كلمته الأخيرة ، ومن قبل ما قال فى كلمته التى نشرها فى (الرسالة — العدد ١٦١) : « وسأعفى نفسى من أشياء كثيرة ، وردت فى (الصبح المنبى) لا يقبلها عقلٌ ولا تؤيدُها قرائن » ويعنى هذه الرواية عن اللاذقىّ

وأنا أسأل الأستاذ سعيد أن ينصف نفسه وينصفنا ، وأن يعفينا من التأويل وطلب الحجة فيما لا تأتى منه الحجة إلا متكلفة على أبعد وجه وأضل سبيل . فانظر أيها الأستاذ سعيد إما جاءك رجل بحديث قد استيقنت أن نصفه كذب قد مزج بقول غير معقول ، أفأنت مصدقه فى سائر الذى جاءك به من الحديث ؟ فان قلت : لا أصدقه فى سائر حديثه فقد بطل ما جاء به هذا اللاذقى كله ، لأن أربعة أخماس من حديثه مما (يرفضها العقل ويكذبها الواقع) كما قلت أخيرا : ومما لا يقبلها عقل ؛ ولا تؤيدها قرائن كما قلت أولاً . وإن شئت أن تتطلب الجدل فقلت أصدق بعضه ، وأكذب بعضه ، فأنك غير قادر على أن تنشىء لهذا الرأى حجة يلجأ اليها أو دعامة يعتمد عليها ، فان هذا اللاذقى رجُلٌ مجهول فى الرواة لا يعلم حاله فى صدق أو كذب ، ومن كان كذلك نُظر فى قوله ، فان كان الذى يأتى به من الرواية صدقا كان ذلك مانعاً من اتهامه بالكذب إلا ببينة أخرى ، وإن كان كذباً لم تجد بُدًّا من وسمه بالكذبِ واسقاط روايته كلها ، وجملةً واحدةً ؛ ويصبحُ ما أتى به كله كأن لم يُروَ ولم يعرفْ ، فلا ينظرُ اليه فى رواية أو تاريخ ؛ فان قلت أقبل المعقول وأردُّ غير المعقول ، فلا بُدَّ من أن نقول لك إنك قد اعتمدت فى بعض قولك على مذهب أهل الحديث فى علم الرواية ، فقلت : « إن من أدلة الوضع عند المحدثين مخالفة الواقع والمعقول » ، ونعمْ ، فان رواية ما يستحيل أن يقع ، وما لا يأتى على وجهٍ يرتضيه العقل ، ساقط عند المحدثين ، وهم يتهمون صاحبه بالكذب لوضع فلا تقبل له روايةٌ أبداً ، ولو كانت صادقة ، ولو كان فى قول غيره من الصادقين ما يقعُ عليها حرفاً حرفاً وكلمة كلمة . فهذا مذهب القوم بتمامه ، ومذهب عقلاءِ الناس فى أمر دينهم ودنياهم . واعلم أيها الأستاذ سعيد أن القول يُردّ ويُرفض ويكذب صاحبه لأنه غير معقول ويستحيل وقوعه ، ولا يمكن فى العقل أن يطرد عكسُ هذه القضية : فليس يقبل القولُ ويرتضى ويصدق صاحبه لأنه معقول وجائزٌ وقوعه وحدوثه ، ولست أشكُّ فى موافقتك لى على هذا ؛ إذن فليس من الحكمة ولا من الصواب ولا من العدل ولا من العلم أن تختصر حديث اللاذقىّ فتأخذ منه المعقول الجائز الحدوث ، وأنت تردّ سائر حديثه بل أكثره ، ثم تقول عنه فى عدد الرسالة (١٦١) : « وقد حفظ لنا (التاريخُ) مشهداً من مشاهد هذه الدعوة (النبوّة) فى اللاذقية » . فليس شىء من كلام الوضاعين والكذابين مما يصحُّ أن يعتمد عليه فى تاريخ أو غيره

ثم لو نظر الأستاذ سعيد إلى هذا الحديث الذى عدّه (مما حفظ التاريخ من مشاهد دعوة أبى الطيب إلى نبوته) لوجدَ يقيناً أن هذا المختصر من حديث اللاذقىّ هو أيضاً (مما يرفضُه العقل ، ويكذبه الواقع) و (مما لا يقبله عقل ، ولا تؤيده قرائن) ، فان فيه من الوهن والضعف والتخالف والتناقض ما لو تدبره الأستاذُ — وهو يدرس شعر أبى الطيب ، ويصورُ منه نفسه وطبائعها وغرائزها — لعلم أنه موضوعٌ متكلفٌ ليس فيه من الصدق شىء ؛ ولم أردك بسوءٍ أيها الأخ إذ قلت فى كلمتى السابقة إنك تأخذ من الكلام ما تشاءُ ، وتدع ما تشاء ، فتزول بذلك شبهاتك

إن للرواية أصولاً لا يأتى لأحد أن يخرج عنها إلا بحجة لا تسقط عند النقد والنفض ؛ ومن أصول الرواية ألا تُقبل روايةُ من كذّب فى أحاديث أو وضعها ، وإن كان سائر الذى يرويه مما يعضده فيه رواية غيره من الصادقين ، فكيف بمن يكون أمرُه فى الحديث الواحد : أربعة أخماس كذبٌ غير معقول ، والخمس الباقى تختلفُ عليه الآراء فى وصفه بأنه صدق أو كذبٌ ، أو معقول وغير معقول ، أو تؤيده قرينة أو لا تؤيده قرينة ؟ ألا إن هذا أولى بالاسقاط والرفض والنبذ حيثما ثُقِف ، وكذلك هو حديث هذا اللاذقىّ المجهول

٥ – وقد أراد أستاذنا سعيد أن يوهم قارىء كلامه أننا اتخذنا رأينا – فى نسبة أبى الطيب إلى الشجرة العلوية المباركة – (برهاناً) على رد رواية هذا اللاذقىّ المجهول لقولنا فى ص ٤٨ « أما اللاذقى فمجهولٌ ولا يتيسر لنا نقد سنده ، ولكن مما لاشك فيه أن اللاذقية التى نسب إليها ، كانت لوقت أبى الطيب موطناً لفئة من العلويين ومحطاً لكثير من كبار الدعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة فى التاريخ العربى كلّه » . فلذلك لم يتورع عن بتر بقية كلامنا ، فقد قلنا بعقب هذا وبغير فصل « فلا بأس من أن تجعل هذا ذكراً مذكوراً وأنت تتبصّر فى أصل الرواية على وهنها وتضاربها ، وتهالك معانيها التى يفسدُ بعضها بعضاً كما سترى » . فلو كنا قد اتخذنا هذا (برهاناً) لقلنا مكان (فلا بأس) (فلا بد) ليستقيم المعنى الذى أراده لنا الأستاذ الجليل .

ويخيل إلىّ أن الأستاذ سعيد سيحاول أن يقع فى هذا الكلام بالتأويل . فأنا أضرب له المثل على الفرق بين هذا وذاك ، ليدع هذا الذى يمد إليه من أفانين الكلام . فانك لو أردت أن تعلم جاهلاً دين الاسلام بعد إيمانه بصدق القرآن وأنه وحىٌ من العزيز الحكيم ، ثم أخذت تفهمه أن الصلاة عمود الدين وأن الله أمرَ بها عباده ، والبرهان والدليل على ذلك قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة » ، فلست تقول له بعقب ذلك (فلا بأس) من الصلاة ، وإنما تقول : « فلا بد من الصلاة »

ولو تدبر الأستاذ قليلاً كما سألناه فى كلمتنا الأولى (عدد الرسالة ١٦٧) لعلم أن الاشارة فى هذا الموضع هى إلى الذى قلناهُ فى كتابنا ص ١٧ – ١٩ من أنه كان بينه وبين العلويين[1] عداءٌ وحفيظة بلغ من أمرها أنهم أرصدوا له قوماً من السودان عبيدهم فى طريقه بكفر عاقب ليقتلوه – وذلك مُنْصَرَفه من طبرية سنة ٣٣٦ – حتى إن أبا الطيب لم يُحجم عن التعريض بهم ، وهو يمدح كبيراً من أولاد علىّ رضى الله عنه بالرملة هو أبو القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى فقال فى مديحه :

أتانى وعيدُ (الأدعياء) وأنهم أعدُّوا لى السودان فى كفر عاقب
ولو صدقوا فى جدِّهم لحذرتهم فهل فىّ وحدى قولهم غير كاذب

(١) قد صرفنا القول فى كتابنا ونحن نذكر العلويين ، ونريد بذلك العلويين نسباً ، والعلويين مذهباً (الشيعة) ، إذ لم نجد ضرورة للتفريق بين هؤلاء وهؤلاء . وليس يخفى على القارىء موضع هذا وذاك

وقال فى مدح الأمير ابن طغج ، وقد صحبه أبو القاسم العلوى وأقام معه فى الرملة يحضر مجالسه

وفارقتُ شرَّ الأرض أهلاً وتربة بها (علوىٌّ) جدُّه غير هاشم

فلهذا ولغيره من آثار العداوة والبغضاء بين أبى الطيب والعلويين (مذهباً أو نسباً) قلنا فى ص ١٧ « إن عندنا فى أقوال العلويين المعاصرين عن أبى الطيب سبباً للتوقف دون التسليم »

هذا على أن عندنا من الأسباب ما يحملنا على رد رواية العلويين فى أخبار أبى الطيب ، وقد ذكرنا بعضها متفرّقاً فى كتابنا ، وبعضٌ آخر لم نذكره لضيق الوقتِ ، ورغبة فى اختصار القول ، واعتماداً على فطنة القارىء إذ كان فى وضع كلامنا ما يُشيرُ إلى أطرافه

٦ – قلت فى كلمتى التى نشرتها الرسالة (العدد ١٦٧) إن الأخ سعيد قد لا يجد دليلاً على صحة هذه الروايات التى رويتْ فى نبوّة أبى الطيب ، فيما يزعم ، إلا أنه قد رواها فلانٌ وفلانٌ ورواها المعرى – وهو الحجة الثبتُ – وقلنا إن الحكم – بأن رواية المعرى أو غيره من العلماء – هذه الأخبارَ مما يصححها أو يرجّح الصدق فيها – حكم خطأ لا يصح لأحد أن يتابع عليه ، ولم أقل ذلك إلا لقول الأستاذ فى عدد الرسالة (١٦١) ، « وسأعتمد فى قص الحادث (يعنى النبوّة) على أبى العلاء خاصة ، لفضله وتحريه وقرب زمانه » ، وهذه الكلمة الأخيرة وحدها تدل على أن الأستاذ يَعُد ما يرويه أبو العلاءِ عن أبى الطيب مما ترجحُ فيه كفة الصدق على كفة الكذب ، ولكن الأستاذ لم يرضَ قولنا هذا ، فعادَ يقولُ فى كلمته الأخيرة : « هذا وقد حمل الأستاذ أقوالى ما ليس تحمل : فأنا لم أدّع للمعرّى تنزُّها عن الخطأ ، ولم أقل بأن « ورود خبر فى كتب العلماء هو الدليل الذى لا دليل غيره ، وما جعلت قرب الزمن دليلاً على الصحة بل هو مما ييسر للمحقق وسائله » اهـ . وأنا لا أحبّ أن أكثر القول على أستاذنا فى نقد كلامه هذا بل أقولُ : إن كان فى يدكَ دليل على صحة هذه الروايات والأخبار فأظهرهُ ولا تكتمهُ ، فمن قبلُ ما قلنا لك فى مقالنا بعدد الرسالة (١٦٧) إن « الخبر لا يستحقّ صفة الصدق إلا بالدليل الذى يدُل على صدقه ، فاذا لم تجد الدليل على صدقه ذهبت عنه صفة الصدق وبقى موقوفاً . فاذا اعترضت الشبهات من قبل روايته أو درايته مالت به الشبهة

إلى ترجيح الكذب فيه ... » . ولكن أستاذنا لم يرد أن يقف عند هذا القول ، وزعمه من (التهويل) ويقول : « وما التهويل بمغن عن أحدنا فتيلاً » ، وزعم أنى « لم أجد بأساً فى أن أعرفه أنّ الخبر ما يحتمل الصدق والكذب ، وأنّ وأن ... الخ الخ مما يدرسه الطلاب المبتدئون » . وظنّ أن فى هذا القول مذهباً لهُ عن الاتيان بدليله على صدق الروايات التى يزعمُ أنها من التاريخ وأنها صحيحة . ويخرجُ من هذا ويدعه ليقول : « إننا نتزنا روايات التاريخ بالبطلان والكذب ، ثم لا يكون دليلنا عليها إلا أنها كذب وبطلان » . وليس الأستاذ يبالغ من كلامنا مبلغا يسقطه أو يحزّ فيه إلا أن يثبت لنا أوّلاً صحة هـذه الروايات ، ومن أين لأحد أن يسلم بصحتّها ويقتنع بأنها خالية من الكذب والوضع وسوء القصد فى الاساءة والتشهير والتسميع بأبى الطيب ؟ فاذا فعل ذلك فقد بلغ أوّل الحق ، وكان لهُ أن يجبهنا بما شاء من القول مصرّحاً ومعرّضاً . فالدليل الدليل أيها الأستاذ سعيد

٧ — ومن أعجب أمر الأستاذ سعيد أنه ينشئ من الكلمة الواحدة تردُ فى الكلام جملة لهـا معنى يوجهه هو كيف أراد على ما خيّلت ، ويضعها حيث شاء من الحديث غير متهيب ولا متلفت عن يمين وشمال ، ولو خرج بالكلام الذى أمامه من العربية ... كما مرّ بك فى كلمتنا السابقة . فمن ذلك أنه وقف عند قولنا فى الكلمة الأولى (الرسالة عدد ١٦٧) : « وتركُ المعرّى الشكّ (فى تلك الأخبار) أو تكذيبها ليس يقومُ أيضاً دليلاً على صحتها ، وليس المعرّى بمنزه عن الخطأ والغفلة ، وهو من هو ، فذهاب وجه النقد عن المعرّى ليس يكون طعناً فيه ، ولا يوجب نسبة الكذب إليه ، ولا ينفى صفة الصدق عنه » . وليس يذهب عن أحد من القراء أننا أردنا بهذا الكلام أن ندفع ظنّ من يظنّ — أى الناس كان — أن توقفنا دون التسليم بمـا رواه المعرى فى خبر نبوة أبى الطيب ، أو نقدنا له ، أو تكذيبنا أو إسقاطنا لـما روى — يكون طعناً فيه ، أو يعد مما يوجب نسبة الكذب إلى أبى العلاء . ولكن الأستاذ سعيدا ترك هذا ، وأراد أن يبالغ وينشئ حول كلامه (خطا من النار) ، فأخذ كلمتنا : « وليس المعرى بمنزّه عن الخطأ والغفلة » وردّها بقوله : « وأنا لم أدّع للمعرى تنزهاً عن الخطأ » ، فكيف — أيهذا الأستاذ سعيد — تزعم أننا قلنا إنك ادعيت للمعرّى تنزهاً عن الخطأ

وكيف تخرّج هذا الذى ذهبت إليه من كلامنا ؟

ليعلم الأستاذ أنى لا أحفلُ بمثل هذا ، ولا أنظر إليه ، ولا أقف عنده ، ولكنى أبينه له ولغيره ، ليعلم أن كل أحد يستطيع أن يقول ما يشاء فيما يشاء على أى وجه يشاء . . . ولكن ذلك لا يجوز على أحد ، ولا يغفل عنه من قرأ الأول والآخر ، ونظر وفهم وجمع وعرف معانى الكلام ، وكيف خرج وإلى أين ينتهى ؟ وليعلم أيضاً أن كل أحد يستطيع أن يفهم من الكلام ما يشاء على غير قاعدة من منطق أو عربية ، ولكن فهمه لا يكون حجة يأتى بها الناس ويظهر بها عليهم ، ويحاول أن يسقط أقوالهم بها . لابد للكلام من منطق عقل وفقه عربيـة حتى يفهم ، وإلا أصبحت المعانى فوضى لا ضابط لها ولا وكيل عليها ولا حفيظ

وللقارئ أن ينظر إلى فعلات الأخ سعيد هذه فقد قلنا فى كلمتنا الأولى (الرسالة عدد ١٦٧) عند رد اعتراضه : « إن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل (الرواية) ، وقد أتى به القوم ليعضدوا قولهم فى خرافة النبوة ... الخ » فجاء ينقل هذا فى كلامه مرتين هكذا « إن هذا الخجل الذى يزعمونه إنمـا هو من أباطيل (الرواة) » فنحن نقول : « الرواية » ، وهو يقول على لساننا « الرواة » وبين اللفظين فرق « كبير » فى عربيتهما وفى موقعهما من الكلام . ولو أردنا الذى أراده الأخ سعيد لكلامنا لقلنا « من أكاذيب الرواة » . ولو رجع الأخ إلى كلامنا الذى أعقب هذه الكلمة لعلم لم قلنا (أباطيل الرواية) ولم نقل (أكاذيب الرواة) . هذا على أنى أقول أيضاً إن الذى زعموه من خجل أبى الطيب حين كان يسأل عن أمر لقب المتنبى — هو من أكاذيب الرواة . فاذا أراد الأستاذ أن يعرف من هم هؤلاء الرواة ، فليرجع إلى الكتاب الذى نقل عنه هذا الكلام ، فينظرَ من همْ ؛ ومع ذلك فليسَ تغنى معرفة الرواة شيئاً فى هذا الأمر . وتعب أن أمضى على هذا الوجه فى تعريف الأستاذ سعيد بوجوه بطلان كلام هؤلاء الناس الذين نقل كلامهم . فعليه أن يريحنا قليلاً بتدبره فى كلام هؤلاء الناس ، والنظر فى معانى رواياتهم بالذى توجبه العربية ، مع المقارنة بين هذه المعانى المختلفة المتباينة فعند ذلك يعرفُ كيف كان التناقضُ فى الرواية ، وكيف هدمتْ الرواياتُ بعضها بعضاً فى خبر نبوة أبى الطيب

وبعد ... فان فى كلام الأستاذ من وجوه التهافت ما لا تطيعنى

النظرية العامة للالتزامات
فى الشريعة الاسلامية *
للدكتور شفيق شحاته

إن صرح القانون مشيد على فكرة الالتزام . وقد ارتدت هـذه الفكرة فى القانون الخص رداء خاصاً ، حيث ظهرت فى صورة الحق الشخصى ، المقابل للحق العينى . ثم هى فيه ، تخضع لقواعد عامة ، تحكم مختلف المسائل التى تعرض للالتزام . وقد استخلص هذه القواعد فقهاء الرومان ، ونقلت عنهم فى القوانين المستمدة من التشريع الرومانى . وجمعت هذه القواعد ، النظرية المعروفة بالنظرية العامة للالتزامات ، وهى نظرية أجمعت الآراء على أنها من خير ما أنتجت قريحة الرومان القانونية

أما فى الشريعة الاسلامية ، فقد وجه الفقهاء جهودهم نحو الحلول الفرعية ، ولم يحاولوا وضع قواعد عامة تحكم الالتزام فى مصادره ، وفى آثاره ، وفى طرق انقضائه . على أن بالشريعة الاسلامية كنوزاً من الأفكار والآراء والتصويرات القانونية ، فاذا نحن أردنا الانتفاع بها يتحتم علينا أولاً الوصول إلى القواعد العامة التى تحكمها جميعاً ، إذ لا يقوم العلم إلا على أساس من القواعد العامة

ثم إن الفقه الاسلامى ، قام وترعرع فى مدى أجيال عديدة ، وساد فى مختلف الأقطار التى جمعتها المدنية العربية ، تلك المدنية التى تركت آثاراً خالدة فى جميع مناحى العلوم والفنون . فليس من الغريب أن يكون أثرها كذلك فى ناحية التفكير القانونى . وفى الواقع قد ظهر هذا التفكير فى صورة من أبهى صوره ، ولا تزال آثار هذا التفكير من أنفس ما يدخر الشرق من التراث العلمى

فمن العقوق إذن أن يهمل هذا التراث ؛ ومن العناية به أن يعمد إلى التأليف بين فروعه . ففى جميع الأمم وفى مختلف العلوم عمد العلماء إلى التركيب بعد التحليل ؛ وقد قام الفقهاء بقسطهم الوافر من التحليل ، فيتعين البدء من حيث انتهوا ، وبهذا العمل نكون قد وصلنا ما كان قد انقطع . فعسى أن يكون الاهتمام بالآثار القانونية لفقهاء المسلمين على هـذا الوجه فاتحة عصر إحياء لتشريع لا يمكن أن يكون غيره ملائماً مثله فى بلاد كانت مهداً له ومرتعاً

وإن فى هـذا العمل تحقيقاً كذلك لغرض من أغراض التشريع المقارن ، وقد أعلن المؤتمر الدولى المنعقد بلاهاى فى سنة ١٩٣٢ ، ما يعلقه من الأهمية على التشريع الاسلامى ، كمصدر من مصادر التشريع القارن

١ — طريقة البحث

١ — الطريقة الموضوعية

لا يخفى أن القيام بهـذا العمل يقتضى من الباحث اعتماد خطة معينة ، فقد لوحظ أن الخطة التى اتبعت للآن لم تكن مما ترتضيه دائماً القواعد العلمية

فانا نجد من جهة أن من تصدى من العلماء الغربيين لمعالجة هذه المسائل لم يصل أبداً إلى تفهم روح النصوص ، وهم فى الغالب ، يجهلون أيضاً اللغة التى وردت بها هذه

(*) مقدمة الرسالة القيمة التى تقدم بها إلى كلية الحقوق المصرية لنيل الدكتوراه

(الرسالة) على الافاضة فيه ، ولا يواتينى الزمنُ على إزهاقه من أجله ، ولكنى أنصح للأخ ألا يلجأ إلى ضروب القول التى يخرج بها الكلامُ عن حده إلى مجاهل من المغالطة والاعتراض ، وإرادة الغلبة ، واتباع الظن ، وفتنة الرأى ، والاصرار على خطرات النفس . وليعلم الأستاذ أنى لست ممن يغفل عن مواضع التحريف فى القول ، أو الاحالة فى الحجة ، أو الفساد فى التأويل ، فان أراد أن يعود الى الحديث والكتابة ، فليعد على مذهب مرضىّ متبع معروف غير منكر . فان فعل فما أنا بالذى يسوءه أو يغضبه ، وما أريد من شىء إلا أن أهتدى إلى الحق على يدىّ من كان له فضلُ السبق ، وحسنُ الحديث ، وكمالُ الغلبة بالحق . . . هذا وقد أعفينا الأستاذ من كثير قول فى الذى جاء فى مقاله الأخير — لو أردنا أن نكيل له من جرّائه بمثل كيله لفعلنا فأشوينا . . . ولكن

عبأتُ له حِلمى لأُكرمَ غيره   وأعرضتُ عنه ، وهو بادٍ مقاتله

محمود محمد شاكر

النصوص . أما المستشرقون ، فلا نجد بينهم القانونى الفقيه الذى سرعان ما يلحظ ما للنص من خطر

ومن جهة أخرى ، نرى المؤلفين الشرقيين تنقصهم الروح العلمية ، ومؤلف (ساقاس باشا) على شهرته مثل ناطق لهذا النقص

وكذلك الأمر فى الرسائل والمؤلفات التى حاول فيها مؤلفوها التقريب بين الفقه الاسلامى وبين آخر ما وصلت إليه اتجاهات المحاكم فى عصورنا هذه ، فما كان من تأثير حماسهم الصبيانى إلا مسخ الشريعة الاسلامية

فمن المتعين إذن أن نضع فى مواجهة هؤلاء وهؤلاء الطريقة التى نرى وجوب اتباعها ، وقد سميناها الطريقة الموضوعية التاريخية لأنها تتناول موضوعات البحث وتقررها كما وردت فى النصوص مراعية فى ذلك منتهى الأمانة ، ثم هى تتتبع هذه النصوص على مدى الأجيال لتتلمس تطورها التاريخى . فهى قائمة على فكرة أساسية ، ألا وهى أن التشريع كائن حى وليد الهيئة الاجتماعية ، ينمو بها ولها ، ويتطور معها ، ويجمد عند جمودها

وهذه الطريقة تعمد لذلك إلى المسائل . فقد رأينا أن التشريع الاسلامى لم يعن إلا بالمسائل ، فاذا أردنا تفهمه على حقيقته ، وجب أن نتقصى المسائل ونستوعب ما ورد عليها من الحلول ، فتكون هى الحجارة التى بها يتم بناء هيكل النظريات بصرف النظر عما حشر فى الكتب حشراً لتفسير هذه الحلول إذا كانت هذه التفسيرات لا تتفق والواقع

فمن يتصفح كتب الفقه يتبين أن التفسير الذى يرد على الحلول لا يكون صادراً دائماً عن مبادىء عامة ، متمشية فى جميع أجزاء الجسم الواحد ، بل هو يرمى إلى تبرير الحل الذى ورد بشأنه فقط ، تبريراً يستند سواء إلى فكرة مقبولة عقلاً ، أو إلى أن حلولاً مشابهة قد جاءت فى مناسبات أخرى

ولكن هذا التبرير المباشر لا يمكن اعتباره كافياً ، إذ قد تكون هناك مسائل أخرى مماثلة أيضاً ولم تحل على نفس الشكل . فالتفسير الصحيح يكون بايراد التعليل الذى ينطبق على أكثر المسائل المتشابهة ، مع ذكر ما دعا إلى الأخذ بغير ما يقضى به فى مسائل معينة أخرى

وهذه الطريقة تصل بنا إلى العلل الرئيسية والأخيرة للحلول ، وهذه العلل وحدها هى التى يقبلها العلم ، ويجب اعتبارها دون غيرها وإحلالها محل ما استبعد من التعليلات

وقد تتعدد فى كتب الفقه الطرق لتبرير الحل الواحد . أما تعدد الأدلة فأمر لا شائبة فيه لو كانت الأدلة جميعها تتضافر لتكوين مبدأ واحد يقضى بالحل موضوع النظر

ولكنا نجد فى الغالب الطرق لا الأدلة تتعدد ، وكل طريق منها صادر عن فكرة قد تكون متنافرة مع الفكرة التى أوحت بالطريق الآخر

ففى الخطة التى نقول بها تلزم الاستعانة بالروح العامة للتشريع ، لاستبعاد ما يتبين فضوله من الطرق . فاذا ما اكتفى بأحدها وجب الاحتفاظ به فى جميع المناسبات ، حتى إذا ما اضطر الباحث اضطراراً إلى الرجوع إلى الطريق الآخر فى حالات أخرى معينة وجب اعتبار هذه الحالات استثناءات لما سبق تقريره كمبدأ عام ، وقد تنم هذه الحالات عن اتجاه التطور فى التفكير

وكذلك التكييف القانونى النظرى لا يخضع دائماً عند الفقهاء لفكرة واحدة . صحيح أن تعقد الظاهرة القانونية قد يحول فى بعض الأحوال دون تصويرها على أساس الفكرة الواحدة . ولكن فى هذه الأحوال يقتضى منا المنطق أن نغلب العنصر المسيطر على هذه الظاهرة ؛ وعند تصورنا لها نلاحظ ما شذ على تكييفنا القانونى من الحلول ؛ ولا يلجأ الى ذلك إلا إذا لم يعثر فى التشريع الاسلامى نفسه على تصوير ينتظم النظرية بما حوته من الحلول جميعاً

يتضح مما تقدم أنه إذا كان تقيدنا بالحلول وثيق العرى فالأمر بخلاف ذلك بالنسبة للشروح ؛ ولا يخشى من هذا التحرر على صحة تفهم روح التشريع ، فقد قلنا إن التشريع الاسلامى قائم على هذه الحلول ، وروحه فيها وحدها

على أن هناك محظوراً آخر . فانا إذا نحن فرضنا على التشريع الاسلامى أفكاراً غربية ، اقتضتها أساليب التشريعات التى نشأت فيها نكون قد مسخنا هذا التشريع بالفعل

فيلزمنا إذن التجرد من أساليب هذه التشريعات ، وإذا

نحن حاولنا الوصول الى المبادئ الأوليـة ، فلن تـكون إلا تلك التى يتطلبها كل تشريع لمجرد كونه وليد العقل البشرى ، وهو واحد مهما اختلفت الأمكنة والأزمنة

وذلك كله لا يحول دون الاستعانة فى عرض المسائل بما جرينا عليه فى بحث قوانيننا الحديثة على أن يكون هذا إطاراً خارجياً ، وعرضة للتحوير وفقاً لمقتضيات التشريع الاسلامى

لذلك لن نعير كثيراً من الاهتمام ما حوته الكتب الفقهية من الأمثال والأصـول ، فهى فى الغالب عبارة عن مبادىء يقضى بها المنطق أو العـدل ، لا نفس النصوص التى وردت بمناسبتها . ونذكر هنا أن مما استنفد نصيبا من نشاط الفقهاء مقارنة الحلول بعضها ببعض لاظهار الفروق والأشباه ، على أنهم فى هذا كله قلما يرتقون الى المبادىء الأولية العامة

أما علم أصول الفقه فهو شديد الاتصال بعلم الكلام ، ولا يفيد فى دراسة موضوعية للنصوص ، فهو أشبه بفلسفة القانون منه بالقانون

وقد قرب فقهاء الحنفية بينه وبين الفروع ، ومع ذلك يقول (الحموى) (أنظر « الغمز » ج ١ ؛ ص ٢٤٥) إنه : « لا عبرة بما فى كتب الأصول إذا خالف ما ذكر فى كتب الفروع كما صرحوا به »

وكذلك لا يلتفت فى دراستنا الموضوعيـة الى مصادر التشريع ، ذلك أن « القرآن الكريم » ، لم يأت إلا بقليل من الآيات فى موضوع الالتزامات ، وهى فى الغالب من قبيل القواعد الأخلاقية

أما « الأحاديث النبوية » ، فهى أيضاً قليلة العدد ، وسيؤخذ بها على أنها نصوص إذا جاءت بحلول معينة لبعض المسائل . ولن نتعرض لما وجه من الطعون إلى بعض هذه الأحاديث ، فهى لمجرد ورودها تنم عن اتجاه خاص فى التفكير

فالعبرة إذن دائماً بالمسائل وأحكامها . ومما يؤيد وجهة النظر هذه أن فى عقد البيع قد وردت أحاديث متعددة فى صيغة النهى ، وقد فرع الفقهاء عليها البطلان فى بعض الأحوال ، ومجرد الكراهية فى البعض الآخر بالرغم من اتحاد الصيغة فى جميع الأحوال

يتضح من ذلك أن التشريع الاسلامى فى موضوع الالتزامات يفقد صبغته الدينية

ونذكر هنا أن هذا التشريع لا يمنع مصدره الدينى من اعتباره تشريعاً بالمعنى الصحيح ، ذلك أنا إذا نظرنا إلى ماهية القاعدة القانونية فى هذا التشريع ألفيناها تتضمن جميع العناصر التى تلاحظ فى القواعد القانونية

من ذلك ابتناؤها على الظاهر ، وابتعادها عن التوغل فى الدوافع النفسية ؛ ومن ذلك أيضاً الجزاء المترتب على مخالفتها ، فقد فرق الفقهاء بجلاء بين ما هو واجب قضاء ، وما هو واجب ديانة

أما « القياس » وقد اعتبروه مصدراً من مصادر التشريع ، فهو ، فى الواقع ، عملية من عمليات الاستدلال يقوم بها العقل ، إذا أراد الوصول الى حكم عن طريق الاستنتاج

وهذه العمليات العقلية تؤدى إلى وضع حدود وتقسيمات ، وشأن علم الفقه منها شأن سائر العلوم الأخرى

وإذا استعمل العقل فى مهمة استنباط الأحكام ، فقد يؤدى به منطقه الجامد إلى حلول قد تتعارض مع فكرة العدالة المطلقة أو مع بعض الأحاديث الصريحة فيلجأ الفقهاء عندئذ إلى ما يسمونه « الاستحسان »

فالحكم الذى يقضى به الاستحسان ليس فى الواقع إلا استثناء اقتضته قواعد العدل والانصاف أو أسباب أخرى

وقد يستعمل الاستحسان لادخال ما استقر عليه « الاجماع » فى التشريع

وقد يتعين اعتباره كالعادة والعرف ، عاملاً من عوامل التطور ، إذا تبين أن التشريع الاسلامى قد تأثر بالفعل بواسطته . وهذا هو موضوع الطريقة التاريخية

(يتبع) شفيق شحاته

مكتبة العرب

الجوائز الأدبية ومغزاها

بقلم ابراهيم ابراهيم يوسف

ستصبح الجوائز الأدبية يوماً ما ، وإن بعد ، موضوع رسالة أحد طلاب العلم يتقدم بها إلى إحدى الجامعات لينال أجازة « الدكتوراه » فى الآداب . ولا ريب فى أن مثل هذا الموضوع سيكون فى نظر أدباء ذياك الجيل المقبل طريفاً غاية الطرافة ، كما يجد أدباء هذا العصر متعة وأى متعة فى حديث التقدير الأدبى الذى لقيه أدباء القرن التاسع عشر فى أوربا وأمريكا . فقد كان تقدير الأدباء لذلك الجيل يجرى على منوال خاص . ففى انكلترا مثلاً منح الشاعر « لوريت » Laureate الذى نشأ راعياً مرعى خصيباً . ومنح الكثير من الأدباء ألقابا بمناسبة إحياء أيام مولدهم أو نحوها من المناسبات . أما تقدير الأدباء فى أمريكا فكان يجرى على منوال آخر أساسه الانتفاع الضمنى بالناحية المادية لمظهر الهبة أو المكافأة ، إذ يذكر عن « ناتانيل هوثورن » Nathaniel Hawthorne أنه عين قنصلاً لأمريكا فى ليفربول لمجرد الاعتراف بقدره الأدبى . وكذلك قلد « هرمن ملفيل » Hermen Melville مثل هذه الوظيفة ليتمكن من التغلب على ضائقته المالية . وتابعت أمريكا السير فى ذلك حتى عام ١٩٠٤ حين عين الرئيس روزفلت « ادوين أرلنجتون روبنصن » Edwin Arlington Robinson فى إدارة المكوس تشجيعاً له على النهوض بالشعر . جرى مثل ذلك على البعض فى حين أن فطاحل الأدباء للعصر الفيكتورى مثلا لم يصيبوا شيئاً من هذه الهبات ، إلا أنهم استعاضوا عن ذلك بادراك الحقيقة الراهنة التى كانت تتجلى لهم يوما بعد يوم فى زيادة طبقات القراء ، فأوحت لهم ثقتهم بأنفسهم ألا يضعوا أمانيهم فى غير المستقبل . وسرعان ما اطمأنت نفوسهم عندما صدر عام ١٨٨٠ قرار يجعل حق الطبع والنشر ملكا للمؤلف . وقضى هذا القرار على قرصنة الناشرين وسطو المغتصبين على أعمال الأدباء . وبطبيعة الحال كان تكرار نشر عمل أدبى يدر على صاحبه رزقاً جديداً . ولهذا لم يأبهوا للهبات والجوائز

وأول الجوائز الأدبية التى ظهرت خلال القرن العشرين ولم تكن لها سمة التجارة هى « جوائز نوبل » Nobl فى بلاد السويد و « جائزة جونكور » Goncourt و « جائزة فيمنا » Femina فى فرنسا ، والجائزة « الهوثورنية » Hawthorne فى انكلترا ، و « جائزة بولتزر » Pulitzer فى أمريكا . وظهرت بعد ذلك جوائز أخرى فى هذه البلاد وغيرها . ومهما تكن هذه الجوائز صادقة فى التعبير عن عصر بذاته ، أو عن أثرة الروح القومية ، أو هى مسألة قاصرة على المؤلف دون غيره ، فهى على أى حال جوائز اعتراف بالتفوق الأدبى

وليس من شك فى أن جوائز نوبل خلدت ذكر الفرد برنهارد نوبل Alfred Bernhard Nobel ، ذلك المخترع السويدى الذى تمكن من اكتشاف الديناميت فيما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٦٦ . وكأنما أراد أن يوازن بين خطر ما اخترعه بعمل آخر فأثبت فى وصيته عدداً من الهبات ظنها مؤدية إلى القضاء على استعمال الديناميت . ولعل ذكرى السنين العجاف من حياته ، التى أضناه فيها الكفاح بعد ما زار الولايات المتحدة عام ١٨٥٠ ليعمل فى خدمة المخترع الاسكندنافى الأسبق جون إريكسون John Ericsson ، أوحت إليه بوجوب تخصيص إعانات للعلماء كى يتيسر لهم متابعة أبحاثهم ووجوب مساعدتهم حين الاخفاق . فلما واتاه الحظ حقق ذلك فى وصيته إذ أثبت فيها قبل وفاته أن فوائد ما يتركه من رأس مال يجب أن تقسم سنويا إلى خمس جوائز ، تبقى إحداها وقفاً على علم الطبيعة ، وأخرى وقفاً على الكيمياء ، وواحدة للطب أو علم التحليل النفسانى ، ورابعة تخص مشكلة السلام ، وخامسة ترصد للأدب . وتمنح جائزة الأدب سنويا كما هو نص الوصية ، « إلى الشخص الذى أنتج فى عالم الأدب أحسن كتاب حوى نزعات مثالية » . ووكل أمر اختيار ذلك إلى المجمع السويدى . والحق أن هذه الجائزة التى تتراوح بين اثنى عشر ألفاً وخمسة عشر ألف جنيه تهيء لأى أديب حياة راضية مرضية

أما جائزة جونكور فلا زالت على عهدها منذ نشأتها فى سنة ١٩٠٣ أشهى ثمرة يتهافت عليها الأدباء فى فرنسا . وهذه تمنح دون استثناء للأدباء الناشئين . وهى أرفع منزلة من مقعد ثابت فى المجمع الفرنسى . وتعد جائزة جونكور الدرجة الأولى من سلم

العلياء الأدبى . وهنالك جائزة فرنسية أخرى لها صـداها فى خارج البلاد الفرنســية هى جائزة فمينا . وكانت « مجلة فمينا » Femina قد تآزرت عام ١٩٠٤ مع « مجـلة لافى أوروز » La Vie Heureuse على منح جائزة قدرها خمســة آلاف فرنك لأحسن رواية توضع باللغة الفرنسـية فى نظر لجنة الـكاتبات الفرنسـيات . وأنشأت هذه اللجنة النسائية عام ١٩١٩ جائزة شبيهة بتلك وقفتها على المؤلفين الانكليز لـما بين البـلدين من صداقة . ثم أنشأن عام ١٩٣٢ « جائزة فمينا الأمريكية » لتكون قاصرة على الأدباء الأمريكيين

وأهم الجوائز الأدبية التى تمنح فى بريطانيا العظمى هى أولاً : الجوائز التذكارية لجيمس تيب بلاك James Tait Black Memorial Prizes التى تمنح فى ربيع كل عام من أجل تاريخ حياة شخص عظيم أو من أجل رواية طابعها بريطانى . وعلى أسـتاذ آداب اللغة الانـكليزية فى جامعــة أدنبرج أن يختار أحسن الأعمال . وثانية الجوائز « جائزة هوثرن » Hawthornded Prize التى تمنح لأحسن قصة يضعها كاتب انـكليزى دون الحادية والأربعين من عمره . أما جوائز بولتزر Pulitzer Prizes فقاصرة على الـكتاب الأمريكيين من ذوى المواهب الفذة ، على أن تظهر هذه المواهب فى أعمالهم الأدبية

***

ولا ريب فى أن جائزة نوبل اليوم هى أعظم الجوائز فى عالم الأدب إطلاقاً ، إذ هى لا تؤثر قومية على أخرى . ثم إنه لا يحكم بها من أجل كتاب مفرد ، بل يجرى الحـكم بها بعد التثبت من صلاحية شطر من مؤلفات أديب بذاته ، وهى لهذا السبب غالباً ما تمنح فى خريف حياة الـكاتب الأدبية وبعـد أن يستكمل نضوجه الأدبى . وتشبه جائزة نوبل فى ذلك اعتراف الشهود على ميت بطيبته وحسن عمله فى الحياة ، ولعل مستر سنكلر لويس Sinclair Lewis أحد الشواذ الذين يثبتون صحة هـذه القاعدة ، فقد أنتج كثيراً بعد ما أحرز جائزة نوبل

أما الجوائز الاخرى التى تقـل عن جائزة نوبل شأناً ، وقد ذكرت من قبل ، فهى كثيراً ما كانت متحزبة فى قصدها متأثرة بروح العصر فى اختيارها . ثم إن الضيق المـالى الذى شمل العالم فى السنين الأخيرة لم يدع لواحدة من هذه الجوائز أن تصل إلى جزء من أربعين جزءاً من جائزة نوبل ، وإن كانت تطبع صاحبها بطابع الجودة وتدمغه بخاتم الذهب الابريز فى نظر القارىء والناشر على السواء . ومن ثم يحرز المؤلف مكانة بعد أن يكون مهملاً الاهمال كله . والحق أن الجائزة أياً كانت تدق الطبول لصاحبها فيتنبه الناس إلى أن لهذا الرجل كتاباً لا يمكن التغاضى عن قراءته . وهذا مثلاً هنرى وليمصن Henry Williamson لم يكن معروفاً إلا لنفر قليل ، فما هو إلا أن منح جائزة هوثورن من أجل كتابه « تاركا ، كلبة الصيد » Tàrka the Otter حتى تهافت الناس على قراءة كتابه وذاع اسمه فى كل محيط . وعند ما قضى المحكمون بمنح جائزة جونـكور لأندريه مارلو André Malraux لـكتابه حظ شخص Man's Fate لفتوا العالم الى واحد من أدباء الشباب فى فرنسا الذين يعملون ويجاهدون للمثل العليا . وكانت جوزفينا جونصن Josephine Johnson قد باعت من كتابهـا « الآن فى نوفمبر » Now in November مدى أحد عشر شهراً من بدء ظهوره ١٠ آلاف نسخة . وما إن منحت جائزة بولتزر من أجله حتى وصلها بين عشية وضحاها ٩ آلاف طلب ممن يريدون الاستمتاع بهذا الـكتاب . وخلاصة القول إن هذه الجوائز القومية تحرض الناس على القراءة وتدفع الأدباء إلى تحسين الانتاج

ثم هنالك معركة حامية أبدا مستمرة دائماً فى الخفاء بين الـكتب ، وليس لدى الذين لم يندمجوا بعد فى تجارة الـكتب أى فـكرة عنها ، فالتنافس بين المؤلفين بلغ شـدته القصوى ، وهو فى هذه الشدة قاس عظيم القسوة صلف قوى ، وليس للتسامح أو اللين أو الهوادة اليه سبيل ؛ ولعل هذه الحرب اليوم أشد استعاراً مما كانت عليه فى سابق الأيام

ومهما تـكن الحال فستبقى الديموقراطية عرجاء حتى يكون من واجبات الدولة تمرين الجماهير على كيفية القراءة المنتجة . وأول الخطوات فى ذلك أن تبين للناس أحسن وأثمن وأنفع الـكتب ، ولـكن إلى أن نصل إلى مثل هذا العهد ستبقى أسواق الـكتب مملوءة بمـا يظهره الناشرون فى كل يوم ، أولئك الناشرون المنتشرون فى كل بلاد الشرق والغرب ، وستبقى جمهرة القراء فى حيرة عندما يعمدون إلى انتخاب كتب للقراءة ، ويكفى دليلاً على هذا حال الولايات المتحدة ، فقد أصدر الناشرون فيها برغم كساد سوق الـكتب منذ عام ١٩٣٠ قدرا لا يقل عن ٥٠٠٠

تعزية باطـــلة

للأستاذ خليل هنداوى

« إن فى العمر مرحلة تنفق الحقيقة والذكرى
فيها على بث الألم »

سمرنا إلى أن غفا السامر   وأعيا من السهر الســاهر
تعالى إلىَّ لنطوى الزمان   وننشر ما لفَّه الغـــابر
فليس لنا من غد حاضر   وليس لنــا أمل سافر
تعــالى نفر إلى عزلة   يفر إلى مثلها الشـــاعر
تعــالى نعود إلى نجـوَياتٍ   تقر بها النفس والنـــاظر
تعالى نعود إلى الذكريات الـ   ـعتاق ، فقد يشتفى الذاكر
تعالى إلى حيث لذاتنـــا   خفقن كما يخفق الطائر
ففى كل صوب لنـا مشهد   نضـــير بآمالنا زاهر
وفى كل وادٍ لنـــا نشوة   يعربد شيطانها الفـــاجر
تعالى الى حيث فاح القديم   بأحلامنـا ، وانتشى الحاضر

* * *

دنا ودنت ، والشفاه التقت   فما باح من سرها خاطر
ولم تتوثب عليهـا أمانٍ   ولم يمش فيها هوى ساعر
فأدركه وجـــل خائف   وأدركها وجـــل حائر
أيرجع عهد الشباب النضير   ويسطع منه الشذا العاطر ؟
هو العمر غاضت بشاشاته   يعذبنا طيفه الزائر . . .

(دير الزور)   خليل هنداوى

كتاب جديد فى كل سنة من سنى الأزمة ، ومع ذلك فالكتب التى تقرأ محدودة العدد

ولهذا فالحاجة ماسة إلى حسن الانتخاب وصحة التأكيد . وليس أجدر بحل هذا المشكل من الجوائز الأدبية . وليتنا نحن الناطقين بلغة الضاد نأخذ بهذه السنة

ابراهيم ابراهيم يوسف

ملخصة عن :
The Meaning of Literary Prizes by Edward Weeks

وحى الريف

زهرة القطن

أو

ذات الثوب الذهبى

بقلم أحمد فتحى مرسى

أشرقت فى البلادِ سهلاً فسهلاً   زهرة فى الحقولِ ياما أُحَيْلَى
تنثنى فى الغصون إن هبت الريـ   ـحُ وجر النسيمُ فى الحقل ذيلا
الندى سائلٌ على وجنتيها   رطَّب الخد والجبين وحلَّى
تلثِمُ الريحُ ثغرَها ثم تمضى   وتجوب الحقول حقلاً فحقلا
وتُسِرُّ الغـداةَ فى مسمعيها   عن مدى حبِّها حديثاً وقولا

* * *

قمتُ بين الرياض ذات صباح   أقتل الوقت والفراغ المُمِلا
وتخيَّرتُ فى الفضاءِ مكاناً   راقَ فى ناظرى مياها وظِلا
ووقفتُ الغداةَ أرعى الحقول الـ   ـخضر مستعرضاً بهاَهاَ مُطلاً
شدَّ ماراقنى جمالُ رياضٍ   أشرقت فى الضحى شعاعاً وطَلاً
وزهورُ القطن البهيجة فى الحقـ   ـل تَهاوى على الرُّبى وتَجَلى
يرقصُ اللوْزُ فى سنا الصبح رقصاً   وتميل الزهورُ فى الغصن ميلا
والحقول الوِضاء تبدو سماء   أطلعت زاهر الكواكب ليلا
وكأنَّ الحقول مائدة خضـ   ـراء والريح لاعبٌ يتسلى
وكأن الزهور أوراق لعب   نُثِرت فوقها وحلت محلا

* * *

قد أثرت الربوع يا زهرة القطـ   ـن فهلا أثرت قلبىَ هلا
أنت حسن الحقول فى ذلك الريـ   ـف ومصباحها الجميلُ المحلى
أنت دنيا الفلاح والعقل والما   ل ولولاك ضاع مالاً وعقلا
أنت ليلاهُ فى الغدوِّ وفى الرو   ح وقد جُنَّ فى الحياة بليلى
أنت سؤل البلاد والأمل المنشو   د والمطمح العزيز المُجلَّى

أحمد فتحى مرسى



صديقـــة الطلبة

للشاعر الفرنسي الفريد دي موسيه

ترجمة السيد مظفر البقاعي

— ١ —

كان بين طلاب معهد الطب فى جامعة باريس فتى لم يتجاوز التاسعة عشرة من العمر يدعى « أوجين أوبرت » ، وهو من أسرة طيبة أقام أبواه فى الريف وخصصا له نفقات ضئيلة كانت تقوم بأوده ، وكان الشاب محبباً إلى رفاقه لطيب عنصره ودماثته وسخائه ، وإنما كانوا يأخذون عليه انصرافه إلى الوحدة ورغبته عن الملاهى حتى لقبوه « بالطفلة » فكان يبتسم لدن سماع اللقب يقيناً منه أنه دعابة نزيهة

وكان أوجين يمقت الغانيات ويعـدهن من جنس خطر غادر ، فيسرد بين سمع صحبه وبصرهم أدلته الوفيرة على رأيه ، إلا أن هؤلاء كانوا يسخرون من مزاعمه ، وبذهم فى ذلك فتىً من خلانه مرح ماجن يدعى مارسيل كان لا يفتأ يحاوره ويجادله :

— أتزعم أن خطأ أو عارضاً حدث اتفاقا يجيز لك وضع قاعدة مطردة ! ...

— بل إنى أرى وجوب اجتناب أمثال هـذه الأخطاء خيفة تكررها

— هذه سفسطة ...

ويطول الحوار فى المقهى ، والرفاق شهود ، ويحرص مارسيل خلاله أن يثبت لأوجين أن النساء وخصوصاً العاملات منهن طاهرات وفيات ، ثم يتخلص من ذلك إلى وصف جارة لأوجين اسمها ميمى بنسون بأوصاف مغرية عل منها هذا فيتناول قبعته وينسل بلطف تاركا مارسيل والمواعظ تتدفق من بين شفتيه ...

— ٢ —

لم تكن ميمى بنسون جميلة بالمعنى المعروف لدى الباريسيين ، ولكنها كانت عاملة فتانة ، وهناك فرق بين الغادة الوسيمة والعاملة الوضيئة ، فتلك إذا ما ارتدت ثوباً بسيطاً وصدارا من حرير وخمارا صارت عاملة رشيقة ، وأما هذه فإنها لو لبست رداء زاهياً ومعطفاً مخملياً فوقه وغطت رأسها بقبعة ، فربما بدت حسناء ، وقد تتراآى للعيان كشجب علقت عليه الثياب المذكورة

وقد كانت الآنسة بنسون ذات أنف أخنس وفم أشدق وأسنان جميلة ووجه مستدير وعينين براقتين فيهما حور ، وشعر أسود ؛ وليست هذه أوصاف حسن باهر ، ومع ذلك فقد قرر مارسيل اغواء أوجين واغراءه بحب هذه الفتاة ؛ ولعل هذا لأنه كان هو نفسه مغرماً بالآنسة زليا صديقة الآنسة بنسون الحميمة ، راجياً أن يكون التحبب داعية الحب . ولئن كان ذلك ممكناً ، بل لو كانت المصادفة أقوى الفتن والغوايات ، فكم من أناس عجز الانفاق عن التغلب عليهم وباءت المصادفة بالفشل ازاءهم ... ومن تلكم النفوس كانت نفس أوجين

لم يكن مارسل يجهل سجايا خدينه ، فرسم خطة سهلة أيقن أنها رائعة فعالة فى التغلب على ثبات صاحبه ومقاومته ، ذلك أنه أولم احتفاء بعيد مولده وليمة كان قد هيأ لها بضع زجاجات من الجعة ، وقطعة لحم قديد ، وشيئاً من السلطة ، وقرص حلوى كبير ، وزجاجة من خمر شمبانيا . ودعا طالبين من رفاقه ، وطلب إلى صديقته زليا أن تأتيه مساء يومئذ وبصحبتها الآنسة بنسون . وفى الموعد المضروب عندما كانت الساعة تدق السابعة طرقت العاملتان الباب ودخلتا : زليا مرتدية ثوباً قصيراً مشطباً ، وبنسون رداء أسود لم يكن يفارقها . وبعد أن جلستا واحتستا الكأسين الأوليين استأذنهما رب المنزل فى التغيب قليلاً ،

وقصد تواً إلى منزل أوجين فوجده كعادته محاطاً بكتبه مكباً عليها، فبعد كلمات منمقة غير ذات معنى، بدأ يلومه برقة وينعى عليه اجهاده نفسه، وينصحه بوجوب الاستراحة والتلهي، ثم اقترح عليه القيام بنزهة قصيرة، فقبل أوجين الاقتراح لأنه كان متعباً بعد إذ قضى يومه فى الدرس والمطالعة . وبعد جولة لم يعد صعباً على مارسيل أن يستزير صديقه، وكان الفتاتان قد أطلقتا لنفسيهما العنان إذ داخلهما السأم من الانتظار، فخلعتا وشاحيهما وحسرتا، ثم أخذتا ترقصان وتتذوقان ما على الخوان على سبيل التسلية . فلما دخل الشابان وقفتا فى ذهول وقد توردت وجنتاهما، ثم حيتا أوجين فى استحياء وحيرة ودهشة لعرفانهما سلوكه واعتزاله، وبعد أن أجالتا فيه النظر عادتا إلى الرقص والغناء؛ أما أوجين فقد تقهقر ليولى الأدبار لولا أن أقفل مارسيل الباب وألقى المفتاح على المائدة وصاح :

— لقد امتلكنا هذا النافر المتكف .. أقدم لكما يا آنستىّ أفضل شاب فى فرنسا، وهو راغب فى التشرف بمعرفتكما منذ زمن طويل، وإنه جد معجب بالآنسة بنسون

فكفت الصبيتان عن الرقص، وحيتا أوجين كرة أخرى، وقال له مارسيل :

— إنى قدتك بالرغم منك لتشاركنى فى عيدى الخاص، فهلا فعلت؟

وباشارة من مارسيل قالت له بنسون بصوت عذب : ذلك رجاؤنا يا سيدى

ووافى القوم آنئذ الطالبان المدعوان، فلم يعد لأوجين سبيل إلى الخلاص فجلس على مضض

— ٣ —

دام العشاء إلى ساعة متأخرة أكثر خلاله الفتية من تدخين اللفائف واحتساء العقار . أما العاملتان فكانتا فكاهة المجلس وتعلة السامر بأحاديثهما الشائقة وفيها المعقول والمبالغ فيه : فمنها أن كاتبين ربحا فى القمار عشرين ألف فرنك وبدداها مع عاملتين خلال ستة أسابيع؛ وأن ابن أحد أعاظم أغنياء باريس قدم لغسالة معروفة « لوجا » فى الأوبرا وداراً فى الضاحية فرفضتهما وآثرت أن تظل بارة بأبويها المعوزين؛ وأن وجيهاً زار عاملة فنفاها أولو الأمر إلى أمريكا وأعطوها محفظة مفعمة بالأوراق المالية ...

فقاطعهما مارسيل أخيراً قائلاً : إن زليا تذكر وتغرق، أما الآنسة ميمى فقد فاتها أن الكاتبين ما ربحا شيئاً، وما قدم الغنى غير برتقالة، والعاملة فى المستشفى فى أشد حاجة إلى القوت ...

نهضت عندئذ بنسون — وقد لاح لأوجين أنها اصفرت عند سماعها الجملة الأخيرة — فقالت :

— إن كان مارسيل لا يصدق القصص فليسمع هذه الحادثة وقد كنت أحد أبطالها :

ذهبت فى الأسبوع الفائت مع اثنتين من صديقاتى وهما بلانشت وروجيت إلى مسرح (الأدبون) لمشاهدة رواية، فاستأجرنا لوجاً ودفعت روجيت الثمن — إذ كانت قد ورثت مالاً، فرآنا ثلاثة طلاب ودعونا للعشاء، فقمنا إلى مطعم المسرح مع الأبطال وأخذنا نطلب أفخر الأطعمة وأغلاها وأسرفنا فى الطلب؛ وكنا كلما قدمت صحفة تناولنا منها لقمة أو لقمتين ثم نستبدلها من غيرها، والشبان الثلاثة يحرقون الأرم على أن لو استطاعوا ازدراد شىء من الصحون المرفوضة أو المعادة؛ وجعلوا أخيراً يفكرون فى أمر الدفع فقد كان مع أحدهم ستة فرنكات ومع الثانى دون ذلك ومع الأخير ساعته . ثم قاموا متثاقلين يجرون أرجلهم نحو المحاسب الذى ابتدرهم بقوله : الثمن مدفوع، لأن روجيت دفعت الثمن سلفاً . ثم عرضنا على السادة المذكورين إبلاغهم إلى دورهم ولكنهم مانعوا ورفضوا جهدهم فأصررنا وقد تظاهرنا بأننا ثريات نبيلات، وكانت روجيت تقول لى :

— يجدر بنا أيتها المركيزة أن نقود السادة إلى منازلهم

فأجيبها : حباً وكرامة يا كونتس!

لم ترق هذه القصة للتلميذين صديقى مارسيل، فوجما وقد اغبر وجهاهما، ولعلهما كانا يعرفان تفاصيل الحديث أكثر من الآنسة بنسون التى طلب منها مارسيل أن تسميهم له فرفضت، فسر أوجين من إبائها وأثنى عليها قائلاً :

— أنت محقة أيتها الآنسة، إذ ليس بين الشبان الذين يملأون الجامعات والمدارس من خلا من خطيئة ارتكبها، أو طيش فعله، ومع ذلك فكل رجال فرنسا البارزين من سياسيين وقضاة وأطباء إنما يخرجون من هناك ...

وقال مارسيل : هذا حق، فكم من عين قضى طفولته يتناول الطعام فى أحقر المطاعم، بل ربما لم يكن لديه ثمن القوت

ثم سألها وهو يغمز بعينه : ألم ترى بمدنذ المشاق المجهولين ؟ فأجابته غضبى نافرة : من تحسبنا ؟ أو لا تعرف بلانشت وروجيت . . . فقاطعها قائلا : حسناً لا تغضبى ، ولكنها قصة ثلاث طائشات بددن مالهن وأضعنه جزافاً كى يسخرن بثلاثة مساكين لا يد لهم فى الأمر !

فأجابته : ولم إذن دعونا ؟

— ٤ —

طلب مارسل إلى ميمى أن تغنى ، فأنشدت مديحاً قيل فيها يتلخص فيما يلى :

« ليس لميمى غير ثوب واحد وقبعة . رداؤها لا يرتهن مدى الزمن مهما اعتراها من محن »

وكانت الجمل الثلاث الأخيرة لازمة الأغنية ، جعل السامعون يرددونها ، ويضربون الطاولة بمقابض السكاكين أو بالفلايين فيحدث من ذلك دوى شديد أزعج الآنسة المغنية فقالت : كفى ، ليت عندنا آلة موسيقية نرقص شوطاً على إيقاعها

قال مارسل : لدى قيثارة لكن أوتارها ناقصة

وقالت زليا : هو ذا بيانو وسيعزف عليه ما رسل . فحدجها هذا بنظرة غضب قاسية وقال : إنك تعلمين أننى لا أكاد أعرف عزفاً ، وأن ليس سواك من يستطيع أن يلاعب أصابع العاج ؛ ولو كنت طلبت ذلك من أوجين لسقطت على الخبير ولكنى لا أريد إزعاجه

فاحمر وجه أوجين وانسل بكياسة فجلس إلى البيانو وأخذ يعزف فابتدأ الرقص ، ولكنه لم ينته إلا بعد أمد طويل إذ جعل القوم يتنقلون من رقص إلى رقص دون كلال أو ملال ، وأنهك السهر والصياح أعصاب أوجين فاستولى عليه النعاس ولكنه استمر يعزف بصورة آلية كالفارس النائم على فرسه ، وكانت الراقصات تمررن من أمامه كأشباح فى الحلم . ولا مرية فى أن الحزن يستولى على من يرى غيره يضحك بمعزل عنه ، وكذلك عاودت أوجين بلابله ووساوسه فجعل يناجى نفسه :

هذا لعمرى سرور من حزن واغتباط من بؤس ، وإنها لحظات يخيل إلى أنها اختلست من أوقات الشقاء . ومن يدرى أى واحد من هؤلاء الخمسة لديه ما يسد به رمقه غداً ؟ !

وبينا هو غارق فى لجة أفكاره وهواجسه مرت بقربه الآنسة بنسون وخيل اليه أنها اختلست قطعة الحلوى من الخوان ودستها فى جيبها

— ٥ —

وانبلج الصباح فانفض السامر وتفرق السمار ، ومضى أوجين يدلف فى الدروب والسكك يستنشق نسيم الصباح العليل وهو ممعن فى خوض عيلم من أفكاره السوداء وصار يردد على رغمه :

« ليس لميمى غير ثوب واحد وقبعة » . ويتساءل : — هل تدفع التعاسة الانسان إلى التظاهر بالجذل والسخر من البؤس ؟ وهل يفتر ثغر جائع عن ابتسامة ! . . .

وكان يعتاده الأسى إذا ما ذكر أمر اختلاس الحلوى فيهتز حنواً ورحمة ويقلب الأمر ظهراً لبطن ويقول :

— ترى لم سرقت الحلوى ولم تسرق الخبز ! ... ثم لا يلبث أن يلتمس لها عذراً

لم ينتبه أوجين ليرى أين طاحت به قدماه ، فدخل اتفاقاً بعض المنعطفات التى أدت به إلى أزقة ضيقة ، فلما تبين ذلك عاد أدراجه فرأى امرأة هزيلة صفراء الوجه شعثاء الشعر أطمارها بالية خرجت من دار قديمة ، وقد بدا عليها السقام واصطكت ركبتاها حتى لم تكد تستطيع مشياً فجعلت تعتمد على الجدران

وبدا لأوجين أنها تقصد صندوق البريد القريب فابتدرها مضطرباً وسألها عن أمرها وهدفها ، ثم مد لها ذراعيه لتستند عليهما وقد شارفت على السقوط فازورت فى كبرياء ووجل وألقت إليه بالبطاقة التى تحملها ، وأشارت إليه أن يضعها فى الصندوق وعادت تجر ساقيها مشية النزيف أمضه الونى حتى دخلت دارها ، فتحرك لها فؤاده ورقت لها حناياه وأشاطه الحنو بعد رزانة ففض غلاف الرقعة دون ما روية أو تريث إذ أدرك أن هذه السقيمة قد تقضى قبل أن تتلقى جواباً ، وكان عنوان الغلاف : « الى حضرة البارون ... » وفحواه ما يأتى :

« اتل يا سيدى كتابى ولا تهمله ، فأنا أموت جوعاً إذ لم أحصل على بلغة منذ أيام ، وأمس بت على الطوى وما أزال ، وقد لا يصل كتابى إليك إلا وأصبح شريدة بلا مأوى ، فقد أقعدنى المرض عن العمل لأكسب قوتى وأدفع أجرة المسكن . أرسل لى بربك ديناراً بلا تأخر ، ولا تدعنى فى شك يلتهم ما أبقت الآلام منى ، إنى منتظرة حتى نهار الخميس فى دارى : شارع

الهماز ، واسمى الجديد الآنسة برنان » « روجيت »

دهش أوجين أشد دهشة لما رأى التوقيع وتمتم قائلاً :

— إنها الفتاة التى بددت دراهمها نفسها ... لقد ألقى بها الداء إلى هذه الهاوية من الذل ! ... وأردف يتابع نجواه :

— ليت شعرى ألم تعلم صديقاتها بأمرها ؟ أم ترى تركنها تتضور جوعاً وفى العراء من غير ملجأ ! ...

وأفاق من ذهوله كأنما كان فى حلم مريع فسارع إلى طاه كان يفتح حانوته فابتاع طعاماً ثم سار يقود أجير الطاهى إلى دار روجيت ، فلما وصلاها أوعز للغلام أن يطرق الباب ويعطيها الطعام فان سألته عن مرسله فليقل إنه « البارون ... » ثم سار متثاقلاً فأصلح من شأن الرسالة وألقاها فى صنـدوق البريد وهمس يحدث نفسه :

« أما إذا رأت روجيت أن جواب بطاقتها كان سريعاً فستفهم السر من البارون »

— ٦ —

« كان أوجين يرى من الواجب أن يرفق المائدة المرسلة بالدينار المطلوب ولكنه كان خالى الوفاض صفر اليدين . فان الطلاب كالعاملات فقراء ، وليست الدراهم بضاعة رائجة فى الحى اللاتينى ؛ لذا قصد فتانا حلاقاً مرابياً فى ساحة البانطيون ليرهن بعض حاجاته وهناك ألفى خليله مارسل يحلق لحيته ويقترض مالاً يفى به ثمن عشاء الأمس ، فلما أبصره هـذا سأله عن جلية أمره فأطلعه بايجاز على قصده ، فسخر منه مارسل وصار يعنفه وأوجين لا يزداد إلا متانة وعزماً ، وأخذ يلوم ميمى بنسون وأضرابها من الصديقات اللواتى يتناسين عشيراتهن بالأمس ويوجه إليهن سهاماً صائبة من الانتقاد والاحتقار الشديد إلى أن قال :

— إن فتاتك بنسون غول فظيع عدا كونها متهللة خليعة ماجنة . أما صداقتها فبادية ممقوتة

فقال الحلاق المرابى واسمه الأب كاديديس :

— إنك قاس وحكمك جائر لأنى أعرف الآنسة بنسون وأعتقد أنها نبيلة سامية وهى عظيمة

فأجاب أوجين : — نعم هى عظيمة فى شراهتها وكثرة تدخينها

فقال المرابى : — ذلك ممكن وأكثر الشبان ما بين آكل وضاحك ومغن ومدخن ، على أن منهم من له قلب يحس ويتألم

فسأله مارسل : — ما ذا تقصد ؟

فأجاب الحلاق : — هناك فى مؤخرة الحانوت ثوب حريرى تعرفانه يا سيدى لأنكما تعلمان أن صاحبته لا تملك سواه ، وهى الآنسة ميمى التى رهنتنيه فجر اليوم لكى تسعف روجيت أولاً فانها فى أشد عوز

ودخل مارسل إلى أقصى الحانوت ليشاهد الثوب العتيد وتبعه أوجين فقال الأول :

— إن أنشودة ميمى كاذبة إذ رهنت رداءها ! ... كم أعطيتها أيها الأب كاديديس على هذه الرهينة الثمينة

— أقرضتها أربعة فرنكات وكنت لها محسناً لأن الثوب بال قديم . فصاح مارسل :

— مسكينـة ميمى ! أراهن على أنها رهنت الرداء لتساعد روجيت ؟

فقال أوجين : — أو لتدفع ديناً ممطولاً

وأردف المرابى قائلاً : وإنى لأذكر أن بعض دائنيها حجزوا على أثاث دارها ولم يتركوا لها سوى سريرها وكانت نائمة عليـه وقد ارتدت أربعة أثواب فوق بعضها كيلا يأخذ الغرماء واحداً منها ، وقد كانت يومئذ فى حال خير من حالها اليوم ، فلم ترهن ثوبها إذن لتفى ديناً ، ويدهشنى أن يكون ذلك لمونة بائسة مثلها

واسترد مارسل الثوب بعـد أن دفع قيمة الرهن ، وخرج مع صديقه — الذى أصر على أن الرهن ليس من أجل روجيت — فقصد دار ميمى تنفيذاً لرهان عقداه

— ٧ —

— ذهبت الآنسة إلى الصلاة

هذا ما قاله البواب للطالبين عند ما سألاه عن ميمى

فصاح أوجين فى عجب : إلى الصلاة !

وردد مارسل : إلى الصلاة ! هذا مستحيل لأنها لم تبرح الدار . دعنا ندخل فنحن أصدقاء قدماء

ولكن البواب أكد لهم أنها خرجت مذ هنيهة إلى الكنيسة المجاورة دأبها كل صباح . وفيما هم كذلك إذ ظهرت تجتاز الشارع فأسرع مارسل ينعم النظر فى أثوابها فرآها ترتدى غلالة عتيقة مؤزرة بستارة نافذة من الصوف الأخضر ، وقد

سترت رأسها بنصيف أبيض فبدت بهذه الأطمار خلابة وأزاحت الستر قليلاً فبانت قامتها الهيفاء . وقالت للفتيين : — هـذا ثوب تفضل

فقال مارسل – لعمرى إنك فاتنـة . قالت : إنى غدوت كزمة . قال : بل طاقة ورد ، وإنى نادم إذ رددت لك ثوبك . قالت : وأين وجدته ؟ !

قال : فككـت أسره ، وأطلقت رقه ، ودفعت فديته ، فهل تغفرين جرأتى ؟

قالت : نعم وسأنتقم

وأخذت ترق الدرج إلى غرفتها وخلفها الصديقان حتى وصلت إليها ، فدخلوا جميعاً . وقال مارسيل : — لا أعيد لك الرداء إلا على شرط

قالت : ويحك ! أشروط ! إنها حماقة لا أريدها

قال : لقد تراهنا ! فقولى بصراحة لم رهنت ثوبك ؟

قالت : دعنى أرتديه ثم أخبركما عن السبب . استرا وجهيكما كى لا أضطر الى لبسه فى الخزانة أو على السطح . فأجاب مارسل : — اطمئنى فلن نختلس نظرات

— إنى أثق بكما ولـكن قيل : احذر الأمين

وخلعت الستارة وألقتها على وجهى الشابين ، وأمرتهما بالصمت والخضوع ، فقال مارسيل : احذرى أن يكون فى الستر خرق نراك منـه ، فقد جعلنا فعلك فى حل من كلامنا

فهتكت الستار ضاحكة فقالا :

— سرك يا آنسة هلا بحت لنا به وأنجزت وعدك ؟

فترددت هنيهة ثم دفعتهما نحو الباب وقالت :

— تعاليا معى فتريا

— ٨ —

بعد مسير غير قصير فى طرق ملتوية ودروب ضيقة سار فيها أوجين من قبـل وصل الثلاثة إلى دار روجيت فدخلوها ، وقد ربح مارسل الرهان لأن الأربعة فرنكات وقطعة الحلوى التى سرقتها الآنسة بنسون أمس كانت على المائدة مع فضلات الدجاجة التى أرسلها أوجين

وكان حال المريضة خيراً من قبل ، وكان شكرها للمحسن المجهول عظيما . وقد اعتذرت بواسطة صديقتها بأنها غير قادرة أن تستقبل الشابين فانصرفا متعجبين من هذه الـكبرياء وهذه العفة

وبعـد أن حضرا دروسهما فى المعهد تغديا معاً ، وفى المساء خطرا يتنزهان فى الشارع الايطالى . وأخذ مارسل يحاور عشيره ويحاول إقناعه قائلاً :

— طالمـا لمتنى على حبى هؤلاء العاملات ، وقد رأيت من طيب أنفسهن ونبلهن البرهان القاطع . من هو ذلك المحسن الذى قام بما قامت به ميمى من أجل صديقتها ؟ إن فتاة ترهن ثوبها الوحيد وتسرق قطعة حلوى لتساعد رفيقتها لجديرة بالتقديس وخلود الذكر . أما تلك العليلة فانها لا تقل عن خدينتها شرفاً وطهراً ؛ ولو أن فيها أدنى شائبة لمـا طلبت كسائلة صدقة من أحد . وكادت تقضى منتظرة لولاك ، فلم تخش موتاً محققاً ، وهى التى عرفت حلاوة العيش عند ما ألقت بنفسها فى النهر مرة من قبل

فقال أوجين : حسبك يا مارسل ! أتظن أن أيامى كهؤلاء بلا عائل ولا سند هن ذوات حنكة أو دراية كافية ؟ وهل يا ترى تذرن أنفسهن البائسة للشقاء والتعاسة ؟ ليت شعرى متى يعدن إلى جادة الخير والصلاح ؟ ألا قل لى أو لا تعاملوهن يا معاشر الشباب بطيشكم ومجونكم المعهودين ؟ ! هيا بنا إلى دار روجيت المريضة علّنا نحملها على أن تسلك الصراط المستقيم ، وان أطلب منها قسما بل لا أؤنبها ولا أوبخها ، ولـكنى سأقترب من سريرها فآخذ بيديها وبدى صاحبتها وأقول لها . . .

ومرّ آنئذٍ أمام مقهى لاح لهما فيه على ضوء المصباح وجها فتاتين تأكلان حليباً مجمداً ، فلما رأتا الشابين لوحت لهما الأولى بمنديلها ، وقهقهت الأخرى ضاحكة . فقال مارسل مقاطعاً أوجين :

— واهاً ! إن كنت ترغب أن تحدثهما فهم هنا فى مرح ولهو ، ويظهر أن البارون قام بالمطلوب

فأجابه :

أولا يخيفك جنون كهذا ؟

نعم ! لـكنى أرجو ألا تطمن فى العاملات وخصوصاً اللواتى على شاكلة بنسون

(دمشق) مظفر البقاعى

البريد الأدبي

كتاب عن الحبشة للجنرال فرجين

صدر أخيراً فى السويد كتاب جديد عن المسألة الحبشية بقلم شخصية كانت تشغل فى الحبشة حتى الغزوة الايطالية المكانة الأولى ، تلك هى شخصية الجنرال فرجين السويدى مستشار امبراطور الحبشة السياسى والعسكرى من مايو سنة ٩٣٤ إلى ديسمبر سنة ٩٣٥ ، وقد ذاع اسم الجنرال فرجين أثناء الحرب الحبشية ، وكاد وجوده إلى جانب الأمبراطور فى بدء الهجوم الايطالى يؤدى إلى اضطراب العلائق السياسية بين ايطاليا والسويد ؛ ذلك أن الجنرال فرجين عين مستشاراً للأمبراطور بواسطة حكومته ، وكان تعيينه حلقة اتصال قوى بين الحبشة والسويد ، وكان يوجد فى الحبشة فى بدء الهجوم الايطالى عدة ضباط من السويد يعملون لتنظيم جيش النجاشى ، وكانت المعامل السويدية تصدر الأسلحة والذخائر إلى الحبشة ، ولكن السويد رأت فى النهاية أن تبتعد عن التدخل فى هذه المغامرة فأمرت الجنرال فرجين وزملاءه بالانسحاب من الحبشة

والكتاب الذى ألفه الجنرال فرجين بالسويدية ، وترجم أخيراً إلى الانكليزية عنوانه الحبشة كما عرفتها Abyssinia as I Knew وفيه يعرض الجنرال إلى الظروف والحوادث التى انتهت بهجوم ايطاليا على الحبشة ، ويفصل حوادث الغزو حتى ديسمبر الماضى أى إلى انسحابه من ميدان الحوادث ، وربما كان هذا القسم الأخير هو أهم أقسام الكتاب ، ففيه يسرد الجنرال كل المقدمات والوسائل التى تذرعت بها ايطاليا لتنفيذ اعتدائها ، ويقول إنه لم يكن خافياً أن ايطاليا تدبر هذا الاعتداء منذ زمن طويل ، وأنها أرسلت قبل وقوع الاعتداء بأعوام عدة من الرسل والمندوبين بصفة قناصل فى طول الحبشة وعرضها ؛ واشتغل هؤلاء ببث الدعاية لايطاليا وكسب ولاء القبائل والزعماء بالرشوة والوعود ، واشتغلوا أيضاً بتدبير المشاكل والمشاغبات مع السلطات المحلية لاثارة الخواطر وتحدى الأمبراطور

ومن جهة أخرى ، فقد عملت ايطاليا من جانبها على اذاعة دعوى قوية فى أنحاء أوربا والعالم كله ضد الحبشة وصورتها بصورة أمة همجية تهدد باستعداداتها الحربية مركز البيض فى أفريقية ، وتدبر الاعتداء على مستعمراتها ، وأنه يجب على أوربا أن تشد أزر إيطاليا فى موقفها وفى محاولتها أن تحمى مركز البيض فى أفريقية ، وأن تحمل رسالة الحضارة الأوربية إلى تلك البلاد الهمجية الوعرة

ويعتبر كتاب الجنرال فرجين بما فيه من حقائق وبيانات وثيقة عن هذه الحوادث الخطيرة أهم الوثائق التى صدرت عن الحبشة قبيل محنتها وسقوطها فى يد الاستعمار الغربى

حول مقالات الأستاذ كراتشقوفسكى

وردت فى « ترجمة » الفصول التى تنشرها الرسالة للأستاذ المستشرق أغناتيوس كراتشكوفسكى عدة وقائع ونقط تحتاج الى الضبط والتصحيح وهذا بيان ما لفت نظرنا منها

(١) إن الأستاذ كراتشوفسكى يشغل منصبه العلمى « بأكاديمية العلوم بلننجراد » وليس بجامعة لننجراد كما ورد فى تعريف المترجم ، وانه ليس هو مترجم قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ولكن الذى ترجمها هو كاتب روسي آخر يدعى مسيو ساليير

(٢) وأن كتاب « زعماء الأدب العربى المعاصر » ليس من من تصنيف الدكتور كمبفماير وحده ولكنه اشترك فى وضعه مع الدكتور طاهر خميرى الأديب التونسى الذى يشغل الآن منصب محاضر فى المعهد الشرقى بهامبورج

هذا عن المقال الأول

(٣) وأما عن المقال الثانى فقد ورد فى آخره ما يأتى : « وفى عام سنة ١٨٨٤ » وضع جميل المدور « أخبار أيام هرون الرشيد » ؟

ونحن نجيب المترجم عن استفهامه وهو أن الكتاب المشار اليه يسمى « حضارة الاسلام فى دار السلام » بقلم جميل بن نخله المدور ؛ وقد طبع بالقاهرة سنة ١٨٨٨

ذكرى الموسيقى بروكنر

من أنباء فينا أنه قد احتفل فيها فى الأسبوع الماضى بذكرى الموسيقى النمسوى الشهير أنتون بروكنر وذلك لمناسبة مرور أربعين عاماً على وفاته ؛ فأقيمت عدة احتفالات موسيقية كبيرة فى بهو جمعية الموسيقى النمسوية وفى بهو الكونسر فتوار وفى معظم أبهاء العاصمة النمسوية الأخرى ، واتخذت هذه الاحتفالات صفة رسمية . وأنتون بروكنر أحد أقطاب هذه الموسيقية الزاهرة التى غمرت النمسا وأوربا بفنها الرائع فى أواخر القرن الماضى ، وكان مولده فى سنة ١٨٢٤ ؛ وتوفى فى سنة ١٨٩٦ ؛ وتخصص فى الموسيقى الكنسية ؛ واشتغل أولاً موسيقياً لكنيسة لنز ، ثم انتخب موسيقياً لكنيسة البلاط ؛ وعين بعدئذ أستاذاً للكونسر فتوار ؛ وطاف بروكنر أنحاء العواصم الأوربية وعرض فيها « سمفونياته » الشهيرة وهى من أبدع ما وضع من مقطوعات الموسيقى الكنسية . ومما يؤثر عنه أنه كان ورعاً جداً حتى إنه أهدى مقطوعته الأخيرة المعروفة « بالمقطوعة التاسعة » إلى « الله سبحانه وتعالى » ولكن الموت عاجله ولم يتمها ؛ وكان القيصر فرانز يوسف يغدق عليه حبه وعطفه حتى إنه أهدى إليه مسكناً فخماً فى قصر « البلفدير » الشهير

هرمانه فندل

نمت إلينا أنباء باريس الأخيرة الكاتب الألمانى المعروف هرمان فندل فقد توفى فيها فى الثانية والخمسين من عمره ؛ وقد ولد هرمان فندل ألمانياً فى مدينة متزمن من أعمال اللورين ، ولكن اللورين ضمت بعد الحرب إلى فرنسا ، فغدا فرنسياً ، وتلقى فندل دراسته فى ميونيخ ودرس الفلسفة والتاريخ ؛ وخاض منذ الحداثة غمار السياسة ، وانضم إلى الحزب الديموقراطى ، واشتغل بالصحافة ، واشتهر بمقالاته القوية اللاذعة ، ثم اعتزل السياسة واشتغل بالتاريخ ، وتوفر على دراسة تاريخ يوجوسلافيا السياسى والاجتماعى ، وقام فيها برحلات ومباحث عديدة حتى غدا مؤرخها الاخصائى . وأهم كتبه عنها كتابه المسمى : « نضال السلافيين فى سبيل الحرية والوحدة »

Der Kampf der Sudslaueu um Freiheib und Einheit

وله كتاب آخر فى دراسات مختلفة عن يوجوسلافيا عنوانه : « فى أرجاء يوجوسلافيا الجنوبية »

Krewz und quer qurch den Slawisehen Süden

وفى سنة ١٩٢٠ ، طلبت إليه الحكومة الألمانية أن يكون سفيراً لها فى بلغراد فأبى ؛ وفى سنة ١٩٢٩ ، أنعمت عليه جامعة بلغراد بلقب الدكتوراه الفخرية لخدماته الجليلة لقضية السلافيين

تبادل المؤلفات بين البلاد العربية

قررت الحكومة المصرية أن تتبادل إدارة الصحافة والثقافة والنشر مع حكومات البلدان العربية العراق والحجاز وسوريا وفلسطين واليمن وغيرها المؤلفات والمطبوعات التى تطبع فى مصر وفى تلك البلاد فترسل هذه الادارة إلى هذه الحكومات نسخة من كل ما يطبع أو يصدر فى مصر وترسل هذه البلاد إلى الادارة نسخة من كل ما يطبع أو يصدر بها من المؤلفات . وهذا القرار جزء من الخطة التى رسمتها الحكومة المصرية لتوحيد الثقافة العربية فى جميع هذه الأقطار

تاريخ العرب الأدبى للأستاذ نيكلسون

تبدأ (الرسالة) من العدد القادم فى نشر كتاب « تاريخ العرب الأدبى » للمستشرق الانجليزى الكبير الأستاذ رينولد نيكلسون صاحب التآليف المعروفة لكل مشتغل بالدراسات الاسلامية والتاريخ العربى . والأستاذ نيكلسون من المستشرقين الذين درسوا الأدب العربى دراسة دقيقة ووقفوا على أسرار العربية ، وله معرفة تامة بكثير من اللغات الغربية كالفرنسية والألمانية واليونانية واللاتينية والايطالية وبعض اللغات الشرقية كالسريانية والعبرية والفارسية والعربية . وقد ولد فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٦٨ وتعلم فى جامعة أبردين التى صار فيها — فيما بعد — أستاذاً للعربية والفارسية ، وكذلك فى جامعة ترينتى كولدج بكمبردج ، وله كثير من المؤلفات والترجمات التى تتعلق بالآداب الشرقية وعلى الأخص العربية والفارسية ومن أهمها : (١) مختارات من ديوان شمس تبريزى (١٨٩٨) وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار (جزءان ١٩٠٠) ومبادىء العربية (٣ مجلدات) ١٩٠٧ ، ١٩٠٩ ، ١٩١١ ، وتاريخ العرب الأدبى (طبع لأول مرة سنة ١٩٠٧ ولآخر مرة سنة ١٩٣١) وترجمان الأشواق لابن العربى مع ترجمته الانكليزية وتعليقات بقلمه (١٩١١) وكتاب « فى التصوف الاسلامى » وصوفيو الاسلام (١٩١٤) ونظرات فى التصوف ، وأسرار الروح (عن محمد إقبال) ١٩٢٠ ، ودراسات فى الشعر الاسلامى ، وكتاب



تاريخ الفلسفة اليونانية

تأليف الأستاذ يوسف كرم

المدرس بكلية الآداب

بقلم الدكتور ابراهيم بيومي مدكور

منذ عام تقريباً ندبنا على صفحات « الرسالة » حظ الفلسفة في بلدنا ؛ وأخذنا على العامة ازدراءهم لها وإعراضهم عنها وجهلهم بها ، وساءنا من الخاصة أنهم لا يأخذون بيدها ولا يقومون على نشرها ولا يحببون الناس فيها (١) ، وربما كان قسط الخاصة من شكوانا أعظم من غيرهم ؛ فإنهم إن قاموا بواجبهم وكتبوا لنا فلسفة بلغة العصر وروح العصر اجتذبوا القراء إليهم ورغبوهم في أبحاثهم . وكم شكا عشاق الفلسفة — وحق لهم أن يشكوا — من أنهم لا يجدون منها في العربية الغذاء الكافي لأرواحهم وعقولهم ، وكأني بهذه الشكوى جاءت إرهاصاً لما بعدها وإعلاناً عن نقص انفقت عليه الآراء ، ولا أدل على هذا من أن لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهي أعرف ما يكون بحوائج البلاد العلمية ووسائل مدها ، قد وجهت عناية خاصة في هذا العام إلى الدراسات

(١) مدكور ، « الرسالة » (العدد ١٢٥) ص ١٨٨٩ — ١٨٩٠

كشف المحجوب مع ترجمة وتعليق بقلمه (١٩١١) وأشعار عمر الخيام ترجمة وتعليق ١٩٠٩ والمسعودي وغير هذه من الكتب القيمة . وهو يعيش اليوم في هدوء الشيخوخة بين أسفار الأدبين العربي والفارسي . ولكتابه في الأدب العربي قيمة ممتازة بين كتب المستشرقين تتجلى في سداد بحثه ووضوح أسلوبه واستقامة منهجه وقوة إدراكه لمختلف الآثار والعوامل التي طبعت أدب العرب في كل عصر وفي كل بيئة

الفلسفية وأخرجت لنا خمسة كتب في نواحيها المختلفة (١)

ومن بين هذه الكتب تاريخ الفلسفة اليونانية الذي وضعه زميلنا الأستاذ كرم بعد خبرة طويلة وتجارب عديدة ، فقد وكل إليه تدريس الفلسفة بكلية الآداب بالجامعة المصرية منذ عشر سنوات أو يزيد استطاع فيها أن يعرف فلاسفة الأغريق عن قرب وأن ينفذ إلى صميم أفكارهم . ويقع مؤلَّفه في ثلثمائة وخمسين صفحة تقريباً من القطع الكبير درست فيها المدارس الفلسفية اليونانية منذ عهد الشعراء إلى أواخر أيام مدرسة الأسكندرية ؛ وذيلت ببيان عن المراجع الهامة وقاموس مفيد في الأعلام والألفاظ الفلسفية . وينقسم هذا الكتاب إلى خمسة أقسام : مقدمة وأربعة أبواب . ففي المقدمة يعرض المؤلِّف للفكر اليوناني قبل الفلسفة ويتحدث عن عصر الشعراء والحكماء السبعة ، وفي الباب الأول يدرس الطبيعيين الأول والمتأخرين والفيثاغوريين ، والايليين ، والسفسطائيين ، وسقراط الذي يفصل بين مرحلتين متحيزتين من مراحل تاريخ الفلسفة ؛ ويقف الباب الثاني على أفلاطون ، والثالث على أرسطو . أما الباب الرابع والأخير فيتكلم فيه عن صغار السقراطيين والأبيقوريين وأصحاب الرواق والشكاك ورجال مدرسة الأسكندرية . وإنا لنلاحظ في هذا التقسيم أنه عني عناية خاصة وجديرة بالتقدير بالشخصيتين العظيمتين في تاريخ الفلسفة اليونانية وهما أفلاطون وأرسطو ؛ فقد درس كل واحد منهما في باب مستقل ، وليس هذان البابان من الأبواب الصغيرة ، فحديثه عن أفلاطون يقع في ست وستين صفحة ، وترجمته لأرسطو تشغل ما يزيد على ثلث الكتاب جميعه (١٣٤ ص)

وفي الواقع لقد وزن المؤلف المدارس الفلسفية الأغريقية

(١) نشير هنا إلى كتاب البراجماتزم ليعقوب أفندي فام ، وعرض تاريخي للفلسفة والعلم تأليف وترجمة الأستاذ خلاف ، وفلسفة المحدثين والمعاصرين تأليف وولف كذلك وترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي ، وموسى بن ميمون تأليف الدكتور ولفنسون ثم إلى الكتاب الذي نتحدث عنه

بميزان صحيح وقسم بحثه بينها قسمة عادلة ومتناسبة دون أن يفوته منها شيء هام، اللهم إلا أصحاب مذهب الاختبار الذين أهملهم رأساً وبعض شراح أرسطو في الدور الأخير وفي مدرسة الأسكندرية بوجه خاص أمثال الأسكندر الأفروديسي، وسمبليسيوس، وثامسطيوس، الذين لم يشر إليهم إشارة كافية. وبالرغم من تشعب هذه المدارس وتعددها فقد عرضها في صورة مرتبة مهذبة، وقسم أبحاثه إلى أبواب وفصول وفقرات هي غاية في الدقة والوضوح. وليس بغريب أن يعنى مدرس بوسائل العرض والأيضاح؛ فهذه سنته كل يوم في دروسه ومحاضراته. وهي سنة صالحة من غير شك ومعينة على تذليل بعض الصعاب التي يلاقيها القارئ في أبحاث دقيقة كهذه. وقد ضم المؤلف إلى هذا حسنة أخرى، فختم كثيراً من مباحثه بنظرة عامة وربط تاريخي شائق[1]

ليس صعباً على من يدرس الفلسفة اليونانية أن يجد المصادر التي يستقي منها، فهي كثيرة ومتنوعة؛ إنما الصعب أن يختار من بين هذه المصادر أصلحها. وقد وفق المؤلف في هذه كما وفق في غيرها؛ فقد اعتمد فيما وراء أفلاطون وأرسطو على أوثق مصادر الفلسفة اليونانية. وكنا نفضل أن يحيل على هذه المصادر في صلب الموضوع بدل أن يكتفي بسردها في الفهرست. وفيما يتعلق بأفلاطون وأرسطو سلك سبيلا يحمد عليها؛ فقد درسهما دراسة مباشرة وقدم لنا صورة ناصعة عن مؤلفاتهما وحكم عليهما بناء على ما قالا لا اعتماداً على ما قال الناس عنهما. وهذه الطريقة علمية قطعاً ومعينة على تفهم الفيلسوفين على ضوء ما كتبنا. غير أنها مدعاة التكرار والاستطراد أحياناً، كما قد تسوق إلى سرد تفاصيل جزئية قليلة الفائدة وفي حذفها ما يفسح المجال للمشاكل الهامة[2]. ذلك لأن الملخص قد يؤخذ أحياناً عما هو أمامه وينسى بحثه الرئيسي. وعلى كل فلمؤلفات المؤلف إبراز بعض المشاكل الأفلاطونية والأرسطية في ثوبها الكامل لقد نجح نجاحاً كبيراً في إعطاء فكرة صحيحة عن مؤلفات أفلاطون وأرسطو وتلخيصها على وجه حسن. وكنا نود أن تستخدم المصادر العربية في بحث كهذا؛ وفي استخدامها ما يسمح بتحقيقات ومقارنات علمية وتاريخية جديدة فاتت مؤلفي الغرب ومؤرخيه، وقد تنبه زميلنا إلى هذه النقطة في بعض الفصول، إلا أنه لم يلتزمها في كل بحثه[3]

الأستاذ كرم هادئ في كل شيء؛ هادئ في أسلوبه، فلا يحفل بالتراكيب الضخمة والعبارات الطنانة، وما أحوج اللغة العلمية إلى هذا الهدوء. فهو يكتب كتابة موضوعية كل همه فيها أداء المعاني العلمية في عبارة مقبولة. بدأ كلامه وختمه بالتحدث عن الفلسفة وتاريخها دون أن ترى في أسلوبه حشواً أو فضولاً. إلا أنه قد يصل به حبه للأيضاح أحياناً إلى استعمال بعض الألفاظ والتراكيب الدارجة بالرغم من ابتذالها أو ضعفها.

ومع هذا ينبغي أن نشير الى المجهود الصادق الذي بذله في اختيار الألفاظ العربية الملائمة لأداء الأفكار الأجنبية. وقد كلل هذا المجهود بذلك القاموس اللغوي الاصطلاحي الذي ختم به كتابه. وفي اختصار لقد استطاع أن يقدم لنا تاريخ الفلسفة اليونانية في قالب علمي لا بأس به. وهذه ناحية يجب أن يتنبه لها الباحثون إن كنا نريد لأنفسنا لغة علمية محترمة. وها كم قطعة من قلم المؤلف يلخص فيها الفلسفة الأفلاطونية ويبين أصولها ومميزاتها يقول: «أما أسلوبه (يعني أفلاطون ولو قل أما مذهبه أو طريقته لكان أولى) في الفلسفة فهو التوفيق والتنسيق: لم ير في تعارض المذاهب سبباً للشك مثل السوفسطائيين، وإنما وجد أنها حقائق جزئية، وأن الحقيقة الكاملة تقوم بالجمع بينها وتنسيقها في كل مؤلف الأجزاء. وطريقة التوفيق حصر كل وجهة في دائرة، وإخضاع المحسوس للمعقول، والحادث للضروري، فنحن نجد عنده تغير هرقليطس، ووجود بارمنيدس، ورياضيات الفيثاغوريين وعقيدتهم في النفس، وجواهر ديموقريطس، وعناصر أنبادوقليس، وعقل أنكساغورس فضلاً عن مذهب سقراط، وسندل على هذه الظاهرة كلما صادفناها، وثمت ظاهرة أخرى هي محاولته تحويل العقائد الأرفية آراء فلسفية، أي وضعها في صيغة عقلية ودعمها بالدليل. فهو لم يزدر شيئاً من تراث الماضي، وأراد أن ينتفع بكل شيء، ثم طبع هذا التراث بطابعه الخاص، وزاد فيه فتوسع وتعمق إلى حد لم يسبق إليه»[4]

والأستاذ كرم هادئ كذلك في مناقشاته وأحكامه، فهو يناقش النظريات الفلسفية في هدوء وسكون، ويحكم على مختلف

(١) انظر مثلا ص ٤٤، ٦٥، ٩٦ — ٩٧ الخ

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٩ — ١١١، ٢٢٦ — ٢٢٨، ٢٤٦ — ٢٤٩

(١) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٣.

الآراء أحكاماً بعيدة فى جملتها عن الشطط والمغالاة . بيد أن هدوءه هذا قد يؤخذ عليه ، وكم كنا نوده عنيفاً نوعاً فى بعض المواقف . فان هدوءه دفعه إلى تبسيط المسائل إلى درجة ربما ضاع معها ابها ، ولم يمكّنه من استيفاء بعض المشاكل التاريخية . فلم يثر مثلاً أسئلة كهذه : هل سقراط أو ميتافزيقى ؟ وكيف تفسر الرموز (Les mythes) فى أسلوب أفلاطون ؟ وعلام يحمل التذكر (la réminisceuce) عنده ؟ ولم يفصِّل القول فى مشكلة الآله عند أفلاطون ونظرية العقل عند أرسطو تفصيلاً مقنعاً ومرضياً ، وكأنه تناسى ما كتبه الباحثون السابقون هذه فى المسائل واكتفى بعرضها كما يرى هو دون أن يبين آراء الآخرين . وقد حال هدوء المؤلف أيضاً دونه والاسترسال فى النقد بعض الشىء . نحن لا ننكر أنه نقد طائفة من الآراء والنظريات التى عرضها فى حكمة ودقة ؛ ولكنا كنا نتمنى أن يعنى بالنقد أكثر من هذا وخاصة فى دراسة الفلسفة الأرسطية ، ويظهر أن الخلاف بيننا وبينه فى هذه النقطة راجع إلى المبدأ ووجهة النظر ؛ فانه فيما يبدو لنا ، يرى فى أرسطو الكمال والتبرؤ من كل نقص وخطأ ، وهذا رأى قد لا يقره عليه كثيرون الآن

وكيفما كانت الاعتراضات التى يصح أن توجه إلى تاريخ الفلسفة اليونانية فانه يحوى أكبر وأنفس مصدر عربى عرف حتى اليوم فى هذه الناحية ، ولم يدع مؤلفه أنه جاءنا بنظرية جديدة أو طريقة مبتكرة فى دراسة تاريخ الفلسفة ؛ وكل ما صنع أنه قرأ ودرس ومثّل فى تأن وتؤدة ، ثم استخلص من قراءته ودراسته تلك الثمرة الطيبة . وهو لم يمنّنا مطلقاً بأمان ولم يعدنا بوعود حتى نحاسبه على إنجازها ؛ بل ترك تاريخ الفلسفة يتحدث عن نفسه ، ولم يزل هذا التاريخ فى حداثته حتى انتهى إلى مرحلة نرجو أن تكون أخيرة لا آخرة . ويقيننا أن من بدأ تاريخ الفلسفة على هذا النحو وبهذا التوفيق لا بد واصل إلى نهايته

ابراهيم مدكور

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

العدد ١٧٣ — ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 173

Lundi - 26 - 10 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٧٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٠ شعبان سنة ١٣٥٥ — ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

رغبـــات الأدب
فى العهد الجديد

ورغبات الأدب هى الخوالج القدسية العليا للشعب الكريم ؛ تتمثل فى عقله نزوعاً إلى الحق ، وفى نفسه طموحاً إلى الخير ، وفى ذوقه صبوًّا إلى الجمال . فاذا أُتيح لها نَفَس من الديمقراطية وفَرَج من الحرية ورَوْح من العدل ، سطعت فى أرجائه وأجوائه سطوع الأرج المنعش ، فنضَّرت الحياة وعطَّرت الأرواح وطهَّرت الأنفس ، و إلا ذوت فى مناشئها ذُوِيَّ النبات المكروب والأمل المخيَّب . وفى هذا العهد الجديد الذى انتعشت فيه عوائر المنى ، وانفسحت به مناحى الجد ، يحاول كل عامل من عوامل الرقى أن يستعيد قوته ويستفيد كماله . والأدب المصرى ظل إلى اليوم فريسة الإهمال والفوضى ؛ يكابد طغيان السياسة فى استسلام ، ويجاهد سطوة الجهالة فى يأس ، ويقاسى مضض الحرمان فى ضراعة ؛ وأولو الأمر يقابلون جهده بالاستهانة ، ويكافئون بره بالعقوق ، ويستغلون سلطانه فى الصحف وعلى المنابر ، ثم لا يدخلونه فى الحساب يوم الغنيمة

هاهم أولاء رجاله الصابرون البواسل ، يؤدون رسالة الروح

المضنية وقرائحهم المجهودة تنضح بالمداد كما تنضح الجباه الناصبة بالعرق ، والصدور المحاربة بالدم ، ثم لا يلقون ممن يحملون لهم الشعلة إلا ما لقى أصحاب الرسالات من الكفران الغادر والخذلان المهين . وما حال الأدب فى الأمة الأمية ، إلا كحال النبوة فى الأمة المشركة ، إذا لم يكن له سند من الله وعون من الحكومة ذهب ذهاب المصباح فى عواصف البيد المظلمة . فالأديب المضطر إنما يشتق للقوت لا للفن ، ويسعى للشهوة لا للمجد ، وينتج للحاضر لا للمستقبل ؛ وإذن لا يكون الأدب إلا كما نرى : بخس فى الكيف ، ونقص فى الكم ، وشعوذة فى الوسيلة ، وإسفاف فى الغاية

***

يرغب الأدب إلى أولياء العهد الجديد أن يبسطوا عليه ظل الحماية ، فما يستطيع اليوم لضعف دولته وجهل رعيته أن يستقل . يرغب إليهم أن يقوه تضييق الحرية ليتسع فكره ، ويكفوه تمليق الجمهور ليسمو إنتاجه ؛ فان العبث بحرية الرأى تعطيل لموهبة العقل وإفساد لفطرة الله وصدٌّ عن سبيل التقدم . ومزية الإنسان الحر فى الحكومة الحرة أن يقول ما يعتقده صواباً ، ويفعل ما يراه حسناً ، ما دام هنالك دين يردع غواية النفس ، وقانون يحبس عنان الإرادة . وإن إذلال الأدب لشهوات الناس وضرورات العيش اضعاف لملكة الذوق وتدنيس لنقاء الضمير وتشويه لجمال الإلهام ؛ ورقى الأدب قائم على استقلال رأيه ونبل غرضه وتأمين حياته ؛ ولا تجد أنهض به وأعود عليه من الجوائز والمكافآت ، فانها تحفز القرائح للعمل ، وتضمن الإجادة بالتنافس ، وترفع المستوى بانتخاب الأجود ؛ وبضعة آلاف جنيه من الخزانة العامة ينفَق أضعافها فى تمهيد طريق أو تجميل بناء تخلق فى الأمة أدباء موهوبين عالميين ، وتجمع لها من الأدب الصحيح ثروة

***

ويرغب الأدب إلى أولياء العهد الجديد أن يضيفوا إلى غذائه ثمار العقول الخصيبة لنوابغ الأمم الأخرى ، فان لكل أمة مزايا ولكل بيئة خصائص ؛ ولن يكون أدبنا عالميًّا ما لم يلقح بآداب العالم ؛ والتقليد والاحتذاء من أقوى العوامل أثراً فى الأدب . ولو شاء الله لأدبنا الكمال من نقصه لألهم المترجمين فى عصر المأمون أن ينقلوا روائع الأدبين الإغريقى واللاتينى من الشعر والقصص والروايات والملاحم كما نقلوا العلم والحكمة ، إذن لقلدهم أدباء العرب فى ذلك ، ولسدوا فى الأدب العربى خللا مابرئ منه حتى اليوم

ذلك ميسور بإنشاء دار للترجمة فى دار الكتب تنقل أدب الأمم الكبرى نقلا صحيحاً ، ثم تُنشر عن الدار على نحو ما تفعل اليوم فى نشر الكتب العربية القديمة ، فيجتمع للأدب الحديث رافدان زاخران يرفده أحدهما بعصارة المدنيات الغابرة ، ويرفده الآخر بخلاصة المدنية الحاضرة . والواقع الأليم أنك تستطيع أن تقرأ أى نابغة فى أى لغة محترمة إلا فى اللغة العربية ! !

***

كذلك يرغب الأدب إلى أولياء العهد الجديد أن تكون له مراجع عليا تقوم عليه ، فتتعرف أطواره وتتعقب آثاره ، وترتاد له سبل الكمال ، فتسد ما فيه من خلل ، وتعالج ما به من جمود ، وتدفع ما عثا فيه من فوضى ؛ ثم تكون لقرائح الشباب وهى فى أول الشوط مناراً وحمى ، ولعبقريات الشيوخ وهى فى آخره أمناً ومثابة

والمفروض اليوم أن مراجعه التى تقوم بطبيعة إنشائها على تسديده وتعضيده هى مجمع اللغة العربية الملكى بالمعارف ، وإدارة الصحافة والنشر والثقافة بالداخلية ، وجمعية كبار العلماء بالأزهر ؛ ولكنها على هذا الوضع المقلوب والعزم المتخاذل والحركة الوانية لا تنفعه بنافعة ؛ فان العضوية فى بعضها تشريف ، وفى بعضها الآخر طُعمة ؛ أما العمل ففضل من العامل ، فاذا تفضل به كان له فى نهضة الأدب شأن ضئيل وأثر حائل

على أن إدارة الصحافة والنشر والثقافة حديثة النشأة ، والمظهر البادى عليها مظهر الطموح والفتوة ، ومن الممكن أن نعقد بها أسباب الأمل لأنها وليدة هذا العهد ، ولكن الأدب لايزال يرغب إلى زعماء العهد الجديد ، أن يساعدوه على أن يكون خليقاً بهذا العصر السعيد

احمد حسن الزيات

القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أقبل عليّ صاحبي الأديب وقال : أنظر هذه هي ، وقد حلت بهذا البلد وما لي عهدٌ بها منذ سنة . ومدَّ إليَّ يده فنظرتُ إلى صورة امرأة كأحسن النساء وجهاً وجسماً ، تتأوَّدُ في غلالة من اللاذ (١)

وكأن شعاعَ الضُّحى في وجهها ، وكأنها القمرُ طالعاً من غيمة ، ويكاد صدرها يتنهد وهي صورة ، وتبدو هيئةُ فمها كأنها وعدٌ بقبلة ، وفي عينيها نظرةٌ كالسكوت بعد الكلمة التي قيلت همساً بينها وبين محبها ...

فقلت : هذه صورة ما أراها قد رسمها إلا اثنان : المصوِّر وابليس . فمن هي ؟

قال : سَلْها ، أما تراها تكاد تَثِبُ من الورقة ؟ إنها إلاَّ تخبرْك بشيء أخبرك عنها وجهها أنها أجمل النساء وأظرفهن وأحسنُ من شاهدتَ وجهاً وأعيناً ، وثغراً وجيداً ، والذي بعد ذلك ...

قلت : ويحك ، لقد شعرتَ بعدي ، إن هذا شعر موزون

وأحسنُ من شاهدتَ وجهاً وأعيناً

وثغراً وجيدا والذي بعد ذلكا ...

قال : إن شيطان هذه لا يكون إلا شاعراً ؛ ألستَ تراه ناظماً من فنونها على الرسم شعرا معجزا كل شاعر ؟

قلت : وهذا أيضاً شعر موزون :

ألستَ تراه ناظما من فنونها

على الرسم شعراً معجزا كل شاعر

قال : بلى والله إنه الشيطان ، إنه شيطانها يريك لهذا الجسم روحاً رشيقة ، تلين كلين الجسم بل هي أرشق

قلت : وهذا أيضاً ، والقافيةُ التي بعد هذا البيت : وبها شقوا ....

فضحك صاحبنا وقال : حرِّك الصورة في يدك ، فانها ستراها وما تشك أنها ترقص

قلت : الآن انقطع شيطانك ، فهذا ليس شعرا ولا يجيء منه وزن ....

وتضاحكنا وضحك الشيطان ، وظهر الوجه الجميل في الرسم كأنه يضحك ....

***

قال صاحبُ القلب المسكين : انظر إلى هاتين العينين ، إنهما من العيون التي تفتن الرجل وتسحره متى نظرتْ اليه ، وتعذبه وتضنيه متى غابت عنه . إن في شعاعهما قُدرةً على وضع النور في القلب السعيد ، كما أن في سوادها القدرة على وضع الظلمة في القلب المهجور ...

وانظر إلى هذا الفم ، إلى هذا الفم الذي تعجز كلُّ حدائق الأرض أن تُخرج وردةً حمراء تشبهه

وانظر إلى هذا الجِيد تحته ذلك الصدر العاري ، فوقه ذلك الوجهُ المشرق ؛ تلك ثلاثة أنواع من الضوء : أما الوجه ففيه روحُ الشمس ، وأما الجيد ففيه روحُ النجم ، وأما الصدر ففيه روحُ القمر الضاحي

انظر إلى هذه المسافة البيضاء من أعلى جبينها إلى أسفل نهديها ، تلك مِنطقةُ القُبُلات في جغرافيا هذا الجمال ...

وانظر إلى الصدر يحمل ذينك الثديين الناهدين ؛ إنه المعرضُ الذي اختارته الطبيعة من جسم المرأة الجميلة للاعلان عن ثمار البستان ...

انظر إلى النهدين لِمَ بَرَزَا في صدر المرأة إلا إذا كانا يتحدَّيان الصدرَ الآخر .... ؟

وانظر لهذا الخصر الدقيق وما فوقه وما تحته ، ألا تراه فتنةً متواضعةً بين فتنتين متكبِّرتين .... ؟

انظر اليها كلِّها ، انظر إلى كل هذا الجمال ، وهذا السحر ، وهذا الاغراء ؛ ألا ترى الكنزَ الذي يحول القلب إلى لص .... ؟

هذه مخلوقة مرتين ، إحداهما من الله في العالم ، والأخرى

(١) اللاذ الحرير الصيني الرقيق ، والغلالة مثل القميص الذي تحت الثياب

من حبي أنا في نفسي أنا ، فكلمة « جميلة » التي تصف المرأة التامة ، لا تصفها هي إلا بعض الوصف ؛ ورسمها هذا الذي تراه إنما هو حدود لتلك الروح التي فيها قوة التسلط ، وهيهات يُظهر من تلك الروح إلا ما يُظهر من الجمرة المشتعلة رسم هذه الجمرة في ورقة

أشهد ما نظرت مرة إلى هـذا الرسم ثم نظرت اليها إلا وجدت الفرق بينها في نفسها وبينها في الصورة ، كأنه اعتذار ناطق من آلة التصوير بأنها ليست إلا أداة ...

* * *

قلت : اللهمَّ غفراً ؛ ثم ماذا يا صديق المجنون ؟

فأطرق الأديب مهموماً ، وكانت أفكاره تنفجر في دماغه انفجارا هنا وانفجارا هناك ؛ ثم رفع إليَّ رأسه وقال :

هذه الغانية قد حبست أفكاري كلها في فكرة واحدة منها هي ؛ وأغلقت أبواب نفسي ومنافذها إلى الدنيا ، وألهبت في دمي جمرة من جهنم فيها عذاب الاحراق وليس فيها الاحراق نفسه كيلا ينتهي منها العذاب

وبيننا حبٌّ بغير طريقة الحب ، فان طبيعتي الروحانيةَ الكاملة تهوى فيها طبيعتها البشرية الناقصة ، فأنا أمازجها بروحي فأتألم لها ، وأتجنبها بجسمي فأتألم بها

حبٌّ عقيم مهما يكن من شيء فيـه لا يكن فيه شيءٌ من الواقع

حب عجيب لا تنتفي منه آلامه ولا تكون فيه لذاته

حب معقد لا يزال يلقي المسألة بعد المسألة ، ثم يرفض الحل الذي لا تحل المسألة إلا به

حب أحمق يعشق المرأة المبذولة للناس ، ولا يراها لنفسه إلا قديسة لا مطمع فيها

حب أبله لا يزال في حقائق الدنيا كالمنتظر أن تقع على شفتيه قبلةٌ من الفم الذي في الصورة

حب مجنون كالذي يرى الحسناءَ أمام مرآتها فيقول لها : اذهبي أنت وستبقى لي هذه التي في المرآة ...

* * *

قلت : اللهم رحمة ؛ ثم ماذا يا صاحبي المسكين ؟

قال : ثم هذه التي أحبها هي التي لا أريد الاستمتاع بها ، ولا أُطيقه ولا أجد في طبيعتي جرأة عليه ، فكأنها الذهب وكأنني الفقير الذي لا يريد أن يكون لصاً . يقول له شيطانُ المال : تستطيع أن تطمع ؛ ويقول له شيطان الحاجـة : وتستطيع أن تفعل ؛ ويقول هو لنفسه : لا أستطيع إلا الفضيلة

إن عذاب هذا بشيطانين لا بشيطان واحد ، غير أن لذته في انتصاره كلذة من يقهر بطلين كلاهما أقوى منه وأشد

* * *

قلت : اللهم عفوا ؛ ثم ماذا يا قاهر الشيطانين ؟

فأطرق مليًّا كالذي ينظر في أمر قد حيَّره لا يتوجه له في أمره وجه ، ثم تنهد وقال : يا طول علة قلبي . من أين أجيء لأحلامي بغير ما تجيء الأحلامُ به ، وإنما هي تحت النوم ووراء العقل وفوق الارادة ؟ لقـد بلغ بي هواها أن كل كلمة من كلام الحب في كتاب أو رواية أو شعر أو حديث — أراها موجّهة إلى أنا

ثم قال : انطلقْ بنا فتراها حتى تعلم منها علما فهي في ذلك المسرح ، هي في ذلك الشر ، هي في تلك الظلمات ، هي كاللؤلؤة لا تربيّ لؤلؤةً إلا في أعماق بحر

* * *

وذهبنا الى مسرح يقوم في حديقة غنَّاءَ مترامية الجهات بعيـدة الأطراف تظهر تحت الليل من ظلماتها وأنوارها كأنها مُثْقَـلةٌ بمعاني الهجر والعشق

وتقدَّمنَـا نسـير في الغَبَـش ، فقال صاحبنا المحب : إني لأشعر أن الظلام هنا حيّ كأن فيه غوامض قلب كبير فما أرى فرقاً بين أن أجلس فيه وبين الجلوس الى فيلسوف عظيم مهموم يهمّ اللانهاية . فتعال نبرز الى ذلك النور حول المسرح لنراها وهي مقبلة فأن رؤيتها سيدةً غير رؤيتها راقصـة ، ولهذه جمالُ فن ولتلك فنٌّ جمال

ولم نلبث إلا يسـيرا حتى وافتْ ، ورأيتها تمشي مِشيَـة الخفِرات كأنما تحترم أفكارَ الناس ، يزهوها على ذلك إحساسٌ

نبيل كأحساس الملكة الشاعرة بعجبة شعبها . وانتفض مجنوننا وأغمض عينيه كأنها تمر بين ذراعيه لا فى طريقها ، وكأن لذة قربها منه هى المكن الذى لا يمكن غيره .

وكان عجباً من العجب أن تحرك الهواء فى الحديقة واضطربت أشجارها فقال : أنت ترى . فهذا احتجاج من راقصات الطبيعة على دخول هذه الراقصة . قلت : آه يا صديق ! إن المرأة لا تكون امرأةً بمعانيها إلا إذا وجدت فى جو قلب يعشقها

ونفذنا الى المسرح وتحرّى صاحبُنا موضعا يكون فيه منظرَ العين من صاحبته ويكون مستخفياً منها . ثم رُفع الستار عنها بين اثنتين يكتنفانها ، وقد لبسن ثلاثتهنّ أثواب الريفيات وظهرن كهيئتهن حين يجنين القطن

وبرزت (تلك) فى ثوب من الحرير الأسود وهى بيضاء بياضَ القمر حين يتمّ ، وقد شدّت وسطها بِعِشَدةٍ من الحرير الأحمر فتحبّكتْ بها وظهرت شيئين : أعلى وأسفل ، ثم ألقت على شعرها الذهبى قَلَنْسوةً حمراء من ذلك الحرير أمالتْها جانبا فخبستْ شيئاً منه وأظهرتْ سائره . وأخذت بيديها صفّاقتين [1] وأقبل الثلاث يرقصن ويغنّين نشيد الفلاحة

لم أنظر الى غيرها فقد كانت صاحبتاها دليلين على جمالها لا أكثر ولا أقل . وما أحسب الحريرَ الأحمرَ كان معها أحمر ولا الأسودَ كان عليها أسود ، ولا لونَ الذهب فى مِعْصمها كان لونَ الذهب . كلاً كلاً هذه ألوان فوق الطبيعة لأن ذلك الوجهَ يُشرق عليها بالجمال والحياة ، وذلك الجسم يَفيضُ لها بالخفة والطرب ، وتلك الروح تبعث فيها المرح والنشوة ؛ هذا مزيج من خمر الألوان لا من الألوان نفسها

وقال مجنوننا : إن أجمل الجمال فى المرأة الفاتنة هو ذاك الذى يجعل لكل انسان نوعَ شعوره بها ، وأنا أشعر الساعة أن قلبى نصفُ قلب فقط وأن نصفه الآخر فى هذه وحدها ، فما شعورك أنت ؟

قلت ، ياصديق إن الله رحيم ، ومن رحمته أنه أخفى القلبَ وأخفى بواعثه ليظلّ كلُّ انسان مخبوءاً عن كل انسان ، فدعنى مخبوءاً عنك

قال : لا بد

قلت : إن المصباح فى الموضع النجس لا يمسّ النور نجسا ، وما أشعر إلا أن النور الذى فى قلبى قد امتزج بالنور الذى فى عينيها

ثم كأنها أحسّت بأن إنساناً قد امتلأ بها فأدارت وجهها وهى ترقص فتلمّحت صاحبنا وجعلت تُقطّع الطّرفَ بينها وبينه كأنها تعرفه وتجهله ، ثم تبيّنت إلحاحَ نظره فضحكت لأنها تعرفه ولا تجهله

أما هو ، أما المجنون ، أما صاحب القلب المسكين ؟

(لها بقية) طنطا مصطفى صادق الرافعى

(تنبيه) تلقينا كتبا كثيرة يريد أصحابها مثل مقال (السمكة) وسنصطاد لهم إن شاء الله

(١) الصفاقات هى التى يقال لها الساجات تكون فى أصابع الراقصة ، والكلمة واردة فى كتاب الأغانى

تبســـم !!

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

« تبسم ! ! »

« إيه ؟ ؟ »

« تبسم ! ! »

« أتبسم ؟ ؟ »

« نعم . . »

« هل تريد مني أن أتبسم ؟ . »

« نعم . . هذا ما أعني »

« ولكن كيف ؟ . أعني أني لا أريد . . . لا أشعر بحاجة إلى الابتسام ؟ »

« ألا تستطيع أن تتبسم ؟ . »

« ربما أمكن أن أتبسم بفمي فقط ولكن هذا ليس ابتساما »

« بفمك .... رجلك ... تبسم والسلام »

فقلت : « طيب هه » وتكلفت الابتسام كما أراد فقال : « حسنا .. والآن .. جرب مرة أخرى »

فنظرت إليه — حدقت في وجهه فقد خامرني الشك في عقله ولكنه كان ساكناً لا يبدو عليه غير ما ألفت منه . ولما طال نظري إليه قال : « هل فرغت ؟ ؟ إني منتظر »

فسألته « ماذا تنتظر ؟ . »

قال : « أن تتبسم .. تفضل »

فلم يسعني إلا أن أضحك وأن أضرب كفاً بكف فقال : « هذا أحسن ... ولا بد أنك تشعر أنك أحسن حالاً بعد هذه الضحكة العالية »

فأمسكت عن القهقهة — أعني حبست ما كنت أريد أن أنفجر به من ذلك — وقلت له : « ما هي الحكاية .... لست أكتمك أني مستغرب سلوكك في هذه الليلة »

فقال : « استغرب ما بدالك أن تستغرب .... إنما المهم أن تتبسم »

قلت : « شيء جميل ولكن ألا ترى أن الأمر يحتاج إلى شيء من الايضاح .. الواقع أني لست فاهماً شيئاً »

قال : « لا بأس . إسمع . إنك رجل كاد ينسى الابتسام وهـذا هو مرضك لا ما تتوهم أن معدتك وأمعاءك مصابة به . ليس بك شيء . كن من هذا على يقين جازم . وإنما الذي بك أنك لم تعد تعرف سرور الحياة . والذنب في هـذا لك لا للحياة . لا تقل لي إن الحياة لم تعرض عليك إلا صفحاتها الدميمة التي تثير الاشمئزاز والتقزز وتغري النفس بالكآبة والجهامة فان هذا الكلام فارغ . وأنت الذي أغريت عينك بهذه الصور القبيحة ولولا ذلك لاستطعت أن ترى الصفحات الأخرى المشرقة الوضيئة التي تنعش النفس وتحييها وتجددها . بل إن الذي تتعلق به عينك من صور القبح والدمامة لا يخلو من جمال يشرح الصدر ويفرح القلب . وليست هذه فلسفة ولكنها هي وصف للواقع من أمرك وأمر المتفلسفين الذين يقرأون ولا يفهمون . نعم لا تفهمون .. تقول إنك قرأت الأدب الانجليزي وتوفرت عليه وأنا أعرف ذلك ولا أجهله ، وأعرف أنك قرأت أديسون فلماذا لم تفهم صورته الوصفية لجبل الهموم أو تله أو ما شئت فسمه . الواقع أنك قرأت ولم تعن إلا بالجانب الذي يوافق مزاجك النفسي الذي أسمح لنفسي أن أسميه الأعور — أي الذي لا يرى إلا بعين واحدة ولا يتأثر إلا من جانب واحد . أتقول إن الأمر أمر خلقة وطباع .. لاياسيدي ... إننا نتعلم كيف نضبط غرائزنا وطباعنا الحيوانية ، وكذلك نستطيع أن نهذب ما نظنه طباعا فطرية في نفوسنا لا تقبل التهذيب والتنقيح والصقل . على أن المسألة ليست مسألة طباع وإنما هي مسألة نظر ، فلماذا تنظر إلى جانب السوء وحده ولا تنظر أيضاً إلى جانب الخير والحسن والجمال والفكاهة ... باختصار — أنظر واضحك يا سيدي ... وان تعدم ما يضحك في أي أمر وأي حال ، واعلم أنك حين تضحك يتأثر جسمك كله وأعصابك أيضاً . وثق أن ضحكة واحدة تطلقها كافية لتغيير حالتك النفسية ... هذا علاجك .. فاذهب عني ولا تعد إلى فأن شفاءك في يديك »

وخرجت أقول إن هذه فلسفة جديدة لا تستحق ما غرمت في سبيلها ، ومشيت أفكر في هذا ومضيت أبدئ وأعيد فيه بيني

وبين نفسى فاصطدمت برجل كان مقبلاً على فصاح بى بعد أن حك أنفه كما حككت أنا أنفى « اللى واخد عقلك يتهنا به ... مالك كده زى المسطول » فغلا دمى حين سمعت ذلك ثم ذكرت نصيحة الطبيب فضحكت فقال الرجل « وبتضحك كمان » فقلت له « يا أخى إذا كنت أنا مسطولاً فأنت مثلى ، وإذا كان شىء قد أخذ عقلى فان عقلك لم يكن على ما يظهر فى مكانه . ثم إن منظرنا حين اصطدمنا لا شك يبعث على الضحك . وقد ضحك الأطفال والرجال والنساء وكادت الحيوانات تضحك حين وقعت المصادمة والتقى الأنف بالأنف فلماذا تضحك الدنيا كلها ولا يعبس فيها ويتشاجر ويتشاتم إلا أنا وأنت » فقال صدقت .. معك الحق » وصافحنى ومضى عنى راضياً

ودخلت « قهوة » أو « مقهى » فألفيت إخواناً لى يلعبون « الورق » وهو شىء لا أحسنه ولا استعداد عندى لفهمه . وكان مع أصحابى اثنان لا أعرفهم فقدمونى إليهم وسموهم لى بأسمائهم فقعدت على كرسى بعيداً عنهم ، ثم ضجرت فوقفت أنظر إلى اللعب وإن كنت لا أفهم شيئاً ، ولكنى رأيت هذا خيراً من الوحدة . ولم أشأ أن أظهر جهلى فجعلت أتظاهر بالفهم . ولم أكن أقول شيئاً ولكنى كنت أبتسم كأنى فاهم . واتفق أن أحد الغريبين كان أكثرهم كسباً فنظر إلى فألفانى أبتسم فقلب الورق وأشار إلى وقال : « كلمة من فضلك » وتراجع عن الكرسى فدرت إليه ووقفنا بجانب مرآة كانت خلفه فقال — أوهمس على الأصح — : « إنك تعرف بالطبع أن هذا اللعب مزاح لا جد فيه »

قلت : وأنا أستغرب هذا الكلام الذى لا أرى له داعياً « لم أكن أظن هذا » وابتسمت ، فقد بدا لى أن من المستغرب بل من المضحك أن يكلف نفســه عناء التأكيد لى أن اللعب لا يراد به أكثر من تزجية الفراغ . ومالى أنا .. ما شأنى بهم ... أتراه توهمنى من الشرطة . . أم ترى هذا المحل من المحلات التى لا يباح فيها لعب الورق

كان هذا يدور فى نفسى وهو يقول لى : « بالطبع مزاح .. وسيرد كل منا ما كسبه إلى إخوانه .. وقد أردنا أن يظهر كل منا براعته فى ... فى ... فاهم ... أليس كذلك .... هذا لا يسمى غشاً ... لالا .. أستغفر الله ... لو كنا نلعب جادين لكان غشاً ولا شك ، ولكن فى المزاح يجوز ما لا يجوز عند ما يجد المرء . . أليس كذلك ... هه هه .. »

ومضت أيام فلقيت واحداً أعرفه ومعه فتاة فى بعض الطريق ولم أنظر إليهما ولكنى كنت أنظر إلى الناحية التى أقبلا منها ، وكنت أبتسم لخاطر فى نفسى فوقعت عينى فى عين صاحبى هذا والابتسامة على فمى فأقبل يعدو ورائى حتى أدركنى ثم تنحنح وقال : « مممممم أظنك ... يظهر ... أريد أن أقول ... الحقيقة إنها بنت عرفتها أمس .. ولكن .. أعتقد أنك .. أعنى أنى .. الواقع أنه لا شىء هناك بيننا .. معرفة جديدة ... بنت حلال ... »

وقد سقت عباراته بعضها وراء بعض ولكنه كان يتنحنح كثيراً ويمسح العرق المتصبب بمنديل كبير فلم يسعنى إلا أن أضحك فما استطعت أن أفهم لماذا رأى من واجبه أن يجشم نفسه هذا البيان أو الاعتذار ... لست أباه ولا أخاه ولا أنا وصى عليه ولا لى عليه أى سبيل ...

وقد حال الضحك دون الكلام — أعنى دون الجواب — فصافحته وتركته يمسح عرقه

وركبت الترام مرة وكان الجالس أمامى فى يده جريدة يتأمل صفحتها المصورة وكنت أنا أتسلى بالنظر إلى الطريق من النافذة التى وراءه فرأيت فتى علق ثوبه الفضفاض بدراجة ولم يستطع تخليصه منها فجعل يجرى معها وراكبها لا يعنى بالوقوف فابتسمت وكانت الدراجة تساير الترام فظللت أبتسم ولولا الحياء لقهقهت وإذا بجليسى يتكلف الابتسام ويتحرك فى مقعده ويقول فجأة — فما كان بالى إليه بل إلى المنظر الذى وراءه — « الحقيقة أن الفن الصحفى تقدم جداً »

فتنبهت وقلت : « جداً .. صحيح » وجازيته ابتساماً بابتسام فمهل وقال : « الانســان معذور إذا بدأ بصفحة الصور وما فيها من المناظر الجميلة »

فاستغربت كلمة « المناظر » وسألته « المناظر »

قال : « أعنى صور الفتيات الجميلات ... ولكنى لا أشترى الجريدة لهذا وحده .... لا لا لا أعوذ بالله .. أرجو ألا تكون جملتنى من هذا الفريق الذى لا يعنيه من الصحف إلا صور النساء لا لا لا .... أؤكد لك أنى أقرأ .... أقرأ .... أقرأ كل شىء

صور سياحة

٤ ـ ليـــالى باريس
مونمارتر ومونبارناس

المسارح والمنتديات الليلية

بقلم سائح متجول

للمدن العظيمة فى الليل حياة أخرى غير حياة النهار ، ولهذه الحياة الليلية متاعها وسحرها ، ولها أحياناً خطرها وألوانها القاتمة ؛ فنى تلك المقاهى والمنتديات الساطعة ، وفى تلك المسارح الأنيقة ، وفى تلك الأبهاء والحانات الليلية التى تزينها أسراب من الحسان ينفثن السحر من عيونهن ومن عطرهن ، وفى تلك الأحياء الشهيرة التى غدت أسماؤها أعلاماً فى القصة والأدب ؛ هنالك فى تلك الربوع والمنتديات ينسى الانسان مدى لحظة متاعب الحياة الدنيا ، ويستطيع أن يتذوق شيئاً من متاع الحياة الليلية الضاحكة واللهو المرىء

وباريس مدينة عظيمة ، وفيها حياة ليلية مضطرمة ، قوامها تلك المنتديات والمسارح والحانات الشهيرة التى كثيراً ما تقرأ عنها فى القصص وتشهدها فى السينما ، فيخيل اليك أنها عالم بأسره من الفتنة والجمال والسحر

وسنعرض فى هذا الفصل صوراً من تلك الحياة الليلية البارزية الشهيرة مما رأينا وشهدنا

تقع مراكز الحياة الليلية البارزية فى أحياء معينة اشتهرت بأسمائها كما اشتهرت بماضيها وتقاليدها ، وأضحت علماً على حياة الليل فى باريس

وأشهر هذه الأحياء وأهمها من هذه الناحية هى بلا ريب أحياء : مونمارتر ومونبارناس وبيجال وكليشى وما اليها من مسالك ودروب

ولقد كان حى مونمارتر يستأثر فيما مضى بأكبر قسط من الشهرة الليلية ، بيد أنه على ما يظهر يفقد اليوم شيئاً من هذه الشهرة التى غدا ينافسه فى أسبابها وبواعثها حى مونبارناس ؛ وكان مونمارتر وما زال أعظم الأحياء البارزية الشعبية شهرة ، وأكثرها جاذبية لشباب الطبقات المتوسطة والدنيا ، وما زال رغم تقلبات الزمن وفقدان الكثير من سحره السابق ، يجذب اليه طوائف الشباب المثقف والناشئين من الكتاب والأدباء وذوى المهن ، يجدون ملاذا سهلا فى فنادقه ومطاعمه ومقاهيه الرخيصة ؛ ويستمرئون فيه ما استطاعوا من مسرات الحياة الليلية ، حيثما يتفتح الحب السهل بين شباب كثير التواضع والطموح

ويقع حى مونمارتر فى قلب باريس ، وما زال يحتفظ بكثير من معالمه القديمة ؛ دروب ضيقة ملتوية ، وأبنية عتيقة لم تنلها يد التجديد ، وفنادق ومطاعم ومقاه لم تعرف شيئاً من الأناقة الحديثة ؛ ومع ذلك فربما كانت هذه المطاعم والمقاهى المتواضعة فى مظاهرها أفضل من كثير من المحال الأنيقة المحدثة ، لأنها ما زالت تحتفظ بشىء من التقاليد الحسنة من حيث تقديم الألوان والمشروبات الجيدة بأثمان معتدلة ، وعدم التورط فى تلك المظاهر الخلابة التى تؤذى الجيب دون مبرر

هذا إلى أن مونمارتر مازالت تزخر بالمسارح والأبهاء والأندية الليلية ، من حانات ومراقص شهيرة ؛ وقد كانت مونمارتر

قلت : « طبعاً . طبعاً ... ظاهر يا سيدى ظاهر »

قال : « ثم إنى موظف ورب عائلة .. لى زوجة وأولاد .. »

فهممت بأن أقول له إن كونه رب أسرة وذا زوجة وأولاد لا يبدو أنه منعه أن يعترف لى — وأنا غريب عما أراد أن ينفيه ولكنى لم أقل شيئاً واكتفيت بالابتسام ونزلت عند أول محطة وقفنا عندها

الحقيقة التى أعترف بها أن طبيبى هذا لم يكن مخرفاً فقد أفادنى الابتسام صحة وعافية وانشراحا وزاد فعلمنى مالم أكن أعلم ، وإذا كان القارىء فى شك مما أقول فما عليه إلا أن يجرب فعل الابتسام لأمر أو خاطر لا علاقة له بجليسه مقترنا بسقوط النظرة فى عينه عفواً . وليخبرنى بعد ذلك بالنتيجة إذا شاء ، فما أشك أنا فى أنها ستدهشه وتكشف له عن كثير من أسرار النفوس لم يكن يخطر له على بال

ابراهيم عبد القادر المازنى

وما زالت تستمد شهرتها من تلك الأندية الليلية ومما يعرض فيها من أصناف اللهو والمرح التي تقوم في معظمها على السحر النسوى؛ وأشهر تلك المنتديات بلا ريب هو مسرح «الفولى برجير» Folies Bergères الذى يقع فى منعطف من شارع «فوبور مونمارتر»؛ ومسرح «الكازار» Alcazar الذى يقع فى هذا الشارع نفسه على مقربة من اتصاله «بيولفار الايطاليين»، والذى تقوم بالتمثيل فيه سيسيل سوريل العجوز الحسناء وفرقتها الشهيرة؛ ومسرح «معرض العراء» Chez les Nudistes الذى يقع أيضاً فى نفس الشارع؛ هذا فى «فوبور مونمارتر»، وأما فى حى مونمارتر ذاته، وهو على مقربة من «الفوبور» فتقع حانات ومراقص لا حصر لها

وتغص دروب بيجال وكليشى وهما على مقربة من مونمارتر بالحانات والمقاهى المريبة التى تؤمها الغانيات من طبقات متواضعة، ويؤمها طلاب اللهو من جميع الطبقات والجنسيات. ويمتاز شارع بيجال بالأخص بما يعرض فيه من الألعاب الصبيانية المختلفة مما يعرض عادة فى «لونابارك»

وفيما بين بيجال وكليشى توجد عدة من المسارح والمراقص الممتازة؛ وهنالك يقع «كازينودى بارى» الشهير الذى تعرض فيه مناظر العراء المطلق من الممثلة الأمريكية الحسناء «جوان وارنر» وفرقتها؛ ويقع مرقص «الكليزيوم» فى شارع روشوار، وهو من أشهر مراقص باريس، وفيه سرب من الفتيات الحسان الأجيرات أو Taxi girls كما يسمون، يرتدين أثواباً مشقوقة من أحد الجانبين تسفر عن ساق عارية؛ وهؤلاء يرقصن مع الطالبين بتذاكر خاصة يصرفها المحل للراغبين وقيمة التذكرة التى تعطى عن رقصة واحدة فرنكان؛ هذا إلى عدة حانات ليلية للرقص والغناء تفتح أبوابها حتى الصباح

وقد ذاعت مناظر الرقص العارى فى باريس وأصبحت أشهر دعاية تذيعها المسارح والمراقص الأنيقة؛ ففى الفولى برجير، والكازينو دى بارى، والكازار، تعرض المناظر والرقصات العارية بانتظام؛ ويمتاز الكازينو دى بارى بعرض أشهر هذه المناظر وأجملها، ويشترك فى المنظر الواحد نحو عشرين فتاة عارية لا يسترن سوى ملمس العفة بغلالة صغيرة على شكل «فينوس» ويسدلن على ظهورهن شعوراً طويلة مستعارة لتستر الألية بعض الشىء؛ وبطلة الرقص العارى أو ملكته هى مس جوان وارنر التى ترأس فرقة العراء فى «الكازينو»؛ وقد كان لها منذ عامين أو ثلاثة قصة مع القضاء، حيث عرضت بعض رقصاتها العارية الأولى، فاعتبرها البوليس عملاً فاحشاً، وحُقق معها، وقدمت إلى محكمة الجنح، ولكنها دافعت عن نفسها بأنها تقوم بمناظر فنية محضة، وأخذ القضاء بنظريتها وقضى ببراءتها. ومن ذلك الحين ذاع الرقص العارى فى باريس، ونظم فى أشهر المسارح، وسميت مس وارنر «ملكة العراء المطلق» La Reine de nu integral؛ والواقع أن مس وارنر تتمتع بجسم باهر التكوين والتقاسيم كأنه تمثال رومانى رائع

وقد شهدنا هذه المناظر البارزية العارية فى «الفولى برجير» وفى «الكازينو» وفى «الكازار»، وشهدنا عدة أخرى من المنتديات والحانات الليلية فى مونمارتر وكليشى ومونبارناس، فماذا رأينا وماذا شعرنا؟ رأينا مناظر كثيرة الألوان والضوء، ولكن قليلة السحر حقاً. وإن منظر هذه الأجسام العارية قد يثير الغرائز الوضيعة، ولكنه قلما يثير السحر الرفيع، وأى سحر فى مناظر تسودها مسحة البغاء أكثر مما تسودها مسحة الفن والجمال؟ والظاهر أن هذه المسارح البارزية الليلية إنما تعتمد على إثارة الغرائز فى النظارة قبل كل شىء، ولهذا أصبحت تعتمد على الأجسام النسوية العارية كعامل أساسى فى اجتذاب النظارة، وإنك لتقرأ الاعلانات الخلابة فى الصحف عن مناظر العراء فيخيل إليك أنك سترى مناظر من الجنة؛ Plaisirs de Paris; Folie sur Folie : Vive le nu ! ; le Nu intégral ; 24 Beautés nues هذه وأمثالها من العبارات الرنانة تقرأها دائماً فى برامج هذه المسارح؛ ولقد كانت أسماء «الفولى برجير» و«الكازينو دى بارى» و«الكازار» تثير فينا قبل رؤيتها سحراً لا يقاوم، فلما أتيح لنا أن نراها آنسنا خيبة أمل مرة، لأننا لم نر فيها من المناظر الرفيعة الرائعة ما يتفق مع تلك الدعاية الرنانة التى تثار حول أسمائها فى الصحف وفى السينما؛ وهى دعاية يفهمها الفرنسى، ولذلك فهو قليل الاقبال على هذه المسارح والمناظر التى ترتب لاجتذاب الأجانب وتقتضى من روادها أجوراً فاحشة حتى إن

الكرمى المتواضع (فى نهاية البارتير أو فى الجاليرى) فى الفولى برجير أو الكازينو لا يكلف أقل من ثلاثين أو أربعين فرنكا (٤٠ — ٥٢ قرشاً)[١]

***

ومونبارناس ؟ إن اسم مونبارناس كمونمارتر يغمر الأدب البارزى ، ولكن مونبارناس أحدث عهداً فى الأخذ بناصية الحياة الليلية البارزية ؛ ومونبارناس شارع مديد شاسع فى جنوب باريس على مقربة من اللكسمبور وسان ميشيل ، وهو أكثر رحابة وأقل صخباً من مونمارتر ، وبه على مقربة من محطة « مونبارناس » عدة مقاه حسنة أشهرها وأجملها « لا كوبول » وهو مقهى أنيق وبه مرقص ليلى ؛ وهنالك فى الجانب الآخر أشهر حانة ليلية فى الحى وهى حانة « جوكى » ، وهى غنائية راقصة وينحصر الجانب الساهر المنير من مونبارناس بين « لا كوبول » والمحطة ؛ وهنالك تلمح تحت أنوار الشارع والمقاهى كثيراً من الغوانى وأنصاف الحرائر

وقد اشتهرت مونبارناس بأنها مهبط الأدباء والفنانين الناشئين ؛ والواقع أنك حين تتجول فى مقاهى الحى ومطاعمه ترى كثيراً من الفنانين الذين أطلقوا لحاهم والذين تدل عليهم مظاهرهم يؤمون أندية الحى ويتجولون فى دروبه ؛ والمعروف أن رواد مونبارناس هم غالباً من الطبقة المثقفة ، وهى بذلك تمتاز عن مونمارتر التى عرفت بأنها مهبط الطبقات الدنيا أيضاً ؛ وقد أخذت مونبارناس فى العهد الأخير تنافس مونمارتر فى الأخذ بزمام الحياة الليلية ، ونجحت فى ذلك إلى حد ما ؛ بيد أنها ما زالت تضيق بأنديتها القليلة عن أن تضم كثيراً من تلك الجماهير الغفيرة التى تهرع إلى مونمارتر بالليل ، هذا إلى أنها لا تحتوى كثيراً من تلك المنتديات الشعبية التى تغص بها مونمارتر والتى تموج بروادها دائماً

والظاهر أن مونبارناس تقف فى منافستها لمونمارتر عند ناحية خاصة ، فهى بموقعها وشوارعها الشاسعة الفخمة أقدر على اجتذاب الخاصة من مونمارتر ؛ وقد سمعت من بعض البارزيين الخبيرين بشؤون الحياة الاجتماعية أن المستقبل لمونبارناس فى تحول تيار الحياة الليلية إليها ؛ وأن مدى هذا التحول يتوقف على مدى قيام المقاهى والمنتديات الجديدة فى حى مونبارناس

***

هذه صورة موجزة مما استطعنا أن نقف عليه من نواحى الحياة الليلية فى باريس ؛ ولا ريب أن توجد ثمة نواح أخرى يعرفها أولئك الذين أقاموا فى العاصمة الفرنسية أكثر مما أقمنا وعرفوها أكثر مما عرفنا . بيد أنا نعتقد أن ما أتيح لنا أن نشهده من المنتديات والمناظر المختلفة التى وصفناها هو عنوان الحياة الليلية البارزية يعبر عنها تعبيراً حقيقياً ؛ وقد حرصنا على تعرف هذه الحياة ما استطعنا ، ولم نبخل بأنفاق ليال عديدة برمتها فى التجوال والمشاهدة ، ولم نضن بما اقتضاه التجوال من نفقات فاحشة فى غالب الأحيان ؛ ولم نر فى كل ما شهدنا ، فى تلك الأحياء الشهيرة ، وفى تلك المنتديات والمسارح الليلية ذات المظاهر الأنيقة والأنوار الساطعة والبرامج الخلابة ، من المتاع والفتنة ما يتفق مع تلك الدعاية المغرقة التى يبثها فى مصر عن باريس وعن منتدياتها ولياليها أولئك الذين لم يعرفوا غير باريس ، والذين يقدمون الينا عنها فى كتبهم ومقالاتهم أجمل الصور وأروعها

(يتبع) (***)

(١) هذا التقدير قبل نزول الفرنك الأخير

نظرية النبوة عند الفارابى[1]

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

يعتمد كل دين سماوى أولاً وبالذات على الوحى والالهام ، فمنهما صدر ، وبما لهما من إعجاز فاز ، وعلى تعاليمهما تأسست قواعده وأركانه . وما النبي إلا بشر منح القدرة على الاتصال بالله والتعبير عن إرادته ؛ وهذا هو كل ما له من امتياز ، فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، ولا يروى خبرا إلا وهو تنزيل من حكيم حميد ، ولا يقضى بقضاء إلا وهو ينفذ إرادة الله . والاسلام ككل الديانات السامية يستمد قوته من السماء ، فعقائده وقوانينه مأخوذة من الكتاب والسنة اللذين هما وحى مباشر أو غير مباشر : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى » ، فمن ينكر الوحى يرفض الاسلام فى جملته ، أو يهاجمه على الأقل فى أساسه ويهدم دعائمه الأولى والرئيسية . وتلك جريمة شنعاء قل أن يجرؤ عليها أشخاص عاشوا فوق أرض الاسلام وتحت سمائه . وليس شىء ألزم لفيلسوف مسلم من أن يحتفظ فى مذهبه بمكان للنبوة والوحى إذا شاء أن تقبل فلسفته وتقابل بالتسامح من جانب إخوانه المسلمين . وقد كان فلاسفة الاسلام حريصين كل الحرص على أن يوفقوا بين الفلسفة والدين ، بين العقل والنقل ، بين لغة الأرض ولغة السماء ، لهذا لم يفتهم أن يشرحوا لغة السماء ويوضحوا كيفية وصولها إلى سكان العالم الأرضى ويبنوا الدين فى اختصار على أساس عقلى ، فكونوا نظرية النبوة التى هى أهم محاولة قاموا بها للتوفيق بين الفلسفة والدين . والفارابى هو أول من ذهب إلى هذه النظرية وفصل القول فيها بحيث لم يدع فيها زيادة لخلفائه فلاسفة الاسلام الآخرين . وهذه النظرية هى أسمى جزء فى مذهبه الفلسفى ، تقوم على دعائم من علم النفس وما وراء الطبيعة ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بالسياسة والأخلاق ، ذلك لأن الفارابى يفسر النبوة تفسيرا سيكولوجيا نفسيا ، ويعدها وسيلة من وسائل الاتصال بين عالم الأرض وعالم السماء ، ويرى فوق هذا أن النبى لازم لحياة المدينة الفاضلة من الناحية السياسية والأخلاقية ، فمنزلته لا ترجع إلى سموه الشخصى فحسب ، بل لما له من أثر فى الوسط الاجتماعى

قد يكون الفارابى أكثر فلاسفة الاسلام اشتغالاً بالمسائل الاجتماعية ، فهو يتعرض لها فى كثير من مؤلفاته ، ويعنى بها عناية تدل على الرغبة والاهتمام ، وبين رسائله القليلة التى وصلت الينا رسالتان رئيسيتان موقوفتان على السياسة والاجتماع ، وهما : السياسة المدنية ، وآراء أهل المدينة الفاضلة . وله شرح مختصر على نواميس أفلاطون لا يزال مخطوطاً حتى اليوم ومحتفظاً به فى مكتبة ليدن ، وقد رأيناه هذا الصيف فيما رأينا من مخطوطات عربية أخرى بالمكاتب الأوربية ؛ وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة يكفى وحده فى أن نعد الفارابى بين من فكروا تفكيرا منظما فى النظريات السياسية ، وعله أشهر كتبه وألصقها به ؛ وقد عرف المتأخرون له هذه المنزلة ، فلقبوا مؤلفه به وسموه « صاحب المدينة الفاضلة » ، وهذا الكتاب يحاكى جمهورية أفلاطون إلى حد بعيد ، ويحوى كثيراً من الآراء الأفلاطونية . والواقع أن شيخ الأكاديمية انفرد تقريباً ، بين مفكرى الأغريق ، بالتأثير فى دراسة العرب الاجتماعية ، وبرز فى هذا المضمار على أرسطو الذى ساد الفلسفة الاسلامية فى نواحيها الأخرى

فعلى طريقة أفلاطون يرى الفارابى أن المدينة كل مرتبط الأجزاء ومتضامها ؛ هى كالبدن إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . فالألم الذى يحس به أحد أفراد الجمعية لا بد أن يعدوه إلى الآخرين ، والسرور الفردى لا يصح أن يعرف فى جمعية صالحة . فلا يألم شخص وحده ، ولا يُسر وحده ، بل يجب أن تسرى فى الجميع روح واحدة تحس بأحساس مشترك . وإذا كانت أعضاء الجسم ذات وظائف متميزة فواجب أن يكون لكل فرد من أفراد المجتمع عمل خاص ، ولن تتم للجمعية سعادتها إلا إذا قسم العمل بين أفرادها تقسيما متناسباً

(١) ألقى هذا الموضوع مختصراً فى محاضرة من محاضرات الجامعة الأمريكية العامة فى ٣ أبريل سنة ١٩٣٦

مع كفاياتهم ومشوباً بروح التضامن والتعاون(١) ، وبديهي أن الأعمال الاجتماعية متفاوتة بتفاوت غاياتها ؛ وأسماها وأشرفها ما اتصل برئيس الجمعية ومهمته ، لأنه من المدينة كالقلب من الجسم ، فهو مصدر الحياة وأصل التناسق والنظام ؛ وليست وظيفته بسياسية فقط ، بل هي أخلاقية كذلك ؛ فانه مثال يحتذى وسعادة الأفراد تتلخص فى التشبه به(٢)

يبنى الفارابي كل آماله على رئيس المدينة ويعلق عليه كل الأهمية ، كما علق شيخ أثينا أهمية كبيرة على رئيس الجمهورية ، ويشترط فيه شروطاً كثيرة تشبه تمام الشبه الشروط التى قال بها أفلاطون من قبل ، بل هي مأخوذة عنها نصاً . ويعقد لها فى كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) فصلاً مستقلاً عنوانه : « فى خصال رئيس المدينة الفاضلة » ، وفى هذا الفصل يقرر أنه لا بد أن يكون رئيس المدينة سليم البنية قوى الأعضاء تامها ، جيد الفهم والتصور ، قوى الذاكرة ، كبير الفطنة ، سريع البديهة ، حسن العبارة ، محباً للعلم والاستفادة ، متحلياً بالصدق والأمانة ، نصيراً للعدالة ، عظيم الارادة ، ماضى العزيمة ، قانعاً متجنباً للملذات الجسمية (٣) . شرائط صعبة التحقيق ونادرة الوجود مجتمعة فى شخص واحد كما يلاحظ الفارابي نفسه ، ومع هذا لايتردد فى أن يزيدها تعقيداً ؛ فيضيف إليها شرطاً آخر أملاه عليه مذهبه العام واستعداده الصوفى ، أو بعبارة أخرى يضيف إليها الشرط الذى يبعده عن أفلاطون بقدر مايقربه من التعاليم الاسلامية ، وذلك الشرط هو أنه لا بد لرئيس المدينة من أن يسمو إلى درجة العقل الفعال الذى يستمد منه الوحى والالهام ، والعقل الفعال ، كما نعلم ، أحد العقول العشرة المتصرفة فى الكون ، ونقطة الاتصال بين العبد وربه ، ومصدر الشرائع والقوانين الضرورية للحياة الخلقية والاجتماعية(٤) ، وعلنا نلاحظ

(١) الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٥٤ — ٥٥ وانظر أيضاً :
Plston, Réxuplique, 370 a b 373 c.

(٢) الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٥٥ — ٥٦ = تحصيل السعادة ، ١٦ ، ٤٣

(٣) الفارابي ، المدينة الفاضلة ، ٥٩ — ٦٠ = تحصيل السعادة ، ص ٤٤ ، ٤٥ وانظر أيضاً : Platon, Republique, 490 c.

(٤) الفارابي ، المدينة الفاضلة ، ٥٧ — ٥٨

من هذا أن خيال الفارابي — ولو فى هذه النقطة على الأقل — أخصب من خيال أفلاطون . ففى حين أن مؤلف الجمهورية يريد أن يرغم الفيلسوف على النزول من سماء التأملات إلى عالم الشؤون السياسية ، يطلب الفارابي من رئيس مدينته أن يندمج فى العالم الروحى وأن يحيا بروحه أكثر من حياته بجسمه ، ويشترط فيه أن يكون قادراً باستمرار على الاتصال بالعقل الفعال . فالحاكم الفيلسوف الذى قال به أفلاطون يتحول إلى حكيم واصل عند الفارابي . يقول دى بور فى حق : « يُبْرز الفارابي رئيسه فى كل الصفات الانسانية والفلسفية ؛ فهو أفلاطون فى ثوب محمد النبوى(١) » . وواجب على رئيس كهذا قد حظى بالسعادة الحقة ونعم بالاتصال بالكائنات الروحية أن يجتذب مرءوسيه نحوه ، ويقوم على تهذيب أرواحهم أولا وبالذات ، ويصعد بهم إلى مستوى النور والاشراق . فنحن إذن أمام مدينة سكانها قديسون ورئيسها نبى ، وهى مدينة لا وجود لها إلا فى مخيلة الفارابي

بيد أن الفيلسوف العربى يأبى إلا أن يصوّر لنا من هذا الخيال حقيقة ويحملنا على التسليم بامكان المدينة الفاضلة التى ينشدها ، ذلك لأن الاتصال بالعقل الفعال ، وإن يكن نادر الوجود وخاصاً بعظماء الرجال ، ميسور من طريقين : طريق العقل وطريق الخيالة ، أو طريق التأمل وطريق الالهام ؛ فبالنظر والتأمل يستطيع الانسان أن يصعد إلى منزلة العقول العشرة ، وبالدراسة والبحث ترقى نفسه إلى درجة العقل المستفاد حيث تتقبل الأنوار الآلهية(٢) ، وليست النفوس كلها قادرة طبعاً على هذا الاتصال ، وإنما تسمو إليه الأرواح القدسية التى تستطيع أن تخترق حجب الغيب وتدرك عالم النور . يقول الفارابي : « الروح القدسية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق ؛ ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن ؛ وقد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم وما فيه ؛ وتقبل المعلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس »(٣) . فبفضل الدراسات النظرية الطويلة والتأملات العقلية الكثيرة يستطيع الحكيم الاتصال بالعقل الفعال ، وهذا الحكيم الواصل هو الذى يسمح الفارابي بأن يكل إليه مقاليد

(١) I. de Boer, Geschichte der Philosophie im Islam, p. 112.

(٢) الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٤٦ = تعليقات ص ١٤

(٣) الفارابي ، الثمرة المرضية ، ص ٧٥

أمور مدينته ، وبهذا يحل « صاحب المدينة الفاضلة » ، على طريقته طبعاً مشكلة الرئيس السياسي والاجتماعي ، وهو حل صوفي كما ترى ؛ وليس غريباً أن يصدر عن فيلسوف يقول بنظرية السعادة والاتصال . فآراء الفارابي السياسية ، وإن اعتمدت على دعائم أفلاطونية مشوبة بنزعة صوفية واضحة

على أن الاتصال بالعقل الفعال ممكن أيضاً عن طريق الخيالة ، وهذه هي حال الأنبياء ؛ فكل إلهاماتهم وما ينقلون إلينا من وحي منزل أثر من آثار الخيالة ونتيجة من نتائجها ، وإذا ما رجعنا إلى علم النفس عند الفارابي وجدنا أن المخيلة تلعب فيه دوراً هاماً وتنفذ إلى نواحي الظواهر النفسية المختلفة . فهي منبتة الصلة بالميول والعواطف وذات دخل في الأعمال العقلية والحركات الارادية . تمد القوى النزوعية بما يستثيرها ويوجهها نحو غرض ما ؛ وتغذي الرغبة والشوق بما يؤججهما ويدفعهما إلى السير في الطريق حتى النهاية . هذا إلى أنها تحتفظ بالآثار الحسية وصور العالم الخارجي المنقولة إلى الذهن عن طريق الحواس ، وقد لا يقف عملها عند ادخار الصور الذهنية والاحتفاظ بها ، بل تخلق منها قدراً مبتكراً لا تحاكي فيه الأشياء الحسية ، وبهذا يشير الفارابي إلى الخيالة المبدعة (imagination créatrice) التي تنبه إليها علماء النفس المحدثون بجانب الخيالة الحافظة (imagination conservatrice) ، ومن الصور الجديدة التي تخترعها الخيالة تنتج الأحلام والرؤى . ويعنينا هنا قبل كل شيء أن نبين أثر الخيالة في الأحلام وتكوينها . فانا إن فسرنا الأحلام تفسيراً علمياً استطعنا أن نفسر النبوة وآثارها . ذلك لأن الالهامات النبوية إما أن تتم في حال النوم أو في حال اليقظة ؛ وبعبارة أخرى إما أن تبدو على صورة الرؤيا الصادقة أو الوحي . والفرق بين هذين الطريقين نسبي ، والاختلاف بينهما في الرتبة لا في الحقيقة . وما الرؤيا الصادقة إلا شعبة من شعب النبوة تمت إلى الوحي بصلة وتتحد معه في الغاية وإن اختلفت عنه في الوسيلة . فاذا فسرنا أحدهما أمكن تفسير الآخر . وقد عقد الفارابي في كتابه : آراء أهل المدينة الفاضلة فصلين متتاليين « في سبب المنامات « وفي الوحي ورؤية الملك » ؛ وفي هذا ما يبين الصلة بين هذين البحثين[1]

فهو يبدأ أولاً بالأحلام فيوضحها توضيحاً يقرب كثيراً من بعض الآراء العلمية الحديثة ، ويرى أن المخيلة متى تخلصت من أعمال اليقظة تفرغت أثناء النوم لبعض الظواهر النفسية ، فتخلق صورا جديدة أو تجمع صورا ذهنية قديمة على أشكال مختلفة محاكية ومتأثرة في ذلك ببعض الاحساسات والمشاعر الجسمية أو العواطف النفسية والمدركات العقلية ، فهي قوة مخترعة قادرة على الخلق والايجاد والتصوير والتشكيل ، ولها أيضاً قدرة عظيمة على المحاكاة والتقليد ، وفيها استعداد كبير للانفعال والتأثر[1] فأحوال النائم العضوية والنفسية واحساساته ذات أثر واضح في مخيلته ، وبالتالي في تكوين أحلامه ، وما اختلفت الأحلام فيما بينها إلا لاختلاف العوامل المؤثرة فيها ؛ فنحلم بالماء أو السباحة مثلاً في لحظة يكون مزاجنا فيها رطبا ، وكثيرا ما مثلت الأحلام تحقيق رغبة أو الفرار من فكرة بغيضة ؛ فقد يتحرك الانسان أثناء نومه تلبية لنداء عاطفة خاصة ، أو يجاوز مرقده ويضرب شخصاً لا يعرفه أو يجري وراءه[2] ، وعلى الجملة الميول الكامنة والاحساسات السابقة أو المصاحبة لحلم ما ذات دخل عظيم في تكوينه وتشكيله . ولسنا في حاجة لأن نشير إلى أن هذه اللاحظات على بساطتها تشبه التجارب العلمية التي قام بها فرويد وهرفي وموري من علماء النفس المحدثين الذين اشتغلوا بالأحلام وتحليلها . وقد أبان فرويد في جلاء أثر الميول الكامنة في تشكيل الرؤى والأحلام ، وخاصة لدى الكهول والشبان ؛ واستطاع هرفي وموري أن يبرهنا على أن الحلم غالباً ما يكون امتداداً لاحساس سابق أو نتيجة لاحساس مقارن ، فقد يحلم الانسان بحريق في حجرته في الوقت الذي يقع فيه بصيص من الضوء على حدقته أثناء نومه ، أو بأنه يُضرَب على أثر ألم في ظهره . وقد حدث مرة أن رأى شخص أن داره تنهار به في الوقت الذي انكسرت فيه إحدى قوائم سريره . ولقد وصل الأمر بهرفي أن ظن — بناء على ما سبق — أنه يمكن أن يتصرف الانسان في أحلامه ويشكلها كما يشاء ، فمتى ربط صلة بين بعض الاحساسات وذكريات معينة استطاع في نومه استعادة هذه الذكريات باثارة الاحساسات المتصلة بها . وقديماً حاول

(١) الفارابي ؛ آراء أهل المدينة الفاضلة ؛ ص ٤٧ — ٥٣

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٨ — ٤٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٩ — ٥٠

الأغريق أن يحتفظوا بأحلامهم أو يثيروها بواسطة بعض الطقوس الدينية

وإذا كان فى مقدور الخيالة أن تحدث كل هذه الصور فهى تستطيع أن تشكلها بشكل العالم الروحانى ، فيرى النائم السموات ومن فيها ، ويشعر بما فيها من لذة وبهجة (١) . وفوق هذا فقد تصعد المخيلة إلى هذا العالم وتتصل بالعقل الفعال الذى تتقبل منه الأحكام المتعلقة بالأعمال الجزئية والحوادث الفردية ، وبذا يكون التنبؤ ؛ وهذا الاتصال يحدث ليلاً ونهارا ، وبه نفسر النبوة ، فهو مصدر الرؤيا الصادقة والوحى . يقول الفارابى : « إن القوة المتخيلة إذا كانت فى انسان ما قوية كاملة جداً ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لا تستولى عليها استيلاء يستغرقها بأسرها ، ولا يستخدمها للقوة الناطقة ، بل كان فيها مع اشتغالها بهذين فضل كثير تفعل به أيضاً أفعالها التى تخصها ، وكانت حالها عند اشتغالها بهذين فى وقت اليقظة مثل حالها عند تحللها منها فى وقت النوم .... اتصلت بالعقل الفعال وانعكست عليها منه صور فى نهاية الجمال والكمال ، وقال الذى يرى ذلك إن لله عظمة جليلة عجيبة ، ورأى أشياء عجيبة لا يمكن وجود واحد منها فى سائر الموجودات أصلاً ، ولا يمتنع إذا بلغت قوة الانسان المتخيلة نهاية الكمال أن يقبل فى يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة أو محاكياتها من المحسوسات ، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراها ، فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الآلهية . وهذا هو أكمل المراتب التى تنتهى اليها القوة المتخيلة والتى يبلغها الانسان بهذه القوة (٢) فميزة النبى الأولى فى رأى الفارابى أن تكون له خيالة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال أثناء اليقظة وفى حال النوم ، وبهذه الخيالة يصل إلى ما يصل اليه من إدراكات وحقائق تظهر على صورة الوحى أو الرؤيا الصادقة ، وليس الوحى شيئاً آخر سوى فيض من الله عن طريق العقل الفعال ، وهناك أشخاص قويو الخيالة ، ولكنهم دون الأنبياء فلا يتصلون بالعقل الفعال إلا فى حال النوم ، وقد يعز عليهم أن يعربوا عما وقفوا عليه ، أما العامة والدهماء فخيلتهم ضعيفة هزيلة لا تسمو إلى درجة الاتصال هذه لا فى الليل ولا فى النهار . يقول الفارابى : « ودون الأنبياء من يرى بعض الصور الشريفة فى يقظته وبعضها فى نومه ، ومن يتخيل فى نفسه هذه الأشياء كلها ولكن لا يراها ببصره ، ودون هذا من يرى جميع هذه فى نومه فقط ؛ وهؤلاء تكون أقاويلهم التى يعبرون بها أقاويل محاكية ورموزاً وألغازاً وإبدالات وتشبيهات ، ثم يتفاوت هؤلاء تفاوتاً كثيراً (١) » . وهنا يشير الفارابى إلى جماعة الأولياء والواصلين الذين يتفقون مع الأنبياء فى بعض النواحى ويختلفون عنهم فى نواحى أخرى

هذه هى نظرية النبوة التى انتهى إليها الفارابى بعد أبحاثه الاجتماعية والنفسية . فالنبى والحكيم فى رأيه هما الشخصان الصالحان لرياسة المدينة الفاضلة ؛ وكلاهما يحظى فى الواقع بالاتصال بالعقل الفعال الذى هو مصدر الشرائع والقوانين الضرورية لنظام الجمعية ، وكل ما بينهما من فارق أن الأول يحظى بهذا الاتصال عن طريق الخيالة والثانى عن طريق البحث والنظر . وسندع الحكيم وطريق اتصاله جانباً فقد تعرضنا له من قبل على صفحات الرسالة حين تكلمنا عن نظرية السعادة (٢) ، وسنوجه عنايتنا فيما يلى إلى بيان أصول نظرية النبوة وأثرها فيمن جاء بعد الفارابى من فلاسفة ومفكرين

(يتبع) ابراهيم بيومى مدكور

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥١ — ٥٢

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٢

(٢) الرسالة ، العدد ١٥٧ ، ١٦٨ — ١٧١

في الأدب المقارن

أثر الدين في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

للدين في أدب كل أمة أثر عميق متشعب ، بل هو أصل الآداب والفنون والعلوم ، تنشأ كلها في الجماعات البدائية لخدمته ، ويستأثر بالتبحر فيها رجاله ، ثم تذيع عنهم في بقية الشعب وتنفصل تدريجاً عن الدين ، ويستقل كل منها بنفسه ، ويظل للدين مع ذلك أثر فيها قل أو كثر ، يؤثر فيها من جراء تأثيره في المجتمع الذي تستقي منه العلوم والفنون ؛ هكذا كان الدين عند قدماء المصريين واليونان والرومان واليهود وغيرهم من الأمم

ولا يشذ الأدبان العربي والانجليزي عن هذه القاعدة : فقد تأثر كل منهما بالوثنية أولاً ثم بدين سماوي وكتاب منزل ، وشهد نهضة دينية كبرى كان لها أثر عظيم في مجتمعه ، واختلط الدين بالسياسة في كلتا الأمتين وتأثر الأدب بهذا الاختلاط ، وكان من رجال الدين في الأمتين بلغاء ذوو أذواق أدبية أتحفوا أدب اللغة بآثار جليلة في الحض على الفضيلة والكمال الروحي ، وكان من أدباء كلتا الأمتين متشيعون للطوائف الدينية دافعوا عنها في نظمهم ونثرهم

شهد الأدب العربي أعظم النهضات الدينية طرا بظهور الاسلام ، الذي غير وجه المجتمع العربي وأغنى الأدب بخير ما فيه من الخطب الدينية والسياسية ، وإن يكن الأدب الانجليزي لم يشهد نشأة النصرانية فلم تفته نهضة دينية عظيمة الشأن هي الاصلاح الديني الذي شمل أوربا في عهد الاحياء وامتد في انجلترا إلى القرن السابع عشر ، وانتهى بانتصار طائفة المطهرين ، وأنجب هذا العهد رهطاً من الكتاب والشعراء البرزين أمثال ملتون وبنيان ودَن وهريك وهربرت وكراشو ، الذين خلفوا أحسن ما في اللغة من أشعار الورع والطهر والسمو الروحي

وحَبَتْ تلك النهضة الدينية الأدب العربي بكتاب سماوي لن يزال مثلاً أعلى في البلاغة ومعيناً لا ينضب للبلغاء ، ومنذ ترجم الانجيل إلى الانجليزية ترجمة بليغة ، كان له فضل عظيم على اللغة وعلى أدبها ، فقد أقام قواعدها ووضح أساليبها ، ولم يزل مثلاً رائعاً للسلاسة والامتاع

واختلط الدين بالسياسة في الدولة العربية ، وكان محور التقائهما مشكلة الخلاف التي اصطرعت حولها الأحزاب وقامت باسمها الدولات ، وامتزج الدين بالسياسة في انجلترا عهداً ، وكان مدار امتزاجهما سلطة الملك وحقوق الشعب ، فالملكية تدعي الحق الالآهي والسلطان المطلق في شؤون الدين والدنيا ، والشعب يريد الحرية في كلا الأمرين ويحد سلطة الملك في الناحيتين ، وتأثر الأدبان بهذا التداخل بين الدين والسياسة

ويدين الأدب الانجليزي للديانة بثلاث أياد : الأولى وضع من أوضاع الأدب هو الرواية التمثيلية ، التي نشأت في العصور الوسطى في الكنيسة حيث كان يمثل عذاب المسيح وآلام الشهداء وخبائث إبليس ، وتمثل الفضائل والرذائل شخوصاً متحاورة ، فمن هذا البدء الساذج نمت الرواية التمثيلية التي ازدهرت في عهد شكسبير ، والتفتت إلى دراسة الانسان والمجتمع ، واليد الثانية أثر أدبي خطير من نفائس الأدب الانجليزي ، هو ملحمة ملتون الفردوس المفقود ، التي أوحى إليه بها الروح الديني الذي ساد عصره ، والعراك الديني الذي خاض غماره ، واستمداد مشاهدها ومعالمها من الانجيل الذي كان له في عهده أسمى مكانة ، وأخيراً للكنيسة فضل على الأدب الانجليزي إذ كان من رجالها من ساعدهم الفراغ الذي ينعمون به على الانصراف إلى الأدب ، بل كان منهم من ألحقوا بالكنيسة عمداً ليحظوا بذلك الفراغ وذلك الانصراف ، ومن مشهوريهم سويفت ودَن وكنجزلي

وليس في الأدب العربي ما يقابل هذه الأيادي التي أسدتها الديانة والكنيسة إلى الأدب الانجليزي : فقد أكبر المسلمون شخص نبيهم عن كل تمثيل وتشخيص ، وانتهت حياته بالظفر الأكبر لا بمأساة كمأساة المسيح ، وإن يكن في تاريخ الاسلام ما يشابه تلك المأساة فهو مصارع أبناء الامام عليّ التي خلدتها الأشعار الباكية ؛ وإذا كانت رسالة الغفران تشابه الفردوس

المفقود فى امتداد مشاهدها فى العالم الآخر فهى تخالفها فى كل شىء آخر لاختلاف المؤلِّفَيْن ؛ ثم إنه لم تكن فى الاســلام هيئة دينية رسمية تكاد تقصر على أبناء العليــــة ومن يلوذ بهم كالكنيسة الانجليزية

وفى الأدبين العربى والانجليزى آثار طريفة للنزعة الصوفية ، التى هى من أسمى مظاهر الروح الدينى ، وإن خرجت عن مألوف المتدينين فى أشياء ، وأنكر منها رجال الدين أحياناً أموراً ، واتخذت لها رموزها وطرقها الخاصة التى تستغلق على غير أربابها ، وأظهرُ أصحاب هذه الطريقة الرمزية فى الأدب الانجليزى بليك ، وأجزلهم فى العربية شعراً وأسيرهم ذكراً ابن الفارض

وجاءت النهضة العلمية والفلسفية بعد النهضة الدينية فى كلتا الأمتين ، تمثَّلَ ذلك عند العرب فى ذيوع الفلسفة اليونانية ، وعند الانجليز فى ارتقاء العلوم المادية كعلوم الحياة وطبقات الأرض والكيمياء والطب ، وتطبيق نظرية النشوء والارتقاء عليها وعلى العلوم الاجتماعيــة ، فقام الصدام بين الدين والعلم والفلسفة ، وانعكس ظله فى الأدب ، وأوضح مثال للشك العلمى فى العربية شعر المعرى ، وفى الانجليزية شعر تنيسون وهاردى

كان انتصار المطهرين الذين وضعوا أساس حرية الشعب الدينية والسياسية أوج احتفال الانجليز بالمسائل الدينيــة وظهور آثارها فى أدبهم ، وبعدها هبط إلى المحل الثانى من تفكيرهم ، ولم تقم له إلا حركات قليلة الشأن فى القرن الماضى ، إذ كان يحاول كل من فريق البروتستانت والكاثوليك جمع الأنصار حوله ، وظهر فى ذلك المعترك من الأدباء المتحمسين للدين جملة ، أشهرهم نيومان ثم تشسترتون المتوفى حديثاً ، وكانت آراء داروين فى منتصف القرن الماضى ضربة شديدة وُجهت إلى روايات الانجيل فى شأن الخلق ، فانصرف جمهور الناس نهائياً عن التحمس للدين ورجاله ، وهكذا بَعُدَ الأدب الانجليزى عن الدين وتأثيره فى العصور الحديثة بعداً كبيراً

أما تأثر الأدب العربى بالاســلام فكان أشمل وأبعد مدى وأطول أمداً من تأثر الأدب الانجليزى بالمسيحية لأسباب عديدة : أولا إن الاسلام نشأ بين أظهر العرب فشهدوا مبعثه وجهاده وظفره على الوثنية ؛ وثانياً أنه كان أساس دولتهم وقطب سياستهم الداخلية ؛ وثالثاً أنه ظل دائماً مجاهداً أعداءه مغيراً تارة ومدافعاً أخرى ، فكان قطب السياسة الخارجية أيضاً فى أحوال كثيرة ؛ ورابعا أنه كان بعد انتشاره محور العلوم والآداب وكان القرآن أساس الثقافة التى يؤخذ بها الناشئون ؛ وخامسا أنه سوَّى بين الداخلين فيه فقام منهم مقام الوطنية فى الأمم الأخرى ؛ وأخيرا أنه بأحكامه يشمل أمور الدنيا شموله شؤون الآخرة ، ويحيط بقواعد المجتمع الذى هو مبعث الأدب ، فلا غرو إن تأثر الأدب العربى فى كل عصوره بالدين روحا ومظهراً وغرضاً وأسلوباً

فظهور الاسلام بين العرب ترك أثره فى شعر الشعراء ، بين مهاجم له ومدافع عنه ومادح للرسول (ص) ، وظلت مدحة الرسول فى كل العصور غرضا من أغراض الشعر ؛ وجهادُ الاســلام أعداءه فاتحا أو منافحا مدى القرون الطويلة ، تجلى أثره فى خطب الخلفاء والقواد وأشعار المادحين للأمراء المنتصرين على الروم أو الوثنيين أو الأسبان أو الصليبيين ، لا سيما وقد كان ذلك دائما مصطبغا بصبغة القومية ، فقد كان الاسلام يجمع شعوبه فى عصبة أمم واحدة ذات شعور مشترك وأعداء مشتركين ، ومن أشهر آثار ذلك كله فى الأدب بائية أبى تمام فى فتح عمورية ، ومدائح المتنبى لسيف الدولة ، وقصائد الأبيوردى ، والبهاء زهير ، وابن مطروح فى الحروب الصليبية ، ومدائحهم للأيوبيين ، ومراثى الأندلس وصقلية ، كل هاتيك يخفق فيها الروح الدينى ، ممتزجا بالوطنية والسياسة وتمجيد الدولة القائمة

وفى داخل الدولة كان الدين — متمثلا فى مسألة الخلافة — محور السياسة ومصطرع الفرق ومشتجر الآراء ولثام المطامع ولواء الثورات وشغل الشعوب ، فلم يكن هناك صراع بين ملكية مستبدة وشعب متشبث بحرياته ، ولم يكن هناك محافظون وأحرار ، ولا اشتراكيون ورأسماليون ، ولكن كان هناك خوارج غلاة فى الدين يحبذون الشورى ويقرون الخلافة فى الأصلح لها ، وأمويون وعباسيون وعلويون ، كل منهم يدعى الامامة ، ومرجئة ومعتزلة يحظون حينا بتقريب البلاط ، ويستهدفون حينا لمقته ، وعامة الشعب فى أغلب العصور مع شيعة علىّ لمكانة سلفهم العظيم من النبى وقَدَمِهِ فى الاسلام ، ولما حاق بالغطاريف من ذريته من تنكيل جَمَعَ بينهم وبين الشعب المقهور بعطف متبادل

ومرآة كل ذلك جلية فى أشعار أقطاب الخوارج ، ومتشيعى

الشعراء من عهد الكميت و كثير والفرزدق ، الى زمن ابن الرومى الى عصر عمارة اليمنى الذى رثى دولة الفاطميين رثاء موجعاً ، وفى أشعار طالبى الدنيا الناصرين للدولة القائمة المؤيدين لدعواها ، كمروان بن أبى حفصة ، وفى نثر زعماء المذاهب ونظمهم فى بيان آرائهم والنضح عن مبادئهم ، كخطاب واصل بن عطاء وشعر صاحب المرجئة الذى يقول منه :

نرجى الأمور إذا كانت مشابهة ولا نحاور فيمن جار أو عندا
ولا نرى أن ذنبا بالغ أحدا
ما الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا

وشمول روح الدين أو مظهره لكل مرافق المجتمع وقواعده الدولة على هذا النحو ترك أثره فى الأدب عامة : إذ صبغ أكثره بصبغة الجد والرزانة والقصد فى القول واجتناب الايغال فى الخيال ، والولع بالحكم والعبر والأمثال ، ورغب الأدباء فى الأخبار الصادقة عن السلف من جاهليين واسلاميين ، وزهدهم فى الأساطير ومختلق الأحاديث ، والى رهبة الدين الذى كان عماد الدنيا والآخرة ترجع أشعار الزهد والوعظ التى يحفل بها الأدب كأشعار أبى العتاهية وابن عبد القدوس ، وإلى جلالته وجلالة الانتماء اليه ترجع مسحة التسامى والعفة التى تزين على شعر الشريف الرضى

كان الدين دائما منبث الروح ، وإلا فتجسم المظهر فى شؤون الحياتين ، وإن صدمته الأهواء السياسية كثيرا ، وغلبته الأهواء الفردية ، وتغافل عنه حماته فلم ينشطوا للذود عن حرماته إلا أن يكون فى ذاك قضاء لمآربهم أو شفاء لسخائمهم ، حتى كان من المتناقضات حقاً أن الأدب العربى الذى ازدهر فى ظل دول إسلامية حوى من جرىء القول ما لم يحو غيره

وخلاصة القول أن كلا الأدبين العربى والانجليزى تأثر بدين قومه تأثرا بينا ، ولكن بينما كان تأثر الأخير بالمسيحية مقصوراً على عهود بذاتها وأمور بعينها ، ثم ركد أمر الدين ، وأحس الأدب أنه قد استفاد منه كل ما يمكنه أن يستفيد ، فانصرف عنه ، ظل للدين فى الأدب العربى دائما مكانة عالية وأثر بعيد ، وسيظل له مثل هذه المكانة ومثل هذا الأثر ، فى كل أدب يدين مجتمعه بالاسلام وينطق بالضاد .

فخرى أبو السعود

بين شوقى وابن زيدون*

بقلم الدكتور زكى مبارك

— ١ —

عرفنا ابن زيدون العاشق الذى يحسن التحدث عن مآسى القلوب ، ويكاد يعرف أسرار النفوس ، فماذا نقول عن شوقى ؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر فى فصول هذا الكتاب ، ونخشى أن يتحيف حقوق مَن عرضنا لهم من الشعراء ، ولكن كيف نستكثر القول فى شوقى ، وقد بذ ابن زيدون ؟ إن نونية شوقى أعجوبة من الأعاجيب ، وقد أرسلها من الأندلس فى أعقاب الحرب العالية فضج لها شعراء مصر ، وأجابه اسماعيل صبرى ، وحافظ ابراهيم ، وعبد الحليم المصرى ؛ ولكنهم عجزوا جميعاً عن الجرى فى ميدانه ، ولم يؤثر لهم فى معارضته شىء ذو بال بالقياس إلى نونية أمير الشعراء

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان ، وكانت الأبيات السبعة التى تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يعبها ما وشيت به من الزخرف ، ولكن أين هى من بداية شوقى حين خاطب الطائر الحزين فى وادى الطلح بضاحية اشبيلية ؟ لقد تمثل الطائر شبيها به فى لوعته وجواه فاندفع يقول :

يا نائح الطَّلحِ أشباهٌ عوادينا نشجى لواديكَ أم نأسى لوادينا
ماذا تَقُصُّ علينا غيرَ أنَّ يداً قصت جناحك جالت فى حواشينا
رَمى بنا البينُ أيكا غير سامِرنا أخا الغَريب وظِلاً غيرَ نادينا
كلٌ رَمَتهُ النَّوى ، ريشَ الفِراقُ لنا
سَهْما ، وسُلَّ عليكَ البَينُ سكِّينا
إذا دعا الشوقُ لم نبرح بمُنصدعٍ من الجناحين عَيٍّ لا يُلبِّينا
فان يكُ الجنسُ يا ابن الطلح فرَّقنا إن المصائب يجمعن المُصابينا
لم تألُ ماءكَ تحناناً ولا ظَمأ ولا ادِّكاراً ولا شجواً أفانينا

* فصل من كتاب الموازنة بين الشعراء ، وستصدره مطبعة مصطفى الحلبى فى أوائل الشهر المقبل ، وهذا الفصل نموذج للفصول التى أضيفت إلى الطبعة الجديدة

تجُرُّ من فَنَنٍ ذيلاً إلى فَنَنٍ — وتسحب الذيلَ ترتادُ المؤاسينا
أُساةُ جسمك شتى حين تطلبهم — فمن لروحك بالنُّطس المُداوينا

والشاعر فى هذه الأبيات حيران ، يحمل الطائر فى حالين : حال المغترب ، وحال المقيم ، فما تدرى أيبكى من الغربة أم ينوح من فقد الأليف ؛ ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بالغ غاية الرفق حين قال :

تجُرُّ من فَنَنٍ ذَيلاً إلى فَنَنٍ — وتسحبُ الذيلَ ترتاد المؤاسينا

وهى حال نشهدها فى الطائر المحزون ، فقد نرى الطائر يتنقل على غير هُدىً من أيكٍ إلى أيكٍ ، فنعرف أنه يبحث عمن يواسيه ، ولكن أين من يواسى الطائر الحزين ؟ إن شوقى نفسه أخطأ حين قال :

أُساةُ جسمك شتى حين تطلبهم — فمن لروحك بالنُّطس المُداوينا

فان الطائر لا يجد من يأسو جسمه ، وإنما يجد من يذبحه ويشويه ، والناس ألأم من أن يَطِبُّوا لطائر جريح !

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان إلى معاتبة حبيبته ، فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء ، أما شوقى فقد انتقل من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر ، فقال :

واهاً لنا نازحىْ أيكٍ بأندلسٍ — وإن حللنا رَفيفاً من رَوابينا
رسمٌ وقفنا على رسمِ الوفاءِ له — نجيش بالدمع والإجلالُ يثنينا
لفتيةٍ لاتنالُ الأرضُ أدمعهم — ولا مفارقهُم إلاَّ مصلّينا
لو لم يسودُوا بدينٍ فيه منبهةٌ — للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرمٍ إلا إلى حرمٍ — كالخمر من بابل سارت لدارينا
لما نبا الخُلْدُ نابت عنه نُسخته — تماثُلَ الوردِ خيريّاً ونسرينا
نسقى ثراهمْ ثناءً ، كلما نُثرت — دموعُنا نُظمتْ منها مراثينا
كادت عيونُ قوافينا تحرِّكهُ — وكدنَ يوقظن فى الترب السلاطينا

وللقارىء أن يتأمل الحسن فى هذه الأبيات ، فالشاعر يغلبه الدمع ، وهو يتذكر ملوك الأندلس ، ولكن الاجلال يثنيه عن البكاء ، لأنه فى ديار قوم لم تنل الأرض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود ، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله ، وذلك من أبعد الغايات فى الثناء

ويأبى شوقى إلا أن يحرص على المعانى الشعرية ، فهو فى الأندلس لا يسرى من حرم إلا إلى حرم ، ولكن كيف ؟ كالخمر سارت من بابل إلى دارين ! وقدسية الخمر لا تجوز فى غير مذاهب الشعراء

ثم قال فى الحنين إلى وطن النيل :

لكن مصر وإن أغضت على مقةٍ — عينٌ من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفَّت تمائمنا — وحول حافاتها قامت رواقينا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال :

أحبُّ بلاد الله ما بين منْعِجٍ — إلى وسلمى لو يصوبُ سحابها
بلادٌ بها نِيطتْ علىَّ تمائمى — وأول أرض مسَّ جِسمى ترابُها

والبِكْرُ هو قول شوقى :

ملاعبٌ مَرِحتْ فيها مآربُنا — وأربُعٌ أنِسَتْ فيها أمانينا

وإنما كان هذا معنى بكراً لما فيه من طرافة الخيال ، أرأيتم كيف تمرح المآرب ، وكيف تأنس الأمانى ؟

لقد رأيت شوقى أول ما رأيته سنة ١٩٢١ ، وكان دعانى للغداء عنده بالمطرية مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشى ، وسعيد عبده ، وأحمد علام ، فعجبت يومئذ لذلك المبسم الساحر وسألت نفسى : كيف كان ذلك الملاك فى صباه ؟

إن حنين شوقى إلى مصر حنينٌ عميق ، وإنما كان كذلك لأن الشاعر شهد فى مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأقلون ؛ ودنيا شوقى لم تكن مثل دنيا الناس فى هذا الزمان ، كانت الدنيا فى شباب شوقى تفيض بالبشر والابتسام ، وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مُضمَّخة بالسِّحر والفتون ، وكان للجمال قُدْسيَّة ، وكان للصِّبا سلطان ، وكانت خطوب الزمن لا تهدُّ النفوس كما تفعل فى هذه الأيام

ومن البكر أيضاً قول شوقى :

بنَّا فلم نخلُ من رَوحٍ يُراوحنا — من برِّ مصرَ وريحان يُغادينا
كأُمِّ موسى على اسمِ الله تكفلنا — وباسمه ذهبت فى اليمِّ تُلقينا

يريد أن يقول إن مصر لم تُلقه فى يمِّ النفى إلا خوفاً عليه من كيد فرعون ، فرعون القرن العشرين المستر جون بول !

— ٣ —

تذكرون قول ابن زيدون :

ياسارىَ البرقِ غادِ القصرَ فاسق به — من كان يصرفَ الهوى والودَّ يسقينا

واسألْ هُنالك هل عنى تذكُّرنا
إلفاً تذكره أمسى يُعنّينا

وهذا شعر جميل ، ولكن انظر كيف عارضه شوق فقال :

ياساري البرقِ يرمي عن جوانحنا   بعد الهدوءِ ويهمي عن مآقينا
لما ترقرقَ في دمعِ السماءِ دماً   هاجَ البكا فخضبنا الأرضَ باكينا
الليلُ يشهدُ لم نهتك دياجيَه   على نيامٍ ولم نهتف بسالينا
والنجمُ لم يرنا إلا على قدمٍ   قيامَ ليلِ الهوى للعهدِ راعينا
كزفرةٍ في سماءِ الليلِ حائرةٍ   مما نرددُ فيه حينَ يضوينا
باللهِ إن جُبتَ ظلماءَ العبابِ على   نجائبِ النورِ محدواً (بجريّنا)
ترُدُّ عنكَ يداهُ كلَّ عاديةٍ   إنساً يعِثنَ فساداً أو شياطينا
حتى حوتكَ سماءُ النيل عاليةً   على الغيوثِ وإن كانت ميامينا
وأحرزتكَ شفوفُ اللازَوردِ على   وشيِ الزبرجدِ من أفوافِ وادينا
وحازكَ الريفُ أرجاءً مؤرَّجة   ربت خمائلَ واهتزت بساتينا
فقفْ إلى النيل واهتفْ في خمائله   وانزل كما نزلَ الطلُّ الرياحينا
وآسِ ما باتَ يذوي من منازلنا   بالحادثاتِ ويضوى من مغانينا

انظروا . ابن زيدون يسأل البرق أن يسقى القصر ، وشوق يسأل البرق أن يأسو المنازل الذاوية ، والمغاني الضاوية ، والمعنيان مقتربان ، ولكن شوق أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق ، وانحداره من أرض إلى أرض ، وأعطى صوراً من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوقُ إلا شاعراً ودَّع دنياه حين ودَّع النيل

وقال ابن زيدون :

ويا نسيمَ الصبا بلّغ تحيتنا   من لو على البعد حيًّا كان يحيينا

عارضه شوق فقال :

ويا معطَّرة الوادي سَرت سحراً   فطاب كلُّ طروحٍ من مرامينا
ذكيَّةَ الذيلِ لو خِلنا غلالتها   قميصَ يوسفَ لم نُحسب مُغالينا
جَشِمتِ شوكَ السرى حتى أتيت لنا   بالوردِ كُتْباً وبالريّا عناوينا
فلوْ جزيْناكِ بالأرواحِ غاليةً   عنْ طيبِ مسراكِ لم تنهضْ جوازينا
هل من ذيولكِ مِسكيٌّ نحمّلُه   غرائبَ الشوقِ وشياً من أمالينا
إلى الذين وجدْنا وُدَّ غيرهمو   دُنيا وودُّهمُ الصافي هو الدِّينا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال : « يانسيمَ الصبا » ، وهو تعبير ورد في مئات القصائد ، أما شوق فراح يفتنُّ افتناناً يدل على قوة الشاعرية ، وبراعة الخيال ، فوصف النسمة بأنها معطرة الوادي ، وأنها سارت في السحَر فطاب بمسراها كلُّ مرمًى سحيق ، وأنها ذكيَّةُ الذيل كأنها قميص يوسف ، وأنها جشِمت شوك السرى حتى أتت بالوَرْد مجسماً في رسائل ، وأتت بالريّا مُمثَّلةً في عناوين ، وشكر لها النُّعمى فقال :

فلوْ جزيْناكِ بالأرواحِ غاليةً   عنْ طيبِ مسراكِ لم تنهض جوازينا

وابن زيدون يقول : « بلّغْ تحيَّتنا » وهي عبارة جافية ، لأنها وردت في صورة الأمر ، أما شوق فيترفق ، ويقول :

هلْ من ذُيولكِ مِسكيٌّ نُحمِّلُهُ   غرائبَ الشوقِ وشياً منْ أمالينا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحية ، وشوق يجعل كل هوى غير هوى أحبابه بعصر صورة من الدنيا ، أما هوى أحبابه الذين يتشوق إليهم فهو في صفاء الدين

ولا ننكر أن بعض أخيلة شوق مقتبس من ابن زيدون ، فقول شوق :

يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا   بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا

اختُلس برفق وحذق من قول ابن زيدون :

بنتم وبنَّا فما ابتلَّت جوانحُنا   شوقاً إليكم ولا جفَّت مآقينا

والمعنى الذي عرضه ابن زيدون في ثلاثة أبيات بسطه شوق في ثمانية عشر بيتاً ، وإنما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون ، فكان لا بدَّ له من توشيةٍ بارعة تُضفي على النظرة الفطرية في أبيات ابن زيدون ، ولابن زيدون فضل السبق ، ولشوق فضل البراعة في تلوين الصور الشعرية ، وهو فضل ليس بالقليل

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأنس فقال :

حالت لفقدكمو أيامُنا فغدت   سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانبُ العيش طلقٌ من تألُّفنا   ومربع اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا فنونَ الوصل دانية   قطوفُه فجنينا منه ما شينا
ليُسقَ عهدُكمُ عهدُ السرور فما   كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

وهذا شعرٌ صافي الديباجة ، رائع المعاني ، ولكن انظروا

كيف عارضه شوقى لجمع بين الأسى والفخر حين قال :

سَقياً لِعَهدٍ كأكنافِ الرُّبا رَفَةً (1)   أنَّى ذَهبْنا وأعْطافُ الصِّبا لينا
إذِ الزَّمانُ بنا غَيْناءُ زاهيةٌ   تَرِفُ أوْقاتُنا فيها رَياحينا
الوصلُ صافيةٌ والعيشُ ناغيةٌ   والسعدُ حاشيةٌ والدهر ماشينا
والشمسُ تختالُ فى العِقْيانِ تحسَبُها   بَلْقيسَ تَرْفُلُ فى وشْىِ اليمانينا
والنيلُ يُقبلُ كالدنيا إذا احتفلت   لو كان فيها وفاءٌ للمُصافينا
والسعد لو دام والدنيا لو اطردت   والسيل لو عفَّ والمقدار لو دِينا
ألقى على الأرضِ حتى ردَّها ذهباً   ماءً لَمسنا به الاكسيرَ أو طينا
أعْداهُ من يُمنِهِ (التابُوتُ) وارْتسمتْ   علَى جَوانبِهِ الأنوارُ مِنْ سينا
لهُ مبالغُ ما فى الُخلقِ من كرم   عهدُ الكرام وميثاق الوفيِّنا
لم يجرِ للدهرِ إعذارٌ ولا عُرُسٌ   إلاَّ بأيامنا أوْ فى ليالينا (2)
ولا حوى السعدُ أطغى فى أعنته   منَّا جياداً ولا أرخى ميادينا
نحنُ اليواقيتُ خاضَ النارَ جَوْهَرُنا   ولَم يَهُنْ بيدِ التشتيت غالينا
ولا يَحولُ لنا صبغ ولا خلق   إذا تلوَّن كالحِرْباءِ شانينا

والقارئ حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدرى أيهما أجود ، لأن ابن زيدون على قصر نفسه فى هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة حين قال :

وإذا هصرنا فنون الأنس دانية   قطوفه فجنينا منه ما شينا

وبلغ غاية الدقة حين قال :

إذ جانب العيش طلق من تألفنا   ومورد اللهو صاف من تصافينا

والدقة فى هذا البيت تؤخذ من صدق التعليل ، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا بفضل التألف ، تآلف القلبين ، واللهو لم يصف مورده إلا بفضل التصافى ، تصافى الحبيبين ، والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء ، وإنما تصفو حين تصفو النفوس ، وتقسو حين تقسو القلوب ، فالزهر الذى يبسم لك لا يبسم لك وحدك ، وانما تراه يخصك بالرفق لأن الدنيا صفت لك ، وقد يراه غيرك فى ابتسامه صورة من صور العبوس ، والنهر الذى تنظر اليه فى الليالى المقمرة فتراه عاشقاً يغازل القمر ويناغى دعابته فى حنان ، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك إلا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلب مرح وحس طروب ، وهو نفسه قد يبدو للمحزون صورة من صور الاكتئاب

ويروقنا قول شوق :

سقياً لعهد كأكناف الرُّبا رفة   أنَّى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذ الزمان بنا غيناءُ زاهيةٌ   تَرِفُ أوْقاتُنا فيها رياحينا
الوصلُ صافيةٌ ، والعيش ناغيةٌ   والسعد حاشيةٌ ، والدهر ماشينا
والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت   لو كان فيها وفاءٌ للمصافينا

يروقنا هذا الشعر ، لأن الشاعر جعل عهده فى نضرة الزهر الذى يتفتح فى أكناف الربوات ، ولأنه رأى اللين فى أيام الأنس شبيهاً باللين فى أعطاف الصبا ، وأعطاف الصبا جوهر نبيل لا يعرف طيب لينها إلا شاعر أمكنته من أعطاف الصبا سَوْرَةُ الصبوات ، ويروقنا أيضاً لطرافة هذا الخيال :

« ترف أوقاتنا فيها رياحينا »

ورفيف الأوقات معنًى يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن فى أرْجوحة اللهو الجموح

ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى اقبال النيل كالدنيا حين تحتفل ، وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل ، ثم تأملوا روعة هذا الاستدراك :

« لو كان فيها وفاء للمصافينا »

ولكن هذه الطرافة فى أخيلة شوقى لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كل شىء حين قال :

يا روضة طالما أجنت لواحظنا   وردا جلاه الصبا غضاً ونسرينا
ويا حياة تملينــا بزهرتها   منًى ضروباً ولذاتٍ أفانينا
ويا نعيما خطرنا من نضارته   فى وشى نعمى سحبنا ذيله حينا

إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون ؟ أترون العذوبة فى الهتاف بالروضة التى « طالما أجنت لواحظنا وردا جلاه الصبا » ، تأملوا عبارة « أجنت لواحظنا » ، وانظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق ، والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة ، وإنما تهجم الروضة عليه فتعلمه كيف يهصر الأفنان ، وكيف يجنى القطوف ، وعبارة

(1) الرفة : النضرة : (2) الاعذار : طعام يتخذ لأيام السرور

من الأدب التحليلي

صـــــورة ...!

[مهداة إلى أخي الأستاذ أنور العطار]

للأستاذ علي الطنطاوي

... كان معروفاً بالشذوذ والخروج عن المألوف، لا يبالي إذا اتجه له الرأي ما يقول فيه الناس، ولا يحفل إذا أزمع الأمر نَهْيَ ناهٍ ولا نصيحة ناصح، وكان يعرف ذلك من نفسه ولا يغضبه أن يوصف به، بل كثيراً ما سمعناه يتحدث به ويطيل الحديث، يجد في كشف دخيلته للناس لذة وارتياحاً، كأنما هو يلقي عن عاتقه حملاً ثقيلاً ...

يجمع في نفسه المتناقضات: فبينا هو منغمس في لج الحياة المضطربة المائجة يفزع من الوحدة، ويكره الهدوء، ويركب متن المغامرات في الأدب وفي السياسة، يخطب في المجامع، ويناقش في الصحف، وبينا هو مطمئن إلى هذه الحياة، مقبل عليها، إذا به قد استولت على نفسه «فكرة صوفية ...»، فغمرت الكآبة روحه، وفاض اليأس على قلبه، وأحس الحاجة إلى الفرار من الناس، والرغبة في العزلة المنقطعة، وأصبح يكره أن يرى أمس أصحابه به، وأدناهم إلى قلبه، ويحب الحياة الساكنة الهادئة، ويجد الأنس في حديث قلبه ومناجاة ربه ...

وهو أسرع الناس إلى المزاح والفكاهة، وأضيقهم بمجالس الجد، وأبعدهم عن تكلف الوقار، واتباع (الرسميات)، فلا يكون في مجلس إلا حركه بحديثه وإشاراته ونكاته، وأفاض عليه روح المرح، والود الخالص، ولكن موجة من الحزن المفاجئ، قد تطغى على قلبه في أشد الساعات سروراً، وأكثر المجالس طرباً فاذا هو حزين كئيب. قد ضاق بالناس وتبرم بمزاحهم وهزلهم، وغدا راغباً في الجد محباً للوقار، متلبساً بالصرامة والحزم، منصرفاً عما كان فيه منذ لحظة واحدة، لا يعرف الناس ولا يعرف هو، ماذا أصابه، فنقله من حال إلى حال

تغلب عليه العاطفة حيناً فيمسي أرق الناس شعوراً، وأرهفهم حساً؛ يرى المشهد الجميل من مشاهد الكون، أو يسمع النغمة العذبة الشجية، أو يقرأ البيت الغزلي الرقيق، أو القصة العاطفية المحزنة، فتوقظ في نفسه عالماً من الذكريات، فيخفق لها قلبه، ويهفو لها فؤاده، ويحس بها تلذعه لذعاً، وتفيض على نفسه شعوراً طاغياً، بحب مُبهم غامض. لا يجد طريقاً ينبعث منه، فيزلزل كيانه زلزلة، كما يزلزل البركان الأرض، إن لم يجد فوهة يندفع منها ... ويدعه شخصاً متهافتاً، لا يقوم إلا على أعواد من العواطف الرقيقة المتداعية ... ويسيطر عليه العقل أحياناً فيحتقر العاطفة، ويدعو إلى أدب قوي نافذ، ويسخر من الحب ويهزأ بالعاشقين، ويزدري هذه القصص وهذه الأشعار التي كان يرقص لها قلبه وتفيض لها مدامعه ...

ويقبل على العمل بهمة عجيبة ورغبة قوية، فيطالع ويكتب، ويعمل كآلة دائبة الحركة، لا يأخذه ضعف ولا خور، ثم يشعر فجأة بكراهية العمل والنفور من المطالعة الجدية والعزوف عن الكتابة والتأليف ويستولي عليه كسل عقلي عجيب، لا يطيق معه عملاً من الأعمال ...

***

عرفته في دمشق، وقد كان يعمل في مدرسة ابتدائية، نزلوا به اليها، فلا يكلفه العمل فيها جهداً ولا مشقة، ولا يشغل من تفكيره شيئاً، فكان يستمتع بوقته ونفسه كما يشاء، ويشتغل بالأدب للذة والمتعة الفنية. فيقرأ ما طابت له القراءة، ويكتب ما رغب في الكتابة، ويؤلف ما مال إلى التأليف ...

«جلاه الصبا» ما رأيكم فيما تحويه من سحر أخاذ؟ ثم ما هذا التعبير الطريف:

«مني ضروبا ولذات أفانينا»

أتعرفون كيف يكون للمنى ألوانٌ وللذاتِ أفانينُ؟ إن هذا خيال شاعر غرق مرة في كوثر الوصال

وانظروا هذا البيت:

ويا نعيما خطرْنا من نضارته في وشي نعمى سحبنا ذيله حينا

أتحسون قوة هذا المعنى؟ ألا يُريكم الخيال صورة فتىً منعم يسحب ذيل النعيم؟ إن ابن زيدون في هذه الأبيات أقوى من شوق في التحسر على ما ضاع من دنيا الهوى المفقود

(البقية في العدد القادم) زكي مبارك

فكره هذه الحياة وهوى الحياة العقلية المنظمة التى تضطره الى نوع من الدرس بعينه ، وتجبره على نوع من الكتابة بذاتها — وكان يعيش فى أسرة رفرف عليها الحبّ ، وسادها الاخلاص وأسبغ عليها ثوب السعادة ، بين إخوة له ما رأى الراؤون مثلهم فى ذكائهم واستقامتهم وطاعتهم إياه ، وحبّهم له ، وحرصهم على رضاه ، وصحابة له ما فيهم إلا أريب طيب النفس ، صادق الودّ صافى السريرة حسن السيرة ، وكان له فى بلده منزلة يحسده عليها من هو أكبر منه سناً وجاهاً ، وأكثر علماً ومالاً ، فملّ هذه الحياة ومال الى الهجرة وانتجاع أفق جديد . . . وأزمع السفر الى بغداد ، تاركا عمله فى وزاة معارف الشام ، عاصيا الناصحين والناهين من الأهل والأصحاب ... وجاء معنا الى بغداد ، فلم يكد يلقى فيها رَحلَه حتى عراه اكتئاب وملل لا يعرف له سببا ، وأحس الحنين يحز فى قلبه والشوق يدمى فؤاده ، وانتابته إحدى نوباته العاطفية ، فلم تدع فى رأسه إلا فكرة واحدة ، هى الرغبة فى العودة ، لا يبالى معها ماذا قيل عنه ، وماذا ضاع منه ، ولكنه لم يكد يستجيب لها ، حتى أدركه مددٌ من عقله ، فصحا من نوبته ، وتخلص من عاطفته ، فآثر البقاء وأقبل على العمل ، فلم يمض عليه يوم حتى سمع من ينشد : فيم الاقامة بالزوراء ؟ لا سكنى بها ولا ناقتى فيها ولا جملى ! فنشطت عاطفته المكبوتة من عقالها ، تصرخ فى وجه العقل ، أن : فيم الاقامة بالزوراء ؟ فغلب العقل واستخذى وذهب يستعد لمعركة أخرى . . .

ولقد وجد فى بغداد من الاكبار فوق ما كان يرجو ونرجو له ، ووجد اسمه قد سبقه اليها ، وحف به قراؤه والمعجبون به ، وأسرعوا للسلام عليه والاجتماع به ، فلم يكن أبغض اليه وأشد عليه من هذه الاجتماعات ، فكان يعرض عنهم ويرتكب فى هذا الباب أشد الحماقات ، حتى إنه ليدع الجماعة من علية القوم فى ردهة الفندق ويفر منهم ، وما جاءوا إلا من أجله ، فيقوم من غير استئذان ولا اعتذار ، ويذهب الى غرفته فيعتصم بها .. وإنه ليعلم ما فى عمله من الجفاء ، ولكنه يضطر اليه اضطراراً ، فهو يشعر أن جو هذه المجالس ثقيل عليه حتى ليوشك أن يخنقه ويغدو فيه كمن سد أنفه وفمه ، وإنا لنلومه ونثقل عليه الملام ، فلا يدفع عن نفسه لوماً ولا يحاول إنكاراً ، ويعترف بالضعف ، ويقر بالعجز ، فنرحمه ونكف عنه

إنه لا يستطيع أن يحمل اسمه ، لا يقدر أن يلقى بوجهه وجسمه هذا الاعجاب الذى يزعمون أنهم يوجهونه إلى الشخص الآخر الذى ينشر فى (الرسالة) كأن له شخصيتين ، فهذه التى يأكل بها ويشرب ويمشى ويضحك ويمزح غير تلك التى يفكر بها ويكتب ويؤلف وليس بينهما من صلة ولا يربطهما سبب من الأسباب . والعجيب من أمره أنه يضيق بالكلام فى مثل هذه المجالس ويتهيبه ، وتظنه أول ما تلقاه حَيِياً عَيِياً لا يفصح ولا يبين ، فاذا أنت اتصلت به وعلقت حبالك بحباله ، رأيته مفوها طلق اللسان شديد البيان . وإن أنت خالطته وعرفت دخيلته أبصرته لا يتهيب موقفاً خطابياً مهما كان شأنه ، ولا يخشاه ما يخشى الرد على ألفاظ المجاملة ويتهيب مجلس تعارف وانتساب

* * *

كان يأمل أن يجد لذة فى تدريس الأدب ، ولكنه لم يكد يمارسه حتى اجتواه وملّه ، وعلم أن الاشتغال بالأدب للذة لا يستقيم مع هذا العمل النظامى المستمر ، إنه يصبح وفى رأسه فكرة يريد أن يكتب فيها فصلاً ، فيدركه وقت المدرسة ، فيذهب وتذهب الفكرة فى طريقها ، أو يصبح وهو يكره الكلام ويميل إلى الصمت ، يحب أن يفكر فيطيل التفكير ، ويحلم فيغرق فى الأحلام ، فيراه ملزماً بالكلام خمس ساعات أو ستاً ، وهو يحب الشاعر أو الكاتب ويميل اليه فيكرهه المنهج على درس شاعر آخر لا يحبه ولا يفهم أدبه ، ويضطره الطلاب إلى إطالة الحديث حيث ينبغى له الايجاز ، أو إيجازه حيث تطلب الاطالة ، أو لا يفهمونه ولا يسايرونه فيهبط من سماء متعته الأدبية ، ليمشى مع أفهامهم وعقولهم ...

* * *

إنه رجل شاذ الطباع متناقض العواطف ، يشتاق إلى بلده فان عاد ندم على العودة ، وإن أقام هاجه الشوق ، وإن لجأ إلى عقله ثارت عاطفته ، وإن اتبع عاطفته أبى عقله . . .

لا يفهمه أحد ، ولا يفهم هو نفسه .. مسكين ! إنه أديب !

(بغداد) علي الطنطاوي

تاريخ العـــــرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

المستشرق الانجليزى

ذلك هو كتاب تاريخ الأدب العربى للأستاذ رينولد نيكلسون ننشره ابتداء من هذا العـدد تباعا كما وعدنا فى العدد الماضى

المدخل لتاريخ العرب

العرب أمة من الأمم العظيمة التى تناسلت كما يقال من سام ابن نوح ، ومن ثم يعرفون عادة بالساميين ذلك اللفظ الذى يدخل فيـه البابليون والأشوريون والعبرانيون والكنعانيون والسبئيون والأحباش والآراميون والعرب ، وبالرغم من أن هذا مبنى على تقسيم غير مضبوط اجتماعياً (لأنه ورد فى الاصحاح العاشر من سفر التكوين ، أن الكنعانيين والسبئيين من ذرية حام) بالرغم من هذا فقد أحسن الاختيار Sickhorn المتوفى سنة ١٨٢٨م فى فهمه للشعوب الشـديدة الارتباط ببعضها التى ذكرناها . وسواء أكان الوطن الأصلى للجنس السامى المتماسك جزءاً من آسيا (كبلاد العرب أو أرمينية أو أدنى الفرات) أم أنه دخل آسيا من أفريقية[1] فهذا شىء لم يثبت بعد ، فهم (منذ زمن بعيد قبل بدء العصر الذى ظهروا إبانه على مسرح التاريخ) قد تشعبوا وكوّنوا أقواماً منفصلة ، ولا يمكن فى هذا المجال شرح علاقات اللغات الساميـة ببعضها البعض . ولكن قد يستطاع ترتيبها ترتيباً زمنياً حسب انتشار الأدب كما يلى[2] :

١ – البابلية أو الأشورية (من ٣٠٠٠ – ٥٠٠ ق . م)
٢ – العبرية (من ١٥٠٠ ق . م)
٣ – العربية الجنوبية أو كما تسمى أحياناً السبئية أو الحميرية (نقوش منذ ٨٠٠ ق . م)
٤ – الأرامية (نقوش منذ ٨٠٠ ق . م)
٥ – الفينيقية (نقوش منذ ٧٠٠ ق . م)
٦ – الحبشية (نقوش منذ ٣٥٠م)
٧ – العربية (من ٥٠٠ م)

وبالرغم من أن العربيـة على هذا الاعتبار أحدث اللغات السامية إلا أنها تعتبر عادة أقرب صلة من أية واحدة أخرى إلى النموذج الأصلى السامى Urs emitich الذى اشتقت جميعها منـه ، كما هو الحال فى العرب – تبعاً لمركزهم الجغرافى وحياتهم الصحراوية المطردة التناسق – فقـد حافظوا على الطبع السامى وظل فيهم – لاعتبارات خاصة – أنقى وأبرز مما هو عند بقية الأمم المتفرعة من هذا الجنس . ومنذ عصر الفتوح الاسلامية الكبرى (٧٠٠ م) حتى اليوم نشر العرب لغتهم ودينهم وثقافتهم فى مساحـة كبيرة من المعمورة تفوق كل ما كانت تشمله الامبراطوريات الساميـة القديمة . حقاً إن العرب لم يلبثوا طويلاً على الحـال التى كانوا عليها خـلال العصور الوسطى ، فلم يعودوا الأمة المسيطرة على العـالم ، إلاّ أنهم قد استعاضوا عن ضياع السلطة الزمنية بالجـدّ فى نشر سلطانهم الدينى . ولا يزال الاسـلام حتى اليوم الحاكم الأعظم لآسيا الغربية ؛ أما فى أفريقيا فهو فى تقدّم مستمر ، حتى فى أوربا ، فقد وجـد فى تركيا عوضاً له عن طرده من اسبانيا وصقلية . وبينما نرى أن معظم الشعوب السامية قد امّحت غير مخلفة وراءها سوى ثبت طفيف غامض لا نأمل من ورائه أن نلمّ بتاريخها تماماً نرى فى دراستنا للعرب مادة وفيرة تساعـدنا على دراسة معظم أطوار تقدمهم منـذ القرن السادس للميلاد ، تساعدنا على كتابة التاريخ العام للحياة والتفكير عندهم . ولست فى حاجة لأن أقول إن هذا الكتاب لا يحاول أداء هذه المهمة حتى ولو زاد حجمه مراراً ؛ إذ لابد من انقضاء زمن طويل قبـل أن يقتحم الباحث ميـدان الأدب العربى الواسع النواحى المختلفة ، وقبل أن تكون النتائج مقبولة لدى المؤرّخ

لم يكن « الربع الخالى » فحسب – الذى يخترق شبه الجزيرة ويقوم فاصلا طبيعياً دون الاتصال بالداخل – هو الذى

(١) H. G rimme : Weltgeschichte Karahterbildem Muhammed, (Munich 1904), P. 6 S 99.

(٢) راجع نلدكه فى Die Semitischen Sprachen (ليبزج ١٨٩٩) ومقاله «اللغات السامية Semitic Languages» فى دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الحادية عشرة) أما كتاب رينان Histoire générale des langues فقد أصبح قديماً . وقد طبع هومل مقالا فيها عن أهمية الساميين فى تاريخ الحضارة كمقدمة لكتابه المطبوع فى ليبزج سنة ١٨٨٣ المسمى : Semitis chen Völker und Sprachen, Vol I والتواريخ المذكورة فى هـذا الجدول تقريبية

يقسم بلاد العرب منذ القديم الى قسمين : شمالى وجنوبى ، بل كان هناك أيضاً العداء الناشب بين جنسين بينهما بون شاسع من ناحية الطبع وأسلوب العيش . فبينما كان سكان القسم الشمالى (الحجاز وهضبة نجد الوسطى) بدوا غلاظاً يسكنون بيوتاً من الوبر وينتقلون من مكان الى آخر انتجاعا للعشب والكلأ لأبلهم كان أهل اليمن Arabia Felix معروفين لدى التاريخ — قبل كل شيء — كورثة لحضارة تالدة وأصحاب ثروة ضخمة خيالية من الطيب والذهب والأحجار الكريمة تحت إمرة الملك سليمان . وقد تكلم بدو الشمال اللغة العربية — أى لغة قصائد العصر السابق للاسلام والقرآن — على حين كان أهل الجنوب يستعملون لهجة يسميها المسلمون « الحميرية » التى عثر حديثاً على نموذج من خطوطها وفسّر . وسنسهب فى الكلام حالاً عن هؤلاء السبئيين الذين أُطلق عليهم هذا الاسم جغرافيو اليونان والرومان . وقد أخذ نجمهم فى الأفول فى القرون الأولى للمسيحية حتى تلاشوا نهائياً من صفحة التاريخ قبل سنة ٦٠٠ م حينما أخذ جيرانهم أهل الشمال فى الظهور والقوة .

وليس من شك فى أن ما نشر بين علماء الأنساب المسلمين الفكرة القائلة بأن العرب يرجعون فى أصلهم الى رهطين منفصلين تسلسلا من جدّهم المشترك سام بن نوح هو الفارق الجنسى العظيم من الذكاء . أما فيما يختص بأهل الشمال فان تسلسلهم من عدنان (من ذرية اسماعيل) أمر معترف به من الجميع . أما أهل الجنوب فيرجعون الى قحطان الذى يزعم النسّابون أنه نفس يقطان بن عابر ؛ وتحت اليقطانيين الذين هم الأصل القديم نجد مدرجا مع السبئيين كثيرا من القبائل القوية كطىّ وتنوخ وكندة وغيرها من التى استوطنت بلاد العرب الوسطى قبل ظهور الاسلام بوقت طويل ، ولم يكن هناك ما يميّزهم من البدو الذين يرجع أصلهم الى اسماعيل . أما فيما يتعلق بعدنان فان سلسلة نُسبه لا تزال موضع جدال وحجاج وإن اتفق الجميع على أنه من ذرية اسماعيل بن ابراهيم من هاجر . وتذكر القصة أنه عند ميلاد اسماعيل أمر الله ابراهيم أن يرحل الى مكة بزوجه هاجر وابنها ويتركهما هناك ، فامتثل لأمره وتركهما ، وجاءت رفقة من جرهم (وهم من ولد يقطان) فنزلوا شعاب مكة فنشأ اسماعيل مع أولاد الغرباء ، وتعلم الرمى ، ونطق بلسانهم ثم خطب اليهم فزوجوه امرأة منهم [1]

* * *

ولا جدال فى أن هذه الانساب خيالية إلى حد ما ، إذ لم يكن علم النسب موجودا فى العصر السابق للاسلام ، حتى لم يكن لدى المحققين المسلمين المتقدمين سوى أخبار طفيفة محيرة اعتمدوا عليها [2] . أضف إلى هذا أنهم راعوا الظروف السياسية والدينية وغيرها ، ومن ثم فان دراستهم للقرآن والتاريخ الدينى قادتهم لدراسة رءوس القبائل الذين يوضعون فى المقدمة . أما سلسلة النسب التى تبدأ بعدنان فلسنا نستطيع قبولها كمسألة تاريخية خالصة ، ولو أن أغلبها قد تراكم فى ذاكرة العرب قبل ظهور الاسلام ، يؤيد هذا شهادات شعراء الجاهلية [3] ؛ ومن ناحية أخرى أن نسبة كل قبيلة إلى جدّها الأول تخالف الحقائق التى أثبتها البحاث المحدثون [4] ، من أن كثيراً من الأسماء تشير إلى اتحاد محلى ، فمعدّ مثلاً تشير فى الأصل إلى جماعات كبيرة أو محالفات قبلية . وقد يكون الخلاف الاجتماعى بين عرب الشمال وعرب الجنوب (كالعداء الحاد الذى فرّق بينهم منذ صدر عهد الاسلام[5]) قد يكون هذا الخلاف مقبولاً إذا قصرنا لفظ اليمنية (أهل الجنوب) على أهل سبأ وحمير وغيرهم من المتحضرين الذين سكنوا اليمن وتكلموا لهجتهم الخاصة ، ولكن يصعب أن يقصد به البدو اليمنيون المتكلمون بالعربية الذين انتشروا فى جميع رحاب شبه الجزيرة . وإن مثل هذا النقد لا يؤثر فى قيمة وثائق النسب باعتبارها صورة للعقلية العامة ، ومن وجهة النظر هذه تكون الخرافة أحياناً أهم من الحقيقة . وينبغى علينا أن يكون هدفنا فى الفصول التالية إيضاح معتقدات العرب غاضين النظر عن نقدها وبيان حظها من الخطأ والصواب

* * *

إن للعربية بأوسع معانيها لهجتين رئيسيتين هما :

ا — العربية الجنوبية وهى لسان اليمن ، وتشمل السبئية

(١) كتاب المعارف لابن قتيبة طبعة وستنفلد ص ١٨

(٢) Goldziher : Mohammedanische Studien part I, II. 133 e 99 177 s 99

(٣) Noldeke Z. D. N. G. Vol. 40, p. 177

(٤) Margoliouth: Mohammed and the tise of Islam

(٥) فى يتعلق بطبيعة الخصومة وأسبابها ارجع إلى كتاب جولد زيهر Muh. Studieu ج ١ ص ٧٨ وما يليها

والحميرية والمعينية واللهجات القريبة منها كلهجة مهرة والشحر

ب — العربية الفصحى التي ينطق بها في بلاد العرب عامة ما عدا اليمن . أما عن اللغة الأولى — دون التعرض لمهرى وسكُطرى وغيرهما من اللهجات الحية — فليس لدينا سوى هذه المخطوطات العدة التي جمعها الروّاد الأوربيون ، وستكون موضوع بحثنا في الفصل التالي الذي سأقدم فيه بحثاً موجزاً يتناول تاريخ السبئيين والحميريين القديم . والعربية الجنوبية تماثل العربية في تراكيبها القوية من الجمع الشاذ وعلامة التثنية ، واشارة الجمع باضافة م (وتستعيض العربية عنها بحرف ن) وكذلك في كلماتها . أما حروفها الهجائية التي تشمل تسعة وعشرين حرفاً فهي أقرب إلى الحبشية ؛ وقد استولى الأحباش على الأمبراطورية الحميرية في القرن السادس الميلادي ، حتى إذا كان حوالي سنة ٦٠٠ م أصبحت العربية الجنوبية لغة ميتة ، ومنذ ذلك الحين صار لهجة عرب الشمال السيطرة العظمى واتخذت لنفسها كلمة « العربية »

* * *

إن أقدم الآثار المكتوبة للعربية جديدة إذا قورنت بالنقوش السبئية التي يرجع بنا بعضها إلى ٢٥٠٠ سنة أو ما يقرب من ذلك إلى الوراء ، وباستثناء نقوش الحِجر في شمال الحجاز ونقوش الصفا المجاورة لدمشق (التي بالرغم من أنها قد كتبت بالعربية الشمالية قبل العهد المسيحي فهي أقرب إلى السبئية ولا يستطاع تسميتها بالعربية بالمعنى المفهوم من هذا اللفظ) باستثناء ذلك فان معظم أقدم أمثلة الخط العربي التي اكتشفت قد كتبت بخطوط لهجات زبد[1] الثلاثية[2] ، وهي السريانية والأغريقية والعربية وترجع إلى سنة ٥١٢ أو ٥١٣ ، ولغتي حرّان [3] اليونانية

(١) زبد كما قال ياقوت : « زبد بفتح أوله وثانيه وآخره دال مهملة بلفظ زبد الماء والبعير ... قيل قرية بقنسرين لبني أسد ، قال محمد بن موسى زبد بفتح الزاي والباء في غربي مدينة السلام له ذكر في المتأخرين » (معجم البلدان ج ٤ ص ٣٧٤ طبعة مصر ١٩٠٦)

(٢) وقد طبعها لأول مرة Sachau في :

Monatsberi chte des Kös. Preuss. Ahad. der Wissenschaften zu Berlin

(فبراير سنة ١٨٨١) ص ١٦٩ وما يليها

(٣) De Vogüe : Syrie Centrale, Inscriptions Sémitiques, p. 117

ويجد القارئ مراجع أخرى عن هذه الناحية مذكورة في Z. D. M. G. المجلد ٣٥ ص ٧٤٩

والعربية التي ترجع إلى سنة ٥٦٨ م . ولسنا نريد أن نشغل أنفسنا كثيرا بهذه الوثائق [1] خاصة ؛ وإن ترجمتها تتطلب مشقات عظمى ، وكان القليلون من عرب العصر السابق للاسلام ملمين بالقراءة أو الكتابة [2] ، ويرجع الفضل في قدرة هذا النفر إلى المعلمين اليهود والنصارى ، أو إلى الثقافة الأجنبية التي انبثقت أضواؤها من الحيرة وغسان ، ولكن بالرغم من أن القرآن (وقد جمع لأول مرة بعد واقعة اليمامة سنة ٦٣٣ م) هو أول كتاب عربي ، إلا أنه يمكن ارجاع بداءة الكتابة بلغة الضاد إلى عصر متقدم . ومن الأرجح أن كل قصائد عصر قبل الاسلام التي وصلت الينا إنما ترجع إلى القرن السابق لظهور الاسلام (أي من ٥٠٠ — ٦٢٢) ولكن يد التفنن الصناع وإبداعها الفنيّ اللذين غيرا من شكلها الأول يقفان حائلاً دون الأمل بأن نعثر خلالها على الصورة الأولى للقصيدة العربية . وقد يمكن القول بشأن هذه القصائد الفخمة — كما هو الحال في الألياذة والأوديسّة — إنها « نتيجة فن بالغ حد الاتقان ، يستحيل أن يكون قد صار إلى ما صار اليه إلا بعد مرور عهد طويل على ممارسته » وقد ظلت هذه القصائد محفوظة طوال مئات السنين بالحديث الشفهي كما سنوضح ذلك في مكان آخر . وفي صدر عهد بني العباس أي بين عامي ٥٧٠ و ٩٠٠ م شرع الأدباء المسلمون في تدوين معظمها . ومن الحقائق الثابتة أن اللغة واحدة في القصائد التي يمثل أصحابها قبائل عدة مختلفة ونواحي متعددة من شبه الجزيرة . كما أن الفروق اللسانية طفيفة جداً إلى درجة لا يؤبه بها ، ومن ذلك نستنبط أن الشعراء كانوا يتخذون لهجة صناعية تخالف لغة المحادثة وهي أشبه ما تكون باللهجة الأيونية التي استعارها الشعراء الدوريون والأيوليون

(يتبع) ترجمة محمد حسن حبشي

(١) يمكن للقارئ أن يراجع في هذا الموضوع ما كتبه جولدزيهر في Muh. Studien ج ١ ص ١١٠ وما يليها

(٢) أخذت العربية في الظهور بخط العربية الشمالية في القرن الثالث للميلاد ، وربما كان أقدم ما كشف حتى الآن من الخطوط نقش يرجع إلى سنة ٢٦٨ م وهو الذي طبعه Jaussen و Savignac في : Mission Arche,ologique enl, Arabie, Vol 1, P. 172 ومع أنه مكتوب بحروف آرامية إلا أن كلماته جميعها تقريباً عربية كما يرى ذلك مما نقله الأستاذ Horovitz في مجلة Islamic Culture (حيدر أباد الدكن) عدد شهر إبريل ١٩٢٩ ج ٣ رقم ٢ ص ١٦٩ هامش رقم ٢

النظرية العامة للالتزامات

فى الشريعة الاسلامية

للدكتور شفيق شحاته

— ٢ —

٢ — الطريقة التاريخية

أما عن منشأ التشريع الاسلامى ، فانا نرى الاعراض عن البحوث التى حاول بها العلماء تأييد رأى دون آخر . أما حججنا فسنتلمسها من دراستنا الموضوعية نفسها ، ذلك أنه من العبث الاستناد إلى التشابه بين بعض الأفكار للقول باتحاد المصدر أو بالاستمداد . فان أهمية هذا التشابه لا يصلح تقديرها إلا إذا وضعت الأفكار فى الجسم الذى انتزعت منه

لذلك لن يوجد أبداً دليل أقطع على التشابه أو عدمه من استعراض نظرية الالتزامات فى التشريع الاسلامى بعد بناء هيكلها . فعندئذ فقط سيظهر لنا إن كانت ثمة استعارات ومن أين أتت ، وماهى ؛ وإن لم تكن ، فكيف كان التشريع متماسك الأطراف ظاهر الابداع

ونلاحظ هنا فقط فشل المحاولات التى ظهرت قديماً وحديثاً لاثبات استمداد التشريع الاسلامى من القانون الرومانى . أما محاولة (كاروزى) فقد هدمها المستشرق (نااللينو) . وحديثاً ظهرت رسالة فى الشفعة (طبعت فى ميلانو سنة ١٩٣٣) رمى بها مؤلفها إلى إثبات هذا الاستمداد . على أن استنتاجاته لم تقنع أحداً كما يظهر من تعليق الأستاذ (روسيبه) على هذا الكتاب فى (مجلة تاريخ القانون ص ٣٢٣ لسنة ١٩٣٤)

على أنه ليس بين أيدينا فى الواقع من الآثار القانونية شىء يرجع إلى ماقبل العصر العباسى . أما عن الجاهلية فان هناك بعض الاشارات البعيدة مبعثرة فى آثار متأخرة عن هذا العهد ؛ وكذلك يقال عن عصر الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين ، فان جل ما نجده هو بعض الحلول لمسائل عرضت على بعض الحكام ولكن لا يظهر أنه فى مدى هذه العصور الطوال قد كانت هناك مجموعة من القواعد أوحت بهذه الحلول الطفيفة

ويبدو لنا أن التشريع فى هذا العهد لم يكن شيئاً آخر سوى العادات المحلية السائدة سواء فى جزيرة العرب أو فى الأقطار المفتوحة ، وإن ما ورد من الأحكام يعبر تماماً عن هذه العادات مع اتجاه خاص أملاه الدين الجديد

ثم يضعنا العصر العباسى فجأة فى أول عهده أمام مجموعة كاملة من الأحكام ؛ ففى نظر التاريخ لا يظهر التشريع الاسلامى كتشريع بالمعنى الصحيح إلا مع (أبى حنيفة) الذى وردت آراؤه فى جميع المسائل كما وردت آراء صاحبه (أبى يوسف) بمجموعات الكتب التى وضعها (محمد) صاحبه الآخر المتوفى سنة ١٨٩ هـ

فأول أثر من الآثار القانونية هو إذن أثر كامل الأجزاء . وإذا كانت هذه الكتب قد ذكرت فى بعض الأحوال آراء لبعض الفقهاء ممن سبقوا (أبا حنيفة) فان هذه الآراء لا تكون فى مجموعها تشريعاً يعتد به

فهذه الكتب تعطينا صورة كاملة للتشريع الاسلامى كما ارتآها (أبو حنيفة) ، وفى نفس هذا الكتاب نلاحظ اتجاهاً خاصاً يمثله (أبو يوسف) وهو اتجاه ظاهر الميل نحو الأخذ بقواعد العدل والانصاف

وقد انتقل هذا التشريع كما هو مع اتجاهاته المختلفة إلى الأجيال المتعاقبة من الفقهاء — بواسطة كتب (محمد)

وإذا كان الفقهاء فى زمن (السمرقندى) (حوالى سنة ٣٧٥ هـ) قد وضعوا حلولاً لبعض المسائل التى استجدت والتى أسموها «النوازل» فلم يكن عملهم هذا إلا بمثابة الملحق من الكتاب

ولم يكن للفقهاء حتى فى عصور الاجتهاد سوى تطبيق الأحكام الموضوعة على مسائل يقيسونها قياساً على ما سبقها ، أو الترجيح بين حلين قام بشأنهما الجدل ؛ ويلاحظ أن الفقهاء لم يترددوا فى الواقع عن القياس والترجيح حتى فى العصور التى تلت ما أسموه «إقفال باب الاجتهاد»

ولذلك نلاحظ أن القرون التى مرت على هذه الكتب

لم تضف اليها الشيء الكثير . وما قد جاء من الحلول عن طريق الاجماع أو العادة موجود فى الغالب بتلك الكتب . ومع ذلك فما لا شك فيه أن « العرف والعادات » قد ساعدت على جعل بعض القواعد أكثر مرونة أو على تحديد مدى تطبيقها ، إلا أن الأسس بقية ثابتة كما كانت من « المبسوط » إلى « رد المحتار » (١٢٥٢ ﻫ)

ويلاحظ أخيراً أن بعض المسائل أتتنا لا عن طريق كتب (محمد) الستة ، بل عن طريق كتب أخرى له أو لغيره ، وهى معتبرة أضعف سنداً من الكتب الستة ؛ ولذلك عبر عنها « بغير ظاهر الرواية » على أن المفهوم أن هذه المسائل كذلك قد عرضت (لأبى حنيفة) أو لأصحابه

أما مؤلفات (ابن سماعة) و (ابن رستم) التى وردت بها هذه الرواية فلم تصلنا ، وعلى ذلك تكون ثقتنا بصحة هذه الرواية بقدر ثقتنا فيمن رواها من المؤلفين وهم يوردون هذه الرواية كثيرها أثناء عرضهم للموضوع

وفى بحثنا هذا قد رجعنا أولاً وبادىء ذى بدء إلى كتب (محمد) وبذلك انتهجنا نهجاً جديداً كان الباحثون بعيدين عنه ، فهم فى الغالب يرجعون إلى أحد الكتب المتداولة للمتأخرين

ولما كان « مبسوط » (محمد) هو « الأصل » كما يسمونه كان من المتعين الرجوع إليه أولاً . والواقع أن الرجوع إليه ليس من الميسور فهو لم يطبع بعد ، والمخطوطات الموجودة منه بمصر أكثرها ناقص ، على أنا قد وفقنا إلى العثور على نسخة وردت حديثاً على دار الكتب وهى من محتويات مكتبة المغفور له (محمد على الكبير)

أما ثانى الكتب الستة وهو «الجامع الصغير» فهو مطبوع ، على أنه لا يروى غلة لاختصاره

و«الجامع الكبير» هو ثالثها وقد عثرنا على جزء صغير منه بدار الكتب وتمكنا من تتبع بقية النصوص خلال ما ورد عليه من الشروح الكثيرة ، وهو يختلف كثيراً فى أسلوبه عن « المبسوط » ، ذلك أن المسائل ترد به موجهة ، بينما « المبسوط » خلو تماماً من التفسير والتوجيه

أما رابع الكتب الستة وهو « الزيادات » فقد تقصينا نصوصه من خلال شروح (العتابى) و (قاضى خان)

والخامس والسادس من الكتب الستة موضوعان فى السير ، أى فى قوانين الحرب فلم يدخلا فى نطاق بحثنا

وبعد أن تمكنا من هذا الأساس ، سرنا فى بحثنا متتبعين المؤلفين ، على حسب الترتيب الزمنى ، ابتداء من (الخصاف) (٢٦١ﻫ) ، لغاية (السندى) (١٢٥٧ ﻫ)

ولم نتراجع أمام المخطوطات القديمة فتيسر لنا بذلك الانتفاع ببعض المؤلفات العظيمة التى لم تتداولها الأيدى بعد . ومن ذلك « مختصر » (الطحاوى) (المتوفى سنة ٣٢١ ﻫ) . و « محيط » (رضى الدين السرخسى) (المتوفى سنة ٥٤٤ ﻫ) ، وقد ذكر هذا المؤلف الأخير ، المسائل مرتبة ، وهو يورد دائماً مسائل غير ظاهر الرواية ومسائل النوازل فى فصول مستقلة . ونذكر من ذلك أيضاً « الذخيرة البرهانية » ، و « خلاصة » (افتخار الدين)

أما مؤلفات « العصر الذهبى » للفقه الاسلامى ، وهو الذى يمتد من مجموعات (محمد) لغاية (قاضى خان) ، فنذكر منها « مبسوط » (السرخسى) ، وهو شرح لما اختصره (الحاكم الشهيد) من الكتب الستة . و « جامع الفقه » (للعتابى) وهو مجموعة مسائل ، تمتاز بشىء من الطرافة وبدائع (الكاسانى) وهى بلا ريب أروع ما ألف فى الفقه الاسلامى ، وهى تمتاز بحسن ترتيبها ، ووضوح أسلوبها . وهذا المؤلف هو فى الواقع فريد فى تقسيماته ، وطريقة عرضه للمسائل . وقد جعلناه عمدتنا فى جميع بحوثنا

أما فى العصر الذى يلى العصر الذهبى ، وقد سميناه « عصر الشرح والتحشية » ، فأول ما يقابلنا من المؤلفات العظيمة « الهداية » وقد كتب فى شرحها ما تقوم به مكتبة واسعة الأرجاء . ونذكر أيضاً مجموعة الشروح التى وردت على « الكنز » ، وكذلك مجموعة الشروح التى وردت على « الدر المختار »

وعند الحلقة الأخيرة نجد « رد المحتار » (لابن عابدين) وهو عبارة عن دائرة معارف فقهية ، على أنها تفتقر إلى التنسيق ؛

وقد تبعه (السندى) (١٢٥٧ هـ) فى شرح « الدر المختار ، ومؤلفه يقع فى ستة عشر مجلداً ولا يزال مخطوطاً ، وهو من محفوظات مكتبة الأزهر

وهناك بعض المؤلفات اكتفى أصحابها بسرد المسائل ، دون إيراد وجوهها ، وقد سميت « بالفتاوى » . وليس معنى ذلك أنها ، فى الواقع ، أجوبة عن أسئلة عرضت ، ونذكر منها « الظهيرية » و « التتارخانية » و « الهندية »

ومما يستحق التنويه ، تلك المؤلفات ، التى حاول مؤلفوها الارتقاء بها عن مجرد الحلول والعلل المباشرة ، متقصين أسباب الفروق والنظائر ؛ ونذكر منها « فروق » (الكرابيسى) ولا يزال مخطوطا ، وأشباه (ابن نجيم) وشهرتها تغنى عن وصفها ، وشرح (التاجى) عن هذه « الأشباه » ولا يزال مخطوطاً

وأخيراً ، نجد فريقاً من المؤلفين ، قد وجه عنايته إلى الناحية القضائية للمسائل . وأهم ما وضع فى ذلك « جامع الفصولين » (لابن قاضى سماوه) وتنقيحه « نور العين »

ولا يسعنا هنا إلا أن نشير الى ما كابدناه من الصعاب عند البحث فى هذه المؤلفات ، وقد اقتضى ذلك منا مجهودا مضاعفاً يعرفه فقط من عالج هـذه البحوث . فمن ذلك أنه لا يكفى الباحث التطلع الى العنوان ليتعرف ما سيتناوله البـاب من الموضوعات . فالمسائل فى الواقع مبعثرة فى مختلف الأبواب لغير ما سبب ظاهر

ولا يستطيع الباحث الجزم بأن مسألة بعينها ليست موجودة فى كتاب معين إلا إذا طالع جميع صفحات هذا الـكتاب بامعان تام . ولذلك نجد المؤلفين فى إشاراتهم الى المراجع ينقل بعضهم عن بعض . فاذا ذكر أحدهم عن مسألة أنها وردت « بالمبسوط » فلا يفيد ذلك أنه تحقق بنفسه من صحة ورودها

لهذه الأسباب اضطررنا إلى دراسـة بعض الـكتب من الغلاف الى الغلاف ، وراجعنا جميع أبوابها باباً باباً لتقصى ما يهم موضوعنا من المسائل

ويلاحظ أيضاً أن هـذه المؤلفات لا تتبع ترتيباً واحداً فى تسلسل الأبواب ، ولو أن هـذه الأبواب أو الـكتب واحدة لم تتغير فى الغالب منذ وضع « المبسوط »

على أن « المبسوط » جاء خليطاً من الأبواب ولا يراعى ترتيباً ما . أما الترتيب الذى نجد عليه « الجامع الصغير » فهو ليس (لمحمد) وقد اتبع هذا الترتيب غالب المؤلفين

ومهما يكن الأمر فلا أهمية فى الواقع لهذا الترتيب ، فهو لم تقض به أسباب مقبولة ، أما ما يذكره أحياناً المؤلفون من الأسباب فهو مجرد أسـباب لفظية أو شكلية لا قيمة لها . وانا نجد مثلاً أن كتاب الاجارة جاء فى « بدائع الصنائع » قبل كتاب البيع ، مع أن (الكاسانى) نفسه قد أحال فى كتاب الاجارة على كتاب البيع فى كثير من المسائل

(يتبع)

شفيق شحاته

دمشق

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

زَنبقةَ الصحراءِ يا فتنةَ الوجودِ
نشَرْتِ فى الفضاءِ روائحَ الخلودِ

وشوشْتَ فى الأسماعِ قصائدَ البقاءِ
من أطيبِ الأسجاعِ وأسلسِ الغناءِ

سرَبْتَ فى الأفكارِ روحاً يفيضُ عطفاً
وغبتِ فى الأنظارِ طيفاً يذوب لطفاً

يا مُتحفَ الدهورِ ومعرضَ الألبابِ
خبأتِ للعصورِ سُلافةَ الأحقابِ

لم تأسنِ الدنانُ ولا ذوى العنقودُ
كأنها الزمانُ قديمهُ جديدُ

غوطتكِ المفتانُ ما إن لها مثيل
سماؤها الألحانُ وأرضها الحقول

وبَرداكِ الطُّهرِ ينسابُ فى الوهادِ
نايٌ براهُ السكرُ يفتنُّ فى الإنشاد

خطٌّ من البقاءِ فى مصحفِ الوجودِ
وسَلْسَلُ الشفاءِ فرَّ من الخلودِ

وقاسيونُ لاحاً وأنت بين سوحِهِ
مُترعةً مراحاً تلعبُ فى سفوحِهِ

كملك ينامُ وسفحُه وسادهْ
عاش له السلامُ وما اشتهاهُ عادهْ

رباعُك الجميله تطفحُ بالمنائرِ
ألحانُها الجليله أصداؤها سوائرِ

تموج فى الفضاءِ كما يموجُ النورُ
تسرى إلى السماءِ يحفزها السرورُ

والربوةُ الفتانه عرسٌ على الأيامِ
أنهارُها طنانه تحفِلُ بالأنغامِ

والنيربانِ فتنهْ وعبقٌ وعطرُ
ومسرب للجنه وبهجةٌ وسحر

دمشقُ أنتِ مأوى للحسنِ والفنونِ
عشتِ الدهورَ نجوى للشاعرِ المفتونِ

زَيَّنَتِ الرياضُ أنحاءَها البعيده
ولمَّتِ الغياضُ أفياءها السعيده

فيالها مطافاً للحبِّ والرساله
تزينتْ أعطافاً وانتَلَقَتْ غلالهْ

أنَّى التفتَّ عُرسُ وحُلْمٌ مديدُ
وفرحٌ وأنسُ وعالمٌ جديد

وهاتف يُغنى يذيبه الغرامُ
يعيشُ بالتمنى وقوتُهُ الأنغامُ

وبلبلٌ صداح يهيمُ بالورادِ
تهدُّه الجراح وهو على الوداد

وها هنا الآباد لم يطوها الفناه
تكلَّمَ الجماد واختلج العفاه

وها هنا الليالى كأنها الأعياد
تناجتِ الدوالى وانتشتِ الأعواد

ظلَّتْ على الأحقاب ندية الأفياءِ
زاهيةَ الشباب ضاحكة الرُّواءِ

وها هنا حسانُ ينشدُ آل جفنه
فيزدهى الزمانُ وترقص الأسنه

أين بنو أُميَّـــه وأين عبد الملِك
والراية البهيّـه على جبين الفلك

وأين ملك زاهر تجرى الفتوح باسمه
طاحت به الدائرُ لم يبق غيرُ رسمه

ودالتِ الأيام من جِلقَ البهيه
فانطوتِ الأعلام وحاقتِ الأذيه

وغاضت البشائر وضاعت الأفراح
وناحت المنائرُ وعمت الأتراح

أخيـــــلة تمرُّ أرواحُنا فداها
وصورٌ تـكرُّ ماتنتهى رُؤاها

(بغداد) أنور العطار

مساء القرية

بقلم محي الدين الدرويش

جثم الصمت على هام الطُلول وأقام الهمُّ فيها مأتما
فهى من حيرتها سكرى ملول تتنزّى من عناء ألما

تجمد العينُ لدى رؤيتها ويطير القلب منها هلعا
تلمح الوحشةَ فى نظرتها وترى البؤس عليها رتعا

وإذا ما الليل أرخى السُّجفا واستسرَّ الناس فى سُدفته
خِلتُ جنًّا فى عراء هُتَّفا فيلجُ القلب فى رعدته

ضمت الأطلالُ قوماً حُرموا لذَّة العيش وعدل القدر
شظف العيش لديهم مغنمُ وصفير الريح صوت الوتر

رب غيداء كما شاء الهوى تأسر القلب بلحظ أصْيد
هى من شقوتها رهن الجوى تتلظى فى بلاء أنكد

حملت ياويحها أكوابها وإلى «العاصى» تولت مسرعه
قد نفت من حرقة جاببابها وتعايت من وناها جازعه

قدسئمت العيش فى هذى الربوع حيث لا عيش بها يحتمل
ذكريات تتوالى ودموع كلما تزدادها تنهمل

أين منى زمن طالعنى من ثنايا العمر رفافٌ أنيق ؟
ما عهدت الهمَّ يوماً ضافنى أحتسى اللذات فيه لا أفيق

آه لو ترجع هاتيك العهود ويسود الصفوُ أيام الحياه
فنعيم العيش فى لثم الخدود
وانتعاش الروح من « ماء الحياه »(١)

إنما الدنيا بلا قصف جمود موحش يغمره يأس عميق
فاغنم اللذات فى هذا الوجود فحياة المرء إيماض بروق

غاية العـلم ضلال باطل وجهـالات بها تضطرب
هل درى والموت فينا نازل ما مصير الروح أنى يذهب ؟

ينشـد المرء نبوغاً سامياً رهو لا يعقل ما رام النبوغ
سـيريه الـكون شراً طاميا هو عنـه يتجافى ويروغ

يجتنى الناس أفانين الهناء وهو فى عزلتـه مكتئب
ما جنى من عيشـه غير العناء هو يشقى والليالى تاعب

(حمص) محي الدين الدرويش

(١) ماء الحياة : هى الخمرة

القصص

من الحياة الواقعية

مليم العظماء ..؟!

بقلم السيد محمد زيادة

وقف هذا العظيم وقفة ناطقة بعظمته أمام دكان حلاق، ثم جاز بابه متهادياً منتفخاً كما يجوز باب داره التي لا تحوى إلا ما هو مالكه؛ وكان الحلاق جالساً كالنائم، لا يصل بصره وذهنه إلى أبعد من مجلسه، فهب واقفاً تدق على قلبه هيبة الداخل عليه

وجلس الرجل على الكرسي جلسة أمير متواضع، ووقف الحلاق من خلفه كما يقف المتهم في ساحة العدل ... وكان دهشاً يزدهيه ويربكه أنه على فقره وخموله يحظى بشرف التصرف في نبات ذلك الرأس العظيم وتزيينه وريه بأغلى ما عنده من المطور؛ ولكنه استجمع نفسه وذهب يجلب من نواحي دكانه أجود مقصاته وأحد أمواسه، وبدأ يعمل بفكره وعينيه ويديه، حتى يخرج من مهارته تحفة فنية رائعة ترضى عظمة (الزبون) وتفتح للدكان باباً في الشهرة ومن ورائه باباً في السعادة ...

وتواردت على رأس الحلاق أحلام خلابة تنبئه بحياة هنيئة ناعمة، وصيت ذائع منتشر ... فتصور أن بعد ذلك الرأس الرفيع رؤوساً رفيعة أخرى ستظهر عليها بدائع يديه ... وأيقن أن قد حان الوقت لينال حقه المهضوم وينصف فنه المظلوم ...

وتصور أنه إذ يتعب في تزيين ذلك الشعر وتجميله إنما يتعب في تزيين دنياه الجميلة التي في خياله ... ثم اعتقد أنه ولا شك بالغ بعد ذلك غاية الأمل ما دام قد حلق لهذا العظيم، وما دام العظيم رضى عنه، فجعل يبذل ما في وسعه من حذق لتجيء الصنعة فاتنة لا عيب فيها فتجيء الدنيا كاملة لا نقص فيها

وراح الزبون الكريم المتواضع يطلب موسى غير الموسى لتكون أمضى، ويطلب فرشاة غير الفرشاة لتكون أطهر؛ ثم أخذ ينبسط مع الحلاق ويؤنسه من نفسه العظيمة ويحاضره في تواضع العظمة وعظائمها. ويقص عليه نوادر تبين له أن الكبير من لا يتكبر، وأن الحلال حلو ولو مرّ، والحرام مرّ ولو حلا، وأن الدنيا والآخرة للأمين، والدنيا والآخرة على الخائن؛ ثم كان يفصّل قصصه بأحكم الحكم وأصدق الأمثال. والحلاق غارق بسمعه في لذة الحديث، مستغرق بعينه في لذة الصنعة، سابح بفكره في لذة الأحلام ...

قال الزبون فيما قال: كل شيء يقع في هذه الحياة بقضاء، فما من شر يصيب وما من خير يصاب إلا وهو مكتوب من قبل في لوح القدر

قال الحلاق: صدقت والله يا أفندينا ... فقد يكون الانسان غافلاً فتنساق اليه الأسباب من تلقاء نفسها، وقد يكون خاملا فينصب عليه الرزق من حيث لا يدرى. والمثل فيّ أنا ... أنا جالس يا أفندينا في غفلتي وخمول شأني وضمة مكاني — فاذا بك تشرفني بالدخول عليّ؛ فهل هذه إلا مفاجأة؟ « وفي السماء رزقكم وما توعدون »

قال الزبون: وفي حقيقة الأمر أنها لم تكن مني عن تدبير ولا نيّة، ولم تكن في حسباني ولا ألقيت لها بالاً، ولا كنت في حاجة ماسة للحلاقة اليوم ... فما هي إلا خطرة مالت بي إليك ولا أدرى سببها، وكأنما كان للالهام فيها عمل

فأحس الحلاق أن في حديث زبونه ما في حديث نفسه، فانتشى ظاهره بما في باطنه وقال: إي والله إنه لالهام وإنه لحظ سعيد وإنه لشرف عظيم؛ .. وأرجو ببركة تواضعك الميمون أن أصبح في القريب حلاق إخوانك العظماء من هامات الناس وكبرائهم. وبذلك أكون صنيعة فضلك وخادم إحسانك

قال الزبون: لا ريب في أنك ستكون حلاقي الخاص وحلاق إخواني الدائم إذا ما أعجبتُ أنا بحلاقتك وصنعتك

وانتهى الحلاق من جهاده في سبيل المجد، ووقف مضموم اليدين ينتظر الرضى والثناء؛ وأعجب العظيم بحلاقته أيما إعجاب

ووقف يعرض نفسه على هذه المرآة وتلك المرآة وهو ينثر كلمات الاعجاب فى كرم وسخاء . والحلاق لا يدرى أهو كالناس على الأرض أم طائر مع ملائكة الحظ والسعادة ...

وأخرج الزبون من جيبه دخينة ضخمة نخمة كأنها من نوع ممتاز لخلق ممتاز — وأشعلها ثم قال : ألا تدرى أن هذه الدخينة من صنع بلادنا ؟ .

قال الحلاق : يا عجباً !! وهل تقدمت بلادنا إلى هذا الحد ؟

قال الزبون : أنت تعجب فكيف عجبك لو علمت أن ثمن العلبة من هذه عشرون قرشاً ؟ وكيف بك لو علمت أن هناك نوعاً آخر ثمن العلبة منه مائة قرش ؟. وكل الذين يتشرفون بزيارة السراى الملكية يقدم لهم من هذا النوع .. وأنا أكاد لا أصدق أن فى (السجائر) ما هو رخيص ، فكم هو ثمن أرخص (سيجارة) عند الناس ؟

قال الحلاق : يا مولاى إن معظم السجائر من هذا النوع الرخيص الدون ، وثمن الواحدة منه مليم واحد وهو ثمن نصف رغيف للفقير المسكين ..

قال الزبون : إذن فالمليم له معنى كبير !! ؟ يا له بؤساً وشقاء للانسانية .. أمعك واحدة من هذا النوع الرخيص ؟. لا ريب أنها ستكون لذة جديدة مشتهاة لغرابتها

قال الحلاق : أنا يا أفندينا لا أدخن فليم ومليم ثمن رغيف

قال : آه ... أظن أن معى مليما فريداً حائراً فى جيبى . خذه فاشتر لى به واحدة لأرى

وذهب الحلاق يتكفأ ومعه المليم ، وغاب دقائق ثم عاد يتوثب ومعه (السيجارة) الرخيصة ... ونظر فلم ير أحداً فى الدكان ؛ ثم نظر فلم يجد آلاته لا فى موضعها ولا فى غير موضعها ، وحينئذ ... حينئذ فقط أدرك الحلاق أن الزبون العظيم ما هو إلا محتال عظيم ، وأن الأحلام التى ألقاها فى خياله إنما ألقاها غشاء على بصيرته ؛ فلطم وصرخ واستغاث ؛ واجتمع الناس يتناولون الحادث كما حدث ويتبادلون الرأى فيه ... ومال بعضهم إلى الأرض يقلب شعر اللص الجرىء لعله يعثر فيه على سر

وقال بعضهم : ما أغلى التضحية ! لقد طمع الحلاق المسكين فى العظيم والعظماء فضيع آلاته وأسباب رزقه ليعلم من كل ذلك أن العظمة قد لا تساوى فى بعض أهلها غير مليم

(طنطا) السيد محمد زياده

دون جوان لبنان يفكر...

بقلم الآنسة فلك طرزى

جلس « موفق » على حافة البركة التى تتوسط حديقة منزله الصغير وأخذ يداعب المياه الصافية التى تتساقط فى الحوض وتتسابق بأصابعه ، ويرسم على صفحتها خطوطاً وحلقات سرعان ما كان سير الماء يبددها ويمحوها لتعود صفحته جلية ملساء تتراكض فى وسطها الحبات اللؤلؤية ، وكأنها قطع صغيرة من الماس تتقاطر من ثقوب النافورة وتتساقط على صفحة الماء رذاذاً فتبعث نغمة خافتة ووسوسة شجية . لم يصغ موفق إلى الموسيقى العذبة التى كانت تنبعث من لحنها لأن نفسه كانت بعيدة ، بعيدة جداً عن هذا الحوض الصغير الذى كانت أنامله تعبث بمائه وتلهو به

لقد ذكر موفق فى هذه اللحظة أياماً ولَّت وليالى انقضت كان خلالها يتمتع بأهنأ اللذات والمسرات ، إذ كان النعيم يكسو ساعاتها ولحظاتها بأثواب السعادة الزاهية الألوان المختلفة الأشكال ، ويبسط عليها ظلال الهناء والمرح والسرور ، فكان كل من هذه الظلال الثلاثة يرشده إلى جنات وفراديس تجرى من تحتها الأنهار ، وتغرد على أفنانها الأطيار ... فكان موفق يتمتع ويتلذذ ، وكان يرشف كؤوس اللذة صافية حتى الثمالة ، وكان يقطف ما حلا له من الزهر وما طاب من الثمر ، ثم يعرض عن هذه وتلك حينما يتضح له أن ذبولاً قد ذهب بنضرة الزهر ، أو أن مرارة قد مازجت حلاوة الثمرة ، حتى شاع أمره بين الناس وذاع بين جميع البيئات ، فدعوه « دون جوان لبنان » لما عرف عنه من حبه للنساء وإغرائه إياهن بشتى الوسائل ، وإيقاعهن فى حبائله بمختلف الطرق والأساليب

وكان موفق يسر بهذا اللقب أيما سرور ؛ وهل من شىء يعتز به كل دون جوان فى الحياة أكثر من اعتزازه بالحظوة الرفيعة التى يلاقيها عند النساء ؟ فكان يذيع هذا النبأ الجديد هنا وهناك ويطلع الذين لم يعلموا بأمره أنه كان يحلم بهذا اللقب منذ حداثته ، بل منذ كان صبياً يلعب والصبية الصغار من أبناء الحى . وكان كثيراً ما يقص عليهم حوادث وحكايات جرت له

وهو مازال فى الثامنة عشرة من عمره ، وكم من مغامرات غامرها ، وكم من نسوة ساذجات كان يغريهن بالكلمات المعسولة والمجاملات اللطيفة ليجذبهن اليه ويوقعهن فى شباكه ؛ ثم ليعرض عنهن ويوليهن ظهره بعد أن ينال منهن بغيته ويتركهن وشأنهن ويذهب ليبحث عن اللذة عند غيرهن

ولما كبر وصار رجلاً جعله أبوه مديراً للمتجر الكبير الذى كان يعد من أشهر المحال التجارية فى بيروت ، وقسم الأعمال الأخرى على إخوته الثلاثة الذين يصغرونه ببضع سنين ، وترك له حرية التصرف فى الدخل الذى كان ينهال على هذا المحل كأنه النهر المتدفق يجرف فى طريقه كل الأشياء ولا يبقى منها شيئاً واحداً ... أخذ موفق ينفق بسخاء وإسراف ويبدد الأموال هنا وهناك وفى كل مكان دون أن يفطن للآخرة ودون أن يحسب لها حساباً ، وكم كلفته شخصية دون جوان ، هذه الشخصية التى تقمصته وامتزجت به واختلطت بنفسه فصارتا نفساً واحدة

أجل ! كم كلفته أموالاً وإسرافا ، بل كلفته جهوداً فى العدو وراء كل امرأة يستهويه جمالها وتجذبه حمرة شفتيها

وما لبث موفق أن أخذ يستعرض فى ذاكرته أشكال النسوة اللاتى تولى زمامهن فى الحياة إلى حين . وأخذ يذكر النعيم والهناء اللذين تذوق حلاوتهما فى عشرتهن ومصاحبتهن ، ويذكر هذه النشوة التى كانت تعتريه حينما كان يظفر بفريسة يشبع نهمه بلحمها ودمها . . .

فهذه التى تمثل الآن شبحها وتجسم فى مخيلته ، كانت هيفاء القد نحيلة الخصر ، وتلك التى عقبت أختها الآن وتصورها خياله كانت ، وياشد ما كانت ! كانت ناعسة الجفون ، حالمة العينين ، تزيد نظراتهما رقة وعذوبة أهداب كثيفة سوداء كثيراً ما كانت تسدل فوقهما لتخفى بين الجفون معانى تلوح فى حدقتيهما . وأما هذه الأخرى فيا لشفتيها ! كم كانتا رقيقتين كأنهما وردتان نضرتان متفتحتان فى روض وجهها الذى تتلألأ فيه فتنيره عينان وضاءتان كحيلتان تريقان عليه نوراً مشرقاً ساطعاً يزيد فى إشراق سمائه وجماله ، وهؤلاء الفتيات الخمس اللائى وضمهن يوما فى السيارة وسار بهن من بيروت إلى أحد مصايف لبنان حيث قضى معهن سهرة أحياها إلى الصباح . . . لقد جلس بينهن أمام مائدة قد صف عليها جميع أنواع الكحول ، وتكدست فوقها أصناف النقل المتنوعة والأثمار المشكلة ... وما أسعدها ليلة قضاها موفق بين نزعات الهوى الباسم ونغمات الهواء البليل الناعم ، يتمتع بمغازلة خمس حسان من أجمل الفتيات وأرشقهن قدودا وأعذبهن صوتاً وأحلاهن حديثاً . . . وما أهنأها ليلة وما أجملها ، تنشق موفق النسمات اللطيفة التى ينفحها جو لبنان الصافى العليل

غير أن الأوراق المالية كانت فى هذه الليلة تسيل من جيبه كما كانت الشمبانيا تسيل من القوارير

كان موفق يفعل هذا كله لأرضاء نفس لا يستطيع كبحها ، وأهواء ليس فى وسعه ردها ؛ ولم يذكر موفق أن الحب ، الذى يدعونه بالحب الخالص الصافى ، قد خالط نفسه يوماً من الأيام . كلا ؛ فهو ما شعر قط بلذة الروح — هذه اللذة العالية التى ترفع بصر الانسان إلى مافوق المادة وتجعل القلب يخفق بأنبل العواطف وأشرفها — تمتور نفسه ، وتشعرها برعشة تهتز لها أضالعه وتختلج جوانحه . كلا ! إنه لم يعرف من الحب سوى المعنى الوضيع الذى تولده حيوانيته ، وجهل وما زال يجهل المعنى الرفيع الذى تولده نورانيته ، والذى يفىء الروح بنور الفضيلة والهدى والحق ...

لقد كانت أهواؤه شغل حياته الشاغل ، إذ هو لا يجيد من فنون الحياة إلا فن الاغراء والاغواء والمخادعة . . .وما فكر قط أن آخرة مؤلمة ستنتج عن حياة الطيش والفوضى ؛ لقد انتهى موفق إلى إنفاق ما فى خزائن المتجر ومجاوزها إلى رأس المال ، فأفلست التجارة .. ولم يجد الدائنون بدًّا من عرض جميع ما يملك موفق وأسرته فى المزاد العلنى ، فبيع المنزل وجميع مفروشاته الفاخرة ، وبيعت الحديقة الغناء الواسعة الجوانب التى تحيط به من جميع أطرافه ، ونزحت الأسرة المنكودة عن البيت بعد أن نعموا باجتماع الشمل حقبة ، وراح موفق ينشد العمل فى كل مكان فلم يعثر عليه إلاَّ بعد جهد جهيد مقابل أجر زهيد يكاد لا يكفى نفقته ونفقة أخته التى تقاسمه الحياة وتشاطره البؤس . . .

أحس موفق حين رجع بذكرياته إلى هذه الذكرى الأولة ، كأن هزة عنيفة تعترى جسمه فانتفض واختلج ، وشعر كأن شيئاً أخذ يحز فى نفسه حزاً مؤلماً ، فانتصب واقفاً وغادر حافة البركة التى كان جالساً عليها يداعب مياهها ، وأخذ يجول بنظره فى أطراف الحديقة ، ويتلفت يمنة ويسرة ، يحدق بكل مايبصر ، ويصغى إلى كل ما يسمع ، فاذا به يشاهد براعيم الأزاهر

البريد الأدبي

وفاة الأبيوردى — رد على الأستاذ على الطنطاوى

أخى الأستاذ صاحب الرسالة

كتب إلىّ الأديب الفارسى المحقق عباس إقبال نزيل باريس أثناء رسالة فارسية يقول ما ترجمته :

قرأت فى العدد ١٥٨ من مجلة الرسالة مقالا بقلم الأستاذ على الطنطاوى تحت عنوان « الأبيوردى المتوفى فى مثل هذا اليوم سنة ٥٥٧ بمناسبة مرور ٧٩٨ سنة على وفاته » والظاهر أن الكاتب الفاضل خدع برأى ناشر الديوان قليل الاطلاع الذى أخطأ فجعل وفاة هذا الشاعر سنة ٥٥٧ ، وهذا غلط صريح . والصواب أن وفاته سنة ٥٠٧ كما روى ابن خلكان وياقوت فى معجم الأدباء (ج ٤ ص ٣٤١) وسائر المؤرخين ، ويؤيد هذا ما رواه ياقوت فى المعجم (٤ ص ٣٤٣) نقلا عن خريدة القصر للعماد الكاتب من أن الأبيوردى تولى فى آخر عمره عملاً للسلطان محمد بن ملكشاه السلجوق ، وأنه سُمّ وهو يتولى هذا العمل ، وبينما كان واقفاً عند سرير السلطان محمد ضعفت رجلاه وسقط على الأرض وقال :

وقفنا بحيث العدل مدّ رواقه وخيّم فى أرجائه الجود والباس

وفوق السرير ابن الملوك محمد تخر له من فرط هيبته الناس

وغياث الدين أبو شجاع محمد بن ملكشاه مات سنة ٥١١ ، فمحال أن يكون الأبيوردى الذى وقع فى مرض موته أمام سرير السلطان قد مات سنة ٥٥٧ . وبهذا يبطل اجتهاد الأستاذ الطنطاوى ودعوته الى الاحتفال بعد سنتين بمرور ثمانية قرون على وفاة الأبيوردى ، إلا أن يحتفل بعد سنتين بمرور ٨٥٠ سنة على وفاة الشاعر أو بعد الله فى عمر الكاتب اثنتين وخمسين سنة أخرى ليحيى ذكرى الشاعر بعد تسعة قرون

وناشر ديوان الأبيوردى قليل الاطلاع جدا ، فقد نشر فى الديوان قصائد من شعر أبى اسحق ابراهيم بن عثمان بن محمد الكلبى الغزى (٤٤١ — ٥٢٤) ولا شك أنها من شعر الغزى ومنها اللامية المطبوعة فى الصفحات ٢٧٤ — ٢٧٩ من ديوان الأبيوردى والتى يقول فيها الشاعر صراحة :

قصدتك لا بالشعر من أرض غزة ولكن بقولى اننى لك آمل

ومثل هذا الغلط فى مواضع أخرى لا يتسع المجال لبيانها الآن . »

ولم يطلب إلى الأديب الفاضل نشر كلمته ، ولكننى آثرت نشرها إفادة للقراء ، واذاعة لتحقيقات هذا الأديب البحاثة الذى يطرفنا بين الحين والحين بأبحاثه فى الأدب العربى وكتبه

عبد الوهاب عزام

مهرجان أدبى عظيم تمثل فيه مصر

أشرنا من قبل إلى أن مهرجانا أدبياً كبيرا سيقام فى لندن فى الثالث عشر من شهر أكتوبر الجارى لتكريم الكاتب الانجليزى الكبير المستر هربرت جورج ولز (هـ . ج . ولز) ، لمناسبة بلوغه السبعين من عمره ، وأتينا بهذه المناسبة على ترجمة وجيزة لمستر ولز ، ونزيد الآن أن هذا المهرجان الأدبى المعظم قد أقيم فى الموعد المحدد له بفندق سافوى بلندن ، واتخذ صورة مأدبة عشاء كبرى شهدها أربعمائة كاتب وأديب يمثلون معظم دول

ترنو إليه وترفع نحوه أكمامها المتضوعة العبير تشكو ظمأها ، فاقترب من البركة وأخذ ابريقاً من المعدن الأبيض وملأه وسقى الأزاهر وبلل أغصانها بقطرات الماء النمير ، ثم بعد ما فرغ من سقيها أخذ وعاء صغيراً ووضع فيه دقيقاً خلطه بماء ، ثم أخذ يعجنه حتى إذا تماسك قدمه إلى حمامة سمعها تنوح شاكية له جوعها . . .

وهكذا تعزى دون جوان المنهزم عن عزه الغابر المفقود باطعام الحمام وسقى الأزهار !

فلك طرزى

العالم . ولما كان مستر ولز رئيس نادى القلم الدولى ، ورئيس نادى القلم الانجليزى ، فان معظم المندوبين الذين شهدوا المأدبة كانوا يمثلون نوادى القلم فى أنحاء العالم وعددها نحو خمسين ناديا . وكانت مصر ممثلة فى هذا الاحتفال بواسطة نادى القلم المصرى على يد الأستاذ حسين محمد قنصل مصر فى لندن الذى شهد الاحتفال بالنيابة عن نادى القلم المصرى ، ورأس الاحتفال الكاتب الانجليزى الشهير مستر چون بريستلى ؛ وبعد تناول العشاء تعاقب على الخطابة كل من مستر برنارد شو الكاتب الأشهر ووكيل نادى القلم الانجليزى ، ومسيو اندريه موروا الكاتب الفرنسى ، ومسيو كاريل شابيك الكاتب البولونى ، وچوليان هكسلى الكاتب الانجليزى ، والكاتبة الانجليزية مس ج . سترن ؛ وقد تبارى الخطباء فى تحية مستر ولز والاشادة بمواهبه وعبقريته الأدبية ، فرد عليهم بخطاب طويل يفيض شكراً وعرفانا . وقد ناب الأستاذ حسين محمد فى إبلاغ مستر ولز تهنئة نادى القلم المصرى وتحياته ، فرجاه أن يحمل شكره وتحياته للنادى المصرى

وقد أفاضت الصحف الانجليزية فى ذكر هذا المهرجان الأدبى العظيم ، وقالت إن لندن لم تشهد منذ بعيد احتفالاً أدبياً فى عظمته وروعته

ترجمة للسير جرنفيل

من أهم كتب الموسم التى صدرت أخيراً بانكلترا كتاب عن السير رتشارد جرنفيل أمير البحر المشهور فى القرن السادس عشر ، ومؤلفه مستر جورج هربرت بوشنل ؛ وقد كان العصر الذى ظهر فيه السير جرنفيل ، وهو عصر الملكة اليزابيث ، أشهر عصور البحرية الانكليزية ، وفيه ظهر مع جرنفيل عدة من أمراء البحر المشهورين مثل السير فرنسيس دريك ، والسير رالى ، وچون هوكنس وغيرهم . وكانت البحرية الاسبانية يومئذ فى أوج قوتها ، وكانت المعارك الهائلة تنشب بين الانكليز والاسبان باستمرار فى المياه الأوربية والمياه الأمريكية ، وتملأ سير هذه المعارك وتراجم أبطالها من الانكليز والاسبان أسفاراً بديعة تفيض بأغرب الحوادث حتى يخيل لقارئها أنه يتلو صحفاً من الخيال المغرق . وكتاب مستر بوشنل عن السير جرنفيل وعنوانه : Sir Richard Grenville أحد هذه الأسفار العجيبة التى تذكرنا بكل ما يحتويه القرن السادس عشر من الحوادث والمعارك البحرية المدهشة ومن أعمال البطولة الرائعة

وقد كان السير جرنفيل من أبناء كورنوال ، وظهر فى البحر منذ حداثته ، وقاد أول حملة بحرية إلى مياه فرجينيا (أمريكا) فى سنة ١٥٨٦ ، واشترك فى كثير من المعارك البحرية التى وقعت يومئذ بين الانكليز والاسبان ، وحارب أيضاً ضد الترك فى البحر الأبيض ، واشترك فى موقعة «الأرمادا» الشهيرة ضد الأسطول الأسبانى ؛ بيد أن أعظم موقعة خلدت اسم جرانفيل هى موقعة «آزورس» التى قتل فيها ؛ وكان يومئذ قائد سفينة «رفنچ» Revenge الشهيرة فى الحملة التى سارت بقيادة الأميرال توماس هوارد لضبط السفن الأسبانية القافلة من أمريكا محملة بالذهب والفضة ؛ وفى مياه «آزورس» نشبت المعركة ، وكان الأسطول الأسبانى يفوق السفن الانكليزية ضعفين . ولما رأى الانكليز ضعف مركزهم قرروا الانسحاب ، وكانت سفينة جرنفيل فى المؤخرة فاشتد عليها الضغط ، ولكنها لبثت تقاتل حتى آخر لحظة وجرنفيل يرفض التسليم حتى جرح جرحاً عميقاً ، وعندئذ سلمت برغم إرادته ، بيد أنها لم تسلم إلا بعد أن أغرقت عدة سفن أسبانية ؛ وتوفى جرنفيل بعد ذلك بساعات قلائل

هذه الحياة المضطربة الحافلة يعرضها مستر بوشنل عرضاً قوياً ممتعاً يخيل إليك عند تلاوته أنك تقرأ قصة رائعة الخيال

كتاب جديد لجون كنتل

مستر چون كنتل J. Kniettel من أكابر الكتاب السويسريين المعاصرين ، وهو من ضيوفنا الأجانب ، يستقر بمصر كل شتاء ويمتزج بالمجتمع المصرى ، ويعرف الكثير عن مصر وشؤونها ؛ وقد ساح كثيرا فى شمال أفريقيا ، وأقام حيناً فى مراكش وتونس ، وله خبرة واسعة بشؤون البلاد العربية وأحوالها السياسية والاجتماعية

وقد كان لهذا الاتصال بالأمم الشرقية وهذه المعرفة بأحوالها تأثير كبير فى توجيه كنتل الأدبى فى الأعوام الأخيرة ، وظهر هذا الأثر واضحاً فى روايته الدكتور ابراهيم Dr. Ibrahim التى صدرت فى العام الماضى ، وصدرت فى نفس الوقت بالألمانية بعنوان «El Hakim» ؛ فى هذه القصة التى اختار كنتل أبطالها من المصريين واختار مصر مسرحا لحوادثها يدلل كنتل على خبرته بشؤون القرية المصرية والمجتمع المصرى الريفى ، وأحوال المستشفيات المصرية ، وما هنالك فى ذلك المجتمع من مثالب وعيوب يجب اصلاحها

على أن جون كنتل لم ينس وطنه الأصلي حيث نشأ وترعرع فهو من أبناء مقاطعة « تسين » السويسرية ، وقد كتب عنها روايته الشهيرة «ڤيامالا» Via mala ؛ وهو يصدر الآن بالألمانية روايته الجديدة عن سويسرا ، « تريز انيين » Therese Etienne وصدرت أخيرا ببرلين عن مطبعة « كتر بجز » ومسرح هذه الرواية الجديدة هضاب ولاية « برن » وبطلتها فتاة من سويسرا الفرنسية من مقاطعة « ڤاليه » أو « ڤاليش » هي « تريز » وهي فتاة بائسة شريدة ، تجوب البلاد والطرقات باحثة مستجدية لقوتها ، ولكنها كانت فتية حسناء ، نحيلة القوام جذابة المحيا ؛ وفي ذات يوم بينما كانت تستجدي في إحدى ضياع برن لمحها قروي شيخ من أعيان الناحية فأشفق عليها وألحقها بخدمته وكان يحبوها بعطفه ، ولكن الخدم كانوا يكرهونها لحسنها وتأثيرها على السيد ؛ وأخيرا أحبها الشيخ وتزوجها ؛ ولكن الشيخ كان له ولد فتى يدرس في المدينة ، فلما عاد الى المنزل وألفى تريز هنالك شغف بها حبا ، وشغفت به حبا ؛ وذهب الهيام بتريز الى أن فكرت في التخلص من الوالد الشيخ ، فلم تجد سبيلاً غير الجريمة ، فقتلته ؛ ولكنها وقعت بين براثن القضاء ، واختتمت بذلك حياتها

هذا هو مجمل القصة الجديدة التي يخرجها جون كنتل ؛ وقد لوحظ أنها ضعيفة الخاتمة كما لوحظ ذلك في روايته الدكتور ابراهيم ؛ بيد أن كنتل يبدي فيها كما يبدي في معظم رواياته براعة فنية في العرض والوصف ، ولا سيما في عرض مجتمع القرية ، وسيدها الذي يتمتع بالحول والنفوذ

ولجون كنتل بالانكليزية عدة قصص شهيرة أخرى نذكر منها : Nile gold , Gypms wine , Into the Alyss , Midnight , Poepie ، وغيرها

الحرف V

أشارت هذه المجلة في أحد أعدادها الفائتة إلى ما وافق عليه المجمع اللغوي من الاصطلاحات في كتابة الأعلام الأعجمية ، وكان من ذلك الاصطلاح على كتابة الحرف v واواً بثلاث نقط فوقها عوضاً عن كتابته فاء بثلاث نقط ، وذلك لأن أهل المغرب يستعملون هذا الحرف للاشارة إلى حرف الجاف الخ

فاذا كان المراد هو توحيد الاصطلاحات ونفي الخلاف بين أهل اللغة الواحدة ، فلا معنى لمراعاة ما يستعمله أهل المغرب ولا أهل المشرق ، لأن الاصطلاح على شيء مع ابقاء خلافه ينافي المقصود من المهمة التي يعمل لها المجمع ، فيجب إذا حصل الاتفاق على شيء — مع مراعاة أنه لا بد من أخذ رأي جميع ممثلي الأقطار العربية — وجب نبذ خلافه وعدم اعتباره بعد ذلك أصلاً

على أن العلة المذكورة في عدول المجمع عن كتابة الحرف v بفاء منقوطة ثلاثاً غير صحيحة ، لأننا في المغرب نكتب الكاف بفاء منقوطة ثلاثاً ، بل الغالب عندنا كتابته بكاف ذات ثلاث نقط على ما اصطلح عليه المجمع ، وسبق إلى قريب من ذلك العلامة ابن خلدون . وبعض الناس عندنا يكتبه بقاف منقوطة كذلك بثلاث ؛ ولعل هذا ما اشتبه على أعضاء المجمع الكرام ، فظنوا القاف فاء ، مع أن الاشتباه بعيد ، إذ أن أهل المغرب ينقطون الفاء من تحت لا من فوق فلا اشتباه بينها وبين القاف

وعلى كل حال فان العدول عن كتابة v بالفاء لا موجب له إلا هذا التوهم الخاطئ ، ولا سيما والواو حرف غير معجم ، وقد اصطلح الناس قبل المجمع بكثير على كتابته بالفاء ، فعسى أن يتفضل المجمع بتعديل قراره بالنسبة إلى هذا الحرف ، وينظر في إدخال عضو جديد إلى هيئته من علماء المغرب

(المغرب) ع . ك

رباعيات عمر الخيام تعرض للبيع في لندن

ستباع في قاعة سوتبي في التاسع من نوفمبر أقدم نسخة خطية من رباعيات عمر الخيام وهي مكتوبة على خمس وعشرين ورقة مذهبة وعمرها أكثر من خمسة قرون

وكان يملكها رجل يدعى « محمد سالم » وجيء بها من لاهور منذ خمس سنوات إلى معرض الفن الفارسي ، والأرجح أن تبقى في انجلترا . وقد درس العلماء — من الشرق والغرب — الأوراق وقرروا أنها تلي في القدم نسخة أوزلي المكتوبة في سنة ١٤٦٠ وهي المكتبة البودلية وعنها ترجم فتزجرالد الرباعيات

ولا تزال هذه النسخة الأخرى كأزهى ما كانت عند ما كتبها « حافظ فرج الله » في بغداد سنة ١٤٧٣

وقد صينت نسخة « لاهور » على القرون ؛ وبعد كتابتها بمائتي عام أهداها « محمد شافعي » (كذا) إلى محمد مهدي بن موسى دهلي



صدى أحلامي

للآنسة الشاعرة جميلة العلايلي

بقلم الأديب محمود البدوي

ديوان صغير الحجم أنيق الشكل جيد الشعر عذبه ، فيه روح الفنانة الملهمة والشاعرة المطبوعة على قول الشعر دون تكلف ولاصنعة ولا محاكاة . . ولايعيبه كثرة ما فيه من نواح وشكوى وأنين فهذا كله لا بأس به إذا جاء من المرأة ، ومن فتاة كجميلة العلايلي فنانة بطبعها تعشق الحرية وتتعلق بالمثل العليا — التي لا تتحقق — وتحس بثقل البيئة الخانقة التي تكتم أنفاسها وتهيض جناحيها وتبدد أحلامها الذهبية وتذيب في صـــدرها أمانيها العذاب . . وفي الديوان قطع شعرية جزلة تحسد عليها ، وقصيدة تديرها الشاعرة دوران القصة القصيرة ، وهذا توجيه منها حسن ومقبول يحبب الشعر إلى نفوس القراء الذين انصرفوا عنه — مع الأسف — إلى القصة !

والقارئ لهذا الديوان سيشعر بعواطف المرأة الخالصة الصادقة الصريحة ، وهذا ما نطلبه من كل فتاة تحاول المحاولات الأدبية مثلها وتجاري الرجل في الفن . . فليست البراعة في تقليد الرجل في عواطفه ومشاعره وتفكيره وحبه ، وإنما البراعة في أن تبرز خصائص المرأة وتبدو أنوثتها قوية من خلال السطور ؛ والدنيا بأسرها تصفق اليوم « لفيكي باوم » لأنها تمتاز بالحنان .. الحنان الذي لا يعرفه الرجل . والذي يقرأ لكثير من فتياتنا المتأدبات يرى أن أقلام الرجال تجول في أعمالهن الأدبية وتصول ، وهذا عيب فاضح تضيع معه شخصية المرأة ، ولكن المرأة عندنا تحس بضعفها وعجزها وتستسلم للرجل حتى وإن ضيع شخصيتها وهي أسمى ما يمكن أن تعتز به

والدراسة القوية المتواصلة لبعض شعراء العرب العباسيين كالبحتري وابن الرومي والنواسي ، ولطائفة من شعراء الانجليز الخالدين كشيلي وبيرون وهاردي ووردزورث — وهذا عاشق للطبيعة كجميلة — سيصقل فنها وأسلوبها ، ويكسب شعرها الرنين الموسيقي الذي لا حياة للشعر بدونه ، ويوجهها التوجيه الذي نرجوه لهـا ، ويدفعها على توالي السنين إلى القمة

هذا ونحب أن تسقط الشاعرة من ديوانها — في طبعته الثانية — القصيدتين اللتين سمتهما الشعر المنثور فما نعرف لهذا الشعر الغث المرذول لوناً ولا طعماً حتى ولو كان قائله ابن الرومي

الواقع أن ديوان « صدى أحلامي » هو خير الجهود الأدبية الموفقة التي بذلتها فتاة في السنين الأخيرة وصاحبته تستحق عليه التهنئة القلبية الخالصة ... من بنات جنسها ! ! ؟

الحياة الجـــديدة

تأليف الأستاذ نقولا يوسف

للآنسة أمينة شاكر فهمي

لقد دفعني مقال الأستاذ دريني خشبة المنشور « بالرسالة » عن كتاب « الحياة الجديدة » للأستاذ نقولا يوسف إلى مطالعة الكتاب ودرسه درساً دقيقاً ، فدهشت جداً لمـا ذكر الأستاذ من محاسن الموضوعات وما أنكر عليه من طوبيات وتوحيـد وعالية ، دون أن يذكر شيئاً عما حاول المؤلف اثباته بقوة وبلاغة عن عدم صلاحية اللغة العربية للتمشي وأدب القرن العشرين . يخيل إلي أن الأستاذ دريني خشبة مرّ سهواً بقول المؤلف الفاضل في موضوعه «الأدب الجديد» صفحة ٩١ : «لم نعد اليوم في عصر الفراغ والعبث بالوقت نقتله فيخرج لنا الكتاب دواوين مطولة في السجع والتورية والكنايات والمجازات والاستعارات مما اكتظ به الأدب التقليدي الجامد القديم » . فلا يسعني إلا أن أنكر على المؤلف انتقاده المر للغتنا العربية وما بها من مجازات واستعارات وهي أجمل ما في لغتنا وأرقها

فهلا قرأت أجمل من فن العرب فى قول أحدهم :

ولما برزنا لتوديعهم بكوا لؤلؤاً وبكينا عقيقا
أداروا علينا كؤوس الفراق وهيهات من سكرها أن نفيقا
تولوا فاتبعتهم أدمعى فصاحوا الغريق وصحت الحريقا

أو قول بعضهم :

سألتها عن فؤادى أين موضعه فانه ضل عنى عند مسراها
قالت لدينا قلوب جمة جمعت فأيها أنت تعنى ؟ قلت أشقاها

لقد قرأت الكثير من دواوين الشعر الانجليزى والفرنسى فلم أجد أجمل ولا أدق تعبيراً من الشعر العربى القديم الذى تقول عنه يا سيدى فى كتابكم صفحة ١٩٣ : « إنه يشبه القبر المزين بالنقوش وفى جوفه الرمم »

إن التجديد يا سيدى الأستاذ لا يكون فى تغيير اللغة وتشويهها ، بل فى تغيير الأفكار والنزعات والأخلاق . إنه ليؤلمنى جدا أن أقرأ لأحد كتابنا النابغين المجددن المصريين قوله : « إن الأدب العربى القديم محتاج إلى زركشة اللفظ وزخرف الكنايات ليسترا عيبه وقبحه » ، فهل تعد جمال اللفظ والمعنى زخرفا ؟ وطرافة التورية وبساطتها زركشة ؟

فما قولك فى قول ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأس وهى شمس يديرها . . . .

وما قولك فى الأدب العصرى الحديث ، كقول الأستاذ عبد الرحمن شكرى فى قصيدته « البحر » :

ألا ليتنى لج كلجك زاخر أعب كما تهوى النهى والبصائر
خريرك يحكى صدحة الدهر صامتاً
كأنك دهر بالحوادث مائر

وقوله :

فلعل الحياة كالماء تجرى بين هذا الثرى وبين السماء

وقول الأستاذ محمود محمد شاكر فى قصيدته « حيرة » :

أتنهانى عن الجزع الليالى وما تنفك تتركنى مصابا ؟ !
فتسلبنى الأحبة عن عيان وتمنحنى بذكرهم عذابا

لذا تجد يا سيدى أن اللغة العربية ليست بقاصرة عن التعبير ووصف حياتنا المصرية . إننى يا أستاذى لست ممن يدين بالرجعية والتمسك بالقديم ولكنى فى كل ما قرأت من لغات أجنبية لم أجد أجمل ولا أقوى من لغتنا العربية القديمة . وأراك يا سيدى تعيب على العرب وضعهم مائة اسم للأسد ومائتين للجمل كأن لم يكتب العرب شيئاً إلا أسماء الأسد والجمل

لقد دهشت لقولك فى « الحياة الجديدة » صفحة ١٣٥ : « ولسنا نجهل مركز الأدب العربى بين تلك الآداب وهو الأدب الذى تتخذه مصر لها أدباً قومياً حتى اليوم ، وهو لا يمت إلينا بصلة ولا بنسب ، فنحن لا نتحادث فى حياتنا اليومية بلغته الفصحى . . . » إننى والحق يا سيدى عاجزة عن الرد على هذا القول ، وإننى أترك الرد لأدبائنا الأفاضل . فهل نفهم من ذلك أن اللغة العربية الفصحى ليست بلغتنا وأننا يجب أن نتكلم بلغة أخرى ؟ وأى لغة يا ترى تشير بها علينا : الهيروغلفية أم الانكليزية أم العربية العامية ؟ عفواً ياسيدى ومعذرة ، فاننى لا أقصد التهكم أو الانتقاد ، ولكن آلمنى جداً احتقاركم للغتنا العربية بكل ما فيها من جمال وقوة . وبالرغم من كل هذا فانه لا يسعنى إلا أن أبدى إعجابى الوافر بكل ما حوى الكتاب من بحوث علمية وعالية ، ودفاعكم الحار عن الفلاح المصرى ، وقولكم : « إذا أنصفنا أخانا الفلاح فانما ننصف البلاد المصرية كلها » وكم كنت أود لو أذكر كل فصل على حدة لما جمع كل منها من أبحاث قيمة ودرس عميق وتحليل سيكولوجى دقيق وإحصائية مدهشة عن تاريخ تقدم العلم فى سبيل الوقاية من الأوبئة الفتاكة التى اجتاحت فى القرن الماضى عدداً عظيما من سكان العالم . أما بحث عدة النجاح فى العصر الجديد » فهو فصل ممتع وأبحاث قيمة دقيقة عن تاريخ أجناس الشعوب المختلفة وتطور الأديان والعلوم والفنون ونشأتها فى كل الأمم ، ويختم مقاله بقوله : « كذا الفن كالعلم والأدب لا وطن له ولا لغة لأنه ينبثق من النفس البشرية ويعود اليها »

وهو — على طول الخط — يدل على ثقافة المؤلف الواسعة ودرسه التحليلى العميق . ولقد أعجبت جداً بفصول المؤلف الخيالية ، وخصوصاً فصل « مصر بعد خمسة قرون » إذ جمع بين الخيال الواسع والحقيقة والنبوءة . كما أبدع فى التحدث عن فلسفة الجمال والحياة فى فصل « فن الحياة » و « البشرية » . أما تأملاتكم ياسيدى « على شاطئ البحر » فهى من أجمل وأرق ما قرأت فى الخيال ، وأخص بالذكر منها قولكم « وما تلك الفترات التى يسعد فيها بنو البشر إلا لحظات مختلسة فى غفلة الزمن لا بد أن ندفع لها ثمناً غالياً »

العالم المسرحي والسينمائي

موسم الفرقة القومية الجديد

مع حديث للأستاذ طاهر حقي

لمحرر «الرسالة» الفني

في مجلس يضم بعض كبار المشتغلين بالمسرح جرت أحاديث الموسم المقبل على الألسنة ، فمن قائل إنه عادى ، ومن قائل إنه مزدهر ، وأصحاب الرأى الأخير يستندون إلى قيام أكثر من فرقة واحدة تعمل إلى جانب الفرقة القومية وما سيجره قيام هذه الفرق من منافسة قوية

فالى جانب الفرقة القومية تقوم فرقة رمسيس وقد بدأت عملها هذا الأسبوع برحلة إلى الأقاليم ؛ وتتكون في هذه الأيام فرقة فاطمه رشدى للسفر إلى العراق وسوف تستأنف العمل في القاهرة بعد عودتها . وهنالك فرقة استعراضية ألفتها السيدة بديعة مصابني ، ثم فرقة مختار عثمان ، هذا إلى جانب فرقة الريحاني التي تبدأ متأخرة كعادتها

وقد خطر لى أثناء الحديث أن أوجه بعض الأسئلة عن الفرقة القومية ومبلغ استعدادها للموسم الجديد إلى سكرتيرها الأستاذ طاهر حقي وهو كما يعرف القراء من الأدباء الذين اشتغلوا بالمسرح من زمن بعيد ، وقد أخرجت له أكبر الفرق المصرية فيما مضى أكثر من رواية تمثيلية نالت نصيباً كبيراً من التوفيق والنجاح ، فآراؤه في المسرح لها قيمتها

قلت : « ما هو مدى النجاح الذى تتوقعه للفرقة القومية في الموسم الجديد ؟ وإلى أي شيء يعزى ؟ » فأجاب قائلاً : « إني أتوقع للفرقة نجاحاً هائلاً في الموسم الجديد ، لأن استعدادنا تام من جميع النواحي ؛ فالنظام يسود أعمال الفرقة من انتقاء للروايات ، إلى توزيع الأدوار على الممثلين توزيعاً عادلاً بحيث ينال كل ممثل الدور الذى يليق به ويصلح له ، إلى حفظ الممثلين لأدوارهم . ولا أظنك تجهل قرار اللجنة بأن تسير الفرقة في التمثيل على القاعدة الانجليزية التي تقضى على الممثلين بأن يستظهروا أدوارهم ويشتغلوا دون ملقن ، وفي رأيي أن هذه الطريقة ستخطو بالمسرح خطوات واسعة إذ تجعل الممثل يعتمد على نفسه ويدرس دوره دراسة كافية ، فلا إهمال بعد اليوم اعتماداً على الملقن

قلت : « ما رأيك في المنافسة بين الفرقة والفرق الأخرى ؟ »

قال : أعفني من هذا السؤال . إن بضاعتنا غير بضاعة الفرق الأخرى ، فالفرقة القومية قامت للنهوض بالمسرح ، ونحن ننشد الفن الخالص والأدب الرفيع لا نهتم بكسب مادى أو نجاح اسمى ؛ ولكني أقول إن الفرقة القومية ترحب بكل منافسة وهى على استعداد لمساعدة الهيئات والنوادى والجمعيات بكل ما يبيحه لها قانونها

قلت : « هل لك أن تبدى رأيا في الروايات التي وقع عليها الاختيار للموسم الجديد ، وفي قيمة هذه الروايات الأدبية والفنية »

فأجاب قائلاً : « إن الموسم سيكون حافلاً بروايات منتقاة بعناية زائدة وهى بين مصرية مؤلفة وأجنبية ممصرة أو مترجمة

فأما الروايات المؤلفة فهى من قلم أدباء معروفين ، وقد حازت رضاء أعضاء اللجنة وهم كما تعرف من زعماء الأدب العربي ، ولا أظن الجمهور إلا معجباً بهذه الروايات . ويسرني أن أقول إن الفرقة

أما فصول الساعات مع نوابغ الأدب الشعرى والفلسفى والعلمى مثل تاجور وشللى وملتون وويلز وغيرهم فهى مجموعة ثمينة جدا عن تاريخهم وكتاباتهم وفلسفاتهم . ولكن فات حضرة الأستاذ أن يذكرنا بساعة مع شوقي أو حافظ ابرهيم

وأخيرا أضم صوتي الى حضرة الأستاذ د . خ . وأقول إن بحوث «الحياة الجديدة» دسمة غزيرة الفكر . فهى مجموعة ثمينة جامعة بين جمال الخيال ودرس التاريخ وتحليل للعصر الجديد دقيق ، وتراجم متقنة للأدب القديم والحديث ، وهو حقيقة يكاد لا يكون له نظير في مكتباتنا العربية .

أمينه

القومية قد فتحت الطريق أمام ذوى العقول الخالقة المنتجة ليخرجوا إلى عالم الأدب والفن روايات هادئة لا تحوى طعانا ولا تقتيلاً ولا أحاديث ثائرة عنيفة تصدم الأعصاب وتلهب الحواس، بل تحوى أحاديث هادئة فيها من الجمال ما يصدم الأعصاب ويبعثها على التأمل والاعتبار، وتعالج الشؤون الاجتماعية التى تشغل الرأى العام وتوجه تيار المدنية إلى الناحية التى تجدى على البيت والأسرة

والروايات الممصرة مأخوذة عن روايات أجنبية لأكبر الكتاب نالت فى بلادها من النجاح ما جعل شركات السينما تتهافت على اقتباسها . وقد بذل الكتاب المصريون مجهوداً كبيرا فى تمصيرها حتى أصبحت وكأنها مصرية الفكرة والموضوع والحوادث . ولا شك أن هذه الروايات ستنال رضا رواد المسرح كما تنال رضا الأدباء . أما الروايات المترجمة ، فهى من روائع الأدب الأوربى الحديث ، وقد أخرجت على أكبر مسارح أوربا . ولم نوجه أنظارنا عند الاختيار إلى ناحية المسرح الفرنسى وحده كما كانت الحال فيما مضى ، بل كان الاختيار موزعا بين الأدب الروسى والانجليزى والألمانى والفرنسى . وليس بين الروايات واحدة لكاتب مغمور ، بل جميع الروايات لكتاب معروفين فى بلادهم والبلاد الأخرى ، فالموسم كما ترى حافل ، حافل

قلت : ومتى تبدأ الفرقة عملها ، ومتى ينتظر إنشاء المعهد ؟

قال : ليس لدى قرار أستند اليه ، فلجنة المسرح التى يرأسها صاحب المعالى حافظ عفيفى باشا هى التى تقرر ذلك ؛ وينتظر أن تجتمع بعد عودة معاليه من اثينا قريباً . على أنى أعتقد أن الافتتاح سيكون فى النصف الثانى من شهر نوفمبر ، وذلك ريثما تتم الاصلاحات القائمة فى دار الأوبرا . ومن المنتظر أن يشرف حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول حفظه الله دار الأوبرا ويشهد أكثر من رواية . أما المعهد وارسال البعوث إلى أوربا فقد أرجىء البت فيهما لحين مجىء المخرج الفرنسى الذى استدعته اللجنة ليعاونها فى تنظيم المسرح المصرى

قلت : على ذكر هذا المخرج أو الخبير الفرنسى ، هل تعتقد أن فى مجيئه فائدة كبيرة ، وفى أى ناحية يفيدنا ، وإلى أى مدى ؟

فأجاب : « ليس من شك فى أن آراء الخبراء ذات قيمة كبيرة ، فان لهؤلاء الرجال من الخبرة ما يجعلهم جديرين بأبداء الآراء التى تؤدى إلى الاصلاح السريع . وقد يرى بعض الناس أن مسرحنا مصرى ، فكيف يستطيع هذا المخرج ، وهو أجنبى عنا لم يدرس أدبنا العربى ولم يعرف خلقنا المصرى ، أن يساهم فى رقى المسرح وتنظيمه ، ولكن الواقع يا صديقى أن المسرح لم يكن يوما مصرياً أو عربياً ، وهو ليس من أدبنا بل منقول عن الغرب ورجال الغرب أجدر بارشادنا إلى الاصلاح

وقد عانى المسرح فى فرنسا بعض مايعانيه مسرحنا المصرى ، وقد بذلت جهود عديدة لاقالته من عثرته وقد وفق القوم هناك . فمجىء هذا المخرج سيفيدنا دون ريب ، وأعتقد أنه سوف يشير باجراء اصلاحات كبيرة فى مسرح دار الأوبرا سيكون لها شأن غير قليل فى تسهيل مهمة المخرج المصرى »

« يوسف »

السينما

اليـد السوداء

اخراج استكمان الصغير

دار العرض ، سينما النهضة

لست أدرى لم اختار المؤلف للفلم هذا الاسم المخيف الذى يبعث الرعب فى نفوس رواد السينما ويمنعهم من الاقبال على مشاهدته فى حين أن التسمية لا تتفق مع غرض القصة وموضوعها وروحها ولا تتصل بها كبير اتصال . فالناقد يرى بجلاء أن الحوادث العنيفة والمؤامرات بالشكل الذى عرضت به تجعل الجزء المضحك غير مرتبط بالجزء الآخر حتى ليبدو العنف دخيلاً على قصة الفلم ، وفى رأيى أن نجاح الفلم يكون مضاعفاً لو أن المؤلف عالج قصته على أنها كوميدية فقط

وليس للقارىء من فائدة فى تلخيص هذا الفلم إلا أن يأخذ عنه فكرة سيئة ، مع أن الواقع أن الفلم ظريف ومضحك وهو من نوع روايات الجزائرلى ولكنه أرقى موضوعاً

قام عبد النبى محمد بالدور الأول ، وعبد النبى محمد من الممثلين المسرحيين المعروفين ، وقد أدى دوره بنجاح كبير ؛ وأعتقد أن الشركة التى عهدت إليه بهذا الدور سوف تستغله فى أدوار أخرى . وقامت السيدة عقيلة راتب بدور البطلة فكانت موفقة هى الأخرى . وأبدى مختار حسين مجهوداً كبيراً ولكن طبيعة جسمه تجعله لا يصلح لتمثيل دور رجل الشرطة السرى لا سيما وأنه كان يبدو دون نحف . ونصيحتى للمخرج ألا يختار الأسماء وحدها ، بل الشخصية التى تصلح للدور ، وما أقوله فى مختار أقوله فى حامد مرسى فلم يكن هو الآخر ناجحاً فى دوره النجاح المنتظر .

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧٤ — ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 174

Lundi - 2 - 11 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المدبولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

السنة الرابعة « القاهرة في يوم الاثنين ١٧ شعبان سنة ١٣٥٥ — ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٦ » العـــدد ١٧٤

فهرس العـــدد

حماســـة الشعب *

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وحدثني صاحب سر (م) باشا قال : لما رجع سعد باشا من أوربا في سنة ١٩٢١ كانت الأمة في استقباله كأنها طائر مد جناحيه لا خلاف لشيء منه على شيء منــه ، بل كله هو كله ؛ وكانت المعارضة في الاستحالة يومئذ كاستحالة وجود رقعة في ريش الطائر

على أن ثوبَ السياسة المصرية كثير الرُّقع دائماً بالجديد والخلق . فرقعةٌ من المعارضين ، وأخرى من المتعنتين ، وثالثة من المتخاذلين ، ورابعة من المادين ، وخامسة وسادسة وسابعة من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوة الخلاف ، ورقاع بعد ذلك مما نعلم وما لا نعلم ، فان من العجيب أن هذا الجو الذي لا يتقلب إلا بطيئاً يتقلب أهله بسرعة ، وهذه الطبيعة التي لا تكاد تختلف لا يكاد أهلها يتفقون

ولكن سعداً رحمه الله رجع من أوربا رجعة الكرامة لأمة

* هذا فصل من أحاديث الباشا وكنا قد نسيناه

كاملة ، ففاز بأنه لم يخسر شيئاً من الحق ، وانتصر بأنه لم يهزم ، ودل على ثباته بأنه لم يتزعزع ، وذهب صولةً ورجع صولةً وعزيمة ؛ فكان إيمان الشعب هو الذى يتلقاه ، وكانت الثورة هى التى تحتفل به ، وبطلت العلل كلها فلم يجد الاعتراض ما يعترض عليه ، وانفقت الأسباب فاجتمعت الكلمة ، وظهر سعد كأنه روح الأمة متمثلاً فى قدرة ، حاكما بقوة ، متسلطاً بيقين ....

نعم لم ينتصر البطل ولكن الأمة احتفت به لأنه يمثل فيها كمالاً من نوع آخر هو سرُّ الانتصار ، فكانت حماسة الشعب فى ذلك اليوم حماسة المبدأ التمكن يُظهر شجاعة الحياة وفورة العزائم وفضيلة الاخلاص وشدة الصولة وعناد التصميم ، ويثبت بقوة ظاهره قوة باطنة ، وكان فرح الأمة عناداً سياسياً بفرح بأنه لا نزال قوياً لم يضعف ، وكان ابتهاجُها مجداً يشعر بأنه لا يزال وافراً لم يُنتقص ، وكان الاجماع رداً على اليأس ، وكانت الحماسةُ رداً على الضعف

انبعثت صولةُ الحياة فى الشعب كله وابتدأ المستقبل من يومئذ ، فلو نزلت الملائكة من السماء فى سحابة مجلجلة يُسمع تسبيحهم ليؤيدوا سعداً — لما زادوه شيئاً ؛ فقد كان محله من القلوب كأنه العقيدة ، وكان التصديق مبذولاً له كأنه الكلمة الأخيرة ، وكانت الطاعةُ موقوفة عليه كأنه الباعث الطبيعى ، وكان البطل فى كل ذلك يشبه نبياً من قِبل أن كلا منهما صورة كاملة للسمو فى أفكار أمة

***

قال صاحب السر : ورجع الباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مسامحة النفوس وصحة العهد واجتماع الكلمة وإعداد الشعب للمراس والمعاناة فقال :

تالله لقد أثبت (سعد) للدنيا كلها أن مصر الجبارة متى شاءت بنت الرجالَ على طريقة الهرم الأكبر فى العظمة والشهرة والمنزلة والقوة . ولقد صنع هذا الرجل العظيم ما تصنع حربٌ كبيرة فجمع الأمة كلها على معنى واحد لا يتناقض ، ودفعها بروح قومية واحدة لا تختلف ، وجعل عرق السياسة يفور كما يفور العرق المجروح بالدم

إن هذه الأمة بين شيئين لا ثالث لها : إما الحزم الى الآخر وإما الاضاعة . ولا حزم إلا أن يبقى الشعبُ كما ظهر اليوم طوفاناً حياً مستوىَ الطبيعة مندفعَ الحركة غامراً كلَّ ما يعترضه الى أن يُقضىَ الأمر ويقولَ أعداؤنا يا سماء أقلعى

هكذا يعمل الوطن مع أهله كأنه شخص حىٌ بينهم حين يستوى الجميع فى الثقة ، ويتآزر الجميع فى الأمل ، ويشترك الجميع فى العطف الروحى ، ولا يبقى لجماعة منهم حظ فى رغبة غير الرغبة الواحدة للجميع ؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله

كان أعداؤنا يحسبوننا ذباباً سياسياً لاشأن له إلا بفضَلات السياسة ولا عمل له فى أزهارها وأثمارها وعطرها وحلواها ؛ فأسمعهم الشعبُ اليوم طنين النحل وأراهم إبَرَ النحل ، ليعلموا أن الأزهار والأثمار والعطر والحلوى هى له بالطبيعة

وكانوا يتخرّصون أن مذهبنا فى الحياة لمصلحة المعاش فقط ، وأن المصرى حاكما أو محكوماً لا يمدُّ آماله الوطنية الى أبعد من مدة عمره سبعين أو ثمانين سنة ، فاذا أطلقوا أيديَنا فى حاضر الأمة أطلقنا أيديَهم فى مستقبلها . ومن ثم طمعوا أن يكون الحق الناقص فى نفسه حقاً تاماً فى أنفسنا لهذه العلة ؛ وحسبوا أن السياسى المصرى لا يتجرأ أن يقول ما يقوله السياسى الأوربى من أنه لا يخشى الموت ولكنه يخشى العار ، فانه إذا مات مات وحده ، وإذا جلب العار جلبه على نفسه وعلى أمته وعلى تاريخ أمته بَيْد أن سعدا قالها ؛ وفى مثل هذا قد يكون قول (لا) معركة

وها هى ذى معركة اليوم التاريخية ، فأن الذرات الحية التى تخلق من دمائنا نحن المصريين قد ثارت فى هذه الدماء فى هذا النهار تعلن أنها لا ترضى أن تولد مقيدة بقيود[1]

أندرى ماذا عرضوا على سعد ؟ إنهم عرضوا عليه ما يشبه فى السخرية طاحونة تامة الأدوات والآلات من آخر طراز ، ثم لا تقدم لها إلا حبةُ قمح واحدة لتطحنها .... نتيجة تسخر من أسبابها وأسباب تهزأ بالنتيجة

إن أوربا لا تحترم إلا من يحملها على احترامه ، فما أدرى

(١) لا ينس القارىء أن هذا كان فى سنة ١٩٢١

للسياسيين فى هذا الشرق عملا أفضل ولا أقوى ولا أردّ بالفائدة من إحياء الحماسة فى كل شعب شرقى ، ثم حياطتها وحسن توجيهها ؛ فهذه الحماسة الشعبية الدائمة القوية البصيرة هى قوة الرفض لما يجب أن يرفض ، وقوة التأييد لما يجب أن يُقبل وهى تعد ذلك وسيلة جمع الأمر وإحكام الشأن وإقرار العزيمة فى الأخلاق وتربية الثقة بالنفس ، وبها يكون إذكاء الحس وتعويده إدراكَ الأعمال العظيمة والتحمس لها والبذل فيها

وما علة العلل فينا إلا ضعف الحماسة الشعبية فى الشرق وسوء تدبيرها وقبح سياستها ، وإنا لنأخذ عن الأوربيين من نظامهم وأساليبهم وسياستهم وعلومهم وفنونهم فنأخذ كل ذلك بروحنا الفاترة فى خمول وإهمال وتواكل وتفرُّد بالمصلحة واستبداد بالرأى ، فاذا دينارهم فى أيدينا درهم ، وإذا نحن وإياهم فى الشيء الواحد كالنحلة والذبابة على زهرة

ليست لنا حماسةُ الحياة وبهذا تختلف أعمالُنا وأعمالهم ، وذلك هو السر أيضاً فى أن أكثر حماستنا كلامية محضة إذ يكون الصراخ والصياح والتشدُّق ونحوها من هذه المظاهر الفارغة — تنفيحاً للطبيعة الساكنة فينا وتنويماً منها بغير أن نجهدَ فى التنفيح والتنويع . ومن هـذا كانت لنا أنواع من الكلام ينطلق اللسان فيها للخروج من الصمت لا غير .... ومنه كثير من هـذا الهراء السياسى الذى يدور فى المجالس والأحزاب والصحف

إن حماسة الشعب لا تكون على أعدائه فقط بل على معايبه أيضاً وعلى ضعفه بخاصة . والشعب الفاتر فى حماسته لو نال حقين مغصوبين لعاد فخسر أحدهما أو كليهما ؛ أما الشعبُ المتحمسُ القويُّ فى حماسته ، فلو غُصِبَ حقين ونال أحدهما لعاد فابتزّ الآخر

طنطا مصطفى صادق الرافعي

إلى المؤلف الصغير : وصلت رسالتك يا بنى وأرى لك أن تنتظر عشرين سنة ثم تؤلفها مرة أخرى ....

الرافعى

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

— ٢ —

أثيرت مشكلة الوحى فى العالم العربى منذ بدأ النبى صلى الله عليه وسلم دعوته . فكفار قريش ما كانوا يريدون أن يقبلوا أن محمد بن عبد الله يَنْزل عليه وحى سماوى ، وكثيرا ما رددوا جملتهم التهكمية المشهورة : هذا ابن أبى كبشة يُكلَّم من السماء . واستبعدوا عليه كل البعد أن يتصل بالعالم الآلهى وهو بشر مثلهم يأكل ويشرب ويتردد الى الحوانيت والأسواق : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ؛ لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى اليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منهـا » بيد أن معجزاته بهرتهم وفصاحته أفحمتهم وهم أهل القول واللسن ، وزعماء البلاغة والبيان . فأخذوا يتهمونه تارة بالسحر والشعوذة ، وأخرى بالكهانة والتنجيم ؛ وعزوا اليه قوى خفيـة لا حصر لها . ولم يكن له من جواب على هذه الدعاوى الباطلة والاتهامات القاسية إلا أن يقول : « ما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلى » . فهو لا يجيء بشيء من عنـده ، ولا يفترى عليهم الكذب ، وإنما يبلغ رسالة الله : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليـك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدى القوم الكافرين » .

ونظرية الاسـلام فى الوحى وطرائقه سهلة واضحة . فهناك ملك خاص هو جبريل عليه السلام ، قادر على التشكل بأشكال مختلفة شأن الملائكة الآخرين ؛ وكل وظيفته تتلخص فى أنه واسطة بين الله وانبيائه . وعنه تلقى محمد صلى الله عليه وسلم كل الأوامر الدينية ، اللهم إلا فى ليلة المعراج فقد اتصل بربه مباشرة واستمع ما فُرض عليه وعلى أمته . ويجب أن نشير كذلك الى أن الأحلام وسيلة من وسائل الكشف والالهام ، فان النفوس الطاهرة تصعد أثناء النوم الى عالم الملكوت ، حيث تقف على الأمور الخفية والحقائق الغامضة . وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبدأ دعوته أحلاما آذنت بمهمته ، وكانت ارهاصا لنبوته

وبشيرا برسالته : والرؤيا الصادقة جزء من أربعين جزءاً من أجزاء النبوة . وفي القرآن الكريم سورة كاملة تشرح الأحلام وأثرها في التنبؤ بالغيب ، ونعني بها سورة يوسف

لم يتردد رجال الاسلام في الصدر الأول مطلقا في التسليم بهذه الوسائل الخاصة بالوحي والالهام . ولم يحاول واحد منهم أن يسأل عن النبوة في سرها وأساسها ، ولا عن المعجزات في عللها وأسبابها . وآمنوا إيماناً صادقاً بكل ما جاء من عند الله دون بحث أو تعليل . وقد عنوا منذ الفجر الأول للاسلام بالرؤيا وتعبيرها ووضعوا في ذلك أبحاثا مستقلة لم تلبث أن كونت علما خاصا . وإنا لنجد بين التابعين تلك الشخصية الجليلة المعروفة بين رواة الحديث ، وهي شخصية ابن سيرين التي كانت تعد حجة في تأويل الأحلام وتفسيرها . وعلَّ هذا في الغالب هو السر في أن المتأخرين نسبوا اليها في هذا الباب كتباً ليست من صنعها [1]

بيد أن هذا التسليم الهادئ لم يطل أمده ، وهذا الاذعان الفطري لم يبق في مأمن من الشكوك والأوهام . فقد اختلط المسلمون بعناصر أجنبية مختلفة نفثت فيهم كثيرا من سمومها ، ولم تدع أصلا من أصول دينهم إلا وضعته موضع النقد والتشكيك والتضليل . ولا غرو فقد كانت هذه العناصر موتورة من الدين الذي ألغى أديانها ومن الحضارة الجديدة التي سلبتها مجدها وعزها . لهذا تألبت في كل جموعها ، وأخذت تحارب الاسلام بشتى الوسائل لتثأر لنفسها ودينها وتسترد نفوذها وسلطانها ، ولكنها عبثا حاولت وباءت بالخيبة والفشل : « انا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون » . فالمزدكية والمانوية من الفرس ، وأنصارهم من زنادقة العرب ، بدأوا في القرن الثاني للهجرة ينشرون دعوة التثنية ويهدمون فكرة التوحيد التي قام عليها الاسلام . وكلنا يعلم خبر بشار بن برد وصالح بن عبدالقدوس الثنويين اللذين كانت لهما مجالس خاصة تذاع فيها الآراء المزدكية والمانوية [2] السُّمنيَّة وغيرهم من براهمة الهند أخذوا في ذلك العهد نفسه ينادون بتناسخ الأرواح ، وينكرون النبوة والأنبياء ، ولا يرون حاجة البشر اليهم . وصاحب الأغاني يقص علينا حديث جرير بن حازم الأزدي السمني وما كان بينه وبين عمر بن عبيد في البصرة من حوار ونقاش [1] . وملأ اليهود كتب الحديث والتفسير باسرائيلياتهم ، وقالوا بالرجعة والتشبيه وخلق القرآن كما قالوا بخلق التوراة من قبل [2] . وأرسل آباء الكنيسة على المسلمين شواظا من أسئلتهم واعتراضاتهم المتعلقة بمشكلة الجبر والاختيار فزادوها تعقيدا ، وشغلوا الناس بها فوق عرفهم ومألوفهم ، وذهبوا الى إنكار أبدية عذاب النار فقال الجهم بن صفوان معهم إن الجنة والنار يفنيان ويفنى أهلهما [3] واجترأ الدهرية على أن ينكروا البارىء جل شأنه والعقاب والمسؤولية ، وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر

وقد سل المعتزلة وغيرهم من مفكري الاسلام لهؤلاء وهؤلاء سيف الحجة والبرهان وجادلوهم جدالا قد لا نجد له نظيرا في تاريخ الأديان الأخرى . فأبلى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بلاء حسناً في معارضة بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس . وناظر أبو الهذيل العلاف الثنوية في البصرة وهدى بعضهم الى الاسلام . وكان للنظام ، وهو أحذق الجدليين في الشرق ، قدم صادقة في مناقشة الزنادقة والدهرية والديصانية . ثم جاء من بعده تلميذه الجاحظ فسار على سنته ، وبذل في هذا النضال همة طائلة ومهارة فائقة ، واستعان عليه باطلاعه الواسع واسلوبه العذب وقلمه السيال [4] . وفي كتاب الانتصار لأبي الحسين الخياط المعتزلي الذي طبع في مصر أخيرا تفاصيل كثيرة عن هذه الملاحم الكلامية والمعارك الجدلية . وكثر الحوار بين المسلمين والنصارى من جانب وبين المسلمين واليهود من جانب آخر . وأخذت طائفة من الاسماعيلية على عاتقها رد شبه مفكري النبوة والأنبياء ومعجزاتهم . وفي اختصار كان القرنان الثالث والرابع للهجرة — أو التاسع والعاشر للميلاد — ميدانا فسيحا لجدال عنيف شمل معظم أصول الاسلام ومبادئه

وليس هناك شك في أن التسليم بالوحي والمعجزة ألزم هذه الأصول وأوجبها ؛ فان منكري النبوة ينقضون الدين من أساسه ويهدمون الحضارة الاسلامية كلها . وعلى الرغم مما في هذه

(1) Encyc. de l'Islam, II, 449

(2) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٥٧

(1) الأغاني ، ج ٣ ص ٢٤

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٦٧ — الشهرستاني ، الملل ، ج ١ ص ٨٥ — ٨٦

(3) ابن حزم ، الفصل ، ج ٤ ، ص ٨٣

(4) نيبرج ، الانتصار ، مقدمة ، ص ٥٤ — ٥٨

الدعوى من جرأة وفى هذا الموقف من تهجم ، فانا نجد بين المسلمين من وقفوه . ودون أن نعرض لكل من خاضوا غمار هذا الموضوع فى القرنين الثالث والرابع للهجرة نشير الى رجلين : هما أحمد بن اسحق الراوندى ومحمد بن زكريا الرازى الطبيب .

فأما الأول فشخصية غريبة للغاية ، ولا يعرف بالدقة تاريخ مولده ولا وفاته ، ويغلب على الظن أنه مات فى أخريات القرن الثالث . وهو من أصل يهودى نشأ فى راوند قرب اصبهان ، ثم سكن بغداد واتصل بالمعتزلة ، وكان من حذاقهم ، وعده المرتضى بين طبقتهم الثامنة (١) . إلا أنه لم يلبث أن خرج عليهم لأسباب لم يجلها التاريخ بعد ، وحمل عليهم ، بل وعلى الاسلام وتعاليمه المختلفة ، حملة عنيفة . ولازم الملحدين واتصل بهم اتصالاً وثيقاً . ويظهر أنه أضحى دسيسة ضد المسلمين يدبر لهم المكائد ويُستأجر للطعن عليهم وينشر فيهم عناصر الزيغ والالحاد . ولم يخف أمره على بعض اليهود المخلصين الذين حذروا المسلمين منه وقالوا لهم : ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا (٢) . وقد كتب كتباً كثيرة كلها انتقاص للاسلام ورجاله ؛ منها كتاب فضيحة المعتزلة فى الرد على كتاب فضيلة المعتزلة ، الذى وضعه الجاحظ من قبل ، وكتاب الدامغ يعارض به القرآن ، وكتاب الفرند فى الطعن على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكتاب الزمردة فى انكار الرسل وابطال رسالتهم (٣) . والكتاب الأخير يعنينا بوجه خاص فانه يعطينا فكرة عن مسألة النبوة ، وكيف كانت تثار فى ذلك العهد . وقد بقى هذا الكتاب مجهولا الى زمن قريب ؛ ويرجع الفضل فى التعريف عنه الى صديقنا المسيو كراوس الذى اهتدى اليه فى مخطوطة من المخطوطات الاسماعيلية الموجودة فى الهند ، وهذه المخطوطة ليست إلا جزءاً من المجالس المؤيدية المنسوبة الى المؤيد فى الدين هبة الله بن أبى عمران الشيرازى داعى الدعاة الاسماعيلى أيام الخليفة الفاطمى المنتصر بالله(٤) وتشتمل المجالس المؤيدية فى جملتها على ٨٠٠ محاضرة

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٣٨ — ٣٩ — المرتضى : المنية والأمل ، ص ٥٣

(٢) معاهد التنصيص ، جـ ١ ، ص ٧٦ — ٧٧

(٣) نيبرج ، الانتصار ، ص ٣٢ — ٣٧

(٤) P. Kraus, Beiträge zur isla michen Ketzerges chichte, in Rivista (1934), p. 94

ألقيت فى « دار العلم » بالقاهرة فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ودرست فيها المشاكل الاسلامية على اختلافها (١) . وفى المجلس السابع عشر من المائة الخامسة الى المجلس الثانى والعشرين يعرض المحاضر لأقوال الراوندى فى الطعن على النبوة ويعقب عليها بالنقض والرد . وهذه المجالس الستة هى التى نشرها المسيو كراوس وترجمها الى الألمانية وعلق عليها تعليقاً ضافياً يدل على اطلاعه الواسع وبحثه العميق فى مجلة الرفستا الايطالية سنة ١٩٣٤ (٢) . فهى لا تحوى كتاب الزمردة فى مجموعه ، بل فقرات منه تولى الاسماعيلية مناقشتها وإظهار ما فيها من خطأ ومغالطة . وقد صيغت هذه المناقشة فى قالب مشوق جذاب ، وإن تكن مسجعة سجعاً ثقيلاً أحيانا . وفيها دفاع وردود عقلية هى أثر من آثار الثقافة الاسماعيلية المترامية الأطراف . ولا يتسع المقام لعرض هذه المناقشة فى تفصيلها ؛ وسنكتفى بأن نستخلص دعاوى ابن الراوندى واعتراضاته

قد يكون أول شىء يلحظه المطلع على هذا الحوار هو ما فى ابن الراوندى من حذق ومهارة ومكر ودهاء . يقف موقفاً بعيداً عن التحيز — ولو فى الظاهر على الأقل — كى يجتذب اليه كل القراء ، فهو لا يتعرض للنبوة بالنفى والانكار فقط ، بل يناقش موضوعها مناقشة حرة طليقة يأتى فيها على أقوال المثبتين والمنكرين . وكم نأسف لأن صاحب المجالس المؤيدية أهمل جانب الاثبات فى هذه القضية (٣) . ولو وافانا به لاستطعنا أن نحكم فى وضوح ما إذا كان واضع كتاب الزمردة يكيل بكيلين . على أن هناك ظاهرة أخرى تؤيد أن ابن الراوندى يمعن فى الدهاء والمكر ؛ فهو يعلن فى أول بحثه أنه لا يعمل شيئا سوى أنه يردد أقوالا جرت على ألســـنة البراهمة ، فى رد النبوات (٤) . وسواء أكانت هذه الأقوال من آثار الفكر الهندى أم من اختراع ابن الراوندى فهى تتلخص فيما يلى : إنكار للنبوات عامة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، نقد لبعض تعاليم الاسلام وعباداته ، ثم رفض فى شىء من التهكم للمعجزات فى جملتها . فأما الرسل فلا حاجة إليهم لأن الله قد منح خلقه عقولاً يميزون بها

(١) Hamdaui, The Hist. of the Js mâ'îlì Da'wat, p p, 126—139.

(٢) Kraus, Rivisto, 96—109,110—120

(٣) Ibid. p. 96

(٤) Ibid.

الخير من الشر ويفصلون الحق عن الباطل ، وفى هدى العقـل ما يغنى عن كل رسالة . يقول ابن الراوندى : « إن البراهمة يقولون إنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه ، وأنه هو الذى يُعرف به الرب ونعمه ، ومن أجله صح الأمر والنهى والترغيب والترهيب . فان كان الرسول يأتى مؤكداً لما فيه من التحسين والتقبيح والايجاب والحظر ، فساقط عنا النظر فى حجتـه واجابة دعوته ؛ إذ قد غنينا بما فى العقل عنه ، والارسال على هذا الوجـه خطأ . وإن كان بخلاف ما فى العقـل من التحسين والتقبيح والاطلاق والحظر فحينئذ يسقط عنا الاقرار بنبوته [(١)] » . وسيراً فى هذا الطريق العقلى المزعوم يرى ابن الراوندى أن بعض تعاليم الدين منافٍ لمبادئ العقـل ، كالصلاة والغسل والطواف ورمى الحجارة والسعى بين الصفا والمروة اللذين هما حجران لا ينفعان ولا يضران . على أنهما لا يختلفان عن أبى قبيس وحراء فى شىء ، فلم امتازا على غيرهما ؟ وزيادة على هذا أليس الطواف بالـكعبة كالطواف بغيرها من البيوت [(٢)] ؟ والمعجزات أخيراً غير مقبولة فى جملتها ولا فى تفاصيلها ؛ ومن الجائز أن يكون رواتها ، وهم شرذمة قليلة ، قد تواطأوا على الـكذب فيها . فمن ذا الذى يسلم أن الحصى يسبح أو أن الذئب يتكلم [(٣)] ؛ ومن هم هؤلاء الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة نبيه ؟ يظهر أنهم كانوا مفلولى الشوكة قليلى البطش ، فانهم على كثرتهم واجتماع أيديهم وأيدى المسلمين معهم لم يقتلوا أكثر من سبعين رجلاً . وأين كانت الملائكة يوم أحد حين توارى النبى صلى الله عليه وسلم بين القتلى ولم ينصره أحد [(٤)] ؟ وبلاغة القرآن على تسليمها ليست بالأمر الخارق للعادة ، فانه لا يمتنع أن تـكون قبيلة من العرب أفصح من القبائل كلها ، ويكون فى هذه القبيلة طائفة أفصح من البقية ، ويكون فى هذه الطائفة واحـد هو أفصحها . وهب أن محمداً صلى الله عليه وسلم غالب العرب فى فصاحتهم وغلبهم ، فما حكمه على العجم الذين لا يعرفون هذا اللسان وما حجته عليهم [(٥)] ؟

لسنا فى حاجة مطلقاً لأن نرد على هذه الشبه الواهية والدعاوى الباطلة ، وسيدرك القارىء بنفسه ما فيها من تضليل ومغالطة .

ولا نظننا فى حاجة كذلك إلى سرد الدفاع المجيد الذى دبجه يراع الاسماعيلية ضدها ، وفى مقدور كل باحث أن يرد عليها بآرائه الخاصة وأفكاره المستقلة ؛ وكل ما نريد أن نلاحظه هو أن ابن الراوندى يردد نغمة ألفناها لدى المعتزلة من قبل . فهو ينادى بالحسن والقبح العقليين ، ويذكرنا بذلك السؤال الذى وضعته مدرسة المعتزلة لأول مرة وهو : هل الايمان واجب بالشرع أو بالعقل ؟ بيد أن المعتزلة المخلصين لم يستخدموا العقل هـذا الاستخدام السىء ، وبذلوا جهـدهم فى أن يوفقوا بينه وبين الدين ، وأن يردوا على شبه الزنادقة والملحدين بكل ما أوتوا من حجة بينة وبرهان قاطع . ومسألة العقل والنقل هى عقدة العقد ومشكلة المشاكل فى ذلك العهد ! وسنعرف فيما يلى كيف استطاع الباحثون الآخرون حلها

(يتبع) ابرهيم مدكور

(١) Idid. 90 (٢) Ibid. 99. (٣) Ibid. 101
(٤) Ibid. 105 — 106 (٥) Ibid., 102

صور سياح

٥ – فرنسا وباريس
الحريات المتطرفة
وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية
بقلم سائح متجول

ليس بين أمم العالم أكثر ترديداً لكلمات الحرية والإخاء والمساواة من فرنسا

ولا غرو فقد كانت الثورة الفرنسية مهد الحريات الديمقراطية في أوربا، ومنها انبثق فجر الديمقراطية الأوربية الحديثة، وفيها تقررت حقوق الانسان، وكانت صيحة الحرية والإخاء والمساواة أقدس شعائرها

وقد خاضت الأمة الفرنسية كثيراً من الحوادث والخطوب وبذلت كثيراً من دمائها للاحتفاظ بذلك التراث المقدس: تراث الثورة الفرنسية، وتراث الحريات الديمقراطية؛ وما زالت فرنسا على رغم الحوادث والخطوب حصن الديمقراطية في أوربا، وما زال شعارها المقدس: «الإخاء والحرية والمساواة» ترقمه على نقدها، وعلى جميع دورها العامة، وتقرؤه في كل مكان وكل مناسبة

ولا ريب أن الحريات العامة والحريات الشخصية أكثر توفرا في فرنسا منها في أي بلد أوربي آخر؛ حرية القول والكتابة، وحرية التصرف، في حدود القوانين طبعاً؛ وفي فرنسا يعقد أي اجتماع، ويلقى أي خطاب، وينشر أي كتاب أو مقال سياسي أو اجتماعي، دون أن تتدخل السلطات أو تعترض إلا ما كان واقعاً تحت طائلة القانون، أو ما كان ينذر فعلاً بتكدير الأمن العام

هذا في فرنسا فقط؛ ولكن فرنسا تفهم الحريات خارج فرنسا فهماً آخر؛ والسياسة الفرنسية لا تطيق أن تسمع لفظ الحرية في شمال أفريقية مثلاً أو في غيرها من الأملاك والمستعمرات، ولها وسائلها الخاصة في اخماد كل نزعة أو حركة حرة، وفي سحق كل رأي حر

ولكن ذلك لا يمنع أن تكون فرنسا ذاتها بلد الحريات المتطرفة، بل إن أولئك الذين يسلبون حرية الرأي والتصرف في بلادهم يجدون في فرنسا ملاذاً لهذه الحريات

والحرية أسمى ما يتمتع به الانسان، وأثمن ما تزدان به الكرامة الانسانية، ولكن التطرف في فهمها وتطبيقها يخرجها أحياناً عن دائرة المعاني الرفيعة التي قصدت اليها، وعندئذ تغدو ابتذالاً وخروجاً على النظم والقوانين، وأحياناً على الحشمة والحياء

وقد وصلت الحريات السياسية في فرنسا إلى حدود التطرف والاغراق، ووصلت الحريات الاجتماعية إلى حدود الاباحة والابتذال

وإنه ليكفي أن نتتبع مايقع في فرنسا كل يوم من مظاهرات واعتصابات عنيفة، وما يحيط المعارك والمناقشات الحزبية فيها من مناظر الاضطراب والفوضى، وما تتكشف عنه حياتها ونظمها العامة من ألوان الفساد والضعف في تكرار الفضائح المالية والسياسية المثيرة، لنحكم بأن هذه الصورة من النظم الديمقراطية التي تقدمها الينا فرنسا ليست من أفضل صور الديمقراطية وأحبها

وفي وسع السائح المتجول أن يلمح كثيراً من ألوان الفوضى السياسية في فرنسا، في أقوال الصحف وفي مناقشات الأفراد، وفيما يعرض للبيع من النشرات السياسية والشيوعية التي تسمم الآراء وتذكي الشهوات والأحقاد. ولقد حدث ونحن في باريس في الأيام الأولى لاضطرام الثورة الاسبانية أن هب فريق كبير من الصحافة البارزية يتهم الحكومة الفرنسية بأنها ترسل الذخائر والطيارات سراً إلى حكومة مدريد، وأنها بذلك تزيد نار الثورة ضراما وتعرض السلام للخطر، فاضطرت الحكومة أن تصدر بلاغا رسمياً تنكر فيه هذه الوقائع، واضطرت بعد ذلك أن تثير مسألة عدم التدخل في الحوادث الاسبانية، هذا بينما انتهزت الدول الفاشستية (ايطاليا وألمانيا) كل فرصة لامداد الثوار بكل صنوف المعاونة في الوقت الذي لبثت تتظاهر فيه

بقبول فكرة عدم التدخل ؛ وهكذا افسدت الصحافة برعونتها على الحكومة موقفها وسياستها

وفى فرنسا اليوم حزب شيوعى قوى يحتل أربعة وسبعين كرسياً من كراسى البرلمان ، ويبث دعايته فى عدة صحف ونشرات قوية فى مقدمتها جريدة « الأومانتيه » التى أسسها جان جوريس ، ويكتب فيها اليوم أشهر الكتاب والنواب الشيوعيين مثل مارسل كاشان ، وبول لوى ، وفايان كوتربيه ، وموريس توريز وغيرهم

وكثيراً ما سمعنا ، عندما نشبت الثورة فى اسبانيا ، أن فرنسا قد تضطرم عما قريب بمثل تلك الثورة ، إذا لم تعمل الحكومة لتحسين الأجور وتأمين العمال على حقوقهم ورفاهتهم ، كنا نسمع ذلك فى مقاهى باريس ومطاعمها وشوارعها

* * *

وكما أن الحريات السياسية تتخذ ألواناً من التطرف والافراط فكذلك الحريات الاجتماعية فى فرنسا

ولا ريب أن معظم المجتمعات الأوربية تتمتع بحريات اجتماعية واسعة ، ترجع الى نظام المجتمع ذاته ، والى ما تتمتع به المرأة من حريات مطلقة ، كما ترجع الى روح القوانين ، والى فهم المبادىء الاخلاقية ومعيار الحياء بطرق وأساليب خاصة

ولكن لا ريب أيضاً أن فهم الحريات الاجتماعية يتخذ فى فرنسا ألواناً من التطرف قد لا يسيغها كثير من المجتمعات الأوربية ، كما يتخذ التساهل فى فهم معيار الحياء ألواناً تستهجنها المجتمعات الأخرى

مثال ذلك مناظر العرى التى حدثناك عنها فى مقال سابق ؛ ففى باريس تنتشر مسارح العرى ؛ وتعرض المناظر والرقصات العارية فى أفخم مسارح باريس مثل الفولى برجير والكازينو دى بارى ، ويعلن عنها فى أكبر الصحف مثل الطان والفيجارو والجورنال والماتان وغيرها ، وتعرض أسراب الراقصات العاريات بلاحرج ، ويعتقد القضاء أن هذا الضرب من التمثيل العارى عمل فنى لا اعتراض عليه ، ويتحدث النقدة الفنيون فى الصحف المحترمة عن نجاح مس جوان وارنر « ملكة العراء المطلق » وعن رقصاتها العارية

وفى باريس تصدر مجلات جنسية كثيرة ، ويكتب بعضها بأساليب مثيرة ، وينشر صورا عارية ، واعلانات غرامية هى اتجار مكشوف بالحب ، ولنمثل لذلك بمجلة « فرو فرو » التى ربما كانت أكثر تحفظا من غيرها ، كذلك تعرض الكتب الجنسية بكثرة فى المكاتب ومع الباعة وتلقى رواجا مدهشا

وفى باريس ترى مناظر الحب فى النهار وفى الليل ، فى الشارع وفى الحديقة ، وفى القهى ، وفى المترو ؛ ومن المناظر العادية أن ترى فتى وفتاة يتبادلان القبلات الحارة وقد أمسك الفتى بخصر الفتاة ، أو يتبادلان العناق المضطرم ؛ ترى ذلك فى أى وقت وأى مكان ، وتراه بنوع خاص فى أقبية المترو ، وفى المترو ذاته ، ولا يمنع ذلك أن يكون وسط الجمهور الحاشد ، والأعين ترمقهما من كل صوب ؛ بل ترى فى أقبية المترو ، فى المنعطفات المستترة أو حين ينسدل الظلام كثيرا من المناظر الغرامية المريبة

وتكثر مثل هذه المناظر المثيرة أو المريبة مساء فى منعطفات مونمارتر وبيجال وكليشى وفى المراقص والحانات الليلية

ولا تختص باريس وحدها بهذه المناظر الاباحية ، فقد رأيت فى الجنوب أثناء انتظارى بمحطة ناربون جماعة رياضية من طلبة الجامعات شبانا وفتيات وقد ارتدى الجميع الثياب الرياضية واشترك الفتيات فى ارتداء السراويل القصيرة التى تترك الساقين عاريين ؛ وفى أثناء انتظار القطار جاءت الفتيات فجلست كل واحدة منهن فى حجر فتى ، وساقاها العاريتان على ساقيه العاريتين وأخذ الجميع ينشدون النشيد الجمهورى ، وقد طوق كل فتى فتاته بلا حرج

ولكن من الانصاف أن نقول إن الطبقات الدنيا هى التى تذهب فى فهم الحب والحريات الاجتماعية الى هذا الابتذال المثير

على أننا نعرف كما يعرف الذين زاروا العواصم الأوربية الأخرى أن رقص العراء المطلق لا يسمح به إلا فى باريس ، وأنه يندر أن ترى فى غيرها من العواصم مثل هذا الابتذال العلنى فى مناظر الحب والغرام ، أو مثل هذه المجلات والكتب الجنسية التى تغمر باريس

وإذا كانت الحريات الاجتماعية فى برلين وفينا مثلاً لا تقل إطلاقا وتسامحاً عنها فى باريس ، فان معيار الحياء يرتفع فيهما

كثيرا عنه فى باريس ؛ ومن النادر أن ترى فى الشارع أو الحديقة أو الترام أمثال هذه المناظر الغرامية المكشوفة التى تراها فى باريس

وإذا كانت باريس قد اشتهرت دائما باللهو الخليع ، فتلك شهرة فى محلها ، وباريس تموج بالملاهى الخليعة من كل ضرب ، وتغمرها بالليل ريح شاملة من المرح الخليع ، ومن الغريب أن هذه الملاهى يعلن عنها بمنتهى البراعة ، وتصور فى اعلاناتها وبرامجها كأنها أروع ما انتهى اليه الفن ؛ فاذا ازدلفت اليها منيت بخيبة الأمل ، ورأيت الابتذال بعينه ، وأدركت ما فى هذه الدعاية الخلابة من ختل وتضليل

* * *

ولقد تحدثوا كثيراً عن سحر البارزية وأناقتها ورشاقتها ؛ ونحن نستميح عشاق العاصمة الفرنسية عذراً ، إذا قلنا إننا لم نستطع أن نكتشف فى البارزية كثيراً من هذا السحر وهاته الأناقة ؛ فالمرأة البارزية تعتمد فى جمالها وسحرها على المظاهر والصناعة أكثر مما تعتمد على الحقيقة ؛ وهى تكثر من صباغة الشعر والأظافر وتفرط فى استعمال المساحيق ؛ والشقرة هى لون الشعر المحبوب فى باريس ، ولكنها شقرة صناعية فى الغالب ؛ والواقع أن البارزية لا تتمتع بذلك اللون الوردى الباهر الذى تتمتع به الانكليزية أو النمسوية مثلاً ، بل يغلب عليها اللون الثلجى أو اللون الباهت ، فتعمد فى تجميله إلى الصناعة ؛ ويبدو عناء التجمل فى وجهها دائماً ؛ وأما عن الأناقة فان البارزية لا تتمتع منها بقسط كبير ، فهى تميل إلى الأزياء المعقدة أو الغريبة ، وتكثر من الألوان بلا تناسق ؛ والخلاصة أن البارزية تعشق المظاهر ، وتفرط فى التجمل ، وتعتمد على الصناعة ؛ بيد أنها تتمتع مع ذلك بخفة روح لا شك فيها

وإن أولئك الذين عرفوا فينا وباريس معاً ، يعرفون كم تحوى فينا من الجمال النسوى الرائع ، وأى صباحة ورشاقة وأناقة طبيعية تتمتع بها الفتاة النمسوية ، وأى فرق شاسع بين هذا السحر الطبيعى وبين ذلك السحر الصناعى الذى تلجأ إليه البارزية فى تكلف وعناء

ويصح أن نشير هنا إلى مسألة الصحة العامة والنظافة الشعبية ، فقد لاحظنا أن الصحة العامة ليست فى أوجها ، وأن الشباب لا يتمتع بكثير من النضرة ومظاهر القوة والفتوة ؛ وتبدو مظاهر السقم والعناء على وجوه الطبقات العاملة من رجال ونساء ؛ وقد لاحظنا فوق ذلك أن هذه الطبقات وربما بعض الطبقات الوسطى أيضاً لا تعنى كثيراً بمسألة النظافة ؛ وإنه ليكفى أن تركب المترو ظهرا أو مساء حين يكتظ بالعمال والمستخدمين لتدرك هذه الحقيقة ، ولاتشذ عن ذلك أسراب الفتيات الحسان ؛ وربما كان فى ظروف حياة هذه الطبقات ما يفسر هذه الظاهرة ، فالنظافة تحتاج الى كثير من النفقة ، والاستحمام فى باريس ترف يصعب على الفقراء الاكثار منه ؛ وفى الفنادق المتوسطة قد يكتفى بغرفة حمام واحدة فى طبقات الفندق كلها ؛ والغرفة ذات الحمام الخاص ترف رفيع لا يسمع به إلا فى الفنادق الارستقراطية ؛ وهذه حقائق لا يصعب على السائح اكتشافها

* * *

والى هنا نقف فى حديثنا عن باريس وعن الحياة البارزية والمجتمع البارزى ؛ ولقد قلنا فى بدء هذه الفصول إننا لاندعى الوصول إلى أعماق المسائل والشؤون ، واننا إنما ندون حقائق وملاحظات انتهينا اليها بالتجوال والمشاهدة ، وأحيانا بالتجارب والدرس ؛ وقد حفزنا الى كتابة هذه الفصول ما سبق أن نوهنا به فى البداية وهو أننا ما زلنا نقرأ بالعربية عن فرنسا وعن باريس كتبا وفصولا يطبعها الاغراق والمبالغة فى التغنى بمحاسن العاصمة الفرنسية وكل ما فى الحياة الفرنسية ؛ وها نحن أولاء قد حاولنا بهذه الفصول المتواضعة أن نقدم بعض الحقائق والصور حسبما رأينا وشعرنا بعيدا عن كل إغراق ومبالغة ؛ وربما كانت باريس بالأمس أعظم فتنة وأشد سحرا منها اليوم ، وربما فقدت العاصمة الفرنسية كثيرا من هذا السحر بفعل الظروف والتقلبات الاقتصادية والاجتماعية ، ولكنا نصرح مخلصين أننا لم نشعر أن لباريس هذا السحر الفياض الذى ينسب لها ، أو أن لها تلك الفتنة التى أملت على كثير من كتابنا تلك الفصول الوردية الرنانة . هذا ومما يبعث الى الغبطة أن كثيرا من الأصدقاء البارزين الذين عرفوا باريس وعرفوا حياتها ومجتمعاتها أكثر مما عرفنا ، يقرون كثيرا من هذه الصور التى قدمناها والملاحظات التى أبديناها

(يتبع) (***)

في الأدب المقارن

الخـــــرافة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تفشو الخرافة — وهي الاعتقاد بالمستحيل عقلاً — بين الجماعات الأولية ، حتى تشمل دياناتهم وعلومهم وفنونهم القليلة ، وعرفهم وتقاليدهم ، لأن تلك الجماعات في نشأتها كالطفل في صغره ، قليلة الادراك للأسباب والمسببات ، سريعة الانقياد للعواطف والأوهام والمخاوف ، فلا تلبث أن تنمو بينها شتى الأساطير ، تفسر بها قوى الطبيعة ومظاهرها ، وتمجد بها أسلافها ، وتدعم كيان مجتمعها . هكذا كان لقدماء المصريين خرافاتهم المتعلقة بواديهم ونهرهم ، وآلهتهم وفراعنتهم ؛ وكانت لليونان والرومان أساطيرهم التي تدور حول أعمال آلهتهم وحروبها ، وحبها وغضبها

وكانت للعرب خرافات شتى ، انتزعت من حياتهم البادية ، وما توحي إلى النفس من رهبة وبأس ، بفلواتها وحزونها ، وسباعها وأنوائها ، وحيكت حول الآلهة والجن والغيلان ، وحول أبطالهم وملوكهم وغابر دولهم ، وتناولتها الأجيال المتعاقبة بالزيادة والتهويل ، والتغيير والتبديل ، في حوادثها ومشاهدها

وكانت للانجليز في عهود همجيتهم أساطير متشعبة ، مشتقة من حياة أهل الشمال ، المضطربة بين ظلمات الأحراج ومتون البحار ، حافلة بأخبار هجراتهم وغزواتهم ، ممتلئة بأوصاف شياطين البر والبحر ، ممجدة لبلاء ملوكهم أمثال الملك أرثر ، وألفرد الأكبر ، في دفع هجمات المغيرين الذين تعاوروا الجزيرة على كر العصور ، من رومان وسكسون ونرمانديين ؛ وتمازجت أساطير كل هؤلاء ، واختلط مسيحيها بوثنيها ، وجنوبيها بشماليها

والخرافة على ما بها من مجاوزة للمنطق وتهويل وتحريف واستحالة — لا تقل عن حوادث التاريخ صدقاً في وصف أحوال المجتمع الذي هي وليدته ، والبيئة التي هي نتاجها ؛ فالخرافة العربية التي نمت في البادية ، مثلاً ، ملأى بذكر الغيلان والسعالي والعنقاء ، وبأسماء العدّائين الذين يسبقون الظباء ، والحديدي النظر الذين يرون القادم والمغير من رأس أميال ، كزرقاء اليمامة . والخرافة الانجليزية التي ترعرعت في الغابة ودرجت على أثباج اليم حافلة بحكايات عرائس الغاب وآلهة البحار ، ومناظر الغسق والضباب

على أن الخرافتين تلتقيان ، والمخيلتين تتقابلان في نواح ، حتى لتخال إحداهما صدى للأخرى أو محاكاة لها ، لولا بعد الأمتين في تاريخهما بعداً يحول دون كل محاكاة أو اقتباس ؛ فأخبار تأبط شراً ، وسليك بن السلكة وأشباههما من شذاذ العرب وطريدي العرف والمجتمع ، مماثلة لحكايات روبن هود وأصحابه الذين كانوا يعيشون على اقتناص الظباء في غابات ملك انجلترا ؛ وقصة مقتل أحد أقيال اليمن على يد أخيه الطامع في عرشه ، التي وردت في كتب الأدب العربي وروى فيها شعر لشاعر يدعى ذا رُعَيْن ، منه قوله :

فأما حِمْيَرٌ غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذي رعين

واستشارة الخائن للعرّافين قبل اقتراف جريمته ، والخدعة الحربية التي لجأ اليها جيش ابن الملك القتيل من استتار كل مقاتل بشجرة اقتلعها في طريقه وحملها أمامه ، حتى بدا الجيش كأنه غابة تسير ؛ كل ذلك مشابه للحوادث التي اتخذها شكسبير موضوعاً لروايته ما كبث ، والتي تدور حول مصرع بعض ملوك اسكتلندا ، وهي بلاد تشبه بوعورتها واستقلالها وبأسها وتأثيرها في عقول أهل انجلترا ، حالة اليمن في جزيرة العرب ؛ وقد عبثت الخرافة بكلتا القصتين ونمقتهما بمظاهر السحر والتنبؤ بالغيب

حتى إذا ما ارتقت الجماعة البشرية ، وأخذت بأسباب العلم الصحيح ، وعرفت الفلسفة المنطقية ، واعتنقت ديناً راقياً ، فترت حماستها لخرافاتها القديمة ، وقلّ تصديقها لها ، وسخر منها العلماء والفلاسفة والأتقياء ، وهبطت إلى طبقة العامة ، فوجدت فيهم وحدهم أمناءها الأوفياء ، يتوارثونها كما توارثها آباؤهم من قبل ، وتروى من نفوسهم ما لا تروى العلوم الجافة ، فهم يؤثرونها على تلك العلوم ، ويمزجون رواياتها بحقائق العلم

تارة ، ويخلطون عقائدها بعقائد دينهم الجديد الراقى تارة أخرى

على أن أكثر الأمم ، كاليونان والرومان وأمم أوربا الحديثة ، حين بلغت طور نضجها العلمى والدينى ، لم تنبذ خرافات طفولتها ظهرياً ، وإن بطل تصديقها برواياتها ، وذهب إيمانها بخوارقها ومعجزاتها ، ولكنها اتخذتها غذاء دسماً للعلم والفن ؛ فجعلها العلم موضع فحصه وبحثه وتنقيبه ، وأقامها مقام الشك حتى تثبت البينة على ما فيها من بذور الصدق ؛ واستمد منها النحت والتصوير والشعر والنثر مادة لا تفنى للتفنن فى الوصف والتأمل والتجوال فى مشاهد الحياة ومرامى التاريخ ومنازع النفس الانسانية

ذاك أن أكثر تلك الخرافات – على ما بها من وهم ومغالاة – تحوى ما لا يُحصر من صفات الجمال ومظاهر الروعة ، ودلائل العظمة ، وأحاديث البطولة والمخاطرة التى يغرم بها الطبع الانسانى ، وصور الفضائل والرذائل ، التى يرتاح الانسان إلى رؤيتها مصورة معروضة ، كما أن تلك الخرافات ، بما تقص من وقائع بعيدة العهد وتعرض من مشاهد نازحة المزار ، تروى فى النفس حب البعيد والشغف بالماضى القديم والولوع بالمثل الأعلى ، وهى النزعة التى تعرف فى الانجليزية بالرومانس ؛ زد على ذلك أن استعارة مشاهد تلك الخرافات ووقائعها وأسماءها فى الوصف ، يكسب التشبيه قوة ووضوحاً . فما أجود قول امرئ القيس ، وليت الشعراء أكثروا الضرب على وتيرته :

أيقتلنى والمشرفىُّ مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال ؟

لذلك حفل الأدب الانجليزى بالخرافات الانجليزية ، وما تحوى من جسائم الأعمال وبدائع الصور ، كحروب الملك أرثر ومغامرات فرسان المائدة المستديرة ، تلك التى كانت وحياً لسبنسر وتنيسون فى أجود قصيدها . ولم يكتف الأدباء بخرافاتهم الوطنية ، فاصطنعوا خرافات اليونان والرومان ، وتحدثوا طويلاً عن آلهتهم واقتبسوا كثيراً من الالياذة والأوديسة ؛ وزاد غيرهم فاستعاروا خرافات كل من عرفوا أو سمعوا عنهم من أمم الغرب والشرق : فاتخذ ملتون لقصيدته الكبيرة شمسون الجبار موضوعاً عبرانياً ، وتحدث تنيسون عن هارون الرشيد ، وطار كولردج على جناح الخيال إلى قصر قبلاى خان عاهل الصين . أما شكسبير فاستعار مواضيع رواياته من كل ما أصاب من تراث الأمم لا فرق بين تاريخيها وخرافيها ، ورصعها بما كان لا يزال يساور أهل جيله من اعتقاد فى عجائب السحر والمعجزات

ومن الأدباء من لم يكفه كل هذا المدد الزاخر من غرائب الأساطير وأفانين خيال الأقدمين ، فأطلق لخياله هو نفسه العنان ، وابتكر مواضيع لقصائده من صنعة الوهم ، وحلاها بروائع الصور وممتع الخطرات ، كما فعل كولردج فى خريدته الملاح القديم ، وبروننج فى فريدته تشايلد رولاند ، وتوماس هود فى أنشودته أينس الحسناء ، وكما صنع سويفت فى كتابه العالى الصيت « رحلات جليفر »

ألفى أدباء الانجليزية فى أرجاء تلك الخرافات ، مجالاً رحباً لفنهم وخيالاً ، وتحريراً لأفكارهم من عقال الحقائق المتحجرة ، وغذاء لعقولهم الجوالة فى مظاهر الكون وشـــؤون الخلق ، المستطلعة إلى المجهول ، ووسيلة لتصوير المناظر الطبيعية ، بين جبال ووهاد ، وغياض ومياه ، ورصعوا أشعارهم فى كل ذلك وكتاباتهم بأشتات الآراء ، فى المسائل التى كانت تشغل أذهان معاصريهم ، ولوَّنوا خرافات الأجيال المتقادمة بألوان أجيالهم ومجتمعهم الذى عاشوا فى مضطربه

أما موقف العرب من خرافات أسلافهم – حين اعتنقوا دينهم الحنيف وتحضروا وتثقفوا – فكان غير هـذا : فقد أعرضوا عنها ترفعاً وازدراء ، ولم يحفظوا منها إلا ما كان أشبه بالصدق ، وما دار حول يوم عظيم من أيامهم ، أو شاد بمجد بعض قبائلهم . وفى تلك الحال كانت الروايات تُختلق اختلاقاً ، ويُبذَل الجهد لوسمها بميسم الصدق . ولما اطلع العرب على ثقافات الأمم الأخرى من يونان وفرس وهند ، لم يهتموا إلا بما صدَّقوه من تواريخهم ، وما استملحوه من حِكَمهم وأمثالهم ، ولم يَعنَّ لأحد من الأدباء أن يستخدم الخرافة مادة لفنه ، أو يستعير ما فيها من جمال وروعة ليفيد بهما أدبه

وغاية ما يذكر فى هذا الباب ، أن بعض الأدباء – كابن دريد أطلق لخياله شيئاً قليلاً من الحرية ، ومضى يخترع الروايات والنوادر ، يفسر بها بعض الأمثال السائرة المنحدرة من عهود الجاهلية ، كقولهم « عند جهينة الخبر اليقين » ، و « الصيف ضيعت اللبن » ، و « جزاء سنمار » ؛ وقد أخرج من صنعوا ذلك أحاديثهم مخرج الحق ، وأسندوا بعضها ، كى يضمنوا لها الرواج بين المتأدبين ، كما أن أصحاب المقامات الذين أسلسوا لخيالهم

المنان قليلاً حرصوا على ألا يبعدوا كثيراً عن حيز الامكان ، لئلا يُعرض عنهم أولو الألباب

ذلك بأن العرب كانوا شديدى الحرص على العلم الصحيح حيث ثقفوه ، موكلين بالصدق التاريخي ، زاهدين جدا فى الأساطير وجمحات الخيال ، وهو خلق أورثهم إياه دينهم منذ اعتنقوه ، فانه وإن أثبت وجود الجان وائتمارهم بأمر سليمان ، واستماع نفر منهم إلى القرآن ، قد أوسع أساطير الأولين سخراً واستخفافاً ؛ وكثيراً ماجمع بينها وبين الشِرك ، وهو قد جَبَّ ما قبله مما هو شبيه بالكفر والزيغ ، ودعا المؤمنين إلى التفكير فى خلق السموات والأرض ، وطلب العلم الصحيح ، فلا غرو أن زهد المسلمون فى تخريف الجاهليين وأوهامهم ؛ وقد زادهم نفرة من الأساطير ومختلق الأقاصيص ما تنبهوا اليه من جرأة بعض الدخلاء والمغرضين على الأحاديث النبوية ، يخترعونها ويفسرونها بما تمليه أهواؤهم

زد على ذلك أن الاسلام قد حرم الخمر ، وهو تحريم راعته أغلبية الأمة ، وإن تجاوزه بعض الشعراء ، بل الخلفاء والكبراء . وهذا الامساك عن السكر قد كسب الأمة عامة صفات التؤدة والصحو والتوقر والاحجام عن مجاراة الخيال ، والتحليق فى فضاء الأوهام ؛ وطبيعة بلادهم ذاتها تبث هذا الصحو فى طبائعهم ، فانها فى الغالب مصحية سريعة التحول من وضح النهار إلى حلك الظلام ، لا تطول بها كما تطول فى البلاد الشمالية فترات ذلك التحول ، من غلس وغسق ، ولا يكثر بها انتشار الضباب الذى يحجب الأشياء إلا أشباحها ويوقع فى النفس التوجس والوهم ، والخرافة الانجليزية حافلة بتلك المشاهد بين غلس وغسق وضباب

كل ذلك جعل متقفى المسلمين سريعين إلى إنكار الخوارق ونبذ الاغراب والسخرية من المغربين ، فدعبل الخزاعى مثلاً يهزأ ملياً بنفر من قبيلته ذاتها زعموا أن أحد أجدادهم حادث ذئباً ، فهو يقول :

يُهنِّم علينا بأن الذئب كلمكم فقد لعمرى أبوكم كلم الذيبا
فكيف لو كلم الليث الهصور ؟ إذن أفنيتم الناس ما كولا ومشروبا

ومن جهة أخرى لم يحس أدباء العربية كبير حاجة إلى ذلك الضرب من الأدب ، يحفزهم إلى التأول فى الدين وتمييز ما نهى عنه مما لم ينه ، فهم لم يكونوا شديدى الولع بتقصى مناظر الطبيعة وتصويرها ، فيتوسلوا للتفنن فى ذلك بالطيران على أجنحة الخيال إلى شتى المناظر والأودية والشطآن ؛ ولا كانوا شديدى التوفر على نقد أحوال عصورهم السياسية والاجتماعية ، فينتزعوا لذلك الصور من خرافات الأقدمين مماثلة لصور مجتمعهم ؛ أضف إلى ذلك ما لازم الأدب العربى دائماً من نزعة محافظة وولع بمحاكاة بدائع المتقدمين ، ولعاً لا طموح معه إلى تجديد شديد المباينة لمناهجهم فى الأدب

تلك هى العوامل التى صرفت أدباء العربية عن الاحتفال بالأساطير ، وجعلتهم جميعاً يسلكون الطريق « المباشر » للافصاح عن خواطرهم ، طريقة القصائد المتوسطة الطول ، والأبيات المحكمة الموجزة ، ورائدهم قول قائلهم :

وإنَّ أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته : صدقا

وقد رُوى أن سهل بن أبى غالب صنَّف كتاباً فى سير الجن وأحوالهم ورفعه إلى الرشيد ، فقال له الخليفة : إن كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجباً ، وإن كنت اخترعت ما رأيته فقد وضعت أدباً . ولكن أحداً من معاصرى ذلك المؤلف أو من جاءوا بعده لم يحفل بهذا الضرب من الأدب ، وأهمل الكتاب حتى ضاع

أُقصيت الخرافة عن حظيرة الأدب العربى ، وتُركت للعامة يخففون بالاستماع اليها أعباء عيشهم ، ويُسرُّون بالانصات إلى مغامراتها ومصاولاتها هموم حياتهم المتشابهة الرتيبة ، ويلونها لهم القُصَّاص بألوان الدول المتعاقبة والأحوال المتوالية ، وتنفث فيها السياسة أحياناً أغراضها ، حتى أتيح لها مَنْ دوَّنها فكان منها أقاصيص ألف ليلة وليلة ، وعنترة ومهلهل ، وسيف بن ذى يزن ، وقد اطلع عليها بعض أدباء العربية فى العصر الذى دُوِّنت فيه فاستخفوا بها ونبذوها

بيد أن تلك الأقاصيص على عاميتها وركاكة أسلوبها ، وفحش بعض مواقفها ، تحوى من روائع الوقائع ، وجميل المناظر ، وآثار الخيال ، ما يعوز الأدب العربى كله ؛ وبفضل ما فيها من روعة وجمال وخيال قد نالت الخلود وحظيت بالشهرة والترجمة إلى شتى اللغات ، وأعجب بها من الغربيين من لم يسمعوا بحِكَمِ المتنبى ، وأمثال الطائى ، وبديع ابن المعتز

فخرى أبو السعود

الدكتور ألفرد بتلر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

نعت لنا الأخبار منذ قليل المغفور له الدكتور ألفرد بتلر المؤرخ الانجليزى الكبير والعالم بالآثار المصرية

وقد كان ذلك الرجل العظيم انجليزى الجنس واللغة ، ولكنه كان مصرى العقلية عربى الثقافة ؛ قضى الشطر الأكبر من حياته منصرفا إلى دراسة الحياة فى وادى النيل وتاريخ حضاراتها الغابرة ، حتى لقد قيل إن عاطفته كانت فى قرارتها مصرية ، فكانت آخر أنفاسه متجهة إلى النيل ، وآخر أمنياته منصرفة إلى التملى به وتنسم نسماته

وقد كان ارتباطه الروحى والعقلى بمصر وواديها داعياً إلى أن تكون كل آثاره العلمية مرتبطة بها ، فليس له مؤلف لا يتصل بمصر وتاريخها وآثارها ، وكان همه الأكبر منصرفا إلى تلك الفترة التى تتعسر دراستها على الأكثرين ، وهى فترة الحكم الرومانى الأخير وأول العصر الاسلامى ، فألف كتاباً فى الأديرة والكنائس المصرية ، وكتاباً آخر فى تاريخ الفتح العربى لمصر ؛ ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن تاريخ مصر فى هذه الفترة مدين أكبر الدين لهذا المؤلف الكبير ، إذ لولا دراسته العميقة وعقله الكبير وعلمه الواسع لظلت هذه الفترة من أظلم فترات تاريخ هذه البلاد

لقد فقدت مصر استقلالها على يد الرومان بعد أن استولى عليها قيصر وذهبت دولة البطالسة عنها، ودخلت منذ ذلك العهد فى دائرة الدولة الرومانية الكبرى ، واختفى تاريخها فى غمار تاريخ الدولة المتبوعة ، وما زالت بعد ذلك تنحدر على جوانب الحوادث من هوة إلى هوة كما تنحدر البلاد التابعة المغلوبة فى كل عصور التاريخ ، وغطت على صورتها ركام من آثار المظالم والمهانة والاضطراب

فاذا كان الدكتور بتلر قد استطاع أن يستخرج صورة مصر فى تلك الحقبة من طبقات تلك الركام ، فقد أدى أكبر خدمة لأبنائها ، فليس من الهين أن يستطيع باحث الوصول إلى مثل هذا الكشف ، ولا سيما إن كان يحيط بعمله الظلام والابهام وتقادم العصور

على أن ظلام تلك العصور التى جلاها الدكتور بتلر لم يقتصر أثره على إخفاء معالم تاريخ البلاد ، بل لقد أدى إلى نتيجة أشد ضررا وأقسى وقعاً ؛ وذلك أنه قد نشأت فى هذه الأثناء قصص لا أساس لها وخرافات من خلق الخيال والجهل وجهت الباحثين إلى وجهة مضلة جعلت التاريخ يظلم أهل مصر فى تلك العصور ، فيصمهم بأقسى الوصمات والتهم ، وكان للدكتور بتلر فضل اظهار الحق وإعادة الكرامة المصرية إلى ذكرى أهلها

ولما فتح العرب مصر كانوا لا يعبأون بغير الفتح فى أول فورة التوسع والنضال ، وما كانوا يخرجون من حرب إلا ليدخلوا فى غمار حرب جديدة ، ولم يكن لهم سجلات عند ذلك يقيد بها تسلسل الحوادث ولا يثبت فيها وصفها ، فلم يكن بد من أن يلجأ المؤرخون فى القرون التالية إلى روايات المحدثين وقصاص الأخبار ؛ وكان المؤرخون يبذلون فى التحرى عن أخبارهم جهد المستطاع ، ولكنهم مع ذلك كانوا لا يجدون مناصاً من تلقفها من أصحابها واسنادها إلى أصحابها تخلصاً من عبء الأمانة ، ولهذا صار تاريخ الفتوح العربية خليطاً من الأخبار والقصص والروايات ؛ فاذا أراد باحث أن يتتبع سلسلة من الحوادث وجد نفسه حيال ابهام شديد وغموض يسد عليه السبل ؛ ثم تتابعت العصور على هذه الأخبار فتناولها الباحثون وتصرفوا فيها واستخدموها فى تآليفهم بالزيادة والنقص والتصرف ، حتى صارت الأخبار الصحيحة مختفية تحت طبقات أخرى من الركام المتخلفة من العصور المتعاقبة

فاذا نظرنا إلى عمل الدكتور بتلر نظرة عادلة عرفنا مقدار خدمته لتاريخ مصر ، إذ استطاع أن يستخرج تاريخ العصر الرومانى فى مصر أولاً ، وأن يصفى أخبار العصر العربى الأول مما شابه من القذى والصدأ . ولقد كان عمله عظيما فى نواح متعددة لانستطيع هنا حصرها . على أننا نضرب مثلاً أو مثلين منها :

نشأت خرافة سخيفة فى العصور المتأخرة من التاريخ الاسلامى وهى خرافة إحراق العرب لمكتبة الأسكندرية عند

ما تم لهم فتحها، ولسنا ندرى على سبيل التحقيق ما هى الخطوات الأولى التى أدت إلى خلق تلك الخرافة، ولكن أحد المؤرخين أوردها فى بعض مؤلفاته فرددها من جاء بعده، وما زال صداها يتردد بعد ذلك حتى صار الناس يتلقونها بغير تمحيص ويوردونها موارد الحقائق الثابتة التى لا يرون ضرورة لمناقشتها؛ واتخذ أهل الأغراض تلك الخرافة وسيلة يتوصلون بها إلى الحط من شأن المدنية العربيــة والنقض من الذكاء العربى. وأى وسيلة أنجع فى الدعاية على العرب والاسلام من أن يذكر اسم مكتبة الأسكندرية العظمى ويقال إن العرب قد أحرقوا تلك الثروة الفكرية النادرة وأبادوا بذلك ما خلفته أذهان النوابغ فى كل العصور القديمة؟

ولقد كان للدكتور بتلر الفضل الأكبر فى أنه تتبع أثر تلك المكتبة كما يتبع الرائد آثار الأقدام وهو هادئ النفس مطمئن العين حتى أظهر لأهل القرن العشرين تقلب القرون الماضية على تلك المكتبة وبين لهم ما آل إليه أمرها على يد قيصر ثم على يد أحزاب المسيحية الأولى المتحمسة التى دفعتها حماسة الدين أو سورة العصبية إلى القضاء على ذلك الأثر العلمى النفيس

ولقد حمد المنصفون للدكتور بتلر ذلك المجهود العظيم فى إظهار الحق والابانة فى نصرته، وكان من بين هؤلاء المنصفين اللورد كرومر إذ كتب إلى ذلك المؤلف خطاباً خاصاً جاء فيه: «لقد قضيت القضاء الأخير على تلك الخرافة السخيفة، خرافة إحراق العرب لمكتبة الأسكندرية»

ولعل الدكتور بتلر أول من حاول محاولة منتجة أن يكشف القناع عن شخصية لم تزل منذ بدء الاسلام مثار التساؤل والابهام ألا وهى شخصية (المقوقس) فانه استطاع بعد جهد عظيم وبحث علمى يكاد يكون معجزاً أن يبين للناس من هو ذلك الرجل أو من هم هؤلاء الذين أطلق عليهم ذلك الاسم. ولم يكن فى بحثه يدع ثغرة للأبهام ولا للشك، بل كان ينخل الحقائق ويصفيها حتى لا يتسرب إليها فى أثناء البحث ما يشوبها

ولقد كان من أكبر آماله أن يرى كتابه منقولاً إلى لغة العرب، ولكن ذلك الأمل قد طال العهد به حتى بلغ نيفاً وعشرين عاماً، ثم توفقت لجنة التأليف والترجمة والنشر إلى ترجمته، فلما بلغه نبأ ذلك الحدث كان اغتباطه به أشد اغتباط حتى إنه لم يتمالك أن لام المصريين فى خطاب بعث به إلى بعض أصدقائه على أنهم لم يعنوا بنقل ذلك الكتاب من قبل مع أنه كتاب يخدم تاريخهم ويسد فيه فراغا عظيما

وكان الدكتور بتلر فوق خدمته لتاريخ مصر كثير العناية بما يهمها. ولقد أرسل إليه صديق كتابا مرة يشير فيه إلى ما جاء فى كتابه «فتح العرب لمصر» من أن قبر سيدنا عمرو ابن العاص غير معروف، وأن ذلك الصديق ذكر له أن ذكر قبر ذلك الرجل العظيم وارد فى بعض المؤلفات العربية وأنه بجوار مدفن سيدنا عقبة بن عامر بالقرافة الصغرى

فأثار ذلك النبأ حماسة الشيخ الانجليزى فأرسل إلى صديقه يقول: «لئن صح أنك استطعت معرفة مكان قبر عمرو بن العاص واستطعت التثبت من ذلك بالوسائل العلمية التى لا تدع مجالاً للشك، فما أحراك أن تثير فى الناس دعوة لاقامة أثر عظيم على ذلك القبر جدير بعظمة فاتح مصر الكبير»

ولا أجد لهذه الكلمة خاتمة خيراً من أن أقتطف قطعة من الخطاب الذى أرسله إلى صديقه يذكر له فيه ثناء اللورد كرومر عليه، وقد جاءت فى تلك الكلمة حكمة بالغة أحب أن أسوقها لأهل البحث والعلم. قال: «ولكن أهل البحث الذين يجيدون فى أعمالهم قلما ينتظرون ثوابا على عملهم، اللهم إلا ما يجدون فيه من لذة البحث ونشوة الكشف عن الحقائق».

وهــذه صورة تلك القطعة من خطابه بخطه أقدمها لقراء الرسالة أثراً من ذلك الصديق الكبير عليه رحمة الله

Lord Cromer wrote to me saying
"You have given the coup de grâce
to this legend.' But students
who do good work can seldom
expect any reward for it beyond
the pleasure of the study and
the joy of discovery.

محمد فريد أبو حديد

الخطابة ملكة وفن

للأستاذ عبد المجيد نافع

يولد الانسان خطيباً ، كما يولد شاعراً أو فناناً ، أو عسكرياً أو سياسياً ؛ وتلك الملكة ، وهى وليدة الفطرة ، لا تنمو وتؤتى ثمارها إلا بالمران والصقل ؛ فالخطابة إذن موهبة وفن معاً ، فلا يسيغ العقل أن يكون المرء عاطلا من الموهبة الخطابية ثم يصبح بين عشية وضحاها من الخطباء الخالدين فى التاريخ ، كما لا يهضم الفكر أن يكون الانسان خطيباً موهوباً ثم يصبح بين بياض يوم وسواد ليلة من الخطباء المعدودين دون درس وتحصيل ومران . ولقد يحلو لبعض المؤرخين أن يرسم صورة لخطيب مفوه كان فى حداثته خلواً من ملكة الخطابة ، بل يصورونه فى طفولته مثال الفهاهة والعى ، ثم يصيرونه فى رجولته الخطيب المصقع ، والمفوه المنطيق ! فقد زعموا أن « ديموستين » خطيب اليونان العظيم كان فى حداثته به عى وفهاهة ، فطمح إلى الخطابة وصحت عزيمته على مغالبة ذلك النقص والتغلب عليه ، فكان فى كل يوم يذهب إلى البحر فيملأ فمه بالحصى ، ثم يقف أمام الموج المضطرب المصطخب ، فيصيح الصيحات العالية ، وما لبث أن تغلب على الفهاهة والعى وبات فى طليعة الخطباء القادرين ! تلك صورة أدنى إلى خيال الشعراء منها إلى تحقيق الثقات من المؤرخين ، بل لعلها أسطورة من الأساطير التى تحيط بحياة عظماء الرجال عادة ، أو التاج الذى يضعونه على رأس البطل ، أو إكليل الغار الذى يضعونه على هامته ، أو هالة المجد التى يحيطون بها تاريخه . فقد يكون صحيحاً أن الخطيب اليونانى كان يقف حيال الموج المصطخب فيرسل الصيحة عالية ؛ على أن العقل لا يسلم بأنه كان عييًّا ، وكل ما يستطاع التسليم به أنه كان يروض نفسه على الكلام بنجوة من الناس

وقد تبقى ملكة الخطابة دفينة إذا لم تتح الظروف لبعثها ؛ وقد يظل الخطيب الموهوب خاملاً مغموراً إذا لم يوجد أمامه الميدان الذى تتجلى فيه مواهبه ، ولولا الثورة الفرنسية ورغبة الفرنسيين فى ثل عرش الاستعباد ، وكسر قيود الاستبداد ، وتقويض دعائم الماضى وتشييد صروح المستقبل وهدم النظم العتيقة البالية ، وبناء النظم الدستورية الحديثة ، وغرس مبادئ الحرية والمساواة والأخاء — لولا ذلك الغليان الفكرى لما ارتفع « ميرابو » من غمرة الخمول إلى ذروة الشهرة والمجد . وما كان الزعيم الشاب مصطفى كامل لتتجلى مواهبه الخطابية ، فيلقى بالاسكندرية فى عام ١٩٠٧ خطابه الذى يعد برنامجاً وطنياً ، لولا رغبة المصريين فى الجلاء وتشييد صروح الاستقلال ؛ بل لولا ثورة عام ١٩١٩ ورغبة الشعب المصرى فى تقرير مصيره بنفسه ، ما بات سعد زغلول الخطيب الخالد فى التاريخ

ولا مندوحة لمن ينشد الكلام أن يدرع بالعلم ، فالخطيب ينبغى له أن يعلم ما يقول ، وأن يعلم جمهور سامعيه منه جديداً ، وإلا عُدَّ من تجار الكلام لا من الخطباء ، وكان قوله ثرثرة لا طائل تحتها ولا غناء فيها ، لا خطابة تحق حقاً وتبطل باطلاً ، وتنصر دعوة وتخذل أخرى ، وتبث مبـدأ قويماً وتكافح غيره فاسداً

إن الخطيب الذى يقرأ شعر الشعراء ونثر الناثرين وخطب الخطباء ، ويكون على اتصال روحى بالحركة العلمية والأدبية ، لهو الخطيب الذى يعرف كيف يضفى على فكرته الثوب الذى يلائمها ويأتى بالصور الأخاذة والعبارات الخلابة والآراء الناضجة ويملك شعور سامعيه

والخطيب الذى لا يُعنى دائماً بتجديد ثروته العلمية واللفظية خليق ألا يسمع الناس منـه إلا الرأى المبتذل ، والفكرة الغثة التافهة ، والعبارات الممجوجة المملولة

على أن الاسراف فى المطالعة يوشك أن يصيب المرء بنوع من الشلل العقلى ، وإن شئت فانه يصيب الذهنية الخصبة بضرب من الاجداب والامحال ، فمن يفكر برأس غيره دائماً ، وينظر بغير عينه ، ينتهى أن تشل حركة تفكيره فلا يفكر ولا يرى . ومن ير العالم من ثنايا الكتب يعش رجلاً خيالياً لا يدرك من شؤون العالم شيئاً . ومن لا يقتصد فى المطالعة خليق أن يداخله اليأس فيهتف : ليس فى الامكان أبدع مما كان ! وينادى : لا جديد تحت الشمس ، ويصيح صيحـة اليأس : ما ترك الأوائل للأواخر شيئاً !

والحق أن الأوائل خاضوا فى كل شىء ، على أنهم تركوا

للأواخر كثيراً ، ومن يذهب غير هذا المذهب فانما ينكر حركة التطور العقلي والفكري في العالم

ومن الناس من يلتهم الكتب التهاماً دون تفهمها والتغلغل في روحها ، وخير من هذا للخطيب الطامح أن يطيل النظر في خطب الخطباء فيتذوق الأثواب التي يسبغونها على آرائهم ، بغير أن يتعسف في محاكاة طرائقهم فلكل خطيب شخصيته وأسلوبه في عرض أفكاره

ويجمل بمن يأنس في نفسه الاستعداد الخطابي أن يستمع إلى كبار الخطباء ليشهد وسائلهم في بسط آرائهم واقناع جمهور السامعين

ومن نافلة القول أن يلفت الخطيب إلى وجوب تفهم نفسية الجماعة التي يوجه اليها الخطاب ليتولى اقناعها ، فالخطب البرلمانية تفترق عن المرافعة في مجلس القضاء ، والكلام في اجتماع انتخابي يختلف عن التحدث إلى مجمع علمي ، على أن الخطيب الموهوب مطبوع على فهم روح الجماعة التي يخاطبها

وفي كل حال ينبغي أن يتوفر في كل خطاب عناصر وضوح الفكرة وترتيب المنطق وروعة الأسلوب ، ولكن التأنق في العبارة لا ضرورة له على الاطلاق ، بل قد يأتي التزويق والتنميق هادماً لدعوى الارتجال الخطابي ، والجمهور لا يتعنت فيطالب الخطيب بما يطالب به الكاتب ، والأسلوب الذي يخلو من الكلفة والصنعة يكون أفعل في النفوس من الأسلوب الذي تغلب عليه البهرجة والتأنق . والخطيب الذي يتراءى أمام السامعين وقد ضاق صدرا بالعبارة التي يبرز فيها فكرته ثم يوفق اليها يكون شأنه في التأثير شأن من يلقي قنبلة ، أو من يشهد بركاناً ينفجر . وإني لأذكر فيما أذكر قول أحد كتاب الفرنسيين إنه يؤثر بربرية « جبتا » في الخطابة على أناقة « جوريس » فيها ؛ فالغابة الطبيعية أحب إلى القلب ، وأشهى إلى النفس ، وأمتع للنظر من الغابة التي نسقتها يد الانسان

ولقد ألِفَ الكتاب تقسيم الخطباء إلى : قارئ ، وحافظ ، ومرتجل ؛ فأما القارئ فهو الذي يتلو من ورقة يحملها بيده ؛ وأما الحافظ فهو الذي يلقي خطابه عن ظهر غيب كما يلقي الطلبة محفوظاتهم في المدارس ؛ وأما المرتجل فهو الذي يلقي من وحي الخاطر وحاضر البديهة

ولقد دلت التجارب على أن السامعين يتبرمون بالخطيب القارئ ، ويشيع السأم في نفوسهم ، وبخاصة حين يلمحون أكداس الورق أمامه ، وإذا لم يُجِدْ الالقاء جاءت عباراته بمثابة قطع الثلج تتساقط فوق رؤوسهم ، وهم يؤثرون أن يتلوها حين يخلون إلى ضمائرهم ليتذوقوا جمال الأسلوب ونضوج الفكرة فيها . والخطب المكتوبة تدعو للاطالة والاسهاب فتبعث على الملل ، ولذلك جرت التقاليد البرلمانية على تحريمها . ثم إن ما يغتفر للخطيب المرتجل الذي يلقي من حاضر البديهة لا يغتفر للخطيب القارئ الذي أمعن في التحضير وأطال في الكتابة . فالأول ، خلال فورة الخطابة وغليانها ، إذا جرح أحداً ، أو فاه بعبارة نابية ، افترض فيه حسن النية ، وسقط عنه ركن العمد . فأما الثاني وقد قال عبارته في دم بارد ، وضمير جامد ، فانه يتحمل الظروف المشددة المترتبة على العمد وسبق الاصرار

على أنه لا مندوحة عن تلاوة الخطب الرسمية ؛ لخطورة الموقف ، ودقة المسئولية ، بحتمان وزن العبارات ، ولا تسمحان بمغامرات الارتجال الخطابي . وهنا تحضرني رواية « فون بيلوف » مستشار الأمبراطورية الألمانية قبل الحرب العالمية إذ قال في مذكراته أنه كان يُعِدُّ لغليوم الثاني أمبراطور ألمانيا السابق الخطب التي يزمع إلقاءها في المواقف الرسمية الخطيرة ، مخافة أن يتورط ، وقت الاندفاع الخطابي ، في عبارات تمس مسئولية الدولة الألمانية . على أن الأمبراطور كان كلفاً بالخطابة ، وكان يزعم لنفسه قدرة على الارتجال لا تجارى ولا تبارى . وتحدد يوم ليلتقي بقيصر الروسيا على ظهر بارجة حربية ، وأعدَّ له « فون بيلوف » الخطاب الذي سيلقيه ، فما أن نهض غليوم للخطابة حتى ضرب صفحاً عن الخطبة الرسمية ، وفاه بعبارات أقامت الدوائر السياسية البريطانية وأقعدتها ؛ ففطنت الدبلوماسية الألمانية للأمر ، ونشطت لانقاذ الموقف ، وإصلاح ما أفسده زهو الطاووس

والخطيب القادر على الارتجال لا يلبث أن يشعر بثقل قيود التلاوة حتى في أدق المواطن الرسمية وأخطرها . وسعد زغلول ، وهو المثل الأعلى للخطيب المرتجل ، كان يضيق بالتلاوة صدراً ، فيلقي الأوراق من يده ويعمد إلى الارتجال ، فيحلق في سماء البلاغة

ولا بد للخطيب الحافظ من ذاكرة جبارة لأنه إذا خانته الذاكرة بات في أدق المواقف وأحرجها ؛ فقد روى أن نائباً من نواب الأمبراطورية الفرنسية ألقى خطاباً شهد الجميع بأنه رائع

فما لبث محرر صحيفة « الفيجارو » أن أماط اللثام عن أن الخطاب منتحل . فأقر النائب بمصدر الخطاب ، وقال إن له ذا كرة قوية فيحفظ عن ظهر قلب أغلب ما يقرأ . وأنه قرأ ذاك الخطاب فوعتـه ذا كرته . فلما حمى وطيس الجدل فى المجلس ألقاه وهو يؤمن بينه وبين نفسه « أنه له » ! ودارت الأيام دورتها وأصبح عضواً بمجلس الشيوخ ، فقام للخطابة وظل يهدر ويتدفق حتى اصطدم بكلمة فما يدرى ما بعـــدها ؛ ولبث يحاول ثم يحاول فلا يجد ما يقوله كأن ما بذهنه قد تبخر . فأنقذ رئيس المجلس الموقف بأن رفع الجلسة ، فلما أعيدت نهض صاحبنا وعالج الكلام فلما بلغ تلك الكلمة ارتج عليه ، وما كان يغنى عنه أن يبدأ الجملة من أولها إذ كان عند ما يبلغ تلك الكلمة يرتج عليه ثانية ، فبادر الرئيس إلى إنقاذ الموقف برفع الجلسة نهائياً ، وما ارتقى صاحبنا المنبر بعد ذلك أبداً

والخطيب الحافظ إن لم يكن حسن الالقاء ، لطيف الايماءة ، كان ضعيف التأثير فى سامعيه ؛ وشعور الجمهور يهديه إلى اكتشاف الخطب المحفوظة عن ظهر قلب . فالألفاظ البراقة ، والصور الخلابة ، والعبارات المصقولة ، والجمل المسجوعة ، مضافة إلى الاندفاع الخطابى ؛ كل أولئك يمزق القناع عن وجه الخطب المحفوظة ويهدم دعوى الارتجال من أساسها

استغفر الله أن يفهم من قولى أن الخطيب لا ينبغى له أن يلبس فكرته ثوباً جميلاً ، وإنما أريد أن أقول إن الخطيب الجدير بحمل هـذا اللقب لا يجمل به أن يكون أسيراً لألفاظ رصها وعبارات رصفها . فليس العيب فى العناية بإعداد الخطاب ، وإنما العيب أن يكون الخطيب عبداً للاستعارات والمجازات والتشبيهات والكنايات ، وعلى الجملة عبداً لكافة المحسنات اللفظية وعبارات البديع والبيان

كان « جان جوريس » الخطيب الاشتراكى العظيم يعترف صراحة بأنه يعد خطبه ولا يرى فى ذلك عيباً على الاطلاق . ففى ٢١ نوفمبر من عام ١٨٩٣ كان يستجوب الوزارة الفرنسية عن سياستها العامة ، فلما فرغ من خطابه نهض المسيو شارل ديبوى رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية للرد عليه فقال : « أعتقد أنكم بعد أن سمعتم خطاب مسيو جوريس تجدون بعض العناء فى تصديق دعواه بأنى لم أدع له الوقت الكافى لاعداد خطابه » فنهض جوريس وجهر بتلك العبارة : « إنى لأشعر قلبى الاحترام لمنبر الخطابة ولزملائى فأعد ما ألقيه »

وكان « بربو » المحامى الفرنسى المدره يترافع يوماً فدفعت الصفاقة خصمه لأن يداعبه مداعبة ثقيلة ، فقال : إن رائحة الزيت تنبعث من ثنايا مرافعته ؛ كناية عن أنه أفنى الليل فى اعدادها على ضوء المصباح . فأجاب « بربو » : « ليس يضيرنى أن يسجل على أنى أعد مرافعاتى بدقة ، وإن اجلالى للقضاء يحول بينى وبين التورط فى العبارات الجوفاء والصيحات الفارغة التى تجـد لها موطناً فى ساحة أخرى غير ساحة العدل » ، وكان المحامى الخصم عضواً بمجلس النواب فأفحمته عبارة شيخ المحاماة

ومن الأوهام الشائعة أن الارتجال فى الخطابة يعنى أن الخطيب ينهض ولم يعد خطبته ، بل إن ذهنه خلو من كل ما يتعلق بالحديث الذى سيخوض فيـه ، ولسنا نتردد فى الجهر بأن مثل هذا الخطيب عاجز إلا عن الثرثرة والكلام الأجوف الفارغ ، وكل بضاعته ألفاظ طنانة وعبارات رنانة لشد ما لاكها حتى حفظها عن ظهر غيب ، فأصبح يتجر بها فى كل موقف خطابى . وصدقونى أن الخطيب لا يستطيع أن يرتجل الكلام عن موضوع إلا إذا درسه دراسة عميقة ، ولا يقوى على الارتجال فى كل المواقف إلا إذا كانت له ثقافة عالية ومعلومات عامة واطلاع واسع فى العلم والفلسفة والأدب والتاريخ ؛ وفى كلمة ، أن يكون عبارة عن « دائرة معارف » . ولا بد له من اعداد فكرته ، أستغفر الله ، بل لا بد له من اعداد ألفاظه وعباراته قبل إلقاء خطابه ، إنما لا ينبغى له أن يكون أسيراً لألفاظ بعينها أو عبداً لعبارات بذاتها وإلا انحدر إلى طبقة الخطباء الحافظين . وليست تهم طريقة اعداد الخطبة وإنما تهم اجادتها ، فمن الخطباء من يفكر وهو يكتب ، ومنهم من يفكر وهو يمشى ، ومنهم من يفكر وهو يتحدث إلى صحبه ، ومنهم من يفكر وهو فى مضجعه ، ومنهم من يفكر فى الفترة بين دعوته للخطابة ووقوفه على المنبر ؛ وإنمـا يلتقى الخطباء المرتجلون عند أمرين : سعة الاطلاع ، وهبوط وحى الفكرة وسط حرارة الاندفاع الخطابى

وما إخالك بعد هذا الشرح الموجز إلا قد فهمت مغزى عبارة « بربيه » الخطيب الفرنسى العظيم : « إن سر الخطباء المرتجلين هو أنهم لا يرتجلون على الاطلاق »

عبد المجيد نافع
المحامى

بين شوقي وابن زيدون

بقلم الدكتور زكي مبارك

تتمة

— ٤ —

واشترك شوقي وابن زيدون في التفجع والحنين ، أما ابن زيدون فيقول :

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والدهر قد غض من أجفان واشينا
سران في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
لا غرو أنا ذكرنا الحب حين نهت ... عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً ... مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله ... شربا وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه ... سالين عنه ولم نهجره قالينا
ولا اختياراً تجنبناك عن كثب ... لكن عدتنا على كره عوادينا

والشاعر في هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف ، ويرى نفسه انتقل من كوثر الخلد إلى الزقوم والغسلين ، ويرى ورد الهوى القديم شرباً لا يمشد له شرب ، وإن كان يرويه فيظميه ، ونعيم الوصل يرهف الحس فيزيد القلب ظمأ إلى ظمأ والتياعا إلى التياع ، وتحدث الشاعر عن البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة ولا صدود ، وإنما أكرهته العوادي

ويروقنا هذا التعبير المونق :

« لم نجف أفق جمال أنت كوكبه »

فكأن الدنيا كانت لعهده أفقاً من المفاتن ، وكانت محبوبته كوكب ذلك الأفق المطلول بأنداء الفتون

هذا جزع من صنع الدهر صرخ به ابن زيدون ، وعارضه شوقي فقال يصف قسوة الليل وقسوة الفراق :

ونابغي كأن الحشر آخره ... تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوي دجاه بجرح من فراقكمو ... يكاد في غلس الأسحار يطوينا
إذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا ... حتى يزول ولم تهدأ تراقينا
بتنا نقاسي الدواهي من كواكبه ... حتى قعدنا بها حسرى تقاسينا
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا ... للشامتين ويأسوه تأسينا

وهذا من الشعر الرفيع ، ومن العجز ألا نجد غير هذا الوصف ، وإلا فكيف نصل إلى بيان الفتنة في هذا البيت :

يطوي دجاه بجرح من فراقكمو ... يكاد في غلس الأسحار يطوينا

أترون كيف يطوى الدجى بالجرح ؟ أترون كيف تكون الجراح أعظم من ظلمات الليل ؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسي الشاعر بطء الكواكب ، ثم ينظر فيراها ابتليت به فباتت تقاسيه ، وهي حسرى لواغب ؟ والشاعر قد يعظم سلطانه على الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه وتأسى لأساه

وكان الشعراء الأقدمون يرون النهار يبدد الأشجان بفضل ما فيه من الشواغل ، أما شوقي فيرى أشجانه لا تهدأ نهاراً إلا بفضل التأسي والتجلد للشامتين

— ٥ —

بقي النظر فيما تفرد به الشاعران

ونحن نرى ابن زيدون تفرد بهذين البيتين في خطاب حبيبته التي أقصاه عنها الزمان

نأسى عليك إذا حثت مشعشعة ... فينا الشمول وغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا ... سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

وهذا من أدق المعاني النفسية ، فالشراب والغناء يهيجان العواطف الغافية ، ويبعثان الوجد الدفين ؛ وللشوق في أمثال هذه اللحظات لذعات أعنف من الجمر المشبوب . وأين الجمر بجانب ما يثور في القلب عند الشراب والسماع ؟ إن هذه لحظات تكشف المقنع من سرائر النفوس ، وتصنع ما تصنع الحمى العاتية حين تنطق المحموم بأسماء لم يهذ بها لسانه ولا وجدانه منذ سنين

وقول ابن زيدون :

ولو صبا نحونا من علو مطلعه ... بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

هو أصل المعنى الذي ساقه شوقي في السينية :

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

وهو أخذ رفيق لا يحاسب على مثله الشعراء

وتفرد شوقى بالفخر ، الفخر بنفسه وبأمجاد النيل ، فقال :

لم يجر للدهر إعذارٌ ولا عُرس ... إلا بأيامنا أو فى ليالينا
ولا حوى السعدُ أطغى فى أعنّته ... منّا جياداً ولا أرخى ميادينا
نحن اليواقيتُ خاض النارَ جوهرُنا ... ولم يَهُن بيدِ التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صِبغ ولا خُلقٌ ... إذا تلوّن كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميداناً ولا صعِدت ... فى ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا
ألم تُؤلّه على حافاته ورأت ... عليه أبناءها الغُرَّ الميامينا
إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا ... خمائل السندس الموشية الغينا (١)
وبات كل مجاج الواد من شجر ... لوافظَ القزَّ بالخيطان ترمينا

وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع ، وهل عبد المصريون الشمس إلا لأنهم عرفوا فضل الشمس ؟ وما الدنيا بدون الشمس إلا وجود تافه سخيف !

وشوقى لم يعن إلا نفسه حين قال :

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا
ولم يَهُن بيدَ التّشتيت غالينا

وقد صدق ، فقد قامت فى وجه الرجل أحداث تهد الجبال ، وانتاشه الخصوم أشد انتياش ، ولكن من كان يملك مثل قلبه واحساسه وشاعريته يصعب هَدمُه ، وإن تكاثرت المعاول ، واستحصدَتْ سواعد الهادمين

وتفرد شوقى بالحديث عن الاهرام فقال :

وهذه الأرض من سهل ومن جبل ... قبل القياصر دِنّاها فراعينا
ولم يضع حجراً بانٍ على حجر ... فى الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصر حائط نهضت ... به يدُ الدهر لا بنيانِ بانينا
إيوانه الفخم من عُليا مقاصره ... يُفنى الملوك ولا يُبقى الأواوينا (٢)
كأنها ورمالاً حولها التطمت ... سفينة غرقتْ إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحى ذهباً ... كنوز فرعون غطين الموازينا

وللقارىء أن يتأمل هذه الأبيات ، له أن يتأمل قوة الفخر فى هذا البيت :

ولم يضع حجراً بانٍ على حجر ... فى الأرض إلا على آثار بانينا

وله أن يعجب من روعة الخيال فى هذا البيت :

كأن أهرام مصر حائط نهضت ... به يد الدهر لا بنيان بانينا

وله أن يتأمل دقة التشبيه فى هذا البيت :

كأنها ورمالاً حولها التطمت ... سفينةٌ غرقت إلا أساطينا

ذلك شوقى وتلك آياته البينات .

— ٦ —

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الانسانى ، وتفرد شوقى بوصف الجمال الطبيعى . أعطى ابن زيدون محبوبته صورةً هى تحفة فى الصور الانسانية ، وأعطى شوقى مفاتن النيل صورةً هى غرةٌ فى الصور الطبيعية ؛ أما صورة النيل فقد رآها القارىءُ من قبل ، وأما محبوبة ابن زيدون فقد صوّرها بهذه الأبيات :

ربيبُ ملكٍ كأن الله أنشأهُ ... مسكا وقدَّر إنشاءَ الورى طينا
أو صاغه وَرِقاً محضاً وتوّجه ... من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا
إذا تأوّدَ آدتهُ رَفاهيةً ... تومُ العقودِ وأدته البُرى لينا
كانت له الشمس ظِئْراً فى أكِلّته ... بل ما تجلى لها إلا أحايينا
كأنما أُثبتت فى صحن وجْنتهِ ... زُهرُ الكواكب تعويذاً وتزيينا
ما ضرَّ أن لم نكن أكفاءَه شرفاً ... وفى المودة كافٍ من تكافينا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصَّباحة . وفى الحسن ألوفٌ من الأفانين يعرفها الراسخون فى علم الجمال ، فالجمال المنعَّم غير الجمال المحروم ، والزهر النضير الذى يُضاحك الشمس فى حديقة غناء بقصر من قصور الملك ، غير الزهر الظمآن المنسىّ الذى يتفتح وهو مهجور فى ربوةٍ قاصية لا يعرفها غير الذئاب . إن جواهر الجمال تختلف أشد الاختلاف ، ولكل لون من ألوان الجمال وحىٌ خاص . وجوهر الشعر يتبع جوهر الجمال ، وهل يمكن أن يكون ما يوحيه الجمال المحجَّبُ شبيهاً بما يوحيه الجمال المباح ؟ إن الطبيعة قد يبدو لها أحياناً أن تُكايدَ الناس فتنشىءُ من الحسن فى حىّ بولاق ما تغيظ به الناعمين فى حىّ القصر العالى (١) ، ولكنها لا تفلح ، فالجمال الذى ينبت فى البيئات السوقية يظل سوقىَّ الشمائل والنوازع ، أما الجمال الذى يتفتح فى البيئات المنعَّمة فيظل ملحوظَ المشارب والميول

فمعشوقة ابن زيدون ربيبةُ ملك ، وربيبة الملك تألف السيطرة

(١) الغين جمع أغين ، وهو الأخضر ، والمؤنث غيناء
(٢) الأواوين جمع ايوان

(١) القصر العالى : حى بالقاهرة يشارف النيل ، ويسميه السخفاء : (جاردن سيتى)

منذ أيام المهد ، ويظلُّ دلالها طول الحياة دلالاً سماوياً يأخذ فيضهُ من قوة الطبع ، لا من لؤم التمنُّع ، وينزل رضاها على القلب نزول الطَّل على الريحان . وابن زيدون يتمثَّل محبوبته خُلقت من المسك ، ويرى الناس ما عداها خلقوا من طين ، وكلمة (طين) وقعت قبيحة فى شعر ابن زيدون ، إلا أن يكون أراد الاشارة إلى بعض الناس ؛ والمرء حين يغضب يرى الناس خلقوا من طين ، وإن كان الطين أشرف من بعض من نرى من المخلوقات ؛ والطين تُربةٌ يحيا بها الزهر ويتغذى منها الشوك ، وفوقه تتخطر الظباء ، وعليه تزحف الأفاعى والصِّلال

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال :

إذا تأوَّد آدته رفاهيـــةً ... توم العقود وأدمته البرى لينا

والجمال الذى تؤذيه العقود والدمالج والأساور والخلاخيل جمال غضٌّ رقيق يشبه فى رقته نواظر العيون ، ولفائف القلوب ، وهذا الجمال منثور فى المدائن نثر الزهر واللؤلؤ ، ولولا وجوده فى هـذه الدنيا لما عرف شاعر قيمة النعمة العظيمة ، نعمة البصر والحسِّ والذَّوق ، لولا الجمال المنعم المصون الذى لا يطمع فى تفيؤ ظلاله غنيٌّ ولا لئيم لأقفرت الدنيا من الشعر وخلت من الأنفاس العطرة ، أنفاس الشعراء ؛ لولا الجمال المنعم المصون الذى لا يطمع فى تفيؤ ظلاله غنى ولا لئيم لما استطاب شاعرٌ سهر الليل ، وألم الجفون . وهل يعنى القلب فى سبيل الجمال المبتذل الذى ترنو إليه جميع العيون ؟ إن الجمال المبتذل شبيه بالكوكب المتهالك الذى لا تألم من النظر إليه عينٌ رمداء ، أما الجمال المنعم المصون فشبيه بالشمس لا يقوى على النظر إليه الا الفحول من الشعراء ، والأقطاب من الكتاب ، هو الجمال الفرد ؛ ولا يصاوله إلا الرجل الفرد ، وإن كان يتواضع فيقول :

ما ضرَّ أن لم نكن أكفاءه شرفاً ... وفى المودة كافٍ من تكافينا

هذا تواضعٌ ، فان جوهر الحب فى قلب الشاعر أنفسُ من جوهر الحسن فى وجهِ الجميل . وهل تُعربد معانى الصباحة فى الوجه المليح كما تعربد عرائس الشعر فى قلب الشاعر الذى يلاقى الأنوار والظلمات وحوله جيشٌ من الهوى المتمرِّد والوجد المشبوب ؟

إن قلب الشاعر جوهر نفيس ، ولولا فضله على الدنيا ما عرف أحـد جمال الصبح المشرق ، ولا تنبه مخلوق إلى لمح الكواكب ولألاء النجوم ، ولا تلفت باحث إلى شعر ابن زيدون وقد طمره الزمن بتسعة أحجار تسمى تسعة قرون

— ٧ —

ثم ماذا ؟ بقىَ أن نشرب صبابة الكأس من نونية شوقى ، وكلُّ صبابة فى الكأس صاب ، بقى أن نتوجع لبلواه وهو يتشوَّق إلى مصر فيقول :

أرض الأبوَّة والميلاد طيَّبها ... مر الصبا فى ذيول من تصابينا
كانت محجَّلة فيها مواقفُنا ... غرّاً مسلسلة المجْرى قوافينا
فآب من كُرة الأيام لاعبُنا ... وثاب من سِنة الأحلام لاهينا
ولم ندع لليالى صافياً فدَعتْ ... (بأن نغص فقال الدهر آمينا)
لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة ... والبر نار وغى والبحر غسلينا
سعياً الى مصر نقضى حق ذاكرنا ... فيها إذا نسى الوافى وباكينا

أرأيتم هذا الشعر ؟ أرأيتم الخيال فى هذا البيت :

فآب من كرة الأيام لاعبنـــا ... وثاب من سنة الأحلام لاهينا

أرأيتم صورة الهول المقتحم فى هذا البيت :

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة ... والبر نار وغى والبحر غسلينا

ثم ماذا ؟ بقى ختام القصيدة ، وهى أبيات ما قرأتها إلا بكيت على أمى رحمها الله . وانظروا كيف هفا قلب الشاعر إلى أمه فى حلوان :

كنز بحلوان عنـد الله نطلبه ... خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا ... لم يأته الشوق إلا من نواحينا
إذا حملنا لمصر أو له شجناً ... لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

طيب الله ثراك أيها الشاعر ، ورحم والدىَّ ووالديك ، فالدعاء فى أعقاب شعرك كالدعاء فى أعقاب الصلوات

زكى مبارك

هكذا قال زرادشت *

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

مقدمة لابد منها

نشر نيتشه كتابه هذا في أربعة أجزاء بين سنتي ١٨٨٣ و١٨٨٥ ، فأشعل ثورة فكرية لا في ألمانيا فحسب ، بل في سائر الأقطار الأوربية والعالم الجديد . ولم يكن العالم العربي في ذلك العهد على اتصال وثيق بالحركة الفكرية الغربية ، فلم يسمع بنيتشه وفلسفته حتى مر زهاء ثلث قرن ، فورد اسمه على بعض الأقلام عرضاً ، وكل ما عُرف عنه حينذاك في هذه البلاد هو أنه يدعو الى مذهب تمجيد القوة والعمل على إيجاد الانسان الأعلى بالقضاء على كل اعتقاد يشل الارادة ويثبط الهمم في معترك الحياة

وفي الواقع أن نيتشه الفيلسوف الألماني الأشهر قد دعا الى هذا المذهب ليعارض الفلسفة الدينية التي أخذ بها الغرب عن المسيحية فأغرق في احتقار الحياة باسمها ، وضل ضلالاً بعيداً في تفهمها ، إذ اعتبرها دعوة عن الاعراض عن الزائلة إعراضاً تاماً ، ورأى الكمال للانسان في التقشف والزهد والترفع حتى عن العاطفة الجنسية التي يقوم الكون عليها

ولاح لنيتشه أن هذه النظريات الاجتماعية منحدرة من الايمان بالخالق وخلود الروح ما وراء المنظور فثار بعقله الجبار عليها وأنكرها جاحداً معها كل إيمان بغير الانسان نفسه والحياة نفسها

ولو كان تسنى لنيتشه أن ينفذ الى حقيقة الايمان الذي دعا عيسى اليه لكان تجلى له إيماناً بالقوة التي ترفع الضعفاء ، لا بالضعف الذي يسلط الأقوياء عليهم . ولو كان تسنى لنيتشه أن يستنير بما في الاسلام من مبادىء اجتماعية عليا لأدرك أنه باتباع مثل هذه المبادئ ينشأ الانسان الأعلى لا بالالتصاق بالأرض دون الالتجاء الى السماء

ولقد يلوح للبعض أن لا فائدة من ترجمة نيتشه الى العربية لأن فلسفته راسية على الجحود ؛ أما نحن فنرى أن خلو المكتبة من هذا المؤلف الذي أثر التأثير الكبير في تطور الحركة الفكرية في أواخر القرن الثامن عشر في العالم الغربي يعدُّ نقصاً فيها وقصوراً علينا ؛ إذ لم يتردد أي شعب في نقله الى لغته . وفوق ذلك فان ما يتجلى في فلسفة نيتشه من جحود لا نراه يتجه الى الله الواحد الأحد الذي نعبده وبوحيه ندين ، بل هو يتجه الى الألوهية المزيفة التي ارتسمت في ذهنه من إدراكه الناقص لحقيقة الوحي كما يفهمه المؤمنون

فلنمر ، إذن ، بجحود نيتشه باسمين ، ولنقف عند نظراته في الحياة مفكرين

إن في كتاب زرادشت من المبادىء الاجتماعية ما يجدر بنا الوقوف عنده ، لأنه يتفق والقاعدة التي وضعها الاسلام للحياة بحديث للنبي (صلعم) على قول ، أو بكلمة لأمير المؤمنين عمر على قول آخر وهي :

(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .)

لقد أدرك نيتشه الشق الأول من هذه الحكمة ، وفاته الشقُ الأخير فلم يأمن الضلال والعثار ؛ أما نحن أبناء هذا الشرق العربي فآخر هذه الحكمة راسخ في أعماق نفوسنا مما يجعل الشق الأول منها هداية لا ضلالا

هذا وإننا سنورد في آخر الترجمة بعد بسط فلسفة نيتشه التحليل الذي تقتضيه لاظهار فاسدها وصحيحها ، فنقف في وجه المادية التي تطغى موجتها على المدنية ، ونثبت أن لا خير في حضارة يعمل الانسان فيها لدنياه كأنه يعيش أبداً دون أن يعمل لآخرته كأنه يموت غداً .

فليكس فارس

وسنوالي نشر الكتاب كاملا ابتداء من العدد القادم

(*) لا علاقة بين بطل رواية نيتشه وحكيم الفرس ، وقد اخترنا في سياق الحديث اختصار اسم زارادشت بزارا تخفيفاً ، وسوف نشير أيضاً بعلامة الى كل عبارة سنتناولها بالبحث لاثبات خطأ نيتشه فيها

كلمة أخيرة

حول «نبوة المتنبي أيضاً»

للأستاذ سعيد الأفغاني

قرأت للأخ شاكر مقاليه الأخيرين الطويلين جداً في الرسالة (١٧١، ١٧٢) فاذا ما أريد أن أقوله قد قلته سابقاً في الرسالة (١٧٠) فليرجع إليه فهو ردٌّ على مقاليه هذين أيضاً

لما عرف الأستاذ شاكر أنا «لا نحفل رداً ولا نقداً إلا إذا كان حقاً، وسبيلنا حينئذٍ أن نأخذ به أنفسنا ونشكر لصاحبه.» عاذ بذلك فراغ روغة عدل فيها بالكلام عن وجهه الذي يجب أن يكون فيه، فلم تظفر اعتراضاتنا — لسوء حظها — منه بجواب. وقد كنا طلبنا إليه التعرض لهذه الأخبار التي رماها جملةً بالكذب فيبين وجوه بطلانها والسبب الحادي لرواتها على وضعها ببيان يزيل اللبس ويرضى الأمانة والعقل، فأبى وطفق يتعلق بتوافه الأمور: فهذا كلام شغل أربعة أعمدة من (الرسالة) في تزييف رواية اللاذقي وقد عرف القراء قيمتها عندنا، وذاك كلام يعرض لبسطي عذري في التأخر بالرد، وذلك كلام آخر طويل يدور حول ياء سقطت من كلام له نقلناه ... الخ

استوفى الأخ ستة عشر عموداً زوى عنا فيهن حججه المزعومة ونافع بيانه وأطلق قلمه فسطر من القول النبيل ما نمر به مر الكرام؛ ولما أشرف على الختام قال: «وتمب أن أمضي على هذا الوجه في تعريف الأستاذ سعيد بوجوه بطلان كلام هؤلاء الناس الذين نقل كلامهم.» وقد علم أصلحه الله وعلم القراء أن البحث والحوار كله يدور حول هذا فقط، ففيم الهرب منه والاشتغال بغيره؟ ولست أنا الذي ادعى بطلان الروايات فأحتاج لمعرفة وجوه البطلان، وإنما نفع ذلك وغناؤه — إن تم — عائدان عليه وحده، فهو الذي ألف واستهدف، وهو الذي ادعى وأعوزه البرهان

وقد كنت ظننت أني مع أستاذ يعينني في إزالة ما حول هذا البحث من شبه بالعلم الواسع والحجة البالغة ولطف التأني وحسن القصد، فاذا بي أمام امرئ يريدها جدلاً ومراء أو استطالة قول وحب غلبة مع معرفته من نفسه الحدة وضيق الصدر

فما أنا — وقد عرض الأستاذ لنا أدبه عرضاً صحيحاً — بالذي يجاريه في أسلوبه. وكل ما تفضل به من غمز احتل من كلامه محل الحجة لا يحدوني على مقابلته أو مشاكلته، ولا على الخروج على قاعدتي التي أطمعته فورطته وكانت خليقة منه بغير ما فعل

ليت الأستاذ شاكرا كان تريث قليلاً فلم يحرص على صدور رده عقب كلمتي بلا تأخر، ولم يخرج عما أخبرنا من طبعه في الابطاء والتخلف، فان الناس لا يقدرون الكلام بسرعة صدوره، وإنما يقدرونه بما يحمل من الحق والصواب

ليته تريث وتدبر وأنعم في كلامه وكلام غيره، إذن لما أعجله حب الرد للرد فجعله ينقض فكرة هي له على أنها لغيره، ويستنجد لدفعها بالعربية والمنطق والأصول؛ وبيان ذلك باختصار أنه:

كان أشكل عليه في كلام أبي علي بن أبي حامد أمر الوثيقة التي كتبوها على المتنبي بعد أن استتابوه من دعوى النبوة؛ فذهبنا نحن إلى أنها في إبطال علويته لا تنبئه، وأمر علويته ورد في روايات ثانية، فكان من الأستاذ أن أورد رواية أبي علي ثم علق على كلامنا فيها بقوله: (الرسالة ص ١٦٦٥)

«فأنت ترى أن لا ذكر للعلوية في هذا الخبر ولا في غيره مما روى عن علي بن أبي حامد هذا، فكيف يتأتى لك أن تقحم العلوية فيه وهو لم يذكرها فيه ولم ترد عنه في خبر غيره، ثم تعمد إلى الكلام فتؤول بعضه على النبوة وبعضه على العلوية فتجعل التوبة للأولى والوثيقة للآخرة؟»

والذي قلناه نحن هو هذا (الرسالة ١٧٠): «وليس في الأمر مشكلة ولا تناقض ولا داع لأن يرجح الأستاذ (ص٤٩) من كتابه إقحام لفظ النبوة بين العلويتين في حديث الهاشمي، وليقول: (إن المراد بالنبوة (تأمل) في حديث أبي علي بن أبي حامد العلوية) فمن المقحم ومن المؤول أيها البحاثة المحقق الذي لا يندى اليوم ما قاله أمس؟! ثم قلنا: «فعلوية أبي الطيب التي أراد أن يفسر بها النبوة الواردة في الروايات على اختلاف مصادرها لم تسلم له من الأصل، وبقي المتنبي جعفياً يمنياً، وإذا كان لا بد

(تدبر) من ايراد احتمال فالأولى أن تحمل العلوية الثانية من زيادات النساخ وإقحامهم . على أن الروايات فى غنى عن هذا الفرض أيضاً (تأمل وتدبر) وليس فيها داع إلى شك أو تأويل . فمن الغريب جداً أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليه وأن يظل على العلوية طول أيام سجنه حتى كتابة الوثيقة »

فنظرية الاقحام أنت قلت بها أيها الأستاذ الجليل لا نحن ، وكلمتنا بدئت بقولنا (إذا كان لا بد من احتمال) أما كلمتك فبدئت : (إن المراد بالنبوة فى حديث أبى على . . العلوية ص٤٩ من كتابك القيم) وأياً كان صاحب اكتشاف الاقحام ومؤول النبوة بالعلوية فهو ونظريته خليقان بما تفضل به الأستاذ من استنكار واستبشاع

لقد رمانى الأستاذ بدائه : عدم التدبر والتحريف ، وأراد أن يتناول فكرة لى كيفما اتفق له لينقدها ، فوقعت يده على فكرته هومنقولة فى كلامى ! وقاتل الله العجلة ، فقديماً ذكروا أن تاجراً أضمر أخذ عدل من أعدال شريكه فوضع رداءه عليه ليعرفه فى الظلمة ؛ ثم ذهب وجاء رفيقه ليصلح أعداله فوجد رداء رفيقه على عدله وظن أنه نسيه فرفعه ووضعه على عدل شريكه . ولما كان الليل أتى الشريك بحمال واطأه ففتح الحانوت واحتمل العدل الذى عليه الرداء وأخرجه هو والرجل ، وجعلا يتراوحان على حمله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً ، فلما أصبح افتقده فاذا هو بعض أعداله ! !

***

فعلى القارىء المتتبع أن يرجع حيثما وجد نقلا لكلامى الى الأصل المنقول عنه فلست أفرغ دائما لبيان ما حرّف ولا أحتمل إلا تبعة ما قلت على ما قلته بحروفه ، غير مروى بكلام من غيرى . ومن أول كلامى بجمل من عنده ثم شرع فى ردها فانما رده على تأويله فحسب

كان رغب الينا الأخ شاكر ألا نتبع ظننا فى أنه من أهل الغرور والذهاب بالنفس والجهل بمقدارها ، والمكابرة فى العلم والجدال فيما لا جدوى منه ولا منفعة . وقبل كلمته هذه كان ادعى لنفسه تدبرا وإمعاناً وأصولاً ودراية ، ثم فى الأخير حلماً عند المقاتل البادية حين لزنا بالحاجة الى هذه الصفات ، وكلام كلينا معروض لمن أراد تثبتاً ، وسبحان الذى قال : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »

فهل أجد حرجاً فى أن أقول ثانية « صحف الرسالة أحوج إلى أن تمتلأ بالحقائق والبرهان منها الى الدعوى والانتقاص » وإن القراء « لا يخفى عليهم وجه الحق فى كلام اثنين ، ولا يصرفهم عنه نيل من صاحبه ومراوغة فى الحط منه » ، وحرام أن أقتل الوقت فى تتبع المزالق التى زل فيها صاحبنا فى مقاليه هذين ، فما هى بنافعتنا فيما ظهر لتباين أسلوبينا فى البحث و (اختلاف فى الجبلة) على ما قال الأخ شاكر

وما أنا بعائد اليه لأن الحقيقة لم تفد شيئاً بخوض هذا البحث معه ، ولن أجارى أخى فى طريقه التى سلكها فما هى لى بطريق ، ولا أرب لى بتعسف المتاهات ، ولولا أن يظن المجول من القراء أن نظرية الاقحام وتأويل النبوة بالعلوية التى رمانى بها الأستاذ على عجلة وخطأ هى نظريتى وفكرتى لما خططت حرفاً من كلمتى هذه

وبعد ، فليس عندى لأخى الأستاذ على أقواله فىّ غير السلام

سعيد الأفغانى

الفصل فى نبوة المتنبى
من شعره

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ١ —

يعتمد الباحثون فى نبوة المتنبى على تلك الأخبار المتناقضة فى أمر نبوته ، فيـذهبون فيها مذهبين متناقضين : فريق يجزم بوقوع هذه الدعوى منه ، وفريق يجزم بأنها من اختراع أعدائه ؛ وكل فريق يتعصب للأخبار التى تؤيد مذهبه ، ويجزم بصحتها كل الجزم ، ويطمن فى صحـة الأخبار التى لا توافق مذهبه ، وتؤيد مـذهب الفريق الآخر ، وقد ضاع الحق فى ذلك بين التعصب للمتنبى والتعصب عليه ، ولم تنهض فيه حجة واضحة تقطع بالحق من ذينك المذهبين ، وتقضى على هذا الخلاف الذى لم ينته الى الآن

ولا خـلاف بين الفريقين فى إطـلاق لقب المتنبى على أبى الطيب ، وإنـما الخلاف فى أنه أطلق عليـه لادعائه النبوة فى حداثته ، أو لقوله :

أنا تِرب الندى وربّ القوافى   وسِمام العدى وغيظ الحسُود
أنا فى أمةٍ تداركها الله   غريب كصالح فى ثمود
ما مُقامى بأرض نخْـلة إلا   كمقام المسيح بين اليهود

هذا هو ما حكاه أبو الفتح عثمان بن جنى عن أبى الطيب نفسه ؛ وأما الأول فحـكاه أبو عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقى قال : قدم أبو الطيب المتنبى اللاذقية فى سنة نيف وعشرين وثلثمائة وهو لا عذار له ، وله وفرة الى شحمتى أذنيـه فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته ، فلما تمـكن الأنس بينى وبينه وخلوت معه فى المنزل اغتناماً لمشاهدته ، واقتباساً من أدبه ، قلت : والله إنك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير ، فقال : ويحك أتدرى ما تقول ؟ أنا نبى مرسل ، فظننت أنه يهزل ، ثم تذكرت أنى لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته فقلت له ما تقول ؟ فقال أنا نبى مرســـل ، فقلت له : إلى من مرسل ؟ فقال الى هذه الأمة الضالة المضلة . قلت تفعل ماذا ؟ قال : أملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً . قلت بماذا ؟ قال : بادرار الأرزاق ، والثواب العاجل لمن أطاع وأتى ، وضرب الرقاب لمن عصى وأبى . فقلت له : إن هذا أمر عظيم أخاف عليك منه ، وعذلته على ذلك ، فقال بديهة :

أبا عبد الآلـه مُعـاذ إنى   خفىٌّ عنك فى الهيجا مقامى
ذكرتَ جسيم مطَّـابى وأنى   أخاطر فيه بالُمهج الجسـام
أمثلى تأخذ النـكبات منه   ويجزع من مـلاقاة الحمام
ولو برز الزمان الى شخصاً   لخضَّـب شعر مفرقه حُسامى
وما بلغت مشيئتها الليالى   ولا سارتْ وفى يدها زمامى
إذا امتلأت عيون الخيل منى   فويل فى التيقظ والمنام

ثم ذكر بعد هذا أنه لم يزل معـه حتى قال له : ابسط يدك أشهد أنك رسول الله ، قال : فبسط يده فبايعته بيعة الاقرار بنبوته ، ثم قال :

أىَّ محلٍّ أرتقى   أىَّ عظيم أتقى
وكلُّ ما قد خلق الله   وما لم يخلق
محتقر فى همتى   كشعرة فى مفرق

وقد يكون هذ الذى ذكره أبو عبـد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقى صحيحاً ، ولم يكن المتنبى إذا صح أنه ادعى النبوة أول من ادعاها فى الاسلام ، فقد ادعاها قبله وبعـده خلق كثير ، وقد يكون هذا غير صحيح ؛ وربما يؤيد هذا أن الأبيات الأولى رويت فى ديوانه على أنه قالها وقد عزله معاذ فى إقدامه فى الحرب ، وأن الأبيات الثانيـة لا تتفق مع دعواه النبوة ، وكثير من الناس يتخذها دليلاً على إلحاده

وقد يكون ما رواه ابن جنى هو الصحيح ، وله شواهد كثيرة فى الأدب العربى ، ومن هـذا أن شاس بن نهار من شعراء الجاهلية لقب بالمزق لقوله :

فان كنت مأكولاً فـكن أنت آكلاً   وإلا فأدركنى ولما أُمزَّق

وأن محصن بن ثعلبة وهو شاعر جاهلى أيضاً لقب بالمثقب لقوله :

رددْن تحيـة وكَنَنَّ أخرى   وثقبن الوَصاوِصَ للعيون

وأن خداش بن بشر المجاشعى وهو شاعر إسلامى لقب بالبعيث لقوله :

تبعث منى ما تبعثُ بعـد ما (م) استمر فؤادى واستمر عزيمى

ومن ذلك أن جران العود العبدى سمى بهذا لقوله :

تاريخ العــــرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

المستشرق الانجليزى

المدخل لتاريخ العرب

- ٢ -

وإذا وجدنا أن اللغة لا تجرى فحسب على ألسنة الشعراء الجوّالين (الذين كانوا عادة على جانب من الثقافة) أو عرب الحيرة المسيحيين ، بل تتداولها ألسن الرعاة واللصوص والبدو الغلاظ فى كل البقاع ، إذا وجدنا هذا فليس ثمت داع للشك فى أننا نسمع من خلال شعر القرن السادس اللغة العربية التى كانت مستعملة فى طول بلاد العرب وعرضها . وقد زاد انتصار محمد والفتوح الاسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين من شأن هذه اللغة وأصبحت العربية لساناً مقدساً فى جميع الأمصار الاسـلامية . ولا مراء أن الفضل فى هذا يرجع إلى القرآن ، ولـكن من ناحية أخرى أمر اعتبار لهجة مكة (التى نزل بها القرآن) الأصـل للعربية ، وتسمية العربية « لغة قريش » كاف لدحض كل حقيقة حول هذا الموضوع . وقد اتخذ محمد (ص) — كما لاحظ نلدكه — الشعر القديم مثالاً . وفى صدر الاسـلام كانت سلطة الشعراء الجاهليين (وقليل منهم كان من قريش) هى التى ثبتت قدم اللغة الفصحى وعممت استعمال الأسلوب الفصيح . وطبيعى أن يكون المسلمون — وهم الذين عدوا القرآن كلمة الله والمعجزة البالغة فى أسلوبها — قد قدموا لهجة قبيلة النبى على كل لهجة أخرى ، كما أنـكروا القول بأن كل قبيلة أبعد من مكة أقلّ فصاحة ، ولـكن هذه النظرة لا تلقى قبولاً لدى الباحث المحايد . ولو أنه كان للقرآن تأثير عظيم فى تاريخ اللغة العربية وآدابها ، وسنرى فى فصل خاص أن ضرورة حفظ أصل الـكتاب الـكريم سليما ، وشرح غوامضه بعثت المسلمين على استنباط علم النحو واللغة ، ودعَتْ إلى جمع شعر الجاهلية والأخبار التى لا بد قد تطرّق إليها الضياع . ولـما استقر العرب — كفاتحين — فى سورية وفارس واختلطوا بالشعوب الغريبة عنهم ، لم تلبث لغتهم محافظة على فصاحتها الأولى ، أما فى بلاد العرب نفسها وخاصة بين بدو الصحراء فلم يكن الفارق محسوساً ، وكذلك فى البلدان المجاورة ومراكز التجارة الـكبرى كالبصرة والـكوفة حيث كان معظم السكان من الأجانب الذين اعتنقوا الاسلام وسرعان ما استعربوا ؛ وظل الباب مفتوحاً على مصراعيه لجميع ضروب الفساد . وقد أعلن علماء اللغة حرباً ضروساً على هذه العربيـة التى شابتها العجمة ، وإن الفضل فى انتصار العربية الفصحى وتغلبها على الأخطار الجسام التى هددتها ليرجع إلى ما بذله هؤلاء من جهود ، وبالرغم من أن لغة البدو الوثنيين لم تبق كما هى — أو ظلت على أى حال حية على ألسنة المتحذلقين والشعراء فحسب — إلا أنها أصبحت بعد تحوير قليل الوسيط العالى للحديث بين الطبقات العليا فى المجتمع الاسلامى ، وفى مستهل العصور الوسطى كانت لغة الحديث والـكتابة لجميع مثقفى المسلمين من أى جنسية كانوا : من بلاد الهند حتى المحيط الأطلسى ، فكانت لغة البلاط والدين ، ولغة الشرع والتجارة ، ولغة السياسة والأدب والعلم ، وفى القرن العاشر حينما ثل الغزو المغولى عرش الخلافة العباسـية وانفرط عقد الوحدة الاسلامية السياسـية لم تعد العربية أو اللغة العامة للعالم المحمدى ، بل حلت مكانها لهجة سوقية فى

خذا حذراً يا جارتى فاننى رأيت جرانَ العود قد كاد يصلح

نخوفهما بسير قُدَّ من صدر جمل مسن

ومن ذلك أن المرقش الأكبر لقب بهذا لقوله :

الدار قفر والرسومُ كما رقَّش فى ظهر الأديم قلم

واسم المرقش ربيعة بن سـعد بن ملك

ومن ذلك أن مدرج الريح لقب بهذا لقوله :

ولها بأعلى الجزع رسمٌ دارس درجت عليه الريح بعدك فاستوى

فاذا نظرنا إلى هذه الأخبار المتناقضة فى ذاتها لم تشف غليلنا فى هذه النبوة المزعومة ؛ وليس أمامنا فيها إلا اللجوء إلى ما سموه علم الجرح والتعـديل ، وإنى لا أثق كثيراً بهذا العلم ، لأنه مختلف أيضاً فى أمر رواة الأخبار ، ولأنه يعتمـد على ظاهر أمرهم وهو لا يدل حقيقة عليهم

فلا بد من اللجوء إلى أمر آخر يشفى غليلنا فى أمر هـذه النبوة ، وذلك الأمر هو الشعر الذى قيل فى العهد الذى يقال إن المتنبى ادعى فيه هذه الدعوى ، وسنبدأ بهذا فى المقال الآتى

عبد المتعال الصعيدى

(يتبع)

بلاد العرب وسورية ومصر وبعض الأقطار الناطقة بالضاد ، ولو أنها ظلت فى هذه الأمصار لغة الأعمال والأدب والتعليم . ونسمع اليوم من مصدر ثقة « أنها آخذة فى النهوض ، وأنها على وشك أن تسترد ثانية مكانتها الأدبية العظمى [(١)] » وهى إذا كانت تشغل — بالنسبة إلى هؤلاء المسلمين من غير العرب — نفس المكانة التى تشغلها اللاتينية والاغريقية فى الثقافة الأوربية الحديثة ، فينبغى ألا يغرب عن ذهننا أن القرآن (وهو أروع آثارها) يحفظه كل مسلم لأول ذهابه إلى المدرسة ، وهو يتلوه فى صلواته اليومية ، ويسيطر على مجرى حياته كلها إلى درجة يكاد لا يصدقها المسيحى العادى

وآمل أن يغفر لى القارئ تجاهلى — فى كتاب كهذا — ما يتعلق بالتاريخ العربى القديم الذى يمكن الالمـام به من الآثار الأشورية والبابلية ، كما أن أى كتابة يحاول من ورائها دراسـة العرب من سنة ٢٥٠٠ ق . م حتى بداية العصر المسيحى لأشبه بخريطة Cathay رسمتهـا يد سير جون ماندفيل ؛ بيد أن شعباً (غير سبأ أو حمير) من بين شعوب الجزيرة استطاع أن يترك أثراً أبقى من غيره ، ذلك هو شعب النبط الذين سكنوا المدن واحترفوا التجارة قبل ميلاد المسيح بزمن طويل ، وأسسوا مملكة « بترا » التى كانت رخية متقدمة فى الزراعة حتى كان عام ١٠٥ م حين ضربها ودمرها تراجان ، وكان هؤلاء الأنباط يتكلمون العربية بالرغم من أنه قد ورد خطأ فى أحـد نقوشهم أنهم كانوا يستعملون الآرامية فى الـكتابة [(٢)] ؛ ويخلط المؤلفون المسلمون بينهم وبين الآراميين إلا أن الدراسة العميقة لنقوشهم أثبتت خطأ هذه الفكرة التى أقرها كاترمير [(٣)] ، وإن كتاب « الفلاحة النبطية [(٤)] » الذى ألفه عام ٩٠٤ م الـكاتب المسلم ابن وحشية الذى اعترف بأنه ترجمه من الـكلدانية ، فقد ظهر الآن أنه مختلق ، وما أشرت اليه فى هذا المجال إلا كمثال للوسيلة التى يستعمل فيها المسلمون لفظ « نبطى » ، لأن العنوان المشار اليه حالاً لا يرجع بالطبع إلى بترا ولـكن إلى بابل

من كل ما قيل يستطيع القارئ أن يلاحظ أن تاريخ العرب — وجل معلوماتنا عنه مقتبسة من مصادر عربية — يمكن تقسيمه إلى ثلاثة عصور

(١) العصر السبأى والحميرى من ٨٠٠ ق . م وهو تاريخ أقدم نقوش العربية الجنوبية حتى سنة ٥٠٠ م

(٢) العصر السابق للاسلام (أى من ٥٠٠ م — ٦٢٢ م)

(٣) العصر الاسلامى ويبدأ من هجرة الرسول من مكة إلى المدينة أى من سنة ٦٢٢ حتى الوقت الحاضر

أما عن العصر الأول الذى يتعلق بتاريخ اليمن أو بلاد العرب الجنوبية فليس لدينا مراجع عربية معاصرة له سوى النقوش ؛ كما أن المورد القيّم الذى تمدنا به هـذه النقوش على نقصه هو الأحاديث الواردة فى قصائد الجاهليـة والقرآن وخاصـة فى الأدب المحمدى المتأخر ؛ ولا مراء فى أن معظم هذه الأخبار أساطير ، ومن الأجدر أن يتجاهلها الباحث المشتغل بالبحث التاريخى ، ولـكننى سأخصص جزءاً وافياً لدراستها ، خاصة وأن غرضى الأول هو التعريف بمعتقدات العرب أنفسهم وآرائهم

أما العصر الثانى فيسميه المسلمون عصر الجاهلية أو عهد البربرية [(١)] وتنطبع مميزات هذه الفترة فى دقة وأمانة فيما وصلنا من أغانى وقصائد الشعراء الوثنيين ، إذ لم يكن هناك إبان هذا الوقت أدب نثرى فـكان من مهمة الشاعر التغنى بتاريخ قومه والافتخار بنسبهم ، وتمجيد استعمالهم للسلاح ، وتبجيل فضائلهم ، ورغماً من أن مقداراً عظيما من شعر الجاهلية قد فقد إلى الأبد ، إلا أنه

(١) من مقال للأسـتاذ مرجليوث فى J. R. A. S لسنة ١٩٠٥ ص ٤١٨

(٢) Nöldeke :Die Semitischen Sprachen, p. 36 399 and. 51

(٣) راجع ما كتبه « Quatremère » فى « الجريدة الاسيوية » شهر مارس سنة ١٨٣٥ ص ٢٠٩ وما يليها

(٤) يقول الأستاذ إسرائيل ولفنسون بصدد هذا الـكتاب « ألفه سنة ٢٩٦ هـ باللغة العربية أبو بكر أحمد بن على بن وحشية الذى كان من أسرة نبطية وثنية اعتنقت الاسلام وحسن إسلامها ونبغ بعض أفرادها . والـكتاب خلاصة لنظريات المعتقدات الوثنية عند النبط والآراميين وما فيه مستمد من آراء عالم وثنى عرف عند ابن وحشية باسم كوثامى ؛ ومع أن كتاب الفلاحة النبطية يشتمل على معلومات ونظريات فى علم الفلاحة والنبات = فانه يحتوى على روايات وقصص عن حياة الأمم الوثنية البائدة فى الشام والعراق والديار الفارسية ... وكان العالم كاترمير يعتقد أن كوثامى المذكور فى كتاب الفلاحة النبطية من رجال القرن السادس ق . م . وقد عارضه خولسون Chwolson فى ذلك إذ بدا له أن كوثامى عاش فى القرن الرابع عشر ق . م أما المؤرخ أرنست رينان فيميل إلى أن معلومات ابن وحشية عن حضارة الأصنام الآرامية ترجع إلى القرون الأولى بعد الميلاد لذلك يؤثر أن يكون كوثامى ممن عاشوا فى ذلك الزمن أيضاً » (راجع موسى بن ميمون ص١١٢ هامش رقم ١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سبتمبر ١٩٣٦)

(١) فى الحقيقة أن الجاهلية تشمل كل الفترة منذ آدم إلى محمد ، ولـكنها قد تستعمل — فى دائرة محدودة كما هو الحال هنا — للاشارة إلى عصر ما قبل الاسلام للأدب العربى

لا تزال لدينا بقية كبيرة (باضافتها إلى ما وضعه علماء اللغة والآثار المسلمون من قصص تترى) تساعدنا على تصوير حياة هذه الأيام الغابرة تصويرا دقيقاً

أما أهم العصور الثلاثة وآخرها فهو تاريخ العرب تحت ظل الاسلام، وينقسم طبيعيا الأقسام التالية التي ألمت بها في هذا المكان حتى إذا ألقى القارىء عليها نظرة تبين من خلالها مجمل المظاهر السياسية المتعددة لهذا العهد المضطرب الدقيق الذي يقوم بجاهه؛ وهذه الأقسام هي:

ا — حياة محمد

حوالى مستهل القرن السابع المسيحي ظهر في مكة رجل من قريش هو محمد بن عبد الله بكتاب سماوي هو القرآن، دعا قومه لنبذ الأوثان ولعبادة « الله الواحد »، وقد ظل مثابراً عدة أعوام على الدعوة لدين الاسلام في مكة على رغم ما لاقاه من سخرية القوم منه واضطهادهم إياه، ولما وجد أن تقدم دعوته ضئيل هاجر عام ٦٢٢ م إلى بلدة مجاورة تلك هي المدينة، ومنذ ذلك التاريخ كان النصر المؤزر حليفه، وفي خلال السنوات العشر التالية دانت بلاد العرب جميعها لديانته، ودعت بلسانها للايمان الجديد

ب — الخلفاء الراشدين (٦٣٢ — ٦٦١)

بعد أن قبض الرسول (ص) تعاور حكم المسلمين بالتتابع أربعة من أعظم صحابته، هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، وسمي كل منهم خليفة، ويعرفون عادة بالخلفاء الراشدين، وفي ظلهم وبارشادهم ثبتت دعائم الاسلام في شبه الجزيرة وخفق لواؤه بعيدا وراء الحدود، أما أعداؤه من البدو فقد استقروا كمستعمرين حربيين في السهول الخصبة من سورية وفارس، وسرعان ما وقعت الأمبراطورية الحديثة النشأة في حرب أهلية، وكان مقتل عثمان إيذاناً باشتعال النضال بين طلاب الخلافة المتنافسين، وتمسك علي — صهر الرسول — بلقبه، ولكن حاكم سورية القوى معاوية بن أبي سفيان أنكر خلافته ونافسه

ح — الدولة الأموية (٦٦١ — ٧٥٠)

لما سقط علي صريعاً بضربة خنجر اعتلى معاوية عرش الخلافة الذي ظل وقفاً على أسرته تسعين عاماً، وكان الفارق الوحيد في الأمويين أنهم كانوا عرباً قبل أن يكونوا مسلمين، وكان أثر الدين فيهم ضئيلا، ولكن ظهر منهم بعض حكام أكفاء مهرة، جديرين بأن يكونوا قادة جنس آمر. وقد بلغت الفتوح الاسلامية أقصى اتساعها عام ٧٣٢ م، وكان للخليفة القائم في دمشق قواده فيما وراء أكسوس والبرانس وعلى شواطىء بحر قزوين ووادي النيل؛ وفي غضون ذلك كان بأس الدولة آخذا في التدهور والانحطاط من جراء المنازعات السياسية والدينية القائمة فيها؛ أما الشيعة الذين تمسكوا بحصر الخلافة في علي وأبنائه بأمر مقدس، فقد ثاروا مراراً عدة، وانضم اليهم المسلمون الفرس الذين كانوا يمقتون العرب والحكومة الأموية الظالمة، كما كان العباسيون — وهم ذوو وشيجة قربى قوية بالرسول — قادة الاضطراب الذي انتهى بخلع البيت الحاكم نهائياً واستئصال شأفته

ء — الدولة العباسية (٧٥٠ — ١٢٥٨)

كان العرب حتى ذلك الوقت أصحاب السلطان في المجتمع الاسلامي، وقد شمخوا بأنفهم تيها على المسلمين من غير العرب وازدروهم، ولكن انعكست الآية بعد ذلك، إذ نجد أنفسنا قد انتقلنا من عصر العصبية العربية الى عصر النفوذ الفارسي والثقافة الجامعة، وكان صفوة القوات العباسية من فرس خراسان، وشاد العباسيون «بغداد» عاصمتهم الزهراء على أرض فارسية، ونال أشراف الفرس أسمى مناصب الدولة وأرفعها في بلاط بني العباس، وإن لم تكن الدولة الجديدة دينية، إلا أنها كانت على الأقل حدبة على الدين مجتهدة في أن تحيط نفسها بمظاهر الورع، ونسى العرب والفرس حينا ما بينهم من خلاف وفروق، وتعاونوا جميعاً كما ينبغي على المسلمين الأتقياء، ولقي التعليم تشجيعا عظيما، وكان هذا العصرُ العصرَ الذهبي للاسلام، وقد بلغ أوجه أيام هرون الرشيد الزاهرة (٧٨٦ — ٨٠٩). ولما مات تداعت عمد السلام مرة ثانية، وابتدأ نجم الأمبراطورية القوية البأس في المغيب، وأخذت المقاطعات تنسلخ واحدة بعد أخرى عن الخلافة، وتقتطع نفسها منها، ومن ثم ظهرت دول مستقلة كثيرة، بينما صار الخلفاء دمى في أيدي الجند الأتراك، وظلت معظم الأقطار الاسلامية معترفة بسيادتها اسمياً، ولكن منذ أواسط القرن التاسع لم يعد لهم إلا القليل منها، أو لم يعد لهم شأن مطلقاً

(يتبع) ترجمة محمد حسن حبشي

مشرقيات

فى الأدب العربى الحديث

للأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكى

الأستاذ بجامعة لينتجراد

– ٣ –

وهنالك محاولات فردية بذلت فى سبيل كتابة القصة الاخلاقية (سعيد البستانى ويعقوب صروف) . والقصة النفسية (فرح أنطون ١٨٧٤ – ١٩٢٢) ، وإن كانت لم تضارع قصص زيدان فى مضمار النجاح

لكن معين القصة التاريخية عند العرب لم ينضب بعد كما يتضح من قصة « ابنة المملوك » التى وضعها فى عام ١٩٢٦ القصصى المصرى محمد فريد أبو حديد . وهى من نوع يختلف كل الاختلاف عن قصص زيدان ، بل إنها وصلت من بعض الوجوه الى مستوى أعلى

أما الأقصوصة فقد رأت النور فى مصر بخلاف القصة التاريخية ، ولا بأس من ذكر المحاولات التى بذلت فى سوريا ، ولكن ما كتب هناك من الأقاصيص كان قاصرا على طبقة المبتدئين . فقد شرع جبران خليل جبران وهو فى شرخ الشباب فى كتابة الأقصوصة على سبيل التمرن ، لكنه لم يعد الى ممارسة هذا النوع من الكتابة . أضف الى ذلك أن المجال لم يفسح لهذا النوع الجديد فى مصر إلا ببطء كبير . ولقد حاول الجيل القديم أن يستعمل أسلوب المقامات فى النقد الاجتماعى ، كحديث عيسى ابن هشام لمحمد المويلحى المتوفى فى عام ١٩٣٠ ، وهو ابن الصحفى النابه ابراهيم المويلحى (١٨٤٦ – ١٩٠٦) . أما المحاولات الأخرى (عائشة التيمورية ومحمد حافظ ابراهيم) فقد كانت أقل توفيقاً . وهناك مؤلف معروف جرّب حظّه فى الأقصوصة ، هو المنفلوطى ، وكانت أقصوصته تارة موضوعة ، وتارة أخرى منقولة بتصرف ، لكن كتابته امتازت بجمال التنسيق وسلامة الأسلوب دون دقة الموضوع أو البراعة القصصية . أما محمد تيمور الذى توفى فى شرخ الشباب (١٨٩٢ – ١٩٢١) فيمكننا أن نعده منشىء الأقصوصة المصرية ومبتكر التصوير الواقعى للحياة الاجتماعية الحديثة . فقد كان ملماً كل الإلمام بالآداب الأوربية ، قوى الملاحظة ، دقيقاً . فوضع أقاصيص صغيرة مأخوذة من صميم الحياة المصرية ، بأسلوب يحاكى أسلوب موباسان أو تشيكوف تحت هذا العنوان « ما تراه العيون »

وتقدمت الأقصوصة خطوات إلى الأمام فى مؤلفات شقيقه محمود تيمور (المولود فى سنة ١٨٩٤) وهى مجموعة فى ستة مجلدات[1] . وأقاصيص محمود تيمور واقعية كأقاصيص شقيقه محمد ، لكنها أكثر تنوعاً ، وأعمق تحليلاً ، وأفصح لغة ، وأسهل أسلوباً

وقد أثر فن التيموريين القصصى تأثيراً كبيراً فى جيل الكتاب المعاصرين ، ولنذكر منهم : أخوى عبيد ، المرحوم عيسى عبيد المتوفى عام ١٩٢٤ ، الذى وضع مجموعتى « إحسان هانم وثريا » ، وشحاته عبيد الذى كتب « درس مؤلم » ، وطاهر لاشين مؤلف « سخرية الناى ، ويحكى أن ... وحواء بلا آدم » . وهى مجموعة قصصية امتازت بالطلاوة والفكاهة ، ومحمد أمين حسونه مؤلف « الورد الأبيض »

ومن المميزات الجديرة بالملاحظة أن هذا النوع من الأدب وجد أنصاراً مخلصين فى البلاد العربية ، وجلها تأثرت بمصر إلى مدى بعيد

وفى العراق كاتبان ذاعت شهرتهما إلى ما وراء وطنهما هما : محمود أحمد (المولود فى سنة ١٩٠١) ، وقد وضع قصة طويلة بعنوان « خالد » ، ومجموعة باسم « الطلائع » وأخرى موسومة «فى ساع من الزمن» ، والقصصى العراقى الثانى هو أنور شاؤول الذى كتب مجموعة « الحصاد الأول »

ولقد ظهرت الأقصوصة العربية فى أمريكا « المهجر » فى الوقت الذى ظهرت فيه فى مصر ، وربما قبل ذلك ، ولنذكر أولاً عبد المسيح حداد الذى كتب أقاصيص صغيرة كلها فكاهة

(١) بلغت مجموعة محمود تيمور القصصية إلى الآن ثمانية مجلدات وهى : الشيخ جمعة ، وعم متولى ، والحاج شلبى ، والشيخ سيد العبيط ، ورجب أفندى وأبو على عامل ارتست ، والأطلال ، والشيخ عفا الله (المترجم)

بعنوان «حكايات المهجر» وهي تكاد تكون صوراً سريعة للحياة العربية في أمريكا ، وقد أخذ المؤلف كثيراً من روح أقصوصات جبران . وهناك أيضاً ميخائيل نعيمه الذي خصص في أقصوصته النفسية مجالاً واسعاً لتحليل الروح تحليلاً عميقاً ، متأثراً بالأدب الروسي في القرن التاسع عشر

* * *

إذا استطعنا القول بأن الأقصوصة العربية الجديدة وجدت أمامها الطريق اللائق بتقدمها وازدهارها حتى بلغت المكانة الجديرة بها ، فان القصة لم تصل إلى هذا المدى من النشاط ، وكل ما رأيناه في هذا المضمار هو بعض محاولات طفيفة

وقد استهل هـذا النشاط بقصة « زينب » ، وهي قصة طويلة وضعها في عام ١٩١٤ محمد حسين هيكل بك الذي أصبح فيما بعد صحفياً وأديباً نابهاً ، وموضوعها منقول عن الحياة الريفية في مصر . أما من حيث اللغة والأسلوب وطريقة الكتابة فقد فتحت فتحاً جديدا ، إذ امتازت القصة بأسلوبها الطبيعي الخالي من الصناعة والتكلف ، لكنها رغم ذلك لم تلفت الأنظار في بدء ظهورها

ووضع الدكتور طه حسين (المولود في سنة ١٨٨٩) قصة دعاها « الأيام » في عام ١٩٢٧ ، وسار فيها على أسلوب الأخبار العائلية ، وهي تصف طفولة صبي مصري يافع ، عاش في قرية صغيرة على ضفاف النيل ، والقصة جديرة حقاً بالتقدير ، لا من حيث الوصف الحي للحياة الواقعة فحسب ، بل كمؤلف أدبي من الطراز الأول في اللغة والأسلوب وطريقة الرواية

أما مجموعة القصص الثلاث لتوفيق الحكيم فقد رسمت لها خطة واسعة النطاق ، ولم ينشر منها حتى الآن سوى القسم الأوسط « عودة الروح » في جزءين (كتبا في سنة ١٩٢٧ ونشرا في سنة ١٩٣٣) ، وقد خصص هذا القسم للحوادث التي توالت على مصر ابتداء من عام ١٩٢٠

وكان لظهور توفيق الحكيم في سماء الأدب أحسن وقع لما امتاز به من التعمق في الفن الروائي ، وبراعة الوضع ، وسلاسة اللغة ؛ وهذه الأمثلة تحملنا على أجنحة الأمل وتدفعنا إلى الاعتقاد الجازم بأن القصة ستحل قريباً المحل اللائق بها في الأدب العربي الحديث

حـ — المسرحية (الدرامة)

لم تنبت المسرحية العربية الجديدة من أصول محلية ، شأنها في ذلك شأن القصة (فهي لم تأخذ شيئاً من المقامة أو القراقوز أو أسرار الدين الشيعي) . وقد شاع فن التمثيل بين الطلبة بفضل الحفلات السنوية التي كانت تقيمها المدارس الأوربية ، واعتاد المدرسون أن يضعوا بأنفسهم المسرحيات التي يقوم الطلبة بتمثيلها إذ كانوا يختارون موضوعاتها من التوراة أو من التاريخ اليوناني والروماني القديم « الكلاسيك » ، وأخيراً من ماضي العرب

لم يقتصر المسيحيون وحدهم على توجيه عبقريتهم نحو هذا النوع ، بل اشترك معهم المسلمون . ففي سوريا ، كتب ابراهيم الأحدب مسرحيتي « اسكندر المقدوني » و « ابن زيدون الأندلسي » ، ووصل فن المسرحيات الهزلية الأخلاقية إلى نتائج جديرة بالثناء منذ أوائل عهد النهضة الأدبية ، بفضل التأثير الأوربي ، فقد زار الكاتب السوري مارون نقاش (١٨١٧ — ١٨٥٥) إيطاليا عدة مرات ، واطلع على مؤلفات موليير ودرس حالة المسرح الايطالي الجديد . وما إن عاد إلى وطنه حتى شرع في كتابة ثلاث مسرحيات هزلية على أسلوب موليير ، وعهد بتمثيلها إلى فرقة من الهواة ، وفي اثنتين منهما صور المؤلف الحياة السورية الحالية . أما الثالثة فهي مقتبسة عن « ألف ليلة وليلة » ، وقد نالت تلك المسرحيات بعض النجاح ، لكن بعد وفاة المؤلف وهو في ريعان الشباب ، لم يحاول أحد أن يسير على خطته ، اللهم إلا في بعض المسرحيات الهزلية الصغيرة التي وضعها طنوس الحر (عام ١٨٦٠) فانها لم تصادف من النجاح إلا القليل

وبعد مضي عشرين سنة ألف الكاتب السوري أديب اسحاق (١٨٥٦ — ١٨٨٥) فرقة تمثيلية صغيرة بمدينة الأسكندرية ، وهو شقيق سليم النقاش المتوفى عام ١٨٨٤ ، واتجهت الميول وقتئذ شيئاً فشيئاً إلى المأساة شبه الكلاسيكية . وكان أغلب أنصار هذه النزعة من رجال حلقة اليازجي والبستاني

وأول ما ظهر من المآسي « المروءة والوفاء » ، لخليل اليازجي (١٨٥٦ — ١٨٨٩) ، وهي قطعة شعرية مستقاة من حادث معروف في أساطير الأدب الجاهلي . وبعد نجيب حداد

(١٨٦٧ — ١٨٩٩) من أغزر الكتاب المسرحيين فى هذا العهد إنتاجاً ، فقد ترك ست عشرة رواية مسرحية ، أغلبها منقول بتصرف عن مؤلفات كورنى وفيكتور هيجو واسكندر دوماس وشكسبير ، لكنه ليس من السهل غالباً العثور على الأصل . وكتب أيضاً بعض تراجيديات من وضعه ، وهى لا تختلف عن سابقتها فى النوع ، نذكر منها « صلاح الدين » و « ثارات العرب » . ونالت مسرحيات حداد إعجاب الجمهور إذ ظل يتذوقها ويفضلها على سائر المسرحيات العربية حتى نشوب الحرب العظمى ، وإن كان الأوربيون يعتبرونها فطرية وغير متناسقة مع حاجات المسرح

وحاول الكاتب المصرى محمد عثمان جلال (١٨٢٩ — ١٨٩٨) أن ينفث روحاً جديدة فى المسرحية الهزلية الأخلاقية ، وفيما عدا ترجمته لمسرحيات راسين و كورنى إلى اللغة العربية الفصحى ، عزم هذا الكاتب على تنفيذ فكرة جريئة ، هى نقل مؤلفات موليير إلى اللهجة المصرية العامية مع مراعاة الأحوال الأخلاقية المصرية

لسنا ننكر أن محاولته تدل على مهارة فائقة وعبقرية ناضجة ، ولكن اللهجة العامية كانت غريبة على المسرح الذى لم يألفها ، ولذا لم تمثل مسرحياته إلا فى سنة ١٩١٢

تلك هى أهم البواعث التى يعزى إليها قصور التأليف المسرحى العربى على النوع شبه الكلاسيكى

لما جاءت سنة ١٩٢٠ كانت بعض الروايات مترجمة وبعضها موضوعة على طريقة نجيب حداد ، الذى كان قد أفسح المجال لعدة مؤلفين قديرين نسجوا على منواله . أما بعد سنة ١٩٢٠ فقد بدأ عهد جديد للأدب المسرحى فى مصر بفضل جهود محمد تيمور الذى تحدثنا عنه فى صدر هذا المقال

كان الفن المسرحى موضع عنايته الخاصة ، وطالما كتب عن المسائل الخاصة بنظريات الفن المسرحى وتاريخه ، كما أنه وضع عدة منولوجات لالقائها على المسرح ، وقد ترك أربع روايات مسرحية : روايتين هزليتين ، ودرامة وأوبريت [١] . أما حوادثها فتجرى كلها فى مصر الحديثة ، عدا الأخيرة فهى مقتبسة عن مصر فى عهد المماليك

(١) هى : العصفور فى القفص ، والهاوية ، وعبد الستار افنـــدى ، والعشرة الطيبة (المترجم)

ومسرحيات تيمور تمتاز بالروح القوى ، وتراه يدب فيها بفضل استعماله اللغة المصرية الدارجة ، كما أن صفاتها المسرحية العظيمة جديرة بالتسجيل ، ولا شك أنها فى مقدمة المسرحيات المعبرة عن الحياة العصرية ، وهذا من أقوى البواعث التى يعزى إليها نجاحها

وفيما عدا هذه المسرحيات ، فقد نجح ميخائيل نعيمه فى المهجر ، وفى وضع مسرحية هزلية أخلاقية ، امتازت بما فيها من التحليلات النفسية الاخلاقية الرائعة ؛ هى رواية « آباء وأبناء » — ١٩١٧ — ووقائعها مأخوذة عن الحياة السورية العصرية ، وخصصت القدمة لمسائل مبدئية ، مما يدل على اهتمام المؤلف اهتماما جديا بالمشاكل التى يثيرها التأليف المسرحى ، ولاريب فى أن هذه الجهود تعد فاتحة خير للفن المسرحى العربى

والمسرحيات المصرية التى وضعها أنطون يزبك (خصوصاً الذبائح) المكتوبة باللهجة العامية ، تدل على تقدم مطرد بالنسبة لسابقاتها . وقبيل عام ١٩٣٠ حاول الشاعر الكبير أحمد شوقى بك أن يعيد الى التراجيدية شبه الكلاسيكية رونقها وبهاءها ، فخلف بعد وفاته عددا من المسرحيات الشعرية المنقولة عن التاريخ المصرى القديم أو تاريخ العرب [١] ونجحت هذه المسرحيات نجاحا باهرا بفضل تناسق روحها الشعرية الجميلة المكتوبة بأسلوب عربى قديم صحيح « كلاسيك » فجاءت مطابقة لذوق الجيل الحالى ، وإن كانت لا تعد تقدما فى تاريخ المسرح العربى

(يتبع) ترجمة محمد أمين حسونة

(١) هى : كليوباترا وقمبيز وعلى بك ومجنون ليلى وأميرة الأندلس

إلى الوفد السورى

أيها الظافر المتوج بالنور!

للشاعر (أبو غسان)

أقبل الفجر يا هزار ومَنْ منـ   ـك ومِنى بمتعة الفجر أحرى
ما ترى الورد قد تفتح للنو   ر وقد أوشك الندى أن يفرا
والشحارير قد تيقظن للشد   و وأيقظن فى الخمائل عطرا
والفراشات قد جرين إلى الخمـ   ـل يفيض النثير عنهن تبرا
وسرت رعشة الحياة إلى الكو   ن تهز الوجود أنساً و بشرا
موكب من مفاتن وجلال   هب يستقبل الصباح الأغرا
موكب للجمال ، للحق ، للحب   ترف المنى حواليــه سكرى
طِرْ بنا يا هزار نلتمس الرو   ض فقد آن للأسى أن يُسَرَّى
ننفض الصبر والأسار فقد كد   نا ، رعاك الإله ، نهلك صبرا
نحن فى هدنة الكفاح مع الليل   وقد يعقب الكفاح الأمَرَّا
فتعجل شـذا الصباح فما تد   رى لعـل المساء يحدث أمرا
كم ترقبت ذا الضياء وقد جن (م) عليك الدجى أذًى واكفهرا
وشكوت الظـلام يصهر جنبيـ   ـك عذاباً و يفعم الأرض ذعرا
فاسـتمع للبشير يا لذة النفـ   ـس يساقط عليك أسعد بشرى
ينضح الأفق بالسناء فتفتر (م) الروابى و يرقص الدوح سكرا
ويغنى الأرواح بالأمل العذ   ب فتهفو الأرواح لله شكرا
هو فجر الخلود إثر دياج   غمرت بالفناء عشك دهرا
هو فجر الأحـلام منَّ به الله (م) على أنفسٍ إلى الفجر حَرَّى

* * *

أى بشير السماء : ألأَرضُ قد ضا   قت لك الله بالتنظُّر صدرا
هاتها نفحة من النغم الملـ   ـوىّ ترجعْ ذوابل الحلم نضرا
هات ماشئت عن وفادة باريس   وأحـدث مما هنالك ذكرا
هل عنا الخصم بعد كبر وهل آ   من بالحق بعـد كفر وبرا
وصراخ الضعيف هل لقى السمـ   ـع وقد طالما نأى عنه وقرا
وهل القوم أيقنوا أن فى الشا   م أباةً لا ترتضى العيش أسراً
قد نماها إلى العـلاء أماجيـ   ـد لهم فى الزمان أمجد ذكرى
لقنوا الـكون برهة مثل العد   ل وفاقوا الأنام عزماً وفكرا
وأفاضوا على دُنى الغرب بالنو   ر وكانت ، إلا من الجهل قفرا
والأمانىُّ يا بشـــير أحقًّا   شوهت حسنها الثعالب مكرا
أم أراجيف ذو الضلالة قد دس (م) لظاها على الحقيقـة كفرا
فأزل باليقين من يدك الريـ   ـب وأدرك به النفوس فتبرا
قد شرى الشعب بالدماء أمانيـ   ـه فلا غرو إن غلا الشعب حذرا
ولأنت الحـكيم يا قائد الشعب   وحاشاك أن تُزَلّ وتغرى
إن فى وجهك النبيل من العز   لآيا على جبينك تقرا
وبكفيك من جراح العوالى   لخضاب الكمى أحرز نصرا
أولست الصفىَّ من حرس المجد   عركت الأيام مداً وجزرا
فيك من قلب (هاشم) حكمة الدهـ   ـر ودنيا من رأس (فارس) أخرى
وبك العبقرى من دوحة الصلـ   ـح يروع النهى جلالاً وسحرا(1)
ومن « السعد » عزمة الليث قد سيـ   ـم اعتسافاً فطبق الجو زأرا
ودهاء ابن «مردم» فى السياسا   تِ ومن ثَمَّ كابن «مردم» خبرا
همم تصـدع الجبال وتنهد   لديها معاقل الدهر حسرى
ليس بدعاً أن تسترد إلى الر   بع سليب الرجاء والحق قسرا

* * *

أى بشير انظر الخلائق يكتظ (م) بها الرحب كالخضمات زخرا
زحفت من جوانب الأرض تجتا   ز إليك الدروب سهلاً ووعرا
ترهف السمع ترقب النبأ الأعلى   وترنو إليك تسأل بشرى
ملت العيش فى القيود فما تأ   لو كفاحاً أو تنزع العيش حرا
راعها الأفك من حضارة أورو   با تجنى على الحضارة وزرا
تحجب المخلب المحدد بالصبـ   ـغ خداعاً وتزعم الخير شرا
وستراق الشعوب أمناً وتحر   براً وقتل الأرواح بالرق نشرا
فمشت تنشـد الحياة لتمحو   وصمة الغرب بالحضارة غرا

(1) رياض بك الصلح

تستمد اليقين من شرف الأمـ   س وتنضو إلى الغد العزم بكرا
فتوقل بها ذرى المجد تطلع   فى سماء التاريخ ما شئت فخرا
جادلتك الخصوم فيها وما كنـ   ت لتعيي وأنت أكرم عذرا
فأقم للخصوم فى مقبـل العهـ   ـد على قدرها الدليل الأغرا
وأدر دفة السفينة تجنبْ   عاصفاً يرمق السفينة شزرا
لأرى الأفق قد تلبد بالسحـ   ـب وقرن الخلاف فى الركب ذرا
شرر يستطير فى الوطن الباكي   وخطب يكاد أن يستحرا
فتـدارك بالمبضع الداء فى المهـ   ـد وإلا فيله الله أمرا
واصطلمها فوضى يسعرها الطيـ   ـش على الحى ذو الحماقة غرا [1]
قد ختمت اليوم الجهاد صغيراً   وبدأت الجهاد أكبر حرا
إن يك العهد فى النضال عسيراً   إن عهـد البناء أوفر عسرا
ولأنت المرجو إن حزب الدهـ   ـر وأعظِم « بكتلة » الحزم ذخرا

* * *

أيها الظافر المتوج بالنو   ر تباركت للهداية بدرا
قد مَهدْتَ السبيل للهدف الأسـ   ـمى ووفيت جهدك العهد برا
فتقبل تحيـة الساحل الشا   كر عصماء صغتها لك شعرا [2]
حرة لم تهم بغيرك عرساً   وَهْىَ تأبى إلا رضاك مهرا
حفها بالحياة والروح غرا   ن بهم أنت والمكارم أدرى
من بقايا سيوف « فيصل » فى الشط
رعى الله عهـد « فيصل » ذكرى
المشبين ثورة الجبـل السا
مى دجى الأمس والشدائد تترى [3]
جبناء اللسان فى زمن القول   وأُسْدُ الوغى إذا الهول كرا

* * *

وعظيمٌ تحية الوطن المفجو   ع يمناه فى مدى الروع تُغرى
يتملى بمقـلة فرح الشا   م وتبكى منه فلسطين أخرى
غرقت بالدماء فى الحرم الأ   قصى وعاثت بها يد اللص غدرا
تتلظى حمراء فى « جبـــــــل النا
ر » وتهوى بجانب « المهد » كسرى
تسأل الغوث أهلها فاذا الغو   ثُ من الأهل كالقطيعة نزرا
لكأنى بالقوم قد حسبوا الحق   عطاء والواجب المحض برا
وكأن لم تكن فلسطين للاسلا   م قلباً وللجزيرة طرا
أيبيت الأحرار فى حُفَر الأر   ض ونأوى إلى القصور مقرا!
وتعانى الطوى ويُتخمنا الشبـ   ـع، ونختال فى الحرير وتعرى!
ونصبُّ الاموال فى سُبل اللهـ   ـو ونشكو إذا دعا الجد فقرا!
نوَّر الله يا دمشق محيا   كِ ولا زلت للعروبة ظئرا
قد شفيت الأخاء نحو فلسطين   وقاسمتها الاسى مستمرا
فأعدى، وَقد فرغت، لها الجهـ   ـد جديداً وَالعون أعظم قدرا

(اللاذقية)   «أبو غسان»

(١) الطيش بالنصب مفعول لأجله ومنه قول الشاعر : شنوا الأغارة فرسانا وركبانا

(٢) الساحل هو منطقة اللاذقية التى كانت مفصولة عن أمها دمشق فردتها المعاهدة

(٣) ثورة الجبل العلوى المعروفة سنة ١٩١٩ — ١٩٢٢ بقيادة الشيخ صالح العلى

القصص

نومان ...

— مكانكم !

لويت عنان فرسي نحو مصدر الصوت الآمر ، ولكن العثير الذي أثارته حوافر الشياه حال دون أن أرى شيئاً ، وصبرت قليلاً فلاح لي خلال ذرات التراب الحائرة أربعة أشباح قد اعترضت سبيل الماشية فحالت دون سيرها ، ولما همد الغبار تبينت في الأربعة الأشباح أربعة رجال قد ضرب كل منهم لثامه على وجهه فلم يبن منه إلا عينان كعيني الصقر ، وتمنطق كل منهم بحزام من الرصاص لمعت ظروفه النحاسية تحت أشعة الشمس المائلة للمغيب ، وسدد كل منهم فوهة بندقيته الكامدة نحونا ، لا يتحرك ولا تطرف عينه

وانطلق الصوت الآمر مرة أخرى أجش :

— مكانكم قبل الهلاك ! ...

وأدرت رأسي ببطء نحو رفاق في رحلتي ، وكانوا أربعة نفر من جنود الشرطة السورية ، فتبينت وجوهاً علاها الاضطراب ، ورؤوساً منكسة الأذقان ؛ ورأيتهم وكل قد خفض بصره فزعا ، يخالسون الأنظار ويسترقون الرؤية ؛ فكدت ، أنا موظف الحجز في محكمة « الرقة » أقهقه في الموقف العصيب من أمر هؤلاء النفر ، يرتعدون هلعاً وفي كتف كل منهم بندقية كأنما علقت إشارة ناطقة على الجبن والخور

وساد صمت قصير لم يقطعه إلا حوافر الخيل تضرب الأرض ، وارتفع بعدها الصوت الأجش :

— هذا الطريق إلى « الخان » فدونكموه ... هيا !

سكت أصحابي ولكني قلت مستفهماً :

— وهذه الماشية المحجوزة ؟

— هيا ... الماشية لنا ...

كان جواباً حاسماً ، ولكن رئيس الجنود جمع شتات شجاعته وصاح معترضاً :

— وكيف نتركها لكم ؟ هذا لن يكون

وقبل أن يلفظ الحرف الأخير دوى صوت الطلقة التي أطاحت قبعته ...

— هاء ! هيا سيروا ، ولا يلتفتن أحد وراءه ...

وكان أول من لكز حصانه رئيس الجنود وقد ملكه الذعر فأرسل العنان لفرسه لا يلوي على شيء ، وأرسلنا الأعنة لخيلنا ، نريد أن نبلغ « الخان » قبل المغيب

***

لاحت لنا بيوت الشعر من قرية الخان وبين الشمس وبين أن تغيب قليل ، وكانت خيولنا تسير ببطء وتثاقل ، كأنما تحس بما عليها من عار وخزي ، وكان الجنود ساهمين لا ينبس أحدهم ببنت شفة ، فكأن الخوف والخجل تكاتفا على إظهارهم بمظهرهم هذا الذليل ؛ وسرت خلفهم منعزلاً عنهم أفكر في هذه المهزلة التي أكرهنا على تمثيلها . فلما لاحت لي أطلال « الخان » العتيق تحيط بها بيوت الشعر عنت لي فكرة ، فعزمت على أمر

تلقانا مختار [1] القرية ، الذي كنت به وبأهل قريته عارفاً ، بخير ما يتلقى المرء ، ولما ترجلت انتحيت به ناحية وقلت له :

— أريد نومان

فرفع إلي رأسه ثم ألقى على أصحابه الجنود نظرة أعادها إلي في دهشة وتساؤل ، فتبسمت وقلت :

— لا تخش شيئاً ، لست أجهل أن نومان طريد الحكومة ولكني أطلبه

فحرك كتفيه باستسلام وقال :

— كما تشاء

ومضى ، ولم تكن إلا برهة حتى عاد وأسر إلي : « هو منتظرك عند الجدار الغربي من الخان » ، فيممت المكان الذي

(١) مختار القرية النورى هو عمدتها للمصرى

ذكر ، فلاح لعيني فتى طويل القامة متين البناء ، ملق عباءته على رأسه ، ومرخ لثامه على وجهه ، وفوق منكبيه تنوس ضفيرتان بلون الليل على ثيابه البيضاء ، قد اقترن حاجباه فوق اللثام ، ولمع مقبض خنجره خلف الحزام ؛ ومذ رآني خف إلى مصافحتي فتعانقنا ، وبادرته :

— هيه يا نومان !

فأجابني صوت صافي النبرات رنان :

— يا لبيك ! ما وراءك ؟

فأخبرته الخبر وما سينجم عنه ، ثم قلت له :

— أنت وما ترى ، فلقد طرحت الأمر عن عاتقي

فلمحت الابتسامة خلف اللثام الكثيف ، وقال بلهجة الحازم الواثق :

— لعينيك أبا خالد ، فسيبلغك خبري ...

وابتعد عني يتخطى الأطناب متغلغلاً بين البيوت ، وعاد بعد يسير ممتطياً صهوة فرسه وقد تمنطق بحزامين من الرصاص وبندقيته في يده ، فلما بلغ موقفي لكز الجواد وجال على ظهره جولة ثم قذف بالبندقية في الهواء وتلقفها بأصابعه والجواد يعدو ، ثم هتف بي :

— إلى اللقاء ، فانتظرني

وأتبعته نظري وقد سار في الطريق الذي جئنا منه حتى حجبه عن عيني الغبار الثائر

***

تعددت الطلقات تمزق سكون الليل البهيم ، فانتبه رفاقي بعد أن أخذ الكرى بمعاقد أجفانهم فهوموا ، وأرجف من في مضيف المختار من رجال القرية أسماعهم إلى الأصوات برهة ، ثم انصرفوا إلى ما هم فيه من حديث ؛ أما المختار فقد نظر إلى نظرة المستفهم ، فأجبته بابتسامة الخبث وقد فهمت ما يريد ؛ فهز رأسه وتمتم بكلمات غير مفهومة . وكانت أصوات البنادق لا تزال تلملع حيناً بعد حين ، آناً متفرقة وطوراً متوالية متقاطعة ؛ وبعد هنيهة سكت كل شيء ، فوجب قلبي وتوجست خوفاً من هذا السكون ، وقد حدثتني النفس بمصاب نومان ، غير أني طردت أفكار السوء وخرجت من المضيف

كان ليل البادية زاهياً ، بنجومه الوضيئة المنتثرة في نواحي السماء الزرقاء ، ونسيم أول الربيع البليـــل يعبث بأروقة البيوت وكواسرها ، وعواء الكلاب يتردد في أطراف المنازل تارة وينقطع أخرى ، ولاح لي « الخان » كشبح جبار أسود جاثم في الفلاة المترامية الأطراف ، فوضعته نصب عيني وأصخت بسمعي إلى الطبيعة الساكنة .

كم هي رهيبة هذه القناطر المعقودة والأقواس المتتالية في ردهات « الخان » العتيق !

كم هي مهيبة هذه الأعمدة المتوازية التي تملأ أبهاءه مشققة السطوح مهشمة الرؤوس ! وهذه الجدران التي لم يذهب من حجارتها ، على كر القرون والعصور ، إلا ما أخذ أثافي للقدور وأركاناً للمواقد ! لقد جلت في قاعات هذا القصر القديم ونظرت خلال خروق السقوف من غرفة إلى الكواكب الزاهرة ، ثم رقيت الجدار وأرسلت بصري بجوب أنحاء البادية ، ولكن عيني لم تقع إلا على فلاة موحشة سوداء ونجوم تليها نجوم لا يبلغها حصر ، ويعيا عن عدها الفكر .

وانتابتني الهواجس مرة أخرى ، ولكن الغبار القاتم الذي ثار عند مدّ البصر قشع غيومها ؛ فقد ميز سمعي في هدأة الليل وقع حوافر الشياه على رمال الطريق فانجابت عني الشكوك وملأ قلبي الفرح وقد تبينت صوت نومان يحث الشياه على السير .

ونبحت الكلاب هذا الفوج من الطارقين فأوقدت النيران وحمل كلٌ قبساً ليتبين هذه النبرة الغريبة ، فلما اقترب القادمون رأيت على ضوء المشاعل منظراً يملأ الصدور حبوراً ويثير العواطف والشعور : قطيع من الغنم يتلوه أربعة رجال مشمرو المآزر ملثمو الوجوه ، قد كتفت أيديهم من خلاف وعلقت بنادقهم في الأعناق ، يسوقهم سوق الماشية فتى متين الهيكل ، شديد الأسر ، ملطخ الثياب بالدماء القانية ، قد اعتلى صهوة جوادٍ أشقر ، تنوس على كتفيه ذؤابتان طويلتان كلما حرك رأسه ليرد تحية محيٍّ قفزت عن الجدار وعدوت أشق الجموع إلى نومان هاتفاً

— الذبَّةَ الذبَّةَ أبا صخر !

— ابشر اتاكُ الخير . . .

ومد ذراعيه فاعتنقته .

كان لهيب النار الموقدة في ساحة « الخانة الكبرى » يتلوى كرؤوس الثعابين فترقص له الظلال على الأقواس الرهيبة والأعمدة المرمرية الهائلة ، وكان نومان قائماً في وسط الساحة معتمداً على بندقيته ينظر إلى أسراه نظر الصقر إلى الفريسة ، كرمز للبطولة والنبل .

البريد الأدبي

نقل تراث الأندلس من الاسكوريال

فى الأنباء الأخيرة عن الحرب الأهلية الأسبانية أن حكومة مدريد قد نقلت على جناح السرعة جميع التحف الفنية والكتب الخطية من دير الاسكوريال إلى مدريد خوفاً عليها من التلف الذى تتعرض إليه من جراء الحرائق والقنابل ، ونحن نعرف أن قوات الثوار تحدق الآن بمدريد وأنها على قيد مسافة قليلة من ضاحية الاسكوريال ، وقد وقعت أخيراً حول الاسكوريال عدة معارك طاحنة . وفى تصرف حكومة مدريد ما يدعو إلى الثناء خصوصاً إذا علمنا أن بين هذه التحف الفنية التى نقلت إلى مدريد مجموعة الكتب الأندلسية التى كانت محفوظة بالاسكوريال ؛ ويبلغ عدد هذه المخطوطات النفيسة التى هى آخر بقية من تراث الأندلس الفكرى نحو ألف وتسعمائة مجلد ؛ بيد أن نقلها إلى مدريد لا يبعد عنها كل الأخطار المحتملة ، ذلك لأن مدريد أصبحت محصورة بالقوات الثائرة من كل ناحية ، وقد لا تمضى أيام قلائل حتى تسقط فى يد الثوار ، وعندئذ يعلم الله وحده ما يصيب المدينة وكل ما فيها من ألوان التخريب ، غير أن هنالك من جهة أخرى ما يحمل على الاعتقاد بأن حكومة مدريد تعنى بنقل جميع هذه التحف الفنية إلى مكان أمين بعيد عن العاصمة ، وربما نقلت إلى برشلونة حصن الحكومة الديموقراطية وملاذها بعد مدريد ، وهى أبعد ما يكون عن الخطر . فاذا صح ذلك كان باعثاً إلى نوع من الاطمئنان على هذا التراث النفيس الذى يزعجنا اليوم مصيره ، والذى نوهت (الرسالة) غير مرة بما يتهدده من الأخطار ، وما يجب على الأمم الاسلامية والعربية فى شأن الدعوة إلى حمايته وصونه

ترجمة للفيلسوف مندلسون

صدرت ترجمة جديدة جامعة للفيلسوف الألمانى اليهودى الأشهر موسى مندلسون بقلم الكاتب الألمانى أوتو تسارك O. Zarek وقد ظهر الكتاب فى امستردام (هولانده) لأن الكتب المتعلقة بالتاريخ اليهودى أو الفلسفة اليهودية لا يسمح الآن بنشرها فى ألمانيا ، وعنوانه « ترجمـــة مندلسون » Eine Mendelssohn Biographie ؛ وفيه يستعرض الكاتب حياة هذا الفيلسوف منذ مولده فى سنة ١٧٢٩ فى دسّاو ، وهى نفس السنة التى ولد فيها الشاعر لسنج صديقه الحميم فيما بعد . وقد اشتغل مندلسون بادئ ذى بدء كاتباً فى محل تجارى ، كما اشتغل الفيلسوف موسى بن ميمون بتجارة السمك ، والفيلسوف اسبنوزا بصقل الزجاج ؛ وفى سنة ١٧٥٤ تعرف بالشاعر لسنج وتوثقت بينهما أواصر صداقة أدبية متينة ، وأصدرا معاً كتاباً عنوانه « بوب المشتغل بما وراء الطبيعة » ، ونشر له لسنج بعد ذلك « محادثاته الفلسفية » غفلا من اسمه ، لأن العصر لم يكن يسمح بالتوسع فى المسائل الفلسفية العميقة ؛ وأصدر لسنج بعد ذلك كتابه « ناتان الحكيم » واتخذ مندلسون بطلا لقصته . ولكن مندلسون بلغ ذروة القوة والابتكار حين أصدر كتابه «فيدون» Pheadon فى سنة ١٧٦٧ ؛ ويعتبر كتاب مندلسون بداية عصر

رفع البطل رأسه ثم أداره ببطء على الحاضرين ثم قال :

— لقد اجترأ هؤلاء فقطموا الطريق على فلانٍ وصحبه ، فأشهدكم أنه حر فى حكمه عليهم . . . أعندك ما تقول يا أباخالد ؟

— لا ، غير الشكر الذى أعجز عن وصفه .

فأطرق قليلاً ثم قال :

— لقد وفيت بما وعدت ، وحكمتك فحكمنى

فقلت له :

— إنما أنا رهن اشارتك ، وحكمك نافذ . فمر تطع

— اسراى أطلقهم

. . . وبين زغاريد النساء وهتاف الرجال فكّ نومان وثاق الأسرى ، وسار إلى الباب رافع الرأس ، بقدم ثابتةٍ وخطى جبارة .

(حلب) « ع »

جديد فى الأدب الألمانى الصحيح لأنه يحمل فيه على الحركة الأدبية المتأثرة بنفوذ الأدب الفرنسى ونفوذ فولتير ، ويحمل كذلك على فردريك الأكبر لأنه شجع هذه الحركة ؛ ولم يغضب فردريك الأكبر لهذه الحملة بل بالعكس سر لها وطلب مندلسون لرؤيته ؛ ولمندلسون نظرية فى الجنسية اليهودية خلاصتها أن يندمج يهود كل أمة فى جنسية هذه الأمة اندماجا تاماً ، وألا يجعلوا لأنفسهم من اليهودية نفسها جنسية خاصة ، ولكن المتعصبين لم يقبلوا نظريته ، وأصروا دائما على اتخاذ اليهودية ذاتها جنسا ودينا ؛ وقد كان لمندلسون تأثير عظيم فى توجيه الأدب الألمانى الحديث

وموسى مندلسون هو جد الموسيقى العظيم فيلكس مندلسون الذى ولد فى سنة ١٨٠٩ وتوفى فى سنة ١٨٤٧

وتعتبر هذه الترجمة الجديدة من أقوى التراجم التى صدرت عن مندلسون ، وقد اشتهر مؤلفها أوتو سارك من قبل بترجمته لكوسوت بطل المجر القومى

الوطنية واستعباد الفكر

خطب الدكتور جبلز وزير الدعاية الألمانية فى معرض الكتب فى مدينة ڤيمار ، فأشار الى مركز الكاتب بالأمس ومركزه اليوم فى ألمانيا النازية ، وشبه الكاتب بالجندى الذى لا يصح له أن يطلق الرصاص إلا متى أمر وحيث أمر ، فكذلك الكاتب يجب أن يكون جنديا من جنود الوطن لا يكتب إلا فيما اتفق مع مُثل الوطن وغاياته ؛ ويجب أن تحد حرية القلم بالحدود التى يتطلبها الوطن وألا يتخذ الكاتب من « فرديته » وحريته الفكرية سبيلا الى التصريح بما يخرج عن المثل القومية . والدكتور جبلز هو أوفر العصبة النازية ثقافة ، وربما كان أشدهم شعورا بما انتهت اليه الحركة الفكرية والثقافية فى ألمانيا النازية من التدهور ، ولذا نراه ينتهز كل فرصة للدفاع عن السياسة النازية فى تصفيد الذهن والقلم ؛ بيد أن الدكتور جبلز يدافع عن قضية لا يمكن الدفاع عنها ؛ فالفردية وحرية الفكر هما أساس المدنية ؛ والفردية معناها الكرامة الانسانية ، وحرية الرأى هى أسمى ما يتمتع به الفرد فى أمة متمدنة ، ويكفى أن تعرف أن الصحافة الألمانية انحطت فى عهد النازى ، وبفضل القوانين الحديدية التى يسهر على تنفيذها الدكتور جبلز الى حالة تدعو إلى الرثاء ، وقد اختفت الصحف الكبرى الصحافة الألمانية ، وأضحى الألمانى يرغب عن قراءة الصحف الألمانية ، ويؤثر قراءة الصحف الأجنبية ، ولم تظهر فى الأعوام الثلاثة الأخيرة عبقرية فنية ذات شأن أو أى انتاج أدبى يلفت النظر ، ولا يمكن أن تظهر فى ظل هذا النظام الحديدى الذى يجعل من القلم أداة مصفدة توجهها السلطات حيث شاءت . ومما يدعو إلى التأمل أن الدكتور جبلز يلقى خطابه فى استعباد حرية الذهن فى ڤيمار حيثما سطعت أعظم عبقرية أدبية المانية فى ظل الحرية ونعنى جيته

كتاب عن روبرت والبول

روبرت والبول من أعظم ساسة انكلترا وساسة العصر الحديث ؛ ويعتبر هو الواضع للأساليب السياسية المحافظة التى مازالت إلى اليوم توجه السياسة الانكليزية

وقد صدرت أخيراً ترجمة مطولة لهذا السياسى الكبير فى ثلاثة أجزاء بقلم الكاتب الانكليزى ف . س . أوليفر الذى توفى قبل تمام ظهور كتابه ، بعنوان « المغامرة اللانهائية » The Endless adventure ومستر أوليڤر ليس من الكتاب المحترفين ، ولكنه كاتب هاو ، وقد كان تاجراً كبيراً ، ولكنه اشتهر حينما أصدر كتابه عن « اللورد هاملتون » السياسى الكبير ، وظهرت مقدرته فى الوصف والتحليل فى كتابة التراجم

ويعرض مستر أوليڤر حياة روبرت والبول فى إفاضة ، ويصف الأساليب السياسية فى القرن الثامن عشر فى العصر الذى ملك فيه والبول زمامها (أوائل القرن الثامن عشر) ؛ ويدلل على أن هذه الأساليب كانت تقوم على نوع من الطغيان السياسى الذى يسود اليوم بعض الدول العظمى ؛ ويقص علينا خلال ذلك حوادث هذا العصر السياسية

ويرى مستر أوليڤر أن أعظم فارق بين السياسة فى ذلك العصر وبين السياسة فى عصرنا هو فى مقدار القوى التى يجب على السياسى العظيم أن يسيرها : ففى القرن الثامن عشر كان عليه أن يقود زمام جماعة من الملاك ، وملك ، وملكة ، وبعض الحظايا ؛ ولكن عليه اليوم أن يقود زمام ملايين الناخبين ، وزمام صحافة غدت فى عصرنا قوة هائلة تختلف نزعاتها ومصالحها

مدرسة للفن المسرحي

أنشأت الحكومة النمسوية أخيراً مدرسة فنية من نوع خاص هي « مدرسة أساتذة الفن المسرحي » ؛ وتعنى هذه المدرسة الجديدة التي ألحقت بأكاديمية الفنون الجميلة ، بتعليم كل ما يتعلق بتنظيم المناظر المسرحية وزخرفة المسرح والاخراج المسرحي ، وانتدب للتعليم فيها أشهر أساتذة هذا الفن من الاخصائيين في الزخارف وتنظيم الثياب والاخراج وغيرها . ومدة التعليم فيها سنتان ؛ ويدخلها الطلبة بعد جواز امتحان فني يثبت أهليتهم لتلقي الشؤون المسرحية ؛ والتعليم علمي وعملي بحيث يقضي الطلبة نصف اليوم في تلقي الدروس النظرية ، ثم يقضون باقي اليوم في نفس المسارح لتلقي التجارب العملية . وتمنح للطلبة الفائزين بعد عامين « دبلوم فنية » تؤهلهم للعمل في المسارح كأساتذة للاخراج الفني

ذكريات صحفي شهير

صدر أخيراً بالفرنسية كتاب للصحفي الشهير لوسيان كوربشيه عنوانه « ذكريات صحفي » Souvenirs d'un Journaliste ، في مجلدين كبيرين ؛ وقد كان كوربشيه من أعظم صحافيي ما قبل الحرب ، يكتب في أشهر الصحف البارزية ، وكانت له علائق أدبية وثيقة بأعاظم كتاب العصر ولا سيما الكاتب اللوريني الأشهر موريس باريس . ويتناول الجزء الأول منه ذكريات كوربشيه أحوال باريس ومجتمعاتها قبل الحرب ، وهو بهذه الصفة وثيقة تاريخية ثقافية لها قيمتها ؛ ويتناول الجزء الثاني حياة كاتبين عظيمين هما موريس باريس وبول بورجيه ، وقد كان باريس يتولى زعامة فرنسا الأدبية في بعض النواحي ولا سيما الكتابة السياسية الوطنية ، وكان بورجيه يتولى الزعامة الأدبية في عالم النقد والتحليل النفسي ؛ وقد استطاع كوربشيه أن يقدم لنا صوراً حية قوية من هذين الكاتبين ، ومن الآثار العميقة التي أحدثاها في جيل عصرهما الأدبي والثقافي ؛ ويبدي كوربشيه فوق ذلك حبه واعجابه العميق لهما . ويعتبر كتاب كوربشيه نداء للشباب والجيل الجديد يذكره بالقديم وما كان فيه من عظمة في التفكير ، وارتفاع عن مناحي الأدب المنحل الذي يغمر كل شيء في عصرنا .

ذكرى الموسيقى لست

احتفل أخيراً في فينا بذكرى الموسيقى الشهير فرانز لست Liszt لمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ؛ وهذا الاحتفال هو صدى احتفالات قومية عديدة أقيمت في بودابست احتفاء بهذه الذكرى لأن لست مجري المولد والجنس ، ولكنه درس في فينا ، وفيها بزغ مجده ، وكان مولده في سنة ١٨١١ ووفاته سنة ١٨٨٦ ؛ وبرع لست في العزف على البيانو وفي التصنيف الموسيقي ، وله بالأخص قطع كنسية رائعة ؛ وطاف بباريس ولندن ومعظم عواصم القارة وخلب الألباب بافتتانه وسحره ، وكتب عن رحلته كتاباً سماه « أعوام الحج » ، وله مصنفات موسيقية في المقام الأول

وقد أهدت الحكومة المجرية بهذه المناسبة الى مدينة ڤينا لوحة تذكارية عن لست ؛ واحتفلت الحكومة بوضعها في دير « شوتنهوف » في احتفال رسمي فخم شهده وفد عن الحكومة المجرية ، وشهده جمع كبير من الوزراء وأقطاب الفن ؛ وألقيت خطب عديدة عن حياة لست وعن عبقريته الفنية ؛ وعزفت قطع من تصنيفه ونوه الفريقان بالدور العظيم التي تقوم به ذكرى لست في توثيق الروابط الثقافية والفنية بين الشعبين المجري والنمسوي

دوهامل ومستقبل الكتب

يكتب الآن مسيو جورج دوهامل عضو الأكاديمية الفرنسية في مجلة « مركير » الشهيرة عدة مقالات عن مستقبل الكتب ، وما يهددها من أخطار عظيمة من جراء السينما والراديو وغيرهما من الوسائل المصطنعة لنشر الثقافة السطحية ؛ وقد كان مسيو الفريد ڤاليت يكتب في مجلة « مركير » في نفس الموضوع قبل جورج دوهامل ؛ ويلاحظ مسيو دوهامل في مقالاته القوية الممتعة أن هذا العصر الذي يهدد فيه مصير الكتب بأشد الأخطار ، هو العصر الذي اشتدت فيه حاجة الانسان إلى « الكتاب » الجيد ، وينعى على الحركة الأدبية المعاصرة ما تبديه من الميل إلى جعل الأدب سلعة تجارية وجعله آلياً وتجريده من كل عناصره المعنوية ، وذلك طبقاً لأساليب تجعل من الذهن سلعة تجارية منحطة . ويزمع مسيو دوهامل أن يجمع هذه المقالات في كتاب خاص تنتظره الدوائر الأدبية بفارغ الصبر

وفاة علامة أثرى

نعت أنباء ڤينا الأخيرة العـلامة الأثرى الدكتور ولهلم كوبتشك توفى فى التاسعة والسبعين من عمره ، وكان مولده بمدينة برسبورج ؛ ودرس التاريخ القديم واللغات القديمة فى ڤينا وبرلين ، واشتغل منذ شبابه بالتدريس فى جامعة ڤينا ، ثم عين بعد ذلك أميناً لمتحف النقود والداليات القديمة ، وأستاذاً للتاريخ الرومانى فى جامعة ڤينا

وقد اشتهر الأستاذ كوبتشك بمباحثه فى مسائل التاريخ القديم ولاسيما التاريخ الرومانى وقراءة النصوص والآثار القديمة وفحص النقود والداليات القديمة واستقراء التواريخ والحوادث فيها ؛ واشتهر أيضاً بمباحثه فى الجغرافيا الرومانية القديمة

خريدة القصر للاصبهانى والذخيرة للامام القرافى

ذكرنا فى العـدد ١٦٨ من (الرسالة) أن الجمعية الأسيوية البنجالية بكلكتا عثرت على جزء من كتاب (خريدة القصر) للأصبهانى ، وأنه عثر على نسـخة من كتاب الذخيرة للامام القرافى فى مكتبة الأزهر . وقد جاءنا من أمين مكتبة كلية القرويين بفاس ما يأتى :

يوجد بخزانة كلية القرويين العامة بمدينـة فاس تحت نمرة (البرنامج الجديد) ل ٥٧٦ جزءان من كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للامام أبى عبد الله محمد بن محمد الـكاتب عماد الدين الاصبهانى المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ موافق ١٢٠٠ م وهما الجزء الخامس والسادس من النسخة . أول الخامس (قافية العين من شعر القاضى أبى بكر الأرجانى فى مدح الوزير جمال الدين أبى على وزير المسترشد بالله ، وفى آخره آخر القسم الثانى من كتاب خريدة القصر وجريدة العصر يتلوه القسم الثالث فى ذكر محاسن شعراء الشام فى الجزء السادس ، وينتهى هذا الجزء السادس بقوله : تم الجزء السادس ويتلوه الجزء السابع وهو الثانى من القسم الثالث الأمراء الـكنانيون من شيراز ، وهما جزءان ضخمان كتبا بخط جميل أندلسى فى كاغد متين خاليين من كل طرة فاقدين اسم الناسخ وتاريخ النسخ إلا أن أمارات القـدم تلوح عليهما ، وقد كانا مملوكين لجناب أمير المؤمنين المنصور الذهبى السعدى المتوفى سنة ١٠١٢ ﻫ موافق ١٧٨٥ م بآخر أحدهما مانعه : برسم خزانة مولانا أمير المؤمنين الخليفة المجاهد أبى العباس المنصور بن مولانا أمير المؤمنين الخليفة المجاهد أبى عبدالله محمد الشيخ . وعلى الجزءين معاً وقف هذين الجزءين على خزانة كلية القرويين العامرة ، وعلى التحبيس خط يد السلطان المنصور الذهبى السعدى سنة ١٠١٢ ﻫ موافق ١٧٨٢ م

ويوجد أيضاً منه قطعة أخرى مبتورة الأول والآخر كانت مجهولة فأعملت المجهود للـكشف عنها فوجدتها من جريدة القصر ونظمت تحت عدد ل ٦٠٤

كذلك توجد الذخيرة على مذهب إمام دار الهجرة للعلامة الشهير الامام القرافى شهاب الدين أبى العباس أحمد بن ادريس المالـكى مذهباً المتوفى سنة ٦٨٤ ﻫ ١٢٨٢ م تحت نمرة ل ٣٥٤ غير تامة . الموجود منه الآن تحت النظام ثلاثة أجزاء ضخام جداً ، وأصل هاته النسخة من ثمـانية أجزاء بدليل ما رقم على الجزء الثامن منها ونصه : (السفر الثامن من كتاب الذخيرة على مذهب إمام دار الهجرة النبوية وفيه من الأبواب الفقهية كتاب أمهات الأولاد ، كتاب الجنايات ، كتاب موجبات الضمان ، كتاب الفرايض والمواريث ، كتاب الجامع . فلا شك أن هذا هو الجزء الأخير ، وعندنا الجزء السادس وفيه من الأبواب الفقهية كتاب الحبس والوصية والشفعة والشركة . وبآخره : كمل الجزء السادس من الذخيرة بحمد الله وحسن عونه يتـلوه فى السابع إن شاء الله كتاب الرهون

وعندنا جزء آخر كتب عليه أنه الخامس من كتاب الذخيرة وعند الفحص لوضع البرنامج الجديد تبين أنه جزء مختلط إذ أوله فى الجنايات والمواريث وآخره فى العتق والـكتابة ، وبآخره : تم السفر الخامس من كتاب الذخيرة على يد عبد الملك بن محمد بن عبد الملك الحضرمى سنة ٧٢٧ ﻫ ويظهر أن هذا غلط من الناسخ حيث ضم أول الثامن مع آخر الخامس وجعلهما سفراً واحداً . أما الأولان أعنى السادس والثامن فسالمان . أجزاء ثلاثة ضخام جدا فى أوراق متينة مكتوبة بالسواك بخط أندلسى جميل خاليين من اسم الواقف .

محمد العدلى



كتاب البلاغة العالية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

١٣٠ صفحة من القطع الكبير ، طبع المطبعة السلفية ، ثمنه خمسة قروش

يمتاز الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى المدرس فى كلية اللغة العربية ، بحرية الرأى وحب التجديد ، والمثابرة على البحث والتأليف ، فهو لا يفتأ الفينة بعد الفينة يدبج الرسائل الضافية ، والكتب العالية التى تنم عن علم غزير ، وأدب وفير ، وفكر دقيق لاقف ، وذهن رهيف خاطف

وقد أخرج للناس فى هـذه الأيام الجزء الأول من كتابه البلاغة العالية ، وهو خاص بعلم المعانى . وأهم ميزة لهذا الكتاب أنه خالف الترتيب المعهود من عهد السكاكى والخطيب ، الى ترتيب آخر جـديد ، فزاد فى علم المعـانى فصولاً وحذف منه فصولاً ، واجتهد فى مسائله برأيه الذى يحرص الحرص كله على إظهاره فى كل ما تخطه براعته

وهناك ميزة ثانيـة لا تقل عن هذه الميزة أهمية ، وهى أنه أزاح طائفة كبيرة من المسائل النحوية التى أقحمها الأقدمون فى البلاغة إقحاماً عابثاً ، كما ذكروا فى أحوال التعريف بالاضمار أنه يكون لأن المقـام للتكلم أو للخطاب أو للغيبة ، وكارغامهم وازبادهم فى تقسيم القصر باعتبـار المقصور الى قصر موصوف على صفة وقصر صفة على موصوف ، وباعتبار حال المخاطب به إلى قصر أفراد وقصر قلب وقصر تعيين ، الى غير ذلك من المباحث النحوية التى طفحت بها كتب البلاغة وهى أبعد ما تكون عنها . وقد صنع الأستاذ المؤلف خيرا بازاحته تلك الأعباء النحوية عن كاهل البلاغة ، وجعلها خالصة لمعانيها الخاصة بها

وإنا نشـكر للأستاذ اتحافه طلاب البلاغة بهذا الـكتاب الذى جرد فيـه العناية وأظهر الـكفاية حتى استحصفت وثائقه ، واستحصدت علائقه ، وغدا حريا — من أجله — بأن يوشح حلل المجد والثناء ، حجياً بأن يطوق قلائد الشكر والدعاء

س . ص

ديوان السرىّ الرفَّاء

طبعته مكتبة القدسى بباب الخلق

السرى شاعر من شعراء سـيف الدولة كان فى صباه يرفو الثياب ويطرزها ثم تولع بالأدب ونظم الشعر وتفنن فى التشبيهات والأوصاف فأحسن فى كثير منها ، وشعره نمط سهل يتحدر عن طبع صاف كما يجرى الماء من الينبوع وليس وراءه العلم والفلسفة ولـكن وراءه النفس والطبيعة

وقد قال فيه الامام أبو هلال العسكرى صاحب كتاب الصناعتين : ليس فيمن تأخر من الشاميين أصفى ألفاظاً مع الجزالة والسهولة وألزم لعمود الشعر منـه . ويريد أبو هلال بلزوم عمود الشعر تجنب الغموض فى تركيب النظم والبعد من تدقيق المعانى تدقيقاً فلسفياً ، وذلك رأى كان قديما فى النقد يفرقون بين الشاعر الذى يصنع شعره صناعة عقلية دقيقة وبين المطبوع الذى يرسل شعره فى جمال سبكه وصفاء لفته وإشراق معانيه كما يرسل الطائر المتفرد لحنه فى التغريد

وشعر الطبع من أحسن ما يفيد الناشئين فى نهضتنا هذه فانه صقل وجلاء وتصحيح للطريقة وتهيئته للسمو فى هذه الصناعة ، وديوان السرى قوى الأثر فى ذلك ؛ وهل فى الغزل أصفى وأرق وأجمل من مثل قوله :

بنفسى من أجود له بنفسى ويبخل بالتحيـــة والسلام

ويلقاني بعزة مستطيل وألقاه بذلة مستهام
وحتفى كامن فى مقلتيـــه كمون الموت فى حد الحسام

وله فى شكوى الدهر :

يرتد عنه جريحاً من يُساله فكيف يسلم منه من يحاربه ؟
ولو أمنت الذى تجنى أراقمه على ، هان الذى تجنى عقاربه

الاســـلام فى بولونيا

تأليف على فورونوفتش و محمد سعيد الحموى

بقلم الأديب محمود البدوى

رسالة صغيرة فى أربع وستين صفحة من القطع المتوسط طبعت بمطبعة الاعتماد على ورق جيد ومحلاة بكثير من اللوحات والخرائط وصور كبار رجال الاسـلام فى بولونيا وبعض الفرق الاسلامية والأندية والمساجد هناك . . . وتقرأ فيها كيف نشأ الاسلام فى بولونيا وامتد وتشعب واضطهد من الروس وثار عليهم وتحرر وثبتت دعائمه بعد أن استقلت بولونيا حتى غدا الآن فى عصره الذهبى

والرسالة فى إيجازها تشبه المختصرات التى تلقى على تلاميذ المدارس . وأسلوبها سهل بسيط يفهمه كل قارئ ، يود أن يقف على حال المسلمين فى تلك البلاد

وليقرأ معنا القارئ الكريم :

« يبلغ عدد المسلمين فى بولونيا ١٢٠٠٠ نفس وليس هـذا العدد بالقليل إذا نحن وازنا بينه وبين عدد المسلمين فى دول غرب وشمال أوربا ، وحالتهم المعيشية على جانب عظيم من التحسن ، وهذا التحسن آخذ فى الزيادة لاهتمام الدولة بهم ومحافظتها على مصالحهم الدينية ؛ وهم يعترفون بفضل الحكومة القائمة وكرمها ، ويعتبرون هذه الأيام العصر الذهبى للاسلام فى تلك البلاد ، وهم ينعمون فى بحبوحة من العيش وقد توطدت صلاتهم بالخارج وزادت معارفهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية وسافر بعضهم لطلب العلم فى الخارج وخصوصاً العلوم الدينية وحج بيت الله الحرام وزيارة الأماكن المقدسة

وحيـــد

تأليف الأستاذ حسين عفيف المحامى

قصة تمثيلية طريفة فى ١٩١ صفحة من القطع الصغير طبعت بمطبعة حجازى بالقاهرة على ورق جيد . وهى فى أربعة فصول طوال وحوارها شائق وأسلوبها متماسك وخيال مؤلفها فياض يروق القارئ المصرى . وبطلها وحيد شاعر موسيقى فنان يعيش فى كوخ فى الجبل ، مرت عليه سميرة إحدى بنات الباشـوات فأحبها الشاعر وأحبته من أول نظرة ... وجاءته فى اليوم الثانى يدفعها وجدها وحبها ودار بينهما حديث غرامى طويل انتهى إلى عناق أطول .. وافترقا على وعد بلقاء قريب ... ومرضت سميرة فى اليوم التالى وأرسلت أختها « ألفت » ومعها رسالة رقيقة إلى وحيد فأعجب الشاعر بجمالها وأحبها وأحبته وضمهما عناق . . . وعلمت سميرة بخيانة ألفت وحب وحيد الجديد فكسر قلبها ، ومرضت وماتت . . . ! ! ولحقت بها ألفت ومات بعدهما وحيد وهو يقول :

« هأنذا الآن أقضى ومن قبل قضت سميرة ، غداً يلتقى الخلان ويعودون كما كانوا إلى الصفاء بعد أن لم يبق ثمت للعداوة موجب

والقصة كما قلت خيالية ممتعة وسيعجب بها القارئ كثيراً

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧٥ — ٩ نوفمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 175
Lundi - 9 - 11 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ـط
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٧٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ شعبان سنة ١٣٥٥ — ٩ نوفمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

صفحة

من ذكريات بغداد

الحلقـــة ...

ذلك اسم كان[1] يطلقه الزعيم (ياسين) على ستة من الإخوان جمعهم تشابه الذوق ، وألَّف بينهم تجانس الهوى ، فتساهموا الصفاء ، وتقاسموا المودة ، وخلطوا حياتهم بحياة بعض ، فما كانوا يفترقون أصائل الأيام ولا عشايا الليالى . كانوا يتخذون سامرهم كل ليلة فى دار أحدهم ، فيتحلقون على مائدة الشاى السخية ، أو يتقابلون أمام المدفأة الواهجة ، ثم يديرون بينهم سِقاط الحديث على أروع ما تُشققه الأذهان الخصيبة من براعة الفكرة وملاحة النكتة وطلاوة الخبر وسلامة النقـد وصحة الحكم ، فلا يدعون شأناً من شؤون الحياة ، ولا وجهاً من وجوه السياسة ، ولا أمراً من أمور البلد ، إلَّا تناولوه باللسان المرهف والفؤاد اليقظ والنظر المستقل ؛ فهم معارضون ولا لسان لهم فى حزب ، ومصلحون ولا يدَ لهم فى زعامة

كانوا يمثلون نواحى النشاط الفكرى فى العراق أصدق التمثيل ؛ ففيهم رجل الجيش ، ورجل التعليم ، ورجل القانون ،

(١) كان ذلك فى سنة ١٩٣٢

ورجل الطب ، ورجل المال ، ورجل الشعب ؛ ذلك إلى امتياز كل منهم بِسِمة من سمات الطبع وصفة من صفات الخُلُق ؛ فطه الهاشمى [١] عذب الروح ، سَرِىُّ الأخلاق ، وقور النفس ، مصروف الهم إلى القراءة المنتجة والتأليف المحكم فيما يتصل بالتاريخ والحرب ، ولو تُرك إلى نفسه لما خرج من مكتبته ولا قام عن مكتبه ؛ وناجى الأصيل [٢] نبيل العاطفة ، حلو الفكاهة ، سمح المقادة ، أفلاطونى النزعة ، يعيش فى السماء ويحلم دائماً بالمدينة الفاضلة ؛ ويوسف عز الدين [٣] متئد اللسان ، حصين الصدر ، سريع الفطنة ، يتبسط فى هزل الكلام ويتحوَّط فى جده ، وهو لا ينفَكُّ لإخوانه موضع السرّ ومرجع المشورة ؛ وكامل الجادرجى [٤] متوقد الذكاء ، متمرد الطبع ، متوثب العزيمة ، دائب الحركة ، صليب الرأى ، يدين بالديمقراطية ، ويميل إلى الاشتراكية ، ويرفرف بجناحيه على الفلاح والعامل والعاطل ؛ وموفَّق الألوسى [٥] طموح القلب ، سريع البادرة ، بارز الشخصية ، يعتد برأيه إلى حد العناد ، ويعتز بنفسه إلى حد المخاطرة ؛ وشوكت الزهاوى [٦] واسع البال ، ضيق الأفق ، قد قصر جهده على عمله فلا يكاد يطمع فى شىء ، ولا يشارك فى رأى ، ولا يحفل بحادث ؛ وأولئك كانوا لِما اجتمع لهم من ضروب الثقافة وشتى الخلال صورة مصغرة للأمة ، يعيشون منعزلين وهم فيها ، ويفكرون مستقلين وهم منها ، كأنهم كانوا لآمالها رموزاً تتميز تميز العنوان ، وتنفرد انفراد العلم . كانوا جميعاً فى ربقة الحكومة إلا كاملاً ، فكان للجماعة الكاملة الحرة والفكرة الطليقة . وقف على السياسة الصريحة قواه ، وأيقظ لأطوارها المختلفة رأيه ، فكان يناصر الحزب ما دام معارضاً ، فإذا قَبِلَ الحكم تركه إلى غيره ، حتى انفرد ذات يوم بالمعارضة . كان اليد اليمنى لياسين فى حزب الإخاء الوطنى ، وياسين أمل البلاد المرجو وزعيمها المنتظر ، فلما رآه يقصد الحكم عن طريق الملاينة والمسايرة خالفه ومعه مقاعد البرلمان ووظائف الديوان ومزايا السلطة ، وخرج مُغاضباً إلى الجهاد بالنفس والمال ، فزاول المحاماة ، وعالج الصحافة ، ولقى فى سبيل ذلك ما يلقى المعارضون المتزمتون من الضيق والعنت

* * *

كان لى فى هذه (الحلقة) كرسى وثير دائم ، يحيطه الإخوان بالعطف ويخصونه بالكرامة ؛ وكنت أجد فى نفسى من الأنس بهم والطمأنينة إليهم ما لا أجده لجماعة أخرى ، فكنت أناقلهم شجون الحديث فأعلم منهم ما لا أقرأ فى الصحف ولا أسمع من الناس ولا أرى فى الحكومة . كانوا يحملون فى نفوسهم آمال العراق الناشئ ، وفى رؤوسهم ثورة الشباب الجديد : سياستهم الجماعة قبل الفرد ، والعامة قبل الخاصة ، والعراق قبل العروبة . ولكن آراءهم كانت فى رأيى أشبه بأحلام الفلاسفة تحت رواق المعبد ؛ لأنك إذا استثنيت كاملاً لا تجد فيهم من يفكر فى انقلاب أو يجهر بمعارضة

تركتُ العراق وفيصل ونورى وجعفر قد مكَّنوا لدولته بالمرونة اللبقة والسياسة التجارية التى تعطى لتأخذ ؛ وكان شباب البلاد قد سئموا سياسة الأمر الواقع وبَرِموا بالإرداة المطلقة ، فتمنوا حكومة زعيمهم المحبوب ياسين ؛ وتسلم ياسين مقاليد الأمور ، وانضوى إليه رفيقاه ، وآل إليهم سلطان البلاط بالفعل ، ونفوذ (دار الاعتماد) بالقانون ؛ وسارت السفينة آمنة — كما يرى البعيد — من الألغام والصخور ، ثم تفرقت السبل بعدئذ برجال الحلقة

* * *

طخ ! طخ ! طخ ! ثلاث قنابل ألقتها ثلاث طوائر على سراى الحكومة ! فروَّعت الموظفين وأفزعت الأهلين ، فأخلوا السراى وأغلقوا المدينة ! ماذا ؟ الجيش الثائر يحاصر بغداد ويطلب إلى المليك إقالة الوزارة ! وبكر صدقى الفاتك الطماح يقترح للوزارة الجديدة حكمت سليمان ! وحكمت سليمان يُدخل فى وزارته الحلقة ما عدا طرفيها . لقد كان صديق الحلقة ، وكان فى معارضته من طراز (كامل) لا يحفل الثراء ولا يبالى المنصب ، حتى رووا أنه ضاق يوماً براتب سائقه فذهب به إلى قائد الشرطة يرجو منه أن يجد له عملاً يعيش عليه !

أحمد حسن الزيات

---

(١) رئيس أركان الجيش (٢) مدير دار المعلمين العليا (٣) مراقب الميزانية (٤) من سراة بغداد (٥) مدير كلية الحقوق (٦) طبيب بالصحة

٢ ـ القلب المسكين (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحب القلب المسكين فرأى الضحكة التي ألقت بها صاحبته وهي ترقص حين عرفته — غيرَ ما رأيتها أنا وغيرَ ما رأى الناس . كانت لنا نحن ابتساماً عذباً من فم جميل يتمُّ جماله بهذه الصورة ، وكانت له هو لغة من هذا الفم الجميل يُتم بها حديثاً قديماً كان بينهما . واعترانا منها الطربُ واعتراه منها الفكر ، ووصفت لنا نوعاً من الحسن ووصفت له نوعاً من الشوق ، ومرت علينا شعاعاً في الضوء ووقعت في يده هو كبطاقة الزيارة عليها اسم مكتوب . . .

وقوى إحساسُ الراقصة الجميلة بعد ذلك فانبعث يدلُّ على نفسه ضروباً من الدلالة الخفية ، ورجعت بهذا الاحساس كالحقيقة الشعرية الغامضة المملوءة بفنون الرمز والايماء وكأنها زادت بهذا الغموض زيادة ظاهرة ، والمرأة لحظاتٌ تكون فيها بفكرين حينما يكون أحدُ الفكرين مائلاً أمامها في رجل تهواه ؛ ففي هذه الساعة تتحدثُ المرأة بكلام فيه صمت يشرح ويفسر ، وتضطرب بحركة فيها استرخاءٌ يميل ويعتنق ، وتنظر بألحاظ فيها انكسارٌ يأمر ويتوسل ، وكانت هي في هذه الساعة ... فغلبت والله على صاحبها المسكين وتركت نفسه كأنها تتقطع فيه من أسفٍ وحسرة ؛ ثم كانت له كالزهرة العبقةِ بينه وبينها جمالها وعطرُها وهواؤها والحاسةُ التي فيه

وجعل يستشفُّها من خِلال أعضائها وهي ترقص ، ثم قال لي : انظر ويحك ! لكأن ثيابها تضمُّها وتلتصق بها ضمَّ ذي الهوى لمن يهوى

قلت : ماهي إلا كهاتين اللتين ترقصان معها : امرأة بين امرأتين وإن كانت أحسن الثلاث

قال : كلا ، هذه وحدها قصيدة من أروع الشعر تتحرك بدلاً من أن تُقرأ ، وتُرى بدلاً من أن تُسمع ؛ قصيدة بلا ألفاظ ولكنَّ من شاء وضع لها ألفاظاً من دمه إذا هو فهمها بحواسه وفكره وشعوره

قلت : والأخريان ؟

قال : كلا كلا ، هذا فن آخر ، فالواحدة من هؤلاء المسكينات إنما ترقص بعِمدَتِها . . . ترقص للخبز لا غير . أما (تلك) فرقصها الطرب مصنوعاً على جسمها ومصنوعاً من جسمها ؛ إنها كالطاووس يتبختر في أصباغه ، في ريشه ، في خُيلائه ، بخترةً يضاعفها الحسنُ ثلاثَ مرات . ولو خلق الله جسمين أحدهما من الجواهر أحمرِها وأخضرِها وأصفرِها وأزرقها ، والآخر من الأزهار في ألوانها ووشيها ، ثم اختال الطاووس بينهما ناشراً ذيله في كبرياء روحه الملوَّنة — لظهر فيه وحدهُ اللون الملِكُ بين ألوان هي رعيته الخاضعة

* * *

وانتهى رقص الحسناء الفاتنة وغابت وراء الستارة بعد أن أرسلت قُبلةً في الهواء ... فقال صاحبنا : آه لو أن هذه الحسناء تصدقت بدرهم على فقير ، لجعلته لمسة يدها درهما وقُبلة ...

قلت : ياعدوَّ نفسه ؛ هذه قبلة مُحرَّرة مسددة وقد رأيتها وقعتْ هنا ... ولكنك دائماً في خصام بين نفسك وبين حقائق الحياة . تعشق القبلة وتخاصم الفم الذي يلقيها ، وتبنى العُشَّ وتتركه فارغاً من طيره . إن المرأة التي تحبك لا بد أن تنتهي إلى الجنون مادامت معك في غير المفهوم وغير المعقول وغير الممكن

ثم بدأ فصل آخر على المسرح وظهر رجال ونساء وقصة ؛ وكان من هؤلاء الرجال شيخ يمثل فقيها وآخر يمثل شُرطياً ، فقال صاحبنا الفيلسوف : لقد جاءت هذه الثيابُ فارغة وكأنها الآن تنطق أن صحة أكثر الأشياء في هذه الحياة صحة الظاهر فقط ما دام الظاهر يُخلع ويلبس بهذه السهولة ؛ فكم في هذه الدنيا من شرفاء لو حققت أمرهم وبلوت الباطنَ منهم لرأيتهم إنما يشرِّفون الرذائل لأنهم يرتكبونها بشرف ظاهر ... وكم من أغنياء ليس بينهم وبين اللصوص إلا أنهم يسرقون بقانون ... وكم من فقهاء ليس بينهم وبين الفَجَرة إلا أنهم يفجرون بمنطق وحجة ... ليست الانسانية بهذه السهولة التي يظنها من

(١) نشرت المقالة الأولى في العدد ١٧٣ من الرسالة

يظن والا ففيم كان تعبُ الأنبياء وشقاء الحكماء وجهادُ أهل النفوس ؟

العقدة السماوية في هذه الأرض أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الانسان إلا حيوانا متلطفاً تلطيفاً إنسانياً ؛ ثم أراه الخير والشر وقال له اجعل نفسك بنفسك انسانا وجئنى

قلت : ياعدوَّ نفسك ، فما تقول في حبك هذه الراقصةَ وأنت حيوان ملطف تلطيفاً انسانياً ؟

قال : ويحك ! وهل العقدةُ إلا هنا ؟ فهذه مبذولةٌ ممكنة ، ثم هي لى كالضرورة القاهرة ، فلا يكون حبها إلا إغراءً بنَيلها ، ولا تكون سهولةُ نيلها إلا إغراءً لذلك الاغراء ؛ فأنا منها في امرأة وحب ، ولكنى في امتحانٍ شديد عسِر أغالب ناموسا من نواميس الكون ، وأدافع قانوناً من قوانين الغريزة ، وأظهر قوتى على قوة الضرورة الميسرة بأسبابها ، وهي أشد الضرورات عنفاً وإلحاحاً وقهرا للنفس من قِبَل أنها ضرورة لازمة ، وأنها مهيأة سهلة . فلو أن هذه المرأة المحبوبة كانت ممتنعة بعيدةَ المنال لما كانت لى فضيلة في هذا الحب العفيف ، ولكنها دانيةٌ ميسرة على الشغف والهوى ؛ فهذا هو الامتحان لأصنع أنا بنفسى فضيلةَ نفسى

* * *

ومن الفصل الذى مثَّلوه وما نشعر منه بتمثيل فقد كان كالصورة العقلية المعترضة للعقل وهو يفكر في غيرها ، وكانت (الحقيقة) في شيء آخر غير هذا . ومتى لم يتعلق الشعورُ بالفن لم يكن فيه فن ؛ وهذا هو سر كل امرأة محبوبة ، فهي وحدها التى تثير شعورَ المحب في نفسه فيشعر من حسنها بحقيقة الحسن المطلق ، ويجد في معانيها جواب معانيه ، وتأتيه كأنها صُنعت له وحده ، وتجعل له في الزمان زمناً قلبياً يحصر وجوده في وجودها

وليس فن الحب شيئاً إلا استطاعةَ الحبيب أن يجعل شهواتِ المحب شاعرة به ممتلئةً منه متعلقة عليه ، كأن به وحده ظهور جَسَدِيّة هذا الجسد وروحانية هذه الروح . وكل ما يتزين به المحبوب للمحب ، فانما هو وسائل من المبالغة لاظهار تلك المعانى التى فيه كيما تكبر فيدركها المحب بدقة ، وتثور فيحسّها العاشق بعنف ، وتستبد فيخضع لها المسكين بقوة

والشهوات كالطبيعة الواحدة في أعصاب الانسان ، وهي تتبع فكره وخياله ؛ ولا تَفَاوُتَ بينها إلا بالقوة والضعف ، أو التنبه والخمود ، أو الحدة والسكون ؛ غير أنها في الحب تجدلها فكراً وخيالاً من المحبوب ، فتكون كأنها قد غيرت طبيعتها بسرٍ مجهول من أسرار الألوهية . ومن هنا يتأله الحبيب ، وهو هو لم يزد ولم ينقص ولم يتغير ولم يتبدل ، وتراه في وهم محبه يفرض فروضاً ، ويشرع شريعة من حيث لا قيمة لفروضه وشريعته إلا في الشهوة المؤمنة به وحدها

ومن ثم لا عصمة على المحب إلا إذا وجد بين إيمانين أقواهما الايمانُ بالحلال والحرام ، وبين خوفين أشدهما الخوف من الله ، وبين رغبتين أعظمهما الرغبةُ في السموّ

فان لم يكن الفاسق ذا دين وفضيلة فلا عصمة على الحب إلا أن يكون أقوى الايمانين الحرص على مكانة المحبوب في الناس ، وأشد الخوفين الخوف من القانون ... وأعظم الرغبتين الرغبة في نتيجة مشروعة كالزواج

فان لم يكن شيء من هذا أو ذاك فقلما تجد الحب إلا وهو في جراءة كفرين ، وحماقة جنونين ، وانحطاط سفالتين . وبهذا لا يكون في الانسانين إلا دون ما هو في بهيمتين

* * *

ثم جاء الفصل الثالث وظهرت هي على المسرح . ظهرت هذه المرة في ثوب من كزة أوربية تخاصر عشيقا لها فيرقصان في أدب أوربى متمدن ... متمدن بنصف وقاحة ؛ متأدب ... متأدب بنصف تسفّل ؛ مشروع ... مشروع بنصف كفر ؛ هو على النصف في كل شيء حتى ليجعل العذراء نصف عذراء ؛ والزوجة نصف زوجة ...

وكان الذى يمثل دور العشيق فتاةً أخرى غلامية مُجَمَّمَةَ الشعر (١) ممسوخةً بين المرأة والرجل . فلما رآها صاحبنا قال : هذا أفضل . . . .

---

(١) المجممات هن اللواتى يتخذن شعورهن جمة (بضم الجيم) أى يقصصنها كما يفعل نساء هذه الأيام تشبهاً بالرجل . وقد كان ذلك مما تصنعه نساء العرب ونهى الاسلام عنه كراهة لهذا التشبه . فقص الشعر (على المودة) هو التجميم

وهشّت الحسناء وتبسّمت وأخذت فى رقصها البديع فانفصل عنى الصديق وأهملنى وأقبل عليها بالنظرة بعد النظرة بعد نظرة ، كأنه يكرر غير المفهوم ليفهمه ، ورجع وإياها كأنه فى عالم من غير زمننا تقدّمه عن عالمنا ساعة أو تؤخره ساعة . وكانت جملةُ حاله كأنها تقول لى : إن الدنيا الآن امرأة ! وكان من السرور كأنما نقله الحب الى رتبة آدم ونقل صاحبته الى رتبة حواء ، ونقل المسرح الى رتبة الجنة

والعجيب أن القمر طلع فى هذه الساعة وأفاض نوراً جديداً على المسرح المكشوف فى الحديقة فكأنه فعل هذا ليُتمّ الحسن والحب . وأخذ شعاع القمر السماوىّ يرقص حول هذا القمر الأرضى فكانت الصلة تامة وثيقة بين نفس صاحبنا وبين الأرض والسماء والقمرين

ما هذا الوجه لهذه المرأة ؟ إنه بين اللحظة واللحظة يعبّر تعبيراً جديداً بقَسماته وملامحه الفتانة . كل البياض الخاطف فى نجوم السماء يجول فى أديمة المُشرق ؛ وكل السواد الذى فى عيون المَها يجتمع فى عينيه ؛ وكل الحمرة التى فى الورد هى فى حمرة هاتين الشفتين

ما هذا الجسمُ المتزن المتموجُ المفرَغ كأنه يندفق هنا وهنا ؟ إنه جسم كامل الأنوثة ؛ إنه صارخ صارخ ؛ إنه عالم جمالٍ فيه كما تقول الفلسفة حين تصف العالم : فيه «جهةُ فوق» و «جهة تحت» . لو امتدت له يد عاشقه لجعل فى خمسِ أصابعها خمسَ حواس . . . .

ما هذا ؟ ما هذا ؟ لقد خُتم الرقصُ بقبلة ألقاها الخليل على شفتى الخليلة ، وكانت تركت خصرها فى يديه وانفلتتْ تميل بأعلاها راجعة برأسها الى خَلْف ، نازلةً به رُوَيداً رويداً الى الأرض ، هاربة بشفتيها من الفم المُطِل عليها . وكان هذا الفم ينزل رُويداً رويدا ليدرك الهارب ...

وقبل أن تقع القبلة التفتت لفتةً الى ... ثم تلقَّت القبلة أما هو ؛ أما مجنوننا ؛ أما صاحب القلب المسكين ؟

(طنطا) «لها بقية» مصطفى صادق الرافعى

الأدب والخلود

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

عشت سنين عديدة — أكثر عمرى — بالخيال والهم . وكانت دنياى تحد من كل ناحية بجدران مكتبتى ومنظارى المكبر الذى أتدبر به الحياة وأستعين على درسها بقوته وقدرته على الجلاء والكشف والتوضيح ، الكتب الكثيرة المرصوصة على رفوفها . وكانت رياضتى حين آكل وأتعب ويبلغ منى الجهد أن أدير عينى فى صفوف هذه الكتب التى كنت أنتقى أنفس الطبعات منها وأحسنها ورقا وأجودها جلداً وأحلاها منظراً . فلما صدمتنى الحياة — مرة وأخرى — ورأيت أزهار آمالى وورق آرائى التى كنت أحسبها خالدة النضرة دائمة البهجة ولا أظن بها إلا أنها ستظل رفافة أبداً — أقول لما رأيتها تصفر وتتساقط وتذوى وتجف وتتكسر وتنفرك فى يدى وتحت قدمى راعنى عظم جهلى ، وهالنى الشعور بالوحدة والوحشة والغربة فى هذا العالم الزاخر الذى احتجت برغمى أن أخوض بحره وأرمى بنفسى فى عبابه وأنا لا أدرى كيف أسبح فيه وأتقى الغرق

وأنصف الكتب فأقول إنها لم تغشنى ولم تخدعنى ولم تتعمد أن تزيف صور الحياة ، ولكنى اقتصرت عليها واستغنيت بها ، فصرت لا أرى الحياة إلا بعيون أصحابها ، ولا أحسها بغير أعصابهم ، حتى ليخيل إلى الآن — من حيث معرفتى يومئذ بالحياة وإحساسى بوقعها وفهمى لها وتجربتى لأحوالها — أنى كنت أشبه بكتاب مختارات من جملة ما قرأت وحصلت ، ولست بانسان له وجود وشخصية وكيان مستقل. ومن متناقضات ذلك العهد أنى كنت من أعظم الكتاب تحمساً للدعوة إلى تحرير الأدب العربى من رق التقليد وإن كنت أنا لا أعدو أن أكون نسخة مختصرة لكل قديم من الآراء والمذاهب والاحساسات والخواطر . وليس هذا ذنب الكتب وإنما هو ذنبى . على أنى لو كنت وجدت من يرشدنى لرشدت ولا نتفعت بما ضاع من عمرى ، ولكنى لم أجد هذا المرشد والناصح الأمين والقدوة الحسنة لا فى المدرسة ولا فى البيت ولا فى الاخوان ، فقد كان شأنهم كشأنى ، سوى أنهم

كانوا أحكم منى وأرشد بطبيعتهم وأهدى سبيلاً ، فلم يقعوا فيما وقعت فيه ولم يضيعوا مثل ما ضيعت من عمرى

وأحسست بخيبة الأمل والضيعة فى كل ناحية ، فاسودت الدنيا فى عينى وخامرنى اليأس ، وظهر ذلك فى كل ما عالجت من فنون الأدب وألوانه ، وهجرت العمار إلى الخراب ، وانتقلت من المدينة الحية التى تعج بالناس وتزخر بالحياة إلى الصحراء المنقطعة ورمالها الصفراء وجدبها الرائع وفضائها الرحيب وسمتها المقيمة ، لأنى رأيت أنها أولى بى ، وأن المقام فى خرابها العظيم أرفق بنفسى المتهدمة وآمالى التى درست وهمانى التى فترت

وتعاقبت السنون — أربعة عشر عاما كاملاً — وأنا أجد الأنس بالصحراء والروح فيها والراحة بها . نعم كنت أنحدر إلى المدينة كل يوم وأرى الناس وأعمل معهم وأكد وأسعى ، ولكنى كنت لا أشاطرهم شعورهم بالحياة وإن كنت لا أثقل عليهم بما أحس . وكنت أكون معهم ، ولكنى بقلبى وعقلى مع الصحراء ، فلا أكاد أعود إليها حتى أحس أن حجراً قد انحط عن صدرى وأنه صار فى وسعى أن أتنفس وأن أنضو ما أتكلفه مع الناس وأواجه حقيقة نفسى التى أضمرها وأخفيها عن العيون واسترها حتى لا أوذى الناس بها

ولكن الصحراء معدنها خصب وإن كانت ظاهرة الجدب حتى لتبدو كأن لا أمل فيها ، وإن قلبها لعامر وإن كانت فى رأى العين خواء قواء . وإن الاحتمالات التى تنطوى عليها لأكثر من أن يأخذها حصر ، وما ينقصها إلا أن تساعفها الأحوال . وهل مصر كلها إلا صحراء جرى فيها نهر واحد فانقلبت من جنات الدنيا ؟ فهذه الصحراء أيضاً جنة مضمرة وفردوس مكنون

وصار مجرى هذا الخاطر فى نفسى عميقاً على الأيام ، فقلت لنفسى فى خلواتى الكثيرة بها : إن هذه الصحراء فيها قوى مستورة مقيدة تنتظر الانطلاق ، وخصباً محجوباً لو وجد ما يظهره لرباً فيها النبات واهتز ورف وزكا . وأنا أيضاً مثلها . ولم لا ؟ أأكون أعقم وأجدب من التراب والحصى والرمال الصفراء ؟ . . . وقد انتشرت على سطح نفسى طبقة كثيفة من القنوط غطت ما انطوى عليه من الزكاء والطيب والريع الكثير الوفير ، وما أظن بها إلا أن فيها خمائل أمل مدفونة ورياض خير أحسبها على الرغم من كل شىء لا تزال مخضلة يترشش نداها . وإن النفس لأقدر — أو هى ينبغى أن تكون أقدر من التراب على تربيت الندى وحفظه وادخاره . وإذا كانت تربة بعض النفوس مبكراً فليس بضائرى أن تكون تربة نفسى متخاراً . وما يعنيها التأخر بعد أن تبشر ويخرج نباتها أن يسرع ويطول ويقوى . وإذا كانت هذه الصحراء تنتظر أن يجيئها الغوث من الخارج فان النفس غياثها فيها . وللصحراء السحب التى تجرى الماء على وجهها ، وللنفس مدد كاف من حيويتها التى هى فى أعمق أعماقها . وأحسب أنى لو حفرت فى هذه الأرض لبلغت الماء ولو بعد عمق كبير . كذلك أحسب أنى لو مهت نفسى وحفرت فيها لوقعت فى بعض أعماقها على ماء غير قليل ؛ وسأحتاج أن أرمى التراب وأخرج الطين والحجارة وأن أنكشها من حين إلى حين حتى لا تعود حمأتها فتتجمع وتسدها مرة أخرى

واقتنعت بذلك وصح عزمى على أن من الواجب تنقية نفسى — أو بئرها — مما سد منابع الماء فى أعماقها المجهولة ، فأعددت العدة لذلك وجئت بالمتلات والمعاول والمجارف والحبال والمقاطف والدلاء إلى آخر ذلك مما يحتاج اليه المرء فى الحفر . وقلت لنفسى : « إسمع ياهذا .. إنك لا تستطيع أن تحتفر إلا إذا وسعت ، فما تدرى أقريبة المنزع بئر نفسك هذه أم بعيدته ؛ والأرجح أن تكون بعيدة وأن تكون قد تكدست فوقها أكوام شتى وطبقات متراكبة من أوحال السخافات المختلفة المتعددة التى عشت بها هذا العمر كله . فيجب من الآن — وقبل الشروع فى الحفر — أن توسع صدرك وتوطن نفسك على الشك فى كل ما أخذت به من الآراء والمذاهب ، أى على اعتبار أن كل ما كان عندك بمنزلة العقائد التى لا تقبل الجدل يجب أن يعاد بحثه بغير هوى ، وإلا كان ما يوشك أن تحاوله الآن من الحفر عملاً لا خير فيه ولا جدوى منه ، وأولى بك حينئذ أن تنصرف عنه . وكما أن الذى يحتفر بئراً لا يستطيع ذلك إذا هو اجتزأ بثقب ضيق إشفاقا على الأرض أن يفسد منظرها بتوسيع الفوهة وأن يشوه استواءها ، كذلك أنت لا تستطيع أن تصل إلى شىء إذا كنت ستصر على آرائك القديمة ، فاضرب فيها كلها بمعولك وانظر كيف ثباتها ، وهل تحتمل ذلك أم تتناثر وتتبعثر ذراتها وتنقلب ترابا يطير كالهباء ،

وهـذا أول ما ينبغى أن تروض وتوطن نفسك عليه وإلا فتعبك ضائع مع الرياح الأربع

ولم أجد لى معدى عن الرضى بمراجعة النفس وإعادة النظر بغير هوى فى كل ما كنت أعده من الحقائق المفروغ منهـا . فقلت لنفسى : « يجب أن أبدأ من البداية . والبداية هى أنى خلقت لأعيش وأعطيت الحياة لأحيا . وهذا من البداهة ، إذ لا يعقل أن أكون أعطيت الحياة لأرميها للكلاب ، وإلا فلماذا أُعطيتها إذن ؟ وما دام الأمر كذلك فأن واجبى الأول هو أن أعيش وأحيا ، وأن أحرص على الحياة وأضن بالعيش أن يفسده شيء بقدر ما يدخل هذا فى الوسع . ثم إنى لم أعط حياة الأبد ، وإنما أعطيت حياة محدودة لها آخر كما لها أول ، وهذا يضاعف وجوب الحرص عليها والضن بها على المفسدات ، لأنها فضلاً عن القصر يسهل زوالها ويضيع معناها بسوء الرأى . وعلى إذن أن أنقى من جوها كل ما ينغص هذه الحياة أو يقصر عمرها أو يفسد فترتها . وأول ما ينغص هذه الحياة ويضيع معناها ويفسد الغاية منها ويعكس الآية فيها ويقلبها عذابا وجحيما ، هذا الأدب الذى جننت به وضيعت خير شطر من عمرى فيه . وما هو الأدب على كل حال ..؟ هو شيء — أعنى كلاما — يحاول صاحبه به أن يوهم الناس أنه خير منهم وأرق وأذكى وأفطن وأحس وأعلم ، وأن خطوهم وراءه بأجيال إذ يخطو هو على مهل . ثم يرتقى المرء من إيهام الناس إلى إدخال الوهم على نفسه هو فيزعمها خالدة باقية على الزمن بآثاره — أى بالكلام الذى يصوغه — على حين تفنى كل هذه الملايين من معاصريه وممن جاءوا قبله ومن سيجيئون بعده . فلماذا بالله يخلد كلامه وحده دون كلام هـذه المئات العديدة من الملايين فى كل أمة وكل زمن ؟ . . . ثم كيف يتاح هذا الخلود فى حياة قائمة على الفناء المحقق ؟ . . وليس الخلود ألف سنة ولا ألفين ولا ثلاثة ولا أربعـة أو أكثر . . وانظر من ذا الذى خلد إلى الآن ... وفكر فى أمل الذين نذكرهم إلى اليوم فى دوام الذكر على الزمن . . . وإذا كنت الآن أعجب لشيء فانى أتعجب لذاك الذى يستطيع أن يفهم الخلود ويقنع بما فهم من معناه نفسه . وأعترف بأنى كنت أومن بالخلود فى هذه الدنيا الفانية ، ولكنى أعترف أيضاً أنها كانت عندى كلمة حلوة أرتاح إليها وأحس لها ندى على النفس وبرداً على القلب من غير أن أدرك لها معنى محدوداً جلياً . وإذا كان هناك من يؤمن بهذا الخلود فيخيل إلى أنه إما أن يكون شاباً لم يعان الحياة ولم يواجه حقائقها ، أو هو رجل لا يزال قادراً على مغالطة نفسه أو على الايحاء إليها ، أو فيه لوثة تمنع أن يجيء تفكيره مستقيماً ؛ وقد يكون هناك غير هؤلاء فما أدعى الأحاطة ولا ما هو قريب منها . وبدا لى وأنا أفكر فى هذا أن من السخف أن يتصور المرء أنه سيخلد بآثاره لا لسبب إلا أنه نشر كتاباً وأن الصحف أثنت عليه ومدحته . كأن الأجيال القبلة ستعقم صحفاً وكتاباً هم أقرب إلى نفسها ومزاجها وأساليب تفكيرها وإلى إحساساتها واتجاهاتها ونزعاتها من كتاب الجيل الذى مضى أو الأجيال التى اندثرت . وغريب أن يعتقد إنسان أن آراءه وأساليب تفكيره وكتابته الخ تظل هى الحبيبة الأثيرة إلى كل عصر على الأزمان كلها !

كانت فكرة الخلود أول ما أخرجته وألقيته من الأوحال التى تراكمت على نفسى وحرمتنى نعمة الشعور بالحياة — كما ينبغى أن يكون الشعور بها — والارتياح اليها . فقد كنت أستسخف الناس وأستحمقهم وأستقل عقولهم وأحتقر عواطفهم وأراهم دونى فى كل شيء ، ولا أكاد أطيق منهم معارضة أو مخالفة يسيرة أو ملاحظة بريئة يحسن فيها القصد ولا تسوء النية ؛ وكنت أترفع عنهم وأحس أنى متواضع جداً حين أجالس أحدهم ؛ وكان يزيد شعورى بالتواضع ويضاعفه أن أرانى أكلمهم كما يتكلمون وأجاريهم فى أحاديثهم الفارغة وثرثرتهم الجوفاء فأرضى عن نفسى كل الرضى وأقول لها فى تسويغ هذا التواضع : « وماذا عسى أن يصنع المبصر بين العميان ؟ » وما أكثر الأعمال التى تركتها وفقدت رزقى منها لأنى لم أطق من صاحبها الذى كنت أعمل معه أن يكلم رجلاً خالداً مثلى كأنه من أندادى — أو أن أسمع كلاماً يشعرنى أنه لا يفطن إلى قيمة من هو معه ولا يدرك أنه خالد وأنه حقيق بالتقديس وجدير بأن يركع أمامه على ركبتيه . ولقد خاصمت مرة رجلاً لأنه لم يأخذ برأيى ولم يصدر عن مشورتى ، فعددت منه هـذا تطاولاً على مقامى ؛ وغضبت على آخر لأنه نظر إلى نظرة تبينت فيها الحسد كأن ما وهبنيه الله يمكن أن يطمع فى مثله طامع . والويل لمن كان يحدثنى ولا

يحرص على أن تكون عينه فى عينى . . إذن هو يتعمد أن يفهمنى أنه يستخف بى وأنا الذى يعى الزمان بمكان نده

وبعد أن أخرجت الحلود وأفرغت القفة من طينه أحسست أنى حططت عن صدرى جبلاً فقلت : « ياسلام . . . أما إنها لراحة كنت محروماً منها ... والله لقد كنت مغفلاً .. وما الذى أغرانى بوضع هذا الجبل كله على صدرى ... وكيف بالله كنت أرجو أن أتنفس ... أعوذ بالله .. والحمد لله . . »

وبعد أن أخذت حظى من الراحة قلت لنفسى : « إذن ما الرأى فى هذا الأدب الذى نكبنى بفكرة الخلود وزين لى هذه المصيبة التى رزأت بها نفسى ؟ » وفكرت ثم قلت » ما دمنا قد خلصنا من مصيبة الخلود ، فالأدب أولاً يكون وسيلة للتنفيس عن النفس والتخفيف عنها وإراحتها من ثقل العواطف والخوالج ، وهذا هو الذى يسميه غيرى فناً ذاتياً — وقد كنت مثلهم أفعل ذلك — وأسميه أنا سلوى شخصية ، والمسألة ميل واستعداد . . فهذا يجد ما يسليه ويرفه عنه فى الألعاب الرياضية ، وذاك يلتمس الترفيه فى القمار ، وثالث يجد التسرية فى الرقص ، ورابع يفوز بها من الأدب — أى من رص الكلام الفارغ . وليس الكلام الفارغ هو الذى يسرى عن النفس ، وإنما هو المجهود الذى يبذله المرء فى رصف هذا الكلام . ومجهود رصف الكلام هو مجهود بدنى ككل مجهود آخر ، والمرء يحس بالأعياء والتعب بعده كما يحس بعد لعب الكرة أو غيرها . ولعل الأعياء فيه أشد لقلة الحركة الجسمية ، وكثرة ما ينهك من الأعصاب

ثم ينقلب الأدب صناعة مع طول المزاولة والتدريب ، كما يمكن أن ينقلب أى فن آخر ؛ ويصبح كما هو الحال والواقع عندى . ومن الناس فى الأدب الهاوى أى الأديب الذى لم يتحول على الأيام وبالمزاولة صانعاً ، فهذا لا يزال يتخذه سلوى وملهاة يزجى بها الفراغ ويريح بها النفس ويرفه عن الأعصاب وإن كان يتعبها من ناحية أخرى كما يتعب المرء نفسه بالتنس والسباحة وغير ذلك : أما من صار مثلى فالأدب عنده صناعة وإن شق عليه أن يعترف بذلك ورأى فى الاعتراف به غضاضة أو توهمها على الأصح لطول ما راض نفسه على النظر إلى الأدب كأنه فن سماوى يُغرى به الذى تميزه الطبيعة وتكتب له عندها الخلود كأن

الطبيعة تحابى الناس على نحو ما يحابى الخلق بعضهم بعضاً

وخرجت من هذا التفكير بأنى فى الواقع فتحت دكان أدب إذا أحسنت الاعلان عنها ولفت النظر إليها وأجدت عرض ما فيها من البضاعة فأنى خليق أن أفوز بالاقبال عليها والطلب لما فيها فيكثر كسبى ويعظم ربحى كما هو الحال فى كل تجارة أخرى . ولا فرق بين غيرى من الأدباء وبينى إلا على قدر اعتمادهم فى رزقهم على الأدب ؛ فمن كان معوله مثلى عليه فالأدب عنده صناعة لا شك فى ذلك ، وإلا فهو رجل يسر الله له رزقه فى وسعه أن يتسلى بالأدب كما يمكن أن يتسلى باقتناء الديكة أو الثعابين أو السجاجيد أو بالكرة أو التنس أو السباحة أو التوغل فى مجاهل الأرض لصيد الأسود والفهود والفيلة إلى آخر ما يمكن أن يلهو به انسان إذا رزق الوسيلة

ولما انتهيت من هذا كله سهل على أن أتلقى الحياة كما يتفق أن تجىء وأن أتقبلها بلا تذمر أو تسخط . وهان على ما كان يبدو لى عسيراً فيما مضى قبل أن يرتد إلى عقلى الذى ذهب به جنون الأدب ، فان لكل فن ضرباً من الجنون ، وليس الأديب الذى يتوهم أنه خالد ويطلب أن يعامله الناس على هذا الاعتبار بأقل جنوناً من بائع الفول المدمس الذى يأبى أن يبيعك منه شيئاً ولو بذلت له مال قارون إلا إذا تقدمت إليه فى تواضع ظاهر وقلت له إنى أريد « لوزاً » بقرش . ولا فرق عندى — الآن — بين اعتداد الأديب بأدبه إلى ذلك الحد المبالغ فيه وبين تجبر بائع الفول وتحتيمه عليك أن تسمى فوله لوزاً لظنه أن تسميته لوزاً أبلغ فى التبجيل وأدل على التوقير . وما يطلب بائع الفول فى الحقيقة أن توقر الفول وإنما يطلب أن توقره هو ، ولكنه يشعر أن طلب التوقير لشخصه مباشرة قد لا يلقى الارتياح ، فهو يجعل من الفول أداة لما يشتهى ويروم ولا يفطن إلى أن الناس يجارونه ويضحكون منه ويتفكهون فيما بينهم بالتنكيت عليه لأنه لا يرى الضحك ولا يسمع النكت ، وإنما يرى مظاهر الاحترام المتكلف ويسمع فوله يدعى لوزاً . وليست النعامة وحدها هى التى تستطيع أن تغالط نفسها وتتجاهل ما تغمض عينها عنه فأننا جميعاً مثلها وان كنا لغرورنا نضرب بها المثل فى الحماقة . وكذلك الأديب الذى يطلب منك الاحترام والتوقير لخلوده إنما يطالب

هذا لشخصه لا لأدبه ؛ ولو أمكن أن يهتدى إلى وسيلة أخرى تنيله ما يشتهى وما تتعلق به نفسه من الاجلال والاكبار غير الأدب لما قصر فى اتخاذها ، ولكان الأرجح — إذا وجدها أجدى عليه — أن يتساهل فيما يجب للأدب من الاكبار ، بل لرأيته يدعى أنه إنما يكتب أو ينظم أحياناً للتسلية لا لمنافسة الأدباء المحترفين . وكل انسان يشتهى المجد أو التمجيد من الطريق الذى يراه أوفق له ويرى نفسه أقدر على انتهاجه ولا فرق من هذه الناحية بين الأدب وبين رفع الأثقال والحرب والموسيقى والسياسة وغير ذلك ، فأنها جميعاً وسائل يستعين بها الانسان على ما يريد من الفوز بالتمجيد الذى تصبو إليه نفسه .

وقد وجدت وأنا أنقب وأحتفر حجارة كثيرة تفتتت من صخرة الخلود الضخمة زحزحتها وأخرجتها ورميتها مثل النبوغ والعبقرية وماأشبه ذلك فألقيتها جميعاً ، فشعرت بالراحة وأحسست أن ما كان يسد متنفسات روحى قد زال والحمد لله على التوفيق ؛ ورأيتنى قد رجعت إنساناً بعد أن كنت دفتراً أو كتاباً كالكتب التى عندى ، وكل ما كان ينقصنى هو أن أجد من يغلفنى أو يجلدنى ليتسنى أن أوضع على رف كبقية الكتب وعلى ظهرى كما على ظهورها « كشكول المازنى » . والواقع أنى لم أكن إلا كشكولاً فيه خليط مضطرب غير متسق من الآراء المستمدة أو المولدة من هنا وههنا فصرت بعد التنقية الدقيقة التى أجريتها فى نفسى إنساناً يشعر بالحياة التى وهبها ويلتذها وينعم بها ويحرص عليها كما ينبغى أن يفعل ويوفر لها الأسباب التى تعين على زيادة الامتاع المستفاد منها

وكنت كالذى وقف وفى يديه ما يشبه المنظار فاذا رفعه إلى عينيه لم ير إلا الصورة المطبوعة أو المنقوشة على زجاجة وهو يحسب أنه يكبر له الأشياء ويجسم له المناظر . أما بعد التنقية فقد رميت هذا الذى كنت أحسبه منظاراً مكبراً ونظرت بعينى لا بعيون الغير فبدت لى الدنيا بما فيها من جمال وقبح ومن خير وشر ومن عرف ونكر ، وأنا الآن أخوض العباب وأغالب التيار وأصارع الموج ، وأطفو تارة وأرسب أخرى ، ولا أعدم ما أتعلق به فانجو وأستريح وأستجم إذا أدركنى التعب لا كما كنت — واقفاً على الساحل أصف مالم أجرب وأتحدث عما لم أختبر تقليداً لأحساس غيرى ومجاراة لنظرائه وأنا لا أدرى أنى لست سوى مقلد وإن كنت أزعمنى مبتكراً

وخطرت لى حكاية ، فقد زعموا أن صانعاً بارعاً منقطع النظير خاف المعجبون بحذقه وأستاذيته أن يدركه الأجل فيموت معه فنه ويلف عليه وعلى براعته كفن واحد ، فتقدموا اليه يرجون منه أن يتخذ له تلاميذ يعلمهم فأبى ، فألحوا فلم يلن ، فشكوه إلى الحاكم فأمره أن يفعل فلم يطع فسجنه ، ولبث فى السجن أياماً ، فتشاور محبوه وإخوانه فى الأمر فقال أحدهم : «أنا أحل لكم هذا المشكل » ودعا اليه واحداً من أتباعه وقال له إنا سنسجنك مع هذا الصانع فى حجرة واحدة فكن معه الرفيق المخالف ، فاذا ضحك فاعبس أنت ، وإذا رأيته يعبس فاضحك أنت وقهقه ، وهكذا فى كل شىء . « ففعل الرجل كما أمره فكاد الصانع يجن وطلب أن يأخذوه إلى الحاكم ، فلما صار عنده قال له إنه مستعد أن يعلم ألف تلميذ ولا يبقى ساعة واحدة مع هذا الرفيق المخالف فى غرفة واحدة

بمثل هذا يجب — فى رأيى — أن يعالج الذين يصرون على الحكم لنفسهم بالخلود قبل أن تحكم لهم الأيام فما أعرف طريقة أجدى وأكفل بشفائهم من طريقة الرفيق المخالف

ابراهيم عبد القادر المازنى

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٣ —

أسلفنا القول عن إحـدى الشخصيتين اللتين أثارتا مشكلة النبوة أثناء القرن الثالث والرابع للهجرة فى شكل حاد ، ونعنى بها ابن الراوندى . واليوم نريد أن نتحدث عن الشخصية الأخرى التى ليست أقل من الأولى خطراً فى هذا المضمار والتى ربما كانت أعرف لدى جمهور القراء ، وهى شخصية أبى بكر محمد بن زكريا الرازى الذى ولد سنة ٢٥٠ هجرية بالرى حيث تعلم الرياضيات والفلك والأدب والـكيمياء . ويظهر أنه لم يتقـدم للدراسات الطبية إلا بعد أن بلغ سناً خاصة ، ولـكنه لم يلبث أن برَّز فيها على جميع معاصريه وأحرز شهرة كبيرة . فصار يتنقل من بلاط إلى بلاط ، ومن مدينة إلى مدينة ، يشرف على مستشفاها ويأخذ بيد العلاج والطب فيها . وكان فى كل هـذا يحنُّ إلى الرى ويعود إليها من حين لآخر إلى أن توفى بها فى العقـد الثانى من القرن الرابع [(١)] . وليس هناك شك فى أن الرازى هو أكبر طبيب فى الاسلام ، بل وفى القرون الوسطى على الاطلاق . فقد أحاط بكل النظريات الطبية القديمة وأدخل عليها عناصر جديدة هدته اليها تجاربه الـكثيرة ، ومنح الـكيمياء كذلك قسطاً كبيراً من عنايته ، ودرسها دراسـة واقعية تجريبية قضت على كثير من الخرافات والأباطيل التى لصقت بها فى ذلك العهـد . ولم يكن الرازى طبيباً وكيمائياً فحسب ، بل اتجه نحو الفلسفة وكتب فيها عدة أبحاث . ولقد كان حريصاً كل الحرص على أن يلقب بالفيلسوف ؛ ولذلك لـما أحس أن بعض معاصريه ينكرون عليه هـذا اللقب سارع إلى الرد عليهم ، وبين فى رسالة خاصة مميزات الفيلسوف العلمية والعملية محاولاً أن يطبقها على نفسه [(٢)] . وهو فى طبه وفلسفته واثق من نفسه كل الوثوق وإلى درجة لا نـكاد نجدها لدى أى شخص من مفكرى الاسـلام . فهو ينتقد جالينوس فى بعض آرائه ، ولا يتردد فى أن يرفض فريقاً من النظريات الأرسطية ، ويضع نفسه فى مصف أبقراط وسـقراط من الأطباء والفلاسـفة السابقين [(١)] . وفوق هذا فهو لا يسلم بتلك الجملة المشهورة : « ما ترك الأول للآخر شيئاً » ويعتقد على العكس منها أن السابقين تركوا للاحقين أشـياء كثيرة . وقد استدرك هو نفسه على القـدامى جزءاً من نقصهم وأصلح بعض أخطائهم . ولا نظنه ينكر علينا إذا حاولنا اليوم أن نثبت ما فى آرائه من ضعف أو خطأ ، وما أشبه فى هذا ببيكون بين الطبيعيين والفلاسـفة المحدثين . وليس بغريب أن يقف هذا الموقف أشخاص ينادون بالتجربة ويؤمنون بنظرية التقدم العلمى المستمر . فالرازى إذن مجدد وذو آراء مستقلة يجدر بنا أن نعرفها بصرف النظر عن خطئها أو صوابها ، شذوذها أو اعتدالها

لم تستبق لنا الأيام ، ويا للأسف ، كثيراً من مؤلفات الرازى الطبية والـكيميائية والفلسفية ، إلا أنا ربما كنا أعرف بطبـه وكيميائه منا بفلسفته . والسبب فى ذلك أن الباحثين من المحدثين عنوا بالرازى الطبيب والـكيميائى أكثر من عنايتهم بالرازى الفيلسوف . ونحن لا ننكر أن جانبـه العلمى أوضح وأقوى من جانبه الفلسفى ، وأن ما وصل إلينا من كتبه الطبية والـكيميائية يزيد نسبياً على مخلفاته الفلسفية . بيد أن فى فلسفته جرأة وغرابة تدفع الباحث إلى دراستها وتفهمها . وإذا كان شذوذها وخروجها على المألوف هما من دواعى الاعراض عنها والتنفير منها فأنهما فى الوقت نفسه من وسائل الترغيب فيها والتشويق إليها . ونعتقد أنا نستطيع الآن أن نـكوِّن عنها فـكرة كاملة على ضوء ما نقله أبو حاتم الرازى والبيرونى والـكرمانى ونصيرى خسرو ، وبعض الرسائل القليلة التى وصلت إلينا والتى كتبها الرازى نفسـه

لئن كان الرازى قد اشتغل بالفلسفة فانه يفترق عن فلاسفة الاسلام المعروفين فى نواح كثيرة . فهو يهاجم أولاً أستاذهم وزعيمهم أرسطو ويخرج على كثير من نظرياته الطبيعية والميتافيزيقية [(٢)] .

(١) لا يعرف بالدقة تاريخ وفاته ، فمن قائل إنه سنة ٣١١ وآخر سنة ٣٢٠ ؛ وعلى أرجح الروايات ما ذهب إليه البيرونى من أنه فى الخامس من شعبان سنة ٣١٣

(٢) الرازى ، السيرة الفلسفية ، نشره المسيو كراوس فى Orientalio 1935, p p. 318—320.

(١) البيرونى ، رسالة فى فهرست كتب محمد بن زكرياء ، ص ١٣ . أبو حاتم الرازى ؛ أعلام النبوة (in orientalio, 1936) ص ٤٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ من المخطوط

ويبالغ ثانياً على العكس منهم فى التعلق بأهداب الآراء الزندكية والمانوية والمعتقدات الهندية[1] . وينكر أخيراً كل الأنكار محاولتهم التوفيق بين الفلسفة والدين . ويرى أن الفلسفة هى السبيل الوحيد لاصلاح الفرد والمجتمع ، وأن الأديان مدعاة التنافس والتطاحن والحروب المتتالية . وقد كتب كتابين عدهما البيرونى بين الكفريات ، وهما : مخاريق الأنبياء أو حيل المتنبئين ، و نقض الأديان أو فى النبوات[2] . وقد صادف الكتاب الأول نجاحاً لدى بعض الطوائف التى انتشرت فيها الزندقة والألحاد وخاصة لدى القرامطة[3] . ويذهب الأستاذ ماسنيون إلى أن أثره تعدى إلى الغرب وكان منبع تلك الاعتراضات التى وجهها عقليو أوربا إلى الدين والنبوة فى عهد فردريك الثانى[4] . وحتى اليوم لم يوقف له على أثر بين المطبوعات والمخطوطات العربية . وأما الكتاب الثانى فقد وصلنا منه فقرات عن طريق غير مباشر فى كتاب أعلام النبوة لأبى حاتم الرازى المتوفى سنة ٣٣٠ هجرية . وأبو حاتم هذا من أكبر دعاة الاسماعيلية الذين أبلوا بلاء حسناً فى طبرستان وأذربيجان فى أوائل القرن الرابع للهجرة . وقد كان معاصراً ومواطناً للرازى الطبيب ، ودارت بينهما مناقشات حادة ومتعددة حضرها بعض العلماء والرؤساء السياسيين

وقد شاء أبو حاتم أن يدوّن هذه المناقشات فى كتابه أعلام النبوة . حقاً إنه لا يصرح فى هذا الكتاب باسم الرازى ويكتفى بأن يوجه نقده إلى من سماه الملحد ؛ غير أن هناك أدلة قاطعة على أن هذا الملحد ليس شخصاً آخر سوى الرازى . فان حميد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٤١٢ هـ وزعيم الدعاة الاسماعيليين فى عصر الحاكم بأمر الله يصرح فى كتابه الأقوال الذهبية بأن مناقشات فى النبوة والمناسك الشرعية دارت بين الرازى والشيخ أبى حاتم بجزيرة الرى أيام مَرْدَادِج وفى حضرته[5] . والكرمانى حجة فى هذا الباب فانه أعرف ما يكون بأخبار الاسماعيليين زملائه وبمواقف الرازى وآرائه التى أخذ على عاتقه أن ينقض بعضها فى كتابه الآنف الذكر . ومما يؤسف له أن مخطوطة أعلام النبوة الوحيدة ، التى وصلت إلينا ، بدون مقدمة ؛ ويغلب على الظن أن هذه المقدمة المفقودة كانت تشتمل على غرض الكتاب والدافع إلى تأليفه[1] . فكتاب أعلام النبوة يقفنا على الاعتراضات الرئيسية التى وجهها الرازى إلى النبوة وأثرها الاجتماعى ؛ وعليه نعتمد هنا أولاً وبالذات

وهذه الاعتراضات فى جملتها تقترب بعض الشىء من الاعتراضات التى أثارها ابن الراوندى من قبل . وكأن الرجلين يرددان نغمة واحدة ويصدران عن أصل معين ، أو كأن تعاليم هندية وآراء مانوية اختفت وراء حملتهما . ونحن نعلم من جهة أخرى أن الرازى يقول بالتناسخ الذى عرفت به السُّمنية من الهنود ، وبتشيع للمانوية الذين كانوا يدسون فى غير ملل للاسلام ومبادئه ؛ ولا يبعد أن يكون قد وقف على نقد الاغريق للديانات على اختلافها . وسواء أكان الرازى متأثراً بعوامل أجنبية أم معبراً عن آرائه الشخصية فأنه يصرح بأن الأنبياء لا حق لهم فى أن يَدَّعوا لأنفسهم ميزة خاصة ، عقلية كانت أو روحية ، فان الناس كلهم سواسية ، وعدل الله وحكمته تقضى بألا يمتاز واحد على الآخر . أما المعجزات النبوية فهى ضرب من الأقاصيص الدينية أو اللباقة والمهارة التى يراد بها التغرير والتضليل . والتعاليم الدينية متناقضة يهدم بعضها بعضا ولا تتفق مع المبدأ القائل إن هناك حقيقة ثابتة ؛ ذلك لأن كل نبى يلغى رسالة سابقه وينادى بأن ماجاء به هو الحق ولا حق سواه ؛ والناس فى حيرة فى أمر الأمام والمأموم والتابع والمتبوع . والأديان فى جملتها هى أصل الحروب التى وقعت فيها الانسانية من قديم ، وعدو الفلسفة والعلم . وربما كانت مؤلفات القدامى أمثال أبقراط وأقليدس وأفلاطون وأرسطو أنفع من الكتب المقدسة[2] . يقول الرازى : «الأولى بحكمة الحكيم ورحمة الرحيم أن يلهم عباده أجمعين معرفة منافعهم ومضارهم فى عاجلهم وآجلهم ولا يُفضّل بعضهم على بعض ، فلا يكون بينهم تنازع ولا اختلاف فيهلكوا. وذلك أحوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمة

(١) البيرونى ، رسالة ، ص ٣ — ٤

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠

(٣) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٤١

(٤) Massignon, R. H. R., 1920. — cf. Encyc. de l,Islam Râz.

(٥) الكرمانى ، الأقوال الذهبية ، ص ٤ من مخطوطة فى مجموعة الحمدانى

(١) هذه المخطوطة من مجموعة الحمدانى أيضاً ، وقد بدأ المسيو كراوس الذى وقفنا عليها منذ زمن بنشر أجزاء منها فى Orientalio ، ونرجو أن يتابع نشره كى تنجلى هذه النواحى الغامضة

(٢) P.Kraus et Pines, Encyc. de l'Islam, Fasc. 54, 1136.

لبعض فتصدّق كل فرقة أمامها وتكذب غيره ، ويضرب بعضهم بالسيف ويعمّ البلاء ويهلكوا بالتعادى والتجاذبات ، وقد هلك بذلك كثير من الناس كما نرى [١] »

نظننا فى غنى عن أن نشير الى أن أقوال الرازى هذه تمثل أعنف حملة وجهت الى الدين والنبوة طوال القرون الوسطى . بيد أن الشيخ أبا حاتم استطاع أن يقابل هذه الحملة وجهاً لوجه ويخذلها ، وأن يهدم هذه الفتنة من أساسها . وفى كتابه أعلام النبوة صفحات تفيض إفحاماً وإعجازاً ، ومناقشات تسد على المكابرين والمعاندين سبل التخلص والفرار . وحبذا لو نشر هذا الكتاب فى جملته فضم آية الى آيات الاسماعيلية الكثيرة وأثراً الى آثارهم العلمية النفيسة . وأبو حاتم ممن أحسنوا الجدل والمناقشة والأخذ والرد . وكيف لا وهو داع مهمته أن ينتصر لدعوته ، ويردّ عنها شبه الخصوم والمعارضين ؟ فهو لا يرد على الرازى بقضايا مسلمة وأدلة مشهورة ، وإنما يحمله على أن يرفض نفسه بنفسه ، ويبين له أن أقواله وآراءه متهافتة ومتناقضة [٢] وهو فوق هذا لا يتكلم باسم الاسماعيلية وحدهم ، بل باسم الاسلام والعقل والانسانية جمعاء . ذلك لأن مشكلة النبوة لا تتصل بفرقة دون فرقة ، ولا تعنى طائفة منفردة من طوائف الاسلام . وقارىء كتاب أعلام النبوة لا يشعر مطلقا أنه يحمل شارة خاصة على عكس كتب الفرق المختلفة . وهنا نقطة نحب أن نلفت النظر اليها ، وهى أن حملة الرازى وابن الراوندى من قبله على الأديان والنبوات أثارت الأوساط الاسلامية على اختلافها ، وحفزتها الى الدفاع عن معتقداتها . فأبو على الجبائى [٣] الكبير (المتوفى سنة ٣٠٣ هـ) وابنه أبو هاشم [٤] (المتوفى سنة ٣٢٤ هـ .) المعتزليان ، وأبو الحسن الأشعرى [٥] (المتوفى سنة ٣٢٤ هـ .) زعيم أهل السنة رأوا من واجبهم أن يردوا على ابن الراوندى ؛ ومحمد بن الهيثم [٦] الفلكى والرياضى (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) أخذ على عاتقه أن ينقض رأى الرازى فى الالهيات والنبوات .

إلا أن الاسماعيلية بوجه خاص قد بذلوا فى هذا المضمار همة عالية ومجهوداً صادقا ؛ ومعظم الردود على منكرى النبوة إنما وصلتنا عن طريقهم . وليس هذا بغريب ، فأن الاسماعيلية فى تعاليمها الدينية ومبادئها السياسية تقوم على النبوة وتعتمد عليها

فى هذا الجو المملوء بالحوار والمناقشة فى موضوع النبوة الخطير نشأ الفارابى ، وكان لا بد له أن يقاسم فى هذه المعركة بنصيب . لاسيما وهو معاصر لابن الراوندى والرازى معا ؛ فقد ولد سنة ٢٥٩ هجرية وتوفى سنة ٣٣٩ . ويروى المؤرخون أنه كتب ردين ، أحدهما على ابن الراوندى والآخر على الرازى ؛ ونأسف جد الأسف لأن هذين الردين لم يصلا الينا [١] . وقد نستطيع أن نتكهن بموضوعهما على ضوء الملاحظات السابقة . فانه لا يتوقع أن يرد الفارابى المنطقى الفيلسوف على ابن الراوندى إلا فى شىء يتصل بالمنطق والجدل اللذين أخل الأخير بقواعدهما ، أوفى مبدأ من مبادىء الفلسفة والالهيات التى خرج عليها [٢]

ولا بد أن يكون الفارابى ، وهو الأرسطى المخلص والمعنى بالسياسة والاجتماع ، قد أخذ على الرازى كذلك أشياء كثيرة ، فى مقدمتها التهجم على أرسطو وإنكار مهمة الرسول السياسية والاجتماعية . على أن الفارابى لم يكتف بهذا الموقف السلبى وهذا الدفاع الذى إن ردّ عن النبوة بعض خصومها الحاضرين فهو لا يمنحها أسلحة تستعين بها على هجمات المستقبل . وعلى هذا أجهد نفسه فى أن يقيم النبوة على دعائم عقلية ويفسرها تفسيراً علمياً ، وبذا استطاع أن يبطل كلمة أنصار العقل الموهومين ، ويدحض دعوى المتفلسفين الذين يزعمون أن الدين لا يمكنه التآخى مع الفلسفة ، ولا القرب منها . ومن غريب المصادفات أن هذه الدعائم الجديدة ترجع إلى أصل أرسطى ؛ فكأن الفارابى قد تمكن فى نظرية النبوة أن يصوب إلى هدفين ويحظى بغايتين ؛ فأسس الأديان تأسيساً عقلياً فلسفياً وأبان للناس أن أرسطو الذى تهجم عليه الرازى وأنكره آخرون جدير بحظ كبير من الاجلال والتقدير

(يتبع) ابراهيم بيومى مدكور

(١) أبو حاتم ، أعلام النبوة (in Orientalio) ص ٣٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٢

(٣) ابن الجوزى ، فرق الشيعة ، ص XX

(٤) M. Horten, Die philos. Sys., p : 364.

(٥) Spitta, Zur Gesch. Abu,l Hasan al - as'ari, p. 63.

(٦) Kraus, Riviata, 1934, p. 363.

(١) ابن أبى أصيبعة ، عيون ، ١١ ، ١٣٩ . — القفطى ، تاريخ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠

(٢) ينبغى أن نلاحظ أن ابن أصيبعة يصرح بأن الفارابى كتب كتاباً فى الرد على ابن الراوندى فى آداب الجدل ، والقفطى بعد هذا كتابين : أحدهما فى آداب الجدل والآخر فى الرد على ابن الراوندى

الحرب الأهلية الاسبانية

صراع بين الطغيان والحرية

خطر الفاشستية على السلم الأوربي

بقلم باحث دبلوماسي كبير

انتهت المأساة الاسبانية إلى موقف شديد الحرج ، فمنذ أسابيع تطوق القوات الثائرة مدريد ، وتشدد عليها الحصار والضغط ، وتصلى المدافعين عنها والمسالمين من أهلها ناراً تحصد الأرواح بلا رأفة ؛ ومنذ أسابيع تضطرب الجمهورية الاسبانية في يد القدر ، وتبذل جهود المستميت للدفاع عن حياتها وكيانها ؛ وقد لاح مدى لحظة حينما زحف الجيش الثائر على مدريد ، وطوقها من معظم النواحي أن مدريد ستسقط تواً ، وأن الجمهورية الاسبانية قد تلفظ أنفاسها الأخيرة في أيام قلائل ؛ ولكن الجيش الثائر لقي مقاومة شديدة لم يكن يتوقعها ؛ وتدل الأنباء الأخيرة التي وردت ونحن نكتب هذه السطور أن القوى الجمهورية التي تدافع عن مدريد قد عادت إلى الهجوم ، واستردت بعض المواقع التي تشرف على العاصمة ، وأن الأمل قد يتجدد بانقاذ مدريد وإنقاذ الحكومة الجمهورية ؛ بيد أن مصاير الحرب قد تتغير فجأة ، وقد تسقط مدريد في يد الثوار قبل أن تطلع (الرسالة) على القارئ بهذا المقال

على أنه يجب أن نلاحظ أولاً أن سقوط مدريد لا يعني ختام الحرب الأهلية الاسبانية ؛ ولا يعتبر نصراً حاسماً للثورة العسكرية ؛ ذلك أن سقوط العاصمة قد قدر منذ بعيد وبحثت الحكومة الجمهورية كل ما يترتب عليه من الاحتمالات ؛ ولن يترتب عليه من الوجهة المادية سوى كسب الثوار لمدينة جديدة ، وإن كان يعتبر من الوجهة المعنوية فوزاً له قيمته ؛ وما زالت الجمهورية مسيطرة على شرق اسبانيا كله من قطلونية حتى مالقة ، وكذلك على قسم كبير من الأقاليم الوسطى والشمالية ؛ فاذا سقطت مدريد ؛ قامت الحكومة الجمهورية في برشلونة أو في قاعدة أخرى ، واستمر النضال مضطرماً بين الفريقين

ولكن هزيمة الثوار أمام مدريد قد تكون بالعكس موقعة الفصل في هذه الحرب البربرية المخربة ؛ ذلك أن قوى الثوار ومواردهم محدودة ، وقد دفعوا إلى المعارك الأخيرة بكل قواهم ومواردهم الاحتياطية . فاذا هزموا أمام العاصمة بعد أن لاح لهم أمل الظفر ، تفككت قواهم وخبت روحهم المعنوية ، وربما اضطروا إلى الانسحاب عن جزء كبير من الأقاليم التي يحتلونها ؛ وعندئذ تتطور مصاير الحرب في صالح الجمهورية

* * *

ولقد عالجنا موضوع الحرب الأهلية الاسبانية منذ نشوبها في أواخر يوليه الماضي ، وقلنا يومئذ والحوادث في بدايتها إن هذه الحرب الأهلية الداخلية ليست إلا طوراً من أطوار الصراع الأوربي العام بين الديمقراطية والفاشستية ، أو بعبارة أخرى بين النظم الحرة والطغيان العسكري ؛ وقد أيدت الحوادث رأينا وما زالت كل يوم تكشف لنا عن هذه الحقيقة بأدلة مادية لا شك فيها ؛ وإذا كان مما يدعو الى الأسف أن حكومة مدريد الشعبية قد اضطرت إزاء الظروف القاهرة أن تعتمد في نضالها على بعض العناصر غير المرغوب فيها من شيوعية وفوضوية ؛ فليس معنى ذلك أنها حكومة شيوعية كما تصورها لنا الدعاية الفاشستية ، بل هي في الواقع حكومة جمهورية شعبية من ورائها العمال والفلاحون والطبقات الوسطى أو بعبارة أخرى من ورائها الشعب الاسباني . أما الثورة التي يرفع لواءها الجنرال فرانكو وزملاؤه من القواد والضباط الخوارج فهي ثورة النظم الطاغيـة التي حطمتها الجمهورية في سنة ١٩٣١ ، ومن ورائها الملوكية الذاهبة والكنيسة وأحبارها وكبار الملاك وأصحاب الأموال ، والقواد والضباط الخوارج ، وهي العناصر التي كانت تتمتع بالنفوذ والسلطان في ظل الملكية الذاهبـة ، وترهق الشعب الاسباني بطغيانها وامتيازاتها وجشعها ؛ فلما ظفر الشعب الاسباني بالقضاء على الملوكية في سنة ١٩٣١ لبث أنصارها من الأحبار والملاك يترقبون الفرص للانتقاض على النظام الذي قضى على نفوذهم ؛ وقامت الوزارة الجمهورية الأولى التي يرأسها السنيور أزانا ببعض الاصلاحات السياسية والاجتماعية كنزع ملكية بعض الضياع الكبيرة وتوزيعها على الفلاحين ، وفصل جماعة من الضباط

الذين يشك فى ولائهم ، والحد من سلطات الكنيسة وأحبارها ، فزادت هـذه الاجراءات فى غضب العناصر الرجعية ؛ وفرت رؤوس الأموال الكبيرة الى الخارج ، وزادت العطلة والبأساء وأخذت الجمهورية الجديدة تتخبط فى غمار من الصعاب السياسية والاقتصادية ؛ وجاءت بعد وزارة أزانا فى أواخر سنة ١٩٣٣ وزارة محافظة فألغت هـذه الاصلاحات ، ولكنها فشلت فى معالجة الأزمة الاقتصادية ؛ وأسفرت هـذه الأزمة غير بعيد عن قيام بعض الحركات الثورية الخطيرة ، ولا سيما فى منطقة الاستورياس وفى قطلونية حيث يشتد الاحتشاد الصناعى ؛ وعملت العناصر الرجعيـة على إذكاء الثورة ، ولكنها أخفقت وسحقت فى سيل من الدماء ؛ وقامت وزارة اشتراكية جديدة برآسة السنيور أزانا فى فبراير الماضى ، وعاد الفلاحون إلى المطالبة بنصيبهم من الأرض ، واستولوا على كثير من الضياع واضطرت الحكومة أمام الضغط العام أن تقر هـذه الحركة ، واشتدت فى محاسبة الكنيسة ونزع أملاكها وفى مطاردة أحبارها وتجريدهم من كل حول ونفوذ ؛ ولكنها لم تفعل شيئا لاصلاح الجيش وتطهيره من العناصر الناقمة ، مع أن الجيش كان مصدر الخطر على الجمهورية ، ولو فعلت لتغير سير الحوادث ؛ ورأت العناصر الرجعية أن تلتف حول العناصر الناقمة فى الجيش من قادة وضباط ، وأن يتحد الجميع على مقاومة هذه الحركة الخطيرة التى ستنتهى بالقضاء عليهم وعلى أملاكهم وامتيازاتهم ، وكانوا يضمون آمالهم فى الجيش والحرس المدنى ، ويعولون على إسقاط الجمهورية بثورة عسكرية محلية ، لأن الشعب لا يحبهم ولا يمكن أن يصغى اليهم ؛ ولكن الحكومة الجمهورية كانت على شىء من التحوط والحذر ، فاضطروا أن يولوا شطرهم إلى مراكش حيث تكثر العناصر الناقمة فى الجيش ، وحيث يستطيعون الاعتماد على الجند المغاربة ، وعلى المعاونة الخارجية

***

هكذا اجتمعت أسباب الثورة الاسبانيـة التى انفجرت فى ١٧ يوليه الماضى ، وتولى قيادتها الجنرال فرانكو حاكم جزر الكنارى ، وأحد زعماء الجيش الناقمين ؛ على أن هذه الثورة لم تنشأ مستقلة ، ولم تكن داخلية محضة ، فقد كانت تعتمد منذ الساعة الأولى على المعاونة الأجنبية ، ولم يك ثمة شك فى المصدر أو المصادر التى قدمت هـذه المعاونة ؛ فقد رأت الفاشستية الايطالية وهى عماد النظم العسكرية الطاغية فى أوربا الجنوبية لأسباب سياسية وعسكرية أن تشد أزر الجنرال فرانكو ، وأن تعاونه بكل الوسائل ؛ ورأت ألمانيا النازية من جانبها أن تشترك فى هذه المعاونة لأسباب وبواعث مشابهة ، ذلك أن قيام حكومة عسكرية رجعية فى مدريد تقوم على وسائل الطغيان والعنف التى تقوم عليها الفاشستية الايطاليـة والنازية الألمـانية ، مما يقوى هـذه النظم من الوجهة المعنوية ، ومما يضعف جبهة الديموقراطية الأوربية التى تقف فى وجه الفاشستية والنازية ؛ وحصن الديموقراطية الأوربية انكلترا خصيمة إيطاليا منـذ الحرب الحبشية ، وفرنسا خصيمة ألمـانيا التاريخية ؛ وإيطاليا ترى فى قيام حكومة فاشستية فى أسبانيا تقع تحت نفوذها وتأثيرها وسيلة لتقوية نفوذها فى غرب البحر الأبيض وتهديد مركز إنكلترا فى هذه الميـاه ؛ ولذلك لم تدخر إيطاليا وألمانيا وسعاً فى إمداد الثورة الأسبانيـة بالسلاح والذخائر والرجال ؛ ولم يبق سراً أن أسطول الثوار الجوى كله يتكون من طيارات إيطالية وألمـانية ، وأن ضباطه جميعاً من الايطاليين والألمـانيين ؛ وأن إيطاليا قد اتخذت من جزيرة ميورقة مركزاً لامداد الثورة الأسبانية وتموينها ، وأن الامدادات الألمانية تصل إلى الثوار من الشمال ، ومن الغرب بواسطة البرتغال التى تعمل أيضاً فى معاونة الثورة وإمدادها تحقيقاً لأطماع ومصالح خاصة ؛ وقد ترددت فوق ذلك إشاعة قوية بأن هنالك اتفاقاً سرياً بين الثوار وبين إيطاليا وألمـانيا والبرتغال ، يقضى بأن تأخذ إيطاليا جزر البليار ثمناً لمعاونتها ، وتأخذ ألمانيا جزر الكنارى ، وتأخذ البرتغال بعض الأراضى المجاورة لحدودها الشرقية ؛ وهو اتفاق لا يبعد صدوره من زعماء عسكريين يعملون بمال الأجنبى وسلاحه لسحق الحريات الشعبية فى بلادهم وإراقة دماء مواطنيهم على هذا النحو الذريع الذى تطالعنا به الأنباء كل يوم ؛ وهذا الاحتمال مما يثير اليوم فى فرنسا وانكلترا أشد الجزع ، لأن جزائر البليـار على مقربة من المياه الفرنسية وهى واقعة فى طريق الجزائر ، ولأن حلول إيطاليا بها يعرض سيادة انكلترا فى غرب البحر الأبيض

ومواصلاتها الامبراطورية من طريق جبل طارق إلى أشد الأخطار

على أن تدخل الدول الفاشستية فى الحوادث الأسبانية على هذا النحو كان له رد فعل مماثل ؛ فقد رأت روسيا السوفيتية من جانبها أن تقاوم نفوذ الفاشستية فى أسبانيا بمعاونة الحكومة الجمهورية ، وقد قابلت المثل بارسال السلاح والذخائر والطائرات إلى حكومة مدريد ، وقد ظهر أثر هذه المعاونة أخيراً بثبات الجنود الجمهوريين وانقلابهم إلى الهجوم فى كثير من المواقع حول مدريد ؛ ولهذا التدخل الثنائى فى الحوادث الأسبانية قصة دولية مضحكة ، فقد اقترحت فرنسا فى بدء نشوب الحرب الأهلية الأسبانية على الدول أن تتبع إزاءها سياسة الحياد المطلق ، ووافقت على هذا الرأى انكلترا وألمانيا وإيطاليا وروسيا والبرتغال ، وأنشئت لجنة عدم التدخل لتراقب تنفيذ هذه السياسة المشتركة ولكن الدول الفاشستية كانت تعبث منذ الساعة الأولى بمبدأ الحياد ، وكانت روسيا تقابلها بالمثل ، وقد اشتركت فرنسا أيضاً فى معاونة حكومة مدريد ولكن بشكل مستتر ؛ فلما ظهر أن الدولة الفاشستية تمادى فى معاونة الثورة ، رفعت روسيا القناع أيضاً وأنذرت أنها تستأنف كل حريتها فى العمل إذا لم تقم الدول الأخرى ، أعنى ألمانيا وإيطاليا ، بالكف عن مساعدة الثوار ؛ والآن تبدو مساعدة روسيا لحكومة مدريد بشكل واضح وتتقاطر السفن الروسية من البحر الأسود إلى مياه برشلونة وبلنسية واليقنت مشحونة بالذخائر والمؤن ، وقد يتطور الموقف إلى أشد من ذلك ، وقد يفضى هذا التدخل المزدوج غير بعيد إلى مصادمات وحوادث لا تؤمن عواقبها على السلام الأوربى

لقد غدت الفاشستية مصدر الخطر على سلام أوربا ، وكانت البلشفية قبل عامين مصدر هذا الخطر العام ، ولكن روسيا السوفيتية رأت فى النهاية أنها لا تستطيع أن تبقى فى عزلتها الخطرة خصوصاً بعد أن استعادت ألمانيا جيشها وتسليحاتها فى ظل الفاشستية الهتلرية ، فانضمت إلى جبهة الدول الغربية ، وعقدت مع فرنسا الميثاق الشهير الذى اتخذته ألمانيا ذريعة لنقض جميع تعهداتها العسكرية فى معاهدة الصلح ؛ وقد حل الخطر الفاشستى الآن فى تهديد سلام أوربا محل الخطر البلشفى ؛ وقوام هذا الخطر مطامع ألمانيا وإيطاليا العسكرية والاستعمارية ؛ وقد رأت روسيا أن قيام دولة فاشستية جديدة فى أسبانيا مما يقوى جبهة الدول الفاشستية ضدها ، فرأت أن تخوض المعركة فى أسبانيا ضد التدخل الفاشستى ، وأن تعاون حكومة مدريد ما استطاعت لأن فى فوزها فوزاً للجبهة الديموقراطية التى اندمجت فيها روسيا

فالمعركة التى تضطرم الآن فى أسبانيا هى معركة مبادئ تذكيها المصالح والمطامع السياسية والعسكرية ؛ وهى مظهر محلى لتلك المعركة العامة التى تضطرم فى أوربا بين الجبهتين الخصيمتين ؛ ومن الخطر على سلام أوربا وعلى حريات الأمم الضعيفة أن تنتصر هذه الثورة الفاشستية ؛ وربما كان انتصارها نذير حرب أوربية إذا لم تنجح أوربا فى حصر هذه الشعلة المضطرمة داخل أسبانيا ؛ بيد أن المعركة ستستمر حيناً آخر ، وقد تتغير مصاير الحرب بين آونة وأخرى ، فتحرز الجمهورية الأسبانية نصرها الحاسم ، وتتحطم مشاريع الدول الفاشستية ، وينجو السلام الأوربى مما يتهدده من الأخطار

(...)

من النيل ... الى الرافدين

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

حينما قيل لى فى وزارة المعارف : إنك ممن اختيروا للانتداب للتـدريس فى مدارس العراق ، أحسست أن واجبا ينادينى ويطلب التلبية مهما كانت لجأة النقلة ووعثاء السفر ولوعة الفرقة للأهل والوطن . . . تحقيقاً للثقـة العراقية فى السمعة المصرية التى رفع الله ذكرها فى الشرق العربى الاسلامى ، ووفاء لناشئة العراق ببعض ما لأجدادهم على العقلية العربية العامة من دَيْن المجد والدين والعلم ... وإيغالا بالجسم فى صميم الشرق ... وملأً للنفس من روحه الذى أومن بسره وسحره . . وتوثيقا للعلائق بين البلدان العربية التى ما يبزغ فجر يوم جـديد إلا وفيه أمل مشرق بوحدتها التى يرسم القلم الأعلى حدودها ، وينسج الزمان بنودها ، ويصنع جنودها

***

وانطلق الجسم من حدود الأرض التى له فيها تاريخ وأطوار . . إلى الأرض التى للروح والعقل فيها أشواق وأوطار ! فقد عاشا فى ميرانها ، وقبسا من هداها للجنان واللسان ، واعتزا بفتوح أقلامها وسيوفها ، فهما منها على غير نُكْر

واستدبرت السـفينة شاطىء الوطن الذى فى ترابه أبى ، وعلى ترابه أمى ، فأحسست شعور الانفصال له وقدة على كبدى!

وسارت الفلك واحتواها الماء الذى قامت على عبريه بواكير الحضارات ، وذابت فى عبابه دولات ، فقرأناه كـكلمة خالدة فى التاريخ ، وعبرناه كقطرة فى محيط الطبيعة

وأقبل الليل ونحن على موج نرى جهاد السـفينة فيه ، والتقاء الظلام به ، وإشراق النجوم عليه ، فاذا القلب خافق صريع بسحر هذه الأكوان الثـلاثة التى فى كل منها محراب لعبادة الجمال الأعلى

وتنفس الصبح على صفحة البحر فاذا لون من بهجة الحياة يشيع فى النفس فتود لو أن الفَـلَك والفُـلك وقفا فلا يرعـان ! ولاح حاجب الشمس من صوب فلسطين الثائرة ضد البطش والدس ، فاذا بالعيون تشخص والخيال يطوف فى بطون الوديان وقنن الجبال ، فلا يرى إلا ثائرا رابضاً وراء صخرة ، أو طائراً يقذف « بالبَيْـض » مصارعَ ، أو شِلوا فى فم ذئب ، أو عينا فى منقار طير ، أو طراداً عنيفاً بين قوة جبارة تعتمد على حذق الجديد من أساليب الحرب ، وبين مقاومة صلبة فدائية تعتمد على الحق وامداد الايمان ؛ فسألنا الشمس أم الحياة أن تشرق بالأمل على قلوب أبناء عمومتنا ، وأن تنضح مضاجع الشهداء بالشعاع المسكوب !

ثم أوفت بنا السفينة الى بيروت وقد مال ميزان النهار الى الغروب ، فلاحت « الحمراء » فى سفح لبنان كغادة نائمة فى حضن جبار . فودعنا البحر واستجممنا قليلاً ، ثم اجتزنا لبنان فى طريق كسير الأفقى فلم نر منه غـير جماله النائم ، وعهدى به منذ ثلاث سنين فى ضحوة النهار ، أرض الفتنة والسحر لبنان والخلد اختـراع الله لم يوسم بأجمل منهما ملكوته

وزلنا دمشق عرش أميـة الفاتحة الماهدة لدولات العرب طريق الحضارة والاسـتقرار فى الوطن الـكبير ، فما رأينا منها إلا كما يرى النظر الطائر من مدينة تتثاءب لهجعة الليل . وما هى إلا بقية من سواد قضيناها فى فندق أمية حتى غدونا مصبحين مسرعين الى سيارات الصحراء . . وهكذا خرجنا من الفيحاء من غير أن نرى أفراحها ومباهجها لاسترداد حريتها واستقبال وفدها ، ومن غـير أن نحج الى مناسك جهادها وأعلام تاريخها

***

فلما جاوزنا أرباض المدينة ، وابتدأت صفرة الصحراء تطغى على خضرة الزرع ، أخذت أجمع نفسى وأرهف حسى لأستقبل المجهول الذى طالمـا تاقت الروح إلى اختراق غيوبه وهتك حجابه حتى ترى ما فيه من صور الصمت والهول والوحشة ، ونستلهم سماءه بعض المعانى التى فتقت ألسنة آبائنا بهذه الألفاظ البدوية الواعية لمـا أتت به الحضارات والمترجمة عن خلجات النفس ودقائق الأحاسيس

وهنا ابتدأ شعور مفاجىء لا تاريخ له فى قلبى ، فحلق البصر وتفرس فى ذلك الرحب ليرى ظلال الأجناد والأحداث التى قلب بها القـدر أوضاع الأرض بأيدى محمد وأبى بكر وعمر ، وطغيان الموجات العربية فى فترات التاريخ ، وولادة الجزيرة ،

واحتضان العراق والشام ومصر لما تلد ؛ ثم انحسرت هذه النظرة الأولى وارتدت تستنشد اللسان قول لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع !

* * *

ثم احتدمت الهاجرة ، والتهب الهواء ، والتمع السراب ، وبرزت الصحراء الحمراء عارية تحت عين الشمس ، ونحن فيها « كركب من الجن في زي ناس » فوق مركب « يملأ الآفاق صوتاً وصدى » فتصطف له أرواح الصحراء ترى ، فى عجب ، سحر الحياة الجديدة !

وفى خطفة من خطفات الروح تلفت القلب صوب الجنوب فرأى المدينتين الغريقتين فى أمواج الرمال تتحديان بصمتهما وعزلتهما ضجة الدنيا بالشهوات ، وسعارها بالآفات ، فحييتهما تحية القدوم على أقرب الحدود لهما ، وأخذت الطمأنينة والسلام لنفسى منهما . . .

وفى مغرب الشمس وافينا « الرطبة » أول محطة عراقية ، فكان أول صوت رن فى آذاننا صوت الحاكى يغنى أغانى من « دموع الحب » فى مقهى هناك وقد التف حوله السمار فى إنصات وطرب . فتلنا ها هى ذى مصر تسبقنا إلى العراق ، فلا وحشة ولا اغتراب . ثم وجدنا من البشاشة لنا والأنس بنا ما أنسانا أننا فى صحراء تبعد عن مصر بأربعين ساعة بالوسائل السريعة !

وما غشى الليل وحبك الظلام حتى واصلنا السير فكنا فى الصحراء كسر فى ضمير حليم ! وجعلنا نسرح الطرف من خلال زجاج السيارة وقد غشيه الغبار فلا نرى غير نجوم وهنانة سأمانة من طول الوقوف على هذا الديموم

وجاءت سكرة النوم فهمدت الأجساد ونام كل « على نفسه » فى مجلسه ، واستراحت المقل من التصويب والتصعيد فى الأفق البعيد ، وهكذا نمنا على دوى الرحى . . . ولم يوقظنا إلا وقوفها فى « الرمادى » فى الهزيع الأخير . . . فألممنا بها للتأشير على جوازات السفر . . . ثم وصل ما انقطع . . . اطراد السير والنوم حتى نرد بغداد مع الصباح . .

* * *

« هذه هى بغداد أيها الركب ؟ » هكذا قال الصبح الوليد . . . فسحت جفونى ، وجعلت أتلفت عن شمالى ويمينى لأرى مدخل دار السلام . . . المدينة التى احتضنت نتاج مكة ويثرب ودمشق وأثينا وروما والمدائن والاسكندرية ، وزاوجت بين ألوانه ، ومزجت ثقافاته حتى رأت الدنيا من تفاعلها عالماً جديداً غريباً . . . !

المدينة التى اضطلعت بالوصاية على ميراث الدين والعلم فى زمن الجهل فربا فى أيدى بنيها المثالين لأجناس الناس وأديانهم وألوانهم ، فجمعوا خلاصة ما فى الانسانية من تسامح وتلاق على المعنى الموحد والرأى المجتمع

المدينة التى كان الحج اليها واجبا على من كان يريد أن يتملى من دنيا القرون الوسطى فى عظمة ملوكها وبطولة قوادها وفحولة علمائها وبلاغة صناع الكلام بها وضجة سوامرها بالأنشاد ، ورنين الكؤوس ، وضحك المجان ، وعزف القيان . . .

ومهما يكن من عبث الزمان بها وتقلب الأحداث عليها ، وتبدل المشاهد فيها ، فان أطياف الماضى لا تزال تخايل أمام العيون التى تعرفت اليها فى دنيا الكتب وصحائف الآثار . والذين يجدون فى أنفسهم قدرة على ذكرى الأضواء والألوان لا يستطيعون أن يمروا على تراب كتراب بغداد ، وقد ضم بين معادنه أشعة سقطت من أمجاد تاريخهم وعرش دينهم وعلمهم . . دون أن يتفرسوا بين طياته ، ونحن قلوبهم الى الالتصاق بذراته !

* * *

وبعد . فان ما رأيناه من حفاوة إخواننا العراقيين حكومة وشعبا بنا ، وتقديرهم الجميل لجهود المصريين فى المعاونة على تنفيذ سياسة الانشاء والتعمير ، وثقتهم فيهم حتى لقد أسلموا إليهم أعز شىء فى الدولة وهو نفوس الناشئين ، ووقوفهم على الدقيق والجليل من شؤون مصر . . وامتلاء دورهم ونواديهم بأغانى مصر فى المذياع والحاكى . . . كل أولئك مما يجعل الأمل يوشك أن يكون يقيناً بأن الشرق العربى قادم على عهد من وحدة النزع ومجابهة الحياة فى صفوف يجمعها نظام موحد وإن اختلفت أوضاعها فى الميدان العام

وإنه ليسرنى الى ما يقارب الفخر . . . أن تكون مهمتى فى مصر والعراق من أمس المهمات باعداد العقلية العامة فى الناشئين لهذه الحال الموموقة والتوسيد لها . . وأنعم بها من رسالة لمعلم !

(كوت العمارة) عبد المنعم محمد خلاف

في الأدب المقارن

أثر الفنون

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تختلف الفنون في مجالاتها وبعض وسائلها : فللشعر من القدرة على وصف الحركة وتناول الأشياء المتباعدة في الزمان والمكان ما ليس للتصوير ، ولهذا من القدرة على بيان دقائق الموصوف وتحديد ماهيته ما يعوز الشعر ؛ ولكن الفنون تتفق جميعاً في غايتها التي هي التعبير عن تأثر الانسان بروائع الحياة وشغفه بجمالها ، وفي كثير من وسائلها التي تتصل بطبائع الانسان وميوله : كالتناسب والتماثل والتكرار في الشكل أو في النغمة أو في الروي ، والتقابل والتضاد في كل أولئك

فالفنون على تعددها مظاهر شتى لصفة إنسانية واحدة ، هي رَهَفُ الشعور وحب الجمال . ولا يخلو المبرِّز في أحد الفنون من بَصَرٍ بسائرها وإن قل ، وحب لها يعلو على حب الفرد العادي . وكثيراً ما جمع الفنان الموهوب بين فنون عديدة ببرع فيها جميعاً ؛ وقد نبتت الموسيقى والشعر والرقص بين الجماعات الأولية من أصل واحد ونَمَتْ حتى استقل كل منها . وكان الشعر في بدئه موسيقى عجماء وصيحات غنائيـة غير ذات معنى ، ثم داخلها المعنى تافهاً في أول أمره ، وما زال يتعاظم شأنه حتى احتل المكانة الأولى في الشعر ، وإن لم تفقد الموسيقى أهميتها في رصانة القصيد ، فأي شعر خلا منها قصر عن أوج الكمال مهما سما معناه

وقد مارس العرب والانجليز تلك الفنون الثلاثة : الموسيقى والرقص والشعر ، منـذ عهودهم الأولى ، وارتقت موسيقاهم بمخالطة الأمم الأخرى : فأخذ العرب عن الفرس ، والانجليز عن الايطاليين خاصة والفرنسيين ما لم يكونوا يعرفون من أصوات الموسـيقى وآلاتها ومصطلحاتها وبان أثر ذلك في أدبهم . وأبدع أمثلة لشعر الغناء والرقص في الانجليزية قصائد ملتون التي نظمها قبل انغماره في حركة المطهرين . وممن تغنى من شعراء الانجليزية بتأثير الموسيقى والغناء دريدن في قصيدته « مأدبة الاسكندر » ، وكولنز في قصيدته « المواطف »

وبذلك تغنىَّ أيضاً شـعراء العربية ، بل بلغ انكبابهم على غشيان مجالس الغناء والرقص حداً بعيداً ، بعد أن انتشر الترف عقب الفتوح ، حتى كاد شعر كثير منهم ، كبشار وأبي نواس ، ينقسم إلى بابين رئيسيين : المدح الذي يُطاب من ورائه المـال الوفير ، والتغني بمجالس اللهو والطرب التي يُنفق فيها ذلك المال . ومن جيِّد ما قيل في وصف المغنيات وآلات الموسيقى قول ابن الرومي :

وقيان كأنهـا أمهات ... عاطفات على بنيها حوان
كل طفل يدعى بأسماء شتى ... بين عود ومِزْهَرٍ وكران
أمه دهرَها تترجم عنـه ... وهو بادى الغنى عن الترجمان
ذات صوت تهزه كيف شاءت ... مثلما هزت الصَّبا غصنَ بان

وقوله في راقصة :

إذا هي قامت في الشفوف أضاءها
سناها فشفَّتْ عن سبيكة سابكِ

وارتقى بين الأمتين حين تحضرتا فن العمارة ، وقامت في بلادهما بيوت الملك والعبادة ، والحصون والمعاقل ، وتأثر فن العمارة في كلتيهما تأثراً كبيراً بالطراز القوطي ، واسترعت الأدباء تلك المباني الضخمة والحصون المشيدة ، تروع الناظر بفخامتها ، ويعجب اللب من مغالبتها كر السنين ومصاحبتها جيلا من الناس بعـد جيل ؛ وشغل شعراء العربيـة خاصة بوصف قصور الملوك ، وما حَوَتْ من ضروب الزخرف . ولفتت أذهانَ شعراء الانجليزية وكتَّابها القصور والبروج المتخلفة من عصور الاقطاع تلك التي تجيش بذكريات الماضي والتي شهدت مصارعات الأمراء ومحنهم في غياباتها . وكانت لكثير من الأدباء مواقف بالـكنائس والـكتدرائيات ، ولا سيما وستمنستر أبي التي تمج رحابها بآثار الماضي

ووصلت يد كل من الأمتين إلى تراث اليونان ، فاختلف موقفاهما : فأما الانجليز فلم يتركوا شاردة ولا واردة من آثار

ثقافة اليونان وفنونهم إلا تزودوا منها ، فأحدث اطلاعهم على روايات سوفوكليس وأوربيدس انقلاباً فى « رواية المعجزات » التى ترعرعت فى الكنيسة فى العصور الوسطى ، فانتقلت إلى تصوير طبائع النفس الانسانية ، أى صارت فناً ؛ وأخذ الانجليز عن اليونان وتلامذتهم الطليان النحت والتصوير . وكانت بلاد اليونان وإيطاليا وما تزالان محج رجال الفنون الانجليز من شعراء ومصورين ونحاتين وموسيقيين ، وكانت صورهم وتماثيلهم وماتزال وحياً ونماذج لفنانى الانجليز ؛ وأنجبت إنجلترا عدداً عديداً من نوابغ المصورين والمثالين جاروْا أساتذتهم من أهل القارة فى مجالات النحت والتصوير ، كما جاروهم فى مضمار الأدب

وظهرت آثار تلك الفنون فى الأدب الانجليزى : فالتمثيل صار باباً من أبواب الأدب له خطره ، وتوفر عليه أكثر نوابغ العصر الاليزابثى وكثير ممن تلاهم . والصور والتماثيل التى أبدعها رجال الفن الانجليز أمثال رينولدز وكنستبل وترنر ، والأجانب أمثال رافائيل ودورر وفانديك ، وسير أولئك النوابغ ، صار كل ذلك مجالاً لتأمل الشعراء والكتاب ، ومهبطاً لآثار أخرى فى عالم الأدب لا تقل مكانة عن تلك الآثار فى عالم النحت والتصوير ؛ وصرف بعض الأدباء همهم إلى نقد أعمال المصورين والنحاتين والمثلين ، ومن أولئك هازلت ورسكن ، وإلى الأخير يرجع الفضل فى إظهار المصور ترنر

وقد قضى كيتس وشلى وبيرون وبروننج وهاردى ردحاً طويلاً أو قصيراً من أعمارهم فى إيطاليا ، حيث استطابوا مناظر الطبيعة وتفيأوا ظلال آثار الرومان واستلهموا بدائع المصورين والمثالين الطليان ، بين رومة وفلورنسة والبندقية ، وقضى الشاعران الأولان نحبهما هناك ، ودفنا فى أرباض تلك المعاهد التى ألِفاها حيَّيْن . وبين أطلال رومة نبتت فكرة عمل من أكبر أعمال النثر الفنى فى الانجليزية ، ألا وهو تاريخ جيبون عن انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها ، فهو يحدثنا فى مذكراته أن الرغبة فى وضع مؤلَّفه عنَّت له أثناء تجواله هناك بين آثار الوثنية ومعالم النصرانية

ولم تقتصر الصلة بين الأدب وغيره من الفنون على اقتباسه منها واستلهامه إياها ، بل حدث العكس : إذ عمد أعلام تلك الفنون إلى الأدب يطلبون الوحى وينشدون النماذج ، فوجدوا فى روايات شكسبير المديدة ، ومناظرها الكثيرة ، وشخصياتها الحية ، ومواقفها الحافلة بشتى العواطف ، وفى خرائد ملتون المملوءة بالأوصاف والصور والحالات النفسية ، وفى روائع تنيسون وبروننج المنسوجة من أشتات الخرافات البديعة ، منادح لفنهم ومسرى لخيالهم . والمتاحف الانجليزية ملأى بتلك الآثار المنتزعة من قصائد الشعراء . كصور ليدى شيلوت ، وأوفيليا ، والحسناء القاسية

وكان من شعراء الانجليزية المعدودين من ضربوا بسهم فى الفنون الأخرى ، واشتهروا بها اشتهارهم بصناعة القلم : فشكسبير كان ممثلاً كما كان شاعراً ومؤلفاً للمسرح ، ووليم موريس كان مصوراً وشاعراً ، وروزيتى ألَّف جماعة « ما قبل الرافائيليين » التى كانت لها مبادئها فى التصوير ، كما كان لها مذهبها فى الأدب ؛ وأكثر من هؤلاء من لم تدركهم الشهرة فى غير الأدب من الفنون ، وإن كانوا شديدى الولع بها ، شديدى الشغف بممارستها والتثقف فيها

وهكذا أصبح من غير النادر فى الانجليزية أن ترى الأسطورة أو القصة التاريخية ، كوقائع يوليسيز ومخاطرات فرسان المائدة المستديرة . وقد تناولها الشاعر والممثل والمصور والنحات كل من ناحيته مستقلاً بنظرته ، أو معتمداً على الآخرين ، مستلهماً محاسنها ومغازيها ، مبرزاً من صورها وأفكارها ما يلائم فنه ويجرى فى مجال صنعته ، نافثاً فيها من خلاصة تفكيره وعصارة شعوره واتجاهات عصره ما يزيدها جدة وروعة

هذا التواصل والتجاوب والتعاون المستمر بين الفنون زاد الأدب الانجليزى خصباً على خصب أفسح أمامه أغراض القول ، وزاد رجاله بصراً بحقائق الفن وغاياته ووسائله ، واعتقاداً بوحدة الفنون جميعاً وتلاقيها فى الوسائل والغايات ؛ فحرصوا فى نثرهم ونظمهم على صدق النظرة وصحة الشعور ونشدان الجمال ، واستعاروا وسائل الموسيقار والمصور والممثل والنحات ، فاهتموا بالأوصاف الجميلة للطبيعة والانسان ، واعتنوا بتوضيحها وإبرازها ، متوسلين لتصوير المعنى بجرس اللفظ ومناسبة التعبير واختيار القوافى . وتصرفوا فى الوزن والروى بما يلائم الحالة الموصوفة من سكون

أو حركة ، وفرح أو حزن ، وقوة أو لطف : وتأنقوا فى صوغ الحوار بين أبطال قصائدهم ، معبراً حوارهم عن منازعهم ؛ فاذا قرأت القصيدة القصيرة أو الطويلة لأحدهم ، لم تجدك حيال معان ذهنية متزاحمة ، بل رأيت صوراً محكمة التصوير ، وموسيقى مطربة النغمات ، وأشخاصاً ممتلئين حياة وقوة وألواناً وظلالا

ولم يغفل الشعراء الذين مجدوا الفنون الأخرى ذلك التمجيد عن فنهم الخاص : فنظم پوپ وكيتس وتنيسون وغيرهم من الأعلام قصائد غراء فى الشعر والشعراء . وللتون وماثيو أرنولد أشعار فى شكسبير تفيض إعجاباً وتقديساً ، ولوردزورث وتنيسون وأبر كرومبى الشاعر المعاصر فى ذكرى ملتون أشعار كهذه . وكان هاردى لا يعل ذكر شلى وتعظيمه فى قصيده ؛ وكانت لشعراء الأمم الأخرى لدى شعراء الانجليز منزلة كهذه ، فأشعارهم ملأى بمحاكاة الشعراء الأقدمين كهوميروس وڤرچيل ودانتى والخيام ، والمحدثين كشيلر وجيته وهيجو ، وترجمتهم والتحدث عنهم ، لأن الفن يجمعهم طراً فى صعيد واحد ، ويمحو بينهم فوارق الزمان والمكان

وما أعظم الفرق بين هذا الاعجاب النبيل بمتقدمى الشعراء ، وبين ما نراه فى العربية من وثوب بعض الشعراء ببعض ، ووقوع حماد فى بشار ، وحملة ابن الرومى على البحترى ، وحقد دعبل على الطائى ؛ أذهلهم التناحر على متاع الدنيا عن الصلة السامية التى يصلهم بها الفن ؛ وقد نعلم أن البحترى كان يقدم أبا تمام ، وأن المعرى كان يعظم أبا الطيب ، ولكن ذلك التقدير لم يتخذ شكلا فنيا ، ولم يبرز فى عالم الشعر قصيداً رائعاً يفيض بتقديس الفن وتبجيل رجاله . وبينما كان ذلك التحاقد ديدن شعراء العربية فيما بينهم كان جهلهم بشعراء الأمم الأخرى مطبقا

لقد حجب العرب عن تلك العوالم الفنية إعراضهم عن تراث اليونان الفنى ، ودعاهم إلى ذلك الأعراض تمكن الملكة البيانية منهم ؛ تمكنت من نفوسهم فى البادية ، حيث لا تتوفر أدوات فن من الفنون سوى فن البيان الذى لا يحتاج إلى أدوات غير صفاء الذهن وطلاقة اللسان ، وقوى اعتداد العرب بتلك الملكة وتوفرهم عليها نزول القرآن الكريم الذى زادهم كلفا بالفصاحة ، وكان دائماً أساس ثقافتهم التى يؤخذون بها من الصغر . فالانجليز اتصلوا بتراث اليونان وهم بعد مقصرون دون جميع غايات الثقافة ، فاغترفوا من جميع مناهله ؛ ولم يتصل العرب به وبغيره من تراث الأمم إلا بعد أن توطد أدبهم وتمكن سلطانه من نفوسهم ، فشمخوا به على سائر الآداب ، واستغنوا به عن كل الفنون

لذلك لم يحفل العرب بالتمثيل ، ولم يزدهر بينهم التصوير والنحت ، ولم يتعديا حدود الصناعة ذات الغرض المادى إلى حدود الفن السامى الذى هو غاية نفسه ، واقتصروا من التصوير والزخرفة والنحت على ما كان يزين قصور كبرائهم من تهاويل ودمى قليلة الحظ من الفن ، لا تحمل وراءها من المعانى السامية ما تحمله الصور والتماثيل الفنية ؛ واستبد الأدب بالتعبير عن أسمى مشاعر العرب وأرقى أفكارهم . وإذا تذكرنا أن الفنين الآخرين سالفى الذكر ـ الوسيقى والرقص ـ لم يتخلصا من ربقة المادية وشبهة الشهوات إلى عوالم الفن المتسامى بالنفوس ، وظلا دائماً مقرونين بالشراب والقصف وخلع العذار ، تبين لنا أن الأدب كان فنَّ العرب الفرد ، وأن الشعر ظل ديوانهم فى مختلف عصورهم ، أودعوه حوارهم فاستغنوا عن التمثيل ، وأوصافهم فاستغنوا عن التصوير ، وأمداحهم فقام مقام التماثيل

ومن ثم نرى أثر فنون التمثيل والتصوير والنحت فى الأدب العربى ضئيلاً : فلم يكن بين العرب ممارسون لتلك الفنون ينعكس ظل فنونهم فى الأدب ؛ ولم يكن لدى أدباء العربية كبير اهتمام بمخلفات الأمم السالفة فى مشارق دولتهم ومغاربها . ومن القليل الجيد الذى نظموه فى تلك المناحى سينية البحترى التى يصف فيها نقوش إيوان كسرى ، ورائية ابن حمديس التى يصف فيها تماثيل الأسود فى بعض القصور ، وسينية أبى نواس التى يصف عرَضاً فى أثنائها تصاوير كأسه فى قوله :

قرارتها كسرى وفى جنباتها مهاً تدَّريها بالقسى الفوارس
فللخمر ما زُرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

وقول بعض شعراء الأندلس فى تمثال امرأة وولدها :

ودمية مرمر تزهو بجيد تناهى فى التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألَمَّتْ بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجَرٌ ولكن تتيمنا بألحاظ مراض

ولا تخلو كل هذه الشواهد من آيات البراعة وحسن الملاحظة

والوصف ، حتى ليأسى المرء على أن لم يول العرب هذه المناحي من القول اهتماماً أكثر مما أولوها . وسينية البحتري مَثَلٌ شرود من أمثلة الشعور الصادق والعاطفة الانسانية والروح الفنيـة في الأدب العربي ؛ وأعجب من تفردها في الأدب العربي صدورها عن البحتري الذي سخَّر بيانه للمدح والهجاء . وقد كان نقاد العرب يطربون لهـذه الأشعار الفنية الجميلة ، البعيدة عن آثار المدح والهجاء والنسيب المتكلف ، فقد أعجب الجاحظ وغيره بسينيتي البحتري وأبي نواس سالفتي الذكر ، وعدوهما من ذخائر الشعر العربي ، ولـكن دواعي مثل هذا النظم كانت نادرة ، وتيار محاكاة السابقين كان يدفع الأدباء في غير هذا الاتجاه

فالأمتان العربية والانجليزية تتفقان في ظهور الأدب فيهما على سائر الفنون واجتـذابه أغلب نوابغهما ، واشتهارهما بالسبق فيه بين الأمم ، فان الانجليز وإن جاروا الأوربيين في مجالات النحت والتصوير لم يبلغوا شأوهم كما بلغوا الشأو والغاية في صناعتي الشعر والنثر ، ولم ينجبوا من أعلام النحت والتصوير من توازي مكانته العالمية مكانة شكسبير وملتون وبيرون ؛ ولـكن تفترق الأمتان في أنه بينما مارس الانجليز الفنون الأخرى وهاموا بها ومجدوا آثار الأمم الأخرى فيها أهمل العرب الفنون الأخرى إهمالاً يكاد يكون تاما ، فلم تجتذب اهتمام نوابغهم ومثقفيهم ، وظل ما عرفوه منها أدنى إلى الصناعات منه إلى الفنون ، وظل الأدب — ولا سيما الشعر — يشـغل في عالم الفن والوجدان مكاناً عالياً وسلطة مطلقة فردية بين العرب ، كسلطة الخلفاء والأمراء المستبدة في عالم السياسة ، متوحداً بالافصاح عن أفكارهم مستأثراً برعايتهم وإجلالهم

وقد خسر الأدب العربي بتفرده هذا الشيء الـكثير ، لأن الفن الواحد لا ينمو خير نموه بعزلتـه ، بل بمواصلته الفنون الأخرى ؛ خسر ما كان ينتظر أن تمده به تلك الفنون من إلهامات ومنادح للقول ، وما كان ينتظر أن تبثه في رجاله من فهم دقيق للفن وسمو غايته وتعاليه عن المـادة وبُعد مراميه ، وما توحيه إليهم من وسائل للتعبير والتصوير والملاءمة بين المعنى واللفظ ، وجعل الأخير دائماً خادما للأول . وبالجملة خسر الأدب معاونة الفنون التي استأثر بالمكانة دونها ، كما خسر مساعدة الآداب الأجنبية التي ترفَّع عنها

فخري أبو السعود

صـــــديق !

للأستاذ علي الطنطاوي

أستأذن أستاذنا المازني فأستعير منه تلك الـكليشيه المعهودة التي كان يصدر بها مقالات ذات الثوب الأرجواني ، لأقول : إن المقالة خيالية لا حقيقية ، وأؤكد هـذا للقراء !

(علي)

قال :

... لا أدري كيف عرفته ، ولا أعلم السبيل التي دخل منها إلى قلبي ؛ فاحتل فيه هذه المنزلة ، ولم أنتبه له إلا وهو ملء سمعي وبصري وعقلي ...

وإنني لأعرفه منذ عشرين يوما ، ولـكني أحاول عبثاً حين أحاول ادكار بدايتي معه ، لأنه عماد حياتي ؛ لا أستطيع أن أتصور لصلتي به بداية ؛ عرفته يوم عرفت الدنيا ؛ لم أجهله قط ولم أنفرد عنه ساعة ؛ وهو دنياي ، إن لقيته لقيت الحياة ، وإن نأى عني وجدت كل شيء في الحياة ميتا

ولست أدري أي صلة هذه ، ولا أعرف لها تحديداً مضبوطاً ، ولـكن الذي أدريه وأعرفه أنه ليس له في أعماق قلبي إلا الصداقة . إنني لم أنظر إلا إلى روحه ، بل أنا لا أقدر أبداً أن أتخيله بشراً من لحم ودم . إنني أراه فكرة سامية ، صورة شعرية بارعة ، معنى من المعاني العبقرية ... إنني أراه وحده معنى كلمـة الوجود ... لقد ضاعت معه حدود شخصيتي ، ومحيت معالمها ، فلم أعد أعرف أين أنتهي (أنا) ، وأين يبدأ (هو) ، وامتزجت نفسي بنفسـه ، فكأني (أنا من أهوى ومن أهوى أنا . . .) ، وكدت أقول بالحلول ، وأرتكب هذه الحماقة الـكبرى ، التي لا يقول بها ذو عقل . . . حين رأيتني أضحك إذا سر (هو) ، وأحزن إذا تألم ، وأشبع إذا أكل ، وإذا أصابه الصّداع وجعني رأسه ، وإذا رأى (هو) حلماً هنيئاً تبسمت وأنا غارقٌ في منامي ، أجد اللذة الـكبرى في رفاهيته وراحته ، وآلم لشقائه أكثر مما آلم لشقائي ، وأريد أن أمنحه صحتي وحياتي وكل ما أملك ؛ أريد أن أفنى فيه ولا أجد في شيء من ذلك عملاً كبيراً ، ولا أحس أني مقدم على تضحية ، لأنه اندمج في أعمق عاطفة من عواطفي ، ونزل إلى

أبعد غور من نفسى ، وسيطر على قواى كلها ، فلم يبق لى عاطفة مستقلة أو حاسة حرة أفكر بها فيه ، وأزن صلتى به . . .

* * *

اختلف نظرى الى الحياة ، وتبدلت المشاهد فى عينى ، فكأن الدنيا كانت فى ظلام ، حتى طلع فى سمائها بدراً منيراً فأصبحت أرى كل شىء جميلاً فى بصرى : هذا السطح المشرف على الفضاء الرحيب ، سطح دارنا فى «الأعظمية» ، وهذا النخيل الممتد الى غير ما نهاية ، وبغداد التى تلوح منائرها وقبابها كأنها معلقة فى السماء حيال الأفق ، ودجلة التى تبدو من خلال الأغصان لامعة كصفحة المرآة المجلوة تشق عبابها الزوارق ، تتمايل شُرُعها البيض مع نسيم المساء الناعش الخفيف ، والبدر الذى طلع من الشرق يبدو منه حاجب ويختفى حاجب وراء نقاب من الغيوم ... وهذا الطريق الذى لم تمتد اليه يد الحكومة بالتعبيد فبقى على فطرته وجماله لم تشوهه كفّ الانسان ، يظهر تارة ، ويلتوى تارات ، ويضيع بين النخيل ويضل الطريق ... والفلاحين الذين يرجعون إلى دورهم حين تعود الشمس الى خدرها ، ويزدحمون على هذا الطريق الشمرى الضيق ، هم ودوابهم ومواشيهم تطنطن الأجراس فى أعناقها والقطمان يسوقها الرعاة الذين تنكبوا عصيهم ثم ساروا وراءها يزمرون أو يغنون ، وهؤلاء الأطفال من تلاميذ المدارس الذين يلعبون فى هذه الرحبة ، يتقاذفون الكرة يتصايحون ويتراكضون ، فاذا أمسك أحدهم بها ضربها برجله فانطلقت تشق الفضاء كأنها القنبلة ، ووقف الصبية صامتين قد علقوا أنفاسهم وتبعتها عيونهم ، تبصر مسيرها ، فاذا هبطت واستقرت على الأرض عادوا يركضون ويصيحون

أصبحت أرى كل شىء جميلاً فى عينى حبيباً إلىّ : الفلاحين الآوين الى بيوتهم ، والأطفال العاكفين على كرتهم ، والدواب والمواشى ... وأسمع فى كل صوت أغنية عذبة ، أسمعها فى حفيف الأوراق ، وزقزقة العصافير ، ونباح الكلاب ، ودوى الرعد ... وأرى الجمال فى ظلام الليل الدامس ، كما أراه فى صفحة البدر المنير ، وأبصره فى الصحراء القفرة ، كما أبصره فى الروضة المزهرة ، وأسمعه فى صفير الرياح المرعب ، كما أسمعه فى تغريد البلبل المطرب ، وألمسه فى الخريف كما ألمسه فى الربيع ؛ بل إنى لأعجب من هؤلاء النظامين المتشاعرين الذين يسميهم الناس شعراء ، كيف يعمون عن صفحة الكون ، ثم يذهبون فيحدقون فى صفحات الكتب ، وينظرون فيها بالمجهر : هؤلاء المقلدين الذين يظنون أن الخريف معناه الوحشة أبداً والموت والكآبة ، وأن معنى الربيع الأنس دائماً والبهجة والسرور ، كأن العواطف البشرية تسير على التقويم الفلكى ، وتدور مع الأيام ... فليس على الشاعر إلا أن ينظر فى التقويم حتى يرى أيوم حزن هو ، أم يوم سرور ؟! وكأن فى وجه الأديب زجاجتى فوتوغراف لا تريان إلا ما فى الوجود ، لا عينى إنسان يحس ويشعر

أين إذن عاطفة الشاعر ؟ وهل يرى الشاعر الحزين اليائس ربيعاً مشرقاً جميلاً ؟ ألا يرى فى الربيع الوحشة والكآبة والحزن ؟ وهل يشعر المسلول القانط بجمال الزهر ؟ والشاعر الفرح ؟ ألا يرى فى الشتاء وفى الخريف جمالاً وبهجة ، ويبصر فيهما ورداً وزهراً ؟

إن فى شعر هؤلاء المتشاعرين المقلدين كل شىء إلا الحياة ، إلا العاطفة ، إلا الروح . هو شعر ميت ، تمثال حسناء ، ولكنه من الشمع !

* * *

لقد ظهر هذا الصديق فجأة فى طريقى ، فملك علىّ أمرى ، وأخذ بيدى فسلك بى طريقاً جديدة ، حتى نأى بى عن الناس فأصبحت لا أرى فى الدنيا غيره ، ولا أبصر سواه ، وصبّ فى نفسى عزيمة وقوة ، فأحسست بالنشاط فى جسمى وروحى ، ودفعنى إلى أداء الواجب على ، فوقّيته على وجهه ، وساقنى فى سبيل الاستقامة والشرف ، وسما بى عن (الأنانية) والاستئثار فأضحيت أشفق حتى على أعدائى المخاصمين ، وأعطف حتى على المجرمين والساقطين ؛ وفتح لى مغاليق هذا الكون ، فاذا وراء هذه المظاهر دنيا من الجمال والجلال والسحر والفتون ، وإذا حيال هذه الدنيا دنيا أكبر ، وأحفل بالكائنات ، هى فى نفسى ، فرأيت وأبصرت ونعمت وانتفعت ...

* * *

لقد دفعتنى هذه الصداقة إلى الصلة بربى ، والقيام بواجبى ، والتعلق بأهلى ، فلست أريد بعدها شيئاً ، فخذوا الدنيا كلها ، حسبى أنى أخذت منها صديقاً

(بغداد)

على الطنطاوى

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الالمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الجزء الأول

مستهل زرادشت

— ١ —

لمـا بلغ زارا الثلاثين من عمره ، هجر وطنه وبحيرته وسار إلى الجبل حيث أقام عشر سنوات يتمتع بعزلته وتفكيره إلى أن تبدلت سريرته ، فنهض يوماً من رقاده مع انبثاق الفجر وانتصب أمام الشمس يناجيها قائلاً :

— لو لم يكن لشعاعك من يُنير ، أ كان لك غبطةٌ ، أيها الكوكب العظيم ؟ منذ عشر سنوات مابرحت تشرق على كهفى ، فلولاى ولولا نسرى وأفعاى ، لكنت مللت أنوارك وسئمت ذرع هذا السبيل ، ولكننا كنا نترقب بزوغك كل صباح لنتمتع بفيضك ونرسل بركتنا إليك . أصغ إلىّ ، لقد كرهت نفسى حكمتى كالنحلة أتخمها ماجمعت ، فمن لى بالأكف تنبسط أمامى لأهب وأغدق إلى أن يغتبط الحكماءُ من الناس بجنونهم ويسعد الفقراء منهم بثروتهم

تلك هى الأمنية التى تهيب بى للجنوح إلى الأعناق ، كما تجنح أنت كل مساء منحدراً وراء البحار حاملاً إشعاعك إلى الشقة السفلى من العالم ، أيها الكوكب الطافح بالكنوز

لقد وجب علىّ أن أتوارى أسوة بك ، وجب علىّ أن أرقد على حد تعبير الأناسىّ الذين أهفو إليهم

باركنى ، إذن ، أيها الكوكب ، فأنت المقلة المطمئنة التى يسعها أن تشهد مالايحد من السعادة دون أن تختلج كمقلة الحاسدين

بارك الكأس الدهاق تسكب سلسبيلاً مذهّباً ينثر على الآفاق وهجاً من مسراتك .

أنظر ! إن هذه الكأس تريد أن تندفق ثانية ، ويريد زارا أن يعود إنساناً

وهكذا بدأ جنوح زارا إلى المغيب

— ٢ —

وانحدر زارا من الجبال فما لقى أحداً حتى بلغ الغاب حيث انتصب أمامه شيخٌ خرج من كوخه بغتةً ليفتش عن بعض الجذور والأعشاب ، فقال الشيخ :

— ليس هذا الرحّالة غريباً عن ذاكرتى ، لقد اجتاز هذا المكان منذ عشر سنوات ، ولكنه اليوم غيره بالأمس

لقد كنتَ تحمل رمادك فى ذلك الحين إلى الجبل ، يا زارا ، فهل أنت تحمل الآن نارك إلى الوادى ؟ أفما تحاذر يا هذا أن ينزل بك عقاب من يضرم النار ؟

لقد عرفت زارا ، هذه عينه الصافية ، وليس على شفتيه للاشمئزاز أثر ؛ أفما تراه يتقدم بخطوات الراقصين ؟

لقد تبدلت هيئة زارا ، إذ رجع بنفسه إلى طفولته . لقد استيقظت يا زارا فماذا أنت فاعل قرب النائمين

كنت تعيش فى العزلة كمن يعوم فى بحر والبحر يحمل أثقاله ، وأراك الآن تتجه إلى اليابسة ، أفتريد الاستغناء عمن حملك لتسحب هامتك على الأرض بنفسك ؟

فأجاب زارا : إننى أُحب الناس

فقال الشيخ الحكيم : إننى ما طلبتُ العزلةَ واتجهتُ إلى الغاب إلا لاستغراقى فى حبهم . أما الآن فقد حولت حبى إلى الله ، وما الانسان فى نظرى إلا كائن ناقص ، فاذا ما أحببته قتلنى حبه

فأجاب زارا : ومن يصف لك الحب الآن ! إننى لا أقصد الناس إلا لأنفحهم بالهدايا

فقال الحكيم القديس : إياك أن تعطيهم شيئاً ، والأجدر بك أن تأخذ منهم ما تساعدهم على حمله ، ذلك أجدى لهم على أن تنعم سهمك من هذا الخير ، وإذا كان لا بد لك من العطاء فلا تمنح الناس إلا صدقة على أن يتقدموا اليك مستجدين أولاً

فأجاب زارا : أنا لا أتصدق ، إذ لم أبلغ من الفقر ما يجيز لى أن أكون من المتصدقين

فضحك القديس مستهزئاً وقال : حاول جهدك إذن إقناعهم بقبول كنوزك ، إنهم يحاذرون المنعزلين عن العالم ، ولا يصدقون بأننا نأتيهم بالهبات ؛ إن لخطوات الناسك فى الشارع وقعاً مستغرباً فى آذان الناس . إنهم ليجفلون على

مراقدهم إذ يسمعونها فيتساءلون : إلى أين يزحف هذا اللص ؟! لا تقترب من هؤلاء الناس . لا تبارح مقامك فى الغاب ، فالأجدر بك أن تعود إلى مراتع الحيوان ، أفلا رضيك أن تكون مثلى دباً بين الدببة وطيراً بين الأطيار ؟

فسأل زارا : وما هو عمل القديس فى هذا الغاب ؟

فأجاب القديس : إننى أنظم الأناشيد لأترنم بها ، فأرانى حمدت الله إذ أسر نجواى فيها بين الضحك والبكاء ، لأننى بالانشاد والبكاء والضحك والمناجاة أسبح الله ربى ، ومع هذا ، فما هى الهدية التى تحملها الينا ؟

فانحنى زارا مسلما وقال للقديس : أى شىء أعطيك ؟ دعنى أذهب عنك مسرعا كيلا آخذ منك شيئاً

وهكذا افترقا وهما يضحكان كأنهما طفلان

وعندما انفرد زارا قال فى نفسه :

— إنه لأمر جد مستغرب ، ألما يسمع هذا الشيخ فى غابه أن الالـه قد مات(١)

— ٣ —

وإذ وصل زارا إلى المدينـة المجاورة ، وهى أقرب المدن إلى الغاب ، رأى الساحة مكتظة بخلق كثير أعلنوا من قبل أن بهلواناً سيقوم هنالك بالألعاب ، فوقف زارا فى الحشـــد يخطبه قائلاً :

— إننى آت اليكم بنبأ الانسان المتفوق ، فما الانسان العادى إلا كائن يجب أن نفوقه ، فماذا أعددتم للتفوق عليه ؟

إن كلا من الـكائنات أوجد من نفسه شيئاً يفوقه ، وأنتم تريدون أن تكونوا جزراً يصد الموجة الـكبرى فى مدها ؛ بل إنكم تؤثرون التقهقر إلى حالة الحيوان بدل اندفاعكم للتفوق على الانسان . وهل القرد من الانسان إلا سخريته وعاره ؟ لقد اتجهتم على طريق مبدؤها الدودة ومنتهاها الانسان ، غير أنكم أبقيتم على جل ما تتصف ديدان الأرض به . لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى ؛ على أن الانسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود فى قرديته

ليس أوفركم حكمة إلا كائن مشوش لا يمت بنسبه إلى أصل صريح ، فهو مزيج من النبات والأشباح ، وما أدعو الانسان ليتحول إلى شبح أو إلى نبات

لقد أتيتكم بنبأ الانسان المتفوق

إنه من الأرض كالمعنى من المبنى ، فلتتجه إرادتكم إلى جعل الانسان المتفوق معنى لهذه الأرض وروحاً لها

أتوسل اليكم ، أيها الأخوة بأن تحتفظوا للأرض باخلاصكم فلا تصدقوا من يعنونكم بآمال تتعالى فوقها ؛ إنهم يعللونكم بالمحال فيدسون لـكم السم ، سواء أجهلوا أم عرفوا ما يعملون ، أولئك هم المزدرون للحياة ، لقد رعى السم أحشاءهم فهم يحتضرون ؛ لقد تعبت الأرض منهم فليقلعوا عنها

لقد كانت الروح تنظر فيما مضى إلى الجسد نظرة الاحتقار فلم يكن حينذاك من مجد يطاول عظمة هذا الاحتقار . لقد كانت الروح تتمنى الجسد ناحلاً قبيحاً جائعاً متوهمة أنها تتمكن بذلك من الانعتاق منه ومن الأرض التى يدب عليها . وما كانت تلك الروح إلا على مثال ما تشتهى لجسدها ناحلة قبيحة جائعـة ، تتوهم أن أقصى لذتها إنما يكمن فى قسوتها وإرغامها

أفليست روحكم ، أيها الأخوة ، مثل هذه الروح ؟ أفما تعان لـكم أجسادكم عنها أنها مسكنة وقذارة وأنها غرور يسترعى الاشفاق ؟

والحق ما الانسان إلا غدير دنس ، وليس إلا لمن أصبح محيطاً أن يقتبل انصباب مثل هذا الغدير فى عبابه دون أن يتدنس

تعلموا من هو الانسان المتفوق

إن هو إلا ذلك المحيط تغرقون احتقاركم فى أغواره

وهل تتوقعون بلوغ معجزة أعظم من هذه المعجزة ؟

لقد آن للاحتقار أن يبلغ أشده فيكم ، بعـد أن استحال شرفـكم ذاته كما استحالت عقولـكم وفضائلكم إلى كره واشمئزاز

لقد آن لـكم أن تقولوا : ما يهمنى شرفى ، وما هو إلا مسكنة وقذارة وغرور ، فى حين أن على الشرف أن يبرر الحياة نفسها

لقـد آن لـكم أن تقولوا : ما تهمنى القوى العاقلة فى ، إذا لم تطلب الحـكمة بجوع الأسد ، وما هى الآن إلا مسكنة وقذارة وغرور

لقد آن لـكم أن تقولوا : ما تهمنى فضيلتى فانها لما تصل بى

---

(١) راجع المقدمة فى العدد الماضى من الرسالة

تاريخ العـــرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

المستشرق الانجليزي

المدخل لتاريخ العرب

– ٣ –

هـ – من الفتح المغولى الى اليوم (من ١٢٥٨ –)

انتهى عصر الخلافة بسقوط بغداد عام ١٢٥٨ م فى يد المغول الرحّل الذين كانوا تحت زعامة هولاكو . وما كادوا يتقدّمون إلى الأمام حتى صدهم المماليك المصريون وردوهم على أعقابهم إلى فارس التى اعتنقوا فيها الاسلام بعد زهاء خمسين عاماً ، أما الخانات خلفاء هولاكو فقد حكموا فى فارس

ثم أغار على آسيا الغربيــة فريق من البرابرة بقيادة تيمور واندفعوا كالأتىّ المزبد ، ونشروا الفساد والفوضى فى ربوعها (١٣٨٠ – ١٤٠٥ م) وإذ ذاك تفــككت رابطة الاسلام من الناحية السياسية . وفى هذه الفوضى الضاربة بأجرانها نشأت ثلاث أمبراطوريات اسلامية . فى سـنة ١٣٥٨ عبر الأتراك العثمانيون البسفور ودخلوا القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، حتى إذا كان عام ١٥١٧ دخلت فى حوزتهم سورية ومصر وبلاد العرب وأصبحت فارس مملـكة مستقلة تحت حكم الصفويين (١٥٠٢ – ١٧٣٦) بينما أسس بابُر وهو من ولد تيمور – امبراطورية التتار العظمى والهند ، وظلت قوية الشوكة تحت خلفائه وخاصة أكبر وأورنجزيب (١٥٢٥ – ١٧٠٧)

أما الحوادث السياسية التى أجملناها آنفاً فسنعالجها بالتفصيل فى صلب هذا الـكتاب ؛ على حين أن غيرها لن يكون نصيبه منا سوى الاشارة الموجزة والنظرة العابرة . ولمـا كانت الآراء التى انتشرت فى الأدب العربى شديدة الارتباط بتاريخ الناس ولاسبيل الى فهمها بعيداً عن الحوادث الخارجية التى نشأت فيها ، فقد وجدت نفسى مضطراً إلى الأسهاب فى بعض النواحى التاريخية حتى يتبين القارىء الحقائق المهمة من وجهة نظرنا الخاصة . كما سيرى أن ليس من إطناب فى الـكلام عن العصور المتقدّمة السابقة (٥٠٠ – ٧٥٠ م) .خاصة إذا علم أن هذه تعد محور التاريخ العربى ومركزه . وقد بلغت الحضارة الاسلامية أقصى شأوها خلال القرنين التاليين لهذا التاريخ وإن أخذ العرب يتراجعون إلى الوراء سريعاً . وقد طمس الهجوم التتارى – فى الغالب – معالم حياتهم الأهلية وإن ظلوا متمسكين فى سورية ومصر تحت الحكم التركى بأهـداب ثقافتهم كما نراهم يستميتون فى الـكفاح باسبانيا ضد النصرانية . وفى أيام ازدهار الدولة العباسية كان أثر العرب الخلص Pur sang فى الأدب الذى حمل اسمهم ضئيلاً قياسـياً ؛ ولم ألتزم جادّة القياس الوطنى وإلا استثنيت جميع الأجانب والمولدين الذين كتبوا بالعربيــــة . أما الفرس الذين ألفوا حتى يومنا هـــذا استعمال الضاد فى كتاباتهم الدينيــة أو الفلسفية فيمكن القول بأن عملهم لا يصور تاريخ الفكر العربى ؛ ومن ثم كان من الضرورى دراستها معاً كى نصـل إلى الغاية المقصودة . ولـكن ما ذا يكون موقفنا إزاء هؤلاء المؤلفـين الـكثيرين الذائعى الصيت الذين ليسوا عرباً أقحاحا ولا فرساً خالصين ، بل هم مزيج من الجنسين . أترانا نسترجع أنسابهم ونحاول أن نزن أى دم الجنسين أرجح كفة ؟ إن مثل هذه المحاولة يطول أمدها ، وليس من ورائها جدوى . والمؤكد أنه بعــد العصر الأموى لا يستطاع وضع حد فاصل صحيح بين العناصر الأهلية والأجنبية الموجودة فى الأدب العربى ، فقد امتزج كل منها

إلى الاستغراق ، وقد أتعبنى خيرى وشرى ، وماهما إلا مسكنةٌ وقذارةٌ وغرور

لقد آن لـكم أن تقولوا : ما يهمنى عدلى ، إن العادل يقدح شرراً ولمـا أشتعل

لقد آن لـكم أن تقولوا : ما تهمنى رحمتى ، أفليست الرحمةُ صليباً يُسمَّر عليه من يحب البشر . ورحمتى لما ترفعنى على الصليب

أقلتم مثل هذا وناديتم به ؟ ليتنى سمعتكم تهتفون بمثله !

إن ما يرفع عقيرته على السماء إن هو إلا غروركم لاخطاياكم ، إن هو إلا حرصكم حتى فى خطاياكم

أين هو اللهب الذى يمتد اليكم ليطهركم ؟ أين هو الجنون الذى يجب أن يستولى عليكم ؟

هأنذا أنبئكم عن الانسان المتفوق

إن هو إلا ذلك اللهب وذلك الجنون

(يتبع) **فليكس فارس**

بالآخر امتزاجاً قويا . وإذا كان لا بد من التمييز بينهما إلى أبعد حد مستطاع ، فلابد لنا من اتباع طريقة ضيقة واهية فى عرض التاريخ الأدبى إذا أصررنا على اعتبار كل منهما منفصلاً عن الآخر

الفصل الأول

سبأ وحمير

قد يمكن القول بأن تاريخ العرب يبدأ عما نعرفه عن أهل سبأ ، ولكن كخطوة تمهيدية ينبغى لنا أن نلمّ ببعض الأجناس التى تعرض علينا صورها فى الأساطير والقصص ، والتى يعتبرها المؤرخون المسلمون السكان الأصليين للبلاد . ومن بين هؤلاء قوم عاد وثمود ، أولئك الذين طالما ورد ذكرهم فى القرآن مثلاً للكبرياء والجبروت اللذين أديا بهم إلى التهلكة . وكان موطن « عاد » أرض حضرموت التى تتاخم بلاد اليمن على حدود الصحراء المسماة بالأحقاف . ولا يستطاع الجزم أهم من الجنس السامى من سلالة الآراميين الذين أخضعهم وأبادهم الغزاة المغيرون على بلادهم من الشمال أم أنهم — كما يقرّر هومل [(١)] — يمثلو ثقافة غير سامية خلفت إرم ذات العماد [(٢)] ، تلك الجنة الأرضية التى بناها « شدّاد » أحد ملوكهم . وإن قصّة هلاكهم لتروى على النمط التالى [(٣)] : ذلك أنهم كانوا جبارين ضخام الأجسام ، يعبدون الأصنام ويقترفون شتى الموبقات ، فلما بعث الله فيهم نبيّه « هودا » نصح لهم أن يتوبوا عما اقترفوه من الآثام فقالوا له : (ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء [(٤)]) . ثم نزل قحط شديد بأرض عاد فأوسلوا بعض رءوسهم إلى مكة ليصلّوا عسى أن ينزل القطر ويستقوا ، وإذ بلغت رسلهم مكة لقيهم أمير العمالقة « معاوية بن بكر » بالبشر والترحاب ، ومدّ لهم الموائد ، فشربوا الخمر ودارت بالدفوف جاريتان ذواتا غناء شجى تسمّيان بالجرادتين ، فألهاهم ذلك عما جاءوا من أجله شهراً كاملاً ، فلما حان وقت أوبتهم قام أحدهم ليصلّى ، فلم يكد ينتهى من صلاته حتى حلّقت فى السماء ثلاث سحابات مختلفة الألوان إحداها حمراء والثانية بيضاء والثالثة دكناء ، ثم رنّ صوت من خلف السموات يقول « يا قيل : اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب » فاختار الرسل السوداء ظناً منهم أنها تعج بالماء ، وأنها أكثر السحاب فيضا ، وحينذاك أنشد الصوت :

« خذها رماداً رمددا   لا تدع من عاد أحدا
لا والداً تترك ولا ولدا   إلا جعلته همدا »

ثم ساق الآله السحابة السوداء حتى حوّمت فوق أرض عاد فانبعثت منها إذ ذاك ريح صرصر عاتية أفنت الناس جميعاً إلا فئة [(١)] قليلة لبّت نداء هود وأجابته إلى دعوته ونبذت عبادة الأوثان . وإذ ذاك ظهر بطبيعة الحال وعلى ممر الزمن شعب آخر يدعى بقوم عاد الثانية وكان مقره اليمن فى مملكة سبأ ؛ وإن السد العظيم سدّ مأرب لينسب إلى ملكهم لقمان بن عاد الذى تحاك حوله طائفة من الخرافات ، وكان يكنى بذى النسور إذ أوحى إليه أنه سيعمر ويفنى سبعة أنسر كلما مات واحد خلا إلى آخر

وفى شمال بلاد العرب بين الحجاز وسورية سكن قوم ثمود الذين ورد ذكرهم فى القرآن [(٢)] بأنهم كانوا يسكنون مغارات نحتوها فى الجبال . ولا شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يجهل طبيعة هذه البيوت المنحوتة فى الصخور ، والتى لا تزال آثارها قائمة فى الحجر (مدائن صالح) على مسيرة أسبوع من شمال المدينة ، والتى تدل عليها النقوش النبطية [(٣)] التى عثر عليها فى القبور . وقد أخطأت ثمود كما أخطأت عاد من قبل . وتشابهت النهايتان ، فهزأت ثمود من نبيها صالح وأبت أن تطيعه أو يأتى بمعجزة خارقة ، فأطلع لهم صالح من الصخر ناقة ضخمة وفصيلها ، وأمر ثمود ألا تمس بسوء ؛ بيد أن أحد الأئمة الأشرار واسمه « قُدار الأحمر » عقرها وذبحها (فأخذتهمُ الرّجفةُ فأصبحُوا فى دارِهِمْ جاثِمِين) وصارت [(٤)] العرب تقول لكل من باء بجرم كبير ، وحظ أغبر « أنكد حظاً من عاقر الناقة أوأحمر ثمود » وينبغى أن نشير إلى أن ديودور الصقلى وبطليموس

(١) Die Namen der Säugethiere bei den Südsemitischen Völkern , P. 343 seq

(٢) راجع تفسير الطبرى ج ١ ص ٢٣١ ، وما كتبه O. Loth فى Z. D. M. G. فى المجلد ٣٥ ص ٦٢٦ وما يليها

(٣) راجع تاريخ الطبرى ج ١ ص ٢٣١ والسور رقم ٧ ، ١١ ، ٢٦ ، ٤٦ من القرآن

(٤) سورة هود : ٥٢ ، ٥٤

(١) هذه الفئة القليلة التى أشار اليها المؤلف هى بنو اللوذية الذين ذكرهم الطبرى فقال « ... إلاجعلته همداً ، إلا بنى اللوذية المهدى » (المترجم)

(٢) يشير المؤلف إلى قوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون من الجبال بيوتاً) (المترجم)

(٣) Doughty : Documents epigraphiques recueillis dans le nord de l'Arabie, P. 12 suiv

(٤) إشارة إلى قوله تعالى (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب الله) (المترجم)

قد أشارا إلى وجود آل ثمود ، أما قوم عاد فلا نجد لهم أثراً يذكر في العصور التاريخية ، على حين أن ثمود قد عاشوا حتى القرن الخامس الميلادى ، وكان أباطرة الدولة البيزنطية يستخدمونهم كفرسان ثموديين Equites Thamudeni فى جيوشهم

وبجانب عاد وثمود نرى العمالقة مدرجين بين أهل الفترة ، وقد جاء فى علم الآثار العربية الاسلامية ما ينبىء عن وجود عدة أقوام سلفوا فى عصر بعيد ، كالكنعانيين والفلسطينيين . وإنا لنسمع أن مقر العمالقة كان فى تهامة مكة ، وفى بعض أنحاء أخرى من شبه الجزيرة . ويجب أن نشير أخيراً إلى قبيلتى طسم وجديس اللتين لم يدوّن عنهما شىء إلا حقيقة هلاكهما ، والدواعى التى أدت إلى ذلك . وإن القصص الخرافية التى أشارت إليهما لا تخلو من لذة بالنسبة لوجودهم فى المجتمع العربى القديم

* * *

أما تاريخ القحطانيين[1] — أو عرب الجنوب — قبـــل الاسلام فهو تاريخ شعبين : السبأى والحميرى اللذين خلّفا زعماء الامبراطورية العربية الجنوبية التى امتدت من البحر الأحمر حتى الخليج الفارسى . وسبأ (أو شبا كما هى فى العهد القديم) تستعمل خطأً إذا قُصِد بها كل بلاد اليمن Arabria Felix ، على حين لم تكن سوى إقليم منها وإن كانت بلا جدال أقوى شكيمة وأعظم أهمية من كل الممالك والأقاليم التى ورد ذكرها فى كتابات الأغريق والرومان القدامى ؛ ومهما بولغ فى عظمتها وثراها فمن المحقق أن سبأ هذه كانت ذات مركز تجارى ممتاز قبـل ظهور المسيح بعدّة قرون[1] . « ولقد قامت السفن منذ زمن بعيد تمخر عباب المياه بين موانى بلاد العرب الشرقية وبين الهند محمَّلة بالبضائع ، وكانت منتجات الأخيرة وخاصة الطيب والبخور والحيوانات النادرة (كالقردة والطواويس) تنقل إلى ساحل

(١) فيما يتعلق بالنقوش السبئية والعربية الجنوبية يمكن للقارىء أن يقرأ ما سيكتبه J. Tkatsch فى مقالة « صنعاء » بدائرة معارف الاسلام ففيها معلومات قيمة ، ويشير الكاتب فيها إلى أهمية المكتشفات الخطية التى أماط اللثام عنها F. Glaser الذى جمع فى خلال أربع رحلات(٨٨٢ — ١٨٨٤) ما ينيف على ٢٠٠٠ مخطوط . راجع أيضا :
P. Nielsen: Handbuch der Altaranbisehen Altertumskunde. Vol, I (Copenhagen and Paris 1927)

(١) إن أقدم وثيقة تاريخية يمكن الاشارة اليها وجدت مكتوبة بالخط المسمارى الأشورى وتقرأ فى تاريخ الملك سرجون ٧١٥ ق . م . « لقد استلمت جزية فرعون ملك مصر وشمسية ملكة بلاد العرب وأثمرة السبأى من الذهب والطيب والعبيد والخيل والابل » وأثمرة مرادفة ليثمر وهو لفظ تسمى به كثير من ملوك سبأ

عمان ؛ ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد كانت لهم دراية بالخليج الفارسى حيث كانوا ييممون شطر مصر يبيعون لفراعنتها وأمرائها بضائعهم ، وقد كانت صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر سبباً فى تفضيل الطريق البرى للتجارة بين اليمن وسورية . وكانت القوافل تقوم من « شبوت » فى حضرموت وتذهب إلى مأرب عاصمة سبأ ، ثم تتجه شمالاً إلى مكُـرَبة (مكة فيما بعد) وتظل فى طريقها من بترا حتى غزة المطلة على البحر الأبيض المتوسط[1] »

وظل رخاء السبئيين قائماً حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلك عبر البحار على طول شواطىء حضرموت وخلال مضيق باب المندب ، وكانت نتيجة هذا التغير — الذى يظهر أنه حدث فى القرن الأول للميلاد — أن أخـذت قوتهم تتضعضع شيئاً فشيئاً ، كما أن جزءاً كبيراً من السكان اضطر للبحث عن مساكن جـديدة فى الشمال ، ومن ثم أقفرت مدنهم ونضبت العيون المائية ، وسنرى حالاً ، كيف بلورت القصة العربية نتيجة انحطاطهم الهائل فى حقيقة واحدة تلك هى انفجار سد مأرب

وإن انحاء السبئيين قد أخلى الطريق لظهور جماعة من نفس الجنس يسمون بالحميريين أوكما يسميهم المؤلفون القدامى Homeritœ وتقع بلادهم بين سبأ والبحر ، وتحت حكم ملوكهم المعروفين بالتبابعة أصبحوا قوة يرهب جانبها فى الجنوب من بلاد العرب . وظل عظم نفوذهم — ولو ظاهرياً — على القبائل الشمالية حتى القرن الخامس بعد الميلاد حينما ثار الأخيرون تحت زعامة كليب ابن ربيعة ، وأزالوا قوة اليمن المسيطرة عليهم فى واقعـة تعرف بواقعة « خزازة »[2] ولم يفلح الحميريون كما أفلح السبئيون فان موقعهم البحرى جعلهم عرضة للغارات كما كان جدب البلاد من السكان مضعفاً لقوتهم الحربية . وقد قام الأحباش — وأصلهم من مستعمرى اليمن — بمحاولات عدة لتثبيت أقدامهم ، وكانوا يتخذون عادة حكاماً قد نفاهم أمراء وطنيون ، ومن أشهر الولاة الأحباش « ابرهة » الذى سنقص خبر مهاجمته الفاشلة لمكة فى موضعها الخاص ، وانتهى الأمر بأن وقعت امبراطورية حمير أخيراً تحت حكم فارس ولم تقم لها قومة سياسـية مدة قرن من الزمان قبل ظهور الاسلام

ترجمة حسن حبشى

(١) A. Müller : Der Islam in morgen und Abendland, P. 24

(٢) ومع ذلك فان نلدكه يقول (فى المعلقات الخمس Funr Mo'ollaqat ج ١ ص ٤٤) إن الأخبار التى تنبئ أن كليبا كان يقود فرسان ربيعة لمـ نزال قوى اليمن المتجمعة ليست تاريخية مطلقا

الفصل فى نبوة المتنبى

من شعره

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٢ —

وتوجد قصيدتان تنسبان الى المتنبى فى هذا العهد ، إحداهما قالها وهو بأرض نخلة ، وهى ديار بنى كلب الذين يقال إنه تنبأ فيهم وهى هذه القصيدة :

كم قتيلٍ كما قُتِلْتُ شهيدِ   ببياضِ الطُّلى ووَرد الخدودِ
وعيونِ المَها ولا كعيونٍ   فتكتْ بالمُتَيَّم المعمود
دَرَّ دَرُّ الصِّبا أأيامَ تجرِيرِ   ذيولى بدار أثلة عودى
عمْرَكَ الله هل رأيتَ بدورا   طلعتْ فى براقع وعقود
رامياتٍ بأسهم رِيشُها الهُدْبُ   تشق القلوبَ قبل الجلود
يَترَشَّفنَ من فمى رشفات   هُنَّ فيه أحلى من التوحيد
كلُّ خمصانةٍ أرقَّ من الخمر   بقلبٍ أقسى من الجلمود
ذَات فرعٍ كأنما ضرب العنبر   فيه بماء ورد وعود
حالكٍ كالغُدافِ جَثْلٍ دَجُوجٍ   أثيثٍ جَعْدٍ بلا تجعيد
تحمل المسْكَ عن غدائرها الرِّيحُ   وتَفترّ عن شتيتٍ برود
جمعتْ بين جسم أحمدَ والسُّقْمِ   وبين الجفون والتسهيد
هذه مهجتى لديك لَحِيْنى   فانقصى من عذابها أو فزيدى
أهل ما بى من الضنا بطلٌ صيد   بتصفيف طُرَّةٍ وبجيد
كلُّ شىء من الدماء حرام   شربهُ ما خلا دم العنقود
فاسقنيها فدًى لعينيك نفسى   من غزال وطارفى وتليدى
شيبُ رأسى وذلتى ونحولى   ودموعى على هواك شهودى
أىَّ يوم سررتنى بوصالٍ   لم تَرُعْنى ثلاثةً بصدود
ما مُقامى بأرض نخلةَ إلا   كمُقام المسيح بين اليهود
مفرشى صهوة الحصان ولكن   قميصى مسرودة من حديد
لأمةٌ فاضةٌ أضاةٌ دِلاصٌ   أحكمت نسجها يدا داود
أين فضلى إذا قنعتُ من الدهر   بعيش مُعجَّل التنكيد
ضاق صدرى وطال فى طلب الرزق   قيامى وقلّ عنه قعودى
أبداً أقطع البلاد ونجمى   فى نحوس وهمتى فى سعود
فلعلى مؤمِّلٌ بعض ما أبلغ   بالألطاف من عزيز حميد
لسرىٍّ لباسُهُ خشِنُ القطن   ومرْوِىُّ مرْوَ لِبس القرود
عش عزيزا أومت وأنت كريمٌ   بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوسُ الرِّماح أذهبُ للغيظ   وأشفى لغلِّ صدر الحقود
لا كما قد حييتَ غير حميد   وإذا متَّ متَّ غير فقيد
فاطلب العِزَّ فى لظًى وذر الذُّلَّ   ولو كان فى جنان الخلود
يقتلُ العاجز الجبان وقد يعجز   عن قطع بخنق المولود
ويُوَقى الفتى المخشُّ وقد خوَّض   فى ماء لبَّةِ الصنديد
لا بقومى شرفت بل شرفوا بى   وبنفسى فخرتُ لا بجدودى
وبهم فخر كل من نطق الضاد   وعوذُ الجانى وغوث الطريد
انْ أكن معجباً فعُجبُ عجيب   لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا تربُ الندى وربُّ القوافى   وسمامُ العدى وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله   غريبٌ كصالح فى ثمود

ويجب قبل أن ننظر فى هذه القصيدة من جهة اتفاقها مع دعوى النبوة التى تنسب إلى المتنبى ، أن ننبه إلى أن النبوة لا تتفق مع صناعة الشعر ، لأن الشعر العربى إلى ذلك الوقت كان صناعة أوزان وكلام ؛ ووظيفة النبوة أسمى من أن تتقيد بقيود الشعر ، أو تعنى عنايته بزخرف اللفظ ، أو تعتمد اعتماده على الخيال ، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى فى سورة يس : (وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين —) كما يشير إلى ذلك وإلى بعد النبوة مما كان يلابس الشعر من اللهو والعبث قوله صلى الله عليه وسلم : لما نشأت بغضت إلى الأوثان ، وبغض إلى الشعر ، ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمنى الله برسالته . قلت ليلة لغلام كان يرعى معى لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست لذلك فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى الا مس الشمس ، ولم أقض شيئاً . عرانى مرة أخرى مثل ذلك

وهذا كله لم يكن المتنبي ليجهله، وما كان له أن يقدم على دعوى النبوة معه . ولعل الذين نسبوا اليه هذه الدعوى قد شعروا بشيء من هذا حينما جعلوا له قرآنا يعارض به القرآن الكريم، لأنهم رأوا أن الشعر وحده لا يصح أن يستقل بأمر النبوة، أو لا يلتئم معها . ومن ذلك الذي نسبوه اليه وذكروا أنه زعم أنه قرآن أنزل عليه : والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار، امض على سننك، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين، فان الله قامع بك زيغ من ألحد في الدين، وضل عن السبيل

وكم يكون الشعر أبعد من وظيفة النبوة إذا كان صاحبه يتكسب به كصاحبنا المتنبي، فانه نشأ شاعراً مداحا يتكسب بشعره، ويسأل به، ومن هذا قصيدته في مدح محمد بن عبيد الله العلوي، ومطلعها :

أهلاً بدارٍ سباكَ أغيدُها ... أبعدُ ما بانَ عنكَ خردُها

وقد ذكر فيها أن ناقته حملته إلى هذا الممدوح :

إلى فتًى يُصدرُ الرماحَ وقد ... أنهلها في القلوب مُوردُها
له أيادٍ إليَّ سالفةٌ ... أعُدُّ منها ولا أُعَدِّدُها

ثم طفق يمدحه إلى أن قال :

وكم وكم نعمةٍ مُجلَّلةٍ ... ربيتها كان منك مولدُها
وكم وكم حاجةٍ سمحتَ بها ... أقربُ مني إليَّ موعدُها
ومكرمات مشت على قدم الـ ... ـبرِّ إلى منزلي تُرَدِّدُها
أقرَّ جلدي بها عليَّ فلا ... أقدرُ حتى المماتِ أجحدُها
فعد بها لا عدمتُها أبداً ... خيرُ صِلاتِ الكريم أعودُها

وقد عذله أبو سعيد المجيمري في ذلك العهد على تركه لقاء الملوك وامتداحهم، فقال له :

أبا سعيدٍ جَنِّبِ العتابا ... فرُبَّ رأى أخطأ الصوابا
فانهم قد أكثروا الحجّابا ... واستوقفوا لردّنا البوابا
وإن حدَّ الصارمِ القرضابا ... والذابلاتِ السُّمرَ والعرابا
ترفعُ فيما بيننا الحجابا

ولا شك أن طبقة الشعراء المتكسبين أدنى طبقات الشعراء نفوساً، وأبعدها عن الصلاح والتقوى، وهي طائفة تتخذ الشعر وسيلة لجمع المال، ولا يهمها في دنياه غيره، ولا تطمح نفوسها الى وظيفة كوظيفة النبوة تكلفها من الكمال الروحي ما ليس في طبيعتها

وإن هذه الحادثة لتدل على مقدار ما بلغ اليه المتنبي في ذلك قال : أذكر وقد وردت في صباي من الكوفة الى بغداد، فأخذت بجانب منديلي خمسة دراهم، وخرجت أمشي في أسواق بغداد، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي، فتقدمت اليه وقلت : بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ ؟ فقال بغير اكتراث : إذهب فليس هذا من أكلك، فتماسكت معه وقلت : يا هذا دع ما يغيظ واقصد الثمن، فقال ثمنها عشرة دراهم، فلشدة ما جبهني ما استطعت أن أخاطبه في المساومة، فوقفت حائراً، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل، وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً إلى داره، فوثب إليه صاحب البطاطيخ من الدكان ودعا له وقال : يا مولاي بطيخ باكور، باجازتك أحمله إلى البيت فقال الشيخ : ويحك بكم هذا ؟ قال بخمسة دراهم، قال بل بدرهمين، فباعه الخمسة بدرهمين وحملها إلى داره، وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل، فقلت له : يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك ! استَمْتَ علي في هذا البطيخ، وفعلت فعلتك التي فعلت، وكنت أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولاً ! فقال : أسكت . هذا يملك مائة ألف دينار، قال المتنبي : فعلمت أن الناس لا يكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار، وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار

(يتبع) عبد المتعال الصعيدي

من ديوان البغضاء

عقوق . . .

للأستاذ محمود محمد شاكر

ملْ بنا ، يا فؤادُ ! ننسى المودّا ت ، ونُلقى إلى العداوة حَبّاً
وتعالَىْ ! ياربة الأرقش الخدّا ع ، وارعى مابين جنبىّ خصبا
وجناحيك ، فانشرى وأظلّى بُقعـةً من مقابر الحب جربا
وامنعى نفثةَ الوفَا واحجبيها رُبَّ ذكرى أحيتْ مواتاً أجبّاً
وانظرى نظرةَ العُقاب إذا أبـــصر صيداً ، فرامه فاشرأبّا
وانفضى الناس نفضةَ الأسد المجْ روح أشلاء صيده والأزبا
وتعالَىْ ! أنا الصديق ، ويا أعـ جب من يجعل العداوة صحبا !
ولئن كان ما رعيت من الأضـ لاع جدباً ، فلن أسومكِ جدبا
واعلمى أننى تركتُ وفاء الـ حُب زُهداً ، ورمتُ فيك الحبا

* * *

هذه كفُّ خائضٍ غمراتِ الـ حب أبلى فيها بلاء صعبا
مستميتاً قد غالب الموت والحـ ب ونال الحياة كسباً وغصبا
تيك أنثى ! ودونها الآبدُ الطّـــاوى إذا ساور الفريسةَ وثْبا
يا لعينيك ... شبتاَ فى دمى النا رَ شُواظا ، يعبُّ فى الدم عبّاً
وبنانٍ أقسى من القِدِّ فى النفـ سِ ، وإن خلتُه بناناً رطبا

* * *

آهِ من غفلة ... إذا خطرت لى ملأتْنى غيظاً وحِقداً وحربا
قد رمتنى فى جاحمٍ يتلظّى فاذا مات أرّثْتـــه فشبّاً
أَوَفاء . . . لغادرٍ يتسـلى بعذابى! تبًّا – لذا الحب – تبّاً
الْمَحبّات تقتُـلُ القلب قتلاً والعداوات تُردف القلب قلبا
فتعالى ! يكن كمكركِ مكرى وأكن فى الحروب روعاً ورُعبا
لا تولىْ ، وتتركينى وحيداً ؛ لست أبغى بغير قُربك قربا
وانفثى فىَّ نفثةَ السّحر حتى أقهر الناسَ والأسودَ الغُلْبا
فألدُّ الأعداء من علّمتْهُ مِحَنُ الحب أن يعُق الحُبّا...

محمود محمد شاكر

الشاعر وسريره

للشاعر الحضرمى على أحمد با كثير

– ٣ –

تهللٌ يعـــــلو محياكا وبسمةٌ لائمة فاكا !
وفرحة خجلى عروسية تطلقها كالفجر عيناكا
وأى عطر منعش ، مؤسف هـذا الذى يحمل رُدناكا
قل ياسريرى ، أى شىء جرى أنساك شكواى وشكواكا ؟
أتاركى أنت بلا رحمة قد عوّدتنيها سجاياكا ؟

* * *

أشامتٌ بى أنت فى محنتى ؟ معاذ إخلاصك لى فى هوایْ
بالله حـدثنى عما جرى لعل فيـه مايسرّى أساى
ها هوذا يهمس — رؤيا محت بلواه ؛ ويلى ! أين ضلت رؤاى؟
جاءته طيفاً فى الكرى ماسحاً شكواه؛ ويلى! أين ولى كراى؟
رأى ، وعى ، لامس — ياليته يداى ، أو أذناى أو مقلتاى !

* * *

رق سريرى لى ، ورقت له حسناء مما قلتـه فيه !
مرّت يمناها على صـدره فانتعشت بيض أمانيـه !
لـكن قلبى الحى ... قلبى الذى يستنزف الرحمة داميه !
قلبى الذى يصرخ فى سره من ألم مرٍّ يقاسيه
لم يُلف قلباً من بنى آدم . . . يحنو عليـه أو يسليه !

* * *

إهنأ سريرى بالذى ناله جدُّك إذ أخطأنى الجدُّ
لست بغيرانَ ولا حاسدٍ يمنعنى — أن أحسد — الودُّ
ولى نصيبى بعـد فى كل ما حلّتك من أطيافها « هند »
لـكن كفًّا أنت قبّلتها أشتاق أن ألثمها بعد !
لعل أن يُطعمنى بعـدها : الثغر والعينان والخد !

* * *

ويلى عليها .. ! لـكأنى بها مقبـلة نحوك فى لطف

حاملة في ثغرها بسمة حائرة تبدو وتستخفى
كعائش (١) في جنةٍ وحده ... نازعه شوق إلى إلفِ ! !
ياليت شعرى : أنت مقصودها أم بك البائس — بالعطف ؟
فابنة حوّاء متى أظهرت فربُّها يعلم ما تخفى !

على أحمد باكثير

(١) قوله كعائش في جنة الخ . هذه الجملة تابعة لقوله بسمة

على النيل

بقلم العوضى الوكيل

وقفت على النيل الوديع عشية أطالع فى أمواجه ما أطالعُ
وأسمع من أمواجه لحن فتنةٍ ومعنى يُغشّيني ، وذكرى تتابع
كأنى اليها من قديم مُوجَّهٌ وكلّىَ إصغاءٌ ، وكلى مسامع
كأنى قبل الآن أسمعت مرة صداها ، له دفق وفيه تدافعُ
وماذاك إلا رمز ما أنا حالم به قبل أن تهتز منى الأضالع
وناجيت ماءَ النيل فى صمت راهب
بأسطورة الحب الذى لا يخادع
أيا نيل حدثنى فإنى عالم ولكن لسانى شاسٌ أو ممانع
علمت وكم معنى يدور بخاطرى
أضلته فى نفسى فيافٍ قواطع
لكم مرت الأجيال مجلى مُخبة عليك وإذ تبدو كأنك هاجع
وأنت الطهور الفرد فى هذه الدنى وفى قُدسك الأسمى معان تطالع
عليك هدوء الهازئين ، وربما يلوح لنفس فى الهدوء تواضع
أتلحظنى هيمان فى العيش سادراً قد انعدمت منى إليه الدوافع
وصرت أعيش اليوم للأهل وحدهم
فما أنا فى دنياى — ما عشت — طامع
أتلحظ دمعى وهو ينهلُّ مسبلا وأيْينُ شىء فىَّ هذى المدامع
أسير فلا أدرى لأية غاية أسير وتدعونى إلىَّ المواجع
خانقنا لندرى العيش وهو يضلنا كمن بت تثنيه وبات يُقاطع

***

أيا نيلُ قُصَّ السرَّ إنك عالمٌ
به من شباب الكون والكون يافِع
وحدِّثْ عن المجهولِ واكشف دفينه
فإنك نور فى الأحاسيس ساطعُ
وُبلَّ بنفسى غُلَّةً بعد غُلَّةٍ ولا تنس أنى عابد لك خاشع
تمل فؤادى فى غلاف من الشجى
وفيه جراحات ، وفيه مصادع

***

أيا شاهد الأدهار مرَّت بناسها كسبحة مرت عليها الأصابع
فأفنِيَ منها الناس ؛ والزمن الذى حواه تبقى لم تَضِرْهُ الفواجع
كسبحة يُستلُّ معدود حبِّها ويبقى بها الخيط الذى هو جامع

العوضى الوكيل

القصص

من صور الحياة

قصة مجرم

للآنسة نعيمة المغربي

انعقدت محكمة الجنايات للنظر فى قضايا مختلفة ومنها جناية قتل اتهم فيها فتى طيب الأحدوثة لم يسبق له الاجرام . وظهر من التحقيق أن الجناية لم تقع بقصد السرقة ، إذ أن خاتم القتيل الماسي وساعته الذهبية — وهو كهل غني — وأشياء أخر ذات قيمة لم يمسها القاتل ، مع أن المجال كان فسيحاً أمامه لسرقتها والاختفاء بها ، وإنما اكتفى القاتل بما فعل واللجوء إلى مسكنه الذى كان قريباً من محل الحادثة والذى كان يأوى إليه مع أمه المقعدة ، وقد قضت المسكينة نحبها حينما قبض الجند على ابنها من غلبة الخوف والرعب عليها

ذلك ملخص خبر الجناية التى شغلت أهل المدينة وخاصة سكان الحى الذى وقعت فيه الحادثة وكانت موضع سمرهم لا أسفاً على القتيل الذى عرف بعتوه وصلفه وشحه ، بل شفقة على القاتل الذى عرفوا فيه الفتى الحسن الخلق ، يكد ويشتغل لينفق على أمه البائسة التى لم يك لها من عائل سواه . لذلك كله امتازت هذه الجلسة بوفرة عدد المستمعين فيها ، وكلهم مشفقون على القاتل راثون له

ظهر فى قفص المتهمين شاب لا يتجاوز العشرين من عمره ، نحيل الجسم غائر العينين لا تظهر عليه علامة من تلك العلامات التى يمتاز بها المجرمون ، بل كان بادى الانكسار هادئ النظرات مستسلماً لخواطر تجول فى رأسه وأحاديث تهجس فى نفسه . وبعد سماع شهادة الشهود ومرافعة النيابة ومحامى الدفاع سأله الرئيس الأسئلة المعتادة التى تلقى على المتهمين وطلب منه إذا كان عنده ما يدافع به عن نفسه . وهنا أرهف المستمعون آذانهم وتطاولوا بأعناقهم حتى لا تفوتهم كلمة من قصة ذلك المجرم البائس قال :

إننى إذا سردت قصتى فأننى لا أسردها بنية الدفاع عن نفسى أو حباً فى الحياة فقد سئمت العيش واستولت على النفرة من الناس ، بل لتعلموا أننى فرد من أفراد المجتمع البشرى قدر عليه أن يعيش عيشة ضنك وشقاء ويحيا حياة مليئة بضروب الألم والعذاب ، وكنت فى ربيعى الثانى عشر حينما فُتحت عيناى على صورة من صور الحياة المؤلمة التى تركتنى أرزح تحت كلكلها وأصبحت حياتى بعدها جافة قاسية خالية من المباهج التى تساعد المرء على اجتياز ما قد يتخلل طريقه من حصى وأشواك

مات أبى وأنا صغير ، ولم يترك لنا أنا وأمى من حطام الدنيا سوى أساس عتيق بال فى مسكن صغير تداعت أركانه ، وتشققت سقوفه وجدرانه ، وكان ذلك المسكن لجار لنا غنى كنا نؤدى إليه أجرته من دون مطل أو تسويف . وكان أبى بنّاء يتناول فى يومه بضعة قروش يأتى بها إلينا وهو فرح مغتبط مع ما يحيط به من فاقة وبلاء . فيملأ البيت بهجة ورواء ، ويحوله إلى قصر من أوفر القصور سعادة وأعظمها هناء

وبالرغم من قدم العهد فانا أذكر ذلك اليوم الرهيب يوم أن عرفت أن ذلك الانسان الذى يستنزف قواه ليدفع عنا غائلة السغب والعرى قد أخرسه الموت ونام نومه الأبدى

ففى أمسية من أمسيات الشتاء الباردة ، وفى ليلة دجوجية الجناح غدافية الأديم ، كانت الريح صرصراً عاتية ، وكرات الجليد تتساقط على جوانب بيتنا المتداعى فيسمع لسقوطها صوت كأصوات الأرواح الهائمة . طرق الباب فدخل رجلان عاثلاننا فى الفاقة والبؤس يحملان جثة أبى مهشمة أو كتلة من لحم ودم . ولقد نسيت كيف مرت علينا تلك الليلة المشؤومة ، غير أننى أذكر أن جثمانه ظل مسجى طول اليوم التالى حتى شعر بذلك من لم

تخل قلوبهم من عناصر الرحمة والشفقة فأمدونا بقليل من المال جهزنا به فقيدنا وأودعناه مرقده الأخير . ومما زاد لوعتنا أن الطبيب الذى قام بفحص الجثة قرر أنه كان مريضاً بعلة القلب فلم يستطع احتمال العمل المجهد تحت حر الشمس فى أعلى البناء فأصابه دوار عرضه للسقوط والموت السريع . وكأن ذلك الأب الشفيق كان يخفى علته هذه عن أمى خشية قلقها أو محاولتها منعه من متابعة عمله المضنى ، وقد أصيبت تلك التاعسة على أثر هذه الصدمة التى بلينا بهـا بمرض عضال أقعدها عن مواصلة السعى لكسب القوت ودفع أجرة المسكن ، ومع هذا فقد كانت تتحمل الفقر والشقاء والمرض والاعياء بصبر واستسلام

لقد ألقت الأقدار بى من حيث لا أشعر فى بيداء هذه الحياة وضربتنى ضربة قاسية لا رفق فيها ولا هوادة ، وأرادتنى أحداث الزمان على أن أحمل حملاً أعجز عنـه وأنا صبى صغير فتلاشت ابتسامتى واربدّ وجهى ، وعادت الحياة فى نظرى هماً ناصباً . أمى مقعـدة لا تستطيع حراكا وهى تحتاج إلى قوت ودواء ، وصاحب المسكن يطالبنا بأجرته فى نهاية كل شهر ، وعلينا أن نؤديها إليه صاغرين وإلا كان الشارع لنا مأوى ، وقد أشار علىّ بعضهم بايداع المريضة فى إحدى المستشفيات ، فقبلت ذلك على مضض ، ولكن إدارة المستشفى أبت قبولها بحجة أن مرضها عضال لا يرجى منه شفاء . على أننى مع ذلك لم أيأس ولم أحزن رغبة فى أن أظل بجانبها أخدمها وأروح عنها ما تجده من آلام محرقة تحاول جهد طاقتها أن تخفيها عنى فتتكلف لى الابتسام ، ابتسام المريضـة الصبور المستسلمة . لقد ذاق أطفال قبلى مرارة اليتم ، وذاق الكثيرون مثلى مرارة الحرمان والعُدم ، ولكن آلامهم لم تك تشبه آلامى : إذ كانت آلامى آلام صبى فى أول مرحلة من مراحل حياته يرى تحت نظره أعز الناس لديه يدنو من الموت أو يدنو الموت منه بخطى سريعة فلا يستطيع التخفيف عنه أو إسعافه بجرعة دواء

أجل كنت أذرع البلدة وأجوس خـلال شوارعها باحثاً بحث اليائس عن لقمة أتبلغ بها أو عن عمـل يكفل العيش لى ولتلك المريضة المدنفة ، وكنت إذا حصلت على بضع دريهمات أضن بها على نفسى فأعود وأنا أطفر فرحاً فأشترى لها ما تحتاج إليه من غذاء ودواء وأوفر الباقى أجرة لمسكننا الحقير

وقد كنت أستطيع أن ألجأ إلى تلك الطريقة التى يلجأ إليها الكثيرون من أمثالى — أعنى السرقة — وكانت أحياناً تتجسم هـذه الفكرة فى مخيلتى حينما أصاب بتلك الآفة المشئوم — آفة الجوع — ولكننى لا ألبث أن أرجع عن هـذا العزم إذ أربأ بنفسى أن تنحط إلى هذه المنزلة مفضلاً كل شقاء على الوقوع فى هذا المنحدر الرهيب

وكنت أعرف أيضاً أن هناك سبيلاً أفضل من هـذا كله أقصر مدى وأقل تعباً وجهداً . سبيلاً ينتهى بى إلى تخفيف متاعبى وآلامى وينقطع به همومى وأحزانى . فقد كان فى استطاعتى أن أقصر ساعات عذابى بالانتحار ، ولكن ذكرى المريضـة المقعدة كانت تبعـد عنى هذا الخاطر ، وتجعلنى أبتسم لليأس المميت فى ظل الحياة التعيسة التى أحياها

سدت فى وجهى أبواب الرزق ، وأمى تزداد مرضاً على مرض فلجأت إلى بيع أثاثنا البالى ، فبدأت بالفراش الذى أنام عليـه والكرسى الذى أجلس فوقه وجميع الأمتعة الحقيرة التى يضمها مسكننا ، فنفد ذلك كله وهو مبلغ تافه لا تأثير له فى دفع الشقاء . ومما زاد فى بليتنا أن صاحب المسكن أخذ يطالبنا بتأدية ما تأخر له عندنا من الأجرة التى لا نملك منها شيئاً ، وأمهلنا بذلك ثلاثة أيام وإلا طردنا دون شفقة أو رحمة

طوفت فى هـذه الأيام الثلاثة فى الشوارع طاوياً متعباً مريض النفس والجسم والفكر ، صفر الكف ، فلم يفتح على بشىء حتى أعيانى التجوال ، وأرهقنى اليأس ، فرجعت إلى البيت أبكى بدموع غزار

انقضت المهلة المعينة لتنفيذ وعيد ذلك الظالم ، ولم يبق منها سوى ليـلة واحدة لم يغمض لى فيها جفن ولم يرقأ لى دمع . وشعرت آنئذ بجميع ضروب اليأس ، وذقت من الألم أشكالا ، ثم اعترانى بحران عميق ، أصبحت فيه أشبه بالصنم . وعنـد ما انبلج الصبح ولاح لى وجه ذكاء بدا وجه أمى النحيـل الشاحب ، وهى تتنفس تنفسا خافتا ، فانبثـق فى لبى خاطر استجبت له : هو لقاء صاحب المسكن واستعطافه علنى أجـد بذلك من الضيق مخرجا . فنهضت متثاقلاً ، وأنا ضـائع الفكر مضطرب البال ، أقرب إلى اليأس من ذلك الغريق الذى يرتجف وسط الخضم وقد تعلق بأوهى الأسباب أملاً فى النجاة .

البريد الأدبي

كتاب عن تاريخ الحبشة وبلاد العرب

أصدرت الجمعية الجغرافية الملكية مجلداً جديداً من كتاب « البحر الأحمر والحبشة وبلاد العرب منذ العصر الغابر »
Le Mer Rouge L'Abyssinie et L'Arabie depuis L'Antiquité
بقلم المسيو « كامرر » ؛ وفي هذا المجلد الجديد مباحث شائقة عن « حرب الفلفل » وعن اكتشافات البرتغاليين البحرية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ؛ ومن المعروف أن هذه الاكتشافات كانت ذات أثر فعال في تطور مركز مصر التجاري ؛ لأنها لبثت عصوراً طريق الهند ، ولبثت ثغورها مهبط هذه التجارة ، فلما اكتشف البرتغاليون طريق الهند تحول قسم عظيم من تجارة الغرب إلى هذه الطريق الجديدة ، وهجرت الطريق القديمة التي كانت تمر بمصر أو الشام ، ودخل البحارة البرتغاليون الميدان وأنشأوا مراكز تجارية وحربية في موزنبيق وقاليقوط وجوا ومسقط وغيرها ، وغزوا جزائر الهند الشرقية ووصلوا إلى شواطىء الصين ؛ وانتبه سلاطين مصر لهذا الخطر المحدق بموارد بلادهم فتحالفوا مع البندقية على محاربة هذا الخطر لأنه يمس تجارتها أيضاً ؛ ولبثت مصر مدى حين قابضة على مفتاح البحر الأحمر ، ولكن البرتغاليين قبضوا على طريق الهند ، ورأوا من جهة أخرى أن يغزوا البحر الأحمر فتحالفوا مع الحبشة ، وكانت تخشى مصر ؛ وأرسلت بعثة برتغالية إلى بلاط النجاشي ؛ ولكن الحبشة لبثت حذرة من أولئك الأصدقاء الجدد ومن نياتهم

واستمرت المعركة مدى حين على سيادة البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وفي الشرق للاستئثار بغنم السيادة التجارية ، ولعبت

وعند ما وصلت قصر صاحب الدار بجلادت وطرقت الباب ففتح لي خادم كنت أجد عنده بعض العطف ، فسهل لي لقاء سيده فدخلت عليه وأنا أرتجف كريشة في مهب الريح

تذللت بين يديه واستعطفته وشرحت له ما أقاسيه من بؤس وهمّ ، واستلهمته ريثما تقضي تلك البائسة فهي على أبواب الأبدية ، وكنت أحدثه وهو صامت ساكن لا تطرف عينه ولا يرفع نظره إليّ ، حتى إذا فرغت من شكواي صرخ في وجهي صرخة جافة قاسية ملؤها العنف والقسوة وختمها بأبشع الشتائم وأقبح النعوت

يصبر عزيز النفس على الموت والخطر والعذاب والجوع ، ولكنه لا يصبر على الاهانة والطرد . يهون على أبي النفس كبيرها أن يرمى في أتون ملتهب يشوي جسمه شياً دون أن تلقى عليه نظرة ازدراء أو كلمة اشمئزاز . ومع هذا لم أحرك ساكناً باديء ذي بدء بل تصاممت عن سماع كلماته المرة عسى أن تهدأ ثورة غضبه ويثوب الى رشده ويرفق بي . ولكنه أعاد الكرة وأمعن في طردي وتحقيري بلهجة تفوق الأولى عظما وهولا ، فكانت كلماته هذه كسهم أصاب مركز الصبر من فؤادي فمزقه ، فأحسست أن الدم يتصاعد الى رأسي ، وأن الأرض تدور بي ، ولاح لي طيف أمي وهو ملقى في العراء . فلم أشعر إلا وأنا ممسك بخناقه أضغط عليه بين يدي حتى سقط جثة هامدة

يقولون عني إنني مجرم خطر ، وإني أستحق الموت عبرة لأمثالي ، وما أنا إلا انسان حكمت عليه الظروف القاسية بأقسى أحكامها ، وأراد له أخوه الانسان أن يصبح مجرماً بعد ما تعب واجتهد اجتهاد الأبيّ ليعيش عيشة الكفاف فلم ير قلباً يعطف عليه وينتشله مما هو فيه

هذه قصتي المكتومة أعلنتها . وأحزاني الحبيسة أطلقتها ، فلتحكم عليّ محكمتكم الموقرة بما يمليه ضميرها ويرضاه عدلها

وأخيراً خلت المحكمة للمداولة ، فأجلت البتّ في هذه القضية إلى أسبوع آخر

نعيمة المغربي

منتجات المشرق مثل الفلفل والبهار دوراً في هذه المعركة ؛ وتخللتها معارك وأحداث بحرية عظيمة ما زالت مضرب الأمثال في الروعة والشجاعة

ولكتاب مسيو كامرر مزية أخرى ، هي أنه يتتبع تاريخ الآراء والتطورات الجغرافية في كتابه خلال هذه العصور ؛ وهذه التطورات مشروحة بالخرائط والوثائق الوافية ، وفيها خرائط قديمة كانت سرية لم تعرف في عصرها ، لأن الخرائط التي كانت توضع عن الطرق البحرية في ذلك العصر ، كانت كالخرائط الحربية يحرص أصحابها على سرها

وقد زين الكتاب فوق ذلك بعشرات من الصور التاريخية الهامة

الكاتب الألماني رودلف شتراتس

نعت إلينا أنباء ألمانيا الأخيرة الكاتب القصصي الألماني الكبير رودلف شتراتس R. stratz ؛ توفي في الثالثة والسبعين من عمره في ضيعته في « كيم زي » على مقربة من ميونيخ ؛ وبوفاته اختفى كاتب من أخصب وأعظم الكتاب الألمان في عصر الامبراطورية ، وكان شتراتس مدى الحرب ومن بعدها أيضاً في طليعة الكتاب الذين يدهشون الجمهور بوفرة إنتاجهم وبراعة ابتكارهم ؛ وقد نشأ شتراتس ضابطاً ، وقضى أعواماً عديدة في خدمة الجيش ، وكتب أولى قصصه عن حياة الجندية ، وشرح فيها حالة الضباط وأحوال معيشتهم . وكان يدعو دائماً إلى ابتعاد الجيش عن الأحزاب والسياسة ؛ وكان شتراتس يتمتع بمواهب القصصي البارع ، ووفرة في الخيال ، وهو يصف لنا في رواياته مدينة برلين وحياتها قبل الحرب وصفاً بديعاً مدهشاً ، وكان يختار دائماً لأبطال قصصه النبلاء وكبار الأغنياء فيصف حياتهم وأحوالهم بدقة مدهشة ، ولم يتخذ قط من بين الطبقات الدنيا أبطالا لقصصه ، ولم يعن بمعالجة المسائل الاجتماعية ولا يتوخى الغايات الاجتماعية ، وإنما كان يكتب قصصاً شائقاً مشجياً مؤثراً فحسب ؛ ولكن ذلك لم يمنع من انتشار كتبه انتشاراً هائلاً حتى إن بعضها طبع مائة مرة . ومن أشهر كتاباته بعد الحرب قصص يصف فيها حالة برلين أيام التضخم النقدي ؛ وقد ساح شتراتس كثيراً ، وظهر أثر سياحاته في كتبه ، ولكنه كان دائماً في أعماق نفسه « وطنياً » ألمانياً ، يتجه بالوصف إلى إذكاء الوطنية الألمانية ؛ وأشهر رواياته على الاطلاق هي رواية « هيدلبرج القديمة » Alt Heidelberg ؛ ومن رواياته الشهيرة الأخرى : « مكان في الشمس » Platz ander Sonne « المعجزة الألمانية » Das Deulsch Wunder « سفينة بلا دفة » Das Schiff ohne Steuer « لو كان العالم مليئاً بالمفاريت ween die Well von Teufel wàre وغيرها وقد بلغت كتبه زهاء ثلثمائة مجلد

لجنة تفسير معاني القرآن الكريم

أصدرت مشيخة الأزهر قراراً بتأليف لجنة لتفسير القرآن الكريم توطئة لترجمته من حضرات أصحاب الفضيلة الأساتذة : الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية رئيساً ، والأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك مفتش أول اللغة العربية بوزارة المعارف ، والأستاذ علي الجارم مفتش أول اللغة العربية بوزارة المعارف ، والشيخ مصطفى عبد الرازق والأستاذ أحمد أمين من الجامعة المصرية ، والشيخ ابراهيم حمروش شيخ كلية اللغة العربية ، والشيخ أمين الخولي من الجامعة المصرية ، والشيخ علي سرور الزنكلوني من كلية أصول الدين ، والشيخ ابراهيم الجبالي من كلية أصول الدين ، والشيخ محمود الغمراوي من كلية اللغة العربية ، والشيخ محمود شلتوت من كلية الشريعة ، والشيخ محمد أحمد العدوي من كلية أصول الدين أعضاء

استكشاف جبال هملايا

استطاعت البعثة الألمانية التي أوفدت لتسلق جبال هملايا الهندية أن تصل الى أكمة سمفو الواقعة في شرق كانشن جونجا على ارتفاع أكثر من ٢٣ ألف قدم ، وهي أول مرة يستطيع الانسان أن يصعد اليها ، والبعثة المذكورة مكونة من الدكتور باور البافاري وهو من الاخصائيين في صعود الجبال ، والهر فين والهر هاب ، والهر جنتر ؛ وقد وصلت البعثة الى قلب أراضي نبال منذ أشهر ؛ ووصلت منطقة زعو الثلجية في ستمبر ، ثم انقسمت الى فريقين ؛ فسار الهر فين مع بعض الحمالين الى وادي تالونج ، ونفد منه الطعام بعد أيام ، وقضوا نحو يومين بلا طعام قبل أن يصلوا الى المساكن ؛ وكان تقدمهم بطيئاً حتى كانوا

يقطعون فى هذه الهضاب ميلاً واحداً فقط فى اليوم ، ثم تلاقى الفريقان بعد ذلك وسارت البعثة كلها الى سنجيك ، وصعدت الى قمة سيمقو

وقد اقتنعت الفرقة أن طريق سيمقو هو أفضل الطرق للصعود الى الآكام العالية التى لم يتوصل المكتشفون بعد الى ارتيادها ؛ ويزمعون العودة الى الهند فى العام القادم ، وقد سبق أن استطاع الدكتور باور مع بعض زملائه الصعود الى ما دون ثلاثة آلاف قدم من هذه الأكمة الشهيرة ، ولكنه رد بعاصفة من الثلج ، فعاود الكرة فى هذا العام ونجح فى محاولته

وثيقة مصرية قديمة

اكتشفت أخيراً فى إحدى قرى الفيوم المسماة ارسيم أو مدينة التماسيح وثيقة غريبة تدل على أن العقود الخاصة بأعمال الصبيان موجودة من أقدم العصور ؛ وقد استطاع الأستاذ فوارن العلامة الدانمركى أن يقف على محتويات هذه الوثيقة فاذا فيها ما يأتى :

« يشهد تريفون بأن ولده القاصر تيونيس قد عين صبياً لمدة سنة من تاريخه عند تولوماتوس النساج »

وسوف يتعلم الصبى طول مدة العقد من أستاذه كل أصول حرفة النسج ، ويتقاضى فوق ذلك كل شهر خمسة دراهم مقابل الكسوة ، وفى آخر العام يتقاضى ١٢ درهما

وفى مقابل ذلك يدفع والد تيونيس إلى الحكومة ضريبة الأحداث عن ولده ، ويجب عليه أن يدفع عن كل يوم يتغيب فيه الغلام درهما بصفة غرامة ، وفى حالة فسخ العهد يجب عليه أن يدفع مائة لخزينة الدولة ؛ وإذا لم يقم المعلم تولوماتوس بتعليم الغلام كما يجب ، فانه يدفع مثل هذا القدر للخزينة

جواهر الطيب المفردة ليوحنا بن ماسويه

احتفل المجمع العلمى المصرى بافتتاح جلساته لعامى ١٩٣٦ و١٩٣٧ فألقى القس بولس سباط محاضرة عن كتاب « جواهر الطيب المفردة » ليوحنا بن ماسويه العالم النصرانى الكبير ، والطبيب الشهير الذى عاش فى القرن التاسع ، وكان رئيس دار الحكمة التى أنشأها الخليفة المأمون ببغداد سنة ٨٣٠

وفى هذا الكتاب النفيس وصف ابن ماسويه جواهر الطيب المفردة وذكر أسماءها وموادها وأنواعها وخواصها وفوائدها بالنظر إلى الطب والعطارة وقسمها قسمين : الأصول ، والأفاويه ، وقال : إن الأصول خمسة : المسك والعنبر والعود والكافور والزعفران ، وأن الأفاويه أربعة وعشرون : السنبل والقرنفل والصندل والجوزبوا والبسباس والورد والفلنجة والزرنب والقرفة والهرنوة والقاقلة والكبابة والهال بوا وحب البلسم والفاغرة والمحلب والورس والقسط والأظفار والبنك والضرو واللاذن والميعة والقنبيل

ولهذا الكتاب مخطوطان : أحدهما محفوظ فى دار الكتب بمدينة ليبسيك بألمانيا ، والآخر عثر عليه القس بولس سباط فى مدينة حلب سنة ١٩٣٣ نسخة الأرخيد ياكون يوحنا بن عبد المسيح الانطاكى بمدينة حلب سنة ١٥٦٣

وقد اهتم القس بولس سباط بتنقيح هذا السفر الجليل والتعليق عليه ، وإضافة فهارس علمية له وسينشره المجمع العلمى المصرى فى مجلته لهذا العام

الحركة الفكرية العنصرية فى ألمانيا

تمضى ألمانيا الجديدة فى سياستها العنصرية إلى النهاية ؛ وآخر ما قررته فى هذا السبيل القضاء على الآثار والمؤلفات الفقهية اليهودية . ومن المعروف أن أعظم الآثار القانونية الألمانية كتبها اليهود الألمان ولا زالت إلى اليوم مرجع البحث فى ألمانيا ، ولكن الدكتور فرنك رئيس الجمعية القانونية الألمانية أصدر أمره إلى جميع المكاتب العامة ودور البحث أن تستبعد جميع المؤلفات اليهودية فى القوانين الألمانية ، كما أصدر أمره إلى جميع الناشرين بألا يعيدوا طبع شىء من هذه المؤلفات أسوة بالامتناع عن نشر المؤلفات الجديدة التى يضعها اليهود ، وبذلك لا يمضى طويل حتى تختفى هذه الآثار اليهودية من الأدب القانونى الألمانى

ويرى الدكتور فرنك أنه يجب على العنصر الألمانى أن يبدأ عصراً جديداً فى التأليف القانونى ، وأن الذهن الآرى يجب عليه أن يعرب عن عبقريته ونقائه فى هذه المؤلفات



موسى بن ميمون

حياته ومصنفاته

تأليف الدكتور اسرائيل ولفنسون

بقلم الدكتور ابراهيم بيومى مدكور

هنالك كتب تقرأ لموضوعها وأخرى لأصحابها ! وكأن منظمى المكتبات العامة أدركوا هذا المعنى تماماً فأعدوا طائفتين متميزتين من الفهارس : إحداهما للمادة والأخرى للمؤلفين ؛ والكتاب الذى نحن بصدده يجذب القراء بموضوعه وبما يبذله مؤلفه من وسائل فى سبيل نشره . فهو يدرس أولاً أعظم شخصية بين مفكرى اليهود فى القرون الوسطى ، ومن ذا الذى لا يرغب فى أن يعرف شيئاً عن ابن ميمون بعد ذلك الحفل العظيم الذى أقيم فى العام الماضى تخليداً لذكراه المئوية الثامنة ؟ وأعتقد أن هذا الحفل نجح نجاحاً كبيراً ؛ فقد وجه الباحثين إلى دراسته وتعريف الناس به ، وأضحت شخصيته بعده شعبية إلى حد ما ، ولو لم يكن من آثاره إلا كتاب اليوم لكفى . وعلنا نحتذى هذه السنة الصالحة ونخلد ذكرى فلاسفة الشرق وعلمائه الآخرين كى نبعثهم من مرقدهم وننشر تراثهم ونلفت الأنظار إليهم ونحلهم فى المحل اللائق بهم . وفوق هذا فى الدكتور ولفنسون نشاط يغبط عليه ؛ وليس نشاطه فى التحدث عن كتبه بأقل من نشاطه فى جمعها وتأليفها ، ولا تكاد تلقاه إلا ويحدثك عن أبحاثه الماضية ومؤلفاته الحاضرة ومشروعاته المستقبلة ؛ وإذا ما ظهر له فى عالم التأليف كتاب خيل إليك أنك تلمح باستمرار على وجهه السؤال الآتى : هل قرأت كتابى ؟ ولسنا ندرى ماذا كان يصنع لو قدر له أن يشتغل بالأعمال المالية والشؤون الاقتصادية ! يغلب على ظننا أنه ما كان يُبارى فى هذا المضمار !

ولسنا فى حاجة لأن نؤكد للدكتور ولفنسون أنا قرأنا كتابه الأخير ؛ فهو يعلم أنا عُنينا به وهو لا يزال فى مهده ، وقمنا بعض الشىء على تنشئته وتكوينه ، وقد ناقشناه غير مرة فى طريقته وأسلوبه وموضوعه ومصادره ؛ وها نحن أولاء مسرورون بظهوره فى ثوبه الحاضر سروراً مزدوجاً ، فيسرنا منه ما فيه من أبحاث قيمة أضافت إلى اللغة العربية ثروة طائلة ، ونغتبط بأن نرى فيه زهرة يانعة شهدنا من قبل ساعة تفتحها وتابعنا أدوار نموها وكمالها . وإذا كنا قد أسررنا بالأمس إلى الدكتور ولفنسون بما لاحظنا على مخطوطته ، فنحن اليوم فى حل من أن نعلن إلى قرائه ما خلفه كتابه فى نفسنا من أثر ؛ والأبحاث العقلية وقف على أصحابها ما لم ينشروها ؛ فان نشرت أصبحت ملكا للانسانية جمعاء

يشتمل كتاب موسى بن ميمون على تصدير ، وأربعة أبواب وفهرس بأسماء المصادر العربية والعبرية والافرنجية . ففى التصدير يبين المؤلف الأسباب التى دفعته إلى وضع كتابه ، والطريق الذى سلكه ، والصعوبات التى صادفته ، ويلخص النتائج التى انتهى إليها ؛ وفى الباب الأول يدرس حياة ابن ميمون ويأتى على الظروف المختلفة التى أثرت فى نشأته وتكوين آرائه ، ويعرض فى إسهاب لمشكلة إسلامه مدلياً فيها بأقوال المؤرخين السابقين ومناقشاً لها مناقشة طويلة . وهـــذا الباب حافل بالمعلومات يدل على اطلاع واسع وبحث مستفيض ، إلا أنه لم يرتب ترتيباً كافياً . وقد عنى فيه بجمع الحقائق وسردها أكثر مما عنى بطريقة عرضها وربط بعضها ببعض . وكنا نود أن يرجع المؤلف العوامل التى أثرت فى حياة ابن ميمون إلى نقط رئيسية يأتى عليها الواحدة بعد الأخرى . نحن لا ننكر أن ملخصه الجامع الذى صدَّر به كل باب من أبوابه حدد بحثه بعض الشىء ؛ ولكن كنا نفضل أن يَقسم هـذه الأبواب إلى فقرات يُعَنْوِن لكل واحدة منها بعنوان خاص ، كما صنع فى مشكلة إسلام ابن ميمون مثلاً (١)

(١) موسى بن ميمون ، ص ٢٧

وهذه الفقرات فى جملتها لا تخرج عن الملخصات الآنفة الذكر . وقد وقف المؤلف على إسلام أسرة ابن ميمون ١٤ صفحة كاملة ؛ وهـذا الموضوع هام حقاً وجدير بهذه العناية . غير أنا لا نكاد نجد فيـه جديداً ؛ ذلك لأن المؤلف شُغِل بجمع ونقل آراء الباحثين السابقين دون أن يرجح واحداً منها على آخر ترجيحاً واضحاً . والواقع أن هذه المسألة درست من قبل دراسة موسعة ، فلم ير صاحب كتاب موسى بن ميمون بداً من أن ينقـل آراء من سبقوه ويعول عليها التعويل كله حتى فى مناقشة النصوص التى عرض لهـا . ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه قد يسهب أحياناً فى سرد هـذه النصوص وينقل منها ما يجاوز بحثـه ويناقشها مناقشة سطحية . ونعتقد أنه كان فى مقدوره ، وهو ذو خبرة لغوية واسعة أن يشرح النصوص العربية شرحا أضبط ، ويستكمل ما فات المستشرقين السابقين

وفى الباب الثانى الذى هو أصغر أبواب الـكتاب درست مؤلفات ابن ميمون الدينية . وهذا الباب واضح فى جملته ومحتو على ملاحظات ونقد لا بأس به ، وما اتصل فيـه بتثنية التوراة والتلمود جيد للغاية . ولا غرو فالمؤلف حين يدرس الفقه والتشريع الاسرائيلى إنما يتكلم عن خبرة تامة ومعرفة حق ؛ فهنا يبدو بجلاء اختصاصه وتمـكنه من مادته . هـذا إلى أنه أحسن اختيار ما قدمه ؛ فلم يشغل القارىء العربى بتفاصيل جزئية عن الديانة اليهودية قد لا تعنيه كثيراً معرفتها .

والآن ننتقل إلى الباب الثالث الذى هو عمدة الـكتاب وأكبر أبوابه ، وقد عنون له المؤلف كالآتى : « فلسفة موسى بن ميمون ومصنفه دلالة الحائرين »[1] . ويخيل إلينا أنه كان الأولى أن يكون عنوانه كما يلى : « دلالة الحائرين وما يحوى من آراء فلسفية ودينية ». فان المؤلف لم يشرح فى هذا الباب فلسفة ابن ميمون شرحاً نظرياً وتاريخياً منظماً ؛ وإنما جعل كل همه أن يلخص كتاب دلالة الحائرين وينقل أهم ما جاء فيـه من آراء وأفـكار ، ويعطى فـكرة عامة عن تاريخ تأليفه والأدوار التى مر بها منـذ ابن ميمون إلى اليوم ، ويبين أثره فى العالم الغربى والشرق . ولئن فاته أن يدرس فلسفة ابن ميمون الدرس اللائق بها لقد وفق توفيقاً كبيراً فى تلخيص كتابه دلالة الحائرين ، ونستطيع أن نقرر أن هذا الملخص الذى يقع فى نحو خمسين صفحة قد يغنى عن قراءة أجزاء دلالة الحائرين الثلاثة . ولم يلخص المؤلف هـذا الـكتاب بالمعنى ، بل ترك ابن ميمون يعبر فى أغلب الأحايين عن آرائه بنفسه . وفى هذا ما يسمح للقارئ أن يتصل اتصالا مباشراً بالفيلسوف المترجم له . ويجدر بنا أن نلاحظ أنا فى حاجة ماسة إلى طبع دلالة الحائرين بحروف عربية . ففى انتظار هـذه الطبعة المنشودة قدم لنا الدكتور ولفنسون فصولا ممتعـة من كتاب عربى هام كتب بالعربية دون أن يعرفه كثير من أبنائها . وكل ما يؤخذ على هذا الملخص نقص فى الترتيب وربط المسائل بعضها ببعض أحيانا ، أو قصور فى عرض بعض النقط أحيانا أخرى . ففى صفحة ٥٨ يحكم المؤلف مثلا على الترجمات العربية حكما غير مبنى على أساس صحيح ، ويشير إشارة ناقصة إلى أثر الفلسفة الاسلامية فى الفلسفة اليهودية . وكنا نتوقع أن يعير هذه المسألة ما تستحق من أهمية ، ولاسيما وهو يدرس شخصية يبدو فيها الأثر الاسلامى بشكل واضح . والتاريخ والواقع يشهدان بأن الفلسفة اليهودية فى جملتها ليست إلا امتداداً للفلسفة الاسلامية . وفى صفحة ١٢١ يتكلم عن أسلوب ابن ميمون ؛ وفى رأينا أنه كان ينبغى أن يقدم هذه النقطة ويبدأ بها قبل الدخول فى تفاصيل كتاب دلالة الحائرين ؛ على أن المؤلف فاته أن يشير إلى جلاء ابن ميمون ، ووضوح لغته ، وعنايته بتوصيل المعنى إلى القارىء ، وطريقته المنطقية البرهانية فى المناقشة والتعليل

وفى الباب الرابع والأخير يدرس المؤلف كتب ابن ميمون الطبية . وهذه تكملة لا بد منها ؛ فان ابن ميمون فوق تشريعه وفلسـفته كان طبيباً يشار اليه بالبنان فى علمه وعمله ، وقد خلف كتباً طبية عديدة استفاد منها الشرق والغرب أثناء القرون الوسطى . وقد نجح المؤلف فى التعريف عنها ، وعرض نماذج من موضوعاتها ؛ وإن كان قد فاته أن يبين فى وضوح الصلة بينها وبين المؤلفات الطبية العربية الأخرى المعاصرة لهـا أو السابقة عليها . وعل هذه الدراسة ألصق بكتاب طبى منهـا ببحث تاريخى

وفى الفهرس نرى مجموعة طيبة من المراجع القديمة والحديثة العربية والعبرية والافرنجية التى تتصل بحياة ابن ميمون وآرائه ومؤلفاته . ويا ليت المؤلف أضاف اليها بعض الملاحظات النقدية

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٧

العالم المسرحى والسينمائى

أدب السيناريو

صورة جديدة من الأدب أوجدها الفيلم الناطق

لناقد « الرسالة » الفنى

ظل الأدباء حتى السنين الأخيرة لا يعرفون الفنون والآداب إلا فى صورها القديمة من الشعر والنثر الفنى والقصص التمثيلى وغير التمثيلى . وظهرت صورة جديدة من الأدب فى القصة القصيرة ، وهى على رغم انتشارها وذيوعها ليست جديدة وإنما هى صورة مصغَّرة من القصة الطويلة ، أو هى قصة ملخصة تلخيصاً حكيما

واخترعت السينما الناطقة فرأينا القصص تعرض على اللوحات ولم يؤثر هذا الاختراع أى تأثير فى العالم الأدبى حتى ظهرت السينما الناطقة فسمعنا الممثلين ينطقون بحوار فنى وضعه المؤلفون من أكبر رجال الأدب والفن فى العالم

بعض هذه القصص بما تحوى من حوار مقتبس عن قصص معروفة ، ولكنه يظهر فى صورة خاصة وترتيب فنى جديد لم يألفه الناس وعرف بالسيناريو

والسيناريو كلمة أطلقها رجال السينما على القصة السينمائية فى وضعها الخاص الذى يعاون المصور والمدير الفنى ومساعديه على القيام بمهمتهم فى سبيل إخراج فيلم من الأفلام

ظلت هذه الصورة الجديدة لا يعرفها الناس وكأنها سر من الأسرار ، وكان المتلهفون على المجلات السينمائية وكتب السينما يعرفون القليل عنها من أمثال بسيطة يضربها المؤلفون والكتاب فى بعض ما يكتبون ، حتى جازفت إحدى دور النشر فى أوربا وقامت بطبع أكثر من سيناريو فكان هذا العمل الجرىء هو الباعث على ظهور هذه الصورة الجديدة من الأدب

أقبل الناس على قراءة هذه الكتب للتسلية والدرس ،

التى تبين قيمتها العلمية وما احتوت من أبحاث مفيدة . وعلى كل فهذا الفهرس ثمرة من ثمرات اطلاعه الواسع ، وأداة صالحة من أدوات البحث والدراسة . وسيجد فيه القراء والمطلعون نبراساً يستضيئون به فى ظلمات القرون الوسطى ، وهاديا يرشدهم إن أرادوا التوسع فى بعض النقط التاريخية والفلسفية

هذا هو كتاب موسى بن ميمون فى محتوياته . وأما أسلوبه فمقبول فى جملته ، وإن أعوزه شىء من العناية والدقة . وأما مصادره — على الرغم من تعددها وحسن اختيارها — فلم تستخدم استخداماً كافيا . ونعتقد أنه لو كان المؤلف قد تريث أكثر فى دراستها ، ودقق أطول فى قراءتها ، لأخرج لنا عن ابن ميمون بحثاً أشمل وأوسع

ومهما يكن من اعتراض يمكن أن يوجه إلى كتابه فانا لا نتردد مطلقا فى أن نقرر أنه ضم إلى سلسلة أعماله المتواصلة حلقة ذهبية ناصعة . وهو من غير شك ، كما قرر فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق فى المقدمة التى قدم له بها « ثمرة جهد كبير فى الاطلاع على مراجع مختلفة فى لغات شتى [1] » وإذا لاحظنا أنه يدرس شخصية جليلة من كبار المفكرين الذين تربوا فوق أرض الاسلام وتحت سمائه أكبرنا ماله من قيمة ؛ وسيستعين به أصدقاء الفلسفة الاسلامية وطلابها على تفهم كثير من الآراء والأفكار العربية . وأملنا كبير فى أن يتحفنا الدكتور رلفنسون وهو مؤرخ استكمل وسائل البحث التاريخى ، بمؤلفات أخرى تكشف الغطاء عن فلسفة القرون الوسطى اليهودية

ابراهيم مدكور

(١) المصدر نفسه

وهناك من المؤلفين والكتاب من كانت لديهم الموضوعات التي تصلح وتليق بأكبر الأفلام ، ولكن جهلهم بشؤون السينما وعدم تمكنهم من التفصيلات كثيرا ما صرفهم عن السير في هذا السبيل ، فظهور هذه المطبوعات أفادهم فائدة كبيرة ، فهي في الحقيقة شرح تفصيلي عملي يمكنهم من فهم السيناريو وطريقة وضعه

وليست فائدة هذه المطبوعات قاصرة على هذا وحده ، فقارئ السيناريو يجد لذة كبيرة في تلاوة قصة سبق له أن شاهدها على ستار السينما

قرأت أكثر من كتاب واحد مما أخرج ، وأقرر أنني وجدت تسلية كبيرة فيما قرأت ، وخرجت بفائدة لم أكن أحلم بها ، فقد جعلتني أفهم السينما على حقيقتها وأعرف دقائقها تمام المعرفة إذ وجدت تطبيقا عملياً على كل ما قرأت من الكتب الخاصة بالسينما وأحوالها

فهذه الصورة الجديدة من الأدب تدين بخلقها الى الفلم الناطق ، وأنا زعيم بأن الأدباء سوف يجدون في هذه الصورة ما يرضي ميولهم ويدفعهم الى تأليف السيناريو . ولقد كتب المؤلفون قصصاً تمثيلية وقاموا بطبعها قبل أن يعرضوها على الفرق التمثيلية ووجدت من الرواج والاقبال ما يعوض على الكاتب مجهوده ؛ وأعتقد أننا سوف نرى في القريب من المؤلفين من يقوم بطبع « سيناريو » قبل أن تقوم شركة من الشركات باخراجه ، وسوف يقبل الناس على تلاوته بدافع اللذة والتسلية

وهكذا يضيف الفلم الناطق صورة جديدة الى الآداب والفنون

يوسف

في الفرقة القومية

تأكدت لدينا استقالة الأستاذ زكي طليمات من الفرقة القومية المصرية فهو قد قدم فعلاً استقالة إلى الأستاذ خليل بك مطران مدير الفرقة ، وسوف تعرض على لجنة ترقية المسرح المصري في أول اجتماع لها ، وقد كان من المنتظر أن تعقد اللجنة اجتماعاً في تمام الخامسة بعد ظهر يوم الأربعاء الماضي ولكنه أجل لتغيب معالي رئيس اللجنة حافظ عفيفي باشا في الأسكندرية

وقد رفع الأستاذ طليمات أيضاً إلى معالي وزير المعارف التماساً يرجو فيه إلغاء انتدابه في الفرقة القومية المصرية

ولسنا ندري حقيقة الأسباب التي دفعت الأستاذ طليمات إلى تطليق المسرح والفرقة القومية التي طالما تمنى قيامها وعمل كثيراً في سبيل إنشائها ، فالاشاعات كثيرة : منها أن هنالك من يضع في طريقه العقبات وأن بين رجال الفرقة من يعمل على الحد من السلطة التي كانت له في الوسم الماضي ويذكرون مسائل معينة للتدليل على صحة ما يقولون

والسبب المباشر في استقالته أنه تقرر سحب رواية الجريمة والعقاب التي نقلها إلى العربية الدكتور الشاعر ابراهيم ناجي والممثل فتوح نشاطي بعد أن استعد لها وأتم دراستها واختار لنفسه أحد أدوارها ، وقد عهد باخراج هذه الرواية إلى الأستاذ عزيز عيد ، وكان الدور الذي اختاره الأستاذ طليمات لنفسه من نصيب الأستاذ حسين رياض

وقد يرى القارىء الملم بالوسط المسرحي المصري أن هذا التصرف عادي في الفرق ولهذا فان دهشتهم لتقديم الاستقالة كانت كبيرة ، ولكن المتصلين بالأستاذ طليمات يقولون إن هذا الحادث هو القشة التي قصمت ظهر البعير

ونحن يسوؤنا جدا أن تنتهي المسألة بهذه النتيجة المؤلمة ، ونحن نأسف جد الأسف على خروجه من الوسط المسرحي ونعد اعتزاله خسارة كبيرة فهو المخرج الوحيد في مصر الذي درس فن الاخراج والتمثيل في أوربا دراسة تهيئه لأن يتولى هذه المهمة في مصر ، وهو إلى جانب هذا أديب مطلع لا نجد بين الممثلين أكثر من اثنين في مثل اطلاعه وإخلاصه للفن

والمسرح المصري في هذه الفترة في حاجة إلى توحيد الجهود لاقالته من عثرته . وخروج الأستاذ طليمات يضعف من الجهود التي تبذلها اللجنة ورجالها المحترمون . ونحن نرجو مخلصين أن يعدل الأستاذ طليمات عن هذه الاستقالة ، وأن تمهد له اللجنة الطريق إلى سحبها بأن تزيل ما في النفوس من الصغائر التي تفسد الجو المسرحي ، كما نرجو ألا يوافق معالي وزير المعارف وسعادة وكيل الوزارة الأستاذ العشماوي بك على إلغاء انتدابه

يوسف

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧٦ — ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 176
Lundi - 16 - 11 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٧٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ رمضان سنة ١٣٥٥ — ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

مشروع خطير

تطعيم الأدب العربى

كانت اللغة العربية فى عصر من عصورها مجمع الثقافات ، وملتقى المدنيات ، ومنتهى الألسن ؛ وكان الأدب العربى فى حدود مراميه التعبيرَ العام عن خوالج الإنسانية فى أكثر بقاع الأرض ، لأن الإسلام الذى جمع قلوب الأمم على قرآنه ، جمع ألسنتهم على لسانه ، فلم تكن هناك فكرة تجول فى ذهن كاتب ، ولا صورة تتمثل فى خاطر شاعر ، إلا وجدت فى هذا الخضم المحيط صدفة تستقر فيها . فلما تحولت عن مذاهبه الأنهار ، وجفت على جوانبه الروافد ، عاد كالبحيرة المحدودة الراكدة ، لا يمدها إلا قطرات المطر ودفعات السيل فى الحين بعد الحين . فإذا أردنا لأدبنا أن يتسع فى حاضره كما اتسع فى ماضيه ، فليس لنا اليوم غير سبيل الأمس : نرفده بآداب الأمم الأجنبية ، ونطعِّمه بأنواع الفنون الأوربية ، ونصله بتيار الأفكار الحديثة ، ونخلى بينه وبين الحرية ليزدهر وينتشر ويساهم الآداب العالمية فى تبليغ رسالة الجمال والخير والحق .

ذلك كلام يدخل فى بدائه العقـل لوضوحه ، ويجرى فى قوانين الطبع لضرورته ؛ فإذا عدنا إليه فإنما نعود لنحتال فى تنفيذه لا لنلح فى تعزيزه . وقد رغبنا إلى الحكومة فى عدد مضى أن تنشىء داراً للترجمة تنقل آداب الأمم الكبرى نقلاً صحيحاً ، ثم تنشرها كما تنشر دار الكتب الأسفار العربية القديمة ؛ والأمر فى ذاته قريب المنال قليل المؤونة ، ولكن رغبة الفرد إلى الحكومة تكون فى الغالب أملا يتنفس به الصدر ولا يتعلق به صدق ولا ظفر . رغبنا إلى الحكومة هذه الرغبة اليائسة وما كنا نعلم أن ترجمة الآداب الغربية على خطة مرسومة هى مشروع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر قد أنضجت له الرأى ووجّهت إليه العزيمة . ولجنة التأليف والترجمة والنشر فرقة من فرق الجنود المجهولة ، تجاهد فى صمت ، وتكابد فى صبر ، وتبذل فى إيثار . وقد طوت فى جهاد الجهالة اثنتين وعشرين سنة فلم تتخزل عن صعوبة ، ولم تنهزم عن تضحية ، ولا تزال تضطلع وحدها بحماية الكتاب وقد غلبه على مكانه الطفيليات العابثة من المجلات الهازلة والنشرات الهزيلة

تريد لجنة التأليف والترجمة والنشر أن تنقل إلى العربية آداب اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والايطالية ، كل أدب منها فى عام . وستنتقى لكل أدب عشرة أو أكثر من أعلام المترجمين الذين حذقوا أدب اللسانين المترجم والمترجَم فى دقة فهم وجمال صياغة . ثم تجعل مع هؤلاء أديباً من أهل اللسان الأوربى يتولى اختيار الكتب الخالدة لكل كاتب أو شاعر ، ثم يكون مرجعاً للمترجمين فيما عسى أن يغمض عليهم من خفايا الكنايات وأسرار الجمل ؛ فاذا خرج الكتاب من الترجمة والمراجعة انتهى إلى أستاذين من أساتذة البيان العربى فيصقلان أسلوبه ويهذبان لفظه ؛ ثم تنشر مطبعة اللجنة هذه الكتب تباعاً على غرار واحد وشكل رائق وتصحيح دقيق . واللجنة تهيئ الأسباب لتبدأ عما قريب فى إخراج الأدب الانجليزى ، حتى إذا فرغت منه اشتغلت بغيره . والتعليق على مثل هذا المجهود الخطير المعجز لا يكون بغير الدعاء إلى الله أن يقرن العمل بالتوفيق ويقطع الأمل بالفوز . وليس بعد الله من يعين على هذا الجهد إلا الحكومة . فان الجمهور القارىء فى مصر وفى غير مصر قليل ، وأكثر هذا القليل يكاد لا يعرف طريق المكتبة ولا يألف صحبة الكتاب . فترك اللجنة إلى أهواء القراء معناه حبس أموالها القليلة فى المخازن والمكاتب فلا تقلبها فى تأليف ولا نشر ؛ والحكومة التى تساعد المدارس والجامع والصحف ، وتعول المجمع اللغوى ودار التمثيل ودار الكتب ، لا تستطيع أن تضن بالمساعدة السخية على هذا المشروع الضخم تقوم به صفوة من أقطاب الثقافة فى هذا البلد وقد كان من واجباتها الأولى أن تفكر فيه وتنهض به

***

ولقد كان من فضل الله على (الرسالة) أن تحمل عِبْئها من هذا العمل الجليل المثمر ، فقد أمضت النية على أن تصدر بجانبها أختها (الرواية) وهى مجلة أسبوعية تعتمد على نقل ما راع وخلد من بدائع الأدب الغربى فى القصص على أوسع معانيه من الأقاصيص والروايات والمذكرات والاعترافات والرحلات والسير . وسيكون شعار (الرواية) الجمال فى الأسلوب ، والحسن فى الاختيار ، والنبل فى الغرض ؛ فترضى الذوق كما ترضى (الرسالة) العقل ، وترفع القصة كما ترفع (الرسالة) المقالة ، وتسجل أدب الغرب كما تسجل (الرسالة) أدب العرب .

ولا جرم أن الأدب العربى سيكون له فى كل عام مما تنتجه (اللجنة) وتترجمه (الرواية) وتنقله الصحف الأخرى ، مورد ثَرُّ الينابيع ، فياض الجوانب ، من العبقريات الممتازة والقرائح السمحة ، يحيى مواته ، ويزكى نباته ، ويجعل من سهوبه الفيح جناناً ناضرة ، فيها متاع الأذن بالتغريد والشدو ، ولذة العين بالرّواء والبهجة ، وشهوة النفس بالزكاء والعطر ، وسعادة العالم بالسلام والوئام والمحبة

احمد حسن الزيات

٣ - القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحب القلب المسكين فرَمَقها وهي تلتفت إليه التفات الظبية بسواد عينيها بجمل سوادها الجميل في النظرة الواحدة نظرتين لعاشق الجمال، تقول إحداهما: أنت، وتقول الأخرى: أنا؛ ثم أراها وقد كسرَت أجفانها وتفترتْ في يدي المثل المشيق وأفصح منظرها ببلاغة ... ببلاغة جسم المرأة المحبوبة بين ذراعيْ من يحبه؛ ثم اختلجت وصوَّبتْ وجهها، وأهدَفَت شفتيها؛ وتلقَّت القبلة

وكان به منها ما الله عليم به، فانبعثت من صدره آهةٌ مُعولةٌ تئن أنيناً، غير أنها كلمته بعينها أنها تقبله هو؛ فلا ريب قد حملت اليه إحدى النسمات شيئاً جميلاً عن ذلك الفم لست به النفسُ النفس، والقبلة هي هي ولكن وقع خطأ في طريقة إرسالها ...

ليس تحت الخيال شيء موجود، ولكنَّ الخيال المتسرّح بين الحبيبين تكون فيه أشياء كثيرة واجبة الوجود، إذ هو بطبيعته مجرى أحلام من فكر إلى فكر، ومسرحُ شعور يصدر ويرد بين القلبين في حياة كاملة الاحساس متجاوبة المعاني. وبهذا الخيال يكون مع القلبين المتحابَّين روحٌ طبيعيّ كأنه قلب ثالث ينقل للواحد عن الآخر، ويصل السرَّ بالسر، ويزيد في الأشياء وينقص منها، ويدخل في غير الحقيقي فيجعله أكثر من الحقيقي. ومن هنا لم يكن فرح ولا حزن، ولا أمل ولا يأس، ولا سعادة ولا شقاء، إلا وكل ذلك مضاعف للمحب الصادق الحب بقدر قلبين؛ والذين يعرفون قُبلة الشغف والهوى يعرفون أن العاشق يقبّل بلذة اربع شفاه

* * *

وانسدلت بعد هذه القبلة ستارة المسرح، وغابت الجميلة المشوقة غيبة التمثيل فقلت لصاحب القلب المسكين: إن روحيكما متزوجتان ... قال: آه، ومدَّها من قلبه كأنه دَنِفٌ سقيم

قلت: وماذا بعد آه؟

قال: وماذا كان قبلها؟ إنه الحب فيه مثل ما في (عملية جراحية) من تنهدات الألم ولذعاته، غير أنها مفرقة على الأوقات والأسباب مبعثرة غير مجموعة. «آه»: هذه هي الكلمة التي لا تفرغ منها القلوب الانسانية، وهي تقال بلهفة واحدة في المصيبة الداهمة، والألم البالغ، والمرض المدنف، والحب الشديد. فحينما توشك النفس أن تختنق تتنفس «بآه»

قلت: أما رأيتها مرة وقد أوشكت نفسها أن تختنق ...؟

قال: لقد هِجْتَ لي داءً قديماً؛ إن لهذه الحبيبة ساعات مغروسة في زمني غرس الشجر، فبين الحين والحين تثمر هذه الساعات مرها وحلوها في نفسي كما يثمر الشجر المختلف؛ ولقد رأيتها ذات مرة في ساعة همها؛ ثم ضحك وسكت

قلت: ياعدوَّ نفسه! ماذا رأيت منها؟ وكيف أراك الوجدُ ما رأيتَ منها؟

قال: أتصدّقني؟ قلت: نعم.

قال: رأيت الهمَّ على وجه هذه الجميلة كأنه همٌّ مؤنَّث يعشقه همٌّ مذكر ... فله جمال ودلال وفتنة وجاذبية، وكأن وجهها يصنع من حزنها حزنين: أحدهما يعني الهم لقلبها والآخر يعني الثورة لقلبي.

قلت: ياعدو نفسه هذا كلام آخر؛ فهذه امرأة ناعمةٌ بضَّةٌ مطوى بعضها على بعضها، لفَّاء من جهة هَيفاء من جهة، ثقيلةُ شيءٍ وخفيفةُ شيءٍ، جمعت الحسنَ والجسم وفناً بارعا في هذا وفناً مُفرداً في ذاك، وهي جميلةٌ كلَّما تتأمل منها، ساحرةٌ كلَّ ما تتخيل فيها، وهي مزَّاحة دَحْدَاحةٌ (1) وهي تطالعك وتطمعك، وأنت امرؤٌ عاشق ورجل قويُّ الرجولة؛ فالجميلة والمرأة هالك في هذا الجسم الواحد، إن ذهبتَ تفصلهما في خيالك امتزجتا في دمك؛ ولو أمسكتْ آلةُ التصوير نظراتك إليها لبانت فيها أطرافُ اللهب الأحمر مما في نفسك منها. ولعَمري لو مرت عربة تَدْرُجُ في الطريق ونظرتَ إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة المحتَبَسة المكفوفة (2) لظننتك

---

(1) هذه كلمة استعملها بعض المولدين في معنى الظريفة (المدردحة) وليس كذلك معناها في اللغة، ولكن الاستعمال صحيح عندنا واللغة لاتأباه

(2) يستعمل الكتاب في هذا المعنى لفظ (المكبوتة) وهو تعبير ضعيف والأفصح ماذكرنا هنا

ستري العجلة الخلفية عاشقاً مهتاجاً يطارد العجلة الأمامية وهي تفر منه فرار العذراء . . .

* * *

فضحك وقال : لا ، لا . إن نوع التصور لإنسان هو نوع المعرفة لهذا الانسان ، ومن كل حبيب وحبيبة تجتمع مقدمة ونتيجة بينهما تلازم في المعنى ؛ والمقدمة عندي أن إبليس هنا في غير إبليسيته ، فلا يمكن أن تكون النتيجةُ وضعَه في إبليسيته . وما أتصور في هذه الجميلة إلا الفنَّ الذي أسبغه الجمال عليها ، فهي في معرفتي وخيالي كالتمثال المبدَع بداعة لا يستطيع أن يعمل عملاً إلا إظهارَ شكله الجميل التام حافلاً بمعانيه .

ليست هذه المرأة هي الأولى ولا الثانية ولا الثالثة فيمن أحببت ؛ إنها تكرار وإيضاح وتكملة لشيء لا يكمل أبداً ، هو هذه المعاني النسوية الجميلة التي يزيد الشيطانُ فيها من عشق كل عاشق . إن بطن المرأة بلد ، ووجه المرأة بلد

قلت : هذا إن كان وجهها كوجه صاحبتك ، ولكن ما بال الدميمة ؟

قال : لا هذا وجهٌ عاقر ...

* * *

قلت : ولكن الخطأ في فلسفتك هذه أنك تنظر إلى المرأة نظرةً عملية تريد أن تعمل ثم تمنعها أن تعمل ؛ فتأتي فلسفتك بعيدة من الفلسفة ، وكأنك تغذو المعدةَ الجائعة برائحة الخبز فقط

قال : نعم هذا خطأ ، ولكنه الخطأ الذي يخرج الحقائق الخيالية من هذا الجمال ؛ فإذا سخرتَ من الحقيقة المادية بأسلوب فبهذا الأسلوب عينه تُثبت الحقيقة نفسها في شكل آخر قد يكون أجمل من شكلها الأول

أتعلم كيف كانت نظرتي الى نور القمر على هذه والى حسن هذه على القمر ؟ إن القمر كان يُنسيني بشريَّتَها فأراها متممة له كأنه ينظر وجهه في مرآة ، فهي خيال وجهه ؛ وكانت هي تنسيني مادية القمر فأراه متمما لها كأنه خيال وجهها

أتدري ما نظرةُ الحب ؟ إن في هذا القلب الانساني شرارةً كهربائية متى انقدحتْ زادت في العين ألحاظاً كشَّافة وزادت في الحواس أضواءً مُدرِكة ، فينفذ العاشق بنظره وحواسه جميعاً في حقائق الأشياء فتكون له على الناس زيادة في الرؤية وزيادة في الادراك يعمل بها عملا فيما يراه وما يدركه . وبهذه الزيادة الجديدة على النفس تكون للدنيا حالةٌ جديدة في هذه النفس ؛ ويأتي السرور جديداً ويأتي الحزن جديداً أيضاً . فألفُ قُبلة يتناولها ألف عاشق من ألف حبيب ؛ هي ألف نوع من اللذة ولو كانت كلها في صورة واحدة . ولو بكى ألف عاشق من هجر ألف معشوق لكان في كل دمع نوع من الحزن ليس في الآخر

* * *

قلت : فنوعُ تصورك لهذه الراقصة التي تحبها ، أن إبليس هنا في غير ابليسيته . . . .

قال : هكذا هي عندي ، وبهذا أسخر من الحقيقة الأبليسية

قلت : أو تسخر الحقيقة الأبليسية منك وهو الأصح وعليه الفتوى . . . .

فضحك طويلا وقال : سأحدثك بغريبة . أنت تعرف أن هذه الغادة لا تظهر أبداً إلا في الحرير الأسود ؛ وهي رقيقة البشرة ناصعة اللون فيكون لها من سواد الحرير بياضُ البياض وجمال الجمال . فلقد كنت أمس بعد العشاء في طريقي الى هذا المكان لأراها ، وكان الليل مظلماً يتدجَّى ، وقد لبس وتلدَّس وغلب على مصابيح الطريق فحصر أنوارها حتى بين كل مصباحين ظلمةٌ قائمة كالرقيب بين الحبيبين يمنعهما أن يلتقيا ؛ فبينا أقلِّب عيني في النور والغَسق وأنا في مثل الحالة التي تكون فيها الأفكار الحزينة أشدَّ حزناً — إذ رفع لي من بعيد شبحٌ أسود يمشي مِشيته متفتّرا قصير الخَطْو يهتز ويتبختر ؛ فتبصرته في هيئته فما شككت أنها هي ، وفتحت الجنة التي في خيالي وبرزت الحقائق الكثيرة تلتمس معانيها من لذة الحب ، وكان الطريق خالياً فأحسست به لنا وحدنا كالمسافة المحصورة بين ثغرين متعاشقين يدنو أحدهما من الآخر ، وأسرعت إسراعَ القلب إلى الفرصة حين تمكن ، فلما صرت بحيث أتبين ذلك الشبح

إذا هو . . . إذا هو قسّيس . . . . . .

***

فقلت : يا عجباً ، ما أظرفَ ما داعبك إبليس هذه المرة وكأنه يقول لك : إيه ياصاحب الفضيلة ...

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم فى شغل إذلم تكن نوبتها قد جاءت بعد ؛ وألقى الشيطانُ على لسانى فقلت لصاحبنا : مايمنعك أن تبعث اليها فلاناً يستفتح كلامها ثم يدعوها فليس بينك وبينها كلمة تعالَىْ أو تفضَّلى

قال : كلا ، يجب أن تنفصل عنى لأراها فى نفسى أشكالاً وأشكالاً ؛ ويجب أن تبتعد لأ لمسَها لمسات ٍ روحية ؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحقق فيها علم قلبى ؛ ويجب أن تدعَ جسمها وأدعَ جسمى وهناك نلتق رجلاً وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة . بهذا الفهم أنا أكتب وبهذه الطبيعة أنا أحب ماهو الجزء الذى يفتننى منها ؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه

وما هو هذا الكل ؟ هو الذى يفسر نفسه فى قلبى بهذا الحب

وماهو هذا الحب ؟ هو أنا وهى على هذه الحالة من اليأس

نعم أنا بائس ولكن شعور البؤس هو نوع من الغنى فى الفن لا يكون هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم . والحبيب الذى لا تناله هو وحده القادرُ قدرةَ الجمال والسحر ؛ يجعلك لا تدرى أين يختبىء منه جماله فيدعك تبحث عنه بلذة ؛ ولا تدرى أين يُسْفِر منه جماله فيدعك تراه بلذة أخرى . أنا أنضج هذه الحلوى على نار مشبوبة ؛ على نار مشبوبة فى قلبى

قلت : يا صديقى المسكين هذه مشكلة عرضتْ بها المصادفة وستحلها المصادفة أيضاً . وما كان أشد عجبى إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا (المشكلة) مقبلة علينا . . .

أما هو : أما صاحب القلب المسكين ؟

(طنطا) « لها بقية » مصطفى صادق الرافعى

(وحى القلم) أوشكت المطبعة أن تتم طبع هذا الكتاب فنرجو من كل مشترك غيّر عنوانه أن يكتب إلينا بعنوانه الجديد (الرافعى)

المشـــــيرة عايدة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قلما يستطيع الانسان أن يضع نفسه موضع إنسان آخر فى أمر يعنيه ، ولو كان هذا يسمه فى كل حال لكان الأرجح أن يضحكه الذى يمضه ويثقل عليه أو يبكيه . — فى هذا كنت أفكر وأنا أسمع قصة صديقى وكان قد دخل على وهو ينفخ ويمسح العرق المتصبب — عرق الخجل لا التعب والنصب ، فانه صاحب سيارة نخمة ضخمة لا تتعب الراكب ولا تكلفه جهداً غير النظر إلى الطريق وسكون الأعصاب واتزانها وهو يمرق بها بين المارة الذين لا يحلو لهم السير إلا وسط الشارع كأنما كان الشارع متنزهاً عاما وكأنمـا ينبغى على سائق السيارة أن يسير بها فوق الرصيف ليفسح لهم

وكان يحاول أن يقص على القصة وهو يمسح وجهه بالمنديل فكان نصف ما يقول يخرج مخنوقا فى مطاوى المنديل فقلت له :

« هلا انتظرت حتى ينشف هذا العرق »

فغضب وقال : بلهجة المعاتب « وأنت أيضاً . . ؟ ؟ »

فقلت : له وأنا أحاول أن أفىء به إلى الرضى « إنمـا أردت أن أقول إن المنديل يغيب فيه بعض الكلام فيجىء ما أسمع غير مفهوم . . على كل حال يحسن أن تبدأ من البداية »

قال : « البداية ؟ . ياخبر ! »

قلت : « عمن تتحدث ؟ . . يخيل إلى أنك ذكرت اسماً . . . »

قال : نعم . . عايدة . . »

قلت : « آه . . عايدة ؟ ؟ ومن عسى أن تكون هذه المحرمة ؟ ؟ »

قال : ألا تعرفها ؟ . هذا مدهش . . كيف يمكن . ؟ »

قلت : « يا أخى لا تغضب . . إنك تعرف أن ذاكرتى خوانة . . وليس من النادر أن أنسى أسماء من أعرف من الناس . . فاذا سمحت بأن تذكرنى بها فانى أعدك أن . . »

فقال : « أوه . . إنك تمزح ولاشك . . لا يمكن أن تجهلها »

قلت : أشكر لك هذه الثقة بسمة معارفى . . ولكنى أؤكد لك أن الأسم لا يحرك فى نفسى أى ذكرى . . . لا يثير أى اختلاج . . وليس هذا لأنها لا تستحق الذكر بل لأن الأسماء تقع من رأسى فى غربال واسع الخروق »

فاقتنع وشرع يصفها لى فهززت له رأسى وقلت : « خير من هـذا الوصف الذى لا يصف شيئاً أن تقول لى : أين تسكن أو أن تذكر لى بقية اسمها ... شىء من هذا القبيل ... أما أن تظن أنه يكفى أن تقول : « بنت جميلة هيفاء ممشوقة القوام .. فاسمح لى أن أؤكد لك أنك .. »

فرمانى بنظرة وأومأ إلى أن أقصر ، فأمسكت إشفاقا عليه . وبلع ريقه ثم أخذ يصف لى بيتها فضقت ذرعا بهذا الحال وقلت له : « يا أخى ما حاجتى إلى كل هذا ؟! وكيف تظن أن فى وسعى أن أعرف إنسانا من قولك إن لبيته شرفتين وأربع نوافذ أو عشرا وأن فيه خمس غرف أو ستا .؟ إنما أسألك عن الموقع ... عن الشارع أو الحارة أو الدرب ... ماذا جرى لعقلك اليوم »

وبعد لأى ما استطعت أن أعرف الشارع الذى فيه بيتها فتذكرت

وكانت عايدة هذه — كما قال — جميلة ، ولكن فى قولى « جميلة » اقتصاداً — أو إن شئت فقل إيجازاً مخلا — وما أكثر الجميلات ولكن ما أقلهن أيضاً . والجميلات التى تقع العين عليهن أكثر من أن يأخذهن إحصاء ، ولكن اللواتى يقعن من نفس المرء وتثبت على صفحة القلب صورهن — هؤلاء هن القليلات وعايدة هذه إحداهن . وإنه لسر ولغز لا يحل أنها بقيت إلى الآن بلا زواج ، فما تنقصها لا الرشاقة ولا الظرف ، ولا أنس الحديث وعذوبته ، ولا دماثة الطباع وحلاوتها ، ولا وفاء الثقافة ولا حسن التدبير وكياسة التصرف . وكانت — ولعلها لا تزال — تلازم شرفتها ولا تكاد تغادر بيتها إلا لضرورة ملحة أو حاجة ملجئة ، ولا تخرج حين تخرج إلا ومعها أبوها أو أمها أو واحد غير هؤلاء من أهلها . ولعل هذا هو الذى زهد فيها ونفر منها فما أدرى . على أنى أعرف أن هذا الحبس قد أغراها بضروب من العبث ، فهى لا تزال فى شرفتها فى حفل من الزينة أو فى قميص نوم هفهاف يتركها عارية النحر إلى الثديين ، مكشوفة الذراعين إلى ما فوق الكتف ، أو فى منامة — بيجامة — من الحرير الرقيق محبوكة التفصيل على قدها المشوق وجسمها الرخص ، وإذا كانت لا تخرج وكان فى البيت من يغنيها عن العمل ويعفيها من مشقاته ، وكانت الشقة على اتساعها أضيق من أن تكفى فتاة متعلمة حديثة الآراء فأنها لا تكاد تفارق الشرفة — فيها تقعد لتروح عن نفسها ولتقرأ إذا شاءت ، ولتنظر إلى الرائحين والغادين وتتسلى بالمناظر التى تأخذها عينها ، وقد ألفت ذلك فهى لا تستطيع أن تفطم نفسها عنه ؛ وأحسب أنها لو صرفها أهلها عن الشرفة لجنت ، فما لها عزاء غيرها ولا سلوى سواها ، وإذ كانت ترى كل ما يرى من الشرفة ولا يفوت عينها المفتوحة ما يقع أحياناً بين بعض الرجال والنساء فى حيها المكتظ بالناس وكانت لا تخالط إلا أهلها ، فليس من المستغرب — بل هذا لا غيره هو المتوقع — أن يقلبها صباها أحياناً فيصـدر عنها ما قد يعده المتشددون — وما أقلهم فى هذا الزمان — مخالفاً لمقتضيات الحشمة ، وما هو كذلك ؛ ولو قضى على شاب أن يحبس فى بيت ولم يؤذن له فى أكثر من النظر من الشرفة على حين يرى أنداده جميعاً يخرجون متى شاءوا إلى حيث يشاءون لكان من المحقق أن ينتحر ، ولكن عايدة لم تنتحر لأن نشأتها جملتها تألف هذه الحياة ، وان كانت لا تعزيها عن الحرمان مما ترى أترابها ينعمن به ، وأقله أن تزور أترابها كما يزرنها ، وحدهن ، وفى غير حاشية من الأهل والآباء والأمهات

ولكنى استطردت عن حكاية صديقى فلأعد إليه ، قال : «لعلك تذكر أنى كنت جارا لهذه الفتاة — أعنى كنت أسكن بيتاً يقابل بيتها ، وكان لا بد أن أراها وأن أعجب بها فأنها كما يقول الشاعر : « بيرنز » — (يكفى أن تراها لتعشقها) .. »

فقاطعته عامداً وقلت : « عفواً !! لو كان بيرنز قد قال هذا لما كان فى قوله ما يستحق الذكر ، ومن الصعب ترجمة هذا البيت من شعره ، ولكنى أظن أن الذى أراده هو أن معنى أن تراها أن تحبها . . أى أنه لا حيلة لمن يراها إلا أن يحبها . . على كل حال تفضل »

فنفخ وتأفف وقام وتمشى ثم عاد إلى مجلسه فما له صديق غيرى

يستطيع أن يبيحه دخلته

وقال بعد هنيهة : « طيب . . قل ما بدا لك . . اللهم أنى أعجبت بها . . شغلت بها زمناً حتى لكدت أهمل عملى وأسيء إلى نفسى . . ويجب أن أعترف لك بالفضل فى رد ما ذهب من عقلى ... »

فهممت بأن أقول شيئاً مثل « العفو » أو ما هو من هذا بسبيل ، ولكنه أشار إلى فرددت الكلمة التى كانت على لسانى ومضى هو فى كلامه فقال : « وتعلم أنى تركت البيت إلى سواه فراراً منها »

قلت : « أعلم ذلك وأظن أنى أشرت به فأن البعيد عن العين بعيد عن القلب »

قال : ولكنى أمس مررت من هناك ووقفت أتحدث إلى البواب زمناً وأنا أرجو أن تلتفت إلى ، فلما لم تفعل شرعت أنفخ فى البوق وعينى على الشرفة ، فرمت إلى نظرة وضيئة وابتسمت ، فكدت أطير من الفرح ، وكان البواب يحادثنى وأنا لا أصغى إليه ولا أدرى ما ذا يقول ولعله كان يرد على كلام لى نسيته ، فما كان لى غاية إلا أن أجمل لوقوفى مسوغاً فى نظر البواب . ولما كان البواب لا يكف عن الكلام وكان ينتظر منى أن أقول شيئاً فقد طلبت منه أن يجيئنى بقليل من الماء أفرغه فى جوف السيارة وما كانت بها حاجة إلى ذلك ، ولكن هذا ما خطر لى أن أصرفه عنى به فمضى عنى فرفعت عينى إليها فألفيتها لا تزال تبتسم فتظاهرت بأنى أصلح البوق ولكن عينى كانت عليها ، فأشارت إلى بيدها أن أمضى إلى آخر الشارع وأن أنتظرها هناك فأسرعت إلى مقعد القيادة ولم أنتظر البواب المسكين الذى أرسلته ليجيئنى بالماء وذهبت فى الطريق الذى أشارت إليه ووقفت أنتظر »

فقلت : « على أحر من الجمر ؟ »

قال : « لا تتهكم . . إن المسألة ليست مزاحاً .. نعم كنت على أحر من الجمر . . . فماذا تريد ؟ »

قلت : « لا شيء . . إنما أنتظر أن تذكر بيتاً لشاعر . . ألا يحضرك شيء من محفوظك . ؟ »

قال بلهجة جادة لم أكن أنتظرها : « أنا أقول لك ماذا كان يجول فى خاطرى . . لقد كنت أمنى النفس بوشك اللقاء الذى ظللت أرجوه عاماً كاملاً ولم يصرفنى عنه سواك . . . وكان لك حق . . الآن فقط أدركت أن الشباب يحتاج إلى التجربة التى تغرى بالتؤدة وتقص أجنحة الخيال . . كنت أحلم بأن أراها إلى جانبى فى السيارة وأحدث نفسى بقربها ؛ ولا أكتمك أنى ذهبت أنشيء أحاديث بينى وبينها .. أحاديث كانت تبدأ بالعتاب وتنتهى بالقبلات والعناق . . وكنت أتصورها تدنى ساقها منى — عفواً بالطبع — فأغتنم الفرصة وأدنى أنا أيضاً ساقى من ساقها فتنأى بها فأرد ساقى على مهل كأن الأمر كله جاء عفواً ، ثم نعود إلى هذا التدانى ولا تبعد عنى فى هذه المرة بل تبقى ساقها ملاصقة لساقى فأنعم بهذا القرب الذى لم أكن أطمع فيه بل الذى قطعت الأمل من إمكانه فى هذه الدنيا .. ونذهب إلى مكان خلوى .. وكان خيالى يتشبث بأن يكون المكان خلوياً لا يخلو من أنس ولكنه لا يبلغ من ضجة الناس وزحامهم فيه أن يعكر وجودهم الصفو وينغصه ، فاذا بلغناه وقفنا وطلبنا شيئاً نبل به ريقنا ويدور الحديث بغير انقطاع ، كما لا بد أن ينقطع والسيارة تخطف فى الطريق ، وتلتقى العين بالعين ويحن القلب إلى القلب وتتصل الأيدى وتتداخل الأصابع وتسرى الوقدة منها إلىّ ، ومنى إليها ، فتتلامس الشفاه ويستريح الصدر إلى الصدر ويحف ذراعى بخصرها ويحيط ذراعها بعنقى ، ثم نتباعد ونتنهد وقد شفى كل منا بعض ما يجد وأوحى بشيء مما يجن فى تلك القبلة الطويلة التى يفرغ فيها روحه ويفضى بشوقه وصبوته . . . وكنت على استغراق هذا الحلم اللذيذ لمشاعرى وحواسى أنظر إلى الطريق ولا يفوتنى أحد ممن يمشون فيه . . . ولم يكن حلمى يمنعنى أن أنظر فى الساعة كل بضع ثوان . . وليس أشق من الانتظار ولكنى استطعت أن أنتظر نصف ساعة . . وما أقلها لو فكرت . . . وما نصف ساعة يقضيه شاب فى انتظار الفوز بلقاء ظل عاماً كاملاً يطمع فيه ثم انتهى به الأمر إلى اليأس منه ؟ ؟ ولكنى على هذا مللت وحدثتنى النفس أن شيئاً لابد أن يكون قد عاقها . . ذلك أنى أعلم أنها لا يسهل الخروج عليها وحدها ؛ فقلت لنفسى إنه لا ضرر على كل حال من الرجوع والمرور ببيتها لعلى أرى ما يهدينى إلى سبب هذه الغيبة الطويلة على الرغم من إشارتها الملحة أن أسير بسرعة وأنتظرها فى آخر الطريق ... وأوجز فأقول إنى رجعت من حيث جئت وتظاهرت بأن شيئاً فى السيارة يحوجنى

إلى الوقوف وترجلت وفتحت غطاء المحرك ولكنى لم أنظر اليه وإنما رفعت عينى إلى الشرفة ، وكانت عائدة واقفة فيها ومستندة كمادتها على حافتها وكأنما لا شىء هنالك ... لا أحد ينتظرها فى آخر الشارع منذ نصف ساعة ... كأنها لم ترسلنى إلى آخر هذا الشارع ... أدهى من هذا يا صاحبى أنها لم تكد ترانى حتى كادت تسقط على الأرض من الضحك .. نعم الضحك .. كانت تضحك لأنها ضحكت على وكلفتنى أن أنتظرها وهى لا تنوى أن تجىء ... ماذا يضرها أن أنفلق نصف ساعة ؟؟ ماذا خسرت هى إذا كنت أنا مغفلاً ؟؟ ماذا عليها إذا كنت صدقتها وتوهمت أنها تجن لى مثل الذى أجنه لها وأنى لبثت نصف ساعة أحلم وأمنى النفس بقربها وحديثها وابتسامها وقبلاتها وضماتها وعناقها ؟؟ لا يضيرها شىء بل يسرها أنها ضحكت على وخدعتنى واستغفلتنى واستحمقتنى وتركتنى أرتفع بخيالى إلى حيث شاءت لى السخافة ثم رمت بى إلى الأرض الصلبة . . . هل يعنيها أن عظامى رضت أو أنها تحطمت ؟؟ هل تبالى أن آمالى خابت ؟؟. هل تحفل الصدمة التى لا بد أن أحسها حين أعرف أنها كانت تعابثنى وتستغفلنى . ؟؟»

فقلت له « خذ » ومددت له يدى بسيجارة فتناولها وهو ذاهل ، وأضرمت له عود الثقاب وأنا أرد الضحك الذى أحس أنى سأنفجر به ... ونفخ الدخان مرة وأخرى ، وأحسست أنه صار أهدأ أعصابا ، فقلت « الحقيقة أنه » فصل « بارد ... لا شك فى ذلك »

وكان لا بد أن أتألفه بكلام كهذا ليهدأ ثائره ، ثم قلت له وقد آنست منه إقبالا « هى فتاة تعد محرومة من متع الحياة ... كل ما تعرفه من متع الدنيا أن تجلس فى الشرفة وتنظر ... أظن أن هذا لا يجوز أن يحسب فى المتع ... أولى به أن يزيد شموزها بالحرمان الذى تقاسيه ... بالحجر المضروب عليها ... أهلها ليسوا مخطئين لأنهم لا يعرفون إلا هذا الأسلوب ... وهى ليست مسرفة فى احساسها بالحرمان لأنها تعلمت ما لم يتعلمه أبوها وأمها ، وعرفت ما لم يعرفا ... والمجتمع المصرى عرف السفور ، ولكنه لا يزال بعيداً عن الحياة الاجتماعية التى تجعل السفور ذا معنى وفائدة . . . والبنت المصرية سافرة ولكنها لا تحيا الحياة الاجتماعية التى يستدعيها السفور . . . فكأنها تسفر لترى بعينها ما هى محرومة منه ... والنتيجة أن الفتاة صارت كالحجلة فى حكايات كليلة ودمنة ... لا هى بقيت محبوسة فى البيت ، ولا هى فازت بالمتع البريئة التى يقتضيها السفور ... لست أريد أن ألقى عليك محاضرة ، وإنما أريد أن ألفت نظرك إلى أن هذه الفتاة معذورة إذا هى التمست التسلية والضحك . . . وليس من العدل والانصاف أن نأبى عليها أن تضحك ، وأن نحرّم عليها أن تتسلى ... وليس من حقك أن تدعى أن لك عليها حقا فما هى بزوجة لك ولا صاحبة ... ولقد عرفت اسمها من أفواه الناس لا من أبيها ولا من أحد من أهلها . . . والمغازلة يا صاحبى مقامرة ... والمقامر يجب أن يحتمل الخسارة كما ينتظر من ملاعبيه أن يحتملوا الخسارة حين يربح هو ... وقد قامرت وخسرت ... ومن واجبك أن تتلقى حظك بابتسامة ... ضع نفسك فى مكانها . . . فأنك خليق أن تضحك مما حدث كما أضحك أنا الآن »

وانفجرت بالضحك المكتوم فنهض كالمغضب وقال : « أو تضحك ؟ »

قلت : « سبحان الله . . وهل كنت تنتظر منى أن أبكى ؟؟ والله إنى لأراها قد عاملتك كما تستحق . . . برافو عليها . . وياسخيف . . . ألا تعرف أنها لا تخرج قط فكيف صدقت أنها لاحقة بك . . »

قال : « يا أخى ألم أقل لك إنها أشارت إلى أن أسبقها »

قلت : « أنا أيضاً أشارت إلىّ مرات حين كنت أزورك . . وكنت أرى يدها تشير إلى أن أسبق فأتريث حتى أرى ما يؤيد ما فهمته من هذه الاشارة فكان ترَيثى يريها أنى لست بالخفيف الطياش . . ويخيل إلى الآن أن أساليبها لا تعدد فيها ولا ابتكار . . . مسكينة لا تعرف إلا أن تشير إلى الرجل أن يسبقها فاذا فعل ضحكت . . هذا كل ما عندها على ما يظهر »

قال : « أو تعذرها ؟ . . تلتمس الأعذار لها ؟ »

قلت : « المرة الآتية . . حين تستغفلك مرة أخرى . . اضربها علقة . . قم يا أبله . . واجبك الآن أن تقلب الصورة لترى وجهها الآخر . . صورتك أنت وأنت تنتظر وتحلم ولا تعرف ما أعدت لك . . . اقلب الصورة واضحك . . . »

فسرنى أن وقف هنيهة كالمفكر ثم انطلق يقهقه

ابراهيم عبد القادر المازنى

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٤ —

لم يكن عبثاً أن يسمى فلاسفة الاسلام أرسطو عظيم حكماء اليونان والرجل الآلهي ، وأن يرفعوه إلى منزلة لم يسم إليها واحد من الفلاسفة السابقين أو اللاحقين[١] . ذلك لأنهم وجدوا لديه حلولاً لكل مشكلة اعترضتهم ، ووقفوا في كتبه على مختلف المعلومات التي تاقت إليها نفوسهم . ودائرة المعارف الأرسطية واسعة وشاملة حقيقة بحيث يصادف الانسان فيها كل المسائل الفلسفية مدروسة دراسة مفصلة أو مشاراً اليها على الأقل . ولا تكاد توجد مشكلة من المشاكل الحديثة إلا وفى عبارات أرسطو ما يتصل بها تصريحاً أو تلويحاً . ويمكننا أن نقول إن هناك كتباً دبجها يراع أرسطو على أن تخدم فلاسفة الاسلام أولاً وبالذات . وحظ كتاب ما لا يقاس في الواقع فقط بمقدار ما يحوى من أفكار ، بل يرجع أيضاً إلى ما يحيط به من ظروف ومناسبات . فقد يكون ثانوياً في نظر مؤلفه ، ولكن الخلف يقدره تقديراً كبيراً لأنه اهتدى فيه إلى أجوبة على أسئلة العصر وحلول لمشاكل الجيل . ومن هذا الباب تماماً رسالتان صغيرتان لأرسطو لا يذكران في شيء قطعاً إذا ما نسبا إلى مجموعة مؤلفاته ، ومع هذا صادفا نجاحاً عظيماً في الفلسفة المدرسية الاسلامية ، ونعنى بهما رسالة الأحلام (Traité des Rêves أو Peri Enupnion) ورسالة التنبؤ بواسطة النوم (La divination par le sommeil) ونحن لا ننكر أن هاتين الرسالتين تحتويان على ملاحظات دقيقة في علم النفس فاقت كل النتائج التي انتهت إليها المدارس القديمة ، وإن تلاميذ أرسطو وأتباعه من المشائين اليونانيين عنوا بهما عناية خاصة . ولاسيما الأحلام وتعبيرها كانت من المسائل التي شغلت العامة والمفكرين في القرنين السابقين للميلاد والقرون الخمسة التي تليه ، وبعبارة أخرى في ذلك العصر الذى سادت فيه العرافة والتنجيم . غير أنا نلاحظ أن الرسالتين الآنفتى الذكر أحرزتا في العالم العربي منزلة لا نظير لها ، ولا نظن أن أرسطو نفسه كان يحلم بها . ويكفى لتعرف هذه المنزلة أن نشير إلى أنهما الدعامة الأولى التي قامت عليها نظرية الأحلام والنبوة عند الفارابي

لانظننا في حاجة إلى أن نثبت أن هاتين الرسالتين أرسطيتان ، فأسلوبهما وطريقتهما دليل واضح على ذلك ، وأرسطو يشير إليهما في بعض رسائله الأخرى الثابتة[١] . وقد تولى زلر (Zeller) من قبل توضيح هذه النقطة بما لا يدع زيادة لمستزيد[٢] . والذى يعنينا هنا أن نبين ما إذا كانت هاتان الرسالتان ترجمتا إلى العربية أولاً . وهذه مسألة غامضة بعض الشيء ، وليس من السهل البت فيها برأى جازم . فإن المؤرخين ، وخاصة ابن النديم والقفطى ، حين يتحدثون عن كتب أرسطو التي ترجمت إلى العربية لا يشيرون إليهما ؛ وكأن ما ترجم من كتبه السيكولوجية ليس إلا كتاب النفس المعروف ، ورسالة الحس والمحسوس[٣] . والفارابي نفسه في رسالته المسماة : « ما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » يقسم الكتب الأرسطية من حيث موضوعها إلى ثلاثة أقسام : تعليمية وطبيعية وإلهية . وبين الكتب الطبيعية لا يذكر رسالتي الأحلام والتنبؤ بواسطة النوم اللتين اعتاد المشاءون السابقون عدهما فيما بينهما[٤] . وكل ما يحظى به الباحث إنما هو إشارة غامضة إليهما في ثبت الكتب المنسوبة إلى أرسطو ، والذى أخذه العرب عن بطليموس الغريب[٥] . بيد أنا على الرغم من كل هذا نميل إلى الاعتقاد بأن

(١) ابن رشد ، مقدمة كتاب الطبيعة (الترجمة اللاتينية) انظر أيضاً Rennan, Averroès p. 55

(١) Aristote, De sonno, 11, 456 d, 16.

(٢) Zeller, Die Philos. der Griechen, 11, 2, p. 44-96.

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، طبعة القاهرة . ص ٣٥١ — ٣٥٢ القفطى ، تاريخ الحكماء ، طبعة ليبزج ، ص ٤١

(٤) الفارابي الثمرة المرضية ، ص ٥١ . نجد هذا التقسيم بنصه تقريباً في طبقات الأمم لابن صاعد (ص ٢٥) . ويغلب على الظن أن هذا الأخير أخذه عن الفارابي

(٥) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ٤٤ . يظهر أن العرب أطلقوا كتاب الذكر والنوم على المجموعة التي يسميها المحدثون :

٤٠ و ٧

هاتين الرسالتين إن لم تكونا قد ترجمتا إلى العربية رأساً ، فقـد وصلتا إليها عن طريق غير مباشر . وابن النديم يحدثنا عن كتاب فى تعبير الرؤيا لأرطا ميدورس نقـله حنين بن اسحق إلى العربية (١) ؛ ولا يبعد أن يكون العرب قد استقوا من هـــذا الكتاب أو من أى مصدر تاريخى آخر أبحاث أرسطو المتعلقة بالأحلام وتأويلها . ذلك لأن فلاسفة الاســلام يدلون فى هذا الصدد بآراء تشبه تمام الشبه الآراء الأرسطية . فحديث الفارابى عن النوم وظواهره والأحلام وأسبابها لا يدع مجالاً للشك فى أنه متأثر بأرسطو وآخذ عنه . وقد كتب الكندى من قبل رسالة فى ماهية النوم والرؤيا وصل الأمر ببعضهم أن عدها ترجمة لبعض الرسائل الأرسطية (٢) . وربمـا كان أقطع شيء فى هـذه المسألة أن نلخص آراء أرسطو ، وفيها وحدها ما يكفى لاثبات أن فلاسفة الاســـلام تتلمذوا له هنا كما أخلصوا له التلمذة فى مواقف أخرى

يذهب فيلسوف اليونان إلى أن النوم هو فقد الاحساس ، وأن الحلم صورة ناتجـة عن المخيلة التى تعظم قوتها أثناء النوم على أثر تخلصها من أعمـال اليقظة (٣) . وبيان ذلك أن الحواس تحدث فينا آثاراً تبقى بعد زوال الأشياء المحسة . فاذا ما جاوزنا الشمس إلى الظل قضينا لحظة ونحن لا نرى شيئاً ، لأن أثر ضوء الشمس على العينين لا يزال باقياً . وإذا ما حدقنا النظر إلى لون واحد طويلاً خيل إلينا بعـد مفارقته أن الأجسام كلها ملونة بهذا اللون (٤) . وقد نصم بعد سماع قصف الرعد ؛ ولا نميز بين الروائح المختلفة إذا شممنا رائحة قوية (٥) . كل ذلك يؤيد أن الاحساسات

= (Parwo naturalia) وهـذه المجموعة تشتمل على رسالة الأحلام والتنبؤ بواسطة النوم

وبطليموس الغريب شخصية مجهولة ، ويرجح أنه من مفكرى الرومان فى القرن الأول أو الثانى الميلادى . وقد اشتغل بأرسطو وترجم له وأبان كتبه (القفطى ، ٨٩ — ٩٠)

(١) الفهرست ، ٣٥٧ . أرطاميدورس أو أرطيميدور هـذا كاتب يونانى من رجال القرن الثانى الميلادى ؛ وله كتاب حقيقة عنوانه : تأويل الأحلام

(٢) Hanreau, Notices sur les manuscrits latins de la Bibliothéque nationale, Paris, 1889, t. v, p. 201.

(٣) Aristote, Trairé des Rèves, 1, 9 — 10

(٤) Ibld., II, 4

(٥) Ibid., II, 5,

تترك فينا آثاراً واضحة . وهـذه الآثار الخارجية تعطينا فكرة مقربة عن آثارها الداخلية التى تحتفظ بها المخيلة وتبرزها عنـد الظروف المناسبة (١) . فالأحلام إذن احساسات سابقة ، أو بعبارة أدق ، صور ذهنية لهذه الاحساسات تشكلها الخيالة بأشكال مختلفة . على أن الاحساسات العضوية أثناء النوم قد تؤثر فى الأحلام كذلك ، فيحلم الأنسان بالرعد مثلاً إذا صاح صائح أو ديك بالقرب منه ، أو أنه يأكل عسلا أو طعاماً لذيذاً لأن نقطة غير محسوسة من المزاج جرت على لسانه . وقد يرى النائم أنه يحترق فى اللحظة التى يقترب فيها من جسمه لهب ضئيل (٢) . وليست الاحساسات وحدها هى التى تؤثر فى الأحلام ، فأن الميول والعواطف ذات دخل كبير فيها . فالمحب يحلم بما يتفق وحبه ، والخائف يرى فى نومه عوامل خوفه ويعمل على اتقائها (٣) . وكثيراً ما نحلم بأشياء رغبت فيها نفوسنا أو فكرنا فيها طويلا (٤) . هـذه هى الأحلام فى حقيقتها وأسبابها . وعل فى هذه الأسباب ما يسمح لنا بتأويلها أحيانا . وقد يستعين الأطباء على معالجة مرضاهم وتشخيص دائهم بسؤالهم عن بعض أحلامهم (٥) . وإذا عرفت الأحساسات والظواهر النفسية المحيطة بحلم ما أمكن تعبيره . ومهارة مفسرى الأحلام قائمة على أنهم يتلمسون وجوه الشبه الموجودة بين الأحلام بعضها وبعض ، والعلاقات التى بينها وبين ظروف أصحابها الخاصة (٦) . بيد أن كل هذا لا يبيح لنا أن نتقبل الرأى الشائع القائل بأن الأحلام وحى من الله ، فأن العامة والدهماء يحلمون كثيرا بل المصيبون والثرثارون أكثر أحلاماً من غيرهم ؛ ولا يستطيع العقل أن يسلم بأن الله خص هؤلاء أو أغدق عليهم فيضه (٧)

لابد أن تكون هذه الأفكار الأرسطية قد وجدت السبيل الى العالم العربى حيث شغل موضوع الأحلام المفكرين على اختلافهم . فأهل الحديث ، معتمدين على بعض الآثار ، يفرقون بين الرؤيا الصادقة وأضغاث الأحلام (٨) . وهناك أحاديث كثيرة

(١) Ibid., II, 11.

(٢) Arstote, La divination, II, 7

(٣) « Traité des Rêves, II, 12

(٤) « La divination, II, 9.

(٥) Ibid., II, — 6.

(٦) Ibid., II 9.

(٧) Ibid., 1, 2 — 3

(٨) الأشعرى مقالات الاسلاميين ، II ، ٤٣٤

متصلة بالأحلام وأنواعها نكتفى بأن نشير الى بعضها . روى ابن ماجة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الرؤيا ثلاث : فبشرى من الله ، وحديث من النفس ، وتخويف الشيطان . وفى الصحيحين : « الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان . والمعتزلة يرون فى الأحلام آراء مختلفة : فيرجعها بعضهم الى الله ، ويذهب بعض آخر إلى أنها من فعل الطبائع [١] ومنهم من يجمع بين هذين ويقول إنها على ثلاثة أنحاء : نحو يحذر الله به الانسان فى منامه من الشر ورغبه فى الخير ، ونحو من قبل الانسان ، ثم نحو أخير من قبل حديث النفس والفكر [٢] . ويقول النظام إن الرؤيا خواطر مثل ما يخطر البصر [٣] . وهذا التفسير على اختصاره يحمل فى ثناياه بعض الأفكار الأرسطية

إلا أن رأى أرسطو فى الأحلام يبدو بشكل واضح لدى الفلاسفة . وقد خلف الكندى رسالة فى ماهية النوم والرؤيا سبق أن أشرنا إليها . وهذه الرسالة لا تزال حتى اليوم بين مخطوطات استامبول ، ونرجو أن نوفق الى نشرها قريباً [٤] وقد وقفنا عليها من طريق آخر ، فان المستشرق الايطالى البينوناجى نشر فى أخريات القرن الماضى بضع رسائل للكندى مترجمة الى اللاتينية [٥] وبين هذه الرسائل واحدة عنوانها De somuo et visions (النوم والرؤيا) ، ويكاد يكون من المحقق أن هذه الرسالة اللاتينية ليست إلا ترجمة للرسالة العربية المتقدمة . ونظرة الى هذه الترجمة اللاتينية تكفى لأثبات أن الكندى تأثر تمام التأثر بأبحاث أرسطو السابقة المتعلقة بالنوم والرؤيا . وقد قارن البينو ناجى بعض التعريفات الكندية بما يقابلها من التعريفات الأرسطية وأظهر فى جلاء ما بينهما من قرابة [٦] . وبهذا وضع الفيلسوف العربى أساس نظرية الأحلام الفلسفية فى الاسلام

(يتبع) ابراهيم مدكور

---

(١) المصدر نفسه ، II ، ٣٤٣

(٢) المصدر نفسه ، II ، ٤٣٣ ، ٤٣٤

(٣) المصدر نفسه ، II ، ٤٣٣

(٤) Bitler , Archiv Orientalni IV 1932, p. 64.

(٥) A l Kundi , Die philos. Abh. p 12 et suiv.

(٦) Ibid. , p. xzIII.

صور سياحة

٦ - يوم فى ڤرساى

بقلم سائح متجول

فى باريس جمهرة من الصروح والمشاهد التاريخية العظيمة التى تجذب الزائرين بماضيها وروعتها ؛ ولكن ڤرساى تتمتع بشهرة خاصة فى التاريخ والسياسة ؛ وقد كانت مسرح بعض الأحداث العالمية الكبرى التى غيرت مصاير التاريخ والأمم ؛ وبستان ڤرساى آية فى العظمة والروعة والجمال

فمتى كنت فى باريس ، فيجب ألا تفوتك زيارة ڤرساى وقصرها العظيم

وڤرساى فى الواقع من ضواحى باريس ، ولا تبعد عنها أكثر من ثمانية عشر كيلو متراً ؛ وفى وسعك أن تصل إليها بواسطة قطر خاصة من الترو تسير إليها يوم الآحاد ، وفى وسعك أن تقصد إليها بواسطة القطار العادى من محطة مونبارنارس

وڤرساى مع ذلك مدينة كبيرة يبلغ سكانها زهاء ستين ألفاً تخترقها شوارع كبيرة ، وبها كثير من الفنادق والمطاعم التى أعدت على ما يظهر خصيصاً للوافدين عليها ؛ وفى يوم الآحاد تبدو ڤرساى كأنها فى عيد ، وتكثر فيها الحركة عما يتقاطر عليها من وفود الزائرين من أهالى باريس ، ومن الأجانب من مختلف الأمم

قصدنا إلى ڤرساى فى صباح يوم أحد بالقطار العادى ، وكان غاصاً بالقاصدين إليها من فرنسيين وأجانب ؛ وكان يوماً بديعاً سطعت شمسه بعد أن أزعجنا المطر فى باريس أياماً متوالية ؛ فوصلنا إلى ڤرساى فى نحو نصف ساعة ؛ وقصدنا إلى القصر تواً ، وهو قريب من المحطة ، يشرف على ساحة واسعة ؛ ولفت نظرنا لأول وهلة كثرة الجند الذين يتجولون فى المدينة ، وفى ڤرساى كما علمنا حامية كبيرة

ومن الغريب أن واجهة القصر الخارجية لا تتمتع بكثير من الجمال والروعة ، ومنها يبدو البناء كأنه معسكر ضخم ؛ ولقد ذكرنا ذلك بواجهة قصر الفاتيكان الخارجية التى لا تدلى بشىء من عظمته الداخلية ؛ بيد أننا ما كدنا نجوز إلى ساحة القصر

الداخلية ، ونشرف منها على بستانه العظيم حتى وقعنا على منظر من أروع ما شهدنا

يشرف قصر فرساى من الوجهة الخلفية على بستان شاسع ، قد نظم أبدع تنظيم ، ونمت به الأشجار الباسقة من أنواع لا نظائر لها فى حدائقنا . وفى مقدمة البستان مما يلى القصر مباشرة بحيرة صغيرة ساحرة ؛ وأرض البستان مدرجة ، تمتد منحدرة فى حظائر بديعة من الأحراج الصغيرة ، وحظائر من الزهر تأخذ اللب بمناظرها وألوانها الرائعة ، ويطبع مناظر البستان كلها طابع ساحر من الرشاقة والأناقة والتنسيق

وقد حول قصر فرساى كما حول قصر اللوفر إلى متحف ، ولكن القصر فى ذاته تحفة فنية رائعة ؛ وأعتقد أنه يفوق قصر اللوفر من حيث الجمال والخواص الفنية ، وإن كان اللوفر يفوقه من حيث الجلال والهيبة الملوكية ؛ ذلك أن قصر اللوفر كان مقر العرش ، ومقر الملوكية الفرنسية فى أوج عظمتها وازدهارها ، ولم يكن قصر فرساى إلا مصيفا ومقاما مؤقتا ، ولم يغـد مقر البلاط الدائم إلا فى فترات قليلة فى أواخر عصر لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر

وقصر فرساى أحدث عهداً من قصر اللوفر ؛ وقد بدأ قصراً متواضعاً أنشأه لويس الثالث عشر ؛ ولكن ولده لويس الرابع عشر فكر فى أوائل حكمه فى توسيع البناء وتحويله إلى قصر ملوكى عظيم الشأن ، فعهد بذلك إلى المهندس « لى ڤان » أشهر مهندسى العصر ، وخلفه فى تلك المهمة المهندس مانسار ، ثم دى كوتيه ؛ وقام بتنظيم البستان وإنشائه « لى نوتر » وأشرف على زخرفة القصر الفنـان « لى بران » وكلهم من أعلام هذا العصر الزاهر ، فجاء القصر وبستانه آية من آيات الفخامة الملوكية والفن الرائع

وقد كان القصر فى المبدأ مصيفاً ومقاماً مؤقتاً للملك وخاصته ، ولكنه غدا فى عصر لويس الخامس عشر مقراً للملك والبلاط ، وكان لويس الخامس عشر يؤثر الاقامة فيـه ويمضى فيه معظم أوقاته تحيط به خاصته ، وتقيم فيـه خليلاته إلى جانب زوجه الملكة الشرعية كما سنرى

* * *

ويتألف قصر فرساى من طبقتين غير الطبقة الأرضـية ؛ والطبقة الثانية والوسطى هى أبدع ما فيه ، وهى التى تضم تحفه وذخائره ؛ وتتكون هذه الطبقة من عدة أجنحة وأبهاء ملوكية شاسعة ، وتضم مجموعة ثمينة من الصور التاريخية التى تمثل كثيراً من المناظر الشهيرة والشخصيات الملوكية فى عصر لويس الرابع عشر ، ولويس الخامس عشر ؛ ويشغل جناح الملك لويس الخامس عشر الطرف الأيمن من القصر ، وقد عرضت فى غرفه الأنيقة مجموعات من الأثاث الملوكى النفيس ، ومنها أثاث غرفة الاستقبال ، وغرفة المكتبة وغرفة النوم ، والمتزين وكلها مما لا يزال يعتبر فى عصرنا من أجمل وأبدع النماذج الفنية ؛ وقد زينت الجدران ببعض المناظر الملوكية من حفلات الاستقبال والصيد وغيرها ، وزينت السقف بأبدع النقوش ؛ وتوجد فى هـذا الجناح مجموعة من الصور للملك لويس الخامس عشر وزوجه الملكة مارى لكزنزكا ، وبعض أفراد الأسرة المالكة ورجال الدولة من صنع أعظم مصورى العصر ؛ وفى هذا الطرف أيضاً ، وإلى جانب جناح الملك يوجد الجناح الذى كان مخصصاً لسكنى خليلته المركيزة دى بومبادور ، ومن بعدها لسكنى خليلته الدوقة دوبارى ، ومن الغريب أنه لا يبعد كثيراً عن الجناح الذى كان مخصصاً لسكنى الملكة الشرعيـة مارى لكزنزكا

ويلى هذا الجناح ، فى وسط القصر ، جناح لويس الرابع عشر ، وهو أفخم وأروع ، وبه غرفة نوم ملوكية مازالت تحتفظ بأثاثها ، وإلى جوارها ترى متزين الملك ، وخزائن الثياب ؛ وقد زين هذا الجناح بصور عديدة للويس الرابع عشر ، فى أوضاع ومناسبات مختلفة ؛ والملك يبدو فيها جميعاً قصير القامة ، محدودب الأنف ، وقد انسدل على كتفيه شـعره الغزير ، وبدت على وجه ملامح الكبر والخيلاء

ويوجد فى الطرف الآخر من القصر بهو شاسع تزينه مجموعة كبيرة من الصور التاريخية الضخمة التى تمثل أعظم المواقع الحربية التى انتصرت فيها فرنسا منذ فجر العصور الوسـطى حتى عصر نابوليون ، وقد صورت معظم هذه المناظر فى عصر نابوليون واشترك فى تصويرها أعظم مصورى العصر مثل لوى داڤيد ، وايزابى ، وڤرنيه ؛ وتبدأ المجموعة بمنظر يمثل انتصار الملك كلوڤيس على الرومان الغاليين (سنة ٤٨٦ م) ، ويليـه منظر استوقفنا طويلاً لروعته وطرافته ، هو منظر انتصار الفرنج على العرب فى سهول توروبواتييه سنة (٧٣٢ م) ، وهى الموقعة الشهيرة التى تعرف فى

التاريخ الإسلامي بموقعة البلاط أو بلاط الشهداء ، وفيها يبدو عبد الرحمن الغافقي قائد العرب شيخاً مهيب الطلعة تتدلى لحيته البيضاء الطويلة حتى صدره ، وقد وثب بجواده المضطرم إلى الطليعة وهو شاهر سيفه ، ولكن جنده يتساقطون من حوله أمام ضربات الفرنج ؛ وأذكر أنني رأيت هذه الصورة منذ أعوام في طبعة انكليزية لكتاب المستشرق دوزي عن الأندلس ، وكنت أتوق إلى معرفة الأصل الذي نقلت عنه ، فاذا بي في بهو ڤرساي أمام المنظر الرائع وجهاً لوجه

ويلي ذلك في صفين متقابلين مناظر لأعظم المعارك التي انتصرت فيها فرنسا مرتبة حسب العصور والتواريخ ؛ مواقع شارلمان ، ولويس الحادي عشر ، ولويس الرابع عشر ، وموقعة ڤالمي أشهر معارك الثورة الفرنسية ضد أوربا ، ثم طائفة كبيرة من مواقع نابوليون مثل مارنجو ، ڤاجرام ، أوسترلتز ، وغيرها بيد أن أعظم ما يثير الخيال في أرجاء هذا القصر الشاسع ، هو الذكريات التاريخية العظيمة التي كان مسرحاً لها ، والتي أسبغت عليه طابعاً خاصاً من الروعة والخلود ؛ ففي قصر ڤرساي عقدت مؤتمرات ووقعت معاهدات كان لها أكبر الأثر في تاريخ فرنسا وتاريخ العالم بأسره ؛ نذكر منها عهد استقلال الولايات المتحدة (أمريكا) الذي وقعته انكلترا في سنة ١٧٨٣ على أثر هزيمتها في حرب الاستقلال الأمريكية ، وقد وقع هذا العهد في قصر ڤرساي ترضية لفرنسا وتكريماً لها لما بذلته من كبير عون للأمريكيين في هذه الحرب التحريرية ؛ وكانت نتيجة هذا العهد الخالد أن قامت في العالم الجديد أمة حديثة مستقلة من أعظم الدول الديموقراطية ؛ وفي سنة ١٨٧١ ، على أثر محنة فرنسا وهزيمتها أمام ألمانيا في الحرب السبعينية (سنة ١٨٧٠) أرغمت فرنسا على أن توقع وثيقة هزيمتها وذلها في قصر ڤرساي نفسه ، في بهو المرايا الشهير Galerie des Glaces ، وهو البهو الشاسع الذي يتوسط القصر فيطل على البستان من ناحيتيه ، وأرغمت على أن تتنازل لألمانيا عن الالزاس واللورين ؛ وفي بهو المرايا أيضاً أعلنت الامبراطورية الألمانية ، وتوج أول امبراطور ألماني ، وهو ڤلهلم الأول (جيوم) ، وأجريت مراسيم التتويج في نفس البهو بحضور ملوك الولايات الألمانية المتحدة ، وهذه ذكريات من أسود الذكريات وأتعسها في تاريخ فرنسا القومي

على أن فرنسا اعتزمت غداة ظفرها في الحرب الكبرى أن تمحو هذه الصفحة المشجية وهذه الذكريات الأليمة من تاريخها وأن تثأر لشرفها القومي من ألمانيا ، وأن ترغمها على أن توقع وثيقة انكسارها وذلها في نفس المكان الذي اختارته ألمانيا من قبل لأرغامها وإذلالها ؛ ففي هذا البهو الشهير ذاته — بهو المرايا — وقعت ألمانيا معاهدة الصلح — أو معاهدة ڤرساي — التي فرضها عليها الحلفاء الظافرون في يونيه سنة ١٩١٩ ، والتي تثقلها بمختلف الفروض والمغارم الهائلة ، وتقضي عليها برد الالزاس واللورين إلى فرنسا

وليس في بهو المرايا اليوم ما يذكرنا بأعظم معاهدة عرفها التاريخ سوى لوحة بسيطة مؤثرة كتب عليها . « في ٢٨ يناير سنة ١٩١٩ ، ردت الألزاس واللورين الى فرنسا »

وفي نهاية البستان الشاسع من الناحية الأخرى صرحان آخران منعزلان هما قصر تريانون الكبير ، وقصر تريانون الصغير ؛ وقد أنشأ أحدهما لويس الرابع عشر ، وأنشأ الآخر لويس الخامس عشر ؛ وكلاهما حافل بالذكريات المذبة ، وكلاهما كان مسرحاً لليالي والحفلات الباهرة ؛ وكان تريانون ملاذاً محبوباً للملكة ماري أنتوانيت ، والامبراطورة جوزفين بوهارنيه زوج نابوليون

* * *

قضينا عدة ساعات في التجوال في هذه المعاهد والمشاهد التي تذكي الخيال الى الذروة وتحملنا الى عصور وعوالم أخرى ؛ وكانت الساعة الثانية بعد الظهر حينما انتهينا من هذا التجوال الممتع ، وغادرنا القصر المنيف والبستان الشاسع الى قلب المدينة حيث طفنا بطرقاتها برهة ، ثم عطفنا على مطعم نتناول فيه الغداء ، وقد رأينا أن الأثمان في ڤرساي ليست أقل ارتفاعا منها في باريس ، وأن موجة الغلاء المرهق التي قدمنا لك منها فيما تقدم أمثلة عديدة تعم فرنسا بأسرها

ولقد كان يوم ڤرساي خاتمة التجوال في رحلتنا البارزية ؛ وكانت الاقامة في باريس بما فيها من تكاليف وأثقال مرهقة ، وبما استوعبناه من مشاهدها ولياليها المماثلة ، قد أخذت تثقل على النفس ، فأزمعنا مغادرة العاصمة الفرنسية الى عواصم ومجتمعات أكثر ترحابا وأقل اعناتا وارهاقا ، وأرفع خلالا ومثلا

في الأدب المقارن

شخصيات الأدباء
في الأدبين العربي والانجليزى
للأستاذ فخرى أبو السعود

يكثر التشابه بين أفراد الجنس الواحد فى عالم الطبيعة فى الطبقات الدنيا من الأحياء، وكلما ارتقى الجنس فى سلم الحياة ازداد الاختلاف فى المظهر والصفات بين أفراد الجنس؛ وكذلك الحال فى المجتمعات البشرية: يتشابه الناس ويتقاربون فى المشارب والأغراض فى عصور الانحطاط، ويختلفون خلقاً وعبقرية فى عصور النهضات، ويتفرقون فى شعاب الحياة ودروب المطامح فلا يتفقون إلا فى تدفُّع الحياة فى نفوسهم وعلو هممهم وولوعهم بعيدات الأمور، فالتشابه والاتفاق من أمارات الانحطاط. والاختلاف والتميز من دلائل الرقى

وذلك الشأن فى آداب الأمم: فان أظهر ميزات عصور النهضات فيها اختلاف مشارب الأدباء وتباين شخصياتهم واستقلال نظراتهم إلى الحياة ووجهاتهم فى الفن، فهم وإن اتفقوا على مبدأ أو مذهب فى الأدب، لا يتشاكلون ولا يكرر بعضهم بعضا ولا يُغنى أحدهم عن سائرهم، بل ينتحى كل منهم ناحية من الحياة يوكل بها، ويرى الحياة جماء بمنظار نفسه لا بمنظار غيره، وينفث فى أدبه خلاصة عبقريته الفردية؛ أما فى عصور إدبار الأدب فيتماثل الأدباء حذوك النعل بالنعل، ويتهافتون جميعاً على نموذج الأدب أو الأنشاء الأدبى، لا ينفكون يقلدونه ويعارضونه ويغفلون بمحاكاته عن حقائق الحياة ولباب الفن، فيخرج أدبهم جميعاً صوراً مكررة من أنفسهم وأشكالاً ممسوخة من ذلك النموذج المحتذى أو القالب المصبوب

ويمتاز فحول الأدب الانجليزى، ولا سيما فى عصور نهضاته ببروز شخصياتهم واستقلالها واختلاف بعضها عن بعض اختلافاً تاماً، إلا فى اقتباسها جميعاً من نور الصدق، وإصدارها جميعاً عن معدن الشعور: فالنهضة الرومانسية فى مستهل القرن التاسع عشر مثلاً، كانت ذات أغراض معينة مشتركة بين جميع أعلامها: كانت ثورة على قيود الفكر وصناعة اللفظ وتقاليد النظم وعودةً إلى الطبيعة والبساطة، ونزوعاً إلى جمال الحياة، ومع ذلك يتباين فحول شعرائها وتبدو شخصياتهم بارزة واضحة الاختلاف فى الأخلاق والمشارب والأساليب:

فوردزورث كان موكلاً بالطبيعة ومجاليها وأسرارها، مؤمناً بضرورة استخدام لغة النثر السهلة فى الشعر؛ وشلى كان معنياً بالاصلاح الاجتماعى وعدواً لدوداً للملكية والكنيسة والتقاليد الحمقاء؛ وكولردج كان هائماً فى عوالم المجهول وأغوار الماضى السحيق؛ وسكوت كان مغرماً بالعصور الوسطى وتاريخها فى بلاده اسكتلندا، متغنياً بمجدها وفروسيتها، محيياً لأغانيها الشعبية؛ وبيرون كان بوهيمى النزعة جرىء الفكرة مشغولاً بقصص الأبطال، جزل الأسلوب رائعه دون تدبيج ولا تروّ

ولنضرب مثلاً آخر مؤرخى الانجليزية الثلاثة، الذين توخوا الفن والأسلوب الأدبى فى تواريخهم: جيبون وما كولى وكارليل، فأولئك شخصيات ثلاث متميزة: فالأول رصين الأسلوب واللفظ، محكم البنيان ميال إلى الموازنة فى المعانى والازدواج فى التراكيب، والثانى يراوح بين طويل الجمل وقصيرها، مولع بتصوير المناظر التى يمر بها تصويراً يقف بك أمامها وجهاً لوجه، كلفٌ بتاريخ مآثر وطنه وعظائم أبنائه ومواقف فخاره، أشدُّ تشبعاً بالوطنية وأقل نصيباً من النظرة الانسانية الشاملة من صاحبيه، والأخير قصير الجمل فجائى الأفكار، معنى بعظماء الرجال أخلاقهم وسحناتهم وآثارهم فى عصورهم

وقل مثل ذلك فى سائر مشهورى الأدباء الانجليز: كلهم

وقد يكون فيما اتخذته فرنسا أخيرا من الخروج عن معيار الذهب وتخفيض قيمة الفرنك بالنسبة للعملات الأجنبية شىء من التخفيف على السائحين وإغراء لهم بزيارة فرنسا بعد ما انصرفوا عنها فى الأعوام الأخيرة، ولكن الظاهر أن التخفيض الجديد لم يحدث أثراً يذكر إذ صحبه ارتفاع مماثل فى الأثمان، فاذا صح ذلك، وإذا لم توفق الحكومة الفرنسية الى تخفيض معيار العيش وإخماد تلك النزعة الجشعة التى تبدو فى كل صنوف التعامل فأن أولئك الذين زاروا فرنسا أيام ارتفاع الفرنك واكتووا بنار هذا الغلاء، يترددون كثيرا فى العودة اليها

(***)

مختلفو الشخصيات مستقلوها ، واضحو النفسيات ، متميزة شخصياتهم ونفسياتهم إحداها عن الأخرى ، تقاربوا فى العصور أو تباعدوا ، اتفقوا فى المذهب الأدبى أو اختلفوا ، وذلك أول دليل على حيوية الأدب ، وأصدق شاهد باستمداده من ينابيع الحياة الجارية ، لا من بطون الكتب الجافة ، فالحياة لا تفنى صورها تمدداً ، وهى تبدو لكل أديب صادق النظر والشعور فى صورة جديدة

وإنما تشابهت شخصيات الأدباء وتماثلت آثار الشعراء فى عصور تدهور الشعر فى أواسط القرن الثامن عشر ، حين بعد الشعراء عن الطبيعة وانغمروا فى المدينة ، وهجروا الحياة وغرقوا فى صفحات الكتب ، وأعرضوا عن وحى شعورهم وقلدوا من سبقوهم ، فعدوا پوب ودريدن المثل الأعلى الذى يحتذى ، والمطلب الأسمى الذى لا يطلب سواه ، واحتذوهما فى الغرض والأسلوب والعروض ، وتعاوروا أشعارهما معارضة واقتباساً واختلاساً ، فخرجت آثارهم جميعاً متشابهة متشاكلة بعيدة عن الفن لا تصور شخصيات قائليها ، وخملوا جميعاً من دون ذينك الشاعرين اللذين احتذوهما . فلا يهتم بآثارهم اليوم إلا مؤرخ الأدب المدقق المستقصى

وفى تاريخ الأدب العربى شخصيات مستقلة واضحة متميزة ، مخالفة كل منها للأخريات قولاً وخلقاً وأسلوبا ، كالمعرى الحكيم المشفق على أمة الطير والحيوان ، المعنىّ بتنازع البقاء وبنى الأحياء ، والمتنبى الطموح « المتعاطى للكبر وعلو الهمة » كما قال بعض معاصريه ؛ وابن الرومى المشغوف بالجمال الطبيعى والانسانى ، المنهوم بنعيم الحياة ولذاتها ، الدقيق النظرة ، الرائع التصوير ؛ وأبى نواس الماجن المستهتر ؛ والجاحظ الموكل بفنون الثقافة ؛ وبديع الزمان المعتد بنفسه ، الحريص على المادة المكاثر بثروته اللغوية ومهارته الصناعية ، السهل الديباجة ، الرائق الفكاهة . كل هاتيك شخصيات بارزة متميزة

ولكن بجانب أمثال أولئك حَفْلٌ كبير من مشهورى الأدباء الذين أتتنا آثارهم وانحدرت الينا بعض أخبارهم ، ولكن شخصياتهم مبهمة مطموسة ، يكتنفها الضباب ولا يستجليها الخيال ، وتتشابه كثيراً حتى تُضيف آثار بعضها الأدبية إلى آثار الأخرى فلا ترى فارقا ، ولا تحس مانعاً يحول دون ذلك من تباين الأساليب أو اختلاف النفسيات أو تضاد النزعات ؛ بل إن شخصيات بعض من تقدم ذكرهم من فحول العربية ، على كثرة ما وصل الينا من كتاباتهم وأخبارهم ، مبهمة فى كثير من نواحيها

ولا ريب أن لطول العهد وكر الزمن أثراً كبيراً فى تبديد الآثار ، وتغيير الأفكار والمشارب والأذواق ، وإحاطة شخصيات المتقدمين بغمائم من الغموض والغرابة مهما تحدث الشعراء بذكر الخلود ؛ ولكن هناك عدا هذا عوامل لابست الأدب العربى فأدت إلى غموض كثير من شخصيات كثير من أعلامه ، وتشابهها واختلاطها ، أولها شيوع الأمية فى الجاهلية وصدر الاسلام ، مما أدى إلى تبدد أخبار كثير من الشعراء وضياع أشعارهم واختلاطها ، ودخول الزيف والتمويه عليها ، مع أن شعر ذينك العصرين كان أصدق حديثاً وأكثر إفصاحاً عن شخصيات قائليه من شعر العصور التالية ، لولم تعبث به يد الأمية والنسيان

ولما انتشرت الكتابة لم تكن الطريقة التى جرى عليها المؤرخون فى ترجمة الأدباء هى المثلى : فقد اقتصروا على تواريخ ووقائع — كوفود الأديب على ممدوح أو اتصاله بديوان أمير — لا أهمية لها فى شرح نفسياتهم ، ولا غناء وراءها فى توضيح شخصياتهم ، وجاء كثير من التراجم مختزلا مجتزأ . وناقض بعض الروايات بعضاً ، وصعُب تصديق بعضها ، فظلت جوانب من تلك الشخصيات مغلقة ؛ فما أقل ما يعرف عن عبد الحميد وابن المقفع والطائى والبحترى وابن الرومى والمتنبى ، فهم لا يكادون يظهرون فى ضوء التاريخ إلا فى جناح أمير أو ركاب عظيم ؛ أما نشأتهم فمهملة ، وهى التى لها أكبر الأثر فى آدابهم ؛ وأما حياتهم اليومية فمغفلة ، كأن ليس لها خطر ولا شأن

وما قصر فيه المؤرخون لم يعوضه الأدباء أنفسهم : فكثير منهم لم يصوروا أنفسهم فى أشعارهم ورسائلهم صورا واضحة ، ولم يودعوها خلجات أفئدتهم ونظراتهم فى الحياة ، بل ما أكثر الكتاب الذين قصروا بيانهم على إنشاء رسائل الأمراء ، والشعراء الذين توفروا بأشعارهم على مديح أرباب النوال ، فامتلأت آثارهم الأدبية بذكر أناس كثيرين ووصف أحوالهم وأفكارهم ، فيما عدا منشئى تلك الآثار الأدبية أنفسهم وأحوالهم وأفكارهم ، فلاغرو جاءت آثارهم متشابهة ، لاتوضح شخصياتهم ولا تنهض ببعض ترجمتهم ، ومن العجيب أن أكثر الشعراء

إفصاحا عن أفكارهم الخاصة وحاجاتهم وشعورهم ، كانوا هم المجان والخلعاء الذين لم يكن لهم شعور ولا تفكير فى سوى اللذة والعبث كبشار وحماد

فالناظر فى ديوانى الطائى والبحترى ، وفى رسائل ابن العميد والصاحب ، لا يعثر إلا نادراً على فقرة أو أبيات مصدرة عن شعور شخصى للأديب هو ببيانه محتفل ، أو فكر جليل هو فى إذاعته جاد ، ولا يرى فى الشعر إلا مديحا وهجاء وشكوى للزمان وافتخاراً بعلو الشأن ، أو ما كان يجب للشاعر من علو الشأن ، وضرباً للأمثال واصطناعا للحكمة ؛ ولا يرى فى النثر إلا تنميقاً وتدبيجا واقتباساً وتكاثراً بسعة الاطلاع ، فلا غرو يتشابه أولئك الشعراء إلا تفاوتاً قليلاً فى الصياغة ، وأولئك الكتاب إلا اختلافا بسيطا فى الأسلوب ؛ فاذا أنت نزعت جانباً كبيراً من نظم أولئك الشعراء ، أو نثر أولئك الكتاب ، لم تشوه آثارهم بانتزاع ما لا غنى عنه لبيان نفسياتهم ؛ وإذا أضفت بعض آثارهم إلى بعض لم يَعُقْكَ عائق من تميز شخصية عن شخصية أو اختلاف منحى عن منحى

وهناك عامل خطير لا يقل عن هذا أهمية فى تشابه شخصيات الأدباء وتماثل آثارهم : ألا وهو نزعة المحافظة والتقليد التى صاحبت الأدب العربى منذ قامت الدولة العربية وانتشرت اللغة فى الأقطار ، فقد اتخذ الأقدمون مُثُلاً عُلياً فى البلاغة والشاعرية ، وألح المتأخرون على آثارهم وأغراضهم فى القول ومعانيهم محاكاة وتوليداً وتخريجاً ، وجالوا جولان المتقدمين فى ميادين المدح والهجاء ، والفخر ، وشكوى الدهر ، وضرب المثل واستخراج الحكمة ، واحتذوهم فى النسيب بليلى وهند والوقوف بالأطلال واستحثاث المطى وذرع الفلوات ، فكان للأدباء فى توالى العصور تراث أدبى واحد يتكرر ولا يكاد يتغير ، ويتشكل ولا يكاد يتحول ، ويأخذ منه كل أديب ويكاد يفنى فيه ، وينهل منه وتكاد شخصيته تغرق فى عبابه

فتقليد المتقدمين دون الطبيعة ، واتخاذهم مثلاً عليا يصدر عنها القول ، بدل أن يصدر عن الشعور الفردى المستقل ، من أكبر أسباب ركود الأدب وتشابه آثار الأدباء وتقارب شخصياتهم ؛ ومن ثم جاءت آثار كثير من الأدباء المتأخرين مُتَشَاكلة مُتَشابهة جميعها لآثار المتقدمين ، على تباعد الزمان واختلاف المواطن ؛ وظلت شخصياتهم غامضة لأنهم لم يَجْلُوها فى كتاباتهم جلاء صادقاً

ولما استفحلت الصناعة اللفظية ، واشتد الحرص على المحسنات البديعية ، غرقت معانى الشعر وأغراضه وشخصيات الأدباء جميعاً فى سيل من الألفاظ المرصوفة والعبارات المقتنصة من آثار المتقدمين ، وأصبحت دواوين الشعراء جميعاً ديواناً واحداً مملوءاً بالنكات اللفظية ، لا فرق بين أوله وآخره . وما أشبه ما قاله البهاء زهير بما قاله ابن نباتة بما قاله صفى الدين من نسيب متناه فى ادعاء الرقة والظرف ، ووصف لمجالى الطبيعة تُخالط فيه محاسن الطبيعة وصورها ببهارج الألفاظ وزخارفها مزجاً عجيباً ، وتُتطلَّب البراعة بأقحام مصطلحات العلوم كالنحو والمنطق والنجوم

ولا ريب أن أمتع الأدب للنفس ، وأعلقه باللب ، ما أبان عن شخصية قوية ، ونفسية مستقلة ؛ ومن ثم نرى أن ذوى الشخصيات الأصيلة والنظرات الصادقة فى حقائق الحياة ، كالمتنبى وأبى العلاء وابن الرومى والجاحظ ، هم الذين حظوا ، دون غيرهم من أدباء العربية الأقدمين ، بالدرس الطويل والترجمة المفصلة من كتاب عصرنا الحالى ، لأن آثارهم تشوق الدارس وتحفزه إلى الكتابة والتعليق والنقد ، وتحوى صوراً من أنفسهم يطيب للمطلع التأمُّلُ فيها والنظر إلى الحياة فى ضوء أفكارها . ولو حاول ناقد أن يترجم لمروان بن أبى حفصة ، أو مسلم بن الوليد ، أو مهيار ، أو البحترى ، أو الصاحب ، أو الحريرى ، ترجمة مفصلة تشرح نفسية المترجم وتميط عن نزعاته وميوله وعوامل ذلك ، مستمداً شرحه وتحليله من آثار الكاتب أو الشاعر الأدبية التى اشتهر بها ، لكلف نفسه شططا

فالناظر فى الأدبين العربى والانجليزى ، لا يسعه إلا أن يلاحظ أنه يجد فى تاريخ الأخير شخصيات قوية مستقلة ظاهرة التباين والاختلاف ، مصورة فى أعمالها الأدبية حتى لتكاد تغنى بها عن ترجمة المترجين ، وتحوى كتاباتها صورها النفسية الداخلية فلا تكاد تترك للمؤرخ أكثر من سرد التواريخ وبعض الوقائع وهى لذلك ممتعة جذابة يحس القارئ أن بينه وبينها على اختلاف اللغة والزمن والوطن تجاوباً وصلة شاملة هى صلة الانسانية ، ويطربه أن يراها تعالج نفس المشاكل وتخامرها نفس الخواطر والخوالج التى تساوره ، وأمثال تلك الشخصيات الواضحة أقل عدداً فى تاريخ الأدب العربى

فخرى أبو السعود

تشاؤم المتنبي
وما أعد لهذا التشاؤم

« كلمة أعدت لتلقى فى مهرجان دمشق فجاءت متأخرة »

للأستاذ خليل هنداوى

التشاؤم طبيعة العقل المتيقظ الذى فتح عينيه فرأى نفسه فى القافلة البشرية فأخذ يسأل نفسه : لِمَ يمشى ؟ ومن أين إلى أين ؟ ولكنه لبث يمشى ... وكيف لا يتشاءم العقل حين ينظر إلى الكون ويحاول أن يحكم على أشيائه بميزانه ، فيجد قاعداً ما كان يجب أن يكون قائماً ، وقائماً ما كان ينبغى له أن يكون قاعداً . هذه النظرة الأولى التى تبدأ فى العقل حين يتيقظ وعلى مقدار سعة دوائر العقل تتسع هذه الآماد وتتباعد هذه الدوائر . وهنا يعود العقل فى كل مراحله خاسئاً يحمل إلى النفس خيبته فى رحلته ، فتلقاه حاملاً الشقاء دون عزاء والحيرة دون إيمان ، والنفس إزاء هذا القلق العميق إما أن تعود إلى نفسها وبلتف بعضها على بعضها التفاف الأفعى ، تخلق من نفسها العزاء فى هذه الحياة ؛ وسواء عندها أن تخلقه من إيمان تفرضه أو تفاؤل تؤمن به ، فترى فى الحياة إشراقاً ولا إشراق وبهجة ولا بهجة ، فتنتهى مغتبطة بهذا التفاؤل الذى هو وليد ذلك التشاؤم المبطن به ، وإما أن تعود ولا تكسب من التشاؤم إلا التشاؤم

وقد يكون هذا التشاؤم عاماً يمثل رسالة الانسانية المتألمة ، وقد يكون خاصاً يمثل رسالة الشاعر نفسه ، يضع فيها آلامه ولا يتصل بالانسانية إلا بقدر ما تريد نفسه أن تتصل بها . وآفاق التشاؤم العام أوسع مدى ، وأصحابه أكثر نبلاً لأنهم أفنوا ذواتهم فى الذات الانسانية ، وأصبحت تتمثل فيهم كل آلامها وأوجاعها ، لأن الانسانية ذاتها تجهل ما تريد من الكون وما يراد منها . وآفاق التشاؤم الخاص ضيقة محدودة تدل على أنانية أصحابه ، إذ لو أن حظاً من حظوظ الحياة الضائعة أتاهم لبدل نظراتهم فى الكون ولون لهم شمساً جديدة بألوان غير ألوانهم

ولكن التشاؤم لا تتحد نتائجه ؛ فمن التشاؤم ما يذهب بصاحبه إلى الاستسلام حين يؤمن بعجزه ، وإلى الزهد حين يؤمن بفناء الحياة ، وهذا أقبح التشاؤم وإن يكن أصدقه عند العقل .

ومن التشاؤم ما يثير فى النفس قوى المقاومة فيها بالعنف والشدة ، وبهذا التشاؤم تهتز الحياة وتشرق ألوانها القاتمة ؛ فشوبنهاور ونيتشه رجلا تشاؤم حالك اللون ، ولكن تشاؤم شوبنهاور قاده إلى الاعتقاد بأن العدم وحده هو الذى ينقذ الانسانية من آلامها التى تتذوقها بين الموت والحياة . وتشاؤم نيتشه كان موقظاً لنفسه وحافزاً قوياً له لعبادة الحياة لأنها الحياة مهما كانت ألوانها ومهما طغت آلامها

لست أعرف فى الأدب العربى أبلغ تشاؤماً من اثنين : المعرى وابن الرومى وثالثهما المتنبى .. أما الأولان فقد سلكا فى تشاؤمهما مسلكاً عدمياً يدعو إلى احتقار الحياة ، والمعرى هو القائل بأن الولادة جناية ، وهو الذى غلبت عليه فكرة صوفية غير مؤمنة ؛ وابن الرومى هو الذى جعل من حياة الانسان مأساة يبدأ أولها بعويل الطفل حين يولد وتنتهى بمثله حين يموت . أما المتنبى فقد كان جهازه العصبى عنيفاً ، وكان تشاؤمه مضطرباً متوثباً لم يدفعه إلا الى مقاومة الحياة ؛ لا يصدفه عنها صادف لأنه مؤمن بها ومستهام بها ولو أنها عجوز درديس ؛ وقد كان تشاؤمه ، اجتماعياً — وهو ما اصطلح أدباؤنا على تسميته بالحكمة المتنبية — وتشاؤمه الاجتماعى كان وليد حظه فى هذا الوجود الذى جعل من حياته المبهمة والمعلومة مرحلة آلام وجهاد . تشاؤمه فى نظراته الاجتماعية ولا يرى منها إلا ما يتصل بنفسه ؛ ولقد يطغى هذا التشاؤم على بقية نظراته فى مسائل الحياة والكون لأنه كان مريضاً بحب معالى الأمور ، مريضاً بعظمة نفسه ، كأنما يرى — بعد أن حرمه المجتمع حقه — يرى واجبه أن يضع نفسه — وهو حربها — موضعاً عالياً ، وذا أقل ما يفعل ؟ ولا أستطيع إلا أن أتصور تلك الحدة فى جهازه العصبى الذى كان عنيفاً فى احتداده متوتراً فى هدوئه . وهنا كان سر اختلاف التشاؤم بين المعرى والمتنبى . فالمعرى كان أوسع أفقاً فى دائرته ومفازيه ، وكان نظره أعم فى مسائل الكون والحياة لأنه وقف درسه وشعره عليها ، وكان له فى زهده وعماه ما يصرفه عن الاشتغال بدنياه . فمال به تشاؤمه الى الزهد والعدمية كما مال بشوبنهاور . مع أن المعرى أحد محبى المتنبى والمتأثرين به ، أخذ منه تشاؤمه وأغفل ما كان عنده من أسباب المقاومة . وإذا فكر الانسان قليلاً فى حاله بدا له أن الكآبة

تنتظره ، وأن كل فكرة هنا تقوده الى الحزن . وما حياة الانسان على الأرض إلا مأساة تنتهى دائماً بالدموع والشقاء والموت . يعلم المفكرون هـذا المغزى ولـكن بعضهم لا يقول به . بل إن منهم من يدعو الى الايمان القوى بالحياة . ولـكن هل كان الناس كلهم يملكون هذه القوة الروحية ؟ وهما أمران مختلفان ؛ أن يتغلب المرء على تشاؤمه وهمومه فى سبيل اتمام دورة الحيـاة ، أو أن يجتنب الحياة تطغى عليه أنانية حاقدة . وهل كان هذا الايمان القوى بالحياة إلا نتيجة تشاؤم عميق ونفور عميق من الحياة وولع عنيف بها يولده هذا النفور ؟

فى فلسفة المعرى تشاؤم ليس بايجابى صرف ، ولـكنه تشاؤم سلبى . فيها انطلاق من الذاتية وتعلق بالذاتية : لا تطلق «أم دفر» لمجرد نتنها ولـكنها تدانت من « أم دفر » فلم تبؤ إلا بالخيبـة . فلسفة وجدت ذاتها ضائعة بين الذوات ؛ ومثل ذات المعرى لم تأت لتكون ضائعة ، فشنت الغارة على الدنيا وعلى أهلها وانتقمت لذاتها منها ومنهم ، وبهذا استغنت عن ذاتها فى ناحية وتمسكت بذاتها من ناحية ثانية . ولهذه الذات خطرها لأنها أنانية حاقدة نصبت نفسها فوق غيرها وطفقت تعطى أحكامها القاسـية على الناس وقيمهم وعقائدهم ، وتسخر منهم وتفشى معايبهم وتكشف عن مخازيهم ، وهى فى كل هذا فرحة مختالة ، ترى فى كل خطوة تخطوها ظفراً لها لامعاً . ولهذه العلة وحدها كان يأنس بالمعرى كل متشائم لأنه يحسن له الانتقام من الحياة وأبناء الحياة ولـكنه ظفر موهوم لا يكلف صاحبه إلا النقمـة . أما من لا يزالون يتلمسون فى أنفسهم بقية من الحياة النشيطة فهم لا يرضون عن هذا التشاؤم . فالمتنبى متشائم يهاجم فساد الناس والمجتمع ولـكنه لا يهرب من الحياة ولا ييأس منها يأساً قاتماً ، فى يأسه انطلاق وفى نقمته رضا ، وحياته وأدبه شيئان متصلان لا يمكن أن ينفصلا لأنهما يعبران أصدق التعبير عما يريد أن يقوله عن الحياة ، ولأن حقائقه العامة كانت مستخلصة من حقائق الحياة الخاصة

— ٢ —

ادخل فى كل باب ولجه المتنبى : فى اجتماعياته وفى إحساسه بذاته وفى نظراته إلى الحياة والموت وما وراء الموت تجـد فى ثنايا هذه النظرات تشاؤماً عميقاً ينفذ اليه النظر الثاقب ، وتجد أن هذه المقاومة التى تمثل الرجولة الـكبيرة قد كلفت صاحبها كثيرا ، وجعلت حياته مسرحا للاضطراب والشقاء . أما المجتمع عنده ، فهو غاب تتصارع فيه سباع الأنس ، ينال واحدها الشىء غلاباً واغتصابا . وقد تنقلب هذه السباع غرباناً ورخماً ، فويل للجريح الذى يشكو اليها ، وويل للذى يأمن لهم ، ويثق بهم ، ويفره منهم الثغر المبتسم . ولا عجب إذا تناحرت السباع فالحياء لا يسد لها جوعا والسلام لا يحفظ لها بقاء . والشاعر — خلال ذلك — يريد أن يكون أسداً — ولـكن حيياً — « وهل ينفع الأسد الحياء من الطوى ؟ » يريد أن يكسب ما لا يصمه وما لا يشركه فيه وغد . وإذا لم ينل ذلك فالذنب ذنب الزمان الهرم !

كيف يريد أن يقابل مثل هذا المجتمع ؟ أيشكو ويتعتب ، وهو فى كل قصيدة يشكو ويتعتب . أيسكن ويرضى ؟

وللواجد المكروب من زفراته   سكون عزاء أو سكون لغوب

أيرضى عن الحياة وما صفت إلا لجاهل متعاقل وما شقى فيها إلا عاقل ؟ أيطمئن إلى سرورها وقد رأى انتقاله ؟ أيسى فى منا كبها ومسماه منها فى شدوق الأراقم ؟ أيتعلل بشىء منها ولا أهل يتعلل بهم ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن ؟

اتخذ الشاعر مواقف متعددة إزاء المجتمع ، فهو طوراً يسعى إلى مداراة أصحابه ، وقلمـا يفعل فيصادق العـدو ومن نكد الدنيا مصادقته ، وهو طوراً — وقد مل من المبالاة بالأرزاء — يسعى إلى أن تهون عليه الأرزاء ، وأن يخدر إحساسه بها ، لأنه ما انتفع بالمبالاة . وطوراً ينظر إلى الأيام نظرة عميقة فلا ينكر عليها تقلبها ، ولا يمدحها ولا يذمها ، لأنها تبطن لا عن جهل ، وتكشف لا عن حلم ، ولأنها لا تشبع إلا إذا جاع ، ولا تروى إلا إذا ظمئ ! وفى هذه النظرة يدنو من مذهب القائلين باللاشعور فى الطبيعة . وقد يضطرب هذا الرأى فى نفسه فيتصور أن الناس هم الجانون لا الأيام وحدها ، فيزيد نقمته على المجتمع ، ويصبح لا يميل الى مجازاة الابتسام بالابتسام ، ولا الشك فى كل إنسان ، لأنه واحد من الأنام ، وإنمـا يريد أن ينتقم من الناس وأن يطأ قلوبهم وآمالهم كما يطأون قلبه وآماله

ومن عرف الأيام معرفتى بها   وبالناس روى رمحه غير راحم

وكيف يكون الذنب كله ذنب الزمان ؟ وربما تحسن الصنيع لياليه وإن كدرته أحيانا . ولـكن هو الانسان الذى يركب فى قناة الزمان سناناً . وقد يسأم الشاعر من هذه المقاومة العنيفة

فيعود الى عدم الاكتراث بدهره . ويرى أن هـذا المراد الذى تتفانى عليـه نفوس البشر أحقر من أن نتعادى فيه ونتفانى . ولـكنه ينظر الى نفسه فيرى أن هذا المراد الـكبير ، المراد الذى جل أن يسمى — هو سبب شقائه . فلو مال عنه لوجد فى الحياة رغداً كثيرا وراحة كبيرة ، ولـكن ما هى قيمة الحياة بدون مراد كبير ؟ والمتنبى ليس ممن يرضون بميسور عيشهم ! فيتعلل وهو أبلغ تعليل يراه بأن لا عذاب فى العذاب ، وأن كل بعيد الهم فيها معذب

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

فليحمل العذاب فى سبيل ما جل أن يسمى !

هذه مراحل كان يأوى اليها الشاعر فى نضاله ، أقربها تجثم فوقه غيوم سوداء من التشاؤم ، ولقد زاد فى تشاؤمه إحساسه بعظمته التى لا يقنعها مظهر من المظاهر ، وهو الذى كان فى محفل من الناس واليوم أصبح فى محفل من قرود ! ولـكن المتنبى إزاء هذه النوازع هل راح يبغض الحياة ؟ ظل احساس المتنبى برغم هذه العوارض التى ألمت به إحساساً قوياً فنياً ، يحب الحياة ولا ينكر ابتغاء كل نفس للحياة وحرصها عليها وهيامها بها . ومن الذى لم يعشق الدنيا والحياة ؟ ولـكنه لا ينسى أنها لا تنيل أرباً ولا تعطى غاية ولا تسمح بوصال . وقد كان هذا وحده كافياً فى خلق النفور منها ولـكن :

من لذيذ الحياة أنفس فى النفـ ـس وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أفٍ فما ملّ حياة وإنما الضـــعف ملا

وإذا كان الشيخ وحده يمل الحياة بسبب ضعفه فليبادر وهو فتى — الى الحياة — يستخلص منها ملذاتها قبل أن تستخلص منه نفسه ، ويجنح الى اللهو فأوقات اللهو تمر سراعاً كأنها كما قال قُبَل يزودها حبيب راحل ! والزمان لا لذيذ خالص فيه ولا سرور كامل . . . وليت شاعرنا يقنع بهذا التعليل ، فلقد تطغى عليه فى بعض مواطنه موجة من التشاؤم لا نجد لها مثيلاً إلا عنـد المعرى . . . ينظر الى الدنيا وقد أعياه أمرها فيراها خائنة :

. . . أخون من مومس وأخـدع من كفة الحابل
تفانى الرجال على حبها وما يحصـــلون على طائل

يراها خائنة معشوقة

ومن لم يعشق الدنيا قليل ولـكن لا سبيل الى الوصال

وقد نظر المتنبى فيما نظر الى الموت وما بعـد الموت ، فكان نظره قصيراً فيما وراء الطبيعة وخياله محدودا ؛ ليس له رأى ذاتى فيه وإنما يسمع ما قيل ويشك فيما قيل ؟ ولعله سما فى قصيدته التى رثى بها عمة عضد الدولة سمواً يذكرنا بما سما اليه المعرى فى الرثاء . فقد مزج نظرته بشىء من الفلسفة الوثنية التى تعيد الأرواح إلى جوها والأجساد إلى تربها وترى كل شىء معلقاً بالزمان

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجساد من تربه
يموت راعى الضأن فى جهله ميتة جالينوس فى طبـه
وربمـا زاد على عمره وزاد فى الأمن على سربه
وغاية المفرط فى ســـلمه كغاية المفرط فى حربه
لو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يسبيه لم يسبه

فكم فى هـذه الصورة الأخيرة من روعة وتشاؤم ! وقد تكون روعتها فى انطلاقها وإطلاقها الخيال للسامع ، فيصور ويمثل منتهى هذا الحسن الذى يسبيه ، وقد وددت لو أنقل صورة لمثل هذا المنتهى للشاعر الفرنسى « بودلير » فى قصيدته « جيفة » وهل يريد المتنبى من هذا المنتهى إلا هذه الجيفة ؟ وليته رسم لنا خطوطها وأتم صورتها ، ولـكن الموت قد يعكر على المتنبى هناءه ، ولـكنه لا يمنعه منـه وقد يستغل اسمه وهوله — أمام محبوبته ، وجيفته — فيطلب إليها أن تزوده من حسن وجهها قبل أن يحول ، وأن تصله فى هذه الدنيا لأن المقام فيها قليل ، أما رعشـة الموت فهو يحسها ويلمسها ويراها ويدرك كما أدرك المعرى بنظره الشامل أننا :

يدفن بعضنا بعضاً وتمشى أواخرنا على هام الأوالى

وهل فى هذه النظرات العميقة إلا تشاؤم عميق ؟ ولـكنه لم يُسلم صاحبه إلى الاستسلام ؛ تشاؤم يرى كل ما يشق منظره فيحسب يقظات العين حلماً ! ويعفو عن الزمن لأنه لا يعقل أن يبلغه ما ليس يبلغه الزمن من نفسه . وهكذا خلق هذا التشاؤم فيـه قوة يعود تعليلها إلى أمور كثيرة ، منها إلى مزاجه ومنها إلى بيئته ؛ وحقاً إذا كان مزاجه العصبى قد أضربه فى موطن

فقد عاد عليه بفوائد كثيرة فى مواطن كثيرة . منها هذه المقاومة المنيفة والمجابهة التى يطفح بها شعره ، وقد كان أولى بهذا التشاؤم أن يقوده إلى ما قاد المعرى إليه برغم أن المعرى لم يبل فى الحياة والأصحاب بمثل ما ابتُلى به المتنبى

هذا الجانب من جوانب المتنبى أعجب به وأعتز به لأنه علامة من علامات الرجولة الممسوخة فى هذا الجيل ، تصون عزتها ولا تنسى أن تبرز بذاتها إزاء كل ذات مهما تناهت عظمتها ، وهل تستطيع أن تجد قصيدة لم يطبعها المتنبى بذاته ؟ بل هل كان المتنبى قادراً على التجرد من ذاته ؟ ألا تراه يتغنى فى كل مقطوعة بذاته ؟ ويحن إلى غايته ويطأ هام الملوك والخلائق وينقض على الزمان براغمه وعلى الحظ يصاوله ، ولعل المتنبى أول شاعر قام يحاول إخضاع الحظ والناس لموازين العقل والذكاء

ولعل أصحابنا النقاد يرون مغامز فى المتنبى ، فيأخذون عليه رياءه ومبالغته وتقلبه ، ويتخذون موقفه مع كافور حجة على غدره وتقلبه . ومثل هذا النقد صدق يشهد به المتنبى وأشعاره ، ولكنى أعتقد أن هذا الرياء الذى تنقم عليه الأخلاق لم يكن إلا رياء فنياً — والرياء الفنى يغمر كل شعرنا وأدبنا ولا يزال ... ولو كان من نوع ذلك الرياء اللين لكان لصاحبه شأن مع رجال الأحكام . وإن شخصيته المتجردة من شعره كانت شخصية عنيفة قاسية لا تهاود فى عزتها . الأمر الذى يدل على أن رياءه هو الرياء الذى تواضع عليه شعراء ذلك العصر وأدباؤه وتقبلوه ولم يستقبحوه

حياة زاخرة بالأهوال والآمال كلما صدع لها الدهر أملاً زادت حزماً وعزماً ، غير مستعظمة إلا نفسها ولا قابلة إلا لخالقها حكماً ؛ حياة تود أن تنفصل عن الناس لتتصل بالناس ، وذات لم يترك لها الدهر مجالاً للنظر فى غير ذاتها ، فى شعرها أثر عصرها وبيئتها ، وفى شعرها أثر العصور . ولعمرى إن هذا لهو الأدب الحى الذى تتوق إليه الآداب العالمية اليوم ، أدب ترتسم فيه الرسالة القومية والرسالة الانسانية ...

ما أفقر أدبنا الحاضر على غناه إلى متنبىٍّ جديد يفيض قوة وعزيمة على رغم تشاؤمه ! ولعله إذا عاد يغير شيئاً فى رسالته ويجعلها رسالة قوية يفرضها فرضاً بقوة البيان شاعر ذو كبرياء وسلطان ، على شعب مريض أصبح السائر لا يسير بينه إلا بألف ترجمان

(رب الزور) خليل هنداوى

تاريخ العـــرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصـــل الأول

— ٤ —

مصادر الأخبار :

وإن المصادر الرئيسية الهامة التى تدور حول سبأ وحمير لهى (أولاً) تلك المسماة بالنقوش الحميرية ، و (ثانياً) الأحاديث المنقولة فى الغالب عن الأساطير والتى أبقاها لنا الأدب الاسلامى . وبالرغم من أن اللغة العربية الجنوبية قد ثبتت أقدامها فى بعض الأماكن الجنوبية القاصية حتى عهد النبىّ أو بعده بقليل ، إلا أنها أخذت تضمحلّ من أمد بعيد بتقوى لغة الشمال الجزلة الرائعة ثم أخذت منذ ذلك الحين تبسط سلطانها دون أن تجد لها منافساً فى رحاب شبه الجزيرة ، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة السابقة لم تتلاش نهائياً . وقد حدث فى القرن السادس الميلادى أن أناخ راكب بدوى بعيره وأخذ يتفرس فى دهشة فى بعض نقوش غريبة على حائط صخرى ، وقارن بين هذه النقوش العجيبة التى كاد الدهر أن يطمس معالمها وبين البقايا غير الواضحة تماماً للأراضى المجاورة ، التى كانت تفيض بالذكريات الجميلة . ويسمى المؤلفون المسلمون هذه الخطوط بالمسند ، وإن قليلاً من المسلمين كانوا يستطيعون قراءة حروف هجاء العربية الجنوبية ، بل كانوا ذوى دراية بمبادئ وقواعد علم الأملاء أيضاً ، وهذا يظهر لنا بجلاء من عبارة وردت فى الكتاب الثامن من الاكليل للهمدانى ، ومع أنهم قد استطاعوا تفسير أسماء الأعلام والتعرّف إلى مدلول الكلمات ، إلا أنه لم تكن لديهم معلومات ثابتة عن اللغة نفسها ، وسأشرح فيما بعد كيف كشفت هذه النقوش مرة ثانية بفضل بعض الرحالة الأوربيين ، وكيف فسرت وأوّلتْ حتى غدوا على بينة منها قادرين على اتخاذها أساساً للبحث التاريخى ، وما هى النتائج التى جنوها من دراستهم لهذه الناحية ؛ ولكن قبل أن نأخذ فى شرح ذلك أرى من الضرورى أن أقول لماذا استعملتُ لفظ « العربية الجنوبية » أو « السبئية » القليل التداول بدلاً

من « الخطوط الحميرية » و « اللغة الحميرية » : ذلك أن كلمة « حمير » ليست دقيقة إذا أردنا بها لغة هذه النقوش أم النقوش ذاتها ؛ أما من ناحية اللغة فلم تكن خاصة بأهل حمير ، بل كان يتكلمها كل قبائل اليمن المختلفة وأهل سبأ ومعين أيضاً ، وإن اختلفت اللهجات فى كل جهة عن الأخرى . وقد أطلق المسلمون على لغة اليمن القديمة اسم « الحميرية » لسبب بسيط ، ذلك أن الحميريين كانوا أقوى جنس سكن هذه البلاد خلال القرون الأخيرة السابقة لظهور الاسلام . ولو كانت جميع الآثار المكتشفة ترجع إلى عصر السيادة الحميرية لسمعنا عنها فى شيء من اليقين فيمن خلفهم ، ولكن الحقيقة هى أنها ترجع إلى عهد سحيق أيام العصور الأولى التى يرجع بعضها الى القرن الثامن قبل الميلاد ، وربما كان قبل تأسيس الأمبراطورية الحميرية بألف عام ، كما أن لفظ « سبئى » لا يوضح المقصود تماماً لأنه يغلب استعماله لاسم شعب أكثر من أن يكون لقبا سياسياً ، وعلى كل فانى أفضل لفظ « عرب الجنوب » على كل ما عداه

* * *

ومن أول رواد البحث والتنقيب فى بلاد اليمن العالم كارستن نيبوهر Carsten Niebuhr الذى قام بدافع نفسه وللذته الخاصة بأماطة اللثام عن النقوش . وقد طبع عام ١٧٧٢ م كتابه المسمى Beschreibung Von Arabien وقد رن صدى اكتشافاته فى مجامع أوروبا العلمية ورجح الظن بأن حمير وجدت فى بقايا مدينة شهيرة باسم ظفار [1] وفى ذات مرة لقيه أحد الهولنديين الذين اعتنقوا الدين الاسلامى وأطلعه على نسخة من النقوش جمعت كل الحروف الهجائية التى لم تكن معروفة من قبل ، ولكن — كما يقول — « أصابتنى حمى عنيفة فى تلك الآونة ، وكنت أستعد بين كل لحظة وأخرى للموت أكثر مما أعد نفسى لجمع النقوش القديمة [2] »

وبهذا ضاعت فرصة عظيمة ، ولكن الدهشة عادت ثانية إذ اكتشف البحاثة Ulrich Jasper Seetzen عام ١٨١٠ عدة خطوط فى جوار ظفار ونسخها بيده ، ولكن ما يؤسف له أن السرعة التى لازمت المكتشف جعلت المنسوخ غير متقن الضبط تماما . وقد اشترى أيضاً رسماً أخذه معه وانكب عليه فى أوقات فراغه ناسخاً إياه ، غير أن جهله للروح الأصلية أوقعه فى عدة أخطاء فى الحروف ، وبذلك لم تكن النتائج التى توصل اليها ذات قيمة [1] تذكر . وإن أول منسوخات قيمة للنقوش العربية الجنوبية وصلت إلى أوربا على أيدى الضباط الانكليز المشتغلين بحراسة الشواطئ الجنوبية والغربية لبلاد العرب وفى سنة ١٨٣٨ طبع الليفتنانت ج . ر . وللستد نقوش حصن الغراب ونقب الحجر فى كتابه المسمى Travels in Arabia

وإذا ذاك خطا أميل روديجر أستاذ اللغات الشرقية بجامعة هل (اعتماداً على مخطوطين فى مكتبة برلين الملكية جمعت فيهما كل حروف الهجاء الحميرية) خطا أول خطوة فى سبيل الكشف الصحيح ، فدحض الفكرة القائلة بأن خط العربية الجنوبية يجرى من اليسار إلى اليمين [2] ، تلك الفكرة التى أقرها « دى ساسى » وصادفت قبولاً عاما ، كما أظهر روديجر أكثر من ذلك أن آخر كل كلمة كان ينتهى بخط عمودى [3] ، وإن نقوش وللستد و Hulton و Cruttenden قد ألقت بصيصاً من النور على صنعاء ، وفسر رموزها Gesenius وروديجر كل منهما مستقلاً عن الآخر عام ١٨٤١ م

---

(١) يقول ياقوت الحموى فى (معجم البلدان ج ٤ — ص٨٦) : « ظفار هى صنعاء نفسها ، ولعل هذا كان قديما . وأما ظفار المشهورة اليوم فليست إلا مدينة على ساحل بحر الهند بينها وبين مرباط خمسة فراسخ » ويقول أيضا « وهى مدينة باليمن فى موضعين : أحدهما قرب صنعاء وبها كان مسكن ملوكهم » ونذكر على سبيل الأدب ما رواه ياقوت أيضا من أنه وجد على أركان سور ظفار مكتوبا « لمن ملك ظفار ؟ للحبشة الأشرار . لمن ملك ظظار ؟ لفارس الأخيار . لمن ملك ظفار ؟ لحمير ستجار » أى سترجع إلى اليمن (المترجم)

(٢) Beschreibung von Arabian, p. 94 ولكى يقف القارىء على مبلغ التقدم العظيم الذى حدث فى سبيل كشف وحل خطوط العربية =

= الجنوبية حتى سنة ١٨٤١ يمكنه مراجعة ما كتبه Rödiger عن هذا الموضوع Excurs ueber Himjaritische Inschriften فى ترجمته الألمانية لكتاب وللستد المسمى : Travels in Arabia ج ٢ ص ٣٦٨ وما يليها

(١) وقد طبعت نقوش جاسبر سيتزن فى المجلد الثانى (ص ٢٨٢ وما يليها فينا ١٨١١) فى Fundgruben des orients أما المشار اليه أعلاه فقد فسرها فيما بعد Mordtmann فى Zeitschrift der Deutschen Morgenländ-is-chen Gesellschaft المجلد ٣١ ص ٨٩ وما يليها

(٢) ولو أن أقدم النقوش تجرى من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال على التعاقب

(٣) Notiz ueber die himjaritische Schrift nebst doppeltem Alphabet dersellen

(فى) Zeitschrift für die Kunde des Morgen-lanpes, Vol. I (Goitingen, 1837), P. 332 sqq.

وتقاسمت انجلترا وألمانيا فخر الكشف عن هذه النقوش ، ولكن لم تكد تمضي بضع سنين حتى كانت فرنسا ثالثتهما ، وسرعان ما مضت قدماً فى هذا السبيل وتكللت بحوثها بالفوز العظيم ونالت قصب السبق . وفى عام ١٨٤٣ بدأ توماس أرنود T. Arnaud التنقيب والبحث بادئاً من صنعاء ، ونجح فى الكشف عن بقايا مأرب مدينة سبأ القديمة الشهيرة ، ولم يعبأ بتقهقر صحته ، بل نسخ ما يقرب من خمسين أو ستين مخطوطاً نشرت بعد ذلك فى الجريدة الأسيوية Journal Asiatique وقد عثر فى أسيندر على مترجم ماهر [١] ، وفى سنة ١٨٧٠ تنكر العالم اليهودى Josph Halévy واخترق « الجوف » شرق صنعاء التى لم يخترقها أوربى قبله منذ سنة ٢٤ ق م حينما قاد Ælius Gallus جيشا رومانيا من نفس الطريق ، وقد توصل هذا المكتشف الى نتائج أكثر أهمية بعد أن لاقى كثيراً من المتاعب والأهوال الخطرة ، ثم تمكن هاليفى أن يعود بعد أن نسخ قرابة سبعمائة مخطوط [٢] ، وفى أثناء ربع القرن الأخير جمع E. Glasser و Julus Euting أشياء أكثر أهمية بينما انكباب براتوريوس وهاليفى وميللر وموردتمان وغيرهم على البحث أزاد معلوماتنا عن لغة وتاريخ وديانة عرب الجنوب فى العصر السابق للاسلام

ولا يمكن القول بأن هناك دقة ما سواء فى أسماء الحكام الحميريين — كما يظهر ذلك مما كتبه المؤرخون المسلمون — أم فى الترتيب الذى جرت عليه فى وضعها ، ولو كان هؤلاء أشخاصاً تاريخيين لكان لهم ذكر فيما بعد ، والأرجح أنهم كانوا أمراء غير ذوى أهمية أرجعتهم القصص إلى العصر القديم وخلعت عليهم نعوت العظمة ، وعلى من يعتوره الشك فى هذا أن يقارن الصحف الحديثة بتلك التى استنبطت من النقوش [٣] وقد جمع د . ه . موللر أسماء ثلاثة وثلاثين ملكا من ملوك سبأ ، كما تكرر كثيراً ورود بعض الأسماء — وهذا دليل على قيام الأسر الحاكمة — وكانت تخلع عليهم الألقاب الأبهة ، وقد نجد كثيراً من هذا فى ذَمَرْ عَلِى ذِرِيحْ (الفخم) ويَهْمَرْ بَيَّنْ [١] (السامى) وكَرِبيَعِيلْ وَتَارْ يهنعم (أى العظيم المناح) وسمهلى ينوف . أضف إلى هذا أن الملوك كانوا يحملون ألقابا عدة فى المراسلات تنبى عن عصور ثلاثة فى تاريخ البلاد العربية كمكرب سبأ أو ملك سبأ وملك سبأ وريدان ، وبهذه الطريقة يمكننا أن نحدد على وجه التقريب عصر المبانى والنقوش المختلفة ، وأن نظهر أنها لا تنتمى إلى العصر المسيحى ، ولكنها تسبقه أحياناً بثمانية قرون على الأقل

وإن البون الشاسع الذى يفصل بين قوم سبأ وحمير المحبين للتجارة والسلام وبين العرب الهمج الذين بعث فيهم محمد (صلعم) ليظهر على أشده فى خضوع الأولين لآلهتهم التى تعد أساس الآثار الجنوبية العربية كما ذكر ذلك جولد زيهر [٢] . فكان الأمير يشيد معبداً للآلهة شكراً لنصرها إياه على أعدائه ويبارك الكاهن أبناءه وممتلكاته ؛ أما المحارب الذى فاز بقتل أعدائه أو بالأسلاب أو بنجاته من المنية فيقدم فروض الشكر ويتوسل فى ضراعة أن يكون على الدوام متقلباً فى أعطاف رعايتها . وكانوا يعتقدون أن الموتى يعيشون سعداء تحت رحمة إلهية كما كانوا يوقرونهم بل ويعبدونهم أحياناً [٣] ، وإن العبارة التالية التى ترجمها الكولونيل W. F. Prideaux لهى أوضح مثال على هذا وهى :

« لقد تقدم سعد الله وبنوه بنو مرثد بهذه اللوحة إلى مَقَهْ هِرَّانْ (سيد الأوَّام ذو عِران أَلِى) الذى تفضل بسماع الرجاء المرفوع إليه حينما أهدى اليه بنو مَرْثد أول ثمار أرض أرهقيم وان مَقَهْ هِرَّان قد تعهد بحماية سهول ومراعى هذه القبيلة فى مساكنهم لقاء ما يقدمونه اليه من الهدايا الكثيرة طول العام ، والحق أن أبناء سعد الله سينزلون أرض أرهقم وسيقربون الضحايا فى حرمى عشتر وشمس وسيكون هناك قربان آخر فى هرَّان (وكلا المعلين بغية أن يتكفل حروت بحماية

---

(١) Arnaud : Relation d'un voyage à Mareb (Saba) dans l'Arabie méridionale (Journal Asiatique)
فى المجلة الأسيوية المجموعة الرابعة ج ٥ (١٨٤٥) ص ٢١١ وما يليها ، ص ٣٠٩ وما يليها

(٢) Rapport sur une mission archéologique dans le yémen
فى الجريدة الأسيوية المجموعة السادسة ج ١٩ (١٨٧٢) ص ٥ — ٩٨ ، ١٢٩ — ٢٦٦ ، ٤٨٩ — ٥٤٧

(٣) D. H. Müllr : Die Burgen und Schlösser Südarabiens
(فى) S. B. W. A. Vol. 97, p. 981 seq

---

(١) راجع الرسالة العدد الماضى ص ١٨٤٧ عمود رقم ١ هامش رقم ٣ (المترجم)

(٢) Goldziher : Muhammedanis-che Studien, Part I, p. 3.

(٣) F. Praetorius : Unsterblichkeitsglaube und Heiligenverehrung bei den Himyaren
فى Z. D. M. G. المجلد ٢٧ ص ٦٤٥ وقد ذكر Hubert Grimme تفصيلا وافيا عن الآراء الدينية وعادات العرب الجنوبيين فى : Weltgeschichte in Karakterbilderr. : Mohammed (Munich. 1904) p. 29 sqq.

حقول بنى مرثد ، والتفضل بسماع شكواهم) وكذلك تقرب القرابين فى معبد مقه حرونت ، ويقتضى ذلك يتهيأ له المحافظة عليهم بناء على السنة التى اتبع نهجها سعد الله والتى شاهدها فى معبد مقه النعمان ، أما مقه هران فقد وقى أرض أرهقم الخصبة من الصقيع والطوارئ أو بعبارة أخرى من البرد القارس والحر اللافح [١] »

وقبل أن أختم هذا البحث القائم على البيان الناقص عن نقوش العربية الجنوبية لابد لى من أناشد فطنة قرائى الذين يعلمون كم يكون من الصعب أن يكتب المرء بوضوح ودقة عن موضوع ليست مصادره الأولى فى متناول يده ، خاصة إذا كانت نتائج البحث السابق تنقض على الدوام بيد العاملين الحديثين فى نفس الميدان

ومن حسن الطالع أن يكون تحت يدنا مرجع دقيق واف لتلك البقايا القليلة الناقصة ؛ فمعلوماتنا عن جغرافية بلاد العرب الجنوبية وعن الآثار والتاريخ القصصى مستقى جلها من كتابات شخصين من أهل اليمن تفيض كتاباتهما بالحماسة للمجد القديم والفخر به ، وتعتبر أقوالها — المتضاربة بين الحق والخرافة — من وجهة النظر الحاضرة — عملاً له قيمته ، وهذان الكاتبان هما حسن بن أحمد الهمدانى ونشوان بن سعيد الحميرى ، وفضلاً عن كتاب جغرافية العرب القيم المسمى « صفة جزيرة العرب » الذى طبعه د . ه . موللير ، فقد ترك لنا الهمدانى كتابا عظيما آخر فى تاريخ اليمن وآثارها ، ذلك هو « الاكليل » وينقسم إلى عشرة كتب هذا بيانها [٢]

الكتاب الأول : موجز تاريخ أصل الانسان ونشأته

الكتاب الثانى : تاريخ نسب الهميسع بن حمير

الكتاب الثالث : بخصوص صفات قحطان الممتازة

الكتاب الرابع : بخصوص العصر الأول من التاريخ إلى حكم تبع أبى بكر

الكتاب الخامس : بخصوص العصر المتوسط من عهد أسعد تبع الى عهد ذى نواس

الكتاب السادس : بخصوص العهد الأخير حتى ظهور الاسلام

الكتاب السابع : نقد البدع الفاسدة والروايات الكاذبة

الكتاب الثامن : القلاع والمدن والقبور التى شيدها الحميريون وشعر علقمة [١] والمراثى والنقوش وغيرها

الكتاب التاسع : ويتضمن حكم الحميريين وأمثالهم فى اللغة الحميرية وأحرف هجاء النقوش

الكتاب العاشر : بخصوص نسب قبيلتى حاشد وبقيل (كبيرتى قبائل همدان)

(يتبع) مترجمة محمد حبشى

---

(١) Transactions of the Society of Biblical Archaeology, Vol. 5, p. 409

(٢) نقل هذا الجدول : د . ه مبللر فى (Südarabische Studien ص ١٠٨ هامش رقم ٢) من الصفحة الأولى من مخطوط الكتاب الثامن من الاكليل الموجود فى المتحف البريطانى ولا يعرف أن هناك نسخة كاملة من هذا الكتاب ، ولكن بعض أجزاء كبيرة منه محفوظة فى المتحف البريطانى وفى مكتبة برلين الملكية

(١) هو علقمة بن ذى جدن الذى اقتبس كثيراً من شعره فى شرح القصيدة الحميرية

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

— ٢ —

وما فرغ زارا من كلامه حتى ارتفع صوت من الحشد قائلاً (لقد كفانا ما سمعنا عن البهلوان ، فليبرز لنا الآن لنراه)

فضحك الجميع مستهزئين بزارا ، وتقدم البهلوان ليقوم بألعابه وهو يعتقد أنه كان موضوع الحديث

— ٤ —

وبهت زارا مجيلاً أنظاره فى القوم ، ثم قال :

ما الانسان إلاّ حبل منصوب بين الحيوان والانسان الكامل فهو الحبل المشدود فوق الهاوية

إن فى العبور للجهة القابلة مخاطرة ، وفى البقاء وسط الطريق خطرا ، وفى الالتفات إلى الوراء وفى كل تردّد وفى كل توقف خطرٌ فى خطر

إن عظمة الانسان قائمة على أنه مَعْبَرٌ وليس هَدَفاً ، وما يُستحبّ فيه هو أنه سبيل وأُفق غروب

إننى أحب مَنْ لا غاية لهم فى الحياة إلا الزوال ، فهم يعرون ما وراء الحياة ، أحب من عظم احتقارهم لأنهم عظماء ، المتعبدين يدفعهم الشوق إلى المروق كالسهام إلى الضفة الثانية

أحب من لا يتطلبون وراء الكوكب معرفة ما يدعو إلى زوالهم أو ما يهيب بهم إلى التضحية ، لأنهم يقدّمون ذاتهم قرباناً للأرض ، لتصبح هذه الأرض يوماً ميراثاً للانسان الكامل

أحب من يعيش ليتعلّم ، ومن يتوق إلى المعرفة ليحيا الرجل الكامل بعده ، فأن هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله

أحب من يعمل ويخترع ليبنى مسكناً للانسان الكامل فيهيئ ما فى الأرض من حيوان ونبات لاستقباله . فان هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله

أحب من يحب فضيلته ، فما الفضيلة إلا الطموح إلى الزوال وإن هى إلاّ السهم تُنشبه أشواقه

أحب من لا يحتفظ لنفسه بشرارة واحدة من روحه ، فيتجه إلى أن يكون بكليته روحا لفضيلته لأنه بهذا يجعل روحه تجتاز الصراط

أحب من يكوّن من فضيلته ميوله ومطامحه ، لأنه بمثل هذه الفضيلة يتوق إلى إطالة حياته كما يتوق إلى قصرها

أحب من لا يريد الاتصاف بعديد الفضائل ، إذ فى الفضيلة الواحدة من الفضائل أكثر مما فى فضيلتين ، والفضيلة الواحدة حلقة ترتبط فيها الحياة

أحب من يجود بروحه فلا يطلب جزاء ولا شكوراً ، ولا يسترد ، فهو يهب دائماً ولا يفكر فى الاستبقاء على ذاته

أحب من يخجل من سقوط زهر النرد لحظه فيرتاب بغشّ يده ، إن أمثاله هم التائقون إلى الزوال

أحب من يبذل الوعود وهّاجة ثم يتجاوز عملة وعده ، إن أمثاله هم التائقون إلى الزوال

أحب من يبرر أعمال الخلف ويدافع عن السلف لأنه بذلك يسلّم نفسه إلى نقمة معاصريه ، فهو ممن يتوقون إلى الزوال

أحب من يعلن حبه لربه بتوجيه اللوم اليه ، إذ يجب أن يهلك بغضب ربه

أحب من يبلغ التأثر أعماق روحه فى جراحها فيمرضه أتفه حدث للفناء ، إن أمثاله يعبرون الصراط دون أن يترددوا

أحب من تفيض نفسه حتى يسهى عن ذاته ، إذ تحتله جميع الأشياء فيضمحل فيها ويفنى بها

أحب من يحرر قلبه ويحرر عقله حتى يصبح دماغه بمثابة أحشاء لقلبه ، غير أن قلبه يدفع به إلى الزوال

أحب جميع من يشبهون القطرات الثقيلة التى تتساقط متتالية من الغيوم السوداء المنتشرة فوق الناس ، فهى التى تنبئ بالبرق وتتوارى

ما أنا إلا منبئٌ بالصاعقة ، أنا القطرة الساقطة من الفضاء ، وما الصاعقة التى أبشر بها إلا الانسان الكامل

— ٥ —

وبعد أن ألقى زارا هذه الكلمات أجال أنظاره فى الحشد

وسكت ثم قال فى قلبه : لقد تملكهم الضحك ، فهم لا يفهمون ما أقول ، وما أنا بالصوت الذى يلائم هذه الأسماع

أعلىّ أن أسد آذانهم ليتمرنوا على الاصغاء بعيونهم ؟ أم يجب أن أضرب الصنج أسوة بوعاظ الصيام ؟ لعلّ هؤلاء القوم لا يثقون إلا بالألكن من المتكلمين

إنّ لهؤلاء الناس ما يباهون به فما عساه أن يكون ؟

إنهم يسمونه مدنيـةً ليميزوا بها أنفسهم من الرعاة . فهم لذلك ينفرون من لفظة الاحتقار إذا ما ذكرت فى معرض الكلام عنهم ، فلسوف أخاطبهم إذن عن غرورهم

سأخاطبهم عن أحقر الكائنات ، عن الانسان الأخير ، وتوجه إلى الحشد قائلاً :

لقد آن للانسان أن يضع هدفاً نصب عينيه ، لقد آن له أن يزرع ما ينبت أسمى رغباته ، مادام للأرض بقية من ذخرها ؛ إذ سيأتى يوم ينفذ هـذا الذخر منها فتجدب ويمتنع على أية دوحة أن تنمو فوقها .

ويل لنا ! لقد اقتربت الأزمنة التى لن يفوّق الانسان فيها سهام شوقه محلقة فوق البشرية إذ تخونه قوسه وتتراخى أوتارها

الحق ما أقوله : لن يخرج من الانسان كوكب وهّاج للعالم حين تزول بقية السديم من نفسه ، وهذا السديم لم يزل فيكم

ويل لنا ! لقد اقتربت الأزمنة التى لن يدفع الانسان فيهـا بالكواكب للعالم . ويل لنا ؟ لقـد اقترب زمان الانسان الحقير الذى يمتنع عليه أن يحتقر نفسه

اسمعوا ! هأنذا منبئكم عن الرجل الأخير

إنه من يقف متسائلاً عن نفسه فلا يعلم أمحبة هى أم إبداع أم تشوق ، أم توهج كوكب

وستصغر الأرض فى ذلك الزمان فيصطفر على سطحها الرجل الأخير الذى يحول إلى حضارة كل ما يدور به ، إن سلالة هذا الرجل لا تباد ، فهى أشبه بالبراغيث ، والانسان الأخير أطول البشر عمراً

ويقول أُناسى الزمن الأخير متغامزين : لقد اخترعنا السعادة اختراعا

لقد هجر هؤلاء البقاع التى تقسو عليهـا الحياة ، لأنهم شعروا بحاجتهم إلى الحرارة فأصبح كل واحد يحتك بجاره وقد احتاجوا إلى الدفء جميعاً

إنهم يقتحمون الحياة باحتراس لأن الوجل والرض فى عينهم خطأ ، وما سلم من الجنون من يتعثر منهم بالحجارة وبالناس

إنهم يأخذون قليلاً من السموم حيث يجدونها طلباً للذة الأحلام ويكرعون منها ما يكفى دفعة واحدة طلباً للذة الموت

وإذا هم عملوا فانمـا يعملون للتسلية محاذرين أن تذهب هذه التسلية بهم الى حدود الانهاك

ليس بينهم من يصبح غنياً أو يمسى فقيراً ، وكلا الفقر والغنى يجلب الضنى ، وما منهم من يطمح إلى الحكم أو يرضى بالخضوع وكلاهما محرج مرهق

ليس هنالك راع وليس هنالك إلا قطيع واحد . إن كلاً من الناس يتجه إلى رغبة واحدة ، فالمساواة سائدة بين الجميع . ومن اختلف شعوره عن شعور المجموع يسير بنفسه مختاراً إلى مأوى المجانين

ويغمز أمكر هؤلاء الناس بعينهم ويقولون : لقـد كان الجميع مجانين فيما مضى

لقد ساد الاحتراس بين هؤلاء القوم لأنهم أخذوا بالعِبر ، فهم يتلقون الحادثات متهكمين ، وإذا نشأ بينهم خلاف بادروا إلى حسمه صلحاً ، لأنهم يحاذرون أن تصاب معدهم بالعلل والادواء

لهؤلاء الناس لذاتٌ للنهار ولذاتٌ أخرى لليل ، غير أنهم يراعون صحتهم أولاً

« لقد اخترعنا السعادة اختراعاً » ذلك ما يقوله أُناسىّ الزمن الأخير وهم يغمزون

عند هذا أنهى زارا خطابه أو بالحرى تمهيد خطابه فتعالت أصوات التهليل من الحشد وهو يقول :

« إلينا بهذا الرجل الأخير يازارا ، اجعلنا على مثال أناسى الزمن الأخير فقد تخلينا لك عن الانسان الكامل

ولكن زارا وجم أمام هذا الحشد يسوده مثل هذا الروح فاستولى الحزن عليه وقال فى نفسه :

إنهم لا يتفهمون كلامى ، فلست بالصوت الذى تتطلبه هذه الأسماع

لقد عشت طويلاً فى هذه الجبال وأنصت طويلاً الى هدير الغدران وحفيف الأشجار فأنا أكلم هؤلاء الناس الآن كأننى أخاطب رعاة الماعز

إن روحى صافيـة تغمرها الأنوار كما تغمر القممَ تباشيرُ الصباح ، ولـكنهم يحسّون بالصقيع فى قلبي ويحسبوننى مُهرِّجاً يأتيهم بالمفجع من النكات

هاهم أولاء يحدجوننى بأنظارهم ويتضاحكون ، ففى قلبهم ثورة البغضاء وعلى شفاههم بسمة الثلوج

— ٦ —

وطرأ حادث كمّ الأفواه واسترعى الأبصار ، وكان البهلوان بدأ بألعابه فاندفع من النافذة وأخذ يتمشى على الحبل الممدود بين برجين فوق الساحة وما عليها من المتفرجين وما وصل إلى وسط الحبل حتى فتحت النافذة مرة ثانية واندفع منها فتى مخطط بالألوان كالمهرجين وسار متبعاً خطوات البهلوان صارخاً :

— إلى الأمام أيها الأعرج ! إلى الأمام أيها الـكسلان ، أيها المرائى ذو الوجه الشاحب ! اذهب لئلا تداعبك نعلى ، ماهو عملك بين هذين البرجين ؟ أفليس فى البرج مكان سجنك ؟ إنك تسد الطريق فى وجه من هو أفضل منك »

وكان الفتى يتقـدم خطوة كلمـا قال كلمة حتى أصبح قاب قوس من البهلوان ، وعندئذ وقع الحادث الذى كمّ الأفواه واسترعى الأبصار . فان الفتى لم يلبث أن صرخ صرخة الجن وقفز فوق العقبة القائمة فى سبيله . ولمـا رأى البهلوان انتصار خصمه عليه أخذه الدوار وخلت رجله عن الحبل فرمى عارضة التوازن من يديه وسقط فى الفضاء حيث لاحت رجلاه ويداه كعجلة تدور فى الهواء

وماج الحشد على الساحة كالبحر اجتاحته العاصفة الهوجاء وانفرط الناس مولين الأدبار وانفرج المـكان حيث كان يتجه الجسم بانحداره

ولـكن زارا لم يتحرك فوقع الجسم على مقربة منـه حيث تقطعت أوصاله وتهشم غير أنه كان لم يزل حياً ، وما عتم أن عاد روع الجريح إليه فرأى زارا جاثياً قربه فرفع رأسه وقال له :

— ماذا تفعل هنا ؟ ما كنت أجهل أن الشيطان سيضلل خطواتى يوماً وها هوذا الآن يجرنى إلى جحيمه ، أفتريد أن تمنعه ؟

فقال زارا :

— وشرفى يا صديقى إن ما تذكره لا وجود له ، فليس من شـيطان وليس من جحيم ، إن روحك ستموت بأسرع من جسدك فلا تخش بعد الآن شيئاً

فرفع الرجل بصره مشككاً وقال :

إذا كان ما تقوله صحيحاً فأننى لا أفقد شيئاً بفقـد الحياة . فلست أنا إذن إلا حيواناً رقّصت بالضرب وغُذّيت بأنزر غذاء

فقال زارا : لا ، ليس الأمر كما تقول فأنك اتخذت المخاطرة مهنة لك ولم يكن فيها ما يشين . أما الآن فمهنتك هى أن تفنى ، من أجل هذا سأدفنك بيدىّ

ولم يحر الدنف جواباً بل حرك يده باحثاً عن يد زارا ليصافحها دلالة على شكره

(يتبع) فيلكس فارس

النظرية العامة للالتزامات

فى الشريعة الاسلامية

للدكتور شفيق شحاته

٣

ملاحظات موضوعية على المؤلفات — أول ما يلاحظ على الفقهاء أن نظرهم لم يتجه أثناء وضعهم للحلول إلى طريقة تطبيق أحكامهم . فتلك الناحية العملية لا تكاد تظهر خلال جدلهم وأبحاثهم

على أن هذا ليس معناه كما ادعاه بعض المستشرقين أن التشريع الاسلامى لم يوضع إلا على أنه مثل أعلى ، يوصى باتباعه ، وأنه فى الواقع ونفس الأمر ، لم تتبع أحكامه فى الدول الاسلامية ، فإنا ، وقد رجعنا فى بحثنا الى كثير من الأوراق البردية المثبتة للوثائق القانونية مما كان يجرى به التعامل فى العصور الأولى للاسلام ، وإلى أحكام محكمة مصر الشرعية القديمة ، ويرجع بعضها إلى أكثر من خمسمائة سنة خلت ، نستطيع أن نؤكد فيما يتعلق بموضوع الالتزامات أنه لم يكن هناك تشريع أو قواعد أخرى متبعة فى المعاملات سوى قواعد الشريعة الاسلامية

وإذا كانت هذه القواعد قد خولفت بالفعل فى بعض الأحايين ، فقد كان ذلك خضوعا لظاهرة معروفة ، وهى أن الاحتياجات العملية تخلق دائما بجانب التشريع قواعد أكثر مرونة تلطف من حدته

من ذلك — وهذا فى نظرنا ، دليل على حيوية التشريع الاسلامى — ما وضعه الفقهاء من « الحيل » لتلافى بعض ما وضعوه من القواعد التشريعية الجامدة

على أن هذه الحيل تندمج تماما فى الهيكل التشريعى ، لأنها لا تصدم قاعدة من قواعده ، فهى عبارة عن عقود أو إقرارات صورية ، تنطبق عليها الأحكام التى وضعت للصورة التى اتخذتها لا لحقيقتها ، وقد ساعد على نجاح هذه الوسائل قواعد الاثبات وأحكام الصورية فى التشريع الاسلامى

فالحيل إذن ستكون محل دراستنا ، على أنها الجانب الحى للتشريع الاسلامى ، وهى قد كانت موضعاً لعناية (محمد) نفسه وهو أحد واضعى المذهب

وتظهر أيضاً الناحية العملية للفقه الاسلامى من خلال كتب « الشروط » ، وقد عنيت هذه الكتب بوضع صيغ لكتابة العقود والاقرارات . وقد اهتم بهذه الناحية أيضا (محمد) فى « المبسوط » ؛ على أن لهذه الناحية من الفقه فقهاءها الاخصائيين ، نذكر منهم (أبا زيد الشروطى) و (الطحاوى)

ويتضح لمن يتصفح كتب الشروط هذه أنها لم توضع لمجرد النظر : فهى تراعى دائما الاحتياجات العملية ، وتحيط العاقد علما بما يجب أن يتخذ لنفسه من الحيطة فى اشتراطاته مع اختلاف المذاهب

وهذه الصيغ لا تخلو من « الرطانة » القضائية كتكرار الألفاظ والمبالغة فى الاحتياطات ، ومن الغريب أنها على قدم عهدها يرد بها عبارات تشبه كثيراً ما نقرؤه فى العقود التى تحرر فى أيامنا هذه

وتظهر أخيراً الناحية العملية من خلال « الفتاوى » ، وهى مؤلفات جمعت ما أجاب به المفتون عما عرض عليهم من الأسئلة فى حوادث واقعية ، ولدينا من هذه المجموعات ما يرجع عهده الى سنة ١١٠٠ هـ ، وهى جميعها تتبع آثار الكتب الفقهية ، ولا تحيد عن الأحكام التى وردت بها قيد أنملة

ومما يؤخذ أيضاً على المؤلفين اهتمامهم الزائد بدقيق التفصيلات وتفننهم فى افتراض المسائل البعيدة الوقوع

وإن كان هذا التطرف فى التصورات ، وهذا التوغل فى الدقائق قد أفاد التشريع بعدد وفير من الأفكار والآراء ، فانهما مع ذلك قد أساءا إلى الروح القانونية . ذلك أن هذه الروح تمج التدنى الى صغائر المسائل كما تمج الدقة التى تتطلبها الرياضيات . فما يثقل على القانونى ، أن يرى المؤلفين يسترسلون فى عمليات حسابية معقدة

ويلاحظ أن المتأخرين قد وقعوا فى محظور آخر ، وهو التراشق بالأدلة اللفظية البحتة ، والاعتماد فى الاستدلال على المنطق المجرد

الروح العامة للفقه الاسلامي — يظهر لنا أن هناك نزعات ثلاثاً تسيطر على التشريع الاسلامي

(١) أما الأولى فهي النزعة الفردية . وقد يذهب البعض الى أن هناك نصوصاً كثيرة ترمى الى حماية مصالح الجماعة . على أن هذه النصوص لا تنهض دليلاً على أن النزعة الفردية ليست متغلبة ذلك أن التشريع الاسلامي اصطبغ في الأصل بصبغة دينية . فهو يرمى بطبيعته الى توفير السعادة على الفرد . والفرد — مهما حاول أنصار الاشتراكية في عهدنا هذا — سيبقى دائماً أبداً هو الغاية التي يسعى اليها كل تشريع ، وإذا غلبنا في بعض الاحيان مصلحة الجماعة فليس ذلك في الواقع إلا لكونها تتضمن في نفس الوقت مصلحة الفرد

(٢) أما النزعة الثانية فهي السعى وراء العدالة المطلقة عن المساواة . وقد ظهرت هذه النزعة في نظرية الالتزامات في صورة المساواة بين المتعاقدين . على أن الفقهاء قد توغلوا في هذا الاتجاه الى أقصى حدوده ، ومن آثار هذه النزعة نظرية الربا

(٣) والنزعة الثالثة ترمى الى الابتعاد عن كل ما من شأنه خلق القلق أو المنازعات في المعاملات . لذلك هم ينفرون من الغرر على كافة صوره . وقد توسعوا في بيان أحكام الجهالة الفاحشة واليسيرة . وذلك كله اتقاء للمنازعات . وسنرى أن هذه النزعة أيضاً قد ذهبت بهم بعيداً

وأخيراً نقول كلمة عما وضع في القرن التاسع عشر الميلادي من التقنينات في التشريع الاسلامي

أما « المجلة المدلية » فقد قام بوضعها في آخر عهد الدولة العثمانية فريق من الفقهاء . وقد جعلوا منها مجموعة نصوص أوردوها تحت أرقام متسلسلة . على أنهم لم يحاولوا قط إخضاع المسائل لقواعد عامة تكون هي موضوع المواد . فالمواد جاءت بالمسائل على أنها مسائل . وإن قليلاً من المواد جاءت بتعاريف ، منقولة هي كذلك عن الكتب الفقهية

وقام بعد ذلك في مصر (قدرى باشا) ، فوضع كتاباً سماه « مرشد الحيران » ذكر به مجموعة من الأحكام الشرعية على نسق القوانين المصرية . على أن محاولته وضع نظرية للالتزامات لم تفلح ، فاكتفى بذكر طرق انقضاء الالتزامات وبعض أوصافها ، وإن المواد التي وردت بها هذه الأحكام لا تخلو مع ذلك من الأغلاط . أما نظرية العقد كما أوردها فهي في الواقع نظرية عقد البيع

القانون المقارن — أما وقد بينا منهاج بحثنا في التشريع الاسلامي ، نتساءل هنا هل يجدر بنا بعد الوصول الى تعرف حقيقة هذا التشريع الرجوع الى غيره من التشريعات لمقارنته بها

قد يبدو هذا ضرورياً في زمن يكاد لا يخلو مؤلف فيه من مقارنة الشرائع . ولكننا رأينا الاعراض عن هذا الاتجاه ، لنتمكن من توجيه جميع جهودنا نحو بناء هيكل التشريع الاسلامي في موضوع الالتزامات ، حتى إذا ما تم هذا البناء ، نكون قد مهدنا لمن يهمه ذلك ، أن يقوم بدراسته المقارنة على أسس متينة

وهذا كله لا ينفي أننا في الواقع قد رجعنا الى أكثر من تشريع واحد في موضوع دراستنا هذه . فانا لم نخط سطراً واحداً إلا بعد إعمال الفكر في مختلف التشريعات ، ليصح فهمنا ، ووضعنا للمسألة على وجهها المطلق . فالمقارنة قد تمت بالفعل ، ولو أن القارىء لا يقرؤها في الغالب قراءة العين

ونلاحظ هنا أنه من السخف محاولة الوصول عن طريق مقارنة الشرائع الى اصدار الأحكام التقويمية على هذه الشرائع . فان التشريع كما قلنا ظاهرة من الظواهر الاجتماعية مقيد ككل ظاهرة بظروف الزمان والمكان ، ويخضع كذلك لمنطقه هو نفسه ، وإذا كان يجوز للغريب عن العلوم القانونية أن يدهش لغرابة بعض الأحكام ، ففقيه النفس يرى فيها على العكس دليلاً جديداً على أن العقل البشرى قد جاهد وناضل في مختلف البيئات في سبيل الوصول الى « الحقيقة القانونية »

مقارنة المذاهب — وقد استبعدنا كذلك مقارنة المذاهب واكتفينا مؤقتاً بدراسة مذهب (أبي حنيفة)

ذلك أنه قد تبين لنا أن الفقه الحنفي يمثل التشريع الاسلامي في أولى صوره وأنقاها ، ولا نرى مجاراة ما هو شائع من أن المذهب الحنفي هو أقرب المذاهب الى التشريعات الحديثة ، فهو

أبعدها عنها وإن كان فى مسائل العبادات يبدو أكثرهم تسامحا من غيره

أما التقسيم المشهور للمذاهب ، ما بين أهل الرأى وأهل الحديث ، فهو أيضا تقسيم لا نرى له معنى . فان جميع المذاهب فى الواقع تلجأ الى الاستدلال العقلى . سواء منها المالكية والشافعية والحنبلية . فمن المعروف أن نظرية « المصالح المرسلة » عند المالكية ، و « الاستصحاب » عند الشافعية ، تؤديان ما يؤدى إليه « الاستحسان » عند الحنفية . وهذا التقسيم لا يفيد سوى أن الفقه الاسلامى قد انتابه ما انتاب غيره من التشريعات . ففيها جميعها يتجاذب المفسرين دائما تياران ، تيار التوسع ، وتيار التضييق فى التفسير

ونلاحظ أنه فى موضوع الالتزامات قد راعى فقهاء المذاهب غير الحنفية احتياجات الحياة العملية أكثر مما صنعه فقهاء الحنفية . وذلك على رغم أن الأولين يتمسكون بالأحاديث فى أكثر المسائل خلافا للأخيرين . ويبدو لنا أن فقهاء الحنفية قد اجتهدوا فى جعل بنائهم التشريعى محكماً ، ففاتهم شىء من المرونة . أما الفقه المالكى فهو ظاهر الأخذ بما يتطلبه العمل من القواعد المعقولة . أما الفقه الشافعى فقد بقى متردداً بين النزعتين . بينما الفقه الحنبلى قد اكتفى بتخير الآراء من مختلف المذاهب ، ولم يظهر عليه أى طابع خاص . وفقه الشيعة يقرب كثيرا من فقه الشافعية

يتضح مما تقدم أنه من المفيد إن لم يكن من الضرورى إفراد الفقه الحنفى بدراسة خاصة . وفى الواقع أن الصناعة مختلفة فيه عنها فى المذاهب الأخرى . وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هناك تشريعاً مالكياً ، وتشريعاً شافعياً ، وتشريعاً حنبليا كذلك

ونذكر هنا أنه قد حاول بعض الفقهاء فى هذه المذاهب الارتقاء الى المبادىء العامة ، ومنهم (القرافى) فى الفقه المالكى ، و (العز بن عبد السلام) فى الفقه الشافعى ، و (ابن رجب) فى الفقه الحنبلى ، وفى الفقه المالكى نوع من المؤلفات وردت بها أحكام المحاكم ، وقد سميت « بالعمليات »

ونذكر أخيراً أنه قد اكتشف المستشرق (جريفينى) كتاباً فى فقه الشيعة الزيدية ، قال عنه إنه أقدم ما وجد من كتب الفقه الاسلامى

وقد اهتم بعض الفقهاء منذ العصور الأولى ، بإيراد أحكام المذاهب المختلفة مجتمعة ، وهو ما يسمونه بعلم « الخلافيات » . نذكر منهم (الطبرى) و(الشعرانى) ؛ على أن هذا العلم لا يفيد فى دراسة موضوعية للنصوص ، ذلك أنهم يوردون الأحكام ، كلا منها بجانب الآخر ، منتزعة من مذاهبها ، والمسألة اذا انتزعت هكذا فقدت الكثير من قيمتها ، وقد حاول (الشعرانى) التقريب بين مختلف المذاهب ، على أساس من الصوفية لا يهمنا

ومما تقضى به الطريقة التى نقول بها الاستعانة بكتب الطبقات ، وتاريخ القضاة ، والتاريخ العام لتتبع التطور التاريخى للتشريع ، وتقضى كذلك بالرجوع الى ما وصلنا اليه من الوثائق عما جرى عليه العمل بالفعل ، من قواعد التشريع الاسلامى ، كالأوراق البردية ، وما قد يرد فى كتب الآداب العامة من النصوص القانونية

(انتهى) شفيق شحاته

من زوايا الشباب

لَمْيه إن سالت يراعة شاعرٍ يشكو الغرام تسيل فيكِ جروحى
شرحُ الصبابة فى الوجوه فطالع فى ناظرىَّ ووجنتىَّ شروحى
لم يبقَ لى فكر لنظم قصيدةٍ إلاَّ موشح دمعىَ المسفوح
أفقدتنى عقلى فقلتُ أردّه
بالبعدِ عنكِ فكدتُ أفقدُ روحى

الشاعر القروى

عينى عليك

يا نجمةً فى سماء الحسن طالعة
عينى عليكِ ولكن أين منكِ يدى ؟!
إحدى يدىَّ إلى علياكِ أرفعها
مستعطفاً ويدى الأخرى على كبدى
أليس تشجيكِ شكوى شاعرٍ ملأت
آهاته الأرض وامتدت إلى الجلَد
أما تهيجكِ أنّاتٌ يرجّعها مستوحشاً و بشير الصلح لم يفدِ
هذا المحبُ وهذا وصف حالته يُجْنَى عليه ولا يجنى على أحد
لم تُبقِ منه عيون الغانيات سوى
شئ من الروح فى شىء من الجسدِ

فرحات

من طرائف الشعر المهاجر

كبد من تراب

تمر الليالى كرَّ السحابْ
وتمضى الأمانى كومض البروقْ
فحتّامَ يغمر هذا الضبابْ
حواشى نفسى فلا تبصرُ
وتبحث عنك فلا تعثرُ
تراها أضاعت إليكِ الطريقْ
***
وكل جمالٍ عيونى تراه
ولحنٍ شجىٍّ بسمعى استقرْ
وكلُّ عبيرٍ يفوحُ شذاهْ
وكل نسيم عليل بليلْ
يحدث عنك وما من سبيلْ
إليكِ وقد طال هذا السفَرْ
***
حنينٌ وشوقٌ وحبٌّ دفينْ
تُكابدُه كبدٌ من ترابْ
فإن يكُ فى الأرض ماء وطين
يحولُ ويفصلُ ما بيننا
وكنت اتخذتِ السُّهى موطناً
فيارب عجّل بيوم الذهابْ

م . معلوف

هى الدنيا

عادت إلى الأشجار أوراقها وعادت الدنيا تثير الشجون
تذكّر المسكين وادى الحمى ونام بالأحلام تحت الغصون
مرّى عليه اليوم ريح الصبا وأيقظيه من سبات الجنون
تحرشى بالورق وأسمعيه الخفيف
ردى إليه الرمق من قبل يأتى الخريف
يوم تمرّين على نائم أحلامه قد بددتها المنون
***
قالوا ربيع قلت أين الصبا أين الفراشات وأين الطيور ؟
أيام أعدو خلفها حافياً وكيفما فى الحقل دارت أدور
طائرة لكننى مثلها من فرحى ما بين تلك الزهور
وكل ما فى الوجود لنا حلال مباح
لا عاذل لا حسود لا غُرْبةٌ لا انتزاح
هذا ربيع أعطنى مثله وخذ إذا ما شئت كل الدهور

رشيد أيوب (الولايات المتحدة)

القصص

من الأدب الإيطالي

الوسيط

للقصصي الإيطالي « بوكاشيو »

بقلم محمد عبد اللطيف حسن

كان في فلورنسا منذ قريب سيدة إيطالية حسناء تدعى بريتولا ، وقد اشتهرت هذه السيدة بين أهل بلدتها بمكرها ودهائها وسعة حيلتها ، وكان ذكاؤها وفطنتها مثار دهشتهم ، وموضع إعجابهم . ومما يؤسف له أنها كانت متزوجة من تاجر غني لا يفهم الحياة إلا من ناحيتها المادية ، ولا يهتم بشيء قدر اهتمامه بما يجنيه من ربح ومنفعة من وراء تجارته ! أما حاله مع زوجته فلم تكن حال الزوج الموافق المهتم ! وهذا ما دعاها إلى النفور منه والميل إلى غيره

وقد أسعدها الحظ حينئذ برؤية شاب جميل كان دائم المرور أمام منزلها فأحبته حباً جماً وأصبح لا يهنأ لها بال أو يسعد لها حال ما لم تره مرة في كل يوم على الأقل ! ! وكان هذا الشاب — واسمه تنكريد — يجهل في مبدإ الأمر تعلقها به ، وعنايتها بأمره ، فلم يلتفت إليها ولم يهتم بها

وبالرغم من أن تجاهله لها كان يضايقها ويكدر عليها صفوها ، فإنها كانت حريصة فلم تحاول الاتصال به عن طريق الاستفسار عنه أو إرسال الرسائل إليه خشية أن يلحظ أحد علاقتها به أو يكتشف سر حبها له ؛ وهداها تفكيرها آخر الأمر إلى أن تلفت نظره إليها وتجتذب قلبه نحوها عن طريق قسيس ورع كان من أخلص رفقائه وأكثرهم له وفاء ومحبة

وبعد أن اختمرت هذه الفكرة في رأسها ذهبت إلى الكنيسة التي يقيم بها هذا القسيس وابتدرته بقولها :

— لقد جئت إليك يا سيدي أطلب معونتك في أمر مهم سأشرحه لك . ولعلك تذكر أنني أخبرتك في مرة سابقة عن أقاربي وزوجي الذي يحبني أكثر من حبه لحياته ، والذي لم يتأخر في يوم من الأيام عن تحقيق ما أطلبه منه ! ! ولهذا أحببته أنا الأخرى حباً شديداً وأصبحت لا أطيق الفراق عنه أو أستطيع الحياة بدونه ! ! أما ما جئت إليك اليوم من أجله فهو أن هنالك شاباً يدعى تنكريد ، وهو كما علمت من بعض الناس صديق حميم لك ، اعتاد أن يمر من أمام منزلي كل يوم ، وفي كل مرة يمر فيها أراه يرمقني بنظراته التي تدل على شدة حبه لي ، وكثرة هيامه بي . وقلما يحول بصره عن طيلة الوقت الذي أكون فيه مطلة من نافذة غرفتي . فاضطر إلى مغادرة النافذة أو إغلاقها في وجهه خشية أن يتقول عليّ الناس بما يشين سمعتي أو يسيء إلى شرفي . وليس ببعيد يا سيدي أن يكون تنكريد هذا قد تعقب خطاي ورآني وأنا أدخل هذه الكنيسة ، أو من المحتمل أن يكون الآن في انتظاري خارجها ! وأصدقك القول يا سيدي أن هذا الأمر قد أصبح يضايقني أكبر المضايقة ، ويؤلمني أشد الألم . بل لقد بلغ الأمر بي إلى حد أنني أصبحت أفضل الموت على أن أكون مضغة في أفواه الناس !

وبعد أن استراحت برهة قصيرة تابعت حديثها فقالت :

— وكثيراً ما فكرت يا سيدي في أن أحيط إخوتي أو زوجي علماً بهذا الموضوع الشائن ، ولكنني لا ألبث في كل مرة أن أحجم عن ذلك حينما أتذكر أن الرجال غالباً ما ينهون مثل هذه الأمور بالضرب المؤلم الذي قد يفضي إلى الموت في كثير من الأحيان ! وأخيراً استقر رأيي ، حقناً للدماء وحسماً للنزاع ، على أن أطلب مساعدتك لسببين : الأول أن هذا الشخص صديقك فتستطيع من هذه الناحية أن تردعه بنفسك ؛ والثاني أن من أهم واجبات القسيس الورع التقي إصلاح سيئات الناس وخطاياهم سواء أكانوا أصدقاء أم غرباء . وأنا أتوسل إليك يا سيدي أن تنصح صديقك هذا بالكف عن مغازلتي

والامتناع عن النظر إلىّ . وإذا كان لا بد له من هـذه المغازلة فهناك كما أعلم سيدات كثيرات غيرى يتمنين من صميم أفئدتهن أن يكن عشيقات وفيات له ! !

ولما انتهت بريتولا من بث شكواها نكست رأسها كما لو كانت توشك أن تبكى من شدة الحزن والتأثر ! !

ولم يشك القسيس الساذج فى شىء مما قالته ، بل أخذ على العكس يمتدح خصالها الطيبة ويثنى على حسن تصرفها ورجاحة عقلها ! ! ووعدها أخيراً بتحقيق رجائها وإجابة ملتمسها . .

وقبل أن تغادر بريتولا الكنيسة قالت للقسيس الطيب القلب :

— ولا تنس ياسيدى أن تخبر تنكريد إذا دفعته الجرأة إلى انكار شىء مما قلته لك ، بأننى قد أتيت إليك بنفسى واعترفت أمامك بكل شىء . .

***

وفى اليوم التالى أرسل القسيس فى طلب صديقه تنكريد . ثم انتحى به جانباً وأخذ يلومه بلهجة هادئة ، وعبارة متزنة ، على تصرفه الشائن مع بريتولا . .

ودهش تنكريد بطبيعة الحال لهذا الاتهام الذى لم يخطر على باله ، لأنه ، كما قلنا ، لم يرفع بصره الى بريتولا فى مرة من المرار التى كان يمر فيها أمام منزلها ؛ وبالرغم من أنه نفى عن نفسه هـذه التهمة بشدة ، فان صديقه القسيس لم يصدق ذلك وقال :

— لا تتظاهر بالدهشة ياعزيزى من هذا الأمر ، ولا تحاول أن تنكر هذه التهمة لأننى سمعتها من شفتى بريتولا نفسها . .

وبعد أن سكت برهة قال :

— ولعلك تعلم يا تنكريد أن هـذا السلوك الشائن وذلك التصرف السيء لا يليقان برجـل فاضل مثلك ، وإنى أنصحك نصح الصديق المخلص أن تدع هذه السيدة الفاضلة تعيش فى هدوء وسلام مع زوجها الذى تحبه إلى حد العبادة ! ولا تحاول أن تقلق راحتها أو تفسد حياتها مرة أخرى . .

ولم يغب عن بال تنكريد غرض بريتولا من هذا الاتهام الكاذب . وقبل أن يغادر الكنيسة وعد صديقه ألا يعرض لبريتولا ولا أن يضايقها بعد ذلك . فاستراح القسيس لهذا الوعد وشكره على شهامته ونبل أخلاقه

وقصد تنكريد من فوره إلى منزل بريتولا . ولحسن حظه وجدها فى انتظاره كالمعتاد فى نافذة غرفتها

وما كادت بريتولا تراه وهو مقبل على منزلها حتى ابتسمت له ابتسامة خبيثة ما كرة ، وتجـلى البشر والسرور فى قسمات وجهها ، وحيته بهزة خفيفة من رأسها الجميل

وتأكد تنكريد الآن أنه لم يكن مخطئاً فى زعمه ، فابتسم لها ابتسامة رقيقة عذبة ورد تحيتها بأحسن منها . .

ومنذ هذا اليوم أخذ يصوب نظره اليها فى كل مرة يمر فيها من أمام منزلها ، فكان ذلك سبباً فى سرورها وغبطتها . .

***

والظاهر أن بريتولا لم تكتف بهذا الفوز الباهر بل أرادت أن تتقدم فى سبيل حبها خطوة أخرى . فذهبت الى القسيس وألقت بنفسها بين قدميـه ، وأخذت تبكى بكاء مراً . فدهش القسيس وسألها عن سبب بكائها ! فأجابته بريتولا دون أن تكف عيناها عن البكاء

— إننى أبكى ياسيدى بسبب صديقك الملعون الذى شكوته اليك من قبل

فقطب القسيس ما بين حاجبيه وسألها قائلا :

— ألا يزال هذا الرجل يضايقك ؟

فأجابته بريتولا وهى تبكى :

— نعم . فمنذ أن شكوته إليـــك وهو لا يفتأ يضايقنى بنظراته الوقحة ، ويؤلمنى بابتساماته السخيفة . وليس هذا فقط . بل أنه بعد أن كان يمر من أمام منزلى مرة واحدة أو مرتين فى اليوم أصبح يمر الآن ما لا يقل عن سبع مرات ! !

وبعد أن نهنهت دموعها الجارية تابعت حديثها فقالت :

— وليت الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، فبالأمس أرسل إلىّ من قِبله عجوزاً لا أعرفها . وبعد أن عرفتها بنفسى أعطتنى حقيبة جلدية نفيسة ومنديلا حريريا غالى الثمن ، وقالت لى وهى تبتسم ابتسامة ذات معنى إنهما مهداتان إلىّ من تنكريد ! ولا أكتمك ياسيدى أننى غضبت لذلك غضباً شديداً وكنت على وشك أن أطردها هى وهدية تنكريد خارج منزلى ، لولا أننى خشيت أن تحتفظ بالحقيبة والمنديل لنفسها دون أن تخبره برفض هديته ! ففضلت أن آخذهما منها ! وقد رأيت من الواجب أن أحضر معى هذه الهدية لكى تردها اليه وتخبره بأننى لست فى حاجة الى شىء منه . وأرجو أخيرا أن تحذر صديقك هذا بأنه إذا لم يكف عن مضايقتى ، فأننى سأضطر حتما الى إخبار زوجى

أو إخوتي بكل شيء مهما كانت النتائج التي تترتب على ذلك

قالت ذلك وقدمت الحقيبة والمنديل للقسيس وهي تتظاهر بالحزن والغضب لأهانة تنكريد إياها ! !

وظن القسيس لسذاجته وسلامة صدره أن ما قالته بريتولا قد حدث بالفعل ، فغضب لذلك غضبا شديداً ، وقال لها بعد أن فكر برهة :

إنني لا أستغرب ياسيدتي شدة حزنك لهذا الأمر ، ولست ألومك بالطبع على شيء مما حدث . بل إنني على العكس أشكرك على اتباعك نصيحتي ، وعملك بمشورتي . ومع أنني لمت تنكريد عندما زارني لأول مرة ، فانه على ما يظهر لم يرعو عن غيه ، ولم يرتدع عن ضلاله ، ولهذا عولت على أن أوبخه توبيخاً شديداً على هذا السلوك المعيب . وأرجو ياسيدتي ألا تتمادى لعاطفتك فتخبري زوجك أو إخوتك بهذا الأمر ، فان نتائجه السيئة لا تخفى بالطبع على سيدة عاقلة مثلك ، بل اتركي كل شيء وأنا أتصرف فيه بعقلي وحكمتي

* * *

وما كادت بريتولا تبرح الكنيسة حتى أرسل القسيس في طلب صديقه تنكريد مرة أخرى . فلما جاء قابله بوجه عابس وجبين مقطب . واستنتج تنكريد من ذلك أنه لابد وأن تحادث مع بريتولا فانتظر بفارغ صبر ما سيقوله له . ولم يطل انتظاره طويلاً إذ أنهال عليه القسيس بوابل من الشتائم واللعنات بعد أن أعاد على مسامعه كل ما ذكرته بريتولا له .

وبالرغم من أن تنكريد أنكر بشدة إرساله الحقيبة والمنديل الى بريتولا ، إلا أن القسيس لم يصدق قوله ، بل اشتدت حدته وازداد غضبه عن ذي قبل ثم قال :

— كيف تنكر ذلك أيها الشرير المنافق مع وجود الدليل المادي على ارتكاب فعلتك ؟

ثم نهض من مقعده ، وأحضر الحقيبة والمنديل وناولهما إياه ثم قال :

— أليس في هذا الكفاية ؟ فشمر تنكريد — مع براءته — بالخجل لوجود ذلك الدليل القاطع ، ولما لم يجد بداً من الاعتراف بهذه التهمة المنسوبة اليه قال :

— نعم . لقد أرسلت الى بريتولا هذه الهدية لأنني كنت أحبها كغيرها من النساء ، ولكني بعد أن تأكدت الآن أنها تختلف عنهن كل الاختلاف ، فاني أعدك بشرفي ألا أرتكب ما يسيء سمعتها أو يجرح شعورها . وثق ياسيدي أنك لن تسمع منها بعد اليوم شكوى

ولم ينس تنكريد أن يأخذ معه الحقيبة والمنديل قبل أن يغادر الكنيسة بعد أن اقتنع تماما من أن بريتولا تحبه حباً جماً ، وتهيم به هياماً شديداً ، وأنها مافعلت ذلك إلا بدافع هذا الحب والهيام ...

وقصد تنكريد من فوره إلى منزل بريتولا حيث كانت لحسن الحظ في انتظاره كالمعتاد ، وما كاد صاحبنا يلمحها من بعيد حتى أخرج من تحت ابطه الحقيبة والمنديل وأراها إياها . فسرت بريتولا سروراً شديداً لأنها عرفت حينئذ أن خطتها المرسومة سائرة في طريق التقدم

* * *

ولم يبق إلا غياب الزوج عن منزله لتكلل خيانة بريتولا بالنجاح التام . ولم يطل انتظارها طويلاً إذ اضطر الزوج بعد بضعة أيام من وقوع الحادث السابق الى السفر الى جنوا ، للقيام باحدى المشاغل الضرورية التي تتطلبها طبيعة عمله

وذهبت بريتولا الى القسيس مرة ثالثة عقب سفر زوجها مباشرة وقالت له وهي تبكي :

— لقد سبق أن قلت لك يا سيدي بصراحة أنه لا يمكنني أن أحتمل مضايقة تنكريد أكثر من ذلك . ولما كنت قد وعدتك بألا أقدم على عمل شيء قبل مشورتك ، فقد جئت إليك اليوم لأشكو لك من صديقك تنكريد ..

فذهل القسيس حينما سمع منها ذلك وسألها قائلاً :

— ألا يزال هذا اللعون يضايقك ؟؟ فقالت له : بريتولا وهي تتظاهر بالحدة والغضب :

— نعم . ففي مساء الليلة الماضية دخل حديقة منزلي بعد أن علم بسفر زوجي إلى جنوا — ولست أدري كيف — وتسلق إحدى الأشجار إلى نافذة غرفتي ، والتي كانت لسوء حظي مفتوحة في ذلك الوقت . وكنت على وشك أن أصرخ عندما رأيته في غرفتي لولا أنه توسل إليّ ألا أفعل ذلك ، ورجاني بأن أكون رحيمة به فلا أرتكب ما يلفت أنظار الناس إليه . وأقول لك الحق يا سيدي إنني خضعت لتوسلاته ولم أفعل شيئاً أكثر من أنني طردته من نفس النافذة التي جاء منها ثم أغلقتها وراءه بشدة ..

وبعد أن سكتت برهة تابعت حديثها فقالت :

— والآن أرجو أن تحكم ياسيدى بنفسك فى هذا الأمر وتخبرنى هل فى إمكانى أن أحتمل مضايقة تنكريد أكثر من ذلك ؟؟ أو ليس من الواجب أن أخبر إخوتى بما فعله حتى يردوه إلى صوابه ، ويعيدوا إليه ما عزب من عقله ؟؟

واحمر وجه القسيس حينما سمع ذلك وفار دم الحنق والغضب حاراً فى عروقه وقال :

— وهل أنت متأكدة من أن الذى دخل غرفتك إنما هو تنكريد دون غيره ؟؟

فأجابته بريتولا وهى لا تزال تبكى :

— وهل يمكننى يا سيدى أن أخطئ فى معرفته بعد كل ذلك ؟؟ فأنا واثقة تمام الثقة من أن الشخص الذى دخل غرفتى إنما هو تنكريد نفسه . وإذا تجاسر وأنكر ذلك أمامك — وهذا ما سيفعله بالطبع — فأرجو منك ألا تصدقه ..

وبعد أن مرت بين الاثنين فترة سكوت قصيرة قطعها القسيس بقوله :

— إن ما فعلته يا سيدتى إنما هو الصواب بعينه ؛ وقد قمت بواجبك خير قيام . ولست أنكر أن عمل تنكريد فى منتهى الخسة والدناءة ، ولكنى مع ذلك أستحلفك بالله أن تتركى هذا الأمر لى مرة أخرى دون أن تخبرى إخوتك بشىء مما حدث ؛ وسترين بعد ذلك إذا كان فى إمكانى أن أقوم اعوجاج تنكريد . فاذا أفلحت كان بها ، وإذا فشلت فسأترك لك الخيار فى أن تتصرفى فى هذا الأمر كما تشتهين ..

وقبل أن تغادر بريتولا الكنيسة قالت للقسيس وهو يودعها :

— تأكد ياسيدى بأننى لن أضايقك بهذه المسألة بعد الآن . وقد استقرر رأيى على ألا أخبرك بشىء فى هذا الموضوع مطلقاً

***

وما كادت بريتولا تبرح الكنيسة حتى استدعى القسيس صديقه تنكريد بعد أن استقر رأيه على أن يزجره زجراً شديداً وأن يعنفه تعنيفاً قاسياً . ولما حضر قابله بوجه مقطب ، ومظهر قاس ، ثم انتحى به ناحية من الكنيسة وأخذ ينهال عليه بالشتائم واللعنات التى كانت تزداد حدتها شيئاً فشيئاً ، بينما جلس الآخر فى مكانه هادئاً ساكناً كما لو كانت هذه الشتائم واللعنات موجهة إلى غيره ! وأخيراً تضايق تنكريد من تأنيب القسيس وقال :

— ما الذى فعلته يا صاحبى حتى استحق منك كل هذه الشتائم ؟

فازداد غضب القسيس لهذا الانكار وضحك ضحكة ساخرة ثم قال :

— ألا تدرى ماذا فعلت أيها الأحمق ؟؟ إنك تتكلم كما لو كان هذا الأمر لا يعنيك ..

فتظاهر تنكريد بالدهشة وقاطعه بقوله :

— عن أى أمر تتحدث يا مولاى ؟؟

فحملق القسيس فى وجهه بشدة وقال :

— أين كنت فى مساء الليلة الماضية ؟؟

فأجابه تنكريد بهدوئه وسكونه المعتاد :

— لست أدرى بالضبط يا سيدى !!

فازدادت ثورة القسيس ثم قال :

— سأخبرك أين كنت أيها المخادع الشرير !!

وبعد أن استجمع شتات تفكيره تابع حديثه فقال :

— لقد دخلت حديقة بريتولا فى مساء الليلة الماضية ثم تسلقت إحدى الأشجار إلى غرفتها ، وكاد أمرك يفتضح لولا أنها أشفقت عليك ورأفت بك ولم تفعل شيئاً أكثر من أنها طردتك من نفس الطريق الذى جئت منه !!

ولم يغب عن بال تنكريد ماذا تقصده بريتولا من هذا الكلام الذى قالته للقسيس ، وأخذ يفكر فيما يجب عليه أن يفعله فى مساء تلك الليلة ، ولكن القسيس ما لبث أن قطع عليه حبل تأملاته فقال :

— إنك تظن أيها المنافق أن فى امكانك أن تحمل هذه السيدة الفاضلة على حبك .. ولكن لا ! ولست أغالى اذا قلت لك انك أصبحت الآن أبغض الناس اليها ، وأثقلهم على قلبها ! وليس هذا فقط ، بل أنك أمسيت فى نظرها كالطاعون الذى لا يترك انساناً الا بعد أن يفتك به ! حقاً إنك لم تستمع لنصحى ولم تأبه لارشادى ، ولكنى أؤكد لك بأن الأمر قد خرج الآن من يدى . فاذا لم ترتدع ، فستضطر بريتولا الى إخبار إخوتها أو زوجها بكل ما فعلته معها ، وفى هذا كما تعلم ويل وعذاب لك ..

وبعد أن هدأ تنكريد ثورة القسيس بوعوده وتوسلاته غادر الكنيسة وهو على أشد ما يكون من الفرح والسرور

***

البريد الأدبي

كتاب عن البحر الأبيض

أضحى البحر الأبيض مسرحا للمنافسات الدولية المزعجة، وأضحت مشاكله من أعقد المشاكل الدولية وأخطرها؛ وقد ظهر أخيراً بالانكليزية كتاب عن هذا البحر ومشاكله السياسية والعسكرية الكبرى بعنوان «البحر الخطر» The Dangerous Sea بقلم الكاتب والصحفي الانكليزي الكبير جورج سلوكومب؛ ويقسم الكاتب كتابه إلى خمسة أقسام يتحدث فيها عن المسائل السياسية والدولية والبحرية والعسكرية، ثم عن المشاكل والاحتمالات الغامضة التي تثيرها ظروف هذا البحر الجغرافية من جبل طارق إلى جزائر الدوديكانيز؛ ويمهد لموضوعه بنبذة تاريخية عن هذا البحر، والأمم التي قامت على ضفافه منذ غابر العصور، ثم يتحدث عن مركز انكلترا في جبل طارق، وكونها تقبض على مفتاح البحر من غربه، ويقول إن سلامة جبل طارق وسلامة السيادة البريطانية هنالك تتوقفان على علاقة انكلترا بالدولة التي تسيطر على قلعة سبتة المراكشية، وعلى استمرار حالة الحياد القائمة في تنغرطنجة

وينوه المؤلف بموقف إيطاليا الحالي، ويقول: إنه أول موقف من نوعه تنازع فيه دولة عظمى سيادة بريطانيا في هذا البحر منذ عصر نابوليون، ولأول مرة قد افتتحت قناة السويس، وتحولت تجارة الغرب إلى الشرق عن طريقها، وغدا البحر الأبيض شريانا حيويا للامبراطورية البريطانية، تنهض دولة واقعة في منتصف الطريق، وتلقى إشارات لا ريب فيها بأنها تستطيع أن تقطع المواصلة بين جبل طارق وقناة السويس؛ ويقرن المؤلف ذلك باحصاءات دقيقة عن القوات البحرية والعسكرية التي تملكها دول البحر الأبيض: فرنسا وإيطاليا ويوجوسلافيا وبلاد البلقان وتركيا

ويعطف المؤلف بعد ذلك على مركز إيطاليا في ألبانيا وعلى مسألة العلائق المصرية الانكليزية، وعلى مركز الدردنيل وموقف روسيا، ثم على نهضة البلاد العربية التي أخذت تبدو بكل شكل واضح؛ ثم يتحدث عن الحرب الأهلية الاسبانية، ويبين مكامن الخطر فيها على السلام الأوربي، سواء نجحت الثورة القائمة فيها أم أخفقت

ويشعر القارئ عند قراءة هذه الفصول القوية الواضحة التي يستعرض فيها المستر سلوكوب مشاكل البحر الأبيض، أن الخطر يجثم هنالك في كل ناحية من نواحيه، وإن هذا العامل الذي لم يحسب حسابه من قبل في السياسة الأوربية قبل أن تستكمل إيطاليا تسلحها وأهباتها العسكرية يغدو اليوم من أخطر وأهم العوامل التي يتوقف عليها سير السلام الأوربي وتتوقف عليها سلامة الامبراطورية البريطانية

وفي المساء ذهب الى منزل بريتولا ثم دخل الحديقة وتسلق الشجرة التي تؤدي الى نافذة غرفتها، والتي تركتها مفتوحة لهذا الغرض. ولما دخل الغرفة قابلته حبيبته بشغف ظاهر وسرور عظيم، وتعانق الاثنان عناقاً حاراً وهما يشكران هذا القسيس الذي كان واسطة التعارف بينهما!

ومن بعد هذا اليوم أصبح العاشقان الفاسقان يتقابلان دون أن يحتاجا الى وساطة هذا القسيس الطيب القلب!!

محمد عبد اللطيف حسن

عبقرية فنان مسلم

نوهت الصحف الفرنسية أخيراً بعبقرية فنان جزائري مسلم يدعى السيد محمد راسم، يعرض رسومه الآن في معرضه الخاص بباريس في شارع فوبور سانت أونوريه. ومما قالته جريدة الايكودي باري في ذلك: إن المرء ليشعر بعاطفة من الهدوء والنبل

والغبطة حينما يتأمل رسوم محمد راسم ؛ وإن أولئك الذين يزعمون أن الزخرفة الاسلامية متماثلة يرون ما يبهرهم فى تنوع النماذج التى يقدمها وفى طرافتها ، وفى ذلك المزيج المدهش الذى يتجلى فيها سواء من حيث التناسق أو اللون أو الأسلوب ؛ ومنها نماذج فارسية ومغربية ومصرية تنم كلها عما يحتويه الفن الاسلامى من فن التوازن والتناسق وقوة الاعراب والتأثير

ويعرض محمد راسم أيضاً صوراً صغيرة بعضها يمثل مناظر تاريخية مشتقة من التاريخ الاسلامى ، وبعضها يمثل مناظر عربية ؛ كما أنه يعرض قطعاً فنية من الخزف البديع تمثل مناظر مدهشة من وقائع القرصان الجزائريين فى القرن السابع عشر ، ومناظر الفرسان المسلمين

والواقع أن الفن العربى لم يفقد شيئاً من طرافته ولا أوضاعه التقليدية ، وفى وسعه أن يعبر بكل قوة وبراعة عن مناظر عصرنا ، وفى وسعه بنوع خاص أن يعبر دائماً عن تلك الأفكار والمناظر التى خلدها الشعر العربى وأذاعها فى العالم بأسره

هذا قول الكاتب الفنان فى الصحيفة الفرنسية ، فما قول سادتنا المتفرنجين الذين ينكرون على الفن الاسلامى كل فضائله ومزاياه ؟

جائزة نوبل للطب

من أنباء استكهلم (السويد) أن جائزة نوبل للطب والفسلجة لسنة ١٩٣٦ قد تقرر منحها للأستاذ السير هنرى هالت ديل عضو المجمع الوطنى للمباحث الطبية بلندن ، والأستاذ أوتو ليفى النمسوى الأستاذ بكلية حراتس ، وذلك لمباحثهما المتعلقة بالتأثيرات الكيماوية للمؤثرات العصبية

والمعروف عن الأستاذ ليفى أنه أول من اكتشف أثر التفاعل الكيماوى فى الاهتزاز العصبى ، فاذا انطلقت الهزة إلى الأنسجة العصبية واستقرت فى العضل نشأت عنها مادة كيماوية فى العصب النهائى ، واستطاع العصب أن ينقل هزاته بواسطة هذه المادة

وقد توسع السير هنرى ديل فى تطبيق هذه النظرية ؛ وهو يقسم حسب مباحثه أعصاب الجسم الى مجموعتين ؛ فالمجموعة الأولى تفرز مادة كيماوية تسمى « الأدرينالين » ، والمجموعة الثانية تفرز مادة تسمى « اكتلكولين » ، وأهمية هذا التقسيم فى أن هنالك مؤثرات معينة يمكن إحداثها فى الأعضاء وفى هيكل الجسم بالحقن بمثل هذه المواد وبمواد معينة تحدث أثراً يقلد فى هزاته هزات الأعصاب الطبيعية

وجائزة نوبل للطب تبلغ نحو عشرة آلاف جنيه انكليزى وستوزع مناصفة بين العالمين الكبيرين

شارل موراس محرر لاكسيون فرانسيز

قرأنا فى الصحف الفرنسية الأخيرة نبأ اعتقال شارل موراس الزعيم والكاتب الملكى الشهير وزجه فى سجن « سانتيه » ليقضى فيه عقوبتين حكم بهما عليه من جراء مقالات عنيفة كتبها فى جريدة « لا كسيون فرانسيز » ضد بعض رجال الحكم ؛ وشارل موراس كاتب وروائى من أعظم كتاب فرنسا المعاصرين وصحفى من الطراز الأول ، وقد اشتهر بنوع خاص بمقالاته فى لا كسيون فرانسيز وما تمتاز به من تصوير عنيف وقوة نقدية لاذعة ، وبلاغة ساحرة فى نفس الوقت

وقد نشرت الصحف الفرنسية بهذه المناسبة بعض تفاصيل عن النظم المتبعة فى تنفيذ أحكام الحبس التى يقضى بها فى جرائم الرأى أو الجرائم السياسية ، والتى عومل بها شارل موراس ؛ وهى فى الواقع نظم مريحة عادلة ؛ فالكاتب المحكوم عليه يحجز فى غرفة خاصة بها الأثاث الكافى ، وله أن يتسلم بريده الخاص من رسائل وكتب وصحف وغيرها ، كما أن له أن يستقبل زواره طبقاً لقائمة يقدمها بذلك ويصادق عليها مدير البوليس ؛ وله أن يطلب على نفقته ما شاء من ألوان الطعام إذا لم يوافقه طعام السجن ، وأن يستبقى ملابسه العادية ، وأن يستحضر منها ما شاء ، كما أن له أن يتريض داخل السجن طبقاً لنظام معين

وهكذا يستطيع الكاتب المعتقل أن يزاول داخل السجن عمله العادى من قراءة وكتابة . ومن ثم فان شارل موراس سيكتب مقاله كل يوم وتنشره لا كسيون فرانسيز كالمعتاد . وتتحدث الصحف على اختلاف نزعاتها عن الكاتب السجين بعطف ، ويشير البعض إلى أن شارل موراس قد يرشح خلال اعتقاله لعضوية الأكاديمية الفرنسية



١ - فى سنن الله الكونية

تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوى

٢ - النتائج السياسية للحرب العظمى

ترجمة الأستاذ محمد بدران

للأستاذ محمود الخفيف

— ١ —

تفضل الأستاذ الغمراوى فأهدى إلى كتابه « فى سنن الله الكونية » فرأيت وقد فرغت من قراءته أن أقدمه الى قراء الرسالة ، ولكننى أحس أنى كى أصف موضوع هذا الكتاب وصفا صادقا ، ولكى أقدره حق قدره فى مثل هاتيك العجالة ، ينبغى أن أتجاوزه الى كلة عن مؤلفه ، وإن كنت أشعر أن ذلك سوف لا يرضيه

يجمع الأستاذ بين خلتين قليل اجتماعهما لشخص : فهو من ناحية شديد الاخلاص لدينه مع التفقه فيه ، ومداومة البحث فى مسائله ، حتى لكأنك منه حيال رجل يقصر على الأمور الدينية همه ؛ وهو من ناحية أخرى رجل من رجال العلم المعروفين بالفطنة وسعة الاطلاع مع الدقة وحب البحث ، ثم هو من الناحيتين يكاد يعطيك نموذجا صحيحا لتلك « الحلقة المفقودة » التى نتوق الى وجودها لنصل بها ما بين الثقافتين العلمية والدينية

فاذا قلت لك بعد هذا أن الكتاب صورة من صاحبه فقد قربت موضوعه الى ذهنك ، واستطعت بعد أن أزيدك معرفة به

كان من حسن التوفيق أن انتدبت الجامعة الأزهرية الأستاذ الغمراوى فيمن انتدبت من الأساتذة ، فهذا الكتاب « ثمرة تدريس علم سنن الله الكونية فى السنة الأولى من قسم الوعظ والارشاد بكلية أصول الدين . وعلم سنن الله الكونية هو العلوم الطبيعية مطبقة على الدين »

بدأ الأستاذ هذا الكتاب بفصل ممتع بين فيه بيان خبرة ووثوق أن ليس ثمة أى تناقض بين حقائق العلم وحقائق الدين ، وهو يؤيد دعواه بالحجة مستشهداً بآى الذكر الحكيم ، فلا يسمك إلا أن تسلم معه بأن « العلم قرآنى بموضوعه » وأنه « قرآنى بطريقته » ، فقرآنية العلوم الطبيعية واضحة ملموسة فيما ورد فى الكتاب الكريم من آيات التدبر والتفكر فيما خلق الله فى السموات والأرض ؛ وسبل العلم فى طلب أسرار الفطرة أو فى تفهم سنن الله فى كونه هى السبل التى أمر القرآن باتباعها من حيث تمحيص الحقائق والاستناد الى البراهين وتحكيم العقل . والاعتماد الى جانب ذلك على المشاهدة

راح الأستاذ بعد هذا يعرض المسائل العلمية التى يشتمل عليها كتابه ، وهو فيها مقيد بمنهج دراسى خاص ؛ وأحب أن أشير هنا الى أنى كنت أحسبنى قبل قراءتها حيال مسائل لا تهم كثيراً من يشتغل بالأدب ، ولكنى قرأتها فى يسر واستمتاع وخرجت منها وقد كسبت من المعارف ما صرت أعتقد أنه لا غنى عنه لمن يطلب الثقافة . فالكتاب إذاً يستطيع أن يقرأه الانسان على أنه كتاب عام لا كتاب مدرسى ؛ وبهذه المناسبة يجدر بى أن أقرر أن الأستاذ قد توخى فيه سهولة العبارة وبساطة توجيه المسائل ، وفى مثل هذا العمل لا ريب من العناء ما يعرفه كل من حاول أن يقرب الى الأذهان موضوعات يعلم أنه يطرقها لأول مرة

هذا ولم يقف جهد الأستاذ المؤلف عند تبسيط المعلومات وحسن توجيهها ، بل إنه تمشيا مع طريقة كتابه يقف عند المناسبات المختلفة ويشير الى الآيات القرآنية التى تتصل بالموضوع فيعرضها فى لباقة ووضوح مبيناً لك مراميها وإعجازها فى غير تكلف أو إلتواء ، وتلك هى فى الحقيقة حسنة الكتاب . وإذا كان لى أن آخذ على الأستاذ شيئاً ، فذلك أنه مع مثل هذا الاستعداد وهذه المزايا ، لايخرج لنا كتابا واسعا يبسط فيه موضوع العلاقة بين العلم والدين ، ذلك لأنه « إذا تم للانسان هذا الجمع بين العلم والدين

ثم ما يصح أن يسمى بعلم سنن الله الكونية ، واستطاع الانسان أن يدرس العلم بروح العبادة من غير أن يضحى بشىء من دقة العلم ، وأن يدرس الدين ويطبقه بروح العلم من غير أن يضحى بشىء من عبادة الدين ، وهنالك يتم للانسان الاتحاد بين عقله وقلبه ، وبين علمه ودينه ، وهذا شىء ممكن تماماً فى الاسلام

— ٢ —

يأتى بعد ذلك الكلام على الكتاب الثانى « النتائج السياسية للحرب العظمى » . وهو كتاب ألفه بالانجليزية الأستاذ رمزى ميور أستاذ التاريخ الحديث بجامعة منشستر سابقاً ، وترجمه إلى العربية الأستاذ محمد بدران ، وقدمته لجنة التأليف والترجمة والنشر إلى الجمهور كحلقة من سلسلة معارفها العامة ، تلك السلسلة المباركة التى أخرجت اللجنة عدة حلقات منها فى نواحى المعرفة المختلفة من فلسفة وتربية وأدب وتاريخ وغيرها ، والتى ستوالى اللجنة بعون الله إصدار بقية حلقاتها حتى تشمل جوانب النهضة العلمية فى مصر والعالم العربى

أثرت الحرب العظمى تأثيراً عظيما فى مجرى تاريخ العالم وخلف ذلك الحادث من النتائج مالا تزال أوروبا حتى اليوم تخضع لمؤثراته . ولقد شمل أثر الحرب جميع نواحى الحياة من فكرية وفنية واقتصادية ، ولكن أثرها فى الناحية السياسية كان أبعد منه فى غيرها ، وعلى نوع هذا الأثر يتوقف مصير العالم بلا ريب فى المستقبل القريب

ولا نزاع فى أن تتبع الأثر الذى انتجته الحرب فى العالم من أهم نواحى الثقافة العامة ، ونحن من الوجهة السياسية على الخصوص لا نستطيع أن نفهم منشأ الحركات الدولية الحديثة ، ولا أن نتبين مبادئها ومراميها دون أن نرجع فى هذا كله إلى ما تمخضت عنه الحرب الكبرى . والكتاب الذى اضطلع بتعريبه الأستاذ بدران فأنجز مهمته على خير ما يرجى ، كفيل بأن يعطيك فكرة واضحة قوية عما خلفته تلك الحرب « فهو خلاصة تاريخ العالم فى دور من أدوار الانتقال لا يكاد يختلف عن الفوضى فى شىء » ، ومؤلفه أستاذ متضلع فى التاريخ الحديث ، ملم بتياراته واتجاهاتها ، ولذا كان شديد التنبؤ لما أحدثته فيها الحرب ، واضح الفكرة فى تتبع الحوادث ، حسن الاداء فى عرضها ، مما يجملك تقرأ الكتاب فى يسر ولذة ، ومما يجملك تغتبط أشد الاغتباط أن ترى مثل هذا الكتاب فى متناول قراء العربية

أما عن الترجمة ، فلقد تجلت شخصية الأستاذ بدران فيها قوية متينة ، فما تكاد تشعر إلا كأنك تقرأ الأصل ، فليس هنالك غموض أو التواء فى التعبير أو أية صعوبة فى الآداء مما يصادفه المرء عادة فى الكتب المترجمة ؛ هذا إلى انتقاء دقيق للفظ العربى المطلوب مع الحرص على الايجاز وإيراد المعنى فى صورة واضحة . والحق أشهد أن الأستاذ بدران قد وفق فى تعريبه إلى خير ما يطمع فيه المعرب المخلص النابه

هنا ولقد ختم الأستاذ المعرب الكتاب بفصل من عنده هو « العالم بين يونيه سنة ١٩٣٠ ويونيه سنة ١٩٣٦ » ، تكلم فيه عن النزاع بين الصين واليابان والمسألة الحبشية والحركة النازية وحوادث البلقان والشرق الأدنى ، وهو فصل ممتع حقاً رأينا فيه الأستاذ بدران كمؤلف حريصاً على الاتقان والتفوق حرصه على دقته فيما عرب مع صعوبة تناول مثل هذا الموضوع المتشعب فى مثل هذا الحيز الصغير ، وإنك لتقرأ هذا الفصل الأخير من الكتاب فتحس كأنك قرأت كتاباً كاملاً وتعجب كيف استطاع الأستاذ أن يلم بأطراف موضوعه فى مثل هذا الاتقان

الخفيف

العالم المسرحي والسينمائي

الحروب الصليبية

على ستار سينما رويال

لناقد «الرسالة» الفني

أنصف سيسل دى ميل الشرق فى فلمه الأخير « الحروب الصليبية » فى شخص صلاح الدين الأيوبى سلطان مصر ، فدل بذلك على أن روحه روح فنان لم يتملكها التعصب ويحيد بها عن طريق الحق والواجب فى تسجيل التاريخ على شريط السينما

فهو قد صور بطلنا الشرق فى الصورة المعروفة عنه من الشجاعة والنبل ، صوره رجلاً يأبى الوصول إلى أغراضه عن طريق الخسة والدناءة ، ويترفع عن وسائل الغدر والخيانة ، فى حين أن الكثيرين من كتاب الغرب إذا ما عرضوا لشخصية شرقية مهما أيد التاريخ والحوادث عظمتها لم يتركوها دون مغمز ، بل منهم من يخلق لها الحوادث المخزية ويروح يبذل جهده لالصاقها بها ، ويصور الشرق والجو الذى يحيط بالقصة فى أشنع الصور وأشدها إلى النفس

فانصاف سيسل دى ميل لصلاح الدين والشرق عمل جدير بالتقدير لا سيما وأنه صور الشرق فى أوج عظمته عند ما كانت الامبراطورية المصرية فى أقوى أيامها وبلاد الغرب فى همجيتها

ليس القراء فى حاجة الى أن نقدم لهم هـــذا المدير الفني العظيم ، فهو أحد أركان النهضة السينمائية فى أمريكا وأحد دعائمها ، وله ماض حافل بالأفلام الهائلة الرائعة ، ولكنى إذا تحدثت عنه لا يسعنى إلا أن أشرح رأيه فى السينما ؛ فهو يرى أن السينما فن المجموعات وانها لم تخلق لتعالج الموضوعات البسيطة أو الموضوعات الاجتماعية التى تعرض للانسان فى حياته الخاصة ، وإنما خلقت لتعالج الموضوعات التى تشغل شعوب العالم والتى تتمثل فيها قوى الجماعة . فهى أليق ما تكون للروايات الاستعراضية أو الروايات التاريخية التى تتجلى فيها العظمة والقوة

ولهذا كان دى ميل يعمد دائماً إلى التاريخ يستلهمه مادة لقصصه السينمائية ، ولا يختار من الوقائع والحوادث إلا ما يتلائم مع العظمة والأبهة الكاملة وما يحتاج إلى مصروفات باهظة

وأنت إذ تشهد أى فلم من أفلامه تعجب كيف استطاع هذا الانسان أن يدير الفلم على هذه الصورة من الدقة وأن يخلق حول القصة الجو الصادق

وهذا الرجل إذ يعمد إلى التاريخ لا يتقيد بالحوادث التاريخية إلا أنه يتصرف تصرفا معقولاً ويحافظ أشد المحافظة على الجو التاريخى . ومهارته لا تقف عند حد خلق الجو التاريخى الصادق وإظهار العظمة والأبهة ، بل تتعداه إلى اختيار القصة التى تساير التاريخ وتلازمه ، كما تحوى كثيراً من المواقف التمثيلية البديعة

وأفلام دى ميل تدل على أنه رجل يميـــل إلى ما له علاقة بحوادث المسيحية فهو أدار « بن هور » ، « علامة الصليب » ثم «الحروب الصليبية» فهل لهذه النزعة علاقة بأنه يقلب إحدى حقائق التاريخ الثابتة ، وهى أن الصليبيين لم يأخذوا عكا عنوة وإنما سلمت بعد اتفاق عقد بينهم وبين صلاح الدين ؟ لا أظن . وإنما الموقف التمثيلي بعد حرب الدبابات التى أظهرها اقتضى ذلك فلم يحجم عن تجاهل هذه الحقيقة كعادته

قلت إن موضوع الفلم بديع وقد أمكن أن يساير التاريخ إلى حد معقول ، ولكن ذلك لم يمنع دى ميـــل من أن يخالف بعض الحقائق التاريخية ، وستكون قصة الفلم موضع حديثنا فى العدد القادم ، وسوف نقارنها بالتاريخ كما نقارنها بقصة ايفانهو Ivanhoe للكاتب الانجليزى المعروف والترسكوت التى تحدث فيها عن صلاح الدين وريكاردس والتى اقتبس منهـــا دى ميل الموقف الذى يقطع فيـه ريكاردس قطعة الحديد بسيفه ويقطع صلاح الدين كذلك قطعة الحرير بسيفه أيضاً

أما المجهود الفنى الذى بذله دى ميل فهو هائل ، فالمناظر فى غاية الروعة ومعدات الجيش كاملة ممـــا أكسب الفلم قسطا من الحقيقة . وهو قد أعطى صورة صادقة لهجمات الصليبيين على

عكا ودفاع المسلمين عنها . فلقد جاء فى كتاب « صلاح الدين الأيوبى وعصره » تأليف الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد وهو حجة فى تاريخ المماليك فى حديثه عن حصار عكا :

« وقد أبلى فى ذلك الشأن بلاء حسناً شاب من صناع دمشق فانه أدخل من التحسين على صناعة النار ما جعلها تحرق آلات الحصار المنيعة التى كان الفرنج يطلونها بطلاء يمنع تعلق النار بها . وكان أشد الآلات على المدينة الدبابات ، وهى أبراج عالية ذات طبقات يركبها الجنود وتسير على عجل وفى مقدمتها حديد قوى فتصطدم بالأسوار فتصدعها ، ثم يعمل الجنود المجتمعون بها فى الأسوار فيهدمونها

وقد تمكن ذلك الشاب المجتهد من احراقها باختراع سائل يرميه أولاً فى قدور على هذه الدبابات ثم يقذف بعد ذلك النار فيلتهب ذلك السائل ولا يقاوم ناره شىء » اهـ

ورواد السينما يشهدون لسيسل دى ميل أنه أعطى صورة صادقة لكل ما ذكره الأستاذ فريد وأنا أعجب من دقة هذا المدير الفنى فى تصوير الحصار والهجوم هذا التصوير الصادق

كذلك لا أنسى الموقعة التى قامت بين جيش ريكاردس وبين جيش صلاح الدين بعد أن دخل الصليبيون عكا فقد كانت صورة جميلة لحرب الفروسية والشجاعة والأقدام ، وقد تضاءلت أمام أعيننا الحروب الحديثة التى بدت قذرة أثيمة فى وسائلها وأغراضها

والتصوير دقيق والزوايا التى أخذت منها المناظر تدل على مهارة كبيرة ، والشخصـيات التى اختارها تطابق فى كثير الشخصيات التاريخية ، وما عرف عنها ولاسيما شخصية ريكاردوس وصلاح الدين والراهب . ومن المواقف التمثيلية الرائعة موقف صلاح الدين أمام جميع الملوك المسيحيين وهم يقولون له « نحن ملوك عديدون » فيجيب بعظمة « وأنا ملك واحد »

أما ملابس صلاح الدين ففيها كثير من الأخطاء مما يدل على أن واضع النماذج Designer لم يدرس الملابس الاسلامية ، فقد ألبس صلاح الدين عباءة ملكية من القطيفة تشبه فى كثير عباءة ملك فرنسا وهذا اللباس غريب عن مصر والشرق ولباس الرأس غريب كذلك ، فصلاح الدين كان يلبس فى غير الحرب العمامة دائماً وهو لم يلبس العقال لأنه كردى لا عربى

وعند ما ظهر صلاح الدين فى خيمته ومعه أسيرته أميرة نافار وزوجة ريكاردس شاهدنا فتاة تعزف على القيثارة وهذه القطعة الموسيقية رومانية وليست عربية والعرب والمصريون استعملوا من القطع الموسيقية العود والناى والمزهر (نوع من العود) وربما القانون ، أما القيثارة فلم تكن أبداً بين القطع التى استعملوها

ولقد اتخذ المسيحيون الصليب شعاراً لهم فلم يقلدهم المسلمون فى اتخاذ الهلال شعاراً ، فاتخاذ الهلال شعاراً انما شاع فى أيام الامبراطورية التركية . وليس هنالك ما يمنع أن يضع صلاح الدين الهلال على رأسه ودرعه ، ولكن ذلك ليس معناه أن الهلال كان شعاراً كالصليب كما يفهم من الفلم

إن دقة تصوير الفلم لريكاردس طبقا لما جاء فى التاريخ على أنه ملك شجاع لا يعبأ بمظاهر الملك ، مندفع لا يفكر فى النتائج البعيدة ، ولم يكن بالقديس الذى يعبأ بأمر الدين كثيرا ، لم ترق فى أعين الانجليز ، ولذلك منعوا عرض هذا الفلم فى بلادهم

والفلم عظيم وهو أقوى من فلم « كليوباترا » وأقل من فلم « علامة الصليب » ، ولكن يجدر بالمصريين أن يشهدوه ليروا عظمة صلاح الدين الذى كان يستمد قوته من مصر

يوسف نادرس

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧٧ — ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 177

Lundi - 23 - 11 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
م
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٧٧ « القاهرة في يوم الاثنين ٩ رمضان سنة ١٣٥٥ — ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

زهرات على قبر

محمـــــد فريد

بمناسبة ذكراه السابعة عشرة



ما كان أحقنا ونحن نجني ثمرات الجهاد، ونعقد أقواس النصر، ونحيي بطولة الزعماء، ونحيي ذكرى الشهداء، أن نضع إكليلا من الزهر الندىِّ على قبر الشهيد الأول محمد فريد!

لقد استشهد في مثل هذا الأسبوع الذي وقع فيه موافقة البرلمان على المعاهدة،

واحتفال الشعب بذكرى الضحايا ، فكيف غفل اللسان الذاكر وذهل الفؤاد العروف عن تحية المجاهد الصابر والمضطهد المهاجر والصريع المحتسب ؟ وما أقلَّ التحية للذين نفروا لخلاص الوطن لايبتغون ثراء ولا دَعة ، وهاجروا فى سبيل الحرية لايجدون مراغَماً ولا سَعة ، ولفظوا أنفسهم فى منازح الغربة ومضاجع البؤس حسرة لحسرة!

هذه دورهم ، كان للعزة فى أفيائها مَرَاد ، وللنعمة فى أفنائها ربيع ، فتقوض فيها المجلس وانصرف عنها اللاجىء وتعاقب عليها مالك بعد مالك ! وهذه قبورهم ، تناوحت عليها سوافى الرياح فطمست الشاهد وأبهمت الأثر وتناهبها هالك بعد هالك ! وهذه ذكرياتهم ، ملأت المسامع وعمرت القلوب حيناً من الدهر ، ثم أوشكت اليوم لِكُنود الناس أن تغوص فى لجج النسيان والعَدم ! وهذه أرواحهم ، كانت فى المحن السود تباكرنا بالعزاء وتراوحنا بالأمل وتغادينا بالمعونة ، ثم أقبلت ساعةَ النصر تخفق فخورة مع العلم ، وتصفق مؤيدة مع البرلمان ، وتهتف مبتهجة مع الأمة ، ولكنها لم تسمع وا أسفاه مَن بادلها تحية برحمة ، وجازاها وفاء بدعاء!

إن الشريعة تنسخ الشريعة ، والفكرة تطرد الفكرة ، والجديد يخلف القديم ، ولكن الجهاد فى سبيل الوطن غاية لكل جيل فى طريقها خطوة ، وبناية لكل عامل فى إقامتها حجر ؛ والخطوة اللاحقة لا ترد الخطوة السابقة ، والحجر الأعلى لاينقض الحجر الأسفل . والمثل العُليا من الرجال قليلة فى عهدنا الحديث ؛ فما أولانا أن نضن بهم على الفناء ، فننصب تماثيلهم فى كل ميدان ، وندرس تاريخهم فى كل معهد ، ونرفع ذكرهم فى كل مناسبة

* * *

واحسرتاه على حظ فريد من أمتـه ! حبس عليها ثروته ورضى بالجوع ، ورصد لها قوّته وصبر على المرض ، وضحى لها أسرته وعاش على التشريد ، ثم كان نصيبه منها برًّا لايسعف ، وتقديراً لا يدوم ، وذكراً لا يتصل ، وقبراً لا يعرف !

كان فريد — برد الله ثراه وخلد ذكراه — سليل مجد وربيب نعمة وحليف جاه ؛ وكان سبيله فى الحياة سبيل كل أمير وكل كبير : يغتصب ثروته من عرق العامل ، وقوّته من دم الفقير ، ومسرته من دمع البائس ، وجبروته من ظلم الضعيف ؛ ولكنه تنكب طريق المترفين واتبع هادى الفطرة ، فدخل به فى سواد الشعب وقرّنه فى أغلاله وشركه فى ذله ، فدفعته الحَمِيَّة الحرة إلى أن يتطوع لأنهاضه بجهده . ويتبرع لانقاذه بماله ؛ ثم اتصل برسول الوطنية يومئذ مصطفى كامل ، فكان منه مكان أبى بكر من محمد ، ومصطفى النحاس من سعد ؛ رفع معه ألوية الجهاد على سواعد الشباب الفتية ، ثم خَلَفه على تكاليف الدعوة من جهد وبذل وتضحية ، فاستمر ينفخ فيما يشبه الرماد ، ويصيح فيما يقارب الجماد ، حتى اشتد عليه أذى المحتلين وكيد المنافقين فهاجر ناجياً بحريته وفكرته ؛ ولاذ بالأستانة يبتغى بها متنفساً لآمال مصر ، ومضطرباً لعزائم الشباب ، فكان فى هذه المدينة ذات الأستار والأسرار والخفَر قبساً من الحق الساطع الصادع يبعث فى قلوب المصريين المهاجرين والطلاب الضوء والحرارة

كان يدعو شبابنا الوديع إلى الثقافة الحربيـة فى المعاهد العسكرية التركية استعداداً لليوم الموعود والحدث المنتظر ؛ وكانت الحرب الكبرى قد انفجرت دواهيها على العالم يومئذ ، فحاول أن يكون لمصر من أعقابها المجهولة مغنم . وكأنما دس عليه أهل الأفك ، أوعَارضت أطماعُه أطماع الترك ، فائتمروا به ليحاكموه ، ففر خفية إلى برلين ؛ وهناك أراده الألمان على أن يكون وسيلة من وسائل الحرب السرية فى الشرق ، فأبى عليه خلقه الصريح وجوهره الحر أن يكون أداة ليعيش . وتفرق عنه الرفاق إلى موارد الرزق الممكنة ، وانقطع عنه المدد من مصر ومن غير مصر ، فعمل عمل الأجير ، وعاش عيش الفقير ، يتبلغ بما يمسك الرمق ، ويكتسى بمايستر الجسم ، ويأوى إلى غرفة فى بعض السطوح يكابد فيها المرض والفقر والوحدة والغربة ، حتى أدركه الموت البائس الخامل وهو فى غيابة برلين المقهورة الباكية ، ليس فيه إلا فم يهتف للحرية ، وقلب يخفق لمصر !

إن فريداً كان مثال الفكرة السليمة والوطنية القويمة والرجولة الكاملة والتضحية المؤمنة . بذل فى سبيل الوطن ، مابذل عثمان فى سبيل الدين ، ثم كانت عاقبة أمره أن مات كما مات عثمان شهيداً غير مفهوم ؛ ولكن الله جازى فريدا كما جازى عثمان : جعل اسمه للخلود وروحه للخلد !

احمد حسن الزيات

٤ـ القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحبُ القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهى مقبلة تتيمَّمنا حتى بغته ذلك فساوره القلق ، واعتراه ما يعترى المحب المهجور إذا فاجأه فى الطريق هاجره . أرأيت مرة عاشقاً جفاه الحبيب وامتنع عليه دهراً لا يراه ، وصارمه مدةً لا يكلمه ؛ فنزع نومه من ليله ، وراحته من نهاره ، ودنياه من يده ؛ وبلغ به ما بلغ من السُّقم والضَّنى ؛ ثم بينا هو عشى إذ باغته ُ ذلك الحبيب منحدراً فى الطريق

إنك لو أبصرت حينئذ قلب هذا المسكين لرأيتــه على زِلزلة من شدة الخفقان ، وكأنه فى ضرباته متلعثمٌ يكرر كلة واحدة : هى هى هى

ولو نفذت إلى حس هذا البائس لرأيته يشعر مثــل شعور المحتَـضر أن هذه الدنيا قد نفته منها

ولو اطلعت على دمه فى عروقه لأبصرته مخذولاً يتراجع كأن الدمَ الآخر يطرده

إنها لحظة يرى فيها المهجور بعينيه أن كل شهواته فى خيبة ، فيردُّ عليــه الحبُّ مع كل شهوة نوعاً من الذل ، فيكون بازاء الحبيب كالمهزم مائة مرة أمام الذى هزمه مائة مرة

لحظة لا يشعر المسكين فيها من البغتة والتخاذل والاضطراب والخوف إلا أن روحه وثبتْ إلى رأسه ثم هوت فجأة إلى قدميه

***

غير أن صاحبنا نحن لم يكن مهجوراً من صاحبته ؛ ولــكن من عجائب الحب أنه يعمل أحياناً عملاً واحداً بالعــاطفتين المختلفتين ، إذ كان دائماً على حدود الاسراف مادام حبًّا ، فكل شىء فيه قريبٌ من ضده . والصدق فيه من ناحية مهيأ دائماً لأن يقابل بتهمة الـكذب من الناحية الأخرى ، واليقين مُمَدٌّ له الشك بالطبيعة ؛ والحب نفسُـه قضاء على العدل ، فانه لا يخضع لقانون من القوانين ، والحبيب — مع أنه حبيب — يخافه عاشقه من أجل أنه حبيب

وقد يصفرُّ العاشق لباغتة اللقاء كما يصفر لباغتــة الهجر ، وهذه كانت حال صاحبنا عند ما رآها مقبلةً عليه ؛ وكان مع ذلك يخشى إلمـامتها به توَقياً على نفسه من ظنون الناس ، وأكثر ما يحسنه الناس هو أن يسيئوا الظن ؛ وهو رجل ذو شأن ضخم ومقالة السوء إلى مثله سريعة إذا رُؤى مع مثلها . وكأنها هى ألمت بكل هذا أو طالعها به وجهه المتوقِّر المتزمِّت ؛ فعدلت عن طريقها الينا ووقفت على رئيس فرقة الموسيقى وما بيننا وبينها إلا خطوات . ورأيتها قد هيأت فى عينيها نظرة غاضبتنا بهـا ثم لم تلبث أن صالحتنا بأخرى

وكأنها ألقت لرئيس الموسيقى أمراً ليتأهب أهبته لدور ها ثم همَّت أن ترجع ، ثم عادت اليه فجعلت تكـلمُه وعيناها إلينا ، فقال صاحبنا وأعجبه ذلك من فعلها : إنها نبيلة حتى فى سقوطها

ولا أدرى ماذا كانت تقول لرئيس الموسيق ، ولــكن هذا الرجل لم يظهر لى وقتئذ إلا كأنه تليفون معلق

***

كانت عيناها الى صاحبها لا تنزلان عنه ولا تتحولان الى غيره ، ولا تُسارقه النظر بل تغالبه عليه مغالبة ؛ ورأيته كذلك قد ثبتت عيناه عليها فخيل الى أن هذا الوجود قد انحصر جماله بين أربعة أعين عاشقة ؛ وكانت تطارحه ويطارحها كلاما مخبوءاً تحت هذه النظرات وقد نسيا ما حولهما وشعرا بما يشعر به كل حبيبين إذا التقيا فى بعض لحظات الروح السامية : أن هذا العالم العظيم لا يعمل إلا لاثنين فقط : هو وهى

وكان فمها الجميل لا يزال يُساقط ألفاظَه لرئيس الموسيقى ، وكأنها تسردُ له حكاية مروية أو تعارض بحافظته كلاما تحفظه من كلام التمثيل أو الغناء ؛ فهى تتحدث وعيناها مفكـرتان شاخصتان ، فلم ينــكر الرجل هيئتَها هــذه ؛ ولــكن كيف كانت عيناها ؟

لقد أرادت فى البدء أن تحمل قوةَ نظراتها كلاماً ، حتى لحسبت أن هذه النظرات الأولى تهتف من بعيد : أنتَ يا أنتَ

ثم بدا فى عينيها فتور الظمأ : ظمأ الحب التكبر التمرد ، لأنه حب المرأة المشوقة ، ولأن له لذتين : إحداهما فى أن يبق ظمآ الى حين . . .

ثم أرسلت الألحاظ التى تتوهج أحياناً فوق كلام المرأة

الجميلة فى بعض حالاتها النفسية ، فتضطرم فى كلامها شرارة من الروح تظهر الكلام كأنه يحرق ويحترق . . .

ثم توجهت النظرات لأنها تصلها بالرجل الذى لا يشبه الرجالَ فلا يستوهب خضوعها ولا يشتريه ؛ والرجل كل الرجل عند مثل هذه المرأة هو الذى لا يشبه الباقين ممن تعرفهم ، فاذا أحبها فكأنما أحبها عذراء خفِرة لم تُمس ، وكأنه من ذلك يصلها بماضيها وطهارتها وحيائها وما لا يمكن أن تتمثله إلا فى مثل حبه

ثم ذبلتْ عيناها الجميلتان ، وما هو ذبول عينى امرأة تنظر إلى محبها ؛ إنه هو استسلام فكرها لفكره ، أو عنادُ معنى فيها لمعنى فيه ، أو توكيد خاطرة محتاج الى التوكيد ؛ ومرةً هو كقولها : لماذا ؟ وتارة هو كقولها : أفهمت ؟ وأحيانا ، وأحيانا هو انتهاء مقاومة

***

وتمت الحكاية المروية التى كانت تلقيها للتليفون .. فكرَّت راجعة الى المسرح بعد أن صاحت نظراتها مرة أخرى كما بدأت : أنت يا أنت ...

فقلت لصاحبنا : ويحك يا عدو نفسه ! لو اختار الشيطان عينين ساحرتين ينظر بهما اليك نظر الفتنة لما اختار إلا عينيها فى وجهها ، فى هيئتها ، فى موقفها ؛ وأراك مع هذا كمنتظر ما لا يوجد ولا يمكن أن يوجد ؛ وأراها معك فى حبها كالحيوان الأليف إذا طمع فى المستحيل

قال : وما هو المستحيل الذى يطمع فيه الحيوان الأليف ؟

قلت : ذلك حين يطمع فى أن تكون له حقوق على صاحبه فوق الألفة والمنفعة

قال : لقد أغمضتَ فى العبارة فبينْ لى شيئاً من البيان

قلت : هب كلبةً تألف صاحبها وتحبه فهى له ذليلة مطواع ، ثم يبلغ بها الحب أن تطمع فى أن يكون لها تمام الشرف ، فلا يقول صاحبها عنها هذه كلبتى ، بل يقول هذه زوجتى ...

قال : وىْ منك ، وىْ منك[1] ؛ لقد ضربتَ على رأس المسمار كما يقولون . هذا هو المستحيل الذى بينى وبينها ، هذا هو المثل . يا لفظَ الحلوى ، يا لفظ الحلوى ! لو كررتك بلسانى ألف مرة ، فهل تضع فى لسانى طعمها ... ؟

قلت : خفِّض عليك يا صاحب القلب المسكين فلست أكثر من عاشق

قال : بل أنا مع هذه أكثر من عاشق ، لأن فى العاشق راغباً وفىَّ أنا راهب ، وفيه الجرىء وفىَّ المنكمش ، ويغترف الغُرفة من الشلاَّل المتحدِّر فيحسوها فيرتوى ، وأغترف أنا الغرفة بيدى ، وأُبقيها فى يدى ، وأطمع أن تهْدِرَ فى يدى كالشلال . . . . أنا أكثر من عاشق ، فأنه يعشق لينتهى من ألم الجمال ، وأعشق أنا لأستمر فى هذا الألم

هذه هذه . العجيب ياصديقى أن خيال الانسان يلتقط صورا كثيرة من صور الجمال تجىء كما يتفق ، ولكنه يلتقط صورة واحدة بأتقان عجيب هى صورة الحب ؛ فهذه هذه

ألم أقل لك إن إبليس هنا فى غير حقيقته الأبليسية ولم تفهم عنى[2] ؟ فافهم الآن أننا إن كنا لا نرى الملائكة فانه ليخيل الينا أننا نراها فيمن نحبهم ؛ وما دام سر الحب يبدِّل الزمنَ والنفسَ ويأتى بأشياء من خارج الحياة ، فكل حقائق هذا الحب فى غير حقيقتها

هذه هذه . لا أطلب فى غيرها امرأةً أجملَ منها ، فهذا كالمستحيل ، ولكنى ألتمس فيها هى امرأةً أطهر منها ، وهذا كالمستحيل أيضاً . إنها أجمل جسم ، ولكن وا أسفاه ! إنها أجمل جسم للمعانى التى يجب أن أبتعد عنها

***

وسكت صاحبنا إذ رفعتْ ستارة المسرح وظهرت هى مرة أخرى . ظهرت فى زينة لا غاية بعدها تمثل العروسَ ليلة جَلوتها . ألا ما أمرَّها سخرية منك أيتها المسكينة ! عروس ولكن لمن ؟

كانت تبرُق على المسرح كأنها كوكب درى نوره نورٌ وجمال وعواطف شعر

وأقبلت تمايل بجسم رخص لين مسترسل الأعطاف يتدفق الجمالُ والشباب فيه من أعلاه إلى أسفله

وأظهر وجهها حسناً وأبدى جسمها حسناً آخر فتم الحسن بالحسن

واقفة كالنائمة ، فالجوُّ جوُّ الأحلام ، وكان الحب يحلم ، وكان السرورَ يحلم

(١) أى عجب يتعجب من فطنته

(٢) مر هذا المعنى فى المقالة الثالثة

الوهم

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أكثر ما يقعد بالانسان عن الطلب ، أو يصده عن السعي أو يصرفه عن الأقدام ، وهم لا حقيقة ؛ وقل أن يقدم الذي يطول تفكيره ومشاورته لنفسه ؛ ويندر أن يفوز بالطيبات في هذه الدنيا إلا الجسور أو « الفاتك اللهج » كما يقول بشار ، أي الذي لا يتردد ولا يضيع الوقت والفرص في الموازنات والمعادلات وحساب العواقب والمغبات

تكون مع المرأة التي تحبها ، فتحدثك نفسك أن تبثها ما تجد ، أو على الأقل أن تثني على جمالها أو ذوقها في اختيار ثيابها . فتتردد مخافة أن يسوء وقع ما تقول في نفسها وأن تعد ذلك منك تسحباً واجتراء عليها ، فتحجم ، وتمتعض هي ، لأنك بخيبت أملها فيك ورجاءها عندك . وقد لا تحب المرأة الرجل ، ولكنه لا يسوءها منه أن تعرف أنه يحبها ، ولا يثقل عليها أن يثني بما يعلم وما يتخيل أيضاً ؛ والمرأة تنتظر من الرجل أن يشعر بجمالها وأنوثتها قبل أن يشعر بعقلها أو علمها أو أدبها أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى . وكثيراً ما تقرأ لي الفتيات ما يكتبن أو ينشدنني ما ينظمن ، حتى إذا فرغن من التلاوة تعمدت أن أهمل ما سمعت منهن وذهبت أصف لهن ما وقع في نفسي من صوتهن وهيئتهن وهن يقرأن ، وكيف كان النسيم يعبث بذلاذل الثوب ويكشف عن سيقانهن البضة ، وكيف أن خصورهن كن يغرين بالتطويق ، وشفاههن وهي تتحرك وتاتق وتفترق ، وتختلج من فرط التأثر بالمعاني المصورة في الكلام ، تحمل على اشتهاء القبلات الطويلة ، ولا أراهن يغضبن لذلك أو يتجهمن ، أو حتى يتكلفن العبوس والقطوب ، بل تشرق وجوههن ويشيع فيها البشر ، وتومض عيونهن وميض الجذل والاغتباط والرضى ، وأنا أفعل ذلك لأسرهن وأشرح صدورهن ولأهرب من إبداء الرأي في كلام لا أرى له قيمة أو وزناً فننتقل بسهولة إلى حديث آخر نخوض فيه ، وتطوى الورقات وتدس في الحقائب ، ونحن نسح بالكلام ، ثم ينصرفن راضيات مسرورات شاكرات ، وأبقى أنا أو أذهب ، ولا أكون قد رددت نفسي على مكروهها

وقد جربت الناس فلم أجد ما يربح مثل الاجتراء عليهم .

كنت في بعض ما مر بي مضطراً إلى الاتصال في عملي برجل سريع البادرة عظيم الغرور متقلب الرأي فلا راحة لانسان معه ، وآثرت الملاينة في أول الأمر وقلت : أسايره خطوة أو خطوات لأجره باللباقة والكياسة إلى حيث أريد من حيث لا يشعر هو . فكان يفطن إلى حيلتي في بعض الطريق فينبو في الزمام ، فخطر لي أن المنطق والحجة لعلهما أجدى ، فصرت أجادله بالتي هي أحسن ولكن بالبرهان والبينة ، فكان يتململ ويتأفف ولا يكتم ضجره مني وكراهته للجاجتي ، فضاق صدري يوماً وخرجت معه عن طوري — على ندرة ذلك جداً — ولم أستطع أن أملك زمام نفسي ، فأسمعته من رأيي فيه ما أعتقد أنه أوجع ما سمع في حياته ، فما راعني إلا استخذاؤه والا أنه أذعن ، وراح بعد ذلك يتقي أن يثير غضبي ويخشى بادرتي أشد الخوف . فاسترحت

وقد يظن القارئ أني أشير بالتوقح على الناس وسوء الأدب معهم ، وما أريد شيئاً من هذا ، وإنما أقول إن احترامك لغيرك لا ينفي أو يمنع أن تحترم نفسك ؛ ومن احترام النفس أن تكون صريحاً وحازماً ، والصراحة والجرأة ليس معناهما قلة الأدب ، فأنك تستطيع أن تذهب في الصراحة إلى أبعد مدى وأن تتحفظ مع ذلك بالأدب . ومتى عرف الناس فيك الصراحة وألفوا منك الشجاعة ، اقتنعوا بذلك ووطنوا أنفسهم عليه وأعفوك من كثير مما تكره

وقد قص علي بعضهم حكاية شاب اتخذت منه زوجته دابة ، فهو لا يفعل إلا ما تأمر ، ولا يخرج أو يدخل أو يقوم أو يقعد أو يأكل أو يشرب إلا إذا أذنت له ، وقيل لي إنها هي التي تنتقي له ثيابه وتختار له ما يوائمها من قميص وربطة وحذاء إلى آخر ذلك . وتأمره فيصادق هذا ويخاصم أو يعادي ذاك ، ويصل فلاناً ويقاطع فلاناً ، فعجبت : وسألت محدثي : وماذا

مهتزة كالموج في الموج . هل خلقت روح البحر في جسمها المترجرج فشيء يعلو وشيء يهبط وشيء يثور ويضطرب ؟

ثم دقت الموسيقى بألحانها المتكلمة ، ودقت أعضاء هذا الجسم بألحانها المتحركة ، وأحسسنا كأن روح الحديقة جالسة بيننا تنظر اليها وتتعجب . تتعجب من قوامها للغصن الحي ، ومن بدنها للزهر الحي ، ومن عطرها للنسيم الحي

أما صاحب القلب المسكين ؟

(يتبع)

يخيفه منها؟ أهو يخشى أن نأكله إذا اعترض أو أبى أو تمرد على هذا السلطان؟ فهز محدثي رأسه ولم يستطع أن يذكر لى سبباً معقولاً. وما أزال إلى هذه الساعة عاجزاً عن تصور ما تستطيع هذه المرأة أن تصنع إذا انتقض زوجها على هذا الاستعباد؟ هى وقفة واحدة يقفها الرجل فلا يسع امرأته إلا أن تلزم حدها وتترك له حقه فى نفسه. وهذه الوقفة لا تحتاج إلى ثورة، ولا تتطلب أن تقوم قيامة البيت، بل لعل الهدوء أحجى وضبط الأعصاب أجدى. وما أظن امرأة تكبر رجلاً يكون عنانه فى كفها الرخص، ولاشك أنها لاتنفك تحتال لتخضعه من حيث لا يشعر ولا يدرى، والرجل الرشيد يدرك ذلك ولا يخفى عليه أنها تدور من ورائه لتحمله على ماتريد فيلين لها ليرضيها ويسعدها بالشعور بالنجاح ويجعلها بذلك ألين فى يده من ناحية أخرى.

وحياة الرجل والمرأة مناوشات مستمرة، ولعلها أشبه شىء بالحرب التى تشنها العصابات المتحصنة فى رؤوس الجبال على الجيوش المنظمة. وقدرة الرجل وسطوته معترف بهما، ولكن المرأة لا تقر لها الاقرار التام ولا تزال تختبئ وتطلق قذيفتها. وخير للرجل وأجلب لراحته أن يدع لها فرصاً كافية لأصابة الهدف، فتسكن نفسها وترضى عن حالها، وإلا دفعها إلى التمرد الصريح. ولكنه ينبغى أن يكون له وجود وكرامة، وإلا خسر احترامها له. واحتفاظه بكرامته واستقلاله وحريته لا يكلفه إلا أن توقن هى أنه لا خير فى محاولة إخضاعه لها.

وقد زاولت التعليم عشر سنين فما أذكر أنى احتجت يوماً أن أعاقب تلميذا، ولو تمردوا على لما وسعنى شىء فأنى واحد وهم كثر، ولو انتقضوا على نظام المدرسة لما استطاعت أن تكرههم عليه، ولكن التلميذ يتوهم البأس والشوكة والسطوة والقوة، ويرهب ما يتوهم، ويطول عهده بذلك فيتقرر فى نفسه. وقد كنت وأنا معلم لا أحجم عن مصارحة تلاميذى بأن سلطان المدرس خيالى ولا حقيقة له، وأنهم لو شاءوا لتناولونى وقذفوا بى من النافذة، وقذفوا بالمدرسين جميعا وبالناظر أيضاً ورائى، وكنت أراهم يبتسمون لما يسمعون منى، ثم يعودون الى ما ألفت منهم من حسن الأصغاء وشدة الحرص على النظام

وكبر ابنى وصار أطول منى قامة، وأنا الآن كهل وهو شاب، وقد توخيت فى تربيته أن أدعه حراً، وأن أجعله يشعر باستقلاله، ومع ذلك لا أراه يجترىء الاجتراء الذى أتوقعه وأريده ويسرنى أن أراه منه، لأنه يهاب ذلك السلطان الذى درج على اكبارى والاقرار له منذ الصغر. فهو لا يزال طفلاً بالقياس إلىّ فيما أرى، وإنه لكذلك إذا اعتبرنا التجربة والعلم وما إلى هذا ولكن وهم الأبوة، أو سلطانها، أو لا أدرى ماذا، يصده حتى عما لا بأس منه ولا ضير، ولا عيب فيه، ولا خوف من الزجر عليه. وأنا أيضاً كنت طفلاً — كما لا أحتاج أن أقول — وكان هذا شأنى، لأن للعادة سلطانها

ولو جرب الناس الشجاعة والأقدام لأدهشهم أن ما كانوا يخافونه أو يتقونه أو يتوقعونه، لا وجود له، وأنه لم يكن سوى وهم ليس إلا. وأكرر أنى لا أحض على تجاوز الحدود، فليس من حسن الأدب أن يكون المرء جبانا أو ذليلاً، ولا من سوئه أن يكون عارفا بحقوقه حريصاً عليها وجريئاً فى سعيه وصريحاً فى قوله، أى مخلصاً لنفسه

ابراهيم عبد القادر المازنى

في الأدب المقارن

أثر البيئــــة
في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

طبائع الانسان ومواهبه متماثلة حيثما حل من بقاع الأرض، ومجتمعاته متشابهة الظواهر أينما قامت. تتشعب بين أفراد كل مجتمع إنساني عوامل التعاون والتنافس والتحاب والتباغض والمطامع والمخاوف، غير أن للبيئة أثرها في تشكيل المجتمع الانساني الذي يحيط به، بما تعرض أمام أبصاره وأذهانه من مناظر ومسائل تحجب عنه غيرها، وما تفرض عليه من أعمال يمارسها دون سواها، ويكون لهذا وذاك أثره البين في لغة المجتمع وأدبه، مقرونا إلى أثر الطبائع والمواهب التي تشترك فيها الأمم جمعاء

فللبيئة في أدب كل لغة ثلاثة آثار بعيدة المدى: فهي أولاً تؤثر في مبنى اللغة وأصواتها وألفاظها وتعابيرها وتشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها السائرة وحكمها المتواترة، فكل ذلك منتزع من طبيعة الاقليم؛ وهي ثانياً تؤثر في مهن المجتمع وعلومه وفنونه وعمرانه وينعكس كل ذلك في مرآة الأدب؛ وهي أخيراً تعرض دائماً أبداً أمام أنظار الأدباء وحواسهم مناظر طبيعية بذاتها، تسترعي انتباههم وتستجيش نفوسهم وتلهمهم كل ما تجود به قرائحهم في باب عظيم الخطر من أبواب الأدب هو باب الوصف الطبيعي

وأثر البيئة في الأدبين العربي والانجليزي واضح وضوحاً شديداً يكاد لروعته يخفي أثر الطبيعة الانسانية التي تشترك فيها الأمتان ويتفق عندها الأدبان، فأن تباين البيئتين تبايناً شديداً أدى إلى اختلاف اللغة والمهن والعمران والمناظر في المجتمعين، وأدى بالتالي إلى اختلاف أشكال الأدبين وصورهما ومواضيعهما وأساليبهما؛ ويمكن إيجاز التعبير عن الفرق بين الأدبين بالقول بأن أحدهما شب في بيئة صحراوية والآخر ترعرع في بيئة بحرية

نشأ العرب في البادية فجاءت لغتهم مشرقة الديباجة متينة البناء قوية التعبير غنية الاشتقاق منتظمة أوزان الشعر متعددتها وحفلت بأسماء ظواهر الطبيعة البرية وحالاتها، وأسماء حيوان البادية وأطوار حياته، واشتقت تشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها من القمر والنجوم والكثيب والقطا، والمُنبتّ الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وورود الماء بماء أكيس، وإلقاء الحبل على الغارب. ولعدم ملاءمة البادية لغير الأدب من الفنون عظمت مكانته بينهم

واشتغل العرب في البادية بالتجارة ينقلونها بين الشرق والغرب، فامتلأت لغتهم بمصطلحات التجارة بعضها عربي وبعضها منقول عن الأمم التي بادلوها التجارة، وامتلأ أدبهم بالتشبيهات المنتزعة من أحوال التجارة: فالقرآن الكريم يكرر في غير موضع تشبيه الخير والشر بالنجدين، وذكر الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم؛ وعنترة يقول:

حصاني كان دلال المنايا   فخاض غمارها وشرى وباعا

وبثت حياة البادية في العرب صفات الحمية والشجاعة والحرية والأنفة أن يدينوا الملك، وظهر أثر كل ذلك جلياً في أدبهم؛ وأشهر أمثلة ذلك معلقة عمرو بن كلثوم، فهي ديوان العرب في الحماسة؛ وأدى إباؤهم ودوام انتجاعهم الكلأ إلى استمرار المناوشات والوقائع بين قبائلهم، وانعكس ذلك في مفاخراتهم ومنافراتهم نثراً وشعراً

وهذه الصفات الشماء التي تَلزَم حياة التبدي جعلت العرب ينظرون شزرا إلى الزراعة والصناعة اللتين لم يكن لهما مجال في البادية، ويحتقرون الزراع والصناع الذين تسترقهم الأرض وتستعبدهم المادة، ولا يرون الشرف والعزة إلا في رعي الأبل والتجارة والقتال. فالأخطل يعير بني النجار بمساحيهم، وآخر يفاخر غريمه فيقول:

لحا الله ألأمَنا نسبا — وأجدرنا أن ينفخ الكيرَ خاله —
يصوغ الشنوف والقروط بيثربا

والحق أن الشعر الجاهلي مهما يكن قد داخله من تزييف يمثل الجانب الاجتماعي من حياة العرب في الجاهلية تمثيلاً رائعاً؛ ولا يمكن تصور حالة العرب في ذلك العهد إلا على

ما وصفت في أشعار طرفة ومهلهل وأمثالهما

أما مناظر البادية الطبيعية المتشابهة الشديدة الوطأة ، فيبدو أنها لم تُشرب العرب من حبّ الطبيعة مقدار ما بثت في نفوسهم من رهبتها والحرص على اتقائها ، ولم تلهمهم من أشعار في وصف محاسنها قدر ما أوحت اليهم من أشعار في التأمل في أحوالها والاستعبار والخشوع ، فلا غرو لم تخرج الصحراء شعراء طبيعيين يصفون محاسن المناظر ، كتلك التي تحفل بها الألياذة والأوديسة ، وإنما أخرجت أنبياء وحكماء في شتى عصورها

وتحضّر الشعب الانجليزي في جزيرة تحيط بها البحار ، وتجري فيها الأنهار ، وتتخللها البحيرات ، وتتوالى عليها الأمطار والثلوج والسحاب والضباب ، ويتعاقب فيها الصحو والدجن ، وتنتشر في أرجائها الغابات والآجام ، وتتتابع فيها الربى والقيعان ، فامتلأت لغتهم بأوصاف البحر والغاب ، وأسماء ما أسكنوهما من جان ، واشتُقت منهما تشبيهاتهم وأمثالهم ، فاستُعير الضباب لحالة الشك والابهام ، والسحاب للحزن والقلق ، وقالوا في أمثالهم إن الوقت والمدّ لا ينتظران إنسانا ، وحلت السفينة من تخيلهم ما كان للجمل لدى العرب من منزلة : فبينما ترى حسان يشبّه تراقص الخمر في إنائها بتهادي الناقة المسرعة فيقول :

زجاجة رقصت بما في قعرها   رقص القلوص براكب مستعجل

يُشبّه ملتون « دليلة » وهي شاخصة في عظم جِرمها وتمام زينتها وعتادها الى « شمسون الجبار » لاختداعه عن سر قوته بالسفينة المنشورة الشراع

وامتلأت قلوب الانجليز بحب البحر ، وظهر أثر ذلك في أدبهم في كل العصور : في روايات شكسبير كالعاصفة وتاجر البندقية ، وفي تواريخ أمراء البحر الانجليز ككتاب « وستوَرْدَ هو ! » الذي سماه مؤلفه كنجزلي باسم البلدة التي أنجبت معظم أولئك البحارين الذين يسمون بأفذاذ ديفون ، وككتاب سَوذي عن نلسون ، والروايات الخرافية عن البحارة الذين لاقوا الأهوال وطوفوا في مسالك البحار ، أمثال روبنسون كروزو ، واسكندر سلكرك ، وجليفر ؛ وأوصافُ البحر وقصصُه تكون جانباً كبيراً مما يعرف بأدب الأطفال

ولم يشغف الانجليز بالبحر وحده ، بل بالماء حيث حل من البقاع ، وأياً اتخذ من الأشكال ، فهاموا حباً بالأنهار والبحيرات ، ونال اقليم البحيرات في غرب انجلترا مكانة سامية في قلوب شعراء الانجليزية ، واتخذه شعراء النهضة الرومانسية مستراداً ومقاماً ، وحفلت دواوينهم بأوصافه ومحاسنه ، فحل في انجلترا محل جبال برناس التي كانت ترتادها آلهة الشعر في بلاد اليونان

وحفل الأدب الانجليزي كذلك بذكر الغاب ووصفه في مختلف أوقات العام ، واتخذ مسرحاً لروايتي « كما تشاء » و« حلم ليلة في منتصف الصيف » لشكسبير ، وفي الأخيرة تمتزج الحقيقة بالخيال ، وتختلط الاناسيّ بعرائس الغاب وعفاريته ، وفي تلك العرائس المتخيلة نظمت أشعار كثيرة ، وفي تلك الغابات كان يعيش روبن هود وجماعته ذات الوقائع الممتعة ، وبالجملة بثت طبيعة بلاد الانجليز المتعددة المناظر والحالات أُلفةَ الطبيعة والشغف بها في نفوس الانجليز ، فاحتلت من أدبهم موضعاً مكيناً

ولموقع الجزيرة وإحاطة البحار بها اشتغل الانجليز بالتجارة ، ينقلونها بين العالمين القديم والجديد ، وقد مارسوها بحراً على حين مارسها العرب براً ، فدخلت تعبيراتها وأوصافها في أدبهم ؛ واشتغلوا بالزراعة لملاءمة الاقليم وحفل جانب من أدبهم بوصف سكان القرى والبلدان الريفية ، وحياتهم ومجتمعاتهم ، وكثر ذلك خاصة في العصور الحديثة حين تقدم فن القصص وازداد التفات الأدباء إلى الحياة اليومية والطبقات الوسطى والدنيا . ومن خير أمثلة ذلك روايات جين أوستن وتوماس هاردي ؛ واشتغل الانجليز كذلك بالصناعة الكبيرة لوفرة المعادن في بيئتهم ، فقام نوع من الأدب يدرس مشاكل الصناعة ويصور مجتمع الصناع ، وانصرف بعض الروائيين ، كأرنولد بنيت ، إلى وصف حياة الرأسماليين ، وبعضهم ، كتشارلز دكنز ، إلى درس أحوال العمال والمناداة بتحسينها

هكذا تأثر كلا الأدبين بالبيئة التي قام فيها ، فاختلفا لذلك مناحي ومواضيع وأشكالاً ؛ بيد أن البيئة التي تقدم ذكرها إن هي إلا البيئة المحلية المحض ، وهي على عظيم تأثيرها في المجتمع والأدب قلما تنفرد بالتأثير فيهما ، بل تشاركها في ذلك بيئة أوسع أطرافا هي البيئة العالمية ، أي العالم كله بما فيه من ظواهر

طبيعية وما يسكنه من أقوام ، فهيهات أن يعيش مجتمع فى بيئته المحليـة غير متأثر بالعالم الخارجى تأثراً قل أو كثر ، عن طريق التجارة والغارة والرحلة ، وذلك الأثر المالى يعرض أمام أفراد المجتمع من الظواهر والمشاكل ما كانوا عنـه بنجوة ، ويُدخل فى لغتهم وأدبهم ما كانوا به جاهلين

تأثر الشـعبان العربى والانجليزى بأحوال العالم الخارجى ، أى بالبيئة الـكبرى ، ولـكنهما اختلفا فى هذه البيئة كما اختلفا فى البيئة المحلية ، إذ تأثر كل منهما بما يليـه مباشرة من أجزاء تلك البيئة العالميـة : وما يلى بلاد العرب هو الأمم الشرقية من فرس وهند وروم شرقيين ومصريين ، ذات الحضارة الشرقية العتيدة والملـكيات القديمة ؛ وما يلى الانجليز هو الأمم الغربيـة الوارثة لحضارة الأغريق والرومان ذوى التاريخ الحافل بالنظم الحـكومية والآراء الحرة فى السياسـة والاجتماع ، وبذلك ازدادت صبغتا الأدب تبايناً

تأثر العرب بحضارة الأمم التى كانوا ينقلون متاجرها . ولا سيما الفرس والروم ، وكانت لهم بهؤلاء علاقات سياسـية ولأكابرهم إلى ملوكهم سفرات ، وإلى اشـتغال قريش بتلك التجارة ومخالطتها تلك الأمم يرجع ذلك الرق الأدبى والمـادى الذى بلغته قبيل الاسلام ، وظهورها على القبائل فى الثروة والجاه والشرف واللغة ، وإنجابها عظماء الرجال الذين على أيديهم توطدت دولة الاسلام ، فكانت مكة قبيـل الاسلام فى حال من التمدن وسط بين همجية البداوة ونعومة الحضارة

ولو استمر تأثر العرب بالبيئة الخارجية طبيعياً محدوداً هكذا لازدادوا رقياً وازدادت لغتهم بهاء وأدبهم ازدهاراً ؛ ولـكن التوسع الخارجى الذى أعقب نجاح المسلمين الحربى المفاجئ أوقف ذلك التأثر البطىء ، وأحدث انقلاباً تاماً فى مجرى الأمور ، فلم يعُد تأثر الأدب العربى بالعالم الخارجى مقصوراً على النقل التدريجى ، بل انتقل الأدب ذاته جملة من وطنه الأصلى وهجر بيئته الأولى إلى بيئة أو بيئات جديدة فى الشام والعراق ومصر والأندلس وغيرها ، والأدب العربى فى انتقاله هذا ومهاجرته هذه من وطن إلى وطن نسيج وحده بين آداب الأمم

وجد الأدب العربى نفسه فى بيئـة جديدة ، فى أراض مزروعة مثمرة ، وأمم مترفة مستقرة ، وبلدان عامرة متحضرة ، ذات علوم وصناعات ، فتأثر بهذه البيئة الجديدة فى ثلاث النواحى سالفة الذكر : فى مفردات اللغة وتعبيراتها التى ازدادت بالنقل والتعريب ، وفى المهن ومظاهر العمران ، وفى وصف مناظر الطبيعة الجديدة ، فكثر فى الأدب ذكر الرياض والأزهار

على أن تأثر الأدب فى الناحيتين الأولى والثالثـة كان قليلاً نسبياً لغنى اللغة فى الاشتقاق الذى أغناها عن الامعان فى التعريب ، ومحافظة العرب التى نفَّرتهم من استعمال ألفاظ اللغات الأخرى وأخيلتها إلا ما جاء عفواً أو ضرورة ، وحرصهم على احتذاء أسلافهم حتى ظلوا يقلدونهم فى وصف البيـد والخيام والنؤى والعيس ، وهم يعيشون بين الأرياف والعواصم ، فقامت هذه التقليدات للمتقدمين فى الأدب العربى كالمتحجرات فى علم الجيولوجيا : قد فقدت كل حياة ولم تعد إلا رموزاً للمـاضى

ولم يشغف العرب شغفاً حاراً بمظاهر الطبيعة التى صادفوها فى بيئتهم الجديدة ، وكأنَّ نفْرتهم القـديمة من قسر الطبيعة لم تفارق نفوسهم ، وكأن كل ما كانوا يطمحون اليـه بعد أن طووا الأميال ضرباً فى فلوات الجزيرة وهواجرها ، ظلٌّ ظليل وماء سلسبيل وهواء بليل ، تريح الجسوم وترويها وترفه عنها بعد طول الـكد ، فغص أدبهم الطبيعى بذكر راحة الجسم ولذات الحواس ، دون طويل تأمل فى محاسن الطبيعة واجتلاء لأسرارها وتقصٍّ للذكريات والآمال عندها ، وأجمعُ الأمثلة لذلك قول الشاعرة الأندلسية :

وقانا لفحـــة الرمضاء واد … سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحـــه فحنا علينا … حنوَّ المرضعات على الفطيم
وأرشـــفنا على ظمأ زلالاً … ألذ من المدامة للنـــديم
يصـد الشمس أنى واجهتنا … فيحجبها ، ويأذن للنسيم

إنما كان أشد تأثر الأدب العربى فى بيئته الجديدة بالناحية الثانية ، ناحية العمران ، ناحية الحياة المستقرة فى البلدان ، المعتمدة على الزراعة والصناعة ، الخاضعة للملـكية ، وهى عكس حياتهم فى البادية تماماً ، فانغمر الأدباء فى جو المدن . واعتزلوا الطبيعة وتكأكأوا على بيوت الأمراء ، وتزاحموا على مجالس الطرب والشراب ، واستفرغوا جهدهم فى انتهاب فرص الحياة من جاه

وميال ورفاهية ولهو ، وتأثر الأدب بذلك : فلم يعد يتغنى بالنجدة والبأس والقناعة ، بل طاب له الاستظلال بسلطان الحاكمين ، يترنم بمدحهم بعد أن كان أمثال عمرو بن كلثوم يثورون على نيرهم ، وتفنن فى وصف مظاهر التحضر وضروب الترف واللهو فى المدن

أما الأدب الانجليزى ، فتأثر بالبيئة العالمية فى النواحى الثلاث — نواحى مبنى اللغة ومظاهر العمران ومناظر الطبيعة — تأثراً كبيراً : فاللغة الانجليزية تدين للغات الأجنبية ولا سيما اللاتينية بأكثر مفرداتها وطرق اشتقاقها وكثير من تعابيرها ومجازاتها ؛ والمجتمع الانجليزى تأثر بالمجتمع الايطالى فى عصر الأحياء ، وبالمجتمع الفرنسى فى عصر لويس الرابع عشر ؛ ولم يخلُ فى عصر من التأثر بحالة العمران فى أوربا ، إذ كانت الحضارة الأوربية الحديثة مشتركة بين شتى الأمم ؛ وباطلاع الانجليز على أوصاف الطبيعة فى الآداب الكلاسيكية ازدادوا شغفاً بمفاتن بلادهم ، وزادوا فوصفوا محاسن الطبيعة فى إيطاليا وبلاد اليونان وغيرها

تأثر الأدب الانجليزى بالبيئة العالمية فى شتى النواحى ، ولكنه لاستقراره فى وطنه الأول وبيئته المحلية جاء تأثره بالأولى بطيئاً محدوداً لم يطغ على خواصه المحلية ، بل ظلت للبيئة المحلية المكانة الأولى والآثار الواضحة فى الأدب ، ولم يزد الأثر الخارجى على أن أضاف إلى العناصر المحلية ما يناسبها ويخصبها من العناصر الأجنبية ، وكلما احتجن الأدب جانباً من تلك العناصر مثَّلها ومزجها بنفسه وصبغها بصبغته الخاصة

فالأدبان العربى والانجليزى قد نشآ فى بيئتين طبيعيتين مختلفتين وترعرعا فى مجتمعين متباينين ، وتأثرا بعوامل عالمية مختلفة ، وهاجر أحدهما من بيئته الأولى إلى بيئة جديدة بينما ظل الآخر فى وطنه الأول ، فلاغرو أن يختلف الأدبان فى الصبغة والمناحى والأوضاع والأغراض والأخيلة ، اختلافاً يروع الناظر فيهما فيخيل إليه أن ليس هناك تشابه بينهما قط ، ولا وجه للموازنة والمقابلة ، ويكاد يُخفى ما فيهما من تعبير مشترك عن شتى النوازع النفسية والظواهر الاجتماعية ، التى تتفق فيها الطباع الانسانية ، فى شتى المجتمعات ، ومختلف البيئات

فخرى أبو السعود

خطر الفاشستية

على سلام العالم

ومشكلة البحر الأبيض المتوسط

بقلم باحث دبلوماسى كبير

لم يبد خطر الفاشستية على سلام أوربا وسلام العالم كما يبدو اليوم ؛ ولقد كان رأينا دائماً أن الفاشستية وما تقوم عليه من مبادىء العنف ، وما يحدوها من الأطماع المضطرمة ، وما تؤكده بأعمالها وتصريحاتها من احتقار لمبادىء الحق والعدالة الدولية ، إنما هى مصدر دائم للشر والخطر على السلام ، وبخاصة على الأمم الضعيفة التى تدين بوجودها واستقلالها لمبدأ الحق الطبيعى لا للقوة الغاشمة ؛ بيد أن الفاشستية لم تبد من قبل بمثل هذه الجرأة المكشوفة ، وهذا التحدى الواضح ، وهذا التوثب لارتكاب العدوان والشر ، وهذا الاستخفاف بحقوق الشعوب ومصايرها كما تبدو اليوم

منذ أكثر من عام نظمت إيطاليا اعتداءها المثير على الحبشة ، واستطاعت لا بحرب شريفة مشروعة ، ولكن بوسائل همجية ممقوتة أن تقهر هذه الأمة المنكودة وأن تضمها لأملاكها ، وأن تقيم على أنقاض الحريات المغصوبة إمبراطورية استعمارية تصول بها اليوم ؛ وفى الصيف الماضى استطاعت الفاشستية الايطالية وحليفتها النازية الألمانية أن تضرما فى أسبانيا نار ثورة مضطرمة ، ومازالتا إلى اليوم تمدان العسكرية الثائرة بالسلاح وكل صنوف المعاونة ، ومازالت أسبانيا تتلظى فى جحيم الحرب الأهلية ، لأن الفاشستية والنازية تود كل منهما أن تحقق لنفسها ظفراً معنوياً يكون مظهره قيام حكومة طغيان فاشستية فى اسبانيا على أنقاض الجمهورية ، وظفراً مادياً يقوم بتحقيق بعض المصالح السياسية والعسكرية التى تطمح كل منهما إلى تحقيقها

وكما أن مسألة البحر الأبيض المتوسط كانت أثناء الاعتداء الايطالى على الحبشة مثار الخطر والاحتكاك المستمر بين إيطاليا وبريطانيا العظمى ، فكذلك تثير الحرب الأهلية الاسبانية

مسألة البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى ، وتثيرها بصورة أدق وأوسع نطاقاً وأشد خطراً ؛ وقد كانت الأزمة التي أثارتها الحرب الحبشية في هذا البحر محلية في نوع ما لأنها كانت تتعلق بشرقية فقط ، وتتعلق بالنزاع بين إيطاليا وبريطانيا على السيادة في هذه المياه ، ولكن الأزمة التي تثيرها اسبانيا اليوم أزمة عامة شاملة ، تتعلق بالتوازن في البحر الأبيض المتوسط كله ، وتدخل فيها فضلاً عن إيطاليا وبريطانيا العظمى ، فرنسا وألمانيا

وقد خطب السنيور موسوليني في ميلان أخيراً في سياسة إيطاليا العامة نحو المشاكل الأوربية المختلفة وكرر دعاوى إيطاليا القديمة على البحر الأبيض المتوسط ، ووصفه بأنه بحيرة رومانية ، وأنه يجب أن يكون في الواقع كذلك لولا أن بريطانيا تدعى فيه سيادة لا يحق أن تكون لها ، ووجه الدعوة في خطابه إلى بريطانيا أن تتفاهم مع إيطاليا على قاعدة المساواة في الحقوق والمصالح ؛ لأن كون بريطانيا تتخذ من هذا البحر طريقاً لأملاكها فيما وراء البحار ، لا يجيز لها أن تدعى السيادة فيه والسيطرة على مياهه ؛ وقرن السنيور موسوليني خطابه السياسي كالعادة ببعض التلميحات والتهديدات المسرحية ، فأشار إلى عصبة الأمم بأنها حلم سخيف ، وسخر من مشروع نزع السلاح ونظرية السلامة الاجماعية ، وما إليها من مثل لتأييد السلام ؛ ولكن الحكومة البريطانية لم تلبث أن أجابت « الدوتشي » على مزاعمه ودعاويه ؛ فذكرت أولاً في خطاب العرش الذي افتتح به البرلمان البريطاني ، أن سياستها الدولية تقوم على تأييد عصبة الأمم وتدعيمها وإصلاحها لتتمكن من تأدية مهمتها ، وأنها ما زالت تؤمن بالسلامة الاجماعية كوسيلة لتأييد السلام والتفاهم بين الأمم ؛ وأما فيما يتعلق بالبحر الأبيض المتوسط ، فقد ذكرت الحكومة البريطانية على لسان وزير خارجيتها المستر ايدن في مجلس العموم ، أن بريطانيا العظمى تعتبر هذا البحر شرياناً من شرايين الامبراطورية ، وطريقاً حيوياً لتجارتها تدافع عنه بكل ما وسعت

***

ألقى السنيور موسوليني خطابه الرنان غداة الاتفاق الذي عقد أخيراً بين إيطاليا وألمانيا ، وكان من أهم نتائجه اعتراف ألمانيا بالامبراطورية الايطالية وسيادة ايطاليا على الحبشة ، واتفاق الدولتين على اتخاذ خطة سياسية مشتركة في أواسط أوربا وشرقيها ، وتحالفهما على مقاومة الخطر البلشفي الذي يزعج ألمانيا الهتلرية في كل لحظة ؛ واتفاقهما على احترام استقلال النمسا إلى حين ؛ ولم يكن هذا الاتفاق بين الدولتين الفاشستيتين مفاجأة في السياسة الدولية ؛ فمن المعروف أن إيطاليا وألمانيا تجمع بينهما روابط خاصة أهمها اتفاق الوسائل والخطط ، والاتحاد في كثير من المطامع والغايات ، ولا سيما المطامع الاستعمارية ؛ وقد كانت ألمانيا أول الدول المؤيدة لايطاليا يوم اعتدائها على الحبشة ، لأنها تجيش بمثل الأماني الامبراطورية التي تجيش بها إيطاليا ؛ هذا فضلاً عن اتحاد الدولتين في مناوأة عصبة الأمم ، وسياسة نزع السلاح ، وفي النزعة العسكرية ، والخطط السياسية العنيفة

والواقع أن المسألة الاستعمارية تلعب دوراً كبيراً في الأزمة الدولية الحاضرة ، وفي أزمة البحر الأبيض بنوع خاص ؛ فقد رأينا كيف بدأت هذه الأزمة وتفاقمت من جراء اعتداء إيطاليا على الحبشة ووقوف انكلترا في وجه السياسة الايطالية ، وحشدها الدول بواسطة عصبة الأمم لتوقيع العقوبات الاقتصادية ضد إيطاليا ؛ والآن وقد كلل اعتداء إيطاليا بالنجاح وفازت بامتلاك الحبشة ، فانها تتطلع إلى تحطيم المركز الممتاز الذي تستأثر به انكلترا في البحر الأبيض المتوسط لكي تأمن على مواصلاتها مع امبراطوريتها الافريقية ؛ ومن المحقق أن معاونة إيطاليا للجنرال فرانكو زعيم الثورة الأسبانية لها صلة كبيرة بهذا المشروع الذي تحلم به إيطاليا ؛ ذلك لأن قيام حكومة عسكرية فاشستية في أسبانيا موالية للسياسة الايطالية ، يهدد مركز انكلترا في جبل طارق وفي غرب البحر الأبيض المتوسط ، كما أنه يعزز مركز إيطاليا ونفوذها في هذه المياه خصوصاً إذا ثبتت الأنباء القائلة بأن القوات الايطالية تحتل الآن جزيرة ميورقة كبرى جزر البليار . وألمانيا تؤيد إيطاليا في هذا الموقف ، وتعاون ثوار أسبانيا أيضاً ، لأنها ترى في قيام الفاشستية في أسبانيا تقوية للجبهة الفاشستية التي تمثلها مع إيطاليا وإضعافاً لموقف الدول الديموقراطية : أعني فرنسا وانكلترا في أوربا ، كما أنها ترى في ظفر الفاشستية هزيمة

لعدوتها روسيا السوفيتية التي تعاون الجبهة الجمهورية في أسبانيا وربما كانت ألمانيا إلى جانب ذلك ترى في التدخل في شؤون أسبانيا وغرب البحر الأبيض وسيلة لاثارة المسألة الاستعمارية التي تعلق عليها أهمية كبيرة

وقد امتازت خطط الدولتين الفاشستيتين في العام المنصرم بالاندفاع والتحدي ؛ وما زال السنيور موسوليني بالأخص يبرق ويتوعد في كل خطبه وتصريحاته ، وينوه بقوة جيوشه واستعداداته وينذر أوروبا بالويل إذا لم تنزل عند أطماعه ومطالبه ؛ وما زالت انكلترا وهي التي يخصها « الدوتشي » بأكبر قسط من الوعيد والتحدي تقابل الموقف بالرزانة والاغضاء ، ماضية في تقوية تسليحاتها في نفس الوقت بكل ما وسعت ؛ كذلك نرى ألمانيا الهتلرية تنحو في خططها السياسية هذا النحو فتنقض المواثيق والعهود متى شاءت ، وتلوح في كل فرصة باستعداداتها العسكرية ؛ وفرنسا التي هي محور هذه الضربات تتلقاها في هدوء وتحاول مع حليفتها القديمة انكلترا أن تذلل الصعاب والأزمات بالأساليب السياسية ، وهي ماضية أيضاً في مضاعفة استعداداتها العسكرية العظيمة

ومن المحقق أن الدول الغربية وعلى رأسها فرنسا وانكلترا ترغب في السلام كل الرغبة ، وتعمل على اتقاء خطر الحرب بكل ما وسعت ؛ كذلك لا ريب في أن الفاشستية لا تبدي مثل هذا الحرص في المحافظة على السلام واجتناب أخطار الحرب ؛ ولقد اندفعت إيطاليا وألمانيا خلال هذا العام إلى إثارة عدة أزمات دولية كانت كل منها تكفي لاضرام نار الحرب ، فنقض ألمانيا لميثاق لوكارنو ومعاهدة الصلح ، وغزو إيطاليا للحبشة وحملاتها العنيفة على انكلترا ، وعلى عصبة الأمم ، وعملهما معاً على إضرام نار الحرب الأهلية في أسبانيا ، كل هذه كانت وما تزال تثير كدراً في أفق السلام ، وقد كادت في أكثر من فرصة أن تغدو خطراً حقيقياً على السلام

وهذه النزعة الخطرة التي تندفع الفاشستية فيها دون تدبر للعواقب ترجع الى حالة نفسية تستغلها الفاشستية ؛ فالدول الغربية التي خرجت من الحرب بأكبر قسط من الغنيمة ، والتي تبسط سلطانها على امبراطوريات استعمارية شاسعة ، وتستأثر بوفرة هائلة في المواد الأوليـــة ، تتمتع بمستوى مرتفع من الرخاء الاقتصادي ، ولها صناعات مزدهرة ، وتجارة خارجية عظيمة ، وهي تحرص على ذلك كله ، وتجانب الحرب ما استطاعت ، لأن الحرب تذير الخراب والبؤس الاقتصادي ؛ وهذا مثل انكلترا وفرنسا وبلجيكا ؛ فهي دول « راضية » لا تود بحالتها بديلا ، أما الدول الفاشستية ، أو بعبارة أخرى ايطاليا والمانيا ، فهما من الدول «غير الراضية» لأنهما تعانيان حالة من البؤس الاقتصادي ولا تحتكمان على مقادير كافية من المواد الأولية ، ولا تتمتعان بمقدار مرض من الرخاء ، فهما لذلك ساخطتان ، تحقدان على الدول «الراضية» ، وتودان تغيير هذه الحال والاستيلاء على بعض المستعمرات الغنية التي تكفل لهما الحصول على المواد الأولية ؛ وإذا كانت الفاشستية تقوم في الداخل على العنف ، فهي لا ترى أيضاً سوى العنف وسيلة لسياستها الخارجية ، وهي تندفع بلا تدبر للعواقب ، لأنها تعرف جيداً أن الدول « الراضية » أشد ما يكون زهداً في مقابلة العنف بالعنف ، وأنها تعمل جهدها لاتقاء خطر الحرب ؛ وقد نجحت الفاشستية في استغلال هذه الحالة ، وحققت لنفسها بالعنف ألواناً من الظفر ، في ميدان السياسة والحرب ، كغزو الحبشة ؛ ولا تزال تسرف في الوعيد كلما لاح لها أمل في التهويل والاستغلال

على أن الذي لا ريب فيه هو أن ألمانيا وإيطاليا مهما بلغتا اليوم من القوة لا تستطيعان الاضطلاع بحرب أوربية كبيرة ، فكلتاهما تفتقر الى المال والمواد الأولية ، وإن كانت غنية بالرجال والأساليب الفنية ؛ والحرب المعاصرة تقوم على المال والمادة كما تقوم على الفن والسواعد ؛ ومن ثم كان تلهف المانيا على استرداد مستعمراتها وهي أمنية تبدو مستحيلة التحقيق على الأقل في الوقت الحاضر ؛ ثم إن تيار الحوادث لا يستقر على حال ، فهاهي ذي الحرب الاسبانية تتطور في مصلحة الجمهوريين ، والثورة تدنو إلى الفشل ؛ وسيكون فشل الثورة الاسبانية ضربة أليمة ولكن عادلة للفاشستية التي أثارتها ؛ والأحوال السياسية تتطور في أوربا الوسطى تطوراً سريعاً ، ودول الاتفاق الصغير تنظر بعد خطبة الدوتشي في ميلان وما ورد فيها من إشارة إلى تعديل المعاهدات ، إلى السياسة الايطالية وغاياتها بمنتهى الريب ، بل إن الاتفاق الذي عقد أخيراً

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٥ —

اعتنق الفارابى ، بعد الكندى ، نظرية أرسطو فى الأحلام وقال معه إنها أثر من آثار المخيلة ونتيجة من نتائجها . ولا بد أن يكون القارىء قد لاحظ فى التفاصيل والجزئيات تشابها واتصالاً أكثر من هذا بين رأى الفيلسوف العربى والفيلسوف اليونانى ؛ فأن الفارابى يعتد بالميول والعواطف ويثبت مالها من أثر فى تكوين الأحلام وتشكيلها . ويرى كذلك أن للطبائع والأمزجة دخلاً كبيراً فيها . وكل تلك أفكار رددها أرسطو من قبل

بيد أن مؤسس الليسيه يجهد نفسه دائماً فى أن يبعد عن مذهبه التفسيرات الدينية والتعليلات القائمة على قوى خفية وأسرار غامضة . ونزعته الواقعية تغلب عليه فى دراساته النفسية كما استولت عليه فى أبحاثه الطبيعية والاخلاقية . لهذا نراه يرفض أن تكون الرؤى وحياً من عند الله ، ولا يقبل مطلقاً التنبؤ بواسطة النوم . لأن الأحلام ليست مقصورة على طائفة دون أخرى ،

بين ألمانيا وإيطاليا يبدو ضئيلاً مزعزع الأسس أمام التطورات الأخيرة فى أوربا الوسطى ؛ وهاهى ذى إيطاليا رغم صياحها ووعيدها تؤثر أن تمد يدها إلى إنكلترا التى تمضى فى تسليحاتها البحرية والجوية بخطى الجبابرة

والخلاصة أن الفاشستية هى منبع الخطر على سلام أوربا ، ففى إيطاليا وألمانيا تضطرم النار الخفية التى قد تثير ضرام الحرب فى أية أزمة من الأزمات التى ما زالت الفاشستية تعمل على إثارتها بلا تدبر للعواقب ؛ فاذا لم تنجح أوربا فى كبح هذه النزعة الخطرة ، فالويل للسلام الأوربى والحضارة الأوربية ؛ بيد أن كل ما هنالك يدل على أن أوربا حريصة على سلامها وتراثها ، وأنها لن تنحنى أمام وعيد هتلر وموسوليني

(...)

وفى مقدور العامة والدهماء أن يدعوا التنبؤ بالغيب عن هذا الطريق ، وهذا ما لا يسلم به أحد . وهنا يفارق الفارابى أستاذه ويقرر أن الانسان يستطيع بواسطة مخيلته الاتصال بالعالم العلوى واختراق حجب الغيب والوقوف على المكنون والخفى . ولكن يجدر بنا أن نعقب على هذا مسرعين بأن الفارابى وإن خالف أرسطو فأنما يخالفه فى نقطة محددة ؛ ذلك لأن الاتصال بالعقل الفعال عن طريق المخيلة لا يتم فى رأيه إلا لطائفة ممتازة وجمع مختار ، وإذا كان الفارابى قد وفق لحل موضوع المقامات والرؤى فلم يبق أمامه إلا خطوة واحدة لحل مشكلة النبوة . فان المخيلة متى تحررت من أعمال اليقظة المختلفة استطاعت أثناء النوم أن تصعد إلى سماء النور والمعرفة . وإذن متى توفر لدى شخص مخيلة ممتازة تمت له نبوءات فى النهار مثل نبوءات الليل ، وأمكنه فى حال اليقظة أن يتصل بالعقل الفعال مثل اتصاله به أثناء النوم ، بل ربما كان ذلك على شكل أوضح وصورة أكمل . فالنبى فى رأى الفارابى بشر منح مخيلة عظيمة تمكنه من الوقوف على الالهامات السماوية فى مختلف الظروف والأوقات

هذه هى نظرية النبوة فى حقيقتها العلمية والفلسفية ، وظروفها وأسبابها الاجتماعية ، ومصادرها وأصولها التاريخية ، ونعتقد أنها الجزء الطريف والمبتكر فى فلسفة الفارابى . حقاً إنها تعتمد على أساس من علم النفس الأرسطى ، إلا أنها فى مظهرها الكامل أثر من آثار تصوف الفارابى ومعتقداته الدينية . فأن الاتصال بالعقل الفعال سواء أكان بواسطة التأمل والنظر أم بواسطة التخيل هو قمة الصوفية الفارابية . ومن جهة أخرى يجب أن نلاحظ أن الفارابى متمش هنا مع مبدئه فى التوفيق بين الفلسفة والدين ومتأثر بتعاليم الاسلام تأثره بأفكار أرسطو . فان العقل الفعال الذى هو مصدر الشرائع والالهامات السماوية فى رأيه أشبه ما يكون بالملك الموكل بالوحى الذى جاءت به نظرية الاسلام : كل منهما واسطة بين العبد وربه وصلة بين الله ونبيه . والمشرع الأول والملهم والموحى الحقيقى هو الله وحده . وبهذا استطاع الفارابى أن يمنح الوحى والالهام دعامة فلسفية ، ويثبت لمنكريهما أنهما يتفقان مع مبادىء العقل ويكونان شعبة من شعب علم النفس

غير أنه قد يعترض عليه بأنه يضع النبي فى منزلة دون منزلة الفيلسوف . فأن وصول الأول عن طريق المخيلة فى حين أن الثانى يدرك الحقائق الثابتة بواسطة العقل والتأمل ، وليس هناك شك فى أن المعلومات العقلية أفضل وأسمى من المعلومات المتخيلة ؛ ولكن الفارابى فيما يظهر لا يأبه بهذه التفرقة ولا يعيرها أية أهمية ؛ وسواء لديه أن تكون المعلومات مكتسبة بواسطة الفكر أم بواسطة الخيالة ، ما دام العقل الفعال مصدرها جميعاً ، فقيمة الحقيقة لا ترتبط بالطريق الذى وصلت إلينا منه ، بل بالأصل الذى أخذت عنه ؛ والنبي والفيلسوف يرتشفان من معين واحد ويستمدان علمهما من مصدر رفيع ؛ والحقيقة النبوية والحقيقة الفلسفية هما على السواء نتيجة من نتائج الوحى وأثر من آثار الفيض الالهى على الانسان عن طريق التمثيل أو التأمل .

على أن الفارابى بعد أن فرق فى كتابه : آراء أهل المدينة الفاضلة بين النبي والفليسوف من ناحية الوسائل التى يصلان بها إلى المعرفة عاد فقرر فى مكان آخر أن الأول ، مثل الثانى ، يمكنه أن يعرج إلى مستوى الكائنات العلوية بواسطة العقل . فان فيه قوة فكرية مقدسة تمكنه من الصعود إلى عالم النور حيث يتقبل الأوامر الألهية فلا يصل النبي إلى الوحى عن طريق المخيلة فحسب ، بل بما فيه من قوى عقلية عظيمة . يقول الفارابى : « النبوة مختصة فى روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالم الخلق الأكبر كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الأصغر فتأتى بمعجزات خارجة عن الجبلة والعادات ؛ ولا تصدأ مرآتها ولا يمنعها شيء عن انتقاش ما فى اللوح المحفوظ من الكتاب الذى لا يبطل ، وذوات الملائكة التى هى الرسل ، فتبلغ مما عند الله إلى عامة الخلق »[1] .

وإذا كان فى مقدور النبي أن يتصل بالعقل الفعال بواسطة النظر والتأمل فأن النبوة تصبح ضربا من المعرفة يستطيع الناس على السواء الوصول اليه . فبتأثير العقل الفعال نبحث ونفكر وندرك الحقائق العامة ، وبتفاوت أثره فينا تختلف درجاتنا ويفضل بعضنا بعضا ، وإذا ما عظم اشراقه على واحد منا سما بنا الى مرتبة الالهام والنبوة . وعل هذا هو الذى دفع علماء الكلام الى أن يأخذوا على الفارابى ومن جاء بعده من فلاسفة الاسلام ميلهم الى عد النبوة أمرا مكتسبا . مع أن أهل الحق ، فيما يصرح الشهرستانى ، يقولون « إن النبوة ليست صفة راجعة الى النبي ، ولا درجة يبلغ اليها أحد بعلمه وكسبه ، ولا استعداد نفسه ، يستحق به اتصالا بالروحانيات ، بل رحمة يمن الله بها على من يشاء من عباده »[1] . ونحن لا ننكر أن موازنة الفارابى بين النبى والفيلسوف تدع باب النبوة مفتوحاً للجميع ، كما أن الفلسفة ليست مقصورة على طائفة دون أخرى . إلا أنه يخيل الينا أن الفلسفة فى رأى الفارابى ليست سهلة المنال بالدرجة التى تبدو لأول وهلة ، فلكل أن يتفلسف ، ولن يحظى بالفلسفة الحق إلا أفراد قليلون ؛ وفوق هذا فالفارابى يقرر أن النبى ينعم بمخيلة ممتازة أو قوى قدسية خاصة ، ويغلب على ظننا أن هذه القوة القدسية وتلك المخيلة فطريتان فى رأيه لا مكتسبتان وإن كان هو نفسه لم يصرح بذلك . ونحن نسلم جميعاً بأن فى نفس النبى ومزاجه كمالاً فطرياً استحق به النبوة ، وسما بسببه الى الاتصال بالملائكة وقبول الوحى . والأنبياء هم صفوة الناس وخيرة الله فى خلقه : « الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس » يقول الشهرستانى : « فكما يصطفيهم من الخلق قولاً بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلاً بكمال الفطرة ونقاء الجوهر ، وصفاء العنصر ، وطيب الأخلاق وكرم الأعراق . فيرفعهم مرتبة مرتبة ، حتى اذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الالهية بعث اليهم ملكاً وأنزل عليهم كتاباً »[2]

وأخيراً اذا كان الفارابى قد استطاع التخلص من الاعتراضين السابقين فهناك اعتراض ثالث تعز الاجابة عليه ، وهو أن تفسير الوحى والالهام على النحو السيكلوجى السابق يتعارض مع كثير من النصوص الثابتة . فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة بعض الأعراب أو أنه كانت تسمع له صلصلة كصلصلة الجرس ، إلى غير ذلك من

(١) الفارابى ، الثمرة المرضية ، ص ٧٢

(١) الشهرستانى ، نهاية الأقدام ، ص ٤٦٢

(٢) المصدر نفسه ؛ ص ٤٦٣

آثار متصلة بالوحى وطرائفه . ولا نظن أن هذه الآثار غابت عن الفارابى ، إلا أنه ، فيما نعتقد ، شغل بمسألة أخرى ، وعنى بأن يثبت أولاً وبالذات أن الوحى أمر ممكن ولا يخرج على المبادىء العلمية المقررة ، وبذا أصبح اتصال الروحانى بالجسمانى الذى كان يستبعده الصابئة وغيرهم مقبولاً ، وينبغى أن نلاحظ أن جل جهد الفارابى فى نظرية النبوة لم يكن موجهاً نحو أهل السنة الذين يؤمنون بكل ما جاء فى القرآن والحديث متصلاً بالوحى وكيفياته ، وإنما كان مصوباً الى تلك الطائفة التى أنكرت النبوة من أساسها ، وهذه الطائفة لم تحارب الاسلام فحسب ، بل حاربت الأديان على اختلافها . فلم ير الفارابى بداً من أن ينتصر لمبدأ النبوة من حيث هو وأن يوضحه بمعزل عن أية بيئة أو وسط خاص ، وليس بعزيز عليه بعد هذا أن يتأول ماورد من نصوص دينية تخالف آراءه أو تبعد عنها ، وقد سلك سبيل التأويل غير مرة ، فسلم بوجود اللوح والقلم مثلاً ، ولكنه فسرها تفسيراً يتفق مع نظرياته الفلكية والميتافيزيقية [1] ، ونحن لا ننكر أن الاسترسال فى التأويل قد يغير كثيراً من معالم الدين ، إلا أنه وسيلة لازمة لمن يحاولون التوفيق بين العقل والنقل . والحقيقة أن الفارابى وقف هنا ، شأنه فى نظرياته الأخرى ، موقفاً وسطاً ، فأثبت النبوة اثباتاً عقلياً علمياً غاضاً الطرف عن بعض النصوص والآثار المتصلة بها . وكأنه فى الوقت الذى منحها فيه أسلحة جديدة جردها من بعض ما كانت تعتمد عليه من أحاديث وأسانيد . والموفق مضطر دائماً لأن يستخلص من الرأيين المتقابلين مذهباً جديداً يمت إلى كل واحد منهما بصلة

ومهما يكن من شىء فلو لم يصنع الفارابى إلا أنه أظهر فى جلاء منزلة النبى السياسية والاجتماعية لكفى . وقد استطاع بهذا أن يرد على أباطيل ابن الراوندى واعتراضات الرازى . وعلى ضوئه سار فلاسفة الاسلام الآخرون وفسروا كثيراً من التعاليم الدينية بهذه الروح وتلك النزعة . وبوضع النبوة هذا الوضع الانسانى الاجتماعى يمكن أن تحل مشكلة الرياسة الدينية والسياسية التى شغلت المسلمين منذ القرن الأول للهجرة . وفى رأى الفارابى أن النبى والامام والملك والحاكم والفيلسوف الذى نادى به أفلاطون لجمهوريته يجب أن يقوموا بمهمة سياسية واحدة [1] . فهم واضعو النواميس والمشرفون على النظم الاجتماعية مسترشدين فى كل هذا بالأوامر الآلهية . وميزتهم المشتركة أنهم يستطيعون الاتصال بالعالم الروحانى فى حال اليقظة وأثناء النوم بواسطة المخيلة أو الفكرة [2] . وفى هذا التفسير ما فيه من انتصار للاسماعيلية والشيعة بوجه عام سنرى أثره فيما بعد

(يتبع) ابراهيم مدكور

(١) الفارابى : الثمرة المرضية ؛ ص ٧٧

(١) الفارابى : تحصيل السعادة ؛ ص ٤١ — ٤٤

(٢) الفارابى : السياسات المدنية ؛ ص ٤٤ — ٥٠

شخصية نافذة يهملها النقد العربي

نقد ابن أبي عتيق

للأستاذ خليل هنداوى

مازدت خوضاً فى آثار الأقدمين إلا زدت إعجاباً بها وبهذا الجد الذى ولدها ؛ وإنك لتقلب فى كتبهم فيبهرك هذا التلون فى المادة وهذا التفنن ، وهب أنك خرجت منزعجاً لاضطراب فى الاتساق واختلاف فى الاتفاق ، فان هذا لم يكن ليذهب ببعض عجبك من هذا الجد وهذا الدأب اللذين يدلانك على عقلية حاوت أن تتأمل وتعلل !

فى كتب الأقدمين ذلك الاضطراب الذى كان لا يحسه أصحابه . لأنهم لم يعملوا أعمالهم على حساب الأجيال الآتية ، ولو فعلوا لهوّنوا على مؤرخينا كثيراً من عناء الافتراض وقياس مالا يقاس ، ولكن أصحابنا — عفا الله عنهم — لم يريدوا أن يعطونا الثمرة ناضجة بل أرادوا أن نعمل على انضاجها وصونها . وفى كتبهم ثمرات كثيرة تنادى الأيدى وهى دانية القطوف ؛ وأذكر أنى ماجلست يوماً إلى كتاب من هذه الكتب إلا خرجت بحديث ممتع أو فائدة جيلة تدفعنى نفسى إلى التقاطها وأنى لى أن أقسم أعضاء جسدى أقلاماً تسطر !

جلست فى هذا الصيف إلى أغانى أبى الفرج التى كما ضربها الأدباء تفجرت منها عيون جديدة . ووقفت على اسم « ابن أبى عتيق » الذى عاش فى الحجاز فى العصر الأموى ورافق تطور المدرسة الغزلية أتأمل تكرر اسمه فى كثير من المواقف مع كثير من الشعراء ، طوراً يبدو لى كناقد وطوراً كسامر ، فحصرت مواقفه فى هذه المواضع على التقريب ، فاذا بى أرانى أمام شخصية عنيدة فى النقد هى — إذا صح ظنى — أول شخصية فى الأدب العربى « اليقينى » عالجت الأدب وعملت على نقده غير مستلهمة إلا ذوقها ... ولكن أبا الفرج عفا الله عنه ترك هذه الشخصية مجهولة لأنها — فى زعمه — لم تبتكر ولم تنتج شعراً ولا لحناً ، ولكن هذه الشخصية تتردد كثيراً على الأفواه . وتغشى كثيراً مجامع اللهو والأدب ، وتصبغ كثيراً هذه المجامع بألوانها الخاصة . ومما يجعل هذه الشخصية بارزة ترددها الكثير إلى هذه المجامع المختلفة ، وتردد أصحابها اليها معتبرين رأيها فى النقد والأدب . ولا أعلم — بحسب روايات الأغانى — نقداً تحليلياً عميقاً كهذا النقد . ولقد أردت أن أوضح هذه الشخصية وأستوضح عنها فى بطون الكتب والأخبار ، وليس عندى ما يسعفنى على ذلك ؛ ولو كان ذلك سهلاً لما سهل على عقلى الذى لم أتعود إرغامه على الدخول فى هذه المنعرجات الطويلة التى تحتاج إلى تأمل طويل وأناة فى الامعان . ولكن ذلك غير مانعى من أن أغامر فى رسم ناحية من نواحى شخصية هذا الرجل العجيب المنتج فى النقد ، وأظنها الناحية الأكثر بروزاً فى الرجل

والآن من هو ابن عتيق ؟

يبدو لنا ابن أبى عتيق رجلاً يخالط المغنين والشعراء ولابد أنه كان يتذوقهم ، وأنه كان صاحب ثقافة واسعة فى الشعر والغناء تخول له الحكم فيهما ، وإنه كان بعد هذا كله صاحب ذوق خاص يفهم الشعر والغناء به . ومذ كان كما يبدو يقصده الملحنون والشعراء أنفسهم يحتكمون اليه فى لحن أوبيت أوملاحن أو شاعر فلا يتباطأ فى حكمه ، ولا يفل له رأى فى ذلك . حديد اللسان والجنان والبيان ! ولولا هذه الثقافة وهذه الشهرة لما كان له مقام فى ذلك . ولقد كان عمر بن أبى ربيعة أحسن المقربين اليه ، وكان له معه عشرة حسنة ومجالس طيبة ، وكان له مع شعراء الحب والغزل أمور كثيرة ، ولابد أن حادثة من حوادث غرامه جملته يحدب على المحبين ، ويمثل دور الرسول بينهم وبين أحبتهم

ويمتاز نقده بأنه كان نقد روح ومعان لا نقد قشور ومبان ؛ ويعود سر ذلك الى أن اللغة العربية كانت لا تزال بعيدة عن الفساد ، وأن لسان العرب كان لا يزال لساناً فصيحا ، وكان نقده أقرب الى أحاديث النوادى ، لأنه نقد بيت أو فكرة ، ولأنه نقد يلم بجانب واحد من المعنى ويهمل بقية الجوانب . ونقده ليس فيه صرامة ولا خشونة ولا صلف ، وإنما هو نقد تهيمن عليه رقة حجازية ومجون برىء يأبى إلا أن يظهر . ومن وراء ذلك تهكم بعيد ويصيب المفصل ! ولهذا التهكم جمل الشعراء يتقربون اليه ويطمعون فى اكتساب مرضاته . وهو يذهب تارة فى نقده يكشف عن المعنى غطاء تقيلا ، وطورا

يستجلى المعنى البعيد فى البيت ويكشف عن قصده، وتارة يفسد على الشاعر ما ذهب اليه ولم يفطن له ! ومثل هذا النقد أقرب الى الروح الأدبيـة فى ذلك العصر وهو — بعد هـذا — بعيد عن مثل ذلك الاختلاق الذى وضع على لسان الخنساء يوم نقدت حسان بن ثابت وأضعفت بنقدها اللغوى مواضع فخره ! لأن الوثبات الأدبية الأولى فى الأمم لا ترنو إلى مثل هذه الفروق اللغوية الدقيقة التى لا تنشأ إلا عند رجال انصرفوا إلى اللغة وتدقيقها والتفريق بين فروقها، ولو أن هـذه الوثبات تلتفت إلى هذه الفروق لفتات كثيراً من روح نشاطها وأخمدت كثيراً من نار إبداعها . ويمتاز ابن أبى عتيق بثقافته الغنائية، ومثل هـذه الثقافة ترقق الذهن وتلطف الحواس وتجعل للبيت المنظوم قدراً خاصا . وقد كانت هذه الثقافة الغنائية عنده سليقة طبيعية . ولقد مر ذات يوم بمعبد وهو يغنى — وكان طفلاً — فقال : « إن عاش معبد كان مغنى بلاده » وعاش حتى رأى صدق نبوءته . ويمتاز بهذه الروح الخفيفة التى لا يستغنى النقد ولا الناقد عنها . ويدل على ذلك مواقف كثيرة

منها أن عمر بن أبى ربيعة شبب بزينب بنت موسى الجمحية بقصيدته :

يا خليلى من ملام دعانى   وألما الغداة بالأظعان

وكان سبب ذكره لها أن ابن أبى عتيق ذكرها عنده ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر . فبلغ ذلك ابن أبى عتيق فلامه فيها وقال له : أتنطق الشعر فى ابنة عمى ؟ فقال عمر

لا تلمنى ، عتيق! حسبى الذى بى   إن بى يا عتيق ما قد كفانى
لا تلمنى ، وأنت زينتها لى   أنت مثل الشيطان للانسان

فقال أبو وداعة السلمى منكراً على عمر التشبب بها « لا أقر لابن أبى ربيعة أن يذكر امرأة من بنى هصيص فى شعره » فأجاب ابن أبى عتيق « لا تلوموا أبا وداعة أن . . . من سمرقند على أهل عدن » ومن خفة روحه أن سمع عمر ينشد قصيدته

ومن لسقيم يكتم الناس ما به   لزينب نجوى صدره والوساوس
ولستُ بناس ليلة الدار مجلساً   لزينب حتى يعلو الرأس رامس
خلاء بدت قمراؤه وتكشفت   دجنته ، وغاب من هو حارس
وما نلتُ منها محرماً غير أننا   كلانا من الثوب المورد لابس

قال عتيق : أمنا يسخر ابن أبى ربيعة ، فأى محرم بقى ؟ فاعتذر عمر ، فقال له عتيق : يا عاهر ! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة . فانظر ما كان أبعد هذه الروح فى كشف المستور ، وما أخف روحها فى التعبير عنه

ولقد يثب فى تهكمه من الأدب إلى السياسة ويضربهما ويصيبهما بحجر واحد ويكون تهكمه فى هذا الموقف الدقيق بليغاً ما بعده أبلغ ! سمع عمر ينشده قوله

فأتتها طبـة عالمة   تخلط الجد مراراً باللعب
إن كفى لك رهن بالرضا   فاقبلى ياهند ! قالت : قد وجب

فقال له عتيق : إن الناس يطلبون خليفة مذ قتل عثمان فى صفة قوادتك هذه يدير أمورهم فما يجدونه . فماذا يستطيع المحال أن يزيد على هذا التهكم ؟ ويسمع عمر ينشده قوله

حبذا أنت يا بغوم وأسما   ء وعيص يكننا وخلاء

فقال له : ما أبقيت شيئاً يُتمنى يا أبا الخطاب إلا مِرجلاً يُسخن لكم فيه الماء للغسل . ولا أدرى كيف يوفق بين محرم وطاعة إلا التهكم وحده ؟

ويسمع عمر ينشده قوله :

ليت ذا الدهر كان حتما علينا   كل يومين حجـة واعتماراً

فأجابه عتيق : الله أرحم بعباده أن يحمل عليهم ما سألته ليتم لك فسقك ! وهكذا تجد أنه يتصـدى لعمر لا لأنه يضمر لعمر مقتاً أو كرهاً ، ولقد كان لعمر فى نفسه منزلة لم ينزلها غيره من شعراء عصره وهو الذى تنبأ بنصف بيت كان فى خاطر عمر

قال عمر : لا تلمها وأنت زينتها لى

فأجاب عتيق : أنت مثل الشيطان للانسان

فقال عمر : هو والله !

فقال عتيق : إن شيطانك ورب القبر ربما ألم بى فيجد عندى من عصيانه خلاف ما يجده عندك من طاعة ، فيصيب منى وأصيب منه

ولعمر كما ذكرت فى نفسه منزلة خاصة إذ يرى فيه المثل الأعلى للشعر ، اليه يسمو الشعراء ، وبشعره يقتدى الشعر . ولقد كان يعرف شعراء عصره منزلة عمر عند ابن أبى عتيق . فكان يأتيه من يحاول مناقضته أو مجادلته فيه ، وكان الشاعر يأتى بأبيات يتحدى شعر عمر ، ولا أعلم شاعراً انثنى سالماً من نقد ابن أبى عتيق ، ولا أعلم واحداً استطاع أن يجرح له حكماً أو نقداً

(دير الزور) البقية فى العدد القادم خليل هنداوى

فى الحيـــاة

للأستاذ السيد محمد زيادة

لست أكتب هذا لأكتب ؛ وإنما هى شكوى أطرحها هنا . . . أما طرفها الأول فهو أنا ، وأما طرفها الثانى فلا أدرى أهو شعورى المرهف لكل كبيرة وكل صغيرة تمرّ به ، أم هو وجدانى المستوعب دائماً كلّ ما فىّ وكل ما أنا فيه ، أم هو نفسى المتفتحة لكل ما ينتهى إليها من أمرها ومن أمر غيرها ! ! .

فأنى فى هذا الشعور بهذا الوجدان مع هذه النفس أعيش فى الدنيا كسفينة المستكشف عملها فى اليمّ أن تظل حائرة على وجه اليم فلا تكاد ترسو إلى شاطئ إلا لتنشد غيره ؛ ويتملك رأسى خيالٌ يقظ لا يهجع . ويقظة الخيال شقاء من الفن فهى شقاء فى كل مواقع الحس لكل نواحى الحس

وأرانى منكوباً بهذا الخيال مرزوءاً بهمّه ، ثم أرانى أحبه ولا أحيا بغيره . . . فكأنما أنا بين بليّتين فيهما مشكلتان لا حل لهما فلا نجاة منهما . . .

وأحس أننى قد قدر علىّ أن أعيش هكذا حتى أموت هكذا ؛ فما أستريح يوماً من سبى الخيال وراء ما يعنى ومالا يعنى ، ولا أقصر يوماً عن التفكير فى صوره التى يستخرجها من صور الحياة . أُرانى مقطوعاً من قمة جبل محطوطاً عند سفحه ، وأريد أن أرى وأنا عند السفح ما أراه وأنا فى القمة ؟ . . أم ترانى أخطأتُ إذ خلقتُ لتحتوينى الدنيا فظننت أننى خلقت لأحتويها ؟ . .

* * *

أمشى فى الطريق فأرى قصاباً يمر بسكينه مرتين على رقبة ديك كبير ، ثم يقذف به بعيداً ؛ فيقف صامتاً تتدفق الدماء من عنقه ، وتزوغ عيناه فتارة تشخص إلى القصاب ، وتارة تتطلع إلى الصبية الملتفين حوله يشهدون مصرعه ، وتارة تنظر إلىّ وكأنها تقول كلاماً ، ثم يرقص الديك رقصة الموت إذ ترنحه المنية ، ثم يرتمى على الأرض . . . فألقى عليه نظرة ساكنة ثم ألتفت عنه وآخذ سبيلى فاذا هى على غير ما كانت عليه ، وكأن الشارع بما فيه من سابلة وما يحفه من مبانٍ خلوةٌ هادئة فى وهدة غارقة بين نجدين . فأستعيد صورة الديك مضطرباً ثم مذبوحاً ثم هامداً فيخيل إلىّ أنه كان وقت ذبحه يقول : الآن قد آمنتُ بأننى ما خلقت إلا ليأكلنى من كان يطعمنى . .

ثم أغيب عن الوجود غيبة ، وأظل أفكر ويشغلنى بالى التفكير . وقد يستنفد هذا من وقتى ومن ذهنى ما أنا فى حاجة إليه لشؤونى

* * *

وأنطلق مع صديق لى إلى ناحية الروج فى نزهة خلوية فتقابلنا على الأرض نملة تسعى ، فيدوسها الصديق بقدمه عامداً إلى قتلها ؛ ولكنه يتركها تتلوى فلا هى بالحيّة ولا هى بالميتة ، فيشجر بينى وبينه شقاق فى الرأى حول فعلته . . . أريد أن أثبت له أنه مخطئٌ وأن الله لم يجعله على الأرض مبيداً للحشرات ، ويريد هو أن يثبت لى أنه مصيب وأن الله لم يجعلنى على الأرض مرشداً للناس . ويطول الخلاف بينى وبينه ، فلا هو مقتنع بأن عمله هذا قسوة ولا هو مقتنع بأن عمله هذا رقة ؛ فأضطر إلى السكوت على مضض وأمشى مشفقاً على النملة المتوجعة ، متألماً لطغيان القوة على الضعف ، متعجباً لاعوجاج معنى الحياة ، حاملاً من إشفاق وتألمى وتعجبى ثورة على صديقى . . . لقد ديستْ النملة وتحطمتْ وبقيتْ تتعذب حتى تموت فماذا جرى منها حتى نَستحلّ ما جرى عليها ؟ . . وأين الرحمة ؟ أين الرحمة ؟

وأظل أتغيظ ويملأ الغيظ نفسى ، وقد يذهب هذا من سرورى ما أنا فى حاجة اليه لنفسى

* * *

ويصادفنى فى الطريق رجل كسير مسكين يترقرق الدمع فى عينيه ويكاد يطفر ، وتجول الحسرة الصامتة فى جبينه وتكاد تتكلم ؛ فتلتقى عيناى بعينيه فى موضع الفاقة من هيكله ، ثم يلتقى شعورى بشعوره فى موضع الألم من نفسه ... وأراه يتلفت عن يمينه وعن شماله متفرساً فى وجوه المارين به من الزوارق اللاهية بالصخرة الحزينة ، فأذهب أتصور نفسى بائساً بؤسه حائراً حيرته واقفاً ، وأمكث أتحرى فى مسارح شعورى ما كنت أقوله لنفسى وما كانت نفسى تقوله لى ... حتى أسمع فى وجدانى هذا الحديث : كنت أقول لنفسى : أنا جائع فهل من هؤلاء الناس السعداء من يعرف الجوع ؟ وهل منهم من يرده ؟ ... وتقول لى نفسى : أمسك على الطوى فليس بين الناس من يرجى ، وليس

غير الله من يُسأل ... فأقول لها وهل المحسن من الناس إلا يدٌ من الله تمد بالحسنة ؟ ... فتقول لى : يد الله لا تنتظر السؤال لتعطى ...

ويتمطط حديث الوجدان ويطول ، وأظل أتحسر ولا أستطيع إلا أن أتحسر ؛ وقد يستغرق هذا من وجدانى ومن خاطرى ما أنا فى حاجة اليه لعملى

* * *

وأجلس فى غرفتى مسهداً فى هدأة الليل تشرف بى جلستى على دور ومن ورائها حقول ومن ورائها ما لا يرى ... فتذهب عينى إلى مسارب الفكر ، ويغوص فكرى إلى أعماق الكيان . فماذا أجد هناك ، وما تحمل نفسى من هناك ؟ !

أجد هناك إرادة الحياة تغالب إرادة الموت فتتجاذبان روح الانسان ، والانسان بينهما عاجز لا حيلة له ، ضعيف لا قوة فيه ، مسخر لا رأى عنده ... وما تزالان تصطرعان حتى تهتديا إلى حل تصطلحان عليه ، هو أن يموت الانسان جزءاً من اليوم على قدر استعداده للخمود والموت ، ويحيا بقية اليوم على قدر استعداده للعمل والحياة ؛ وتتفقان على أن تسمى تلك الموتة اليومية الصغيرة بالنوم ، فيقال نام .... حتى تعافه الحياة فتنزل عنه للموت فيقال مات ...

وتحمل نفسى من هناك كلمة الفناء ومعها كلمة الألم ؛ وأقول لنفسى : حقاً إن هذا الذى نسميه النوم ما هو إلا راحة أصغر من راحة ، فهو موت أصغر من موت . . . ياعجباً ! ! أهكذا جُعل الموت على رقابنا حتى لم تخلُ منه الحياةُ نفسها ؟ ! أهكذا خُلقنا لنموت ونحيا كل يوم ثم نموت فى يوم فلا نحيا ؟ ! ثم أقول : ياويلتاه . . . لن ألبث إلا قليلاً حتى أكون فى عداد هؤلاء الأموات الذين تركوا الدنيا وما يزالون فيها . . فمنهم من يبعث ليأرق ثم يموت ، ومنهم من يبعث ليشرب ثم يموت ، ومنهم من تدخله موتته الصغرى فى موتته الكبرى فلا يبعث إلا يوم الحشر . . .

وأظل أتأمل وأتوزع بين التأملات ؛ وقد يشغل هذا من بصيرتى ومن إدراكى ما أنا فى حاجة إليه لقلبى

* * *

وآوى إلى مضجعى قبيل الفجر مهدماً كالقادم من سفر طويل ، مكدوداً كالفارغ من عمل شاق ؛ وألقى برأسى على الوسادة ثقيلاً كالحجر ، ساخناً كالأتون ، ممتلئاً عما أفرغت فيه المشاهد والمشاعر من صور طول النهار ومعظم الليل . . . وفيما أنا أستشعر الخلو ، وأتلمس الاستقرار ، وأستكفى محى عناء التفكير ، وأقنعه بضرورة الرقاد . . . يطرق مسمعى صوت بوم ينعب ، وأنا لا أمقت كما أمقت البوم طائراً نافعاً أو ضاراً ؛ فأنهض من فراشى لا لأغلق النافذة دون ذلك الصوت الكريه البعيد فأزيد بعده أو أصده ؛ وإنما لأطل من النافذة فأقترب من ذلك الصوت الكريه البعيد فأسمعه جيداً لعلنى أفهم غموضه فأفسره . . .

وتمر من الليل فترة وما تكاد تنقضى حتى أجدنى قد انقلبت عاطفا على البوم واجداً فى نعيبه جمالاً ولذة ؛ وما تغير هو حتى صار محبوباً ، وما تغيرتُ أنا حتى صرت أحبه .. ولكننى إذ أفتح لسماعه آذان نفسى أسمعه كالمغنى ، وإذا أفتح لغنائه آذان عقلى أتسمع فيه نداء الحب المشتاق للحبيب الغائب ...

وأظل ألقى على نفسى فى أمر البوم ونعيبه وشؤمه السؤال بعد السؤال ؛ وقد يأخذ هذا من راحتى ما أنا فى حاجة إليه لجسمى

* * *

وهكذا أرانى منكوبا بهذا الخيال مرزوءاً بهمه ، حتى ليقودنى إلى جنون شعرى ثائر يفقدنى لذة التمتع بمظاهر الكون وجماله فى البحث عن حقيقة الكيان وأسراره

والعزيز على هو أنى لا أملك الخلاص من الخيال ، فأنا لا أملك الخلاص من هذا التعب — اللهم إن كان هذا من فطرة الشعر فلبئست الفطرة ، والخير منها فطرة الجمود والبلادة

إن من الناس أناساً يعيشون فى هذه الحياة ليعيشوا فقط ؛ لا فكر فى أدمغتهم ، ولا حرب فى عقولهم ، ولا نصب فى أفئدتهم ... كأنما خلقوا جسوماً بغير قلوب ، ولكنهم سعداء لأنهم يشعرون بأنهم سعداء !!

أريد أن أجرب هذه السعادة فأطرح هموم الخيال ، وأنسى خيال الهموم ، وأعيش بظاهر ما أرى .. أريد أن أفهم ولو يوما واحداً أننى سعيد وإن فهم الناس فى ذلك اليوم أننى شقى

(طنطا) السيد زيادة

بغـــير عنوان ...

[إن وجدتم فى هذه الكلمة صراحة فى الوصف ، فلا تلوموا الطبيب فأنه يصف المرض ، ليعين الدواء]

للأستاذ علي الطنطاوي

كان شابا غُرَانِقاً جميلاً ، صبوح الوجه ، متأنقاً ، قد أصيب بمرض التَّجمل ... فلم يكن يجيء إلى المدرسة إلا متزيناً مستعداً استعداد عروس تزف إلى بعلها ، قد صفف شعره ودهنه وعطره ولبده وعقربه على صدغيه ، وحلى وجهه وصقله ، وصنع به ما لست أدري ... فبدا أبيض أحمر مشرقاً مجلواً صقيلاً ، كأنه صفحة مرآة ... وكشف عن أعالي صدره ، وأحاط عنقه بهذه العقدة التي يفتن فى عقدها واختيار لونها واتساقها مع الحُلة التي يلبسها افتناناً .... ولا يزال أبداً يمدّ يده إليها يتلمّسها ، ويصلحها ويطمئن عليها ، ثم يحرك رأسه حركة غنجة يردّ بها عقارب صدغيه إلى مكانها !

وكان واضح الجبين ، أزجّ الحاجبين حتى كأنهما قد خطا بقلم ، أنجل العينين أشهلهما كأن لهما لون السماء وعمق البحر ، وكأنهما تستجديان الحب ... إذا نظر غض الطرف من الحياء ، ودانى بين جفونه ، ورقت عيناه الناعستان فقالتا كلمة فلم تتم ، فأتمها فمه القاني الصغير وشفتاه المضمومتان ... واذا تكلم تكلم بصوت لين حالم سكران ، كأن ألفاظه تقول شيئاً ، ولهجته ونبراته تقول شيئاً آخر ، تقول : إن رجولة صاحبي رجولة مزورة ! واذا مشى تثنى وتخلع وتكسر ، وماج جسمه موْجاً ، وذهب كل عضو منه فى ناحية ، كأن جسمه متفكك ، قد تقطعت أوصاله وفصمت عراه وانحلت لوالبه .... وإذا دعوته أقبل الى يتهادى ويميل ، فاذا وصل الى حيث أكون ، وجد أقرب متكأ فاستند عليه ، كأنه بناء لا يقوم الا اذا اسندته بدعامة ، واذا كلمته خجل كأنه فتاة فى الخدر ، وأجاب بصوت خافت يكاد يبتلعه الخجل ، فكنت أزعق فى وجهه من الغيظ ، ثم أطرده طرداً ...

ولم يكن ينصرف الى علم أو يقبل على درس ، لأن عقله قد سال على جوانب جسمه خرقاً وثياباً ، ولم يبق منه فى داخل ما ينفع لعلم أو درس ، فهو دائماً ينظر فى عطفيه ، ويتأمل ثيابه ويخرج من جيبه مشطه ومرآته ، ولولا بقية من حياء لأخرج أبيضه وأحمره وقلم شفتيه ...

وكنت أراه فى باحة المدرسة فأراه غريباً عن هؤلاء الشباب لا يطيق حراكا ، ولا يحسن لعبا ، ولا يدفع عن نفسه اعتداء ، وما فيه من الرجولة الا اسمه وبدلته

* * *

وحاولت اصلاحه ، وتعهدته بالنصح والارشاد ، فكنت كمن ينفخ فى غير ضرم ، فأيست من اصلاحه وكرهته وأبغضته ، وجعلت أزوى بصري عنه ، وأتناساه وأهمله ، ثم افتقدته فلم أجده ، ثم علمت أنه قد فارق المدرسة

ومرت أسابيع ، ثم رأيت فى مكانه طالباً جديداً من الطلاب الذين يتدربون على الجندية ، يلبس الثوب العسكري ، وعلى وجهه طابع الرجولة : له شاربان كاملان ، وأثر اللحية ظاهر على خديه ، والقوة والصرامة بادية فى عينيه وملامحه ؛ وكان قوي النظرات ، صماقا جهير الصوت ، ذكياً مقبلاً على الدرس ، فطناً ألمعياً ؛ وكان سريع الحركة ، جم النشاط ، اذا دعوته أقبل يسير بخطى موزونة ، يطأ الأرض وطأ شديداً ؛ وقد نصب قامته ورفع رأسه ، فاذا قام بين يدي قرع رجلاً برجل ثم رفع يده بالسلام لا كما يرفعها مثلي أو مثلك ، بل كما يرفع يده الجند بالسيف يستله من قرابه ، واذا كلمته أجاب بجرأة وأدب ؛ وكنت أراه فى ساحة المدرسة ، فأراه على اجتهاده واقباله على العلم ، قوياً نشيطاً يصارع الطلاب ويباطحهم ، فاذا تمكن من منهم وعلا عليهم عفا عنهم وأبقى عليهم ، فكنت أعجب من قوته ونبله ، وعلمه وفضله ، وأكبر فيه هذه الصفات

* * *

ثم انني أحببت أن أشجعه وأضربَ منه للطلاب مثلاً ، فتكلمت وأثنيت ، وقلت : كم بين هذا وبين ذاك من فرق ....!!

فصاح الطلاب : ومن هذا ومن ذاك ؟ انهما شخص واحد !

قلت : ويحكم ! فأي معجزة هذه التي بدلته شخصاً آخر ، وأنشأته انشاء جديداً ؟

قالوا : يا أستاذ ... إنه تدرب أسابيع على الجندية ... ...

(بغداد) علي الطنطاوي

في الموسيقى

إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب

للأستاذ محمد زروقى

سيدى الأستاذ :

لا أدرى إذا كانت أعمالك الكثيرة تسمح لك بتوجيه بعض اهتمامك الى ملاحظاتى الآتية ، كذلك لا أدرى إذا كانت وجهة نظرى تبدو لك على صواب . وبالرغم من ذلك فانى أحسن الظن بك ، وأسجل هنا أنى آمل منك أن تتنازل لسماع صوت متواضع من بعيد لشخص من أكثر المعجبين بك والمتحمسين لك

واسمح لى بادىء ذى بدء أن أوضح لك نقطة هامة راجياً منك العفو وحسن القبول

وليس لى أن أوجه خطابى الجرىء الى الأستاذ محمد عبد الوهاب الذى ليس لى شرف معرفته المعرفة الكافية ، ولكنى أوجهه الى فنانى المفضل ، الى ذلك الذى كثيراً ما أستمع اليه ، الى ذلك الذى يستطيع — كصديق حميم — أن يفتح لى قلبه بكرم فأرى وأميز قلبى منعكساً عليه

وهنا يخيل إلى أن معرفتى الدقيقة بالفنان — وهى ترجع الى مدة بعيدة — تحتم علىَّ ألا أخفى عنه شيئاً ، وإلا كانت بمثابة خيانة له . كما يخيل الى أن تبادل الشعور يجعل لى الحق ، وربما يتطلب منى البحث عن شىء من أخطائه والاحتجاج على بعض وسائله

بعد ذلك أبدأ — إذا سمحت لى — بأن أعبر عن الأسف الذى يعتورنى عند ما أسمع بعض مقطوعاتك المشهورة مثل « فى الليل » و « اللى انكتب » باللهجة المصرية ، فى حين أن لغة امرىء القيس والمتنبى هى التى كان يجب استعمالها إذا كنا نود أن نهدى الى أحفادنا مثل هذه الأعمال الخالدة . فذلك الذى أودع « يا جارة الوادى » فى أسطوانة يجب ألا يتقيد بحدود البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ، وأن يظل ضمن الحدود التى اختطها الفراعنة « فماذا تهم الزجاجة نفسها ما دامت تسكرنا ؟ »

وإنى أشارك « نيتشه » رأيه الذى يقول بأن العاطفة يجب أن يعبر عنها الصوت دون غيره ، وألا نعطى للكلام أكثر مما يستحق من الأهمية ، ولذلك فأننى أعطى الموسيقى نفس المرتبة التى يضعها فيها المفكرون : تلك المرتبة التى تحلها محل الكلمات العاجزة عند ما تكون هذه الأخيرة فقيرة وقاصرة أمام مطالب الحساسية القوية

الآن أنتقل الى الغرض الأساسى من خطابى :

حاولت فى بحث قصير كان موضوع إحدى المناقشات أن أوجد مقارنة بين الحساسية فى الغرب وبينها فى الوسط الذى أعيش فيه ، وذلك عن طريق دراسة أقوى وسائل التعبير عنها — ألا وهى الموسيقى — ولكى أعزز مناقشتى لجأت الى الأدب وتاريخه وشخصياته البارزة . وحينئذ أصبحت مدفوعا الى أن أقرر بأن الغرب قد تأخر الى القرن التاسع عشر ليشهد ازدهار « المذهب الرومانتيكى » أى تلك الحركة الفكرية والفنية التى تشبه أدبنا الى حد بعيد . ولذلك فان أوروبا لم تخلق إلا حديثاً ، وحديثاً جداً من يكمل ما بدأه عمر الخيام والمعرى والفردوسى . فالنفثة الحزينة المؤلمة التى بعثها الفيلسوف شبنهور (١٧٨٨ — ١٨٦٠) هى التى ألهمت كل الموسيقيين الرومانتيكيين ، هؤلاء الموسيقيين الذين عالجوا مسائل القدر المعقدة ، وآلام الانسانية المحكوم عليها بالعذاب . وإن أشهر زعماء المتشائمين الغربيين ليس لهم أن يعلمونا شيئاً ، كما أن شوبان الذى قيل إن « توقيماته ما هى الا دموع متساقطة على أصابع البيانو » لم يصل مطلقاً الى ما وصلت اليه أغانينا الحزينة حسب رأيى على الأقل

ولاشك فى أن الموسيقى ليست عالمية . فلن تستطيع أن تفهم « سيزار فرنك » كما يفهم نفسه أو كرجل مسيحى ، ولا « بتهوفن » بدون دراسة عميقة للفلسفة الألمانية . وانى أحاول فى حكمى أن أتناسى الآراء التى انتقلت الى بالوراثة ، وأن أتحاشى التحيز والتعصب فى نقدى ، وأنا لا أنكر أن هذا العمل يتطلب منى جهداً عظيماً ، وتسامحاً كبيراً . ولكن دراستى المتواصلة والبعيدة عن المحاباة لشلر ومدام دستايل وشاتوبريان وبيرون وبودلير ، الذين أذكرهم هنا كقادة المدرسة الرومانتيكية ، لا ترسم لنا صورة جديدة أو أثراً يكون أجنبياً عنا حقيقة

بقى علينا أن نتساءل فى صراحة : أليست الموسيقى الغربية التى لا تسير الا فى المحيط النظرى (الميتافيزيق) أكثر تأخيراً من موسيقانا ؟

إن أوروبا بمؤلفيها الموسيقيين فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين — برغم أعمال سترافنسكى — تظهر تخبطاً لا نهاية له فى محاولتها دراسة القضاء والقدر التى تتحكم فى رقاب الناس . فاعتبار هذه الحالة درجة من الكمال تستحق أن تحتذى كما يحتذى التقدم العلمى ونظرياته تكون غلطة ما أقبحها من ذلك الشخص الموهوب الذى يصدح على ضفاف النيل . فالبحث كذلك عن مناح جديدة فى الألحان الغربية واستخدام وسائل تعبيرها يعد منا رجعة الى الوراء

وقد ظهر لى أن محاولاتك تتجه يوماً بعد يوم نحو توافق الأصوات واخراج مجموعة متنافرة منها فى لحظة واحدة وبالتبعية محاولة التعبير عما يضطرم فى نفسك عما تستخلصه من ذلك

كانت النغمة الفردية الأوربية دائماً أبداً ضعيفة ، فلا عجب أن نراها تلجأ الى تلك الأصوات المتجمعة ؛ هذه الأصوات تعبر عن أشياء متباينة ، ولكنها تصدر فى وقت واحد لتنتج من ذلك تآلفاً فيما بينها . ولا أدل على ضعف السلم الموسيقى الغربى من اقتصاره على استعمال النغمتين فقط (ويلاحظ أن النغمة المنخفضة ترجع الى عرب اسبانيا) فى حين أن الفرس فى العصور الوسطى قد استعملوا ستا وثلاثين نغمة وأن الأندلسيين استعملوا أربعين منها ، وأن الشرقيين بعكس المؤلفين الموسيقيين الحديثين لم يجعلوا ألحانهم تعتمد على قدرة آلاتهم وعلى الأخص على وضع علامات لها

وليست الرغبة فى استعارة آلات موسيقية مجمية «كموسيقى اليد» إلا وقوعاً منا فى نفس الخطأ الشنيع الذى وقعوا هم فيه وتجنياً منا على الموسيقى الشرقية

ومهما كانت محاولاتك جريئة وتستحق الاعجاب فيجب أن تعرف — فى رأيى المتواضع — كيفية الرجوع الى مصادر الأشياء ، وأن تتساءل عن ماهية العوامل التى تهيىء الخلود لفكرة ما ، وأن تفكر فى النتائج التى يصح أن تنتظرها من وراء هذا الاقتباس . وهنا يجب أن تعترف بأن قوانين الوراثة تلعب دورها الهام : فان «بولديبه» و«برليو» لا ينسبان فضل أعمالهما الى نفسيهما فقط . . . لأنهما وضعا ألحانهما من ثديى أميهما اللتين حصلتا عليها بدورها ممن سبقوها ، وهما ليستا إلا حلقتين من سلسلة طويلة

وليس من الغريب أن نرى وجوه الغربيين عند ما يستمعون الى موسيقانا وقد ارتسمت عليها تلك الابتسامة التى ترتسم على وجوهنا نحن عند ما نستمع الى الموسيقى الأولية . وهناك حقيقة أخرى أكثر خطرا ، وهى أن الأوربيين لا يكادون يفهمون من أنغامنا الموسيقية إلا ما استعرناه منهم ، وحيث أننا لم نوفق فى استعارتنا فهم لا يحجمون عن الحكم على الجزء العربى منه بأنه ردىء

وهذا ما يدفعنى الى سرد أمثلة من خطواتك المحيرة غير الموفقة : «فبحارة الفلجا» أغنية روسية واقعية تعبر عن العذاب العقلى والجثمانى الذى كان يعانيه سكان قلب الروسيا ، وقد أخذتها أنت بنفسك فى فلم «الوردة البيضاء» وهو فلم شعرى خالص : فالشقة بينهما بعيدة بعداً شاسعاً

و«ياشراعاً» وهى قصيدة مقدمة الى الملك فيصل عبارة عن نشيد يراد به مدح بلاد الرافدين ، فهل يصح أن نقبل هذه النغمات التى تحرك العاطفة بدون شك ، ولكنها خالية من الحمية والملاطفة التى يجب أن تكون عند مَنْ يريد أن يمدح ملكا محبوباً يعجب به ؟ ففى هذا النشيد نبحث عبثاً عن الحمية التى نراها فى نشيد «Le Marche du Prophéte» لميربيير الذى فيه يعبر عن الكثير من العظمة والنبل

وعند ما ننعم النظر فى مقطوعاتك الأخيرة نلاحظ فى حسرة شديدة بأن «الحركة» قد زادت فيها كثيرا بحيث أن الأذن تتساءل فى حيرة عما إذا كنت أنت حقيقة الذى ملأت اسطوانة «أيها العلم الخفاق» رقم ٠٩٩،١٠٤ (١)

---

(١) هذا الخلط غير المقبول بين ألحاننا والألحان الأوربية مما يستدعى مزيد الأسف وهو فى رأيى لا يختلف عن وضع المستردة فوق الكسكسى ليعطى له طعماً شهياً وهذه الحالة تذكرنى بالبضائع الغربية الرديئة التى كثيراً ما يضعها أغنياء المسلمين فى منازلهم : تلك البضائع التى تتنافر مع بدائع الفن وروائعه ، أو مع سجاد بخارى القديم وسجاد القيروان والرباط والرسوم الدقيقة على النحاس المصنوع فى الأندلس وفى سورية

فهل يجب علينا إذن ألا نستوحى شيئاً عن الموسيقى الغربية ؟ لا بكل تأكيد . وليكن ذلك لمجرد الاطلاع فقط . فمن الضرورى أن ندرس هوجو ولامرتين وشكسبير ورابندرانا تاجور وإبسن وكبلنج وتولستوى وسرفنتس لكى نفهم الآداب العالمية ، وهذه الدراسة ليست أقل لزوماً من إرسال أبنائنا الى الخارج لتمضية بعض الوقت فى « مدرسة الفنادق فى جرينوبل » أو فى معامل الاختبار للمراكز الصناعية فى « برلى » و « برمنجهام » وفى الأحواض البحرية فى « نانت » و « كيل »

ولكى أعزز رأيى هذا أذكر الحقيقة التاريخية الآتية : عند ما انتصر هرون الرشيد على الامبراطور نيقفور البيزنطى عام ٨٠٦ ميلادية نص فى معاهدة الصلح بينهما على شرط يلزم المغلوبين بتسليم العرب جميع المؤلفات التى خلفها القدماء والمحفوظات الموجودة فى دور الكتب بالقسطنطينية القديمة . وقد برهن العاهل العربى مرة أخرى على ذكائه الفائق وفهمه للحقائق ، فقدر أن شعبه يجب أن يتفهم ويستوعب سريعاً كل المعارف التى وقف السابقون على أسرارها ، وأن العرب بدون مساعدة غيرهم لا يمكنهم تأسيس حضارة ثابتة ؛ ولذا يجب عليهم أن يستعينوا بمن تقدموهم من مصريين وكلدانيين ويهود وفرس وهنود ويونانيين ورومانيين وقرطاجنيين ، وأن يستفيدوا من معارفهم ، وأن يتوفروا على دراسة أوراق البردى واللوحات وتماثيل الآلهة . فبعد أن درس العرب العصور السابقة أمكنهم أن يضيفوا معارف من سبقوهم الى معارفهم الخاصة التى ستبقى على مدى الأيام

وكذلك اليابان : فما الذى فعله حزب التجديد عندما تربع فى دست الحكم عام ١٨٦٨ ؟ لقد بدأ بدراسة مبادئ الأحزاب الأخرى فى الدول المتمدينة

فاذا تحدثنا عن القلب ونشاطه والحساسية وطرق التعبير عنها وجدنا الأمر هنا مختلفاً عن ذلك ، وهذه النقطة الهامة هى محور بحثى : فالاحساس التناهى ورد الفعل وتجسيم التأثيرات النفسانية لا يمكن أن تقارن بالمعارف التى يمكن اكتسابها

وهناك نقوش فرعونية تذكر بعض النصائح الموجهة من أم الى ولدها يوم أن عهدت به الى أستاذه . وهناك نقوش أخرى تعبر عن مثال خالد : ذلك هو ألم الأشخاص المحكوم عليهم بالعمل اليومى الشاق المضنى . فعليك أيها الأستاذ أن تبحث فى زوايا التاريخ عن ألحان أكثر إنسانية ؛ بل من السهل عليك أن تتخيل الأمهات فى هذه العصور البعيدة وهن يهززن مهود أطفالهن بنفس المحبة والعناية والحنان التى تبديها أمهات العصر الحالى . أليس من الخطل والنفاق أن نعتبر وقع الألم النفسانى الذى عاناه أسلافنا أخف على نفوسهم من وقعه علينا ؟ وإنى لا أجد صعوبة فى أن أتخيل الألحان الجيلة التى كانوا يعبرون بها ويصورون عواطفهم التى تتوثب من الألم

وللرجوع إلى الحديث عن محاولات التجديد أو فرنجة موسيقانا يمكننى أن أضرب مثلاً بأحد موسيقيينا الذى حاول منذ سنوات أن يعبر عن بعض مقطوعاتنا الشعرية بأوزان أوروبية ، فكان سبب نجاحه أنه قد استحدث شيئاً جديداً ولكنه كان نجاحاً قصير الأجل ، وسرعان ما أسدل النسيان ستاره على هذه المحاولة وحسناً فعل . وقد بدأ مغنى الجزائر الحالى أو « كاروزو شمال أفريقية » كما أطلق على نفسه بالقاء مقطوعات تحترم موسيقانا القديمة ، ويجب على أن أشير أثناء حديثى إلى أن طرق التلحين الأندلسية الاثنتى عشرة التى لا زالت مستعملة فى المدن الرئيسة بشمال أفريقية ليست إلا مخلفات وبقايا بالية فى حاجة إلى عيون عالم بالآثار — وأقصد آذان رجل موسيقى — لتكشف فى هذه البقايا عن عظمة المقطوعات التى كانت تردد تحت أبواب الحمراء المرمرية ، أو تحت ظلال الأشجار الوارفة فى اشبيلية وقرطبة [1]

ومهما يكن من شيء فان استعمال هذه المخلفات القديمة لا يدخل كثيراً من التغيير على قواعد الموسيقى ، إذ أن فى ذلك محافظة على تراثنا القديم

ولكن للغرب سحره الأخاذ ما فى ذلك من شك ، لأن

---

(١) وإنى لا أستطيع أن أتكلم أكثر من ذلك عن الموسيقى الأندلسية وحالتها الراهنة إلا إذا أطلت كثيراً فى ملاحظاتى التى ذكرتها الآن . ومع ذلك فإنى أشير هنا إلى أن العرض السريع الذى لم يسبقه تحضير كاف لبعض نماذج من هذه الموسيقى الأندلسية فى مؤتمر الموسيقى الأخير المنعقد بالقاهرة لم يكن عرضاً صادقاً بل خيانة حقيقية لأن الجمهور الذى يجهل ما اكتنف عرضها من عوامل قد نظر إليها نظرة ليس فيها تقدير

مغنينا الجزائرى خضع لتأثير الأوبرا ، واستمع بسرور إلى الألحان القصيرة من الأوبريت والصالات ؛ تلك الألحان التى طغت شيئاً فشيئاً على مقطوعاته حتى أصبحنا الآن نلمس فيهـا أ كبر فشل فنى معيب

وقد سارت المرحومة أنيسة يامنة الجزائرية فى طريق مخالف لذلك كل المخالفة . فهذه الموسيقية انتهجت نهج الغناء القديم الذى يمكن تقدير أهميته ، واستندت إلى شعورها النسوى القوى وخبرتها الموسيقية الطويلة . وكانت تذهب للاقامة بين أفراد الطبقة الفقيرة وبين العرب الرحل لتغترف من شعورهم البسيط الخالى من كل زخرف ثم تعود بمحصول غنى متنوع وفير ، وبعد ذلك تستسلم لتفكيرها ولأبحاثها وتستمع الى نفسها وتستوحى صوت أجدادها ثم تترك قلبها يعبر عما فى خلدها بألحان تخلب الألباب

وإنى أعرف الكثير عن الطريقة المخالفة لتلك التى يتبعها الأستاذ ، وبمعنى آخر ترجمة الغربيين واقتباسهم لموضوعاتنا ؛ وأسوق اليك هنا مثـلا مشهورا لأوضح وجهة نظرى : أقام المؤلف الموسيقى سان سانس حقبة طويلة فى الجزائر ، ولذلك يقوم مؤلفه المشهور « شمشون ودليلة » على طريقـة التلحين الأندلسية « زيدان » . ولا أتردد فى أن أضيف الى هـذا المثل مثلا آخر فيما فعله ف . دافيد الذى أمكنه بعد رحلة طويلة إلى الشرق أن يخرج مؤلفيه : « الصحراء ، ولالاروك » . وكذلك فعل الاسبانيون وكذلك « بيزت » فى « كارمن » (١٨٧٠) وغير هؤلاء من الذين يدينون بالشيء الكثير الى الأندلس فى القرون الوسطى . ومثل هؤلاء أيضا موسيقيى وسط أوربا مثل لست وشوبر وموزار وبعض موسيقيى أمريكا الجنوبية أيضاً الذين وجدوا فى ألحاننا مورداً فياضاً لا ينضب

والآن أعود متسائلاً إذا كان العكس ممكناً : فتقدم الموسيقى الغربية — فى رأيى — قد بدأ يصل إلى درجة التشاؤم التى تكلمت عنها من قبل . وإنى لا أفـكر لحظة فى أن أحط من شأن « الأرلزين وفيـدليو ولوهنجرين » ولا أريد إلا أن أضع كل موسيقى فى الوضع المناسب له . وأنى لأذكر هنا ما قاله المسيو « أندريه كوردى » فى مؤلفه « مشاهد الموسيقى المصرية » : صراع دائم .. الموسيقى العربية تحتضر كل يوم باتصالها بالموسيقى الغربية ؛ وستموت الموسيقى الشرقية إن عاجلاً وإن آجلاً إذا لم تتاير على مقاومة الموسيقى الأوربيـة الزاحفة عليها بموسيقى شرقية بحتة

قد أكون فيما كتبته أعبر عن أمنية لى . فالفنان الكبير الذى لمصر فخر الاحتفاظ به ، والذى له تلك المهارة الفائقة التى استطاع أن يهضم بها بعض القطع الخالدة فى الموسيـقى الرومانتيكية ، لن يعجز بفضل ما وهبه الله من حسن اختيار أن يوفق فى أعماله القادمة فى مزج الموسيقى العربية بالافرنجيـة بدلاً من المجهود الضـائع فى اخراج ثمرة غير ناضجة لا يهضمها الذوق العربى . وإنى أتمنى له التوفيق المطرد والفوز العظيم

(تلمسانه) محمد رزوقى

الفصل فى نبوة المتنبى

من شعره

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

– ٣ –

ولنعد إلى النظر فى قصيدة المتنبى :

كم قَتيلٍ كما قُتِلْتُ شهيدِ   ببياضِ الطُّلى وورْدِ الخدود

فقد ابتدأها المتنبى بالنسيب على عادة الشعراء ، وتدله فى ذلك النسيب كل التدله ، وقتل نفسه فيه من فرط الصبابة والوجد ، ثم ذكر أيام الصبا والجهل وحنَّ إليها ، وتفنن فى وصف الحسان اللاتى نسب بهن أيما تفنن

ولم يكفه ذلك التدله فى النسيب ، والتفنن فى وصف النساء ، بل عمد إلى الخمر ينسب بها أيضاً ، ويتدله فيها بأكثر مما تدله فى نسيبه

ولا شك أن هـذا الأسلوب فى النسيب ووصف الخمر ، لا يتفق مع ذلك الأسلوب الذى ينسب إليـه فى دعوى النبوة ، ولا يمكن أن يحصل هـذا وذاك من شخص واحد ، لاختلاف نزعتهما ، وتباين المشارب فيهما ، واتجاه كل منهما إلى غاية تخالف الأخرى ، فهو فيما ينسب إليه فى دعوى النبوة رجل جد وصلاح ، مبعوث إلى هذه الأمة الضالة المضلة ، ويريد أن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ؛ وهو فى قرآنه يدعو إلى الايمـان ، ويحارب الالحاد ، ولـكنه فى شـعره هازل خليع ، يدعو إلى الفسق والفجور ، وينغمس فى حمأة الضلال ، ويبلغ من أمره أن يستهتر بالايمان والتوحيد إلى هذا الحد فى قوله :

يترشفن من فَمى رَشَفاتٍ   هنَّ فيـه أحلى من التوحيد

وهذا البيت يذكر فيما يؤخذ على المتنبى من الالحاد فى الدين فـكيف يتفق أن يأتى فى شعره وهو فى عهد يدعو فيـه إلى التوحيد ويحارب الألحاد ويزعم فيه أنه نبى مرسل ؟

ثم يبلغ أيضاً من أمره عند ما أخذ فى وصف الخمر أن يقول فيها هذا القول :

كلُّ شىء من الدماءِ حرامٌ   شُرْبُهُ ما خلا دم المنقود

فأى نبى هذا الذى يحلل الحرام ويحرم الحلال ؟ وأى ضلال يحاربه وهو يدعو إلى هذا الضلال ؟

وقد جاء البيت الأول فى بعض الروايات :

يترشَّفن من فَمى رَشفاتٍ   هنَّ فيـه حلاوةُ التوحيد

وهو فى هذه الرواية أخف فى الاستهتار من روايته الأولى وهى الرواية المشهورة

فلما جاوز فى قصيدته هذا كله ، ووصل الى مقصوده من الفخر بنفسه وشكوى حاله ، وحمل نفسه على تحمل الصعاب فى سبيل آماله ، كانت آماله أشياء أخرى دنيوية ، ولم تكن هى الآمال التى تنسب اليـه فى دعوى النبوة ؛ فليس لهذه الآمال ذكر هنا ، ولا تشتم لها فيه رائحة ، وانمـا هو هنا رجل يسعى فى اكتساب المجد ، ويكد فى طلب الغنى والمـال ، ويشكو من اخفاقه فى هذا الطلب مع كثرة سعيه فيه :

ضاق صدرى وطال فى طلب الرِّزْ   قِ قيامى وقَلَّ عنه قعودى

أبداً أقطع البـلاد ونجمى   فى نحوس وهمتى فى سُعُود

وهو أبداً مولع بذلك الاستهتار حتى فى مقام الجـد ، فاذا أمر بطلب العز لا يفوته أن يقول إنه خير من الذل ولو كان فى جنة الخلد ، وأن يفضله ولو كان فى لظى على الذل

فاطلب العزَّ فى لَظَى وذَرِ الذ   لَّ ولو كانَ فى جنان الخلود

فمثل هذا لا يصح أن يكون من شخص يدعى النبوة ، ويدعو الناس الى العمل الذى يوصلهم الى نعيم الله فى الجنة . ولا فرق بينه فى هـذا وبين ذلك الشاعر الجاهلى الذى سـبقه الى ذلك المعنى ، وكان له من جاهليته ما يهون من أمره فيـه ، وهو ذلك الشاعر الذى يقول :

حكم سيوفك فى رقاب العذل   وإذا بليتَ بدار ذلٍّ فارحـل

دار النعيم بذلةٍ كجهنمٍ   وجهنم بالعز أكرم منزلِ

وكذلك هذا الفخر لا يليق بمن يدعى النبوة :

إنْ أكن معجباً فعُجبُ عجيب   لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا تِرْبُ النَّدى ورَبُّ القوافى   وسِمامُ العدى وغيظ الحسود

وهكذا نخرج من دراسة هذه القصيدة بيقين لا شك فيه ، أنها لا تتفق مع تلك النبوة المزعومة للمتنبى ، فاما أن تـكون هذه القصيدة مختلقة عليه ، وإما أن تـكون تلك النبوة مكذوبة . وإذا كانت هذه القصيدة للمتنبى باتفاق الفريقين المختلفين فى أمر نبوته ، فأن تلك النبوة تـكون هى المـكذوبة قطعاً

***

وهذه قصيدة ثانية للمتنبي ، قالها فى ذلك العهد الذى ينسب إليه فيه إدعاء النبوة :

ضيفٌ ألمّ برأسى غير محتشم … والسيفُ أحسن فعلاً منه باللمم
ابعِدْ بعدتَ بياضاً لا بياض له … لأنت أسودُ فى عينى من الظلم
بحبّ قاتلتى والشيبِ تغذيتى … هواى طفلاً وشيبى بالغ الحلم
فما أمرُّ برسم لا أسائله … ولا بذات خمار لا تُريق دمى
تنفّست عن وفاءٍ غير منصدع … يوم الرّحيل وشعب غير ملتئم
قبلتها ودموعى مزجُ أدمعها … وقبلتنى على خوف فماً لِفمِ
فذقت ماء حياةٍ من مُقبَّلِها … لو صاب ترباً لأحيا سالف الأمم
ترنو إلىّ بعين الظبى مُجهِشةً … وتمسح الطَّلَّ فوق الورد بالعنم
رُويدَ حكمكِ فينا غير منصفةٍ … بالناس كلّهم أفديك من حكم
أبديتِ مثل الذى أبديتُ من جزعٍ … ولم تُجنى الذى أجننتُ من ألم
إذن لبزّكِ ثوبَ الحسن أصغرهُ … وصرتِ مثلى فى ثوبين من سقم
ليس التعلّلُ بالآمال من أربى … ولا القناعة بالأقلال من شيمى
ولا أظن بناتِ الدهر تتركنى … حتى تسدَّ عليها طُرقها هممى
لم الليالى التى أخنت على جدّتى … برقة الحال واعذرنى ولا تلم
أرى أناساً ومحصولى على غنم … وذكر جودٍ ومحصولى على الكلم
وربَّ مال فقيراً من مُروّته … لم يُثرِ منها كما أثرى من العدم
سيصحب النصلُ منى مثل مضربه … وينجلى خبرى عن صِمَّة الصِّمم
لقد تصبرتُ حتى لاتَ مصطبر … فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركنّ وجوهَ الخيل ساهمةً … والحربُ أقومُ من ساقٍ على قدم
والطعن يُحرقُها والزجر يقلقها … حتى كأنّ بها ضرباً من اللمم
قد كلّمتها العوالى فهى كالحةٌ … كأنما الصّابُ معصوب على اللجم
بكل مُنصلتٍ ما زال مُنتظرى … حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخٍ يرى الصلواتِ الخمسَ نافلةً … ويستحل دمَ الحجاج فى الحرم
تنسى البلادَ بروقَ الجوّ بارقتى … وتكتفى بالدم الجارى عن الدِّيَم
ردِى حياضَ الرّدى يا نفس واتركى … حياض خوف الردى للشاء والنَّعم
إن لم أذرْكِ على الأرماح سائلةً … فلا دعيت ابن أمّ المجد والكرم
أيملك الملكَ والأسياف ظامئةٌ … والطير جائعة لحم على وضم
من لو رآنى ماءً مات من ظمأٍ … ولو مثُلْتُ له فى النوم لم ينم
ميعادُ كلّ رقيق الشفرتين غداً … ومن عصا من ملوك العرب والعجم
فان أجابوا فما قصدى بها لهم … وإن تولّوا فما أرضى لها بهم

وقد افتتح المتنبى هذه القصيدة بذم الشيب الذى ظهر فيه قبل أوانه ، فحل فى رأسه ضيفاً ثقيلاً غير محتشم ، وبدا بياضه فى عينه أسود من الظلم ، وقد اجتمع عليه بذلك أمران صارا له كالغذاء : حب مبكر فى عهد الطفولة ، وشيب مبكر فى بلوغه الحلم . ولا شك أن من يتبرم بالشيب هذا التبرم لا تحدثه نفسه بادعاء النبوة وما يلزم لها من إظهار الصلاح والتقوى ، والفرح بالشيب إذا أقبل ، لأنه كما قال بعض الحكماء : زهرة الحنكة ، وغرة الهدى ، ومقدمة العفة ، ولباس التقوى . وأين قول المتنبى فى هذا من قول دعبل بن على

أهلا وسهلا بالشيب فأنه … سِمة العفيف وحلية المتحرّج
ضيف ألمَّ بمفرق فقريتــه … رفض الغواية واقتصاد المنهج

فمثل هذا هو الذى كان يقوله المتنبى فى الشيب لو صح ما ينسب اليه فى دعوى النبوة ، وهو الذى يتفق مع الغاية التى تنسب اليه فيها

ثم مضى المتنبى يتغزل على أسلوبه فى قصيدته الأولى ، يسأل كل رسم ، ويجرى فى حب متنقل وراء كل ذات خمار ، وهو حب شهوى كحب ابن أبى ربيعة وغيره من الشعراء الذين تستهويهم كل ذات جمال ، ولا يعرفون فى حبهم شيئاً من الوفاء ، بل يتحدثون عن وفاء النساء لهن ولا يفون ، كما تحدث المتنبى عن ذلك فى قوله :

تنفست عن وفاء غير منصدع … يوم الرحيل وشعب غير ملتئم

وقد يتفق لنبى أن يسمع هذا النوع من الغزل إذا كان بريئا كما حصل للنبى صلى الله عليه وسلم فى سماعه قصيدة كعب بن زهير

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول … متيم إثرها لم يُفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا … إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة … لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت … كأنه منهل بالراح معلول
إخالها خلة لو أنها صدقت … موعودها أو لو ان الوعد مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها … فجع وولع وإخلاف وتبديل

ولكن فرقا كبيرا بين سماع هذا النوع من الغزل وإنشائه ، ورب شىء يقبل من شخص ولا يقبل من شخص أعلى منه ،

ورب حسنات فى ذلك تعد سيئات ، ورب سيئات تعد حسنات . ولا شك أن مثل هذا الغزل لا حرج فيه على كعب رضى الله عنه ، وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الاعتبار ، وإن لم يكن من شأنه هو أن ينشئه

ثم اقتضب المتنبى نسيبه اقتضابا ، وابتدأ مقصوده من قصيدته بقوله :

ليس التعلل بالآمال من أرَبى ... ولا القناعة بالاقلال من شيمى

فاذا هو فيه طالب دنيا لا أكثر ولا أقل ، وإذا به لا يرضى فى ذلك بالقليل ، وينفر من صفة القناعة التى حث عليها جميع الأنبياء قبله

وهو فى ذلك أيضا ثائر على دهره الذى يفقر مثله على مروءته وشجاعته ، ويغنى سواه على فقره من المروءة والشجاعة ؛ ثائر على تلك الدول التى أقامها فى عصره خدم العباسيين الذين كانوا يجلبونهم أرقاء فيصبحون ملوكا على الناس ، فهو يقيم الدنيا ويقعدها من أجل تلك المهازل فى نظره ، ويرى نفسه أعلى شأناً من هؤلاء الخدم ، وأحق منهم بهذا الملك الذى استأثروا به لأنفسهم

وهو هنا لا يتحدث عن عدل وجور كما يتحدث فيما ينسب فى دعوى نبوته ، بل يتعطش إلى الحرب والقتال كما يتعطش كل فارس جبار يعشق سفك الدماء ونشر الفساد فى الأرض

ولا يتحدث كذلك عن إيمان وكفر ، بل يتحدث عن خدم أقاموا لهم ملكا هو أحق به منهم لما امتاز به من المروءة والشجاعة عليهم

ثم تراه لا يقلع فى هذه القصيدة عن استهتاره ، وأخذه فيما يدل على ضعف دينه ، فيقول

بكل مُنصلتٍ مازال مُنتظرى ... حتى أدلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ... ويستحل دم الحجاج فى الحرم

فالذى يقول هذا لا يمكن أن يأخذ وسيلته إلى الناس دعوى النبوة ، لأنها تقتضى منه شيئاً آخر غير هذا الاستهتار ، وتواضعاً فى القول غير هذا التجبر ، واقتصادا فى الحديث عن النفس غير هذا الاسراف فى الفخر

وسبيل هذه القصيدة بعد هذا سبيل القصيدة السابقة فى القطع بكذب هذه الدعوى على المتنبى ، لأنها تظهره فى ذلك العهد بخلاف المظهر الذى يظهر به فيما ينسب إليه فى دعوى النبوة وادعاء مثل هذه الدعوى من المتنبى فى علمه وذكائه تقتضى منه الحيطة فى أمره ، وتوجب عليه ألا يظهر بين الناس بهذا المظهر فى شعره ، حتى يصدقه الناس فى دعواه ، ويلتئم حاله فيما التئاما يخدعهم فيه

ويجب علينا بعد هذا أن نأخذ فى هذا اللقب بما نقله ابن جنى عن المتنبى نفسه ، وقد ذكرناه فيما سبق ، فلا نعيده هنا ، ولكنا نذكر فى ذلك مذهباً للأستاذ « محمود شاكر » رأى أنه أقرب إلى الصدق ، وأولى بالاعتبار ، وهو أن المتنبى نبز هذا النبز من أجل أنه كان فى أول أمره متورعا فى خلقه لا يخرج عن حدود الوقار ، متزمتاً لا يلين للشهوات ولا يلقى إليها مقاده مترفعاً عن سفساف الأخلاق متمسكا بمعاليها ، آخذا نفسه بالجد الذى لا يفتر ؛ وكان لا يقرب التهم ولا يدانيها ، فما كذب ولا زنا ولا لاط ، ولا أتى أمراً منكرا يؤخذ عليه ، أو يُزَنُّ به . واستمر على ذلك حياته كلها ، وخالف الأدباء والشعراء من أهل عصره فما شرب الخمر ولا حمل وزرها ، ولولا اضطراره فيما نرى لما حضر مجلسها . وكان الأدباء والشعراء فى ذلك الوقت أهل شراب ومعاقرة ولهو وهزل وباطل ، فلما وجدوا ما هو فيه من التعفف والتورع ، ووقعوا على كثرة دوران أسماء الأنبياء فى شعره ، وتشبيهه نفسه بهم ، نبزوه هذا النبز ، ولقبوه المتنبى يريدون المتشبه بالأنبياء

ولا شك أن هذا غلو من الأستاذ فى أمر المتنبى ، وقد روى عن بعضهم أنه عاشره فما رآه كذب ولا زنا ولا لاط ، ولكن هذا لا يكفى لأن يجعل منه الرجل الصالح الزاهد المتورع الذى يصفه الأستاذ محمود . على أن هذا الاشتقاق لا يدل على التشبه وإنما يدل على الادعاء ، وقد جاء فى القاموس (وتنبأ ادعى النبوة ومنه المتنبىء أحمد بن الحسين) وإنما يقال فى ذلك تأله ، لأن التأله التنسك والتعبد ، ولم يلصق هذا اللقب بالمتنبى إلا لأجل الكيد به ، وإيهام أنه ادعى النبوة ، ولهذا كان يكرهه المتنبى . ولو كان لهذه الأغراض المذكورة لفرح به وهش له ، والخطب فى هذا سهل بينى وبين صديقى الأستاذ محمود شاكر ، بعد اتفاقنا على أن هذه النبوة مختلقة على المتنبى ؛ وإنى لا أحب أن أثير فى هذا جدالاً بينى وبينه ؛ ولعله يتغاضى عن هذا الخلاف القليل بيننا ، ليكون ما ذكرناه هو القول الفصل فى هذا الموضوع حقا

عبد المتعال الصعيدى

تاريخ العـــرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصـــل الأول

— ٥ —

وإن نفس عاطفة الوطنية المتأججة في صدر الهمداني والتي بعثته على أن يخصص نفسه للبحث العلمي قد أوحت إلى نشوان ابن سعيد — الذي ينتمي من ناحية الأب إلى أسرة قديمة من أشراف اليمن — أن يتذكر الماضي الخرافيّ ويتعلق بأحياء مجد أمبراطورية زالت معالمها ودرست آثارها . وإنه ليتغنى في « القصيدة الحميرية » بعظمة وقوة أولئك الحكام الذين تبوأوا عرش أمته ، ويؤوّل في روح إسلامية حقة حقيقية الفناء والحياة ، وحقارة المطامع البشرية [١] ، ومع أن هـذه القصيدة في ذاتها قليلة القيمة فانها تعتبر وثيقة قيمة — نوعاً مّا — لاشتمالها على أسماء الملوك [٢] ، ومعها شرح تاريخي واف إمّا أن يكون كاتبه نشوان نفسه — وهذا ما يرجحه فون كريمر — أو أحد معاصريه . والذين لا يرون التاريخ إلا مجمل حقائق لن يجدوا مأربهم في هذا التعليق ، إذ نرى خيوط الحقيقة معقّدة متشابكة مع أساطير خرافية مكذوبة ، وقد وضع القصّاصون في فجر الاسلام صورة حرفية لمثل هـذه الأساطير ، من ذلك أن أحد عرب الجنوب واسمه « عبيد بن شرْية » زار دمشق تلبية لدعوة الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي سأله « عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد [٣] » وطلب اليـه أن يكتب وأمر أن يجمع وتـكتب إجاباته كلها ثم تنشر باسمه ، وهذا العمل الذي لم تصلنا منه أية نسخة للأسف كان يسمى « كتاب الملوك وأخبار الماضين » وقد تكلم عنه المسعودي [١] (٩٥٦م) ككتاب معروف متداول في محيط كبير ، كما اعتمد عليه فيما بعد شارح « القصيدة الحميرية » إما مباشرة أو بواسطة الاكليل للهمداني . وقد نعتبره — كما اعتبره الشارح نفسه — كقصة تاريخية لـكثير من شخصياتها وحوادثها أساس من الحقيقة والواقع قد مُوِّهت بكثير من القصص الخيالية والقصائد المكذوبة ، مما يجد فيها السَّامر خير عون له على أداء مهمته . ومن بين المؤلفين المسلمين القلائل الذين اهتموا بدراسة تاريخ عرب الجنوب في العصر السابق للاسلام حمزة الأصفهاني ، ويعدّ لنا الكتاب الثامن من تاريخه (الذي انتهى منه عام ٩٦١ م) بتفاصيل تاريخية دقيقة موجزة عن التبابعة أو ملوك اليمن الحميريين

* * *

خلف قحطان — جدَّ أعراب الجنوب — ابنه يعربُ الذي يقال إنه أول من اتخذ العربية لسانا ، وأول من أخذت له التحايا التي اعتاد العرب أن يحيوا بها ملوكهم كقولهم « أنعم صباحا » و « أبيْتَ اللعن » وقد اشتهر حفيـده عبد شمس سبأ باسم مؤسس مأرب وباني سدها المشهور ، وإن كان هناك آخرون يقولون إن مؤسسه هو لقمان بن عاد ، وكان لسبأ ولدان حمير وكهلان ، وقبـل موته عهد إلى حمير بالجلوس على العرش وإلى كهلان بحراسة التخوم ، وشنّ الغارات على الأعداء ؛ ومن ثم كانت لحمير السيادة واتخذ اسم « أبو أيمن » وأقام في عاصمة المملكة بينما تعهّد كهلان بالدفاع عنهـا وتدبير الحروب [٢] وبالاغضاء عن سرد سلسلة نسب الملوك السبئيين الخرافيين الذين لا تذكر القصة عنهم إلا قليلاً جدا ، فانا نمضي إلى ذكر حادثة رسخت في أذهان العرب رسوخاً لا يمكن استئصاله منهـا ، ألا وهي الحادثة المعروفة عندهم بسيل العرم أو فيضان السدّ

(١) Die Hinjarisdhe Kasidsh herausgegaben und übersetzt von Alfred von Kremer (Leipzig, 1865) . W. F. Lrideaux: The Lay of the Himyarites (Sshose, 1879)

(٢) كان نشوان عالما لغويا شهيرا ، وإن قاموسه الكبير « شمس العلوم » لخير عون لمن يدرسون آثار عرب الجنوب ، وقد اعتمد عليه D. H. Müller في تصحيح أسماء الأعلام التي وردت في « القصيدة الحميرية » وقد قام الدكتور عزم الدين أحمد بطبع مقتطفات من « شمس العلوم » تتعلق باللغة العربية الجنوبية (E. S. W. Gibb Memorial Serie, vol. xylv.)

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٨٩ س ٢٦

(١) ومما قاله المسعودي « ولم يصح عند كثير من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلا خبر عبيد بن شرية وأخباره عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والأحداث وتشعب الأنساب ، وكتاب عبيد بن شرية في يد الناس مشهور » راجع « مروج الذهب طبعة باريه دي مينارد ج ٤ ص ٨٩ » (المترجم)

(٢) Von Kremer : Die Tüdarabische Sage, P. 56

ومن الممكن أن تكون هذه القصة (كما يرى كريمر ص ١١٥) رمزاً لحقيقة ثابتة تلك هي تشعب السبأيين الى فريقين كبيرين : حمير وكهلان وقد كانت القوة في يد الأول

على بضعة أميال قلائل من الجنوب الغربى لمأرب تمتد الجبال متلاحمة تاركة فيما بينها أخدوداً يشقه نهر « أدنة » الذى يجف غالباً مجراه خلال فصل الصيف ؛ أما فى الشتاء فتسقط الأمطار الغزيرة وتتدفق المياه بقوة هائلة تكاد لا تحتمل ، فلكى تكون المدينة بمنجاة من الفيضان ولأجل تنظيم الرى وزرع الأرض وفلحها بنى الأهالى سداً من الحجر الصلد استرعى خيال محمد بعد أن دمر تماماً ، وعده المسلمون إحدى عجائب الدنيا[1] . وليس بغريب أن ألبس مؤرخوهم تلك الحقيقة المجردة (انفجار السد) ثوب حادثة فضفاضة طريفة[2] وإذ آذنت شمس القرن الثالث للميلاد بالمغيب[3] أو قبل ذلك بقليل كان يتربع على عرش مأرب عمرو بن عامر ماء السماء المزيقيا[4] ، وكانت زوجته « ظريفة » ماهرة فى علم الكهانة خبيرة بفنونها ، وقد رأت أحلاما ورؤى تنبىء عن شر جسيم يتهددهم ، وفى ذات يوم قالت لزوجها الذى لم يكن يثق فى عرافتها : « إمض إلى السد فان أبصرت فأراً[5] ينبش السد بمخالبه ويقذف قطعاً كبيرة من الصخور بقدميه الخلفيتين فتيقنْ بأن العذاب قد حلّ بنا » فمضى عمرو إلى السد

(١) لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) « ٣٤ : ١٥ — ١٦ من القرآن » أما الخرائب الباقية فقد وصفها Arnaud فى الجريدة الأسيوية المجموعة السابقة ٣٢ (١٨٧٤) ص ٣ ومابعدها

(٢) راجع مروج الذهب (طبعة باربيه دى مينارد) ج ٣ ص ٣٨٧ وما يليها والنويرى Pimoe lineoe Rerum Arab icarum ص ١٦٦ وما يليها

(٣) ربما كان لقصة الهجرة من مأرب — التى ذكرت — أساس تاريخى ولكن السد نفسه لم يتهدم كله إلا بعد دهر طويل ، وإن النقوش التى عثر عليها منحوتة فى الصخور الباقية منه ليستدل منها على أنه ظل قائما حتى منتصف القرن السادس الميلادى وإن أول فيضان معروف قد وقع بين عامى ٤٤٧ — ٤٥٠ م كما أعاد بناء بعض أجزاء السد « ابرهة الحبشى » والى اليمن بين ٥٣٩ — ٥٤٢ م . راجع ذلك فى « كتابات فى انفجار سد مأرب لجلاسير »

E. Glaser: Zuli Inachaiften ueber den Dammbruch von Mârip (Mitteilnngen der Vorderasiatischen Gesellschaft. 1897,)

(٤) يقول الأستاذ نيكلسون إنه كان من عادة عمرو بن عامر أن يمزق ثوب نهاره كلما جن المساء . أما صاحب كتاب « التيجان فى ملوك حمير » فيقول « سمى مزيقيا لأنه كانت تنسج له فى كل سنة ثلثمائة وستون حلة ثم يأذن للناس فى الدخول فاذا أرادوا الخروج استلبت عنه وتمزق قطعا ولذلك سمى مزيقيا » ص ٣٦٢ طبعة حيدرأباد الدكن سنة ١٣٤٧ هـ (المترجم)

(٥) وقد قال فى ذلك أحد الشعراء :

وقد هد لدمار بلقيس هدهد   وخرب حفر الفأر سداً لمأرب

(المترجم)

وأنعم النظر فشاهد جرذاً يحرك حجراً كبيراً يعجز خمسون رجلاً جلدا عن نقله من مكانه فأيقن عمرو أن السد منهار ، وأن الأرض لابد هالكة بمن عليها ، فعزم على بيع أملاكه والرحيل بعائلته ، لكنه خشى أن يبعث الاضطراب إلى قلوب السكان ، فدبر حيلة ناجحة ، ذلك أنه دعا أشراف المدينة ورؤوسها إلى وليمة فاخرة مدها لهم ، واتفق مع ابنه أن يثيرا الخلاف بينهما (أو بينه وبين اليتيم الذى درج فى بيته كما يقول آخرون) وتبودلت بينهما الضربات فصاح عمرو : « وافضيحتاه !! أفى يوم مجدى وفخرى يسبنى ويلطمنى غلام عاق ؟ » ثم أقسم أن يقتل الفتى ، فتوسّل إليه ضيوفه أن يرحمه ويرأف به فأجابهم ، بيد أنه أقسم قائلاً : « لا أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى وسأبيع أرضى ومتاعى » وإذ نجح فى الخلاص من أعبائه — إذ لم يعدم مشترين لبوا دعوته واغتنموا غضبته — لم يتردد فى أن يخبر الناس عما يتهددهم من بلاء ثم بارح مأرب على رأس جمع حشيد ، ثم أخذت المياه تثقب السد شيئاً فشيئاً وتغمر الأرض ، مرسلة فى لجتها الدمار طولاً وعرضاً ، ومن هنا نشأ المثل القائل « تفرقوا أيدى سبأ » أى تشتتوا كما تشتت قوم[1] سبأ

وإن ذلك الطوفان ليؤرخ فترة من تاريخ بلاد العرب الجنوبية

ثم غاضت المياه واخضرت الأرض بعد المحال وعادت إلى الايناع والزرع ، بيد أن مأرب ظلت مهجورة ، واختفى السبئيون إلى الأبد إلا ما يذكره الأعشى فى قصيدة له من قوله[2]

وفى ذَاكَ لِلمُؤتسى أُسْوةٌ   ومَأرَبُ عَضَّ عليها العرِمُ
رِخَامٌ بَنتْهُ لهم حِمْيرٌ   إذا جاء مَوَّارُهُ[3] لم يَرِمِ
فأرْوَى الزُّروع وأعنابَها[4]   على سِعَة مَاؤهَا إذ قُسِم
فصَارُوا أيادِىَ ما يَقْدِرون   مِنهُ على شُرْبِ طفل فُطِم

وليست فى كلام الشاعر عن حمير دقة تاريخية ، أما الحميريون وعاصمتهم ظفار (صنعاء فيما بعد) فقد صاروا حكام اليمن بعد

(١) Freytag: Arabum Proverbia, Vol I, P. 497

وترجمته هكذا

Abiesunt tanquam agmina Sabaeorum; et dispersi sunt tanquam agmina Sabaeorum

(٢) الهمدانى : الأكليل الكتاب الثامن طبعة ميللر فى S.B.W.A, فى فينا ١٨٨١ ج ٩٧ ص ١٠٣٧ ، وقد نقل هذه الأبيات ياقوت الحموى فى شىء من التغيير فى معجمه (طبعة وستنفلد) ج ٤ ص ٣٨٧ وابن هشام ص ٩

(٣) بفتح الميم وبعضهم يرويه بالضم والفتح أصح مأخوذ من قوله تعالى « يوم تمور السماء مورا »

(٤) قوله « فأروى الزروع وأعنابها » أى أعناب تلك البلاد (ابن هشام)

انفجار سد مأرب وتلاشى السبئيين الذين أقموه [1]

أما تبع الأول — الذى أطلق لقبه مؤرخو المسلمين على من خلفه من ملوك حمير فيسمى « حارث الرائش » لأنه زين بيوت قومه بالغنائم والأسلاب مما جلبه معه — كغنائم — من الهند وأزربيجان [2] ، أما عن التبابعة الذين ولوا الحكم بعده فان بعضهم يدين بدرجه فى سلسلة حمير إلى النسابين الذين كان احترامهم للقرآن يفوق دقتهم النقدية كما حدث مثل هذا بشأن المخلوق الخرافى صعب ذى القرنين ، وإن الأبيات التالية تخلط بينه وبين ذى القرنين العجيب الوارد نبؤه فى القرآن والذى يعتبره معظم المفسرين نفس الأسكندر الأكبر [3]

لنا مُلكُ ذى القرْنين هل نالَ مُلكهُ
مِن البشرِ المخلوقِ خلقٌ مُصورُ ؟
نوى ثمَّ يتلو الشمسَ عِند غرُوبها
لينظُرَها فى عينِها حينَ تُدْحرُ
ويسمُو إليها حين تطلع غُدْوَةً ليلمحها فى بُرجها حينَ تظهرُ
دليلاً بأسبابِ السماءِ نهارُهُ [4] وليلاً رقيباً دائماً ليس يفترُ
وأرْصدَ سداًّ من حديدٍ إذا بدا ومن عينِ قطرٍ ثم عالَيس بظاهرٍ
رَمى فيهِ يأجوجاً ومأجوجَ عَنوةً
إلى يومِ تُدعى للحساب وتُنشرُ [1]

(يتبع)

ترجمة حسن حبشى

(١) وقد وجد الوصف التالى محفورا على حجر من القراميد الصخرية التى وصفها أرنود فى الجريدة الأسيوية يتعمريين (بتشديد الياء وكسرها) ابن سمه على ينوف أمير سبأ قد نقب جبل البلق وبنى السدود (وتسمى رحب) لتنظيم الرى ومبللر (المرجع السابق ص ٩٦٥)

(٢) لم ترد بتاتا كلمتا « حمير وتبع » فى النقوش القديمة ، أما فى الحديثة فلم ترد إلا قليلا جدا

(٣) يقصد ما جاء فى سورة الكهف (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا ، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ، ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ، ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) (المترجم)

(٤) وصف الهمدانى فى كتابه جزيرة العرب (ص ٣٦ س ١٠) ذا القرنين بأنه « مساح الأرض » وإذ نترك مجال التاريخ الأدبى لحظة لأشرح الخرافة التى تتسرب من خلال هذه الأبيات ، فيظهر لى أن « ذا القرنين » إنما يقصد به الآلهة السبئية « عثتر » التى تمثل « نجمة الصباح الجميلة » (راجع ما كتبه D. H. Muller فى S. B. W. A. مجلد ٩٧ ص ٩٣٧ وما يليها) ونجد فى النقوش المعينية « عثتر الجالسة وعثتر الواقفة » (شرحه ص ١٠٣٣) أضف الى ذلك أن عثتر والمقه يذكران فى أقدم النقوش دائما مقرونين بعضهما ببعض . أما « المقه » (وهى فينوس أو الزهرة كما يذكر الهمدانى) فيعتبرها علماء الآثار القديمة من العرب بلقيس ، أما عن « قرن » بمعنى « أشعة أو ضوء » فراجع ج ١ ص ١١٤ من كتاب جولدزيهر Abhand - zur Arab. Philologie ولا يحوم كثير من الشك فى إضافة اسمى « ذى القرنين وبلقيس » إلى الأمثلة العدة لهذا التغيير الذى بواسطته استطاعت كثير من آلهة الوثنية أن تظل قائمة فى ظل الاسلام بعد أن تنكرت بأسماء مختلفة

(١) Von Kremer Altarabis-che Gedichte ucber qei Volkssage von Jemen P. 15 (No. viii, 6 seg)
وهذه الأبيات لحسان بن ثابت شاعر الرسول

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

— ٣ —

— ٧ —

وأمسى المساء مرخياً سدوله على الساحة فتفرق عنها المتفرجون وقد أرهقهم الفضول والرعب، وبقى زارا جالساً على الأرض قرب الميت فاستغرق فى تفكيره ناسياً مرور الزمان حتى هبت نفحات الليل عليه منفرداً، فناجى نفسه قائلاً:

لقد كان صيدك موفقاً اليوم يا زارا! لقد أفلت الناس منك فاصطدت جثة هامدة

إن حياة الانسان محفوفة بالأخطار، وهى فوق ذلك لا معنى لها ... فأن مهرجا يمكن أن يقضى عليها

أريد أن أعلم الناس معنى وجودهم ليدركوا أن الانسان الكامل إنما هو البرق الساطع من الغيوم السوداء من الأنسان

ولكننى لم أزل بعيداً عن هؤلاء الناس وفكرتى بعيدة عن مداركهم، فأنا لم أزل متوسطاً المدى بين مجنون وجثة هامدة

إن الليل مظلم ومسالك زارا مظلمة أيضاً. تعال أيها الرفيق المتيبس فى حقيبته! إننى ذاهب بك إلى حيث أواريك التراب بيدى

— ٨ —

ورفع زارا الجثة على كاهله ومشى، ولكنه ما قطع مائة خطوة حتى زحمه رجل؛ وما كان هذا الرجل إلا مهرّج البرج، فأسرّ اليه فى أذنه:

— اذهب من هذه المدينة يا زارا فان مبغضيك فيها كثيرون. هنا يكرهك أهل الصلاح والعدل، فيصفونك بالعدو والمُزدرى، ويكرهك المؤمنون بالدين الحق فيرون بك خطراً على عامة الناس، وقد كان من حظك أن هزأ الحشد بك لأنك كنت تتكلم كالمهرّجين، وكان من حظك أيضاً أن اشتركت والكلب الميت، فقد كان خلاصك هذه المرة فى إسفافك إلى هذه الهاوى، ولكنك لن تسلم فى الثانية فاذهب من هذه المدينة وإلا فاننى قفز غداً فوق جثة أخرى

قال الرجل هذا وتوارى وتابع زارا سيره فى الشوارع المظلمة. ولما بلغ باب المدينة التقى حُفّار القبور فوجهوا إلى رأسه أشعة مصابيحهم وإذ عرفوا فيه زارا أشبعوه سخرية وهزءا وقالوا:

— مرحى يا زارا! لقد صرت الآن حفاراً للقبور؛ إنك تحمل الكلب الميت. لقد أحسنت، فان أيدينا أطهر من أن تدنس بجثته. أتريد يازارا أن تختلس من الشيطان طعامه؟ كل هنيئاً! ولكن الشيطان أمهر منك، ولعله يسرقكما كليكما فيلتهمكما التهاما

ودار حفار القبور بزارا يتفرسون فيه. أما هو فلزم الصمت وسار فى طريقه. وبعد أن مشى ساعتين يقطع الأحراج والمستنقعات، شعر بالجوع لكثرة ما عوت حوله الذئاب الجائعة، فوقف أمام بيت منفرد لاحت له الأنوار من نوافذه. وقال: لقد عضنى الجوع وداهمنى كاللص بين الأحراج فى الليل البهيم

إن لجوعى نزواتٍ مستغربة وقد يداهمنى حتى بعد الطعام، ولكنه اليوم ندّ عنى منذ الصباح حتى المساء فأين كان هذا الجوع؟

وطرق زارا باب البيت فظهر له منه شيخ يحمل مشعلاً، وقال له: من الآتى إلىّ وإلى رقادى المضطرب؟

فأجاب زارا: أتيناك اثنين حىّ وميت، أعطنى مأ كلاً ومشرباً فقد نسيت الغذاء النهار بطوله، إن من يشبع الجياع يولى نفسه قوة، هكذا قالت الحكمة

فغاب الشيخ وعاد بخبز وخمر وقال:

— إنها لأماكن موحشة للجياع، وذلك ما دعانى إلى السكن هنا حيث يهرع إلىّ البشر والحيوان فى وحدتى. أفلا تدعو رفيقك ليأكل ويشرب معك فهو أشد تعباً منك

فقال زارا: إن رفيقى ميت ولا يسهل على اقناعه بتناول الطعام.

فتمتم الشيخ: ذلك لا يهمنى؛ إن من يطرق بابى عليه أن يأخذ ما أقدمه له. كلوا هنيئاً

وعاد زارا إلى السير فمشى ساعتين أيضاً وهو يهتدى إلى رسوم الطريق بنور النجوم، وقد كان معتاداً السرَى ويحب أن يتفرّس فى كل شىء راقه. وعند ما لاح الصباح كان زارا وصل

إلى غابة كثيفة حيث انقطع كل طريق أمامه ، فتوقف ووضع الجثة فى فراغ شجرة حواها حتى رأسها ليقيها هجمات الذئاب ، ورقد بعد ذلك متوسداً نبات الأرض وما عتم حتى استغرق فى نومه منهوك الجسم مرتاح الضمير

— ٩ —

وطال نوم زارا حتى غمرت وجهه أنوار الضحى بعد أن داعبته تباشير الفجر ففتح عينيه مبهوتاً وسرح أبصاره على الغاب ثم حولها يستكشف نفسه ساكناً مستغرباً

وهبّ من مجلسه فجأة كما يهبّ الملاح تبدو لعينه الأرض ، فهتف وقد هزّه المرح لأنه اكتشف حقيقة جديدة فخاطب قلبه قائلاً

لقد انفتحت عيناى . إننى بحاجة إلى رفاق أحياء لا إلى رفاق أموات وجثث أحملهم إلى حيث أريد

إننى أطلب رفاقاً أحياء ليتبعونى لأنهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم أيان توجهت

لقد انفتحت عيناى ، ليس على زارا أن يخاطب جماعات بل عليه أن يخاطب رفاقا ، يجب ألا يكون زارا راعياً للقطيع وكلباً له

إننى ما جئت إلا لأخلص خرافاً عديدة من القطيع ، وسوف يتمرد الشعب والقطيع علىّ . إن زارا يريد أن يعامله الرعاة معاملتهم للصوص

قلت رعاة غير أنهم يدعون بالصالحين والعادلين . قلت رعاة غير أنهم يدعون بالمؤمنين بالدين الحق

أنظروا إلى أهل الصلاح والعدل لتعلموا من هو ألدّ أعدائهم ، إنه من يحطم الألواح التى حفروا عليها سننهم ذلك هو الهدّام ذلك هو المجرم — غير أنه هو المبدع

أنظروا إلى المؤمنين بجميع المعتقدات تعلموا من هو ألد أعدائهم إنه من يحطم الألواح التى حفروا عليها سننهم ، ذلك هو الهدام ، ذلك هو المجرم غير أنه هو المبدع

إلىّ بالرفاق . إننى أطلبهم مبدعين ولا أطلبهم جثثاً وقطعاناً ومؤمنين

إن المبدع لا يتخذ له رفاقا إلا من كانوا مثله مبدعين ، إنه يتخذهم ممن يحفرون سنناً جديدة على ألواح جديدة

إن من يطلب المبدع إنما هم الحصاد يعاونونه فى الحصاد لأن كل شىء قد أصبح فى عينه ناضجاً للحصاد ، ولكن الآلة منجل ليست بين يديه فهو يتميز غضباً ويقتلع السنابل من أصولها

إن المبدع يطلب رفاقاله بين من يعرفون أن يشحذوا مناجلهم ، وسوف يدعوهم الناس هدّامين ومستهزئين بالخير والشر ، غير أنهم يكونون هم الحاصدين والمحتفلين بالعيد

إن زارا يطلب من كانوا مثله مبدعين يشاركونه فى الحصاد وفى الراحة فلا حاجة له بالقطعان والرعاة وأشلاء الأموات

وأنت يا رفيق الأول ، ارقد بسلام لقد أحسنت دفنك فى فراغ الشجرة ووقيتك افتراس الذئاب

غير أننى سأفترق عنك لأن الزمان قد مر سريعاً ، وقد انبثقت حقيقة جديدة فى أفق نفسى ما بين فجرين

لن أكون راعياً ، ولن أكون حفار قبور ، ولسوف لا أقف بعد الآن فى الجماعات خطيباً فقد وجهت آخر حظى إلى ميت

أريد أن أنضم إلى المبدعين ، إلى أولئك الذين يحصدون ويرتاحون فأريهم قوس قزح والمراتب التى يرقاها الواصلون إلى الأنسانية الكاملة

سأهتف بنشيدى للمعتزلين ولمن يشعر بمثنويته فى انفراده أننى سأملأ بغبطتى قلب كل من له أذنان تصغيان إلى مالم تسمعه أذن بعد

إننى أسير إلى هدفى وأتبع طريقى فأقفز فوق المترددين والمتأخرين ، وهكذا سيكون سيرى جنوحا إلى الغروب

— ١٠ —

وكان زارا يناجى نفسه بهذا القول والشمس فى الهاجرة وإذا به يسمع صوتاً جارحاً فى الفضاء ولاح له نسر يعقد حلقات فى طيرانه وقد تعلقت به أفعى وما كان يقبض عليها بمخلبيه كفريسة ، بل كانت ملتفة حول عنقه التفاف المحب

فهتف زارا والحبور يملأ فؤاده : هذان نسرى وأفعاى ، فهو أشد الحيوانات افتخاراً ، وهى أشدها مكراً تحت الشمس ؛ وكلاهما ذاهبان مستكشفين فى الفضاء ليعلما ما إذا كان زارا لم يزل فى

على شواطئ البسفور

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

هنا الدنيا هنا الدنيا ألا ما أحسن المَحْيا
رُواء كفم الصّبح إذا افترّ عن الفجر
على الأفق ، على الروض على البرّ ، على البحر
كأن الأرض قد قامت على الرقصة والزمر
سرور أينما سرت وعرسٌ لم يزل يجرى
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

صفاء الأفق كالبحر ولون البحر كالأفْق
فمن يرنو إلى تحتٍ كمن يرنو إلى فوق
يشيم الأفق مطبوعاً على البحر بلا فرق
كأن البحر دون الأفـــق أمسى مطلق الزرق
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

رباع لجنان الخلـــد لا حرٌّ ولا برد
حباها فى ضحى آب كما ينفحه الورد
فروض أرج العطر وجوّ غَنِجٌ سعد
أنيق الوشى كالجيد إذا زيّنه العقـــد
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

يحار الفكر إن جال بما يشهد من حسن
فما يؤثر أو يهوى وما يبعـد أو يدنى !
إذا أعجبـــه مرأى رأى أعجب فى الشأن
فلا ينفك مســحوراً كمأخوذ ابنة الدنّ
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

شهدت الحسن مطبوعا كما أبصرت مصنوعا
ورمت الحب مبذولاً فما صادفت ممنوعا
وشِمت الخلد مرئيا وكان الخلد مسموعا
وألفيت شـــتات الحسـ ـن فى « البسفور » مجموعا
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

حسان كعذارى الخلـ ـد يمرحن زُرافات
كأنْ آذار أبداهن فى الآفاق باقات
فهن الزهر فى الروض نشرن الحسن طاقات
وهن الزُّهر فى الأفق تزين الأرض غادات
فيا عاشـق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

كأن الدهر بالغادا ت كالأزهار نيسان
فهل غاب عن الخلد رقيب الخلد رضوان
نشاوى مثـــل رائيهـ ـن بالاعجاب نشوان
يمِّمن ربوع الأنـ ـس حيث الحب ألحان
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا . هنا الدنيا

***

أغان وأغاريد لها يطرب محزون

الحياة ، فهل أنا لم أزل حياً بعد ؟

لقد اعترضنى من المخاطر بين الناس ما لم أجد مثله بين الحيوانات ؛ إننى أتبع السبل المخطرة فلأقتدين بنسرى وأفعاى

وتذكر زارا حينئذ القديس المنعزل فى الغاب فتنهد وقال :

لأ كونن أوفر ؛ حكمة لأ كونن ماكراً كأفعاى ؛ غير أننى أطلب المستحيـل لذلك أتوسل إلى افتخارى أن يلازم حكمتى ولا ينفصل عنها

وإذا ما تخلت حكمتى عنى يوماً وهى تتوق إلى الطيران وا أسفاه فاننى أرجو أن يطير افتخارى مستصحباً جنونى

وهكذا بدا جنوح زارا إلى المغيب

(يتبع) فليكس فارس

بلحن الطير فى الأيك يناغيهن قانون
تثير الروح بالشـــدو كما ينشر مدفون
تغنيها الرياحين كما استضحك مفتون
فيا عاشق دنياه . . . هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

لديها متعـــة السمع وفيها شهوة العين
تعـــالى الله ما أقد ر أن يجمع حسنين
وما أحسن أن تلتذ (م) باثنين شهيين
بريئين بلا إثم جميلين بلا شين
فيا عاشق دنياه . . . هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

حيـــاة لم ينغصها سوى ذكرى لأوطانى
أرى البسفور بساماً فأبكي ثغر « بغدان »
نبا من أفقها الحسن ولم تنعم بعمران
كأن لم تك فى الدهر جمال العالم الفانى
فياشـــقوة «بغـــداد» إذا لم تشبه الدنيا !

(بغداد) محمد بهجة الأثرى

في شعاع الفجر

مناجاة زهرة

بقلم أحمد فتحي مرسي

إيه يا زهرتى ! لقد أقبل الفجـ رُ يفيض الضياء من بسماته
والشعاع الحبيب قدفاض فى القلـ ب فأحيا الدفين من أمنياته
والنسيم الرخىُّ يعبث بالغصـ ن ويثنى الندىَّ من زهراته
قد مضى يوقظ الزهور ويسرى طابعاً فوق ثغرها قبلاته
رق حتى كأنه لمسة الطفـ ل ومسُّ الرقيق من أنملاته
والفَراش الوديع يرتشف الضو ء ويروى صداه من لحاته
يلتوى كالقطاة أخطأها الرا مى فراحت تحيد عن رمياته
والرياحين هامسات إلى المر ج كهمس الضمير فى خلواته
قائمات على الربى ساجدات كسجود التقى فى صلواته
كلٌ ما فى الوجود يا ملكة الرو ض يشي الجمال من قسماته

***

إيه يا زهرتى ! لقد أشرق الرو ضُ وسال الندى على وجناته
فارشفى النور من سنا الصبح رفا فا تلذ النفوس من رشفاته
وابسمى فالحياة حلم ويمضى ويفيق الفؤاد من سكراته

***

إيه يا زهرتى ! لقد صدح الطيـ ـر فهز الوجود من صدحاته
فاض فى النفس لحنه فشجاها وأذاب الفؤاد من نغماته
فهبيه من وجهك الطلق وحيا يملى من سحره أغنياته

***

إيه يا زهرتى ! لقد أسفر الكو ن وراق الجمال فى جنباته
لم تبكين ؟ جفِّفى ذلك الدمـ ع وصونى عن البكا قطراته
لا يرُعك الزمان إن نثر الزهـ ر وأفنى النضير من ورقاته
لا يرعك العذابُ إن ملأ الكو ن فكلٌ معذب فى حياته

(القاهرة) أحمد فتحى مرسى

القصص

تذكرة سفر
من طنطا الى سقر

للأستاذ ابراهيم جلال بك
وكيل محكمة الزقازيق الأهلية

كان باحدى ضواحي مدينة طنطا قروى له فتيان أحدهما جميل المحيا ، مفتول العضل ، تام الرجولة ، كأبيه فى الاستقامة والدأب على حرث الحقل ورعاية الماشية واسمه حسن . أما الآخر وهو يونس فكان على نقيض أخيه ، خامل الذكر ، دائم التلهى عما كسة جيرانه ، يسد مسيل الماء عنهم ، ويسرق أمطار الذرة ، ويسلبهم دجاجهم وسائر ما يكنزون

وكان أبوهما مصطفى كهلاً أرمل ، ولكنه عرف بالنجدة وصلابة العود ، قد أخرجته الجندية متين البدن ، وأكسبته سكنى المروج الخضر حدة فى البصر

وماتت زوجته والغلامان فى الطفولة الأولى ، وكان قد ادخر بقية من نقود الجندية فابتاع بها حقلاً زرعه نصف فدان وأحسن القيام عليه حرثاً وإنباتاً ، وأقام تحت ظلال صفصافة عالية كوخاً صغيراً وسد به الحشائش الجافة وأضجع فيه طفليه واتخذ حوله سياجاً من قصب الذرة ، ومهّد فى ناحية من السياج مناخاً للدواب أسكن به شاة ذات أحمال وعنزات صغار . وكان الشيخ قد عرف بحسن الرماية وإحكامها من عهد أن كان فى مصاف الجيش ، ولديه قلائد الشرف حازها بحسن بلائه وبسالته فى فتوح السودان . وقد رآه أهل القرية غداة العيد يحمل تلك القلائد ويخطر فى الدرب عند باب العمدة كما شهد له العمدة بحسن السمت حين حياه مسلماً فى أدب الجند وسكينتهم ، وحين تناول قدح القهوة ثم انقلب إلى كوخه الصغير بين غلاميه وماشيته

وكان مصطفى قد اتخذ لنفسه محراباً للعبادة فى ظل تلك الشجرة ، فاذا انشق الفسق عن غرة الفجر قام إلى قناة الماء فاغتسل ثم جثا فى المحراب بقلب سليم ، وكان هذا حاله فى المواقيت الخمسة

فكان الله فى عونه حتى ترعرع الغلامان ، وجاوز حسن سن الخامسة عشرة ولحق به أخوه يونس ، وزكا الزرع ودر الضرع وسال النضار بكف الشيخ مسيل الماء فى حقله ، فلم تطغه أخلاف الرزق وسعة العيش ، وعكف على تثقيف ولديه فى مكتب القرية ، فحذق حسن فن الكتابة والحساب ؛ أما أخوه فكان غافل اللب ، ينسل من المكتب مع رفقة له فيتسكعون فى دروب القرية حتى خرج غراً جاهلاً لا يحسن شيئاً ، ولم تجد فيه نصائح أبيه الشيخ ، ولا نالت منه سياط التأديب ولا وجيفة القيد ؛ فكان يفر من الكوخ ويبيت ليله بالعراء . وكان حسن يتميز رحمة وحناناً بيونس ؛ وكم كان يتقى بساعديه سياط أبيه ويقاسم أخاه بلاء التأديب

وطرقهم طارق بليل ، وكانت ليلة قرها زمهرير وريحها عاصف ، فهرت كلابهم بباب الكوخ ونهض الشيخ إلى غدارة له بالجدار عامرة بأسباب الموت . وكان حسن قد نما عوده ، واستقام كاهلاه كأحسن ما تقوم أبدان الرجال ، فتصدى لأبيه وتناول منه آلة الموت ، وخرج إلى الفناء وأبوه يرقبه بعيني صقر وبيده هراوة

ورأى حسن شبحاً قد التقط حملين من الخراف ، وتجاوز السياج بهما فانطلق فى أثره حتى حاذاه ، وسدد اليه القذيفة ، ولكنه تعرف السارق فى عدوه ، ولمح من وميض الأفق تصاوير بدنه ، فألقى الغدارة ولحق به ؛ وصحت فراسته فقد كان أخاه يونس . وقال له حسن خل الخراف لئلا يلحق بنا أبوك فان بيده

المراوة . ورفض يونس صاخباً ؛ وتماقد الاخوان بالأيدى ، وطمن قابيل هابيل وفر بالخراف . وجاء الشيخ يشتد وبيده آلة الموت التى رماها حسن ، وجثا بجانب الجريح وقال له : عجيب أمرك والله ! كيف تلق عنك سلاحك ثم تذهب الى اللص أعزل ؟ ومسح الشيخ مقلتيه وحدق فى شبح السارق ، ثم بسط الغدارة على تلك السواعد الخالدة وهم باطلاق القذيفة لولا أن قام اليه حسن وانكفأ على صدره ، فطاشت القذيفة ونجا يونس وخلف الخراف . وشفى الله الجريح ورده الى أبيه فلاحا كادحا زينة الغلمان حماة الفؤوس

واستبان الشيخ أن سارق الليل كان يونس

وجاء عيد الأضحى فنحر مصطفى كبشاً ، وجاد بأكثره على الأيامى من مجاز القرية وضعاف أهل السبيل ، ثم جلس مع ابنه حسن يأكلان شواء وثريدا

وقال الغلام لأبيه : ياأبت إنى راحل الى مصر غدا إن شاء الله ، فقد أنقصوا أجرة السفر كرامة لهذا العيد . فقال الشيخ يا بنى إنى لأجد فى سفرك هذا خفوقا بين أضالعى لا أدرى والله له علة ولا سببا

وانطوى النهار وجاء الغد ، فخرج الشيخ يشيع غلامه الى المدينة ، ودخلا المسجد الأحمدى ، وطافا حرمه مع الطائفين من أهل القرية ، وصلى الناس الظهيرة مهللين مكبرين ، ثم قاموا إلى المحطة ، أما مصطفى فأنه تناول جبين ابنه لثما وزفر أنفاساً محزونة ثم توارى

ورأى حسن فى غمار الناس أخاه يونس يرسف فى أطماره وزوى مسكنة وفاقة ، وقد غارت عيناه بين غضون الشقاء والاغتراب

وتمانق الأخوان ، وناح يونس من كبد نادمة موجعة ، ونسى حسن جراحه السالفة وما فعل قابيل به وقال : « لا عليك يا أخى ! وابتاع تذكرتين وحمل الى أخيه قرصين من خبز السميذ »

واستقر الناس فى العربات فى حلل العيد وحولهم قدورهم وحلواهم ، وأخليت مساند القرية للشيوخ ، أما الولدان والرضع فركبوا كواهل الآباء وحجور الأمهات

وتوالى ولوج هذا الركب المنكود بأفنية العربات ، وامتد مصافهم الى السقف ، حتى لقد أسبلوا من أبدانهم سترا كثيفاً على النوافذ . وكرت العربات فى إثر القاطرة تنهب الأرض وركبها لاه يرى انطواء الحقول والضياع والقرى كالصحف المصورة بيد الطفل ينشرها ويطويها

وكان ذلك قدرا محتوما وإن كان مكتوما ، فنزل بالركب المسافر موت فات الذين نوعوا أسباب الموت ، وغاب بهم الحساب عن الذين يعدون على الأيام أنواع البلاء وألوان العذاب

ذلك أن سميرا من وقود جهنم فار من موطىء الأقدام وجوف العربات كما فار الطوفان من أغوار مدينة نوح

وما كان الركب إلا أهل الفاقة والمسكنة عبيد الضائقة المالية قد ذهب رب الحقل بما أنبتوا من قطن وبر ، ومشت الحكومة بماشيتهم فى الخراج . ولو كانت العربات مفضية الى بعضها لسارع الناس بالنجاة من باب الى باب وخلفوا النار تأكل بعضها ، ولكنها يا للحسرة الفاجعة ، كانت عليهم موصدة فى عمد ممددة

وكشفت نوافذ العربة لمن يرجو النجاة وثبا ، فتقاطر كل مقبل على الموت ليختار أحد السبيلين الى الآخرة أيهما أهون عذابا . أغمرة الاحراق ، أم دق الأعناق ؟ ورأى أهل القرى والحقول ضرام النار فى أتونها المستعر ، وهالهم ضجيج الوقود البشرى ، وجن جنونهم لغفلة السائق واندفاعه بقاطراته كعجلات الرومان الأولى نيط بها الأسرى فى أغلالهم ، وحمل الموتى الى مدينة بنها ، وعرضوا فى فناء المستشفى وأسعف الذين بهم رمق

وصاح النعاة بأهل القرى فأقبل الشيخ الفانى مصطفى مخذول الساقين ، زائغ البصر ، لا يدرى ما كتب لولده حسن ؛ ودخل فناء المستشفى فى مشيخة من قريته ، فعرف الناس موتاهم وعلا النحيب من اليتيم والأرمل والثكلى . أما مصطفى فقد دلف إلى الاشلاء حبواً وكف بصره بدمع يحرق الأديم ، وأراد أن يرى بعينه مبلغ الكارثة من فؤاده

فلمح ولده العاق يونس قائما يبكى وحول ساعديه العصائب وعلى صدره اللفائف ، وقد نشر رداءه على جسد أخيه حسن يحاول أن يخفيه عن بصر الشيخ المفجوع ، ولكن الشيخ رأى بالبصيرة مالم يره البصر ! !

ابراهيم مهلل

البريد الأدبي

أوجين أونيل الفائز بجائزة نوبل للآداب

ذكرنا في العدد الماضي أن الأكاديمية السويدية قد منحت جائزة نوبل للطب والفسيولوجيا هذا العام إلى العلامة النمسوي الدكتور أوتو ليفي والعلامة الانكليزي السير هنري هالت دبل

والآن نذكر أنها منحت جائزة نوبل للآداب إلى الكاتب الأمريكي الشهير أوجين أونيل Eugene O' Neill

وأوجين أنيل هو أعظم كاتب مسرحي أمريكي في عصرنا ، اشتهرت قطعه التمثيلية في أمريكا وفي العالم القديم معا ؛ وكان مولده في سنة ١٨٨٨ بمدينة نيويورك من أب ممثل شهير ، ودرس أوجين في هارفارد وقضى شباباً مضطرباً يعالج مختلف الأعمال ، وينتقل من بلد إلى بلد ، فاشتغل بحاثا عن الذهب ، واشتغل بحاراً ، وصحفياً مخبراً ، وممثلا ، وأحرز خبرة كبيرة في مختلف الأعمال ؛ وأصابه السل وهو في بدء شبابه ، فأودعه أبوه أحد المستشفيات ، وهنالك كتب عدة قطع تمثيلية من فصل واحد ؛ ولما شفي عاد إلى كلية هارفارد وتلقى دروس الكتابة المسرحية على الأستاذ باكر ؛ ومثلت بعض قطعه المسرحية في الأقاليم فأصابت نجاحا . وفي سنة ١٩١٩ ظهرت أولى قطعه الكبيرة بعنوان « ما وراء الأفق » Beyond the Horizon ، فنالت شهرة كبيرة ؛ وفي سنة ١٩٢١ ظهرت « الأمبراطور جونس » Emp · Jones فزادت في شهرته ؛ وفي سنة ١٩٢٢ ظهرت « أنا كرستي » AnnaChristie ، ومن أشهر قطعه رواية « القرد الغزير الشعر » The Hairy Ape وقد مثلت بنجاح عظيم في نيويورك ولندن . وظهرت بعد ذلك عدة قطع اشتهرت كلها في العالمين الجديد والقديم ومثلت في جميع العواصم الكبرى ، ومنها : Lazanus laughed (١٩٢٧) و Strange Interlude (١٩٢٨) .

وقد امتازت روايات أونيل بأنها تعرض الحادثات النفسية للأشخاص على المسرح في ثوب جديد ساحر ، واشتهر بعضها بالتطويل حتى إنها لتبلغ تسعة فصول ، وتستغرق في تمثيلها خمس ساعات ، ومع ذلك فقد اشتهرت بقوتها وعميق تأثيرها . وقد تقلب أونيل في الكتابة بين عدة مذاهب «الحقيقي» و«التعبيري» والرمزي والنفسي ؛ وهو لا يعني بشيء من الآراء والمذاهب السياسية والاقتصادية ، وكل ما يعنيه هو الفكرة الانسانية ، وما تعرضه في الحياة الواقعة ؛ ومعظم الخواتم في قطعه تعرض الخيبة والفشل ، ويهزم الأشخاص لا بخطئهم أو تقصيرهم ولكن بفعل الحظ والمصادفة ، وهي مؤثرات يبغضها أونيل ويرى أنه لا حق لها أن تؤثر في حياة الفرد

جائزة نوبل للعلوم الطبيعية والكيمياء

ومنحت جائزة نوبل للعلوم الطبيعية للعلامة النمسوي الدكتور هيس والعلامة الأمريكي الدكتور هندرسون مناصفة بينهما ، ومنحت جائزة نوبل للكيمياء للعلامة الألماني الدكتور هيلاندي دربي من معهد برلين

وفاة شاعر مجري كبير

نعت الينا أنباء بودابست الأخيرة الكاتب والشاعر المجري الكبير ديشو كوشتولاني D. Koszolanyi ، توفي في الثالث من نوفبر بمنزله في بودابست بشارع تابور بعد مرض طويل . وكان مولده بقرية زباتكا من أعمال جنوب المجر ؛ وتلقى دراسته بجامعة بودابست ؛ واشتغل بادىء ذي بدء بالصحافة ؛ ثم كتب بعض القصص ونظم الشعر ؛ وترجم إلى المجرية عدة قطع خالدة من شكسبير ، ومولبير ، وموباسان ، وڤلده ، وغيرهم من الشعراء المحدثين من كل قطر وكل لغة . ومن أشهر مؤلفاته « الشاعر الدموي » وهي قصة رائعة عن عصر نيرون ، وقد ترجمت الى الانكليزية (The bloody Poet) ؛ وهو شاعر مجدد بمعنى الكلمة وقد استطاع أن يصوغ أعقد المسائل المعقدة المحدثة في أجمل

الأساليب وأرقها ، ومن نظامه المجموعات الآتية : « بين جدران أربعة » (١٩٠٧) « أنين طفل » (١٩١٠) « السحر » (١٩١٢) « أخي » (١٩١٥) « بوبي » (١٩١٦) « الخبز والنبيذ » (١٩٢٠) « أنين رجل محزون » (١٩٢١) العارية (١٩٢٧) وغيرها ، وقد ترجمت معظمها الى الانكليزية

في الأكاديمية الفرنسية

في الأنباء الأخيرة أن ثلاثة أعضاء جدد قد انتخبوا للجلوس في الأكاديمية الفرنسية والانتظام في سلك الخالدين ، وهم الأميرال لا كاز وقد انتخب مكان السياسي الكبير چول كامبون ، والمونسنيور جرانت وقد انتخب مكان المؤرخ الكبير بييردى نولهاك ، والمسيو جاك دى لا كراتيل وقد انتخب مكان الشاعر والقصصي الكبير هنري دى رينيه

وينتمي كل من الأعضاء الجدد إلى طراز خاص من التفكير ، فالأميرال لا كاز من رجال الحرب ، ولكنه كاتب وخطيب كبير ؛ وهو اليوم في الخامسة والسبعين من عمره ، وكان وزيراً للبحرية ، وقائداً لأسطول الغواصات أيام الحرب الكبرى ؛ ومن تقاليد الأكاديمية أن يمثل فيها دائماً الى جانب أبطال الأدب ، أبطال العسكرية البارزين في التفكير والثقافة مثل الماريشال فوش الذي كان من أعضائها

وأما المونسنيور جرانت ، فهو على رغم كونه من رجال الدين ، كاتب ومؤرخ كبير ؛ وهو دكتور في الآداب ، وقد انتخب منذ سنة ١٩٢٨ لمنصب الأسقف ، وكان من قبل مديراً للمعهد الكاثوليكي في ليل ؛ وله ثبت حافل من الكتب والمصنفات المختلفة نذكر منها : « عيوب التربية المنزلية الحالية » « بوسويه في متز » « تطور الشعائر والعبادات في باريس منذ الثورة إلى عصر الكونكوردا » « شهداء سبتمبر سنة ١٧٩٢ » « رسالة إلى الشرق » وكثير غيرها ، وهو خطيب مفوه ومحاضر بارع ، وقد اشتهر بمحاضراته الدينية والاجتماعية التي يلقيها من آن لآخر في العواصم الأوربية المختلفة

وأما جاك دى لا كراتيل فهو كاتب وقصصي كبير ، وقد ولد بمصر ونشأ بها ؛ وكان بمصر في العام الماضي وألقى بعض محاضراته في القاهرة والاسكندرية ؛ وهو من أساتذة الشباب في القصة المعاصرة ، بيد أنه يميل إلى النزعة القديمة ، وينتمي بنوع خاص إلى مدرسة الأب « بريفوست » ؛ ويؤثر الاستعراض الهادئ للأحداث والفواجع ، وأسلوبه حاد ولكنه واضح . ومن أشهر قصصه « الحب الزوجي » و « الأسقف العالية »

أنباء الزمن في أخبار اليمن

أصدرت « مجلة الأسلام » Der Islam الألمانية فيما تصدره من دراسات لتاريخ الشرق الاسلامي وحضارته القسم الأول من مؤلف هام عن تاريخ اليمن ، هو « أنباء الزمن في أخبار اليمن » ليحيى بن الحسين بن المؤيد اليمني . وقد وقف على طبعه وتصحيحه والتعليق عليه ومهد له في مقدمة طويلة بالألمانية الدكتور محمد عبد الله ماضي عضو بعثة الامام محمد عبده ، ونال بتقديمه إجازة الدكتوراه في مايو الماضي . وهو يطبع لأول مرة عن مخطوط قديم ، ويتناول تاريخ اليمن في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع من الهجرة من سنة ٢٨٠ إلى سنة ٣٢٢ هـ . وقد أهدى الناشر ثمرة مجهوده إلى روح المرحوم الامام محمد عبده اعترافاً بفضله ومآثره ؛ وسنعود إلى دراسة هذا السفر في فرصة أخرى

فكرة العصبية عند ابن خلدون

أصدرت مجلة «الاسلام» الألمانية كذلك في مطبوع خاص رسالة بالألمانية عن « فكرة العصبية في مقدمة ابن خلدون »

« Der Asabija Begriff in der Muqaddima Ibn Halqun »

وهي الرسالة التي تقدم بها صديقنا الدكتور طاهر خميرى مدرس اللغة العربية بكلية همبورج الى نيل إجازة الدكتوراه . ويشرح المؤلف نظرية الفيلسوف ابن خلدون في « العصبية » ، وأثرها في القبيلة وتكوين الملك بطريقة نقدية مقارنة ، وسنعود أيضاً الى استعراضها ودراستها في فرصة أخرى

العالم المسرحي والسينمائي

التأليف والترجمة للمسرح

حديث للأستاذ زكي طليمات

لناقد «الرسالة» الفني

قبلت الفرقة القومية استقالة الأستاذ طليمات ، كما ألغت وزارة المعارف انتدابه للعمل في هذه الفرقة ، فحرم المسرح في مصر من جهود شاب نشط مثقف أرسلته الحكومة الى فرنسا ليدرس التمثيل والاخراج كي تنتفع به في النهوض بهذا الفن

ولسنا ندري حقيقة الدوافع التي حدت بالأستاذ طليمات الى تقديم استقالته ، ولكننا علمنا أنه ضمنها كتابه الذي رفعه الى الأستاذ الكبير محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف ، ولذلك قصدت الى الأستاذ طليمات وسألته أن يطالعني على صورة من هذا الكتاب ، فأبى ورفض أن يدلي بأية تفاصيل ، ولكنه أمام الالحاح صرح بما يلي :

« لم أستقل لا من أجل زيادة مرتب أو طلب مركز أو خلافه ، وإنما استقلت لأنني غير قادر على تقوية ضعف أرى الفرقة تنساق اليه يوماً بعد يوم

كنت مغلول اليدين مشدوداً الى خشبة تعذيب ، أرى وأتألم وأصيح ولا يستمع لي أحد ، وهذا عذاب لا يطاق

فاستقالتي إنما هي لأراحة ضميري »

ولم يرض الأستاذ طليمات أن يزيد كلمة على هذا التصريح بل جعل ينتقل بالحديث من موضوع الى آخر حتى عرض لنا موضوع التأليف والترجمة للمسرح فوجهت اليه السؤال التالي :

ما رأيك في الروايات المصرية التي أخرجتها أو اطلعت عليها ؟

فأجاب « رأيي أن المسرحية المصرية لم تستكمل بعد مقومات نضوجها ، وما برحت تفتقر إلى الطابع الأصيل الذي يميزها عن الرواية الغربية ، إذ لا يخفى عليك أن الجمهور المصري لم يتعرف الى المسرحية في اللسان العربي إلا منذ سبعين عاما ، والأدب القديم خلو منها على الرغم مما يذخر به من المخلفات الممتعة في مختلف العلوم والفنون

أدبنا العربي الحديث يفتقر الى الوراثة المهذبة في فن صياغة القطعة المسرحية . وليست له تقاليد فيها ، فنحن ما برحنا في دور النقل والتقليد والاستساغة ، نأخذ عن المسرح الغربي في صياغة مسرحياتنا وننحو نحوه ، ولابد لنا أن نجتاز هذه المرحلة قبل أن يستقر وضع أصيل للمسرحية المصرية . غير أن هذا لا يحجزني عن التصريح بأن بيننا نفرا من المؤلفين المصريين قد وفقوا كثيرا في تأليف روايات متينة البناء قوية الحبكة جاء حوارها قويا في سلاسة وسهولة . فهنالك أمثال : (ابراهيم رمزي) ، (عباس علام) ، (المرحوم محمد تيمور) يأتون في مقدمة هذا النفر . وجاء أخيراً (توفيق الحكيم) فأضاف ذخيرة جديدة إلى محصولنا في آداب المسرحية المصرية

وأهم ما آخذه على أكثرية المؤلفين المصريين أنهم لا يحسنون العدة للتأليف ، فتحصيلهم سطحي هزيل ، ولذلك لم يكن غريباً يكون نتاجهم فجاً . وأعرف ممن يكتبون المسرح من لم يقرأ رواية أجنبية واحدة ، فاذا سألته عن شغفه بالتأليف أجابك في زهو أنه مواظب على حضور التمثيل في فرقة فلان أو فلانة

وأبين مواطن الضعف في المسرحية المصرية جهل بصياغة الرواية وحبكة حوادثها في منطق سليم يستثير اهتمام الجمهور في غير افتعال أو خروج على المعقول ، كذلك ميل إلى معالجة الموضوع بطريقة سطحية يُهدر فيها جانب الشخصيات في الرواية فيبدون نحفاء مهازيل من حيث التحليل النفسي . أما الأسلوب الذي يكتبون به فتعلوه مسحة من التكلف والنزوع إلى الاتيان بمهجور اللفظ والمبالغة في سرد المترادفات والجود بالألفاظ في إسراف معيب . فاذا خلا من هذه العيوب في بعض الأحايين ، فلكي يقع في قص الحديث والسرد . وإذا قلت إن قليلاً ، وقليلا جداً من مؤلفينا يحسنون جدل الحوار لما قررت غير الواقع .

وأعتقد أنه يجب أن يمر زمن طويل حتى تحسن صناعة تأليف الرواية المسرحية . والعلة فى هذا ترجع إلى أننا نعمل فى جديد دخيل فى آدابنا

فقلت له : « وما رأيك فى الروايات التى تترجم للمسرح المصرى . ومن هو أحب المؤلفين إليك ؟ » وقد أجابنى قائلاً « أكثر هذه الترجمات من هزيل الروايات الغربية ذات الصبغة القاتمة Melodrame أو ذات المواقف العنيفة المفتعلة . وقد تهافت أصحاب الفرق التمثيلية على نقل هذا النوع من الروايات لسهولة اخراجه على المسرح ، ولأن نقله إلى العربية لا يحتاج إلى الكثير من العناء الذى يتطلب زيادة الأجر فى نفقات الترجمة . هذا فضلاً عن أن هذه الروايات تستهوى الأكثرية الغالبة من الجمهور ، وهى أكثرية ساذجة التفكير لا تميل إلى إعمال الروية فيما يقدم إليها على المسرح . ولا يخفى عليك أن الجمهور المصرى لم يتعود إشغال الفكر فيما يراه فى دور اللهو ، ولم يطالعه فن التمثيل باللسان العربى إلا منذ سبعين عاماً ، وفن التمثيل ظاهره لهو وباطنه تهذيب وتثقيف

ومن العجيب أن كثيراً من روايات « موليير » وبعض روايات كورنيى وراسين ، وهم من عباقرة المؤلفين المسرحيين قد نقلت إلى العربية فى أوائل عهد مصر بالتمثيل ولكنه كان نقلا مشوهاً مسخت فيه معالم تلك الروائع الفنية تخرج بعضها يتعثر فى أسلوب من العامية والبعض الآخر يتنكر فى أسلوب ركيك محشو بالسجع مطبوع بالتعابير (الكليشيه) التى مج استعمالها وأنكرتها الآذان

وتقدمت عملية النقل فى السنوات الأخيرة ، وتنبهت وزارة المعارف أخيراً إلى ضرورة تغذية المسرح المصرى ببعض من نفائس الأدب المسرحى فترجمت عدداً منها ترجمة أنموذجية ، وقامت بطبعها متوخية فى عملها هذا أن يطالع المتأدبون على أنفس الذخائر الفنية فى المسرح الغربى ، وأن يتأثر بطابعها من يعالجون التأليف المسرحى فى مصر . ولاغنى لنا عن المسرح الغربى فى هذه المرحلة ، مرحلة الاستساغة ، ولكن هذا يجب ألا يصرفنا بأى حال عن العناية بالرواية المصرية وتشجيع مؤلفيها . ويجب ألا يكون قياسنا فى الحكم عليها مايعمر رؤوسنا من آثار نوابغ المسرح الغربى ، فنحن ما برحنا فى دور المحاولة ، محاولة جعل الرواية المسرحية شعبة من أدبنا المصرى الحديث

والاحظ أن أكثر مترجماتنا مأخوذ من الأدب الفرنسى ، بل يكاد يكون مسرحنا (لاتينياً) فى نزعته ، وما هذا بعجيب فثقافتنا لاتينية منذ القدم كما أن مزاجنا يكاد يتشابه بالمزاج اللاتينى ، وذلك بحكم أننا من أبناء شواطئ البحر الأبيض المتوسط ومصر هى الضفة المقابلة لايطاليا

ولكن ما أحوجنا إلى أن يتعرف الجمهور والمتأدبون إلى آثار الأدب الجرمانى وأدب الشمال والأدب الأمريكى الشاب الذى هو خلاصة آداب مجتمعة ، فمسرحنا لم يتعرف بعد إلى « أبسن » النرويجى و(استرنبرج) السويدى و(هوبتمان) الألمانى و(أوجين أونيل) الأمريكى

وأحب المؤلفين المسرحيين إلى هم (موليير) الفرنسى ، و(أبسن) النرويجى ، و (شاكسبير) الانجليزى . ولى ولع خاص بمطالعة أعمال موليير لأنها علمتنى الاعتدال (La mésure) ، وهى صفة أقر بافتقارى اليها ، وطالما كان حظى الصغير منها سببا فى أخطاء أتيتها فى حياتى ، ولأن فى موليير تجتمع كاملة شخصيات الشاعر الانسانى ، والكاتب المسرحى والممثل ، فهو رجل مسرح بحق

وتهزنى مآسى شاكسبير بروعتها ، وفيض عواطفها ، وهى مآس عاطفيه تركزت فيها الانسانية بأسرها

أما (إبسن) فهو أبو المسرح الحديث وأستاذ أساتذة نوابغ المسرح الغربى ، وهو الطود الشامخ وغيره الكثبان الرملية والتلال . وفى ضباب مآسيه غموض الحياة وظمأ المعرفة الذى لاتنقع غلته ، وفى نضال شخصياته أروع مآسى الحياة الفكرية »

قلت له وما رأيك فى استقدام الخبير الفنى الذى تنوى وزارة المعارف استقدامه من الخارج ؟ فأجاب « سبق أن صرحت برأيى فى ذلك ، وهأنذا أكرر ما قلته : وهو أن فى استقدامه ما قد يبصرنا بما خفى علينا الأخذ به من وسائل ترقية المسرح المصرى وإذاعة آثاره ؛ وأرجو أن توفق الوزارة فى اختيار أحد الرجال البارزين فى المسرح الأوربى ؛ وأمل فى استقدامه واضطلاعه بشؤون الفرقة القومية ما يقضى على أسباب الفوضى المنتشرة فى هذه النشأة الجديدة ، وهو الأمر الذى عجزت عنه وأعيانى أمره »

يوسف تادرس

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧٨ — ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 178

Lundi - 30 - 11 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٧٨ « القاهرة في يوم الاثنين ١٦ رمضان سنة ١٣٥٥ — ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

بعـــد المعاهدة

بعد ليل غاشِي الجوانب تراكمت على (الوادى) همومه، وطريق دامى المسالك تشابهت على الدليل رسومه، انجلى الغيهب الكثيف عن وضَح الفجر، وانتهى الطريق المخيف إلى أمان الغاية؛ فحمدنا السُّرى عند الصباح، ورضينا الغنيمة بعد المعركة، وهدهدنا الأمانيُّ على نشيد الفوز

كنا مقيدين لا نملك مع القيد مجال العمل، ومحجورين لا نجد مع الحجر سبيل التصرف، ومستذلين لا ندرك مع (الامتيازات) معنى الكرامة، ومستقادين لا نعرف مع (الاحتلال) عبء التبعة؛ فاذا كانت مصر الأمسِ قد مشت عرجاء في طريق التقدم، وجاهدت عزلاء في ميدان العيش، فانما كان وِزر ذلك على الغاصب الذى سلط قوته على الحق، ومنفعته على العدل، فحجز البلاد عن وجهها الحرة حقبة من الدهر أوْفت على نصف قرن. أما اليوم وقد انكسر القيد، وانتفى الحَجْر، وتقلص الاحتلال، وتصاغر الامتياز، وقال لك القوى الغالب: لقد رشدت فتصرف فى أمرك؛ وشببت فدافع

عن حوزتك، واستقللت فاحكم فى بلدك، فلا يسعك فى تقصير عذر، ولا يسعفك فى دفاع حجة

هذه ثروة النيل التليدة والطريفة، عبثت بها أهواء القيم المفروض بالباطل، فنقص النامى، و بلد الحساس. وفسد الصالح، واعوج المستقيم، وتنافر المنسجم؛ فكل شيء فيها معتل يفتقر إلى علاج، أو منتشر يحتاج إلى ضبط . فاذا قصرنا الجهد أو أكثره على تنفيذ المعاهدة، من إنشاء الجيش و بناء الثكنات وشق الطرق، ظل حالنا على ما كان من بؤس العيش، ونقص الكفاية، وعجز القدرة. وهل يكون الأمر حينئذ إلا حبس قوى الأمة على الاستقلال فى السعى إليه أو فى المحافظة عليه؟ وهل يزيد الاستقلال على أن يكون استرداداً للحرية المسلوبة؟ تنعم الأمة فى ظله وهى آمنة، وتعمل فى حماه وهى حرة، وتحكم على مقتضاه وهى سيدة؟

إن إعداد الأمة لحمل نصيبها من أمانة الحياة ورسالة الحضارة وعهد المحالفة، يقتضى أن تتظاهر ملكاتها الموجدة، وكفاياتها المدبرة، وقواها المنفذة، على طرد الجهل منها، ودفع الفقر عنها، ومعالجة المرض فيها؛ وهذه العلل الثلاث هى جمّاع العلل، لا تجد عاهة من عاهات الجسم، ولا آفة من آفات الروح، فى الفرد أو فى الجماعة إلا ضاربةً فيها بعرق، أو واصلة إليها بسبب. والأمة كلها خَلْق سَوِيٌّ كامل لا تستطيع أن تقويه وترقيه إذا عُنيت بعضو دون عضو، وشُغلت بملكة دون مَلكة

كل ما فينا عاطل يبغى العمل، وباطل يريد التغيير، ورَثٌّ يطلب التجدد؛ وتلك مخلفات العهود السود وتركات الأجيال المريضة، نمت فينا نمو الجراثيم يزرعها ويغذيها المحتل الذى لا يرحم، والحاكم الذى لا يعدل، والواغل الذى لا يعف

كان من جرائر فقد الاستقلال فى الحكم أن فقدناه فى كل شيء حتى فى الذات؛ فنحن نفكر تابعين، ونعمل مقلدين، ونعيش متواكلين، ونسعى على غير اطمئنان ولا ثقة. وقد ظهرت هذه التبعية واضحة فى الآداب والعادات، وهى أدخل الأشياء فى بناء الشخصية وأبعدها عن التراث المشترك بين الأمم كالعلم والحضارة

ولعل أقبح آثاره ما نجد فى الشباب من رخاوة العود وطراوة الخلق، وفى الكهول من ضراعة النفس وضعف الإرادة: فإن ترك الدفاع عن أنفسنا لغيرنا كَسَبنا طباع العيش الآمن من الوداعة والأغضاء والرضى، فلا ترى فى الحمائم من يغضب للإهانة، ويثور للعدوان، ويتحمس للخصومة . وإن استبداد الأجنبى بأمرنا من دوننا قتل فينا التفكير، وأنام فينا الضمير، ودهانا بطائفة من طبائع الاستبداد كالملق والنفاق والتواضع والأثرة: فالأمة مستنيمة لهوى الحكومة، والحكومة مستكينة لإرادة المحتل؛ وبين طبقات الشعب ودواوين الحكم منافع مسعورة لا ترتوى، ومحاباة مهتوكة لا تستحى، وتوا كل غفلان لا يفيق

نعم كل ذلك كان نتيجة لفقد الاستقلال مافى ذلك ريب: ومن الممكن أن يكون وجوده علة فى عدم هذه النقائص على التدريج مسايرة لفعل الزمن؛ ولكن الوقت ضيق والفرصة عجلى والضرورة حافزة، فلابد لأولياء العهد الجديد أن يغسلوا أدران العهد القديم بالسموم، ويحسموا أدواء الماضى بالكى، ويجعلوا بين العهدين سدا من النار والحديد لا ينفذ منه إلا مصهور أو مطهَّر

نريد أن ندخل العهد الجديد فى لباس الأحرام: صدورنا نقية من أحقاد الحزبية، ونفوسنا بريئة من شهوات العصبية، وميولنا نزيهة عن خسيس المطامع

كنا نعيش كما يعيش السَّوَام فى البر أو السمك فى البحر. لا تجمعنا وحدة شاملة، ولا توجهنا غاية معينة: وكان ذلك أثراً محتوماً للسلطات التى كانت تتنازع الحكْم، والتيارات التى كانت تتوزع الثقافة، والامتيازات التى كانت تمزق المجتمع

أما اليوم فنريد أن نعيش كما يعيش الناس فى كل أمة: وطن صريح الاستقلال قوى الشوكة، لا سلطان لقوة خارجية عليه، ولا سيادة للغة أجنبية فيه، ولا استبداد لشركة أوربية به؛ وَحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه، ينعم الفرد فيها بنفسه، ويأمن بها على رأيه؛ ومجتمع راقى الطبقات مثقف النواحى، يؤلف نافرَه الخلق، ويجمع شتيته الحب، ويرفِّه حياته التعاون: ويؤويه إلى كنفه إله وعلَم وملك. ذلك ما نرتجيه فى الحياة الجديدة. وذلك ما نبتغيه من الحكومة الرشيدة

احمد حسن الزيات

كل امرئ وما خلق له

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

عرفت شاباً حفيت قدماه من السعي حتى فاز « بوعد » بأن يستخدم « ساعياً » أو نحو ذلك بعد أن يقر البرلمان ميزانية الدولة . ووافق البرلمان عليها وأصبحت معمولاً بها وراح صاحبنا يستنجز الوعد ويستعجل التعيين فلم يجد إلا مطاولة وإخلافاً ، فمل ذلك وجاءني يوماً وذكر لي جيرة أهله لنا في بعض ما مضى ورجا أن أدله على وسيلة تبلغه ما يريد . فقلت له يا أخي : أما الحكومة فلا صلة لي بها ، وأنا أراك لا تستنكف أن تعمل فيها عمل الخدم وإن كنت شاباً متعلماً ، فاذا كان هذا هكذا فما أظن أن الدنيا تضيق بك في غير الحكومة ولن تعدم عملاً في شركة أو متجر أو ما أشبه ذلك . ولم أزل به حتى صرفته عن الحكومة ، فمضى عني وفي نيته أن يلتمس الرزق من العمل الحر . ولم يكد يفعل حتى ساورتني الوساوس ، فقد رأيته شاباً حيياً طيب القلب سليم النية مستقيم الفطرة لا يكاد يعرف عن الدنيا شيئاً ؛ ومثل هذا خليق أن يغرق في محيطها الطاغي ، ولكني لم أكن أستطيع أن أصلح ما اعتقدت أني أفسدت ، لأني لا أعرف أين يسكن حتى كنت ألحق به وأمحو ما وقر في نفسه من كلامي . ولم يعد هو إلى بعد ذلك فذهب كل أمل ، فجعلت ألوم نفسي وأوسعها تقريعاً وتأنيباً ، ثم شغلتني الحياة فنسيته

ومضت شهور لا أراه ولا أسمع به — وأعترف فأقول : ولا يرد له ذكر على بالي . وجاء الصيف واحتجت أن أقضي بضعة أيام في الأسكندرية فنزلت في فندق جديد على البحر عند شاطىء « ستانلي » ، فاتفق يوماً أني خرجت أتمشى فعدت متعباً فقلت أستلقي على السرير ففعلت وأخرجت سيجارة احتجت لأشعالها أن أنهض قليلاً لأمد يدي إلى الكبريت ، وكان على منضدة صغيرة قريبة من السرير ، فما راعني إلا حذاءان ضخمان لا حق لمخلوق في أن يكون له مثل ما فيهما من القدمين ، ففزعت ثم تذكرت أن الذي يختبئ تحت السرير يكون هو الخائف الفزع ، ففي وسعي أن أطمئن قليلاً ، فقمت وقعدت على كرسي ودعوت صاحب القدمين الكبيرتين أن يخرج بالمفوعنه ، فخرج القهقرى — أعني أن الساقين ظهرتا أولاً ثم الجذع ثم الكتفان ثم الدماغ .

وبعد أن خرج هذا كله رفع صاحبه وجهه إلى فاذا هو الشاب الذي غاب وانقطعت أخباره عني فصحت به : « حامد ؟ ماذا جاء بك إلى هنا ؟ »

وكان الواجب أن ينهض وينفض التراب ويشرح لي الأمر ويفسر لي كيف دس نفسه تحت سريري ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا كله بل بقي قائماً على ركبتيه وراحتيه فضحكت وقلت له : « أظن أن على أنفك شيئاً من التراب »

فقال : « صحيح ؟ » وشرع يمسحه بكفه

فقلت وقد سرني المنظر : « وهل تظن أني أكذب عليك في أمر مهم كهذا ؟ . ولكنك حين مسحت أنفك وضعت على وجهك نحو طن من التراب لأن يدك كما لا أحتاج أن أنبهك غير نظيفة »

فاتكأ على كف ورفع كفه الأخرى إلى عينه لينظر وقال : « صحيح »

فقلت : « أظن أن هنا حوضاً وماء وفي وسعك أن تغتسل وتعود نظيفاً كما كنت . . . وبعد ذلك نستطيع أن نتفاهم »

فغسل وجهه ورأسه وسرح شعره ، ونفض التراب عن ثيابه ثم التفت إليّ وقال : « الحقيقة أن الرقاد تحت السرير حماقة »

فقلت : هذا يردنا إلى الموضوع ، فلماذا كنت راقداً تحت سريري ؟؟ وماذا جاء بك إلى هنا على كل حال ؟ »

فقال : « تحت السرير ؟ أنا ؟ ... آه »

فقلت : « نعم . تحت السرير . . . . . هذا سرير ؟ أليس كذلك ؟ اتفقنا إذن : وأنت كنت تحته ... فماذا كنت تصنع تحته ... أعني تحت هذا السرير ؟ سريري أنا .. ؟ »

فقال : « أهي غرفتك ؟ »

قلت : « ليس اسمي مكتوبا عليها لا بأحرف من نور ولا بالطباشير ولا بالدهان ، ولكني أظن صاحب الفندق يشهد بأنها غرفتي إذا شئت أن تسأله . . . . على كل حال يمكنك أن تصدقني وتكتفي بما أقول »

فقال : « طبعاً ... طبعاً ... لا شك ... لا شك »

فراقنى هذا جداً ، وأدركنى العطف على هذا الشاب الذى قذفت به نصيحتى فى عباب حياة لا قبل له به ، وقلت « الآن نعود — إذا سمحت — إلى السؤال » فقال : « لقد كنت أظنها خالية . . . . وخطر لى أن خير ما أفعل هو أن أرقد تحت السرير »

فقلت : « الأمزجة تختلف ، ولكن ألا تقول لى لماذا رأيت هذا خير ما يمكن أن تصنع ؟ أو فلنبدأ من البداية .... ماذا جاء بك إلى الاسكندرية ؟ »

قال : « هذه قصة طويلة ... »

قلت : « إنى رجل واسع الصدر .. ومع ذلك ، فى وسعك أن تحذف قصة ميلادك وطفولتك ، وأن تقفز إلى ما بعد اليوم الذى زرتنى فيه »

قال : « لقد عملت بنصيحتك »

قلت : ظاهر . . . . ولكنى — على قدر ما أذكر ، فان ذاكرتى ضعيفة كما تعلم أو لا تعلم ، — لم أوصك بالتسلل إلى الغرف التى تظنها خالية وإن كانت فيها حقيبة كبيرة وثياب معلقة ، ولا بالنوم تحت أسرة الناس »

قال : « لا لا لا . لست أعنى هذا . إنى آسف لازعاجك »

قلت : « استغفر الله ... بل آنستنى ... البيت بيتك ... أعنى الفندق .. نعم ؟ »

قال : « خطر لى أن أهرب من مصر »

قلت : « هل ارتكبت جريمة ؟ »

قال : « لا لا ... أعوذ بالله ! إنما أعنى أن الناس يعرفوننى فى مصر وقد أخجل أن يرونى أزاول عملاً غير لائق ... »

قلت : « صحيح ... مصر صغيرة جداً . . . ليس فيها إلا مليون وربع مليون من الناس ... ومثلك لا يمكن إلا أن يبرز جداً فى مثل هذا العدد الضئيل . . . . معك حق . . . وإلى أين ذهبت ؟ »

قال : « جئت إلى الاسكندرية ... لا يعرفنى فيها أحد ... وبدأت بأن صرت أبيع أوراق « اليانصيب » ولكن الناس كانوا يستريبون بى لأنى ألبس بذلة ، ويشترون من الصعيدى لابس الجلابية ... لا أدرى لماذا ؟ فتركت هذا وعملت خادماً فى مطعم ... لم أبق فيه سوى أسبوع واحد ... الحقيقة أنى لا أدرى كيف يستطيع أن يحمل المرء كل هذه الصحون والملاعق ولا يكسر منها شيئاً ... »

قلت : « هل كسرت الصحون ، وحطمت الأوانى ؟ »

قال : « لم أكسرها ، إنما كانت هى تسقط منى »

قلت : « هذه مسألة دقيقة جداً . فلنقف عندها قليلاً ... إنها تذكرنى بابنى ... كان معى يوم زرتنى ، فلا شك أنك تعرفه »

فقال وقد أضاء السرور والاعجاب وجهه : « أكان هذا ابنك ؟ »

قلت : « لا يزال ابنى على الرغم من كل شىء »

قال : « ما شاء الله ... »

قلت : « أشكرك ... وأعود فأقول إن بائع تين مر ببيتنا يوماً فوزن لنا أقة ، فأخذها منه الصبى — أعنى ابنى فقد كان صبياً صغيراً كما لا بد أن تعرف — وأكل منها تينات فى طريقه الينا ... بلعها بلا مضغ على ما أظن ، فقد كانت المسافة أقصر من أن تسمح بالأكل الصحيح — أعنى الصحى ... المضغ اثنتين وثلاثين مرة إلى آخره — فلم يعجبنا التين ، فأعدناه إلى صاحبه ، ولا أدرى كيف عرف ، ولكنه تبين أن التين أنقص مما كان ، فسألنا الغلام ، فقال إنه لم يأخذ شيئاً ، ولكن التين كان يثب من الطبق إلى فمه ... فهذا من ذاك ياصاحبى ! ثم ماذا أيضاً بعد أن طردت من المطعم ... لا بد أن تكون طردت ... أم تراك قدمت استقالة مسببة ذكرت فيها أنك لا تستطيع أن تعمل مع هذه الصحون والأطباق اللعينة التى تأبى إلا أن تعاكسك وتحاورك وتتغافلك وتسقط من يدك ؟ »

فتمتم قليلاً ثم قال إنه اشتغل بائعاً للبن الزبادى — اليغورت كما يسمى فى أحياء الرمل — فضحكت وقلت : لا بد أن تكون قد عانيت من سلاطين اللبن مثل ما عانيت من صحون المطعم ... الطبيعة واحدة ، ولست أحتاج منك إلى بيان ما حدث ، فأنى أعرف روح هذه المادة التى تصنع منها الصحون والسلاطين »

فقال بلهجة الجد المضحك : « الحقيقة أنه أمر غريب .. لقد كان يخيل إلى أن شيئاً فوق رأسى يحرك الطبلية ويميلها فتتسابق السلاطين الى الأرض »

قلت : « معقول . . . . معقول . . . . شيطنة معهودة من

كل ما يصنع من هذه المـادة الـكهربة »

ولا أطيل ، فما أردت من إثبات هـذا الحوار إلا أن يرى القارىء مبلغ سذاجة هذا الشاب وبراءة نفسه وطيب خيمها ، وقد علمت منه أنه يشتغل ، خادما أو « ساعياً » عند قصاب ، وأنه جاء الى الفندق – كما يفعل اليوم – بمقدار اللحم المطلوب فوضعه قرب باب المطبخ قبل أن يسلمه الى رجال الفنـدق ، ووقف يحادث اللبان ، فجاء كلبان ضخمان وأعملا أسنانهما فى اللحم ، وأقبلت القطط – لا يدرى من أين – فاختطفت ما بقى ؛ وظهر صاحب الفندق ، فذهب صاحبنا يعـدو ، بلا عقل ، فاذا به يرى نفسـه بين الغرف ، وكان اليوم يوم أحد ، وليس عليه بعد ذلك عمل ، وقد قبض أجره الأسبوعى ، فرأى أن يرتدى بذلته ، ليتسنى له بعد أن يسلم الرسالة أن يخرج للرياضة والتنزه من غير أن يحتاج أن يعود الى غرفته فى « المـكس » . والتقى فى طريقه بين الغرف بأحد النازلين فى الفندق خارجا من غرفته ، فخاف ودخل غرفتى فألفاها خالية ، فدس نفسـه تحت السرير ، بلا تفكير ، حتى أخرجته . . .

فسألته : « ألا يمكن أن يكون هناك عمل تصلح له ، ويصلح لك . . . كالحلاقة مثلاً ؟ »

فحدق فى وجهى مستغرباً وقال « إيه .. أعنى .. معذرة .. »

قلت : « لا بأس ... أردت أن أقول ألا يمكن أن تكون شيخ طريقة مثلاً ؟ ؟ ، ولـكن هذا يحتاج الى ذكاء وحـذق وبراعة وجرأة . . ولاشك أنك ذكى حاذق ، وشجاع وبارع ، ولـكن الأمر يحتاج إلى ضرب آخر من هذه المزايا ، فقل لى .. لابد أن يكون هناك شىء تتقنه . . . فماذا هو ؟ فكر ... اقدح زناد هذا الفكر . . . أرنا همتك . . . »

فأطرق ملياً ثم قال : « لو كان عندى رأس مال لاقتنيت غيّة . . . ولـكن . . . »

فقلت : « هل سمعتك تقول « غيّة » ؟»

قال : « نعم ... غية ... »

قلت : « مفهوم ، ولـكن ألا يمكن أن تجعلها أسهل . . . . أعنى أن تفسرها ؟ » قال : « غيّة ... ألا تعرفها ؟ »

قلت : « لا بد أن أكون أعرفها ... ولـكن ينقصنى أن أعرف ماذا هى ؟ فماذا هى ؟ » قال : « الغيّة هى ... هى الغية »

قلت : « هذا أحسن ... »

قال : « تعرف ماأعنى ... الحمام ... تبنى له بيتاً من الخشب فوق السطح ، وتعنى به »

ففهمت وسألته « ولـكن هل هذا عمل يربح منه الانسان ، أم هو تسلية فقط ؟ » قال : « لست أثنى على نفسى ، ولـكنى لو وجدت المال اللازم أستطيع أن أستولده ... »

قلت : « تستولد المال ؟ »

قال : « لا لا . . . الحمام . . . أربيه وأستولده . . . وأبيع منه . . . عمل رابح جداً » فخطر لى أن لعله صادق ، وأن هذا شئ يحسنه ، فسألته عما يحتاج إليه من المال فقال : إنه ادخر نحو جنيهين ، وأنه يستطيع أن يقترض من أهله نحو عشرة ، ولـكنه ينقصه مثل هـذا القدر للبناء وشراء الحمام اللازم ، فاقترحت عليه أن نجعلها شركة مساهمة فانطلق يحدثنى عن الحمام وطباعه ومزاياه ، ويصف لى أنواعه ويذكر لى أسماء لم أسمع بها من قبل ، فاطمأن قلبى وأيقنت أنه اهتدى إلى ما يحسن ، وعدت به إلى القاهرة وجمعت له من اخوان لى ما يكفى « لمشروعه »

ولم أكن أظن أن الحمام تجارة رابحة ، ولـكنه بعد عام واحد استطاع أن يرد ما اقترض من أهله ومنا ، وأن يخبرنى أنه موفق ، وأنه يعيش عيشة راضية ، لا ترف فيها ولا بذخ ، ولـكنها – على كونها عيشة كفاف – هى التى كان يصبو إليها ، لفرط حبه لهذا الطير ....

فلا يزال صحيحاً أن المرء ميسر لما خلق له

ابراهيم عبد القادر المازنى

في الأدب المقارن

النقـــــد

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

ليس النقد إلا ميلاً طبيعياً في الانسان إلى الحكم على ما يحس وما يرى، واختيار الأحسن من ذلك. ونشاط النقد دليل على نشاط الفكر، وهو مصاحب لارتقاء الأدب وانتشار الثقافة في كل أمة؛ بل هو ضروري لتقدم الأدب: يقفه على مواضع إحسانه ويظهره على مواقع تقصيره، ويجلو أمامه غاياته وطرائقه، ويستحثه على دوام الترقي والتزيد. فالأدب صدى الحياة، والنقد صدى لذلك الصدى، يُظهر للأدباء والمتأدبين مدى نجاح الأدب في تأدية رسالة الحياة وموقع أعمالهم في النفوس

فالناقد النزيه خير صديق للأديب: يضع اصبعه على عيوبه فيتلافاها، ويستحسن إجاداته فيزيده ثقة بنفسه واقبالاً على ممارسة أدبه. ولعل أروع أمثلة ذلك ما كان من ملازمة كولردج لوردزورث: فقد وجد الأخير في صاحبه — حين اعراض الجمهور عنه وغمط الجميع حقه — خير عارف بقدره معجب بأدبه، وكان لاعجاب كولردج وتشجيعه أبعد المدى في أدب وردزوث، وكان الشعر الذي كتبه في عهد صداقتهما خير ما كتبه على الاطلاق

بيد أن الأحقاد الشخصية سريعة إلى نفوس الأدباء والنقاد، والأهواء السياسية والمذهبية كثيرة الوغول على الأدب والنقد. وقد شهد الأدبان العربي والانجليزي ما لا يحصى من أمثلة النقد المغرض، وقاسى الأدباء حملات الخصوم الشخصيين أو السياسيين باسم الفن والنقد. ومن أمثلة ذلك في العربية حملة الصاحب على المتنبي وإشلاؤه عليه أذنابه. وفي الانجليزية عانى أعلام الأدب أمثال وردزورث وتنيسون وكيتس حملات الرجعيين والحاسدين، وبلغ الكمد من الأخير حين هاجمه بعض ناقديه فأقذع أن مات محتضراً في عنفوانه

وقد كتب الكتاب في العربية والانجليزية وغيرهما من اللغات في النقد كثيراً، وحاول كل من عالجه أن يستخلص من شتى الشواهد المنتزعة من آثار فحول الأدب قواعد عامة للادب توضح غثه من سمينه وتعين القارىء والناقد على استحسان الحسن واستهجان الهجين مما يكتب الكاتبون، ولكن النقاد لم يتفقوا بعد جهودهم تلك على شيء ذي بال، بل ناقض بعضهم بعضاً، واستجاد هذا ما استرذله ذاك، وظل المرجع الأول في نقد الأثر الأدبي إلى ذوق الناقد وتكوينه الفكري، وظل كل أثر أدبي من شعر أو نثر يحمل في طياته المبادىء التي يجب أن ينقد على حسبها، بل رأى وردزورث — وأصاب — أن الناقد الذي يُقبل على نقد أثر أدبي، وقد كون لنفسه مبادىء ثابتة غير أهل للحكم على ذلك الأثر أو غيره

وللنقد صور شتى: فالأديب هو أول ناقد لأدبه، وإنشاء الأثر الأدبي عملية مكونة من الخلق والنقد معاً؛ ومن الأدباء من يعرض ما ينشىء على رفاقه، ويستمع إلى ملاحظاتهم عليه؛ وكان ذلك معروفاً بين العرب قبل أن تذيع الكتابة، كما كانوا يعرضون أشعارهم على النقاد في الأسواق الأدبية، ولتمكن الملكة البيانية من العرب كان كثير من أمرائهم نقادة حفصاء للأدب. ويروى لعبد الملك والحجاج وسيف الدولة مع مداحهم: كثير وليلى الأخيلية والمتنبي نوادر في ذلك، فكثيراً ما كان الأمير أبصر بالأدب ونقده من مادحه؛ فلما ذاعت الكتابة وانتشرت الثقافة ظهرت كتب النقد

وكتب النقد أنواع: فنها ما يدرس مبادىء الأدب وغاياته ووسائله ويدخل في هذا الباب كتب البيان والبلاغة والعروض والقافية، وهي كل ما يمكن أن يتفق عليه النقاد من مسائل النقد. ويشترك الأدبان العربي والانجليزي في وفرة هذا الضرب من كتب النقد الأدبي فيهما؛ ومن كتب النقد ما يدرس أديباً واحداً أو جملة أدباء على منهج خاص من الدراسة، كالكتب الكثيرة المؤلفة في دراسة شكسبير وملتون ووردزورث وتنيسون وهاردي؛ ومنها ما يدرس نوعاً خاصاً من الأدب كالقصة أو الشعر الغنائي، ومن ذلك كتاب أبر كرومبي عن الملحمة؛ ومنها ما يدرس عصراً يوضح عوامل الأدب ومظاهره فيه وآثار فحوله، كالعصر الاليزابيثي والعصر الفيكتوري؛ ومنها ما يدرس من عصور

أدب اللغة جملة : وتلك هي كتب تاريخ الأدب ، وليست في صميمها إلا نقداً ، وهي حديثة العهد

وكل هذه الأنواع نادرة في الأدب العربي وبعضها لا يوجد به ، وإنما الضرب السائد فيه هو ذاك الذي توخاه مؤلفو البيان والتبيين والكامل ويتيمة الدهر : من تناول الأدباء بغير نظام وسرد بعض آثارهم والتعليق المقتضب عليها ؛ وتلك هي كتب الأدب التي لم يكن الغرض منها درس أولئك الأدباء والاماطة عن جوانب نفسياتهم وأسرار نبوغهم ، بل كان الغرض اقتطاف أطايب آثار المتقدمين وتقديمها للمتأدبين السالكين سبيل الأدب الطالبين أسرار بلاغة العرب ، فلم تكن الغاية درس الأديب المتقدم ، بل إخراج الأديب المقبل

وقد استفاد النقد في الانكليزية كثيرا بتقدم العلوم الحديثة حتى فاق النقد العربي في نواح شتى : فتقدُّم علم التاريخ علَّم النقاد أن يهتموا بحالة العصر الذي يدرسون من حيث السياسة والاقتصاد والمذاهب السائدة ؛ وتقدُّم علوم الاجتماع علمهم أن يهتموا بالبيئة التي نشأ فيها الأديب الذي يدرسون والصفات التي ورثها عن أسرته ، ومزاجه النفسي وتكوينه الجسمي ، وأثر كل ذلك في أدبه ، فجاء النقد الانجليزي الحديث واضح المناهج بين الأسباب والنتائج ، وأبرزَ للعصور والأعلام صوراً جلية وشخصيات متميزة

أما نقاد العرب فكانوا أكثر اهتماما بدرس فنون الأدب وأساليب الصناعة منهم بدرس الأشخاص والعصور ؛ وقد أسهبوا في درس الفنون التي فشت في أدبهم واستأثرت بمعظم نثرهم وشعرهم : كرسائل الأمراء والنسيب الاستهلالي والمدح والهجاء والرثاء ، وهي المناحي التي لم تظفر من أدباء الانجليزية ونقادها بالتفات ، فقسَّم قدامة بن جعفر مثلاً الممدوحين الى ضروب : فملوك ووزراء وكتاب وقواد وسوقة ، وحصر صفات المدح في أربع : الشجاعة والعدل والعقل والعفة ، يجمعها قول زهير :

أخي ثقة لا تُهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله

فمن مثل حصن في الحروب ومثله ... لانكار ضيم أو لخصم يجادله

والناظر في كتب النقد في الأدبين العربي والانجليزي ، يرى — عدا ما تقدم — فروقا واضحة بين نقدي الأمتين كالفروق التي يرى بين أدبيهما ، بل يرى مواضع الاختلاف واحدة في الحالتين ؛ ولا غرو فالنقد كما تقدم صدى الأدب ، بل إن النقد والأدب يتجاوبان فيما بينهما صدى مستمرا طوال العصور ؛ والخصائص التي تغلب على أحدهما لابد أن تغلب على الآخر ، ومن ثم نجد بين النقد في العربية والنقد في الانجليزية ما نجد بين أدبي اللغتين من فروق في نواحي المحافظة والتجديد ، والتأثر بالأثر الأجنبي ، والمعنى واللفظ ، والفنون وهلم جرا

فنز عة المحافظة هي الغالبة على نقاد العربية ، وقل منهم من دعا إلى تجديد صحيح ، وذلك ابن الأثير مثلاً يزعم أنه يجدد بذ الأوائل ثم يأتي بأمثله من تجديده فاذا هي محافظة مغرقة وتقليد مفرط ؛ وأغلب نقاد العربية يقدسون التقد بين دون تأمل ، ولا يرون عن مناهجهم حولاً ويضعونهم فوق متناول النقد . وذلك أبو علي الحاتمي يحسبه أتى بجديد حين مثل القصيدة بالانسان في تناسب خلقه ، فلا ينشب أن يقول : « وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها ، كالرسالة البليغة » ، فهو لا يتصور القصيدة إلا نسيباً ومديحاً كما فعل الأوائل

وتتجلى نزعة المحافظة في النقد العربي في أمرين : غرضه ، وممارسيه ، وهما أمران متصلان أحدهما بالآخر ، فقد كان غرض كتب الأدب والنقد في العربية كما تقدم وقف الناشىء التأدب على بلاغة المتقدمين ، وتفهيمه أسرار إعجاز القرآن ، لينحو منحى أولئك المتقدمين ويضرب على وتيرتهم ، فكان غرض النقد الأول تعليم المتأخرين كيف يقلدون الأولين

ولم يمارس النقد فحول الكتاب والشعراء ، ولم يؤثر عن فحول العربية مما يدرج تحت عنوان النقد إلا شذرات مقتضبة بعيدة عن التنظيم ، كوصية عبد الحميد لمعشر الكتاب ونصيحة أبي تمام للبحتري ؛ وربما ثار بعض الشعراء بما درج عليه زملاؤهم من تقاليد ، كثورة أبي نواس بالوقوف على الديار في مثل قوله :

لاجفَّ دمع الذي يبكي على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وتمرُّد المتنبي على النسيب الاستهلالي في قوله :

إذا كان شعرٌ فالنسيب المقدَّمُ ... أ كلُّ أديبٍ قال شعراً متيم ؟

ولكنها كانت خطرات عابرة لم تُكوِّن مذهباً ولم تغير سنة ، بل لم يتبعها قائلوها أنفسهم وجاروا التقاليد الجارفة فيما

نظموه ، وإنما مارس النقد فى العربية المقلون فى النثر والشعر كالجرجانى وأبى هلال العسكرى ، أو من لم يؤثر عنهم شىء ، وهكذا كان الأدباء فريقاً والنقاد فريقاً آخر

أما فى الانجليزية فاختلط الفريقان ، وكان أفذاذ الأدب عادة هم أفذاذ النقد أيضاً ، وكان زعيم كل نهضة أدبية هو أيضاً زعيم النقد فيها : فكل من بن جونسون ودريدن وبوب وصموبل جونسون ووردزورث وكولردج وديكونسى وماكولى وماثيو أرنولد ورسكن ، كان كاتباً أو شاعراً كما كان ناقداً ، وذاك لعمر الحق دليل حيوية الأدب وروح التجديد فيه : فان يكون الأديب أديباً حتى يكون له رأى فى الأدب والحياة ينضح عنه فى كتاباته النقدية ، كما يصدر عنه فى آثاره الأدبية ، وكلٌّ من دريدن وبوب ووردزورث قد استجد مدرسة فى الأدب لا بأشعاره فقط ، بل بنظرياته فى النقد . فبينما كان غرض النقد فى العربية المحافظة على مناهج المتقدمين ، كان فى الانجليزية ابتداء حركات جديدة

ولا ريب أن الأدباء الذين يمارسون النظم والنثر هم أدرى الناس بنقدهما ، لأنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده ؛ والأديب الذى يعلن للناس نظرياته النقدية مشفوعة بآثاره الأدبية أمثلةً مؤيِّدةً لتلك النظريات ، كما فعل وردزورث فى أغانيه الشعبية ومقدمته النثرية لها ، أحرى أن يُتَّبَعَ من الناقد الذى لا يمارس الأدب ، وإنما يملى على الأدباء آراءه وهو بنجوة عن محيطهم ، فمن أعجب ظواهر الأدب العربى تنحى فحوله عن مضمار النقد ، وتركهم مجاله لعباد القديم ومقدسى السلف

ولتقديس النقاد للقديم وقفوا موقفاً متناقضاً : فكانوا ينكرون على الأديب أن يحيد عن مناهج القدماء ، ثم ينكرون عليه أن يتداول معانيهم التى سبقوه اليها ، وصرفوا جانباً عظيما من اهتمامهم إلى تتبع سرقات الشعراء ، فكتاب الوساطة للجرجانى أغلبه جهد ضائع فى تقصى المعانى إلى مواطنها الأولى من أشعار الأجيال السالفة ، وتمزيق القصائد بيتاً بيتاً ؛ والحكم على الشعراء بالاختلاس لأوهى الشبهات اللفظية

وكان نقاد العربية أكثر التفاتاً إلى الألفاظ منهم إلى المعانى ، وعد أكثرهم إحكام اللفظ ميزة الاديب الفحل ، وعدوا المعانى مشاعا بين الجميع ، قال أبو هلال العسكرى : « وليس الشأن فى إيراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وإنما هو فى جودة اللفظ وصفائه » ، وقال ابن الأثير « ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لايحسن أن يزوِّج بين لفظتين ؛ فالعبارة عن المعانى هى التى تخاب بها العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى »

ولهذا صرف أكثر النقاد همهم إلى خصائص الألفاظ وضروب الأساليب ، وأسهبوا القول فيما سموه علم البديع ، واستقصوا أقسام الجناس والطباق والسجع ، وطُرُق تضمين الآيات وحَلِّ الأشعار ؛ ووجود علم البديع فى العربية دون الانجليزية برهان ناطق على شديد اهتمام نقاد العرب باللفظ ؛ وكان للنقاد والأدباء معاً إيمان وطيد بمقدرة اللغة على أداء أى معنى ، وثقة لا تتزعزع فى تفوق اللغة العربية فى الفصاحة على غيرها من اللغات ، وكانوا يرون ذلك ميزة العرب على غيرهم من الأمم التى بذتهم فى شتى العلوم

أما موقف جمهور الأدباء الانجليز من اللغة فكان غير هذا : فهم وإن لم يغفلوا أهمية الصياغة اللفظية وضرورة تمكن الأديب من اللغة ووقوفه على أسرارها ، ظلوا يعدون اللغة وسيلة لا غاية ، وسيلة للتعبير عن خوالج النفس ، بل عدَّها كثير منهم وسيلة ناقصة عاجزة عن التأدية إلى تلك الغـاية ، يجب على الأديب أن يستفرغ جهده ليجعلها تؤدى غرضه ؛ فلم يهتم أدباء الانجليزية ونقادها برنين الألفاظ الأجوف وزخرفها المموه ، بل استعانوا بمعانيها المصطلح عليها ، وجرس حروفها ودقة اختيارها والملاءمة بينها ، واشتقاقها وخلقها حيث لا توجد لتأدية الحالة النفسية المتخيلة على ما يجب ، وتصوير الجو العاطفى أو المنظر المرئى : من رهبة أو جذل أو سكون أو سرعة ، ويفاضل النقاد الانجليز بين الأدباء حسب مقدرتهم على استخدام اللغة هذا الاستخدام وتطويعها لأغراضهم على هذا النحو ، لا حسب حظوظهم من المحسنات البديعة ، ويقولون إن الفرق بين لغة العلم ولغة الأدب أن الأولى تعتمد على المعنى المجرد للفظ ، والثانية على ما توحيه الألفاظ من أجواء معنوية

ولما كان إيمان العرب بتفوقهم البيانى كما تقدم ، لم يهتموا

بالآداب الأجنبية أو النقد الأجنبي كثيراً ، فهم واضعو علوم البلاغة في لغتهم ، وهم نهجوا بكتب الأدب والنقــد نهجهم الخاص بهم ، وجدهم في هذا السبيل جسيم جليل ؛ أما الانجليز فجعلوا النقد الأدبي الأجنبي دائماً نصب أعينهم ، قديماً كان أو حديثاً ، فما كتبه أرسطو وما نظمه هوراس في النقد نشأ النقد الأدبي في الانجليزية ، وغُذِّيَ بعد ذلك بكتابات دانتي وبوالو ولسنج وجيته وسنت بيف وتين ؛ فالناقد الانجليزي يستعرض آراء هؤلاء أثناء استعراض آراء مواطنيه بلا تفريق

ولا ريب أن اشتمال النقد الانجليزي على آراء أمثال أولئك ربح للأدب لا يقدر : فاطلاع الأدباء والنقاد على خير ما تنتجه القرائح في العالم أجمع يوسع آفاق تفكيرهم ويفسح حدود أدبهم ، ويربأ بالأدب أن تثقله القيود وتفسده التقاليد ، ومن ثم قال ماثيو أرنولد بضرورة إتقان الناقد في أدب ما أدباً أجنبياً واحداً على الأقل ، تزداد فائدته له كلما ازداد التباين بينه وبين أدب الناقد الأصلي

فأكثر النقاد الانجليز كانوا كما تقدم من أعلام النظم والنثر ، وكانوا مطلعين على الآداب الأجنبية ، وما كُتب فيها في النقد ، ثم هم كانوا — ولا سيما متأخروهم — مهتمين بالفنون الأخرى بجانب الأدب ، واقفين على ما كُتب في نقدها ، بل كان منهم من جَمعَ بين نقدها والنقد الأدبي : فدريدن واضع أساس النثر الانجليزي الحديث كتب رسالته في « الموازنة بين الشعر والتصوير » وكذلك جمع لام وثكرى وركسن بين نقد الادب ونقــد التصوير أو النحت ؛ ولا ريب أن تفقه الناقد في تلك الفنون أكبر معوان له على حسن النظر في الأدب وصدق النقد له ، لتشابه الفنون في وسائلها وغاياتها

فالناقد الانجليزي كان أكثر أهلية للنقد وقدرة على النجاح فيه : لأنه كان يمارس الأدب بنفسه نظماً ونثراً فهو أدرى بدخائله ولأنه مطلع على الادب الأجنبي والنقد الاجنبي ، فهو أدرى بمحاسن أدبه ومثالبه ، ولأنه متبصر في الفنون فهو أعلم بنواحي فنه الخاص — الأدب — ومن ثم حفــل الأدب الانجليزي بالدراسات القوية لعصور الادب وفحوله وفنونه ، وجاء تاريخه أوضح منهاجاً وأبين معالم من تاريخ الأدب العربي

فخرى أبو السعود

صور سياحية

أيام في سويسرا

بقلم سائح متجول

غادرنا باريس في منتصف الليل قاصدين إلى سويسرا ؛ وإذا كنا قد هبطنا باريس فرحين مغتبطين بزيارتها والتمتع برؤية معالمها ومعاهدها التاريخية ، فقد غادرناها أيضاً دون أســف ، بعد أن تركت في نفوسنا صوراً أخرى غير تلك الصور الخلابة التي ألفناها في كتب الأدب وفي المقالات والفصول الرنانة ؛ وسار بنا القطار ينهب الأرض ليلاً متجهاً نحو الالزاس ، فلما أســفر الصبح كنا نخترق أراضي الالزاس مارين بتلك المواقع الشهيرة في تاريخ الحرب والسياسة مثل بلفور وميلهوز وغيرهما؛ وقد لاحظنا مذ بدأنا نجوز الالزاس أننا نــكاد نخــترق أرضاً غير فرنسية ، فالناس يتحدثون بالألمـانية المحرفة (أو الالزاسية) في كل مكان حتى موظفي القطار يخاطبون الركاب بالألمـانية ، وكل ما هنالك من طبيعة ومناظر وأشـخاص يكاد ينطق بأن الالزاس ليست فرنسية في طابعها وفي روحها ، وإن كانت السياســة ومصاير الحرب قضت بأن ترد الالزاس واللورين إلى فرنسا عقب انتصارها في الحرب الـكبرى

ووصلنا إلى الحدود السويسرية في الصباح الباكر ، ودخلنا محطة بازل (أو بال) حيث أجريت الاجراءات الجمركية في أدب وظرف ؛ وشــعرنا في اللحظات القليلة التي مرت حتى وصولنا إلى الفندق أننا نجوز إلى محيط آخر أرق خلالاً ومدنية من محيط فرنسا والشعوب اللاتينية كلها ؛ وإنك لتأنس نفس الشعور عند ما تخترق الحدود الايطالية مثلاً إلى النمسا ، فتشعر في الحال أنك غادرت في إيطاليا محيطاً أقل مدنية وخلالاً

وسويسرا موطن السياحة بحق ، والسياحة أهم مواردها القومية ، ولهذا تعنى ولايات الاتحاد السويسري ومدنه المختلفة بتنظيم شؤون السياحة أحسن تنظيم وتذيع عن سويسرا ومصايفها ومشاتيها ومناظرها ونزهها نشرات بديعة جذابة ، وتعنى بتنظيم

كل ما يتعلق براحة السياح ورفاهتهم مثل الفنادق والمطاعم وطرق المواصلات والألعاب والنزه ولا سيما النزه والألعاب الشتوية الجبلية والثلجية التي اشتهرت بها سويسرا ؛ والفنادق السويسرية حسبما رأيناها في بازل وتسيريخ (زيوريخ) فنادق من الطراز الأول من حيث النظام والنظافة وما يتجلى فيها من الأناقة وحسن التنسيق ، وكذلك المطاعم والمقاهي يبدو عليها طابع الأناقة والبهجة والذوق الحسن ؛ ونستطيع أن نقول إن مدينة صغيرة مثل بازل أو تسيريخ تتمتع بمجموعة من الفنادق والمطاعم الأنيقة لا توجد في مدينة عظيمة كباريس ، التي ما زالت فنادقها متأخرة من حيث الفخامة والتنسيق والرفاهة نحو نصف قرن عن فنادق العواصم الأخرى

غير أنه لابد أن نقول هنا إن السائح يدفع لهذه الأناقة والرفاهة في سويسرا ثمناً غالياً ، ذلك أن موجة من الغلاء المرهق تعم سويسرا ؛ وقد كانت سويسرا وقت زيارتنا لها في أغسطس من أشد الدول تمسكا بقاعدة الذهب ، وقد كان الجنيه الانكليزي يساوي ١٥ فرنكا سويسريا فقط ؛ ولم يمض علينا في بازل يوم واحد حتى أدركنا فداحة هذا الغلاء الذي ينغص على السائح كل شيء خصوصاً إذا كان يحمل نقداً خارجا عن عيار الذهب كالجنيه الانكليزي أو المصري ؛ فالسائح المتوسط لا يستطيع أن يعيش في سويسرا عيشة لائقة مريحة بأقل من ٢٥ الى ٣٠ فرنكا في اليوم (١٦٠ الى ٢٠٠ قرش) ، واليك بعض الأمثلة العملية ؛ فأجرة الغرفة في فندق متوسط تساوي من ٦ الى ٨ فرنكات يومياً (والفرنك ستة قروش ونصف) وأجرة الحمام فرنك ونصف ووجبة الطعام في مطعم لائق تساوي ٣ — ٤ فرنكات ، والقهوة أو قدح البيرة يساوي فرنكا ، وهكذا ؛ وأذكر أنني دفعت حين وصولي الى محطة بازل نحو ثلاثة فرنكات (عشرين قرشاً) أجرة لحمل حقيبتي من المحطة الى الفندق الذي لا يبعد عنها أكثر من مائة متر ودفعت مثلها حين سفري من بازل ، ووقع مثل ذلك كرة أخرى حين وصولي الى تسيريخ وسفري منها ؛ وهذا من أشنع ما لقيت من صور الغلاء ، وتقضي تعريفة الحمالين الرسمية بأن يدفع المسافر نصف فرنك (خمسين سنتا) عن كل قطعة ، وأن يضاعف هذا الأجر ما بين الساعة العاشرة مساء والساعة السادسة صباحا ، ولا يتعدى عمال المحطة باب الخروج حيث تقف عربات التاكسي ، وعندئذ يتسلمك حمال الفندق أو تركب التاكسي ، وكذلك لا يسمح لحمال الفندق أن يتعدى باب المحطة ؛ ومن ذكريات هذا الغلاء الشنيع أيضاً أنني دفعت فرنكين ونصف (١٧ قرشاً) أجرة لقص الشعر ! وهكذا قضينا بضعة أيام نكتوي في بازل وفي تسيريخ بنار هذا الغلاء الشنيع الذي لا يكاد يلطف من وقعه شيء

ولقد اشتهرت سويسرا بأنها بلد السياحة ، وقد حبتها الطبيعة فعلاً وحبت مجتمعاتها بكل ما يجذب السائح ؛ ولكن الظاهر أن سويسرا تعول قبل كل شيء على السياحة الغالية أو السياحة المترفة ؛ ولما كانت السياحة مورداً قومياً أساسياً في سويسرا ، فالظاهر أنها تعمل كل ما وسعت لاستغلاله في جميع نواحيه . وحالة الرخاء المستمر التي تتمتع بها سويسرا تساعد في ارتفاع معيار العيش ، وتحمل الشعب السويسري على طلب المزيد من ثمار هذا الاستغلال ؛ ولكن الظاهر أن سويسرا شعرت أخيراً كما شعرت فرنسا أن هذا المورد قد أصابه النقص وأن دولا أخرى مثل ألمانيا وإيطاليا والمجر قد أخذت تجذب أنظار السياح وتستغل مورد السياحة بما قدمته من تسهيلات في النقد والسكك الحديدية ، وأن الخروج عن معيار الذهب في مسألة النقد وسيلة لاستدراك هذا النقص . وقد خرجت سويسرا فعلاً كما خرجت فرنسا عن معيار الذهب ، وخفضت قيمة الفرنك السويسري نحو ٣٠ ٪ بحيث أصبح الجنيه الانكليزي يعادل ٢١ فرنكا ؛ وربما كان في ذلك تخفيف على السائح وتخفيض معقول في مستوى المعيشة ، ولكن ذلك يتوقف دائماً على المحافظة على مستوى الأثمان القائم ، فاذا ارتفعت الأثمان تبعاً لنزول النقد ، فأن السائح لا يستفيد شيئاً ويبقى الغلاء المرهق حيث هو

* * *

ولنعد الآن إلى بازل ؛ فهي مدينة أنيقة سكانها نحو مائة وخمسين ألفا ، وتتمتع بموقع بديع على منعطف نهر الراين ، والراين يخترق بازل ، ولكنه يبدو متواضعاً هادئاً كأنه نهير صغير ؛ وفي ظاهر بازل من الغرب تجتمع حدود أمم ثلاثة ترى على قيد البصر

سويسرا وألمانيا وفرنسا ؛ وفى بازل أقدم الجامعات السويسرية يرجع إنشاؤها إلى نحو خمسمائة عام ، وبها مكتبة كبيرة تضم نحو نصف مليون مجلد ، وعدة كنائس قديمة أشهرها وأفخمها كنيسة سانت مارتن . وشوارع بازل وطرقها حسنة التخطيط ، ومبانيها منسقة متوسطة الارتفاع ؛ وأهم ميادينها ميدان المحطة Bahnhof's Platz وعليه يشرف معظم الفنادق الكبيرة ، ومنه يتفرع بحذاء المحطة أهم شوارعها ، وهو « الشارع الحر » Freie Strasse وهو الممتد فى وسطها حتى النهر ؛ ولبازل ضواح بديعة يمتد اليها خط ترام خاص من المدينة ، يمر خلال مجموعة ساحرة من الوديان النضرة والقرى النظيفة الساحرة ؛ ولقد ذهبنا ذات صباح نجوس خلال هذه المناظر الممتعة ، وقصدنا إلى قرية دورناخ Dornach حيث يقوم معهد « الجتيانوم » Goetheanum فوق أكمة عالية تصل اليها من طرق صاعدة تقوم على ضفافها المنازل والحدائق الأنيقة ؛ ولما وصلنا إلى « الجتيانوم » بعد رياضة مجهدة ألفينا بناء ضخما أبلق ، قد بنى على الطراز الاغريقى والقوطى ؛ فجزنا إلى داخل المعهد وقابلنا سكرتيره ووقفنا منه على تاريخ المعهد ونظمه وغاياته ؛ وخلاصة ما علمناه أن « الجتيانوم » أو (معهد جيته) معهد دولى للعلوم العقلية ، سعى إلى تأسيسه الدكتور رودلف شتينر العلامة النمسوى فى سنة ١٩٢٣ ، وبنى على طراز الملاعب اليونانية القديمة ؛ وأريد به أن يكون معهداً دولياً حراً لترقية العلوم العقلية يجرى على مبدأ الثقافة الحرة المطلقة من كل قيد ؛ وأنشئت فيه أقسام للتربية والفنون الموسيقية والطب والعلوم والفلسفة . وفى الصيف تلقى فى المعهد دروس ومحاضرات دورية من أشهر الأساتذة فى مختلف العلوم والفنون فيقبل على سماعها جمهور كبير من الزائرين ، ومعظمهم من الانكليز والامريكيين والألمان ، وقد شهدنا كثيرين منهم حول المعهد وداخله ؛ وهنالك على مقربة من المعهد عدة فنادق منزلية تأوى زوار دورناخ ، وإلى جانبه فوق الأكمة العالية مقهى أنيق يقصده الرواد والمتنزهون

***

وبعد بازل قصدنا إلى تسيريخ (زوريخ) ، وهى أكبر المدن السويسرية وسكانها نحو ثلثمائة ألف . وتقع تسيريخ على نهر لمات أحد أفرع الراين عند مصبه فى بحيرة تسيريخ ، ويخترقها نهر ليتام وقد أنشئت عليه قناطر مدرجة لحبس المياه ودفعها بقوة لتوليد الكهرباء ؛ وتقع بحيرة تسيريخ فى نهاية المدينة شرقاً ، وهى من أبدع المناظر البحرية التى يمكن تصورها ، وتكثر فيها القوارب البخارية المعدة للنزه القصيرة ، وكذلك السفن المعدة للحفلات الراقصة ؛ ويمتد أكبر شوارع تسيريخ ، وهو شارع المحطة Bahnhof's Str ، ما بين المحطة والبحيرة ، وهو شارع طويل فخم وبه معظم البنوك والمحلات التجارية وإدارات الصحف الكبرى وقد رأينا منها إدارة « جريدة تسيريخ الجديدة » Neue Zuricher Zeitung ؛ وفى تسيريخ أيضاً جامعة ، ومتحف تاريخى كبير ، والمدينة على وجه العموم كثيرة النظافة والاناقة تفيض حركة وحياة ، غير أننا عانينا بها نفس الغلاء المرهق الذى أشرنا اليه .

وقد رأينا فى الأيام القليلة التى قضينا فى هذه الربوع السويسرية الجميلة من خواص المجتمع السويسرى كل ما يحمل على التقدير والاعجاب ، فسويسرا الألمانية بلا ريب من أرقى بقع أوربا وأعظمها حضارة ، والشعب السويسرى (الألمانى) من أذكى الشعوب الأوربية ، وأرفعها ثقافة وخلاقا ؛ فحيثما سرت رأيت أرقى مظاهر النظافة والصحة والعافية ، وألفيت الشباب النضر يتدفق حياة وبهجة ؛ وتمتاز الفتاة السويسرية برشاقتها ومظهرها الرياضى ولونها النضر ، وجمالها الطبيعى الذى لا تكلف فيه ولا صناعة ؛ وفى جميع طبقات المجتمع تسود الرقة والأدب الجم وحسن المعاملة والأمانة ؛ ويلقى الغريب كل معاونة وتقدير واحترام ؛ واللغة الألمانية هى اللغة السائدة فى هذه المنطقة من سويسرا ، وهم يتحدثونها بظرف ورشاقة ، ولكنك تستطيع التفاهم أيضا بالانكليزية والفرنسية والايطالية فى معظم الأحوال

ولقد أنستنا هذه الأيام القليلة الممتعة ، وما لقيناه خلالها من شمائل هذا الشعب الرفيع الدمث ، ومظاهر حياته وذكائه ونشاطه التى تحمل على الاعجاب ، ما لقيناه من متاعب الغلاء المرهق الذى يرجع بالأخص الى تفاوت سعر النقد ، وأنستنا بالأخص كثيرا مما لقينا فى فرنسا وباريس من مظاهر التكلف والخشونة والرياء والجشع ، وكل ما هنالك من مظاهر حضارة تؤذن بالانحلال (***)

إلى من يسمع !...

مقصورة : Villa غلالة : Pyjama

للأستاذ كرم ملحم كرم

عقدنا الأمل الأكبر على المجمع اللغوى المنعقد فى مصر ، وتوسمنا فيه حافزاً للخروج باللغة العربيــة عن جمودها وهى البعيدة عن روح العصر ، الضيقة المسالك بمستنبطات العلم الحديث ، والفسيحة الفجاج بما النهضة اليوم غُنية عنه . فكان من المجمع الكريم أن خيبنا خيبة فاضحة . فما جاد علينا رجاله الميامين — دفع الله عنهم الخيبة ! ... — بكلمة واحدة من الكلمات التى خلقوها أو اشتقوها يجوز الركون إليها . فأتحفونا بالوحشىّ الغريب النافر منه حتى ابن البادية الجاثم بين كثبانه ونخيـله ، ورمونا بمئات « المستشزرات » ونحن نضيق بواحدة منها

ألا عفا الله عن الأرززِ والجماز وأخواتهما . فمن يحفظها ويجهد قلمــه فى إثباتها والذوق نفسه يمجها . أنعتمدها نكاية بالذوق ؟

ليعلم المجمع اللغوى السامى المقام أنه كفر بالرسالة المفوض أمرها إليه ، فزلت به القدم فى الخطوة الأولى . وإذا أبى إلا الصراحة قلنا إن ثقتنا به ذهبت عنا ، خصوصاً والمفروض فى إنشاء المجامع العلمية اللغوية رفع اللغة إلى مستوى روح العصر ، لا التقهقر بها إلى ما بعد عشرات الأجيال ، فيتخاطب بها جيل اليوم كما كان يتخاطب بها الأعراب فى البادية

والأعراب أنفسهم نفروا من كل لفظ غريب ، فهل يجوز لمن يفاخر أسلافه بكونه ابتدع الطيارة والموّاج والمذياع أن يتكلم بلغة راعى الشويهة والبعير ، وضارب خيام الوبر ، ومفترش البلس ؟

إنها لأضحوكة . والمجمع اللغوى فى مصر وفر لنـا هذه الأضحوكة ، وربما شاء بها أن ينفى عنا جهامة الأيام السود . فالشكر له كل الشكر . على أنه كان فى وسعه أن يثير فينا روح الاعجاب بدل أن يجرنا إلى الضحك فى موقف الجد . فما يدعو رجاله إلى التمسك بالكلام العويص ومجالسة الشنفرى والملك الضليل والهمذانى وصاحبنا الفرزدق وإمامهم زهير والحطيئة وعمر بن أبى ربيعة ولا غضاضة بجرير ؟ . . . فهؤلاء ما حشوا أشـعارهم بما لا يُفهم من وحشى غليظ ، بل جاؤونا بكلام يقال اليوم وغداً وسميعه طروب له راضٍ عنـه ، لا يحتاج أبداً إلى القاموس كى يدرك ما يقرأ ويقع فى أذنيـه . فكأنه وهو يصغى إلى هذا النفر من الشـعراء فى حضرة خطيب من أبناء القرن العشرين !

وعندنا أن السادة أعضاء المجمع اللغوى الزاهر لو استشاروا أذواقهم لوقعوا على غير هذه المتكأكآت المفرنقعات . ولـكنهم حرصوا على الشاذ فرموا أنفسهم بكل شذوذ . وما ضرّهم لو نهجوا نهج الأقدمين فى إثبات الكلمات الدخيلة الشائعة على الألسن والأقلام . وإذا أبوا إثباتها كما هى فليدوروا حولها بما لا تبعـد بينهم وبينها الآفاق . فان يروا من الحيف أن نقول « تلفون » و « فونوغراف » و « بيجاما » فما عليهم إلا أن يقاربوا بين هذه الكلمات وكلمـات عربية مشـتقة أو أن يخلقوا كلمات جديدة غير وحشية تدل عليها

أنا لا أرى اللغة تضيق بكلمة « تلفون » وقد فتحت صدرها لمئات الكلمات الدخيلة من فارسـية وعبرية وسريانية ويونانية . فـكما أثبتت الاسطرلاب والشمعدان والقنديل والورد والدستور والخردق والمنجنيق وما أشبه ، فى استطاعتها إثبات « تلفون » لاسيما والـكلمة شاعت وباتت ملء الأفواه والأسماع . وإذا طاب لأفراد المجمع المحترمين العـدول عنها فهناك كلتا « هاتف » و « ندى » وكلتاهما أفضـل من الأرززِ . وليس للمجمع إلا أن يقر إحـداهما لتجرى عليها الألسن والأقلام فى البلاد العربية جماء ، وهى ترى فى المجمع صاحب الـكلمة الفاصلة فى الموضوع إن يكن ثمة تقدير للصواب والمألوف

أجل ، لم يثبت المجمع اللغوى المصرى وجوده . فـكان أشبه باخوانه المجامع التى قامت فى سائر البلاد العربيـة وحاولت أن تخدم لغتها فسقط فى يدها وخفت صوتها ؛ وهـذا من سوء

الحظ . فانه ليؤسفنا أن يجول فى الخواطر أن المجمع المصرى لا يملك الكفاية فى القيام بالواجب المفروض عليه ، مع أن رجاله متضلعون من علم اللغة ، ولكن ما ينفع العلم إذا ندّ عن الذوق ؟ ...

هذه كلمات تجرح — ولا نكير — غير أنى أجرؤ على التفوّه بها فالوقف يقضى باعلانها ، خصوصاً ونحن إزاء حقائق لا تجوز فيها المصانعة ولا المحاباة

لقد طلبنا من المجمع أن يلجأ إلى قاموس « لاروس » الفرنسى يترجمه إلى اللغة العربية ، وكفى الله المؤمنين القتال ؛ على أن يترجمه بكلمات غير ثقيلة على السمع ولا مهجورة ، فلم ينزل المجمع على هذا الطلب الحق ، وكان أن نفحنا بألفاظ مستغربة من مخترعاته يؤلمنا أن يتوكأ عليها فى تشييد مكانتـه ، وهى ألفاظ واهية كالدعامة الوشيكة الانهيار

ولو أنصفت الحكومة المصرية فى اختيـار رجال المجمع لنظمت عقده من فئة مختارة لا من علمـاء اللغة فحسب ؛ بل من أساتذة كل فن . فاللغـة مجموعة شاملة لا تقف عند سيبويه ولا عند الكسائى . لا تدين بصلف علمـاء الكوفة ، ولا بعناد أئمة البصرة . فالعصر يدعوها إلى جمع العـلوم كافة . ومجمعها اللغوى يجب أن يضم العلمـاء من أبناء الفنون دون ما استثناء . فيحشد فى حلقته المهندسون والاشتراعيون والأطباء والصحفيون والتجار وأرباب الصـناعات ، ليتفق الجميع على الكلمات المطلوبة لكل فن ومهنة . وهـذا ما غاب عن الحكومة المصرية وهى تنشئ صرح المجمع ، فشاءت إصلاح اللغة وتهذيبها فكان أن قضت عليهـا بتقهقر آخر لسنا بحاجة اليه . فالمصيبة الأولى أهون من مصيبـة اليوم فى « نفثات » المجمع العاطرة

ولكن المجال لا يزال رحيباً ، والمجمع قائم البنيان ، ومن السهل التبديل أو الاضافة ؛ فيعمد المجمع إلى محو ما رسم ، أو إلى خلق ألفاظ جديدة لا تعقد فيهـا . وبهذه الوسيلة وحدها تتعادل الكفتان ، ويثق أبناء اللغـة العربية بما يعلن رجال المجمع ويؤيدونه فيا قرّ رأيه عليه ؛ وإلا إذا بقيت الحال كما نرى فما على المجمع إلا أن ينسج بيده كفنه ، وليس فيما اخترع واشتق كلمة تتداولها الأقلام

* * *

لى على المجمع الكريم اقتراح بسيط ، فما يضرُه لو أقرّ لفظة « مقصورة » لكلمة Villa الفرنجية ؟ ... فالكلمة تحوى معنى القصر وVilla منزل فخم لطيف يشبه القصر بعض الشبه . ثم إن كلمة « مقصورة » معناها حجرة ، واللغة العربية أجازت تسمية الكل باسم الجزء ، عدا أن الكلمة معروفة خفيفة الوقع على السمع ، قريبة المتناول ، مدعاة إلى التفاخر ، غير مهجورة . فمن يقول : « هذه مقصورتى ! . . . » كمن يقول : « هـذا قصرى ... ! » وفى ذلك ما يرضى ذوى المطامع وعشاق الأبهة

ولقد تفضل المجمع فأطلق كلمة « ظظر » على Villa الفرنجية فما معنى « ظظر » أيها المجمع المحترم ؟ ... وهب كان لها معنى فمن يتلفظ بها وهى ثقيلة كالرصاص ، على حين أن كلمة «مقصورة» لطيفة شائعة ، تسرع إلى اقتباسها الألسن والأقلام ؟

وهناك كلمة pyjama فماذا يحول دون تسميتها بالغلالة ، والغلالة شعار يلبس تحت الثوب ، فهل مايمنع أن تكون الغلالة pyjama ؟

* * *

أقترح على المجمع اثبات ها تين الكلمتين فى قاموسه ، وإذا استزادنا زدناه ، وإن أبى العمل باقتراحنا طلبنا إلى حملة الأقلام أن يتناولوا اللفظين فيما يكتبون ويتحدثون به وليس فيهما شائبة

ولا يغضب المجمع أن يتصدى لانتقاده كاتب يغار على لغته ويريد لها النهوض والسير فى ميدان العصر الفسيح والخروج من ذقرها اللغوى فى عهد المنطاد والسيارة والصاروخ . فهى لا تزال تعيش بذهن عتيق مثلها يوم كان البعير لديها أشـبه بالطيارة ، والسهم كالمدفع ، والنار فى رؤوس الجبال كالمذياع والمواج

لقد عرف الشيخ ابراهيم البازجى كيف يحضر اللغة بما وفر لها من كلمات مستحدثة تماشى الذوق والعصر ، أيخلو المجمع من مثيل للرجل العلامة وكلٌّ ينادى نفسه نعم الفتى ؟ ...

* * *

نحن نخاطب من له أذنان وعينان . فليسمع المجمع اللغوى المصرى الرفيع العماد !

(بيروت) كرم ملحم كرم

قصـــة المـكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

وسطاء شر أبرياء

هذه قصة ثِيُوبُلْد إسميث Theobald Smith . قصة الرجل الذى قاد الانسانية فمالت معه حيث مال إلى طريق جديد طلع عليها بأمل جديد . كان أولَ أمريكى سبق إلى كشف المكروب ، ولم يلحق بغباره إلى الآن منهم لاحق . أخذ يتشمّم الأرض يطلب غاية ، ويستتبع أثراً يقود إلى عين ، وأفاد فى تتبعه هذا من رأى رآه الفلاحون ، وظِنّة قال بها بسطاء المزارعين ، فلم يلبث بواسطتها أن اطّلع من بحوثه على كل عجيبة غريبة . فهذه القصة ستنبئك بالذى اطّلع عليه إسميث ، وبالذى وجده من بعده من تعقّبوا آثاره

« إن فى استطاعة الانسان أن يمحو كل داء وبيء من على وجه الأرض » . هكذا قال بستور وبهذا تنبأ وهو مفلوج بعد نُصرته المعهودة على داء دودة القزّ التى أكسبته ذكراً وأنالته مجداً . ولعلك تذكر بأية قوة وأية حرارة ألقى هـذا الأمل فى الناس ، حتى لحسبوا أن الداءات المعْديات لا يهلّ عليها العام القابل أو على الأكثر الذى يليـه حتى تكون خبراً يُروَى . واطمأن الناس لقوله واستبشروا وأخـذوا يرقبون ما تأتى به الأيام ... واخترع بستور الألقحة فهتفوا له عالياً ، وكانت هذه الألقحة لا شك بدائع عجيبةً رائعة ، ولكنك لا تستطيع القول أنها كانت لاستئصال المكروب من على ظهر البسيطة . وجاء من بعد بستور كوخُ فأدهش الناس وأفزع عندما لعب بجرثومة السل المَخُوفة حتى وجدها . ولم يكن كوخ أسرف فى وعوده ، ولكن وعود بستور كان صداها يرن فى الآذان ، فرفع الناس أبصارهم إلى كوخ ينتظرون امّحاء السلّ على يديه . وجاء رو ، وجاء بارنج ، واشتبكا والدفتريا فى معركة حامية دامية دامت سنين ، هَدْهدت أثناءها الأمهات أطفالهن المناكيد ، وغنّتهم أغانى آملةً راجيةً تَعِلّةً ومصابرةً عسى يسبق العلمُ بالشفاء أيامَهم الباقية المعدودة . وجاء متشنيكوف ، ومن الناس من ضحك منه ، ولكن حتى هؤلاء أضمروا فى الخفاء أملاً قليلاً على الأقدار تُتيح له برغم ثرثرته أن يعلّم فاجوساته أكل جراثيم الأرض جميعاً

. . . نعم أخذت وطأة الأمراض لسبب مجهول تخف على ما أحسِب ، ولكن لم يظهر عليها أنها تنوى الرحيل وتستعجل الفراق الذى أمّله الناس ، فخاب ظنهم وظلّوا على أملهم يرتقبون ولم يطل ترقّبهم ، فالزمان الذى يجود بالرجال الفَينة بعد الفينة جاد لهم وهم فى أزمتهم هـذه برجل جديد شاب ، اسمه ليوبلد إسميث Leobald Smith ، ظهر فى أمريكا فى أوائل عشر السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ؛ وحكاية ذلك أن الأبقار فى شمال أمريكا الشمالية كانت تُرسَل جنوباً فلا تلبث أن تستقر هناك حتى تأتيها حُمىّ تعرف بالتّكساسية[1] فتمرض وتموت . وكذلك كانت تُرسَل الأبقار من الجنوب إلى الشمال وهى صحيحة سليمة فكانت كأنما تبـذر على أرضه حيثما وطئت بذوراً للموت تفتك بالأبقار الشمالية فتكاً ذريعاً . فجاء إسميث وفسر هذا وهـــذا ، وكتب فى عام ١٨٩٣ تقريراً بيّناً كشف للناس فيه سر هـذه الظواهر الغامضة ، وسلك به أقوم الطرق وأخصرها ، ولم يكن فيه طنطنـة ونفخ أبواق ، وهو لا يُشترى الآن لنفاد طبعتـه . فهذا التقرير أوحى إلى قُنّاص المكروب الذين أتوا من بعده بالشىء الكثير : فأوحى بفكرة بديعة إلى الفخور الصخاب داڤيد بروس David Bruce ، وبلمحات من اقتراحات نافعة إلى باتريك منسون Patrick Manson ، ومسَّ بقَبَسه رأس العبقرى الطليانى الغضوب جراسى Grassi فجرت النار فى أفكاره اشتعالاً . والأمريكى ولتر ريد Walter Reed ، ملأه هذا التقرير ثقة ، وملأ كذلك رجاله الأبطال من عساكر وضباط ، فقاموا بمغامراتهم الخطيرة فى اطمئنان كبير ، ورفضوا زيادة فى الرواتب وآثروا عليها الشهادة والتضحية فى سبيل العلم

---

(١) نسبة إلى تكساس وهى ولاية من الولايات المتحدة فى أقصى الجنوب تجاور المكسيك وتقع على خليجه

فأى رجل كان إسميث هذا الذى يجهله الأمريكيون إلا آلافا قليلة ؟ وكيف أن كشفا له عن مرض فى بقرة استطاع أن يحرّك فى البشر كل هذه الآمال والأحلام ؟ وما منطق الريفيين هذا الذى ابتدأ به إسميث فحققه وأثبته ، والذى من جرّائه استطاع أن ينير للبحاث من بعده الطريق التى يسلكونها ليحققوا بها أمل البشرية المنشود ، ووعدها الأكبر الخلوب الذى وعدها إياه بستور ؟

— ٢ —

فى عام ١٨٨٤ كان إسميث فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وكان نال درجة بكالوريوس فى الفلسفة من جامعة كُرنيل Cornell (١) ، وكان نال درجة دكتور فى الطب من كلية ألبَنِى (٢) Albany medical College ، ولكنه كره أن يقضى حياته فى تشخيص أمراض يلبس لها وجهَ الجادّ العابس وهو يعلم أن لا رجاء فى شفائها ، وأن يُذبل زهرة أيامه فى بذل الطمأنينة والسلوى والكلام الحلو الراجى لمرضى بنى الناس عوضاً عن بذل العلاج الناجح الذى لا يعرف له وجودا . واختصاراً تراءى له الطب والطِّبابة أنهما عمل مهوّش لا يستقيم مع العقل السليم . وأحب أن يضرب فى المجهول قليلاً ليعلم من خفاياه قدراً يستطيع حمله فلا ينوء به ظهره ، أو يُتخَم به عقله . كان طبيباً ولكنه شاء رغم هذا أن يكون باحثاً ، ورغب بخاصة إلى دراسة المكروب . وكان قد عُنِى وهو فى كُرنيل باللعب على الأرغون ، لَعِبَ عليه المزاميرَ وقطعاً من بيتهوفن (ولم يكن جاء زمن الجاز باند) . وفى كرنيل فى جامعتها عبّ عبّة طيبة من الرياضيات ومن علم الفيزياء ومن اللغة الألمانية ، وبخاصة اشتد ميله إلى النظر فى المكرسكوبات ، ولعله عندئذ نظر أول مكروبة رآها

ولكنه لما جاء مدرسة الطب فى ألبَنى Albany لم يجد فى أساتذتها اهتماما بالمكروبات ، فلم يكن أطباء هذا المعهد يَسْمدون فى شفاء الأمراض إلى قتل الجراثيم . ولم يكن فى المدرسة برنامج لدراستها ، بل لم يكن فى أى مدرسة طبية بأمريكا شىء من هذا ، وأراد أن يتعلم علم الجرثوم برغم كل هذا ، وكان لا يأبه لألوان العرفان التى كانت تتعاطاها الجمهرة من طلاب الطب ، وكان يحتقر التخرّصات والأكاذيب التى يسبلون عليها رداء العلم . وأشبع هَوِيَّته ببحث أحشاء القطط بحثاً مكرسكوبياً ، ونشر أول رسالة له فى ذلك ، وفيها أبان اختلافات للطبيعة خرجت بها فى أعماق بطون القطط عن المألوف الذى درجت عليه فى سائر الأحياء ، وعلق عليها حواشى دلّت على الفطنة وحدة فى الذهن شديدة ، وكانت أول عمل دخل بفضله فى زمرة البحّاث

ونال درجته الجامعية ، وأراد أن يتخذ التجريب العلمى صناعته ، ولكن تحتّم عليه قبل ذلك وفوق ذلك أن يرتزق ليعيش . وكان فى هذا الوقت كثير من أطباء أمريكا الأحداث يتسابقون إلى أوربا ، إلى الأستاذ الكبير كوخ Koch يودون أن تتاح لهم الفرصة ليقفوا وراء ظهره ، ويتعلموا من فوق كتفه كيف يصنع البشلّات وكيف يُربيها صريحة ، وكيف يضربها بالمحاقن تحت جلود الحيوانات ، وكيف يستطيعون من بعد ذلك أن يتحدثوا عن المكروبات حديث الخبير الضليع . ورغب إسميث أن يتبعهم ، ولكن تحتم عليه أن يبحث عن وظيفة ليعيش . ورحل هؤلاء الأطباء الشبان الأثرياء الى أوربا ، وبينما هم يأخذون من العلم الجديد بمبادئه الأولى ، وبينما هم يوشكون من أجل ذلك أن يقعوا على مناصب أستاذيات فى العلم هامة ، وقع إسميث على وظيفته التى طالب . وكان منصباً وضيعاً هذا الذى ناله ؛ ومن وجهة العلم لم يكن منصباً محترما ، فقد تعين فى مكتب اصلاح الماشية والحيوان بواشنطن Washington ، ولم يكن عندئذ إلا مكتبا صغيرا حقيرا فقيرا لا يكاد يأبه له أحد . وكان فى المكتب من المستخدمين ثلاثة غير إسميث ، وكان على رأسهم رجل طبيب يُدعى سلمون Salmon ، كان كثير الاهتمام بما عسى أن تصنعه الجراثيم من السوء للأبقار ، مؤمناً شديد الايمان بخطر البشلّات على الخنازير ، ولكنه جهل كل الجهل كيف يتصيد المكروبات التى تعيث فى هذه الماشية الثمينة . وكان فى المكتب السيد كلبورن Kilborne ، وكان يحمل درجة بكالوريوس فى الزراعة ويغتبط بها ، وكان يعرف بعض الشىء فى البيطرة ، وهو الآن يتاجر فى الصينى وما اليه بمكان قريب من نيويورك . وكان ثالثَ الثلاثة فى المكتب رجلٌ جسيم

(١) جامعة فى مدينة إثاكا Ethaca فى مقاطعة نيويورك فى الشمال الشرقى من الولايات المتحدة . وقد سميت باسم أكبر متبرع لانشائها

(٢) عاصمة مقاطعة نيويورك بالولايات المتحدة

مهيب عتيق أسود كان عبداً فأعتق ، وكان اسمه اسكندر ، وكان يجلس حيثما جلس رزينا وقورا ساكنا حتى يحرك ، فيقوم الى القنينات القذرة فيغسلها ، أو الى الخنازير الغينية فيعنى بها

وبدأ إسميث فى صيادة المكروب فى حجرة فى ذروة بيت حكومى أضاءها شباك واحد مفتوح فى سقف البيت . بدأ فى صيادة المكروب ، فبدأ عمله الأوفق الذى هيأته الطبيعة له . وجاءته هذه الصيادة سلسة منقادة فكأنما ولدته أمه وبيمينه محقن وبفمه عود من البلاتين . وعلى الرغم من أنه خريج جامعة فقد كان يقرأ اللغة الألمانية قراءة جيدة ، فكان فى الليل يعتكف الى دراسة ما صنع كوخ من المكروبات وصار يعب من مآثره العلمية المجيدة عباً . وكان كالبطيطة نزلت فى الماء لأول مرة . فأخذ يفعل بالتفصيل كل ما فعله كوخ من قبله ويقلده تقليداً ويتبع طرائقه اللبقة فى تربية الجرثوم واقتناص البشلات وتلك الخلائق العجيبة الأخرى التى تسبح فى الماء انفتالا كأنما هى بريمة الفلين جرت فيها الحياة . قال : « إن كل ما صنعت مرجعه إلى كوخ » ، وتصور كوخ فى بعده وعبقريته شيئاً سماويا قدسيا

وعمل فى حجرته السقفية بلا هوادة ولا حسبان لضعف جسمه ، وقام على صيادة المكروب كل يومه وطرفا من ليله . وكانت له أنامل دقيقة رقيقة متزنة كأنامل الموسيقى فساعدته على غلى الأحسية فندر انكبابها فى يديه . وكانت الى جانب حجرته حجرة أخرى يختزن فيها المتاع الخسيس ، وكان يخرج منها اليه قطر من الصراصير لا تنقطع فيتلاهى فى أوقات فراغه بدقها . وفى وقت قصير بالغ القصر علم نفسه كل ما يتطلبه البحث ، ثم بدأ يكتشف الكشوفات على حذر ، فاكتشف لقاحا غريباً مأموناً ، لا يحتوى على البشلات نفسها ، ولكن على عصاراتها الزلالية التى تبتز منها اعتصارا وترشيحا . واشتد الحر فى غرفته فزاد على حر المدينة وهى جهنم الحمراء ، ولكنه احتمل هذا ومسح العرق المتقطر من أنفه ، وظل يعمل على أسلوب كوخ الأدق الأحذر ، ونبا به طبعه عن أسلوب بستور الأخشن وطرائقه الفضفاضة

(يتبع) أحمد زكى

شخصية نافذة بهلها النقد العربى

نقد ابن أبى عتيق

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

للأستاذ خليل هنداوى

ذكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر عند ابن أبى عتيق فى مجلس رجل ففضل الرجل شعر الحارث . فقال ابن أبى عتيق : بعض قولك يا ابن أخى ! لشعر عمر نوطة فى القلب ، وعلوق بالنفس ، ودرك للحاجة ليست لشعر . وما عصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر أشعر قريش ، من دق معناه ، ولطف مدخله وسهل مخرجه ، ومتن حشوه ، وتلطفت حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعرب عن حاجته . وذكر الرجل المفضل أبياتا للحارث ينعت بها الطلل :

إنى وما سخروا غداة منى عند الجمار يؤودها العقل
لو بدلت أعلى مساكنها سفلاً ، وأصبح سفلها يعلو
فيكاد يعرفها الخبير بها فيرده الأقواء والمحل
لعرفت مغناها بما احتملت منى الضلوع لأهلها قبل

فقال له ابن أبى عتيق : « استر على نفسك واكتم على صاحبك ، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا ! أما تطير الحارث عليها حين قلب ربعها فجعل عاليه سافله . ما بقى إلا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارة من سجيل » فتأمل ما ألطف هذا المأخذ ، وصاحب هذه الأبيات — فى الحقيقة — قد سار إلى غاية شريفة من معناه . ولكن المبالغة أفسدت عليه غايته ؛ وإن معرفة الدار وإظهار الشوق لأهل الدار لا يحتاجان إلى قلب العالى أسفل والسافل أعلى ؛ وإن فى هذا نذيراً أدنى إلى الشؤم منه إلى إظهار الشوق . ولعن الله شوقا لا يثبت نفسه إلا على الركام والخراب !

ولقد كان يقحم شعر عمر بنقده — على رغم الصداقة — ويضربه فى الصميم . ألم يسمع عمر يقول :

بينما ينعتننى أبصرننى دون قيد الرمح يعدو بى الأغر

قالت الكبرى أتعرفن الفتى   قالت الوسطى : نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها :   قد عرفناه ! وهل يخفى القمر ؟

وعمر فى هذه الأبيات قد شغل الثلاثة به ودلههن بحبه . فقال له ابن أبى عتيق : أنت لم تتشبب بها ، وإنما تشببت بنفسك ، وإنما كان ينبغى أن تقول : قلت لها فقالت لى فوضعت خدى فوطئت عليه

وأنشد نصيب الأسود قوله :

وكدت ، ولم أخلق من الطير إن بدا   لها بارق نحو الحجاز أطير

فسمعه ابن أبى عتيق فقال له : يا ابن أم : قل « غاق » فانك تطير ، وأراد بذلك أنه لا يكون إلا غراباً أسود ، ولا يكون الغراب إلا نذيراً بالويل . وهكذا تنبه الناقد بعقله إلى شىء لم يتنبه إليه الشاعر بفنه

وأنشد ابن جندب قول العرجى لابن أبى عتيق فى جاريته :

وماأنس م الاشياء لاأنس قولها   لخادمها، قولى اسألى لى عن الوتر
فقالت : يقول الناس فى ست عشرة   فلا تعجلى منـه فانك فى أجر
فما ليلة عندى وإن قيل جمعة   ولا ليلة الأضحى ولا ليلة الفطر
بعادلة الاثنين عندى ، وبالحرى   يكون سواء منهما ليلة القدر

فقال ابن أبى عتيق — وقد راعه هذا التكلف — أشهدكم أنها حرة من مالى إن جاز ذلك أهلها . هذه والله أفقه من ابن شهاب ! وليتنا نعلم شيئاً عن ابن شهاب الذى حشره الناقد حيث لا يحشر !

وقد يتأمل ابن أبى عتيق فى مواقع الألفاظ ويتبين مواضعها ، فيقول مثلاً عند ما يسمع قول قيس بن الحطيم :

بين شكول النساء خلقتها   حذواً ، فلا جبلةٌ[1] ولا قضف

لولا أن أبا زيد قال « حذواً » ما درى الناس كيف يحشون هذا الموضع

ويسمع عتيق ابن قيس يقول : « سواء عليها ليلها ونهارها » فيقول له : كانت هذه يا ابن أمٍّ فيما أرى عمياء ، فما يستوى الليل والنهار إلا على عمياء . فقال ابن قيس : إنما عنيتُ التعب .

قال : فبيتك هذا يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه ، وما عسى يكون قدر البيت إذا كان لا يُفسر إلا بترجمان !

وأنشد كثير ابن أبى عتيق قوله :

ولست براضٍ من خليل بنائل   قليل ولا أرضى له بقليل

فقال ابن أبى عتيق : هذا كلام مكافئٌ ليس بعاشق ، القرشيان أقنع وأصدق منك : عمر حيث يقول :

ليت حظى كلحظة العين منها   وكثير منها القليل المهنا

وحيث يقول :

فَعِدى نائلاً وإن لم تنيلى   إنه يقنع المحب الرجاء

وابن قيس الرقيات حيث يقول :

رُقَّ ! بعيشكم لا تهجرينا   ومنينا المنى ثم امطلينا
عدينا فى غد ما شئت إنا   نحب — وإن مطلت الواعدينا
فاما تنجزى عدتى وإما   نعيش بما نؤمل عنك حينا

وهكذا أفسد على كثير فكرته بنظرة نفسية عميقة لأن الحب الحقيقى الذى يتلهب ويتقلب على جمر من حبه لا يقول لمحبوبته إذا عرضت له : إليك عنى فانى لا أرضى بالقليل ، وإنما يتمنى قول عمر : « ليت حظى كلحظة العين منها » ويخلق الله بعد هذه اللحظة لحظات

قال كثير لأحدهم — وكان مديوناً — إذهب بنا إلى ابن أبى عتيق نتحدث عنه فذهبت إليه معه ، فاستنشده ابن أبى عتيق فأنشده قوله :

أبائنة سعدى ؟ نعم ستبين

حتى بلغ قوله :

وأخلفن ميعادى وخُن أمانتى   وليس لمن خان الأمانة دين

فقال ابن أبى عتيق : ويلك هذا أملح لهن وأدعى للقلوب إليهن . سيدك ابن قيس الرقيات كان أعلم منك وأوضع للصواب موضعه فيهن . ألم تسمع قوله :

حبذاك الدل والغنج   والتى فى عينها دعج
والتى إن حدثت كذبت   والتى فى وعدها خلج
وترى فى البيت صورتها   مثلما فى البيعة السرج
خبرونى هل على رجل   عاشق فى قبلة حرج ؟

---

(١) الجبلة الغليظة والقضف الدقيقة

وهكذا أدرك ابن أبي عتيق من نفس المرأة مالم يدركه كثير، وأدرك أن مثل حب كثيرَ المذرى لا يستطيع أن يدخل إلى أعماق نفوس النساء لأنه حب مقتول بالاعجاب لا يرى حيث حل إلا نفسه! ومثل عمر وابن قيس وأمثالهما ممن يقمون كل يوم على امرأة يدركون ما يعجب المرأة وما تزدريه، ويفهمون تقلبها وقيمة وعودها، ولكن عتيقاً أهمل هذه المرة النظر إلى البيت الأخير في هذه القطعة حيث أخذ الشاعر يستفتي الناس في قبلة، وقد علم أن مثل هذه الفتوى باردة وأبرد منها هذا الاستفتاء الذي هو أدنى إلى الفضيحة والتهتك منه إلى العفة والتستر. وما على صاحبه إلا أن يردده في أحد المساجد ويناقش فيه أصحاب الفتاوى

وأنشد أبو أذينة مرثيته لأخيه بكر:

سرى همي وهم المرء يسري وغار النجم إلا قيد شبر
أراقب في المجرة كل نجم تعرض في المجرة كيف يجري
بحزن ما أزال له مديما كأن القلب أسعر حر جمر
على بكر أخي ولى حميداً وأي العيش يحسن بعد بكر

فضحك ابن أبي عتيق وقال: كل العيش يحسن حتى الخبز والزيت. فتألم تهكمه أبا أذينة وحلف لا يكلمه أبداً. وهذا هو الموقف الوحيد الذي خرج فيه شاعر متأذيا من ابن أبي عتيق

وهناك مواقف متعددة تبدى لنا عطفه على رجال الفن؛ فلقد كان يمتزج بهم ويحس إحساسهم

سمع عمر يقول:

كان ذا في مسيرنا إذ حججنا علم الله فيه ما قد نوينا

فقال له ابن أبي عتيق: إن ظاهر أمرك ليدل على باطنه فأورد التفسير، ولئن مت لأموتن معك. أف للدنيا بعدك يا ابن الخطاب! فقال عمر: بل عليها بعدك العفاء يا أبا محمد!

ولقد كان فيه حدب خاص على المحبين. وإن له مواقف كثيرة كان يقوم فيها بوصل المنقطع من حبال المودة كما فعل مع عمر، وكان رسوله إلى الثريا. وكما فعل مع نصيب، وقد توسط بينه وبين سعدى محبوبته: ولعل هذا الموقف يبدى لك غيرة ابن أبي عتيق على رجال الشعر والغناء والعمل على نصرهم. وهذا الموقف يبديه لنا رجلاً قوياً حاد الطبع قوى الشكيمة مفتول العضل.

رأى ابن أبي عتيق حلق ابن عائشة مخدشاً فقال: من فعل بك هذا؟ قال فلان. فمضى فنزع ثيابه وجلس للرجل على بابه، فلما خرج أخذ بتلبيبه وجعل يضربه ضرباً شديداً والرجل يقول له: مالك تضربني؟ أي شيء صنعت؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ثم خلاه وأقبل على من حضر فقال: هذا أراد أن يكسر مزامير داود! شد على ابن عائشة نخنقه وخدش حلقه

والآن أرجو أنني وفقت في الكشف عن شخصية جديدة في تاريخ النقد العربي، وأرجو زملائي كتاب (الرسالة) أن يعملوا على جمع شوارد هذا الرجل، وأرجو أن تتولى (الرسالة) نشر ما يأتيها عنه وما تقع عليه. فربما استطعنا أن نؤلف من هذه الشوارد حياة الرجل وحياة الناقد، لأن لنقده تأثيرا أكبر مما ذكرنا في توجيه أدب عصره. وانما أدبنا لا يزال فقيراً الى رجلين: المؤرخ والأديب. فليعمل المؤرخ عمله يعمل الأديب عمله أيضاً

(دير الزور) خليل هنداوي

الكلب والديك
فى كتاب «الحيوان» للجاحظ

بقلم محمد طه الحاجرى

يعرف كل قراء الجاحظ تلك الخصومة الحادة العنيفة التى أثارها أبو عثمان ، فى أول كتابه الحيوان ، بين الكلب والديك ، وتلك المناظرة الطويلة المسترسلة المفتنة شتى الأفانين ، والذاهبة فى شتى مذاهب الكلام بين صاحب هذا وصاحب ذاك ؛ دون أن يكون بينهما — فى حقيقة الأمر — خصومة ، أو سبب يدعو إلى المناظرة ، وإنما هى عبقرية الجاحظ التى لا تفتأ تبدع وتبتكر ، وأسلوبه المتدفق الذى لا يألو يشقق الكلام ويولد المعانى والصور . ذلك هو الظن السائد الذى نلجأ إليه كثيراً فى تفسير مثل تلك المناظرة الغريبة . ولكنى أحسب أن الأمر بين الكلب والديك أعجب من أن يكتفى فى تفسيره بتلك الصفة الغالبة ، والنظرة العاجلة المقاربة

فلقد أطنب الجاحظ فى تلك المفاضلة إطناباً غريباً ، حتى كسر عليها جزءين كبيرين من كتابه ، لعلهما يقربان من ثلثه ؛ ثم كأنه لم يكتف بذلك ، فترى حديث صاحب الكلب وحديث مناظره صاحب الديك يتخللان الأجزاء الأخرى

ثم إن هذه المفاضلة غريبة أيضاً فى كتاب الحيوان ، فقد سار الجاحظ فى أبواب الكتاب التى تلى ذلك الباب على منهج غير ذلك المنهج ، فليس إلا وصف الحيوان ، وبيان عاداته وطبائعه ، ومزاياه ومساوئه ، ورواية النوادر عنه ، والآثار الأدبية التى تدور حوله ، وحكاية كلام بعض علماء الحيوان والمعنيين بأمره ، مثل أرسطاليس وأقليدون ، دون أن يعرض للمفاضلة بين هذا الحيوان وذاك ، إلا قليلاً لا نكاد نلحظه . فالأمر بين الكلب والديك إذن ليس متمشياً مع طريقة الجاحظ فى الكتاب عامة ، فما الذى جعله يميزه من غيره ، ويسلك فيه أسلوبا على حدة

وأخرى لا سبيل إلى الاغضاء عنها ، وهى وجه اختيار هذين الحيوانين بالذات ليكونا موضعاً للمقارنة والموازنة والمفاضلة وما من سبب ، فيما يبدو ، يجمع بينهما ، أو يدع سبيلاً للتنظير والتفضيل . ولعل السبيل بين الضب والنون أو بين الملاح والحادى كما يقول البلاغيون أكثر استقامة مما هو بين الكلب والديك .

ولو أن الجاحظ يريد المقارنة وحدها ، والمقابلة بين خلقيهما ، لكان ذلك مستساغا ؛ أما أن يجعلهما خصيمين ، وينصب لكل منهما صاحباً يهاجم باسمه ، ويدافع عنه ، ويناضل دونه ، دون أن يكون بينهما جامعة طبيعية إلا جامعة الحيوانية ، فأمر لا نستطيع أن نصفه إلا بالغرابة . فهلا ناظر بين الفيل والبعير ، أو بين الثعلب والذيب ! !

ورابعة تلفت نظرنا ، وتثير دهشتنا ، وهى ما أشار إليه فى أول كلامه من أن هذه المناظرة كانت تدور بين شيخين من علية المتكلمين ، ومن الجلة المتقدمين ، فما للمتكلمين ولهذا ؟ وما شأن الكلب والديك فى الكلام على الصفات والقدر ، أو المناظرة بين النار والمدر ؟ ! لسنا ننكر أن من أول ما كان يعنى به المتكلمون ، وخاصة المعتزلة ، بيان دقائق صنع الله فى الكون ، وحكمة الله فى الخلق ، على نحو ما فى رسالة « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » لأمامنا الجاحظ . فهل نستطيع أن نفهم أن تلك المناظرة إنما كانت تأخذ هذه السبيل وتتجه إلى تلك الغاية ؟ إن من العسير أن نقنع أنفسنا بهذا فى مثل ذلك الذى صوره الجاحظ بين الكلب والديك . وإذا أجزنا ذلك بوجه من الوجوه فانا نتساءل مرة أخرى : ما بالهم لم يختاروا من جميع الحيوان موضوعا لهذه المناظرة إلا ذينك الحيوانين — على ما فى المفاضلة بينهما — فاقتصروا عليهما ، ولم يعدوهما ؟

فالمسألة كما يرى القارئ الكريم غامضة ، لا يكفى فى بيانها ذلك التفسير العام المبهم الذى يفسر به أسلوب الجاحظ جملة واحدة

***

إن ذهناً دقيقاً كذهن الجاحظ مارس الفلسفة وأساليب المتكلمين ، حتى صار رأساً لطائفة من المعتزلة تدعى باسمه ، ليس من القريب احتماله أن يأخذ فى الكلام اعتباطاً ، فيناظر بين الكلب والديك وليس بينهما وشيجة أو سبب . فاذا كنا لا نرى بينهما صلة ذاتية ، فلا بد أن تكون بينهما صلة أخرى خارجية ، هى التى مهدت السبيل للمناظرة ، فما هى هذه الصلة وأين نلتمسها ؟ هل هنالك صفات أضيفت إلى الكلب تقابل صفات أخرى

أضيفت إلى الديك بحيث يكونان متناظرين ؟ أما أننا يجب أن نتلمس ذلك نفساً فى روح العصر الذى كتب فيه الحيوان ، وفى التيارات الاجتماعية التى كانت سائرة فيه ، وفى الآثار الأدبية التى بقيت لنا حول هذين الحيوانين

وإذن فأنا أزعم أن هذه المناظرة بين الكلب والديك كانت صدى من أصداء تلك الحالة الاجتماعية الشديدة السلطان فى العصر العباسى ، والتى أخذت تتغلغل فى المجتمع الاسلامى منذ أوائل القرن الثانى ، وبلغت عنفوانها فى عصر الجاحظ وأعنى بها تدافع العنصرين العربى والأجنبى على التأثير فى الحياة مما أنتج تلك الخصومة العنيفة بين العرب والشعوبية ، تلك الخصومة التى جعلت تمتد وتنتشر وتنمر الجو هنا وهنا حتى لم يخلص من سطوتها ذانك الحيوانان المسكينان ، لأن أحدهما كان يضاف إلى العرب والآخر كان يضاف إلى العجم . فالعرب كانوا فى نظر الفرس قوماً جفاة غلاظاً رعاة إبل وغنم ؛ الكلب أصدق أصدقائهم ، وألصق صاحب بهم ، وأعز رفيق لديهم ، وهو ما هو ضعة شأن وهوان منزلة وخبثاً ولؤماً وقذراً ودناءة . والفرس فى نظر العرب كانوا قوماً أنباطاً أصحاب قرية ، قد أخذتهم طبيعة حياتهم بالاستكانة والذلة ، فلا كرم ولا نجدة ولا أريحية ، كل مالهم الدجاج والديكة ، تمثل ضعفهم ، وتبرز بخلهم وضيق حياتهم . وهكذا أخذت الخصومة بين العرب والشعوبية مظهراً طريفاً من الخصومة بين الكلب والديك والتنابذ بينهما

وهنا يجىء دور المتكلمين الذين أشار إليهم الجاحظ ، ونحن نعرف عنهم أنهم لم يساهموا فى هذه العصبية ، وإن نسب المسعودى إلى طائفة منهم شيئاً منها ، فرد عليه الأستاذ الكبير أحمد أمين فى الفصل الذى كتبه عن الشعوبية فى كتابه « ضحى الاسلام » ، فأرادوا أن يحولوا تيار هذه الخصومة العصبية إلى ناحيتهم ، وأن يصبغوها بصبغتهم ، وأن يجعلوا من هذه المناظرة سبيلاً من سبلهم إلى بيان حكمة الله فى المخلوقات ، ودقائق صنعه فى الكائنات . ثم جاء الجاحظ فأخذ هذه المناظرة وجعلها باباً فى كتابه ، فأفاض فيها وتدفق ، وجمع فيها بين الكلام والحكمة والأدب على طريقته

هذه صورة المسألة كما ثبتت لدينا ، لا تكلف فيها ولا تعسف ، وإن بدت فى أول الأمر غريبة . فأما أن الشعوبية كانت تعيّر العرب باتخاذ الكلاب فأحسبه مما لا نزاع فيه ، فقد كانت لانفتأ تتجنى على العرب المساوئ والمعايب ، ولعل فى هذا القول الذى يرويه الجاحظ عن بعض المتعصبين على العرب ما يدلنا إلى أى حد كان تجنيهم . قال الجاحظ : « وزعم لى سلمويه وابن ماسويه مطبّب الخلفاء أنه ليس على الأرض جيفة أنتن نتناً ولا أثقب ثقوباً (١) من جيفة بعير ، فظننت أن الذى وهّمهما ذلك عصبيتهما عليه ، وبغضهما لأربابه »

أما الديك فكان عند العرب من أظهر ألوان الحياة الفارسية ، فهم دائماً يضيفونه إلى العجم . ومن ذلك قول الشاعر :

لعمرى لأصوات المكاكى بالضحى ... وسوء تداعى بالعشى نواعبه
أحب إلينا من فراخ دجاجة ... ومن ديك أنباط تنوس غباغبه

وعن قتادة أن أبا موسى الأشعرى قال :

« لا تتخذوا الدجاج فى الدور فتكونوا أهل قرية » ويفسر الجاحظ هذا بأن الديك من خصائص الحياة المدنية ، وكان ولاة العرب حريصين على أن يظلوا عرباً ، وأن يحتفظوا بمواهبهم الحربيـة التى لا تلبث أن تضعف فيهم ، ثم تتلاشى منهم ، إذا هم ركنوا إلى حياة القرى ، فاتخذوا الديكة التى هى من أبرز مظاهرها

وهكذا نرى أن الصلة وثيقة بين العجم والديك بقدر ما هى وثيقة بين العرب والكلاب ، وأن كلا منهما يعتبر من خصائص الحياة الاجتماعية لذويه ، وأن العرب كانوا يكرهون الديك وينفرون منه بقدر ما كان الفرس يمقتون الكلاب ويسخرون من أصحابه

وهناك دليل آخر على ما أسلفنا من أن الديك كان شديد الصلة بالأعاجم فيما يرى العرب ، حتى كان يرمز فى العقل العربى إليهم ، وهو — فيما نحسب — دليل قوى ، لأنه يجئ من عالم الأحلام ، ومجالها العقل الباطن فيما يذهب إليه المحدثون من الباحثين . ذلك هو ما حكاه الدميرى فى كتابه « حياة الحيوان الكبرى » قال : « روى مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه خطب الناس يوماً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنى رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلى ، وهى أن ديكاً نقرنى ثلاث نقرات ، فحدثتها أسماء بنت عميس ، رضى الله عنها ، فحدثتنى بأن يقتلنى رجل من الأعاجم » وهناك رواية أخرى للحاكم

(١) يقال ثقبت الرائحة ثقوباً أى سطعت وهاجت

ليست فيها أسماء بنت عميس : « قال على المنبر رأيت فى المنام كأن ديكا نقرنى ثلاث نقرات فقلت أعجمى يقتلنى » ثم إنه مهما تكن قيمة هذه الرواية فان تأويل الديك بالأعجمى يدل وحده دلالة صريحة على ما ذكرنا . ويضاف إلى هذا ما حكاه ابن سيرين من أنهم كانوا يؤولون الكلب الأسود بالعربى . وإذن فقد تم الأمر من وجهيه ، وتضافرت الدلائل على أن ذلك الفرض الذى افترضناه قريب لا تكلف فيه ولا تعسف

***

على أن هذا الفرض — فوق تفسيره لموقف الجاحظ — يفسر لنا طائفة من الأحاديث الموضوعة ، لم نفهم من قبل السر فى وضعها ، والعناية بصنعها ، فنحن نعرف كيف كانت الطوائف المختلفة تجتهد فى وضع الأحاديث ونسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتأييد مذاهبها ، ونشر الدعاية لمبادئها ؛ ومثل هذه الأحاديث نستطيع فى غير عنت أن ندرك السر فى وضعها . أما تلك المجموعة من الأحاديث التى نحن بصددها فيبدو فى بادىء الرأى أن وضعها كان عبثا ولهواً وسخرية ، وإلا فما ظنك بهذه الأحاديث التى وضعت عن الديك ، ووضعته فى صف الملائكة المقربين . كذلك الحديث الذى ذكره صاحب التهذيب ، فى ترجمة البزى — وقد قال عنه إنه ضعيف الحديث — وهو : « الديك الأبيض حبيبى وحبيب حبيبى جبريل ، يحرس بيته وستة عشر بيتاً من جيرانه » أو ذلك الحديث الآخر : « ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى : صوت الديك ، وصوت قارىء القرآن وصوت المستغفرين بالاسحار » . أو ذلك الحديث الثالث الذى يعتبر بدعة فنية خليقة بالخيال الفارسى المترف ، وقد رواه الطبرانى فى معجمه : « إن لله سبحانه وتعالى ديكا أبيض ، جناحاه مُوَشَّيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ : جناح بالشرق وجناح بالمغرب ، ورأسه تحت العرش وقوائمه فى الهواء ، يؤذن فى كل سحر ، فيسمع تلك الصيحة أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين الانس والجن ، فعند ذلك تجيبه ديوك الأرض ، فاذا دنا يوم القيامة يقول الله تعالى ضم جناحيك وغض صوتك ، فيعلم أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين أن الساعة قد اقتربت » ومثل ذلك كثير مذكور فى الكتب

أفى الحق أن كل ذلك كان عبث عابث ولهو لاه ساخر ؟ أكل ذلك العناء فى وضع تلك الأحاديث ، والتكلف لها وتلفيق أسانيدها ، وذلك الجهد الذى لا نشك فى أنه كان عظيما من أجل إمرارها وإدماجها بين الأحاديث الصحيحة ، أكل أولئك كان لهواً ولعباً لا غاية له ولا هدف يتجه نحوه ؟ ؟

كلا ! وإنما هى الشعوبية التى أسرفت فى وضع الأحاديث عن فارس وسلمان الفارسى وغير ذلك ، هى هى التى أوحت بتلك الأحاديث الغريبة فى تمجيد الديك وتقديسه ، باعتباره رمزاً فارسياً (١)

وإذن فقد استطاع ذلك الفرض أن يكشف لنا عن السر فى وضع تلك الأحاديث الغريبة ، وأن يبين لنا لوناً من ألوان ذلك النزاع بين النزعة العربية والنزعة الشعوبية

محمد طه الحاجرى

---

(١) ومما يناسب ذكره هذا المقام من كلام الجاحظ قوله — عقب ذكره بعض أحاديث القوم عن أبرويز والفيل (ج ٧ . ص ٥٦ من كتاب الحيوان) — : « واعلم أن هذه الأحاديث من أحاديث الفرس وهم أصحاب تنفج وتزيد ، ولا سيما فى كل شىء مما فى باب العصبية »

٤ – هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

خطب زرادشت

التحول في ثلاث مراحل

سأشرح لكم تحوّل العقل في مراحله الثلاث فأنبئكم كيف استحال العقل جملاً ، وكيف استحال الجمل أسداً ، وكيف استحال الأسد أخيراً فصار ولداً.

إنها لعديدة تلك الأحمال التي تثقل العقل الجَلْد الصليب الذي يتجلى الوقار فيه ، فأن صلابته تتوق إلى الحمل الثقيل بل إلى الحمل الأثقل

يفتّش العقل السليم عن أثقل الأحمال فيُنيخ كالجمل ظهره متوقعاً رفع خير حمل إليه . إن العقل السليم ينادي الأبطال قائلاً : أيّ حمل هو الأثقل لأرفعه فتغتبط به قوتي ؟ أفليس أثقل الأحمال هو في الاتضاع لانزال المذاب بالغرور ؟ أفليس أثقلها أن يبدي الانسان اختلالاً لتَظهر حكمتُه جنوناً ؟

أم أثقلها في تخلّي الانسان عن مطلب حين يقترن هذا المطلب بالنصر ، أم في ارتقاء قمم الجبال لتحدّي من يتحدّى ؟

أم أثقلها في أن يتغذّى الانسان بأقماع السنديان والأعشاب ويتحمّل مجاعة نفسه من أجل الحقيقة

أم أثقلها في احتمال المرض وطرد العائدين المعزّين ، أم في مخادنة الصمّ الذين لا يسممون ولا يعون ما تريد ؟

أم أثقلها في الانحدار إلى المياه القذرة إذا كانت الحقيقة فيها والرضى بملامسة الضفادع اللزجة والعقارب التي تقطر صديداً

أم أثقلها في محبة من يحتقرنا وفي مدّ يدنا لمصافحة شبح يقصد إدخال الرعب إلى قلوبنا . إن العقل السليم يحمل ذاته جميع هذه الأثقال المرهقة ، وكالجمل الذي يسارع إلى طريق الصحراء عندما يرفع الوِقرَ عن ظهره ليندفع هو أيضاً نحو صحرائه

وهنالك في الصحراء القاحلة يتمّ التحوّل الثاني إذ ينقلب العقل أسداً لأنه يطمح إلى نيل حريته وبسط سيادته على صحرائه

وفي هذه الصحراء يفتش عن سيده ليناصبه العداء كما ناصب سيده السابق ، فهو يستعد لمكافحة التنّين والتغلب عليه

ومن هو هذا التنّين الذي يتمرد العقل عليه فلا يريد بعد الآن أن يرى فيه ربه وسيده ؟

إن التنين هو كلمة « يجب عليك » وعقل الأسد يريد أن ينطق بكلمة « أُريد »

« إن كلمة (الواجب) تترصد الأسد على الطريق تنّيناً يدّرع بآلاف الأصداف وعلى كل قطعة منها تتوهج بأحرف مذهبة كلمة « يجب عليك »

وعلى هذه الأصداف تشع سنو ألف عام والتنّين الأعظم يعج قائلاً إن جميع السنين تتوهج عليّ

كل ما هو سنّةٌ قد أُوجد من قبل ، وبي تتمثل جميع السنن الكائنة . والحق أن كلمة « أُريد » يجب ألا ينطق بها أحدٌ بعد ! هكذا قال التنّين

فأية حاجةٍ لكم أيها الأخوة بأسد العقل ؟ أفما يكفيكم الحيوان القوي الجليل الممتّع بامتناعه ؟

من العبث أن تطمحوا إلى خلق سنين جديدة ، إن الأسد نفسه ليعجز عن هذا الخلق إذ لا يسعه إلا أن يستعد بتحرير نفسه لخلق جديد لأن قوته لن تتجاوز هذا الحد

أيها الأخوة ، إنّ العمل الذي تحتاجون فيه الى الأسد إنما هو تحرير أنفسكم والوقوف ببطولة الامتناع في وجه كل شيء حتى وجه الواجب . ذلك أيها الاخوة هو العمل الذي تحتاجون الى الأسد للقيام به

إن الاستيلاء على حق إيجاد سنن جديدة يقضي بالجهاد العنيف على العقل الخشوع الصبور ، ولا ريب أن في هذا الجهاد قسوة لا يتصف بها إلا الحيوانات المفترسة

لقد كان العقل فيما مضى يتعشق كلمة « الواجب » كأنها أقدس حق له ، وقد أصبح عليه الآن أن ينظر حتى الى هذا

الحق المفسدّ فيراه توهماً واعتسافاً ، ليتمكن بارهاق عشقه أن يستولى على حريّته وليس غير الأسد من يقوم بهذا الجهاد

ولكن ما هو العمل الذى يقدر عليه الطفل بعد أن عجز الأسد عنه ؟ ولماذا يجب أن يتحوّل الأسد المكتسح الى طفل ؟

ذلك لأن الطفل طهرٌ ونسيانٌ ، لأنه تجديد ولَعِب وعجلة تدور على ذاتها فهو حركة البداية وعقيدةٌ مقدَّسة

أجل أيها الاخوة إن العمل الالٓهى للأبداع يستلزم عقيدة مقدسة ، فأن العقل يطلب الآن إرادته ، ومن فقد الدنيا يريد الآن أن يجد دنياه

لقد ذكرت لكم تحولات العقل الثلاثة فأوضحت كيف استحال العقل جملاً وكيف استحال أسداً وكيف استحال أخيراً الى طفل

هكذا قال زارا ، وكان فى ذلك الحين مقيما فى مدينة اسمها البقرة العديدة الألوان

منابر الفضيلة

وبلغ زارا خبر حكيم أطنب الناس فى علمه ومقدرته فى التكلم عن الكرى وعن الفضيلة فحبوه بالتكريم والتبجيل واتبعه عدد من الشبان أصبحوا دعامة لمنبره العالى ، فذهب زارا وجلس معهم أمام المنبر مصغياً إلى الحكيم فكان يقول :

مجدوا الكرى وعظموه لأن له المقام الأول وتحاشوا مرافقة من ساء رقادهم ومن استحوذ عليهم الأرق

إن اللص ليقف خاشعاً أمام الكرى فيدلج فى الليل مخرساً وقع أقدامه ولكن الساهر المجازف لا يتورع عن حمل بوقه

ليس بالسهل أن يعرف الانسان كيف يستسلم لسنة الكرى وليس إلا لمن عرف كيف ينتبه طول النهار أن ينام ملء جفنيه

يجب عليك أن تقاوم نفسك عشر مرات فى النهار فتغنم خير التعب وتهيىء الخدر لروحك

عليك أن تصالح نفسك عشر مرات فى النهار لأنه إذا كان فى قهر النفس مرارة فأن فى بقاء الشقاق بينك وبينها مايزعج رقادك

عليك أن تجد عشر حقائق فى يومك كيلا تضطر إلى السعى وراءها فى نومك فتبقى نفسك جائعة

عليك أن تضحك عشر مرات فى يومك لتكون مرحاً كيلا تزعجك معدتك فى ليلك والمعدة بيت الداء

قليل من يعرف هذا من الناس ؛ ولن يتمتع بالرقاد الهنىء إلا من حاز جميع الفضائل . فاذا ما المرء أدى شهادة زور أو تلطخ بالزنا وإذا هو اشتهى خادمة قريبة فقد حرم وسائل الهناء فى نومه

غير أن المرء يحتاج فوق فضائله إلى شىء آخر وهو أن يدفع إلى الرقاد بفضائله نفسها فى الزمن المناسب

إن من الفضائل من هى كالغانيات المتجنيات ، فأقم بينهن حائلا كيلا ينتهين إلى عراك تكون أنت ضحيته

ليكن سلام بينك وبين ربك وبين الأقربين ، فلا نوم هنىء بدون هذا السلام . وسالم شيطان جارك أيضاً لئلا يراودك فى رقادك

أكرم السلطة واخضع لها حتى ولو كانت هذه السلطة عرجاء . إن ذلك ما يقتضيه النوم الهنىء

وما أنا بالجانى إذا كان يحلو للسلطة أن تسير متعارجة

إن خير الرعاة من يقود قطيعه إلى المروج الخضراء ذلك ما يقتضيه الرقاد الهنىء »

لا أطلب كثيراً من المجد ولا وفيراً من المال وكلاهما يؤدى إلى الاضطراب ، ولكنّ المرء لا ينام هنيئاً ما لم يكن له شىٌ من الشهرة ولديه شىٌ من المال

أفضّل أن يزورنى القليل من الناس على أن يرتاد مسكنى عشراء السوء ، وهذا العدد القليل يجب عليه ألاّ يطيل السمَر عندى لئلا يعكّر صفو رقادى

تسرنى مجالسة البلهاء لأنهم يجلبون النعاس ؛ ولشدّ ما يغتبطون عندما نحبذّ حماقاتهم ونشهد باصابتهم

على هذه الوتيرة يقضى فضلاء الناس نهارهم . أما أنا فاننى إذا ما أمسى المساء أحترس من أن أراود النعاس لأنه سيد الفضائل ولا يرتاح إلى تحرّش الساهرين

وتحت جنح الظلام أستعرض ما فكّرت فيه وما فعلته فى يومى فأنطوى على نفسى كالحيوان الصبور وأسائلها عما قهرت به أميالها عشر مرات وعما عقدت به الصلح مع ذاتها عشر مرات ،

وعن الحقائق العشر والمسرّات العشر التى أُفعمت بها

وبينما أكون مستغرقاً تهزنى الأربعون خاطرة يستولى النعاس على فجأة ، وهكذا يسودنى الكرى سيد الفضائل دون أن أتوجه بدعوة إليه

يشغل النعاس جفنىّ فتنغمضان ، ويلبس فمى فيبقى مفتوحاً

إنه يدلف إلىّ كلص محبوب فيسرق أفكارى وأبقى أنا منتصباً كعمود من خشب ، ثم لا تمر لحظات حتى أنطرح ممدداً على فراشى

وبعد أن أصغى زارا إلى هذه الأقوال بقرع الحكيم بها الأسماع تملك ضحكه وأشرق نور فى جوانب نفسه فناجاها قائلاً :

يتراآى لى أن هذا الحكيم قد جُنّ بخواطره الأربعين .

ولكنه جد خبير بحالات الكرى . فما أسعد من يجاور هذا الحكيم ! لأن مثل هذا النعاس شديد الانتقال بالعدوى حتى الى وراء الجدران

إن شيئاً من السحر يفوح من منبره العالى ، وما يجتمع هذا العدد من الشبان عبثا حول خطيب الفضائل

إن قاعدة هذا الحكيم إنما هى — اسهروا لتناموا — وفى الحقيقة لو لم يكن للحياة معناها فوجب أن اختار لها حكمة لامعنى لها لما كنت أجد أفضل من هذه القاعدة

لقد أدركت الآن ما كان يطلب الناس قبل كل شىء عندما كانوا يفتشون على أوليات الفضائل ؛ إنهم كانوا يطلبون النوم الهنىء والفضائل التى يتجلىّ على مفرقها تاج المخدرات . وما كانت الحكمة فى عرف حكماء المنابر ، وقد نالوا الاعجاب والثناء إلا قاعدة النوم لا تقلقه الأحلام . إنهم لم يكتشفوا معنى أفضل من هذا المعنى للحياة

وكم فى أيامنا هذه من أناس يشبهون هذا الواعظ فى دعوته الى الفضيلة غير أنهم أقلّ إخلاصاً منه . ولكن هذا الزمان لم يعد زمانهم ولن يطول وقوفهم والكرى يراود أفكارهم فهم عن قريب سيُمددون

طوبى لمن دبّ الى عيونهم النعاس ! إنهم عما قريب سيرقدون

هكذا تكلم زارا

(يتبع) فليكس فارس

بين أحضان الطبيعة

للشاعر السويسرى جوتفريد كلر

أيتها الطبيعة المشرقة . أنشرى فوق رداءك الأخضر الجميل

وغنى حولى بحفيف أشجارك الباسقة الناضرة

وأيقظينى عند تباشير السحر المشرق ، وفى بسمة الفجر المنير

لقد تعبت روحى فذهبت ترفرف عليك حيرى واجفة

ونعست عينى أمام تلك العظمة وهذا الجلال !

فدعينى أحلم بلياليك الزاهرة

***

إن وجهك كوجه الطفل فى مهده

وأنت تتناجين بحفيف أزهارك التى بللت وجناتها دموع الحزن وجرت على خدّها عبرات الأسى

ولكنها ما تلبثُ أن تستردّ نضارتها وبشاشتها من جمالك السحرىّ

إن قلبى مُفعمٌ بالآلام والأشجان ، ولكنها تتلاشى بين أحضانك الزاهرة ، وتذوب فى أجوائك الساحرة ، فأعود كالطفل الطروب

***

أيتها الطبيعة : أيتها الصديقة التى وهبتنى إخلاصها الأبدى وشبابها الدائم الذى أحيا فى قلبى ميت الأمل وضائع المنى

أنت قبلتى التى أؤمها ، وكنفى الذى أستظل به

فاذا جاء يوم نسيتُ فيه وفاءكِ ، ولم أوفِّك حقك من الاخلاص فاعلمى أنى هبطت إلى الدرك الأدنى وأصبحت هائماً ذاهلاً . واعلمى أن قلبى قد أدمته الجراح فنسى كل شىء

***

أيتها الطبيعة المشرقة ! قفى بجانبى فى معترك الحياة الزاخر وظلليني بحنانكِ ، واشمليني بعنايتك ، وارقبيني بنظرات الأمومة الحانية . وإذا دنت ساعتى وحانت منيتى فانشرى فوق رداءك الأخضر الجميل

ما أبهج الحياة والموت فى أوديتك الساكنة !

أحمد فهمى مرسى

٦ – تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن حبشى

الفصل الأول

وهكذا نجد بين التبابعة ملكة سبأ التى ذكرت مخاطراتها مع سليمان فى السورة السابعة والعشرين من القرآن ، وبالرغم من أن محمداً (ص) نفسه لم يشر إلى اسمها أو نسبها فان المفسرين اعتبروها بلقيس ابنة شراحيل (أو شرحبيل)

أما البطل الوطنى الذى ورد ذكره فى أسطورة عرب الجنوب فهو « تبع أسعد كامل » أو كما يسمى أحياناً « أبو كرب » الذى مازالت ذكراه حتى اليوم — كما يقول فون كريمر — حية باقية ، ومازالت روحه تكثر من الترداد على خرائب قصره فى ظفار « وما من أحد يطالع قصيدة مخاطراته أو النصائح التى وجهها إلى ابنه حسان وهو مسجى على فراش الموت إلا اعتقد مضطرا أنه أمام شعر قصصى أصيل مستمد من الخرافات العربية الجنوبية التى ترجع أوليتها دون شك إلى عصر قديم جداً [1] » وهأنذا أقدم للقارىء بعضاً من القصيدة التى يمكن تسميتها بقصيدة « الساحرات الثلاث [2] »

الدهر يأتيك بالعجائب والأيا … م والدهر فيـــه معتبر
بينا ترى الشمل فيـه مجتمعا … فرقه فى صروفه القدر

(١) ص ٧ من مقدمة فون كريمر لكتابه Die Südorabische Sage

(٢) وقد ترجمها نثراً فون كريمر فى كتابه السابق (ص ٧٨ وما يليها) أما النص العربى الذى طبعه بعد ذلك فى Altarabis che Gedichte ueber die Volkssage von Jemen, p. 18 فكثير الخطأ فى بعض المواضع ، وقد اتبعت ترجمته إلا حينما ألمس الخطأ الجسيم الفاحش ، وليس من الصعب على القارىء أن يعتقد أن القصد من هذه القصيدة أن يلقيها السامر الجوال على أسماع السمار ليلا ، وربما كانت من وضع أحد هؤلاء القصاصين المحترفين الذين كثر وجودهم فى القرن الأول للهجرة كعبيد بن شرية أو يزيد بن ربيعة ابن مفرغ (٦٨٨ م) الذى يقال إنه وضع القصائد والقصص المنسوبة لملوك حمير (الأغانى ج ٧ ص ٥٢)

لا ينفع المرء فيـه حيلته … فيما سيلقاه لا ولا الحذر
إنى زعيم بقصـة (عجبٍ) … عندى لمن يستزيدها الخبر

***

يكون فى الأسـد مرّة رجل … تم له فى ملوكه الخطر
مولده فى قرى ظاهر هم … دان بتلك التى اسمها خمر
يقهر أصحابه على حدث الـ … ـن ويحقرهم فيحتقر
حتى إذا مكنته صولتـه … وليس يدرى ما شأنه البشر
أصبح فى هيوم [1] على وجل … وأهـله غافلون ما شعروا
رأوا غلاماً بالأمس عنـدهم … أزرى لديهم بجهـله الصغر
لا يفقـــدوه لا در درهم … لو علموا العـلم فيه لافتخروا
حتى إذا أدركته روعته … بين ثلاث وثلاثة (!) حجروا
جاءت إليه الكبرى بأسـقية … شـتى وفى بعضها دم كدر
فقال هاتى إلىّ أشربها … قالت له : ذر فقال لا أذر
فناولته فما تورّع عن … أقصاه حتى أماده السكَر
فنهنهته الوســـطى فنازلها … كأنه الليث هاجـه الذّعر
قالت له هـــذه مراكبنا … فاركب فشر المركب الحمر
فقال « حقاً صدقت » ثم سما … فوق ضبيع قد زانه الضمر
فدق منـه جنباً فغادره … فيه جراح منها به أثر
ثم أتته الصـغرى تمرّضه … فوق الحشايا ودمعـه دِرَرُ
فخال عنها بمضجع ضجر … ولا تساوى الوطاء والزعر
كان إذ ذاك بعـد صرعته … من شدة الجهل [2] تحته الابر
قلن له لمـا رأين جرأته … أسَعْدُ أنت الذى لك الظفر
فى كل ما وجهة يوجههـا … وأنت يشفى بحربك البشر
وأنت للسيف والسـنان وفى … الأبدان تبدو كأنهـا الشمر
وإنّ أنت المهريق كلّ دم … إذا ترامى (بشخصك) السفر

(١) قرأها نيكلسون هنوم ، وقرأها فون كريمر « أهنوم » بدلا من هيوم ، ولكن انظر كتاب جزيرة العرب للهمدانى ص ١٩٣ السطر الأخير

(٢) هكذا فى نسخة فون كريمر فقال فى ترجمته :

Under lag so nach seinem Sturze
Aus grosser Unwissenheit, als wöre or auf Nadeln gaelttet

أما نيكلسون فقد قرأها « الجهد » بدلا من « الجهل » فقال :

And himthought, in anguish Lying there,
That needles underneath him were

(المترجم)

فارشد ولا تستكن فى (خمر) ورد ظفارا فأنها الظفــــر
فلست تلتـــذ عيشة أبداً والأعادى عين ولا أثر
نحن من الجن يا أبا كرب يا تبعٌ الخير هاجنا (الدغر)
فما بلوناه فيـــك من تلف عن عمد عين وأنت مصطبر
ثم أتى أهـــله فأخبرهم بكل ما قد رأى فما اعتبروا
فسارعتهم من بعد ثامنة إلى ظفار وشأنه (الفكر)
تحلّ فيها والدهر يرفعـــه فى عظم شأن وهو يشتمر [1]
إنا وجدنا هذا يكون معاً فى علمنا والمليـــك مقتدر
فالحمـــد لله والبقاء له كل إلى ذى الجلال مفتقر

وتجمل هذه القصيدة أسعد بطل حملة عظيمة إلى فارس حيث نازل القائد الذى أرسله اليه أحد ملوك العراق وقهره ثم انطلق إلى بحر قزوين ، وفى طريق عودته اخترق الحجاز وإذ ذاك علم أن ابنه الذى خلّفه فى المدينة قد قتل غيلة ، فأقسم أن يكون ثأره من أهل تلك البلدة شديداً « وبينما كان تبع منهمكا فى إعداد الغارة عليهم ، وفد عليه حبران يهوديان من قريظة يتفجّر العلم منهما ، فلـما علما بعزمه قالا له : « أيها الملك لا تفعل فأنك إن أبيْت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليـك عاجل العقوبة » فقال لهما : « ولم ذلك ؟ » فقالا : « هى مهاجر نبى يخرج من هـذا الحرم من قريش فى آخر الزمان تكون داره وقراره » فتناهى عن ذلك ، ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما [2] » ... وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبـــدونها فتوجّـه إلى مكة وهى فى طريقه إلى اليمن ، ثم أتاه نفر من هذيل قالوا له : « أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ » قال : « بلى » فقالوا : « أرسل إلى الحبرين » فأرسل اليهما وأخبرهما بما حدثه به الهذليون فقالا له : « ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك . ما نعلم بيتاً لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك اليـه لتهلـكنّ وليهلـكنّ من معك » فسألهما ما يصنع إذا قدم عليـه فأشارا عليه بأن يصنع مايصنع أهله « تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنـده وتذلل له » فقال : « فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ ... » قالا : « أما والله إنه لبيت ابراهيم ، وإنه لـكما أخبرناك ولـكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله وبالدماء التى يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك » فامتثل أمرهما وقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل [1] ثم لما دنا تبع من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا « لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا » فدعاهم إلى دينه ، وقال : « إنه خير من دينكم » فقالوا : « فحاكمنا إلى النار » قال : « نعم »

وكان باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تنفر تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ، فخرج قوم بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما متقـلّديها حتى قعدا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه فخرجت النار إليهم ، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فذمرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما فأصبحت عند ذلك حمير على دينه . فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن [2]

(يتبع)

---

(١) حذف الأستاذ نيكلسون من ترجته بعد هذا البيت سبعة أبيات تتضمن قصة امرأة جاءت تشكو ظلامتها فانتصر لها ، وإتماماً للفائدة الأدبية نذكر هذه الأبيات :

حتى أتته من المدينـــة تشـ ـكو الظلم شمطاء قومها غدروا
(أدت) إليـــه منهم ظلامتها ترجو به ثارها وتنتصر
فأعمل الرأى فى الذى طلبت (فـكان) كل بذاك يأتمر
فعبأ الجيش ثم سار به مثل الدبا فى البـــلاد ينتشر
قد ملأ الخافقين عسكره كأنه الليل حين يعتكر
نعم أعـــداءه كتائبه وليس يبقى فيهم ولا يذر
حتى مضى منهم لثانية وفاز بالنصر ثم ينتصر

(المترجم)

(٢) ابن هشام ص ١٣ س ١٤ وما يليه

(١) ابن هشام ص ١٥ س ١ وما يليه

(٢) ابن هشام ص ١٧ س س ٢ وما يليه

من الأدب الانكليزى

مرثيـــة جراى

[تعد هـذه المرثية من أبلغ المراثى فى الشعر الانكليزى ، قرأها على صديق الأستاذ حيدر الركابى فنقلتها إلى العربية كما فهمتها] « على »

للأستاذ على الطنطاوى

قُرع الناقوس ينعى النهار الآفِل ، وراح القطيعُ يزحف ببطء يتسلق الهضبة راجعاً الى القرية ؛ وعاد الفلاح الى البيت يجر رجله تعباً ... وبقى العالم لى وللظلام !

***

تَدَثَّر الكون بالسواد ، وتوارى عن الأنظار ، وسكنت الدنيـا سكوناً مَهيباً ، ولم يبق فى الجو نأمة تسمع ، إلا هـذه الأصوات العميقة تفيض بها الأودية البعيدة والشعاب النائية ، وإلا طنين حشرة تطير ، ونعيبُ بوم على تلك الدوحة ، يشكو ظلم الناس وعدوانهم على وكره الآمن

***

هنالك ... عندَ تيك الشجرات القديمات ، تحت تلك الرِّجام التى يزدحم عليها العشب ، ويَتكَوَّمُ الكلأ(١) ... كان « أجداد القرية » ينـامون إلى الأبد فى حفرهم الضيِّقة ، وأجداثهم العميقة

***

لا يوقظهم نسيم الصباح الأرج ، ولا تغريد البلبل الطَّرب ولا زقاء الديك المزهو ، ولا زمّارة الراعى السعيد ... كل ذلك لم يعد يوقظهم من رقدتهم

***

لا . ولن توقد من أجلهم نيران المداقئ ، ولن تقوم فى خدمتهم ربات المنـازل ، ولن يهتف أطفالهم الأُلثغ فرحين بمقدمهم ، ولن يَتَسلَّقوا ركبهم يستبقون إلى أحلى تَمْنِيةٍ لهم قبلة من آبائهم عند عودتهم إلى منازلهم وأهليهم

***

كم كان المنجل العضب يخضع لسواعدهم ، وكم كانت الأرض الصَّلدة تشقق تحت معاولهم ، والغابة القاسية كم لانت لضرباتهم

***

كان عملهم مفيداً . وحياتهم مجدية ، فلا يسخر الطموح من مسراتهم الهينة ، وحياتهم المجهولة ، ولا تستمع العظمة هازئة حديث الفقر ، وقصته الساذجة القصيرة

***

فان فخر القواد ، وعظمة الأقوياء ، وكل ما تمنحه الثروة ، ويأتى به الجمال ... كل ذلك ينتظر الساعة التى لا مفر منهـا ، والغاية التى لا محيد عنها ، لا فرق فى ذلك بين عظيم وحقير ، لأن طريق المجد لا ينتهى إلا إلى القبرْ !

***

فيأيها المغترون ، لا تلوموا هؤلاء المساكين إن خلت قبورهم من نُصُب المجد ، وتماثيل العظمة ، على حين تتصاعد ألحان الثناء وأغانى المديح ، من بين جدران المدافن الفخمة ، وتحت أقبيتها المزخرفة

***

لأن البَخُور المحروق ، والتمثال المنحوت ، لا يرد الروح على الميت الراقد ، وهُتاف الناس ، وعجيج الجماهير ، لا ينفخ الحياة فى التراب الجامد ، وهمس التملق ، وهجس التزلف ، لا يبلغ سمع الموت البارد !

***

ومن يدرى ؟ فلعلَّ فى بطن هـذه البقعَة المهجورة قلباً كان يمكن أن يفيض منه النور السماوى ، ويداً كانت تدير دفّة المركب السياسى ، وأصابع كان يمكن أن تمشى على أوتار القيثارة الخالدة فتنشئُ النغم السحرى . . . لولا أن العلم لم يفتح أمامها صفحاته الحافلة بثمرات الزمان !

***

أخمد النسيان جذوة أرواحهم النبيلة ، وأجمد نهر حياتهم الجارية ، وطغا عليهم لج الزمان ... ولكن ، كم فى جوف البحر من جواهر مخبوءة ، ولآلئ مجهولة ، وكم فى عرض البادية ، من وردة تفتحت واحمرت ، فلم يرها أحد ، فضاع أريجها العطر فى رياح الصحراء

***

(١) كوم السكومة ، وتكومت من العامى الفصيح

ومن يدرى ؟ فلعل هنا بطلاً (كهامْبدِن) كان حاكماً فى حقوله مطلقاً ، وكان جباراً شجاعاً ، ولعل هنا (ملتون) آخر ، ولـكنه صامت مغمور ، ولعل هنا (كرمْوِل) ، ولـكنه كرمْوِل برئ من دم أبناء الوطن !

* * *

منعهم القدر من الاستمتاع بهتاف الجماهير ، وتصفيق البرلمانات ، ومنعهم من المغامرة ، وركوب الأهوال ، وازدراء المصاعب ، واحتقار العقبات ، ومنعهم من نثر الخيرات على بلادهم ، وقراءة تاريخهم فى عيون الشعب

* * *

ولـكن القدر لم يمنعهم مزاياهم وحدها وفضائلهم ، بل منعهم رذائلهم أيضاً وجرائمهم . . . فلم يرتقوا العروش على الجماجم ، ولم يسدوا أبواب الرحمة على البشر ، ولم يخفوا حمرة العار والخجل ، ولم يخفتوا صوت الضمير ، ولم يعطروا معابد ترفهم واستكبارهم بالبخور الذى تحرقه « ربّة الشعر »

لقد اتبعوا طريقهم السوى فى وادى الحياة المنعزل البارد ، وساروا فيه صامتين ، لم تتعلم أمانيهم القريبة ، وشهواتهم البريئة الخروج بهم عن صفوف الشعب المناضل على الحياة ، المزاحم على البقاء

* * *

ولـكنهم ــ مع ذلك ــ لم تخل قبورهم ، من أثر للذكرى ضئيل : شعور مكسور ، ونقش محطوم ، يستجدى المارة آهة العطف ، وهمسة التقدير ، ويحفظ عظامهم من أن تهان

* * *

إن هذا الشعر — شعر الأميّة الساذجة — الذى ينطق بأسمائهم وأعمارهم ، يقوم مقام التعظيم والتبجيل والرثاء ، وينثر بين القبور نصوصاً مقدّسة ، تعلم المربين والمعلمين كيف يصمتون ويتعلمون

* * *

وأى امرىء مهما بلغ من خمول الذكر والهوان على الناس يترك الدفء والنور والســعادة من غير أن يتلفت الى الوراء فيودع العالم بنظره . . . إن الروح الراحلة تريد أن تتكئ قبل رحيلها على صدر محب ، والعين المغمضة تحتاج قبل اغماضها إلى دموع الاخلاص . . . بل إن صراخ الحياة لينبعث من صميم القبر فيضرم نارها فى رمادنا البارد

* * *

وبعد ، فيأيها الشاعر الذى يقوم فى المقابر ، ويندب الموتى المنسيين ، إنى لألتفت الآن إليك ، فأرى رجلا مثلك ، شاعراً هائماً ، قد جاء يبحث عما حلّ بك ، وانتهى اليـه مطافك ، فوجد فلاحاً هرماً فسأله عنك ، فقال له :

لقد طالما رأيناه عند انبلاج الفجر ، يسرع الخطو ليستقبل الشمس من ذروة الهضبة

وطالما لمحناه فى الظهيرة متمدداً بجسمـه المنهوك على أقدام تلك الشجرة الهرمة ، وفوق جذورها البادية العجيبـة يرقب الجدول الذى ينساب إلى جانبه ، ويتأمل أمواهه الهادرة المتكسرة ، وطالما أبصرناه هائماً على وجهه بالقرب من هذه الغابة باسماً آناً كأنه ساخر من كل شىء ، وآناً عابساً كئيباً كأنه مضنى هدته الآلام ، أو مريض قتله الحب اليائس

* * *

وفى ذات صباح ، نظرنا إلى الهضبة فلم نجده ، فبحثنا عنه فى الذروة ، وعند الشجرة ، وإلى جانب الجدول ، وبالقرب من الغابة فلم نقع له على أثر

ثم رأينا شاعراً آخر يحتل مكانه

ثم رأينا بعـدُ نعشه محمولاً إلى المقبرة ، ترتل من حوله أناشيد الموت

* * *

وها هو ذا قبره ، قائم تحت تلك الشجرة التى كان يجلس اليها ، فتعال اقترب ... اقرأ ما عليه :

« هنا .... فى حضن الارض ، يرقد شاب تجهله الثروة ولا يدرى به المجد ، ولا يعرفه إلا الحزن الذى اصطفاه خليلاً وهو فى المهد

كان كريماً مخلصاً ، فكانت مكافأته عظيمة ؛ منح البائسين كل ما يملك : وهو دمعه ! ومنحه الله كل ما يطلب : وهو صديق

لم يحب أن يفيض فى ذكر مزاياه أكثر مما أفاض ، ولم يشأ أن يهتك الستر عن نقائصه ، لأنه أودعها كلّها أمانة فى قلب أبيه ، وعند ربه ... »

على الطنطاوى

من شعر المناسبة

إلى زعيم الأمة الأكبر

للدكتور أحمد زكى أبو شادى

تقبَّلْ من الدُّنيا العُلى والتهانئا | وعش هانئاً يا جاعل الشعب هانئا
وهيهات أن تنسى أياديك أمة | درأتَ الرَّدى عنها، ومازلت دارئا
أتنسى أعاصيرَ السنين التى مضت | وإن كنت مَنْ لاقى الأعاصير هازئا
أتنسى جبال الموج حتى كأننا | غرقنا، فلم تيأس ونلت الشواطئا
معاذ الوفاء اليوم تنسى قلوبُنا | فكل فؤادٍ كان عندك لاجئا
وقد كنت للمجد المقدَّس قارئاً | فأصبحت أنت اليوم وحيا وقارئا
لئن عرفَ الشانى بنصرك حقده | فكلُّ عظيمٍ ليس يعدم شانئا
وما عرف الشانى المآثر تبتنى | وغايتُه للشرّ يعملُ ذارئا
صبرت ولكن فى جهادٍ مُضاعف | وفُزْت ولكن عُدت للجهد بادئا
وما القدوة المثلى سواك، وحسبنا | هداك، وما يرضى هداك المالئا
ليصخبْ كما يرضى هواه، فللورى | عقولٌ ترى الحسنى وتدرى المساوئا
رميت بأقوى حُجة بعد حُجة | ويُضحكنى من جاء بالوهم لائئا
ولو نحن نقبنا وَجدناه دائماً | تذبذب حتى ضيع العُمر صابئا
فسمناه فى هذا التهافت ساخراً | وَشمناه فى هذا التحرُّق طارئا
تقدم زعيم الشعب للفتح ثانيا | وَنظم شؤون الحكم سمحا وواضئا
وَجُدْ بغنى الدستور حريةً لنا | فقد مات عهد كان للحر رازئاً
وَدُسْ كلَّ أفعى فى سبيل كاله | فكم دُستَ من قبل الغنى واللآلئا
وَكم قد بذلت التضحيات لأجله | وَما زلت من حبِّ المنافع بارئا
فأهلاً بمن يغلو بنقدك عامداً | وإن فضح الإسرافُ ما كان غابئاً
سترَوى له الأيام حزمك خالقا | مدَى العدْل وَالحكم المنزه كالئا
لئن كان طفلاً فهو باسمك ناشىء | وَحبك كم قد صيَّر الطفل ناشئا
كأنك قد أنجبت جيلاً مؤخراً | وَإن لم تكن بالخير وَالعدل ناسئا
كأنك قد أبدعت جيشك غازيا | وَأسطولك النامى يجوب الموانئا
سنلقى وَيلقى أمةً شع نورها | وَقد كان من فرط التحزب طافئا
وجواً طليقا بالتسامح عابقا | ونبعا سريا ليس يُرجع ظامئا
وذكراً أبيّاً منجبا نفع قومه | وَقد كان مدفونا فأصبح ناتئا
وَأنك أهلٌ أن تناظر مصلحا | سميّك[1]، لا تحيى بلادك جازئا
تحدّيت فى الماضى المصاعب هادئا | كذلك فى الآتى ستلقاك هادئا

(الإسكندرية) **أحمد زكى أبو شادى**

(١) مصطفى كمال منشئ تركيا الحديثة

ذكرى شهيد كلية الآداب

للشاعر الحضرمى على أحمد باكثير

فى مثل هـذا اليوم ثرّ دمُ | تبكى البلاد له ويبتسم
جذلان يمضى للخلود، ولا | يلوى به أسف ولا ندم
خَلَع الشباب على نضارته | لِشــباب مجدٍ ماله هَرَمُ
خلع الشبابَ، فويح رَيِّقِه | لم توفَ منـه للهوى ذِمم!
عينانِ ناعستانِ ترقبُه | ويدان فى لطف النَّدى، وفمُ
كانت ترى فيـه لها حُلُماً | فَصَحَتْ ولما ينقضِ الحُلُم!
ونوازع للشِّعر جائشة | تهفو عليه أسىً وتضطرم
قد كان يذخره ليُجلِسَه | يوماً بحيث تألّقُ النُّجُمُ
قد كان يأمل أن يتمّ به | للضاد ماترنو له الأمم
حتى دعا وطنٌ نخفّ له | شيحانُ فى عرنينه شَمَم
مِصرٌ؛ وأىّ فتى تُهيب به | مصر فليس جوابَهُ «نعم!»
نسى المُنى والأهلَ واحتشدت | فى قلبـه العزماتُ والهِمم
هذا الحِمى نَهْبٌ يعيث به | خصمٌ ألَدّ وطامع نَهِمُ!
جاثٍ على الوادى ينوء به | ويضيقُ من أنفاسه الكظمُ
أتظلّ مصرٌ تحت كلكله! | أيُهان شعب كله كرم؟
أتداس للوادى كرامته؟ | أيُصان من غدروا ومن ظلموا؟
هلا فتى يسـخو بمهجته! | هلا فتى للعزّ ينتقم!
وهناك صاح دمٌ تردّد فى الـ | وادى فلبّاه دمٌ فدم!!
أصغى له (الطاغى) وقبل شكا الـ | شاكى فلم يُسمع له كلمُ
لا يُسمِعُ الخطباء مظلمةً | ما يُسمِعُ الدمُ من به صمم!
يا مصر لم يفِ غيرَ واجبه | مُستَشْهَدٌ لعُلاكِ ينتقم
أنت الـكنانة أرضها ذهب | تنمى الفنون، وماؤها شم

القصص

أقصوصة وصفية

سائق القطار

للأديب محمود البدوى

« تشرب ... ؟ »

« لا ... وأشكرك ... »

فانحنى مساعد السائق ، ووضع القلة الفخارية المفحمة فى ركن من القاطرة ، وانتصب وهو يمسح بيده الماء السائل من جانبي فمه ، وتحول إلى النافذة وقال بعد أن لمح نور إحدى القرى :

« الفكرية ؟ »

« آه ... ... »

« ... ... »

« فحم ... »

ففتح المساعد باب الفرن المستدير ، ورمق النار وهى تتضرم وتلهب ، وطالعه وهجها وسميرها ، فارتد عنها وأمسك بجراف الفحم وقوس ظهره وغيب طرف الجراف فى المخزن ، ثم استدار وتقدم خطوة وعينه على الباب ، ورمى النار بالوقود ، فخمدت جذوتها وتلوت ودخنت ، ثم شبت وامتدت ألسنتها على الحديد والتصقت بجدران الفرن ، ودارت على جوانبها وسقفها ، وزادها تيار الهواء ضراماً وسعيراً ... ورمى المساعد النار بجراف آخر ، ثم رقبها لحظة ، وكأنه شعر بحاجتها إلى المزيد فرماها بجرافين معاً ، وضم الباب بيده ، ونصب قامته ويده على مقبض الجراف ، وطرف كمه الممزق يمسح العرق المتصبب الملوث بغبار الفحم وقطرات الزيت ، ونزلت يده على جنبه وتنفس وقال فى صوت هادئ تشوبه بعض المرارة :

« كل شيء تغير فى هذه الدنيا بعد الحرب ... حتى الفحم »

فسأل السائق وعينه على الطريق وظهره إلى مساعده :

« لماذا ... ؟ »

فقال المساعد فى حماسة غير منتظرة وهو ثرثار ضامر ناحل الجسم معروق :

« كان الفحم قوالب ضخمة ... كارديف ... وكان القالب الواحد يسير قاطرة بأسرها .. كنا ننزل القالب فى حوض

وعلى سمائك صحو عاشقة هبت سحيراً وهى تبتسم
ترعى « الجزيرة » فيك نهضتها وبجبل ودٍّ منك تعتصم
قد بتأملين فكلها أمل أو تألمين فكلها ألم
ما تنقلين لسؤددٍ قدماً إلا وتقفوها لها قدم
فاستقبلى (العهد الجديد) بما تجلى به عن أفقك الظلم
قوى عتاد الجيش تحترمى فالجيش دون الحق يحترم !
إنا لفى زمن يسود به بين الشعوب الفاتك الحطم
السيف يخطب فيه مرتجلاً فى العالمين ، ويهمس القلم !
بدأ الجهاد اليوم — إذ فرغت من قدحه كفاك — يحتدم !
دون المرام مصاعبٌ غُلُبٌ لكنها بالعزم تقتحم
وبنوك قد عزموا الخلاص ولن تقف الرواسي دون ما عزموا !
آمنت أنهم بما اتحدوا غابُ الأسود وأنكِ الأجم

***

شهداء مصر أيهنكم نُزُلٌ بجوار (سعد) يحوطه العِظم
أقسمتم بشراء أنفسكم فى حب مصر فبورك القسم
ولتحيَ « مصرُ » ويحيَ « عاهلها » و « زعيمها » و « النيل » و « العلَم »

علي أحمد باكثير

الورشة ونضربه ضربتين على يافوخه ، ومثلها على جنبه ، فيتهشم ويتناثر ، فننضحه بالماء ، وندفع منه الجرافين أو الثلاثة فى النار وننام على حسه ! ! أما الآن فهذا الفحم كميدان الذرة لا خير فيه . . »

فتحول اليه السائق بجانب وجهه ، وبصره لا يزال عالقاً بالقضيب ، وقال باسماً فى خبث :

« تعبت ... ؟ »

« تعبت !! لايزال نور (المنيا) بادياً . . رحم الله أيام الشباب ، كنا نعمل فى الورشة أكثر من عشر ساعات وقوفاً على الأقدام ولا نفكر حتى فى الطعام . كان أحسن الله إليه ... »

وحبس سيل الكلام بعد أن بصر بالسائق يتراجع إلى الوراء ويرقب البخار . . وسأله :

« ٥٩ ؟ . . »

« ٨ .... »

ثم نسى ما كان فيه من حديث وأمسك « بالاسطبة » وأخذ يلمع جوانب الفرن وعجز الآلة الضخمة ويزيل الزيت اللاصق بالحديد والنحاس ، والانابيب الصفراء الملتوية والمدنية الدقيقة ؛ ولما وصل إلى محبس البخار بدا له أن ينفس عنه قليلاً ، ففعل ، وهب البخار القوى من بوق القاطرة وهو يئز وينش وطار مع التيار ، ولما قفل المساعد المحبس ثانية رضت أصابعه بعض المفاتيح الصغيرة ، فعبس وكشر ، وصمت محنقاً ، وكان صمته منتهى ما يرجوه السائق !

وكان السائق واقفاً عند نافذة القطار الزجاجية الصغيرة يرقب الطريق ، وهو يدخن ؛ وكان يتحول عن موقفه من حين إلى حين ليلمح الساعة وضاغط الهواء ودرجة البخار ومقياس الطريق ، ثم يعود إلى مكانه عند النافذة ، ويده فى سرواله الأزرق ، وسترته تنحسر عن صدره العريض القوى البارز ، وعلى كتفيه وفى طرف كمه الزيت الملوث بالفحم المنضوح . وكان فى وقفته ساكن الملامح ، هادئ النفس ، ثابت الجوارح ، راسخ القدم ، فعل الواثق من نفسه وعمله ؛ وكان لصلابة عضلاته ووثاقة تركيبه وقوة أعصابه أثر واضح فى ذلك

أما المساعد فقد مال بظهره على ركن القاطرة تحت مخزن الفحم بعد أن أشعل سيجارة من جمرة جذبها من الفرن وانطلق يدفع الدخان ويفكر ، ونظره لا يتحول عن السائق الواقف أمامه فى حلته الزرقاء . ولما مد السائق رجلا وثنى الأخرى وعينه مستقرة على الطريق ، انتصب المساعد وحدجه بطرفه ، وتحول الى ظله الجارى على الأرض ، وأنعم فيه النظر فى سكون حتى بصر به ينسحب بعد لحظات فرفع وجهه ، وكان السائق قد انحنى عليه وفى فمه سيجارة جديدة فأخرج المساعد سيجارته من فمه وناولها إياه ، وقد تلاقت عينا الرجلين واختلطت أنفاسهما ، ونظر المساعد فى حدة الى عينى صاحبه العميقتين السوداوين ذواتى البريق العجيب ، والى ملامح وجهه المعبرة القوية الساكنة وجبهته العريضة البارزة ووجهه الأبيض المستطيل . . وأحس بتضعضعه وخوره أمام قوة صاحبه وغلبته ؛ شعر أمام السائق بالعجز والضعف والونى فتحسر وتقبض ، ولما ارتد السائق الى مكانه من النافذة أخذ المساعد يتفرس فيه ، ويقارن بين جسمه القوى المصبوب ، وبين نفسه ، وهو الناحل الضامر المعروق . وفتق هذا التأمل المستكن ذهنه حتى أخذ يستعرض فى مخيلته عمل كل منهما ، وشغله هذا التفكير حتى نسى أن ينفض عن السيجارة رمادها أو يمحو عن فمه ما ارتسم عليه من أسى مشوب بالحقد والحسد ... وانطلق يحدث نفسه :

« ما الذى يفعله هذا السائق . . يحرك القطار فى المحطة ثم يتركه بعد ذلك للأقدار . . ويمضى معظم الليل واضعاً يده فى جيوبه يدخن ، ويتلهى بالنظر إلى الطريق ، وكل ما يعمله هو عقرب الساعة ومقياس البخار والضغط والطريق . . وبعض الأحيان يتواضع ويمسح ما على الساعة من غشاوة !! ثم بعد هذا كله يلقى الأوامر : غذّ النار . . ندّ الفحم . . زيّت الآلات . . أما أنا فأظل الليــــل طوله واقفاً على باب جهنم ، أضرمها وأغذيها وأصلى بنارها وأمسح ما على الحـديد من غبار وفحم وزيت ، حتى يلمع ويصقل ، وجسمى عليه ضعف قاذوراته . وإذا وقف القطار فى المحطة نزلت تحت المجلات وانبطحت على الأرض لأزيّت العدد الصغيرة والمفاصل والدوافع والجواذب وأمسح ممدن الذراع ، فحتى هذا يجب أن يكون لامعا ! . وإذا ملأنا مخزن المـاء طوقت الخرطوم بذراعى ودفعته عن الخزان بجسمى فيصيبنى هاطله ويزيدنى بلاء على بلائى ... هـذا هو عملى وعمله ، ومع هذا فأجره ضعف أجرى ويزيد ، وأوقات فراغى وراحتى ليست كأوقات فراغه وراحته ... وامرأته عاقر وامرأتى تجىء فى كل عام بمولود سعيـد !! وأولادى من فرط الطوى ضامرون مهزولون يترقبون الصيب من السماء ليربوا ويكتنزوا ويملأوا البطون بالطعام والسماء لا تجيب ! وهو فارغ

قوى مفتول يفور جسمه بحرارة الشباب ، وأنا فمى ء ناحل معروق تقوست قناتى ، وشابت شباتى ، وأضحت جلدتى تتخدد . والحياة تقبل عليه بوجهها وتدبر عنى ... ومن يدرى ؟ ربما كان لقوته وسطوته سبب فى ذلك ، فما تحط الحياة إلا على أمثالنا من الضعاف المرضى المناكيد ، وما كنا مناكيد إلا لأننا مرضى ، ولو كنا أقوياء مثله لخافت بأسنا ، واتقت شرنا ، وأحنت لنا الرأس فسرنا فى مسالكها شامخين ... »

« فخم ... ... »

فاستفاق المساعد من خواطره على صوت السائق الرنان ؛ وفتح باب الفرن وأقبل على النار يغذيها بالوقود وهو صامت صابر

***

عندما جاز القطار محطة (ملوى) كان الليل قد انتصف واعتدل الجو ، وهب النسيم العليل من جنبات الوادى الخصيب ، فأثر هذا الجو الرخى المنعش على خواطر المساعد ، فخف حسده على صاحبه وزالت نقمته عليه ، ووقف ينصت لدوى القطار وهو ينهب الأرض ويطوى القرى والدساكر ، وقد خيم عليها النخيل وطواها الظلام فى جوفه ، حتى بدت صامتة موحشة رهيبة ، ثم بارح مكانه وأخذ يجرف بعض الفحم من المخزن ويهيئه على عتبته للنار ، وبعد أن فرغ من ذلك أشعل سيجارة ونظر إلى السائق وود لو يحادثه ؛ يثرثر معه فى أى موضوع ، ويتكلم عن أى شيء ، دون أن يكون لكلامه وقع أو غرض أو غاية ، فما كان يعنيه هذا ، وإنما حسبه أن يتكلم لأن الصمت يمله ويضجره ويأخذ بخنقه ويثير أعصابه . . . . وفتح فمه ثم أطبقه ، وكان يعرف أن السائق قليل الكلام طويل الصمت . وتنحنح وسعل وأطل من النافذة فطن فى أذنيه التيار الشديد ، وسفى فى وجهه الغبار وجرى على وجهه دخان الفحم ، وسمع صفير قطار من بعيد فبقى فى مكانه ليحيى سائقه إن أمكن . ! ومر قطار البضاعة يجلجل على القضبان ، فقال المساعد : وكأنما انبعث صوته من أعماق هاوية سحيقة

« ٣٦٧ : . ؟ »

« نعم ... »

« من الأقصر ... ؟ »

« آه .. وخزن فى أسيوط ... »

« توفيق شاكر ... ؟ »

فهز السائق رأسه موافقاً ، وصمت المساعد لحظة كأنما يستعرض فى ذهنه صوراً باهتة يحاول بروزها ووضوحها وغير من نبرات صوته وهو يقول :

« كان سائقا للقطار ٧٢ ... أزلوه ... بعض الأحيان تتحكم الأقدار ... »

فلم يقل السائق شيئاً وأخذ يتمثل فى مخيلته صورة حادث توفيق كما سمعه من رفاقه ... ثم وضع يده على جبينه يتفرس فى الطريق ، يستشف الحجب ، ماوراء الغيب ، ما فى بطن الأقدار

فقال المساعد وقد طاب له أن يجد ما يتحدث فيه :

« كان خارجا من ورشة سوهاج ... ليوصل القطار إلى الأقصر ... كانت السرعة أكثر من اللازم ، وكان العامل يتخطى القضبان ... توفيق نفسه لا يدرى كيف مات الرجل .. شهد عليه عامل « البلوك » و « اثنان من الخفراء »

فقال السائق وقد حز فى نفسه الأسى على صاحبه

« سيء الحظ ... وكان عليه أن يحاذر »

فقال المساعد بصوت وإن :

« يولد كثير من الناس ليموتوا تحت العجلات ... فما الذى يدفعه الحذر والسائق والكشاف ونور الكشاف ؟ مرت على المرء كثير من الحوادث العجيبة التى تبعث على الدهشة والتفكير العميق ... كنا قد بعدنا عن ديروط وفلاح مسكين ، على جمله ، ينتظر مرور القطار ، ومر القطار وفزع الجمل ، ورمى الرجل تحت العجلات . قد يكون مر على هذا الجمل مائة قطار وهو ساكن ثابت ولكنه جفل فى هذه المرة لسبب لا نفهمه . »

فقال السائق وقد بدت على وجهه البشاشة :

« ولكن إذا كان الفلاح قد رد الجمل عن حديد المر وبعد به عن الشريط أكان يموت ؟ »

« كان لا يستطيع فى تلك الساعة أن يفعل ذلك ... كان لابد أن يموت فمات »

ومر القطار على حقل كبير من القطن وقد تفتح ونوَّر فتحول المساعد إلى الحقل وراقب السائق مقياس الطريق لحظات ثم أدار المحرك إلى اليسار قليلاً ، فقد بدأ الوادى ينحنى والشريط يدور ، وكان يعرف هذه الطريق أكثر من موضع أنفه من وجهه ، وهدأت حركة الآلات نوعاً ، ثم أرجع المحرك إلى مكانه بعد توان ، وارتد عن النافذة ووقف أمام الفرن ، وطرفه على الساعة والمقياس ، واستمر هكذا مدة ، ثم أدار المحرك إلى اليسار

مرة أخرى فى شدة حتى تمدى الكثير من الدرجات ، فقد وصل القطار إلى طريق مرمم واهن لا تزال تجرى عليه أيدى العمال فى النهار . . ودار بخلده أن أحد العمال قد يكون ترك سهواً بعض الأدوات الحديدية على الشريط ، فمد بصره إلى نهاية نور الكشاف وثبت نظره على حديد القضبان . . . وفكر فى نفسه أنه بعد نصف ساعة وستمائة ثانية سيدخل محطة أسيوط ؛ وسره هذا كما سره خروجه منتصراً من الطريق الرمم . . وبعد أن لمح القياس أدار المحرك بالتدريج إلى اليمين ، إلى نهاية ما تتحمله أرض النيل السعيد ! وكان يود أن يعوض بتلك السرعة الجارفة ما قضاه وهو سائر ببطء على الطريق الواهن . . وانطلق القطار كالسهم يطوى القرى وزلزل تحته الأرض

وقال المساعد :

« النيل عال . . وشديد »

فقال السائق وقد تحول بوجهه إلى النيل فرأى بعض المراكب الشراعية تسير مغالبة التيار

« أتخاف أن تنقطع الجسور ؟ »

« لا ... جسور القطارات هى آخر من يصيبه الأذى دائماً ! »

وبقى نظر السائق ثابتاً على النيل وقد راقه هول الليل عند الأفق البعيد

وأطل المساعد من النافذة وبصره على الأرض الجارية ... وخيم صمت عميق

وقال المساعد بعد دقائق بصوت يرتعش :

« رجل ... »

« ماذا . . ؟ ؟ ؟ »

« رجل تحت . . ا ... »

فتلفت السائق فى سرعة البرق حيث أشار مساعده فرأى شبه شبح يضطرب فى غمرة الليل . . فصفر وألقى الشبكة وأدار المحرك الى اليسار فى حذر شديد . . . وكان قد فوجىء بالأمر فاضطرب جسمه قليلاً وجاشت نفسه ... ثم حبس البخار ... وأحس بعد مدة بضغط الفرامل وجلجلة العدد وقد أجبرت على البطء على غير انتظار ، ووقف وروحه تثور ونفسه حانقة ساخطة . كان يود أن يدخل محطة أسيوط فى الساعة الواحدة والدقيقة الرابعة والعشرين ... منذ خمس سنوات لم يتأخر فى حياته مرة .. مرة واحدة . . . كان دائماً يحاذى الرصيف وعقرب الثوانى على الستين . كم كان يشعر بالفخر والزهو والشموخ والتعالى على الأخوان ، كم كان يشعر بالزهو والفخر وهو العارف بأنه المسيطر على الحديد والنار . كان إذا تأخر فى أثناء الطريق يغذى النار ويدفع البخار ويجهد العدد ليدخل المحطة فى ميعاده ... ولكنه الآن سيتأخر لأول مرة فى حياته كسائق سيتأخر ... سيتأخر ... لا دقيقة ولا دقيقتين ولا ثلاثا ... بل أكثر من ذلك . شعر بنفسه تذوب حسرات ، أحس بالآلات تئن وتتوجع وتدق كالطبول ... كانت ضربات الضاغط والدوافع وسحبات الذراع ورجمات « البستون » ... تدوى فى أذنيه كالطاحون البالية ، كالدافع المنطلقة على غير هدى فى وادى التيه . أحس بدمه يفور ... وروحه تثور حتى عقدت جبينه السحب .. ولكن يده القوية كانت لا تزال على المحرك ، والقطار يحبس نفسه ويغالب قوة دفعه ... أى مأفون هذا الرجل الذى عبر الشريط هكذا وألقى بنفسه الى التهلكة ... ؟ وتصور الرجل وقد تمزق وطارت أشلاؤه ، وطحنته العجلات ، وجرى دمه مع الزيت فتفطر قلبه على الرجل المسكين ... ووقف تتملكه أعصابه الحديدية . صامتاً ... حتى أحس بعد مدة بالآلات تجاجل وتطيل ، والبخار ينش ويئز ، والذراع يغالب ويجاهد ، ويطوح بنفسه فى ثقل ثم يدركه الونى فيحتضر

* * *

ونزل السائق ودار حول مقدمة القاطرة ، ثم انحنى ودخل تحتها يفحص العدد الصغيرة والآلات المحركة وخرج بعد دقائق ووجهه ينضح عرقا ، وعلى معارف وجهه الساكنة آيات الهدوء المطلق ، ووراءه مساعده وهو يستقيم بظهره القوى عند العجلات الأمامية ثم يتراجع خطوتين إلى الوراء ويتقدم تجاهه وهو يضرب بقدميه الزلط الملقى بجانب الشريط ، وكان لصوت قدميه دوى مسموع فى الليل الساكن ، وتوقف المساعد عن مسح عمود الذراع وقبض براحته على « الاسطبة » الملونة بالزيت القذر ، وقال وهو يميل بوجهه إلى حيث صاحبه :

« لا شىء ... ؟ »

« لا شىء فى العجلات الأمامية ، وإنما أثر الدم واضح فى التروس الخلفية التى أخذ عندها الرجل ، على أن العدد سليمة ولا أثر للحم ولا عظام ... »

فصمت المساعد وكأنه يفكر ، ثم استأنف عمله وكان المشعل الصغير الذى فى يسراه ينتفض ويخبو ويشتعل ويميل لسان اللهب يمنة ويسرة تبعاً لهبات الرياح . . وكان الزيت قد امتزج بعرقه

البريد الأدبي

وفاة عميد الموسيقى الانكليزية

نعت الينا الأنباء الأخيرة السير ادوارد جيرمان عميد الموسيقى الانكليزية توفى فى الرابعة والسبعين من عمره بعد حياة موسيقية حافلة ، وكان مولده فى ستروبشير فى سنة ١٨٦٢ ، وتخرج من أكاديمية الموسيقى الملكية ، وظهر لأول مرة بقطعته الأوبريت المسماة « الشعراء المتنافسون » The Rival Poets وفى سنة ١٨٨٩ عين السير جيرمان مديرا للموسيقى فى مسرح جلوب بلندن ؛ وفى نفس العام وضع تلحينه لرواية رتشارد الثالث لشكسبير ؛ ثم أتبعه بتلحين عدة روايات أخرى من روايات الشاعر الكبير مثل هنرى الثامن وروميو وجولييت ؛ وكما تحب ، وهملت وغيرها . ووضع السير جيرمان قطعاً موسيقية مستقلة نالت نجاحا عظيما ؛ واشتهر بحفلاته الموسيقية الرائعة فى أواخر القرن الماضى ، كما اشتهر اشتراوس فى ڤينا . وله عدة مقطوعات موسيقية شهيرة مثل «الجزيرة الخضراء» التى وضعها لسوليفان ؛ وانكلترا المرحة ؛ وأميرة كنسنجتون وغيرها ؛ وألف كبلنج مجموعة غنائية شهيرة عنوانها Zust so Song Book ؛ وهو الذى وضع نشيد التتويج للملك جورج الخامس ، وعزف أثناء تتويجه فى سنة ١٩١١ .

ومن مؤلفاته أيضاً مجموعة كثيرة من الأناشيد والأغانى ؛ وهو كثير الشبه فى أسلوبه بأسلوب سوليفان ، بيد أنه يسبغ عليه من ابتكاره طابعاً خاصاً ؛ ويتجه بنوع خاص الى الروح الانكليزية القديمة

كتاب عن النيل لأميل لودفيج

ظهر أخيراً فى لندن كتاب جديد للمؤرخ الألمانى الشهير أميل كون المشهور فى عالم التأليف بأميل لودفيج ؛ وهو كتابه الموعود عن « نهر النيل » . وكان لودفيج يشتغل بتصنيف هذا الكتاب منذ عدة أعوام ؛ وقد خطرت له فكرة تأليفه مذ زار مصر والسودان فى سنة ١٩٢٩ ، وأثرت فيه مناظر النيل وروعته الخالدة . وعرض لودفيج فكرته على المغفور له الملك فؤاد فأولاه كل عطف وتشجيع ، ولقى من جانب السلطات كل معونة فى الوقوف على ما أراد من المعلومات ، ومراجعة ما شاء من المستندات . ولودفيج مؤرخ بالفطرة ، وليس بعالم جغرافى ، ولكنه لم يجعل من كتابه عن « النيل » بحثاً جغرافياً جامداً ؛ وإنما اتبع فى وصف النيل ومناظره ووديانه وفيضانه نفس الأسلوب الذى يتبعه فى كتابة التاريخ ، فكما أنه لا يعنى فى ترجمة

الماطل وسال من يده على ساعده ولوث الكثير من جسمه ، فمسح الرجل الزيت فى سرواله ، بعد أن رمى الأسطبة على الأرض ، ودارت يده حول ذقنه ورفع المشعل إلى مافوق رأسه ، واستدار ومد بصره وكان الكثير من الركاب يطلون من النوافذ ووجوههم إلى الخلف ، وظلهم للواقف منهم على الأبواب واضح على الأرض ، وعامل العربة الخلفية يتحدث مع (الكمسارى) وحولهما بعض الناس

واعتمد السائق على حديد النافذة وأخذ يدخن ونظره ممدد إلى الوراء حتى رأى عامل الاشارة يلوح برايته ، فقال لمساعده : « اطلع ... »

فطلع المساعد إلى القاطرة ووضع الزيتة جانبا ، وبعد السائق عن النافذة الجانبية ووقف أمام الآلة يحدق فى الساعة ، ثم مد يده وأدار المحرك إلى اليمين قليلاً فتحركت العجلات الأربع الأمامية الصغيرة فى بطء وثقل شديد ، ودارت العجلات الأربع الكبيرة التى خلفها على الفارغ ، ارتفعت عن القضبان ودارت على الفارغ فى سرعة وجنون ، وزفر القطار وأز البخار ونش ، وشال الذراع وحط ، وتحركت العجلات الأمامية ولامست العجلات التى خلفها القضبان ، وشال الذراع وحط وتقدم القطار وهو يئن ويتوجع وينوح ... تقدم القطار فى بطء وحزن من غير صفير !

محمود البدوى

الأشخاص بالحوادث العامة قدر عنايته بالحوادث والصور الخاصة وقراءة الأفكار والمشاعر من الأعمال والتصرفات الشخصية ، فكذلك قد عنى بأن يبرز من النيــل شخصيته المعنوية الرائعة وما يرتبط بها من الصور والأفكار التي ترجع إلى غابر العصور ، وتسبغ على النيل طابعاً من العظمة الخالدة . وكتاب لودفيج شعرى ووصفى أكثر منه جغرافيا ، وإن كان المؤلف لم يهمل تقديم المعلومات الجغرافية الكافية . وقد صدر كتاب لودفيج بالانكليزية لأول مرة ، ولم يصدر بالألمــانية ، لأن لودفيج من الكتاب اليهود الألمـان الذين شردتهم ألمـانيا الهتلرية ، ونزعت منهم كل حقوق الطبع والنشر في ألمـانيا ، وحرمت دخول كتبهم في الأراضي الألمـانية ، ولذلك يصدرون اليوم كتبهم في لندن وباريس وامستردام ، تارة بالألمـانية وغالباً بالانكليزية أو الفرنسية

وفاة مشترع نمسوى

من أنباء النمسا أن الدكتور يوسف ردلنج المشترع النمسوى الكبير قد توفى في التاسعة والستين من عمره ؛ وقد كان الدكتور ردلنج حجة في المسائل القانونية والادارية وخصوصاً ما كان منها ذا صفة دولية ؛ وكان حتى وفاته عضواً في محكمة العدل الدولية الدائمة ؛ وكان أيضاً من أقطاب الساسة النمسويين في أواخر عهد الامبراطورية ، وقد شـغل منصب وزير المالية في آخر وزارة للامبراطور كارل ؛ ثم تولى الوزارة مرة أخرى في سنة ١٩٣١ . ومنذ سنة ١٩٢٦ يشغل منصب أســتاذ القانون العام في جامعة هارفارد

وللدكتور ردلينج عدة مؤلفات قانونية شهيرة منها كتاب عن اجراءات مجلس العموم البريطاني ، وكتــاب آخر عن الحكومات المحلية الانكليزية ؛ وهما من أحسن الكتب في موضوعيهما

صورة حية للانسان الأول

نشرت صحف هلسنجفور نبأ غريباً عن عثور بعثة للصيد على مخلوق مدهش نصفه قرد ونصفه إنسان في بعض أحراج ريفا عاصمة لاتفيا . وتفصيل النبأ أن بعثة صيد كانت تجوس خلال إحدى الغابات الكبيرة في تلك المنطقة ، فلحظ بعض أفرادها ذلك المخلوق جاثماً عند ساق شجرة ؛ فلمـا اقتربوا منه فر هاربا ، وتسلق أحد الأغصــان المدلاة ، وصعد إلى أعلى الشجرة بشاقة مدهشة ؛ فصوب أحد الصيادين بندقيته إليه وأطلق النار عليه فصاح المخلوق صيحة مزعجة ، وسقط على الأرض مضرجاً بدمه . ولـما قبض الصيادون عليه وجدوه مخلوقا عاريا وقد نما الشعر في جسمه حتى غطاه . فحملوه إلى القرية القريبة ، وهنالك تبين أن هذا المخلوق كان عاملاً في إحدى المزارع ، وقد فر منها منذ بضعة أعوام ولم يظهر له أثر بعد

ولا يستطيع هذا الانسان القرد أن يتكلم ، كما أنه لا يفهم مايقال له ؛ ولـكنه يصيح سروراً حينما يقدم اليه اللحم والفاكهة وقد أثار هذا الاكتشاف الغريب اهتماماً خاصاً في الدوائر العلمية ؛ ويرى بعض الباحثين أن اكتشاف مثل هـذا المخلوق يدلل بصورة حية على الصلة القوية التي توجد بين الانسان وبين بعض أنواع القردة ، وهى صلة يدلل عليهـا العلامة داروين في كتابه « أصول الأنواع » ؛ ثم إن منظر هـذا المخلوق يذكرنا بالانسان الأول في أطوار همجيته الأولى في عصور ما قبل التاريخ

أسرار المجتمع الالباني

ألبانيا من البلاد البلقانية القديمة ، ولـكنها مازالت غارقة في غمار المـاضي ، ولا يعرف عن حياتها الداخلية سوى القليل ، وقد رأى كاتب وصحفي انكليزي معروف هو مستر برنارد نيومان عاش في ألبانيا أعواماً طويلة أن يضع كتابا عما شهده ووقف عليه من أسرار هذه البـلاد المجهولة ؛ وأخرج كتابه أخيرا بعنوان « باب ألبانيا الخلفي » Albanian Back Door ؛ ويقول المؤلف إنه دخل ألبانيا من بابها الخلفي فوجدها بلادا لا فن فيها ولاموسيقى ولا آداب ، ولـكنه وجد فيها شعبا يرتبط أفراده فيما بينهم بكلمة اللسان فقط . ومن المأثور في تلك البلاد أنه إذا توفى شخص فأن الناس لا يسألون عن سبب وفاته ، ولـكن يسألون عمن قتله ؟ ذلك لأن مبـدأ الثأر لا يزال يسود جميع الطبقات والأسر ، ولا يهدأ بال انسان حتى يقتل خصمه ؛ وكل فرد في قبيلة يحمل بندقية . ويقول لنا المؤلف أيضا إنه عقد عهد الأخوة الدموية مع ألباني ، ووجـد أن أهم آثاره ينحصر في احترام

الأخوين كل لحياة صاحبه . وقد طاف مستر نيومان فى جميع أرجاء ألبانيا بمجلته التى كانت مثار الدهشة ، والتى فى كل مكان حفاوة ودية بالغة ، واستطاع خلال طوافه وإقاماته المديدة بين مختلف الطوائف والطبقات أن ينفذ الى الروح الألبانية ، وأن يعرف كثيرا عن أخلاق هذا الشعب وعاداته وتقاليده . ولكتابه قيمة تاريخية واجتماعية كبرى ، ومعظم الكتاب الذين كتبوا عن ألبانيا فى العهد الأخير يقصرون عنايتهم على مسائلها السياسية والاقتصادية ، ولكن مستر نيومان لا تعنيه هذه المسائل ، وإنما يحصر جهده فى المسائل الاجتماعية والاخلاقية

كيف يعامل الكتاب فى ألمانيا النازية

أضحت ألمانيا جحيم الكتاب الأحرار من كل لون وكل أمة ؛ وقد هجرها جميع كتابها ومفكريها الأحرار مذ عصفت بها ريح الطغيان الحالية ؛ ولكن ألمانيا النازية ما زالت تضيق ذرعا حتى بالضيوف إذا كانوا أحراراً ؛ فقد روت بعض الصحف السويدية أن الكاتب الروسى الكبير ايفان بونين الذى أحرز جائزة نوبل فى الآداب منذ عامين ، قد عومل فى ألمانيا عند زيارته لها معاملة سيئة ، وأنه قبض عليه وعذب فى سجن « الجستابو » : (سجن البوليس السرى السيسى) ؛ وكان بونين يقوم بزيارة عادية لمدينة لانداو فى جبال الالب طلبا للراحة والنزهة ، ولكن بونين معروف بأنه كاتب حر ، وأنه حمل فى بعض كتاباته على النظم الطاغية التى تسود ألمانيا فى الوقت الحاضر ؛ ومع أنه من الروس البيض (خصوم البلاشفة) فان مجرد كونه انتقد ذات يوم نظم النازى كان سبباً فى القبض عليه وتعذيبه . وقد أثارت كتابات الصحف السويدية عن هذا الحادث الرأى العام الدولى ، فبادرت وزارة الدعاية الألمانية إلى إنكاره ، ولكنها سلمت بأن إيفان بونين كان أثناء زيارته لألمانيا موضوعا تحت الرقابة السياسية !

حول مباراة المولد النبوى

تناولت الصحف فى الأيام الأخيرة موضوع مباراة المولد النبوى وما انتهت اليه باختيار رسالة الأستاذ عبد الله عفيفى — على الرغم مما فيها من العيوب التى اضطرت الوزارة إزاءها أن تمنحه نصف المكافأة — وأشارت بعض الصحف إذذاك إلى أن اللجنة التى ألفت من هيئة كبار العلماء لفحص الرسائل التى تقدم بها ١٣٣ كاتباً من مصر والأقطار العربية ، كانت قد اختارت من مجموعها ثلاث رسائل إحداها رسالة الأستاذ عفيفى ، وطلبت هذه الصحف إلى الوزارة بهذه المناسبة أن تقسم النصف الثانى من المكافأة بين صاحبى الرسالتين الثانية والثالثة تقديراً لما بذلا من جهد ، وتحقيقاً لبعض ما علقا من آمال ، وإنفاقا لهذا المبلغ فى الناحية التى أرصد لها ، ولأن الاقتصار على مكافأة واحدة فى مباراة كهذه فيه شىء كثير من الغبن وتثبيط الهمم لا يتفق مع ما ترى اليه المباريات العامة من التشجيع وإظهار الكفايات المغمورة

ولقد كان غريباً بعد هذا أن ينشر الأستاذ عفيفى بياناً فى بعض الصحف يشكو فيه من الوزارة لأنها لم تمنحه المكافأة كلها ولم تغض عما فى رسالته من نقص . ويحاول أن يزكى نفسه ورسالته فينشر للمرة الثالثة خطابا أرسله اليه الأستاذ عبد الوهاب النجار أحد أعضاء لجنة التحكيم يصفه فيه بأنه أقدر من كتب فى السيرة بعد القاضى عياض — وتلك شهادة يشكر عليها الأستاذ النجار ويغبط عليها الأستاذ عفيفى — ثم يذهب الأستاذ فى بيانه إلى أنه سوف ينشر رسالته ، ويحتكم فيها الى الجمهور لينتصف لنفسه ولرسالته من وزارة الأوقاف

ولا شك أن الأستاذ عفيفى يعلم حق العلم أنه إذا كان فى هذه المباراة غبن أو ظلم فأنه واقع على غيره ، وأنه إذا كان لأحد أن يشكو ويتظلم فأن الأستاذ آخر من يحق له ذلك .

على أنى أعتقد أن فى الأقدام على هذه الخطوة إثارة لحقائق قد تكون مؤلمة . ولقد كنا نتحاشى ونحن نكاد نلمس الغبن الواقع فى بعض نواحى هذه المباراة أن نلجأ إلى النشر أو الاحتكام إلى الجمهور احتراماً لرأى اللجنة وتنزيهاً لقرار الوزارة عن مظنة الشك والارتياب . أما وقد اندفع الأستاذ فى هذا الطريق فأنا نؤيده فى فكرته ، وسوف نستأنف معه الشوط الأخير ، وللرأى العام أن يحكم ، وللتاريخ أن يشهد ، وللحق أن يأخذ مجراه

(حمامات حلوان) محمد كامل حته
أحد الثلاثة الأول



١ — مقتل عثمان بن عفان : للأديب محمود الغزاوى
٢ — الشخصية
٣ — التربية الانكليزية
: تأليف الأستاذ محمد عطية الابراشى

للأستاذ محمود الخفيف

يعتبر مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه من أهم الحوادث فى تاريخ الاسلام ، إذ كان مقتله نتيجة ثورة عاصفة عاتية ، نسى فيها الثوار — والاسلام فى مستهل ضحاه — مانهى عنه دينهم من قتل النفس التى حرم الله ، وامتدت أيديهم الأثيمة فى غير تردد أو اضطراب إلى عثمان بن عفان خليفة الرسول ، وزوج ابنتيه ، وأحد السابقين الأولين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وسال دم الخليفة الشيخ فى عقر داره ، فلم يشن على أحد غارة أو يشهر فى وجه أحد سيفا ، مما ضاعف بشاعة الجريمة ، وزاد تلك المأساة هولاً ونكرا

ولقد انطوت تلك المأساة على معان كثيرة ، فهى وليدة عدة عوامل ، ثم هى أول حادث من نوعه فى الاسلام ؛ ترى فيها ثورة سياسية ، مازالت تنمو حتى انقلبت إلى فتنة ثم إلى طغيان

وفى هذا الكتاب الذى ألفه الأديب محمود الغزاوى ترى دراسة واضحة لتلك الثورة وتصويراً قوياً لما انتهت اليه من مأساة . مهد لموضوعه بمقدمة مبينة عن الخلافة وما كان من أمر تولية أبى بكر وعمر ، ثم وضح ما حدث من الشورى بعد موت الخليفة الثانى ، وأخذ بعد ذلك يدرس عوامل الفتنة فأشار إلى العداوة القديمة بين الهاشميين والأمويين ؛ ثم درس سياسة عثمان وبين عوامل الثورة ، وشرح حال الفتنة فى الأمصار وصور فى الخاتمة المأساة

فالكتاب يعطيك فكرة جلية عن هذا الحادث التاريخى ، وهو مجهود جدير بالثناء ، نرجو أن تعقبه مجهودات أخرى للغزاوى فهو رجل نشاط وأدب . وأريد ألا أختم الحديث عن كتابه دون أن أشير إلى بعض هفوات لا تتفق وما عرف به من فطنة وحصافة ، فهو فى صفحة ١٣ بينا نراه يحار بين أمرين فى تلمس العلة فى عدم توصية النبى لأحد بالخلافة ، نراه فى الوقت ذاته يشير إلى مخافة النبى من وقوع الانقسام والفتن ، فهل لا يعتبر هذا تعليلا ؟ . وفى هامش ٥٢ نرى خطأ مطبعياً لم يصححه ، كذلك لم يبين المؤلف كيف كان جمع الناس على مصحف واحد عاملاً من عوامل الثورة صفحة ٦١ ، وفى صدد الكلام عن إيثار عثمان أقاربه بالخلافة نراه يثبت فى صفحة ٦٥ أن عثمان عزل عن الكوفة محمد بن عتبة وولى سعيد بن العاص ، ولكن المؤلف عند ما راح ينقد هؤلاء الولاة تكلم عن الوليد كوال للكوفة فماذا كان من أمر سعيد بن العاص ؟ ومتى عين الوليد ؟

هذا وفيما عدا تلك الهنات فالكتاب بحث قيم ممتع . ومما يحمد للمؤلف أنه وضع فى آخره ثبتاً مسهباً للمراجع العربية والأفرنجية وأنه عنى بطبعه عناية جعلت الكتاب فى طبعته الثانية هذه أجمل شكلاً وألطف حجماً مما كان عليه فى لباسه الأول ، وهو مطبوع فى دار النشر الحديث للأستاذ الصاوى وثمنه خمسة وسبعون مليما

— ٢ —

يأتى بعد ذلك كتاب « الشخصية » للأستاذ محمد عطية الابراشى وهو كتاب ظريف الشخصية قويها ، يجتذبك إذا رأيته، ويسرك إذا خبرته : يجتذبك بلطف شكله وحجمه ، ويسرك بما تطالع فيه من عوامل تكوين الشخصية . والأستاذ المؤلف معروف اليوم بكتاباته فى علم النفس ، ولقد كتب عن الشخصية فصلاً فى كتابه فى « علم النفس » ولكن « عن له فيما بعد أن موضوعاً كالشخصية يحتاج إلى كثير من التفصيل والتمثيل ، والآن يسره أن يتقدم إلى قراء العربية وبخاصة شبان اليوم ورجال الغد بذلك الكتاب »

ولقد نحا الأستاذ فى كتابه طريقة سهلة سائغة ، فهو يتعرض للمسألة ثم يوضحها بالأمثلة المتنوعة ؛ ومما يحمد له أنه كان يأتى بها من

الشرق والغرب ، بل لقد كان يتمثل بكثير من الشخصيات العربية ويرينا كثيراً من مواقف البطولة والفضيلة عند العرب ويعرض علينا منهم صوراً ما أجملها وأدقها فى المقارنة بين حاضرنا وماضينا

بهذه الطريقة الشائقة جعل الأستاذ الابراشى كتابه فى متناول كل قارئ فلا يحتاج الانسان إلى كد ذهنه فى تفهمه ، بل إنك إذا تناولته لا تحب أن تدعه حتى تتمه

بيد أنى أحب أن أشير إلى بعض هنات ما أحسبها تنال من شخصية الكتاب إلا بمقدار ما ينال من شخصية العالم الضليع بعض ما تضطره إليه العجلة من الهفوات . فلست أرى رأيه فى المثال الذى أورده فى صفحة ١٠ عن الحجاج وزياد بن عمرو العتكى ؛ وأسأل الأستاذ ما ذا عسى أن يكون موقف الحجاج لو أن زيادا انتقده عند الخليفة وأظهر معايبه ؟ كذلك لا أشاركه رأيه فى أن من أكبر عيوب نابليون شدة قسوته على النوع الانسانى . ثم إنه ذكر نابليون فى صفحة ٥٠ باسم ملك فرنسا وما كان نابليون ملكا فى يوم ما ؛ ثم هو يقول عن باستور إنه أعظم العلماء نفعاً للبشرية وهذا تعميم فى غير محله . هذا إلى أننى لم أفهم ما يرى إليه فى الفصل التاسع ، فأنه يخيل إلى أنه يعتبر نقص الانسان فى الخلقة كأنه أمر مستحب لا ينبغى أن يخشى المرء منه أو يتوقاه لأنه « ان نقص الانسان من جهة حاول أن يكمل نفسه من جهة أخرى » . وما أظن هذا يقع فى جميع الظروف والأحوال ؛ والأستاذ نفسه يشير فى أول الفصل إلى أن الشخص الناقص فى الخلقة كثيراً ما يضطر إلى التكلف والتظاهر وهما من أكبر ما يهدم الشخصية . وفيما عدا هذا فالكتاب جدير بأن ينتفع به شباننا ، وهو من المؤلفات التى نشعر بأشد الحاجة إليها لنبنى بها الجيل الجديد ، ونطبع رجاله على الفضيلة ، ولذلك فأنى شديد الغبطة حين أقدمه إلى القراء

— ٣ —

أتكلم بعد ذلك عن كتاب « التربية الانكليزية » وهو كتاب آخر للأستاذ الابراشى أو هو دليل آخر على نشاطه العقلى ، ويقع فى نيف ومائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير محلى بأكثر من ثلاثين شكلاً توضيحياً

نهج الأستاذ فى هذا الكتاب طريقة العرض ، فموضوعه وصفيا أكثر منه نقديا ، يستطيع القارئ بمطالعته أن يلم بنظم التعليم فى إنجلترا والروح التى تسير تلك النظم . وأعتقد أن الأستاذ أحسن بذلك صنعاً ، فما أحوجنا فى مصر إلى مقارنة نظمنا المدرسية بغيرها من النظم فى البلاد المدنة ، إذ ما تزال تلك النظم عندنا مضطربة لا تكاد تتبين لها غاية ، بل لا تكاد تعرف على أى أساس وضعت . نعم إن لكل أمة ظروفها ولكل أمة وجهتها ، ولكن المقارنة على الرغم من ذلك خليقة بأن تكشف لنا كثيراً من عيوبنا وأن ترينا كثيرا من أوجه الاصلاح ، وعلى الخصوص فيما كان له مساس بالقواعد العامة للتربية والغرض منها مما لا تختلف فيه الأمم كلها اختلافاً كبيراً

تطالع فى هذا الكتاب مناهج التعليم الأولى والابتدائى والثانوى فى انجلترا فى المدارس الشعبية والحكومية ، وتتبين فيه الروح التى تسيطر على كل مدرسة ونظامها المحلى والداخلى ، وما يتعلق فيها بالأساتذة وطريقة اختيارهم ومرتباتهم ورؤساء المدارس وأعمالهم ، كما تتبين الغاية التى يرى اليها التعليم فى جملته ، فلقد أسهب الأستاذ فى الأمثلة وإيراد البيانات والجداول التى تقوم فيها الأرقام مقام الكلام ، ثم تطالع الى جانب ذلك فصولا فى الجامعات الانجليزية ونظمها وكليات المعلمين ، وإدارة التعليم فى البلاد والسلطات المحلية والرئيسية والتفتيش المدرسى وأعمال المفتشين . . . الخ

ولقد يقول بعض الناس ، وأراهم محقين فيما يقولون إن الكتابة عن التعليم ينبغى أن تكون كتابة نقدية تحليلية ، أو بعبارة أخرى ينبغى أن يعنى فيها بالناحية النظرية ويكتفى بضرب الأمثلة ، على نحو ما فعل صاحب « سر تقدم الانجليز السكسونيين » مثلا فى كلامه عن التربية فى انجلترا ، وكما فعل مؤلف هذا الكتاب الذى أحدثك عنه فى كلمته التى صدر بها الكتاب ، وهى « كلمة عامة عن العلم فى انجلترا » . بيد أنى أرى من جهة أخرى أن الطريقة الوصفية تضع أمام المشتغل بالتربية مادة درسه فيستخرج منها ما شاء من النظريات ، وهى فى ذاتها طريقة عملية يظهر أثرها قويا كما أسلفت بين نظم ونظم ، وبالمقارنة يهتدى الى كثير من الصواب . وكذلك أميل الى اعتبار طريقة الأستاذ ميزة كتابه بدل أن أراها عيباً فيه ، هذا ومما يحمد له أنه يشير بين حين وآخر الى ما يراه من أوجه النقص فى نظمنا ذاكرا ما يرى من أوجه الاصلاح والعلاج بقدر ما اتسع له المجال ؛ وحبذا لو رأينا له فى القريب العاجل كتابا عن « التعليم فى مصر » ينتقد لنا فيه ما يراه عندنا من خلل ونقص ويبسط لنا آراءه فيما يرى من سبل الاصلاح

الخفيف

العالم المسرحي والسينمائي

الجريمة والعقاب لدستوفسكي

على مسرح الأوبرا الملكية

لناقد « الرسالة » الفني

لم يكن ليدور بخلدي يوم قرأت الترجمة الانجليزية للرواية القصصية كما وضعها دستوفسكي – وذلك منذ سنين بعيدة – أن هنالك من سيخاطر يوماً باقتباس مسرحية منها ؛ فان من أصعب الأمور أن يعمد كاتب إلى هذا الاقتباس دون أن يحجم مرات خوف الفشل . فاقتباس مسرحية من رواية قصصية معناه تلخيصها ، والتلخيص مهما كان وافياً يعطى صورة غير صحيحة عن الأصل ، ولكن جاستون باتيه المخرج الفرنسي المعروف لم يعبأ بكل هذا واقتبسها وأخرجها على المسرح في باريس فلاقت من النجاح والاعجاب الشيء الكثير مما حدثتنا عنه الصحف الفرنسية

حقاً إنه لحدث عظيم أن تظهر على مسرح مصري رواية لدستوفسكي ذلك الكاتب الألماني العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق ، ونقلت مؤلفاته إلى جميع اللغات الحية ؛ وإنه لنصر عظيم للفرقة القومية أن تخطو خطوة جريئة كهذه وتفتتح موسمها الثاني بهذه الرواية أمام كبار رجال الدولة وشيوخ الأمة ونوابها ، فتعلن فوز الفن العالي والأدب الرفيع

والرواية تقوم على التحليل النفسي العميق ، ولكن في بساطة ووضوح يسهل تناولها لمن كان على قليل من الثقافة ؛ وهي خالية من العوامل المفاجئة والصناعة التي اعتدنا أن نراها في المسرحيات الفرنسية . وفيها أوضح المؤلف غاية الرجل الروسي – في أيام القيصرية – من الحياة ، فهو لا يرى لها غاية غير الألم على عكس الرجل الأوربي الذي يرى غاية الحياة السعادة فيسعى اليها . أما الروسي فيفتتن بالألم ويتكالب عليه ، بل يسعى اليه جاهداً ليصهر في بوتقتــه روحا لا يراها مؤدية رسالتها في الحياة إلا من طريق التفكير والعذاب

نقل المسرحية عن الفرنسية الشاعر الرقيق الدكتور ابراهيم ناجي ، والممثل الأديب فتوح نشاطي ، فجاءت الترجمة سلسلة سهلة مما يلائم موضوع القصة وبساطة الوسائل في معالجة المؤلف للموضوع ، فكان اعجابنا بالترجمة قدر اعجابنا بالاقتباس

ملخص القصة

الطالب راسكو لينكوف شاب روسي نفور عبوس ، شديد الكبرياء على الرغم من طهارة قلبــه ؛ تسممت روحه بفلسفة القوة التي سادت أوربا في نهاية القرن التاسع عشر ، فخيل اليه أنه شخص ممتاز ، وأنه باعتباره عبقرياً وضع نفسه فوق القانون . وكان يسائل نفسه : « لو كان نابليون قد صادف في طريقه إلى المجد عوائق وعثرات ، أكان ينكص على عقبيه ، أم يتقدم في جرأة ويزيلها ؟ »

كان الرد الطبيعي على هـذا التساؤل أن قتل مرابية عجوزا ليثبت لنفسه أنه يمتاز على الناس أجمعين بقوة تتسامى عن الخضوع للقوانين ، ففي رأيه أن هناك أناسا يحق لهم أن يعتدوا على الحياة الانسانية دون أي عقاب ، ولكنه ما انتهى من جريمته حتى أضحى فريسة آلام مبرحة ، فشعر بوحدته القاسية بين الناس ولم يطق البقاء حتى مع أمه وأخته ، وهجر الجميع ليختلف إلى الحانات يختلط فيها بالأوساط الوضيعة

وهناك يلتقي بسكير شيخ جعل يقص على الطالب آلامه وكيف أن إدمانه قد جر على أسرته الوبال من مرض اضطرت معه ابنته أن تسقط في مهاوي العار لتقوم بأودهم ، فيعطف الطالب على هذا المخلوق الملوث . وتدهم هذا السكير عربة فيقضي نحبه ، ويتعرف الطالب إلى الأسرة البائسة ويساعدها بما تملك يده ويحنو على الفتاة الساقطة التي تقوضت حياتها مثله ويرى فيها ملجأه الوحيد في هذا العالم

وكان (بوفير) قاضي التحقيق الذي عهدت اليه قضية مقتل المرابية يشك في الطالب ، وتشاء المصادفات أن يطلع على مقال بتوقيع راسكولنيكوف يشير فيه الى أن هناك طبقة ممتازة من الناس تملك حق ارتكاب الجرائم ، فيلاحقه في حذر ودهاء ، فهو لا يملك برهاناً ماديا ، لأن يقظة الطالب تفسد عليه كل شيء

وهكذا لا تستطيع العدالة أن تقتص من القاتل ، فهل ينجو من يقتل نفساً بشرية ؟ ! لا ، إنه الضمير يهيب في نفسه ويعذبه فتهن أعصابه ولا يستطيع أن يحتمل هذه الحياة ، فيسير الى الفتاة ليلقي على منكبيها هــذا السر الذي أنقض ظهره وعجز عن احتماله ، فترى الفتاة ان الانسان وإن انتصر على عدالة الناس إلا أن في أعماق ضميره عــدالة أسمى وأقسى لا يخفت لهــا صوت حتى يكفر عن جريمته ، فيستمع لها ويخرج من بيتها فيلتقي قاضي التحقيق فيناديه قائلاً « بوفير . انتصر » ويركع أمام أكثر الأفراد الذين ظهروا في المسرحية ويعترف بجريمته

الإخراج والتمثيل

جهود كبيرة ومصروفات باهظة جعلت الرواية مظاهرة إخراج هائلة . ولقد أعجبنا بالمناظر كل إعجاب ، كما أعجبنا بالتاج القيصري الذي يعلو الستار الحريري الجيل الذي يحمل الشعار القيصري ويفصل بين المنظر والآخر ، والحق أن الجهد الذي بذله الأستاذ عزيز عيد يستحق الشكر

ولكن ، هل فكر المخرج قليلا في أن طريقته هــذه في الاخراج تتعارض وأهم خصائص الفن الروسي وهي البساطة ؟

إن تعــدد المناظر وإصرار المخرج على إظهارها كاملة البناء جعل التمثيل يمتد بالنظارة حتى منتصف الساعة الثانية صباحا ، فكنا نشهد تمثيل المنظر في وقت قصير ونبقى طويلاً وطويلاً جداً في انتظار تهيئة المنظر الذي يليه ، وهكذا كان يضيع الأثر الذي تركه التمثيل من ملل الانتظار الطويل . ولقد كان « المايسترو » المسكين الذي يدير فرقة الموسيقى يعيد ويكرر القطوعة الواحدة حتى يشغل النظارة فأرهق وضاعت آثار قطعه التي تعب كثيرا في إعدادها ، ولولا ذلك لاستسغناها وصفقنا لكل مقطوعة منها

إن أهم واجبات المخرج أن يعمل على تركيز إخراجه حتى تأتي الرواية والتمثيل بالأثر المطلوب ، لا أن يتركها هكذا مفككة ؛ وأظن أنه رأى معنا إخراج هملت وروميو وجوليت من الفرقة الايرلندية التي عملت في الموسم الماضي على مسرح الأوبرا . لقد كانت كما قلت في حــديث سابق على صفحات « الرسالة » تعتمد على منظر واحد وتستعين بستار صغير وبالضوء في تبديل المنظر ، وهذا لا يستغرق بضع ثوان . ولو أن الأستاذ عزيز عيد عمد الى هذه الطريقة أو قارب بينها وبين طريقته لمــا اضطر الى حذف أربعــة مناظر حتى لا يتأخر التمثيل عن منتصف الثانية صباحا . فهل للمخرج أن يترفق بالجمهور ؟ !

تحدث معي أحد المعجبين بالأستاذ عزيز مؤيداً وجهة نظره في عرض المناظر في بناء كامل فهو يراها خير من استعمال الستائر مع « الفوندو » ، وإني أخالف هذا الرأي ، فان استخدام الطريقة الثانية أجل إذ هي تجعل الجمهور أكثر انتباها وأكثر استخداما لعقله من الطريقة الأولى ، وهذه الطريقة هي طريقة بدائية . ولو أنك عهدت الى ممثل مبتــدىء باعداد مناظر رواية كبيرة لما فكر إلاّ في اختيار مناظر كاملة البناء لكل فصل وكل منظر من مناظر الرواية . أما الطريقة الأخرى فلا يلجأ اليها إلا الفنان القوي الذي يتغلب على الصعاب ويلجأ إلى كل جديد ؛ واعتقادي في عزيز أنه يستطيع هذا ، ولكني لا أدري لم لا يفعل ؟

والاضاءة عادية تحتاج إلى بعض العناية ؛ ويجب على المخرج أن يستخدمها أكثر من ذلك لتساعد ممثليه على قوة التعبير . وهناك بعض الاضطراب في إضاءة منظر القــابر ولا أظنه إلا خطأ غير مقصود نتيجة الاسراع ، وأرجو أن يتلافاه رجال المسرح كما أرجو ألا يضاء الستار الحريري بضوء قوي صارخ بعد المناظر المؤثرة لأن هذا الضوء يُضيع الأثر الحزين من النفوس

لا يتسع لي المجال للتحدث عن التمثيل بافاضة ، وأكتفي اليوم بأن أذكر أن جميع الأفراد قد أدوا جهوداً كبيرة في سبيل نجاح هذه الرواية ؛ ولكني أحب أن ألفت نظر الأستاذ جورج أبيض إلى أنه لم يكن مستذكراً دوره ، فكان صوت الملقن يرتفع لاسماعه فيصل إلينا في المقاعد الخلفية ؛ وموقفه كذلك مع عباس فارس الذي يعترف له بأنه القاتل لا يحتاج إلى هذه الثورة وهذا الالقاء التراجيدي . والآنسة زوزو الحكيم عليها أن تعنى بالالقاء ومخارج الألفاظ وبتلوين جملها ؛ أما الآنسة أمينة نور الدين فكانت تلقي جملها في خشونة تشبه خشونة الرجال ، وأرجو أن تترفق بالنظارة قليلاً وتخفف من حدتها ؟

يوسف ادريس

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧٩ — ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 179

Lundi - 7 - 12 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الرابعة — « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ رمضان سنة ١٣٥٥ — ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦ » — العـــدد ١٧٩

فهرس العــــــدد

بعد المعاهدة

استقلال اللغـــــة

استقلال اللغة مظهر استقلال الذات؛ ووحدة اللسان جزء من معنى الأمة، واتحاد البيان سبيل إلى توحيد الرأى والهوى والثقافة. فإذا سمعت امرأً يتكلم غير لغته من دون ضرورة، أو يلهج غير لهجته من دون مناسبة، فلا يخامِرْكَ شك فى أنه كذلك فى خليقته وعقيدته ونمط تفكيره وأسلوب عمله. وإذا رأيت أمة تدير فى أفواهها ألسنة الأمم، وتستعير فى أعمالها دلالات الناس، فلا تتردد فى الحكم عليها بالتبعية المدنية والعبودية الأدبية والوجود الملفق. وإذا شق عليك أن ترى فى الأرض هذه الأمة، أو تسمع فى الأمة ذلك الإنسان، فتحامل على شعورك وجل جولة فى إحدى عواصم مصر. فهنا أو هناك تجد فى معارض التجارة، ودور الصناعة، وبيوت المال، وأماكن اللهو، خليطا من الناس كجيش الدُّمُسْتُق (١)

تجمّع فيـه كل لَسْنٍ وأمة فما يُفهم الحدَّاثَ إلا التراجم

(١) الدمستق لقب قائد جيش الروم. والبيت للمتنبى فى وصف معركة (الحدث) وكانت بين سيف الدولة وبين الروم

تدخل متجرا من المتاجر، أو مصرفا من المصارف، أو مقصفا من المقاصف، أو شركة من الشركات، فلا تقرأ في الاعلانات والمستندات إلا كتابة أجنبيــة، ولا تسمع في المحادثات والمفاوضات إلا لغة أجنبية، فإذا حرصت على أن تتفاهم بالعربية لاعتزازك بها أو لجهلك بغيرها، تضاءلتَ في رأى مخاطبك فينظر إليك بشَطر عينه، ويكلمك ببعض شفته، وربما صغرت وصغرت حتى يستسرَّ عليه مرآك فلا يحفِلك. وتغْشى قصرا من قصور الأمراء أو داراً من دور الكبراء، فتسمع النادين يتطارحون الحديث بالفرنسية أو التركية، فإذا شاركتهم فيه بلغتك، وقَرُوا آذانهم عن سماعك، لأنك نقلت الحديث الخطير إلى لغة السوقة، وأنزلت اللهو الوثير إلى مجلس العامة. وتلقى أبناء (الذوات) في المشارب والملاعب والأندية، فتسمعهم يتراطنون بلغة مشوهة التأليف، مدخولة الوضع، بغيضــة اللهجة، من نحو قولهم: (mon cher يا incroyable! ودا شىء). je ne peux pas أطلع l'escalier)

ولو وجدت في هذا الخلط تظرفا من أولئك الأيفاع المدلّين الذين نشّأتهم المهود الأرستقراطية، ونقَّفتهم المدارس الأجنبية، فإنك لا تجد فيه غير حَمَى الروح إذا تكلفه من درج في البيئات الشعبية، وخرج من المعاهد الدينية. فقد حدثوا أن شيخاً من شيوخ اللغة ومعلميها أوفدته وزارة المعارف إلى انجلترا ليلم بطرائق التعليم ومذاهب التربية؛ فمكث تحت ضباب لندن عاما أو عامين ثم عاد، فإذا لسانه قد اعوج وسَمْتُه قد تبــدل! يكلمك فتسمع من وراء (البيبة) كلاما عربى الحروف سكسونى المخارج! فإذا تمضمض بالجملة أو الجملتين في المعنى المألوف توقف وتأفف، ثم راح يزاوج في الفقرة الواحدة بين العربيــة والانجليزية، لأن العربية أصبحت أمام الخاطر الدفاق، والخيال السباق، والمعاني الجديدة، أعجز من أن تسعف اللسان ومجارى البيان وتحدد الفــكرة!

كل ذلك كنا نراه فنشعر بالغربة وسط الدار، وبالذلة بين الأهل، وبالتبعية تحت العلم. وكل ذلك كنا نسـمعه فنحمل الآذان على مكروهه، ونروض الأنفس على أذاه، لأن أمورنا كانت في كل ناحية من نواحي الحياة شذوذا لا يستقيم في عقل، ونشوزا لا يتسق في شعور. فلما أذن الله لوجودنا أن يتميز، ولاستقلالنا أن يتم، كان من المحتوم على أولياء العهد الجديد أن يعالجوا الضعف الذي يوهن وثبات العزة، ويزيلوا النقص الذي يعوق خطوات الكمال

* * *

تريد اللغة العربية من أولياء العهد الجديد أن يطردوا الاحتلال اللغوي من الشركات والبنوك كما طردته تركيا، فيمدوا لها أسباب السيادة، ويهيئوا للعاطلين وسائل العمل، ويضمنوا للأهلين صحة التعامل، ويمصروا هذه البيوت التي تطاول الحكومة في النفوذ، وتجابه الأمة بالعجز، ويشتمل كل منها على دولة وسفارة وامتياز. تريد العربية أن تكون لسان العلم في المدارس الأجنبية، وفي كليات الجامعة المصرية، فإن التعليم باللغــة الأوربية ينقل بعض الأفراد إلى العلم، ولكن التعليم باللغة الوطنية ينقل كل العلم إلى الأمة. وما دام للغة مجمع لغوى قوى يساعدها على النمو، فلن يُخشى عليها في الطريق قصور ولا فشل

تريد العربية أن تأخذ مكانها الشرعي في المحاكم المختلطة ريثما تدك قواعدَها المعاهدة. فإن من أعجب الأمور أن يضيع القانون بين قوم يعيشون بالقانون، ويزهق العدل في دار أقيمت للعدل. وقد كان الأغضاء على ذلك يحمَل على مصانعة القوة ومخادعة السياسة، ولكنه اليوم لا يُحمَل إلا على تفريط العجز وترويض الاستكانة

كذلك تريد العربية أن تطهر من شوائب التركية في الدواوين والقوانين والمدارس والجيش، فلا تحب أن يداخلها بعد اليوم باشكاتب ونوبتجى وبوستجى وقلفة وطابور وتمكخانة ويوزباشى وصاغ وأميرالاى الخ. ولنا فيما يعمل الترك والفرس بالعربية مَثلٌ ماثل ودافع محرض

ذلك ما تريده اللغة من الحكومة. أما ما تريده من الأمة فذلك شيء تلهمه العزة وتمليه الكرامة؛ فإن لغة المرء تاريخه وذاته؛ فالغض منها غض منه، والتفضيل عليها تفضيل عليه، ولا يرضى لنفسه الضعة والصَّغار إلا مَهِين أو عاجز

أحمد حسن الزيات

٥ – القلب المسكين (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحب القلب المسكين فتزعزعت كبده مما رأى؛ وجعل ينظر الى هــذه الفتّـانة تمثّل زفاف العروس وقد أشرق فيها رونقها وسطعتْ ولمعتْ فبدتْ له مُفسرةً في هــذه الغلائل غلائلُ العُرْس؛ وما غلائل العرس؟

إنها تلك الثيابُ التي تكسو لابستَها إلى ساعة فقط...

ثياب أجمل ما فيها أنها تقدم الجمال إلى الحب، فأزهى ألوانها اللون المشرقُ من روح لابستها، وأسطعُ الأنوار عليها النورُ المنبعث من فرح قلبين

تلك الثيابُ التي تكون سكباً من خالص الحرير ورفيع الخز، وحين تلبسها مثلُ هذه الفاتنة تكاد تنطق أنها ليست من الحرير، إذ تعلم أن الحرير ما تحتها...

ثم تنهد المسكين وقال: أفهمت؟

قلت: فهمتُ ماذا؟

قال: هذا هو انتقامُها

قلت: ياعجبا! أتريدها في ثياب راهبة؛ مُكبكَبة فيها كما أُلقيت البضاعة في غرارة، بين سوادٍ هو شعارُ الحداد على الأنوثة الهالكة، وبياض هو شعار الكفن لهذه الأنوثة؟

قال: أنت لا تعرفها؛ إن الرواية التي تُمثّل فيها بين الروح والجسم، هي التي احتاجت إلى هذا الفصل يقوَى به المعنى؛ وكل عاشقة فمشقها هو الرواية التي تمثّل فيها، يؤلفها هــذا المؤلفُ الذي اسمه الحب؛ ولا تدرى هى ماذا يصنع وماذا يؤلف، غير أنه لا يفتأ يؤلف ويضع وينقّح كما تتنزّل به الحالُ بعد الحال، وكما تعرض به المصادفة بعــد المصادفة؛ وعليها هى أن تمثل...

قلت: فهذا؛ ولكن كيف يكون هذا انتقاما؟

قال: إن الأفكار أشياء حقيقية، ولو كُشف لك الجو هذه الساعة لرأيته مسطوراً عباراتٍ عبارات كأنه مقالة جريدة.

هذا الفصل حوارٌ طويل في الهموم والآلام ورقة الشوق وتهالك الصَّبوة؛ لو كُتب له عنوان لكان عنوانه هكذا: ما أشهاها وما أحظاها! إن الهواء بين كل عاشقين متقابلين يأخذ ويعطى...

قلت: ياعدو نفسه ما أعجبَ ما تُدقّق. لقد أدركتُ الآن أن المرأة تتسلّح بما شاءت لا من أجل أن تدافع، ولكن لتزيد أسلحتها في سلاح من تحبه فتزيده قوةً على قهرها وإخضاعها...

* * *

أما هذه (العروس) فكانت أفكارها لا تجد ألفاظاً تحدُّها فهي تظهر كيفما اتفق، مرسَلةً إرسالاً في اللّفتة والحركة والهيئة والقَومة والقَعدة، وهي من علمتَ: امرأةٌ تعيش للحقائق، وبين الحقائق، ككل ذي صنعة في صنعته، فكانت في تماديها خطراً أيَّ خطر على صاحب القلب المسكين، تمثل شيئاً لا أدرى أهو ظاهر بخفائه أم هو خافٍ بظهوره؛ وقد وقع صاحبنا منها فيما لم يدخل في حسابه، فكانت الخبيثة الساحرة كأنها تسكره بعسكر حقيقي غير أنه من جسمها لا من زجاجة خمر.

وكانت لذهنه المتخيِّل كالسحابة المتألقة بالبرق؛ تومِض كلَّ لحظة بأنوار بعد أنوار، وبين الفترة والفترة ترمى الصاعقة...

وظهرت كأنها امرأة مخلوقة من دم ولهب؛ فلقد أيقنتُ حينئذ أن الحب إن هو إلا الغريزةُ البهيمية بعينها محاولةً أن تكون شيئا له وجود فني إلى وجوده الطبيعي، فهو مصيبتان في واحدة، وكل عمله أن يجعل اللذةَ ألذَّ، والألم أشدَّ، والقلة كثرة، والكثرة أكثر، وما هو نهاية كأنه لا نهاية

هذه (العروس) كانت قبل الآن واقفة على حدود صاحبها، أما الآن فأنها تقتحم الحدودَ وتغزو غزوها وتمتلك

يا لَسحر الحب من سِحر! كل ما في الطبيعة من جمال تظهره الطبيعةُ لعاشقها في إحدى صور الفهم. أما الحبيب الجميل فهو وحده الذي يظهر لعاشقه في كل صور الفهم، وبهــذا يكون الوقت معه أوقاتاً مختلفة متناقضة، فني ساعة يكون العقل، وفي ساعة يكون الجنون

(١) نرجح أن يكون القراء قد أدركوا الغرض من كتابة هذه المقالات على هذا السرد الذي وصفته لنا إحدى الأديبات بأن « فيه أشياء مادية ». فنحن نرمى إلى تصوير الغريزة ثائرة مهتاجة بكل أسباب الثورة والاهتياج ولكنها مكفوحة بأسباب أخرى من الدين والشرف والمروءة وفلسفة العقل

يا لسحر الحب ! لقد أرادت هذه المرأة أن تذهب بعقل صاحبها ، وأن تنقله إلى وحشية الانسان الأول الكامن فيه ، وأن تقذف به إلى بعيدٍ بعيدٍ وراء فضائله وعصمته ؛ فسَنَحت له كما يسنح الصيد للصائد يحمل فى جسمه لحمه الشهى ... وتركت شعوره جائماً إلى محاسنها عثل جوع المعدة ... وبرزت له صريحةً كما هى ، ولما هى ، ومن حيث أنها هى هى ؛ وكل ذلك حين ألبست جسمها ثياب الحقيقة المؤنثة

آه من (هى) إذا امتلأت الهاء والياء من قلب رجل يحب ! وآه من (هى) إذا خرجت هذه الكلمة من لغة الناس إلى لغة رجل واحد !

إن فى كل امرأة ... امرأة يقال لها (هى) باعتبار الضمير للتأنيث فقط كما يعتبر فى الدابة والحشرة والأداة ونحوها من هذه المؤنثات التى يرجع عليها هذا الضمير ؛ ولكن (هى) المفردة فى الكون كله لا توجد فى النساء إلا حين يوجد لها (هو) ... ...

* * *

أما أنا الذى يقص للقراء هذه القصة ، قد كابدت من شدة الحب وإفراط الوجد ما يملأ قلبين مسكينين لا قلباً واحدا ؛ وكانت لى (هى) من الهيات عانيت فيها الحبَّ والألم دهراً طويلاً ؛ وقد ذهبتْ بى فى هواها كل مذهب إلا مذهباً يحلُّ حراماً ، أو مذهباً يُخِلُّ بمروءة ؛ ولقد علمت أن الشىء السامى فى الحب هو ألا يخرج من العاشق مجرم

فالشأن كل الشأن أن يستطيع الرجلُ الفصلَ بين الحب من أجل جمال الأنثى يظهر عليها ، وبين الحب من أجل الأنثى تظهر فى جمالها . فهو فى الأولى يشهد الالاهيةَ فى إبداعها السامى الجميل . وفى الأخرى لا يرى غير البشرية فى حيوانيتها المتجملة ...

وقد أدركت من فلسفة الحب أن الحقيقة الكبرى لهذا الجمال الأزلى الذى يملأ العالم — قد جعلت حنين العشق فى قلب الانسان هو أول أمثلتها العملية فى تعليمه الحنين اليها إن شاء أن يتعلم . فكما يحب انسانٌ بروح الشهوة يحب انسان آخر بروح العبادة ؛ وهذا هو الذى يسميه الفلاسفة (تلطيف الحس) أى جعله مستعدا للتوجه الى النور والحق والخير ، وقد عدُّوا فيما يعين عليه الفكر الدقيق والعشق العفيف

وكذلك تبينتُ مما علمنى الحب أن طرد آدم وحواء من الفردوس ، كان معناه ثقلَ معانى الفردوس وعرضَها لشكل آدم وحواء يمثلان الرواية . فأذا « قطفا الثمرة » طُردا من معانى الجنة طردا كهوىٍّ من الجنة (١) ، وهبطا بعد ذلك من أخيلة السماء الى حقائق الأرض

نعم هو الحب شىء واحد فى كل عاشق لكل جميل ، غير أن الفرق بين أهله يكون فى جمال العمل أو قبح العمل . وهذه النفوس مصانع مختلفة لهذه المادة الواحدة ؛ فالحب فى بعضها يكون قوة وفى بعضها يكون ضعفا ؛ وفى نفس يكون الهوى حيوانياً يُراكم الظلمة على الظلمة فى الحياة ، وفى أخرى يكون روحانياً يكشف الظلام عن الحياة

والمعجزة فى هذا الانسان الضعيف أن له مع طبيعة كل شىء طبيعةَ الاحساس به ، فهو مستطيعٌ أن يجد لذةَ نفسه فى الألم ، قادر على أن يأخذ هبة من معانى الحرمان . وبهذه الطبيعة يسمو من يسمو ، وهى على أتمها وأقواها فى عظماء النفوس حتى لكأن الأشياء تأتى هؤلاء العظماء سائلةً : ماذا يريدون منها ؟

فمن أراد أن يسمو بالحب فليضمّه فى نفسه بين شيئين : الخلق الرفيع والحكمة الناضجة ، فأن لم يستطع فلا أقل من شيئين الحلال والحرام (٢)

* * *

أما أنا الذى يقص للقراء هذه القصة ، أعرف هذا كله ، وبهذا كله فهمت قول صاحب القلب المسكين : إن ظهور صاحبته فى فصل العروس هو انتقامها ، حاصرت عيناها عينيه ، وزحفت معانيها على معانيه ، وقاتلت قتال جسم المرأة المحبوبة فى معركة حبها ، وبكلمة واحدة : كأنما لبست هذه الثياب لتظهر له بلا ثياب ...

وأردت أن أعيبها بما صنعت نفسها له ، وأن أعيبه هو بدخوله فيما لا يشبهه ، وقلت فى غير طائل ولا جدوى ، فما كنت إلا كالذى يعيب الورد بقوله : يا عطر الشذى ويا أحمر الخدين

(١) أى طردا كالطرد من الجنة

(٢) بسطنا هذا المعنى فى المقالة الثانية من هذه المقالات على وجه آخر

وقد أمسك عن جوابي وكانت محاسنها تجعل كلماتي شوهاء ، وكان وضوحها يجعل معاني غامضة ، وكانت حلاوتها تجعل أقوالي مرة ، وكانت ثياب العروس وهي تزف تريه ألفاظي في ثياب العجوز المطلقة . وكلما غاضبته مع نفسه أوقعت هي الصلح بينه وبين نفسه

والعجيبُ المعجبُ في هذا الحب أن فتح العينين على الجيل المحبوب هو نوع من تغميضهما للنوم ورؤيا الأحلام ؛ ليس إلا هذا ولا يكون أبداً إلا هذا . فهما أعطيتَ من جدل فأقناعك المحب المستهام كأقناعك النائم المستَثْقَل [١] ؛ وكيف وله ألفاظ من عقله لا من عقلك ، وبينك وبينه نسيانه إياك ، وقد تركك على ظاهر الدنيا وغاص هو في دنيا باطنه لا يملك فيها أخذاً ولا رداً إلا ما تعطى وما تمنع

***

ثم . . ثم غابت (العروس) بعد أن نظرت له وضحكت ضحكت بحزنٍ حزنَ [٢] الذي يسخر من حقيقة لأنه يتألم ن حقيقة غيرها . . وكان منظرها الجيل المنكسر فلسفة تامة مصورة ، للخير الذي اعتدى عليه الشر فأحاله ؛ والأرادة التي أكرهها القدر فأخضعها ؛ والعفة المسكينة التي أذلها ضرورة الحياة ؛ والفضيلة المغلوبة التي حيل بينها وبين أن تكون فضيلة

ويا ما كان أجملها ناظرة بمعاني البكاء ضاحكة بغير معاني الضحك ؛ تتنهد ملامح وجهها وفمها يبتسم

كان منظرها ناطقاً بأن قلبها الحزين يسأل سؤالاً أبداه على وجهها بلطف ورقة ؛ كان يسأل إنساناً : ألا تحل هــذه العقدة ... ؟

وانقضى التمثيل وتناهض الناس

أما صاحب القلب المسكين ؟

(يتبع) طنطا مصطفى صادق الرافعي

إلى ا . ج . بدمشق : يابني قل لذلك الذي يسمي نفسه فقيها : إن كتب الفقه لو قالت لله انخدع لحيلة الفقهاء في تحليل ما حرمت ، لكانت كتب الكفر لا كتب الفقه ...

وسنكتب يوماً إن شاء الله مقالة (العمائم) فإن الاسلام مبتلى بهؤلاء الذين يأكلون في بطونهم فقها ... الرافعي

(١) بفتح القاف أي الذي أثقله النوم

(٢) حزن الثانية في هذا التركيب منصوبة على أنها مفعول مطلق

تطور خطير في السياسة الدولية

هل تقترب نذر الحرب

بقلم باحث دبلوماسي كبير

تتابعت الحوادث الدولية في الأسبوعين الأخيرين بسرعة ، وبدت في الأفق أزمات واحتمالات مزعجة يرى فيها المتشائمون نذر الحرب يجتمع وتهيء الأسباب للاصطدام الخطر ؛ ففي أسبانيا تتطور الحوادث تطوراً واضحاً ، إذ يقف هجوم الثوار على مدريد ، بعد أن كادت تسقط في أيديهم ، وترجح قوات الجمهوريين التي تؤيدها نجدات سوفيتية قوية ؛ وتسارع إيطاليا وألمانيا إلى الاعتراف بحكومة برجوس (حكومة الثوار) لكي تشد أزر الجنرال فرانكو زعيم الثورة من الوجهة المعنوية ، ولكي تسبغ على حكومته صفة الدولة المحاربة فيسهل عليه تلقي النجدات الخارجية بصورة أوسع ؛ وقد ظهر أثر هـذا التأييد واضحاً في تصرفات الجنرال فرانكو الأخيرة ؛ فقد أعلن أنه سيفرض الحصار البحري على شواطيء اسبانيا الشرقية والشمالية ، وأنه سيغلق ثغور اسبانيا التي بأيدي الجمهوريين أعني برشلونه وبلنسية والبقنت ومالقة ، وأن سفنه ستطلق النار على أية سفينة أجنبية تدخل هـذه المياه ؛ ووجه الجنرال فرانكو أيضاً إلى فرنسا إنذاراً بطلب الذهب الاسباني الذي سحبه الجمهوريون من بنك اسبانيا ، وأودعوه في باريس ؛ ومع أن الجنرال فرانكو لا يملك من الوحدات البحرية سوى عدة طرادات صغيرة لا تستطيع أن تضطلع بمثل هذا الحصار الضخم ، فان المفهوم أنه سيعول في تنفيذ وعيده على يد الغواصات الايطالية والألمانية ؛ وقد ظهر أثر هـذه المعاونة البحرية سريعاً في إصابة الطراد الجمهوري « سيرفانتيس » من مقذوف بحري أطلقته عليه غواصة أجنبية ؛ على أن الجنرال فرانكو لم يلبث إزاء موقف إنكلترا وتشددها في عدم اعتبار صفة شرعية لحكومة الثوار ، ومطالبتها بألا يتعدى الحصار المياه القومية ، أعني مدى الثلاثة أميال المقررة في القانون الدولي ، وأن تعين منطقة محايدة لرسو السفن الأجنبية ، أن اضطر إلى تعديل موقفه والتسليم بهذه المطالب التي أبدتها

إنكلترا باجراء بعض المناورات البحرية الضخمة فى المياه الاسبانية

وظاهر من هـذه الخطوة التى اتخذها الجنرال فرانكو ، بتحريض الدول الفاشستية أعنى إيطاليا وألمانيا وتأييدها المعنوى والمادى ، أنه يقصد وقف المساعدات القوية التى تتلقاها الحكومة الجمهورية من روسيا السوفيتية عن طريق برشلونه وبلنسية ، ومطاردة السفن الروسية التى ترد بلا انقطاع إلى هذه المياه مشحونة بالذخائر والمؤن ، وهى معاونة كان لها أكبر الأثر فى إحباط هجوم الثوار على مدريد ، وفشل خطط الجنرال فرانكو فشلاً قد يؤدى إلى انهيار الثورة بصورة نهائية ؛ وظاهر أيضاً أن فشل الجنرال فرانكو إنما هو فشل لألمانيا وإيطاليا اللتان تؤيدانه منذ البداية وتمدانه بكل أنواع المعاونة فى البر والبحر والهواء ؛ ولهذا بادرت الدولتان الفاشستيان إلى الاعتراف بحكومة برجوس ستراً لهذا الفشل ، وإلى دفع الجنرال فرانكو إلى إعلان الحصر البحرى وتأييده بارسال الغواصات إلى المياه الاسبانية لمحاولة اعتراض السفن الروسية أو الأجنبية الأخرى التى تحمل الذخائر والمؤن للحكومة الجمهورية

بيد أنه يشك كثيراً فى أن يكون لهذا الاجراء أثره المنشود ، ذلك لأن روسيا السوفيتية أبدت أنها لن تعبأ به ، وأنها ستقاوم العنف بالعنف إذا اعتدى على سفنها ، وما زالت السفن الروسية ترد إلى برشلونة وبلنسية تحرسها وحدات بحرية روسية ؛ وهذا مما يجعل الموقف فى هذه المياه فى منتهى الدقة والخطورة خصوصاً بعد أن ثبت وجود بعض القوات الايطالية فى جزيرة ميورقة تجاه بلنسية ، ووجود بعض الطرادات والغواصات الايطالية فى مياهها ، هذا فضلاً عن أن انكلترا تهتم بالحالة فى تلك المياه اهتماماً شديداً وتجوسها بعض وحدات أسطولها ، وكذلك فرنسا ، فأن وقوع هذه المياه على مقربة من شواطئها ، ثم فى طريق الجزائر يحملها على أن تشاطر انكلترا اهتمامها ، وأن ترقب الحالة مع الاستعداد لكل طارئ

وهكذا نرى هذه المعركة التى تضطرم فى الظاهر فى أسبانيا بين الجمهورية وخصومها تبدو فى صورتها الحقيقية صراعاً بين الفاشستية والديموقراطية حسبما بينا من قبل غير مرة ؛ وهى تبدو اليوم فى هذه الصورة واضحة تؤيدها الأدلة المادية الظاهرة ، فمن وراء الجنرال فرانكو تعمل إيطاليا وألمانيا والبرتغال بصورة منظمة مستمرة ؛ وتعمل روسيا السوفيتية لمعاونة حكومة مدريد الجمهورية بكل ما وسعت ، وتؤيدها فرنسا وانكلترا بصورة مستترة ؛ وقد شرحنا من قبل ما ترتبه الدول الفاشستية من المطامع والأمانى على إضرام نار الحرب الأهلية فى أسبانيا بهذه الصورة ، والسعى بواسطة الجنرال فرانكو إلى إقامة حكومة فاشستية فى أسبانيا تعضد نفوذ إيطاليا وألمانيا فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، وتحقق لهما بعض المغانم الاستعمارية فى جزر البليار والكنارى ، وربما فى مراكش الاسبانية ؛ وبينا أيضاً ما يحمل الدول الديموقراطية أعنى انكلترا وفرنسا على مقاومة هذه المحاولة وإحباطها ؛ وإذا كانت الدولتان الديموقراطيتان لا تعملان لمعاونة أسبانيا بصورة ظاهرة ، فأنهما تعتمدان فى هذه المعاونة على روسيا ، وتؤيدان مساعيها فى هذا السبيل ؛ وهناك بالأخص نقطة تلفت النظر ؛ وهى أن الأسطول الروسى الذى يحمل المؤن والذخيرة إلى حكومة مدريد يسير بعيداً عن قواعده لنجدة الجمهوريين ، ويغامر بالظهور فى مياه أجنبيـة ، وقد يتعرض لاعتداء الغواصات الألمانية والايطالية ؛ ولكن لا ريب فى أن روسيا لا تقدم على مثل هـذه المغامرة إلا وهى معتمدة على تفاهمها مع انكلترا ، وعلى حماية الأسطول الانكليزى وإمكان استخدام المياه الفرنسية لحماية سفنها وقت الخطر

وقد لاح مدى لحظة أن قوات الجنرال فرانكو تكاد تكتسح كل شىء فى طريقها وتستولى على مدريد بأيسر أمر ؛ ولكن الحوادث تطورت بسرعة وتحطم هجوم الثوار على مدريد ، وبدا التفوق فى جانب الجمهوريين واضحا ، وربما كان هذا الفشل مقدمة انهيار الثورة الاسبانية ، والخطط الفاشستية التى تؤيدها

***

على أن هناك غير حوادث أسبانيا عدة تطورات وحوادث دولية خطيرة أخرى زادت فى حرج الموقف ودقته . ذلك أن السياسة الفاشستية نشطت أخيراً إلى مضاعفة جهودها فى سبيل تقوية جبهتها ضد أوربا الغربية بوجه عام ، وروسيا السوفيتية بوجه خاص ؛ فبعد أن عقدت ألمانيا وإيطاليا تحالفهما المعروف ضد « البلشفية » ، وبعد أن اتفقتا على تقسيم أوربا الوسطى إلى منطقتى نفوذ سياسى واقتصادى ، تتعاونان فى استغلالها وتوجيهها مع اختصاص ألمانيا بالعمل فى تشيكوسلوفاكيا ، واختصاص إيطاليا بالعمل فى المجر ، واشتراكهما معاً فى العمل فى النمسا ، فاجأت ألمانيا العالم بعقدها تحالفا مع اليابان اتخذت

مكافحة البلشفية والثورة العالمية التى تعمل روسيا لاضرامها ستاراً له ، وهذه الحجة الظاهرة ، أعنى مكافحة البلشفية هو الشعار الذى تستتر به ألمــانيا فى سياستها الحالية وتقرنه بالتهويل فى وصف الخطر البلشفى ووجوب اتحاد أمم العالم على مقاومته وإنقاذ المدنية من شره ؛ بيد أنه يظن أن الاتفاق الألمانى اليابانى ، رغم ما نشر من نصوصه ، يبطن تحالفاً عسكرياً سرياً ، ويقصد إلى غايات خطيرة أخرى تتلخص فى تعاون اليابان وألمانيا على مقاومة روسيا وتهديدها فى الشرق الأقصى ، وفى أوربا ؛ وتدعيم الخطط الاستعمارية اليابانية فى الصين والشرق الأقصى ، نظير تدعيم الخطط الألمــانية العسكرية والاستعمارية فى شرق أوربا وفى غربها إذا اقتضى الأمر ؛ وبعبارة أخرى يمكن اعتبار التحالف الألمــانى اليابانى رداً على التحالف الفرنسى الروسى الذى اعتبرته ألمــانيا موجها ضدها .

وقد كان لعقد هذا التحالف الألمانى اليابانى وقع شديد فى أوربا وأمريكا معاً ؛ ومع ما قدمته ألمانيا واليابان من الايضاحات لتخفيف وقع التحالف ، فأن الغاية من عقده لم تخف على أحد ؛ ولم تقتنع الدول الكبرى بصحة الزعم الذى اتخذ ستاراً لعقده ، وهو التعاون على مكافحة البلشفية ، لأن البلشفية نظام داخلى يخص روسيا وحدها ، وفى وسع الدول التى تخشى من تسربه إليها أن تقاومه داخل أرضها بوسائلها الخاصة ؛ ولدى ألمانيا واليابان أشد الوسائل الداخلية لمكافحة البلشفية وغيرها من الأنظمة غير المرغوب فيها ؛ وترى انكلترا وفرنسا وأمريكا فى عقــد هذا التحالف خطراً على مصالحها فى الشرق الأقصى ، لأنه يعاون اليابان فى تنفيذ خطتها لاستعمار الصين الجنوبية ، ويقوى مركزها فى المحيط الهادى على حساب أمريكا وانكلترا ، وقد كانت هذه الدول ترى فى التوازن اليــابانى الروسى فى الشرق الأقصى نوعا من الضمان لمصالحها ، فاذا قضى على هذا التوازن ، واستطاعت اليابان أن تطلق يدها فى شؤون الشرق الأقصى اعتمادا على انشغال روسيا بحماية حدودها الغربية من مطامع ألمــانيا ، أصبح التفوق اليابانى خطرا على مصالح الدول الغربيـــــة وسيادة أمريكا فى المحيط الهادى

والظاهر أن ألمــانيا تحاول أن تحشد فى هذه الجبهة الجديدة كل الدول التى تميل الى التعاون معها وفى مقدمتها ايطاليا ، وهى تعمل لذلك الغرض بنشاط مضاعف ؛ ومن المشكوك فيه أن تستطيع المــانيا أن تحشد فى تلك الجبهة الشرقية دولا أخرى ، وإن كانت إيطاليا تميل الى تأييـدها من الوجهة المعنوية ، لأن ايطاليا مع صفتها الفاشستية العميقة لا تذهب فى خصومة روسيا الى الحد الذى تذهب اليه ألمــانيا ، والواقع أنه إذا كانت المانيا قد استطاعت بتحالفها مع اليابان أن تقوى مركزها ضد روسيا السوفيتية فأنها قد أثارت بعقده فى نفس الوقت شكوكا ومخاوف جديدة ، ففرنسا وروسيا تريان فيه خطرا جديدا عليهما يجب أن يقابل بمضاعفة الجهود فى التسلح والاستعداد ، وانكلترا وأمريكا تتوجسان شرا من تطور الأحوال فى الشرق الأقصى تطوراً قد يضطرهما الى العمل لصون مصالحهما ؛ فهذه الظروف مع ازدياد الشك فى نيات ألمانيا ومطامعها العسكرية والاستعمارية يثير حول سياستها ريباً ما كان أغناها عن إثارتها ، ويجعل مزايا التحالف الجديد ضئيلة بالقياس إلى ما أحدثه من رد فعل عميق

هذا ، ومن جهة أخرى فأنه مهما كانت مزايا هذا التحالف من الوجهة العسكرية ، فان الدول التى تقصدها ألمــانيا بعقده ، وهى فرنسا وروسيا ، هما الآن أعظم الدول استعدادا من الوجهة العسكرية ، وكلتاهما تتمتع بتنظيمات دفاعية وموارد عسكرية هائلة ، ومهما قيل فى استعداد ألمــانيا الحربى من الوجهة الفنية ، فانها فقيرة فى المــال والمواد الأولية ؛ وفرنسا تعنى بمضاعفة جهودها فى التسلح والدفاع ولا سيما فى الأشهر الأخيرة التى ظهرت فيها المــانيا بمظهر الوعيد والتحدى ؛ وكذا روسيا فانها مذ أدركت خطر السياسة النازية العسكرية على حدودها الغربية ، انضمت إلى جبهة الدول الغربية ، وعقدت ميثاق التحالف مع فرنسا ؛ وفرنسا لا يمكن أن تترك روسيا وحيدة إذا هاجمتها ألمانيا ، لأن بقاء روســيا قوية سليمة مما يهم فرنسا كضمان لسلامتها ؛ وعلى ذلك ، فاذا اندفعت ألمانيا فى سياستها العسكرية الخطرة ، وعملت على إثارة الحرب فى شرق أوربا بصورة من الصور ، فلا ريب أن الحرب ستقع أيضاً فى غرب أوربا ، وعندئذ تقع حرب عالمية أخرى

والخلاصة أن الأفق الدولى مثقل بالسحب ؛ ومما يلفت النظر فى ذلك كله أن الفاشستية تلعب فى إثارة هــذه الأزمة الدولية الدقيقة أكبر دور ، ولا تحجم عن تغذية الاتجاهات والشهوات العسكرية الخطرة بكل ما وسعت ؛ وقد شرحنا فى

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

التنكر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

قلت مرة لنفسي : « لماذا لا أخرج للناس متنكراً كما كان يفعل الولاة والسلاطين والخلفاء وفيما تحدثنا الروايات أو الخرافات ؟ »

وليست لي رعية أتفقدها ، ولا لي شعب أتعهد مرافقه ومراشده ، ولكن هذا الخاطر استبد بي مع ذلك فلم يسعني إلا أن أجرى معه إلى حيث يومىء ؛ والتنكر فن ، واتقانه لايتسنى إلا بالتدرب ، ولكن قلت إن الله ركب لي في وجهي عينين أنظر بهما ، وعندي مرآة تستطيع أن تريني هل وفقت أو أخفقت ، وفي وسعي أن أعيد التجربة مرة وأخرى فلا أبرز للناس إلا وأنا مطمئن القلب

وقد كان . اشتريت لحية كثة طويلة — شبراً وبعض شبر إذا أردت الدقة — وشاربين وحاجبين ، ومسحوقاً أبيض أنفضه على شعر رأسي ، وشرعت أجرب — أعني ألصق هذه الأشياء بوجهي ، وعيني على المرآة ، وكنت أوصد الباب عليّ ، وأنا أفعل ذلك ، لأضمن الوحدة ، ولأني اعتزمت أن أجعل التجربة الأولى في بيتي . فلما وثقت أني قد أحكمت التنكر ، وأني أستطيع أن أقوم وأقعد وأمشي ، وأحرك رأسي ، وألمس لحيتي ، وأفتح فمي ، وأرفع حاجبي على هيئة المستغرب ، وأضحك ، وآكل وأشرب من غير أن تسقط اللحية أو ينحرف أحد الحاجبين عن قوسه ، أو يتدلى شارب ، على حين يبقى الآخر مفتولاً — خرجت على أهلي ، وعلى وجهي هذه الأشياء ، وفي يدي عصا غليظة أتوكأ عليها وقد تقوست قناتي من الهرم ، فلم تكد تقع على العيون في مدخل الباب حتى صرخت أمي وجدتي وأسرعتا فسترتا وجهيهما عن هذا الشيخ الغريب ؛ وكان أخي الصغير معهما فوثب إلى قدميه وصاح بي يسألني أنا من ؟ ويأمرني أن أخرج ، ويدعتني بقلة الحياء وسوء الأدب ويهددني بالشرطة ، وأنا أقول له بصوت يرعش من الكبر وما يجره من الضعف « حلمك ، حلمك يا بني ! » فيأبى أن يكون حليماً ، ولا يعبأ بشيخوختي ، ولا يترفق بوهني البادي ، ويدفعني عن الباب فأ كاد أسقط على الأرض ؛ فأنه صبي قوي ، وأنا شيخ هِمٌّ أقوم على العصا ، فلم تبق لي حيلة إلا الخروج من البيت كما أمر . . .

خرجت مطمئناً واثقاً ؛ وإذا كان أخي — ابن أمي وأبي — لم يعرفني فكيف يعرفني الاخوان والخلان ؟ ومن ذا الذي يمكن أن يفطن إلى أن هذه الغابة التي زرعتها حول وجهي وسترت بها شبابي جليسة ؟ وكان انخداع أخي — لا أمي ولا جدتي — هو الذي أراح بالي ، ونفى عني الخوف ؛ لأن فزعهما واستحياءهما منعا أن ينظرا ويحدقا ؛ أما أخي فأمره مختلف جداً ، وقد كان يمسك بكتفي ويهزني ويدفعني ويحدق في وجهي متعجباً لجرأتي ، منكراً لتطفلي . ومع ذلك لم يعرفني !

ومضيت إلى شارع الدواوين ، وكنا — اخواني وأنا — نختلف إلى « قهوة » فيه ، ونقضي هناك بعض الوقت ، نشرب « الخشاف » ونتبارى في لعب « الطاولة » ونصغي إلى الفونغراف وننظر إلى الرائحين والغادين ، فلقيت في بعض الطريق أحد هؤلاء الاخوان ، فوضعت يدي على كتفه وابتسمت له وقلت :

« هل تستطيع يا بني أن تدلني على لاظ اوغلي » فقال : « يظهر أنك لست من أهل الحي ؟ ! هذا هو أمامك مسافة مائة متر لا أكثر »

قلت : « آه ! لعن الله الشيخوخة ! وقاتل الله الضعف !

مقال سابق ما تنطوي عليه سياسة الدول الفاشستية ، أعني ألمانيا وإيطاليا ، من المغامرة وقصر النظر ، وبينا أن الخطر على سلام أوربا وسلام العالم يرجع قبل كل شيء إلى هذه السياسة الخطرة . بيد أنه مما يبعث إلى نوع من الطمأنينة أن تكون الدول الغربية ، أعني فرنسا وبريطانيا العظمى قد فطنتا إلى الخطر في الوقت المناسب ، واستطاعتا أن تصلا في تحقيق التسليح والتنظيمات الدفاعية إلى حدود بعيدة ؛ فاذا أضفنا إلى ذلك أن كفة روسيا إنما هي دائماً مع الدول الغربية ، فأن مما يشك فيه أن تذهب الفاشستية الصاخبة إلى المغامرة بأثارة حرب تلقى فيها مثل هذه القوى الساحقة ؛ وإذا كان ثمة سحب وأزمات خطيرة تكدر أفق السياسة الدولية ، فلسنا مع ذلك نذهب مع المتشائمين إلى حد الاعتقاد بأنها نذر الحرب ، وأن الحرب قد غدت على وشك الاضطرام

(***)

مالنا متر ! يا سلام : أقول لك ... ربنا المعين . نعم ربنا المعين »
وهممت بأن أنصرف عنه ، فقال : « هل تسمح بأن أتناول ذراعك وأساعدك على السير قليلاً ؟ »

فدعوت له بخير ، وبشرته ، وأكدت له أن الله سيجزيه أحسن الجزاء ، وتركت له ذراعى ، وسرنا معاً بعض الطريق ، وأنا أدب بالعصا وأقول من الضعف « إه ! إه » كما يفعل الشيوخ الذين انقطعت أنفاسهم ، فقد كانت اللحية التى لففت فيها وجهى عظيمة جدا وبيضاء كالقطن . وبلغنا « القهوة » المألوفة فهمست فى أذنه بصوت خافت : « أقول لك يا بنى ؟ سأستريح هنا قليلا . . . نعم فأن العجلة من الشيطان ، ولا خير فى أن يحمل المرء على نفسه ويكلفها فوق وسعها »

وجلست الى أقرب مائدة ووضعت العصا عليها واضطجعت مغمض العينين حتى انتظمت أنفاسى وسكن اضطراب صدرى ، وهدأت دقات قلبى ، ثم التفت الى صديقى وقلت « الله يرحم أيام الشباب ! ! هل تعرف يا بنى ؟ لقد كنت أصعد درج السلم — مائة درجة — خمس مرات أو ستا فى اليوم ، جريا بلا تمهل أو ترفق ؛ وكنت أستحم فى الشتاء القارس البرد من بئر فى البيت ، مرتين ... مرة فى الفجر ومرة فى العصر ؛ وكنت أستطيع أن ألتهم نصف الخروف وحدى فضلاً عن غيره من الألوان ... أين هذه الأيام ؟ إيه ؟

وتنهدت : فقال : « يظهر أنك كنت قوياً متين الأسر فى شبابك ! »

قلت : « قوى ؟ ولو لم أكن قويا لما عشت الى هذه السن . أما أقول لك ... كنت أتناول عيدان القصب ... سبعة وأربطها ثم أتناولها من الطرفين وأضرب بها ساقى ، فتنكسر ... أعنى العيدان هى التى كانت تنكسر لا ساقى بالطبع ... ها ها ... تنكسر ولا تبقى قشرة واحدة تصل قطعتى عود... فهل تستطيع الآن — وأنت شاب — أن تصنع هذا ؟ »

فهز رأسه وابتسم ، فقلت : « وعلى الرغم من ضعفى الظاهر وشيخوختى العالية ، لا أزال محتفظاً ببعض القوة ، ولولا أن الدخان قطع نياط قلبى لما رأيتنى أنهج ... احذر يا بنى أن تعتاد التدخين ! إنها نصيحة شيخ مجرب ... نصيحة لوجه الله . نعم لا تزال فىّ قوة باقية ... هذه يدى ... اقبض عليها ... احتفظ بكل قوتك وانظر »

وفتحت له كنى ، ومددت إليه ذراعى فتناول يدى كما يفعل المرء عند المصافحة ، ثم قبض عليها وقبضت على يده ، وضغط وضغطت . ثم بدت عليه الدهشة ، وقد نسيت أن أقول إنى كنت وما زلت قوى الذراعين جداً إذا اعتبرنا ضآلة جسمى ، وكل قوتى فى يدى ، فلا عجب إذا كان قد دهش ، فقلت له : « أرأيت ؟ ؟ ألم أقل لك ؟ ؟ وتصور كيف كنت خليقاً أن أكون لولا فعل الدخان الملعون ؟ ؟ لقد خرب صدرى من سوء تأثيره ... »

وسحبت يدى وفركتها فقد كانت ضغطته قوية لا رفق فيها قبحه الله ؛ وجاء فى هذه اللحظة واحد آخر من إخوانى وكان كثير العبث ، فوقف ينظر إلينا ويعجب ، ثم سأل صاحبه بصوت عال كأنما كان قد وثق أنى أصم

« من هذا الرجل الفظيع ؟

قال : « هذا شيخ يستريح ... اسمع ... (لى) أعطه يدك ليمتحن قوتها .. »

فقلت : «لا يا بنى ... تعبت ... »

وقال : اللعين الواقف « ماذا تصنع بكل هذه اللحية ؟ أليس فى بيتك مقص ؟ أو مخرطة ؟ أو منشار ؟ »

لخطر لى أن أمازحه — وليتنى مافعلت — فقلت : « لا فائدة . وما غناء المقص ؟؟ إنه يتقصف إذا لامسها ... والمنشار ماحيلته فى هـذه الخيوط الحديدية ؟؟ لا ... لا تطمع فى محوها ، فقد أعيانى أمرها مذ جئت إلى هذه الدنيا .. وقد كنت حين بدأت أتعلم المشى بعد الحبو أتعثر بها ... »

فقهقه اللعين ثم مد يده إليها وتناول شعرات منها وفتلها كما يفتل الحبـل ، وأنا صابر جامد لا أتحرك مخافة أن أرتد برأسى فتتزحزح عن موضعها أو تسقط فى يده ، وكنت أتبسم أيضاً لأتألفه وأخجله عسى أن يكف عن لحيتى ، فأطمعه حلمى ، فـكف عن فتل الشعرات ، وتناول منها قبضة ، فاضطربت ، وجذب هو ، أو ارتددت أنا — لا أدرى — فاذا هى فى يده .؟؟

وقلت بعد أن سكنت العاصـفة : « ما قولـكما الآن ؟؟ ألم أخدعكما ؟؟ » وبدأت أقلد نفسى وأقول : « هل تستطيع يا بنى أن تدلنى على لاظ اوغلى ؟ ... لقد قطع الدخان أنفاسى ، فيحسن أن أستريح هنا برهة ... احذر يا بنى الدخان ، فأنك ترى ما صنع

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

فى الأدب المقارن

أثر نظام الحكم
فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

تمر الأمم فى استقرارها وتحضرها بثلاثة أطوار عامة من أنظمة الحكم : فى الطور الأول تكون أزمة الأمور بأيدى رؤساء القبائل الرحالة أو القريبة العهد بالاستقرار ، وهو ضرب من الحكم أرستقراطى ؛ وفى الطور الثانى تتجمع مقاليد الحكم فى يد حاكم فرد يوحد أجزاء مملكة ذات مساحة يعتد بها وتخوم طبيعية ، وهو نظام الملكية ؛ وفى الطور الثالث يعود تصريف شؤون الدولة فى أيدى جميع أبنائها القادرين ، وهو النظام الديمقراطى الذى هو أصلح الأنظمة جميعاً ، إذ هو أدناها إلى العدل والمساواة وأجدرها أن يفسح المجال للمواهب الفردية ويمهد الطريق لرقى الأمة

ومن الشعوب البدائية ما لا تتجاوز الطور الأول ، ومن الأمم ما تقف عند الثانى كجميع دول الشرق القديم ، ومنها ما تصل إلى الثالث كبعض مدن اليونان وروما ، وقد تعود دولة بعد بلوغ الطور الثالث فترتد إلى الثانى ، لنكسة فى أحوالها تحرمها التمتع بمزايا الحكم الديمقراطى وتجعل الحكم الفردى ضربة لازب ، ومثال ذلك رومة حين اتسع سلطانها وأفسد الترف أخلاق أبنائها ، فعجز السناتو عن تصريف شؤونها ووقع حكمها فى قبضة الدكتاتوريين والأباطرة

وقد عرف العرب الطور الثانى من أطوار الحكومة فى جاهليتهم فى أطراف الجزيرة ، حيث ساعد خصب الأرض واستواؤها على توحد دولة متسعة وتوطد ملكية قوية ، أما فى سائر الجزيرة فظل الطور الأول ، طور الحكم الأرستقراطى ، سائداً ، وبلغ بين بعض قبائلها ولا سيما فى الحجاز مستوى عالياً من الاحكام ؛ وكانت لأشراف العرب دراية عملية فائقة بقواعد الحكم والاجتماع . تتمثل فى قول الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحت
فان تولت فبالأشرار تنقاد

وهو تلخيص شعرى رائع لنظريات أرسطو فى السياسة .

وقد نمى هذا النظام فى نفوس العرب نزعات الحرية والحمية والشجاعة التى أدت إلى دوام الخصام بينهم ، وأورثتهم الفخر بالعصبية والتمدح بالنسب ؛ وأثر كل ذلك بين فى أشعار ذلك العهد التى أغلبها تكرار مستمر للمفاخر والمآثر القبلية ، وتمدح بالعز والمنعة ، فألى ذلك صرف شعراؤهم قولهم ، ولم ينصرف الشعراء إلى مدح الملوك وتعداد مآثرهم دون مآثر القبيلة أو الأمة إلا حيث قامت ممالك الغساسنة والمناذرة والتبابعة ، فكانت من ذلك مدائح حسان والنابغة والأعشى

فلما جاء الاسلام خرج العرب دفعة واحدة من الطور الأول من أطوار أنظمة الحكم طور الأرستقراطية ، إلى طور الملكية الذى توطدت بينهم قواعده وظلوا فى حدوده لا يتعدونه إلى الطور الثالث طور الديمقراطية ؛ ويرجع تمكن الملكية بين العرب بعد تعودهم التشاور فى الأمور ورغم حض الاسلام على ذلك التشاور ، إلى عوامل خطيرة أولها مكانة النبى عليه السلام : إذ كان أول حاكم فرد للجزيرة ، وكان له من جلال النبوة وعظمة الشخصية والقدرة الخارقة ما عود العرب الامتثال لأمير مطاع ؛ وزادهم انقياداً لهذا الضرب من الحكومة اقتفاء العمرين أثره

بى ... والآن أعترف أنى كنت بارعاً ... »

فقال اللامين : « بارع ؟ أنت كنت بارعاً ؟ .. لقد عرفتك على بعد عشرة أمتار .. يقول إنه كان بارعاً ؟؟ وأين المغفل الذى يمكن أن تخدعه هذه اللحية السخيفة ؟؟ ... وعلى فكرة ... ألا تنوى أن تخلع الشاربين والحاجبين ؟؟ فأنا أخاف أن يجتمع علينا الأطفال ويتدخل الشرطة وتسوء العاقبة بها »

فنزعتها ، فما بقيت بى اليها حاجة بعد زوال اللحية ، ولكنى لم أستطع أن أصدق أن يكون قد عرفنى كما زعم بعد أن نكرنى أهلى — وأمى على الخصوص . وقد أعيانى أن أعرف الحقيقة ، فسكت ... وآليت بعد ذلك ألا أبرز للناس إلا فى جلدى الذى خلقه الله لى ...

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى عدل الحكم ونجاحهما فى الخارج والداخل ، وحرص المسلمين على وحدة الكلمة والدين ما زال يجاهد أعداءه ؛ ومن تلك العوامل أيضاً اتساع أطراف الدولة العربية السريع ، حتى عادت إدارتها متعذرة إلا بيد حاكم فرد مطاع ؛ ومنها قيام الدولة على أنقاض ملكيات عتيدة ما لبثت تقاليدها أن سرت فى كيان الدولة الجديدة ؛ ومنها الصفة الدينية التى ظل يتخذها الحاكمون

لذلك هجر العرب تدريجياً تقاليد التشاور وتوطد لديهم نظام الملكية المطلقة ، فكان منذ قيام دولتهم النظام الوحيد الذى عرفوه ، أو فكروا فيه ، فلم يقم من مفكريهم من نادى بنظام مخالف له ، أو دعا إلى ضرب من الديمقراطية ؛ بل كانت الملكية لديهم هى النظام الطبيعى الذى لا نظام غيره ؛ وظل لسان حالهم قول المتنبى : « وإنما الناس بالملوك » ، وإنما كان أحرارهم يفرضون فى الملك العدل والاصلاح واتباع أحكام الدين وإلا وجب خلعه . وعلى هذا الأساس كان خلع عثمان والوليد ابن يزيد ، وامتلأ تاريخ العرب بالثورات ، ولكنها لم تكن — فيما عدا ثورة الخوارج الذين تمسكوا وحدهم بتقاليد الجاهلية وديمقراطية الاسلام — تمردا على نظام الملكية المطلقة ، بل كانت ثورة مظلوم على ظالم ، أو وثبة فرد بفرد ، أو فتكة أسرة بأسرة ؛ وفى ظل هذا ظل هذا النظام الملكى المطلق بلغ الأدب العربى غاية رقيه

أما فى انجلترا ، فساعدت الظروف المحلية الجغرافية والتاريخية على خروج الشعب من الطور الثانى إلى الطور الثالث من أنظمة الحكم ، فأن عزلة الجزيرة أبعدتها عن غمار الحروب التى تتخذها الملكية ذريعة لتقوية سلطانها ، وفرض الضرائب ، وجمع جيش قائم يخمد كل تمرد على مظالمها فى الداخل ويشيد فى الخارج امبراطورية لا يتسق حكمها لغير الملكية ، فلم يتجه الشعب الانجليزى إلى التوسع الخارجى ، ولم يبن امبراطورية إلا بعد أن وطد أساس حقوقه وحرياته ، وبنى تلك الامبراطورية تدريجاً ، فلم يستهدف لتضخم نجائى يوقع حكومته فى يد دكتاتور ، وبذلك ظل الشعب غنياً عن خدمات الملكية فى الخارج قادراً على كبح جماحها فى الداخل لقوته وضعفها ، فأحرز عليها النصر الحربى فى كل ثورة ثارها فى وجهها ، بينما كان نصيب الثورات الشعبية فى الدولة العربية السحق العاجل

ترعرع الأدب الانجليزى وقد نبت النظام الدستورى فى انجلترا بجانب نظام الملكية ، وشهد الأدب تضامنهما أحياناً كما فى عصر شكسبير ، وصراعهما أحياناً كما فى عصر ملتون ، وكان رجال الأدب عادة فى جانب الحرية والديمقراطية يجاهرون المستبدين العداء ، وقد عميت عينا ملتون فى دفاعه بقلمه عن الجمهورية فى ظل كروموبل ؛ ولم يصالح ما بين الملوك والأدباء إلا بعد انتصار الديمقراطية على الملكية ، وصيرورة الملكية جزءا من النظام الدستورى ، وشارة من شاراته ؛ وفى ظلال هذه الديمقراطية بلغ الأدب الانجليزى مبالغ عظمته

فهذا فرق ما بين الأدبين فى هذا الصدد : أن أحدهما بلغ أوجه فى ظل النظام الملكى ؛ والثانى جرى إلى مداه فى حمى النظام الدستورى ؛ ومن ثم نجد الأدب الانجليزى أعظم حرية فى النزعة وأصدق فى التعبير ، وأغنى بالمواضيع ، وأكثر تنوعاً فى الأشكال ، لأن الملكية ليست بخير النظم التى يترعرع فى ظلها الفن الصحيح ، لأنها شديدة الأثرة والغيرة ، لا ترضى من ضروب النشاط إلا بما يتوفر على خدمتها ، ولا تسمح للحق والفن بالذيوع إذا كان فى ذيوعهما تحدٍّ لسلطتها . أما النظام الدستورى فيفسح المجال للمواهب بلا عائق ، ويطلق العنان للحقيقة بلا كابح

فمن شأن الملكية المطلقة أن تخمد الرأى العام فى بلادها ، لأنها « هى الدولة » والرأى لها ، لا يكاد ينطق ناطق أو يعمل عامل إلا بما ترضاه ؛ ومن ثم كفَّت الشعب عن ممارسة شؤون الحكم ، وكفَّت الأدباء عن نقد أحوال المجتمع ؛ فعاش أدباء العربية بنجوة عن ذلك المجتمع لا يكادون يشعرون بشعوره أو يعبرون عن خوالجه أو يصفون أحواله ، ومن ثم لم تظهر فى الأدب العربى القصة التى تدرس المجتمع وتحلل دخائل النفس ، وجاء شعر الشعراء ونثر الكتاب أكثره نظرياً لا اتصال بينه وبين حقائق المجتمع والحياة اليومية . أما فى انجلترا فان توطُّد أركان الديمقراطية صاحبهُ ظهور القصة الاجتماعية وتعاظم مكانتها حتى طغت على أشكال الأدب الأخرى

وفى ظل الملكية المطلقة ذوى ضربٌ آخر من ضروب الأدب ، هو الخطابة التى لا تزدهر إلا حيث الديمقراطية والمشاورة وحرية الرأى ، فنراها بعد أن بلغت أوجها قبيل الاسلام وفى صدره تخمل تدريجا تحت الملكية التى تستأثر بالرأى

والفعل ، وتبطل كل رأى آخر وكل فعل ، على حين ظلت للخطابة فى الانجليزية منزلتها ، وأنجب البرلمان الانجليزى فى عهوده القريبة خطباء مصاقع ، أمثال والبول وفوكس وبت وبرايت وغلادستون

وفى نظير ابتعاد الأدباء عن نقد المجتمع والخوض فى شؤون الحكم ، ترك لهم الملوك عنان العبث مرسلا ، يقارفون ضروب المجون فى منتدياتهم ، ويدونون صنوف الهجر فى آثارهم ، ويتبادلون فاحش القول فى أشعارهم ، فامتلأ الأدب بذلك السقاط حتى ظن المتأخرون الذين شبوا على دراسته أن الرقاعة والخلاعة من صفات الأديب ، وحتى ترفع ذوو الحسب عن معاطاة الأدب

ولم يكتف الملوك بكف الأدب عن نقد أعمالهم بل اتخذوا رجاله أبواقا للتمدح بمآثرهم ما صح منها وما بطل ، فكما اتخذوا من مرتزقة الجند أنصارا لهم على إخضاع الرعية ، اتخذوا من مرتزقة الشعراء أعوانا على تضليلها ، وقد هبط هذا الارتزاق بالأدب عن مكانته السامية درجات ؛ وحسبك أن يهبط الشاعر من قمة الفن والشعور والصدق الى وهدة الشحاذة والتمليق والكذب ، وهذه خلال تنزه عنها الأدب الانجليزى فى أغلب عهوده ، لأن الشعب لم يمكن الملكية من ابتزاز ثمار اجتهاده وكده لتبعثرها فى مظاهر الأبهة الجوفاء ، وتنثرها على المرتزقة من الجند والشعراء

وفى سبيل استرضاء الحكام واستدرار صلاتهم لم يحجم كثير من الشعراء عن امتهان الفن من جهة ، فأذالوا الشعر وملأوه بالأكاذيب ، وعن امتهان الخلق الكريم من جهة ، فدحوا الظالم والقاتل ما دام فى دست الحكم ، وتقربوا اليه بذم أحفاد الرسول ، وتملقوه بهجاء من فتك بهم من قواد ووزراء ، وهجا البحترى الخلفاء المخلوعين ومدح من استعادوا العرش على التوالى ، ومدح بشار العلوىّ الخارج على المنصور ، فلما علم باندحاره حور القصيدة ومدح بها المنصور . وتحاسد الشعراء وتهاجوا لتنافسهم على جوائز الأمراء ، على حين نرى فى الانجليزية أن شلى لما بلغه امتداح سوذى لملك انجلترا فى ذلك العهد امتداحاً متملقاً ، كتب اليه يوسعه توبيخاً ويجاهره بالقطيعة

وإذا ندرت فى الأدب العربى آثار انتصار الأدباء للشعب ومناصبتهم الملوك دفاعا عنه ، فلم تندر فيه أخبار الخارجين على الحكام طلباً الملك والمجد الشخصى كحكاية تميم بن جميل الذى أنشد بين يدى المعتصم نائيته البديعة التى مطلعها :

بعز على الأوس بن تغلب موقف   يسل علىَّ السيف فيه وأسكت

ولم تندر أخبار الأدباء الطامحين الى الملك كالمتنبى الذى خرج فى صباه وظل يتوق الى الخروج طول حياته ، والشريف الرضى الذى باح مرة بدخيلة نفسه فأسقط عليه الخليفة ، بقصيدته التى أولها :

ما مُقامى على الهوان وعندى   مِقوَل صارم وأنف حَمىّ

وما كان مثل ذلك ليكون فى الأدب الانجليزى : فالأدباء الانجليز كانوا أشد حباً للأدب واعتداداً بمكانة الفن من أن يهجروهما إلى شىء آخر ولو كان هو المُلك ، كما كانوا من جهة أخرى أشد إخلاصاً لوطنيتهم ووفاء لسعادة بلادهم من أن يفكروا فى اعتراض سبيل الحياة الدستورية التى رضيتها لنفسها ، وما كانت الظروف لتعينهم لو حاولوا بأكثر مما أعانت أدباء العربية سالفى الذكر

ولتزاحم شعراء العربية على صلات الملوك ومن تشبّه بهم من الأمراء تجمعوا فى المدينة وانصرفوا عن محاسن الطبيعة ، فلم تفز من أغلبهم بكبير التفات . وقُل مثل ذلك فى شتى أبواب الشعر : فما يكاد يكون فى أشعار الفحول وصف لجيش أو أسطول أو بحر أو بلد أو قصر أو منظر ، أو رثاء أو حكمة أو تفكير فى الحياة والموت ، إلا مرتبطاً كل ذلك من وجهة نظر الممدوحين وجارياً فى أطواء مدحهم والترنم بما حازوا من رفيع الشأن ، فكانت مدحة صاحب النوال هى الوحى الأول الذى يدفع الشاعر إلى ملاحظة تلك المشاهد وتدبُّر تلك الحقائق

ولاعتماد الأدباء فى معاشهم على صلات الأمراء ، وتوقُّف سعودهم ونحوسهم على رضى الأمراء وغضبهم ، كثرت الشكوى فى الأدب العربى ؛ وأنحى الأدباء على ما أسموه الدهر ذماً وتقريعاً وتفنيداً ، وعزَّوا أنفسهم بالتفاخر الأجوف ، وطال ذمهم لحرفة الأدب ، وما يزاملها من شقاء وحرمان ؛ ولا ذنب للأدب ، وإنما هم صيروه حرفة وما هو إلا فن ، بل هبطوا به إلى ما دون الحرفة فصيروه تسولاً . أما فى الانجليزية فنرى جيبون مثلاً يسخر مرّ السخر ممن يزعمون أن الأدب أشقاهم ، ويبان فى صراحة واغتباط أن كتابه عن تاريخ الرومان كان خير رفيق له

وسمير لروحه أعوام تصنيفه ، ثم أناله من بعد ذلك صيتاً وضمن له بعد مماته ذكرا ما كان يستحقه بدونه .

أما من قنطوا من صلات الأمراء من بين شعراء العربية ، وقعد بهم عجز حيلتهم عن الوصول إلى ساحات الملوك ، فاما هجروا الشعر جملة وإما عكفوا على نظم أشعار الزهد ، فغزر ذلك الضرب من النظم فى العربية . وليس التزهيد فى الحياة بأسمى رسالات الآداب ، بل رسالتها الصحيحة الترغيب فى الحياة والتعبير عن جمالها والدعوة إلى الاستمتاع به .

ولطمع الأدباء فى جوائز الأمراء نزحوا من أطراف البلاد إلى العاصمة ؛ فصارت دون سواها من المدن مجال الشعر وسوق الأدب ، وخمد فى غيرها نور الفنون ؛ أما فى انجلترا فقلما هجر أديب بلده إلى لندن طلبا للحظوة والمال ، بل هجر بعضهم مُقامه بالعاصمة إلى منطقة البحيرات ، فاستقر حيث الجمال الطبيعى والحياة الشعرية والوحى الصادق ، وحيث عرش الطبيعة لا عروش المالكين .

ومن خلال المدح كان يتحدث شعراء العربية عن انتصارات الدولة فى الحروب ، فكل من أبى تمام والمتنبى وابن هانىء الأندلسى يشيد بانتصار ممدوحه ، وينسب إليه كل الفضل فى تدبير الرأى والاقدام وهزيمة العدو ونصر الدين ؛ أما فى الانجليزية فكان شعراء الوطنية أمثال كامبل وتنيسون وكبلنج يرون فى انتصارات الدولة ظفراً للقومية الانجليزية لا فخراً شخصيًّا للملك ، فتغنى الشعراء بتلك الانتصارات ، وشادوا ببسالة القواد وأمراء البحر الذين أكسبوا أمتهم مواقف الفخار ، وقلما التفتوا إلى الملك أوخصوه بذكر .

وكما طلب شعراء العربية الرزق بمدح الملوك ، طلبه الكتاب بالاستيزار والانشاء فى دواوينهم ، فجاءت آثارهم الأدبية كآثار الشعراء ، كثيرة المبالغة والاغراق ، قليلة النصيب من صدق الشعور وصحة النظر ، كثيرة التلاعب بالألفاظ ؛ وكان لأولئك الوزراء شأن أعجب من شأن الشعراء : إذ اتخذهم الخلفاء وسيلة لابتزاز أموال الرعية ، حتى إذا ما حان الحين فتكوا بهم واستصفوا أموالهم ، وكُتُبُ الأدب حافلة بأنباء نكباتهم .

ولا ريب أن غيرة الملوك على سلطانهم المطلق كانت من أسباب الانصراف عن ترجمة تراث اليونان الأدبى والتاريخى ، كما تُرجم تراثهم الفلسفى إلى العربية ، لأن هذا الأخير مشحون بالنظريات والقضايا الخيالية التى لا تتعرض لسلطانهم بسوء ، على حين أن تراث اليونان الأدبى حافل بمظاهر الديمقراطية ، وآثار اشتراك الشعب فى حكم نفسه [1] ، فالملكية أكثر تسامحا مع العلماء وتشجيعاً للعلوم التى تَدْرُسُ ظواهر الكون العامة ، منها للآداب التى تترجم عن مشاعر النفوس ؛ ولا شك فى أن اطلاع الانجليز على آداب الاغريق وتاريخهم كان من عوامل تمكين نفوسهم وتشبثهم بحقوقهم . وهكذا كانت الملكية المستبدة من أسباب حرمان الأدب العربى من الأثر اليونانى الذى استفاد منه الأدب الانجليزى فوائد جزيلة .

فالملكية فى إبان صولتها ليست بخير أنظمة الحكم التى تزدهر فى ظلها الآداب الرفيعة ، أما فى عهود عجزها فهى شر مستطير على الفكر والحضارة عامة : فحين ضعفت قبضتها على الدولة العربية تقطعت أوصال المملكة ، وتكاثر الملوك والأمراء وتنازعوا وتحاربوا ، فكل بلدة « فيها أمير المؤمنين ومنبرُ » ، وظهروا فى جلود الأسود منتفخين ، وأفقروا البلاد بحروبهم ومغارمهم ، وكان منهم الأعاجم الذين لا يقدرون الأدب ، فخيب لديهم رجاء الشعراء فركد حتى ذلك الضرب من الشعر المملوء بالأماديح والمبالغات ، ودخلت الحضارة عامة والآداب خاصة فى دور ذلك التدهور الطويل الذى دام قرونا .

فالأدب العربى قد شهد الطورين الأول والثانى من أطوار النظام الحكومى التى تقدم ذكرها فى صدر هذه الكلمة : طور الأرستقراطية فى الجاهلية ، وطور الملكية فى الاسلام ، فجاء فى الطور الأول أكثره حماسى عصبى ممجد للقبائل وأبطالها ، وكان قائلوه عادة من الأشراف ذوى المكانة ، وظل فى الطور الثانى مكفوفاً فى حيز الحدود التى رضيتها له الملكية ، منصرفاً عن أغراض كثيرة من أغراض الفن السليم ، وترعرع الأدب الانجليزى فى الطور الثالث من أنظمة الحكم ، طور الديمقراطية ، فجاء حر النزعة ، متعدد النواحى ، واسع الأفق ، محتفظاً بسمو الفن وتجرده عن المادة ؛ وكان الفرق بينه وبين الأدب العربى ، أن الأخير بلغ أشده فى ظل الحماية والمنحة ، والأول جرى إلى غايته فى ظل الحرية والاستقلال

فخرى أبو السعود

(١) ذلك رأى وجيه إذا ثبت أن هؤلاء الملوك قد اطلعوا على مضامين الأسفار الأدبية الاغريقية فى أصولها (الرسالة)

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٦ —

للباحثين فى تاريخ الفلسفة مذاهب كثيرة وطرائق مختلفة . فجماعة يرون أن واجب المؤرخ ينحصر فى دراسة الأشخاص وتفصيل القول فى حياتهم وبيان الظروف المحيطة بهم والعوامل الداخلية والخارجية التى أثرت فيهم . ولا يعنون عناية كبيرة بأفكارهم فى نشأتها وتكونها وارتباطها بالآراء والنظريات السابقة واللاحقة . على أنهم إن تعرضوا لهذه الأفكار نظروا إليها منعزلة عما حولها ، وبدت فى أيديهم كأنها وحدة مستقلة وحلقة منفصلة عن سلسلة التفكير الانسانى . وهناك طائفة أخرى تؤمن بأن الفلسفة دائمة وأن الأفكار الفلسفية فى مختلف العصور متصلة الحلقات مرتبط بعضها ببعض . فيجب على الباحث إذن أن يبين مقدار تأثر الخلف بالسلف وما زاد التلميذ على الأستاذ . وليس بكاف أن يقال إن فيلسوفا ما جاء بفكرة معينة ، بل لابد من البحث عن أمهات هذه الفكرة وجداتها القريبات أو البعيدات ، وعن بناتها وبنات بناتها إن صح أنها أعقبت فى الأجيال التالية ؛ والأفكار كالأشخاص ذات تاريخ يطول ويقصر وحياة متنوعة الألوان والأشكال ، فى حين أنه يقدر لبعضها الخلود قد يقضى على بعضها الآخر بالاهمال والنسيان

وفى رأينا أن الدراسة التاريخية الكاملة تستلزم الجمع بين هاتين الطريقتين ؛ وكى تفهم الأفكار فهماً صحيحاً يجب أن تدرس على ضوء حياة أصحابها والبيئة التى تكونت فيها ، ولا يمكننا أن نقدر الفلاسفة والمفكرين حق قدرهم وننزلهم فى المنزلة اللائقة بهم إلا إن تتبعنا أفكارهم فى مختلف أدوارها وأثبتنا ما أنتجت من آثار . وكثيراً ما أعانت الأفكار على توضيح نواح غامضة فى حياة مبتكريها أو القائلين بها

وسيراً على هذه السنة قد بدأنا فعرضنا نظرية النبوة كما تصورها الفارابى ، وحاولنا أن نبين الأسباب الاجتماعية والدينية التى دفعته إليها ، والمناقشات اليومية والأبحاث النظرية التى ولدتها ، ثم صعدنا إلى أصولها التاريخية ووضحنا العلاقة بينها وبين بعض الآراء القديمة ، وناقشناها أخيراً مبينين ما إذا كانت تلتئم مع التعاليم الاسلامية وتقصر شقة الخلاف بين الفلسفة والدين ؛ ونرى اليوم واجباً علينا أن نبين ما لهذه النظرية من أثر فيمن جاء بعد الفارابى من فلاسفة ومفكرين ، وسنتتبع تاريخها فى المدارس الاسلامية على اختلافها محاولين أن نبين كذلك مقدار نفوذها لدى اليهود والمسيحيين فى القرون الوسطى والتاريخ الحديث

وقد يكون أول سؤال يسأله الباحث هو : هل أخذ فلاسفة الاسلام الآخرون بهذه النظرية ؟ والجواب على هذا أن ابن سينا أولاً اعتنقها فى إخلاص ، وعرضها على صورة تشبه تمام الشبه ما قال به الفارابى من قبل ، وقد خلف لنا رسالة عنوانها : (فى إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم) [1] ، وفيها يفسر النبوة تفسيرا نفسيا سيكولوجياً ، ويؤول بعض النصوص الدينية تأويلاً يتفق مع نظرياته الفلسفية . ويبدأ كالفارابى ، فيوضح الأحلام توضيحاً علمياً ؛ فأذا ما حل مشكلتها جاوزها الى موضوع النبوة . وفى رأيه أن التجربة والبرهان يشهدان بأن النفس الانسانية تستطيع الوقوف على المجهول أثناء النوم ؛ فليس ببعيد عليها أن تستكشفه فى حال اليقظة . فأما التجربة والسماع فيقرران أن أشخاصاً كثيرين تنبأوا بالمستقبل بواسطة أحلامهم . وأما عقلاً فنحن نسلم بأن الأحداث الماضية والحاضرة والمستقبلة مثبتة فى العالم العلوى ومقيدة فى لوح محفوظ ، فأذا استطاعت النفوس البشرية الصعود الى هذا العالم والوقوف على هذا اللوح عرفت ما فيه وتنبأت بالغيب ، وهناك أشخاص يدركون هذا أثناء النوم عن طريق مخيلتهم فيحلمون بأشياء كأنها حقائق ملموسة ، وآخرون عظمت نفوسهم وقويت مخيلتهم ، فأدركوا ما فى عالم الغيب فى حال اليقظة كما يدركونه أثناء النوم . وهؤلاء هم الأنبياء

(١) ابن سينا ، تسع رسائل فى الحكمة ، ص ١٢ وتوابعها ، لسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى أن فى هذا العنوان ضرباً من التحريف منشؤه فى الغالب عدم عناية الناشر

الواصلون الى مرتبة النور والعرفان . يقول ابن سينا « التجربة والقياس متطابقان على أن للنفس الانسانية أن تنال من الغيب نيلا ما فى حال المنام . فلا مانع من أن يقع مثل ذلك النيل فى حال اليقظة إلا ما كان الى زواله سبيل ولارتفاعه إمكان . أما التجربة فالتسامع والتعارف يشهدان به ، وليس أحد من الناس إلا وقد جرَّب ذلك فى نفسه تجارب ألهمته التصديق ، اللهم إلا أن يكون أحدهم فاسد المزاج نائم قوى التخيل والتذكر . وأما القياس فاستبصر فيه من تنبيهات :

تنبيه : قد علمت فيما سلف أن الجزئيات منقوشة فى العالم العقلى نقشا على وجه كلى ، ثم قد نُبهت لأن الأجرام السماوية لها نفوس ذوات إدراكات جزئية وإرادات جزئية تصدر عن رأى جزئى . ولا مانع لها عن تصور اللوازم الجزئية لحركاتها الجزئية من الكائنات عنها فى العالم العنصرى

إشارة : ولنفسك أن تنتقش بنقش ذلك العالم بحسب الاستعداد وزوال الحائل . قد علمت ذلك فلا تستنكرن أن يكون بعض الغيب ينتقش فيها من عالمه[1] » فالحقائق منقوشة فى العالم العلوى وكل من اتصل به أدركها . والمهم فقط هو شرح كيفية هذا الاتصال . وابن سينا يوضح هذا توضيحاً يحاكى فيه الفارابى حذوك القذة بالقذة . فيلاحظ أن بعض المرضى والممرورين يشاهدون صوراً ظاهرة حاضرة دون أن يكون لها أية صلة باحساساتهم الخارجة ؛ ولا بد لهذه الصور من سبب باطنى ومؤثر داخلى . وإذا بحثنا فى قوى النفس المختلفة وجدنا أن المخيلة مصدر الصور الباطنية المختلفة[2] بيد أنه قد يصرفها عن عملها شواغل حسية وأخرى باطنية[3] . فاذا انقطعت هذه الشواغل أو قلت أثناء النوم لم يبعد أن تكون للنفس فلتات تخلص بها إلى جانب القدس فينتقش فيها نقش من الغيب . وإذا كانت النفس قوية الجواهر تسع الجوانب المتجاذبة ، وتستطيع الاستيلاء على الشواغل المختلفة ، لم يبعد أن يقع لها هذا الخلس والانتهاز فى حال اليقظة[4] . وهذه القوة ربما كانت للنفس بحسب المزاج الأصلى ؛ وقد تحصل بضرب من الكسب يجعل النفس كالمجردة لشدة الذكاء كما تحصل لأولياء الله الأبرار . والذى يقع له هذا فى جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً مزكياً لنفسه ، فهو ذو معجزة من الأنبياء ، أو كرامة من الأولياء[1] . وتزيده تزكيته لنفسه فى هذا المعنى زيادة على مقتضى جبلته فيبلغ المبلغ الأقصى[2]

فالنبوة إذن فطرية لا مكتسبة ، وكل ما للكسب فيها من بد أنه يزيد النبى كمالاً على كماله ، ورفعة فوق رفعته . وإذا ماحظى شخص بالاتصال بالعالم العلوى تمت على يديه أمور خارقة للعادة من معجزات وكرامات . وهذه الأمور وإن غاب عنا سرها يمكن أن تفسر من هذه الطريق النفسى الروحانى . يقول ابن سينا : « لعلك قد تبلغك عن العارفين أخبار تكاد تأتى بقلب العادة فتبادر إلى التكذيب . وذلك مثل ما يقال إن عارفاً استسقى للناس فسُقوا ، أو استشفى لهم فشُفوا ، أو دعا عليهم فخسف بهم وزلزلوا أو هلكوا بوجه آخر ، أو دعا لهم فصرف عنهم الوباء والموتان ، أو السيل والطوفان ، أو خشع لبعضهم سبع ، أو لم ينفر عنه طير ، أو مثل ذلك مما لا يأخذ فى طريق الممتنع الصريح ، فتوقف ولا تعجل ، فان لأمثال هذه أسباباً فى أسرار الطبيعة ، وربما يتأتى لى أن أقص بعضها عليك[3] . » وهذه الأسباب ، فى رأى ابن سينا ، ليست شيئاً آخر سوى أن النفوس السامية وقد تجردت عن المادة وصعدت إلى سماء الأرواح تستطيع التأثير فى العالم الخارجى مثل نفوس الأفلاك وعقولها[4] . وأثرها هذا خاضع فى الواقع للارادة الالهية وفيض من العناية الربانية . فالمعجزة وإن خرجت على المألوف فى ظاهرها هى أثر من آثار القوى المتصرفة فى الكون . وكأن ابن سينا أحس بأن هناك أشخاصاً سيتمادون فى طريق الفروض العقلية ويرفضون هذه التفسيرات الروحانية ، فعاد فى آخر بحثه ودعاهم إلى التأنى والتدبر والبحث والتمحيص قبل الانكار والقطع

(١) ابن سينا ، الأشارات ، ص ٢٠٩ — ٢١١
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٢
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢١٢ — ٢١٣
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٤

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢٠
(٢) المصدر نفسه
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢١٩
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٩ — ٢٢٠

بالاستحالة ، وختم إشاراته بتلك النصيحة الذهبية الغالية التي يجب أن يضعها كل باحث وكل مفكر دائماً نصب عينيه . يقول : « إياك أن يكون تكيُّسك وتبرُّؤك عن العامة هو أن تنبرى منكراً لكل شيء فذلك طيش وعجز ، وليس الخرق فى تكذيبك ما لم تستبن لك بعدُ جليّتُه دون الخرق فى تصديقك ما لم تقم بين يديك بيّنتُه . بل عليك الاعتصام بحبل التوقف ، وإن أزعجك استنكار ما يُوعاه سمعك ما دامت استحالته لم تبرهن لك . والصواب لك أن تُسرِّح أمثال ذلك إلى بقعة الامكان ، ما لم يذدك عنها قائم البرهان ، واعلم أن فى الطبيعة عجائب ، وللقوى العالية الفعالة والقوى السافلة المنفعلة اجتماعات على غرائب [1] »

درس ابن سينا نظرية النبوة فى البحث الأخير من الأشارات فجاءت درة العقد وإكليل الكتاب ، وأفاض عليها من فصيح بيانه وقوة برهانه ما منحها سلطاناً فوق سلطانها وقوة إلى جانب قوتها ، ويغلب على ظننا أن كل فلاسفة الاسلام أخذوا بها . ومما يؤسف له أنه لم يصلنا شيء عن ابن باجة وابن طفيل يوضح موقفهما إزاءها ، إلا أن نزعتهما التصوفية ورغبتهما الأكيدة فى التوفيق بين الفلسفة والدين تدفعنا إلى القول بأنهما كانا يسلمان بها ويدعوان إليها ، أما ابن رشد فقد عرض لها فى تهافت التهافت مفنداً لاعتراضات الغزالى ومدافعاً عن الفلاسفة القدامى والمحدثين ، وهو يرى أن هذه النظرية وإن تكن من صنع فلاسفة الاسلام وحدهم مقبولة فى جملتها ، ولا وجه للغزالى فى الاعتراض عليها [2] ، وما دمنا نسلم أن الكمال الروحى لا يتم إلا باتصال العبد بربه فلا غرابة فى أن تفسر النبوة بضرب من هذا الاتصال . غير أن هذه التفسيرات العلمية يجب أن تبقى وقفاً على الفلاسفة والعلماء ، فأن عامة الناس لا يدركون كنهها ولا يستطيعون الوقوف على حقيقتها [3] ، وجدير بنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم ، ونقدم لكل طائفة ما يناسبها من غذاء

(يتبع) ابراهيم بيومى مدكور

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٢) ابن رشد ، تهافت التهافت ، ١٢٦ وتوابعها

(٣) ابن رشد ، مناهج الأدلة ، ٧٣

الشـــفاء

للأستاذ على الطنطاوى

... كان مصاباً بالسل ، ولكنه سل غريب قتل ، لم يكن فى الرئة ولا فى الأمعاء ، بل كان فى النفس ، فى الفكر ، فكان يعطل شعوره وتفكيره ، ويخنق حياته ، ويهد كيانه ... كان مصاباً « بداء الحب »

خمدت جذوة قريحته ، وتعطلت ملكاته كلها ، وضاع ذكاؤه وبادت فطنته ، وضاق كل شيء فى نظره ، فأصبح يراه مقتضباً مختصراً : فالمسرات كلها اختصرت فى لقاء من يحب ، والآلام فى فراقه ، والواجبات كلها فى إرضائه ، والمحرمات كلها فى إغضابه ، واختصر كتاب حياته ، وطمس اسمه وعنوانه ، فكان حاشية صغيرة على هامش حياة التى يحبها ، واختصرت الدنيا الطويلة العريضة المليئة بالفضائل والأمجاد ، الفياضة بالجمال والحقيقة والخير ، فكانت كلها هذه المرأة ..

وأقهمَ عن الطعام واجتواه ، وأصبح خالفاً لا يشتهيه ولا يميل إليه ؛ وإذا اضطر أكلَ أكل من قزَّتْ نفسه واكتفى بلقيمات ما يقمن صلبه ، كأن هذا المرض لا يرضيه ما يفسد من النفس ، حتى يحطم الجسم ؛ وأصابه الأرق ، فأمسى يبيت ليله سهران مسهداً ، وإذا رنق النوم فى عينيه ، وغلبته حاجة جسمه خفق خفقة ، ثم أفاق فزعاً ، يفكر فى هذا الانسان ، يخاف أن يطير مع الأنفاس ، أو يسيل مع الدمع ، أو يغرق فى بحر عينيه ! ..

فهزل جسمه وخارت قواه ، وتراخت مفاصله ، وشحب وجهه ، وآض ساهما رازماً ، ضعيفاً مُخَبْخَباً ، ولم يعد يعيش إلا على المجاز ، يعيش بذكرى أيامه الماضية قبل أن يصيبه هذا السل ، أيام كان ذا جسم قوى ، وفكر ثاقب ، وقلب شاعر .. ولم يعد ينتفع بنفسه ، أو ينتفع بها الناس بشيء ، لأنه أصبح لا لنفسه ولا للناس ولا للحياة ، ولكن لانسان واحد يحبه ..

وهكذا الحب أبداً : مرض فى الجسم ، وضيق فى الفكر ، وفرار من خومة الحياة !

* * *

وكان أمس ، وكان يوماً هجهاجاً من أيام الخريف فى بغداد ، هبت فيه الرياح خرقاء هوجاء معصفة ، تدعدع[1] الأشجار ، وتثير الأوراق ، وتكسر الأغصان ، وتمتد إلى كل شىء فى الطبيعة ، فتعيث فيــه وتعبث به ، وتدفعه من ههنا ، وههنا ... معتكرة تسفى التراب . وتحمل هذا الغبار الناعم الدقيق الذى يملأ الجو ويخالط كل ذرة من ذرات الهواء ، وينتشر فى السماء كمثل السحاب ، يمنع الشمس ، ويحجب المرئيات ، ولا يمنع منه شىء ، فهو يدخل الغرف مهما أحكمت إغلاق الباب وضبطت النوافذ ، وينفذ من خلال الثياب مهما كانت حصـيفة محكمة ، ويخش[2] فى العيون والمناخر والآذان ، وفى أصول الشعر ، ويمر إلى أجواف الصناديق ، وبطون الخزائن ، وقلوب الساعات ... بل إنه لدقته وخفته وسرعته ليكاد يدخل فى نفسه ...

وكان على صاحبنا أن يغدو إلى عمله فى بغداد ، وكان ينزل ضاحية من ضواحيها ، فتردد ثم لم يجد من الأمر بداً ، فتحزم وتدثر ، وتمطف بمعطفه الثخين ، والتحف فوقه بالممطر (الشمع) يتقى به المطر ، ولف شملة على عنقه ، ولبس قفازيه ، وأخذ عصاه فتوكأ عليها ؛ وسار الهوينى ، لا يطيق حراكا ، لكثرة مايحمل من ثياب ، ولطول الطريق ، وشدة الرياح ، وما به من الضعف والاعياء

* * *

وكان وحده فى طريق (الصُّلَيخ) ، لم يجد سيارة يركبها ، ولا قوماً يصحبهم ، فنزل ماشـياً ، وكان الطريق طويلاً على طرفيه النخيل ، تعبث به الرياح فتميل بجذوعه وتحرك أغصانه . فتفرقها ثم تجمعها ، فتبدو كأنما هى مراوح ضخمة ، تحركها يد لا ترى ، فتُروِّح بها على وجه الدنيا ، وكانت تظهر أوائلها ، وتغيب أواخرها فى هذا السحاب الترابى الذى يغطى على كل شىء ، ويصل الأرض بالسماء ، فترى الطريق كأنه صاعد إليها ، أو تراها كأنها هابطة إليه ؛ وكانت الرياح زعزعاً شديدة ، تميل بالأشجار وتعصف بالغصون ، ولم يكن ثابتاً وسط الرياح إلا صاحبنا بعصاه وضعفه وأحماله ... ولحظ ذلك من نفسه ، وأعجبه أن يلحظه ويفكر فيه ، وعراه شىء من الاعتداد بالنفس ، وازداد حتى ملأه الشعور بقوته ، فجعل ينظر فى عطفيه زهواً وتيهاً ، وجعل يتأمل دخيلته ، ويفكر فى نفسه ؛ من هو ؟ وما هذه الحياة التى يحياها ؟ ...

واشتدت الرياح وعزفت ، ثم صفرت صفيراً ، فلم يبال بها ولم يحفلها ، لأن زوبعة أخرى أشد هولاً قد هبت فى نفسه ... تنطح هذا الحب وتريد أن تنسفه . . فوقف يفكر : لماذا يضيِّق حياته بيده ؟ لماذا يعطل فكره وملكاته ؟ أكل ذلك لأنه وجد إنساناً جيلاً ظن أنه يحبه ؟

لتكن جميلة أو قبيحة ، ما شأنه هو بها ؟ ومن قال إنه لا يعيش إلا بها ؟ ماذا كان يصنع قبل أن يعرفها ؟ ألم يكن يعيش ؟ ألم تكن حياته أجمل وأحفل بالمظائم ، وأملأ بالفضائل ؟ هل كان هذا الحب إلا مرضاً عضالاً هد جسمه ومحا مواهبه ، وفل عزيمته ، وأقام بينه وبين الحياة سداً من لحم ودم ؟

يا للسخف ! أيحكم على نفسه بالألم الدائم ، والقلق المستمر ليحظى ذلك الانسان بالسرور والاطمئنان ؟

أيوجب على نفسه الشحوب لأنها موردة الوجنتين ؟ أيختار المرض والهزال لمجرد أنها صحيحة بضة ؟ ...

يا للخجل ! ألا يرى الدنيا إلا فى عينى هذا الانسان ؟ أيقنع من السعادة والمجد والعــلم والبطولة والدفء والنور والحياة بابتسامة واحدة ؟

وبدا له الحب كأسخف شىء يكون . . . . . .

* * *

وكانت الدنيا قد استطير لبها ، وجن جنونها ، وهطلت الأمطار سريعة قوية ، تضرب وجهه ... فأحس بالقوة والنشاط ، وجعل ينشق ملء رئتيه ، وتبرق عيناه بريق العزم ، ثم ألقى عصاه وشملته ، ونزع عنه هذه الأحمال من الثياب ... وانتفض وضرب الفضاء بقبضيته ، وصاح صيحة الفرح : قد شفيت !

ثم انطلق نحو الدنيا الواسعة . لم تعد محرمة عليه ، لأنه لم يعد يحب !

(بغداد)   علي الطنطاوي

---

(١) أى تميل   (٢) قال فى القاموس : خششت فى المكان دخلت !

ما قول علمائنا ؟

الوحدة الاســـــلامية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

الأستاذ بكلية اللغة العربية بالأزهر

سمعت المحاضرة التى ألقاها بدار جمعية الشبان المسلمين صاحب السماحة الشيخ عبد الكريم الزنجانى كبير مجتهدى الشيعة ورئيس مجلسهم الأعلى ، وكانت المحاضرة فى الدعوة إلى الوحدة الاسلامية ، فرأيت فيه عالماً كبيراً ، وإماماً مصلحاً ، يندر وجود مثله بين علماء المسلمين فى هذا العصر . ولا غرو أن تنجب بلاد إيران مثله ، فقد أنجبت قبله فى هذا العصر ذلك الحكيم العظيم ، « جمال الدين الأفغانى » موقظ المسلمين من غفلتهم ، وباعث الدعوة الاصلاحية القائمة الآن فيهم ؛ وكأن الله أتى بالأستاذ الزنجانى ليكمل ما بناه قبله الحكيم الأفغانى ، فليسر الأستاذ فى سبيله ، ولينسج على منواله ، فالطريق ممهدة والغاية مرجوة ، والأمل كبير فى النجاح بعون الله تعالى

ولكن كيف تتم الوحدة الاسلامية التى يدعو الأستاذ الزنجانى إليها ؟ وما هو الطريق الموصل إليها حقيقة لا خيالاً ؟ هنا أخالف الأستاذ الزنجانى فيما يراه من قيام هذه الوحدة على إزالة الفوارق بين الطوائف الاسلامية فى الأصول الدينية على الأقل ، وتقريب شقة الخلاف بين هذه الطوائف حتى تنحصر فى الفروع وحدها

فانى أرى أن هذا طريق شائك لا يوصلنا إلى الغاية المطلوبة من هذه الوحدة ، لأن هناك خلافات حقيقية وكبيرة بين هذه الطوائف ، ولا يمكن التقريب بينها فيها ولو بذلنا فى ذلك ما بذلنا ؛ فلا بد من طريق آخر يوصلنا إلى هذه الوحدة غير هذا الطريق ويقوم فيه بناؤها مع قيام هـذه الفروق ، وبقاء تلك الخلافات فى الأصول والفروع

فالخلاف بين أهل السنة والشيعة فى عصمة الأئمة خلاف حقيقى ، وهو خلاف فى أصل من أصول الاعتقاد لا فى حكم من الأحكام الفرعية ؛ وأهل السنة يرون أن العصمة صفة خاصة بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، أما الشيعة فلا يرون العصمة صفة خاصة بهم ويعتقدون العصمة فى الأئمة من أهل البيت أيضاً ، ولكنهم لا يقولون بأنهم أنبياء أو رسل . وقد تكلف الأستاذ الزنجانى إزالة الفرق بين أهل السنة والشيعة فى هذا الاعتقاد ، فقال ما مؤداه إن عصمة النبيين تختلف عن عصمة الأئمة عند الشيعة ، وأنها فى الأئمة معناها العدل والثقة ، ونحن إذا وثقنا من رجل فى علمه ودينه وعمله استبعدنا أن يقع منه خطأ أو مالت نفوسنا إلى استبعاد وقوع هذا الخطأ منه ؛ أما عصمة الأنبياء فلها معناها الحقيقى ، فهم معصومون عن كل خطأ ، والفرق ظاهر فى التقديرين وفى الحكمين . وإنى أرى أنه لو كان هذا هو المراد من عصمة الأئمة لما كان هناك معنى فى تسميتها عصمة ، ولكان شأن الناس فيها كشأن الأئمة من أهل البيت وهو ما لا يقول به الشيعة

وكذلك الخلاف بين أهل السنة والشيعة فى خلافة الشيخين « أبى بكر وعمر » خلاف حقيقى ، وله قيمته عند الفريقين

ويضاف إلى هذا وذاك أن الشيعة فى أصول الاعتقاد يتفقون فى كثير منها مع أئمة المعتزلة ، ويخالفون أهل السنة ، كمسألة نفى الصفات وغيرها من مسائل علم الكلام ، وهذه كلها خلافات يصعب إزالتها ، فلا يصح أن نطمع فى بناء الوحدة الاسلامية على محوها

وإنما الواجب فى ذلك أن نقبل هذه الخلافات فى ديننا ، وأن تتسع لها صدورنا ، وأن نجعل الخلاف فى مثل هذه الأصول مثل الخلاف الذى نقبله فى الفروع ، فاذا قال الشيعة بعصمة الأئمة فلهم فى هذا رأيهم ، ما داموا يقولون إنهم أئمة معصومون ، وليسوا بأنبياء ولا برسل ؛ وإذا قال الشيعة إن عليا رضى الله عنه كان أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وأنكروا خلافتهما فلهم فى هذا أيضاً رأيهم ، ولنا رأينا فى أن خلافتهما خلافة صحيحة

وليقم الجدال فى هذا وأمثاله بين الطوائف الاسلامية على الاقناع بالحجة النقلية أو العقلية ، ولنبعد فيه عن التغالى فى التعصب للرأى ، والطعن فى الدين والعقيدة ، والرمى بالالحاد والكفر ، ولنجعل الخلاف فى الرأى أداة تواصل وتعارف ، لا أداة تقاطع وتجاهل ، وليقم الخلاف بيننا على أنه خلاف بين أخوين فى الدين ، تجمعهما كلمة الاسلام ، وتظلهما راية التوحيد ، وقد امتاز الاسلام على غيره من الأديان بما سنه من سنة الخلاف

فى الرأى ، فقال الله تعالى فى سورة هود (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم للمجتهد إذا أخطأ أجرا واحدا ، فاذا أصاب فله أجران ، ولم يفرق فى هذا بين أصول وفروع ، بل أطلق الأمر إطلاقا ، وفتح باب الاجتهاد فى الأصول والفروع معاً

وهذا هو الأساس الصحيح الذى لا يمكن أن تقوم على غيره تلك الوحدة المطلوبة ، أما ذلك الأساس الذى يراد بناؤها عليه فلا يمكن تحقيقه أبداً ، لأن الخلاف فى الرأى سنة طبيعية فى الإنسان ، وعلى هذا مضى أمره منذ الخليقة ، وسيمكث عليه إلى ما يشاء الله تعالى

ولا بد أن أشير فى هذه الكلمة إلى أنه لابد فى تحقيق تلك الوحدة من قبر ذلك الماضى القائم على التدابر والتقاطع ، ولا يمكن قبر هذا الماضى إلا بقبر هذه الكتب المتدابرة المتقاطعة ، وهى الكتب التى يدرسها أهل السنة فى الجامع الأزهر بمصر ، والكتب التى يدرسها الشيعة فى معهد النجف الأعلى بالعراق ؛ وقد أخذت النفوس فى الأزهر هذه السنة تحن إليها ، وتعمل على إعادة كثير منها ، وتمدح مماحكاتها اللفظية الساقطة ، وتنسى ما جلبت من الشقاء على الاسلام والمسلمين ، وأنه بينما كانت كل قوانا الفكرية مصروفة إلى ألفاظها ، كانت قوى غيرنا مصروفة إلى حقائق الأشياء ومعانيها ، فنجحوا فى علومهم دوننا ، وتقدموا وتقهقرنا ، ولم تنفعنا هذه المماحكات اللفظية التى برعنا فيها . ولابد أن أشير أيضاً إلى أنه لا يكفى فى تحقيق تلك الوحدة أن يزور الأستاذ الزنجانى الأزهر والكليات التابعة له ، ثم نبادله فى معهد النجف الأعلى زيارة بزيارة ، بل لابد من الاعتراف فى الأزهر بفقه الشيعة ودراسته فيه كما يدرس فقه أهل السنة ، ويكون هذا بندب أستاذ لدراسته فى الأزهر من أساتذة معهد النجف الأعلى ، كما يجب أن يعترف الشيعة بفقه أهل السنة ، ويدرسوه فى معهدهم كما ندرس فقههم فى أزهرنا ، ويكون هذا بندب أستاذ من أساتذة الأزهر لدراسة فقهنا عندهم ، فيتم بهذا التعارف بيننا وتزول تلك الجفوة المقوتة ، وتتحق تلك الوحدة المطلوبة

عبد المتعال الصعيدى

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

— ٣ —

إن العلم يجب أن يكون حراً طليقاً يبحث فى العالم المجهول حيث شاء وأين وقع . هكذا تقول أنت ، وهكذا كنت أقول ياسيدى ، ومن أجل جهرى بهذا الرأى وإعلانى إياه بصوت غير خافت ساء ما بينى وبين قوم ذوى نباهة وسلطان . كلانا مخطىء ياصاحبى فى زعمه ! وشاهدُنا إسميثُ الذى نحن بصدده . بدأ عمله مستمتعاً بحرية لا تزيد إلا قليلاً على حرية كاتب حكومى صغير ، ووجب عليه ألا يبحث إلا فى أشياء يمليها عليه الدكتور سلمون ، وهذا بدوره إنما استُخدم ليوجّه إسميث إلى حل معضلات أعجزت المزارعين وأرباب المواشى . فالثلاثة جميعهم — سلمون وكلبورن وإسميث ، وكذلك اسكندر ، وليس بنا عنه غنى — كل هؤلاء دفعت السلطات إليهم أجورهم كما تدفعها إلى فرقة المطافئ ، وانتظرت منهم مثل الذى تنتظره من فرقة المطافى : أن ينهضوا كرجال الحريق كلما اشتعلت عدوى المرض فى الخنازير والعجول والثيران والخرفان فيوجهوا إليها خراطيمهم فيندفع منها العلم اندفاعاً حتى تنطفىء فيعود البرء والسلام إليها . وكان أصحاب الماشية فى هذا الوقت قلقين قلقاً شديداً من جراء مرض غريب يُدعى بحمّى تكساس[1]

كانت الأقطار الجنوبية تستورد أبقاراً من الشمال ، فتُساق هذه الأبقار السليمة من القُطُر الحديدية إلى المراعى فتنساب فيها فتختلط بأبقار الجنوب وهى جِدّ سليمة ، فيمضى الشهر أو الشهران على خير ، ثم فجأة تظهر الوافدة الخبيثة فى هذه الأبقار الشمالية الجميلة فلا تلبث أن تعاف الطعام ، ويصيبها الهزال فتفقد فى اليوم الواحد أرطالاً من وزنها ، ويجرى بولها أحمر

(١) تكساس ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية فى أقصى جنوبها

غريباً ، وتقف حائرة متقوّسة الظهر حزينة العين ، ثم لا تمضى أيام قليلة حتى تكون كل بقرة قد سقطت سقطة الاعياء ، ثم ترقد على الأرض رقدة الموت ، وقد تصلبت أرجلها ، واستترت بجسومها الباردة المديدة أرض الحقول . وحدثت هذه المأساة عينها عند ما استورد أهل الشمال من الجنوب عجولا ، فلما رعت هذه العجول فى الحقول ونزحت عنها ، وحلّ محلها قطعان من بقر شمالىّ ، لم يمض على هـذا البقر ثلاثون يوماً أو نحوها حتى أخذ يموت ، ولم تمض عشرة بعد أيام ذلك حتى عمّه الموت

أى موت غريب هذا الذى حملته الأبقار الجنوبية الى الحقول الشمالية دون أن تصاب هى به ، فاختبأ بعـد ذلك فى مخابىء الأرض يتربص لأبقار الشمال ليذيقها عذاب الموت ألوانا ؟ وما السر فى أنها إذا طلعت على هـذا الموت المخبوء لا يبادرها بالهلاك بل يتمهل شهراً أو يزيد ؟ وما السر فى أن هذا الهلاك لا يَحيق بها إلا فى أشهر الصيف الحِرار

وثارت ثائرة الأمة[1] كلها من أجل هذا ، وساءت العلاقة بين أصحاب البقر فى الشمال وأصحاب البقر فى الجنوب . وهاجت مدينة نيويورك[2] وارتاع أهلها لما جاءت الأنباء بموت مئات من الأبقار فى القُطُر التى كانت تحملها من الغرب اليها لتغتذى من لحومها . وتحرّج الموقف ، وصار لابد من عمل شىء ، فنهض الأطباء الفخام فى مصلحة الصحة للمدينة العظيمة وأخذوا فى البحث عن الميكروب الذى سبّب هذا الداء . . .

وكان فى الغرب طائفة من البقّارين كسبوا الحكمة من طول تربيتهم للبقر ، فخالوا لهذا الداء علة أوحيت اليهم إيحاء من خلَل الدخان المتصاعد من نراجيلهم وهم يتأسّون بتدخينها فوق الجثث المركومة التى أضاعوها بسبب هـذا الداء . خالوا فى شىء من الابهام أن هذه الحمىّ التكساسية تسببها حشرة تعيش على جلد البهيمة وتمتص دمها ، وأسموا هذه الحشرة القرادة tick[3]

وضحك الأطباء العلماء فى مصلحة الصحة بالمدينة العظيمة ، وضحك معهم كل بيطرى ممتاز فى المحطات التجريبية الحكومية . قرادة تَقدح حمى ! حشرة تخلق داء ، من ذا الذى سمع بهذا أبداً ! وأى علم يرضاه ؟ إنها حماقة بالغة ! وقال الدكتور جامجى Gamgee وهو عمدة فى الموضوع معروف : إن تفكيرا يسيراً قصيراً يقنع كل أحد بسخافة الفكرة . وكان قائماً قاعداً فى بحث حمى تكساس ، ولكن لفظة القُراد لم تخرج من فيه أبداً . وكان العلماء فى كل نواحى القطر قائمين فى تقطيع أجسام الأبقار النافقة وكانو يجدون البشلات فى بطونها ، ولكنهم لم يستخرجوا منها قُرادة واحدة ! قال أحدهم : إن روث البهائم[1] ينشر بينها الحمى ، فقال الآخر : إنك مخطىء ، بل إن اللعاب ينقلها . وهكذا تعددت النظريات بتعدد الباحثين ، وظلت الأبقار تموت وهم يختلفون

— ٤ —

وفى عام ١٨٨٨ كلّف الدكتور سلمون رجاله الثلاثة أن يتوفروا على بحث الحمى التكساسية ، فوضع اسميثَ فى القيادة يعاونه كِلْبورن ، ثم اسكندر ينظف من ورائهما . وطلب إليهم « أن يكتشفوا الجرثومة » ، ولم يذكر لهم شيئاً عن القراد . ولم يأتهم فى هذا العام من البقر غير أربع من الأكبدة ومثلها من الأطحلة ، جاءتهم فى الثلج فى جرادل من فرجينيا Virginia وماريلاند Maryland[2] إلى غرفتهم فى ذروة البناء وهى كالفرن فى حرارتها

وكان لدى اسميث حسّ لم يكن لدى سائر البحّاث ، فحرّر مكرسكوبه على قطع من الطحال الأول فرأى فيه مكروبات كثيرة عديدة الأنواع . واقترب بأنفه منها فتجعّد من سوء ما أحسّ من رائحتها . فقد كانت فاسدة

عندئذ قام يرسل الرسائل فوراً إلى البقّارين أن ينتزعوا أحشاء البقر عقب موته بلا تريّث ، وأن يرسلوها اليه فى الثلج ، وأن يعملوا على تقصير ما تستغرق من الوقت فى سفرها . وأنفذوا ما أراد . ونظر فى الأطحلة لما جاءته فلم يجد بها مكروبة واحدة ، ولكنه وجد بها عدداً كبيراً من خلايا الدم الحمراء قد انفقع لغير سبب ظاهر ، قال : « إن هـذه الخلايا انفقعت

(١) الأمة هى الولايات المتحدة الأمريكية
(٢) تذكر أن نيويورك تقع من الولايات المتحدة فى شمالها الشرقى
(٣) القراد دويبة تتعلق بالبعير ونحوه وهى كالقمل للانسان

(١) ماتتغوطه
(٢) ماريلاند وفرجينيا ولايتان من الولايات المتحدة على المحيط الأطلسى جنوب ولايتى نيويورك وبنسلفانيا

فتحطمت بفعل فاعل » ، ولكنه لم يجد مكروباً ، وكان لا يزال حَدَثاً ، وكانت به سخرية الشباب ، وكانت به قلة اصطبار واحتمال للبحاث الذين لا يَقْدرون على التفكير العميق والتركّز الشديد

وكان رجل يُدعى بيلينجس Billings ادّعى فى سخافة أنه رأى بشلة عادية فى كل جزء من جثة كل بقرة فحصها ، وفى كل ركن من أركان الزريبة ، حتى فى أكوام روثها ، ونسب إلى هذه البشلة حمّى تكساس ، ونشر عن ذلك مقالاً قال يفتخر فيه : « إن شمس البحوث الأصيلة فى الأدواء تحوّل مطلعها من الشرق إلى الغرب (1) »

قرأ إسميث هذا المقال فقال : « تلك لعمرى طنطنة الفخور الغالى » . وعقّب على هذا ببضع جمل قصيرات قاسيات نال بها شر منال من هذا العبث الذى يُدعى علماً . واستيقن أن لا فائدة من الجلوس فى معمل مهما كثرت خنازيره الغينية ، وترصصت زاهيةً بارقةً محاقنه ، ما دام أن الباحث لا يصنع فيها إلا التحديق فى أكبدة وأطحلة من جثث بقر نالها الفساد إن قليلاً وإن كثيراً ، وأراد أن يسلك السبيل السوى ، سبيل التجريب الصادق ؛ أراد أن يدرس الداء فى البهائم الحية ، أراد أن يدرسه فيها وهى تلفظ آخر أنفاسها ، أراد أن يتتبع الطبيعة فى خطواتها . وجاء صيف عام ١٨٨٩ فأخذ يتجهز له . وذات يوم أخبره كلبورن Kilboren بخبر تلك النظرية الخرقاء التى يتحدث بها البقارون ، تلك النظرية التى تعزو الداء إلى قُراد البقر

عندئذ أرهف إسميث آذان عقله ، لو أن للعقل آذاناً : « إن البقّارين الذين يعيشون مع البقر ، ويخسرون البقر إذا مات ، ويرون من هذه الحمى الخبيثة أكثر مما يرى البحاث ، هؤلاء البقارون هم الذين يقولون بهذه النظرية ! »

وُلد اسميث فى المدينة ، فهو ابن المدينة لا ابن الريف ، ومع هذا فقد كانت تستهويه نفحات الحشيش وهو يُحَشّ ، وأخاديد الحقل الدكناء وهو يُفلَح . وكان يؤمن بتلك الجمل القصيرة المقلّمة التى ينطق بها الفلاحون عن الجو وعمّا تنبت الأرض ، وكان يرى الحكمة فيها وأنها الحق أو أقرب ما تكونه . كان إسميث ضليعاً فى الرياضيات عارفاً باختزالاتها البديعة ، وهى علوم يجهلها كل الجهل هؤلاء الرجال الذين اصطنعوا الأرض واحترفوا فلاحتها . وكان كذلك ضليعاً خبيراً فى كل تلك العلوم التى تتمثل فى المجاهر والأنابيب والخرائط وبريق المعامل ، ملمًّا بكثير من فنون العرفان الدنيوى الصناعى المزوّق الذى درج على احتقار الحكمة تجرى على ألسن العامة ، والسخرية بسذاجة الفلاح وبساطة حاله . ولكنه مع كل هذه الدراسات الواسعة لم يأذن للأبنية الفخمة والمعامل البديعة وأجهزتها المعقدة أن تعكر عليه فكره الرائق ، أو تتنفس على مرآة ذهنه الصقيلة ، وهذا فيمن نشأ نشأته غريب نادر . وكان دائم الشك لكل ما يحصّله من الكتب ، دائم الريبة فى كل ما تريه الأنابيب ... ونظر إلى أشد الفلاحين جَلَفاً واخشيشاناً ، وأحصرهم وأعقدهم لساناً ؛ حتى إذا أمسك ببيته — وهى من قلاح الذرة — فأخرجها من قبضة أسنانه — وقد تكون صفراء قَلِحة قذرة — فهمهم كالرعد بالمثل الريفى المشهور : « شآبيب ابريل تنبت زهور مايو » ، سقط هذا القول من فم هذا الفلاح إلى قلب صاحبنا كأنما سقط من شفة حكيم أريب

واستمع إسميث إلى كلبورن وهو يتحدث حديث النظرية السخيفة ، وأكّد له كلبورن أن البقّارين فى الغرب يكادون يجمعون على أن القراد أصل البلاء ، ثم أخذ يفكر مليًّا : « رؤوس هؤلاء البقارين خالصة من زخارف المنطق ومفسدات الفكر ، وإن أجسامهم لتتفاوح منها روائح الثيران والعجول كأنهم بعضها ، وهم هم الذين سهروا الليالى وقد تركّزت فكرتهم على الداء وهو يجرى بالفناء فى عروق بهائمهم فيحيل دمها الثخين ماء رقيقا ، وينتزع لقمة الرزق من أفواه أبنائهم وعيالهم ، وهم هؤلاء الذين قاموا على دفن هذه البهائم الضائعة بعد موتها . فهؤلاء الفلاحون هم الذين يقولون فى نَفَس واحد : « لا حمّى حيث لا قُراد »

فارتأى إسميث أن يتتبع الزراعين ، وأن يراقب الداء عن كثب مراقبة البقارين ، وتلك طريقة مستجدّة فى صيادة المكروب : اتباع الطبيعة والتدخل فيها بالحيلة الهيّنة القليلة ..

(1) لعله يقصد من أوروبا إلى أمريكا

وجاء صيف عام ١٨٨٩ واشتد حره ، فذكر الناس خسائرهم الماضية ، وذكروا شكاواهم المرة التي كانت ، فكان لابد من عمل شيء . وأحست الحكومة كذلك بالحاجة الى عمل حاسم ، فاعتمدت الوزارة للبحث مبلغاً طيباً من المال ، وقام الدكتور سلمون بادارة البحث المطلوب . ومن حسن الحظ أنه لم يعرف إلا القليل عن التجارب والتجريب فلم تقم إدارته عقبة فى سبيل إسميث أبداً

— ٥ —

وفى منطقة منعزلة بعيدة أقام إسميث معمله ، وأعانه كلبورن فى إقامته . وما بالمعمل المعهود كان ، فلم يحده سقف وأربعة أركان ، بل كان سقفه السماء الحارة ، وكان حجراته خمسة أو ستة من الحقول تسوّرت عن بقية الأرض بسور . وفى يوم ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٩ جاءت سفينة فخرجت منها الى المعمل سبع بقرات نحيفة بمض النحافة ولكنها صحيحة سليمة . وجاءت هذه البقرات من كرُلينة الشمالية (١) وهى بؤرة الحمى التكساسية ومقبرة كل بقرة تدخلها من الأقطار الشمالية . وكان على ظهور هذه البقرات بضعة ألوف من القُراد ، منها الصغير الذى لا تراه إلا بالمجهر ، ومنها أُنثيات عظيمة تبلغ نصف بوصة طولاً ، قد انتفخت مما امتلأت بالدم الذى شربته من الجسم المعذب المنكود الذى أضافها غيرَ مختار

فساق إسميث وصاحبه كلبورن الى الحقل الأول أربع بقرات من هذه ، وأدخلوا معها ست بقرات شمالية سليمة . قال إسميث : « والآن فلن يلبث القراد أن ينتقل الى هذه البقرات الشمالية ، وهى لم تعرف قط ما الحمى التكساسية ، فهى لا تعرف ما الحصانة منها ... » ثم قال : « والآن فلننهض الى حيلة يسيرة لنعرف أحقاً هذا القراد سبب الحمى »

وأنفذ حيلته الأولى — أو إن شئت فأسمها تجربته الأولى — وما كانت إلا تجربة قليلة ، كان فى استطاعة أى بقّار ذكىّ أن يبتدعها لو أنه فرغ من عمله الكثير للتفكير . أما سائر العلماء الامريكيين فعدوا هذه التجربة من السخف بحيث لا تستأهل محاولة . وبالرغم من هذا قام إسميث وكلبورن فأجرياها ، فأخذا يلتقطان بأيديهما ما على ثلاث البقرات الجنوبية الباقية من قُراد فلا يفلتان منه واحدة ، وأخذ البقر يرفس ويضرب فى وجههما بذيله ، واحتر الجوّ فعلت درجته على السابعة والثلاثين ، وارتفع تراب الأرض برفس البهائم فانعقد سحباً فوق الرجلين وحولهما ، وامتزج بالعرق على جبهتيهما فتعجّن وتاصّق . واحتل القراد من جلود البقر موضعاً تحت شعورها المتلبّدة ، وخرج صفاره من اللبـد فما أحس بأنامل اللاقطين وهى مجهودة تتحسّس حتى انكفأ راجعاً يجد له فى مسارب الشعر مهربا . وتلك القرادات الكبيرة ، تلك الأنثيات التى جرَعت من الدم حتى انتفخت ، كانت لا ترضى أن تُنتزَع فتتعلق بجلد البقر ، فاذا شدّت عليها أنامل اللقّاط انفقمت فتبجس دمها ولوّث

ولم ينقض النهار حتى خلصت البقرات الثلاث من القُراد جميعه ، فلم تكن لتجد على جلدها قرادة واحدة ، فوضعاها فى الحقل الثانى ، ووضعا معها أربع بقرات شمالية صحيحة ؛ ثم قالا : « هذا البقر الشمالىّ على تمام الاستعداد لأخذ الحمّى والموت بها لو تهيأت اليه أسبابها ؛ وقد وضعناه الآن مع هذا البقر الجنوبى على أرض واحدة ، فسيأكل الجميع حشيشاً واحداً ، ويشرب الجميع ماء واحداً . وهذا البقر الجنوبى سيحك أنوفه فى أنوف الشمالىّ ، وسيتشمم روثه ، ولكنه لن يستطيع أخذ قرادة واحدة منه . إذن فلنصبر لنرى ما شأن القراد والحمى ! »

وصبرا على القلق والحرّ شهرين : يوليو وأغسطس ، تسلى فيهما إسميث بدراسة القراد دراسة واسعة ، أعانه فيها خبير فى الحشر حكومىّ يدعى كُوبَر كِرْتيس Cooper Curtice . فدرسا معاً حياة القراد وأعماله وأحواله ، فاكتشفا كيف يتساق طفل القراد وله ست أرجل ظهرَ البقرة ، وكيف يرتبط بجلدها ، فلا يقع من على ظهرها ، وكيف هو يمص من دمها بعد ذلك ، وكيف ينسلخ من جلده ثم يزيد فى أُبهة إلى أرجله الست رجلين فتصير ثمانية ، ثم هو ينسلخ من جلده مرة أخرى ، واكتشفا كيف

(١) ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية تقع على المحيط الأطلسى جنوب ولاية فرجينيا وإنما أسميت بالشمالية تمييزا لها عن ولاية كرلينة الجنوبية التى تقع جنوبها

أن الأنثى من بعد ذلك تتخذ لها زوجاً صغيراً تتزوجه على ظهر البقر ، ثم كيف تجرع بعد ذلك من دم البقر جرعات عظيمات كأنها وليمة العرس ، فاذا هى استكملت أنوثتها سقطت إلى الأرض لتبيض فيها ألفى بيضة أو تزيد ؛ وعندئذ ، وبعد ما لا يزيد على عشرين يوماً من تسلقها رجل البقرة فى أول مرة ، تكون قد أدّت رسالتها فى هذه الحياة الدنيا فتأخذ تنضمر ثم هى تموت . أما الألفان من البيض فتبدأ فيها سِيَرٌ وأحداث غريبة أخرى

وكان إسميث لا يفوته السفر إلى معمله فى العراء البعيد يوماً واحداً ، وكان يجد رَوْحه فى الخروج من المدينة وترك معمله المعهود فى تلك الحجرة الكابسة الحابسة هرباً من صراصيرها ولو إلى تلك الحقول وهى تكاد من الحر تتقد ناراً ، وكان كلبورن قوّاماً على معامل الحقل ، وهو الذى طلب الرزق بعد ذلك من تجارة الصينى والفخّار . وكان إسميث يدخل الى الحقل الأول ليرى هل ظهر القراد على أى من البقرات الشمالية ، وليرى هل زادت حرارتها وأخذت رقابها تميل . ثم هو يخطو من بعد ذلك إلى الحقل الثانى ليلتقط من على ظهور البقرات الجنوبية التى فيه بضع قرادات ظهرت عليها ، وما كان أقلها فى لقطه الأول ، ولكنها كانت عندئذ صغيرة لا تُرَى . وما كان تنظيف البقر من القراد والتيقّن منه إلا عملاً ثقيلاً مجهداً . والحق أن تلك الأيام التى صبراها على الحر والعرق لم يكن فيها إلا السأم امتد واتصل ، حتى جاء يوم بعد منتصف أغسطس بدأت تطلع البشائر فيه . ففى هذا اليوم ظهر القراد على بقرة من البقر الشمالى فى الحقل الأول ، ولم يمض طويل حتى تقوس ظهرها وعافت الطعام . ثم ظهر القراد على كل أخواتها ، وانقدت الحمى فيها جميعاً ، وخفّ دمها فصار كالماء ، وشفّت أضلاعها وبرزت فى الجوانب عظامها . والقراد ؟ رحماك فقد كان يموج عليها موجاً

هـذا هو الحقل الأول . أما الحقل الثانى حيث لا قراد ، فقد ظلت البقرات الشمالية فيه صحيحة سليمة كصاحباتها الجنوبية التى اختلطت بها

(يتبع) **أحمد زكى**

بحث لغوى

كلمة « قرآن »

بقلم محمد طه الحاجرى

للقراء فى أداء كلمة قرآن طريقان : تحقيق الهمزة فيها ، وإهمالها منها ؛ فبعضهم يقرؤها « القران » وبعضهم « القرآن » والقراءة غير المهموزة تنسب إلى إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين[1] قارئ أهل مكة فى زمانه ، وآخر أصحاب ابن كثير زمانا ، كما يقول عنه الذهبى فى كتابه «طبقات القراء المشهورين» وقد روى عن أبى عبد الله الشافعى قوله فى هذا الصدد ، قال : « قرأت على إسماعيل وكان يقول القرآن اسم وليس بمهموز ، ولو كان من قرأت كان كل ما قرئ قرآنا ، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والانجيل ، تهمز قرأت ولا تهمز القرآن » وكذلك روى صاحب اللسان مثل هذه الرواية ، وزاد عليها تزكية لها وإعلاء لسندها النسب الذى يصل قراءة اسماعيل بالقراءة الأولى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « قال اسماعيل قرأت على شبل ، وأخبر شبل أنه قرأ على عبد الله بن كثير ، وأخبر عبد الله أنه قرأ على مجاهد ، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس رضى الله عنهما ، وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبىّ ، وقرأ أبىّ على النبى صلى الله عليه وسلم » ، وبعد أن أورد ابن منظور هذا القول روى عن أبى بكر بن مجاهد أنه قال : « كان أبو عمرو بن العلاء لا يهمز القرآن ، وكان يقرؤه كما روى عن ابن كثير » فهذه إذن قراءة معتبرة لا شك فى صحتها وقوة سندها

ولكن عبارة القسط ينظر إليها من ناحيتين : ناحية الرواية وناحية الدراية أو التعليل ، أما الأولى فلا كلام لنا فيها ، وأما الناحية الثانية فقد نازعه فيها كثير من العلماء الذين أورد الفخر الرازى أقوالهم ، فقد قال الزجاج عن قول اسماعيل هذا إنه سهو والصحيح أن ترك الهمزة من باب التخفيف ، ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، فكأنه يرى أنها مشتقة من مادة قرأ ، وأنها تساوى كلمة قرآن المهموزة ، إلا ما كان من هذا التخفيف الذى تجيزه اللغة وتخضع له ، ولا يغير شيئاً من أصول الكلمات فيها

على أن هذا التخفيف كثير شائع مطرد فى كثير من القراءات التى ترجع إلى أهل الحجاز لما فى طبيعة نطقهم وميامهم اللغوى ، وهاك ما يقوله ابن الجزرى فى كتابه : « النشر فى القراءات العشر » : « ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقا وأبعدها مخرجا ، تنوع العرب فى تخفيفه بأنواع التخفيف كالنقل والبدل وبين بينَ والادغام وغير ذلك ، وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفاً ، ولذلك أكثر ما يرد تخفيفه من طرقهم كابن كثير من رواية ابن فليح ، وكنافع من رواية ورش وغيره ، وكأبى جعفر من أكثر رواياته ، وكابن محيصن قارئ أهل مكة مع ابن كثير وبعده ، وكأبى عمرو فأن مادة قراءته عن أهل الحجاز»

وهذا صريح جلى فى بيان قول الزجاج وصحة مذهبه ، وأن اسماعيل بن قسطنطين قد غاب عنه المنحى العربى اللغوى فى مثل هذا ، فذهب يلتمس التعليل المنطقى ويقول : « لو كان من قرأت كان كل ما قرئ قرآناً » كما غاب عنه أيضاً أن الاصطلاح من طبيعته أن يحدّ من مدلول الكلمة المصطلح عليها

وذهب آخرون إلى تلمس اشتقاق لها فى مادة « قرن » باعتبار أن الكلمة على أصلها لم تعان شيئاً من الابدال والاعلال : فقال قوم إنها مشتقة من قرنت الشىء بالشىء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر ، وسمى به لقران السور والآيات والحروف فيه ، ونسب إلى الفراء القول بأنها مشتقة من القرائن لأن الآيات يصدق بعضها بعضاً ويشابهه

هذا مجمل الآراء فى تعليل كلمة قُران بغير همز . أما القراءة الأخرى المهموزة فاختلف كذلك فى اشتقاقها على قولين أو ثلاثة

فابن جرير الطبرى يروى رأيين فى هذا ، أحدهما عن ابن عباس ، والآخر عن قتادة ، أما الأول فيذهب إلى أن القرآن مصدر من قول القائل : « قرأت » كقولك الخسران من خسرت والغفران من غفر الله لك ، والكفران من كفرتك ، والفرقان من فرق الله بين الحق والباطل — ولم يتعرض الطبرى لرواية قراءة ابن عباس لها ، وإن كان مساق القول فى المهموزة ، لكن ذلك لا يعتبر نصا ؛ وإنما تعرض لاشتقاقها . وقد رأينا من كلام

---

(١) ويلقب فى كتب طبقات القراء بالقسط ، كأنه تعريب اسمه

اسماعيل بن قسطنطين أن سند قراءاته يتصل بابن عباس ؛ فكأن ابن عباس كان يقرؤها مخففة ، ويعلم أنها مخففة عن تحقيق ، كما رأى ذلك الزجّاج فيما سبق بيانه [1]

أما رأى قتادة فهو أنها مصدر من قول القائل : « قرأت الشيء » إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض ، كقولك ما قرأت هذه النـاقة سلى قط ، أى لم تضمم رحما على ولد قط . كقول عمرو بن كلثوم :

ذراعى عيطل أدماء بكر   هجان اللون لم تقرأ جنينا

أما الرأى الثالث فيرويه السيوطى فى كتاب الاتقان عن الزجاج . فهو يرى أنه مشتق من القرء بمعنى الجمع . ثم هو لا يعتبره مصـدراً — كما يروى عن ابن عباس وقتادة — وقد سمى به الـكتاب المقروء ، وإنما يعده وصفاً على فُعلان

وقد وقف الطبرى بين رأيى ابن عباس وقتادة ، ثم أخذ يُرجح الأول على الثانى بأنه يتمشى مع تأويل قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » على الأصل الثابت المقرر فى الدين ، إذ لو كان القرآن هنا بمعنى الجمع والتأليف لما لزم الرسول صلى الله عليـه وسلم فرض « اقرأ باسم ربك » ولا فرض « يأيها المزمل » ولا غيرهما من آى القرآن الـكريم قبل أن يؤلف إلى ذلك غيره من القرآن

وهذا توجيه وجيه استطاع ابن جرير أن يملك به على خصمه الحجة فى أسلوب منطق حاسم

ونحن إذا أجزنا لأنفسنا أن ندخل فى هذا النزاع ، وندلى برأينا فيه ، اتخذنا لأنفسنا مسلكا غير ذلك المسلك ؛ فقد نستطيع أن ننظر إلى المسألة من ناحية فنية محضـة ، نلتمسها فى القرآن نفسه ؛ وحينئذ نلاحظ أن كلتى القرآن والقراءة تزدوجان فى كثير من آى الـكتاب الـكريم ، فأولى أن تكون كلمة « القرآن » مشتقة من القراءة لا من القرء ، قال تعالى :

« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينـك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا » . «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم» . «إن علينا جمعه وقرآنه » « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه» «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا» « فاذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلـكم ترحمون »

وقد تقترن بكلمة القرآن كلمة التلاوة فى نحو قوله تعالى :

« وما تكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن » . « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينـات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله »

إلى غير ذلك من الآيات الـكريمـة التى تشير إلى أصل كلمة قرآن إشارة نحسبها كافية فى مثل هذا المجال

ثم إن تسمية القرآن بالذكر وبالـكتاب تشير إشارة ما إلى هذا الأصل أيضاً ، وحسبنا هذا

فاذا انتقلنا من مادة قرآن إلى صيغتها رأينا المتقدمين يختلفون فيها : هل هى مصـدر أو وصف على فُعلان . وأيا كان الوجه فلا شك أنها قد تركت المصدرية أو الوصفية وتمحضت للاسمية المحدودة ، علما على ذلك الـكتاب المقدس

ولـكن بعض المستشرقين مثل شفللى Schwally وفلهوزن Wellhausen يعارض فى عربية كلمة « قرآن » ، ويرى فيها كلمة « قِريانى » السريانية ، وهى بمعنى القراءة أو القرء ، ويقوى هذا الفرض لديهم مقاربة الـكلمة السريانية للـكلمة العربيـة فى الصيغة ولـكن هذه المقاربة أو المشابهة لا قيمة لها ، لأن فى العربية كثيراً من المصادر على وزن فُعلان مثل رجحان ونقصان وغفران وكفران وخسران وغير ذلك مما هو عربى صريح مادة وصيغة ، فأى شيء يلجئنا إلى مثل هذا الفرض ؛ ألأن السريانية لغة الانجيل ... ؟

قد لا نمنع أن يكون الـكتاب الـكريم قد استحدث كلمة « قرآن » استحداثا ، وليس هذا الاستحداث بالأمر الغريب فى اللغة . بل ربما لم نجد بدا من فرض ابتداع القرآن الـكريم لهذه الـكلمة ، ما دامت نصوص اللغة الجاهلية الصريحة النسبة الى ما قبل الاسلام قليلة نزرة لا تمدنا بالدلائل العلمية الكافية القاطعة .

ولـكن إذا كان كتاب الله قد استحدثها فذلك من أصل عربى وعلى نحو عربى . وقد لا يكون ذلك النحو شائعاً فى اللغـة كثير السريان فيها كغيره من الصيغ ، ولـكنه فى حقيقة الأمر موسيقى مرنان ليس أجدر منه أن يكون اسما وعنوانا لذلك

(١) غير أن الزجاج يخالف ابن عباس فى المصدر المشتقة منه كلمة قرآن كما ستعرف

الكتاب الخالد . وقد قصد الى تقرير ذلك الاسم فى الأذهان إذا كان ذلك من الأمور الخطيرة فى الدعوة ، ولذلك كرره أكثر من ستين مرة على أساليب متنوعة ، وفى مواضع مختلفة ، ومناسبات شتى

لقد كان أساس الدعوة الى الدين الجديد هو القرآن ، ولاسيما فى العهد المكى ، فلا جرم كان تقرير اسمه أمراً جديراً بالعناية فكان كثير التكرار كما قلنا ، وهذه الكثرة واضحة وضوحا تاما فى العهد المكى ، دون المدنى الذى لا نكاد نقرأ فيه كلمة (القرآن) فى أكثر من خمسة مواضع ، وقد كان المقتضى لذكرها فى بعض هذه المواضع مجرد السياق الذى لابد منه كما فى آية سورة التوبة : « . . . وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن » أو سبب النزول كما فى آية سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » — على حين نرى فى إحدى السور المكية الظاهر فيها أسلوب الدعوة الحارة الفتنة ، والجدل القوى الغلاّب ، وهى سورة الاسراء ، أن كلمة القرآن تكررت فيها نحو ثمان مرات . والفرق بين العهدين ظاهر ، ففى العهد المدنى كان اسم « القرآن » قد ثبت وتقرر وأخذ ذلك المعنى المحدود فلم تعد الحاجة ماسة الى تكراره وإشاعته ، كما فى العهد المكى

إن قول المستشرق فى إنكار كلمة « قرآن » يرجع — فيما أحسب — الى أصلين : أحدهما قولهم فى القرآن إنه يصدر عن أصول أجنبية كالتوراة والانجيل ، فمن هنا لا يرون بأسا فى أن يكون القرآن قد استعار عنوانه من هذه المصادر أو من اللغة التى كتبت بها ، ولاسيما إذا عُزز هذا الأصل الثانى المقرر لديهم وهو عدم ورود كلمة قرآن فى نص جاهلى ، وبعد الذى تقرر من صيغة فعلان صيغة عربية صريحة لا يكون لهم إلا إنكار مادة قرأ بمعنى القراءة فى اللغة العربية الخالصة L'arabe pur ، وقد يكون لهم عذرهم فى هذا ، فأن من العسير حقاً أن نعثر فيما بين يدينا من النصوص الجاهلية على مادة القراءة ، وإنى أقطع بأن هذه المادة لم تجئ فى المعلقات العشر ، وإنما وردت كلمة « تقرأ » فى بيت عمرو بن كلثوم على رواية أبى عبيدة ، ولكن هذا من واد آخر

ولكن هبه صحيحاً أن مادة القراءة لم ترد فى نص جاهلى آخر ، فهل يدل هذا دلالة قاطعة على عدم وجود الكلمة فى اللغة ؟ إنما يكون هذا لو أن الأدلة انحصرت فى النص وحده ، وليس النص هو كل شئ ، فالوقوف عنده يؤدى بنا من غير شك إلى الخطأ فى الاستنتاج

لم تكن العرب قبل الاسلام أمة كتلك الأمم التى تعيش فى حالة أولية ، وإنما كانت أمة تجارة تتعامل بتجارتها مع أمتى التاريخ الكبريين : الفرس والروم على معرفة وبصيرة ، وكانت مكة بصفة خاصة مركزاً من المراكز الكبرى لهذه التجارة الواسعة النطاق ، وكانت المظاهر التجارية فيها بارزة فى حياتها بروزاً كبيراً مما دعا الأب لامنس H. Lammens إلى تلقيبها فى كتابه عنها بالجمهورية التجارية . وهذه الحياة التجارية تعتمد إلى حد كبير على الكتابة — ولن تكون كتابة بغير قراءة — فمن الغريب جداً الحكم بأن لغة العرب لا تحتوى على ما يدل على هذا المعنى . وإن النصوص الجاهلية نفسها تدل على أن العرب قد اتخذوا الكتابة ، لا فى الوثائق التجارية فقط ، بل فى عقد المحالفات بين القبائل المختلفة ، وحسبنا ما قاله الحارث بن حلزة فى شأن بكر وتغلب :

واذكروا حلف ذى المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدى وهل ينقض ما فى المهارق الأهواء(1)

ونحن نعرف فى السيرة مظهراً من مظاهر هذه العهود فى « عهد الحديبية » وكان مندوب قريش فى كتابته عمرو بن سهيل ، وهو يقدم إلينا صورة من صور الحصافة والدقة فى كتابة العهود والاتفاقات ، فلم تكن قريش حديثة عهد بمثل هذا

وانظر هذه الصورة التى يقدمها لبيد فى معلقته :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زُبُر تجد متونَها أقلامُها

ومثل هذه الصورة شائع فى الشعر الجاهلى الذى بين أيدينا ، وكلها تثبت أن العرب لم يكونوا غرباء عن الكتابة والقراءة وإذن فافتراض أن القرآن استعار مادة القراءة من بعض اللغات السامية الأخرى لعدم العثور على هذه المادة فى النصوص الجاهلية التى بين أيدينا افتراض فيه شيء كثير من المجازفة

محمد طه الحاجرى

(١) قال الجاحظ فى الحيوان : « ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان »

٥ – هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

المأخوذون بالعالم الثانى

وترامى زارا يوماً بخياله الى ماوراء الانسانية ، فتراءى هذا العالم لديه كما يراه جميع المأخوذين بالعالم الثانى خليقة رب متألم مضطرب ، فقال :

رأيت الدنيا كأنها أحلام نائم أبدعت أبخرة حوّالة متلونة ترتد عنها ألوهية النفس على غير رضى . وقد لاح لى الخير والشر والافراح والاحزان وذاتى وذات الآخرين كما تلوح الأبخرة الملونة لعين المبدع ، ولعل المبدع أراد أن يتحول ببصيرته عن ذاته فأوجد العالم

لا ينتشى المتألم بمسرة أشد من مسرته حينما يُعرض عن آلامه وينسى نفسه . هكذا تكشف لى العالم يوماً فرأيت مسرته ثملاً ونسياناً وهو يتقلب أبداً فى نقائصه مَعكَساً للتناقض الأبدى

نظرت إلى العالم يوماً فلاح لى مسرةً مسكرة يتمتع بها مبدع غير كامل خلقتُه أنا ، فجاء ككل أعمال البشر جِنّةً بشرية

ما كان هذا الآله إلا إنساناً ، بل جزءاً من شخصية إنسان ، لأنه نشأ من ترابى ومن لهبى . إنه لشبح من هذا العالم لا من وراء هذا العالم

شهدت ذلك ، أيها الأخوة ، فتفوقت على ذاتى بآلامى ، وحملت ترابى إلى الجبل حيث أوقدت ناراً تشع نوراً فاذا بالشبح يتوارى مبتعداً عنى

فاذا ما آمنت الآن بمثل هذا الشبح ، فلا يكون إيمانى إلا توجعا وصغارا ، ذلك ما أقوله للمأخوذين بالعالم الثانى

ما أوجدت العوالمُ الأخرى فى هذا العالم سوى الآلام والشعور بالعجز ، ذلك ما أوجدته تلك العوالم فأوجدت معه هذا الجنون السريع الزوال بسعادةٍ ماذاقها من الناس إلا أشدهم آلاما

إن المتعب الذى يطمح الى اجتياز أبعد مدى بطفرة واحدة بطفرة قاتلة ، وقد بلغت به مسكنته وجهالته حداً لا يستطيع عنده أن يريد ، انما هو نفسه مبدع جميع الآلهة وجميع العوالم الأخرى

صدقونى ، أيها الاخوة ، إن الجسد قد قطع رجاءه من الجسد ، فغدا يجس بأنامله مواضع الروح المضللة ، وذهب يتلمسها من وراء الحواجز القائمة على مسافة بعيدة

صدقونى ، أيها الأخوة ، إن الجسد قد تملكه اليأس من الأرض فسمع صوتاً يناديه من قلب الوجود ، فأراد أن يخترق برأسه أطراف الحواجز ، بل حاول العبور منها إلى العالم الثانى ، غير أن العالم الثانى جد خفى عن الناس لأنه بتخنثه وابتعاده عن كل صفة إنسانية ليس إلا سماء من العدم . إن قلب الوجود لا يخاطب الناس إذا لم يكلمهم كانسان

والحق إنه ليصعب علينا إثبات الوجود واستنطاقه . أجيبوا أيها الاخوة ، أفما يلوح لكم أن أغرب الأمور أثبتها دليلاً ؟..

أجل ! إن هذه الذات على ما فيها من تناقض واختلال تثبت بكل جلاء وجودها فتبتدع وتعلن ارادتها لتضع المقاييس وتعين قيم الأشياء ، وما تطلب هذه الذات فى اخلاصها الا الجسد حتى فى حالة استغراقه فى أحلامه وتحفزه للطيران بأجنحته المحطمة

إن هذه الذات تتدرب على الأفصاح عن رغباتها باخلاص ، وكلما ازدادت تدرباً ألهمت البيان للاشادة بالجسد وبالأرض

لقد علمتنى ذاتى عزة جديدة أعلمها الآن للناس : علمتنى ألا أخفى رأسى بعد الآن فى رمال الأشياء السماوية ، بل أرفعها رأساً عزيزة ترابية تبتدع معنى الأرض

إننى أعلم الناس إرادة جديدة يتخيرون بها السير على الطريق التى اجتازها الناس عن غباوة من قبلهم ؛ أعلمهم أن يطمئنوا إلى هذه الطريق فلا تنزلق أرجلهم عنها كما انزلقت أرجل الأعلاء المتهكمين ، وما هؤلاءِ إلا مَن ابتدعوا الأشياء السماوية واخترعوا قطرات الدماء الراقة لافتداء البشر . على أن هذه السموم التى أخذوا بلذتها ورهبتها لم يستخرجوها إلا من الجسد ومن الأرض

لقد شاءوا الفرار من الشقاء وتراءت لهم الكواكب بعيدة صعبة المنال فوجوا يدفعون بالزفرات قائلين : وا أسفاه ! لمَ لا تنفتح أمامنا سبلٌ فى السماء تنسحب عليها إلى وجود آخر وسعادة أخرى

فى ذلك الحين اخترعوا أوهامهم وكؤوسهم الصغيرة المترعة بالدماء .. وحسب هؤلاء الناس فى عقوقهم أنهم فازوا بالنعيم بعيداً عن جسدهم وعن الأرض ؛ وتناسوا أن تنعمهم ورعشة ملذتهم إنما نشأت من جسدهم ومن هذه الأرض (١)

إن زارا ليشفق على الأعـلاء فلا يغضب لمـا أوجدوه من وسائل السلوان ولا يتبرم لأنهم عقـوا جسدهم وأرضهم ، بل هو يرجو لهم الشفاء والتغلب على أنفسهم ليوجدوا لهم أجساداً أرق من أجسادهم

إن زارا لا يغضب أيضاً على الناقه الذى يحنّ إلى وهمه فيذهب فى منتصف الليل ليطوف بقبر إلـهه ، ولـكنه لا يرى فى دموع هذا الناقه إلا أثر المرض والجسم المريض

لقد وجد فى كل زمان كثير من المرضى المستغرقين المتشوقين فهم يكرهون إلى حد الهوس كل من يطلب المعرفة ، ويكرهون أبسط الفضائل وهى فضيلة الاخلاص

إنهم يلتفتون دائماً إلى الوراء ، إلى الأزمنة المظلمة ، إذ كان للجنون وللإيمان حلتهما الخاصة ؛ فكان الالـه يتجلى فى هوس العقل ، وكانت كل ريبة خطيئة

لقد عرفتهم جد المعرفة ، أولئك المتجلين على صورة الله ومثاله ، فتيقنت أن جميع رغباتهم تتجه الى أن يؤمن الناس بهم وأن يصبح كل شك فيهم خطيئة ، وما فات مداركى ذلك الإيمان الذى يدّعون رسوخه فيهم . فانهم لا يؤمنون لا بالعوالم الأخرى ولا بقطرات الدماء تفتدى العالم ، بل هم كسائر الناس يعتقدون بالجسد ، ويرون أن أجسادهم نفسها هى الكائن الواجب الوجود

غير أن هؤلاء الناس يرون الجسد كائناً معتلا ، فيودون أن يبارحوا جلودهم وذلك ما يدفعهم إلى الاصغاء للمبشرين بالموت وما يهيب بهم إلى التبشير بالعوالم الأخرى

أما أنتم ، يا إخوتى ، فاصغوا الى صوت الجسد الذى أبلّ من دائه لأن هذا الجسد يخاطبكم بصوت أنقى وأخلص من تلك الأصوات

ان الجسد السليم يتكلم بكل إخلاص وبكل صفاء ، فهو كالدعامة المربعة من الرأس حتى القدم وليس بيانه إلا إفصاحاً عن معنى الأرض

هكذا تكلم زارا

المستهزئون بالجسد

لأقولنّ للمستهزئين بالجسد كلمتى فيهم : إن واجبهم ألا يغيروا طرائق تعاليمهم ، ولـكن عليهم أيضاً أن يودّعوا أجسادهم فيستولى على ألسنتهم الخرس

يقول الطفل : أنا جسدٌ وروح . فلماذا لا يتكلم هؤلاء الناس كالأطفال ؟ أما الانسان الذى انتبه وأدرك ذاته فيقول : إننى بأسرى جسد لا غير ، وما الروح إلا كلمة أطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد

ما الجسد إلا مجموعة آلاتٍ مؤتلفة للعقل ، ومظاهر متعددة لمعنى واحد . إن هو إلا ميدان حرب وسـلام ، فهو القطيع وهو الراعى

إن آلة جسدك إنـمـا هى أداة عقلك الذى تدعوه روحا ، أيها الأخ ، إن هو إلا أداة صغيرة وألعوبة صغيرة لعقلك العظيم

إنك تقول : (أنا) ، وتنتفخ غروراً بهذه الـكلمة ، غير أن هنالك ما هو أعظم منها ، أشئت أن تصدق أم لم تشأ ، وهو جسدك وأداة تفكيره العظمى ؛ وهـذا الجسد لا يتبجح بكلمة

(١) ليذكر القارىء الـكريم ما وجهنا انتباهه إليه فى مقدمتنا ، فهاهو ذا نيتشه قد بدأ يوضع علة جحوده ، فهو يرى معبود الناس قائماً من وهمهم أو بتعبير آخر أن الانسان قد خلق الله فصوره من ترابه ونفخ فيه نسمة من عبه . ولو أننا وقفنا عند كل فكرة جانحة من أفكار نيتشه لنحللها ونرجع منها إلى إيماننا المـكين لاضطررنا إلى التحول من الترجمة إلى البحث الذى وعدنا بالقيام به بعد الفراغ منها . غير أننا لا نجد بداً الآن من دعوة القارىء إلى الامعان فى الصفات التى تتراءى لنيتشه كأنها هى الألوهيـة فيتأكد أن الاله الذى يهاجمه هذا الفيلسوف هو غير إلهنا ، وعالمه الثانى هو غير عالمنا الروحى الذى يقيم فينا قبل أن نقيم فيه

إن نيتشه كان قد خرج على الدين الذى اقتبسته الآرية عن السامية فشوهته ، فأصبح بعد ذلك طريد فـكره الجبار ينتقد آثار الدين فى المجتمع ، وقد وقف موقفه السلبى فلاهو يسكت صراخ نفسه المتمردة ، ولا هو يهتدى إلى الدين الحق الذى تسكن الروح إليه وينتظم المجتمع بأحكامه ؛ وها نحن نورد كلمة لنيتشه قالها وهو يكتب زرادشت وفيها عبرة للمؤمنين وللجاحدين

فى حديقة من حدائق لوزرن جلس نيتشه إلى السيدة (لو سالومه) وهى حسناء روسية ملـكت لبه ، وفى حديثه معها ملـكه الصمت ؛ فرأت لو دموعه تنهمر وبدأ يقص عليها تاريخ تطوره الفـكرى ؛ فوصف لها سنى فتوته التى قضاها فى التعبد ، ثم عرض مراحله فى شكوكه واضطرابه فى عالم لا بد من إسرار الحياة فيه دون أن يكون لهذا العالم إله . . . فقال ، والسيدة نفسها دونت قوله للتاريخ :

« هكذا بدأت مغامراتى الفكرية وما وصلت إلى محجة منها ، فالى أين أتجه ... أفلا يجدر بى أن أعود إلى الايمان ، أو أن أوفق إلى إيمان جديد ؟ على أنه خير لى إذا أنا لم أوفق إلى الوصول لهدف أن أعود أدراجى من أن أتف فى حيرتى » هـ . نقلا عن كتاب دانيال هالاڤى

أنا ، لأنه هو (أنا) ، هو مضمر الشخصية الظاهرة

إن ما تتأثر الحواس به وما يدركه العقل لا نهاية له فى ذاته ، غير أن الحس والعقل يحاولان اقناعك بأن فيهما نهاية الأشياء جميعها ، فما أشد غرورهما !

ما الحس والعقل الا أدوات وألعوبة ؛ والذات الحقيقية كامنة وراءهما مفتشة بعيون الحس ومصغية بآذان العقل

إن الذات ما تبرح مفتشة مصغية ، فهى تقابل وتستنتج ثم تهدم متحكمة فى الشخصية سائدة عليها ، فأن وراء إحساسك وتفكيرك ، يا أخى ، يكمن سيد أعظم منهما سلطاناً ، لأنه الحكيم المجهول ، وهذا الحكيم إنما هو الذات بعينها المستقرة فى جسدك وهى جسدك بعينه أيضا[1]

ان فى جسدك من العقل مايفوق خيرحكمة فيك ، ومَن له أن يعلم السبب الذى يجعل جسدك بحاجة الى خير مافيك من حكمة

ان ذاتك تهزأ بشخصيتك وبألعابها قائلة : — ما هى خطرات الفكر وتساميه إن لم تكن جنوحاً الى هدفى ، أفلست أنا رائدة الشخصية وملهمة أفكارها ؟

تقول الذات للشخصية : — اشعرى بألم ، فتتألم وتفتكر بالتخلص من هذا الألم وقد تحتم عليها أن تتجه الى هذه الغاية

وتقول الذات للشخصية — اشعرى بالسرور ، فتسر وتفتكر بأطالة أمد هذا السرور ؛ وقد تحتم عليها أن تتجه الى هذه الغاية

لى كلمة أقولها للمستهزئين بالجسد ، وهى أن احتقارهم انما هو فى الحقيقة حرمة واعتبار ، إذ من هو يا ترى موجد الاحترام والاحتقار والتقدير والارادة ؟

ان الذات المبدعة أوجدت لنفسها الاحترام والاحتقار كما أوجدت اللذة والألم ، ان الجسم المبدع أوجد العقل لخدمته كساعد يتحرك بارادته

انكم لتخدمون الذات الكامنة فيكم حتى فى جنونكم وفى احتقاركم . وأنا أقول لكم أيها المستهزئون بالجسد إن ذاتكم نفسها تريد أن تموت ، وقد تحولت عن الحياة لأنها عجزت عن القيام بما كانت تطمح اليه ، وماأقصى رغباتها الا ابداع من يتفوق عليها ، ولقد مضى زمن تحقيق هذه الرغبة ، لذلك تطمح ذاتكم الى الزوال أيها المستهزئون بالأجساد

إن ذاتكم أصبحت تتوق الى الزوال ، وهذا ما يدفع بكم إلى الاستهزاء بالأجساد إذ قد امتنع عليكم أن تخلقوا من هو أفضل منكم

ان هذا العجز قد ولد فيكم النقمة على الحياة والأرض . وهاهى ذى تتجلى شهوة فى لحظاتكم المنحرفة دون أن تعلموا

إننى لا أسير على طريقكم أيها المستهزئون بالأجساد ، لأننى لا أرى فيكم المعبر الذى يؤدى الى مطلع الانسان الكامل

(يتبع) فليكس فارس

(١) أفلا يرى القارىء الكريم إثبات واجب الوجود فى محاولة إنكاره والايمان الفكرى الأسمى فى أضل منطق وأصرح جحود ؟ ذلك هو رد الفعل الذى أشرنا اليه فى مقدمتنا ، فان الايمان الغربى قد اعتبر الجسد آلة شهوة محتقرة يجب إذلالها ، فأنكر الحياة (وما الحياة فى نظر الشرق المؤمن إلا مقدمة للخلود) وما ثار نيتشه إلا على هذا التصور للكيان الانسانى ، فهب يقلب ظاهره باطناً وباطنه ظاهراً ، ويشطره إلى ذات وإلى شخصية معتبراً الشخصية عقلا وإدرا كا زائلين وقائلا بأن الجسم بما فيه من حوافز مجردة خفية إنما هو بنفسه الذات الواجبة الوجود التى تندفع إلى التكامل لتبلغ بالانسان مرتبة الألوهية

هذه كلمة لم نر بدأ من الاتيان بها وهى جد موجزة ، ولكنها ستكون مداراً لبحثنا عند ما ننتهى من ترجمة فيلسوف الغرب الكبير لنأخذ من إلحاده دليلا لا شأنه على صحة إيمان الشرق بالواحد الأحد وبما نفخ فى الأجساد من نسمة الحياة الخالدة

الربيع الناطق !

للشاعر الحضرمى على أحمد باكثير

يا مَن تفتّح كالربيع لناظرى   فلمحت فيه شقائقاً وبهارا
والفُلَّ يشرق بالضياء وبالشّذا   والنرجسَ النعسان والنوّار
والوردَ نوراً يتمتم : « ويحكم   هيا أغنموا، مُتع الحياة قصارا »
متباين الألوان ألّف بينها   ذوق يبلبل سرُّه الأفكارا
تلك المفاتنُ يتتهين لغايةٍ   ولقد يريبك أنها تتبارى !
أمثولةُ الحسن البديع مرامُها   تطوى لها المضمار فالمضمارا
فكأنها أحزاب شَعب راشدٍ ،   كلٌّ يجمّع حوله الأنصارا
يتنافسون ، وإنما مرمامم   تحقيق آمال البلاد كبارا
ما للجمال وللسياسة ؟ إنه   أهدى إلى قصدِ السبيل منارا
هو عالم ننساب فى أطيافه   ونعانق الأنداء والأنوارا !
من ضلّ فى ساحاته كمن اهتدى   وكمن صحا من لا يفيق خُمارا

***

يا من تفتّح كالرّبيع لناظرى !   أضرمت ما بين الجوانح نارا
أسكرتَ روحى بالسّنا فذهلتُ عن
نفسى ، وخلت العالمين سكارى !
وسهوتُ عن زمنى فلست بمثبتٍ   أسكرتُ ليلاً أم سكرت نهارا ؟
رمتُ الكلامَ ، فحارفى شفتى كما   تاه الجمالُ بناظريك وحارا !
ماذا أقول وكل لفظٍ شاردٌ ؛   عيناك أعظم أن تُطيقَ حوارا
عيناك أقوى بالحياة وفيضها   زخراً ، وأعمق فى الحياة قرارا !

***

لَبَصُرْتُ بالتُّفاح يلعن نفسه   لما أبيتَ مساسه استكبارا !
كم ودّ لو يلقى الشهادة فى فمٍ   يهبُ الخلود وينهب الأعمارا !
ما كان ضرّك لو مسحت جبينه   فأحاله لَهَبُ الحياة نُضارا !
أو لو قبلت فداءه فجعلتَه   معنى يحيط به الجمال إطارا
أم غرت منه ؟ فيالقلبك قاسياً !   ماذا تركت لحسنه فتغارا ؟
يكفيه فى زيناته أن يكتسى   شَفقاً له من وجنتيك مُعارا
ما كان إلا خادماً لك طائعاً   يقفو خُطاك يُقبّل الآثارا !
راجع فؤادك فى أحقّ مُورَّد   برضًى وأكرمِ مُشبهيك نجارا
تغفو وتصحو ، وهو فى صلواته   لخدودك الآصالَ والأسحارا !
أما نثار الورد إذ بدّدته   فلو استطاع من السرور لطارا
أَلِأَنّه يحكى القلوب بشكله   عبثت يداك بشمله استهتارا ؟
إهنأ بظلمك ؛ فالقلوب تودّ لو   تُلقى لديك على البساط نثارا !
ويح القلوب ! غلوت فى بغضائها   فمقتَّ من جرّائها الأشعارا
أتلوم أرضاً — ياغمام — بخيرها   حفلت ، وأنت فجّرتها أنهارا ؟
أهبطت (شاكسبير) من عليائه   وأزحْتَ عن كرسيّه (مهيارا)
ووقفت فى وجهِ (الخلود) ؛ فهل تُرى
تطوى الخلود وقد طوى الأدهارا ؟
لن تستطيع لِفن جمالك دونه   سدٌّ يقيه سطوك الجبارا ! !

***

رفقاً بحبّات القلوب تسومُها   سوء العذاب وما جنت أوزارا
أَلِأنها تهفو لحسنك كلما   لمحته أو هجست به تذكارا !
يا لأنم الأوتار فى إرنانها   مهلاً ! بنانك تضرب الأوتارا !
يا طاوى الأقدار تحت جفونه !   حتّى لنَخْشاهنّ لا الأقدارا
لما أبيتَ على مشاعرنا الهوى   هلا مسخت قلوبنا أحجارا !!

على أحمد باكثير

خاطرة !

قلبى يعاطف هذا الكون أجمعه
لكنه لم يجد قلباً يعاطفُه !
يا ليت لى فى الورى قلباً يلوذ به
قلبى فتبيضّ من حُبّ صحائفُه
أقول شعرى فهل قلب يصيخ له
وتستبيه كما أهوى طرائفُه ! ؟

العوضى الوكيل

قسوة الطفولة*

للأستاذ أمجد الطرابلسي

عُدْ به للوطن الغا لى وللامِّ الرؤومِ
عد به للموْكن البا كى وللصحب الوُجومِ
عد به للفنَنِ الذا وى وللزهر الكليم
وارحم اليُتْمَ فمن أصـ ـبَ عيشاً من يتيم
زهرةٌ فواحةٌ مَعطـ ـروحةٌ فوقَ الأديم
وُلِدَتْ فى عُنفوان الـ ـحُسْنِ ما بيْنَ الرجوم
تَطأ الأقـدامُ خَدَّيـ ـها على التربِ الوَخيم
أيها الطفلُ — وهَلْ أر هَبُ من طِفلٍ غشوم —
ما جنى ترْبُكَ حَتَّى سِيمَ ألوانَ الهُموم ؟
هُوَ يا طفلُ حزينٌ جائعٌ غيرُ فطيم
صامتٌ يجهلُ بَثَّ الـ ـحزنِ والكربِ العظيم
أىُّ مسكين غريب ! أىُّ مظلومٍ مَضيم !
جِسْمُهُ الأزْغَبُ لا ينـ ـهَضُ بالخَطبِ الجَسيم
يَتَنَزّى فَرَقاً كالزّ هرِ فى مَسْرى النسيم
أوْ كغُصْنٍ مُرْعَشٍ ما بينَ عَصْفٍ وَهزيم

***

أُمُّهُ يا طفلُ تبكى فى دُجى اللّيْلِ البهيم
تَتَمَشّى فَوْقَ أغصا نِ الرّبى مَشْىَ السّقيم
تَسْأَلُ الأزْهارَ عَنْهُ وَعناقيدَ الكروم
والنسيماتِ اللّواهى ، ونُثاراتِ الغيوم
لم تذُقْ طَعْمَ الكرى فى وَكْرِها الداجى الوَجوم
أكرىً والدَّمْعُ ما بيـ ـنَ نثيرٍ وَنَظيم ؟
والجوى يَعصِفُ بالأضْـ ـلاعِ والقلْبِ الهَشيم
أكَرىً بَعْدَ فِراقِ الأ هْلِ أوْ فَقْدِ النّديم

غَابَ لا تَدرى أحَىٌّ هُوَ أمْ بَعْضُ الرّميم
أسَجينُ القفصِ الخا نِقِ أمْ فَرْسَةُ بُوم

***

أنا يا عُصفورُ منْ يـ ـرأفُ بالأمّ الكظيم
ما بأشْجانِكَ يا مِسْـ ـكينُ مِثلى من عليم
هِجْتَ فى قَلْبِىَ جرحاً غافِياً جِـدَّ قديم
هو عطفُ الأمِّ ، ما أنـ ـداهُ فى القلْبِ الكليم !
لم أذُقْهُ ؛ ليتَ لى منْ قدْسِهِ بَعْضَ رسوم

***

إيه يا عُصفورُ هٰذى سُنَّةُ البَغْىِ الذميم !
هكذا الناسُ ! فمنْ عا دٍ وَمِنْ نَهْبٍ هَضيم
ظالم يَقسو علَىْ الـ ـحقِّ انتصاراً لظلوم
وجــريح مُؤلَم يحـ ـنو على الجرحِ الأليم
القصورُ الشمُّ نشوى الـ ـراح واللّحْنِ الرَّخيم
والدموعُ الحُمْرُ تنـ ـهَلُّ منَ الكوخِ الهديم
ساكِنُ الفِرْدوسِ لا يُد رِكُ وَيلاتِ الجحيم
وهو فى الاحلامِ والّلـ ـذاتِ والعِزِّ المقيم
أينَ طعمُ العَسَلِ الدفّـ ـاقِ منْ لذعِ الحَميم !
أينَ مَرُّ النسمةِ الحُلْـ ـوةِ من لفحِ السَّموم !
أينَ أصْداءُ الاغاريـ ـدِ وَهَمْساتُ النُّجوم
من عويلِ الأكْبُدِ الحَرّ ى وأناتِ الجُسوم !

***

عدْ بِهِ للوطَنِ الغـ ـالى وللامِّ الرّؤوم
وارحمِ الضَّعفَ فما يَنْـ ـحَقُهُ غـيرُ لئيم
سافِكٍ لا يَعرفُ الرّأ فَةَ أوْ أسْوَ الكلوم
يتَلَهّى بالدّمِ المُهْـ ـراقِ والدّمعِ السّجيم
كيفَ تَصْفو عِيشةُ الحُـ ـرِّ وَأفراحُ الكريم
وعلى الأرضِ شَـقِىٌّ واحِدٌ نِضْوُ غُموم
كُنْ رَحيماً إنما الإنْـ ـسانُ ذو القلْبِ الرّحيم

(دمشق) أمجد الطرابلسى

(*) كتبت هذه القصيدة وقد رأيت فى المدرسة طفلا صغيراً يتلهى بتعذيب عصفور صغير مثله ، وكله فرح وسرور بألعوبته

٧ ـ تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن حبشي

الفصل الأول

أما القصيدة الموجهة إلى ولده وخليفته حسّان والتي اقتضت التقاليد والعرف أن يقولها فلا تعدو نصيحة الوداع وقد استنفد جزءاً كبيراً منها في تعداد غزواته والفخر بأسرته وبنفسه[١] وكل ما نجده فيها من الأمثال والنصائح لا يعدو قوله :

حضرتْ وفاة أبيك يا حسّان فانظر لنفسك فالزمان زمان
فلربّما ذل العزيز وربّما عزّ الذليل وهكذا الانسان
قولوا لحمير يقبرونى واقفاً وتكن مى الخيلان والرقّان[٢]
وانظر لكاهنتى فان كلامها علم وأن بصوتها غيمان

وعلى ذكر غيمان[٣] فيمكن إضافة بضع كلمات قلائل حول قلاع اليمن التي تجثم بقاياها الخربة وتتراءى للمسافر المار بها في وحدتها متجهمة ساخرة ؛ ومنذ ألفي عام ، وربما قبل ذلك بكثير كان يسكن هذه القلاع والحصون أمراء أقوياء الشكيمة مستقلون أو شبه مستقلين يولون ملوكهم ويعزلونهم أحيانا حينما أخذت دعائم الامبراطورية الحميرية تتداعى . ولقد أسهب الهمدانى الجغرافى في وصف هذه القلاع في المجلد الثامن من مؤلفه العظيم « الاكليل » الذى تناوّل فيه تاريخ اليمن وذكر عادياتها وآثارها[٤] ، وإن أقدم هاتيك الحصون وأشهرها لهو المسمى « غمدان[١] » قلعة صنعاء ، ويصفونه بأنه صرح هائل ذو عشرين طابقا ارتفاع كل طابق عشر أذرع ؛ وقد شيدت أوجهه الأربعة من حجارة متباينة الألوان : بيضاء وسوداء وخضراء وحمراء ، وعلى قمة الصرح غرفة ذات نوافذ رخامية محلاة بالأبنوس والخشب المصقول ، وفي وسطها لوحة مرمرية فاذا ما اضطجع صاحب غمدان على سريره ، شاهد الطيور محلقة فوق رأسه ، واستطاع أن يميز الحدأة من الغراب ؛ وفي كل ركن من أركان الغرفة قد نصب تمثال أسد من البرنز ، فاذا ما هبت الريح تغلغلت في ثناياها ، فيخرج منها إذ ذاك صوت أشبه بزمجرة الليوث

وإن مخاطرات « أسعد كامل » مع الساحرات الثلاث تذكر القارئْ ببعض مناظر خاصة في رواية ماكبث . وإن العجيب في تاريخ ابنه حسان ، تلك الحادثة التي تؤلف منظراً أشبه بمنظر مسير غابة برنام[٢] . وهنا نشير إلى قبيلتي طسم وجديس ، ولما أحدثت جديس المجزرة التي فتكت فيها بطسم استطاع أحد أفراد القبيلة الثانية الهروب وهو « رباح بن مرة » فاحتمى بتبع حسان ، واستطاع أن يؤثر فيه حتى أرسل معه جيشاً ليقتصّ به من القتلة . وكانت أخت رباح وتدعى « زرقاء اليمامة » قد بنت بأحد رجالات جديس ؛ وكانت حادة البصر حتى لقد كان في استطاعتها أن ترى الجيش على بعد ثلاثين ميلاً ، ولما كان رباح يعرف ذلك في أخته فقد نادى في الجيش أن يقتلع كل رجل شجرة ويحملها أمامه . وإذ جن المساء وأصبحوا على مسيرة يوم من جديس قالت زرقاء اليمامة لقومها : « إني أرى غابة تسير إليكم » فلم يصدقها أحد وسخروا بها حتى إذا كان الصباح أغار حسان عليهم وأعمل السيف في رقابهم

ولقد أحس زعماء حمير أن الحملات الحربية — التي شجعها حسان — إنما هى عبء ثقيل عليهم ، فدبروا مؤامرة لذبحه

(١) يجد القارىء النص العربي الكامل لهذه القصيدة في كتاب فون كريمر :

Altarabische Gedichte ueber die Volkssage von Jemen, P. 20 seg

وقد ترجمها بنفسه نثراً في كتابه « خلاصة المسألة الحميرية ص ٨٤ وما يليها »

(٢) وقد ترجم فون كريمر (في تعليقه على النص العربي ص ٢٦) « ادفنوا مى الخيلان » بمعنى الخيل ، و « الرقان » جمع رقيق ، وفضلا عن عدم ورود هذا الجمع في المعاجم فليس من المعقول أن يأمر الملك بمثل هذه الوحشية ، ومن ثم فقد قرأت خيلان (جمع خال) بمعنى « حشايا اليمن الناعمة » وقرأت « زقان » جمع « زق » (المؤلف)

(٣) غيمان أو مقلاب قلعة قرب صنعاء كان يدفن فيها ملوك حمير

(٤) قام D. H. Müller بطبع النص العربي من هذا الجزء من كتاب الاكليل مع ترجمته في مجلة S. B. W. A. ج ٩٤ ، ٩٧ (فينا ١٨٧٩ — ١٨٨٠)

(١) مما جاء في الطبري (ج١ ص٩٢٩) عن غمدان قول أحد الشعراء :

وغمدان الذى حدثت عنه بنوه ممسكا في رأس نيق
بمنهمة وأسفله جروب وحر الموصل اللثق الزليق
مصابيح السليط تلوح فيه إذا يمسى كتوماض البروق
ونخلته التي غرست إليه يكاد البسر يهزز بالعذوق

(المترجم)

(٢) يشير المؤلف إلى المنظر الخامس من الفصل الخامس ، حينما دخل مارس الغابة على ماكبث مخبراً إياه بأنه قد رأى غابة برنام Bernam تسير (المترجم)

وتولية أخيه عمرو مكانه ، فقالوا له : « اقتل أخاك حسانا وتملك علينا وترجع بنا إلى بلادنا [١] » فامتنع بادئ ذى بدء وأبى الخضوع لما أشاروا به ، غير أنهم استطاعوا التغلب عليه فطعن بيده تبع ؛ بيد أن الجرم أقض مضجعه ، ولم يذق جفناه الكرى فصمم على أن يقتل كل من وسوس اليه بذلك ؛ وكان هناك زعيم يدعى « ذا رعين » حاول جهده انقاذ عمرو مما هو مقدم عليه فما استطاع ، ولما وجد أن محاولاته ذهبت عبثاً كتب رقعة رفعها اليه وختمها وقال له : « ضع لى هذا الكتاب عندك حتى أطلبه » فلما مثل ذو رعين أمام عمرو سأله عن الرقعة فأخرجها فاذا فيها :

ألا من يشترى سهراً بنوم سعيد من يبيت قرير عين
فاما حمير غـــدرت وخانت فمعذرة الاله لذى رعين [٢]

فلما قرأها عمرو أيقن الاخلاص فى قوله ثم أطلق سراحه

وقد انتهى عهد التبابعة بعمرو هذا . أما الملوك الذين خلفوهم فقد كان يختارهم ثمانية أقيال أقوياء ، كانوا فى الحقيقة أمراء مستقلين ، يحكم كل منهم فى حصنه القوى . وفى أثناء هذه الفترة غزا الأحباش بعض أجزاء المملكة ، وأرسل النجاشى ولاته المسيحيين ليحكموها باسمه ، حتى قام أخيرا ذو نواس — وهو من ذرية تبع أسعد كامل — وطرد الأشراف الثائرين ، وجعل نفسه حاكما لليمن غير مسئول ، وكان يهوديا متعصباً ، فجمع العزم على أن يستأصل شأفة المسيحية من نجران التى يقال إن النصرانية دخلتها على يد رجل مبارك يدعى فيميون ، ودخل الحميريون فى دينه أفواجا يدفعهم إلى ذلك كرههم لاستبداد الأحباش أكثر من احترامهم للدين . وحدث إذ ذاك أن قُتِل طفلان يهوديان فأتاح هذا الحادث لذى نواس فرصة ليصب نقمته عليهم ، فسار إلى نجران على رأس قوة جرارة ، ودخل المدينة وخير أهلها بين اليهودية أو القتل ، فرفضوا دينه ، فحكم السيف فى أعناق الكثيرين ، وألقى بالآخرين فى أخدود أمر بحفره وأشعل النار فيهم ؛ وبعد مائة عام تقريباً من هذا الحادث حين لقى محمد (ص) أشد ضروب الاضطهاد من قومه أخذ يضرب لأتباعه المثل بنصارى نجران وكفاحهم : (قُتِل أصحابُ الأُخدودِ ، النّارِ ذاتِ الوَقودِ ، إذ هُم عليها قُعودٌ ، وهُمْ على

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٠
(٢) الأغانى ج ٢ ص ٨ س ١٤ — ١٥

ما يَفْعلُونَ بالمؤمنينَ شهود ؛ وما نقمُوا مِنهمْ إلا أن يُؤمِنوا باللهِ العَزِيزِ الحَمِيد [١]) وقد دفع ذو نواس عن هذا النصر غالياً ، فان دوس ذا ثعلبان كان قد نجا من القتل ففرّ إلى امبراطور الروم مستنصراً إياه باعتباره كبير المسيحيين ليساعدهم على أخذ ثأرهم ، فكتب يوستنيانوس رسالة إلى النجاشى طالباً اليه أن ينوب عنه فى تنفيذ هذه المهمة ؛ وسرعان ما حشد النجاشى سبعين ألفاً من الأحباش الأيدين ، وجعل عليهم أرياط قائداً فغزا اليمن . ولم يستطع ذو نواس الاعتماد على إخلاص أشراف حمير ، وتفرّقت قوّاته « فلما رأى ما نزل بقومه وبه وجّه فرسه إلى البحر ثم ضربه فدخل فيه ، فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى إلى غرق فاقتحمه فيه فكان آخر العهد به [٢] » وبهذا انتهت سلسلة الملوك الحميريين

وعلى كل فان اليمن تظهر فى تاريخ ما قبل الاسلام ، كامارة حبشية أو ولاية خاضعة للفرس ، وأما القصص التى تروى بعد ذلك فتعتبر تمهيداً لرواية جديدة تمثل على مسرحها عربُ الجنوب دوراً تافهاً لا يعتد به [٣]

(يتبع) حسن حبشى

(١) القرآن ٨٥ : ٤ — ٨

لكى يقف القارىء على الآراء المعاصرة والمسيحية المتأخرة المتعلقة باستشهاد نصارى نجران راجع كتاب « الحميريين » (النص السريانى والترجمة الانجليزية) طبعة A. Moberg سنة ١٩٢٤ وراجع :

Tor Andrae : Der Ursprung des Islams und das Christentum (Uppsalla, 1926) pp. 10 — 13

(٢) الطبرى ١ : ٩٢٧ س ١٩ وما يليه

(٣) راجع الطبرى ج ٢ ص ٩٢٨ س ٢ وما يليه ، وما كتبه نلدكه فى :

Geschichte der perser und Araber Zur Zeit der Sasaniden, p. 192 899.

البريد الأدبي

بين الأدب والسياسة — فون أوسيتسكي حامل جائزة نوبل

قررت اللجنة المختصة بجامعة استوكهلم أن تمنح جائزة نوبل للسلام عن سنة ١٩٣٥ للكاتب الألماني كارل فون أوسيتسكي، وعن سنة ١٩٣٦ للدكتور سافدرا لاماس سفير جمهورية الأرجنتين في لندن، وذلك لما أبداه كل منهما في سبيل قضية السلام من خدمات وجهود

وليس في قرار جامعة استوكهلم ما يثير الدهشة، لأن جائزة نوبل للسلام تمنح كل عام كباقي جوائز نوبل الأخرى عن العلوم والآداب والفنون، وقد منحت في الأعوام السابقة لكثير من الكتاب والساسة مثل مسيو بريان رئيس وزارة فرنسا السابق، والسير نورمان انجل الكاتب الانجليزي المعروف

وقد منحت جائزة نوبل للهرفون أوسيتسكي Von Ossietzky تطبيقاً لدستور نوبل الذي يقضي بأن تمنح هذه الجائزة «لكل من قام بأكبر جهد وبأفضل جهد في سبيل توثيق روابط الأخوة بين الشعوب، أو في سبيل تخفيض السلاح، أو نشر الدعوة الى السلام»، وقد لبث فون أوسيتسكي مدى أعوام يبث بقلمه الدعوة الى السلام من منبر الصحافة، ولا سيما في صحيفة «الفلت بينه» Welt Buehne «مسرح العالم» التي كان يحررها مع صديقه وزميله في الدعوة الى السلم الكونت فون جيرلاخ الكاتب السياسي الكبير الذي توفي منذ أشهر في منفاه في باريس

ولكن حكومة برلين النازية ترى في منح جائزة السلام لهذا الكاتب الألماني إهانة لها، وتحتج على ذلك رسمياً لدى حكومة السويد، ولماذا؟ لأن كارل فون أوسيتسكي يعتبر في نظرها خائناً لوطنه، فتكريمه بهذه الصورة من هيئة عالية يعتبر مناقضاً لواجب المعاملة الدولية، بل يعتبر استفزازاً لألمانيا

واليك قصة كارل فون أوسيتسكي المحزنة، ولماذا تعتبره ألمانيا الهتلرية خائناً لوطنه: كان فون أوسيتسكي من دعاة السلم كما قدمنا، وكان كاتباً مستقلاً لا ينتمي لأي حزب سياسي، وإنما يبث دعوته السلمية بالكتابة الملتهبة، ويدعو إلى تفاهم الشعوب ونزع السلاح بكل قواه، ويحمل على السياسة العسكرية لأنها خطر على السلام والمدنية؛ ولم تكن هذه الدعاية مما يتفق مع مبادئ الوطنية الاشتراكية ونزعتها العسكرية؛ فلما قبض الوطنيون الاشتراكيون (النازي) على زمام الحكم في سنة ١٩٣٣، كان فون أوسيتسكي ممن قبض عليهم من الكتاب المعارضين للمبادئ الهتلرية؛ فزج من ذلك الحين في أحد معسكرات الاعتقال المشهورة دون محاكمة أو تهمة معينة، وعانى في الاعتقال ضروباً مرهقة من الحرمان والتعذيب؛ والتمس كثير من الهيئات الأدبية والكتاب في مختلف الأمم من الحكومة الألمانية أن تطلق سراحه فأبت حتى أشرف الكاتب المعتقل على الموت، وعندئذ فقط سمحت بأن يغادر معسكر الاعتقال إلى أحد المستشفيات، حيث هو الآن تحت الحجر والاعتقال

ورأت الهيئات الأدبية المختلفة وأكابر الكتاب في أنحاء العالم أن يلفتوا نظر جامعة السويد إلى قصة هذا الكاتب الشهيد لكي تمنحه جائزة نوبل للسلام، واشترك في تقديم هذا الطلب رومان رولان، وابتون سنكلير، وهنريش مان، والفيلسوف ليفي بريل، وأميل لودفيج، وجيللمو فيريرو وغيرهم، تقديراً لخدماته وكتاباته الكثيرة في سبيل قضية السلام؛ وكان أن شاطرت اللجنة المختصة تقدير الرأي العالمي ومنحت كارل فون أوسيتسكي هذا الشرف المظيم

والآن يحتضر فون أوسيتسكي على سرير موته، وقد يموت بعد أيام أو أسابيع قلائل دون أن يعرف شيئاً عن الشرف العظيم الذي أسبغ عليه

أما اعتبار الحكومة الألمانية مواطنها خائناً، فلأنه كان قبل تبوئها الحكم بأعوام، يكافح بالقلم في سبيل السلام

كتاب عن نابليون لأوكتاف أوبرى

أوكتاف أوبرى كاتب ومؤرخ من أشهر كتاب فرنسا الحاليين؛ وهو مؤرخ قبل كل شئ يمتاز بأسلوبه الشائق وبيانه الساحر في عرض الوقائع وتصنيفها؛ وقد اتخذ في الأعوام الأخيرة عصر نابليون بونابرت ميدانا لمباحثه، وأصدر عن نابليون وعن العصر وأبطاله عدة كتب: وآخرها كتاب «نابليون وعصره Napoléon et son Temps»؛ وفي هذا الكتاب يعنى أوكتاف أوبرى بالنواحى الشخصية والاجتماعية أكثر مما يعنى بالنواحى السياسية والعسكرية؛ فلست تقرأ في كتابه استعراضاً تاريخياً جامداً، وإنما تقرأ قصة ممتعة عن الامبراطور، وأطوار حياته الشخصية، وعن خاصته وصحبه من الرجال والنساء، وعن حوادثه الغرامية؛ وتقرأ عن جوزفين وعن منافساتها فصولاً شائقة؛ ثم تقرأ تفاصيل المأساة الأخيرة: نفى الامبراطور، واعتقاله في سنت هيلانة، وما قاساه من الآلام المادية والمعنوية، وتعرف الكثير عن بطانته التي صحبته في الاعتقال من رجال ونساء الى أن تصل الى ختام المأساة في جو يفيض سحراً وتأثراً. ويفرد أوكتاف أوبرى للامبراطورة مارى لويز بحثاً شائقاً يحلل فيه شخصية هذه الأميرة التي ألقتها أقدار الحرب والسياسة في طريق الامبراطور، وأنجبت منه ولده «ملك رومه» أو النسر الصغير أو الدوق فون ريخشتاث، كما يسميه آل هبسبورج

هذه محتويات كتاب أوبرى تغرى بالقراءة، ويحيطها جميعاً جو من السحر المؤثر

بين العلم والعاطفة

كثر الجدل منذ حين في انكلترا حول مسألة اجتماعية وإنسانية دقيقة، وهى هل يحق للانسان أن يعاون على الموت شخصاً عزيزاً عليه أصابه المرض وعز شفاؤه؛ وقد ثارت هذه المسألة أخيراً في ألمانيا على أثر ظهور رواية للكاتب الوطنى الاشتراكى الدكتور هلموث عنوانها «الرسالة والضمير Sendung und Gewisser»؛ بطلها طبيب يعالج هذا السؤال: هل يحق لى أن أعجل الموت لمريض استعصى شفاؤه، أم يجب على الانتظار حتى يوافيه الموت؛ وقد عنى ببحث هذه المسألة عدة من أكابر الأطباء الألمان، وأذاعوا آراءهم في الصحف؛ فيرى الأستاذ زاوربروخ الجراح الأشهر، أن هذه مسألة ضمير لا يمكن حلها على هذا الوجه، وأنه لا يمكن أن توضع لها قاعدة ولا أن يشرع لها قانون، وهى تبعة عظمى لا يمكن أن يحتملها الطبيب بسهولة. ويقول الدكتور كلارى الاخصائى الكبير في مباحث السل؛ إنها مسألة لا يمكن التسليم بها، ولا معنى مطلقاً لأن تثار مسألة اليأس من الشفاء، لأن العلم يتقدم ويأتى كل يوم بالعجائب؛ فمن يدرينا أنه لن يكتشف بين اليوم والغد علاج للسرطان مثلاً؟ إنه من الاستهانة الكبرى أن تعامل الحياة بمثل هذه الرعونة بحجة الاشفاق على مريض عزيز؛ ويؤيده الدكتور أونفرخت في ذلك ويقول إن مهمة الطب هى أن تعاون على صون الحياة واطالتها، لا على تحطيمها والتعجيل بسحقها؛ وهذا هو رأى معظم أعلام الطب في ألمانيا في هذه المسألة الدقيقة

ديوان حافظ

رفع الأستاذ أحمد أمين إلى صاحب المعالى وزير المعارف ديوان المرحوم حافظ بك ابراهيم بعد أن تم جمعه وشرحه وتبويبه وقد بدأت مطبعة دار الكتب في طبعه

ولم يعثر الأستاذ في جميع المجلات والصحف المتداولة على قصيدتين من خير قصائده وهما قصيدته في رثاء البابلى ومطلعها:

بدأ الممات يدب في أترابى ... وبدأت أعرف وحشة الأحباب

والثانية قصيدة في وصف الحالة في مصر قبيل وفاته ومطلعها:

قد مر عام ياسعاد وعام ... وابن الكنانة في حماه يضام

وهو يرجو ممن لديه القصيدتان أو إحداهما أو شىء منهما أن يتفضل فيمبعث بذلك اليه في لجنة التأليف والترجمة والنشر في شارع الكردامى رقم ٩ بعابدين وله الشكر

واجبنا بعد المعاهدة

فرغت لجنة أسبوع المعاهدة من تنظيم محاضراتها التي تبحث فيما يجب أن يتجه اليه المجتمع المصرى في عهده الجديد على البيان التالى:

يوم السبت ٥ ديسمبر «واجب الشباب بعد المعاهدة» لسعادة أحمد نجيب الهلالى بك

يوم الاثنين ٧ ديسمبر «فكرة عامة عن منشأ الحروب وواجبنا الحربى بعد المعاهدة» لسعادة اللواء عزيز المصرى باشا

يوم الخميس ١١ ديسمبر «واجبنا الاجتماعى بعد المعاهدة» لسعادة حسن نشأت باشا

السبت ١٩ ديسمبر «واجبنا الأدبى بعد المعاهدة» للدكتور طه حسين بك



نفح الطيب
فى طبعته الجديدة
بقلم محمد فهمى عبد اللطيف

همة مشكورة تلك التى يبذلها الدكتور أحمد فريد رفاعى فى الحرص على تراثنا الأدبى الحافل، باحياء عناصره، ونشر مصادره. وإذا كنا قد عرفنا هذه الهمة فى نفس الأستاذ من قبل — رغبة وأملا — فأننا الآن نلمسها منه عملاً جليلاً وجهداً كبيراً يؤديه فى نشر كتابى، معجم الأدباء، ونفح الطيب، فى طبع متقن، وضبط كامل، وتقسيم واضح، وتصحيح دقيق، تقوم وزارة المعارف بمراجعة أصوله النهائية مبالغة فى إجادته وحرصاً على إتقانه

ولقد وقع لى « القسم » الأول من نفح الطيب، فرأيته كالعروس المجلوة تخطر فى الثوب القشيب، فهو يغرى بالقراءة إغراء، ويستحث على المضى فى استجلائه وتأمله، فعاودت الكتاب بالنظر والتصفح، إذ كنت قد قرأته من قبل فى طبعته الأولى، فقدرت عمل الدكتور النافع، وتملكنى الأعجاب بذلك المجهود الذى بذله فى اخراج هـذا الكتاب الجليل، ولكن نشوة الأعجاب بالدكتور لا تمنعنى من أن أنبه على بعض هنوات ما نحسبها إلا قد ندت عن الخاطر اليقظ، وخرجت عن الدقة البالغة

الاثنين ٢١ ديسمبر « واجبنا نحو التعليم بعد المعاهدة » للدكتور على مصطفى مشرفة

الخميس ٢٤ ديسمبر «واجبنا الصحى بعد المعاهدة» للدكتور حامد محمود « واجبنا الزراعى بعد المعاهدة » لحسين عنان بك

الاثنين ٢٨ ديسمبر «واجبنا الرياضى بعد المعاهدة» لصاحب السعادة محمد طاهر باشا

الخميس ٣١ ديسمبر «واجبنا القانونى بعد المعاهدة» للدكتور عبد الرزاق السنهورى

الاثنين ٤ يناير سنة ١٩٣٧ « واجبنا القومى بعد المعاهدة » للأستاذ محمد توفيق دياب

الخميس ٧ يناير « واجب الطلبة بعد المعاهدة » للأديب فريد زعلوك

الاثنين ١١ يناير « واجبنا الصحفى بعد المعاهدة » لأنطون الجميل بك «واجبنا نحو الفلاح بعد المعاهدة» للآنسة ابنة الشاطئ

الخميس ١٤ يناير « واجب المرأة بعد المعاهدة » للسيدة استر فهمى ويصا

وستلقى هذه المحاضرات فى قاعة يورت التذكارية وقد أعدت اللجنة بطاقات تبيح لحاملها الدخول فى جميع المحاضرات أو بعضها مجاناً لمن يطلبها من سكرتير اللجنة بكلية الحقوق أو بنادى الجامعة

وثائق الحملة الفرنسوية

اعتزمت الجامعة المصرية شراء طائفة من الوثائق والمستندات التاريخية الخاصة بعهد نابليون بونابرت فى مصر، وقد طلبت إلى وزارة الماليـة الموافقة على الاعتماد الذى قدرته لهذا المشروع ؛ وفى انتظار تلك الموافقة وكلت إلى صاحب العزة عميد كلية الآداب أن يتصل بالمفوضية المصرية فى باريس ويطلب إليها موافاة الجامعة بالبيانات والمعلومات الخاصة بهذه المجموعة، فتلقى الأستاذ العميد من معالى وزير مصر المفوض برقية يقول فيها إن هذه المجموعة ملك لأحد الفرنسيين، وأنه قد عرضها للبيع بالمزايدة العلنية خلال هذا الشهر. أما ثمنها الأساسى فيقدر بنحو ألفى جنيه. ثم عرض معاليه على الجامعة استمداده لشراء هذه المجموعة إذا هى رغبت فى ذلك

فمن ذلك أنه وضع اسم الكتاب على الغلاف ناقصا ، فسماه نفح الطيب فحسب ، والمؤلف قد سماه (نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) وهذا الاسم هو الذى وضع على الطبعات السابقة ، وكان على الأستاذ أن يثبته كاملاً للمحافظة على وضع المؤلف ، ولأن ذكر لسان الدين هو الفكرة الداعية لتأليف الكتاب كما أوضح ذلك المقرى فى مقدمته

ثم إن الأستاذ رأى أن يخرج الكتاب أقساماً تبلغ العشرين وأسمى القسم الأول منها بالجزء الأول ، ومن المعلوم أن المؤلف قسم كتابه عند التأليف إلى أربعة أجزاء ، ومسألة التقسيم مسألة اعتبارية ، والدقة تقضى بالمحافظة على اعتبار المؤلف الذى أخرج الكتاب عليه ؛ فكان الأنسب أن يقسم الناشر كل جزء إلى أقسام ، فيقول مثلاً : القسم الأول من الجزء الأول ، والقسم الثانى من الجزء الأول ... وهكذا حتى ينتهى الجزء الأول ، فيبتدئ تقسيما جديداً للجزء الثانى

ونتجاوز هذا إلى صميم الكتاب ، فنقف مع الأستاذ فى تلك المقدمة التى دبجها فى التعريف بمؤلف الكتاب ، فنجده قد جاء بأشياء ذكرها المقرى نفسه فى المقدمة التى كتبها عن سفراته ورحلاته ، والباعث له على تأليف الكتاب . ومن العجيب أن يقول الأستاذ وهو يسرد مؤلفات المقرى : ومن مؤلفاته الشائقة عرف الطيب فى أخبار ابن الخطيب ؛ ثم يقول فى الهامش : ذكر فى كشف الظنون أنه سماه بعد ذلك نفح الطيب ، وهذا لف لاحاجة اليه ، فأن المؤلف قد شرح مسألة التسمية فى المقدمة فقال : « وقد كنت أولاً سميته بعرف الطيب فى التعريف بالوزير ابن الخطيب ، ثم وسمته حين ألحقت به أخبار الأندلس بنفح الطيب ... » فكان سبيل الكلام أن يقول الأستاذ : ومن مؤلفاته نفح الطيب ... ولا يثبت اسماً قد ألغاه صاحبه ، ولا ينتدب كشف الظنون لمهمة قد أداها المؤلف عن نفسه ؛ على أنه بعد ذلك قد ذكر الاسم الأول محرفاً كما يتبين ذلك من مقابلته بعبارة المؤلف

وفى (ص ٥٢) قال المقرى من قصيدة طويلة :

أين الذى الهرمان من بنيانه ... الحاكى اعتزامه

فعلق عليه الشارح بقوله : كشف من الأهرام حتى الآن أربعة !! إلا أن شعراء الماضى يذكرون الهرمين : هرم خوفو وهرم خفرع ، ثم استشهد لذلك بقول أبى الطيب :

أين الذى الهرمان من بنيانه ... ما قومه ما يومه ما المصرع !

نقول : وشعراء الماضى يذكرون الأهرام بلفظ الجمع وهو كثير فى أشعارهم ، ومن ذلك قول ابن جبارة :

لله أى غريبة وعجيبة ... فى صنعة الأهرام للألباب

أخفت عن الأسماع قصة أهلها ... ونضت عن الابداع كل نقاب

وفى (ص ٦١) قال المقرى : « وقد زمت للرحيل القلاص الرواسم » فقال الشارح : الرواسم هى الابل السائرة رسيما قال الشاعر :

متى تقول القلص الرواسما ... يدنين أم قاسم وقاسما

وهذا تفسير ناقص فكان عليه أن يبين مرتبة هذا الرسيم من السير ، أهو إلى السرعة أم إلى الريث ، وإنما نبهنا على هذه لأن أمثالها فى الكتاب كثير . ألا تراه يعلق على كلمة — نيسان — بالشرح فيقول . هو شهر رومى ؟

وفى (ص ٧٩) قرأت قول القائل :

رحلنا فشرقنا وراحوا فغربوا ... ففاضت لروعات الفراق عيون

وقد رأيت كلمة فشرفنا بالفاء ، ولعل من الواضح أنها بالقاف لتكون فى مقابلة (فغربوا) وأحسب هذا الخطأ من تحريف الطابع

وفى (ص ٩٨) قال المقرى : « فكم جبنا من مهامه فيحا ، ومسحنا بالخطا منها أثيراً وصفيحا ... » فقال الأستاذ الشارح : الأثير عند الأقدمين الفلك التاسع ، فهو على تشبيه المهامه بالفلك فى اتساعه ، أو الأثير من أثر السيف وهو فرنده ورونقه وديباجته ولعل هذا أنسب . نقول : أما المعنى على التفسير الأول فخطأ لا يصح ، وأما التفسير الثانى ففيه نظر ؛ تقول اللغة : أثْر السيف بوزن الأمر فرنده ؛ وتقول اللغة أيضاً : الصفيح العريض من كل شيء ، فالمقرى يريد أن يقول : إننا جبنا هذه المهامه ومررنا بالعريض منها والدقيق . ومن هنا ترى أن صحة العبارة « ومسحنا بالخطا منها أثراً وصفيحاً . . . »

وفى (ص١٣٩) قال المقرى وهو يتكلم عن دمشق : « وهى المدينة المعمورة البقاع ، بالفضل والرباع » فلم يطمئن الشارح لكلمة الرباع بالباء الموحدة ، وقال : لعلها الرياع بالياء المثناة أى الريع والنماء والزيادة . نقول . واللغة لا تقول الرياع وإنما تقول الريع ، ثم لا شك أنها الرباع بالباء الموحدة جمع رَبْع بمعنى

القوم كما هو إطلاقهم على الحجاز ، فكأن المقرى يريد أن يقول : إنها عامرة بالفضل وبالأقوام ، وهو كما يقولون فى التعبير الحديث (آهلة بالسكان)

وفى (ص ١٥٢) قول القائل فى وصف دمشق أيضاً :

إن تكن جنة الخلود بأرض   فدمشق لا يكون سواها (؟)
أو تكن فى السماء فهى عليها   قد (أمدت) هواءها وهواها

فقال الشارح : لعلها أمرّت !! نقول ومعنى أمرت أذهبت ولا يصح المعنى على هذا الحدس ، فهى أمدت كما فى الأصل لأن الشاعر يريد أن يقول : إن تكن الجنة بالأرض فهى دمشق ، وإن كانت بالسماء فوضعها فوق دمشق وإنها أمدّتها بهوائها وهواها . . .

وفى (ص ١٦٢) قال الشاعر :

زونق كالحباب يعلو على الما   ولكن تحت الحباب الحباب

والشارح قد قيد الحباب جميعها فى البيت بالضم ، وإنما هى فى الأولى والثانية بالفتح بمعنى الفقاعات التى تعلو سطح الماء ، وقد فطن إلى هذا الخطأ فقيد الكلمة مصححة بالفتح فيما بعد

وفى (ص ١٦٤) قال المقرى : «ولو كان بين الصفا والحجون» وقد رأيت الصفا مضبوطة بكسر الصاد ، وإنما هى بالفتح كما جاءت فى القرآن الكريم

وفى (ص ١٨١) البيتان :

تمتع بالرقاد على (شِمَـال)   فسوف يطول نومك باليمين
ومتع من يحبك باجتماع   فأنت من الفراق على يقين

فقال الشارح : يجوز أن تكون (شمال) جمع شملة وهى كساء يشتمل به ... وفى حديث على (!؟) قال للأشعث بن قيس : إن أبا هذا كان ينسج الشمال بيمينه ؛ وهى من أحسن الألفاظ وألطفها بلاغة !! وهذا كله شرح فاسد ، فأن المراد بالشمال مقابل اليمين ، إذ المعنى : تمتع بالنوم على جنبك الشمال فى الحياة قبل أن يستمر نومك باليمين فى الموت . ولعل من المعروف أن الأفضل فى دفن الميت أن يوضع على جنبه الأيمن

وفى (ص ٢٠١) قال الشاعر :

أين أيامنا اللواتى تقضت   إذ زجرنا للوصل أيمن طير

فقال الأستاذ فى الشرح : زجر الطير من العيافة ثم قال : والعيافة باطلة ، واحتج لذلك بقول الشاعر :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصا   ولا (زجرت) الطير ما الله صانع

وهذا فضول فى الشرح ومثله فى الكتاب كثير ، ثم فى كلمة زجرات تحريف وإنما هى زاجرات

وفى (ص ٢٠٣) قرأت قول ابن الخياط :

فلم أر الطرة حتى جرت   دموع عينى (بالمرزيب)

وأنا أحفظها كالمرزيب وهى أصح وأبين . .

وفى (ص ٢٢٠) أثبت المقرى قصيدة للمولى الشاهينى جاء فيها :

وها كها سيارة أعتقت   على جواد كان للبحترى
ورثته منه ولكنما   من شاعر وافى الى أشعر
ما للفتى الطائى شوط امرئ   يصطاد نسر الجو بالمنسر

وقد علق الأستاذ على البيت الأخير فقال : أظنه يريد بالفتى الطائى أبا تمام وبامرئ امرأ القيس فانظر — وقد نظرنا فرأينا أنه يعنى بالفتى الطائى البحترى الذى ذكره فى البيت الأول ، وأنه يريد بامرئ : نفسه على جهة التشبيه بامرئ القيس وهذا هو الذى يقتضيه السياق ، ويتطلبه المعنى

وفى ص (٢٥٧) قال المقرى فى تحديد الأندلس : « وهذه المدينة — يعنى مدينة أربونة — تقابلها مدينة برديل . . . » فقال الأستاذ : لم نعثر فى المعاجم على اسم هذه المدينة ، وقد تكون محرفة عن (بريش) وهى من مدن قرمونية بالأندلس . وليس ثمت تحريف ، فأن برديل هى بردو الآن ، وتقع حيث يقترب البحر المحيط من البحر الشامى ، وهى فى مقابل أربونة ؛ وقد كان القدماء يقسمون الأندلس الى ثلاثة أركان ، ويقولون إن ركنها الثانى يقع بالشرق بين أربونة وبرديل

وفى (٢٧٩) قال وهو يتكلم عن المعادن والأفاويه بالأندلس : « وقد سبق منه — أى العود الهندى — الى خيران الصقلبى صاحب المرّية » والمقرى قد نقل العبارة بنصها عن الاحاطة للسان الدين ، وقد جاء فى الاحاطة اسم صاحب المرية (حيزوان)

ذلك ما أحصيناه فى هذا القسم من الكتاب فى نظرة عجلى ، وربما لو عدنا اليه بالنظرة الفاحصة لعثرنا على ما هو أهم وأجل ، ولعل الله ييسر لنا النظر فى جميع أقسام الكتاب

محمد فهمى عبد اللطيف

العالم المسرحي والسينمائي

بعوث التمثيل

وسياسة اعداد المخرجين

لناقد « الرسالة » الفني

لقد ترك الأستاذ زكي طليمات باعتزاله العمل في الفرقة القومية مكاناً شاغراً وإنه ليصعب على فرقة تضم هذا العدد الكبير من الممثلين أن تسير بمخرج مسرحي واحد ، ونحن إذا طالبنا الأستاذ عزيز عيد أن يخرج جميع روايات الموسم فانما نطلب ما ليس في الاستطاعة وما يخرج عن القدرة ؛ وهو إن قبل هذه المهمة فانما يظلم نفسه ، وتكون النتيجة تعطيل عدد كبير من الممثلين انتظاراً لاعداد رواية بعد أخرى كما هو حاصل اليوم . ثم إن قيام مخرج واحد بهذه المهمة يجعل دراسة الروايات سطحية لكثرة العمل وضيق الوقت ؛ وقد يضطر المخرج إلى تأجيل موعد التمثيل في إحدى الروايات حتى يتسع له الوقت لتدريب الممثلين كما حدث في رواية « سافو » في الأسبوع الماضي

ونحن نناشد مدير الفرقة أن ينظر إلى هذه الحال جيداً وأن يقدر الموقف لعله يستطيع أن يوفق الى مَخْرَج . أما نحن فنرى أن من الخير للممثلين أنفسهم وللجمهور وللفرقة أن يعهد صاحب العزة مديرها الى أحد كبار الممثلين الذين لهم من الثقافة وسعة الاطلاع ما يؤهلهم للقيام بمهمة الاخراج ببعض الروايات لاخراجها ، وأنا على ثقة من أن في الفرقة من سبق له أن أخرج عشرات الروايات لطلبة المدارس الثانوية الأميرية وغير الأميرية . فهل تحقق الفرقة هذا الرجاء حتى يعود إليها من الخارج من توفدهم من البعوث لدراسة الفن في أوربا ! !

وعلى ذكرى البعوث نقول إن خير عمل قامت به لجنة ترقية التمثيل العربي منذ انشاء الفرقة القومية في العام الماضي ؛ هو قرار لجنتها التي عقدت في مساء يوم الخميس الماضي ، القاضي بارسال أربعة من الشبان المصريين إلى أوربا لدارسة فن الاخراج والتمثيل : اثنين من الممثلين المعروفين واثنين من الشبان المتعلمين الحائزين على درجات علمية محترمة . وهذه السياسة التي تسير عليها اللجنة جديرة بأن تقابل من كل محب للمسرح بالشكر إذ تهيئ لنا شباناً مثقفين ثقافة مسرحية شاملة ، وسوف يدخلون على المسرح المصري كل جديد طريف ويسيرون به إلى الامام خطوات واسعة ، وسوف يجد فيهم صغار الممثلين أساتذة وإخواناً يستفيدون منهم كل ما تغيب عنهم معرفته

إن أهم ما يشكو منه المسرح هو عدم وجود المخرج الفنان ، فعلى أعضاء البعثة أن يعنوا بدراسة الاخراج أكبر العناية ، وأن يخصصوا له الجانب الأكبر من جهودهم فيتفهموا وسائله ونظرياته ويدرسوا الضوء ، فمن المحزن أن نبقى حتى اليوم ونحن لا نكاد نفهم ما هو الضوء ، وكيف نستخدمه ونستفيد منه ، وكيف نستعين به في معاونة الممثلين على التعبير وإبراز عوامل الجمال في الرواية

رواية سافو

كانت الفرقة القومية المصرية قد أعلنت عن تمثيل رواية سافو ابتداء من ٢ ديسمبر الماضي ، ولكن اضطرت الفرقة لظروف خاصة إلى تأجيل هذا الموعد إلى يوم الثلاثاء القادم الموافق ٨ ديسمبر ، ونحن نرجو أن يقبل الجمهور على هذه الرواية فهي من روائع الأدب المسرحي الفرنسي

فيلم جديد لاستديو مصر : الشيخ شريب الشاى

جرت العادة أن تدعو الشركات الأجنبية ممثلى الصحافة إلى حفلة عرض خاصة لكل فلم جديد تنتجه ، وقد اقتدى استديو مصر بهذه الشركات فدعا النقاد السينمائيين إلى شهود آخر منتجاته « الشيخ شريب الشاى » الذى قام باخراجه لحساب جمعية الشاى الدولية

فالفلم للدعاية وأصحابه هم أصحاب فكرته ، ولكن الاستديو هو الذى قام باعداده وإدارته فنياً ؛ وموضوعه تحبيذ للشاى الجيد ، وحض للناس على تفضيل هذا النوع من الشاى . وبطل الفلم شيخ من الفلاحين له مكانته فى قريته يستيقظ فى الفجر هو وأولاده يطلبون الشاى ويلقون الأغانى فى طلبه ، ونرى الأم تقوم باعداده على الطريقة الصحية . وهنالك مواقف كثيرة فيها تتجلى مضار الشاى الأسود ، ومحاسن الشاى الجيد المصنوع على الطريقة الصحية وأثر هذا الشاى فى الصحة . وقد وفق الأستاذ نيازى مصطفى فى إدارة الفلم فنياً كما وفق يوسف بهجت فى تصميم مناظره ، وكذلك وفق حلمى رفلة فى عمليات التنكر وإبراز الشخصيات مما يتفق وأدوارها فى الفلم ، وأذكر له شخصية الشيخ ، وشخصية الخفير الأبله الذى تدل سحنته على البلاهة حقاً كما كانت سحنة بائع الشاى « المغشوش » بغيضة أيضاً . وإلى مجهود هؤلاء الشبان يعود الأثر الأكبر فى متابعة النقاد لمشاهدة الفلم برضاء وسرور مع أنه كما قلنا فلم دعاية فيه كثير من الترديد والاعادة والتحبيذ للشاى الصحى وشربه ، وفى هذا ما قد يبعث الملل إلى النفس

ويمكننى أن أقول إن نيازى أثبت فى هذا الفلم أنه مدير فنى متمكن من فنه ، فعمله يفوق أى فلم مصرى آخر مما تخرجه الشركات وتستغل به طيبة المصريين

والتمثيل لا بأس به ، وفى مقدمة الجميع كان محمد كامل الذى قام بدور البربرى فله مواقف طريفة ، وابراهيم عمارة فى دور الشيخ شريب الشاى أعطى جوانب طيبة من الشخصية ، ولكنه أهمل جوانب أخرى واهتم بالالقاء أكثر مما اهتم بالتمثيل ولهذا لم يبرز روح الفلاح كاملة . أما الموسيقى فكانت تتنافر وجو الفلم ، وكان من الأفضل أن يميل الملحن فريد غصن إلى الموسيقى البلدية فى أغانى القرية حتى ولو كانت عن الشاى

والفلم فى مجموعه مجهود موفق ، فنرجو للاستديو التوفيق المستمر

التصوير أم الاضاءة

رأى المدير الفنى لفيلم نشيد الأمل

يعمل رجال شركة فلم الشرق بهمة كبيرة لاخراج فلم نشيد الأمل الذى تقوم بالدور الأول فيه الآنسة أم كلثوم ، ويبذل كل من المخرج والمدير الفنى مجهوداً مضنياً ، حتى ينتهى إعداد الفلم قبل يوم ١٠ يناير وهو الموعد المحدد لعرضه فى سينما رويال

جمعنى مجلس بالأستاذ أحمد بدرخان فتحدثنا عن فلم نشيد الأمل وعن الجهود التى يبذلها الجميع لاخراجه فى هيئة تنال رضاء الشعب ، وانتقل بنا الحديث إلى التصوير فقلت له : إن الذين شاهدوا فلم « وداد » لاحظوا أن الآنسة أم كلثوم فى الصور المأخوذة عن قرب Close Up تبدو غير جميلة ، وتضعف شخصيتها كثيراً عما نعرفه عنها ، وتمنيت أن يكون قد عمل على تلافى هذه الغلطة فى فيلم نشيد الأمل . وسألته عما إذا كان قد فكر فى إظهار الآنسة أم كلثوم فى الصور القريبة غير واضحة التفاصيل Flue حتى يمكن تلافى أى عيب . وقد أجاب الأستاذ بدرخان بأنه لو كان قد أشرف على الادارة الفنية فى « وداد » لما ظهرت أمثال هذه الصور التى لفتت الأنظار ، لأنه يعرف كيف يلافى أمثال هذه الأخطاء ، وأنه شخصياً يرى أن الصور غير الواضحة التفاصيل تظهر الوجه بديناً إلى حد ما وإن أدت إلى الغرض المقصود ، وهذه الصور تلائم الممثل النحيف كالأستاذ محمد عبد الوهاب ولكنها لا تلائم الآنسة أم كلثوم ؛ ولهذا يرى أن الاضاءة الفنية تحقق هذه الغاية

وسوف يرى النقاد ورواد فلم نشيد الأمل كيف تظهر الآنسة أم كلثوم هذه المرة ، وسوف يحكمون على إدارة المصريين للأفلام ويقارنون بين ما ينتجون وبين ما أنتج الأجانب الذين استقدمناهم لادارة أفلامنا الشرقية والمصرية (يوسف)

تصويب

جاء فى مقال المسرح المنشور بالعدد الماضى صفحة ١٩٧٩ فى السطر الثانى عشر من العمود الأول : (ذلك الكاتب الألمانى العظيم) والصواب (الكاتب الانسانى)



4 me Année, No. 180

Lundi - 14 - 12 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٨٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣٠ رمضان سنة ١٣٥٥ — ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

عرض وسرير

بين سلطان وسلطان

يا كافرين بالشعر والأحلام والحب ! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة ؟

هذا ملك المغرب ، وامبراطور المشرق ، وإله البحر ، وصاحب العرش المحمول على أعناق الشعوب ، ووارث التاج المتألق على جباه القرون ، وخليفة المجد المحفوف بالجلال الباهر والسؤدد العريق والسنَّة المقدسة ، وسليل الدم السَّرى الذى يتدفق بالحياة فى هدوء ويجيش بالنشاط فى ثبات ، وربيب البيئة التى تعظم القوانين وتقدس التقاليد وتعبد الامبراطورية ؛ هذا هو ينزل عن العرش ، ويُلقى التاج ، وينبذ اللقب ، ويهجر الوطن ، ويلحق بحبيبته أميرا لا يميزه شعار ، وإنساناً لا تحدوه أبَّهة ، وفرداً لا تصحبه حاشية !

يا جاحدين لسلام الروح وراحة القلب ورضى العاطفة ، أتمارون بعد اليوم فى هذه الآية ؟

زعمتُم أن الأرض بُدِّلت غير الأرض ، والدنيا أصبحت

غير الدنيا ، فقدَّرتم سعادة الحياة بالوزن والكيل والمساحة ، وقلتم أوْدى منطق العقل بإلهام القلب ، وأزرتْ مادية العلم بروحية الأدب ، وغلبت أثرة المنفعة على إيثار التضحية ؛ ورحتم تتجهزون بما صنع العلم من صواعق وزلازل وبراكين ، لتنسفوا ما قام من المدنية ، وتقتلوا ما بقي من الإنسانية ، وتقرّوا في ملكوت الله نظاماً لا يعيش فيه جمال ولا خير ولا حق ؛ فقام أكبر ملك في العالم ، على أظهر مكان في الأرض ، يعلن أن عظمة الملك لا تضمن سعادة النفس ، وسلطان العرش لا يعوض حرية الإرادة ، وجواهر التاج لا تساوي بَسْمةَ الحبيب !

* * *

سبحانك يا بديع الحياة والحي ! ما هذا الذي تضعه في العيون فنسميه سحراً ، وتجريه على الشفاه فندعوه جاذبية ، وترسله في الأعضاء فيكون رشاقة ؟ ما هذا الذي تودعه هذا الجسم الرقيق الناعم فيقهر سطوة الجبار ، ويُسوّي أخدع المتكبر ، ويطاطئ إشراف الملك ؟ أهو إعجاز القدرة التي تغلب بالأضعف ؟ أم سر الحكمة التي تمكر بالأقوى ؟ أم روح القدس الذي ينفّذ قانون الحياة في هذا الكوكب ؟

بين سُورة المُلك وأمانة التاج ، وبين فتنة الجمال ومحنة الهوى ، وقف العاهل ادوار الثامن يتحسس في مطاوي الغيب مشيئة القدر : أيعيش في نفسه ولنفسه ، أم يعيش في جنسه وللناس ؟ أيظل رمزاً لأمته يخفق فوق رءوسها كالعلَم ، ويتغلغل في قلوبها كالايمان ، ويتردد على ألسنتها كالصلاة ، ثم لا يكون له ما للعامل الفقير من وجود مستقل وإرادة مختارة ؟ أم يرتد إلى طبيعة الانسان فيضرب بنفسه في الزحام ، ويبحث عن نصيبه في الرغام ، ويضطلع بعبثه ككل فرد ؟؟ أيبقى أسير التقاليد التي نسجتها عناكب الماضي البعيد على نوافذ البلاط والبرلمان ، فلا يفكر إلا بإيحاء ، ولا يتحرك إلا بميقات ، ولا يتكلم إلا بمقدار ، ولا يعمل إلا بإشارة ؛ أم يتمرد تمرد الحي المريد ، فيدفع من أمامه ذلك الحاجز الصفيق الثقيل ، ويجذ من ورائه ذلك الذيل المتيق الطويل ، ثم ينطلق في أجواء الله انطلاق الطائر المرح ، يقع في كل روضة ، ويهبط على كل غدير ، ويملي أليفه فوق عروش الورود ، وعلى بُسُط المروج ، وبين أفنان الخمائل ؟؟

كانت هذه الآراء الحائرة تعصف نكباء في رأس الملك : بينما كان في (لندن) الواجبُ المرير الخشن يتمثل في وجه (بلدوين) الحازم الجبار ، ومن خلفه برلمان متحد يؤيد دستوره ، وملكوت واسع يريد امبراطوره ، وشعب مخلص يحب ملكه ؛ وفي (كان) حب عنيف مُلح يشرق في قسمات (مسز سمبسون) الفاتنة ، ومن ورائه إنسان يطلب حريته ، وقلب ينشد سعادته ، وحي يبتغي حظه من الحياة

وهنا يتدخل القدَر الذي يحكم وحده على الملوك ، فيحل عقدة الرواية التي يشهدها العالم كله ، على غير ما يحلها به الروائيون الخياليون ، فينصر تجديد الطبيعة على تقليد العرف ، ويُغلّب سلطان الحب على سلطان الواجب ، ويرفع سرير الأسرة على عرش الأمة !

* * *

يا كافرين بالشعر والأحلام والحب ! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة ؟

أيها الناسون ما صنعت حواء بأبيكم آدم ! لا تحسبوا أن الماسونية والجاسوسية والشيوعية والصهيونية والفاشية والنازية هي التي تقلب في السر أو في العلن أوضاع المجتمع . فتشوا في زوايا كل أولئكم عن المرأة ! وإذا كانت مأساة البرنس ادوار تذكرنا بمأساة البطل أنطوان ، فليست كليوبطرة أول النساء ، ولا مسز سمبسون آخرهن ؛ وسيظل هذا الجنس القوي الخفي الغامض سلطان الكون المطلق ؛ فهو محور الطموح والمنافسة ، ومصدر الخير والشر ، ومنبع السرور والألم . ولئن خضع له اليوم ادوار ، فمن قبله خضع نابليون ، ومن قبل نابليون خضع الرشيد وقال فيما حدّث الرواة :

ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكان

مالي تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهن وهن في عصياني

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... ـ وبه قوين ـ أعز من سلطاني

احمد حسن الزيات

٦ - القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحبُ القلب المسكين فقام ليخرجَ ، وقد تفارطته الهمومُ وتسابقت إليه فانكسر وتفتر ؛ وكأنما هو قد فارق صاحبته باكياً وباكيةً من حيث لا يرى بكاءَه غيرُها ولا يرى بكاءَها غيرُه

ورأيته ينظر إلى ما حوله كأنما تَغشَّى الدنيا لونُ نفسه الحزينة إذ كانت نفسُه ألفت ظلَّها على كل شيء يراه ؛ وجعل يدلف ولا يمشي كأنه مثقلٌ بحمل يحمله على قلبه

إنه ليس أخفُّ وزناً من الدمع ، ولكن النفوس المتألمة لا تحمل أثقل منه ، حتى لينتثرُ على النفس أحياناً وكأنه وكأنها بناءٌ قائم يتهدَّم على جسم . وبعضُ التنهدات — على رقتها وخفتها — قد تشعر بها النفس في بعض همّها كأنها جبل من الأحزان أخذته الرَّجفةُ فادت به ، فتقلقل ، فهو يتفلَّق ويتهاوَى عليها

آه حين يتغير القلبُ فيتغير كل شيء في رأى العين . لقد كان صاحبنا منذ قليل وكأن كل سرور في الدنيا يقول له : أنا لك ؛ فعاد الآن وما يقول لك أنا لك إلا الهمّ ؛ والتقى هو والظلام والعالم الصامت

جمل يدلُف ولا يمشي كأنه مثقل بحمل يحمله على قلبه . ومتى وقع الطائر من الجو مكسورَ الجناح انقلبت النواميس كلُّها معطلة فيه ، وظهر الجو نفسُه مكسورا في عين الطائر المسكين ، وتنفصل روحُه عن السماء وأنوارها حتى لو غمره النورُ وهو ملقيٌّ في التراب لأحسَّه على التراب وحده لا على جسمه

ثم خرجنا فانتبه صاحبنا مما كان فيه ؛ وبهذه الانتباهة المؤلمة أدرك ما كان فيه على وجه آخر فتعذَّب به عذابين : أما واحدٌ فلأنه كان ولم يَدُمْ ؛ وأما الآخر فلأنه زال ولم يُعدْ . والسرورُ في الحب شيء غير السرور الذي يعرفه الناس ؛ إذ هو في الأول روحٌ تتضاعف به الروح ؛ فكل ما سرك وانتهى شعرتَ أنه انتهى ؛ ولكن ما ينتهي من سرور العاشق المستهام يشعره أنه مات . فله في نفسه حزن الموت وهمُّ الثكل ؛ وله في نفسه همُّ الثكل وحزن الموت

***

وينظر صاحبُ القلب المسكين فإذا الأنوار قد انطفأت في الحديقة ، وإذا القمر أيضاً كأنما كان فيه مسرح وأخذوا يطفئون أنواره

كان وجهُ القمر في مثل حزن وجهِ العاشق المبتعد عن حبيبته إلى أطراف الدنيا . فكان أبيضَ أصفرَ مكمدا ، تتخايلُ فيه معاني الدموع التي يُمسكها التجلد أن تتساقط

كان في وجه القمر وفي وجه صاحبنا معاً مظهرُ تأثير القدَر المفاجئ بالنكبة

وبدت لنا الحياةُ تحت الظلمة مقفرة خاوية على أطلالها فارغة كفراغ نصف الليل من كل ما كان مُشرقاً في نصف النهار . يا لك من ساحر أيها الحبُّ ! إذ تجعل في ليل العاشق ونهاره ظلاماً وضوءًا ليسا في الأيام والليالي

أما الحديقةُ فلبسها معنى الفراق ؛ وما أسرعَ ما ظهرت كأنما يبست كلها لتوّها وساعتها ، وأنكرها النسيم فهرب منها فهي ساكنة ؛ وتحوّلت روحها خشبيَّة جافة ، فلا نضرة فيها على النفس ؛ وبدت أشجارها في الظلام قائمة في سوادها كالنائحات يلطمن ويُولولن ، وتنكر فيها مشهدُ الطبيعة كما يقع دائماً حين تنبتُّ الصلة بين المكان ونفس الكائن فيه

ماذا حدث ؟

لا شيء إلا ما حدث في النفس ؛ فقد تغيرت طريقة الفهم ، وكان للحديقة معنى من نفسه فسُلب المعنى ، وكان لها فيض من قلبه فانحبس عنها الفيض ، وبهذا وهذا بدت في السلب والعدم والتنكر ، فلم يبق إبداعٌ في شيء مُبدَع ، ولا جمال في منظر جميل

أكذا يفعل الحب حين يضع في النفس العاشقة معنى ضئيلا من معاني الفناء كهذا الفراق ؟

أكذا يترك الروح إذا فقدت شيئاً محبوباً ، تتوهم كأنها ماتت بمقدار هذا الشيء ؟

مسكين أنت أيها القلب العاشق ، مسكين أنت !

***

ومضينا فلنا إلى ندىٍّ نجلس فيه ، وأردتُ ممابثة صاحبنا

المتألم بالحب ، والمتألم بأنه متألم ، فقلت له : ما أراك إلا كأنك تزوجتها وطلقتها فتبعتها نفسُك

قال : آه . من أنا الآن ؟ وما بالُ ذلك الخيال الذى نسَّق لى الدنيا فى أجمل أشكالها قد عاد فبعثرها ؟ أتدرى أن العالم كان فى ثم أخذ منى فأنا الآن فضاء فضاء

قلت : أعرف أن كل حبيب هو العالم الشخصى لمحبه

قال : ولذلك يعيش المحب المهجور ، أو المفارق ، أو المنتظر وكأنه فى أيام خلت ؛ وتراه كأنما يجئ إلى الدنيا كل يوم ويرجع

قلت : إن من بعض ما يكون به الجمال جمالاً أنه ظالم قاهر عنيف كالملك يستبدّ ليتحقق من نفاذ أمره ؛ وكأن الجميل لا يتم جماله إلا إذا كان أحيانا غير جميل فى المعاملة

قال : ولكن الأمر مع هذه الحبيبة بالخلاف ؛ فهى تطلبنى وأتنكبها ، وهى مقبلة لكنها مقبلة على امتناعى ؛ وكأنها طالب يعدو وراء مطلوب يفرّ ، فلا هذا يقف ولا ذلك يدرك

قلت : فان هذه هى المشكلة ، ومتى كانت الحبيبة مثلها ، وكان المحب مثلك ، فقد جاءت العقـدة بينهما معقودة من تلقاء نفسها فلا حل لها

قال : كذلك هو ، فهل تعرف فى البؤس والهم كبؤس العاشق الذى لا يتدبر كيف يأخذ حبيبتَه ، ولكن كيف يتركها ؟ ماهى المسافة بينى وبينها ؟ خطوة ، خطوتان ؟ كلا، كلا ؛ بل فضائل وفضائل تملأ الدنيا كلها . إن مسافة ما بين الحلال والحرام متراخية ممتـدة ذاهبة إلى غير نهاية . وإذا كان الحب الفاسد لا يقبل من الحبيب إلا (نعم) بلا شرط ولا قيد لأنه فاسد ، فالحب الطاهر يقبل (لا) لأنه طاهر ؛ ثم هو لا يرضى (نعم) إلا بشرطها وقيـدها من الأدب والشريعة وكرامةِ الانسانية فى المرأة والرجل

وإذا لم ينته الحب بالإثم والرذيلة ، فقـد أثبت أنه حب ؛ وشرفه حينئذ هو سرُّ قوته وعنصرُ دوامه

أتعرف أن بعض عشاق العرب تمنى لو كان جملاً وكانت حبيبته ناقة ...؟ إنه بهذا يودُّ ألاّ يكون بينهما العقلُ والقانونُ وهذا الحرمانُ الذى يسمى الشرف ، وألاّ يكون بينهما إلا قيدُ غريزتها الذى ينحلُّ من تلقاء نفسه فى لحظةٍ ما ، وأن يُترك لقوته وتترك هى لضعفها ؛ والقوة والضعف فى قانون الطبيعة هما مِلك وتمليك واغتصابٌ وتسليم

قلت : وهذا ما يفعله كل عاشق لمثل هذه الراقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان ، فان بينهما قوةً وضعفاً من نوع آخر ، فمنه الثمن وبها الحاجة ، وهما فى قانون الضرورة مِلك وتمليك

قال : وهذا مما يقطّع فى قلبى ، فلو أن الأمة ديناً وشرفاً لمـا بقى موضع الزوجة فارغاً من رجل ، وإن هذه وأمثالها إنما ينزلن فى تلك المواضع الخالية أولَ ما ينزلن ، فـكل بغىّ هى فى المعنى دينٌ متروك وشرف مبتذَل فى الأمة

***

قلت : فحدثنى عنك ما هذا الوجدُ بها وما هـذا الاحتراق فيها ، وأنت قد كنت بين يديها خيالياً محضاً كأنمـا جمعتها فى حواسك فأخذتها وتركتها فى وقت معاً . وحواسك هذه لا تزال كما هى بل هى قد زادت حِدّة ، فـكما صنعت لك من قرب تصنع لك من بُعد

قال : أنا فى محضرها أحبها كما رأيت بالقدر الذى تقول هى فيه إنك لا تحبنى ، إذ كان بيننا آخر اسمه الخُلُق ؛ ولكنى فى غيابها أفقد هذا الميزان الذى يزن المقدار ويحدده . وإذا كنت لم تعلم كيف يصنع العاشق فى غيبة المشوق ، فاعلم أن كبرياءه حينئـذ لا ترى بازائها ما تقاومه فتتخلى عنه وتخذله ، وفضيلته لا تجد ما تستَعْلِنُ فيه فتتوارى وتدعه ، وشخصيته لا تجد ما تبرز له فتختفى وتهمله ؛ فما يكون من كل ذلك إلا أن يظهر المسكين وحده بكل ما فيه من الوهَن والنقص وحدَّة الشوق ، وهنا ينتقم الحب مما زوَّرت عليه الـكبرياء والفضيلة والشخصية فيضرب بحقائقه ضربات مؤلمةً لا تقوم لهـا القوة ، ويجعل غياب الحبيب كأنه حضوره مستخفياً لرؤية الحقيقة التى كتمت عنه . وكم من عاشقة متكبرة على من تهواه تصدُّه وتباعده ، وهى فى خلوتها ساجدة على أقدام خياله تمرغ وجهها هنا وهنا على هذه القـدَم وعلى هذه القدم

ألا إنه لا بد فى الحب من تمثيل رواية الامتناع أو الصد أو التهاون أو أى الروايات من مثلها ؛ ولكن ثياب المسرح هى دائماً ثياب استعارة ما دام لابسها فى دوره من القصة

***

ثم وضع المسكين يده على قلبه وقال : آه . إن هذا القلب يغاضب الحياة كلها متى أراد أن يشعر صاحبه أنه غضبان

مَن مِن الناس لا يعرف أحزانه ، ولكن من منهم الذى يعرف

أسرار أحزانه وحكمتها ؟ أما إنه لو كُشف السر لرأينا الأفراح والأحزان عملاً فى النفس من أعمال تنازع البقاء ؛ فهذا الناموس يعمل فى إيجاد الأصلح والأقوى ، ثم يعمل كذلك لإيجاد الأفضل والأرقّ . ومن ثم كانت آلام الحب قويةً قويةً حتى لكأنها فى الرجل والمرأة ، تهيئ أحد القلبين ليستحق القلب الآخر

آه من هذه اللواعج ! إنها ما تكاد تضطرم حتى ترجع النفس وكأنها موقد يشتعل بالجمر ، وبذلك يُصْهَرُ المعدن الانسانى ويُصنع صنعة جديدة ؛ وإلى أن ينصهر ويتصفى ويُصنع ، ماذا يكون للانسان فى كل شئ من حبيبه ؟

يكون له فى كل شئ روحه النارى

***

قلت : بَخٍ بَخٍ[1] . هكذا فليكن الحب . إنها حين تهيج فى نفسك الحنين إليها تعطيك ما هو أجمل من جمالها وما هو أبدع من جسمها ، إذ تعطيك أقوى الشعر وأحسن الحكمة .

قال : وأقوى الألم وأشدّ اللوعة . ياعجبا ! كأن الحياة لا تقدم فى عشق المحبوب إلا أعشقها هى ، فاذا وقعت الجفوة ، أوحُتِمَ البيْنُ ، أو اعترى اليأس — قدّم الموت نفسه فكل ذلك شبه الموت

إن الحزن الذى يجئ من قبل العدو يجئ معه بقوة تحمله وتتجلد له وتكابر فيه ، ولكن أين ذلك فى حزن مبعثه الحبيب ؟ ومن أين القوة إذا ضعف القلب ؟

***

قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً . فاذا كان غدٌ وانسلخ النهار من الليل ، جئنا إليها فرأيناها فى المسرح ، ولعل الأمر يصدر مصدراً آخر . قال : أرجو

ولم يكد ينطق بهذه الرجيَّة حتى مرّ بنا سبعة رجال يقهقهون ، ثم تلاقينا وجئنا ؛ وياويلتنا على المسكين حين علم أنها رحلتْ ؛ لقد أدرك أن الشيطان كان يضحك بسبعة أفواه . . . من قوله : أرجو

ولماذا رحلت ؟ لماذا . . . ؟

وأما هو ؟

(يتبع — طنطا) عزيز أحمد فهمى

(١) كلمة الاعجاب تقال عند الرضى والمدح ؛ ومثلها (زه) وهذه فارسية

سالزبورج

مدينة المطر والموسيقى

بقلم سائح متجول

لم يطل بنا المكث فى ربوع سويسرا الجميلة فغادرنا « تسيريخ » (زيوريخ) إلى ألمانيا عن طريق شافهاوزن ، وقصدنا « منشن » (ميونيخ) عاصمة بافاريا عن طريق أوجسبورج واولم ؛ وفى أثناء الزيارة الجمركية عند الحدود الألمانية ، أحصى الموظف المختص ما معنا من صنوف النقد الأجنبى وقيمه وأثبتها بعد الاطلاع عليها فى شهادة خاصة ؛ وهذا إجراء لا بد منه لكى يستطيع السائح أن يخرج من ألمانيا بما يحمل من صنوف النقد الأجنبى، ووصلنا إلى « منشن » عصراً بعد رحلة ممتعة خلال سهول بافاريا الغنية ، فألفينا المدينة تموج بالوافدين عليها من السياح من مختلف الأقطار ، وألفينا الفنادق غاصة بالزائرين ، وقد رفعت أجورها جميعاً عن الأسعار الرسمية المدونة فى سجل الفنادق الألمانية ؛ وقد كانت دورة الألعاب الأولمبية قد بدأت فى برلين قبل ذلك بأيام ، فلم نرغب فى الذهاب إليها اجتنابا لضجيجها وحياتها الصاخبة ، وآثرنا البقاء فى منشن وبافاريا فلم نجد ما كنا ننشد من الراحة والهدوء

وقد تحدثنا فى فصل سابق عن « منشن » ومناظرها وعن أبهاء البيرة الضخمة التى اشتهرت بها ، فلا نعود إلى ذلك . وإنما نلاحظ هنا فقط أن الفنادق الألمانية لا ترضى بالأسعار الرسمية التى تقيدت بقبولها والتى يعول عليها السائح ، وهى مدونة فى دليل الفنادق الرسمى الذى يقدم اليك ؛ وإن السائح يتكبد فى صرف تحاويل السياحة « رجستر مارك » خسائر لا مبرر لها ، فكل تحويل بخمسين ماركا أو أقل يؤخذ عنه « مارك » ويؤخذ عن المائة مارك ونصف مارك ، وهكذا فاذا ذكرت أنه يؤخذ مثل هذه النسبة أو أكثر عند شراء التحويل ، فان « العمولة » قد تصل بذلك إلى أربعة أو خمسة فى المائة ، هذا والسائح الذى يريد أن يحول ما تبقى لديه من النقد الألمانى بعد انتهاء زيارته يتكبد فى تحويله خسارة لا تقل عن عشرين أو خمسة وعشرين فى المائة ، وهذه نسبة غير معقولة

أضف إلى ذلك أن نفقات المعيشة فى ألمانيا ليست من الرخص كما يقال ، وهذا بالرغم مما وضعته ألمانيا من تسهيل فى مسألة النقد بتقرير « الرجسترمارك » للسياح ؛ وتمنح ألمانيا على سككها الحديدية تخفيضاً قدره ستون فى المائة ، ولكنها تشترط فى مقابل ذلك أن يقيم فى أرضها سبعة أيام كاملة على الأقل ، وهذا شرط مرهق بلاريب ؛ لأن إيطاليا تمنح للاجانب تخفيضاً قدره خمسون فى المائة أو أكثر على سككها الحديدية دون اشتراط الاقامة مطلقاً ، وكل ما هنالك أنك تزور معرضاً فى إحدى المدن الايطالية التى تمر بها وقد لا يستغرق ذلك أكثر من ساعتين

* * *

غادرنا « منشن » بقطار الساعة الثانية مساء إلى مدينة سالزبورج ، فوصلنا إليها بعد رحلة قصيرة وتمت الاجراءات الجمركية بسرعة فى الجانب النمسوى من المحطة ؛ ثم جزنا إلى خارج المحطة ، ولشد ما كان سرورنا ودهشنا إذ التقينا فى فنائها بصديقنا القديم الصحفى النابه الأستاذ محمود أبو الفتح ، فبادلناه تحية حارة ، وتواعدنا على التزاور واللقاء ، ولكن الظروف لم تسمح للأسف بتلاقينا بعد ذلك ؛ وقد علمنا فيما بعد من صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم أنه كان فى نفس الوقت الذى زرنا فيه سالزبورج يقبع فى فندق بقرب فندق « شتات ميران » الذى نزلنا فيه ؛ ومع أننا كنا نجوس خلال المدينة فى كل وقت بالنهار وبالليل ونغشى جميع المقاهى والمنتديات التى ذكر لنا الصديق أنه كان يغشاها أيضاً ؛ فاننا لم نعرف بوجوده ولم نقع له على خبر أو أثر ؛ ولعله كان يؤثر الاعتكاف والاحتجاب ليستجم كل تفكيره وخياله ثم يطالعنا بكتابه الذى اعتاد أن يخرجه كل موسم ؛ وعلى أى حال فقد كان المطر ينهمر باستمرار فى سالزبورج ، ويحمل ذوى الأمزجة الرقيقة على الاحتجاب والاعتكاف . أما نحن فقد كنا نجد فى هذا الغيث المنهمر الذى اشتهرت به سالزبورج ظاهرة بديعة من ظواهر الطبيعة ، وكنا نستقبله باسمين مرحين رغم أنه كان يغمرنا بالبلل ليل نهار . والواقع أن المطر يغمر هذه المدينة الرشيقة بنوع من الصباحة المنعشة ، كما تغمرها الشمس أيام الصحو بضوئها النمش ؛ وحينما يسقط المطر تقدم إليك تلك المدينة منظراً بديعاً ، فالظلات تنتشر فوق الرؤوس ، ويرتدى الناس معاطف المطر الجلدية ؛ وترى المطر يقطر من المارة ، ولكن حركة المدينة تبقى على حالها ؛ ومما يلفت النظر بنوع خاص منظر السيدات وهن يرتدين المعاطف الجلدية أو معاطف صنعت من ورق خاص يسيل عليها المطر وتحمى من البلل ؛ وإذ كانت سالزبورج وقتئذ تموج بالوافدين لحضور حفلاتها الموسيقية الشهيرة ، فقد كنا نرى أسراب الحسان يرتدين هذه المعاطف الورقية المختلفة الألوان فوق ثياب السهرة ، وينساب الماء فوق معاطفهن ، كما ينساب السحر من زينتهن وعطرهن ، وهن ضاحكات مرحات لا يزعجهن البلل

وإذا كانت سالزبورج تشتهر بمطرها الذى لا ينقطع حتى فى أشد أيام الصيف ، والذى يغمرها دائماً بالبلل المنعش ، فانها تشتهر أيضاً بصفة أخرى ، هى أنها مدينة الموسيقى ؛ وشهرتها عالية تدعو اليها الزائر من أقاصى العالم ؛ ولا غرو فهى مسقط رأس موتسارت ، وفيها بزغ مجده ؛ ومازال المنزل الذى ولد فيه موتسارت قائماً فى سالزبورج ، وفيه الجناح الذى قضى فيه طفولته ؛ وقد حول هذا الجناح اليوم إلى متحف يحج إليه المعجبون بذكرى الموسيقى الكبير ، ويتأملون فيه ذكرياته وآثاره ؛ وإنك لتشعر حين ترى هذا المنزل المتواضع الذى حرص أولو الأمر على استبقائه بشكله القديم ؛ وحين تطوف بغرفه الضيقة ذات الأسقف الخفيضة ، بنوع من التأثر يمازجه الخشوع ؛ ذلك أنك ترى فى كل زاوية من المكان أثراً حياً لذلك الذى بهر العالم وسحره منذ طفولته بروائع أنغامه وروائع مقطوعاته ؛ فهنالك مسودات لكثير من قطع موتسارت كتبت بخطه ، وهنالك رسائل كثيرة ، وصور عديدة تمثله فى مناسبات وحفلات مختلفة ؛ وهنالك جمجمة الموسيقى الكبير ذاتها ، لا نجد لوضعها معنى بين هذه القطع والآثار الفنية ؛ ثم هنالك مناظر سحرية تمثل كثيراً من القطع التمثيلية التى وضع موتسارت مقطوعاتها الموسيقية واشترك فى إحيائها مثل « الدون جوان » و « زواج فيجارو » و « المزمار المسحور » و « كوزى فان توتى » و « اختطاف الحريم » وغيرها ؛ وهذه المناظر آية فى الدقة والابداع لأنها تمثل المناظر والأشخاص والألوان مجسمة واضحة ، وتدل على مبلغ ما انتهى إليه المسرح فى عصر موتسارت أعنى فى أواخر القرن الثامن عشر من التقدم ؛ ولفت نظرنا بنوع خاص من بين هذه الذكريات عدة اعلانات مسرحية ترجع إلى سنة ١٧٨٠ و ١٧٨١ ، عن روايات يشترك فى إحيائها موتسارت وقد ذكر فيها أنه يتولى قيادة الموسيقى ، وأن الأثمان عادية أو مخفضة ؛ ومازلنا نرى هذه الأوضاع ونقرأ هذه العبارات التى كان يتخذها المسرح منذ قرن ونصف للاعلان عن نفسه ،

فيما يصدره اليوم من الاعلانات والبرامج ! وإنك لتكاد تقرأ في هذه الغرف المتواضعة ، وفي هذه الذكريات المؤثرة طرفاً من حياة ذلك الذي لم تغنه عبقريته الرائعة شر الحاجة ؛ ذلك أن موتسارت قد بهر مجتمعات عصره بسمو فنه وافتنانه ، ونهل من منهل المجد ماشاء ، ولكنه لبث طول حياته يتخبط بين غمار الفاقة ، وتوفى مثقلاً بالبأساء والدين

وقد أسبغ تراث موتسارت وذكرياته على سالزبورج شهرة موسيقية عالية مازالت تحتفظ بها حتى اليوم . ولسالزبورج موسم موسيقي مشهور تقيمه في كل صيف في يوليه وأغسطس ، ويشترك في إحيائه أقطاب الموسيقى العالميون مثل برونو فالتر ، وفيلكس فينجارتنر ، وأرتورو توسكانيني ؛ وتمثل في هذا الموسم عدة من القطع المسرحية الخالدة التي وضع موسيقاها موتسارت وبيتهوفن وشوبرت وغيرهم من أقطاب الفن ، وتنظم حفلات موسيقية رائعة تعرض فيها قطع وأناشيد من وضعهم ، وتقوم بتنفيذها فرقة موسيقية رائعة على رأسها أحد أقطاب العصر ممن ذكرنا ؛ وتقام إلى جانب هذه الحفلات حفلات موسيقية منوعة ، كلاسيكية أو عصرية أو كنسية ؛ وقد أعدت بلدية سالزبورج لاحياء هذه الحفلات الشهيرة مسرحاً شامخاً يمتاز بسذاجته وفخامته معاً ؛ وكنا في سالزبورج والموسم على أشده ، والمدينة تموج بالوافدين عليها من سائر الأقطار ، تغص بهم فنادقها ومقاهيها وطرقاتها ، ولم نستطع أن نشهد من هذه الحفلات الرائعة أكثر من حفلين لاستحالة الحصول على التذاكر ولأنه يجب للحصول عليها أن تشترى قبل الموعد بأيام إن لم يكن بأسابيع ، وكان مما شهدنا حفلاً موسيقياً رائعاً برآسة أرتورو توسكانيني ، نظم في ضحى يوم ماطر كثير البلل ، ومع ذلك فلم نتمكن من شهوده إلا بعد جهد جهيد

وتتخذ مدينة سالزبورج وسكانها خلال الموسم استعدادات خاصة لاستقبال آلاف الزوار الوافدين عليها ، وتنظيم معدات الاقامة ، وتيسير حركة النقل والتنزه ، ويرابط في الطرق المؤدية إلى المسرح كثير من رجال البوليس لتنظيم حركة المرور الهائلة التي تجرى حوله ، وتغص الشوارع المجاورة والمقاهي القريبة بالجماعات الأنيقة وأسراب الحسان من كل جنس وأمة ، وتسمع مختلف اللغات في كل مكان

* * *

وتقع سالزبورج في بسيط ساحر تحيط به الجبال الشاهقة ؛ ومن أشهر بقاعها ونزهها ضاحية «هيلبرون» وقصرها الشهير ، وتقع هيلبرون على مسيرة نصف ساعة من سالزبورج ، ويربطها بها ترام خاص ، يخترق طائفة من الربوع والمحلات الزهرة ؛ وقد قصدنا اليها ذات صباح ماطر ، وزرنا قصرها وبساتينها الشهيرة ، ورأينا في قصر هيلبرون مناظر عجيبة لم نرها في أي أثر آخر ؛ ذلك أنه قد نظمت في هذا القصر الغريب مغارات ومجالس جهزت كلها بنوافير من المياه تنبثق من كل نواحيها في أشكال وأوضاع ساحرة ؛ ورتبت هذه النوافير والمنابع الخفية في حديقة القصر حول المماشي والأحراج بنفس البراعة والدقة ، فكنا نتصور حين تطلق المياه من منابعها الخفية أننا أمام سحر ساحر ؛ وفي هذه المغارات والمجالس تماثيل بارزة وصور من الفسيفساء صنعت على مثل صور كنيسة القديس مرقص بالبندقية. وأما القصر ذاته فهو صرح فخم من صروح القرن السابع عشر ، وقد زينت غرفه وأبهاؤه بطائفة من الصور الثمينة ومجموعات من الأثاث القديم الذي يرجع الى عصر إنشائه ، وزينت سقفه بالأخص بصور ونقوش بديعة تأخذ الألباب بدقتها وروعتها . وقد فهمنا من دليل القصر ، أن الذي أنشأ هذا الصرح الفخم أسقف سالزبورج في ذلك العصر ، وأنه هو الذي أشرف على زخرفته وتنسيقه على هذا النحو المدهش ؛ ويقع القصر وسط بستان شاسع نظمت في إحدى جوانبه حظيرة ترتع الغزلان في جنباتها ، ويؤمها زوار القصر للتفرج ومداعبة الغزلان

وعلى الجملة فأن هذه المدينة الصغيرة — لأن سالزبورج مدينة صغيرة لا يتجاوز سكانها أربعون ألفاً — تبدو بفنادقها الأنيقة ، وطرقها وميادينها المنسقة في ثوب خاص من الحسن والرشاقة ، ينم عن حسن ذوق أهلها وسلطاتها البلدية ، ويزيد في سحر سالزبورج ومتاع الاقامة فيها ، فضلاً عن روحها الموسيقى ، ما فطر عليه أهلها من الأدب الجم والشمائل الرقيقة . وهذه في الغالب أخلاق أهل المدن السياحية ؛ بيد أنك تشعر في سالزبورج أن هذه الخلال الحسنة ترجع الى الفطرة أكثر منها الى مقتضيات المعاملة ، وتشعر أنها بعيدة عن الرياء المعسول الذي تأنسه في المجتمعات السياحية الأخرى

وغادرنا سالزبورج لأيام قلائل ، وقد ترك بللها المنعش ، وموسيقاها الساحرة ، وذكرياتها السريعة الممتعة في النفس أجمل الأثر

(***)

حبها ...

للأستاذ السيد محمد زيادة

عرفتها شاعرة في عينيها الشعر ؛ وكأنما خلقها الله بهاتين العينين ليودع فيهما من أسرار الغيب ، ويصور بهما من معاني الخلود معنى الفن ... فجاءتا هكذا ساحرتين لا يُقوَم من أي نوع سحرُها ، ولا يُدرك إلى أي حد تأثيرها ؛ وغاية ما يفهم أو يدرك منهما أنهما حين تلمحان تجرحان ، وحيث تنظران تأمران ...

ويبدو فيها كأنه جمرة صغيرة ...

وتُرى خداها كأن على كل منهما وردة في لهب ...

وعرفتها في كل هذا وبكل هذا ... عرفتها في قصة حب أولها معروف وآخرها مجهول

كانت تغني ، ووقع بصري عليها لأول مرة فلا أدري ما الذي نزل منها على نفسي فجال فيها ثم استقرَّ فيها فما ذهب عنها وما هو ذاهب أبداً !! إلا أنني أذكر ... أذكر جيداً أنها كانت ترسل الأغاني من فمها ومن عينيها ، وأنني كنت أسمع الأغاني بأذني وبقلبي

ولله ما أحلاها وقد بدت في ثوبها الأسود الهفاف ، فلا يظهر منها إلا وجه كأنه حلم بالوصل في منام عاشق محروم ، ويدان كأنهما زهرتان غضَّتان أسفرتا من جنة محجوبة

وقد أبى صدرها إلا أن يتيه ويشمخ ، وعز عليه أن يحد الرداء من كبريائه فنهض يتحرر ، وبدا كأن بينه وبين الرداء معركة ...

وظهر جيدها فوق صدرها كشعاع الصبح يشرق من أعلى جبل ...

ونظرتُ إليها فرأيتها كلها فناً منفرداً في كل جزء منه فن منفرد ؛ ثم نظرت إليها فرأيتها نوراً تتشعب منه أنوار ، ثم هممتُ أنظر إليها فربع البصر وردَّت النظرة إلى الفؤاد مهماً

ثم تنفشت كالبلبل المتندى ، ثم نظرتْ إلى الحشد ثلاث نظرات وقعت إحداها عليَّ فلتُ أتحاشاها ؛ ولكنها سبقت إلى القلب فاذا القلب عاصفة في وسط عاصفة ؛ ثم راحت تغني فأرسلت من بين شفتيها صوتاً فيه شذى جعلني أعتقد أن الورد تغريداً وأن هذا هو تغريد الورد ، وأعتقد أن سرباً من البلابل لو اجتمع على أن يأتي بمثل سحرها لما أتى إلا بما يثبت أنها ساحرة معجزة

***

وأحسستُ أنها كلما زادت في غنائها آهة أو لفظة ربطت بين روحي وبينها آصرة ، وأنها كلما أصابتني بنظارة مدت بين قلبي وبينها جسراً ... ثم أحسست أنها قربت مني حتى صارت جزءاً مني فيه روحي وقلبي وعقلي ؛ ولكنني بعد ذلك لم أحسب إلا أنني خبلت ، ولم أدرك أن هذا هو حبها يدخل من عيني ومن أذني ...

وانتهيتُ من ساعتها ثملاً لأتم ليلتها أرقاً وبي من الجنون مس في القلب يكاد يبلغ إلى مس في العقل ... هو الحب ... هو الحب الوليد الجبار وُلد ثم أيفع وشب شبابه في ساعة ...

هو الحب خلق في عينيها ليعيش في قلبي ...

هو الحب جاء يعلن أنه الحب بعذابه ومهره ، وأنه سيكون عقدة بعد عقدة ، ثم لا يكون إلا عقدة بعد عقدة ...

هو سهمها جاء قاسياً ليقتل ثم اشتدت قسوته فلم يقتل ؛ وإنما جرح وأدمى ليظل الجرح جرحاً ويظل الألم ألماً ... ياليته قتل ...

***

ومرَّ عام في ليلة ، وآه منها ليلة قاسية وسمت كل دقيقة من دقائقها هاجساً من هواجسي فبتُّ أصبو بصبوة قلبي ، ثم أحار بنزاع عقلي ، ثم أغني بعين أحلامي ، وأقطع مدى الليل بين الصبوة في جهلها وغرورها ، والحيرة في شدتها وعسرها ، والأحلام في جلوتها وروانها ؛ وما أستطيع أن أخرج من هذا كله إلا باليأس منها حبيبة مُحبة ولو بعد حين ...

ما كان لي أن أحبها وهي ذات جاه ، ولها سلطان وحاشية ، ويسعى إلى مجلسها من علية القوم فئة يبتغون الأنس والسمر ، وهي تدلّ عليهم دلال حسنها ودلال عفتها ، ثم تتدلى إليهم زهرة محصنة يُستَنشى أرجُها ولا تُقْطف ولا تمس

وما كان مهلاً على أن أيأس من حبها في أول حبها مادامت في باطني عين لا تنظر إلا إلى أعلى فلا تبصر إلا ما هو أعلى ، ولا مستحيل عندها ولا صعب . ما كان مهلاً عليَّ أن أيأس

من حبها وعين خيالى كالمنظار تقرّب لعينىْ رأسى بعيدها وتهوّن مسافتها

***

وطلع الفجر يتثاقل كأنه لا يريد أن يطلع ... طلع وأنا بين شيطانين شيطانها الفاتن وشيطانى المفتون ، كلاهما يدعونى اليها بينما أتخوفها على نفسى ولا أبتغى اليها الوسيلة ؛ فمثل هذه التى أَلِفتْ تهافت العشاق ، وتفنّنتْ بآلام المدنفين ، لا يقع فى قلبها الحب إلا بمعجزة ...

ومضى الليـل إلا قليلا وأنا فى أمرى كما أنا ، آخذ بقلبى وأرد بعقـلى ! ولبثتُ يتقاذفنى تحذير اليأس وإغراء الأمل حتى يئست ونمت

ورأيت فى الرؤيا أنى أزورها وأنها ترحب بى ؛ وما أحسب إلا أن لقاءنا كان فى فردوس ، فقد رأيتها ترفل فى الخز وحول قامتها قوس من نور يتهادى على أفق من شفق ، وتحت قدميها ورد منثور كأنه طبقة من الأرض ، وهى تتخفف فى خطوها كأنها تسير على المـاء

وسرتُ اليها أترفق بالورد ، ورأتنى أحييها بتحيـة قلبى فتبسّمتْ فتبسم فى ثغرها الأمل ، ثم تأودت فكأنها بانة عطفتها نسمة ، ثم قالت : تعال ...

ثم ... ثم قالت : أهلاً ... تعال ...

ووثب قلبى اليها ووثبت أدركه بين يديها فصحوت ...

***

وما تم الليل بانفلاق صبحه حتى تم فى قلبى الحب بانتصار أمله على يأسه ، فشعرت بهـا تغنى فى قلبى ، وتتجلى فى عقلى ، وتميس فى خيالى ؛ ثم شعرت بها توحى إلىّ وحى فتنتها لتؤدى به رسالة الجمال إلى الفن ، وتثبت فيه ارتباط الفن بالجمال

وعشتُ أستوحيها حيناً من الدهر طال ما طال ولم يكن فيه إلا اكتفائى من حبها بالوحى : أتنسّم حنان صوتها ، وأتفيأ ظلال مفاتنها ، وأعيش فى جوها وأناجيها وأستلهمها ... كل هذا وأنا بعيد أتباعد لأن قلبى جعل لها سلطاناً عليـه وتهيّبها وبذلك سد علىّ منافذى إليها

ولـكن الحب أقوى وأشد ... فما زال بى حتى طغى علىّ فرحت أطلب زيارتها ؛ وهى كانت تعرف وحيهـا فى كلامى ولا تعرفنى ، فعرّفتُ نفسى إليها بكتاب ، ثم ذهبت أزورها فى موعد حددته ...

وكان موعدها فى ضحوة النهار من يوم مخلد ؛ قمت ليله أتطير بالشوق بين الفرح والرهبة ، ولا يتحول بصرى عن الساعة فى يدى وهى تبطئ كأنها نائمة ؛ وكلما غَبَرتْ من الليل ، فترة ودعتها من الفؤاد زفرة ، حتى أحسست فى نهاية الليل أن دمى قد احترق بنيران فكرى ، وأننى لم يبق منى إلا هيكل كل ما فيه أنه هيكل

وجاء الموعد الذى كنت أحسبنى لن أبلغه ... جاء الموقف الذى كان وراء العقل ... جاءت الساعة ، ولقيتها ... ولقيتهـا وأنا حى ! !

ما ذا كنت فى تلك اللحظة ؟ ... إنى كنت بركاناً وكنت زلزالاً وكنت ريحاً عاصفاً ...

وجلست هكذا فى قاعة الاستقبال بدارها ، ورأيت الأثاث فيها كأنه يهتز لينقلب على رأسى

أكان هذا حباً ؟ ... أكان هذا شوقاً ؟ ... لا والله إنه كان هذياناً ، ثم ظهرت فيه حكمة الحب عند ما لاحت الفتانة بالباب تتقدم إلىّ ؛ وحكمة الحب لا تظهر إلا حين يريد هو أن تظهر ...

***

جاءت تتيه فى مشيتها كأنها سكرى ، وكأن خطواتها همساتُ قلبٍ متيم الى صاحبه ، وكانت قد بارحتْ فراشها من لحظة ، فدخلتْ علىّ صاحيةً بكل جسمها إلا عينيها ، فقد كانتا ذابلتين كأنهما ما تزالان فى نعاسهما

أما وجهها فكان بمسحة النوم عليه كأنه الفجر مائلاً بسناه يقبل باقة من الورد . . .

أما شعرها فكان ثائراً ثائراً كأنه ليل عاشق مؤرّق ، وكأنها استيقظت وما يزال رأسها نائماً فى ليله . . .

أما قوامها فكان سكْباً من البان فى سكب من الحرير . . .

أما هى — أما هى فكانت سحراً يمشى ويتبختر ، وكانت حسناً متكبراً يتواضع . . .

وجاءت تلوح لعينى متصوفة سكرى وقالت : أهلا بمن سبقه الينا شيطانه ! !

ثم صافحتنى بيد أنضر من الزهر ، واتخذتْ مجلسها ، ثم نظرتْ إلىّ تتأملنى فقلت : وكيف عرفت شيطانى ؟ . . .

قلت: أما شَعَر لى وتغنى بى وكتب عنى ؟ . . .

قلت: يا له حظاً سعيداً . . . ما كنت أحسب شيطانى موفقاً هذا التوفيق ! ! أوَ تقرأين ما يكتب ؟ !

قالت: بلى . . . وما أحبَّ شياطين الشعراء الى نفوسنا نحن المغنيات . إن للمغنية فى كل شاعر تستميله مرآة ترى فيها نفسها ؛ والشاعر والمغنية كلاهما تمام الآخر فيما خلقا له

فتنهدتُ وقلت . إنك الآن توقدين رأسى

قالت: وكيف ذلك ؟

ثم انبسطت على شفتيها ابتسامة صغيرة بان فيها أنها داهية تمكر ؛ إلا أن مكرها فى ابتسامتها كان مكراً أحمر ملتهباً فى فتنة حمراء ملهبة ؛ فنظرت اليها أستزيده ثم قلت: كلامك هذا فيه نار أشعر بأجيجها فى رأسى

فقالت وهى تمكر مكرا أشد وأحلى : إذن لا يعجبك كلامى

قلت: كلا كلا ... وهل يُخرج مثل هذا الفم إلا ما يُحب ؟ إن النار التى فى كلامك نار لذيذة كنار الحب فى قلب المحب . لقد قلتِ إن الشاعر والمغنية كلاهما تمام الآخر ، فهل بعد هذا من سحر على لسان ؟ وهل بعد هذا من نار محبوبة فى كلام ؟ . إنك توقدين رأسى بهذه النار من هذا السحر فى هذا المعنى . . . إنك لو اطلعت الآن على أحشائى لعلمت أن الحسن يجنى ولا يشفق فى جنايته

نخفرتْ وكسرتْ فى عينيها لمحة وتهدل شعرها على وجهها ليستر روعة الخفر ، ثم فتحتْ بيديها بين ذوائبها منفذاً لقولها وقالت: هذا كلام شيطانك

قلت: بل هذا كلام قلبى ...

فرفعت بقية شعرها عن وجهها بيديها ورشقتنى بنظرة داوية سمعت لها رعداً فى صدرى وقالت: أنت إذن . .

ووقف لسانها بقية الكلمة ، وقالت لى عيناها بنظرة أخرى حنون: أعمها . .

فقلت: أنا إذن . . أحب . .

فأطرقت نخبأت وجهها بين شعرها ثم هزت رأسها تنفض الشعر فرأيت وجهاً جديداً مشرقاً فى معنى الحب

يا عجباً !! يا عجبا ! إن كلمة الحب تسمعها غادة جميلة من محب هائم تجمل فى محياها الشرق قسمات جديدة

ونضح الحياء على جبينها قطرات كأنها قطرات الندى على أوراق وردة بيضاء ، فمسحتها بمنديلها وشخصتْ إلىّ فقلت: وجهك الآن مؤمن . . .

قالت: وهل كان من قبل كافرا ؟ وكيف يكون إيمان الوجوه وكفرها ؟

قلت: الوجوه تؤمن وتكفر إيمان القلوب وكفرها ! وقد رأيت وجهك الآن مؤمناً إيمان قلبك .. لكأنه كان يقول لى : إنى شاعر بك وشاعر بما بك ، لأنى أفهم حبك فهو وحى جالى اليك ، وأعذر قلبك لأنه صيد عينى منك ...

أما سمعت وجهك يقول هذا ؟

فضحكت وقالت: وجهى لم يقل شيئاً ، وأنا لم أسمع منه شيئاً .. كيف يتكلم الوجه إلا بالفم ؟ . . ولكن فمى لم يقل هذا فمن أين جئت به ؟.

وضحكت ضحكة أخرى وهى تنتظر جوابى فقلت : لا يتكلم من الوجوه إلا الوجه الجذاب ، فتكون فى كل لمحة من لمحات عينيه عبارة ، وفى كل وقدة من وقدات وجنتيه همسة ، وفى كل ومضة من ومضات جبينه إشارة

أما رأيتنى أصغى إلى كلام وجهك بشغف ؟.

فضحكت مرة ثالثة ثم سكنت وجهها كأنها تتذكر ، ثم قالت: لا ... لم أر .. ولم أعقل ما تقول ..

قلت: آه !! ها هو ذا وجهك عاد يستهتر بإيمانه ... ها هو ذا يُدل ويتجنى

وسكتت هى تداعب يداً بيد وطرفها يختلس ما يختلس ، وسكت أنا ألهمهما بعينى فى سكونها الساحر المترنم .. ثم فاجأتنى بطرفها ينظر إلى بكل أجزائى بكل ألحاظه وقالت : إنك لتنظر إلى بعين الشاعر المليئة بالحب فترى فى كل شىء منى شيئين متناقضين .

قلت: وأنظر إليك بهذه العين من ناحية القلب فأراك نشوة للقلب تأخذه بقوتها ؛ وأنظر إليك من ناحية العقل فأرى فيك غذاء للعقل ما أحوج العقل إليه !. ثم أنظر إليك بالعين المجردة من الشعر والحب فأراك فى أقل درجاتك جميلة عزيزة الجمال

فرأيتها كأنها تنظر إلى من خلال منظار لتتبين فى كلامى حقيقة .. ثم كأنها تقتنع .. ثم رأيتها تفكر . فحدقت فيها ملياً ثم قلت: أنت شاعرة ..

قالت وهي تمسك وراء شفتيها ابتسامة : وعلى هذا تكون أنت مغنياً ..

فانتفضت في مكاني وقلت : إذن أنت تعتقدين أنني جزء منك يكملك في أي أحوالك — إذن قد تحقق الحلم يا آنستي

فتأجج خداها وأطرقت ، وعجز قلبي عن مقاومة ما فيه منها ، وحسبتُ أنه قضى

***

ثم إنا تفرقنا عاماً لا نملك أن نلتقي ، وكان هـذا العام مثار الوحي ومجال القلم

ثم تلاقينا في قصر جميل شيد على جناح النيـــل بين الخضرة والماء

وجلست في بهو القصر أضم جوانحي على الأشواق والهموم ، وينبعث دخان التبغ من فمي مختلطاً بدخان كبدي المحترقة

ومضت أفكاري تصور لي ما سيكون في لقاء ساعة بعد فراق سنة ... وإني لمضطرب أجرّ نفسي جراً بين أول دقيقة الانتظار وآخرها ، إذ سمعت على الدرج الرمري وقع حذاء الحسناء تتوثب في نزولها كالظبية تتنقل في واديها بين الربى والسهول

وتلفتُّ فإذا هي مقبلة تتهادى في وشاح فضفاض من حسنها ، وأمامها في الهواء نهدان خلقاً ليسبقاها أينما مشت

وكان وجهها متلألأً بين ضوء الجبين ووهج الوجنتين حتى حسبته قمراً كحلت عيناه في ليلة التمام

ووقفت يفصل بيني وبينها بعد خطوتين ، وفي عينيها نظرة عتاب كأنها طعنة خنجر ، ووقفتُ أنا وفي عينيّ نظرة اعتذار كأنها دمعة قلب ... والتقت النظرة بالنظرة فإذا هما في الهواء قطعة من (المغنيزيوم) تشتعل ، وإذا هما في كبدي شعلة من الوجد تضطرم

ثم تقدمت الحسناء وقالت : أهلاً بذا كرنا أهلاً بناسينا

فقلت : وكيف أنساكِ وأنا ناس بك كل ما عداك ؟ ..

قالت : ما رأيتُ من تذكرك إلا ما قرأتُ من رسائلك ؛ فهل كل ما عندك أن ترسل الرسائل ؟ ! كأني بك لا تحب إلا أن تتخيل لتعيش في خيالك

قلت : وكثيراً ما أهرب من لقاء الحقيقة لأظل مفتوناً بالخيال ناعماً بمتعته ؛ ولولا أنك فوق تصوره لما بحثت عنك إلا في خيالي بين أحلامي وأوهامي

قالت : أنت إنسان عجيب . . .

وبدا محياها كأنه مبلول بالخمر ، وعربد قلبي كأنه سكير ، وصمتنا ؛ ثم تنفستُ وقلت : ويحي ... ويحي ... إنك حقاً فوق تصوري وبعد خيالي ، فإني لأحس الآن أن كل قطرة من دمي تناجيك وتسبّح لك ، وأحسب أن الله تعالى قد خلقك خلقة ممتازة

فضحكتْ ضروباً ، وانطفتْ في ناحية أنكبرياء من جمالها وقالت : هكذا أنتم أيها الشعراء كثيراً ما تكفرون ...

قلت : آه لو كنتِ رجلاً مثلي وعشقت فتاة مثلك ! ! إذن لصدّقتِ أنك من خلقة ممتازة

قالت : أما يزال شيطانك يكفر ؟ . . إنكم أيها الشعراء لقادرون ؛ . إنكم تستطيعون أن تصنعوا من القبح جمالاً ، ومن الجمال فنّ جمال ، ومن فن الجمال عالماً من الفنون . فكم تصوّرون من مشاهد الكون وتبالغون في التصوير فيظن الناس أن الطبيعة هي التي أبدعتْ ما صنعتْ فتقلّم عنها حقائق

ثم سكتت ثم قالت : هأنت تقول عني ما ليس فيّ فأكاد أصدق أن فيّ ما تقول ...

فقلت : مه مه ... يا فاتنة ... إنك تتكبرين في تواضع ، وتتواضعين في تكبر ؛ والله ما رأيت مثلك غادة جميلة تنكر أنها جميلة ... ألا إن هذا وحده يقوم دليلاً على أنك مطمئنة إلى نبوغ جمالك وعبقريته

فرمقتني بنظرة تائهة في فرح عينيها وقالت : إنك تغزوني ...

قلت : أرأيت القاتل يقتل ويتهم المقتول ؟ ... هـذه أنت تتهمينني بأنني أغزوك وأنت فاتحة قلبي

قالت : لسانك وقلمك قد تآمرا عليّ ...

وحزن جمالها فصوّر في حزنه أجمل معاني الحزن ، وترقرقت عيناي إلا أنني أمسكتُ العبرة بين أجفاني فتغشّى بها بصري لحظة ... ولما نظرت بعد ذلك رأيتها مطرقة تشد منديلها بين يديها وكأنها تغالب في باطنها قوة تمردت عليها ... وكأن وجهها يفكر ، وكأن لحظها يحلم ...

قلت : إنك تخبأين شيئاً وريد الشيء أن يظهر

فرنتْ إليّ بطرفها مبلّلاً بالحنين ، فانطبقتْ أجفاني

وحى المعـــــرفة

للأستاذ اسماعيل مظهر

لا أقصد به الوحى الذى ينزله الله سبحانه وتعالى على المختارين من عباده، أو المصطفين من خلائقه، فان ذلك الوحى بعيد عن أن تدرك العقول من ماهيته شيئاً، بل اعتقد أن جل ما تدرك منه إنما يتعلق بأعراضه وظواهره دون حقيقته وجوهره.

ولا أقصد به الوحى الذى يقول به الروحانيون، أولئك الذين يحاولون إثبات العلاقة بين الجواهر اللطيفة الروحانيـة، وبين المواد الغليظة الجسمانية، حتى بعد أن تفارق الأرواح الأبدان، وتنفصم تلك العروة التى تربط بين المبـدأ العلوى الحال فى الأجسام السفلية

ولا أقصـد به ذلك الوحى الذى حاول أوائلنا من السلف الصالح عليهم رحمة الله أن يثبتوا أن له بالأحلام وأضغاث الأحلام صلة ورابطة؛ ولا الوحى الذى يقول به بعض المحدثين من أنصار العلامة فرويد، أولئك الذين قلبوا آية الأحلام فجعلوا عالم الشهادة سبباً فى الرؤى، بعد أن كانت الرؤى عند الأقدمين نذراً بما سوف يقع فى عالم الشهادة

لا أقصد شيئاً من هذا ولا من غيره من الأشياء التى تجعل بين ما بعد الطبيعة والطبيعة رابطة، قد يدركها التصور، وقد ينفيها الادراك الحسى، وإنما أقصد الوحى المادى، وحى المعرفة تلك التى تشعر ونعتقد أن لها بكياننا المادى علاقة السبب والمسبب، ورابطة العلة والمعلول. ذلك بأنى أعتقـد أن بعض العقول الممتازة، ولا أعلم كيف هى ممتازة، قد خصت بكفايات الوحى، مستمداً من المعرفة التى تستوعبها. وكذلك أعتقد أن لبعض العقول ميولاً أشبه بميولنا النفسية، وأن لبعضها دون بعض رباطاً بناحية معينة من نواحى المعرفة. فلبعضها رابطة بالعلم، ولبعضها رابطة بالأدب والفلسفة، ولبعضها رابطة بالفن، ولبعضها رابطة بالدين. تلك صـدور من المعرفة، أو بالأحرى أشكال من المعرفة، لكل منها حدودها التى يعينها العقل تعييناً قد يبلغ بعض الأحيان مبلغ اليقين، وقد ينزل بعض الأحيان منزلة الشك؛ ولكنها على قدر ما نعلم من اختصاص العقول بالتبرز فى ناحيـة من نواحيها لها حدودها المتفق عليها عند من يعنون بوضع الحدود والفروق بين كفايات العقل الانسانى

أما وقد نعـلم من طريق اختصاص العقول بالتبرز فى نواح معينة من المعرفة أن لصور المعرفة من علم وأدب وفلسفة وفن ودين حدوداً معينة وتخوماً مقررة فى شريعة العقل، فما نشك بجانب هذا فى أن لكل عقل من العقول اختصاصاً فى ناحية من نواحى المعرفة. نضيف إلى ذلك ظاهرة أخرى؛ هى أن لبعض العقول فوق اختصاصها فى التبرز فى ناحيـة معينة من نواحى المعرفة، قد خلقت وفيها موهبة خاصة تجعلها أكثر من غيرها استعداداً لتلقى نوع من أنواع الوحى، تظهر آثاره باستيعاب قدر خاص من المعلومات قل أم كثر، وهـذه الآثار التى تتجلى فى إدراك بعض العقول لحقائق أو نظريات، قد تظهر عند درسها أنها قد لا تكون نتاجاً لدرس عميق، ولا لأكباب على التفكير، ولا تعمل أو تمحل فى إدراك حقائق الأشياء؛ بل غالباً ما تكون أشبه بالومضة السارية فى الظلام أو الشعاع المنير يفلق بنوره غياهب الشك ويقضى على الجهالات

أى سر هذا؟ عقول تدرك بالومض كأنها اللوح الحسَّاس وعقول تعجز عن إدراك ما تدرك تلك! عقول تنفذ إلى صميم الأشياء بلمحة سانحة، فتستخلص الحقائق الأوليـة وتنتزعها من تلك الأضغاث التى تراكمت حولها من فتنة الفكر وتحف الخيال، وأخرى تستوعب ما تستوعب من مبادىء العلم وصور

تتنهد، ودارت بى الأرض دورة ... ثم فتحتُ عينىّ فرأيت منديلها يسقط من يدها ...

الله أكبر!! ما هـذا السحر الذى كان يشع من فتنتها وهى تهزم؟ ... كانت ساكنة سكون ثورة، وكان قلبها ينبض فلا يحتمل بدنها الرقيق نبضه فيتموّج؛ وانعكس قلبى على وجنتيها فرأيتهما تلتهبان بالحب، وكانت عيناها تتألم، وكانت نظراتها تئن!!

وزفر قلبها زفرة، وزفرت عيناها زفرة أخرى، ثم قالت وهى تجاهد نظرها إلى: أتحبنى؟

***

ثم ماذا ... ثم ماذا أيها العشاق؟

(طنطا) السيد محمد زياده

الأدب ونظريات الفلسفة وتاريخ الفن وشرائع الدين ، وتظل في جمودها تنظر الى تلك الومضات التي تفيض بها الأولى مأخوذة بأن ما أدركت الأولى قريب مما استوعبت ، ولكنه بعيد عن أحلامها قصي عن إدراكها !

* * *

يصعب على العلم أن يعلل هذا تعليلاً يصل به الى حقيقة الأمر منه . بل ولا شك في أن الخيال والتصور يقفان أمام هذه الظاهرة وقفة العلم من حيث العجز عن إدراك السر فيه . وليس لنا أن نستوحي العلم أو نذهب مع الخيال نمالك حقيقة هذه الظاهرة . وإنما نريد أن نحصر بحثنا في بعض الظواهر التي ترجع الى ما ندعوه وحي المعرفة

إذا مثلت لتاريخ الفكر البشري بشريط طويل من اللون الأسود ، وأردت أن تضع على مسافات معينة من هذا الشريط دوائر بيضاء ، تمثل بها لتلك الومضات الوحيية التي جادت بها عقول ممتازة ، وكان لها الأثر الدافع الى غايات طلبها الانسان وضرب في سبيل الوصول اليها ، لرأيت أن الفراغات السود بين الدوائر البيض قد تطول حدودها حتى يخيل اليك أن الانسانية منذ أبعد عصورها لم تشهد بغير عدد قليل من العقول التي وهبتها الطبيعة تلك الهبة السامية ، هبة الوحي تستنزله المعرفة . ولا شك في أنك تقف عند فكرة التوحيد في عقل اخناتون ، وفكرة الانسان الكامل في عقل سقراط ، وفكرة المنطق عند أرسطوطاليس ، وفكرة دوران الأرض والسببية الطبيعية في عقل غليليو ، وفكرة الأسلوب والشك في عقل ديكارت ، وفكرة المثاليات في عقل اسبينوزا و (كانت) ، وفكرة التطور في عقل دروين

قد نجمل لمثل هذه العقول منزلة وحدها ونرفعها الى مكانة من الفضل مفردة . فاذا نزلنا عن هذه درجة أمكننا أن نسرد من العقول الممتازة عدداً إن خص بهذه الموهبة فان اختصاصها بالفن يرفعها إلى درجة الأولى ، بل تلوح لنا كأنها التابع خيال المتبوع ، أو الصورة الواضحة في المرآة الصافية . ثم تنزل من هذه درجة ثم الى أخرى ، حتى نبلغ حداً لا نميز فيه بين العقول ، وحيث نأنس أن العلم بالأشياء وحفظ المتون ظهر الغيب ليس له من أثر في الابتكار ، كأنما تلك العقول ليست أكثر من نسخة مكررة في كتاب واحد

أكثر أولئك الذين نسميهم علماء أو ننعتهم بأنهم أدباء أو مفكرون ، هم من طبقة الذين نطلق عليهم طبقة « النسخة المكررة من الكتاب الواحد » . يعيشون في حدود ما قرأوا ؛ وقد يجيدون حفظ الكتاب إجادة تبلغ درجة الكمال ، ويفكرون على الأسلوب الذي رسمه الكتاب ، بل قلما يجيدون التفكير على ذلك الأسلوب فيفسدون ما قرأوا في الكتاب وينزلون به درجة بعد درجة حتى تمسخ عقولهم ما قرأوا وما حفظوا ، فيصبحون بذلك نسخة مبدلة من كتاب قرأوه ، أو فرض عليهم أن يقرأوه ليؤدوا بقراءته غرضاً لا يعترف به العلم ، ولا هو من شريعة الفهم في شيء

قد يكون السبب في ذلك راجعاً الى أن عقول هؤلاء قد صرفت مقسورة عن تنمية الموهبة التي أعدتها الطبيعة فيها ؛ وقد يكون للنشأة في ذلك أثرها وللبيئة طابعها الثابت ؛ وقد يكون لنظرة ما ينظر من ناحيتها في الحياة أثر في العقل ينتج ذلك الجمود العلمي والتحجر العقلي ؛ وقد يكون للخلق وللشهوات عوامل خفية تؤثر في اتجاه العقول

قد يكون ذلك وقد يكون أكثر منه . والحق أن من يفكر في مثل هذا الأمر يشعر بالعجز عن بلوغ الغاية في تعليله تعليلا علمياً يقبله العقل ، ولكن لنا أن نقول إن للوراثات المختلفة وحالات الحياة الأثر الأول في حدوث هذه الظواهر العجيبة

على أننا إلى جانب هذا لا نستطيع أن ننكر أن هذه الملكة ، ملكة الوصول إلى غايات من العلم والأدب والفن تكاد تظهر كأنها الوحي ، هي من الملكات التي يمكن أن تنميها التربية ، وتصححها النشأة ، وتقويها طرق التعليم . ذلك بأن العقل الانساني في ذاته يكاد يكون في أشياء الطبيعة بمثابة الوحي في جمود الحيوانية وموت الجادات . قسه مثلاً على غرائز الحيوان أو تفاعل الجادات الكيميائي ، وأنت واجد أنه في ظواهر الطبيعة نسيج وحده وطابع لا يتكرر . وهذا العقل بكفاياته وملكاته ، تصبه البيئة والتعاليم والنشأة في قوالب تظهر بها مرونته وقدرته على التشكل في أشكال كثيرة ، واستعداده إلى قبول حالات جديدة ليست له من قبل . وما تلك الأشكال وهذه الحالات إلا آثار مختلفة يخلقها ما يحيط بالعقل من عوامل التدرج نحو بلوغ الغايات العليا من المعرفة ؛ تلك الغايات التي تنتهي إلى تلك الومضات

(البقية في أسفل الصفحة التالية)

قصـــة المكـــروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

وسطاء شر أبرياء

وصل الفائت : بدأ إسميث يبحث علة الحمى التكساسية التى تنتقل من أبقار الولايات الجنوبية فى الولايات المتحدة إلى أبقار الولايات الشمالية فيها . فجهز حقلين : ووضع فى الحقل الأول بقرات شمالية مع بقرات جنوبية ولم ينتزع من هذه الأخيرة القراد الذى عليها ، ووضع فى الحقل الثانى مثل ذلك بعد أن نظف البقرات الجنوبية من قرادها ، وتركها جميعاً ، فأصابت الحمى البقرات الشماليـــة فى الحقل الأول ، ولم تصبها فى الحقل الثانى

وزادت الحمى فى الحقـل الأول اتقاداً ، ثم أخذت بقراته تموت واحدة بعد أخرى . وشُقّت بطون الجثث للفحص فجرى دمها أحمر صبيباً . واختلفوا بين حقول الريف ومكرسكوبات المعمل بالمدينة فى امتحان الدماء . وانتقلت عدوى العمل إلى اسكندر الـكسول لمـا أحس بأن فى الجوّ أمراً جللا ، فنفض غبار كسله المأثور وأخذ نصيبه من الحركة . ونظر إسميث إلى دم البقر الخفيف وأخذ يتأمله ، ثم قال : « إن المكروب الخفىّ لهـذه الحمى التكساسية إنما يهجم على كريّات الدم الحمراء فيفقؤها . ففى بطون هذه الكريّات يجب أن أبحث عن المكروب »

كان لا يثق بالتقارير التى يكتبها المكرسكوبيّون المختصون ، أو الذين يُدعَوْن بالمختصين ، ومع ذلك فقد كان له بالمكرسكوب خبرة لا تبارى . وحرّر أقوى مكرسكوب لديه على دم البقرة التى ماتت أولاً ، فأخذ الحظُّ بعينه ، فارتأى لأول وهلة فى الكُرَيّة الدموية الحمراء ، وهى فى المعروف متصـلة الجوف صماء ، رأى فراغات صغيرة تمنقدتْ معاً فاتخذ مجموعها شكل الكُمّثرى ؛ وتراءت له فى أول الأمر كأنها ثقوب فى قرص الكرة الدموية ليس إلا ، ولكنه أخذ يُعمد عدسة المجهر ويقرّبها فأحكم بُؤْرتها ، وأخذ يُكثّر عدد العينات التى يمتحنها ، فأخذت هذه الفراغات والثقوب تنبض فى بصره بالحياة فتتمثل له على حقيقتها أحياءً لها شكل الكمثرى . ورآها فى دم كل بقرة ماتت بالحمى التكساسية ، ورآها دائماً فى جوف كرات الدم الحمراء تُفسد فيه وتُخيفه فيصبح مُرهفاً كالماء . ولم يرها قط فى دم بقرة شماليـة صحيحة ، فأسرّ لنفسه : « لعل هذا مكروب الحمى » . وكان له اتئاد الفلاح فلم يتعجل فى الحكم ، واعتزم قبل أن يَقفِى على أن يفحص دماً من مائة بقرة مريضة وسليمة ، وأن يمتحن الملايين من الكرات الحمراء

وكان الحرّ قد مضى وحلّ شهر سبتمبر ، وكان فى الحقل الثانى أربع بقرات من البقر الشمالىّ كلها سليمة ترعى الحشيش وتزداد سمنا — ولم يكن عليها قراد أصلاً . فقال إسميث وهو ينظر اليها : « إن من الميسور هنا أن نحقّق التهمة المعزوّة الى القراد من تسبيب الحمى » . وقام فساق اثنتين من هذه البقرات السليمة الأربع الى الحقل الأول الذى مات به البقر المريض ، فى أسبوع رأى قراداً أحمر أغبر صغيراً يزحف على نخذ البقرتين . ومضى أسبوعان أو يزيدان قليلاً فماتت إحداهما ، أما الأخرى فغادرها تعانى من الحمى ما تعانى

ولم يقتنع إسميث بكل هـذا فطلب المزيد — المزيدَ الذى لا يطلب مثله فى العلماء سواه . وكانت لا تزال هناك حيلة لابد

الوحيية التى جادت بها على البشرية عقول ننعتها بأنها فذة وأنها بلغت الغاية من سمو الادراك

لما كان للتربية والبيئة خاصة التأثير فى تكوين العقول ، ولما كان لهما ذلك الأثر البالغ ، كان علينا ألا ننكر أن همّ المصلحين يجب أن يتجه أولاً إلى وضع التربية والتنشئة الأولى فى موضع من الاعتبار يجعل لها القيمة العليا فى أشياء الجمعيات الانسانية كما يجب عليهم أن ينظروا فى تأثير البيئات التى تكتنف النشء ، وأن يسيطروا عليها إلى الحد الذى يباح فيه للحكومات أن تحُدّ فى بعض النظم والمعاهد اتقاء لما تنشئ من بيئات مصطنعة بعيدة عما تتطلبه التربية السامية وقواعدها المقررة وأصولها المعروفة

ففى البيت وفى المدرسة وفى الحياة العامة ، ينبغى أن تقوم تلك البيئات التى تساعد على تنشئة العقل وتدريبه على النظر فى الأشياء نظرات تنفذ إلى صميمها ، وأول خطوة فى هذه السبيل يجب أن تقوم على هدم الأوهام ومحو الأضاليل ، وما محو الأوهام وهدم الأضاليل ، إلا نتيجة أولية لتحرير العقول

اسماعيل مظهر

من احتيالها ، أو إن شئت فقل تجربة لا بد من إجرائها . فقد كان جاء من كرُلينة الشمالية صفائح ملأى بالحشيش تجرى عليه جماعات القراد تسعى عطشى الى دم تستقيه . فأخذ إسميث هذه الصفائح الى حقل ثالث لم تطأ أرضه بقرة واحدة من بقر الجنوب أو قرادة قط من قراداته . وأخذ يذهب فيه ويجىء ، يُفرغ حشيش الصفيحات وينثره بقراده على أرضه فلعل فيه الموت ، ثم اقتاد أربع بقرات سليمة الى هذا الحقل ، فمضت بضعة أسابيع امحل فيها دم البقر كله . وماتت منه بقرة ، أما الثلاث الأخريات فنالتها نوبات شديدة من الحمى ولكنها اشتفت أخيراً

— ٦ —

وعلى هذا فقد نجح إسميث أول ناجح فى تتبع أثر مكروب قاتل ، والكشف عن السبيل الذى يسلكه الى حيوان بركوبه على ظهر آخر . ففى الحقل حيث كان بقرٌ جنوبىٌ ، وكان قرادٌ مات البقر الشمالىّ . وفى الحقل حيث كان بقرٌ جنوبى ، ولكن لم يكن قراد ، زاد البقر الشمالى سِمَنا وهنىء عيشا . وفى الحقل الذى لم يكن به بقرٌ جنوبىُ ولكن كان قرادٌ ، أصيبت البقرات الشمالية بالحمى التكساسية

إذن فالقراد أصل البلاء

وإذن فقد أثبت إسميث بذلك المنطق البسيط ، وبهذا العدد العديد من التجارب أن البقّارين فى غرب أمريكا إنما قالوا حقاً ورأوا صدقاً ، واستبانوا حقيقة جديدة من أكبر حقائق الطبيعة عند ما اتهموا القراد . واستخلص إسميث هذه الحقيقة الكونية الكبرى من ذكاء الشعب ومما جرت به ألسنة الخلق فكان مَثَل هذا الكشف الخطير مَثلُ العَجَلة يُرَدّ اختراعها الى الناس ، الى قوة ابتكار الدهماء حتى تبوأت مكانها من المحركات الكهربائية العظيمة الدوّارة الطنّانة

ولعلك حاسب بعد ذلك من وضوح تجاربه وثبوت نتائجها ثبوتا قاطعاً أنه اكتفى بها ، ولعلك حاسبٌ أنه نصح حكومته بعد ذلك باشهار حرب طاحنة على القراد . ما كان هذا طبع إسميث ، ولم تكن تلك سبيله ، فبدل ذلك اصطبر الى صيف العام المقبل عام ١٨٩٠ ، فلما جاء حرّه أجرى تلك التجارب مرة أخرى وزاد عليها ، وكلها تجارب بسيطة ولكنه إذ اتهم لم يُرد أن يكون اتهامه إلا عن يقين . فتساءل : « كيف ينقل القراد الداء من بقرة جنوبية الى بقرة شمالية ، ونحن نعلم أن القرادة تقضى حياتها كلها على ظهر بقرة واحدة ، وهى لا تطير كالذباب من بقرة الى أخرى ؟ . . » وهذا سؤال لا شك عويص ، أعوص من أن يحله البقارون بمعارفهم الساذجة . فنصب إسميث نفسه ليردّ عليه

فتفكر ثم قال : « لا بد أن القراد يمتص من الدم ثم يمتص حتى إذا امتلأ وبلغ واستوى ، سقط فانهرس على الأرض ، تخلّف على الحشيش المكروب الكمّثرىّ الشكل الذى كان بالدم الذى استقاه ، فجاء البقر الشمالى فأكل الحشيش ومكروبه »

وعلى ذلك أخذ آلافاً من القراد الذى جاء فى الصفائح من الجنوب ، وخلطها بحشيش جاف ، وأطعمها بقرة شمالية لا تقوى على دفع الحمى ، كان أسكنها حظيرة وحدها ، واعتنى عناية مختارة بها ؛ وانتظر أن يأتيها الداء فلم يأت . وأخذت البقرة تجتر طعامها الجديد هانئة مستمتعة ، وازدادت عليه شحما . وأشرب بقرةً أخرى حِساء صنعه من قراد مدهوك ، ثم عاد فأشربها ثم أشربها فكأنما أراد أن يغرقها فى الحساء إغراقاً . ولكن هذه البقرة أيضاً خُيِّل أنها تستمرئ شرابها الغريب وحسُنت عليه حالها

فسدت التجربة فأُرْتِجَ عليه ، إذن فالبقر على ما يظهر لا يأتيه المكروب من أكل القراد . وفى الليل توالت عليه الأسئلة يلقيها على نفسه تباعاً فى سلسلة لا تنتهى . وتساءل فيما تساءل : « إن البقر الجنوبى ذا القراد ينزل فى الحقل فلا يكون هذا الحقل وبيئاً إلا بعد ثلاثين يوماً من نزول البقر فيه . فلم هذا ؟ » وعرف البقّارون هذه الحقيقة أيضاً ، وعرفوا أنهم يستطيعون خلط بقر شمالى بجنوبى عشرين يوماً أو نحوها ، ثم يفصلون بينها فلا ينال المرض البقر الشمالى أبداً . أما إذا هم تركوها على اختلاط فوق هذا القدر من الأيام ، أو حتى إذا هم أبقوا البقر الشمالى وحده حيث هو من الحقل فوق العشرين يوماً بأيام قليلة ، فلا يلبث أن يَفجأه الداء فكأنما انقض عليه من السماء . فتلك أُحْجِية أى أحجية !

وذات يوم من هذا الصيف صيف عام ١٨٩٠ تفسرت الأحجية بغتة وانصلت قطع الصورة المتكسرة المتفرقة فُجاءةً فاتضحت فى عينه على حين غِرّة فشدَهَته ، فوقف أمامها ذاهلاً مبهوتاً . وكان إذ ذاك فى شُغل من أمور عديدة أخرى وإجراء تجارب من ألوان شتى : كان يفصد البقر الشمالى ويسكب من دمه جالونات ليفقر دمه ، فقد كان خال أن المكروب

السكمترى الذى رآه فى كرات الدم ربما كان فقراً فى الدم لا مكروباً . وكان يتعلم كيف يُفقّص قراداً صغيراً نظيفاً فى معمله . وكان لايزال يلقط القراد من على ظهر أبقار جنوبية ليثبت أنها من غير قراد لا تضر الأبقار الشمالية ، وقد يفوته أن يلتقطه كله فتأتى نتيجة التجربة بغير الذى أراد . وكان قائماً فى سبيل استكشاف حقيقة باهرة ؛ أن العجول الشمالية لا تصيبها إلا حمى هيّنة لا تُميت فى الحقول التى تقيض على أمهاتها . كان همّه أن يجد كل أثر أياً كان نوعه للقراد فى البقر الشمالى — فلعلها تسبب لها أسواء أخرى غير الحمى التكساسية

فى أثناء كل هذا تفسرت الأحجية . ذلك أنه سأل نفسه أترى أنى بدأت ببويضات القراد فى صحن من الزجاج فأخرجت منها فى حجرتى قرادات نظيفة لم تر حقلاً أو بقرة وبيئة ، ثم لو أنى وضعتها بعد ذلك على بقرة شمالية وتركتها تمتص من دمها ملئها ، أفتستطيع أن تمتص ما يكفى لاقفار دم بقرة ؟ سؤال غريب يتراءى لى أنه كان لغير غاية ؛ ولكنه يدل على أن فكرته كانت أبعد ما تكون من الحمى التكساسية

ومع هذا حاول أن يحصل على جواب سؤاله ، فأتى بعجلة سمينة بنت عام ووضعها فى زريبة مقفلة ، وأخذ يُهيل عليها يوماً فيوماً مئات من قرادات صغيرات من تفقيسه ، ويمسك بها حتى يغوص القراد بعيداً تحت شعرها ويتمسك بجلدها . وأخذ يوما فيوما يشق جلدها ليأخذ قطرات من دمها ليستوثق من فقره . وذات يوم جاء إلى الزريبة ليجرى عليها ما اعتاده ، فلما وضع يده عليها أخذته الدهشة مما أحسّ . فقد أحسها حارّة ، شديدة الحرارة شدّة جعلته يتهم حالها . ونظر اليها فوجد رقبتها تميل . وامتنعت عن الطعام ، ودمها الذى كان يخرج من شقوق جلدها أحمر ثخيناً أصبح يجرى رهيفاً داكناً . فجرى إلى حجرته بقطرات من هذا الدم على قطع من الزجاج ، ووضعها تحت المجهر ورأى ، ويا صدق ما خال . ورأى كرات الدم الحمراء قد التوت وتثلمت وتحطمت وقد كان عهده بها قوراء ناعمة كالدرهم المسيح . وفى هذه الكرات الحطيمة وجد المكروب ... فهاكَ غريبةً من الغرائب التى قد لا تجود بها الأحلام : فهذه المكروبات لا بد أنها جاءت من جنوب أمريكا فى القراد البالغ ، فلما باض وجد المكروب سبيله إلى البيض فاستكنّ فيه ، فلما انفقس البيضُ فى صحون الزجاج عن قرادات صغيرة حملت هذه المكروبَ معها ، فلما وقعت على ظهر العجلة مصت دمها فانساب المكروب أكثر ما يكون تهيؤا للفتك بالعجلة المسكينة التى وقعت فريسة القَدَر على غير قصد وبغير ذنب

فى سرعة البرق اتضح كل هذا لعين إسميث

ليست القرادات العجائز التى امتلأت بالدم وارتوت هى التى تهيىء سبيل المكروب إلى البقر الشمالى ، بل صغارها من ذات خمسة الأيام إلى العشرة هى التى حملت القتلة الأشرار إلى ضحاياها

وعندئذ فَقِهَ السبب الذى من أجله تأخر الحقل أن يكون خطيراً ، فان الأمهات من القراد كان لا بد لها من السقوط عن ظهر البقر الجنوبى الحصين أولاً ، ثم لابد لها على الأرض من أيام تبيض فيها ، ثم لا بد للبيض من عشرين يوماً أو تزيد لانفقاسه ، ثم لابد للصغار الخارجة من البيض من زمن تزحف فيه إلى أرجل البقر الشمالى فألى أفخاذه — وهذه الأحداث تستغرق أياماً كثيرة ، تستغرق الأسابيع . فهل وجدتَ جوابا أيسر من هذا لسؤال أعسر من هذا ، لولا المصادفة البحتة ما تيسر أبداً ؟

وما لبث أن استخرج بالتفقيس فى صحون دافئة من الزجاج آلافاً من القراد ، وأخذ فى زيادة إثبات اكتشافه الكبير حتى ثبت ثبوتاً قاطعاً . فكان كلما ركم قرادة على ظهر بقرة شمالية أصابتها الحمى ؛ ولم تكن تكفيه الكفاية من البراهين . وأخذ صيف عام ١٨٩٠ فى الادبار وأخذ البرد فى الاقبال ، فاذا به يدخّن الحظائر بمواقد الفحم ، ويفقّس القراد فى مكان دافئ ، ثم يضعه على جلد البقرة فيقوم نار الحظيرة مقام الشمس فى إكمال نموّه ، فاذا به يصنع على ظهر البقرة صنيعه المعهود ، وإذا بها تجيئها الحمى فى الشتاء وهى لم تكن جاءت شتاءً فى الطبيعة أبدا

وقضى إسميث وكلبورن صيفين آخرين يضربان فى الحقول يستكملان بحثهما ، ويسدّان خروق السفينة بالقار والكتان ، ويتساءلان كل سؤال يخطر بالبال ، ويجيبان بتجارب غاية فى البساطة غاية فى الاحكام على كل اعتراض يحتمل أن يثيره العلماء البيطريون ، وذلك قبل أن تُعطَى الفرصة لهم ليعترضوا . واكتشفا

أثناء ذلك حقائق غريبة فى الحصانة ، إذ وجدوا أن العجول الشمالية تصيبها الحمى التكساسية إصابتين خفيفتين أو ثلاثاً فى الصيف ، فاذا دار العام وكبرت أخذت ترعى فى الحقول الوبيئة القاضية على كل بقرة شمالية فلا تحس وباءها أصلاً ... لا يفسر ان حصانة البقر الجنوبى : إن هذه الحمى الخبيثة توجد فى الجنوب حيثما وجِدَ القراد . والجنوب كله قراد . فهذا القراد لا يفتأ يصب مكروبه فى دماء الأبقار الجنوبية فى كل آن ومكان ، وهذه الأبقار الجنوبية تحمل المكروب فى دمها ليل نهار ، ولكنها لا تحفل به ، لأنها أصيبت به وهى عجول فاحتملته فتحصَّنت منه من بعد ذلك

وأخيراً ، وبعد أربعة أصياف شديدة الحرّ كثيرة الانتاج مجيدة ، جلس إسميث جلسة طويلة يصف الحمى التكساسية فلا يدع فيها سؤالاً لسائل ، ويصف كذلك كيف يُمحَى الداء محوا . وكان ذلك فى عام ١٨٩٣ ، وكان بستور الذى تنبأ بامحاء الأدواء جميعاً على نحو هذا المثال يتهيأ عندئذ للكفن والقبر .

كتب إسميث ما كتب عن هذه الحمى فأتى على قطعة رائعة من قطع الفن لم أجد أبسط منها ولا أوضح فى حل لُغز من ألغاز الطبيعة ، أقول هذا وأنا لست بناس روائع لوفهوك ولا بدائع كوخ أو أى رجل من رجال المكروب ؛ قطعة رائعة يفهمها الصبىّ الذكىّ لبساطتها ، ويرفع لها نيوتن العظيم قبعته احتراماً لعظمتها . كان إسميث وهو صغير يحب بيتهوفن وموسيقاه ، وإنى لأجد فى قطعة إسميث هذه التى أسماها « بحثاً فى طبيعة الحمى التكساسية أو حمى الأبقار الجنوبية ، وفى أسبابها ، وفى منعها » إنى لأجد فيها من الروعة ما فى السمفونة الثامنة لبتهوفن ، تلك التى أنشأها فى أواخر أيامه المريرة . كلتا القطعتين بسيط موضوعهما بساطة بلغت حد السخف ، ولكن موضوعهما هذا البسيط نُوِّع وركّب تنويعاً لا يستطيعه إنسى ، فكانتا على مثال الطبيعة ذاتها ، غاية فى البساطة غاية فى التركب والتعقد

فبهذا التقرير فتح اسميث للانسانية فتحاً جديداً ، فأرى الناس سبيلاً جديدة يسلكها المكروب بالداء إلى ضحيته : محمولاً على حشرة . وبدون هذه الحشرة لا يستطيع الوصول . أعدِموا هذه الحشرة ، غطّسوا كل مواشيكم فى سائل ليقتل قُرادها ، أعيشوا البقر الشمالى فى أرض لا قراد فيها . افعلوا كل هذا تختَفِ الحمى التكساسية من على ظهر البسيطة . واليوم تقوم عدة ولايات كاملة بتطهير مواشيها بالتغطيس فى المطهِّرات ، واليوم لا تجد أحداً يرتاع أقل ارتياع لهذه الحمّى التى أنذرت بالفناء الألوف المؤلفة من قُطعان أمريكا

وليس هذا كلّ الخير الذى جاء من هذا التقرير البسيط الذى لا زركشة فيه ولا تزويق ، هذا التقرير الخالد الذى لم ينل ما يستحق من التقدير حتى لا تجد منه فى السوق نسخة واحدة . فانه لم يلبث أن شاع حتى حدثت من جرائه أحداث عظيمة فى جنوب أفريقيا وفى الهند وإيطاليا . ففى أفريقيا الجنوبية فى أدغالها الخطيرة عضت ذبابة [1] رئيس الأطباء فى كتيبة من كتائب الجيش ، وكان اسكتلنديا جسيما ، فسب من عضتها ولعن ، ثم خطر له الخاطر فأخذ يفكّر فيما عسى أن تصنع هذه الذبابة من الضر بالانسان غير عضتها المقلقة . وبعد هذا بقليل حدث أن رجلاً انجليزياً فى الهند ، وآخر إيطالياً فى إيطاليا ، فتح كلاهما آذانهما وسَمْعَيهما يُنصتان لجماعات البعوض ترسل بطنينها الديد الشاكى ، ثم فتحا أذهانهما وأعملا خيالهما وأطلقا الأعنة للأحلام فاختطا خططا عجيبة لتجارب غريبة ...

على أن هذه قصص ستروبها الفصول القادمة . قصص تحكى لنا عن أوبئة قديمة معجزة جامحة أعجزها الانسان وأجلها ، فأسلمت له القيادة ؛ قصص تحكى عن وباء أصفر فتاك ، امحى الآن من الوجود أو كاد ، قصص تحكى لنا عن رجال ذوى آمال صوروا الحياة البشرية تزداد بتناقص الأدواء ، وتنشط وعتد عبابها الزاخر حتى يغمر أدغالاً لا تسكنها الآن غير الزواحف والضوارى ، فتزدهر عن مدائن ذات أنوار وأبراج ؛ فهذه القصص كلها مهّد لها إسميث بما قام به فى صيادة المكروب من بحوث جديدة عفّى عليها الآن النسيان أو كاد ، بحوث هى الأولى التى سوغت لبنى الناس أن يحلموا الأحلام الجميلة عن دنيا لهم مقبلة جميلة تختلف اختلافا بيّنا عن دنيا هم الحاضرة

أحمد زكى

(١) هى ذبابة تسمى tsetse تقتل عضتها المواشى والخيل والكلاب

الفتح الاســــلامى (١)

للأستاذ على الطنطاوى

« الفتح الاسلامى » أكبر لغز من ألغاز العبقرية ، وأروع أُحْجِيَّة من أحاجى النبوغ ، وأجل مظهر من مظاهر العظمة فى تاريخ البشر . ولقد مرت عليه إلى اليوم قرون طويلة ، وأعصار مديدة ، ارتقى فيها فن الحرب ، وتقدم فيها البشر أشواطاً فى كل ميدان من ميادين الحضارة ، وغاص المؤرخون فى أعماق الحوادث التاريخية ، فكشفوا أسرارها وعرفوا أسبابها ، فبدت لهم هينة ضئيلة ، بعد أن كانوا يرونها لغزاً لا يحل ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكشفوا سر الفتوحات الاسلامية — ولم يدركوا كُنْهَها . وستمر قرون أخرى وأعصار — قبل أن يكشف ذلك السر ، وقبل أن يرى تاريخ البشر حادثاً أعجب وأعظم من « الفتح الاسلامى »

إن الحوادث العظيمة فى التاريخ على اختلاف مظاهرها وتنوع أشكالها ، لا تعدو أن تكون واحدة من ثلاث : إما أن تكون عظمتها فيما أورثت الانسانية من حضارة وعمران ، وما رفهت من عيش الناس ، وما أفادتهم من رغد ونعمة وترف ، وإما أن تكون هذه العظمة فيما خدمت به العقل البشرى ، وأمدته بأسباب القوة والنضوج ، ورفعت من تفكير الناس ، وأدنتهم من المثل العليا التى يطمحون إليها ، بما فتحت عليهم من أبواب الثقافة وسبل المعرفة ، وإما أن تكون عظمة الحادث التاريخى فى ذاته ، وفيما ينطوى عليه من بطولة نادرة ، وقدرة عجيبة ، وجلال لا يعرفه التاريخ إلا قليلاً ؛ أى أن العظمة إما أن تكون عظمة حضارة وعمران ، أو علم وفكر ، أو بطولة وحرب .

« والفتح الاسلامى » أعظم الحوادث التاريخية كلها ، فى أبواب العظمة كلها ، لا يدانيه فى ذلك حادث فى تاريخ الشرق والغرب ، القديم منه والحديث

(١) فصل من كتاب (عمر بن الخطاب) تأليف الشيخ على الطنطاوى وأخيه ناجى الطنطاوى ، وقد صدر اليوم الجزء الأول منه فى (٣٦٨) صفحة من القطع الكبير ، وهو يطلب من (المكتبة العربية بدمشق) وسيصدر الجزء الثانى قريباً . والكتاب على نمط كتاب (أبو بكر الصديق) وأسلوبه

أما فى الحروب فان التاريخ يعرف كثيراً من الفاتحين ، منذ عهد الاسكندر ومن قبل الاسكندر ، إلى عهد نابليون ومن بعد نابليون ، ولكنه لم يعرف فتحاً أوسع ولا أسرع من « الفتح الاسلامى » الذى امتد فى اثنى عشر عاماً فقط من طرابلس الغرب إلى آخر بلاد العجم ، وحاز مصر وسورية وفارس كلها . على أن ميزة الفتح الاسلامى ليست فى السعة والسرعة وحدهما ، ولكن ميزته الكبرى أنه فتح أبدى ، فلم يعرف عن المسلمين أنهم دخلوا بلاداً وخرجوا منها (١) ؛ ذلك أنهم لا يفتحون البلاد بسيوفهم شأن كل الفاتحين ، ولكنهم يفتحون القلوب والعقول ، بعدلهم وعلمهم ، فلا تلبث البلاد المفتوحة أن تندمج بالمسلمين ، وتصبح أغير على الاسلام من المسلمين الفاتحين ، بينما ترى البلاد التى فتحها غيرهم تبقى خاضعة لهم ما بقى السيف مصلتاً فوق رؤوس أهلها ، فاذا أحسوا من الفاتحين غرّة ، وآنسوا منهم ضعفاً وثبوا عليهم فطردوهم ، وعادوا إلى ما كانوا عليه ، حتى أن أمريكا على رغم أنها كانت خالية إلا من قبائل لا شأن لها ، وليس فيها دين يناوئ ديناً ، أو عادات تصادم عادات ، وعلى رغم أن أهلها الذين استعمروها إنكليز كالانجليز الحاكمين ، فانهم وثبوا عليهم وحاربوهم حتى نالوا استقلالهم ؛ ولا تجد اليوم أمريكياً واحداً يريد الانضمام إلى إنكلترا (الأم الكبرى) ، بينما تجد كل مسلم فى الصين أو الهند أو جاوا أو القسطنطينية كل مسلم صحيح ، يتحسر على الوحدة الاسلامية — ويسمو إليها — ولا يقبل بها بديلا ، على رغم ما أحدثوا لهم من كذبة القوميات وبدعة الوطنيات ، وما أقاموا بين الاخوان من سدود ، وما فصلوا به بينهم من حدود ، وما مرّ على هذه التفرقة من سنين وأعوام . ذلك لأن « الفتح الاسلامى » فتح أبدىّ ، مستقر فى القلوب ، لا تقوى قوة بشرية على انتزاعه ، وهذه هى ميزته التى امتاز بها على كل فتح فى التاريخ

أما فى العلم والثقافة ؛ فقد كان « الفتح الاسلامى » أكبر حادث علمى ، لأنه حمل إلى البلاد التى فتحها علم السماء والأرض ،

(١) الا الأندلس وما يلحق بها ، وقد بقيت روح العرب المسلمين فى الأندلس . برغم نصرانيتها وإسبانيتها ، وبرغم ما حاربوها به من وسائل وحشية همجية — حتى ظهرت أخيراً على ألسنة كبار شعرائها ، وأعاظم ساستها ، واقرأ نبأ ذلك فى (حاضر العالم الاسلامى) الكتاب الذى ينبغى ألا تخلو منه مكتبة مسلم

فحررعقولها بالتوحيد ، وأعتقها من عبودية الأحجار والأشجار ، والنيران والأخشاب ، والقسس والأشراف . ثم وضع فى أيديها القرآن الذى يأمر بالتفكر فى خلق السموات والأرض ، ويحفز إلى البحث والنظر والاستدلال ، والسنّة التى ترغب فى العلم وتدعو إليه ، وتجعل طلبه فريضة على كل مسلم ؛ وكان الفاتحون أنفسهم علماء ، فما هى إلا أن فرغوا من الحروب حتى وضعوا السيف وحملوا القلم ، وألقوا الدروع وأخذوا الكتب ، وجلسوا فى المساجد (والمساجد برلمانات المسلمين وجامعاتهم العلمية) يُدرسون ويُقرئون ويبحثون ، فكان من تلاميذهم المفسرون والمحدّثون ، والفقهاء والأصوليون ، والأدباء والنحويون ، والقصاص والمؤرخون ، والفلاسفة والباحثون ، والأطباء والفلكيون ، أولئك الذين تصدّروا بعدُ للتدريس فى جامعات الشرق ، وجامعات الأندلس ، فجلس بين أيديهم البابوات ، والملوك ملوك أوربا ، وكانوا أساتذة العالم الحديث

فكان من ثمرة الفتح أن هذه البلاد الأعجمية — التى كانت تئنّ فى ظلام الجهل والظلم — لم تلبث أن ظهر منها علماء فحول ، كان لهم الفضل على العقل البشرى ، ولا تزال أسماؤها خالدة ، تضىء فى جبين الدهر

ومن لعمرى ينسى البخاريّ والطبريّ والأصبهانى والهمذانيّ والشيرازيّ والسَّرَخْسيّ والمرْوَزى والرازيّ والخُوارزمى والنَّيْسابوريّ والقزوينيّ والدِّينَوَرى والسّيرافى والجُرجانى والنَّسائى وغيرَهم وغيرَهم ممن لا يحصيهم عدّ ؟ ألا يشعر كل مسلم بأن هؤلاء وأمثالهم هم علماء الملّة وأعلامها ؟ ألا نحلّ كتاب البخارى أسمى محل من نفوسنا ، ونتخذه حجة بيننا وبين الله ؟ ألا يؤلف هؤلاء العلماء صلة من أوثق الصلات بيننا وبين فارس لا يستطيع أن يفصم عراها مائة حكومة من مثل الحكومة الحاضرة ، التى تستنّ فى فارس سنّة (هذا الآخر ...) فى تركيا

هذا هو فضل الفتح علينا وعلى الأجيال الآتية — أما فضله على العقل البشرى — فحسبك أن تعلم أنه لولا الفتح الاسلامى ، ولولا علماء المسلمين وفلاسفتهم لم يكن عقل القرن العشرين

أما فى الحضارة والعمران ؛ فللفتح الاسلامى أكبر الأثر فى نشر الحضارة وتوطيد العمران ، والعمران طبيعة فى العربى المسلم ، فلم يمض على فتح المسلمين بلاد العراق إلا سنوات حتى أسسوا مدنتين كبيرتين كان لهما الفضل والمنّة على الحركة العلمية والأدبية فى العالم كله . فضلاً عن أنهما كانتا قاعدتين حربيتين من أكبر القواعد الحربية ؛ وما استقرت أقدامهم فى البلاد حتى شرعوا فى بناء المدن الكبيرة ، والقصور العظيمة ، وإنشاء أروع آثار البناء ، حتى كانت بغداد وسرّ من رأى ، وكانت دمشق من قبل ، والقاهرة ومدن الأندلس من بعد ، أعجوبة فى فنّ العمران ، وها إن أثراً صغيراً من آثار العرب — ليس بأعظمها ولا أكبرها — لا يزال إلى اليوم محطّ ركاب الرحال من أهل العلم ورجال الأدب ، ولا يزال مصدراً مالياً لحكومة من كبار حكومات أوربة تعيش إلى اليوم بفضل العرب ، هى حكومة أسبانيا . ولقد حاول الانكليز على قوتهم وغناهم — فى هذا العصر الذى تيسرت فيه أسباب كل شىء — أن ينشئوا مثل « الحمراء » فأنشأوا قصراً فى سيدنهام يعدّ من أعظم المبانى المصرية وأجملها ، ولا يزال دون الأصل بمراحل [1] فكيف بمن بنى الأصل فى ذلك العصر الغابر ؟

وكيف لو بقيت « الزهراء » التى حيّرت رُسُل الافرنج ، أو بقى « التاج » فى بغداد ، أو « دار الشجرة » التى أدهشت وفود الروم ؟

* * *

إنه ما من شك لدى المنصفين من المؤرخين ، أنه لولا قيام الحضارة الاسلامية فى القرون الوسطى [2] وازدهارها فى الشرق حين كانت أمم الغرب فى ظلمات بعضها فوق بعض ، لم تقم الحضارة الحاضرة ، ولم يتمتع البشر اليوم بثمراتها

فالفتح الاسلامى إذن أعظم حادث فى البطولة والفكر والعمران . وهو لغز غامض حيّر نابليون (نابغة العصر الحديث فى فن الحرب) وحيّر المؤرخين كلهم . ذلك أن العرب على ما امتازوا به من الكرم والشجاعة والوفاء والعزة والاباء ، كانوا فى جاهليتهم بُداة متفرقين ، وجاهليين وثنيين ، منقسمين على أنفسهم ، مختلفين فيما بينهم ، لا يعرفون إلا جامعة القبيلة ، ووحدة العشيرة ، فاذا فخروا فبها يفخرون ، وإن دافعوا فعنها

(١) حضارة العرب لأسعد داغر ٢٥٦

(٢) المذهب الصحيح فى القرون الوسطى هو ما ذهب اليه المؤرخ الألمانى (شينكلر) وغيره من أن هذا التقسيم إلى قرون قديمة ووسطى وحديثة — إن صح وقبل — فلا يطلق على غير أوربة ، ولا علاقة له بالشرق ، لأن لكل حضارة مميزات خاصة ، ومن الخطأ الجسيم سحب صفات القرون الوسطى على الشرق المسلم الذى كان إلى ذلك العهد فى ذروة الرقى

يدافعون ... إذا وجد العربى من القبيلة قافلةً من غير قبيلته ، كان فى حل من انتهاب مالها ، وقتل رجالها ، لا حكومة تنظم أمورهم ، ولا دين يردعهم ، إلا ديناً مضحكا سخيفاً ، دين من يتخذ رباً من التمر ، فاذا جاع أكله ، كما (أكلت حنيفةُ ربها . . .) ، أو من ينحت من الصخر صنما ، ثم يعكف عليه عابداً داعياً ، أومن يعبد الشجر والحجر . وكانوا يخشون كسرى ، ويرهبون قيصر ؛ وكان ملوكهم فى الحيرة والشام تبعاً للفرس والروم وجنداً لهما ، يضربون بعضهم ببعض ، ليذهبوا هم بالغنم ويعود العرب بالغرم ؛ وكان اتحاد قبيلتين اثنتين كبكر وتغلب فى طاعة كليب ، أو قيس والسَّكون فى جيش قيس بن معدى كرب حادثاً عجيباً يكسب صاحبه فخر الأبد ، وأمراً نادراً يلبث حديث الناس أياماً وليالى . . . فكيف يتحد العرب كلهم ، عدنانيّهم وقحطانيّهم ، ويسيرون فى صف واحد ، يقدمهم رجل واحد ، حتى يواجهوا جيوش كسرى وقيصر التى يهابونها ويرهبونها ، ثم يضربونها الضربة القاصمة للظهر ، فاذا انجلى غبار المعركة نظرت فاذا المعجزة قد ظهرت على أتمها ، وإذا الأرض قد بُدلت غير الأرض ، وإذا فارس الوثنية ، وسورية النصرانية ، ومصر الرومانية ، قد محيت كلها محواً ، وقامت مكانها أمم إسلامية فى فارس وسورية ومصر ، كأنما هى لاخلاصها للعربية والاسلام لم تكن يوماً من الأيام على غير الاسلام ؟

أكان هذا الانقلاب ما بين ليلة وضحاها . . . أكان هذا التبدل الذى تغلغل فى صميم الأمة العربية فغير كل شىء فيها وأنشأها إنشاء جديداً لأن رجلاً قام فى مكة ، يتلو كتاباً جاء به ؟ أيقوى رجل مهما كان شأنه على مثل هذا العمل ويكون له فى تاريخ العالم ومستقبل البشرية هذا التأثير ؟

هذا هو اللغز الذى حير المؤرخين من الغربيين ، ولم يعرفوا له حلاً معقولاً !

على حين أن الأمر واضح والسبب ظاهر ، ذلك أن هذا الأمر لم يكن عمل رجل عظيم من عظماء الناس ، ولكنه عمل الله جلّت قدرته ، أظهره على يد سيّد أنبيائه ، وخاتم رسله ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

ذلك أن « الفتح الاسلامى » معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم

***

هذا وإن من الخطأ أن نعدّ الفتح الاسلامى ، مثل ما نعرف من فتوح الأمم المختلفة فى الأعصار المتباينة ، لأن للفتح الاسلامى طبيعة خاصة به تجعله ممتازاً عن سائر الفتوح ، وتنشىء له فى التاريخ باباً خاصاً ، ذلك أن كافة الفتوح إنما كانت الغاية منها ضمّ البلاد المفتوحة إلى أملاك الفاتحين ، والانتفاع بخيراتها ومواردها ، لا نعرف فتحاً يخرج عن هذا المبدأ إلا الفتح الاسلامى ، فلم تكن الغاية منه ضمّ البلدان الى الوطن الاسلامى . وامتصاص دماء أهلها وأموالهم ، واستغلال مواردها الطبيعية وخيراتها ، ولكن غايته نشر الدين الاسلامى ، والسعى لاعلاء كلمة الله ، وإذاعة هدى القرآن فى الأرض كلها ؛ فكانوا كلما وطئوا أرضاً عرضوا على حكومتها وشعبها الاسلام ، فأن قبلوا به واتبعوه ونطقوا بكلمة الشهادة انصرفوا عنهم وعدوهم إخوانهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، لا فرق بين أمير المؤمنين وآخر مسلم فى أقصى الأرض ؛ كلهمْ سواء فى الحقوق والواجبات [1] ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وإن لم يقبلوا بالاسلام عرضوا عليهم الجزية ، وهى أقل بكثير مما كانوا يدفعونه الى ملوكهم وأمرائهم ، وسموهم ذميين لهم ذمّة المسلمين ، وأعطوهم الحرية فى أمور دينهم ودنياهم ، وتعهدوا لهم بالأمن الداخلى والخارجى . وإن أبوا أن يعطوا الجزية حاربوهم . . . ثم لم يكرهوا أحدا على الاسلام ، لأن فى صحة الاسلام وفوائده فى الدنيا والآخرة ما يغنى فى الدعوة اليه عن السيف . وما (دين محمد دين السيف) كما يهتف العامة والجاهلون ، ولكنه دين العقل والمنطق والعلم ، ، والمسلمون عامة دعاة مرشدون ، ولكنهم دعاة أقوياء ، يحملون القرآن بيد ، والسيف بالأخرى ، فمن قبل فما كانوا ليحاربوه ، ومن أبى وحاربهم أدّبوه حتى يرجع الى الحق ، ويجنح الى السلم

ثم إن معاملة المسلمين للذميين ، ووفاءهم بعهودهم ، وصدق وعودهم وكرمهم وتسامحهم الذى شهد به الأصدقاء والأعداء ؛ وصار أشهر من أن يذكر ما يؤكد طبيعة « الفتح الاسلامى » ويرفعه عن أن يقاس به فتح آخر !

وهذه هى التواريخ فاستقروها واحكموا !

(بغداد) على الطنطاوى

(١) فى كتاب (عمر بن الخطاب) هذا فصل عن طبيعة الحكومة الاسلامية وحقيقة الخلافة فليراجع

كتاب أنساب الأشراف

للبلاذرى

للدكتور اسرائيل ولفنسون

أستاذ اللغات السامية بدار العلوم

يعلم كل من تتبع حركة النشر والطبع فى الأقطار الشرقية فى العصر الحديث أن كثيرا من المصنفات العربيـة العظيمة الشأن إنما نشرت بوساطة العلماء المستشرقين ؛ ومما لا شك فيه أن هذه العناية المفرطة إنمـا كانت من الأسباب المباشرة التى ساعدت على نمو النهضة العلمية فى الديار العربية

كلنا نعلم أن كتاب السـيرة النبوية لمحمد بن اسحق من رواية عبد الملك بن هشام طبع للمرة الأولى سنة ١٨٥٩ — ١٨٦٠ بوساطة العالم ويستنفلد ، وكذلك تولى العلامة دى غويه بمعونة علماء آخرين طبع كتاب تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر محمد ابن جرير الطبرى فى ليدن من سنة ١٨٧٦ ، وكذلك طبع نخبة من المستشرقين كتاب الطبقات الكبرى لابن سـعد من سنة ١٩٠٥ — ١٩٢١

وكذلك طبع كتاب (كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون) لمصطفى بن عبد الله المشهور باسم حاجى خليفة من سنة ١٨٣٥ — ١٨٥٨ بمدينتى ليدن وليبسيك ، وكان ذلك تحت إشراف العالم فليجل ، وهو الذى تولى طبع كتاب فهرس ابن النـديم من سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١

وليس هذا المقام مقام احصاء كل ما طبع العلماء المستشرقون ، وإنما سردت بعض الكتب القيمة العظيمة القدر التى لا تتصور حركاتنا العلمية ونهضتنا الأدبيـة دون الرجوع الى هـذه المصادر الهامة

وهناك أمر آخر له خطره فى أمر نشر المصنفات العربيـة بوساطة المستشرقين وهو أنهم أساتذة لنا ، معشر الشرقيين ، فى إخراج المطبوعات على الطريقة العلمية المجدية ، إذ هم ليسوا طابعين وناشرين فحسب كما اعتدنا أن نرى من الناشرين للمؤلفات عندنا ، بل هم يميلون الى المراجعة بعناية ؛ والمقابلة بمـا ورد فى الكتاب الذى أمامهم بالمصادر والمراجع الأخرى ، ويذيلون مطبوعاتهم بحواش هى غاية فى الدقة والخطورة فى أغلب الأحوال

وقد لاحظنا أن بعض الناشرين عندنا عمدوا إلى إعادة طبع ما طبعه المستشرقون فى أوربا ، ولـكن مع الأسف الشديد جاء عملهم ماسخاً لمـا عمله المستشرقون مشوهاً له ؛ إذ كانت الطبعة الثانية غير مضبوطة ، كثيرة الأغلاط ، فاحشة الأخطاء

على أن بعض الأفراد ممن تثقف فى أوربا ، وممن اتصل بالحركة العلمية الأوربية قد بدأ ينشر بعض المصنفات العربية على الطريقة المألوفة عنـد الافرنج ، وخصوصاً ما ظهر من الهمة والعزيمة فى نشر الـكتب تحت إشراف دار الـكتب المصرية ، فلا شك أن عمل دار الـكتب يعد صفحة بيضـاء جديدة فى تاريخ نشر الـكتب والعرفان فى الشرق . على أننا نريد أن نقول لدار الـكتب كلمة صريحة نؤجلها إلى فرصة أخرى إن شاء الله

ذكرت ذلك بمناسـبة تولى المعهد الشرقى بالجامعة العبرية بالقدس نشر كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى الذى ظهر منه فى الآونة الأخيرة الجزء الخامس

ذاع صيت احمد بن يحيى بن جابر البلاذرى فى العصور الأخيرة بوساطة كتابه الصغير فتوح البلدان الذى أقدم العالم دى غويه على طبعه سنة ١٨٦٦ بمدينة ليدن . أما مصنفه العظيم المذكور فى معجم ياقوت الحموى باسم أنساب الأشراف (معجم الأدباء ج ٢ — ص ١٣١) أو كما سماه ابن النـديم بكتاب الأخبار والأنساب (فهرس ص ١١٤) أو كما يقول الشريف المرتضى (الشافى ص ٢٦٠ ، ٦٨٨) كتاب البلاذرى ، أو كما يشير ابن عساكر إلى البلاذرى ويصفه بصـاحب التاريخ (تاريخ دمشق ص ١٣١)

وهو الـكتاب الذى ارتشف من منهله المتقدمون والمتأخرون ممن جاءوا بعد البلاذرى من كبار الأدباء والمؤرخين والجغرافيين مثل الشريف المرتضى الذى توفى سنة ٤٣٦ ، وابن عساكر الذى توفى سنة ٥٧١ ، وياقوت الحموى الرومى الذى توفى سنة ٦٢٦ ، والنويرى الذى توفى سنة ٦٣٢ ، وابن خلكان الذى توفى سنة ٦٨١ ، وابن حجر العسقلانى الذى توفى سنة ٨٥٢ ، وابن تغرى بردى الذى توفى سنة ٨٧٤ . أما هذا الـكتاب فقد توارى عن العيون فى العصور الأخيرة ومر عليه العلماء مر الكرام حتى أصبح

نسياً منسياً إلى أن جاء العالم أهلوارت فى سنة ١٨٨٣ وأخرج جزءاً منه كان يشك بعض العلماء فى صحة نسبه إلى البلاذرى . ثم حدث أن أعلن الأستاذ بيكر (C. H. Becker) فى مؤتمر المستشرقين الثالث عشر أنه عثر على نسخة كاملة من كتاب أنساب الأشراف فى الآستانة ولم يحفظ الدهر لهذا الكتاب نسخة كاملة غيرها ؛ وكان قد عقد النية على نشر الكتاب ولكن كبر حجمه من ناحية ومشاغل الأستاذ بيكر من ناحية أخرى عاقته عن المضى فى تحقيق هذا المشروع إلى أن اقترح عليه الأستاذ جوتهلد ويل الذى كان مديراً للقسم الشرقى من مكتبة برلين الكبرى على العلامة بيكر أن يعرض مشروع طبع أنساب الأشراف على هيئة تدريس اللغة العربية فى الجامعة العبرية بالقدس ففعل

***

أما المخطوط من هذا الكتاب فيشتمل على ١٢٢٨ صفحة ، وهو أكبر حجما من الطبقات الكبرى لابن سعد أو أقل قليلاً من كتاب التاريخ لابن جرير الطبرى ؛ وهو بحث مفصل فى أنساب العرب يبدأ دراسته بالتاريخ القديم من عهد نوح وذريته إلى سيدنا ابراهيم خليل الله وأعيانه ، ثم ينتقل إلى قريش وبنى هاشم ويبحث فى أصلهم وفصلهم ، ثم يقص سيرة الرسول وأخبار على بن أبى طالب وما جرى فى عهد الخلفاء الراشدين ، ويفصل تفصيلاً كثيراً مطولاً تاريخ بنى أمية حتى تشتمل أخبارهم على ثلث الكتاب بأجمعه . ومع أنه كان من الموالين لبنى العباس وكان يشغل منصباً رفيعاً عند خلفائهم فان ما ورد بشأنهم من الحوادث والأخبار لا يتجاوز سبعين صفحة من المخطوط الكبير

وكذلك يوجه عناية شديدة إلى قبائل مضر الآخرين فيتعرض لأنساب كنانة وأسد وهذيل وعبد مناة ومزينة وتميم وقيس وذبيان وفزارة وعبس وهوازن وسليم وثقيف

ولم يذكر قبائل ربيعة واليمن لأن المنية عاجلته عن اتمام كتابه إذ لقى حتفه فى أوائل عهد الخليفة المعتضد سنة ٢٧٩ (كشف الظنون جـ ١ ص ٢٧٤)

ومع أن هناك مصنفات فى أنساب العرب قبل البلاذرى إذ كان محمد بن هشام الكلبى الذى توفى سنة ٢٠٤ قد وضع كتابه جمهرة الانساب والهيثم بن عدى ألَّف مصنفاً فى تاريخ الأشراف وهو ممن توفى فى أوائل القرن الثالث فان كتاب انساب الأشراف للبلاذرى يعد فى الذروة مما وصل إليه الأدب التاريخى عند العرب فى الأنساب

والبلاذرى لم يكتف بجمع الأخبار من مصنفات من سبقه بل جمع كثيراً من الأخبار من السجلات الرسمية التى كانت فى خزائن الدولة ؛ وهو على ميله إلى العباسيين لا يظلم بنى أمية بل يقص عنهم أخباراً كثيرة تدل على أن له حنكة المؤرخ الذى يتغلب على شعوره ويتجرد عن أهوائه ، وذلك أمر لابد للمؤرخ المنصف منه

***

والكتاب الذى طبع الآن ليس الجزء الأول بل الخامس منه ، إذ وزعت صفحات المخطوط على جملة من العلماء لم يتمكنوا إلى الآن من اتمام العمل الذى كلفوا أن يقوموا به

وكان الجزء الخامس قد وكل أمر العناية به إلى الأستاذ س . د . جويتاين وهو الآن فى العقد الرابع من العمر تخرج من جامعة فرنكفورت بألمانيا وكان من خيرة تلاميذ الأستاذ المرحوم يوسف هورفيتس واختاره للتدريس بالجامعة العبرية بالقدس

وقد بذل الأستاذ جويتاين جهده مدة سنين كثيرة فى مراجعة صفحات المخطوط وأخرجه بعد عناء ومشقة على النسق المألوف عند كبار المؤلفين من المستشرقين مع مقدمة علمية بحث فيها الناشر فى أصل تسمية الكتاب وما يحتوى عليه مع مقارنة بين من سبقه وبين من أتى بعده من المؤرخين وبيّن ما أخذه ممن كان قبله ومن أخذ عنه ممن جاء بعده

ومما يؤسف له أن هذه المقدمة النفيسة قد وضعت بالعبرية من ناحية ، وبالترجمة الانجليزية من ناحية أخرى ، وقد اكتفى الناشر بكلمة موجزة بالعربية . كان من الواجب أن يصدر بالمقدمة العربية قبل كل شىء ، لأن الكتاب عربى موجه إلى الناطقين بالضاد قبل غيرهم ، وإذا كان جمهرة من العلماء الافرنج يدرسون كتاب أنساب الأشراف فهم يستطيعون أن يدرسوا المقدمة بالعربية أيضا

وكذلك أقول عن الذيل الذى وضع بالانجليزية كأن

٨ ـ تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشى

الفصـــل الأول

وقد استمر إرياط يتوغل فى اليمن بعـد موت ذى نواس الحميرى « فقتل ثلث رجالهـا وخرب ثلث بلادها ، وبعث إلى النجاشى بثلث سباياها ، ثم أقام بها فضبطها وأذلها [1] » ، ثم نازعه فى أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبش ، وكان فى جنده حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ؛ ثم سار أحدهما إلى الآخر ، فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى إرياط « إنك لن تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً ، فابرز لى وأبرز لك ، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده » فقبل أبرهة ، وكان رجلاً قصيراً لحما حادراً وكان ذا دين فى النصرانية ؛ وخرج إليه ارياط وكان رجلاً عظيما طويلاً وسيما ، فرفع إرياط الحربة فضرب بها على رأس أبرهة يريد يافوخه ، فوقعت على جبهة أبرهة فشرمت حاجبـه وعينه وأنفه وشفته ، فسمى أبرهة الأشرم ، وحمـل غلام أبرهة عَتْـوَرَة على إرياط فقتله ، فملك أبرهة ، ثم كتب الى النجاشى : « أيها الملك إنما كان إرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا فى أمرك ، وكلٌّ طاعته لك ، إلا أنى كنت أقوى منه على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس ، وقد حلقت رأسى كله حين بلغنى قسم الملك وبعثت إليه بجراب من تراب أرض اليمن ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه » فثبته النجاشى . ثم إن أبرهة بنى « المكيس » بصنعاء لم ير مثلها فى زمانها ، ثم كتب إلى النجاشى : « إنى قد بنيت لك كنيسة ولست بمنته حتى أصرف إليها حاجّ العرب » فلا كت الألسن ذلك فقام رجل من بنى فُقَيم : فخرج إلى المكيس فقعد فيها ، ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة فحلف ليسيرن الى البيت فيهدمه » ولكن الفشل الذريع الذى منيت به هذه الحملة التى وقعت عام الفيل (سنة ٥٧٠ م) لم يحرر بلاد اليمن فى الحال من نير الأحباش ، إذ أن ولدى أبرهة يكسوم ومسروق كانا عبئاً ثقيلاً على العرب ضجوا منه . وقام فى ذلك الحين أحـد أشراف حمير واسمه « سيف بن ذى يزن » مستحثا الهمم ، ولكن ضاعت دعوته إيام أدراج الرياح . ولما لم ير مساعدة من قومه وجه وجهه شطر الاستعانة بغوث أجنبى ، وتردّد بين قيصر الروم وكسرى فارس ، فمضى أولاً الى القسطنطينية فردّه القيصر خائباً ، فطلب من والى الحيرة العربى الذى كان خاضعاً لفارس أن يقدّمه الى بلاط المدائن ؛ ولكن كيف استطاع أن يكسب عطف الملك الساسانى أنو شروان الملقب بالعادل حتى أرسل معه ثمانمائة مقاتل من نزيلى السجون ممن أطلق سراحهم ؟ وكيف أبحروا معه الى اليمن وعلى رأسهم قائد طاعن فى السنّ ؟ وكيف أحرقوا مراكبهم واستمدوا من اليأس قوّة ، وكيف هزموا الأحباش هزيمة منكرة وطردوهم واستردوا اليمن وجعلوها ولاية فارسية [1] . . . كل هـذا يسوقنا الى سرد قصة طويلة آثرت تخطيها وإغفالها فى مثل هذا المجال ، لأنها تتصل بتاريخ الفرس أكثر من اتصالها بتاريخ الأدب العربى ، تلك الأمور التى قامت — كما رجّح نلدكه — على أخبار لقنها الغزاة الفرس الذين

(١) وفى ذلك قال بعضهم ذاكرا ما ساق إليهم دون ذو ثعلبان من أمير الحبشة : « لا كدوس ولا أعلاق رحله » (المترجم)

(١) يجد القارئ بياناً وافياً وتفصيلا شاملا لهذه الأمور كلها فى كتاب تاريخ الفرس الأدبى Lit Hist. of Persia للاستاذ براون ج ١ ص ١٧٨ — ١٨١

الكتاب إنما كان موجهاً إلى العلماء الغربيين لا للأندية المثقفة من أبناء الشرق أيضا

وإنى أوجه أنظار الأساتذة العاملين على إخراج بقية أجزاء الكتاب ألا يتورطوا فيما تورط الأستاذ جويتاين من مسألة المقدمة والذيل التى أغفل فيهما العربية إغفالاً يكاد يكون تاماً

والذى نتمناه من صميم الفؤاد أن يبادر بقية العلماء القائمين بمراجعة الكتاب باخراج الأجزاء الأخرى حتى يستفيد العالم العربى عاجلاً من كتاب أنساب الأشراف الذى يعد بحق من أمهات المصادر لكل من يبحث فى عصر ظهور الاسلام وفجره وضحاه

اسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب)

استوطنوا اليمن لأبنائهم الأشراف ، الذين يسميهم العرب الأبناء أو بنى الأحرار

وإنا لنترك الآن مملكة اليمن وقد تهاوت دعائم قوتها ودالت دولتها وسقطت من علياء مكانتها الى الأبد ، ونعود ناحية الشمال فى دراسة التاريخ العربى :

الفصل الثانى

تاريخ العرب الوثنيين وأساطيرهم

يسمى المسلمون الفترة الواقعة منذ فجر التاريخ العربى حتى ظهور الاسلام بالجاهلية ، وقد ورد هذا اللفظ فى أربع فقرات فى القرآن ، ويقصد به عادة « الجهل » ، وإن كان جولدزيهر قد أوضح أن المدلول الذاتى لكلمة « جهل » (الذى اشتقت منه الجاهلية) عند شعراء ما قبل الاسلام لا يقصد به « عدم المعرفة » أو « الوحشية » و « الهمجية » ، وليس المعنى المضاد لكلمة « علم » ، ولكنه عكس معنى حلم المعبّر عن التهذيب الأدبى عند الرجل المثقف . « وحينما يقول المسلمون إن الاسلام قضى على طبائع وعادات الجاهلية فانهم يقصدون بذلك العادات المستقبحة ، وهذا الخلق الهمجى الذى تفترق به الوثنية عن الاسلام ، وبالمستهجن من الطباع التى جدّ محمد (ص) فى استئصالها من نفوس قومه : كحمية الجاهلية ، والعصبية القبلية ، والجد فى طلب الثأر ، والحقد ، وغير هذا من طبائع الوثنية المستهجنة التى قضى عليها الاسلام »(1)

وإن المصادر التى نستمد منها صورة حياة هذه الفترة لتندرج تحت أربعة أبواب كما يلى :

(١) القصائد والقطعات الشعرية التى وإن لم تكن قد دونت فى ذلك الحين إلا أنها ظلت محفوظة بالرواية الشفهية ، ثم كتب معظمها بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون ، وهى فى الحقيقة الأثر الوحيد الذى بين أيدينا عن تاريخ العصر السابق للاسلام ، وتتضح أهميتها من القول المأثور « إن الشعر ديوان العرب وجامع شتات المحاسن التى سلفت لهم » وسيرى القارئ فى الفصل التالى بعضاً من الشعر العربى فى تلك الفترة

(٢) الأمثال وهذه أقل قيمة من الشعر ، إذ قلما تفسر نفسها بينما يكون الشرح المرفق بها من عمل الأدباء الذين يدأبون على تفسيرها ، ولو أنه فى حالات عدة يؤتى بمعانيها ومقصودها على سبيل الحدس ، كما نسيت الظروف التى بعثتهم على إرسالها . وبالرغم من هذا فقد كنا نخسر شيئاً جسيما لو لم تكن بين أيدينا المجاميع الشهيرة للمفضل بن سلمة(1) (المتوفى حوالى ٩٠٠ م) والميدانى(2) (١١٢٤ م) التى تضمنت إشارات عجيبة وأخباراً تلقى بصيصاً من النور على كل جوانب الحياة التى سبقت ظهور الاسلام

(٣) الأخبار والأقاصيص : لما لم يكن للعرب الوثنيين — على العموم — معرفة بفن الكتابة الخطية واستعمالها فقد كان من المستحيل أن تقوم للنثر — باعتباره فناً أدبيا — قائمة فيهم ، ومع ذلك فان بذور النثر الأدبى يمكن إرجاعها الى عصر الجاهلية ، وعدا المثل والخطبة نجد عناصر التاريخ والقصة فى القصص النثرى الذى كان يقدمه الحفاظ والرواة لتوضيح موضوع أغانيهم ، وفى القصص التى تعدّد مآثر القبائل وأبنائها . وإن العدد الوفير من هذه القصص (التى يرجع بعضها الى أصل حقيقى والآخر يحمل طابع الخرافة) لمثبوت فى ثنايا المؤلفات الأدبية والتاريخية والجغرافية التى وُضعت أيام الدولة العباسية وخاصة فى كتاب الأغانى(3) لأبى الفرج الأصفهانى (٩٦٧ م) وهو مجموعة ثمينة قامت على دراسة الشخصيات(4) الأدبية الكبيرة فى القرنين الثانى والثالث للهجرة . وقد ضاعت الكتابات الأولى لهؤلاء الأدباء والنقاد دون استثناء ، ولولا اقتباسات الأغانى الكثيرة لما كان فى متناول أيدينا نماذج من آثارهم . ويقول ابن خلدون عن هذا السفر : « إن أبا الفرج جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المغنون للرشيد ، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب

(1) Goldziher Muhammedaniahe Studien, Part I, P. 225.

(١) لقد أصبحت مجموعة أمثال المفضل بن سلمة الكوفى المسماة « بالفاخر » فى متناول اليد إذ طبعها طبعة أنيقة مستر C. A. Stotey فى ليدن ١٩١٥

(٢) طبع أمثال الميدانى وترجمتها اللاتينية Freytag فى ٣ مجلدات (طبعة Bonn ١٨٣٨ — ١٨٤٢ م) تحت اسم Arabum Proverbia

(٣) طبع كتاب الأغانى فى بولاق مصر (١٢٨٤ — ١٢٨٥ هـ) فى عشرين مجلدا ، وقد أضاف اليها Brünnow مجلدا بأسماء الأعلام الذين ترجم لهم أبو الفرج فيه ، وهو مطبوع فى ليدن عام ١٨٨٨ م . وتقوم دار الكتب المصرية حديثا بطبع الأغانى طبعة منقحة مع ملاحظات نقدية

(٤) هكذا يسميهم سير شارلز ليل

وأوفاه ، ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلم وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندها [١]

ولن أحاول فى الصفحات التالية أن أضع فى ترتيب واتصال هذه الأشعار والقصص المضطربة التى رسخت فى الأذهان واندس بين ثناياها جميع ما نعرفه عن بلاد العرب فى العصر السابق للاسلام ؛ إذ أنجز هذا خير إنجاز وفى دقة عجيبة كوزان دى برسيفال [٢] فى كتابه : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme وليس هناك ثمت جدوى مطلقاً من أن أسوق للقارئ موجزاً مقتضباً لهذا العمل القيم ، والأجدى – كما يتراءى – أن أسوق للقارئ بضع ظواهر واضحة بينة تمثل هذه الفترة كما وضحها العرب أنفسهم . وإذا كانت الأحاديث العربية يعوزها الدقة التاريخية فانها فى مجموعها تكشف القناع عن الروح السائدة فى العصر المظلم الذى تستحضره من غياهب الزمن السحيق وتبرزه أمامنا

وفى حوالى منتصف القرن الثالث المسيحى كانت تتاخم بلاد العرب من الشمال والشمال الشرقى امبراطوريتان تتنافسان فى الزعامة هما دولة الروم ودولة الفرس اللتان تفصلهما صحراء الشام عن بعض ؛ ولما رأى الفرس أنهم عرضة لغزوات البدو الذين كانوا يشنون الغارات بين حين وآخر على الحدود ، ويستولون على ما يصل أيديهم من الغنائم ، ثم يختفون بنفس السرعة التى اتسمت بها إغاراتهم ، لما رأوا ذلك وجدوا الضرورة تدعوهم إلى إيجاد حامية على طول حدود هذه الصحراء ، وبهذا أمكن صدّ غزوات القبائل البدوية وغاراتها ، ولكن تبيّن أن القوة علاج غير ناجع تماماً ، فضلاً عما تكلفه الدولة ، وعملاً بالمثل القائل : « فرّق تسد Divide et impera » فقد ارتُؤى ادخال بعض القبائل المغيرة فى خدمة الامبراطورية . ومما أدّى إلى عدم قيام البدو بأى اضطراب دفع شىء من المال لهم بانتظام ، واستمدادهم على الدوام للغزو الفجائى إذ كان الروم والفرس فى هذه الأيام فى حروب لا يخمد أوارها ولا يخبو ضرامها ، ومن ثم فقد حاربوا كمحالفين أحرارا تحت لواء أمرائهم أو شيوخهم . وبهذه الوسيلة ظهرت أسرتان عربيتان هما دولة الغساسنة فى سورية واللخميين فى الحيرة غرب الفرات ، وكانتا فى نزاع دائم واصطدام ونزال ، حتى ولو لم تكن تدفعهما من الخلف قوة الامبراطوريتين ، وسرعان ما ظهرت كفاية العرب الحربية ومهارتهم حينما دربوا على الأسلحة . وفى أثناء حرب فاليران مع كسرى سابور الأول خرج شيخ عشيرة عربى فى « تدمر » ويدعى أذينة وسار على رأس قوة كبيرة ضد المغير ونازله وفرّق شمله وطرده من سورية واقتفى آثاره حتى ردّه الى أبواب المدائن عاصمة فارس سنة ٢٦٥م ولقد قدر الامبراطور جاليانوس Gallienue صنيعه الباهر فأنعم عليه بلقب Auguatus « العظيم » ، ولقد كان فى الحقيقة السيد المطاع فى الكتائب الرومانية فى الشرق ، ولكنه قتل غيلة فى العام التالى وكان فى زوجته زينوبيا (الزباء) خير خاف ، فأخذت على عاتقها تشييد امبراطورية شرقية ضخمة ، ولم يكن نجاحها أعظم من نجاح كليوباترا فى مثل هذه المحاولة ، ولكن حدث ما ليس فى حسبانها إذ انتصر أرليان واقتيدت « ملكة الشرق » المتكبرة أسيرة أمام عربته فى شوارع رومة عام ٢٧٤ م

(يتبع)

حسن محمد حبشى

---

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٠) ص ٥٥٤

(٢) وقد طبع فى باريس (١٨٤٧ – ١٨٤٨) فى ٣ مجلدات

مرثية توماس جراى

نشر الأستاذ على الطنطاوى فى (الرسالة) عدد ١٧٨ بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٢ ترجمة لمرثيــة جراى الشاعر الانجليزى الشهير نقلاً عن قراءة صديقه الأستاذ حيدر الركانى ، والأستاذ الطنطاوى أديب فنان لا يشق له غبار فى كل ما يكتب ، ومن الأفذاذ الذين رفعوا رأس الأدب العربى الحديث عالياً ، ومن الملهمين الذين أراد الله لهم ولأدبهم الخلود ليؤدوا رسالة الأديب الفنان للمجتمع الذى يعيش فيه . وممــا لا شك فيه أن الأستاذ الطنطاوى يؤلمه أن يقوم إنسان فيغير على آثاره الأدبية بترجها ويقول على لسانه شيئاً لم يقــله ، أو يشوّه أفــكاراً وتعابير خالدة فى فنه . ومما لا شك فيه أيضاً أن المترجم يحمل أمانة فى عنقه لمن يترجم عنه ، وعليه أن يؤديها غير منقوصة ، وألا ينقل إلا الواقع وإلا ما أراده ذلك المترجم عنه . وعندى أن الأستاذ لو ترجم المرثية عن أصلها لبان له من روحه الفنانة وإخلاصه ما يجعل ترجته فى دقتها تقف فى صف واحد مع ترجة جرالد للرباعيات الخيامية المشهورة . ولو كانت صفحات الرسالة تتسع لأكثر من هــذا القدار لقدمت أمثلة على عدم دقة النقل ؛ والذى يراجع الأصل لا يجد صعوبة فى اكتشاف ذلك وهو كثير . على أن الواقع يدفعنى إلى تقديم الشكر للأستاذ الطنطاوى على الاجادة التى لا تجارى فى ترجته التى كادت أن تقرب من الـكمال . وإنا لنرجو أن يتبارى الشعراء فى نقــــل هذه القطعة الخالدة إلى الأدب العربى شعراً بالرجوع إلى الأصل مع الاستعانة بترجة الأستاذ المذكورة

وزيادة لفائدة القراء رأيت أن أذكر مختصراً لحياة الشاعر توماس جراى وعن الظروف التى رافقت نظم تلك المرثية

توماس جراى Thomas Gray

ولد فى السادس والعشرين من ديسمبر ١٧١٦ فى كورنهل (Cornhill) ، حيث كانت والدته وشقيقها يتجران بقبعات السيدات ، وكان والده فيليب جراى كاتب عقود رسمية ، وكان هو الوحيد الذى عاش من أسرة عدد أفرادها إثنا عشر شخصا . وفى سنة ١٧٢٧ التحق بكلية إيتون حيث كان عمه مدرساً مساعداً فى تلك الـكلية ، وهناك نشأت صداقته المتينة مع ريتشارد وست ، وهراس ولبول ، وتوماس اشتون

وترك كمبردج فى السنة التالية دون أن ينال أجازة علمية ؛ ورحل فى عام ١٧٢٩ إلى القارة مع صديقه الحميم هراس ولبول فى رحلة استغرقت ما يقرب من التسعة أشهر ، وعاد بعدها الى لندن . وفى سنة ١٧٤١ توفى والده فانتقلت والدته وشقيقتها إلى المعيشة مع أخت ثالثــة اسمها مارى فى مقاطعة بكنجهام شــير (Buckingham Shire) ، وهناك نظم أول قصيدة عنوانها اجريبينا (Agrippina)

وفى عام ١٧٤٢ مات صديقه ريتشارد وست ، فرثاه رثاء مؤثراً . وفى هذه السنة عاد إلى كمبردج وبقى مدة سنتين حصل فى نهايتهما على درجة بكلوريوس فى الحقوق

وبعد ذلك بخمس سنوات توفيت خالته مارى وأحرق منزله فى كورن هل

وفى عام ١٧٥٠ أكمل مرثيته التى نحن بصددها ، وبعد ذلك بثلاث سنوات توفيت والدته . وفى سنة ١٧٥٧ عرض عليــه أن يكون شاعر العرش البريطانى الذى خلا بموت كولى سيبر (Colley Cibber) فرفض ذلك . وبعد ذلك بخمس سنوات عرض نفسه ليكون مدرساً للتاريخ بدلاً من الدكتور ترنر المتوفى فى تلك السنة ، ولـكن اللورد بيوت حال بينه وبين هــذه الأمنية التى نالها بعد ثمــانى سنوات

وفى سنة ١٧٦٥ زار اسكتلندا وهناك عرضت عليه جامعة أبردين Aberdeen أن تمنحه لقب دكتور فى الحقوق فرفض ذلك مستنداً الى أن دراسته فى كمبردج لا تؤهله لقبول مثل هــذا اللقب . وبعد ذلك بأربع سنوات نظم نشيده المشهور Ode fo music الذى مُثـل عند تولية دوق جرافتون رئاسة الجامعة التى كان يدرس فيها التاريخ الحديث ، وزار فى تلك السنة منطقة البحيرات

وفى سنة ١٧٧١ توفى فجأة بينما كان يتناول طعام الغداء ، الى جانب والدته فى ساحة الكنيسة فى Stoke Poges فى مقاطعة بكنجهام شير

هذا مختصر لحياة هذا الشاعر . وفيما يلى وصف لظروف المرثية :

Elegy Written in a Country Churchyard

ابتدأ فى نظم هذه المرثية فى عام ١٧٤٢ ولكن القسم الأعظم منها كتبه بين السنوات ١٧٤٦ — ١٧٥٠ ، وقد أتمها فى اليوم الثانى عشر من شهر يونيه سنة ١٧٥٠ ، وفى العاشر من فبراير أرسل إليه رئيس تحرير مجلة المجلات الانجليزية Magazine of Magazines يستأذنه فى نشرها فى مجلته فرفض طلبه . وعند ذلك أسرع وطلب إلى صديقه هراس ولبول أن ينشرها على الناس دون إمضاء . وفى السادس عشر من نفس الشهر طبعت فى كراسة بعنوان « مرثية كتبت فى ساحة كنيسة قرية » مع المقدمة التالية من ولبول : « لقد وقعت القصيدة التالية فى يدى مصادفة ، إذا جاز أن يدعى انتشار هذه القطعة وذيوعها بين الناس عرضا . إن الاستحسان الذى صادفته هذه القصيدة سيجعل اعتذارى لمؤلفها فى غير محله ، لأنه ولا شك يشعر باغتباط شديد لاعجاب الناس وسرورهم بها فيما مضى . ومما لا شك فيه أيضاً أنه سيغفر لى جرأتى على النشر ، لأشاركه تقديم المسرات لعدد آخر غير قليل »

وهناك ثلاث نسخ بخط الشاعر جراى نفسه محفوظة حتى اليوم . فالأولى كانت سابقاً ملكا للسير W. Fraser وهى الآن فى كلية ايتون ، ومن المحتمل أن تكون النسخة الأصلية . والثانية تخص ورتون Wharton وهى موجودة فى المتحف البريطانى تحت الرقم (٢٤٠٠) . والثالثة فى كلية بيمبروك Pemdroke وفى آخر هذه النسخة كتب جراى بخطه أيضاً ما يأتى : « نشرت فى فبراير سنة ١٧٥١ بواسطة دوزلى وأعيد طبعها أربع مرات شهرين ، وبعد ذلك طبعت الطبعة الخامسة حتى الحادية عشرة . وأعيد طبعها فى ١٧٥٣ بواسطة مستر بنتلى ثم ترجمت الى اللاتينية وطبعت فى عام ١٧٦٢ »

(نابلس) ف . . . . .

الثقافة والأنتاج العلمى فى فلسطين

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

لا يختلف اثنان فى أن الوضع الحاضر فى فلسطين شاذ وغير طبيعى وهو غيره فى الأقطار الشقيقة المجاورة ، فالكل يقاسى آلاماً مبرحة من الاستعمار والمستعمرين ، والكل واقع تحت نير الاستعباد والعبودية ؛ ولست واجداً أحداً يرضى عن السياسة المتبعة فى بلاده وعما يجرى حوله ، إلا أن هناك فرقاً بين فلسطين وغيرها من البلاد المجاورة ، ففى هذه جبروت واحد وطاغية واحد ، وهنا جبروتان وطاغيتان قد تسلحا بالخبث والمكر والقوة والدهاء ، وعلى هذا فالمصيبة هنا أعظم والبلاء هنا أعم والخطر محقق والفناء يتهدد

ومن الطبيعى أن بلاداً هذه حالها لا تكون صالحة للانتاج العلمى ولا لازدهار الثقافة والأدب بالمعنى الواسع . ومن الطبيعى أن تؤثر هذه الأوضاع على الشباب المثقف وعلى الأدباء والعلماء فتأخذ قسما من أوقاتهم ومجهوداتهم وتفكيرهم يصرفونها فى مبادئ السياسة لدرء الأخطار المحدقة ، ولتخفيف المصائب المنصبة علينا انصباباً من كل جانب . وكيف يمكن لثقافة أن تنمو ، ولقريحة أن تنتج وتبتدع إذا لم تكن تلك القريحة فى جو من الحرية ، وفى محيط خال من القيود والاغلال ليس فيه من يسخرك لمنافعه ومصالحه ، وليس فيه من يسعى للقضاء على معنوياتك ، وعلى قتل الطموح فيك ؟

وكيف يمكن لشاب أن يعكف على العلم بقصد الاستزادة والاكتشاف والبحث والاستقصاء إذا لم يكن هناك من يساعده ويشجعه ويأخذ بيده ؟ فكيف به إذا وجد فى محيط كله تثبيط للهمم ، وكله إحباط للعزائم ؟ . وإذا تتبعنا الطرق التى تسير عليها الحكومات المستعمرة فى مختلف دوائرها ، ولا سيما المعارف منها نجد أنها ترمى إلى القضاء على روح الطموح ، على روح البحث وحب الاستزادة من العلوم والفنون ؛ ترمى إلى خلق روح الاعتماد فى الناشئة على الغير ، إلى إماتة الروح الوطنية ،

وبث روح الاستهتار بالتراث العربي والاسلامى وانتقاصهما بشتى الوسائل ، وفوق ذلك نجدهم (المستعمرين) يشغلون أوقات الناس والموظفين فى أمور ليس فيها متاع ، وليس فيها ما يعود على البلاد بخير أو انتفاع . فمن الطبيعى إذن — هنا وفى البلاد المرزوءة بالاستعمار — أن الحكومات فيها لا تشجع العلم ولا تحث على متابعته ، ولا على إيجاد رغبة صادقة فى التأليف والبحث على الرغم من حاجة الأمة إلى كل ذلك . وإذن فلا محل لغرابة الكثيرين فى موقف الحكومة تجاه المؤلفين وتجاه الذين يلاحقون فروعهم فى العلم والفن ، بل الغرابة كل الغرابة فى حسن ظن هؤلاء الكثيرين بالحكومات المنتدبة والاعتماد عليها فى تشجيع الناس فى التنوير والتقدم وقد جهلوا أو تناسوا أن هذه الحكومات تسير على برنامج استعمارى خاص من شأنه أن يقضى على كل ما من شأنه رفع مستوى الأمة ورقيها . لهذا وجب على العلماء العرب أن يلتفتوا إلى هذه الناحية ، وأن يعيروها بعض اهتمامهم ، وأن يعتمدوا على أنفسهم قبل كل شيء ، وأن يأخذوا من موقف الحكومات قوى يحفزهم إلى توسيع الحركة الثقافية فى فلسطين وغيرها ، ونشر روح البحث والاستقصاء بين المثقفين ، ويقضى الواجب الوطنى على الشباب العامل والأساتذة أن ينحوا فى تعليم الناشئة وتثقيفها ناحية قومية وطنية ، وقد يجدون فى هذا صعوبة ، وقد يصادفون أمامهم عقبات ، ولكن عليهم أن يجاهدوا ويصرفوا بعضاً من مجهوداتهم فى التغلب على ذلك ، وفى توجيه التعليم والثقافة توجيهاً يخلق فى النشء روح الاعتزاز بالقومية وروح الاعتقاد بالقابلية ، يخلق فى الناشىء شخصية قوية وكياناً مستقلاً ورجولة مستعدة لتلبية نداء الوطن قادرة على المساهمة فى خدمة الحضارة . ويقضى الواجب الوطنى على الباحثين أن ينحوا بيحوثهم الناحية القومية ، وأن يبينوا للناشئة فضل العرب الكبير على المدنية ، وقد تبوأوا مركزاً سامياً لم يتبوأه غيرهم أيام كانوا سائرين على النهج القويم الذى وضعه الرسول وصحبه وخلفاؤه ، أيام كان الاهتمام باللباب دون القشور ؛ بهذا وحده يمكن أن تنشىء الأمة شباباً مؤمنين عاملين على رفع مستوى البلاد ، شباباً متثقفين ثقافة قومية وطنية يعرفون كيف يخدمون الوطن . وهذا هو أقوى سلاح يمكن أن تمد به الأمة الناهضة ليساعدها على خوض غمار هذه الحياة عالية الرأس موفورة الكرامة ، وعلى نيل ما تبتغى من عز وسؤدد .

وقد يسر القراء الكرام أن يعلموا أن هناك مساعى جدية للشروع فى أعمال مشتركة تقوم بها جماعات متثقفة تأخذ على عاتقها الاشتغال فى ناحية خدمة الأمة عن طريق بعث الثقافة والتعليم القوى ، عن طريق بعث الثقافة العربية والاسلامية ، عن طريق تشجيع ذوى العقول النيرة والقرائح الخصبة فى توجيه بحوثهم ونتاجهم فى العلم والفن الى ناحيـة قومية وطنية . وقد قام جماعة فى نابلس من الشباب المثقف بانشاء ناد ثقافى أطلقوا عليه اسم (النادى الثقافى) غايته هى : « إيجاد روابط وصلات بين المتعلمين ، والعمل على تأليف قلوبهم وتوحيد جهودهم العلمية والأدبيـة وتوجيهها توجيهاً قومياً ، ورفع مستوى البلد الثقافى والأدبى بطرق مختلفة عملية أهمها المحاضرات والحلقات العلمية وإيجاد مكتبة حافلة بالكتب القيمة .. » وسيجد الناس فى هذا النادى وطنية عملية ستعود على البلاد بفوائد جليلة . وكذلك هناك جماعات فى نابلس والقدس ويافا وحيفا وبقية البلاد تفكر فى مشروع إنشاء لجنة ترجمة وتأليف ونشر على غرار لجنة مصر . والذى نرجوه أن توفق هذه الجماعات فى مشاريعها الثقافية ، وأن تأخذ بيد الأمة الى حيث التقدم والمجد ومعارج القوة والعظمة

(نابلس) قدرى حافظ طوقان

كبرياء الألم

وراحة النفس فى الشكوى ولذتها
لو أمكنت ، لا تساوى ذلة الشاكى
« أسامة بن منقذ »

للأستاذ أمجد الطرابلسى

أتظلُّ تخفق فى الأضالع واهيا ياقلب حسبك! إن ترانى شاكيا
يا ذلة الباكى ! إذا أعداؤه شمتوا به ، والخِل أصبح راثيا
يا ذلة الباكى ! تَجرحى لاهباً أرضى لنفسىَ يا خفوق وناريا
اكتم لهيبك ما تقسمك الأسى لا يرخصن بكاك جرحاً غاليا
واشمخ بأنفك فى الخطوب ولا يكن غلف القلوب أشـد منك تعاليا
وأتكرم الألم المخلّد ، ولتكن بلظى تكتمه الضلوع مباهيا
فالكون تضحكه الدموع إذا جرت ! أتظل تضحك ذا الزمانَ اللاهيا ؟
والمجد للألم الدفين على المدى لا للذى يؤذى المسامع باكيا
والوجد أنبله كمينٌ صامت وأجله ما كان جُرحاً خافيا
كنز من الالهام لا تلقى له بين الكنوز مشابهاً ومساويا
يهب الجلال لمن يطيق صيانه والعبقرية والثناء الباقيا
يا أصدقائى النائحين تجملوا ! لا تصبحوا بين الأنام ألاهيا
تبًّا لقلب لم يذق مجد الأسى وبِلًى لقلب لا يملّ تشاكيا
أغلوا الجراح فلن تروا مثل الجوى للعبقرية مُنضجاً ومواتيا
إن القريض أعز مجداً من فتى يمسى ويُصبح ضارعاً متباكيا
لا يستحق الخلد شِعر ناحب تتقاطر العبرات منه جواريا

***

يا أيها الشاكى ! إلى من تشتكى ؟ أفأنت مُلْفٍ فى الأنام مواسيا ؟
وإذا لقيت فإن فى إشفاقه ورثائه ذلاً لنفسك كافيا
أم للطبيعة ماتبث وأذنها موقورة ما إن تجيب مناديا
تشكو فتمتنق الطيور على الربى بين الغصون ضواحكاً ولواهيا
وتنوح والأزهار تضحك خلسة والجدول المِطراب يسخر جاريا
هل أسكنت يوماً شاكى علة طيراً على عرش الأزاهر شاديا
أو حطمت أغصانَها لفجيعة أو مزقت حُللا ترف زواهيا
أوَ لم تجىء هذى الطبيعة مرة ولهان تفتقد الحبيب النائيا
كم جئتماها قبلُ فى كنف الهوى وقضيتما فيها ضحى وأماسيا
الزهر حولكما يرفُّ مهنئاً والطير فوقكما تحوم شواديا
والغصن مخمور يصفق نائراً قُبَلاً على عطفيكما ولآليا
أودعتماها الذكريات حبيبة تحكى أزاهرها اللطاف، غواليا
وكتبتما فوق الجذوع مواثقاً ونقشتما فوق الصخور أساميا
واليوم ...! تأتيها وحيداً شارداً ترجو بمغناها لجرحك آسيا
فانظر إليها! هل رعت ذمم الهوى أو خلدت ذكراً حلَوْن خواليا
سائل! أفلست ترى لعهدك ذاكراً وابحث فلست ترى لحبك راعيا
واجزع! فلن تلقى لخطبك جازعا واندب! فلن يلقى بكاك مباليا !
ما بالها تلهو وأنت مكلّم تتلمس الذكرى وعهداً خاليا
إن الطبيعة غادة فتانة لا تعرف القلب الوفى الحانيا !

***

أحبيبى الغالى ، وأنت مخاطبى — ! هيا استشفَّ من القصائد ما بيا
هذا القريض يشف عما تحته . أتظن قلبى بعد ذلك ساليا ؟
ألهو وأضحك ليس يبصر ناظرى ماذا تكنُّ أضالعى وفؤاديا
أتقول : لا يذكى الهيامُ قصائدى ! لولا لحاظك ما زكت أشعاريا
أقصائد يحملن آلام الهوى ! ؟ يا هونهن ! ولو يكنَّ دراريا
وأنا قصيدتك البديعة صغتها من فيض سِحرك أبحراً وقوافيا
وبخافقى مالو تقسمه الورى وسع القلوب على الزمان خواليا
لكننى أغلى فؤادى أن يرى بين الأنام ـ وأنت فيه ـ داميا

(دمشق)

أمجد الطرابلسى

ذكرى ١٧ رمضان :

ثورة بدر

بقلم محمود حسن اسماعيل

مقتطفات منها

خَفَق العرشُ بالنشيدِ المطهرْ   فدع الشعرَ والأغانى .. وكبِّرْ!

. . . .

رجفتْ فى الجنانِ كالزعزع القصَّــــافِ تدوى بجانبىَّ وتزأرْ
من فجاجِ الغيوبِ هاجت صباحا
ثورةٌ فى الرمالِ هبّت تُزَمْجِرْ
أقبلت كالعجاجِ فى هبوة الحرْ
بِ « قُرَيْشٌ » على الحياض تنفَّرْ
حَشَدوا موكبَ المنايا وخفوا   لِضياء الإلٰهِ غاوين فجَّرْ
يتراءونَ كالصـــواعِقِ فى الرمـ
ـل ووجهُ الضحى من الروعِ أغبر
كالشياطين جلجلت فى دجى اللايـ   ـل وهاجت فى البيد تعوى وتصفر
أرزمت فوقهم سيوف، ورِيعت   من تناديهمُ أضاةٌ ومِغْفر
زلزلوا راسى الفيافى ، وراحت   مِنهم البيدُ تقشعر وتذْعَر
ومضى الشركُ بينهم مزعج الهيـ   ـجة طيشانَ كاللظى المتسعِّر
جَمَّع الهول كله فى يديه   ومضى بالحِمام فى الهول يزفر
إن يكن كِبرُه أجَنَّ البلايا   لنبىِّ الاسلام . . فالله أكبر

***

وعلى التلِّ خاشع فى عريش   قُدُسىُّ الظلال زاكٍ مُنوَّر
كاد من طيبه الجريدُ المحَنَّى   من ذُبول البلى يميس ويُزهر
هالة تسكُبُ الجلال ، وتندى   بوميض الهدى يُفيق ويسحر
لو رمت كاسف البصيرة أعمى   عاد منها مُبلَّج القلب أحور
باسطٌ كفّه إلى الله يدعو :   رَب حُمَّ القضا لدينكَ فانصر
إن أجنادىَ البواســـل قُل   وخميس العدو كالموج يَزخَرْ
خفقة من كرى تجلَّتْ عليـه   مال من طهرها الرِّداء المحبَّرْ
وإذا الوحى بارقٌ مستهلٌّ   من سماء الغيوب هَنًا وبُشْرْ
فانتضى سيْفه وهبَّ على الفا   رةِ بالسَّرْمد القوىِّ مؤزر
ينفح القوم بالحصا فتــدوِّى   أسلات الإسلام فى كل منحر
وجنود السماء من كل فجٍّ   غُيِّبٍ للعيان فى القلب حُضَّر
تشعل النار فى قلوب المذاكى   وتَوَّج الرجال ناراً تَســعَّر
قوةٌ من جوانب العرش هبَّت   ذاب من بأسها الحسام المشهَّر
و« بلال» يلقى « أُميّة » غضبا   ن فيشفى الغليل منه ويثأر
أمس كم حمل الصخور الذواكي   بلهيب الرمضــاء تغلى وتسعر
وهو اليوم قاذف صخرَة المو   ت ... عليه تهوى فتردى وتقبر
وأبو جهل جندلتــه قناة   فهوى تحت جندل البيد يزحر
وقف الكفر فوقه يندب الكفـ   ـر ويهذى على الزفات وَيهذر
لكأنى بعظمك الآن يصطكُّ   وَيغلى من الأسى وَالتحسُّر
وَشــظايا اللسان ندمانة كا   دت لنور الهدى حنيناً تكبِّر!
تمرات فى كف أعزل جوعا   ن هضيم بين الوغى متعثِّرْ
عربىٍّ من شــيعة الله وانٍ   عن صراع الهيجاء قهراً تأخر
حينما شاهد النبىَّ تلظَّت   جمرة النصر فى حشاه المفتَّر
هاج كالعاصف المدمِّر فى الجيـ   ـش وَأهوى كالموت يبلى ويدحر
سلَّ من روحه حُساماً وَمن إسـ   ـلامه فى مسابح الروع خِنجر
هكذا نجــدة السماء أحالت   واهِن الجسم كالعتىِّ المدمر
فاذا النصر صيحة هزت الدنيـــا وراعت بروج كسرى وقيصر
وإذا «بدر» خفقة فى لسان الشـــرق يزهى على صداها ويفخر

محمود حسن اسماعيل



قصة واقعية

الغـــريب ...

« نالت هذه القصـــة جائزة قدرها ١٠٠ جنيه في مسابقة للقصص الواقعية في مجلة «True Story» الانجليزية »

نقلها عن الانجليزية

أحمد فتحي مرسي

لا أعلم ما الذي جعلني أشعر بالخوف والوحدة بعد أن امتطى فرانك صهوة جواده ومضى في سبيله ظهر أحد أيام الأحد ... لقد كان عليّ أن أمكث مع طفلي العزيزين أياما وأياما وحيدين في مزرعتنا بين تلك المروج الواسعة ، لم يساورني خلالها مثل ما ساورني ذلك اليوم . . ربما كانت الوحدة تخيف بعض النساء ؛ بيد أنني قضيت في هذه الجهة ما يقرب من عامين بعيـدة عن العالم منفردة عن المجتمع ، فضلاً عن أنني نلت قسطا من التعليم جعلني أنبذ ما تدعيه النساء من خرافات وأباطيل ... كان هناك ما يقرب من العشرين ميلا بيننا وبين أقرب جار لنا ؛ ولقد كان في تناثر المزارع على هذا الشكل مغنم للصوص ورجال العصابات ، فكان الانسان يقضي أياما طوالا دون أن يرى في هذه الناحية وجها لانسان ، اللهم إلا أحد رعاة البقر يبحث عن قطيعه الممزق ويجمع أشتات ماشيته المتفرقة ، ولـكني كثيرا ما قضيت مع فرانك الشهور الطويلة دون أن يقع بصرنا على إنسان ما

***

ولقد كانت مصاحبة طفلي العزيزين تجعلني سـعيدة قريرة العين . وكان أكبرهما في الثانية من عمره ويدعى بوبي ؛ وأما فيل الصغير فقد كان عمره لا يزيد على بضعة أشهر ، ولـكنه برغم ذلك كان طفلا هادئا مريحا

ولقد يتساءل البعض : لماذا اخـترنا هذه البقعة الموحشة لنقضي فيها ميعة صبانا وزهرة شبابنا ؟ فأجيب : منـذ حوالى أربع سنوات عند ما تزوجت من فرانك ، كان يشغل منصباً في أحد البنوك في مدينة ولتون فيل على مسير خمسة وثلاثين ميلا من مزرعتنا ؛ وكان قد اقتصد قليلا من المـال مدة اشتغاله في المصرف . ولم يلبث فرانك طويلا في المصرف بعد زواجنا ، فقد أصبح المصرف في غنى عن عمله لضيق أعماله ، فأخذ يبحث عن عمل ولـكن دون جدوى ... وأخيرا وجدنا أنفسنا وليس معنا إلا قليل مما اقتصدناه . وكان فرانك قد درس هذه المنطقة مليًا مدة اشتغاله في المصرف ، وكانت تحوى الـكثير من المزارع التي تصلح لتربية الماشية وزراعة بعض الحاصلات الصيفية .

وفي ركن قصيّ من تلك الأصقاع كانت تقع مزرعة جميلة فيها منزل ريفي بديع الموقع بسـيط التأثيث ، وبها بئر طيبة الورد عذبة الماء ، وحول المنزل قطعة مسورة من الأرض يخيل إلى أنها كانت حديقة فيما مضى . وأخذنا الفرح بهذه المزرعة ، فاشتريناها وبدأنا عملنا فيها

وكان كلانا في صحوة شبابه وربيع حياته يتمتع بصحة جيدة وبنية قوية . وكان فرانك لا يعرف الـكثير من أحوال المزارع وإدارتها فلازمنا الفشـل في أول الأمر - شأن كل من يبدأ عملا لم يمارسه من قبل - ولـكن أدركتنا عناية الله فذللنا كل ما قابلنا من العقبات

ولد لنا (بوبي) في مدينة ولتون فيل ، وأما (فيل) فقد ولد في مزرعة مرى وذر على بعد عشرين ميلا منا . ولقد كانت السيدة مرى وذر نعم الأم الحنون البرة مدة إقامتي عندها

***

ومضت الأيام تتبع الأيام والشهور تقفو أثر الشهور ، ونحن سعيدان بهذه الحياة الهادئة على رغم بعدنا عن العالم وانفرادنا عن المجتمع ، إلى أن كان يوم زارنا فيه جار لنا يدعى چيبون ، يطلب مساعدة فرانك في إصلاح قطعة من الأرض اشتراها أخيرا . فلما اعتذر

له فرانك بأنه ليس لديه جواد ، فضلا عن أنه لديه من الأعمال ما يشغله عن ممارسة غيرها ، قال غاضباً :

— هذا شيء لا يحتمل : من أين لي أن أجد رجلا آخر في هذه الناحية المقفرة ؟ سأعطيك كل ما تطلب من الأجر نظير ترك أعمالك ، فضلا عن أني سأعوضك جواداً خيرا من جوادك

وبعد نقاش طويل قبل فرانك ما عرضه عليه الجار على أن يدعه يعود إلى المزرعة في أيام السبت والأحد لانجاز أعماله الهامة . وعلى هذا أصبحت أقضي جل الأسبوع وحيدة إلا من طفلين لا يستطيع أكبرهما أن ينطق . ولكني كنت أعزي نفسي بأن العمل يستغرق أسابيع يعود بعدها فرانك ومعه المال والجواد

* * *

ولا أكون مبالغة إذا قلت إننا لم نشعر في حياتنا بسرور قدر ما شعرنا به تلك الليلة عند ما عاد فرانك للمرة الأولى يحمل أجرة الأسبوع الأول ، فقد خيل الينا أننا في حلم عندما نثر النقود على المائدة ؛ وليس هذا عجيباً ، فقد كان كلانا لم ير النقود من زمن غير قليل . قال فرانك :

— أظن أنه ليس في الامكان السفر إلى ولتون ڤيل لايداعها في المصرف قبل أن أنتهي من مساعدة چيبون ، وستكون هنا في مأمن . فقلت :

— إذن دعنا نخبئها في مكان ما

— حسن ! ثم وضع النقود في كيس صغير وأعطاها إياي قائلاً :

— ضعيها تحت وعاء الدقيق ياعزيزتي ... فاذا داخلك الشك يوماً في أحد يحوم حول هذا المكان فاحفري لها في الأرض

وفي مساء الجمعة التالية زاد قدر ما عندنا من النقود بما أضافه اليها فرانك من أجره الثاني

* * *

وفي صبيحة السبت نهض فرانك مبكراً وأخذ يعمل في المزرعة بجد ونشاط — كعادته في سائر أيام السبت والأحد — حتى إذا كان ظهر الأحد خرج ليسرج جواده ويمضي إلى عمله عند چيبون ... ولسبب ما داخلني شعور غريب هذه المرة ، فقد كنت أريد من أعماق نفسي ألا يذهب وألا يتركني هذه المرة . ولما ضمني ليودعني لم أجد ما أقوله له غير هذه الكلمات :

« لا تذهب يافرانك ... لاتتركني هذه المرة ياعزيزي » والحقيقة أنني كنت أشعر بشعور خفي ، وبدافع من صميم قلبي يدفعني إلى استبقائه بجانبي . ولكنه ابتسم قائلاً :

— تشجعي ياعزيزتي ... سأعود قريبا

ثم انطلق الجواد كالسهم وأنا واقفة أتابعه بنظري وهو يختفي في ظلام من الغبار

* * *

استيقظت في الرابعة من فجر اليوم التالي ، لأنه كان يروق لي أن أنجز أعمالي في الصباح الباكر قبل أن يشتد وهج الشمس في سماء الصيف الصافية ويحمَرُّ قيظها ، فأخرجت الماشية من حظائرها وأوقدت النيران في الموقد ، ثم عدت إلى المنزل لأغذي الأطفال ، وألقيت وأنا أصعد الدرج نظرة خاطفة على الطريق الذي مضى فيه فرانك أمس . ولشد ما كانت دهشتي عند ما أبصرت من بعيد شبحاً سائراً على قدميه يقترب رويداً رويداً من المزرعة ؛ وقد عجبت من ذلك أشد العجب ، فهذه أول مرة أرى فيها شخصاً يجوب هذي السهول المترامية سيراً على الأقدام . أسرعت إلى المنزل ووقفت في النافذة وأنا أفكر فيمن يكون ذلك الشخص وما مأربه ؟ أهو صاحب مزرعة من اللواتي حولنا يطلب مساعدة ؟ ولكن هذا لا يمكن ، فكل منهم يملك جوادا على الأقل إن لم يكن يملك مركبة . إذن فهذا الرجل غريب عن الناحية

ولكن لماذا يأتي الغريب إلى هنا ؟ ربما ضل الطريق وأخطأ الجهة التي يقصدها ! ولكنه لا يمكن أن يصل الى هذه الجهة المنفردة دون أن يدرك أنه أخطأ الطريق ... كل هذه الأفكار كانت تساورني وأنا واقفة في النافذة أرقب الرجل وهو يقترب :

— ترى ماذا يفعل ذلك الرجل لو علم أني وحيدة في ذلك المنزل ؟ وماذا يفعل لو عرف شيئاً عن النقود ؟

وأخيراً قلت لنفسي : « حسن . ما دام فرانك أخذ دوره وعمل بجد حتى حصل على هذه النقود ، يجب أن آخذ دوري في الدفاع عنها » وأسرعت إلى «مسدسي» وكان محشوا ، وأيقظت الأطفال حتى لا يزعجهم إطلاق النار . وكان الرجل قد وقف على بعد خمسين خطوة من المنزل يقلب الطرف في الحديقة والدار ؛ وبدا لي وجهه مخيفاً مرعباً وملابسه قديمة رثة . على أنه لم يدهشني قط عندما أخرج مسدسه من جيبه ومشى صوب الباب لأني

كنت أتوقع ذلك بين لحظة وأخرى .... انتظرت حتى أصبح على بعد خطوات من الباب ثم دفعت الباب بقدمى فأصبحت أمامه وجهاً لوجه

* * *

— مكانك وإلا ألهبت رأسك !

فوقف الرجل مبهوتاً ، ثم أردفت على عجل :

— والآن ماذا تريد ؟

— سيدتى : ما أنا إلا رجل فقير جائع ؛ أريد قطعة من الخبز أسد بها رمق ، أو أى عمل عندكم أعيش منه ... ثم تابع كلامه وقد رأى الشك فى عينى :

— إننى أمين يا سيدتى ؛ لا تسيئى بى الظن

— شكراً لك ! إن زوجى قد قام بكل الأعمال ، وليس لدى ما أعطيك إياه

— لقد قضيت يا سيدتى يومين سائراً . يعلم الله أنى لم أذق فى خلالها شيئاً قط ....

وأيقنت من نبراته أنه صادق فى كلامه برغم ما داخلنى فيه من شك . وقد رأيت أن من الغباء أن أدعه يعمل عندنا ونحن لا نعرف أصله ، ولكنى لم أعدم شيئاً من العطف على رجل لم يذق الطعام من يومين ؛ فقلت له وأنا ما أزال قابضة على المسدس :

— إن ورائى على المائدة وعاء من اللبن وقطعتين من الخبز خذهما وامض فى سبيلك .. فنظر لحظة إلى المسدس قبل أن يجد فى نفسه الجرأة الكافية على الدخول ، ثم جمع أشتات نفسه ودخل وحمل الطعام ثم خرج متمتما بكلمات الشكر

ومضيت فى عملى فنسيت ذلك الحادث . وكانت الشمس قد ارتفعت فى السماء . فجلست مع بوبى لنتناول الفطور فى هدوء وصمت . وفجأة تذكرت أننى لم أجمع بيض الدجاج هذا الصباح ، وكانت عادتى أن أجمعه فى الصباح الباكر قبل أن تعبث به زواحف القفر . فلما بلغت آخر مجاثم الدجاج طرق سمعى فحيح حاد صادر من الحطب الهشيم الملقى على جوانب المجثم ، فعرفت الصوت لساعته وإن كنت لم أسمعه فى هذه الجهة من قبل ، فهلع قلبى وأسرعت بالعودة ، إلا أننى لم أكد أدير وجهى حتى شعرت باللدغة فى قدمى اليمنى

لقد كانت عضة أفعى سوداء كبيرة . وقد جمدت فى مكانى لمجرد ذكرها قبل أن تلمحها عيناى المضطربتان وهى تزحف بين الهشيم

وأخيراً بلغت المنزل أجر قدمى ورائى وأنا ألهث من التعب ، ومزقت الحذاء سريعاً فبدا أثر النابين عميقاً ظاهراً ، وكنت أجهل تماماً ما سأفعل وأنا على قاب قوسين من الموت ... فجعلت أجهد ذاكرتى حتى أصل إلى ما قاله لى فرانك عن علاج مثل هذه الحالة . وأخيرا وجدت ضالتى المنشودة . لقد قال لى : يجب أن تربط الرجل من فوق اللدغة بقليل حتى لا يسرى السم مع الدماء ، ثم تعالج الاصابة « ببرمنجانات البوتاس » ... وسرعان ما مزقت قطعة من القماش من غطاء المائدة وربطت بها الرجل من فوق اللدغة بقليل ثم قمت أبحث عن الدواء

ولكنى تذكرت فجأة أنه لم يبق عندنا منه شىء ، فقد استنفدته عن آخره فى تطبيب الدجاج فى الربيع الماضى ونسيت أن أطالب من فرانك أن يشترى بدله

عدت إلى المقعد فى ذهول وأغمضت عينى وجعلت أفكر وأفكر ولكن دون جدوى .... كل ذلك والسم آخذ طريقه فى قدمى حتى تصلبت عضلاتها .... ماذا أفعل وأنا وحيدة مع طفلين وهناك عشرات الأميال بينى وبين أقرب نجدة ؟ وإذا قدر لى الموت فما مصير الطفلين البريئين ؟ كانت قدمى تؤلمنى ألماً مبرحاً ولا أعلم إن كان ذلك من السم أم من شدة الرباط ؟

لم يكن أمامى ثمة شىء ينقذ حياتى وحياة الأطفال إلا أن أحاول أن أذهب معهم إلى (مرى وذر) . فربما أتمكن من إدراكها قبل فوات الوقت إذا تركت للجواد العنان ... فقمت أتحامل على نفسى وعلى الحائط ؛ ولكن قبل أن أدرك الباب تذكرت شيئاً آخر جعلنى أكاد أسقط على الأرض . . . لقد أخذ فرانك الجواد ولسنا نملك غيره . شعرت بأن الدم يكاد يفيض من وجهى ، وأنا أعود إلى المقعد فى ذهول . . . أأصحب الطفلين وأمضى سائرة على الأقدام ؟ ولكن هذا معناه ساعات وساعات دون أن نصل الى وجهتنا ... قمت ثانية لأحمل (فيل) ولكنى عدت فتذكرت أن قدمى بوبى الصغيرتين لا تحتملان السير أكثر من ميل أو ميل ونصف ... إذن سأضطر الى حمل الطفلين فى الطريق ، وسأبذل من الجهد مايجعل الدم ينشط والسم يسرى فتكون النهاية المحتمة الأليمة : طفلان فى القفر فى يد القدر بجانب أم ميتة

يا إلهى : ماذا أفعل وهذا الموت المحقق يسير فى عروق ، وعن قريب أصير فى عداد الأموات . . . ولكن الطفلان

ما مصيرهما ؟ الموت دون شك .. وإذا كان لا بد من الموت فلم لا أسرع حتى أخلص من عذاب النفس الممض وعذاب الجسم المبرح ؟ ... لم لا أسرع بالقضاء على نفسي وعلى الطفلين حتى نستريح جميعاً ؟ . . . خففت قليلاً من وطأة الرباط فلم تعد ترجى منه فائدة ، وتناولت قلماً وورقة من المكتب ثم جلست أكتب لفرانك ظهر الاثنين :

عزيزى فرانك :

لقد لدغتنى أفعى سامة كبيرة ..ولم أجد لهما علاجاً ناجعاً ولا يمكننى أن أعيش أكثر من بضع ساعات . أما الطفلان فلا أظنهما يلبثان على قيد الحياة الى حين حضورك . لذلك سأفعل الأمر الوحيد الذى يمكننى أن أفعله فى هذه الحالة فأريح نفسى والطفلين من العذاب الأليم . وأتمنى لك حياة طويلة سعيدة ؟

عزيزتك

روز مارى

ووضعت الورقة على المائدة ثم تناولت المسدس ، واقتربت من طفلى ڤيل وكان مستغرقاً فى نومه فركمت بجانبه ثم طبعت على جبينه قبلة حارة وصوبت «المسدس» الى رأسه بيد مرتعشة ، ثم أغمضت عينى لأطلق النار . . . .

— بحق السماء ماذا تفعلين ياسيدتى . . . ؟

اضطرب « المسدس » فى يدى وتلفت إلى مصدر الصوت فى جزع فاذا الرجل الغريب الذى رأيته فى الصباح واقفاً بالباب ينظر الىّ تارة والى المسدس أخرى . . ثم تقدم أخيراً فقبض على المسدس من يدى وألقاه على المائدة ، ثم تابع كلامه قائلاً — أتقدمين على قتل هذا الطفل البرىء ؟

— نعم أقدم على ذلك

— أمجنونة أنت ؟

— كلا . . . لقد لدغتنى أفعى سوداء سامة وأدركت أن الموت من نصيبى وأيقنت أن الطفل سيموت جوعاً ففضلت أن نموت سويا

— أفعى سوداء ! قالها وتقدم الىّ فى سرعة فرفعنى من مكانى وأضجعنى على المقعد ثم أخرج من جيبه سكيناً حاداً رسم بها دائرة حول أثر النابين ، ثم أخذ يضغط الجرح بشدة حتى سالت الدماء وفاضت على جوانبه . . . ثم نهض مسرعاً وجذب قضيباً من الحديد كان ملقى على المائدة ، ثم سأل :

— أين الموقد ؟

— وراءك الى اليمين . فأسرع إليه ووضع القضيب فى النار الى أن احمر طرفه ثم عاد الىّ قائلاً :

— يعز علىّ أن أفعل ما أنا مقدم عليه ، ولكن هذا هو العلاج الوحيد . ولما انتهى من كىّ الجرح أحضر لى جرعة من الماء . ثم تبع ذلك صمت طويل قطعه أخيراً بقوله :

— لقد توسمت فيك الشجاعة هذا الصباح يا سيدتى . وقد رأيتها الآن رأى العين ؛ وأظن أنك ستشعرين بألم مبرح بضعة أيام يزول بعدها كل شىء . ورانت على الغرفة فترة أخرى من الصمت ثم قال أخيراً فى هدوء وتؤدة :

— لا يمكننى على ما أظن أن أمضى وأتركك على ما أنت عليه . . . ثم أردف باسماً :

— إنه ليبدو عجباً أن أحضر الى هنا رغبة فى الاستيلاء على أموال زوجك وقتلك إذا دعت الحال ، فاذا بى أساعدك وأسهر عليك وأعنى بمرضك كما لو كنت صديقاً حميماً !

* * *

وأظن أن آخر شىء يمكننى أن أذكره قبل أن يأخذنى الاغماء هو صورة الغريب فى يده وعاء اللبن وهو ذاهب لحلب البقرة وبوبى يقفز حوله فى سرور . أما ڤيل فقد كان مستغرقاً فى سباته ، وكانت الشمس قد آذنت بالغروب . . . ثم أظلم المكان فى عينىّ ولم أشعر بما يجرى حولى ، اللهم إلا أشباحاً تتراقص ، وأيدياً تلوّح ، وأصواتاً تدوى . . .

حينما أفقت من الاغماء كان الوقت ظهراً والسُجُف مرخاة على النوافذ والغرفة خالية إلا منى ومن بوبى الذى كان جالساً يأكل فى أحد الأركان فى سرور جعلنى أشعر بمثله

— أظنك تشعرين الآن ببعض التحسن يا سيدتى . . . كان ذلك صوت الرجل الغريب ، فتلفت فاذا به واقف بجانب السرير ينظر الى فى حنان وعطف . فسألته :

— فى أى يوم نحن الآن ؟

— الأربعاء يا سيدتى

* * *

وفى مساء الجمعة وكان قد ثاب إلى بعض صحتى ونشاطى ؛ وكان بوبى وڤيل قد أخذتهما سنة من النوم ، قال لى الغريب :

— فى أى وقت تتوقعين حضور زوجك يا سيدتى ؟

— إنه يصل عادة بعد التاسعة بقليل

— إذن يجب علىّ أن أذهب ، ولكنى لن أتركك حتى أسمع وقع حوافر جواده

— ولكن لماذا ؟ قد يرغب فرانك فى رؤيتك ليقول لك شيئاً

— شكراً ، إنى أعلم ما سيقوله لى

— إذن دعنى أمنحك قليلاً من المال ، وإنه لشئ تافه بجانب ما تكبدته لانقاذى وإنقاذ الطفلين . . ثم قمت لأحضر النقود ، ولكنه اعترض سبيلى قائلاً :

— أرجوك الجلوس ياسيدتى — لقد كانت النقود فى متناول يدى طول أيام الأسبوع ، ولكنى لم أمسها ولن أمسها . . . ! ثم خيم على الغرفة صمت طويل قطعه أخيراً وقع حوافر جواد قادم فى الطريق ، فقام الرجل وسار نحو الباب فى خطوات متزنة ثم اختفى بين طيات الظلام

* * *

قصصت على فرانك القصة فما انتهيت منها حتى ابتدر الباب باحثاً عن الرجل ، ولكنى استوقفته وأخبرته أن من العسير أن يعثر عليه فى هذا الظلام الحالك ، فرجع آسفاً . ومنذ ذلك الحين ونحن نتمنى لو تتاح لنا فرصة نشكر فيها ذلك الغريب ونوليه أضعاف جميله ما ؟

أحمد فهمى مرسى

البريد الأدبي

قانون جديد للصحافة في فرنسا

صدر أخيراً قانون جديد للصحافة في فرنسا يرمى إلى وضع حد لذلك الاغراق التي انتهت اليه بعض الصحف المتطرفة في شأن الأنباء الكاذبة والمقالات القاذفة ؛ وكان صدوره على أثر انتحار المسيو سالنجرو وزير الداخلية الذي لبث مدى أشهر هدفاً لحملات بعض الصحف المتطرفة مثل «جرينجوار» و«لا كسيون فرانسيز» ، فقد استمرت هذه الصحف تنشر عنه وعن ماضيه كثيراً من الأخبار والمطاعن المثيرة ، وتطعن في وطنيته ونزاهته وإخلاصه لوطنه . ومع أن اللجنة الخاصة التي ألفت لبحث ماضي المسيو سالنجرو قد انتهت بتقرير بطلان هذه التهم جميعها ، ومع أن البرلمان ذاته قد انتهى بتبرئته وإعلان تقديره لوطنيته ، فأن هذه الصحف القاذفة لم تنقطع عن مطاردته حتى سقط صريعاً في الميدان . فبادرت الحكومة باستصدار القانون الجديد ، وهو يرمى إلى أغراض ثلاثة : الأول قمع الأخبار الكاذبة ؛ والثاني منع المطاعن والحملات القاذفة ؛ والثالث وضع رقابة فعلية على المصادر المالية للصحف ، نظراً لما ثبت من أن كثيرا من الصحف تندفع بتأثير ما تتناوله من الاعانات المالية الى إثارة الخصومات السياسية والمطاعن الشخصية دون اكتراث لمتائج والشخصيات . وبناء عليه يجب أن تقوم الصحف من الآن فصاعدا في شكل شركات مساهمة ، وأن يعتبر مديروها كما يعتبر محرروها مسؤولين عما يظهر في الجريدة

وقد كانت الحملات الصحفية القاذفة تعرقل كثيرا من أعمال الحكومات ، وكانت الحكومات المختلفة تفكر في إصدار مثل هذا القانون منذ زمن طويل ، ولكنها تتراجع دائماً ، حتى جاءت الحكومة الاشتراكية ووقعت حادثة مسيو سالنجرو . ومن الغريب أن تكون الحكومة الاشتراكية هي التي اضطلعت بأصدار مثل هذا القانون المقيد للحرية ، ولكنها في الواقع أصدرته لحاجة ماسة . ذلك أن الاسراف في نشر الأنباء الكاذبة والحملات القاذفة قد وصل الى حدود لا يمكن احتمالها ، وكثرت الصحف القاذفة التي تعيش من الطعن في الأشخاص والجماعات ؛ والقذف معاقب عليه في القانون الفرنسي دائما ، ولكن القانون الجديد يعتبر القذف واقعاً في جميع الأحوال إذا كان يمس الهيئات الرسمية أو الأشخاص الذين تشير اليهم المادة ٣٥ من قانون سنة ١٨٨١ ؛ وقد نص في القانون الجديد على تقصير الاجراءات حتى يقع العقاب المنشود بالقاذفين بسرعة ، ونص فيه على عقوبات مالية فادحة إلى جانب العقوبات المقيدة للحرية وما نص عليه من تعطيل الصحيفة . وقد أثيرت حول القانون الجديد اعتراضات كثيرة أهمها أنه لا يمكن إجراء الرقابة المالية المنشودة دون الاضرار بكثير من الصحف النزيهة المخاصة وعرقلة تقدمها ، وإنه يخشى أن تعمد الهيئات التي تستتر وراء الصحف القاذفة الى تزويدها برجال من قش يحكم عليهم دون أن ينال هذه الهيئات شيئاً ودون أن تقطع معونتها عن الصحيفة المحكوم عليها . ثم إنهم يخشون جداً من عدم استقلال القضاء الفرنسي وميله مع الاتجاهات السياسية . بيد أن الحكومة الاشتراكية تتمتع في إصدار هذا القانون بكثرة من كل أولئك الذين يقدرون قيمة النزاهة والاخلاص والتعفف عن المطاعن القاذفة في صناعة القلم التي يجب أن ترتفع عن الاستغلال في الخصومات الدنيئة

كارل فون أوستيسكي أيضاً

بسطنا في العدد الماضي قصة كارل فون أوستيسكي الكاتب الألماني الكبير الذي فاز بجائزة نوبل للسلام عن سنة ١٩٣٥ ، والذي اعتبرت الحكومة الألمانية فوزه بهذا الشرف تحدياً لها لأنها تعتبره خائناً ، لما كان يكتبه من مقالات في الدعوة إلى السلام ونزع السلاح ؛ وقد أرادت أن تعتقله منذ سنة ١٩٣٣ ، ولكنها اضطرت إزاء اشتداد العطف الدولي عليه أن تطلق

سراحه ، فغادر المستشفى مريضاً منهوكا حيث يعالج الآن . وقد اطلعنا أخيراً فى جريدة « بازلر ناخرختن » السويسرية على حديث جرى لمكاتبها البرلينى مع هذا الكاتب الشهير بأذن السلطات الألمانية ، خلاصته أن فون أوستيتسكى حينما نقل إليه خبر فوزه أبرق إلى الأكاديمية السويدية بقبول الجائزة ، وبأنه سيأتى بنفسه إلى استوكهلم ليلقى خطبة القبول ؛ بيد أنه سيحاول جهد استطاعته أن يكون واسطة لتحسين العلائق بين ألمانيا والسويد . ويصرح فون أوستيتسكى بأنه ما زال على عقيدته السلمية يدعو إلى تفاهم الأمم ، وأن الدعوة إلى السلم إنما هى فى مصلحة وطنه ، وأنها تتجه إلى جميع الأمم التى تبالغ فى التسليح مثل روسيا السوفيتية ؛ وأنه حين يغادر ألمانيا لن يعود إليها بعد . على أنه لا يريد قط أن يكون فوزه بجائزة السلام مدعاة لمظاهرة سياسية ؛ وأنه يأسف كل الأسف إذ كان فوزه بهذه الجائزة مثاراً للمناقشة بين السويد وألمانيا . ويأسف بنوع خاص لأنه كان موضع حملة من الشاعر النرويجى الكبير كنود هامبسون

والظاهر أن الحكومة الألمانية قد اقتنعت أخيراً باطلاق سراح الكاتب الكبير نهائياً ، ورأت أن ليس فى صالحها أن يطول أمد اعتقاله ؛ وقد كان الكاتب عند وطنيته وإخلاصه لوطنه على رغم ما لحقه من صنوف الأذى طيلة هذه الأعوام

نقل الآداب الأوربية إلى الأدب العربى

ذكرنا من قبل فى إحدى افتتاحيات (الرسالة) أن لجنة التأليف والترجمة والنشر قد أعدت مشروعا لنقل الآداب الغربية الى الأدب العربى ؛ ويسرنا أن نذكر اليوم أن وزارة المعارف العمومية قابلت هذا المشروع بما يستحقه من التقدير والعناية ، فقررت أن تساعد اللجنة على تحقيقه بخمسمائة جنيه فى ميزانية هذا العام ، تزيدها إلى ألف جنيه فى ميزانية العام المقبل (على أن يشرف على هذا المشروع لجنة من حضرات الأساتذة الدكتور طه حسين ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين مع الاستعانة بالعناصر الأجنبية للارشاد عن خير المنتجات الأوربية فى اللغات الثلاث : الانجليزية والفرنسية والألمانية) . وبعد عطلة العيد ستجتمع اللجنة لتنتخب الأساتذة الذين يناط بهم تنفيذ هذا العمل الخطير تمهيداً للسير فيه

وفاة لويجى بيراندللو

توفى فى صباح يوم الخميس الماضى الكاتب الايطالى لويجى بيراندللو على أثر إصابته بالتهاب الرئة . وهو زعيم الأدب المسرحى فى إيطاليا من غير منازع ، وصاحب المذهب الفنى المعروف بمذهب الفكاهة humorisme أو Pirandillisme نسبة إليه .

وقد ولد فى أجريجانتى بجزيرة صقلية فى سنة ١٨٦٧ ودرس الأدب فى روما ثم سافر إلى ألمانيا فحصل على الدكتوراه فى الآداب من جامعة (بُن) . ولما رجع إلى بلاده عين أستاذاً فى المدرسة العليا للبنات فظل فيها من عام ١٨٩٧ إلى عام ١٩٢١ ، وكان فى خلال ذلك يؤلف القصص والروايات وينشرها حتى بلغ إنتاجه أربعمائة أقصوصة وعشر قصص وثلاثين رواية . وفى سنة ١٩٣٤ نال جائزة نوبل للآداب ، وبهذه المناسبة نشرت « الرسالة » عنه فصلاً تحليلياً ضافياً فى عددها الرابع والسبعين فارجع اليه إن شئت المزيد

كلمة حول زارا وتحقيق نسبتها

كتاب « زاراتسترا » للفيلسوف الشاعر الألمانى « فردريك نيتشه » الذى تنشر ترجمته (الرسالة) من المؤلفات الذائعة الصيت فى عالم الثقافة الغربية ، ويُعَدُّ هذا الكتاب بل « الديوان » أعظم أثر شعرى فى العصر الحديث . وقد قيل فيه إنه لم ينتج شاعر فى العصر الحديث أثراً يضارع ماحوته دفتا هذا الكتاب ! وحسبك أن تعلم أن الموسيقى الألمانى الشهير « ريشارد شتراوس » قد لحنه موسيقياً

وبلغ من تأثير هذا الكتاب أن عُدَّ مسؤولا إلى حد كبير عن إذكاء تلك الروح التى حفزت الشباب الألمانى ودفعته إلى خوض غمار الحرب الكبرى ، ولم يقتصر أثر هذا الكتاب على كثير من عقول مفكرى الغرب ، بل تناول كثيرين من مفكرى الشرق . فالشاعر الهندى الفيلسوف محمد إقبال قد تأثر به إلى حد كبير تحسه فى كتبه « أسرار الذاتية[1] » و « أسرار اللاذاتية » . . . وما دعوة الجهاد الاسلامى التى يريد إحياءها « إقبال » ولا يفتأ يرددها ويدعو اليها إلا أثر من آراء نيتشه وفلسفته فى تمجيد القوة والدعوة إلى « السوبرمان »

وجبران خليل جبران الشاعر اللبنانى ينهج فى كتابه « النبى »

(١) راجع ... فى الطبعة الانجليزية

الكتب

كتاب باب القمر

تأليف الأستاذ ابراهيم رمزي

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد

ماذا أسميه ؟ أأسميه قصة ؟ إننى إن فعلت فان أعدو الحقيقة إذ هو فى الواقع قصة فيها ما فى القصص عادة من مداخل الخيال وطلاوته . ففيها لمياء ابنة الحارث بن كادة ، تلك الصورة الحية الناطقة التى لا يسع قارىء القصة إلا أن يتمثلها ويحس ما تحسه من أشجان . فتاة عربيــة رومية تجمع ثقافة الاغريق وصفاء نفس العرب ، وتتمثل فيها فضائل المدنية وفضائل البداوة جنباً الى جنب . وفيها ورقة ابن المغيفة ، ذلك الفتى العربى النبيل الذى يتقلب فى بلاد العرب وفيما حولها حتى ينتهى به التجوال الى الاسكندرية فيصبح فيها أمين الحاكم وكبير حراسه . وهذان هما الشخصان اللذان قد حيكت حولهما حوادث القصة على ما ألف الناس فى القصص من دوافع العواطف الشريفة وخوالج النفوس المضطرمة ؛ على أننى لا أملك إلا أن أعقب على هــذا القول لأحذر منه . فان هذا الكتاب ليس على ما يفهم من القصة المحض ، فان المؤلف قد جمل الى سداه القصصى لحمة من التاريخ المصفى الذى لا يخطىء القارىء إذا اعتمد عليه ووثق من حقائقه ، فهو يصور حال بلاد العرب فى أول أيام البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، فابتدأ فى نجران وصور ما كانت عليه حال تلك المدينة القديمة ومكان الأسقف المسيحى منها ؛ ثم هبط اليمن مع قوافل التجار التى تيمم الشمال فى رحلاتها المنتظمة حتى بلغ معها بلاد الحجاز فصور مكان النبى عليه الصلاة والسلام فى أوائل سنى البعثة وصور صحابته تصويراً لا أظن ريشة المصور تبدع خيراً منه ، كما صور أعداءه وشتى وسائل عداوتهم له الى حصارهم إياه فى الشعب على ما هو معروف فى كتب السيرة ؛ وعبر بعد ذلك الى الشام فعرض صورة لدولة الروم وهى تناضل الفرس

نهجاً يشابه طريقة الفيلسوف الألمانى ، وهو إن خالفه فى الروح والمبادىء فانه يشابهه فى الأسلوب وطريقة الأداء التى يتميز بها كتاب « زارا تسترا » ، وقد تبوأ هذا الكتاب مكانه فى التفكير الغربى كانجيل جـديد يبشر بمذهب جديد فى الحياة وغايتها على الأرض ، مذهب هو أقرب الى الدعوات الدينية منه الى المذاهب الفكرية الفلسفية

وقد دعانى الى كتابة هذه الكلمة ما رأيته من خلاف فى نسبة « زارا » . على أن كل المصادر مجمعة على نسبته الى Zoroaster ، ولكن الخلاف هو فى تفسير Zoroastre هذا ؛ فالمستر « Rhys » فى مقدمة الترجمة الانجليزية طبعة (Everymein's Libray) يشير الى أنه زرادشت صاحب الديانة الفارسية القديمة ، وهكذا أيضاً تفسره دائرة المعارف الفرنسية « La Grande » ، وأما دائرة المعارف البريطانية فلم أجد بها ما يفسره

على أنه توجـد طبعة لترجمة إنجليزية أخرى بدار الكتب المصرية بالقاهرة تفسر هذا الاسم بأنه لأحـد آلهة الاغريق القدماء يدعى Zoroaster ؛ ولست أدرى المصدر الذى استقى منه محرر مقدمة هذه الطبعة . على أن هذا الرأى كفيل بأن يسترعى منا كل عناية واعتبار ، لأنه من المعلوم أن نيتشه كان متضلعاً فى الثقافة الاغريقية ؛ ثم إنه يدين للاغريق بكثير من إنتاجه وفلسفته ؛ وتأثره بآلهة الاغريق عميق ولاسيما الآلـه ديونيزوس Dionysus إلـه الخمر ، وقد أسهب فى هــذه النقطة البروفسور ليشتنبرجر Leachetenberger فى كتابه عن نيتشه المسمى « إنجيل السوبرمان » The Gospel of Superman

فلا نستبعد أن يكون نيتشه قد نسب بطل كتابه إلى هذا الآلـه الاغريقى القـديم اعترافاً منه بفضل الثقافة الاغريقية وتمجيداً لها . وهذا موضوع من الفائدة بمكان لو تبارت فيه عقول المحققين لتجلو غامضه وتظهر حقيقته ؛ وإنه لخليق بمجلة البحث والفكر « الرسالة » الغراء .

(المنصورة) . محمد فهمى

ذلك النضال الهائل الذى غلبت فيه فى أدنى الأرض ، وعرض بعدها صورة ثانية لمصر والاسكندرية وبين ما كان فيها من اضطراب وأحزاب الى أن دخلتها جيوش فارس بتدبير بعض الخونة مثل بطرس البحرينى المنافق

فصور القصة قد تدخلت فيها صور التاريخ تدخلا عجيبا كان من أثره أن جليت للعصر صفحة واضحة يكاد قارئها يحس أنه يحيا بين أهله ويتنفس فى جوهم

ولست بمستطيع فى هذه الكلمة الموجزة أن أذكر كل من جلاهم ذلك الكتاب القيم من شخصيات التاريخ ، فانك لا تكاد تجد اسما من الأسماء المعروفة فى هذه الفترة لم يبرزه فى ناحية منه ويصور له صورة حية ؛ ولكن شخصيتين من هذه الشخصيات كانتا مثالاً عالياً فى التصوير الأدبى ؛ ولعل المؤلف النابه قد قصد منهما أن يكونا رمزين للحزبين المتناضلين : حزب الرسول وحزب قريش ، ألا وهما حمزة بن عبد المطلب رمز المسلمين ، والنضر بن الحارث الطبيب رمز المكذبين من قريش . وأما أشخاص غير العرب فقد أبدع فى تصوير بعضهم إبداعا عظيما ، ومن هؤلاء بطرس البحرينى الذى قيل إنه كان آلة الفرس فى فتح الاسكندرية بالخديعة والخيانة

وإذا كان المؤلف الفاضل قد جمع بين القصة والتاريخ هذا الجمع فانه لم يقع فى خطأ وقع فيه كثير من القصصيين ، وذلك هو الخلط بين الخيال والحقيقة وما يترتب على ذلك من تشويه لكليهما ، فانه حرص على أن تكون وقائع التاريخ كلها صحيحة ، وبالغ فى ذلك فجمل فى هامش القصة ذكر بعض المراجع وبعض فقرات الايضاح ، واحتاط عند ذكر ما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام ، فما وقع منه فعلا نسبه إليه كما جاء فى كتب السيرة ، وأما ما كان فيه مدخل للخيال فقد قال فيه : « وإخاله قد فعل » . فهذا الكتاب حلقة مجيدة من سلسلة مجيدة ظهرت فى الأيام الأخيرة لبعض أعلام الأدب الحديث

وإنا إذا رأينا هذه النهضة المحمودة فى إيراد حوادث التاريخ على هذا الأسلوب كان علينا أن نبتهج ونغتبط وأن نشكر هؤلاء الأدباء الأعلام الذين يمهدون لجمهور القراء مثل هذا الغذاء العقلى السليم . ولا أظن أن فى استطاعة أحد أن يكافئ هؤلاء الأفاضل على ذلك المجهود الكبير ، اللهم إلا أن يكون رضاؤهم عن أنفسهم وشعورهم بأنهم قد أدوا للناس خدمة أدبية تفيد لغتهم الشريفة وتعمل على إعلاء نهضتهم المباركة . « فعلى هامش السيرة » للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين و (محمد) للأديب الكبير توفيق الحكيم و « باب القمر » للأديب الكبير إبراهيم رمزى ثلاثة أعلام يجدر بالعصر الحديث أن يفاخر بها

ولقد حاولت فى قراءتى لهذه القصة التاريخية أن أجد مأخذاً أدخله إلى مقالى حتى لا يكون كله صورة من الأعجاب الذى ملك على نفسى فلم أظفر من ذلك إلا برأى أظنه جديراً بأن يعرض ، وهو أن الاستطراد الكثير فى سياق القصة كان كثيراً ما يضيع شيئاً من تماسكها

وأمر آخر لمحته فى بعض المواضع وهو أن بعض القول كان على غير ما عليه الطبع . ومن ذلك أن سيدة كانت فى موقف حزن عميق إذ فقدت زوجها وولدها « تخنقها العبرات وتحدرت الدموع على خديها متداركة كقطرات السقاء المخلخل ، ولم يستطع ورقة (الذى كان فى موقف الصديق) أن يحبس دمعه لمدن هذا المنظر المؤلم فبكى لبكائها ثم تملك نفسه يقول : هونى عليك يا سيدتى . لا تضعفى نفسك بهذا الوجد ، أنت شابة وسرية كما أرى ، وستشرق عليك شمس حياة طيبة جديدة يوم تعودين إلى الأسكندرية ، وسيكون لك أولاد وزوج يحبينه . إن الله واسع الرحمة . ما أرجو منك إلا أن تضمى أمور الدنيا أمامك كما تضمين الكتاب ، وتقرئى فستجدين فى هذا الكتاب مخطوطاً بقلم عريض كبير : لا تنظرى إلى الوراء : أنظرى إلى الأمام . إذا ورد عليك فكر مؤلم فرديه بيدك وسيرى الى الامام لتبانى ما تعده الدنيا لشبابك وجمالك من النعمة والمتعة التى تنسين بها كل ما مضى الخ » . وإننى لأظن أن هذا القول ما كان يلائم أن يقال فى مثل هذا الموقف ولا سيما من قائله (ورقة) . على أننى أرى مع ذلك أن مثل هذا النقد ناشئ من اختلاف فى النظر والتفكير ، وما ينبغى أن يتفق الناس فى مثل هذه الأمور كل الاتفاق

وأما لغة الكتاب فانها اللغة الجديرة بكاتب مجيد كابراهيم رمزى جمع إلى لباقة الفنان متانة الأديب

فرحباً بذلك الفتح الجديد فى الأدب العربى . وما أحرانا أن نهنئ الأديب الكبير بنجاحه الباهر فى قصته ، وأن نستنجزه الوعد الذى وعد به فى آخرها أن يتحفنا بباب الشمس بعد أن أمتعنا بباب القمر .

جاءنا من صديقنا الدكتور عبدالوهاب عزام نقد لكتاب (معجم الأدباء) فى طبعته الجديدة ، ومن الأستاذ الشيخ أحمد يوسف نجاتى الأستاذ بدار العلوم رد على نقد كتاب (نفح الطيب) فأرجأناهما مضطرين إلى العدد القادم

فى المسرح المصرى

الفرقة القومية المصرية
وسياسة اعداد المخرجين

لناقد الرسالة الفنى

تحدثنا فى العدد الماضى عن بعثات التمثيل إلى أوربا وانتخاب اللجنة لأربعة من الأعضاء؛ اثنين من الممثلين واثنين من غيرهم. ونزيد اليوم أن أسماء هؤلاء الأعضاء قد أذيعت، وقد استولت الدهشة على كل المتصلين بالمسرح والذين يعنون بشؤونه، لأن اللجنة ترسل واحداً إلى انجلترا لدراسة المناظر المسرحية وتصميمها، وبقية الأعضاء إلى ألمانيا وفرنسا لدراسة فن الاخراج والتمثيل ولم ترسل أحداً إلى انجلترا فى حين أنها فى مستهل الموسم أذاعت على الممثلين أنها ترى أن ينهجوا على الطريقة الانجليزية فى أداء الأدوار لأنها أجدى على الفن، وهذا اعتراف صريح بما للمسرح الانجليزى من مكانة تفوق مكانة المسارح الأخرى

والثقافة الانجليزية هى الثقافة الغالبة والسائدة الآن ولا سيما بين الشبان منذ أصبحت الانجليزية اللغة الأوربية الأولى فى المدارس المصرية. والأدب المسرحى الانجليزى لا يقوم على العواطف والحب والصلات غير الشريفة كالأدب المسرحى الفرنسى، بل هو يعالج الشؤون الاجتماعية والدراسات النفسية والآراء الاصلاحية، ولذلك يحتاج إلى وسائل خاصة فى إخراج رواياته

ولست فى حاجة إلى القول بان المسرح الانجليزى يقوم على البساطة فى وسائله وطرق إخراجه، فقد رأينا فيما تعرضه الفرق الانجليزية على مسرح الأوبرا الملكية بالقاهرة شواهد عدة وهو فى هذا عكس المسرح الفرنسى الذى يقوم على الصناعة والمغالاة والتعقيد فى الاخراج. هذا إلى أن الاضاءة المسرحية فى انجلترا قد تقدمت حتى بزت جميع المسارح الأوربية. فأزاء هذا نرى من واجب اللجنة أن تبعث بأحد الممثلين الذين يجيدون الانجليزية إلى لندن ليدرس الفن هناك

وإنما طالبت بأن يكون المبعوث ممثلاً لا متعلماً أيا كان لأن الممثل أقدر من غيره على تفهم وسائل الاخراج والقيام بهذه المهمة فيما بعد، فان من الصعب على غير الممثل وهو يخرج رواية أن يرشد الممثلين إلى أداء الأدوار أداء صحيحاً أو رد أى ممثل إلى حدوده الشخصية إذا ما خرج أو شذ عنها

ولقد ازددنا دهشة حين لم نجد اسم الممثل الأستاذ أحمد علام بين أعضاء البعثة، ففى تخطى اللجنة له الى غيره من الممثلين وغير الممثلين قسوة وإنكار لجهوده الطويلة ومواهبه المظيمة؛ فأعضاء اللجنة المحترمون أكثر من غيرهم معرفة بمكانته الأدبية وثقافته الانجليزية واطلاعه الواسع على فنون المسرح، ومكتبته عامرة بكتب الفن الانجليزية التى ازدحمت هوامشها بالملاحظات الجديرة بالتقدير، كما تعلم أن وزارة المعارف قد عهدت اليه بتدريس الفن المسرحى فى مدارسها الأميرية، فقام بالمهمة خير قيام، وهو كممثل من أقدر الممثلين، فأدواره فى رمسيس منذ عام ١٩٢٦ تشهد بنبوغه، فلا يستطيع إنسان أن ينكر أدواره فى روايات: اللهب، والذئاب، والاغراء، وتوسكا، والشرف، وغرام الوحش؛ ولنجاحه المنقطع النظير فى فرقة السيدة فاطمة رشدى فى روايات: الحب المحرم، والبعث، ويوسف الصديق، ومجنون ليلى

ولقد أرسلته وزارة المعارف عام ١٩٣١ فى بعثة صيفية إلى انجلترا، فمن الواجب أن تعاونه اللجنة على إتمام دراسته، ولا أظن أن هنالك مجالا للاعتذار لأن فى بقائه تعزيزاً لقوة الفرقة القومية، فالواقع يؤيد أنها لا تنتفع به كما يجب فهو حتى اليوم لم يظهر على المسرح ولا ينتظر ظهوره حتى الرواية الرابعة، وعلى اللجنة ألا تنظر إلى المنفعة القريبة بل تنظر للمستقبل، وتعمل للبناء حتى عكنها أن تجنى ثمار جهودها الكبيرة

هذه كلمة دفعنا اليها حبنا للمسرح نرجو أن يكون لها أثرها

يوسف



4 me Année, No. 181

Lundi - 21 - 12 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـدد ١٨١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ شوال سنة ١٣٥٥ — ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

اللســـــان المرقَّع ... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

وقال صاحب سر (م) باشا : جاء « حضرة صاحب السعادة » فلان لزيارة الباشا ؛ وهو رجل مصريٌّ وُلد فى بعض القُرى ، ما نعلم أن الله تعالى ميزه بجوهرٍ غير الجوهر ، ولا طبعٍ غير الطبع ، ولا تركيبٍ غير التركيب ، ولا زاد فى دمه نقطة زهوٍ ولا وضعه موضع الوسط بين فَنَّين من الخليقة . غير أنه زار فرنسا ، وطاف بانجلترا ، وساح فى إيطاليا ، وعاج على ألمانيا ، ولوَّن نفسه ألواناً ، فهو مصريٌّ ملوَّن . ومن ثم كان لا يرى فى بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك ، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلاً لشهوات أحبها وغامر فيها ، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودَّ لو كان من أهلها ، ولا تاريخُ قومه إلا مغمى عليه ... كالميت بين تواريخ الأمم

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعَّمين : مصرى المال فقط ، إذ كانت أسبابهم ومستغَلاتهم فى مصر ؛ عربيُّ الاسم لاغير ،

(١) أذكرتنى مقالة الأستاذ الزيات (استقلال اللغة) بحديث من أحاديث صاحب سر (م) باشا كنت أرجأت نشره الى حين فها هو هذا

إذ كانت أسماؤهم من جناية أهليهم بالطبيعة ؛ مُسلمٌ ما مضى دون ما هو حاضر ، إذ كان لا حيلة فى أنسابهم التى انحدروا منها

هو كغيره من هؤلاء المترفين المتَمِّمين المفتونين بالمدنية ، لكل منهم جنسه المصرىُّ ولفكره جنس آخر

قال : وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التى تلعنها العربية ، مرتفعاً بها عن لغة الفصيح ارتفاعاً منحطاً . . . نازلاً بها عن لغة السُّوقة نزولاً عالياً ... فكان يرتضخ لكنة أعجميةً بينا هى فى بعض الألفاظ جرسٌ عالٍ بطن ، إذا هى فى لفظ آخر صوت مريض يئنّ ، إذا هى فى كلمة ثالثة نغم موسيقى رن . ورأيته يتكلف نسيان بعض الجمل العربية ليلوى لسانه بغيرها من الفرنسية ، لا تظرُّفاً ولا تملحاً ولا إظهاراً لقدرة أو علم ، ولكن استجابة للشعور الأجنبى الخفى المتمكن فى نفسه . فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذّب وطنية لسانه ، وهو باحداها زائفٌ على قومه ، وبالأخرى زائف على غير قومه

***

فلما انصرف الرجل قال الباشا : أفٍّ لهذا وأمثال هذا ! أفٍ لهم ولما يصنعون ! إن هذا الكبير يلقبونه « حضرة صاحب السعادة » ، ولأشرفُ منه والله رجلٌ قروىٌّ ساذج يكون لقبه « حضرة صاحب الجاموسة » . . . . نعم إن الفلاح عندنا جاهلُ علم ، ولكن هذا أقبح منه جهلاً فانه جاهلُ وطنية

ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن ؛ فما هو عمل حضرة (صاحب اللسان المرقّع) هذا ؟ إن عمله أن يعلن بطانته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مَهينة ، وأنه مُتجرد من الروح السياسى للغة قومه إذ لا يظهر الروح السياسى للغة ما إلا فى الحرص عليها وتقديمها على سواها

كان الواجبُ على مثل هذا ألا يتكلم فى بلاده إلا بلغته ، وكان الذى هو أوجبُ أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها فى أرضها ، فترك هذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه ؛ فهو على أنه « حضرة صاحب سعادة » لا يُنزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبى فى حانة

أندرى ما هو سر هؤلاء الكبراء وهؤلاء السَّراة الذين يطمطمون إذا تكلموا فيما بينهم ؟ إنهم عندنا طبقات :

أما واحدة فأنهم يصنعون هذا الصنيع منجذبين الى أصل راسخ فى طباعهم مما تركه الظلم والاستبداد والحمق فى زمن الحكم التركى . فهم يُبدون جوهرَ نفوسهم لأعينهم وأعين الناس ، كأن اللغة الأجنبية فيما بينهم علامة الحكم والسلطة واحتقار الشعب واستمرار ذلك الحمق فى الدم . . . . وهم بها يتنبَّلون

وأما طبقة فانهم يتكلفون هذا مما فى نفوسهم من طباع أحدثها النفاقُ والخضوع والذلُّ السياسى فى عهد الاحتلال الانجليزى ؛ فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتداد ، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذى فقد السلطة وهم بها يتمجدون

وأما جماعة فأنهم يتعمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقة انتحلوها ومذهباً انتسبوا إليه ؛ وفيهم العالم بعلوم أوربا والأديب بأدب أوربا ؛ وذلك من عداوتهم للدين الاسلامى إذ جعل هذه اللغةَ حكومةً باقيةً فى بلادهم مع كل حكومة وفوق كل حكومة ؛ وهم يزدرون هذا الدين ويُسقطون عن أنفسهم كلَّ واجباته . وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً إذ يغلون فى مصريتهم غلواً قبيحاً ينتهى بهم إلى سفه الآراء وخفة الأحلام وطيش النزعات فيما يتصل بالدين الاسلامى وآدابه ولغته . وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفُه من حيث هو رقيعٌ ، على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء . إن هذا المقتٌ (كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا)

ومن أثر تلك الفئات الثلاث نشأت فئةٌ رابعة تحوَّل فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقة نفسية فى النفس ، فهم يُقحمون فى كتابتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية ويحسبون عملهم هذا تظرفاً ومعابثةً ومجوناً ، على أنه هو الذى يُظهِرُ لعين البصير مواضع القطع التاريخى فى نفوسهم ، وأماكن الفساد القومى فى طبيعتهم ، وجهاتِ التحلل الدينى فى اعتقادهم . هؤلاء يكتب أحدهم (النرفزة) وهو قادر أن يقول الغضب ، (والفلير) وهو مستطيع أن يجعل فى مكانها المغازلة ، (وسكانس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان ، وهكذا وهكذا : ولا والله أن تكون المسافةُ بين اللفظين إلا المسافة بعينها بين قلوبهم ورشد قلوبهم

وما برح التقليدُ السخيف لا يعرف له باباً يلج منه الى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح ؛ ونحن قومٌ ابتُلينا بتزوير العيوب على أنفسنا وعدِّها فى المحاسن والفضائل ، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن . وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقتبس من مزايا الأوربيين فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبَهم إذ كانت هى الأسهلَ علينا ، وهى الأشكلُ بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون

ومن هذا نجد مشاكلنا الاجتماعية على أنها أهونُ وأيسرُ من مشاكل الأوربيين ، وعلى أن فى ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها – نجدها هى علينا أصعبَ وأشدَّ لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون ، وكل ذلك من شىء واحد : وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا

***

قال صاحب السر : ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال : كيف تصنع أمة يكون أكثر العاملين هم أكبرَ العاطلين ، إذ يعملون ولكن بروح غيرِ عاملة . . .

(طنطا)

طور جديد

فى تاريخ أوربا السياسى

بقلم باحث دبلوماسى كبير

تجوز أوربا اليوم مرحلة فاصلة فى تاريخها القومى والسياسى . وقد ظهرت الأعراض الأولى لهذه المرحلة الجديدة فى التاريخ الأوربى عقب الحرب الكبرى ، إذ قامت عصبة الأمم لتحقق أمنية عالية ، ولتؤيد مبادئ السلام والتفاهم بين الأمم ، ولتحاول القضاء على الحرب كأداة للسياسة القومية ؛ وقد كان قيام العصبة وما تحمل من مبادئ ومثل جديدة فى السياسة الدولية ، وفى علائق الأمم ظاهرة جديدة فى تاريخ أوربا السياسى ؛ فقد كانت أوربا حتى الحرب الكبرى تمثل من الناحية العامة كتلة معنوية موحدة ، وكانت تأخذ بزعامة العالم القديم ، وتحاول دائماً أن تفرض عليه حضارتها وسلطانها السياسى ؛ وكانت أوربا تحتفظ باستقلالها المعنوى وسيادتها القديمة بين الشرق القديم وأممه من ناحية وبين العالم الجديد (أمريكا) وأممه من ناحية أخرى ؛ ولكن الحرب الكبرى أسفرت عن ظاهرة جديدة هى تراجع أوربا عن دعواها القديمة فى الاستئثار بزعامة العالم القديم ، وإفساحها المجال لزعامة أمة عظيمة ناهضة هى اليابان التى استطاعت فى الأعوام العشرة الأخيرة أن تقوض أسس النفوذ الأوربى فى الشرق الأقصى ، وشهدت أوربا لأول مرة تدخل العالم الجديد فى شؤونها الحيوية ؛ وقامت عصبة الأمم لتجمع أمم الشرق وكثيرا من أمم العالم الجديد مع أوربا فى صعيد واحد ؛ وبذلك نزلت أوربا أمام تطور الظروف والحوادث العالمية عن زعامتها القديمة واستئثارها القديم بالقيادة السياسية والمعنوية فى شؤون العالم

وهذا التطور فى موقف أوربا يرجع الى الثغرة العميقة التى أحدثتها الحرب الكبرى فى القومية الأوربية ؛ فقد خرجت أوربا من الحرب محطمة ناضبة الموارد ، وانقسمت إلى معسكرين كبيرين هما معسكر الغالبين ومعسكر المغلوبين ؛ واستأثر الفريق الظافر مدى حين بالزعامة فى توجيه الشؤون ، فأملى على المغلوب شروطه المرهقة ، وعمل على تمزيق الوحدات السياسية القديمة ، وإحياء قوميات ناشئة ليحقق ببقيائها أغراضاً عسكرية وسياسية ؛ وبذلك مزقت أوربا نفسها ، واضطرمت الأحقاد القومية القديمة أضعاف ما كانت قبل الحرب ؛ وكان اضطرامها أشد فى الجبهة المغلوبة أو المغبونة ؛ ولم يلبث أن أسفر هذا الاضطرام عن النتيجة المحتومة ، أعنى الانفجار ؛ فقامت الفاشية فى ايطاليا ساخطة على هذه الزعامة وهذا الاستئثار فى استخلاص المغانم والأسلاب وفى توجيه الشؤون ، وأخذت تعمل على إنشاء قومية إيطالية حديثة ، تضطرم بمختلف الأطماع المشروعة وغير المشروعة ، وتسرف فى الحقد ، وفى الوعيد والتحدى ، وتمعن فى انتهاك النظريات والمبادئ القديمة المتعلقة بالحقوق والحريات الشعبية ، وتسخر من دعوة السلام ومن مبادئ العدالة الدولية . وقامت الاشتراكية الوطنية بعد ذلك فى ألمانيا ، وشعارها الانتصاف لألمانيا مما نزل بها من فروض مرهقة ، وتحريرها من الأغلال التى

طوق بها الغالب عنقها ، والارتفاع بها الى مكانتها القديمة فى معترك الحرب والسياسة ؛ ولكن الاشتراكية الوطنية ، عملت من ناحية أخرى على إذكاء الأحقاد القومية والجنسية ، بصورة لم يسمع بها ، وقد فاقت الفاشية فى عنف أساليبها . وفى نزعاتها العسكرية والاعتدائية ، وفى سحق الحقوق والحريات الفردية ، وإنكار الحقوق العامة ، وفى تحدى كل مبادئ العدالة الدولية ، وعادت النظرية الألمانية القديمة « الحق هو القوة » فى أخطر صورها ؛ ولم تشهد أوربا منذ حرب الثلاثين ، والحروب الدينية موجة فى الاحقاد والمنافسات القومية والجنسية أشد من تلك التى تثيرها اليوم الفاشية الايطالية والنازية الألمانية

تلك هى الظاهرة الأولى فى انحلال القومية الأوربية . وأما الظاهرة الثانية فهى معركة المبادىء التى تضطرم اليوم فى أوربا بصورة لم تشهدها منذ الثورة الفرنسية ؛ ولقد بدأت هذه المعركة قبل نهاية الحرب الكبرى ، حينما ظفرت البلشفية بتحطيم دولة القياصرة فى روسيا ، وأقامت مكانها جمهورية شيوعية تمثل سيادة الكتلة العاملة ؛ وكانت المعركة يومئذ واضحة محدودة المدى ؛ فقد كانت البلشفية فى ناحية ، وكانت أوربا كلها فى الناحية الأخرى تناضلها وترد غزوها ؛ بيد أن هذا النضال بين البلشفية والرأسمالية يغدو اليوم فى المحل الثانى بالنسبة لمعركة أشد وأبعد مدى تضطرم بها أرجاء القارة الأوربية ، تلك هى معركة الفاشية والديموقراطية ؛ فالفاشية أو بعبارة أخرى نظم الطغيان المنيف التى تحمل لواءها ايطاليا والمانيا ، تحاول أن تغزو الديموقراطية الأوربية وأن تصرعها ؛ والديموقراطية الأوربية تناضل عن كيانها بكل ما وسعت . وما زال حصن الديموقراطية فى غرب أوروبا : فى فرنسا وانكلترا ؛ بيد أنه يمكن أن يقال أيضا إن روسيا البلشفية تنحاز فى هذا الصراع الى جانب الديموقراطية ؛ وليس أدل على خطورة هذا الصراع ، مما نرى فى الحرب الأهلية الاسبانية من انتظام القوى الفاشستية والقوى الديموقراطية وجهاً لوجه ، واعتماد الأولى على معاونة ايطاليا والمانيا ، واعتماد الثانية على معاونة روسيا وفرنسا ، وظهور الحرب الاسبانية كأنها مظهر الصراع بين هاتين الجهتين الخصيمتين . فهذا الصراع المذهبى الذى يخرج اليوم من طور الجدل والنقاش ، الى طور النضال المادى ، يهز أسس القوميات الأوربية ويهددها بأروع الأخطار التى يمكن تصورها

وهنالك ظاهرة عامة ليست أقل خطورة وأثرا فى تطور تاريخ أوربا السياسى ، تلك هى انهيار المبادىء العامة التى يقوم عليها القانون الدولى ، وانهيار الضمانات القومية والدولية التى كانت تكفل احترامه وتطبيقه . فنى الأعوام الأخيرة رأينا بعض الدول الكبرى ، مثل اليابان وايطاليا وألمانيا ، تعمل على انتهاك المعاهدات والحقوق القومية والدولية بجرأة ترجع بالسياسة الدولية الى فوضى العصور الوسطى ؛ فاليابان تعتدى على منشوريا الصينية وتفتحها بالقوة المسلحة أمام سمع العالم وبصره ، وتتحدى عصبة الأمم ، ثم تغادرها لكى تطلق العنان لمشاريعها الاستعمارية دون أى تدخل أو وازع ، وما زالت تتابع اعتداءها على الأراضى الصينية طبقاً لخطة منظمة ترمى الى بسط حمايتها المسلحة على هذه الامبراطورية الشاسعة ؛ وإيطاليا تحذو حذو اليابان ، فتنظم اعتداءها على الحبشة ، وتجرد أقوى وأحدث وحداتها على الشعب الحبشى الضعيف ، وتمطره وابلاً من القنابل الجوية والغازات الخانقة ، ثم تنتزع منه أرضه قسراً ، وتضمها الى إيطاليا ؛ وذلك على رغم كل العهود والمواثيق الدولية التى قطعتها على نفسها باحترام استقلال الحبشة ووحدتها الجغرافية ، ورغم ما اتخذته عصبة الأمم فى هذا الظرف من تقرير العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ؛ وهاهى ذى الفاشية تباهى اليوم بظفرها ، وتسخر جهاراً من عصبة الأمم ومن كل المعاهدات والمواثيق الدولية ، وهى على أهبة لتمزيق أى ميثاق وأية معاهدة لا تتفق مع أطماعها العسكرية والاستعمارية . وأما ألمانيا الهتلرية ، فقد خصت بضرباتها أعظم دستور دولى وضع لأوربا منذ معاهدة فينا ، ونعنى معاهدة الصلح أو معاهدة فرساى ، فنقضت جميع نصوصها العسكرية التى كانت تقيد حريتها فى التسليح ، والتى تتعلق بتحريم منطقة الرين ، ونقضت أخيراً نصوصها الخاصة بنظام الملاحة الدولية فى بعض الأنهار الألمانية ؛ ونقضت وثيقة دولية هامة أخرى هى ميثاق لوكارنو الذى عقد لتدعيم معاهدة فرساى وتأمين السلام فى الحدود الفرنسية الألمانية ؛ وحطمت ألمانيا بذلك آخر القيود العسكرية والسياسية التى فرضت عليها فى

معاهدة الصلح . ومهما قيل فى تبرير هذا النكث من جانب ألمانيا وكونها حملت عليه مضطرة لتقضى بذلك على الأغلال الظالمة التى فرضتها عليها معاهدة الصلح ، والانتصاف لسياستها القومية ، وكرامتها كدولة عظمى ، فانها بلا ريب قد عملت أكثر من أى دولة أخرى لتمزيق العهود والمواثيق الدولية ، ولتقويض أسس الثقة بين الأمم وإضعاف هيبة القانون الدولى ؛ ولا ريب أنها قد أعادت للعالم ذكرى اعتدائها على البلجيك فى سنة ١٩١٤ وذكرى نظريتها الشهيرة فى المعاهدات الدولية بأنها « قصاصات ورق» لا يعتد بها

فهذه الظواهر والظروف الخطيرة تهز اليوم أسس الدستور الدولى الذى عاشت القارة الأوربية فى ظله منذ معاهدة فينا ، — أعنى منذ قرن وربع — وتدفع بها إلى طريق جديد لم تتضح طوالعه بعد . بيد أن هنالك ما يدل على أن هذا المصير الذى تهيأ أوربا لاستقباله سيكون هائلاً مروعا ؛ فالدول العظمى تستعد كلها لخوض أعظم معارك عرفها التاريخ ؛ والدول الصغرى ترتجف كلها فرقاً من المستقبل ، وتحسب لاعتداء القوة المسلحة أعظم حساب ؛ وهى لا تستطيع أن تعتمد على قوة المواثيق والضمانات الدولية كما كانت فى الماضى بعد الذى رأته من عبث بعض الدول العظمى بكل هذه المواثيق والضمانات ، ولكنها تزمع فى جميع الأحوال ألا تسقط دون دفاع : فالبلجيك وهولندة وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وسويسرة وغيرها من الدول الصغيرة تجد فى تسليح نفسها بكل ما وسعت ، وبعضها مثل البلجيك وهولندة ينظر بمنتهى الجزع إلى مصير أملاكه الاستعمارية الواسعة ؛ على أن هذه الدول تندمج غالباً فى إحدى الجبهتين الأوربيتين اللتين تستعدان لخوض المعركة القادمة ، ومصيرها يتوقف على مصاير المعركة ذاتها

وقد فقدت أوربا القديمة زعامتها العالمية ، وفقدت حتى زمام سياستها الخاصة ؛ فاليوم نجد دولة أوربية عظمى هى ألمانيا تحالف دولة أسيوية عظمى هى اليابان ضد روسيا وضد الجبهة الأوربية التى تندمج فيها . وهذا تطور خطير فى سياسة أوربا التقليدية التى حرصت دائماً أن تواجه الشرق متحدة ؛ وهذه ظاهرة تعود بنا إلى القرن السادس عشر والسابع عشر حينما كانت فرنسا تستعين بمحالفة الدولة العثمانية على قتال خصومها الأوربيين ولا سيما أسبانيا ؛ وقد استطاعت أوربا أن تقضى على هذه الظاهرة ، وأن تقف طوال القرن التاسع عشر متحدة ضد الدولة العثمانية حتى انتهت بتمزيقها ؛ وفى الحرب الروسية اليابانية كانت أوربا كلها تتوجس شراً من انتصار اليابان ، ولو أن دولا أوربية كانت تتمنى ألا تنتصر روسيا انتصاراً يؤدى إلى تقوية سلطانها فى القارة ؛ ولما انتصرت اليابان ارتاعت أوربا ، وذاعت من ذلك الحين صيحة الخطر الأصفر ، واجتمعت أوربا على مقاومة الاستعمار اليابانى حتى كانت الحرب الكبرى فانضمت اليابان ألى الحلفاء ضد ألمانيا ، واستولت على أسلابها الاستعمارية فى الصين . أما اليوم فان ألمانيا تحالف اليابان ضد أوربا ، وتحدث بذلك ثغرة عميقة فى إجماع أوربا القديم ، وتجمع الشهوات العسكرية والاستعمارية بين الجنس الأصفر الذى اعتبر فيما مضى خطراً على أوربا ، وبين الجنس « الآرى » الذى تزعم ألمانيا الهتلرية أنه أفضل أجناس العالم

وأخيراً نجد العالم الجديد (أمريكا) يتأهب للأخذ بنصيبه فى توجيه سياسة القارة القديمة ؛ وقد دخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء ، وعاونت على ظفرهم فى المعركة الحاسمة ، واشتركت فى شؤون أوربا مدى حين ، ولكنها انسحبت منها حينما تفاقمت الفوضى الدولية فى أوربا ، وعادت إلى سياستها التقليدية من اعتزال الشؤون الأوربية ، بيد أنه يلوح لنا أن التحالف اليابانى الألمانى قد يحملها على العود الى الاشتراك فى السياسة الأوربية مرة أخرى ، والى محالفة الدول الغربية على العمل لمصالحها المشتركة فى الشرق الأقصى ، وهذا عامل خطير أيضاً فى إضعاف الطابع الأوربى للسياسة الدولية العامة

والخلاصة أن أوربا فقدت زعامتها السياسية والاجتماعية القديمة ، وأخذت تندمج شيئاً فشيئاً فى الوحدة العالمية الكبرى ؛ وقد فقدت فكرة الحضارة الأوربية ، وخصومة الشرق والغرب ، والتضامن الأوربى فى الشؤون الاستعمارية كثيراً من معانيها وأوضاعها القديمة التى كانت تسبغ على أوربا مكانة الزعامة والوحى والارشاد

(***)

ســــوء تفاهم

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كانت الساعة العاشرة حين خرجت السيارتان إلى الطريق العام — أو صعدنا إليه إذا أردت الدقة فان الأرض هناك ، فى لبنان ، قلما تكون مستوية — وكنت أقود إحداهما ومعى فيها زوجتى وأبنائى ، وفى الثانية أقارب لنا يقضون الصيف فى « ضهور الشوير » وقد مروا بنا فى بكفيا — حيث كنا نقضى الصيف — ليرافقونا إلى « الشاغور » حيث دعينا إلى الغداء عند أسرة صديقة لنا من يافا . وتوكلنا على الله وأخذنا الطريق إلى بيروت وكله من بكفيا انحدار وبعضه أوعر من بعض ، ولكنى كنت قد ألفته وزايلنى الخوف من التواءاته وتعاريجه الحادة التى يثب عندها القلب إلى الحلق . وكان اليوم مشرقاً والمناظر على الجانبين مما ترتاح العين إليه وينشرح الصدر له ، والطريق أحسن ما يكون نعومة وملاسة وإن كان مما يدير الرأس أحياناً أن يصوب المرء عينه عن الجبل الأخضر من ناحية إلى الوادى العميق من الناحية الأخرى ؛ وكان لا بد من العناية والحذر فى السير لشدة الانحدار وكثرة المنعرجات وازدحام الطريق بالصاعدين والنازلين فيه بالسيارات الخفيفة والثقيلة والضخمة والصغيرة ، فكان البطء الذى اضطرنا إليه الحذار من أسباب المتعة ، فاستطعنا أن نتملى بالمناظر التى حولنا وأن نتحدث كما نشاء ونجنب الصمت الذى تدعو إليه السرعة والذى لا يكون إلا ثقيلاً على المسافرين

واحتجنا أن نتزود من « البنزين » ولم يكن معنا إلا ورق مصرى ، فقالت زوجتى وأنا أناول الرجل ورقة مصرية بجنيه وآخذ الباقى : « ماذا أعطاك ؟ »

ففتحت لها كفى على ما فيه فأخذته وعدَّته ، ثم سألتنى : « كم أعطوك ؟ ... إنى لا أفهم ! »

قلت : « الجنيه المصرى يساوى ٣٩٤ قرشاً سورياً ، وقد أخذوا حقهم وأعطونى حتى وهو معك »

فقالت زوجتى والتفتت لأقاربنا « لست أفهم ... لقد كان الجنيه يساوى ٣٩٧ قرشاً »

فقلت : « ولكن الفرنك ارتفع وارتفعت تبعاً له العملة السورية »

فقالت مستغربة : « ولكن لماذا أهملت أن تستبدل النقود المصرية قبل أن يهبط »

قلت وأنا أبتسم : « إنه لم يهبط بل ارتفع »

فقالت وهى تخلط : « كيف يكون ارتفع وهو قد هبط .. ألسنا نأخذ أقل »

فقالت قريبتنا : « تمام .. ٣٩٤ أقل من ٣٩٧ »

فقلت : « دعينى أشرح لك الأمر .. تصورى أن الفرنكات التى فى الدنيا كلها انقلبت تفاحاً »

فقالت زوجتى : « نعم »

قلت : « وتذهبين إلى السوق وتجدين التفاح كثيراً فتشترين الأقة بخمسة قروش »

قالت : « نعم »

قلت : « وفى أثناء الليل يرتفع التفاح »

فقالت قريبتنا : « كيف يرتفع »

قلت : « يقل .. هه .. يتعفن .. يسرق .. تصيبه آفة ... يقل والسلام ؛ فاذا ذهبت تشترين أخذت بالقروش الخمسة أقل من أقة »

فقالت قريبتنا : « يعنى أنه يهبط »

قلت : « يصعد »

قالت : « كيف يصعد وهو أقل ؟ »

فقال زوجها : « اسمى .. أنا أفهمك المسألة ... تعرفين مقياس الحرارة »

قالت : « بالطبع .. ماله ؟ »

قال « لا شىء . . تنظرين إليه يوماً فتجدين أن الرقم الذى يشير إليه ثلاثون ؟ »

قالت : « نعم »

قال « وفى اليوم الثانى تنظرين إليه فاذا الرقم قد صار ٢٨ ... ومعنى هذا أنها هبطت

قالت : « نعم »

قال : « أما الفرنك فان المعنى بكون العكس »

قالت : « نعم »

قال : « هذا كل ما هنالك »

فنظرت اليه كالمذهولة وكنا نحن نضحك ؛ فقالت زوجتى وهى تجرها : اسمى ... إنهم يضحكون منا ويخيل إلى أن أسلم طريقة أن نقول إن الفرنك صعد كلما فهمنا أنه هبط »

واستأنفنا السير وكنا قد ملنا عن طريق بيروت إلى طريق (عاليه) وفرغنا من الانحدار وبدأ الصعود والطريق فى هذا الجبل أوسع وأرحب والتواؤه أقل حدة ، فأطلقنا للسيارتين العنان ، ولم تمنع السرعة زوجتى أن تتكلم فقالت : « إنى أشعر أننا لن نجد زينب » تعنى الصديقة التى دعتنا إلى الغداء . ففزعت وكادت عجلة القيادة تضطرب فى يدى وقلت لها بصوت تشى لهجته بالقلق : « لماذا ؟ »

فلم تجب بل سألتنى : « ماذا قلت لها بالتليفون .. بالضبط ؟ »

قلت : « قلنا كلاما كثيراً .. وألححت عليها أن تجىء لتتغدى معنا فى بكفيا ولكنها أصرت إصراراً شديداً على أن نذهب إلى الشاغور .. وأذكر تماماً وبغاية الوضوح أنها وصفت لى عين الماء التى هناك »

فأشارت إلى بكفها أن اسكت وقالت : « ماذا قلت لها بالضبط . هـذا ما أريد أن أعرفه فلا تغرقه فى طوفان من الوصف الذى لا يفيد شيئاً ... وإذا كنت تريد أن تصف الشاغور فانتظر حتى تراه »

قلت : « ماذا قلت بالضبط ..؟ ياله من سؤال .. اتفقنا على اليوم .. وأؤكد لك أنى لم أترك عندها أى شك فيه .. صرخت حتى بح صوتى .. قلته بالعربية .. وقلته بالفرنسية Samedi »

فصاحت زوجتى Samedi ؟

قلت : « بأعلى من هذا الصوت »

قالت : « هل قلت Samedi .. هذا معناه السبت لا الأحد »

فتداركت الخطأ وقلت وأنا مضطرب « لا لا لا لا بل قلت Dimanche »

وجرى ببالى أنى لا أزال أغلط فى أسماء الأيام باللغة الفرنسية ولكنى كافحت هذا الخاطر حتى نفيته وطردته وقلت لها : « وهبينى أخطأت فقد قلت لها بالانجليزية Sunday ولا يمكن أن أغلط فى هذا »

قالت : « سنرى »

فقلت وأنا محنق : « سنرى .. ألا يمكن أن أتكلم بالتليفون من غير أن تتهمينى بالتخليط ... هل هـذا التليفون معجز ..؟ سبحان الله العظيم ! »

قالت : « طيب اسكت بقى »

* * *

فسكت . ووصلنا الشاغور ودخلنا الفندق وسألنا عن السيدة وزوجها فقيل لنا إنهـا خرجت معه فى الصباح الباكر وإنهما قالا إنهما سيرجعان بعد المغرب ؛ فنظرت إلىّ زوجتى نظرة ذات معنى ، ولم تكفها النظرة بل راحت تقص الحكاية على أقاربنا باسلوب وكلام لا يدعان أى شك فى أنى حمار من أطول الحمير آذاناً وأنا ساكت ، لأن كل شىء كان يثبت أنها هى الصادقة وأنا الكاذب أو على الأقل المخطىء . ولا أحتاج أن أقول إنى اضطررت أن أطعم كل هذا الجيش على حسابى . ولكن اليوم كان على الرغم من هذه الخسارة الفادحة ممتعاً وكان أحلى ما فيه أننا نمنا على الأرض بعد الغداء الباهظ التكاليف بجانب المـاء الذى يتدفق كالشلال من العين وهو يرغى ويزبد ثم يتحدر فى أقنية ضيقة محفورة له تتخلل الحديقة الواسعة

ولمـا آن أن نعود تركت هذه الرقعة لصديقنا وزوجته :

« لا شك أن النسيان أرخص . ولكنه كلفنى ما أخشى أن أحسبه ، فقد جئنا إليكما من غير أن نفطر فنجوتما أنتما ووقعت أنا فى الفخ ؛ وصدق مرة أخرى أن من حفر بئراً لأخيه وقع فيها . على أن هذا هين وإنما الذى يضيق صدرى به ولا أكاد أقوى على احتماله أن زوجتى تحملنى التبعة عن هربكم ، وإذا كنت لا أطمع فى أن تردوا إلى ما أنفقته على إشباع هذه البطون الجائعة كلها ، فأنى أطمع أن تردوا ثقة الزوجة بى وذلك بأن تعترفوا بأنكم هربتم »

* * *

ولم نكد نبلغ بيتنا حتى وقفت الصانعة — كما يسمون الخادمة فى لبنان — وقالت لنا : إن السيدة زينب وزوجها كانا

هنا ودفعت إلى ورقة فيها هذه العبارة الوجيزة :

« لا بأس ! لعلكم نسيتم . والآن يجب أن تجيئوا أنتم إلينا . ولن نهرب منكم كما هربتم منا »

قرأتها وهممت أن أدسها فى جيبي ولكن زوجتى سألتنى ماذا فيها ؟ فقلت إنهما يعترفان بخطئهما ، ودفعت إليها الرقعة وذهبت أعدو .. وكيف أقنعها بأن الذى وقع خطأ غير مقصود .. كلا . لا فائدة . والهرب أحجى وأرشد ... حتى تهدأ الفورة

إبراهيم عبد القادر المازني

فى الأدب المقارن

غرض الأدب
فى الأدبين العربى والانجليزى
للأستاذ فخرى أبو السعود

التعبير عن خوالج النفس الانسانية وتأثراتها بمظاهر الكون المحيطة بها هو غرض الفنون جميعاً ومن بينها الأدب . ولا يرقى الأدب إلى مرتبة الفن السامى حتى يكون ذلك التعبير عن الشاعر النفسية غرضه الوحيد ، منزهاً عن كل غرض خارجى أو مطلب مادى ؛ فاذا خالطه شىء من ذلك هبط إلى مرتبة الصناعة ، ولم يعد له فى النفوس ذلك الوقع المطرب الذى تتركه فيها الفنون الجميلة

وقد ظل التعبير الحر الصادق عن نوازع النفس غرض الأدب الانجليزى الوحيد فى أغلب عصوره ، فلم يكن غرض الكاتب أو الشاعر مما ينشىء إلا الافصاح عما يشعر به أو يفكر فيه ؛ فزخر الأدب فى عصوره المتوالية بألوان الشعور وأشتات الأفكار فى مختلف مشاعب الحياة ومتباين حالات النفوس ؛ وتناول بالتصوير والتحليل دخائل النفوس وأغوار الطباع وأطوار الأفراد والمجتمعات ، ولم يدع لخوله شاردة ولا واردة من نوازعهم وبوادرهم ومشاهداتهم وتأملاتهم إلا أثبتوها فى منشآتهم وأبرزوها فى روائع الصور

وكذلك كان التعبير الصادق المنزه عن الغرض الخارجى غاية الكثير مما نظمه الشعراء وسطره الكتاب فى العربية ، وحفل الأدب العربى بالرائع من الحكم والأمثال والدقيق من أوصاف النفس وغرائزها وميولها ؛ وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى أو يشار إليها ، وإنما نذكر منها الوصايا المنسوبة إلى بعض فحول العربية ، كذى الاصبع العدوانى وعلى بن أبى طالب ، ومنها وصية ابن هراسة لابنه حيث يقول : « إن من الناس ناساً ينقصونك إذا زدتهم ، وتهون عليهم إذا أكرمتهم . ليس لرضاهم موضع فتقصده ، ولا لسخطهم موقع فتحذره . فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودة ، وامنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزاً دون شرهم ، وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعاً بحرمتهم »

غير أن فى الأدب العربى بجانب ذلك آثاراً كثيرة لم يكن التعبير عن خوالج النفس غرضها ، ولا الصدق شعارها ، فهى لذلك لا ترقى إلى مرتبة الفن الجميل ، ولا تؤثر فى النفس تأثيره ، وإنما هى أدنى إلى الصناعة ؛ لها كالصناعة غرض مادى تؤديه وغاية خارجية تخدمها . ولا غرو كان العرب يسمون النظم والنثر بالصناعتين ، ويعدون الأدب « صناعة » أو « آلة » « يتعاطاها » صاحبها ، ولم يكن لكلمة « الفن » لديهم ما لها اليوم من المعنى السامى

بلغ الأدب العربى مرتبة الفن السامى فى عصر الجاهلية ، حين كان أشراف القبائل وحكماؤها يودعون الشعر حكمتهم وأطرابهم وأحزانهم ؛ فلما قامت الدولة العربية صحبتها عوامل لم تكن لتساعد على اطراد رقى الأدب فى وجهته الصحيحة ، بل عملت فى غير ناحية على تقهقره وفقدانه ما كان له فى الجاهلية من قوة وصدق وسمو ، وهى سمات الفن الصحيح ، حتى أصبح من السهل تقسيم الآثار الأدبية ، بل تقسيم آثار كل أديب مفرد ، إلى قسمين : قسم صادق يصدر عن شعور صحيح ويدخل فى دائرة الفن السليم ، وقسم كاذب مملوء بالمفارقات والمبالغات يمت إلى الصناعة ولا يمت إلى الفن

وأول تلك العوامل ذيوع التكسب بالشعر ، فأنه جعل للشعر غرضاً سوى التعبير عن خوالج النفس الذى هو غرض

الفنون جميعاً ، وصـير له غاية مادية هى صلة الممدوح التى قامت مقام الحافز النفسى والشعور الصادق ، فسارع إلى الشعر الـكذب والمبالغـة ، وهبط عن مرتبة الفن السامى وصار صناعة تمارس ويبرّز فيها ذوو اللباقة والمهارة ، لا أصحاب العبقرية والنفوس الـكبيرة ؛ وداخل النثر من هذه السمات ما داخل الشعر ، لأنه مثله سخر نفسه لخدمة الحاكين

وثانى العوامل هو نزعة المحافظة والتقليد ، التى سرعان ماتمكنت من الأدب العربى ، حين أشفق العرب على أدبهم ولغتهم ودمائهم مما اجتاحها من هجنة الأعاجم الداخلين فى دينهم ولسانهم ومجتمعهم ؛ أدى ذلك إلى الضن الشديد بآثار المتقدمين والتبجيل المظيم لأشكال الأدب وصوره فى عهدهم ، والاعجاب المطلق بأشعارهم وخطبهم ذات اللغة الفصيحة السليمة ؛ وتمادى الشعراء فقلدوهم فى وعورة الألفاظ أحياناً ، وفى المعانى وضرب الأمثال والاستهلال بالنسيب ، وتمادى الـكتاب فأنحوا على آثار المتقدمين محاكاة واقتباساً وتضميناً ؛ وفى مثل هـذا الجو من المحافظة والتقليد يخمد الفن الصحيح الذى يصدر عن صادق الشعور ، ولا يسود إلا الصناعة التى تتكلف الألفاظ وتتعمل المعانى

وثالث تلك العوامل اعتزال الأدب العربى غيره من الآداب ، فهو قد أهمل الأدب اليونانى ولم يتأثر بالأدب الفارسى ، إلا قليلاً عن غير قصد ، واتصال الأدب بغيره من آداب الأمم شرط أساسى لدوام رقيه فى معارج الفن السليم ، لأن ذلك الاتصال يدخل فى الأدب صادق النظرات والأفـكار ، التى تشترك فيها الانسانية جماء على اختلاف المشارب واللغات ، دون التفات إلى زخارف الألفاظ وتلفيقات المعانى ، التى لا تمت إلى الطبع السليم بصلة ، ولا تتعلق من الفن الصحيح بسبب . واعتزال الأدب غيره ينحرف به شيئاً فشيئاً عن وجهة الفن القويمة ، ويميل به إلى ناحية التكلف والتعمل والتقليد والجمود والصناعة

ولـما كان الـكاتب يكتب والشاعر ينظم ونصب أعينهما غايتان : إرضاء صاحب السلطان الذى تسخر له الأقلام ، وإرضاء النقاد الذين لا يريدون عن مناهج الأولين حولاً ، لم يسعهما إلا الاقلاع عن محاولة التعبير عن شـعورهما الصادق ، واللجوء إلى محاولة إظهار البراعة ليرضيا الفريقين ، فصارت البراعة — لا صدق التعبير عن الشعور — هى غاية الأديب . فالبحترى وابن المعتز والبديع وابن العميد والحريرى وأضرابهم ، قلما نظموا أو نثروا بغية التعبير الصادق البسيط عن مشاعر حارة تعتلج فى نفوسهم ولا يستطيعون لها حبساً ، وإنما كان إبداء البراعة وطلب الاعجاب وتحرى الاغراب ديدنهم فى معظم ما أنشأوا ، وكتاباتهم لذلك — حتى حين يجيدون — فاترة الشعور باردة الوقع لا تنفذ إلى القلب ولا تهز النفس ، ربمـا أوحت إلى المطالع أن أصحابها بارعون ، ولـكن قلما توحى إليه أنهم نوابغ عظماء ذوو نفوس كبيرة ونظرات بعيدة

ولـما جهد الأدباء فى تقليد معانى الأقدمين ومناحيهم ، واختراع أوصاف الممدوحين ومحامدهم ، حتى لم يعُدْ فى مجال المعانى متسع لتكلف ، التفتوا إلى الألفاظ يطلبون فى مجالها السبق والبراعة ، ففشت المحسنات اللفظية ، فـكانت انحرافا جديداً للأدب عن جادة الفن القويم ؛ وشغل الأدباء بالسجع والجناس والمقابلة وحسن التعليل عن صدق الشعور وصدق التعبير ، وركبت الصناعة الأدب من ناحيتيه : ناحيتى المعنى واللفظ

وطلب الأدباء البراعة من طريق آخر : فأقحموا فى الأدب ما ثقفوه من مصطلحات العلوم ومسائلها ، كعلوم النجوم والـكلام والنحو والمنطق ، فتجات البراعة فيما أنشأوه من ذلك ولـكنه فقد دبيب الحياة ، فمن تقليد قضايا المنطق قول المتنبى :

تقولين ما فى الناس مثلك عاشق ... جِدِى مثل من أحببته تجدى مثلى

وقول الشاب الظريف :

رمى فأصاب قلبى باجتهاد ... صدقتم : كل مجتهد مصيب

ومن استخدام مصطلحات النحو قوله :

لأى شىء كسرت قلبى ... وما التقى فيه ساكنان ؟

ووقر فى نفوس كثير من الأدباء أن الأدب مجال للصناعة والبراعة ، وليس مظهرا لأحاسيس النفس ولا مستودعا لخوالجها . فاذا أعوزهم ممدوح يثنون عليه بما هو ليس أهله من المبالغات ، طلبوا البراعة واصـطنعوا التظرف بوصف أمر تافه ، كحمل هزيل أو قدح خمر أو محبرة أو يراع ، الى غير ذلك مما لا خطر له فى ذاته ، ولـكنه يمنح الفرصة لطلاب البراعة ليُظهروا لطاقة بديهتهم وحسـن محاضرتهم ووفرة محصولهم اللغوى . وكثيرا

ما كانوا يتبادلون ذلك فى الرسائل الاخوانية ، والكتب التى يستهدون فيها الخمور والأقداح والمزاهر والقيان

ولاصدار الأدباء فى كتاباتهم عن أغراض مصطنعة بعيدة عن غرض الفن الصحيح نجد الكثيرين منهم يقفون مواقف متناقضة : فيمدح أحدهم الرجل أرفع المدح ثم يذمه أقبح الذم ، فأن خاف بطشه عاد مستغفرا متزلفا يقول كما قال الأعشى :

سأمحو بمدح فيك إذ أنا صادق　　كتاب هجاء سار إذ أنا كاذب

ويطلب أحدهم البراعة بتحسين القبيح وتقبيح الحسن ، أو بمدح الشىء الواحد وتحسينه ثم ذمه وتقبيحه ، كما فعل الحريرى حيث جعل أبا زيد يمدح الدينار بمقطوعة من الشعر ، ثم يذمه بأخرى حين اقترح عليه بعض الحضور أن « يذمه ثم يضمه » ، ويدّعى المتنبى الغرام والصبابة والنحول فى مطالع أماديحه ، فاذا أفصح عن صادق شعوره وميوله قال إن المجد ليس زقا وقينة ، وأن للخود منه ساعة ثم بينهما فلاة ، وأنه يرى جسمه يكسى شفوفا تربُه ، وقال :

ومن خبر الغوانى فالغوانى　　ضياء فى بواطنه ظلام

وجاء النقاد فأقروا الشعراء على هذا التناقض ، وأباحوهم ضروب اللغو والهذر ، وأخذوا تلفيقاتهم فى قصائد المديح مأخذ الجد ، وأضاعوا وقتهم ومنطقهم وحججهم فى الموازنة والمفاضلة بينها ، وفضلوا شاعرا على شاعر ، لا لصدق شاعريته وصدق فهمه للحياة ، ولكن لبراعته فى احتيال الحيل اللفظية والمعنوية لتفخيم شأن ممدوحه . فقدامة بن جعفر مثلا يقدم الأعشى فى قوله فى ممدوحه :

وإذا تجىء كتيبة ملمومة　　شهباء يخشى الراهدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جُنة　　بالسيف تضرب مُعْلَماً أبطالها

على كثير لقوله فى ممدوحه :

على ابن أبى العاصى دِلاص حصينة　　أجاد المُسَدِّى نسجها وأذالها
يود ضعيف القوم حمل قتيرها　　ويستظلع القرم الأشم احتمالها

لأن الأول جعل صاحبه يغشى الوغى غير مدرع ، والثانى وصف صاحبه بالتحصن وراء الدروع الثقيلة . يفاضل قدامة بينهما بصرف النظر صرفا تاماً عما إذا كان المعنى المذكور فى كل حالة صحيحاً ، فالمسألة لا تتعلق لديه بالتزام الصدق ، بل البراعة فى الاختراع والمبالغة وتهويل أمر الممدوح ووصفه بكل عظيمة صحيحة أو مزعومة ، ممكنة أو مستحيلة

وبهذا القياس المجحف الذى لا يقيم اعتباراً لصدق الشعور والتعبير ، بل يجعل الاعتبار كل الاعتبار للبراعة والالباقة والحذق والاحتيال ، قاس كثير من النقاد آثار الأدباء وفاضلوا بينهم . بل إن النقاد صرفوا جل اهتمامهم إلى ذلك الضرب الصناعى من الأدب الذى قوامه التعمل والاختراع ، وعماده الأقيسة المنطقية ، بل المغالطات المنطقية ، وأهملوا الضرب الصادق الذى يُترجم عن شعور الأدب الصحيح . فاذا رأوا أثراً من هذا القبيل مروا به كراما ولم يروه أهلا للنقد والتحليل ، لأنهم يرونه بسيطا عاديا غير محتو على براعة لفظية أو معنوية . والأدب كان فى نظر كثير منهم صناعة لا فناً . وقد سمى أحدهم وهو أبو هلال العسكرى كتابه فى أصول الشعر والنثر : « كتاب الصناعتين »

والحق أن أكثر ما يعرف اليوم بالفنون الجميلة كان لدى العرب صناعات ؛ فالأدب والموسيقى والعمارة والنحت والتصوير كل هذه كانت أشبه بالصناعات ، لأنها كانت فى أكثر الأحيان تخدم أغراضاً مادية خارج ذاتها ، وكانت تنتج نتاجها فى ظلال الملوك والكبراء الذين يسخرونها لأبهتهم ومتعتهم ، ولم تنل من الاستقلال الفنى والغرض الذاتى مالها اليوم . ومن ثم ظل الفنان الأخيران دائما فى حالة بدائية لم يتعدياها الى أطوار الفن السامية

ولقد تترعرع الفنون الأخرى كالعمارة والنحت والتصوير فى ظلال الرعاية والمنحة من جانب الأمراء ، كما حدث فى عهد النهضة الايطالية التى أنجبت رافائيل وميكلانجو ودافنسى وعشرات من أمثالهم ، أما الأدب فهو أشد احتياجا إلى الحرية وأسرع انحطاطا ور كودا فى ظلال الاستبداد ، فأن الملكية المستبدة إذا سخرته لأغراضها وسيرته فى ركابها حملته على إخفات الحق وإغفال الصدق ونسيان رسالته ؛ ولهذا ازدهر الأدب فى انجلترا أكثر من ازدهار غيره من الفنون التى اقتبسها الانجليز عن أهل القارة ، حتى بارى الانجليز غيرهم فى الآداب وبذوهم ؛ فقد ألفى الأدب فى انجلترا من حرية الفكر والتعبير أكثر مما ألفى فى غيرها . ولنفس السبب ازدهر الأدب فى المدن الأغريقية ، على حين كان رقيه فى روما الملكية قصير العمر

لم يسخّر الأدب الانجليزى نفسه لتمليق الأمراء والكبراء ، كما سخّر الأدب العربى نفسه ، ولم يصرفه طلب رضاهم عن طلب رضى الفن الصحيح ، وإن كان بعض رجاله — منذ عهد شكسبير — قد تزلفوا إلى سلطان آخر غير سلطان الحاكمين ، فطلبوا رضى الجمهور من رادة المسارح وقراء الكتب ، ولو بتضحية رضى الفن أحياناً . على أن ذلك قلما كان ؛ وأكثر الأدباء احتفظوا بسمو الأدب وأرستقراطيته ، ولم يلبث انتشار التعليم أن وسع دائرة القراء الذين يقدرون الفن الصحيح ويتسامون عن الفضول ؛ وانقسم الكتاب إلى فريق محافظ على سمو الأدب ، فهم عماد الأدب السامى ، وفريق ينشد إقبال العامة باللغو والهراء . ولم يحدث أن هبط الأدب جملة عن مرتبة الفن الصحيح المنزه الغرض

كذلك ربأ بالأدب الانجليزى أن تركبه الصناعة وتغلبه على غرضه الصحيح ، دوام تبصر رجاله فى الآداب الكلاسية والأوربية المعاصرة ، فكان معين تلك الآداب يجرى فى شرايينه من آن لآخر ، فيجرد ما فَتَرَ فيها من دفعة الحياة ، فكلما مر الأدب بطور ركود تغلب فيه الصناعة الفن الصحيح — كذلك الذى مر به فى بعض القرن الثامن عشر — شعر الأدباء بعظيم الفرق بينه وبين الآداب الأخرى ، فانتشلوه من وهدته

ومما ساعد على احتفاظ الأدب الانجليزى بصبغته الفنية ، وحماه الهبوط إلى درك الصناعة الرخيصة ، إطلاع فحوله على آثار الفنون الأخرى الراقية ، من تصوير ونحت ، تلك التى تشترك جميعاً فى غرضها الذى ذكر فى أول هذه الكلمة ، وهو التعبير الصادق عن الشعور الصحيح ، فكان للأدب دائماً من تلك الفنون أسوة ، تهيب به أن يحيد عن جادته أو ينحرف عن غايته ، أو يضل فى تيه التلفيقات المنوية والزخارف اللفظية

وقد راج فى الأدب الانجليزى ضروب من القول قد يتبادر إلى الظن لأول وهلة أن الأديب يتجرد عندها من نوازعه الشخصية وشعوره الصحيح ويطلق العنان للخيال والصناعة ، كالرواية التمثيلية والقصة والملحمة التى يتحدث مؤلفها عن أشخاص بعيدين عنه ويصف عواطف غيره وتصرفاتهم ، ولكن الواقع أن المؤلف فيها لا يقل صدقا ووفاء للحياة وحقائقها عن المؤلف فى غيرها ، ولا هو يتجرد من ميوله ، بل يخلع تلك الميول على أبطاله ، وينطق أفكاره ومشاهداته على ألسنتهم ؛ فكل بطل من أبطال شكسبير ، كهملت وعطيل ولير ، يمثل حالة من حالات نفسه وفكرة أو فكرات من أفكاره ؛ والقصصى الانجليزى الذى يتحدث عن الآخرين فى كتاباته أصدق وأكثر إفصاحاً عن ذات نفسه من الشاعر العربى الذى يشبب بليلى ودعد ويصف ممدوحه بغير ما يعلم فيه

فنى كلا الأدبين العربى والانجليزى ترى فى آثار الفحول دلائل الطبع الجزل والشعور الصادق والفن الصحيح ، ولكن نظراً لتلك العوامل التى صاحبت الأدب العربى فأفشت الصناعة فى كثير منه ، وهذه العوامل التى لازمت الأدب الانجليزى فساعدته على الاحتفاظ بسمات الفن ، جاء الأدب الانجليزى أحفل بصادق الشعور وجاد الأفكار من الأدب العربى ، وكان التعبير الصادق عن النفس الانسانية غرضه دائماً ، على حين زاحمت هذا الغرض فى الأدب العربى أغراض أخرى : كالصناعة وطلب البراعة والاغراب والتظرف ومحاكاة الأقدمين ؟

فخرى أبو السعود

صخرة النجوى *

لالفرد دي ميسه

« الحياة عذبة سائغة ولكن
عند من لا يعرفونها ... »

بقلم الأستاذ أحمد المحمود

وكان الليل جميلا رائعاً ، والقمر يصّاعد متئداً على شمالى ، وقد اجتذب اليه نظر « بريجيت » طويلا وهو يخرج متسللا من الأسنان السوداء التي كانت الهضبات الحرَجة ترسمها على رقيع الأفق . ورقت أغنيـة « بريجيت » الشجية حينما أخذ القمر يتخلص من أسوجة الغابة الكثيفة وتتسذرّى أضواؤه فى الفضاء وعلى الجلَد ، فانحنت على تطوق رقبتى بذراعيها قائلة :

« لا تظن أننى لا أعلم قلبك ، وأننى أنتسب لك لايلامك إياى ؛ وليست الخطيئة خطيئتك إذا ضقت ذرعا يا صديقى العزيز بنسيان حياتك الماضية . ولقد أحببتنى وكنت مؤمنا بهذا الحب ولن أتأسف — إذا ما أسكت هواك نأمتي — على هذا اليوم الذى استسلمت لك فيه . واعتقدت أنك بُعثت الى الحياة ثانية وأنك ستنسى — بين ذراعى — ذكريات اللواتى أضننك . واحسرتاه يا أكتاف ! لقد تبسمت فيما مضى من هذه التجاريب الباكرة التى كانت لك فى حياتك والتى كنت تدل بها على كالاطفال الذين لايدرون من أمور الحياة شيئا ، وحسبت أن ليس لى إلا أن أشاء ، وأن قد سيطفرُ كل ما فى قلبك من صلاح وخير على شفتيك للقبلة الأولى التى منحتك إياها ، وقد كنت أنتَ تحسبُ ذاك أيضاً ولكن كنا مخدوعين . أيها الطفل ! ... إنك تحمل فى قلبك جرحاً لا يندمل ، ويجب أن تكون قد أحببت هذه المرأة الخادعة الهاجرة حباً جماً ؟ أجل ... وأكثر مما أحببتنى وإلى أبعد الحدود واحسرتاه ! ... لأننى لم أستطع — مع حبي الشديد البائس — أن أمحو من مخيلتك صورتها ! ويجب أن تكون خديعتها لك قاسية لأن أمانتى تبذل لك عبثاً ؟ والأخريات الشقيات ماذا فعلن لتسميم شبابك ؟ وهل كانت الملذات التى بعنها منك حادة ورهيبة لتطلب إلى أن أماثلهن وأناْرهن ! . . . وتذكرهن وأنت بجانبى ؟ ما أقساك أيها الطفل ! . . . ولأحبُّ للنفس وأثلج للفؤاد أن أراك ظالماً مغضباً ، وأن تنسب إلى الجرائم الوهميـة وأن تثأر منى للأذى الذى لحق بك من خليلتك الأولى من أن تطفر فى وجهك هذه المسرة الرهيبة وهذا المظهر الخليع الذى ينتصب حجاباً من الصلد الأصمّ بين شفتى وشفتيك . قل لى أكتاف ، لم هـذا الصقيعُ فى شفاهك ؟ ولم هذا التهكم والاحتقار يبينُ فى حركاتك وسكناتك ؟ وإنك لتسخر — بحزن شديد — حتى من أعذب صباباتنا ، وكيف استحوزت على أعصابك المهيجة هذه الحياة الماضية الرهيبة حتى تنثال من فمك مثل هـذه الشتائم بالرغم منك ؟ أجل بالرغم منك لأن لك قلباً نبيلاً وتصطبغ خجلاً مما تفعل . أنت تحبنى كثيراً ويجب أن يُسمدك هذا الحبُّ لأننى آلم منه كما ترى . آه ! أعرفك الآن ! . . وعند ما وقع بصرى عليك لأول مرة وأنت على حالك هذه عرانى هول شديد لا شىء يعطيك صورة عنه . ولقد حسبتك ماجناً فى توددك إلى ، وأنك تحاول خدعى بسيماء هذا الحب الذى لم تكن لتحس به ، وإنى أرى حقيقـة نفسك كما بدت لى لأول وهلة . أواه يا صديق ! لقد فكرت فى الموت وأية ليلة نكراء قضيت ! أنت لا تعلم حياتى ولا تدرى أننى — أنا التى أخاطبك — قد خلصتُ من هـذه الحياة بتجربة هى أعذبُ من تجربتك وأحلى . واأسفاه ! الحياة عذبة سائغة ولكن عند من لا يعرفونها

أى عزيزى أكتاف ! لست بالرجل الأول الذى أحب . إن فى أعماق هذا القلب ذكرى مشئومة راقدة أحب أن أطلعك عليها

أعدَّنى والدى منذ بكورى فى الحياة إلى ابن صديقه الأوحد ، وكانا جارين فى الدار والأرزاق ؛ وعاشت العائلتان على هذا النمط من الاختلاط والوحدة . مات أبى وتصرّم زمن طويل على فقدان أمى فانتقلت الى وصاية خالتى التى تعرفها ، وأزمعت خالتى سفراً فأسلمتنى إلى حِمىً الذى عشت فى كنفـه برهة من الزمن ،

(*) القطعة مترجمة عن كتاب «اعترافات ابن الجيل» لالفرد دي ميسه طبعة لاروس فى القسم الثالث من الكتاب :
Confessions d,uu cufaut du Siécle

وكان يدعونى بابنته ، وكان الجيران يعرفون خطوبتى من ابنه ، فيتركون لنا الحرية التامة

تظاهر دوما هـذا الشاب الذى لا أدرى حاجة الى ذكره بمحبتى ، فقد كان صداقة ساذجة من أيام الطفولة تحولت الى حب وهيام مع الزمن . وكان يقص على عند ما نخلو ، أو نكتَتنُ فى زاوية من البيت عن السعادة التى تنتظرنا وذهوب صبره ، وكان يكبرنى بسنـة واحدة ، ولـكنه تعرف الى رجل من الجيران سيئ العيش محتكر للصناعة فوسوس له وأغواه ، وبينما كنت أستسلم إلى مداعباته بوداعة الطفل إذا به يغـدر بوالده ويتركنى بعد أن أضاعنى

أتى بنا والده إلى غرفته وأبلغنا موعد الزواج فلقينى فى مساء اليوم نفسه فى الحديقة ، وباح لى بقوة عما يكنه لى من الحب ، وأنه زوجى منذ الآن أمام الله ونفسه ما دام أن موعد الزواج قد تحدد . فلم أعتذر اليه بغير شبابى وجهلى وسذاجتى ، فاستسلمت اليه قبل أن يتم الاقتران الشرعى ، ولم تمض ثمانية أيام حتى غادر بيت أبيه وهرب مع امرأة قدمها له صديقه الجديد فكتب لنا أنه مسافر إلى ألمانيا ومنذ ذلك الحين لم نره

هذه هى قصة حياتى وقد عرفها زوجى كما تعرفها أنت الآن ، ولى من عزة نفسى وكبريائها ما أهاب بى إلى العزلة ، فآليت ألا أقرب من رجل يسبب لى ألما وضرًا أكثر مما لقيت فى سابق حياتى ؛ ورأيتك فنسيت قسمى ولـكن لم أنس جرحى ، فعليك أن ترأف بتضميده . وإذا كنت مريضاً فأنا مريضة أيضاً ، فيجب أن نتعهد نفسينا بالتداوى . وأنت ترى يا أكتاف أننى أعرف أيضاً قيمة الذكرى الماضية التى ما تزال تقض مضجعى إلى جانبك ، ولـكنى سأتذرع بالشجاعة والصبر لأننى قاسيت أكثر مما قاسيتَ ، ومن حق البدء فى هذا العمل ، وإن قلبى لقليل الثقة بنفسه ، وأنا أضعفُ عن احتمال أكثر مما احتملت . وكم كانت حياتى سعيدة فى القرية قبل قدومك اليها ! وما أكثر ما أخذت على نفسى ألا أغيّر من حالها شيئاً مما جعلنى أتطلبُ منها ما لا تستطيع أداؤه ، ولـكن لتكن مشيئة القدر فأنا لك الآن : أو لم تقـل لى فى أوقات انبساطك بأن العناية الألـهية سخرتنى للحدب عليك كأم رؤوم ؟ الحق ماقلت ياصديقى العزيز . أنا لست خليلتك كل الأيام وأود أن أظفر بأكثر من هذا فى بعضها وأن أكون لك أماً حتى لا أرى فيك حبيباً يقسو على حبيبته . أواه يا أكتاف ! لقد أصبحت طفلاً مريضاً عانياً متشككا ، أريد أن أمرضه بنفسى وأبعث فيه الرجل الذى أحب وأهوى حتى الأبد . فليمدنى الله بالقوة ! ... قالت ذلك ونظرت إلى السماء ضارعة : ربِّ يامن ترانا وتسمع نجوانا ! يا إلـه الأمهات والمحبين ، هب لى الحياة للقيام بهذا الواجب ! وإذا كان لى أن أخفق وأن تثور كبريائى أو أن ينحطم قلبى البائس بالرغم منى وأن حياتى كلها ...

ولم تتم الـكلام حتى غامت عيناها بالدموع فلم تعد تستطيع النطق . يا إلـهى ! . إنى أراها راكعة أمامى ويداها مضمومتان منحنيـة على الصخرة والهواء يموجها كما يموج حقول الخلنج المجاورة . يا لك من مخلوق ضعيف سام ! لقد صات من أجل حبها ثم أنهضتها بذراعى متمما : « واصديقتى الوحيدة ! ووا خليلتى وأمى وأختى !.. اضرعى إلى الله واطلبى منه أن يمدنى بالقدرة على حبك والاخلاص لك كما تستحقين . توسلى بأن يمد فى حياتى وأن يقدرنى على العيش وأن يغسل قلبى بدموعك وأن يجعله قربانا مقدساً نقياً نقتسمه أمام الله !... »

واستلقينا على الصخرة وغرق كل ما حولنا فى هدوء عميم وانبسطت السماء فوق رؤوسنا ألقـــة بالنجوم « أو تذكرين يابريجيت لقاءنا الأول ؟ »

حمداً لك اللهم ! ومنذ هاتيك الأمسية لم نعد إلى تلك الصخرة التى ظلت لنا قدساً طاهراً والطيف الأبيض الوحيد من حياتى الماضية ما يعبر من أمامى إلا ويفترق بصرى وعلاً حسى

(طرطوس) أحمد المحمود

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

— ١ —

كل الناس متفقون على أن ولْتر رِيد Walter Reed ، رئيس بعثة الحمى الصفراء ، كان رجلاً ذا أدب جم ولطف كثير ، لا يُؤخذ بعلامة ، ولا يُعوِز ذمّتَه طُهْر ؛ وكان يألف الاعتدال فى أعماله ، ويجرى على المنطق فى تفكيره ؛ ولا شك أيضاً فى أنه قامر بحياة آدميّين فأقحمها المخاطر على علم فى سبيل أبحاثه ، ولم يكن له مندوحة عن ذلك ، فالحيوانات تأبى كل الأباء أن تأخذ عدوى الحمى الصفراء

كذلك ليس بين الناس اختلاف فى أن جيمس كارول James Carrol ، وقد كان خشّاباً فيما مضى ، كان على أتم استعداد للتضحية بنفسه فى سبيل ما يريد ريدُ Reed إثباتَه ، وأنه لم يكن ممن تأخذه عاطفة أو رحمة بأرواح الخلق إذا ما أراد برهان أمر جلّ أو قل

كذلك يُجمع الكوبيّون(١) Cubans ، وهم الذين شهدوا البعثة تعمل عن كَثَب فى أرضهم ، على أن الجنود الأمريكيين(٢) الذين تطوعوا بأجسامهم فى التجارب عوضاً عن الخنازير الغينية المعهودة كانوا على جانب من الشجاعة لا يوصف . كذلك أجمع الأمريكيون الذين كانوا عند ذاك فى كوبا وأكّدوا أن المهاجرين الاسبانيين الذين تطوعوا فى التجارب مكان الخنازير الغينية لم

---

(١) نسبة إلى كوبا وهى أكبر جزيرة فى جزر الهند الغربية وأغناها وتقع فى مدخل خليج المكسيك وعدد سكانها نحو ٣½ ملايين . وعاصمتها هفانا أوهبانا . استوطنها الأسبانيون واستعمروها وحكموها أربعة قرون ثم قامت ثورة عام ١٨٩٥ ضد الاسبانيين فتدخلت فيها الولايات المتحدة بالقوة . وكانت نتيجة ذلك استقلال كوبا عام ١٩٠٢ ، وحوادث هذا المقال حدثت فى فترة الثورة والحرب عام ١٨٩٩ إلى ١٩٠٢

(٢) يقصد بأمريكا والأمريكيين فى هذا المقال الولايات المتحدة وسكانها

يكونوا شجعاناً مخاطِرين ولكن تجّاراً طامعين . أفلم يُنقد كل واحد منهم مائتى ريال أجراً عن مخاطرته ؟

وما من شك فى أنك تستطيع أن تُنحِى باللائمة الشديدة على القَدَر أنْ قسا تلك القسوة البالغة على جِس لازار Jesse Lazear ولكن كذلك لا بد أن تُنحى باللائمة عليه هو أيضاً ، فهو الذى أبى أن يطرد تلك البعوضة التى وقعت على ظهر يده ، وهو الذى أذِن لها أن ترتوى من دمه مِلء جوفها . والقَدَر إن كان قسا عليه فقد حنّ له من بعد موته وعطف على ذكره ، فحكومة الولايات المتحدة سمّت باسمه مدفعية فى ميناء بلتيمور(١) إحياء له ، ورتّبت لأرملته معاشاً خمسمائة وألف ريال

وسترى أن قصة الحمى الصفراء لا نِقاش فيها ولا خصام ، فحكايتها متعةٌ للحاكى ، وهى فوق ما فيها من المتعة ضرورية لكتاب يَحكِى عن المكروب ورجاله ، فهى تحقق الحُلُم الذى ارتآه بستور ، فهو لو قدر الآن لصاح من قاع قبره الجليل بباريس يتحدّى العالم أجمع تيّاهاً فخوراً : « ألم أقل لكم ذلك من زمن بعيد » . ذلك أننى الآن وأنا أكتب هذا أعلم أن الدنيا أصبح لا يوجد بها من سمّ هذه الحمى ماتنفطى به رؤوس ستة دبابيس . وقد لا تمضى عدة سنوات أخرى حتى لا يكون على ظهر الأرض كلها ذرة من سمها ، وتصبح الحمّى خبراً يُروَى كبعض البائدات — هذا إذا لم نكن فوّتنا غلطةً خطيرة فى التجارب المحكَمة المريبة التى قام بها ريدُ وجنوده الأمريكيون ومهاجروه الاسبانيون

كانت هذه الحرب التى انتهت بالغلبة على الحمى الصفراء مثلاً جيلاً للتعاون الجيد ، انتظم فى إثارتها وإدارتها جنود من أعجب الجنود . وكان أول من قدح شرارتها رجل عجوز غريب يُدعى الدكتور كَرْلوس فِنْلى Carlos Finlay ، أعنى من اللحية ذقنه ، ولكنه أنبتها على كل من صدغيه ، فجاءت جيلة يغبطه الناس عليها . وكان يخلّط فى التجارب تخليطاً . وحسبه أفاضل الكوبيّين وحكماء الاطباء رجلاً مغفّلاً قديم الغفلة مغرماً بالنظريات . وعدّه الناس أجمعون رجلا مأفوناً جسوراً . فهذا الرجل هو الذى خمّن فى هذه الحمى تخمينة أبعدت فى الاغراب

---

(١) ميناء شهيرة فى ولاية ماريلاند بالولايات المتحدة

ولكنها وقعت فى الصميم من الصواب

نعم عدّه كل أحد مأفوناً ، لأن كل أحد من الناس عرف عرفان اليقين كيف يدفع هـذا الوباء المخوف — هذه الحمى الصفراء ؛ وكان لـكل أحد طريقته لدفعها : قال بعضهم : يجب تبخير الحرائر والسّتان Satin ومتاع الناس جميعاً قبل خروجه من المدن الوبيئة . وقال آخرون لا ، فهذا غير كاف فلابد من حرقه جميعه ، لا بد من حرق الحرائر والستان والأمتعة ولابد من دفنها ولابد من إتلافها قبل دخولها مناطق الوباء . وقال قوم : ليس من الحزم أن تصافح أصدقاءك إذا كان لهم أقرباء يموتون بالحمى الصفراء . وقال آخرون : ليس فى هذا ضرر أبداً . وقالت جماعة ثالثـة : إن الخير فى هدم المنازل التى دخلتها الحمّى ، فليس بكاف تطهيرها بدخان الكبريت . وعلى اختلافهم هـذا فقد أجمع الناس فى جنوب أمريكا وفى أوساطها وفى شمالهـا ، مدة قرنين تقريباً ، على أنه إذا حدث أن أهل مدينـة أخذت تصفرّ وجوههم ، وتـشخـص الريحُ من صدورهم ، ويصعد القيء أسودَ من جوفهم ، ثم أخذوا يموتون بالعشرات والمئات كل يوم ، لم يبق لعاقل ما يفعله إلا أن ينتفض على رجليه ، ويتجه إلى أقرب باب للمدينة ويسير قُـدُماً غير لاوٍ عن يمين أو يسار حتى يخرج منها . ذلك أن عزْريل ذا اليد الصفراء يحذق النفاذ من الحيطان ، واستراق الخُطا على الأرض ، ومباغتة الناس من وراء الأركان ، حتى النار يجوس خلالها ؛ وقد يحق عليه الموت ، ولـكنه لا يلبث أن يُبعث حيًّا . ويقوم الناس لطاردته وفيهم أحذق الأطباء ، فبعد أن يخطئوا فى مطاردته أكثر ما يستطيعون من أخطاء ، يأتونها بأكثرِ ما فى قلوبهم من هوس ، يجدون هـذا القاتل الفلاّت لا يزال فى قتله قائماً ؛ ثم يسأم القتل بغتة فيكفّ عن الناس . ويجيئه هذا السأم دائماً فى شمال أمريكا بمجيء الصقيع

هذا ما كان من علم الناس عن الحمى الصفراء الى عام ١٩٠٠ وصاح فِنلى عالياً ملء صدغيه : « أيها الناس إنكم تجهلون . أيها الناس إن الحمى الصفراء تأتى من بعوضة » ، فذهبت صيحته كصرخة فى واد ، وارتد عليه صداها بالسخرية والهوان

— ٢ —

فى عام ١٩٠٠ كانت الحال فى مدينة هبانا[1] أسوأ حال . فالحمى الصفراء كانت قتلت من الجنود الامريكيين ألوفاً أكثر مما أسقط رصاص الاسبانيين ، وكان المعهود فى الأوبئة أنها تنزل اختياراً من طوائف الناس حيث الفقر والقذر . أما هذه الحمى فنزلت فى أركان حرب الجنرال ليونارد وود Leonard Wood فذهبت بثلث ضباطه ، وضباط أركان الحرب ، كما يعلم الحربيّـون ، رجال مصطَفون هم أكثر الجند نظافة ، وأكبرهم حظاً فى الحماية من الأمراض . وزأر الجنرال بأوامره فنزل رجاله على أهل هبانا غسلاً ودعكا حتى أحالوا الـكوبيّين من قوم فى وسخهم سمداء إلى قوم فى نظافتهم تمساء ؛ وصنعوا كل ما يُصنَع للمدينة ، ولـكن الوباء لم يتراجع ، بل تزايد حتى بلغ حداً لم يبلغـه فى السنوات العشرين الماضية

عندئذ أبرقت هبانا إلى وشنطن Washington ، وفى ٢٥ يونيو عام ١٩٠٠ جاء البكباشى ولْتَرْ ريد إلى كويمادوس Quemados فى كوبا ومعه أمر « بأن يُعنَى عناية خاصة بكل ماله صلة بأسباب الحمى الصفراء وبطرق منعها » . وهذا أمر كبير ، يزيده كبره كبراً إذا ذكرنا مَنْ هو ولتر ريد ؛ هو أمر حاوله بستور من قبل ! وأين ريدُ من بستور ؟ بالطبع لم يكن ريد خلواً من المؤهلات ، ولو أنك قد تعترض عليها بأنها ليست مما له صلة بصيادة المكروب ؛ فهو جنديّ كأحسن ما يكون من الجنود ، خدم فى الغرب[1] فى سهوله وجباله أربعة عشر عاماً أو تزيد ؛ وكان يطير كبعض الملائكة والريح تعصف والسماء تَثلِج حتى يحط على فراش المرضى ممن هبطوا تلك البقاع استعماراً واستيطاناً ؛ وكان على خلق متين ، وجانب لـيّن رقيق ؛ وكأنى بك تقول : ما الرقة وما الخلق الكريم ومكروبَ الحمى الصـفراء ، وهو إنما يتطلب عبقرية نادرة لاصطياده . أنت على حق ، ولـكن مع هذا سترى أن العمل الجليل الذى تم كان يتطلب قبل كل شيء خلقاً قوياً وإرادة من حديد . ومع هـذا فان ريد قام يمعن صيادة المكروب فى عام ١٨٩١ ، وقام يمعن بحوث متقطعة فى أحسن مدرسة للطب فى كنف أستاذ هو من غير شك أشهر أساتذة المكروب فى أمريكا ، وكيف لا يكون هـذا الأستاذ هكذا وهو الذى عرف كوخ وخالطه مخالطة الحميم حميمه

وجاء ريد إلى كيمادوس . وبينا هو يدخـل مستشفى الحمى

---

(١) عاصمة جزيرة كوبا كما ذكرنا

(١) يقصد غرب الولايات المتحدة

الصفراء مرّ به عدد كبير من شباب الجند الأمريكى خارجاً منه محمولاً على الأعناق ... فاطمأن ريد الى أن العمل لن يعوزه، وأن المرضى الهالكين كثيرون. وكان مع ريد الدكتور جيمس كارول James Carroll، ولم يكن ممن يوصف بالرقة تماما، ولكنك ستجد بعد قليل أنه نعم الجندى الباحث كان. ووجد ريدُ جس لازار Jesse Lazear فى انتظاره، وكان صياد مكروب متدرّب تدرب على صيادتها فى أوربا. وكان له من العمر خمس وثلاثون سنة، وكانت له زوجة وطفلان خلّفهما وراءه فى الولايات المتحدة، وكانت تبدو فى عينيه نُذُر الموت. وكان رابع الثلاثة أرستيدس اجرامونتى Aristides agramonte، وكان كوبياً، وكان عمله قطع جثث الأموات. وأحسنَ عمَلَه إحسانا كبيرا، ولكن اسمه لم يَذع لأنه كان أصيب بالحمى فتحصّن منها فخلا عمله من المخاطر. فهؤلاء الأربعة هم «بعثة الحمى الصفراء»

وكان أول ما صنعته البعثة أن عجزت عن إيجاد المكروب فى الحالات الثمان عشرة الأولى التى فحصتها، وكان منها حالات غاية فى السواء، ومات منها أربع. ولم يتركوا حالة من تلك الحالات إلا ضبعوا وأوغلوا فيها فحصاً وتنقيباً، فمن ابتزاز دم الى تزريع مكروب الى تشريح جثث. وكثرت زريعات المكروب حتى لم يحصرها عدٌّ، ولكنهم لم يجدوا فى أيها بشلة واحدة. وكان الوقت صيفا، والشهر يوليو، وهو أسوأ الشهور لهذه الحمى. وخرجت الجنود من المستشفى متلاحقة وهى أجساد هامدة

خابت البعثة خيبة كاملة فيما ارتجت، ولكن من هذه الخيبة كان النجاح. فهذه إحدى خصائص هذه الصناعة صناعة المكروب. وهذا هو الأسلوب الذى يَدرُج عليه قُنّاصه ليجدوا منه مثل الذى وجدوا. وجد إسميث ما وجد من القُراد لأنه آمن بالذى قاله الفلاحون. ووجد رونالد رُس Ronald Ross[1] ما وجد مما يفعل البعوض الأشهب لأن بتريك منسون Patrick Manson[2] دلّه عليه. وكشف جراسى Grassi[3] ما كشف عن بعوضة الملاريا بدافع من وطنيته. وهذا ريدُ يخيب فى أول خطوة يخطوها، وقد يقول كل أحد إنها أهم خطوة يخطوها، فماذا هو صانعه! لا شىء. فلم يبق لديه ما يصنعه. وإذن لو فرَّ لديه الوقت الكافى ليفرُغ الى نفسه ويُفكر ويُصغى الى صوت ذلك المغفل القديم ذى النظريات، صوتِ الدكتور كارلوس فِنْلى يصيح: «أيها الناس إنكم تجهلون! إن الحمى الصفراء تأتى من بعوضة!»

وخفّ رجال البعثة إلى هذا الرجل المأفون الذى ضحك منه كل سنّ، وصُمَّت دونه كل أذن. فتلقاهم هذا الشيخ بالسرور والترحاب وأخذ يفسر لهم نظريته، ويذكر لهم أسبابا غامضة إلا أنها مبدعة جميلة حَدَتْ به إلى اتهام البعوض فى نقل أسباب الحمى الصفراء. وأطلعهم على نتائج تجارب أجراها هى بئست التجارب لا تقنع أحداً. وأعطاهم بعض بيض أسود اللون مستطيل كالأصبع وقال لهم: «هذا بيض الجرم». فأخذ ريد البيض وأعطاه إلى لازار؛ وكان هذا فى إيطاليا من قديم فعرف هناك بعض الشىء عن البعوض. فأخذه لازار ووضعه فى مكان دافىء فانفقس عن دُوَيدة انقلبت إلى بعوضة صغيرة غاية فى الحسن كأنما شُدَّت على ظهرها أوتار من فضة فتراءى كالقيثار

خاب ريد، ولاشك فى هذا. ولكن إلى جانب إقرارنا له بالخيبة، يجب أن نُقرّ له بقوة اللاحظة الحادة، وبكثير من التمييز وحسن التبصر فى الامور، وستعلم فوق هذا أنه كان كبير البخت محظوظاً. ومن ملاحظته وهو فى غمرة من إخفاقه أن رأى حالات للمرض ثقيلة فظيعة، احمرّت فيها عيون المرضى كأنما صعد الدم متدفقاً فيها، واصفرت صدورهم فصارت كأنها الذهب وأخذوا يفوقون[1] ويتهوعون إنذاراً بالسوء. ثم رأى الممرضات يَجُسن خِلال هذه الحالات وينلن منها ويتلوثن بها، ولكنهن بالرغم من ذلك لم تجئهن الحمى الصفراء أبداً

(١) سير رونالد رس طبيب انجليزى اختص فى أمراض المناطق الاستوائية وبخاصة الملاريا. وهو الذى اكتشف كيف أن الملاريا تنقل طفيلياتها من انسان لانسان بواسطة البعوض فى عام ١٨٩٨ وما بعده. وكان ذلك تطبيقاً لنظرية بتريك منسون (المترجم)

(٢) بتريك منسون هو الذى اكتشف فى عام ١٨٧٩ كيف أن دودة تسبب مرضا استوائياً مشهوراً (فلارية بنكروفت) إنما تنتقل = وهى جنين من إنسان لانسان بأن تقتبسها بعوضة من دم الأول، ثم هى تتطور فى البعوضة، ثم هى تدخل بعضة البعوضة فى جسم الانسان الثانى. على أن قيمة هذا الكشف لم تظهر إلا عام ١٨٩٨ لما طبقها السير رنالد رس فى دراسة الملاريا

(٣) جيوفانى جراسى عالم إيطالى فى الحيوان مات عام ١٩٢٥. له أبحاث كثيرة فى الأحياء الدنيا ومنها طفيلية الملاريا وطريقة انتقالها فى الانسان المترجم

(١) فاق الرجل شخصت الريح من صدره من غير قىء.

فناقش ريد رجال بعثته ، قال : « لو كان المكروب أصل هذه الحمى عثل ما هو أصل الكوليرا والطاعون ، إذن لأصاب المرضات لجاءتهن الحمى »

وأخذ ريد بعد ذلك يلاحظ ألا عيب شتى تقوم بها هـذه الحمى ، فرآها تظهر فى كيامدوس لجأة حيث لامظنة لظهورها : جاءت رجلاً يسكن فى منزل رقم ١٠٢ بشارع ديل ، وإذا بها تنطمن هذا الشارع فتنعطف إلى شارع الجنرال لى فتنزل بساكن به فى منزل رقم ٢٠ . ثم هى تنط ثالثة إلى الصف الآخر من هذا الشارع . ولم يكن بين المصابين صلة ما ، ولا التقى بعضهم ببعض أبداً

قال ريد : « كأنى بهذا الحال يشير إلى أن شيئاً ينقل المرض عَـبْرَ الهواء من دار إلى دار » . وكانت هناك حيل غريبة أخرى تأتيها هذه الحمى درسها عنها كرتر Carter الأمريكى : تصيب الحمى رجلا فى منزل ، فقد يموت وقد يُشـفى فيرحل عن المنزل ، ثم عضى على هذه الاصابة أسبوعان فلا يحدث جديد ، ثم ينقضّ البلاء كالصاعقة ، فاذا بنفر من أهل هذا البيت يصابون بها .

قال ريد لرجاله : « كأنى بمكروب من هذا البلاء يتربّث أسبوعين فى بطن حشرة ليستكمل نموّه » ، فلم يصدقوه ولـكنهم كانوا جنوداً طائعين

قال ريد : « وعلى هـذا فقد يكون صواباً ما ارتآه فِنْلِى Finlay عن البعوض ، وعلى أساس فكرته فلنقم بالتجربة » . فاعتزامه التجريب كان بناء على الاسباب السابقة والملاحظات السالفة ، وعلى الاخص بناء على أن البعثة لم تدر ما تصنع بعد الذى صنعته

وكان القول بالتجريب قولاً هيّناً . ولـكن كيف يكون البدء فيه ، والمعروف الثابت أن الحمى الصفراء لا يمكن إعطاؤها للحيوانات ، حتى القردة وهى أقرب إلى الانسان خلْقاً لا تأخذها . ولـكن لاثبات أن البعوض ينقـل الحمى لا بد من حيوانات للتجريب ، وإذن لم يبق إلا أن تـكون هذه الحيوانات آدمية . ولـكن أيكون معنى هذا إعطاء هذه الحمى عمداً لبعض الناس ! إن الاحصاءات دلّت على أن الوافدة إذا حلّت فقد يموت من المصابين ثمانون وخمسة من مائة ، أو قد يبلغون خمسين ، وعلى أية حال لا يقل الموتى عن عشرين فى المائة . إذن فاعطاء الحمى عمداً لبنى آدم قتل للأنفس التى حرّمها الله ! ولـكن هنا تتدخل شدة أخلاق ريد وصلابته لتلعب دورها الـكبير . كان ريد رجلاً لا شائبة فى خلقه ، ولا عائبة فى ذمته ، وكان مؤمناً ، وبالرغم من اعتداله كان الرجل الذى اصطفاه الله لخدمة أهله بنى هذه الانسانية على مثل هذا الأسلوب الوعر المتطرف . وتخيّل إسميث أنْ قد ثبت له أن البعوض وحدَه هو ناقل هذه الحمى وتخيّـل ما يكون بعد ذلك من أحداث خطيرة ... !

وطاف نهار يوم بين رجال صُفر يحتضرون . فلما جاء الليل بحرّه الشديد ، جمع رجاله ثم قام فيهم فقال من حديث : « ... فلو أننا نحن رجال هـذه البعثة قمنا لجازفنا بأرواحنا فأذِنّا لبعوض تغـذّى من دم قوم محمومين أن يَمَصَّنا ويشرب من دمائنا ، إذن لضربنا خير المُثل للجند الأمريكيين ... » . ونظر إلى لازار . ونظر إلى كارول

قال لازار : « أنا أقبل عضة البعوض » ، وكانت له زوجة وطفلان

وقال كارول : « اعتمد علىّ ياسيدى وتوكل على الله » ، وكانت له زوجة وخمسة أطفال ، ولم يكن له من متاع الدنيا غير أجر جراح مساعد فى الجيش ، وهو أجر حقير معروف ، وغير عقل الباحث ومزاجه

(يتبع) أحمد زكى

الخلــــود والأدباء

[مهداة إلى الأستاذ المازني]

للأستاذ عبد الحليم عباس

يعتقد الأديب — والأديب الناشىء على الأخص — بأنه الانسان المصطفى لتأدية رسالة الحياة إلى الأحياء ، وأن غيره … هذه المخلوقات التي لا تدين بالأدب ولا تتلقى وحى الفن ، ليست خليقة أن تساميه ، ولا أن تطال إلى مقامه . إنها تقف فى حيث تأخذ عنه ، وتسمع اليه … ومن ثم فهو خالد بخلود هذا الأدب ، وما عداه — من عباد الله — فمن التراب وإلى التراب … وهذه قضية مسلم بها — فى رأى الأديب — لا تحتاج إلى مماراة ، ومن هنا يجيء هذا العنت ، وهذه السلسلة من الخيبة والاخفاق فى حياة الأديب . إنه يعجب من الناس كيف لا يقدرونه حق قدره ، وكيف لا يتنحون له عن مقامه الذى هو خليق به ، والذى أعدته الحياة له ؟ ولم لا ! وهذا العلم بالحياة ، وهذه المذاهب الفلسفية ، والتبحر فى فنون الأدب ، أليس من حقها أن تقدم صاحبها وتقدره من المجموع ؟ . بلى بلى — هكذا يقول الأديب — ولكنه ظلم الحياة ، وجحود الأحياء ، فما عليه إلا أن يقف معانداً لهم ، مناهضاً لهذه الحياة ، ليُعاد اليه حقه السليب المهتضم …

وبين هذا العناد والاصرار يضيع الأديب حاضره ، ويخرِّب حياته ، وقد يخربه الجوع … قال لى أديب ناشيء : لست أنظر الى الجراح الماهر إن لم يفهم الأدب أكثر من نظرى إلى جزار

وقال لى آخر : سأترك العمل عند هذا الوزير لأنه سخيفٌ وبذيء ؛ فقلت له : هل أصابك رشاش من بذاءته ؟ قال : كلا ؛ ولوحدث لأدَّبته ؛ قلت إذن دعه وشأنه . قال لا أستطيع . وفى اليوم التالى أضاع أديبنا وظيفته . وقليل من رجال الأدب من ربحت تجارته الدنيوية ، وأصبح من رجال الأعمال

مثل هذه الحوادث كثيرة نشاهدها فى كثير من الأحيان ، ونحتار فى تعليلها ؛ ولكن مردها فى البعيد يعود إلى فهم الأدباء للحياة على ضوء الأدب ، وإلى الذهاب فى تقدير قيمهم ، وإن من حقهم أن يتعالوا على الناس ، لأنهم من طائفة الخالدين …

ويكبر الأديب ، ويشب عن الطوق — كما يقولون — وتمر عليه صورٌ من الحياة ، وتثقله تكاليفها اليومية السخيفة — كما ينعتها سبينوزا فيرى أن يقبل عليها ، ويضرب مع الضاربين فيها — إن أراد أن يعيش — فالكواكب ليست أرغفة ، والسماء لا تمطر بقلا … وهكذا ترغمه الحياة على أن يصانعها ويصانع معها الأحياء …

… ولكن هل انتهى بينه وبينها الخلاف ؟ وهل أصبح هو وبينها على أتم وفاق ، يوم علم أن هذا الأدب الذى يدلُّ به ليس له كبير فضل ، وأن هذا الخلود لا يعنى شيئاً ؟ لقد خلدت فى الدنيا بغلة أبى دلامة ، وحمار الرشيد . أم أن فهمه للدنيا على هذا النحو الجديد ، يعنى بداية معركة جديدة حامية ، ولكنها تحرق الأديب قبل أن تحرق غيره .. أظن أن كثيرين يوافقوننى على أن هذه بداية معركة لا نهاية ؛ فالحياة لم تلق من هؤلاء الذين يناصبونها العداء طول حياتهم مثلما لقيت من هذه الطائفة من الأدباء الذين يضربون فى زحمتها ، ويسايرون مواكبها ، على أن يخرجوا لها ألسنتهم هزؤاً ، كلما آنسوا منها غفلة ، وليفضحوا سرائرها فى كل حين …

لم تنته المعركة بعد ، فليست قضية الخلود هى كل الخلاف بين الأديب والأحياء . فكيفما جارى الأديب الناس فى فهمهم للحياة فلا مشاحة فى أنه يفهم الحياة على وجهة تختلف عن الوجهة التى يفهمها عليها الأحياء ، إذ أن الأمر لا يتعلق باختياره ؛ وقد يحب هو أن يجاريهم فى كل شىء ، ولكن ما حيلته فى هذه الأعصاب التى ركبت على شكل يختلف عما ركبت عليه أعصاب الناس — أحسن منهم أو دونهم هذا لا يعنينا — إنها مرهفة دقيقة ، مستوفزة ، تفعل بها الاشارة الغامضة ما لا تفعله بغيرها العبارة الصريحة ، كيف يحب ؟ وكيف يكره ؟ وكيف يجنُّ بالحسن ، وتفعل به الزهرة النضة أو الذابلة ؟ هذه أشياءٌ تفسيرها عند هذه الأعصاب

وشيء آخر يباعده عنهم ، ويعد فى شقة الخلاف ، هو أين يعيش الأديب ، وما هى دنياه ؟ ؟ لا نحب أن نكتب خيالاً ،

إن إدمان مطالعته فى نماذج الجمال والأدب ، ولد فى نفسه حباً للجمال . إنه يعيش بهذا الجمال الذى يطالعه به الخيال ، أكثر مما يعيش فى دنيا الواقع ... كما وإن إدمان دراسته للحياة والواقع فتح عينه على الجانب البشع منها . أليس فى الحياة بشاعة ؟ ومن لا يقول هذا مع الأديب ، حتى عباد الحياة أنفسهم ؟ إذن فهو يريد أن يتسامى فى هذا الواقع ليوائم بينه وبين ما فى نفسه من جمال ، يود أن يرتفع بهذه الخلائق ، يذيب نفسه قطرة قطرة ، ليرى الناس جمال الحق وعظمة الصـدق ونبالة الوفاء ، ولـكن الحياة والواقع يحتاجان إلى نقائض هذه ، فما هو إلا أن يشعر بالخيبة حتى يروح يحرق الأرم ويتلوى على نفسه ؛ وبين الخيال ، وركود الأحياء فى دنيا الواقع ، تختضب الأيام بدم الـكاتب ، فهو على مثل هذا وفاق بين الأديب ودنياه ، على أننا لا نأسف — نحن النظارة — لذلك ، فلو لم يغمس الأديب قلمه بدمه ، ولو لم يقدم نفسه قرباناً للجمال والحق ... لـما عرفنا أين يقع الجمال والحق فى هذه الدنيا . فلتدم هذه المعركة — وهى دائمة بفضل هذه الأعصاب الشاذة — ما برحت — وإن نحر فيها الأديب نفسه — تدنينا من الحق ، ولو قيد شعرة . . . إذن فلا وفاق بين الأديب والأحياء .. ؟ نعم ولو أصبحت هذه الدنيا وفاق حلم الأديب ، ودنياه المثالية ، فالخيال لا يزال يبدع والجمال فى هذه النفوس لا يحد . . .

وما هـذه المصانعة التى تبدو من جانب الأدباء للحياة فى بعض الأحايين والتى يخيل إليهم فيها أنهم أصبحوا يتلقون الحياة كما يتلقاها الآخرون — « بلا تذمر ولا سخط » إلا مخادعة النفس ، وإلهائها عن آلامها الرفيعة التى تحزُّ فيها ؛ هى قطعة الحلوى تقدمها للطفل لنسكته عن الصراخ

كيف يكون على وفاق هذا السابق السابق مع المقعد المتخاف ؟ فالأدباء فى كل أمة هم رواد النهضات . يشيرون إلى العالم البعيد المجهول المتلثـم به أفكارهم ، الآخذ عليهم مسارب نفوسهم ، وخفى أشواقهم . كلُّ نهضة كان يسبقها أديبٌ أو أكثر ، يبشر أن فجر الحق قريبٌ ورائع ، وأن هناك فى ضمير الغيب دنيا أمتع من هذه وأحلى . . .

. . ؛ والآن هل استطاع المازنى — أن يلقى الحياة ، كما يلقاها الغير ، أبناؤها ؟ أما هو فيكاد يقول نعم ، أو قد قالها بالفعل ، بعد أن أزاح من فكره — حب الولع بالخلود — والحمد لله . أما نحن جمهرة القراء فنقول لا ، ونمدُّ بها أصواتنا

كيف يلقى الناس الحياة ؟ إنهم ينسابون فى غمارهـا ، يندفعون فى لجتها — كما تندفع أنت يا أستاذ بالذات — حذو القذة بالقذة ، ولـكن تمرُّ الشهور ، وتتصرم السنون ، وينتهى العمر ، وهم لا يفطنون لذواتهم ، ولا يعرفون عن هذا السرور شيئاً ، كيف جاء ، وكيف راح ؟ تلك قضية لادخل لهم فيها . حسبهم أنهم مسرورون وكفى ؛ أما هؤلاء الذين يلقون أنفسهم بالسرور إلقاء ، ثم يقفون عند كل شوط ، ليسائلوا أنفسهم هل سروا حقاً ؟ هل استطاعوا أن يغرقوا ذواتهم المضطربة ، ويسكتوها ولو دقيقة واحدة ؟ فهؤلاء بعيدون عن السرور ، وأحرى أن يتقلب بهم هذا السرور إلى شر ، أو يزيدهم شراً . ، إنهم يحتسون من خمرة الخيام تلك التى اتخذها ليغرق فى أكوابها صحوه وعقله

وإذا ما التوت الحياة وتعقدت ، وكان ضيقها لا ينفرج ، وعقدتها لا تحل ، إلا فى نحر الوفاء ، وتضحية الصدق ، فما عسى يصنع الأديب ؟ أما ابن الحياة فينحر هذه غير آسف ، بل هو ينحرها دون أن يعلم ، ولو توصلاً « إلى ترفيع درجة إن كان موظفاً » ... فهل يستطيع الأديب ذلك ؟ وماذا يصنع بهذا الضمير وهذه المثل التى لا حياة له إلا بها ؟ إنه خليق أن يجن ان فعلها . . .

نعود فنستميح — أديبنا المازنى — عذراً ، فما أراد كل هذا ، وإنمـا أراد أن يوهم نفسه ساعة واحدة أنه أصبح كسائر الناس ، يسر بما يسرون ويضحك كما يضحكون . وقديماً قال :

ياصدى إن بقلبي لـكلوماً وهموماً   مدرجات فيه لـكن لا تموت
كلما قلت قضت رهن السكوت   صحن بى من كل فج يتراءى

عم مساء

أما هـذا الرفيق المخالف الذى يتمناه للأديب ، فما إخال الأحياء مع الأديب إلا إياه ، وما أظن الدنيا تتعدى أن تـكونه ، فحسبه هذا . . .

(شرق الأردن)   عبد الحليم عباس

٩ - تاريخ العرب الأدبي
للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشي

الفصل الثاني

لم ينس العرب هذه الحوادث فبعثت فيهم الكبرياء القوي، فقالوا إن الجيوش الرومانية سارت ذات مرة - على أية حال - تحت لواء أميرة عربية، ولكن القصة - كما نستدل من أخبارهم - ذات صلة قليلة بالواقع، ولم يقتصر التغيير على أسماء الأشخاص والأماكن فحسب، (كما حدث في اختلاط اسم زينوبيا باسم وزيرها زبدى) بل إن الوضع التاريخي قد أصبح مستحيلاً على التمييز. وكل ما بقي لا يتعدى قصة من قصص المخاطرات التي كان عرب الجاهلية يميلون الى سماعها، وكما هو الحال اليوم في أبنائهم المحدثين الذين لا يملون سماع قصة عنتر أو ألف ليلة وليلة

ويقال إن أول ملك من العرب الذين استقروا في العراق[١] هو مالك الأزدي الذي رمي بقوس من يد ابنه سليمان وقبل أن يسلم الروح قال بيتاً راح فيما بعد مضرب المثل:

أعلمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رماني

وقد وحد مملكة مالك - إذا جاز أن توصف بهذا اللقب - ونظم أمورها ابنه جذيمة الأبرش (وهو تصحيف أدبي لكلمة أبرص)، الذي حكم كتابع لأردشير بابكان (٢٢٦ م) مؤسس الدولة الساسانية في فارس، التي استمرت مسيطرة على عرب العراق طول فترة ما قبل الاسلام، وإن جذيمة هذا لبطل كثير من الخرافات والأمثال، وكان من كبريائه - كما يقال - إنه لم يكن ليسمح لأحد ما بمجالسته ومنادمته سوى نجمين يسميان بالفرقدين، فاذا ما عاقر الحان صب لكل منهما كأساً، وقد علقت أخته بوصيف له يدعى «عديا بن نصر»، وفي لحظة لعبت الخمر برأس جذيمة رضي بزواجها إياه، فبنى عدي بها؛ وفي الصباح، عندما عاد أخوها إلى رشده، وثاب إلى صوابه تميز من الغيظ من تلك الخديعة التي جازت عليه فأطاح رأس الزوج المسكين، وأرغم أخته أن تتزوج من عبد حقير، ومع ذلك فلما وضعت غلاماً تبناه جذيمة وكلأه بعطفه وحدبه؛ واختفى الشاب عمرو ذات يوم فجأة ويئس الجميع من وجوده، وانقضى زمن طويل لم يعثر أحد فيه له على أثر حتى صادفه أخوان: هما مالك وعقيل، وقد وجداه عرياناً متوحشاً يهيم على وجهه، فاهتما به وألبساه ومثلا به أمام الملك الذي غلب عليه السرور فوعدهما ألا يرد لهما طلبة يسألانه إياها، فاختارا الشرف الذي لم يجرؤ على طلبه إنسان قبلهما قط: وهو أن يكونا نديميه، وعرفا فيما بعد باسم «ندماني جذيمة»

وكان جذيمة هذا أميراً مفكراً شجاعاً، وفي إحدى حملاته ذبح عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة، وهو رئيس عشيرة عربية كان قد ضم جزءاً من سورية الشرقية وأرض الجزيرة إلى نفوذه، والذي يتضح لنا أنه (كما هو ظاهر من اسم أذينة) كان بعينه أذينة زوج زينوبيا، يؤيد هذا الرأي ما قاله ابن قتيبة «وخطب جذيمة الزباء، وكانت بنت ملك الجزيرة وملكت بعد زوجها[١]» وطبقاً لما يراه المؤرخون المسلمون، فقد كانت الزباء ابنة عمرو بن ظرب، واختيرت لتكون خليفته، بعد ترديته في ساحة القتال، ومهما يكن هذا الأمر فقد برهنت على أنها امرأة نادرة الشجاعة ذات عزم جبار، ولكي تأمن شر الغارات شيدت حصنين قويين على شاطىء الفرات جعلت بينهما نفقاً، وأقامت هي في أحدهما وسكنت أختها زينب في الآخر، فلما اجتمع لها أمرها واستحكم ملكها أجمعت على غزو جذيمة ثائرة لأبيها فكتبت تقول له إنها قد رغبت في صلة بلادها ببلاده، وإنها في ضعف من سلطانها وقلة ضبط لمملكتها وإنها لم تجد كفؤاً غيره، وتسأله الاقبال عليها وجمع ملكها إلى ملكه، فلما وصل ذلك إليه استخفه الطرب ولم ينتصح برأي مشيره، فقال له قصير مرشده في طريقه «انصرف ودمك في وجهك» حتى إذا شارف مدينتها قال لقصير: «ما الرأي» قال: «ببقة تركت الرأي»

(٢) هؤلاء هم نفس بدو عرب تنوخ الذين صاروا فيما بعد سكان الحيرة كما سيمر بك

(١) Brünnow: Chrestomathie aus Arabischen Prosaschriftstellen, P.29

فراحت مثلاً ، ثم استقبله رسلها بالهدايا والالطاف فقال : « ياقصير كيف ترى ؟ » قال : « خطر يسير فى خطب كبير ، وستلقاك الخيول ، فأن سارت أمامك فالمرأة صادقة ، وإن أخذت فى جنبيك وأحاطت بك فالقوم غادرون ، اركب العصا (أى فرسه) فانها لا تدرك ولا تسبق قبل أن يحولوا بينك وبين جنودك » فلم يفعل ، ولما أحيط بجذيمة التفت فرأى قصيراً على فرسه العصا ، وقد بعدت ثلاثين ميلاً ، وأدخل جذيمة على الزباء ، ثم أمرت جواريها أن يقطعن رواهشه فى طست من ذهب وقالت : « يا جذيمة لا يضيعن من دمك شىء فأنما أريده للخبل » ، ثم سقطت نقطة من دمه على اسطوانة رخام ومات

ومضى قصير الى عمرو بن عدى وطلب إليه أن يثأر لخاله ، فقال عمرو : « كيف وهى أمنع من عقاب الجو » ، فجدع قصير أنفه وأذنه ودخل على الزباء ، وأخبرها أن عمراً لاحق به لقتله جزاء خيانته فصدقته وأعطته مالاً للتجارة ، فأتى بيت مال الحيرة فأخذ منه بأمر عدى ما ظن أنه يرضيها ، وانصرف به إليها ، ففرحت به ، ثم قال لها يوماً : « إنه ليس من ملك ولا ملكة إلا وقد ينبغى له أن يتخذ نفقاً يهرب إليه عند حدوث حادثة يخافها » فقالت له : « قد اتخذت نفقاً تحت سريرى هذا يخرج إلى نفق تحت سرير أختى » وأرته إياه ، فأظهر لها سروره بذلك وخرج فى تجارته وعرف عمرو بن عدى ما فعله ، فركب عمرو فى ألفى دارع على ألف بعير فى الجوالق ، حتى إذا صاروا إليها تقدم قصير يسبق الابل وقال لها : « اصعدى فى حائط مدينتك فانظرى الى مالك وتقدى الى بوابك » ، فلما دخل آخر الجمال نخس البواب عكما من الأعكام ، فأصاب خاصرة رجل فصاح ، فقال البواب : « شر والله عكمتم به فى الجواليق » فثاروا بأهل المدينة وانصرفت الزباء راجعة ، فلقيت عمرو بن عدى فمصت خاتمها ، وقالت : « بيدى لا بيد عمرو »[1]

ولقد بلغت الثقافة فى مملكتى الحيرة وغسان فى عصر ما قبل الاسلام شأواً بعيداً فى الرقى وشعشعت أنوارها ، وعم أثرها جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وليس من الاسراف فى القول أن نذكر فى هذا المجال تاريخ وملابسات الظروف ، التى مكنتهم من القيام بنشر الرقى والحضارة [1]

فى مستهل القرن الثالث بعد الميلاد كانت هناك بعض قبائل يرجع كلها أو بعضها الى أصل يمنى ، وقد عقدت فيما بينها حلفاً وسميت فى مجموعها « بتنوخ » ، وكانت تلك القبائل تثير بين آن وآخر كثيراً من الاضطرابات ، وانتشرت فى جميع ربوع امبراطورية Arsacid ، وأغارت على العراق ، حتى ألقت عصا التسيار فى إقليم غرب الفرات الخصيب ، وبينما ظل بعض المغيرين يحيون حياة بدوية محضة ، اشتغل آخرون بفلاحة الأرض وزرعها ، وعلى كر الأيام نشأت المدن والقرى ، وكان أعظمها أهمية الحيرة (أى المعسكر) ذات الموقع الصحى الجميل وعلى مسيرة عدة أميال قليلة من جنوب الكوفة ، بالقرب من بابليون القديم [2] ، وطبقا لما ذكره هشام بن محمد الكلبى (+ ٨١٩ أو ٨٢١ م) المؤلف العظيم عن عصر الجاهلية ، فقد كان سكان الحيرة فى عهد أزدشير بابكان أول ملك ساسانى لفارس (٢٢٦ — ٢٤٠ م) يتكونون من ثلاث طوائف هى :

(١) تنوخ : وتسكن غرب الفرات بين الحيرة والأنبار فى طنب من وبر الجمال

(٢) العباد : ويسكنون البيوت فى الحيرة

(٣) الأحلاف : ولم يكونوا ينتمون الى إحدى الطائفتين

---

(١) لخصنا هذه القصة مما ورد فى الأغانى ج ١٤ ص ٧٣ س ٢٠ وراجع الطبرى ج ١ ص ٧٥٧ — ٧٦٦ ، والمسعودى فى مروج الذهب طبعة باربيه دى مينارد ج ٣ ص ١٨٩ — ١٩٩

(١) وعلى ذكر الحيرة وتاريخها يمكن القارئ مراجعة المقال الرائع الذى كتبه الدكتور G. Rothstein عن دولة اللخميين فى الحيرة : Die Dynastie der Lahkmiden in Al Hira (برلين ١٨٩٩) حيث بين مصادر المقال (ص ٥ وما يليها) ، كأن ما وصفه الكتاب اليهود والبيزنطيون مما رأوه بأعينهم لتبين القيمة فى ذكر التسلسل التاريخى الذى يرويه المؤرخون المسلمون على سبيل الحدس ، وإن التواريخ الاسلامية عامة لتشمل فصولا بعضها خرافى عن « ملوك الحيرة وغسان » ويجب أن تتخذ الحيطة والحذر الشديدين خاصة فى الجزء الذى نقله الطبرى عن هشام بن محمد الكلبى ، والذى ترجمه نلدكه وعلق عليه فى : Geschicte der Perser und Araber zur Zeit der Sasanidsn

وقد رجع هشام إلى السجلات المحفوظة فى كنائس الحيرة ويدعى بأنه استخلصها من شروح تاريخية ، ونسبية تتعلق بأسرة اللخميين (راجع الطبرى ج ١ : ص ٧٧٠ س ٧)

(٢) الحيرة هى حيرتا السريانية ، وقد أطلق اسمها على المعسكر المتنقل من العرب والفرس ثم ظل إشارة واسماً للمدينة العسكرية

السابقين بل ألحقوا أنفسهم بأهل الحيرة ، وعاشوا بينهم كأنهم آبقون قتلة يلاحقهم الثأر ، أو مهاجرون مموزون يحاولون الاطمئنان على مستقبلهم

وطبيعي أن يؤثر أهل المدن الى حد بعيد في السكان ، ولقد رأينا هشاما يسميهم « العباد » وهذا لفظ غير دقيق تماما إذ العباد عرب الحيرة المسيحيون ، وقد سموا بذلك لاعتناقهم النصرانية ، أما العرب الوثنيون الذين سكنوا الحيرة منذ أن أنشئت ، وظلوا مقيمين بها ، فلم يكونوا يدلون على نقيض المعنى المفهوم من الوثنية . أما لفظ « العباد » فيقصد به خُدّام الله والمسيح ، ولا نستطيع أن نحدد تماماً أبان بدئ إطلاق هذا اللقب على أولئك المتدينين الذين كانوا من قبائل مختلفة ، كانت تسكن الحيرة أثناء القرن السادس ، وليست التواريخ ذات قيمة كبيرة نسبياً ، بيد أن الأمر الذي تجب الاشارة اليه ، هو وجود جماعة عربية في فترة ما قبل الاسلام لم تكن قائمة على صلات الدم أو تجمعها العصبية ، ولكن تربطها روابط روحية أعني بذلك الايمان العام . أما ثقافة وديانة « العباد » فقد تسرّبتا الى أقصى الأماكن والجهات النائية المنعزلة في شبه جزيرة العرب كما سترى ذلك مفصلاً في مكانه الخاص ، وكان هؤلاء أساتذة العرب الوثنيين الذين قليلاً ما كانوا يقرأون أو يكتبون كما كانوا عازفين عن التعليم فخورين بجهلهم بالتهذيب الذي يرون فيه نوعاً من المذلة ، ومع ذلك نرى أن أرق العقول ثقافة بين البدو كانت مجذوبة بلا نزاع الى الحيرة ، ولقد وجد شعراء هاتيك الأيام في الأمراء خير مشجع ، فزار كثير من شعراء الجاهلية بلاط اللخميين كما اتخذها بعضهم كالنابغة الذبياني وعبيد بن الأبرص دار اقامة

وليس من المهم أن ندخل في تفاصيل غير مجدية كأصل ونشأة دولة اللخميين في الحيرة ، ويذكر هشام بن محمد الكلبي [1] ان أول حاكم لخمي كان يدعى « عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لخم » وهو الذي تبنّى جذيمة والذي انتقم له من الملكة الزباء ، ولسنا ندري في الغالب شيئاً عن خلفائه ، حتى نصل الى النعمان الأول المسمى بالأعور ، والذي كان حكمه في الربع الأول من القرن الخامس الميلادي ، وقد اشتهر النعمان هذا بأنه باني الخورنق ، وهو قصر فخم بقرب الحيرة بناه في عصر الملك الساساني يزدجرد الأول الذي أراد مسكناً صحياً لابنه الأمير بهرام جور ، وعند اتمامه أمر النعمان بأن يلقى مهندسه الروماني سنمار من شاهق البنيان ، إما لافتخاره بأنه كان يستطيع إقامته بناء عجيباً يدور مع الشمس حيث دارت ، أو خوفاً من أن يذيع مكان حجر خاص اذا أزيح من مكانه انهار البناء كله . وفي صباح يوم من أيام الربيع أخذ النعمان مجلسه في الخورنق مع وزيره ، وأشرف على النجف وحدائقها وما فيها من نخيل وعيون ، وأدار بصره في جميع النواحي شرقاً وغرباً ، فلما امتلأت نفسه بسحر ما رأى قال لوزيره :

— أرأيت مثل هذا ؟

— كلا . ولكن لو دام !

— وما الذي يخلد ؟

— ما عند الله في السموات

فسأله النعمان : كيف يتوصل المرء إلى ذلك ؟ فأجابه الوزير : بالعزوف عن الدنيا والتفاني في خدمة الاله ، والكفاح من أجله . ويقال إن النعمان آلى على نفسه حينئذ أن يهجر مملكته ، حتى اذا ما أقبل الليل تدثر بثوب خشن ، وتسلل في جنح الظلام ، وساح في الأرض فلم يره أحد بعد ذلك ؛ ويظهر أن هذه الأسطورة قد تبلورت وتضخمت من هذه الأبيات التي نظمها عدى بن زيد العبادي :

وتدبّر ربّ الخورنق إذ أشـ ... ـرف يوماً وللهدى تفكيرُ
سرّه حاله وكثرة ما يـ ... ـملك والبحرُ معرضاً والسديرُ
فارعوى قلبه فقال : «وما غِبـ ... ـطة حى الى المماتِ يصيرُ ؟
ثم بعد الفلاحِ والملك والامّـ ... ـة وارتهمُ هناك القبورُ
ثم أضحوا كأنهم ورق جف (م) فألوت به الصبا والدبور [1]

أما ما يراه جمهرة مؤلفي العرب من اعتناق النعمان المسيحية فليس له أساس من الصحة ، وإن كان هناك ما يبعث على الاعتقاد بأنه كان ميالاً إليها ، إذ كانت الحرية الدينية مطلقة لرعاياه المسيحيين ، كما ورد ذكر حبر مسيحي بالحيرة سنة ٤١٠ م

(يتبع)

ترجمة حسين حبشي

(١) ذكر هشام بن محمد الكلبي أسماء عشرين ملكا حكموا مدة ٥٢٢ عاما وثمانية أشهر

(١) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني ، والطبرى ج ١ ص ٨٥٨

٦ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الملذات والشهوات

اذا كان لك فضيلة يا أخى ، وكانت هذه الفضيلة خاصة بك فأنك لا تشارك فيها أحداً سواك . ولا ريب فى أنك تريد أن تدعوها باسمها وتداعبها لتتسلى بها ، ولكنك بهذا أشركت بها الناس بما أطلقت عليها من تعريف ، فأصبحت أنت وفضيلتك مندغمين فى القطيع

خير لك يا أخى أن تقول : إن ما تلذ به روحى وتتعذب به يتعالى عن الايضاح ، ويجل عن أن يسمى ، وهذا العجز عن ادراكه يخلق المجاعة فى أحشائى

لتكن فضيلتك أسمى من أن تستخف بالأشياء عند تحديدها ، وإذا ما اقتحمت هذا التحديد ، فلا تستحى من أن تتلفظ به تمتمةً ، فقل وأنت تتمتم :

— إن هذا هو خيرى الذى أحب ، إن هذا ما يثير إعجابى ، فأنا لا أريد الخير إلا على هذه الصورة . لا أريد هذه الأشياء تبعاً لارادة ربٍّ من الأرباب ولا عملاً بوصية أو ضرورة بشرية ، فأنا لا أريد أن يكون لى دليلٌ يهديني إلى عوالم عليا وجنات خلود . . .

قل : ما أحب سوى فضيلة هذه الأرض ، لأن ما فيها من الحكمة قليل ، وأقل منه ما فيها من صواب متفق عليه . إن هذا الطير قد بنى عشه على مقربة منى ، لذلك أحببته وعطفت عليه ، وها هو ذا الآن يحتضن عندى بيضه الذهبى

على هذه الوتيرة تكلم وأنت تتمتم ممتدحاً فضيلتك

لقد كان لك فيما مضى شهوات كنت تحسبها شروراً ، أما الآن فليس فيك إلا الفضائل ، وقد نشأت هذه الفضائل من شهواتك نفسها ، لأنك وضعت فى هذه الشهوات أسمى مقاصدك فتحولت فيك إلى فضائل وملذات هى منك ولك ، ولسوف ترى جميع شهواتك تستحيل إلى فضائل ، ولسوف ترى كل شيطان فيك يستحيل ملاكاً حتى ولو كنت ممن يستسلمون للغيظ والشهوات وكنت من فئة الحاقدين المتعصبين

لقد كانت الكلاب المفترسة تسكن دهاليزك من قبل ، فها هى ذى الآن أطيار مغردة . لقد استقطرت بلسما من سمومك وحلبت ناقة الأوصاب ، وأنت الآن تكرع لذيذ درّها

لن يخلق شرٌّ منك بعد الآن ؛ غير أن هنالك شراً قد ينشأ من تخاصم فضائلك . فاصغ إلىّ ، يا أخى ! إنك إذا شعرت بسعادة فما يكون ذلك إلا لفضيلة مستقرة فيك وهى تسهّل اجتياز الصراط عليك

إنها لمزية أن تكون للانسان فضائل عديدة ، غير أن تعدّد الفضائل يرمى بالانسان إلى أشقى الحظوظ . وكم من مجاهدٍ أرهقه النزال فى ساحات الفضائل فتوارى لينتحر فى الصحراء

إذا كنت ترى المعارك والحروب شروراً ، فاعلم يا أخى أنها شرور لابد منها ، لأن للحسد والريبة والشتيمة مقامها المحترم بين فضائلك نفسها . تبصر ترَ أن كلا من فضائلك تطمح إلى المقام الأسمى وتطمع فى الاستيلاء على جميع أفكارك لتستعبدها وتحصر بها وحدها كل ما فى غضبك وبغضائك وحبك من قوة

إن كلا من فضائلك تحسد الأخرى ، والحسد هائل مريع يتناول الفضائل أيضاً فيبيدها

إن من يحيط به لهيب الحسد تنتهى به الحال إلى ما تنتهى العقرب اليه فيوجه حمته المسمومة إلى نحره

أفما رأيت ، يا أخى ، من الفضائل من تشتم نفسها وتنتحر ؟

ليس الانسان إلا كائناً وجب عليه أن يتفوق على نفسه ، لذلك حقٌّ عليك ، يا أخى ، أن تحب فضائلك لأنك بها ستفنى

هكذا تكلم زارا . . .

المجرم الشاحب

أفما تريدون أن تنزلوا القصاص ، أيها القضاة والمضحون ، مالم يهز الحيوان رأسه ؟ إليكم رأس المجرم الشاحب ، إنها لترتعش ؛ وها ان أفظع احتقار يتكلم فى نظراته

إن عيني المجرم تقولان لكم ما الشخصية إلا شيء وجب علينا أن نتسامى فوقه ؛ وما شخصيتي إلا عظيم احتقاري للبشر

لقد انتهى أجل هذا المجرم عند ما أصدر حكمه على نفسه ؛ فلا تتركوا للتسامي سبيلاً يندفع منه إلى الانحطاط . عاجلوه بالموت فهو المنفذ الوحيد لمن بلغ عذابه بنفسه هذا الحد البعيد

ليكن قصاصكم ، أيها القضاة رحمة لا انتقاماً . وإذا ما حكمتم بالموت فلتكن غايتكم تبرير الحياة . لا يكفيكم أن تقيموا السلم بينكم وبين من تقتلون ، بل يجب أن يكون حزنكم تعبيراً عن ولهكم بالانسان الكامل . وهكذا تبررون الاستبقاء على أنفسكم

قولوا إن هذا الرجل عدو ولا تقولوا إنه سافل . صفوه بالمرض لا بالدناءة . اعتبروه مختلاً لا مجرماً . وأنت أيها القاضي لو أنك تعلن للملأ ، وأنت في برودك الحمراء ، ما ارتكبت من مآتم في تفكيرك ، لكنت تسمع الناس يهتفون قائلين : اخلعوا هذا الرجل عن كرسيه فهو ممتلىء أقذاراً وسموماً

ولكن الفكرة شيء والعمل شيء آخر ، كما أن شبح العمل شيء مستقل بنفسه أيضاً . فليس بين هذه الأشياء الثلاثة أية علاقة يصح أن تعتبر علاقة العلة بالمعلول

إن شبح الجريمة كان صورة لاحت لهذا الرجل فعلا وجهه الاصفرار ، لأنه عندما ارتكب جرمه كانت قوته على مستواها ، ولكنه ما أتم الجرم حتى وهنت تلك القوة فلم يستطع أن يتفرس في شبح جرمه

لقد لاح لهذا الرجل أنه ارتكب فعلة واحدة لا غير ، وبذلك يقوم جنونه لأن الشواذ تحول إلى قاعدة في كيانه . إن الدائرة التي يرسم خطها المجرم هي قيد الأفكار ، إذ يصبح كالفرخة يرسم المنوم حولها دائرة فلا تستطيع اجتياز خطها . وهكذا لا يكاد المجرم يخرج من جرمه حتى يدخل في دائرة جنونه

اصغوا إلي ، أيها القضاة ؛ إن الجنون الذي يتلو العمل إنما تقدمه جنون آخر قبله ؛ وانتم لم تسبروا روح المجرم إلى أقصاها

إن القاضي الأحمر يتساءل عن سبب إقدام المجرم على القتل ، فيقول في نفسه إن القاتل أراد السرقة أولاً ، أما أنا فأقول إن نفس المجرم لم تقصد السرقة بل طلبت إراقة الدماء ، لأنها كانت ظامئة إلى إغماد النصل . ان عقلية المجرم لم تفهم هذا الجنون فاندفع الى ارتكاب جرمه ، وعقليته تناجيه قائلة : ما يهمك أن تريق الدماء ، ما دام جرمك يوصلك الى السرقة أو الانتقام . لقد أصغى المجرم الى صوت عقليته المسكينة لان ما أسرت به اليه كان ثقيلاً كالرصاص ، فسرق بعد أن قتل لأنه أراد أن يبرر جنونه ولا يخجل منه

وعاد جرمه فثقل عليه كالرصاص أيضاً ، فثقل عقله المسكين فاستولى عليه التخدر والشلل . ولو أن هذا المجرم تمكن من أن ينتفض بهامته لكان تهاوى حمله الثقيل عنه ، ولكن من كان سيهز له رأسه يا ترى ؟

لو أنك أنعمت النظر في هذا الانسان ، لما تجلى لك إلا مجموعة علل تتطلع بالعقل الى العالم الخارجي مفتشة عن غنيمة تظفر بها

ليس هذا الانسان الا كتلة أفاع اشتبكت وهي في تدافع مستمر لا تستكن الا لتتفكك منسابة في شعاب الدنيا تسعى وراء غنائمها

أنظروا الى هذا الجسم المسكين ! إن روحه الضعيفة طمحت الى استكناه ما في الجسم من ألم ورغبات ، فخيل لها أنها متشوقة الى القتل

إن من يتسلط عليه هذا المرض في هذه الأيام لتباغته شرورها فيريد أن يعذب الآخرين بما يتعذب هو به ؛ غير أنه قد مر زمان من قبل كان له خير وشر ، هما غير خير هذه الأيام وشرها . ذلك زمان كانت تحتسب فيه شكوك الانسان ومطامعه جرائم عليه ، فكان المبتلي بالشكوك والمطامع يمد ساخراً ومنشقاً عن المجتمع فيعمد هو إلى تعذيب الآخرين بعذابه

إنكم لا تريدون الاصغاء إلى أقوالي إذ ترونها تلحق الضرر بالصالحين بينكم ، ولكنني لا أقيم وزناً لرجالكم الصالحين

إن في هؤلاء الرجال من تشمئز منه نفسي ؛ وليس ما أكره فيهم ما يعد من الشرور ، فانني أتمنى لهم جنوناً يوردهم الردى كجنون المجرم الشاحب

والحق أنني أريد أن يدعى هذا الجنون حقيقة أو إخلاصاً أو عدلاً ، لأن فضيلة هؤلاء الناس لا تقوم إلا على إطالة عمرهم لقضائه باللذات السافلة ولا ملذة لهم إلا بالارتياح إلى نفوسهم والرضى عنها

ما أنا إلا حاجز قائم على ضفة النهر ، فمن له قدرة على التمسك بي فليفعل ، ومن لا طاقة له على ذلك فلا يظن أني سأكون في يده يقبض علىّ كما يقبض الكسيح على عصاه

هكذا تكلم زارا ...

القراءة والكتابة

إنني أستعرض جميع ما كُتب ، فلا تميل نفسي إلا إلى ما كتبه الانسان بقطرات دمه . اكتب بدمك فتعلم حينئذ أن الدم روح ، وليس بالسهل أن يفهم الانسان دماً غريباً . إنني أبغض كلّ قارئٍ كسول لأن من يقرأ لا يخدم القراءة بشيء ، وإذا مرّ قرن آخر على طغمة القارئين فلا بد من أن تتصاعد روائح النتن من التفكير

إذا أُعطي لكل إنسان الحق في أن يتعلم القراءة ، فان تفسد الكتابة مع مرور الزمان فحسب ، بل إن الفكر نفسه سيفسد أيضا

لقد كان الفكر فيما مضى إلهاً فتحوّل إلى رجل ؛ وها هو ذا الآن كتلة من الغوغاء . إن من يكتب سُوَراً بدمه لا يريد أن تتلى تلك السور تلاوة ، بل يريد أن تستظهرها القلوب

إن أقرب الطرق بين الجبال إنما هو الخط الممتد من ذروة إلى ذروة ، ولا يمكنك أن تتبع هذا السبيل إذ لم تكن لك رجلا مارد . يجب أن تكون التعاليم شامخة كهذه الذرى ، وأن يكون لمن تلقن لهم قوة الجبابرة وعظمتهم

لقد رقّ النسيم وصفا ، وهذه المخاطر تحدق بي عن كثب ، وفكرتي تتخطر مرحة في قسوتها ؛ أمامي الصراط الممهد فلأتخذنّ من الجن أتباعا . أنا ربّ الجسارة والعزم ؛ ومن توصل بأقدامه الى طرد الأشباح لا يصعب عليه أن يخلق من الجنّ له أتباعا

لقد تاقت شجاعتي الى الضحك ، وقد انقطع كل حبل بيني وبينكم . إن السحب المتمخضة بالعواصف لهي سحبكم السوداء الثقيلة وأنا أهزأ الآن بها

إنكم تنظرون الى ما فوقكم عند ما تتشوقون الى الاعتلاء ، أما أنا فقد علوت حتى أصبحت أتطلع الى ما تحت أقدامي . فهل فيكم من يمكنه أن يضحك وهو واقف على الذرى

من يحوّمُ فوق أعالي الجبال يستهزىء بجميع مآسي الحياة ، ويستهزىء بمسارحها ، بل بالحياة نفسها

تريدنا الحكمة شجعانا لا نبالي بشيء ، تريدنا أشداء مستهزئين ، لأن الحكمة أنثى ، ولا تحب الأنثى إلا الرجل المكافح الصلب

تقولون لي إن الحياة وقر ثقيل ، فقولوا لي أيضا لماذا تقابلون الصباح بغروركم ، ثم يجيء المساء فلا يجد فيكم إلا الذلة والخضوع ؟

إن الحياة جدّ ثقيلة ، ولكن ما هذا الخوَرُ الذي يبدو عليكم ؟ أفلسنا كلنا دواب ولكل دابّة منا وِقرُها ؟ وهل من شبه بيننا وبين برعم الورد ، يرتجف متضايقا لسقوط قطرة الندى عليه !

لاريب أننا نحب الحياة ، وليس سبب ذلك لأننا تعودناها ، بل السبب في أننا تعوّدنا حب الحياة

إن في الحب شيئا من الجنون ، ولكن في الجنون شيئا من الحكمة . وأنا نفسي التائق الى الحياة يتراءى لي أن خيرَ من يدرك السعادة إنما هي الفراشات وكرات الصابون الفارغة ، ومن يشبهها من الناس . ولا شيء يبكي زارا ويدفعه الى الأنشاد كنظره الى هذه الأرواح الصغيرة الخفيفة الرائعة الدائمة الخفقان في جنونها

إن الاله الذي يمكنني أن أومن به إنما هو الاله الذي يمكنه أن يرقص

عند ما تراءى لي الشيطان رأيته جامداً مستغرقاً ملؤه الجد والجلال ، فقلت هذا هو الروح الثقيل الذي تتساوى جميع الحالات لديه

إذا أردت القتل فلا تستمن بالغضب ، بل استمن بالضحك . فهيّا بنا نقتل الروح الثقيل

إنني ما زلت راكضا منذ تعلمت المشي . وها أنذا أطير الآن ولست بحاجة الى من يدفعني لأتحرك

لقد أصبحت خفيفاً ، فأنا أطير مشعرا بأنني أحلق فوق ذاتي وأن إلهاً يرقص في داخلي

هكذا تكلم زارا . . .

(يتبع) فليكس فارس

مشرقيات

فى الأدب العربى الحديث

للأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكى

الأستاذ بجامعة لينجراد

بقية ما نشر فى الأعداد السابقة

إن مسألة لغة الحوار فى التأليف المسرحى قد تبدو ذات أهمية أكثر منها فى عالم القصة . ويستدل من الاتجاه السائد أن اللغة العربية الفصحى احتفظت حتى الآن بقواعدها ، لكن هناك محاولات جديرة بالاهتمام ، مشبعة بروح متناقضة . ولنذكر منها محاورات جلال وتيمور . وكثيرا ما ظهرت مؤلفات نظرية تشير الى ضرورة انتهاج تقاليد أدبية ثابتة . بل إنه قام جدال قلمى حاد فى سوريا ، عند ظهور مؤلفات مارون غصن ، (المولود فى سنة ١٨٨١) ، فالموضوع يثير اهتمام الباحث المدقق ، لكن حله ليس من السهولة بمكان

ومما تجدر ملاحظته أن القصصى محمود تيمور ، الذى كان يكثر من استعمال العامية فى الطبعات الأولى من مؤلفاته ، عاد يكتب بعدئذ بلغة هى أقرب الى الفصحى ، وذلك على الرغم من أنه — نظريا — يتنبأ بمستقبل العامية المصرية ويدافع عنها

وفى مؤلفات توفيق الحكيم المسرحية ، نراه يجمع بمهارة بين اللهجة العامية فى الحوار وبين اللغة الفصحى عند ما يدون ملاحظاته أو وصفه . وقد دلت التجارب العملية على أن هذا الحل هو خير الحلول الوسطى فى الوقت الحاضر

ﺩ — أنواع أخرى

إن تاريخ تقدم الأدب العربى الجديد محاط ببعض الظروف الخاصة التى تضطرنا الى الولوج [illegible] أنواع قد تترك جانباً إذا أثير البحث حول ما اتفق على [illegible] » . مثال ذلك الصحافة ، فقد لعبت بأسرها دوراً من المرتبة الأولى [illegible] الأهمية ، إذ كانت مدرسة لا للقراء فحسب ، بل وللكتاب أنفسهم ، فكان ما ينشره الكتاب من المقالات فى الصحف يساعدهم على تحسين أسلوبهم شيئاً فشيئاً ، وذلك يؤثر فى كتابتهم عند ما يتناولون الأنواع الأخرى

وأشد هذه الأنواع تأثراً : النثر الخطابى (السياسى وغيره) وهكذا نشأت أبحاث فى النقد وتاريخ الأدب ، ورسائل أدبية مختلفة ، تذوقها الجمهور ، إذ وصلت فى أسلوبها الى مرتبة الشعر المنثور . وسار هذا الأسلوب الخاص بالصحف والمجلات والرسائل سريعا فى طريق التقدم . نعم ، إن القرن التاسع عشر لم ينتج شيئا جديرا بالاهتمام ، لكننا لا نستطيع أن ننكر أثر البستانى ونشراته الدورية العديدة . وقد تخرج فى تلك المدرسة عدد كبير من الصحفيين أمثال أديب اسحق ، الخطيب الملتهب حماسة ، ونجيب حداد الذى اتجهت ميوله الى الجدل الفلسفى

وكان للهجرة الى أوربا بعض الشىء من الأهمية ، إذ أنجبت شخصيات فذة عديدة ، مثل الشدياق وخصمه رزق الله حسون المتوفى فى سنة ١٨٨٠ ، ورشيد الدحداح الذى امتاز بما نشره من المؤلفات القديمة (١٨١٣ — ١٨٨٩) . وفى خلال المدة من سنة ١٨٨٠ الى ١٨٩٠ اجتازت مصر نقطة من أدق النقط فى تاريخها . فعلى أثر نشوب الثورة العرابية بدت فى الأفق شخصية عبد الله نديم (١٨٤٤ — ١٨٩٦) الذى أخذ يعالج فى صحف عدة المسائل الاجتماعية والسياسية بأسلوب لاذع وفى لغة الكلام العادية . ومثله يعقوب صنوع (١٨٣٩ — ١٩١٢) المعروف باسم الشيخ أبو نضارة والذى أقام فترة طويلة فى فرنسا . أما عبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٩ — ١٩٠٣) فكان فى شبه عزلة عن كتاب عصره . كان الكواكبى رحالة ثائراً ، يحلم بالجامعة الاسلامية ، وقد أنشأ فى كتابه « أم القرى » فكرة خيالية رائعة عن مؤتمر الاتحاد الاسلامى بمكة المكرمة

فى خلال تلك المدة ، أخذت مدرسة الشيخ محمد عبده تنمو وتقوى . ومن الذين تخرجوا فى تلك المدرسة سعد زغلول (١٨٥٩ — ١٩٢٧) أشهر خطيب سياسى فى مصر الحديثة ، فلم يكن له نظير فى مستهل القرن العشرين سوى مصطفى كامل (١٨٧٤ — ١٩٠٨) مؤسس الحزب الوطنى . أما الذين خلفوا

الشيخ عبده مباشرة ، فقد وقفت جهودهم عند أبحاث إسلامية بحتة فى التفسير وفى الدفاع عن الاسلام ، ولم تحدث أى أثر واقع فى الحركة الأدبية . وهذه الملاحظه تنطبق على أمثال محمد رشيد رضا ، وهو أدقهم محافظة وأشهرهم . ومحمد فريد وجدى (المولود فى سنة ١٨٧٥) ، وهو أكثرهم تشبعاً بالروح العصرية

وفاقت شهرة على يوسف (١٨٦٣ – ١٩١٣) — منشىء «المؤيد» — فى عالم الصحافة شهرته فى أى ميدان آخر . ولا يزال الأمير الدرزى شكيب أرسلان نزيل أوربا منذ سنوات ، يشغل المقام الأول . واستأنفت المدرسة الصحفية السورية تقاليدها فى مصر ، بفضل يعقوب صروف (١٨٥٢ – ١٩٢٥) صاحب المقتطف ، وسليمان البستانى (١٨٥٦ – ١٩٢٥) الرحالة النابه ، ومترجم الالياذة ، وقد كتب عن تركيا مؤلفاً جاء فيه بأحسن الأوصاف عن حالة العرب الاجتماعية قبل الحرب العظمى . وللأسلوب العلمى الفلسفى الذى امتاز به البستانى نقيضه فيما كتبه ولى الدين يكن (١٨٧٣ – ١٩٢١) من مقالات ورسائل ، وقصائد

كان ولى الدين من أشد أنصار التقرب من الأتراك والعرب ، فراح يصنف بعبارات تلتهب حمية وحماسة ، وفى صور مؤثرة أيام أسره فى استامبول فى عهد السلطان عبد الحميد ، وما شاهده من المفارقات الاجتماعية فى تركيا

وامتاز مصطفى لطفى المنفلوطى — وهو أصغر تلاميذ الشيخ عبده سناً — بما بذله من الجهود الموفقة لابتكار أسلوب جديد شائق ، ويمكننا أن نقول إنه نجح نجاحا كبيراً عن جدارة واستحقاق . أما البحث فيما إذا كانت المؤلفات العديدة التى نقلها بتصرف عن أصلها الأوربى قد أفادت القراء من حيث فهمها على حقيقتها ، فهذا موضوع بحث آخر

وأظهرت المدرسة السورية ميلاً خاصاً إلى الرسائل والشعر المنثور . ويعتبر أمين الريحانى مبتكر هذين النوعين ، وهو كاتب معروف ، حائز حسن التقدير . وكان أول من رفع فن الرسائل والشعر المنثور إلى المكانة الأولى وضمن لها شهرة ذائعة ، وقد ظل مخلصاً لفنه ، كما هو واضح فى مؤلفاته الأخيرة . ومثله جبران خليل جبران ، فانه تفرغ إلى هذين النوعين ، بل إن جل مؤلفاته دواوين من الشعر المنثور أو رسائل تحوم حول نظرية خاصة أو فكرة مركزية . ثم سارت المدرسة السورية المتأمركة فى طريق التنويع (مثال ذلك : ميخائيل نعيمة) لكن الأفضلية ظلت للرسائل والشعر المنثور . وهذه الرسائل ، مع اختلاف مضمونها ، تعد أهم مميزات المدرسة الحديثة ، وإن كانت فى مصر توجه عناية واهتماماً خاصاً إلى مسائل تاريخ الأدب ، والفلسفة ، والاجتماع

ومن الأمور الغريبة الجديرة بالملاحظة أن كتب رواد هذه المدرسة (كمنصور فهمى والعقاد وهيكل والمازنى وسلامة موسى) إن هى إلا مقالات سبق أن نشرت على صفحات المجلات والصحف اليومية ، وهو دليل على حيوية هذا النوع ، بل برهان ساطع على الأثر القوى الذى تركته الصحافة الدورية بالنسبة لتقدم الأدب

ترجمة محمد أمين حسونة

من ذكريات رحلة الجامعة المصرية الى أوربا

زاكـــوبانا ZAKOPANE

مدينة الأحلام والثلج

بقلم محمد عبد الرحيم عنبر

كان فى برنامجنا الطويل أن نزور بولندا ، فوصلنا عاصمتها الجديدة « فارسوفيا » فى مساء ١٧ أغسطس الماضى ، كما كان من المقرر أن نقيم فيها ثمانية أيام ، إلا أن أموراً شاقة عرضت لجمات رئيس الرحلة بغير وجهة السير ، إذ أن شرذمة كبيرة من مهرة « النشالين اليهود » قد احتفت بمقدمنا الاحتفاء اللائق ! ومما زاد فى مضايقتنا اجراءات البوليس البولنـدى التى كان لها كل الفضل فى تأخير وصول حقائبنا الى « بيت الطلبة » القذر الذى هيئ لاقامتنا ! . وكان أغلبنا قد غلبه النعاس من فرط الأعياء فأسلم عينيه لسلطان الكرى ونام بيذلته نوماً هنيئاً حتى تبدت خيوط الصبـاح فى اليوم التالى . وفى ذلك اليوم استفحلت احتفاءات النشالين الى درجة مزعجة

فكان طبيعياً اذن أن يستقر بنا الفكر على مغادرة فارسوفيا بعد اذ جاهدنا جهاد الأبطال فى الذود عن « جيوبنا » مما محا من نفوسنا جمال كل رؤية !

وعلى رصيف المحطة حدثنى أحد الأولاد البولنديين عن هذه الظاهرة فى أسف قائلا لى : « يؤلمنا جداً أن يزعجكم أولئك النشالون الدوليون من سفلة اليهود الذين تضيق بهم بلادنا ! » فشكرته وطيبت خاطره لـكى أذهب عن وجهه لمة الخجل

وبعد سفر شاق دام عشر ساعات بالقطار بلغنا زاكوبانا . وكم كان المنظر رائعاً حين كنا نعدو سراعاً خفافاً ، كل خمسة منا فى عربة رشيقة صغيرة ذات حصـان واحد ينهب الأرض نهباً ، ويطوى المسافات الطويلة صاعداً فوق صدر ربوات عاليات فى طريقنا الى فندق « مارتون Maraton » الجميل الذى يطل على قلب المدينة من فوق ارتفاع تسعمائة متر ، ارتفاع شاهق يتيح للنزل أن يديروا بأعينهم فوق آفاق الجبال السامقة المترامية الأطراف ، ذات التيجان الثلجية ؛ أو أن يرسلوا أنظارهم بعيداً الى حيث تفترش أشعة الشمس رقع الأرض ذات الألوان الصارخة المختلفة ؛ وأينما تقع أبصـارهم يشاهدوا جمالاً أخاذاً ، ويروا صوراً مختلفات من سحر الطبيعة الخالدة . فها هى ذى تلك الذرى الشاهقة — ذرى الجبال — تلتحف بأوشحة رمادية فاتنة من ضباب كثيف لا يلبث أن يستحيل رذاذا خفيفاً ثم مطراً ثقيلاً يتجمع ليفترق لينتهى الى جداول ضئيلة تتشابك أو تتشعب ، وتلتوى أو تستقيم ، وتنتهى بدورها الى مجار أوسع تعترضهـا صخور ضخمة ترقاها المياه بعـد صراع عنيف تنبعث فى لحظات عنفوانه ألحان الانتصار وأنغام موسيقية شجية فتنة الناظرين ومرح السامعين !

وها هى ذى الغابات الكثيفة تزين كل مكان وتهز فى النفوس حنين الالتجاء الى أحضانها ، فى ظل أشجارها الباسقة ، وتحت أغصانها المتهدلة ، لقضاء ساعات طوال بين الخضرة والماء والوجه الحسن !

وههنا وهناك المنازل الخشبية الريفية على صـدر الجبال وقممها أو على قلب السهول ، متقاربة حينا ومتباعدة أحيانا . وتبدو جلية طورا تحت أشعة الشمس وبين الرياض النضرة كأنما هى زهرات من بنفسج فضاح ! وشاحبة طورا بين لفائف الضباب كأنها فكرة سابحة فى خيال شاعر مفتون !

فكيف إذن لا تكون زا كوبانا مدينة الخيال والأحلام ؟

وزا كوبانا ليست مصيفاً فقط ، كما أنها ليست مشتى فقط ، بل هى هما معاً . فالمعجبون بها يرحلون اليها فى الصيف كما يرحلون اليها فى الشتاء ، ويبهرهم جمالها فى الفصلين . فاذا زرتها فى الصـيف فلست منتهيا من سماع وصف الشتاء حين يهبط بثلوجه فتتحول تلك البقاع الخضراء الضاحـكة الى بساط فاتن من الثلج فتتيح للناس الانزواء فى منازلهم يلتمسون الدفء والراحة . وتمطى الأزواج فرصة الأوبة الى زوجاتهم مبكرين على غير العادة ! ولا يخرج إلا أولئك الراغبون فى الانزلاق على الجليد . عادة شائعة فى تلك البلاد

فاذا كان الشتاء حدثوك عن جمال الصيف وسحره . الصيف

الفتون حيث تطوى شمسه الدافئة ذلك البساط الرهيب وتدفع بأفواج الناس الى أحضان الغابات ، راجلين أو فوق ظهور الجياد . حيث تدب الحياة من جديد فى الكائنات المقرورة . حيث تلبس الطبيعة رداءها الجديد ! فالناس هناك لذلك تواقون الى الرياضة المنيفة . وتتجلى هذه الروح فى الطفل والشاب والشيخ ! فى الرجل والمرأة ! فى الفقير والغنى ! فى العاشق والخلى ! فى كل كائن حى حتى الحيوان الذليل . . .

والقوم هناك لا يألون جهدا فى توفير أسباب السعادة حيث يعيشون عيشة الفطرة وينزعون عن أجسامهم المنهكة أردية السهرات الأنيقة وملابس العمل الثقيلة . فلا كلفة ولا تصنع ولا رياء ولا حقد ولا مفاخرة كاذبة . تأويهم المدنية كلهم على السواء ، ولا تجعل لأحدهم مجال الفضل على آخر ، كأنهم أسرة واحدة يخرجون الى الشوارع « بالبيجامات » وأثواب النوم . ذلك الأمر المستقبح فى مدن العمل والرسميات . يتبادلون المجاملات الرقيقة كأنهم متعارفون متوادون منذ زمن بعيد

ولم يحاول أهل تلك البلاد زخرفة الطبيعة . بل تركوها كما هى بزركشتها الالهية . وإن كان هناك ثمة مجهود يبذله الانسان فهو فى الاستمتاع بسحر الطبيعة ليس إلا ؛ فيتسلق الجبال أو يتزلق على الثلج ، . . الخ . وزا كوبانا فى كل هذا كالجمهورية الفاضلة التى أسسها أفلاطون فى خياله الواسع ! . تكفى نفسها بنفسها وتعيش بذاتها لذاتها . يكاد يشعر المقيم بها أن تلك المدينة الوديعة هى كل ما يستطيع أن يتصور من الدنيا

وفيها السهرات الصاخبة التى تصل الليل بالنهار ، ويجمل السهران يستطيع أن يقول فى شىء من الزهو — إن كان هناك ثمة مجال لزهو — « بدأت سهرتى تحت ضوء القمر وختمتها تحت ضوء الشمس ! »

وإن أنس لا أنس تلك الليلة البارعة التى أمضيناها فى كازينو وتشاسكا Chaska حيث سعدنا ساعتين أو يزيد بمشاهدة الرقصات القومية التقليدية التى يؤديها الوطنيون فى ثوبهم الوطنى الوشى بالقصب والحرير ذى الألوان الفاقعة . يؤدونها رجالاً ونساء وأطفالاً ؛ يختلط الحابل فيهم بالنابل . يأخذ الرجل بدأية امرأة يقع عليها بصره ! ويمسك الطفل الغرير — مازحا — بذقن الشيخ العجوز الماثل على حافة القبر ! ويحتضن الشاب الغرير الفتاة المكتملة ذات الصدر الناضج ! فيدورون جميعاً فى حلبة الرقص ، يتجاذبون ويصفقون ويلفون لفات مربعة بارعة على كعوب أحذيتهم أو أطراف أصابعهم : ضاحكين متراقصين

* * *

وصعدنا مرات جبال تاترى Tatry ، راجلين أو ممتطين « القطار المعلق » الى حيث ارتفع بنا نحو ألفين وخمسمائة متر فوق سطح البحر ! نوع غريب من المواصلات لا يوجد الا حيث تتناهى الجبال الى مثل هذا الارتفاع الشاهق كسويسرا . وهو عبارة عن صندوق ذى أركان من الصلب وجدران من الزنك ، معلق فى أسلاك قوية شدت الى أعمدة متينة رفعت فوق ذرى الجبال السامقة . وفى كل ذروة محطة كبيرة ، ومكتبة وبوفيه صغيران

وزا كوبانا ككل قرية أوربية بها دار للسينما وأخرى للتمثيل ونادٍ للرياضة . وتتوفر فيها كل أسباب الحياة من حوانيت ومقاه ومستشفيات وفنادق . . . الخ

وتنتشر هناك على الأخص الصناعات الخشبية الرفيعة كالتماثيل وأدوات المكتب والزينة والعصى لوفرة الخشب المجلوب من الغابات الكثيفة

هذه هى زا كوبانا التى تفتح ذراعيها لكل قادم . وتتألم لكل راحل بعد اذ يكون قد أنشأ بينه وبين المقيمين بها علاقات ودٍّ وصداقة ! المدينة التى تأوى كل هارب من مضنيات الحياة ، كل ناشد راحة ومتعة وسعادة وجمالاً !

وأخيراً ! المدينة التى قضينا فى رحابها ستة أيام بين جمال لا ينتهى وسحر لا يوصف . والتى غادرناها محملين منها فى جعابنا بمقادير غير محصورة من الأحلام والشعر !

ولعل كثيرا منا دخل اليها وقد أقفلت دونه أبواب الشعر والنثر ، وخرج منها شاعراً مجيداً وأديباً فريداً ! ! . . .

محمد عبد الرحيم عنبر
بكلية الحقوق — الجامعة المصرية

القصص

راعية الغنم

للآنسة جميلة العلايلي

هناك فى أعماق الصحراء النائية اتخذت راعية الغنم مأواها ؛ وعند شط البحر الزاخر بأمواج الأزل استقر بها المقام ، حيث تختلط أضواء السماء بظلال الأجواء ، ويبدو الفضاء كأنه مرآة لصورة اللانهاية

فى هذه الدنيا المجهولة اتخذت الراعية سكنها أو معبدها كما نظن وهى لا تدرى كيف استطاعت أن تعبر محيط الحياة المحدود لتعيش فى كنف الوحشة الهائلة التى لا حد لها ، وكيف تمكنت من تحطيم التقاليد المرعية لتقيم لنفسها حياة لا وزن لها ولا قيمة فى نظر المجتمع الانسانى

كذلك لا تدرى كيف تمكنت من مغالبة رغبات الشباب وأهواء الصبا ونزعت راضية إلى حياة التقشف والحرمان

وتحار أيضاً فى تفهم حياتها بقدر حيرتها من خضوعها لقوة قاهرة مجهولة ساقتها دون وعى منها إلى هذه الحياة الجرداء

وهى تذكر ماضيها القريب بما يحمله من نعم الحياة ومباهج الترف والملذات وأطايب الوجود كأنه حلم مر بها لحظات من الزمن الحالم ، ولكنها لا تذكره بحنين ولا تتوق إليه ولا تتمناه ، وهى تتأمل نفسها فى حاضرها فيحلو لها أن تشعر بقدرتها التى حملتها — وهى لم تتعد بعد العشرين من عمرها — إلى اجتياز عقبات الحياة ، وقد عبرت محيط الوجود فى غير خوف ، وحطمت تقاليد المجتمع الغاشمة فى غير لين . . .

إنها تضحية هائلة منها بلا ريب ، إذ كيف يمكن لانسانة رقيقة ناعمة شديدة الحساسية أن تعيش فى دنيا موحشة مليئة بالمخاوف والأوهام ! إنها تشعر بذلك ، ولكنها تعرف أيضاً أن الوحشة الهائلة والخوف المروع والسكون الرهيب أهون من أباطيل المدنية وتهاويل الجوع ومساوىء البشر ، وأقل خطراً من محن التقاليد وتعسف البيئة الحاكمة ! ! !

لذلك ارتضت حياة الحرمان قانعة ؛ ومع أن ليل الصحراء المروع كان يملأ جوانب نفسها رهبة ، فانها كانت تقتل الخوف بأحلامها السانحة . . .

كانت تتخيل دائماً أن الله معها ، وأن ذلك الشروق البهيج كلمة الأمن تنطق بها شفتا الأزل ، وأن مظهر الغروب كلمة العزاء ترسم على صفحة السماء لتوحى إليها أحلام الأمن والطمأنينة والصفاء ! ! !

كانت تشعر أن قلبها عامر بالحب إلى درجة يسع معها ذلك الخلاء المطلق لو ضمت الخلاء بين جانحتيها ؛ وعند ما تواتيها أخيلة المساء تتأمل الكون فى خشوع فيرتد اليها الأمن وتعاودها الطمأنينة ، ويبعث الله إليها ملائكة الرحمة فتنام نوماً هادئاً لا تشوبه مرارة القلق ولا الفزع حتى يقبل الصبح فاها بمنقار طير جميل فتستيقظ وهى على يقين أن ذلك الطير بمثه الله ليحمل إليها رسالة رضاه

على أن حياتها كانت لا تخلو من العمل الجدى فى نهارها . كانت ترعى أغنامها وتغزل أصوافها وتستخرج الزبد والجبن من ألبانها ولا تنتفع بذلك لنفسها بل كانت تهبه راضية أبناء السبيل وهم فى ناظريها اليتامى والمساكين والمحرومون

هؤلاء هم الذين يعرفون الله ويحبونه حباً جماً ، ومع ذلك يحرمهم الحياة من نعمه وهى واحدة منهم — كما تعتقد — ولكنها الآن تملك ما لا يملكون فلم لا تمنحهم مما وهبها الله الجليل العظيم ؟

إنها تشعر أنه وهبها ذلك من أجلهم وعليها أن ترد الأمانة لهم ، ولعل هذا الاحساس الذى ولد معها وظل ينمو ويترعرع حتى اشتد أزره وملك عليها قلبها وعقلها هو الذى دفعها إلى ترك

حياة القصور والفرار من بيئتها سراً لتعيش هنا فى كنف هاته الوحشة أليفة وحيدة . بنت عشها من الأغصان وزينته بالزهر ، وراحت تقتات النبت وتروى عطشها من ماء النهر ، وباتت تحس أن كل ما يحيط بها حانٍ عليها ، وتحس بنسمات العطف ترف عليها من كل جانب ، فتشعر أن قلبها بحبه الهائل أسمى من الوجود ، أو لعله صورة لذلك الذى يسمونه الخلود . ويخيل إليها أنها تملك الحياة بأسرها لأنها تتنفس فى طلاقة ، وتعدو فى غير قيد ، وتخلع أرديتها دون أن تخشى النظرات الفاسقة ، وتسير كما يحلو لها فلا يلاحقها أصحاب القلوب المريضة

***

مرت بها الأيام وهى لا تعرف لأيامها حساباً ، بل تشعر أنها كما ولدتها أمها خالية الذهن إلا من الإيمان الأكيد حتى بلغ بها الخيال يوماً فحسبت أنها تعيش فى الفردوس الذى وعد الله به المخلصين من عباده ، حتى رأت يوما إنسياً يروح ويجىء من بعيد فأيقنت أنها مازالت على أرض الحياة تعيش

وتعلق نظرها بذلك الشبح الذى تراءى لها وهو يتمشى فى سكون ، وينقل خطاه فى هوادة ، وفى يده كتاب لا يقرأ منه إلا لماما ليتأمل مظاهر الطبيعة الفاتنة البادية فى الصحراء ؛ وظل كذلك حتى لمح عن بعد طيف الراعية الحانية على الغنم تطعمها وتسقيها ، فتقدم نحوها عامداً ، وراح يتأملها فى عجب وهو يتوجس خيفة من وحشة المكان الذى يأويها ؛ وقد عجب لجرأتها ، وظن أنها لابد أن تكون همجية مستأنسة أو أنسية متوحشة — ولكن مظهرها اللائكى طبع فى ذهنه فاكتسح أمامه هذه الخواطر وراح يرثى لحالها ويفكر فى أمرها ، ووجد نفسه يتقدم اليها من حيث لا يدرى فتوقف عن المسير وأسرع الخطى بعيدا عنها

فلشد ما كان يؤلمه أن يخاطب امرأة مجهولة ، وكذلك يخجله أن يواجه امرأة . ولما ابتعد عنها وشعر بطول المسافة بينهما — ندم على تسرعه وقال لنفسه : وما ضرنى لو حادثتها ؟ ألا يحتمل أن تكون هى صحيفة مجلوة من ذلك الكتاب الغامض الذى يحتاج لقاموس ؟ ثم ارتد اليه اعتدال رجولته فاطمأن الى تصرفه

أما هى فقد راحت تتأمله فى حذر وتعجب بدورها ! فلأول مرة فى تاريخ وجودها فى الصحراء ترى إنسيا ، وقد كانت سعيدة بوحدتها ، فأى قدر قذف اليها اليوم بذلك الرجل المجهول . فملكها خوف ورعب ، وسادها قلق واضطراب ، وراحت تنظر للخلاء كأنه مغارة مخيفة تكاد تبتلعها ، ثم تنزل عليها خاطر غريب فهدأت أعصابها فاطمأن قلبها وقالت لنفسها : عله عابر سبيل !! ثم استعادت بخيالها صورته ، فأدركت أنه شاب وسيم الطلعة عليه مهابة الشباب الثرى ، وتأمله فى كتابه يدل على أنه من طلاب العلم أو المتأدبين ، من عسى أن يكون ؟

عله يملك هذه البقاع فجاء اليوم يزورها — ولكن لو كان لسألنى بأى حق اتخذت هذه البقعة ؟ ثم إنى لا أعرف إنسانا متمدينا يبلغ به جنون الزهد أو التقشف الى حد يدفع به الى شراء أرض قاحلة لا فائدة منها . والناس كلهم يجرون وراء الفائدة المادية

بهذه الخواطر شغلت نفسها طوال الليل حتى طلع الصباح فر بها وقد تأملها فى سكون ، بيناهى تتأمله فى خفر ، وراح يمر عليها كل يوم ملقياً عليها نظرة عابرة وهى تتعمد أن تبدو غير آبهة ولا حافلة ، حتى اشتد ظمؤه يوماً ، فاقترب منها وعليه طابع الصلف والكبرياء وطلب كوب ماء ، فقدمت له إناء به ماء وهى تبتسم وتقول : يؤسفنى أن الماء غير مكرر . . . فذق مياه الزاهدين (قالت ذلك بلهجة لا تخلو من عطف خفىّ ، ولطف ساذج ، وعذوبة محببة ،وتحفظ رزين ، فتأفف وأبى فى صمت قالت : إذن تفضل كوبة من اللبن ؟

فهز رأسه موافقاً وشرب ثم مد يده ببعض دريهمات اليها فامتنعت فى إباء وقالت : المال لطلاب الحياة ولست منهم ! فشكرها فى إيجاز وكبرياء ، وتركها فى موقفها وسار فى طريقه فى هدوء وراحت تترقب مروره وقد هيأت له كوب اللبن فى كل صباح فلم يحضر ، ومرت الأيام وقد ازدادت لهفتها

لم ترغب فيه كرجل يحادثها أو يجالسها ، ولكنها كانت تود أن تراه ثم تغمض عينيها الى الأبد ، ولم تستطع تفسير شعورها الغامض الذى ملكها . لقد باتت تحلم به فى الليل وتترقبه فى النهار ، وجاءها على غير موعد يطلب لبناً . . . ولما شرب ظل

فى موقفه لا يتحرك ولا يتكلم وهى فى موقفها توارى اضطرابها بالاشتغال فى غزلهـا وأخيرا قال بلهجة التهكم المر : ما الذى جاء بك الى هذه البقاع الجرداء وأنت صبية حسناء ؟

فمالت برأسهـا إلى الخلف وقد بانت أشد فتنة وسحراً ثم قالت فى هدوء ودعة :

ما الذى يجنيه من حياة المدنية وضجيجها ؛ ما الذى نجنيـه من أوهام الحياة ؟

لا شىء بالتأكيد !! ...

إذن خير لنا أن نفكر على قدر عقولنا فى حياة تكفل لنا بقدر المستطاع الأمن والسلام

فضحك الشاب متهكما وقال : وإذا كان جميع الناس على هذا الطراز (طرازك التقشفى) فما الذى تجنيه الانسانية أيضاً ؟

قالت : على الأقل تخلو من التنابذ والتنافر فترتدع الخلائق عن الحرب والتقاتل

فازداد تهكما وقال :

وهل تظنين أن امتناعك عن مشاطرة الناس حياتهم العامة يشوه من جلال الحياة ؟

قالت : لا ، ولـكن يطمئننى أنا ويسعدنى

قال : إذن فأنت تلبسين مسوح الراهبة إمعاناً فى الأنانية ؟

قالت : وهل يمكن لانسان أن يتحرر من الأنانية ؟ . . . ولـكن يمكن تحديد الأنانيـة وتوجيهها إلى طريق مستقيم ، فهناك فارق كبير بين إنسان يقتـل إنساناً ليسعد نفسه ، وبين آخر يعرف كيف يمتع نفسه فى حدود الخير والفضيلة دون أن يلجأ إلى الشر أو الرذيلة

فهز رأســه وهو يتمتم ويقول : هيه ؟؟ ... وأخيراً قالت : سأعيش هنا حتى نهاية أيامى ، فقال : ألا تشعرين بوحشة الوحدة ؟

قالت : قلبى عامر

قال : بمن ؟

قالت بنغمة حارة : بالحب !

فعاد إلى تهكمه ضاحكا وقال : وأين ذلك الحبيب ؟

قالت : إنه معى

قال : ولـكنى لم أره ، قد جئت هنا كثيرا

قالت : يخيل إلىّ أنك تتغابى لتستدرجنى

فتلفت الشاب يمنـة ويسرة كأنه يفتش عن ذلك الحبيب ، ولـكنها لم تدعه فى حيرته وقالت : أيمكنك أن ترى الله ؟ من أجل الله جئت هنا ، ومن أجله أعيش ، ومن أجله أحب العالم كله !

قال : قد يكون ذلك صحيحاً ، ولـكن لا بد لك من تحـديد هذا الحب وتركيزه

فلم تفهم ما يعنيه وقالت : إننى أحب كل كائن لأننى أرى فيه سمة من سمات العظمة الالـهية ، فأنا أحب الـكائنات كلها لأنها تكون فى مجموعها القوة الجليلة الهائلة والجمال اللامحدود ، أعنى أحب صورة الله منوعة الرسوم

كانت تتحدث وكل خالجة فيها تعبر بوضوح عن صدق إيمانها ، وكان فى التماع عينيها واختلاج شفتيها معنى صريح لعواطفها الصادقة

فغمغم الشاب بلهجة المريب : لقد دفعك الحرمان إلى ذلك

فتندت عيناها وتمتمت بصوت خفيض : أجل . هو الحرمان الذى قربنى إلى الله ، وهو الذى فتح قلبى للحب السامى ، وهو الذى أودع فى قلبى عاطفة هائلة هى على قدر غموضها عميقة

وأحس الشاب أن كلماتهـا تنزلت على قلبه فتمنى لو يعانق جسمها اللدن ليبثها الحرارة التى فى كيانه ، ولـكن بقية من كبريائه دفعته للصمت ، وكان شعورها قد فاض بها فازداد اضطرابها

ولـمـا أحس بحنينه يشتد خاف أن يفتضح أمره فانسحب وقد حياها على عجل وانصرف

***

ومرت بها الأيام وهى تتجنبـه بقدر ما تتمناه ، فقـد أدركت من المرات التى لقيته فيها أن فى التماع عينيه حكاية ، وعلى شفتيه طابع الرغبة الجامحة ؛ ولعله ظن ذلك التجنب زهداً فاحترم مشيئتها وراح يمر بها هادئاً ويعرض عنها صامتاً

وقد فسرت هى تصرفه بالخشونة والجمود فاكتفت أن تنظر اليه من بعيد عند ما يجىء ويجلس هناك على صخرة وسط الرمال كأنه يحدثها بسرائر نفسه ليرفه عن صدره عبء خواطره الثقيل

وفى أمسية قمرية ساجية أحست بشعور قوى جارف يدفعها اليه . . . لتراه ثم تعود ، ولـمـا جاءته وكان قد أخذ مجلسه على الصخرة ، نظر اليها نظرة خاطفة ، ثم أشار اليها بيـده لتجلس

فامتنعت واتجهت خلفه لتعود ، فانتصب فى هدوء وقال لها فى رفق : إجلسى يا طيفى الهارب ... فامتنعت ...

فعاد يقول بصوت حزين : أنا مريض

فتمتمت : لا أظن

قال : صدقينى

قالت : لست مريضاً ... ولكنك حالم — أجل — إن ما بك هو حلم عميق وهو الذى أورثك هذا الجمود

فارتاع ثم قال : أجامد أنا ؟

قالت : أو تشك ؟

قال : أجل

قالت : ثق

قال : لا أظنه جمود عاطفة ولكنه رهبة وخوف

قالت : ممن تخاف ؟

قال : منك ! ! !

قالت : أيمكن أن يخاف الرجل القوى امرأة ضعيفة ؟

قال : آه من المرأة : فى عينيها بريق الأمل وعلى شفتيها طابع الألم ، ومن هذا الالتماع تتدفق القسوة فى شبه زلال الرحمة

قالت : إن الله يحيط المرأة بسياج الغموض وهو ما يخيف الرجل ، وما يسميه بالقسوة ليجعل لها حصانة طبيعية وسلاحا لا يؤذى . فتكلف ابتسامة شاحبة وقال : ورغم ذلك فألف أف من سلاح عينيك

فضحكت فى سذاجة وقالت : فى عينيك حكاية وفى عينى سلاح — هه — يا للفارق الهائل !

فتماكر وقال :

فى عينى حكاية ! ! عجبا ! !

أتعرف الراعية التهكن ؟

قالت : أجل

قال : إذن نبئينى يا كاهنتى ؟

فلزمت الصمت طويلاً وهى تحدق فى عينيه ثم قالت : فى عينيك حكاية حلمك ! !

قال : يا لله ، وهل لحلمى حكاية ؟

وإذا كان هذا رأيك عن عينى فما عساى أقوله فى عينيك

فقالت : بدون اكتراث :

قل ما بدالك

فنظر إليها طويلاً ثم أرخى جفونه وراح يعبث بعصاه فى الرمل كأنه يصور خواطره بها ثم نظر إليها وقال :

فى عينيك عمق الأبد وسر الأزل

قالت : ثم

قال : لا شئ

قالت : فسر ما وراءها

قال : عسير على إدراك ما وراء الأبد وتفهم خفايا الأزل

قال ذلك وهو يتأهب للانصراف فتشبثت بردائه وقد نسيت حذرها وخوفها وقالت : ابق بجانبى ، ابق بجانبى ، لا تتركنى هكذا وشيكا

فتعمد عدم الاهتمام وحاول أن يخلص نفسه من بين يديها . ولما رفع وجهه إلى عينيها ولمح دموعها تخاذل وأخفق وأطرق برأسه فى استسلام وقد تجهم وجهه ولزم الصمت . وأخيراً غمغم بصوت خفيض : أغنى ، فقبضت على يده وهى تقول : افتح عينيك ! ! ودعنى أتأمل فيهما طويلا

دعنى أتأمل فيهما حتى نهاية الوقت بل دعنى أتأمل فيهما حكاية قلبى !! وهنا تلاشى كبرياؤه وبدأت عواطفه تشيع فى عينيه وتتراءى كالظلال على شفتيه بسمة السخرية حتى امتدت الى قهقهة طويلة فاستفاق فوجدها بين يديه جثة هامدة

فنضحها بالماء حتى استفاقت ففتحت عينيها فى بطء وغمغمت : أما زلت هنا أيها القدر الجائر . ثم ابتسمت وقالت أتراناا انتهينا ؟

قال : أى قوة هائلة قد قذفتك من أعماق الحياة لتأخذى مكانك فى قلبى ؟ فانتصبت وقد ملكها الفرح وقالت : إذن أنت لى وسوف تظل بجانبى إلى الأبد

وأحس فى أعماقه بسخرية القدر فتألم لها وعليها ، إذ أدرك خطورة تصرفه وأيقن أنه عاجز عن مكافأتها على حبها — انه مرغم على فراقها ، فللتقاليد حرمة يجب أن تصان ، ولبيئته تقاليد مرعية يجب أن تحترم ، ولوالده عليه حق الطاعة والخضوع — فتلطف بها وقال : قد أكون تطفلت عليك فمعذرة ، سأذكرك دائماً بالخير ، وإذا احتجت إلى معونة فأنا أقرب الناس إليك

فتألمت واحتجت فى عنف وحاولت أن تحتم عليه البقاء بجانبها لخانها النطق وقعد بها الحياء.

ولم يترك لها مجالاً لاستعادة قواها. فحرك ساقيه ومضى عنها مهرولاً وتركها فى مكانها تتمتم:

أيمكن أن تقذفنى الحياة من أعماقها إلى شاطىء فيصدمنى القدر بصخرة الفناء

* * *

ومرت الأيام سراعا وهى تترقبه كل يوم وتسقط ورقة أحلامها من على شجرة أمانيها ذابلة صفراء وحاولت أن تبحث عنه هنا وهناك فلم تعثر على آثار خطاه

لقد مل الصحراء كما ملتها، أو لعله تعمد تجنبها رحمة بها وخوفا عليها فانه كان على يقين من أنه أعجز من أن يحارب أوضاع المجتمع الصارمة، وأضعف من أن يحطم التقاليد القاسية

ورأته فى منامها على سفر يشير إليها بيده من نافذة القطار فقامت مبكرة وقطعت الوهاد والنجاد حتى بلغت محطة أول قرية تقرب من الصحراء لتتعزى برؤية المسافرين، ومرت القطر تباعا وهى تتأمل الوجوه الغادية والرائحة؛ (وأخيراً) لمحته من النافذة يرقبها فى حذر ويشير إليها بيده من نافذة القطار، وسمعت بجانبها صوت رجل يقولون له (العمدة) يصيح: مع السلامة! لا تتأخر فى الميعاد المحدد! وقال له صاحبه لماذا؟

فأجابه: يوم زفافه!

جميل العلايلى

البريد الأدبي

نظريات جديدة في الفن والنقد

اطلعنا في البريد الأخير على تفاصيل القرار الذى صدر فى ألمانيا بتحريم النقد الأدبي والفنى، والبواعث التى أملت باصداره؛ ويقضى القرار الجديد بتحريم نقد المؤلفات الأدبية والفنية والموسيقية والمسرحية، ويشمل أيضاً المسرح والسينما والحفلات الموسيقية كما يشمل أشخاص المؤلفين والفنانين جميعاً، ولا يباح بمقتضى القرار الجديد سوى عرض الموضوعات ووصفها دون التعليق أو إبداء الرأى. وقد صدر من قبل قرار يقضى على الكتاب بأن يمنوا عند نقد المؤلفات الفنية بالتنويه بالمزايا السياسية والثقافية والجنسية للاشتراكية الوطنية

ويرجع هذا التحريم إلى رأى الوطنية الاشتراكية (أو الهتلرية) فى الفن وهو أن الفن يجب أن يستمد إلهامه من المثل والخواص القومية، وأنه لا يوجد من أجل قيمته الذاتية فقط، ولكنه يوجد لخدمة مصالح الدولة والأمة

وقد بسط الدكتور جبلز وزير الدعاية الألمانية فى بيانه الرسمى بواعث هذه الخطوة الحديثة، فذكر أن مهمة الفنان هى أن يحمل الى الأمة «القوة مع السرور»، وأن النقد الفنى لا يزال فى ألمانيا يحمل طابع «الحرية اليهودية» على رغم جميع الجهود التى بذلت لمحو هذا الطابع؛ وإن أولئك الفتية الذين يزعمون اليوم أنهم أقطاب المعرفة والنقد يسيئون دون قصد إلى حياتنا الفنية والثقافية؛ وهم بلا ريب ورثة الارستقراطية اليهودية الناقدة دون أن يشعروا. ثم قال إن ذلك لا يعنى اخماد حرية النقد، ولكن القصد أن يقتصر النقد على أولئك الذين تؤهلهم معارفهم ومقدرتهم للحكم على أعمال الآخرين. وإنه ليس من الانصاف أن يتصدى فتية أحداث فى العشرين أو الثانية والعشرين لنقد أعمال رجال من أقطاب الفن قضوا أعمارهم فى تفهمه وإتقانه وأحرزوا شهرة عالية فيه، وإنه يجب أن يبدأ أولئك الفتية بالتمرن على الوصف والعرض، وإن باب النقد مفتوح للقادرين، ولكنهم لا يوجدون الآن، وإنه لا يريد أن يسقط الفنانون صرعى النقد الحر. هذا ولن يفقد الفن شيئاً إذا بعد أولئك النقدة الأغرار من الميدان، فالعظمة الزائفة تسقط فى ظرف عام حتى ولو لم يقتلها النقد. أما ذوو العظمة الحقيقية فيجب أن يسمح لهم بحرية الابتكار والاحتفاظ بكرامتهم الفنية، ويجب أن تصان العبقرية الحقيقية من كل ما يؤذيها ويمهد لسقوطها

هذه هى نظريات العهد الألمانى الجديد فى الفن وفى النقد؛ ومهما كانت فى ظاهرها تحمل طابع الطرافة، فلا ريب أنها أخطر ما يكون على الفن وعلى العبقرية الفنية، فالفن الحقيقى لا يزدهر فى ظل العبودية الفكرية، ولا تنظمه القوانين العسكرية، والعبقرية الفنية أو الفكرية، لا تزدهر إلا فى جو النقد الحر، والنقد وحده هو الذى يبرزها ويذكيها ويصقلها

كتاب عن علائق العرش والأمة

لعل فى الأزمة الدستورية التى تجتازها انكلترا الآن وفى الخلاف الذى قام بين العرش والحكومة مايجعل لمثل هذا الكتاب أهمية خاصة؛ فقد صدر أخيراً بالانكليزية كتاب للدكتور بريديل كايت B. Keith عنوانه «الملك والتاج الامبراطورى. ما لجلالته من حقوق وما عليها من واجبات» The Kiug and The Imperia Crown lete، ويتناول المؤرخ بالشرح كل الواجبات والأعمال التى يضطلع بها العرش فى مختلف الشؤون العامة، ثم مركز الملك وعلائقه بالنسبة للامبراطورية وما له من حقوق وما عليه من واجبات فى الحالتين؛ ثم مدى تأثير العرش فى مختلف الدوائر الحكومية، ويتناول المؤلف خلال بحثه كثيراً من الشخصيات السياسية الكبيرة، ويبين ماذا كان موقفها من العرش؛ ويخص السياسى الكبير جلادستون بمديحه وتقديره، فى حين أنه يحمل على دزرائيلي وعلى أسلوبه. ومع أن الكتاب يدور فى معظمه على علاقة العرش بالحكومة والأمة، ومدى ما يقوم به فى سبيل الخدمة العامة، فان أهم فصل فى الكتاب

هو الفصل الذى يتناول علاقة العرش بالامبراطورية ، لأن هذا البحث جديد » ولأن المسألة التى يتناولها جديدة فى تاريخ الامبراطورية البريطانية »

وقد أسبغت الأزمة الانكليزية الأخيرة على هذا البحث أهمية خاصة

ذكرى موسيقى كبير

يحتفل فى العام القادم فى مدينة ليبسك بألمانيا بذكرى الموسيقى الكبير بكسهودى أعظم أساتذة « باخ » عميد الموسيقى الألمانية ، وذلك لمناسبة مرور ثلثمائة عام على مولده ؛ وستقام بهذه المناسبة حفلات موسيقية يعزف فيها بآلات الكنيسة القديمة التى كان يعزف عليها فى عصر بكسهودى ، ويقام قداس موسيقى ، وينظم متحف يضم مخطوطات الموسيقى الكبير ورسائله والكتب التى ألفت فيه

وقد كان بكسهودى من أهل ليبسك وقضى معظم حياته فيها ولبث أعواماً طويلة رئيس الفرقة الكنسية فى كنيسة سان مارى ؛ وما زالت بهذه الكنيسة المنابر التى أمر بكسهودى بانشائها لباقى منها مقطوعاته الشهيرة ؛ وهنالك أيضاً معزف صغير كان يعزف عليه ، وعدة آلات موسيقية أخرى كان يستعملها لتوقيع الموسيقى المقدسة ؛ ويوجد بمكتبة ليبسك كثير من القطع الموسيقية التى وضعها ، وكثير من الوثائق التى تتعلق بحياته وعلائقه مع تلميذه باخ

معهد من نوع جديد

افتتحت جامعة لايبزج أخيراً معهداً تاريخياً من نوع جديد يخصص لدراسة المسائل المتعلقة بشعوب جنوبى شرق أوربا ؛ وسيقوم بالتدريس فيه جماعة من الاخصائيين من يوجوسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا واليونان وبلغاريا والمجر وتركيا ؛ وقد انتدب لادارة المعهد الجديد الأستاذ الدكتور « منستر » ، وهو من أعظم المتخصصين فى هذا الباب

كتاب عن العراق الحديث

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب عن العراق عنوانه « تكوين العراق الحديث» The Making of Modern Iraq بقلم كاتب أمريكى هو مستر هوارد فوستر H. Foster والكتاب بحث نقدى مدعم بكثير من الوثائق ، كتب بأسلوب هادئ ؛ بيد أنه يكتفى من الوثائق بالمطبوع منها ، ولا يدعى بأنه اطلع أو أحاط بأية وثيقة غير معروفة . ويستعرض المؤلف تاريخ العراق الحديث حتى سنة ١٩٣٤ ؛ إلا أنه يغضى عن ذكر بعض الحوادث المعروفة كثورة الآشوريين وإخمادها فى سنة ١٩٣٣ ، وعقد اتفاق أنابيب النفط فى سنة ١٩٣٤ ، مع أنه يتحدث عن موضوعات أخرى لا تتعلق مباشرة بتاريخ العراق مثل الحرب بين ابن السعود والامام يحيى . وينوه المؤلف بجهود الرئيس ولسون فى وضع مبدأ تقرير الشعوب لمصيرها ، ويرى أنه لولا جهاده فى سبيل هذه المثل العليا لكانت العراق وغيرها قد راحت ضحية الاستعمار الجشع . وهذا رأى لا يوافقه عليه الكثيرون

آثار فرعونية فى المتحف البريطانى

تعرض لأول مرة فى المتحف البريطانى مجموعة من التماثيل الفرعونية نادرة المثال . وهى ملك للمسيو كالوستى جلبنكيان من كبار رجال المال والزيت الدوليين ، وقد أعارها للمتحف من مجموعته الخصوصية المشهورة بباريس

وهناك أربع عشرة قطعة بينها رأس تمثال يرجح أنه للملك أمينمحعت الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة . وهو مصنوع من « الابسديان » أو الزجاج الطبيعى ، وكان يستعمل قبل المعادن فى صناعة الأسلحة مثل رؤوس الحراب والرماح . وكذلك يوجد تمثال لقطة بحجمها الطبيعى ومعها قطتان صغيرتان . وربما كان التمثال الفريد بينها رأس امرأة يرجع عهده إلى ٣٥٠٠ سنة خلت ، وهو مؤلف من جزءين : غطاء الرأس وهو من الفخار المدهون بطلاء أزرق ، ثم الوجه وهو من مادة زجاجية



سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء
بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

سمعت بعد عودتى من العراق الصيف الماضى أن الأديب الهمام الدكتور احمد فريد الرفاعى تطوع لنشر طائفة من أمهات كتبنا ، وأن وزارة المعارف وازرته فيما تطوع له فضمنت له تصحيح الكتب ، وأن تشترى من كل كتاب ألف نسخة . وتلك همة مشكورة من الدكتور ، وسنّة محمودة من الوزارة

وقد عرفت من قبل فى معجم الأدباء ، كما طبعه الأستاذ مرجليوت ، نقصاً وسقطاً وتحريفاً ، فرجوت أن تكون الطبعة الجديدة سادّة ما فى الكتاب من خلل ، ولبثت أنتظر أن يتحقق رجائى حين ينشر القسم الأول من الكتاب . فلما طلعت الجرائد بالبشرى بادرت إلى قراءة الاجزاء التى نشرت ؛ ولكنى ألفيت غير ما رجوت ، وتوالت علىّ أثناء القراءة خيبة ظن بعد خيبة حتى فرغت من القسم الأول موقناً أن نشر الكتاب على هذه الشاكلة أمر لا يفى ربحه بخسارته ، ولا يقوم سروره بندامته ؛ وأنه يجب وقف الطبع إلى أن تؤخذ الأهبة الكافلة تصحيح الكتاب وإتقان طبعه . فليس يليق بالكتاب العظيم ، ولا بالناشر الفاضل ولا بوزارة المعارف هذا التحريف والمسخ والشرح السخيف

— ٢ —

وسأعرض على القارئ كيف توسمت الخيبة ثم ترادفت شواهدها ، وتوالت أمثلتها :

نظرت إلى صفحة العنوان فرأيت أسطراً لم أبالها ، ثم رأيت اسم الكتاب والمؤلف على هذا الترتيب : « معجم البلدان » وتحته : « فى عشرين جزءا » وتحت هذا : « لياقوت » . فبدا لى أن وضع اسم الكتاب والمؤلف على هذا الشكل ليس فاتحة خير . وكان ينبغى أن يقدم اسم المؤلف على عدد الأجزاء ويكمل الاسم بذكر اسم الأب والنسبة ويكتب بخط كبير . ثم المؤلف لم يجزّئ كتابه هذه التجزئة ، فكان ينبغى الاحتفاظ بتجزئته ، وتقسيم كل جزء أقساماً . ومن اللطائف أنى قلت لبعض الأصحاب : لماذا كتب اسم ياقوت مختصراً بحرف صغير ؟ قال انظر . وأرانى نسخة أهداها الناشر إلى بعض الأدباء ، وقد سمى نفسه فيها المؤلف لا الناشر ، ثم قال لا تعجب بعدُ من وضع اسم ياقوت هذا الوضع . قلت : أتمنى أن قلم المطبوعات يفكر فى حذفه ؟

ثم قرأت على صفحة العنوان : « الطبعة الأخيرة » فلم أدر كيف سمى الناشر طبعته الطبعة الأخيرة . أرأيتَ إن طُبع الكتاب طبعة أخرى أتكون طبعتنا هذه الطبعة الأخيرة أيضاً ؟ أيمكن أن يقال إن فى نية وزارة المعارف أن تحرّم على الناس طبع الكتاب من بعد فتبقى طبعتها الطبعة الأخيرة إلى يوم القيامة ؟

رأيت هذا كله فى صفحة العنوان فسألت الله ألاّ يصدق المثل : « الكتاب يقرأ من عنوانه » ، ومضيت أتصفح الكتاب فاذا هو مشكول كله كلمة كلمة وحرفا حرفا . وعجيب أنه تُحمّل الكلمات هذه الأحمال ، ويؤذى القارئ بهذه الأشكال دون فائدة . إن الشكل فى مثل هذا الكتاب ينبغى أن يُتحرّى به مواضع اللبس ، فلا يشكل ما لا يشتبه على القارئ ، وأما شكل واو العطف و « فى » الجارّة ، والقاف من قال واللام من أداة التعريف فعمل أقل ما يوصف به أنه عبث . خذ مثلاً هذه الجملة من صفحة ١٩٤ : « كان من أبلغ الناس فى الكتابة » فهذه لا تحتاج إلى أن تشكل لقراء معجم الأدباء . فاذا راعينا المبتدئين من طلاب الأدب وضعنا كسرتين تحت الغين والسين .

فأية حاجة إلى شكل الحروف كلها : « كَانَ مِنْ أَبْلَغِ النَّاسِ فِي الْكِتَابَةِ »

قلت لنفسي : دعى شكل العنوان وشكلات الحروف ولا تقفى عند الأشكال وانظرى إلى الموضوع . فقرأت فألفيت تحريفاً فى الطبعة الأولى مُتَّبعاً ، وتحريفاً آخر مبتكراً ، وسوء صنيع فى بيان مبادئ الكلام ومقاطعه ، والفصل بين ما يقوله ياقوت وما ينقله ، وشرحا فى الحاشية لا يعدو فى معظمه أن يكون غلطاً أو عبثاً

أعرض على القارئ أمثلة من هذه المآخذ ، وأكتفى فى هذا المقال بالتحريفات الواضحة والغلطات البيّنة تاركا التحريف الخفىّ الذى يحتاج الى مراجعة الكتب لبيان صوابه ريثما أفرغ له

ا – تحريفات فى حروف الكلمات أو شكلها :

أول ما يلقى القارئ من التحريف الذى كشف عنه الولع بشكل الكلمات اسم مرجَليوث بفتح الجيم وجَب بفتحها ، وقد وردت الثانية مرتين ص ٥ و ١٥

ولا أدرى ما عذر الناشرين فى هذا الضبط . ونحن نسأل صديقنا المستشرق الأستاذ جِب : أجاء اسمه بضم الجيم فى لهجة انكليزية أو قحطانية أو عدنانية ؟

أنا أعلم أن شاعر الترك الكبير عبد الحق حامد حينما كتب البيتين اللذين ينشران على غلاف مطبوعات جب ، اضطر الى مدّ الجيم من جب أو الكاف كما كتبها فقال :

نه اولور دى ياشامش اولسه ايدى مستر گيب

ولكنى لا أعرف ضرورة تقضى بضم الحرف

ص ١٦ — نَشوار ، والقَفطى . والصواب كسر النون والقاف

ص ٢٠ — كيش و عَمّان . والصواب عُمان . وشتّان ما بين البلدين

ص ٢١ — السلطان محمد بن تَكَش . والصواب تُكُش بضمتين

ص ٢٣ — ثعلبة بن عكابة ، وص ١٠٧ ثعلبة بن عكاشة . والصواب عكابة بالباء

ص ٣١ — مرو الشاهِجان ، و نَسَفها . والصواب فتح الهاء وضم النون

ص ٣٥ — لبٌ عازب ، وحُلم غائب . والصواب كسر الحاء

ص ٣٧ - يعالج لما خرّبه من هذا الأمر المقيم المقعد . وفى الحاشية : خرّبه نزل به . والصواب لما حزبه . يقال حزبه الأمر لا خرّبه الأمر . والقيم بالفتح مفعول يعالج لا صفة للأمر

ص ٤٠ — أبيات لياقوت « فى غلام تركى رمدت عينه وعليها رفائد سود » . وفى الحاشية الرفادة الخرقة توضع على الجرح . وهذا صواب . ولكن جاء فى البيت الثانى :

« أرخى على عينيه فضل وقاية » وكان ينبغى أن يُعلم أنها فضل رفادة بعد أن ذكرت الرفادة وشرحت

ص ٦٣ — قول ياقوت : « فاجمل جائزتى دعاء يزكو غرسه عند ذى العرش ، واحمدنى فى بُسُطه والفرش » والصواب فى بَسْطه أى بسط الكتاب

ص ٦٤ — « إذ كلٌّ همَّه تحصيل المأكول والمشروب » . والصواب همُّه بضم الميم . والمراد هنا الأهم ، لأن الفعل أهمّ لا همّ

ص ٨٠ — ومعاوية بفارسٍ . والصواب بفارسَ ، فانها ممنوعة من الصرف ، وفى الصفحة نفسها : يثنىٍ . والصواب يثنىَ بالفتح

ص ٨٢ —

أمفطٍرٌ منى على بصرى بالسحب أم أنت أكمل الناس حُسناً

وقد شرحه الناشر فى الحاشية وقال : « ويروى أمُفْطىً على صيغة المفعول . » والصواب أمفطًى لا يحتمل البيت غيرها ، وكان الواجب تصحيح البيت لا اثبات الغلط وشرحه ، وفى البيت غلط آخر فى وضع كلمة السحب بدل الحب . والبيت معروف .

ص ٩٣ — « ولا أبدأُ نفعا ولا أحمدُ أخلاقا ولا أدومُ مرورا » ، وقال فى الحاشية : فى الأصل أبد نفعا . فقد أصلح غلط الأصل بغلط آخر . والصواب أبدى بالياء .

ص ٩٩ — « ولم تُعوَّض من ذاك ميسُرة » . والصواب فتح السين .

ص ١٠٨ — « لُقو يا نبهـا ثَبَتَا » . وقد شرحها فى الحاشية فقال : والثَّبَت بفتح الباء الحجة والرجل الثقة . والصواب ثبْتا . يقال رجل ثبْت لاثبَت ، والثبت بالفتح البرهان اسم لا وصف .

ص ١١٢ — كأنْ ثنى الشَّحوص . . الخ والصواب فتح النون .

ص ١١٥ — أُضقت إضاقة شديدة ، وبعد أسطر : أُضقت مرّة . والصواب أَضَقت بالبناء للفاعل أى أصابه ضيق .

ص ١٣٣ — فلا أزال أما كسهم ويزيدونى . والصواب يزيدوننى .

ص ١٨٨ — فقطت القلم نقطة . وفى الحاشية : الأنسب نقط القلم . أقول : وأنسب من هذا نقطت من القلم نقطة .

ص ١٨٧ — يسائل عن أخى جُرم . . الخ والصواب جَرم وهو اسم قبيلة .

ص ٢٠٨ — ابراهيم بن قُطْن . ونحن نعرف فى الأسماء قَطَنا لا قُطنا .

ص ٢٠٩ — المُصَيصَة اسم بلد . والصواب المَصِّيصة

ص ٢١٣ — أبو علىّ الرَّوْزبارى . والصواب الرُّوذبارى .

ص ٢١٩ — ثنى الصِّبا غصنا قد غازلته صَبا ، والصواب ثنى الصَّبى

ص ٢٣٧ — أحمد الفِرغانى . والصواب فتح الفاء

ص ٢٤٠ — غُمار الناس . والصواب كسر الغين

ص ٢٢١ — :

يخال بأن العِرض غير موفَّر عن الذم إلا أن يدال له الوفر

والصواب يذال بالذال المعجمة من الاذالة أى الامتهان

ص ٢٢٤ — :

ســـقى الله صوب القصر تلك مغانياً وإن غنيت بالنيـل من سُبُل القطر

وهذا بيت معمور بثلاث غلطات . والصواب صوب القطر . و « عن سَبَل القطر »

ص ٢٣٢ — « وسعد بن مسعود هو أخو عبيد بن مسعود صاحب يوم الجسر . » والصواب أبو عبيد وهو صحابى معروف قاد جيوش المسلمين فى وقعة الجسر وقُتل بها . والعجيب أن فى الكتاب بعد سطر واحد : وسعد هو عم المختار بن أبى عبيد الثقفى . ولم يتنبه الناشر إلى أن أبا عبيد الثقفى هذا هو أبو عبيد ابن مسعود الذى سمّاه عبيد بن مسعود . ومثل هـذا ما جاء فى ص ٢٣٥ : « محمد بن على الشلمغانى » وبعدها بسطرين : « من أهل قرية من قرى واسط تعرف بشلغمان . ولو لم يكن المصحح نائماً لما سمى الرجل فى سطرين عبيداً وأبا عبيد ، وسمى القرية فى سطرين شلمغان وشلغمان

ص ٢٥٦ — « وكان حسن الحفظ للقرآن . أولَ ما يبتدئ به الخ » . وفى الحاشية : أول مفعول يبتدئ . والصواب أولُ بضم اللام وهى مضافة إلى المصدر المؤول بعدها لا مفعول يبتدئ . وينبغى أن يُعلم أن ما بعد ما المصدرية لا يعمل فيما قبلها

ص ١٨٧ — فى متن الكتاب : « ثم التى لا يقع حسم الداء بغيرها . » وهو كلام مستقيم ، ولكن الناشر أخرج هذه الجملة إلى الحاشية . وأثبت فى المتن « التى لا يقع بحسم الداء غيرها . » أجاز لنفسه هنا أن يغيّر المتن وهو صحيح . ولم يجز لنفسه فى مواضع أخرى أن يصحح المتن وهو غلط بيّن فاكتفى باثبات الرواية الصحيحة فى الحاشية

ص ١٩١ — كان فى متن الكتاب :

كذبت همـة عين طمعت فى أن تراكا

أوَ ما حظٌّ لعين أن ترى من قد رآكا ؟

فغير الناشر « أوَ ما » إلى « أىُّ ما » . والصواب ما كان فى المتن . والغلط ما رآه الناشر . وغلط آخر فى رسم « أيُّمـا » مفصولة كما رسمها

ص ٢٧٠ :

معاذ الله أن نُلقى غضـابا سوى ذاك المطاع على المطيع

وفى هذا غلطان . والصواب : نُلفى غضابا بالفاء ، فى الشطر الأول و « دلّ للمطاع » بدل « ذاك المطاع » فى الشطر الثانى

هذا ما أخذته وأنا أعبر القسم الأول وهو جزء من عشرين ، ووراء هـذا معضلات من التحريف تحتاج إلى بحث وتنقيب ليتبين صوابها . وسأبين فى المقال الآتى ما فى تعليق الناشرين من غلط وعبث ، يرى فيهما القارئ المبكى المضحك ، وموعدنا العدد الآتى إن شاء الله .

عبد الوهاب عزام

نفح الطيب

فى طبعته الجديدة

بقلم الأستاذ أحمد يوسف نجاتى

شارح الكتاب

اطلعت فى العدد الأخير من مجلة (الرسالة) الغراء على مقال بالعنوان الذى اخترناه لكلمتنا هذه بقلم الأديب محمد فهمى عبد اللطيف ، فأردت بعد قراءته أن أقدم لحضرته هذه الكلمة فى غير ردّ عليه ولا تزييف لقوله . وعسى أن تكون هذه الكلمة البريئة رسالة تعارف وودّ بينى وبين الناقد الكريم تتلاقى به الأشباح كما تلاقت الأرواح ، فطالما قرأت له بمجلة (الرسالة) القيمة مقالات شائقة ممتعة ؛ ولا غرو فى ذلك فالرسالة ميدان تتبارى فيه فرسان البلاغة وجياد البراعة ، وهى المجلة التى يتقبلها الأدباء بقبول حسن ويحلّونها من أنفسهم أكرم محل

افتتح حضرة الناقد الجهبذ مقاله الكريم بكلمة طيبة أثنى فيها على تلك الهمة المشكورة التى يبذلها حضرة الأستاذ الدكتور أحمد فريد الرفاعى فى إحياء الأدب العربى وبعث تراثه من مراقده ونشر موسوعاته الجامعة ؛ وراقه من كتاب نفح الطيب (وغيره طبع متقن وضبط كامل وتقسيم واضح وتصحيح دقيق تقوم وزارة المعارف بمراجعة أصوله النهائية مبالغة فى إجادته وحرصا على اتقانه) ؛ ونحن نشاركه فى هذا الثناء ونتوجه بالشكر الجزيل لحضرة صاحب المعالى زكى العرابى باشا وزير المعارف الجليل وإلى حضرتى وكيليه الهمامين ، فما منهم إلا نصير للغة وآدابها عامل على ترقيتها ، فجزاهم الله خير الجزاء . وكذلك سرّنا من حضرة الناقد أن نوه بالمحاسن — وإن أجمل القول فى ذلك إجمالاً — فجانب بذلك عادة عرف بها كثير من نقادنا وهى اغضاؤهم عن الحسنات وتشهيرهم بما يرونه هفوات

فليس من الحزم فى شىء أن ينزل الكاتب — لشهوة الكتابة — على حكم النظرة الأولى العجلى فطالما أعجلت الكاتب عن التفكير ، وكان حكمها خاطئا بعيدا عن الحق متنكبا جادة الصواب ؛ وليس من الكياسة الحكيمة أن يسرع بعض الناقدين الى رمى من ينقدون أعمالهم بفساد القول وزلل المنطق ، فقد كان من آثار ذلك أن أحجم كثير من البرزين فى الآداب أن يجلوا للناس عرائس أفكارهم ، ضناً بأعراضهم أن ترتع فيها الألسنة المضرّاة حتى تركوا الميدان لهؤلاء الذين جملوا عقولهم وراء ألسنتهم ، يجولون فيها وحدهم ، ونرجو أن يكون للكتاب والناقدين قدوة حسنة فى حضرة ناقدنا الأديب وأسوة صالحة بالكاتبين الكرام فى الرسالة الغراء

١ — قال حضرة الناقد : إن الناشر (وضع اسم الكتاب على الغلاف ناقصاً فسماه : (نفح الطيب) والمؤلف قد سماه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، وهذا الاسم هو الذى وضع على الطبعات السابقة) ونحن أيضاً نرى أنه كان الأولى أن يكتب على الغلاف اسم الكتاب كاملاً محافظة على وضع المؤلف . ولعل العذر فى ذلك اشتهار الكتاب باسم (نفح الطيب) فحسب ، وأن الاسم لو أثبت كاملاً لم يتسع له نطاق الغلاف بهذا الوضع المنسق الذى هو عليه ، وأن القارئ لا يلبث إذا تصفح بضع ورقات من الكتاب أن يرى اسمه التام الذى اختاره له مؤلفه ، والخطب فى هذا يسير وليست ملافاته عسيرة . وكذلك نرى أنه كان من الخير أن يراعى تقسيم المؤلف فيقسم كل جزء من الأجزاء العشرين إلى أقسام ينبه بها إلى التقسيم الأصلى للمؤلف ، ويبين فيها حدود أجزائه الأربعة الأصلية ، وهذا أيضاً شىء يهون أمره ولا يعز تداركه فى الأجزاء الآتية إن شاء الله

٢ — ونقول لحضرة الناقد إن المقدمة التى صدر الجزء الأول بها للتعريف بمؤلف الكتاب ليست للناشر ولا لغيره من الشارح أو المراجعين ، وإنما هى منقولة بنصها من كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر لابن فضل الدين المحبى ، وقد نبه حضرة الناشر إلى ذلك فى أول ذيل الصفحة الأولى ، وما كان للناشر أن يتصرف فى تلك المقدمة بمحو أو إثبات . فليس من العجب أن ينقل الأستاذ عبارة المحبى كما هى ، وليس هو الذى أثبت اسماً قد ألغاه صاحبه ولكن المحبى صاحب خلاصة الأثر هو الذى أثبته غير مرة فى هذه الترجمة الطويلة التى (جاء فيها بأشياء ذكرها المقرى نفسه فى المقدمة التى كتبها عن سفراته ورحلاته والباعث له على تأليف الكتاب) وإذا عرفنا أن المقدمة كلها من ص ٩ — ٣١ منقولة من خلاصة الأثر فقد ارتفع اللوم عن الناشر وغيره وليس (لقًا) من الشارح ولا (فضولاً) أن ينبه فى أسفل صفحة ٩ إلى أن المؤلف قد غير اسم الكتاب من (عرف الطيب) إلى (نفح الطيب) قبل أن ينبّه المؤلف نفسه إلى ذلك فى صفحة ٢٤٤ حتى لا يتوهم بعض القراء فى أول الكتاب عند صفحة ٩ قبل أن يقطع المسافة إلى صفحة ٢٤٤ أنهما كتابان متغايران

(يتبع) أحمد يوسف نجاتى



4 me Année, No. 182

Lundi - 28 - 12 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ١٨٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ شوال سنة ١٣٥٥ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العدد

الضحك

للأستاذ أحمد أمين

ما أحوجنى إلى ضحكة تخرج من أعماق صدرى فيدوّى بها جوّى ! ضحكة حية صافية عالية ، ليست من جنس التبسم ، ولا من قبيل السخرية والاستهزاء ، ولا هى ضحكة صفراء لا تعبر عما فى القلب ؛ وإنما أريدها ضحكة أمسك منها صدرى ، وأفحص منها الأرض برجلى ؛ ضحكة تملأ شدقىّ ، وتبدى ناجذىّ ، وتفرج كربى ، وتكشف همى

ولست أدرى لماذا تجيبنى الدمعة وتستعصى علىّ الضحكة ، ويسرع إلىّ الحزن ، ويبطىء عنى السرور ، حتى لئن كان تسعة وتسعون سبباً تدعو إلى الضحكة وسبب واحد يدعو إلى الدمعة ، غلب الدمع وانهزم الضحك ، وأطاع القلب داعى الحزن ولم يطع دواعى السرور !

ولى نفس قد مهرت فى خلق أسباب الحزن ؛ تخلقها من الكثير ، ومن القليل ، ومن لا شىء ؛ بل وتخلقها من دواعى الفرح أيضاً . وليست لها هذه المهارة ولا بعضها فى خلق أسباب السرور ؛ كأن فى نفسى مستودعاً كبيراً من اللون الأسود ،

لا يظهر مظهر أمام العين حتى تسرع النفس فتقترف منه غَرفة تسوّد بها كل المناظر التي تعرض لها ، ثم ليس لها مثل هذا المستودع من اللون الأحمر أو اللون الأبيض !

يقولون لي : اضحك يدخل على قلبك السرور ؛ وأنا أقول لهم : أدخلوا السرور على قلبي أضحك . ففي المسألة « دَوْر » كما يقول علماء الكلام ، وكما يقول الشاعر :

مسألة « الدوْر » جَرَتْ بيني وبين من أُحِب
لولا مَشيبي ما جَفَا لولا جَفَاهُ لم أَشِب

وإلى الآن لم أدر من المصيب ! هل الضحك يبعث السرور ، أو السرور يبعث الضحك ؟ ودخلت المسألة في دور من الفلسفة مظلم كالعادة ، وانتقلت إلى بحث بيزنطي ، كالبحث في هل البيضة أصل الدجاجة أو الدجاجة أصل البيضة ؟ فلنغلق هذا الباب ولنعد إلى « الضحك »

يقول المناطقة في أحد تعريفاتهم للانسان : « الانسان حيوان ضاحك » ؛ وهذا عندي أظرف من تعريفهم الآخر : « الانسان حيوان ناطق » . فالانسان في هذا الزمان أحوج إلى الضحك منه إلى التفكير ، أو على الأصح نحن أحوج ما نكون إلى التفكير والضحك معاً

ولكن لمَ خصت الطبيعة الانسان بالضحك ؟

السبب بسيط جداً . فالطبيعة لم تحمّل حيواناً آخر من الهموم ما حمّلته الانسان ؛ فهمّ الحمار والكلب والقرد وسائر أنواع الحيوان أكلة يأكلها في سذاجة وبساطة ، وشربة يشربها في سذاجة وبساطة أيضاً . فاذا نال الحمار قبضة من تبن وحفنة من فول وغَرفة من ماء ، فعلى الدنيا العفاء ، ولكن تعال معي فانظر إلى الانسان المعقد المركب ! يحسب حساب غده كما يحسب حساب يومه ، وكما يحسب حساب أمسه ؛ ويخلق من هموم الحياة ما لا طاقة له به ، فيحب ويهيم بالحب حتى الجنون ، ويشتهي ويعقّد شهواته حتى لا يكون لعقدها حل ؛ فاذا حلت من ناحية عقدها من ناحية ؛ ثم إذا سذجت اللذة وتبسطت لم تعجبه بل أخرجها من باب اللذة ، وعقد أمله على لذة معقدة . وإذا تفلسف — والعياذ بالله من فلسفته — خرج بها عن المعقول ، وحاول أن ينال مافوق عقله ، ولم تعجبه الأرض والسموات مجالاً لبحثه ؛ إنما يريد الحقيقة والماهية والكُنْه . وويل له من كل ذلك ! أستغفر الله فقد نسيت أن أذكر هموم الموظف بالعلاوات والترقيات ، وما كان منها استثنائياً ، وما كان غير استثنائي ، وما يترتب على ذلك من معاشات وحساب تمغة ، وما إلى ذلك من أمور لا تنتهي . وهذا أيضاً من ضروب الفلسفة المظلمة ، فلنعد إلى الضحك

أقول إن الطبيعة عودتنا أن تجعل لكل باب مفتاحاً ، ولكل كرب خلاصاً ، ولكل عقدة حلاً ، ولكل شدة فرجاً ؛ فلما رأت الانسان يكثر من الهموم ويخلق لنفسه المشاكل والمتاعب التي لا حد لها ، أوجدت لكل ذلك علاجاً ؛ فكان الضحك

والطبيعة ليست مسرفة في المِنَح ، فلما لم تجد للحيوانات كلها هموماً لم تضحكها ، ولما وجدت الانسان وحده هو المهموم المغموم جعلته وحده هو الحيوان الضاحك

* * *

لو أنصف الناس لاستغنوا عن ثلاثة أرباع ما في « الصيدليات » بالضحك ، فضحكة واحدة خير ألف مرة من « برشامة أسبيرين » وحبة « كينين » وما شئت من أسماء أعجمية وعربية . ذلك لأن الضحكة علاج الطبيعة ، والاسبيرين وما اليه علاج الانسان . والطبيعة أمهر علاجاً وأصدق نظراً وأكثر حنكة . ألا ترى كيف تعالج الطبيعة جسم الانسان بما تمده من حرارة وبرودة ، وكرات حُمر وبيض ، وآلاف من الأشياء يعالج بها الجسم نفسه ليتغلب على المرض ويعود إلى الصحة ، ولا يقاس بذلك شيء من العلاج المصطنع ؟

فانفجار الانسان بضحكة يُجرى في عروقه الدم ؛ ولذلك يحمر وجهه ، وتنتفخ عروقه . وفوق هذا كله فللضحكة فعل سحري في شفاء النفس وكشف الغم ، وإعادة الحياة والنشاط للروح والبدن ، وإعداد الانسان لأن يستقبل الحياة ومتاعبها بالبشر والترحاب

ولو أنصفنا — أيضاً — لعددنا مؤلفي الروايات المضحكة والنكت والنوادر البارعة التي تستخرج منك الضحك وتثير فيك الاعجاب ، وتُنشيء بك الطرب ، وهؤلاء الذين يُضحكون بأشكالهم وألاعيبهم وحركاتهم ؛ أقول لو أنصفنا

لعددنا كل هؤلاء أطباء يداوون النفوس ، ويعالجون الأرواح ، ويزيحون عنا آلاماً أكثر مما يفعل أطباء الأجسام ، ولعددنا من يستكشف الضحكات فى عداد من يستكشف دواء للسل أو للسرطان أو نحو ذلك من الأدواء المستعصية ؛ فكلاهما منقذ للانسانية من آلام ، مصاح لما ينتابها من أمراض

والضحك بَلْسم الهموم ومرهم الأحزان ؛ وله طريقة عجيبة يستطيع بها أن يحمل عنك الأثقال ، ويحط عنك الصعاب ، ويفك منك الأغلال – ولو إلى حين – حتى يقوى ظهرك على النهوض بها ، وتشتد سواعدك لحملها

***

ومن مظاهر رقى الأمم أن تجد نواحى الضحكات ، ملائمة لاختلاف الطبقات . فللأطفال قصصهم وألاعيبهم ومضحكاتهم ، ولعامة الشعب مثل ذلك ، وللخاصة وذوى العقول الراقية المثقفة ملاهيهم وأنديتهم ومضحكاتهم . فأن رأيت أمماً – كأممنا الشرقية – حرم مثقفوها من معاهد الضحك وكانت مسلاتهم الوحيدة أن ينحطوا ليضحكوا ، أو يرتشفوا من الأدب الغربى والتمثيل الغربى ليضحكوا ، فهى أمم ناقصة فى أدبها ، فقيرة فى معاهدها . وهذا أيضاً ضرب من ضروب الفلسفة المظلمة ، فلنعد إلى الضحك

***

تعال معى نتعاهد على أن نرعى فى حياتنا جانب الضحك كما نرعى جوانب الصحة والمرض ، وجانب الهزل بجوار جانب الجد ، ولنتخذ الضحك علاجاً فى بعض أمورنا

قال لى صديق مرة إنه حاول أن يتغلب على همومه وأحزانه بعلاج بسيط فنجح . ذلك أنه إذا اشتد به الكرب ، وتعقدت أمامه الأمور حتى لا يظن لها حلاً ، انفجر بضحكة مصطنعة فسُرِى عنه وتبخرت همومه

ويروى أنه كان عند اليونان فيلسوفان يلقب أحدهما الفيلسوف الضاحك ، والآخر الفيلسوف الباكى ؛ كان أولهما يضحك من كل شىء ضحِكَ جِدٍّ أحياناً ، وضحك سخرية أحياناً : يضحك من سخف الناس ومن وضاعتهم وحقارتهم ، ويبكى الثانى مما يضحك منه الأول

وقرأت مرة قصة لطيفة أن بئراً ركّب عليها دلوان ، ينزل أحدهما فارغاً ، ويطلع الآخر ملآن ؛ فلما تقابلا فى منتصف البئر سأل الفارغ الملآن مم تبكى ؟ فقال : ومالى لا أبكى ؟ أخذ الرجل مائى وسيأخذه وسيعيدنى إلى قاع البئر المظلم ! وأنت مم تضحك وترقص ؟ فقال الفارغ : ومالى لا أضحك ؟ سأنزل البئر وأمتلئ ماء صافياً وأطلع بعد إلى النور والضياء !

وقد أراد مؤلف القصة أن يصور نفس الموقفين اللذين وقفهما الفيلسوف الضاحك والفيلسوف الباكى ، وأن الحياة مليئة بأشخاص يتولون عملاً واحداً ، ثم هذا ينظر إليه من الجانب السار الفرح ، وذاك ينظر إليه من الجانب الحزين القابض

فكن الفيلسوف الضاحك ، ولا تكن الفيلسوف الباكى . وكن الدلو الراقص ، ولا تكن الدلو الدامع . وجرب أن تلق الحياة باسماً أحياناً ، ضاحكاً أحياناً ، ولأجرب معك !

أحمد أمين

٧ ـ القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وأما صاحبُ القلب المسكين فما علم أنها قد رحلتْ عن ليلته حتى أظلم الظلامُ عليه، كأنها إذا كانت حاضرةً أضاء شيء لا يرى، فإذا غابت انطفأ هذا الضوء؛ ورأيتُه واجماً كاسفَ البال يتنازَعُهُ في نفسه ما لا أدري، كأن غيابها وقع في نفسه إنذارَ حرب

لماذا كان الشعراء ينوحون على الأطلال ويلتاعُون بها ويرتمضون منها وهي أحجارٌ وآثارٌ وبقايا؟ وما الذي يتلقاهم به المكان بعد رحيل الأحبة؟ يتلقاهم بالفراغ القلبيّ الذي لا يملأه من الوجود كله إلا وجودُ شخص واحد؛ وعند هـذا الفراغ تقف الدنيا مليًّا كأنها انتهت إلى نهاية في النفس العاشقة، فتبطل حينئذ المبادلةُ بين معاني الحياة وبين شعور الحي؛ ويكون العاشق موجوداً في موضعه ولا تجده المعاني التي تمرُّ به، فترجع منه كالحقائق تُلِمُّ بالفراغ العقليّ من وعي سكران

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب! ما الذي يجعل فيك تلك القدرة الساحرة؟ أهو فصلك بين زمن وزمن، أم جمعك الماضيَ في لحظة؛ أم تحويلك الحياة إلى فكرة؛ أم تكبيرك الحقيقة إلى أضعاف حقيقتها؛ أم تصويرك روحية الدنيا في المثال الذي تحسُّه الروح؛ أم إشعارك النفس كالموت أن الحياة مبنيةٌ على الانقلاب؛ أم قدرتك على زيادة حالة جديدة للهم والحزن؛ أم رجوعك باللذة ترى ولا تمكن؛ أم أنت كل ذلك لأن القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ويَخلى بك وحدك؟

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب! ما هذه القوة السحرية فيك تجتذبُ بها الصدرَ ليضمك، وتستهوى بها الفم ليقبلك، وتستدعى الدمعَ لينفرَ لك، وتهتاج الحنين لينبعث فيك؟ أكل ذلك لأنك أثر الحبيب، أم لأن القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ولا يجد ما يخفق عليه سواك؟

* * *

ووقف صاحبنا المسكين محزوناً كأن شيئاً يصله بكل هموم العالم؛ وتلك هي طبيعة الألم الذي يفاجئ الانسان من مكمن لذته وموضع سروره فيسلبه نوعاً من الحياة بطريقة سلب الحياة نفسها، ويأخذ من قلبه شيئاً مات فيدفنه في قبر الماضي. يكون ألماً لأن فيه المضض، وكآبةً لأن فيه الخيبة، وذهولاً لأن فيه الحسرة؛ وتتم هـذه الثلاثة الهموم بالضيق الشديد في النفس لاجتماع ثلاثتها على النفس، فاذا المسكين مبغوت مبهوت كأن الآلام أطبقت عليه من الجهات الأربع فقلبه منها مَدْعُوعٌ مَدْعُوع

وجعلت أعذلُ صاحبنا فلا يعتذل، وكلما حاولت أن أثبت له وجود الصبر كنت كأنما أثبت له أنه غير موجود. ثم تنفس وهو يكاد ينشقُ غيظاً وقال: لماذا رحلتْ، لماذا؟

قلت: أنت أذللت جمالها بهذا الأسلوب الذي ترى أنك تُعِزُّ جمالها به، وقد اشتددت عليها وعلى نفسك وتعنَّتَّ على قلبك وقلبها؛ كانت ظريفة الذهب في عشقها وكنت خشناً في حبك، وسوَّغتك حقاً فرددته عليها، وتهالكتْ وانقبضتَ أنت، ورفعتْ قدرك عن نفسها تحبباً وتودُّداً فخفضت قدرها عن نفسك من اطراح وجفاء، واستفرغتْ وسعها في رضاك فتناضبت، ونَضَتْ عن محاسنها شيئاً شيئاً تسأل بكل شيء سؤالاً فلم تكن أنت من جوابها في شيء

ومن طبع المرأة أنها إذا أحبت امتنعتْ أن تكون البادئة، فالتوتْ على صاحبها وهي عاشقة، وجاحَدَتْ وهي مُقِرَّة؛ إذ تريد في الأوَّلة أن تتحقق أنها محبوبة، وفي الثانية أن يُقدِّم لها البرهان على أنها تستحق المهاجة؛ وفي الثالثة هي تريد ألا تأخذها إلا قوةٌ قوية فتمتحن هذه القوة، ومع هذه الثلاث تأبى طبيعة السرور فيها والاستمتاع بها إلا أن يكون لهذا السرور وهـذا الامتاع شأنٌ وقيمة، فتذيق صاحبها المرَّ قبل الحلو ليكبر هذا بهذا

غير أنها إذا غلبها الوجد وأكرهها الحب على أن تبتدئ صاحبها؛ ثم ابتدأتْ ولم تجد الجواب منه، أو لم يأت الأمر فيما بينها وبينه على ما تحب، فان الابتداء حينئذ يكون هو النهاية، وينقلب الحب عدو الحب. وأنا أعرف امرأة وضعتها كبرياؤها في مثل هذه الحالة وقالت لصاحبها: سأتألم ولكن لن أغلب؛ فكان الذي وقع وا أسفاه — أنها تألمت حتى جُنَّت، ولكن لم تُغلب . . .

قال : فما بال هذه ؟ أما تراها تبتدئ كل يوم رجلاً ؟

قلت : إنها تبتدئ متكسّبة لا عاشقة ، فاذا أحبت الحب الصحيح أرادت قيمتها فيمتها فيما هو قيمتها . وأنا أحسبها تحب فيك هذا العنف وهذه القسوة وهذه الروحية الجبارة ، فانها لذّات جديدة للمرأة التي لا تجد من يُخضعها . وفى طبيعة كل امرأة شئ لا يجد تمامه إلا فى عنف الرجل ، غير أنه العنف الذى أوله رقة وآخره رقة

* * *

أما والله إن عجائب الحب أكثر من أن تكون عجيبة ؛ والشئ الغريب يسمى غريباً فيكفى ذلك بياناً فى تعريفه ؛ غير أنه إذا وقع فى الحب سمى غريباً فلا تكفيه التسمية ، فيوصف مع التسمية بأنه غريب فلا يبلغ فيه الوصف ، فيقع التعجب مع الوصف والتسمية من أنه شئ غريب ؛ ثم تبقى وراء ذلك منزلة للاغراق فى التعجب بين العاشق وبين نفسه ؛ وهكذا يشعرون

فكل أسرار الحب من أسرار الروح ومن عالم الغيب ، وكأن النبوة نبوتان : كبيرة وصغيرة ، وعامة وخاصة . فاحداها بالنفس العظيمة فى الأنبياء ، والأخرى بالقلب الرقيق فى العشاق . وفى هذه من هذه شبه لوجود العظمة الروحية فى كلتيهما غالبةً على المادة ، مجرِّدةً من إنسان الطين إنساناً من النور ، محركةً هذه الطبيعة الآدمية حركةً جديدة فى السمو ، ذاهبةً بالمعرفة الانسانية إلى ما هو الأحسن والأجمل ، واضعةً مبدأ التجديد فى كل شئ يمر بالنفس ، منبعثةً بالأفراح من مصدرها العلوى السماوى

بيد أن فى العشق أنبياء كذبة ؛ فاذا تسفّل الحب فى جلال ، واستعلنت البهيمية فى عظمة ، وتجرد من إنسان الطين إنسان الحجر ، وتحركت الطبيعة الآدمية حركة جديدة فى السقوط ، وذهبت المعرفة الانسانية إلى ما هو الأقبح والأسوأ ، وتجدد لكل شئ فى النفس معنى فاسد ، وانبعثت الأفراح من مصدرها السفلى — إذا وقع كل هذا من الحب فما عساه يكون ؟

لا يكون إلا أن الشيطان يقلد النبوة الصغيرة فى بعض العشاق كما يقلد النبوة الكبيرة فى بعض الدجّالين

* * *

هكذا قال صاحب القلب المسكين وقد تكلم عن الحب ونحن جالسان فى الحديقة وكنا دخلناها ليجدّد عهداً بمجلسه فلعله يسكن بعض ما به ؛ واستفاض كلامنا فى وصف تلك المبهرة[(١)] الفتانة التى أحلّته هذا المحل وبلغت به ما بلغت ، وكان فى رقة لا رقة بعدها وفى حب لا نهاية وراءه لمحب . وخيل إلى أنه يرى الحديث عنها كأنه إحضارها بصورة ما

وأنفع ما فى حديث العاشق عن حبه والله أن الكلام يخرجه من حالة الفكر ، ويؤنس قلبه بالانماط ، ويخفف من حركة نفسه بحركة لسانه ، ويوجه حواسه إلى الظاهر المتحرك ، فتسلبه ألفاظه أكثر معانيه الوهمية ، وتأتيه بالحقائق على قدرها فى اللغة لا فى النفس ؛ وفى كل ذلك حيلة على النسيان ، وتملل إلى ساعة ، وهو تدبير من الرحمة بالعاشقين فى هذا البلاء الذى يسمى الفراق أو الهجر

وكان من أعجب ما عجبتُ له أن صديقاً مرَّ بنا فدعاه صاحبنا وقال وهو يوى إلى : أنا وفلان هذا مختلفان منذ اليوم لا هو يقيم عذراً ولا أنا أقيم حجة ؛ وأحسب أن عندك رأياً فاقض بيننا

ويسأله الصديق : ما القضية ؟ فيقول وهو يشير إلى :

إن هذا قد تخرَّق قلبه من الحب فلا يدرى من أين يجىء لقلبه برقعة ... وأنه يعشق فلانة الراقصة التى كانت فى هذا المسرح وزعم لى ... أنها أجمل وأفتن وأحلى من طلعت عليه الشمس ، وأنه ليس بين وجهها وبين القمر وجه امرأة أخرى فى كل ما يضىء القمر عليه ، وأن عينيها مما لا ينسى أبداً أبداً أبداً ... لأن ألحاظها تذوب فى الدم وتجرى فيه ، وأن الشيطان لو أراد مناجزةَ العفة والزهد فى حرب حاسمة بينه وبين أزهد العباد لترك كل حيله وأساليبه وقدَّم جسمها وفنها ...

فيقول له المسؤول : وما رأيك أنت ؟

فيجيبه : لو كان عنها صاحياً لقد صحا . إن المشكلة فى الحب أن كل عاشق له قلبُه الذى هو قلبه ، وحسبها أن مثل هذا هو يصفها . وما يدرينا من تصاريف القَدَر بهذه المسكينة ما عليها مما لها ، فلعلها الجمالُ حكم عليه أن يُعذَّب بقبح الناس ، ولعلها السرورُ قضى عليه أن يسجن فى أحزان

* * *

(١) هى التى جمعت الحسن والجسم والامتلاء وجمال الخلقة من كل ناحية كهذه التى نحن فى وصفها منذ شهرين ...

فى الطفـــولة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

زارنى مرة فى مكتبى صديق كريم ، وكان معى فى ذلك اليوم أصغر أطفالى ؛ فقد تشبث بى وأبى إلا أن يصحبنى . فلم أر بأساً من ذلك ، وسأله الصديق بعد حوار طويل لم يعلق بذهنى منه شىء « أبوك من . . » — قالها هكذا بالعربيــة الفصيحة — والصبى حديث عهد بتعلم القراءة والكتابة فلم يفهم « من » هذه وظنها شيئاً معيباً أو غير لائق وهز رأسه منكراً ؛ فكرر الصـديق السؤال ، فقطب الصبى وقال : « تو' تو' » فنظر إلى صديق فقلت : « ياصاحبى إنه يحسب أن (من) هذه مثل قولك « كلب » أو « قط » أو شىء آخر لا يليق فى رأيه أن يكونه أبوه ، ولو كنت قلت له « مين » بالعامية لفهم وأجابك ، وما أظن به الآن إلا أنه وقع فى نفسه منك أنك تسب أباه وإنى لأخشى أن يحقدها عليك ولا يكون رأيه فيك بعـد اليوم إلا سيئاً ، وأكبر ظنى أنه سيحدث أمه عنك حديثاً لا يسرك أن تسمعه

وانقضت هـذه الحادثة وانطلق الغلام خارجاً ليلعب فقد سئم الحوار الذى ارتفعنا به عن طبقته . فقال صديق بحق : إنه موقن أن الصبى يشعر بوحشة مع أمثالنا من الكبار لأنه يحتاج إلى صغار مثله يفهمهم ويفهمونه فيسر بهم ويأنس . فقلت له إنى لا أظن أن أبنائى يستوحشون حين أكون معهم لأنى أستطيع أن أنزل إلى مستوى مداركهم فأكون معهم كأنى أحدهم ، فقال إن أمره ليس كذلك

وخرج صديقى فذهبت أفكر فيما قال فسألت نفسى : « لماذا لا نحسن نحن الكبار أن نفهم الصغار كما ينبغى أن يفهموا . . إننا لم نجىء إلى الدنيا كما نحن الآن . . ولم تلدنا أمهاتنا بأسناننا وشواربنا ولحانا ورؤوسنا الناضجة — أو التى نزعمها لغرورنا ناضجة — وإنما جئنا إلى الحياة صغاراً ثم كبرنا شيئاً فشيئاً . ولم تكن طفولتنا قصيرة العمر ، بل كانت سنوات طويلات ، وإن من الكبار لكثيرين لا يزالون أطفالاً وإن كانوا قد شابوا وشيخوا . . وإنا لنذكر حلاوة الطفولة وجمال عهدها ونحن إليها ونتمنى لو أمكن أن نرتد إلى ما كنا فى أيامها بكل ما حفلت به .. ومع ذلك لا نستطيع بعد أن كبرنا أن نفهم الأطفال ونفطن إلى أساليب تفكيرهم وقد كنا مثلهم . . ومع أن الطفولة ليست غريبة عنا ولا أجنبية منا حتى يستعصى علينا فهمها فان صفحتها تمحى من ذاكرتنا كل المحو فننقلب محتاجين إلى من يشرحها ويفسرها لنا ويبين لنا ما فيها ويعلمنا كيف نقرأها ونفهمها . . .

وأذكر أنى وأنا طالب فى مدرسة المعلمين العليا كنت أضحك فيما بينى وبين نفسى حين أسمع أستاذنا يقول لنا بلهجة الجد إن علينا أن نعنى بأن ندرس الطفل ؛ وكنت أقول لنفسى وأى حاجة بنا إلى درس المعروف المفهوم كأنه مجهول أو غامض . فلما كبرت وصار لى ابن أدهشنى أنى وجدت أنى محتاج أن أروض نفسى على النظر إلى الأمور بعين الطفل لا بعينى أنا ؛ ولم تكن هذه الرياضة لا سهلة ولا خفيفة ، فقد كانت تستنفد صبرى ومجهودى معاً ، ولكنى كنت مضطراً إلى ذلك بعد أن شاءت الأقدار ألا يبقى له من أبويه سواى ، ولولا ذلك لنفضت يدى من الأمر كله وتركت العبء لغيرى

ومن فرط جهلى بالطفولة وثقل الشعور على نفسى بذلك أرانى أحياناً أتمنى لو رزقنى الله عشرين أو خمسين طفلاً دفعة واحدة لا لأعذب نفسى بهم وأطير عقلى معهم ، بل ليتسنى لى أن أدرس

وقلت له : ياصديقى المسكين ، أوَكلُّ هذا لها فى قلبك . فما هذا القلب الذى تحمله وتتعذب به ؟

قال : إنه والله قلب طفل ، وما حبُّه إلا التماسُه الحنان الثانى من الحبيبة ، بعد ذلك الحنان الأول من الأم . وكل كلامى فى الحب إنما هو إملاء هذا القلب على فكره كأنه يخلق به خلق تفكيره

آه يا صديق ، إن من السخرية بهذه الدنيا وما فيها أن القلب لا يستمر طفلاً بعد زمن الطفولة إلا فى اثنين : من كان فيلسوفاً عظيما ، ومن كان مغفلاً عظيما

***

وافترقنا ؛ ثم أردت أن أتعرَّف خبره فلقيته من الغد ، وكان لى فى أحلامى تلك الليلة شأن عجيب ، وكان له شأن أعجب

أما أنا فلا يعنى القراء شأنى وقصتى

وأما هو ... ؟

(يتبع — طنطا) مصطفى صادق الرافعى

الطفولة كما ينبغى أن تدرس على نحو ما سمعت أن العلماء يدرسون ما لا أدرى فى معاملهم ، ولكن الحوائل دون ذاك كثيرة : منها أن المرأة ليست كالقطة أو الأرنبة ، ومنها إنى لا أستطيع أن أعول كل هذا الجيش من الصغار ، ومنها إنى خابق فى هذه الحالة أن أجن فلا أنا درست شيئاً ولا أنا أبقيت على عقلى

والضرورة تفتق الحيلة كما يقولون ؛ والحاجة أم الاختراع . وقد لجأت إلى وسيلة أخرى أخف محملاً وآمن عاقبة ، وفيها بعد ذلك لهو لا بأس به ، وتلك أنى أكون مع أطفالى كما يكونون أو كما أراهم يكونون ، وكما يبدو لى منهم ، فأخلع ثوب الكبر والوقار والاحتشام وأجعل من نفسى طفلاً مثلهم ، وأحاول أن ألبس هـذا الثوب الذى نضته عنى الأيام بكرهى ولم تبق لى منه إلا ذكرى السعادة وأنا أمرح فيه . ومن العجيب أنا لا نذكر إلا أنا كنا سعداء به ؛ أما كيف كنا سعداء ، وما كان يسعدنا ، فهذا ما نتخيله فى كبرنا لا ما نعرفه على التحقيق . ولكن استعادة هذا العهد الذاهب عسيرة جداً . نعم أستطيع أن أقلدهم فيما أراهم يصنعون ، فأضحك مثلاً بكل جسمى لا بفمى وعينى فقط ! وأسقط على الأرض متهافتاً من شدة الضحك كما يفعلون ، وأقذف بالكرة بلا حساب أو تقدير فتصيب المرآة أو زجاج الصورة المعلقة أو أنف جالس يستغرقه الحديث الذى يخوض فيه مع جاره فينتفض مذعوراً ، ويسبقه لسانه بما لا يروى وما يجب أن يغتفر له ، ونرى ذلك نحن الأطفال فيترامى بعضنا على بعض من فرط السرور والجذل ، وتتصادم رؤوسنا ثم نفطن إلى غضب الذى أصيب أنفه وندرك أن هذا الغضب قد يكلفنا ما لا نحب فنذهب نعدو ويد الواحد منا على كتف صاحبه أو ممسكة بذيل ردائه ، ونتزاحم ونحن خارجون من الباب الذى لا يتسع لنا جميعاً ؛ فيقع أحدنا ويتعثر الباقون فوقه ، ويصيح المتأذون من الضجة التى أحدثناها وينهروننا ويزجروننا عن هذا العبث المزعج الذى يفلق الرؤوس ويعرض الأنوف والعيون للاصابات الباغتة ، فتخفت أصواتنا ويلصق بعضنا ببعض فى ركن من الغرفة الثانية ونـكمن وراء خزانة أو غيرها مما يتفق وجوده ونصمت برهة ثم يشق علينا السكوت ، وتمل ألسنتنا الهدوء ، ويتذكر أحدنا ما أفاد من المتعة حين رأى المصاب فى أنفه يصرخ ويرفع يديه إلى وجهه ويصيح باللعنات الحرار والتهديد المرعب — يذكر أحدنا ذلك فيغلبه الضحك فيكركر ويساوره الخوف مما هدد به فيتناول بعض ثوبه ويضمه على فمه ليخفض صوت السرور ولكنا نرى ذلك منه فيعدينا فنفعل مثل ما يفعل ونصبح نحن الثلاثة أو الأربعة كأننا ثلاثة قطط أو أربعة — قطط صغار وليدة من فرط التدانى والاختلاط ، فهذا وجهه مدفون فى صدر ذاك ، وذاك رأسه تحت ذقن الثالث ، والثالث وجهه إلى الحائط وهو ينث ويغالب ضحكه ، والرابع قاعد على الارض ومخف وجهه فى طيات الثياب . وأحيانا أكون مع الأطفال قطاراً يسير متعرجا بين الكراسى والمقاعد والأثاثات المختلفة ، ولا يخلو سير هذا القطار الآدمى من حادثة فيكسر كوبا أو إبريقاً أو يقلب شيئاً ؛ وقد تقع الحادثة له — فيتعثر الذى هو القاطرة وتنكب المركبات على جسمه ؛ ولكن الحوادث — كائنة ما كانت — لا يراق فيها دم — إلا دم أصبع مجروح أحيانا — ولا تمنع البشر والضحك ، بل لعل هذه الحوادث هى التى تجلب السرور ولا تكون المتعة إلا بها

أفعل ذلك وغيره وأقدر عليه ، ولا يحس الأطفال الذين ألاعبهم وأغالط نفسى بأنى أحدهم ومثلهم أن هنالك أى فرق بينى وبينهم ، ولكنى أنا أحس بالفرق الذى يخفى عليهم . ومهما بلغ من استغراق اللعب لى فليس يسعنى أن أنسى أنى كبير وأنى مقلد ليس إلا . ولو نسيت لأذكرنى التعب الذى سرعان ما يحل بى ، وصدرى الذى يعلو ويهبط كموج البحر ، ودقات قلبى السريعة ، وأنفاسى المنبهرة ، فلا يلبث ذلك كله أن يردنى بعنف وغلظة إلى ما أتجاهله من الحقائق ؛ ولو لم يكن هناك شىء من هذا لكان حسبى من الفرق أن الأطفال يختلفون عنى فى التفكير والنظر والتقدير ، وأنهم يفعلون ما يفعلون بفطرتهم ، ولأن حيويتهم كلها فى أعضائهم وأنى أجاريهم متكلفا ؛ وهم يسرون بما يفعلون ، أما أنا فسرورى بمبلغ توفيقى فى التقليد والتمثيل لا فى الفعل نفسه ، أى أن سرورى بمحاكاتهم ومجاراتهم فنى فى الحقيقة ؛ أما هم فالأمر عندهم طبيعى ، وإفادة السرور راجعة إلى أنهم يرسلون نفوسهم على سجيتها

ولست ألاعب الأطفال لأسرهم فقط — وإن كان هذا وحده كافياً لتهوين ما أتكلفه من العناء والجهد — ولكنى أحب أن أدرس الطفولة بمحاولة الاندماج مع الأطفال وتمثل إحساساتهم وتصور بواعثهم على قدر ما يتيسر ذلك لى وبعملية

استرداد القدرة على الصدور عن وحى الفطرة التى لا يكبحها العقل أو التهذيب أو العرف أو غير ذلك من اللجم التى يحسها الكبار كلما هموا بفعل شىء تغريهم به الفطرة

ولدرس الطفولة مزايا كثيرة هى السر فى ولعى بهذا الموضوع : منها أن الطفل فى بلادنا أشقى عباد الله . وإنه ليخجلنى أن أقول إننا نعذب الأطفال ونقمع فى نفوسهم الجديدة روح الطفولة ونعنعها أن تتفتح وتزهو وتربو ؛ وأحر بنا إذا فهمنا الطفولة أن نحسن سياستها ونسعدها ونجعل عهدها حميداً وتمهيداً صالحاً لعهد الشباب ؛ وأنا موقن أن خير الآباء ليس هو الذى يرضى عن أبنائه أو عما يعتقد فيهم ويظن بهم — فقد يكون مخدوعاً وهذا هو الأغلب — وإنما أحسن الآباء هو الذى يرضى عنه أبناؤه ويفرحون به ويباهون ويعتزون

فسياستى مع أطفالى هى أن أسعى لاكتساب رضاهم عنى لا أن يكونوا بحيث أرضى أنا عنهم ؛ والفرق دقيق ولكنى أظنه واضحاً . وقوام هذه السياسة أن تدرك أن للطفل نفساً غير نفسك ، وأن لها استعداداً لعله غير استعدادك ، وأن مهمتك أن تعين الطفل على إنماء مواهبه الكامنة والانتفاع بهذا الاستعداد المضمر ، وأن توجد الفرصة لأبراز ذلك ، لا أن تأخذ عليه الطريق وتسده ؛ وبعد أن يبدو لك ما يشى بالاستعداد تسرع فى توجيهه وتقويته . ولا يمكن أن يتيسر ذلك إلا إذا تركت للطفل حريته . وكيف يمكن أن تعرف ما يخفى من أمره إذا كنت تلزمه حالة معينة ، أو تحتم عليه مسلكا لا يجوز له أن يعدوه أو ينحرف عنه ؟ ... وكيف ترجو أن تكون له شخصية متميزة بخصائصها إذا كنت تأبى عليه الاستقلال والحرية ؟ ... إن تربية الطفل هى فى الحقيقة تجربة يجربها المربى ولا سبيل إلى الاطمئنان إلى صحة النتيجة إذا كنت تبدأ برأى معين وفكرة لا تحيد عنها . وسلسلة الاختبارات المتعاقبة هى التى تشير إلى اتجاه النفس ، وتدل على ناحية الاستعداد المجهول ؛ فلا بد من ترك الطفل حراً ، ومن تعويده الاستقلال فى النظر والعمل وفى تلقى وقع الحياة ، وفى طريقة استجابته لهذا الوقع . ولا نكران أن الرقابة لا معدى عنها ، ولكنها يجب أن تكون بحيث لا يشعر بها الطفل ولا يتأثر بها . وكذلك ينبغى أن يكون التوجيه حين يجىء وقته ، وإلا فقد الطفل استقلاله وخيف أن يكون قد اتجه حيث أردت له لا حيث يدعوه استعداده الشخصى

ومزية أخرى هى أن الطفل يمثل الأدوار التى اجتازتها الانسانية والمراحل التى قطعتها كلها فى تاريخها الطويل . وصحيح أنها تكون فيه — أى فى الطفل — مختزلة جداً ، ولكن المرء يستطيع أن يفطن إلى بعضها وإن كان يفوته أكثرها . وحسبى هذا القدر لئلا ندخل فى مباحث علمية لا قدرة لى عليها

ومزية ثالثة لا يشق علىّ الكلام فيها ولا يثقل فيما أرجو على القارئ ؛ وتلك هى أن الطفولة غرائز ساذجة وعواطف وإحساسات فطرية لم تهذب ولم تصقل ، ولكننا بالتربية نعود الطفل أن يكبح شهواته ويضبط أهواءه ويضع لنفسه اللجم والقيود ، وهذا شبيه بما يصنعه المجتمع بنا نحن الكبار . وقد يعلم القراء — أو لا يعلمون فما أدرى — أن سبيل المدنية أن تتخذ من النظم الاجتماعية مجارى تتدفق فيها العواطف والغرائز الانسانية الساذجة الفطرية . مثال ذلك أن الحب هو الذى يرجع إليه الفضل فى نظام الزواج الذى صلح به أمر المجتمع إلى الآن . ذلك أن الرجل كان فيما خلا من عصور الاستيحاش تأخذ عينه امرأة فتروقه فيخطفها أو يستحوذ عليها بالقوة أو غير ذلك من الوسائل ، ويستأثر بها ويقاتل دونها ما دام راغباً فيها ، ثم يدعها أو يبقيها بعد الفتور عنها إلى أخرى تستولى على هواه ، وكان الأمر كله فوضى ولكنه انتظم بالزواج ، فلا خطف الآن ولا تقتيل ولا عنف . وقد احتفر الرقى المجرى الاجتماعى فتدفقت فيه الحياة من هذه الناحية . وكذلك الوطنية ليست فى مرد أمرها إلا مظهر أنانية وأثرة ، ولكن نطاق الأثرة اتسع فشمل الجماعة المتماثلة كلها بعد أن كان قاصراً على القافلة الصغيرة مثلاً أو على الفرد قبل ذلك وهكذا إلى آخر ذلك ؛ وما من نظام اجتماعى إلا والأصل فيه غريزة من الغرائز الساذجة التى لم تهذب ولم تصقل

ونحن نصنع بالطفل ما تصنع بنا الحياة المدنية — نعلمه كبح الغرائز ونروضه على ضبط النفس وننشئه على إدراك الحدود والواجبات ونعده لحياة الجماعة المنظمة التى لا يسمح فيها بارسال النفس على السجية فى كل حال بغير كابح أو رادع أو ضبط

وشىء آخر لا سبيل إليه إلا الطفل ، وذاك أن من أراد أن يعرف حقيقة الانسان فليتأمل الطفل ؛ وأنا أومن بأن الانسان مخلوق لا شريف ، ولا كريم ، ولا خير ، ولا فيه خصلة واحدة

من خصال الخير ؛ وأنه لا يعرف لا خيراً ولا شراً ، ولا فضيلة ولا رذيلة ، وإنما يعرف نفسه وأهواءها وشهواتها وما يحسه من رغباتها ؛ وهنا موضع التحرز من خطأ ؛ فأنا لا أقول إن الانسان خير بطبعه ، ولكني لا أقول إنه شرير بطبعه . وسبب ذلك أني لا أرى الغرائز الطبيعية لا خيراً ولا شراً ، وإنما هي غرائز طبيعية وكفى ، وعقلي لا يسمح لي أن أستنكر الفطرة التي بنينا عليها

ولا حاجة في الحقيقة إلى الرجوع إلى الطفل للاستدلال على أن الانسان ليس بفطرته خيراً أو فاضلاً أو كريماً إلى آخر هذه المعاني الحسنة ، فانه يكفي أن يفكر الانسان في هذه الشرائع والقوانين وما إليها وكلها حض على الخير ونهي عن الشر . ولماذا يحتاج الانسان إلى كل هذا الحض على الخير والتزيين له والتحبيب فيه ، وكل هذا الزجر عن الشر والتخويف منه والتهديد بالعقاب عليه إذا كان بفطرته خيراً عزوفاً عن النكر والسوء ؟ .

ولكن الطفل مع ذلك أبرز مثال محسوس لحقيقة الفطرة الانسانية . هات طفلاً وأعطه عصفوراً ، وانظر ماذا يصنع به .. يربط رجله ويشد عليها ولا يبالي ألمه ويروح يطوح به ذراعه مسروراً بالدائرة الوهمية التي يرسمها به في الهواء غير عابىء بما يكلفه ويحمله من الأذى ، أو يقبض على عنقه ويحبس أنفاسه ثم يلقيه على الأرض ويغتبط بأن يراه منطرحاً على جنبه ورجلاه إلى فوق ، وهو لا يحس أن هذا قسوة لأنه لا يعرف لا القسوة ولا الرحمة ، وإنما يعمل ما يفيده السرور الذي يطلبه والمتعة التي يشتهيها .

وتعطيه قطعاً من الحلوى ويجيء من يطلب منه واحدة ، فاذا كنت لم تعلمه ما نسميه الأدب فانه لا شك يضم يده الصغيرة عليها وقد ينثني فوقها ليحجبها عنك وعنمك في ظنه أن تأخذ منها ما طمعت فيه

وتكون في يدك موزة أو تفاحة أو ما يشبهها من الفاكهة فاذا كنت لم ترضه على كبح النفس فستراه يثب ويمد كلتا يديه إلى ما في يدك ويصيح بك أن هاتها واحرم نفسك وأعطني

وتكون قد وعدت أخاه بشيء إذا حفظ درسه مثلاً فيحفظه فتهدي إليه ما وعدته ، ويراك أخوه فيغضب ويغار وينقم منك أنك اختصصت أخاه دونه بشيء ، ويدعوك أن تأخذ من أخيه وتعطيه هو ، ويسره أن تفعل ذلك ولا يبالي أخاه ولا يحفل أنه خطفت من يده الهدية الموعودة ، بل يروح يخايله بهـا ويكايده ويغتبط بأن يراه منغصاً محروماً دونه

ولا شكر على صنيع جميل ولا حفاظ لعهد ، ولا وفاء ولا ذكر ، إنما له الساعة التي هو فيها ، والشيء الذي يحس أن نفسه تطلبه ، وفيما عدا ذلك على كل شيء وكل إنسان ألف سلام

قد يقال إن هـذا من الجهل وقلة الادراك ، فأقول : إني أتكلم عن الأصل قبل التهذيب والصقل . أما الادراك فهو كالرقي الذي وصل اليه الانسان على الأيام وبعد الحقب الطويلة ؛ وقد أسلفت أن الطفل يمثل الأدوار التي مرت بالانسانية من بدئهـا إلى حاضرها . فأنت ترى في سنة من عمر الطفل اختزالا لمـا قضت الانسانية دهوراً ودهوراً طويلة وهي فيه من الحالات . وأما التعليم والتهذيب فهـذه هي اللجم والأعنة التي نضعها لضبط هذه الغرائز وكبح العواطف وتوجيهها إلى المجاري التي احتفرت على الأيام وتحددت فيها حياة الجماعة المنتظمة المهذبة ؛ واللجام طارئ ، فاذا كان يكبح بما يشد ويصد فليس معنى هذا أن ما صار إليه الأمر بعد ها هو الذي كان قبلها

ومع ذلك هل نحن الكبار المثقفون المهذبون المصقولون خير من الأطفال الصغار ؟ . وللجواب عن هـذا السؤال أرجو أن يسأل القراء أنفسهم ما ذا يكون الحال — حال المجتمع لو أمنتم عقاب الله وسطوة القوانين وحكم العرف ؟ . والقوانين لا تعاقب على بعض الرذائل مثل الكذب والخداع والنفاق ، فانظر من الذي لا يكذب أو يخادع أو يداهن وينافق — أحياناً كثيرة على الأقل ؟ أظن أنه لو أمن الناس البطش والعقاب لما بقي شيء لا يجترحونه

وتعال إلى الرجل الساكن الوقور الرزين الذي يملك زمام أعصابه ولا يدعه قط يفلت من يديه ، وادن منه وهو بين الناس والطمه على خده لطمة قوية ، ثم انظر ماذا يبقى من صقله وسكون طائره ووقاره ، ومن هذه القشرة التي كسته المدنية وزانته بها ؟

وأوجز فأقول إن الانسان يرتد إلى طباعه الفطرية إذا أوجدته في حالة تسمح لهذه الطباع بالظهور والتغلب على لجم المدنية مثل الجوع أو الغضب أو الألم أو الخطر على الحياة أو السكر . فليس الطفل وحده هو الذي يشهد أن الانسان في الأصل لا كريم ولا ذو مروءة أو شهامة أو غير ذلك ، وأنه إنما يكون كذلك اكتساباً وبالدربة والعادة وبفضل الرغبة والرهبة وغيرها مما يدفع إلى الحرص على المصلحة الذاتية ، ومن هنا كانت أهمية العناية

بالطفل ، فما ترك طفل وشأنه بغير عناية وتوجيه إلا فسد وصار شريراً وأمرء سوء . وهذا دليل آخر على أصل فطرة الانسان .

وليس معنى هذا أن أصل فطرة الانسان سيئة ، وإنما معناه أن عوامل ما نسميه الشر فى الدنيا أقوى وأشد إغراء وأعظم استيلاء على النفس ، وأن الخير محمول لمصلحة الجماعة ومصلحة الفرد ضمنا

وليس أقدر من الأطفال على التخيل . ترى الواحد من الأطفال يمشى القهقرى بحذر فلا تفهم ، وتجده يحشر نفسه بين كرسيين ثقيلين ثم يعجز عن التخلص ، ويضيق صدره فيصيح بك ، أو يبكى فتنهض اليه وتسأله عن الخبر فيقول لك إنه كان يدخل السيارة فى الجراج فانحشرت وانكسر السلم ويكون معنى هذا أنه عد نفسه سيارة واستولت عليه هذه الفكرة فهى تستغرقه وتذهله عن كل شىء ، فلو كلمته لما سمع ؛ وتراه مرة أخرى يشير إلى الهواء ويكلم من لا وجود له ويدعوه أن ينزل ؛ فلو كان رجلاً لظننته قد جن ، ولكنه طفل يتصور أن فى الجو طيارة يحادث ربانها ويدعوه إلى النزول ليركب معه وهكذا

وللطفولة أحزانها كما أن لها مباهجها ومسراتها ، ولكن المزية أن الأحزان أو الهموم لا تكون إلا هموم هنيهة قصيرة تزول وتمحى ولا يبقى لها ذكر متى عرض شاغل آخر . ويعيش المرء منا ما يعيش ويبلغ من العلم والعرفان والتجربة والفطنة ما يبلغ ولكنه لا يستكبر أن يتمنى أن يرد إلى هذه الطفولة الذاهلة . فاذا كان للسعادة معنى أو كان لها فى الدنيا وجود فهى فى عهد الطفولة ولا شك

ابراهيم عبد القادر المازنى

القصور المثلى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

للصروح والهياكل العظيمة ، كما للأشخاص والدول شخصيات تشغل مكانها فى حياة الأمم والعصور ، وتؤدى دورها فى الحوادث والسير العظيمة ؛ فاذا ذهبت الدول وفنيت الأجيال بقيت الصروح والهياكل شاهدة بما توالى عليها من الاحداث والمحن تلقى على الماضى نوعا من الضياء القاتم ، وتذكرنا بتلك الأدوار العظيمة التى لعبتها فى سير الدول والشخصيات الذاهبة

وما زالت طائفة كبيرة من هذه الصروح والهياكل العظيمة تزين العواصم الأثرية القديمة ؛ ولدينا فى مصر عدة من الهياكل الفرعونية الخالدة لعبت أدوارها العظيمة فى تاريخ مصر القديمة ، ولكنا لا نتحدث عنها هنا لأنها تقترن بعصور تغيض منا فى ظلمات الماضى البعيد ؛ ولم يبق بمصر من الصروح الاسلامية العظيمة سوى المساجد ، وهى ليست مما نعنى به فى هذا الفصل

وإنما نريد أن نتحدث هنا عن بعض الصروح الأوربية العظيمة التى شهدناها ، والتى تعتبر بما لعبت من أدوار خطيرة فى الدول والعصور التى قامت فيها صروحا « مثلى »

***

إن أسماء صروح كاللوفر وفرساى والفاتيكان وقصر الدوجات لا تمثل الهياكل والأبنية العظيمة التى تعرضها هذه الصروح فقط ، ولا تقف أهميتها وروعتها عند النقوش والذخائر الفنية العظيمة التى تحتويها ، ولكن أعظم ما تدلى به هذه الصروح فى نظرنا هو تراثها المعنوى والحوادث والذكريات العظيمة التى اقترنت باسمها

فقصر اللوفر مثلاً يمثل عصوراً بأسرها من حياة الملوكية الفرنسية ويعرض لنا فى أبهائه الشاسعة ونقوشه وذخائره طرفا من روعة هذه الملوكية وأيام عظمتها وازدهارها ؛ هذا جناح هنرى الثانى ، وهذا جناح زوجه كاترين دى مديتشى التى تملأ سيرتها كثيراً من القصص الشائق ؛ وهذه غرف ولديها فرانسوا الثانى وشارل العاشر ؛ وهذا جناح هنرى الرابع ؛ ولويس الثالث عشر ، وهذا جناح الملك العظيم لويس الرابع عشر : فى تلك الغرف والأبهاء الشاسعة عاشت الملوكية الفرنسية أحقابا تشرف على مصاير أمة عظيمة ، وفيها كم دبرت أمور وكم قررت شؤون خطيرة كان لها أكبر الأثر فى سير التاريخ الأوربى ؛ كان اللوفر مدى قرنين قلب فرنسا النابض ، وأحيانا قلب أوربا بأسرها شأنه فى عهد لويس الرابع عشر

وقد كان قصر فرساى يكمل حياة اللوفر ؛ وكان فى أواخر عهد الملوكية الفرنسية ملاذها ومستقرها : هذا جناح لويس الرابع عشر الفخم ، وهذه غرفة نومه ، وهذا بهو عمله ومتزينه ، وهذا جناح الملك الخليع لويس الخامس عشر قد أثث بأثاث ما يزال إلى اليوم نموذجا فنياً رائعاً ؛ أجل وهذا جناح خليلاته دوباردى ودى بومبادور الخ على مقربة من جناح زوجه الشرعيه ، مارى لكزنسكا ، وهذه أبهاء الحفلات الباذخة التى كان ينفق عليها بغير حساب ، وكانت تثقل كاهل الشعب المسكين ؛ وأخيراً ها هوذا « بهو المرايا » الشهير الذى عقد فيه مؤتمر الصلح فى سنة ١٩١٩ وأملت فيه فرنسا وحلفاؤها الظافرون إرادتهم على ألمانيا المنهزمة ووقعت فيه ألمانيا وثيقة انكسارها وذلها

فى هذه الربوع والمواطن الصامتة التى تغدو اليوم آثاراً يحج اليها السائح كان يكتب تاريخ فرنسا وتاريخ أوربا

***

على أن الأحداث والذكريات التاريخية الرائعة لم تجتمع قدر اجتماعها فى صرحين عظيمين ، هما قصر الفاتيكان فى رومة ، وقصر الدوجات فى البندقية (ڤينزيا) فأما الفاتيكان فهو بلا ريب أجل آثار النصرانية وأعظمها ؛ وفى الفاتيكان الذى غدا علماً على البابوية والكرسى الرسولى ، تتمثل عظمة البابوية ، وبذخ البابوات ، وكل ما فى عصر الأحياء من عبقرية وجمال وافتنان ؛ وليس الفاتيكان قصراً تستطيع أن تحيط برؤيته فى ساعات ، وإنما الفاتيكان مدينة من القصور الرائعة يقتضى التجوال فيها والتمتع بروائعها أياماً عديدة . وقد نشأ الفاتيكان فى أواخر القرن الرابع عشر قصراً متواضعاً إلى جانب كنيسة القديس بطرس ، وغدا من ذلك التاريخ مركز الكرسى الرسولى ، ثم تعاقب عدة من البابوات على إنشائه وزخرفته ، فأقاموا إلى جانب القصر

القديم قصوراً وأجنحة جديدة بلغت أعظم مبلغ من الفخامة والبهاء ، نخص بالذكر منها مصلى سكستوس الرابع المسمى كابيلاسستينا ، والذى خلف ميشيل آنجلو فوق جدرانه من ريشته آيات خالدات ، وجناح آل بورجيا الذى أنشأه اسكندر السادس ، وأفاض عليه أبدع ما تمخض عنه الأحياء من بذخ وزخرف وبهاء ؛ وجناح چوليوس الثانى (لوچى) ، وهو الذى زينه رافائيل بأيات باهرات من فنه وريشته ؛ ولبث البابوات يزيدون فى صروح الڤاتيكان وفى زخرفته حتى غدا مجموعة من القصور الشامخة الباذخة ، تضم عشرات من الأبهاء والأروقة الفخمة ، وعشرات الساحات والأفنية المظيمة ، ونحو عشرة آلاف غرفة . ولا يستطيع القلم مهماً أوتى من قوة أن يصف ما تزدان به تلك الصروح والأبهاء الخالدة من نقوش وزخارف وصور تأخذ الأبصار بجمالها وروعها ؛ ويكفى أن نقول إنها مثوى لأبدع وأروع ما تمخضت عنه عبقرية الجمال والفن فى أعظم وأزهى العصور

على أن روعة الڤاتيكان لا تقف عند جمال الفن ؛ وإنما تمثل بنوع خاص فى ذلك الدور الخطير الذى أداه فى تاريخ النصرانية ، وتاريخ البابوية ، فقد كان الڤاتيكان وما زال رأس الكنيسة المفكر وروحها المسير ، وكان مدى عصور طويلة مبعث تلك السلطة الزمنية القوية التى زاولتها البابوية مع سلطتها الروحية جنباً إلى جنب ؛ وكانت أبهاء الڤاتيكان ومخادعه مسرحاً لكثير من الحوادث التاريخية البارزة ، وكانت أيضاً مسرحاً لكثير من المؤامرات والدسائس والمآسى المروعة

وليس بين صروح أوربا الأثرية كلها صرح يثير ما يثيره الڤاتيكان فى النفس من روعة وإجلال وأعجاب ؛ وسيبقى الڤاتيكان عصوراً علماً على عظمة البابوية الذاهبة ، وسيبقى حلية الآثار النصرانية والكنسية كلها

ولنتحدث بعد ذلك عن قصر الدوجات ذلك الصرح الذى لا يدلى مظهره المتواضع بذلك الدور العظيم الذى لعبه فى تاريخ أعظم جمهوريات العصور الوسطى

كان قصر الدوجات Palazzo ducale الذى لا يزال يجثم بحناياه العربية البيزنطية وشرفاته المنخفضة بجوار كنيسة القديس ماركو على المنعطف الذى يصل بين البحر وبين ميدان سان ماركو (القديس مرقص) منزل الدوجات ومستقر الهيئات النيابية التى امتازت بها نظم البندقية فى العصور الوسطى ، مثل المجلس الأعلى ومجلس العشرة الشهير الذى يثير اسمه كثيراً من الذكريات المروعة ؛ وكان رأس الجمهورية المفكر وقلبها النابض ، يكتب فيه تاريخها وتدبر فيه أسباب قوتها وعظمتها ، وتضطرم فيه تلك الدسائس والمؤامرات الخطيرة التى تدفع بها إلى براثن المحن الدموية أو الفوضى ، وكان أخيراً حرمها المقدس وملاذ دستورها ، وسلطانها الأعلى

ومن هم أولئك الدوجات الذين سمى الصرح العتيد باسمهم ، وتوج اسمهم تاريخ البندقية الحافل من مبدئه إلى منتهاه ؟ كان الدوج (أو الدوق[1]) رئيس الجمهورية وحاكمها الأعلى ، وكان فى المبدأ يعين بالانتخاب على يد جمعيات من الشعب ، ثم أنشىء المجلس الأعلى فى القرن الثانى عشر من نواب يعنيهم زعماء الولايات ، ومنهم ينتخب الدوج والوزراء وكبار القضاة ؛ وكانت البندقية جمهورية ، ولكن جمهورية ارستقراطية ، تقبض الارستقراطية على مصايرها وتستأثر فيها بالحكم والسلطان ؛ وكان الشعب يجاهد طول الوقت لكى ينتزع لنفسه تلك السلطات التى تستمد منه وتدار باسمه ؛ ولكن تلك الارستقراطية الطاغية المستنيرة معاً كانت حريصة على سلطانها وزعامتها ؛ وفى القرن الثالث عشر استطاعت الارستقراطية أن تقصى الشعب نهائياً عن كل اشتراك فى الشؤون العامة ، وذلك بأن حول المجلس الأعلى من هيئة نيابية انتخابية إلى هيئة وراثية خالدة ، وبذا قامت فى البندقية تلك الارستقرطية الوراثية القوية التى يصفها المؤرخ الفيلسوف سسموندى بقوله : « كانت فياضة الحزم والغيرة والطمع ، جامدة فى مبادئها ، راسخة فى سلطانها ، تقترف باسم الحرية طرفا من أشنع مثالب الاستبداد ، مشاكسة غادرة فى السياسة ، دموية فى الانتقام ، متسامحة مع الفرد ، باذخة فى الشؤون العامة ، مقتصدة فى الادارة المالية ، عادلة نزيهة فى القضاء ، قديرة فى إزهار الفنون والزراعة والتجارة ، محبوبة مطاعة من الشعب ؛ يرجف النبلاء الذين تمثلهم منها فرقا » ثم اختارت

(١) من اللاتينية Dx أعنى الأمير أو الدوق

الارستقراطية مجلس العشرة الشهير ، وخول سلطات استثنائية وعهد إليه بحماية الجمهورية وسحق كل جريمة وثورة يدبرها الخوارج والطامعون ، فتم بذلك للاستقراطية سلطانها المطلق ، وغدت كل شيء في نظم الجمهورية وحياتها ومصايرها

وقصر الدوجات من أقدم الصروح التاريخية يرجع بناؤه إلى نحو ألف عام ، ولكن القصر القديم أحرق وزالت معالمه غير مرة خلال الحوداث والفتن ، وأعيد بناؤه ، وتمهده الدوجات بالانشاء والزخرف حتى اتخذ شكله الحالي منذ القرن الرابع عشر ؛ وتشرف واجهة القصر الأمامية التي تذكرنا حناياها المرمرية بالمشرفيات الشرقية ، على منعطف سان ماركو ، وتشرف واجهته الخلفية على قناة من الماء ؛ ويقع في مواجهته بناء عتيق قاتم هو سجن الدولة القديم ؛ وتربط الصرحين قنطرة معلقة هي قنطرة الزفرات الشهيرة (بونتي دي سوسبيري) التي تمثل اسمها في كثير من القصص المؤسي ، والتي يقال إنها لعبت أيما دور في مصارع النبلاء والسادة ، يدفعون منها إلى السجن أو يلقون إلى الماء

وتتكون أبنية القصر من طبقات ثلاث تشرف من الداخل على فناء مستطيل واسع ، وليس في مظاهرها الخارجية كثير من الزخرف ، ولكنها تبدو قاتمة عابسة تؤذن بأنها كانت أيام مجدها ملاذ الكتمان والصرامة ، فاذا نفذت إلى الداخل أخذتك روعة الغرف والأبهاء الشاسعة الفخمة التي زينت جدرانها وسقفها بأجمل ما خلقته عبقرية الأحياء من النقوش والصور ؛ ولقد زينت شرفات الطبقة الأولى بتماثيل عدة من مشاهير الدوجات ، وزينت إحدى غرف الطبقة الثانية بطائفة كبيرة من الدروع والأسلحة القديمة التي كان يرتديها أو يتقلدها الدوجات أو قادة الجمهورية ؛ بيد أن أوروع ما في هذا القصر الشهير هو الطابق الثالث حيث يوجد جناح الدوج والابهاء الرسمية التي تحيط به ؛ هذا هو بهو اجتماع المجلس الأعلى لا يزال بتقاسيمه ومقاعده الخشبية القديمة وفي صدره مقعد الدوج ؛ وهذا هو البهو الأكبر حيث تنعقد الاجتماعات الرسمية الكبرى ، وهنالك في أعماق القصر وراء هذه الأبهاء الشاسعة توجد غرفة متوسطة متواضعة أقيمت في صدرها عدة مقاعد خشبية هي غرفة اجتماع مجلس العشرة ؛ وهنالك بالضبط عشرة مقاعد يتوسطها مقعد الدوج ؛ وفي تلك الغرفة المتواضعة التي يخيل اليك أنها تمثل روح العصور الوسطى ، وتمثل الصرامة والغدر والسلطان المطلق معا ، كانت تبرم أهم الشؤون وأخطرها ، وتصدر أعظم القرارات في حياة الجمهورية ، ولقد زينت جدران هذه الأبهاء وسقفها بطائفة بديعة من الصور التاريخية رأينا بينها صورة لافتتاح الصليبيين والبنادقة لقسطنطينيه سنة ١٢٠٣ وموقعة لبانتو البحرية الشهيرة التي هزم فيها الترك سنة ١٥٧١

وقد عرفت مصر الاسلامية عظمة الجمهورية البندقية وعظمة الدوجات في العصور الوسطى وكانت ثمة في عصور السلام علائق ومخاطبات منتظمة بين بلاط مصر وبين قصر الدوجات . وكان البلاط المصري يخاطب « الدوج أو الدوك » باسمه مقرونا بالقاب التعظيم والتكريم

***

هذه طائفة من الصروح العظيمة التي تمثل بماضيها الحافل عصوراً وأحقاباً عظيمه من التاريخ ؛ وهي بذلك صروح مثلى كالأمم والشخصيات المثلى ، لا تقف عظمتها عند تلك الأبنية الشامخة وتلك الروائع الفنية التي أسبغتها عليها عبقرية الأجيال والعصور الزاهرة ؛ ولكن أشد ما تمثل عظمتها في تلك الصفحات الخالدات التي سجلتها في بطون التاريخ ، وذلك التراث المعنوي الزاخر الذي يغمر كل رحابها وجنباتها الصامتة

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

أثر الترف
في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

الترف من مستتبعات الحضارة ، تتجه اليه الأمم عقب عصور النهضات ، إذ يلذ لها الركون إلى الراحة واجتناء ثمرات مجهوداتها التي بذلتها في عهود النهوض والكفاح والتمهيد ، وتميل إلى الاستمتاع بخيرات الحياة من دعة ولذة وسرور في ظل السلام والنظام اللذين تنشرهما الدولة بعد أن توطدت أركانها ، وفي بحبوحة الثروة والنعمة اللتين أثلهما جهاد السنين والأجيال ، فيهجر الشعب رويداً رويداً حياة الخشونة والقناعة والجد ويستكثر من أسباب الراحة والبهجة ، وإشباع مطالب الجسم والنفس ، وبدوات الخيال والشهوة

ويكون أشد الأمم إقبالاً على وسائل الترف ومضياً إلى غاياته ، أشدها من قبل تخشناً في العيش ، وأعظمها جلاداً في ميدان تنازع البقاء ، وأتمها ظفراً وغلبة على البلدان ، لما تجنح اليه من الراحة بعد الجهد ، والاستمتاع بعد الحرمان ، ولما تغدقه عليها انتصاراتها من أسلاب أعدائها وأرزاقهم ، وما تطلّع عليه من وسائل لهوهم وترفهم ؛ ومن ثم انتشرت موجات هائلة من الترف في مصر الفرعونية عقب فتوحها الكبيرة في آسيا ، وفي أثينا عقب امتداد سيادتها على سواحل بحر الأرخبيل وجزره ، وفي روما بعد اتساع سلطانها شرقاً وغرباً

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية خرجتا من بداوة وخشونة عيش إلى حضارة وحياة دعة ؛ وكلتاهما أقامتا امبراطورية مترامية التخوم تعج نواحيها بالخيرات والكنوز ، ومَرَت اليهما من جراء ذلك عدوى الترف وبدا أثرها في أدبيهما . بيد أنهما تفاوتتا تفاوتاً كبيراً في مدى تأثرها بذلك الترف ، فكانت الأولى على الأرجح أعظم الأمم أخذاً بوسائله وتفنناً في ضروبه ؛ وكانت الأخيرة أقلها انقياداً لتياره وأشدها تشبثاً بأهداب الاعتدال

فالأمة العربية ينقسم تاريخها الاقتصادي إلى ثلاثة أطوار كبيرة : فالطور الأول وهو عهد الجاهلية أقرب إلى الفقر والخشونة التي فرضتها على العرب طبيعة بلادهم الضنينة ، مما أورثهم صفات القناعة والصبر والجلد واحتمال المشقات ، كما أورثهم الجود وقرى الأضياف ، فتمدحوا بكل هاتيك الصفات وامتلأ بها شعرهم ، وجاء ذلك الشعر في جملته قوياً متسماً بالرجولة مثيراً للاعجاب ؛ وندر في ذلك العهد شعر المجون والخلاعة ووصف دواعي الرفاهية ومظاهر الحياة الناعمة ، بل كان السادة يتبرأون من الانقياد لشهوات الجسم والنفس . ومن روائع آثار ذلك في الأدب قول حاتم الطائي :

وإني لأستحيي صديقي أن يرى ... مكان يدي من جانب الزاد أقرعا
وإنك مهما تُعط بطنك حقه ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقول عنترة :

يُخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم
وأرى مغانم لو أشاء حويتها ... فيصدني عنها الحيا وتكرمي

وبقيام الدولة العربية دخل العرب في الطور الثاني : طور الحضارة والرفاهية والترف ، وتدرجوا في الأخذ بأسباب ذلك مع مرور الزمن حتى أوفوا على الغاية . ولا غرو فقد اجتمع لديهم من أسباب الترف ما لم يكد يجتمع لغيرهم ؛ فأن نجاحهم الحربي الفجائي أوقع في أيديهم أغنى بقاع الأرض وأخصبها وأعظمها حضارة وترفاً لعهدهم ، وأغدق على كبرائهم ومقاتلتهم فيضاً متلاحقاً من الأموال ، وأدخل في حوزتهم شاسع الأملاك ، وأقام في خدمتهم الجمَّ الغفيرَ من الموالي ؛ وسمحوا لهم لشتى الأجناس بمخالطتهم والاقامة بين ظهرانيهم ، فجاءت الأمم المقهورة في ميدان الحروب تسلط على الأمة الغالبة ما بذتها فيه من أسباب الرفاهية واللذاذة ، وهي التي كانت من قبلُ سبب سقوط عزيمتها وإدبار دولتها

وكان كل ذلك جديداً على أعين العرب الذين قضوا الأجيال في شظف البادية وتقتيرها ، فاندفعوا يصيبون من تلك اللبانات ما حرموه طويلاً ، وأغرقوا في استمراء تراث الأمم المغلوبة كما يغرق الوارث الذي طال حرمانه في تبذير ثروة الغني الراحل . وكأنما تعجل العربُ في تراث كسرى وقيصر ما وُعدوه في الدار الآخرة من طيبات ؛ ومن ثم ابتنى الخلفاء القصور وحشدوا

لتشييدها الصناع من شتى الأجناس ، ووفروا بها آنق أسباب الدعة والمتعة ، وحشروا فيها الغلمان والقيان ، وبالغوا فى إعداد الموائد والأسمطة ، وأكثروا من الألوان والصحاف ، واستمتعوا بالغناء والشراب ، ورفلوا فى فاخر الثياب ، واحتفوا بالمواسم والأعياد والمهرجانات ، وأسرفوا فى أعراسهم حتى ضربت ببعضها الأمثال ، ولم يدعوا متعة من متعات النفس أو لذة من لذات الجسم إلا استاموها

واحتـذاهم فى ذلك الأمراء والكبراء وكل من أطاقه من عامة الشعب ، فانتشرت مجالس الشراب والغناء ، وأحكمت أوضاعها وارتقت آدابها ، وراجت صناعة المغنين وحذقوا فنهم وجودوه ، وراجت تجارة الرقيق ونفقت سـوق الجوارى ، وأُخِذْن بالتثقيف والتهذيب ليجمعن فتنة اللب إلى فتنة النظر ، وأولع الناس بالرقة والظرف والكياسة ، ونفروا من الخشونة وتندروا بالجلافة والغفلة ، واحتفوا بالمواسم يشخصون فيها إلى الرياض أو الأديرة فى أرباض المدن ، يتنادمون ويتغزلون

وأثر تلك الحياة المترفة جلى فى الأدب العربى ، بل لعـله أكبر فارق يفرق أدب ما بعد الاسـلام والحضارة عن أدب الجاهلية ، إذ أن الأدباء اهتموا بتصوير مظاهر ذلك الترف كلها ، بل كانوا من أشد الناس حرصاً على الانغماس فيه ، بل تجمعوا فى العواصم طلباً لأسبابه ، وكان منهم من صاحبوا الخلفاء والأمراء فى مجالس شرابهم وسماعهم وساعات تبـذلهم واستمتاعهم ، وجلسوا إلى موائدهم وشاركوا فى محافلهم ومهرجاناتهم ، وكل ذلك ضمنوه مدائحهم لأولئك الحـكام ؛ وكان شهودهم تلك المشاهد وما يحوكونه فيها من القصائد ، من متممات السرور والأنس ، ومستلزمات الأبهة والعظمة

ومن ثم يحفل شعر بشار وأبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن المـعتز وابن الرومى وابن حمديس وكثيرين غيرهم بأوصاف القصور والحدائق والنافورات ، وسفائن النزهة وكلاب الصيد ، وألوان الطعام والفاكهة والأسمطة ، ومجالس الشراب وحذاق المغنين وحسان المغنيات ، والمحافل والمواكب ، كما امتلأ بالنسيب الذى كان أغلبـه نسيباً بالجوارى دون الحرائر ، والذى امتزج بكثير من الخلاعة والفجور ؛ وروى الشعراء فى كل ذلك عن ممدوحيهم من الأمراء تارة ، وعن أنفسهم تارة أخرى ، وصوروا فى الحالتين حياة الترف المغرق التى طغى سيلها فى عهود العباسيين والفاطميين وخلفاء الأندلس وغيرهم

وقد ظفرت الخمر من بين أسباب الترف هاتيك بالمكانة الأولى فى النفوس ، وفازت بالحظ الأوفر من حفاوة الشعراء ، فكانت معقد السرور ومناط الأنس ورمز الصـفاء ؛ وتفنن الشعراء فى تمجيدها ووصف تأثيرها ووصف مجلسها وساقيها وكأسها ، وطلبوا البراعة بالابتكار فى تلك الوجوه ، وخلعوا العذار واطرحوا التدين فى التوفر عليها والتغنى بها ، وهزئوا باختلاف الفقهاء فى تحليل بعض أنواعها وتحريم بعض ، وظفرت الخمر فى الأدب العربى بمنزلة لا تبارى فى أدب آخر ، وسما شأنها حتى زاحمت النسيب على مكانته الموروثة من عهـد الجاهلية ، فأصبح وصف الخمر كالتشبيب والوقوف بالدمن وسيلة تقليدية من وسائل استهلال القصيد

ومن أجل الشعر فى وصف أسباب الرفاهية تلك ، قول ابن الرومى الذى يختمه بتحسره على حرمانه مما يصف ، إذ أصبح التلهف على أسباب النعيم ديدن الشعراء ، وكانوا من قبل فى الطور السابق كما تقدم يتبرأون من الاستسلام للترفُّه والشهوات :

فى أمور وفى خمـور وسَموُ ... رِ وفى قاقُمٍ وفى سنجاب
فى حبير منمنم وعبير ... وصحانٍ فسيحة ورحاب
فى ميادين يخترقن بساتيـ ... ـن تمس الرؤوسَ بالأهداب
عندهم كل ما اشتهوه من الآ ... لات والأشربات والأشواب
والطروقات والمواكب والولـ ... ـدان مثل الشوادن الأسراب
والغوالى وعنبر الهنـد والمسـ ... ـك على الهام واللحى كالخضاب
لم أكن دون مالكى هذه الأشـ ... ـياء لو أنصفَ الزمان المحابى

وقد بلغ من ولع كثير من الشعراء باجتناء ثمار تلك الحياة المترفة الغارقة فى اللذات ، أن خصصوا أشعارهم لمدح الأمراء بغية أن يُقرَّبوا ويَمنحوا طرفا من ظل تلك النعمة السابغة ، ويشاركوا ممدوحيهم فى أبهتهم ولذاتهم ، وبغية النوال ينفقونه فى ارتياد مواطن اللهو التى حفلت بها العواصم ، ويبذرونه فى مجالس الشراب والغزل يعقدونها فى دورهم أو فى دور المغنين والنخاسين أو فى الحانات والأديرة ؛ ومن ثم امتلأ شعرهم بالمدح من جهة ، وبوصف الملاهى من جهة أخرى ، وراح بشار مثلا يفخر بكلا الأمرين : باقتناص أموال الملوك ، وانتهاب سوانح اللذات ، قال :

وإنى لنهّاض اليدين إلى العلا ... قروعٌ لأبواب الهمام المتوج

وقال :

قد عشت بين الريحان والراح والمـ ـزهر فى ظل مجلس حسن

وبعد طور الثروة والترف هذا جاء الطور الثالث طور الفقر والانحلال ، حين استنزفت موارد البلاد ، وعظمت مفاسد الحكام ، وخمدت العزائم من جراء الانهماك فى ذلك الترف ، وفدحت الضرائب الأهلين ، وتنازع الأمراء والولاة . وقد كان جانب كبير من الشعب يشقى ويألم فى عهد الرخاء والترف السالف ؛ أما فى هذا العهد فعم الشقاء ، وانتشر الخراب ، وكسدت الصناعات ، وظهر القحط وتتابعت المجاعات

ولم يبق معتصما بربوة الترف فوق سيل هذا البؤس إلا القليل ومنهم الأمراء الذين يتنازعون الحكم ويرهقون الأهالى بالمغارم ليتشبثوا بمظاهر الملك والفخفخة ويتشبهوا بالسابقين فى الجاه والأبهة ؛ يسلبون الناس أرزاقهم باليمين ليمنوا عليهم باليسار بالأثواب والأطعمة فى المواسم والأعياد كأنما يأبون أن يطلبوا الرزق من وجوهه الشريفة ، ولا يريدونهم إلا عجزة مستجدين يفزعون إلى بر الأمير ويتمدحون بجوده . تلك كانت حال مصر مثلاً فى فترات طويلة من حكم الفاطميين والمماليك ؛ وتلك كانت حال الأندلس على عهد بعض ملوك الطوائف الذين لم تكن الحرب بينهم تهدأ ، حتى لقد تشابه ثمت الأمراء ذوو الجيوش وقطاع الطرق أصحاب العصابات والمناسر . وقد أوجز بعض شعرائها وصف عبث الأمراء برفاهية البلاد فى قوله المفعم بالحسرة :

أطاعت أمير المؤمنين كتائبٌ تصرَّفُ فى الأموال كيف يريد

فثالث الأطوار المشار اليها فى بدء هذه الكلمة هو طور العوز والبؤس الذى جاء رد فعل لطور الاسراف فى الترف ، كما يجىء الخمار عقب الاسراف فى الشراب . وفرق ما بينه وبين فقر الطور الأول أن الأول كان فقراً طبيعياً ممتدلاً قضت به البادية على أبنائها وحصنتهم منه بالخلق المتين ؛ والأخير فقر منشؤه الافراط والتفريط ، وحليفهُ الذلة والمسكنة واللئيم من الطباع ، وفى طيه الشره والشهوة المكبوتة والتلدد والحرمان . وقد انعكس كل ذلك فى أدب هذا الطور إذ جاء ضاوياً سقيما مملوءاً بالشكوى والتوجع ، منطوياً على تمويهات المعانى ومخادعات الألفاظ التى تحكى ما كان يجيش به المجتمع من تمويه

هكذا جرى العرب من الترف إلى أبعد غاياته ، ثم كانت سقطتهم من بعد ذلك بعيدة المهوى . أما الانجليز فأنهم وإن شابهوا العرب ومن قبلهم الرومان فى تأسيس امبراطورية ضخمة ، كانوا نسيج وحدهم فى توقى اعراض الترف وتحاشى عقابيله التى يجرها على المجتمع ، والتى تحدث ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع بهدمها لصروح الدول ، لما تسلب أبناءها من صفات النخوة والجهاد والغلبة ، فلم يمسَّ الترفُ المجتمع الانجليزى والأدب الانجليزى إلا مساً خفيفاً ، وفى عهود قصيرة ، وذلك للظروف التى أحاطت ببناء الامبراطورية

فقد شيدت الامبراطورية الانجليزية ببطء وتدرج ، لا بسرعة كما شيدت الامبراطورية الرومانية ، ولا فجاءة كما بنيت الامبراطورية العربية ، فلم يغمر المجتمع الانجليزى سيلٌ مفاجىء من الثروة ؛ وبنيت الامبراطورية فى العصور الحديثة فلم يتبع الانجليز الطريقة القديمة من انتهاب أموال العدو المهزوم وأسر المقاتلين أو المسالمين واسترقاقهم ؛ ولم يستأثر الملوك والقواد بغنائم الحرب وثمرات الفتح ، فتنحصر الثروة فى طبقة محدودة تسرف فى اللذات بينما بقية الشعب محروم ، بل كان الاقليم المفتوح حرباً يفتح للتجارة الانجليزية ورجال الأعمال الانجليز صغارهم وكبارهم ، فجاء توزيع الثروة بين طبقات الشعب أكثر تعادلاً مما كان فى المجتمع العربى

أضف إلى ذلك أن الانجليز لم يخالطوا الشعوب المفتتحة ولم يسمحوا لأبنائها أن يعلأوا عليهم وطنهم الأول ولم ينتقلوا هم إليهم بحواضرهم كما فعل العرب ، ولم يأخذوا عنهم ضروب لهوهم وترفهم ولا غير ذلك من مظاهر الحياة ، لأنهم كانوا عادة يفتتحون أقاليم أقل منهم حضارة ، لا يستسيغون ما عندها من ضروب المتَع ؛ وظل الانجليز فى بلادهم بعيدين عن تأثيرات أملاكهم ، متمسكين بتقاليدهم القومية وعوائدهم وأنظمتهم التى نمت وتوطدت قبل الالتفات إلى ما وراء البحار

هذا إلى أن الامبراطورية لم تشيد إلا وقد كسرت شوكة الملكية فى إنجلترا واستتب النظام الدستورى ؛ والملوك المستبدون هم عادة رادةُ الترف فى ممالكهم والموحون إلى رعاياهم باغتنام اللذات والملاهى ، يتوفر أوائلهم على تأسيس الدولة وتأثيل السلطان ، ثم يمكف أخلافهم على الترف والأبهة واتباع الشهوات ، ويقتدى بهم من هم دونهم . كذلك كانت الحال فى الدولة العربية حيث توطد سلطان الملك بامتداد أطراف الامبراطورية ؛ أما فى انجلترا حيث كف الملك عن أموال الدولة

أن يبذرها ، فقد ظل الملوك متبعين سياسة الاعتدال ، فلم يكونوا قدوة سيئة لغيرهم من الطبقات

إنما فشا الترف والفساد فى المجتمع الانجليزى فى أواخر القرن السابع عشر حين عادت الملكية منتصرة من فرنسا مستعيدة بعض ما ضاع من نفوذها ، مصحوبة بالفرسان الانجليز الذين عاشوا زمناً فى المجتمع الفرنسى ، والفرسان الفرنسيين الذين شبوا فى بلاط لويس الرابع عشر ، فعج البلاط الانجليزى بمظاهر الترف وأسباب الغواية ، وفشا ذلك منه فى طبقات الشعب ، وساعد على ذلك تبرم الناس مما كان حكم المطهرين الغلاة قد فرضه عليهم قبل ذلك من كبح وتزمت ، وبدا أثر ذلك الترف والفساد الخلقى فى درامة ذلك العهد

وانتشر الترف كرة أخرى فى بعض القرن الثامن عشر بين طائفة ارباب الأعمال الذين أثلوا لأنفسهم ثروات ضخمة بشريف الوسائل وخسيسها فى الولايات الهندية قبل أن تشرف الحكومة الانجليزية على إدارتها ، وعادوا إلى أوطانهم مكاثرين بطارف أموالهم مستكثرين من مظاهر الأبهة والفخفخة ، وعرفوا بالنواب تشبيهاً لهم بأمراء الهنـد ؛ ورأى فيهم أدباء العصر مواضيع شائقة لكتاباتهم الساخرة ، وأولع بهم ما كنزى وكوبر وغيرهما طويلا ؛ على أنه فى كلتا هاتين الحالتين كانت النوبة عارضة قصيرة الأمد ضيقة الحيز ، صمد لها الخلق القوى ، والطبع الانجليزى الهادئ ، وتغلبت عليهـا تقاليد الأيام المتعاقبة وعاد الاعتدال شعار البلاط والمجتمع والأدب

فالأدب العربى قد حوى من آثار الترف الشيء الكثير ، بل حوى من ذلك ما لعل أدباً آخر لم يحوه ، وحفل بالرائع من الأوصاف لتلك الآثار ، وإن نبا بعضها أحياناً عن الذوق السليم والخلق الكريم . ولا ريب أن ميله هـذا إلى زخارف العيش وولعه بتصويرها كان مما جنح به أخيراً إلى زخرف الألفاظ وأنيق المعانى . أما الأدب الانجليزى فظل رجاله غالباً بعيدين عن موائد الأمراء ، وظل الاعتـدال فى أغلب العصور رائده ، بعيـداً عن زخارف الحياة المترفة وزخارف الألفاظ المنمقة معاً ، وكان رجاله أشد شغفاً بتصوير دخائل النفس الانسانية ووصف محاسن المناظر الطبيعيـة منهم بوصف قصور الأمراء ومحافلهم ومواكبهم .

فخرى أبو السعود

من صديق إلى صديقين

للدكتور أحمد فريد رفاعى

مدير قلم المطبوعات

صدقنى أيها الصديق ، الكبير فى أدبه ، الكبير فى خلقه ، الكبير فى أثره ، أستاذنا الزيات ، أننى معجب بما تفضلتم بنشره فى مجلتنا الشرقية المحبوبة « الرسالة » مما دبجته براعة الصديق الزميل ، البحاثة الدءوب ، الكاتب العالم الوديع ، الأديب عبد الوهاب عزام ، خاصاً بما لاحظه — مشكوراً منى ومن المستفيدين بنقده وعلمه ، مأجوراً من ربى وربه — على ما فات علينا جماعة « دار المأمون » أولا وقبل كل شىء ، ومن عاوننا فى الطبع والاخراج من وراقين وطابعين آخراً

ومهما يكن من إيمانى بصدق قول يحيى بن خالد : « لا يزال الرجل فى فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يصنف كتابا » بيد أنى ارتحت الارتياح كله إلى أن فاضلاً أديباً كأخى الاستاذ عبد الوهاب عزام تجشم المتاعب والصعاب ، وأفنى الليل والصحة والجهد ، فى القراءة والمقابلة ، والمطالعة والمقارنة ، والتصحيح والاستقراء ، فى سبيل إقامة الأوَد ، وإحقاق الحق ؛ فله الحمد والثناء على ذلك ، ما أبلى وأجاد ، وبحث وأفاد . . ولست بقائل له إننى ألحقت بالجزء الثالث ما يفيد ويرشد ، وفى الرابع ماينصف ويحمد . ولست بمتألم لما كان من مبادرته بما تدار كناه ، لأن الكرم العلمى ، والسخاء الادبى لا يعدوان صنيعه . بيد أنى — وهو الأستاذ الحجة — ناقل له هنا كلمات متواضعة أرجح أن علمه الوفير سيسيغها ، وعطفه الفسيح سيسعها ، وأدبه الجم سيبررها

« وكم [1] كان يحلو لى أن أتحدث طويلاً عن النقد وحقيقته علماً وفناً ، وتاريخاً وتطوراً ، وما له من أثر عميق يمتد به فى توجيه نهضتنا التجديدية إلى الانتاج والبقاء ، والتشييد وحسن الأداء ، والتقدم والنماء ؛ وكم كان يحلو لى أن أستفيض معك فى القول فى هذا الباب ، وأميط لك اللثام عما لنصفة النقدة من سداد تزجية ، وحكيم توجيه ، وحسن إبانة ، وفضل على الصناعة ، ومنن فى عنق التأليف ، ورواج للكتب والتصنيف ، وإصابة للنصاحة ، وإعانة على الفصاحة ؛ وكم كان يحلو لى أن أزاملك فى جولة فى تلخيص كتاب « سالسبورى » فى علم النقد ، وأن أرافقك فى سياحة فى أسفار « ما كولى » وما كان له من إرشاد إلى الحقائق ، فى شكر للناشر ، وثناء على المؤلف ، فى غير افتئات ولا إعنات ، وفى نأى عن الحقد والشحناء ، والجدل والمراء ، والاقذاع والهجاء . كم كان يحلو لى ذلك كله وما فى سِلكه ونظامه ، لو لا أن النية منصرفة ، إذا مد الله فى سنى العمر ، وأطال فى حبل الحياة ، إلى أن أفرد لك كتاباً فى هذا ، وأن أشرح لك فيه ماله صلات بالأدب والعالم ، وأعرج لك فيه على مضار الخصومات والاتهام بالزندقة ، والتشكيك فى العقيدة ، لأن العلم يجب أن يكون للحق خالصاً ، والأدب يجب أن يُخلق للفن محضاً ، والفن يجب أن يتجه للجمال صرفا ، والجمال يجب تحليته لرفاهة الحس ، ومتعة العين ، وصقل الذوق ، مستساغاً حلواً »

« وهذه فصول لعمرك تتطاب الدرس والتفرّى ، والفرْى والتقصى ؛ ولكن قصارى ما تثبته لك هنا ، التوجه إليك بالنصيحة ، أن تجعل الدين السمح بينك وبين ربك ، وأن تتخذ من هديه تهذيب نفسك ، وتقويم عوجك ، وتنقية روحك ، وأن تتنكب ما فى وسعك لها مزالق الفتن ، واغترارات التردى ، ومجاهل التدسى فى الخصومات التى تقوم بين العلم والدين ، وبين القديم والحديث ، وبين الحق والأضلولة ، وبين الموعظة والأحبولة ، وبين الوجدان والسخيمة ، وبين السليمة والسقيمة ، وبين الصدق والمين ، وبين القصد والسرف ، وبين الافتيات والارشاد ، وبين الأعوجاج والسداد ، وبين الحلكة والنور ، وبين الافادة والغرور ، وبين الرقة والالطاف ، والشدة والعنف ، وبين التعليم والتجريح ، وبين الابهام والتوضيح ، وبين الملتوى والصحيح ، وبين اللفظ والمبنى ، وبين العبارة والمعنى ، وبين الاجحاف والانصاف ، وبين الاصلاح والاتلاف ، وبين المعدلة والتحيف ، وبين الافادة والتعسف ، وبين الاجادة والتحرف ، وبين العقل والشهوة ، وبين الزبد والرغوة ، وبين الهدى والتدنى ، وبين الجنى والتجنى ، وبين

(١) ص ٢١١ بكتاب التعليق من مكتبة القراءة والثقافة الأدبية للجيب

الشفاء والتشفى ، وبين الورع والغاية ، وبين البداية والنهاية . »

* * *

« ولكن ذلك كله لا يحول بيننا وبين أن نجترىء لك القول ، بأن النقد هو المرشد البرىء ، والمعلم المؤدب ، والظهير المعين ، الذى يقدر متاعبك فى التأليف ، ويشيد بأوجه إحسانك ، ويجلى لك مواطن الضعف ، فى أدب ولباقة ، مع تحليل الموضوع ، شخصاً كان أو عصراً ، إلى ما له من عناصر ومقومات ، وأثر بيئة ووسط ، ووراثة ودم ، ومنبت ومنجم ، ومزاج نحيزة ، وطبيعة إقليم ، إلى ما يلابس عصرك من علوم وفنون ، وحقائق وبداية ، ونظريات وأسس ، ومدارس تفكير ، وقواعد جدل ، وأصول نقد ، ومعايير منطق ، ومقاييس مقارنة ، وأوجه موازنة ، وتناسب مقدمات ، واستخلاص نتائج ، وفهم لطريقة « ديكارت » ، وتعرف لمناهج « كولريدج » ، واستيعاب لتاريخ « سالسبورى » ، وانتهال من مقولات « ما كولى » ، ووقفة على أطلال مذهب « بوالو » ، فى استشراف إلى ناحية الجمال والخير من كل شىء ، ودرس للطبيعة المركبة فى كل شىء ، لذاتها لا لأشخاصها ، ووصف للصفات الانسانية العامة ، والفضائل البشرية العامة ، والطبائع الاجتماعية العامة ، كمدرسة القرن التاسع عشر التى كان فى طليعة كتابها « كورنى » « وموليير » و « راسين » وأترابهم وأشباههم ، وانتقال إلى أصحاب المذهب الايجابى ، وهم « أوجست كنت » و « أرنست رينان » ورائدهم « تين » الذين يتوخون البرهنة العلمية فى كل شىء ، ويرجعون مقومات الرجل إلى الجنس والبيئة والطبيعة والزمن وما إلى ذلك ، مع إلمامنا بمذهب « فرديناند برونتير » ، فى التدرج والانتقال ، المبنى على فلسفة « دارون » فى النشوء والارتقاء ، من تقسيم الآداب العامة ، من وجدانية واجتماعية ، وشعرية ونثرية ، إلى وحدات وفصائل ، مما ليس هذا موضع الاسهاب فيه ، والشرح له ، مع أخـــذنا بأساليب العرب ، وتذوق لمعنى الجمال ، فى صفاء روح ، ومضاء عزيمة ، ونفس طُـلَـعة ، ورفاهة إحساس ، للموازنة والافادة ، واضطلاع بقدسية العلم ، وأمانة البحث ، وحرمة المنقول ، واستكناه لهدى الجدل المترفق الوئيد ، وتحرر من ربقة التعنت العتيد ، ونزول على سياسة التسهيل والتعبيد ، والتأسيس والتشييد ، وأن تكون الروح الحاكمة على سلطان النقد الحافزة الى الارتصاد له والتبسط فيه الأخذ بصفو المؤلف لا إهدار جهده ، والمضى فى الاعانة له لا التقحم لانتقاص أثره ، والتقدم إلى شد أزره ، لا التهانف بذكره ، وإجلال صنيعه ، فى ذوب نفسه ، واعتصار ذهنه ، وسهر ليله ، ومتاعب تحصيله ، ودءوب إكبابه ، ومضنى إمضائه ، وعناء كتابه ، بديلاً من سياسة السخرية والتكذيب ، والهدم والتخريب ، واللوم والتثريب ، فى غير هذى ولا تعقيب »

* * *

أما بعد : فلست يا سيدى الجليل بمنتحل كتاب ياقوت ، إلى شخصى الضعيف ، لا سيما وقد أفردت لتاريخه ربع الجزء الأول . وأود أن تعلم يا سيدى ، غير معلم ، فى غير غمز ولا لمز ، ولا تعليق ولا تعقيب ، أن حكمة إصدارنا لما نحاول إصداره من مؤلفات السلف الصالح ، « من[1] رسمية وشبيهة بالرسمية ؛ فالرسمية ، ونعنى بها كتب الأدب المجمع عليها ، وهى البيان والتبيين ، والعقد الفريد ، والكامل ، والأمالى ؛ والشبيهة بالرسمية أمثال ابن منظور ، وابن قتيبة ، وابن بسام ، وابن ظفر ، وأبى حيان ، والزمخشرى ، والجاحظ فى حيوانه ، وما إليها ، وكتب الطبقات والتراجم ، أمثال معجم الأدباء لياقوت ، وتاريخ الاسلام للذهبى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومن على شاكلتهم — أود أن تعلم يا سيدى أن حكمة إصدارنا لهذه المؤلفات هو أنا نرى فى إحياء هذه الكتب ، وبعثها إلى النشور والظهور ، اللبنة الأولى فى بناء صرح الموسوعة العربية ، التى يحتاج إليها الناطقون بالضاد ، والتمهيد الذى لا محيص عنه ، إذا ما رغبنا رغبة عملية حقة فى الاتجاه العلمى والعملى معا ، فى وضع دائرة معارف عربية شرقية ، مستندة على أصول تاريخية صحيحة ، وقائمة على أسس عملية حقة »

* * *

ثم أود أن تعلم يا سيدى الصديق الكريم أن وزارة معارفنا قد أحسنت صنعاً وأصلحت أمرا ، حينما أخـذت على عاتقها إنشارَ الأدب ، وإحياء لغة العرب ، وبعث تواليف السلف الصالح ، والأخذ بناصرنا فى إصدار أمهات كتبنا الأدبية ، ومظاننا التاريخية ، ومراجعنا اللغوية . ولتعلم — غفر الله لى

(١) ص ١٢ كتاب التعليق

ولك — أنها قررت أن تفتح الباب على مصراعيه لكل أديب عالم، أو أستاذ مثقف، أو ناشر همام، يتقدم لها برغبته فى المعونة برجالاتها وأعمتها لمراجعة ما يصدر، والاشراف على ما يطبع، رغبة فى خدمة الثقافة، وحرصاً على الأمانة العلمية المرجوة. ثم أود أن تعلم يا سيدى أن تسعة أعشار ما يطبع الآن، وما يروج فى السوق، ليس من آثارك النافعة، ولا من منتجات من هم فى مكانتك وثقافتك، بل هو مع الأسف الشديد من الروايات المبتذلة، وقصص البوليسيات والاجراميات، وأن المصلحة كل المصلحة فى محاولتنا جميعاً تغيير الاتجاه، وخلق الذوق الأدبى الجديد

ثم أود أن تعلم — غير معلم طبعاً — أيها الأستاذ الجليل أن ضبط الأعلام، ومراجعة الأعلام، وشرح المبهم، والتذييل على ما فات المؤلف والناشر — كل هذا ليس بالسهل اليسور، ولا بالعمل الضئيل، الخليق بالسخرية والتهانف. وحاشاك أن تجنح — وأنت المؤدب خلقاً ولفظاً، ومعنى ومبنى — إلى مالم يعهد فيك طوال حياتك. وأود أن تعلم أيها الصديق الأديب أننا كلنا، فى أعمالنا الأدبية والثقافية والعلمية، لم ندرج بعد من مهدنا، وأننا فى بداية البداية، وأن لغتنا العربية بحاجة إلى الضبط الكامل، والشكل الكامل، والأيد الكامل، والتآزر الكامل، وأننى أومن بحاجتى إلى توالى نصحك، ومطرد إرشادك، ومتتابع تعقيبك، ومحتاج حقاً إلى علمك وأدبك.

وأود أن تعلم ياسيدى أنك ستأسف كثيراً — وأنا العليم برجاحة عقلك، وسجاحة خلقك، ومتانة مباءتك، ودماثة سجاياك — حينما ترجع إلى الجزءين الثالث والرابع، وترى فيهما أن حضرة أستاذنا سويا الشيخ عبد الخالق عمر، أستاذ اللغة العربية الأول بدار العلوم لم يأل جهداً فى إصلاح الكتاب وتدارك ما فات على الأستاذ المستشرق د. س. مرجليوث، فى غير موضع، يستحق التقدير والشكر، والثناء وحسن الأجر

وأود أن يعلم الصديق الكريم — فى غير منّ ولا تجمل، وفى غير زهو ولا اغترار — أننى ارتحت أيما ارتياح لتجنيك مبطلاً، أو هديك مرشداً، أو تحيفك متعنتا، أو إرشادك محقاً، فى ترجيح نبالة القصد، وحسن الطوية، على ما عداها علم الله. ارتحت أيما ارتياح — مهما كان الحافز والدافع، والحادى والهادى — لما كان، لأننى أسأت التصرف حقاً، ولأنى أخطأت محجة السبيل صدقاً، ولأنه لا معنى لأن يحتمل مثلى، ومن فى صحتى ومتاعبى، ومن خرج أمس القريب من محنة المعاش، وإضاقة الرزق، وتوالى النكبات والأرزاء — لا معنى لأن يحتمل مثلى مسئوليات كبار، مخيفة ومفزعة، فى التصدى لما تصدره الآن «دار المأمون»، التى تكلفنى هى والمراجع الشمسية ومنسوخاتها ومصادرها ما لا يقل عن مائة وخمسين جنيهاً شهرياً؛ لو علم الصديق الكريم النفس والخلق مصدرها وطريقة جمعها، لتردد فى أن يركب رأس الشيطان، ولتريث حتى يطلع على استدراكاتنا، ولكان نعم المشجع والظهير، ونعم العون والنصير

وأود أن يعلم الصديق الكريم — غفر الله لنا سوياً، وهو هو النبيل الخلق، الطاهر الذيل، العف الوجدان — أننا معشر الكتاب نعانى الأمرين من حسد الحاسدين، وظلم المبطلين، وشظايا الراجين. ولو كان الصديق الكريم — رحمه الله، وهو المتصل بالدكتور طه حسين بك زعيم الأدب ونصيره، ومن خاصة الأستاذ أحمد أمين وهو عميد الأخلاقيين، ومن كتاب الرسالة ولها فى الأدب وبنائه رسالات خالدات ليس إلى انتقاصها من سبيل — لو كان الصديق الجليل أنعم النظر لآثر أن يترك منهجه الجديد فى تقدمته لنقده، لمن هو دونه بمراحل، خلقاً وعلماً، وثقافة وأدباً؛ ثم لوازن — بفرض عدم مطالعته لاستدراكاتنا فى الجزءين الثالث والرابع — بين معجم ياقوت لمرجليوث ومعجم ياقوت لدار المأمون، ثم لم يبخل بالارشاد عن طريق الصحف إن كان محباً للاعلان، أو عن طريق الصداقة إن جنح إلى الاحسان، فى غير انتقاص لفضله ولا نكران

وأود أن يعلم الصديق الكريم — وأقول هذا من باب الاكبار وأنت خير أهله، ومن باب التقدير وأنت خير موضع له — أننى كنت أنتظر منك ومن زمرتك الصالحة الجليلة أن تكونوا أكثر عوناً لى من الأستاذ مرجليوث؛ فلقد كتب إلىّ — فيما بينى وبينه وبين ربى وربه — ليرشدنى إلى أن نسخة شمسية لقسم ناقص من الكتاب لدى المستشرق يهودا، وأن آخر فى فلسطين لديه كذا، وأن نسخة مكتبة جلالة الشاه فيها كذا، وهو ليس بعربى، وإن كان للعربية محبا ولها

نصيراً ؛ وأنت يا سيدى — الكريم البيت ، الكريم الخلق ، الكريم الماضى والحاضر — تمسك معاول هدم ، ومقولات إقذاع ، وتمهيدات تهكم ! ويا ليتك أتيت بجديد ، بل يا ليتك لم يفتك ما استدركناه : والله لا أحمل عليك لأنك شخص ، ولكنه الاكبار لشخصك ، والاكبار لعروبتك ، والاكبار لمصريتك ، والاكبار لنصفتك العلمية ، ومكانتك الأدبية

ثم أود أن تعلم أيها الصديق الكريم ، والزميل القديم ، أننى — مع اكبارى لكل نقد ، ورضوخى لكل هدى ، وإذعانى لكل ارشاد ، وخضوعى لمحجة الصواب — كنت أؤمل منك كثيراً ، وكنت أؤمل من (الرسالة) كثيراً ، وكنت أؤمل من علماء العربية كثيراً ، وكثيراً جداً ؛ وليس بعاب ولا نقيصة أن أفتح لكم قلبى جميعاً ، لأقول إن مشروع الأحياء أكثر مما أطيق ، وأكثر مما أحتمل ، وإنه بحاجة ماسة إلى عونكم الأدبى والمادى ؛ أما الأدبى فبغير تلك السبيل الشائكة القذعة المريرة ؛ لاسيما وأنتم أعلم منى ، وأدرى بطلاسم النساخ ومعميات الكتاب ، وأخطاء الأجيال ، ومجاهل اللغة ، وفيافى الأحاجى ؛ وأما المادى ، فبأن تتقدموا بالدعاية القوية الحارة المؤمنة ، بأن يساهم السراة والأغنياء فى أكبر عمل ثقافى أدبى ، يخدم لغة القرآن ، ويرفع سمعة مصر إلى السماكين ، ويحتفظ بزعامتها على الشرق وعلى الناطقين بالضاد

ثم أود أن يعلم سيدى الصديق الكريم — غير معلم طبعاً — أننى ممن لا يحفل كثيراً بمادحه أو ذامه ، وأن مرانى فى هذا الباب كون منى رجلاً لا يخشى إلا الله ، ولا يعمل إلا بوازع يخشى الله دون سواه ، وأن مدح اليوم قد يكون ذم الغد ، لأن معايير الأشياء تختلف بالبيئة ، والظرف ، والمكان ، والزمان . وما زلت أذكر ما تذكره جيداً من محاضرة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدى ، حينما حدثنا عن الصاحب بن عباد ، وما عزاه إليه صاحب الأمتاع ، فى معرض الذم والهجاء ، من ميله إلى أن يقال عنه[1] : « أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ، — ولله دره — ما رأينا مثله ، مَن ابن عبد كان مضافاً إليه ؟ ومن ابن ثوابة نقيسه عليه ؟ ومن ابراهيم بن العباس الصولى ؟ ومن صريع الغوانى ؟ ومن أشجع السلمى ؟ إذا سلكا طريقهما ،

قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الاسكافى فى الموازنة ، وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد فى القراءات ، وعلى ابن جرير فى التفسير ، وعلى أرسطاطاليس فى المنطق ، وعلى الكندى فى الجدل ، وعلى ابن سيرين فى العبارة ، وعلى أبى العيناء فى البديهة ، وعلى ابن أبى خالد فى الخط ، وعلى الجاحظ فى الحيوان ، وعلى سهل بن هرون فى الفقر ، وعلى يوحنا فى الطب ، وعلى ابن يزيد فى الفردوس ، وعلى عيسى بن كعب فى الرواية ، وعلى الواقدى فى الحفظ ، وعلى النجار فى البدل ، وعلى ابن ثوابة فى التقفية ، وعلى السرى السقطى فى الخطرات والوساوس ، وعلى مزيد فى النوادر ، وعلى أبى الحسن العروضى فى استخراج المعمى ، وعلى بنى برمك فى الجود ، وعلى ذى الرياستين فى التدبير ، وعلى سطيح فى الكهانة ، وعلى أبى الحياة خالد بن سنان فى دعواه . » وما عزاه إليه آخر فى معرض المديح والثناء ، فى باب مكارم الأخلاق[1] : « إنه استدعى يوماً شراباً من شراب السكر ، فجىء بقدح منه ، فلما أراد شربه قال له بعض خواصه : لا تشربه فانه مسموم . فقال له : وما الشاهد على صحة ذلك ؟ قال : بأن تجربه على من أعطاكه . قال لا أستجيز ذلك ولا أستحله . قال فجربه على دجاجة . قال : إن التمثيل بالحيوان لا يجوز . وأمر بصب ما فى القدح ، وقال للغلام : انصرف عنى ، ولا تدخل دارى بعدها ، وأقر رزقه عليه . وقال : لا تدفع اليقين بالشك ؛ والعقوبة بقطع الرزق نذالة » . فلعلك ترى ما أراه من أن للكاتب الواحد أحزاباً لامتداحه ، وأخرى لاستهجانه والزراية عليه ؛ وأن وجهات النظر تختلف ، بل معايير الحقائق تتباين على قدر غلبة النسبية فيها . ولعلك ذاكر قصة العميان السبعة مع فيلهم الموصوف ؛ ولله فى خلقه شؤون

وأخيراً أود أن تعلم ياسيدى أننى شاكر لك حقا كل فضل فى إصلاح خطئنا فى المعجم وفيما أصدره ، لأننى أنشد الخدمة الحقة لوطنى ودينى ولغتى

والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته

أحمد فريد رفاعى

(١) ص ١٨٠ الجزء الثالث من معجم الأدباء

(١) ص ١٨٥ الجزء السادس من معجم الأدباء

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

وصل الفائت

أرسلت حكومة الولايات المتحدة البكباشى ريد إلى جزيرة كوبا ليفحص سبب وباء الحمى الصفراء . وكانت الحرب الأسبانية انتهت فى كوبا . فأعلن البكباشى أن الحرب قائمة ضد عدو جديد هو الحمى الصفراء . وطلب متطوعين ليجرب فيهم عض البعوض ليعلم هل تنقل الحمى به . فتطوع لازار وهو صياد مكروب متدرب ، وتطوع كارول وكان جراحا مساعدا فى الجيش

— ٣ —

واستدعى رجال الحكم رِيدَ إلى واشنطن ليؤدى تقريره عن أعمال جرت فى الحرب الأسبانية . فلما جاءته الدعوة أصدر أوامره مفصلةً إلى كارول ولازار وأَجَرَمُنْتِي . وكانت أوامر سرية ، وكانت غاية فى التطرف والوحشية إذا أنت قرنتها بطبع ريد المعتدل الهادئ — أوامر إذنابية لا ترضاها الذمم ، وهى إلى جانب هذا خروج على النظام العسكرى ، فما كان لدى ريد إذن من رؤسائه فى الجيش باصدارها . ورحل ريد إلى واشنطن . وقام لازار وكارول يصدعان بأوامره فيركبان خطة غاية فى الجرأة لم يركبها قبلهما من صُياد المكروب أحد . أما لازار ، وقد كنتَ بالأمس تقرأ فى عينه معنى الفناء ووَجْمة الموت ، فقد صرت اليوم تقرأ فيها معنى العزم والتلهف على البحث . وأما كارول فقد كان جنديا بطبعه فلم يأبه عمرَه بمجالس التأديب العسكرية ولم يحفل قط بالموت ، وقد كان فى المكروب صياداً طويل الحبل طويل الباع

بدأ لازار خطته . فحمل معه فى زجاجات تلك البعوضات التى فقسها فخرجت من البيض تحمل على أظهرها أقلاما من فضة وأخذ يسير بها بين سرائر المرضى وقد اصفرت وجوههم كورق الخريف ، واحمرت أعينهم بالدم القانى ، وهذَوا فى القول وحق عليهم الفناء . وفتح زجاجاته على جلود المرضى ، فأخذت البعوضات تمتص من دمائهم حتى إذا امتلأت سدّ الزجاجات عليها ، وحملها إلى منازل من الزجاج أُعدّت لها ، وأدخل فيها إلى البعوض أطباقا صغيرة من الماء ومن السكر . وفى هذه المنازل هضمت أُنثيات البعوض هذه غذاءها من الدم المحموم ، وطنّت قليلا ، ثم سكنت فى انتظار التجربة

وتذكر لازار ما قاله رِيدُ له : « يجب ألا تغفل عن حمى الملاريا ، فلعل بينها وبين هذه الحمى الصفراء شبهاً قريبا ، ففى حمى الملاريا لا يكون البعوض خطراً على الناس إلا بعد أسبوعين أو ثلاثة ، فلعل الحال فى هذه مثله فى تلك »

ولكن أين الصبر من لازار ، وأين منه صبر أيام بَلْهَ صبر الأسبوعين أو الثلاثة ! فجاء بسبعة متطوعين لا أدرى كيف جاء بهم ، ولا أدرى ما اسمهم ، لأن أسماءهم على ما أعلم أُسدِل عليها الستار عمداً ، لأن التجربة أُريدَ إجراؤها فى خفاء كالليل البهيم . وقام لازار على هؤلاء السبعة — ولعلّه أسكرهم أو لعلّه خدرهم — فأسقَى البعوضَ من دمائهم ، هذا البعوض الذى استقى منذ أيام قلائل من دم مرضى أصبحوا فى هذه الساعة فى عداد الأموات

وا أسفاه للازار ! فقد جاءت النتيجة بغير ما ارتجى ، فظل السبعة الرجال على أصح حال ولم تأتهم الحمّى . فانكفأ على عقِبَيْه خاسراً نادما

خسر لازار ، وبقى كارول لم يجرِّب بعدُ حظَّه . وكارول هو الرجل الذى قضى سنين عونَ ريد الأول ، وكان دخل الجيش أول ما دخل جندياً بسيطاً ، ثم صار أمباشيًّ وجاويشَ سنوات عديدة تعلم فيها الطاعة حتى صارت من جبلّته . وكان رئيسه ريد قال : « جربوا البعوض » . وكان رئيسه ريد ارتأى أن الشيخ المأفون فِنْلى لم يقل لغوا عندما اتهم البعوض . فلزم كارولَ أن يقول ما قال ريد وأن يرى ما ارتآه . أما رأيه هو فثانوىّ فى حكم الجيش ومألوفه . ألم يقل لهم البكباشى ريد عند رحيله « جربوا البعوض » !

فجاء كارول إلى لازار وهو فى يأسه بذكره ، قال : « هأنذا بين يديك متأهب لما تريد » . وسأله أن يُخرج إليه أخطر بعوضة

لديه — بعوضة تكون عضّت لا مريضاً واحداً بل عدة من المرضى ، ومن مرضى فى أسواء حال من حمّاهم . وفى السابع والعشرين من أغسطس أخرج لازار بعوضة حسبها أخطر ما عنده ، فقد كانت شربت من دماء أربعة من مرضى الحمى الصفراء كان من بينهم اثنان فى أسوأ حال . وحطّت هذه البعوضة على ذراع كارول

ونظر إليها الجندى كارول وهى تتحسس بمقراصها تتخير للقرص مكاناً من جلده . فما الذى دار فى خلده وهو يرقبها تنتفخ كالكرة مما تشرب من دمه ؟ لا أدرى ولا أحد يدرى ، ولكنى أحسبه يداور فى فكره حقيقة يعرفها كل أحد : « أنا الآن فى السادسة والأربعين ، وفى الحمى الصفراء كلما زادت السن قل الرجاء فى الشفاء » . وكان فى سنّه السادسة والأربعين ، وكانت له امرأة وخمسة أولاد ، ومع هذا فقد كتب فى هذا المساء إلى ريد يقول : « إذا كانت نظرية البعوض صائبة وجب أن يكون حظى من الداء وفيراً » . وفعلاً قد كان حظه منه وفيراً

فبعد يومين أحس بالتعب ورغب عن عيادة المرضى فى عنبرهم ، وبعد يومين آخرين أحسّ أنه مريض ، وخال أن عنده حمى الملاريا ، فنهض بنفسه على رجليه وذهب إلى معمله وفحص دمه تحت المجهر فلم يجد به مما خال أثراً . ولما خيّم الليل ضرب فى عينيه الدم ، واحمرّ وجهه واقتمّ ، وفى الصباح حمله لازار إلى عنبر الحمى الصفراء ، وبقى هناك أياماً طويلة وإلى جنبه الموت ... ومرّت به دقيقة أحس فيها كأن قلبه سكت فلم ينبض ... وتلك دقيقة أعقبته سوءاً ستعلمه بعد حين . وظل بعد شفائه يعد تلك الأيام التى قضاها مريضاً بالمستشفى أمجد أيامه . قال : « أنا أول رجل أصابته الحمى الصفراء فى أول تجربة من عضة بعوضة متعمّدة »

وعانى مثلَ حظ كارول جندىٌ يدعى « س . ص » ، أسماه هذا الاسم هؤلاء البحّاث الذين خرجوا على القانون فتستّروا فى ظلام الكتمان ، وكان اسمه الحقيق وليم دين William Dean ومسكنه جراند رابدز Grand Rapids بمتشجان Michigan [1] . فهذا عضّته أربع بعوضات وكارولُ فى أول مرضه ، إحداها هى التى عضّت كارول ، والثلاث الأخريات عضت ستة رجال فى درجة من المرض معتدلة وأربعةَ رجال كانوا فى أسوأ حالة من الحمى ورجلين ماتا بها . وحَظِى هذا الجندى بالشفاء كما حظى كارول

إذن فالتجارب جاءت بخير ما يُرجَى . نعم لقد عضّ البعوض ثمانية رجال فلم يصبهم بسوء ، ولكنه عض كارول وعض « س . ص » وبِنَمِّ الخنزيرين الغينيين كانا فى هذا التجريب فأصابتهما الحمى ، وكاد قلب كارول أن يقف ، وتماثل الاثنان للشفاء ؛ وكان كارول مغتبطاً يكتب إلى رئيسه ريد وينتظر اليوم الذى يعود فيه ليطلعه على سجل التجارب زاهياً فخورا

ولم يشكّ فى هذه التجارب أحدٌ إلا لازار ، فداخله فى هاتين الاصابتين شىء من الريبة ، لأنه كان مجرِّباً متقناً دقيقاً حذراً فى تجريبه ؛ وكان يرى أنه إذا قام بتجربة وجب عليه أن يتحكّم فى ظروفها ويضبطها غاية الضبط حتى لا يتسرب إليها الخطأ ، شأنَ البحّاثة القح . حدّث لازار نفسه قال : « ليس من الكرم التشكك فى أمر هاتين التجربتين بعد ما أبدى فيهما كارول و « س . ص » من التضحية والجرأة ما أبديا ، ولكن كلا الرجلين تعرض للاصابة قبل التجربة وذهبا حيث توجد الحمى مرة أو مرتين قبل أن يصابا بها فعلا ، فليست التجربة بالغة حدّ الكمال ، فمن يدرينى أن بعوضى لا غيره هو الذى أعطاهم الحمى »

تشكك لازار ، ولكن ما تشكُّكُ جندى أول واجبه إطاعة الأمر ؟ وإذنْ فقد أخذ يجرى على عادته فيذهب عصر كل يوم إلى أسرّة المرضى فى تلك الحجرات ذات الرائحة الغريبة الضميفة المعهودة ، وإذنْ فقد استمر يقلّب زجاجات اختباره عما فيها من البعوض على أذرع رجال حمر الوجوه محمومين ، ويجعل البعوض يمتص من دمائهم حتى يرتوى . وجاء اليوم الثالث عشر من سبتمبر ، فكان يوماً على لازار مشؤوما ، إذ بينما هو يأذن للبعوض فى الزجاج أن يشرب من دم المرضى ، حطت من الجو على ظاهر كفه بعوضة تائهة ، فتركها تشرب من دمه وقال : « دعها تشرب فما أظنها من البعوض الذى يسىء » ، قال ذلك عن بعوضة تائهة طائرة طليقة فى عنبر به الرجال تموت !

كان هذا فى اليوم الثالث عشر من سبتمبر

(١) بالولايات المتحدة

ادوارد الثامن

بين عرشه وقلبه

للأستاذ محمود غنيم

أرأيت ذلك العاهل الشاب ، يتنازعه عاملا عرشه وقلبه ، يهيب به الأول : أن الجاه الجاه ، والسلطان السلطان ؟ ويهيب به الثاني : لا سلطان إلا سلطان الغرام ؟ وهو فيما بين هذا وذلك كريشة في مهب الريح ، وقد أرهف العالم أذنيه ، ليسمع كلمته الفاصلة ، وكاد الفلك يكف عن دورانه ، لينصت إلى قراره الأخير ، حتى أطلقها من فيه كلمة كالقذيفة ، وسمع دويها في الخافقين ، فكانت فصل الخطاب ؟

ألا فليشهد الفلك وليحدث التاريخ : أن عرش الأمبراطورية البريطانية الذي لا يهزه قصف المدافع ، ولا تزعزعه قوة الأساطيل ، قد هزه لحظ فاتر ، وزعزعه بنان مخضوب ! وهكذا تثبت الطبيعة البشرية أن المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان ، منذ أن أخرجت آدم من الجنة إلى أن زحزحت ادوارد الثامن عن عرشه

* * *

لقد شهد تاريخ القرون الوسطى حرباً شعواء دارت رحاها بين السلطتين الزمنية والروحية ، فليشهد التاريخ الحديث حرباً شعواء من نوع آخر بين السلطتين الزمنيـة والقلبية . فلئن كان العرش أخضع الفاتيكان يوماً لنفوذه ، فها نحن أولاء نرى العرش ينهزم أمام الحب ، ثم يقف بين يديه خاضعاً ذليلاً ، يبايعه بالأمارة ، ويعترف له بالغلب . ولعمري إن السلطة القلبية لهي أقوى السلطات الثلاث بأساً ، وأصعبها مراساً ، وأشدها عراماً ، وأنفذها أحكاماً . ألم يضح الناس قديماً بالأديان على مذبح الحب والغرام ؟

فأن تسلمي نسلم وإن تتنصري يخط رجال بين أعينهم صُلبا

* * *

هذه هي بريطانيا العظمى أولى دول العالم ، وهذا هو ادوارد الثامن الرجل الأول في بريطانيا العظمى ، فأن شئت أن تشير إليه فقل : إن الانسانية جسم هـذا هامته ، أو هي رأس هو ذؤابته ، لو خلق إنسان من غير طين وماء لكان إياه ، ولو استمر البشر على عبادة البشر لعبدوه من دون الله

ولكن ، أليس عجيباً أن يكون هذا العاهل العظيم ، لا يملك من أمر نفسه ما أملكه أنا من أمر نفسي ، وما يملكه عامة شعبه من أمور أنفسهم ؟ ! يشاء العامل البسيط أن يتزوج فيخطب فيمهر فتزف إليه عرسه ، ويشاء ادوارد الثامن أن يتزوج فتهز القوانين رأسها نفياً ، ويطل شبح التقاليد بأذنيه ، وتحول الحوائل ، وتعترض العقبات ، وتنطبق الزرقاء على الغبراء !

أليس عجيباً حقاً أن تتقيد حرية الملك فيما هو أمس الأشياء بشخصه إلى هذا الحد ، وأن الذي يقيد حرية الملك إلى هـذا الحد هو الدستور الذي يكفل جميع الحريات ! الدستور الذي يحرر الأديان ، ما باله يقيد العواطف ؟ الدستور الذي يحرر اليد واللسان ، ما باله يحول بين المرء وقلبه ؟ ما باله يمنع الملك أن يتزوج زواجاً شرعياً ، يقره الأنجيل ، ويباركه يسوع ! ما هـذا الدستور الذي يبيح للرعيـة ما لا يبيح للراعي ، ويمنع الملك

و « في مساء اليوم الثامن عشر من سبتمبر ... شكي الدكتور لازار سوء المزاج ، وجاءته رعدة في الساعة الثامنة مساء » . هكذا ذكر سجل المستشفى

واستمر السجل يذكر في إيجاز :

« ١٩ سبتمبر : الساعة ١٢ ظهراً ، الحرارة ٣٩,١° درجة . النبض ١١٢ . بالعين احتقان وبالوجه ارتشاح »

« الساعة السادسـة مساء . الحرارة ٣٩,٩° درجة النبض ١٠٦ »

« ظهرت الصفراء في اليوم الثالث . واستمرت حالة المريض في التدرج إلى أن ظهرت عليه أعراض الحمى فكانت شديدة موئسة »

ثم يخرج السجل عن جفافه القاسي ويلطف من أسلوبه قليلاً : « جاءت الوفاة زميلنا العزيز فمات مأسوفا عليه في مساء الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٠٠ »

(يتبع) أحمد زكي

ما يمنح الملوك ، والذى يجلس الملوك على العروش آلات صماء تتحرك بالكهرباء ؛ لا تأمر ولكن تأتمر ، ولا تصدر الأحكام ولكن تتلقى الأحكام ؟ أهكذا تنقلب الأوضاع وتنعكس الحقائق فى القرن العشرين ؟

***

لقد كان خليقاً بهذه الأزمة أن تستحكم حلقاتها فى كل قرن إلا فى القرن العشرين ، وفى كل مكان إلا فى أوربا ؛ أوربا التى حملت لواء الديموقراطية وطافت تبشر بها فى أنحاء الكرة الأرضية ، ما بالها تنغمس اليوم فى الأرستقراطية إلى الآذان ، وتأبى الاعتراف « بمسز سمبسون » لأن الدم الملكى لا يجرى فى عروقها ؟ أ كان يجرى الدم الملكى فى عروق نابليون يوم سمحت له أوربا أن يكون امبراطوراً يعبث بخريطتها كما يعبث الأولاد بالألواح ، ويصرف ملوكها كما تصرف قطع الشطرنج ؟ أحرام على « مسز سمبسون » أن تتبوأ عرش انجلترا ، كما تبوأت « جوزفين » عرش فرنسا من قبل ، ولا سيما فى هذا الزمان الذى أصبح فيه كل عامل فى منجم وزيراً ، وكل بائع صحف دكتاتوراً ؟

***

وماذا يفعل الملك ببنات الملوك إذا كان قلبه عند غيرهن ؟ وما ضر « مسز سمبسون » ألا تكون بنت ملك متوج ، أو أخت ملك متوج ، ما دامت هى ملكة متوجة على عرش الجمال ؟ ... وكيف لا تتبوأ مع قرينها عرش الحكم كما تبوأت عرش القلوب ، دولة بدولة ، وسلطان بسلطان ؟ فلماذا لا يقال : إنهما كفؤان ؟ هبوها ليست عذراء ، هبوها ذات زوجين من الأحياء ، أليست فاتنة حسناء ؟ إن الجمال يقتل كل غيرة ، ويغطى على كل اعتبار ، وهل نضيرها بكارتها الذاهبة ، ما دامت فتنتها باقية ، ووجهها لم يفقد نضرته ، وعينها لم تفقد سحرها . الحسناء عذراء وإن بدلت كل يوم بعلاً ، بكر وإن أعقبت كل يوم نسلاً ؛ ولن تزال بكراً عذراء حتى تفقد جاذبيتها ، ويحول نضرة خديها ، وتنطفئ الجذوة التى تشع من عينيها ؛ ألا رحم الله جاريتى الرشيد حين سحبت الأولى على الثانية ذيل التيه وقالت : أنا عذراء . فأجابت الأخرى ما بيننا إلا ليلة

***

ألا رحم الله زماناً كانت تثب فيه المرأة من أحضان عاشقيها إلى أريكة الحكم ! رحم الله عشيقات البلاط الفرنسى فى عهد أسرة البوربون — وما عهدهم ببعيد — حين كانت تقيد بأسمائهن التشريفات ، وتصدر بأسمائهن الأحكام ، وتعنو أمامهن جباه أهل النفوذ والجاه ! كلمة إحداهن مرسوم ، وإيماؤها قانون ، وأمرها نافذ حتى على الملك نفسه ، وهى له خليلة لا حليلة

ألا رحم الله أيام العباسيين ، إذ كان يؤهل المرأة لمشاطرة الملك فراشه رشاقة فى قد ، أو أسالة فى خد ، أو رأى صائب تبديه ، أو بيت من الشعر فصيح ترويه ، فتصبح زوجاً للخليفة ، وأما الخليفة ، كلاهما يتحكم فى الرقاب ، ويتحدى السحاب !

ألا رحم الله أيام الأندلسيين ، حين كان يقف الملك على شاطئ الغدير ، وينتقى زوجته من بين حملة الجرار ، فيغدق عليها من ألوان النعيم ما لا عهد لها به ، فتضيق بذلك كله ذرعاً ، ثم يعاودها حنينها إلى حمل الجرار ، والانزلاق بها فى الأمطار ، فتخضب ردهة القصر بالحناء تخضيباً ، وتمطر سماؤه بدل الماء طيباً ، ثم تحمل جرتها وتسير فتنزلق قدمها ، فيسرى عنها ، وتقر عينها ، ثم لا تلبث أن تثور على الملك ثائرتها ، فتقسم ما رأت معه يوم صفاء ، حتى ولا يوم الحناء !

***

أليس من حق الملك الذى نهاره لشعبه ، أن يكون ليله لقلبه ؟ قاتل الله السياسة ، فأنها ما تركت شأناً من شؤون أصحابها ، إلا دست فيه أنفها ، لقد أحصت عليهم الحركات والسكنات ، فلا يتحرك أحدهم إلا بميقات . ولم تقنع بذلك ، بل تركتهم يمرضون حين تشاء لهم المرض ، ويشفون حين تسمح لهم بالشفاء ، ويأكلون على خوانها ، ويشربون من دنانها ، ويجوعون ويظمأون إذا ضنت عليهم بالطعام ، أو حبست عنهم المدام ؛ ثم لم تقنع بذلك ، فأرادت أن تعض على قلوب أصحابها بأنيابها ، فلا يميلون إلا وفق ميولها ، ولا يتزوجون إلا ممن تحوز شرف قبولها

***

لحا الله شعراء العرب ! لقد كان يأرق أحدهم ليلة فى سبيل الحب ، فيطول به الضجر ، من طول السهر ، ومناجاة القمر ؛ ولقد كان يذرف عاشقهم عبرة ، فيلونها بالحمرة ، ويشكو من تقرح جفنيه ، ويجعل الدمع خانقة عينيه ، ثم يعاف الماء القراح ، ويشرب الدمع بالأقداح ! كم أنشأ عاشقهم المعلقات الطوال ، فى

والأيثار ، وأنه ابتعد عن أهله ، وفارقهم من أجله

وحاربت أهلى فى هواك وإنهم وإياى لولا حبك الماء والخمر

فياليت شعرى ، ماذا يقول ذلك العاشق الذى لم يسل الحب نومه من عينيه ، ولم يرق دمعة على وجنتيه ، وإنما أفقده عرشاً يمتد ظله على ربع الكرة الأرضية ؟

لاتباه امرأة بعد اليوم بما بذل فى صداقها من فضة ونضار ، ومنقول وعقار . إنهما امرأتان ، مهر كل منهما عرش وإيوان ! كليوباطره فى التاريخ القديم ، « ومسز سمبسون » فى هذا الزمان . فما أحرى كلا من ادوارد الثامن ومارك أنطوان أن يترنم بقول أمير الشعراء :

من يكن فى الحب ضحى بالكرى
أو بمسفوح من الدمع جرى
نحن قربنا له ملك الثرى

***

أعود فأقول : أيها الملك النازل عن عرشه ، هون عليك . لا أقول لك : ابك ملكا مضاعاً لم تحافظ عليه ، لقد كسبت امرأة ، ولم تخسر شيئاً ، فانعم بالاً ، وقر عيناً

ولعمرى إن أمبراطور الحبشة لأولى منك بالدمع مقلة . لقد كان أمبراطوراً طيلة حياته ، ولم تكنه فى يوم من أيام حياتك . وماذا تجديك أمبراطورية واسعة لا تحتكم فيها على موضع قدميك ؟ شتان بين من يحكم شعبه ومن لايحكم قلبه ! فعزاء له عن ملكه الزائل ، وهنيئاً لك حريتك المستردة ، وقلبك الحر الطليق .

(كوم حماده)

محمود غنيم
مدرس بالمدرسة الابتدائية الأميرية

٧ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

دوحة الجبل

وارتقى زارا ذات مساء الربوة المشرفة على مدينة (البقرة الملونة) فالتقى هنالك بفتى كان يلحظ فيما مضى صدوده عنه ؛ وكان هذا الفتى جالساً إلى جذع دوحة يرسل إلى الوادى نظرات ملؤها الأسى ، فتقدم زارا وطوق الدوحة بذراعيه وقال : — لو أننى أردت هز هذه الدوحة بيدى لما تمكنت . غير أن الريح الخفية عن أعيننا تهزها وتلويها كما تشاء . هكذا نحن تلوينا وتهزنا أيادٍ لا ترى

فنهض الفتى مذعوراً وقال : هذا زارا يتكلم ! وقد كنت موجهاً أفكارى إليه

فقال زارا : ما يخيفك ياهذا ؟ أليس للانسان وللدوحة حال واحدة ؟ فكلما سما الانسان إلى الأعالى ، إلى مطالع النور ، تذهب أصوله غائرة فى أعماق الأرض ، فى الظلمات والمهاوى

فصاح الفتى : أجل ! إننا نغور فى الشرور ؛ ولكن كيف تسنى لك أن تكشف خفايا نفسى ؟

فابتسم زارا وقال : إن من النفوس من لا نتوصل إلى اكتشافها إلا باختراعها اختراعاً

وعاد الفتى يكرر قوله : أجل إننا نغور فى الشرور . قلت حقاً يا زارا ، لقد تلاشت ثقتى بنفسى منذ بدأت بالطموح إلى الارتقاء فحرمت أيضاً ثقة الناس ، فما هو السبب يا ترى ؟ إننى أتحول بسرعة فيدحض حاضرى ما مضى من أيامى . ولكم حلقتُ فوق المدارج أتخطاها وهى الآن لا تغتفر لى إهمالى . إننى عند ما أبلغ الذروة أرانى دائماً منفرداً وليس قربى من يكلمنى ، ويلفحنى القرُّ فى وحدتى فترتجف عظامى ، وما أدرى ماذا أتيت أطلب فوق الذرى !

إن احتقارى يساير رغباتى فى نموّها ، فكلما ازددت ارتفاعاً زاد احتقارى للمرتفعين فلا أدرى ما هم فى الذرى يقصدون . ولكم أخجلنى سلوكى متعثراً على المرتقى ، ولكم هزأت بتهدج أنفاسى . إننى أكره المتنفضين للطيران . فما أتعب الوقوف على الذرى العالية !

ونظر زارا إلى الدوحة يتكىء الفتى عليها ساكتاً فقال : إن هـذه الدوحة ترتفع منفردة على القمة وقد نمت وتعالت فوق الناس وفوق الحيوانات ، فاذا هى أرادت أن تتكلم الآن بعد بلوغها هذا العلو فلن يفهم أقوالها أحد . إنها انتظرت ولم تزل تتعلل بالصـــبر ، ولعلها وقد بلغت مسارح السحاب تتوقع انقضاض أول صاعقة عليها

فهتف الفتى متحمساً : نطقت بالحق ، يا زارا إننى اتجهت إلى الأعماق وأنا أطلب الاعتلاء ، وما أنت إلا الصاعقة التى توقعتها . تفرّس فى ، وانظر إلى ما آلت إليه حالتى منذ تجليت لنا ، فما أنا إلا ضحية الحسد الذى استولى على

وكانت الدموع تنهمر من مآقى الفتى وهو يتكلم ، فتأبط زرارا ذراعه وسار به على الطريق . وبعد أن قطعا مسافة منها قال زارا : — لقد تفطر قلبى ، إن فى عينيك ما يفصح بأكثر من بيانك عما تقتحم من الأخطار . إنك لـما تتحرر يا أخى ، بل مازلت تسعى إلى الحرية ، وقد أصبحت فى بحثك عنها مرهف الحس كالساثر فى منامه

إنك تريد الصعود مطلقاً من كل قيـد نحو الذرى ، فقد اشتاقت روحك إلى مسارح النجوم ، ولـكن غرائزك السيئة نفسها تشتاق الحرية أيضاً

إن كلابك المقورة تطلب حريتها ، فهى تنبح مرحة فى سراديبها ، على حين أن عقلك يطمح إلى تحطيم أبواب سجونك كلها . وما أراك بالطليق الحر فأنت لم تزل سجيناً يتوق إلى حريته ، وأمثال هـذا السجين تتصف أرواحهم بالحزم غير أنها تصبح وا أسفاه مراوغة شريرة

على من حرّر عقله أن يتطهّر مما تبقّى فيه من عادة كبت العواطف والتلطخ بالأقذار ؛ لتصبح نظراته برّاقة صافية . إننى لا أجهل الخطر المحدق بك ، لذلك أستحلفك بحبى لك وأملى فيك ألا تطرح عنك ما فيك من حب ومن أمل

إنك لم تزل تشعر بالكرامة ولم يزل الناس يرونك كريماً بالرغم من كرههم لك وتوجيههم نظرات السوء إليك ، فاعلم أن الناس لا يبالون بالكرماء يمرون بهم على الطريق ، غير أن أهل الصـلاح يهتمون بهم ، فاذا ما صادفوا فى سبيلهم من يتشح الكرامة دعوه رجلاً صالحا ليتمكنوا من القبض عليه لاستعباده

إن الرجل الكريم يريد أن يبدع شـياء جديدا وفضيلة جديدة ، على حين أن الرجل الصالح لا يحن إلا الى الأشياء القديمة ، وجل رغبته تتجه الى الأبقاء عليها

لا خطر على الرجل الكريم من أن ينقلب رجل صلاح ، بل كل الخطر عليه فى أن يصبح وقحاً هدّاما

لقد عرفت من الناس كراما دلّت طلائعهم على أنهم سينالون أسمى الأمانى ، فما لبثوا حتى هزأوا بكل أمنية سامية ، فعاشوا تسير الوقاحة أمامهم ، وتموت رغباتهم قبل أن تظهر ، فما أعلنوا فى صبيحتهم خطة إلا شهدوا فشلها فى المساء

قال هؤلاء الناس : ما الفكرة إلا شهوة كغيرها من الشهوات

وهكذا طوت الفكرة فيهم جناحيها فتحطما ، وبقيت الفكرة ترحف زحفا وتدنس جميع ما تتصل به

لقد فكر هؤلاء الناس من قبل أن يصيروا أبطالاً ، فما تسنّى لهم الا أن يصبحوا متنعمين ؛ يحزنهم شبح البطولة ويلقى الخوف فى روعهم

أستحلفك بحبى لك وأملى فيك ألاّ تدفع عنك البطل الـكامن فى نفسك اذ عليك ان تحقق أسمى أمانيك

هكذا تكلم زارا . . .

المنذرون بالموت :

ما أكثر المنذرين بالموت ! والعالم ملىءٌ بمن تجب دعوتهم الى الاعراض عن الحياة

إن الأرض مكتظة بالدخلاء وقد أفسدوا الحياة ، فما أجدرهم بأن تستهويهم الحياة الأبدية ليخرجوا من هذه الدنيا

لقد وُصف المنذرون بالموت بالرجال الصفر والسود ، ولسوف أصفهم أنا فينكشفون عن ألوان أخرى أيضاً

إنهم لأشد الناس خطراً ، إذ كمن الحيوان المفترس فيهم ، ففدوا ولا خيار لهم إلا بين حالتين ، حالة التحرق بالشهوة وحالة كبتها بالتعذيب . وما شهوتهم إلا التعذيب بعينه . إن هؤلاء المسوخ لم يبلغوا مرتبة الانسانية بعد ، فليبشروا بكره الحياة ، وليقلعوا عن مرابعها

هؤلاء هم المصابون بسلّ الروح ، فانهم لا يكادون يولدون للحياة حتى يبدأ موتهم ، وقد شاقتهم مبادىء الزهد والملال

يود هؤلاء الناس أن يُدرَجوا فى عداد الأموات ، فعلينا أن نحبّذ إرادتهم ولنحترس من أن نعمل على بعث هؤلاء الأموات وعلى تشويه هذه النعوش المتحركة

إذا هم صادفوا مريضاً أو شيخاً أو جثة ميت ، فانهم يقولون — لقد انتفت الحياة ؛ ولو أنصفوا لقالوا إنهم هم نفيٌ للحياة ، وإن عيونهم دحضٌ لها لأنها لا تتجه إلا الى مظهر واحد من مظاهر الوجود

هم يتلفعون برداء وسيع من الأسى ويتشوقون الى الحوادث التى تجر وراءها الموت . ولكنهم يتوقعون الموت وأسنانهم تصطك فرقا . غير أنهم فى الوقت نفسه يمدون أيديهم الى ما لذّ وطاب هازئين ، فكأن الحياة قشة يهزأون بها ولكنهم يحرصون عليها . إن حكمة هؤلاء الناس تهتف قائلة (الحياة جنون ، أفظع منه التمسك بالحياة . وقد بلغ الجنون بنا هذا الحد الفظيع)

يقولون إن الحياة آلام ؛ فهم يقولون حقا ، فلماذا لا يضعون حداً لهذه الحياة إن لم يكن فيها سوى العذاب ؟ تلك تعاليم ترمى إلى وجوب الانتحار ؛ فيقول البعض وهو يدعو إلى الموت : إن الملاذ الجنسية خطيئة فيجب الامتناع عنها والاضراب عن التوليد . ويقول البعض الآخر : إن الولادة مؤلمة ، فعلامَ تلد النساء وهنّ لا يقذفن الى الوجود الا بالأشقياء ؟ وهذه الفئة هى أيضا من المنذرين بالفناء

وتقول لك فئة أخرى : إن الرحمة لازمة تخذ ما عملك ، بل خذ ما تتكون شخصيتنا منه ، فان فعلت فأنك تقطع من الأسلاك التى تشد بنا إلى الحياة . ولو أن رحمة هذه الفئة من الناس تتغلغل فى صميم ذاتهم لكانوا يبذلون الجهد فى سبيل دفع سواهم إلى كره الحياة . ليستمر هؤلاء الناس على ما هم عليه ، لأن رحمتهم الحقيقية كامنة فى إيقاع الأذى

إن ما يقصد هؤلاء الناس إنما هو التملص من تكاليف البقاء فلا يهمهم أن هم ألقوا بأغلالهم على الآخرين .

وأنتم أيضاً ، أيها المتحملون من الدنيا همومها وجهودها المرهقة ، أفما تعبتم من الحياة ؟ أفما أنضجت المحن نفوسكم لتقوم هى أيضا منذرة بالموت ؟

أنتم يا من تحبون الأعمال الوحشية وكل حادث يتحكم بكل جديد وغريب سريع الزوال ! لقد ضقتم ذرعا بأنفسكم فما تتهالكون فى العمل إلا تهربا من الحياة وطلبا للاستغراق لتصلوا بذاتكم إلى نسيان ذاتها . ولو كنتم أشد إيمانا بالحياة لما كنتم تستسلمون هذا الاستسلام الكامل لحاضركم . لقد خلت سرائركم من القوة اللازمة للانتظار ، بل خلت مما يستلزم كسلكم نفسه من جلد

ان صوت المنذرين بالموت يدوى فى كل مكان ، والعالم مكتظ بمن وجبت دعوتهم الى الموت أو بالحرى إلى الحياة الأبدية ؛ ولا فرق عندى بين ذاك وهذه إذا كان هؤلاء الناس يسارعون إلى إخلاء الأرض

هكذا تكلم زارا

(يتبع) فليكس فارس



في بهو فندق

خيانة اللغة العربية والآباء والأجداد والدهر والتاريخ

للأستاذ محمد بدر الدين الخطيب

أنا (ولا أنانية) والسائح العراقي الأستاذ يونس البحري الساعة في «صالون» فندق من أكبر فنادق بيروت ، نقلب الطرف والسمع في الزمر التي تحتشد حولنا ، ونتداول شتى الحديث ونعود إلى «الرسالة» وافتتاحيتها المشرقة بما في نفس كاتبها الأستاذ الزيات وبما في نفوسنا نحن إخوانه من شعور صحيح يتصل بتيار الحمية ولا يتقطع ملحقا بسلك مذبذب ضعيف يتفرع إلينا من الغرب .

نحن في حماس واشراق ، والزمر التي رأيت تلغط حولنا بالفرنسية ، وبالفرنسية فقط ، لغطاً ضعيفاً أشبه بالنور الضئيل في المصباح الكهربائي الذي يستمد تياره من الفرع الضعيف الذي رأيت أيضاً

هذه فتاة ريانة يهفهف العطر والجمال والدلال في خطوها ، تتحدث إلى أخرى بالفرنسية ، وازاءها أمها تتطلع إليهـا تطلع المأخوذ الذي لا يعي ما يقال .

ها هي ذي أمها تسائلها (بالعربية)

التفتت الفتاة في نزق وقد التهب وجهها بالحنق ولسانهـا بالنزق وصاحت بأمها :

أي ! أي ! هس ! هس !

وعادت إلى الكلام بالفرنسية وفي نفسها أن أمها قد مسخت الدنية أو مسخت موقفها من الدنية والفرنسية في حديثها إليها بالعربية .

لم أكتم نفسي وتركت الغضب يعد عليها ويجعلني ألتفت إلى صاحبي (يونس) وأحدثه بما يشبه الصيحة عما أرى وأسمع .

وكان صاحبي مثلي في وجوم وألم ممـا يرى فلم يكتم نفسه وانبعث يصيح ويعلن أسفه (بالثلث)

وكان بجوارنا زمرة من الشباب وقع عليها ما نقول وقع العجب في غير رجب ، فالتفتت بجملتها وتوجه أحدها إلينا يقول :

(الناس أحرار يتكلمو ما شاءوا أفرنسية ولا عربية ولا ألمانية حتى شوهاد يا إخوان) .

قلت له شوهاد ؟ أي كلمة كبرت ، وأي همة صغرت ، وأي ...

ليتك تذهب إلى تركيا وتتكلم بغير التركية ويحسبك الأتراك تركيا مارقا فترى وتسمع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من التأنيب والتعذير !

لا دواء لك ولا لأمثالك إلا أن تذهب إلى تركيا في شكل تركي ، ولا أحسب المنطق يفيدك أو يفيد هذا الجمهور الغريب من أشباه الشباب وأشباه الرجال ، هذا الجمهور الخارج من حظيرة فنية استعمارية . . نعم . . .

وصاح صاحبي السائح العراقي يقول : لقد طفت أكثر بلاد العالم فلم أجد أمة تحتقر نفسها وتلوى ألسنها وتتحمس لهذا العبث إلا في بلادنا العربية

ما شأن اللغة العربية حتى تتجاوز عنها وترطن بالفرنسية ؟ أليست لغة المجد والعلم ، ولغة دمك وبلادك ؟

بهتت الزمرة ، وساد وجوم ، وتلجلج الجو ، لا يحير ، وماذا يحير ، وعناصره عربية ، وإن لم تكن عربية فطبيعية ، تشهد للأمر الواقع ، وتخشع احتراماً له وإجلالاً ؟

ساد صمت وعدنا إلى حديثنا ، ثم انفضت من حولنـا الزمرة ! وذهب أفرادها وفي نفوسهم ما لا يعلم إلا الله

وعدنا نقرأ مقال الأستاذ الزيات نفرج به ما اشتبك واحتبك من الشجون ، ونثني على كاتبه ثناء خالصاً مشرقاً وثناء صحيحاً يجدر بالشعور الصحيح والرأي الصحيح

وتأملنا ولا زلنا نتأمل في هذه الظاهرة السوء والعلة الغريبة التي تجد في كثير من الذين داخلتهم حمية وحماسة ورعونة ولؤماً للدفاع عنها والسفاهة في سبيلها

تأملنا ولا زلنا نتأمل ، وفي نفوسنا وأمانينا أن يبادر من يشعر بالخطر وبما وراء هذا الانحلال من نذر من الكتاب إلى معالجته بقوة وبصراحة

محمد بدر الدين الخطيب

فى ساعة يأس

للشاعر القروى

هل بينكم من راحمٍ قاتلٍ   يزحزح الأيامَ عن كاهلى
يقذفُ بى فى دَرَكِ اللجّ لا   يلفِظنى موجٌ إلى ساحلِ
يا من يُذَرّينى طحيناً على   وجهِ صعيدٍ محرقٍ قاحل
ما رشَحَت من جوّهِ قطرةٌ   يومًا على نَضْرٍ ولا ذابلِ
أُشفِقُ أن أُبعثَ فى عُشبةٍ   أو زهرةٍ أو غُصُنٍ مائل
يالَاشتهائى جنَّةَ من لظًى   آ كلُ من يانِعها الآ كلِ
فى شجر من لهب ثائرٍ   على ضفاف اللهبِ السائلِ
مأدبةٌ تأ كلُ أضيافَها   آمنــةُ الوارشِ والواغِلِ
وابرْدَها عندى إذا أجحَوحَمَت   كأُختِها فى قفَصى الناحِلِ
لا قفةً فلُكَ همومى معى   ذاهبــة بالحِمل والحامِل
من يشترى لى عَدَما مطلقاً   يُعْيِى على النافخ والجابل
لاشِ حياتى يا إلٰهى ولو   حقّقتَ زعمَ الملحِدِ الجاهل
جسمى وروحى وأغانىَّ لا   تُبقِ على باق ولا زائلِ
ما حيلةُ اليائسِ لا ينتهى   من عاجل إلا إلى آجلِ
أقسى من الموتِ على النفسِ أن   تسعى إلى الموتِ بلا طائل
هَبْ كانَ لى الخلدُ تنغّصتُهُ   بذكرِ هذا الألمِ الهائلِ

* * *

واحيرة العاقلِ فى . . .   قضى وأمضى بشَقا العاقل
يفعل ما لو غــيره فاعلٌ   لقامت الدنيا على الفاعِلِ
يا بائعًا «سَحبانَ» من «باقل»   كبيعه شــعبيه بالشاقلِ
القدسُ لم تَزَنِ فما بالها   تُرجَمُ عن «بابِلَ» من «بابِلِ»
كم صرعةٍ للحق قد زعزعَت   رأيِىَ فى الحقِّ وفى الباطِلِ

* * *

مُت ياأخى العامل، مُت جائعا   ولا تسل عن أجرة العامل!
إن فاتكَ الخبزُ فلُكْ آية   وانعم بموت الآمن الآمل!
غداً لك الخلدُ فما ضرّ إن   لم تأ كلِ اليومَ مع الآ كلِ!
قبّلْ يدَ الظالمِ قسراً ولا   تعتب على خالقهِ العادلِ!
هل كانت الآلام مذ قدِّرت   إلا نصيبَ الرجل الفاضلِ!
فلنحمــدِ المولى على نعمةٍ   خُصت بنا من فضله الشامل،
إبليسُ! يا مسكين! مُت غيرة   فالصَّلب.. حظ البشر الكاملِ!

* * *

يا سائلى عن سر هذا الأسى   أَقصِرْ وقاكَ الله يا سائلى
ما أبعد الشكوى، على هولها   عن بعض ما ينهش فى داخلى
عن سرّ أسرار عذابى الذى   عزّ على السامع والقائلِ

* * *

يا مستعير الدمع لبيكَ خذ   ما شئت من طَلٍّ ومن وابلِ
فى كل جفن من جفونى سَمًا   وكُلٌّ هــدب مقلتا ثا كل

(منبولو — البرازيل)

الشاعر القروى
من العصبة الأندلسية

ادوارد الثامن

للدكتور أحمد زكى أبو شادى

كأنكَ لم تبذل فؤادك داويا   لشعبكَ حتى فاتكَ اليوم داميا
كأنكَ لم تدر البطولة يافعاً   ولم تصحب الهيجا وتَسْلُ الغانيا
كأنك لم تُعطِ العظائم حقَّها   ولم تعرفْ الأوطان حُبّكَ فاديا
كأنك ما طاردت عن شعبك الأذى
وأنفقت فى هــذا الطراد اللّياليا
مَواهبُ يجنى العُرْفُ شرَّ جنايةٍ
عليها، ويَنْسَى العُرْفُ غيرك جانيا
وما قيمةُ التاجِ الذى أنتَ تاركٌ
إذا بات هــذا التاجُ خصما وعاديا؟
تفانيتَ فى الإحسانِ للشعبِ دائما
فلم يَزِنِ الإحسانَ أو كان ناسيا
وأذعَنَ للتقليدِ فى حين قد أبى   نُزُولَكَ عن عرش زهابك ساميا
وهيهات أن يحظى بسحرك ثانيا   وهيهات أن يلقى شبيهك ثانيا
فكان مُهينا كبرياءك، جارحا   وفاءك، مهما عدَّ للعرش وافيا

ومِنْ قِدَمٍ كان التذبذبُ مِلّةً وسوف على الدهماء يلبثُ عاتيا
أمثلكَ فى إشفاقِهِ وإبائِهِ يُسَخَّرُ، مهمازُ خُرفَ القيدُ حاليا
أَتحرَمُ مَحضَ العيشِ مثلَ بنى الورى ؟
إذنْ كلُّ عيش دونه ليس غاليا
تُضَحِّى ؟ نعم ضحَّيتَ أضعافَ ما رَجَوْا
ولكنهم ما بادلوكَ الأمانيا
وما كنتَ للحبِّ المقدَّس خاضعا
ولكن لمعنًى بَذّ عندى المعانيا
هو البرُّ بالنفسِ العظيمةِ عندما
تَرَى الناسَ فَوْضى والأمانى مآسيا
ومثلُكَ لن يرضى الحياةَ مَنِيَّةً ولكنَّما يهوى الحياةَ معاليا :
معالى مِنْ نُبلٍ وسعى وخدمة وحرية ، لا أن يرى العيش خاليا
وَهَبْتَ الكثيرَ الفخمَ للشعب خالصا
ولكنَّه يأبى لكَ النزْرَ صافيا
ومِنْ عَجَبٍ يحنو عليكَ بلهفةٍ فلم ترض إلا أن تكون المواسيا
وكنت عظيمَ النُبلِ فى كلِّ موقف
كأنكَ يومَ الرَّوْعِ تشدو الأغانيا
فأفعمت قلبى من ثباتكَ نشوة
ومِنْهُ لباكى الشعب صُغْتَ التعازيا
إذا أَسَرَ التقليدُ أحلامَ أُمّةٍ نظمتُ لها قبلَ العزاءِ المراثيا !

الإسكندرية أحمد زكى أبو شادى

الى الفيلسوف الشاعر نيتشه

بقلم محمد فهمى

نظمت على أثر قراءة ديوانه « هكذا قال زرادشت » الذى تترجمه « الرسالة »

أَذبْتَ قلبك أشعاراً تردِّدُها أَوْدَعْتَها الدّمعَ مافى القلب من نارِ (١)
فى كل بيتٍ لسانُ النار مندلعٌ فى كل بيت تبدّى شبه إعصارِ
وأىُّ قلب تراك اليوم سا كبه وأىُّ فكر تراءى لى بأسرار
ألا هو القلب دفاقاً ومنطوياً على البُطولة فى سيّالها الجارى
ألا هو الفكر فى أجوازه لَمَعٌ من الخلود كضوء الفرقد السارى

* * *

تُلقى القذيفة من شعرٍ مؤججةً
نحو القلوب فتغدو كاللظى الوارى
وتبعث البأس فيها جِدَّ محتدمٍ وتوقظ العزم فى إقدام جبّار
وتحطِمُ القيد إذ حلقاتُه نسجت من الخرافة فى تأثيرها الزّارى
وتُطلق الروح كالطير الذى فُتحت
له السجون وأقفاصٌ لأسّار
يمضى يُحلّق نشواناً ومنطلقاً
ويهتك الحُجب من غيب وأستار
حتى يشارف سر الكون مجتليا غاىَ الحياةِ لإنسانٍ به سار !

* * *

فما الحياة أراها اليوم ألْهيةً لفتنةِ النفس فى كشف و إضمار
وما الخلود أراه طيف أُمنيةٍ تساور الفكر فى حلّ وتسيار
ولا الوجود هباء ليس يَعْدِله
فى كفّة الزُّهد حتى عُشر مِعشار !
بل الحياة كفاحٌ لا قرار له وليس يلحاه إلا كلُّ خوّار
بل الوجود هو الفردوس تحجبه عنا سخائف أوهامٍ وأوطار
وما الخلود سوى قُصوى بُلَهْنِيةٍ
لكامل الخلق فوق الأرض قرّار (١)
أنت الذى جعل الآمال دانيةً
وأَنْزَلَ الخلد فى الأخرى لذى الدار
وَحْىٌ من الفكر يهدى شهد حكمته
فى كأس سِفرٍ تَجلّى فوق أسفار . . .

(المنصورة) محمد فهمى

(١) إشارة إلى قول نيتشه « إنى لا أحب من الكتابات إلا ما يسطره الكاتب بدماء قلبه » فإذا لمس القارئ فى هذه القصيدة شيئاً من الحيوية فما هو إلا قطرة من ذلك الكتاب بل البحر الزاخر الموار حيث تحس وأنت تطالعه كأنك فى محيط متلاطم الأمواج

(١) صيغة مبالغة من « قر » إشارة لخلود الانسان الكامل أى (السوبرمان) على الأرض

من هنا ومن هناك

بوشكين أمير شعراء روسيا

تستعد روسيا السوفيتية استعداداً عظيما للاحتفال بمرور مائة سنة على وفاة شاعرها الأكبر بوشكين الذى مات متأثراً بجروح بالغة بعد مبارزة جنونية مع هيكرن دانت أحد ضباط الحرس القيصرى الذى كان يغازل امرأة بوشكين ، والذى قيل إنه استطاع أن يحظى بها بعد مجازفات غرامية سافلة انتهت بمقتل شاعر روسيا الكبير فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٣٧

ولو عاش بوشكين الى اليوم لأبى أن تحتفل به روسيا هذا الاحتفال الذى يؤله ويكبر عليه من رجال مستبدين غاشمين داسوا تعاليمه ، ولم يبالوا أن يجعلوا روسيا جحيما لا يطاق من العسف والجبروت ، والفاقة والعوز ، والكبت والتنكيل . وهى أمور وقف بوشكين حياته على محاربتها فى عهد القيصر ، وانضم بسببها الى جماعة الديسمبريين يناضل الظلم بيده ولسانه وقلبه ، ولم يبال أن ينفى الى الجنوب ، وأن يحرم ملذات بطرسبرج وأنوارها التى كانت فى ذلك الوقت زينة الحياة الدنيا

ولد بوشكين فى ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ من أب روسى ، وأم خلاسية يجرى فى عروقها دم الزنوج الأفريقيين ، لأنها حفيدة (هينبال !) العظيم ، أحب خدم البلاط الى بطرس الأكبر ، والذى كان يلقبه عاهل روسيا (جوهرة بلاطى !) من سبيل الدعابة ، لأنه كان عبداً أسود امتاز بشجاعته النادرة وإخلاصه المتين لصاحب التاج

وكان أبوه روسياً مثقفاً يقتنى مكتبةً حافلة تزخر بأجود الكتب الفرنسية كقصص ڤولتير ومؤلفات روسو وغيرها ، فكانت النبع الفياض الذى ارتوى منه بوشكين وشفى نفسه الصادية ، وساعدته ذاكرته القوية على استظهار ما فى كتبها من درر وغُرر ومُلَح وطُرف ، وهو لم يعد بعد طور الصبى . ولم يظهر بوشكين عبقرية ما فى صغره ؛ وكان يكره اللغة الروسية من صميمه ، ولم يكن يعلم أنه سيصير عما قريب إمامها المجلى ، وفارسها المغوار ، وشاعرها الذى لا يدانيه شاعر

وكان أبوه يضيق بضعف ولده فى الروسية ، فلما ضبطه مرة مكباً على فولتير يكاد يلتهمه ، لم يسعه إلا أن يضربه ضرباً مبرحا وحرّم عليه دخول مكتبته حتى يتقن اللغة الروسية . . . « وعندها يا بنى يمكن أن يثمر فى قلبك ، وعلى لسانك ، هذا الأدب الفرنسى الجميل ! . . . » وقد صدق أبوه ! !

وفى سنة ١٨١٢ التحق بصالة المحاضرات Lyceum فى قرية زارسكوسيلو ، إحدى ضواحى موسكو ، وهناك تعرف إلى الشاعر (درزهاڤن) فنفخ فيه من روحه وشجعه على قرض الشعر ، وكان يستملح منه هذه القصص الممتعة التى كان ينظمها وينشدها أخواته الصغيرات . وحدث أن زار الشاعر الروسى الكبير (زهيكوفسكى) ضاحية زارسكو ، وسمع بوشكين فأعجب به وتنبأ له عن مستقبل باهر . وقد تأيدت تلك النبوءة عند ما نظم بوشكين قصيدته الطويلة (رسلان ولدميلا) سنة ١٨٢٠ فأرسل إليه الشاعر الروسى صورته وعليها هذه العبارة (إلى التلميذ : من أستاذه المغلوب على أمره !)

وقد اشتملت قصيدة رسلان على طائفة كبيرة من الفوكلور الروسى الذى كان يترفع عنه الشعر فى ذلك الوقت ، وبرغم ذلك فقد كان للقصيدة رنة عظيمة فى روسيا ولهج بها كل لسان ؛ وكان الشاعر باتيوشكوف يصبو إلى إمارة الشعر الروسى ، فلما صدرت قصيدة بوشكين حقد على الشاعر الشاب « الذى سبق الشعراء إلى ما كانوا يصبون إليه ! »

رحل بوشكين إلى العاصمة الصاخبة بعد حصوله على شهادة الليسيوم ، وكان يتمنى لو التحق بالمدرسة الحربية ، بيد أنه ألحق بوظيفة فى السلك السياسى ، واستطاع أن يجوب آفاق القوقاز ، وهو فى ذلك المهد مسبح خيال الشعراء ونبع إلهامهم ؛ ثم

تجول فى ربوع القرم ، وقضى حقبة طويلة درس فيها الايطالية والانجليزية ، واشتد ولعه بشاعر الانجليز بيرون فكان يستظهر قصائده ، وبلغ من إعجابه به أن قلد بقصيدته (أسير القوقاز) قصيدة بيرون (تشيلد هارولد) . وفى هذه القصيدة يبدع بوشكين فى الكلام عن الحب ووصف الجمال القوقازى والخرائد القوقازيات ويرتفع ببطل القصيدة إلى ذروة الطهر

وشعر بوشكين فى هذه الفترة من عمره متأثر بالأدب العربى إلى حد بعيد ؛ وأثر أبى نواس والمدرسة العباسية فيه شديد الوضوح ، فهو يصف بيوت الحانات وما فيها من ألوان الترف وجمال السرارى والولدان . ومن يقرأ ما جاء فى الأغانى ونهاية الأرب عن حب الأعراب ثم يقرأ قصيدة (الغجر Gypoies) لبوشكين يلمس أثر الثقافة العربية فى هذا الشاعر لمساً تاماً .

فهذا الفتى (أليكو) الذى يسأم صخب المدن ويفر إلى الريف فيحب الفتاة (زمفيرا) ويتزوجها ، ثم تمله الفتاة وتقلوه وتعلق فتى وسيم الخلق فتتصل به وتساقيه كؤوس الغرام ويفاجئهما أليكو فى حالة مريبة فيقتلهما جميعا ، ويثير عليه غضب سيده وهو والد الفتاة ، فيطرده من خيامه ليهيم على وجهه فى الأرض ، ويعود السيد ليرى زوجته بين يدى عاشق أثيم فتسود الدنيا فى عينيه ويترك العاشقين وشأنهما وينطلق على وجهه فى الأرض حيران ... كأنما انتقم منه القضاء للفتى أليكو

وتأثر بوشكين بشكسبير أيضاً ، ويبدو ذلك الأثر على أتمه فى قصيدته (بوريس جودينوف) التى تصور رجلاً آفاقياً متشرداً يصل إلى عرش أمة فى غفلة الزمن ، وقد عرض فيها بديمترى الذى استطاع أن يحكم روسيا ولم يكن من قبل شيئاً مذكورا

ومن أحسن قصائده (أونجين) التى بدأ بنظمها سنة ١٨٢٣ وأتمها سنة ١٨٣١ وسنعود اليها فى عدد تال

مسز جراندى

اشتهر القرن التاسع عشر فى انجلترا بأنه قرن الانتقال المفاجئ فى حياة أمة عظيمة عتيقة محافظة — ففيه ظهر داروين الذى قلب البيولوجية رأساً على عقب ؛ وفيه تبدل الاجتماع الانجليزى فأصبح اجتماعاً صناعيا يرتكز على أساس من الآلة البخارية بعد أن كان اجتماعاً زراعياً أو صناعياً يرتكز على أساس من آلة تدار باليد . وفيه خطا الطب خطوة واسعة من الشعوذة إلى التشريح العلمى وبحث خصائص المكروب

ولكن القرن التاسع عشر لم يستطع أن يخطو بالأسرة الانجليزية خطوة واحدة إلى الأمام ، بل إنه زاد الطين بلة فأغرق انجلترا فى بحر من الذهب فأترف الانجليز إترافا زادهم جموداً وقوى من سلطان مسز جراندى عليهم جميعاً

ومسز جراندى هذه هى هذا الشبح الخرافى الذى يكنى به فى انجلترا إلى اليوم عن سلطان التقاليد العتيقة البالية التى تعطى للأب فى منزله سلطة الدكتاتور ، وللأم سلطان القديسة ، تأمر وتنهى وترفع فى وجوه أبنائها عصا القرون الوسطى فتفل بها من حريتهم وتحد من استقلالهم إن فرض أن لهم استقلالا أو حرية . وكان صوت مسز جراندى يدوى فى كل بيت انجليزى فيقول : هذا واجب وذاك لا يصح ، وينبغى أن تدنى الفتاة عليها من جلابيبها ، وألا تفتح النافذة ، وألا تمد عينيها إلى أحد إذا سارت فى الطريق ، وألا تختار لنفسها بل أبوها هو الذى يختار لها

وكان لمسز جراندى سلطان مخيف على الأدباء ، وكانوا جميعاً يخشون بأسها ، ولذا كانت أفكارهم سجينة فى زخارف من الكلام الأجوف الموشى الذى يعجب اللغويين ويهزأ به الأدباء الصاحون . وما كولى دليل على ذلك ، فأسلوبه المرقص الطارب لا يكاد يدانيه أسلوب آخر فى موسيقاه ، ولكنه بأفكاره يعيش كما تعيش العناكب فى الأركان والزوايا ، وكما تسعى الخفافيش فى ظلام الليل . وجون رسكن كذلك ، وهو رجل أنيق العبارة رشيق الأسلوب ، ومع ذلك أراد أن يضحى تقدم انجلترا ورقيها الآلى ما دام هذا الرقى فى رأيه ينافى الفن الصحيح . ولقد ثار على مسز جراندى أديبان عظيمان هما لورد بيرون وبرسى شللى فكان أولهما يجاهر بآرائه الكفرية ، ويغيظها فيشرب الخمر فى جمجمة ميت ، ويترخص فى الحب وينظم دون جوان . وكان الثانى يحتقرها فى عظمة ووقار وينظم مأساة سنسى ويفلسف فى الحب ، ولكن مسز جراندى هى الأخرى لم تأبه بهما ، بل هى قد لفظتهما من انجلترا إلى اليونان وإيطاليا ولذلك لم يشعر بهما أحد إلا بعد أن مرضت هذه السيدة المحتشمة وأوشكت أن تموت

والذى يهمنا من هذه الكلمة عن مسز جراندى أن الشريعة الاسلامية أكبر أعدائها ، ومع ذلك فسلطان مسز جراندى فى مصر أقوى منه بكثير فى انجلترا ، فهل يتأذن الله أن تموت ؟ !

د . خ

البريد الأدبي

كتاب جديد لأندريه جيد

منذ بضعة أعوام ظهرت للكاتب الفرنسي الكبير أندريه جيد عدة مقالات رنانة تفيض بالمدح في روسيا السوفيتية وفي نظمها وأحوالها، وفيما هيأته للطبقات العاملة من حياة جديدة، ولكن أندريه جيد يطلع الآن على قرائه بكتاب جديد عنوانه: «العودة من جمهوريات الاتحاد السوفيتي Retour de C. U. R. S. Z.» وفيه يحمل على روسيا السوفيتية بعنف وشدة، وينعت ما سماه قبل بجنة العمال والطبقات العاملة بالجحيم المستعر، ويقول لنا أندريه جيد في سر هذا الانقلاب إنه كان يحب روسيا ونظمها الجديدة قبل أن يرى ويختبر بنفسه ما فيها؛ ولكنه الآن وقد وقف بنفسه على الحقيقة، وشاهدها في موطنها، وبعد أن أقام في روسيا زهاء ثلاثة أعوام، يستطيع الآن أن يقول فيها كلمة حق وصدق

يقول لنا أندريه جيد في كتابه: «إن أقل احتجاج أو نقد يعاقب عليه في روسيا السوفيتية بأشنع العقوبات، ثم يخمد في الحال؛ وإنه يرتاب في أن دولة أوربية أخرى — حتى ألمانيا الهتلرية ذاتها — يخمد فيها الرأي ويسحق ويذل مثل ما هو في روسيا»

ثم يقول لنا أن الثقافة العالية وسفه الرعاع في روسيا أمر سواء، ولا يسمح لإنسان أن يفكر بغير ما تفكر به جريدة (برافدا) لسان الحزب الشيوعي؛ ويحظر على كل روسي أن يعبر الحدود؛ وأن يعرف شيئاً عن العالم الخارجي؛ والمهم دائماً هو أن يعتقد الشعب الروسي أنه أسعد حالاً من كل الشعوب الأخرى

ثم إنه فيما خلا الطبقة الممتازة التي تنعم بالحياة المترفة في الطعام واللباس والسكن، ترى الشقاء يسحق كل الطبقات والجوع؛ ويتكدس الناس في مساكن ضيقة قذرة ويعيش معظمهم على الخبز الجاف والسمك؛ وأما البضائع فهي مكدسة في الحوانيت والمخازن ولكنها جميعاً من أردأ صنف؛ والرداءة صفة عامة لكل شيء في روسيا. وأما المبادئ الشيوعية فلم يبق منها إلا صورتها؛ وتجد السياسة السوفيتية الحالية في التدرج في إحياء الأسرة والملكية الشخصية والميراث، حتى يشعر الفرد أنه يملك شيئاً لنفسه يجب أن يدافع عنه؛ بيد أن الفرد ليس له وجود، وقد سحق كل ما فيه من مظاهر الاستقلال المادي والمعنوي

وقد أحدث ظهور كتاب أندريه جيد دهشة كبيرة في جميع الدوائر لأنه كان معدوداً من أصدقاء روسيا الحميمين، ومن أخلص محبيها ودعاتها

معرض للتاريخ السياسي

افتتح في برلين أخيراً، في جناح من المكتبة الملكية البروسية، معرض من نوع خاص عنوانه: «ألمانيا السياسية، الطريق إلى مصير الشعب الألماني»، وقد عرضت في هذا المعرض الجديد عدة وثائق تاريخية، مما عرض من قبل في مؤتمر نورمبرج، مما يتعلق بتطورات الحزب الاشتراكي الألماني، وكفاحه في سبيل الحكم، وما قامت به الحكومة الجديدة في الأعوام الثلاثة الأخيرة من المشاريع والأعمال؛ وفيه أيضاً وثائق ومخطوطات تاريخية، لقادة ألمانيا في العصر الحديث، مثل إرنست مورتس آرنت، وفردريك وليم الثالث، والبارون فون شتاين، وشارنهورست، وأندرياس هوفر، وكلها ترجع إلى العصر المسمى في التاريخ الألماني «بعصر التحرير» وهو في أوائل القرن التاسع عشر

وقد أذيع عن المعرض والغاية التي أقيم لأجلها بيان جاء فيه إن هذا المعرض يوضح كيف أشرفت الامبراطورية الألمانية غير مرة على السقوط، وأنها كانت تجتاز مثل هذه المرحلة حين قبض الحزب الاشتراكي الألماني على زمام الحكم، وأن الكفاح لانتشال ألمانيا من هذه الوهدة والعود بها الى مركزها القديم هو نقطة التحول في تاريخ العصر الجديد؛ وأن ألمانيا

تكتب الآن تاريخها مرة أخرى ، وأنها قد حققت مركزها القديم في الأسرة الأوربية ، وستعمل على تبوء مركزها في تاريخ العالم ؛ وأن الاشتراكية الوطنية التي تقود ألمانيا الآن الى مصايرها ، تقدر القوى الثقافية والكفاحية التي كانت لها في الماضي حق قدرها ، ولذا ترى أن تبرز هذه القوى للجيل الجديد

قبيلة الكنتين

تلقينا من (نيالا) بمديرية دارفور بالسودان من مأمورها الفاضل عبد الماجد ابراهيم الكلمة الآتية :

السلام عليكم ورحمة الله ؛ وبعد : فتوجد قبيلة في دارفور الآن تسمى الكنتين نزحت إلى دارفور من جهة مراكش وأن رجالها ملثمون ونساءها سافرات ؛ وفي أكثر حليهم وسيوفهم علامة الصليب ؛ وهم مسلمون ولغتهم أعجمية ؛ وهم يقولون إنهم عرب أو أصلهم عربي ، وينتمون في نسبهم الى طارق بن زياد . ولكن بعض المؤرخين يقول إن الكنتين (بربر) من جهات مراكش ، وبعضهم يقول إنهم تتار . فأرجو أن تتفضلوا وتوضحوا لنا أصل هذه القبيلة إذا كانوا حقيقة من أصل عربي أو بربري أو تتري ... الخ

وقد رأينا أن نذيع الاستفهام على صفحات (الرسالة) عسى أن يتقدم من الباحثين الذين توفروا على دراسة السودان وقبائله من يتفضل باجابة الكاتب عن سؤاله

مرثية جراي

نشرت الرسالة في عددها ١٨٠ بتاريخ ١٤ / ١٢ / ٣٦ كلمة من نابلس عن مرثية جراي أبدى كاتبها فيها إعجابه بالنص العربي كما خطه يراع صديق الأستاذ علي الطنطاوي وأنحى باللوم على الترجمة . ولما كان لهذا اللوم مساس بي فقد أحببت أن أقول كلمة في الموضوع :

قال الكاتب ما نصه : « وعندي أن الأستاذ لو ترجم الرثية عن أصلها لبان له من روحه الفنانة وإخلاصه ما يجعل ترجمته في دقتها تقف في صف واحد مع ترجمة جرالد للرباعيات الخيامية المشهورة» . وأكبر ظني أن الكاتب المحترم لم ينتبه الى كلمة (دقة) التي ذكرها وعلاقتها بالموضوع [1] فاذا كان يريد بالدقة المحافظة في الترجمة على المعنى الحرفي للأصل فاني أعترف بأن ترجمتنا للمرثية لم تكن دقيقة ، لأننا لم نسع لذلك ألبتة ، بل كان هدفنا الوحيد جعل القارئ العربي يستمتع — على قدر الامكان — بجمال الفكرة التي أوحت الأصل ، وقد كان أسلوب الأستاذ الطنطاوي كفيلاً بذلك . ولا شك أن الكاتب يوافقني إذا قلت بأن ترجمة فيتز جرالد (لا جرالد كما ذكر هو) لرباعيات الخيام لم تكن قط دقيقة بهذا المعنى . واذا كان في شك من ذلك فليقارن ما بين ترجمة فيتز جرالد المذكورة وترجمة الأستاذ الصافي النجفي . هذا وقد أجمع النقاد الانجليز على أن قصيدة فيتز جرالد ما كانت لتتبوأ مكانتها العظيمة في الشعر الانجليزي لو راعى المترجم النص الأصلي (بدقة)

وأخيراً فان جاز لي أن أفهم رأي الكاتب في الدقة بالترجمة من قصره لمعنى كلمة uncle على العم [1] وترجمته لكلمة Continent بقارة [2] بدون أن يفكر في معناها الخاص ، أو من ترجمته لمقدمة ولبول التي اعترف باني لم أفهمها الا بعد الرجوع للنص الأصلي — نعم ان كان هذا مراده من الدقة في الترجمة فاني مغتبط بأن ترجمتنا لم تكن دقيقة ولله الحمد

(بغداد) علي حيدر الركابي

(١) وليراجع الكاتب مقدمة الدكتور منصور فهمي لكتاب الأستاذ الزيات (رفائيل) حيث يجد درساً مفيداً في الترجمة ، ثم يقرأ الكتاب نفسه ليتلق درساً فيها أيضاً

(١) قال الكاتب إن عم (كذا) جراي كان مساعد أستاذ في إيتون والصحيح أنه خال جراي ويدعى المستر انتروبوس . وغني عن البيان أن كلمة uncle تطلق على العم أو الخال ولا تخصص إلا بالقرينة

(٢) من المعروف أن لكلمة continent باللغة الانجليزية معنى خاصاً وهو القارة الأوربية غير معناها العام وهو قارة . وقد كانت رحلة جراي التي أشار إليها الكاتب في أوربا



سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء – الجزء الأول

للدكتور عبد الوهاب عزام

وعدت القارئ في المقال السابق أن أعرض عليه بعض ما أخذته على تعليق الناشرين في القسم الأول من المعجم

والمآخذ هنا أنواع : منها شرح كلمات بيّنة لا يجهلها أحد ممن يقرأون معجم الأدباء ، ومنها غلط في الشرح ، ومنها فضول بذكر ما لا يحتاج إليه البيان ولا ينتظره القارئ ، ومنها نوع آخر لا أدري ماذا أسمّيه إلا أن أسميه الشرح المضحك .

وسأجتزئ بمثل من هذه الأنواع دون استقصاء :

(ا) فمن الأول الأمثلة الآتية :

ص ٥٢ درى الشيء وبالشيء دراية : وصل إلى علمه

ص ٥٢ حسب ما اقتضاه : قدر ما استلزمه . وهذا معنى يعثر عليه بالقرائن اه وأنا أسأل القارئ هل يحتاج إلى قرائن لمثل هذا التفسير ؟

ص ٥٥ القرطاس : الصحيفة التي يكتب فيها ، الغيّ : الضلال . العيّ : العجز عن الكلام

ص ٥٦ الفسحة : السعة

ص ١١٣ النصارى : أتباع يسوع المسيح ، الواحد نصراني نسبة على غير قياس إلى الناصرة أو جمع نصران أو جمع نصرى الخ ، فهل يرى القارئ أن ورود كلمة نصارى في المعجم تحوج إلى هذا التفسير ؟ وهي لم ترد في سياق بحث في الدين أو في الاشتقاق ، بل لأن بعض المترجين أخواله نصارى

ص ١١٥ اقترضى : استسلفى . يقال استسلف منه دراهم وتسلف

ص ١٥٧ أجلّك : عظّمك

ص ٢٠٨ سما : علا

ومن العبث الضار أن الشارح ينقل أحياناً عن كتب أخرى ترجمة لبعض أدباء المعجم لا تزيد على ما رواه ياقوت ، كما فعل في ترجمة إبراهيم بن العباس الصولي ، وفي نقل ترجمة ياقوت نفسه عن شذرات الذهب بعد ترجمة وافية لا تعدو الثانية أن تكون نبذاً منها . ولو كانت التراجم التي ينقلها مفيدة فوائد ليست في المعجم ما جاز إثباتها ولوجب أن يكتفى ببيان موضعها ليرجع إليها من يشاء . وفي الجزء الثاني من هذا مثال عجيب جداً سيراه القارئ إن شاء الله

(ب) وأما الغلط فسأقتصر منه على ما لا يقبل التأويل والتخريج على الأوجه الضعيفة في اللغة والنحو حتى لا أفتح باباً للمناقشات الواهية

ص ٤٧ ذكر ياقوت كتاب المرزباني في النحو وقال : « إلا أنه حشاه بما رووه ، وملأه بما وعوه ، فينبغي أن يسمى مسند النحويين » وجاء في التعليق : « السند من الحديث ما عزي ورفع إلى قائله » وهذا صواب ، ولكنه لا يصلح تفسيراً لكلمة المتن . فالمسند هنا الكتاب الذي يجمع الأحاديث على ترتيب الرواة ؛ وليس كل كتاب في الحديث يسمى مسنداً ، فلا يقال مسند البخاري كما يقال مسند أحمد

ص ١٠٦ « وكانت كلماته حاملة إياي على هذا التصديع لمجلسه الرفيع » وهذه جملة من رسالة كاتب إلى بعض الرؤساء يقول فيها : إن ما بلغه من ثنائه عليه ، حمله على كتابة الرسالة إليه . فالتصديع هنا كناية عن الكتابة التي تكلف المكتوب إليه مشقة القراءة . ولا تزال هذه العبارة جارية في بلاد العرب والفرس . يقول المتكلم لمن يخاطبه ، أو الزائر لمن يزوره : صدّعنا كم . أي سببنا لكم الصداع بكلامنا الخ . فقول الناشرين في الحاشية في تفسير الجملة السابقة : « صدعت إلى الشيء ملت إليه » خطأ

ص ١٠٨ في ترجمة أبان بن عثمان : « يعرف بالأحمر البجلي أبو عبد الله مولاهم » فُسرت كلمة مولاهم بهذه العبارة : « من الشيعة » وهذا غلط ، والمراد بها أنه مولى بجيلة . ومثل هذا شائع في التراجم . مثلاً يقال : محمد بن الحسن الشيباني مولاهم . أي مولى بني شيبان . الخ

ص ١١٠ « ابراهيم بن عبد الوهاب الابزاري الطبري » وفي الحاشية : « نسبة إلى طبرية » والمعروف أن الطبري نسبة إلى طبرستان ، وأن طبرية يقال في النسبة إليها طبراني ، ومنها

الحافظ أبو سليمان الطبراني المحدث المعروف

ص ١١٠ بنو حمدان ممن استقلوا بالموصل ... وكان مقر ملكهم الموصل وأشهرهم سيف الدولة ... الخ . والمعروف أن سيف الدولة لم تكن له إمارة بالموصل بل فى حلب ، وأن أمارة الحمدانيين بالموصل ورثها ناصر الدولة وحده

ص ١١٧ استحلفنى : أقسمت له يميناً بناء على طلبه . ويرى القارئ ما فى هذا التفسير

ص ١٢١ « ونهى النبى عن لبس السراويل المخرفجة » . وفى الحاشية : « خرفج الشيء أخذه أخذاً شديدا . وكأنه يريد أنها أخذت وهى تخاط أخذاً حتى ضاقت فصارت بحيث تصور أعضاء الجسم لضيقها . » وهذا تفسير بالنقيض . يقال عيش مخرفج أى واسع ، والسراويل المخرفجة الواسعة التى تسقط على ظهر القدم . وبهذا فُسر الحديث

ص ٢٢٢ فى الحاشية : رماح خطية منسوبة إلى الخط : مكان فيه شجر تصنع منه الرماح . والصواب : أن الخط بلد فى البحرين تجلب إليه الرماح من الهند . قال فى اللسان : وليست الخط عنبت الرماح ، ولكنها مرفأ السفن التى تحمل القنا من الهند »

(ح) وأما الفضول فى الشرح فمن شواهده :

ص ١٠٢ ذكر فى المتن الجواليق بمناسبة أبى منصور الجواليقى ، فقال الناشرون فى الحاشية : « الجوالق والجواليق وعاء من صوف أو شعر مندوف وهو الذى تقول عنه العامة شوال : قال الراجز .

يا حبذا ما فى الجواليق السود من خشكنان وسويق مقنود

أى مختلط بالقند : وهو عسل قصب السكر ؛ يقال : سويق مقنود ومقند . »

فاذا أغضينا عن التسوية بين الجوالق والجواليق فى الشرح مع أن الأول مفرد والثانى جمع نجد الشارح أتى بالرجز لا شاهدا بصحة تفسيره ولكن لاشتماله على كلمة الجواليق ، ثم استطارد لتفسير القنود الخ

وص ١٠٥ الصنائع جمع صنيعة وهى الجميل والمعروف قال الشاعر :

إن الصنائع لا تكون صنيعة حتى تصيب بها مكان المصنع

وفى الحديث صنائع المعروف تقى مصارع السوء

ص ١٥١ وأغرب من هذا ما جاء فى ترجمة ابراهيم بن سمدان ، قعد أبى الشارح إلا أن يشرح ، فلما قال ياقوت : « وكان لسمدان ابن المبارك النحوى ابن يسمى ابراهيم » كتب هو فى الحاشية : « سمدان علم منقول . والسمدان نبات من أحسن المرعى وأجوده يضرب به المثل ؛ فيقال فى الشيء يحسن ولا يبلغ فى الحسن درجة غيره : ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان . »

وص ٢٣٨ « وهذا قول متمرد على الله مستغر بإمهال الله » وفى الحاشية : أغراه إمهال الله استدراجا له فتمرد وتمادى . وفى الحديث إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . وقال تعالى : « وأملى لهم إن كيدى متين » ، « فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً »

وظاهر أن سوق الحديث والآية الأولى شرح للموضوع لا للفظ وهو فضول هنا . ومصدر هذا كله أن الشارح لا يسير على خطة ، فهو حيناً يستطرد بما لا حاجة إليه ، وحيناً يترك ما يحتاج إليه القارئ . بل أحسب أن للكتاب شراحاً مختلفين ليس بينهم اتفاق ؛ ولهذا أدلة فيما يأتى

وأما ما سميته الشرح المضحك فمن فكاهاته :

ص ١٣١ فى سياق الكتاب : « فجاء كتاب بعض بنى مارقة من الصراة » فأراد الشارح أن يعرف القارئ بنى مارقة فقال : « بنو مارقة قوم يسكنون الصراة » قلت : وفوق كل ذى علم عليم !

ص ١٦٥ فى الكلام على ابراهيم الصولى ويزيد بن المهاب : « حتى قتل يزيد يوم العقر » . وفى الحاشية : يوم العقر بفتح المين من أيام العرب ، قتل فيه يزيد بن المهلب » فهل زاد الشارح على ما فهمه القارئ من الكتاب ؟ على أن قتل يزيد كان فى أيام بنى أمية ، وأيام العرب تقال غالباً لأيام الجاهلية

ص ١٦٧ روى ياقوت أبياتاً أولها : ولكن الجواد أباهشام ، الخ ثم قال بعد الأبيات : « وهذا الشعر يدل على أن قبله غيره » فقال فى الحاشية فى تفسير كلمة « غيره » : أى من الشعر

ص ١٠١ هراة بفتح الهاء والراء بلد ، النسبة اليها هروى . وبلخ بفتح وسكون يصرف ويمنع من الصرف ، وإليها ينسب أبو معشر البلخى » . لم يبال الشارح أن يبين أين هراة وبلخ ، ولكن اهتم بأن يبين أن بلخا ممنوعة من الصرف أو مصروفة . ثم قوله فى هراة « بفتح الراء » لغو لأن ما قبل الألف لا يكون إلا مفتوحاً

هذا وموعدنا العدد الآتى لنبين بقية مآخذ الجزء الأول وبعض مآخذ الجزء الثانى . والله المستعان

عبد الوهاب عزام

نفح الطيب

فى طبعته الجديدة

بقلم الأستاذ أحمد يوسف نجاتى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

٣ — لم يقل الشارح الذى علّق على ما فى صفحة ٥٢ إن القدماء جميعاً لم يذكروا الأهرام إلا بصيغة التثنية ولكنه قال : إن شعراء الماضى يذكرون الهرمين ، وليس معنى هذا أنهم لا يذكرون الأهرام ، ولكن الغرض أن الكثير الشائع على ألسنة أغلب الشعراء ذكر الهرمين : هرمى خوفو وخفرع كما فى قول المتنبى ، وقول لسان الدين بن الخطيب وغيرهما ، وخطب هذا يسير أيضاً

٤ — قد يكون تفسير الرسيم فى صفحة ٦١ ناقصاً كما يقول حضرته ، بل كان خيراً لو بينت مرتبة هذا الرسيم من السير ، ولكن لو تتبع حضرته كل صفحات الجزء لوجد أنها مشروحة شرحا شافياً فى غير هذا الموضع ؛ ودعوى أن أمثالها فى الكتاب كثير دعوى مجازفة لا ينهض عليها دليل ؛ بل إن بعض الكلمات اللغوية التى يوجز فى شرحها فى موضع يشبع القول فيها فى موضع آخر ؛ ولو فصل القول فى كل مرة للعبارة الواحدة — والكلمة قد تتكرر فى الكتاب نحو مائة مرة لكان هذا البيان (فضولاً) من القول يتحقق به وصف الناقد الأديب صانه الله

٥ — شكرنا لحضرة الكاتب أن أحسن ظنه بالشارح فى مثل هـذا التحريف الذى يدركه كل قارئ فى صفحة ٧٩ حتى أن نقطتى قاف (فشرقنا) فى ذيل ص ١٤ ظاهرتان جد الظهور

٦ — أضم صوتى الى حضرة الناقد الأديب فى أن شرح الأثير ص ٩٨ الشرح الأول خطأ لا يصح — ويعلم الله كيف سرى هذا التفسير إلى الكتاب فقد سها عن محوه مراجع النموذج الأخير وكان قد أثبته غيره ، وان كان حضرة الناقد إنما يوجه نقده الى ما فى الكتاب من تفسير خاطئ لبعض كلماته من حيث هو خاطئ . وليس بدافع اللوم عن هذا الخطأ تعدد الأيدى فى الشرح فهى متكاتفة على العمل متضامنة فيه ولكن الكرام يعفون عن نصف تفسير خاطئ لأكثر من ألف تفسير مصيب . وأما التفسير الثانى الذى أتى به الشارح لكلمة الأثير فالنظر الدقيق يؤيده ، والذوق السليم لا يبعده ، بل هو الذى رآه حضرة الناقد بعينه ، لا بل إن الشارح قد قال فيه أكثر مما قال ، وكان يحسن بحضرته أن يأتى بنص العبارة تاما ولا يختزلها . وما رآه حضرته من أن صحة العبارة : ومسحنا بالخطا منها أثراً وصفيحا لا نراه ، بل صحة العبارة كما هى فى الأصل (أثيراً) الموازنة (صفيحاً) فان أثر السيف ، أثره ، وأثيره ، فرنده ورونقه ، وكأن المقرى جعل الطريق سيفاً لاستطالته ودقته وصعوبة السير فيه وجعل خطاهم به وقطعهم إياه مسحا له

٧ — ليت شعرى ما الدليل على أن (الشارح) لم يطمئن (ص ١٣٩) لكلمة الرباع بالباء الموحدة ؟ ويا لله لمن يدرى خلجات النفوس أكثر من أصحابها ويعرف اطمئنان القلوب وقلقها وإن لم يشعر بذلك ذووها . ولو أن الشارح لم يطمئن لها لاستبدل بها فى الأصل غيرها كدأبه فى كثير من صفحات الكتاب مع تنبيهه إلى ذلك ، ولكنه أبقاه لارتياحه إليه واطمئنانه به ، ثم قال أيضاً فى أسفل الصفحة تعليقاً عليه (لعلها الرياع بالياء المثناة أى الريع والنماء والزيادة ، و (لعل) تفيد معنى ربما ، وقد يكون ، ولا يزال الشارح مصرا على ذلك الجواز فكلا المعنيين لا غبار عليه . أما المعنى الأول فيجذب إليه كلمة (البقاع) فان الرباع جمع ربع بمعنى الدار والمحلة والمنزل والوطن ، فهو بذلك التفسير مناسب للبقاع ؛ وقد يكون الربع بمعنى أهل المنزل مثل السكن ، وجماعة الناس ، ولست أحيل أن يكون (رباع) جمعاً لربع بهذا المعنى الذى يراه حضرة الناقد وإن كان الأنسب أن تكون بمعنى الأماكن معطوفة فى سجعة المقرى على كلمة البقاع . وأما الرأى الثانى وهو أن تكون الكلمة (الرياع) فيقتضيه كلمة الفضل المجاورة له ، ولا زلنا نصر على رأينا (أن اللغة تقول بعلاء فيها (الرياع) بمعنى النماء والزيادة ، ويقول أهل اللغة : راع الطعام وغيره رَيْعاً رُيوعا ورِياعا ورَيَعانا إذا نما وزاد وزكا

٨ — قال حضرة الناقد وفى ص ١٥٢ قول القائل فى وصف دمشق :

... أو تكن فى السماء فهى عليها قد (أمدّت) هواءها وهواها

فقال الشارح : لعلها أمرّت ! ؟ نقول ومعنى أمرت أذهبت ولا يصح المعنى على هذا (الحدس) الخ . ونحن نقول : إنا لا نزال عند رأينا فى جواز إرادة معنى أمرَّت ، وإن اللغة تقول : أمرّ كذا بالشىء إذا جعله يمرُّ به وينعطف عليه ، والمعنى الذى شرحه لكلمة (أمدت) فيه شىء من القلق لا يساعد عليه كثيراً تركيب البيت

٩ — اشتد حضرة الكاتب فى حملته على تعليقنا الذى رأينا جوازه فى معنى كلمة (الشمال) بصفحة ١٨١ عند قول الشاعر :

تمتع بالرقاد على (شمال) فسوف يطول نومك باليمين

فقد قال الشارح (يجوز) أن تكون (شمال) جمع شملة وهى كساء يشتمل به ... ثم أتى بحديث على رضى الله عنه الخ فقال حضرة الناقد الأديب — بعد أن نقل العبارة مقتضبة : (وهذا كله شرح فاسد) فان المراد بالشمال مقابل اليمين ، إذ المعنى : تمتع بالنوم على جنبك الشمال فى الحياة قبل أن يستمر نومك باليمين .

ولا زلنا مصرين جد الاصرار على أن هذا المعنى جائز — وان لم يكن متيقنا — بل ان سياق الحديث ربما رجح هذا المعنى . قال المقرى : ويحث على انتهاز فرصة اللقاء اذ هى غنيمة ، ويذكر بقول من قال — وأكف الدهر موقظة ومنيمة : تمتع بالرقاد على شمال الخ . فالشاعر يحض على انتهاز الفرصة وانتهاب المسرة ، ويحرض المرء أن يختلس غفلات الدهر اذا نامت عيونه عنه فيتمتع من يحب بالنوم على هذه الشمال التى تجمع الشمل وتلم الشتات يلتف المتحابان بها اذا لفهما الليل بشملته قبل أن يودع كلاهما بطن الثرى فلا يكون فراش وثير ولا مضجع ممهد ، وإنما يوسد فى القبر يمينه ، ويجعل عمله لا حبيبه قرينه . ومن لفظ (الشملة) اشتقت العرب معنى الشمل واجتماعه ، والجمع والتئامه

وإنا لنعجب جد العجب من وضع حضرة الكاتب علامتى التعجب والاستفهام بعد قولنا (وفى حديث على !؟) فليس فى العبارة ما يتعجب منه ولا فيها منكر يستفهم عنه . فما أحوج علامتيه هاتين إلى بضع علامات التعجب والاستفهام

قال الناقد الأديب فى شرح زجر الطير (وهذا فضول فى الشرح ومثله فى الكتاب كثير) وهاتان دعويان يصعب على حضرته تأييدهما ، فان ما يراه حضرة الناقد فضولاً قد يراه غيره لازماً ؛ والضعيف أمير الركب . وهل على الشارح من حرج أو ضير وهو يشرح بيتاً يقول : إذ زجرنا للوصل أيمن طير ، أن يبين أن زجر الطير كان عادة جاهلية أبطلها الاسلام (وإن لم يرد الشاعر هنا حقيقة معناها البدوى) . وأى فضول فى هذا البيان الذى استدعته المناسبة وجر اليه الحديث وهو ذو شجون ؟

قال حضرته : وفى صفحة ٢٠٣ قرأت قول ابن الخياط :

فلم أر الطرة حتى جرت دموع عينى بالمرزيب

ثم قال وأنا أحفظها كالمرزبب وهى أصح وأبين . وأنا أقول كلتا الروايتين لا بأس بها والمعنى عليهما واحد

أما مانبه اليه فى صفحة ٢٢٠ من أن المراد بالفتى الطائى هو البحترى لا أبو تمام فلم يفت الشارح ، بل سبقه إلى التنبيه عليه منذ شهرين فى الاستدراك على الجزء الأول الذى طبع ملحقاً بالجزء الثانى ؛ وكان يجمل بحضرة الناقد الحكيم أن يطلع عليه قبل أن يسجل نقده على صفحات الرسالة الغراء ؛ وقد تداولت الأيدى الجزء الثانى من مدة غير قصيرة (يريد بالفتى الطائى أبا عبادة البحترى لسبق ذكره فى هذه الأبيات) وقول حضرته إنه يريد بامرئ يصطاد نسر الجو بالنسر نفسه على جهة التشبيه بامرئ القيس (كما قلنا فى ذيل صفحة ٢٢٠) أخالفه فيه ، فقد يسوغ لى أن أرى الآن خلاف ما ذهبنا اليه معاً فى ذلك بل يصح أن يكون امرؤ القيس لا دخل له هنا ، وأن الشاعر (وهو ابن شاهين) إنما يرى نفسه كالبحترى الذى يزعم أنه ورث منه طرفاً كريماً وجواداً سابقاً أعنقت عليه قصيدته ، وسار مسرعاً عليه أدبه ، وأنه يريد (بامرئ يصطاد نسر الجو بالنسر) ممدوحه المقرى إقراراً من الشاعر بأنه أشعر منه كما صرح بذلك من قبل فى قوله :

ورثته منــــه ولكنما من شاعر وافى الى أشعر

فالشاعر ابن شاهين هو نسر الجو (وقد اصطنع التوجيه والتورية فى اسمه (شاهين) نسر الجو ، والذى يصطاد نسر الجو بالنسر ويتغلب عليه هو المقرى الممدوح بالقصيدة ، يعنى أنه أقوى من النسر ، وأشد افتراساً من الشاهين . والغرض من هذا أنه أشعر وأقدر وذلك ظاهر واضح لمن يتأمل

ومثل ذلك ما أخذه حضرته على تعليقنا على مدينة (برديل) بصفحة ٢٥٧ ، فقد تلافينا هذا السهو بالاستدراك ، فنرجو حضرته أن يطلع عليه بصفحة ١٠ منه ، بل قد نبهنا إليه مرة أخرى فى الجزء الثالث وأشبعنا القول فى هذه المدينة ، وهدانا الله منذ زمن الى موقعها ، والى لغات العرب فيها ، بل الى لغات غير العرب ، وقلنا إنها هى مدينة بوردو ، وأطلنا الكلام فى ذلك بالجزأين الثانى والثالث

وفى الختام نقول لحضرة الكاتب أن اسم صاحب المرية هو (خَيْران) الفتى العامرى الصقلبى وإليه تنسب قلعة خَيْران بالأندلس . أما ما فى الاحاطة من أن اسمه (خيروان) فهو تحريف فاسد لا يعول عليه ، وإنما هو (خَيْران) (فَعْلان من الخير) وقد ذكرنا ترجمته وتكلمنا عليه طويلاً فى الجزأين الثالث والرابع (الذى يجرى الطبع فيه) والشارح يعرف من قديم (خيْران) هذا فله أثر عظيم فى تاريخ العرب بالأندلس ، وهو مشهور لدى المؤرخين وليس من رجال الأندلس من يسمى خيروان أبداً

وأرجو من حضرة صديق الغيب أن يحمل حديثى هذا على

سافو على مسرح الأوبرا الملكى

لناقد الرسالة الفنى

وهذه رواية أخرى تقتبس للمسرح وتلاقى من النجاح ما بلغته « الجريمة والعقاب » وإن أضاع الاقتباس نواحى كثيرة من جمال الرواية القصصية على الرغم من أن مؤلفها العظيم الفونس دوديه اشترك مع مؤلف مسرحى آخر هو أدولف بيلو فى وضع هذه المسرحية . ولكنها مع ذلك عظيمة تحوى شخصيات قوية وفيها دقة وصدق تصوير وجمال

تصف حال الشبان عندما يبلغون العشرين ويمرون بهذه المرحلة الخطرة من الحياة وهم فى سذاجة وقلة تجريب يتصلون بالنساء فيقاسون من ألم الفراق والهجر والوصل والغيرة ما تنوء به كواهلهم ، فهى إنذار للشبان من بنات الهوى وتحذير لهم من الاتصال بهن والعيش معهن تحت سقف واحد ، فان من أخطر الأمور على الشاب أن يقع فى حب واحدة منهن لأنه لا يستطيع أن يحتمل ماضيها ويغفر لها ما سلف من حبها لغيره ويكون الخطر أشد لو أن المرأة بادلته الحب الخالص فاذا حدث وخضع أحد الحبيبين للعقل والواجب وترك الآخر فما أشد الهجر وأمر الفراق ولهذا فقد أهدى دوديه القصة : « إلى أولادى عندما يبلغون سن العشرين »

الاخراج والتمثيل

يؤلمنى أن مخرج الفرقة القومية لا يقوم بدراسة الروايات كما يجب ، فازاء رواية كهذه كان من الخير للفرقة والفن أن يرجع إلى الرواية القصصية ليفهم كل شخصية على حقيقتها فيوفر على نفسه هذا التخبط فى توزيع الأدوار وتفهيم ممثليه لروحها وهو لو فعل لما أسند دور سافو الى السيدة دولت أبيض ، ولما عهد إلى على رشدى بدور جان جوسان أو على الأقل لأفهم كلامنهما الشخصية على حقيقتها حتى لا تكون الهوة بين ما رسم المؤلف وبين ما أبرز الممثلون سحيقة

ان أول ما يلفت نظر الناقد أن سافو دولت أبيض تكبر فى السن عن سافو الفونس دوديه وفى هذا نقص يجب على الممثلة والمخرج أن يعملا على تغطيته ، ولكن طبيعة السيدة دولت جامدة وهى لا تليق لأدوار العاطفة ، ومن المؤلم أنها تعتقد أن البكاء وحده هو الوسيلة التى تستطيع بها أن تؤثر فى النظارة وتصل الى قلوبهم ونسيت أن الصناعة وحدها ليست كافية فهى لم تتأثر بالقصة ولم تعش فى هذه الشخصية وتحس بها والا لأبرزت ما يضطرم فى نفسها من احساسات متباينة ولم تقصر همها على الالقاء والبكاء وتبدو سطحية بكل معنى الكلمة

انظر اليها وهى تسرع بالقاء كلماتها فى الفصل الأول ثم وهى تقف خلف جان ، ثم وهى فى الحان لا تهتم بأن تبرز عاطفة ، بل تهتم بالالقاء ، وفى هذا الفصل الثانى بينما يكون الموقف على أشد ما فيه من حياة بين الممثلين تراه فجأة قد برد عند دخولها واشتراكها فى الحديث معهم واتهامها لهم ، وكان الطبيعى أن يزداد حياة وقوة

كل هذه دلائل على أن دولت لم تستطع أن تسمو بالدور أو تؤديه على وجه مرض . على أنى لا أبخسها مواقفها فى الفصل الخامس منذ دخول جان وحوارها معه . ثم وهى تاقى علينا الرسالة التى تكتبها له فقد أجادت الى حد بعيد . فهذه المواقف تلائم طبيعتها لأنها مواقف تخمد فيها العاطفة الثائرة ويعمل فيها العقل وتتغلب غريزة الأمومة والواجب ؛ وهذا يؤيد قولى بصلاحيتها لتأدية أدوار الأمومة

وكما أن دولت تكبر من سافو كذلك (على رشدى) لا يصلح لجان ، فليس هو بالشاب الريفى القوى ، وليس بالجميل الذى يجعل إحدى النساء تصرخ : « يا للفتى الجميل » وهو مع هذا كان بعيداً عن الشخصية بعداً تاماً إذ كان عبداً لتعاليم المخرج حتى كأنه يحاول أن يبرز لنا عزيز عيد الشاب فى صباه لا جان جوسان

قلت إن الشاب كان ريفياً قوياً جامد العواطف ؛ فقد كان يجلس إلى مكتبه بينما سافو أمامه على كرسى فلا يتحرك إليها فى تلهف بل يبقى مكانه يقرأ ، وهكذا عكس ما أبرزه على رشدى فقد كان فى الفصل الأول متظرفاً ضعيفاً حتى كأنه باريسى ، بل وأكثر من ذلك كانت تبدو لنا منه جوانب الخنونة وكان اهتمام على بالالقاء والصناعة أكثر من اهتمامه بابراز إحساساته وما يضطرم فى نفسه من مختلف العواطف . ولست أسوق دليلاً أكبر من موقفه فى الفصل الثانى حيث الفارق كبير بينه وبين منسى وعباس . وكذلك فى الفصل الرابع ترى الصناعة واضحة يكشفها القاء عباس الهادى الحزين الذى يؤدى بعاطفته

أكتفى بهذا اليوم وسأتحدث عن بقية الممثلين والترجمة كما أتحدث عن رواية المعجزة ؟

يوسف

خير محامله ، وأن يتنزل بقبول شكرى له وثنائى عليه أن عُنى بالكتاب وقدر العمل فيه قدره ونبّه الى ما اعتدّه هفوات ، وكلنا نتعاون فى خدمة هذه اللغة الشريفة والنهوض بآدابها ونشر ثقافتها .

أحمد يوسف نجاتى

الأستاذ بدار العلوم العليا

فهرس الموضوعات للمجلد الثاني من السنة الرابعة

فهرس الكتاب للمجلد الثانى من السنة الرابعة